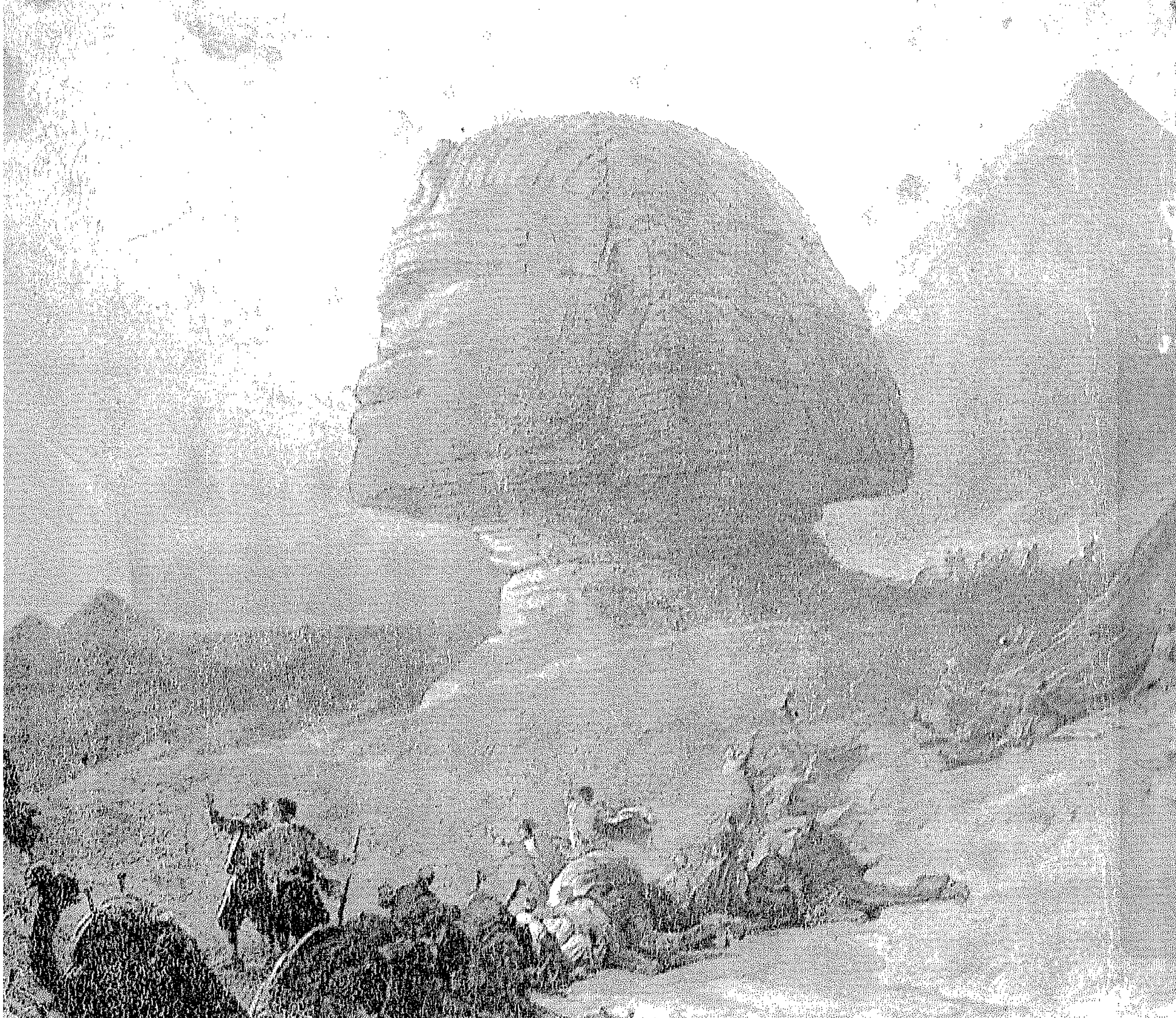
الترجمة الكاملة
(١)

وصف مصر

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

المصريون المحدثون



١
وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

المصريون المحدثون

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

١٩٩٢

الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد مضى علـــى صدور هذا الكتاب فى طبعته الأولى من الترجمة العربية أكثر من خمسة عشر عاماً ، لاقى خلالها – ولايزال – الاهتمام المتزايد من القارئين والمتخصصين . ولعل السبب وراء هذا الاهتمام يتضح لنا مما ذكره فورييه فى مقدمة الطبعة الفرنسية ، حيث يقول : " لم يسبق لأى بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع ، وفضلاً عن ذلك فليست هناك بلاد أخرى جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه ، فمعرفة مصر أمر يهم فى الحقيقة كل الأمم المتحضرة ".

وإذا كان لعلماء الحملة الفضل والتقدير لتأليـف هـذا الصرح الفـريد ، فقد أتاح المترجم الفرصة لأناس كثيرين – لاسيما المصريين – كى يعرفوا قدر هذا الوطن العظيم ، الشامخ على مر العصور.

واعترافاً بفضل وأثر هذه الترجمة ، نال والدى – رحمه الله – التقدير من عدة جهات معنية ، كان من أبرزها حصوله على جائزة الدولة التشجيعية ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٧٩.

وكلما زاد الاهتمام بالكتاب كلما تضاعفت المسئولية ، ومن ثم لم تتوان والدتى – بعد رحيل أبى – أن توقف جل شأنها لهذا العمل ، كى يلقى من الرعاية ما يستحقها ، ويظل موفوراً للقارئين . ولقد بذلت والدتى من الجهد – فى سبيل ذلك– ما ينوء بأولى العزم من الرجال ، ومزيداً من الحرص على هذا العمل آثرت

– مع أنها مثقلة بحملها – أن تنشر هذه الموسوعة على نفقتنا الخاصة ، وما ذلك على الناشرين بيسير.

وكانت هذه الطبعة التى نقدمها بين يدى أعزائنا القراء والدارسين هى أحد ثمرات هذا الجهد المضنى الذى تبذله والدتى طوال سنين ، وقد سعينا جاهدين أن تتخلص من عيوب الطبعات السابقة وتخرج فى شكل أفضل .

والله خير معين ،،

أكتوبر ١٩٩٢ **منى زهير الشايب**

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــــــدمة

يسعدنى أن أقدم هذه الطبعة الثانية من المجلد الأول من الترجمة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر، وهو المشروع الذى بدأ يرى النور لأول مرة منذ نحو ثلاث سنوات بصدور هذا المجلد فى طبعته الأولى.

وأرجو مع صدور الطبعة الثانية أن يكون قد بدأ يتخذ شكله النهائى إخراجا ومادة.

وقد وجدت من اللائق أن ألحق بهذا المجلد دراستين، لم يسبق نشرهما فى الطبعة الأولى : وتتناول الدراسة الأولى البنية الفيزيقية لسكان مصر، وهى من وضع البارون لارى أحد كبار أطباء الجيش الفرنسى. أما الدراسة الثانية فهى عبارة عن مقدمة مطولة للطبعة الثانية لموسوعة وصف مصر التى تعرف باسم طبعة بانكوك، والتى صدرت بموجب مرسوم ملكى صادر من لويس الثامن عشر، أوردت ترجمة له فى صدر هذه المقدمة التى أعدها فورييه سكرتير المجمع العلمى المصرى؛ وهى نفس المقدمة التى نجدها فى المجلد الخاص بشرح اللوحات ، فى طبعته الأولى الفرنسية . وقد ترتب على ذلك تغيير اسم هذا المجلد الأول من الطبعة العربية إلى اسمه الحالى «المصريون المحدثون » حيث إن الاسم الثانى أكثر تطابقا – مع محتويات هذا المجلد – من الاسم الأول الذى أصبح واحدة من دراسات هذا المجلد الحالى.

وقد اقتضى الأمر تقسيم المجلد فى كتابين:

الأول: ويشتمل على دراسة شابرول التى كانت تشكل وحدها كل المجلد فى طبعته الأولى.

والثانى: ويشتمل على الدراستين اللتين رأيت إضافتهما إلى المجلد فى طبعتنا هذه.

ولابد فى هذه المقدمة السريعة أن أشيد بدور مكتبة الخانجى فى إنجاز هذا العمل، وتيسير السبيل له ، مما أتاح صدور ثلاثة مجلدات منه من الثانى إلى الرابع فى عام واحد، الأمر الذى أعطى لمجهودنا دفعة هائلة، وسيتوج ذلك بإذن الله بإصدار لوحات وصف مصر الشهيرة، وقد بدأت المكتبة تعد عدتها لذلك. وقد استقر الرأى على صدور هذه اللوحات مرفقة بالنصوص، بحيث ترافق اللوحات النص العربى الذى يتناولها، ويتفق هذا المنهج فى النشر مع المنهج الذى اتبع عند نشر النص نفسه . فتحية لكل من الحاج نجيب الخانجى، والأستاذين: محمد الخانجى، ونبيل خليل؛ لما لهم من فضل على هذا العمل. كما سيظل العمل مدينا على الدوام للدكتور عبد العزيز الدسوقى، ولكل العاملين بمجلة الثقافة .

ولو أننى وفيت كل إنسان حقه لما اتسعت الصفحات لإسداء الشكر لكل ذوى الفضل، وهم كثيرون بحيث لا أجدنى مبالغا ولا مجاملا إن قلت إن وصف العمل بأنه جهد فردى أمر يجافى الحقيقة، وكما أن عملا كهذا هو مقدم أصلا للناس فإنه قد قام أيضا بهم.

وفقنا الله جميعا لما فيه خير مصر الحبيبة وكل وطننا العربى..

يناير ١٩٧٩.

المترجم

الكتاب الأول

دراسة في عادات وتقاليد

سكان مصر المحدثين

تأليف

ج. دى شابرول

تقديم

على الرغم من أن وراء هذه المبادرة لترجمة «كتاب وصف مصر» - ككل مبادرة فردية - دوافعها وأسبابها وظروفها الخاصة؛ فإنها ينبغى أن توضع ضمن إطار أوسع وأشمل من تلك الدوافع والأسباب الخاصة، لترتبط بذلك الاهتمام الكبير الذى بدأ المفكرون المصريون يولونه لتاريخهم الحديث والمعاصر بعد صدمة يونية ١٩٦٧.

فمنذ تلك الصدمة الهائلة، بدأت الكتب- مؤلفة ومترجمة - تصدر تباعا تتحدث عن تاريخ مصر ودور مصر.. وهكذا لم يعد التاريخ - وتاريخ مصر بالذات - مجرد دراسات أكاديمية لا يتولاها إلا المختصون، وإنما أصبح ثقافة أصيلة لكل مثقف وطنى تشغله أمور بلاده.

ومنذ ذلك الوقت بُدأ بتشكيل ذلك الإطار الثقافى الواسع الذى أشير إليه. ويسعدنى أن أضع اليوم فى داخل هذا الإطار كتابنا هذا الذى يشكل دراسة كاملة من ذلك السفر الضخم، الذى لايفوق شهرته إلا طول إهمالنا له: كتاب «وصف مصر» أو مجموعة الملاحظات والأبحاث التى أجريت فى مصر أثناء حملة الجيش الفرنسى، وهذا هو عنوان ذلك السفر الضخم كاملا.

وقد طبع هذا السفر الذى أسمى بحق انسكلوبيديا مصرية مرتين:

الأولى: وقد استغرق العمل فيها من ١٨٠٩ إلى ١٨٢٢.

وقد ظهر المجلد الأول منها عام ١٨٠٩، وكتب على غلافه وكذلك على غلاف المجلد الثانى أنه قد طبع بأمر صاحب الجلالة الامبراطور نابليون الأكبر، لكن بقية المجلدات التسعة قد ظهرت بعد سقوط نابليون، لذا كتب على غلافها بأنها قد طبعت بأمر من الحكومة.

أما هذه المجلدات التسعة فموزعة على النحو الآتي:

مجلدان : لدراسة التاريخ الطبيعي لمصر، ويشتملان على دراسات عن طيور ونبات وحيوانات وأسماك وحشرات ... مصر.

أربعة مجلدات: لدراسة العصور القديمة، اثنان منها للدراسات، واثنان آخران لوصف آثار العصور القديمة.

ثلاثة مجلدات:لدراسة الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر التى تبدأ تقريبا منذ الفتح الإسلامى حتى مجيء الحملة الفرنسية، لكنها عمليا تعالج أحوال مصر فى العصر العثمانى حتى مجيء هذه الحملة.

وتشتمل هذه المجلدات على دراسات عن مختلف نواحي الحياة فى مصر كما شاهدها علماء الحملة ومهندسوها . وبعض هذه الدراسات طويلة، بحيث يمكن نشرها مستقلة فى كتاب، شأن الدراسة التى ننشرها اليوم، وبعضها متوسط الطول، وبعضها مجرد ملاحظات لاتستغرق أربع أوخمس صفحات.

ولقد ركزت عملى على مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة، واتبعت بشأن الدراسات والمذكرات القصيرة منهج تجميعها بشكل متكامل إلى بعضها البعض:فقد جمعت -على سبيل المثال- تلك الدراسات المتناثرة فى المجلدات الثلاثة عن أحوال العربان والجماعات والرحل فى مصر إلى بعضها البعض، لتشكل فى مجموعها كتابا كاملا أرجو أن أتمكن من نشره قريبا ... وهكذا الحال فى دراسات أخرى تتناول موضوعات مختلفة.

أما الطبعة الثانية فقد صدرت فى ستة وعشرين مجلدا ، بالإضافة إلى أحد عشر مجلدا للوحات، وأطلس جغرافى . ومجلدات اللوحات هى نفس المجلدات التى صدرت مع الطبعة الأولى، وبيانها كما يلى :

خمسة مجلدات للوحات العصور القديمة ، ومجلدان فى ثلاثة أجزاء للتاريخ الطبيعى، ومجلدان للحالة الحديثة لمصر، بالإضافة إلى مجلد واحد يشتمل على مقدمة لفورييه مع شرح للوحات، ثم الأطلس الجغرافى ويشتمل على خرائط مفصلة لمدن وأقاليم مصر.

وجدير بالذكر أن محتويات المجلدات الستة والعشرين هى نفسها محتويات المجلدات التسعة فى الطبعة الأولى، فالطبعة الثانية – كما هو واضح– قد وُزِّعت على مجلدات أصغر حجما من الأولى. والاختلافات بين الطبعتين طفيفة يمكن إجمالها فيما يلى:

١– كانت الطبعة الأولى مهداة إلى «الامبراطور نابليون» أما الثانية فهى مقدمة إلى «صاحب الجلالة الملك».

٢– بدأت الطبعة الأولى بمجلدات الدولة الحديثة الثلاثة، أما الطبعة الثانية فبدأت بوصف آثار العصور القديمة.

٣– تشتمل الطبعة الثانية على مقدمة تقع فى حوالى ١٨٠ صفحة من حجم هذه الطبعة من وضع فورييه، ونجد هذه المقدمة نفسها فى المجلد الأول من اللوحات.

٤– تشتمل الطبعة الثانية على دراسة لم ترد فى الطبعة الأولى، وتتناول هذه الدراسة جامع أحمد بن طولون وحياة منشئه.

وقد بدأ العمل فى هذه الطبعة من عام ١٨٢١ وانتهى فى عام ١٨٢٩.

***

والكتاب الذى بين يدينا اليوم هو دراسة كاملة من دراسات المجلد الثانى من مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة.

ومؤلف هذه الدراسة هو : جلبير جوزيف جاسبار كونت دى شابرول
Gilbert Geoseph Gaspard Comte de Chabrol

ويشار إليه باسم: شابرول دى فولفيك Chabrol de Volvic

وقد ولد فى ريوم Riom سنة ١٧٧٣ ومات ١٨٤٣ (وهذا يعنى أنه عندما قدم إلى مصر كان يبلغ الخامسة والعشرين من العمر) وكان مهندسا للطرق والكبارى، وعين بعد عودته من مصر مأمورا لمدينة مونتينو Montenott سنة ١٨٠٦، وأنشأ بها طريق الكورنيش. وفى عام ١٨١٢ قابله نابليون بشكل عابر ، وكان شابرول يقضى إجازته فى باريس، ودار بينهما حديث ، فأعجب به نابليون وعينه مأموراً للسين، فأدار باريس كما ينبغى أن تدار مدينة كبرى وعاصمة لامبراطورية كبرى، وقد نجح فى ذلك نجاحا كبيرا حتى أن لويس الثامن عشر قد اضطر لاستبقائه فى وظيفته الحساسة، على الرغم من أنه قد عين من قبل نابليون.

وتدين له باريس بكثير من الأعمال الرائعة ذات النفع العام.

ولعل هذا التعريف الموجز بمؤلف هذه الدراسة سيكون سببا قويا لأمرين:

الأول : ماسوف نبديه من إعجاب حق بقدرة هذا المؤلف الشاب على الرصد والتأمل والفهم والإحاطة فى مجال أبسط ما يقال فيه أنه ليس مجال تخصصه.

الثانى : التماس العذر له فى بعض الأمور التى التبس عليه فهمها، بل وفى بعض الأخطاء التى وقع فيها، وبخاصة فى مجال المعتقدات والشرائع.

ولقد آثرت هنا أن أقدم ترجمة كاملة أمينة نصا وروحا لكل ما ذكره المؤلف خاصا بنا وبمعتقداتنا، وسوف يلاحظ القارئ أننى قد آثرت عدم التدخل إلا فى أضيق نطاق ممكن لاعتبارت لا بأس من طرح بعضها:

١- أننا هنا بصدد أثر علمى هام ينبغى أن يحظى بالاحترام.

٢- أنه ليس كل ما يقال عنا صحيحا على إطلاقه، وإن كان ينبغى علينا فى كل الأحوال ألا نخشى أية فكرة صحيحة.

٣- أنه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة مايقال عنا، فتجاهل ذلك أو الصمت عنه ليس هو الوسيلة المثلى، فذلك الموقف لن يعنى إلا تسليمنا ولو بشكل سلبى بصحته، ومعرفة ما يقال عنا هى أفضل وسيلة لمواجهته بل ودحضه.

٤- أن الأقوياء لا يخافون معرفة ما يقال بشأنهم، ولا أظن أحدا يجادل فى قوة عقيدتنا.

وأننى فيما فعلت إنما كنت أصدر عن تقديس كبير للإسلام ولنبيه الكريم، كما أننى واثق أننى فيما التزمت به من أمانة فى النقل كنت أقرب ما يمكن إلى روح الإسلام الذى ينهض أول ما ينهض على الإقناع العقلى ، والذى كانت أول آية فى كتابه الكريم تدعو إلى القراءة والفهم ، والذى لا يستوى - بنص آياته - الذين يعلمون والذين لايعلمون.

بل إن المؤلف لم يكن دقيقا كذلك فى حديثه عن بعض الطقوس المسيحية، وقد آثرت أن أترك كل شئ على حاله: ذلك أنه لا القارئ المسلم ولا القارئ المسيحى سوف يلجآن لكتاب وصف مصر لدراسة الشرائع والعبادات. فلهذه وتلك، عند هذا وذاك ، المصدر الذى يعرفانه جيدا..

وبرغم كل شئ فإن واجب الأمانة يقتضى أن أعترف بما يأتى:

١- أننى قد حذفت من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة وجدت أن اللياقة تقتضى حذفها.

٢- أننى حذفت هامشا كاملا أثار - عند نشره بمجلة الثقافة - ردود فعل لم أكن أتوقعها، ولا يتجاوز هذا الهامش أربعة سطور.

٣- أننى حذفت آخر عبارة فى الكتاب (حوالى سطر ونصف) إذ وجدت من الأفضل ألا تترك هذه الجملة طعما مريرا فى حلق القارئ ، بعد صحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده أن ينصفنا طيلة مؤلفه.

وأننى إذ أستميح القراء عذرا فيما فعلت أود أن يشاركنى الجميع عندما يقفون أثناء القراءة على بعض أخطاء المؤلف، وخلطه فى أحيان كثيرة بين بعض الطقوس الدخيلة بل وبعض الممارسات الشاذة، والعقائد والعبادات بشكلها الأنقى،

أود أن يشاركونى فى التماس العذر للرجل، وأن نحاول بروح الإنصاف المعهودة فينا أن نحسب له محاولة فهمنا وإنصافنا، أكثر مما نحسب عليه ما وقع فيه من أخطاء أو سوء فهم أو تسرع فى الحكم، ذلك أن عديدا من أحكامه بدت فى شكل أفكار مسبقة لا تنهض على أساس حقيقى، كما لا ينبغى لنا أن نتناسى كونه عضوا فى حملة غازية، وأنه مخالف لنا فى عقائده، بل وأن كثيرا من فكره إنما هو ترديد لأفكار كانت شائعة فى القرن التاسع عشر ، تربى هو - كأوربى وفرنسى بالذات - فى كنفها.

ويدفعنى الواجب فى النهاية أن أقدم خالص تقديرى وشكرى لشيخ المؤرخين الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذى كان لتشجيعه أكبر الأثر فى دفعى للتصدى لهذا العمل الكبير، كما أوجه خالص تحياتى وعرفانى للأستاذ رينيه خورى مدرس اللغة الفرنسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية والمشرف على مكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. وهو عالم فاضل وباحث مدقق ولايفوق علمه القدير إلا أدبه الجم ، فقد كان له فضل كبير على إنجاز هذا العمل ، وفى نفس الوقت فإنى أشكر أخى الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن أستاذ التاريخ الحديث بكلية البنات الإسلامية، لما قدمه لى من عون، كما لابد أن أشير إلى أن مؤلفه الهام «الريف المصرى فى القرن الثامن عشر» كان معينا لى على تحقيق كثير من المسميات وإيضاح كثير من المعلومات.

ولن يفوتنى أن أوجه شكرى للأخ الدكتور عبد العزيز دسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة وكذلك الأديب الفنان الأستاذ ثروت أباظة رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون لما قاما به نحوى من تشجيع حين أفردا صفحات مجلتيهما لنشر أجزاء كبيرة من وصف مصر، مما أحيا الاهتمام بالكتاب فى وقت كاد الكتاب أن يصبح فيه نسيا منسيا.

كما أنى حين أقدم شكرى للسيدة زوجتى فإننى لا أفعل ذلك من قبيل اللياقة وإنما هو عرفان حقيقى بما قدمته لى من عون كبير برغم ظروفها الصعبة كإخصائية اجتماعية وربة بيت وأم . كما لابد أن أوجه شكرى لعشرات من الأصدقاء أولونى قدرا كبيرا من التشجيع مما كان له فى نفسى أثر جميل.

وفى النهاية أستميح القارئ عذرا إن وجد بالعمل بعض الثغرات، وإنه لواجدها ، وليكن حسبى من هذا العمل أن أنجو فقط من اللوم ، وأن أكون قد قدمت على قدر طاقتى خدمة لوطنى مصر، ولمواطنى المصريين.

فبراير ١٩٧٦

زهير الشايب

الفصل الأول

لمحة عامة عن الطقس وعن السكان

وعن تقاليد وعادات المصريين

١

عن المناخ

كانت الآثار المادية لمصر القديمة موضوعا لدراسات عدة وجدت لنفسها مكانا فى أجزاء من هذا الكتاب (*)، وقد آلينا على أنفسنا هنا أن نقدم لوحة مختصرة لتقاليد سكان مصر الحديثة. وسوف يحملنا ما قد نجده من ملامح التشابه مع العادات القديمة على القيام ببعض المقارنات، وذلك أمر يستحق منا بالفعل اهتماما كبيرا خاصة ونحن بصدد الحديث عن بلد تمتلئ مخيلته بالذكريات، ويخطو فيها الفيلسوف فى أثر المؤرخ، لذلك فإنه من المناسب أن ندرس الأسباب المختلفة التى تؤثر على الطقس وفعل هذا الطقس على الكائنات الحية: وهكذا سوف يكون السكان موضوعا لدراستنا فى نفس الوقت الذى تشكل فيه آثار الماضى القديم موضوعا لأبحاث عميقة لعلماء الآثار.

تقع مصر فى واحد من أكثر المواقع أهمية فى الكرة الأرضية. وحيث إنها تقع على أحد طرفى أفريقيا فهى تربط هذه القارة بآسيا،كما أن موانيها الواقعة على البحر المتوسط تجعلها – وبشكل ما – تلامس أوربا. وهى تقع بين خط العرض ٢٤:١° وخط العرض ٣١:٣٧° شمال خط الاستواء، أما عن خطوط الطول فهى تقع بين خطى ٢٧° و٣٢°–وذلك إلى الشرق من باريس.

ويكفى هذا الموقع فى حد ذاته لكى نضع مصر ضمن المناطق شديدة الحرارة، لولا أن ثمة بعض عوامل تساعد على التقليل من ارتفاع درجة

(*) وصف مصر .(المترجم) .

الحرارة.فترمومتر ريومور يقف بدرجة الحرارة فى المنازل الرطبة ، وأيضا فى مصر السفلى خلال شهرى يولية وأغسطس عند ٢٤° أو٢٥° ، بينما تصل فى شمال مصر العليا وفى الظل ، إلى ٣٤°، لكنها ترتفع فى المناطق الرملية لتصل إلى ٥٤° (١) .ولا يحدث ذلك بسبب القرب من المنطقة الاستوائية فقط كما لاحظ فولنى Volney-وهى منطقة لابد أن نتوقع أن جوها شديد الحرارة – بل وأيضا بسبب التربة نفسها . و هى فى العادة ترتفع قليلا فوق مستوى سطح البحر، ومغطاة فى جزء منها برمال متحركة . وهذه الرمال تركز أشعة الشمس– التى تكون شبه عمودية فى فصل الصيف – ثم تعكسها، لتسقط من فوق جبال قليلة الارتفاع، عارية من أية خضرة، على سهول قاحلة ليس فيها مايمكنه أن يحد من لهيبها، فى منطقة قريبة من المنطقة الحارة . من هنا ينتج هذا الجفاف الشديد للمناخ ، وتلك الندرة فى الأمطار التى يمكنها أن تلطف الجو.

وبرغم ذلك، فهذا الجفاف لايشمل بدرجة متساوية كل أنحاء مصر، فالمطر يسقط كثيرا فى الأقاليم المجاورة للبحر المتوسط ، وكذا فى الصحراوات الواقعة بين وادى النيل والبحر الأحمر، وتشهد بعض الأخوار المحفورة فى أماكن عدة من الهضبة الأفريقية بأن هذه الأمطارتكون فى بعض الأحيان بالغة القوة لحد تصبح معه سيولا. لكن ثمة أمرا يعد واحدا من الملامح المميزة للطقس فى مصر، وهو كذلك عام فى كل المنطقة، ألا وهو تكون الندى بوفرة شديدة، ولعل له بعض التأثير على خصوبة التربة وبخاصة فى الفترة التى يكون فيها مستوى النيل أدنى من مستوى الأرض. ومن أولى خصائص هذا الندى ترطيب وتنقية الهواء والمساهمة فى خفض درجة الحرارة مما يؤدى فى أيام القيظ إلى وجود فروق هائلة بين درجة الحرارة بالنهار ودرجتها بالليل، يمكن أن تبلغ ٣٠ درجة، ويستمر ذلك لمدة سبع أوثمانى ساعات ، وهذا بعض مايسبب كثرة انتشار أمراض العيون على ضفاف النيل كما سنوضح ذلك فى نهاية هذا الفصل.

(١) وبخاصة فى فيلة وأسوان وكوم أمبو.

وتكاد الأمطار لاتسقط مطلقا فى المنطقة الوسطى من مصر. وتشكل مياه الفيضان ، وكذلك الندى الذى يتكون فى الليل والذى تتباين وفرته تبعا لاتجاه هبوب الرياح، العوامل الخصبة الوحيدة للأرض. ويعود جفاف الجو الشديد إلى حرارة التربة الملتهبة وإلى اتجاه الرياح الذى يتحكم فيه شكل الوادى . وتتكون السحب بفعل أبخرة البحار التى تحد مصر من الشمال ومن الشرق، وتدفعها تيارات الهواء، وهى تيارات قوية، لكنها ما إن تقترب من الجبال التى تحصر وادى النيل من الشرق ومن الغرب حتى يصبح أثرها أقل قوة، لذا يسقط هناك المطر فى بعض الأحيان.

نزل الجيش الفرنسى أرض مصر فى وقت القيظ الشديد، وهى فترة تسود فيها على الدوام تقريبا رياح الشمال والشمال الغربى، ويبدأ فيها النيل فى استقبال موجات الفيضان الأولى. لقد جاء الجيش فى شهر يولية حيث كانت الريح التى تندفع بشدة تُظلم الجو بدوامات من الرمل الناعم الدقيق، ويستطيع سكان المدن بالكاد أن يحتموا من هذه الدوامات داخل بيوتهم. وفى هذا الجو تصبح الأسفار شاقة وشبه مستحيلة، لكن هذه الدوامات تقلل من وطأة الحر الذى يقل الإحساس به لدرجة كبيرة فى الأسكندرية عنه فى داخل البلاد، كما أن هذه الدوامات تعمل على طرد السحب المتراكمة نحو النوبة والحبشة ، تلك السحب التى تصب أمطارها فجأة فى المناطق الجبلية والمغطاة بالغابات. وهكذا فإن هذه الرياح العاصفة غير المستحبة تساهم على نحو ما فى ازدهار مصر حيث تجعل الفيضانات أكثر وفرة.

ويبدأ النيل فى الامتلاء فى نحو نهاية شهر يونية وبداية يولية، ولايخضع حجم مياه الفيضان لقواعد محددة. وفى السنوات العادية يصل ارتفاع النيل فى القاهرة إلى ٨ أمتار(١٤-١٥ ذراعا حسب مقياس جزيرة الروضة) ويصل أحيانا لأكثر من ذلك، ولكى يكون الفيضان وفيرا ينبغى أن يصل ارتفاع النيل إلى ١٦-١٧ ذراعا، عندئذ يبدو وادى مصر- أى أراضيها المزروعة - فى شكل بحيرة

واسعة، وتبدو القرى المقامة على تلال صناعية كما لو كانت جزرا صغيرة متناثرة فوق سطح محيط ، وليس ثمة ماهو أروع من هذا المشهد. وعليك حتى تحظى بالاستمتاع به على نحو طيب أن تصعد إلى قمة الهرم الأكبر فى الجيزة، كما يمكنك أن تحيط بجزء من هذه اللوحة الرائعة من أعلى القلعة فى القاهرة. ولاتستطيع الأراضى المزروعة والتى تقع على مسافة بعيدة من شواطىء النهر أن تتمتع بفوائد الفيضان، لكنها تحصل على ما يرويها عن طريق الترع أو بواسطة ماكينات بسيطة الصنع (السواقى).

وثمة خاصية أخرى نجدها فى تربة مصر، هى اختلاطها بمواد مالحة تطفح كل صباح على سطحها، وبلا جدال فإن هذا الملح الذى يوجد بوفرة فى كل مكان يساهم فى تنشيط العامل المخصب لطمى النيل.

وفصل الأمطار فى مصر هو الشتاء، وهى تهطل بكثرة فى الأسكندرية ورشيد وعلى كل الشاطىء ، لكنها لاتستمر طويلا، ويُشاهَد عند المقطم المطل على القاهرة أغوار وحفرات لابد أنها كانت مجارى لسيول قديمة.

٢

عن السكان وطبقاتهم المختلفة

كان تقدير تعداد سكان مصر على الدوام عرضة لأخطاء خطيرة، وقد وقع أغلب المؤرخين المحدثين والقدامى فى مبالغات كبيرة يمكن لأى توصيف بسيط للأماكن أن يدحضها . وإلى جانب الخدمات التى قدمتها الحملة الفرنسية للعلوم والفنون والآثار فى مصر ، فإنها قد حثت كذلك على استخدام الإحصاء فى الأبحاث والدراسات التى تتخذ موضوعا لها أحد الأمور الهامة، وهكذا أمكن التوصل ليس فقط إلى تحديد مساحة الأراضى المنزرعة والقابلة للزراعة بطريقة أقرب إلى الموضوعية، بل وكذلك إلى عدد القرى والكفور التى تغطى وادى النيل،

كما أمكن بالمثل تقدير تعداد السكان في مصر، وكذا تعداد سكان مدنها الهامة. وبخلاف ماجمعته أثناء وجودي في مصر من معلومات فقد استعرت هنا بعض التفاصيل من الدراسة التي كتبها جومار Jomard عن تعداد السكان في مصر الحديثة مقارنا بتعداد السكان في مصر القديمة. وحيث إن جومار قد أقام حساباته على معطيات أكثر دقة عن تلك التي جمعت حتى الآن، وحيث إنه أبان عدد الموتى وخصوبة السيدات ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب بالإضافة إلى أمور أخرى هامة ذات طابع اقتصادي وسياسي،فإنه قد توصل بذلك إلى نتائج نعتبرها قريبة من الحقيقة.

وبعد أن قام جومار بالتحقق من تعداد سكان المدن الهامة في مصر والثابت في وثائق أصلية مثل سجلات الضرائب العقارية المسوكة بأيدي الإداريين الأقباط، وبعد مراجعة بيانات الوفيات التي جمعها المسيو دي جينت Desginettes أثناء ثلاث سنوات هي عمر حملتنا، وكذلك إحصاءات المواليد التي جمعها المهندسون الفرنسيون، فإنه -أي جومار- قد استخلص نتيجة شبه مؤكدة عن تعداد الشعب في مجموعه. وسوف اكتفي هنا بإيراد فقرة من ملخصه تضم نتيجتين متقاربتين وصل إليهما عن طريقين مختلفين: «إن تحديد المساحة الحقيقية للأرض المزروعة ثم حصر عدد السكان في جزء محدد من مساحة البلاد يؤدي - بعد تعميم هذه النسبة وإضافة الناتج الإجمالي إلى عدد سكان القاهرة - إلى نتيجة شبه مؤكدة، وهي أن تعداد سكان مصر يبلغ ٢٠٠,٤٤٢,٢ نسمة، أما الطريقة الثانية فقد بينت أن عدد قرى مصر يبلغ ٣,٦٠٠ قرية، وأن متوسط سكانها هو٥٣٤ شخصاً لكل قرية، أي أن تعداد سكان القرى يبلغ ٤٠٠ر١٠٢ر٢ نسمة، وبإضافة سكان المدن إلى ذلك الرقم فإن تعداد مصر يبلغ ١٠٠ر٤٦٧ر٢نسمة».

وحسب ما سبق فقد تحدد تعداد سكان مصر بحوالي ٥ر٢ مليون من السكان، ولايدخل ضمن ذلك مطلقا عدد العربان الذين يعمرون الصحراوات والذين لايمكن

إخضاعهم لتعداد دقيق، لكن مسيو جوبير Jaubert من جهة أخرى يقدر عدد الفرسان العربان حسب الإحصاء الذى قام به بـ٢٧٫٠٠٠ فارس، فإذا ما أضفنا إليهم نفس العدد لأشخاص راجلين وعدداً يتناسب مع ذلك من السيدات والأطفال فإن مجموع تعداد أبناء قبائل العربان سوف يرتفع إلى ١٣٠٫٠٠٠ نفس.

ولكى نقدم للقارىء فكرة عن مختلف طبقات السكان فى واحدة من مدن مصر، فسوف نضع تحت ناظره جدولا عن سكان القاهرة ، ولقد سهلت علينا إقامة الجيش الفرنسى فى هذه المدينة القيام بأبحاثنا بشكل طيب لحد نستطيع معه أن نغبط أنفسنا بأننا – شخصيا – قد حصلنا فى هذا الخصوص على معلومات شديدة القرب من الحقيقة.

كانت القاهرة فى عام ١٧٩٨ تضم مابين ٢٥٠–٢٦٠ ألفا من الأشخاص بما فى ذلك المماليك والتجار الأجانب، وقد قدر تعدادها بحسب إحصاء تم قبل مجىء الحملة الفرنسية بـ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة، ويمكن تقسيم هذا العدد على هذا النحو:

– المماليك بما فيهم جنود الأوجاقات ، وعلى وجه العموم كل الفرق العسكرية المكونة من رقيق تم تحريرهم بعد ذلك مثل المماليك	:	١٢٫٠٠٠
– الملاك	:	٦٫٠٠٠
– التجار الذين تمتد معاملاتهم إلى خارج البلاد	:	٤٫٠٠٠

ويتضمن هذا العدد التجار الأجانب الذين لايستقرون فى القاهرة إلا لوقت محدد مثل أولئك الذين يمتلكون محلات فى خان الخليلى والذين لايستقر معظمهم فيها، وكذلك التجار القادمين من أزمير والقسطنطينية وبغداد وحلب وجدة ينبع...الخ، وهم يصلون إلى القاهرة مع البضائع التى يبيعونها ، ويرحلون بعد ثلاثة أو أربعة شهور محملين ببضائع أخرى عند العودة.

– حرفيون مستقرون، سواء كانوا أسطوات أو عمالاً عاديين ٢٥٫٠٠٠

– صغار تجار القطاعى الذين يبيعون المأكولات والزيت والأرز والخضروات ومواد أخرى ٥٫٠٠٠

ولايمتلك هؤلاء على الإطلاق أى رأسمال، فهم يبيعون فى النهار ما يحصلون عليه فى الليل استدانة من تجار الجملة، ويدفعون من نتاج مبيعاتهم كل أسبوع. ونادراً ما يكون هذا التاجر ميسورا، بل إن حالته كثيرا ماتتدهور يوما بعد يوم حتى ينتهى به الأمر أن يهجر هذه المهنة ليحترف عملا آخر.

– القهوجية : أى أصحاب تلك المحلات التى يقصدها الناس من مختلف الحرف ليتناولوا القهوة والشربات ويدخنوا ويستمعوا إلى الموسيقيين والرواة : ٢٫٠٠٠

وهؤلاء الناس يشترون كل يوم ما يرونه ضروريا لاستهلاك اليوم.

ويستلزم هذا النوع من الصناعة رأس مال قليل ، إذ تكفى ٥٠ بوطاقة[١] (خردة) لإنشاء مقهى جميل ، ولدفع إيجار المحل الذى يشغله ، ولتجهيز الأثاثات والآنية اللازمة[٢] .

– خدم ذكور : قواس، سايس، سقّاء، فرّاش : ٣٠٫٠٠٠

– عمال، حمالون، عمال يومية ١٥٫٠٠٠

(١) تساوى البوطاقة ٩٠ بارة، ووقت إقامتنا فى مصر، كانت البارة تساوى تقريبا ٤ سنتيمات وكانت تساوى من قبل ٧٫٥ سنتيمات، وقد تناقصت قيمتها الآن كثيرا.

(٢) يوجد فى تركيا كما يوجد فى مصر عدد هائل من مثل هذه المحلات. ويتكون أثاثها من مقعد طويل بلا مساند، مستدير أو مستطيل بحسب شكل المحل، وتوضع على هذه المقاعد حصر (حصيرة) ويقعد الاتراك على هذه المقاعد ليدخنوا الغليون وليتفكروا ويشربوا القهوة بلا سكر. وأماكن التجمع هذه تسمى بالتركية كافيناى ، ويديرها عادة رؤساء الكولوك: أى البريد الحربى .

- إجمالى الذكور البالغين	:	٩٩,٠٠٠
- ويمكن أن يصل عدد النساء البالغات إلى	:	١٢٦,٠٠٠
- كما يمكن أن يصل عدد الاطفال من الجنسين إلى	:	٧٥,٠٠٠
وبذا يبلغ إجمالى عدد سكان القاهرة	:	٣٠٠,٠٠٠

ومن بين الـ ٩٩,٠٠٠ شخص من الذكور يمكن أن نحصى على الأقل ٢٦,٠٠٠ شخص ليست لهم بحكم سنهم زوجات[1]. وليس ثمة أسرة ميسورة ولو قليلا إلا وتمتلك على الأقل بعض العبيد السود، ويستطيع الأوربيون المقيمون فى مصر أن يشتروا هم أيضا عبيدا ليعملوا فى خدمتهم، وهذا أمر غير مسموح به فى بقية ولايات الباب العالى.

وفى أثناء حكم على بك، كان عدد دواب النقل فى القاهرة مثل الحمير والبغال يصل إلى ٢٢,٠٠٠، لكن عدد البغال اليوم ضئيل لحد كبير، ويمكن أن يبلغ عدد الحمير المستخدمة فى التنقل داخل المدينة أو ضواحيها، ولنقل الفاكهة وأعشاب المراعى بلا أدنى مبالغة حوالى ٣٠,٠٠٠ حمار. ولا يعرف المصريون عامة استخدام العربات لنقل بضائعهم، وهذا ما يضاعف لحد كبير من عدد الحيوانات التى تقوم بهذا الدور. ويُستخدم الجمل للمسافات الطويلة. وحيث إن الحمار لايتطلب قدرا كبيرا من العناية مثلما يتطلب الحصان فإنه يستخدم كدابة لغالبية السكان. وكان ممنوعا على الأوربيين لوقت طويل أن يستخدموا دابة أخرى غير الحمار، بل كان عليهم إذا ما قابلوا أثناء جولتهم مملوكا بسيطا أن ينزلوا أمامه

(١) توصل المسيو جومار- بعد حساب أسسه على النسبة القائمة بين عدد الموتى وعدد المولودين وكذلك تعداد الأحياء - إلى تقدير عدد سكان القاهرة بـ ٢٦٣,٧٠٠ نسمة.

على الأرض دليلا على الاحترام، كذلك كان الأمر بخصوص اليهود والأروام وبقية الرعايا الأخرى. ويبلغ عدد سكان القاهرة القديمة من ١٠ – ١١ ألف نسمة من بينهم ٦٠٠ من المسيحيين المنشقين.

وقد حان الآن الوقت لكى نتحدث عن الديانات التى تقتسم سكان مصر. وفيما يلى لمحة عامة عن ذلك.

٣

عن الأديان المختلفة

تجتمع فى مصر على وجه التقريب كل عبادات ومذاهب الدين الإسلامى(*) ويمكن أن نقسمها إلى مايلى:

١- أتباع المذهب الحنفى، ويعتنق بلاط القسطنطينية هذا المذهب، لذا تحتم أن يكون قاضى العسكر حنفيا على الدوام، ولكن ذلك ليس بالأمر الحتمى بالنسبة لقضاة الأقاليم. وكانت حكومة مصر السابقة (على مجئ الحملة) تتبع بالمثل المذهب الحنفى.

٢- أتباع المذهب الشافعى: وهذا المذهب هو أكثر المذاهب انتشارا فى القاهرة، وهو مذهب المشايخ والعامة.

٣- أتباع المذهب المالكى.

٤- أتباع المذهب الحنبلى: واتباع هذا المذهب نادرون لحد كبير.

وسوف يندهش القارئ – الذى تعود على الدوام أن يقرأ فى كتب التاريخ عن المعارك الدامية التى تتبع حركات الانشقاق الدينية – حين يعرف أن كل هذه المذاهب متسامحة غاية التسامح فيما بينها، فليس ثمة أى عداء أو تنافس، وليس

(*) من الواضح أن المؤلف لم يكن ملما إلا بالمذاهب الاسلامية السنية فقط (المترجم) .

ثمة أى اضطهاد من جانب أقواها، كما لايفكر أحدها على الإطلاق فى الحصول على أنصار له من أبناء المذاهب الأخرى، وهذا مايدل على الاعتدال الشديد، بل إن أتباع المذهب الحنفى يتميزون عن أتباع بقية المذاهب بأنهم أكثر تسامحا.

ويمكن أن نعد الطوائف الآتية بين المسيحيين:

الأقباط

١- طائفة كاثوليكية وتتبع البابا.

٢- طائفة من الهراطقة وتخضع لبطريرك. ويتبع هؤلاء آراء أوتيخوس ونسطريوس، ولكن مع اختلافات كبيرة. وهم ينكرون الطبيعة المزدوجة للمسيح.

الأروام

١- الكاثوليك ويخضعون للبابا.

٢- المنشقون ويخضعون لـ ٤ بطاركة: واحد فى القسطنطينية، وآخر فى القاهرة، وثالث فى دمشق، والرابع فى القدس.

الأرمن

١- الكاثوليك ويخضعون للبابا.

٢- المنشقون ويتبعون أحد البطاركة.

المارونيون

وهم كاثوليك ويخضعون للبطريرك فى لبنان.

وليس فى مصر لا كالفانيون ولا لوثريون.

وينقسم اليهود فى مصر أيضا إلى طائفتين أهمهما طائفة القرائين. وهما متسامحتان فيما بينهما. أما بقية طوائف هذه الديانة والتى تحدث عنها نيبور Niebuhr فى كتابه Voyage de L'arabie فمجهولة تماما فى مصر وفى كل وادى النيل.

٤

عن الأقباط بشكل خاص(*)

لعل أكثر الطوائف إثارة للإهتمام من بين كل سكان مصر هى طائفة الأقباط بلا جدال، ذلك أنهم يعتبرون أنفسهم أحفادا للمصريين القدماء، كما يرون فى لغتهم وفى المسارات التى سلكتها الأحداث التاريخية مايرجح كفة مثل هذا الادعاء. ومما لاجدال فيه أن لهم ملمحا فيزيقيا شديد القرب من ملمح الافريقيين لحد يكفى لكى يحملنا على أن ننسب لهم أصلا يعود إلى الدولة القديمة، ولعل بمقدورنا أن نفترض أن جنسهم قد استطاع أن يظل نقيا، بعيدا عن أى اختلاط بالأغريق، اذ ليس بينهما أى ملمح من تشابه. فعندما استولى الاسكندر على مصر واستقر فيها الإغريق بشكل دائم تحت حكم البطالمة فلابد أن كان ثمة جنسان متميزان، ومنذ ذلك الوقت أصبح المصريون، الذين عرفوا باسم الأقباط، يشكلون طائفة منعزلة بالرغم من الغزوات المتتابعة من الرومان والعرب والعثمانيين، ومازال هذه الطائفة منعزلة تماما حتى اليوم عن بقية الأجناس التى تشكل الآن الجزء الأعظم من سكان مصر.

(*) من نافلة القول أن نذكر بأننا هنا بصدد أثر علمى يقتضى الواجب نقله بأمانة نصا وروحا، ومع ذلك فجدير بالذكر أن الصورة القاتمة هنا هى نموذج لحالة كل المصريين باختلاف طوائفهم فى ذلك العهد، حيث كان كل أبناء مصر يعانون وإن اختلفت الحجج والادعاءات بحسب مقتضى الحال، وبرغم ذلك فإن الصورة هنا تختلف فى كلياتها، بل يصل الاختلاف أحيانا لحد التناقض مع ما جاء فى دراسات أخرى بوصف مصر، نذكر منها -على سبيل المثال- ماجاء بدراسة دى بوا-ايميه فى وصف مدينة منوف، وما جاء بدراسة لانكريه عن نظام الضرائب على الأراضى الزراعية، وكذلك ماجاء بدراسة جيرار عن الزراعة والتجارة والصناعة. كما أن بعض ماجاء فى هذا الفصل لايمكن التسليم بصحته بحال من الأحوال، بل لايمكن تصور طرحه على الإطلاق، فليس هناك ما هو أيسر من دحضه. (المترجم).

منذ الأيام الأولى للمسيحية، أرسل بطرس الرسول إلى المصريين القديس مرقص كي يبشرهم بالإنجيل، فجذبت فصاحته وحماسته على الفور العقول، وأصبح له جمهور من الأتباع. وهكذا تأسست كنيسة الأسكندرية التى أصبحت ذائعة الصيت في الشرق. ولكن - بعد ذلك - تغلبت آراء أوتيخوس ونسطريوس، وظلت هذه البذور الأولى للانشقاق تعمل عملها حتى اليوم.

وللأقباط منشآت دينية بالغة الروعة كما نرى فى كثير من الكنائس والأديرة الخربة، كما أنهم أنشأوا فى مصر العليا على وجه الخصوص كنائس رائعة. ويبدو الصعيد بمثابة مهد لهم، فقد كانت أعدادهم هناك على الدوام كبيرة ومايزال الأمر كذلك حتى اليوم، ولكنهم بعد كثير من التقلبات والأزمات السياسية لقوا مصير سكان مصر الآخرين، ذلك أن ديانتهم بعد أن فقدت جزءاً من سطوتها التى أكدتها سيطرة الأباطرة الرومان فقدت كذلك جزءا من عظمتها وازدهارها، وبرغم ذلك فقد ظل لهم مايقرب من مائة دير، من بينها خمسة أديرة خاصة بالنساء: اثنان منها فى القاهرة، واثنان فى مصر القديمة، وآخر فى مكان منعزل بالقرب من منفلوط، وهذا الدير الأخير مثال لحالة بالغة الندرة والشذوذ بشكل غير مستحب، فهو ينقسم إلى قسمين منفصلين: واحد للرجال وآخر للنساء، يضمهما معا سور واحد دون أن يكون ثمة - رغم ذلك- أى اتصال بينهما.

ولا يلعب الأقباط فى مصر إلا دورا ضئيلا، ومهارة شعبهم هى مصدر حياتهم، فقد استطاعوا -تحت حكم الأتراك- أن يحتفظوا بجزء من العمل الإدارى لم يخرج مطلقا عن أيديهم منذ العصور البالغة القدم، وهو مسك سجلات الضرائب والدخول والملكيات، أى أنهم - باختصار- الملمون بمساحة مصر. وهم يتهمون بأنهم لم يكونوا -على الدوام فى عملهم هذا- على درجة كافية من الأمانة والنزاهة.

وهم يقومون بعمليات تقسيم التركات العقارية، وهم كتبة مصر الحقيقيون،

كما أنهم أيضا مساحوها، وقد انهمك عامتهم فى ممارسة فنون الصناعة.

وتعيش الأديرة بفعل الهبات، وعن طريق دخول متواضعة تأتى من بعض الملكيات الضئيلة التى احتفظوا بحق استغلالها. كما أنهم يقومون بمساعدة فقرائهم عن طريق جمع تبرعات عامة، ويقوم بجمع هذه التبرعات مفتشون يختارهم البطريرك على الدوام من أبناء العائلات الكبيرة. ورهبانهم بسطاء فى ملابسهم وطعامهم، كما أن الرزق - أى الدخول - الممنوحة لهم لا تكفيهم إلا مع الحرمان الشديد، لذا فهم لايأكلون فى اليوم سوى مرة واحدة، ويتكون طعامهم من الخضر وقليل من السمك، ولايسمح لهم بأكل اللحوم إلا فى أيام الأعياد. وملابسهم عبارة عن رداء كتانى طويل، والراهبات لسن بأحسن من هؤلاء لبسا.

وهكذا أمكن للأقباط أن يتماسكوا فى شكل أمة متحدة داخل بلد منهزم، ويعطى مجتمعهم الصغير لمصر - بفضل بعض الأنظمة المقتبسة من القيم الإنجيلية - مظهرا من مظاهر الاتحاد والوفاق والألفة، وهو أمر نادر فى تلك البلاد التى نكبت بالطغيان والاستبداد.

وبرغم هذا فإن الأقباط لايخلون من العيوب، وهذه العيوب إنما هى نتيجة حتمية لتلك الحالة من الإذلال التى انتهوا إليها تحت حكم الأتراك، فحيث إنهم كانوا على الدوام مضطرين للاستكانة وللتظاهر بخلاف مايبطنون فقد أصبحت الغالبية منهم تتصف بصفات الجشع وبأخلاق الأجُراء المرتزقين. وهذه بالتأكيد هى مسيرة كل الشعوب المقهورة على مدار التاريخ، فالتقاعس هو النتيجة الطبيعية للعبودية والاذلال (١).

---

(١) ممايبين إلى أى حد كان الأقباط يحتقرون من قبل المسلمين أن عمامتهم ينبغى أن تكون من لون واحد، مما يؤدى إلى التعرف عليهم من بعد، ويمكن أن يقال، إلى تعريضهم لزراية العامة، ولايسمح لهم مطلقا بأن تكون لهم عمامة تماثل عمامة المسلمين، فهى عبارة عن شريط ضيق يلف حول طربوش يغطى الجبهة. ومع ذلك فإن الأقباط عندما يتوجهون إلى الأقاليم لتحصيل الضرائب فإنهم لاتنالهم إهانات من قبل المسلمين، وليس هذا بفعل الاعتياد الطويل، بقدر مايعود إلى وجود قوة من الجنود معهم لحمايتهم.

ومع ذلك فقد بقيت لهم على الأقل حرية العبادة، ذلك أن محمدا الذى كان سياسياً محنكاً قد ترك للشعوب التى خضعت لسيطرته حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، كما ترك لهم الحق فى أن يسيروا أمورهم بموجب قوانينهم الخاصة، ولكن داخل أطار سيطرة النظم الإسلامية، وقد سار على نهجه القويم الخلفاء من بعده، ولعل الديانة الإسلامية تدين بنجاحها السريع لهذا الاعتدال الحكيم أكثر مما تدين لقوة السلاح. ومهما يكن الأمر فإن الأقباط -وعموما كل مسيحيى الشرق- قد لعبوا دورا فى سياسة بلادهم ، بل إن المماليك أنفسهم لم يكن بمقدورهم أن ينهوا امتيازا كهذا تدعمه مبادئ دينهم أكثر مما تدعمه العادة وفعل الزمن [*] .

وتتخذ أمة الأقباط - كرئيس أعلى لها وكزعيم دينى ودنيوى - حبرا هو الشخصية الأولى فى الكنيسة ويلقب بالبطريرك، ولاتُعرف لسلطته حدود إلا ماتفرضه العادات المستقرة وإرادة حكام البلاد. وهو يفصل فى كل الخلافات التى تقع بين كل رعيته ، لكن حكمه فى ذلك ليس نهائيا، إذ يمكن للأطراف المتنازعة - باتفاق فيما بينها- أن ترفع الأمر إلى القاضى، الذى يقر عادة حكم البطريرك. أما الجنح والجرائم فتعامل بطريقة أخرى، فالبطريرك لايفصل إلا فى الجرائم الصغيرة التى لاتتطلب إلا عقابا إصلاحيا ، فعندما يتهم قبطى - على سبيل المثال - بالسرقة من أحد المسلمين، فإن المسلم يرفع شكواه إلى البطريرك. أما إذا كان المسلم -على عكس ذلك - هو السارق فإن القبطى يرفع شكايته أمام القاضى أو يطلب العدالة من حاكم المدينة نفسه، ويقوم الطرف القبطى بنفسه بتقدير حقوقه أمام المحاكم.

أما حوادث القتل والجرائم الكبرى، فليست من اختصاص محكمة البطريرك، لكن من اختصاص الضباط المكلفين - من قبل شرطة المدن - بمطاردة ومعاقبة كبار المذنبين. وفى بعض الأحيان يتمكن المذنب من التملص من العقاب عن طريق

(*) لعل القارئ قد لاحظ هذا التناقض فيما يذكره المؤلف هنا وما سبق أن ذكره فى بداية هذه الفقرة .(المترجم) .

دفع مبلغ من النقود لمن يمسكون بسيف العدالة ، ويحدث هذا أيضا بالنسبة للمسلمين.

ويختار البطريرك – على الدوام – من بين رهبان دير سان أنطوان ، ويتم ذلك بالانتخاب، وعندما يراد اختيار خليفة له فإن المطارنة وكبار القساوسة ينضمون إلى كبار رجالات الأمة القبطية.

وتتكون الجمعية العمومية من ٤٠ –٥٠ شخصا، ثم يشرعون فى عملية الانتخاب، ويعين الراهب الذى يحصل على أكبر عدد من الأصوات فى منصب البطريرك.

ويشكل المطارنة الصف الثانى من هييرارشية الكنيسة القبطية، وليس لهؤلاء الأساقفة من دخل إلا ما يحصلون عليه من هبات من أقاليمهم . ويبلغ إيراد كنيسة العاصمة حوالى ١٠,٠٠٠ بوطاقة (خردة) وهو إيراد بعض المنشآت الخيرية المخصصة لها، وهذا الدخل البسيط هو أساس دخل البطريرك، لكنه يستطيع على الدوام أن يعثر على الوسائل التى يزيد بها مخصصاته الشرفية، وهى دخول عرضية (غير ثابتة) لكنها تصل فى بعض الأحيان إلى رقم كبير للغاية. والاسكندرية هى مقر البطريركية ، لكن البطريرك يقيم فى القاهرة حتى يكون فى وضع يمكنه من رعاية مصالح شعبه ، والدفاع عن حقوقه أمام السلطة المسلمة.

ويتمتع رجال الدين من الدرجة الأقل أيضا بأهمية كبيرة، لكنهم جهلة وفقراء، وتسمح لهم قوانين كنيستهم بالزواج الذى ينبغى أن يسبق رسامتهم. ولايسمح لهم بالزواج طيلة حياتهم إلا مرة واحدة. وعندما يموت أحد القسس الأقباط يتجمع كبار رعاياه ، كى يحددوا لمطران الولاية رجل الدين الذى يبدو لهم أكثر جدارة بولاية المتوفى ، ويعين المطران على الفور القسيس الذى وقع عليه اختيارهم. وكل الكنائس مملوكة لهيئة رجال الدين ، ويصرف عليها من الهبات والتبرعات.

ويثق القبطى ثقة عمياء فى قساوسة طائفته، ولهؤلاء القسس تأثير كبير على

النفوس. وبمقدورهم – بقليل من الحيلة – أن يسيئوا استغلال ذلك التقديس الذى يحيطهم الناس به ، ليعودوا بالنفع على أنفسهم. لكنهم فى غالب الأحيان جهلة مثل بقية أبناء الشعب، وليس ثمة بينهم إلا عدد ضئيل للغاية قد وصلوا إلى درجة من العلم يستطيعون معها أن يقرأوا كتب الطقوس الدينية ، وهى الكتب الوحيدة التى ماتزال تستخدم اللغة القبطية حتى اليوم[1].

وبالرغم من هذا التقدير العميق لرجال الدين ، فإن القبطى لايسمح لزوجته أن تسفر عن وجهها أمامهم (ونحن هنا نتحدث فقط عن الطبقة الميسورة منهم) ، بل إن البطريرك لايمكنه أن يرى سيدة سافرة إلا إذا كان زوجها هو الذى سمح بذلك وعن طيب خاطر.

ولهؤلاء الأقباط أيام للصوم وأيام للأعياد الدينية ، هى – على وجه التقريب – نفس أوقاتنا. ويتمثل الاختلاف الوحيد فى طول المدة أو قصرها ، وكذلك فى طريقة أدائها. وعدد مناسبات صيامهم أربع مناسبات فى العام ، وهى تسبق أيام الذكرى ذات القدسية الكبرى لديانتنا، والصيام السابق على عيد الفصح (القيامة) هو أطولها جميعا ، وهو كذلك أشدها مشقة ، ويبلغ طوله ٥٠ يوما. ولا يمكن للمسيحى طيلة هذه المدة أن يتناول سوى وجبتين فى اليوم، ويمتنع تماما عن تناول اللحوم والأسماك وكل ماله روح على وجه العموم. وتأمر الكنيسة بأن يمتنع الناس عن إدخال أى شئ إلى أفواههم حتى ولوكان دخان النارجيلة قبل الظهيرة ، وهى موعد الوجبة الأولى . ويستمر الصيام السابق على عيد الميلاد ٤٣ يوما ، ويبلغ صيام العذراء ١٥يوما ، ويتراوح صيام الرسل بين ١٥ –٤٥ يوما ، حسب المسافة الموجودة بين عيد الميلاد والصوم الكبير. وهم طيلة أيام الإمساك (الصوم) لايتناولون سوى وجبتين : واحدة عند الظهر والأخرى فى المساء ، ولايمكن تناول

---

(١) يمكن القول بأن اللغة القبطية كانت هى اللغة العامية للمصريين القدماء ، وأن رموزها ليست سوى الحروف اليونانية مضافا إليها بعض الحروف لاستيعاب الأصوات التى ليس لها شبيه فى اللغة اليونانية .

السمك أو البيض أو الألبان دون الحصول على إذن من المطارنة ، وفي بعض الأحيان لابد من اللجوء مباشرة إلى البطريرك ، وبخصوص مدة الصيام وصرامته، فإن ثمة تشابها كبيرا مع الكنيسة اليونانية في الشرق، وفضلا عن ذلك فهناك عدد كبير من الروابط بين الطائفتين. وليس هذا مما يبعث على الدهشة، فأصل الكنيستين واحد ، كما أنهما يتبعان – على وجه التقريب – نفس المبادئ .

ويمارس الأقباط كذلك الاعتراف، وهم يشتركون في هذا الطقس الديني مع المسيحيين عموما، لكن ثمة عادة خاصة بهم تبدو مناقضة تماما أو على الأقل غريبة عن مذهب المسيح ، تلك عادة الختان للجنسين(١). وبالرغم من أن هذه العملية ليست – فيما يبدو – إلزامية بالنسبة لكل الأقباط، فإنهم مع ذلك يخضعون لها إما بفعل الاعتياد وإما بفعل الأفكار المسبقة. وتصر الأمهات على ضرورة ختان أطفالهن ، إذ يتصورون أن أبناءهن لن يكونوا صالحين للإنجاب مالم يمروا بهذا الأمر المؤلم .

وفي الصعيد يختتن كل الأقباط، لكن عدداً كبيراً منهم في القاهرة يرفض ذلك ، أما بالنسبة لختان الأطفال الصغار فهي عادة شائعة في كل مكان ، تتم دون وساطة القسيس، ويختتن الجنسان في سن السابعة أو الثامنة. وينتهي يوم هذه العملية عادة بعيد عائلي . لكن ينبغي أن يسبق العماد عملية الختان ، ويتلقى الأطفال سر القربان المقدس في فترات تختلف بحسب الجنس، فهو يتم بالنسبة للذكور بعد ٤٠ يوما من ولادتهم ، وبالنسبة للإناث بعد ٨٠ يوما .

ويسارع الأقباط بتزويج أبنائهم ما أن يروا أنهم قد بلغوا سن البلوغ ، ولذلك يتم تزويج الفتيات في سن الثانية عشرة ، بينما يتزوج الأولاد في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. ولاينبغي أن ندهش لمثل هذه الزيجات التي تتم هكذا قبل الأوان ، في منطقة كهذه يعمل فيها الطقس على سرعة نمو الجسم ، كما يعمل على إثارة الشهوات منذ سن مبكرة .

---

(١) يبدو أن هذه العادة قد انتقلت إليهم عن قدماء المصريين الذين كانوا يمارسون هذه العادة. انظر هيرودت : الكتاب الثاني. فقرة ١٠٤ . ترجمة لارشيه Larchet .

ويرسل الأقباط أولادهم إلى مدارس صغيرة، حيث يتعلمون القراءة والكتابة إلى جانب المبادئ الأولى للدين. ويتمتع بهذه الميزة كل الأطفال الذكور بلا تمييز، لكن الفتيات لايستطعن الذهاب إلى المدرسة إلا بموافقة أمهاتهن اللاتى يعترضن على ذلك فى بعض الأحيان . ولم نشاهد فى القاهرة فتاة واحدة تتردد على المدرسة ، وعلى العكس من ذلك فى الصعيد ، حيث يذهبن إلى المدارس هناك مثل الأولاد ، ولاينقطعن عن الذهاب إلى المدرسة حتى فى سن الثامنة أو التاسعة ، وهو السن الذى يبدأن فيه فى التشكل ولايَعُدن أطفالا.

لقد أطلنا بعض الشئ ، لكننا رأينا من واجبنا أن نبدأ أولا بالوقوف على بعض التفاصيل حول الأقباط ، لأن معرفتنا بهذه الأمة لاتزال شديدة الضآلة. وسوف نعود إلى الموضوع نفسه فى فصل آخر ، وسوف نحاول أن نقدم فكرة كاملة عن عادات وتقاليد ونظم ومؤسسات وحرف هذه الأمة التى ظلت شبه منسية حتى يومنا هذا من بقية المذاهب المسيحية.

٥

عن العربان على وجه الخصوص

تتكون الكتلة الكبرى من الشعب المصرى من عرب استقروا وارتبطوا بشكل أساسى بالأرض، ولاتختلف عاداتهم فى شئ عن عادات من نعنيهم باسم المصريين. لكن العربان الرحل ينقسمون إلى قبائل رحّالة ، تنقل خيامها من صحراء لأخرى، ولايخضع أبناؤها إلا لمشايخهم، ويتجاهلون سلطة الباشا والبكوات. ويستحق العربان منا اهتماما خاصا ، إذ إن لهم عادات مختلفة، وسوف نرسم سريعا تلك الملامح التى تميزهم، لأن هذه اللوحة سوف تساهم فى تكوين فكرة عن المؤثرات التى تؤثر فى سكان مصر على وجه العموم.

يبلغ عدد العربان الرحل حسب إحصاء قريب ٤٠ ألفا . ويمكن لنا - بالقيام بعملية نسبة - أن نحصل على العدد التقريبى لكل هؤلاء العربان ونسائهم

وأطفالهم... الخ. وهم يشغلون الصحراوات المحيطة بمصر من كلا الجانبين ، ويقترب عدد منهم – في بعض الأحيان – من ضفاف النهر ، ليزرعوا أراضي يستأجرونها من حكومة الإقليم . ويمكن اعتبارهم جميعا من أتباع عقيدة محمد ، بل إنهم يتسمّوْن باسم المسلمين ، ومع ذلك فإن مبادئهم الدينية تبدو شديدة التباين كما يرى بعض الأوربيين الذين زاروهم . ومن المؤكد أن عقائد هذه الشعوب، وكذلك التقاليد الراسخة التي احتفظوا بها عن أصولهم ، وكذلك أخبارهم التاريخية – لابد أن تحظى باهتمام خاص من قبل الرحالة ، إذ يمكن لمثل هذه الأمور أن تساهم في توضيح نقاط كثيرة غامضة في التاريخ الحديث. لكن مثل هذه الدراسات – على وجه العموم – قد أهملت لحد يفوق التصور ، على الرغم من أن العربان الرعاة قد نقلوا – من جيل لجيل – تاريخ آلاف من الوقائع التاريخية المجهولة ، التي من السهل أن تهتك لنا هذا النقاب الصفيق الذي تغلفهم به خرافاتهم وأساطيرهم. وباختصار، ولانمل من تكرار ذلك، ينبغي على كلٍ من المؤرخ ورجل الآثار أن يحصل على معرفة عميقة عن عادات العربان وتقاليدهم.

وفيما يلي أسماء القبائل التي تقتسم فيما بينها صحراوات مصر الشاسعة ، وكذا أسماء الأقاليم التي تفضل هذه القبائل أن تستشرف حدودها:

ولاية المنصورة

١– قبيلة درنة: وهي قبيلة قوية وكبيرة العدد، لكن عوامل الضعف قد دبت فيها نتيجة للحرب الأخيرة التي شنها عليها حاكم الولاية . وقد تبعثرت حاليا هذه القبيلة.

٢– قبيلة البوارشة : وهي تسكن القرى وتحترف الزراعة.

٣– قبيلة حسن طوبار : وتشغل قرى عديدة بمنطقة المنزلة.

ولاية البحيرة

طبقة أولى : الهنادى (*).   طبقة ثانية : أولاد على

وتقيم هاتان القبيلتان فى خيام، وهما أقوى قبائل مصر وأكثرها شراسة، وعلى الرغم مما بينهما من خصومات وما يفرق بينهما من عداوات بفعل من أحقاد وضغائن دينية ، فإنهما يقتسمان فيما بينهما السيطرة على الولاية . وتتبع واحدة منهما أفكار شيخ يسمى : سعد، أما الأخرى فتعتقد فى قداسة شيخ يسمى: حرام. ومن هنا تولد هذا النوع من الكراهية والنفور الذى استمر لأزمنة طويلة ، لكن أحدا لم يستطع أن يعثر على أصل لهذين المذهبين أو مؤسسيهما، بل لقد حدث أن انقسمت مصر بأكملها بفعل هذا الخلاف نفسه، الذى أدى إلى قيام العداوات والضغائن بين الفريقين ، وأخذ كل فريق يدين الفريق الآخر، ويتوعده بعقوبات الدار الآخرة، حتى وضعت حكومة على بك الشهير حدا لهذه العداوات المتعصبة، وعملت حكمة وحزم هذا الرجل - غير العادى الذى لم يكن ينقصه إلا نوع مختلف من التربية ، وكذلك أن يلعب دوره على مسرح من الأحداث أكبر اتساعا لكى يدهش العالم - على تذكير المصريين بمشاعر الاعتدال والتسامح التى اشتطوا فى البعد عنها . ومنذ ذلك الوقت، فإن الناس يكادون يكونون قد نسوا كلا من سعد وحرام، لكن اسمى هذين الزعيمين الروحيين قد ظلا يثيران الشقاق بين الشعوب الطليقة فى الصحراوات.

ولم تكن سوريا لتبعد عن روح التعصب هذه. فهكذا خلقت فى كل هذه البلاد أحزاب أعمتها مثل هذه الأمور من الدجل والضلالات، وبذلك أصبحت ديانتهم الخاطئة، التى يسيئون هم أنفسهم فهمها، سببا للأحقاد والضغائن والعواطف الجامحة، مما أدى بشعوب بأكملها إلى التطرف الأرعن، باسم ديانة يعملون هم أنفسهم على الإساءة إليها .

(*) وردت فى الأصل باسم نميادى Namiady ولعله خطأ مطبعى.(المترجم) .

وتقوم القبيلتان اللتان تحدثنا عنهما للتو، بفرض ضرائب على سكان ولاية البحيرة ، تعادل تلك الضرائب التى تفرضها السلطات الحاكمة ، وبسبب نقص وسائل القمع التى فى حوزة السلطات الحاكمة ، فقد ظل مثل هذا الطغيان البغيض سادرا .

ولاية الشرقية

طبقة أولى	طبقة ثانية
بلى	جميلة
رفاعات	بنى أيوب
سمدانى	جميلات
أولاد على	
الحيوان	

وهذه القبائل كلها من العربان الرحل، وهم لايعرفون الزراعة ولا التجارة، وحيث إنهم قطاع طرق بالسليقة، فقد أصبحوا قتلة بفعل الطمع والجشع . ولاتفرض عليهم الحكومة أية ضرائب أو إتاوات ، لكنهم يكتفون بأن يرسلوا كل عام إلى شيخ القاهرة هدية تتكون من الخيول والجمال، وبذلك يحصلون على حماية هذا الضابط، بل يمكن القول على تفويض منه بالانغماس - دونما اعتراض من جانبه - فى جرائمهم المعتادة.

القبائل المتوطنة

طبقة أولى		طبقة ثانية
القصاصين		أولاد زهيرة
السماكين	بالصوالحية	متولى
الصوالحة		البوارشة
عايد		وروره
الزملى		
أولاد موسى		
لكام		

وهؤلاء يسكنون القرى ويفلحون الأرض ، ومع ذلك فإن لديهم فى نفس الوقت - شأنهم شأن الأولين - ميلا لا يقاوم يدفعهم للقيام بأعمال السلب ، إذ تراهم فى معظم الأحيان يتركون محراثهم ليمسكوا ببنادقهم ويسلبوا أمتعة المسافرين.

ولاية قليوب

طبقة أولى	طبقة ثانية
الصوالحة وجهينة	العيايدة
الحويطات	طرابين

وهم يقيمون فى الخيام ، ويروعون سكان ضواحى القاهرة بغاراتهم التى يقومون بها للسلب والنهب. وهم يشاركون الفلاحين فى زراعة الأرض، ولكن دائما وبلا جدال على حساب هؤلاء الأخيرين[1].

(١) لمزيد من التفاصيل ، راجع دراسات دى بوا ايميه وجومار. وكذلك الجدول الذى وضعه اميديه جوبير Amèdèe Jaubert . وسوف نعود فى الفصل الثالث إلى هذا الموضوع بالتفصيل.

(ونجد جدول جوبير الخاص بالقبائل العربية التى تقيم مابين مصر وفلسطين فى المجلد الثانى من الترجمة العربية). (المترجم).

٦

عن المماليك، وعن الأجانب الذين استوطنوا مصر

عندما نتأمل قوة المماليك وتقدمهم الذى ظلوا يحتفظون به على الدوام على قوات الباب العالى ، فسوف نجد - بما لايدع مجالا للشك - أن قوتهم العسكرية الرائعة تلك لاتعود إلى تعدادهم ، بقدر ما تعود إلى قدراتهم وكفاءاتهم . فتعدادهم ليس شيئا بالمرة ، إذ لايكاد يصل مجموع عددهم - سواء الذين حرروا منهم أو الذين مازالوا أرقاء - إلى ثمانية أو تسعة آلاف رجل : وبرغم ذلك فقد توصلوا بفضل جرأتهم وشجاعتهم ومزاجهم العسكرى الذى تنميه نشأتهم العسكرية، وكذلك بسبب من الذكريات الرائعة والطموح الذى لايعرف لنفسه حدا، توصلوا إلى قيادة شعب كبير مع تقييده بسلاسل من خوف، وسحقه تحت وطأة اسمهم :المماليك، وهو الذى يمكن أن يقال بأنه أصبح مثيرا للرعب بسبب كثرة ماأحرز من انتصارات .

ومن الممكن أن ننسب قلة عدد المماليك إلى عادتهم فى الزواج من نساء أجنبيات مثلهم ، وفضلا عن ذلك فإن طقس مصر يحول دون تكاثر الأجانب عموما، حتى عندما يتزوج هؤلاء من مصريات ، فالأطفال - فى الحالة الأولى - يموتون وهم لما يبلغوا من العمر بضع سنوات . وحيث كان المماليك - هكذا - محرومين من فرص التكاثر الطبيعى ، فقد بات عليهم أن يلجأوا إلى هؤلاء الذين ينحدرون من نفس أصولهم ، فكانوا يشترون الرقيق الشبان ويقومون بتدريبهم عسكريا ثم يعتقونهم بعد ذلك . وكان هؤلاء الرقيق إما شراكسة وإما قوقازيين، وكانوا يحملون أولا إلى القسطنطينية ، ثم يرسلون من هناك إلى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية حيث يشتريهم الأغنياء . وتنتسب زوجات المماليك إلى نفس هذين الإقليمين، ويصلن إلى تركيا بنفس الطريقة .

وفى بعض الأحيان، وقبل مجئ الحملة الفرنسية، كان يحدث أن يتزوج أحد

المماليك – بعد أن يدركه اليأس من الوصول إلى الصفوف الأولى من رجالات الدولة – من زوجة مصرية ، وعندئذ يكون له الحظ فى إنجاب الأطفال ، لكن ذريته تتميز مع ذلك بالضعف.

ويمكن لنا أن ندرج العبيد السود من الجنسين الذين كانوا يجلبون من أعماق أفريقيا ضمن الشعوب الأجنبية التى استوطنت مصر. ففى كل عام كانت أسواق القاهرة تمتلئ بهؤلاء التعساء ، وكان عدد النساء بينهم يتجاوز عدد الرجال . وهذه التجارة المرذولة هى واحدة من المهن الرائجة فى هذا الإقليم . ومن أسواق القاهرة، تذهب أفواج العبيد إلى المدن الكبرى فى آسيا ، مثل: أزمير والقسطنطينية وحلفا..الخ، ويبقى عدد كبير منهم فى نفس الوقت فى القاهرة،حيث يستخدمون فى مختلف الأعمال . ويميل المصريون إلى تفضيل النساء الزنجيات، ويشترى الرجل على هواه وحسب قدرته اثنتين أو ثلاثا وحتى ستا منهن.

وكما سبق أن قلنا فإن للمسيحيين فى مصر الحق فى امتلاك العبيد ، بالرغم من أنهم لايتمتعون بهذا الحق فى بقية الولايات التركية ، ومع ذلك فإن هذا الحق محدد بشروط معينة ؛ فمن المحظور عليهم أن يمتلكوا عبيدا من الذكور ، إذ هم – فى هذا الصدد – لايستطيعون على الأكثر إلا شراء أطفال صغار يتخلصون منهم عندما يكبرون . ومع ذلك فقد كان يسمح لهم باقتناء أى عدد من النساء الإماء يستطيعون الحصول عليه ، لذا كان لدى كل أسرة واحدة أو اثنتين على الأقل للقيام بأعمال البيت.

أما العثمانيون المقيمون فى مصر فكانوا قليلى العدد ، وكانت ذريتهم تنقرض شأنهم فى ذلك شأن المماليك، ولنفس الأسباب. ويوجد بالمثل عديد من العائلات السورية التى استقرت فى مصر بغرض التجارة، ولكنها ليست بذات وزن كبير فى أجناس هذا الشعب.

وتشغل قبائل النوبيين أو البرابرة مناطق عديدة فى صعيد مصر وبعض

الجزر المجاورة لشلال أسوان، وهى قبائل فقيرة وتتكون من بعض العائلات.

وفى ختام المطاف نذكر الأفرنج أو المسيحيين الأجانب. وهؤلاء لايستقرون إلا فى مناطق التجارة الكبرى ، مثل : الأسكندرية ، رشيد ، دمياط ، القاهرة . وأهمية هذه الطائفة تعود إلى ماتقوم به من عمليات تجارية أكثر مما تعود إلى تعدادها.

تلك – على وجه التقريب – لوحة بالغة الإيجاز لمختلف العناصر والأجناس التى تقطن مصر، وقد اكتفينا هنا بمجرد ذكرها ، لكننا سنعود إليها فيما بعد ، وعندئذ سنتحدث عنها بتفصيل أكبر.

٧

عن العادات والتقاليد بشكل عام

يوجد فى مصر – شأنها فى ذلك شأن بقية بلدان الشرق – خليط مضطرب من العادات والتقاليد ، تعود إلى أصول متنوعة ، وتنتج عن أسباب كثيرة . وهل كان يمكن للأمر أن يكون على نحو آخر فى بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه ؟ فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التى تشكلت بها فئات السكان بمختلف أديانهم وأصولهم . فنحن نجد فى المدن – مع شئ من الاختلاف – نفس عادات الشعوب الشرقية ، ولقد كان هذا الاختلاف أمرا ضروريا بسبب طبيعة التربة وتأثير الطقس. أما فى الريف وفى الصحراوات فسوف نتعرف على رجل العصور الأولى ببساطة أذواقه ، هذا إذا لم تكن العصور المنصرمة قد تكفلت بإتلاف فطرته.

تتحدث كل فئات هذا الشعب لغة مشتركة هى اللغة العربية ، وقد تمثل الأقباط كذلك هذه اللغة . وإذا كان بعض العثمانلى قد احتفظوا بلغتهم الأم فقد كان ذلك يحدث فيما بينهم ، وفى علاقاتهم مع ضباط الباشا الذين يحكمون مصر باسم السلطان . وقد نسيت اللغة اليونانية تماما ،أو قل إنها قد انكمشت فى دائرة صغيرة من تجار هذا الشعب (اليونانى) الذين يقيمون فى القاهرة أو الأسكندرية.

ولايمكنك أن تكشف ما يعتمل فى نفس المصريين عن طريق ملامحهم . فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجى فى كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه ، إذ يحتفظون فى ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر ، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم أو كانوا فى نشوة من سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد أو يغلون فى داخلهم من الغضب أو يتحرقون للانتقام . فليس ثمة مطلقا فعل منعكس : أحمرار فى الوجه أو شحوب مفاجئ ، يستطيع أن يشى بصراع تلك العواطف العديدة التى تهزهم . ويمكننا أن نلتمس أسبابا عديدة لهذا الجمود المذهل فى الملامح ، قد لايكون الطقس بعيدا عن هذه الحالة . فحيث يبدو الطقس على الدوام بنفس الشكل، فإنه ينقل إلى النفوس – على نحو ما – ثباته الدائم ، ومع ذلك فإن الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد فى شكل التربية ، وفى الاعتقاد فى القضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس ، كما تعود فى النهاية إلى تعودهم أن يكونوا على الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد . ففى كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين – والشرقيين عموما – نوعا من الحيلة لمواجهة هذا العسف، فعندما يعاقب الإنسان على حركة أو بسبب نظرة أو أحيانا لمجرد الاشتباه، كما لو أنه ارتكب جريمة، فإنه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة على الاستيعاب والتمثل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات عادية . لذا فلا ينبغى علينا أن نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للألم الذى يميز الشرقيين على وجه العموم: فالشكاوى والصيحات أمور لا فائدة منها أمام إرادة الطغاة . ويعرف المصرى كيف يمشى وقد أغضبه الألم، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمة، فهذه إرادة الله، والله أكبر، والله غفور... وتلك فقط هى الكلمات التى تأتى على لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يأمله ، وهى نفسها التى تفلت منه عندما يبلغه نبأ كارثة كبرى ألمت به.

ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمرا بالغ التناقض مع تقاليدنا ، حتى لنظنهم فى البداية بلهاء أو معتوهين، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم، كل ذلك يشى بعدم اكترات مذهل . فأنت تراهم ممددين لجزء طويل من النهار على أرائكهم أو على حصرهم ، حسب درجة ثرائهم ، حتى تظن أن ليس ثمة فى هذه الدنيا مايشغلهم إلا أن يملأوا ويفرغوا على التوالى غلايينهم الطويلة، وتبدو مخيلتهم وكأنما قد تخدرت مثل أجسامهم لحد تخال معه – وهم فى حالة التنويم الروحى تلك – أن سماعهم لحكم بالموت صادر عليهم لن يكون بمقدوره أن يثير مجرد دهشتهم . وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية على ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية . فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم على العكس – وحيث يمكنهم بذلك تركيزها – أكثر حدة ، كما أنها تعطى لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم فى بعض الأحيان قادرين على الإتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلا على ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة... إن ملكة الانتباه ، والقدرة على التذكر ، تذهب إلى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين تخالهم غارقين فى بلادة مطلقة .

وتتوافق أحاسيس هذا الشعب مع بقية عاداته ، فالمرء منهم يستمتع فى الحمام مثلا بملذات عجيبة ، إذ لابد أن تقوم واحدة من الخادمات على الدوام بتدليك قدمه إما باليد ، وإما بقطعة من الطوب الأملس ، كما أنه يمضى وقتا طويلا فى تهذيب لحيته . وهذه عادة قديمة جدا فى الشرق ، حيث لا تدلك القدم باليد إلا فى المجتمعات الحميمة من الأهل والأصدقاء ، ذلك أن الآداب العامة لا يمكن أن تسمح بهذا الفعل الشهوانى على الملأ . أما عن حك الأقدام بقطعة ملساء من الطوب فهى لا تمارس إلا عند الخروج من الحمام . وكلا الأمرين يعدان فى وقت معا ضربا من الأمور الحسية والشهوانية ، وكذلك عملا من أعمال النظافة.

وقد تبدو ملذات من هذا النوع بالغة التفاهة فى نظر الأوربى ، لكنها تكفى

لتوفير جو من الرخاوة لذلك المصرى خالى البال ، فهو يتمتع بها وسط العطور وسحب الدخان والأبخرة المعطرة ، ويستطيع أن يوفرها لنفسه على الدوام ما دام الأمر يرتهن بمشيئته . فإذا ما أضفنا إلى ذلك المشهد مسرات ومباهج الحريم والموسيقى والغناء ، وكذلك حبه قول أو سماع الحكايات، ذلك الأمر الذى يستغرق جزءا كبيرا من سهرتهم، لتكونت لدينا فكرة شبه كاملة عن مباهج الحياة عند المصريين وعن ملذاتهم .

إن كل شىء فى هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوربيين . وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ، ومن صنع الأنظمة المدنية ، والمعتقدات الدينية كذلك . كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة ، فى الوقت الذى تتكفل فيه الحرارة الشديدة بتقليل نشاط القدرات الجسمية . ولنا أن نتساءل ، لماذا يكلف الفلاح نفسه كبير عناء – فى بلد كهذا ليست الملكية فيه سوى ضرب من الأوهام – كى يحسن من زراعاته ، إذا كانت جهوده تلك لن تؤدى بالضرورة إلا إلى إثراء مستغليه ، وإلى انتزاع مغارم جديدة منه ؟ إن المصرى يعرف حقيقة وضعه ، ويُسيِّر – نتيجة لذلك – أموره ، ويأتى الخوف مضيفاً أثره إلى فعل الطقس ، ليضعف من مقدرة جسمه ، بنفس القدر الذى تقيم به المعتقدات الدينية عقبة – لا يمكن اجتيازها – تحول دون تقدم وتطوير أرضه . وهكذا يظل الغنى ينتهب اللذات ، بينما يظل الفقير يروى بحبات عرقه أرضاخصبة معطاء ، لكنه لايستطيع أن يحصل منها إلا على ما يقيم أوده.

ومن جهة أخرى يمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء فريسة للاستبداد . وفى نفس الوقت فإن التجارة مزدهرة ، وليس ذلك لأنها تلقى تشجيعا من الحكومة ، ولكن لأن موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معينا لا ينضب. وهذه الحرفة هى المجال الوحيد الذى يمكن أن يعد المصرى بمستقبل زاهر ، فهى تقوده إلى الثروة فى بعض الأحيان ، وهى – فى هذا الصدد – الحسنة الوحيدة التى بقيت لهم، حيث إن صفتهم كمواطنين قد أغلقت أمامهم طرق المجد والمراكز

الكبرى فى وطنهم . انظروا إذن ، إلى أى حد تضاءل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة ؟. إن الكوارث التى تنال منهم اليوم سوف تظل تثقل عليهم ، طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم، ولسوف يظل المصرى عبدا، بائسا ، سلبيا، خاملا ، تدور به دوامات الشك دون أن يفكر فى وضعه المحزن . ولربما تكون بلادته تلك هبة من القدر ، إذ بفضلها لن يعذبه على الإطلاق ذلك الإحساس بالآلام والمخاطر التى تهدده بلا انقطاع.

وبرغم ذلك ، فإن للطبقات الشعبية تقاليد أقل تخنثا، فذلك الرجل البائس الذى يتوقف بقاؤه على قيد الحياة على عمله اليومى الدءوب ، نشيط بالضرورة لحد لا يمكن معه أن ينال منه التعب . ويتحمل الفلاح النيران التى تصبها عليه السماء الملتهبة لكى يبذر الأرض التى تمده بضرورات أسرته . وسوف يدهش الأوربى الذى سبق له أن رأى الأثرياء المصريين ممددين على أرائكهم فى رخاوة ، بل يمكن القول بأنهم يخشون من أن ينال منهم التعب لو أنهم أتوا بإشارة إلى خدمهم، سوف يدهش عندما يرى السايس أو خادم الاسطبل - أثناء تدريبات المماليك العسكرية - وهو يجرى أمام حصان سيده ، ويتابع كل حركاته لساعات طوال ، دون أن تبدو عليه أقل أمارات التبرم أو الضجر، فى الوقت الذى تلقى الشمس الملتهبة على جسمه العارى شواظى من رصاص . ويؤخذ هؤلاء الخدم من طبقة الفلاحين عادة .

وعندما يمتدح أحد الأوربيين لأحد سكان القاهرة مباهج التريض وجمال الأمكنة المخصصة لذلك فى أوربا ، فإن القاهرى يجد صعوبة كبيرة فى أن يتفهم كيف يمكن أن تكون هذه الممارسة المتعبة واحدة من مباهج الأثرياء . فالقاهرى عدو لكل حركة ، وهو يزحف بصعوبة من منزله إلى دكانه ، لذا فهو يذهب إلى هناك فى معظم الأحيان على ظهر الحصان أو الحمار . وكل شىء مجهول فى مصر إلا الحدائق ، فلكل المنازل التى تتمتع بمظهر حسن - إلى حد ما - قطعة

من الأرض صغيرة ، تزرع بالأشجار والخضروات ، لكن الأشجار تزرع بلا أدنى تنسيق ، كما أنها تزرع لمجرد الزينة . وفى بعض الأحيان يذهب رب البيت إلى هناك ليستنشق الهواء تحت ظلها ، لكنه هنا أيضا يتمدد فوق سجاجيد ومخدات ، كما أنه لا يتنزه فى طرقات حديقته ولا بين أدغال أشجار البرتقال ، كما ادعى ذلك عديد من الرحالة ، إذ ليس لهذه الحدائق طرقات ، كما أن أدغال البرتقال ليست منسقة بطريقة تحبذ النزهات . وباختصار فإن المصريين يزرعون هذه القطعة من الأرض بجوار منازلهم ؛ كى يحصلوا طيلة العام على أنواع متعددة من المزروعات ، وليس لكى يستمتعوا بمشهد الربيع الدائم .

ويتمتع الفلاحون عادة بصحة جيدة ، وملامحهم بشوشة، بحيث تتناقض مع ذلك الهوان الذى قُدِّر عليهم على الدوام أن يقاسوا منه . وهم عجاف أشداء ، وهم يستطيعون تحمل كافة المتاعب، فتراهم نائمين وقت الظهيرة فوق أرض ملتهبة ، وينامون على هذا النحو ساعات متوالية، معرضين للهب الشمس، وهو أمر يكفى لقتل الرجل الأوربى، لكن تلك هى قوة الاعتياد التى يتوافق الفلاح معها على الدوام . وهم لا يكادون يحسون بالعرق ، إذ لا تمتلك هذه الطبقة إلا قُوَّتها الجسدية، ولعلها وفيما عدا هذه الميزه أتعس طبقات مصر.

ولا يتمتع الأغنياء وسكان المدن بمثل هذه البنية القوية ، إذ يبدو عليهم منذ أعوامهم الأولى الضعف والتهدل ، فالأطفال من الجنسين شديدو النحول لحد كبير، وعندما تتقدم بهم السن فإنهم يحتفظون بهيئتهم التى كانوا عليها وهم صغار ، حتى ليظنهم المرء رجالا ممروضين ، وسوف نتحدث فى مكان آخر عن الأمراض الخطيرة التى تهددهم ، لكننا هنا سوف نكتفى بالحديث عن آلام الأسنان التى يبدو أن الإفراط فى الأكل هو السبب فى حدوثها ، إذ يتعرض الأغنياء من المصريين كثيرا لهذه الآلام ، حتى أنه من النادر أن نرى واحدا منهم سليم الفم بالرغم من كافة الاحتياطات التى يتخذونها ليحتفظوا بأسنانهم سليمة ،

فهم ينظفونها مرتين فى اليوم بنوع من مياه صابونية ، ولا يفوتهم أن يكرروا نفس الشيء بعد تناول أقل طعام .

ويبدو أن سوء بعض ما يتناولون من أطعمة هو السبب فى هذه الآلام ، حيث إن الفلاحين لايصابون مطلقا بأمراض الأسنان تلك . ومع ذلك فيستحيل علينا – على سبيل المثال – أن نتفق مع جان فيلد Jean Wiled على أن أسنان المصريين تالفة ، لأنهم يمصون بكثرة قصب السكر . فلو كان الأمر كذلك لكان سكان الريف أول من يهاجمهم هذا المرض ، كما أننا لا نستطيع كذلك أن ننسب هذه الأمراض بشكل مطلق إلى عادة شرب المشروبات الساخنة ، وبشكل أساسى : القهوة . ذلك أن آلام الأسنان كما لاحظ نيبور Niebuhr بحق فى كتاب Descrip-tion de L,Arabie قديمة جدا فى مصر ، وهى تسبق بوقت طويل اكتشاف البن، إذ يشير هيرودت – عندما يتحدث عن الأطباء – إلى فئة منهم مهمتها أساسا علاج الفم.

ويتميز المصريون باحترامهم لكبار السن، كما أن حب الأبناء هو أيضا واحد من فضائلهم الأساسية، وينظر الشبان لآبائهم بنوع من التقديس الدينى ، ولايجرؤون أن يدخنوا أمامهم على الإطلاق ، ولايسمحون لأنفسهم بتلك الميزة إلا بعد زواجهم ، وهنا فقط يعتبرون أنفسهم رجالا ، ومع ذلك يظل آباؤهم على الدوام أولى أمرهم، وموضع حبهم وعاطفتهم. وفى بلاد كهذه تدين بوجودها للنيل فإن كل شئ يرتبط بهذا النهر، وماتزال توجد حتى اليوم عادات كانت تحدث فى الأزمنة الماضية، فالمسلمون – على سبيل المثال – ينتظرون أولى بشائر الفيضان والاحتفالات التى يقوم بها الناس فى هذه المناسبة ، لكى يحتفلوا بأعراسهم ، ويستمر ذلك حتى حلول شهر رمضان، ومن النادر أن يتزوجوا قبل أو بعد هذه الفترة التى يبدو أن العادة هى التى حددتها .

وقد فرض محمد الوضوء لمرات عديدة فى اليوم، وأصبح هذا التقليد واحدا من الفرائض الأساسية لتلك الديانة التى أسسها هذا المشرع. ونحن لانستطيع أن نلومه فى هذا الخصوص ، حيث إن الوضوء فى كل البلدان الحارة ضرورى للنظافة ، بل إنه ضرورى للصحة . ويغسل المسلمون كل جسمهم كلما استطاعوا ، أو يكتفون بغسل أجزاء منه ، ومن هذه الأجزاء أعضاؤهم التناسلية ، ويستخدمون فى هذه العملية يدهم اليسرى ، أما اليمنى فتبقى لأمور أكثر نبلا . فهى التى توزع الطعام ، وتحيى أو تقدم للكبار أمارات الاحترام أو الخضوع بوضعها فوق الرأس.

والمساجد عبارة عن تجمعات شيطانية ، إذ يتجمع هناك أناس ينهمكون فى أمور تتعارض تماما مع قداسة المكان ، بل هم يندمجون أحيانا فى اهتمامات مجافية للذوق ، فهناك ترى خليطا من المتعبدين يؤدون الصلاة، وبؤساء يتفلّون ويقتلون ما بملابسهم وأجسامهم من قمل وبراغيث ، وعاطلين نائمين ، وحرفيين منهمكين فى ممارسة أعمالهم . وينظر لتلك الأمور بتسامح كبير، وليست مصر هى البلد الإسلامى الوحيد التى تُغتفر فيها - بحكم العادة - تلك العادات السيئة.

ويقدس المسلمون هناك عديدا من الأولياء الموتى، وهم لايعظمونهم إلا لكى ينالوا منهم الصحة لأنفسهم أو الخصوبة لزوجاتهم العقيمات، ويرون فى أوليائهم كذلك القدرة على إبطال مفعول الحسد والسحر المؤذى، ذلك أن الجهل والتعصب يحملانهم على أن ينسبوا لمجرد نظرة سريعة من العين ، الكثير من التأثير الضار على صحة المرء ، بل على حياتهم كلها. وجدير بالذكر أن اليهود - وهم ليسوا أقل تعصبا ولاتطيرا من العرب - يقدسون أحبارهم لنفس الغرض . وبخلاف ذلك ، يلجأ العامة لوسائل أخرى كثيرة - سنتحدث عنها فيما بعد - لكى يبعدوا العين «الردية» كما يقولون.

ويقوم المصريون بممارسة أخرى مضحكة ، تعود إلى ضعف نظامهم الروحى،

فيحرص المسلم منهم بعد أن يقص شعر رأسه أو لحيته على ألا يرمى بها فى الهواء، بل يطويها بعناية داخل ورقة ، ثم يضعها بحرص فى أحد الشقوق . ويتبع الشعب كله على وجه التقريب هذه العادة العجيبة.

وقد قام الجيش الفرنسي - بعد احتلال هذه البلاد - بإنشاء مستشفيات فى كل المدن الكبرى ، وكان بعض المسلمين يترددون على هذه المستشفيات للقيام بمهمة دفن الموتى . وقد لاحظنا أنهم يضعون جثث المسيحيين بطريقة عكسية تماما لتلك التى يضعون بها جثث المسلمين . وسألناهم ذات يوم عن السبب فى هذا التمييز ، فأجابونا بجدية تامة : « إننا نحن أتباع محمد الذين ينبغى لأرواحنا أن تصعد إلى السماء ، لذا فنحن نرقد جثث المسلمين على ظهورها ، أما أرواح الكفار فينبغى - على العكس من ذلك - أن تهبط ، إلى الأرض لذا فنحن نرقد جثثهم على بطونها، حتى نسهل من مهمة أرواحها ونقصر عليها المسافة » .

وللمماليك عادات ترجع إلى مزاجهم وتربيتهم ، فهم لايُشاهَدون مطلقا بدون سلاح، بل إنهم لايتوجهون إلى حفلة طعام دون أن يرتدوا كافة سلاحهم، ذلك أن الخيانات المستمرة فيما بينهم تفرض مثل هذا الحرص ، إذ كانت الموائد والاحتفالات الكبرى على الدوام هى المناسبة والوسيلة لتنفيذ عمليات الاغتيال أو الانتقام ، إنهم يتمسكون إذن بمناصبهم باحتياطهم ضد هذه المكائد . ومن جهة أخرى، فإن عادة أن يكون المرء مسلحا هى عادة شائعة بين الشرقيين، بل هى عندهم أمر من أمور الجاه والعز، ويشكل السلاح على نحو ما جزءا من ملابسهم ، وسوف يكون الأمر فى غير تمامه لو أن الحزام لم يكن مليئا بالطبنجات الفخيمة والخناجر الجميلة . وتتفق هذه الأداة القاتلة مع نوع الحياة التى يحيونها ، ومع ميولهم الجموح.

والمصريون بشكل طبيعى نحيلو الجسم ، وذوو أمزجة سوداوية ، ولانجد من بينهم رجالا ضخام الجسم وأقوياء إلا عند الأقباط أو المسيحيين الشرقيين .

وأكثر الناس حياء بين المصريين هم الأقباط، ولا يمكن للمرء أن يتصور إلى أى حد بلغ جبنهم وتخاذلهم، ومن السهل تفسير ذلك، فحالة العبودية التى انتهوا اليها منذ قرون كثيرة هى السبب الحقيقى لذلك .

وإذا كان صحيحا أن مصر القديمة هى التى أوحت للشاعر أروفيوس بالأفكار الأولى لهارمونيته الموسيقية ، فإن مصر الحديثة قد فشلت فى هذا المجال ، كمافشلت فى أمور أخرى . فالموسيقى فى هذا البلد ليست سوى نوع من الأنغام الغليظة والرفيعة ، تفرغ ضوضاءها المنفرة والمنافية للذوق السليم فى الآذان فتكاد تجرحها . ومع ذلك فإن لهذه الموسيقى المليئة بالعيوب - كما نرى - قدرة عجيبة على إدخال السعادة إلى الجنس اللطيف فى مصر، الذى يحتقر فى نفس الوقت وبشكل كبير موسيقانا الأوربية . وقد شاهدنا امرأة يغمى عليها من فرط الانتشاء وهى تستمع لصوت أجش لأحد المطربين العرب ، بينما كنا نحن الأجانب نعده صوتا عاجزا يبعث على التقزز . وهم يصحبون أغانيهم بآلة موسيقية أو آلتين حادتين ليس بينهما تناسق [١] . ومغنيات مصر المفضلات هن العوالم (عالمة) . وهن يشكلن واحدة من مباهج وملذات المصريين . ومع ذلك فإن صوت هؤلاء العوالم منفر وغير مقبول ، وينبغى أن تكون مصريا حتى تجد فى صوتهن بعض الطرب . وتنتسب هؤلاء السيدات عادة إلى الطبقات الشعبية ، وهن مشهورات بكونهن شاعرات مرتجلات .

---

(١) ينبغى أن نلاحظ أن الموسيقى العربية - بعيدا عن التونات وأنصاف التونات الموجودة فى سلمنا الكروماتيكى - تتمتع هى أيضا بأرباع التون . وهذه النغمة هى التى تأخذها أذن الأوربى كنغمات خاطئة . ولكن عندما تدرس الأغنية العربية بشكل أفضل فسوف نرى على الفور أن أرباع التونات هذه تشكل جزءا من السلم الموسيقى .انظر فى هذا الخصوص دراسة المسيو فيوتوVilloteau حول موسيقى المصريين المحدثين . وصف مصر، الدولة الحديثة، جـ ١، ص ٦٠٧ وما بعدها .
(الجزء الثامن من الترجمة العربية . المترجم) .

ومن الأشياء التى تلفت نظر الأوربى أكثر من غيرها عند عبوره شوارع القاهرة أن يرى بعض الشبان تغطى أجسامهم الهلاهيل والأتربة ، لكنهم يتجادلون فيما بينهم بكثير من الجدية والأهمية . وليس أكثر مثاراً للدهشة من أن ترى بعضا من العامة يتشاجرون، فهم يتبادلون السباب والصيحات العنيفة ، ويهدد بعضهم البعض ، بل يصل الأمر لحد أن يتلامسوا بالعصى ثم يتفرقون دون أن يصل بهم الأمر لأبعد من ذلك ، ومن النادر أن تصل مشاجراتهم لنتائج أكثر خطورة .

ونلاحظ فى المصانع المهارة التى يستخدم بها العمال إبهام قدمهم لإنجاز أعمالهم ، ولاتستطيع أيديهم بكثير من الجهد أن تجارى أقدامهم فى تنفيذ نفس الحركات بمثل هذه الدقة والسرعة.

ويمكن لنا أن نذكر تحت بند المهارة ، مهارة الحلاقين المصريين ، فلعلهم أبرع زملاء مهنتهم فى العالم كله ، ومع ذلك فأساليبهم تبعث على الضيق حين لايكون المرء متعودا عليها . وهم يتفوقون على وجه الخصوص فى حلاقة شعر الرأس بالموسى .

ويتمتع الشرقيون الذين يعملون بتجارة الفضة عامة بشهرة سيئة بخصوص أمانتهم واستقامتهم ، لكن هذا الاتهام ظالم ، ذلك أن الوزانين العموميين والصرافين والعاملين فى تبديل العملات مشهود لهم فى مصر – على العكس من ذلك – بالنزاهة والاستقامة ، ولعلنا لانجد مثالا واحدا على أن رجلا واحدا من العاملين فى هذه المهن قد اتهم بإساءة استغلال هذه المهام الدقيقة التى نيطت بهم. ويحوز الصرافون سمعة طيبة جدا فى مجال التجارة . ومع ذلك فمن الصحيح أن لديهم وسائل مشروعة كثيرة يصلون بواسطتها إلى تكوين ثروة كبيرة دونما حاجة منهم إلى الغش . وهم يستطيعون أن يتركوا عملهم هذا فى بضع سنوات ، أو يستمرون فيه حسب مزاجهم ، ذلك أن هذا الوقت القصير يكفى عادة لكى يجعل منهم أناسا بالغى الثراء .

٨

عن الأمراض الرئيسية

فى ظل وجود حرارة متساوية الدرجة – على وجه التقريب – طيلة العام، وفى ظل سماء صافية تغسل الموجودات والأشياء كل صباح بما تكونه من الطل والندى ، فإن مصر لا تتعرض إلا لعدد قليل من الأمراض، ومع ذلك فهذه الأمراض على قلتها قاتلة فى معظمها لحد يثير الفزع . ومما لاجدال فيه أن نضع على رأس قائمة هذه الأمراض : الطاعون، هذا الوباء ، الكارثة ، الذى استطاع – بسبب النشاط الذى لم يمكن إدراكه حتى الآن للجسيمات الحاملة له – أن يفلت إلى اليوم من بحوث علم الطب . ويندلع الطاعون فى مصر على فترات تتقارب أو تتباعد، ويمكن القول بأنه نادرا ما ينقطع فى القاهرة والأسكندرية بصفة خاصة . فبعد أن ينكمش المرض بفعل الحرارة الشديدة أو برودة الشتاء القارسة ، فإنه يعود ليتولد من جديد ، وتعود إليه قواه المُهْلِكة ، فى الفصل الذى تميل الحرارة فيه إلى الاعتدال . وفى بعض الأحيان يكون المرض طارئا وعارضا، وعندئذ يكون قليل الخطورة ، ويختفى فجأة بعد مدة قصيرة ، ليعاود الظهور من جديد بعد بضعة أشهر. ويبدو تواكل المسلمين وعدم حيطتهم وسذاجتهم الروحية ، باعتبارها الأسباب الرئيسية لبقاء هذه الكوارث . فهؤلاء فى الواقع، يتصورون – متمثلين بما ورد فى بعض نصوص القرآن – أن ليس ثمة ما يحدث دون إرادة من الخالق ، وأن ليس ثمة ما يمكنه أن يرد قضاءه ومشيئته التى لا محيص عنها ، لذا ينظرون إلى الاحتياطات التى تم اللجوء إليها لمنع انتشار الطاعون كأمور لا جدوى منها ، إذ إنهم لن يصابوا مطلقا بأذى إذا كان مقدرا لهم أن يعيشوا ، كما أن شيئا لا يمكن له أن يحميهم إذا ما كانت مشيئة الله قد أرادت لهم أن يموتوا .

ويتذكر سكان القاهرة بفزع نوبة الطاعون التى حلت أيام على بك ، وتلك التى حلت أيام إسماعيل بك ، ولقد أدت النوبة الأخيرة على وجه الخصوص – وهى التى

اندلعت فى ربيع ۱۷۹۱ – إلى حدوث فظائع كبرى ، فقد كانت تحصد الألوف فى كل يوم، وكان إسماعيل بك وكبار المماليك من بيته من أوائل ضحاياها . وقد كلفت هذه النوبة مدينة القاهرة ثلث سكانها .

ولسنا هنا بصدد الدخول فى تفاصيل حول مرض الطاعون، فلسوف تذهب بنا الظنون مذاهب شتى حول تحديد أسبابه ، دون أن نتمكن بطريقة كافية من أن نحدد طبيعة العوامل المتسببة فى حدوثه . ذلك أننا لا نريد أن نضاعف من حجم عدد الافتراضات التى قدمت والتى سوف تقدم فى هذا الخصوص ، فالطاعون ينتقل بفعل الاحتكاك والتلامس ، فإذا ما استطاع المرء أن ينعزل تماما وأن يمتنع عن ملامسة جسم مريض أو استنشاق هواء تنفسه ، فبإمكانه أن يتأكد أنه سوف يفلت منه . ويعتقدون هناك فى الشرق أن المرض يمكن أن ينتقل أيضا عن طريق حاسة الشم، وأن الزهور تتشرب بسهولة الأبخرة العفنة الناقلة للطاعون (١) .

وبرغم أن الدوسنتاريا أقل بشاعة من الطاعون بكثير ، فإن آثارها فى مصر ليست أقل تدميرا ، وذلك بسبب أطعمة المصريين الرديئة ، وبسبب استعداد أجسامهم وبنيتهم الضعيفة ، ويسبّب لهم هذا المرض دمارا مروعا، وهو يهاجم أطفالهم على وجه الخصوص ، ويحصدهم بطريقة تبعث على الرعب .

وفى نفس الوقت فقد قدر على المصريين المحاطين بالصحراوات من كل جانب، حيث تنتشر رمالها الناعمة والحادة بفعل الريح ، وحيث يتعرضون هناك لتقلبات مفاجئة فى درجات الحرارة ولرخات الطل المتزايدة – قدر عليهم أن

---

(١) أظهر السيدان ديجينت ولارى des Genettes & Larry كبيرا أطباء الجيش أثناء مدة الحملة، شجاعة تعلو على كل مديح حتى يتعرفا على العوامل المسببة لهذا المرض ، و قد أمكنهما أن يجمعا – مخاطرين بذلك بحياتهما – عددا كبيرا من الملاحظات القيمة عن أساليب العلاج الواجب اتباعها . ويتذكر كل رجال الجيش الذين لا يزالون على قيد الحياة – بكل الأسى – تضحيتهما الكريمة. انظر مؤلفاتهما وانظر كذلك مقالة السيد الدكتور سافارسى Savaresy عن الطاعون الذى ضمها إلى مذكراته، وكذلك مقالة المسيو أسالينى Assalini .

يتعرضوا لأمراض العيون منذ زمان ضارب فى القدم . وهذا ما يؤكده هيرودت حين يشير - من بين الأطباء - إلى أولئك الذين يعملون منهم فى علاج أمراض العيون . وليس الرمد اليوم منتشرا بأقل مما كان عليه فى الماضى ، بل لعل انتشاره قد ازداد بسبب إهمال الشعب وعدم حيطته ، إذ ينام الناس فى الهواء الطلق ، مما يساعد الرطوبة و برودة الجو على تكوين التقيحات ، التى تسبق علل العيون أو فقدان البصر.

ولم يكن بمقدور جنودنا أن يفلتوا من هذا المرض ، وقد ظنوه فى البداية معديا . ولم يكن التجار الأجانب ليفلتوا بدورهم منه ، حتى ليبدو وكأن المرض يفضل سكنى عيونهم ، ومع ذلك فهو لا يستثنى المواطنين، فمن بين كل خمسة أشخاص ، ثمة واحد يضع عصابة على عينيه .

أما الجدرى الذى كان بشعا فى بلادنا منذ زمن طويل ، فإنه يواصل تدميره فى الشرق حيث يهيئ له التعصب والخرافات - كما فى حالة الطاعون - عمرا طويلا[1] . وهو مرض بشع فى مصر ، ويظهر هناك بشكل مفزع ، وبدرجة أشد خطورة مما كان يحدث فى أوربا . ونادرا ما يفلت الأطفال فى سن مبكرة من مخاطره وخبثه ، وإذا ما كان بعض البالغين أو الرجال الناضجين يشفون منه فإنه يترك على كل أجسامهم ندوبا عميقة . وهو ينتشر فى فترة معينة من العام شأنه فى ذلك شأن الطاعون[2] ، لكن ما يجعله أبلغ ضررا منه فى أى مكان آخر ، أن الأمراض التناسلية لا تشفى هناك بشكل جذرى ، لذا ينتقل ميكروبها البالغ النشاط من جيل لجيل ، ويصيب الشعب كله وينتقل إلى دم الأطفال مع لبن الرضاعة . وعندما يأتى الجدرى بعد ذلك ليهاجم هذه الكائنات الضعيفة التى أتلفت فيها بالفعل منابع الحياة نفسها، فلابد أن نستنتج بسهولة أنه سيكون من

---

(١) يعتقد كثير من الأطباء أن مرض الجدرى قد نشأ أصلا فى مصر .

(٢) انظر ما كتبه المسيو جومار Jomard فى دراسته عن المقارنة بين سكان مصر الحديثة وسكانها القدامى .

الصعب على هؤلاء الأطفال الضعاف أن يقاوموا شدة هذا المرض ، لذا كانت هذه النسبة الكبيرة من الوفيات بين الأطفال فى القاهرة وبقية المدن .

ومن الأمراض الشائعة فى مصر كذلك الفتاق والدمامل . وكان يمكن أن تصبح هذه الأمراض أكثر انتشارا لو لم تكن تلك الحيطة الحكيمة من جانب الفلاحين ، إذ يضغطون أسفل البطن بواسطة حزام جلدى عريض . وتهاجم هذه الأمراض العارضة الحيوان كما تهاجم الإنسان . لكن الإنسان لا يلقى لها فى البداية الاهتمام الكافى ، ومن ثم يزيد المرض خطورة ، ويصبح فى شكل تقيحات تستعصى على الشفاء ، ولما يكن المريض قد شرع بعد فى العلاج . وهكذا شأن القوم مع الأمراض الأخرى ، فالرقى والأدعيات الدينية هى العلاج الناجح لكل الأمراض عند عامة الشعب . أما عيادات الطب الشعبى التى أنشئت فى المدن فهى تغتال حياة من يسلم إليها نفسه طائعا مختارا من الأغنياء ، وفى الوقت نفسه فإن الخرافة تعمل من تلقاء نفسها كعلاج ناجع غريب لهذا البلد ، الذى تُسيّر أموره المعتقدات المسبقة والجهل والتعصب .

وتشكل كل الظروف التى رصدناها فى الأجزاء : ١، ٣، ٨ العناصر التى عملت على تشكيل أو تعديل تقاليد المصريين وعاداتهم، ويعود بعض هذه الظروف إلى كل العصور ، حيث إنها ترتبط بالطقس وبالبنية الطبيعية لمصر ، أما بعضها الآخر فهو ثمرة الديانة المسيطرة ، والأنظمة المستقرة ، والقوانين التى تحكم البلاد بمقتضاها . وينبغى علينا كى نُكَوّن فكرة دقيقة عن بقية الأسباب التى تؤثر – بطريقة مباشرة أو غير مباشرة – على تقاليد الإقليم ، أن ننفذ إلى كل الوقائع، وهذا ما سوف نفعله فى الفصول القادمة .

الفصل الثانى

عن الإنسان المصرى فى سنوات عمره الأولى
الطفولة والتربية - الفنون والعلوم والآداب

١

عن خصوبة المرأة ونظام الرضاعة

قد لا يكون خارجا عن موضوعنا - قبل أن نتحدث عن خصوبة النساء فى مصر - أن نخوض فى بعض التفاصيل حول حياة المرأة المنزلية ، وحول المكانة التى تشغلها فى المجتمع . فملاحظات من هذا النوع ترتبط بالموضوع بشكل أساسى . وإذا كانت المرأة لا تُحْدث عند الشعوب الشرقية إلا تأثيرا بالغ الضآلة على الرجل ، بالمقارنة بما يحدث عندنا فى أوربا ، فإن الأطفال فى سنى عمرهم الأولى برغم ذلك يخضعون لتأثيرها ، ولا يمكن أن يكون أمر كهذا - بالنسبة للدارس الواعى - إلا واحدا من العوامل التى تؤثر فى تقاليد الأمم ، إذ لا يمكن أن يكون مثل هذا الأمر خاليا من التأثير، حتى وإن عُدّ من قبيل الأسباب غير المباشرة .

وتقيم الطبقة والثروة بين نساء مصر اختلافات وفروقا أكبر بكثير من تلك التى تحدث عند شعوب الغرب ، لكن هذه الفروق لا تتضح فى مجال التربية التى يتلقينها فى طفولتهن - وهى تكاد تكون معدومة بالنسبة لجنسهن كله - بقدر ما تتضح فى مجال العادات التى تنتشر فى أوساطهن كنساء ، وفيما تحاط به السيدات من علية القوم من احتفال وامتياز . ومن هذه الناحية ، يمكن لنا القول بأنه لا توجد فى مصر إلا طبقتان من السيدات : طبقة ترفل فى الثراء ، ويؤدى الغنى إلى رخاوة نسائها ؛ فيقضين حياتهن بأكملها داخل مباهج ومسرات الحريم، وطبقة أخرى قدرت على نسائها حياة نشيطة مليئة بالعمل . ولكى يتضح لك الفرق ، فما عليك إلا أن تنظر إلى واحدة من زوجات البكوات ، وأن تدرس أذواقها وسلوكها ومباهجها وملذاتها واهتماماتها اليومية ، فهذا كفيل بأن يقدم لك فكرة كاملة عن كل السيدات الثريات . ثم عليك بعد ذلك أن تنفذ إلى ما تحت سقف واحد من الحرفيين ، أو إلى داخل كوخ أحد الفلاحين ، وسوف ترى أن الظروف المتشابهة التى تحياها كل هؤلاء النسوة هى التى تحدد لهن ملابسهن ...

وهكذا يمكنك أن ترى كل مباهج الرخاوة وترفها فى جانب ، وفى جانب آخر سوف ترى كل خشونة العمل ومقتضياته .

وبرغم ذلك كله فثمة ذلك الذوق الفطرى عند كل النساء الذى يبدو وكأنه يعمل على التقريب بينهن فى مختلف ظروفهن، ذلك أن هذا الذوق يتعلق بالمرأة كامرأة بعيدا عن الطبقة التى تنتمى إليها، ويمكن القول بأن هذه هى نقطة الالتقاء الوحيدة التى تربط بين النساء على اختلاف طبقاتهن ، ونعنى بذلك حب التأنق والتزين بالحلى . فكثير من السيدات فى مصر يلبسن من تلك الحلى ما يفوق كل ثروة أزواجهن، وليس من النادر أن نرى هناك زوجة لحرفى بسيط تتزين بمجوهرات ثمينة ، لو أن أتيح لواحدة من ثريات النساء فى أوربا أن ترتديها لأدركتها كل أمارات الزهو والخيلاء، ومع ذلك فقد تكون زوجة هذا الحرفى ممن يعانين فى الحصول على قوت يومها . وهذا الكلف من ناحية السيدات المصريات بهذا النوع من الزينة يرتبط بطريقة إحساس هؤلاء السيدات بكرامتهن ، حتى أن أبسط تاجر لا بد أن يوفره لزوجته إرضاء لها ، ويؤدى ذلك فى النهاية وبدرجة لم تكن متوقعة إلى تضييق ممارسة تعدد الزوجات ، لذا يكتفى المسلم المتواضع الثراء بزوجة واحدة أو اثنتين ، ولن يكون بمقدوره أن يزيد عن ذلك وإلا سوف يصعب عليه أن يساوى بينهن . وهكذا ، فقد وضع خيلاء النساء وغرورهن حدودا لإفراط الرجال وشهواتهم .

ولقد سبق أن تحدثنا عن حياة سيدات الحريم، وكيف أنها فارغة ورتيبة، وكيف أن الواحدة منهن تقضى يومها راقدة فوق فراشها أو مُقْعية على وسائد رخوة ، تحيط بها جمهرة من الإماء شديدات الانتباه ، لحد يتنبأن معه بما قد يجول فى إرادتها حتى يوفرن عليها حركة الإشارة من أصبعها، لذا فإن مثل هذه السيدة تكتسب فى وقت قصير سمنة غير مستحبة، لكن الأتراك يعتبرون هذه السمنة واحدة من أهم شروط الجمال . ومع ذلك فلعل هذا الميل منهم يعود إلى أن كل النساء هناك فى العادة سمينات ، وهذا طبيعى بالنسبة لنساء يتلقين هذا

النوع من النشأة المرفهة . وفضلا عن ذلك فلون بشرة هؤلاء السيدات ناصع البياض، وعيون غالبيتهن آية فى الجمال ، وملامحهن على وجه العموم متناسقة . لكن جمود ملامحهن قد جعل وجوههن خالية من كل تعبير، كما أن سكونهن يشى برخاوتهن ، وعقلهن فضلا عن ذلك خال من أية معرفة . ونساء هذه الطبقة يلجأن إلى وسائل - تبدو لنا بالغة الغرابة - كى يضفين رونقا على جمالهن و يقاومن آثار الزمن وفعل الطبيعة ؛ فحيث إنهن يرون فى كثافة الحواجب أمرا شائها فإنهن يستخدمن الموسى لكى يصبح هذا الحاجب الكث مجرد خيط رفيع فوق الجفون . وهن يعرفن كذلك المساحيق الأوربية فى التزين . وتلجأ الشابات المسيحيات ، وكذا الروميات اللائى يطمحن أن يحصلن قبل الأوان على كل جاذبية المراهقة - إلى وضع ضمادات من لباب الخبز الساخن بين النهدين ، وتحدث هذه العملية بالفعل أثرها . ولكن فلأن الثديين قد نضجا بسرعة وقبل الأوان فإنهما فى نفس الوقت يفقدان من مرونتهما ؛ ولعلنا نستطيع أن نجد فى ممارسة هذه الطريقة الغريبة سر السرعة التى يذبل بها جمال المرأة الشرقية . وهكذا فنساء مصر كما رأينا لسن أقل من مثيلاتهن الأوربيات غيرة على سطوة جمالهن ، وذلك بالرغم من أنه ليس أمامهن من فرص لاستعراض جمالهن هذا إلا أمام أزواجهن أو أترابهن ، فهذا النوع من الانتصار يرضى كرامتهن بشدة .

وفى الطبقة الدنيا يتغير كل شئ ، فالنساء مهمومات بأمور البيت ، أما مباهج البطالة فلم تخلق لهن . فهاهن فى الحقول يقتسمن مع أزواجهن العمل ، أو يساهمن على الأقل فى جعل العمل على أزواجهن أقل مشقة، لذا تراهن يتمتعن بكل الخصائص الجسدية التى تنتج عن مثل هذا العمل المنتظم ، فأجسامهن قوية، عارية من الشحوم ، وحركاتهن سهلة ، وخطوهن ميسور ، فى حين أن خطوات السيدات الميسورات ثقيلة متعثرة . وعلى الرغم من بساطة ملابسهن فإن لديهن الرغبة فى أن يتميزن وسط رفيقاتهن ، وذلك بالتزين ببعض الحلى المتواضعة ؛ فيحطن أصابعهن بخواتم عريضة كما يفعل السايس ، ويزين خصلات شعرهن ببعض قطع من النقود .

ويقـيم فى القـاهـرة وبولاق عـديد من الأسـر من أصل سـورى، ونسـاء هذه الأسرات فى العادة جميلات وقامتهن مديدة وعيونهن سوداء واسعة بها شئ من الإغراء، لكن أنفهن الأقنى والطويل بعض الشئ ربما يعطى لشكلهن ملمحا من شموخ واضح، ومع ذلك فهن يبدون بهذا المظهر المتعجرف فى مواجهة السيدات التركيات اللاتى يماثلنهن فى الزى والعادات .

وثمة عادة شائعة بين النساء – مسلمات ومسيحيات – وهى أن يُسوِّدن حافة جفونهن بالكحل ويُحمِّرن أظافرهن بالحناء ، ويلاحظ المرء كيف يمكن لهذا اللون القاتم أن يضفى شيئا من الغلظة على الوجه ، لكننا برغم ذلك لا نستطيع أن نصدر حكما قاطعا فى هذا الصدد إلا إذا رأيناهن عن قرب ، وفى ظروف حميمة وليس فى ظروف طارئة تأتى لتجعل مثل هذا الفضول ممكن التحقق . ذلك أن النساء فى كل الظروف لا يخرجن مطلقا سافرات الوجوه، بل يغطين وجوههن بالبرقع ، وهو غطاء مكون من قطعة من الموسلين ، توضع فوق الأنف والوجه ، وتضايق التنفس ، ولا بد أنه يسبب لهن الكثير من الضيق ، وزيادة على ذلك ، تغطى جبهة المتزوجات منهن بعصابة من قماش أسود ، تترك بين البرقع والجبهة فراغا ضيقا تستطيع العين أن ترى من خلاله ، أما أولئك اللائى لم يتزوجن بعد فيحملن على جباههن عصابة بيضاء ، أما لون البرقع فهو نفس اللون بالنسبة لهؤلاء ولأولئك .

ولا يدخل الرجال مطلقا – فيماعدا بعض الأهل الأقربين – إلى مسكن السيدات ، ونادرا ما يأكل الزوج معهن ، ويخصص لهن الجزء العلوى من المنزل ، وهذه عادة شائعة عند الأتراك وعند كل الأمم الإسلامية .

وعندما كان يتاح لأحد الأجانب – قبل قدوم الحملة الفرنسية – شرف أن يمثل فى حضرة زوجة أحد البكوات ، أو زوجة إحدى الشخصيات الكبيرة ، فإن هذه الزوجة لم تكن لتستقبله فى حجرتها ، بل فى حجرة طواشيها أول ، لكنها لا تظهر لناظره . وتأمر بتقديم القهوة والشربات إلى ضيفها . وتظل تتحادث مع هذا

الغريب عن طريق طواشيها دون أن تخرج مطلقا من خدرها . وهكذا لم يستطع الرحالة - السابقون على الغزو - أن يتعرفوا على أحوال سيدات الطبقة المسيطرة ، وذهبت أدراج الرياح كل توسلاتهم اللحوح . فلم يكن عظماء مصر ليسمحوا لأحد بأن يتطلع إلى جمال زوجاتهم ؛ ومع ذلك فقد كانوا يستطيعون أن يوفقوا على الدوام بين واجبات ومقتضيات اللياقة وبين تقاليد بلادهم . وتتزوج النساء - كما سبق لنا القول - في سن الثانية عشرة ، ومن النادر أن تبقى واحدة منهن بلا زواج حتى سن السابعة عشرة، بل يحدث أن يدعى أنهن قد نضجن في سن العاشرة أو الحادية عشرة . ومع ذلك فلعل هذا الأمر أقل انتشارا ، رغم أن ثمة أمثلة عديدة في هذا المجال لا تدع مجالا للشك فيما نقول ، فقد حدث أن تزوجت شابات قد نضجن قبل الأوان وهن بعد في سن التاسعة أو العاشرة ، إلا أن مشورة السيدات لازمة في هذه الحالة ، ولم يكن زواج مثل هذا ليتم إلا بعد أن تعلن النسوة أن الزوجة الشابة قد بلغت مرحلة النضوج .

ويمكن للزوجة المصرية أن تصبح أما في سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشرة ، وتظل في سنواتها المقبلة تقدم الأدلة على خصوبتها المذهلة ، ومن الممكن لها أن تصبح أما مرة كل تسعة أشهر ، ولكننا نستطيع القول - لكي نقدم نسبة دقيقة - بأن كل مصرية تتزوج تنجب طفلا كل ثلاثة أعوام . ويقيم ذلك التقدير نوعا من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتي يمرضن ، أو أولئك اللاتي يتميزن بخصوبة قليلة ، أو اللاتي تجعلهن بعض الأسباب الخاصة عاجزات عن الإنجاب . والعقم التام شديد الندرة في هذه البلاد، بل إنه يعد بمثابة عار للمرأة ، لذا تلجأ السيدة العقيم إلى كل الوسائل التي تفرضها معتقدات النساء وخرافاتهن لكي تستطيع الإنجاب . ويقوم الدجالون والمحتالون من أهل البلاد أو من الغرباء باستغلال هذا النوع من النساء ، فيقدمون إليهن - بأثمان كبيرة - أشياء يقال إنها لا تخيب مطلقا ، لكن الطبيعة والطقس يعملان عملهما فيساعدان بذلك هذه الأشياء - الوهم - التي يمكن القول بأنها عديمة الجدوى على الدوام .

لكن السيدات فى نفس الوقت لا يبقين خصيبات لسن متأخرة كما يحدث فى أوربا، فما أن يقتربن من سن الثلاثين حتى تؤدى نوبات الحمل المتكررة إلى جعل الولادة عسيرة ، مما قد يكلف الطفل - الذى كن سيتباهين به - حياته . وسن الخامسة والثلاثين هى السن الطبيعية التى يتوقف عندها معظم السيدات عن الإنجاب ، ويظل بعضهن يتمتعن بنعمة أن يكن أمهات حتى سن الأربعين ، لكن تلك حالة شاذة ونادرة الحدوث . ومن غير المألوف أن ترى سيدة تنجب بعد هذه السن، وتكون هذه فترة مزعجة بالنسبة للسيدات المصريات، إذ يشعرن فى هذا الوقت ببعض الاضطرابات والتقلبات التى تؤدى صحتهن، لكن السيدة التى تفلت من هذه الأزمة يمتد بها العمر فى بعض الأحيان لسن متقدمة جدا .

وتتم الولادة عن طريق القابلات، وهى على الدوام حوادث سعيدة بسبب تلك الحياة الرخوة الهادئة التى تحياها المصريات . وعندما لا تستطيع امرأة - بعد أن تكون قد استنفدت كل الوسائل التى يتيحها لها طب الركة العاجز - أن تتمتع بسعادتها فى أن تكون أما ، أو أن تحتفظ بالأبناء الذين أتت بهم إلى هذاالعالم، فإن التبنى يعوضها عن ذلك الحرمان الذى فرضته عليها الطبيعة، ولا يمكن لك أن تسمع مطلقا من يقول بأن تلك السيدة عقيم أو أن ذلك الرجل عاجز . ويقوم الموت بحصد أطفال العائلات الأجنبية على وجه الخصوص، فالمماليك واليونانيون الآسيويون والعثمانيون والأوربيون وكافة أبناء الأجناس التى لا تنتمى لهذا الوطن يموتون فى العادة دون ذرية تخلفهم ، وذلك إذا ما تناسلوا فيما بينهم . أما عندما يتزوجون من سيدات هذا البلد فإن بمقدورهم أن يتمتعوا عندئذ بمباهج الأبوة ، دون أن يستطيعوا مع ذلك أن يتطلعوا إلى أن ينالوا نعمة أن يتركوا بعدهم ذرية كبيرة العدد .

ولا يصبح للمرأة المصرية من شاغل - وقد أصبحت أما - إلا أن تعنى بطفلها، فتضع فيه كل اهتمامها وتركزحوله عواطفها ، ولا تستطيع أقوى الشدائد أن تدفعها لكى تتخلص من هذا العبء الذى تظل فخورة به طيلة تسعة أشهر، بل

إن طفلها المرتقب ينسيها آلام الوضع، فهذاالكائن الضعيف والعزيز هو تعويض لها عن آلامها الطويلة . وكم هو جميل بالنسبة لها أن تقوم بواجبات الطبيعة ! إنها لن تسلم مطلقا هذا الطفل - الذى يدين لها بوجوده - لعناية سيدة أخرى غريبة عنه ، فهى شديدة الفهم لملاطفاته الأولى، وهى كذلك تطعمه من لبنها ، ولا تخشى مطلقا ما يعدها به هذا المولود الجديد من متاعب، فلقد قررت أن تتحمل ذلك بسرور ، ولسوف تتحمل فى شجاعة أية مخاطر كبرى قد تتهددها . لكنها لا يمكن أن تسمح له مطلقا بأن يخلع على أخرى ببساطة ذلك الاسم الذى يصنع لهاسعادتها ومجدها، اسم "الأم" الذى تغار عليه وتفخر به ، لذلك لا تعرف فى مصر هذه الأمراض التى تثير أحزان الأمهات الشابات اللاتى يمتنعن عن إرضاع أطفالهن . أما عمليات سكب لبن صدر الأم وغيرها من الأمور التى تضعف صحة الأمهات فسوءات لا يعرفها الشرق ؛ فكل امرأة هناك هى مرضعة أسرتها ، أما إذا ما شاءت الطبيعة ألا تهيئ الكمية الكافية من اللبن لإرضاع مولودها الجديد فإنها ستطلب معونة سيدة أخرى ، لكن هذه المرضعة لن تعد مطلقا غريبة عن الأسرة ، إذ يمكن القول بأن صفتها كمرضعة سوف تنسبها إلى هذه الأسرة ، وسوف تمنحها حقوقا أبدية فى عواطف الأبوين وفى عواطف الرضع . وهكذا يبدو أن العناية الإلهية تقيم نوعامن التعويض بين المزايا التى توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصرى الذى ليست له نفس مباهجنا وملذاتنا أو نفس ميزاتنا الجسدية أو الروحية التى تبعده عن أسرته، يعرف أكثر منا معنى العواطف الطبيعية، فأطفاله هم كل شئ فى حياته ، وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله ، ولربما كانت أحاسيسه أكثر تبلدا وأقل تنوعا، لكنها أكثر نفاذا وأكثر حقيقة . وهو يدين بذلك إلى براءة عاداته وكذا إلى بساطة تقاليده ، لقد وجدها كامنة فى نفسه وفى ثنايا أسرته ، فليس ثمة من المرارة والندم العائلى ما يسمم مباهجه .

وتولى النساء المسلمات أطفالهن اهتمامات دقيقة ، كثيرا ما تأتى بعكس المرجو منها بالنسبة لهؤلاء الأطفال ؛ فهن يسرفن فى تغطيتهم بالملابس الثقيلة ،

ويؤذين معدتهم بأطعمة غير صحية . فيسرفن – على سبيل المثال – فى تقديم السكريات والفاكهة من كل نوع لهم ، وتكون النتيجة أن يهلك عدد كبير من هؤلاء الأطفال فى سن مبكرة ، ويأتى الجدرى ليساهم فى الارتفاع بنسبة الوفيات بينهم كما سبق لنا القول . ففى القاهرة – على وجه الخصوص – يتسبب الجدرى فى حدوث أضرار هائلة، إذ يهاجم الأطفال من الجنسين ولما تكن أعمارهم قد تجاوزت السنتين أو الثلاث، ولا يمكن لمثل هذه الأجسام الضعيفة التى أتلفت الأطعمة الضارة بنيتها أن تقاوم بسهولة عنف المرض . وهكذا يمكن القول بأن هذا الشعب يدين بوجوده لخصوبة نسائه ، بينما يصعب على الأجناس الأخرى أن تستمر على قيد الحياة فى هذه البلاد، وسوف نقدم الدليل على ذلك فى الجدول الآتى عن حالة أهم الأسر المملوكية :

إسماعيل بك : لم يترك إلا بنتا واحدة .

إبراهيم بك : له طفلان على قيد الحياة .

قاضى أغا : أنجب أحد عشر طفلا، بقى منهم أربعة على قيد الحياة .

مراد بك، أيوب بك الصغير وأيوب بك الكبير، الألفى بك، محمد بك المنفوخ، عثمان بك تباس ، عثمان بك الشرقاوى ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسى ، عثمان بك الطمبورجى ، حسن بك الجداوى ، صالح بك، إبراهيم بك الوالى ، محمد بك العبدولى ... كل هؤلاء بلا أطفال .

محروق بك بن إبراهيم بك : له طفلة واحدة على قيد الحياة .

على بك الكخيا : له طفلة واحدة على قيد الحياة ، وكذلك سليمان بك .

أحمد بك الكرارجى :لم ينجب أطفالا على الإطلاق ، ونفس الشئ بالنسبة لعثمان بك حسن ، وكذلك سليم بك أبو دياب ، وقاسم بك .

حسن الكاشف الشركسى : لم يخلف سوى طفل أعمى.

محمد أغا : أنجب اثنين وعشرين طفلا لم يبق منهم على قيد الحياة سوى طفل واحد ضعيف البنية.

ومن هذا نرى كيف كان عدد أطفال المماليك الذين يبقون على قيد الحياة ضئيلا ، ويمكننا من جهة أخرى أن نعد أسرا أجنبية أخرى كثيرة لم تكن بأسعد حظا من ذلك ، وهذا دليل على أن الوطنيين وحدهم فى مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل ، ويبدو أن طبيعة المناخ تلفظ بعناد بذور الأجناس الغريبة.

وقد خصص محمد نصا عن الواجبات التى ينبغى على الأمهات القيام بها تجاه أطفالهن. يقول المشرع العربى :

«والوالدات يُرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لاتكلف نفس إلا وسعها لاتضار والدة بولدها ولامولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلاجناح عليكم إذا سلمتم ماآتيتم بالمعروف» * لكن السماح البادى فى هذا النص يظل بالنسبة للزوجات المصريات غير مطروق ؛ إذ إن لهن صالحا مزدوجا فى أن يقمن بأنفسهن بالعناية التى يتطلبها أطفالهن ، فهن مدفوعات لذلك بدافع من الحب الأموى أولا ، وهن مدفوعات لذلك ثانيا بفعل احتياجهن لأن يجدن لأنفسهن اهتمامات وأعمالا تقطع الرتابة المعتادة فى حياتهن . ويتفق ذلك مع كثير من أساليبهن فى السلوك، فهؤلاء السيدات اللائى تخلو رؤوسهن من أية معرفة واللاتى لايعرفن عادة اللجوء إلى الكتب لملء فراغهن ، يتمسكن- بفرحة طاغية – بأية وسيلة يمكن لها أن تزجى بعض هذا الفراغ. من هنا فإن ممارسة واجبات الأمومة الشاقة بالنسبة لهن نوع من دفع الملل، وإذا ماحدث أن حملن ثانية أثناء الرضاعة – وهذا أمر مألوف –

(*) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٣٣ . (المترجم) .

فإنهن يستمررن فى إرضاع الطفل حتى الشهر السابع أو الثامن من الحمل حيث يكون اللبن قد تناقص، وعندئذ يتخذن لطفلهن مرضعة.

ويتصرف البدو بطريقة جد مختلفة، إذ لاتقوم الأمهات عندهم برضاعة أطفالهن ، حيث يرفض الآباء ذلك بحجة أنهن يسرفن فى تدليل الأطفال، لذا يعهدون بالأمر إلى مرضعات.

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن العناية الفائقة التى توليها النساء المصريات المقيمات فى المدن لأطفالهن منذ نعومة أظفارهم ، وهى عناية تضر على الدوام بصحة أطفالهن، ولكن زوجات الفلاحين– على العكس من ذلك – يكتفين بلف أطفالهن بقطعة من قماش خفيف ، ويحملنهم معهن ، ويسمحن لهم بالزحف شبه عراة على الأرض . وينتج عن هذه النشأة أن يتعلم أطفال الفلاحين المشى فى سن مبكرة، كما أنهم يكتسبون قواهم بسرعة ، وفجأة بعد قليل يصبحون نافعين لآبائهم . وعادة ارتداء السروال الشائعة فى أوربا مجهولة تماما فى مصر ، وكذا فى كل بلدان الشرق ؛ لذلك فنادرا مانرى رجالا متصنعين يجدون حرجا من الاستجابة لقضاء ضرورات الجسم.

والأب فى مصر هو الذى يقوم بتسمية طفله، ويقوم – لهذا الغرض – بجمع أصدقائه وأقاربه فى اليوم السابع للولادة . وعادة ما يختار لطفله اسم جده إذا كان المولود ذكرا ، أما إذا كان بنتا فليس ثمة قاعدة لاختيار اسمها ، ويختار لها عادة اسم زهرة أو اسم شىء من الأشياء الثمينة الموجودة فى الطبيعة.

٢

الختان

بالرغم من أن الختان عادة إسلامية ، فإن المذاهب الإسلامية تنظر إليه بشكل مختلف ، فأتباع المذهب الشافعى يرونه واجبا دينيا لا محيص عنه ، أما أتباع المذهب الحنفى فيرون أن الختان ليس سوى فعل يثاب المرء عليه. ويعترفون بأن بإمكان المرء أن يكون مسلما حسن الإسلام بدون ختان ، ومع ذلك فمادام ينبغى على المسلم أن يأخذ به فليس ثمة من الأسباب ما يكفل له أن يرفضه .

وليس ثمة سن محددة لإجراء عملية الختان هذه ، فيكفى أن يختتن الأطفال الذكور قبل البلوغ ، إذ عليهم فى هذه السن أن يؤدوا الصلاة ، وهم لايستطيعون أن يحصلوا على الطهارة التى يتطلبها محمد كشرط لهذه الشعيرة الدينية ما لم تكن غرلتهم قد قطعت .

وعندما يريد أحد الآباء أن يقوم بختان ولده ، فإنه يقوده إلى المسجد ، وهناك يصلى الإمام على الشاب الصغير الذى يخرج بعد ذلك من المسجد ليجد جمعا من الأهل والأصدقاء ، وبصحبة هؤلاء فى جولات طويلة على ضجة الآلات الموسيقية ومع كثير من الأبهة حتى منزل والده . وعندما يكون هذا الطفل ابنا لأسرة ثرية أو ذات نفوذ فإنه يمتطى حصانا جميلا مزركشا فى بذخ ، وعندما يعود إلى منزله ، تقدم وليمة يدعى إليها كل الأهل والأصدقاء . وعند نهاية الوجبة يقوم الحلاق بقطع الغرلة بالموسى ويوقف تدفق الدم بواسطة دواء قابض ، وعندئذ يسارع كل المدعوين بتقديم الهدايا « للمطاهر » ، ولاتحضر النساء هذا الحفل ، وعند الطبقات الدنيا فقط تقوم النسوة بمصاحبة الطفل إلى المساجد ويعدن به . أما الفتيات فلا يخضعن لعملية الختان هذه ، ومع ذلك فإن الفلاحين والعربان يقومون بقطع بظر الفتيات . ويعيب الاتراك وسكان المدن هذا السلوك مادام طول العضو لايتطلب مثل هذا البتر، وهى حالة نادرة جدا .

وكما سبق لنا القول فإن الأقباط يمارسون الختان ، ويخضع له أطفالهم الذكور فى سن الثامنة أو التاسعة ، أما الفتيات ففى نفس السن تقريبا . وقد سبق أن أوضحنا أن هذه العادة قديمة فى مصر ونضيف إلى ذلك أن اليهود الذين نشأوا بين المصريين قد نقلوا هذه العادة إلى فلسطين ، وهذا التشابه لافت للنظر ويستحق الاهتمام كما نرى ، وقد سبقنا زملاؤنا إلى المطالبة بذلك ، ونحن نكرر ذلك هنا حيث إن هذا هو المكان الطبيعى لمثل هذا المطلب.

ويعتبر الختان عند المسلمين بمثابة الخطوة الأولى فى الحياة ، إذ يمكن القول بأن الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بجسمه فقط ، ولكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الأخلاقية والروحية . فهو يؤمر عندئذ بأداء الصلاة ، ويلقن العلوم والفنون بعد أن يكون قد سبق له التردد على المدرسة ، لكن المدرسين لم يكونوا قد فرضوا شيئا بعد على عقله الصغير . فالختان إذن هو بمثابة نهاية لمرحلة الطفولة بالنسبة للمصرى بكل نزقها وطيشها ، ويمكن القول بأنه بهذه العملية يولد مرة أخرى ، لكنه فى هذه المرة يولد رجلاً .

٣
التعليم الأَوَّلىّ

فى القرآن – ذلك التشريع الدينى والاجتماعى فى الوقت نفسه – قام محمد بتحديد السن التى ينبغى أن يكون الطفل قد بلغها ، لكى يبدأ تعليمه الروحى والأخلاقى ، فقال :

« رب ابنك لسبع، واضربه لسبع، وآخه لسبع » (*) .

ومع ذلك، فحيث إن الأطباء يدعون أن ملكات الطفل العقلية تتشكل منذ سن الرابعة أو الخامسة، فإن الذى يهمه تعليم طفله، يحرص على أن يبدأ طفله تعليمه

(*) هكذا فى النص والمعروف أن هذا مضمون حديث نبوى شريف وليس آية قرآنية .(المترجم) .

أحيانا فى هذه السن ، فيجعله يتردد على المدارس حتى يتعود على الأقل على شكل الحروف ، ولكى يدركها دون مشقة كبيرة . ويلتزم الآباء بأن يعطوا لأبنائهم نوع التعليم الذى يتناسب مع درجة ثرائهم ، أو يلزمونهم حسب الحال بتعلم حرفة. وتعلم القراءة والكتابة يسبق كل شئ ، لكن ذلك ليس إلزاميا ولا حتى عاما ، حيث إن العدد الأكبر من الفلاحين وأبناء الطبقات الشعبية لا يعرفون القراءة والكتابة، ويمكننا أن نقدر عدد الذين يعرفون ذلك فى القاهرة بثلث عدد سكانها الذكور، بل ويمكننا أن نهبط بهذا العدد إلى الربع فقط .

ومن النادر أن نرى مصريا يتحمل بنفسه مشقة تعليم طفله، فمن الطبيعى أن يتجنب الناس التصدى لعمل بمثل هذه المشقة، لذا فهم يرسلون أبناءهم إلى المدارس مدعين بأنهم – إذا ما تولوا أمر تعليمهم بأنفسهم – لن يقوموا بهذه المهمة بالحزم اللازم . ويرسل الأغنياء أطفالهم بصحبة أحد الخدم، أما الفقراء فيصحبونهم، أو يتولى مساعد المدرس تجميع هؤلاء الأطفال ليصحبهم جميعا . وتقوم الأمهات بإرسال وجبات إلى أطفالهن الدارسين ، ويقتسم هؤلاء الأطفال طعامهم مع زملائهم المعوزين، وهذه العادة تنبع من معتقدات حقه شائعة عند كل المسلمين . فبهذه الطريقة يتعلم الناس منذ طفولتهم كيف يصبحون خيرين ، وكيف تنمو مع نموهم هذه الميول الخيرة التى تحض عليها مبادئ الدين . من هنا تأتى هذه المساواة المطلقة التى تسود بينهم ، فهم لا يعرفون ذلك التمايز الذى يعود إلى الأصل والمنشأ، بل إن الثروة نفسها ليس لها فى هذا الصدد إلا ميزة طفيفة . ولكن أيتعين علينا إذن أن نتلمس وجود مثل هذه الأفكار الخيرة وسط هذا الخليط من النظم الهمجية ؟ ولماذا تفرض العناية الإلهية حواجز على حكمة البشر؟

ولا يرسل الكبار أبناءهم أبدا إلى المدارس العامة ، أما الفتيات فلا يتعلمن حتى مجرد القراءة، وإذا حدث أن كان بعضهن يمتلكن هذه القدرة فلا بد أن هذا بالغ الندرة ، ولا بد أنهن قد تعلمنه فى معقل الحريم، ويكون مدرسوهن فى هذه الحالة رجالا فى سن متقدمة ومحرومين من نعمة البصر، ولايستطيع مثل هؤلاء

المدرسين أن يعلموهن أكثر من حفظ بعض آيات من القرآن . وعند هذا الحد تقريبا توقف التربية الأخلاقية للنساء فى مصر .

وليس ثمة ما هو أكثر ضجيجا من مدرسة عامة فى مصر، حيث يتعلم الأطفال كتابة الحروف الهجائية والكلمات، فى نفس الوقت الذى يتدربون فيه على نطقها . وهم عادة لا يتعلمون إلا قراءة وكتابة وحفظ أجزاء من القرآن، وفى هذا الحد البسيط ينحصر تعليمهم الأوَّلى . ويردد التلاميذ بصوت عال – وهم متجمعون داخل نفس الفناء – الدروس التى سبق لهم أن تلقوها ، من هنا يمكننا أن نُكَوِّن فكرة عن الضجيج الذى يُسْمع فى الفصل ، وعلى هذا فينبغى أن يكون المدرس متعودا على هذا الضجيج حتى يمكن له أن يتحمله . و بالإضافة إلى تلك العادة الشائعة لدى كل الأطفال – عادة أن يغنوا وهم يستذكرون دروسهم أو أثناء قراءتهم – فإن أطفال مصر معتادون على تحريك الجزء الأعلى من جسمهم بشكل مستمر أثناء ذلك . وهذه الحركة الدائمة، بالإضافة إلى الأصوات غير المتنازعة تجعل من المدرسة العربية مشهدا فريدا بالغ الغرابة بالنسبة للمُشَاهد الأوربى . ويُعَاقَب الأطفال الذين يُخِلّون بواجباتهم المدرسية أو بعلاقتهم بمعلميهم بقسوة، ويتمثل العقاب العادى فى عدد غير محدود من الضربات بالجريدة – وهى فرع من شجرة نخيل – على باطن القدمين .

وعندما يُحْرِز الأطفال تقدما فى الكتابة والقراءة ، يبدأون التعلم بطريقة الإملاء. ولا يكلف المعلمون أنفسهم مطلقا عناء تعليم أطفالهم لا الصلاة ولا القوانين التى فرضها النبى ، ومع ذلك فإن القرآن هو الكتاب الوحيد فى مراحل الدراسة الأولى . ويلتزم الآباء بتعليم أبنائهم قواعد الشريعة، فعندما يقترب الابن من سن البلوغ يبدأ الأب دروسه الأولى ، ولا يستطيع الطفل أن يشارك فى صلاة الجماعة إلا بعد الختان ، وقد سبق أن أوضحنا فى أى سن يتم ذلك .

وعلينا الآن أن نتحدث عن المدارس الأولية وعن نشأتها ، ومن الأمور اللافتة

للنظر أن المدارس العمومية لا تدين بوجودها إلا لأعمال البر ، وهذه المدارس كبيرة العدد فى أية مدينة تحظى بدرجة ما من الأهمية . ويقوم الرجل الثرى عادة بتخصيص جزء من الميراث الذى سيتركه لأولاده لإنشاء مدرسة عمومية والصرف عليها . انظر إذن كيف يقوم كرم وتضحية الخاصة – اللذين لا جدال فيهما – بسد ثغرات الإهمال الإجرامى من جانب الحكومة ؟ ولولا حسنات هؤلاء الأغنياء لكانت مصر و تركيا معا محرومتين تماما من معرفة المبادئ الأولية للتعليم . وفى معظم الأحيان يكون المبلغ المخصص للعناية بالمدارس وفيرا ، لحد يسمح بالصرف على طعام وكساء وتعليم الأطفال الفقراء مهما كان عددهم .

ويدفع الآباء محدودو الثراء أتعابا ضئيلة للمدارس ، تتراوح ما بين ٣ – ٢٠ مدينى فى الأسبوع . والمدارس العمومية كثيرة جداً فى القاهرة وفى المدن الرئيسية ، ولكن من النادر أن نرى مدرسة واحدة فى الريف . وعلى الآباء الذين يريدون هناك أن يعلموا أبناءهم أن يرسلوهم إلى إمام المسجد .

وللمسيحيين أيضا مدارسهم . وهى تعيش – شأنها فى ذلك شأن الأديرة – على الإعانات والعطايا الخيرية ، ويعيش المدرسون من الأتعاب المتواضعة التى يُحَصلونها من تلاميذهم ، وما أن يبدأ الأطفال فى معرفة القراءة حتى توضع بين أيديهم مزامير داود .

وإدارة المدرسة، بل يمكن القول ملكيتها، من حق نجل مؤسسها أو أحد ورثته، وبإمكان هذا الوريث أن يبيعها ، أو أن يتنازل عنها لصالح آخر . ومع ذلك فينبغى أن يكون المدرس الموكل إليه أمر التدريس قادرا على القيام بمهام وظيفته وأن يكون حافظا للقرآن، وإذا ما رأى القاضى أنه أقل كفاءة مما يقتضيه العمل فإنه يستطيع أن يرغم القائم على أمر إدارة المدرسة أن يختار مدرسا آخر أكفأ ، ولكن مهنة التدريس لا تحظى بالعناية الكافية، ومكانتها بالغة الضعف . وإذا ما كان المدرس كفئا لحد أمكنه أن يجذب عددا كبيرا من التلاميذ فله عندئذ أن يأمل فى

بعض النفع ، وإلا فعليه أن يعيش خامل الذكر ، وفى حال تَقَرُّب من العوز ، وليس له أن ينتظر نفعا .

وللقاضى حق التفتيش على المدارس الابتدائية، وعندما يتبين هذا الموظف الكبير أن المبالغ المخصصة للعناية بهذه المنشآت وتلاميذها قد صرفت فى غير أغراضها، فإن له الحق فى أن يرغم القائمين على إدارتها على الامتثال لرغبة مؤسسها .

٤

العلوم والفنون

عندما يرغب الشبان - بعد انتهاء دراستهم الأولية - فى مواصلة دروسهم ، فإنهم يطلعون لفترة فى تلك الكتب التى لها صلة بدراستهم المقبلة، ثم يتوجهون إلى الأزهر للاستماع إلى دروس وشروح المشايخ . والجامع الأزهر - على نحو ما- هو الجامعة الوحيدة فى مصر ، وهيئة التدريس به تضم من٤٠ - ٥٠ مدرسا ، من بينهم خمسة أو ستة ذائعو الصيت .

وقلما يُدَرّس هناك سوى القرآن وتقاليد السلف الأول، والعقائد والشريعة والصلاة والحج وبقية الشعائر الدينية التى فرضها محمد . ولكل مذهب أساتذته الكلاسيكيون الذين لا يختلفون مطلقا فيما بينهم حول المبادئ الأساسية للعقيدة الإسلامية .

كان النبى العربى يدرك أن القوانين تكتسب قوة دافعة جديدة إذا ما تأسست على العقيدة الدينية نفسها . لذا فقد كان بعيد النظر حين ربط بين الأنظمة والمؤسسات وبين الدين ، وحين جعل من الواجبات التى تفرضها الحياة الاجتماعية على الناس فروضا يؤديها الإنسان تجاه ربه ، وبذلك أدمج فى تشريع واحد كلا من المبادئ الدينية والقوانين المدنية .. ويحرص المدرسون تماما على عدم الفصل بين الأمرين فى دروسهم . وهم يشرحون فى إسهاب كل ماجاء فى أجزاء القرآن

مع الاهتمام بتوضيح المعانى الحقيقية للكلمات، وكذلك يدرسون القواعد أو النحو ، أى تلك اللغة التى كان يتحدثها العلماء الأوائل . ويقوم أهم الأساتذة فى الأزهر بتدريس المنطق والمعانى أو البيان، وهم يعرفون البيان بأنه فن التعبير عن أفكار كثيرة فى أقل عدد من الكلمات ، وكذا فن استخدام كلمات كثيرة للتعبير عن أفكار قليلة ، أى فن توسيع الفكرة أو تركيزهاحسب مقتضى حال السامع .

وكان محمود – والى مصر وابن هارون الرشيد – قد جلب إلى مصر مؤلفات الفلاسفة الإغريق ، وأمر بترجمتها إلى العربية ، لكن هذه الترجمات لم تعد موجودة بمصر ، ولا يعرف الآن فى المدارس إلا مجرد أسماء هؤلاء الفلاسفة وبعض مقتطفات من مؤلفاتهم .

وينقسم المدرسون والطلاب إلى ست حجرات (أروقة) أو فروع كبيرة : السوريون ، البربر ، الإغريق ، سكان الريف ، الصعايدة ، العميان ، ويخصص الرواق السابع لبعض طلاب الأقاليم .

وتقدم الحكومة كل عام حوالى ٥,٦٠٠ أردب من الحبوب ، يوزعها شيخ الأزهر أو وكيله بين هذه الفروع ، وليس لغالبية القادمين من القرى وسيلة أخرى للعيش إلا ذلك الخبز الذى يحصلون عليه من شيخ رواقهم .

وليس ثمة من نفوذ لوظائف التدريس، ولا ينشغل مدرسو الأزهر بالأمور العامة إلا لكى يحوزوا لأنفسهم شهرة ورواد عديدين ، ولكى يأخذوا نصيبا من تبرعات المسلمين المتحمسين . فيحصلون بذلك على دخل بسيط يخصص لهم ، بالإضافة إلى بعض الهدايا، وإلى ما يحصلون عليه فى مقابل الفتاوى التى يصدرونها فى الأمور المدنية والجنائية التى تعرض عليهم لإبداء الرأى ، لأنهم فى نفس الوقت رجال قضاء .

والطلاب ليسوا ببساطة مجرد مستمعين سلبيين ، فبإمكانهم إيقاف المدرس عند نقطة لم يتفهموا معانيها، وأن يعارضوا رأيه برأى شيخ آخر ، فيقيموا بذلك

نوعا من الجدل حتى يستخلصوا الحقيقة بشكل أفضل ، ومن جهة أخرى فإن الشيخ بدوره يسأل طلابه لكي يعرف ما إن كانوا قد فهموا وتقدموا .

وعندما ينتهي شاب من تحصيل دروسه ، ويأنس في نفسه الكفاءة والعلم اللذين يؤهلانه كي يشغل وظيفة في الجامع الكبير، فإنه يطلب إلى شيوخه شهادات بكفاءته، ويتقدم إلى شيخ الأزهر ليحصل منه على إذن القيام بالتدريس هناك بدوره ، ويدعو الشاب إلى الدرس الأول الذي سيلقيه كل أصدقائه وكل العلماء[1]، فيستمعون في البداية اليه ، وبعد ذلك يسأله العلماء ويجادلونه ويعارضون آراءه ويحاولون إحراجه ، فإذا ما أمكنه أن يجيب على كل الأسئلة ويرد على كل الاعتراضات تأكدت شهرته ، ويهرع إلى دروسه الطلاب والسامعون . وعلى العكس

---

(١) آن الأوان أن نبين هنا المعنى الذي يقصده العرب من مختلف هذه المسميات : عالم، شيخ ، إمام .. الخ . العلماء هم أساتذة الشريعة الضليعون في ذلك . وكل مسلم لديه علم يبلغه ويتخذ من ذلك حرفة له يسمى عالما .

أما الشيوخ فهم المدرسون ورجال الدين . وشيخ الجامع الأزهر هو في نفس الوقت رئيس هيئة التدريس فيه ، ويعين عن طريق قيام المدرسين القدامى باختياره ، وهم يراعون أن يختاروا رجلا ناضجا مشهودا له بالعلم ويحظى برضاء الحكومة . والمرشح الذي يفوز بأكبر عدد من الأصوات يُقدَّم أولا إلى الشيخ البكري – وهو زعيم أحفاد محمد – فيخلع عليه جبة ، ويعينه في وظيفته الجديدة ، ثم يقدم بعد ذلك إلى شيخ البلد وإلى الباشا اللذين يخلعان عليه جبة كذلك . وليس هناك راتب مخصص لهذه الوظيفة ، لكنه منصب بالغ الجاه والشرف ، ويعطي صاحبه حق الإشراف على كل المدرسين . فإذا ما جرؤ أحدهم على الإعلان عن مبادئ مناقضة لآراء محمد، فإن بمقدور شيخ الأزهر أن ينحيه عن العمل بالتدريس في الجامع الكبير، لكن الاحترام الذي يكنه العلماء تقليديا لكل ماتعلموه نادرا ما يعرضهم لمثل هذا الموقف. أما المفتي فهو الشخص الذي يصدر الفتوى – أي الرأي القانوني – حول الأمور التي تعرض عليه، ولكل مذهب مفت ، ومفتي الجامع الأزهر هو رئيس كل المفتين ، ويمكنه أن يناقض فتواهم . و هذه الفتاوى ليست في الواقع سوى آراء استشارية ، يحق للقاضي أن يأخذ بها أو ينحيهاجانبا ، حسب قوة الحجج التي تأسست عليها ، وحسب مكانة المفتي الذي أصدرها . وعندما يموت مفتي أحد المذاهب يتجمع علماء المذاهب الأخرى ليعينواخلفا له ، ولكل مدينة من مدن مصر الرئيسية مفتيها الخاص بها .

من ذلك إذا ما تردد أو ارتبك ، ولم يستطع أن يفوز بقدر كبير من الثقة ، لكنهم مع ذلك يحفظون عليه كرامته ويتحاشون إهانته . لكنه يكون بذلك قد قدم عن نفسه فكرة سيئة ، بحيث لا يستطيع أن يأمل فى المستقبل إلا فى نجاح متواضع .

ومن المستطاع ممارسة التعليم فى مسجد آخر بخلاف الجامع الأزهر ، ويكفى الطالب فى هذه الحالة الحصول على موافقة شيخ الأزهر الذى يحدد له المكان الذى ينبغى أن يدرس فيه .

وعندما يتقدم عديد من المرشحين للحصول على مقعد فى الجامع الكبير ، وعندما لم يكن ثمة إلا مقعد واحد شاغر ، فمن حق شيخ الأزهر أن يعطيه للشخص الذى يراه صالحا ، فهذا المركز ليس عرضة للتنافس . ومن ناحية أخرى فليس للمدرس من لقب آخر سوى الشيخ أو المعلم ، وليس ثمة أى تمييز طبقى أو تفضيل مسبق بينهم . فعمق معرفتهم، وسنهم ، وفضائلهم هى التى تحدد أوضاعهم . ويحمل الشبان تقديرا كبيرا لأولئك الذين علّموهم وشكلوهم ، فيصغون إليهم باحترام ، ويتلقون آراءهم بل وتأنيبهم أحيانا بكثيرمن الإذعان .

ويهمل المصريون المحدثون العلوم المقننة بعكس أسلافهم ، فالرياضيات لا تكاد تكون معروفة عندهم، ويكتفى الفلكى هناك بتسجيل بعض الملاحظات عن طريق آلات ضخمة ، وعلى تحرير التقويم السنوى . وفى نفس الوقت فعدد من لديه مثل هذه المعارف ضئيل ، وليس ثمة فلكى شهير فى هذه الآونة إلا شيخ واحد، هو واضع التقويم الحالى وله بعض التلاميذ .

ولن نتحدث هنا لا عن النحت ولا عن الرسم، فهما – فى مصر – لا يستحقان منا أدنى اهتمام، لكن العمارة أكثر تطورا ، ومقارنة المنازل الحديثة بالمنازل القديمة توضح تقدما محسوسا فى أساليب البنائين أحرزوه منذ عدة سنوات، فالتوزيعات تتم بشكل جيد تسمح بمرور الهواء والمحافظة على رطوبة المبنى ، لكن الذوق والأناقة فى حكم النادر .

ويمكننا أن نعيب على المصريين المحدثين نفس ما يعيبه الإغريق على أحفادهم ؛ فهم يتلفون كل شئ ولا يصلحون شيئا، وهم يحيون فى حالة من عدم الانتظام والتباين ، لكن هذه العيوب لا تصدمهم مطلقا . ولقد تعلموا من العمال الفرنسيين فن صناعة الأحذية وأدوات المائدة الفضية والمجوهرات والمهاميز، لكنهم لا يلقون بالا لا لجمال الشكل ولا لتناسقه . وتطريزهم جيد ، لكنهم يبرعون على وجه الخصوص فى الفخار، وكثير من الزهريات التى يصيغونها تحتفظ بالشكل القديم، ويستخدمون فى المصانع والورش وسائل بالغة البساطة والاقتصاد ، سوف نتحدث عنها فى الفصل الأخير من هذا المؤلف .

٥

الأدب والشعر

معرفة أوربا بالأدب العربى معرفة بالغة الضآلة لدرجة لا تسمح بتكوين فكرة دقيقة عن ذلك العدد الكبير من الكتاب المشهورين الذين برعوا فى مختلف ضروب المعرفة . وباستثناء بعض العلماء المتخصصين فى الشرقيات (المستشرقون) الذين ندين لمجهوداتهم بمعرفتنا لعديد من مؤلفات هذه الشعوب ، فإن عدد الأشخاص الدين هم فى حالة تسمح لهم بالحكم على التراث الفكرى العربى ضئيل للغاية، ومع ذلك فإن العرب قد أثروا الشعر على الدوام، وهو الفن الذى برعوا فيه ، أما النحو والبلاغة فقد قاموا فى دراستهما بأبحاث عميقة [١] كما هو الحال فى علوم الفقه والأخلاق، أما مؤلفاتهم فى الطب والتاريخ والجغرافيا فتحظى اليوم بشهرة هى جديرة بها [٢] . ولا ينبغى لنا أن ندهش من أن الشعراء العرب قد أحرزوا هذا

---

(١) يمكنك الرجوع فى هذا الصدد إلى المؤلفات العديدة المكتوبة باللغة العربية والتى تمتلك المكتبة الملكية منها مجموعة ثمينة ، وسوف تتبين أن العرب كانوا مشغولين على وجه الخصوص بنظرية اللغة ، وأن القواعد أصبحت عندهم علما يتطلب دراسة متخصصة.

(٢) أولئك الذين حازوا أكبر قدر من الشهرة فى أوربا من العلماء العرب، وهم: الحريرى، الجوهرى، الفيروزبادى، ابن سينا الذى يعرف باسم Avicenne ، المكين المعروف باسم Elmacin ، ابن خلدون، ابن الفارض، المتنبى ، ومن علماء الجغرافيا . ابن حوقل ، أبو الفداء ، المقريزى ، الإدريسى .. الخ.

القدر من النجاح والتفوق ، فثراء اللغة العربية ودقتها وجمالها يؤدى إلى تفوقها على كافة اللغات الشرقية، ولكن فحيث إن مجال دراستنا هنا لا يسمح لنا بأن نتوسع كثيرا فى دراسة الأدب فسوف نكتفى بدراسة اللغة من حيث علاقاتها بتقاليد وعادات المصريين.

يتناول هذه اللغة ، فى مختلف البلدان التى تستخدم فيها ، بعض الاختلافات البسيطة ، سواء فى تركيباتها الدارجة أو فى نطق بعض الحروف الهجائية، ويعدل سكان القاهرة - المشهود لهم بأنهم يتحدثون العربية بكثير من الرقة - من نطق كثير من الحروف الساكنة ، ليجعلوها مخالفة للشكل الذى تلفظ به فى سوريا والجزيرة العربية . ويتمثل هذا الاختلاف على وجه الخصوص فى الحروف : ح ، ق ، ج . فحرف الـ "ج" يلفظ فى كل مكان كما تلفظ الـ" g " اللاتينية فى كلمة genou ، لكنها تلفظ فى مصر كما تلفظ الـ "g " الفرنسية فى كلمات gain, guerre, garcon . أما حرف الـ "ق" التى تماثل عندنا الـ " k " الحلقية فلا نكاد نراها تلفظ على لسان المصريين ، ولانكاد نحن نحس باستخدامهم لها إلا عن طريق نوع من التوقيف أو من الهوة الناتجة عن تتابع حرفى علة يشكل كل منهما مقطعا صوتيا مستقلا: أولهما هو المقطع الصوتى السابق على الـ "ق" ، وثانيهما هو المقطع الذى تشكل الـ "ق" جزءا منه ، أما سكان الصعيد فيلفظونها بنفس الطريقة التى يلفظها البربر ، أى كما نلفظ نحن حرف الـ "g " فى كلمة gain (١) .

سبق لنا أن قلنا بأن العرب قد برعوا على الدوام فى الشعر، ولا يزال الأمر كذلك حتى اليوم عند كل طبقات المجتمع ، إذ نجد رجال الطبقات الشعبية فى مصر ، بل وحتى الأطفال ، لديهم حساسية فائقة لهارمونية الإيقاع ، ولتكرار نفس الحروف الساكنة (السجع) .

---

(١) بهذا يكون علينا أن نواجه ثلاث طرق لنطق هذا الحرف فى كلمة واحدة ، فكلمة بقرة على سبيل المثال يلفظها السوريون : بقرة ، ويلفظها سكان مصر السفلى : بأرة ، أما سكان الصعيد والبربر فيلفظونها : بجرة .

ولعمال المدن أغنيات خاصة تساعدهم على إنجاز أعمالهم، ومن خاصية هذه الأغنيات ضبط حركات العمال والتقليل من مشقة المجهود الذى يبذلونه . ومع ذلك فسوف نخطئ لو أننا تصورنا أن هذه الأغنيات الشعبية تراعى تلك القواعد الصارمة التى تحكم الشعر العربى [1] . ومن بين تلك التكوينات البالغة الجمال فى اللغة العربية نشير إلى الموال ، وهى الأغنية المفضلة لدى الجنس اللطيف فى مصر، والذى يقارب الـ Romance عندنا . والموال إما قصيرا وإما طويلا ، وموضوعاته على الدوام هى مباهج الحب ، والشكوى من الحبيب الذى خان أو الذى هجر ، وتصوير جمال المحبوب ، ورسالة حب بين عاشقين ولواعج الغياب .. وعندما يغنى هذا الشعر بنغمة خفيفة متهدجة مثيرة للعاطفة فالأمر يستدعى نوعا من المد والاسترسال ، لذا فمثل هذه الأغنيات ، من أجمل مباهج ومسرات الحريم ، وما أن يؤلف موال جديد حتى تتكفل العوالم والآلاتية على الفور بإذاعته ، ليستقر بين النساء المصريات اللاتى يتسابقن على حفظه والتغنى به .

---

(١) تخضع موازين الشعر لقواعد بالغة التعقيد إذا ما قارناها بتلك التى تحكم كل أنواع الشعر المعروف، إذ هى لا تحتم فقط نفس القافية والإيقاع وانقسام البيت إلى شطرين مثل الشعر الفرنسى، بل هى تحتم كذلك عددا من التفعيلات بشكل يماثل العروض اللاتينى على وجه التقريب .

ويوجد فى اللغة العربية ١٦ نمطا أو مقياسا . ويحمل كل واحد من هذه المقاييس اسم بحر، تصريفاته مأخوذة – شأنها شأن كل الصيغ النحوية الأخرى – من الفعل العربى : فعل، وعلينا أن نقيس الأبيات التى نؤلفها على هذه التصريفات . والشطر يسمى : مصراعاً ، وكل مصراعين يشكلان بيتا، ويقطع البيت إلى أجزاء . ونقدم هنا تصريفات الـ ١٦ بحرا للشعر العربى مع بيان الأسماء الخاصة التى تطلق عليها. و بعضها أكثر انتشارا من غيره كما أنها تختلف فيما بينها من ناحية شدة أو قلة السرعة .

١- بحر الطويل : فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن مرتين .

٢- بحر المديد : فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن . مرتين .

٣- بحر البسيط : مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن . مرتين .

٤- بحر الوافر : مفاعلتن (ست مرات) .

ويضم الموال فقرة واحدة تتكون من خمسة أبيات أو أربعة فى حالات كثيرة . وتتراوح أوزان هذه البيوت مابين ٨ - ١٢ مقطعا، أو ١٤ مقطعا فى بعض الأحيان، وينبغى أن يكون لكل أبيات الموال نفس الوزن ونفس القافية ، فيما عدا البيت الرابع فى الموال الذى يتكون من خمسة أبيات .

٥- بحر الكامل : متفاعلن (ست مرات) .

٦- بحر الهزج : مفاعلين (ست مرات) .

٧- بحر الرجز : مستفعلن (ست مرات) .

٨- بحر الرمل : فاعلاتن (ست مرات) .

٩- بحر السريع . مستفعلن مستفعلن مفعولات (مرتين) .

١٠- بحر المنسرح (أو المسترسل) : مستفعلن مفعولات مستفعلن (مرتين) .

١١- بحر الخفيف : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن (مرتين) .

١٢- بحر المضارع : ويسمى هكذا بسبب تشابه أوزانه مع بحر المنسرح : مفاعلين فاعلاتن مفاعلين (مرتين) .

١٣- بحر المقتضب : مفعولات مستفعلن مستفعلن (مرتين) .

١٤- بحر المجتث : مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن .

ويرى النقاد أن هذا البحر قد يسمى هكذا إما لأن الشعراء لا يستخدمونه إلا مع حذف فاعلاتن الأخيرة من كل مصراع ، وإما لأنه بعد اختصاره على هذا النحو يبدو كما لو كان مشتقا من بحر الخفيف إذا ما حذفنا فاعلاتن الأولى من كل من مصراعيه . ونفس الشئ بالنسبة لبحر المقتضب، فاسمه هذا يعود إلى أن كل واحد من مصراعيه عادة يفقد مستفعلن الأخيرة فيه ، فيبدو عندئذ وكأنه من بحر المنسرح بعد أن شطرنا مستفعلن الأولى فى مصراعيه .

١٥- بحرالمتقارب، وسمى هكذا بسبب تقاربه واختصار الزواحف التى تكونه . فعولن (٨ مرات) .

١٦- بحر المتدارك ، أى الذى يلى البحور الأخرى ، ويسمى هكذا لأنه البحر الأخير فى النظام الذى أخذ به العرب : فاعلن (٨ مرات) .

ولا يحظى البحر الأخير بقبول معظم النحويين الذين لا يعترفون إلا بـ ١٥ بحراً .

تلك هى البحور الـ ١٦ التى تنظم الشعر العربى . وإذا كانت هذه الأنماط المبدئية قد طبقت بصرامة فى البداية ، فإن كل واحد من هذه البحور البدائية قد تناوله عدد كبير من التعديلات ، كان ينظر إليها فى البداية كنوع من الإستثناءات الشعرية ، لكن كثرة اللجوء إليها قد أدى إلى تثبيتها، حتى

ويكاد يكون هذا البيت قبل الأخير بلا قافية، ونادرا مايكون بحره هو نفس بحور البيوت الأخرى للموال، فإذا ما حدث أحيانا وكانت له نفس القافية فإن ذلك لا يتم إلا في حالة الموال الذي يتكون من أربعة أبيات .

ويحدث أحيانا أن تستخدم نفس الكلمة كقافية في كل أبيات الموال ، لكن ينبغي أن يكون لها معنى مختلف في كل واحد من هذه الأبيات ، ولدينا عند بعض شعرائنا أمثلة لهذه القوافي ذات الجناس الواحد والمعنى المختلف . ونكتفي بأن

أصبح عدد هذه الاستثناءات الشعرية ، المباحة يماثل عدد البحور المنتظمة ، بل لقد شغلت مكان عدة بحور لم يستعمل قياسها الأول على الإطلاق في كامل تمامه .

وتسمى كلمات التعريف الثماني التي تشكل مختلف البحور ، وهي : فاعلاتن ، فاعلن ، مفاعيلن ، فعولن ، مفعولات ، متفاعلن ، مفاعلتن ، مستفعلن ، تسمى هذه الكلمات أجزاء البحر ، والمفرد جزء .

كما يشار إلى المجموعات المختلفة من الحروف والحركات التي يتكون منها كل جزء باسم أسباب (حبال) وأوتاد ، وعندما يوجد حرفان أولهما متحرك والثاني ساكن مثل : هل ، لا ، قم ، فإنهما يشكلان سبباً خفيفاً ، أما إذا كان الحرفان متحركين ، وينقسمان نتيجة لذلك إلى مقطعين صوتيين مثل : هو ، لك ، فإنهما يشكلان سبباً ثقيلاً . والأوتاد الأركان هي أيضاً من نوعين : وتد مجموع ، وهو مجموعة تتكون من حرفين متحركين بعدهما حرف ساكن ، مثل : لَهَا ، لَقَدْ . ووتد مفروق ، وهو عبارة عن مجموعة مكونة من حرف ساكن يقع بين حرفين متحركين مثل : قلت ، صار . والجزء الأخير من المصراع الأول يشار إليه باسم عروض ، بينما يشار إلى الجزء الأخير من البيت باسم : ضرب ويسمى حشواً كل الأجزاء الأخرى من البحر . ويطلق اسم صدر على الجزء الأول من البيت ، وابتداء على الجزء الأول من المصراع الثاني . إذن فكلمة حشو تشير إلى أجزاء البيت التي ليست لا العروض ولا الضرب ولا الصدر ولا الإبتداء.

وتبعاً للتعديلات المختلفة التي أباحها العرب وأدخلوها على القياس وسموها باسم زحاف أو علل ، يمكننا أن نعد بالنسبة للبحور الستة عشر ٣٦ عروضاً و ٦٧ ضرباً مختلفة .

ويعنى علم العروض بمعرفة هذه الأنماط الأولية والتفريق بينها ، ولكي نعرض الأمر كما ينبغي فإن ذلك يستلزم مؤلفاً كاملاً ، لكن حدود هذا الهامش البسيط لا تسمح لنا بقول المزيد .

(هذا الهامش عن الشعر العربي قدمه لنا السيد عجوب) = (وهو چوزيف عجوب وكان مترجماً للحملة ووضع أول قاموس فرنسي – عربي) .

نورد هنا هذين البيتين للشاعر بوالو :

Prends-moi le bon parti : Laisse-Là tous tes livres.

Cent francs au dernier Cinq.Combien Font-ils ?Vingt livres? (*)

ومن المعروف أن اللغة العربية تضم عددا كبيرا من مثل هذه الترادفات فى المعنى ، ولكن حيث إن الموال أبعد من أن يخضع لصرامة القواعد التى تحكم الشعر العربى الفصيح، فإن الشعراء لا يُكَلِّفون أنفسهم عناء تحمل هذه الصرامة، فيستخدمون نفس الكلمة المأخوذة على نفس المعنى، عدة مرات كقافية . ويُنْظَر لهذا الاستثناء الشعرى باعتباره كسرا لقواعد الشعر .

وفيما يلى مثال لموال من خمسة أبيات :

الأهيف اللى تمناه القليب ودعاه

فى موقف الذل خلا العاشقين ودعاه

كمن قلت للعين كفى عن هواه ودعاه

كمن له قلب قاسى لم رحم عاشق

ولا يخاف من أنينه فى الدجى ودعاه

والأبيات الآتية مثال على موال مكون من أربعة أبيات :

يا غربتى فى بلاد الناس ذلتنى

يا كلمة الندل شالتنى وحطتنى

يا دمعتى نزلت على خدى حرقتنى

يا حصرتى راحت رفاقى وخلتنى

(*) فى البيت الأول كلمة livres تعنى : كتب وفى الثانى تعنى جنيهات .

وفيما يلى ترجمة لأبيات موال ألف خصيصا لامتداح مقياس جزيرة الروضة كما قدمها لنا السيد عجوب :

«اعجبوا لجمال المقياس، وبالفن الذى بنى به . لا يوجد فى أيامنا هذه ما يمكنه أن يضارع هذا البناء، ولا تستطيع القرون الآتية أن تقدم شيئا يماثله . لقد بناه مهندس نبيه ذكى، شديد العلم ، وأظهر فيه كل روعة فنه، وسوف يُضَيّع أمهر الفنانين وقتهم سدى لو حاولوا تقليد جماله . إنه مقياس مفيد، كان مفيدا وسيظل مفيدا على مدار السنين . طوله ٢١ ذراعا، وعندما تبلغ المياه الذراع الـ ١٦ تغرق مياه الفيضان أرض الريف» (*) .

(*) اكتفيت بالترجمة لعدم امكان الوصول إلى النص الأصلى . (المترجم) .

الفصل الثالث

عن الإنسان المصرى فى طور الرجولة

العادات المدنية والأسرية

١
عن الزواج

الزواج فى مصر هو عقد اتفاق خاص لا يحتاج إلى تصديق دينى أو قانونى ؛ إذ يتمثل فقط فى الإرادة التى يعبر عنها الطرفان المتعاقدان ، وتكفى موافقتهما المتبادلة ليكون هذا الزواج مشروعا . وتعطى المرأة موافقتها بنفسها أو من خلال وكيل ، وعندئذ يتقدم الشخص الذى يمثلها إلى الزوج المقبل ليتسلم المهر، ويقول له فى حضور شاهدين : زوجتك ، ويجيب الآخر : قبلت . ويتم الزواج هكذا بدون أية إجراءات رسمية أخرى .

ولا تقدم الزوجة الجديدة مهرا (دوطة) لزوجها، وفى بعض الأحيان تتلقى هى هدية من والدها ، ولكن هذه الهدية تطوع منه وليس من حقها أن تفرضها عليه، ويحدث فى أحيان أخرى ألا يكون للزوجة من مهر إلا ما يقدمه الزوج، فالشريعة تحتم على الزوج تقديم مهر لزوجته . وتختلف قيمته باختلاف المذاهب ، فيحتم أحدها ألا يقل المهر عن عشرة دراهم ، أى حوالى ١٨٠ بارة ، ويكتفى مذهب آخر بمجرد أن يكون ثمة مهر حتى ولو كان المهر لا يتجاوز دبلة من الحديد . ومع ذلك فلا يفوت أهالى الزوجة أن يقدموا إليها هدايا تتناسب مع ثروتهم تتمثل فى مجوهرات وملابس، لكنها لا تعطى مطلقا عقارات زراعية . وفى حالة ما إذا لم يتم تحديد المهر قبل اليوم المحدد للزواج – وهذا شئ نادر الحدوث – فإنه يحدد طبقا لمهر أم العروس أو واحدة من أقرب قريباتها . والمهر الذى يقدَّم للزوجات عن طريق أزواجهن عماد أساسى من عمد الزواج، وهو حق مطلق لهن ، وسوف تتضح لنا فيما بعد أهميته .

ويحرص الكبار وأفراد الطبقة الثرية على أن يتخذوا شهودا على زواجهم من بين رجال الشرع الذين يكتبون عقد الزواج ويودعونه عند الكاتب العمومى . أما الفلاحون فيكتفون بتسجيل زيجاتهم عند قاضى الولاية، أما سكان المدن فيهملون كل أشكال الرسميات وتتم الزيجات بينهم دون اتفاقات مكتوبة .

ولا يستطيع المسلم أن يتزوج لا ابنته ولا أخته ولا بنت أخيه أو بنت أخته ولا بنت زوجته ولا أخته فى الرضاعة بل ولا أخت زوجته إلا إذا كانت زوجته قد ماتت أو كان قد أنفصل عنها . وبخلاف ذلك يسمح له بالزواج من بقية درجات القربى الأخرى .

ولا يعترض الدين على ارتباط المسلم بزوجة من ديانة أخرى : مسيحية أو يهودية ، وقد سمح محمد بهذه الزيجات لأنه يعترف بموسى والمسيح نبيين ورسولين من عند الله ، لكنه لم يسمح مطلقا باتخاذ زوجات من عقائد أخرى خلاف ذلك، بل ليس ثمة سوى أمثلة محدودة لمسلمين قد استفادوا من هذا التفويض من جانب الشرع . وينشأ الأطفال الذين يولدون من زيجات كهذه على دين محمد ، ولا ترث الزوجة فى هذه الحالة عن زوجها ما لم تكن ثمة وصية، ويمكن للزوج أن يقدم لها جزءا من ثروته كهبة اختيارية .

وتزويج الأبناء قبل سن البلوغ حق مطلق يتمتع به أرباب العائلات ، بل إن موافقة الأبناء أنفسهم لا ضرورة لها ، وليس بإمكانهم أن يفكوا – عن طريق الطلاق – وثاقا عقد على هذا النحو . ولكن إذا كان الأبناء بالغين فإن موافقتهم لا غنى عنها، لكنهم يقرون اختيار أهاليهم فى معظم الأحيان ، ذلك أن الجنسين على الدوام – حيث لا وسيلة للاتصال بينهما – لن يستطيعا إقامة زواج على أساس من الاختيار أو العاطفة المتبادلة ، وفى نفس الوقت فليس مسموحا لزوج أن يقرب زوجته إلا بعد بلوغها السن الذى حددته الطبيعة للبلوغ حيث تصبح قادرة على الإنجاب ، فَيُبْقِي الأب ابنته لديه حتى تبلغ سن الخامسة عشرة ، لكن حقوقه هذه تتوقف عند بلوغها هذه السن ، ويحظى الأب بالتقدير عادة إذا ما اعترض على إتمام زواج لم يحن بعد أوانه . وينبغى أن نلاحظ أن والد الزوج لا يقيم اعتراضات من هذا النحو إذا ما وافق والد الزوجة على أن تذهب على الفور إلى أحضان زوجها ، ولاتقيم أسرة الزوج أية عقبات تحول دون اتصال الزوجين ، ولكن يندر أن نجد فى أوساط الطبقة الدنيا زيجات تتم قبل الوقت المناسب .

ويحدث كثيرا ألا يكون الزوج الشاب قد رأى من قبل المرأة التى تزوجها ، ولم تكن لديه بالتالى فكرة عن جمالها وكفاءتها إلا عن طريق واحدة من قريباته أو صديقات أسرته ، لذلك فإن الليلة الأولى للزفاف لا يكون لها فى بعض الأحيان من نتيجة إلا القطيعة التامة لتذهب الزوجة غاضبة إلى بيت أبيها . ومع ذلك، فإنه إذا ما ألح رجل فى أن يرى تلك التى يعرضون عليه الزواج منها فإن الشريعة تبيح أن تكشف الفتاة عن وجهها ويديها أمامه ، ولا يمكن أن يتم هذا إلا فى حضور أهلها، وفى الفترة التى قارب الزواج فيها مرحلة التمام . وعلى الرغم من هذا فنادرا ما يلح أحدهم فى ذلك مطلقا حيث إن العادات المتبعة تعارضه . ومن بين الأسباب التى تؤدى إلى زواج مبتسر كهذا خوف الآباء من استسلام أبنائهم إلى ملاذ مهلكة للصحة تحت ضغوط من شهواتهم .

ويمكن للمسلم أن يتزوج من أربع زوجات شرعيات ، بالإضافة لأى عدد من الإماء يستطيع إطعامه ، ومع ذلك فحيث إن عليه – كما سبق القول – أن يوفر لهن جميعا حياة طيبة ، بالإضافة إلى ما ينشده المرء من سعادة وهناء عائلى ، فإن المسلمين من كافة الطبقات يحرصون على ألا يفيدوا من هذه الرخصة التى أباحتها الشريعة إلا باعتدال بالغ . وليس لكبار الشخصيات فى العادة إلا زوجة شرعية واحدة ، وقد تدفع أحدهم الرغبة فى إنجاب الأطفال أو فى الحصول على مصاهرة ممتازة إلى الحصول على زوجة ثانية . وعلى الشخص المتزوج من أكثر من زوجة أن ينام فى مسكن كل واحدة من زوجاته بالتبادل ، أما إذا تصرف بطريقة مخالفة فسوف يلام على سلوكه علنا ، فتفضيل زوجة على الأخريات ينظر إليه كأمر ظالم ، لا يسمح به لأنفسهم أولئك الحريصون على هنائهم العائلى والذين تسيرهم مشاعرهم الرقيقة . وعندما لا تكون الزوجات فى حالة وفاق فيما بينهن – وهذا هو الأمر الشائع – فإن الزوج ملزم بتخصيص منزل لأية واحدة منهن تطلب ذلك ، ولا يستطيع الرجل أن ينجح فى الاحتفاظ بعدة زوجات فى منزل واحد إلا بقوة الإرادة وبالصبر والكرم ، أو بطريق العنف والاستبداد .

وتعدد الزوجات أكثر شيوعا بين الطبقات الشعبية . وهم يسيئون كذلك استغلال سهولة إيقاع الطلاق بزوجاتهم ، حيث إن الأمر لن يكلفهم إلا مهرا بالغ الضآلة، وحيث إنهم – بسبب تلك الغلظة فى طباعهم – ينظرون للمرأة كمخلوق ناقص غير جدير بالاحترام .

ويتم الاحتفال الذى نصح به محمد لإعلان حدث بهذه الأهمية فى منزل والد الزوجة، لكن الوقت لم يكن قد حان بعد كى يستطيع الزوج أن يرى زوجته ، إلا إذا كان الاثنان قد بلغا سن الرشد . وتنقضى الأيام التى تسبق الارتباط فى أفراح عند الأسرتين ، فيُدعى الرجال إلى منزل والد الزوج ، وتدعى النساء إلى منزل والد الزوجة . وتقضى الزوجة يوما فى الحمام ، وتذهب إلى هناك فى صحبة قريباتها وصديقاتها ، يغطيها تماما قناع كبير ، ويزين رأسها تاج ، وتسير تحت هودج تسبقه عالمة وفرقة من الموسيقيين . وتجعل أصوات الآلات الموسيقية وأغنيات العرس وصيحات الفرح التى تطلقها السيدات (الزغاريد) اللائى يشكلن الموكب – كل ذلك يجعل من ذلك الموكب مسيرة صاخبة مليئة بالحيوية . وعندما يصل الموكب فى نهاية المطاف إلى الحمام ، فإن العروس تستعرض على صاحباتها حليها ، فتملأ المباخر بالبخور الطيبة الرائحة ، وتراق العطور الغالية بسخاء وبذخ ، وتكشف صاحبات العروس عن أجمل زينتهن ، وينقضى اليوم فى مرح بهيج وتقدم الإماء أو خادمات الحمام القهوة والشربات والفطائر والحلوى ، ثم يعود موكب العروس إلى بيت أبيها بنفس الطريقة التى ذهبت بها الحمام [١] .

---

(١) حيث إن فخامة وأبهة حفلات الزفاف تختلفان تبعا لدرجة ثراء الزوج فقد اكتفينا فى المتن بأن نقدم فكرة عامة ، لكننا فى هذا الهامش سوف ندخل فى بعض التفاصيل الدقيقة ، حتى لانهمل شيئا يمكنه أن يحدد خاصية عادات مختلف الطبقات الإسلامية فى مصر .

فى أثناء التوجه إلى الحمام تتحجب كل السيدات فى الموكب وكذا العروس، وتحمل العروس فى بعض الأحيان على رأسها وعاء مغطى بشال من الكشمير يتدلى من كل الجهات ، ويغطى الوجه تماما ، ويكون الشال مزدانا بالكثير من المجوهرات والأحجار الكريمة التى استعارتها الزوجة إن لم تكن تملكها

= =

ولا يفوت الزوج بدوره أن يذهب إلى الحمام العام ، وهذه عادة يتبعها الأثرياء على الدوام حتى عندما يكون لديهم فى منازلهم حماماتهم الخاصة . وهو يقوم بإبلاغ رغبته فى ذلك إلى أسطى الحمام عشية اليوم الذى يرغب أن يذهب فيه إلى

هى نفسها. وحتى يكون الشال أكثر بريقا فإنه يغطى من الأمام بورقة طويلة من الذهب . وبرغم أن الشال يتدلى حتى القدمين تقريبا فإننا نستطيع أن نلمح – من خلال الفتحات التى يكشف عنها – ملابس الزوجة البالغة البذخ والمطرزة بخيوط الفضة والذهب . وترتدى الزوجة خفين من جلد الماعز الأصفر ونعلا مطرزا ، وهى لا تكشف مطلقا عن يديها . ويسمح شكل ملابسها بأن نكون فكرة عن قامتها ودرجة سمنتها . وهى تسير تحت هودج تغطيه ناموسية من الكريشة المصبوغة باللونين الأخضر والأحمر ، ويحمله الأصدقاء أو الأقارب من أركانه الأربعة . وعندما يحتفل أحد المماليك بزواجه على هذا النحو فإن المماليك هم الذين يحملون أركان الهودج . ويسير مع العروس تحت الهودج اثنتان من خيرة صديقاتها مزينتان بأغلى الحلى وتسير خلفها أمها ، ويتقدم المسيرة رجال يحملون الدفوف ، وبعدهم خادم يسير أمام الهودج حاملا على رأسه طبقا من الفضة أو النحاس المحلى بالذهب ، مغطى بقطعة من الحرير المطرز . ويحتوى هذا الوعاء على زوج من الأحذية الخشبية (القبقاب) المزدان بشريط من الفضة، ويحتوى كذلك على مشط من العاج محلى بالفضة كذلك ، وقمعين صنوبين من السكر الناصع البياض ، وشمعتين بيضاويتين ، ومنديلين من الموسلين المطرز بالفضة ، وأخيرا على رطلين (الرطل = ١٨٠ درهم ويساوى تقريبا نصف كيلو جرام ونصف الجرام ١٠٠ رطل = ٥٥كيلو جرام) من البن أحدهما مغلف بشكل مختلف عن الآخر ، ويضم الموكب فتيات ومدعوات يصل عددهن إلى ٢٠، ٣٠، أو ٦٠ سيدة .

ويلاحظ فى حفلات زفاف الطبقة الدنيا وجود نفس العادات مع تعديلات طفيفة . فبدلا من المجوهرات والأحجار الكريمة التى تزين الشال الذى يتدلى حول العروس، يرصع الشال بكمية كبيرة من النقود الفضية ، ويحمل رجال من العامة أطراف الهودج ، الذى يسبقه بعض العبيد يرتدون ملابس على نمط القسطنطينية ، وموسيقيون يركبون الحمير ، ويقوم رجل يسير بالقرب من العروس برشها من آن لآخر بماء العطر ، بينما تقفل المسيرة جمهرة من النساء ينشدن الأغانى التى تنشد عادة فى مناسبات العرس .

وخارج مدينة الأسكندرية شاهدنا عروسا بدوية كانوا يتجولون بها ، وكانت تركب فوق جمل ، وتصحبها الماشية والأثاثات وكل الأشياء التى تلقتها كمهر ، وكان الموكب بطيئا ، بل كان أحيانا يتوقف =

هناك ، فيسارع العمال بتجهيز الحمام بطريقة لائقة . ويزينونه بالورود فى حالة السيدات ، أما فى حالة الرجال فيكتفى بإحراق البخور فيه ، وفى نفس الوقت يكون العريس قد دعا ١٥ - ٢٠ من أصدقائه ليصحبوه ، وبعد أن يدخلوا صالة الحمام لا يقبل دخول أشخاص آخرين . وهم فى الغالب يحضرون معهم بياضاتهم وأغطيتهم وفوطهم ، كما يجلبون معهم عازفين للترفيه عنهم . ويأتى مدير الحمام نفسه لاستقبال الجميع ، ويقود العريس إلى الحمام ، وينسحب ليأتى بعد قليل حاملا الفليون ، وعندما ينتهى العريس من حمامه يقوده مدير الحمام مرة أخرى إلى الحجرة الأولى . وفى اليوم الأول الذى يمضيه هؤلاء فى الحمام لا يأكلون شيئا، ويحصل مدير الحمام من العريس على ٦٠٠ - ١٠٠٠، وأحيانا ألفين من البارات حسب درجة ثرائه .

ويؤدى الأثرياء حفلة الحمام هذه مرتين .

وأخيرا يحل اليوم الكبير حيث ينبغى أن تذهب الزوجة إلى بيت زوجها ، ويأتى الأب أو واحد من أصدقائه ليأخذها من بيتها . ويسير خلفها موكب لا يقل روعة عن موكبها إلى الحمام، وتسير العروس تحت هودج ، وتغطى طيلة الطريق بقناع لا يكشف شيئا ، ويسير أمامها العبيد حاملين مجوهراتها وملابسها فى سلال مزدانة، لكنها لا تتوجه مباشرة إلى منزل زوجها، بل تقوم بجولة طويلة زيادة فى

=

وقفات قصيرة . وكان البدو يطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم ، كما كانوا يعزفون الموسيقى بينما يواصل النساء غناءهن بلا انقطاع .

وجدير بالذكر أن هذه الاحتفالات التى تتم خارج البيت والتى عرضنا للتو تفاصيلها لا يمارسها البكوات وكبار الشخصيات بالقاهرة، ذلك أن احتفالات العرس عند هؤلاء تتم داخل البيوت . كما أن المشايخ وبقية المسلمين الذين حصلوا على قدر كبير من التعليم قد هجروا بالمثل عادة تقديم الدليل على بكارة زوجاتهم للأقارب والأصدقاء باعتبار ذلك شيئا يخدش الحشمة .

أما عامة الشعب والأقباط فإنهم وحدهم الذين ما يزالون يمارسون هذا السلوك .

الأبهة . وعندما تصل إلى بيت الزوجية ، يحتفل بقدومها بإقامة وجبة باذخة فى مسكن النساء ، ولا يكون الزوج من بين المدعوين ، إذ هو يتوجه فى المساء إلى المسجد للصلاة ، يصحبه أقاربه وأصدقاؤه وتسبقه جوقة من الموسيقيين، وعند عودته إلى بيته تقدم القهوة والشربات ، ثم يدخل حجرة العروس وتنسحب بقية السيدات فيما عدا القابلة والبلانة ، ويقترب الزوج من زوجته المغطاة بنقابها ويسمى باسم الله ، إله محمد، بينما قلبه يدق خوفا وأملا ، وعندئذ تنسحب بدورهما السيدتان الغريبتان . وعندما تصبح الزوجة بمفردها مع زوجها فإنها تقدم له العسل والفطائر ومأكولات أخرى على هذه الشاكلة ، رمزا معبرا عن العاطفة والمودة التى هى حق لكل منهما على الآخر ، والتى هى الضمان الأكثر وثوقا لكفالة حياة عائلية هانئة .

وتتلقى الزوجة ثلثى مهرها عند دخولها إلى منزل الزوجية ، ويكون هذا المبلغ ملكا خاصا بها ، وهى تستطيع أن تتصرف فيه على النحو الذى يعجبها، ولا يمكن للزوج أن يحاسبها عليه مطلقا ، بل ليس له مجرد الحق فى مناقشتها فى أمره .

ويحسن بنا هنا أن نلاحظ أننا سوف نكون قد أخطأنا على نحو كبير إذا ما اعتقدنا أن المسلمات – برغم خضوعهن لنفوذ أزواجهن – يمكن أن يعاملن باستبداد وطغيان من قبل أزواجهن ، فإن وضعهن على العكس من ذلك طيب لحد كبير، كما أنهن فى نفس الوقت الذى تقضى فيه التقاليد والقوانين عليهن بنوع من الانسحاب والتقوقع الدائم – يتوصلن لامتلاك نفوذ لا شك فيه على عقول أزواجهن ، كما أن هؤلاء لا يستطيعون مطلقا أن يسيئوا معاملتهن بل ولا حتى أن ينهروهن بحدة ، إذ للزوجة فى هذه الحالة أو تلك أن تطلب الانفصال وتعود إلى بيت أبيها .

ويتكفل الأهل بتعليم الزوجة واجباتها وحقوقها الزوجية، ولا يتدخل الأزواج مطلقا فى الأمر، ويتم ذلك عادة قبل الزواج . وهكذا تعمل عادات وأصول اللياقة

على التخفيف لحد ما من تزمت تلك الولاية المستبدة التى تعطيها الشريعة للرجال على زوجاتهم . ومع ذلك فالنســاء ســعيدات بقدرهن ، ولايمكن لهن أن يتصورن – مجرد تصور – كيف يمكن أن تكون نساء الغرب فى حالة أكثر امتيازا مما هن عليه.

٢

الانفصال والطلاق

جعلت الشريعة الإسلامية من الطلاق أمرا بالغ السهولة ، إذ يكفى أن يقول الرجل لزوجته : "أنت طالق" حتى يكون الطلاق قد وقع ، دون أن يكون القاضى فى حاجة لأن يتدخل فى الأمر أو أن يقف على دوافع هذا الطلاق . وهنا تتسلم الزوجة الباقى من مهرها ، وتحمل معها مجوهراتها وبقية متعلقاتها ، وتنسحب من بيت الزوجية . وقد حدد محمد الأمر على النحو التالى فى القرآن : "للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر " . "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء " . "الطلاق مرتان" . "ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا" "فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا "..* "وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولاتنسوا الفضل بينكم"** . وحسب أوامر المشرع هذه ، فإن الزوج إذا ما طلق زوجته فى اليوم الأول لزواجهما دون أن يباشرها – وهذا أمر يحدث فى بعض الأحيان – فلا ينبغى عليه أن يدفع لها إلا نصف مهرها ، أما إذا ماحدث لزوج طلق زوجته أن استعادها مرة أخرى ، وكرر الزواج والانفصال ليبلغ عدد مرات ذلك ثلاثا مع نفس

(*) البقرة . ٢٢٦ – ٢٣٠ . (المترجم) .

(**) البقرة ٢٣٧ . (المترجم) .

المرأة ، فإنه لا يستطيع أن يتخذ منها بعد ذلك زوجة شرعية ، إلا إذا مرت قبل ذلك بأحضان رجل آخر . وقد يبدو هذا التشدد من جانب المشرع للوهلة الأولى همجيا أو باعثا على الضحك ، ومع ذلك فإننا نجد فيه فكرة عميقة ومعرفة عظيمة بنفوس البشر ، فبوضع الزوج هكذا عرضة لنوازع الغيرة – وهى عاطفة بالغة العنف عند الشرقيين– سوف يكون عليه أن يتروى ولايستجيب ببساطة لأبسط مشاعر الغضب ، فيقرر هكذا ببساطة وبمثل هذه السرعة الفائقة طلاقا ظالما فى معظم الأحيان، سوف يتحمل هو قبل غيره عواقبه القاسية إذا ماعاد به الندم والعاطفة ذات يوم إلى مشاعر أرق. ولهذا السبب فقد حدث أكثر من مرة أن قام الزوج المطلق – وهو يتحسر على جمال وفضائل زوجته فى الوقت الذى يريد فيه أن يذعن لأحكام الشرع – بدعوة أحد أصدقائه إلى اتخاذ طليقته هو زوجة له، ويتفق مع هذا الصديق على أن يقوم بتطليقها دون أن يقربها فى فترة هذا الزواج القصير المدى ، ومع ذلك فينبغى أن يظل هذا الاتفاق سرا على الناس جميعا بخلاف الأطراف الثلاثة المعنية . ويتحتم على وجه الخصوص أن يكون ثمة ثقة تامة فى الزوجة ، لأنها هى التى سوف تلعب الدور الرئيسى فى هذا التواطؤ الغريب. ومع ذلك فقد حدث فى بعض الأحيان أن نسى مثل هذا الصديق – بعد أن أخذه جمال عروسه تلك – نفسه لدرجة يخون معها مابينه وبين صديقه الغيور من ثقة وصداقة ، بل ويحتفظ بتلك الزوجة التى كان عليه فقط أن يتظاهر بالزواج منها.

وحيث إن محمدا قد تنبأ بأن الطلاق يمكن أن يقع بسبب تافه كمجرد نفور طارئ ، فقد نصح الزوج المُطَلِّق – حتى يتجنب بقدر الإمكان مثل هذه المأساة العائلية – بأن يبقيها فى بيته مدة ثلاثة أشهر ، على أمل أن يؤدى إعمال الفكر أو تؤدى بعض المجاملات المتبادلة إلى إعادة الود بينهما قبل انقضاء هذه المهلة ، وبرغم الحكمة البادية فى مثل هذا الأمر فإنه نادرا ما يحدث ، إذ من المعتاد فى القاهرة أن تخرج المرأة من بيت زوجها بمجرد أن يتم طلاقها منه. ويمكن للمطلقة

أن تتزوج بعد مضى ثلاثة أشهر من انفصالها ، أى بعد أن تأتيها عادة النساء الشهرية ثلاث مرات ، ويعتبر إعلانها هى للأمر كافيا . فإذا ماحدث ووجدت نفسها حاملا فى هذه الفترة فإن الأب المطلق لايمكنه أن يطلب طفله إلى حضانته إلا بعد أن يبلغ من العمر سبع سنوات بالنسبة للذكور، أما بالنسبة للإناث فإنه لايستطيع أن يطلبها إلى حضانته إلا بعد أن تصل إلى سن البلوغ ، وفى نفس الوقت، فإنه – الأب المطلق – ملزم بأن يدفع مصاريف رعاية وإطعام وتعليم الوليد مهما كان جنسه.

وقد يحدث أن تنتقل الأم إلى بيت زوج جديد، وفى هذه الحالة تعهد بوليدها إلى رعاية جدته أو واحدة من أقرب قريباتها فتاة كانت أو أرملة ، ولايمكن للأب أن يسترد طفله إلا فى حالة ما إذا لم يكن لزوجته أسرة ، ونادرا مايحدث ذلك[1].

والزنا هو أخطر اتهام يمكن أن يوجهه زوج إلى زوجته ، لكن المشرع جعل هذا الاتهام عسيرا على الإثبات لدرجة لايمكن معها أن نذكر إلا عددا بالغ الضآلة من السيدات أُدِنّ أو عوقبن على مثل هذه التهمة . ومع ذلك فإذا ما أقسم شخص ما خمس مرات أمام القاضى أن زوجته قد خانته ، ثم أقسمت هى خمس مرات على عكس ذلك ، فإن القاضى يحكم بطلاقهما ، ويصبح انفصالهما أبديا. ولسنا

(١) نضيف إلى هذا العرض لقواعد الطلاق أن الرجل إذا ماطلق زوجته قبل أن يختلى بها فإنه ليس ملزما نحوها إلا بنصف المهر ، ولكن لو حدثت خلوة بينهما ولو مرة واحدة فهو ملزم قبلها بدفع المهر كله ، وتحمل البنت أو المرأة المطلقة معها إلى بيت أبيها كل ماخرج منه بالإضافة إلى حقوقها هى من قِبَلِ طليقها ، وهى عبارة عن الثلث الأخير من المهر، وهى تتسلمه عند خروجها من بيت زوجها ، ويكون ذلك دليلا على القطيعة . وكما سبق القول فليس ثمة إجراءات قضائية أو عقود مكتوبة للتصديق على الزواج أو لتسجيل الطلاق ، ونمتنع هنا عن الإدلاء بآرائنا حول غرابة وشذوذ هذه العادات كما قد يراها من تختلف أنظمتهم عن هذه النظم ، ومع ذلك فقد يكون المشرع العربى قد استهدف من وراء تلك التشريعات أن يتفادى مضار أكبر خطورة ، فلكل الشعوب طباع خاصة بها كالأجواء التى يعيشون فيها ، وعلى أولئك الذين يريدون الحكم على أنظمة وعادات الآخرين أن يراعوا هذه الحقيقة التى لا مفر منها ، وأن يقرروا نتيجة لذلك. وهذا هو العذر الوحيد الذى يمكن التماسه لمحمد.

بحاجة للقول بأن أبناء الطبقة العليا أو حتى الطبقات البسيطة يتفادون على الدوام الفضيحة التى تنجم عن حكم كهذا، إذ لايعرض نفسه وعرضه لمثل هذه المهانة إلا ضعاف النفوس وقليلو الحياء ، لكى يشبعوا شهوة الانتقام والرغبة فى التشهير التى تستبد بهم .

ولا يمكن للمرأة بمطلق حريتها أن تغادر بيت الزوجية . وإذا ما نشأ نفور أو كراهية أو كان هو يهملها أو يسئ معاملتها ، فإنها تستطيع أن تحمله عن طريق عروض سخية تقدمها له أن يقبل الانفصال بينهما ، فإذا مارفض وظل سادرا فى أساليبه السيئة فإنها تتوجه إلى القاضى ، ويفحص الأخير شكواها، ويحكم بالطلاق إذا ما اقتنع بالأسباب التى قدمتها له ، وفى هذه الحالة لاتفقد المرأة أى حق من حقوقها، وتحتفظ بكل مهرها وكل امتيازاتها، أما إذا قبل الزوج الطلاق الذى عرضته عليه زوجته فلا يمكنه أن يردها إلى عصمته إلا بعد أن يعقد عليها عقد زواج جديد.

وكنتيجة حتمية ، فلابد أن يكون الطلاق فى بلاد ليس للمرأة فيها – فى غالب الأحيان – حق اختيار زوجها، أكثر انتشارا منه فى البلاد التى تتم فيها الزيجات نتيجة لعواطف وميول متبادلة، كما أنه أكثر شيوعا من جهة أخرى بسبب السهولة التى منحتها القوانين للأزواج، وهذا مايحدث فى تركيا ومصر. وبالرغم من الحقوق التى رتبها محمد للنساء قبل أزواجهن ، وبالرغم مما فرضه على الأزواج بضرورة إبقاء زوجاتهم فى البيت ثلاثة أشهر بعد الانفصال الأول ، فإن الطلاق بالغ الشيوع . ومع ذلك فلابد أن نقر بأن ليس ثمة ما يشين امرأة مطلقة ، فهى تستطيع العثور على زوج آخر بسهولة . لكن حياة الناس تتأثر على الدوام من مثل هذه الحرية المعيبة ، وإن كان الأمر المؤكد – نقول هذا باسم الحقيقة – أن التقدم الحضارى قد جعل مثل هذا الفعل المعيب أقل انتشارا بين الطبقة العليا فى المجتمع ، بل يكاد ينظر إليه كأمر ماس بالشرف . وسعيدة هى تلك الأمم التى يمكن للعقل والأخلاق عندها أن تنتزع السوءات من جذورها ، وبخاصة عند هؤلاء

الذين يعانون من جموح عواطفهم وشهواتهم : وتلك هى طباع المصريين . ونحن فى وضع يسمح لنا بتكوين هذا الرأى عنهم ، بعد تلك الفترة التى أقمناها فى وطنهم ، ولعله ليس ببعيد ذلك اليوم الذى ستبذل فيه الجهود لإعادتهم إلى حظيرة العلوم والفنون ومختلف مناحى الحضارة ، بل ويمكننا أن نتجاسر بالقول بأن جهودا كهذه لن تلقى أية صعوبة، فالنجاح فى هذا الأمر يتجاوز بكثير مرحلة الأمل .

ولابد قبل أن ننهى هذا الفصل أن نتحدث عن بعض الاعتبارات العامة حول حياة ودور النساء فى مصر ، وحول الطريقة التى تمضى عليها حياتهن، فهذا الجنس الذى كان موضوعا لاهتمامنا وعنايتنا ، هو أبعد ما يكون - كما سبق أن لاحظنا - عن أن يحصل على نفس الامتيازات التى يحصل عليها المسلمون الرجال، فالمرأة - وقد انعزلت عن المجتمع - محكوم عليها بالعدم المطلق وبالعار، ويضعها المسلمون فى عداد الكائنات التى لا تحظى بقدر كاف من الذكاء ونعمة العقل . ويعود هذا التهوين من شأن المرأة إلى الخليفة عمر ، وذلك حين منعهن من الإسهام فى ممارسة الواجبات الدينية ، فلقد صك بذلك أمرا لا راد له بالحط من شأن النساء، وإن كان محمد نفسه ليس بعيداً عن مشاركته فى ذلك ، فنهجه الدينى مجحف بالجنس اللطيف ، ويمكنك بلا جدال أن تهدم الدعائم التى تنهض عليها جنته الموعودة ، فما عليك لكى تفعل ذلك إلا أن تستبعد منها أولئك النسوة الفانيات. ولكن، أو لم يكن بمقدوره أن يعثر على وسيلة أكثر إنصافا كى يربط أحلامه الرائعة بالعقل والعمل ؟ .

وحيث إن الرجال يضعون النساء فى مرتبة أدنى منهم ، فإنهم يكنون نحوهن نوعا من الاستخفاف والاحتقار ، تتعرض معه النساء على الدوام لإهاناتهم بل ولضروب من قسوتهم الرهيبة . لكن إساءة معاملتهن تلك - كما سبق لنا القول - لا تأتى من جانب الزوج ، بل تتعرض النسوة لذلك من جانب أهلهن قبل الزواج ، ثم يتعرضن لنفس المخاطر بمجرد أن يصبحن مطلقات ، وليس بمقدورهن أن يؤمن

أنفسهن ضد هذا العسف إلا فى حماية زوج . ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن اللوم ينصب بصفة خاصة على الطبقات الدنيا من سكان المدن ، وعلى أولئك الذين تكاد لم تمسهم الحضارة فى الريف . أماالرجل التركى ، أو ذلك الرجل الذى ينتمى إلى أعيان المصريين فإنه ينظر إلى ضرب زوجته باعتباره عملاً إجراميا ، يمثل ما هو باعث على العار . لكن هذه النظرة الإنسانية والعاقلة ليست للأسف هى الشائعة ، ولا يدعمها القانون بسطوته . وسوف تجعلنا الحكاية التى سنقصها هنا نقف على رأى المسلمين فى النساء ، ومن الممكن أن نقص آلاف الأمثلة ، لكننا نكتفى هنا بتلك الحكاية التى كنا نحن بأنفسنا طرفا فيها .

كنا فى قرية الرحمانية ، عندما لجأت امرأة وعديد من الرجال إلى منزل واحد من زملائنا ، وركعت وركع الجميع على ركبهم طالبين العدل أو بالأحرى الانتقام ، حيث يفضل الشرقيون استخدام تلك الكلمة الأخيرة، وكانت المرأة ملطخة بالدم . هدأ زميلنا من روعها ، واكتشف أنها مضروبة فوق رأسها، وأراد أن يخلع النقاب الذى يغطى وجهها ، لكنها قاومت، فكرر المحاولة وانتزع النقاب ، لكن البائسة – التى كانت تتمسك وهى فى آلامها تلك ، بالواجبات التى تفرضها على جنسها عادات وتقاليد بلادها – غطت وجهها بيديها . واحتراما من زميلنا لمعتقدات كهذه فقد قص الشعر المحيط بالجرح وضمده بنفسه ، حيث لم يكن ثمة طبيب، وربط الضمادة بقطعة من قميص مزقه لهذا الغرض ، وعندما شاهده بعض المسلمين والأقباط يقوم بهذا العمل، أظهروا بالغ دهشتهم علنا ، بل وعبروا عن استنكارهم لقيام رجل يشغل منصبا عاما مثله بالانحدار لدرجة يضمد معها كائنا حقيرا ، وتلك رؤيتهم للمرأة . وعندما صدمته همجيتهم تلك أراد أن يطردهم ، لكنهم ظلوا يقولون له إنه بذلك يسئ إلى كرامته .

ويضيف زميلنا : توجهت على الفور إلى حاكم الولاية وعرضت عليه الأمر، فخولنى كامل السلطة فى عقاب المذنب الذى كنت قد أمرت بإلقاء القبض عليه . وعندما عدت إلى منزلى وجدت هذا الرجل .

– أهو أنت أيها الهمجى الذى عامل هذه المسكينة بهذه الوحشية ؟

فأجابنى ضاحكا :

– ماذا ؟ أتظنها وحشية أن تضرب امرأة ؟

– وذلك الدم الذى أسلته ؟

فأجاب – لا يمحو دم الرجل إلا الدم، لكن ليس هذا هو الأمر بالنسبة للنساء.

واستفزنى الهدوء الذى يصطنعه فى ردوده ، فقلت له :

– نحن قضاتك ، وتلك القسوة التى أبديتها جريمة كبرى فى نظرنا وسنعاقبك.

– وهل ستعاقبوننى لو أننى جرحت بقرة ؟

– بلا جدال ، إذا لم تكن ملكا لك .

– إذن فاستمعوا لأسبابى، وسوف ترون أنه كان على أن أسلك هذا السلوك . لقد انتزع المماليك منى حقلى لكى يعطوه لابن عمى . ثم جاء الفرنسيون ليصلحوا من مظالم المماليك : أفلا يحق لى إذن أن استرد أملاكى السابقة ؟ لكن ابن عمى وأخته وابنه اعترضوا على ذلك فضربتهم، وسأظل أضربهم حتى يعيدوا إلى أرضى . إننى لا أطالب إلا بما هو حق لى ، بل إننى ألجأ لهذا الغرض إلى عدالة القوانين الفرنسية .

– حسن، ما دمت تتحدث عن القوانين الفرنسية، فاعرف إذن أنها تعاقب السفاحين ، والذين يسمحون لأنفسهم بارتكاب أعمال العنف ضد الآخرين .

واستدعيت إلى بيتى أعيان وشيوخ القرية:

– ماهو العقاب الذى توقعونه على الذين يضربون أو يجرحون عامدين أحد الرجال ؟

فأجابوا في وقت واحد :

– عصا في مقابل كل عصا ، وليس ثمة أكثر من ذلك . أما العقوبات التي نعاقب بها عموما فهي : الغرامات، الضرب بالعصا، الموت .

– يكفي، والرجل الذي ماثل أمامنا الآن قد جرح هذه البائسة، وهو يطلب أن يعامل حسب القوانين الفرنسية . فليعلم إذن أن الإنسان حسب هذه القوانين لا يستطيع أن يحصل على حقوقه بنفسه، وأن للمرأة نفس الحقوق التي للرجل، وأن دمها ليس أقل قيمة من دمه . ونتيجة لذلك فسوف يضرب على الفور ٢٥ عصا .

– ٢٥ عصا ؟ (صاحوا جميعا بلهجة تنم عن دهشة شديدة) ليس هذا عدلا، فهذا أقصى ما كنا سنوقعه عليه من عقاب لو أنه قتلها .

– نعم ٢٥ عصا ولتنفذ أوامري على الفور، وإذا ماتت المرأة سنتخذ إجراءات أخرى .

وعندما حان وقت تطبيق العقاب لم يشأ أي منهم أن يتحمل مسئولية تنفيذه ، فأرسلت في استدعاء القواس ، لكنه مارس واجبه برخاوة وحرص، حتى أن خادما ملطيا – كان يشاركني الشعور بالغضب – انتزع منه العصا ، وأكمل هو العقاب بالقسوة التي يقتضيها الحال .

وهذه الحكاية تصور – دون حاجة منا إلى تعليق – تقاليد الطبقة الدنيا من الشعب، وتعطي فكرة دقيقة عن رأي أبنائها في النساء في مصر، ويكاد الأمر يكون على هذا النحو في كل بلدان الشرق .

٣

الطعام

القناعة فضيلة مصرية، وإذا كنا نجد أثرياء المدن الكبرى يتصفون بالشراهة ويصنعون أطعمة بسيطة الإعداد ليتناولوها بكميات كبيرة جدا (ويوجه هذا اللوم إلى المماليك بصفة خاصة) ، فإن الطبقة العاملة وكذلك الفلاحين شديدو القناعة بشكل لافت للنظر، فهم لا يتناولون من الطعام إلا ما يكفى كى يقيم أودهم ، وفضلا عن ذلك فغذاؤهم هذا بالغ السوء والفقر ، لدرجة أن المرء لا يكاد يتصور كيف يمكن أن يكفيهم هذا الطعام ، وكيف يمكنهم والحالة هذه أن يقوموا بأعمالهم الشاقة .

ويحب المصريون قبل كل شئ لحم الضأن، ولكن الطبقات الشعبية لا يمكنها أن تستمتع بمثل هذا الترف إلا أيام المناسبات الهامة ، أما بقية العام فهى تعيش على الخضروات الطازجة والسمك المملح ودرنات النباتات وبقول من نوع الحمص والفول والترمس .. وتباع الأطعمة الأخيرة مطبوخة ، وتشكل بالإضافة إلى بعض الفاكهة الغذاء الرئيسى لسكان المدن .

وبالرغم من أن تربة مصر تنتج القمح بكميات وفيرة ، وأن لبذور القمح هنا خاصية ممتازة ، وأن سعرها أقل بكثير من سعرها فى أوربا – فإن القمح لا يشكل الغذاء الأساسى لغالبية السكان ، كما يحدث فى كل مكان . إذ يترك الفلاح وصغار الناس – بدافع فطرى بل ربما يكون الأمر بدافع اقتصادى – للأغنياء عادة أكل الخبز الذى ينظرون اليه كأمر من أمور الترف ، ليتغذوا هم بوجه خاص على الخضروات التى تزرع فى كل الفصول ، فيأكلون بدلاً من الخبز – على سبيل المثال : درنات القلقاس ، جذور الجزر ، ثمار البامية ، والباذنجان ، والخيار، والشمام والبطيخ ، والعبد اللاوى (العجور) ، وأنواعاً أخرى من الشمام تزرع بمصر ، وأوراق الخبازى ، والملوخية ، والحلبة ، وهذه النباتات مرطبة ومخاطية،

وبالإضافة إلى ذلك يأكلون حبوب الذرة ، والذرة العويجة ، والترمس ، والحمص . كما يتغذون بثمار النخل (البلح) ، والسمك المملح ، واللبن الرائب ، والجبن ، والعسل الأسود . وكما سبق أن قلنا فإن اللحم أبعد من أن يكون طعاماً يومياً لتلك الطبقات.

وربما جاز لنا أن نجد في كسل المصريين الفطرى وفي ندرة الوقود في بلادهم ، بعض أسباب هذا الصيام المستمر الذى حكموا به على أنفسهم حتى يتخلصوا من حيرة المطبخ ، ولعلها هى نفس الأسباب التى دفعتهم إلى تفضيل استخدام الأطعمة التى يمكن أن تؤكل نيئة وبلا إعداد ، أو تلك التى يمكن طهيها بكميات كبيرة على يد أناس يحترفون ذلك كمهنة لهم . وفضلا عن ذلك ، فلو أننا قارنا طريقتهم فى الغذاء هذه وتلك التى كانت لدى قدماء المصريين لوجدنا تماثلا كبيرا ، سواء فى المأكولات أو فى بساطة إعدادها (١) .

---

(١) يقول هيرودت عن غذاء المصريين بينما هو يتحدث عن بعض عاداتهم .

«أما عن الطعام ، فقد تفتق ذهنهم عن وسائل دعوية للحصول عليه بسهولة ، فعندما يكون فيضان النيل فى أوجه ويصبح الريف أشبه بالبحر ، تظهر فى المياه كميات هائلة من الزنابق يسميها المصريون البشنين (اللوتس) ، فيقومون بجمعها وتجفيفها فى الشمس ، ثم يأخذون بذورها التى تشبه بذور الخشخاش ويصحنونها ليصنعوا منها الخبز الذى يقومون بإنضاجه على النار ، كما يأكلون كذلك جذور هذا النبات ومذاقها طيب لذيذ ، وهى مستديرة وفى حجم التفاحة . وثمة نوع آخر من الزنابق تشبه الورود وتنمو بكثرة أيضاً فى مياه النيل ، ويقوم المصريون بجمع ثمارها التى توجد بها كمية من حبوب حسنة المذاق وفى حجم نواة الزيتون ، وهى تؤكل خضراء أو جافة . أما البردى فهو محصول سنوى، وعندما يؤخذ من المستنقعات يقطع الجزء العلوى منه ويستخدم استخدامات عدة ، أما جزؤه السفلى وما يتبقى من النبات - ويبلغ طوله حوالى ذراع - فإنه يؤكل نيئا ، أما الذين يريدون له مذاقا أفضل فيقومون بتحميره فى فرن ملتهب ، وبعض المصريين لا يعيش إلا على السمك ، وهم ينزعون أحشاءه ويجففونه فى الشمس ويأكلونه بعد ذلك . (هيرودت ، الكتاب الثانى، الفقرة ٦، ص ٧١ ترجمة : لارشيه) . ويضيف المؤرخ فى مكان آخر من كتابه: « يصنع المصريون خبزهم من الشعير ، ويعيشون =

وأثناء حرارة الصيف الشديد يأكل الناس بشغف : البنجر والخيار والبصل المنقوع فى الخل ، وهذا النوع من الطعام رخيص الثمن ، وينادى عليه الباعة فى الشوارع ، ويعرضونه فى الميادين حيث يتجمع العامة أيام الأعياد ، وفى هذا الفصل أيضا يأكل الناس أوراق الحلبة . ويصنع المصرى لنفسه وجبة شهية ، مكونة من : الخس والخيار والبطيخ أو الشمام ، دون أن يقوم بتمليح الصنفين الأولين . وهو يأكل السلاطة بشهية عظيمة ، ولا يكلف نفسه عناء تزويدها بالزيت أو الخل ، ويأكل - كحلوى - كيزان الذرة المشوية قليلا فى الفرن ، والتى قطعت قبل أن تبلغ مرحلة النضوج .

وعندما تنقضى مواسم الفاكهة والخضروات ، يصبح الطهاة الذين يقومون بطهو كميات كبيرة من الفول والحمص ... الخ المصدر الوحيد لطعام الطبقة الدنيا من الشعب . ولعل هذه المناسبة هى التى ينبغى أن نقول فيها كلمة عن طريقتهم فى طهو هذه الأطعمة، وهى طريقة اقتصادية للغاية وبالغة البساطة . فطهاة الشعب - إن كان يصح أن نسميهم بهذا الاسم - لديهم قدور من الفخار كبيرة

=

على السمك النيئ المجفف فى الشمس والمتبل فى ماء مالح ، ويأكلون كذلك السمان والبط وبعض الطيور الصغيرة، وهم يأكلون هذه الأصناف نيئة بعد تمليحها» .

ويتحدث ديودور الصقلى فى نفس الموضوع فيقول

«يقال إن المصريين فى بادئ أمرهم كانوا يعيشون على الأعشاب ، فكانوا يأكلون الكرنب وجذور النباتات التى يعثرون عليها فى المستنقعات دون أساس للمفاضلة بينها إلا المذاق ، وكانوا يأكلون على وجه الخصوص العشب المسمى المرجية agrostis ، ومذاقه طيب للغاية ، وكان غذاء كافيا للإنسان . ومن المؤكد أنه كان مفيدا على وجه الخصوص لقطعانهم ، فقد كان يؤدى إلى تسمينها بشكل واضح ، ولا يزال المصريون حتى اليوم - عرفانا بما أداه هذا النبات من فائدة لآبائهم - يحملون هذا النبات فى أيديهم وهم ذاهبون إلى المعابد لتأدية الصلاة لآلهتهم . والطعام الثانى للمصريين هو السمك ، ويهيئ لهم النهر كميات هائلة منه ، وتظل كميات كبيرة منه على سطح الأرض بعد انحسار المياه، كما أنهم يأكلون كذلك لحم ماشيتهم ، ويستخدمون جلودها فى صنع ملابسهم ، وقد تعلموا مؤخرا أكل الفاكهة وأهمها البشنين (اللوتس) الذى يستخدمونه فى صنع الخبز .

الحجم ، يقومون بملئها حتى ثلاثة أرباعها بالبقول المغمورة بالمياه ، وتسمى هذه : "قدرة الطبخ" بلغة أهل البلاد ، وبعد أن تملأ القدرة بهذه الطريقة يغلق حلقها تماما بالليمون النيلى وطين الطفل ، ثم تدفن فى رماد الحمامات العامة الملتهب ، وتترك هكذا لمدة ٥-٦ساعات ، وبعد ذلك يصبح الطعام مطهوا تماما وصالحا للبيع، ويشتريه الجمهور بكميات قليلة مع قليل من الملح ، ويزين أحيانا بالخس وقليل من التوابل . ويساوى الطبق من هذا الطعام – إذا كان مزودا بالتوابل : فلفل أسود ، فلفل أخضر ، زنجبيل – بارة واحدة ، أما إذا لم يكن مزودا بالتوابل فلا يزيد ثمنه عن ٦ أجداد[1]. أما أولئك الذى يبغون توفيرا أكبر فيمكنهم أن يكتفوا بكميات من الترمس . ويطهى الترمس بنفس الطريقة السابقة ، ولكى يفقد الترمس مرارته فإنه يستنبت قبل إعداده ، ثم يغسل وذلك بوضعه فى سلال تدلى وسط النيل ، وعندما يتم كل ذلك يطهى الترمس . ولا تساوى كمية كبيرة من هذه الخضار أكثر من ٢-٣ أجداد ، وفضلا عن ذلك ، فهذه الكمية – مع قناعة المصريين الشديدة – تكفى وجبة لرجل .

والبلح الطازج أو المجفف هو أيضا ذو نفع كبير للطبقات الشعبية ، وبخاصة سكان الريف . ويكاد لا يكون للبدو من طعام سواه . وفى الصعيد، توجد قرى بأكملها لا تعيش إلا على البلح وحده لمدة تزيد على عشرة أشهر فى العام ، وتؤكل هذه الفاكهة فى حالات مختلفة من النضوج ، وتستهلك منها القاهرة والمدن الأخر كميات كبيرة ، ويأتى جزء كبير من البلح الذى يأكله سكان الدلتا من الصعيد، وهو يصل إلى هناك طازجا أو مجففا ، ويصل النوع الأخير إما بكامل هيئته ، وإما منزوع النوى فى هيئة كتلة مضغوطة (عجوة) ، وهذا ما يجعله قابلا لأن يبقى فترة طويلة دون أن يتلف . وعندما تقطع منه قطعة فإنها تشبه اللحم المفروم الذى يسميه الجزار فى باريس Fromage de cochon . والبلح المجفف سواء كان

---

(١) الجديد عملة من النحاس ، والبارة تساوى ١٢ جديدا .

بكامل هيئته أو معدا بالشكل الذى بيناه للتو غالى الثمن ، لأنه ينقل من مكان بعيد ، وبسبب غلو سعره فإن الطبقات الدنيا لا تستطيع التزود به ، لذا فهى تكتفى بالبلح الطازج الذى يجمع فى مناطق مجاورة ، ولهذا فهو يؤكل قبل أن يصل إلى تمام نضجه .

وتزود التجارة مصر بأنواع عديدة من الفواكه المجففة ، مثل : العنب والمشمش والخوخ والفستق واللوز، ويزرع فى البلاد التين والزيتون ، أما عنب كورنيثة المجفف فهو يدخل كثيرا فى إعداد وجبات الأثرياء .

ويخلاف بائعى البقول المطهوة ، يشاهد فى القاهرة وفى المدن الكبيرة أعداد من الشوائين الذين يبيعون السمك المقلى ، واللحم المفروم المعد على هيئة كرات صغيرة مشوية ومغلفة بأوراق العنب ،أو فى حجم العصفور ، موضوعة فى أسياخ صغيرة من الخشب .

وينظر الفلاحون إلى شحوم الحيوانات باعتبارها الطعام الأمثل ، لكن فقرهم لا يسمح لهم بالحصول على ما يشبع حاجتهم منها على الدوام ، ويستهلك الأقباط كميات كبيرة من زيت الزيتون ، ويدخلونه فى كل شئ حتى أنهم يرشون به خبزهم، وهذه العادة السيئة سبب لكثير من الأمراض التى تصيبهم هم بشكل خاص ، لكن المصريين على وجه العموم يأكلون بنهم بذور الخشخاش ، وبذوراً أخرى يستحلبونها ، ومشروباتهم هى الشربات وسائل آخر يدخل فى تركيبته الأفيون بشكل رئيسى، ويلجأ الأثرياء لهذا المشروب الأخير للسكر، لكن الفقراء فى غالب الأحيان لا يشربون إلا الماء القراح وأنواعا من الشربات الردئ . وتحرم الشريعة الإسلامية الخمور كما يعرف الناس جميعا حتى تمنع السكر، ويراعى المسلمون المتمسكون بدينهم ذلك، أما الكبار والتجار والجنود فيرتكبون هذه المعصية فى الخفاء .

ويصنع المصريون عديدا من المشروبات الروحية ، وأحسنها وأجودها هو

المشروب المصنوع من العنب المجفف ، أما ما يستخرج من التين والجميز والبلح وثمار التين الشوكى فهى أدنى قيمة . ويفرط الأقباط فى تناول هذه الخمور[1] فيشربون منها زجاجات بأكملها ، وهو ما يؤدى بهم إلى الإصابة بالدمامل . أما الذين يشربون من مياه النيل طيلة العام دون مراعاة للفصول ودون القيام بتنقيتها ، فإنهم يتعرضون لمبادئ حمى تهدم بنيتهم بشكل غير محسوس .ذلك أن مياه النيل يصيبها العطب كل عام قرب نهاية أبريل . أما البيرة فهى مجهولة تماما فى مصر اليوم بالرغم ، من أن هيرودوت قد تحدث عنها كمشروب عند قدماء المصريين [2] .

٤

الملبس

لا تتأثر ملابس المصريين على الإطلاق بأهواء الموضة وتقلباتها ، مثلما يحدث عندنا . فشكلها ثابت لا يتغير أبدا ، والألوان الزاهية هى أكثر الألوان التى تحظى بالقبول ، والاتساع ميزة واضحة فى ملابس المصريين ، وهم يشتركون فى هذا مع كل الشرقيين ، حيث لا تستطيع هذه الشعوب تحمل الملابس الضيقة مطلقا : "فاللباس" والقميص والبنيش والجبة والقفطان .. تفصل كلها على نفس الوتيرة .

---

(١) يستهلك المسيحيون فى سوريا والأقباط فى مصر المشروبات الروحية المستخلصة من العنب المجفف بكميات كبيرة ، ويشرب منه الأخيرون على وجه الخصوص زجاجات بأكملها بعد عشائهم ، وكنت قد اتهمت من نقل إلىّ ذلك بالمبالغة ، ولكنه قدم لى الأدلة على صحة ذلك . ومع ذلك فقد ظللت على دهشتى من أن مثل هذا الإفراط فى الشراب لا يؤدى إلى قتل الشارب ، أو حتى على الأقل إلى بلوغه ذروة السكر .

(٢) هيرودت ، المرجع السابق ، ص ٧٧ . ويصنع المسيحيون كميات قليلة من الخمور فى الفيوم ، ولكنهم لا يعرفون كيف يصنعونها بشكل طيب ، ولم تكن الخمر مجهولة لقدماء المصريين كما تصور البعض حسب نص لهيرودت ترجم على نحو غير دقيق ، فقد رأينا فى آثارهم رسوما لحصاد العنب وصنع الخمر والآنية التى كانت تقدم فيها . انظر دراسة المسيو كوستاز Costaz عن وصف مغارات مدينة طيبة . وقد حاول الفرنسيون صنع الخمر فى القاهرة ، ولكن الحروب أوقفت تجاربهم .

ومن الطريف أن نذكر هنا ما كان يقوله الرجل المصرى عندما يرى أحدنا يمر أمامه وهو يرتدى بنطلونا مصنوعاً حسب الموضة ، أحضره معه من فرنسا – وهو لذلك بالغ الضيق – : "ماذا ! هل الأقمشة قليلة جدا لديكم حتى تصنعوه بهذا الشكل ؟ " .

ولكى نتعرف جيدا على الملابس المصرية، سنقدم فيما يلى بيانا مفصلا لمختلف أجزاء هذه الملابس ، وسنبدأ بملابس الرجال .

اللباس : سروال الصيف ، وهو عادة من التيل .

الشرشير : سروال الشتاء ، وهو من الجوخ .

السروال : سروال المملوك ، ولونه أحمر ، ويصنع من حرير وارد من البندقية .

القميص : وذراعاه غير مشقوقين، ويتدلى حتى العقبين ، ويلبس فوق السروال ، وأكمامه واسعة وبالغة الطول .

اليلك : صديرى خاص بالمملوك ، وهو واسع وقصير، وأكمامه طويلة جدا وبالغة الاتساع .

القفطان : رداء مفتوح من الأمام بكمين كبيرين جدا ، ويلبس فوق الصديرى.

الجبة : رداء مفتوح هو الآخر ، وتلبس فوق القفطان ، وأكمامها ليست قصيرة بالمقارنة بأكمام القفطان ، ويضاف إليها الفراء فى الشتاء .

البنيش : روب واسع جدا ، وأكمامه بالغة الطول تتجاوز طول الذراع واليد ، وهى مشقوقة عند أطرافها .

الحزام : وهو من الموسلين أو الصوف أو الحرير ، ويلبس فوق القفطان .

الطربوش : وهو من اللباد ، ويغطى الرأس حتى الأذنين .

الشال : وهو قطعة طويلة من الموسلين أو من قماش صوفى ، ويلف حول الطربوش عدة مرات . ويصنع شال الأثرياء من الكشمير .

الصديرى : وهو صغير وبدون أكمام .

العمة : ويطلق الأسم على غطاء الرأس بجزئيه (الطربوش + الشال) .

القاووق : غطاء الرأس عند الأتراك والبكوات ، وهو مستدير الشكل شديد الارتفاع ، وأكثر اتساعا عند القمة عنه عند القاعدة ، ويغطى جزؤه الأسفل بشال ملفوف حوله بعناية بالغة .

الطرحة : قطعة قماش من الموسلين أو جزء من الشال ، يتدلى خلف الرأس بعد أن يلف عدة مرات حول الطربوش ، ويستقر على الكتفين ، وله تأثير جميل وتطرز حوافه أحيانا بالذهب .

ولا يقل الحذاء تعقيدا عن بقية أجزاء الملابس ، وهو يتكون من : المست وهو من جلد الماعز يغطى كل القدم ، ثم البابوش والصرمة وهما أيضا من جلد الماعز ، وتوضع فيها القدم مغطاة بالمست . وعند الدخول إلى مسكن مفروش بالسجاجيد يخلع البابوش والصرمة ، حسبما يقضى الذوق . وينتعل الناس - عند ركوب الخيل أو حتى عند القيام بجولات فى شوارع المدينة - الخف ، وهو من جلد السختيان الأحمر أو الأصفر ، وهذا مشترك بين الرجال والنساء .

ويحب الرجال أن يحملوا فى حزامهم خناجر ثمينة محلاة بالأحجار الكريمة ، وتتجلى أبهة المماليك فى فخامة طبنجاتهم . ويهوى الأثرياء اقتناء الغلايين الرائعة. وتحب كل الطبقات بلا استثناء أن تغطى أصابعها البنصر بالخواتم التى تتفاوت قيمتها حسب الطبقة والثراء ؛ وهذه الخواتم تجملها فصوص الأحجار الكريمة ، وهى من الفضة بالنسبة للرجال ، ومن الذهب بالنسبة للنساء .

ومن نافلة القول أن نلفت انتباه القارئ إلى أن الزى الكامل الذى بينا تفاصيل كل أجزائه إنما هو زى الكبار والأثرياء . أما الطبقات الشعبية فلا تكلف نفسها كل هذا العناء ، فخزينة ملابسهم لا تحتوى على أكثر من ثلاث أو أربع قطع من الملابس ، لا تتغير إلا عندما تصبح مهلهلة الأطراف ، فالفلاحون رجالا

ونساء يذهبون إلى حقولهم شبه عارين ، أما عمال الطبقات الدنيا وكذلك جمهرة سكان المدن فيسترون أجسامهم بالكاد ببعض الهلاهيل [1] .

---

(١) يذكر أحد زملائنا أن المصريين من كل الطبقات يميلون إلى الأبهة فى ملابسهم ، وقد شغفت بتحرى هذه الملاحظة مع واحد من خدمنا . كانت خزانة ملابسه لا تكاد تساوى نصف فرنك عندما دخل فى خدمتنا، ويكفى ذلك لندرك أن خادمنا هذا كان شبه عار . وكان الأجر الذى يحصل عليه منا معقولا لحد كبير، كما أنه كان يحصل على بعض المنافع من أثمان المشتروات التى كنت أكلفه بها ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يحصل فى الخفاء على هدايا وإتاوات ممن يترددون على فى العمل . وقد أدى ذلك كله إلى ثرائه شيئا فشيئا ، حتى أنه فى خلال سنة واحدة – وقد بدأ يدخل فى طور الرجولة – لم يعد ذلك الشبح الذى كانه فى البداية ، فقد نما لحد أننى تعرفت عليه بصعوبة . وقد بدأ بأن اشترى لنفسه ما يلى :

١ – قميص من التيل الأزرق له كمان طويلان ، وهو يعتبر فى الصيف الرداء الوحيد عند السكان .

٢ – طربوش جديد وله شال من القطن .

٣ – مركوب أحمر اللون .

٤ – حزام من الصوف .

٥ – سروال من التيل .

٦ – خاتم، والخاتم يعطى أهمية للابسه .

٧ – ملاية ، وهى قطعة من نسيج قطنى من اللونين الأبيض والأزرق ، طولها ٨ أقدام وعرضها ٤ أقدام ، وتستخدم فى شكل بالطو .

٨ – دفية ، وهى قميص كبير من البوركان الأسود ، ويستخدمها كبار شخصيات القرية .

٩ – صديرى من القطن .

١٠ – جبة ، وهى نوع من الروب دى شامبر من الحرير أو القطن .

١١ – قفطان من الجوخ على شكل روب قصير .

١٢ – بنيش وهو روب كبير من الجوخ .

ولم يعد ينقصه سوى شال من الكشمير ومعطف ليصبح شبيها بكبار القوم فى بلده .

وكان فى البداية يسير على قدميه ، ثم أخذ يقضى مشاويره على ظهر حمار ، ثم على ظهر حصان خاص به . وكان نشيطا فى البداية ، وعندما أصبح ميسورا جعل هناك من يعاونه ، ثم لجأ إلى خادم يخدمه كنت أدفع له أجره أيضا، وفى النهاية أتخذ الخادم الأول هذا لنفسه خادما خاصا . وإنى لمتأكد أننى – عندما تركنا مصر – كنت على وشك أن أرى الخادم الجديد يتخذ لنفسه بدوره خادما له .

وعلى منوال بقية المسلمين ، يحلق المصرى رأسه بالموسى ، ولا يترك فوق جمجمته إلا خصلة من الشعر . هذه العادة تسبب العديد من الأمراض ، وتؤدى بصفة خاصة إلى إصابة العيون بالالتهابات والرمد ، إذ لا يمكن لأحدهم أن يخلع العمامة الثقيلة التى تغطى رأسه دون أن يتعرض للإصابة بالبرد ، وهى الإصابة التى تؤدى إلى تكدس الأورام الصديدية فى العيون . ولتجنب ذلك تغطى الرأس بأغطية دفيئة جدا ، مما يجعل هذا الجزء من الجسم أكثر حساسية لأقل برودة . ومع ذلك فربما كانت طريقة الشرقيين هذه فى حلاقة الرأس هى التى تقيهم الإصابة بآلام الرأس من حيث إنها تسهل حدوث العرق ، إذ نادرا ما تصيبهم هذه الآلام . وينبغى أن نقول كذلك إن المصريين لايسيرون برؤوسهم عارية مطلقا مثلما نفعل نحن فى أوربا .

ويستدل على ثراء المرأة المصرية من زينتها ، إذ على الرغم من أنها لا تستطيع أن تتألق بزينتها وحليها إلا أمام زوجها وأمها وأخواتها وصديقاتها ، فهى ليست أقل ميلا للأبهة ولا أقل استعدادا للتألق . وهى تغطى جسدها بأغلى الملابس التى تنثر فوقها – ببذخ وبدون أى اختيار أو تناسق – حليها ومجوهراتها ، وكل ما لديها من أحجار كريمة . وهى تحلى جيدها بالعقود التى يمكن أن نسميها سلاسل من ذهب ، وتتدلى هذه السلاسل حتى أسفل الصدر ، ويتدلى من هذه السلاسل عادة صندوقان صغيران : يضم أحدهما آية قرآنية ، ويضم الآخر بعضا من العطور . وتحلى السيدة من الطبقة العليا الجزء الأدنى من ذراعيها بأساور من ذهب ، يتراوح عرضها بين ٤–٥ بوصات ، ويتفاوت مقدار سمكها ، وترتدى فى قدميها أساور مماثلة ، ولكن تلك ليست عادة عامة ، وأصابعها مثقلة بالخواتم التى ترصعها الأحجار الكريمة . ومع ذلك فعندما تنزل إلى الشارع فإنها تقبر كل مظاهر الثراء هذه تحت البرقع والسبلة ، وهى قميص كبير من التافتاز يغطى كل ملابسها ، وينزل حتى عقبيها . وتتزين النساء على هذا النحو عند ذهابهن إلى الحمام ، أو عند قيامهن بزيارة ، أو عندما يستقبلن فى بيوتهن قريباتهن وصديقاتهن .

وحيث إننا قدمنا بيانا بملابس الرجال، فإن من المناسب أن نقدم هنا الملابس التى تضمها خزينة النساء ، وهى كما يلى :

اللباس : كالسون أو كيلوت صيفى (١) من الكتان أو القطن .

الشنتيان : لباس الشتاء .

الدكة : حزام يربط به السروال حول البطن .

القميص :

اليلك : روب يرتدى فوق القميص، وهو مفتوح من الأمام ، وأكمامه طويلة وضيقة.

الفستان : روب يحل محل اليلك ، وهو غير مفتوح . وقد اعتادت السيدات الأوربيات المقيمات فى مصر على ارتدائه تقليدا لسيدات القسطنطينية اللاتى يرتدينه فى بعض الأحيان .

الجبة : روب يرتدى فوق الفستان ، وأكمامه قصيرة جدا ، ويضاف إليه الفراء فى الشتاء ، ويطلق عليه عندئذ اسم : وش فروة .

الحزام : وهو فى الصيف من الموسلين أو الحرير، وفى الشتاء من الصوف أو الكشمير . وعندما يعقد من الخلف يتدلى على هيئة مثلث .

الطاقية : غطاء يغطى الرأس مباشرة ، ويستبدل دائما .

الطربوش : غطاء رأس يرتدى فوق الطاقية .

القمطة : قطعة من الموسلين تلف عدة مرات حول الطربوش ، وهى جزءان، والجزء الذى يدور حول الرأس نفسه أحمر اللون أو من لون آخر زاه جدا ، ويشكل الغطاء كله حول الرأس شريطا اسطوانيا بارزا يرصع باللآلئ والأحجار الكريمة .

---

(١) من المعروف أن النساء الشرقيات قد اكتسبن عادة لبس السراويل، وليس هناك فرق فى هذه الناحية بين المسيحيات أو اليهوديات أو المسلمات .

الربطة : وتطلق على غطاء الرأس فى مجموعه .

العقدة : عقد من اللؤلؤ .

الشواطة : مسبحة من اللؤلؤ ، يربط كل طرف من طرفيها بأحد جانبى الربطة .

الضفاير : خصلات من الحرير تزيد من طول خصلات الشعر .

البرق : قطع ذهبية صغيرة تربط بالضفاير ، ويتدلى من طرف قطع البرق هذه قطع نقدية صغيرة (سكين) Sequins .

السبلة : قميص واسع من التفتاز ، يغطى كل الملابس ، ويتدلى حتى يلامس الأرض ، وترتديه النساء عند خروجهن وعند ذهابهن إلى الحمام أو للزيارة ، ولا يخلعنه إلا إذا ألحت عليهن من هن فى زيارتها ، وخاصة إذا كانت الأخيرة تنتمى إلى الطبقة العليا .

البرقع : قناع الوجه ابتداء من أسفل الأنف ، ويتصل بالربطة من فوق الجبهة من الجانبين . وهو من قماش الموسلين أو الكتان الأبيض الناعم ، ويتدلى حتى الركبتين ، ولا غنى عنه لسيدة تريد أن تخرج خارج بيتها .

الحبرة : قطعة كبيرة من قماش التفتاز الأسود ، توضع فوق الرأس ، وتغطى بها الربطة والملابس واليدين، وتخلعها المرأة عند دخولها أحد البيوت .

التزيرة : وهى مجموع السبلة والبرقع والحبرة .

الخلخال : سوار فى القدم .

ولا تختلف أحذية النساء عن أحذية الرجال التى سبق أن تحدثنا عنها إلا فيما يختص بالأحذية الخشبية التى تستخدمها النساء داخل البيوت ، وتسمى هذه الأحذية : القبقاب .

ونساء الطبقات الشعبية أبعد ما يكن عن الاقتراب من هذه الأبهة فى ملابسهن، فهن لا يرتدين – فى القاهرة أو الريف – إلا سروالاً من فوقه قميص أزرق اللون واسع جدا ، أكمامه طويلة و واسعة تنزل حتى الردفين . وهن فى نفس الوقت محجبات ، وتضفر شعورهن على طريقة سيدات الطبقة الراقية ، لكنهن يعلقن فى أطراف هذه الضفائر أجراسا صغيرة ، أو أشياء أخرى يتخذنها كزينة، وتتدلى بطول الظهر . وتضع الفتيات فى بعض الأحيان أجراسا صغيرة فى أقدامهن ، ويحلى غطاء رأس الأطفال بصف من القطع الفضية أو قطع من النقود تحيط بالرأس[1]. لكن شيئا من هذه الأبهة لا يظهر للعين خارج البيوت ، فكل شئ يختفى تحت الملابس حتى بداية الوجه ، ولا يرى من النساء عادة إلا عيونهن ، بل يختفى جزء من هذه العيون ، ويمكن القول إن الأطفال يدثرون هكذا حتى يتفادوا نظرات الحسد التى ترمقهم بها العيون الحاسدة ، التى يعتبرها المصريون المتطيرون بالغة الأذى . وتتدلى من آذان نساء العامة أقراط ، وتتدلى الأقراط أحيانا من الأنوف ، لكن هذه الحالة نادرة . وتحيط النساء أذرعهن وأقدامهن كذلك بأطواق من المعدن ، كما يرسمن فوق شفاههن وذقونهن وصدورهن رسوما للزينة زرقاء أو سوداء (الوشم) ، وهى رسوم تماثل تلك التى ترى المسيحيات أثناء فترة الحج يرسمنها فوق أذرعهن دلالة على التقوى والولاء .

وتنظر السيدات من الطبقة الميسورة – شأنهن فى ذلك شأن نساء الطبقات الفقيرة – إلى مختلف التشويهات التى تحدثنا عنها فيما سبق، باعتبارها نوعا من الجاذبية ، أو على الأقل نوعا من التزين ، وبخاصة عادة التقليل من سمك

---

(١) أخبرنا أحد أبناء طرابلس أن المسلمين يحيطون رءوس أطفالهم بنقود ذهبية عليها كتعويذ بعض آيات من القرآن ، ولهذا السبب فهم يحتفظون – وما يزالون – بكثير من قطع النقود الكوفية . وهذا ما يسهل على الأوربيين الراغبين فى اقتناء دنانير أو عملات تعود لعصر الخلفاء أن يعثروا فى حليات الفتيات المسلمات على بغيتهم . وفضلا عن ذلك فلا تستخدم النقود الكوفية إلا كزينة ، ولولا هذه العادة لكانت قد انقرضت منذ وقت طويل .

الحواجب ، كما يعنين أيضا بصبغ اليدين والقدمين بالأصفر ، والأظافر بالأحمر ، وذلك باستعمال الحناء . وهذه العادة أكثر انتشارا بين الطبقات الشعبية ، وهى ترتبط أساسا بالتقاليد ، وبحالة التحفظ التى ينبغى أن تكون عليها النساء أمام الرجال، فالغرض من هذه العادة منع العين الفضولية من استجلاء درجة بياض الجسم عن طريق النظر إلى بشرة اليد إذا ظلت فى لونها الطبيعى .

٥

التقاليد والعادات المختلفة

ترتبط تقاليد المصريين بأنظمتهم، لذا يمكن القول بأن هذه التقاليد إنما هى وليدة هذه النظم . ومما لا جدال فيه أن معظم قوانينهم تقوم على معرفة دقيقة بالمناخ وأنها تبدو متمثلة تماما لطبائع الناس ، وكذلك للموقع الجغرافى للبلاد . ويمكن القول كذلك بأن المشرع العربى قد حسب مدى سرعة ونجاح انتشار مذهبه السياسى والدينى الجديد – وذلك بقياسه لعقول وأذواق مواطنيه – فتجنب تلك المعركة الخطرة على الدوام ، التى يدخلها المجددون ضد عواطف وأهواء أولئك الذين يريدون إصلاحهم ، لذا فقد أعلى من شأن أتباعه فى نظر أنفسهم بفعل ديانة أسسها بشكل ماهر ، واستطاع أن يتوصل إلى أن يبرهن على عظمتها لأناس جهلاء سذج . فلقد احترم تقاليدهم العائلية ، وكان متسامحا مع هفواتهم ونقاط ضعفهم ، وعندما شاء أن يقدم مكافأة لأولئك الذين يتمثلون مبادئه السهلة ، تملق عواطفهم الجموح حين وعدهم بأنهم سيكونون خير أمم الأرض ، وعندما رأى نفسه واثقا من أن مذهبه يتدعم بَشّرَهم بمباهج سماوية مثالية . ولقد توج النجاح آماله ، وحصل محمد على نفس النجاح الذى حازه ليكورج (*) دون أن يؤسس

(*) lycurgu مُشَرِّع أسبارطة ، عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وجدير بالذكر أننا نقدم هنا ترجمة للأصل نصا وروحا ، وإن كانت لنا تحفظات هامة على كثير مما ورد فى هذه الفقرة . ومع ذلك فقد آن لنا أن نلم بكل ما يقال عنا ، فليس كل ما يقال صحيحا على إطلاقه ، بالإضافة إلى أن هذه الأفكار قد تجاوزها حتى الفكر الأوربى نفسه اليوم . (المترجم) .

أنظمته الفكرية على قوة من الأخلاق ، أو على إنارة السبيل أمام أمته . ولسوف تظل عقيدته هذه فى أوج فاعليتها فى الشرق ، طالما ظلت شعوب هذا الشرق بعيدة عن مدارج التقدم والحضارة الحديثة ، وفضلا عن ذلك فإنه ليبدو أن طبيعة عقلية الشرقيين تؤمن لمثل هذه العقيدة بطول البقاء .

إذن فليس المجتمع هو الذى ينظم التقاليد فى مصر ، كما أن «الموضة» لا تغير من هذا المجتمع بحسب أهوائها وتقلباتها ، فكل شئ فيه يستند إلى النظام الروحى والدينى ، ويظل – مثله – فى حالة من الثبات لا تقبل التغيير . فكل ما كتبه الرحالة القدماء الموثوق بهم عن العرب ما يزال على حاله حتى اليوم ، ولو أنهم عادوا إلى الحياة اليوم ليخوضوا فى نفس الأمر لوجدوا أنه لا ينبغى عليهم أن يغيروا اليوم شيئا مما قالوه فى ذلك الماضى البعيد، وإلى أن يحين ذلك الوقت الذى تتفجر فيه ثورة يبدو أنها ما تزال شديدة البعد، فلسوف تظل عادات الشرقيين الأسرية هى هى . وعلى كلٍ فسوف نكتفى بأن نقدم هنا لمحة سريعة عن حياة المصريين الخاصة ، فعن طريق مثل هذا الفحص فقط يستطيع المراقب أن يُكَوِّن حكمه ، بل إن المراقب لا يمكنه أن يعرف مدى عمق الروح القومية الحقيقية لشعب ما إلا إذا فحصه باهتمام من هذا المنظور .

إن المجتمع الذى تستعبد فيه نساؤه لا يقدم مطلقا هذا المزيج من الرقة واللياقة اللتين تميزان الأمم الأوربية على وجه الخصوص، وحيث إننا لا نكاد نحس بأثر للنساء على العادات الاجتماعية فى مصر ، فمن الممكن أن نتفهم بسهولة لماذا تتميز التقاليد فى مصر بوجه عام بهذه الغلظة الهمجية ، التى هى بالتأكيد غلظة تقاليد العرب الغزاة . وتلك فى الواقع هى الملحوظة التى تتضح لأول وهلة ، فرياضة الشعب وألعابه ومسراته ذات طابع خليع، متهور ووحشى فى وقت معا، وسوف يكون الأمر بالتأكيد على نحو مخالف لو كان للنساء نصيب فى صنع هذه التقاليد ، فالاعتبارات التى ستولى لهن – من حيث جنسهن – سوف تؤدى غريزيا إلى تولد مشاعر اللياقة ، وعندئذ سوف تكون الأمة هى الصانعة لشكل مجتمعها .

وتتوزع حياة المصرى من أبناء الطبقة الميسورة ما بين الصلاة والحمام والملذات الحسية والكسل وتدخين الغليون وشرب القهوة . وقد يجوز لنا أن نقول بأن الشعب كله يقضى جل وقته فى التدخين . ولا يستخدم الأغنياء إلا تبغ اللاذقية[1] ، الذى تستهلك منه كميات كبيرة فى مصر ، أما الفقراء فيقنعون بالتبغ المحلى الذى لا يمتاز بنفس المذاق اللذيذ الذى لتبغ اللاذقية ، لكن سعره مناسب . وتشرب القهوة فى فناجين جد قصيرة وبدون سكر، وهناك بعض من الناس يشرب ما يزيد على العشرين فنجانا من القهوة فى اليوم الواحد .

ويُكَوِّن أبناء الطبقة الشعبية من خلاصة نوع من القنب - الذى يسمونه الحشيش - مستحضرا مخدرا ، يتعاطونه بلذة شديدة ، ويؤدى هذا المستحضر إلى السكْر ، أو بالأحرى إلى إحداث نوع من الخدر ، وفى هذه الحالة من الخدر الجسمانى والروحى يحصل البؤساء على هدنة من آلامهم ومضايقاتهم . أما الأغنياء فيبحثون عن هذا الخدر عن طريق خلاصة أو عصارة الخشخاش المطبوخ. ومن خاصية هذا المشروب أنه يسبب نوعا من الأسى العميق ، ويصبح الجسم والعقل بعد تناوله أكثر تهالكا عما كاناه من قبل .

ومسكن الحريم مكان له حرمته ، والأزواج وحدهم هم الذين يستطيعون التردد عليه بحرية ، ولا يمكن لأبواب هذا المكان المحرم أن تفتح مطلقا لرجل آخر بخلاف الطبيب أو الكاتب ، أى ذلك النوع من موظفى السكرتارية الذى تستخدمهم عادة نساء الطبقة العليا . ولا يستدعى الأطباء إلا فى الحالات العاجلة والملحة ، وفضلا عن ذلك فليس بإمكانهم أن يروا مريضاتهم إلا فى حضرة الإماء أو الأغوات [2] ، بل إن النساء - حتى فى هذه الحالة - لا يخلعن نقابهن . أما الكاتب ، فلا يسمح له مطلقا بالدخول إلى الحجرة التى تشغلها سيدته ، فيبقى فى الحجرة المجاورة ،

(١) اللاذقية هى لاديسيا Ladociè القديمة ، وقد بناها سيلوكيس Sèleucus ، وسماها على اسم أمه ، وتقع على الساحل السورى ، ويزرع التبغ على التلال المحيطة بها .

(٢) بدأ البكوات (المماليك) يقتنون الأغوات فى الفترة الأخيرة .

ويفتح باب اتصال بين الحجرتين ، ويكتب هو حسب الأوامر التى تملى عليه . وفى كثير من البيوت يكون للكاتب حجرة تقع أسفل مسكن الحريم، وتملى عليه المباشرة (الوكيلة)– وهى سيدة تعمل فى خدمة ربة البيت ولكنها ليست من الإماء – أوامر سيدة البيت .

وتراعى هذه التقاليد بشدة عند كل الأسر المتميزة ، والتى تتباهى بنسبها العالى، بل إن السؤال عن حال السيدات يعتبر أمرا معيبا مهما كان الدافع الذى يمليه . فالرجل على سبيل المثال لا يسمح لنفسه بأن يسأل رجلا آخر عن أخبار زوجته ، ما لم تكن ثمة روابط حميمة بينهما ، بل إنه فى هذه الحالة أيضا يستخدم تعبيرا يصلح لمثل هذه المناسبات ، مثل : كيف حال العائلة ؟ أو كيف حال (الناس اللى فوق) ؟ . وكذلك لا تسمح آداب اللياقة بإدخال العوالم فى بيوت العائلات المتمسكة بالأصول والتقاليد ، إذ لا يمكن لهؤلاء العوالم أن يدخلن مثل هذه البيوت إلا أيام الاحتفالات والمناسبات الكبرى ، ولا يكون ثمة من شكوى إلا أن فى أغانيهن أو رقصاتهن شيئا من الخلاعة لا يليق . أما رقص الغوازى الذى يرى فى شوارع القاهرة ، فمثل هؤلاء الغيورين على التقاليد يستبعدونه بغلظة .

ومع ذلك فينبغى القول بأنه ليست كل العائلات على هذه الدرجة من التعنت، بل إن هناك الكثيرين ممن تسمح تقاليدهم المتراخية لزوجاتهم بأن يحكن المكائد الغرامية فى داخل الحريم نفسه ، أو فى خارجه بمعونة من إمائهن ، فيتظاهرن على سبيل المثال بأنهن ذاهبات إلى الحمام أو للقيام بزيارة ، ويذهبن بدلا من ذلك إلى لقاء غرامى. ولا بد أن نستنتج أن البطالة التى يحيون فيها وكذا حرارة الطقس الملتهبة هى التى تهيج شهواتهن ، وتحملهن – بلا انقطاع – على الاستجابة لملذات الحواس ، فما أن تلهب خيالهن رغبات أو احتياجات جديدة حتى يطرقن كل وسيلة لاشباعها، ولكن الذى يضع حدا لذلك كله هو خوف المرأة من أن يطلقها زوجها ، بل وأن تلقى الموت على يديه .

ويشكل السقاءون نوعا من رسل الغرام ، ويلعبون دورا رئيسياً في مكائد الحب . ولسيدات الطبقة الراقية عبيد من نفس جنسهن (اماء) يعهد إليهن بالعناية بأمورهن ، وعلى رأس هؤلاء جميعا الخازنة ، وهي التي تعنى بالمجوهرات والنقود وخزينة الملابس ، وهي أول من تفوز بالعتق . ويليها في الترتيب والأهمية – من حيث الوظائف – تلك التي تأمر بإعداد القهوة والشربات : أي تلك المكلفة برعاية واجبات الضيافة ، ويليها تلك الأمة المكلفة بالتفتيش على المطبخ ، ولها السطوة على كل الإماء . وتتفاوت درجة تقسيم هذه الأعمال بحسب طبقة وثروة ربة البيت، بل إن بعض هذه الأعمال توكل إلى عائلات حرة مثل أعمال المباشرة أو الوكالة . ولا يحق للسيدات أن يستخدمن خدما إلا من نفس جنسهن أو من الأغوات، وثمة شيوخ عميان يأتون لتعليم العبيد الصلاة . ويشغل الأغا (الطواشي) حجرة في الطابق الأرضي ، وبإمكانه أن يدخل في حرية إلى جناح الحريم ، وهو يقوم بنقل أوامر رب البيت إلى ربة البيت، ويمكن القول بأنه يستخدم كحلقة اتصال بين الاثنين .

ونادرا ما تخرج المصريات إلى خارج بيوتهن، وإذا حدث ذلك فإنهن يفضلن ساعة قدوم الليل لقضاء مشاويرهن الصغيرة . أما عند سفرهن فيوضعن داخل هودج : عرضه قدمان وعمقه ثلاثة أقدام ، وتعلوه قبة صغيرة على هيئة قوس، ويحمل الجمل اثنين من هذه الهوادج بعد شدهما إلى جنبيه . كذلك لا تتجول السيدات في حدائق بيوتهن ، وهي حدائق تنقصها الممرات ، ويمضين أياما بأكملها على أرائكهن ، ويتسلى بعضهن بغزل حرير أو قطن الهند، وتقوم من يستطعن التطريز منهن بتطريز المناديل التي تستخدم كغطاء للرأس ، أو الشيلان (الشال) التي يصنع منها حزام أزواجهن بكشكشات صغيرة .

ومن السهل التعرف على الإماء ، حيث إن شعرهن يرتفع فوق رءوسهن، وفستانهن مقفول ، وتغطي رؤوسهن وأكتافهن – بدلا من القناع الكبير أو الطرحة – قطعة من قماش التيل أو القطن ، كما يغطين بها وجوههن في حضرة الرجال .

ومع ذلك فإن نساء الطبقات الشعبية لا يستشعرن مثل هذه المضايقات ، إذ يُقَدَّر عليهن على الدوام الانهماك فى أعمال خارج بيوتهن ، لكنهن طيلة الوقت متحجبات بالبرقع ، وبخاصة إذا ما لمحن رجلا ، وأكثر ما يشغلهن هو إحضار طعام أزواجهن ، والذهاب لجلب المياه فى جرار يحملنها على رأسهن بمهارة [١] . وفى نفس الوقت فأكثر الفلاحات لا يعرفن الحياكة ، لذا يتركن ملابسهن الخفيفة – التى تغطيهن – وقد تدلت مزقها ، إما لأنهن لا يستطعن رتقها، وإما لأنهن لا يجدن ضرورة فى تكليف أنفسهن هذا العناء ، ويجدن سعادة فائقة فى ألا يعملن شيئا ، ثم فى أن يقعين على حصيرة أو حتى على الرمال . وهذه البلادة التى نلاحظها فى كل بلدان الشرق ، ينبغى أن تجد لنفسها فى مصر بالذات بعض العذر ، إذ إن حرارة الجو المرتفعة تحتم الاسترخاء . وتحب المصريات عموما تدخين الغليون ، لكن هذا المزاج نادر الشيوع عند نساء الطبقة الراقية ، وهؤلاء لا يدخن مطلقا فى حضرة أزواجهن ولا يحصلن على مثل هذه المتعة إلا خفية .

وكما سبق لنا القول ، فإن الحمام هو أحد المتع الرئيسية عند المصريين من كلا الجنسين على قدم المساواة ، وللسيدات من الطبقة الميسورة حمامات فى بيوتهن ، يعتنين بتزويدها على الدوام بالمياه الساخنة والبخار ، ويتبادلن فيما بينهن الزيارات إلى حمام كل منهن كما لو كانت زيارات إلى مكان بهيج . وهناك يستعرضن مجوهراتهن ، وأجمل ملابسهن وكل أبهتهن ، ويستخدمن ببذخ صارخ ماء الورد والعطور، ويقضين يومهن هناك يتناولن القهوة والفطائر ، وينغمسن فى كل أنواع التسلية والترفيه [٢].

(١) عندما لا يكون حجم هذه الجرار كبيرا فإنهن يحملنها على أكفهن ، ويتكئن بمرفقهن على الجنب ، ويرفعن اليد الأخرى إلى أعلى . وتتفق هذه الطريقة تماما مع طريقة المصريات القدامى ، ويكفى للاقتناع بذلك أن نلقى نظرة على الرسوم المنقولة عن تلك الرسوم الموجودة فى كهوف كثيرة فى صعيد مصر .

(٢) عندما تقوم سيدة بزيارة أخرى تكن لها بعض الود أو الصداقة ، فإنها تدعوها لأخذ حمام وكذا النوم عندها، وينتج عن ذلك أن تستمر الزيارة أحيانا لعدة أيام .

وتراعى السيدات فيما بينهن – شأنهن فى ذلك شأن الرجال – وبكل الاهتمام والتدقيق هذه الطقوس والاعتبارات التى لهن بحكم الطبقة والثروة . والصمت والاحترام ملازمان العظمة . وإذا ما كان ثمة سيدتان قد نشأتا معا وعاشتا معا فى مودة منذ طفولتهما ، ثم تزوجت إحداهما من ثرى [1] ، أو ذى مكانة مرموقة – فإن لهجة الحديث بينهما تتغير على الفور . وللرجال احتفال خاص بمراعاة واجبات الذوق واللياقة فيما بينهم ، وبأن يقدموا من تلقاء أنفسهم دلائل الاحترام والتقدير ، فالأدنى يقبل يد الأعلى ، بل ويقبل أحيانا طرف ردائه إذا كان ثمة فارق كبير بينهما ، أو يكتفى أحيانا برفع اليد اليمنى إلى الصدر لتأكيد ندية الصداقة التى بينهما، أما عندما توضع اليد على الرأس فإنها تعبير بالخضوع من المرءوس إلى رؤسائه الكبار .

لكن احترام الأبناء لآبائهم وأمهاتهم يذهب لأبعد من ذلك ، فهم لا يخرجون من كنف الحريم قبل سن البلوغ ، ويخضع الذكور منهم لهذه القاعدة ، ومع ذلك فهم لا يسكنون نفس الحجرة التى تقيم فيها الأم ، ويأتون كل صباح لتقبيل يدها ، ويظلون للحظات واقفين أمامها وأذرعهم معقودة على صدورهم ، ثم ينزلون بعد ذلك إلى والدهم ويقدمون له نفس أمارات الاحترام ، ومع ذلك فالأب لا يقبل وجودهم على مائدته إلا إذا كان ذلك فى يوم يعد من أعياد الأسرة ، وهو – كذلك – لا يسرف فى تدليلهم ، ويحتفظ معهم باستمرار باللياقة الواجبة. وهذه عادة عامة عند كل الطبقات ، وتستطيع الطبقة الدنيا وحدها أن تخرق هذه القاعدة. وليست المرأة أكثر احتراما من جانب زوجها ، فمن النادر أن تدعى للطعام معه ، وتظل سيدات الطبقات الشعبية واقفات بينما يتناول الأزواج الطعام ، ولا يجلسن لتناول طعامهن إلا إذا فرغ من ذلك الأزواج .

(١) هذه الطريقة لدى الشرقيين فى قياس لهجتهم وحركاتهم بحسب الثروة والجاه ، تلاحظ على وجه الخصوص عند المماليك ، فهؤلاء الرجال الذين كانوا – كلهم على وجه التقريب – أبناء لرعاة أو لفلاحين ، يحرصون على الحصول على قدر من الثروة والتكريم يتناسب مع طبقتهم الجديدة التى أمكنهم الارتفاع إليها .

ويخصص اليوم السابع لمولد الطفل لأفراح كبرى تجرى داخل الأسرة ، وفى هذا اليوم تأتى كل السيدات اللاتى كن من قبل إماء عند أم المولود لزيارتها ، فتستقبلهن المباشرة فى أول حجرة ، وتأمر بتقديم القهوة والشربات لهن ، وبعد ربع ساعة تقبل ربة البيت التى كانت قد انسحبت عند قدومهن إلى حجرة أخرى ، عندئذ يهرع نحوها الجميع حتى يحظين بنوال شرف السماح لهن بتقبيل يدها ، ثم تجلس السيدة وتظل معتوقاتها واقفات أمامها ، وبعد ما يقرب من نصف ساعة من الحفل تنسحب السيدة ، وتعطى لمباشرتها الأمر فى أن تُبقى من معتوقاتها أولئك اللاتى تريد هى الاحتفاظ بهن ، وتخرج الأخريات على الفور .

وعندما يصعد زوج إلى حجرة زوجته فإنه يعلن ذلك مسبقا عن طريق أحد الطواشى أو واحد من العبيد ، لكنه لا يظهر مطلقا إذا كان بالحريم غريبات .. وتراعى الزوجة أن تبعد عن ناظره الإماء اللاتى يمكن لجمالهن أن يغويه ، ومع ذلك، فإنه إذا ما لمح واحدة منهن ونالت إعجابه وأبدى الرغبة فى أن يبقى وحده معها ، فإن زوجته تبدى الكثير من التلطف لحد تنسحب معه من الحجرة . ولكى تحتفظ زوجات البكوات بالسطوة التى لهن على أزواجهن فإنهن يقدمن لهم على الدوام تضحيات من هذا النوع ، بل ويذهبن إلى حد تقديم الإماء الجميلات كهدايا لأزواجهن ، ويزينهن بالمجوهرات والملابس الفاخرة . وكانت زوجة مراد بك تقدم له مثل هذه الرعاية . لكن هؤلاء المحظيات اللائى يقمن بإمتاع الزوج مسايرة لرغبات سيدتهن يحتفظن لها على الدوام بأمارات الاحترام والتبجيل ، ويحرصن على الدوام على مراعاة مصالحها .

ولم يكن من النادر – وخاصة فى الأزمنة الأخيرة – أن ترى أرملة واحد من البكوات أو الكشاف تتزوج واحدا من مماليك زوجها ، وفى هذه الحالة يظل هذا المملوك يحتفظ لها بأكبر قدر من التقدير والرعاية، مهما كانت المكانة التى سيصل اليها فيما بعد . وإذا ما كانت هذه الزوجة مدققة فى مثل هذه الأمور ، فإنه لا يجرؤ أن يسمح لنفسه بالتصرف بحرية مع الإماء ، ولكنه فى نفس الوقت يجاهد

كى يخفى عنها مغامراته التى يمكن له أن يمارسها خارج نطاق الحريم . ويحكى أن إبراهيم بك – الذى كان من قبل مملوكا لمحمد بك ، ثم تزوج من أرملته بعد وفاته – قد ضبطته زوجته هذه ذات يوم مع واحدة من إمائها ، فقامت – وقد طعنت فى كرامتها – بضربه بقسوة وهى تصب عليه شتائمها ، لكن الخوف من مثل ذلك لم يستطع أن يكبح جماح شهوات هذا البك . ويقال إن زوجته تلك –الغيور والمتجبرة فى وقت واحد – كانت تأمر بإغراق أو دس السم لأى واحدة من إمائها تشك هى فى أن لها علاقة بزوجها .

وفى مصر ، لا ينام الرجال بجوار زوجاتهم ، وهذه عادة عامة عند كل الطبقات . وللأغنياء حجرات مستقلة ، أما الفقراء فيختارون الركنين المتقابلين من حجرتهم التى هى عبارة عن خص أو كوخ فقير . ويوضع الفراش وسط حجرة كبيرة ، وهو بالنسبة للرجل الميسور سجادة مبسوطة على ألواح خشبية ، وتحيط بالسجادة أربع مخدات فخمة ، اثنتان منها على اليمين واثنتان على اليسار ، ليحصر بذلك الفراغ الذى ينبغى أن يشغله الفرد ، ويوضع أعلى ذلك غطاء أو ناموسية من الحرير أو الموسلين (١) . وقد شاهدنا بعضا منها مطرزا بالذهب والفضة . ولايكلف الفقراء أنفسهم مثل هذا العناء ، فهم يتمددون على حصيرة مصنوعة من سعف النخل ، وينامون بكامل ملابسهم .

وقلما يغير الناس – من كلتا الطبقتين – من ملابسهم الداخلية أثناء النوم، ويساهم ذلك فى وجود الحشرات الضارة بملابسهم كالقمل والبراغيث، كما يؤدى إلى تكاثرها .

ويلجأ الناس لعادة بالغة الغرابة لإيقاظ الشخص النائم ، فلا يتم ذلك بإحداث صوت أو هزة حتى ينهض من نومه ، لكن واحدة من الإماء تأتى محدثة بعض

---

(١) لا غنى عن الناموسية فى مصر حيث تمتلئ الحجرات بحشرات الفراش . وبدون هذا الاحتياط لا يكاد المرء يستطيع النوم، أما أبناء الطبقات الشعبية فإنهم وحدهم – بحكم التعود الطويل – الذين يستطيعون تحمل إزعاج هذه الحشرات .

الصخب ، وتدغدغ له بيدها باطن قدمه ، وبذا تنتزعه هذه الدغدغة برفق من نومه . وهذا الاحتياط الناعم يشى برخاوة من يلجأون إليه ، فهو دليل على الحياة المخنثة التى يحياها هؤلاء ، وهو احتياط يمكن القول بأنه لم يكن بمقدور أهالى سيباريس(*) القدامى أن يخترعوا أمرا يفوقه رقة ودقة .

وفى ختام فصلنا هذا نقدم جدولا مقارنا بين المواقيت الفرنسية والمواقيت التى تقابلها عند المسلمين، ويحتاج هذا الجدول إلى شرح تمهيدى :

يقسم المسلمون فترة اليوم ابتداء من غروب الشمس، ويحسبون ٢٤ ساعة فى المسافة التى تفصل بين الغروبين، ولكن بعد أن يصل العدد إلى رقم ١٢ يعودون ثانية مثلنا للعدد ١ . ٢ . ٣ ... الخ . فإذا حسبنا مثلا أن الغروب قد تم فى الساعة ١٢، فإنه تأتى بعد ذلك الساعة الواحدة ثم الساعة الثانية، وهكذا .. الخ .

وعند معرفة الوقت الفرنسى، فإن من الممكن تحديد الساعة عند المسلمين وذلك بعد إضافة العدد ٥ . و على هذا فإذا كانت الساعة لدينا فى فرنسا الرابعة صباحا فإنها تكون عند الأتراك التاسعة . وعندما تكون عندنا: ٥ ، ٦، ٧، فهى عند الأتراك: ١٠، ١١، ١٢ . وعندما تكون لدينا: ٨، ٩، ١٠، فهى لدى الأتراك ليست: ١٣، ١٤، ١٥، وإنما: ١، ٢، ٣ .

وهكذا فإنه يمكننا أن نتبنى كقاعدة عامة المبدئين التاليين :

١ – بإضافة ٥ إلى رقم الساعة الفرنسية فإن حاصل الرقمين يوضح لنا الساعة عند المسلمين إذا لم يكن الحاصل يتجاوز الرقم ١٢.

٢ – أما إذا ما تجاوز الحاصل الرقم ١٢ فإن الزائد يؤخذ منفصلا ليكون هو الوقت عند المسلمين . فإذا ما افترضنا أن الساعة هى الثالثة عند الفرنسيين فبإضافة ٥ تصبح الساعة الثامنة لدى المسلمين ، أما إذا افترضنا أنها ٩ لدى الفرنسيين فإننا نجد أننا بإضافة ٥ سنحصل على رقم ١٤ وهو ما تجاوز ١٢ ،

(*) (ب) سيباريس مدينة اغريقية قديمة اشتهرت بالثراء والترف .(المترجم) .

وبطرح ١٢ منه يتبقى لدينا ٢ ، ويكون هذا الرقم هو الوقت عند المسلمين .

ونظرة سريعة إلى الجدول التالى تبين لنا مثل ذلك الارتباط فى كل ساعات الليل والنهار .

جدول ارتباط التوقيت

الساعة في فرنسا	الساعة عند المسلمين	الساعة في فرنسا	الساعة عند المسلمين
منتصف الليل	٥ ليلا	الواحدة بعد الظهر	٦ نهارا
الواحدة صباحا	٦ «	الثانية «	٧ «
الثانية «	٧ «	الثالثة «	٨ «
الثالثة «	٨ «	الرابعة «	٩ «
الرابعة «	٩ «	الخامسة «	١٠ «
الخامسة «	١٠ «	السادسة «	١١ «
السادسة «	١١ صباحا	السابعة «	١٢ المغرب
السابعة «	١٢ «	الثامنة «	١ ليلا
الثامنة «	١ نهارا	التاسعة «	٢ «
التاسعة «	٢ «	العاشرة «	٣ «
العاشرة «	٣ «	الحادية عشرة «	٤ «
الحادية عشرة «	٤ «	منتصف الليل «	٥ « وهكذا
الظهر	٥ «	———	———

٦

الطباع

المصرى خجول بطبعه ، وهو يتفادى الخطر بقدر ما يستطيع . لكنه – ما أن يجد نفسه وسط المخاطر بالرغم من حيطته – يبدى همة ما كنت تظن فى البداية أنها لديه ، وليس ثمة ما يساوى رباطة جأشه وفى نفس الوقت تواكله . ولقد واتتنا الفرصة لتسجيل هذه الملاحظة عدة مرات أثناء حملتنا ، وهذا مايبرهن على ماسبق أن قلناه من أن إصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدى– بسهولة فائقة – إلى أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التى فقدها ، بل التى لا يظنها هو نفسه كامنة فيه . كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة ، وعظمة الروح التى خنقتها إلى حين تلك الأنظمة الشيطانية التى يرزح تحت نيرها ، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة على تدمير أخلاقيات الأفراد (١) بشكل محزن . ومن هنا ، ذلك الشح الوضيع الذى يلاحظ عند أبناء الطبقة الدنيا من المجتمع ، وذلك الرياء الذى نجده لدى كل أفراد المجتمع . فحيث إن المصرى يلقى الهوان فى طاعة الكبار– الذين يعرفون تماما معنى تلك السلطة التى فى حوزتهم والتى لاحدود لها ، والذين يتحكم فيهم خيلاؤهم الشرس – فإنه (أى المصرى) يحمل بين جوانحه روحا منكسرة تشي عن نفسها فى كل حركاته وإيماءاته ، فيتذلل ويتحسس كلماته مع كل من يخشى قوتهم ونفوذهم . وعندما يتاح له أن يُدْرج فى مصاف الأثرياء ، فإنه يعمل على إشعار البؤساء الذين يأتمرون بأمره بوطأة استعلائه وتحكمه ، وتلك نتيجة طبيعية للتربية التى تلقاها ، وللأمثلة التى رآها فى حياته ، والتى آن أوان أن يحتذى بها .

---

(١) لا نقصد بحديثنا هذا النظم الإسلامية ، ولكننا نقصد تلك القواعد والقوانين الهمجية والاستبدادية للبكوات المماليك ، والتى شوهت لحد كبير أشكال ونظم الإدارة التى وضعها سليم وسليمان الثانى.

ولايستحى الفلاح أو الحرفى- مهما كانت مهنته - من أن يستجدى ، حيث لايهمهم كثيرا ماسوف يقال عنهم وعن حالهم ، بل إنهم يفعلون كل مافى وسعهم ليظهروا أمام الناس بمظهر البؤس والعوز بقدر الإمكان . وفى المساء حين يترك العامل الورشة التى يعمل بها ، فإنه يلح فى الحصول على أجره عن ذلك اليوم ، ويظل يعذبك حتى تدفع له . وقد يكون هذا الإلحاح القلق تعبيرا عن حاجة حقيقية عند البعض ، لكنه عند البعض الآخر مجرد تعبير عن تخوف العامل من ألا يحصل على ثمرة عمله وجهده ، وفضلا عن ذلك فإن الكثيرين منهم لايبدون مثل هذا التلهف فى الحصول على أجورهم إلا لكى يقدموا للقائمين على شئون الأجور والمال ،الدليل على عوزهم ، وبهذه الطريقة يتفادون تلك المظالم والمغارم التى تهدد على الدوام أولئك الذين يبدو عليهم أنهم يعيشون فى بحبوحة من العيش.

وعندما تعطى للمصرى مالا ، نقدا أو عينا ، فإنه يحرص على الدوام أن يحرك إبهام يده اليمنى قائلا : "كمان واحد" . ويذكرنا هذا بخصلة كانت للشيخ مريك (وربما موسيا أو مصبع) شيخ إحدى قبائل بدو الأفراد ؛ فقد جاء ذات يوم يشكو إلى حاكم ولاية البحيرة من أن بدو بنى عون شنوا عليه الحرب ، وأنه يحتاج إلى دعم لصدهم ، وطلب لذلك فصيلة من خمسين رجلا ، ووعده القائد بالاستجابة لذلك ، ثم بدأت المحادثة تخوض فى أمور عامة . وعندما آن له أن يمضى فقد عاد يذكر القائد من جديد بالدعم الذى وعده به ، وسأله عما ستكون عليه هذه المعونة ، فأجابه القائد بأنها ستكون عبارة عن خمسين جنديا ومدفع ، فهتف الشيخ فى حدة : خمسين جنديا؟ فقط خمسين ؟ زودها واحدا ، اجعلهم واحدا وخمسين ، واحدا وخمسين . وفى أثناء ذلك كان يحرك إبهام يده اليمنى بطريقة استجداء مضحكة ، حتى أننا لم نتمالك أنفسنا من الضحك ، ومع ذلك فقد استوجب الأمر أن نرضيه بأن نجعل الفصيلة تتكون من واحد وخمسين رجلا بدلا من خمسين.

ومن الصعب أن نوفق بين عادة حب المال لدى المصريين وبين خمولهم وبلادتهم التى يمكن القول بأنها قاعدة لطباع المصريين ، بل بين ذلك وبين سلوك

الحذر والاحتراس الذى يسيطر على أبناء البلاد. فلم نسمع على الإطلاق أية شكوى من سرقات المنازل ، أو قل إن هذه حالة نادرة تماما ، بل إننا سوف ندهش أكثر من ذلك إذا ما علمنا أن البيوت والمحلات التى تضم بضائع غالية لايقفل معظمها إلا بضبات (ضبة) من الخشب غير جيدة الصنع . وباستثناء العربان والبدو ، يتميز المصريون بالاستقامة التى تعود فى جانب كبير منها إلى قسوة العقوبات التى توقع على اللصوص ، فكثيرا ماتبقى بالات البضائع الغالية الثمن لأيام عدة على الرصيف أو فى الطرق العامة فى حراسة ذمة الأهلين ، ولم نسمع أن مالكا قد شكا من نتائج مثل هذه الثقة .

ذات يوم قام أحد الدلالين الأتراك لنا بعملية تجارية عادت عليه بربح قدره ٨٠ فرنكا ، وبعد فترة من الوقت ذهبنا لنحدثه فى أمر صفقة أخرى لاتقل عن الأولى عطاء بالنسبة له ، وكان جالسا على المقهى يدخن غليونه بعظمة ، وبصعوبة شديدة أصاخ السمع للعروض التى قدمت له ، ولأننا ألححنا فى الطلب فقد أجاب: لا أحتاج شيئا ، اذهبوا إلى فلان فهو بائس فقير وسيفعل لكم ماتطلبونه منى ومثلى تماما.. لقد ذكرنا هذه الواقعة ذات الدلالة لكى نقدم مثالا على ذلك التناقض الذى يسيطر دائما، والذى يقوم بين الطباع وبين السلوك . ومع ذلك فليس ثمة ماهو أكثر كرما ولاأكثر عظمة من ذلك ، بل ولا أكثر حكمة مما يتضح فى هذا السلوك . ألست على حق إذن حين آمل بأنه سيكون فى الإمكان أن ندخل عند أمثال هؤلاء القوم أفكارا أكثر عدالة إذا ماأشعّت عليهم أضواء الحضارة الأوربية[1]. ولست أمل على الإطلاق من تكرار مثل هذه الحقيقة التى لاجدال فى صحتها.

(١) ولكن على الرغم من هذا المثال الطيب فإن الشعب فى مجموعه لا يتصف بالكرم ، وذلك ناتج عن الحاجة أكثر منه عن الطبع ، ذلك أن الكرم يفترض الميسرة ، وإذا ما ظهر المصرى بذلك فسوف يتعرض لمظالم الحكام وانتهاباتهم.

أهكذا ينبغى أن يقتل الخوف والطغيان أجمل الفضائل ؟ ومما يدل على أن المصريين أسخياء بطبعهم بل مجبولون على فعل الخير ، أن أولئك الذين استطاعوا منهم – بفضل مكانتهم ونفوذهم وثروتهم – ألا تنالهم مظالم وانتهابات حكام الطغاة ، يعيشون فى بيوتهم فى أبهة وترف ويقومون عدة مرات فى العام بتوزيع الهبات والعطاءات .

٧

عن الماشية والخيول وكافة دواب الحمل

لايمكن للمصريين أن يكون لديهم ذلك العدد من القطعان الكبيرة من الحيوانات التى لدينا ، والسبب فى ذلك بالغ الوضوح ، فالمراعى عندهم ليست بمثل وفرتها عندنا. فإذا ما استثنينا مصر السفلى وشطآن وادى النيل بعرض ١ -٣ فراسخ ، فسوف نجد أن أراضى مصر قاحلة تماما ، بحيث يستحيل إطعام الماشية. ومع ذلك فسكان الريف يمتلكون جميعا بعض الأبقار والجاموس وبعض الماعز وبخاصة فى الدلتا ، لكن الجمال والخيول والحمير توجد بأعداد أكبر ، لأن مهمة إطعام هذه الحيوانات أقل صعوبة ، إذ لايقدم للخيول سوى التبن (قش مدروس تحت النورج الذى يقوم بدرس القمح والشعير) والبرسيم. ويطعمون فى الربيع بالشعير الغير كامل النضج ؛ وهو يزرع لهذا الغرض ، ولاينبغى أن يترك فى الأرض حتى يبلغ مرحلة النضوج ، ويقوم زراع الشعير بتشكيل حزم صغيرة منه ، يبيعونها فى المدن :كل حزمة بواقع ١ ، ٢ مدينى. أما المماليك وغيرهم من الأثرياء الذين يحرصون أن تكون خيولهم قوية جميلة المنظر، فيطعمونها بالشعير الحب(١).

ولاتلقى الجمال مثل هذه العناية الكبيرة إذ لايقدم لها سوى القش والفول المطحون بالرحى ، وبالإضافة لذلك فإن الجمال تقرض أوراق وبراعم الأشواك التى تنمو على حواف الترع وشواطىء النهر ، وتقدم لها فى الربيع أوراق الأشجار ، وهو طعام مفضل لديها ، وعندما تصبح حرارة الصيف ملتهبة يجمع الفلاحون أوراق الأشجار ليستخدموها شتاء فى إطعام الثيران والماعز.

---

(١) يطعم العربان خيولهم بأشياء قليلة جدا . وهذه الخيول نحيلة وقوية وتتحمل المشاق والحرمان لدرجة أكبر من الخيول الجميلة المنظر ، وهى لا تشرب سوى مرة واحدة فى اليوم ، ويردد العرب دائما هذه الحكمة : يابخت الخيل عند الفز ، يابخت العرب مع الخيل . وذلك تعبير عن أن العربى يحصل على منافع كبيرة من حصانه بأقل التكاليف ، فى الوقت الذى يحصل فيه حصان المملوك من سيده - على نحو ما - على أكبر النفع.

والحمار هو دابة الركوب المعتادة لأبناء الشعب ، وقد تعود الفرنسيون على تلك الدابة بسهولة . وفى الحقيقة فإن الحمار فى مصر ، لا يتميز بهذا البطء ولا بالمظهر الدنىء اللذين لنظيره فى أوربا ؛ فسرعته مناسبة ، وخطوه جميل ، ويخب بسرعة طيبة ، وهوشديد التحمل . وقد رأينا فى الصحراء حميرا صغيرة الجسم ، لكنها تحمل فوق ظهرانيها مايقارب من نصف حمولة الجمل ، ومع ذلك فإن الحمار يقاوم التعب بأحسن مما تستطيع الجمال .

وتوجد فى القاهرة أنواع عديدة من هذا الحيوان ، والنوع الكبير منه جميل الشكل ، ويستحق بالفعل الإطراء الذى امتدحه به بوفون Buffon . ويبلغ علوه من ٣ - ٢/١ ٣ أقدام دون أن ندخل فى ذلك ارتفاع الرأس ، ورقبته عريضة قصيرة، ورأسه مرتفع جميل ، وقامة جسمه متناسقة ، وله ملمح نبيل ، وعيناه مليئتان بالحيوية . إنه حيوان قوى ، جميل الخطو ، ويناسب الفرسان لكنه غالى الثمن ، ويفضل فى معظم الأحيان على الحصان ، إذ يباع بحوالى ٦٠ -٧٠ قرشا أسبانيا . ومن نافلة القول أن نؤكد أن هذا النوع جميل جدا ، ويستحق بالفعل تلهف الناس على استئجاره للسير به فى شوارع المدينة ، وهو مملوك لأفراد يستطيعون شراءه.

أما ذلك النوع من الحمير التى يقودها المكاريون فهى أصغر بكثير، لكنها بالمثل بالغة الجودة ، ويدفع فى الجولة التى تمتد من أول القاهرة إلى آخرها حوالى ٩ - ١٠ بارات . ويكلف إيجار الحمار ليوم بأكمله ٣٠ -٤٠ بارة ، وكان السعر أقل من ذلك بكثير قبل مجيئنا إلى مصر. وسبب ارتفاع السعر بالغ الوضوح ، فمع مجىء الفرنسيين تضاعف عدد الجولات فى شوارع المدينة . ويتبع المكارى حماره جريا على الأقدام ، ويحمل فى يده قضيبا صغيرا من الحديد تتدلى منه الجلاجل ، وصخب هذه الأجراس الصغيرة تجعل الحمار يخب ، فإذا لم يجر بالسرعة المطلوبة ينخسه المكارى بهذا القضيب ، فهو مدبب من أحد طرفيه.

ويوجد فى القاهرة عدد كبير من البغال يستخدمها رجال الدين وكبار التجار، وثمنها هى الأخرى مرتفع . وقبل مجىء الفرنسيين إلى القاهرة لم يكن يحق لأحد سوى المماليك أن يمتطى ظهور الخيل(١). وكان من عادة المماليك أن يعدوا بخيولهم عدوا أو يسيروا بها على مهل ، ولوحظ أنهم لايسيرون بخيولهم هذه وهى تقفز . وكانوا يدربون هذه الخيول بأن يندفعوا الواحد ضد الآخر ، وأن يتلامسوا بفعل الاقتراب ، ثم يتجاوز الواحد منهما الآخر ، ثم يناوشان بعضهما البعض بالسيف . وكانت إحدى تدريباتهم المفضلة أن يوقفوا حصانهم فجأة وهو فى أقصى سرعته ، وكانت هذه الحركات المفاجئة والعنيفة والصعبة تعرض الحصان لانحراف خطر مما يحطم له ساقيه. لذلك فإن أغلب الخيول التى تدربت على هذا النمط المملوكى كانت تعانى من هذا العيب ، فقد كانت سيقانها ضعيفة لحد كبير، وقد لاحظنا أكثر من ذلك أن معظمها يعانى من بعض التصلب والتعثر فى حركاتها، وذلك ناتج بلا جدال عن القيود التى وضعت فى أقدامها لأوقات طويلة.

ومن النادر أن نرى فى مصر حصانا خصيا ، فهم يركبون الخيل فى سن الثالثة ، وعندما يتجاوز عمر الخيول العاشرة يكف استخدامها ، وثمة خيول مصرية بالغة الجمال ، لكنها مع ذلك ليست من نوع واحد . وخيول الصعيد أكثرها جدارة ، فساقها – شأنها فى ذلك شأن كافة الخيول العربية – دقيقة رفيعة ، وعينها يقظة ، ورأسها مستقيمة ، أما كفلها فإنه أقل بدانة مما لخيولنا الرعوية ، وحركاتها أنيقة ، وخطوها مناسب ، خاصة إذا لم تكن قد أتلفتها طريقة المماليك فى التدريب ، ومع ذلك فربما لم يكن فيها جميعا نفس مافى خيولنا الحربية من نبل وعزم . ولن يجد الفرنسيون مثيلا لهذه الخيول المصرية فى قفزها وليونتها ، لكنها أقل من خيولنا احتفاظا بقوتها ، كما أنها أقل منها احتمالا للمشاق ، ويقال

---

(١) يؤكد بعضهم أن المسيو روزتى Rosetti قنصل النمسا قد أراد ذات يوم أن يتمتع بهذا الحق، لكن الناس أنزلوه من فوق ظهر الحصان.

إنها بالغة الخفة وأنها تتفوق على خيولنا فى سرعتها ، ولكنى شاهدت فرسا فرنسيا تسبق حصانا عربيا قويا بمسافة كبيرة [1] .

والخيل فى مجموعها ليست فى مثل عنف خيولنا ، فالأمر يمضى غاية فى الهدوء فى حظائر الخيول ، ومن السهل أن نضعها بالقرب من الفرس دون أن تضطرب الأمور.

وفى أثناء إقامتنا فى مصر كان سعر الحصان يبلغ ١٢ –٢٠ لويس ، وينبغى أن نلاحظ أن المماليك كانوا قد رفعوا سعره فى هذه الفترة.

ولايركب العربان مطلقا إلا الفرس ، ويعلقون أهمية كبيرة على الاحتفاظ بأنسابها الطيبة نقية بعيدا عن أى اختلاط ، بل ولديهم خبراء فى علم أجناسها ، والفرس من السلالة المسماة "كويت" هى أكثرها امتيازا ، وهى ذات قيمة كبيرة ، ويبلغ ثمنها من ٥ –٦ آلاف فرنك ، وقد رأينا منها اثنتين أوثلاث رائعة الجمال.

وللخيول العربية صغيرة الحجم والتى قد لاتلفت الانتباه بأناقة شكلها ، ميزات تعوضها عن مظهرها المتواضع هذا ، إذ هى فى العادة أكبر سرعة من الخيول الأخرى ، كما أنها أكبر منها بكثير مقاومة للتعب .

٨

تقاليد عربان البحيرة

يمكننا أن نحصى فى ولاية البحيرة – الواقعة ما بين الأسكندرية والقاهرة

(١) تتطلب الخيول فى مصر عناية فائقة ، فبعد أقل جولة تقوم بها ينبغى أن يقوم أحد الخدم بجعلها تمشى حتى يجف عرقها ، وبدون هذا الاحتياط يمكن أن تموت على الفور ، وهى فى العادة جفولة ، وتتعرض كثيرا لمرض الرئتين . ويستخدم الشرقيون ركابا للسرج ، عرضه كبير ، ويستخدمونه فى نفس الوقت كمهماز ، وتكفى ضربة قوية لهتك فخذ الحصان ، ولجامها قوى وجاف ، والطريقة التى يستخدم بها هناك تؤدى سريعا إلى هتك أفواه الخيول ، لكن لا يمكن إيقافها بعد ذلك – إذا ما أخذت تعدو – إلا عن طريق هذا اللجام.

والفرع الأيسر للنيل – سبع قبائل أساسية من العربان ، استقر عديد منها هناك منذ زمان بعيد.

وأكبر هذه القبائل عددا قبيلتا الهنادى والجوابى ، ويمكن أن يبلغ تعداد الأولى ٣٠٫٠٠٠ شخص رجالا ونساء ، بينما تكون الثانية على نحو ما أمة صغيرة من الرعاة ، يحكمها شيخ كبير ورث المشيخة عن أجداده. وحيث إن عائلته هى أقوى عائلات القبيلة فإنه يمارس سلطته المطلقة بحق الوراثة ، حيث لاتوجد هناك أية قوانين وضعية . وتنقسم القبيلة إلى ثلاث طبقات ، تنقسم كل منها بدورها إلى عائلات ، أما مكان الإقامة فواحد بالنسبة للجميع ، ولكل واحد قطيعه من حول خيمته ، وهذه القطعان تتكون من جمال وماشية صغيرة ، ويمكن للعربى المتواضع الثراء أن يمتلك ٤ أو ٥ أو ٦ من إناث الجمال واثنين من ذكورها ، بخلاف الماشية الصغيرة التى يمتلك منها عددا كبيرا .

وتُغَيِّر القبائل أماكنها فى فترات منتظمة إلى حد ما ، ويحدد مناطق تجوالها الأمل فى العثور على المراعى اللازمة لإمداد قطعانها بالغذاء ، ولهذا تذهب الجوابى كل عام من مريوط إلى الصعيد ، وهكذا فإنهم يمرون بوادى بحيرات النطرون ، ويحملون معهم كميات من الملح ، ويحصلون فى مقابل ذلك على ثمن تحدده العادة . وفى نفس الوقت يذهب هؤلاء العربان أنفسهم إلى الواحات ، لشراء البلح الطازج أو المجفف ، ليبيعوه بعد ذلك لصغار التجار فى مصر .

وتقاليد هؤلاء العربان بسيطة ورعوية ، وتنأى بهم عن القيام بالسطو والنهب ، إذ لايمكن أن يوجه مثل هذا الاتهام إلا لعدد جد ضئيل من أمتهم الصغيرة تلك ، ولا يحدث بينهم إلا قدر ضئيل من السرقات التى يلقى مرتكبوها عقابا رادعا من الشيوخ .

وفى أثناء جولاتهم تلك ، والتى تتم ببطء شديد ، يمشى الأقوياء من الرجال صغار السن على أقدامهم ، بينما يركب الشيوخ والأطفال على ظهور الجمال ، وتسهر النسوة على شئون النقل مع أزواجهن ، وهن لا يغطين وجوههن إلا أمام

الأغراب ، وتبتدئ الجمال المسيرة تليها قطعان العائلات المختلفة ، وهذه القطعان منفصلة فيما بينها . ويبلغ تعداد حيوانات القطيع ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٥٠٠ وأكثر.

وملابس أفراد هذه القبيلة هي نفس ملابس بقية العربان ، فالرجال يرتدون قميصا خشنا ومعطفا من الصوف الأبيض أو الغامق ، ويلفونه فوق رؤوسهم ليتقوا حرارة الشمس ، كما يستخدمونه غطاء في الليل ، وللشيوخ معطف من الصوف الأبيض ، لكنه أكثر نعومة . ولا ترتدى النساء إلا جلبابا خفيفا وتزين خصلات شعرهن بزينات متعددة.

ويرى قليل من الخيل لدى الجوابى حيث لا يتجاوز عدد فرسانها الأربعين ، بينما يبلغ تعداد فرسان الهنادى أكثر من ثمانمائة.

وأبناء قبيلة الجوابى شديدو التدين ، وهم يتبعون الديانة الإسلامية بشكلها الأنقى . ولا تعرف عائلاتها الكبيرة عادة التدخين ، فهذه العادة لم تدخل القبيلة مطلقا ، وهم يمتنعون عنها إما احتراما لعاداتهم القديمة وإما بدافع دينى غامض، بحيث لم نجد فى هذه الأمة الصغيرة إلا عجوزا واحدا يهوى تدخين التبغ ، وينتسب هذا الشيخ إلى عائلة قديمة، ويقابل فعله هذا الذى يتعارض مع العادات المتبعة بتسامح اعتبارا لسنه . ولا تدفع الجوابى ضرائب مطلقا ، ويكتفون بأن يرسلوا كل عام إلى قائمقام دمنهور هدية تتألف من بعض الجمال .

وتعيش الجوابى فى قناعة شديدة ، وهى عادة شائعة – كما رأينا – عند كل العربان ، ويكتفي المرء هناك بوجبتين : واحدة عند الظهر ، والأخرى عند غروب الشمس ، وتتكون الوجبة من اثنتين أو ثلاث بلحات مع شئ من الخبز مغموس بالزبد الذائب على النار . ويكاد المرء لا يتصور كيف يمكن لأجسام تغذت على هذا النحو ، أن تتحمل تلك المشاق التى لم نسمع عنها ، وتحت سماء ملتهبة لهذا الحد . ولايكاد يبلغ إجمالى كمية الطعام التى يتناولها المرء فى اليوم ٦ أو ٧ أوقيات ، وبرغم ذلك فالعربان بوجه عام حسنو الصحة ، وإذا ما استثنينا أمراض العيون –

وهى الأمراض المتوطنة – فإنهم أقل من غيرهم عرضة للأمراض من كافة شعوب أوربا[1] . وفضلا عن ذلك فهم لا يتناولون المشروبات الروحية ، ويكتفون بشرب ألبان النوق والماء القراح . وتصنع آنية الشرب التى يستخدمونها من الخشب ، أما تلك الآنية الطينية المعروفة باسم القلة فليست شائعة عندهم . وشرب القهوة يعد واحدا من المتع التى نادرا مايسمحون بها لأنفسهم ، وليس بينهم من يعتاد عليها سوى الشيوخ ، ولا يقدم هذا المشروب فى الخيمات الأخرى إلا عند الترحيب بزائر غريب .

والجوابى مضيافون بالغو الكرم ، ويمنحون حمايتهم لكل الناس بلا تميز ، بل إنهم يدخلون فى حماهم حتى المجرمين المطاردين ، ويقيم الغريب فى خيمة مضيفه الذى يبذل كل جهده لكى يكرم وفادته ، وتغطى النساء وجوههن أمامه دلالة على الاحترام. وتتجلى مودة العربان وكرمهم خاصة فى الوجبات التى تقدم للمسافرين الذين يلجأون إليهم طلبا للضيافة ، فهذه باذخة بالنسبة لظروف المضيفين ، وتتكون من : الأرز والخبز والبصل المشوى وخروف مسلوق يقدم فى طبق كبير انتزعت منه فقط بعض أجزاء لتحميرها ، وتقدم هى الأخرى على المائدة، وزيادة فى إكرام الضيوف يحرص المضيف على أن يختار لهم بنفسه أحسن قطع اللحم . وقد يدهش المرء من عواطف وأحاسيس هؤلاء الناس الذين هم بالكاد فى أول أطوار الحضارة ، ومن إخلاصهم وحماستهم حين يتحدثون عن مباهج حياتهم تلك .

ويتكون أثاث الخيمة من سجادة خشنة ، وبعض الأوانى الخشبية أو الفخارية، وأسلحة من أنواع مختلفة ، وأحيانا بعض أدوات مـن الحبال وأثاث من نوع خاص . وليس فى خيمة شيخ القبيلة ما هو أكثر من ذلك ، وربما يكون الشئ

---

(١) انظر: Volney, Etat politique de la Syrie, P. 361 et s.
وكل ما قاله هذا المؤلف عن بدو سوريا ينطبق على بدو مصر.

الوحيد الذى يميزها عن بقية الخيام هو فخامة السجادة المفروشة فيها ، والتى ليس فيها برغم ذلك شئ غير عادى ، وقد يصل ثمنها إلى٣٠ - ٤٠ قرشا أسبانيا.

ويقوم العربان بجولات طويلة للغاية فى الصحراء ، ويتوغلون فيها أحيانا لمدة تبلغ العشرين يوما وأكثر . ويجعلهم تعودهم الطويل يتعرفون على السهول الرملية، فهم يعرفون الأماكن التى توجد بها المياه . وليس ثمة من صحراء مهما كانت قاحلة لا تحتوى على مصادر للمياه ، أو على الأقل لا تحتوى على آبار للمياه الصالحة للشرب ، ولو كانت مالحة بعض الشئ . وفضلا عن ذلك فهم يحملون على جمالهم الماء والمؤن الضرورية ، ويحتفظ المسافر بالماء فى آنية كبيرة من الجلد يغلقها بسدادة خشبية ويعطرها بالمستكة.

أما البدو الذين يعيشون على السلب - والذين سنتحدث عنهم بعد قليل - فإنهم يجمعون كل ماسلبوه ليقتسموه فيما بينهم حسب قواعد متفق عليها ، حتى يتجنبوا الاقتتال فيما بينهم ، ونادرة هى الحالات التى يستوجب فيها أن تعود الخيل أو الأمتعة المسلوبة على واحد دون الآخر ، ونادرا كذلك ما يفوتهم أن يخصصوا جزءا من هذه الأسلاب لشيخ القبيلة حتى ولو كان غائبا.

والنساء عند هذه الشعوب الجوابة لسن عاطلات ، بل يصنعن قماش الخيام ، وينسجن بأنفسهن السجاجيد لتأثيث هذه الخيام ، وهن يستطعن صباغة هذه السجاجيد بألوان زاهية ومتنوعة ، وتكاد هذه الألوان تكون أكثر ثباتا من ألوان أجمل سجاجيد الأناضول . وعندما يذهب بعض العربان إلى المدن ، فإنهم يأخذون على عاتقهم القيام بالأعمال التجارية الخاصة بالقبيلة ، كما يحضرون الأصباغ اللازمة لعمل النساء.

ومن حق العربى أن يتخذ لنفسه عدة زوجات ، ولكنه نادرا مايستعمل هذا الحق ، فلكل عربى زوجة واحدة ، ويشترى الأغنياء منهم إماء زنجيات وعبيدا

سودا فى بعض الأحيان . وتسمح لهم الشريعة بالطلاق شأن بقية المسلمين ، لكن عادة الطلاق ليست منتشرة بينهم بنفس درجة انتشارها عند سكان المدن المصرية، بل إن من يطلق زوجته منهم يجر على نفسه نوعا من الاحتقار ، ويعرض نفسه للرفض العام . وقد شوهدت بنت أحد الشيوخ الكبار وهى ترفض أن تعيش مع أبيها لأنه طلق أمها ، كما لم يستطع ابنه الشاب الذى كان يدير شئون عائلته بذكاء كبير أن يمنع نفسه من أن ينظر لهذا السلوك من جانب أبيه باحتقار شديد.

ويدفع لنساء هذه القبيلة مهر ، كما يسمح لهن بامتلاك القطعان .

والحرية هى كنز العربان الثمين ، فهم ينفرون من أى نوع من الخضوع ، وهم يفضلون أن يقدر عليهم البقاء فى عزلتهم الواسعة تلك فى الصحراء عن أن يتحملوا خضوعا من أى نوع . ولا يريد الجوابى أن يرتبطوا بشكل مطلق بزراعة الأراضى ، إما لأنهم يخشون إبدال طبائعهم ، وإما لأنهم ينفرون غريزيا من الزراعة ، وإما تمسكا منهم بعاداتهم القديمة . وفى بعض الأحيان يبذرون قطعة من الأرض روتها الأمطار ، ومع ذلك فإن توقع حصولهم على محصول وفير فى العام التالى لا يغريهم مطلقا على البقاء ، بل إنهم يكتفون بما حصلوا ويحملون خيامهم إلى مكان آخر.

ونحن نرى من هذه التفاصيل كيف أننا - هنا فى أوربا - سوف نكون مجحفين تجاه العرب، لو أننا نظرنا إليهم كأناس همج ليس لديهم شفقة ولا رحمة، فلقد ترددنا عليهم كثيرا ، وكنا شهودا على مودتهم وفطرتهم البسيطة وفضائلهم الرعوية ، وإذا كان ثمة من بينهم قبائل تستحق لوم الأوربيين فنحن لا نستطيع أن نعمم هذا اللوم دون أن نحكم على أنفسنا بالجور وعدم الإنصاف ، فتقاليد الجوابى وكذا تقاليد عدد كبير من قبائل أخرى لا نستطيع أن نتناولها بالحديث هنا ، ليست بأقل جدارة - بأن تُتَّخذ نموذجا يحتذى - من تقاليد أية أمة متحضرة.

وتوجد على مشارف ولاية البحيرة - بخلاف قبيلتى الهنادى والجوابى- القبائل الآتية:

١- قبيلة الأفراد ، ويمكن القول بأنها ليست سوى فرع من الهنادى ، وتتكون من حوالى ٣٠٠ فارس .

٢- قبيلة الجويلى ، وتضم أكثر من ٤٠٠ فارس .

٣- قبيلة بنى عون ، وتبلغ قوتها ٣٥٠ رجلا يركبون الخيل .

٤- قبيلة أولاد على ، وتبلغ قوتها ٣٠٠ رجل يركبون الخيل .

والقبائل الثلاث الأخيرة متحالفة فيما بينها ، وهى فى حالة حرب مستمرة مع القبائل الأولى . وهذه القبائل المختلفة قد اقتسمت على نحو ما السلطة المطلقة على الولاية ، ونشروا مساعدتهم وحمايتهم على بعض القرى ضد عشائر أخرى من البدو في مقابل إتاوة سنوية . وعندما ترفض واحدة من هذه القرى أن تدفع المبلغ المتفق عليه أو إذا لم تستطع ذلك ، فإن الحماة المدعين يُغَيِّرون من أدوارهم ، وينتظرون حتى يصل الفلاحون ومعهم ماشيتهم إلى الحقول ، وعندئذ تنشق عنهم الأرض فجأة ، وينتزعون كل ما يستطيعون ، ولا يردون ماسلبوه إلا إذا حصلوا على ضعف الإتاوة التى سبق الاتفاق عليها ، ويتم هذا الصلح بالاتفاق بين الطرفين . لكن الغرم يقع على الدوام على الفلاحين الذين لا يمكنهم أن يعرضوا أنفسهم لمثل هذا الابتزاز البشع دون دوافع قوية . أما إذا ما اتفق الفلاحون فيما بينهم ، فإن القبيلة الحامية تقوم بحصارهم حتى يدفعوا الإتاوة مع المغارم التى يحلو للأقوى أن يفرضها . ولكن إذا ما حدث - صدفة - أن حملت القرية السلاح لتدفع المعتدين بالقوة ، فالويل للفلاح الذى يقتل بدويا أو حتى يحدث فيه جرحا ولو بسيطا ، والويل لأسرته ولذريته ، فالدم لايعوضه إلا الدم ، ولسوف ينتقم الجريح وأهله أو حلفاؤه لعاره الآن أو فى المستقبل.. وعند موت أحد البدو يعهد إلى ابنه أو إلى أقربائه الأقربين بمهمة الثأر ، وهذا فرض مقدس ، ذلك أن قانون الدم

عند البدو هو أهم القوانين التى تطبق عندهم . وقد حدث مرات كثيرة أن طلب ثأر واحد من الأهل أو الأجداد ، بعد أن كانت قد انقضت فترة كبيرة من الزمن منذ موته. وعندما تسنح فرصة الانتقام فإن المتضرر أو من يتصرف باسمه لايفوته أن يمسك بها ، وعندئذ لايُعرف لغضبه حدود ، ومع ذلك فيمكن شراء الدم بجعل مالى، لكن مثل هذا الاتفاق ينبغى أن يُصَدّق عليه كل أفراد العائلة وإلا اعتبر كأن لم يكن. وبخصوص الجرح البسيط يمكن الاكتفاء بمبلغ يتفاوت قدره بحسب الجرح ، ويدفع هذا المبلغ نقدا أو عينا . أما بخصوص الموت فيفضل الانتقام ، ولسوف تجلل أسرة المتوفى نفسها بالعار الشديد إذا هى قبلت فى مقابل دم القاتل فدية مهما كبرت ، تاركة بذلك روح قتيلها هائمة[1].

ونقدم هنا أمثلة على تطبيق قانون الدم ، كيما نبين كيف أن العرب قساة فى هذه النقطة .

ذات يوم تقابل اثنان من الأعراب : أحدهما من الأفراد والآخر من الهنادى بالقرب من بسنتاواى ، وهى قرية تقع على بعد ١٢ فرسخا جنوب شرق الأسكندرية . وكان الأفرادى يقود تسعة أو عشرة ثيران تملكها هذه القرية ، فسأله الهنادى :

– هل صحيح أنكم فى سلم مع الفرنسيين ؟

– صحيح .

– أليس من الأحسن أن تتحالفوا معنا بدلا من أن تتحالفوا معهم ؟

– ماذا تريد؟ هكذا أراد شيخنا مريك.

فقال الهنادى :

---

(١) يدخل Volney فى بعض التفاصيل المتصلة بهذه العادة الهمجية ، لكننا نكتفى بأن نحيل قراءنا إلى مؤلفه: Etat politique de la Syrie .

– وهذه الثيران ، هل تقودها إلى معسكر الفرنسيين ؟

– لا ..

– لكنى أمنعك من ذلك وسآخذها منك .

– لا تقدر على ذلك ..

وهنا هوجم البدوى المتحالف معنا ، وبعد معركة خفيفة ، خدش أثناءها الهنادى خدشا بسيطا فى يده ، فصاح: «يا ربى : أتقاتلنى بدلا من أن تقاتل الفرنسيين ؟ » .

فأجابه الآخر فخورا بما أحرزه من كسب :

– لا عليك إلا أن تنشد السلام. ابتعد.

– السلام ! سأصنعه بإرادتى ، ولكن (وأشار إلى يده) .. الدم !

– حسن ، لا عليك ، اطلب ما تريد.

– أعطنى ثورا من الثيران التى تقودها فينتهى الأمر.

وانتهت المعركة بالفعل بهذه الطريقة . ومع ذلك دفعت القرية الأجر المقدر لحارس ثيرانهم هذا ، بالرغم من أن الثيران قد نقصت واحدا بسبب غلطة منه هو.

ويعرف الفلاحون معرفة تامة ذلك الطبع الحقود الذى للبدوى ، حتى أنهم يتحاشون أن يجرحوه ، أو أن يقتلوه مهما كان حجم الضرر الذى وقع منه عليهم .

ذات يوم لمح أحد البدو – بينما هو يمر على حصانه فى سوق دمنهور – بقرة أعجبته ، فألقى على عنقها حبلا به عقدة متحركة وجذبها إليه وسار بها ، وبعد أن أفاق الفلاحون من دهشتهم جروا خلف السارق ، وأدركوه فى اللحظة التى كان فيها على وشك أن يجتاز ومعه غنيمته ترعة مليئة بالمياه ، فأوقفوه ، وبعد أن استعادوا منه بقرتهم ذبحوا حصانه أمام عينيه ، ثم أرقدوه هو نفسه على بطنه

وضربوه بالعصا ٢٥ ضربة ، وبعد ذلك أنهضوه وأطلقوا سراحه. ووصلت فى هذه اللحظة إلى المكان داورية فرنسية قد أرسلت فى أثر البدوى ، ودهش القائد وسريته الصغيرة من أن الفلاحين قد قتلوا الحصان ولم يقتلوا اللص ، وسألوا عن سبب هذا الأمر العجيب ، وعندئذ أجاب أكبر الفلاحين سنا - عن طريق مترجم - بأنهم قتلوا الحصان عقابا للبدوى ، وبأنهم استبقوا البدوى حتى لا يعرضوا أنفسهم لحق لا يمكنهم الإفلات منه ، وهو حق تعويض الدم .

وإذا كانت الشراسة والعناد اللذان يبدوان فى طباع البدو الحقود ، يكفيان لتقديم فكرة سيئة عن أخلاقيات هؤلاء القوم ، فإن من الصعب أن يكون حكمنا عليهم بأفضل من ذلك إذا ما نظرنا إلى أخلاقياتهم بمعيار الصفات الحميدة والفطرة السليمة . ولقد قدموا لنا أثناء مدة الحملة أكثر من دليل على ما يمكن للمرء أن ينتظره وأن يخشاه منهم ، لكننا نكتفى هنا بأن نروى الحكاية التالية لأنها تقدم لنا أمرا من أكثر أمورهم غرابة .

بعد عدة أيام من عملية ١٤ فلوريال (x) التى هزم فيها ٤٠٠من الفرنسيين وردوا خمسة وعشرين ألفا من البدو والمغاربة والفلاحين المتمردين ، جاءنا الشيخ مربك شيخ الأفراد لزيارتنا ، وسألناه أين كان وقت الأحداث ، فأجاب ببساطة «كنت على بعد ١/٢ فرسخ من ميدان المعركة مع كل أبناء القبيلة على خيولنا ومسلحين » - آه ! ، وماذا كنتم فاعلين بسلاحكم ؟ - «كنا سنبث الاضطراب فى صفوفكم بإعمال السيف فيكم ، وإكمال هزيمتكم لو دارت الدائرة عليكم» . وقد أدهشتنا هذه الإجابة لكنا تمالكنا أنفسنا وسألناه : ولكن ، ألسنا فى سلم معكم ؟

(x) الشهر الثامن من التقويم الرسمى لفرنسا ، ابتداء من ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ ، وقسمت بمقتضاه السنة إلى ١٢ شهرا ، بواقع ٣٠ يوما للشهر. أما الأيام الخمسة الباقية من السنة فقد عرفت بأيام الشعب وجعلت كلها أعيادا ، ويعرف اليوم السادس - فى السنوات الكبيسة- بيوم الثورة ، وقد قسمت الشهور إلى ثلاث عشريات ، وجعل اليوم العاشر من كل منها يوم عطلة. والأشهر الاثنى عشر هى: فنديميير ، بروميير ، فريمير ، نيفوز ، بليفوز ، فنتوز ، جرمينال ، فلوريال ، برريال ، مسيدور ، ترميدور ، فريكتيدور. (المترجم) .

– هذا صحيح ، لكن لا ينبغى أن يدهشكم سلوكنا ، فطريقة البدو دائما هى الانقضاض على الضعيف – ولكن نحن ؟ نحن الذين صادقناكم ! – هذا صحيح ، لكن الصداقة بيننا لاتستمر إلا طالما أنتم أقوياء . ولقد أتيح لمبدأ الشيخ مربك هذا أن يطبق بتمامه بعد عام كامل ، فقد كان البدو قبل معركة هليوبوليس على استعداد للعمل لصالح العثمانيين ، بل إن قبائل عدة كانت قد انحازت بالفعل إلى صفوفهم ، ولكن ما أن تقهقر الجيش العثمانى حتى انقض هؤلاء الحلفاء الخطرون عليه ، ونهبوا مؤنه وأبادوا عددا كبيرا من جنوده ، حتى كادوا أن يأسروا الصدر الأعظم نفسه(١).

وعندما ذبح البدو والفلاحون المتحالفون معهم ، الحامية الفرنسية فى المنصورة وكانت تقدر بـ١٢٠ رجلا ، أتاح الحظ لجنديين من التابعين للواء الثالث أن ينجوا بحياتهما ، واصطحبهما البدو أسيرين ، وكان هذان البائسان بالإضافة إلى ثالث أمكنه الهرب هم كل من بقى من أفراد الحامية على قيد الحياة بعد الكارثة التى حلت . وبرغم كل شئ فنحن مدينون لهما بالمعلومات التى سنقدمها هنا– برغم النقص البادى فيها– حول مختلف عادات هؤلاء البدو.

كان معسكر القبيلة يقع على بعد ثلاثة فراسخ من المنصورة ، وقد أشاع الأسيران فى البداية أكبر قدر من الدهشة بين سيدات وأطفال إحدى القرى ، حيث توقف الذين كانوا يقتادونهما ليحصلوا لهما على بعض الطعام. وعندما وصل الأسيران إلى خيمة العربان ، أبلغا بأن ليس ثمة ماينبغى أن يخشياه على حياتهما. وبرغم ذلك ، فإن قيام هؤلاء الهمج بذبح أسير فرنسى آخر وفى برود تام

(١) ونحكى كذلك الحكاية التالية وهى إن كانت لا تضيف شيئا إلى ماذكرنا فإن لها جانبا فكاهيا لحد ما . فى أثناء معركة دارت بين البدو الحامين لدمنهور مع بدو آخرين حماة لقرية سرنباى ، ذهب الأولون للاستيلاء على ماشية القرية الأخيرة ، ورد الآخرون على الشر بالشر فانتهبوا دمنهور ، وبرغم قصر مدة المعركة فإنها قد تركت البلدتين بلا ماشية على الإطلاق.

أمامهما ، لم يوح لهما بكثير من الثقة فى مثل هذه الوعود . ولم يفرض على الأسيرين القيام بأى عمل ، بل لقد قضيت لهما بعض طلباتهما .

وقد لاحظ الأسيران أن طعام القبيلة شديد البساطة ، فكمية من العدس وبعض البقلاوة تقدم فى طبق يشبه المقلاة ، أوبعض الحب المجروش المغلى وعليه شيء من الزبد يكفى وجبة لرجل ، وفضلا عن ذلك فهذه الأصناف تقدم بكمية قليلة للغاية . وقد تبين للأسيرين أن أهم شخص فى القبيلة – برغم مكانته وثروته ، وهو يرتدى قماشا من الحرير ، ويتمدد على حشية ، ويغير باستمرار من ملابسه – لم تكن تقدم له أية طقوس تدل على الاحترام ، كما أنه يأكل مع الجميع دون تمييز ، وكان هذا الرجل يتناول القهوة مع عدد صغير من أبناء القبيلة . كما شاهد الأسيران عددا كبيرا من العربان يدخنون الغليون ، وكانت ملابس هؤلاء لاتختلف فى شئ عن ملابس البدو الآخرين الذين سبق أن تحدثنا عنهم.

وفى أثناء الفترة التى أقامها الأسيران فى معسكر هؤلاء العربان ،لاحظا أن هؤلاء يغيرون من أماكنهم باستمرار ، ولكن دون أن يبتعدوا كثيرا عن المكان الذى تركوه ، وكانوا يهدفون بتنقلهم هذا الحصول على المراعى اللازمة لقطعانهم الكثيرة.

كانت القبيلة فى مجموعها تمتلك حوالى المائة من الخيول ، ومثلها من الجمال، وأعدادا هائلة من الغنم والماعز والماشية كبيرة الحجم ، تلك كانت كل ثروتها . وكانت نفس الخيمة – حسب أقوال الأسيرين – تضم الأسرة بأكملها بلا تمييز بين سن أوجنس ، فكان الأب والأم والأطفال يقضون النهار والليل معا ، دون أن يكون ثمة فاصل بين هذا أو ذاك من أفراد الأسرة . ولم تكن النساء متحجبات ، وكن يلبسن فى آذانهن أقراطا من المعدن وأساور . وكان أزواجهن يعاملونهن برقة ، وعندما كن يلمحن الفرسان عائدين من تجوالهم ، كانت كل واحدة من أولئك اللاتى يشارك أزواجهن فى هذا التجوال تهرع للقائه ، وتبدى له أكبر أمارات الابتهاج

والفرحة إذا كان يحمل معه أسلابا ، أما إذا كان قد عاد خالى الوفاض فإنها تلقاه فى صمت. وكانت الأسلاب توزع بين أولئك الذين شاركوا فى الغارة .

وكانت النساء والرجال – وبخاصة الرجال – يؤدون صلوات عديدة ، ودين القبيلة هو نفس دين محمد ، ولكن مع شئ من الخلط برغم أنه لم يكن بمقدور الأسيرين أن يلاحظا ذلك.

ويبدو أن النساء أكبر عددا من الرجال ، وهن يشتغلن فى عمل قماش الخيام. والأطفال كثيرو العدد ، وترضعهم أمهاتهم حتى سن السنتين أو ثلاث سنوات ، ويظلون عراة تماما حتى سن السادسة أو الثامنة ، وفى هذه السن ترتدى البنت قطعة من القماش – أو قميصا – حول خصرها . والرقص هو اللعبة المفضلة عند هؤلاء الأطفال ، وهو عبارة عن القفز بشكل دائرى مع تحريك الخصرين وكل منتصف الجسم بطريقة خليعة . وهم يرقصون معا بينما يقومون فى نفس الوقت بالغناء.

وهؤلاء العربان ، وبخاصة نساؤهم ، كثيرو الكلام ، وتدور بين النساء مشاحنات عديدة تنتهى على الدوام بالصلح بينهن بعد جلبة وصيحات كثيرة . واحترام المسنين هو أحد الفضائل الأساسية لهذه القبيلة ، ويشعر الأولاد نحو والديهم بتقديس كبير . وأمراض العيون هى على وجه التقريب المرض الوحيد الذى يصيب هؤلاء العربان ، فلم نر من بينهم لامقعدا ولا كسيحا ، والأدوية التى يستخدمونها بالغة البساطة . وهم يجبرون الأطراف المكسورة بربطات منفرة وخشنة. وهم يعمرون حتى يبلغوا سن الشيخوخة الطاعنة ، ونادرا ما يعانون من الأمراض التى تهاجمنا مع تقدم السن .

ولنا أن نشعر بالأسف ، لأن الأسيرين لم يستطيعا ملاحظة الاحتفالات الجنائزية للقبيلة ، وكذا بعض العادات الأخرى المثيرة للفضول . هذا كل ما أمكنهما أن يخبرانا به ، ونضيف إليه هنا بعض الأمور التى تتصل بالعربان بوجه عام ، حتى نفرغ مما ينبغى أن نقوله بشأن هذه الشعوب.

لقد لوحظ أن عربان الصحراء الغربية – وبخاصة فى ضواحى الأسكندرية – كانوا أحسن تسليحا ، وأكثر شراسة من عربان الصحراء الشرقية . ويعود هذا الاختلاف بشكل أكيد إلى السهولة التى يجدها عربان الغرب فى التزود بالأسلحة والذخائر من الأسكندرية ، كما أن فرصتهم فى التزود بالسلاح أكبر ، حيث إن الإتاوة التى يحصلونها من الحجاج الذين ينزلون من البحر إلى الأسكندرية أكبر بكثير من تلك الإتاوة التى يحصلها العربان الآخرون ، ذلك لأنهم هم أول من ينبغى أن يدفع لهم . وفضلا عن ذلك فإن مايؤدى إلى جعلهم أكثر انعزالا عن غيرهم من العربان هو أن ولاية البحيرة لاتجذب انتباه الحكومة بشكل كاف ، إذ إنها أقل خصوبة وبالتالى أقل إنتاجا من باقى الولايات .

وينقسم العربان فيما بينهم – من حيث طريقة السكنى – إلى عربان يقيمون فى خيام وعربان يقيمون فى منازل ، وقد يبدو هذا القول من قبيل تحصيل الحاصل ، لكننا هنا نلفت النظر إلى أنه ثمة من بين البدو – حتى هؤلاء الذين يتميزون بالشراسة وحب الحرب – مزارعون طيبون بؤساء يقيمون فى قرى فقيرة، ويزرعون على التخوم بعض مساحات من الأرض القابلة للزراعة . وتسكن بقية القبيلة فى الخيام ، حيث تناسب هذه الطريقة بشكل أفضل تقاليدهم العسكرية ، وحيث إنها كذلك تسهل غاراتهم ، وتسمح لهم بأن يغيروا مكانهم بحرية حتى يعثروا على المراعى الضرورية لإطعام قطعانهم .

ويشكل العربان المرابطون طبقة أخرى من العربان الطلقاء ، وهم يعيشون على زراعة بعض الأراضى المهجورة ، وعلى تجارة الماشية . وهم فى أوقات الحصاد ، يساعدون الفلاحين فى أعمالهم فى مقابل أجر ، كما أنهم يقومون أيضا بنقل البضائع ، ويؤجرون جمالهم للفلاحين ومتعهدى المواكب ، ويجلبون إلى المدن منتجات كثيرة من داخل البلاد . ويسمى هؤلاء بالعربان المسالمين ، وهم بالتأكيد يستحقون هذه التسمية ، إذ ليس ثمة ماهو أبسط ولا أكثر براءة وفطرة من طريقتهم فى الحياة.

ويقطن مناطق من ولايتى الشرقية وقليوب أعداد كبيرة من قبائل البدو ، وبعض هذه القبائل رُحَّل ، وبعضها يمكن القول بأنه متوطن . ولاتختلف تقاليدهم فى شىء عن تقاليد الآخرين ، لذا فلن ندخل بشأنهم فى تفاصيل تعد من قبيل الحشو . وقد قدمنا فى الفصل الأول أسماء القبائل ومقدار القوة الحربية لكل منها .

٩

الحمامات العامة

يمكن أن نحصى أكثر من مائة حمام بالقاهرة ، يواظب السكان على الذهاب إليها – وبخاصة فى الشتاء – حتى يتسقوا مع أحكام شريعتهم . إذ يسمح الصيف للطبقة الدنيا منهم بالتطهر والاغتسال فى النهر حيث تكون مياهه شبه فاترة ، أما الشتاء ببرده فإنه يحرمهم من هذه الوسيلة الاقتصادية . وهنا يتوجه إلى الحمامات – حوالى مرة كل أسبوع – أولئك القادرون منهم ، ليحصلوا بمصاريف زهيدة على متعة يطمح إليها الفقراء والأغنياء معا .

أما رجال الطبقة الممتازة ، أو بالأحرى أولئك الذين يحوزون ثروة كبيرة – حيث إن السلطة فى مصر أكثر منها فى البلدان الأخرى ترتبط بدرجة الثراء – فإنهم يمتلكون فى بيوتهم حمامات خاصة . وبرغم ذلك فإن هذا لايمنعهم من أن يلتقوا بين الحين والحين فى الحمامات العامة ، ليروحوا عن أنفسهم فيما بينهم . كما يذهب إلى الحمامات العامة كبار رجال السلطة ، ولنفس الغرض ، وفى هذه الحالة ، يخطر مدير الحمام فيكف عن استقبال أى وافد ، ويقوم باستدعاء فرقة موسيقية وإعداد وجبة شهية ، ويظل هؤلاء هناك يروحون عن أنفسهم حتى حلول المساء . ويحصل مدير الحمام دوما على ما يكفيه لحد الرضا من كرم هؤلاء السادة الكبار ، إذ يدفعون له عند خروجهم فى مقابل كل بارة يحصل عليها من أبناء الطبقات الشعبية قطعة من الذهب.

ويذهب إلى هناك أيضا ، المماليك الذين لم يصلوا بعد لمرتبة الحكم ، ويقودهم إلى هناك الخزنة دار ، وتقدم لهم فى بعض الأحيان وجبة حافلة ، ويروحون كذلك عن أنفسهم.

ويوجد بكل حمام مغطس ملئ بمياه شديدة السخونة ، وبعد أن ينتهى المرء من استحمامه يغطس فيه للحظات . وطريقة الاستحمام التى تتبع هناك تختلف عن طريقتنا نحن فى ذلك ، فبعد أن يدخل المرء ، يستقبله الخدم فى الحجرة الأولى حيث يودع ملابسه ، ويعقد حول جسمه فوطة بسيطة ، ثم يقاد إلى ممر يشعر وهو سائر فيه بوهج الحرارة يشتد شيئا فشيئا لتصبح قوية عند اقترابه من الحجرة الثانية ، وهناك يجد نفسه وسط سحابة من بخار ساخن معطر يخترق مسام كل جسمه ، ويرقد على قطعة من قماش صوفى ، فيقترب منه على الفور خادم يلبس فى يده قفازا ، أو يمسك بفوطة من صوف ناعم . وعندما يتأكد أن البخار قد اخترق كل المسام بشكل كاف ، وأحدث بالأطراف نوعا من الليونة ، يبدأ بأن يطقطق كل مفاصل الوافد ، وتكاد هذه العملية لاتسبب سوى ألم خفيف تعوضه تلك الليونة التى تحدثها بعد ذلك فى حركة الجسم ، ويستطيع الأوربيون الذين لم يعتادوا مثل هذه العملية ويخشون نتائجها ، أن يرفضوها بمطلق حريتهم.

وبعد ذلك يدلك الخادم الجسم بالقفاز أو قطعة الصوف التى بيده ، ويكون التدليك قويا لحد يظن معه المرء أن جلده سينفصل عن جسمه . ويتوالى سقوط خيوط سوداء ، إذ يتخلص الجسم من كل الوساخات التى كانت عالقة به ، بل إن المسام نفسها تتخلص من أقل شئ يمكن أن يسدها . وفى أثناء هذه العملية يكون النزيل الصبور غارقا فى عرقه ، ثم يقتاد بعد ذلك إلى حجرة مجاورة ليبقى وحده، ويغتسل بمياه تأتى من عينى مياه : إحداهما ساخنة ومياه الأخرى باردة ، ثم يرتدى قميصا ليعود فى النهاية إلى الحجرة الأولى ، حيث يقدم له الخادم وهو جالس على أريكته النارجيلة وفنجاناً من القهوة . وعندما يحين خروجه تكون ملابسه قد تعطرت بدخان خشب الصبر ، وترش رأسه وكل جسمه برغاوى صابون

معطر ، أما النساء فيستخدمن فى نهاية حمامهن عجينة تنزع كل الشعر الزائد من جسمهن(١).

ويقوم مدير الحمام بتعطير الحجرات وإعداد ماء الورد ، ويحصل عادة مقابل كل هذه الخدمات على مايكفيه إذا كان رواده من الأثرياء . ونادرا مايكون مكان الاستحمام واحدا بالنسبة للجنسين ، إذ ينقسم المبنى إلى قسمين لكل منهما مدخل مستقل . وفى الحالة الأولى يخصص لكل من الجنسين موعد خاص. وتذهب النساء عادة إلى الحمام فى وقت متأخر ، وما أن يدخلن حتى تعلق قطعة قماش مطرزة أو سجادة لتنبه الجمهور إلى حضورهن . ومنذ ذلك الوقت لايمكن لأى رجل أن يدخل ، ويستبدل بكافة الخدم الذكور على الفور وبدون استثناء خادمات ، وإذا دخل رجل برعونة إلى حمام وقت وجود النساء فسوف تحدث ضجة شديدة ، ولايمكن له إلا أن يدفع ثمن رعونته.

ومن جهة أخرى ، فعلى الرغم من أن عادات الشرق وتلك القسوة التى يبديها المشرع ضد النساء ، تنهض على الشك وعدم الثقة فى المرأة ، فإن هذه القسوة تخف حدتها شيئا ما عن طريق الحرية التى منحت للنساء فى التجمع بالحمامات ، فهذا التجمع هو على نحو ما عيد تستخدم فيه النساء كل زينتهن وأناقتهن ، حيث لا أمل لهن فى جذب انتباه الرجال وسماع العبارات التى تطرى جمالهن – ذلك الأمل الجميل لجنسهن كله – مادمن لايظهرن فى محفل عام دون أن يكون رأسهن ووجههن بل وجزء من نصفهن الأعلى مغطى بالطرحة . ومع ذلك فهذه البهجة التى تحملهن على التباهى والتفاخر بفخامة ملابسهن وروعة زينتهن هى واحدة من الانتصارات التى ترضى غرور كبريائهن ، فما أن يدخلن الحمام حتى يسارعن بإسقاط تلك الأقنعة المزعجة ، ليستعرضن تحت نظر رفيقاتهن بريق حليهن ، وغاية كل منهن بل ومطمحها أن تخسف بجانب جمالها جمال الأخريات ، بعدد

(١) ينبغى على المرأة المسلمة ألا تستبقى سوى شعر الحاجبين والرموش ، وهى عادة شبه دينية توجب عليهن التخلص من بقية شعر الجسم .

قطع النقود الذهبية المدلاة من خصلات شعرها ، وبروعة الماسات والحلى التى تتزين بها ، وبالفساتين الغالية التى ترتديها. ومع ذلك فهذا الإشباع البسيط للكرامة والكبرياء الأنثوى تحرزه أية واحدة منهن بعدد قطع النقود الذهبية المدلاة من خصلات شعرها ، وبتلك الروعة التى تكفى لكى تقتل من الغيظ اثنتين أو ثلاثا من منافساتها ، فأمام من سوف تتباهى بتفوقها ذلك [١] ؟

ولاتختلف الخدمة التى تحصل عليها المرأة ولاطريقة استحمامها عما قلناه بخصوص الرجال ، فيما عدا أن قطعة الصوف التى يدلك بها الجسم تكون أكثر نعومة لحد طيب ، وأنهن يستهلكن قدرا كبيرا من الصابون . وتسرف سيدات الطبقة الراقية فى استهلاك العطور وماء الورد ، وهو ترف لاتقدر عليه الأخريات حتى فى أيام العرس والأفراح[٢] .

---

(١) لا يسمح للرجال كما سبق القول بدخول الحمامات التى بها نساء ، والرجال الوحيدون الذين يتمتعون بهذه الميزة هم الموسيقيون ، ويختارون من بين العميان المسنين ، ويمكن القول إنهم يعطون المرأة تلك الفرصة الفريدة للاستماع إلى أصوات الذكور.

(٢) يمكن أن يكلف إيجار الحمام بدون أثاثات من أى نوع متعهده فى اليوم الواحد من ٦٠ إلى ١٨٠ بارة حسب موقع وجمال وفخامة المبنى ، ويلزم ١٠٠ بوطاقة لأكثر الحمامات تواضعا . ولتأثيث حمام بشكل لائق ، أى ليكون فى مستوى معظم حمامات المدينة ، فإن ٢٠٠ – ٣٠٠ بوطاقة تعتبر مبلغا كافيا . وتبلغ مصاريف الحمام المعد جيدا من ٨٠٠ – ١٠٠٠ بوطاقة ، وتتكلف صيانة الأثاث فى اليوم الواحد ١٠ – ٤٠ مدينى ، ويتكلف إطعام الحيوانات المستخدمة ٢٠ مدينى (ويدخل ثمن شراء هذه الحيوانات ضمن المبلغ المقدر للتأثيث) ، وتجفيف الحمام ودفع أجور العاملين به يلزم مبلغ ١٢٠ – ١٨٠ مدينى يوميا ، يحصل منها الحارس وحده على ٣٠ بارة. ولا يحصل خدم الحجرة الأولى على دخل ثابت ، فهم لا يتلقون أجرا إلا ما يحصلونه من هبات الرواد ، أما القائمون بالخدمة فى الداخل فيحصلون على ثلثى أو نصف أو ثلث ما يدفعه الرواد ، ويبلغ عدد خدم الحمام الواحد ١٢–١٣ خادما.

وفى منشأة من هذا النوع يبلغ عدد الوافدين ٥٠ –٦٠ شخصا فى اليوم الواحد ، وأحيانا يزيد العدد عن ذلك ويدفع عن الحمام الكامل كحد أقصى ٢٠ – ٣٠ بارة ، ويحصل العامة على حمامهم بسعر أقل ، فلا يدفعون أكثر من ٨– ١٠ أو ١٥ بارة على الأكثر. ومما يعوض المتعهد عن ذلك زيارات الكبار ، فهم يدفعون بسخاء كما سبق القول . ويمكن أن نعمم ما قلناه على كل الحمامات فى مصر ، إذ هى لا تختلف إلا من حيث درجة فخامة المبنى ، لكن طقوس الحمام وتكاليفه تكاد تكون هى هى .

١٠

المقاهى

تضم مدينة القاهرة حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقاهى مصر القديمة وبولاق، حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى ، أما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المائة. وليست لهذه المبانى أية علاقة بالمبانى التى تحمل نفس الاسم فى فرنسا إلا من حيث استهلاك البن ، على الرغم من أن هذا المشروب يُعَد ويُشْرب بطريقة مختلفة . فليس فى هذه المبانى أثاثات على الإطلاق ، وليس ثمة مرايا أو ديكورات داخلية أو خارجية ، فقط ثمة منصات (دكة) خشبية تشكل نوعا من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى ، وكذلك بعض الحصر من سعف النخيل ، أو أبسطة خشنة الذوق فى المقاهى الأكثر فخامة ، بالإضافة إلى بنك خشبى عادى بالغ البساطة ، تلك فقط هى أثاثات المقهى المصرية . وهناك يضطجع المترددون على الحصر التى تغطى تلك المنصات الخشبية ، وتقدم القهوة مغلية فى فناجين يبلغ حجمها ثلث حجم مانستخدمه نحن من فناجين ، ولا تشرب القهوة إلا ملتهبة ، لكنهم يرشفونها، وتلك عادة شائعة فى الشرق تتطلب نوعا من التعود . وتوضع الفناجين فى صحون صغيرة من النحاس ، تشبه الآنية المصنوعة من الخزف والتى نعرفها باسم : ظرف البيض ، ويسميها العرب باسم: ظرف . أما الفناجين فهى أحيانا من البورسلين وتستورد من ألمانيا ، أو هى فى الغالب من الخزف وتزينها عدة نقوش ، وهى تستورد كذلك من ألمانيا . ويكاد يكون استخدام السكر فى صنع القهوة غير معروف ، وعندما وصل الفرنسيون إلى مصر ظل الأهلون لفترة طويلة يسخرون من تعودهم على وضع السكر فى البن. وفى نفس الوقت ، يحتفظ مدير كل مقهى بعدد كبير من النارجيلات ، مبسمها من العظم أو من الرخام أو الألبستر (الرخام الشفاف) بدلامن الكهرمان الأصفر ، ويعدها للزبائن الذين يطلبونها ، وينبغى على كل مرتاد أن يحمل معه تبغه ، بل إن المعتادين على التدخين نادرا مايسيرون دون غلايينهم.

وتخضع مقاهى القاهرة للإشراف المباشر لرئيس يشترى لنفسه حق التزامها ، وتدفع له كل المقاهى رسما صغيرا من بداية السنة التركية «الهجرية» (أول المحرم) ، ويبلغ هذا الرسم ١٠ –٤٠ مدينى ، وتعفى من دفعه المقاهى الفقيرة . ويستطيع كل من يريد أن يبنى مقهى أن يفعل ذلك بمطلق حريته ، لكنه لا يستطيع مباشرة العمل فيها قبل الحصول على تفويض من المشرف على الحرفة ، إذ هو على نحو ما مكلف عادة بالإدارة الداخلية والإشراف على هذه المنشآت ، كما أنه ملزم بتقديم مرتكبى المخالفات من أبناء هذه الحرفة إلى العدالة . وتوكل مهمة الإشراف هذه عادة إلى أغا الانكشارية (الكخيا المتولى) الذى يدفع حق هذا الالتزام إلى السلطة.

ويتردد على المقهى الفخم مابين مائتين إلى مائتين وخمسين فردا فى اليوم الواحد ، ويتناول الفرد عادة فنجانين إلى ثلاثة فناجين من القهوة فى مقابل بارة ونصف للفنجان ، وثمة أناس – فقراء مع ذلك – يبلغ استهلاكهم فى اليوم الواحد عشرين فنجانا ، لكن الاستهلاك المعتاد يبلغ من ٦ – ٧ فناجين ، ويكسب مدير المقهى كثيرا إذا كان زبائنه من الأثرياء.

وثمة كثير من المقاهى يباع فيها الأفيون ، وهو نوع من المعجون المخلوط بالأعشاب ، وتتخذ الطبقة الدنيا من الشعب من هذه العقاقير وسيلة للسكر والانتشاء ، ويعتاد عليه ثلثا عدد الحرفيين ، وكذا الأمر بالنسبة للفئات الأخرى من السكان . وهم يسكرون داخل بيوتهم بالرغم من أن الدين يحرم ذلك . ويعتقل البوليس و يعاقب السكارى الذين يكون هذيانهم بالغ الصخب، وفيما عدا ذلك لايضايقهم أحد ، ويكونون بمثابة تسلية بهيجة للناس بسبب هذيانهم وحركاتهم المجنونة[1].

---

(١) لا يشبه السكر الناتج عن الأفيون ذلك السكر الذى تحدثه الخمور ، فعندما تتخدر حواس رجل ما بفعل الأفيـون فإنه يبدو فى حالة شديدة من البهجة ، ويضحك بصوت عال ، ويكون هذيانه عادة =

ويوجد فى كل مقهى عدد من الرواة والمنشدين ، يحكون أويغنون حكاية صحيحة أو وهمية عن شخصية خارقة ورد اسمها فى النصوص الدينية أو التاريخ الإسلامى ، ويكون الإلقاء عادة حيا مليئا بالقوة والحيوية ، كما أن الأغنيات تمتلىء بعبق الشعر ووهجه ، وتكون نغمة الحكى مرتفعة أما نغمة الحوار فمتوسطة ، ويتوقف الراوى فى معظم الأحيان ليسأل مستمعيه ما إن كانوا يشكون فى صحة حكاية ، أو ما إن كانت حكايته (فى مجملها) جميلة أو خيرة . ويزيد منشدو المقاهى هؤلاء حكاياتهم حيوية عن طريق حركات بالغة التعبير ، ويصحبونها أو يسبقونها بموسيقى غريبة تصدر عن آلة موسيقية وترية . وهى مصنوعة من الجلد ، ويحك العازف بقوسه الشعرات المشدودة بالآلة والتى تستخدم كأوتار ، فتصدر نغمات خشنة صماء . ويدفع مدير المقهى فى بعض الأحيان لهؤلاء المنشدين ، لكنهم فى العادة لايحصلون من أجر إلا ما يدفعه الجمهور عن طيب خاطر . وتاريخ الأسكندرية وجنكيز خان هو الموضوع الذى يستوحى منه هؤلاء المنشدون العرب مادة أغنياتهم ، ويضيفون إلى ذلك ألوف الحكايات الرائعة ، بالإضافة إلى قصص المعارك البطولية التى يغترفونها من أحداث بلادهم.

ويستدعى المماليك من الطبقة الحاكمة والمشهود لهم بالشجاعة هؤلاء المنشدين إلى منازلهم ، ويكافئونهم بسخاء.

وفى المقاهى الفخمة تسمع أحيانا ألحاناً من تلك الألحان الشائعة فى مصر ، يؤديها بعض الفنانين الذين يحصلون على أجورهم من أصحاب المقاهى ومَنْ

=

مرحا . وفى بعض الأحيان يغرق فى أحلامه السعيدة ، وفى أحيان أخرى يُشْرِك معه الناس فى أحلامه وسعادته ، وقد يتخيل نفسه سلطانا أو شيخ بلد ، كما قد يظن نفسه أحيانا ممتطيا صهوة حصان ، ويطلب من الآخرين أن يعاونوه على وضع قدمه على الأرض.

وإذا ما عارضه أحد فإنه لا يغضب مطلقا ، وإنما يصبح جبانا يفزعه أقل صوت . ونراه ينتقل من أشد حالات الابتهاج والمرح إلى أشد حالات اليأس والحزن، فيبكى ويعول ويسقط فى غيبوبة.

يتطوع من الزبائن . وفى هذه الحالة يستمع الرواد فى صمت ، بحيث لاتسمع صيحة ولاضجة ، ويبدو الفنان وهو يؤدى أغنية غارقا فى حلم عميق ، وهذا واحد من الملامح المميزة للطبع الشرقى. وفى بعض الأحيان يتنافس شخصان أو عدد أكبر على دور شطرنج ، ويخيل إليك وأنت تشاهدهم مندمجين فى اللعب أنهم بُكْمٌ قد حرموا من نعمة الكلام ، ويتطلع المتفرجون دون أن ينبسوا بكلمة أويهمسوا بفكرة ، ويمضى الأمر فى شكل تمثيل صامت (بانتوميم) إلا إذا جاء إلى المقهى مخمور أو فاقد وعيه ليعكر صفو هذا الهدوء ، وليدخل على اللاعبين ومشاهديهم البهجة بأفانين هَذَيانِه[1].

١١

الرياضة والألعاب

تتفق ألعاب الشرقيين مع حدة طباعهم ، ونستطيع أن نتعرف فيها على ذوق شعب مولع بالتفكير ، يعجبه أن يتأمل حتى وهو يمارس ضروب اللهو التى يهواها : فالطاولة والضامة والشطرنج هى الألعاب التى يفضلها المصريون ، وهى كذلك الألعاب التى ينغمس فيها أبناء الطبقات الراقية على وجه الخصوص ، والتى يفضلها الشعب بصفة عامة على بقية اللعبات . وتتمتع الشطرنج بشكل خاص

---

(١) قدمنا فى فقرة سابقة فكرة تقريبية عن المصاريف اللازمة لإدارة وتأثيث حمام عام ، ونفعل الآن نفس الشئ بالنسبة للمقهى ، علما بأننا قلنا كلمة موجزة عنها فى الفصل الأول . يبلغ ثمن أثاثات أجمل مقهى بالقاهرة عندما لا يكون قد سبق استعماله ٤٠ بوطاقة ، بينما لا يتجاوز ثمن أثاث المقهى المتواضعة ١٠ - ١٢ . وهو عبارة عن : ٧ - ٨ حصر ، ١٥ كنكة قهوة ، ١٥ فنجانا من الخزف ، عدد من الفناجين الصغيرة والظروف النحاسية التى يوضع فوقها الفنجان ، تلك هى كل الآنية التى ينبغى شراؤها ، ويلزم زيادة على ذلك ٢٥ - ٣٠ بارة يوميا ثمنا للخشب ، ورطلين من البن يبلغ ثمن الرطل ٤٠ بارة ، ونفقة خادمين ومدير المقهى . وهذا كله شئ بالغ الضآلة ، لذا فإن حالة القهوجى بائسة جدا فى مصر . وقد رأينا مقهى بكامل أثاثها تؤجر فى اليوم الواحد بمبلغ ٧ - ١٥ بارة ، ويتعهد المستأجر بصيانة الأثاث .

بتفضيل الجميع ، والناس هناك شديدو الولع بهذه اللعبة ، وليس من النادر أن ترى لاعبين متنافسين يقضيان فى الدور الواحد أياما بأكملها. ورقعة الشطرنج شأنها شأن الدمى شديدة البساطة ، ولايعود ذلك إلى أن المسلمين ينفرون من الصور والرسوم فحسب ، بل لأن صناعهم فى نفس الوقت ليسوا شديدى المهارة ، كما أنهم لايحصلون فى مقابلها على أجر يتناسب مع ما يبذلونه فى صنعها من جهد إذا ماعنوا بتجويد عملهم[1]. ورقع الشطرنج والضامة المصنوعة من الخشب الثمين لايستخدمها إلا الأثرياء وكبار القوم ، أما أبناء الطبقة الشعبية فيستخدمون قطعة قماش خيطت فوقها مربعات من قماش الجوخ من ألوان مختلفة ، وتستخدم قطعة القماش هذه كرقعة للعب ثم كعلبة توضع فيها الدمى بعد انتهاء اللعب.

وثمة ألعاب مهارة أخرى تتطلب شيئا من التأمل ، وتنتشر هناك لعبة المنقلة ، ويلعبها اثنان ، مع كل منهما لوحان حفرت فيهما ستة ثقوب ، ويضع اللاعبان فى كل ثقب من هذه الثقوب ست قطع من الحجارة أو مثلها من الزلط . ثم هناك تلك اللعبة التى يطلق عليها العرب اسم طاب ، والتى تحدث عنها كثيرا العلامة Th.Hyde ؛ وهى بدورها منتشرة بين الشرقيين . وتلعب بواسطة دمى مختلفة الألوان ، عددها فى سوريا ٢١ وفى مصر ١٩ أو ١٧ ، لكن عددها على الدوام فردى ، وتوضع فى الصف الخارجى عند بدء الدور، وقد شاهدنا هذه اللعبة عند بعض المارونيين فى القاهرة . كان ثمة رقعة بها أربعة صفوف ، فى كل صف ٢١ مربعا ، ويمسك كل لاعب بأربع من العصى الصغيرة والمسطحة : سوداء من جانب وبيضاء من الجانب الآخر. وعندما تتم اللعبة فى الهواء الطلق تلقى هذه العصى على سكين مغروسة فى الأرض ، وعلى مسلة مرشوقة فى كنبة عندما يلعبها

---

(١) ومع ذلك فقد رأينا فى مصر رقع شطرنج بالغة الفخامة ، ومصنوعة بشكل جيد لحد لا يمكن أن تصنع مثيلاتها فى أوربا بسهولة . وهى مصنوعة من العاج وخشب الأكاسيا ، وكل ما فيها منفذ بشكل بديع ، ورسوماتها بالغة الجمال حتى ليندهش المرء كيف لا يلقى مثل هذا الفن ما يستحقه من رعاية ، ولا يملك مثل هذه الرقع الجميلة إلا الأثرياء وكبار القوم.

تاجران داخل متجرهما . وعند بدء اللعب يختار أحدهما اللعب عن اليمين ، ويختار الآخر اللعب عن اليسار ، بهدف أن تتقابل الدمى . وعندما يحصل الأول على طاب أوثلاثة أبيض وواحد أسود[1] يحرك قطعة من قطعه الموجودة بالمربع الأول من صفه إلى المربع الأول من الصف الثانى من جهته ، فإذا لم يحصل على طاب يحل الدور على الثانى ، وهكذا حتى يحصل أحدهما على طاب . ولايمكن تحريك أية قطعة من الصف الخارجى لأول مرة إلا بعد حصول صاحبها على طاب . وهذا بيان بالنوبات الأخرى :دق اثنين :أى اثنان أبيض واثنان أسود ، وفى هذه المرة تحرك القطعة التى سبق تحريكها فى الطاب الأول لمربعين ، دق ثلاثة أى ثلاثة أسود وواحد أبيض ، وفى هذه المرة يمكن تحريك الدمية لثلاث مربعات ، أربعة أسود وبعدها تتحرك الدمية أربعة مربعات ، ستة أو أربعة أبيض وتكسب ستة مربعات، واللاعب الذى يحصل على طاب أربعة أو ستة يستمر فى اللعب ويحرك دماه ، واللاعب الذى يدفع دماه كلها فى الصف الثانى يتدرج بها فى الصف الثالث ، وهكذا بالتبادل بين هذا وذاك حتى يتخلص أحدهما من دماه.

ويلعب الأتراك والعرب أيضا لعبة بالزوج والفرد. وقد شاهدنا فى القاهرة بعض المسيحيين من أهل البلاد يثبتون على الأرض قطعة من الفضة ، ويحاولون لمسها بكرة صغيرة ، وثمة قاعدة تنظم الحالات التى تتقابل فيها كرات اللاعبين ، لكنا للأسف قد أهملنا تدوين القواعد التى تنظم هذه الألعاب ، ولعل الكثير من قرائنا سوف يغفرون لنا عن طيب خاطر هذا التقصير من جانبنا.

وركوب الخيل هو الرياضة المفضلة عند العثمانيين وكبار الأتراك. وهم فى هذه اللعبة ينمون بالدرجة الأولى مهارتهم الحربية ، إذ يتجمع كبار الشخصيات فى القاهرة مرتين فى الأسبوع فى ميدان واسع يسمى المصطبة ، ويصحبون معهم أعدادا كبيرة مَن العبيد والخدم ، وكلهم يركبون الخيل مثل سادتهم ، ويتدربون

---

(١) يقول Th.Hyde: ثلاثة أسود وواحد أبيض ، إذن فأحدنا قد فهم الأمر على نحو خاطئ ، أو لعل قواعد اللعبة هى التى تتغير تبعا للبلاد التى تنتشر فيها.

على الجريد . وينقسمون إلى فريقين ، يحمل كل منهما على الآخر بأقصى سرعة، وكل واحد مسلح بعصا من الجريد طولها أربعة أقدام ومتوسطة السمك ، ويقذف بها منافسه أفقيا وبقوة شديدة . وثمة فرسان يبدون فى تدريبهم هذا من القوة والحيوية حدا يمكن معه لقذيفتهم تلك أن تكسر – فيما لو أصابت – عظام غريمه ، والمهارة هنا هى أن يتفادى الغريم عصا غريمه أو أن يتلقاها باليد ، وقد عرفت واحدا من الكبار انكسرت ساقه فى شبابه بهذه الطريقة. أما أولئك الذين يفضلون التدريب على إطلاق النار فيضعون أصيصا (بردك) فوق كومة من الرمال ، ويصوبون عليها بالبنادق وهم يجرون فوق خيولهم بأقصى سرعة. وهم يستخدمون فى هذا التدريب السهام بالرغم من أنه لا تنقصهم البنادق ، ولا يلجأ الرماة لتلك الوسيلة إلا لإجادة التصويب ، ذلك أن الهواء الذى يجذبهم بشدة عندما يجرون بأقصى سرعتهم سوف يمنع وصول الشرارة إلى الرصاصة فلا تنطلق ، بينما لا يوجد مثل هذا العيب عند التدريب بالسهام. ويتسلى السادة أيضا بجذب الأقواس، وتشاهد فى الميادين عمد صغيرة ، نصبت تكريما لأولئك الذين أظهروا فى التدريب قدرة خارقة للعادة . وعندما يبلغ ارتفاع النيل حدا معينا يتنزه الكبار فى قواربهم الفخمة ، ويمارسون التجديف فى بركة الفيل والأزبكية، وهناك يطلقون بنادق الرش ، ويصحبون معهم موسيقيين ليسروا عنهم أثناء نزهاتهم النيلية.

ويتدرب عامة الناس أيضا ، وهم فى هذا يقلدون الكبار ، فيفعلون على نطاق ضيق ما يفعله هؤلاء على نطاق واسع ، فقد شاهدنا على سبيل المثال خدم الشخصيات الكبيرة فى القاهرة يتدربون على قذف عصا طولها ٥ –٦ أقدام فى اتجاه أفقى ، وهم بهذا يهيئون أنفسهم لتدريب الجريد الذى سبق أن تحدثنا عنه ، وكانوا يمارسون تدريبهم وهم يجرون على أقدامهم حتى يكونوا أكثر مهارة عندما يحين وقت الرمى من فوق ظهر الحصان. ويتبارز أهالى المدن وكذا الفلاحون بعصا كبيرة مع مراعاة قواعد معينة ، وقد جرت العادة أن يقوم المتبارز فى بداية اللعب بحركات معينة ، هى بالتأكيد نوع من التحية ، يحاول بعدها كل من

المتبارزين أن يضرب غريمه فى رأسه ، وهو العضو الوحيد فى الجسم الذى ينبغى استهدافه. وتتجلى المهارة فى تفادى الضربة ، وهذه المبارزة تشبه فن لاعبى العصا المشهورين فى نورماندیا وبريتانى. وثمة مصارعون مصريون يمسكون بعصا فى يدهم اليمنى وحشية صغيرة فى يدهم اليسرى ، ويوجهون الضربات إلى الذراعين فقط ، ويسمى هذا التدريب «لعب الكب» . وقد شاهدنا كذلك فى شوارع القاهرة مصارعين لا يرتدون من الملابس سوى سروال بالغ الضيق وكل جسمهم مدهون بالزيت ، ويتماسك هؤلاء المتصارعون ، ويحاولون أن يطرحوا بعضهم البعض أرضا ، لكن حركاتهم تنقصها القوة والحيوية والمهارة. وبعد دقائق طويلة يحدثون فيها بضع حركات - نسميها تجاوزا مجهودات - يدع أحد المتصارعين نفسه ليسقط ، وتنتهى بذلك المصارعة. وأمثال هؤلاء المصارعين لا يمكن لهم أن يتجاسروا على عرض مهارتهم تلك فى فارس ، حيث يبرع المصارعون هناك فى مثل هذه التدريبات الجسدية ، لكنهم يلفتون النظر فى مصر، وبرغم كل شئ ، فليس ثمة فى بقية ولايات السلطان من هم أكثر من هؤلاء مهارة.

١٢

الأعياد الدينية ، المبادئ الرئيسية للعقيدة الإسلامية

ترتبط أعياد المسلمين بمناسبات دينية . وفى مصر ، يحرص الناس على الاحتفال بعيد لا يتصل بالمعتقدات الدينية ، هو عيد فتح الخليج فى القاهرة ، أو عيد وفاء النيل ، وهو عيد وطنى ، يعود إلى أزمنة ضاربة فى القدم . أما بقية الأعياد فتتوالى بالترتيب التالى:

شهر محرم : عودة المحمل من مكة .

شرحه (كذا) : عيد مولد النبى .

الشهور التى تلى ذلك : احتفالات متوالية بمولد الأولياء .

آخر أيـــــام شعبان : ليلة أول رمضان ، ويعلن فى هذا العيد بدء الصيام

لمدة شهر قمرى له نفس الاسم (رمضان).

آخر أيام رمضان : عيد كبير يستمر ثلاثة أيام.

٢٧ شوال : سفر المحمل.

١٠ ذو الحجة : العيد الكبير ، ويتفق مع وصول الحجاج إلى مكة .

ويتصدر احتفال عيد الخليج الباشا ، وكبار شخصيات الحكومة ، مثل :شيخ البلد والقاضى والدفتردار أو مستشار الحكومة وكخيا الجاويشية ، وفرقة الانكشارية والكشاف وكل كبار الشخصيات . وعند الصباح يصل الباشا مع أهل بيته أى مع ضباطه ورجاله ، ويصل البكوات مع مماليكهم ، ويصحبهم جمهور كبير من الموسيقيين ويحتلون جزءا من الميدان ، وتغطى القوارب سطح الترعة . وتمتاز قوارب السيدات بفخامتها وبهوادجها التى تغلق عليهن بدافع الغيرة ، ويخلع الباشا جبة على كل من الأغا وبقية كبار الضباط ، ثم يعطى الإشارة ، وعندئذ يقوم عمال معدون لهذا الغرض برمى تمثال أو عمود طينى فى النيل وسط ضجيج الهتافات والآلات الموسيقية ، ثم يقطع السد ، وتتدفق مياه النيل على الفور فى شوارع المدينة لتصبح أشبه بالبحيرات ، وقبل أن ينسحب الباشا يلقى فى النهر بقبضة من العملات الذهبية والفضية ، يتسابق إلى الفوز بها غواصون مهرة ، وينقضى ما يتبقى من النهار فى أفراح ومسرات تستمر حتى الليلة التالية. ولهذا الاستبشار والابتهاج العام ما يبرره ، حيث إن الفيضان هو ضمان الازدهار للجميع ، فعندما يحل الفيضان يبدأ الناس يأملون فى محصول وفير ، بل يمكن القول بأنهم قد بدأوا يحلمون بما يعدهم به من منافع [1] .

وفى أيام العيد يقوم الممثلون المهرجون الذين يعرفون باسم البهلوانات بإمتاع

---

(١) تسمى الدمية التى تلقى فى النيل عروسة أى الزوجة الجديدة. ويعتقد أن هذه العادة تعود إلى ديانة قدماء المصريين الذين كانوا يخصصون فيما يقال عذراء شابة ليلقوا بها فى النهر ، حسبما يقول كثير من مؤرخى مصر القديمة .

الجماهير بحركاتهم ودعاباتهم . ويمكن القول بأن ضروب اللهو لهذا الشعب تتجلى في العروض الهزلية بل والمرتجلة إلى حد ما ، والتى يعرضها في الشوارع مهرجون متجولون ، كما أنها تتجلى في القفزات التى يعرضها بعض الحواة المهرة إلى حد ما في فنهم. وقد شاهدنا في شوارع القاهرة عدة مرات رجالا يلعبون العرائس ، ويلقى هذا العرض الصغير إقبالا كبيرا ، والمسرح الذى يستخدم لذلك الغرض بالغ البساطة وبالغ الصغر ، ويستطيع شخص واحد بمفرده أن يحمله بسهولة . ويقف الممثل في المربع الخشبى الذى يمده بطريقة تمكنه من رؤية خشبة العرض والمتفرجون من خلال فتحات صنعت لهذا الغرض دون أن يراه أحد ، ويمرر دماه عن طريق فتحات أخرى ، ليجعلها تؤدى الحركات التى يريدها عن طريق خيوط يحركها على هواه ، وحيث إنه ليس من المناسب أن تصدر هذه الدمى أصواتا تماثل قوة صوته هو ، فإنه يجعل صوته الطبيعى حادا ، ويتم ذلك بواسطة أداة صغيرة يضعها في فمه ، ويجعله بالغ الرقة ومصحوبا بأنغام الناى وقت الحوار الذى يديره على ألسنة هذه الدمى الصغيرة ، ويمضى الأمر على مايرام إذا لم تكن التمثيلية معيبة . وتبدأ الدمى عادة بتهنئة بعضها البعض ثم يتشاجرن بعد ذلك ، وتنتهى تلك التمثيلية الهزلية عادة بالشجار ، وفي الواقع فإن عددا كبيرا من المشاهدين يهوى هذا النوع من ضروب الترفيه ، ويضطر البهلوان لأن يجاريهم في ذلك.

وقد رأينا واحدا من الحواة يجوب شوارع القاهرة ومعه صنبور متقطع ، أى تسيل المياه منه ثم تنقطع فجأة لتسيل لبعض لحظات . ويطلب الحاوى من صنبوره – حسب حالته الميكانيكية التى يعرفها جيدا – أن يتدفق بالمياه أو أن يتوقف ، لكن الناس تنطلى عليهم الخدعة ، ويصفقون لتلك المهارة المزعومة ويكافئونه بإعطائه قطع النقود . ويلقى آخر بحفنة من التراب في إناء ملئ بالماء ، ثم يسترد التراب جافا من الإناء .

ويمسك ثالث بكأس له قاعان يغلقهما غطاءان ، وبعد أن يتحدث إلى جمهوره

طويلا وبعد كثير من المداعبات والتهريج ، ينفخ في قوقعة كبيرة ، ثم يرفع غطاء أحد القاعين ليظهر بيضة ، ثم يواصل مداعباته وهزلياته ، ثم يكشف عن القاع الآخر الكأس ليظهر كتكوتان يظنهما الجمهور بديلا عن البيضة التي رأوها في البداية . ويلقي مشعوذ رابع بقفل مغلق في وجه طفل فينفتح القفل ، ويمسك بخد الطفل من الداخل والخارج . وهؤلاء المشعوذون يرفهون عن الشعب ، ويدفع لهم جمهورهم مبالغ شديدة التواضع ، وهم لا يطلبون من جمهورهم الدفع مقدما ، وعندما تنتهي اللعبة يدفع من يشاء على قدر ما يشاء.

وفي شهر رمضان ، وهو نفس الوقت الذي يحتفل فيه الاتراك (المسلمون) بالصوم ، يسرى أهالي القاهرة كثيرا عن أنفسهم وبخاصة في الليل. وينام الأغنياء نهارا حيث لا يسمح الدين بالأكل طالما لا تزال الشمس في الأفق ، ويتناولون طعامهم عند قدوم الليل . ومع ذلك فإنه يرى بالميادين أثناء النهار – وبخاصة في ميدان الرميلة ، عند سفح القلعة – جمهور من الحواة يشبهون أولئك الذين تحدثنا عنهم .

ويشاهد في مصر كذلك أشخاص ، ليست لهم من مهنة أو وسيلة لكسب العيش إلا عرض القرود والحيوانات التي تمتاز بالذكاء ، ودفعها لتقديم ألعاب لتسلية العامة. وثمة آخرون أكثر حيلة ، يعرضون الثعابين ويجعلونها ترقص على نغمات تعزف على آلة ما [1] ، وقد يبدو هذا الأمر بالغ الغرابة لمن لا يعرف حب الزواحف بشكل عام للموسيقى ، فهي ترفع رأسها والجزء الأمامي من جسمها عند سماع صوت المزمار ، وهذه الحركات هي التي تشكل رقصة الثعابين . ومن السهل كذلك دفع القرود للرقص ، فهي من نوع في اليمن ، ويجلبها العربان من هناك حيث هي أكثر وداعة من بقية أصناف القرود ، ويقومون بتربيتها .

---

(١) كتبنا في مكان آخر من هذا المؤلف فقرة عن سحرة الأفاعي المحدثين ، وهم امتداد للسحرة القدماء ، وانظر كذلك نبذة عن مدينة رشيد ، تأليف جولوا ، ص ٣٥٤ . (المجلد الثالث من الطبعة العربية – المترجم).

ولابد فى النهاية من كلمة عن الممثلين وعن بعض العروض التمثيلية فى مصر ، ونحن لا يخالجنا الشك فى وجود ممثلين حقيقيين فى مصر ، مع وجود تمثيليات تتبع كافة قواعد التمثيليات . وقد شاهدنا فرقة من الممثلين الهزليين فى القاهرة تتألف من مسلمين ويهود ومسيحيين ، ويدل مظهرهم على أنهم لا يصادفون حظهم فى هذه البلاد . وهم يستخدمون فناء بيتهم كمسرح ، وثمة ساتر يحجب خلفه ملابسهم . ويذهب لمشاهدة هذه الفرقة كثير من الأوربيين الذين أقاموا فى مصر منذ عدة سنوات دون أن يشاهدوا أية عروض مسرحية ، كما تستدعى هذه الفرقة إلى بيوت التجار الإيطاليين ، وتقدم عرضها فى حجرة أعدت لهذا الغرض . ومع ذلك فلم نجد فى هذا العرض ما يرضينا : لا الموسيقى ، ولا أداء الممثلين ، بالإضافة إلى أننا لا نعرف من العربية ما يكفى لكى نفهمهم جيدا ، كما أننا وجدنا أن ليس ثمة ما يدعو لعناء أن يترجم لنا معنى التمثيلية ، فقد كان كل شئ رديئا وعاريا من الذوق ، كما كان الأداء متكلفا . وكان الأمر يدور حول امرأة عربية ، تستدرج المسافرين إلى خيمتها لتسرقهم وتسئ معاملتهم ثم تطلق سراحهم ، وعندما كانت المرأة قد تمكنت من سرقة كثيرين وتهيأت لتفعل الشئ نفسه مع آخرين ... عبر أحد التجار - من النظارة ، بصوت عال - عن القرف الذى يسببه له العرض ، وحتى لا يبدو الآخرون أقل رهافة حس منه فقد سارعوا بإيقاف العرض ، بينما لم يكن الممثلون قد وصلوا بعد إلى نصف التمثيلية .

كان ينبغى أن نتكلم هنا كذلك عن العوالم اللائى سبق لنا أن تحدثنا عنهن ، ولكن حيث إن هؤلاء النسوة كثيرات فى القاهرة ، وحيث إنهن يشكلن على نحو ما طائفة حرفية ، فسوف نتحدث عنهن فى الفصل المخصص للحرف .

الفصل الرابع

الإنسان المصرى فى طور الشيخوخة - الموت والجنازات

١

عن احترام الشيخوخة

قد لا يكون من المناسب أن نبحث عن ممارسة الفضائل الطبيعية عند الشعوب المتحضرة ، حيث تتوافق الأنانية والمصالح - وهما أبناء الحضارة الشرعيين - مع أضواء المعرفة ، إذا صح القول . ذلك أن أفق المعارف عند الشعوب كلما اتسع كلما ابتعدت هذه الشعوب عن حياة الطبيعة ، ولا ينبغى أن نمضى بهذه الفكرة لحد أبعد من ذلك . ومع أننا لا ننتوى هنا أن نعقد مقارنة متعسفة ، فإنه ينبغى علينا القول بأن الشرقيين وإن كانوا قد أهملوا تعلم العلوم والآداب ، فقد استطاعوا على الأقل أن يحتفظوا ببعض آثار من العادات والفضائل البدائية . وإلا ، فهل ثمة عند أمم الشرق ما يستوجب المديح أكثر من ذلك الاحترام العميق الذى يكنونه نحو الشيخوخة ؟ . ويتميز المصرى على وجه الخصوص بهذا الشعور النبيل ، ولقد حض عليه محمد فى تعاليمه لحد وجد من الضرورى أن يجعل من ذلك مبدأ دينيا ومدنيا فى وقت معا ، وحتى اليوم ، فإن شيئا لم يستطع أن ينال من قوة هذا المطلب الذى حتمه المشرع ، كما أن الوضع الحالى للتقاليد سوف يهيئ لهذا الأمر فرصة لبقاء أطول . وفى مقابل ذلك ، فإن المفكر يستطيع أن ينعى على الشعوب الأوربية - التى تطورت صناعاتها ومعارفها لحد مذهل - هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيخوخة ، ففى الوقت الذى تعمل فى مجتمعاتهم قوانين تنطق بالحكمة ، وتشهد بالعبقرية والإحساس العظيم لواضعيها ، وكذا بتلك الدرجة الكبيرة من التحضر التى وصل إليها أولئك الذين شرعت من أجلهم هذه القوانين - فإن المرء ليدهش حقا عندما لا يجد فى مجموعة القوانين هذه فصلا مخصصا للواجبات التى ينبغى مراعاتها نحو كبار السن . ونستعير هنا ، حول هذا الموضوع ، بعض الأفكار التى وردت على لسان مؤلف كتاب "رسائل عن مصر" : Lettres sur l'Egypte ، الذى انتقدنا بمرارة وأحيانا

بتحامل صارخ ، وترسم أقواله بدقة ذلك الفرق الكائن بين أفكار وعادات شعوب الشرق ، وبين مثيلاتها عند شعوب الغرب بخصوص الشيخوخة :

«إن الشيخوخة عند كل الشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الإنسان وسط عائلته فترة أقل ، لا تلقى من الاحترام نفس ما تلقاه فى مصر ، بل إنها تكاد تكون فى معظم الأحيان نقيصة ، حيث ينبغى على الملتحى ذى الشعيرات البيضاء أن يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وأن يلعب دور طفل حتى يمكن تحمله فى داخل نطاق العائلة . فما أن يحس الإنسان عندنا بأن سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، وبأن مباهج حياته تتضاءل ، حتى يرى نفسه وقد أصبح عبئا ثقيلا على أولئك الذين يدينون بوجودهم له ، وعندما يصبح فى حاجة إلى المواساة والسلوى يرى نفسه وقد أنكر عليه حق الرعاية ، وأغلقت دونه القلوب ، عندئذ تزحف إلى جسمه برودة قاتلة ، وترتجف من برودة الوحدة روحه ، دون أن يجد من حب زوجه وحنانها ما يبعث بالدفء إليه ، فى مثل هذه الأمم يموت العجوز – وهو الذى كان من قبل والدا عطوفا – قبل وقت طويل من نزوله إلى ظلمات القبر » .

«فلنخلع إذن النقاب عن وضع ليس عاما لحسن الحظ ، فتلك المشاهد المؤثرة التى كنت أراها كل يوم فى هذا البلد (مصر) قد اضطرتنى أن أقدم لكم هذا النقيض المقابل ، فهنا (فى مصر) ، يبتسم العجوز الذى تلامس لحيته صدره وهو يلقى الاحترام ، يبتسم – برغم وطأة وضعف هذه الشيخوخة – لأحفاده وهم يأتون لمداعبته ، وينشرح صدره وهو يرى أربعة أجيال تهرع نحوه لتقدم إليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون ، فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتى آخر لحظة من لحظات عمره[1] .

وفى واقع الأمر فإن الأوربيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقة وإعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذى يبلغ مرتبة التقديس ، والذى توليه الأمم الإسلامية

---

(١) Savary, Lettres sur l'Egypte .

لكبار السن ، فهؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك النعت المقزز المرعب : المتوحشون والبرابرة ، يقدمون لنا في هذا الخصوص مثالا يجدر بالاحتذاء ، على أجمل الفضائل ، في حين أنها قل أن تنال اهتمامنا مع أنها تستحق كل إجلال . أما هنا في مصر فكم يعرف الشيوخ ما سوف يلقون من محبة الشباب وعواطفهم ! لذا فإنهم هناك لا يلجأون لتلك الحيل التي لا جدوى منها ، لتفادي ما تعده لهم الأيام - حيث هم شيوخ - من إهانات ، بل على العكس من ذلك ، فهم يتباهون بخطوط السن التي تغضن وجوههم ، ولحيتهم البيضاء سببٌ للاحترام المهيب ، وملابسهم تتسق مع كرامة ووقار عمرهم ، وكل شئ فيهم يفصح عن المهابة والأهمية . فإذا تكلموا أنصت الجميع لما يقولون في احترام شديد ، وليست أقوالهم بالأقوال الباطلة التافهة ، ولا هم يستشعرون مطلقا تلك المرارة التي تقطر بها عادة سنوات العجز والشيخوخة . إنهم يتركون الحياة بلا ألم ، بل إنهم لا يكادون يشعرون بذلك على الإطلاق . فبقدر ما يزيد قربهم من تلك النهاية المحتومة بقدر ما تتضاعف عناية ذويهم بهم ، فلا يعانون من الألم الذي تسببه رؤية أبناء عاقين يتشوفون لساعتهم الأخيرة حتى يقتسموا «أسلاب» تركاتهم ، فمثل هذا النهم البشع لا تعرفه مطلقا أمم الشرق . ومهما كان هؤلاء الأولاد فاسدين فإنهم على الدوام يجدون الدموع التي يذرفونها بغزارة على مقبرة أبيهم ، بل إنهم ليقبلون عن طيب خاطر القيام بأية تضحيات مهما عظمت ، لو كان في ذلك ما يمد أياما ثمينة في عمر آبائهم . ولهذا السبب ، فجريمة قتل الوالدين ، تلك الجريمة البشعة التي يثير مجرد اسمها الهلع في القلوب ، والتي لم يقرر بشأنها المشرعون القدامى أي جزاء ، كما لو كان من المستحيل عليهم أن يتخيلوا أن تقدم كائنات وهبها الله نعمة العقل على ارتكابها مطلقا [1] ، مثل هذه الجريمة البشعة ، لم تعرفها مصر ، بل كل الولايات التركية ، على الإطلاق .

---

(١) نذكر في هذا الصدد أن سولون قد أهمل سن قانون بخصوص قتل الوالدين ، إذ كان ينظر لهذه الجريمة باعتبارها أمرا مستحيلا . انظر : Plutarque.

والشيخ العجوز هو الحكم الطبيعى الذى يفصل فى المنازعات الصغيرة التى تنشأ بين أفراد أسرته ، وما يقضى به حكم تلتزم به كافة الأطراف بلا تردد ، كما لو أنها حكمة مقدسة تلك التى جاءت على لسانه .

ويترجم العرب كلمة Vieillard (مسن – عجوز) بكلمة : شيخ ، وهو لقب شرف يوحى بمعنى التشريف والسيادة [١] ، فالمشايخ هم الذين يحكمون القبائل، ويمارسون على النفوس سطوة تماثل سلطة الحكام ، والكلمة الأولى فى كل العائلات المصرية للأكبر سنا ، وهو الذى يتقدم الاحتفالات العامة ، وله مركز الصدارة فى المجالس ، ويقف الناس جميعا عند قدومه ، وتوجه إليه على الدوام علامات الاحترام والتقدير ، وأمامه يتحفظ الشباب وينضبط وهو الجموح بطبعه ، وينصت بشغف إلى ما يقصونه من حكايات ، ويجد فى أحاديثهم ما يرضيه ، بل إننا نكاد نصل لحد الاعتقاد بأن هذا التواصل الحر غير المتظاهر بالخبرة ، يساهم أكثر من أى شئ آخر فى إضفاء الوقار على طباع الرجل الشرقى منذ نعومة أظفاره ، وهو الوقار الذى لا يتكون عند أبناء الشعوب الأخرى إلا فى سن متأخرة ، وبفعل تقدم العمر .

وفضلا عن ذلك فإن الشرق – الذى نتفق على أنه مهد الحضارات – كان مسرحا للتقاليد الأبوية القديمة ، ففى هذه المنطقة من العالم تستمر التقاليد وقتا أطول من غيرها ، حتى أننا ما زلنا نجدهم يعيشون بكل بساطتهم التى كانت لهم وهم يعيشون تحت الخيام ، وثمة تقاليد عديدة تعود إلى عصور قديمة للغاية ، لكنها ما تزال مستمرة داخل العائلات ، وعندما استولى العرب على آسيا نشروا فيها مع معتقداتهم الدينية تلك العادات الاجتماعية التى لآبائهم . وحيث إن احترام الشيخوخة بالغ القدم بالفعل فى مصر كما تشهد بذلك نصوص عديدة من الكتابات المقدسة ، فإن هذا التقليد قد ازداد صرامة بفعل سطوة التقاليد العربية،

---

(١) بل إن كلمة Seigneur «سيد – شريف» تشتق من الكلمة اللاتينية Senior، وهى تساوى كلمة شيخ . وفى كل العصور نجد أن فكرة الشيخوخة تحمل معها فكرة الاحترام والسيطرة .

حيث الصولجان معقود للسلطة الأبوية التى يبدو أن طبيعة الحياة نفسها تهيئه لها ، وهو نفس ما كان يحدث فى مصر القديمة عندما كانت ما تزال مزدهرة [1] . أما السبب الذى ظلت بفضله هذه الفضيلة الحميدة بعيدة عن أى تغيير ، فهو أن الشعوب التى تمارسها لا تعانى من ذلك الفساد الروحى والأخلاقى الذى تعانى منه عادة المجتمعات الكبيرة ، وتجد سعادتها فى المباهج الطبيعية ، ونادرا ما تبحث عن هذه المباهج بعيدا عن وقائع حياتها الداخلية . ولأن أبناء هذه الشعوب كذلك سعداء فى جهالتهم حيث هم محرومون من المميزات التى تهيئها المدنية عادة ، فإنهم كذلك بعيدون عن المساوئ التى تجرها المدنية معها . وإذا كانت أوربا هى وطن الفنون ومسرح ملذات الشباب ومغامراته ، فإن الشرق – ومصر بوجه خاص – هو على نحو ما ، جنة للشيوخ .

٢

الجنازات

يكنُّ المصريون المحدثون – شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم القدامى – احتراما خاصا للموت ، وتصحب الجنازات باحتفال كبير ، وإن كان الأمر يتم بشكل مغاير لما كان يحدث فى الماضى ، إذ لم تعد تحفظ أجسام الموتى ، لكنها – على الأقل– تودع فى احترام كبير فى القبر ، مثواها الأخير. ويبدى أهل المتوفى وأصدقاؤه أمارات على حزنهم ، ويجهز الموتى بشئ من الأبهة ، كما أن احترام المقابر واحد من المبادئ الإسلامية التى لا يمكن خرقها [2] .

---

(١) لم يكن يتفق مع المصريين من الإغريق بخصوص احترام الصغار لكبار السن إلا أهالى لاسيديمونيا ، فإذا ما قابل شاب عجوزا فإنه يدع العجوز يسبقه ، وإذا ما قدم إلى مكان به بعض الشبان فإنهم ينهضون . انظر هيرودت جـ ٢ ، الفقرة ٨ ، ترجمة Larcnet طبعة ١٧٨٦

(٢) يقسم المصريون عادة بقبر آبائهم ، ومن الشائع هناك أن تسمعهم يقولون : بتربة الوالد ، بتربة أمى .

وليس ثمة ما يستطيع أن يصور ألم أسرة حرمها الموت من عضو عزيز منها . ففى الأيام الأولى بعد الموت ، يكون يأس مرعب ، ثم يأخذ شيئا فشيئا ملمحا أقل جزعا . وتستسلم السيدات تلقائيا لأحزانهن الشديدة ، فيملأن الجو بالعويل ، ويتركن البيت الذى اختطف منه الموت واحدا من الأهل أو الابن أو الزوج ، ليعلن للجيران وللمارة – عن طريق صرخاتهن المدوية ، المثيرة للحزن الشديد – بأنهن قد أصبن بخسارة لا تعوض . ويهرع الناس نحو المرأة المكلومة ، ويحاولون تهدئة اضطرابها ، بينما هى فى أحزانها وجزعها تنزع شعرها وتضرب بقوة صدرها ، فيصحبونها إلى المنزل الذى حل به الموت ويدخلون معها . وتتجمع كثيرات حول الميت : تحرك بعضهن ساقيه أو ذراعيه ، وتضع أخريات أيديهن فوق قلبه ليتأكدن أنه ليست هناك علامة أو نبضة تدل على الحياة ، وبعد ذلك يذهبن لإبلاغ شيخ الجامع الذى يعد على الفور بعض النائحات المأجورات (الندابات) . وهؤلاء النسوة مدربات على الإجهاش بالبكاء والعويل ، وعلى إلقاء المراثى المؤثرة ، وعلى إطلاق صيحات لها إيقاع حزين ، ويستدعين فى رثائهن أهل المتوفى وأصدقاءه ، وينشدن أناشيد تقال فى هذه المناسبات بنغمة بكائية ، وقد يكون ما يقال كلمات عادية شائعة ، مما يؤدى لحدوث مفارقة بين ما يقال وبين النغمة التى يلفظ بها . وإذا كان المتوفى ثريا ، تقيم الندابات وسط عائلته فترة طويلة ، أما إذا كان غير ذلك فإنهن يرحلن بعد عدة أيام ، بل وفى بعض الأحيان ينصرفن مباشرة بعد إتمام الدفن .

والرجال عادة أكثر ثباتا فى هذه الظروف المؤسية ، فألمهم صامت ، يمارسون خلاله تعذيبا للنفس تكاد تظنهم يستعذبونه ، ومهما كانت المرارة التى تفعم قلوبهم ، فهم يجاهدون أن يكتموه ، ويساهم جمود ملامحهم بالإضافة إلى إيمانهم العميق بالقضاء والقدر ، فى جعل هذه المرارة رازحة ، ومع ذلك فهم يهجرون لعدة أيام مجتمع أصدقائهم ، فليست أحزانهم برغم وقارها أقل حدة . وهناك عادة أن يقوم الناس من أعضاء الأسرة المكلومة – فى بعض الأحيان –

بصبغ أيديهم بالنيلة ، كما يمتنعون عن الاغتسال المعتاد طالما ظلت الصباغة فى أيديهم ، كما لا تكف النساء عن البكاء إلا إذا اختفت هذه الصبغة تماما .

ويتم الدفن بعد فترة قصيرة من إسلام المتوفى للروح ، إذ ينقل إلى المقابر فى ظرف ٥-٦ساعات من موته ، إلا إذا كان ثمة دوافع تبعث على الشك فى أننا بصدد حالة استغراق فى النوم نتيجة لفقدان شديد للوعى . فهذه العادة - عادة الدفن السريع - التى تنقصها الحيطة تتسبب فى بعض الحالات فى حدوث جرائم غير مقصودة ، فمن الممكن لنا أن نفترض فى بلد كهذا لايزال فيه الدواء شبه مجهول ، أنهم قد يعتبرون موتا حقيقيا ما هو ليس بأكثر من غيبوبة حدثت بسبب هبوط فى بعض وظائف الجسم ، ولهذا فمن الممكن أن تقع بعض المساوئ نتيجة لهذه العجلة الشديدة فى إجراءات الدفن . فما أن يموت أحدهم حتى يرسل فى إحضار الرجال أو النساء ، حسب الجنس ، الذين يحترفون غسل الموتى ، ويقوم هؤلاء بإخطار بيت المال ، ويطلبون الإذن بالانتقال إلى البيت الذى به الجثة، ويسجونها على طاولة وينظفونها بعناية فائقة ، ويغطون فى حضرة أقرب الأهل الأعضاء الجنسية للمتوفى ، ويلفونه بعد ذلك بقماش أبيض غير مخيط . وإذا كان الميت واحدا من العامة فإنه يكفن بأحسن ملابسه حالا ، لكن المسلمين المتنورين يدينون هذه العادة باعتبارها عادة سخيفة ومضحكة . وتوضع الجثة فى تابوت عمومى لا غطاء له ، ويغطى بقماش مطرز ، وتكون رأس الجثة دائما إلى الأمام ، كما يحرصون على وضع عمامة فوقها إذا كان الميت رجلا ، أو زهورا إذا كانت الجثة لامرأة .

وبعد هذه التجهيزات تبدأ الجنازة مسيرتها نحو المسجد ، ويفضل فى ذلك الجامع الأزهر باعتباره أقدس مساجد القاهرة ، ويتقدم الجنازة عدد من العميان بيدهم عصى ، ويسيرون فى ثلاثة صفوف من ستة أشخاص وهم متشابكو الأيدى، وينشدون بنغمة وقورة ومهيبة صيغة العقيدة الإسلامية : "لا اله إلا الله ، محمد رسول الله" ، ويكررون ذلك حتى القبر . ويلى هؤلاء مباشرة خدم المتوفى ،

وهم يرتدون ملابس قاتمة ، وبعد هؤلاء تأتى الندابات مرتديات ثيابا زرقاء طويلة وحجابا أبيض ، ليسبقن مباشرة الجثة المحمولة على أكتاف رجال أربعة ، والموضوعة داخل التابوت ، وخلف النعش تسير العائلة يصحبها عادة شيخ الجامع ، وفى النهاية ، يختتم الجنازة أناس من العامة ، وتسير الجنازة فى سرعة وتناسق .

ويوضع الجثمان للحظة فى المسجد ، ويؤدى الابن الصلاة على أبيه أو يؤديها خلف واحد من رجال الشرع ، وعند الخروج من المسجد ينسحب جزء من الموكب ، ويصحب المشايخ الجثمان حتى مكان المقبرة ، ويتبع هؤلاء عادة بعض أطفال المدارس ، ويحصل رجال المسجد على أجرهم عند المقبرة نفسها ، وتلك عادة عامة .

وبعد الوصول إلى المقبرة ، يؤخذ الجثمان من النعش ، وينزل رجل فى الحفرة ليأخذ الجثمان ويودعه القبر بحيث تكون رأسه متجهة إلى الشرق ، وبعد ذلك يلقى أقرب أهل الميت بيده قليلا من التراب على الجثمان ، ويغطيها الحفارون على الفور . وبعد ذلك يجلس الأغراب الذين صاحبوا الجنازة ويأكلون حول الحفرة ، ويعود الأهل مع الندابات ليقمن عندهم لأيام عدة مما يسبب مضايقات للجيران[١] .

---

(١) فى مصر عادات كثيرة تشترك فيهامع كل ولايات الدولة العثمانية ، لكن ثمة عادات خاصة بمصر وحدها ، قد يكون من الطريف أن نعرض لها . ومن هذه العادات الخاصة بمصر بكاء الندابات أثناء الجنازة ، ولا يحدث هذا عادة فى القسطنطينية ولا فى سوريا ، بل يمكن القول بأنهن غير معروفات فى القسطنطينية أصلا . وفى مصر تظل زوجات المتوفى يطلقن الصرخات تسعة أيام متوالية ، ويستقبلن صديقاتهن اللاتى يأتين للبكاء معهن أو يتظاهرن بالبكاء . ومع ذلك فالمسلمون من الطبقات العليا وكذا العلماء ينظرون إلى هذا العويل باعتباره مخالفا لدين محمد ، ذلك أن الميت لم يفارق هذا العالم – فى رأيهم – إلا للذهاب إلى مكان أسعد (الجنة) ، لكن الدموع ينظر إليها بتسامح لأنها تصدر عن عاطفة محمودة . وعندما يموت رجال ميسورون يتمتعون باحترام كبير ، لا تحدث أية دلالة على القنوط أو اليأس ، بل يحدث العكس أحيانا فتنطلق زغاريد الفرح .

ولا تدفن النعوش مطلقا ، فالجثمان - كما سبق القول - يودع فى الحفرة التى أعدها الحفارون - الذين أرسلهم الشيخ لهذا الغرض - فى مقابر الأسرة التى بنيت من قبل . وهى فى المقام الأول عبارة عن قبر من الحجارة تصف تحتها الأجساد بجوار بعضها البعض، وطالما لم يبل لحم الجثة فلا ينبغى إزعاج الميت ، ولكن عندما يبلى ما يغطى العظام فإن العظام تجمع فى لحد واحد ، وينظر إلى الاحتفاظ بأى جزء من الجثة باعتباره جريمة ، إذ ينبغى أن تدفن الجثة بأكملها . وعندما يموت أحد بعد قدوم الليل يتحتم انتظار شروق الشمس ليتم نقله إلى المقبرة ، ويعتبر المسلمون أن من مبادئ دينهم ألا يدفن الميت إلا والشمس فى الأفق ، بل ويعلقون على مراعاة أو خرق هذه العادة أهمية كبيرة ، حيث لها صلة بالسعادة أو الشقاء فى دار الخلود . ويقوم الأغنياء بدفع نفقات مقابر الفقراء ، ومقابر هؤلاء فى الواقع بسيطة ، لكن أهليهم وزوجاتهم يزينونها بزرع الورود بدافع من العاطفة .

وتوجد مقابر المسيحيين فى القاهرة بمصر القديمة ، ولا يسمح لهم بالدفن فى مكان آخر . وللأرمن مدفن خاص بهم ، وهذه الطائفة من المسيحيين ليست كبيرة العدد ، إذ لا يكاد يبلغ تعدادها ٤٠٠ - ٥٠٠ شخص مستقرين بالمدينة .

ويتمسك بعض المسيحيين فى مصر القديمة بعادة قديمة ، هى أن تكون لهم مقابر صغيرة فى بيوتهم يحتفظون فيها ببقايا جثث ذويهم . وربما لا تكون هذه العادة سوى أثر من ديانة قدماء المصريين ، لكنها محرمة بشدة فى القاهرة ، إما بدافع صحى وإما بسبب عدم التسامح من جانب المسلمين . ويلاحظ هذا الميل نحو المقابر المنزلية بين كبار الأقباط بوجه خاص ، لذا فقد شيدوا بيوتا لهم فى حى منعزل فى مصر القديمة ؛ ليقيموا هناك مدافن لذويهم . ويتوجهون إلى هناك من القاهرة حيث يقيمون على فترات من العام ، كما يحتفلون هناك بالأعياد الكبرى لطائفتهم مع الأهل والأصدقاء ، ولا يوجد فى أى مكان آخر أثر لهذه العادة القديمة .

وفى نفس الوقت ، فإن الندابات وكذا الإشارات الخارجية الدالة على الحزن عند موت واحد من الأهل ، جزء أساسى بالدرجة الأولى من الطقوس الجنائزية القبطية ، بل إنهم يذهبون فى إشارات الحزن تلك لأبعد مما يذهب المسلمون ، فهم يملأون الضواحى المجاورة بصيحاتهم التى تعقبها على الفور صيحات الندابات ، ويستمر هذا العويل أحيانا عدة أسابيع . بل يمكننا الافتراض بأن الأقباط هم الذين نقلوا هذه العادات إلى المسلمين ، حيث من الثابت أن المسلمين فى الأجزاء الأخرى من آسيا لا يراعون هذه العادات على الإطلاق ، وثمة نص لهيرودت ننقله هنا ، يؤكد بالمثل أن البكاء – مصطنعا كان أو صحيحا – الذى يستسلم له الناس عند نعى قريب ، له أصل فى مصر بالغ القدم . يقول المؤرخ الإغريقى : «عندما يموت رجل هام يغطى كل نساء منزله رءوسهن بل ووجوههن بالطين ، ويتركن الميت فى المنزل ، ويحزمن وسط جسمهن ، ويكشفن عن صدورهن، ويعبرن المدينة وهن يدققن على صدورهن ، وتصحبهن فى ذلك قريباتهن [1] » . ألسنا نجد فى هذه العادات التى تمارسها هاتان الأمتان (المسلمون والمسيحيون) تماثلا كبيرا مع تلك التى نقلها هيرودت الموجز على الدوام والذى يبدو لنا عند قراءة نصه أنه قد تحدث بتفصيل أكبر مما يفعل عادة ؟ إن هؤلاء الأهل المكلومين فى الماضى قد تركوا مكانهم بلا جدال لندابات اليوم . ويقدم لنا بقية وصفه نفس التطابق مع اختلافات طفيفة للغاية [2] .

---

(١) هيرودت : جـ ٢ ، الفقرة ٨٥ ، ترجمة Larchet طبعة ١٧٨٦ .

(٢) يقدم لنا ديودور الصقلى نفس التفاصيل فيقول : «ما أن يموت أحد الناس حتى يسارع أهله وأصدقاؤه فيغطون رأسهم بالطين ، ويسيرون فى الشوارع يبكون حتى يتم دفن الجثمان» . ولكن ثمة شيئا عند ديودور أكثر تحديدا عندما يتحدث عن حداد المصريين عند موت أحد الملوك : «عند موت الملك تدخل مصر كلها فى حداد ، فيمزق الناس ملابسهم وتغلق المعابد أبوابها وتعلق الأضحيات وتوقف الأعياد والاحتفالات لمدة ٧٢ يوما . ويقوم عدد من الرجال والنساء يبلغ ٢٠٠ – ٣٠٠ شخص ، رؤوسهم مغطاة بالطين وصدورهم محزمة برباط ، بالانتحاب والرثاء على صوت الموسيقى مرتين فى اليوم » . انظر ديودور ، الكتاب الأول ، الفصل الثانى .

وعندما يشعر رجل ما بدنو أجله فإنه ينظم شئونه ، وإذا ما كان حذرا فإنه يجمع عددا صغيرا من أصدقائه ليشركهم فى رغباته الأخيرة . وتحتم الشريعة قبل توزيع التركة أن تجنب أولا المبالغ اللازمة لتسديد الديون ، وكذا الهبات الخيرية التى يكون المتوفى قد التزم بها . وللأبناء الشرعيين حق الإرث ، أما غير الشرعيين فلا يحق لهم الإرث دون نص صريح من الموصى . وهذه الترتيبات خاصة بالذكور وحدهم ، أما البنات والزوجات فليس لهن حق الإرث فى الملكيات العقارية . وسوف نتحدث بتفصيل أكبر عن هذه القوانين الجائرة فى الفصل القادم من مؤلفنا (الفصل الخامس) والخاص بالأنظمة والمؤسسات .

ويمكن للأرملة أن تتزوج مرة أخرى بعد مضى أربعة أشهر وعشرة أيام على وفاة زوجها إذا لم تكن حاملا ، وفى الحالة الأخيرة يمكنها أن تتزوج بعد الوضع . وللأبناء أيضا حق الزواج بعد موت والدهم ، لكن اللياقة تحتم انقضاء فترة بين حدث محزن لهذا الحد وبين فعل يتطلب على الدوام مظاهر الخفة والفرح ، وفى ذلك تناقض واضح ، ولذا فإن من يستبيح لنفسه أن يعقب جنازة أى من والديه بحفل زفافه يغطى نفسه بوصمة لا تغتفر لدى الرأى العام .

٣

المقابر

يبدى المصريون المحدثون اليوم عناية بمقابرهم – تماثل عناية أسلافهم فى الماضى – جعلتهم يقيمون منشآت أقل ضخامة حقيقة مما أسسه القدماء ، لكنها على روعة غير عادية إذا ما وضعنا فى الاعتبار حالة المصريين فى الوقت الحاضر . لقد حدثت ثورة تامة فى التقاليد والديانات والعادات الاجتماعية ، ومع ذلك فقد ظلت ضفاف النيل كما كانت فى الماضى ، هى المكان الذى تحترم فيه أكثر من غيره أجداث الموتى ، فليست هناك كما يحدث فى البلدان الأخرى تلك الأحواش الفقيرة والمتهدمة التى تضم مقابر أولئك الذين انطفأت شمعة حياتهم ،

ولا يحدث فيها – كما يحدث فى أماكن أخرى – أن يطأ المرء بقدميه وهو يسير فى أرض قاحلة أو يجوس خلال الأعشاب البرية عظاما بشرية مبعثرة كيفما اتفق . نعم ليس ثمة مثل هذه الأعمال المجوجة والناتجة عن الإهمال واللامبالاة ، والتى تكشف عن مدى ما تلقاه أرواح الموتى من إهانة وازدراء على يد الأحياء . فكل شئ هنا – فى هذا الصدد – يختلف ، فثمة أشجار باسقة تظلل المقابر ، أو ثمة على الأقل ورود زرعتها بين القبور عاطفة محبة ، تحول مثل هذا المكان المقبض إلى نوع من الحدائق العامة ، وثمة مقاعد وفراغات بين المقابر ترسم نوعا من الشوارع الصغيرة ، نرى على امتدادها آثار عمل الإنسان .

يالروعة بناء المقابر ! ويالروعة النقوش التى تغطيها .. إن المرء ليؤخذ بهذه الروعة الورعة لحد أن يتذكر ما كان يحدث فى الأزمنة الخوالى : «تتجلى عناية القدماء بمقابرهم فى تلك الأموال الطائلة التى ينفقونها عليها ، وفى إقامة الأهرامات والنحت فى الجبال واستخدام نقوش ورسوم بالغة البذخ .. وباختصار فى تلك الروعة المدهشة » . وما يزال نفس هذا الميل موجودا حتى اليوم ، وينفق المصريون فى هذا المجال من المال أكثر مما ينفقون على ملابسهم ومساكنهم . هنا يتجلى معنى ما قاله ديودور الصقلى عن أسلافهم من أنهم يعتبرون بيوتهم مجرد نزل عابرة لا ينبغى التوقف عندها طويلا ، لذا فعنايتهم بها قليلة ، هذا فى الوقت الذى يعتبرون فيه المقابر بمثابة دار للخلود ، فيشيدونها بكل الفن والمهارة ، وهو أمر كانوا ضليعين فيه . لقد تغيرت ديانتهم بشكل كامل ، ومع ذلك فقد ظلت العادة كما كانت فى الماضى : فبجوار كل مدينة كبيرة توجد مدينة صغيرة للموتى ، حيث يكون لكل أسرة ميسورة لحد ما مدفن خاص بها ، وحيث تزين كل المقابر بالنقوش والرسوم الجميلة (١) .

ويختار المصريون المحدثون لمقابرهم – شأنهم فى ذلك شأن المصريين القدماء – المناطق المرتفعة فوق مستوى النهر ، حتى لا تصل مياه النهر إليها

(١) انظر وصف مدينة طيبة فى دراسة المسيو جومار عن المدافن الأرضية .

فتهدمها ، ومن جهة أخرى فإن الأراضى القابلة للزراعة فى الوادى غالية الثمن ، وضرورية للأحياء لدرجة لا يمكن معها أن يجعلوا منها مأواهم الأبدى ، وعلى هذا فينبغى أن يكون المكان الذى يستخدم كمقبرة قاحلا أجرد لا يبنى أو يزرع فيه . والأرض التى خصصت للناس لتكون مقرهم الأخير ينبغى أن توقف عليهم ، وألا تقلق هناك أجسادهم بأن يسمح للفلاح أن يغرس فيها سلاح محراثه . وإذا امتلأت مقبرة ما فلن ينازع أحد عظام الموتى فى مكان خصص لها ، فلا تخلى المقبرة من العظام ليخلو المكان لموتى جدد .. هناك فى هذه المقابر يرقد الفقير مستريحا تحت المكان الحجرى الذى خصص له ، أما الغنى فإن ما دفعه لشراء تلك المساحة الضيقة التى يشغلها قبره لن يضيع هباء . وهكذا ، فما أن تغطى المقابر مساحة الأرض التى خصصت للمدافن حتى تسمح الحكومة بأرض جديدة لنفس الغرض ، وتهجر الأولى ، ومع ذلك يظل ينظر إليها الناس باحترام وورع ، ويصبح من أعمال الخير - لوقت طويل من هذا الهجر - أن يضع الناس الورود فوق رخام المقابر .

ويقع المدفن ، أو مدينة المقابر ، فى مدخل المدن عادة ، وخارج نطاقها ، ويستطيع كل إنسان أن يدخلها بلا عائق ، إذ ليس ثمة حائط أو سور يعوق الاقتراب منها . ويا لها من مفاجأة بالنسبة للأجنبى - الذى لم يكن قد رأى حتى هذه اللحظة إلا الأكواخ التى يسكنها الأحياء فى الريف - عندما يرى هذه المقابر الباذخة ! فثمة غابة من العواميد والنصب التذكارية والأضرحة . . تغطى مساحة شاسعة : وقد يظن المرء فى البداية أنه أمام مدينة بديعة هجرها عشية الأمس سكانها ، وعندما يرى شوارع المدفن فقد يظن أنه فى سهل مزروع بالمقابر، وفى كل مكان ستتجلى فنون العمارة التى تتضاءل إلى جوارها - وبخاصة الأضرحة الكبيرة - عمارة المساجد وقصور الكبار .

وتصنع الأعمدة وشواهد القبور من الرخام الأبيض ، أما أساس المقابر فمن الحجارة ، وتصنع القبة من الخشب وتغطيها طبقات من الجبس أو الجير شديد

البياض . ونقوش المقابر ذات ذوق شرقى ، وهى عبارة عن زخارف تحوى زهورا من مختلف الأنواع نُفذت بعناية ، وتغطيها رقائق ذهبية مما يعطيها مشهدا بديعا. أما أولئك الذين لم يحوزوا إلا ثروة متواضعة فيكتفون بالكتابة على مقابر أهليهم بالأسود ، لكن الكتابة التى ينفذها الأغنياء على مقابرهم ذهبية اللون . وتتكون المقابر العادية من حجر فوق اللحد ، يرتفع من أحد جانبيه عمود يحمل عمامة ، وينتهى جانبه الآخر بقطعة حجر مسطحة ، تنتهى بشكل مدبب ، وقد شذبت جوانبها لتأخذ شكل مسلة ، وتنقش عليها النقوش ، وهى فى بعض الأحيان نقش لشجرة سرو أو لورود منفذ بعناية شديدة . وتتكون مقابر السيدات من حجرين مسطحين ، ينهض أحدهما عند الرأس والآخر عند القدم ، وهما مليئان بالرسوم والنقوش ، وينتهى كل منهما بشكل مسلة لكنها لاتحمل عمامة . وتصنع هذه الحجارة من الجرانيت ، أو من الحجارة الجبلية ، وفى هذه الحالة لاتكون مزدانة بأية نقوش. وفى بعض الأحيان تغطى المقبرة كتلة صماء من الحجر ، وهذا أمر كاف عند الأتقياء الورعين ، فكل إنسان يبذل ما يستطيع لتكريم ذكرى ذويه . وفى آسيا حيث الأراضى خصبة والأمطار غزيرة يزرع الأتراك فى المدافن أشجار السرو ، ويشبه المدفن عندئذ غابة واسعة ، إذ ترتفع هذه الأشجار إلى علو شاهق. ومهما بلغ عمر الشجرة فلا يسمح بقطعها ، فقطع هذه الأشجار جريمة لا يغفرها القانون .

ويوم الجمعة بوجه خاص هو اليوم المحدد لزيارة المقابر ، وتذهب الأسرة إلى هناك بأكملها ، فتصحب الأمهات أطفالهن ، ويتجمع هناك الأصدقاء ويجلسون حول مقبرة الفقيد ، ويتربعون على الحصر ليتناولوا بعض مايحملون من هبات ، ويتحدثون بمرارة عن الخسارة التى حدثت ، وعن فضائل الفقيد وكفاءاته ومميزاته. وهم يذهبون إلى مدينة الموتى هذه عند شروق الشمس ، ويمضون فترة الصباح كلها فى الصلوات والدعوات الدينية . وفى هذه الأيام المهيبة يبلغ الزحام درجة تبدو معها المقابر وكأنما تقطنها جماهير غفيرة ، ويمكن أن نتخيل أحجبة

النساء وهى ترفرف ، وملابس الرجال الزاهية بكل الألوان الفاقعة والمتنوعة ، وفخامة مبانى المقابر التى تغطى السهل ، فنتذكر على الفور تلك الأساطير القديمة التى ولدت على نفس هذه الضفاف . . إذ تبدو هذه الأماكن وكأنها مقر لأشباح محظوظة ، يخيل للمرء أنها تهيم على وجوهها وهى تخطو خطوها البطىء وسط مساكن الموت هذه . أمامجموعاتهم تلك المنتشرة هنا وهناك تحت أشجار الأكاسيا والجميز ، فتبدو وكأنها تقدم لعيون المسافر لوحة من جنة الدار الآخرة تكملها وتجسدها مخيلته .

وتمتلك العائلات الغنية – كما سبق القول – مقابر رائعة الجمال ، ويعتبر بعضها فى الواقع مساجد صغيرة ، وهى محاطة بسور ، ويدفن فيها عبيد الأسرة وخدمها ، ويدفن السادة تحت القبة ، ثم تجمع عظامهم بعد ذلك فى قبر واحد . أما المقابر الأخرى فهى أكثر بساطة ، وتتكون من أساس من الحجارة تعلوه أربعة عواميد ، تحمل أقبية وسقيفة إما على شكل قبة أوعلى هيئة هرم ، وتوضع الأجساد عند الأساس ، أما المقبرة فتظل خالية وتبنى تحت القبة التى تحدثنا عنها .

وفى معظم الأحيان ثمة مربع محفور وسط المستطيل الذى يغطى المقبرة ، ويملؤه الناس بالتراب لتزرع فيه الزهور بدافع المحبة والاعتزاز والتبجيل .

أماالعامة الذين لايقدرون حتى أن يثبتوا مجرد حجر عادى علامة على المكان الذى يرقد فيه أعزاؤهم ، فإنهم يكتفون برفع مستوى الأرض حول حفراتهم ، ويزرعون فيها بالمثل ورودا يأتون كل أسبوع لريها .

ومدافن المصريين تحظى بتقديسهم ، وهم يحرصون على أن يبعدوا عنها كل ما يمكنه أن ينال من قداستها . وتحاط مدينة القاهرة بأحواش مقابر سبق أن تحدثنا عن فخامتها ، لكن ينبغى أيضا أن ننوه بمدينة الموتى فى سيوط (أسيوط) فى صعيد مصر ، فهى تقع عند سفح جبل على حافة واد يانع الخضرة ،

ويخترقها طريق واسع للغاية يفضى إلى الصحراء . ويحيط بكل مقبرة جدار أبيض، تعلوه رسوم زاهية اللون، وتظلله النخيل وأشجار الأكاسيا والجميز . وتعمل عاطفة الأحياء نحو ذويهم هناك على مضاعفة عدد هذه الأشجار والعناية بها .

وهكذا فإن المصريين الذين تربط بينهم على الدوام المودة وصلات الدم ، يقدمون بعد موت أحبائهم علامات مؤثرة على ذلك الحزن العميق الذى انتابهم بفقد هؤلاء . فهم – مثل أسلافهم – يحسون بقوة بمباهج المشاعر الأسرية ، وتصدمهم بشكل مؤثر تلك الضربات التى تحرمهم من مخلوقات عزيزة عليهم ، خسارتها لاتعوض . وهكذا أيضا نراهم بعد أن يكونوا قد تذوقوا سعادة أن تشملهم المحبة أثناء حياتهم ، يتمتعون بعد أن يتركوا العالم الأرضى ، بسعادة أن يخيم على ذويهم الأسف على فراقهم .

٤

الحداد والندابات

لدينا فى أوربا وقت محدد للحداد الكبير ، أما الحداد الصغير فيلى ذلك . لكن هذه الممارسات مجهولة فى الشرق ، فهناك يعبرون عن الحزن والأسى بطريقة أخرى ، كما أن للألم هناك لغة غير تلك التى لدينا . فخلال عدد من الأيام حددها العرف ، تظل المرأة تبكى وفاة أقاربها سواء داخل بيتها أو فى المسجد أو على القبر ، وثمة وقت من أوقات النهار مخصص لهذا الواجب الحزين . وينفذ هذا الواجب بدقة تستعصى على الفهم . صحيح أننا نلاحظ فى بعض الأحيان نوعا من التكلف فى هذه الممارسات الخارجية ، إذ ليس من النادر على سبيل المثال أن نرى النسوة يعبرن الشارع – وهن فى طريقهن إلى المسجد أو إلى المقابر – دون أن يبدين أية دلالة على الحزن ، ثم ينهضن من هناك بعد أن يكن قد أطلقن صرخات الحزن المؤثرة لمدة تقرب من ساعة ، ويرحلن دون أن تحتفظ ملامحهن بأقل أثر لانفعالهن ، وبرغم ذلك فإن هذه المظاهر صادقة وحقيقية عند العدد

الأكبر من هؤلاء النسوة ، ولكى تقتنع بذلك ، فيكفيك أن ترى كما رأينا بائسات يهزهن الخوف من فقد أحد أقاربهن ، يحادثن أنفسهن ويُعَبّرن بصوت خفيض وبطريقة تثير الشفقة عن القلق الذى يأكلهن . وكثيرا ماسمعنا نسوة ينطقن – أثناء سيرهن فى الشوارع – بالدعوات الحارة كى يبعد الله المصيبة التى تهدد أسرتهن، ولايقطع حديثهن إلا العبرات التى تمزق صدورهن ، ويعبرن عن مشاعرهن تلك بلا حرج وبلهجة صادقة ، ويدعين الله أن يطيل عمر من يعانى من الخطر على حساب عمرهن، يقلن ذلك بحرارة لدرجة يكون من الظلم معها أن تشك فى إخلاصهن .فإذا كان الخوف من الخطر يعذبهن بمثل هذه الطريقة المؤلمة أفلا ينبغى أن تفترسهن الأحزان إذا ما تحققت مخاوفهن ؟ وكثيرا ما رأينا سيدة فقدت طفلها العزيز وهى تندفع إلى خارج بيتها نائحة باكية ، لتجوب الشوارع وتلقى بصرخاتها المنتحبة تنادى طفلها بصوت يمزق القلب :يا والاد.. ياوالاد! (ياولد.. ياولد) .

والسيدات وحدهن فى مصر يقمن محافل البكاء بعد موت أقاربهن ، أما الرجال فعليهم كما سبق القول أن يظهروا قدرا أكبر من ضبط النفس ، فإذا تألموا فإن ألمهم مركز ، بل إنهم يطلبون من النساء – إذا ما ذهبن إلى بعيد فى التعبير عن بؤسهن [١] –أن يعتدلن ويتحلين بالصبر . وفى الدموع والأحزان يتجلى حداد مصر ، ولا يفرض الدين زيا محددا للحداد ، ومع ذلك فإن الناس يرتدون ملابس قاتمة علامة على الحداد ، لكن أبناء الطبقات العليا لايخضعون لهذه العادة ، فما أن يدفن شخص منهم وتؤدى عليه الصلوات حتى لايعود ثمة أى حداد دينى ملزم ، ويكتفون بقضاء عدة أيام فى استقبال المعزين . ويدعى إلى وجبة جنائزية كل أصدقاء المتوفى ، وتخصص هذه الوجبة لذكراه التى تكون موضوعا للحديث ، ويأخذ كل مدعو فى تعديد مناقبه .

---

(١) ليست النساء المسلمات وحدهن كما سبق القول هن اللاتى يبكين موتاهن ، فربما تتفوق عليهن المسيحيات فى هذا الخصوص . وهذه العادة عامة فى مصر .

أما الندابات اللاتى يتبعن مراسيم الدفن فهن نساء من الشعب ، مدربات منذ زمن طويل على العويل وتصنع صرخات اليأس ، وليس ثمة مسلم متنور إلا ويدين هذه العادة الكاذبة ، ومع ذلك فقد لاحظنا أنها لاتصدم الرأى العام . وتلجأ زوجة الواحد من الكبار ، عندما تخشى أنها لن تستطيع أن تسكب وحدها على المرحوم قدرا كافيا من الدمع ، أو ربما عندما تجد أن مهمة الانتحاب لمدة طويلة بلا انقطاع تفوق طاقتها - تلجأ إلى استدعاء الندابات اللاتى يقمن فى الحجرة من البيت التى كان الجثمان مسجى فيها ، وهناك يقمن بتأبين الميت ولكن بطريقة شديدة النحيب . وتبدأ إحداهن بإطراء فضائل المتوفى ، وما أن تلفظ أول كلمة حتى تطلق الأخريات فى صوت واحد صيحات مفزعة ، كما لو كان ذلك للتعبير عن حجم الخسارة التى أصابت العائلة . وتشرب الندابات من إبريق موضوع على موقد فى نفس الحجرة وعقب كل نوبة تأبين ، قدحا من القهوة . ومع ذلك فليس فى صرخاتهن مايمس قلب الأجنبى ، فهن يعولن أكثر مما يبكين بعاطفة ، وأغلب هؤلاء التعيسات لايسكبن دموعا ، ويقتصر عملهن على الإتيان ببعض الحركات وأن يرثين بنوع من الإيقاع الحزين . ولايسمح النقاب الذى يغطى وجههن ، والذى بدونه لايمكن لهن أن يتجاسرن على الظهور أمام الناس - لايسمح للمرء أن يكشف كذب بكائهن .

وعلى الرغم من الاحتقار الذى يبديه المسلمون المتنورون لهذه الاحتفالات الجنائزية والتى تشبه مسرحية هزلية أكثر مما هى تعبير حقيقى عن الألم ، فإن من المحتمل أن تظل هذه العادة لوقت طويل فى كامل قوتها ، إذ من الصعب أن تقتلع معتقدات من جذورها بعد أن امتد بها العمر وتجسدت فى هذه العادة الضاربة فى القدم ، وإنة لأمر أكثر مشقة عند شعب روتينى ، يبدو كما لو كان يرى - على نحو ما - فى حذوه حذو أسلافه أمرا له قداسة الأديان .

الفصل الخامس

النظم والمؤسسات

١

رجال الشريعة والقضاء

بعد أن انتهينا من الحديث عن التقاليد الأسرية والعادات الاجتماعية للمصريين المحدثين ، وبعد أن تعقبناهم فى مختلف أطوار حياتهم من المهد إلى اللحد ، فسوف نهتم الآن بأنظمتهم ومؤسساتهم المدنية والدينية ، ولعل هذا هو أهم فصل فى مؤلفنا ، إذ كان من المستحيل على الرحالة الذين جاءوا إلى مصر قبل هزيمتها على يد الفرنسيين أن يحصلوا فى هذا الصدد على أفكار ومعلومات موضوعية ، فقد كان ثمة عقبات كبيرة تحول دون أبحاث بهذه الدقة ، كما أن مثل هذه الأبحاث كانت تثير الهلع كما كانت تثير ريبة وشكوك الحكومات المستبدة ، التى كانت تتولى شئون البلاد . لقد كان الأمر يتطلب وجود ودعم جيش منتصر مسيطر ، وعلاقات يومية ومباشرة مع السكان من كافة الطبقات ، حتى يمكن دراسة قوانين مصر ونظامها المالى والإدارى . وقد سبق أن قدمت دراسة «استيف» Estéve لوحة كاملة عن الدخل العام ، وتوزيع واستخدام الضرائب ومختلف أنواع الملكية ، أى أنها قدمت باختصار لوحة عن كافة أقسام الحكومة التى كان عملها الإشراف على مالية الدولة .

ولقد كانت المهام التى أوكلت إلى الأستاذ استيف هى التى مكنته من أن يرى بعينيه كل شىء ، وأن يسبر فى ثنايا ذلك غور تلك الإدارة البطيئة والمعقدة . علينا إذن فى فصلنا هذا أن نهتم بالدرجة الأولى بالنظم والمؤسسات التى لايدخل فى نطاقها الموضوع الذى عالجه زميلنا ، وأن نبدأ بالقوانين المدنية التى يخضع لها المصريون فى الوقت الحاضر . ولكن من الأمور الملحة قبل أن نمضى فى تمحيص هذه القوانين أن نتعرف على الأشخاص الذين كانوا أعضاء فى هذه المؤسسات أو قائمين على أمر هذه النظم . وحيث إن الشريعة الإسلامية وكتابها «القرآن الكريم» هما القاعدة الرئيسية التى تنهض عليها القوانين المدنية ، فإن رجال

الدين قد أصبحوا فى نفس الوقت رجال القانون . وهؤلاء ينقسمون إلى عدة طوائف ، ومهامهم بالغة التنوع : فبعضهم تقتصر مهمته على العناية بالمساجد ، ومن هؤلاء الإمام ، وهذا النوع من الرجال ليسوا بالأغنياء ولابذوى المكانة ، فبإمكان كل مسلم ملم بالقراءة والكتابة وإقامة الصلاة أن يكون إماما لمسجد . وهو ليس من رجال الدين المتخصصين ولا يرتدى زيا خاصا ، وهذا النوع من العمل وراثى فى العائلات ، ومن الممكن التنازل عن هذه الوظيفة لآخر مقابل جعل من المال .

والقاضى هو الذى يفحص الأئمة ، ويمكنه أن يقبلهم أو يرفضهم حسبما يتراءى له عن المرشح ، وهل هو فى مستوى الوظيفة أو ليس فى مستواها وليس ثمة هيرارشية (هرمية) بين الأئمة ، فهم أئمة المساجد وليس أكثر من ذلك . وللباب العالى عليهم وعلى كل العلماء نوع من السطوة الروحية ، ولكن إذا حدث أن كان ببعض فرماناته مايتعارض مع بعض ماجاء فى القرآن فإنهم لا يلزمون أنفسهم بطاعتها عن اعتقاد ، إذ لا ينبغى عليهم أن يطيعوا إلا الله ورسوله .

ويشكل الأشراف فى مصر طبقة منعزلة ، وهم يتمتعون بنفوذ كبير ، وسبب مكانتهم تلك هو اللقب الذى يحملونه ، فشريف معناه متميز ، وهذه الصفة لاتخلع إلا على أحفاد محمد من ابنته فاطمة ، ويحق لهم وحدهم لبس العمامة الخضراء . ويقول بعض العلماء : ويل لمن يدعى لنفسه الشرف دون أن يكون كذلك، وويل لمن يهجر الأشراف . ونحن نجد أشرافا من مختلف الطبقات ، وثمة أشراف لاتعرف ماهى مهنتهم بالضبط ، بل وثمة منهم من يمارسون أعمالا مرذولة . وينقل النساء هذا اللقب لاولادهن من الجنسين ، وحيث إن من حقهن أن يتزوجن بلا تمييز ، أى سواء من شريف أومن مسلم ليس من الأشراف ، فبإمكاننا أن نستنتج كيف يمكن أن يتضاعف عدد أفراد هذه الطائفة .

ويختار الباب العالى واحدا من أبرز هؤلاء الأشراف ، ليعينه نقيبا للأشراف ،

وهى وظيفة محترمة ، ويقيم من يتولاها فى القاهرة . ويأتى هذا النقيب عادة من القسطنطينية مع القاضى ، ويدفع فى مقابل وظيفته تلك حوالى أربعين ألف مدينى ، ويحصل على دخل عديد من القرى الصغيرة هى بمثابة إقطاع لوظيفته . ولايعهد لشخص ما بهذا المنصب إلا لمدة عام ، يثبت فى نهايته النقيب أو يستبدل به غيره حسب مشيئة السلطان .

ويحاكم كل الأشراف أمام نقيبهم على ما يأتون من أخطاء بسيطة ، لكن ليس من سلطته أن يحكم على واحد منهم بالموت ، فالقاضى وحده هو الذى يختص بمحاكمتهم فى الأمور المدنية والجنائية مثلهم مثل بقية المسلمين . وعندما يحكم على واحد منهم بالإعدام يتولى النقيب تنفيذ الحكم . وللأشراف سجن خاص بهم ، ويستخدم جزء من دخول القرى الموقوفة على النقيب لإطعام المساجين من الأشراف [1] .

وليس ثمة بلد يتمتع فيه الأشراف بامتياز أكبر مما يتمتعون به فى مكة ، إذ لهم الحظوة على سائر المسلمين فى كل الاحتفالات الدينية ، ولهم بخلاف ذلك امتيازات كثيرة ، ومع ذلك فشريف مكة ليس سوى أمير زمنى ، وليست له أية قداسة دينية ، بل إن الصلاة لاتقام مطلقا باسمه ، بل تقام الصلاة على الدوام فى الحرم المكى باسم السلطان .

ولقد سبق لنا أن تحدثنا عن العلماء ، وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاث طبقات كبرى : رجال الدين ، علماء الشريعة ، القضاة . والأولون هم الأئمة ، والآخرون هم رجال الإفتاء ، وهم بمثابة محامين استشاريين يبدون آراءهم فى كافة الأمور ، أما الفئة الثالثة فهم قضاة العدل . ويمنح القضاة من الدرجة الأولى لقب مولاى ، ومعناه

---

(١) يوجد كذلك اختلاف فى طريقة إعدام الأشراف ، إذ لا يمكن أن تفصل رءوسهم عن أبدانهم ، ويرسل النقيب إلى السجن من يقوم بخنق المحكوم عليه بالإعدام ، ولا تعلق أجسادهم كذلك بعد تنفيذ الحكم ، بل تدفن على الفور .

سيد أوشريف . أما شيخ الإسلام – أو مفتى االقسطنطينية – والوزير الأكبر (الصدر الأعظم) فهما أهم شخصيتين بعد السلطان فى كل الامبراطورية ، وهما يمثلان السلطان : الأول فى الشئون الروحية ، والثانى فى الأمور الزمنية . وليس من حق السلطان أن يعدم المفتى بنفس الطريقة التى يُعْدَم بها المذنبون العاديون ، وعندما يدان شخص ما وهو يتقلد هذا المنصب الخطير بجريمة كبيرة فإنه يلقى عقابا خاصا ، ربما كان أكبر بكثير من ذلك العقاب الذى يوقع على المجرمين العاديين .

وتعرض على المفتى المسائل العويصة التى قد تظهر عند تطبيق بعض أحكام الشريعة ، ويتوجه إليه للحصول على حكم منه باعتباره رجل الشريعة المكلف بإبداء الرأى فى العقوبات التى تطبق فى بعض الجنايات . وهذا الحكم الذى يصدره عن هذه الأمور الجنائية ، أو فى غيرها من المسائل المدنية ، مثل حقوق أطراف النزاع فى قضية ما – يسمى فتوى ، وهى تماثل منطوقا شرعيا تحدد مسار حكم القاضى . ويحرر هؤلاء فتواهم كتابة ، ولكن عندما يطلب إلى المفتى إيضاحات حول نقطة غامضة فى القانون فإنه يستدعى كبار العلماء ليناقش الحالة معهم ، ومن النادر أن يلجأ قاض ضليع فى الفقه إلى طلب رأى المفتى بل وأكثر من ذلك أن يلتزم بقراراته . ولكن عندما لايكون القاضى ضليعا فى الفقه كما يحدث فى معظم الأحوال ، فإنه يلجأ على الدوام لطلب رأى المفتى قبل أن ينطق بالحكم .

ولكل من المذاهب الإسلامية الأربعة – التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول – مفت خاص بها فى القاهرة ، لكن هذه الوظائف لاتمنح ، بل هى لقب أو جدارة تنال بالسمعة . أما فى المدن الأخرى والتى تحظى ببعض الأهمية فإن المفتى يقوم بإرسال قاض يمثله فيها ، ولايمارس هذا «المولى» وظيفته إلا لفترة قصيرة من الزمن ، وأمثاله فى تركيا يغيرون كل شهر ، ويدفعون ثمنا لوظائفهم مبلغا يتفاوت بحسب ثراء المدينة التى سيمارسون فيها عملهم ، والمولى بعد الحاكم هو السلطة الأولى فى المدينة .

وثمة فى مصر نظام للنساك المسلمين ، وينتشر إلى حد ما فى الولايات التركية الأخرى ، ويسمى المنتسبون إليه دراويش . وهم يعيشون فى جماعة ، ويرحلون من خلوة إلى أخرى ، وليس محرما عليهم أن يتزوجوا ، لكن لايمكن قبول زوجاتهم معهم فى الخلوة ، وعلى هؤلاء أن يقمن فى مساكن خاصة . ولكل جماعة من الدراويش دخول ، تأتيها من هبات موصى بها ومن منشآت أوقفها عليهم الخيرون من المسلمين . ولكل طريقة رؤساؤها ، ولكل خلوة رئيس يسمى شيخا ، وفضلا عن ذلك فإن هؤلاء الدراويش يتمتعون باحترام عام ، ولكنهم يتهمون بالتفلسف ، وهذا اتهام خطير عند شعب جاهل يتشبث بأخطائه بحكم التعود الطويل . فالشرقيون يسمون فلاسفة كل العقول التى لايسهل عليها أن تتقبل بسهولة الكثير من الأفكار والآراء ، وبخاصة تلك العقول التى ليست على استعداد للاعتقاد فى معجزات النبى . ومع ذلك فمن الصعب أن نقبل اتهاما كهذا يوجه إلى الدراويش ، فهم ليسوا متنورين للحد الذى يتعمقون معه فى موضوعات جادة ، بل يبدو أن مثل هذه الموضوعات لاتثير اهتمامهم . ومهما يكن الأمر فإنه يظن بكثير منهم الهرطقة وعدم الورع ، ويقول خصومهم بأنهم يجعلون من إيمانهم بالله نهاية المطاف لعقيدتهم ، فلا يلتزمون بعد ذلك بإقامة الصلاة أو الامتثال للفروض ، وبأنهم لايخضعون إلا من حيث الشكل ، وبأن كل مايتظاهرون به فارغ لاقصد منه سوى الرياء . وثمة طوائف دينية أخرى كثيرة من المسلمين ، ولكن حيث إن بعض هؤلاء من النساك العاكفين وبعضهم الآخر حجاج جوابون ، فسوف يكون من الصعب علينا أن نقدم تفاصيل موضوعية عنهم ، ولكننا نكتفى هنا بأن نتحدث بعض الشئ عن الأولياء ، وهم بالنسبة للمصريين موضع تقديس خاص .

ليس ثمة شعب لم يخلط بمعتقداته وممارساته الدينية صورا من صور الامتثال المضحك ، فلقد صور المصريون فى عصورهم القديمة الآلهة فى أشكال بالغة الغرابة والوحشية ، وقدس الإغريق آلهتهم الذين أظهروهم فى شكل النهمين بالملذات الخليعة والمنفرة ، أما الرومان فقد كان لديهم عرافوهم الباحثون عن

شكل المستقبل بفحص أمعاء وجروح الأضحيات . وكم من مرة استسلم الشيوخ العظام لأول جمهورية عرفها التاريخ لشهية الدجاجات المقدسة ، أو لنتيجة استجلاء جروح الأضحيات حتى يقرروا مصير الوطن . أما عبادة الكهنة الغاليين فهى أكثر الأمور المفزعة التى يقدمها لنا التاريخ ، ومع ذلك فقد ظلت لوقت طويل عزيزة على الغاليين . وهكذا - وكأن هذا قدر لا يمكن الإفلات منه ، إذ يبدو أنه لصيق بكل أنظمة البشر - كرس المحدثون ، شأنهم شأن القدامى ، أخطاء ومعتقدات بعيدة عن العقل ، ربما لم يعد من الممكن اغتفارها مع هذا المدى الذى بلغه عقل الإنسان عما كان عليه فى تلك الأزمان الضاربة فى القدم . وفى هذا الصدد لا يقل المصريون المحدثون غرابة عن أسلافهم ، وإن كانوا أقل منهم عبقرية ومهارة ، فهم يقومون بعبادة أمور يمجها العقل ، مثل الأضرحة والأولياء ، حيث يعتقد الناس هناك أن الله قد كلف أولياء بخدمتهم ، وهيأهم للأمر بطريقة شاملة أصبحوا معها لا يبالون - أى الأولياء - بكل ما هو أرضى ، بل إنهم جميعا قد فقدوا الشعور بأحاسيسهم الدنيوية ، وهكذا يلقى البلهاء فى حياتهم الاحترام والإكبار باعتبارهم أولياء وقديسين . وثمة بعض من هؤلاء يتمتعون بقدر ضئيل من المواهب الروحية والخلقية ، لكن هؤلاء ينسحبون إلى الأماكن المعزولة ليعيشوا كنساك زاهدين ، وينهمكون فى الصلوات والتأمل . وثمة أولياء من كلا الجنسين ، ويرى هؤلاء على الدوام وهم يسيرون عراة كما ولدتهم أمهاتهم ، لكن التقديس أو قل هو العمى العام يكون بالنسبة لهم بمثابة الرداء (١) . ويدفن هؤلاء الأشخاص بعد موتهم فى احتفال كبير ، وتصبح مقابرهم بالنسبة للناس أماكن ملأى بالمعجزات . وفى الأرياف ، وكذا فى الأحياء البعيدة عن وسط المدن ، يوجد الكثير من هذه الأضرحة التى تدين بوجودها لهبات المسلمين المتحمسين . وهى

(١) يروى عن كثير من الأولياء أنهم لم يكونوا على الدوام بمنأى عن ملذات الحس ، ويقال إن القداسة التى يتدثرون بها قد سهلت لهم على الدوام وسائل إشباع كل ملذاتهم دون أن تمس قداستهم ، حيث إنهم لم يخدشوا الحياء العام أو يخرجوا على مقتضيات اللياقة .

على شكل قباب صغيرة تتفاوت درجة فخامتها ، وثمة رجال مكلفون بالحفاظ عليها والقيام بوظيفة الإمام فى هذه المساجد - المقبرة ، لكن هذا العمل على الدوام ليس مجزيا . وكثيرا ما نقابل فى الشوارع رجالا تغطيهم الهلاهيل ، يتموج شعرهم المتهدل ويمسكون بيدهم عصا . هؤلاء هم شيوخ مقابر الأولياء ، جاءوا يتكففون الناس .

وفى بعض الأحيان يلعب بعض المخاتلين دور الولى حتى ينعموا بالترحيب والاحترام ، وبخاصة كرم الضيافة ، ولكن بعد وقت - يطول أو يقصر - يتوصل الناس إلى اكتشاف الخدعة ، ويكون الهجر والاحتقار هو نصيب هؤلاء الأولياء المزيفين .

٢

الأعياد الدينية ، المبادئ الرئيسية للعقيدة الإسلامية

سبق لنا أن تحدثنا عن أعياد المصريين أثناء حديثنا عن الاحتفالات وضروب اللهو عند الشعب المصرى ، وعلى الرغم من أن أعياد المصريين كلها تعود إلى أصل دينى ، فليس ثمة سوى عيدين من هذه الأعياد يمكن اعتبارهما بحق أعيادا مقدسة ، وهذان العيدان هما : عيد رمضان (عيد الفطر) ، وعيد أضحية إبراهيم (عيد الأضحى) . ويبلغ طول العيد الأول ثلاثة أيام ، وفى هذا العيد يشكر المسلمون ربهم لأنه قد مكنهم من أن يمضوا فترة الصيام على خير . أما العيد الثانى ، العيد الكبير ، فيتم الاحتفال به فى العاشر من ذى الحجة ، وهو آخر شهور السنة ، ويستمر أربعة أيام بالنسبة لعامة الشعب ، لكن الأثرياء وكبار الشخصيات يحتفلون به لأسبوع كامل ، ويتفق حلول هذا العيد مع وصول الحجاج إلى مكة ، حيث يذبحون على الجبل أضحياتهم . وفى يوم العيد تذبح كل أسرة مسلمة فى كل أنحاء مصر حملا أو أى حيوان آخر بحسب إمكانياتها ، أما

الأغنياء فيذبحون ذبائح عدة بحيث تخصص لكل فرد من الأسرة ذبيحة على الأقل ، لكن الفقراء يكتفون بأضحية واحدة .

ومما هو جدير بالذكر أن الأعياد الدينية التى قررها محمد لا تشبه فى شئ أعياد المسيحيين ، إذ هى ليست أياما للراحة ، فهى لا تفترق عن بقية الأيام إلا فى الصلوات الإضافية والأدعيات التى تتلى فى كل مسجد ، وبخلاف ذلك فإن المحلات تظل مفتوحة ويستطيع العمال أن يقوموا بأعمالهم المعتادة ، لكن الناس يفضلون أن يرفهوا عن أنفسهم ، فيرتدون أجمل ملابسهم ، وتغص الشوارع بأناس انغمسوا فى المرح .

وذكرى مولد النبى هى الأخرى مناسبة لمباهج كبرى للعامة ، فتمتلئ الميادين بالمهرجين والحواة والعوالم وباعة الحلوى ، ومع ذلك فلا ينظر لهذه المناسبة باعتبارها عيدا إجباريا، إذ يمكن الاحتفال أو عدم الاحتفال به ، والعادة وحدها هى التى أقرته . وعند حلول المساء يسارع الناس بإضاءة الأنوار ، ويستمر اللهو حتى وقت متأخر من الليل .

وثمة عادة خاصة بمصر لا تشاركها فيها فيما يبدو بقية الدول الإسلامية ، تلك هى عادة إقامة الأعياد للأولياء ، حيث لكل قرية ولكل حى من مدن مصر الكبرى ولى يحتفل الشعب بيوم مولده ، وبرغم ذلك فلا تقام أية صلوات إضافية فى المساجد . وعلى الرغم من الدافع الدينى لهذه الأعياد فإن رجال الشريعة لا يشاركون فيها على الإطلاق ، ويتركون شئون الاحتفال للسكان من كافة الطبقات ، وهؤلاء نهمون على الدوام بالبهجة وضروب اللهو [1] .

ومع ذلك فشهر رمضان هو أهم الأوقات التى ينغمس فيها المصريون فى

(١) يفضل المصريون الاحتفال بأعيادهم ومسراتهم فى الليل ، وهذه فى الغالب عادة كل الشعوب التى تعيش فى جو حار ، فالليل فى المناطق المدارية فى الواقع هو الوقت الذى تنشط فيه أجسامهم وملكاتهم .

المسرات ومختلف ضروب اللهو ، فهو فى مجموعه شهر صيام وشهر مهرجانات . وقد يبدو من الغريب أن يختاروا مثل هذا الوقت للقيام بممارسات متناقضة : التوبة وتطهير النفس من ناحية ، والملذات من الناحية الأخرى . ولكن ، فلعل المشرع قد أراد بذلك أن يخفف من وطأة تلك التوبة المهلكة ، فعمل على أن تصحبها أوقات تخصص للمسرات (كذا!) ، إذ يستطيع الناس بشكل أفضل أن يتحملوا من ضروب الحرمان تلك التى تعقبها المسرات والملذات .

ولن يكون بمقدورنا أن نكون فكرة تامة عن شهر رمضان ، شهر صيام المسلمين ، إذا اتخذنا من صيام المسيحيين طرفا للمقارنة ، فلقد منح محمد نفسه كامل الحرية فى تقديره لنمط الرجل الفاضل الذى ينشده والذى سيحوز مباهج العالم الآخر ، لدرجة أنه قرر نظاما بهذه القسوة مع أتباعه فى هذا الصيام السنوى . فالصوم يستمر لشهر قمرى كامل ، ويأتى فى أوقات غير محددة ، إذ يأتى أحيانا فى الصيف وأحيانا فى الشتاء ، لكن الشريعة تظل فى كلا الفصلين على قسوتها ، فينبغى على المرء أن يحرم نفسه من كل طعام ابتداء من شروق الشمس حتى غروبها ، ولا يستطيع خلال هذه المدة لا أن يشرب ولا أن يدخن ، ومن السهل أن نتخيل قسوة مثل هذا الصيام ، إذا ما تصورنا كيف يكون العطش فى منطقة مدارية كمصر ، وهو أشد أشكال الحرمان استعصاء على التحمل ، وفى الوقت نفسه يكون على العامة الذين لا يستطيعون الاستغناء عن عملهم اليومى الذى يتكسبون منه عيشهم ، الانتظار حتى نهاية اليوم ليرووا غلتهم ، ويرى المرء فى فترة هذا الصوم حمالين يسيرون – كما فى الأيام العادية – وهم يحملون أحمالا ضخمة ، أو يعملون بطريقة شاقة أطول وقت من النهار ، دون أن يرطب حلقهم الجاف قطرة من ماء ، ودون أن يتناولوا وجبتهم الصغيرة المعهودة لتنشيط قواهم التى هدها العرق والتعب . ولكن ما أن يأتى المساء حتى يتغير المشهد ، إنهم لم يعودوا نفس الرجال ، فالليل بطوله ينقضى فى الولائم وضروب اللهو والفجور . فى النهار يفعل كل امرئ قدر طاقته كى ينهى أعماله

بسرعة ليخصص بضع ساعات للنوم ، فترى الفلاح راقدا تحت النخلة بعد أن أنهى فى فترة الصباح عمله ، وترى التاجر يرقد على بنك دكانه ، والعامة ممددين فى الشوارع بجوار جدران مساكنهم ، وكذلك الغنى راقد بالمثل ، نعسان ينتظر على أريكته الفاخرة الفترة التى تسبق غروب الشمس . وأخيرا تأتى تلك الساعة التى طال انتظارها! فينهضون على عجل ، ويهرع كل امرئ للحصول على مكان مرتفع ، وتتجمع النساء فى شرفات منازلهن ليرين حركة اختفاء الشمس . وتبدأ الشمس تشحب رويدا رويدا ، ويتآكل قرصها ليختفى وراء الأفق، وتتمحى – والناس فى مشقة الانتظار – أشعتها ، حتى أن العامة وسكان القصور والقابعات فى معاقل الحريم– كل هؤلاء يحيون بصوت جماعى تلك النهاية التى تلكأت طويلا طويلا ، وتعلن الأغنيات البهيجة حلول وقت المسرات ووقت الطعام ، وتدوى من كل المساجد أصوات المؤذنين الجادة تنادى الناس للصلاة ، وتحدث همهمة واضطراب عام ، فيتفرق الناس على الفور ، وتنفض الجماعات ويتبعثر المتجمعون إما إلى المقاهى وإما إلى البيوت أوالمساجد أوالميادين العامة . ويأكل كل امرئ بشراهة ، ويقيم الأثرياء مآدب باذخة ، ويقدمون للفقراء فضلات موائدهم . ويقدم الطعام للجميع – بلا تمييز – لكل الحاضرين ، وهذه العادة الحميدة بلاشك ، تطبق فى كل ولايات السلطان .

ويعقب الطعام الاحتفالات والألعاب ، وتسيطر الخلاعة الجامحة على كل ضروب اللهو فى ليالى الفسق هذه ، وتظل المساجد مضاءة حتى بزوغ النهار ، ويقضى أفاضل الناس ليلهم فى حديث نافع ، لكن الجمهور يذهب إلى المقاهى حيث الرواة والمنشدون يقصون – بحماسة ملتهبة – مغامرات عجيبة تخلب الألباب بطريقة فريدة . ويهرع البعض إلى الحمامات : فهناك على وجه الخصوص تزدهر الملذات ، وتتم لقاءات الغرام ، والعاملون بالحمامات – المعتادون على هذا النوع من الأمور – هم على الدوام عصب هذه المغامرات العاطفية . وهكذا ينتقم الجنس من سجانه وطغاته ، ولكن ينبغى أن تحاط مثل هذه المغامرات بأكبر قدر من السرية ، وإلا فإن غضب الزوج المطعون فى كرامته لن يعرف لنفسه حدودا .

ويمكن القول أن الميادين العامة هى الأماكن التى تعرض فيها أكبر م
الفسق مدعاة للخجل . فهناك يقدم بعض الحواة والمشعوذين مشاهد شـ
تنتهى بلوحات بالغة الانحطاط والفظاظة ، تشكل فسادا مدهشا للتقـا
والممثلون الرئيسيون فى هذه اللوحات هم على الدوام شيخ وطفل . وبرغم
فلو أننا حكمنا على تقاليد الأمة بأكملها عن طريق الميل الذى يبديه أبناء ال
عادة نحو هذه العروض ، لكونا بالتأكيد فكرة خاطئة وظالمة ، فمثل هذه العـ
الماجنة لا تجذب إلا السوقة والرعاع ، ومثل هؤلاء الناس فى كل مكان ، ذ
لرؤية مشاهد الغلمة والفسق بكل عريها ، لكن ما يدعو إلى الأسف حقا
تسمح السلطات بمثل هذه العروض .

بل إن مباهج رمضان تصل إلى معاقل الحريم ، ففى رمضان يـ
للسيدات باستدعاء العوالم وبعض الموسيقيين ، ويجلس الزوج باسترخاء ولا
على أريكته ، ومبسم غليونه فى فمه ، وإلى جانبه أحب زوجاته إلى قلبه ، ليـ
بمتعة شديدة إلى أغنيات العوالم وصوت الموسيقى ، ويحيط الزوجين
العبيد ، واقفين من حولهما أو جالسين القرفصاء على حصيرة . ولابد أن
المرء إعجابه بذلك التمثيل الصامت (بانتوميم) للعالمة الشابة وهى تصور فى
وشهوانية ، الصراع بين الفسق وبين العفة . ويحيط بقامتها الرشيقة
معقود برخاوة ، يبدو كأنه الحاجز الوحيد الذى يصد عنها هجمات الحب .
لتعقده من جديد - برخاوة أيضا - كلما بدا أنه قد بدأ يستجيب بفعل قوة لا
وهى ترقص على نغمات الآلات ، لكن الحزام تزعزعه حركات الراقصة فينة
جديد رويدا رويدا . عندئذ تتنبه العفة فجأة بعد أن نومتها الشهوة ، فـ
الراقصة الحزام من جديد ، وبنفس الرخاوة ، ويتخذ الرقص مظهرا أكثر
ووقارا . لكن ذلك يخلى مكانه مرة أخرى لحيوية الإحساسات والشهوة التى
العالمة فريسة لها .. وتتجدد نفس الظروف وتضعف العقدة الرهيفة التى تحو
الحب ، وتعقدها الراقصة من جديد ، لكن الحب ينتصر ولا يعود أحد يعـ

على انتصاره ، وتستجيب العالمة فى النهاية لعواطفها ، فتبطئ من حركاتها وتبدو غارقة فى هيام لذيذ ، ويصفق الحاضرون لها بحماسة وإعجاب . ويحدث تمثيلها الشهوانى الصامت أثرا يفوق الوصف على مشاهديها ، وبخاصة على الزوجة ، فتخرج عن طورها - كما شاهدنا ذلك عدة مرات - متأثرة بتلك الرقصة الشهوانية ، فتصل صوتها بصوت المغنين وتقلد حركات العالمة .

لن نمضى طويلا فى وصف تقاليد المسلمين أثناء شهر رمضان ، فقد حان الوقت لأن نعود إلى موضوعات أكثر جدية . لنلق نظرة سريعة على الدين بشكل عام ، حيث إن من الصحيح أن للدين فى مصر بصفة خاصة - وأكثر من كل البلدان الأخرى - تأثيرا على كل النظم المدنية والعادات الاجتماعية .

ينبغى على المسلم أن يعتقد بوحدانية الله [1] فى رسالة محمد ، مع الإيمان بكل ما جاء فى القرآن باعتباره كلاما مقدسا [2] ، وأن يؤدى الصلوات الخمس مع أداء الوضوء الذى لا غنى عنه لممارسة هذه الصلوات ، وأن يحرص على صيام رمضان ، وأن يؤدى للفقراء جزءا من دخوله هو حق لهؤلاء الفقراء [3] ، وأن يحج إلى مكة مرة واحدة فى العمر .

ويعترف المسلمون - شأنهم شأن المسيحيين - بقدرة الله وعدالته ومعرفته بالغيب ، لكنهم يعتقدون أكثر من المسيحيين بالقضاء والقدر ، وإن كانوا يختلفون فى درجة تمثل هذه الفكرة . ويقودهم هذا الاعتقاد إلى استسلام لاحدود له يميزهم عن سائر الشعوب ، ويعتقدون فى نفس الوقت أن الأفعال الإنسانية وأحداث العالم محددة بنظام ثابت ، حتى أنه ليس بمقدور المرء أن يتفادى ما

(١) ينبغى الاعتقاد بصورة مطلقة فى وحدانية الله ، فعلى المسلم الحق أن يؤمن بأن الله أحد وبأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

(٢) يعتقد المسلمون أن الله أنزل القرآن على محمد عن طريق الملاك جبريل آية آية على مدار ٢٣ عاما .

(٣) من أهم الصدقات الإجبارية التى على المسلم تقديمها ، صدقة عيد الفطر

سيكون ضارا به حتى ولو كان مرضا معديا [1] . ويفسر استسلامهم الطبيعى على الدوام بأنه خضوع أعمى لمشيئة القدر .

ويرى المسلمون أنه لا يمكن تمثل الله على أية صورة ، كما يرون أنه لا ينبغى التعمق فى البحث فى ذات الله ، ولكن ينبغى فقط البحث فى صفاته . ويرى بعضهم أن الروح منبثة فى كل خلايا الجسم ، وأنها تجرى مع الدم فى العروق ، ويرى آخرون أنها مثل الشمس تتوزع أشعتها على كل أجزاء الجسم ، وقد قال محمد عن الروح أنها من أمر الله . وعلى العموم فإن المسائل الميتافيزيقية التى مزقت مدارسنا المسيحية طويلا ، لا يميل إليها علماء المسلمين إلا قليلا ، فمعتقداتهم أفكار مسبقة ، وهم لا يسعون لتفسير ذكاء العقل الإنسانى، وينظرون إلى موسى وإلى المسيح باعتبارهما من الأنبياء . فالمسيح هو روح الله جاء عن طريق نفخة من جبريل فى العذراء ، وبعدما قام برسالته على الأرض صعد إلى السماء حيث الذات العليا ، وحيث يعيش الآن ، وأن الكفرة الخاطئين فى تواطئهم الإجرامى لم يقتلوا أو يعذبوا إلا شبيها له .

ويتفق العلماء على أن اليهود والمسيحيين الذين عاشوا قبل رسالة محمد كانوا مؤمنين بحق ، ولكن حيث إن هذه الرسالة الأخيرة قد جاءت لتغير وتصلح من كل الشرائع التى جاء بها الأنبياء السابقون ، فإن أتباع موسى الحاليين وكذا أتباع عيسى كفار وغير مؤمنين .

ويرى المسلمون أن العالم مخلوق ، وأن الله وحده هو الأزلى ، ولا يعود زمن الخلق إلا إلى ألف عام وبضعة قرون ، والفترة التى ينبغى أن يحياها العالم غير مؤكدة ، وينصح محمد أتباعه ألا يحاولوا مطلقا البحث فيها . وقد خلق الله الخلق فى ستة أيام : فخلق الأرض فى يوم السبت ، وشكل الجبال فى اليوم التالى ،

---

(١) يختلف المسلمون حول هذه النقطة ، فيذهب الأحناف والأتراك عموما إلى أن الإجراءات الصحية تعتبر مظهرا مبينا لقدرة الله ، لكن بقية المذاهب أقل تعنتا .

وفى اليوم الثالث خلق الأشجار والنبات ، وفى الرابع خلق الآلام والفتن الاجتماعية (وهو يوم سيئ الطالع) ، وفى اليوم الخامس خلق الظلمات والنور ، وفى السادس خلق الحيوانات . وظهر آدم فى اليوم السابع لأول مرة على ظهر الأرض ، وكان قد تشكل منذ أربعين يوما .

ويؤمن المسلمون أيضا بهذا الاعتقاد الباعث على الأمل والمواساة ، وهو : الإيمان بخلود الروح ، وهذه الفكرة هى بمثابة المحور لكل معتقداتهم . وعند الموت تصعد روح المسلم الحق إلى الجنة ، وهى خضراء على الدوام ، لتنتظر يوم الحساب الأكبر والأخير ، أما روح المسئ فتبقى أسيرة فى المناطق المعتمة والآسنة . ولكن عندما تقوم الساعة ، وتحل ساعة الحساب ، فإن العالم سوف ينقلب رأسا على عقب ، وتتشكل الأرض من جديد ، وتفتح فى النهاية أبواب الجنة وأبواب النار ، ويتفحص الله محاطا بكل رسله أعمال البشر . وتعود الأرواح إلى الأجساد التى ستنهض من تلقاء نفسها بكل حيويتها ، وعندئذ يدخل العادلون فى جنة النعيم لكى لايخرجوا منها ، أما الآخرون فيذهبون ليكفروا عن جرائمهم . ولكن ليس ثمة عذاب أبدى إلا لمن لم يصدقوا برسالة وكلمة محمد [1] .

---

(١) السعادة التى وعد بها محمد أتباعه حسية خالصة ، وهى عبارة عن ملذات شهوانية أبدية . ويقول المسلمون إن كل إنسان يوم البعث سيكون فى قوة وقامة الإنسان الأول ، التى لم تكن تقل - تبعا لأقوالهم - عن خمسين قدما ، وسوف تكون النساء على درجة من الجمال تشعل معها قلوب الرجال بعاطفة تتجدد على الدوام ، ويستطيع الرجل إشباعها إلى مالا نهاية دون نفور أو ملل . أما النساء فلن يحملن مطلقا ، لأن هذه الملذات ستكون على نحو ما ملذات علوية ، ولن يترتب عليها شئ من نقائص الطبيعة البشرية . وسيحتفظ العقل وكل الأطراف بكل حيويتها ، كما أن الذين سيعمرون هذه الجنان سيتمتعون بسعادة لا تحول وبكل مباهج الوجود وملذات الحس ، إذ إن أجسامهم ستظل على قوتها للأبد . ويشيع الاعتقاد فى أوربا أن محمدا قد استبعد النساء من جنته [*] ، وهذا خطأ ، فقد قال مؤلف كلاسيكى . « إن ما قيل عن الرجال بخصوص الجنة هو نفسه ما قيل عن النساء » . وحيث إنهن خاضعات لنفس الفروض الدينية مثل الرجال فينبغى أن يتمتعن بنفس المكافأة .
=

وليس ثمة طريق للحصول على مكافأة الحياة الآخرة إلا الطهارة والصلوات ، ويستطيع المسلم أن يؤدى صلاته فى أى مكان ، فيبسط على الأرض سجادة أو حصيرة أو حتى شال عمامته ، ويستدير بوجهه جهة مكة . وصلاته قصيرة لكنها حية ، وإذا لم يكن ثمة ما يمنعه من الذهاب إلى المسجد فينبغى أن يؤدى صلواته هناك ، فهذا أفضل . أجل إن الله – حقا – فى كل مكان ، لكن من الأفضل أن نعبده فى بيته .

وفى داخل كل مسجد ، ثمة حوض كبير ملئ بالمياه ، هناك يغسل المسلمون الأجزاء المستورة من جسمهم (الاستنجاء) ويطهرون أيضا لحيتهم وذراعيهم حتى المرفقين . وعندما يجوبون صحراوات لا ماء فيها ، فإنهم لا يعفون من أداء نوع من الوضوء ، يحل فيه الرمل الناعم أو التراب الطاهر محل الماء الذى ينقصهم (التيمم) .

=

فالصلوات الخمس وصيام رمضان والحج إلى مكة ، كل هذه فروض إلزامية على الجنسين . لكن النساء لا يستطعن لا أداء الصلاة ولا صيام رمضان أثناء فترات الدورة الشهرية ، لأنهن فى هذه الفترة لا يتمتعن بالطهارة الواجبة للعبادة . ويؤكد الكثيرون أن النساء كان بمقدورهن أن يتوجهن إلى المساجد فى أيام النبى ، لكن الخليفة عمر عندما لاحظ ما يسببه وجودهن من سرحان عند الرجال وما يمكن أن ينتج عن ذلك من فضائح ، أمرهن بأن يؤدين الصلاة فى بيوتهن .

(*) وهذا ما نجده عند منتسكيو حين يقول . « وحيث إن النساء من طبيعة دون طبيعتنا وحيث إن أنبياءنا قد قالوا إنهن لن يدخلن الجنة ... Lettres Persanes, Lettre XVll

بل إن فولنى Volney نفسه – برغم تبحره فى دراساته الشرقية – قد ذهب إلى ذلك حيث يقول فى كتابه : Voyage en Egypte et en Syrie, t. ll, p . 323.

« إن محمدا برغم شدة ولعه بالنساء لم يمنحهن شرف معاملتهن كجزء من الجنس البشرى ، فهو لم يشر إليهن لا بخصوص الفرائض الدينية ولا بخصوص مكافآت العالم الآخر . لكن هذا الزعم لم تكذبه كل مؤلفات رجال الدين الإسلامى فحسب ، بل إن القرآن نفسه ليس فيه ما يؤكد صحة هذا الزعم .

والهدف من صيام رمضان بلا شك إرغام المسلمين على أن يولوا اهتماما أكبر إلى واجباتهم الدينية ، حيث إن عليهم فى هذا الوقت أن يحرموا أنفسهم من جزء كبير من الملذات الحسية ، فأرواحهم التى تحررت طيلة النهار من الهموم التى تشغلها عادة ، يمكنها أن تنغمس بحماسة أكبر فى التأمل والصلاة . وهم لا يأكلون إلا فى الليل كما قلنا ، والليل هو كذلك الوقت الوحيد الذى يسمح لهم فيه أن يقربوا زوجاتهم . ومن جهة أخرى فقسوة الصيام لا تمتد لأبعد من ضروب الحرمان هذه ، إذ باستطاعتهم أن يأكلوا كل شئ كما يحدث طيلة العام . ورمضان هو زمن الصوم الإجبارى الوحيد ، والمسافر الذى يقوم برحلته أثناء الصوم ألا يصوم ، لكنه ملزم بأن يعوض بعد ذلك الأيام التى سيفوته أن يصومها .

والحج إلى مكة واجب إلزامى ، ينبغى على كل مسلم حق القيام به ، ومع ذلك فحيث ليست هناك سن محددة لأداء الحج ، وحيث إنه ليس ملزما بذلك إلا عند المقدرة ، فكل مسلم يؤجل هذه الرحلة ، وقد ينتهى به الأمر بأن يعفى نفسه نهائيا من الحج . ومن هنا يحدث أن كثيرا من المسلمين يموتون دون أدائهم للحج .

ويحرم محمد على أتباعه – وهو الذى يحتم عليهم الطهارة الخارجية فوق كل شئ – الاتصال بزوجاتهم أثناء الدورة الشهرية التى تتعرض لها النساء ، وكذلك أثناء الأربعين يوما التى تعقب الولادة ، لكنهم يستطيعون الاتصال بنسائهم أثناء الرضاعة . ويخول للمرأة التى تحمل أثناء الرضاعة أن تواصل إرضاع طفلها أثناء الأشهر الأولى من الحمل ، على الرغم من أن الأطباء يرون أن لبن الأم فى تلك الظروف لا يكون صحيا .

وتسمح الشريعة الإسلامية بأكل لحوم الحيوانات المجترة ، لكنها تحرم من بين كل الحيوانات ذات الظلفين أكل لحم الخنزير ، ولا يحرم أكل الخيول إلا أتباع المذهب الحنفى ، وينبغى على المرء أن يغسل الإناء الذى شرب منه الكلب سبع مرات قبل أن يستطيع استخدامه من جديد . وتختلف المذاهب حول علة هذا المبدأ ، فيرى البعض أن الكلب دنس بطبعه ، ويرى آخرون أن الدنس فيه فقط هو أنفه

وفمه ، ويرى فريق ثالث أن محمدا لم يقدم هذا النصح إلا خشية أن يكون الكلب قد تناول طعاما أو شرابا غير طاهر . ونحن ندخل فى كل هذه التفاصيل ، كى نعطى فكرة عن نوع عقلية المذاهب المختلفة ، فهى لا تختلف مطلقا إلا حول مثل هذه الأمور الواهية .

وينظر إلى الدم باعتباره غير طاهر ، لذا لا يمكن تناول لحم حيوان نفق بشكل طبيعى ، أو قام البعض بخنقه ، فلا بد أن يذبح وأن تسيل دماؤه . ويخضع لهذه القاعدة أيضا الصيد الذى يقتله طلق نارى ، لذا يسارع المسلمون بقطع رقاب الطيور والأرانب أو الحيوانات الأخرى التى يصيبونها بطلقاتهم ، والسمك وحده لا يتطلب مثل هذا الأمر (١) .

وقد لاحظنا أن ثمة تماثلا كبيرا بين تعاليم المشرع العربى ومحرمات موسى ، ومن الواضح أن محمدا قد استعار عن المشرع اليهودى إجراء صحيا أراد أن يجعله غير قابل للنقض من قبل الناس . صحيح أن لحم الخنزير له آثار بالغة الضرر على بنية من يتعودون عليه فى البلدان شديدة الحرارة مثل أفريقيا وآسيا ، بل إن هناك من يؤكد أن الجذام ليس له من سبب إلا التعود على أكل لحوم الخنزير، وليس لمحمد من هدف فى إلزام أتباعه بالوضوء وطهارة الجسم سوى ضمان صحة أتباعه ، والقرآن ملئ بالمبادئ الحكيمة حول طريقة الحياة ، وكلها تهدف بوضوح لنفس الغاية . وختاما نقول إن المسلمين ينفذون بدقة كل ما فرض عليهم ، ونادرون أولئك الذين يسمحون لأنفسهم من بينهم بالخروج على أوامر النبى . ومع ذلك فلسوف تكون سعادتهم أكبر لو أدركوا المغزى الفلسفى العميق لبعض هذه الأوامر والمعتقدات ، تلك التى تبدو طيعة ومواتية وهى تحدث أثرها المطلوب فى أجسامهم .

---

(١) ليست النباتات ولا الحيوانات دنسة ، ومع ذلك يمتنع المسلمون عن أكل لحوم الفرائس لسبب يعود إلى نفور طبيعى أكثر مما يعود إلى دافع دينى . ويرى المذهبان الشافعى والحنفى تحريم استخدام الزواحف كغذاء ، لكن المالكيين يستثنون من ذلك الثعابين إذا ذبحت .

٣

الحكومة

كانت حكومة الإقليم تتكون قبل مجئ الجيش الفرنسي من : الباشا ، ورؤساء الأوجاقات السبعة ، و٢٤ بك . وكان البك الأول يتولى وظيفة شيخ البلد ، وكان يحكم القاهرة ومصر ، أما المنصب الثانى فهو منصب أمير الحج ، وذلك على الرغم من أن هذين المنصبين - حسب دراسة عن نظام البلاد الإدارى - يمكنهما أن يجتمعا فى منصب واحد . وأمير الحج موكل بحراسة المحمل ، ولايعنى لقبه شيئا آخر سوى أمير الحج أو أمير الحجاج . والشخصية الثالثة فى الحكومة هو الدفتردار أو المستشار . وبعد هذه المناصب العليا يأتى البكوات حكام الأقاليم ، وتتحدد درجتهم بحسب أهمية ولاياتهم ، وعلى هذا كان حاكم جرجا يعد أول هؤلاء البكوات ، وكان يحمل لقب باشا بذيلين (*) ، أما البكوات الآخرون فأقل امتيازا .

وكانت كل السلطة التنفيذية مركزة فى يد شيخ البلد ، وهو فى الواقع حاكم مطلق ، إلا إذا جاءت ظروف غير عادية لترغمه على اقتسام السلطة . وهكذا كان

(*) يذكر الصديق الأستاذ رينيه خورى فى إحدى دراساته المخطوطة - وهو باحث مدقق - أنه كانت هناك درجات لرتبة الباشا هى كما يلى :-

١- باشا بذيل : وهذه الدرجة تعادل رتبة الفريق .

٢- باشا بذيلين . وهى تعادل ما كان يسمى برتبة الميرميدان .

٣- باشا بثلاثة ذيول . وهى تعادل ما يسمى برتبة المشير .

ولم يكن يحمل الرتبة الأخيرة فى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية إلا ثلاثة فقط ، هم : الصدر الأعظم ، قبطان باشا ، والى مصر .

وعند مرور موكب أى باشا كانت تسبقه حربة مرفوعة، مثبت بها عدد الذيول التى تحدد درجته ، كما كانت توضع أمام بيوتهم فوانيس مذهبة أو فضية تنتهى رؤوسها بريشة واحدة أو اثنتين أوثلاث بيضاء أو بنية اللون ، ويتفق عدد هذه الريشات مع درجة الباشا ساكن البيت . (المترجم) .

الأمر وقت نزول الجيش الفرنسى أرض مصر ، فقد كان مراد بك - وهوالذى كان أميرا للحج وشيخا للبلد والذى لم يكن يحتفظ مع ذلك إلا بجزء من اختصاصات هذين المنصبين - يحكم ثنائية مع إبراهيم بك شيخ البلد الأصلى ، وكان يتحتم أن يوقع شيخ البلد كل الأوامر المتصلة بالإجراءات الاستثنائية والضرائب الإجبارية الباهظة على الولايات والمدن حتى تصبح سارية المفعول . وهكذا يمكن القول بأنه قد ركزت فى يده على الدوام قوة وسلطة الحكومة .

وكان حق تحصيل الضريبة المخصصة لمكة من اختصاص أمير الحج . لكن هذه الضريبة أصبحت شيئاً مخالفاً لما كانت عليه فى فترات سابقة ، حيث ظلت تنكمش شيئا فشيئا - بفعل سطو البكوات الآخرين - حتى لم تعد حصيلتها تبلغ إلا مقداراً ضئيلا .

وكان شاغل هذين المنصبين بدرجة باشا بذيلين ، وكذلك كان حاكم ولاية الشرقية ، وإسلام باشى الذى كان مكلفا بالسير أمام المحمل عندما يعود إلى القاهرة ، لكى يمد المسافرين بالمؤن والجمال والخيول والبغال .. الخ ، التى قد يكونون بحاجة إليها بعد سفر بهذا الطول . وفى البداية لم يشأ سليم الذى قسم وظائف الدولة على هذا النحو ، وحدد كذلك اختصاصاتها - أن يتم اختيار هؤلاء الموظفين الكبار من بين المماليك أو السناجق ولا من أبناء البلاد لأسباب أقوى ، إذ كان العثمانلى على الدوام يكنون نوعا من الاحتقار للعرب ، وكان هؤلاء بدورهم برغم ريائهم للعثمانلى وخداعهم لهم يكنون لهم نفس الاحتقار . ويعود تعيين الـ٢٤سنجقا كذلك إلى عهد سليم . وقد خول هذا الأمير لـ٢١منهم بأن يكون لكل منهم فرقة من الموسيقيين ، تتألف من : ٦طبلات ، ٦نقارات (دفوف) ، ٦مزمار ، نفيرين ، وصنجة واحدة . وكانوا يحصلون على عطاء يصل إلى ١,٠٠٠ أردب من القمح فى العام . أما البكوات الثلاثة الآخرون فلم يكن لهم الحق لا فى الفرقة الموسيقية ولا فى العطاء السنوى . وكان يختار من هيئة الـ٢١ هؤلاء حكام ولايات : الشرقية ، المنصورة ، البحيرة ، المنوفية ، أطفيح ، الجيزة ،

البهنساوية ، الفيوم . وكان بك جرجا يحكم البلاد التى تمتد من المنيا حتى آخر حدود الصعيد . وكان الدفتردار أيضا يخرج من بينهم .

وكانت الوظائف المشار إليها سنوية ، وفى نهاية العام ينتقل شاغلو هذه الوظائف إلى مراكز أخرى ، أو يصبحون أفرادا عاديين ، كما أن بإمكانهم أن يثبتوا ، وهذا ما كان يحدث عادة وخاصة فى السنوات الأخيرة . أما الباشا فكان يتغير على الدوام حسبما يتراءى للباب العالى أو بنصيحة من المماليك . وفضلا عن ذلك ، فقلما كانت تسمح الشقاقات والنزاعات المستمرة التى تهز مصر لأصحاب المناصب البقاء فى مناصبهم تلك ، فقد كانت العصب المتشاحنة على الدوام يقلب بعضها البعض ، وتتبادل السيطرة والمناصب ، وذلك هو ماقدمته حكومات المماليك منذ حوالى نصف قرن .

وكانت للبكوات الثلاثة الأخيرين فى سلسلة الـ ٢٤سنجقا مهام ثانوية . فكان أحدهم كخيا أو وكيلاً للباشا ، وكان الثانى شركة – بك ، وهو يقتسم منصبه مع زميل له ، ولم يكن أى منهما يتمتع بسلطة من أى نوع ، أما المنصب الثالث فكان يشغله كذلك اثنان من البكوات ، وكان أحدهما يحكم البلدة المسماة سقران فى ضواحى الجيزة ، أما الآخر فكان يحكم المنطقة المجاورة للمنصورة .

وقد نظم سليم سبعة أوجاقات أو سبع فرق عسكرية : أولها فرقة (أوجاق) الانكشارية (ومعناها الفرقة الجديدة) ، ويشكل العزبان الأوجاق الثانى ، والمتفرقة الأوجاق الثالث ، والجاويشية الرابع ، والجامولیان الخامس ، والتافكجيان السادس ، وأخيرا يأتى أوجاق الشراكسة . وكان للأوجاقات الأربعة الأولى نظم خاصة بكل منهم ، أما الثلاثة الأخرى فتخضع لقانون عام .

وكانت حراسة القلعة موزعة بين الباشا وأوجاقى الانكشارية والعزبان ، وكان الباشا يحتل بابين من الأبواب الأربعة الموجودة فى القلعة : أحدهما يؤدى إلى الجبل والثانى إلى قراميدان . أما الباب الثالث فيسمى باب الانكشارية ، ويسمى

الباب الأخير باب العزبان . وكان يحرس باب الانكشارية كخيا (متولى) ، وكان تحت إمرته ٦ جاويشية و٥٠ أوده باشى . وكان لكل من هؤلاء الضباط مسكن بالقرب من الباب ، ولهم أربعة رؤساء يختارون من بينهم هم الذين يصبحون جاويشية ، وكان الأوده باشى أو رئيس الحجرة لا يركب إلا الحمار. وكان للجاويش الدلامة السوداء ، وخفان أحمران ، وقاووق أو عمامة من القطيفة السوداء .

والدلامة ليست إلا جلبابا واسعا من الجوخ الأسود . وعندما يصبح هذا الشخص سراجا للأغا ، يضيف إلى قاووقه قطعة من الموسلين الأبيض .

لكن هذه الفرق العسكرية قد دبت فيها اليوم عوامل الوهن ، فالمماليك وحدهم هم الذين يصنعون القانون ، وجنودهم هم الذين يحتلون الميادين الهامة ، ويديرون شئون الفرق الأخرى . ولم نتناول فى حديثنا عن الوظائف الهامة للحكومة اختصاصات القاضى ، ذلك أن اختصاصات القاضى ذات طابع مدنى صرف . وهو يعين من قبل الباب العالى مثل الباشا ، ويختار القاضى قضاة الأقاليم ، وهو يختارهم جميعا من أهالى البلاد ، ومن خريجى الأزهر ، حيث درسوا الشريعة وكيفية تطبيق القانون . ويفضل خريج الأزهر هذه الوظيفة على كل الوظائف الأخرى ، لأنها تقود بسرعة نحو الثروة ، وتحظى باحترام الناس .

وقد حدد السلطان سليم القلعة كمقر إقامة للباشا ، ولا يجوز له أن يختار مقرا آخر .

وكان هو الذى يخلع الخلعة على من وقع عليهم الاختيار لشغل المناصب ، ويتلقى هدية من كل من يعينهم [1] . ولكن بعد أن استعاد المماليك سطوتهم تغير كل شئ ، ولم يعد الباشا فى السلطة إلا مجرد ظل يعانى من كل نزوات المماليك ،

(١) كانت الخلعة عند الأتراك – كما هو معروف – تقدم إلى المحتفى بهم فى حفل تنصيبهم ، وهى عبارة عن قفطان وجبة ، ولم يكن يقدم فى المناسبات الثانوية سوى القفطان ، وهو معطف مفتوح من قماش متين ، بطانته بيضاء بورود صفراء . وقد جرت العادة أن تزدان الجبة بفراء ثمين ، وأحيانا كان يكتفى بتزيين حوافها ، وكانت الجبات التى يخلعها السلطان غالية الثمن .

بل يمكن القول بأنه كان واقعا تحت رحمتهم ، وهذا هو الحال الذى كانت عليه مصر عندما دخلتها قواتنا .

قلنا إن أميرالحج أو أميرالمحمل كان موكلا بوجه خاص بقيادة الحجاج إلى مكة، وبتأمين طريق العودة لهم . وحيث إن سفر المحمل كان حدثا هاما بالنسبة لمدينة القاهرة بل لمصر كلها، فسندخل فى بعض التفاصيل عن الحفلات التى كانت تتم بهذه المناسبة .

عندما يقترب الموعد المحدد لسفر المحمل يتجمع فى القاهرة كل المسلمين القادمين من أفريقيا، والذين يريدون الانضمام إلى المحمل، ويصل آخرون من القسطنطينية، ومن روميلى، ومن الأناضول، عن طريق البحر، حتى يختصروا جزءا من المسافة التى كان يجب عليهم سلوكها إذا ما اتبعوا الطريق المعتاد . ويعسكر هؤلاء الحجاج خارج المدينة، ويكون عددهم فى بعض الأحيان كبيرا جدا، إذ يخرج من مصر وحدها ما بين ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ حاج . وحيث إن هؤلاء الحجاج مضطرون لاجتياز مناطق شاسعة، تكاد تكون كلها صحراوية، ومبتلاة بعشائر العربان الذين ليست لهم من حرفة سوى السلب والنهب، فإنهم مرغمون على التزود بالسلاح والذخيرة، وتهيئ لهم حكومة مصر فوق ذلك ركبا قوامه ٥٠٠ فارس تحت إمرة أمير الحج، يضيف إليهم هذا القائد بيته العسكرى (مماليكه) وبعض جنود من البرابرة، بالإضافة إلى الرجال العاملين فى خدمة كبار الشخصيات الموجودة بالمحمل . ومن حق أمير الحج أن يرث كل حاج يموت فى الطريق، وليس من حق أحد أن يطالب بشئ من مثل هذه التركات . وتستغرق رحلة الذهاب أربعين يوما، ومثلها فى رحلة العودة، وبذا تمتد فترة المحمل إلى حوالى ثلاثة أشهر . وتبدأ مسيرة المحمل فى السابع والعشرين من شوال، لكن الصعوبة التى نجمت عن فرض إتاوة أصبحت تؤدى - منذ عدة سنوات - إلى تعطيل السفر حتى ٢ أو ٣ من الشهر التالى . ويختار كل حاج أن يركب نوع الدابة التى تروقه، وهم يفضلون

على وجه الخصوص البغال والحمير؛ لأن هذه الحيوانات أكثر من الحصان تحملا للتعب وضروب الحرمان .

وقبل الرحيل بعدة أيام ، تعرض الكسوة أو السجادة المخصصة لتزيين الكعبة فى موكب كبير . وهذاالموكب عيد شعبى كبير، فيذهب كل سكان القاهرة فى جماهير غفيرة إلى الميدان الكبير الذى تطل عليه القلعة والذى يسمى قراميدان، وهناك يسلم الباشا – يحيط به عدد كبير من البكوات مع بيوتهم[1]، ورجال الأوجاقات والأغا وكبار موظفى الحكومة – يسلم السجادة المقدسة إلى يدى أمير الحج بعظمة وخيلاء، وتحرر حجة بهذه الوديعة، وبعد ذلك يكون من واجب كل أئمة المساجد وكل المتدينين بالمدينة أن يصحبوا السجادة، فتحمل على جمل وتمر من باب النصر، ويمضى الموكب إلى معسكر الحجاج، وتوضع السجادة فى صندوق مغطى بأقمشة فاخرة مطرزة تطريزا فاخرا . ومنذ هذه اللحظة يقيم البك أمير الحج وسط المعسكر، ويضرب كل المسافرين تجارا كانوا أو حجاجا خيامهم حول خيمته، ويكون من حق أى منهم أن يشرع فى السفر، لذلك ينتهز كثير من التجار هذه الفرصة الفريدة لكى ينقلوا بضائعهم دون أن يدفعوا رسوم الدخول أو الخروج، فيحملون على ظهور الجمال صبغة النيلة والأصواف وبضائع ثمينة أخرى وكثيرا من الأموال، ويجلبون معهم عند العودة شيلان (شال) الكشمير والموسلين والأقمشة الفاخرة والبن[2] .

(١) يقصد بالبيت عند الحديث عن أحد البكوات كل رجاله ومماليكه .

(٢) من نافلة القول أن تلفت الأنظار إلى أن للحج إلى مكة الذى فرضه محمد أغراضا سياسية أكثر منها دينية، إذ كان يأمل عن طريق الحج أن تزدهر التجارة فى شبه الجزيرة العربية، لتصبح واحدة من أهم أسواق التجارة فى العالم.

وقد تحقق هدفه ولو كان جزئيا، إذ يمكن القول بأن الدافع وراء سفر نصف الحجاج على الأقل ليس سوى مصالحهم التجارية . ويلاحظ مؤلف كتاب : Tableau de l'empire ottoman – ونحن نقره على ذلك – أن « محمدا قد حدد لعيد الأضحى وقت قدوم الربيع حتى يجعل السفر على الحجاج أقل مشقة ، ولكى يسهل فى نفس الوقت نقل وبيع البضائع ، ذلك أن الحج ليس له مبدئيا سوى قصد سياسى يتخفى تحت ستار الدين والغرض الرئيسى منه هو التجارة وإقامة أسواق هائلة ». ولقد تفهم =

ويكون وصول الجمل المقدس (١) إشارة ببدء الرحيل، ويقود هذا الجمل إلى المعسكر جمهور غفير . وعندئذ تطوى كل الخيام، ويتوغل المسافرون فى الصحراء، وبعد أقل من ساعة لا يعود الميدان الواسع الذى كان الحجاج يشغلونه سوى مكان موحش . ويسير أمير الحج فى المقدمة، وتصطف فرق الحراسة على جانبى الموكب، وكذلك عند مؤخرته، ويظلون على هذه الحال حتى وصول الركب إلى مقصده .

ولا نستطيع أن نوفى فخامة هذا الحفل ما يليق بها من وصف، على الرغم من أنها فى الأزمنة الأخيرة قد فقدت الكثير من روعتها التى كانت لها . فقد كان على مراد بك فى معظم الأحيان - وهو الموكل إليه منصب أمير الحج - أن يقاتل العربان فى الصحراء، بعد أن أصبحوا أكثر سطوة بسبب ضعف أسلافه. ولو كان مجرد تأمين طريق المحمل والتجارة التى كانت تحظى برعايته كفيلا بإعادة ازدهارها السابق، لربما كان بمقدور هذا الرجل المقدام أن يفعل ذلك، لكن حوادث السلب، والانتهابات، بالإضافة إلى الحالة المتدهورة للحكومة ... كل ذلك لم يكن يوفر ما يكفى من الأمان للسكان أنفسهم، وهم الذين لم يعد بإمكانهم القيام بأعمال كهذه، أصبحت تعد ضربا من المضاربات غير مأمونة العواقب .

= المسلمون جيدا أهداف المشرع ، بحيث جعلوا من هذه الرحلة أمرا مفيدا فى العلاقات التجارية. ويصعب علينا أن نكون فكرة صحيحة عن الثروات التى تكدست فى مكة، أو تلك التى فى الكعبة وقت الأضحيات. وتتم هناك عمليات تجارية كبرى ، وتكون حركة البيع والشراء والتبادل خلال خمسة عشر يوما عظيمة ، لحد أن الذين يشهدونها لايستطيعون تقدير قيمتها ولو بشكل تقريبى .

(١) يعود ظهور الجمل المقدس فى مواكب الحج بل ووجود هذا الجمل نفسه، إلى خرافات المسلمين وبساطة مفاهيمهم . إذ هم يدعون أن محمدا فى رحلاته قد حمل عرشه (!) على ظهر جمل ، وقد تناسل هذا الجمل بعد ذلك . وقد حرص السلطان على أن يتملك اثنين من هذه الجمال التى تعد مطية النبى المفضلة، ولكن حيث إن من الخطر أن تتعرض هذه الجمال لمتاعب الحج، فإنه يلجأ إلى جمال أخرى يقال إن لها نفس الأصل وتربى فى دمشق وفى القاهرة . وهذه الجمال أقل تكلفة، وتقوم بالرحلة إلى المدينة المقدسة . وتخليدا لذكرى أن محمدا كان يقوم بأسفاره على الدوام من مكة إلى جبل عرفات على جمله فإن الحجاج يحرصون دائما أن يصحبوا جمل القاهرة المقدس، وكذا جمل دمشق المقدس، فى كل الأسفار التى ينبغى عليهم القيام بها فى اليومين اللذين يسبقان ذبح الأضحيات .

٤

القضاء

يرتبط القضاة الموكلة إليهم مهمة إقامة العدالة فى مصر بالهيئة القضائية الإسلامية التى مقرها القسطنطينية، ومن بين امتيازات الباب العالى حق اختيار القضاة من الدرجة الأولى، كما أنه قد احتفظ لنفسه بحق تعيين باشا. ولكن إذا كانت سلطة الباب العالى فى تعيين الباشا ليست سوى وهم، وإذا كان نفوذ ممثله قد تضاءل لحد العدم شبه التام، فإن الأمر لم يكن كذلك بخصوص إدارة القضاء. إذ لم يكن فى هذا الأمر ما يتعارض مع رغبات المماليك، أو ما يضعف من نفوذهم السياسى، لذا فقد قبلوا عن طيب خاطر أن يرسل إليهم السلطان رجالا موكلين بتلك المهمة الصعبة : مهمة تطبيق الشريعة ، بل إنها لمشقة وفرها هو عليهم. وعلى هذا فإنه لم يحدث مطلقا أن عارض المماليك سلطات القسطنطينية القضائية فى حق تعيين رؤساء المحاكم بمصر، بل إنهم باستقبالهم لهؤلاء القضاة الذين لن يؤثروا مطلقا على نفوذهم السياسى، كانوا يهيئون لأنفسهم مزية لا تكلفهم شيئا على الإطلاق، تلك هى مزية تقديم الدليل على الولاء للسلطان.

ويشكل القضاء فى تركيا على نحو ما طائفة مهنية، لها رؤساؤها الخاضعون للإشراف المباشر للمفتى الأكبر [1]، وكل مناصب هذه الهيئة قابلة للتغيير،

(١) المفتى والصدر الأعظم هما أكبر شخصيات الدولة بعد السلطان، وتتكون الهيئة القضائية من علماء كبار. وفى عهد السلاطين الأول كان العلماء ينقسمون إلى ثلاث درجات : الأئمة (إمام) وهم الموكلون بالعبادات ، المفتى أى فقيه الشريعة ، ثم القضاة : فقهاء العدل . وهؤلاء الأخيرون هم أكثر الجميع امتيازا، وقد منح مراد الأول أكبر القضاة لقب قاضى العسكر، وأنشأ محمد الثانى منصب قاضى عسكر ثان، وأعلى عليهما سليمان الأول مفتى العاصمة، وهو الآن شيخ هيئة العلماء، ويحمل لقب شيخ الإسلام. و صدارة المفتى مقصورة على قضاة العاصمة، ويشكل قاضى عسكر الأناضول المحكمة الثانية فى الامبراطورية، ويحكم باسمه فى كل القضايا المتصلة بالمواريث فى كل أقاليم آسيا، وهذه واحدة من المهام الأساسية لوظيفته. ويدفع له كل شهر مبلغ يتفاوت قدره من رؤساء قرى ومقاطعات ولايته . وقد أصبحت وظيفة القاضى قابلة للتغيير كل عام عند نهاية القرن الأخير، وكان من النادر أن يشغل الشخص نفسه الوظيفة الواحدة مرتين إلا إذا اتخذت ترتيبات معينة مع خلفه، وكانت وظيفة الصدر الرومى – وهى التى تعلو كثيرا على مركز قاضى عسكر الأناضول – هى وحدها التى تستثنى من هذه القاعدة .

ـغييرات فيها بالغة الشيوع، ويمكن لنفس الشخص أن يصبح – بالتناوب – ىلا وظيفة أعلى أو أدنى من تلك التى كان يشغلها . ويقوم أحد كبار أعضاء هذه رة القضائية بتعيين كل قضاة مصر، وعددهم ٣٦ قاضيا بما فيهم قاضى ـكر المكلف بإدارة شئون القضاء فى القاهرة، والذى يعتبر القاضى الأول فى يم. وعلى الرغم من صدارته على كل القضاة الآخرين بسبب علو منصبه وكبر ، وما له من اعتبار، فإن القضاة الآخرين لم يكونوا تابعين له، إذ كانوا يتبعون ـطنطينية مباشرة. ومعظم هؤلاء القضاة يجهلون لغة البلاد، وكان قاضى ـكر على الدوام يستعين بمترجمين، كانوا يقرأون النصوص ويترجمونها كما ، لهم، كما كانوا يحصلون إتاوات شتى .

وقلما كانت مدة ممارسة أى من هذه الوظائف تتجاوز السنتين، بل كثيرا ما يخرج القاضى من وظيفته بعد عام واحد . وكان كل واحد من هؤلاء القضاة ، عند رحيله من القسطنطينية قرارا يحدد الولاية التى سيدير شئون القضاء ، كما يحدد المدة التى سيقضيها فى وظيفته، وإذا لم يتلق القاضى بعد هذا ر أمرا بتثبيته فإنه يوقف مباشرة أعماله القضائية . وقد جرت العادة فى هذه ل أن يترك مقره المعتاد كشئ انتقالى إلى أن يتم تثبيته أو وصول بديل له . هذه الفترة يتولى رجل الشرع العمل نيابة عن القاضى، ويستلزم هذا الأمر رسم إلى القاضى المساعد بالمحكمة. وكان قاضى العسكر عادة لا يبقى فى ، إلا لعام واحد، ثم يمضى بعد ذلك إلى وظائف أخرى، وعندما يصل القاضى يد من القسطنطينية، فإنه فى غالب الأحيان يبيع الوظائف التى كانت فى ته إلى سلفه ، ولسنا نعرف مقدار الثمن الذى يمكن أن يبلغه هذاالنوع من خيص، ولا المبلغ الذى يفرضه صاحب الوظيفة حتى يتنازل عنها، وكانت هذه نقات تتم بالتراضى بين الطرفين، وبهذه الوسيلة كان القاضى يظل فى عمله بلغ أربع أو خمس سنوات .

وإذا ما لاحظ الباشا المقيم فى القاهرة بعد انقضاء عمل القاضى أن مساعد هذا القاضى ليس جديرا بأن يخلفه فى عمله، فإن بإمكانه أن يكلف الإمام الخاص به بهذا العمل الهام، وبهذه الطريقة اختار إبراهيم بك منذ عدة سنوات – عندما كان فى منصب قائم مقام – الشيخ العريشى لكى يقوم بصفة انتقالية بمهام القاضى، بسبب غيبة إمام الباشا .

وكان نفوذ قاضى القاهرة يمتد إلى مصر القديمة وبولاق، أما الجيزة فكانت لها محكمة خاصة بها، وكان القاضى يعين ممثلين عنه فى دوائر القاهرة المختلفة: ٩ فى المدينة، واحدا فى بولاق، وآخر فى مصر القديمة، وكان هؤلاء القضاة المرؤوسون، الذين لهم بدورهم مساعدون، يفصلون فى القضايا باسم القاضى. وعندما كان يتغير قاضى العسكر، كان هؤلاء القضاة يشترون من خلفه حق التثبيت فى وظائفهم. وكان من المتبع فى البداية حسب الأنظمة السائدة أن يفصل فى كل القضايا المقدمة إلى دائرة ما، ثم حدثت فى الآونة الأخيرة مجموعة من التجديدات فى هذا النوع من فروع الإدارة كما فى بقية فروعها، وترفع القضايا الكبرى عادة إلى محكمة القاضى، الذى يكلف أحد ممثليه بالانتقال إلى مكان الجناية، والبدء فى التحقيق .

ويتسلم القاضى عند دخوله الوظيفة فرمانا من الباب العالى يعهد إليه بوظيفة قاض، ويخول له أن يختار العدد الذى يراه مناسبا من المساعدين، ومع ذلك فقد كان هذا العدد محددا بفعل العادة التى لها فى الولاية الإسلامية قوة القانون .

والحكم فى أية قضية لا نقض له (١) ، ومع ذلك فقد وضع الدين شروطا مقيدة تنفى عن هذا الإجراء التشريعى صفة الإطلاق. فعندما تكون القضية خطيرة أو عندما تحظى باهتمام الشخصيات الكبيرة ، فإن القاضى يستضئ بنصائح رجال

---

(١) نقرأ فى مجموعة فتاوى المفتى بهجت عبد الله أفندى أن كل قضية تحمل إلى القضاء وتفحص ويفصل فيها لا تحمل إلى القضاء مرة أخرى .

الشرع، ويستطيع الأطراف أن يحصلوا مقدما على نوع القرار الذى يصدره المفتى. ويلجأ القضاة عادة إلى هؤلاء المفتين، ولرأيهم سلطة معترف بها، ويصدر المفتى على الدوام فتواه أو رأيه القاطع، وإذا كان حكم القاضى قد صدر فهو عندئذ بمثابة قضاء من عند الله، ومع ذلك فإذا حدث أن أجمع مفتو المذاهب المختلفة على نقض قرارات القاضى، فإن القاضى يعترف بخطئه ويسحب حكمه الأول

والقوانين التى يحكم بمقتضاها كلها مكتوبة، وتستخلص أصولها من القرآن، وتفسيرات هذا الكتاب السياسى والدينى هى ثمرة عمل جمهور كبير من المفسرين، نميز من بينها كتب أئمة المذاهب السنية الأربعة، وهذه المذاهب هى : الحنفى، المالكى، الشافعى، الحنبلى . وكل علماء مصر تقريبا يتبعون المذهب الثالث، ومع ذلك فإن القضاء فى مصر – ومنذ ثلاثة قرون – يتم وفقا لأحكام المذهب الحنفى السائد فى القسطنطينية .

أما مهام قاضى العسكر المختلفة فهى :

١ – الفصل فى القضايا .

٢ – اختيار أئمة المساجد .

٣ – إدارة الأوقاف الخيرية .

٤ – تقسيم التركات .

٥ – تحصيل الرسوم المقررة على بيع ونقل الملكيات .

ومصاريف القضاء – كقاعدة عامة – تحصل من موضوع النزاع، أو من الشخص الذى يحكم لصالحه ، ويعتبر المسلمون أن فرض مصاريف على الشخص الذى لم يحكم لصالحه عمل متناقض وبالغ القسوة. ويفصل فى القضايا عادة على الفور، ومع ذلك فثمة قضايا يستغرق فحصها عدة أيام، بل يصل الأمر أحيانا إلى شهرين أو ثلاثة شهور .

وفى كل قضية نميز أربعة أطراف : القاضى، المدعى، المدعى عليه، موضوع النزاع . ولا يفصل فى أية قضية ، أو تحدث أية إدانة عن الأخطاء ، فى غيبة واحد من هذه الأطراف. وعندما يرفض المدعى عليه الحضور فإنه يستدعى بالقوة، وعندما لا يستطيع أحد الأطراف أن ينتقل إلى المكان الذى تنظر فيه القضية، يقوم القاضى بتعيين شخص مشهود له بالاستقامة والنزاهة ليمثله. وكل طرف يدافع عادة عن موقفه، ويمكنه أن يعهد بذلك إلى رجل شريعة أو إلى صديق. ولا يتلقى الشهود مطلقا أجرا على شهادتهم، ويمكن دعوتهم إلى القسم، لكنهم ليسوا ملزمين بذلك، لكن المذهب المالكى وحده هو الذى يحتم ضرورة القسم .

ولم تكن مصاريف القضاء قبل مجئ الحملة منظمة، وكان قاضى العسكر أو ممثلوه يحصلون حوالى ٢ ١/٢ ٪ من قيمة الأشياء موضوع النزاع، لكنهم فى العادة كانوا يفرضون رسما أكبر، وكان ذلك أمرا بالغ السهولة لدرجة أنهم كانوا يحددون حسبما يتراءى لهم رسوم القضايا . ومن هنا كانت مصاريف الدعوى تصل فى بعض الأحيان إلى ٨ ٪ أو ١٠ ٪ بما فى ذلك أجور الكتبة والمترجم . وقد وضع الفرنسيون حدا لهذه الانتهابات البربرية كما سبق أن قلنا، ومع ذلك، فإذا كان رافع الدعوى شخصية كبيرة فإن القاضى لا يستطيع أن يفرض رسما أكبر من ٢ ١/٢ ٪ . وفى نفس الوقت لم يكن القاضى يتقاضى شيئا من الفقراء، ونادرا ما كان ينقض ما يعلنه مسلم أمامه من أنه فقير . ومن المبادئ التى تشيع بين القضاة أن الفقير طرف له قداسته .

هكذا وضع العرف والأخلاق حدودا لجشع القضاة، بل لقد لوحظ أن قاضى العسكر – وهو رجل ذو طباع حادة وله سطوته واحترامه – كان يكتفى بما يقدم له دون أن يفرض بنفسه شيئا، حتى يحتفظ بتقدير الكبار وحب العامة . ومنذ أن تغلبت سطوة البكوات فى مصر، اعتاد القضاة ألا يطلبوا رسوما من أولئك الذين يخلع عليهم البكوات حمايتهم (١) .

(١) يحدث عادة ألا تسمح طبيعة الشئ المتنازع عليه بتحصيل رسوم، مثال ذلك عندما تكون الشكوى مقدمة عن أشخاص وليس عن ممتلكات ، لكن أمورا من هذا النوع تنتهى عادة عند الشرقيين بأن تقوم بثمن ، وهكذا أصبح القاضى يحصل رسومه فى مثل هذه القضايا بفرض نوع من الغرامات النقدية .

وكانت الأحكام التى يصدرها ممثلو القاضى ، بالرغم من كونها مختومة بخاتمه ، تخضع فى حالات كثيرة لنوع من النقض، وخاصة فيما يختص بالإجراءات التى تتخذ ضد المتنازعين المتخالفين، أو فيما يختص بالأحكام التى تحدد التعويضات التى يلتزم بها الأزواج ، ويمكن لقضايا من هذا النوع أن تحمل من محكمة لأخرى، وهكذا حتى يأخذ القاضى علما ويصدر فيها حكمه النهائى .

سبق أن قلنا إن قاضى العسكر يشترى وظيفته من القسطنطينية، ويدفع التزامها إلى رئيس قضاة الأناضول وإلى شيخ الإسلام. ولم نستطع أن نستدل على مقدار ما يدفعه للأول، لكن الثانى كان يتلقى منه عشرة آلاف مدينى فى الشهر [1] . ولتعويض كل ذلك كان قاضى العسكر يفرض على ممثليه إتاوة لا تتجاوز فى بعض الأحيان ٩٠٠ مدينى فى الشهر، ويستطيع هؤلاء القضاة المرؤوسون أن يحصلوا فى مقابل ذلك ثروة طيبة فى وقت قصير . وثمة كثيرون منهم يفصلون فى قضايا كثيرة للغاية، لكنهم لا يدفعون أكثر مما هو مقرر، ومن الصحيح أنه لا يسمح لهم بالفصل فى كل هذه القضايا، لكنهم يرفعون رسوم التقاضى إلى ٨ - ١٠ ٪ ، لذا يسهل عليهم على الدوام أن يكونوا ثروات ضخمة فى وقت قصير .

رأينا من قبل أن وظائف القضاة الـ ٣٦ كانت تباع فى القسطنطينية لرجال

---

(١) يشغل وظائف القضاة الستة والثلاثين فى مصر، قضاة من الدرجة الرابعة، وهم ينقسمون إلى ست درجات، وقد جعل سليم الأول من حق بعض هؤلاء أن يستمروا فى مناصبهم . وهؤلاء القضاة هم مساعدون أو نواب، ويشكلون الدرجة الخامسة فى السلم القضائى، وليس من الضرورى أن يكون منصب هؤلاء قابلا للتغيير. وهم يشترون وظائفهم من القاضى فى شكل التزام أو فى شكل مخالف، لذا كانوا يستمرون فى مراكزهم لأية فترة حسب أهواء رؤسائهم . وعندما كانت تنقضى مدة القاضى، كان هؤلاء النواب الذين يرون من صالحهم الاستمرار فى مناصبهم يسارعون بتقديم ولائهم للقاضى الجديد، ونادرا ما كان يرفض واحدا منهم إلا إذا كان ثمة ضده شكاوى من نوع خطير .

مشهود لهم بالاستقامة، وكانت النتيجة الطبيعية لنظام من هذا النوع أن كل قضاة مصر كانوا غرباء على البلاد التى عليهم أن يمارسوا فيها وظائف على مثل هذه الدرجة من الخطورة. وبالرغم من أن أحدا من المواطنين لا يستطيع فى ظل السيطرة العثمانية أن يرنوا إلى وظيفة قاض، فقد رأينا فى السنوات الأخيرة كثيرا من المحاكم يرأسها مصريون، حيث لم يكن الأجانب الذين يصلون إلى مصر ومعهم فرمان تعيينهم فى وظيفة قاض، يلزمون أنفسهم على الدوام بالعمل فى سلك القضاء، بل كانوا يبيعون وظيفتهم، إما إلى سلفهم كما سبق لنا القول، وإما إلى رجل آخر من رجال الشرع يستطيع أن يدفع الثمن. وسعر هذه الوظائف غير معروف لنا على وجه التحديد، ومع ذلك فيبدو أنه لم يكن يجاوز ٤٠ ألف مدينى فى العام لوظيفة تدر دخلا متوسطا .

وفى أثناء احتلال القاهرة من قبل الفرنسيين، أغلقت لبعض الوقت كثير من المحاكم الخاصة فى المدينة، وتوقفت العلاقات المدنية الصرف بين السكان، وحيث إن المصرى بطبعه شكاك وخجول فى نفس الوقت، فقد كتم المصريون شكوكهم، وبدأوا وكأنهم قد انهمكوا فى أعمالهم مراعين نفس الدرجة من الأمن التى كانت سائدة فى الماضى . ولم نعرف – نحن الفرنسيين – إلا بعد وقت طويل حقيقة التأثير الذى أحدثه فى النفوس مثل هذا الإجراء الشاذ، لكن الاعتدال الذى سيطر بعد الغزو قد طمأن بشكل (لاشعورى) من روع هذا الشعب، وهو الذى ما يزال يتذكر فظائع حسن باشا أثناء حملة ١٧٨٦ .

وعندما بدأت الإدارة الفرنسية تحظى بنوع من الاستقرار، أى بعد الاحتلال بعام، افتتحت كل الغرف القضائية التى كانت قد أغلقت بصفة مؤقتة فى البداية، وأعطى القائد العام للجيش أوامره فى هذا الخصوص بعد اطلاع على تقرير قدم إليه، وكلف قوميسير الحكومة لدى ديوان القاهرة بالتأكد من تنفيذ ذلك. وعندئذ نظمت رسوم التقاضى ، وتحددت بنسبة ٢ ٪ من قيمة الشئ موضوع النزاع، وتوزع حصيلة هذا الرسم بين القاضى والكتبة. ولم تحدث أية تعديلات أخرى فى

إدارة القضاء، وسارت الأمور على نفس نظامها فى الماضى، وبدأت ثقة الناس التى كانت قد تزعزعت لحين تعود منذ الآن، ومنذ هذه اللحظة بدأ المنتصرون يجنون ثمار انتصارهم .

ومع ذلك فإن نظام التعيين فى الوظائف القضائية لم يعد هو نفسه ما كان فى الماضى، واتخذت لذلك الإجراءات اللازمة. فثبت كل رجال القضاء الذين كانوا قائمين بالعمل فى مناصبهم، وعزل قاضى العسكر الذى كان من أنصار أمير الحج، وخلفه فى منصبه الشيخ العريشى، وهو الذى ظل فى هذا المنصب حتى نهاية الاحتلال .

وإذا ما تأملنا لحظة نمط الأنظمة القضائية العثمانية وطريقة اختيار رجال القضاء، فإننا سنجد فى هذه الوقائع نفسها منبع المساوئ التى كان ينبغى أن تنجم عن هذه الوقائع بالضرورة . وفى الواقع، فإن رجال القضاء الغرباء، بجهلهم لغة البلاد التى ذهبوا إليها ليرسموا قدر وكرامة ونمط حياة مواطنيها، لم تكن تحركهم أية عواطف من تلك التى تفرض نزاهة القضاء، كما أن اعتبارات المواطنة واعتبارات القربى التى لها على الدوام تأثير كبير على القلوب لم يكن لها على الإطلاق وجود عندهم، وحيث إنهم قدموا قبضات من الذهب حتى يتولوا أمر محكمة ما، فمن الطبيعى ألا يكون سيف العدالة الذى يضعه القانون فى يدهم سوى أداة للإثراء . فكانوا يستخدمونه وسيلة لتعويض الأموال التى أنفقوها، بل ولتكوين ثرواتهم الخاصة، ووجهت الوسائل الكبرى التى فى حوزتهم نحو نفس الغرض، غرض تكديس الأموال، لذلك فإنهم لم يدعوا أية فرصة تفلت دون أن يستغلوها لتنمية ثرواتهم . أما أولئك الذين يخفف حب العدل والإنسانية عندهم من جموح ذلك التعطش إلى المال، فقد كانوا أكثر ميلا للعدالة، بينما لم يكن يكبح جماح الآخرين إلا الخوف من تدهور سمعتهم . وفضلا عن ذلك فإن العادة التى سادت فى مصر، عادة بيع أو تأجير وظائف بمثل هذه الدرجة من الخطورة من شخص لآخر، هى واحدة من تلك المساوئ الشيطانية التى لا يمكن لأية حكومة

عاقلة أن تتساهل فيها، إذ هى نوع من الفوضى أو الخيانة لا يسمح بقيامها إلا البرابرة .

ولنعد إلى ممارسة الوظائف القضائية: يحوز حكم القاضى فى معظم الأحوال قبول كل الناس المتنورين، وقد يكون من الظلم أن نوجه إلى رجال القضاء هؤلاء، ذلك الاتهام القاسى بالمحاباة أو الفساد، وهو الاتهام الذى يوجهه كثيرون إلى القضاة المسلمين عامة، إذ لا يمكن لقاض أن يتجاسر ويصدر حكما قليل التطابق مع روح الشرع، أو منحازا بشكل ما لمصالح الطرف الذى يريد أن يعمل لصالحه، إلا فى حالة واحدة، هى تلك الحالة التى تكون نصوص القانون فيها غامضة، وتحتمل التفسير على وجوه عدة مختلفة أو متعارضة. لكن المساوئ تنجم بشكل أكبر عن ذلك التقدير العشوائى والجائر لتقدير رسوم التقاضى، ويتهامس الناس حول تحصيل هذه الرسوم بشكل غير معتاد. وفى القاهرة تنهض الصفات الشخصية لقاضى العسكر، وكذا الرقابة التى يمارسها العلماء، بل وحكومة المماليك - بحماية الشعب على نحو ما ضد جشع القضاة والكتبة، لكن الأمر لا يسير على هذا النحو فى الأقاليم، حيث يستطيع القاضى هناك أن يستوثق من صداقة وحماية البك حاكم الإقليم عن طريق تقديم الهدايا أو أية وسيلة أخرى، وبذلك يكون حرا من كافة القيود وهو يقوم بتقدير رسم يفوق بكثير ذلك الرسم القانونى. ومع ذلك فمن الصحيح أيضا أنه حتى فى هذه الظروف، كان القضاة يستطيعون كبح جماح جشعهم. وكانوا فى بعض الأحيان يتظاهرون بفرض رسوم لصالح كتابهم ومرؤوسيهم، على الرغم من أن هؤلاء لم يكونوا يحصلون مطلقا إلا على قدر ضئيل من هذه الرسوم، وكان هؤلاء يلجأون فى معظم الأحيان إلى وسائل مشابهة .

سبق لنا القول بأن أحكام القاضى تصدر بلا نقض، وأن الدين يعالج جزئيا تلك المساوئ الناتجة عن مثل هذا التفويض الواسع الممنوح للقاضى بفعل العادة، حيث العادة فى مصر كما فى كل أجزاء الامبراطورية العثمانية هى كل شئ، بل

يمكن القول بأنها هى التى تصنع القانون . لذا فإن العادة التى يعتادها أمير أو رجل قضاء أو حتى ضابط صغير وهو يتعامل مع من هم دونه، تصبح إلزامية لكل من يقومون بنفس هذه الأعمال . وتبرهن مثل هذه المساوئ على ضرورة إرساء النظام القضائى على أسس ثابتة ومستقرة ، وهذه الحاجة التى تتضح أهميتها يوما بعد يوم لا تجد الاستجابة الواعية من جانب الحكام، أو قل إنها بالأحرى تقع تحت رحمة روتين غير قابل للهزيمة، لحد يفضل معه الحكام أن يتحملوا مساوئه تلك عن أن يبتعدوا عنها .

وتنهض العدالة فى مصر على أساس المذهب الحنفى، ولا يمكن أن يحدث الأمر على نحو آخر، حيث إن كل رجال القضاء الذين ترسلهم القسطنطينية يتبعون هذا المذهب، وهو نفس مذهب السلطان نفسه ، وكذا شريف مكة . وقد بدأ هذا الأمر منذ بداية القرن السادس عشر، ومن المحتم أن يكون سليم غازى مصر هو الذى وضع أساس ذلك، حيث إنه هو الذى أقام حكومته على نفس الأسس التى تنهض عليها اليوم . ومع ذلك فحيث إن المذهب الشافعى هو السائد فى مصر، وحيث إن كل شيوخ الأزهر يتبعون هذا المذهب فربما كان من الأفضل الامتثال لأحكام هذا المذهب، وتلك مسألة تتطلب دراسة عميقة أولى بها أولئك الذين يعنيهم الأمر .

وطيلة فترة الاحتلال الفرنسى لم تحصل أية رسوم عن التعيين فى الوظائف القضائية، ويبرر ذلك تواضع الدخول التى يمكن تحصيلها من مثل هذا الأمر.إن من الممكن إلغاء هذه المساومة على وظائف بهذه الخطورة دونما تأثير كبير على خزانة الدولة، ومن المعروف أن هذه المساوئ لم تكن تحدث مطلقا فى عهود الخلفاء، وإنما بدأت مع بداية الحكم المملوكى، ثم دعمتها العادة، ودعمها كذلك وبدرجة أكبر، ذلك النموذج التركى الذى تسوده مثل هذه العادات .

٥

عن الحقوق المدنية

الملكية

لا شك أن النظام الذى يساهم فى ربط المواطنين بمسقط رأسهم، هو واحد من أهم النظم الوطنية، ونحن هنا نتحدث عن نظام الملكية، هذا الحق الطبيعى الذى كرسه كل المشرعين ، ولا يخرقه أو ينكره سوى البرابرة . لكن طغاة مصر، عندما ألقوا تحت أقدامهم بكل مبدأ حكيم وعادل، لم يحترموا هذا الامتياز المقدس، الذى هو فى جملته أساس لضمان السعادة الاجتماعية . فثمة كثير من المزارعين الأحرار على ضفاف النيل قد أصبحوا مجرد فلاحين أجراء، أو عبيدا مطحونين تحت وطأة تلك الضرائب الباهظة، يفلحون هناك – وفى حلوقهم غصة – أراضى خصبة، لكنهم لا يستطيعون أن يجنوا لها ثمارا . فهذا الوادى الخصيب فى الفيوم، وتلك السهول الخصبة فى الدلتا، التى كانت غزيرة الإنتاج تحت حكم الفراعنة والبطالمة بل وتحت السيطرة العثمانية، لا تنتج الآن بالكاد ربع ما كانت تنتجه فى الماضى . ومن السهل أن نلتمس أسباب ذلك التغيير المحزن، لكننا لا ينبغى أن نبحث عن التفسير عند الطبيعة أو عند تقلبات الطقس مهما كانت عنيفة، فالنهر على الدوام هو نفس النهر، وفيضانه السنوى – شأنه شأن الماضى – يأتى كل عام ليروى الوادى . فقط اختفى الأمل، فما عاد يلهب حماسة الفلاح ولا عاد يستثير همته، إذ هو يعلم الآن أن ثمة أجنبيا بغيضا هو الذى سيحصل على ثمن عرقه هو . نعم، ماذا سيعود على الفلاح لو أنه عمل على إنماء محصولات جديدة، ما دامت لن تعود عليه ولا على أولاده خيراتها ؟ إنه يبذر البذور وهو حانق، ويجنى محصوله وهو خائف، ويعمل جهده ليخفى عن نظرات طغاته الجشعين قدرا ضئيلا من الحبوب ، يمكنه أن يحصل به على بعض احتياجات أسرته العديدة . فالفلاح فى هذه البلاد البائسة ليس بمالك للأرض، وليس بمقدوره أن يكون ذلك ، إنه ليس

بصاحب للأرض، ولكنه قن لها منذ ولادته، يعمل لحساب تلك العصبة التى قهرت وطنه واستذلته، إنه رقيق الدولة فى اسبارطة القديمة، وعبد المستعمرات الأمريكية التعس ! .

يرتبط توزيع الأرض فى مصر بعدد قراها، إذ تمتلك كل قرية مساحة من الأراضى القابلة للزراعة تتفاوت مساحتها. وتنقسم أراضى كل قرية إلى ٢٤جزءا. ويبلغ عدد القرى فى كل الوادى ما بين ٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ قرية كبيرة أو صغيرة : منها ٤٠٠ من أسوان إلى المنيا ، ٥٠٠ من المنيا إلى القاهرة بما فى ذلك الفيوم، ٦٦٠ فى الدلتا، ١٠٠٠ فى بقية المناطق[1] .

وهناك بعض الأفراد يتسمون باسم الملتزمين (ملتزم)، وهؤلاء هم الذين يمتلكون أراضى هذه القرى امتلاكا فعليا، ويعنى الفلاحون باقتسام هذه الأرض بينهم وبين هؤلاء الملتزمين، ولكن انظر إلى أى حد تضاءلت حقوق الفلاحين، وإلى أى حد وصلت سطوة الآخرين ! .

إن مالك عدد معين من القراريط يحصل من الفلاح الذى يفلحها ضريبة ثابتة كانت قيمتها فى الماضى محدودة، وتسجل هذه الضريبة باسم المال الحر. وبخلاف ضريبة المال الحر التى تلزم القوانين الفلاح بها، قام الملتزمون بتحميل الفلاح بعدد هائل من الضرائب والإتاوات لم تكن موجودة قط من قبل، أو كان ينظر إلى بعضها فى البداية على أنه - على الأكثر - مجرد هدايا، لكنها بمرور الزمن أصبحت ضرائب إجبارية واجبة الدفع، ومسجلة، وتحصل بقسوة بالغة . وتسمى حصيلة كل هذه الرسوم التى ينظر إليها السكان باعتبارها نتيجة لقهر وطنهم : "البرانى"، وتحمل هذه الضرائب أحيانا اسم : "مضاف" ، كما لو كان للإشارة إلى

---

(١) لعل التقدير الأخير مبالغ فيه، ولعل تقدير عدد قرى الدلتا أقل من الواقع . لمزيد من التفاصيل انظر دراسة جاكوتان Jacotin عن مساحة أرض مصر، وكذلك دراسة جومار Jomard عن المقارنة بين سكان مصر فى الزمن القديم وسكانها الحاليين .

أنها مستقلة عن بقية الضرائب، وأنها أضيفت أو زيدت على الضرائب المشروعة . ويحصل الملتزم مجموع هذه الضرائب : المال الحر والبراني، ومن هذه الحصيلة يدفع الميرى، وهو الضريبة الثابتة والمقررة بموجب قانون إدارى قديم (١) ، وهو يحصل باسم السلطان بواسطة الموظف الذى يمثله. ويتحمل المصريون هذه الضريبة أكثر مما يتحملون الضرائب الأخرى، إذ هى فى نظرهم اعتراف بسيادة السلطان ، ولأن لها طابعا مشروعا .

ويشكل ما يتبقى من المال الحر بعد سداد الميرى ما يسمى بالفايظ (الفائض)، ويكون بالإضافة إلى البرانى مجموع ما يحصل عليه الملتزم من فوائد. لكن عليه فى نفس الوقت أن يدفع – خصما من هذه الفوائد– مصاريف إدارية كبيرة، وفاء لمسئوليات تقع على عاتقه، ليس من بينها أية مبالغ مخصصة للفلاح، لا تعويضا عن فلاحته للأرض، ولا كمقابل لمجهوده أيام الحصاد .

ويورث الفلاح لأبنائه حق زراعة الأرض التى فى حوزته، وعلى هؤلاء أولا أن يدفعوا للملتزم نوعا من رسوم التقلد، وينظر لهذا الرسم باعتباره هدية أكدتها العادة، ومع ذلك فنادرا ما يسددها الفلاحون بالرغم من أن للملتزم حق تحصيلها . وتبلغ هذه الضريبة ثلاثة أمثال عائد الأرض المنزرعة، ويمكن للملتزم حسب تساهله أن يتنازل عن جزء منها أو يتنازل عنها كلية إذا كانت الأرض ضعيفة، ولكن إذا رفض الفلاح المورث أن يسدد هذه الضريبة بالرغم من أوامر وتنبيهات المالك الملتزم، فإن الأخير يستطيع أن يرغمه على ذلك بمنعه من استغلال الأرض التى كانت فى حوزة أبيه. فانظر إذن بأية طريقة وبأى ثمن يستطيع الفلاح المصرى أن يورث أبناءه إرثه التعس .

ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن الفلاح لا يستطيع أن يبيع الأرض التى يزرعها، حيث إن ملكيتها الحقيقية ليست فى يده، ومع ذلك فقد كان له الحق

---

(١) يدفع الميرى عينا أو نقدا، ويدفع جزء منه فى الصعيد عينا .

فى أن يؤجرها لبعض الوقت، ويظل يحتفظ لنفسه بحق الرجوع إليها. وعندما يكون الفلاح معسرا غير قادر على سداد ما عليه، فإن الملتزم يستدعيه أمام القاضى، ويثبت عن طريق شهود أنه لا يستطيع تحصيل شئ منه، أى من الفلاح، وعندئذ يعزل المسكين من الأرض، ويصبح لسيده الحق فى إحلال فلاح آخر محله. ويرشح الفلاح الجديد عادة عن طريق شيخ أول القرية، ويقبل الملتزم هذا الاختيار، لكن ذلك لا يعنى أن الفلاح القديم قد انتزع من أرضه بغير عودة، فيكفى أن يستطيع دفع الأقساط المتراكمة عليه لكى يحصل من جديد على أرضه. ومن جهة أخرى فإذا حدث أن وقع ضرر بين وبالغ القسوة على الفلاح على يد الملتزم، فإن بمقدور الفلاح أن يهجر حقله ، و فى هذه الحالة يقوم شيخ الفلاحين والملتزم بإحلال فلاح آخر محله .

ولا ينبغى أن ننسى أنه ليست للقوانين الوضيعة - لا فى هذا المجال ولا فى أى مجال آخر بمصر - لا الدقة ولا الفاعلية التى للمؤسسات والأنظمة الأوربية. ويمكن القول بأنه ليست للقانون - المكتوب على ضفاف النيل - إلا أهمية ثانوية، بينما يرسم العرف أوامر وأحكام رجال القضاء، كما أنه هو الذى يبرر تلك الابتزازات الإجرامية للرجال القادرين من كل الطبقات . ونتيجة لهذه السوءة البربرية فإن الفلاحين يعيشون فى شكل عبودية أكبر بكثير مما ينبغى، فأقدارهم تحت رحمة نزوات الملتزم الذى يستطيع - حسبما يتراءى له - أن يودى بهم إلى حالة من البؤس المفزع، أو أن يهيئ لهم عيشا رغدا . إن هذه الأوضاع الشيطانية فى مجموعها ليست أقل سوءا من بقية الأمور التى تستوجب نظاما تشريعيا جديدا فى مصر (١) .

(١) يمكن القول بأن الأراضى - فى المنطقة المحيطة بحلب - مقسمة بين السلطان الذى يحصل الميرى من الملاك، والمالك الذى يقدر لنفسه دخلا سنويا عينا ونقدا، والمزارع الذى يحتفظ لنفسه بجزء من ثمرات جهده . وثمة سكان من القسطنطينية يمتلكون أراضى فى هذه المنطقة .

وللملتزم الحق أن يبيع التزامه، وعندما يحدث ذلك يقوم الملتزم الجديد بدفع الميرى بدلا منه . وبخلاف الأرض التى يزرعها الفلاحون فى القرية ، ثمة جزء من أرض هذه القرية لا يخضع لنفس النظام، حيث يمكن القول بأن هذه القطعة مقسمة بين الملاك (الملتزمين) بنسبة عـدد القراريط التى يملكونها من أرض القرية ، وتسمى هذه الأرض : الوسية [1] . ولا يقوم الفلاحون بزراعة هذه الأرض بنفس الطريقة التى تنظم زراعتهم للأراضى الأخرى، بل إن الملتزم يستخدم فيها من يشاء بالشروط التى تتراءى له . ومع ذلك فعندما يبيع التزامه فى أرض الفلاحين فإنه يبيع كذلك الجزء الذى فى حوزته والمقابل لتلك فى أرض الوسية ، إذ لا يمكن أن تنفصل هاتان الملكيتان .

ويرث أبناء الملتزم الالتزام عن والدهم، لكنهم لا يخلفونه إلا بعد موافقة الباشا. وفى هذه الحالة يحصل هذا الضابط - باعتباره ممثلا للسلطان- على جعل يصل إلى ثلاثة أمثال قيمة الفايظ السنوى غير مشتمل على البرانى، ويؤكد الباشوات هذه الضريبة بأن يدفعوا إلى بلاد القسطنطينية جزءا من عائد عقودهم هذه . ويعدل الباشوات فى معظم الحالات من المبلغ المفروض كضريبة إرث، ويمارسون فى هذا الخصوص نحو الملتزمين ما يمارسه هؤلاء نحو الفلاحين فى نفس الظروف، وينظرالمصريون إلى ضرائب الإرث هذه باعتبارها استردادا للأرض، وهكذا يصبح أبناء الملتزم أصحاب حق فى الحصول على ممتلكات أبيهم بعد دفع الضريبة المفروضة .

وفيما مضى كانت مصر مملوكة لجمهرة من كبار الملاك، لكن المماليك تخلصوا من هؤلاء حتى يقتسموا فيما بينهم أسلابهم . وقد نتج عن هذا السلب أن أصبح أعضاء الحكومات المملوكية، يمتلكون كل أرض مصر على وجه التقريب، فكانوا

(١) لا توجد وسية فى الصعيد ابتداء من المنيا .

(وقد بين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم فى كتابه الريف المصرى فى القرن الثامن عشر أن هذا خطأ وقع فيه علماء الحملة الفرنسية) . (المترجم) .

يمتلكون على الأقل ثلثى الأراضى القابلة للزراعة. ولا يمنع هذا من أن هناك بعض الأفراد كانوا يحوزون بعض الأملاك الهامة، نذكر من بين هؤلاء الشيخ همام الذى كان حائزا على أراضى عدد كبير من قرى الصعيد .

وبرغم كل ذلك فسوف نقع فى خطأ بين إذا ما استنتجنا مما تقدم أنه ليست لدى المصريين فكرة صحيحة عن الملكية الحقة، إنهم يعرفون معنى هذه الملكية الحقة بلا ريب، ولكن كيف يمكنهم أن يتمتعوا بها، بينما كل شئ هناك يعترض سبيل سعادتهم ؟. فالعادات وطغيان الحكومات وجشع الملتزمين، كل ذلك عقبات لا يمكن التغلب عليها . لا مفر من إصلاح تام ، بل يمكن القول بأنه لا بد من توزيع جديد للأرض . ولو كان الفرنسيون قد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم فى البلاد، فليس من شك فى أنهم كانوا سيصلحون من مساوئ هذا النظام . وإذا ما حدث ووجد أبناء ريف مصر أنفسهم يعيشون فى ظل حماية القوانين فإنهم سيحصلون فى وقت معا على الأمل والهمة، وعندئذ فكم من الثروات سوف تغل هذه الأرض الخصبة المعطاء، التى استحقت ذات يوم اسم : مزرعة روما [١] .

(١) لكى نقدم فكرة تقريبية عن بؤس الفلاحين فسوف نعتمد على شهادة المعلم يعقوب، المباشر القبطى الذى أكد لنا أن عشرة فدادين من الأرض فى الصعيد تنتج خمسين أردبا من القمح من بذور خمسة أرادب، كما أكد لنا بالمثل أن الأقساط التى يدفعها الفلاحون للملتزم عينا لا تقل مطلقا عن ٢-٥ . ٣ أردب من الحبوب عن الفدان، فإذا قمنا بخصم مصاريف الحرث والبذر، نجد أنه لا يتبقى شئ على وجه التقريب لهؤلاء الفلاحين التعساء .

٦

عن الرق وعن العتق

تحتفظ الشعوب الشرقية بتلك العادة القديمة، عادة استخدام العبيد، ونحن لن نمسك فى هذا الخصوص عن إبداء أى رأى مهما بدا قاسيا . ومهما كانت انتقاداتنا وملاماتنا مشروعة فإنها تقع جميعها على أوربا، كما أن كل واحدة من هذه الانتقادات والملامات ليست سوى نقد حر لتلك التجارة المخزية التى تسامحت فيها أوربا حتى اليوم . فمستعمرات العالم الجديد، وجزر البحر الأفريقى - مسارح همجية الشعوب المتحضرة - تقدم أكثر مشاهد العبودية بشاعة، بل وربما أكبرها إهدارا للحقوق المقدسة للإنسان . إذ ينبغى أن نعترف هنا - وهذا أمر مخز للحضارة والمدنية - أن قدر العبيد فى مصر كما فى كل بلاد الشرق، أقل حافزا على الشكوى من قدرهم هناك فى أمريكا، حيث يروون بعرقهم ودمائهم حقول سوق لا رحمة فيه. أما رقيق مصر - على العكس من ذلك - فيمكن القول بأنهم يقبلون فى العائلات كأفراد فيها، وليس ثمة ما يقومون به من عمل سوى خدمة المنزل، كما أن حالتهم ليست على الدوام بائسة، بل إن الرق عندما يكون السيد واحدا من البكوات، يكون فى معظم الأحوال بمثابة الخطوة الأولى نحو الثروة أو نحو السلطة.

وفى مصر نوعان من الرقيق : السود من وسط أفريقيا ويأتون إلى مصر وإلى المدن الكبرى عن طريق قوافل، والبيض ويأتون من أقاليم آسيا المجاورة للبحر الأسود . وثمة فرق هائل بين ثمن هؤلاء وثمن أولئك ، فقلما يبلغ ثمن الأسود : ٤٠ - ٨٠ قرشا أسبانيا، بينما يعتبرالناس أن من الطبيعى أن يدفعوا فى شراء شاب شركسى ٦٠٠-٨٠٠ سكين Sequin ، وهو عملة ذهبية إيطالية تقدر القطعة منها بـ١٢٠بارة ، أى حوالى ٣٠٠٠ فرنك . وقد كان ثمن الألفى بك ألف سكين ، ومن هنا جاء اسمه : الألفى .

ويعتبرالعبد جزءا مكملا لثروة سيده الذى يستطيع أن يبيعه أو يبادل به أو يعتقه، وذلك حسبما يتراءى له، وليس للعبد أن يمتلك شيئا خاصا به، فكل ما يمكن أن يحصل عليه يكون من حق سيده، ولا يتمتع العبد بأى حق مدنى، ويعتمد فى كل أموره على إرادة سيده . ومع ذلك فإذا قام الأخير - باللجوء إلى العنف أو لأية وسيلة أخرى - بفعل مخالف للقوانين أو الطبيعة ، فإن العبد يستطيع أن يشكوه أمام القاضى الذى يرغم سيده - حسب الحالة المعروضة عليه - على بيعه للآخرين . ومع ذلك فنادرا ما يتهم العبد سيده بالطغيان، فكل ما يفرض عليه من واجبات يتعلق فقط بالخدمات المنزلية، فهو يعنى بمنزل سيده، ويخدم على المائدة، أو يقوم بأية أعمال أخرى تتصل بشخص سيده، لكنه بعيد عن الزراعة وعن كل الأعمال الشاقة . ولعل أشق عمل يكلف به العبيد، هو أن يعهد إليهم سادتهم بالعناية بخيولهم، وهم عامة يعاملون بلطف تام، ونادرا ما لا ينتهى بهم الأمر إلى العتق خلال بضعة سنوات أو عند موت سيدهم .

ويمكن القول بأن العبد الأبيض يعتبر عضوا من أعضاء الأسرة، وعندما يرضى تاجر عن عبده فإنه يشركه فى تجارته ، ويزوجه من ابنته ، ويهيئ له حياة طيبة. أما أولئك الرقيق الذين يكونون فى خدمة البكوات الكشاف أو كبار ضباط حكومة المماليك فإن حظهم أكثر بريقا ، فحيث إن سادتهم أنفسهم قد بدأوا حياتهم عبيدا ، فإنهم بدورهم يولون عبيدهم جل عنايتهم، ويهيئون لهم نوعا من التدريب العسكرى ليشكلوا فيما بعد جيش المماليك . وتتجلى قوة كل بك فى عدد رجاله وفى شجاعتهم، لذا فهو يعنى بتقدمهم وثروتهم كما لو كانوا أبناءه ، وفضلا عن ذلك فقد كان المماليك يدعمون حزبهم عن طريق نفوذ رجالهم، وهو النفوذ الذى هيأته لرجالهم هذه المناصب التى ولوهم - هم أنفسهم - فيها .

لكن الشجاعة والمميزات الشخصية لعبد ما - ليست على الدوام هى الأسباب الوحيدة التى تحدو بشريف مملوك، أن يهيئ لعبده هذا التقدم السريع، ويؤكد

البعض أن الجمال والصفات الجسمانية تلعب دورا كبيرا فى أقدار هؤلاء العبيد. ويشكل هؤلاء الرجال ذوو الأصل الغامض، والذين نجهل بلاد معظمهم، طائفة النبلاء الحقيقيين برغم كل ما قيل، فهم وحدهم يحوزون المناصب، و يعمرون بيوت وعائلات سادتهم، التى كانت ستخبو فيها بدونهم أضواء الحياة منذ الجيل الثانى. ومن نافلة القول أن نذكر أن الإماء البيضاوات القادمات من نفس بلدان هؤلاء البكوات والكشاف والمماليك الآخرين، يتمتعن هن أيضا باعتبار خاص، ذلك أنهن – عادة – يصبحن زوجات هؤلاء أو إماءهم المفضلات .

وبالرغم من الامتيازات التى أتيحت للعبيد المماليك من وجودهم بالقرب من البكوات، فإن من الواجب أن نلفت النظر إلى أن العرف قد وضع حدا لتقدمهم. ويمكن القول بأن المماليك ومع أنهم كانوا يعدون جزءا من أسرة سيدهم، لم يكونوا ليتمتعوا بأى حق مدنى فى ميراثهم، إذ إن العلاقة التى نشأت بينهم لم تكن تساوى علاقة التبنى . فليس للعبد – حتى إذا أعتق – أى حق فى تركة سيده التى توزع على أبنائه الشرعيين . صحيح أن بمقدور السيد أن يخصص جزءا من ثروته لصالح العبد، لكن هذه الهبة لم تكن لتبلغ مطلقا أكثر من ثلث الثروة، حتى ولو لم يكن للمتوفى أى أبناء . وعلى العكس من ذلك فإذا مات المعتوق دون ذرية، فإن ثروته كلها تؤول إلى سيده القديم .

وتباع الإماء من كلا اللونين بثمن أغلى من ثمن العبيد الذكور، وإذا ما نشأت علاقة بين السيد وبين واحدة من إمائه وأصبحت هذه أما، فإنه لا يستطيع أن يبيعها، إذ تصبح فى حكم الزوجة الحرة حتى يموت سيدها. وعندما تموت هى يصبح ابنها شرعيا ويرث شأنه شأن أبناء الزوجة الحرة، ولكن إذا أراد السيد أن يتخذ من إحدى إمائه زوجة شرعية فعليه أولا أن يعتقها .

ويمكن للمسلم أن يعاشر إحدى إمائه ، دون أن تخرج – من أجل ذلك – من خدمته، فهو يحتفظ لنفسه عليها بكل حقوق الملكية، فيستطيع أن يستردها وأن

يجعلها تقوم بخدمته ، بل وأن يبيعها من جديد ، ولكنه فقط لايستطيع أكثر من معاشرتها . وثمة أمثلة على زواج من هذا النوع ، وإن كان المعتاد أن يقوم الزوج بعتق تلك التى يختارها زوجة له .

ويدرك العبد أنه مملوك كلية لسيده، وهو يقف أمامه ويداه مضمومتان إلى صدره، وعيناه مثبتتان على عينيه ليدرس أقل رغبات سيده، حتى ينفذها قبل أن يعبر سيده عنها. وحالته فى نظر نفسه طبيعية ، وهو لا يستشعر مطلقا لا الرغبة ولا الحاجة فى قطع قيوده، بل إن المعتوق نفسه يظل يحتفظ لسيده القديم بالاحترام والولاء مما يصعب على أى رجل حر قبوله ، لكن العرفان هو الذى يفسره . وقد رفع على بك الشهير بـ (الكبير) كثيرا من مماليكه إلى مراتب البكوات والكشاف، ومع ذلك فقد كانوا – عندما يأتون لزيارته – يظلون واقفين فى مظهر خانع، ولايجلسون مطلقا أمامه إلا إذا دعاهم لذلك ، كما كانوا يحرصون على ألا يجلسوا على نفس الأريكة التى يجلس عليها سيدهم القديم . ويلاحظ نفس التحفظ والمراعاة من جانب المعتوقات نحو السيدات اللاتى كن مملوكات لهن .

ومن المألوف لدى الشرقيين أن يروا العبيد المعتوقين يصلون إلى ذروة المجد، ولايمكن أن يحقر الرجل مطلقا من قبل الرأى العام لأنه كان من قبل عبدا، ودائما مايسعى الناس لصداقته ومودته. وهكذا فإن الأمر الذى يعد عند الشعوب الأخرى شيئاً جديرا بالتحقير، يصبح هنا وكأنه أمرمرغوب، بل ثمة من يؤكد أن نقيب الأشراف فى مكة قد زوج ابنته من معتوق .

سبق لنا أن قلنا إن الرجل الحر الذى يريد أن يتزوج من أمته عليه أن يعتقها، ونفس الأمر بخصوص أولاده، فإنه لابد أن يسمح لابنه بالارتباط بإحدى إمائه (أى إماء الأب) وإلا فلن يتمتع الأطفال الذين يأتون عن طريق هذا الاتصال بأى حق مدنى، بل سيظلون عبيدا حتى موت أمهم إلا إذا اعترف الأب بهم، الأمر الذى يعنى عتق الأم .

وصيغة العتق بالغة السهولة، فهى عبارة عن كلمة من السيد تقال فى أى مكان، فى المنزل أو الشارع أو أى مكان آخر. ولكن إذا خشى العبد من تقلب مزاج سيده فإنه يطلب تحرير وثيقة بالعتق تبرهن على صحة عتقه، ونادرا مايرفض طلب كهذا. وليس لحق السيد على عبده من حد إلا الحق الطبيعى، وعلى سبيل المثال، فإن الأمة التى من واجبها الاستجابة لكل رغبات سيدها تستطيع أن ترفض أى فعل يهين طبيعتها. وعندما يرتكب عبد ما جريمة قتل فإنه يمثل أمام القاضى مع سيده، ويقدم كلاهما للمحاكمة، وإن كان لأسرة القتيل أن تعفو أو تكتفى بتعويض نقدى . وقد سبق لنا القول بأن المعتوق لايرث عن سيده القديم، ومع ذلك فإن سيده إذا ما مات دون ذرية فإن السلطان والقاضى - وهما الورثة فى هذه الحال ، فالأول يرث ثروة المتوفى والثانى يرث وظائفه - يعطيان كل شىء أو جزءا منه إلى معتوقه ، وليس هذا حقا مقررا له، ولكن العرف هو الذى جعل منه نوعا من الإلزام. وفيما مضى ، عندما كان التبنى شائعا، لم يكن الأمر يصل لهذا الحد، ويمكن الآن للرجل أن يتنبى عبده، أو هو على الأقل يستطيع ذلك، على نفس النحو الذى كان يتم فى الماضى.

والعتق هو مكافأة على إخلاص وحماسة وتضحية العبيد، وهذا الفعل شائع لحد أنك لاتستطيع أن ترى إلا عددا بالغ الضآلة من الرقيق وهم يموتون فى ظل حالة الرق، فجميع العبيد رجالا ونساء، بيضا وملونين ، يعتقون على قدم المساواة. وثمة طواشيون عند المماليك، وكان عددهم عند مراد بك يبلغ العشرين، ولكن لم تجر العادة مطلقا فى القاهرة على اللجوء لخدمات هؤلاء التعساء. ويدين الدين هذه العادة ، ولايمارسهابخلاف المماليك إلا عدد بالغ الضآلة من السكان ، فتدمير معين الحياة عند رجل جريمة كبرى فى نظر المسلمين ذوى الحمية الدينية. ويمكن للطواشى أن يعتق شأنه شأن أى عبد، وهو مايحدث فى معظم الأحوال، ولا يحتقر الطواشى إلا إذا كان الاحتقار من نصيب سيده، ولا تجلب عليه حالته كطواشى أى تحقير خاص، بل كان يرى طواشيو الرجل القوى يحصلون لأنفسهم على شىء من التقدير الذى يحظى به سيدهم .

وبعد موت أحد الأثرياء يقتسم الورثة تركته، ويدخل العبيد ضمن هذه التركة شأنهم شأن بقية أجزائها، ولايستثنى من هؤلاء إلا من أعتقهم سيدهم عند موته، أو أولئك الذين كان سيدهم قد وعدهم بذلك من قبل، وفي هذه الحالة فإن الأمة التى صارت أما بفعل سيدها تأخذ كل حقوق الزوجة الحرة، وهو الأمر الذى لم تكن قد تمتعت به حتى هذه اللحظة .

– ٧ –

الوصاية، التركة، الشهود

عندما يموت رجل تاركا أبناء صغار السن، فإن جدهم لأبيهم يصبح هو الوصى الشرعى عليهم، أما إذا لم يكن هذا الجد على قيد الحياة فإن القاضى يختار بمعرفته وصيا على هؤلاء اليتامى ، لكن الوصى ليس له حق التصرف فى ثروة القصر. وتخصم نفقات هؤلاء وكذا مصاريف تعليمهم من ثروتهم، وإذا ما أراد الوصى بدافع من العاطفة أن يستثمر أموالهم، فإنه يقوم بذلك مخاطرة من جانبه يتحمل هو كامل مسؤليتها، وهو ملزم على الدوام بأن يقدم إلى القاضى حساب المبالغ التى فى يديه .

أما التربية فهى مستقلة عن الثروة، حيث يعهد بها إلى الأم حتى سن السابعة بالنسبة للأولاد، وحتى سن الزواج بالنسبة للبنات، ولايفوت الوصى أن يعلم الأولاد القراءة والكتابة ، وأن يهيئهم لنوع من الحياة حسب درجة ثرائهم . ولايحق إلا للأب أو الجد أن يعقد زواجا لأبناء دون سن البلوغ، أما الأقارب الآخرون فغيرمخولين فى ذلك. وعندما يبلغ الأولاد سن الرشد ، فإنهم يستطيعون أن يرفضوا الامتثال للقرار الذى اتخذه الأب أو الجد. وقد سبق لنا أن قلنا إن سن البلوغ للولد محدد بخمسة عشر عاما، وفى هذه الحالة يقدم الوصى الحساب إلى القاضى عن ثروات هذا الولد الذى سيصبح الآن قيما على نفسه، ومع ذلك فينبغى – حسب المذهب الحنفى – أن يُعَيَّن على هذا الولد وصى حتى يبلغ سن الخامسة والعشرين، لكن

القضاة لا يمتثلون لهذا الرأى. ويمكن للابن عند بلوغه سن البلوغ أن يترك منزل الأب ، ولا تعود أسرته ملزمة بإطعامه .

وللابن – فى التركات – ضعف حق البنت، فعندما يكون لرجل بنتان وولد واحد على سبيل المثال ، فإن الزوجة تأخذ لنفسها ٢٤/٣ من التركة ، ويأخذ الابن ٢٤/١٠ و٢/١ (الجزء، أى ٥ . ١٠) وكل من البنتين ٢٤/٥ و٤/١ (الجزء، أى ٥ . ٢٥). وعندما يكون للمتوفى وريث ذكر، فإنه لا يكون لأخوة المتوفى أو أخواته حق فى الميراث .

وأنصبة الأخوة الذكور متساوية فيما بينهم، واذا لم يكن ثمة ذرية فلا يؤول لزوجة المتوفى إلا ٤/١ تركته ، ويؤول الباقى لأبيه . ولا يحق لأخواته إرثه إلا إذا كان الأب متوفيا. أما إذا ترك المتوفى ابنة فإن نصيب الزوجة على الدوام ٢٤/٣، والبنت فى هذه الحالة ٢٤/١٢، وإذا كان له أكثر من ابنة واحدة فإنهن يقتسمن ٣/٢ ثروة والدهن . وعندما تموت الزوجة يحصل الزوج من ميراثها على ضعف ما كانت ستحصل عليه هى فى الحالة المماثلة .

وقبل الشروع فى تقسيم التركات تجنب مصاريف الجنازة ثم ديون المتوفى، ثم يتم الوفاء بشروط الوصية التى تركها المتوفى ، بحيث لا تتجاوز الهبات بأى حال ١/٣ صافى التركة . أما إذا لم يخلف وريثا فمن حقه أن يهب كل شئ لأحد أصدقائه، وينبغى أن نستنتج أنه فى بلد تتشعب فيه العلاقات الأسرية لهذا الحد، فإن حالة كهذه تبدو بالغة الندرة .

وليس للأبناء الطبيعيين (غير الشرعيين) أى حق فى الميراث، حتى ولو كان الأب قد تزوج من أمهم، إذا لم يكن هو قد اعترف ببنوتهم. ولكن فى هذه الحالة –حالة الاعتراف – يصبح حتى أبناء الأمة أبناء شرعيين، ويستطيعون الإرث كما بينا من قبل .

ونعتقد حتى تكتمل دراستنا عن المواريث، أن من الواجب أن نقدم هنا من القرآن النصوص التى تتصل بالمواريث لنرى كيف عبر محمد عن كل الحالات المحتملة : «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً . ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم» (*) .

ويمكن لرب الأسرة أن يخصص ٣/١ تركته لصالح من يريد، ولا تعارض القوانين فى ذلك، وتتأكد هذه الهبة كتابة أو عن طريق شهود، بل إن الكتابة تفترض وجود شاهدين. وإذا أنكر الأبناء أن والدهم قد خصص المبلغ المطلوب كهبة، فإنهم يرغمون على القسم، وينبغى أن نلاحظ أن الشريعة تحتم القسم على من ينكر .

وحيث إنه لا يسمح مطلقا بأن يوهب ما هو أكثر من ثلث ما يمكن أن يتركه المرء، فإن ثمة وسيلة للتملص من هذا التشريع لإعطاء كل الثروة كهبة، ولا يحدث هذا إلا عندما يموت رجل دون ذرية . إذ يمكن فى هذه الحالة أن يوقف تركته على أحد المساجد، مع تخصيص حق الانتفاع للشخص أو الأشخاص الذين يفضلهم،

(*) القرآن الكريم، الآيتان (١١، ١٢) من سورة النساء . (المترجم) .

بل حتى لذريتهم ومماليكهم، ولا يمكن أن يوصى بشئ للعبد حيث لا أهلية له حتى يمتلك، إذ إن قميصه نفسه ليس ملكا له .

ويمكن القول بأن الشهادة لازمة فى كل الأمور الهامة، وإذا ما حدث - على سبيل المثال - أن وقع إيصال من جانب المدين وشاهدين، ثم مات هذان الشاهدان، فإن للمدين الحق فى أن يرفض السداد، لكن هذا لا يحدث فى الواقع إلا إذا كان الدين كبيرا. وإليكم كيف يفصل فى الأمر : يستدعى المدين ودائنه إلى القضاء، وعليهما أن يقسما، ولكن إذا افترضنا أن المدين قد يقسم اليمين باطلا فإن الآخر (الدائن) لا يقسم، لأن القسم دائما على من ينكر . ويفترض القانون أن الكتابة يمكن أن تزيف أكثر مما يفترض أنه يمكن للمسلم أن يحنث فى قسمه .

ولا تقبل شهادة المسيحيين أو أى رجل ليس دينه الإسلام أمام المحاكم الإسلامية ضد المسلمين، لذا لا يستدعى الكفار مطلقا عند الفصل فى الأمور المدنية أو الجنائية عند الأتراك، ومع ذلك فيمكن لقائد الشرطة أن يستعلم من كافر عن أمور تدخل فى اختصاصه. وثمة أمر آخر يبعث على الدهشة ، فعندما يدعى - على سبيل المثال - شخص أن ثمة شخصا آخر قد طلب منه مائة خردة، وشهد على صحة هذا الدين اثنان، فإن هذه المائة خردة تستوجب الدفع ، حتى ولو لم يكن قد تم الدين فى واقع الأمر، ولكن إذا ما عاد هذان الشاهدان - بعد أن غلبهما الندم - ليعلنا أمام القاضى أنهما قد حنثا فى قسمهما، فإن القاضى يلزمهما أنفسهما بدفع هذه المائة خردة إلى الشخص الذى دفعها ظلما، ويحتفظ المدعى النهاب بالمبلغ الذى حصل عليه ، ولا يلزمه القاضى بأى التزام، ذلك أن هذا المبلغ غير المستحق قد جاء فقط من جانب الشاهدين سيئى الذمة، ولذا يقع العقاب عليهما وحدهما، أما إذا لم يرجع فى شهادته سوى شاهد واحد، فإنه يقوم بدفع نصف المبلغ المستلب .

ويمكن لرجل ما فى غيبة الشهود أن ينكر دينا مؤكدا، فالشهود وحدهم هم الذين يبرهنون على صحة الدين، ويعفيه القانون لذلك من سداد هذا الدين، وإذا ما ظهر شهود على هذا الدين، فإن المدين يلزم بالدفع ، ويكون الحكم فى هذه المرة بمثابة إيقاف للحكم الأول . وفى الحالة التى يطالب فيها شخص ما بدين لا ينكره المدين ، وإنما يدعى أنه قد قام بتسديده، فإن القاضى يطلب من الطرفين أن يقسما، ولكن إذا أنكر الدائن أنه حصل دينه مهما كانت حقيقة ما حدث، فإن المدين يلزم بالسداد مرة أخرى، لأن القانون - كما سبق أن قلنا - يقف فى صف الشخص الذى ينكر إذا ما أقسم على ذلك .

- ٨ -

عن الدين، وعن الاقتراض بالربا

تعتبر شريعة محمد أن الربا جريمة، وقد حرم هذا المشرع الربا لأنه يطمح إلى أن يعتبر كل أتباعه أنفسهم أخوة ، وأن يتعاونوا فيما بينهم، ومع ذلك، فحيث إن إغراء الكسب أقوى من الخوف من رقابة الدين، فإن المسلمين قد استطاعوا على نحو ما أن يتحايلوا على هذا المبدأ الذى لا يستطيع أن يتبعه شعب من المضاربين والتجار . وإليكم كيف أن محمدا يجعل من وسيلة التعاقد إلزاما شرعيا: «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أولا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم

ولا يضار كاتب ولا شهيد (*) » «وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته (**) » . وتبعا لذلك فإن المسلم الذى يقترض مبلغا من المال، أوالذى يعقد دينا ما، عليه أن يحرر ورقة إلى دائنه فى حضور شاهدين، ولا يستطيع أن يعفى نفسه من هذا الإجراء، إلا إذا كان الدائن يوليه ثقة كبيرة لدرجة يكتفى معها بكلمة منه . ولا تكفى الكتابة وحدها بدون حضور الشهود لإدانة رجل خرب الذمة، يستطيع أن يحلف أمام القاضى بأنه غير مدين بالمبلغ المطلوب، وهكذا فمن المهم لتفادى مثل هذا النوع من الإنكار التأكد من الشهود، ويكفى الشاهدان وحدهما فى غيبة الكتابة لتأكيد الدين على المدين، وقد سبق أن تعرضنا لذلك من قبل .

ويلزم الشاب البالغ بدفع الدين الذى حرره على نفسه، وتنظر الشريعة لذلك باعتباره أمرا مشروعا، حيث إنها تعتبر أن الشاب يتصرف عندئذ، وهو على دراية تامة بالأمور .

ويسمح القانون بالإرغام الجسدى لسداد الدين، فالمدين ملزم ببيع كافة ما يمتلك، فيما عدا الملابس التى يرتديها، إذا أرغمه الدائن على ذلك . وعندما يشك الدائن أن المدين قد أخفى فى بيت أحد أصدقائه نقودا أو أشياء ليفلت بها من الدائن، فإنه يساق إلى السجن، ويظل هناك حتى يثبت بشهادة شاهدين مشهود لهما بالنزاهة أنه لا يمتلك فى الواقع شيئا، عندئذ يأمر القاضى بإطلاق سراحه حتى يستطيع أن يحصل عن طريق عمله على ما يستطيع به سداد دينه . وما أن يجنى المدين بعض المال، وما أن يبرهن الدائن على ذلك أمام القاضى، حتى يتعرض المدين لإرغام جديد، ولكن لا يسمح للدائن مطلقا باستخدام القوة من جانبه ضد مدينه، ولا أن يفتشه دون تخويل صريح من المحكمة .

(*) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢٨٢ . (المترجم) .

(**) القرآن الكريم، سوة البقرة الآية ٢٨٣ . (المترجم) .

ويخضع الفلاح المزارع لكل صرامة القانون، فيمكن إرغامه على بيع كل شئ، حتى ثيرانه ومحراثه، ولكن حيث إن المشرع يطلب من الدائن قدرا أكبرمن الاعتدال نحو مدينه، فإن المدين يتمكن على الدوام تقريبا من الحصول على مهلة للوفاء بالتزاماته، أو يرتب ذلك مع الدائن بطريق ودى .

والشخص الذى يودع لديه مبلغ من المال أو أى شئ آخر أيا كان، لا يعد مسئولا إذا ما برهن أمام القاضى بشهادة شاهدين، أن الوديعة قد سلبت منه عن طريق قوة قاهرة، وفى هذه الحالة نفسها فإن قسمه وحده يكفى – إذا لم يكن ثمة شهود – لتحرره من كل التزام .

ومع ذلك فإن المسلمين فى مصر يبدون الكثير من النزاهة والأمانة فى معاملاتهم، فيصرفون شئون تجارتهم بذمة طيبة ، حتى عندما تكون تجارتهم هذه مع تجار من ديانة أخرى . ويفضل الأوربيون التعامل معهم أكثر مما يفضلون التعامل مع المسيحيين، سواء كانوا من أهل البلاد أو كانوا من السوريين، الذين هم أبعد ما يكونون عن التباهى بنفس الطيبة، والذين يتحتم على المرء أن يتخذ أكبر قدر من الحيطة عند التعامل معهم . ولا نستطيع أن نعطى صورة عن نزاهة المسلمين فى مصر عامة ، أفضل من أن نذكر على سبيل المثال أمانة أناس الطبقات الدنيا، فنقل الأموال والمجوهرات الثمينة يتم عادة عن طريق قوارب تسبح فوق النيل، ومن النادر أن تتخذ احتياطات للتأكد من أمانة البحارة ، ولم نكد نسمع مطلقا أن أحدا منهم قد أساء استخدام الثقة التى وضعت فيه .

وللتحايل على الإجراءات القانونية التى تحرم الربا، يمكننا أن نتصور ما يلى:

يقترض رجل مبلغا من النقود يريد أن يستغلها، فيعتبر الدائن نفسه شريكا له فى المشروع . وعندئذ يحصل على نصيب شرعى من الربح الذى يدره هذا المشروع، ويسمح القانون أحيانا أن يقدم المقترض إلى الشخص الذى يقترض منه هدية سنوية أو شهرية طيلة المدة التى يحتفظ خلالها بالمبلغ، ويمكنه أن يحصل

على هديته هذه بقسم منه ، ونحن نرى أن هذا الإجراء يساوى الربا بشكل تام، بل إنه يفوقه فى أنه غير محصور داخل نفس الحدود .

والشخص الذى يستغل مبلغا من المال، أو الذى يحصل على إيجار منزل ، أو على دخل من ملكية أيا كانت، يلتزم بأن يقدم كل عام للفقراء ١/٤٠ من ربح رأس المال، وللحاكم الحق فى أن يرغمه على ذلك. أما كل الممتلكات التى تستخدم فى الاستعمال الشخصى كالبيت الذى يقيم فيه المرء أو الأرض التى يطعم أسرته من نتاجها ... الخ ، فهى لا تخضع لهذا النوع من الضرائب . ويمكن القول بأن هذه الضرائب ليست إلا أمرا يعود إلى ضمير المرء، ولا تفرض المحاكم ضرورة دفعها، لذا فإن المسلمين ذوى الحمية الدينية، هم وحدهم تقريبا الذين يؤدونها .

قلنا إن الدائن يرتب أموره مع مدينه، ونتيجة لذلك فنادرة هى حالات الإفلاس بالتدليس فى مصر، لكن حوادث المصادرة معروفة وشائعة، وكثيرا ما توضع الأختام على المحلات التجارية ، وبيوت أولئك الذين تريد الحكومة أن تصادر ممتلكاتهم . وتوضع هذه الأختام بطريقتين : إما بواسطة مسمار يضعه موظفو القضاء فى قفل الباب، وعندئذ لا يستطيع أحد أن يخالف هذا المنع دون أن يعرض نفسه لقطع يده ، وإما بوضع قليل من الطين على القفل مع ترك علامة ما . وعند مرورنا فى الرميلة مع فرقة عسكرية من فرقتنا مررنا بمحل يحتوى على كمية هائلة من القمح ، ومختوم بعلامة الطين، وكان من المستحيل علينا وقتها أن نترك حامية فى المدينة، حيث إننا كنا لانزال نحارب المماليك . وحيث إن هذا القمح قد آل إلينا ، بينما نحن لم نصبح بعد فى وضع يجعل الآخرين يحترمون قوتنا، فقد كان من المحتمل أن يقوم العامة – بدافع من الرغبة فى السلب، أكثر منه بفعل الحقد الذى كانوا يكنونه لنا ، وكأمر طبيعى فى الأيام الأولى لقدومنا – باقتحام هذا المحل وسلبه، ومع ذلك فإن شيئا من ذلك لم يحدث، فعندما عدنا إلى المدينة من جديد – أى بعد حوالى شهر – وجدنا المخزن سليما لم تمسسه يد .

٩

عن الزنا وعن الاغتصاب

يبدو أن نبى الإسلام كان ينظر إلى الزنا باعتباره أمرا يبعث على اضطراب الأسرة، وأنه ينبغى لذلك ألا ينتشر أمره لابين العامة ولا أمام الحاكم. صحيح أنه أمر بأن يرجم أى متزوج يدان بهذه الجريمة، ولكنه أرغم الرجل الذى ينتهك عرضة، والذى يريد اتهام زوجته بمثل هذه التهمة، أرغمه على الصمت حين حتم عليه إحضار أربعة شهود عيان، وجلد من لايستطيع تقديم الدليل على هذا الاتهام ٤٠٠ (*) جلدة. وقد حانت الفرصة ذات مرة لكى يقوم هو نفسه بتطبيق هذا المبدأ، حين جاءه ذات يوم رجل فاجأ زوجته وهى ترتكب جريمة الزنا ليطلب إليه تطبيق العقاب على زوجته الآثمة، فسأله محمد إن كان له على ذلك أربعة شهود، فأجاب الزوج الذى أهين فى شرفه بالنفى. عندئذ قال له محمد إنه سيعاقبه بتهمة القذف فى حق زوجته.

ولم يرد إلا ذكر امرأة واحدة رجمت لأنها اتهمت بالزنا، وقد تم ذلك لأنها هى نفسها التى اعترفت بجريمتها. وعند تنفيذ حكم من هذا النوع فعلى الحاكم أو الوالى الذى يمثله أن يلقى بأول حجر.

وتقضى الشريعة بجلد العزب الذى يتهم بالزنا مائة جلدة، ويجلد العبد الذى يدان بنفس الجريمة والذى يعيش فى كنف سيده خمسين جلدة فقط.

ويدان الزوج الذى يفاجىء زوجته وهى تزنى ثم قتلها، بالقتل، ويلقى عقاب الموت، فليس له فى هذه الحالة إلا أن يطلقها أو أن يلجأ إلى القاضى. وعندما لايتوافر له الشهود فإنه يقسم أربع مرات بأنه صادق فى اتهامه، وفى القسم الخامس يدعو على نفسه باللعنة إن كان كاذبا. وعندما لاترد المرأة بشئ على هذا

(*) ومن المعلوم أن يجلد ثمانين جلدة. كما ورد فى سورة النور آية ٤. (المترجم).

الاتهام ، فإنها تدان بسبب صمتها ، وعقابها فى هذه الحالة عبارة عن جلدها مائة جلدة وحبسها بقية عمرها ، أما إذا برهنت على براءتها بنفس طريقة القسم، فإن القاضى يطلق سراحها . ويكون انفصالها عن زوجها أمرا لامحيص عنه ولا رجعة فيه[1] .

وقد يحدث أن يجد رجل ماعبده فى أحضان زوجته، ومع ذلك فلن يكون له إلا حق عقابه أو بيعه ، أما إذا قتله أو حرمه من أعضائه التناسلية فإنه سيكون قد ارتكب جريمة كبرى . لكن مثل هذه الأفعال العنيفة ستبقى دون شك بغير عقاب ، فى بلد تسيطر فيه العادة والعواطف الجامحة أكثرمما يسيطر القانون، وفضلا عن ذلك فسيكون من السهل على فرد ما أن يخفى جريمة قتل يمكن أن يقترفها داخل منزله، أو يستطيع على الأقل أن يجعل هذه الجريمة تمضى باعتبار أن الموت قد حدث بشكل طبيعى.

ويعاقب على الاغتصاب بمائة جلدة ويلزم لاثباته أربعة شهود .

وبالرغم من أن البغاء جريمة، فإن الشريعة لم تفرض عقابا زمنيا على هؤلاء اللاتى يمارسنه. أما الاضطراب الذى تحدثه النسوة اللاتى يعشن هذه العيشة الدنسة ، فهو من اختصاص الشرطة. وعدد هؤلاء التعيسات فى القاهرة وكذا فى كثير من مدن مصر كبير جدا ، والمقيمات منهن بالقاهرة يدفعن ضريبة للوالى. ولم يفرض محمد على الرجال الذين يتصلون بالبغايا عقوبات زمنية، لكنه أنذرهم بعذاب النار بعد الموت .

---

(١) يقول القرآن عن الزوجة التى تتهم بالزنا : «واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا». النساء ، آية ١٥.

ويقول عن الأمة المتزوجة التى تزنى :« فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » .النساء ، آية ٢٥. (المترجم) .

والفتاة التى تحترف البغاء ثم تصبح أما تفقد فجأة احترام العامة ، ومع ذلك فهى لاتحتقر لدرجة لاتجد معها لنفسها بعد ذلك زوجا. والشخص الذى يتزوجها يقوم بفعل خير فى نظر الله، لأنه ينتشلها من الضياع الذى ستنتهى إليه لامحالة، لكن الرجل الحساس والذى يحرص على تقدير أصدقائه يتفادى ارتباط كهذا، غير أن أمثال هذا الرجل قليلون.

١٠

عن السرقة والقتل ، وعن القصاص

يعاقب على السرقة بقسوة، وبرغم ذلك فلا يعاقب المذنب مطلقا بالموت، إلا إذا كانت السرقة قد اقترنت بالقتل. والشخص الذى يدان بالسرقة مع استخدام العنف داخل محل تجارى أو داخل بيت أو داخل نطاق ما، تقطع يده ، ولكنه إذا ارتكب هذه السرقة من شخص أو من معروضات ، وباختصار إذا سرق خارج مكان مسور، فإن القانون يحكم فقط بضربة بالعصا وبإعادة المسروقات. إذن فاقتحام المسكن وانتهاك حرمته هى التى تشكل خطورة فى هذه الجريمة . ولا تصادر حرية المذنب فى كل الحالات ، ويتركه القضاء لحال سبيله بعد تنفيذ الحكم عليه.

وليس ثمة عقوبات أخرى للخادم أو العبد الذى يسرق سيده، وكذلك لاينظر للشخص الذى يسرق مسجدا باعتباره أكبر جرما من الشخص الذى ارتكب السرقة فى أى مكان آخر.

ولاتضيف العودة إلى السرقة شيئا إلى الجريمة، فالمجرم يلقى فى جريمته الثانية نفس العقاب الذى تلقاه على جريمته الأولى ، إذا ما تمت السرقة فى ظروف مشابهة. فإذا كان قد فقد يده اليمنى تقطع له اليسرى، ويلزم وجود شاهدى عيان لإثبات السرقة، ولاتقبل شهادة النساء مطلقا. وعندما لايستطيع المدعى أن يحضر شهودا، فإن القاضى يلزم المدعى عليه بأداء اليمين ، فإذا رفض يدان، أما إذا أقسم فيعفى عنه.

وإذا تخلص اللص من الأشياء المسروقة ولم يستطع أن يردها، فإنه لايودع السجن من أجل ذلك ، وإنما يدخل ضمن طائفة المدينين المعسرين ، ويمنحه

القانون نفس التساهل . ويحكم على من يقوم بإخفاء المسروقات بإعادة الأشياء التى تسلمها إلى صاحبها، لكن الشرطة تستطيع عقابه بطريقة أخرى . فإذا كانت هذه المسروقات قد بيعت وتعرف عليها صاحبها وأثبت أنها تخصه فى الواقع، فإنه يستعيدها دون أن يكون ملزما بتعويض مشتريها .

وكانت حوادث السرقة منتشرة قبل مجئ الفرنسيين، و كان عدد كبير منها يرتكب داخل البيوت بالرغم من بشاعة العقاب ، و لكن ما أن أصبح على رأس السلطة موظفون فرنسيون حتى أصبحت هذه الجرائم نادرة تماما .

ولاشك أن أكبر وأبشع الجرائم التى على المجتمع أن يقمعها و أن يعاقب عليها، هى جرائم القتل . ويتفق محمد فى الرأى حول هذه النقطة مع كل المشرعين القدامى والمحدثين ، وحكم على القاتل بالموت . لكنه مع ذلك يتميز عن أسلافه ، إذ هو أكثر منهم حنكة فى ذلك الفن الصعب، فن سياسة الأمم، ويتجلى ذلك فى تلك النصوص التى جاء بها حول هذه الجريمة، ليخفف من وقعها ، وليغير من أثرها . فقد أباح لأهل القتيل أن يكتفوا بتعويض مالى ، و ذلك عندما ترك لهم الخيار بين هذا الإجراء ، و بين إنزال القصاص بالمذنب ، فنحن من جهة نقرأ فى الجزء الأول (*) من القرآن : "يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم" . ومن جهة أخرى نقرأ فى الجزئين الثالث والرابع (**) : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله إلاّ أن يصّدقوا، فإن كان من قوم عدوٍّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله» . وفى الجزء الخامس (***) : «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا» .

(*) صحتها فى الجزء الثانى، الآية ١٧٨ البقرة . (المترجم)

(**) صحتها فى الجزء الخامس، الآية ٩٢ النساء .(المترجم)

(***) صحتها فى الجزء السادس ، الآية ٣٢ المائدة .(المترجم)

وتبعا لهذه النصوص المختلفة فإننا نرى أن محمدا مع اعترافه بضخامة الجريمة، ومع تشريعه بعقابها، يميل نحو التخفيف ويحبذ التسامح . ومع ذلك فإن مشاعر اللياقة هذه من جانب المشرع، ليست بذات سطوة كبيرة على عقل وروح الشرقيين، فهذه الشعوب تفضل الانتقام أكثر مما تحبذ هذا التعويض البسيط[١] فليس المال هو الذى يرضيهم ، وإنما يرضيهم رأس القاتل، لذلك فحوادث القتل نادرة فى بلادهم . وينظر إليه رجال الدين باعتباره تعديا على الله ، وعلى أهل البيت ، وعلى الحكومة ، ولكن إذا عفا الورثة بقبول مبلغ على سبيل التعويض، فإن الله بدوره سيعفو لأنه غفور رحيم، وستعفو الحكومة أيضا لأنها لا يمكن أن تكون أكثر تشددا من الطرف الذى يهمه الأمر . من هنا يأتى قانون حق الدم (الدية) ، وهو نوع من الإتاوة يفرض على القاتل فى مقابل رأسه، وينظر إليه كإرث حقيقى. وينتج عن ذلك أن كل من لهم الحق فى إرث القتيل يمكن لهم أن يوقفوا تنفيذ القصاص فى قاتله، وإذا كانت زوجة القتيل حاملا فإنهم ينتظرون إلى اليوم الذى يستطيع فيه الوليد أن يعقل ليفصل فى مصير القاتل .

ويكفى أن يطالب أحد الورثة – مهما كان نصيبه فى الإرث ضئيلا – بحق الدم، لكى لا ينفذ حكم القصاص ، حتى ولو كان الآخرون قد أجمعوا على عقابه .

---

(١) الانتقام هو العاطفة المسيطرة على المصريين . وبينما كنا فى قرية شنديا (مركز إيتاى البارود) كان بعضنا يتنزه ذات يوم مع القائد فى حديقة منزله، عندما جاء شاب يبلغ من العمر ١٤ أو ١٥ سنة ليرتمى تحت قدمى القائد راجيا مستعطفا ويداه مضمومتان إلى صدره وهو يصيح فيه : الانتقام ! فأنهضه القائد وسأله عن سبب صراخه فقال : كان والدى شيخا لشثست الأنعام فذبحه شيخ البلد الحالى منذ أربع سنوات ليتولى منصبه، وإنى أطلب منك الانتقام لذلك «فأجاب القائد وقد أخذه ثبات الشاب وحزمه : «هل لديك شهود؟» فصاح الشاب :«أما شهودى فهؤلاء هم ! » وفى اللحظة أخرج من صدره قميصا مصبوغا بالدم بعث منظره بالفزع إلى قلوبنا : «هذا قميص أبى وقد اخترقته الطلقات التى تلقاها وهو مغطى بدمائه، إننى أحمله فوق قلبى وسيظل فى مكانه هذا حتى أنتقم له» .

وتوصلنا إلى تهدئة هذا الابن البائس واعدين إياه بأننا سندرس الأمر وتركنا وهو نصف راض لأنه كان يظن قبل مجيئه أنه يرى بعينه يوم الانتقام .

وإذا كان أحد الورثة غائبا فإن القاضى يؤجل تنفيذ القصاص، وإذا كان القاتل معروفا ومن السهل العثور عليه، يطلق سراحه، أما إذا كان يخشى من هروبه فإنه يسجن أو على الأقل يفرض عليه أن يقدم كفيلا. ويتحاشى القانون على الدوام وبقدر الإمكان إصدار حكم بالموت، ولكن إذا لم يرد أهل القتيل قبول أى تعويض، فإن القاضى يصدر فى النهاية ذلك الحكم على القاتل ويسلمه للأسرة ، ويسأل ما إن كان أحد من أفرادها يريد تنفيذ الحكم بنفسه . فإذا لم يتقدم أحد، وإذا لم ترشح الأسرة جلادا من عندها، يكلف الوالى الأغا بتطبيق العقوبة .

وتستطيع الأسرة أن تتقدم بعفوها فى أى وقت حتى وقت التنفيذ، وحيث إن الحكم لم يصدر إلا برجائها هى ، فهى حرة فى أن تعفو عن القاتل فى الوقت الذى يتراءى لها . ويبرهن كل هذا بوضوح على أن القانون لا ينظر إلى القتل باعتباره جريمة اجتماعية بقدر ما ينظر إليه باعتباره جريمة فى حق الأسرة، حيث إن القاتل لا يطارد إلا بطلب من أهل القتيل . بل إن الأغا نفسه – وهو يمارس واجباته – لا يستطيع أن يأمر بموت رجل مهما كانت جريمته دون موافقة الحاكم، وينبغى لكى يسمح لنفسه بالتصرف على نحو مخالف، أن يكون المذنب متشردا وليس له أهل ولا نفوذ . وهكذا لم تكن اختصاصات الشرطة فى الأزمان الأخيرة تصل لحد الإعدام، إلا إذا كان الأمر يمس رجالا مجهولين لا أهمية لهم .

ولا يصدر القاضى مطلقا حكما بالإعدام على قاتل إلا إذا قدمت البراهين التامة على الواقعة، وإلا إذا عرفت الظروف كلها وسمعت شهادة الشهود. ويلزم وجود شاهدين على الأقل يشهدان بأنهما رأيا ارتكاب الجريمة، ولا تقبل شهادة واحد بمفرده مهما كان مركزه أو نفوذه، ولا يمكن للنساء أن يشهدن فى قضايا الإجرام ، ولا يلقى بال لشهادتهن إلا فى الأمور المدنية .

وتعتبر شهادة اثنين من دين مخالف ضد مسلم صالحة ومقبولة . وفى الحالة التى لاتكفى فيها الأدلة لإدانة المتهم، فإنه يستطيع بتقديم مبلغ من المال لعائلة القتيل

أن يمحو عن نفسه هذه الوصمة التى يلطخه بهاعادة مثل هذا الاتهام الخطير.

ويعاقب على قتل المرأة بنفس الطريقة التى يعاقب بها على قتل الرجل، ولايضع المذهب الحنفى أية تفرقة كذلك بالنسبة لقتل العبد.

وإذا ما قتل غريب ولم يطلب أحد ثمنا لدمه فإن وارثه - أى الحاكم - يرفع القضية الجنائية عن طريق ممثليه. كما يلاحق السيد الذى يقتل عبده كذلك باسم الحاكم، الحافظ لحقوق المجتمع حسب رأى المذهب الحنفى، أما المذاهب الأخرى فترى أن السيد قد عوقب بما فيه الكفاية بفقده عبده .

وموت الفلاح المدين تحت ضربات عصا المالك، يعرض الأخير لنتائج العمل الإجرامى، ولكن النفوذ وسطوة الثروة الكبيرة أو سطوة أصدقاء لهم نفوذ، تجعله فى معظم الأحوال فوق القانون .

وإذا كانت الشريعة لم تقرر إلا عقابا بسيطا للمسلم الذى يقتل كافرا، فإن الحكومة - وهى يعنيها أن تحمى كل الناس بما فيهم الأجانب شأنهم فى ذلك شأن رعاياها أنفسهم - تحكم بالإعدام على قاتل المسيحى أو اليهودى. وفى عام ١٧٧٠ أو ١٧٧٢ اغتيل أحد الفرنسيين بيد قواس أحد الكشاف ، فأمر أغا الانكشارية بقطع رأس القواس ونفى الكاشف .

وإعدام القاتل لا يحقر من شأن أولاده، فالجريمة عند المصريين وعند كل المسلمين شخصية، بينما تبدو مصادرة الثروات باعتبارها شيئا بشعا وظالما لورثته، لكن هذا الإجراء كان يحدث فى بعض الأحيان أثناء حكم البكوات، وكان ذلك إحدى السوءات التى أدخلوها مع ما أدخلوه من سوءات .

وتحكم الشريعة بالقصاص على الشخص الذى يجرح قرينه «النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص» (*) .

(*) القرآن الكريم، الآية ٤٥،المائدة . (المترجم) .

والشخص الذى يدان بارتكاب هذا الفعل العنيف، يستطيع أن يغتفر فعلته بأن يدفع إلى المجروح نصف المبلغ الذى كان سيضطر لدفعه لو أنه قتله .

ولايمكن أن يحكم بالموت على من قتل خطأ، ولكنه يدين لأسرة القتيل بثمن حق الدم، باعتباره قد حرمها من أحد أفرادها .

وحسبما يرى العلماء فإن الشريعة فوق الحاكم، لذا فإنه لا حق لأحد فى أن يحكم على إنسان مثله بالقتل، إلا إذا كان القاضى هو الذى أصدر هذا الحكم. وفى عهد السلاطين الأول، كان لأهالى الشخص الذى أمر رئيس الشرطة بقتله، الحق فى استدعاء هذا الضابط أمام القاضى ليطلبوا القصاص منه، بل إن السلطان نفسه لايستطيع أن يحكم بالموت كما يتراءى له على مذنب فاجأه هو بنفسه وهو يرتكب جريمته. فقد رأى الغورى سلطان مصر بعينيه واحدا يرتكب جريمة زنا، فجمع القاضى والمذنبين ، وأمر الأول بأن يقتل الأخيرين ، فأجابه القاضى : «أعرف أنك شاهدت هذين اللذين تتهمهما، وكان فى يدك السيف لكى تضرب عنقهما ، لكننى ليس لى الحق فى أن أدينهما بلا أدلة، أحضر لى إذن شهودا حقيقيين أفحص لك القضية » . ويقدم لنا التاريخ مثالا آخر أكثر دلالة على سطوة الشريعة على كبار الأمراء فى أزمنة الإسلام الأولى، فقد استدعى الخليفة هارون الرشيد فى قضية ، وعندما حضر إلى المحكمة استقبله القاضى جالسا ، وفحص القضية وأنهاها بشكل ودى ، ثم نهض القاضى- الذى لم ينهض عند حضور الأمير إذ كان من المحتمل أن يكون مذنبا - بعد الحكم، وصحبه إلى حصانه وساعده على الركوب.

ومع ذلك فتحت الادعاء بأن الصالح العام يحتم على الدوام اتخاذ إجراءات عاجلة، فقد كان الوالى أو رئيس الشرطة الليلية يقطع رأس الشخص الذى يجده متلبسا بارتكاب جريمته ، دون بحث أو تحريات قضائية، ولم يحدث مطلقا منذ أن استقر الأتراك بمصر أن تجاسرت أسرة رجل مات بهذه الطريقة أن تتقدم بشكوى

إلى القاضى، فسيف الوالى صريح وخارج القانون كما يقول العامة . ولكن سلطة رؤساء السلطة - كما سبق أن نوهنا - قد أصبحت فى الآونة الأخيرة أقل استبدادا، فلم يعد رجال الشرطة يقتلون أى شخص إلا إذا حصلوا مقدما على تفويض بذلك من شيخ البلد.

وليس ثمة مأوى له حرمته لقاتل، فهو يلاحق فى كل مكان حتى فى المساجد وحجرات الحريم، ومع ذلك فإن الرجل الكريم الذى يخفيه من غضب الأسرة المكلومة يمتدح بأنه قد قام بفعل خير سوف تكافئه عليه السماء ذات يوم، خاصة إذا لم يكن قد آوى القاتل إلا لكى يلتمس من ملاحقيه توضيح العقاب الذى يطلبونه، أما إذا أصر أهل القتيل على طلب رأس القاتل فإن حاميه يضطر لتسليمه طواعية، وإلا يرغم على ذلك بقوة السلطة.

وحوادث القتل نادرة للغاية فى المدن الكبرى وبخاصة فى القاهرة، وربما لايعود الأمر إلى قوة القانون بقدر مايعود إلى الطابع الخجول للسكان، وإلى يقظة لشرطة المتحفزة على الدوام ، والتى تنقض كالصاعقة . ولكن فى الأقاليم حيث لاتوجد شرطة عمومية، و حيث ترين البلادة والخمول والجهل على الفلاحين وقبائل عربان التى تعمر الريف، فإن حوادث القتل أكثر انتشارا.

وقد دخلت فى عهد محمد بك عادة همجية سببت عددا لايحصى من الجرائم، ففى موسم البرسيم كان سياس (جمع سايس) المماليك يذهبون إلى حقول البرسيم لرعاية الماشية وجمع الكلأ ، وقد تسببت هذه الانتهابات فى كثير من حوادث القتل، وكثرت الشكوى من ذلك لدرجة أن الحكومة تساهلت فى الأمر حتى توفر على نفسها مشقة قمع هذه الأمور الجامحة. وحتى لايعود الأمر يسبب لها من الضيق ماهى فى غنى عنه ، خولت الفلاحين على نحو ما قتل السياس النهابين، كما خولت هؤلاء كذلك حق الدفاع عن حياتهم، شريطة ألا يستخدم أى طرف من الاثنين الأسلحة النارية، ولم يكن القاتل من أى من الطرفين يلقى أى نوع من العقاب .

الفصل السادس

عن التجارة والصناعة والزراعة

١

تجارة مصر منذ العصور القديمة حتى اليوم

كانت مصر على الدوام مركزاً لتجارة هامة، وهى تدين بذلك لموقعها الجغرافى بقدر ماتدين به كذلك لكثرة وتنوع منتجاتها الزراعية، فهى تقع على بحرين، ويمكن القول بأنها تشكل نقطة التقاء بين ثلاث قارات كبرى من العالم القديم، وعلى هذا فقد كانت سوقا كبيرا لمختلف الأمم، حيث سهلت لها سبلَ الاتصال الملاحةُ فى نهرالنيل وفى ترعه وفروعه التى لايحصيها عد . لذلك يخبرنا الكتاب المقدس بنبأ أولئك التجار الإسماعيليين الذين جذبتهم التجارة إلى مصر، فساروا إليها ومعهم أشهر أبناء يعقوب الذى اشتروه. ويبرهن هذا النص الهام - بالإضافة إلى الحكاية التى تليه ، وبطريقة لاتقبل الجدل - على أن بلاد الفراعنة كانت منذ الأزمنه البعيدة مزدهرة ازدهارا كبيرا بفضل التجارة والصناعة. ومع ذلك فإن الخرافات والروحانيات قد وضعت لذلك حدودا، إذ اتخذت شعوب مصر- حسبمايقول هيرودت ومؤرخون آخرون جديرون بالثقة - من البحر عدوا، ونظروا للأسفار التى تتم عن طريقه باعتبارها أفعالا تدنس مقدساتهم. ومن الممكن تفسير هذه الفكرة العجيبة بنفور المصريين الطبيعى من بقية الأمم ، أو بالرجوع إلى البحث فى أنساب آلهتهم . لكن بحثا من هذا النوع سوف ينأى بنا كثيرا عن موضوعنا . ويكفى هنا أن نقول بأن مصر إذا كانت قد ظلت - برغم هذا التحريم - تحتفظ بأهميتها فى مجال التجارة، فإن هذه التجارة تدين برواجها لخصوبة أرض مصر، ولاحتياجات الشعوب المجاورة التى كانت تجد فى مصر، ليس فقط كل ماتحتاج إليه من مواد غذائية، بل كانت تجد كذلك مختلف المنتجات التى تساهم فى إضفاء طابع الفخامة على مدنها الكبرى .

ولعل أول تجارة شهيرة يذكرها التاريخ هى تجارة الفينيقيين مع المصريين، وتجارة المصريين مع الأحباش والجزيرة العربية فى موانى البحر الأحمر. وكان الفرس والهنود يجلبون إلى الجزيرة العربية أقطانهم وعطورهم وأحجارهم الكريمة وبضائع أخرى، وكانوا يحملون معهم عند عودتهم المنتجات الصناعية الفينيقية المصرية. وفضلا عن ذلك كانت توجد فى هذه الفترة وسائل للتبادل التجارى، لم تنتقل تقاليدها إلينا على الإطلاق. أما بخصوص اليونانيين ، فعلى الرغم من أنهم يدينون بأصلهم جزئيا إلى المستعمرات المصرية، فإنهم لم يبدأوا إلا جد متأخرين فى ممارسة علاقاتهم التجارية مع مصر. وقد سمح لهم فى عصر أمازيس بأن يتخذوا من نكراتيس(*)مستودعا لتجارتهم، وهو امتياز لم يكونوا قد حظوا به حتى ذلك الوقت. وقبل هذه الفترة، كانت المستعمرات اليونانية فى آسيا تستطيع الاتصال بمصر ، وبخاصة منذ الدعم الذى قدمه الأيونيون والكاريون Cariens لأبسماتيك على منافسيه، لكن العلاقات بين مصر واليونان لم تصبح طليقة من القيود إلا فى عهد أمازيس .

ومن بين كل الشعوب كان أبناء قرطاجة – بعد الفينيقيين – هم الشعب الذى أثرى ثراء كبيرا عن طريق التجارة، بل ويتفق مؤرخو الأزمنة القديمة على وضعهم فى الصف الأول . وكانت الأساطيل التجارية لهذه الجمهورية القوية تجوب كل أنحاء البحر المتوسط وموانى أسبانيا والشواطىء الغربية من أفريقيا .

ويقول العلامة Huet فى زمن فتوحات الإسكندر: «كانت سفن القرطاجيين والفينيقيين – التى كانت فى ذلك الوقت تحت سيطرة الفرس – تغطى البحار من الهند والحبشة حتى المحيط الغربى» . لكن تخريب مدينة Tyr (حاليا:صور) وانتصارات البطل المقدونى وتأسيس مدينة الأسكندرية قد أحدث ثورة كبيرة فى مسار التجارة البحرية . فقد أصبحت هذه المدينة الجديدة المقر الرئيسى لتجارة الهند فى عصر (فيلالفوس بطليموس الثانى)، وصارت فى ذلك الوقت من أغنى

(*) حاليا : كوم جعيف (المترجم) .

دول العالم، فكانت هى التى تمون كل موانى البحر الأبيض، إذ كانت اليونان وايطاليا وآسيا وأفريقيا تأتى إلى أسواق الأسكندرية للحصول على تموينها . وقد بنى بطليموس الثانى مدينة بيرنيس على البحر الأحمر، وقد سهل ذلك نقل البضائع التى كانت تصل إلى مصر من الهند، فكانت تفرغ فى بيرنيس ، ومن هناك تنقلها القوافل إلى قفط Coptos على النيل، ومن هناك تنزل إلى النهرحتى المكان الذى تبدأ منه ترعة الأسكندرية . وقد اهتم هذا الحاكم كذلك بإنشاء محطات مريحة فى الصحراء للقوافل ، مما جعل هذا السفر الطويل أقل مشقة مما يبدو لأعيننا الآن، ولم يهجر طريق بيرنيس إلا فى أواخر عهد البطالمة .

وكانت كورنثة – فى اليونان – مزدهرة فى الوقت الذى كانت الأسكندرية فيه فى قمة مجدها تحت حكم البطالمة، وقد استطاع أهالى كورنثة الذين أثروا من عملياتهم التجارية، أن يجعلوا من مدينتهم السوق الرئيسية فى الغرب . لكن الوقت لم يطل بها حتى عانت من الآثار البغيضة لغيرة روما، فسلب منها القنصل موميوس Mummius (*) مجدها التجارى بنفس الطريقة التى تدهورت بها مدينة صور فى الماضى بفعل إنشاء الأسكندرية، ففى هذه الفترة أصبحت جزيرة ديلوس Délos (**) – التى كانت لاتعرف حتى ذلك الوقت إلا بمعبدها وآلهتها – المركز الرئيسى لتجارة البحر الأبيض .

وفى العام الـ ٧٢٥ من تأسيس روما تضاءلت مصر لتصبح مجرد إقليم رومانى، ومنذ ذلك الوقت استغل الرومان – وكانوا قد أصبحوا سادة مطلقين للبحار– تجارة الهند لحسابهم، ومع ذلك فلم تكن أساطيلهم تبحر إلى ما وراء الهند حسب شهادة مؤرخى ذلك العصر . وكان اليهود والرومان – كما يذكر بلين Pline– يرحلون من الأسكندرية فى منتصف الصيف، أى فى الأيام الأولى لفيضان النيل

(*) قنصل الرومان عام ١٠٦ قبل الميلاد، وقد استولى على كورنثه وأخضع اليونان . (المترجم) .

(**) من جزر الأرخبيل .(المترجم) .

بلا شك، وكانوا يصلون إلى بيرنيس بعد ٢٤ يوما، ويستغرقون ٧٠ يوما ليصلوا إلى الهند، ولم يكن يلزمهم أقل من عام فى رحلة الذهاب والعودة . واستمرت هذه الحال حتى الغزو العربى أى منذ أغسطس حتى قسطنطين، ذلك لأن إنشاء القسطنطينية على يد هذا الحاكم قد أضر كثيرا بازدهار تجارة مصر، وفيما بعد، عندما عمل الخليفة عمر على إنشاء البصرة على نهر الفرات، وأصبحت تجارة الهند وقفا على هذه المدينة الجديدة، ويمكن القول بأن التجارة قد أصبحت محصورة بحدود الخليج الفارسى. لكن مصر لم تكن قد فقدت بعد ازدهارها القديم: إذ كانت القاهرة التى بناها بعد ذلك الخليفة الفاطمى المعز لدين الله عام ٩٨٤ قد أصبحت مدينة هامة . وفى القرن الثانى عشر استردت الأسكندرية جزءا من امتيازها ، وأصبحت تنهال عليها بضائع الهند من كل جانب، لكن اكتشاف البرتغاليين لطريق يؤدى إلى الهند عن طريق المحيط الأطلسى ورأس الرجاء الصالح، كان هو القشة الأخيرة التى قصمت ظهر مصر، ويمكن القول بأن ذلك قد قلص مكانتها التجارية لدرجة لم تعد تنشغل معها إلا بتجارتها المحلية. وقد تأثر بذلك وبنفس القدر أهالى البندقية وجنوة الذين كانوا قد أثروا لفترة طويلة عن طريق تجارتهم مع القسطنطينية والبحر الأسود وآسيا الصغرى، ثم أضيروا بسبب النتائج التى أدت إليها فى آسيا الاكتشافات البحرية البرتغالية. فقد كان تجار البندقية وحدهم – على وجه التقريب – هم الذين يستحوذون على كل تجارة مصر ، حيث كانوا يأتون إلى الأسكندرية للحصول على كل المواد الغذائية اللازمة لأوروبا، ويحملون إلى مصر أخشاب البناء والمعادن والأصواف والسلاح والزجاج ..الخ . وفى القرن الرابع عشر، عندما استطاع أهالى فلورنسا الارتفاع بمستوى صناعة الحرير والزجاج لحد كبير، فإنهم توسعوا فى علاقاتهم ومبادلاتهم، فكانوايأتون إلى الأسكندرية ويقتسمون التجارة مع أهالى البندقية، وقد كان هؤلاء من قبل لايلقون أية منافسة، وأنشأ أهالى فلورنسا البنوك، واحتلوا مركزا بارزا بين الأمم التجارية فى ذلك العصر.

هذه هى كل عصور التجارة المصرية ، منذ العصور الضاربة فى القدم حتى العصور القريبة من عصرنا. فلنر الآن ماذا أصبحت عليه التجارة تحت الإدارة المخزية للمماليك، وتحت تأثير العثمانيين، وهو لايقل عن تأثير المماليك دمارا.

مما لاجدال فيه أنه لو كانت حالة التجارة لبلد ما تعتمد على الحكومة التى تحكمه ، لكانت مصر قد أوقفت منذ زمان طويل كل أنوا ع التبادل مع الشعوب المجاورة . ومع ذلك فقد كان ثمة تجارة شأنها شأن كل فروع الأعمال التى يحترفها شعب من الشعوب، لقد كان هذا الضرب من ضروب النشاط يسير نفسه بنفسه، لأن كل إنسان يشعر بحاجته إليه. إن من الممكن إعاقتها ولكن يستحيل القضاء كلية على أثرها النافع، وهذا هو ما حدث تحت استبداد المماليك، فكانت المبادلات التجارية تتم على الدوام . وبالرغم من أن عدد البيوتات الأوربية التى استقرت فى القاهرة أو الأسكندرية قد أصبح ضئيلا، فإنه كان ما يزال كافيا للقيام بنشاط كبير فى مجال المعاملات التجارية بين مصر وأوربا . وبخلاف هذه التجارة كان ثمة تجارة أخرى- لاتقل أهمية - بين مصر والقسطنطينية، تلك هى تجارة الرقيق الأبيض من كلا الجنسين ، والذين يبدلون بعبيد سود قادمين من أعماق أفريقيا. وكانت القوافل تجلب إلى مصر من سوريا وفلسطين المواد الغذائية والبضائع المختلفة، لتحمل معها بضائع أخرى عند عودتها.

ولكن أهم فرع من فروع التجارة المصرية كان هو استيراد وتصدير البن القادم من الجزيرة العربية، فكانت السفن تقوم برحلة سنوية من السويس، لتتجه إلى جدة، لتحمل من هناك البن الذى كان عرب اليمن قد جلبوه إليها، كما كانت تحمل الأقمشة والتوابل والبخور القادمة من الهند ، إما عن طريق الإنجليز من البنغال وسورات ومدراس ، وإما بواسطة الهنود أنفسهم. وكانت السفن المصرية تبحر من السويس فى الفصل الذى تهب فيه رياح الشمال ، وكان يلزمها ١٧-٢٠ يوما للوصول إلى جدة . ولم تكن ترفع شراعها إلا أثناء النهار، وكانت تلقى مراسيها فى الليل ، وكانت تحرص على التزام الشاطئ ، ونادرا ما كانت تتوغل فى عرض البحر، وكانت رحلة العودة تستغرق شهرين .

وكانت القوافل القادمة من دارفور وسنار، وكذلك القادمة من بلاد النوبة، تجلب إلى مصر بخلاف العبيد السود من كلا الجنسين، أصنافا عديدة من المواد الثمينة ، مثل : تراب الذهب والعاج والمسك والأبنوس والعنبر وريش النعام والصمغ من مختلف الأنواع . ويفترض مايبه Maillet أن مصر تحصل من فرنسا وايطاليا في العام الواحد على ٤٠٠ - ٥٠٠ ألف قرش، وأنها تحصل من أعماق أفريقيا على ١٠٠٠-١٢٠٠ قنطار من تراب الذهب، وعلى أكثر من مليون ريال فرنسي (écus) من القسطنطينية وآسيا، ثمنا لأقمشتها وبنها وأرزها ومختلف الأنواع من البقول .

وتشتمل تجارة التصدير المصرية أساساً على : الأرز والبن وجلود الماعز والأقمشة والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والخضروات الجافة . وكانت الحنة - وهي نبات يستخدم في صبغ الأظافر والأقدام والأيدي باللون الأحمر البرتقالي - مرغوبة بكثرة في كل البلاد، لأنه كان من عادة المسلمات بصفة عامة استخدامها .

وكان جزء من مالية مصر يذهب إلى تركيا لتسديد الجزية التي يدفعها الباشا للسلطان، مع ما يرسل من هدايا كان يقدمها للوزراء والمقربين من السلطان، حتى يثبت في مكانه . وكان جزء كبير من مال مصر كذلك يختفي عن طريق أبنائها الذين يخشون على الدوام من السلب، وقد انتهت هذه العادة المحزنة - وهي شائعة عند كل الشرقيين - بتسرب كثير من الأموال إلى خارج مصر، وبهذه الطريقة ضاعت على مصر مبالغ طائلة، وإلى الأبد .

وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوربا لصالح مصر بشكل كبير، إذ لم تكن مصر تدفع أموالا على الإطلاق، وكان المقابل يتم دائما في صورة بضائع، بينما كانت أوربا مضطرة في معظم الأحيان إلى دفع الأموال . وكانت فرنسا ترسل الأصواف وصبغة النيلة والأسلحة ومختلف المواد اللازمة لصناعة الحدايد

والنحاس ، أما البندقية فكانت تصدر لمصر العملات الذهبية الإيطالية (سكين Séquins) والخرز والمرايا، أما ألمانيا فكانت ترسل البورسلين والأواني الزجاجية والمواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس .

وكانت مصر ترسل في مقابل ذلك : السنامكي ، والصمغ، وكثيرا من المنسوجات القطنية الخشنة، وغزل القطن، والسكر الخام ، والبن إلى مرسيليا. وكانت ترسل إلى البندقية : كميات كبيرة من البن ، والعقاقير الطبية. وكانت ترسل إلى ألمانيا: العاج ، والأبنوس ، والصمغ .

وكان من المفيد في السنوات الأخيرة إرسال النقود إلى مصر، لأن قيمتها الإسمية كانت في ارتفاع، ويرجع السبب في ذلك إلى ندرة النقود، وإلى أن قيمة العملات الوطنية كانت في تدهور مستمر. أما البضائع الضرورية كالأصواف ونحوها، فكان يفضل الحصول في مقابلها على بضائع، حيث كان سعر هذه الأصواف قد ارتفع .

أما تجارة الهند وجدة، فكانت – على العكس من ذلك – مكلفة لمصر، لأنها لم تكن تصدر في مقابلها إلى هناك إلا أصوافا رديئة، ولأن تجارة البن كانت تقتضي منها أن تدفع ٤/٥ ثمنه نقدا . أما تجارة قوافل أفريقيا فلم تكن تتطلب قطعة واحدة من النقد، وكانت هذه القوافل تجلب – كما سبق القول – العبيد ، والصمغ ، وسن الفيل ، وريش النعام ، وتراب الذهب. وتحصل في مقابل ذلك على : الأصواف الفاخرة ، والمجوهرات ، والأسلحة النارية المصنوعة في أوربا .

ولكي نعطي للقارىء فكرة موضوعية عن تجارة مصر، نضع تحت يده جداول مختلفة ، نوضح فيها بالتفصيل كل مواد الاستيراد والتصدير التي تغذي هذه التجارة، وتعود هذه الأرقام إلى عام ١٧٧٥ .

تفاصيل البضائع المستوردة

من : لندن ، مارسيليا ، ليفورنيو ، البندقية ، تريستا ، القسطنطينية ، وأزمير ، ومدن تركية أخرى – إلى القاهرة للاستهلاك السنوى بمصر عام ١٧٧٥

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
جوخ إنجليزى سوبر فاين (فاخر)	طرد	٥٠	قطعة ذهبية	٢ – ٢ ١/٤	٩٠	ذراع مقاس القسطنطينية
« فرنسى « «	«	٥٠	«	١ – ١ ١/٤	٩٠	«
« هولندى « « «	«	٢٠	«	٢ – ٢ ١/٢	٩٠	«
« فرنسى خشن وعريض	«	٢٥٠	ديوانى	٧٥ – ٩٠	٩٠	«
« إنجليزى « «	«	٢٥٠	«	٦٠ – ٧٥	٩٠	«
« فرنسى عريض	«	١٥٠	«	٥٥ – ٧٠	٩٠	«
« منقوش للأرائك والمخدات	«	١٠	«	٦٠ – ٩٠	٩٠	«
أقمشة صوف إنجليزى	«	٢٠٠	«	٣٢ – ٣٥	٨٥	«
فلفل	«	٣٠٠	–	٣٠ – ٣٥	٦٠	قنطار ١٠٠ رطل
زهرة القرنفل	«	١٠	ديوانى	١٦٠ – ١٨٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
الحشيشة المغربية	بالة	١٠	«	٤٦٠٠ – ٤٧٠٠	٩٠	قنطار ١١٠ رطل
ورق بثلاث هلالات وارد فرنسا أو جنيف	«	١٫٠٠٠	–	١٧ – ١٣	٦٠	بالة ٢٤ رزمة
صوف فاخر من انجلترا يسمى باشماوت	«	٥٠	قطعة ذهبية	٢ – ٢ ٣/٤	٩٠	وزنة القسطنطينية
« من لندن موديل فرنساوى	«	١٥٠	ديوانى	٧٥ – ٩٠	٨٥	«
« ألمانى	«	٦٠	قطعة ذهبية	٢ – ٣	٩٠	«
ورد الشمس ومشروبات روحية أخرى وارد ألمانيا والبندقية	«	١٫٠٠٠	ديوانى	٤٣ – ٤٨	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
نحاس مستعمل	«	١٠٠	«	٢٥ – ٢٨	٩٠	«
ورق تبغ وارد سالونيكا وقولة	«	٥٫٠٠٠	فندقلى	٦ – ١٢	١٤٦	أقة
أقمشة قطنية وارد بورصة	«	٢٠٠	ديوانى	٣٤٠ – ٣٦٠	٨٥	القطعة
مناديل من الموسلين	«	١٠	«	٦٠ – ١٠٠	٩٠	الواحدة
سجاجيد متنوعة من القطيفة وسجاجيد سادة	«	٥٠	قرش	١٧ – ٥٠	٤٠	«
قطيفة منتقاة مطعمة بالذهب أو الفضة أو سادة	«	١٫٠٠٠	بوطاقة	٣ – ١٢	٩٠	الزوج
أقمشة قطنية وحريرية من دمشق وحلب	«	١٠٠	ديوانى	٤٥٠ – ٥٠٠	٩٠	القطعة
صابون سورى درجة ١	«	١٫٠٠٠	«	٣٠ – ٣٢	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
« نقى من كريت	«	٢٫٠٠٠	بوطاقة	١٠ – ١٢	٩٠	قنطار ١٢٠ أقة
تبغ سورى	«	٤٫٠٠٠	فندقلى	١٥ – ١٦	١٤٦	قنطار ٤٠ أقة
تين مجفف من ستانخيو ورودوس	«	١٫٠٠٠	ديوانى	٥ – ٧	٩٠	أقة دراهم

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديواني	الوزن والمقياس
حرير خام من بورصة	بالة	١٠٠	بوطاقة ألمانية	٥ – ٦	٩٠	أقة دراهم
« « « زاجورة	»	٢٠	»	٥ – ٦	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
« أبيض وأصفر من قبرص	»	٥٠٠	»	٥ – ١٤	٩٠	أقة ٤٥٤ درهم
« « « بيروت	»	٥٠٠	»	٤ – ٤١/٢	٩٠	رطل ٥, ٢٢٩ درهم
« « « طرابلس	»	٥٠٠	»	–	—	—
قطن من عكا أو من قبرص وسالونيكا	»	٦٠٠	قرشا	٤٥ – ٦٠	٣٠	قنطار ١٠٠ رطل
تبغ ورق من هنجاريا	»	٣٠٠	فندقلي	١٠ – ١٢	١٤٦	أقة ٤٠٠ درهم
ورق رفيع بثلاث هلالات	»	١٠٠٠	مديني	٩٠ – ١٠٠	٩٠	الرزمة
ورق خشن	»	٥٠٠	»	٦٠ – ٧٥	—	»
« أصناف أخرى	»	٢٠٠	»	٥٠ – ٦٥	—	»
« من ألمانيا	»	١٠٠	»	٨٠ – ١٠٠	٩٠	»
حديد من ألمانيا	الطرد	٥٠٠	–	١٠ – ١٢	٧٣	قنطار ٥, ٢٣٣ رطل
زفت من ستانجيو وردس	صندوق	٢٠٠٠	–	–	—	—
زنجينا	الطن	١٠	ديواني	١٢٠٠ – ١٢٥٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل
حبوب للمسابح والعقود – عادي	»	٢٠٠	–	١٠ – ١٢	٦٠	» ١٢٠ »
« « «	»	١٠٠	قطعة ذهبية	١٠ – ١٢	٦٠	» بالأرطال
« « « وارد هولندا وألمانيا	»	١٠	»	١٨ – ٢١	٦٠	—
أوراق معدنية رقيقة	»	١٠٠	ديواني	٥٥ – ٦٠	٩٠	الباكو
لوندة فرنسية	»	٦٠	زرمحبوب	١٠ – ١١	١٢٠	قنطار ١١٠ رطل
علب كبيرة	»	١٠	ديواني	٤٠٠ – ٤٥٠	٩٠	لكل مائة
زيت من كريت	البرميل	١٠٠٠	»	٢٢ – ٢٤	٩٠	أقة بالدراهم
كسرولات فاخرة	الطن	١٠	مديني	٧٥ – ٨٠	٩٠	»
أسلاك حديدية متنوعة	ط صغير	١٠	بالذهب	٢٦ – ٣٦	٩٠	القنطار ١٥٠ رطل
« نحاس أصفر متنوعة	»	٥	فندقلي	١٨ – ٢٠	١٤٦	» بالأرطال
« نحاسية	»	٢	»	١٦ – ١٨	١٤٦	» »
زئبق	»	٥٠	مديني	٦٠٠٠ – ٦٤٠٠	٨٥	» ١٢٠ رطل
سلال من مختلف الأنواع	صندوق	٦	ديواني	٥٠ – ٦٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
أقراط – سكاكين من أحجام مختلفة – علب للنشوق – زهور صناعية	»	٥٠	–	–	—	السعر حسب الصنف
حبات مسبحة بيضاوية ألوان مختلفة نمرة ٢، نمرة ٣		١٠	ديواني	٩ – ١١	٩٠	المسبحة
حبات مسبحة بيضاوية نمرة ٤		١٠	»	٤ – ٥	٩٠	»
حبات مسبحة بيضاوية زرقاء وخضراء		١٠	»	١٩٠ – ٢٠٠	٩٠	بالألف
حبات مسبحة بيضاوية منقطة	»	٥	»	٨٠ – ٩٠	٩٠	»

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
حبات مسبحة بيضاوية ألوان مختلفة	صندوق	٥	ديوانى	٩ – ١١	٩٠	بالمسبحة
« « من العقيق الصناعى	«	١٠	«	١٩٠ – ٢٠٠	٩٠	بالمسبحة ١٢ – ١٤٠ح
« « « الياقوت نمرة ٢، نمرة ٣	«	١٠	«	١٠ –١٢	٩٠	« « «
أوراق فضية رقيقة	«	١٠٠	–	٢٤ – ٢٦	٦٠	بالصندوق
رقائق نحاسية	«	١٠	قطع ذهبية	٩٠ – ٩٥	٩٠	الباكو ٥ حزمات
مبارد نمرة ١، نمرة ٢	«	٥	ديوانى	١٢ – ١٤	٩٠	بالباكو
سيوف عريضة ذات حدين	«	١٠	«	٨٠ – ٨٥	٩٠	لكل
مواسير بنادق	«	١٠	«	٩٠ – ١٠٠	٩٠	«
نحاس جديد مصنع	«	٢٠٠	«	٦٠ – ٦٥	٩٠	أقة بالدراهم
كلور الزئبق	«	١٠	«	٣٦٠ – ٣٨٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
معدن مضروب إلى رقائق خفيفة	«	١٠	«	٢٠٠ – ٢٢٠	٩٠	بالباكو
شيلان من قماش الأنجورا	«	٣٠٠	نقد ألمانى	١٧ – ١٨	٩٠	بالقطعة
كركم فى علب صغيرة	«	٢٠	ديوانى	٤٣ – ٥٠	٩٠	الأقة ١١٠ درهم
« غير معبأ	«	١٠	«	٨٠ – ٩٠	٩٠	« بالدراهم
أحذية بدون كعوب (بابوش) وارد القسطنطينية وأزمير	«	١٠٠	«	٦٠ – ٨٠	٩٠	الزوج
مستكة وارد خيوس	«	٤٠٠	مدينى	١١٥ – ١٢٠	٩٠	الأقة ٤٠٠ درهم
صلب عادى	«	١٠٠٠	«	٣٠٠ – ٣٤٠	٩٠	القنطار ١٠٥ رطل
« صنف أجود	«	٥٠٠	«	٣٠٠ – ٣٤٠	٩٠	قنطار بالأرطال
أكسيد الرصاص وارد فينسيا	«	٥٠٠	«	٨ – ٩	٦٠	الصندوق
كبريتات الزئبق	«	٢٠	«	٨٤٠٠ – ٨٦٠٠	٩٠	القنطار ١٠٢ رطل
سكاكين ذات مقابض وارد سوريا	«	٠	–	–	–	السعر حسب الصنف
سكاكين بدون مقابض	«	١٠	مدينى	٤٠ – ٤٣	٩٠	الحزمة
مقصات ضخمة	«	٥	«	١٣ – ١٩	٩٠	الدستة
أمواس ممتازة وعادية وارد ألمانيا	«	١٠	«	٢٠ – ٢٥	٩٠	–
أكواب زجاجية ومرايا متنوعة وارد فينيسيا	«	٥٠	ريال ألمانى	٣ – ٥٠	–	كل حسب حجمه
مرايا وارد ألمانيا	«	٢٠	«	٦ – ٤٠	–	« «
أكواب زجاجية ومرايا وارد بوهيميا	«	١٠	–	–	–	السعر حسب الصنف
مشروبات روحية وارد أسبانيا	«	٥٠	مدينى	٢٤ – ٣٠	٩٠	الصندوق
زجاج مرايا بدون إطار	«	٢٠٠	فندقلى	٦ ١/٢ – ٨	١٤٦	«
رصاص على شكل سبائك	«	٢٠٠٠	ديوانى	٤٧٠ – ٤٩٠	٩٠	القنطار ١٤٠ رطل
زرنيخ أصفر وأبيض	«	٢٠٠	«	٥٠٠ – ٥٦٠	٩٠	« ١٢٥ «
أكسيد النحاس على شكل قطع	«	٢٠	«	٧٠ – ٧٥	٩٠	الأقة ٤٠٠ درهم
إبر نمرة ١، ٢، ٣، ٤	...	١٠٠٠٠٠	«	٣٥٠ – ٣٨٠	٩٠	بالألف
دبابيس	–	١٠٠٠٠٠	«	٣٠٠ – ٣٥٠	٩٠	«
سنارات أنواع مختلفة	–	١٠٠٠٠	«	٢٠ – ٣٠	–	«
رقائق نحاسية وأسياخ حديد	–	٢٠	مدينى	٢٢٠٠ – ٢٣٠٠	٩٠	القنطار ١٥٠ رطل

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
ألواح زجاجية من البندقية سادة ومنقوش	–	–	–	–	–	–
الصنوبر (للصباغة باللون الأحمر)	صناديق	١٠	ديوانى	٨٤٠٠ – ٨٦٠٠	٩٠	قنطار ١٢٠ رطل
حلوى من فرنسا وجنيف	العلبة	٢٠٠	»	٨ – ٣٠	٩٠	العلبة
تبي مخفف من أزمير	»	٨٠٠٠	»	٨ – ١٢	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
قطران (زفت) من ستانخوس ورودس	القربة	٥٠٠	–	–	–	–
صبغة النيلة	البرميل	١٠٠	قطعة ذهبية	١٠ – ١٦	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
جوزة الطيب	»	١٠	ديوانى	١٦٠ – ١٧٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
قصدير باللفة	»	٣٠٠	»	١٢٠٠ – ١٣٠٠	٩٠	قنطار ١٠٢ رطل
عقاقير لعلاج العيون	»	٢٠٠	»	٤٧٠ – ٤٩٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل برميل
جيلامين لتنظيف الأسنان	»	٣٠٠	»	١٤٠٠ – ١٤٦٠	٩٠	» ١٠٢ » »
ألواح قصدير	»	١٠٠	–	٣٦ – ٤٠	٦٠	البرميل ٤٥٠ لوح
أكسيد الرصاص الأحمر	»	٢٠	ديوانى	٥٢٠ – ٥٤٠	٩٠	قنطار ١٣٠ رطل
سكر من لشبونة	»	٤٠	قطعة ذهبية	١٠ – ١٣	٩٠	» ١١٠ »
شبة من انجلترا	»	١٠٠	ديوانى	١٠٠٠ – ١٠٥٠	٩٠	» ١٥٠ »
كبريتات	»	٥٠	»	١٦٥ – ١٧٥	٩٠	» ١٥٠ »
مسامير كبيرة الحجم	»	١٠٠	قطعة ذهبية	١٩ – ٢٤	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
آنية حديدية	»	٢٠	مدينى	٢٢ – ٢٥	٩٠	» » »
» نحاسية	»	١٠	»	٧٠ – ٧٥	٩٠	» دراهم
زيت من المغرب وتونس	الجرة	٤٠٠٠	ديوانى	٢٤ – ٢٨	٩٠	» ٤٠٠ درهم
صابون رخو من المغرب	»	٥٠٠	»	٢٢ – ٢٤	٩٠	» دراهم
تبغ مدقوق	»	١٠٠	مدينى	٥٠ – ٦٠	٩٠	» »
مزاول	الواحدة	٢٠	قطعة ذهبية	٣٠ – ٤٠٠	–	الواحدة
بندول	»	٥٠	»	١٥ – ١٠٠	–	»
أقمشة من البندقية أرجوانية اللون تسمى ساى	القطع	٢٠٠	»	٣ ١/٤ – ٣ ٣/٤	٩٠	ذراع القسطنطينية
أقمشة أرجوانية اللون	»	٥٠	»	٤ ١/٢ – ٥	٩٠	»
» تسمى بدوانيل نصف فاخرة	»	٢٠٠	»	٢ – ٢ ١/٢	٩٠	»
أقمشة حريرية وكتانية سادة للقمصان	»	١٠٠٠	نقود ألمانية	٥ – ٧	٩٠	القطعة
أقمشة قطنية خشنة من القسطنطينية	القطع	١٠٠٠	ديوانى	٨٠٠ – ٨٥٠	٩٠	»
فلانيلة منقوشة من ألمانيا	»	٥٠٠	مدينى	٣٠ – ٣٥	٩٠	ذراع القسطنطينية
جوخ خشن وارد ألمانيا	»	٢٠٠	»	٥٨٠	–	–
مناديل متنوعة وارد ألمانيا	»	١٠٠	ريال ألمانى	٨ – ١٠	٩٠	القطعة
» كتانية » »	»	١٠٠	»	٢ ٣/٤ – ٣	٩٠	»
قماش أبيض سادة ومنقوش	»	١٠٠٠	–	–	–	حسب الصنف
» مشمع سادة ومنقوش	»	١٠٠٠	ريال ألمانى	٨ – ٦	٩٠	القطعة

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
ساعات ذهبية وفضية	الدستة	٢٠	قطعة ذهبية	٢٠ – ٢٠٠	–	الواحدة
عقيق صناعى	»	٢٠٠٠	ديوانى	٢٤ – ٣٠	٩٠	–
مناديل أنواع مختلفة	»	٢٠٠	مدينى	٥٨٠ – ٦٠٠	٩٠	الدستة
ورق مذهب	الرزمة	١٠٠	ديوانى	٢٩٠ – ٣٢٠	٩٠	الرزمة
» »	»	١٠٠	»	٤٩٠ – ٥٢٠	٩٠	»
» مفضض	»	١٠٠	»	٨٠ – ١٠٠	٩٠	»
ساتان من فلورنسا درجة أولى وثانية	الذراع	١٠٠٠	»	٩٥ – ١٠٠	٨٥	ذراع القسطنطينية
ساتان من فرنسا درجة أولى وثانية سادة ومنقوش	»	٥٠٠	»	١٠٠ – ١٢٠	٨٥	»
أقمشة مذهبة ومفضضة من فرنسا وفلورنسا	»	٦٠٠٠	قطعة ذهبية	٣ – ١٠	٨٥	»
ساتان عريض وسميك	»	١٠٠٠	ديوانى	٦٠ – ١٠٠	٨٥	»
» خفيف وغير عريض	»	١٥٠٠	»	٤٥ – ٦٠	٨٥	»
» عريض ومتين من ألمانيا	»	٥٠٠	»	١٢٠ – ١٥٠	٨٥	»
» تفتاز أسود وأبيض من البندقية	»	٤٠٠	»	٩٥ – ١٠٠	٨٥	»
ساتان من فرنسا نمرة ١ و نمرة٢	»	٥٠٠	»	١٠٠ – ١٢٠	٨٥	»
قطيفة مضلعة وسادة	»	٢٠٠	قطعة ذهبية	١ ١/٢ – ٢	٨٥	»
ساتان مضلع وسادة	»	٦٠٠٠	مدينى	٦٠ – ٨٥	٨٥	»
ساتان مذهب ومفضض	»	٤٠٠٠	»	١٥٠ – ٣٦٠	٨٥	»
أقمشة مذهبة ومفضضة من البندقية	»	٢٠٠٠	ريال ألمانى	٣ – ١٢	٩٠	»
أقمشة متجانسة من دمشق	»	٢٠٠٠	مدينى	١٠٠ – ١٦٠	٩٠	»
كبريت عمود	القنطار	٢٠٠٠	ديوانى	٢٠٠ – ٢٥٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل
عنبر أبيض نمرة ١	الأقه	١٠٠٠	»	٥٥٠ – ٦٥٠	٩٠	. رطل ١٤٤ درهم
مرجان وارد فرنسا وراجوزة وليفورنيو	الرطل	٢٠٠٠	»	٧٢٠ – ٣٤٠٠	٩٠	رطل ١٥١ درهم
عنبر أصفر نمرة ١	الأقة	٤٠٠٠	»	١٨٠٠ – ٢٠٠٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
شرائط من القصب أو الحرير مذهبة ومفضضة	المثقال	٦٠٠٠	»	٣٠ – ٣٥	٨٥	ذراع القسطنطينية
رقائق ذهب وفضة	»	٢٠٠٠	»	٢٨ – ٣٢	٨٥	مثقال
خيوط ذهب وفضة	»	٥٠٠٠	»	٢٥ – ٣٠	٨٥	»
شرائط قصب وحرير ذهبية وفضية من كل الأنواع	»	٣٠٠٠	مدينى	٣٠ – ٣٥	٩٠	»
حديد من السويد ومسكوفيا	قضبان	٦٠٠٠	–	٨ – ٩	٧٣	قنطار ١/٣ ٢٣٣ رطل
فرنامبوك (خشب الطلاء)	الكتلة	٢٠٠٠	ديوانى	٨٥٨ – ١٠٠٠	٩٠	» ١٢٥ رطل
خمور من كل الأنواع من أسبانيا وفرنسا وتوسكانيا	–	–	–	–	–	الثمن حسب الصنف
بنادق صيد وطبنجات إنجليزى أحجام صغيرة	–	–	قطعة ذهبية	١٠ – ٥٠	–	–

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
ألواح خشبية للمبانى من كل نوع	–	٦	–	–	–	الثمن حسب الحجم
أخشاب من رودينا والبحر الأسود وقردوغلى	الحمولة	١٠	–	–	–	» » »
فستق من سوريا بكميات صغيرة	–	–	ديوانى	٣٠ – ٤٠	٩٠	أقة بالدراهم
راتنج (صمغ صنوبر) من سالونيكا بكميات صغيرة	–	–	–	–	–	–
أقمشة تيلية للقلاع مستوردة من روسيا وبكمية صغيرة من تريستا	–	–	–	–	–	–
أنواع نحاسية ونحاس بكميات صغيرة وارد تريستا	–	–	–	–	–	–
أقمشة دمشقية مختلفة الأنواع	–	–	–	–	–	–

مجوهرات القسطنطينية مجهزة أو غير مجهزة

الماس، زمرد، لآلئ من كل الأصناف .

١٠٠٠ قيراط من الألماس الأحمر من حلب ، ويفقد القيراط من ١٠ – ٣٠ خردة حسب الصنف، تفقد اللآلئ من ٢ – ٨ خردة فى المثقال الواحد ، أما اللآلئ الكبرى فحسب النوع .

الجلود : جلد الجبة ، وتأتى من روسيا ، وتشمل جلود الذئب الأبيض والأصفر والسمور ، وتساوى الواحدة من ١٠ – ٢٠٠ خردة .

الخمور: من قبرص وجزر أخرى من الأرخبيل.

موازين البضائع المختلفة بشكل عام فى القاهرة

الأقة فى القاهرة = ٤٠٠ درهم ، وهى تساوى أقة القسطنطينية إلا بخصوص الحرير الوارد من بورصة Bursa وراجوزة وقبرص ، حيث تساوى الأقة ٤٠٤درهم.

الرطل = ١٤٤ درهم .

رطل الحرير السورى = ٢/١ ٢٢٩ درهم .

وعند وزن مختلف الأنواع يخصم الوزان العيار العديل (وزن الوعاء) عن كل الطرود والبراميل ... الخ .

ومع ذلك فإنه يوجد على الدوام فضلات أكبر مما يفترض فى الواقع، حيث يصل القنطار إلى ١٠٢، ١٠٥، ١١٠، ١٣٠ رطلا من كل ١٠٠ . وينبغى أن نلاحظ أن هناك بضائع يبلغ القنطار فيها بعد خصم العيار العديل إلى ١٥٠ أو ١٣٣.٣/١ بدلا من ١٠٠ .

١٠٠ رطل فى القاهرة تساوى بالضبط ١٠٠ لبرة فى لندن .

و = ٢/١ ١١٢ لبرة (Livra) فى مارسيليا .

و = ١٣٠ لبرة (Livra) فى ليفورنيو، = ١٥٠ لبرة صغيرة فى البندقية، و١٠٠ لبرة كبيرة فى البندقية أيضا، وفى تريستا نفس الشئ .

١٠٠ فوندى فى تريستا أو البندقية = ١/٢ ١١٧ لبرة كبيرة فى البندقية، و١٨٥ لبرة كبيرة فى تريستا .

١٠٠ رطل فى القاهرة = ٣٦ أقة فى القسطنطينية وأزمير .

النقود التى يفضل استخدامها فى عمليات الشراء

قطعة ذات ٧٣ مدينى أو ديوانى

قطعة ذات ٧٠ مدينى أو ديوانى

قطعة ذات ٦٠ مدينى أو ديوانى

قطعة ذات ٣٣ مدينى أو ديوانى

قطعة ذات ٦٠ مدينى أو ديوانى

الفندقلى ويساوى ١٤٦ ديوانى .

المجوهرات الذهبية والفضية

١ قيراط = ٤ حبات

١ درهم = ١٦ قيراطاً

١ مثقال = ٢٤ قيراطاً

١ أوقية = ٢/١ ٨ دراهم

١٠٠ قيراط بنغالى = ١١٢ درهماً .

وتباع المجوهرات المجهزة دون وزن ، وتباع الأحجار الكريمة بالقيراط دون

خصم العيار العديل ، وتباع اللآلئ بدون خيط وبدون خصم العيار العديل ، أما إذا كانت ملضومة فتوزن ١٠٥ في مقابل ١٠٠ ، ويوزن المرجان مع أحبال حريرية صغيرة ، والعيار العديل هو ١٥١ درهماً مقابل ١٤٤ ، ويباع بالرطل أو الدرهم .

١٠٠ درهم من وزن القسطنطينية من المجوهرات الذهبية أو الفضية =١٣٣درهماً في القاهرة ، أما جواهر البندقية التي تزن في أوربا ١٨ قيراطاً فيجب أن تعطى في القاهرة ١/٢ ١٨قيراطاً، وهذا الفرق يساوي مقدار ربع حبة.

١٠٠ قيراط بوزن البندقية لا بد أن تساوي في القاهرة ١٠٢ قيراط .

والقطعة الذهبية من المجر تزن نفس وزنها الأصلي، أما الدينار الذهبي الأسباني (دوبلون) فيزن في القاهرة ٩دراهم، ويزن الفندقلي ١٨قيراطاً، ويزن الواحد من الزر محبوب ١/٢ ١٣قيراطاً ، وتزن قطعة الخردة ٩ دراهم .

أما المقاييس المستخدمة في القاهرة بالنسبة للأقمشة فهي ذراع القسطنطينية ، أما ذراع القاهرة فهو أقصر، ويستخدمه التجار لبيع القطاعي .

قيمة العملات الأجنبية التي تصل القاهرة عن طريق التجارة

السكين Séquin البندقي = ٢ خردة و ١٣ – ١٨ مديني حسب المنطقة، القطعة الألمانية = ٢ قطعة ذهبية و٥ – ١٠ مديني، ويبلغ سعر الدوبلون الأسباني والسكين البربري والمراكشي والجزائري والتونسي والطرابلسي ١٣٠ – ١٤٠ مديني، أما الدولار الأسباني ذو العمودين أو القرشين فيساوي ١ خردة (بوطاقة) و٣ – ١٥ مديني ، ويستخدم بخاصة في الفكة . وهذا بخلاف كميات كبيرة من أنواع أخرى من النقود ومن تراب الذهب والسبائك التي تجلبها القوافل . وتراب الذهب عادة رخيص الثمن، لكنه منذ فترة قصيرة بدأ يستخدم بكميات كبيرة في صنع قطع النقود الصغيرة في القاهرة .

المقاييس الأجنبية مقارنة بمقاييس القاهرة

الذراع الإنجليزى ١ ١/٤ من ذراع القسطنطينية ، وهو المقياس المستخدم فى القاهرة .

ذراع مرسيليا = ١ ٣/٤ من ذراع القسطنطينية، ذراع البندقية = ذراع القسطنطينية بالنسبة للأقمشة الصوفية، أما بالنسبة للأقمشة الحريرية فإن ١٠٠ ذراع بندقى = ٩٣ من ذراع القسطنطينية ، و١٠٠ ذراع تريستى = ١٠٤ ٣/٤ من ذراع القسطنطينية .

البضائع التى تصدرها مصر

إلى: لندن ، ومارسيليا، وليفورنيو، والبندقية ، وتريستا ، والقسطنطينية، وأزمير، وسالونيكا، وبلاد أخرى فى تركيا .

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	العملة التى تباع بها	السعر	ديوانى	الأوزان والمقاييس
بن وارد اليمن	بالة	٣٠٠٠٠	دولارتوسكانى	٢٣ - ٢٨	٨٥	قنطار ١٠٥ رطل
خشب السنط	–	–	»	٢٠ - ٢٠	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
خشب السنط وخشب زغرتا	–	–	»	٢٨ - ٣٢	٦٠	قنطار ١٠٠ رطل
جوز القئ	–	–	»	١٩ - ٢١	٦٠	»
المر بأنواع مختلفة	–	–	»	٤٣ - ٣٤٦	٦٠	»
مر فقط	–	–	»	٧٨ - ٨٢	٦٠	»
الحلتيت (صمغ لتسكين التقلصات)	–	–	»	٢٨ - ٣٣	٦٠	»
جذور الزعفران	–	–	»	٢٨ - ٣١	٦٠	»
قرفة	–	–	»	٢٨ - ٣٣	٦٠	»
قرفة شرقية	–	–	»	١٨ - ٢٢	٦٠	»
كتان مغزول	–	٣٠٠	»	٤٠ - ٤٥	–	بالة ٢٠٠٠٠ كيس
فلفل طويل	–	–	ديوانى	٧٥ - ٨٥	٩٠	أقة بالدراهم
جلود ثيران بأحجام مختلفة	–	٤٠٠٠	مدينى	٢٢٠ - ٣٠٠	–	للجلد الواحد
» » » »	–	٦٠٠٠	»	١١٠ - ١٣٠	–	»
جلود بقر	–	٣٠٠٠	»	٩٥ - ١١٠	–	»
قماش خشن أزرق يسمى منون	بالقطع	٤٠٠٠	»	٩٠ - ١٠٠	–	للقطعة
قماش خشن أبيض	»	٤٠٠٠	»	٦٥ - ٨٠	–	»
لآلئ	–	–	ديوانى	١٥٠٠ - ١٦٥٠	٩٠	
صمغ عربى من سنار	–	–	دولارتوسكانى	١٦ - ٧٣	٧٣	قنطار ١/٢ ١٣٣ رطل
صمغ عربى من جدة	–	–	فندقلى	٥ - ٦ ١/٢	١٤٦	»
» » » »	–	–	دولارتوسكانى	١٣ - ١٥	٨٥	قنطار بالرطل
» »	–	–	»	١٠ - ١٣	٨٥	»
غاز الأهليلج (للأفران الطبية)	–	–	قطع ذهبية	١١ - ١٣	٦٠	–
بخور	–	–	»	١٣ - ١٨	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
بخور من مختلف الأنواع		–	»	٨ - ١٠	٦٠	قنطار
سن الفيل	القنطار	–	»	٦٠ - ٦٥	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
زهور الزعفران قطفة أولى وثانية	»					
زراعة الصعيد	»	٢٠٠٠٠	»	١٨ - ٢٢	٦٠	قنطار رطل
تمرحنه		٢٠٠٠	»	١٩ - ٢٢	٦٠	قنطار
ملح النشادر إنتاج الجيزة نمرة ١	»	٢٠٠٠	دولارتوسكانى	٥٠ - ٥٥	٨٥	٧٢ اقة او ٢٠٠ رطل
ملح النشادر إنتاج المنصورة ورشيد نمرة ١		٨٠٠٠	»	٤٠ - ٤٨	٨٥	» »

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	العملة التى تباع بها	السعر	ديوانى	الأوزان والمقاييس
البلح	قنطار	٣٠٠٠	دولارتوسكانى	٢ ١/٢ - ٤	٨٥	قنطار ١٢٠ رطل
السلمكة	»	١٠٠٠٠	القطع الذهبية	٣٠	٦٠	» ١١٠ »
الجراب	»	٢٠٠٠	»	٣٥	٦٠	قنطار بالرطل
بودرة السلمكة	»	٢٠٠٠	»	٥	٦٠	»
قطن مغزول	»	٦٠٠٠	زرمحبوب	١٠ - ١٤	١٢٠	»
الفتنة	»	٣٠٠٠	دولارتوسكانى	٣ ١/٢ - ٤	٨٥	قنطار ١٥٠ رطل
صوف بعبله	»	٤٥٠٠	–	–	–	–
كتان أصناف متعددة	»	٣٠٠٠٠	–	–	–	–
لونده هندى من الهند	–	–	ديوانى	١٩٠ - ٢١٠	٩٠	أقة بالدراهم
كركم	–	–	»	١٨ - ٢٢	٩٠	»
حبهان كبير	–	–	»	١٤٠ - ١٦٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
حبهان صغير	–	–	»	٣٥ - ٤٥	–	أقة بالدراهم
دم التنين	–	–	مدينى	١٠٠ - ١١٥	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
دم التنين ناعم وارد الهند	–	–	»	١٢٠ - ١٣٠	٩٠	»
شمع جديد	قنطار	٢٠٠٠	»	٥٠ - ٦٠	٩٠	»
أفيون نمرة ١ ، ٢	–	–	»	٣٦٠ - ٤٠٠	٩٠	»
حنة للصباغة بالأحمر	زكيبة	٨٠٠٠	»	١٤٠ - ٥١٠	٨٥	الزكيبة ٣٥ أقة
حنة للصباغة بالأصفر	»	٨٠٠٠	»	١١٠ - ١٢٠	٨٥	»
حب اليسر	–	–	فندقلى	١٩ - ٢١	١٤٦	–
أرز دمياطى	الأردب	٣٠٠٠٠	بالقطع الذهبية	٣٨ - ٤٠	٣٠	الأردب ٢٢٥ أقة
أرز رشيدى	»	٢٥٠٠٠	»	٢٣ - ٢٥	٣٣	الأردب ١٥٣ أقة
كميات كبيرة من الأقمشة الكتانية والقطنية من الصعيد وإمبابة ورشيد ودمياط	–	–	–	–	–	–

العملات المتداولة فى القاهرة

يستخدم المدينى والديوانى فى الفكة، أما الزر محبوب فيساوى ١٢٠ مدينى، ويساوى القرش ٤٠ – ٦٠ مدينى .

وثمة عملة أخرى من راجوزة تقيم بـ ٦٠ مدينى ، وهى عملة مطلوبة فى آسيا ، وترسل منها كميات كبيرة إلى سوريا حيث تلقى إقبالا كبيرا .

أما الـ بوطاقة أو الخردة فإن سعر استبدالها العادى يبلغ فى رشيد والأسكندرية ودمياط ٨٦ مدينى، ويصل فى القاهرة إلى ٨٥ مدينى ، وبسبب ندرتها ارتفع سعرها الآن إلى ٩٢ مدينى . أما فى تجارة المواد الغذائية الغالية فهى تساوى ٨٥، ٩٠، ٩٢ مدينى . أما الدولارات التوسكانية التى تعرف باسم البوطاقة فتتداول بسعر ٨٠، ٨٢ مدينى ، وهى تساوى قطعة الخردة، وتفضل فى آسيا .

وتصل قيمة فندقلى القسطنطينية ١٦٠ مدينى ، ولكنه نادر .

ويتفاوت مقدار الرسوم المفروضة على البضائع المستوردة من أوربا وآسيا بحسب أثمانها، فهى تبلغ ٨٪ على المجوهرات ، وبالنسبة لصبغة النيلة وبضائع أخرى ثمينة ٩٪، الجوخ والورق ... الخ ١٣٪، الرصاص وبضائع أخرى رخيصة القيمة ١٥ – ١٦٪ ، البضائع الواردة من تركيا ٢٠٪ . أما بالنسبة للرسوم الجمركية فتتراوح بين ٨ – ١٥٪ ، أما الأخشاب وورق التبغ والصابون والفواكه فتدفع رسومها نقدا .

أما البضائع المصدرة من مصر إلى أوربا. فتبلغ الرسوم المفروضة عليها من ١٥ – ٢٠٪ ، وينبغى على هذه البضائع أن تدفع رسوما إلى القناصل وإلى أشخاص آخرين حتى تحصل على تصريح بالخروج . وكان تصدير البن والأرز والحبوب ممنوعا فى معظم الأحيان . وتحصل البضائع المصدرة إلى تركيا على بعض التسهيلات حسب الظروف. وكانت حسابات البن والأرز والصمغ العربى وارد

سنار والبخور والفتنة وملح النشادر الجيد وأخشاب السنط الممتازة وبضائع أخرى – كانت تسوى نقدا، وفى بعض الأحيان كانت تقايض ببضائع أخرى، ويمكن شراء البضائع الأخرى عن طريق المقايضة مع تقدير سعرها بحسب سعر السوق.

وتختلف تجارة مصر اختلافا بينا عن تجارة أوربا، بسبب الاضطرابات الكبيرة التى تتعرض لها الحكومات، وبسبب أحداث أخرى تتعرض لها التجارة، فتنخفض حركتها بشدة أثناء بعض هذه الأحداث، أو تزدهر خلال أحداث أخرى، لذلك ينبغى أن يكون التاجر يقظا ، وعليه على الدوام اقتناص الفرص المواتية .

وشهر رمضان هو الشهر الملائم لبيع المنسوجات الصوفية والحريرية، ففى هذا الوقت يشترى العامة وكذا أبناء الطبقة العليا ملابس جديدة لأنفسهم ولزوجاتهم وخدمهم .

وتجلب سفن وقوافل جدة البن والبخور والصمغ وبضائع أخرى من الهند والجزيرة العربية والحبشة، وعندما تعود إلى جدة، تحمل معها النيلة والرصاص والحديد والحلى الزجاجية وبضائع أخرى تستورد من البندقية، خاصة باليمن والحبشة والهند .

وكانت بضائع الهند تأتى دوما مع محمل الحج، وهذا ما يعفيها من دفع الرسوم فى القاهرة، إذ كان للمحمل امتياز عدم دفع أية رسوم على الإطلاق .

وكانت قوافل النوبة تجلب الصمغ العربى من سنار، وسن الفيل وبضائع أخرى من هذا البلد أيضا، وتأخذ عند عودتها الجوخ الفرنسى المسمى لوندران والجوخ الإنجليزى والورق والقرنفل والمرجان .. الخ وأنواعا مختلفة من خزف المحلة وطنطا الذى تقوم عليه تجارة كبيرة . وتجلب هذه القوافل أيضا كمية كبيرة من تراب الذهب ، الذى يباع عادة بـ ٢٠٠ – ٢٠٨ بوطاقة لكل ١٣٥ درهم، ولكن منذ عهد محمد بك استخدم تراب الذهب بكميات كبيرة فى ضرب النقود ، مما جعل سعر هذه الوزنة يرتفع إلى ٢١٢ – ٢١٦ حسب الجودة .

وشهرا يوليو وأغسطس هما وقت الزعفران والحناء والبلح، أما سبتمبر وأكتوبر فهما شهرا الأرز والكتان، وديسمبر ويناير للسنامكى والفتنة، وفى هذه الفترة ينبغى على المرء أن يختزن بضائع جيدة سيبيعها بربح مضمون ومجز لحد كبير .

وسوف يكون الأمر مجحفا بالنسبة للذين يرسلون بضائعهم من أوربا لوتعجلوا بيعها فى الحال، ذلك أن التجار المصريين المتفهمين للأمور سيبخسون هذه البضائع حقها، كما أنهم سيحاولون - فى نفس الوقت - أن يبيعوا بأغلى سعر يستطيعون الوصول إليه ، تلك البضائع التى يراد إرسالها فى مقابل البضائع التى اشتروها بهذه الطريقة .

ولقد كانت هذه عادة الفرنسيين فيما مضى، ولكنهم عندما تبينوا العاقبة السيئة لذلك ، أنشأوا لأنفسهم محلات واتخذوا لهم وكلاء ، ووصلت بذلك تجارتهم لدرجة مزدهرة، لحد أنهم استطاعوا أن يكتسحوا - على وجه التقريب - كل الأجناس الأخرى .

٢

عن حالة الصناعة

لا يمكن لملكات شعب من الشعوب - ذهنية كانت أم روحية - أن تنمو، وأن يجنى هو بالتالى ثمرات ذلك، إلا فى ظل أنظمة ترعاها، وينطبق هذا القول نفسه على الصناعة، وإلا فإنها ستظل راكدة حيث لا اختراع ولا تحسن . وهكذا، فإن الحرف والمنتجات الصناعية فى وادى النيل تشى بحضارة لا تزال فى طور الطفولة، أو تشى بالأحرى بتقاعس العمال وأصحاب الأعمال، فليس ثمة شئ دقيق، أو معتنى به يخرج من المصانع المصرية إذا ما استثنينا التطرين، فالمنسوجات القطنية والصوفية و بقية الأشياء ذات الاستعمال الطويل، تظهر بشكل خشن وغير دقيق، لحد سوف يذهلنا إذا نحن لم نلق بالا لتلك الظروف التى يحياها الشعب الذى أنتجها. فلقد ظل المصريون المحدثون - برغم كل العناصر التى كان يمكنها أن تؤدى للنماء والازدهار - متخلفين، لأن سطوة الطغيان قد حصرت عقولهم، بل يمكن القول بأنها شلت قدرتهم على التفكير . وليست مصر هى الدولة الوحيدة فى كل دول الشرق التى تحيا فى مثل هذه الحالة المحزنة ، بل إننا نرى - للأسف الشديد، فى كل مكان من الشرق - نفس التدهور ، ونفس الجمود، ونفس النتائج .

ومع ذلك، وبالرغم من تلك الحياة المنحطة التى قدر على المصريين أن يحيوها فى ظل حكومة المماليك، فإنه لم يفتهم حتى الآن أن يستغلوا شيئا من المصادر الهائلة التى تهيئها منتجات أرضهم للصناعة ، فصناعة الأقمشة الخشنة من القطن والكتان، تتيح فرص العمل لألوف الأيدى . وتقوم المحلة الكبيرة – وهى مدينة يبلغ تعدادها حوالى ثمانية آلاف نفس – بصنع أقمشة حريرية وشيلان من الحرير تعرف باسم شيت وحرير، وبعض المنسوجات القطنية الخشنة، ونوع من التفتاز الأسود تستخدمه زوجات البكوات كنقاب يتخفين به . ويعمل فى هذه المصانع ٨٠٠–٠٠٠ر١ عامل من كلا الجنسين، ومن مختلف الأعمار.

وتصنع سمنود – وهى مدينة لايبلغ تعدادها بالكاد ٠٠٠ر٢ – ٠٠٠ر٣ نسمة – بعض المنسوجات الشعبية من الكتان . وتصنع منوف كثيرا من هذه المنسوجات نفسها ، كما تصنع أجمل حصر البلاد . أما مدينة طنطا الشهيرة بأسواقها وبضريح السيد البدوى، فتصنع كثيرا من المنسوجات الكتانية لكنها منسوجات بالغة الدقة والإتقان ، وتعرف باسم قماش [١] .

وبخلاف هذه المنسوجات – بالإضافة إلى التطريز الذى يبرع فيه المصريون كما سبق القول – يصنع المصريون كذلك كثيرا من الآنية الفخارية الشعبية، والقلل(وهى آنية مرطبة) ، والآنية الزجاجية وهى خشنة ، كما يصنعون السجاجيد، وأحجار النارجلية من الطين المحروق، ويصدر إلى كل دول الشرق، ويصنعون فى نفس الوقت أجواخا شعبية، ونوعا من اللباد المخلوط بالصوف، يستخدم فى صناعة الخيام. أما كل التركيبات التى لها صلة بالكيمياء مثل صناعة ملح النوشادر وتقطير الخمور والعطور، فهى صناعات ماتزال بعد فى طور الأمنيات، أما أجهزتهم فهى منفرة بقدر ماهى عاجزة، وكثيرا مايستخدمون البوص المثقوب بدلا من الأنابيب الزجاجية، أما الآلات المائية التى يستخدمونها للرى، ففيها شىء من الدقة، والميكانيكا عندهم ماهرة فى بعض الأحيان، وهى تستطيع – لولا

(١) هذه الكلمة باللغة العربية تعنى كافة أنواع المنسوجات

معوقات الروتين – اختراع ماكينات تستطيع أن تعطى نفس النتائج فى وقت أقل وباستخدام عدد أقل من الرجال. وباختصار، فنحن نلاحظ فى كافة ضروب الأعمال بساطة كبيرة سواء في الأدوات أو في التنفيذ. ويستخدم العمال أقدامهم بنفس المهارة التى يستخدمون بها أيديهم، وهذا مما يزيد فى سرعة إنجاز العمل، وهذه العادة شائعة عند النجارين والنحاسين والنساجين وصناع القياطين، وعند كل الحرفيين عموما . ومن الطريف أن نلفت النظر برغم ذلك، إلى أن أقدامهم عارية، وتغطى فقط بأحذية واسعة للغاية يتركونها عند دخول الورشة، وتعمل الغالبية منهم وهم جالسون، وهذا مما يسهل استخدام أقدامهم .

ويستخدم الخراطون قوسا يحركونه بيد، بينما هم باليد الأخرى يشكلون الآلة القاطعة على الشيء الذى يريدون تشكيله، وهم يديرون هذه الآلة بإبهام القدم اليمنى التى يستخدمونها بالمثل كنقطة ارتكاز، وبهذه الطريقة يصنعون أجزاء وقضبانا حديدية وشبكات تستخدم فى صنع أشكال أكبر.

وليس ثمة شيء غير عادى فى إعدادهم للجبس، فقد ينبغى أن نلاحظ أننا فى بلاد نصف بربرية كهذه، كنا نتوقع أن يكون الناس فى هذا المجال – شأنهم فى ذلك مثل شأنهم فى بقية المجالات – أكثر تخلفا، وأقل حذقا، فى الوسائل التى يستخدمونها لسحق هذه المادة، عما نحن عليه. فالإنسان عندنا فى أوربا هو الذى يتحمل عبء هذا العمل الشاق، برغم أنه من المؤكد أن سحق الجبس يضر بصحة العمال الذين يقومون به، لكن المصريين استطاعوا تفادى هذا الخطر،إذ يقومون بسحق الجبس المحروق بواسطة طاحونة يحركها حصان . وهذه الأداة بالغة البساطة لكنها فعالة، وهى مخروطية الشكل وذات ثقل هائل .

ويلزم الكثير بالنسبة للطواحين المخصصة لطحن القمح، حتى تصبح فى دقة وفاعلية طاحونات أوربا، فرحاها صغيرة لايزيد قطرها عن ٢ – ٢/١ ٢ قدم، وطحنها غير ناعم، ولاتقوم بفصل الردة عن الدقيق، لذا فيكاد يكون مستحيلا أن تأكل فى مصر خبزا يماثل خبز باريس أو بروفانس فى جماله وخفته .

ويستخدم البيطاريون أداة خاصة لقطع حافر الخيل، وهذه الأداة التى لاتشبه فى شىء تلك التى نستخدمها فى أوربا لنفس الغرض، تعمل كذلك بشكل مخالف، وتتطلب طريقة فى العمل تتعارض مع طريقتنا .

وحرفة الحدادة قليلة الانتشار فى هذه البلاد، حيث إن الفحم نفسه نادر، وهم لايستخدمون عادة إلا أقفالا خشبية صنعت بعناية. وعدد الصاغة وتجار المجوهرات قليل، وهم لايصنعون إلا حليا متواضعة. ومن السهل أن نلاحظ أن المصرى الحديث يستطيع – بفضل الاستعداد الطبيعى للعمل، وبفضل المهارة والذكاء اللذين زودته بهما الطبيعة – أن يرتفع إلى مصاف الشهرة التى تمتع بها أسلافه، لولا تلك العقبات التى لايحلو للتعصب والطغيان إلا أن يكدساها فى طريقه.

وعما قليل سنتحدث عن الفلاح، وستكون الزراعة موضوعا لفقرة مستقلة، أما بخصوص الحرف الأخرى التى لم نتعرض لها مطلقا فى هذا الفصل، فقد وصفت فى شرح لوحات الحرف والفنونExplication des planches d'arts et métiers فى دراسات خاصة مثل معامل التفريخ، صناعة ملح النوشادر.. الخ . ونحن نحيل القارىء إليها، وسيجدها مشروحة بكل تفاصيلها .

طريقة صنع جلد السختيان الأحمر (الفاسى) فى القاهرة

لصناعة جلد السختيان (الجلد الفاسى أو المراكشى) لاتستخدم إلا جلود الماعز، ولكى يتم ذلك يبسط العامل على السطح الداخلى لهذه الجلود، طبقة من معجون الجير، ويتركه هكذا لمدة أربعة أيام، ثم يضع الجلود بعد ذلك فى ماء الجير، حيث تبقى لمدة عشرة أيام ، فى الصيف أو ١٥ يوما فى الشتاء، وبعد هذه التجهيزات ينزع الشعر، وتجرد الجلود بسكين مقوسة لها مقبضان، وتسمى داس، ثم توضع الجلود فى حوض، وعلى كل جلد منها طبقة من زبل الحمام، وتبقى على هذه الحال لمدة ٢٤ساعة، ثم تغسل بعد ذلك بعناية فائقة مع دوسها بالأقدام، ومع

تغيير ماء الحوض عدة مرات، وعندما تنظف جيدا توضع فى حوض آخر مملوء بمياه مخلوطة بالردة، وتترك هناك حتى تختمر، وعندئذ تسحب وتغسل من جديد بالمياه العذبة، لتوضع مرة أخرى فى ماء العسل المخلوط بالردة لمدة خمسة أيام فى الصيف أوعشرة فى الشتاء، وعند سحبها تكون منتفخة تماما، ثم تبسط ويرش فوقها الملح، وبعد دوسها بالأقدام حتى تعود إلى سمكها الطبيعى، تجرد من جديد وبخاصة من سطحها وقد كان أقل نعومة من سطحها الآخر فى العملية الأولى، ثم تبسط الجلود واحدا فوق الآخر على حصيرة نظيفة بعد أن ترش الجلود مرة أخرى بالملح، وتنتقل بعد أن تجهز بهذه الطريقة إلى يد الصباغ .

ويغمرها الصباغ فى دن من الخشب صب فيه السائل الملون، ثم ينتشلها ويغمرها عدة مرات فى هذه الصبغة ، ثم يعلقها لتتساقط منها نقاط الصبغة، ويكررنفس العملية حتى تأخذ الجلود اللون الأحمر، وعندما تحصل على درجة اللون المناسبة ، يعلقونها لتتساقط منها نقاط الصبغة من جديد، ثم تغمس فى دن به ماء بارد وحبوب القرض المصحون، وتبقى الجلود لمدة يوم كامل فى هذا الدن شتاء، ثم يجرد بعد ذلك سطحها الداخلى لثالث مرة، ثم يغمس الجلد مرة أخرى فى نفس الدن ثلاث أو أربع مرات، ولاتتطلب هذه العملية الأخيرة إلا يوما واحدا فى الصيف، وأخيرا، وبعد أن يمر الجلد بكل هذه العمليات ، يغسل بالماء العذب وهو لايزال رطبا، ويدهن السطح الداخلى بزيت الكتان، ويلقى فى الهواء الطلق حتى يجف تماما، ثم يُلَمَّع بين اسطوانتين من الخشب .

أما عن الصباغة فإليكم كيف يعدونها، وبأية عناصر يكونونها: توضع حوالى عشر قرب من الماء فى دن من النحاس ، وينقع فيها على البارد لمدة ليلة كاملة كمية معينة من عشب القرض الذى يجمع فى ضواحى الأسكندرية، وبعد ذلك تسخن المياه حتى تبلغ درجة الغليان، فيسحب العشب ليوضع فى الدن حفنة من قشر الرمان وأوقيتان من الشبة ، ثم ٥٠٠ درهم من مسحوق دودة القرمز، وبعد ذلك يغمس الصباغ جلدا فى الدن ليتأكد من سلامة الخلطة، فإذا لم تثبت المادة الملونة بشكل جيد يضيف مرة أخرى أوقية من الشبة أو أكثر أو أقل ، فإذا كانت

الخلطة فاتحة أكثر ممايبنغى تزود كمية مسحوق الدودة القرمزية قليلا، وعند استعمال الصبغة ينبغى أن تكون حرارة السائل معتدلة لدرجة تتحملها اليد .

والجلد الذى يستخدم فى صنع نعال الأحذية هو عادة من جلد الجاموس، ويصل هذا الجلد عادة إلى المدبغة وهو مملح، ويوضع فى أحواض مليئة بماء الجير، ويمكث هناك لمدة حوالى عشرة أيام، وبعد ذلك ينزع شعره ويوضع من جديد لمدة يومين أو ثلاثة أيام، ويجرده العامل بسكين ذات مقبضين، ويغسله بالماء العذب عدة مرات، وبعد ذلك يضعه فى أحواض حجرية مع نوع من الحب المصحون، ويبدو أن هذه الحبوب هى والجير المجففان الوحيدان اللذان يستخدمان، وتبقى الجلود لمدة ١٥ يوما فى الحوض الأخير، ثم تسحب لتغسل بعناية ، ثم ترش ببذر الكتان، وبعد أن يمر الجلد بهذه العملية وبعد أن يجف يباع لصناع الأحذية .

ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن أحذية المصريين ليست لها نفس المتانة التى لأحذيتنا، فهى مجرد«شباشب» أو أخفاف من السختيان متعدد الألوان، أما نعول جلد الجاموس فهى تسمح بتسرب الماء على الدوام كما لو كانت من الأسفنج ، لكن هذا العيب الذى ينظر إليه فى أوربا – حيث الأمطار تهطل على الدوام – على أنه عيب خطير، ليس كذلك فى مصر، فالأرض جافة باستمرار . وحيث إن جلد الجاموس مرن بطبعه فإنه يناسب الأرض المنبسطة الرملية والخالية من الأحجار، وتختلف أحذية شعوب الشرق قليلا عن أحذية المصريين .

وقد وصل فن الصباغة إلى أرقى درجة عند قدماء المصريين بالنسبة لتنوعها وبريقها، وبخاصة فى طول مدة ثبات الألوان، لكن الصباغة فى مصر اليوم شأنها شأن الصباغة فى كل مكان، ولم يحتفظ الذين يمارسونها هناك اليوم إلا بالقليل النادر من فن أسلافهم، فهم يكتفون بغمس المنسوجات أو غزل القطن الذى يراد صباغته فى المادة الملونة وهى تغلى، كما أن ورشهم غاية فى البساطة، كماأن الألوان التى يستخدمونها تعد بشكل مجاف للذوق . وأكثر المواد الصابغة استعمالا

هى النيلة، وهم يصبغون كذلك بالألوان: الأحمر، والأصفر، والأخضر، ويستخدمون على وجه الخصوص ألوانا يستخرجونها من الحبوب والحشائش .

٣

عن الزراعة، وعن الفلاحين

كانت الزراعة هى السبب الرئيسى فى ازدهار مصر، وهى تشكل حتى اليوم العنصر الأساسى لتجارتها وصناعتها، ولولا تلك المصادر الهائلة التى يستمدها المصريون من خصوبة تربتهم لكانوا أبأس شعوب الدنيا، خصوصا فى ظل حكومة قاهرة مثل حكومة المماليك . ومع ذلك فينبغى أن تلقى الزراعة كما سبق القول العناية التى تليق بها لكى تصبح زراعة بمعنى الكلمة، فينبغى الاستفادة من كل الأراضى التى يمكن استصلاحها . إن هذا الإهمال المحزن لهو النتيجة الطبيعية لهذا اللون من العبودية الذى تضاءل فى ظله قدر المصريين ، وسوف نرى عما قليل بشاعة ظروفهم، وسنستنتج بسهولة أن مثل هذا السلوك المجافى لأصول الحكم والسياسة من جانب الملاك والسلطات الحاكمة ، لا يمكن أن تكون له نتائج أخرى.

ولا تنتج الأراضى المخصصة لزراعة القمح عادة إلا محصولا واحدا، وباستطاعتها أن تعطى محصولين، فهناك فى جزيرة الفنتين على سبيل المثال تحصد الأرض ثلاث مرات فى العام بانتظام، وتنتج الأرض مثل الكمية المبذورة ١٤ مرة، ويلزم لبذر الفدان ٢/١ أردب من الحبوب.

ويكفى ثمن الأردب الواحد لسداد مصاريف الزراعة والحصاد، ويبقى بعد ذلك خمسة أرادب هى بمثابة عائد الفدان الواحد. أما فى فرنسا فإن فدان القمح ينتج من خمسة إلى ثمانية أرادب ، ومن جهة أخرى فإن أحدا لا يجهل أن كمية كبيرة من البذور التى تبذر فى الأراضى الفرنسية لا تنبت مطلقا، فالحكم هنا إذن فى

صالح خصوبة أرض مصر، حيث يحصل الفلاح هناك – وبدون أن يكلف نفسه ذلك القدر من العناء الذى يتكلفه فلاحنا كل عام – على هذه النتيجة المزدهرة . وينبغى أن نضيف كذلك أن غلة الأرض تقل أو تزيد حسب طبيعة المحصول، إذ تنتج الذرة على سبيل المثال ٢٠ مرة من مثل الكمية المبذورة.

ولا يمكن أن نحصى فى مصر أكثر من ١٠٠٠ فرسخ من الأرض المزروعة، ويوجد فى الفرسخ المربع حوالى ٣,٣٣٠ فدان ، وهكذا فإن فرسخا واحدا من الأرض المزروعة قمحا يغل أكثر من ١٦,٠٠٠ أردب من القمح كعائد صاف، وإذا افترضنا أن الأردب يساوى ثمانية فرنكات فإن العائد يبلغ ١٣٣,٠٠٠ فرنك . ويمكن مضاعفة العائد إذا ما استبدلنا بزراعة القمح مزروعات أخرى أكثر ربحا، مثل السكر والنيلة ، فالمحصول الأول يعطى عائدا أكبر من القمح ١٥ مرة و لكنه يتطلب رأس مال أكبر بكثير، وبمقارنة الربح فى الحالين نجد أن ربح السكر أقل نسبيا من ربح القمح، أى أن ربح الأموال المستغلة فى زراعة السكر أقل بكثير من ربح نفس المبلغ إذا ما استغل فى زراعة القمح، والفائدة الوحيدة التى تحسب لصالح السكر، بل التعويض الوحيد الذى يمكن أن تقدمه هذه الزراعة هو أن محصول السكر يحتاج لمساحة صغيرة من الأرض، بينما يحتاج القمح إلى مساحة كبيرة .

وقد يكون من السهل كذلك زيادة مساحة الأرض القابلة للزراعة، ولكن برغم أن ذلك أمر ميسور فإننا لا نظن أن مصر فى قبضة ملاكها الحاليين ستدر أكثر من ١٥٠ ميلون فرنك، وينبغى أن نخصم من هذا المبلغ ٤٠ مليونا كمصاريف بذر وحصاد، فيصل صافى الربح إلى ١١٠ مليون فقط . ونحن على يقين من أن الصناعة الأوروبية كلها قد تتوصل بصعوبة بالغة إلى إنتاج ثلاثة أمثال بل حتى ضعف هذا الإنتاج الذى تدره أرض مصر . ولكن فى نفس الوقت فعلى مصر أن تفعل الكثير، إذا ما افترضنا أنها ستكون قادرة على ذلك ذات يوم، لكى تقترب من ثروة فرنسا الزراعية، بالرغم من خصوبة أرض مصر الهائلة، حيث إن الضريبة على الأراضى وحدها فى فرنسا تصل لأكثر من ٣٠٠ مليون فرنك.

والمنشآت الخيرية التى يقرها الباشا ممثل السلطان تعفى من دفع الميرى، بينما تخضع كل الملكيات العقارية لهذه الضريبة التى سبق أن تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل السابق.

ويبذر الكتان والقمح فى نوفمبر بمجرد أن تنحسر مياه الفيضان، ويتم البذر مبكرا عن ذلك فى الصعيد، حيث تكون مياه الفيضان على جانبى النهر أقل كثافة، ويزرع القطن فى نهاية شهر مارس وبداية شهر أبريل، ويحصد فى يولية وأغسطس، أما المحصولات الأخرى فتنضج بعد خمسة أشهر.

ويستخدم المصريون المحدثون، وعلى منوال أسلافهم، الرى فى زراعة الأراضى، ولكن هذه الطريقة الماهرة التى مضى بها الأقدمون إلى أعلى درجة من الرقى، قد فقدت الكثير عند استخدام المحدثين لها. وفضلا عن ذلك فالمحراث تقريبا هو نفس المحراث الذى وجدناه مرسوما فى الكهوف، أو على الأقل ثمة تشابه كبير بينه وبين المحراث الذى يستخدمه المزارعون فى مصر اليوم، وهو بالغ البساطة، حيث إن الأراضى فى كل مكان لا تبدى إلا مقاومة ضعيفة. ويلاحظ أيضا ذلك التشابه الكبير بين الطرق القديمة والطرق الحديثة فى درس القمح، ومع ذلك فإنهم يستخدمون اليوم عددا أقل من الأبقار فى درس القمح، وهى تقوم بفصل الحب فى الوقت الذى تجر فيه النورج .

ومن المفيد بعد أن تحدثنا عن الأرض وعن زراعتها أن نقول شيئا عن هؤلاء الذين يفلحونها، وهؤلاء هم الفلاحون البؤساء الذين تكرر اسمهم كثيرا على صفحات هذا المؤلف، وهم لا يشبهون فى شىء فلاحى أو مزارعى البلدان الأخرى، ولم يول الرحالة الذين عبروا مصر خلال القرن الأخير أى اهتمام بهذه الطبقة العاملة المضطهدة، ، وسوف تكون التفاصيل التى نقدمها هنا جديدة على أكبر عدد من القراء .

والفلاح المصرى هو أكثر الناس حياء، وطبيعته الخوافة هى بلا جدال نتيجة

طبيعية لحالة القهر التى حصره فى داخلها سيدان لا سبيل إلى قهرهما: إذ إن متاعبه من ملاحقة البكوات والضباط لا تنتهى إلا لتبدأ مع العربان. فعندما يحصل هؤلاء على كفايتهم، يتعرض الفلاح لانتهابات وابتزازات جديدة من جانب البكوات والكشاف، تأتى لتسلبه ما قد يكون قد تبقى له، وهكذا يظل الفلاح المسكين بلا أى دعم أو سند، فريسة لنزوات كل هؤلاء الناس من راكبى الخيل، والمسلحين على الدوام بسلاح الحرب ، ولو كانوا فى نزهة صغيرة. ويقدم الفلاح لهؤلاء الكثير من الأبقار والخراف ومكاييل الحبوب التى يجنيها، ثم يذهب ويئن من وطأة الجوع مع زوجته وأولاده، ومع ذلك فإن تعقل الفلاح واعتداله يسمحان له بتدبير ما هو لازم لمعيشته ومعيشة أسرته، وهو يستغل وقته، ويتلقى كأجر عددا متفقا عليه من مكاييل الذرة والحبوب. وفى كل مساء يجهز لنفسه خبزه ، وهو يطحن الحبوب بواسطة رحى ، وينضج الخبز على رماد ساخن، لأنه لا يمتلك فرنا على الإطلاق. ولكى يحصل على البلح والبصل والزبد والبيض واللبن ، فإنه يستبدل ذلك مع فلاح آخر ببعض القمح والفول اللذين يتلقاهما من المالك. وهو قانع بهذا النمط من الحياة ، حيث إن الشقاء الذى اعتاده جعله يعيش فى طور الفطرة، وهو يتناسى الماشية التى يسرقها منه البدو، كما ينسى الإتاوات المتزايدة التى يفرضها عليه طغاته. وعندما يدر العمل عائدا كبيرا ويحصل بالتالى على أجر أفضل يستطيع أن يوفر منه شيئا، فإنه يشترى من جديد حمارا وبعض الخراف وأدوات زراعية ويعود إلى مسكنه الأول، ويرد الشيخ إليه الأراضى التى كان يفلحها من قبل.

وملابس الفلاحين عبارة عن قميص بسيط ، وهذا الملبس مشقوق من الرقبة حتى أسفل البطن، وليست له أكمام، وينزل حتى الركبتين، ويثبت بالجسم بواسطة حزام من الجلد، وهو من القطن ولونه أزرق، وبخلاف ذلك يغطون رأسهم بغطاء من اللباد الأحمر يسمى طربوشا . أما الفلاح الميسور بعض الشىء، فيغطى رأسه بعمامة تتكون من شال من قماش قطنى مخطط يلف حول الطربوش، وما عدا ذلك فإن أذرع الفلاحين وسيقانهم وأقدامهم عارية تماما، بل إن كثيرين منهم لايمتلكون

حتى القميص الذى تحدثنا عنه. ويكتفى هؤلاء بأن يثبتوا بحزامهم قطعة من القماش تلف حول وسطهم، ويرتدى الأغنياء منهم طربوشا وسروالا ومعطفا أسود اللون من الصوف فوق القميص، ويطلق على هذا المعطف اسم: بشت.

وعندما نعرف بؤس وهوان وتدهور حال الفلاحين، فإننا نستطيع أن نُكوّن فكرة عما ستكون عليه ملامح وجوههم. فهل يمكن أن يكون لأناس كهؤلاء حُكِم عليهم بهذا التحقير وتلك العبودية، وبأن يظلوا على الدوام لعبة فى أيدى عدد كبير من السادة – هل يمكن أن يكون لهم نظرة صريحة جريئة، ووجه صاف بشوش، ولقاء حر مفتوح ؟. إن مظهر هؤلاء البؤساء ليعلن عن حيرتهم، والخوف يقرأ فى عيونهم، وهم يمشون بقلق، ورؤوسهم محنية إلى الأمام، وإذا ما ظن الفلاح عند لقائه شخصا ما، أن هذا الشخص يحوز ولو قدرا ضئيلا من الجاه أو الثروة، فإنه يقترب منه ويده مبسوطة ، كما لو كان ليستجدى حماية أو يطلب إحسانا.

يا له من تناقض يبعث على الإثارة بين وضعهم الذليل والمستجدى، وبين ملامح الخشونة والجد التى ترتسم على وجوههم التى تعطى لها لحيتهم الطويلة قدرا كبيرا من النبل! وشكلهم فى عمومه جميل، وتتميز جباههم – برغم أن جزءا منها تغطيه العمامة – بالاتساع، ولوجنات خدودهم نتوء شديد الوضوح، وخط الأنف واضح بشدة ، أما الذقن فممشوقة، ويبدو الأمر وكأن ثمة رجالا قد منحتهم الطبيعة هذا الملمح الوقور، لكن عليهم أن يعانوا من كل عوامل القهر والجبن والإذلال. فكل ما فيهم يشهد ببؤس حالهم، فلست تراهم إلا باسطى الأيدى مكررين عبارة : فضة، فضة – أى أعطنى بارة ، بارة واحدة. وقد لا يدرك الغريب – الذى لا يعرف عادات البلاد – أن هؤلاء الذين يتسولون بهذا الإلحاح، يدفعون إيجار أراض عديدة يفلحونها، وأنهم يمتلكون ماشية وحميرا وخيولا، وأنهم يعولون عائلة كبيرة العدد، عن طريق زراعتهم الفاكهة والخضار، التى يعرفون كيف يعودون منها بالنفع عليهم وعلى أسرتهم وقت الحصاد.

وهكذا فسوف نقع فى خطأ بين إذا ما حكمنا على الحالة الحقيقية للفلاح استنادا إلى مظهره الخارجي، فهو لا يلجأ لهذا التسول المظهرى إلا ليخدع مضطهديه، فمن المهم بالنسبة له أن يظنه الناس بلا مورد رزق وبلا وسيلة للعيش، ذلك أنه يرتجف على الدوام خوفا من أن يرى نفسه وقد انتزع منه القليل الذى يملكه، لهذا فإنه يشهد العالم كله على فقره وعوزه، ويرتدى من الملابس ما ينسجم مع الانطباع الذى يريد أن يحدثه فى مشاهده، فهو داخل قميصه هذا عار كما ولدته أمه، ويقبل بنهم على أى طعام يقدم له، ويجمع قطع المدينى التى يحصل عليها بعناية فائقة فى طرف منديله، ويقاسى الأمرين حتى لا ينفق قطعة واحدة من نقوده إلا عند الضرورة الملحة، وباختصار فإنه لا يفوته شىء مطلقا يمكن أن يساهم فى إقناع الناس ببؤسه الشديد.

وعندما لا يكون الفلاح فى حقله، فإنه يجلس القرفصاء أمام منزله. وحول كل القرى المصرية تشاهد آلاف الأكوام الطينية الناتجة عن الخرائب والهدم، وهذه الأطلال كثيرة فى هذه البلدان ، أكثر منها فى أى مكان آخر بسبب رداءة بناء الأكواخ، وكذلك رداءة الخامات المستخدمة فى ذلك، فهى على الدوام من الطين أو من الطوب النيئ . وعندما يكون الفلاح بلا عمل، فإنه يصعد هذه الأكوام ، ويظل جالسا أكبر فترة من النهار، ويدخن الغليون، وينظر إلى الخلاء . وفى بعض الأحيان يقوم بغزل القطن أو الكتان ، بينما تعجن زوجته روث الماشية، لتشكل منها نوعا من الأقراص ، تجففها بلصقها على جدران كوخها ، وبهذه القاذورات يحصل الفلاح على وقوده ، وينضج خبزه وطعامه.

وقد يظن المرء وهو يلاحظ بلادة وخمول هؤلاء البؤساء الذين يعيشون وسط خطوب لا تنتهى، أنهم شبه محرومين من موهبة الفكر، ولكن، لعل من الأصوب أن نقول بأنه يبدو أن العناية الإلهية، بينما هى تهيئ للإنسان ملكاته الروحية والذهنية التى تنسجم مع الظروف التى وضعته فيها ، فإنها قد شاءت أن تقرن البلادة بالفقر، كما لو كان بغرض أن تخفى عنه الشقاء الذى قدر عليه أن يحيا فيه.

٤

عن الحرف

ينقسم العمال فى مصرحسب حرفهم ، وليس ثمة قواعد لاحتراف الحرف، فالأب الذى يريد أن يعلم ولده حرفة يسلمه لمحل أو عند معلم، ويحمل الصبى معه وجبات ليمضى اليوم ثم يعود فى المساء إلى بيت والده. وبمجرد أن يتعلم فإنه يحصل على أجر يزيد بزيادة مهارته.

وتنقسم الحرف المختلفة إلى طوائف لها رؤساء، ويشرف على معظمها وكيل الانكشارية (الكخيا المتولى) وهو رئيس الشرطة فى القاهرة، وتخضع بعض هذه الطوائف لإشراف أغا العزبان والمحتسب، وللأخير حق الإشراف الخاص على المواد الغذائية. وثمة حرف لا ترتبط بأى من هؤلاء الرؤساء، وتشكل طوائف هامشية، مثل : الراقصات والراقصين على سبيل المثال ، وعازفى المزامير ، وباعة الحدايد ، وعموما كل تجار الخردة.

ويرأس شيخ الحمامات ٢٤ شيخا من مختلف المهن ، مثل: صناع الخيام ، والجمالين ، ولاعبى العصا ، والمغنين ، ومنشدى الشوارع ، والحمارين . وهو يحكم فى الخلافات الصغيرة التى تنشأ بين هذه الطبقة من الناس فى موضوع حرفتهم، ويتوجه الناس إليه عند طلب عدد كبير من دواب النقل لغرض ما، ويحصل من أتباعه عددا من الضرائب الصغيرة، بعضها ثابت وبعضها طارئ. ولكى يحصل على هذا الامتياز فإنه يلزم بدفع إتاوات ثابتة لمختلف ضباط الأوجاقات، نقدا أو فى شكل أشياء تدخل فى تشكيل أثاث البيوت. ولا ينبغى أن ننسى أن هذه الرسوم التى يحصلها الملتزمون أو مساعدوهم، إنما هى فى الغالب رسوم استبدادية، مثل كل ما يحدث تبعا للعادات الإسلامية . ولكن شيخ الطائفة بالرغم من اتساع سلطته فى زيادة الضرائب التى يفرضها، يلتزم مع ذلك بحدود الاعتدال حتى لا يفقد الاحترام العام، فيفقد بالتالى عمله وأمله فى أن يشغل وظائف أخرى .

وإذا لم يكن لدى الصناع ما يشكون منه من شيخهم، وإذا رغبوا في الاحتفاظ به، فإن الكخيا المتولى لا يستطيع في نهاية العام أن يبدله، كما أنه ليس في مقدور هذا الأخير زيادة مبلغ الالتزام الذى يحدد بشكل لا يقبل التغيير. وعندما لا يكون الصناع راضين عن شيخهم، يضطر الكخيا لتعيين شيخ آخر، ويطلب إلى الطائفة أن تحدد له شخصا بعينه، ويتم ذلك بطريق النداء ، وبدون أية صيغة أخرى ، وبدون اللجوء إلى طريقة الاقتراع ، على الرغم من معرفة الأتراك لهذه الطريقة. وعندما يريد الكخيا أن يرغم الصناع على اختيار شيخ معين، يجتمع كل مديرى الحمامات ليعترضوا على هذا العنف غير المشروع.

وفي الفصل الأول من مؤلفنا هذا قدرنا عدد عمال اليومية بـ ١٥ ألفا في مدينة القاهرة، ويمكن تقسيم هذه الكتلة من الناس إلى ثلاث طبقات: الأولى: وهي أكثرهم بؤسا وتضم ١٠ آلاف شخص، وهؤلاء يستخدمون في أعمال ثانوية ، ولا يحصلون إلا على أجر بالغ التواضع يفي بالكاد لمعيشتهم، وهم يرتدون قميصا بسيطا أزرق اللون من الصوف ، ويحزم بحبل عند وسط الجسم، وتغطي رؤوسهم بلبدة بيضاء، أما مسكنهم فعبارة عن كوخ يكلفهم إيجاره الشهرى ١٠ بارات، وكل أثاثهم عبارة عن مزقة من الحصير ينامون عليها مع زوجاتهم وأولادهم، ويمكن للعامل من هذه الطبقة أن يكسب حوالى ١٥ بارة في اليوم، وتشتغل زوجته (إذ ليست له إلا زوجة واحدة) بأعمال أخرى أقل كسبا ، تدر عليها على الأكثر ٤–٥ بارات، ولا يأكل هؤلاء البؤساء اللحم على الإطلاق، وهم يشترون الخبز وشيئا من الحبوب المطبوخة والبيض. وينفق الرجل بعض نقوده في المقهى، ويدخن تبغا بالغ الرداءة، ويخدر نفسه بأكل القنب الأخضر المعد، فقد أصبح الخدر بالنسبة له شبه ضرورى. وترتدى المرأة كذلك قميصا أزرق اللون، ويسير الأطفال عراة أو تغطيهم بعض الهلاهيل.

وتضم الطبقة الثانية حوالى ٣ آلاف عامل يومية، ظروفهم ليست أقل من ظروف الأولين مدعاة للشكوى، برغم أنهم ليسوا على نفس الدرجة من البؤس ، وأجرهم ليس أكبر من أجر الأولين مع أنهم يعتبرون نوعا من وكلاء الأعمال، لكنهم يحصلون على بعض المكاسب البسيطة لا يحصل عليها الأولون، ومسكنهم أكثر راحة وأحسن تأثيثا ، ويتكون رداؤهم الطويل من قميصين أو ثلاثة يرتدونها فى بعض الأحيان الواحد فوق الآخر ، وبخلاف ذلك فإن طريقتهم فى الحياة هى نفس طريقة الأولين.

ويمكننا أن نضع فى صفوف الطبقة الثالثة ٢.٠٠٠ من العمال، وهم فى حالة أكثر يسرا من الأولين بقليل، ويعمل هؤلاء كرؤساء ورش، ويسكنون فى مبنى كبير به دهاليز عديدة تؤدى إلى مساكنهم، وهذه المبانى تشبه الأديرة، ويقطن كل عامل فى حجرة، ويعد طعامه فى مسكنه، وزوجته هى التى تقوم بهذا العمل، ويدفع ٣٠ مدينى كإيجار شهرى، ويمتلك حصيرة خشنة من ألياف الكتان، وبعض المخدات التى لها غطاء ردئ ، بالإضافة إلى إناء للطبخ أو إناءين، مع آنية أخرى رخيصة الثمن . لكن ما يميزهم على وجه الخصوص أنهم يرتدون ملابس أكثر وأفخم : شال من الموسلين أوالصوف حول طربوش ليشكل عمامة، وملابسهم الداخلية من التيل، ويمتلك الواحد منهم دفية زيادة على الجلباب الطويل، وهذه الدفية عبارة عن معطف من الصوف الأسود، كما يرتدى ملاية ، وهى قطعة طويلة من قماش قطنى بها مربعات بيضاء وزرقاء، وكل هذه الأشياء التى يعنى بتجديدها عندما تبلى يمكن أن تكلف العامل من ٩ – ٢٠ بوطاقة (خردة)، ومع ذلك فأجر هؤلاء العمال ليس أكبر بكثير من أجر الأولين، لكن ما يجعلهم يعيشون فى بحبوحة أكثر، هو أنهم يعملون طيلة العام باعتبارهم أكثر شهرة وأكثر دراية . وترتدى زوجاتهم قميصا أسود للزينة ، وقميصين أو ثلاثة لبقية الأيام . وهن يعملن فى غسل ونسج القطن ، ويعود عليهن هذا العمل بأجر متواضع .

ويبلغ عدد الخدم العاملين بالقاهرة - كما سبق أن قلنا فى الفقرة الخاصة بسكان هذه المدينة فى الفصل الأول - ثلاثة آلاف، ويمكن أن ننظر إليهم باعتبارهم يشكلون ثلاث طبقات متمايزة فيما بينها ، بسبب طبيعة أعمالهم ، وهم : السياس (السايس)، الفراشون (الفراش)، القواسون (القواس) .

وينام السايس بالقرب من الخيول التى يوكل إليه أمر العناية بها، ويكاد السايس لا يتقاضى أجرا، إذ لا يعطى إلا ١ - ٢ بارة فى اليوم، وكمية من الخبز تبلغ ١/٢ ١رطل، لكنه يحصل على عدد لايحصى من المكاسب الصغيرة المحظورة، ويحصل فى معظم الأحيان على هدايا بمناسبة الأعياد (عيدية) ، وباختصار فهو يعيش فى بحبوحة . ومعظم هؤلاء الخدم لا يتزوجون، وهم نظفاء، وملابسهم حسنة، ويتميزون بمهارتهم فى معاملة الجياد، وهم متكبرون وقحون بطبعهم، وعنيدون، لكنهم لا ينساقون لغضبهم إلا فيما بينهم، وهم يبدون الكثير من الخضوع نحو أسيادهم .

ويمكن أن نشبه الفراش بالـ Valet de chambre عندنا، فهو الذى يعنى بالأثاث، وهو الذى يسهر على نظافة البيوت وعلى الإضاءة، وهو يقيم عند سيده ، ولا يترك مسكنه إلا عند زواجه ، ولكى يحصل على هذه المرتبة فإنه ينتظر حتى يصبح رئيسا للفراشين، وهو على الدوام حسن الملبس. وهذه الطبقة هى التى تساهم فى إعداد ملذات سادتهم المنحطة، وهم يندفعون فى القيام بهذه الخدمات لأبعد مما كان السادة يرغبون، وأجرهم ليس محددا، وإنما يتوقف على مشيئة السادة .

وعندما يصبح هؤلاء الخدم رؤساء، يصبح لهم منزل ، وأحيانا منزلان قليلا الاتساع ، تقيم فى كل واحد منهما زوجة، وأثاثهم فاخرلحد ما ، وتمتلك زوجاتهم بعض الحلى .

ويسير الشرقيون من ذوى المكانة أمامهم خدما، يسبقونهم سائرين على الأقدام، وحاملين عصا لإبعاد الجمهور، وليهيئوا لسادتهم مكانا . ويسمى الخادم من هذا النوع : القواس، وهم ينقلون سيدهم فى داخل المدينة وإلى القرى المجاورة، ويختار لهذا العمل فلاحون ورجال من أبناء الريف ، لأن مظهرهم وقامتهم أكثر مهابة من مظهر وقامة سكان المدن . ولا يدفع للقواس أجر، ولا يحصل هو إلا على الخبز، لكنه يعوض هذا الغرم إلى حد كبير، على حساب الذين يحمل إليهم أوامر أو رسائل من طرف سيده ، وبخاصة إذا ما كان لسيده نفوذ كبير . وليس ثمة أى نوع من المغارم أو الإتاوات إلا ويحصلها لحسابه . والقواس عند الكبار هو الذى يقوم لحسابهم بارتكاب أحداث السلب والانتقام، وهو الذى يهوى بعصاه على من يريد سيده أن يعاقبه أو يهينه ، كما أنه الذى ينزل الشخص الذى يخضع لهذه الإهانة من فوق ظهر حصانه . وكل هؤلاء الخدم على وجه التقريب متزوجون ، وترتدى زوجاتهم مثلما ترتدى زوجة حرفى ميسور، وملابسهم على الدوام من قماش خشن من الصوف الأسود، وهم يرتدون شالا من الصوف أو ملاية تتدلى على كتفهم، ويغطون رؤوسهم بلبدة بيضاء، ثم بطربوش أحمر، وهم يحرصون على أن يضعوا بينهما كثيرا من الورق وقطعا من أقمشة رديئة لتمتص ضربات العصا التى تنهال عليهم عادة من ساداتهم، ويسمى رئيس هذه الطائفة من الخدم : مقدم، ويفرض هؤلاء الرؤساء عددا كبيرا من الإتاوات ويغتنون بسرعة.

أما السقاءون فهم على نحو ما رسل الحريم، وينتهى بهم الأمر بأن يكونوا ثروات كبيرة، والنساء هن اللائى يخترنهم ويتبادلنهم فيما بينهن . ويتمتع هؤلاء الخدم عامة بحظ أوفر من الآخرين، ويوليهم أرباب البيوت أكبر قدر من الرعاية، وتبسط النساء عليهم حمايتهن، ويحرصن على راحتهم. ويمكن أن يكون لهذا التكريم أسباب عديدة، فالنساء – وهن بطبعهن رقيقات وشفوقات – لا يمكن أن يسلكن هذا المسلك إلا ربما بدافع من شفقة حميدة، وربما بسبب من تصنع الدافع الإنسانى، ومع ذلك فيحتمل أن تكون ثمة نواحى ضعف خفية هى التى تحدو بهن إلى إكرام رجال يكن لهم قدرا من العاطفة .

وفيما عدا ذلك، فإن الخدم فى مصر يلقون معاملة طيبة على وجه العموم ، وإذا ما نحينا بعض المحن البسيطة، وبعض العقوبات التى قد تكون قاسية بعض الشئ فى بعض الأحيان، والتى يوقعها عليهم السادة بسبب تقلب أهوائهم، أو بسبب نفاد صبرهم، فليس ثمة فى حياة هؤلاء الخدم ما يمكنهم أن يشكوا منه، فالسادة يولونهم الكثير من العطف، بل ويرى السادة فى معظم الأحيان يتخذون جانب خدمهم بحماسة فريدة، سواء كانوا مخطئين أو كانوا على صواب، وسواء كان الأمر بدافع من العطف عليهم أو بدافع من كبريائهم وكرامتهم هم . وتذكر كثير من الأمثلة على بكوات تشاجروا بغضب فيما بينهم بسبب مشاحنات خدمهم .

وطابع هؤلاء الخدم عادة سئ مرذول، والذين يتوصلون منهم إلى الحصول على نوع من الثراء يصبحون وقحين متعاظمين، وهم وشاة غدارون ومخاتلون ماكرون، وويل لمن لا حماية لهم أو جاه حين يتعاملون معهم ! إنهم أكثر غلظة وقسوة من المماليك الذين يخدمونهم. والفراش والسايس والمقدم والسقاء مرتبطون بسادتهم، وهم راضون عن حظوظهم ولا يكادون يغيرون سيدهم . وهؤلاء السادة يعاملون خدمهم برقة فى غالب الأحيان كما سبق القول، وهم يعنون بأبناء هؤلاء الذين يولدون فى كنفهم، لأن المصريين جميعا مولعون بالغلمان ويتبادلونهم فيما بينهم. وتستقبل هذه الهدايا بسرور بالغ، فلماذا إذن والأمر كذلك، لا تكون بقية الأمور متسقة مع هذه الميول الطبيعية، والملذات البريئة الظاهرة ؟.

الملاحق

١

نبذة عن الحفل الذى يقام عند مولد الأطفال

سنقدم هنا مذكرة طبعت بالفعل فى القاهرة، وتعطى فكرة دقيقة عن العادات التى تتم عند مولد الأطفال الذكور . ويعجب المرء من أن الأب لا يدخل مطلقا وبأية طريقة ضمن إطار هذا الحفل الشيق .

فى اليوم السابع لمولد الطفل تجمع الوالدة صديقاتها ، وتمضى اليوم كله فى لهو معهن .

وتنقضى الفترة بين الوجبتين فى غناء ورقص تقوم بهما العوالم ، وبعد الغداء يتم حفل تعميد الطفل الجديد، ويطلق على هذا الحفل اسم : السبوع. وهو عبارة عن نزهة فى كل حجرات مسكن الحريم، وتمشى واحدة من الخادمات الرئيسيات على رأس الاحتفال حاملة صينية من النحاس ، وضع فوقها وبشكل دائرى عدد من الشموع يعادل عدد النساء اللاتى يشاركن فى هذا الاحتفال، وهذه الشموع مضاءة وألوانها متعددة. وتسير بعدها القابلة الموكلة بالطفل وعلى جانبيها خادمتان، تحمل صغراهما موقدا من النحاس الأصفر، وتحمل الأخرى طبقا يحتوى على حبوب شعير وقمح وعدس وفول وأرز وملح بحرى وبخور ، أى سبعة أصناف بعدد الأيام التى انقضت منذ مولد الطفل .

وتمشى الأم بعد ذلك تحيط بها العوالم وأقرب صديقاتها إليها ، وتشكل الزوجات الأخريات آخر مجموعة فى الموكب . وفى أثناء السير تعزف موسيقى صاخبة للغاية، وفى كل مرة يدخل فيها الموكب حجرة من حجرات الحريم، تأخذ القابلة حفنة من الحبوب والبخور بيمناها وترمى بجزء منه فى الحجرة، ويرد عليها بزغاريد طويلة جدا ، ويصبح إيقاع الموسيقى أسرع وأكثر صخبا ، وتحاول النساء السير فوق الحب المنتشر فى كل مكان .

وعند العودة إلى حجرة الحريم الرئيسية، توضع صينية الشموع على كرسى بدون مسند، موضوع وسط الحجرة، وتأتى كل واحدة من المشتركات لتضع قبضة من البارات، وترتمى الفتيات الصغيرات والخادمات على الشموع ليتنازعن عليها. وبعد ذلك تحمل القابلة الصينية، وتحصى دخلها من النقود التى تجدها فيها، والتى ألقيت هناك من أجلها .

وينتهى الحفل بزيارة للطفل، وتزين رأسه بقطع من النقود الذهبية التى تقدم له كهدية، أو توضع فى مناديل غالية تحت رأسه .

٢

جهل المصريين والنوبيين

بخصوص رسم الصور الإنسانية

سبق أن تحدثنا عن قلة معرفة المصريين المحدثين بكل ما يتصل بالفنون الجميلة، ولكن يتبقى علينا أن نقول كلمة عن أى حد يبلغ عمق هذا الجهل فى موضوع الرسم والتصوير نتيجة للمعتقدات التى تصاحب الدين الإسلامى، إذ سوف يوضح ذلك كثير من الأحداث التى وقعت أمام أعيننا، أكثر مما توضحه الأفكار أو الآراء التى يمكن أن نقدمها .

كان الأستاذ ريجو Rigo الرسام وعضو المجمع العلمى المصرى، قد بدأ سلسلة من الدراسات حول ملامح السكان . وقد كان وصول قافلة النوبة إلى القاهرة عام ١٧٩٩ فرصة طيبة بالنسبة له، ينبغى الإمساك بها، وكان قائد القافلة عبد الكريم على وجه الخصوص يلفت النظر بقوة الملامح النوبية المرتسمة على وجهه . ونجح الأستاذ ريجو فى أن يجذبه إليه بإغراء النقود . وبعد مفاوضات طويلة - كثيرا ما انقطعت - جاء عبد الكريم إلى المرسم فى حراسة ١٠ - ١٢ شخصا من مواطنيه، مع كل الاحتياطات التى يمكن أن يقوم بها رجل مقتنع بأنه

مستدرج إلى كمين . ومع ذلك فلقد أمكن طمأنته فى النهاية وإقناعه بصرف حراسه، وبدأ الأستاذ ريجو فى عمل صورة له بالحجم الطبيعى، وبدا النوبى فى أول الأمر مسرورا بالخطوط الأولية فى الرسم، وكان يشير بأصبعه إلى أجزاء الرسم، وإلى الأجزاء التى تقابلها فى وجهه وهويقول: طيب . طيب . ولكن عندما بدأ الفنان يضع الألوان على الصورة، كان التأثير مختلفا تماما، فلم يكد عبد الكريم يلقى عليها نظرة حتى تراجع وهو يصرخ صرخات مرعبة ، وكان من المستحيل تهدئته، وما أن فتح باب المرسم، حتى أطلق لساقيه العنان، وصاح فى الشارع بأنه قادم من بيت نزعوا فيه رأسه ونصف جسده .

وبعد ذلك بعدة أيام ، جاء ريجو إلى المرسم بنوبى آخر، يعمل بوابا لأحد بيوت المعهد، فلم يكن أقل من مواطنه شعورا بالرعب عند رؤيته للرسوم، وجرى يقص على كل جيرانه، بأنه شاهد عند رجل فرنسى عددا هائلا من الرءوس والأطراف المقطوعة، فسخر إخوانه منه، وتجمع عشرة منهم ليتأكدوا من صحة الواقعة، ولكن لم يكن ثمة واحد من بينهم لم يتملكه الفزع عند دخول المرسم، ولم يشأ واحد منهم أن يبقى فى المرسم لحظة واحدة .

وقد رسم الأستاذ ريجو سيدة من نفس هذه البلاد جاءت إلى القاهرة مع عبد الكريم ، وكان على الرسام أن يرغمها حتى تقتنع بأن تدع نفسها تُرْسَم، وما أن انتهى الفنان من رسم الرأس والذراعين حتى قالت له : «لماذا تأخذ رأسى؟ ولماذا تنزع عنى ذراعى ؟» . وبدا أنها مقتنعة بأن كل أجزاء جسمها التى انتقلت صورتها إلى اللوحة، سوف تذبل .

ويعتقد المسيحيون من أهل البلاد أن كل الرسوم تمثل قديسين، وكان يوجد فى هذا المرسم لوحة لفرنسى، كان الأقباط يخرون أمامها ساجدين عند دخولهم المرسم، كما كانوا يقبلونها فى خشوع شديد (١) .

---

(١) انظر : Le Courrier d'Egypte, an 25

٣

فن الأفاعى أو سحرة الثعابين

أعتقد أن علينا – قبل أن ننهى هذا المؤلف – أن نتحدث عن هؤلاء الرجال غير العاديين ، الذين يحترفون اكتشاف الثعابين وتطهير المنازل منها . وعلى الرغم مما هو واضح فى عملهم هذا من دجل وشعوذة، وعلى الرغم من أننا نقر مقدما أن قليلا من القراء فقط هم الذين سيولون الثقة بهذه المعجزات المزعومة، فإنه مما لا مندوحة لنا عنه أن ندخل فى تفاصيل حول هذا الموضوع . ونحن نعترف – دون أن يعنى ذلك بساطة مفاهيمنا ، أو أننا من بين أولئك الذين يسهل إقناعهم – بأننا كنا بأنفسنا شهودا على بعض الوقائع بالغة الغرابة ، لدرجة أننا لا نستطيع أن ندخل فن الأفاعى ضمن إطار الأمور المتوهمة والخيالية، بل إن واحدا مثل بروسبير ألبان Prospére Alpin ذلك الطبيب ذائع الصيت – ولا يمكن أن نصفه بأنه واحد ممن يعتقدون فى الخرافات – قد نقل إلينا أنه رأى رجالا يتعاملون دون أن يصيبهم أدنى أذى، مع الزواحف السامة والعقارب .

وقبله عرف سترابون Strabon الحواة الذين كان المصريون القدماء ينظرون إليهم، على اعتبار أن لديهم موهبة سحر الثعابين، وكل ما نقله إلينا المؤلف بخصوص هؤلاء الحواة يتجدد هذه الأيام .

أثناء وجود الجيش الفرنسى فى مصر، أراد عديد من الأطباء المهرة أن يتأكدوا بأنفسهم من حقيقة تلك الثقة التى يوليها الرحالة لهؤلاء السحرة . وكان من السهل عليهم فى البداية أن يعترفوا بشعوذة البعض، على الأقل فيمايتعلق بتلك الممارسات الغريبة التى يستغلون بها بساطة مفهوم جمهور جاهل أبشع استغلال. فلكى يدخل هؤلاء المشعوذون شخصا ما فى رفقتهم، ولكى يجعلوه فى مأمن من لدغات الثعابين، فإنهم يقومون بصب بعض الماء فى إناء، ثم يضيفون إليه الزيت والسكر، ويحاولون عمل مزيج من هذا الخليط، وبعد تلاوة بعض الأدعيات يبصقون

فى الإناء، ويأمرونه بشرب هذه الجرعة المنفرة، وبعد ذلك يعلقون فى أذنيه ثعبانين كبيرين من أسنانهما، ويظل الثعبانان متدليين هكذا لمدة ربع ساعة، وبعد انتهاء العملية، يخرج هذا «المأذون» من كيسه ثمن الخدمة الجليلة التى أسديت إليه، وينسحب، وهو شديد الاقتناع بأن ليس عليه أن يخشى بعد اليوم من لدغات الثعابين .

ولعل هذا الاقتناع الذى حصل عليه هذا «المأذون» ، والذى جعل منه المشعوذون اقتناعا تاما بمثل هذه العملية الشائعة، هو الفائدة الوحيدة التى جناها هذا الرجل، إذ إننا فى الواقع نستطيع بسهولة أن نتجاسر على الأشياء التى تقل خشيتنا لها، وهذه الثعابين تشبه نوعا من الحيوانات لا يصبح ضارا، إلا عندما تظن أن من يقترب منها – بسبب اضطرابه غير الواثق وتردده – يريد إيذاءها . إننا مضطرون للتفكير على هذا النحو، على الأقل حتى يمكننا أن نفسر النتائج الغريبة لهذا التلقين الغريب لهؤلاء السحرة، إذ كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يحملوا فى ملابسهم، بل وعلى صدورهم، زواحف من كل نوع يلتقطونها بالصدفة، دون أن تقع لهم أحداث مؤلمة ؟ كيف يمكنهم أن يضعوا – دون أن يصيبهم أدنى أذى – عقارب حية تحت عمامتهم الحمراء التى تغطى رءوسهم الحليقة ؟ . لقد ظننا فى البداية أنهم كانوا ينزعون أسنان الثعابين أو فكى العقارب، لكن واحدا من زملائنا مر بتجربة تثبت العكس . فقد أراد ذات يوم أن يتأكد من الحقيقة، ونقل شكوكه هذه إلى واحد من هؤلاء الرفاعية، فما كان من الأخير إلا أن تناول أصبعه على الفور، ودسها فى فم الثعبان الذى يمسك به بين أصابعه، وأخذ زميلنا بفعل المفاجأة، وشعر بأسنان الثعبان الدقيقة والناعمة للغاية . صحيح أن كل هذا يمكن تفسيره، إذا ما تبنينا رأى بوكوك Pocoke : فهذا العالم الرحالة كان يزعم أن ليس ثمة ثعابين سامة فى مصر . ولكن هل تأكدت صحة مثل هذا الزعم ؟ وهل الأفعى العادية، أو الأفعى ذات القرون، وهى المعروفة بخطورتها فى أوربا، تكون أقل خطورة منها فى أفريقيا ؟ وهكذا فلا يمكن أن يكون زعمه صحيحا، وفضلا عن ذلك، فقد حدثت تحت ناظرنا أمور برهنت على عكس هذا الرأى .

يبقى علينا أن نتحدث عن فن استدعاء الثعبان من شقه، وهو أمر أكثر مثارا للدهشة، بل إنه يشبه المعجزة . وقد واتتنا هذه الفرصة لنرى هذا المشهد الفريد لأول مرة في طهطا بالصعيد عند آباء الدعوة . كان ثمة رجل يمر بالشارع وثمة سلة تتدلى من ذراعه، ويعلن بصوت عال أنه يطهر البيوت من الثعابين التي يمكن أن تحتويها ، وأردنا أن نضع نداء الرجل موضع الاختبار، في الدير نفسه، بالرغم من تعليمات رجال الدين، الذين يُعلّمون تلاميذهم ألا يكونوا على استعداد مطلقا لتقبل مثل هذه الأفكار . ومع ذلك فقد كان ثمة واحد من الآباء أقل تشددا من إخوانه، وحبذ فكرتنا، واستدعى الرجل الذي نحن بصدد الحديث عنه إلى فناء صغير من أفنية الدير ، وكانت سلته تحتوي على ثعابين كبيرة ومن أنوا ع مختلفة، قال إنه أخرجها من البيوت المجاورة التي دعي إليها . وسألناه ما ان كان ثمة زواحف بالدير، وما ان كان بمقدوره أن يخرجها، عندئذ شكل قسمات وجهه، وجهد لكي يضفي على وجهه مسحة من الغموض، وجال ببصره في كل الأماكن المحيطة به، وكانت كل إشاراته توحي بالجدية والخطورة، وكان يتخذ هيئة الرجل الملهم، ثم أوقف بصره في النهاية على حجرة معتمة للغاية وهو يتشمم الهواء، كما لو كان بإمكانه أن يستدل على وجود الثعابين عن طريق الشم، ثم أجاب بأنه لا توجد زواحف إلا في هذه الحجرة . وفتح باب الحجرة وتقدم بخطى بطيئة ، حاملا في يده عصى صغيرة ، وكان يغمغم بكلمات بنغمة خاصة وبصوت خفيض، ولم يفهم رجال الدين من كلماته إلا كلمة : السلام عليكم، وبعد هذا النوع من «التعزيم» الذي استغرق خمس دقائق على الأكثر، وضع إحدى قدميه في الحجرة، وبصق على الأرض، وانحنى، ثم نهض على الفور، وقدم إلينا ثعبانا يبلغ طوله أربعة أقدام، وكان يمسك به من ذيله، ويسنده بعصاه . ولم يكن هذا كل شئ ، فقد قام بهذه الطقوس مرتين وأحضر ثعبانين آخرين من حجم صغير، وضعهما مع الثعبان الكبير في السلة . وصرفنا الرجل، ودفعنا له ثمن المشهد الذي قدمه لنا . ونحن نعترف – برغم قلة ميلنا إلى تصديق ما حدث – بأن الخداع كان كاملا، وأننا منذ

ذلك الوقت، أصبحنا أكثر ميلا للاعتقاد فى وجود السحرة الذين عقدوا صلات مع الشيطان، حسب أفكار الأقباط الدينية .

ولعل من الممكن الاعتقاد بأن هذه العملية ليست سوى حيلة من حيل السحرة أو الحواة – وهو ما اعتقده كثيرون – لكننا كنا قد اتخذنا كل الاحتياطات الممكنة، التى لا يمكن معها خداعنا، بل ويمكننا أن نؤكد بأن الحاوى لايخبئ مطلقا ثعابين فى ملابسه . وفضلا عن ذلك فقد أرغم البعض منا – كى نبدد كل شك – هؤلاء الرجال على أن يتجردوا من ملابسهم، ومع ذلك فقد حازوا نفس النجاح فى عملهم، ونستطيع أن نقدم على ذلك الكثير من الأدلة، لدرجة لايمكن معها أن نتهم بعدم الكفاءة . لكن ذلك يعنى أن نتوقف طويلا حول هذا الأمر، ومع ذلك، فلكى نفسر بطريقة صحيحة وموضوعية وقائع خارجة عن المألوف مثل تلك الوقائع، فنحن نعتقد أن بالإمكان الافتراض بأن الحواة المصريين لديهم القدرة على أن يعطوا لأصواتهم نغمة قادرة على جذب الثعابين، بنفس الطريقة التى يستطيع بها الصياد أن ينغم صوته لكى يخدع فريسته التى يجذبها إلى شباكه . ويؤكد الأستاذ دى لاسبيد de Lacépède فى كتابه Histoire naturelle أن الثعابين عامة، تفرز رائحة قوية، وأن بعض الناس يفرزون بالمثل رائحة مسكية . ويذكر واقعة تؤيد ما ذهب إليه، يمكن أن نستنتج منها أن الرائحة تخدم الرفاعية عند اكتشاف الزواحف، بنفس القدر الذى يخدمهم صوتهم .

ويبدو أن هؤلاء الناس قد عرفوا تأثير اللعاب على هذه الحيوانات الخطرة، وكل العمليات التى يتبعونها توضح ذلك بجلاء، وتتفق كثيرا مع رأى جاليان Galien الذى يدعى أن اللعاب سام بالنسبة للعقارب والثعابين ، وقد شاهدنا كثيرا من العلامات التى تدعم ما ذهب إليه هذا الطبيب العالم . فالواحد من هؤلاء الحواة، يعرض أمام الناس ثعبانا ضخما، ويظل يهيجه حتى يوشك الحيوان أن يعضه، وعندئذ يبصق فى فمه فيتوقف غضب الثعبان على الفور، بل يظل بلا حراك تقريبا . وهذه التجارب التى تتكرر مرات كثيرة، وبنفس النجاح، لا تسمح

مطلقا بإثارة الشك حول مفعول اللعاب، إن لم يكن كسم للثعبان، فعلى الأقل كمخدر، وقد اتبع بعض أطباء الجيش نفس هذه الطرق مع العقارب، فحصلوا على نفس النتائج .

وأشهر الثعابين المصرية على الإطلاق هو بلا جدال ثعبان الصعيد، الذى يعرف باسم الشيخ هريدى . وقد تحدث كل من نوردن Norden وبروس Bruce وسافارى Savary عن هذا الثعبان الشهير، الذى رفعته سذاجة العامة واحتيال المشايخ المسلمين إلى مرتبة ولى من الدرجة الثانية. ويمكن أن نرجع هذا التقديس غير المألوف، إلى أزمنة ضاربة فى القدم، حيث كانت شعوب مصر - كمايقول هيرودت واليان Elien - تولى للثعبان بشكل خاص، قدرا كبيرا من التقديس، فكانوا يتخذون منه رمزا للخصوبة . وقدتحدث دوبوى Dupuis عن تلك العبادات العالمية التى اتخذت الثعبان موضوعا لها ، وعن الدور الذى لعبته الثعابين فى كل الرموز العالمية التى أدت إلى نشأة العبادات المختلفة . لكن ما سوف يدهش عددا كبيرا من القراء بلا جدال ، هو أن يظل الثعبان هريدى، يلقى فى مصر، وتحت سيادة المبادئ الإسلامية، نفس المكانة التى كانت له فى الماضى عند عبدة إيزيس وأوزوريس، رمز الخصوبة، وأنه لا يختلف فى شئ ، لا فى الشكل ولا فى الطبيعة، عما وصفه اليان . وقد أخطأ هيرودت عندما خلط بين هذا الثعبان ، وبين الحية ذات القرون . وتأتى النساء العقيمات لزيارة الأماكن التى كانت مخصصة له، لكى يحصلن بفعل القرابين والأضحيات على نهاية لعقمهن ، كما تذهب إليه الفتيات ليسررن إليه برغباتهن فى أن يصبحن عما قريب زوجات وأمهات . وسوف نلزم الصمت عن كل الخدع المقززة للمشرفين على مزار هذا الثعبان - الإله، وكذلك عن المشاهد الشهوانية، التى هى نتيجة طبيعية لعبادة غريبة، بعيدة عن العقل لهذه الدرجة، ويكفينا أن نقول بأن النساء بعد أن يذبحن أضحية عند باب المزار، يصعدن عند دخول الليل إلى قمة سلم يبلغ عدد سلماته ١٠ - ١٢سلمة، وما أن يحل الظلام، حتى ينزلقن بطريقة غامضة إلى داخل المزار ليقضين بقية الليل مع

شيخ . ومن نافلة القول، أن نذكر أن هؤلاء السيدات ينجحن في معظم الأحيان في تحقيق الهدف الذي قمن بهذه الزيارة من أجله .

ويحكى عن أصل اسم الشيخ هريدى ، أن شيخا بهذا الاسم كان معروفا بفضائله، قد ظهر من جديد – بعد موته – في صورة ثعبان. وهذه الخرافة التي يجد شيوخ البلاد مصلحتهم في نشرها وتدعيمها، أصبحت طعما يسهل بلعه، وتلك هي نشأة كل الخرافات (١) .

---

(١) في نهاية هذا المؤلف علينا أن نبدى عرفاننا إلى الأستاذ فورييه Fourier السكرتير الدائم للمعهد العلمي المصري، للمجاملة التي أبداها نحونا، عندما أمدنا بمذكراته عن مصر، والتي كانت مصدرا لكثير من أدق الأفكار . وكان مركز القومسيير الفرنسي عند ديوان القاهرة – وهو المنصب الذي كان يشغله أثناء الحملة – قد جعله على صلة يومية بكبار المشايخ ورجال الشريعة ، وأكثر أهل البلاد تنورا ونفوذا . كما أن المخطوطات التي تركها المرحوم الأستاذ جلوتييه Gloutier – عضو المعهد المصري ، قسم الاقتصاد السياسي – لم تكن بأقل نفعا لنا، فقد استطاع جلوتييه – بوصفه مديرا للمالية – أن يحصل على كل المعلومات الدقيقة . كما لا ينبغي أن نلزم الصمت إزاء الأفضال التي ندين بها للأستاذ جومار Jomard ، عضو المعهد، بخصوص كل المعلومات القيمة التي قدمها لنا، وللعناية الخاصة التي أبداها بمراجعته هذا المؤلف .

كما أنني في النهاية، أتقدم بخالص شكرى، إلى السادة : بارسيفال جرانميزون Parseval Granmaison ، و روييه Rouyer ، وبوديه Boudet ، ودالماس Dalmas ، الذين زودوني – بالمثل – بالمعلومات الهامة التي جمعوها في ظروف مواتية .

كما أن الرحالة المدقق نيبور Niebuhr ، قد قدم ملاحظة بالغة الإثارة عن الرياضة والألعاب عند المصريين، وعن ملابسهم، وعندما حانت لنا فرصة مراجعة دقة هذه الملاحظات، أخذنا عنه الكثير وأدخلناه في دراستنا هذه .

الكتاب الثاني

دراسات تكميلية

مذكرة مقدمة من المسيو بانكوك إلى سيمون وزير الداخلية بخصوص إعادة طبع كتاب «وصف مصر» (*)

كانت مصر موضوعا لعدد ضخم من المؤلفات، كما وصفت من قبل مرات كثيرة، لكن أحدا لم يتمكن، حتى وقت قريب، من الحصول على معرفة تامة ودقيقة عن هذه المنطقة من العالم . كان ذلك فى الحقيقة يتطلب حدثا غير عادى، وظروفا مواتية لا يستطيع أن يهيئها إلا جيش منتصر، حتى تتهيأ الوسائل اللازمة لدراسة مصر بالعناية التى تليق بها . لقد كانت هذه البلاد، التى زارها أشهر فلاسفة الزمن القديم ، هى النبع الذى اغترف منه الإغريق، بل الرومان كذلك، مبادئ القوانين والعلوم والفنون، ولم يك مسموحا للأجانب فى عهد الإغريق والرومان أن يتوغلوا فى هذه البلاد حتى يبلغوا معابدها، ولم تعد هذه المنشآت فيما بعد- بعد أن حاق بها الإهمال بفعل الثورات الدينية والسياسية المتوالية - أكثر منالا بالنسبة للرحالة الأوربيين منذ أن استقرت الديانة المحمدية هناك.

أما أن توصف وترسم الصروح القديمة التى يمكن القول بأنها كانت تغطى أرض مصر، وأن تجمع وتفحص كل منتجاتها الطبيعية، وأن توضع خرائط دقيقة ومفصلة عن هذه البلاد، وأن تجمع الشظايا القديمة (من آثارها)، وأن تدرس الأرض والطقس والجغرافية الطبيعية، وأخيرا أن يلم الناس بكل ما يتصل بتاريخ المجتمع، وتاريخ العلوم والفنون - فلقد كانت تلك هى غاية هذه المهمة التى تطلبت إسهام عدد كبير من الدارسين، كانت تحركهم جميعا نفس الغايات. وهذا العمل الذى ننشر منه اليوم طبعته الثانية ، هو الثمرة المشتركة لجهودهم.

(*) نشرت هذه المذكرة بدون أى عنوان .(المترجم) .

وما أن عاد إلى أرض الوطن هؤلاء العلماء والرياضيون والفلكيون والمهندسون وعلماء الطبيعة والمستشرقون ورجال الأدب، والمعماريون والرسامون، بعد أن تعرضوا – خلال مايقرب من أربع سنوات – لكل أخطار هذه الحملة العسكرية الخالدة، وهم السادة :برتوليه Berthollet، مونج Monge، كونتيه Conté ، كوستاز Costaz، ديليل Delile، ديچينيت Desgenettes، ديفلييه Devilliers، فورييه Fourier، چيرار Girard، جولوا Jollois ، لانكريه Lancret، جومار (١) Jomard، أندريوسي Andréossy، بلزاك Balzac، بليتست Belleteste، بيرتر Bertre، بوديه Boudet، كريستي Caristie ، كاست Castex ، سيبيل Cécile ، دى شابرول de Chabrol. ، كورابوف Coraboeuf ، دى كورانسيه de Corancez، كورديبه Cordier ، كوتل Coutelle، دى لابورت de laporte، ديكوتيل Descotils، دى بوا ايميه Dubois-Aymé ، دوشانوى Duchanoy ، دوترتر Dutertre ، فافييه Favier ، فاى Faye ، فيف Fève، جراتيان لوبير Gratien - Lepère، جيوفروى Geoffroy، جاكوتان Jacotin، جوبير Jaubert، لارى Larrey ، ليسيسن Lecesne، لوجنتى Legentil ، لنوار Lenoir، لوبير الأكبر Lepèr ainé ، لوبير المهندس المعمارى Lepère architecte ، مالو Malus، مارسيل Marcel ، مارتان Martin، نورى Norry، نويه Nouet، بروتان Protain، رافينو Raffeneau، ريج Raige، ريدوتيه Redouté، روييه Rouyer ، سان جينى Saint-Genis، صامويل برنارد Samuel Bernard، سافينيى Savigny، فيار Viard، فيوتو Villoteau، فانسان Vincent – ما أن عاد هؤلاء إلى أرض الوطن حتى أنفقوا سبعة عشر عاما فى إعداد وتصنيف المواد التى كانت قد تجمعت لديهم .. وإننا لنأسف لأننا لم نتمكن من أن نذكر هنا أسماء كل أولئك الذين سقطوا ضحية لحبهم للتضحية أو سقطوا بفعل الحرب أو الطقس.

---

(١) كل هؤلاء أعضاء فى اللجنة التنفيذية التى كان يرأسها المسيو برتوليه والتى يتولى سكرتاريتها جولوا، أما المسيو جومار قوميسيير الحكومة، فقد تولى إدارة وتنسيق العمل منذ وفاة المسيو لانكريه . وقد توفى عشرة من الباقين منذ عودتهم (من مصر حتى الآن) .

لقد حشدت فرنسا كل جهودها لفتح هذه البلاد، ولقد وظفت كذلك كل جهود الفنون من أجل وصفها، ولقد أكب عدد كبير من الخطاطين والرسامين ورجال الطباعة المهرة والميكانيكيين، وما يقرب من أربعمائة من الحفارين .. عملوا جميعا بمثابرة تدعو للإعجاب في إقامة هذا الصرح (وصف مصر) ، الذى يجمع ما بين مجد فرنسا الحديثة وكل ذكريات مصر القديمة . إن هذا العمل المخصص لوصف الكثير من روائع المنجزات العملاقة، هو نفسه إنجاز عملاق فى مجالات الآداب والفنون والعلوم، ولقد تجاوز هذا الإنجاز العظيم الحدود المألوفة حتى الآن بالنسبة للمجموعات المحفورة (اللوحات) . فقد كان يلزم الورق قوالبُ وأشكالٌ (فورمات) لم يسبق استعمالها، بل لقد تطلب الأمر أن نعثر لها حتى على اسم جديد . إن مصانع أوربا لم تصنع حتى اليوم أوراقا بهذا الحجم أو على هذه الدرجة من الجمال، بل لقد اصطنعت وسائل جيدة لتطوير فن النحت أسرعت بتقدمه، كما أثرى فن الطباعة بطرق مستحدثة طورته .

وفى النهاية، وبعد الكثير من العناء والمثابرة، وبعد مجهودات من كل نوع شغلت أو نالت عناية أكثر من ألفى شخص كل عام فى فرنسا، وبعد أن أسهمت العديد من الفنون الهامة بالكثير، وبعد أن نفذت – بعناية ومثابرة – خطة لم يتناولها أى تغيير، بعد ذلك كله أتمت لجنة مصر Commission d'Egypte هذا المؤلف الضخم، الذى لا يمكن أن نجد ما يضارعه فى حوليات العلوم .

لقد كان بوسعنا أن نطلق عليه اسم «موسوعة مصر»، فهو يعرف بها تاريخا ومنشآت ومنتجات، وليس ثمة بلد يحوز وصفا بهذه الدرجة من التمام والكمال فى كل مناطقه، وليس هناك من سبيل فى أن نأمل أن تتوفر على الإطلاق مثل هذه الظروف المتآلفة والإرادة القادرة على إنتاج سلسلة مماثلة من الإنجازات ، أو أن تقيم مثل هذا الصرح. إن فرنسا لتستحق – دون جدال – أن تكون موضوعا لوصف يتم بنفس هذا النسق .

ولقد أثار هذا العمل إعجاب كل أوربا، لكن هذا الإعجاب كان بالأحرى ناتجا عن عواطف ود ارتبطت به، أكثر منه ناتجا عن معرفة حقيقية بمحتوياته. فلقد ظل شأنه شأن آلهة مصر، حبيسا داخل محراب الفنون، ولقد كان هذا العمل جديرا

بالأمة التى أنجبت المقاتلين والعلماء والفنانين الذين ندين لهم بهذا العمل، كما كان جديرا بالحكومة التى أمرت بإتمامه، لكنه مع ذلك ظل شبه مجهول من الفرنسيين أنفسهم . وكم تمنى الرسامون والمعماريون والعلماء ورجال الأدب أن يستمتعوا بهذا العمل الذى لا يمكن لأية إمكانيات فردية أن تحصل عليه، لكن الطلب يشتد عليه، وكان ينبغى له أن يحمل منذ زمن طويل إلى الأجنبى أمارات لا حصر لها على المجد الذى حازه الفرنسيون .

وحين نغض الطرف عن المبالغ الضخمة التى أنفقت على وضع هذا السفر، ونقتصر على حساب المصاريف الجديدة التى تتطلبها إعادة طبع تسعمائة لوحة، إلى جانب النصوص التى تكون هذا السفر، وإذا ما نشرناه فى شكل أجزاء صغيرة، مقدمين بذلك تسهيلات طيبة للكثيرين من ذوى القدرة المحدودة، فلا بد أن نكون على ثقة من إمكانية انتشار هذا المؤلف ورواجه فى كل أوربا .

كانت تلك هى الدوافع التى عرضها المسيو س . ل . ف بانكوك C.L.F Panckoucke على صاحب السعادة وزير الداخلية الكونت سيميون Siméon .

ونرفق فيما يلى إجابته، وكذلك الأمر الملكى الذى أجاز نشر هذه الطبعة الثانية .

سيدى ..

لقد وضعت تحت تصرف الملك اقتراحاتكم المتعلقة بإعادة طبع المؤلف الكبير الذى وضع عن مصر، وقد وقفت فى صف هذه الاقتراحات، وقد شاء جلالته أن يوافق عليها، وأرسل لكم هذه النسخة من المرسوم الصادر فى هذا الخصوص، وعليكم أن تتخذوا فيما يخصكم كل إجراءات التنفيذ .

إنها لمهمة نبيلة، ولست أشك فى أنكم ستقومون بها، بطريقة تحقق الثقة التى وضعت فيكم .

سيميون

(توقيع)

مرسوم ملكى

لويس ، بحمد الله، ملك فرنسا ونافار

إلى كل من سيطلع على هذه الأوراق :

حول تقرير وزيرنا سكرتير الدولة للشئون الداخلية، ومستشار دولتنا المختص،

أمرنا ونأمر بما يلى :

مادة أولى : يقبل الاقتراح المقدم من المسيو س . ل . ف . بانكوك بإعادة طبع «وصف مصر» ، والمرفوع إلينا من قبل وزير داخليتنا، ويلحق هذا الاقتراح بهذا المرسوم .

مادة ثانية : بالنسبة للحصيلة التى ستعود على الحكومة من عائد هذا العمل : توزع حصة (يحددها وزير الداخلية) على الذين ساهموا فى الطبعة الكبيرة والتى تمت على نفقة الخزينة، ويخصص الباقى لتشجيع العلوم والفنون الجميلة وبخاصة فن الحفر .

مادة ثالثة : يكلف وزيرنا سكرتير الدولة للشئون الداخلية بتنفيذ هذا المرسوم.

صدر بقصر التويليرى فى ٢٣ يونية من عام الشكر ١٨٢٠ العام السادس والعشرين من عهدنا .

لويس

(توقيع)

الدراسة الأولى :

دراسات موجزة حول

البنية الجسدية للمصريين

البـــــــارون لارى

العنوان الأصلى للدراسة: «دراسة موجزة حول البنية الجسدية للمصريين ولمختلف الأجناس التى تقطن مصر، وتليها بعض أفكار حول تحنيط المومياوات» ، تأليف المسيو البارون لارى، دكتوراه فى الجراحة من باريس .. ودكتوراه الطب من جامعة بينا، وعضو المجمع العلمى المصرى، وعضو العديد من الأكاديميات، والجراح الأول فى حرس صاحب الجلالة الامبراطور الملك، والمفتش العام بمصلحة صحة الجيوش، وأحد القادة الحاصلين على وسام الشرف والفارس من طبقة التاج الحديدى .

كان من الضرورى، فيما بدا لى، حتى أستطيع أن أميز الملامح الجسدية للمصريين الحقيقيين، عن ملامح بقية سكان مصر ، أن أبدأ بفحص مختلف هؤلاء السكان، فى صلاتهم الأساسية . ولكى أسترشد فى فحصى هذا بشئ من المنهج، فسوف أميز هؤلاء السكان، كما فعل رحالة فرنسى من قبل، فى أربع طبقات (أو أجناس) تشتمل على : المماليك، الأتراك أو التركمان، العرب، وأخيرا الأقباط .

لقد استقر المماليك فى مصر، وهم حكامها اليوم، عند حوالى القرن العاشر، وتنحدر سلالة هؤلاء من جبل القوقاز، وقد وصلوا إلى هذه البلاد بعد جولات قاموا بها فى سوريا . ويمكن لنا تمييز هؤلاء، الذين أشار إليهم مقاتلونا الصليبيون بالاسم الذى لا يزالون يحملونه حتى اليوم، عن بقية السكان الآخرين فى مصر بميزاتهم الجسمية وبطابعهم العسكرى العدوانى ، وهم جميعا ذوو قامة مديدة وبنية شديدة ، وتقاطيع خلقتهم جميلة متناسقة، ويتمتعون بوجه بيضوى ، وجمجمة ضخمة، وجبهة عريضة، وعيون واسعة نجلاء، وأنف مستقيم، أو أقنى بعض الشئ، وفم متوسط، وذقن ناتئة على نحو خفيف : أما شعرهم وجفونهم ورموشهم فسمراء داكنة أو كستنائية اللون، كما أن بشرتهم بيضاء فى غير لمعان. ولنسائهم – وهن قادمات من نفس البلاد – نفس الملامح، مع تغيرات كبيرة، ونجد من بينهن نسوة بارعات الجمال .

وتلفت رؤوس المسنين من هؤلاء الشرقيين النظر، إذ يضفى نتوؤها عليها روعة، يزيد منها جمال ملامح الوجه، وبياض لحيتهم الأخاذ، والتى يتركونها تنمو حتى تلامس أسفل الصدر : ويعد مراد بك النموذج الأمثل لهذه البنية الجسدية الجميلة. أما طبع هؤلاء المماليك ففخور، جسور فى غير غلظة، وهم

يشتهرون بالكرم، وحسن وفادة الضيف. ولا يتزوج الواحد منهم إلا إذا بلغ مرتبة عالية، وفى النهاية، فإنهم جميعا متمرسون على فنون القتال. واعتقد من جانبى أن الناس محقون حين ينظرون إلى هؤلاء باعتبارهم الفرسان الأول فى العالم .

ويتكون الجنس التالى (من سكان مصر) من الأتراك أو التركمان، القادمين من تركيا أو من بلاد التركستان، وتقترب بنية هؤلاء من بنية الجورجيين أو الشراكسة المماليك الذين كنت أتحدث للتو عنهم، وإن كان لون بشرتهم يميل إلى سمرة برنزية ، كما أن وجههم أكثر تسطحيا، وجمجمتهم محدبة على نحو أكبر، وهى كذلك أكثر كروية، وعيونهم أكثر صفرا، ونظراتهم غامضة معتمة، وحاجبهم أسود حالك سواده، كما أن لحيتهم بالمثل سوداء . وطابع هؤلاء الترك أو التركمان أقل حيوية ، مع شئ من غلظة . ورجال هذا الجنس كثيرون بعض الشئ فى القاهرة، وهم يأتمرون بأوامر الباشا مباشرة.

وتتكون الطبقة (الجنس) الثالثة من العرب، وهؤلاء يمكن لنا أن نقسمهم إلى ثلاثة فروع مختلفة : فرع العرب الشرقيين القادمين من حواف البحر الأحمر أو من الجزيرة العربية، والعرب الغربيين أو الأفارقة، وينتمى هؤلاء فى الأصل إلى موريتانيا أو سواحل أفريقيا، ثم أخيرا العربان البدو أو الـScénites القادمين من الصحراوات .

وللأفراد من الفرع الأول – وهم الذين تحوروا إلى الأبد فى طبقة الفلاحين والصناع أو الحرفيين فى كل مصر السفلى – قامة فوق المتوسطة بقليل، وهم متينو البنية، جميلو الخلقة على نحو كاف، وبشرتهم جافة داكنة ، تكاد تكون سوداء ، ولهم وجه نحاسى بيضوى ، وجبهة عريضة ومحدودبة ، وجفنان متباعدان أسودان، وعيون لها نفس اللون صغيرة ولامعة وغائرة، وأنف مستقيم متوسط

الحجم ، وفم مخروط فى شئ من الحسن ، وأسنان منتظمة حسنة القطع ، بيضاء كالعاج. ونلحظ عند نسائهم اختلافات طيبة، ويعجب المرء فيهن – بصفة خاصة – محيط أطرافهن الرشيقة ، والتناسب المنتظم لأيديهن وأقدامهن، كما يعجب بما فى مشيتهن ووقفتهن من اعتداد .

ويشارك العرب الأفريقيون سابقيهم فى مجمل شكل البنية الجسدية ، وكذلك فى لون العيون وحيويتها، لكن صلتهم بأبناء ساحل أفريقيا تتضح فى شكل الأنف والفك والشفاه، ويتماثل طبع هؤلاء مع طبع الأجناس الأخرى من العرب . وينتشر هذا النوع من العرب فى مصر العليا، وهم هناك يزرعون الأرض ويمارسون الحرف كالأولين .

وعادة ما ينقسم البدو أو العربان الرعاة إلى قبائل متناثرة على مشارف الأرض الخصيبة عند مداخل الصحراوات . وهم يقيمون تحت خيام يحملونها من مكان لآخر حسب الحاجة ، ولهم بعض صلات شبه بالآخرين ، وإن كانت عيونهم أقل بريقا فى العادة ، كما أن ملامح الوجه أقل وضوحا، وهيئتهم أكثر جمالا ، فى حين أن قامتهم أقل حجما، وهم أكثر خفة وأشد نحولا، ومع ذلك فهم أشداء متينو البنية، ذوو روح متوثبة، وطبع فخور. لكنهم حذرون جفولون، كما أنهم نفعيون كتومون هائمون يضربون على غير هدى، وفضلا عن ذلك فسرعان ما يصبح الواحد منهم فارسا ماهرا، تمتدح مهارته فى استخدام السهام والحراب . وتقاليد وعادات هؤلاء العرب هى هى على وجه التقريب ، وهم يربون قطعان الضأن والجمال والخيول من صنف ثمين للغاية .

أما الطبقة الرابعة من سكان مصر، والتى كانت الموضوع الرئيسى لأبحاثى، فتتكون من الأقباط الذين يوجدون بأعداد كبيرة فى القاهرة ومصر العليا . وهؤلاء – دون شك – هم أنسال المصريين الحقيقيين والقدماء ، ولقد احتفظوا من هؤلاء بخلقتهم الجسدية ، ولهجتهم (كذا) وتقاليدهم وعاداتهم ، ويبدو أن أصولهم قد

... في عصور بالغة القدم . وقد كانوا يقطنون مصر العليا من قبل عصر ... بزمان طويل ، ويؤكد هيرودت أن المصريين من سلالة الأحباش والاثيوبيين ، ويتفق كل المؤرخين في هذه النقطة مع هيرودت، وتدعوني الأبحاث التي قمت بها في هذا المجال إلى تبني هذا الرأي .

وتضرب بشرة الأقباط إلى الصفرة وإلى العتمة مثل الأحباش، ووجههم ممتلئ في غير انتفاخ، وعيونهم جميلة ، لوزية الشكل، ذات نظرات ذابلة واهنة، أما الوجنات فناتئة ، ويكاد يكون الأنف مستقيما ، مستديرا عند قمته، لكن المنخارين واسعان ، والفم متوسط، والشفاه غليظة ، والأسنان بيضاء منتظمة ، وإن تكن ناتئة بعض الشيء، ولحيتهم وشعر رأسهم أسود جعد، وللنسوة نفس الملامح مع اختلافات تأتي لصالحهن . ويبرهن كل ذلك – وهوعكس ما رآه فولني Volney– على أن هؤلاء القوم لا ينحدرون مطلقا من جنس الزنوج في أواسط أفريقيا، إذ ليس ثمة أي نوع من التشابه بين هؤلاء الأخيرين وبين الأقباط. وفي الواقع فإن الزنوج الأفريقيين أسنانا أكبر حجما وأكثر بروزا، كما أن تجويفهم الصدري أكثر اتساعا وأكثر تحديدا، وشفاههم المدلاة أكثر غلظة، كما أن خدودهم أصغر، وعيونهم كابية على نحو أكبر، كما أنها أكثر استدارة، ولشعرهم شكل الزغب أو الصوف . أما الحبشي فعلى العكس من ذلك عيناه واسعتان، ونظرته مريحة، وزاوية صدره تنحني نحوه، ووجنتاه أكثر نتوءا، وتشكل خدوده مع الزوايا المحددة للفك والفم مثلثا أكثر انتظاما ، والشفاه غليظة حقا لكنها غير مدلاه مثلما عند الزنوج، وكما سبق لي القول فإن الأسنان جميلة وأقل نتوءا، أما تجويف الصدر فأقل اتساعا ، وفي النهاية فإن بشرة الأحباش نحاسية اللون .

وكل هذه الملامح تلاحظ مع فروق لا تكاد تحس بها لدى الأقباط، أو المصريين الحقيقيين، ونجد نفس هذه الملامح مرة أخرى في رؤوس التماثيل القديمة وبخاصة تماثيل أبي الهول . ولكي أتحقق من هذه الظواهر قمت بتجميع عدد محدود من الجماجم من مقابر عديدة للأقباط ، كان لا مفر من إزالتها لمقتضيات المصلحة

العامة، ثم قارنتها بغيرها من جماجم الأجناس الأخرى، التى جمعت منها [illegible] مجموعات كبيرة (١)، وبخاصة جماجم لأحباش وأثيوبيين حصلت عليها [illegible] الطريقة، وقد اقتنعت بأن هذين النوعين من الجماجم يمثلان نفس الخلقة على [illegible] التقريب .

ولقد مكنتنى الزيارة التى قمت بها إلى أهرام سقارة من وضع سمح لى [illegible] أنقب عن عدد كبير لحد كاف من المومياوات ، قدمت لى جماجمها نفس [illegible] التى قدمتها الجماجم الأولى، مثل نتوءات الوجنات ، وأقواسها ، والشكل [illegible] للفتحات الأنفية ، والبروز القليل لأقواس الصدر.

وتبدو مختلف الموازنات التى انتهيت من إقامتها، وكذا العلاقات التى [illegible] على الدوام، والتى لا تزال موجودة حتى اليوم، بين الأحباش وبين الأقباط، والتوافق بين تقاليد وعادات هؤلاء وأولئك، بل وديانتهم، كل ذلك يبدو كافيا [illegible] يبرهن على أن المصريين إنما ينحدرون حقيقة من الأحباش والأثيوبيين. وزيادة على ذلك، فمن الطبيعى أن نتخيل أن الأثيوبيين قد اتبعوا مجرى النيل منذ [illegible] الأولى ، وأنهم كانوا يتوقفون أولا بأول فى البلاد التى يخصبها هذا النهر، [illegible] هذه الإقامة كانت على التوالى، وهكذا فقد انتشر هذا الشعب بالتتابع من [illegible] إلى طيبة إلى ممفيس إلى هليوبوليس، أما المدن الأخرى شمال هذه المدن ، [illegible] تتكون إلا بعد ذلك بوقت طويل .

وقد لاحظت كذلك ثلاثة أنواع من المومياوات، تنتمى - فيما بدا لى - إلى ثلاث طبقات من المواطنين ، بل ربما إلى ثلاثة أجيال مختلفة . فمومياوات [illegible] العليا فى العادة أكثر جمالا، وتلقى عناية أكبر من مومياوات مصر السفلى ، [illegible]

---

(١) حيث أتى الطاعون على الأشخاص الذين تركتهم بمنزلى فى القاهرة أثناء سفرنا إلى الأسكندرية، وحيث غادر الجيش هذه المدينة ليعود رأسا إلى فرنسا ، فإننى لم أستطع إنقاذ هذه المجموعات كما لم أتمكن من إنقاذ أبحاثى .

المومياوات التى أضعها فى الصف الأول فمتماسكة متينة، مطلية بالقار، ومحنطة بنفس المادة، وتحاط بأشرطة من قماش الكتان، مشكلة عددا من ضمادات الجراحة والتشريح مساويا لعدد أجزاء جسم الإنسان . وهى مغلفة بغلاف كرتونى، تنتشر عليه الكتابات الهيروغليفية .

ويضم كل هذه الأجزاء صندوق من خشب الجميز، رسمت على غطائه صورة الشخص (المتوفى) .

وكما قال هيرودت ، فيبدو أنه بعد أن كانت تفرغ التجاويف الثلاثة الرئيسية للجسم، كانت هذه التجاويف تملأ بالقار، كذلك كانت تحقن به الأطراف ، وكل الأجزاء الخارجية . وحين تكون هذه المادة فى كامل انصهارها فإنها تنفذ داخل هذه الأجزاء بعمق ، لحد تتشربها معه عظام هذه الأجساد ، حتى أنها استطاعت – ولا تزال تستطيع – البقاء بالمثل لوقت أطول، ما دامت توجد فى طقس تندر فيه الأمطار، وحيث تظل الأماكن التى أودعت بها شديدة الجفاف، محرومة من التهوية. وبعد انتزاع أغلفة المومياوات، نجدنا نتعرف أولا على جنس صاحب المومياء وملامحه الرئيسية ، ونجد أن وجه وأيدى وأقدام بعضها مغطاة بأوراق من الذهب ثبتت فوقها بشكل فنى حاذق، وتحت ذراعى أو فى داخل جسم هذه المومياوات وجدنا هذه الكتابات النادرة التى عرفت باسم البرديات ، والتى لا تزال حروفها مجهولة بالنسبة لنا حتى اليوم . وتحمل كل واحدة من هذه المومياوات، بالإضافة إلى ذلك، كل شواهد الحرفة أو المهنة التى كان يمارسها صاحبها فى حياته، وتحفظ آنيته معه فى التابوت . ويخصص هذا النوع من التحنيط لكبار المواطنين فى الدولة، وكان يتطلب استعدادات طويلة وشاقة، كما كان يتطلب توفير الكثير من العناصر المقومة ، مما كانت تجعله ولا بد بالغ التكلفة .

وكانت الطبقة الثانية من المومياوات أقل جمالا وأقل تماما، وكانت ضماداتها من قماش أقل نعومة، ومثبتة بدرجة أقل من الفن، ولم تكن لهذه المومياوات أغلفة

كرتونية . أما التابوت المصنوع من خشب الجميز، والذى كان يحويها، فكان مصنوعا بشئ من الخشونة، كما لم يكن مزدانا بالرسوم شأنه شأن النوع الأول .

وكان أفراد الطبقة الثالثة يحنطون بمصاريف أقل، وتختلف أساليب تحنيط هؤلاء لغير ما حد، وقد أعدت كل المومياوات من هذه الطبقة بالحقن بمواد ملحية، تتفاوت درجة قابليتها للذوبان، وكانت توضع داخل تجاويف الجسم ، مثل محلول النطرون أو الملح البحرى . وبعد أن كانت تملح الأجساد جيدا على هذا النحو، كانت تترك لتجف فى الشمس، أو كانت تعرض لتأثيرالنار حتى تبلغ درجة اليبوسة التامة، ثم توضع بعد ذلك فى صناديق من خشب الجميز ، خرطت بشكل خشن .

وكانت كل هذه العمليات تتم دون جدال تحت إشراف رجال متبحرين فى علم التشريح .

* * *

لكى تكتمل هذه المذكرة الموجزة، سوف نضيف إليها ملخصا مركزا حول الطريقة التى حفظنا بواسطتها فى أوربا أجساد بعض مقاتلينا الذين ماتوا فى ميدان الشرف .

إذا كان الشخص (الحالة) الذى ينبغى أن يحنط جسمه قد مات نتيجة مرض مزمن، مع هزال، شريطة ألا يشك مطلقا فى وجود ترسبات قيحية فى الأحشاء، وألا يكون التحلل أو التعفن قد بدأ، وأن يكون الجسم سليما من الظاهر، فإن من الممكن حفظ الأحشاء فى تجاويفها الخاصة (بالجسم) فيما عدا المخ الذى ينبغى على الدوام إخراجه .

وفى هذه الحالة نبدأ بغسل كل أجزاء الجسم بالمياه النقية والطازجة، ونمرر بالأمعاء الغليظة غسولا من نفس السائل ، ونمتص بحقنة خالية الأشياء الذائبة التى لن يكون بالإمكان خروجها إما بسبب ثقلها الخاص، وإما بسبب الضغط الذى نمارسه أسفل البطن، كذلك فإننا نمتص المواد التى تحويها المعدة بنفس الوسيلة،

وقد يكفى أن نعد مسبارا بلعوميا عند شجاج (مشعب) الحقنة التى ندخلها إلى هذه الأجزاء الداخلية عن طريق الفم أو عن طريق فتحة نحدثها فى البلعوم من الجهة اليسرى للرقبة . وبعد ذلك نملأ المعدة والأحشاء بمادة قارية توضع منصهرة، وتغلق الفتحات، ثم نفعل نفس الشئ عند حقن العروق. ومن أجل ذلك تمزق شريحة من الجزء الداخلى والجانبى على يسار الصدر ، تجاه أخمص الأورطى، ويقطع واحد أو اثنان من الغضاريف التى تغطيه، ويوضع بداخل هذا الشريان ثجاجٌ ذو صنبور، ندفع عن طريقه حقنا دقيقا ملونا بالأحمر، لملء الأوعية الشعرية لكل النظام الغشائى، وبعد ذلك مباشرة وبنفس الطريقة، نقوم بحقن ثان، وبدفعة أكبر، لكى نملأ الشرايين والعروق التى ترفد عنها، ثم بحقن ثالث بالنسبة للأوردة، وينبغى أن يمرر هذا الحقن عن طريق أحد أوردة الفخذ، ثم تترك الجثة لتبرد ولتتخثر مادة الحقن . ولكى تخلى الجمجمة يثبت بها تاج واسع بواسطة مثقب للعظام عند زاوية اتحاد الدرز (*) السهمى بالدرز القذالى (أى درز القفا)، بعد أن نكون قد صنعنا حزا طوليا بالجلد دون مساس بالشعر، الذى نعنى بالاحتفاظ به، شأنه فى ذلك شأن زغب وشعر بقية الجسم . وعندما تتم هذه الفتحة، نقوم بقطع التحامات وطوايا الأم الجافية (**) بواسطة مبضع طويل وضيق، ذى قاطعين ، وتنزع مزق هذا العرق بواسطة خطاف متثلم (غير حاد ولا قاطع) ، ثم نخرج كل كتلة المخ والمخيخ بنفس هذه الأداة . وعن طريق حقنات بالماء البارد، نذيب على وجه السرعة كل ما تبقى من المادة المخية، وبعد ذلك تضم حداف فتحة الأغشية مع بعض نقاط الدرز .

أما إذا كان الشخص (الحالة) سمينا فى كثير أو قليل، وإذا كان قد مات بمرض عفن أوخبيث، وخلال فصل حار، فقد يكون من المستحيل حماية الأحشاء

(*) الدرز هو خياطة حافتى الجرح، وهو كذلك خط الالتحام أو الانفصال . (المترجم) .

(**) الأم الجافية هى الغشاء المغلف للدماغ والحبل الشوكى . (المترجم) .

من التعفن . وفى هذه الحالة، نستخرجها بواسطة حز هلالى، يتم فى الجنب الأيمن عند المنطقة القطنية (الحقوية)، وتفصل أولا الأمعاء والمعدة والكبد والطحال والكليتان، ثم يقطع الحجاب الحاجز بشكل دائرى ، ثم المنصف (*) والقصبة الهوائية والبلعوم عند دخوله إلى الصدر، وبعد ذلك تنزع الرئتان والقلب دون إتلاف العضو الأخير، الذى ينبغى أن يجهز بشكل منفصل وأن يحفظ بعناية. ولا بد أن يجفف هذان التجويفان بالأسفنج، ثم نضع كمية معينة من موريات الزئبق المشبع بالأوكسجين المحولة إلى مسحوق، على المناطق اللحمية من جدرانهما، وبعد ذلك يملأ هذان التجويفان بالوبر المغسول والمجفف، ثم يعاد شكل البطن إلى حالته الطبيعية، وتثبت حافتا الحز عن طريق خياطة ذات نقاط حددت سلفا . وبعد إعداد الجسم على هذا النحو، يغمس فى كمية كافية من محلول موريات الزئبق المشبع بالأوكسجين على أقوى درجة من التركيز يمكن الحصول عليها . وتترك الجثة مغمورة داخل هذا السائل لمدة تسعين أو مائة يوم، وبعد أن تتشبع جيدا بهذا المحلول، توضع فوق غربال، وتتعرض لتأثير متزايد لفرن تصدر عنه حرارة ، ومقام فى مكان جاف ومعرض للهواء . وبمجرد أن تجف هذه الأجزاء تدريجيا، يثبت من جديد الشكل الطبيعى لملامح الوجه ، وكذلك الوضع الطبيعى للأطراف ، وتأخذ الهيئة المناسبة، وتثبت عينان من الميناء بين بؤبؤ العين التى سحبت إلى الداخل وبين الجفون، ويعطى للشعر صبغة تتناسب مع لونه الطبيعى إذا ما وجدنا ذلك ضروريا ، ثم نمر على كل الجسم ببرنيق (طلاء لامع) ، خفيف اللون ، كى يعطى حيوية لصبغة الجلد، وكى يحفظ له مظهرا من الطزاجة، وأخيرا يوضع الجسد داخل صندوق زجاجى ليعرض على الجمهور، أو يدفن داخل تابوت .

وهكذا نستطيع أن نخلد لآلاف السنين، أجساد الأبطال أو رجال الدولة العظماء .

(*) المنصف هو الحيز الذى يشتمل على القلب وكل ما فى الصدر عدا الرئتين (المترجم) .

الدراسة الثانية

مصر .. والحملة الفرنسية

مقـــدمة تاريخيـــة

بقلم المسيو فوريـــه

تشغل مصر – بموقعها بين أفريقيا وأسيا، وباتصالها الميسور بأوربا – قلب العالم القديم، لكن هذه البلاد اليوم لاتقدم سوى ذكريات مجيدة، فهى وطن الفنون، وهى التى ما فتئت تحتفظ لهذه الفنون بصروح لا تحصى ، ولا تزال قائمة حتى اليوم أهم معابدها، وكذا القصور التى سكنها ملوكها، على الرغم من أن أحدث هذه الصروح قد شيد قبل حرب طروادة. ولقد ذهب إلى مصر كل من هوميروس وليكورج ، ودرس فيها سولون وفيثاغورث وأفلاطون العلوم والدين والقانون، وأسس الاسكندر هناك مدينة بالغة الثراء حظيت لوقت طويل بالسيطرة على عالم التجارة، وشاهدت بومبى وقيصر ومارك انطونيو وأغسطس يقررون فيما بينهم قدر روما وأقدار العالم بأسره. ومن خاصية هذه البلاد أنها تسترعى الانتباه بكل المبادئ الباهرة والمتألقة التى تنظم أقدار الأمم.

لم تنشأ فى الغرب أو فى آسيا أية قوة كبرى لم ترن ببصرها نحو مصر، أو لم تنظر إليها باعتبارها – على نحو ما – إقطاعية طبيعية بالنسبة لها، كما أن كل الأحداث الكبرى التى كان لها تأثيرها على تقاليد وتجارة وسياسة الامبراطوريات قد صحبت معها الحروب إلى ضفاف النيل، ويمكننا أن نلاحظ أن الفرس والمقدونيين والرومان والعرب والعثمانيين قد استقروا بمصر بمجرد أن تفوقوا على الشعوب التى كانت معاصرة لهم.

وفيما مضى، أوصى الدين إلى ملوكنا بالرغبة فى الاستيلاء على مصر. وقد بذل العديد من الأمراء الصليبيين، وكذلك البابا انوسان الثالث Innocent (*) وهو

(*) تولى البابوية من ١١٩٨ إلى ١٢١٦، وقد خاض صراعا ضد فيليب اغسطس ، واتخذ المبادرة فى قيام الحرب الصليبية الرابعة ، كما حارب مذهب الـ Cotharés الذى انتشر فى جنوب فرنسا حتى قضى عليه عام ١٢٠٩. (المترجم) .

الرجل الذى حكمت مواهبه كل أوربا، كل جهودهم لتحقيق هذا المشروع. وقد جدد هذا المشروع واحد من الوزراء الذين يعرفون أكثر من غيرهم المصالح المختلفة للدول المسيحية، هو الكاردينال هيمنيس Himenès (*)، وتحالف لهذا الغرض مع كل من فرديناند الكاثوليكى، وايمانويل، وهنرى السابع، وهم الذين تميزت جهودهم بالحكمة وذيوع الصيت . أما ليبنتز Leibnitz الشهير، والذى لم يخلق إلا من أجل المهام الكبرى فقد شغله هذا المشروع لزمان طويل، وقد وجه إلى لويس الرابع عشر مؤلفا ضافيا، ظل مخطوطا، عرض فيه المكاسب التى تتحقق من وراء هذا الغزو (**).

وقد كتب بوسويه Boussuet فى نفس الفترة عن التاريخ الطبيعى، وبعد أن أعاد إلى الأذهان عظمة مصر، وروعة الأنظمة والمؤسسات التى نشأت بها، أضاف هذه العبارة اللافتة للنظر : «والآن، حيث يقتحم اسم الملك أشد مناطق العالم غموضا، وحيث يبسط هذا الحاكم إلى نفس المدى البعيد تلك الأبحاث التى أمر بإجرائها عن المؤلفات الرائعة التى تدور حول طبيعة الفن، ألن يكون أمرا جديرا بهذا الفضول النبيل أن نكتشف ضروب الجمال التى يضمها الصعيد فى صحراواته، وأن نثرى فن العمارة عندنا بما سبق أن أنجزته فى هذا المضمار مصر؟» . ولقد تحققت أمنية هذا الرجل اللامع خلال فترة من حرب خالدة، أصبحت مصر على الفور مسرحا لها .

(*) كاردينال أسبانى ولد عام ١٤٣٦ ومات ١٥١٧ ، وكان رجل دولة كبير، لكنه أسال الكثير من الدماء . (المترجم) .

(**) هكذا يفصح السيد المؤلف عن روحه ونواياه منذ البداية، ولابد أن نضع هذا فى اعتبارنا على الدوام ونحن نقرأ باهتمام هذه المقدمة بوصف مصر . فما يقوله الآن يفسر الكثير من آرائه الغريبة، ويبرر الكثير من التناقضات الصارخة التى وقع فيها وبخاصة عندما يتحدث عن العرب والإسلام، و التى تبلغ أحيانا حد الاستهانة بالعقول، ولدرجة تثير من السخرية والإشفاق أكثر مما تثير من جدل جاد لا تستحقه فى الواقع، فى الوقت الذى تظل فيه تفسر لنا الكثير من النوايا، مما لايزال موجودا ربما حتى اليوم . (المترجم) .

إن الناس – ولابد– يتذكرون ذلك الانطباع الذى أحدثه فى أوربا هذا الخبر المدهش عن قيام حملة فرنسية تتجه إلى الشرق، فلقد أُعِدّ هذا المشروع الذى أنعم فيه الفرنسيون النظر طويلا وفى صمت، بكثير من العناية والسرية ، حتى أن يقظة أعدائنا التى لاتغفو قد خدعت، لقد عرف هؤلاء فى وقت واحد تقريبا أنه قد ووفق على هذا المشروع، وأنه قد أعد ونفذ. ولقد بررته ضرورة تأمين تجارتنا من المظالم التى لم يكن يكف البكوات (المماليك) عن ممارستها ضدها، ولقد خامرنا الأمل فى تصالح يتم مع البلاط العثمانى ، عندما نقدم له – نتيجة لحملتنا هذه نفسها – زيادة فى الدخل وتعاظما فى النفوذ . ومهما تكن الصعوبات التى بدت فى هذه المفاوضات، فقد كان من الممكن أن نأمل فى مخرج سار ، مادام نجاحنا هناك كان مواتيا للغاية للصالح المشترك للدولتين الحليفتين (تركيا وفرنسا) . وفى الواقع فإن معاونة قوة أوربية (فرنسا) عندما تستقر فى مصر، كانت تعاونا على تغيير الحالة فى مصر بطريقة شبه فجائية (*).

إن هذه البلاد التى نقلت معارفها إلى كثير من الأمم، هى اليوم غارقة فى الهمجية، وبقدر ما تنال هذه البلاد اهتمامنا المتزايد – بفضل موقعها الجغرافى، وبفضل خصوبة أرضها البالغة – بقدر ماتكون ماسَّة بالنسبة لها المكاسب التى تحققها لها القوانين والفنون . وحين كانت تذود عنها فيما مضى قوى عسكرية عديدة، تتكون من محاربيها الخاصين بها، كانت مصر منيعة مهيبة من الأمم المجاورة، لكنها فقدت منذ زمان طويل – مع فقدها لأنظمتها ومؤسساتها – استقلالها ومعارفها، بل إنها لم تعد بقادرة على أن تذكر بعظمتها الأولى. ولقد ظلت على الدوام منذ هذه الفترة خاضعة لقوة أجنبية، وأخذت كل الثورات التى هزت أوربا وآسيا تزودها بسادة جدد، وتنتقل بشعبها إلى أقصى درجات المذلة والشقاء.

(*) يقصد أن فرنسا لو أنها كانت قد استقرت فى مصر لعاونت على دعم سلطة الباب العالى هناك ، لأنها كانت ستحطم نفوذ المماليك وتضع حدا لخروجهم على السلطان . (المترجم) .

كانت مصر، في عهد ملوكها الأول، تطيع وتستجيب لمبادئ وأخلاقيات ثابتة لا تحول، وكان ثمة حكومة مثابرة تسهر على رعاية القوانين والعادات والتقاليد، كان كل شئ يوحى بالحرص على المستقبل ويدعو إلى الشروع فى أعمال يكتب لها الخلود، وهذه هى اليوم تئن تحت أشد السلطات استبدادا فى العالم، بل وأكثر القوى الموجودة على ظهر الأرض انعداما للبصيرة، كما لو كان قد قدر على هذه البلاد أن تمر بأشد الأحوال التى عرفها المجتمع الإنسانى تناقضا، لقد نقلت الحضارة إلى كولشيد القديمة(*) إذا لم يكن تاريخ العصور القديمة يخدعنا، لكن نفس هذه المنطقة تبعث إليها اليوم بحكام بشعين نسوا عائلاتهم وأوطانهم، ويلفظون ذرياتهم، ويعيشون وسط عبيد (مماليك) جاحدين متمردين لايمكن لهم احتواؤهم، وحيث إنهم عارون عن الحيطة وعن نور المعرفة، فلن يقدر لهم مطلقا أن يعرفوا كيف يثبتون سلطتهم وكيف يسارعون إلى التمتع بها، فهم يقمعون كل صناعة، ويهملون أويخربون الترع والمنشآت العامة، وها هى الرمال تغزو الأراضى الصالحة للزراعة، كما أن القرى تعيش تحت وطأة تهديد عصابات السلب القادمة من الصحراوات. لقد حكم على الإنسان فى ريف مصر أن يقوم بعمل جاحد لا يمكن أن يجنى منه– هو – ثماره، كما أن الإنسان فى كل مكان من أرض مصر، إنما هو فريسة للظلم والمهانة والمجاعة والأمراض المعدية.

وقد يكون من المستطاع إصلاح حال الشعب، لو أن سلطة حكامه أصبحت ثابتة ووراثية، لكن السياسة العثمانية تتفادى مثل هذا الإصلاح، إذ هى تثير فى هؤلاء الأجانب عداوات وخصومات تضعف من قدرتهم هم، وتجعلهم شتى متفرقين، لا يحوزون الوسائل التى تجعلهم يلحون فى الحصول على استقلال تام: كما أنها فى نفس الوقت تقف ضد القوة العسكرية الطموح، التى للباشوات. ووسط هذه القلاقل تظل غائبة على الدوام سلطة الحاكم (السلطان) ، أو أنها لا

(*) مدينة تقع إلى جنوب القوقاز ، ذهب إليها أبطال أرجوس للحصول على جزات من الذهب . (المترجم) .

تثبت وجودها إلا فى شق صفوف مغتصبى حكم مصر، فلا هى قادرة على تأمين إرسال الضرائب، ولا على حماية الشعوب، ولا على ضمان تنفيذ المعاهدات التى تبرمها مع القوى المتحالفة معها . وهذه الظروف الأخيرة بوجه خاص هى التى جعلت هذه الحملة الخالدة من قبل الفرنسيين أمرا لابد منه، ومع ذلك، فإن ذلك الذى قاد هذه الحملة لم يقصر أغراضه فقط على عقاب الذين أعاقوا تجارتنا، بل إنه أعطى لمشروع هذا الغزو سموا وعظمة جديدتين، كما طبعه بطابع عبقريته الخاصة. لقد قدر منذ البداية ما سيكون لهذا الحدث بالضرورة من سطوة على علاقات أوربا مع الشرق ومع أواسط أفريقيا، وعلى الملاحة فى البحر المتوسط ، بل وكذلك على أقدار آسيا . ولقد اتخذت الحملة لنفسها هدفا، هو تأديب المماليك والحد من طغيانهم، والتوسع فى مشروعات الرى والزراعة، وأن تحقق اتصالا دائما بين البحر الأبيض والخليج العربى (البحر الأحمر)، وأن تقيم مؤسسات تجارية وأن تقدم إلى الشرق المثال النافع الذى للصناعة الأوربية، وأخيرا أن تجعل ظروف وحياة السكان أحسن حالا، وأن تمدهم بكل المزايا التى أنتجتها حضارة متطورة .

ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الغاية دون تطبيق مستمر ودائم للعلوم والفنون. وقرر قائد هذه الحملة الفرنسية - سعيا وراء تحقيق ذلك - أن ينشئ فى مصر مؤسسة تسعى إلى نهوض وتقدم كل المعارف النافعة، وحدد - وهو لايزال بعد فى عاصمة فرنسا - كل أولئك الذين ينبغى عليهم الإسهام فى تحقيق أغراضه، ودعم - عن طريق ما أبداه من أمارات الرعاية والترحيب - هذا الحلف غير المعتاد بين الأسلحة وبين العلم . وقد عهد بإنشاء هذه المؤسسة الجديدة إلى عضوين شهيرين(*) من الأكاديمية السابقة للعلوم، وكانا منذ وقت طويل قد شرفا وخدما وطنهما باكتشافاتهما المدوية، كما كانت أعمالهما وعبقريتهما قد ساهمت فى إعطاء الأمة الفرنسية تفوقا مجيدا فى علوم الهندسة والطبيعيات.

(*) يشير المؤلف إلى العالمين : مونج وبرتوليه. (المترجم) .

ولقد أخذت أكاديمية القاهرة (أى المجمع العلمى) على عاتقها - مثلها مثل أكاديميات أوربا - أن تستزرع العلوم والفنون وأن تطورها وأن تبحث فى كل تطبيقاتها النافعة، وكان عليها بصفة أساسية أن تسعى للتعرف على احتياجات ومصالح مصر وكذا الوسائل الكفيلة بالحصول عليها، لذلك فقد كان من الضرورى بالنسبة لها أن تتفحص بكثير من العناية تلك البلاد التى ستصبح خاضعة لإدارة جديدة: تلك كانت الدوافع التى حملت على القيام بالأبحاث التى ننشر اليوم نتائجها.

ومع ذلك فقد كان الحرص على الفنون الجميلة والأدب يقتضى منا كذلك وصفا مخلصا وتاما للصروح التى تزدان بها، منذ قرون، ضفاف وادى النيل، تلك التى تجعل من هذه البلاد أغنى متاحف الدنيا . ولقد قام علماؤنا بأخذ مقاسات كل أجزاء هذه المنشآت بدقة صارمة، وألحقوا بالتصميمات المعمارية خرائط للأماكن التى كانت تقوم عليها المدن القديمة، كما قدموا فى رسوم خاصة النقوش الدينية والفلكية والتاريخية التى تزين جدران هذه الصروح، وبالإضافة إلى الدراسات والرسوم التى من شأنها أن تعرفنا بالحالة القديمة لمصر، فلقد جُمع أولئك الذين كان عليهم أن يقدموا لوحة عن حالتها الراهنة ، وأنشئ عدد كبير من الخرائط الجغرافية التى تحدد - بطريقة دقيقة ومفصلة - مواقع السواحل والموانى، ومواقع المدن الحالية والمدن القديمة والقرى والكفور، وكذلك مواقع النقاط الهامة الأخرى، ومجرى النيل ابتداء من شلال أسوان حتى البحر المتوسط، وقد تأسس هذا العمل على ملاحظات فلكية . وأخيرا فقد أكب العلماء على فحص كل المنتجات الطبيعية أو على الأقل، على فحص الظواهر بالغة الأهمية ، أو غير المعروفة لنا من الحيوان والنبات والمعادن.

وقد ضمت نتائج هذه الأبحاث المختلفة حول التاريخ الطبيعى وجغرافية مصر، وحول عصورها القديمة ، وحالتها الراهنة، فى مؤلف واحد، إذن فلقد كان الهدف من هذه الموسوعة - التى سيعمل سخاء حكومة فرنسا على إمتاع أوربا بها - هو

أن تقدم معرفة دقيقة ومتعمقة عن مصر، فتضع بذلك العناصر الحقيقية التى تنهض عليها دراسة طبيعية وأدبية وسياسية لواحدة من أهم مناطق المعمورة وأكثرها جذبا للانتباه.

لقد تمتعت مصر - خلال سلسلة طويلة من القرون - بحكومات قوية ومتنورة، وكانت كل القوانين والعادات العامة والتقاليد الأسرية والأخلاقية تسهم كلها فى نفس الغاية، إذ إنها تأسست على معرفة بتقاليد الإنسان، وعلى مبادئ راسخة للنظام والعدالة، نقشت فى كل القلوب.

أما الدين، الذى كان متوحدا مع دراسة الظواهر الطبيعية، فقد كان عقليا وطبيعيا فى وقت معا، وفى حين كان يكشف لبعض العقول الحكيمة عن المبادئ المجردة للأخلاق، فقد كان يقدم هذه المبادئ إلى الجميع فى أشكالها المحسوسة، لقد كان ينظم الأحداث والأفكار، ويحتوى الناس فى حزم، ويعير المؤسسات المدنية دعما من سلطة مستقرة.

كانت الحكومة ملكية، وتنهض على قوانين عريقة ومقدسة، ولقد حول القوم الأمثلة التى تقدمها المبادئ بالغة الحكمة إلى عادات لا سبيل إلى تغييرها.

وكان المصريون يقدسون بصفة خاصة فضيلة العرفان باعتبارها منبع كل الفضائل العامة والخاصة، وباعتبارها كذلك أكثر الميول الطبيعية عدالة ونفعا، وكانوا يجاهدون فى تخليد ذكرى أجدادهم عن طريق إقامة صروح رائعة تقاوم الفناء، أما الروح الأسرية فقد مضت إلى أبعد حد، ويمكن القول بأنها قد جعلت من كل الأجيال أجيالا معاصرة. وكانت تتقى مخاطر البطالة والفراغ عن طريق إقامة الاحتفالات والأعياد، وكذلك عن طريق القيام بأعمال ضخام تستهدف الصالح العام. وكانت الزراعة مزدهرة، كما كانت الفنون المتطورة تحبذ جهود الصناعة، وكان العدد الأكبر من الناس يراعون - بدافع دينى - مبادئ الصحة العامة، التى اهتدوا إليها بفعل خبرة طويلة.

أما عبقرية الفنون الجميلة فقد خطت خطوات أوسع من ذلك بكثير، لكنها كانت تخضع لقواعد ثابتة، وكان للعمارة طابعها الوقور والمتسامي، كما كان الشعر والتاريخ والموسيقى والنحت والفلك، يطبع الخوفَ من الآلهة فى النفوس، ويوحى بالورع والإعجاب. وكان يحتفظ داخل المعابد بتماثيل الملوك وكبار القوم ، كما كان يحتفظ هناك بالحوليات العامة واستقراءات السماء، وكان ينقش فوق هذه المنشآت المشهد المتتابع لدورات النجوم. ولازالت هذه النقوش باقية حتى اليوم، وسوف تستخدم - هذه - عند دراسة تاريخ مصر فى الاستدلال على الفترات التى لازالت مجهولة حتى اليوم، من هذا التاريخ.

وكان يسكن آسيا - فى نفس ذلك الوقت - أمم قوية ، مضت أمجادها القديمة إلى زوايا النسيان، وكان العقل البشرى قد ارتقى لحد توصل معه إلى الاعتقاد فى وحدانية الله ، وإلى مبادئ الأخلاق السامية، وكان يراقب سماء الكلدانيين رهبان تكونوا فى مدرسة المصريين، وكانت الحقائق الأساسية للهندسة والفلك قد اكتشفت، وأوشك الناس أن يعرفوا النظام الحقيقى للكون، كما كانوا قد أقاموا خرائط جغرافية، وتعهدوا قياس حجم الكوكب، كما كانت المدن الموسرة تزدان بما أنتجته عبقرية الفنون الطبيعية التى كانت تتخذ من المعادن والألوان وكل المواد الطبيعية خامات لها . وكانت هناك علاقات بين مختلف شعوب الشرق، وبخاصة بين شعوب الهند وفارس ومصر، وكان موضوع هذه العلاقات هو الدين، والعلوم،والحكومة،والتجارة.

وفى ذلك الوقت كانت تنقص أوربا - وهى اليوم بالغة الرقى - القوانين والتقاليدالراسخة، وعندما كانت أضواء الفنون قد بدأت تنتشر فى الغرب كانت المدن الأترورية(*) قد تأسست، وقدمت المستعمرات المصرية والفينيقية إلى الإغريق فكرة مؤسسات وأنظمة جديدة ، وحصلت العمارة والنحت على مبادئهما وأنماطهما

(*) نسبة إلى أتروريا التى كانت تقع قديما غرب ايطاليا. (المترجم)

من طيبة وممفيس ، ثم قامت بعد ذلك بقفزات تثير الإعجاب . وتشكل الدين من مبادئ غامضة ومختلطة فى نفس الوقت بالثيولوجيا المصرية، وبعد أن قام خيال المؤرخين والشعراء بتجميل هذه الألغاز المقدسة، لم يعد بمقدور المرء أن يكتشف فيها معنى واحدا يعز على الفهم. وفى اليونان احتفى الشعر - معلم البشرية الأول - بالفضائل والأبطال والآلهة ، وجلبت عبقرية هوميروس الشهرة إلى ايونيا، فبرقت بوميض خالد، وأصبحت معلما للحكام والشعوب.

لقد جاء الوقت الذى لم يعد ينبغى على مصر فيه أن تقاوم الأمم المنافسة التى تزايدت قوتها سريعا، وبدأت مصر تقاسى من ولوج العادات الأجنبية إليها، كما بدأت تعدل عن المبادئ الأساسية السائدة فى المملكة . فمنذ وقت طويل وأخطار الخرافة تحيط بالدين وبالعلوم، وأصبح الفرس - وهم أكثر عددا وأكثر مهارة فى فن الحرب، والذين تمرسوا بثورات عسكرية كبيرة - سادة لهذه البلاد قبل العصر المسيحى بنحو ستة قرون، ونهبت المدن الرئيسية، وتركت نهبا للنيران، وسقطت أسر الملوك فى السبى، وخربت أو بعثرت الحوليات وصروح الأدب، وعبثا يحاول المصريون أن يتخلصوا من سيطرة بشعة، لكن مجهوداتهم الطويلة هذه قد زادتهم شقاء على شقاء.

وفى نفس هذا الوقت، كانت روما تبذر بذور عظمتها، وتتهيأ للسيطرة على العالم، كانت قد استعارت دينها وتقاليدها من الاتروريين والإغريق ، وقد دافع الأخيرون دفاعا مجيدا عن استقلالهم ضد جيوش لا تعد ولاتحصى، وكانت لهم عندئذ صلات عديدة مع مصر، وزار العديد من فلاسفتهم هذه البلاد، وإن لم يغترفوا منها إلا تعليما منقوصا، لأن الدين والقوانين والعلوم قد خربت ربما بشكل تام.

ومنذ هذا الغزو الأخير، ظلت مصر تعانى على الدوام من السيطرة الأجنبية، فدانت على التوالى لملوك الفرس، والبطالمة، وللخلفاء الأول لأغسطس، ثم لأباطرة

بيـزنطة، وللخلفـاء (المسلمـين) الأول ، ثم لخلفـاء القـاهرة ، ولسـلاطين المـاليك ، وللسـلاطين العثمـانيين. وهكذا نجد تاريخ مـصـر، بدءا من الفرس حتى الحملة الفرنسية ينقسم إلى ثمانى فترات، طول كل واحدة منها يبلغ نحو ثلاثة قرون.

وبعد أن استطاعت اليونان الحرة أن تصد محاولات الفرس، قاد الاسكندر بعض محاربيه لفتح آسيا، وتعهد الاسكندر - وهو الذى لم تكن مواهبه السياسية أقل شـهرة من نجاحـاته العـسكرية - أن يقدم امـتيـازات للأمم البـعيـدة (فى امبراطوريته المترامية) ، وأن يؤسس مدنا حتى أقاصى العالم. ويمكننا القول بأنه قد اكتشف المحيط الهندى، وأدرك ما للملاحة والتجارة من أهمية، كما اختار الأسكندرية لتكون مركزا للاتصالات التى أراد لها أن تقوم بين الشعوب.

وبعد موت هذا الرجل العظيم، ظلت مصر خاضعة للمقدونيين، وظلت موانيها تستقبل أثمن منتجات الجزيرة العربية والهند ، كما امتدت بعلاقتها إلى أعماق أفريقيا، وأمنت - عن طريق تجارة بالغة الاتساع - ثراء باذخا لملوكها، وجاءت المتاحف اليونانية لتزين العاصمة الجديدة، وظهرت الفنون من جديد فى وطنها القديم، وإن كانت تعد على نحو ما علما جديدا، ذلك أنه لم يعد باقيا من المذهب المصرى (فى الفن) إلا ذكرى باهتة، ومع ذلك فقد بقيت الحفلات والأضحيات، كما ظل استخدام اللغة ساريا، وإن كان استخداما ناقصا. لكن الجهل والخرافات المنفرة كانت قد حطت من ذوق الفلسفة المصرية، وبالكاد يعثر المرء منها على بعض آثار منسية فى سراديب المعابد، لقد انقطعت إلى الأبد سلسلة العلوم والتاريخ.

ولم يكن بمقدور مصر أن تفلت من المرامى الطموح لروما، وهكذا عانى آخر سلالة البطالمة من نفس القدر المشترك الذى كتب على كثير من الملوك ، ولقد أديرت هذه البلاد بحكمة ، وقفزت إلى الأمام قفزات موفقة كل من الزراعة والملاحة والصناعة. كان كل شئ يساهم فى دعم مكانة هذا الإقليم الجديد (من أقاليم

الإمبراطورية الرومانية) ، خصوبة أرضها، وتجارة الهند ، وبقايا الازدهار القديم، والعلاقات مع الجزيرة العربية والحبشة، وظل الناس ينظرون إلى الأسكندرية لوقت طويل باعتبارها العاصمة الثانية للإمبراطورية.

ومن بين كل فنون الإغريق، كانت العمارة هى أكثر الفنون ملاءمة لسادة العالم (الجدد)، ولقد استثمرها الرومان فى الأغراض المتصلة بالصالح العام، وكذلك لتخليد ذكرى انتصاراتهم، ولكى يضاعفوا فى أنظار الأمم من الشهادات (المحسوسة) الدائمة التى تذكر بالقوة التى أخضعتهم. أما المسرح المصرى فقد سما بأفكارهم، وحملهم على أن يتعهدوا منشآت أكثر رحابة، وحين استوحوا هذه الطرز القديمة، فقد حرصوا على أن يجمعوا إلى نبل التصميمات ورحابتها ، تلك الرقة التى كانت تميز الأعمال الإغريقية .

وكان لإلغاء الوثنية أثره الهائل فى مصر، فحرمت الأضحيات، وهجرت المعابد أو حطمت، وأوشك أن يمحو خليط الروحانيات والأساطير الوافدة ذكرى المبدأ المقدس ، فلم تبق منه سوى ظلال باهتة ، جاهدت سلطة الأباطرة فى محوها مع كل عناصر الديانة القديمة. ومنذ أصبح هذا البلد إقليما رومانيا ، أخذ يفقد عددا هائلا من المنشآت المنحوتة، فنقلت إلى أوربا تماثيل وأحجار منقوشة، ومسلات ثمينة نحتت من حجر واحد كانت تنتسب إلى مدن طيبة وممفيس والأسكندرية، وارتفعت فى ميادين روما والقسطنطينية مسلات كان الفراعنة فيما مضى قد أقاموها تمجيدا لآلهتهم . وأعمال كهذه فريدة وغير قابلة للتقليد، لجديرة حقا بأن تزين عواصم العالم.

ثم انتقلت مصر، التى لم يعرف الأباطرة الروم لا أن يسوسوها ولا أن

(*) استخدمت كلمة رومى وروميية ترجمة لكلمة Romain, Romaine عندما يتناول السياق الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ترجمة لنفس الكلمة رومانى ورومانية عندما يتناول السياق الإمبراطورية الرومانية بشكلها القديم . (المترجم) .

يدافعوا عنها، إلى سيطرة المسلمين. قبل ذلك كانت السلطة الرومية (*) قد أخذت تلفظ أنفاسها في كل مكان، وهكذا كانت قد تهيأت بالفعل تلك الأسباب التى عجلت بالضرورة بانتهاء هذه الإمبراطورية، وهكذا أمكن لبعض من القبائل العربية نصف المتحضرة أن تستولى على أجمل أقاليم الشرق .

ومع ذلك فإن الانتصارات السريعة للمسلمين الأوَل لا ينبغى لها أن تقارن مطلقا بالحملات العسكرية والسياسية لروما، كما أنها تختلف عن الغزوات المتبادلة بين الأمم الشمالية. إن الرومان لم ينتصروا فقط بفعل قوة السلاح، إذ هم يدينون بجزء كبير من نجاحاتهم لمبادئ فى الحكم كانوا يتبعونها بثبات جدير بالإعجاب، إنهم لم يكتفوا بإخضاع الشعوب، فقد يمنحونهم الإدارة العامة، كما كانوا يجعلون هذه الشعوب – على نحو ما – تنسى أصولها بفعل التغيير المتتابع للدين والعادات واللغة والقوانين . أما البرابرة الذين دمروا أوربا، تاركين أوطانهم الثلجية سعيا وراء أجواء أكثر لطفا، ومدن ثرية زاهرة، فقد تعاقبوا دون نظام، وبدون غرض آخر سوى سلب المغلوبين، وحيث لم يكن لدى هؤلاء على الإطلاق مؤسسات راسخة، فإنهم لم يحتفظوا إلا ببعض عاداتهم وأنماط سلوكهم، وانتهى بهم الأمر أن تمثلوا الثقافة والتقاليد والفنون التى وجدوها مستقرة فى مناطق إقامتهم الجديدة . وعلى العكس من ذلك كانت للعرب عادات وأفكار أكثر رسوخا، وكانت معهم رواسب مشوشة مختلطة وخرافية من ديانات الشرق القديمة، وحيث إنهم كانوا على اقتناع تام بأن ما يعرفونه هو الصحيح والنافع، فقد لفظوا فى البداية عادات وفنون الشعوب المغلوبة . ولم تكن لدى محمد لا النية فى تأسيس امبراطورية ، ولا المرامى السياسية التى نسبها إليه كتاب كثيرون (*) ، ولأنه لم يحدس مطلقا تلك الانتصارات الهائلة التى سيحوزها خلفاؤه فإنه لم يترك لهم أى شكل أو أى مذهب للحكم (كذا!) ، وكان شاغله فى كل جهاده أن تتصدر قبيلته(!)

(*) بدءا من هنا نجد الكاتب يعبر بوضوح عن أفكار لا تستحق النقاش مطلقا، فهى ليست سوى أصداء للروح التى تقف وراءها ، والتى بدرت منه فى بداية مقاله ، والتى لفتنا إليها النظر فى حينها. (المترجم).

وأن يعلى من شأنها فوق شأن القبائل المنافسة لها (!!)، وحين أكسبته نجاحاته الأولى شجاعة ، فقد بدأ يثرى رجاله بسلب القرى المجاورة. لم تكن له مطلقا معرفة الأمم المتحضرة، وكان ينظر إليها باعتبارها أمما من المشركين أو الملحدين ، ولقد ربط بين مواطنيه عن طريق تذكيرهم بمعتقدات كانت مقدسة فيما مضى، ثم مضى من الحماسة إلى الغواية (*) ، ومع ذلك فقد استخدم كتابه (القرآن!) ، وهو يضم عددا من المبادئ النافعة ، وعددا أكبر بكثير من أفكار تستعصى على الفهم (كذا!) وعارية من أى معنى (!!) وتفتقد إلى الترابط فيما بينها (!) ، استخدمه قاعدة يتجمع حولها أتباعه ، ومنحهم بذلك اسما ، وهدفا وصالحا مشتركا .

وحيث لم تعد تدعم السلطة الرومانية لا بأس القوة ولا حكمة المستشارين ولا فضائل الجنود ولا ثبات العادات أو ثبات السياسة والدين، فقد كان من الميسور أن تغزو كل أقاليمها عشائر شبه متوحشة، أبيدت منذ قرون عديدة عند حدود الامبراطورية . وجاء العرب الذين يمكن أن نطلق عليهم اسم Les Scythes (**) القادمين من الجنوب ، جاءوا للإسهام فى اقتسام هذه الغنيمة الواسعة، ولقد فعل هؤلاء الرجال الجهلاء، وإن كانوا مقاتلين أولى بأس، ومتمرسين على مواجهة الصعاب، والذين هم كذلك فقراء نهمون للسلب، فعلوا ما كان يمكن أن يفعله الجرمان لو كانوا فى نفس موضعهم ، بل ولربما على نحو أسرع من ذلك(***).

(*) هذه ترجمة مخففة للفظ المستعمل، ولم نجد من اللائق تقديم الترجمة الصحيحة للفظ ، وواضح للقارئ مدى جهل الكاتب بالإسلام ومدى تحامله كذلك أيضا عن غير معرفة عميقة أو حتى كافية . (المترجم).

(**) من الشعوب البربرية القديمة ، وكانوا فى معظمهم رعاة قدموا من شمال أوربا وآسيا . (المترجم).

(***) يشير المؤلف هنا إلى ثلاثة من الشعوب الجرمانية هى على الترتيب : الغوط Goths ، وقد احتل فريق منهم جنوب شرق أوربا أما الجزء الذى بقى منهم فى غرب أوربا فقد غزوا الإمبراطورية الرومانية عام ٤١٠، ثم الـ Gépides وكانوا مستقرين فى دلماشيا حيث استأصلهم اللومباريديون فى القرن السادس، ثم اللومبارديون Lombards ، وكانوا يقيمون فيما بين الألب ونهر الأودر، ثم غزوا ايطاليا فى القرن السادس وأسسوا فيها دولة قوية انتصر آخر ملوكها Didier على شرلمان عام ١٧٧٤. (المترجم).

ولم يكن أقل من ذلك سهولة على هؤلاء العرب، أن يتوغلوا فى بلدان آسيا الأخرى، ذلك أن الفرس – الذين زعزعتهم انشقاقاتهم الخاصة، وحروبهم الخارجية – لم يعد بمقدورهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد أشد أعدائهم ضعفا (*) . ومع ذلك فإن هذا الكتاب المقدس نفسه (القرآن)، على مر الزمن، هو الذى سيحد من ازدهار عبقريتهم(!) ، فى حين كان هو السبب الأول فى اتحادهم ومن ثم نجاحهم. ولو أن كان لدى العرب – مثلما كان لشعوب أوربا – تلك الميزة التى لاتقدر بثمن، ميزة الحصول على ديانة محبذة للفنون وللمعارف النافعة(كذا!) لكانوا قد أثروا وطوروا كل فروع الفلسفة . فلقد ظهروا فى البداية حاذقين مهذبين، وقفزوا قفزات واسعة فى مجالات الشعر والعمارة والطب والهندسة والطبيعيات والفلك، ولقد حفظوا ونقلوا إلينا عددا كبيرا من المؤلفات الخالدة ، كان من شأنها أن تجلب أضواء المعرفة إلى أوربا، لكن الديانة الإسلامية لا تهيئ مطلقا مثل هذا التطور الروحى والعقلى(!!) . وهكذا أصبح محتما على العرب إما أن ينكصوا عن ديانتهم ، وإما أن يعودوا إلى جهالة أجدادهم (كذا وبكل وضوح !) ، فهم يجهلون بشكل خاص فن الحكم، وكل مايستخدم فى تأسيس ودعم الامبراطوريات، فحتى البربر الذين اتحدوا معهم وعانوا من سوء استخدامهم للسلطة لم يستطيعوا بعد اعتناقهم الإسلام إلا أن يزدروا هم أيضا الفنون والعلوم والصناعة وكل اختراعات الغرب(!) .

لقد قدمت مصر المسيحية نفسها بنفسها ، بعد أن كانت قد مزقتها الانشقاقات الدينية لوقت طويل، لتدخل تحت سطوة الخلفاء الأول، واقتسمت بذلك نفس المصير الذى جرى على كل الولايات الإسلامية . هكذا تخلص الأقباط من

(*) سوف يظل المؤلف يقدم من المغالطات التاريخية ما يستخف حقا بالعقول، فالنصر الذى أحرزه العرب، ثم المسلمون بعد ذلك أيام الحروب الصليبية، يعود إلى سلبيات فى صفوف الخصم وليس إلى إيجابيات فيهم، ولكن حتى هذه الفكرة المغلوطة نفسها لاتلبث أن تقع فى تناقضات من صنع المؤلف . (المترجم) .

الروم حين استدعوا الغازى، لكنهم سقطوا بعد ذلك فى الهوان والإذلال، وتناقصت أعدادهم إلى حد كبير. ولقد حدث فى بداية هذا التطور أن دمرت حماسة المسلمين القدر الضئيل من الثروات الأدبية الذى كان لايزال باقيا بالأسكندرية، فالكتب التى كان البطالمة قد جمعوها فى هذه المدينة أوجلبوها من كتب ملوك برجام Bergame(*) كانت قد هلكت فى الجزء الأكبر منها أثناء حملات قيصر وخلفائه، كما أن ضروب العنف من كل صنف والتى كانت تتجدد طيلة ستة قرون، وسط حروب مستمرة أو اضطرابات يفضى إليها الجدل الثيوقراطى، كان كل ذلك قد أتى على مستودعات معارف العصور القديمة، ومستودعات أخطائهاكذلك(**) .

ولقد استشعرت مصر أثر الأسباب التى تقسم امبراطورية العرب منذ نشأتها، فلم تتردد مطلقا فى أن تصبح ولاية مستقلة. وأسس الخلفاء المسمون بالفاطميين عاصمة لهم فى مدينة القاهرة ، التى كانوا قد بنوها وزينوها ببعض المنشآت العامة، لكن دولتهم قد دالت على يد صلاح الدين الشهير الذى كانت أعماله الباهرة بمثابة نذير لأوربا، والذى حكم مصر وسوريا لمدة طويلة. وقد تسبب هذا التطور فى حدوث حركات تمرد وفى انتقامات، وتلته تغييرات هائلة فى الممارسات الدينية وفى نظام الحكم، لكن قيام دولة المماليك وضع نهاية لهذه الأسرة الحاكمة (الأيوبيين) . فمنذ وقت طويل كان الخلفاء والحكام يعهدون بمهمة الدفاع عن دولهم ، وبمهمة حماية أشخاصهم إلى رجال وجنود أغراب، تنتمى أصولهم إلى غرب آسيا، ولقد أساء رؤساء هذه الفرق العسكرية – الذين دفعوا بلا روية لاحتلال المراكز العليا فى الدولة، وتحت تعلات مختلفة – استخدام سلطة سادتهم، وأصبحوا (فى النهاية) مستقلين . إن أحداثا من هذا النوع هى التى أصبحت أحد الملامح المميزة لتاريخ الشعوب الآسيوية، كما أن التمرد الذى أودى بحياة آخر

(*) مدينة فى آسيا الصغرى ، وكانت بها مكتبة شهيرة . (المترجم) .

(**) بينا فى الجزء الثالث من الترجمة العربية، فى الدراسة الخاصة بمدينة الأسكندرية كيف أن الكثير من الأوربيين أنفسهم لايقرون فكرة حرق العرب لمكتبة الأسكندرية . (المترجم) .

خلفاء صلاح الدين كان له دويه فى أوربا . فقد كان الأمراء الصليبيون شهودا عليه، ومع ذلك فقد كانت هناك، فى مصر، أحداث مماثلة طيلة أربعة قرون خلت، وظلت هذه البلاد الجميلة، بعد انتهاء الأيوبيين، خاضعة لعبيد عسكريين، ولدوا فيما بين بحر قزوين والبحر الأسود . ويمكننا القول بأن حكومة الأمراء المماليك لم تكن لا وراثية ولا انتخابية، ففى بعض الأحيان، كان المنشأ يضع إنسانا ما فى مركز الصدارة ، ومع ذلك فقد كان قاتل الأمير هو فى معظم الأحيان خليفته . وكان هناك عدد من الثورات أو أحداث التمرد تعادل عدد العهود (التى تعاقبت على مصر) ، وكان هناك كثيرون يتصارعون على السلطة ، فى نفس الوقت ، ويدعونها لأنفسهم فى سوريا وفى القاهرة أو فى الصعيد . ولقد حكم بعض زعماء هذه الفوضى بتألق، وحين استولوا على سوريا أذلوا كبرياء المغول، ودفعوا الأوربيين، وحملوا أسلحتهم الظافرة إلى اليمن وجزيرة قبرص وأرمينيا، لكننا لا نلحظ فى كل هذه الأحداث سوى ملامح الجرأة ، والرغبة فى الثأر، والمخاتلة ، والجهالة ، والطموح المتوثب . ومع ذلك فليس باستطاعتنا أن ننكر أن الدين الإسلامى، إن لم يكن قدخفف من آلام وأحزان هذه الأيام، فقد ولّد فى نفوسهم الضعيفة بعض المشاعر الإنسانية ، وأوحى لكل من الحاكم والرعية بأعمال مشرفة.

ومن بين كل الأسباب التى عكرت صفو فلسطين ومصر، لا نجد سببا أكثر تأثيرا من حملات الأوربيين ضد هذه البلاد ، ومع ذلك فإن هذه الحملات ذائعة الصيت، والتى هزت طوال قرنين كل أمم الغرب، لم تحقق أيا من النتائج التى كانت هذه الأمم ترغب فيها، ولقد سببت الكثير من الاضطرابات التى استمرت لزمان طويل، وإن كانت فى نفس الوقت قد شحذت عبقرية التجارة، ووسعت آفاق الرؤية ، وضاعفت من عمليات الصناعة والملاحة، وأدت فى دول عديدة إلى سقوط النظم والحكومات الإقطاعية ، حين دعمت من سلطة الملك ومن الحريات المدنية، فى نفس الوقت الذى أعلت فيه من المكانة السياسية لروما إلى درجة لم تستطع أن تتوازن عندها.

ولقد حدث أن استولى مائة ألف فارس- دون جدوى- على دمياط، وعندما واصلوا زحفهم فى وقت غير موات ، حصرهم المسلمون بين ترع رافدة عن النيل، وحيث قد اضطروا للتسليم فقد تخلوا عن انتصارهم. وبعد ثلاثين عاما من ذلك ، أدت نفس الأخطاء إلى نفس النتائج مسببة آلاما أكبر، فلقد قاد لويس التاسع - شرف عصره، والذى مارس على رعاياه بل وعلى أعدائه، السلطة الطبيعية التى تمنحها الفضائل الكبرى - قاد ستين ألف مقاتل إلى ضفاف النيل. كان قد اجتاز البحر المتوسط مع ١٨٠٠ سفينة، وكان تحت إمرته صفوة أبناء فرنسا، وبعد أن استولى على دمياط بوقت طويل، بدأ يتوغل إلى أعماق الدلتا، فحاصره المماليك فى معسكره ، حيث انتشرت الأمراض المهلكة، وقطعوا اتصالاته مع السواحل، وعندما فقد الملك كل أمل أمر بالانسحاب، لكنه لم يستطع تنفيذه. وكان بقية الفرنسيين على وشك أن يهلكوا والسلاح فى أيديهم، حين أعلن أحد الأبطال وسط المذبح - إما من تلقاء نفسه، وإما لأنه قد تلقى أمرا بذلك - أنه لم يعد بالإمكان إنقاذ حياة الملك إلا بالاستسلام للأسر، ثم سقط فى الأسر الملك نفسه ، وهو الذى لم يشأ مطلقا أن يدع مؤخرة جيشه فريسة فى يد أعدائه، ويعرف الجميع بأية عظمة عسكرية شرف هذا الملك أسره(!) ، وبعد ذلك افتدى رجاله، وقدم دمياط فدية لنفسه ثم أبحر إلى عكا بفلسطين .

فى هذه الأوقات كانت الأمم الأوربية تتساوى بالكاد مع الأمم الآسيوية، ولم تكن قد اكتسبت بعد مطلقا هذا التفوق فى القوة الذى يميزها اليوم، والذى نتج عن تقدم كل الفنون، أما عادات وسلوكيات الحرب فكادت تكون هى نفسها، وهى هنا وهناك غير تامة، وهكذا كانت الشعوب التى وهبتها الطبيعة شجاعة تعز على الإخضاع، والتى كانت تتمتع بميزة الحياة فى ظل نظام أفضل، قادرة بالضرورة أن تزود عن نفسها بنجاح فوق أرضها هى (!) ، ولذلك أبادوا جيوشا لاحصر لها، وإن كانت مضطربة، كان الغرب يجددها بلا انقطاع على الرغم من فقده ملايين عديدة من أبنائه. لكن الأحوال الخاصة بالأمم قد تغيرت منذ القرن السادس عشر،

فطور البعض منها نظام الحكم المدنى، والتاكتيك العسكرى ، وتقدموا فى فن استخدام المدفعية ، وتكوين وصيانة وقيادة الجيوش . لكن الشرقيين، على العكس من ذلك، قد أهملوا كل الاختراعات التى تسهم فى نجاح الحروب ، أو هى لم تتقدم فى هذا المضمار إلا لمدى بالغ الضيق . هكذا كانت سطوة المعارف ونفوذ وقوة العادات العسكرية والفنون، لحد أن نفس هذه البلدان التى صدت شعوبها لمدة قرنين من الزمان جهود كل أوربا مجتمعة، لم يعد بمقدورها اليوم أن يدافع حكامها الحاليون ضد جيش واحد من جيوشنا، ولحد أن ممتلكات هؤلاء الحكام فى هذه البلدان نفسها لم يعد لها من ضمان سوى المعاهدات وسوى التناقضات القائمة والمتبادلة بين أمم الغرب الكبرى .

لم يعد يحكم مصر منذ بداية القرن السادس عشر ملوك مستقلون، فقد استولى عليها العثمانيون بعد أربعة وستين عاما من استيلائهم على القسطنطينية.

كان سليم الأول – والد السلطان ذائع الصيت سليمان الثانى – قد اعتلى العرش بواسطة الانكشاريين، كان تمردهم هو الذى منحه العرش، وحافظ عليه بقتله لوالده، وبعد ذلك أمر بإعدام إخوته قبل أن يتصدى لمشاريعه الواسعة فى آسيا، ولم يتردد مطلقا فى تهديد فارس ومصر وسوريا ، وسرعان ما استولى على القطرين الأخيرين اللذين كانا خاضعين لحكم سلاطين المماليك ، ولم يكن هؤلاء يتمتعون إلا بسلطة غير أكيدة ، كما كانوا بالكاد يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد خيانات صغار ضباطهم . خاض سليم معهم معركتين : أولاهما فى حلب ، حيث فقد السلطان قنصوه الغورى حياته، أما فى المعركة الثانية فكان خليفته طومان باى هو الذى فقد حياته على مسافة قريبة من القاهرة . لم تكن القوات العثمانية كبيرة العدد لحد كبير، وكذلك لم يكن المماليك قد تبنوا بعد استخدام البنادق ، وسلم آخر سلاطينهم للغازى وشنق تحت أحد أبواب المدينة. وجمع عدد كبير من المماليك وذبحوا أو ألقى بهم فى النهر، ولم تلبث الأسكندرية أن استسلمت، وامتلأت الشعوب المجاورة رعبا، وجاء شريف مكة ليقدم الهدايا إلى

سليم الذى أعلن نفسه حاميا ورئيسا وراثيا للإسلام، مؤكدا بذلك إرادته فى أن يجمع إلى القوة العسكرية السلطة الدينية ، كما أرسل الشاه إسماعيل الصفوى إلى القاهرة سفارة باذخة سعيا وراء السلام .

لكن موت سليم أوقف مسار انتصاراته، وساهم سليمان، ابنه، كثيرا - سواء بحروبه أو بسياساته - فى ازدياد نفوذ العثمانيين، وخصص سنوات عديدة لتنظيم الحكم الداخلى فى ولاياته، وتبعا لأوامر صادرة منه، وضعت الأنظمة الخاصة بمصر والتى لاتزال حتى اليوم تستخدم فى الإدارة الأقليمية لهذه البلاد . ومع ذلك فإن هذه الأنظمة تنسب فى بعض الأحيان إلى سليم، الذى يصح القول بأنه لم يساهم فيها على الإطلاق، ذلك أن سليما قد أنفق وقتا قصيرا فى مصر خصصه كله للحرب هناك، وعندما عاد إلى القسطنطينية لم تكن تشغله إلا استعداداته ضد فارس ووسط أوربا ، كان يفكر فى تدمير بغداد، ولم يتوقف مطلقا عند وضع الأنظمة وتنظيم الميرى فى مصر. ولقد نشرت وثيقة التسليم التى أبرمها المماليك معه، لكن قصاصة الورق هذه لا يمكن أن تحوز أى قدر من الثقة، فكل ما هو جدير بالملاحظة فى سلوكه السياسى هو تفاوضه مع شريف مكة، وكذا الحرص الذى أبداه فى أن يصحب معه إلى القسطنطينية خليفة العباسيين.

إن سليما الذى حصل على الاسم اللائق بكل من هو بشع وفظ ، والذى أرسل وزراءه إلى الهلاك لأنهم لم يحدسوا إلى أية جهة من العالم ينبغى عليه أن يبعث بجيوشه، والذى ظل يأمر طيلة سنوات عهده بإعدام أصدقائه وأعدائه دون تمييز، والذى كان قاتلا لوالده ولإخوته ولثمانية من أبناء إخوته - كان يربط الروحانيات بالقسوة . فليس هناك أى امبراطور عثمانى آخر قد ذهب به الحقد ضد الأديان الأجنبية إلى المدى الذى ذهب هو إليه، كان على وشك أن يرغم رعاياه المسيحيين على اعتناق الإسلام، لكن امبراطورية التقاليد سرعان ما عادت من جديد إلى التسامح مع الديانات الأخرى، وهو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه الدول الإسلامية ، والذى لولاه لربما ما كانت قد تكونت إطلاقا . وقد أعطى سليم لمصر،

كما أعطى لكل الولايات التى هزمها ، حكومة تنهض على دعامات من حاميات تركية، لكن العسكر بدأوا يتمردون، ويطالبون بزيادة رواتبهم، ويذبحون رؤساءهم، وسعى الباشوات إلى الحصول على استقلال تام. أما المماليك، فعلى الرغم من أنهم قد بقوا بأعداد ضئيلة، فقد حصلوا على ميزة كبرى ، استمدوها من ذكرى سلطتهم وسطوتهم ، ومن صلاتهم بالعربان وبالقوى المحلية . هذا هو أصل حالة الفوضى التى تكونت عقب الغزو، ولقد استمرت هذه الحالة حتى انتصرت شجاعة البكوات وجرأتهم على الانكشاريين الذين أغضبتهم رخاوة الجنود، ودعة حراس القلاع القاعدين.

وفى الوقت الذى كانت مصر وسوريا تخضعان فيه لسادة جدد، كانت الحالة السياسية، وكانت تجارة الدول تتعرض لقلاقل واسعة وغير متوقعة، وليست هناك فترة أخرى من التاريخ ذاخرة لهذا الحد بالأحداث الكبرى . كانت القوة العثمانية تنشر الفزع فى أوربا وآسيا، وكف الكثير من الدول الأوربية عن الاعتراف بسلطة الحبر الأعظم فى روما، وكان الإسلام يستشعر حاجة إلى ثورة مماثلة، وكان هناك مذهب جديد، رحب به الصفويون، يشق البلدان الإسلامية، وكانت فرنسا تستجلب الفنون الجميلة التى أضاءت سماء ايطاليا، وكانت أسماء فرانسوا الأول وسليمان وشارل تملأ العالم أجمع . وطورت أوربا ، ممارسة فى النهاية عبقريتها الخاصة ، أنظمتها المدنية ، وجعلت ممالكها قوية عن طريق إقامة جيوش ثابتة، وقطع فن الطباعة وكذا المعارف البحرية والعادات العسكرية أشواطا غير عادية من التقدم، وتعلقت كل العقول بالحملات التى قام بها كولومب وفاسكو دى جاما ، ولقد دهش البرتغاليون والأسبان عندما تلاقوا عند الطرف الأقصى لآسيا ، بعد أن كانوا قد خرجوا من موانيهم متبعين اتجاهين متضادين . كانت الرغبة فى الاستيلاء على تجارة الشرق هى التى بعثت على هذه الاكتشافات، وفى الواقع فقد كانت منتجات الهند الثمينة تتبع حتى ذلك الوقت طريقا غير معروف . وفقدت مصر – وهى التى كانت تتجمع فيها هذه المنتجات ، ثم تنقلها إلى مختلف بلدان أوربا وأفريقيا – تلك المميزات التى آلت إليها من مؤسس الأسكندرية، كما أضرت حملات البرتغاليين

بالبنادقة على وجه الخصوص، أولئك الذين لم يستطع مطلقا حلف قوى من أمم عديدة أن يحطمهم، والذين كانوا موجودين عند كل منافذ التجارة، لقد وجد هؤلاء عظمتهم تضمحل وتغرب دونما رجعة، وأخيرا فسرعان ما تقطعت العلاقات التى كانت تربط ما بين عدد كبير من الدول والمدن .

وفى الوقت نفسه ، كانت العبقرية القلقة والطموح للأوربيين تؤسس علاقات جديدة بين أشد مناطق العالم تباعدا، واستخدموا - وهم جد مشغوفون باستعمال أدوات قوتهم الجديدة - البوصلة للتوجه فوق أراض مجهولة ، كما استخدموا الأسلحة النارية لترويض شعوب هذه الأراضى، وعثروا فى مناجم أمريكا على المعادن النفيسة التى كانت لازمة لمضاعفة المبادلات التجارية مع الشرق، كما جلبوا من أفريقيا سكانا لزراعة الممتلكات الجديدة .

أما البنادقة، فقد بذلوا - متحالفين فى ذلك أولا مع المماليك، وبعد ذلك مع الحكام العثمانيين - جهودا بائسة لتدمير المنشآت البرتغالية فى البحار الشرقية، وشرع الأولون فى نقل الاخشاب من دلماشيا إلى ضفاف النيل، ثم من هناك إلى السويس لبناء أسطول . وفى البداية أمكنهم أن يحصلوا على بعض الفوائد من جراء استخدام ضروب القوة هذه، لكن حملات السلاطين الغورى وسليم وسليمان لم تتمكن من إيقاف تقدم غزاة الهند، وإذا ما ألقينا بالا لما جاء بتقارير بعض الرحالة، فقد كانت مصر نفسها فى هذه الفترة ، مهددة بتطور أكثر دمارا ، بحيث لا يمكن أن يتلوه تطور آخر، إذ يؤكد هؤلاء الرحالة أن حكام الحبشة المتحالفين مع بلاط لشبونة، قد عزموا على تحويل مجرى النيل نحو البحر الأحمر ، ليجعلوا قاحلة إلى الأبد تلك الأراضى التى يغطيها النيل كل عام بفيضه السنوى . لقد كان فى الواقع أمرا لاجدوى من ورائه أن يلجأ فاتح جوا وملقا وهرمز إلى هذا المشروع الخيالى ، فلقد خدم بلاده بطريقة أفضل عندما حطم كل الأساطيل المعادية. ولقد توغلت سفن الملك ايمانويل تحت قيادة البوكرك وخلفائه فى البحر الأحمر حتى طرف الخليج، بحيث لم تعد هناك نقطة واحدة على شواطئ المحيط الآسيوى الواسعة لاتعترف بالسيطرة البرتغالية .

ولقد اقتضى الأمر أن يكون ظهور هذه القوة المتعاظمة لفترة قصيرة، ومع ذلك فقد كان لظهورها هذا أثره الهائل على أقدار الغرب . وفى واقع الأمر، فقد كان بمقدور العثمانيين - وقد أصبحوا سادة لمصر- أن يستحوذوا على ثروات الهند، وكان بوسع هذه التجارة أن تمنحهم أسطولا بحريا هائلا ، بالإضافة إلى كل المصادر التى يتطلبها تمويل الجيوش العديدة، وفى ذلك الوقت، كان يحكمهم حكام طموحون، مقاتلون وسياسيون، وكانت أوربا المنقسمة على نفسها تواجههم بمقاومة غير مؤكدة . ولو أن اكتشافات دى جاما لم تكن قد حرمتهم من مصادر زيادة القوة هذه، لربما كانوا قد غزوا الجزء الأكبر من الأقطار المسيحية، ولكانت هذه الدول، بالغة الازدهار وبالغة التمدن، تئن اليوم تحت سطوة أجنبية معادية للمعارف النافعة، وللفنون الجميلة على حد سواء.

وهكذا فإن بداية القرن السادس عشر تحدد بداية فترة مشئومة فى تاريخ مصر، فلم تعد هذه البلاد - بعد أن هزمت ونهبت وعزلت عن سوريا- تشكل دولة مستقلة، لقد تركت لشح الباشوات الطموح ، ثم سقطت بعد ذلك فى أتعس أنوا ع الفوضى . كان يساهم فى مهام الحكم هناك مجلس أعلى ، يتكون من أهم رؤساء الفرق العسكرية ، ويرأسه نائب الملك (الباشا)، وعهد بإدارة وحكم الأقاليم إلى كثير من البكوات المماليك التابعين لهذا المجلس (الديوان) ، والذين لم يكن يحق لهم أن يمارسوا سوى سلطة محدودة . وقد حملت نوبات العصيان والتمرد التى قام بها باشوات عديدون، ديوان القسطنطينية على تحبيذ نفوذ رؤساء الفرق العسكرية، وكان هؤلاء الأخيرون يكونون بيوتهم من العبيد الأجانب، الذين يعدون منذ شبابهم الباكر على استعمال السلاح، والذين كانوا فى معظم الأحيان يرتقون سلم الوظائف بالغة الأهمية.. وعند نحو منتصف القرن الأخير (الثامن عشر)، دفع إبراهيم ورضوان رئيسا الانكشارية والعزب عددا كبيرا من مماليكهما إلى وظائف الصدارة، وبعد أن وحدا مصالحهما، استوليا على الحكم، ولم يدعا للباشا إلا سلطة شكلية، لكنهما فى واقع الأمر قد سلباه ممارسة السلطة الفعلية.

ومارس على بك، الذى خرج من بيت إبراهيم، سلطة السيادة باسم حاكم العاصمة، وبعد أن عمل على قتل أعدائه ومنافسيه، وبعد أن دعم قوته بالصعيد، عمل على احتلال مدينة مكة، ونصب عليها من جديد شريفها السابق عبدالله، وسعى (على بك) لكى يحصل على اعتراف منه بأنه سلطان مصر، وشرع فى أن يقيم فى ميناء هذه المدينة منشأة ثابتة تتولى تجارة الهند . وسهلت مشروعاتِ على بك تلك الحربُ التى كان على الباب العالى أن يخوضها ضد روسيا، بالإضافة إلى التمرد الذى قام به الشيخ ضاهر الذى كان معه حزب كبير فى فلسطين، فأرسل على بك قوات إلى سوريا، وأرغمت قواته بعد أن تحالفت مع قوات الشيخ ضاهر باشوات الألوية المجاورة على الفرار . ولكن سرعان ما أدت نصائح إسماعيل بك وإغراءات الباب العالى إلى تمزيق حزب على بك ، فانشق عليه معتوقه محمد بك (أبو الدهب) الذى كان قائدا لجيشه فى سوريا، وعاد إلى القاهرة . وبعد أن نفاه سيده لبعض الوقت، أمكن له (لمحمد بك) أن يكون لنفسه حزبا قويا، عندئذ ترك الصعيد ليستقر بالعاصمة . وانسحب على بك إلى حليفه الشيخ ضاهر، والتمس النجدات من روسيا، لكنه فقد قوته قبل أن تنتهى المفاوضات، فأسرع بالعودة إلى مصر بعد أن خذلته وأضلته الخيانات المحيطة به، وجرح فى إحدى المعارك؛ التى خاضها فى الصالحية ضد عبيده القدامى، ثم مات بالقاهرة متأثرا بجروحه .

بدا محمد بك أكثر خضوعا لأوامر الباب العالى، فحصل الضرائب، وبعد أن حصل على لقب باشا زحف إلى سوريا ضد ذلك العربى، الشيخ ضاهر العمر، وأمكنه الاستيلاء على يافا، ثم قاد جيوشه الظافرة إلى عكا، لكنه مات ميته شبه فجائية من أثر إصابته بمرض معد . وخلفه فى السلطان اثنان من مماليكه ، هما إبراهيم ومراد، فقلدا سلوك على بك (تجاه تركيا)، واستثير ضدهما بفعل الإغواء إسماعيل ، وهو الذى سبق له أن خان على بك ، فكون عصبة قوية كانت كافية لإرغام غريميه على ترك العاصمة. وبعد أن لجأ إلى الصعيد، توصلا إلى عقد صلح مع الكثيرين من بكوات الحزب المنتصر، ولم يتوانيا بعد ذلك فى تجريد إسماعيل

من السلطة، وعندئذ ارتكبا من المظالم المتضاعفة ما جعلهما أكثر بغضا من ذى قبل، وتملصا بكافة الوسائل الممكنة من الرضوخ لسلطة السلطان . عندئذ كلف حسن باشا - من قبل بلاط السلطان - بمعاقبة المتمردين ، فوصل إلى القاهرة مع قوات قليلة العدد، وأقصى إبراهيم ومراد، وأرسل إلى القسطنطينية جزءا من الأسلاب التى حصل عليها، سواء من أتباع الأميرين الفارين أو من الابتزازات التى ارتكبها. وحين استدعته الحرب التى نشبت من جديد مع روسيا، أنهى حملته بأن وهب البكوين جزءا كبيرا من الصعيد، أما حكومة القاهرة فقد تركها فى يد إسماعيل بك، لكن الأخير مات بالطاعون فى عام ١٧٩١، حيث حصد الوباء فى ربيع هذا العام ثلث سكان القاهرة، وقضى - بتأثير هذا المرض نفسه - على نصف المماليك المرتبطين بإسماعيل، وفقدت المدينة أكثر من ستين ألفا من أبنائها فى الفترة الواقعة ما بين السادس والتاسع من أبريل من نفس العام .

وهكذا استعاد إبراهيم ومراد من جديد سلطتهما بالعاصمة، على الرغم مما كانت تفرق بينهما من حزازات قديمة، فقد ربط بينهما الإحساس بمصلحتهما المشتركة، وانغمسا بعد ذلك فى أعمال عنف جموح، مزدريين أوامر السلطان، فارضين ضرائب جديدة عن غير روية أو بصيرة، وبدون مبالاة بأثر ذلك على التجارة والزراعة والصناعة، ومنتزعين الحبوب اللازمة لأقوات الفلاحين الذين هلك منهم عدد كبير بدون أن يتلقوا عونا من أحد.

لم يكن التجار الأجانب مطلقا بمنأى عن هذه المظالم، وتعرض الفرنسيون بصفة خاصة لمظالم ومغارم ظلت طويلا بلا عقاب، وبدا أن البكوات قد ظنوا أن الحالة السياسية التى كانت تمر بها فرنسا حينئذ هى مبرر لهذه الإهانات، كما كانوا- فيما يبدو - على ثقة بأن حكومتها الجديدة لن تكون فى وضع يسمح لها بأن تحصل على أية ترضية عن هذه الإهانات ، وفى واقع الأمر ، فإن الوفود التى أرسلت فى هذا الصدد إلى بلاط القسطنطينية كانت عديمة الجدوى، فهذه القوة

(تركيا) لم تبذل أى جهد لعقاب طغاة مصر ، أو لقمع سلوكهم العنيف المعادى لحلفائها ، وتجددت الإهانات والابتزازات مما جلب الخراب لبيوتنا التجارية.

لم يكن من المستطاع مطلقا أن ندع هؤلاء، بدون أن نسلم للأمة المنافسة لنا (انجلترا) مميزات كانت لها فى معاهدات بالغة القدم، وبدون أن نقدم مثالا على ضعف (من جانبنا) قد يغدو قاتلا بالنسبة لكل المؤسسات الفرنسية. لقد كان الأمر إذن يقتضى منا إما أن نرضى عن طيب خاطر بأن نستبعد عن تجارة الشرق، ونتسامح فى المظالم التى تلحق بنا، وإما أن نجد أمننا فى ممارسة قوتنا الذاتية.

كانت هذه هى الظروف التى دعت الفرنسيين إلى المجئ إلى مصر، وهكذا أصبحت هذه البلاد مسرحا لواحدة من أهم الأحداث الكبرى فى التاريخ الحديث. وتضاف إلى الدوافع التى انتهينا من ذكرها تلك المزايا التى يعد بتحقيقها قيام مؤسسة ثابتة لنا فى المشرق، مع الأمل فى توافق يتم مع الباب العالى ، ما أن نبصره بمصالحه الحقيقية، مع تقديم كل الضمانات التى يمكن له أن يطلبها .

وفى الواقع، فقد كان يمكن لإسهام فنون أوربا، بالإضافة إلى قيام حكومة منظمة فى مصر ، أن يغير على وجه السرعة من الأوضاع هناك . كان يمكن للزراعة إذا ما رعتها إدارة مستنيرة أن تحرز هناك – فى وقت قصير – قفزات هائلة، فمن المعروف أن خصوبة أرض مصر، تتجدد من تلقاء ذاتها بفعل الفيضانات السنوية، فى حين ترتكز أعمال الزراعة بصفة أساسية على نوبات الرى، لكن توزيع المياه اليوم غير منتظم وغير تام، فقد شقت الترع التى تجلب هذه المياه دون تبصر أو حذق، وهكذا تصل المياه فى مناطق بعينها بوفرة تزيد عن الحاجة ، فى الوقت الذى تظل فيه مناطق أخرى تتعرض لجفاف طويل، وفى مناطق ثالثة يؤدى حفر روافد أنشئت عن غير ترو إلى إضعاف مقاومة مياه النيل تجاه مصابه ضد مياه البحر، ويكون من أثر ذلك أن تتحول فجأة إلى مساحات رملية لا نفع فيها أراض ثمينة كانت توفر حتى ذلك الوقت أفضل الحاصلات. ولا

يتم رفع مياه الرى هناك إلا بواسطة بعض الماكينات الخشنة، وأثر هذه بالغ الضآلة بالغ التواضع، وعن طريق تعرض الحيوان أو بالأحرى الإنسان ذاته لصعوبات ومتاعب متزايدة. وحيث إن المقاطعات المختلفة - وسط ظروف الاضطرابات السياسية - لم تكن تخضع لإدارة موحدة، فقد كان يحدث فى معظم الأحيان أن يتصرف القوم فى المياة بدون روية، وهكذا كانت تحول مجارى المياه، وتجفف الترع ، وتفتح الجسور بدون سند من أى حق، وهكذا أيضا لم يستطع القوم أن يفيدوا مما حبتهم به الطبيعة، واستخدموا كل حذقهم ليستحوذ عليها كل منهم لصالحه بالتبادل . كان يمكن تحاشى هذه الفوضى عن طريق توزيع للمياه أكثر انتظاما، وهو الأمر الذى كان سيزيد - فى وقت معا - مساحة الأرض القابلة للزراعة، وكذا خصوبتها. وقد يكون من اليسير أن نروى الأماكن الأكثر ارتفاعا، بوضع نظام أفضل لعمل الحيوان، بل ربما بدون اللجوء لعملها على الإطلاق، وذلك إما بأن نرفد (الترع والقنوات) من المياه العالية ، وإما باللجوء إلى القوى الميكانيكية التى تنتج عن الرياح أو عن مجرى النهر ذاته.

وبخلاف القمح والأرز، ومختلف نباتات المحاصيل والفواكه من كل نوع ، التى تنتجها مصر بوفرة، فمن الممكن الحصول على فوائد أكبر من ذلك بكثير عن طريق زراعة قصب السكر والكتان والنيلة، كما يمكن لهذه البلاد أن تمد أوربا بالنطرون الذى يتكون من تلقاء نفسه فوق سطح أرضها، وكذلك بأجمل مواد الصباغة والعطارة والعطور بمبالغ ضخمة، وبالبن والعطور القادمة من الجزيرة العربية، وبالتبر (تراب الذهب) والعاج وكل المواد التجارية الأخرى الواردة من أفريقيا . أما النباتات الوطنية - بمعنى الكلمة - فهى قليلة العدد، وإن كانت هذه الأرض الخصيبة والتى تتدرج حرارتها اللطيفة بدءا من البحر حتى حدود النوبة، يمكن أن تدخل فى عداد البساتين الفسيحة ، القادرة على أن تستوعب وأن تحفظ أثمن منتجات العالم .

تلك هى المزايا الطبيعية التى لمصر ، والتى لم يكن من المستطاع إفناؤها ،

ولو بفعل سطوة طويلة لإدارة بالغة السوء، فلا يزال الناس هناك يستمتعون حتى اليوم بثروات الزراعة والصناعة والتجارة، كما أن القاهرة، من جوانب كثيرة ، تعد مدينة ثرية ، ويبلغ عدد سكانها أكثر من ٢٥٠ ألف نسمة ، كما تحتفظ بعلاقات متزايدة مع الجزيرة العربية وكل وسط أفريقيا ، وكذلك مع تركيا وفارس والهند وأهم بلدان أوربا . لقد حولت الاكتشافات البرتغالية طريق التجارة عن الأسكندرية، ومع ذلك فقد ظلت الاتصالات مع الهند مستمرة ، إما عن طريق البحار الشرقية وإما عن طريق البر، وهكذا احتفظت مصر بكل عناصر عظمتها القديمة، كما ظلت هذه بذورا تعد بازدهار جديد، سوف ينمو بشكل سريع لو أن قد خصبتها عبقرية أوربا ، وحسن إدارة حكومة عاقلة وقادرة .

أما عن خواص الطقس، فقد لايكون بالإمكان أن نُعَرِّف بها إلا عن طريق عرض مفصل لا يتفق مطلقا مع طبيعة هذه المقدمة، لكننا نكتفي هنا بالقول بأن ملاءمة هذه البلاد (للصحة) لا يمكن أن توضع موضع ارتياب، ويتطابق مع هذه النتيجة كل تاريخ مصر، وكذا التجربة الحاسمة للجيش الفرنسى (هناك) ، كما تتفق مع الوضع الراهن لتعداد السكان، حيث يعيش نحو مليونين وثلاثمائة ألف شخص، منتشرين على مساحة ١٨٠٠ فرسخ مربع.

وكان من بين أعظم المنجزات التى يمكن لاحتلال مصر أن يحققها ، هو ما يتمثل فى ربط الخليج العربى (البحر الأحمر) بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق قناة ملاحية، وهو مشروع نال شهرة واسعة منذ زمن طويل، وكان يمكن له اليوم أن يتحقق باقتدار. وفى الواقع، فمهما يكن المستوى المتبادل لمنسوب البحرين، ومهما تكن النتائج التى تم التوصل إليها عن طريق ما سبق القيام به من أعمال تتصل بنفس هذا المشروع، فلعل من الميسور على المهندسين الأوربيين أن يقيموا مثل هذا الاتصال ، وأن يحافظوا عليه . ويمكن القول بأن هذا الاتصال سوف يقرب الأقطار الشرقية بتلك التى تقع على ضفاف البحر المتوسط، وبدون أن نغير كلية من طرق التجارة الحالية ، فإن هذا الاتصال سوف يؤثر على علاقات أوربا بالهند

والجزيرة العربية وأفريقيا، ويمكن لنا أن نقارن هذه النتائج (المتوقعة) بتلك التغييرات التى تمت، فى اتجاه مضاد، بعد الحملات البحرية للبرتغاليين.

ومن جهة أخرى، فإن لمصر - التى تتجمع فيها كما لو كان من تلقاء نفسها، ثروات الزراعة وثروات التجارة - مزايا أخرى لا يمكن أن تتوفر مطلقا فى أية مستعمرة أخرى بعيدة، إذ لايفصلها عن فرنسا سوى بحر قليل الاتساع، تبدو الملاحة فيه كما لو كانت حكرا لهذه القوة ولحلفائها الطبيعيين، كما أن مصر تدخل ضمن نطاق نظام للدفاع المشترك عن الجزر المجاورة لايطاليا ، ولتلك التى تقع بالبحر الأدرياتيكى والأرخبيل، بالإضافة إلى أنها لا تتعرض مطلقا لغزو غير متوقع، ولا يمكن أن تهاجمها إلا قوات هائلة ، بحيث إنه لو أمكن لتلك القوة الأوربية (فرنسا) التى احتلت مصر منذ وقت طويل، أن تظل على علاقة حميمة بالباب العالى، وأن تحصن هذه المنشأة (المستعمرة) لكان بمقدورها الاحتفاظ بها. وبالإضافة إلى كل هذا، فإن هذه البلاد توفر للفرنسيين ميزة بالغة الأهمية ، هى حصولهم على موقع متوسط، فحين يجد الفرنسيون أنفسهم على أبواب آسيا فسيغدو بإمكانهم من هناك أن يهددوا على الدوام ثروات وممتلكات أمة معادية (انجلترا)، وأن ينقلوا القلاقل، بل والحروب، إلى نفس مصادر ثرائها.

وسوف تحقق العلاقات التى سرعان ما ستنشأ بين مصر (كمستعمرة فرنسية) وبين المؤسسات القائمة فى الجزيرة العربية وفارس والهندستان وأفريقيا، مزيدا من المبادلات التجارية ، مما يعود بأكبر الفوائد على فرنسا والشعوب التى تمارس الملاحة فى البحر المتوسط، وبذلك نستطيع أن نحترف تلك المهنة الرابحة التى يدين لها البنادقة بثرواتهم ، والتى منحتهم لوقت طويل قوات بحرية تفوق القوى البحرية لمعظم دول الجنوب، فى حين توقف كل ذلك على الفور حين تغيرت مقادير مصر.

وفى الواقع فقد كانت تجارة الهند مع الدول الأخرى تتم مبادلة بالمعادن

النفيسة، وهذه صلات مستمرة منذ وقت لا تعيه الذاكرة، ولقد كان على كل الدول الثرية أن تدفع هذه الضريبة عندما كانت تدفع ثمنا لمنتجات الشرق كمية هائلة من الذهب، وبخاصة الفضة ، التى كانت تتكدس هناك دون سبيل لاستعادتها . ومع ذلك فقد استطاع البنادقة - فيما يبدو - أن يقيموا مع هذه البلدان علاقات من طبيعة مختلفة، وكانت مصر - وقد أصبحت بالنسبة لهم المستودع الرئيسى لثروات العالم أجمع - تحصل، بالإضافة إلى الأخشاب والمعادن النافعة، على أشياء من منتجات مصانع هذه البلاد نفسها ، وكان البنادقة يستجلبون منها السلع الثمينة التى تنتجها الهند والجزيرة العربية وسوريا وفارس، ثم يوزعونها على كل أنحاء أوربا .

وهكذا لم تعد مصر مفيدة بما تملكه فقط ، بل هى نافعة بما ينقصها كذلك. ومن المؤكد أن بوسعنا أن نصنع فى هذه المستعمرة الأقمشة النفيسة، والأجواخ الناعمة ، والخمور ، بالإضافة إلى منتجات صناعية متنوعة، وقد ننقل إليها الحديد والرصاص، وعلى وجه الخصوص الخشب الخاص بإنشاء المساكن وبناء السفن، ونستطيع بشكل جزئى عن طريق هذه المبادلات أن نحصل على أثمن سلع الهند، ونتزود بها كذلك عن طريق اتصالات مباشرة. وبخلاف الموانى التى ستفتح أو ستنشأ على شواطئ البحر الأحمر، فقد نرى قيام منشآت أخرى فى مختلف مناطق هذا الطريق التجارى المؤدى للهند، تجعل الملاحة أكثر يسرا وأكثر أمانا، حيث تتبادل هذه المنشآت الدعم فيما بينها .

ولسوف نستطيع كذلك (لو تحقق كل ذلك) أن نسموا إلى اعتبارات أكثر عمومية وشمولا، وأن نحدس النفوذ الذى قد تمارسه مستعمرة فرنسية ، لها مثل هذا الموقع المناسب ، على ظروف وأحوال البلدان المجاورة، وستكون الجزيرة العربية وسوريا من أوائل البلدان التى ستفيد من المزايا التى ستتحقق من وراء ذلك. فسوف تتمتع التجارة هناك ومنذ البداية بأمن ظل مجهولا حتى هذه اللحظة، وسوف تعرف الزراعة والصناعة ازدهارا جديدا، وقد نستطيع عقد تحالفات مفيدة ودائمة مع فارس وممالك آسيا الأخرى، وسوف نتوغل من كل جانب إلى داخل

قارة أفريقيا الواسعة، وسوف نكتشف الأنهار التى تجرى داخلها، وكذا الجبال ومناجم الحديد والذهب التى تحتويهما بوفرة، وفى النهاية فسوف يكون بمقدورنا أن نأمل فى أن حكومة مصر ستعمل جاهدة على أن يسود الأمن والنظام على سواحل أفريقيا الشمالية، وذلك بجعلها السكان هناك يخضعون لإدارة أكثر إنسانية وأكثر حكمة، عندئذ سوف يكون البحر المتوسط ، للأبد ، قد أصبح بحرا فرنسيا، فى حمى من غارات القراصنة.

من كل ذلك نرى كيف يختلف إنشاء هذه المستعمرة الجديدة على طرف بحر ضيق ومجاور، وفى واحدة من أجمل بقاع العالم، عن هذه المغامرات البعيدة التى تسعى لخلق منشآت باهظة التكاليف، معرضة لكل الاحتمالات والشكوك التى تجلبها الحرب، والتى لا يمكن الاحتفاظ بها حتى فى وقت السلم دون أن نضاعف من ضحايا المناخ غير الصحى (هناك). ولن نكون بحاجة على الإطلاق أن ننقل إلى هناك (إلى مصر إذا أصبحت مستعمرة فرنسية) مزارعين أجانب باعتبارهم عبيدا، بل إننا – بعيدا عن ممارسة أى عنف ضد الأهالى هناك – قد نعيد كل ماسلبته منهم حكومات رعناء ومستبدة.

وعلى هذا فقد كان المشروع الذى نعرض له الآن يستحق فى واقع الأمر التأمل من جانب رجل دولة، فليس فى هذا المشروع إلا ما هو نافع ومجيد، كما أنه مناسب لحلفائنا ، ويضمن للشعوب المجاورة مقادير أفضل، وسيوحد بين الفوائد السياسية التى ستتحقق لوطننا والمصالح الحقيقية للأمم الأخرى، وهو أمر لا يقدر بثمن.

لكن الأحوال فى أوربا لم تسمح لمصر مطلقا بأن تحصل على العطايا التى وعدت بها، ومع ذلك فإن ذكرى الحملة الفرنسية لن تمضى مطلقا دون أن تؤتى ثمارها، ولسوف تعرف حكومة القسطنطينية كل المزايا التى كان بمقدورها أن تحصل عليها لو أنها أعطت لهذا الإقليم إدارة أفضل، كما ستتبين بكل سهولة أية مرام أو نوايا كانت ترمى إليها تلك القوى الأوربية التى سعت لإعادة تثبيت سلطة

المماليك، فلا يمكن أن تكون هناك وسيلة أكثر ضمانا لحرمان مصر من الميزات الخاصة بها إلا بإعادتها إلى طفاتها الأول، أولئك الذين يتساوى عداؤهم للصالح العام بعداوتهم للسلطة الشرعية، وأخيرا فإن البلاط العثمانى سوف يغترف نصائح مفيدة من السفر الذى ننشره اليوم، وسيكون بمقدوره أن يلجأ إلى فنون الغرب، وأن يستخلص من هذه الموسوعة نفسها القدر الأكبر من النتائج التى تؤكد له ما قدمته جيوشنا من إسهامات، وأن يضع موضع التطبيق تلك النوايا الطيبة التى كانت فرنسا قد كونتها.

وإذا سعينا الآن إلى تمييز الوسائل التى يمكنها أكثر من غيرها أن تسهم فى نجاح هذه الأهداف، فلسوف ندرك كم كان مهما أن نمهد السبل لتقديم العلوم والفنون، إذ لا يمكن فى واقع الأمر أن تكون هناك ظروف أخرى أكثر إلحاحا من تلك لتطبيق العلوم والفنون. كان من الضرورى أن نثرى الزراعة، وأن نتوسع فيها، وأن يدرس مجرى النهر، وأن تخضع الزراعة لخطة شاملة، وأن نعمل على اتصال البحرين، وأن نؤمن الملاحة فى الخليج العربى، وأن تنشأ الترسانات البحرية والموانى.. كان ينبغى أن نرقب طقسا يكاد يكون مجهولا (بالنسبة لنا فى أوربا)، وأن نمتد بأبحاثنا فى مجال التاريخ الطبيعى والجغرافيا لتشمل البلدان المجاورة، وأن ندير التجارة، ونطور المنسوجات والصباغة وطرق استغلال النطرون وتصنيع السكر وملح النوشادر والنيلة، وباختصار أن نخلق صناعة جديدة وأن نضع فى خدمتها كل اكتشافات أوربا.

وهكذا أثيرت فكرة اصطحاب العلوم - التى تمثل المعرفة الشاملة - إلى وادى النيل، بعد أن نفيت عنه لوقت طويل، كانت هذه الفكرة تستوحى الأمجاد القديمة لطيبة وممفيس، واستقرار آلهات الفن والعلم والأدب الإغريقية فى عاصمة خلفاء الاسكندر، كما عرفت بشكل أفضل فائدة ومدى نطاق المشروع الذى كنا على وشك تحقيقه. وبعيدا عن أن نتقبل فى العلوم تمييزا لا يتفق مع تسامى الغايات، فإن أولئك الذين يستعينون بها للإسهام فى انتصاراتهم لم ينظروا إليها (العلوم) إلا

باعتبارها تنتمى جميعا إلى نفس العائلة . لقد أراد القائد أن نستزرع فى وقت واحد كل فروع الآداب والفلسفة ، ولجأ إلى العلوم الرياضية التى تشكل مبادئ دقيقة فى كل المجالات بالغة الأهمية، كما لجأ إلى العلوم الفيزيائية التى تهدف إلى دراسة و وصف الطبيعة، كما التجأ إلى الفنون ذات الفوائد المباشرة والمحسوسة، وكذلك إلى تلك التى لا تقل عن ذلك قيمة ، والتى تساهم فى تألق الحكومات ، وتمدنا بأنبل مباهج الأرواح والعقول. وكان يمكن لمصر فى وقت قصير بفضل هذه الإدارة الحكيمة ، لا أن تصبح مستعمرة فرنسية فقط، بل بشكل ما إقليما فرنسيا، وأن تقدم لسكانها الجدد صورة من وطنهم هم .

لقد كانت تلك هى الاعتبارات التى أوحت بمشروع إقامة هيئة علمية فى عاصمة البلاد التى ذهبت جيوشنا لإخضاعها. ولقد انتهينا للتو من تذكر مختلف عصور تاريخ مصر ، بالإضافة إلى الوقائع التى سبقت الحملة الفرنسية ، كما استعرضنا المرامى والأهداف التى تعهدنا بمقتضاها هذه الحملة وأدرناها، ويلزمنى الآن أن أقدم إلى القارئ الظروف الأساسية لهذا الحدث الكبير.

كان الفرنسيون الذين وجب عليهم أن يسهموا فى هذه الحملة قد حشدوا فى نقاط مختلفة على سواحل البحر المتوسط، لكنهم كانوا يجهلون الهدف الذى سيقادون من أجل تحقيقه، وأبدوا فى هذا الخصوص تخمينات بالغة التعارض. لكن التوقد العسكرى وحمية الشباب ، بالإضافة إلى عدم اليقين، كانت تجعل القلوب تخفق بشدة، وإن كان ظهور فاتح إيطاليا قد أوحى بثقة تامة وعامة، كان اسمه وحده كفيلا بأن يثبت الأمانى كأنها بالفعل قد تحققت.

وبعد أن خرج الأسطول الفرنسى من خليج طولون وانضم إلى الفرق التى تشكلت فى موانى ايطاليا، توقف فور رؤيته لمالطة التى كانت حكومتها قد أعلنت نفسها منذ وقت طويل فى حالة عداء معنا، لكن هذه الجزيرة التى هوجمت بشدة لم

تبد إلا مقاومة ضعيفة لا طائل من ورائها، وسرعان ما أذعنت وأقيمت بها حامية فرنسية، وكانت ثمانية أيام بالكاد قد انقضت منذ ظهرت سفننا أمام مالطة، ثم تقدم هذا الأسطول الضخم سريعا نحو مصر. وحين وصلنا إلى ساحل الأسكندرية، كان البحر يضطرب بقوة وعنف مما جعل دخولنا أمراً عسيراً ومع ذلك فقد كان أدنى تأخير يمكن أن يصبح كارثة مميتة ، وسرعان ما تم الإنزال، وزحفت فرقة من القوات الفرنسية على الأسكندرية قبل انتهاء الليل، وكان القائد العام نفسه على رأس الصفوف، وأبدى السكان مقاومة حامية وعنيدة ، ولم نستطع عندئذ إقناعهم بأن هذه الحرب موجهة فقط ضد المماليك ، وليس ضد رعايا السلطان المخلصين . لكن أية عقبة لم تكن لتوقف حمية قواتنا، فاخترق جنودنا المدينة واستولوا عليها، وعندئذ مارس المنتصر سلطة وصاية، وقدم إلى الأهالى السلام والأمن، واستقبل بترحاب رسل القبائل البدوية، أو الـ Scénites الذين يسكنون الصحراوات المجاورة.

وفى هذه الأثناء كان هناك أسطول معاد يعبر مختلف مناطق البحر المتوسط، وظهر أمام ميناء طولون بعد أن كنا قد غادرناها ، ثم ظهر فى مالطة بعد رحيلنا، وبعد ذلك ظهر فى الأسكندرية قبل مجيئنا، ثم ابتعد ليمسح الخليج فى نفس الوقت الذى كان الجيش الفرنسى فيه يخترق الصحراء متقدما نحو العاصمة.

لقد جذبت الأحداث العسكرية التى أصبحت هذه البلاد عندئذ مسرحا لها، انتباه العالم أجمع، فقد انتشر خبرها على الفور فى الشرق وأفريقيا، وتملكت كل النفوس فى أوربا حالة من الترقب، وأخذ الناس يرقبون إلام تؤول المغامرة ؟. ولقد أثارت أمارات الشجاعة والصبر المتضاعفة والتى ميزت هذه الحملات ، وكذا المخاطر التى كان الجيش الفرنسى يتعرض لها بدون انقطاع، والمتاعب التى لا سبيل إلى شرحها والتى ظل يواجهها، وكفاءة القواد وتضحياتهم- أثار كل ذلك فى فرنسا إعجابا وعرفانا عامين. ولم يكن هناك شخص واحد لم تهزه جدة وحداثة الظروف الغريبة للغاية على أجوائنا ، أو هذا الإسهام غير المعتاد من

جانب أحداث الحرب الباهرة فى الاكتشافات الحاذقة ، وبصفة خاصة هذه الأوضاع العسكرية والمدنية والسياسية الكثيرة التى فرضت على القائد العام مهمة أن يغزو وأن يحكم فى نفس الوقت.

لا تسمح لنا طبيعة هذه المقدمة إلا بالإشارة إلى تسلسل هذه الأحداث، ومن شأن التاريخ وحده أن يتصدى لها ، وهذه معروضة بكل فخار واعتزاز فى مراسلات وروايات حملتى مصر وسوريا . وكان واضع هذه الدراسات المتألق - وهو الذى كان أمينا بصفة مباشرة على أفكار ومرامى القائد العام - يقود كل التحركات، ويحدس كل العقبات، ويسهم بفخار وعظمة فى كل النجاحات، وهكذا اكتسبت صروح الشرف الفرنسى - التى تولى بنفسه نقلها إلى الأجيال المقبلة - مزيدا من الصدق والأصالة ، ومزيدا من التألق فى وقت واحد .

وما أن تم إخضاع الأسكندرية حتى توغل جيشنا فى أعماق مصر، وأصبحت رشيد فى حوزتنا ، وأخذت سفننا المسلحة تصعد النهر، ويقدم تاريخ هذه الحملة سلسلة متوالية من التقدم السريع والمعارك والنجاحات، ولم يستطع أن يبطئ من الاندفاع الجسور لقواتنا ، لا لهيب الصحراء ، ولا النقص التام للمياه وللمؤن فى منطقة قاحلة ومجهولة بالنسبة لنا . لقد تشتت العربان، وخسر المماليك معركتين نظاميتين، واحتل مكان الثقة العمياء التى كانت لديهم كل من الفزع واليأس، فتركوا القاهرة، وهكذا كانت عشرة أيام كافية كى تحسم قدر مصر . أما مراد وإبراهيم فقد انفصل كل منهما عن الآخر، كانا قد فقدا سلطتهما ، لكن عداءهما لنا قد استمر، ولاذ أولهما - وهو أكثر ميلا للقتال من زميله - بالصعيد، أما الثانى فقد اندفع فى عجالة نحو صحراوات سوريا، وكان آخر عمل من أعمال القوة قام به هو انتهابه لإحدى القوافل . وجَدَّ الفرنسيون فى أثره، وأمكن للقائد العام نفسه، مع بعض رجال من طلائع جيشه، أن يلحق بمماليك هذا البك الهارب، فهاجمهم وشتت شملهم ، وأرغمهم على الإسراع بالتقهقر بعيدا عن حدود غزوه .

عندئذ علمنا أن أسطولنا الذى كانت الأوامر قد صدرت إليه إما بدخول ميناء الأسكندرية أو الانسحاب إلى مضيق كورفو، وإن كان قد نفذ الأوامر على نحو مخالف للغاية – قد هوجم للتو، وتحطم بشكل شبه تام فى خليج أبى قير. وأوحت هذه الانتكاسة غير المتوقعة، والتى لم تنل من عزيمة وشجاعة الفرنسيين، أوحت لهم بعزم أكثر ثباتا وبإصرار شبه إجماعى.

وفى الوقت الذى كان الفاتح فيه مشغولا بأمر إصلاح الحكومة المدنية بالقاهرة ، تفجرت روح العصيان فى هذه المدينة، فتسلح عدد كبير من الناس، ولقى كثير من الفرنسيين الذين فاجأتهم الأحداث وهم فى داخل بيوتهم أو فى الميادين العامة، حتفهم برصاص المتمردين ، لكن قوة السلاح أعادت استقرار النظام، ولقى بعض الزعماء عقابا قاسيا ، وتم العفو عن الألوف الجاثية. كانت مصر حتى ذلك الوقت لم تعرف حقيقة سادتها الجدد، ثم أحست فى هذه المناسبة بتفوق قوتهم، كما أدركت الدرس الذى لابد لها أن تستخلصه من تسامحهم ورأفتهم، وهكذا أخلت هذه الاضطرابات الدامية مكانها لأمن دائم.

غدت قواتنا تحتل الساحل الشمالى، وكل الأقاليم الداخلية ، وقد أمكن لفن ولصناعة حاذقين أن يخلقا – ربما بشكل مباغت – أعمالا ومنتجات خاصة بالدفاع العسكرى عن البلاد . كانت هذه الإنشاءات التى تتناسب مع نوع الحرب التى قدر علينا أن نخوضها ، تهدف إلى التصدى للمشاريع الأولى للعدو، وإلى توفير كافة المؤن والمواد التموينية التى تتطلبها تحركات الجيش .

بدأت مصر، فى النهاية، وبعد أن تخلصت من طغاتها، تتمتع بنعمة القوانين، ومارست هذه القوانين هناك – تحت رعاية الجيوش الفرنسية – سطوة لم تكن لها فى العادة، ودعى القادة الوطنيون لتولى الوظائف المدنية، وعادت العلوم– بعد نفى طال أمده – لتزور مسقط رأسها ، وأخذت أهبتها لتطوير وتجميل وطنها الأم،

وتوسعت الجغرافيا بأبحاثها لتشمل الموانى والبحيرات والسواحل، وحددت بدقة مواقع كل الأماكن الهامة، وأقامت مقاييسها على أساس الملاحظات الفلكية، ودرست الفيزياء خواص الطقس، ومجرى النهر ، ونظام الرى، وطبيعة التربة، والحيوانات والمعادن والنباتات . أما الفنون الجميلة فقد عثرت على نماذجها القديمة، وتأهبت لتنقل إلى أوربا- بأمانة - هذه الآثار الخالدة لعبقرية مصر. كان ثمة قائد لامع يخلع على كل هذه الأمور بريق مجده الشخصى، وكان يشجع بحضوره كل الاكتشافات، بل كان بالأحرى يحض عليها، واستوعبت عقليته الواسعة، فى وقت معا، وبسهولة لا تكاد تصدق، مشاكل الحرب والسياسة وشئون القوانين والعلوم .

ولقد شرعنا تحت رعايته فى إجراء الأبحاث التى ننشر اليوم نتائجها، وقد عاون فى هذه الأبحاث جميعا القادة والمهندسون والضباط الفرنسيون، لقد تمت فى بعض الأحيان تحت إشرافهم، وكان الكثيرون منهم يخصصون - لصالح تقدم العلوم - كل وقت الفراغ الذى أمكن أن تتركه لهم العمليات العسكرية. ولقد نشرت بالفعل دراسات بالغة الأهمية عن الجغرافية الطبيعية للدلتا ، وعن الوضع السياسى لمختلف طبقات السكان، وكذلك عن مجرى النيل ، وطبيعة التربة، ووصف العصور القديمة ، ولقد أفدنا من كل التسهيلات التى أمكنها أن تعرض لنا كى نجتاز ونلاحظ البلاد التى احتلتها جيوشنا، ولم تكن أية عملية استطلاع عسكرية لتتم إلا ويسارع عضو أو عدة أعضاء من المجالس العلمية المختلفة فى الانضمام إليها، بغية القيام ببعض كشوف مفيدة . وكان العربان الهلوعون يفرون من كل مكان، تاركين المسرح الذى اعتاد على ما يلحقونه به من دمار، وكانوا بذلك يخلون المكان لتلك الجرأة التى تستعصى على الهزيمة ، لواحد من ألمع قادة جيش الشرق، قدر له أن يسهم بفخار ومجد فى الانتصارات التى تمت فى سوريا وأبى قير (الجنرال مينو)، والذى جعلت يده الراعية، والحاضرة على الدوام، الجزء الغربى من مصر، يحظى بأمان لم يكن معتادا عليه.. كذلك أصبحت عمليات

التفتيش على السواحل أو الصحراوات المجاورة، وكذا الحملات التى تمضى إلى أماكن بعيدة، وعمليات الزحف التى تقوم بها سرايانا ، والمفاوضات أو حتى المعارك التى تخوضها مع هذه القبائل الهائمة ، أو الأعمال الإدارية .. أصبح ذلك كله مناسبة بل وأحيانا غاية ، للقيام ببحث جديد .

كنا قد أحضرنا معنا من أوربا كل الأدوات اللازمة للطباعة، وجمعت هذه فى القاهرة فى مبنى كبير، كانت تسهر على إدارته حماسة نشطة متنورة، وكان هذا الفن، الذى كاد أن يكون مجهولا كلية من جانب الشرقيين، يثير اهتمام كل المصريين، وقد ساعد على مضاعفة عمليات الاتصال، سواء فيما بين الفرنسيين أنفسهم، أو بيننا وبين السكان، كما سهل فى نفس الوقت من نجاح الحملة وتقدم العلوم.

ولقد وضعت الأنظمة بالغة الدقة فى كل أجهزة الحكومة الداخلية، وهكذا لم يقتصر الأمر على أن السكان لم يتعرضوا قط لعمليات الإهانة والإذلال التى تميز النجاحات العسكرية فى الشرق عادة، بل لقد احترمت تقاليدهم الدينية والمدنية،. وعوقبت أتفه إهانة أو سباب (وجه إليهم من جانب جنودنا) بقسوة مدوية، وحل نظام معتدل للضرائب، وزعها بعدالة بين طوائف السكان ، محل الابتزازات والمظالم التى كانت تقع من جانب سادتهم القدامى. أما الدين والشريعة فكانا موضع تبجيل وتقديس من جانب الفاتح، وحظيت هيئاتهما بفضائله ، وتحقق لهم ما يريدون من قبل أن يفصحوا عنه، أما حق الملكية، الذى كان يخرق أو ينكر على الدوام ، فلم يمسسه سوء ، وسادت العدالة واستتب النظام فى المدينة فأمنت المعاملات التجارية ، وفتحت الحكومة كل مصادر الازدهار الزراعى، وتمت بالعناية الواجبة صيانة الترع التى تنقل مياه النهر ، والجسور التى توقف مجراها، وافتتحت خطوط اتصال جديدة، وعهد بإدارة هذه المشروعات الكبرى، والتى سددت تكاليفها بكل نزاهة ، إلى اثنين من خيرة كفاءاتنـــا ، ونشرت الأسلحة الفرنسية - الرادعة فقط لأعداء مصر- الرعب والفزع بين عصابات لصوص الصحراوات، وعقدت العدالة مع القوة حلفا دائما .

لقد كان كل واحد من التغيرات السابقة التى مرت بها هذه البلاد مؤشرا لقيام نظام جديد من القهر، ولم يكن الناس، وهم الذين قد اعتادوا ألا يروا فى سلطة الحاكم إلا حقه المطلق فى السلب والإيذاء، يستطيعون أن يتقبلوا أو يعقلوا أن النصر يمكن أن تعقبه سعادة عامة، وأن تكون له أغراض بمثل هذا النبل . وتفتحت القلوب فى النهاية للمعرفة، وظهرت مشاعر جديدة - لم يوح بها من قبل أى حاكم من حكامهم - ربطتهم بالحكومة الجديدة، وإلى الآن، لا يزال لاسم فرنسا سطوته فى هذه البلاد، ولن يكون فى وسع أية أحداث أن تمحوه.

كان القائد العام يرنو ببصره منذ وقت طويل إلى ربط البحرين، فاتجه إلى السويس على طرف الخليج العربى، واكتشف مع توجهه نحو الشمال، ولفت نظر مرافقيه إلى آثار ترعة قديمة ، نفذها الملوك القدماء بهدف ربط النيل بالبحر الأحمر، وتتبع آثارها لوقت طويل، وبعد ذلك بأيام قليلة، تعرف - وكان قد اقترب من الأراضى التى ترويها مياه النيل - على الطرف الآخر لهذه الترعة، إلى الشرق من بوباسطة القديمة (*)، فأمر على الفور باتخاذ كافة الإجراءات الضرورية لتنفيذ المشروع الضخم الذى كان ينعم فيه النظر، وعهد بالمهمة إلى رجال، كان يقدر جدارتهم العليا وحماستهم، ربطوا معارفهم النظرية بكل معطيات التجربة وخبراتها.

كان لنفس هذه الرحلة كذلك - على الرغم من قصر مدتها - غرض آخر ، فقد أمر القائد العام بالتعرف بدقة على ميناء الخليج وسواحله وظروف الملاحة فيه. لقد كان يتدبر أمور الدفاع عن السويس ، وعدل الرسوم المتزايدة التى كانت مفروضة على التجارة، وبذلك جعل تجارة الصادر أكثر سهولة وأوفر أمنا، كما أنشأ علاقات ود ومصلحة مع عربان القبائل المجاورة.

ولم يتوان الجزء المدارى من مصر مطلقا فى أن يتحرر من ربقة المماليك، كان مراد قد التجأ إلى هناك، وتحالف مع نفس المماليك الذين سبق له أن طاردهم

(*) حاليا ، تل بسطة بالشرقية. (المترجم) .

بانتقامه ، وأصبح الآن يوجد بينهم وبينه خطر مشترك يهدد أقدارهم جميعا، واستدعى مراد لنجدته من الشاطئ المقابل للبحر الأحمر فيالق من أبناء مكة وينبع، وكانت ذكرى سلطته لاتزال تخضع له أبناء الريف وسكان الصحراوات المجاورة. جمع مراد كل هؤلاء، وجهز الإمدادات، وجبى من كل مكان ضرائب حرب ، ومع ذلك، فسواء كان هو الذى بدأ هجومه أو كان الفرنسيون هم الذين بادؤوه ، فقد هُزِم وشرع فى الفرار، محتفظا على الدوام بجزء من قواته. وحيث لا توجد بالصحراوات الوعرة طرق مجهولة بالنسبة له، فسرعان ما ظهر من جديد، على رأس قوات جديدة، ولقد تغلب الضباط القادة الذين أوكلت إليهم أمور هذه الهزيمة العسيرة (أى هزيمة مراد) على كل العقبات التى كانت تواجههم بكفاءة غير معتادة، واستعاروا على نحو ما نفس وسائل عدوهم وعاداته فى مواجهة شئون المعيشة، وسرعان ماتفوقوا على هذا العدو بسبب من جسارتهم وهمتهم، بل وكذلك بفضل معرفتهم بطبوغرافية مسرح القتال. وأخيرا أقصى المماليك من الصعيد، ودفع البعض منهم ثلاث مرات متواليات إلى ماوراء شلال أسوان، وانسحب بعض آخر منهم إلى الواحات التى تفصلها فراغات شاسعة وقاحلة عن وادى النيل، أما العربان فقد هلكوا أو تشتتوا ، ومسحت العدالة والسماحة قلق الشعب وذعره، وأتمت فعل النصر.

أما الجنرال الذى عهد إليه منذ البداية بمهمة احتلال الصعيد (*)، وأن يدمر هناك سلطة المماليك، فقد خفف من ويلات الحرب بأمارات متضاعفة من الحكمة وسمو الروح، كان يعيش من أجل آمال الوطن وشرفه ، وسرعان ما وجب عليه أن يهرع إلى سهول ايطاليا ، وأن يسهم بكفاءاته وشجاعته، بل وبالتضحية بحياته نفسها ، فى حدث خالد، كان له بالغ الأثر على الموقف فى أوربا، وحين أنهى بعظمة ومجد، فوق ساحة المعركة، سجله المضئ، فقد وجد فى انتصار جيوشنا المكافأة على جهوده العظيمة، واختلطت بأنين أنفاسه الأخيرة صيحات النصر،

(*) الجنرال ديزيه Desaix. (المترجم).

وكان قد بث فى جيش الشرق، وفى قلوب سكان مصر شعورا عاما بالتعلق والإعجاب به، ولم تكن ذكراه أقل من حياته تبجيلا بفعل من مشاعر الحزن المؤثرة من جانب أولئك الذين كان قد حكمهم (فى مصر) أو بفعل الآلام الجليلة التى سرت بين الفرنسيين.

هذه هى وقائع الحملة التى فتحت لنا محراب مصر، وفى خلالها اكتشفنا هناك ذلك المعبد الرائع فى تنتيريس القديمة، كما اكتشفنا آثار طيبة الجديرة حقا بأشعار هوميروس، بالإضافة إلى بيوت الفراعنة، الملكية بمعنى الكلمة، ولقد توغلنا إلى ما وراء الفانتين، وفى هذه الجزيرة المقدسة، التى تبدو فى حد ذاتها وكأنها مبنى قائم بذاته، صرح شيده المصريون على شرف آلهة الفنون الجميلة. ولقد أخذ الجنود الفرنسيون الذين استدعتهم الحرب إلى ضفاف النيل إعجابا بهذا العمل الرائع، وتوقفوا كما لو كانت قد شدهتهم الدهشة والاحترام . وكان شاهدا على هذه الأحداث التى لن يلقى بها تاريخ الفنون الجميلة مطلقا إلى زوايا النسيان، رجل ذواقة لا يمكن أن يقدرها إلا واحد من نوعه، وستظل أعماله - التى قدمت لأوربا لأول مرة فكرة تامة وصحيحة عن آثار مصر - تلفت فى كل العصور انتباها قويا، إذ إن لها جمالها الذى لا يشع إلا منها، كما أنها تتجاوز بكثير ما يمكن للمرء أن ينتظره من جهد ومقدرة رجل بمفرده (*).

ولقد أحرز تطبيق النظريات الميكانيكية والكيميائية فى القاهرة تقدما كبيرا، وكنا قد جمعنا داخل نفس سور المبنى الكبير الذى خصص للعلوم كل العناصر والأدوات التى يمكنها أن تساعد فى تطور الصناعة، وكان يدير هذه المنشأة رئيس يدعو للاحترام، فقدته العلوم والوطن منذ عدة سنوات، وكان يجمع إلى حماسته المنزهة عن كل هوى كفاءة حاذقة معطاء ، كانت تفتح له آفاقا لم تكن مرئية، وكان بالفعل قد أثرى فرنسا بالكثير من الاختراعات، وسرعان ما منح مصر بعضا من

(*) لعله يشير هنا إلى فيفان دينون Vivant Denon . (المترجم) .

فنون أوربا بالغة الأهمية ، فأنشئت ماكينات هيدروليكية، وصنع الصلب والأسلحة والأجواخ والأدوات الرياضية والبصرية ، وقد قامت هذه المصانع الكبيرة خلال فترة الحملة بتهيئة ألوف الأشياء التى كان من شأنها أن تسهم فى نجاح الحرب وفى مباهج السلام. ولم يتوان أهل البلاد مطلقا عن الإفادة من المزايا التى حققتها هذه المنشآت ، فبدأوا يلتفتون إلى مصانعهم ويطورون الوسائل التى كانوا معتادين على استخدامها، كانوا يتأملون باهتمام شديد منتجات المصانع الفرنسية ثم يدأبون على تقليدها، واعترافا منهم بصنوف التفوق المختلفة التى وجدوها فى الغازى فقد خضعوا بمزيد من الثقة لسلطة الحكومة الجديدة الراعية. وكان صنع البارود من عمل شعبة خاصة، وحقق الشخص الذى عهد إليه بإدارتها– بتقديمه خدمات بالغة الخطر– كل الآمال التى أدركها بمعارفه وكل خبرته الطويلة . كان مجمع القاهرة يدير الأبحاث ، وكان الأشخاص المكونون له يضعون نصب أعينهم على الدوام مصالح الجيش ، والحرص على تقدم العلوم والفنون، وكان يشجعهم فى عملهم صداقة يقظة ومعونة حقة من ضابط يتحلى بأنبل وأعظم الصفات، كانت تنتظره فى ميادين سوريا ميتة مجيدة ، أثارت الأشجان والأسى (*) . كان نموذجا يكاد يستعصى على التقليد فى النزاهة والمثابرة والفضيلة، كان كأنما ولد من أجل كل الفضائل والعواطف الكريمة، وكان ينسى دون تصنع آلامه الخاصة ليشعر بقوة بآلام الآخرين، ولم يبد أحد على الإطلاق مثلما أبداه هو من نوايا طيبة ، من أجل سعادة الوطن وتقدم العقل والفنون، وقد أسهم فى كل الأبحاث العلمية التى شرعنا فيها فى ذلك الوقت، وقد شاء وفاء التاريخ أن ترتبط ذكراه بالاكتشافات التى كانت ثمرة لهذه الأبحاث.

ومن بين الأمور الجديرة بأن تلفت انتباه أوربا – العلم بأننا تمكنا من أن نحدد بدقة المواقع الجغرافية ، ولقد أعطينا لهذا الإنجاز الكبير كل عناية مثابرة ، كما لجأنا لكل الوسائل والطرق التى تضمن دقته ، كما تأسس ذلك – فى

(*) لعله يقصد الجنرال كافاريللى . (المترجم) .

جزء منه – على ملاحظات فلكية تحدد موضع المدن والأماكن بالغة الأهمية. ولقد شرعنا فى هذه الأعمال – التى ندين بها لمواهب متمرسة بذلت أقصى ما فى طاقتها من حماسة مرجوة – وسط قعقعة الحرب وفى داخل أقاليم متباعدة ، لم تخضع لنا إلا منذ عهد جد قريب ، وكان خضوعها علاوة على ذلك غير مؤكد ، وكنا نضطر فى مرات كثيرة أن نستبدل الأسلحة بأدوات القياس، وعلى نحو ما، أن نصارع وأن نخضع الأرض التى جئنا لقياسها.

كانت مصر قد تخلصت من السلطة التى كانت تقهرها، وكنا قد اقتصصنا من الإهانات التى وجهت إلى الأمة الفرنسية، وكان لنا أن نأمل أن هذه الأحداث لن تشعل مطلقا الحرب بيننا وبين الامبراطورية العثمانية. وفى الواقع، فلقد كانت هذه الولاية الجميلة منذ وقت طويل فريسة سائغة لبعض عبيد (مماليك) ينشدون الاستقلال ، وكانوا يزدرون – عن طريق إهانات مستمرة – صاحب الجلالة السلطان، بالإضافة إلى ازدرائهم لجلال الشريعة والدين . وكان الباشا، المفترض أنه مطاع من جانبهم – أسيرا لهم، وشاهدا لاحول له على فظاعتهم التى كانت تمر دوما دون عقاب، وأصبحت السلطة التى لاينفكون يتنازعون عليها هى المكافأة التقليدية للجريمة والنكران . وحين يتوصل واحد منهم – إما بفعل السم ، وإما عن طريق الحديد والنار – إلى تدمير كل أصحاب الفضل عليه وكل منافسيه، فلن يكون هذا النجاح سوى أمارة على عصيان موجه ضد الباب العالى. كان أكثر هؤلاء خضوعا ينازع فى تسديد الضريبة الضئيلة التى قررها الباب (على مصر)، أما الآخرون فيرفضون سدادها بشكل صريح . ولقد أرهقوا بابتزازاتهم ، التجارة الداخلية وتجارة أوربا والجزيرة العربية وأفريقيا، كما أرهقوا الزراعة وكل الحرف النافعة، كما كانوا يمارسون على الشعب سلطة منفرة جامحة.

وقد يكون من الأوفق أن نقول إن الأسلحة الفرنسية قد خلصت مصر، لا أنها قد هزمتها. ولسوف تمضى هذه الأرض البائسة، والتى ظلت حتى ذلك الوقت خصيبة دون جدوى، نحو حالة من الازدهار السريع، كما أن مآل هذا التطور الذى

لايمكن أن تفزع منه سوى قوة أوربية واحدة (*) لم يكن ليتعارض مطلقا مع مصالح الامبراطورية العثمانية، بل كان يمكن لهذه، على العكس من ذلك، أن تزيد من عوائدها ، وأن تدعم سلطتها فى إقليمين هامين (من أقاليمها) ، وكان المنتظر من بلاط القسطنطينية أن يفضل أقدم حليفاته على رعايا له لكنهم عصاة متمردون، لم يكن سيفقد مصر وسوريا، بل كان سيسترجعهما على نحو ما ، كان ينبغى على هذا البلاط أن يرى فى قيام مؤسسة (مستعمرة) تحت رعاية وحماية جيش قوى، وتعاونه كل فنون أوربا، أمرا يعد كلا الدولتين بمزايا واسعة، وبوسعه أن يدعم سطوة الاسم العثمانى فى آسيا وأفريقيا. لكن هذه الاعتبارات لم تكن محل تقدير على الإطلاق، كان ضباط الامبراطورية، القادرون على إدراك واستبصار هذه الدوافع معزولين أو منفيين، ولقد أكد الانتصار البحرى الذى أحرز فى أبى قير، لدى هذه الحكومة، الرأى الذى كان لايزال غير مؤكد، فأذعنت لنصائح أعداء فرنسا الذين أوحوا إليها بمحاذيرهم الخاصة، وسرعان ما انساقت إلى حرب وإلى تحالف مضادين لنا.

كان قائد الحملة الفرنسية قد بذل أكبر الجهود ليتفادى هذه القطيعة، كان يدير أسلحته فقط ضد أعداء السلطان، وعمل على توكيد الاحترام لاسم السلطان باعتباره الحاكم الشرعى (لمصر) ، كما راعى بكل عناية العادات والتقاليد الدينية والسياسية. كان جيشه يسلك فى مصر باعتباره جيشا معاونا للباب، ولم يسبق لهذه الولاية أن كانت محكومة بشكل أفضل، ولاتتمتع بممارسة عباداتها على نحو أيسر، ولم تكن قد خضعت من قبل مطلقاً لحكام أكثر استعدادا للاعتراف بسلطة القسطنطينية، لكنه بثاقب بصره كان يصارع وحده ضد كل العقبات، ولم تساعده السلطات فى فرنسا نفسها إلا بشروع فى التفاوض متأخر وغير كاف . وحدس فى هذه الظروف أن الأمر سرعان مايحتم عليه أن يدافع عن مصر ضد قوات

(*) يقصد انجلترا.(المترجم) .

هائلة، لذا فقد قر عزمه على مشروع يتميز بجرأة غير عادية، هو أن يتوقى الهجوم المتوقع بأن ينقل الحرب إلى قلب سوريا نفسها.

كانت هذه البلاد تخضع فى جزء منها لسيطرة رجل كانت قساواته وغدره وخياناته قد جعلت اسمه شهيرا فى كل الشرق، لقد كان أحمد الجزار لوقت طويل عبدا فى القاهرة، حيث عوقب كثيرا من جراء سرقاته المنزلية، بل لقد كان يتميز بين المماليك أنفسهم بمخاتلة وشراسة غير عاديتين، وكان قد خان على التوالى كلا من : على بك ، والدروز ، والعرب ، وبلاط القسطنطينية . كان عندئذ حاكم صيدا ، وكان يقيم فى عكا، وهى بتوليمايس القديمة Ptolémais . بدا الجزار فى الظاهر معتنقا قضية بكوات مصر، وتقدم - مخفيا فى الحقيقة طموحات أكبر - ليقود الحملة التى كانت تدبر ضد الجيش الفرنسى . وفى الوقت الذى كانت فيه هذه الاستعدادات تهز كل آسيا الصغرى وسوريا، عمل هذا الباشا منذ البداية على أن تحتل طلائع قواته مناطق الحدود، لم يكن ليتخيل مطلقا أن عليه أن يخوض هو نفسه حربا دفاعية. وكان كل شئ ينبئ بأن مصر توشك أن تتعرض لهجوم عن طريق البحر، فى الوقت الذى تصبح فيه عمليات الإنزال ممكنة، وكانت الخطة تقضى فى نفس الوقت بتسيير القوات التى تجمعت فى سوريا، وتلك التى يمكن أن يكون البكوات قد احتفظوا بها فى الصعيد. وحين تبين للقائد العام - وهو الذى سبق له أن اخترق مشروعات الحلفاء - أنه ينبغى أن تمضى عدة أشهر قبل أن يكون باستطاعة أعدائه القيام بأى إنزال للجنود، قرر أن يحمل على وجه السرعة، مع اثنى عشر ألفا من الرجال على سوريا ، وأن يشتت القوات التى تجمعت هناك ، ثم يعود على الفور ليواجه الحملة التى كانت تهدد السواحل . مثل هذا المشروع لم يكن ليتحقق إلا على يد جيش مقدام ، متمرس على كل الفضائل العسكرية ، وفى الواقع فإن التاريخ المفصل لهذه الحملة يستطيع أن يقدم الكثير من الملامح التى لم يسبق لأحد أن سمع بمثلها عن الشرف والقيم الفرنسية. كان علينا أن نتوغل تحت سماء ملتهبة إلى ما وراء صحراء شاسعة ومجهولة ، وأن نغزو

بغتة بلدا أجنبيا تذود عنه قوات متفوقة. كان ثمة أسطول إنجليزى فى البحر، وكان سكان المدن وكذا العربان الجوابون مسلحين ضدنا، لم يكن بهذه الأرض المعادية إلا كل ما يناصبنا العداء، ولم يكن جنودنا بقادرين على أن يخطوا فيها خطوة واحدة دون أن يلقوا مصاعب جديدة، لكن ثقة لا تحول كانت تسمو بهم فوق كل المخاطر، فأخذوا يتقدمون بسرعة فى الصحراء الشاسعة التى تفصلهم عن سوريا، واستسلم حصن العريش، ثم استسلمت غزة، واستولينا بالقوة العنيفة على يافا أو Joppé القديمة، وقررنا فى ميناء حيفا، وعثرنا فى هذه المناطق ، وفى مناطق أخرى متفرقة ، على ذخائر، ومعدات قتال، ومخازن هائلة، ومؤن من كل نوع .

كانت أول فرقة من الجيش المعادى، يتلوها المماليك والعرب ، قد تقدمت بالفعل إلى هذا الجزء من سوريا، وأخذت هذه القوات فى معسكراتها على غزة، وظلت تتراجع مندفعة على الدوام، تاركة فى ميادين القتال كل ما لديها من مدافع، وكل معدات القتال التى كانت تتطلبها حملة مدبرة ضد مصر . وفى النهاية شرع قادة الفرق التركية الذين لديهم الكثير من الفرسان ، فى تجميع قواتهم إلى قوات حلفائهم ، وفى أن يحملوا على الفرنسيين وهم يحاصرون مدينة عكا التى كان قد انسحب إليها ولاذ بها أحمد الجزار . لكن القائد العام توقاهم كذلك، ورأى أن من الضرورى أن يلتقى معهم فى معركة حاسمة ، لكى يدفع بهم نحو دمشق . وحين هوجم هؤلاء فى نفس الوقت فى مناطق بالغة البعد، لم يستطيعوا مقاومة هذه التحركات الجسورة بل المتهورة وغير المتوقعة، ووجدوا أنفسهم قد انفصلوا عن معسكراتهم، محرومين من كل مؤونتهم ، وشبه محاصرين من كل جانب، وسقط الكثيرون منهم إعياء فى ازدريلون أو فى المعارك السابقة، أما الآخرون فقد لاذوا بالفرار ملتمسين الأمان عن طريق تقهقر متسرع ذى جلبة . كان الفرنسيون قد استولوا منذ البداية على كل الأماكن التى قد يلوذ بها العدو، كما استعاضوا عن قلة عددهم بخفتهم فى التحرك وسرعتهم فى الزحف، بحيث كان يبدو أن ليس ثمة

نقطة فى الميدان إلا وهم يتجمعون فيها، وكانت النهاية الظافرة (!) لهذه المعارك قد حطمت آخر آمال العثمانيين ، وملأت بالرعب قلوب الأقوام الذين تحالفوا معهم، فعادت تلتمس الأردن بقايا هذه الفرق العسكرية (المعادية)، بشكل بالغ الاضطراب، حاملة معها الفزع إلى داخل مناطق شديدة البعد .

وفى الوقت الذى كان فيه جزء من قواتنا يقاتل على أرض فلسطين بشكل مجيد، كانت قواتنا التى بقيت بمصر تكمل احتلال بقية البلاد ، ابتداء من أسوان حتى البحر (المتوسط) ، وقام الإنجليز بمحاولة لا طائل من ورائها ضد السويس، ومع ذلك فقد تم صد عرب مكة ، وتم الاستيلاء على كل الصعيد، وقمعت حركات العصيان التى اندلعت فى الأقاليم الشمالية، وكان يسهر على الدفاع عن الأسكندرية والسواحل فطنة حاذقة .

وفى نفس الوقت فإن باشا عكا قد تخندق فى ملاذه الأخير، وجاءه العون من البحر ضد الفرنسيين الذين كانت تنقصهم المؤن والمدفعية اللازمة للحصار، وأمكن لهذا الباشا أن يحصن دفاعاته ، بحيث تستطيع أن تصمد لوقت أبعد من الوقت الذى يمكن لجيشنا أن يبقى فيه فى سوريا . كان الغرض الحقيقى من وراء هذه الحرب قد تحقق، فلقد أحدثنا الارتباك فى مشروعات العدو، واستولينا على مخازنه ومعداته الحربية ، ودمرنا حصونه وأفنينا جيشا كبيرا كان يستعد لغزو مصر، وكانت قوات الإنزال المخصصة للهجوم على الأسكندرية قد حولت عن غرضها، واستخدمت فى دعم حصار قاتل . كان استيلاؤنا على عكا يضمن لنا عقاب أحد المماليك السفاحين ، الذى كان يستحق الإعدام بسبب ما اقترفه طيلة حياته ، والذى لا يمكن لأى ارتباط به أن يوحى إلا بالفزع، لكن هذا الحصار – فى نفس الوقت – كان يقتضى منا مزيدا من الوقت ، ولم يكن من شأن النصر أن يقدم لنا إلا مزايا هزيلة ، لا يمكن لها مطلقا أن تكون عوضا عن أخطار البقاء هناك مدة أطول من ذلك، وفى ذلك الوقت كانت الأمراض المعدية تنشر رعبا عاما، وكانت تنتشر فى كل أنحاء سوريا بسرعة هائلة، وتزداد بشاعتها أكثر فأكثر،

وأخيرا فلقد اقترب ذلك الوقت الذى يمكن أن تهاجم فيه مصر نفسها من البحر. وفى الحقيقة فإن هذه الحملة لم يعد بمقدورها أن تحصل على دعم من الجيش العثمانى فى سوريا، الذى شتتناه للتو، وإن كانت قد بقيت للعدو مع ذلك قوات هائلة .

لقد جعلت هذه الظروف من عودتنا أمرا لا مناص منه، وأنذر القائد العام قواته بأن الدفاع عن سواحل مصر سيفرض عليها جهودا جديدة . وعبرت هذه القوات للمرة الثانية تلك الصحراء التى تفصل مصر عن سوريا، وقبل ابتعادنا عن القطر الأخير عاقبنا بقسوة تلك القبائل التى نكصت عن وعودها ، وخانت مواثيقها مع الفرنسيين، ثم دمرنا المؤن الحربية وكل المصادر التى يمكنها أن تسهل تجهيز حملة معادية بعد ذلك .

وسرعان ما استقبلت عاصمة مصر هذا الجيش الذى واجه الكثير من المخاطر وضرب الأمثلة على كل الفضائل، وتوجه وجهاء المدينة لاستقباله، وتبعتهم حشود هائلة كانت تحيى قواتنا بالهتافات والتهليل والألعاب ، وفى النهاية، ذاق الفرنسيون بهجة الالتقاء برفقاء السلاح. أما الاستقبال المؤثر الذى قدمته هذه الحشود ، فلن ينمحى أبدا من الذاكرة ، إذن فقد بدأ الرفاق يتحادثون معا عن المخاطر التى عليهم أن يواجهوها بعزائمهم وآمالهم، وبدا أن مصر قد أصبحت بالنسبة لهم وطنا جديدا، وأنهم لم يعودوا يشكلون إلا أسرة واحدة .

بعد وقت قصير تعرف القائد العام على حركات متفرقة كانت قد تمت بالداخل، وكان مشروع الغزو المرتقب يوشك أن يفجرها. وفى الواقع فإن المماليك قد هبطوا إلى ضفتى النهر، وتجمع عربان الغرب ليلحقوا بمراد بالقرب من وادى بحيرات النطرون ، فى نفس الوقت الذى ظهر فيه أسطول أبى قير. كنا قد ارتقبنا هذه الظروف ، وهوجم العدو فى وقت واحد فى كل مكان ظهر فيه ، وتحرك طابور شتت العربان ، أما المماليك من حزب إبراهيم، الذين فوجئوا داخل

معسكرهم فقد ولوا الأدبار على الفور نحو الصحراء تاركين أمتعتهم ، وأما مراد – وهو أكثر فطنة وأكثر حذرا – فقد أسرع يلتمس مصر العليا، وكان القائد العام نفسه يجد فى أثره ، وحين بلغه ظهور الأسطول المعادى اتجه على الفور نحو الأسكندرية ، وفى أثناء هذه المسيرة أرسل أوامر بالغة السرعة إلى مختلف فرق الجيش التى شرعت كلها فى التحرك فى وقت واحد، وعمل على مراقبة واحتواء المماليك والعربان، واتخذ وضعا يمكنه من تقديم العون إلى رشيد أو إلى الأسكندرية (إذا هوجمت أى منهما).

كانت قوات عثمانية قد نزلت فوق شبه جزيرة أبى قير واستقرت هناك بعد أن انتزعت الحصن بعد استسلامه، وقر رأى القائد العام على أن يهاجم هذه القوات على الفور وهى وراء حصونها، وكللت كل الهجمات التى تمت على كل المواقع بنجاح سريع، ولم تستطع خطوط العدو أن تصمد أمام الهجمات الجسورة والمتهورة من جانب الفرنسيين، أما العثمانيون فقد دفعهم اليأس إلى استخدام السلاح الأبيض ، ورفضوا رفضا شبه إجماعى أن يقعوا فى الأسر، وعندما أحيط بهم من كل جانب سقطوا صرعى أو هرعوا إلى البحر محاولين– دون جدوى– الوصول إلى السفن التى جاءت بهم، وهلك منهم عدد كبير فى ميدان المعركة، ومات معظمهم بين الأمواج بفعل نيران مدفعيتنا ، واستولينا على بنادق وخيام وذخائر حربية . أما الباشا الذى كان يقود الحملة فقد وقع هو نفسه فى قبضتنا ، وتحصن ابن هذا الجنرال سيئ الحظ داخل الحصن مع من تبقى من قواته، وشرع يخوض دفاعا بالغ العناد. وفى النهاية، وحين رأى آخر من تبقى من جنود هذا الجيش أسطولهم يدمر بفعل المدافع الفرنسية، وعندما رأوا أنفسهم مشرفين على الموت من الجوع أو العطش أو الإرهاق، ألقوا بأسلحتهم واستعطفوا المنتصر، وكان الحصن قد أصبح كومة من الأنقاض ، تغطيها أجساد القتلى والجرحى ، أجساد أولئك الذين هلكوا أثناء الحصار.

فى الوقت الذى كانت تدور فيه هذه الأحداث فى سوريا ومصر، وكان جيش

الشرق يدافع بثبات وإصرار عن الأرض الشهيرة التى فتحها، كانت فرنسا قد انغمست فى انشقاقات وخلافات مدنية، وكانت جبهاتنا (فى أوربا) مهددة . لقد أصبحت هذه الأوقات العصيبة جد بعيدة عنا، ويحول شعور الألفة السائد اليوم دون أن ننقب فيها. لقد أبلغ القائد العام بحقيقة الأوضاع فى أوربا وبالكوارث التى تحيق بفرنسا ، وأوحت له معرفته بهذه الأحداث بالرغبة فى معاودة الظهور بين جيوشنا، فقرر بعد ذلك النجاح الذى أحرزه فى أبى قير بأن ينفذ هذا المشروع الذى كانت عواقبه وخيمة على أعدائنا . وكانت مصر قد أُلزمت الهدوء ، ولم يكن بالإمكان – لوقت طويل – أن تكون عرضة لهجمات جديدة، وكان المماليك قد فروا إما إلى داخل فلسطين أو إلى حدود النوبة، وكان العربان يجدون سعيا فى الحصول على تحالف معنا. وبذل الصدر الأعظم جهودا لا جدوى منها كى يجمع قواته فيما وراء دمشق، فقد كانت الحملة الفرنسية على الشام قد دمرت كل المصادر التى يحتاجها أى تجهيز لمسيرة جيش ، وكانت الشواطئ (المصرية) – ابتداء من الأسكندرية حتى دمياط – قد وضعت فى حالة دفاع ، وكانت الحصون مزودة بالمؤن وذخائر الحرب . وكانت مدينة القاهرة منذ وقت طويل تجنى ثمار وجود إدارة راعية ، فظهرت بمظهر العارف بالجميل، وخصص القائد العام كل اللحظات التى سبقت رحيله فى تحسين وتطوير المنشآت العسكرية والإدارات المدنية، جاهدا فى أن يجعل وجوده بشخصه أقل ضرورة بقدر الإمكان، وفى نفس الوقت كان يعلم أن المراكب المعادية قد اضطرت للتخلى عن القيام بعمليات المراقبة البحرية، عندئذ رحل إلى الأسكندرية، وبعد ذلك بقليل غادر شواطئ مصر. لقد دعاه الواجب وأمن فرنسا، لقد ابتعد وكشف عن مكنون سره لذلك الرجل الذى عمل فى خدمة مشروعاته الأولى، وأخفاه الحظ عن أساطيل الأعداء، ورد البحر ، الذى كان مخلصا للمرة الثانية، إلى أرض الوطن ذلك الرجل القادر على التصدى لأعدائه الخطرين .

ولم يكن القائد العام طيلة مدة حرب مصر وسوريا ليكف مطلقا عن رعاية

مصالح العلوم ، فقد كان هذا المشروع الكبير حاضرا على الدوام فى ذهنه ، سواء قبل انتصاره أو بعده ، وسواء كان يقود العمليات العسكرية أو كان يفكر فى أوضاع إدارية أو اجتماعية جديدة، فكان يعهد - وهو بين المعسكرات - إلى عبقرية الفنون الجميلة أن تخلد ذكرى المعارك التى أضاءت سماوات فلسطين والفيوم والصعيد . وفى الأيام الأخيرة التى سبقت رحيله كان لايزال مشغولا بتشجيع الأبحاث العلمية ، وذلك بأن قدم للأكاديمية التى كان قد كونها الوسائل اللازمة لاجتياز وعبور المناطق المدارية من مصر ، وللاحظة أعاجيبها بأمان، وأصبحت هذه الرحلة التى ستزود الفنون والآداب بالكثير من النتائج موضوعا مباشرا لعنايته وتقديره، فقد وضع بنفسه خط سيرها، وهيأ لها كل الظروف المواتية مع حيطة ويقظة بالغتين .

كنا فى ذلك الفصل من العام، الذى تسهل فيه رياحه القوية الملاحة فى النيل، عندئذ كان ميسورا علينا أن نصعد فى وقت قصير إلى جزيرة الفانتين ، وفى نفس الوقت، عزمنا على أن نبلغ كل الأماكن التى تقع بها الآثار، بغية التعرف أولا على الأشياء التى ينبغى لنا أن نصفها، وأن نضع عن طريق هذا الحصر الأوَّلى، نظاما أكثر دقة فى أبحاثنا. وحين وصلنا إلى الحدود التى تفصل مصر عن النوبة ، إلى الجنوب من الشلال الأول، هبطنا مجرى النيل ابتداء من أسوان حتى القاهرة، ووضعنا كل أثر مرة أخرى تحت فحص بالغ الدقة، فما أن كانت السفن تلمس الشاطئ ، حتى كنا نهرع لنجتاز من كل جانب تلك الأسوار أو الأفنية التى يمكن أن نجد بها بعض بقايا لمنشآت قديمة. وأقمنا خرائط طبوغرافية، ورسمنا مناظر طبيعية مع كثير من مشاهد تصويرية لكل مبنى ، كما قسنا الأبعاد المعمارية بالإضافة إلى التفاصيل التى لاحد لها للزينات ، وقلدنا بأمانة اللوحات المرسومة أو المحفورة مع كل الحروف الهيروغليفية التى تغطيها، وفى الوقت نفسه كنا نلحظ الحالة الراهنة للأطلال ، وأساليب البناء ، وطبيعة المواد التى بنيت بها المنشآت، ودونا الكتابات العادية أو التاريخية أو تلك التى

تختص بالنذور والمناسبات الدينية الأخرى، والتى تذكر بكثير من الأسماء اللامعة . وقام آخرون منا بقياس سرعة المياه وكمية ترسيب التربة وارتفاعات الأرض، وحدد فريق ثالث المواقع الجغرافية عن طريق ملاحظات فلكية. لقد أكببنا على فحص طبيعى للمنطقة ، كما جمعنا مجموعات ثمينة من الحيوانات والمعادن والنباتات وكل العناصر التى من شأن دراستنا لها أن تطلعنا على الثروات الزراعية وكذلك التجارة والعادات والتقاليد والوضع الاجتماعى للسكان .

وكان من الضرورى أن نلحق بدراسة الخواص الفيزيقية للطقس، دراسة عن الأثر الذى تحدثه هذه الخواص على حياة وصحة الإنسان، وإننا لندين بهذه الأبحاث لأناس وهبوا أنفسهم بحكم مهنتهم لمختلف فروع فن العلاج (الطب) ، وقد رسم خطة هذه الأبحاث كبير أطباء جيش الشرق (*) ، وقام بتجميعها وبنشرها، كما أننا مدينون لكبير جراحى هذا الجيش (**) بعمل من نفس النوع يضم عددا كبيرا من الملاحظات . ولقد حصلا، بخلاف المزايا الأدبية التى يضفيها عليهما نشر هذه الأبحاث، كما حصل زملاؤهما – على مزايا أخرى كنوع من العرفان العام . وسوف يظل يذكر تاريخ هذه الحملة لكل هؤلاء كل الخدمات التى أدوها، بينابيع الحذق والجسارة التى أملتها عليهم كفاءتهم ، سواء عندما كانوا يحملون المواساة والأمل إلى ميادين المعارك بين أشد أهوال الحروب وأكثرها إثارة للفزع، أو عندما كانوا يواجهون بروح هادئة الدمار المروع الذى كانت تحدثه الأوبئة ، والفزع القاتل الذى كانت تسببه هذه الأمراض فيعصف بنفوس الألوف.

وقبل أن نشرع فى الرحلة التى أشرت من قبل إليها، كان عديد من الأشخاص المتحمسين لتقدم العلوم قد توجهوا بالفعل إلى الصعيد أو إلى الفيوم، وفى خلال الإقامة الطويلة التى كانت لهم هناك، كانوا قد عكفوا على وصف دقيق

(*) ديجينيت Desgintles . (المترجم) .

(**) البارون لارى Larry . (المترجم) .

للآثار ، وعلى أبحاث هامة حول مجرى النيل، والطبيعة الفيزيقية للأرض، وزراعة وتجارة وجغرافية البلاد القديمة، وأسرعوا يضمون إلى المؤلف العام كل النتائج التي سبق أن حصلوا عليها.

وقد أنجزت مختلف أجزاء هذا العمل الضخم في نفس الوقت، فكان كل منا قد انغمس بشكل خاص بموضوع دراساته المعتاد، وكان ينقل إلى الآخرين أفكاره ووجهات نظره، ولقد سهل هذا التعاون المثمر – وهو الذي لا يوجد مثيل له على الإطلاق في تاريخ الرحلات العلمية – القيام بكل الاكتشافات، وجعل منها اكتشافات أصيلة وصادقة إن صح التعبير، لقد كان الصالح العام للفنون والعلوم والآداب يؤلف بسهولة ما بين العقول ، مبقيا في الوقت ذاته على تنوع الآراء واختلافها، وسيظل التقدير المتبادل هو أكثر البراهين وثوقا على تآلف وتكامل وجهات النظر، وكانت تربط بين هؤلاء – فضلا عن ذلك – صداقة قديمة، الأمر الذي جعل المصاعب أكثر يسرا ، كما جعل المسرات أكثر بهجة، كما كان يعطي جرعات متجددة من القوة عند مواجهة المخاطر المشتركة، ومن الصلابة كلما اشتدت مشقات البعد عن الوطن.

لم يسبق لأي بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع، وفضلا عن ذلك فليست هناك بلاد أخرى جديرة بأن تكون موضوعا لأبحاث كهذه، فمعرفة مصر أمر يهم في الحقيقة كل الأمم المتحضرة، سواء لأن هذه البلاد هي مهد الفنون والنظم الدينية، أو لأن بإمكانها – حتى اليوم – أن تصبح مركزا للعلاقات الدولية ولتجارة الامبراطوريات . ولقد ترك الشعب الذي كان يسكنها آثارا تدعو للإعجاب بعظمتها وقوتها ونفوذها، كما أن الفنون لم تبذل على الإطلاق في مكان آخر مثل هذا الجهد ، كي تسمو إلى هذا الطابع الذي لا يحول والذي يماثل في ذلك أعمال الطبيعة ذاتها.

وفى هذه الأثناء كان الحلفاء قد حاولوا دون جدوى أن يستولوا على ميناء القصير، وبعد ذلك بوقت قصير استعاضت حامية دمياط الضعيفة عن عددها الضئيل بالجرأة والجسارة وسرعة الحركة، فدمرت فرقة قوامها أربعة آلاف من جنود الإنكشارية أنزلوا عن طريق البحر وبدأوا يتخذون مواقعهم على الساحل. ومع ذلك فإن الفرنسيين الموكلين بالدفاع عن مصر كانوا يجهلون الأحداث السياسية التى أعادت الأمن إلى وطنهم، وحطمت للأبد الآمال الطموح للقوى المعادية، كانوا لايعرفون بعد إلا أن وطنهم يعيش فى الآلام والشقاء، لذلك فقد كان الوطن موضوع قلقهم وأسفهم. وتجددت (*) تلك المفاوضات التى كانت تهدف إلى التوافق مع الباب العالى، وعلى حين غرة، اتخذت هذه المفاوضات وجهة مختلفة وغير متوقعة، ولهذا أعد وأبرم على وجه السرعة اتفاق العريش العسكرى، الذى تم الإقرار فيه على أن تعود الفرق العسكرية إلى موانيها (فرنسا)، بعد أن توافق على تسليم مصر إلى سلطة الباب العثمانى، على مراكب مملوكة للقوى المتحالفة.

وعلى الفور بدأت تتم الالتزامات المتبادلة، ودخلت إلى مصر - بحرية تامة - قوات كبيرة، نظامية وغير نظامية للوزير (الصدر الأعظم) والبكوات، وتقدمت حتى بلغت أبواب القاهرة، وبدأ كل شئ ينذر بأن هذه البلاد الجميلة ستعود من جديد لتقع فى براثن سادتها القدامى، لكن سببين مختلفين أسهما فى تغير مباغت لما تهيأت له النفوس، كان أولهما هو الإعلان عن ثورة حدثت فى الحكومة المدنية لفرنسا.

استسلم الجيش للمشاعر الجديدة التى أوحت بها إليه هذه الأحداث حين رفض الطرف الآخر تنفيذ الشروط التى كان قد قبلها، ويعود السبب فى ذلك إلى القوى المتحالفة التى ساهمت بأكبر نصيب فى إبرام هذا الاتفاق الذى اقترح

(*) يستخدم المؤلف الضمير on، وهو ضمير نكرة لايحدد بدقة شخص الفاعل، وبذلك يروغ هنا وفى كل السياق لهذه الدراسة من تحديد مسئولية الأطراف المختلفة. (المترجم).

ووفق عليه باسمها، فلقد وضع عند التنفيذ عقبةً غير متوقعة حين وجه إلى القوات الفرنسية اشتراطٌ مهينٌ بأن تبقى أسيرة فى مصر، كان الطرف الثانى - بهذا الاشتراط - يجدُ فى هذا التنكر لوعوده، للحصول على امتياز لم يكن ليتوقع الوصول إليه بقوة السلاح . وفى هذا الوقت كانت القوات العثمانية قد استحوذت على الصعيد ، وعلى كل المناطق ابتداء من موانى البحر الأحمر حتى دمياط، وكنا قد سحبنا مدفعيتنا من قلعة القاهرة ، وكان من المفترض أن نسلم العاصمة نفسها بعد ذلك بيومين، كما كانت المؤن والذخائر بالفعل قد نقلت إلى الأسكندرية، وأصبح الجيش الذى كانت فى حوزته قبل ذلك بيومين أقاليم عديدة ثرية وخصيبة، محروما من وسائل مواصلة الحرب ، ولم يعد يتملك من أرض مصر إلا تلك التى يصطف عليها، ومع ذلك فإن ظروفا غير عادية كذلك، كانت قد رفعت من معنوياته، لم تكن لجيشنا إلا غاية واحدة أو هدف واحد، وكان الشخص الذى يقوده قد بث فى كل القلوب سخطا كان يثيره هو، وتعرف أوربا سلسلة المعارك الخالدة التى تلت هذه القطيعة، ثم جاء النصر - وهو أكثر وفاء من كل المعاهدات - ليبسط حمايته على أولئك الذين لم يترك لهم مكان يلوذون به سوى الصحراء، وشُتت وأُفنى الجيش العثمانى. الذى هاجمه الفرنسيون بالقرب من خرائب هليوبوليس، واجتاز الصدر الأعظم - شبه وحيد خلال هروبه المتعجل - نفس البلاد التى سبق له أن توغل فيها ومعه قوات هائلة، وفقد ثلاثة معسكرات بالإضافة إلى مدفعيته ومؤنه العسكرية، كما استعدنا الحصون التى كانت قد سلمت له، وقمعت حركات التمرد التى كان قد أشعلها فى كل المدن فى وقت واحد، وطردت قواته من الصعيد ومن دمياط .

أما العاصمة نفسها فقد فاجأها المماليك والانكشاريون، وتحولت على الفور إلى ميدان قتال فسيح، تنهشها أهوال الحرب والتمرد ، وبعد أن شاهدت المدينة جزءا من مبانيها تضطرم فيه النيران ويتحول إلى أنقاض، فى الوقت الذى تطيع فيه قادة منقسمين تفرق بينهم مصالحهم الخاصة، وحين أفزعها ما حدث لمدينة

مجاورة، نالت من قبل عقابا صارما وقاسيا، استسلمت مستعطفة الغازى . أما الفرق التى سبق أن تجمعت فيها والتى كانت قبل ذلك بوقت قصير تتقدم ضدنا حين كان البحر موصدا أمامنا، خارقة بذلك أكثر المعاهدات توثيقا– فقد التمس جنودها التسليم والإذعان ، وعندما تم لها ذلك عبرت معسكراتنا فى أمان، وتذوق الفرنسيون الثمار الأولى للنصر، وتشبثوا بالبنود والقرارات الثابتة التى تمليها عليهم المصالح الحقيقية لوطنهم . وفجأة وقع حادث مؤسف أغرق الفرنسيين فى الرعب والوجوم، لقد تآمر أغوات الانكشارية الذين لجأوا إلى سوريا ضد حياة القائد الفرنسى، وأغروا واحدا من أبناء حلب تملى عليه ديانته كل حركاته، أن يضحى بحياته فى مقابل هذه الجريمة الكبرى ، ووصل هذا الشاب المخبول، الذى كان من السهل غوايته بفعل سنه، بطريقة سرية إلى القاهرة، وبعد أن قضى ثلاثين يوما فى الصلاة بالمساجد، ارتكب جريمته البشعة. كان كليبر أعزل من السلاح، بعيدا عن حراسه ، وطعن مرات عديدة بالخنجر، ولفظ أنفاسه بعد ذلك بلحظات ، وبمجرد أن انتشر خبر هذا الاغتيال الجديد فى كل أقاليم مصر عبر جيش الشرق عن مشاعر حزن تام وجماعى، وروى بالدموع مقبرة قائد لامع، مسح لتوه بالنصر مهانات المفاوضات ، ثم سقط صريعا وسط مغانم انتصاراته، وقد كان الوطن يعده واحدا من أكثر من دافعوا عنه فداء وتضحية . وتجمع القادة العسكريون منذ اللحظات الأولى التى أعقبت وفاته ، وعلى الفور وجه الشخص الذى كانت ترشحه القوانين العسكرية لقيادة الجيش من الأوامر ما تحتمه خطورة الظروف ، وأخذت القوات العسكرية تظهر على التوالى أمام الناس ، وأطلقت المدافع ، ووضعت الأعلام الفرنسية على مآذن المساجد. كانت هذه الاحتياطات ضرورية للغاية، إذ كان من المعتاد فى بلاد الشرق هذه – خلال الثورات وحركات التمرد التى تهزها وتشيع فيها القلق – أن يتلو الميتة العنيفة لزعيم ما دمار حزبه وتشتت جنوده . كان قد ألقى القبض على القاتل سليمان، ولم يشارك فى جريمته أى واحد من المصريين، واكتشف ثلاثة متواطئون كان قد ائتمنهم على سره،

وكانوا مثله من أصل سورى، وحكم عليهم جميعا بالعقوبات التى ينبغى أن يحكم عليهم بها تبعا للشريعة الإسلامية، وفى خلال المدة الطويلة التى استغرقها إعدام سليمان كان يقرأ بعض آيات من القرآن، كما كان ينعى على المسلمين أنهم لم يقدموا له العون .

وأسهم سكان العاصمة فى إضفاء طابع المهابة على جنازة قائد الجيش الفرنسى ، وسرعان ما رأوا خليفته يمضى قدما فى تنفيذ المشروعات النافعة التى كانت قد أقرت عقب الفتح . والتزم القائد العام (الجديد) ، مستفيدا من المزايا التى حققتها نجاحاتنا الأخيرة، بدعم سطوة القوانين، وبتحسين إدارة الضرائب، وتيسير السبل أمام تقدم وتطور الزراعة والصناعة والتجارة، وأكب فى الوقت نفسه على تصريف شئون جيشه الذى وجد فيه (أى فى قائده) مثالا للتضحية والمثابرة، وتمتع الزراع الذين انحدر بهم الشح الأرعن لسادتهم القدامى إلى حالة من التدنى والمهانة ، تمتعوا وبحرية كاملة بثمار أعمالهم، وعقدت تحالفات جديدة مع العربان ، ووهبت بعض القبائل أراضى غير آهلة، كانت الشقاقات المدنية قد حرمتها من الزراعة ، وأقيم على أسس محددة نظام عام للرى، وبذلت كافة الجهود لتوقى كل المساوئ المرتبطة بوضع المياه المضطرب أو بإساءة استخدامها، وتقررت مكافآت عامة لسكان الريف الذين يضاعفون من عدد الأشجار النافعة، وتجمعت داخل منشأة واسعة تلك النباتات والشجيرات الأجنبية التى رؤى من المناسب نشر زراعتها: كانت فنون أوربا قد بدأت فى صنع التقدم على أرض مصر، وانتعشت الصناعة فى كل مكان.

وأنشئ نظام جديد للمالية، عهد بإدارته العامة إلى إدارى حكيم ونزيه، كان قد حاز منذ وقت طويل تقدير الجيش ومحبة الأهالى ، وكان قد فحص بعناية كبيرة المصادر المتنوعة للدخول العامة ، وكان يدرك كل المزايا التى ينبغى أن تتوقع الحصول عليها أية حكومة عاقلة مستنيرة من امتلاكها لمصر ، وقد قام بتكوين جداول ليستخدمها مدخلا لحساب الميزانية العامة ، هى التى قدمها عن إدارته

للمالية طوال مدة الحملة (*) . ولقد استخلصنا نحن من هذا المؤلف، الذى أرجئ نشره، الدراسة التى ضمنت هذه الموسوعة ، وهى تحتوى على عدد كبير من النتائج التى ما كان ليسهل الحصول عليها دون ظروف مواتية لهذا الحد، وينبغى أن ننظر إليها باعتبارها عناصر ثمينة فى تاريخ مصر الحديث .

ومن جهة أخرى فقد وضعت لوائح نزيهة وعادلة أدت إلى تنشيط التجارة الخارجية التى أوشكت حكومة المماليك أن تقضى عليها. إلى هذا الحد بلغ تأثير الإجراءات التى اتخذناها، والتى أمكنها - على الرغم من العقبات الكثيرة التى نجمت عن حالة الحرب - أن تقيم من جديد علاقة نافعة مع الأرخبيل وسواحل الجزيرة العربية وبلاد أواسط أفريقيا، كما ساهمت أعمال جديدة عامة فى تجميل العاصمة والأسكندرية وتحسين الحالة الصحية بهما، وشيئا فشيئا كف المواطنون عن أن يظنوا أنفسهم غرباء عن الأمة الفرنسية ، كما كانت الثقة المتبادلة تحرز كل يوم تقدما ملموسا ، ولقد أدرك هذا الارتياح - من جانب كل النفوس - كافة الذين تعهدوا العلاقات الودية مع شعب مصر ، وقد أدرك هذا بصفة خاصة مؤلف هذه الدراسة ، وهو الذى كان يسهم فى الحكومة المدنية بتوليه إدارة العدل . وهكذا كان الزمن وحده كفيلا بأن يؤكد ويدعم هذه الأنظمة الجديدة ، وأن يجعل الناس يشعرون بها (ويجدواها) ، لكن الحرب قلبتها بغتة، ولم تبق على أى أثر منها. وقد نشر نجاح الحملة الفرنسية - الذى كان يعد كل الأمم الأوربية بخطوط اتصالات هامة - القلق والفزع فى انجلترا، وعزمت هذه القوة على القيام بجهود غير اعتيادية، وشارك البلاط العثمانى - حين انساق وراء اعتبارات روحانية - فى وجهات نظر وآراء حلفائه الجدد ، فتقررت مهاجمة سواحل البحر الأبيض على يد جيش انجليزى، كما تقرر أن تدعم هذه الحملة بفرقة من الانكشارية والألبان أوكلت قيادتها إلى قبطان باشا، وتلقت هذه القوات الأوامر بأن تتوغل فى الخليج العربى،

(*) يشير المؤلف إلى دراسة الكونت استيف Estéve عن مالية مصر، وهى الدراسة التى تكون مع غيرها المجلد الخامس من الترجمة العربية الكاملة لوصف مصر . (المترجم) .

وأن تنزل إلى مصر عن طريق مينائى السويس والقصير، وفى النهاية اقتضى الأمر أن يتقدم الوزير (الصدر الأعظم) إلى العاصمة على رأس جيش عثمانى قادم من سوريا . كانت كل عناصر خطة الغزو قد أعدت ووزعت بعناية ، ووضعت كلها موضع التنفيذ فى وقت واحد . ولقد تجلى فى حركة القوات قدر من الوثوق والإصرار ، على النحو الذى تسمح به المسافة النائية للأماكن وعناد المسلمين الذى لاسبيل إلى قهره . كان إبراهيم ومماليكه يزحفون مع الوزير ، أما القبائل العربية التى أثارتها نصائح وتحريضات النبى الجديد مولاى محمد(!) فلم تكن تنتظر سوى الإشارة كى تتجمع ، وأخيرا فقد كان حزب مراد، حاكم الصعيد ، قد ارتبط سرا بالإنجليز .

كانت المعارك السابقة قد أضعفت الجيش الفرنسى الذى لم يعد ثلثه قادرا على أن يستخدم فى حرب الأقاليم، كانت الجروح الخطيرة والكثيرة تغطى أجسام هؤلاء الجنود الأسخياء (الفدائيين) الذين كانت تحثهم على البذل قيمة أكثر منهم إصرارا واندفاعا نحو الأخطار الجسام، وكانت هذه الجروح تجعلهم عاجزين عن أية مشاركة إيجابية فى الوقت الذى كانت قواتنا فيه تحتل بلدانا شاسعة تبدو كل بقعة فيها وكأنها تحتم وجودها، فكانت تحرس حدود مصر مع سوريا والتى يتهددها الصدر الأعظم ، كما كانت تحرس القاهرة والجيزة وبولاق والسويس وجزءا من مصر العليا ، كما كانت تستخدم فى الأقاليم كى تحمى جباية الضرائب، ولكى تؤمن الملاحة فى النهر، ولكى تصد المماليك ، وتحتوى القبائل العربية . أما الاتفاق الذى أدت دوافع عديدة إلى إبرامه مع مراد فلم يكن ليوحى بأية ثقة ، لقد ضاعف تحالفه مع الفرنسيين من نفوذه ومصادر قوته ، لكنه ماكان ليفيد من كل هذه المزايا إلا لكى يعلن وقوفه ضدهم، وكان علينا أن نخشاه خائنا ، وألا نأمل إلا فى عون جد ضئيل من جانبه لو أنه كان مخلصا . وهكذا كان موقف الفرنسيين عندما ظهرت السفن المعادية أمام الأسكندرية .

تمكن الجيش الإنجليزى من القيام بعمليات إنزال على سواحل أبى قير، ثم تقدم بعد ذلك داخل شبه الجزيرة ليتخذ موقعا مواتيا للغاية يقع بين البحر وبين بحيرة المعدية . وحين هاجمته بعض القوات الفرنسية دافع عن نفسه بنجاح فوق أرض ضيقة ، يدعمها خط من الحصون ، وتحميها زوارق المدفعية من جانبى البحر والبحيرة . وقد جرح فى هذه العملية قائد الحملة الإنجليزية ، ومات بعد ذلك بأيام قليلة متأثرا بجروحه ، تاركا ذكرى مشرفة بحق . وبعد أن تلقى الحلفاء دعما هائلا قرروا احتلال رشيد ، ثم بدأوا التقدم صوب شاطىء النيل فى نفس الوقت الذى كان أسطولهم فيه يصعد النهر، واستسلم حصن الرحمانية وامتلك العثمانيون دمياط، ولم تلبث العاصمة أن حوصرت .

كان الصدر الأعظم قد ضم جيشه إلى الجيش الإنجليزى وجيش قبطان باشا، وكان يحصل كل يوم على قوات دعم جديدة من داخل مصر وسوريا، وكانت صلاته مع العربان والمماليك والقوات العسكرية القديمة وسكان الريف تتدعم فى كل مكان نتيجة تلك النجاحات الأولى التى أحرزها جيش الحملة ، وكانت قوات الهند قد وصلت ، أما القاهرة والأسكندرية فكانتا فريستين لوباء بشع وقاتل ، وفى نفس الوقت انضم إلى العثمانيين مماليك إبراهيم ومماليك مراد بالإضافة إلى فرسان كثيرين من العربان . هكذا كان وضع القوات المتحالفة حين تقدمت ، لكى يتم لها استرداد القاهرة والأسكندرية، ببنود امتيازات لاتختلف كثيرا عما جاء بمعاهدة العريش . لم يكن ثمة عملية عسكرية واحدة لم تكن قواتنا فيها أدنى عددا بكثير، فعدم تأكدنا من معرفة نوايا العدو كان قد أرغم القائد العام أن يوزع على جبهات عديدة القوات التى يمكنها أن تتصدى للعدو، وينبغى أن نضيف بأنهم – أى العدو – لم يكفوا طيلة هذه الحرب عن أن يعرضوا على الفرنسيين العودة إلى وطنهم ، وبنفس الشروط التى سبق لهم أن قبلوها قبل ذلك بوقت طويل والتى سبق للحلفاء كذلك الالتزام بها .

وعندما أبلغ الجنرال مينو بأن باب المفاوضات قد فتح فى أوربا، وبالمحاولات المتكررة التى يقوم بها أسطولنا كى يجلب إليه المساعدات، اشتد عزمه على أن يستمر فى الدفاع عن الأسكندرية لأطول وقت ممكن، وظل متشبثا فى موقعه لآخر الشوط، وعند نهاية الحصار كان نصف الفرنسيين مرضى بالمستشفيات، أما أولئك الذين لم تكن قد مستهم شرور الأوبئة بعد فكانت قد أضنتهم الأعمال التى لاتنتهى، واستخدام المياه المالحة، وتناول الأطعمة الضارة لفترة طويلة، بل وكذلك نقص الأطعمة. كانت الأمثلة التى قدمها قادتهم تقوى من عزائمهم، وفى النهاية لم يبق لديهم إلا شجاعتهم، وكان المرء يراهم مهدمين منهكين لايقدرون إلا بالكاد أن يتحملوا ثقل سلاحهم، وكانوا لايستعيدون قواهم إلا حينما كان الواجب يدعوهم إلى المعركة. هكذا أنيط بهم أن يضعوا بجهودهم الأخيرة نهاية مشرفة لهذه الحملة الخالدة.

وفى الوقت الذى كان جيشنا يستعد فيه لمغادرة موانى مصر، وكان الناس فيه فى أوربا يجهلون العمليات الأخيرة للحلفاء، وقعت فى باريس ولندن تلك المعاهدة التى تعيد هذه البلاد إلى الباب العثمانى. هكذا قدر عليها أن تعود من جديد لهمجية السلاح التى كانت جيوش فرنسا قد خلصتها منها، وهذه هى اليوم فريسة لابتزازات نواب الملك ولصوصية العربان والفرق العسكرية غير النظامية، أو لعنف بعض البكوات الذين ظلوا على قيد الحياة. لقد استعاد هؤلاء الأغراب - على الرغم من تقلصهم إلى عدد ضئيل - وطنا إلى حوزتهم، وخلف عبيد مراد وإبراهيم سيديهم، لقد أقصيت هذه الحكومة العجيبة على الأقل لمدة ثلاث سنوات بسبب وجود الفرنسيين، فلقد هزم الفرنسيون المماليك ونفوهم، كما قمعوا العربان، وأبادوا ثلاثة جيوش عثمانية فى فلسطين وأبى قير وعلى أبواب العاصمة، وليس أقل جدارة بالذكر من ذلك أنهم لم يمارسوا إلا سلطة حماية فى البلاد التى خضعت لهم، وبدأ كل واحد من هؤلاء الفرنسيين مرتفعا لمستوى أكبر الأهداف التى جعلتنا نشرع فى هذا الغزو. ولقد واجه الفرنسيون طيلة سنوات

ثلاث مخاطر لاتنقطع، كأنما كانت تتوالد من جديد، وقاسوا - بعزيمة ثابتة، وتحت سماء ملتهبة وغريبة عليهم - متاعب يصعب التعبير عنها، ولقد تكاتفوا فى هذه المهمة الشاقة رغبة منهم فى أن يهبوا أنفسهم لمجد ومصلحة وطنهم . وإنه لشعور نبيل ونافع يسمو بالإنسان ليتفوق على نفسه ، ويوحى بكل التضحيات ، ويظل فى نفس الوقت هو الدافع وهو الجزاء . ولقد جاءت عودتهم فى أفضل الظروف ملاءمة، فكانت أوربا هادئة ، وكانت فرنسا - بعد أن ثأرت لنفسها وانتصرت - تركن للراحة فى ظل قوانين أكثر لطفا من الهزات التى سببتها الحروب الخارجية.

ومن جانب آخر، كانت الهيئة العلمية التى تشكلت فى عاصمة مصر، تحت حماية الأسلحة الفرنسية، قد اتخذت لنفسها نفس اللوائح التى تنظم أعمال أكاديميات أوربا، كانت مهمتها أن تزيد وأن تحسن كل المعارف النظرية ، وأن تضاعف من تطبيقاتها. كانت إسهامات العلوم والفنون قادرة على أن تدعم وأن تجمل منشآت الفرنسيين ، فى الوقت الذى تؤثر فيه فى الأحوال المدنية للأهالى، لكنها لم تكن لتبلغ هذا الهدف المرجو للغاية دون أن نكون قد اكتسبنا معرفة عميقة بمصر . ولم يكن الوصف التاريخى والفيزيقى لهذه البلاد فى الحقيقة إلا جزءا من خطة عامة ، كنا قد وضعناها لدراسة العلوم ولتهيئة تقدمها، لكن الوصف مع ذلك كان عنصرا ضروريا ، وكان واحدا من تلك الموضوعات التى يهمنا أن ننقلها إلى أوربا . وكان هذا هو الغرض من هذه الموسوعة التى ننشرها اليوم، والتى تشتمل على نتائج الأبحاث الرئيسية التى قمنا بها خلال مدة بقاء الحملة الفرنسية ، والتى تستطيع أن تقدم معرفة متكاملة بمصر. أما هذا المؤلف الضخم فيتكون من : النص ، ومن مجموعات اللوحات . ويتكون النص من الدراسات والأوصاف ، أما الأطالس فتحتوى على : ١- رسوم عن مصر القديمة ، ٢- رسوم تتعلق بمصر الحديثة ، ٣- لوحات الحيوان والنبات والمعادن ، ٤- الخريطة الجغرافية . إذن فمجموعة هذه اللوحات تمثل الأشياء الموجودة والتى يمكن ملاحظتها ووصفها بدقة، والتى لابد أن نعتبرها - لهذا السبب - عناصر موضوعية لدراسة مصر.

وكنا كذلك نهدف فى الدراسات والأوصاف إلى عرض هذه الأمور على نحو أكمل وأكثر تماما ، وأن نبين بدقة ما قد لايستطيع فن الرسم أن يعرف به ، وأن نقارن الوقائع ، ونقارب مابين النتائج ، وأن نتفحص ما يمكن لنا أن نستخلصه من ذلك كله .

وتتكون الخريطة الجغرافية من خمسين لوحة خاصة ، تقدم كل التفاصيل التى يمكن لنا أن نرغب فيها ، وليست هناك منطقة فى أوربا يمكن لها أن تكون قد وصفت على هذه الدرجة من الكمال . ويشمل هذا العمل الكبير - الذى يقوم فى جزء منه على ملاحظات فلكية - كل البلاد الواقعة مابين شلال أسوان والبحر، وابتداء من آخر مبنى يقع إلى الغرب من الأسكندرية حتى خرائب صور القديمة Tyr، وأضفنا إلى ذلك خرائط خاصة بالمدن وبالموانى، وخرائط ومذكرات عن الجغرافيا القديمة، وحصراً بالأسماء العربية لكل المناطق الآهلة، مع ملاحظات عن السكان والزراعة وامتداد الأراضى الخصبة ، والملاحة والصناعة والمنشآت العامة وبقايا المدن القديمة .

وقد لاحظنا بكثير من العناية الحالة الجغرافية لوادى النيل، والصخور التى تقوم بمثابة حدود له، وامتدت الأبحاث التعدينية إلى مناطق صحراوية وجبلية بعيدة عن النهر، كما اشتملت هذه البحوث كذلك على فحص المحاجر التى استغلها المصريون القدماء، وعلى تصنيف دقيق للمواد التى استخدمت فى بناء الآثار. وقمنا برحلات كثيرة كى نجمع من الصحراوات المجاورة لمصر، وفي الصعيد والدلتا ، وعلي ضفاف النيل والترع - النباتات الخاصة بمصر ، وتلك التى أمكن للعلم أن يؤقلمها هناك، كذلك كان هذا العمل يهدف إلى الإكثار من الثروات الزراعية للبلاد ، وأن نزود التجارة والصناعة بعناصر جديدة . وقد أعطينا لدراسة الحيوان عناية مثابرة ، فاكببنا على تمحيص النتائج التى سبقت معرفتها ، وعلى إتمام الأوصاف الناقصة وإضافة الملاحظات التى لم يكن الطبيعيون قد قاموا بها من قبل مطلقا أثناء رحلاتهم السابقة . وقد أسفر فحص المواد الطبيعية بمصر

عن أهمية بالغة ، خاصة وقد سبق لها أن شغلت من قبل، ولوقت طويل، المشرعين الأول فى هذه البلاد، وفى بعض الأحيان كانت معرفتنا بهذه المواد تلقى ضوءا كاشفا وغير متوقع ، على نقاط غامضة فى عقائد المصريين (القدماء) . كما تتميز اللوحات التى تمثل هذه الأشياء بأمانة بالغة فى النقل والتقليد، فلها طابع الحقيقة وملمح الدقة اللذين يشهدان فى الوقت نفسه بعناية الفنان واهتمامه، وبخطى التقدم التى أحرزها هذا الفرع من فن الرسم، وحتى الآن، لم يسبق أن تمت جهود أكثر نجاحا وتوفيقا من ذلك كى تنوب عن حضور الطبيعة ذاتها (أى كى ينوب الرسم عن الأصل نفسه) .

أما بخصوص الآثار التى خلدت مصر ، فلم تكن لدينا عنها إلا معرفة شائهة قبل الحملة الفرنسية ، بل لقد كانت هذه الآثار مجهولة لنا بشكل تام، وسوف يقدم هذا المؤلف وصفا دقيقا لها. ولقد تعرفنا على الموقع الجغرافى لكل مبنى وبيناه علىّ الخريطة، ثم أقمنا بعد ذلك الخرائط الطبوغرافية التى تعرفنا بالمواقع الخاصة بمنشآت مدينة بذاتها أو بموقعها بالنسبة للنيل أو للجبال المجاورة ، وقد ضاعفنا من المناظر المرسومة لهذه الأنقاض الجليلة ، أما الفنانون الذين ندين لهم بهذه الرسوم فقد أخذتهم روعة الموضوعات وما يشع منها من جلال هو جدير بها، حتى أنهم لم يستبعدوا أى تكوين ولو كان اعتباطيا أو تعسفيا، إنهم إذن لم يلتزموا إلا بحقيقة النقل والتقليد بغية أن ينقلوا بإخلاص وأمانة نفس الأثر الذى أحدثته فيهم رؤية مصر، وليس هناك بين كل منجزات البشر على الإطلاق ما قدم لعبقرية الرسم موضوعا أكثر سموا ورفعة .

وقد قام هؤلاء عدة مرات، وبالعناية البالغة الدقة، بقياس أطوال المبانى وأطوال الأجزاء الرئيسية أو الإضافية التى تتكون منها، وقد رسمت لكل هذه المبانى تصميمات وواجهات وقطاعات أخذت من جوانب عدة ومن منظورات خاصة، ولقد حققت الرسوم والدراسات التى تضم نتائج عمليات القياس هذه كل ما نطمح إليه لدراسة العمارة المصرية، ونستطيع نحن أن نستخدمها لإنشاء مبان تشبه تمام

الشبه تلك التى وصفناها ، ولا بد لنا أن نلاحظ أن هذاالعمل (من جانبنا) لم يكن قاصرا قط على بعض الأطلال المنعزلة التى أفلتت من فعل الزمن، وإنما اشتمل على المبانى الرئيسية لأمة متنورة تدين لها أغلبية الأمم الأخرى بنظمها ومؤسساتها . وفى واقع الأمر فإننا لم نلاحظ فى مصر المدارية وجود هذه الأسباب المتضاعفة، التى ترمى- على الدوام - فى الأجواء الأخرى إلى تدمير المنشآت، وإلى محوها - فى بعض الاحيان - حتى آخر أثر لها، ومع ذلك فإن هذه الأعمال تذود عن نفسها بنفسها بكتلتها الخاصة كذلك ضد جهود البشر، وهكذا أمكننا اليوم أن نقدم لوحة لعمارة المصريين ، واثقين بأننا قد ضمناها أجمل منشآتهم .

ومن الواضح أن هذه المنشآت التى لا تزال باقية فى طيبة وأبوللينوبوليس وفى أبيدوس ولاتوبوليس (*) هى نفس القصور التى سكنها الملوك (القدماء) أو هى أكثر معابد (المصريين القدماء) أهمية، إنها كذلك هى نفس المبانى التى وصفها كل من هيكاتيه Hecaté وديودور Diodor وسترابون Strabon، ولا يمكننا أن نجد ما هو أكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الفنون من معرفة هذه النماذج العظيمة التى أثارت إعجاب الإغريق وطورت عبقريتهم .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أكببنا على نقل وتقليد دقيقين لأعمال النحت والحفر التى تزدان بها هذه الصروح، أما النقوش البارزة فتمثل أشياء بالغة التنوع، كما أنها تلقى أضواء جديدة على علوم العصور القديمة، وهى تتصل بتقاليد الحرب، والحفلات الدينية، والظواهر الفلكية، ونظام الحكم، والتقاليد العامة، والعادات الأسرية، وبالزراعة والملاحة وكافة الصناعات المدنية ، وقد حرصنا عند رسم عدد كبير من هذه المبانى على أن ننقل بدقة كافة الرسوم والحروف الهيروغليفية، ولم نحتفظ لها بأشكالها المفردة فحسب، بل بالنظام والوضع الخاص بإشاراتها

(*) وهذه المدن الأربع هى الآن على التوالى : الكرنك، وإدفو، ومنطقة خرائب بالقرب من العرابة المدفونة والخربة، واسنا . (المترجم) .

كذلك، وقد جمعنا الكتابات والنقوش القديمة التى تهم العلوم والتاريخ ، وقلدنا بعناية الألوان التى لاتزال تحلى العديد من المبانى ، والتى تبدو وكأنها لم تفقد شيئا من بريقها الأول .

وبعد ذلك ألحقنا بالخرائط الطبوغرافية، وبالأشكال المرسومة، وباللوحات المعمارية وبالرسوم البارزة وصفا موسعا، جمعنا فيه كل الملاحظات التى لايستطيع الرسم أن ينقلها، وتشتمل هذه الأوصاف على نتائج فحص مستفيض، أصيل وموثق، عاون فيه على الدوام كثير من الشهود . وكانت هذه الأوصاف تهدف إلى أن تعرفنا بشكل كاف على الحالة الراهنة للمبانى ، وعلى التدهور الذى حدث فيها بفعل الزمن، وكذلك على نوع المواد التى استخدمت ، وعلى أمور كثيرة أثارت اهتمامنا . ونجد فى هذه الأوصاف ملاحظات متنوعة عن العمارة ، وحول أساليب البناء، والألوان، واستخدامات الأشياء المرسومة، كما نجد ملاحظات حول طبيعة الأرض، والتغييرات التى تحدثها الفيضانات الموسمية، وحول موضوعات أخرى لم تكن واسعة بالقدر الذى يكفى لكى تعالج فى دراسات مستقلة .

وبنفس هذه العناية، قمنا بوصف المقابر الرائعة التى لملوك طيبة القدماء، والمقابر الصخرية حيث يجاهد الخدم المخلصون لتخليد ذكرى وأجساد الأجداد، كما وصفنا الحجرات السفلية الأخرى التى كانت مخصصة فيما يبدو لطقوس أو لممارسات غامضة.

وتقدم أهرام ممفيس الشهيرة ذائعة الصيت، القليل من الأهمية فيما يتصل بالفنون الجميلة، وإن كان ثمة دوافع أخرى ينبغى لها أن تُخْضع لأبحاث بالغة الأهمية هذه المبانى الضخام التى كانت موضوعا لملاحظات تنقصها الدقة، وقد حددنا نحن من جانبنا موقعها الجغرافى واتجاهات جوانبها بالنسبة لخط الزوال، وكذا الأبعاد الخارجية، وأبعاد كل الغرف التى أمكن لنا أن نتوغل إليها، وأخيرا فقد وصفنا كافة المبانى الجانبية.

وقد أفردنا أشكالا خاصة، رسمت فيها كل من المسلات وتماثيل أبى الهول والتماثيل الضخام والتوابيت ومسلات مختلفة أخرى، ولم يكن من المستطاع نقل هذه الزينات الثمينة للصروح والأماكن المقدسة إلى أوربا دون بذل جهود هائلة لم تسمح الظروف مطلقا ببذلها على الإطلاق ، وإن كانت توجد منها ألوف أقل حجما جمعها بعض الأشخاص واحتفظوا بها أو أودعت اليوم فى المتاحف العامة. وقد جلبنا معنا من مصر أحجارا منقوشة وتماثيل بأكملها أو مجدوعة ، وقطعا من البرنز ، و من الخزف أو البورسلين، وأحجارا مقطوعة ومشذبه تحمل نقوشا ورسوما فنية أخرى تتصل بالديانة القديمة وبعلوم وبعادات أهل البلاد، كما تفحصنا باهتمام عددا هائلا من مومياوات البشر ، ومن مومياوات الحيوان من ذوات الأربع ، وكذا الزواحف والطيور ، واحتفظنا بالكثير منها. وقد عثرنا فى الصناديق والآنية الفخارية التى تضم هذه الأجساد الجافة على أقمشة من نسيج ثمين ، وعلى مذهبات وعقود وتمائم وحلقان، وعلى أعداد هائلة من الشظايا، كما استخرجنا من هذه الصناديق مجلدات عديدة من البردى مغطاة بنقوش هيروغليفية أو بحروف هجائية . وقد اكتشفنا هذه الأشياء وسط خرائب المدن القديمة وداخل الحفريات الكثيرة التى اقتضى القيام بها الفحص الذى أجريناه للمبانى، وكذلك فى داخل المقابر العامة أو الملكية ، وفى بعض الأحيان أيضا فى داخل البيوت الحالية، وقد جمعت كل هذه خلال أحداث الحملة الفرنسية ، وتبينا أن من الضرورى أن نضمن رسوماتها المجلد العام.

أما اللوحات الخاصة بمصر الحديثة فتمثل : ١ - المساجد ، والقصور، وبوابات المدن ، والميادين ، والمحاكم ، ومجارى العيون ، والمقابر ، والأحواش ، والوكالات المخصصة للتجارة ، والنقوش ، والميداليات وقطع النقود . ٢ - الحدائق، والحمامات، والمدارس، وأدوات الحرف، والأسلحة، ومقابر العائلات، وبيوت الخاصة، ومنشآت المصانع، والماكينات، والورش، وأدوات المهن المختلفة. ٣- الاحتفالات السنوية ، المواكب ، الاجتماعات العامة، التجمعات والأعياد المدنية،

التدريبات العسكرية ، العادات الخاصة بالجنازات وبالزواج وبشراء العبيد وعتقهم وبالميلاد. ٤ – وأخيرا الشخصيات الهامة من مختلف طبقات السكان أو من الأجناس الأجنبية ، والملابس والأسلحة التى تميزهم.

وقد سعينا، فى الدراسات التى تشكل جزءا من هذه الموسوعة، إلى أن نستكمل وصف مصر وأن نعمق دراستنا لها عن طريق مقارنة الظواهر ومناقشتها. ولم نكن نهدف مطلقا، من هذا المنظور الثانى، لأن نشرع فى بحث يقتصر على حدود محددة، فالمرء لا يستطيع فى واقع الأمر أن يقصر أبحاثه حول مصر مطلقا (عند حد محدد)، فليس ثمة موضوعات فى الدراسات الإنسانية أكثر من ذلك خصوبة أو أكبر اتساعا ، فإذا ما ظننا أننا قد استوفينا مجالا ما فى هذه الدراسات فإننا نكون فى واقع الأمر قد استخففنا به ، ولكننا اقتصرنا على وضع نظام يكفل لنا أن نعالج كافة المسائل الرئيسية ، ولهذا السبب فإن مؤلفى الدراسات قد ركزوا بحوثهم على ما يأتى :

١ – المؤسسات والنظم، العادات والتقاليد، الآداب والعلوم والفنون، نظام المقاييس والصناعة عند قدماء المصريين.

٢ – الجغرافيا القديمة والحديثة، تاريخ مصر، الحكومة الحالية لهذه البلاد، الدين، التقاليد، العادات العامة والأسرية، حالة الفنون والآداب والعلوم ، الزراعة والصناعة والموارد العامة، الملاحة والتجارة.

٣ – طبيعة وخواص التربة والهواء والمياه من الناحية الفيزيقية، الحيوان والنبات والمعادن، جيولوجية مصر.

ويشكل كل واحد من هذه الموضوعات دراسة مستقلة ، وقد راعينا فى هذا الجزء من الموسوعة الذى يشتمل على الدراسات، نفس القواعد التى تراعى فى الموسوعات الأكاديمية . وعندما قام كاتب شهير– بحق – بنشر نتائج رحلاته إلى مصر وإلى سوريا ، فإنه قد أثرى بالفعل الأدب الفرنسى بوصف دقيق وبليغ

لعادات وحكومات هذه البلدان ، وقد لمسنا كيف تتطابق ملاحظاته مع الأبحاث التى قمنا بها خلال الحملة .

وتنتمى الأبحاث التى دارت حول الآثار الفلكية التى اكتشفت فى الصعيد إلى الجزء الأول من هذا المؤلف، وإن كان نشره هو الذى تأخر.

وفى معظم الأحيان نسبت فى المقالات العديدة والمبتسرة التى أوجدها هذا الموضوع الشهير بالفعل إلى كاتب هذه الدراسة آراء تختلف عن تلك التى انتوى أن يؤسسها . إن النتائج التى تستخلص من الدراسة المتأنية للنظم لن تسمح مطلقا بفهم تاريخ مصر داخل إطار تأريخ ضيق لم تستمر متابعته مطلقا فى القرون الأولى للمسيحية، كما أن هذه النتائج ليست أقل تعارضا مما يستخلصه أولئك الذين يؤسسون على افتراضات (أحوال) العصور القديمة المعلية من شأن الأمة المصرية، ثم لا يميزون مطلقا الفترات التاريخية ، والتى تستحق بالفعل مثل هذا الوصف، من تلك الحسابات والأرقام التى تستخدم فى عمليات التقويم .

ويوضح لنا السرد السابق، تلك الخطة التى اتبعناها فى وصف مصر. لقد التزم المؤلفون بملاحظة أعمال الطبيعة وأعمال الإنسان التى يمكن أن يفيد فحصها فى دراسة هذه البلاد، وقد مثلت هذه الأشياء بالرسوم أو المناظر المرسومة أو الخرائط أو التصميمات كلما كان الأمر ممكنا لذلك، لكن هناك عددا كبيرا من الظواهر لا يستطيع أن يقتفى أثرها سوى الحديث (أى البحث) فضمناها فى الدراسات والأوصاف التى تشكل النص، ولم نهمل شيئا وجدناه لازما كى يكون الجانب الوصفى من هذه الموسوعة كاملا ، ولقد سهل وجود الأسلحة الفرنسية بالإضافة إلى ترحيب الجنرالات وإسهام العديد من المراقبين والشهود ودقة الأدوات فى القيام بهذه الأبحاث ، ومع ذلك فكثيرا ما قطعت هذه الأبحاث بفعل أحداث وظروف مشئومة ، وعديد من بين هؤلاء الذين قادهم إلى مصر تذوقهم للفنون الجميلة، والذين جلبت لهم أعمالهم السابقة الاحترام قد

سقطوا صرعى، بسبب اضطرابات كانت تتجدد دون انقطاع أو فى مخاطر شبه مؤكدة دفعتهم إليها حماسة ملتهبة، وهلك آخرون دفعهم إلى هناك شغفهم فى خدمة العلوم وأملهم فى تشريف عائلاتهم، واختصوا وطنهم بثمار دراساتهم، هلك هؤلاء فى شباب غض فوق هذه الأرض الغريبة عليهم ضحايا للتمرد والعصيان والأوبئة المهلكة . ووسط هذا الخضم من أحداث الحرب، توقفت الأبحاث العلمية فى بعض الأحيان بسبب عراقيل لا يمكن السيطرة عليها فى حقيقة الأمر. هكذا يمكننا أن نؤكد أن ثمة بعض أمور قد أغفلناها، لكن هذه الأمور ليست بالهامة على الإطلاق، ولذلك فإن المؤلف الذى نشرنا الجزء الأول منه سيقدم معرفة مركزة ودقيقة عن الحالة الفيزيقية لمصر، وعن الصناعات الحالية للسكان، وعن المنشآت التى أقامها أجدادهم . وربما لم يكن هناك، على امتداد كل الدول المتحضرة ، أى بلد آخر قد خضع لفحص أكثر تفصيلا أو أكثر دقة .

وبخلاف هذا الوصف الطبيعى والتاريخى لمصر، فقد كان بمقدور إقامة الفرنسيين فى هذه البلاد أن تقدم المزيد من الفوائد والمزايا المرغوبة ، بل لقد كان بمقدور الفنون أن تكون – فى الوقت الحاضر نفسه – قد طورت وجملت ضفاف النيل، كما كان بمقدور الناس هناك ، بعد أن تخلصوا من إدارة عابثة وغير إنسانية ، أن يعكفوا بأمان على زراعة أرضهم وأن يفيدوا من ثمار حرفتهم، وكان يمكن للمخترعات الميكانيكية أن تحل محل قوة الإنسان ، وتجعل أعماله أكثر يسرا وأوفر إنتاجا، وكان بالإمكان أن تتوطن بعض القبائل العربية فى أرض أصبحت خصيبة ، وأن يدفع الآخرون إلى أعماق الصحراوات، وأن تثرى هذه الأرض الخصيبة بالنباتات والمحاصيل الأجنبية التى يمكن أن تجلب إليها أو تزاد كمية ما يزرع منها، بل لقد كان بوسع الفرنسيين أن يقيموا هناك الكثير من المصانع الهامة ، كما كان من المستطاع إقامة علاقات طيبة مع فارس والهند والجزيرة العربية، وعبور ووصف هذه المناطق، بل كان سيصبح فى مقدور رحالة كثيرين أن يراقبوا (وأن يدرسوا) المجرى الأعلى للنيل وأن يتفحصوا المنشآت القديمة القائمة

فى جنوب أسوان وفى أثيوبيا، وأن يتوغل آخرون مع القوافل إلى الواحات وإلى بلدان أفريقيا الداخلية، وأن نحصل على معلومات أكثر دقة حول الأنهار والجبال ومناجم الحديد والذهب وكل المنتجات الطبيعية، والمدن، وخاصة عناصر تجارة هذه القارة الشاسعة، وكان من الممكن كذلك أن يتم مشروع القناة التى من شأنها أن تربط بين البحرين ، وبذلك يبدأ جزء من تجارة الشرق يتبع طريقا بالغ اليسر طالما رغب العالم فى وجوده .. كان يمكن أن يكون ذلك هو حال مصر اليوم لو أن قدرا معاكسا لم يعد بها إلى طغاتها القدامى، ونستطيع هنا أن نؤكد أن ليس ثمة أية مبالغة فى هذه اللوحة التى رسمناها للتو، فلقد كانت السنوات الثمانى التى انقضت (منذ خروجنا من مصر) كافية لكى تزود هذه البلاد (لو أننا مكثنا فيها) بالكثير من الاكتشافات والمؤسسات النافعة، فأى شئ هذا الذى لا نستطيع أن نتوقعه من تأثير ممتد يمكن له أن ينتج عن الارتباط بفرنسا وعن التقدم المستمر لأضواء المعارف والفنون !

وعلى الرغم من أن العلوم قد شاهدت - ربما - بدء ازدهار جزء من الأمل الذى كانت فى ذلك الوقت حبلى به، فإنها قد خسرت المزايا الهائلة للحملة الفرنسية . وتقدم لنا الموسوعة التى بدأنا اليوم فى نشرها ميدانا رحبا للأبحاث الأدبية والعلمية ، وسوف تلقى أضواء جديدة عن أصل كل الفنون، وليس لدى أولئك الذين أسهموا فى وضعها ما يضيفونه إلى عظمة موضوعها .

كان عملهم يستلزم منهم فحصا مثابرا، كما أن الحقوق التى يمكن أن تترتب لهذا العمل على الرأى العام تنتج من طبيعة موضوعه ذاتها أو من الظروف التى صاحبت تكوين عناصره ، فإذا ما نظرنا إليه من وجهة النظر هذه، فإن هذه الموسوعة سوف تشكل صرحا هائلا للتاريخ والفنون، كما أن هذا العمل العظيم يسهم فى مجد وطننا، ونحن مدينون به لجهود مقاتلينا، كما أنه يستمد أصالته من اتحاد العلم بالسلاح ، فهو شهادة وثمرة لتحالفهما، إنه تذكار عظيم لوجود الفرنسيين فى واحد من أشهر بلدان العالم، ولكل ما فعلوه هناك من تكريم للنصر

باتخاذ طريق العدل والتسامح، مقلصين حقوق المنتصر إلى مجرد ممارسة لسلطة وصاية ، ويمكن لهذه الموسوعة أن توحى لبلاط القسطنطينية بمشروعات تدعم عودة سلطتها إلى مصر ، وتقيم فيها حكومة أكثر اتباعا لقواعد الحكم والإدارة، وستظل تنقل إلى هذه البلاد أفكار وأمانى أصدقاء الفنون الجميلة ، وكل الذين يتطلعون بإخلاص وتجرد إلى تقدم المعارف النافعة .

ولسوف يجد الناس فى هذا المؤلف الأساسى، مع أمهات الكتب التى رفعت اسم اليونان وايطاليا، لوحة أمينة للآثار المصرية، وسيجد الناس فى متناول أيديهم أعظم ما أنتجته عبقرية الفنون وأكثرها تماما. وحين يقارن الناس هذه النماذج فلا بد أن يتذكروا أنها هى كل ثمن النصر، هكذا تقيم فرنسا أنصبتها التذكارية من أسمى منجزات العصور القديمة ، رابطة على هذا النحو ذكرى انتصاراتها بكل عصور المجد التى عرفتها الفنون الجميلة .

إن مصر التى كانت تطمح لأن تجعل من مؤسساتها ومنشآتها أشياء تقاوم الفناء، والتى تركت بها كل الفنون بصمات لا سبيل لمحوها، ستظل لوقت طويل تدفع بتلك المهابة الصارمة بل التى تتزايد روعتها، والتى تشع من أقدم نماذج (الفن التى عرفها البشر) – خفة وطيش العقل البشرى وعدم استقراره . لقد شيدت هذه الصروح من قبل أن تنشأ مدن الإغريق بقرون عديدة ، و لقد رأت هذه الآثار نشأة وازدهار صور Tyr وقرطاجة وأثينا، وكانت تحمل بالفعل اسم «العصور المصرية القديمة» فى زمن أفلاطون، وسيظل يعجب بها أحفادنا فى وقت لن يبقى فيه فى أى مكان آخر على ظهر الكرة الأرضية أثر واحد لمنشآت شامخة اليوم.

وبالإضافة إلى ذلك فإن البقاء الطويل لهذه الصروح لا يرجع فقط إلى خواص الطقس ، بل هو ناتج بشكل خاص عن جهود هؤلاء الذين شيدوها، ذلك أننا نكاد لا نستطيع أن نعثر – على ضفاف النيل – على أثر لمنشآت رومانية . إن المصريين الأوائل لم يكونوا يعتبرون جميلا وجديرا بالإعجاب بهذا المعنى، إلا ما

هو قابل للبقاء وينهض على فكرة المنفعة العامة، كان الفهم المبدئى من وراء أعظم منجزاتهم هو جعل الأرض أكثر ملاءمة لصحة الإنسان، وأكثر خصوبة وأعظم اتساعا، فتوصلوا إلى تجفيف المستنقعات والبحيرات وإلى انتزاع أقاليم بأكملها من الصحراوات الليبية (وحولوها إلى أرض زراعية)، كما تفادوا أخطار عدم ثبات منسوب الفيضانات باحتياطات نشطة تتسم ببعد النظر وتستخدم كل أعاجيب الفنون، فأسسوا مدنهم فوق أرصفة شاسعة، محولين مجرى النهر حسبما يتراءى لهم أو مقسمينه إلى روافد وقنوات كثيرة، ورأوا الأرض نفسها تطل من قلب المياه(*) ، فخلقوا – بمعنى كلمة الخلق – بأنفسهم سهول الدلتا الجميلة التى سرعان ما أصبحت بالغة الثراء، ولقد ساهم ثبات الطقس وانتظام الظواهر الطبيعية فى طبع هؤلاء القوم بهذا الطابع العميق من الوقار والمثابرة والإصرار، وهى الملامح التى تميز أنظمتهم، ولم يكتف هؤلاء القوم بأن يزينوا شواطئ النيل بالكثير من الصروح الخالدة ، بل شرعوا فى إقامة أعمال باذخة فى قلب الصخور التى تتاخم أراضيهم، و« مصر التحتية أو الدفينة» هذه تعادل فى عظمتها عظمة أولئك الذين كانوا يقطنونها، وهى تلك العظمة التى أثرتها كل الفنون .

وكان المصريون يعتبرون على نحو ما خالدا كل ما كانت له صلة بديانتهم وحكومتهم، فكانوا يتعهدون على الدوام هذه الفكرة بإنشائهم الصروح الكبرى والتى تظل على الدوام هى هى، والتى تبدو وكأنها لا تخضع مطلقا لفعل الزمن، ولقد أدرك مشرعوهم أن هذا التأثير الروحى قد يسهم فى دعم نظمهم . وفى نفس هذا الاتجاه، نقش هذا الشعب فوق قصوره ومعابده ومقابره ، صور آلهته وملوكه، وملاحظاته للنجوم، ومبادئه وحكمه المقدسة، ومشاهد من عباداته وأعياده المدنية ، وهذه هى أقدم أثر يمكن أن يكون الإنسان قد تركه على ظهر الأرض، وهى تنتمى إلى حضارة آسيا الضاربة فى القدم والتى سبقت كل العصور التاريخية لليونان،

(*) يشير هنا إلى طمى النيل . (المترجم) .

وقد أوقفتنا هذه الآثار على ما كانت عليه فى ذلك الوقت عقول الأمم وتقاليدها .

ولن يكون بمقدورنا مطلقا أن نعجب بآثار مصر ومنجزاتها، ولا أن نتذكر ما كانت مصر عليه فى عصور مجدها، دون أن نولى اعتبارا للآلام ونوبات الشقاء التى سببها فقدها لاستقلالها ولقوانينها ولمعارفها . وسنظل نقدر على نحو أفضل أنظمتها، وسنظل ننظر إليها باعتبارها منبعا روحيا للازدهار لم يكن أقل ضرورة، فى هذه البلاد، من النهر الذى يرويها، وسنظل على الدوام، وعلى وجه الخصوص، ندرك هذه الحالة المحزنة التى تردت إليها، على الرغم من الثراء الذى يمكن أن تجلبه إليها، فى سنوات قليلة، إدارة أكثر حكمة .

وهكذا فإن دراسة مصر، الخصيبة لهذا الحد بالذكريات العظيمة، تظل تنذرنا بأن تطور العقل وتطور الصناعة إنما يرتبطان باستتباب النظم، كما تظل توضح لنا، وعلى نحو أفضل، ما تساويه القوانين، وما تساويه حكومة مستقرة مستنيرة، وستظل توحى لنا بدوافع جديدة كى نحب ذلك . ومثل هذه الدراسة لا يمكنها إلا أن توحى بأفكار عادلة ومتسامية، وبأن تغض الطرف عن البحث فى البهرج التافه، وإلا أن تقودنا نحو وحدة وبساطة الآراء ووجهات النظر . ولسوف تجعلنا هذه الدراسة ندرك على نحو أفضل أن الأشياء الراسخة والقابلة للبقاء هى ذات عظمة لا تشع من سواها، وأنه، إذا كانت الأناقة الحاذقة للأشكال والمنجزات تسهم فى التطور، فإن فكرة الجمال الحق تحوى بالضرورة فكرتى الرسوخ والعظمة، وستظل توضح لنا هذا المبدأ بكل جلائه، ولا بد أن تكون لهذه الفكرة سطوتها الخلاقة على ذوق وإنجازات العصر .

إيضاحات

جمعنا في هذه الإيضاحات كل الملاحظات المختلفة التي تتصل بخطة هذا المؤلف ، أو التي يمكن لها أن ترشد القارئ عند استخدامه للأطالس، وقد سبقت ذلك نبذة تاريخية ، تناولت الإجراءات التي اتخذت عند تجميع محتويات هذا المؤلف ، وكذلك عند نشرها .

بعد عودة جيش الشرق مباشرة، أمرت الحكومة بأن تجمع كل الدراسات والخرائط والرسوم وكافة الملاحظات التي تتصل بالعلوم والفنون والتي جمعت أثناء الحملة ، في مؤلف عام ينشر على نفقة الخزينة العامة، ودعى الأشخاص الذين سبق لهم أن ساهموا في هذه الأبحاث كي يقترحوا الكتابات أو الرسوم التي ينبغي لهذا المؤلف أن يتكون منها، وفي نفس الوقت عهد بإدارة هذا العمل إلى لجنة مكونة من ثمانية أشخاص ، حددهم وزير الداخلية باعتبارهم ممثلين لكل جماعة المؤلفين، واختارت هذه الجماعة بنفسها بعد ذلك وعن طريق الاقتراع ، ذلك الشخص- من بين أعضائها – الذي يناط به كتابة المقدمة التمهيدية . وقد عين السادة: برتوليه، كونتيه، كوستاز، ديجينيت، فورييه، جيرار، لانكريه، مونج أعضاء في اللجنة التي تمارس الإشراف العام على مختلف أقسام هذا المؤلف ، بالإضافة إلى تنظيم نفقاته وعرضها بموافقة الوزير. وقد حل محل السيدين كونتيه ولانكريه على التوالي السيدان جومار وجولوا (*) ، أما السيدان ديليل وديفيلييه فقد ضما إلى هذه اللجنة في بداية عام ١٨١٠ .

(*) اكتفيت بإيراد الأسماء هنا بالحروف العربية ، حيث سبق ورود كل أسماء علماء الحملة بالحروف اللاتينية في مذكرة المسيو بانكوك . (المترجم) .

وكان من الضرورى أن يعين قوميسيير ، كى يتولى تنظيم ومباشرة تفاصيل التنفيذ ، ومراعاة المصاريف، والتنسيق بين كل أجزاء العمل، بالإضافة إلى ترتيب المادة وفقا للنظام الذى اتفق عليه. وعليه أن يختار الحفارين ، وأن يستلم منجزاتهم ، وأن يضعها تحت فحص اللجنة ، وأن يقدم كشفا بالمصاريف وبيانا بالتقدم المضطرد فى العمل، وفى النهاية أن يدير مختلف نواحى العمل فى حفر وطباعة اللوحات . وقد عين الوزير، ليشغل هذا العمل، المسيو كونتيه الذى أحدثت وفاته أسفا بالغا، فهو الرجل الذى قدم لوطنه وللعلوم خدمات لا تنسى ، وهو الأمر الذى وجدنا أن الواجب يقتضى منا أن نذكره فى مقدمتنا التاريخية . وقد خلفه المسيو ميشيلانج لانكريه، مهندس الطرق والكبارى، فى نهاية عام ١٨٠٥، وكان قد لفت إليه الأنظار منذ وقت طويل بمعارفه النادرة للغاية فى مجال الهندسة وفى كل فروع الفلسفة الطبيعية، لكنه سقط صريع مرض مزمن ومؤلم عند نحو نهاية عام ١٨٠٧ ، بعد أن قدم أمارات لا حصر لها على حماسة قل أن نجد لها نظيرا، وحل محله المسيو جومار مهندس المساحة السابق والمشرف على المخازن العسكرية والذى خصص لهذا العمل منذ وفاة المسيو كونتيه عنايته المثابرة . وقد اختارت اللجنة المكلفة بإدارة النشر - من بين أعضائها، وبموافقة وزير الداخلية - سكرتيرا موكلا بالمراسلات العامة، يقوم بتدوين المداولات، وبالمراقبة المباشرة على طبع الدراسات، وبالمساهمة مع القوميسيير الخاص فى جمع وتصويب اللوحات . وعهد بهذه المهمة على التوالى إلى السيدين لانكريه وجومار، ويشغلها اليوم المسيو جولوا مهندس الطرق والكبارى، ويشرف المؤلفون المقيمون بباريس على حفر رسومهم بالتنسيق مع قوميسيير الوزير .

كان الهدف الذى توخيناه عند وضع هذه الموسوعة أن نقدم بانتظام النتائج التى تتصل بعصور مصر القديمة، وبالحالة الراهنة والتاريخ الطبيعى، وجغرافية مصر، أى بتجميع العناصر الرئيسية لدراسة هذه البلاد . وقد وزع هذا العمل الكبير بين عدد كبير من الذين أسهموا فيه، وقد كونا عن طريق تجميع أعمالهم،

الوصف الكامل الذى كنا قد توخيناه. وقد وجدنا من الضرورى أن يتم فحص كل جزء من هذه الموسوعة عن طريق المؤلفين مجتمعين، وليست هناك دراسة واحدة أو رسما واحداً لم يعرض بشكل مفصل أمام الجمعية العامة ، حيث خضع هناك لمداولات متأنية . وكان الغرض من هذه المناقشات العامة ضمان دقة الوقائع، واستبعاد أو تصويب الأعمال المحرفة أو غير الدقيقة . وأعطت هذه المناقشات لأولئك الذين قبلت أعمالهم نوعا من الأصالة أو التوثيق ، ذلك أنه لم يسمح بالنشر لأى من هؤلاء إلا بعد أن نالوا الموافقة فى اقتراع ، وبغالبية الأصوات . لكن هذا الفحص لم يكن ليمتد مطلقا كى يتناول الأفكار التى تبناها مؤلفو الدراسات أو إلى النتائج التى استخلصوها من أبحاثهم ، ومع ذلك فلا ينبغى أن نرتب على ذلك أن جماعة المشاركين كانت تشاطر على الدوام هذه الآراء، أو حتى كانت تشاطر هذه الآراء تلك اللجنة التى كانت تتولى نشر الأعمال .

ولسوف نضمن الجزء الأخير من وصف مصر قائمة بأسماء كل الذين سيسهمون فى هذه الموسوعة، وعندئذ فقط يمكن لنا القول بأننا قدمنا قائمة عامة ودقيقة، وستحل هذه القائمة الشاملة محل تلك القوائم الجزئية التى ستلحق بكل جزء، وسوف نضيف كذلك أسماء المشاركين الذين أوقف الموت أعمالهم ، سواء بعد رجوع جيش الشرق ، أو خلال الحملة .

ولقد سهل من إنجاز هذه المهمة الكبيرة تلك الرعاية المستمرة من جانب الحكومة، ولقد قدمت هذه الرعاية الكثير من التشجيع إلى الحفارين الفرنسيين حين سعت إلى إسهام متواصل لعدد كبير من الفنانين، كما أدت هذه الرعاية فى النهاية إلى أشواط جديدة فى تقدم هذا النوع من فن الرسم، وقد اكتسب حفر الخرائط الطبوغرافية ولوحات التاريخ الطبيعى، وبشكل خاص لوحات العمارة، درجة من الاتقان لافتة للنظر، وسيجد الناس فى هذا الإنجاز نماذج كثيرة من العمل بالغة النقاء وبالغة التمام . وعند التدريب على كيفية التعبير عن الطابع العظيم الذى للمبانى المصرية، تكوَّن فنانون شبان، تميزوا بالفعل بمواهب نادرة .



الترجمة الكاملة
(٢)

وصف مصر

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

العرب في ريف مصر وصحراواتها



دار الشايب للنشر

٢

وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

العرب في ريف مصر
وصحراواتها

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

دار الشايب للنشر
١٠ ش سليمان الحلبي - التوفيقية
ت: ٥٧٤١٣٧١ - ٥٧٢٦٨٣٠

الى

مِصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

يسرني أن أقدم الى قراء العربية هذه الطبعة الثانية من هذا المجلد ، وهى مناسبة طيبة لحمد الله ولتوجيه الشكر للقارىء النبيل الذى اولى هذا العمل ثقته واقباله .

ومما له دلالته الطيبة أن تصدر هذه الطبعة فى ظروف هى افضل بكثير من الظروف التى صدرت فيها الطبعة الأولى،فقد اصبح لهذا العمل اليوم ناشر يتعهده مشكورا ، هو مكتبة الخانجى العريقة بعد أن كان عبء نشره يقع على كاهلى المثقل ، كما حاز العمل ثقة القارىء والجهات المعنية بعد أن كان يتحسس طريقه وقتها على استحياء يقدم رجلا ويؤخر اخرى، واخيرا فقد نال هذا العمل ـ وهذا افضل لدى من أن اقول نلت انا عنه ـ جائزة الدولة التشجيعية لعام ١٩٧٩ كما كان موضع ترحيب كل الاقلام الجادة والشريفة .

ويسعدنى أن تصدر هذه الطبعة فى وقت نوشك فيه أن نصدر مجلدين من مجلدات اللوحات هما المجلدان الخاصان بالدولة الحديثة فى شكل فنى لائق للغاية يستحق الشكر عليه كل من ساهم فيه . وبذلك يكون هذا المجهود قد خطا خطوة كبيرة الى الأمام .

اما عن هذه الطبعة ، فانها تختلف عن الطبعة الأولى فيما يلى :

١ ـ اعادة ترتيب الدراسات ، فجاء الجدول الخاص بالقبائل العربية فى نهاية الكتاب وليس فى بدايته استجابة لملاحظة القراء غير المتخصصين الذين وجدوا هذه البداية غير مشجعة لهم على القراءة، مع اننى وضعتها على هذا النحو لاعتبارات أكاديمية .

٢ ــ اضافة دراسة جديدة اليه تتناول خروج العبرانيين من مصر وهى احدى دراسات العصور القديمة لمصر ، أما السبب فى اضافتها هنا ، فهو ان مؤلفها ، دى بوا ــ ايميه قد قدمها للجنة التى قامت بنشر وصف مصر باعتبارها متممة لدراسته عن القبائل العربية فى صحراوات مصر والتى وردت فى هذا المجلد .

وهذه هى المرة الأولى التى أسمح لنفسى فيها بنقل دراسة من دراسات العصور القديمة لتتجاور مع دراسات عن الحالة أو الدولة الحديثة فى مصر لأننى اقتنعت بأهمية ذلك ، وبعد أن فكرت فى الأمر مليا ، وقد شجعتنى اعتبارات مماثلة على ضم الدراسة الخاصة بالموسيقى عند قدماء المصريين للدراسة الهامة او الموسوعة الكبيرة التى تناولت الموسيقى العربية على ضفاف النيل والتى سيبدأ صدورها تباعا اعتبارا من المجلد السابع وهو المجلد القادم الذى سيصدر فى وقت قريب بعون الله .

والله نسأل أن يجنبنا العثرات وأن يهدينا سواء السبيل وأن يوفقنا الى تقديم بعض ماينفع وطننا مصر واخوتنا المصريين .

مارس ١٩٨٠ المترجم

مقـدمة الطبعـة الأولى

صدر منذ نحو عامين المجلد الأول من الترجمة العربيـة الكاملة لكتاب وصف مصر ــ وتعني الترجمة الكاملة هنا أننا ننشر النص الكامل دون تصرف من أى نوع ، أما تقديم ترجمة كاملة لكل وصف مصر فسيظل مطمحا نرجو أن تساعدنا الأيام فى تحقيقه ــ مشتملا على احدى دراسات هذا السفر الضخم ، وكان موضوعها « دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين » ، وهى من وضع المهندس الشاب ، ج. دى شابرول ، الذى يشار اليه باسم شابرول دى فولفيك ، والذى شارك فى الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ .

ولقد كانت النية تتجه الى مواصلة نشر أجزاء من وصف مصر تباعا لكن الظروف لم تكن مواتية ، فتأخر نشر المجلد الثانى منه الى اليوم ، ولابد أن القراء سوف يلتمسون العذر حين يعلمون أن نشر هذه الترجمة، فضلا عن الترجمة ذاتها ، يتم بجهود ذاتية .

● وفى مقدمة المجلد الأول ذكرت انه على الرغم من اية دوافع ذاتية ، قد تكون وراء نشر مؤلف كهذا ، الا اننى أحب أن اربط الجهد كله بتلك الحركة التى دبت فى مصر ، منذ يونيو ١٩٦٧ ، والتى زادت بعد أكتوبر ١٩٧٣ ، الذى أعاد لمصر بعض توازنها وبعض ثقتها بالنفس، فاستمرت فيما بدات فيه فى محاولتها التفتيش والبحث عن الذات ، ساعية الى استقراء كافة تاريخها ، لاسيما تاريخها الحديث الذى بدا فى بعض فترات حياتها المعاصرة وكأنه لا يلقى الاهتمام الكافى . وحين أحاول ان اجد ما أقدم به هذا المجلد الثانى ، فاننى أجدنى أكاد أكرر نفس ماقلته آنذاك . أن التاريخ حلقات متصلة ، كل حقبة منه تحمل ظل سابقتها ، كما انها تشكل على نحو ما ملامح الحقبة القادمة حتى ولو قامت ثورات شاملة ، تسعى لتغيير كل شىء ، فمعطيات الواقع وعناصره ، التى يتشكل منها الحاضر ، الذى يصبح بعد ذلك «تاريخا» قادرة على التحور، لتوجد فى أشكال جديدة ، بتسميات جديدة . وأكثر من ذلك فان ما « مضى » ــ أى ماحدث وأصبح تاريخا ــ هو أكثر أبعاد الزمن صدقا،

لأنه تشكل بصفة نهائية ، فى حين يظل الحــاضر افتراضا زئبقيا ، يقفز دوما الى الأمام ، أو يتشبث بمعطيات الماضى ، أو يفعل الاثنين فى وقت معا فى اغلب الأحيان . نعم ، قــد تضطرنا الظروف لاستقراء المــاضى على نحو ما ، كما أن من المشروع ـــ من الناحية الأكاديمية البحتة وليست السياسية العارضة فقط ـــ أن نختلف فى تفسير دروس التاريخ ، ومغزى معطياته ، لــكن الوقائع مع ذلك لابد لها أن تحترم هذا الــوازع الأخلاقى ، ليس فقط لأن الصدق مع النفس يقتضى ذلك ، وانما لأننا ـــ أيضا ـــ اذا ماسلكنا هذا الدرب ـــ درب عــدم احــترام الوقائع التى تمت أو تجاهلها ـــ لن نستطيع مطلقا أن نفهم الحاضر الذى نعيشه ، وسيصبح هذا الحاضر مجرد محاولات تتنصل متخبطة ، فى حين يصــبح المستقبل نفسه مغامرة غير مأمونة الى ان يأتى اليوم الذى يصبح فيــه المستقبل واقعا مريرا ، أو حاضرا لم نكن نتوقع اننا نسير اليه .

لكن هذا الذى نقر به لا يعنى مطلقــا أننــا نحبذ الجمود او ندعو اليه ، فالتطور حتمى شئنا أم أبينا ، والمــاضى لا يعود مطلقا ، كما انه ليس خيرا كله ، وفى نفس الوقت ، فلابد أن تكون لنا أحلامنا وطموحاتنا فى مستقبل أفضل ، نصنعه ، ولا ندع الأيام تصوغنا كما تهوى . ولكن يبقى هناك على الدوام الفرق بين الطموح المشروع وبين الخيال المحض ، وبين الاعتراف بالواقع وبين الجمــود ، وفى كلمــة ، بين أن نبنى فوق أساس متين ، وبين أن نشيد قصور الوهم العالية فوق الرمال الناعمة ، المتحركة .

لابد أن هذا كله ، أو بعضا منه ، أو اكثر من ذلك ، هو الذى حدا بالحركة المصرية فى مصر أن تنقب فى تاريخها الحديث ، وان تتصــدى له ، وان تحاول اعادة النظر فى أمور كادت تعــد من المسلمات . ومن اللافت للنظر ان الذين تصدوا لهذه الحركة الفكرية التى ارتبطت بالتاريخ لم يكونوا كلهم من اساتذة التاريخ ، مما يعنى ان التاريخ كعلم قد اصبح « ثقافة » يحرص المثقفون جميعا ليس فقط على الالمام بها واستيعابها ، وانما كذلك على الاسهام فيها ، دون ان يعنى ذلك مطلقــا اى مساس بقدر وانجاز أساتذة التاريخ الأجلاء ، الذين ستظل منوطة بهم بطبيعــة الحال الانجازات الرئيسية فى هذا المجال .

ومن جهة اخرى فاننى لا اريـد ان اقحم رايى هنـا ، ولست أريد بالذات ان يكون تقديم هذه الدراسات هو المناسبة التى يقال فيهـا راى خاص او يدور جدل لا ينبغى أن يتحمل هذا العمل وزر خطئـه ان كان مخطئا ، أو ينال دعما بسببه قد لا يستحقه ان كان هذا الرأى صائبا . فلسنا هنا على الاقل ازاء مؤلف نضعه فى الوقت الحاضر ، نساهم به فى جدل قائم ، لـكنه « ترجمة » لدراسات كتبها « اجانب » عن ظروف بعينها عاشتها مصر فى بعض مراحل حياتها ، كما أنها قد كتبت من وجهة نظر هى ليست وجهة نظرنا . وقـد حملت وجهـة النظر هـذه بالطبع بصمات الظروف التى كتبها فيها أصحابها ، كما عبرت اكثر من ذلك عن رغباتهم وطموحاتهم ومتاعبهم هم .. وان كان ذلك لايعنى انكار الوقائع، كما لا يعنى كذلك أن تصدر حكما قاطعا بموجبها ، فليست هى الحيثيات الوحيدة ، أو التى لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها ، واكثر من ذلك فاننا لاينبغى أن ننظر الى الحاضر من معطيات ماض ولى ، بل وتمثلته مصر واصبح جزءا منها . بل اننا قد نرى فى هذه اللوحة القـاتمة التى تقدمها هذه الدراسات التسع فى مجملها - بخصوص علاقة مصر بالقبائل العربية التى كادت تحيط بها وتنفذ الى اعماق واديها ودلتاها وعلى الرغم من كل التحفظات الضرورية التى سبق ابرازها - أمرا ايجابيا ينبغى ابرازه، الا هو تلك القدرة العبقرية الفذة التى لمصر ، والتى تمكنها من استيعاب كل المتناقضات ، واحتواء كافة نواحى السلب ، ثم تمثل ذلك كله بخطو وئيد لـكنه واثق ، ثم افرازه فى النهاية كيانا سويا ، متناغمـا ، وفوق ذلك كله ، مصريا .. كأنما كانت هذه الحركة العنيفة من الشد والجذب بوتقة ينصهر فى أتونها شعب مصر ، ليصبـح واحدا من اكثر شـعوب العـروبة امتزاجا وتوحـدا .. وليس صـدفة ان مصر وحـدها دون كل شعوب المنطقة ، هى التى لاتشكو من وجـود أقليـات عنصرية فى داخلها ، على الرغم من كثرة من وفدوا اليها .. وبخلاف شعوب اخرى من حولنا .

بل اننا نكاد نقف فى هذا المثال الفـذ على درس حضـارى ، بل انسانى عظيم فى هذه القدرة على التمثل والهضـم ، فحين تمثلت مصر العناصر المملوكية والتركية مثلا ، فقد جعلتهم ابناءها ، لايكاد يميزهم أحد عن سواهم ، وبغض النظر عن بعض التفاصيل الوقتية أو المرحلية ،فقد اصبحوا محض مصريين ! وهكذا ذاب الغالب فى المغلوب ، واصبح قدره قدره ، وهو نفس قدر مصر ، يجوز عليهم مايجوز عليها .

وإذا ماتركنا كل هذا لنقترب من العمل الذى بين يدينا فاننا نجده كما سبق القول ، يشتمل على تسع دراسات لثمانيـة مؤلفين من الذين شاركوا فى الحملة الفرنسية على مصر ، وبالتالى فى وضع وتأليف كتاب وصف مصر .

وإذا كان من المقبول والممكن أن نقدم الدراسات الكبيرة من هذا المؤلف الكبير فى كتب مستقلة كما هو الحال بشأن المجلد الأول ، وبشأن دراسات اخرى كثيرة : كدراسة جومار عن مدينة القاهرة ، ودراسة ديجينيت ولارى عن الأمراض ، ودراسة جيرار عن الزراعة والصناعة والتجارة ، ودراسة فيوتو عن الحالة الحالية لفن الموسيقى والغناء عند المصريين ، فانه من غير الممكن أو المتصور كذلك أن نقدم الدراسات القصيرة على نفس النحو ، أى فى كتب مستقلة ، كما لايحسن تقديمها مجمعة كيفما اتفق . ولكى يكون القارىء فى الصورة معنا ، فاننى أوضح له دون أن يعنى ذلك أى مأخذ — أن الدراسات فى كتاب وصف مصر تتجاور فى نفس المجلد ، قصيرة وطويلة ، دون نسق منهجى واضح . هى اذن أشبه بكتب وكتيبات مستقلة تتجاور أو تتلاحق دون رابطة منهجية ، وان كانت تدخل كلها بالطبع ضمن اطار « وصف » مصر .

ولقد حاولنا أن نضفى هنا طابعا منهجيا على هذه الدراسات ، فحاولنا تجميعها حسب الموضوع الرئيسى الذى تدور حوله . فجاء هذا المجلد بدراساته التسع التى تدور كلها حول القبائل العربية ودورها فى مصر .

ومثل هذا المنهج — مع انه فى تقديرنا افضل مايمكن اتباعه — لا يمكن أن يكون مبرءا من العيوب ، ان لكل دراسة من هذه الدراسات التسع ظروفها التى كتبت فيها ، كما انها تختلف باختلاف نظرة كل من مؤلفيها الثمانية الى الأمور ، مابين منصف ومتحامل ومجامل ايضا .. وما بين نظرة استعمارية تنشد الاصلاح لغرض بعينه ، وما بين فهم انسانى شامل وعميق للأمور .

ومن جهة أخرى فان معطيات هذه الدراسات تتجاوز فى الحقيقة الاطار الذى وضعت داخله فى ترجمتنا العربية ، فلسوف تقابلنا فى ثناياها :

ـ امور تختص بجغرافية مصر وطبوغرافيتها

ـ وامور أخرى تتعلق بمسيرة الحملة الفرنسية ذاتهـا على مصر والمتاعب والصعوبات التى كانت تواجهها .

ـ وأمور ثالثة قد تدخل فى نطاق تاريخ العلم، فالأحداث والاكتشافات اليوم قد تجاوزتها .

ـ وهناك أمور رابعة تعد من قبيل جغرافية التاريخ . أى تتنـاول التاريخ فى مرحلة بعينها بشكل سكونى .

وهذه بالتأكيد عيوب ليست من صنع واضـعى هـذه الدراسات ، الذين لم يقصدوا وقتها أن يضعوا دراستهم فى نفس السياق الذى نضعها نحن فيه اليوم ، وانما هى ناتجة بالتأكيد من محاولة اضفاء منهج لامناص من اتباعه فى واقع الأمر ـ لـكنه بالتأكيد يأتى من خارجها . وعلى كل فان مثل هذه العيوب تختفى كلية لو أننا حذفنا العنوان الذى اقحمنـاه على هذه الدراسات التسع ، واكتفينا بالاشارة الى هذا المجلد باعتباره المجلد الثانى فى الترجمة العربية الـكاملة ، وان كان هـذا بدوره غير متصور ، الا بعد أن تتم ترجمة ونشر هذا السفر كاملا ، أو على الأقـل المجلدات الثلاثة الخاصة بالدولة الحديثة .

ولقد شارك فى تأليف هذه الدراسات كما سبق القول ثمانيـة من علماء الحملة الفرنسية ، وأبرز هؤلاء بالتأكيد الرياضى الشهير العـلامة مونج ، رئيس المجمع العلمى الذى أنشأه بونابرت فى القاهرة . وتوضح الدراسة التى « يشارك » بها هنـا ـ الدراسة الرابعة « دراسةموجزة عن عيـون موسى » ـ اسـلوبه المركز والملىء ، والصـارم فى دقتـه وموضوعيته ، وان كنا نأسف حقا لاننـا لم نجد له فى هذا الاطار الذى اخترناه دراسات اكبر واطول .

واول دراسات هذا المجلد الذى بين يدينـا من وضع أميديه ايمليان جوبير وهو مستشرق فرنسى ، وعضو مجمع العلوم فى فرنسا ، وقـد شارك فى حملة مصر بوظيفة سكرتير اول مترجم للقائد العـام بونابرت، وتولى تدريس اللغة التركية عقب عودته الى فرنسا ، ثم قام ببعض المهام الدبلوماسية فى فارس وتركيا خدمة لنابليون . وقد عين بعد عودة الملكية

الى فرنسا سكرتيرا مترجما عام ١٨١٩ ، وفى عام ١٨٣٠ عين مدرسا للغة الفارسية فى الكوليج دى فرانس ، وله مؤلفات عن رحلاته الى ارمينيا وفارس ، وعن قواعد اللغة التركية . كما ترجم عن العربية جغرافية الادريسى . وله بالاضافة الى ذلك مقالات كثيرة .

اما الدراسة الثانية فهى لأحد شبان مهندسى وضباط الحملة الفرنسية الذين تصمت كثير من المراجع عن ذكرهم للاسف ، جراتيان لوبير وهو الشقيق الأصغر للمهندس لوبير كبير مهندسى الحملة الفرنسية ، الذى اشرف على الدراسات الهندسية الخاصة بقناة السويس . ومن دراساته فى وصف مصر ، يتضح أنه كان من معاونى الجنرال مينو ، وقد أصيب كما ذكر بالطاعون مرتين ونجا من الموت بأعجوبة وتوضح دراساته تشبعه بتخصصه كمهندس اذ يكاد يكون العالم فى نظره أطوالا ومقاييس . وفضلا عن ذلك فان نظرته للامور يشوبها — فى بعض الدراسات — نوع من التعالى والتعصب .

أما الدراسة الثالثة فهى من وضع الجنرال أندريوسى (أنطوان — فرانسوا أندريوسى) ، وهو جنرال (عسكرى) ودبيلوماسى ، وهوالحفيد الأصغر لأندريوسى المهندس والعالم الرياضى ، كان عضوا فى مجمع القاهرة وبعد عودته الى فرنسا عين سفيرا لبلاده فى لندن ثم فيينا ثم استانبول على التوالى . وخلال المائة يوم عاد الى الخدمة تحت قيادة نابليون ، وبعد واترلو شارك فى المفاوضات لانقاذ ما يمكن انقاذه ، وله دراسات هامة أبرزها دراسة عن تناقص مساحة كوكب الأرض .

أما ج. كوتل مؤلف الدراسة الخامسة فهو مهندس ، ولد فى مانس ١٧٤٨ ومات بها عام ١٨٣٥ ، أى أنه جاء مصر وعمره نحو خمسين عاما ، وقد درس منذ طفولته الفيزياء والكهرباء ، وكان رئيس اركان لجنة السلم العام ، وقد ادت معركة ابى قير الى ضياع كثير من المادة التى جمعها عن مصر .

والدراستان السادسة والسابعة من وضع مؤلف واحد هو دى بوا — ايميه ، ومن المعلومات القليلة التى تذكرها المصادر عنه نعرف أنه طالب مهندس ، وانه قدم الى مصر وعمره نحو تسعة عشر عاما . لكننا حين نقرأ دراستيه ، وكذا الأعمال الأخرى التى ساهم بها فى وصف

مصر ، سوف نظن انفسنا بازاء شيخ كبير عركته الأيام وباحت له بمكنونات سرها وتجاربها . وتجمع اعماله الشامخة بحق بين غزارة المعلومات ، وسلاستها ، وبين عذوبة الأسلوب ورقته وشاعريته . وهو لايصدر فقط عن روح متصفة وانما يتجاوز ذلك بكثير فيصدر بحق عن روح انسانية عظيمة ، لاتقف عند حدود الأجناس والحضارات بل تنداح عندها الحدود وتتداخل الحضارات ، ونلمس في كتاباته حبسه العظيم لمصر وانبهاره الشديد بها . ومن عجب اننا لم نسمع به واحدا من كبار ادباء فرنسا وعظمائها ، وقد يعود ذلك لأن عمره العبقرى كان قصيرا ، فقد مات وعمره لما يتجاوز ٣٦ عاما .

واذا كانت تنقصنا المعلومات الوفيرة كذلك عن ب.م. مارتان مؤلف الدراسة الثامنة ، وان كنا نتعرف عليه من خلال دراسته ، ونلحظ انه كان متشبعا الى حد ما بأفكار مينو الاستعمارية بخصوص مصر ، مع اننا نحيى فيه حقا رغبته الجامحة فى معرفة مصر والوقوف حتى على مجموعة احجارها ، فاننا ولاشك نعرف الكثير عن جومار أو ادم — فرانسوا جومار مؤلف الدراسة التاسعة عن عرب مصر الوسطى ، وهو مهندس وجغرافى واركيولوجى. وقد ولد فىفرساى عام١٧٧٧ ومات عام١٨٦٢ — أى انه قدم الى مصر وعمره لما يتجاوز ٢١ عاما ، وعلى الرغم من ذلك جاءت دراساته الكثيرة لتشهد له بالدقة وسعةالأفق واتساع المعارف ،وسلاسة الأسلوب لذلك فقد حل محل مونج عندما غادر الأخير مصر فى صحبة بونابرت . وقد ساهم بجهد كبير فى نشر وصف مصر ، وقد كانت له مكانة كبيرة عند كل من محمد على وسعيد باشا ، وانعم عليه بلقب بك ، ولما اعيد انشاء المجمع العلمى المصرى أسندت اليه رياسته الفخرية عام١٨٦١ ، وكان معدودا من بين كبار علماء الجغرافيا والآثار القديمة فى فرنسا .

ولقد ترددت كثيرا فى اختيار بعض هذه الدراسات كى أدخلها فى هذا الاطار ، وتكاد الدراستان الثانية والثامنة تحظيان بأكبر قدر من هذا التردد ، خاصة واننى قد اعددت مجلدا آخر من هذه الدراسات القصيرة يدور حول « وصف بعض المدن والأقاليم المصرية » ، لكننى فضلت بعد تفكير طويل وضع هاتين الدراستين على الرغم من انتمائهما اكثر الى هذا النسق ، بسبب كبر حجم المجلد الخاص بالمدن من ناحية ، وبسبب وجود

اشارات هامة ومسهبة حول القبائل العربيـــة فى الدراستين ، وكذلك بسبب وجود قائمة بالقبائل العربية فى بنى ســـويف والفيوم ، وهو أمر تتضح جدواه حين تربط هذه الدراسة بالدراسة الأخيرة التى تدور حول العرب فى مصر الوسطى .

ويحتم واجب الأمانة أن اقر بالمصـــاعب التى واجهتنى فى تحقيـــق أسماء القرى والأماكن والقبائل ، بسبب الأخطاء الاملائية ، واخطاء النطق منجهة وتشابه هذه الأسماء نفسها منجهة أخرى، مع غيبة الارشادات التى تستخدمها اللغاتالأجنبية اليوم حين تكتب الأسماءالعربية.وقد اقتضى ذلك منى بذل الكثير من الجهد والوقت والاستعانة بالأصـــدقاء والمراجع وكافة المظان المتيسرة .. ومع ذلك فاننى ارجو المعـــذرة ان كانت قـــد تسربت رغم ذلك كله بعض الأخطـــاء فى هذا الخصوص . وهذا قصور لاشك فيـــه فى حالة حدوثه لايمكن تبريره واننى فى هذا الصـــدد أتقبل بصدر رحب كل توجيه أو حتى تصويب .

كما يدفعنى واجب الأمانة أن اقرر ايضا اننى قد تصرفت فى موطن أو اثنين فى ترجمة عبارتين وجدت من اللائق أن أتصرف فى ترجمتهما . وقد أشرت الى ذلك فى موضعه .

كما أن الأمانة تقتضى كذلك أن أشير الى تلك المساعدات القيمة التى لقيتها فى سخاء وروح علمية عالية من الأساتذة والأصـــدقاء ، اســـتاذنا الدكتور عبد الرحمن زكي والأخوين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن استاذ التاريخ بكلية البنات الاسلامية والأستاذ رينيه خورى .

كما لا يفوتنى أن أوجـــه شـــكرا خاصـــا للاخ الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة الذى افسح لهذا الجهد صـــفحات مطولات من مجلته القيمة ، بشكل يستحق عليه من جانبى كل الشكر ، كما كان لتشجيعه بالـــكتابة عنـــه بقلمه أو باقـــلام آخرين افضـــل الأثر فى نفسى .

وحين اختم ذلك باسداء الشكر الى السيدة زوجتى على ماتقدمه من عون وتشجيع من اجل انجاز هذا العمل فاننى لا افعــل ذلك ليــاقة او مجاملة وانما اقرارا لحق واعترافا بواقع ملموس ومشكور .

كما اقــدم الشكر لــكل من ساهم فى **تشجيعى** على هذا العمل ولو بمجرد التشجيع الشفهى ـــ واقــدم الشــكر سلفــا لــكل من يتطــوع بالنصح والتوجيه .

وكل ما أرجوه أن يكون هــذا الجهــد نافعا لوطنى مصر ولمواطنى المصريين وسيكون هذا ـــ لو تحقق ـــ هو افضل الجزاء .

والله تعــالى هو الموفق ،،،

زهير الشايب

مارس ١٩٧٨

الدراسة الأولى :

جولة فى إقليم المريوطية

جراتيان لوبير

العنوان الأصلى للدراسة هو :

دراسة موجزة عن الجزء الغربى من
ولاية البحيرة والذى كان يعرف قديما باسم
اقليم المريوطية .

حين نتذكر وجود منطقة قديمة لم تتغير طبيعتها (*) .. لكنها مع ذلك لم تعد كما كانت فى الماضى آهلة بالسكان أو مزروعة ، فمعنى ذلك اننا نحاول النظر فى امكانية استجلاب سكان جدد اليها ، وبخاصة عندما لاتكون هذه الأراضى قد فقدت العوامل الطبيعية لخصوبتها . ونحن نقصد هنا بهذا الحديث ذلك الاقليم الذى يقع فى أقصى الغرب من شمال مصر والذى كان يعرف فى زمن الامبراطورية الرومانية باسم اقليم المريوطية ، والذى لا يحمل اسم مريوط الحالى الا مجرد ذكرى باهتة لوجوده . وهذا الاسم — مريوط — قد اطلقه العرب على مدينة قديمة فى هذا الاقليم .

وعلى الرغم من أن هذه المنطقة تقع على مشارف الاسكندرية ،فانها فى أيامنا هذه مهجورة وخالية من السكان حتى اننا لا نكاد نعرف — مجرد معرفة — عدد المدن الخربة الموجودة فيها والتى لا يتردد عليها سوى العربان الرعاة أو الرحل ، الذين يأتون ليقيموا فيها خيامهم فى أوقات معينة من السنة .. وسوف يساهم الوصف السريع الذى نقدمه هنا عن حالة هذه المنطقة فى الماضى وكذلك بعض المعلومات التى نقدمها عن

(*) فى الرابع من جرمينال من العام التاسع بالتقويم الثورى الفرنسى ، الموافق ٤ ابريل ١٨٠١ ، قطع الجيش الانجليزى — التركى جسور ترعة الاسكندرية ، عند الطرف الغربى لبحيرة المعدية ، على بعد ٥ر٧ كيلومترات من باب رشيد ، الواقع الى الشرق من السور القديم لمدينة الاسكندرية ، فتدفقت مياه هذه البحيرة المالحة ، وكذا مياه البحر الذى يتصل بها .. وبعد سبعين يوما أى فى نهاية شهر بريريال (١٥ يونية ١٨٠١) امتلأ الحوض القديم لبحيرة مريوط .

ولكى تتبين فرق الجيش المعسكرة بالاسكندرية حقيقة حالها ،وطبيعة الموقف الذى أصبحت فيه ، قامت **دورية** استطلاع من الجيش لمسح هذه المنطقة ، فكانت هذه الدراسة **(المترجم)**

حالتها الراهنة فى رسم خريطة مصر الجديدة وفى اعطاء افكار دقيقة الى حد ما عن هذا الجزء من أرض مصر (١) .

وقد أطلق الرومان اسم اقليم المريوطية على كل البلاد الواقعة بين بحيرة ماريوتيس « مريوط » والبحر فى الشمال . ويحد هذا الاقليم من جهة الغرب : البحر بلا ماء ، ومن جهة الجنوب وادى اقليم نتريوتيس ، ومن الشرق الترعة التى كانت تحمل مياه النهر الى البحيرة التى اعطت الاقليم اسمها. وكانت بحيرة ماريوتيس تمتد حسبما يقول سترابون حتى مدينة تابوزيريس على الخليج البلنتينى ، وكانت محاطة بالمساكن الفخمة والقرى والمدن وكانت مدينة ماريا عاصمة لهذا الاقليم . وقد عاشت هذه المدينة قبل مجىء تمبيز بوقت طويل فى العام ٢٢٩ من تأسيس روما أى قبل الميلاد بـ ٥٢٥ سنة . ويقول هيرودوت حول هذا الموضوع : « وعندما شعر سكان ماريا بالنفور من الحفلات الدينية التى كانت للمصريين ، أرسلوا يستلهمون الوحى من جوبتير آمون كى يعرفوا ما ان كان ينبغى عليهم أن يخضعوا لهذه القوانين ، لانهم كانوا يظنون انفسهم من شعوب ليبيا لكن الوحى أجاب بان كل البلاد التى يغطيها النيل بمياهه تابعة لمصر ، وان الأقوام الذين يشربون من مياهه انما هم مصريون » . وهذا الأقليم الذى يقع على تخوم الصحراء الليبية هو فى الواقع اقليم مصرى ، وكان على الدوام خاضعا لحكم الأمراء المصريين ، وفضلا عن ذلك ، فهو يدين بكل مبانيه وزراعاته لمياه النيل . وعلى هذا فان اجابة وحى آمون تبدو صحيحة وطبيعية .

وترجع أسماء اهم المدن والقرى فى هذا الاقليم — كما نوردها هنا — الى العالم الجغرافى بطليموس الذى يحدد مواقعها الجغرافية على النحو التالى :

---

(١) مريوط . واسمها القديم ماريوتيس . يقول عنها عبد الرشيد فى معجمه : انها مدينة تقع بالقرب من الاسكندرية ، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ، واشتهر عن سكانها أنهم يعمرون طويلا .

اسم المدينة	خط الطول		خط العرض	
شيموفيسكس	٣٠´	٥٩°	٦´	٣١°
بلنتين	٤٥´	٥٩°	٠	٣١°
جزيرة شرسونيسيس ومدينة بورقس	٠	٦٠°	٦´	٣١°
مونوكامينيم	١٠´	٥٩°	٣٠´	٣٠°
هاليرا	٤٠´	٥٩°	٥٠´	٣٠°
تابوديريس	٥٠´	٥٩°	١٥´	٣٠°
كوبى	١٠´	٥٩°	٢٠´	٣٠°
أنتيفيلى	٣٠´	٥٩°	٢٠´	٣٠°
هيراكس	٤٠´	٥٩°	٤٠´	٣٠°
فوموثيس	٠	٦٠°	٤٠´	٣٠°
بالى ماريا فيسكس	٠	٦٠°	١٠´	٣٠°
ماريا بالوس	١٥´	٦٠°	٥٠´	٣٠°
الإسكندرية وراكوتيس	٣٠´	٦٠°	٠	٣١°
كانوبوس ، مينلاى ، متروبوليس	٤٥´	٦٠°	٦´	٣١°

ويمكن بواسطة هذا الجدول ، أن نستدل بسهولة على الموقع الخاص بأهم الأماكن فى هذا الاقليم القديم ، وان نرسم خريطة له ، ولكنا سرعان ما نلحظ عند تمحيص هذا الجدول ، بعض الأخطاء التى تعود بلا ريب ، الى معطيات خطوط العرض ، اذ كيف نجد جزيرة شرسونيسيس ، التى لا جدال فى أنها هى الموقع الحالى لمريوت (العجمى) ، وهو رأس صغير به حصن ، ويقع على بعد فرسخين صغيرين ، على الشاطىء الذى ينحدر الى الجنوب الغربى من الاسكندرية — كيف يمكن لنا أن نجدها مبينة على ٦´. الى الشمال من خط عرض هذه المدينة .

ويمكننا أن نقول المزيد بخصوص موقع بلنتين ، التى تبين على نفس خط الاسكندرية ، على الرغم من أنها أكثر ابتعادا ، نحو الجنوب الغربى.

ومع ذلك فان من العسير أن نتقبل أن يكون بطليموس — وهو العالم الجغرافى والفلكى الذى ينتمى الى مدرسة الاسكندرية ، والذى كان يقيم بهذه المدينة من عام ١١٧ الى ١٦١ من العصر الحديث — هو الذى يمكن أن يقع فى أخطاء كهذه حول مواقع أماكن شديدة القرب من عاصمة مصر ، كانت تربطها بها علاقات قوية بسبب روابط السياسة والتجارة والدين .. ولعل من الأقرب للصواب أن ننسب هذه الأخطاء الى الناسخين والى مترجمى هذا العالم الجغرافى كما يمكن أن ننسبها كذلك الى شراحه كما يرى جوسلان Gosselin (٢) فى كتابه : الجغرافيا عند الاغريق Géographie des Grecs

ويحدد سترابون مواقع المدن الساحلية لهذا الاقليم بشكل مخالف فيتحدث عن كينوسيما وعن تابوزيريس التى يقول عنها بأنها لاتقع مباشرة على شاطىء البحر وأنه كان يحتفل فيها بأعياد كبرى ، ثم يتحدث عن تابوزيريس أخرى تبعد من الأولى بمسافة كافية ، وكان يجرى فيهما كل عام — فى فصل الربيع — مسابقة للشعب وبخاصة بين الشبان الذين كانوا يساهمون فى الاحتفالات بالنصيب الأكبر . ونفهم من كلام سترابون أنه كانت تحدث هناك كما كان يحدث أيضا فى كانوبى ومنديس Mendis مشاهد **شهوانية** خليعة كان يغطيها الكهنة بأقنعة من اسرارهم (٣) .

---

(٢) يقول جوسلان Gosselin فى كتابه : الجغرافيا عند الاغريق ، الذى شرح فيه ملاحة القدماء ان بوزيدونيوس Posidonius قد اقترح على مدرسة الاسكندرية مقياسا جديدا للدرجة الأرضية ، وينقص هذا المقياس الذى أخذ به ، قيمة الدرجة الى ٥٠٠ غلوة ، فكانت الدرجة تقاس من قبل بـ ٧٠٠ غلوة للمسافات التى تؤخذ باتجاه خطوط العرض ، وفى الاسكندرية تغيرت المسارات القديمة ، لكن بعضها قد نسى بلا جدال : وينسب جوسلان الأخطاء التى تسربت الى جداول بطليموس الى هذا التغيير .

(٣) فى كتابه عن تاريخ المصريين ، لا يتحدث هيرودت عن الأعياد السنوية التى كانوا يحتفلون بها فى منديس Mendis الا فى تكتم غامض عادة كالأسرار المصرية نفسها ، على الرغم من انه قد شارك فى هذه الأعياد وتمثلها ، ومع ذلك ، فاذا كان هذا المؤرخ قد استطاع أن يحتفظ بالسر الذى أقسم على الحفاظ عليه للكهنة المصريين ، وبخاصة فيما يتصل بديانتهم ، فان بطاركة الاسكندرية ، وآباء الكنيسة الأول ، لم يتحرجوا من أن يكشفوا عن خسة وبذاءة هذه الأعياد فى كتاباتهم ، ويمكن الرجوع فى هذا الصدد الى لارشيه Larchet ، الترجمة الفرنسية لهيرودت ، الكتاب الثانى ، ص ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، باريس ، ١٨٠٢ ، (الملاحظات أرقام ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢) .

وبعد هاتين المدينتين اللتين تحملان اســم تابوزيريس تأتى مدن : بلنتين ، نيسيبى ، باجوس ، شرسونيسيس ، والأخيرة عبارة عن رأس صغيرة بها حصن وحامية ، ولم تكن تبعد عن الاسكندرية الا بــ ٧٠ غلوة « الغلوة الاغريقية = ٧٦ر٥٠ قامة وتساوى الغلوة الأولمبية ٩٥ قامة ».

وكانت هذه المنطقة تشتهر بجودة نبيذها ـ وكان من خاصـيته انه يعيش لوقت طويل ـ وكانت الاسكندرية تصدر منه كميات كبيرة الى روما والى بلدان اجنبية أخرى . كما كانت هذه المنطقــة ايضا تمتلىء بأشجار الزيتون وان كان نوعه هنــاك أقل جودة من نوع الزيتــون الذى كان يزرع باقليم أرسينويت Arsinoïte حيث يعطى الزيتون هنــاك كميــات وفيرة من الزيت .

وكان يسكن الجزء الأكبر من هذا الاقليم فى القرون الأولى للمسيحية، فى عصر أباطرة القسطنطينية ، المسيحيون الذين كانوا يفرون هربا من اضطهاد وملاحقــة الأريوسيين والدوناتيين وأتبــاع المــذاهب الأخــرى ليجدوا ملاذا فى صحراوات مصر الغربية وفى الصــعيد . وكان وادى مريوط مزدحمــا بالسكان ، وبلغ عدد الأديرة التى بنيت هنــاك حــدا دعا الامبراطور فالون Valens فى القرن الرابع أن يكلف الكونت دوريان d'Orient حاكم الاسكندرية أن يجرد حملة على الرهبان الذين يجــدهم هناك قادرين على حمل الســلاح (٤) .

---

(٤) يقول فلورى Fleury فى كتابه ، موجز التــاريخ الــكنسى Abrégé de l'Histoire écclésiastique ان الامبراطور فالون valens قــد أمر عام ٣٧٦ بأن يجند الرهبان وأن يرغمــوا على حمل الســلاح كجنود . وعلى الرغم من أنه قد ينظر الى هذا الأمر على انه صــادر عن حاكم يضطهد الــكنيسة ، الا انه يمكن القول بأن هذه الألوف الهائلة من الرهبان قد جعلت مثل هذا الأمر ضروريا ، فلقد بلغ عدد الأديرة فى مصر العليا وحدها خمسة آلاف دير وكانت مدينة أوكسيرينشيس oxcyrynchus الواقعة فى الصعيد الأدنى تضم عشرة آلاف راهب وعشرين الف راهبــة كما كان دير التبين Tabenne الذى أنشاه القديس باخوم فى الصعيد الأعلى يضم خمسة عشر الف راهب ، أما الدير الذى أنشأته أخته والذى يقع فى مواجهة ديره فكان يضم أربعمــائة فتــاة ، وكان عــدد الذين يحضرون الاجتماعات العــامة السنوية التى تعقد تحت رياسته يصل الى خمسين

=

وقــد بلغ عدد الذين جندوا قسرا فى اقليم الجنوب حوالى خمسة آلاف رحلوا جميعا الى القسطنطينية ، حيث الحقوا بجيش الامبراطور . اما الاديرة التى نجدها حتى اليوم فى وادى بحيرات النطرون وفى المناطق الأخرى من مصر ، فليست سوى بقايا هذه الألوف من الأديرة التى كانت تغص بها فيما مضى هذه الصحراوات ، كما أن الخرائب التى عثر عليها الفرنسيون فى كل مكان فى جولاتهم الاستكشافية العسكرية التى قاموا بها فى هذا الجزء الغربى من مصر ، تشهد بصحة مايقول به التاريخ عن ازدحام هذه المنطقة المهجورة اليوم بالسكان فى الزمن القديم . وسنقدم هنا بعض التفاصيل باعتبارها ذات نفع .

قام اللواء ديستان Destaing قائد منطقة الرحمانية بعد عودة الجيش من الحملة على سوريا ببعض حملات ضد العربان فى شهر ترميدور من

=

الف راهب . وكان عدد الرهبان المقيمين فى الأديرة الـكبيرة وحدها فى مصر يبلغ ٧٦ الف راهب ، أما عدد الراهبات فقـد بلغ حوالى العشرين الفا . ولا يتضمن هذا الرقم اعداد الرهبان والراهبات فى الأديرة الصغيرة التى لا يحصيها عد ، وكان يخضع لسلطة الأب سيرابيون Sérapion بالقرب من أرسينويه Arsinoé عشرة آلاف راهب .

ويمكن أن نرجع سبب هذا الحماس لحيـاة الأديرة فى ذلك الوقت الى تفشى روح الحزبيـة التى مزقت الـكنيسة فى القـرون الأولى من انشائها ، أكثر مما يمكن أن نرجعه الى الاضطهادات التى تعرضت لهـا الـكنيسة : فقد كانت الاسكندرية مسرحا داميـا لانشـقاقات الدوناتيين والآريوسيين ، ذلك ان المسيحية التى انتشرت بعـد المسيح فى صمـت وسلام ، بدأت فى عهد قنسـطنطين (حوالى عام ٣٣٠م) تنتشر بالاغراء والارهاب وقوة السلاح ، وهنـا بدأ الصـليب يخضب الأرض بالدماء ، وتسبب آريوس ، الليبى المولد وزعيم الطائفة التى تحمل اسمه ، واثناس بطريرك الاسكندرية ، بانقسامهما ، فى قيـام حروب اهلية عديدة فى هذه المدينة ، وقد استطاع آريوس ، الذى ادانه مجمع نيس عام ٣٢٥ ، والذى اعاده قسطنطين من المنفى ، أن يضم الى حزبه أكثر من ٧٠٠ فتـاة من الاسكندرية ومريوط .

انظر :

L'Histoire des Bas - Fmpires, t. ler, liv IV et t. III liv. XVIII p. 262.

وكذلك :

L'Histoire de la décadence de l'Empire Romain, t. VI. p. 68.

العام السابع « اغسطس سنة ١٧٩٩ » فاخترق اقليم البحيرة الى منطقة مريوط وقال انه قد شاهد هناك عددا كبيرا من المدن والمساكن المتهدمة .

وفى شهر نيفوز من العام التاسع (يناير ١٨٠١) قام فريان Friant قائد حامية الاسكندرية بحملة ضد بعض قبائل العربان ، واندفع بجنوده حتى برج العرب ، الذى يقع على مسيرة تسع ساعات على الشاطىء الجنوبى الغربى من الاسكندرية . وكانت هذه أول مرة منذ الاحتلال الفرنسى لمصر تكتشف فيها هذه البقعة من الساحل المصرى . وقد أبدى هذا القائد فى تقريره العام عن الحملة ، أسفه لأنه لم يصحب معه بعض الأشخاص من العارفين بالآثار القديمة .

وقد قام كبير مهندسى الحملة ، لوبير Lepère — وهو اخى الأكبر — يصحبه السادة فاى Faye وشابرول Chabrol ولانكريه Lancret وهم من مهندسى الطرق والكبارى ، قام كل هؤلاء بجولة فى اقليمى رشيد والبحيرة ، كان القصد من ورائها استكشاف ترعة الاسكندرية ، التى تبدأ من الرحمانية ، حاملة مياه النيل الى المدينة ، ومن هناك رحل هؤلاء المهندسون فى الرابع من بليفوز من العام التاسع (٢٤ يناير ١٨٠١) لمشاهدة الآثار الموجودة عند برج العرب . وقد سجلت نتائج هذه الجولة الاستطلاعية تحت رقم ١٠٧ من بريد مصر Courrier de l'Egypte ومنذ نزول الانجليز فى ابى قير ، قام قائد الحامية من سلاح الهجانة ببعض الحملات فى هذا الجزء ، وقد اخبرنى بأنه قد مر هناك بأطلال هامة (٥) وقد تمثلت جيدا كل هذه المعلومات ، وانتهزت فرصة آخر حملة استطلاع كلف بها هذا الضابط من قبل الجنرال مينو ، لكى اتأكد من حجم المساحة التى تغرقها بحيرة ماريوتيس (مريوط) وان كانت كل المنطقة قد غرقت بأكملها فى نهاية شهر بريريال من العام التاسع (يونية ١٨٠١) . وهذا ما سأتحدث عنه بافاضة فى مقالى عن البحيرات فى مصر . وقد كان

---

(٥) نقرأ فى رحلات جرانجيه Les Voyages de Granger (ص ٢٢٢) انه يوجد على بعد ستة فراسخ الى الغرب من برج العرب ، برج آخر قد تحول الى انقاض ، وقد لاحظ هذا الرحالة (فى عام ١٧٣٠ — ١٧٣١) وجود كتابات عربية على جدرانه .

القصد من وراء هذا الاغراق الذى تم ، حصار الفرنسيين فى الاسكندرية، وذلك بقطع اتصالهم بفرقة الجيش الموجودة بالقاهرة .

رحلنا من الاسكندرية فى السادس عشر من فلوريال من العام التاسع (٦ مايو ١٨٠١) ، مع قائد الحامية المسيو كافالييه Cavalier على راس اربعين رجلا من الهجانة ، وكان معنا احد ضباط البحرية هو المسيو جار Gard الذى تلقى تعليمات بأخذ مجسات فى نقاط متفرقة من البحيرة ، وبعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف الساعة ، وصلنا الى اول جزيرتين فى وادى مريوط . كانت المياه بالفعل قد تجاوزتهما بكثير ، وكانتا فى ذلك الوقت قد خصصتا للدفاع عن هذا الجزء المحصور من البحيرة والذى يشكل الراس الشمالية لهذا الوادى . عبرنا الى هاتين الجزيزتين فى قارب من تلك القوارب التى كانت تتبعنا ، فى الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم ، ووجدنا اكبر عمق لمياه البحيرة الذى يبلغ ٥٠٠ الى ٦٠٠ قامة يبلغ عند هذه النقطة ٤٠ بوصة ، وبعد أن نصبنا خيامنا بالجزيرة واصلنا فى اليوم التالى ابحارنا داخل البحيرة التى وصلنا اليها فى الوقت الذى كانت قد وصلت اليها فيه مياه الاغراق . وتوغلنا لمسافة فرسخين الى غرب الجنوب الغربى ، تتبعنا فرقة الحرس التى كانت تسير بحذاء الشاطىء الغربى للجزيرة . وعلى هذا البعد ، وكنا فى حوالى الساعة الثامنة من صباح السابع عشر من فلوريال ، وجدنا أن عمق المياه لم يعد يتجاوز أكثر من ٧ الى ٨ بوصات . وعندما فشلت قواربنا فى التقدم لأبعد من ذلك ، غادرناها لكى نكمل مهمتنا الاستطلاعية سيرا على الاقدام . وبعد ذلك بحوالى نصف فرسخ انتهى المدى الذى وصلت اليه مياه الاغراق . وكانت هذه المياه تواصل حركتها حثيثا . وفى نفس الوقت واصلنا صعود الوادى حتى نتعرف على زاوية اتجاهها وحتى نمنح أنفسنا الوقت الكافى لملاحظة المدى والحد اللذين سيبلغهما الغرق فى الأيام التالية .

وبعد قليل وصلنا الى ضريح ، كانت المياه ماتزال على مسيرة ثلاثة أرباع الساعة منه ، ويطلق على هذا الضريح اسم القبة الكبيرة ، وهو حسب العادة عبارة عن مقبرة لبعض شيوخ العربان ، وهؤلاء ينظرون اليها بتقديس كبير ، وهى تقع على بعد حوالى مائتى خطوة من شواطىء

البحيرة فى شعب صغير لأحد التلال وتحيط بهـا اشـجار النخيل التى تحميها من رياح البحر مرتفعات هذا التل نفسه والذى يمتد بطول شاطىء البحيرة . وبعد أن عبرنا مرتفعات هـذا التل فى الشمال هبطنا الى واد صغير مواز للبحيرة وللشاطىء ، ويمتد بطول البحر ابتـداء من الضريح ولمسافة ١٠ ـ١٢ فرسخا الى الجنوب الغربى ، ويجد المرء هنا وهناك بعض جذوع النخيل وآثار خضرة واشارات لم تستغلق علينـا تدل على وجود مياه عذبة تحت رمال الصحراء . وتغلق هذا الوادى الصغير من جهة الجنوب سلسلة متصلة من المرتفعات التى تحدثنا عنها والتى تشرف على بحيرة مريوط ، أما من جهة البحر « الشمال » فتحده سلسلةصغيرة من المرتفعات الصخرية التى تحاذى الساحل بأكمله ، وهى مغطاة برمل ابيض يكونه البحر ويلقى به بلا انقطاع على شواطئه ، فتبعثره الرياح او تجمعه فى شكل كثبان صغيرة متحركة . وهناك ، توجد مياه حلوة ، ولو انها تميل للملوحة بعض الشيء وذلك فيحفرات ضحلة حفرها العربان لسقاية ماشيتهم . تتبعنا هذا الوادى من القبة الـكبيرة حتى برجالعرب حيث وصلنا الى هناك بعد مسيرة ثلاث ساعات .

وبرج العرب ، عمود له قاعدة مربعة تحمل جذعا مثمن الزوايا تعلوه كتلة دائرية ضخمة على غرار عمود مبتور لم يعد يتناسب ارتفـاعه مع الارتفاع الذى يفترض له منطول قطره.وهذا المبنى القائم علىالشاطىء، لايبدو فى الواقع الا كعمود هائل معكوس بشكل جزئى . وفى الخارج ، على أحد وجوه الجزء المثمن منه ، وهو الوجه المقابل للبحر ، نجد عدة درجات لسلم لابد انه ينتهى الى بداية البرج على عمق حوالى عشرةأمتار تحت سطح الأرض ، وهذا المبنى الذى قام بفحصه مهندسونا فحصاجيدا، جيد البنـاء ولابد أنه كان يستخدم كنقطة مراقبة بحرية شأنه شأن كل الأبراج الأخرى التى تقع بالمثل على الشواطىء قليلة الارتفـاع فى مصر وفى هذا الجزء من صحراواتها الغربية .

وقبل أن انتقل الى موضوع آخر ، ينبغى أن اتحدث عن شيء لم القِ عليه سوى نظرة عابرة ، حيث كنت على الدوام متخلفا عن رجالنا لكثرة ما كنت اتوقف لتفحص الأنقـاض والمواقع ، أريد أن اتحـدث عن ربوة مرتفعـة بعض الشيء نلاحظها على نفس السلسلة التى تفصل البحيرة

عن البحر ، تخلف هذه الربوة الواقعة على بعد ١٠٠٠ ـــ ١٢٠٠ متر من برج العرب عند الاتجاه نحو الاسكندرية تلمح أنواعا من النواطير وأجزاء مبنية من الحجارة واخيرا واجهات مربعة الزوايا ومائلة لتعطى فى مجملها شكلا هرميا . وفى أسفل هذه الربوة ، يوجد قاع به أنقاض خزان جميل للمياه كما توجد منشآت اخرى . وأسم كوم أبوصير (٦) الذى يطلقه العرب على هذا المكان انما هو مشتق من اسمه القديم ، تابوزيريس ، وهي المدينة التى يحدد مكانها كل من سترابون وبطليموس ـــ وقد سبق أن ذكرنا ذلك فيما سبق عن هذا الموقع ، وان كان موقعها هذا يتفق فى الواقع مع تابوزيريس أخرى كانت كما سبق أن حدد العالم الجغرافى اليونانى تقع على بعد مسافة من مدينة تحمل هذا الاسم (٧)، والتى نظن أن موضعها كان فى نفس موقع برج العرب كما سنوضح فيما بعد .

وبمواصلة السير بحذاء الساحل الى الجنوب الغربى يجد المرء على بعد ٤٠٠ متر من البرج ، اطلال مبنى واسع مربع الشكل تحيط به جدران يبلغ ارتفاعها من ١٢ ـــ ١٥ مترا ويبلغ طول واجهاته حوالى ٢٤ مترا . ويتجه مدخل هذا المبنى باتجاه الاسكندرية . وتعلو هذا المدخل قبتان ويضم المبنى فى داخله حجرات بها بعض النوافذ الصغيرة والعالية مما لا يسمح الا بدخول قدر كاف من الضوء وهذا يعنى بوضوح انها خلوات سرية والحجرات متينة البناء كما انها سهلة ومريحة ، وجدرانها مبنية من الحجارة ولها مظهر جذاب . ويبدو للوهلة الأولى أن هذا المبنى ينتمى

---

(٦) فى رأينا ، أن اسم « أبو صير » يحتفظ بكل معنى الاسم القديم الذى كان يعنى عند الاغريق ، كما لاحظ ديودور ، مقبرة أوزيريس، وبوزيريس التى يلفظها العرب بوصير هى الاسم الذى كان المصريون يطلقونه على الأماكن التى توجد بها مقبرة لأوزيريس . وتوجد كذلك قرية تحمل هذا الاسم غرب أطلال ممفيس عند سفح الجبال التى اقيمت عندها أهرام سقارة . ويقول المترجم الحاذق لهيرودت المسيولارشيه Larchet فى شروحه ، ان بو باللغة المصرية تعنى مقبرة . ويضيف هذا المترجم العلامة أن بلو تارك يخبرنا انه نقل عن أودوكس Eudoxe انه على الرغم من وجود مقابر عديدة لأوزيريس فان جسمه كان مدفونا فى بوزيريس .

(٧) انظر الوصف الخاص بمدينة تابوزيريس القديمة والذى قدمه سان جنيس Saint Genis ـــ وصف آثار العصور القديمة ، وصف مصر .

الى العمارة المصرية . لكنه فى واقع الأمر ليس سوى تقليد لها ، وهو مبنى جميل . وتدل انقاض اعمدته المضلعة وقمته ذات النمط القوطى التى نجدها فى أطلال السور ، على أن هذا المبنى يعود تاريخه ، مثل برج العرب ، الى العصر الرومانى ، وفى نفس الوقت ، فاننا نستطيع واثقين أن ننسب بناءه الى جوستنيان الذى عمل فى حوالى منتصف القرن السادس عشر ـ كما يذكر بروكوب Procobe ـ على بناء عدد كبير من المنشآت فى تابوزيريس ، الواقعة ـ كما يقول هذا المؤرخ ـ على الشاطىء الأفريقى ، على مسيرة يوم من الاسكندرية ، والتى كانت تضم كما يذكر مقبرة لأوزيريس ، وليس ثمة شك ، فى أن هذا هو المكان الذى حدد فيه هيرودت ، النقطة الغربية لقاعدة الدلتا ، والذى كانت تقام فيه الأعياد على شرف أوزيريس ، وهى الأعياد التى كانت تجذب كل عام ، أعدادا هائلة من الناس ، وبخاصة الشباب كما ذكرنا ، وكما يذكر سترابون .

وتقدر المسافة بين الاسكندرية وتابوزيريس الواقعة على الخليج البلنتينى حسب جدول تيودستيوس بـ ٢٥ الف خطوة فى مقابل ٧٥٦ قامة (١٤٧٣ مترا و ٤٧ سم) بالميل الرومانى ، أى ما يساوى ١٨ر٩٠٠ قامة (٣٦ر٨٣٦ مترا) ، لكن يبدو أن هذه المسافة ، هى تلك التى تقع بين الاسكندرية وتابوزيريس التى كانت توجد كما سبق القول ، عند كوم ابى صير ، والتى عثرنا على خرائبها على بعد ١ر٠٠٠ الى ١ر٢٠٠ متر ، الى الشمال الشرقى نحو الاسكندرية ، ونحن نقدر المسافة بين أطلال تابوزيريس ، التى تقع على الخليج البلنتينى (ويسمى حاليا خليج العرب) بمسيرة تسع ساعات ونصف الساعة ، أى أنها ، اذا ماقدرنا مسيرة القوافل بـ ٤ر٠٠٠ متر فى الساعة الواحدة ، حسب ملاحظاتنا فى مصر ، تساوى ٣٨ر٠٠٠ متر .

وفيما بين برج العرب ، والمبنى الذى انتهينا من الحديث عنه ، ترتفع سلسلة من الجبال تخترقها محاجر ادى استغلالها الى انشاء المبانى والمدن التى ذكرناها ، وقد حفرت بعض هذه المحاجر واقتطعت على شكل مغارات . ويمكن ان يبلغ عرض الساحل فى هذه النقطة ابتداء من حافة البحر حتى حافة وادى مريوط والذى يبدو كما لو كان حوضا للبحيرة ، من ١٠٠٠ الى ١٢٠٠ متر ، ويلاحظ فى حوض هذا الوادى

نتوءات أو سدود صغيرة تعترضه وهى التى عملت على تسهيل الاتصال بين الساحل وبين كل البــلاد فى الجنوب . وتخترق هذه النتوءات بعض الجسور الصغيرة المخصصة لتصريف مياه المطر فى الشتاء . وتتوقف المياه المتسربة من بحيرة مريوط على بعد حوالى الألف متر الى الشمال الشرقى حسبتقرير المسيو لوجنتى ، ذلكالضابط المهندس الذى قام بالاستطلاعات الأخــيرة فى هــذه المنطقــة . وفى نفس الــوقت ينبغى أن يكون من المؤكد ـــ بحسب حالة هذه الأماكن ـــ أن مياه البحيرة قد تتجــاوز كثيرا هذه السدود فى الجنوب الغربى حيث كان النيل فيما مضى يصب مياهــه فى هذه البحيرة مما أدى الى اتساع مساحتها الى حــد كبير كمــا لاحظ سترابون .

وعلى بعد بضــعة ميريامترات « الميريامتر = ٠٠٠ر١٠ متر » يظل يحتفظ الشاطىء الذى يتبع على الدوام اتجاه غرب جنوب الغرب بنفس طبيعته ، وبنفس تكوينه من الحجر الجيرى والرملى الشديد البياض .

أما عن الوادى الثانى الذى سبق أن تحدثنا عنه والذى تمضى زاوية اتجاهه موازية للشاطىء ولوادى مريوط الــكبير فانه يصبح ابتــداء من برج العربجزءا سهليا محصورا ينتظم اتساعه علىنحو كبير بين ٥٠ر٢٠٠ متر حتى ليبدو وكأنه ترعة حفرتها يد الانســـان . وتنمو الخضرة هنــاك بوفرة متمثلة فى شجيرات ونبــاتات بحرية . وقــد سرنا فى هذا الوادى لمدة ثلاث ساعات متصلة ، وعند بلوغنا القمة التى يقود اليها الطريق لم أر سوى امتداد لنفس هذا المنظر . وعندما عملت على حفر حفرة فىهذا الجزء من الشاطىء استخرجت رمال كبيرة الحجم وشــديدة الرطوبة ، وعلى عمق قــدم واحدة فقط ظهرت مياه ملحية الطعم مما يؤكد أن الأرض فى هــذا الوادى الصغير أدنى من مستوى سطح البحر . وقــد نصبنا خيامنا فى هذا المــكان الذى شكل بالنسبة لنــا ملجأ أمينا يسهل الدفاع عنه اذا ماحدثت اية مفاجأة لنا من جانب العربان

وفى اليوم التالى ، الثامن عشر من فلوريال . عبرنا الى جنــوب وادى مريوط الــكبير . الذى يبلغ اتساعه مابين ٠٠٠ر١ و ٢٠٠ر١ متر ، ووجدت نفس الشكل الذى سبق أن وجدته عند برج العرب ، شكلالسهل الواحد ، المــكون من رمال كبيرة الحجم ، وان كانت أقل طينية ، وتغطيه

بعض النباتات ، ومن اعلى سلسلة المرتفعات التى تحد هذا الوادى الكبير ، والتى تمتد بطوله من الجنوب الغربى وحتى الشمال الشرقى ، لمحنا رأسا يبدو انها تشكل نهاية للخليج البلنتينى القديم ، من جهة الغرب ، فى الوقت الذى تشكل فيه نهايته من جهة الشمال الشرقى رأس شرسونيوس والتى تسمى اليوم بالضريح أو الشيخ . ومن هذه النقطة ، لمحت كذلك سلسلة اخرى من الجبال تتجه نحو الجنوب الغربى لتنتهى بنفس هذه الراس . وينبغى أن نستنتج ان هذه السلسلة ، تنتمى الى السلسلتين من الجبال ، اللتين تشكلان حوض البحر بلا ماء .

لم يشأ قائد الحملة ، المسيو كافالييه ، الذى كان يشاركنى نفس اهتماماتى أن ينهى استطلاعاتى التى كانت قد تجاوزت الغرض من استطلاعاته هو ، وأن كان قد رفض أن نمضى لأبعد من ذلك بمثل هذه الحراسة الضعيفة وفى هذه المنطقة من الصحراء التى يتجول فيها عديد من قبائل العربان . نزلنا الى السهل وسرعان ماصعدنا الى الشمال الشرقى محاذين سلسلة جبال مريوط . وقد دلتنا الخضرة الوفيرة والآثار التى خلفتها الماشية أننا فى منطقة يتردد عليها العربان الرحل . واستولى رجالنا على ٦٠ من العجول والأبقار والخراف التى تمر حراسها ، وقد شاهدنا بعض العربان يهربون عدوا نحو أماكن غير مكشوفة تشكل لهم ولا شك خطوط الرجعة اذ اننا حين تتبعناهم وجدناهم اختفوا فجأة .

وبعد قليل ، وجدنا أطلال مدينة صغيرة ، وبين الانقاض والأحجار وجدنا بعض خزانات المياه والكثير من الآبار المبنية المعتنى بها ، وثمة جداول مرصوفة تتجمع فيها مياه الأمطار وتحملها بفعل انحناءات محسوسة فى نفس الاتجاهات المؤدية نحو هذه الآبار . وبعد أن استرحنا بعض الشيء فى هذا المكان تذوقنا مياهه فوجدناها طيبة فملأنا منها قربنا . وقد مرت الماشية التى استولينا عليها من العربان بهذا المكان دون أن تشرب ، ومن هنا نفهم بالطبع أن المياه لاتنقصها .

وبعد مسيرة نصف الساعة الى الشمال الشرقى ، وعلى مسافة ٨٠٠ — ٩٠٠ خطوة من سطح سلسلة الجبال التى سرنا بحذائها وعن شمالها وجدنا ، بقايا مدينة أخرى صغيرة ، لابد أن مبانيها كانت على قدر من الفخامة ، وشاهدنا هناك أطلال منشآت جميلة من الحجر ومن الطوب

الأحمر وأبراجا وأرصفة تحتيه وخزانات مياه .. وبمواصلة سيرنا فى نفس الاتجاه وجدنا بعد ثلاثة ارباع الساعة خرائب هائلة لمدينة ثالثةحيث تناثرت على مساحة واسعة اكوام من الحجارة الضخمة والمكدسة بشكل مضطرب ينتج عن حال مدينة قلبت رأسا على عقب وأخيرا وعلى بعد مسافة مشابهة وخلال سيرنا الى الامام ، عثرنا على خرائب جديدة لمدينة رابعة . وينبغى ان نلاحظ أن المسافات التى حسبناها ، هنا بالزمن ، انما قد حسبت بحساب السير السريع للجمال .

ونظن أن بامكاننا ان ننسب الى خرائب المدن الأربع ، الكبيرة منها والصغيرة ، والواقعة فى اتساع يقل عن أربعة فراسخ أسماء المدن والقرى المبنية بجدول بطليموس بحسب الموقع الخاص بكل منها وهى كما يلى بادئين بأكثرها بعداً : كوبى ، انتيفيلى ، هيراكس ، فوموثيس .

وكل هذا الجزء من الصحراء تكسوه الخضرة والأشجار . ويبدو أن تربتها القابلة للزراعة تحتوى على رمل أقل وطين صالح للزراعة اكثر مما تحتوى سهول البحيرة . وعند صعودنا الى الشمال عبرنا من جديدسلسلة الجبال التى تشرف على جنوب منطقة مريوط ، وعند قمتها لمحنا على بعد حوالى الفرسخ الى الجنوب الغربى برج العرب . ويكفى هذا لتحديد الموقع الجغرافى بدقة كاملة لخرائب المدن والقرى الأربع التى تحدثنا عنها عند اتجاهنا من جديد نحو الجنوب الغربى .

كان المسيو كافالييه قائد الحملة يجد فى البحث عن خرائب اكثر اثارة سبق له أن زارها ويريد أن يرينى اياها ، وتوجد هذه الخرائب على الشاطىء الجنوبى لبحيرة ماريوتيس « مريوط ». تجاه ضريح ابى الخير الواقع على حافة الشاطىء المقابل والذى سبق ان زرناه منذ يومين ، وهى عبارة عن انقاض سور مزدوج لمدينة حصينة يبلغ ارتفاعه مترا أو مترين فقط وتعلوه أبراج ، وينتهى فى شماله الشرقى برصيف متقدمداخل البحيرة. ولا يمكن أن يتطرق الينا الشك للحظة واحدة فى ان هذهالخرائب الهامة والتى تقع على بعد حوالى ٣٠ الفا من الأمتار الى جنوب الجنوب الغربى للاسكندرية ، ليست سوى أطلال مدينة ماريا ، العاصمة القديمة لاقليم المريوطية .

وقبل ان أمضى لأبعد من ذلك ، سأتحدث عن مبنى هام يقع بأكمله تقريبا وسط حوض البحيرة على مسافة ١٢٠٠ — ١٥٠٠ متر الى الجنوب الغربى من مدينة ماريا ، ومع ذلك فليس بمقدورى أن أقدم عنه الا مقاييس جزافية اذ كان على — وقد أصبحت وحيداً بعد أن قمت بزيارة بعض الجزر والخرائب الأخرى بالبحيرة — أن أسرع للحاق بالفرقة التى اصبحت بعيدا عنها والتى كانت فى هذه اللحظة قد وصلت الى ماريا ؛ لهذا لم أستطع أن اتوقف طويلا عند هذا المبنى الهام على الرغم من أننى جئته دون قصد منى ، ذلك ان القارب الذى كنت أركبه قد ساقنى فجأة بينما هو يصارع سهل البحيرة الرطب وانزلق الى هذا المكان .

وهذا المبنى عبارة عن سور مستطيل الشكل يبدو ان طول واجهتيه الكبيرتين يبلغ ٥٠ — ٦٠ مترا بينما يبلغ عرض الواجهتين الصغيرتين من ٢٠ الى ٢٥ مترا . وجدرانه مبنية بحذق شديد وعلى هيئة مرافىء ماريا التى لم اكن بعد قد زرتها والتى توجهت اليها للحاق بالمسيو كافالبيه الذى كان ينتظرنى هنـاك . ويبلغ سمك هذه الجدران من ٣ — ٤ أمتار ويبلغ ارتفاعها نفس الطول عند قياسه من فوق التربة الخارجية باعتبارها فراغا خاليـا . وكان الموقع المنعزل لهذا المبنى الواقع فى الحوض الجافلبحيرة مريوط والذى لم تكن مياه الاغراق تبعد عنه فى ذلك اليوم باكثر من ٤٠٠ الى ٥٠٠ متر ، وكانت الفتحة الوحيدة التى لمحتها فيه توجد نحو البحيرة من عرضها .. كان كل هذا يجعلنى اظن بأن هذا المبنى لايمكن أن ينشأ فى هذا الجزء الذى يمكن لمياه البحيرة أن تغرقه الا لكى يستخدم فى بناء او ترميم او قلفطة سفن شراعية حربيـة وبوارج وانه كان من الممكن أن يفتح أو يغلق حسب الحاجة لملئه بالماء أو لتجفيفه هو والمبانى التىداخله منها . ومن الصعب أن نستنتج غاية اخرى للافادة من مثل هـذا المبنى الذى تبدو ترساناتنا لبنـاء السفن فى طولون ، وروشفل ، وبريست فى فرنسا ، وفى بعض الموانى الـكبرى فى أوربا ، مجرد محاولة للاقتراب من عظمته .

وبعد أن زرنا موقع ماريا عبرنا البحيرة متجهين الى الشمال الغربى نحو ضريح أبى الخير الواقع فى الجهة المقابلة كما سبق أن قلنا ، وقـد عبرناها بواسطة طريق صغير مرصوف ، تم بنـاؤه فى هذه الجهة كما

تم بنـــاء غيره فى نقاط أخرى على يد العربان حتى يحصـــلوا على طرق ميسورة لكى يقوموا بجولاتهم عبر سهول هذه البحيرة القديمة ، الطينية والرطبـــة .

كانت مياه الاغراق قد وصلت بالفعل الى علو يبلغ ١٠ ـــ ١٢ بوصة على الأكثر وذلك عنـــد النقطة الأولى من هـــذا الطريق الذى يبلغ طوله ـــ وهو قليل التعاريج ـــ حوالى ١٤٢٠ خطوة من شاطىء لآخر من شواطىء البحيرة أى ما يبلغ ٥٨٠ قامة اذا ما حسبنا خطوة كل من الجنديين اللذين ارسلتهما الى هناك لاجراء هذا القياس باعتبار قدمين ونصف القدم للخطوة الواحدة وكانت مياه البحر تتقدم حثيثا نحو برج العـــرب الى الجنـــوب العربى . ويمكننا تصور أن هذه المنطقة يمكن أن تصبح نقطة الاتصال بين الأسكندرية وفرقة الجيش التى لاتزال تحتل الرحمانية وبالتالى مع بقيـــة الجيش فى القاهرة . تلك كانت نقطة هامة وثمينة قد حصلنا عليها ويمكننا تقديمها الى القائد فى الاسكندرية ، فلقـــد كانت هـــذه هى الهـــدف من استطلاعنا .

ولذا ، فلكى نتأكد من الارتفاع المحتمل للمياه فى هذه المنطقة ، فى حالة الاغراق الكامل للبحيرة ، فقد قمت بعمل تفدين (أى تعيين الارتفاع النسبى لمختلف أجزاء الأرض) ابتداء من البحـــيرة وحتى البحر ، مرورا بالضريح ، وكذلك فوق جزء منخفض من الجبل الذى يفصل بينهما ، وأرسلنا لهذا الغرض من يقوم بقياس منسوب المياه فى الجزر الأولى التى تحدثنا عنها ، والتى كنا نقوم عندئذ بتقويتها . وفى اليوم التالى ، قمت بعمل هذا التفدين أولا من البحر الى البحيرة ، لكى احصل على تقدير مؤكد . واليكم ما حصلت عليه من نتائج :

فى التاسع عشر من فلوريال من العام التاسع (٩ مايو ١٨٠١) ، كانت مياه البحيرة تنخفض عن مستوى مياه البحر بـــ ١٠ لنية ، ٦ بوصة ، ٣ قدم ، ومن جهة اخرى ، بلغ ارتفاع المياه فى الجزء الأكثر انخفاضا من الطريق المرصوف الذى يعبر البحيرة ، فى نفس اليوم ٨ بوصة ، ١ قدم ، ويؤكد هذان التقديران ، أن عمق المياه فى هذا الجزء من البحيرة ينبغى أن يصل الى ١٠ لنية ، ٢ بوصة ، ٤ قدم ، بل ويمكننا ان نصـــل بهـــذا

العمق الى خمسة اقدام ، بسبب اندفاع المياه نحو هذا الطرف من البحيرة، وبسبب اختلاف المتوسطات فى مياه البحر الواطئة (٨) .

وتبلغ مسافة الأرض المحفورة من الشطآن ، من البحيرة الى البحر حوالى ٣٥٢٠ خطوة أو ١٥٦٧ قامة حسب تقديرنا السابق للخطوة ، لكن هذه المسافة تشتمل على ارتفاع وانخفاض الجبل وهو الأمر الذى يستوجب منا أن نزيد هذا التقدير بحوالى العشر . وقد جعلنا هذا التقدير نتوصل الى أن النقطة الأكثر ارتفاعا من سلسلة الجبال التى تشرف على البحيرة والبحر كما قلنا تصل الى ٦٠ قدما فوق مستوى سطح البحر ، وان أدنى نقطة فى الوادى الصغير المتاخم والموازى للشاطىء تصل الى ١٠ اقدام فوق منسوب البحر .

ومن ذلك نستنتج أن المياه المالحة بعض الشىء ، والتى هى برغم ذلك صالحة للاستعمال ، والتى نجدها على عمق ٢ الى ٣ اقدام فى كل انحاء هذا الوادى الصغير ، الممتد حتى برج العرب ، حيث يعدل من طبيعته ، ليتخذ مستوى ادنى ، يبلغ مستوى منسوبها هى الأخرى من٧ الى ٨ أقدام ، أعلى من مستوى سطح البحر .

واضيف الى هذه التفاصيل أن قائد الحملة المسيو كافالييه وكذلك ضابط البحرية المسيو جار قد اسعدهما أن مساطر الارتفاع ظلت تعمل طيلة النهار الذى استغرقته هذه العملية المدققة التى زاد من صعوبتها، وبالذات من ناحية الرؤية ، كثرة الوقفات والمراحل وشدة الحرارة والتموج

---

(٨) قلت من قبل ، انه فى اليوم السابق على عبورنا للبحيرة تجاه ضريح ابى الخير ، كانت مياه الاغراق قد بلغت بالفعل ارتفاعا قدره ١٠ ــ ١٢ بوصة عند ادنى نقطة من الطريق المرصوف ، وعندما ثبت علامة على الشاطىء الشمالى للبحيرة فى هذا اليوم ١٨ فلوريال وجدت فى اليوم التالى ١٩ منه زيادة فى ارتفاع المياه قدرها ٨ بوصات فى مدى أربع وعشرين ساعة ، مما جعلنى اقدر هنا ارتفاع المياه فوق أدنى نقطة من الطريق المرصوف بـ ٢٠ بوصة .

الشديد فى طبقات الجو فوق رمال الصحراء (٩) .

وكنت قد لاحظت خلال الأربع والعشرين ساعة التى امضيناها عند ضريح أبى الخير ، أن مياه الاغراق التى كانت قد امتدت بالفعل الى بعد نصف فرسخ ، الى الجنوب الغربى من ماريا ، نحو برج العرب ، قد ارتفعت فى هذه النقطة الى ٤ لنية ، ٨ بوصة ، وعند عودتنا من الاسكندرية ، وجدنا أن العمق عند الجزر الصغيرة التى قمنا بتحصينها ، والتى اجرينا عندها أولى ملاحظاتنا منذ أربعة أيام ، قد أصبح ٧٠بوصة. اذن ، فقد بلغ الاغراق هناك فيما بين ١٦ ، ٢٠ من فلوريال حوالى ٦ بوصة ، ٨ قدم ،فلقد سبق لنا القول بأن هذا العمق لم يكن يبلغ فى السادس عشر من فلوريال الا حوالى ٤٠ بوصة . وأختتم هذه البيانات، بأن هذا العمق ينبغى أن يكون قد بلغ اليوم ١٠ اقدام ، فى هذا الجزء من البحيرة ، وخمسة عند قمة ماريا .

---

(٩) قلة فقط من الفرنسيين الذين اقاموا فى الاسكندرية هم الذين لم يكن بمقدورهم أن يلاحظوا أثر انكسار الأشعة على هذه المنطقة من سواحل مصر ، وعندما ترنو فى هذه المدينة نحو برج العرب فانك تلاحظ على الدوام نوعا من البخار يرتفع من الأرض والبحر ، مشكلا درجات محسوسة جدا للونين متمايزين ، لون يميل الى الشقرة ولون يميل الى الزرقة : وهذا ناتج عن انكسار أشعة الشمس فى الطبقات الدنيا من الجو عند الأفق ، وترسم هذه الأشعة الملونة وتشكل أمام البصر بشكل واضح هذه الألوان ، التى تعود الى تأثير انكسار الأشعة فوق رمال الصحراء ومياه البحر .

وبعد متاعب ذلك اليوم ذبح جنودنا فى المساء ، وفى خمتنا ، عند الضريح ، ووسط القطيع الذى استولوا عليه ثورا باطلاق رصاص البندقية عليه من على بعد خمس عشرة خطوة، وبقى الحيوان الذى أصيب فى منتصف جبهته لحظة بلا حراك ، ثم ترنح وسقط . ان العبور من الحياة الى الموت ليس سوى وميض ، وأحاط بالحيوان للحظة كل ثيران القطيع ثم اطلقوا جميعا خوارا طويلا ، اخذ بعده البعض منهم فى الابتعاد ، والبعض الآخر فى الهرب ، وقد أصابهم ذهول عميق . ولقد ذكرتنى هذه الملاحظة التى هزتنى ، وأرجو الا يعتبر البعض تدوين ذلك أمرا لاجدوى من ورائه ،بهذا البيت الجميل لفرجيل :

وارتجف الثور بفعل الضربة ، وترنح ، ثم سقط

وقد جاء تذكرى لهذا البيت طبيعيا ، لأن الصورة التى رسمها الشاعر اللاتينى صحيحة وحقة . وقد قام بترجمته ترجمة أمينة المسيو ديليل Delille فى الياذته الفرنسية .

تحركنا من هذه الجزر الصغيرة متوجهين الى الشمال الغربى نحو الضريح عابرين سلسلة الجبال حيث توجد محاجر واسعة لابد أنها قد استغلت فى بناء الاسكندرية . ويتكون الشاطىء فى كل هذه المنطقة من تربة حجرية ورملية تسير فيها الجمال بمشقة بالغة . فى هذه المنطقة، والى الغرب من هذا الضريح نزل الجيش الفرنسى ، أول يولية ١٧٩٨ ». ومن منطقة الضريح توجهنا الى الاسكندرية حيث دخلناها « ١٠ مايو ١٨٠١ » وهو اليوم الخامس لمغادرتنا هذه المدينة .

وفى يوم ٢٣ التالى قمت بتفدين آخر عند قطع فى الساحل يبدو أنه كان ترعة قديمة تصل بين خليج الاسكندرية والبحيرة على مسافة ٥٨٥٠ مترا الى الجنوب الغربى للعمود .

ويمكننا ان نرى هناك آثار مجرى هذه الترعة القديمة التى لايجاوز متوسط ارتفاع الجزء الثانى منها ٤ أقدام فوق مستوى البحر ، كمانلاحظ أنها لا تتطلب الا جهدا ضئيلا لكى يعود عن طريقها الاتصال القديم بين مينائى الاسكندرية وموانى مريوتيس . وقد لاحظت كذلك أن مياه البحيرة فى الفترة التى قمت فيها بهذه العملية كانت قد ارتفعت الى حوالى ٣ اقدام و ١١ بوصة و٣ شرطات ذلك ان قياس الارتفاع الأخير قد أخذ بالنسبة لمستوى مياه البحيرة لكى نحصل على مستوى مياه البحر ، وقد ظلت تتزايد الأطوال التى تقدمها المجسات التى أدليتها فى البحيرة باتجاه هذه الترعة القديمة التى بلغت من ٨ اقدام من المياه الى ٥٠٠ قامة .

وفى الثامن والعشرين من هذا الشهر ، تراوحت الأطوال التى أعطتها المجسات ، بين ١١ قدما و ٧٠٠ الى ٨٠٠ قامة ، بحيث ينبغى أن تصل المياه عند اقصى درجات الاغراق من ١٥ الى ١٧ قدما .

وفى يوم ٢ من بريريال التالى ، حصلنا بالمثل على ٧ ـ ٨ أقدام من المياه ، فى المسافة بين الجزر الصغيرة المحصنة على الشاطىء الجنوبى للبحيرة من نفس النقطة التى قمنا بقياسها منها ، يومى ١٦ و ٢٠ من فلوريال .

لم اشأ ان اتحدث عن عدد من الخرائب الأخرى ، كبيرة كانت أم صغيرة وجدتها فى كل مكان وبخاصة على الشواطىء الجنوبية للبحيرة ،

فيكفينا من هذه الجولة الاستطلاعية أنها جعلتنا نعثر على موقع سبع مدن أو قرى هامة نعتقد أنها تنتمى الى مدينتين باســم تابوزيريس ، واحــدة منهما تقع على الشــاطىء والأخــرى تقع بالداخل ثم مدن وقرى كوبى ، وانتيفيلى ، وهيراكس ، وفوموثيس وأخيرا مدينة ماريا عاصمة هذا الاقليم والتى تقع على شاطىء بحيرة تحمل اسمها .

وقد جعلتنا هــذه الجولة ندرك أن كل الشاطىء وكل داخل هــذه الصحراء التى تغطيها الخرائب والتى تمرح فيها قبائل عديدة من العربان الرحل والرعاة قــد ظلت على الدوام صالحة للسكنى ، بحيث يمكننا أن ننزع أى ظل من شك قــد يحيط بشهادة المؤرخين الذين يقولون بأن هذه المنطقة كانت فيما مضى منطقة زراعية مزدهرة وآهلة بالسكان . ونرى فى النهاية أنه يكفى لكى تعود هذه المناطق الى حالتها القديمة أن يعــاد حفر الترع المتفرعة عن النيل والتى كانت تجلب اليهــا كل عام مصــادر الخصوبة .

أما بخصوص مختلف القبائل العربية التى يبدو أنها وضــعت يدها على المنطقة، فانه ينبغى على حكام مصر أن يتركوا لها حــرية اســتغلالها شريطة أن يصبحوا مزارعين مسالمين ، والا فعلى هؤلاء الحكام أن يجلوهم عنها بقوة السلاح .

أما القبائل العربية التى تجوب صــحراوات مريوط ، والتى تقوم بغاراتها حتى وسط اقليم البحيرة ، فهى قبــائل الجومات والطزوات ، بنى عون ، الجوابى ، الهنادى ، أولاد على (١٠) ، ويزرع عربان القبائل الثلاثة الأولى بعض أجزاء من اقليم البحــيرة ، وهى الأجزاء المتــاخمة للصحراء . وقــد استقر عرب بنى أونوس فى قريتى جوامى والحوش حيث يزرعون الشعير . ولكى نعمل على توطين هؤلاء نهائيا هنــاك فلا

---

(١٠) حصلت على جزء من هذه المعلومات عن طريق المسيو شابرول Chabrol الذى قام ببحث واسع حول مختلف القبائل العربية التى تجوب هذه الصحراوات ، ومهما تكن هذه اللمحة سريعة ، فمــن الأفضــل أن نوردها هنــا ، ذلك أن المسيو شابرول قــد أخبرنى بأنه يخشى أن يكون قد فقد المادة التى جمعها حول هذا الموضوع .

(جراتيان لوبير)

ينبغى أن نسلك معهم مسلك العنف والقسر بقدر ماينبغى أن نخلع عليهم حمايتنا ضد القبائل التى تقف منهم موقف العداء ، فلقد أصبح هؤلاء يصطنعون شيئا فشيئا عادات الفلاحين وتقاليدهم ، ويبدو انهم مؤهلون لكى يصبحوا مزارعين .

وفى الوقت نفسه ، فمن الميسور أن يترك عربان الهنادى حياة الترحال ، وينبغى على حكام مصر ، حتى يبلغوا بهم هذه الحال أن ينتزعوا منهم ، عن طريق هجمات خاطفة ماشيتهم ، وبخاصة خيولهم ، ذلك أنهم سيصبحون مضطرين للاستقرار وممارسة الزراعة ، اذا ماحرموا من وسائل الهرب السريعة وهو الأمر الذى سيحد من غاراتهم وانتهاباتهم . وينبغى حتى نرغمهم على ذلك أن نستولى على الحبوب التى يحصدونها من بعض المناطق التى تساعد مياه الأمطار على زراعتها ، وذلك قبل أن يقوموا بحصادها وفى النهاية فان وطأة العوز : عندما يصبح هؤلاء محرومين من كل مصدر دخل — ستضطرهم الى اللجوء الى طلب عون الحكومة وحمايتها .

ان هذه الوسائل التى عددناها باعتبارها أساليب يمكن اللجوء اليها ضد بعض قبائل العربان هذه، لتتناسب عموما مع نوع الحرب التى ينبغى دعمها ضد كل القبائل التى تخرب وتروع حدود مصر ، والتى يمكن أن يبلغ تعداد محاربيها مجتمعين كما يقول الجنرال رينييه Reynier فى كتاب « الأوضاع فى مصر » Situation de l'Egypte من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ فارس ، هذا ان لم تفرق المصالح فيما بينهم ، وتجرهم الى حالة من الحرب المستمرة بينهم وبين بعضهم البعض .

ويشكل عربان أولاد على بشكل دائم ، حين يراد حماية مصر من غاراتهم عقبات أكبر من تلك التى تشكلها القبائل العربية الأخرى ، فهؤلاء العربان يأتون كل عام لقضاء عدة شهور على الحدود الغربية لمصر ويعيشون فى حالة حرب دائمة مع بقية القبائل . ولقد جعلت منهم الأتاوات التى يحصلونها والمصادر التى يحصلون عليها أثناء رحلتهم الطويلة فى الصحراء الممتدة بحذاء سواحل البحر فى غرب مصر ، بالاضافة الى ما يحصلون عليه من مكاسب من ماشيتهم وما يستحوذون عليه بفعل القوة ، كل هذا جعل منهم أعداء أشداء يخشى بأسهم بالنسبة لولايات مصر الغربية ،حيث

يقتربون دائما فى موسم الحصاد السنوى كى يقوموا بالانتهاب والسلب ولكى يبثوا الرعب والأحزان فى هذا الوقت، من العـــام . لذلك ينبغى أن تخصص قوة متحركة ، كتلك التى يمتلكونها هم ، لكى يمكن أتقاء شرهم، ويمكن ان يقوم بسلاح الهجانة الذى انشأه قائد الجيش الفرنسى فى مصر بهذه المهمة المرجوة ، والتى لابد أن تصبح الشغل الشاغل لاهتمام الحكومة الأم ، بخصوص هذه المنطقة القديمة والبائسة .

الدراسة الثانيــة :

رحلة الى وادى النطـرون

الجنرال اندريوسى

العنوان الأصلى للدراسة هو :

دراســة موجزة عن وادى بحيرات النطرون وعــن النهــر بلا ماء ، حسب المعلومات التى حصلنا عليهــا من جولة استكشافية تمت فى ٤،٥،٦،٧،٨ بليفوز من العـام السابع ، (أى ٢٣،٢٤،٢٥، ٢٦،٢٧ من يناير ١٧٩٩) .

(المترجم)

يكاد لا يعرف الناس عادة من كل أرض (١) مصر ، الا واديها الذى يرويه النهر ، ومع ذلك ، فهناك من الاعتبارات الجغرافيـــة والحكايات التى يرويها مؤرخون قدامىورحالة محدثون ، مايدفع علىالاعتقاد بأن مياه النيل كانت قد اقتحمت فى أزمنة ضـــاربة فى القدم ، أعماق صحراوات مصر الغربية ، وأنها قد تركت هناك آثارا لمجراها .

واذا صح أن ملوك مصر القدامى قد أمكنهم ـــ كما يدعى هيرودت ـــ دفع النيل واحتواءه فى حوضه الحالى ، عن طريق قيامهم بأعمال هائلة، فلابد أن يعد هذا العمل من جانبهم ، واحدا من تلك الأمور العظيمة التى يمكن لذاكرة البشر أن تحتفظ بها .

ان البحث فى هذا المجرى الابتدائى للنيل ، ينبغى أن يلقى الضوء على الجغرافيا الفيزيقية لمصر ، وعلى تلك الأعمال التى بذلت كى تصبح أرضها خصبة ، كما لابد أن يفضى بنـــا الى الطريق الـــواجب اتبـــاعها لاصلاح نواحى الخلل ، التى أحدثتها حقبات الأزمان ، وأدت الى تراكمها، الهمجية والجهل فوق أرض محرومة من مزايا الأمطار ، لن يكون لها من مصير فى غيبة الفيضانات أو وسائل الرى الصـــناعى ســـوى التحولة والعقم .

ويشير الجغرافيون لهذا المجرى القديم للنيل باسم « بحر بلا ماء » ويسميه أهالى البلاد باسم « البحرالفارغ » . ومنالمعروف أن هذا المجرى لا يبعد كثيرا عن بحيرات النطرون التى بدىء فى استغلالها من جديد منذ حوالى خمسة عشر عاما ، والتى يشتد الطلب على منتجاتها فى مجالات صناعية عديدة فى فرنسا . ومن المعروف كذلك أنه يوجد بالقرب منهأديرة ومغارات لرجال الدين الأقباط ، أنشئت فى القرن الرابع الميلادى أى فى ذلك الوقت الذى انجذب فيه الى أعماق صحراوات الغرب ، وبفعل الوله بحياة الأديرة ، رجال يتقدون حمية وحماسة لدينهم أو آخرون هيـــابون

(١) ســـبق أن نشرت هـــــذه الدراســـة فى Décade égyptienne (دورية تصدر كل عشرة أيام) التى كانت تطبع فى القاهرة .

آثروا السلامة فابتعــدوا عن الغير ، وان كانوا قـد ظلوا مرغمين بفعل احتياجاتهم على الاقتراب من هــذا الغير ، سعيا وراء استثارة شفقتهم أو تأجيج ايمان ساذج لديهم .

ولقد كان مما يثير فضولنا ، وهو فى نفس الوقت أمر مفيد لاعتبارات عدة أن نتعرف على ذلك الجزء من أرض مصر الذى انتهينا من الحــديث عنه. ومن أجل تقدير كل الأمور التى يمكن أن تفيد منها كل من الجيولوجيا وضروب الصناعة المختلفة فلقد دعا لاعداد هذا البحث السادة برتوليــه Bertholet وفورييه Fourier وريدوتيه Redouté الشـاب (٢) .

ولقد كان لدى انا الأمر ، أثناء قيامى ببعض العمليات العسكرية ، بأن أحمى أبحاثهم فى مناطق تتعرض على الدوام لغارات العربان الرحل، الذين يأتون أحيانا من الصعيد وأحيانا أخرى من أطراف اقليم البحيرة ، الى مشارف هذه الصحراوات لسلب بل ولاغتيال هــذا المزارع المسالم، والفلاح البائس . ولقد تجمعنا هناك لكى نحاول تجميع كل الملاحظات التى تبدو لنــا على درجة من الأهمية وسأتقدم فى هذا الموجز عرضا لتفاصيل الرحلة ، تاركا للمسيو برتوليه مهمة أن يقدم بنفسه نتيجة التجارب الهامة التى قام بها ، لكى يتعرف على طبيعة المادة ، وسوف تكون هذه النتائج ذات فائدة قصوى ، بمجرد أن يبين لنا المجالات التى يمكن استغلالها فيها .

---

(٢) فنان ماهر فى رسم اللوحات والحيوانات ، وبخاصــة الأسماك الملونة ، كما الحق باللجنة المسيو ديشانوى Duchanoy والمســيو رينو Regnault ، تلميذ برتوليه .

الفصل الأول

عن وادي النطرون

رحلنا من الطرانة فى ٤ بليفوز « ٢٤ يناير » الساعة الثانيةصباحا، وبعد مسيرة اربع عشرة ساعة لمحنا الوادى الـذى توجـد به بحيرات النطرون .

الحالة الطبوغرافيـة :

يفصل وادى النطرون عن وادى النيل هضـبة فسيحة ، يتـدرج سطحها ببطء وتوازى النيل على الدوام ، ويبلغ عرض هذه الهضبة التى تظل على الدوام ، تقريبا محافظـة على نفس مستواها ، ثلاثين ميلا ، وتغطى ارضها المتينة والصلبة بالحصى من مختلف الأحجام ، وبزلط صغير مستدير يتلون بالوان مختلفة ، وببعض الزلط المختلط بالعقيق .

وقد دفعت الرياح القوية القادمة من جهة الغرب ، الى الجهةالأخرى من التـلال التى تحف بالنيل ، وكـذلك الى داخل الوادى ، كل الرمال المتحركة ، ويبدو الحجر الجيرى فى بعض المنـاطق على سطح الأرض . وفيماعدا ذلك ، فان المرء لا يلمح فى هذه الصحراء التى قد يظن المرء بأن الطبيعة قد تركتها نسيا منسيا ، الا ثلاثة او اربعة انواع من النبـاتات الضعيفة والصغيرة والمبعثرة للغـاية ، مثل نبات الشوكية (٣) nitraria والبنج البنفسجى (٤) أو « الداتورة » .

وسوف يكون من العسير أن يستطيع اى كائن حى ان يجد مايعيش عليه ، فوق ارض على مثل هذه الدرجة من القحولة ، وفى نفس الوقت

---

(3) Nitraris Schoberi, Lin.
(4) Ayoscyamus daturas Fors.

فاننا لم نجد هنــاك سوى نوع واحد من الحشرات ، ليس من هذا النوع من الأنواع الشائعة ، ويطلق عليه اسم mente obocure ، والصفة التى تحملها هذه الحشرة ، « صفة العتمة » ، تماثل تماما حالة العزلة التى نحياها ، فى أعماق مثل هذه الصحراوات .

وعند الرحيل من الطرانة ، يتخذ الطريق اتجاهه فى البــداية من الشرق الى الغرب . وقبل الوصــول الى النطرون بحوالى الساعتين، وبعد ان يكون المسافر قــد اجتاز ممرا جبليا بالغ الانخفــاض ، يسميه النــاس راس البقرة ، يمضى الطريق نحو الشمال الغربى ، مع ميل أكبر الى جهة الغرب ، وعندما هبطنا ، وجدنا فى منتصف هذا الجنب ، وفوق ربوة ، قصرا أو حصنا مهدما ، بنى سوره المربع والــذى تعلوه أبواب مستديرة عند اثنين من زواياه ، بواسطة قطع صغيرة من النطرون ، مما يدل على أن الأمطار ليست بذات بال فى هذه المنطقــة ، كما رأينــا فى الانحدار المقــابل دير براموس أو دير الأروام ، كما يوجــد الى الشمال وعلى نفس المسافة تقريبــا دير السريانيين أو دير بيشوى حيث يجــاور كل منهما الآخر .

اقمنا مثلثــا يربط القصر ودير البراموس ودير السريانيين . واذا مااتخذنا كقاعدة ، تلك المسافة التى تفصل بين القصر ودير البراموس، والتى قمنــا بقيــاستها فوجــدناها تبلغ ٧٢٣١٣/٤ مترا فان ضلعى المثلث الآخرين يبلغان ٧٤٣٠٢/٣ مترا للمســافة بين القصر ودبر السريانيين ، و ٩٢٥٨١/٤ مترا للمسافة بين هــذا الدير ودير البراموس ، واذا اردنا الذهاب بين واحد من هذه الأماكن وبين غيره يكون علينا أن نجتاز طريقا هو عبارة عن رمال متحركة أو ثابتة فى بعض الأحيان بفعل بعض الطحالب النباتية ، ويلمح المرء هناك بعض النباتات ، ويقابل فى كل مكان الجبس وكتل الصخور الجيرية ، كما يرى اجمل الأحجــار الطبــاشيرية بين دير البراموس ودير السريان .

الجغرافيا الفيزيقية للوادى :

يصنع وادى النطرون زاوية ٤٤ درجة الى الغرب مع خط الزوال المغنــاطيسى أما فيما يختص بالمواقع التبادلية للبحيرات واطوالها ، فانها تقع فى نفس الاتجاه الذى للوادي ، ويحدد الأب سيكار حوضها العمودي

باتجاه الوادى ، وهو ما يتعارض بصـــفة عامة مع الهيدروجرافيا « علم وصف المياه أو طبوغرافيا البحار » . ولم يبين الأب سيكار على خريطته، سوى بحيرة واحدة كبيرة ، فى الوقت الذى توجد فيه ست منهـــا : ثلاث الى الشمال من القصر وثلاث الى الجنوب منه ، بل أن اهالى الطرانة يذكرون أن عددها سبع . فقد كانت البحيرة رقم ٤ منفصلة بالفعل الى بحيرتين بواسطة سد تحطم فى الوقت الحاضر . ويبين دانفيل — وهـــو يتفق فى ذلك مع سترابون — بحيرتين ، لـــكنه يعطيهما نفس الموقع الذى يحدده الأب سيكار P. Sicard

وبحيرات **النطرون** عبارة عن مساحة تبلغ **ستة** فراسخ طولا ، ومن ٦٠٠ الى ٨٠٠ متر عرضا ، وذلك من طرف الحوض الى طرفـــه الآخر، وهى منفصلة عن بعضها البعض بواسطة رمال قاحلة ، وتحمل البحيرتان الأوليان منها ، وهما الواقعتان نحو الجنوب اسم بركة الدوارة أو بحرة الاديرة أما البحيرات أرقام ٣،٤،٥،٦ فتحمل أسماء لا تدل على معنى محدد، ويقوم عرب السمالو (٥) بتهريب النطرون من البحيرة رقم ٦ وينقلونه الى الاسكندرية .

وتوجد المياه العذبة — وان كانت درجة صلاحيتها تتفـــاوت — اذا ماحفرنا بطول البحيرات فى الانحدار المتجه الى ناحية النيل ، وتجرى المياه بغزارة على سطح الأرض لمدة **ثلاثة** اشهر فى العام ، أى فى تلك الشهور التى تلى انقلاب الصيف ، وتتزايد المياه عند نهاية ديسمبر ، ثم تبدأ فى الانخفاض تدريجيا ، حتى ان بعض البحيرات يصاب بالجفاف .

وينبغى بصفة أساسية أن نلاحظ الحالة الفيزيقيـــة للبحيرات ، اذ تنقطع شواطىء البحيرات من جهة الشرق الى خلجان صغيرة ، حيث ترشح المياه وتتخذ شكل نافورات عند بداية الوديان الصغيرة ، ثم تتسرب بعد ذلك فى شكل نهيرات صغيرة تتجه الى أعماق الأحواض . أما البحيرة رقم ٣ ، فان الجزء من الأرض الذى يعلو عن هذه الينابيع — وهذا ما لاحظناه

---

(٥) عرب السمالو ، شأنهم فى ذلك شـــأن عرب الجـــوابى الذين سنتناولهم بالحـــديث فيما بعد ، هم عرب رحل بالغو الكرم ، ولهم ثلاثة رؤساء (مشايخ) ، اكبرهم الشيخ سليمان أبو دمن ، وتتكون هذه القبيلة من حوالى ١٫٠٠٠ رجل ، وتملك أربعين حصانا .

بصفة خاصة يمتد ليبلغ عرضه مائتين وخمسين مترا ، تغطيها بلورات من الملح ، ينهض وسطها وبكميات وفيرة بعض الشيء ، هذا النوع من الغاب المسطح الذى يستخدم فى صناعة الحصر العادية . اما الأرض التى تشغلها هذه الينابيع فيبلغ عرضها ٩٦ مترا ، وتشرف فى شمال البحيرة على شريط من النطرون يبلغ ٣١ مترا . اما البحيرة فيبلغ عرضها ١٠٩ من الأمتار . فى حين يبلغ طولها ٥١٤ مترا ، أما أقصى عمق لها فيبلغ نصف المتر . وقاعها طباشيرى مختلط بالرمال ، والمياه فى هذه البحيرة وحدها لها لون الدم .

تلك هى الحالة الفيزيقية للبحيرة رقم ٣ من جهة النيل ، ويلامس الشاطىء الأيمن لحوضها رمال قاحلة ، وهناك ينمو بعض الغاب ، ويبدو ان المياه العذبة لا تصل اليه . فهل يمكن القول بأن المياه التى تغذى البحيرات تأتى من النيل مخترقة فى بطء هذه الكتلة أو هذه المسافة التى تبلغ ثلاثين ميلا ، والتى تفصل وادى النيل عن وادى البحيرات ، متبعة فى مسارها تكون الانحدارين اللذين يتجه أحدهما الى الشمال وثانيهما الى الغرب ؟ أم هى بعد أن انفصلت عن النيل بفعل هذين الانحدارين قد جاءت من رأس الوادى — كما سنرى فيما بعد — تلتمس وادى النيل فى الفيوم ؟ وعلى الرغم من كون الراى الثانى اقرب الى الطبيعة ، الا أنه لا يبدو معقولا ، اذ من المؤكد أن المياه التى تصب فى البحيرات تخرج من انحدارات الشط الأيمن الذى يعلوه . وثمة عدد قليل من الينابيع على الانحدار المقابل ، وتوجد هذه على عمق كبير . وينهض الرأى الأول على انتظام حركة ارتفاع وانخفاض المياه فى البحيرات كل عام ، وفى فترة تتصل بشكل شبه مستمر بفترة الفيضان .

تحليل مياه البحيرات :

تحتوى مياه البحيرات على أملاح ، تختلف حتى فى أجزاء من نفس البحيرة الواحدة ، مما يدل على عدم وجود أتصال بين مياهها .

وهذه الأملاح هى على الدوام: موريات الصودا ، وكربونات الصودا ، وقليل من سلفات الصودا .

وتغلب كربونات الصودا فى بعض هذه البحيرات ، بينما تغلب موريات الصودا فى البحيرات الأخرى .

ويبدو — تبعا للحالة الفيزيقية للارض — ان كربونات الصودا قد جاءت الى هذه البحيرات عن طريق مياه النافورات التى تحدثنا عنها، وكذلك عن طريق مياه الأمطار ، وهذا هو مايفسر لنا لماذا يكون الملح الموجود فى جزء من البحيرة يختلف عنه فى جزء آخر منها .

ومياه البحيرة رقم ٤ وجزء من مياه البحيرة رقم ٣ ذات لون أحمر قان يشبه لون الدم ، ويعود هذا الى أمر مادة نباتية — حيوانية ،وعندما تتبخر هذه المياه يحتفظ الملح البحرى — وهو الذى يتبلور أولا — بهذا اللون الأحمر ويكتسب رائحة الورد الجميلة .

ويرى المسيو برتوليه أن تكون الصودا ، يعود الى تحلل الملح البحرى بفعل كربونات الجير الموجودة فى الأرض الرطبة ، التى يتم فيها هذا التحلل . ووجود الرطوبة أمر ضرورى لحد كبير لتحلل الملح البحرى، وقد راينا ان هذا أمر متوفر . أما عن الحجر الجيرى ، فانه موجود بكميات كبيرة فيما بين النيل والبحيرات ، وكذلك فى الوادى ، حيث يظهر اما فى شكل صخور أو فى شكل طباشير .

استغلال النطرون

يشكل استغلال النطرون جزءا من التزام الطرانة (٦) التى تدخل حاليا ضمن الحدود الجديدة لولاية الجيزة (٧) .

ويتم نقل النطرون فى الفترة مابين البذر والحصاد ، وتتجمع القوافل فى الطرانة ، وتتكون القافلة الواحدة من مائة وخمسين جملا ومن ٥٠٠

---

(٦) تشتمل منطقة الطرانة على ستة قرى منها : كفر داود ، الطرانة ، وأبو نشابة .

(٧) كان يحد ولاية الجيزة تحت حكم المماليك ، من الشمال الجسر الأسود ، الذى كان يفصلها عن ولاية البحيرة ، لكنها تمتد الآن حتى قرية أبو جروة . ويعبر الجسر الأسود الأول ، ابتداء من الكثبان الرملية ، حيث ينحدر حتى النيل . وعند طرف هذا الجسر بالقرب من قرية أم دينار ، توجد قناطر لتمرير مياه الفيضان ، أما المياه التى يحجزها الجسر الأسود ، طول الوقت المطلوب ، فانها تخصب السهل ، وتجعل انتاجه بالغ الوفرة .

الى ٦٠٠ حمار ، وترحل مع حراسها عند غروب الشمس ، لتصل الى البحيرات أثناء النهار ، فتكسر النطرون وتحمله ثم تعاود الرحيل .

وفى اثناء العودة تتوقف القافلة فى منتصف الطريق . وتصنع وقودها من روث حمير وجمال القافلة السابقة (٨) ويشرب رجال القافلة ومرشدوها القهوة ، ويدخنون النارجيلة ، ويتزودون بقليل من الخبز ، وذلك بعجن الدقيق فى طبق من الخشب ، ثم بانضاج العجين على الفحم ، ويقيم مرشد القافلة نقط حراسة لكى تظل القافلة فى حمى ضد العربان ، وتنام بقية القافلة لبضع ساعات ، ثم تعاود السير ، لتعود الى الطرانة فى اليوم الثالث .

ويقدر ما تنقله كل قافلة بستمائة قنطار من النطرون ، كل قنطار منها يزن ٤٨ أقة (٩) .

والطرانة هى مستودع النطرون ، وينقل النطرون بطريق النيل الى هذه القرية ثم يرسل الى رشيد ، ومن هناك يذهب الى الاسكندرية ، ثم يصدر من ثم الى أوروبا ، أو ينقل الى القاهرة حيث يباع لكى يستخدم فى تبييض الكتان وصناعة الزجاج (١٠) .

ويقدر الفاقد الذى يصيب المادة عند التفريغ أو الايداع بـ ١/١٠ الوزن .

ويدفع فلاحو قرى الطرانة الست الميرى المقدر عليهم من نقل النطرون ، واذا ماحدث نتيجة لظهور العربان أو بفعل أحداث اخرى أو

---

(٨) يؤدى نقص الوقود ، على الدوام ، بالقوافل المتتابعة فى الصحراء ، الى أن تتوقف فى نفس الأماكن التى عسكرت فيها سابقتها من قبل .

(٩) تساوى الأقة ٤٠٠ درهم أو رطلين ونصف زنة مارك .

(١٠) يوجد فى القاهرة نوع آخر من النطرون ، يجلبه الجلابة السود فى قوافل دارفور وسنار ، ويستخدم فى تجهيز التبغ المصرى ، اذ يخلط به لاعطائه نكهة نفاذة . وقد قام المسيو رينيولت بتحليل هذا النطرون ، ووجد أنه يحتوى على كمية من مريات الصودا اكبر من غالبية العينات التي جلبناها معنا .

عانى استغلال النطرون من بعض التعطيل ، يدفع الفلاحون احدى عشرة بارة (١١) عن كل قنطار كان مقدرا أن ينقلوه .

ويباع النطرون فى مصر بسعر القنطار زنة ٣٦ اقة ، بخردة واحدة تساوى بدورها تسعين بارة .

ويدفع المشترى أجرة الشحن النهرى ، ويجهز الملتزم البارود والرصاص لحرس القوافل ، ويبلغ عدد افراد هذا الحرس ستين رجلا مسلحا ويطلق عليهم اسم الباشات .

ويدفع اليهم الملتزم أجورهم . والتزام النطرون هو ضريبة ملح حقيقية ، وتلتزم القرى التى تملك منشآت تستخدم فيها هذه المادة بشراء كمية محددة منها كل عام .

وقد جعلت صعوبة اختراق وادى النطرون ، من العسير ، فى كل وقت ، دراسة أحوال البحيرات ، فكان استغلالها يتم على غير نظام او قاعدة . وشواطىء البحيرات كما سبق القول مغطاة بكتل من بلورات الكريستال التى لا يقترب منها أحد ، والتى يمكن برغم ذلك الحصول منها على فوائد جمة ، فهى توجد بكميات وفيرة . ولا يستغل من بين هذه البحيرات فى الوقت الحالى الا البحيرة رقم ٤ . ويدخل الرجال عراة الى المياه ، ويكسرون وينزعون النطرون بكماشة حديدية مستديرة الشكل ، يبلغ وزنها حوالى الستين رطلا ، احد فكيها على هيئة عش الغراب ، أما الآخر فينتهى بسن مدببة من الصلب . وهؤلاء الرجال لا يلقون أدنى اهتمام بالنطرون الموجود على سطح الأرض ، والذى يمكن انتزاعه بجهد أقل من الجهد المبذول فى استخراجه من البحيرات بكثير . وانه لمشهد مثير للفضول أن ترى هؤلاء المصريين ، وهم يخرجون من البحيرات فى بياض شاهق ، بينما هم فى الحقيقة سود البشرة أو برنزيو اللون .

تجارة النطرون :

تعتمد حالة تجارة النطرون بالمثل على تحليلات لم نكن فى وضع يسمح لنا بالقيام بها ، وعلى نوع من النشاط والاهتمام لا يمكن لنا

---

(١١) كل عشرين سو Sous فرنسية تساوى ٢٨ بارة .

الاضطلاع به ، فى بلد ظلت فيه مكاسب الصناعة فريسة لمغارم الحكام ومظالمهم . وقد يترك المستغلون فى النطرون خليطا من مختلف الأملاح مع الصودا ، وبالذات الملح البحرى ، الذى يؤدى وجوده الى زيادة مجحفة فى وزن النقلة . ومن جهة أخرى يشكو صناع مارسيليا فى انهم يعانون من أضرار حقيقية وكبيرة ، اذ تتحلل غلاياتهم اثناء غلى الأملاح ، وبدأوا لذلك يقبلون على الصودا القادمة من اليكانتى . وهكذا كانت مصر توشك أن تفقد هذا المصرف لبضاعتها فى أوربا ، لولا أن الحرب قد نشبت فجأة فجعلت نقل الصودا من اليكانتى أمرا اكثر مشقة .

وفى سنوات ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ ، ١٧٩٠ ، عندما أمكن لتجار مارسيليا عقد صفقات تجارية جديدة ، فانهم استوردوا الى فرنسا كمية هائلة من النطرون ، خزنوا جزءا كبيرا منها فى محلاتهم .

ويتم تصدير النطرون المصرى الى الخارج ، الى البندقية وفرنسا وانجلترا ، ويكاد ماتستورده انجلترا يساوى نفس الكمية التى تستوردها فرنسا ، أما البندقية فلا تحصل الا على خمس ماتستورده الدولتين الأخريين .

وقد اهتم المسيو رينيولت بموضوع شديد الأهمية ، هو أن يفصل اكبر قدر من الصودا عن النطرون ، بقصد تقديم النطرون الى أغراض التجارة وهو فى اقصى درجات نقائه ، الأمر الذى يؤدى مع زيادة طفيفة فى مصاريف استخراجه الى مضاعفة انتاج وقيمة الصودا ، مع اتباع نفس الأساليب المستخدمة . ويوجد الملح البحرى فى بعض أنواع النطرون بين طبقتين افقيتين من الصودا ، بحيث يمكن استخلاص الملح بشكل آلى .

وهكذا ، فتجارة النطرون فى مصر ، بعد أن أصبحت هذه مستعمرة ، سوف تعتمد على اعتبارين أساسيين :

الأول : الاستغلال الحر للبحيرات ، وسيصبح هذا الاستغلال فى شكل افضل ، عن طريق اقامة حرس ، واتخاذ اجراءات عسكرية ، مثل اعادة استخدام وترميم القصر وشغل الأديرة القبطية .. الخ ، لأن العربان فى هذه الحالة — وأمرهم لا يخفى علينا — سيكونون اقل مدعاة للمخاوف .

ـ الثانى : اختيار وتنقية النطرون . وينبغى أن تقام المنشآت الخاصة بتنقية النطرون فى أماكن أكثر قربا من البحيرات مثل القصر والطرانة .

منتجات الممالك الثلاث « النباتية والحيوانية والجمادات » :

يوجد على شطآن البحيرات البوص والسمار بوفرة شديدة ، كما توجد منتجات أخرى من المملكة النباتية . وتتناقض خضرة هذه النباتات بدرجة تبعث على الدهشة ، مع بياض بللورات الملح شاهقة البياض، ومع اللون الرمادى الكالح لحصى الصحراء .

ونرى بالقرب من البحيرات غاب البوص ذا السيقان العالية (١٢)، والطقطق « زهور من فصيلة الرصاصيات » الخالى من الأوراق (١٣)، والاثل الفرنسية (١٤) والارطماسية البحرية (١٥) « نبات عطرى » والسمار (١٦) والبوط « أو عصنوية المروج » ذات الأوراق العريضة (١٧). وهذا النبات الأوربى الذى ينمو بوفرة فى فرنسا ، فى البرك والمستنقعات، وهو واحد من أغزر النباتات على شواطىء بحيرة النطرون . وترى هناك الشنجبار ذات الأوراق الضيقة (١٨) « هو نبات زينة » ، والجمان أو الطرطير ذات الورود البيضاء (١٩) والجنبة أو الحولاى (٢٠) ذات الأوراق الرمادية . وتوجد أيضا السويدا (٢١) وهو نوع من الصودا ويطلق عليه هذا الاسم فى حين يسميه العربان باسم الصهد . ويشاهد هناك أيضا بعض أشجار النخيل قليلة الارتفاع ، وهى تكون غابات كثيفة ، لكنها لا تنتج ثمارا على الاطلاق . وقد وجدنا خلف البحيرة الأخيرة بقليل عشرين نخلة منزوعة من الأرض ، ومجمعة كيفما اتفق فى شكل كومة ، بحيث يمكن القول بأنها قد انتزعت وحطمت بفعل حركة عنيفة .

---

(12) Arundo maxima, Fors.
(13) Statice aphylla, Fors.
(14) Tamarix gallica, Fors.
(15) Artemisia marltima, Lin.
(16) Juncns spin asus, Lin.
(17) Typha latifolia, Lin.
(18) Lithospermum angustifolium, L.
(19) Zygophyllum album, Lin.
(20) Fagenia scabra, Fors.
(21) Suoeda vera, Fors.

أما أنواع الحيوانات المختلفة هناك فليست كثيرة العدد فترى الجص أو القنديد (٢٢) والسرطان بأنواعه المختلفة (٢٣) والنمل العادى والنمل الضخم ذا الأجنحة ونوعا من البعوض الذى تسبب لسعته أوراما هائلة. ومن طبقة الصدفيات نجد القواقع « الحلزون » من النوع الصغير ، ومن ذوات الأربع نجد الحرباء والغزلان ، ويستدل على الأخيرة من آثار أقدامها المشقوقة التى تتركها على الرمال . وقد تعرفنا بين الطيور على دجاجة الماء والبط والشرشير « البط البرى » ، وتوجد هذه الطيور بوفرة شديدة وبخاصة عند البحيرة الأخيرة ، وهى التى يقل تردد الناس عليها .

ولا يوجد فى وادى النطرون أى أثر لمنشآت قديمة ، اذ لم نشاهد فيها وراء البحيرة الرابعة الا أثر مصنع للزجاج ، وقد تعرفنا عليه من انقاض أفرانه المبنية بالطوب الأحمر ، ومن بعض فتات المعادن والزجاج فى أشكال مختلفة . ويزخر الموقع الذى كان يوجد به بالمادتين اللازمتين لصناعة الزجاج ، وهما الرمل الصوانى والصودا . ولعل الخشب فى ذلك الوقت لم يكن بالندرة التى هو عليها اليوم . ولسنا نعرف الى أية فترة تنتمى هذه المنشأة ، وكان من الممكن أن نستدل على ذلك من نقوش الميدالية أو قطعة النقود التى عثرنا عليها هناك ، لكن هذه النقوش كانت صدئة لدرجة لم يكن من السهل معها أن نفك أيا من رموزها .

---

(22) Pimelia muricata.

(23) Carabus variegatus.

الفصل الثانى

طبوغرافيـة البحر الفـارغ

يقع وادى النهر بلا ماء الى الغرب من وادى بحيرة النطرون . وهذان الواديان اللذان يلتصقان كل منهما بالاخر ، لا ينفصلان الا عن طريق تل مرتفع ، وتستغرق المسافة من الديرين الى الوادى المجاور ساعة ونصف الساعة .

وقد تكدست الرمال فى وادى نهر بلا ماء ، ويبلغ اتساع حوض هذا الوادى من شاطىء لآخر حوالى ثلاثة فراسخ . ويمضى المرء أربعين دقيقة كى يهبط ، عن طريق منحدر منتظم على نحو معقول ، حتى يصل الى قاع الوادى فوق الرمال .

وهذا الوادى قاحل لا تبدو به اية مصادر للمياه : وقـد وجدنا به الـكثير من الخشب المتحجر ، وعددا من اجسام أشجار بأكملها يبلغ طول البعض منها ثمانية عشر قدما . ولم يكن يبدو ان أجسام الشـجر وقطع الخشب التى ظهرت لعيوننـا قد مستها يد الانسان (٢٤) . وكانت غالبيتها قد تحجرت تماما اما اقلها فقد بدا اقل تقدما فى تحجره ، لذلك كان مغلفا بطبقة بالغة الكثافة وبالغة الصلابة. اما الجزء الذى يشكل المادة الخشبية « اللباب » فكان متباعدا فى شكل طبقات من الورق . وقد وجدنا كذلك

---

(٢٤) يؤكد ب. سيكار P. Sicard (Lettres édifiantes) أن المرء يجد فى وادى نهر بلا ماء صوارى ، وانقاض سفن متحجرة ، الا اننا لم نلاحظ شيئا من ذلك ، وان كنا فى الحقيقة لم نر الا جزءا من الوادى : ويدعى جرانجيـه Granger فى تقريره عن رحلته الى مصر ، ان ما نأخذه عادة على انه خشب متحجر ليس كذلك على الاطلاق ، ومع ذلك ، فان العينات التى احضرناها لها بالتأكيد خواص الخشب المتحجر، حتى انها بدت كذلك فى اعين افراد اقل خبرة ودراية ، كما أن علماء الطبيعة الحاذقين ،الذين فحصوها بعناية ، قد حكموا عليها نفس الحكم .

فى هذا الحوض سلاسل عظام من السمك الكبير الذى بدا لنا متحجراً، وهو ما يضيف احتمالا جديدا — كما سنرى — الى الاحتمال القائل بأن المياه كانت تجرى فى هذا الوادى ، وانها كانت تحتوى على حيوانات تعيش فيها .

وبخلاف الأخشاب المتحجرة ، يرى المرء ، وبشكل خاص على منحدرات الوادى ، أحجار صوان ملفوفة ، جاءت دون شك من مكان جد بعيد ، بالاضافة الى الزلط والجص والبلورات الصوانية المكونة داخل تجويفات ، وانواع من الجيود « وهو حجر به تجويف ومبطن ببللورات أو بمادة معدنية » وقطع من الدشب « حجر كريم مختلف الألوان » المستدير، وقطعا من الحجارة ذات قاعدة صوانية تميل الى اللون الأخضر ، وبعضا من اليشب المسمى بالزلط المصرى .. الخ وتنتسب غالبية هذه المواد الى تلك الجبال النائية فى صعيد مصر ، ولا يمكن أن تنتقل هذه المواد الى هنا الا عن طريق مياه النيل . اذن فقد كانت هناك صلة بين النيل ونهر بلا ماء ، ونتيجة لذلك فقد كان ثمة صلة بين الواديين ، وليس ثمة مايؤكد أن مثل هذا الاتصال كان مستحيلا ، لكننا سوف نؤسس وجود هذه الصلة على اعتبارات أخرى .

ان اتجاه وادى نهر بلا ماء هو نفس اتجاه وادى بحيرات النطرون، والرأى الشائع هو أن المرء عند اتجاهه الى الجنوب بين هذه الوديان ، يصل الى الفيوم ، وعند اتجاهه الى الشمال منها يترك على يساره اقليم مريوط (٢٥) . وهذا هو الطريق الذى يسلكه العربان عادة للقيام بغاراتهم

---

(٢٥) تقع مريوط على مسافة أربعة فراسخ الى الغرب من الاسكندرية ، نحو البحر ، وتستطيع سرية من الفرسان ، راكبى الجمال (الهجانة) أن تصلها فى ساعتين ونصف الساعة ، ويجد المرء فى هذه المنطقة ، ثلاثة آبار عميقة ومعتنى بها ، تغذيها مياه الأمطار ، ويلمح المرء فى المنطقة المجاورة بعض الخرائب ، وكذلك مقابر العربان المزدانة بالتعويذات ، وهذه عبارة عن آيات من القرآن ، موضوعة داخل كيس صغير من الجلد ، معلق فى خيوط فوق المقابر .

فى مناطق الصعيد . كما أن اتجاه هذين الواديين ، يدفع الى استنتاج أن نقطة تماسهما تقع فى نفس المكان الذى ترسم فيه على الخريطة بحيرة موريس ، كما أن اتساع وادى النهر بلا ماء بالاضافة الى مايذكره المؤرخون عن بحيرة (قارون) يدفع الى الاعتقاد بأن هذا الخزان لم يكن سوى رأس لهذا الوادى ، الذى سد بشكل طبيعى بفعل تكدس الرمل ، أو بواسطة يد الانسان ، بطريقة يمكن القول معها بأن بحيرة موريس قد تكونت ولم تحفر . وهذا الرأى شديد الترجيح بحيث أن المرء عندما يفكر فى طبوغرافية هذه البلاد سيجد ما يقنعه بأن خزانا يحفر تحت مستوى تربة مصر ، سوف يجعل المياه التى يتلقاها بغير ذات نفع لهذه التربة . ولقد أوضحنا أن المياه التى حجزت على هذا النحو ، ستكون بالأحرى فى وضع تجرى معه نحو نهر بلا ماء ، لا أن تجرى الى داخل وادى النيل .

ولكى تكون هذه المياه نافعة للجزء الأدنى من مصر ، كان الأمر يقتضى عكس ذلك ، أى أن يكون حوض البحيرة ، بدلا من أن يكون محفورا بشكل طبيعى ، قد يكون عن طريق سدود علوية أقيمت فوق الأرض الطبيعية ، بقصد أن تحجز بعد الفيضان كمية من المياه أعلى من مستوى أرض مصر . أن وجود بحيرة موريس ، والغرض الذى ينسب اليها عادة ، سيصبحان اذن امرين مشكوك فى صحتهما ، وربما يشكلان على الدوام مشكلة تستدعى الحل .

= وتلامس أرض مريوط ، التلال التى تنتهى اليها المرتفعات الليبية ، أما التربة هناك ، فهى عبارة عن أرض رسوبية ، تشابه أرض مصر ، وتبعا لذلك ، فانها تدين بتكوينها لمياه النيل ، التى كانت تصل الى هناك فيما مضى ، وحين تسقط الأمطار ، تتكاثر بعض الأعشاب فى مريوط ، وهذا مايدفع العربان ، وبخاصة الجوابى ، الى الذهاب الى هناك مع قطعانهم ، ولأن الآبار لا تتزود بالمياه الا عن طريق الأمطار ، فان مياه هذه الآبار ، تتجدد فى أوقات الجفاف ببطء شديد . ويتردد العربان على مريوط بسبب قربها من الاسكندرية ، ولأنها تقع على طرف خط الآبار الذى يجاور الصحراء عند الاتجاه الى ولاية البحيرة . ويؤدى هذا الخط الى بحيرات النطرون ويصل المرء بعد عبوره الهضبة التى تفصل الواديين، بعد مسيرة يوم ، وعند الطرف الشمالى للبحيرات ، الى مرتفعين متجاورين يطلق عليهما اسم النهدين .

وهذا الجزء ، الذى سمحت لنا الظروف بالتعرف عليه ، هو مفتاح الجغرافيا الفيزيقية لمصر .

وان كان لنا ان نتجاسر على التشبع لراى ، لقلنا أن اتساع وحجم حوض النيل فى الفيوم يعودان الى منفذ بحر بلا ماء الذى يبدو على نحو هائل . ويحدد الأب سيكار ، ويحذو حذوه سترابون ، حوض هذا الفرع القديم للنيل ، بأنه يتجه نحو بحيرة موريس ، لـكنهما يتركان نقطةالتلاقى غامضة ، ويعطيان لبحيرة موريس نسبا وابعادا من الضخامة بحيث تتجاوز الحد بالنسبة لاتساع بحر بلا ماء . واذا كان الراى الذى عرضناه لايعدو أن يكون الا نوعا من التخمين ، فان النتائج التى حصلنا عليها ، وحسب استنتاجاتنا ، من المهمة الاستطلاعية التى قمنا بها ، توضح لنا ، انهكانت توجد مجارى مياه كبيرة فى داخل الصحراوات . وانه من المحتمل جـدا أن كان النيل ينقسم الى عدة فروع الى الجنوب من بحيرة موريس ، وان الفرع الحالى كما سبق أن لاحظنا كان يجرى فى قاع الحوض بطول التلال الليبية ، كما تبرهن على ذلك شهادات المؤلفين ، وخطوط مهد أو قاعهائل يستمر بطول هذه التلال ، ويستحيل أن يكون هذا المهد قـد تـكون الا بواسطة مجرى مياه كبير . وقد وجدت هـذا المهـد فى كل اتساع ولاية الجيزة ولمساحة تبلغ تلاثينفرسخا ، وثمة مظهر لافت للنظروهو انه يتوغل الى الأمام متجهـا نحو الجنـوب حتى يصـل فيما أزعم حتى بداية بحر يوسف ، اى عند النقطة التى يعتقد أن النيل فيها قـد غير مجراه ، لكى يلقى بثقله على الشط الأيمن ، وفى أعماق هذا المهد تجرى ميـاه بحـر يوسف (٢٦) .

وهكذا يبدو لنا من شهادات التاريخ القديم التى تناولت تربة مصر :

١ ـــ أن النيل ، أو بترجيح اكبر ، أن جزءا من مياهه كانت تجرى داخل صحراوات مصر الغربية عن طريق وادى النطرون ونهر بلا ماء .

٢ ـــ أن المياه قد دفعت الى الوادى الحالى ولعلنـا نستطيع ان نفسر بهذا ، لماذا كانت مياه الفيضان فى عصر هيرودت ترتفع الى خمسة عشر ذراعا بينما لم تبلغ فى زمن موريس الا ثمانية أذرع فى حين أنها اليوم ، تبلغ ثمانية عشر ذراعا .

---

(٢٦) تحمل هذه الترعة فى البداية وهى تمر بولاية الجيزة اسم ، ترعة اللبن ، ثم ترعة الاسراء ، ثم تستعيد فى ولاية البحيرة اسمها الذى تسمى به فى مصر العليا وهو اسم : بحر يوسف .

٣ ــ ان النيل بعد هذه العملية قد جرى بأكمله بموازاة التلال الليبية، وشكل لنفسه المهد الذى نراه فى مصر السـفلى ، وفى جزء من مصر الوسطى .

٤ ــ أن النيل قد « حمل » على الشط الأيمن وأن هذه الفترة قد سبقت مباشرة الوضع المنتظم للفروع السبعة للنيل وتكوين الدلتا (*) .

٥ ــ أن الشهادات الجغرافية التى عاصرت الوقائع السابقـة ، تؤكد بالاضافة الى ما قلناه ، أن مياه النيل تميل للاتجـاه نحو الغرب، وهو ميل يوضحه فى مصر ، كما هو الحال فى كل بلد آخر ، فى أى موقع آخر ، فعل وتأثير الطبوغرافية العامة للارض .

ويتبع هذا الرأى الأخير ، أن المشروع الذى كان لدى البوكيرك والذى كان يُرمى الى تحويل مصر الى أرض جرداء ، بتحويل مجرى النيل ، كان ممكن التحقيق لو انه قد دفع بمياه النيل الى الصحراء الغربية ، أكثر منه ممكنا لو انه دفعها الى اتجاه البحر الأحمر ، كما كان يقضى مشروعه .

ان وادى النهر بلا ماء لبس هو النقطة النائية فى هذه المنطقة ،اذ بمكن للمرء أن يتوغل من هنـاك الى داخل أفريقيـا ، فسكان الطرانة يذهبون الى ماوراء هذا الوادى لقطع السمار ، الذى تنقله قبيلة عرب الجوابى من قراهم ، ليبـاع فى منوف (٢٧) حيث يستخدم فى صـناعة ارق انواع الحصر ، ولكى نتوجه من وادى نهر بلا ماء الى المـكان الذى

(*) انظر دراستنا عن بحيرة المنزلة . (المجلد الثـالث من الترجمة العربيـة) .

(٢٧) منوف : هى احدى مدن الدلتا ، وتقع مباشرة امام الطرانةعلى بعد فرسخين من فرع رشيد ، وأربعة فراسخ من فرع دميـاط ، وعلى الشط الشرقى لترعة الفرعونية ، التى تعبر ، بالمثل ، الجزء الجنوبى من الدلتا ، ابتداء من فرع دمياط ، حتى فرع رشيد ويقفلها عن جهة فرع دمياط جسر يسمى الفرعونية ، وبهذه الطريقة أمكن توزيع عادل للمياه، بحيث حصلت الولايات الواقعة الى شرق او الى غرب الدلتا ، على نفس الامتيازات ، وتستطيع ادارة متنورة، بأيسر السبل ،أن تعالج الاضطرابات والمتاعب التى نجمت عن جشع وجهالة الحكومة السابقة ، عندما فضلت ولاية المنصورة ودمياط على حساب ولاية البحيرة ، التى تحول جزء كبير من اراضيها بسبب نقص المياه ، الى صحراء حقيقية .

تقطع منه السمار ينبغى أن نسير ثلاثة أيام كاملة من شروق الشمس حتى الغروب ، دون أن يكون بامكاننا أن نعثر على ماء طيلة هـذه المسافة ، وحتى نبلغ المنطقة التى ينمو فيها السمار .

زحف الرمال :

قلنا فى بداية هذه الفقرة ان وادى نهر بلا ماء قد غص بالرمال . وما يقال بخصوص هذه الرمال هو نفس مايمكن قوله بخصـوص الرمال التى توجد فى وادى النيل ، فقد حملتها الرياح من فوق الهضاب الواقعة الى الغرب . وحيث أن وادى النطرون ووادى نهر بلا ماء لا ينفصلان الا بواسطة تل ضيق ، فان الوادى الأول يكاد لا يسـاهم على الاطلاق فى زحف الرمال هذه ، على الرغم من أنه توجـد على يمين الوادى أو الى الشرق منه ، تلك الهضبة الواسعة التى تفصله عن النيل . ويدل ذلك بوضوح على تحرك محدد للرمال من الغرب الى الشرق ، وقد كانت هذه الحركة ملموسـة منذ وقت طويل ، لدرجة سببت أشد القلق على مصير تلك المنطقة شديدة الخصـوبة من أرض مصر ، وهى تلك التى توازى الشاطىء الأيسر للنهر .

ودون أن نخرج كثيرا عن الاطار الذى حددناه لأنفسنا ، نستطيع القول بأن الكثبان التى تقع فوقها قرية منية سـلامة والتى تضم أتريس ووردان (*) قد تكونت بفعل انتقال الرمال من الصحراوات الليبية ، عن طريق الرياح القادمة من الغرب ، وتحت هذه الكثبان توجد تربة رسوبية تكونت من طمى النيل اى أنها بمثابة قاعدة لهذه الكثبان ، وترتفع منهـا أشجار جميز بالغة الجمال ، لتخرج من قلب هذه الكثبان القاحلة .وتصل الرمال فى هذه المنطقة ، وفى مناطق أخرى الى النيل ، كما يصل رماد فيزوف الى شاطىء البحر . وتردم الرمال الطريق الموازى للنهر ،وتضطر المسافر الى اجتياز هذه الأرض المرتفعة والمتحركة .

ويؤدى هذا الأمر ، بالاضافة الى ماقلناه فى دراستنا عن بحيرة المنزلة ، الى أمور نوجزها فيما يلى :

(*) انظر الخريطة الطبوغرافية لمصر .

هناك ثلاثة اسباب مجتمعة عملت منذ وقت طويل على حصر أرض مصر وتدهور خصوبتها . وهذه الأسباب هى : عمل الحكومة وهـو فى عمومه ذو أثر مضاد للصالح العام ، تقلبل فاعلية مياه النيل وهو الأمر الذى أدى نتيجة للادارة السيئة للحكومة الى طغيان مياه البحر علىالأجزاء الدنيا وغير المستوية من أرض مصر ، وأخيرا ذلك العمل المستمر والدءوب للرياح التى تدفع رمال الصحراوات من الغـرب الى الأراضى الصـالحة للزراعة والى الترع والنهر .. ومن الممكن تعـديل الظروف فيما يختص بالسببين الأولين، لكن ليس ثمة جهد بشرى يمكنه أنيتصدى لزحفالرمال . وفى غيبة العوامل الطبيعية القادرة على ذلك ، فقد أدت السذاجةوالجهل الى تلمس الخرافات ، فنقرأ مثلا عند مؤلفين عـرب (٢٨) ان أبا الهول، الذى يشاهد بالقرب من الأهرام، هو بمثابة تعويذه لايقاف الرمالالليبية، ومنعها من التوغل فى أراضى ولاية الجبزة .

ومع ذلك فاننا نعتقد أن بامكاننا أن نضـيف الى ما سبق ، وكما امكننا أن نلاحظ ذلك بأنفسنا ، أن غزوة الرمال الليبية تقارب من نهايتها، بالنسبة لمصر السفلى على الأقل ، حيث لا يوجد فى الواقع الا القليل من الرمال المتحركة فوق الهضبة ، الى الغرب من النيل .

وهذه الهضبة من الحجر الجيرى .

وتكاد تكون كل الرمال التى ترى فى وادى النيـل من نوع الرمال الصوانية ، فلا يبقى اذن للرياح الا الرمال التى يمكن أن تنتج عن تفتت الأحجار الجيرية .

وبالاضافة الى ذلك ، فان وادى نهر بلا ماء ، يقوم بدور الحـاجز ضد الرمال التى تزحف من داخل أفريقيا نحو النيل ، ويوازى هذا الوادى ولايتى الجيزة والبحيرة ، وفى الحقيقة فان وادى نهر بلا ماء هذا يغص بالرمال ، لكن الرمال لايزال أمامها الكثير حتى ترتفع الى حواف حوضه،

---

(٢٨) انظر جغرافية عبد الرشيد ، الذى كتب عام ١٤٠٣ من العصر الحـديث (الميـلادى) .

بل انه حتى لو حدث ذلك، فسوف يكون على الرمال أن تسد وادىبحيرات النطرون قبل أن تبلغ الهضبة لتنتقل من هناك الى وادى النيل .

ان عمل الرياح على الرمال الموجودة فى هذا الوادى هو بلا جدال اكثر الأمور مدعاة للاسف ، وهذه الرمال تتحرك وتغير من مكانها ،وسوف تصل بعد انتقالها من صخرة لأخرى الى النهر ، كما يشاهد ذلك فىالأماكن التى يضيق فيها وادى النيل ، فى حوض مصر .

ومع ذلك ، فليست الرياح وحدها هى التى تنهض بكل العبء لـــكى تدفع بالرمال نحو النيل ، فمياه النيل نفسها ، بتحميلها على الشطالأيسر، وبنحرها لهذا الشط ، تسعى بنفسها حثيثا نحو الرمال .

الفصل الثالث

عن الأديرة القبطيــة

انشــئت الأديرة القبطيــة الموجودة فى وادى النطرون فى القرن الرابع ، ومع ذلك فيبدو أن هذه الأديرة قــد أعيد بنــاؤها أو ترميمهــا مرات عدة ، منذ هذا التاريخ . وثلاثة من هذه الأديرة قد بنيت على شكل مستطيل ، يبلغ طولها من ٩٨ الى ١٤٢ مترا ، ويتراوح عرضـــها مابين ٥٨ الى ٦٨ مترا ، الأمر الذى يؤدى بمتوســـط مساحتها الى ٧٥٦٠ مترا مربعـــا .

ويبلغ ارتفاع جدران السور ثلاثة عشر مترا على الأقل ، أما سمكه فيبلغ عند الأساس من ٢ $\frac{1}{2}$ الى ٣ من الأمتار وهى مبنيـــة من خامات جيدة وبشكل معتنى به . ويسيطر على الجزء العلوى طوار يبلغ عرضه مترا واحدا . وبالحائط فى أعلى الطوار كوات بعضها الى داخل الجدار وبعضها تميل وتنزلق الى خارجه حتى يسهل الدفاع عن النفس ضد العربان ، وذلك بقذفهم بقطع من الحجارة حيث أن أنظمة الرهبـــان تحرم عليهم استخدام الأسلحة النـــارية . ولهذه الـــكوات المنزلقة الى الخارج ، اقنعة لتأمين الناس من طلقات البنادق .

وليس للاديرة الا مدخل واحد ، وهو خفيض وضيق فلا يبلغ ارتفاعه اكثر من متر ، كما لا يصل عرضه لأبعد من مترين ويغلق هذا المدخل من الداخل باب شديد السمك ، مزود بمزلاج فى أعلاه وبقفل خشبى قوى « ضبة » فى وسطه ، كما انه مزود عند أسفله بعارضة حديدية تخترقها مسامير ذات رءوس ، وبخلاف ذلك فان مدخل الدير مقفل على نحو ما وباحكام من الخارج ، وذلك بواسطة رحوين من الجرانيت موضـــوعتين على جانبى المدخل الضيق ، وقطر كل منهما اقل بقليل من ارتفاع المدخل ويسمح سمكها بأن ينهضا فى ثبـــات . وتشرف على الباب شرفة دفاعية يمكن منها احراق المهاجم والقاء الحجارة فوقه . وعندما يراد الاختباء ،

ببدأ راهب موجود خارج الدير. فى دحرجة واحدة من الرحوين بواسطه عتلة ، ثم يثبتها ، ثم يدحرج الأخرى وينسل الى الداخل ليجر ، نحوه الرحى الأخرى فتأخذ مكانها بشكل طبيعى الى جانب الأولى وعندما تتماسك الرحوان يقفل الباب، ومن طريق الشرفة الدفاعية يكون من السهل اكتشاف أولئك الذين يريدون زحزحة الرحوين .

والى جوار هذه الشرفة ، يوجد الناقوس الذى يتدلى منه حتى يلامس الأرض حبل مصنوع من ليف النخيل . وفى بعض الأحيان يستيقظ الرهبان اثناء الليل على صوت الناقوس ، ومع ذلك فهم على الدوام يلزمون الحذر والحيطة ، حتى ولو تعرفوا بالفعل من حيث هم أعلى الأسوار ، على أنهم يتعاملون مع أناس أصدقاء ، فانهم لايقررون فتح الباب امامهم واستقبال الطارق الا بعد أن ينزل راهب عن طريق الشرفة متعلقا فى طرف حبل مربوط فى رحى صغير ليرى عن قرب ما ان كان ثمة من يبغى اخذ الدير على غرة ، وعندما يأخذ فى فتح الباب يبقى واحد من الرهبان فى أعلى الحائط متخذا وضع الحارس ، حتى يلحظ ما ان كان هناك من يأتى على بعد من العربان .

ولكل دير بداخله برج مربع الشكل ، لا يمكن الدخول اليه الا بواسطة جسر متحرك يبلغ طوله خمسة أمتار ، ويبلغ ارتفاعه فوق سطح الأرض ستة أقدام ونصف القدم . ويرفع الجسر بواسطة حبل أو سلسلة تمر من خلال الجدار ، ويلتف هذا الحبل حول رحى أفقية ، وينتهى البرج بسطح علوى فوق جدار السور .

وللاديرة الثلاثة التى تجاور البحيرات آبار محفورة يبلغ عمق الواحدة منها ثلاثة عشر مترا ، ويوجد بكل بئر حوالى المتر من المياه العذبة التى ترفع بواسطة ساقية ذات قواديس . وتستخدم المياه فى احتياجات الرهبان ولرى حديقة صغيرة تنمو فيها بعض الخضروات ، كما تزرع فيها بعض الأشجار مثل النخيل والزيتون والتمرهندى والحناء والجميز . وعند نهاية شهر يناير ، يبلغ ارتفاع مياه الآبار حده الأقصى ، لتنخفض اثناء الصيف لكن الآبار لا تنضب مطلقا .

ويمتلك دير السيريان شجرة سانت افرام (٢٩) ، وهى شجرة مقدسة يبلغ ارتفاعها ٦ أمتار ونصف المتر ، ويبلغ محيطها ثلاثة أمتار .. انها شجرة التمرهندى (٣٠) التى يظن الرهبان السيريان أنهم وحدهم الذين يحوزون مثل هذه الشجرة « أى انها لا توجد عند سواهم » .. وهذه الشجرة بالغة الندرة فى مصر السفلى ، لكنها بالغة الانتشار فى الصعيد.

وليس للدير الرابع الذى يحمل اسم دير الانبا مقار الا بئر واحدة، مياهها مالحة ، ولكن ثمة بئرا محفورة على نحو طيب (٣١) ومياهها بالغة العذوبة تقع خارج الدير وعلى بعد أربعمائة متر منه ، كما يوجد نبع عند الانحدار المقابل لهذا الممر الجبلى ، وللديرين الأخرين بالمثل نبع يجاورهما.

وصوامع الرهبان عبارة عن حجرات ضيقة ، لا يصلها من ضوء الا عن طريق المدخل الذى يبلغ ارتفاعه اكثر من المتر . وأثاثهم ليس سوى حصيرة وجرة وقلة (٣٢) . والكنائس منظمة على نحو طيب ، لكنها تزدان بصور رسمت بخشونة ، وبخلاف ذلك فكل شىء مضطرب ، غير منتظم وغير نظيف وخال من الذوق . وحيث أن فقر الأديرة لايسمح لها مطلقا باتخاذ زينات فاخرة ، فان الرهبان يجدون فى تجهيزها بأشياء

---

(٢٩) يحكى أنه حدث فى الأزمنة الأولى لحياة الأديرة ، ان شكا الرهبان من ضيقهم بحالتهم ، ومن أنه لا ينمو حولهم فى وحدتهم القاحلة تلك اى نبات . ولكى يقوى القديس افرام من حماستهم ، ويزيد من ايمانهم ، فقد امر احد اتباعه بأن يزرع عصاه فى الرمال ، مخبرا اياه أنها ستغدو شجرة ، وبعد فترة تردد اطاع الراهب الشاب . ويقال ان المعجزة قد حدثت وان العصا قد مدت لها جذورا وأنبتت لها فروعا ، وانها هى نفس الشجرة التى لا تزال تنهض حتى اليوم وتحمل اسم شجرة القديس افرام أو شجرة الطاعة .

(30) Tamarindus indica, lin.

(٣١) يبلغ عمق هذه البئر خمسة أمتار ، وهى على شكل مربع ، طول ضلعه متر وثلث المتر ويبلغ ارتفاع الماء بها اقل من المتر بقليل .

(٣٢) يقال لها ابضا وبشكل اكثر شيوعا : بردق ، وهذه الكلمة الأخيرة تركية ، والقلل عبارة عن آنية مصنوعة من الطين المعد والمحروق، بطريقة تسمح بنسوغ خفيف للمياه ، وهى تستخدم فى تبريد الماء ، وذلك بتعريضها ، هي ، لتيار الهواء .

مقلدة .. وهكذا فبدلا من المصابيح الفضية تجد لديهم مصابيح من بيض النعام لها تأثير جميل لحد لا بأس به .

ورجال الدين هؤلاء ، هم فى العادة عور أو عميـــان ، ولهم ملمح وحشى ، حزين وقلق ، ويعيشون على بعض الدخول ، وبصفة أساسية على العطايا والاحسان ، ويتغذون على الفول والعدس المطبوخ بالزيت ، وينقضى وقتهم فى الصلاة ، ويحترق البخور فى هذه الخلوات التى يحيط بها بحر من الرمال .. ويعلو الصليب القباب عالية الارتفاع .. ويوجد تسعة من الرهبان فى دير براموس وثمانية فى دير السيريان ، واثنا عشر فى دير الأنبا بيشوى وعشرون فى الدير الرابع ، ويعنى بطريرك القاهرة برعايا هذه الأديرة الأربعة .

اننا فى الحقيقة لنجهل ماتكون عليه مبـــاهج وملذات حيـــاة هؤلاء الرهبان الورعين والمتوحدين ، فنحن لم نلمح شيئا يمكن أن يشتم منـــه أنهم يعتنون بتثقيف أرواحهم ، ولا بتنشيط أيديهم . والـــكتب التى بين يديهم ليست سوى مخطوطات صوفية مكتوبة على رق أو على أوراق من القطن ، وبعضها مكتوب بالعربية ، وبعضها الاخر مكتوب باللغة القبطية ، وعليها فى الهامش ترجمة عربية ، وعندما تصفحنا المخطوطات الاخيرة ، وجدنا أنها ربما تعود الى ستمائة عام . وقد عبرنا داخل هذه الاديرة ، ووقفنا على كل تفاصيلها ، وقد أخذ الرهبـــان بسرور بالغ اســـتعدادهم لزيارتنا هذه ، وعدوها بمثابة تقدير لهم أرضى كبرياءهم .. وقبل خروجنا تقبلنا خبز القربان (٣٣) الذى تدموه لنا .

ويقوم رجال الدين تجاه العربان بواجب الضيافة الاجبارية . وهم مضطرون أن يكونوا على الدوام فى كنف حراستهم ، ولذلك فهم عنـــدما يذهبون من ملجأ لآخر ، لايفعلون ذلك الا فى أثناء الليل ، ويمر العربان بالأديرة أثناء جولاتهم ، ويتوقفون ليتناولوا طعامهم ، ولـــكى يستريحوا ويريحوا خيولهم ، ويقدم اليهم الرهبان واجب الضـــيافة هـــذا من وراء الجدران ، ذلك أنهم لا يفتحون لهم الأبواب مطلقا ، فثمة بكرة موضوعة

(٣٣) يصنع خبز القربان دون خمور ، وهو مستدير ، ويبلغ سمكه سمك الاصبع ، وهو فى حجم كف اليد ، ويغطى سطحه بحروف عربية .

على احدى زوايا السور ، الغرض منها ان تنزل بواسطة حبل قفة الخبز والخضار والشعير المخصص لهم . وهم مضـطرون للسلوك على هـذا النحو حتى لايتعرضوا عندما يقابلهم العربان خارج الأديرة للنهب بل والقتل على ايدى هؤلاء . وحيث أنهم يعيشون فى وطأة هذا الخوف والقهر فانهم يتحملون بنفاد صبر متعصبى الديانة المسيطرة . وتلك هى الآفة الرهيبة لهذه الأفـكار المسبقة ، التى تؤدى الى ان يكون اختـلاف الدين ، بل وحتى اختلاف المذهب سببا فى خلق أعداء متباغضين فى هـذه البلاد، ليس فقط بين اتبـاع المسيح واتباع محمد ، بل وحتى فى داخل الاسلام نفسه بين أولئك الذين يتبعون مذاهب مختلفة فى أطار الدين الواحد ، وكان الرهبان يسألوننا ــ وكأنه أمر دينى مقدس وبلهجـة لا تخلو من غرض ــ وماذا سيكون موقفكم من المسلمين (*) ؟ ولم يكن هذا أول سؤال من نوعه يوجه الينا ، منذ وطئت اقدامنا أرض مصر .

ومع ذلك فان المصلحة والخرافة تقربان فى بعض الأحيان بين هؤلاء الخصوم الطبيعيين ، فيحدث على سبيل المثال فى مناطق معينة ان يرسل مسلم ، يريد ان ينشىء برجا للحمام ، الى اديرة الصحراء التماسا مصحوبا بهدية مناسبة ، ويتقبل الرهبان الورعون الهدية ، ويعطونه فى مقـابلها بطاقة بها عبارات دينيـة ، من شأنها ، عندما توضع فى البرج وحسب الاعتقـاد الشـائع ، ان تجعله مزدحمـا بالحمام ، وأن تجلب له البركة والازدهار .

(*) الترجمة هنا بتصرف طفيف . [المترجم]

الفصل الرابع

عن عرب الجوابى وعن البدو

يتردد على شواطىء بحيرات النطرون كل عام عربان الجوابى(٣٤)، وهم أبنـاء قبيلة عربية رحالة ومضيافة ، وتعسكر هذه القبيلة هناك مع قطعانها فى فصل الشتاء . ويعمل هؤلاء العربان فى خلال هذا الفصل من العام فى نقل النطرون والسمار ، كما يقومون بنقل البلح ، ولكى يحصلوا عليه ، يذهبون فى شكل قوافل الى سيوة ، واحة آمون ، ويستغرقون فى رحلة الذهاب الى هناك من ١٢ الى ١٥ يوما . وهؤلاء العربان يعيشون فى حالة سلم دائمة (٣٥) ، فهم مسالمون ، يتجولون هنا وهناك بحثا عن المياه والمراعى لماشيتهم . وتحتفظ هذه القبيلة اكثر من سواها بالعادات القديمة ، وابناؤها رعاة بسطاء لا يميلون لاحتراف الزراعة . وهم رقيقو الحاشية ، لطيفو المعشر ، ولا يحسون بأدنى غضاضة من نوع الحياة التى يحيونها . ومع ذلك فعواطفهم متأججة، وبخاصة عاطفة الحب ، الذى هو صنو للغيرة فى كل البلدان ، وخاصة عند الشرقيين . وقد تدفعهم هذه العاطفة فى بعض الأحيان الى سلوك متطرف ، بالغ القسوة (٣٦) .

---

(٣٤) رؤساء قبيلة الجوابى هم الشيوخ : قراميط أو غالب ، وهو شيخ القبيلة الأكبر ، والحاج عيسى ابو على ، والحاج طه ابو ديل ، وتتكون هذه القبيلة من حوالى الفى رجل ، وقد يصل عدد ماتملك من خيول الى الستين .

(٣٥) أناس مسالمون ، لا يبدأون مطلقا بشن الحرب ، ولا يشهرون السلاح الا للدفاع عن النفس ، وهو أمر نادر الحدوث ، وهم ينصرفون عادة لكسب المال .

(٣٦) هواد ، رب لأسرة كبيرة العدد ، وشيخ مسن يحظى بالاحترام، ومن اتباع الحاج طه ، وذات يوم وجد ابنه الوحيد قتيلا الى جوار زوجته ، وكانت تلك متزوجة من قبل من رجل آخر ، طلقها لبعض التعللات الواهية ، ولما كان هذا الأخير مجنونا بحبها لدرجة السعار ، فقد أقسم

=

وملابس الجوابى ، حرام وبرنس وهو نوع من المعطف الذى يشبه الغفارة التى تستخدمها الكنيسة الرومانية عند اقامة قداس ، وهو من الصوف الأبيض. وتستخدم هذه الأقمشة فى صنع ملابس الرجال والنساء، وهى تصنع فى النوبة ، ويشتريها العربان من القاهرة ، وبصفة خاصة من الاسكندرية .. وتغزل النسوة وبر الماعز ليصنعن منه أقمشة الخيام وبعض البسط العادية .

وتتمثل ثروة الجوابى ، وعموما كل عربان الصحراوات ، فى الجمال وقطعان الأغنام والماعز ، بينما تتمثل ثروات من استوطنوا القرى منهم فى الماشية الكبيرة وقليل من الجمال . ومن ذا الذى كان يدور بخلده أن الثروة فى وسط هذه الصحراوات القاحلة ، شأنها فى ذلك نفس شأنها عند الأمم المتحضرة، يمكن أن تصنع هذا التمايز وتبتعد بأصحابها عن حياة الفطرة ؟ فليست كل الأمهات العربيات يرضعن بأنفسهن أطفالهن ، اذ تتخذ الثريات منهن لأطفالهن مرضعات . أما أولئك اللائى لا يسلمن أبناءهن لأمهات مأجورات ، فيعرفن فيما يبدو الأهمية التى توحى بها هذه السن الحنون للشعوب المتحضرة . وعند الهجوم على مخيم عربى ، لم يتخذ احتياطاته الكافية ضد المفاجآت، يركب الرجال على الفور خيولهم ويهربون سريعا تجاه النيل ، وتبقى النسوة وحدهن مهجورات ، ولكى يبقين بطش جنودنا وابطاء زحفهم يتسترن على نحو ما بأطفالهن ويضعنهم أمامهن ، وقد يتم هذا من جانبهن بدافع من الغريزة وحدها ، كما قد يتم بعد انعام الفكر ، لكن مثل هذه العقبات لم تكن لتوقف زحف رجالنا الشجعان،فكانوا يلتقطون اثناء جريهم هذه المخلوقات البائسة ويحملونهم ثم يودعونهم على مقربة من أمهاتهم ويواصلون ملاحقة الأعداء .

= هذا المخبول أن يقتل بيده من يتزوجها . وكان عند كلمته ، وحيث لم يستطع هواد أن يتحمل رؤية قاتل ابنه ، فقد انسحب الى الصعيد ، فجر معه، دون قصد منه ، العديد من الأسر ، وحين لاحظ هذا الأب المسكين أن انسحابه قد ادى الى حدوث اضطراب فى القبيلة ، فقد آثر أن يكظم آلامه حتى لا يؤذى الصالح العام لقبيلته ، فعاد الى كنف الحاج طه ، لكنه كان يشاهد على الدوام حزينا وعيناه مليئتان بالدموع ، وعاش حياة مليئة بالألم والضنى .

ومن العسير ألا تدب الفوضى فى مخيم استولى عليه عنوة ، ففى هذه الحال ترى النسوة العربيات وهن خائفات من أن تطبق عليهن شريعة المنتصر ، ويلجأن كى ينفرن منهن رجالنا ، الى تكتيك شاذ وهو أن يلطخن وجوههن بروث البقر .

ويحمل عربان الصحراء اسم عرب الخيش أى عرب الخيام ، أما الساكنون خلف الجدران، فقد كانوا فيما مضى عربا رحلا ،وعندما اقتربوا من بلدان مزروعة ظلوا لفترة تحت الخيام ، ثم بدأوا شيئا فشيئا يبتنون لأنفسهم بيوتا مثل بيوت فلاحى مصر .

وليس هناك عقد يربط أفراد قبيلة ما بشيخها ، ويعود هذا الشيخ فى معظم الأحيان الى أصل ضارب فى القدم ، يسر الناس أن يعرفوه، ومع ذلك فعليه لكى يصبح على رأس قبيلته ، أن يستخدم الاقناع والمهارة والمرونة ، وباختصار كل الكياسة المفترضة فى حاكم ماهر ، اذ أن عليه فى الوقت نفسه أن يعقد السلم أو أن يشن الحرب ، وأن يقضى فى كل مايمكن أن يكون نافعا للقبيلة .

وما أن يعقد سلام مع قبيلة أو ما أن يتم تعامل معها حتى يخلع على شيخها جبة وشال . وعادة تقديم الهدايا أمر مستقر ، حتى أنه لا يتيقن أن الاتفاق قد تم بدون ذلك .

ويتفاوض شيوخ العرب فى **كرامة** أو مع استخدام العنف ككل المخاتلين . ان مايسمونه اكل العيش والملح مع الحلفاء الجدد ، ذلك الأمر الذى يحظى بالاحترام فيما يقال ، ليس سوى فعل شائع أملته العادة ، فلقد برهن عربان ضفتى النيل أنهم لا يحترمون العهود ، فهم ينتهكون المواثيق التى وضعوها ذات حين ، حين أملى عليهم ذلك ضعفهم أو مصلحتهم .

وعندما يذهب العربان للقاء شخصية يحترمونها ، فانهم يتركون خيولهم على بعد مائة خطوة ، ثم يتقدمون اليه سائرين على أقدامهم .

ولا يعرف العربان قوانين أخرى غير قانون القصاص ، وحيث لا يوجد قانون رادع ، ولا قضاة يستطيعون تنفيذه فسوف يبقى القتل بلا عقاب

ما لم يات الاغتيال ، ليقابل هـذا الضرب من ضروب اسـتخدام القوه ، وعندئذ فان ما ننظر اليه نحن على اعتباره جريمة أو جبنا ، يغدو انتقاما مشروعا يتابعه أهل القتيل من جيل لجيل .

وتغذى الاغتيالات نوازع الحرب من قبيلة لأخرى ، أو بين القبائل والقرى ، ويقال عندئذ ان بين هؤلاء دما . وفى بعض الأحيـان يضطر الناس أن يدفعوا ثمنا لاعادة شراء الدم واحلال السلام « الدية » ، وان كان ينظر الى ذلك باعتباره عارا ، وعندئذ يصبح على الضعيف المتخاذل أن يدفع جزية مضاعفة للأقوى .. أما القرى التىترفض أن تدفع فتتعرض للسلب والنهب ثلاث مرات ، ويصيب مثل هـذا السلب القرى بالفزع، وينظر الفلاحون الى العربان كما ينظرون الى وباء مخيف . سألت مرة احد مشايخ قرية ما : هل حل الطاعون بقريتكم هذا العام ؟ فأجاب ،نعم مرتين ، فلقد حل الطاعون والعربان .

والغرام بالمولود الذكر أمر ذو مذاق طيب ومرغوب عند العرب ، كما هى الحال عند كل أمم الشرق .

ويؤدى العربان الصلاة خمس مرات فى اليوم ، ويتناولون الطعام قبل صلاة الظهر وقبل الصلاة الأخيرة « العشاء » عند انتهاء الغسق ، ويكفى طعـام اثنين من سكان القرى لاطعـام عشرة من العربان ،فهؤلاء يأكلون القليل من الخبز ، ويستخدمون لطحن الدقيق طاحونة ذات ذراع مزودة بشقين صغيرين منالحجارة « رحى » ويأكلون كذلك البلح،ويشربون القليل من الماء ، ويفضلون لبن النوق ، وينامون حوالى ست ساعات فى اليوم . وقلما يأكل العربان اللحم ، ولا يعرف هؤلاء وجبـات البـذخ: فخروف محمر يقدم بأكمله بعد قطع رأسه ، هو الوجبة الفاخرة لديهم، وهذه ، لا يقدمونها الا ترحيبا بزائر كبير أو شيخ عربى .

ولا يبالى العرب بقياس الوقت الا لمعرفة أوقات الصلاة .ويقدرون الوقت بقيـاس طول ظلهم ، ويقيسون هذه الظلال بقـدميهم عاريتين، ويضعونها واحدة أمام الأخرى بالتبادل ، ويرون ـــ كقاعـدة عامة ـــ أن الظهر يتحدد صيفا عندما يبلغ طول الظل قدما واحدة والشمس عمودية. ويتحدد نفس الوقت شتاء عندما يبلغ طول الظل تسعة أقدام . أما الفترة

الفاصلة بين منتصف النهار وغروب الشمس « العصر » فيتفق حلولها صيفا عند بلوغ طول الظل سبعة أقدام .

ويعتقد العربان بسبب جهلهم وسذاجتهم بأن علاج الحمى وعلاج بقية الأمراض ، يتم بأن يوضع تحت رأس المريض ورقة تحتوى على بعض كلمات سحرية ودينية كتبها أحد الدراويش . وهنا ينام المريض وهو شديد الثقة فى هذه المذكرة « الطبية » ، وأكثر من ذلك فى قدرة العناية الالهية .

ويجد النسوة العربيات عند نهاية فترة الحمل ، عند بنات جنسهن ، العون والمساعدة فى عملية الرضاعة ، ويؤكد البعض أن الفتيات أو النسوة الأرامل اللاتى يصبحن حاملات يقتلن على يد أهليهن ، هذا ان لم يقتلن انفسهن بأنفسهن .

ويخشى العربان كثيرا وبائى الجدرى والطاعون . ويسارع الأشخاص الذين لم يصابوا مطلقا بهذين المرضين الى الابتعاد عن أولئك الذين يصابون بأى منهما . ويترك الجدرى ندوبا كبيرة ، وبرغم كل أفكارهم الدينية المسبقة ، يقوم العربان باحراق جثث الذين ماتوا بالطاعون ، ويولون ذلك الأمر عناية شديدة .

ويقدر عمر الأطفال بالنسبة الى أحداث أو فترات معينة ، وهكذا فان مواليد هذا العام ستقدر أعمارهم بالنسبة الى دخول الفرنسيين الى مصر . ولدى العربان نوع من التقويم يغطى حوالى ستة أعوام . وليس ثمة سجلات عامة ، لذلك يكتب تاريخ مولد الطفل على قطعة بالية من الورق ، أو على صفحة من القرآن (الكريم) كما يكتب تاريخ ميلاد الأطفال فى القرى على أبواب المنازل أو جدرانها .

ويؤدى بهم نقص الأدوات الطبية الى ممارسات شاذة لعلاج جروح الأسلحة النارية ، يهدفون من ورائها الى الاستعاضة عن آلات الجراحة ، لاخراج المقذوفات النارية التى لم تصل لأبعد من اللحم أملا فى الشفاء ، وهذه الممارسة هى مطابقة شق أحدث فى الجزء الخلفى لضفدعة بشق الجرح وربط الاثنين برباط محكم ، ويزعم العربان أن الحركة المرتعشة التى تحدثها الضفدعة وهى تموت كفيلة بجذب المقذوف الى الخارج .

وينظف العربان الجرح بالزيت أو الزبد ، ويكوونه بالجنزار ، حتى يمنعوه أن يلتئم قبل الأوان ، ولنفس الغرض ، ولكى يساعدوا المصاب على التحمل الجميل ، يضعون فى الجرح زلطة صغيرة ، وهو أمر يماثل الكى الذى نستخدمه لهذا الغرض فى أوربا .

ويصحب العربان معهم أينما ذهبوا ، الجزء الأكبر من ثروتهم ومئونتهم ، ويحتفظون فى مخيمات اقامتهم بالقش المهروس « التبن » والحبوب ، وذلك فى تجويفات كبيرة محفورة فى الأرض . وتحدد مجاورة الآبار العذبة وبعض قطع الأرض ذات الانتاج الضعيف ، أو البحيرات الملحة التى يقدم استغلالها بعض النفع — يحدد كل هذا اختيار مكان مخيماتهم ، وبالاضافة الى ذلك فللعربان على مبعدة أربعة أو خمسة فراسخ من مشارف الأرض المزروعة ، مخازن مسورة بسور عال . والى الأبعد من ذلك ، فى الصحراء ، توجد مستودعات فى الرمال توضع عليها علامات لا يعرفها الا أصحابها .

ولكى يحتمى الجوابى من سلب وانتهاب القبائل الرحل لهم ، فانهم مضطرون لاستضافة هؤلاء فى مخيماتهم ولتقديم الشعير لجمالهم ، ولا يعرف العربان الرحل « البدو » أى نوع من القوانين ، وقد كانوا على الدوام فى عداء مع الحكومة الأخيرة التى كانت قد توصلت ، برغم ذلك و . . بعض الظروف ، الى تضييق الخناق عليهم فمنعتهم من دخول مصر .

ومنذ بضعة أشهر أخذت فتيات الهنادى (٣٧) ينشدن لنا :

عاش الشعب الذى طرد مراد من القاهرة .
عاش الشعب الذى أتاح لنا أن نرى القرى .
عاش الشعب الذى جعلنا نأكل الفطير (٣٨) .

---

(٣٧) شيخ القبيلة الرئيسية من قبائل الهنادى ، هو موسى أبوعلى ، ولهذه القبائل من ٣٠٠ الى ٤٠٠ حصان . ويرتفع الرقم الى ٩٠٠ — ١٠٠٠ اذا ما أضفنا ما تمتلكه القبائل الصديقة والمتحالفة معها من خيول ، ولعل الهنادى هم أقدم القبائل الليبية التى يتعرف عليها المرء فى مصر .

(٣٨) نوع من الفطائر المورقة والتى غمست أوراقها فى السمن ، ويأكلها الناس مغموسة فى عسل النحل ، وكثيرا ما تؤكل مغموسة بالعسل الأسود .

ولكنهم منذ تمكنا بفعل اجراءات عنيفة أن نقمع سلبهم وانتهابهم ، قد كفوا عن الترحيب بنا . وينبغى للمرء أن يحترس من العربان بالقدر الذى يحتمى به من اللصوص والسفاحين . وهم لا يوحون بأية رهبة كفرقة مسلحة مادام هناك من يقاومهم أو يزحف عليهم ، وفضلا عن ذلك فلقد توغلنا « نحن الفرنسيين » فى الصحراء التى كانوا يظنون أنفسهم فى منعة فى جوفها ، ولم تعد هذه الرمال القاحلة بغريبة علينا .

والعربان مسلحون بحراب (٣٩) يستخدمونها بمهارة ، ويقذفونها وهم ممتطون خيولهم لكنهم يجحفون بخيولهم الطيبة وذلك بإيقافها فجأة على قدميها الخلفيتين ، وهى تجرى بأقصى سرعتها وان كانوا فى نفس الوقت يبذلون قصاراهم للعناية بها الى حد لم نسمع به من قبل . ولا يغير العربان مطلقا وهم على هيئة صفوف لكنهم يغيرون متفرقين ، وهم يطلقون صيحات عالية تختلط بسباب بذيء ، وطريقتهم فى الحرب هى الطريقة التى تتبعها الفرق الخفيفة .

والخيول العربية شديدة السرعة . ويطلق الفرسان لها العنان دون أن يتركوا السرج التى يمسكون بها بيدهم اليسرى ، وهم يحملون على عدوهم، فاذا قتلوه سلبوه، وفى بعض الأحيان يحزون راسه ويحملونها على طرف حرابهم دليلا على النصر ، وعندما لايحرزون النصر يعودون ليحملوا على عدوهم عن ميمنة أو عن ميسرة أو يسعون لتحسين وضعهم بارتقاء الأماكن العالية .

لكن العرب فى العادة مسلحون على نحو غير جيد ، وبارودهم وأسلحتهم النارية بالغة الرداءة ، والبارود مغلف بطريقة شائهة . وكمية الفحم به أكثر مما يلزم، وهم يحملونه فى علب مصنوعة من الخشب،

---

(٣٩) الحربة ، قطعة حديد مربعة الشكل ، تنتهى بسن مشحوذة، وتثبت فى عصا يبلغ طولها من أربعة الى خمسة أمتار ودرجة اختراق الحربة أقل من درجة اختراق الرمح ، الذى تكون حديدته مسطحة ، لكن الجروح التى تحدثها الحربة ، بتواليها ، تكون أقسى وأخطر من جرح الرمح ، اذ تسبب الاصابة بالتيتانوس ، ويحمل العرب الذين يقطنون حول النيل الحراب والرماح ، فى حين يحمل عربان ليبيا الأسلحة النارية.

كما يحملون الطلقات بشكل منفصل فى حقيبة من الجلد ، ومن النادر أن يعبئوا بنادقهم بالخراطيش .

وكان من عادة العرب المتاخمين لمصر أن يرسلوا الى بولاق جواسيس يتخفون فى هيئة فلاحين ، وكان هؤلاء يتعرفون على نوع وحجم الفرق التى كانت تخرج من القاهرة للزحف عليهم ، ويذهبون لتقديم تقرير عن ذلك ، وعلى الفور كانت القبيلة ترفع خيامها وترسل الى أعماق الصحراء بالنساء والأطفال وكل ثمين لديهم ، ويمشى العرب لعدة أيام حتى ينهكوا خصمهم ، وفى هذه الأثناء تتجمع القبائل المتحالفة ليقرروا ان كانوا سيهجمون ومتى ، أم أن عليهم أن يكتفوا بصد هجوم العدو .

وتقيم المخيمات نقاط استطلاع فوق المرتفعات ، ويضع أفراد هذه النقاط عماماتهم فوق رماحهم ، فان رأوا أن من الأفضل أن تقوم مخيماتهم بالهجوم يتجه هؤلاء ناحية العدو أو الضحية التى قرروا الاغارة عليها ، اما فى الحالة المضادة فيعودون الى جهة المخيم .

وعندما يخشى العرب من هجوم العدو عليهم ، يتفرقون فى مخيمات كثيرة العدد ، ويستكشفون العدو عن بعد كبير ، ويحتفظون بالجمال مقيدة بالقرب من الخيام ليكونوا مستعدين للفرار فى اقرب وقت .

وعندما يشتبك المخيم مع قبائل اخرى ، تظاهر الفتيات على مرأى من المتصارعين ، ويضربن على الدفوف ، وترن فى الهواء اغانيهن لتلهب الحماسة ، ويستقبل الجرحى بعناية كبيرة من زوجاتهم وحبيباتهم .. ويقدر هؤلاء النسوة الشرف حق قدره ، ويزيد تقدير القبيلة لشيخها كلما زادت الندوب فى وجهه « دليلا على ماتلقى من جروح دفاعا عن الشرف » فهذا الشرف ، الذى هو دعامة الامبراطوريات ، يقوم بالدور نفسه عند هذه العصب البائسة من اللصوص .

وينظر الى معركة يهلك فيها عشرون أو خمسة وعشرون رجلا على انها معركة دامية ، وتظل ذكراها محفوظة فى تاريخهم .

وعلى الجيش الذى يزحف فى الليل سعيا وراء العربان أن يحذر من خطأ يجعله يتوهم أن ثمة مخيمات حيث لا وجود لأثر لها ، وينتج هذا

الخطأ ـــ وهو يحدث كذلك فى حروب البحار ـــ حين تظن اشعة النجوم عن بعد على انها نيران العربان .

ولقد أوجبت الطبيعـــة على الانسان حين وهبته غريزة التكاثر ، أن يسعى لبقاء نوعه . ويعيش فى تخوم مصر أربعون ألف عربى لا يجدون فى رمالهم القـــاحلة اى مصـــدر لحياتهم ، وهم ينظرون الى أرض مصر باعتبارها عقارا لهم . وتحت هذا الادعاء ، يأتون اليهـــا ليمارسوا آلاف الانتهابات والسرقات ، ولقد سعت كل حكومات مصر الى ردعهم ، لكنها لم تنجح فى ذلك كل النجاح .

وفى خضم هذا الصراع ، وجد الفلاح المسكين نفسه يرتعد فرقا من عمال « موظفى » الحكومة ، الذين يعتصرونه وينقـــلون كاهـــله ، ومن العربان الذين ينتهبونه ويسفحون دمه .

لقد كان هذا على الدوام قدر شعب مصر ، وكل ما نأمل فيـــه أن يتحسن مثل هذا القدر .

خط سير داورية الاستطلاع التى مرت ببحيرات النطرون والنهر الفـــارغ

المسافة المقطوعة مبينة بالأمتار أو مقدرة بالساعات	عدد الأمتار	عدد الساعات	ملاحظات
من الطرانة إلى القصر	—	١٢	بالنسبة للقوافل
من القصر إلى البحيرة رقم ٣	٦٢٨	—	
من القصر إلى الطرف الجنوبي للبحيرات	—	١½	
من القصر إلى الطرف الشمالى	—	٤	
من القصر إلى دير براموس	٧٢٣١	—	
من القصر إلى دير السيريان	٧٤٣٠	—	
من دير براموس إلى دير السيريان	٩٢٥٨	—	
المسافة بين دير السيريان ودير الأنبا بيشوى	٤٤٤	—	
من دير السيريان إلى دير الأنبا مقار	—	٣	حسب الاستدلال
من دير براموس إلى النهر بلا ماء	—	١½	حسب الاستدلال
من دير السيريان إلى النهر بلا ماء	—	١½	مع الاتجاه شمالا وجنوباً
من دير الأنبا مقار إلى النهر بلا ماء	—	١	حسب الاستدلال
من دير الأنبا مقار إلى وردان عن طريق ميت سلامة	—	١١	

وصلنا فى الخامس من بليفوز (٢٥ يناير) الى الطـــرف الشمالى للبحيرات ، ووصلنا فى السادس منه الى دير براموس ، وفى الســـابع منه عبرنا النهر بلا ماء .

الزوايا التى سارت عليها بعض اتجاهاتنا
بالنسبة لخط الزوال المغناطيسى

الاتجاه من القصر الى دير براموس	١٦٢°
الاتجاه من القصر الى دير السيريان	١٨٠
الاتجاه العام للبحيرات	٤٤
الجانب الشرقى لوادى السيريان	٧
واجهة الدخول الى دير الأنبا مقار شمالا وجنوبا	١٠

أما مداخل الأديرة الثلاثة فتطل جهة الشمال .

الدراسة الثالثة

دراسة موجزة عن عيون موسى

ج.م.ع

على الشاطىء الغربى لخليج السويس ، وعلى بعد أربعة فراسخ الى الجنوب من المدينة ، ويكاد يكون فى مواجهة وادى التيه ، توجد منابع مياه رسمتها كل الخرائط ، تعرف باسم عيون موسى ، ولسوف نقع فى خطأ بين اذا ماظننا أن اسم هذه الينابيع يستمد أصوله من العصور المصرية الضاربة فى القدم ، وأنه قد ظل يستخدم بلا انقطاع حتى اليوم، ذلك ان اسم هذه الينابيع شأنها فى ذلك شأن عين العذراء فى المطرية « هليوبوليس القديمة » ، وشأن عيون غيرها كثيرات ، لا يعود الىماقبل وقت استقرار المسيحية بمصر ، حيث تحورت أسماء قديمة ، تتصل بديانة تزعزعت مكانتها ، الى أسماء أخرى مشابهة ، فى المعتقدات الجديدة .

وعلى الرغم من أن عيون موسى أقل ملوحة من مياه آبار كثيرةحفرت فى مناطق أخرى من الصحراء ، فانها مع ذلك مائلة الى الملوحة ، ونتيجة لهذا الأمر ، فليس من خاصيتها أن تروى من الظمأ بقدر ماتروى المياه العذبة ، وان كانت تكفى للابقاء على حياة النباتات والحيوانات ، وقد روينا منها لمدة أربع وعشرين ساعة أثناء زحف شاق ، لكننا لم نسغ طعمها . ومن جهة أخرىفحيث ان هذهالمياه تجرى وتتجدد بصفةمستمرة، فانها رائقة على الدوام ، وليست لها لا رائحة ولا مذاق غير مناسبين ، فى الوقت الذى تتعكر فيه مياه غالبية الابار عادة ، بفعل الاهتزاز الذى تحدثه حركة الاغتراف منها ، والتى لها على الدوام رائحة كريهة مقززة ، وعلى سبيل المثال فان بئر العجرود الواقعة على بعد أربعة فراسخ الى شمال السويس ، والمخصصة لسقاية محمل مكة — بعد مسيرة ثلاثة أيام من القاهرة ، وهى محفورة على عمق مائتى قدم — تتحلل وتتعفن فيها المواد الحيوانية والنباتية ، التى لايستطيع أحد ان يتفادى سقوطها فيها ، ولذلك فان لمياهها — بخلاف قدراتها الطبيعية — رائحة كبريتية يتحملها المرء بصعوبة .

ولابد ان عيون موسى كانت على الدوام بذات نفع كبير لعرب الطور، الذين يسكنون ضواحى جبل سيناء . فالعرب مضطرون على الدوام ان يجلبوا من مصر بعضا مما يحتاجونه من مواد تموينية ومصنوعات أجنبية،

وعليهم فى مقابل ذلك ان يحملوا اليها منتجات الغابات الصغيرة التى تغطى جبالهم ، ولم يكن هذا التبادل ليتم الا عن طريق قوافل كان عليها على الدوام أن تتخذ من عيون موسى واحدة من محطاتها . وفضلا عن ذلك . فما أن كانت تتم منشآت بحرية فى أعماق الخليج ، وليكن فى السويس ذاتها ، أو فى وادى التيه ، أو على الطريق من البحر الأحمر حتى ممفيس .. حتى يكون من الضرورى أن يتردد الناس على هذه العيون ، لأنها مصدر لاغنى عنه ، بعد أن تنضب مياه الخزانات التى تكونها مياه الأمطار اذا ما مرت فترة من جفاف طويل .

لكن الوقت الذى كانت فيه عيون موسى — فيما يبدو لنا — تجذب اكبر قدر من الاهتمام ، هى تلك الفترة التى دارت فيها الحرب ، التى تحالف خلالها البنادقة والمصريون ضد البرتغاليين ، بعد اكتشاف طريق الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح . فمن المعروف أن هؤلاء الجمهوريين ، كى يدافعوا عن صولجان التجارة الذى احتفظوا به حتى ذلك الوقت ، والذى بدا انهم سيفقدونه ، قد أنشأوا وسلحوا أساطيل لهم فى السويس ، ولكن ليس من المحتمل على الاطلاق ان يكونوا قد أقاموا ترسانات لبناء السفن عند عيون موسى ، اذ لايقدم موقعها أية ميزة فى هذا الخصوص ، ومع ذلك فيبدو أنهم قد أنشأوا هناك موردا تتزود منه السفن بحاجتها من المياه ، لكن لم يبق شىء من آثار هذا المورد على الاطلاق ، لقد تبدد كل شىء أو قل لقد أستهلكه العربان ، ولا يجد المرء هناك أية آثار أخرى الا اساسات ، جزء كبير منها تحتى ، وهذه الآثار التى لاتزال هائلة والتى لم نكتشف الا جزءا منها فى ذلك الوقت القصير الذى امكننا أن نخصصه لها ، هى بالدرجة الأولى انقاض خزانات كبيرة شيدت بعناية . وكانت تجلب اليها مياه العيون عن طريق ترع مغطاة وكانت المياه تنتقل منها بواسطة قناة حتى شاطىء البحر . وقد اكتشف الجنرال بونابرت هذه الترعة المغطاة بكل طولها الذى يبلغ من ٧٠٠ — ٨٠٠ قامة* ، وقد بنيت من مواد بنائية جيدة ، وكانت مغطاة فى كل طولها ، وليس لها من انحناء الا عند البلاج الذى تسير تحته ، وبعد توقف استعمال

(*) تساوى القامة ستة اقدام **(المترجم)**

هـــذه الترعة ، ادت الرمال التى جلبتها المياه الى طمسها فى الخمسين قامة الأولى منها . اما الجزء الباقى ففى حالة جيدة ، بحيث يمكن اعادتها الى العمل بأقل المصـــاريف المكنة . وعلى الشاطىء تنتهى الترعةبأكمتين كونتهما الانقاض ، ولعلهما من آثار المورد الذى تحدثنا عنه ، ويتضـــح ذلك من الاسم الذى يطلق عليهما . ولابد أن يكون هـــذا المورد قـــد بنى بطريقة مناسبة ، من ناحية الشكل وطبيعة الأوانى التى كان من المعتاد استخدامها لنقل المياه اثناء الرحلات البحرية .

وعلى بعد حوالى مائتى قامة ، الى الشمال من العين الأخيرة ،يوجد جبل هائل لحد ما ، وهو يتكون شأنه شأن جبل تستاتشيو Testaccio فى روما، من أنقاض الجرار وآنية أخرى مصنوعة منفخار سيىء النضج.

وقد اكتشفنا هناك بقايا هى بلا جدال انقاض لأفران قديمة ، اذن فقد كان هناك فى هذه المنطقة منشأة هائلة لصناعة الفخار ، ولا يمكن أن يكون غرض هذه المنشأة الا صناعة الانية الفخارية، التىتكون السواقى، التى بواسطتها تنزح مياه الابار لرى الأراضى التى لايغرقها الفيضان فى كل انحاء مصر ، وفى الحقيقة فعندما اصبحت عيون موسى آهلةبالسكان، كان كل البلاج الممتد من العيون حتى الشط مزروعا ، وما زلنا نرى فيها حتى اليوم عددا لا بأس به من النخيل الصغير ، الموزع بنظام لا يمكن أن يكون قـــد تم صـــدفة . وتلك النخلات الصغيرة ، وهى فيما يبدو ليست سوى سلالات من اشجار قديمة بليت ، انمـــا هى على الأقل أدلة على وجود زراعة قـــديمة فى هذه المنطقة ، ولم تكن هذه الزراعة تتطلب اى نزح للمياه من اجل الرى ، حيث كان فى مقدور مياه العيون بسهولة أن تصل ، عن طريق قنوات غير مغطاة الى كل الأجزاء المنزرعة ، لذا لمتكن السواقى ضرورية . ولذلك فاننـــا لم نجد بين هذه الأكداس الهائلة من الفتات والحصى التى تكون المرتفع ، الا مايمكن أن يعود الى سواقى لم يتغير شكلها منذ ازمنة ضاربة فى القدم .

وكل هذه السواقى التى رأيناها كانت مصنوعة من فخار ذى كفاءة عالية لحد كبير ، ونحن نعتقد أن الغرض من هذه المنشأة الكبرى للفخار، هو صناعة الجرار الـكبيرة المخصصة لنقل المياه بحرا ، فى بلد ادت ندرة الخشب فيـــه ، بل وربما غيبة الصناعة ، الى جعل صناعة البراميل

امرا غير عملى . لذلك فقد كان أولئك الذين يفدون لجلب المياه من عيون موسى على ثقة بأنهم سيجدون الجرار التى سنسنوعبها ، وأنهم سيجدون بنفس الطريقة الآنية الفخاريه الأخرى اللازمة لاستعمالهم الشخصى .

وشكل عيون موسى ظاهره هامة فى الهيدروستاتيكا (*) فالينابيع المختلفة التى تكونها ، والتى يبلغ عددها ثمانية ، توجد كلها على قممعدد مماثل من مرتفعات مخروطية صغيرة ، تنتهى كل منها فى جزئها العلوى بفوهـــة تستخدم كحوض للعين ، ومنـــه تسيل الميـــاه على السطح المخروطى بواسطة قنوات طبيعية ، وعلو هـــذه المرتفعـــات يختلف فيما بينها ، واكثر هذه المرتفعات علوا يبلغ ارتفاعه ٤٠ قدما من مستوىالأرض المجاورة ، وقـــد نضبت عين المرتفع الأخير منذ وقت طويل ، وفوهتهـــا مليئة بالرمال التى كدستها فيها الرياح ، ولا يزال يرى هناك حتى اليوم، جذع نخلة قطعها العربان بعد أن كانت قد نمت نموا كبيرا .

ولقد كان من السهل أن نتفهم الطريقة التى تكونت بها المرتفعـــات التى توجد على قممها العيون . فقد أدت الرطوبة التى نشرتها مياه احدى العيون فى أرض مجاورة ، الى نمو خضرة دائمة حول حوضها ، وأدت أعشاب هذه النباتات الى تقليل سرعة الريح التى تصـــطدم بها ، ممـــا جعلها تتخلص من كل حبوب الرمل الـــكبيرة التى كانت تحملها ، وحيث ان سيقان هذه الأعشاب كانت تحمل تلك الرمال التى تحجزها ، والتى تترسب أسفلها ، فقد بدأت هذه الرمال تتماســـك بفعل الرطوبة ، حتى تلتحم ببعضها البعض ، مما جعلها تصمد لهبات الرياح بالغة القوة .. وقد اخذت كربونات او سلفات الجير التى تحتويها ميـــاه النبع متحللة ، والتى كانت تتعرض للهواء بفعل البخر ، أخذت تشكل بللورات بين حبوب الرمل وتشكل جلوتينا تكمل هذا الالتحام . ومن هنا فان حواف الحوض توجد عالية بعض الشيء . وكان على المياه أن ترفع من منسوبها مع كل ارتفاع للحوض لكى تخرج منه وتسيل الى خارجه ، وحيث أن الظروف التى تؤدى لحدوث ذلك هى من طبيعة يمكن أن تتكرر معها على الدوام، فانه يمكن القول بأن عملية الارتفاع مستمرة برغم بطئها ، وبعـــد وقت طويل يصبح النبع الذى يرتفع منسوبه على الـــدوام ، فى قمـــة مرتفع

(*) علم دراسة توازن المواضع وضغوطها . (المترجم)

مخروطى ، يتكون من مادة رملية وطباشيرية مالحة كمياه النبع نفسه ، تخرج منها شرارات تحت ضربات المعاول .

وحيث أن النبع الذى يعد حوضه اعلى الأحواض ارتفاعا قد نضب ، فان من الطبيعى أن نرى أن ارتفاعا يبلغ ٤٠ قدما وهو الارتفاع الذى وصل الحوض اليه — هو أقصى حد ، ويعود هذا الى درجةالمقاومة التى تقدر عليها الجدران الداخلية للقنوات النحتية التى تجلب الماء الى الحوض ، أكثر مما يعود الى ضخامة قوة الضغط الذى يحدث علىقاعدة المرتفع ، وبمجرد أن تتمكن المياه — وهى تحاول صعود هذا الارتفاع — أن تحطم جدران قنواتها ، وأن تتخذ لنفسها مخارج جديدة ، فان عيونا جديدة تكون قد تكونت ، وتصبح هى السبب فى نضوب الأولى ، لتكون بنفس الطريقة ، المرتفعات التى توجد على قممها اليوم هذه العيون .

ومهما يكن الأمر ، فانه من المحتمل لحد كبير ان **عيون موسى لم يكن لها** — فى هذه الفترة البالغة البعد — من نبع الا ذلك النبع الذى نضب منذ زمان طويل ، وان الينابيع الثمانية التى تعطى مياهها اليوم ، والتى لها أحواض اقل ارتفاعا من حوض ذلك النبع الذى جف ، قد تكونت فى زمن لاحق ، أو بفعل تحطم القنوات التى كانت تحمل المياه لشدة ضعف جدرانها ، أو بسبب تنقيبات تمت بقصد انشاء مبان مختلفة ، وقت أن كان الناس يترددون على النبع ، وحين كانت المناطق المحيطة بهذا النبع آهلة .

ولابد ان كان من المفيد أن نتعرف على شكل وطبيعة القنوات الطبيعية التى كانت تجلب المياه الى ينابيع عيون موسى ، خلال سهل فسيح من الرمال ، تحملت خلاله ضغطا قويا ، قادرا على دفعها كىترتفع لأكثر من أربعين قدما فوق مستوى أرض هذا السهل ، ولابد ان كان من المفيد كذلك ، أن نحاول التأكد مما ان كانت هذه المياه تأتى من سلسلة الجبال التى تبدأ من سوريا لتنتهى بجبل سيناء ، والتى نلمحها على بعد حوالى اربعة فراسخ الى الشرق من العيون : لكنا لم يكن لدينا الوقت للانشغال بمثل هذه الأبحاث التى لم يكن يرجى منها أى نفع قريب .

الدراسة الرابعــة

ثمانية وعشرون يومًا في سيناء

ج . كوتل

العنوان الأصلي للدراسة هو :
ملاحظات حول طبوغرافية شــبه جزيرة سيناء .. التقاليد، العادات ، الصناعة، التجارة ، الشعب والسكان .

ينقسم الخليج العربى أو البحر الأحمر ، عند خط عرض ٢٨ شمالا، الى فرعين ، يتجه أحدهما الى شمال الشمال الغربى ، ويتجه الآخر الى الشمال الشرقى ، ويطلق على الأول اسم بحر القلزم أى بحر العرب أما الآخر فيسمى بحر العقبة أى بحر الشرق .

وتشكل مساحه الأرض الواقعة بين هـذين الفرعين ، والتى تبلغ مساحتها ١٦٠٠ **فرسخ** مربع والتى نسـمى شـبه جزيرة الطور ، أو سيناء ، امتدادا للجزيرة العربية الصخرية (الصحراوية) ، وتمتـد من خط طول ٣٠َ ٣٠° الى ٣٠َ ٣٢° ومن خط عرض ٢٨° حتى خط عرض ٤٥َ ٢٩° شمالا .

وكل أجزاء هذه المساحة الداخلية نغطيها الجبال ، وهى جبالقديمة من الجرانيت والرخام السماتى فى بعض الأحيان ، أو هى تكوينات حديثة من الجبال الرملية أو الحجر الجيرى والجص (الجبس) فى أحيان أخرى.

وتنتج الوديان التى تسكنها قبائل عربية عـديدة ، بخـلاف بعض النباتات الشوكية ، عددا صـغيرا من أشـجار (المن) وبعض أشجار الأكاسيا (الست المستحية) التى يطلق عليها اسم الأتل ، واذا مااستثنينا بعض أشجار النخيل والنبق وبعض الحدائق التى تنمو فى سفح جبـال حوريب وسيناء وفيما حول الطور ، فاننا لن نجد فى كل شبه الجزيرة أى نوع من الزراعة ولا أية أرض يمكن زراعتها .

كنت قد أبديت الرغبة فى الانضمام الى الرحلة الذاهبـة الى جبل سيناء التى أخذتها لجنة الفنون على عاتقهـا ، فلقـد كان يهم الحكومة الفرنسية أن نتعرف بشكل خاص على القبائل العربيـة ، التى تدفعهـا الحاجة وتجارة الفحم ونقل البضـائع التى تصل الى السويس عن طريق البحر الأحمر ، للمجىء الى القاهرة مرات عدة كل عام. ونتيجة لذلك فقد أوقف كل شىء من أجل الرحلة ، وكانت قافلة الطور قد وصلت منذ بضعة أيام ، وكانت تتهيأ للعودة الى بلادها ، واقترح على المسيو بليار Belliard قائد القاهرة أن أسافر معها ، فتبلت ، وشـاء المسيو روزيير ، خبـير المعـادن ، أن يقتسم معى مخاطر ومتاعب هذه الرحلة ، وكان القائدالعام قـد سبق أن تعـامل مع أهم شـيوخ البلاد وخلع عليهم الجبـة ، كما

وعدهم بمكافآت سخية مقابل وفائهم وخدماتهم ، وطلب اليهم تقديم بعض الرهائن ففعلوا دون مشقة .

اليوم الأول

خرجنا من القاهرة ، المسيو روزيير وأنا ، فى السابع عشر من بروميير من العام الثامن (٩ أكتوبر ١٨٠٠) ، مع شيوخنا الأربعة ، ومترجمين اثنين ، أحدهما مصرى والاخر رومى ، وخادمين مصريين ، بالاضافة الى العربان الذين يقودون جمالنا ، وكنانركب نوعا من الجمال يسمى الهجين .

وعلى الرغم من أن الأمور كانت نحتم اصطحاب حراس ، فقد كان الأمر فى الواقع مستحيلا فى بلاد لاتكاد تنتج شيئا ، فمجرد حمل المياه اللازمة لمجموعتنا والتى روعى فى كميتها أن تفى فقط بأبسط الضروريات، لم يتم بلا صعوبات من نوع ما ، كما أن اصطحاب هؤلاء الحراس كان سيؤدى من جهة أخرى الى تبديد الهدف الذى أخذت على عاتقى أنأحققه، ألا وهو دراسة شعب بالغ التوجس ، لا يولى ثقته لأحد ، ويظن أن أحدا لايمكنه زيارة الصحراء الا بقصد التمهيد لغزوهم .

لقد بدت لى الثقة التامة هى الوسيلة الوحيدة للنجاح مع العربان، لذلك لم اشترط عليهم سوى شرط واحد ، هو أن نظل نرتدى ملابسنا الفرنسية ، ذلك أن ارتداء ملابس لم نكن معتادين عليها سيكون بالنسبة لنا أمرا غير مريح ، كما أن هذا التخفى (بارتداء زى غير زينا) قد يستثير شكوك العرب دون أن يزيد من درجة أمننا نحن .

كانت القافلة المكونة من بعض أبناء شبه الجزيرة ، والتى كانت قد جلبت الى القاهرة الفحم والبضائع التى أفرغت فى السويس ، قد سبقتنا ، وكانت قد عسكرت ولابد فى الصحراء على بعد حوالى اثنى عشر ميلا ، وقد لحقنا بها عند نهاية اليوم بعد مسيرة استغرقت ست ساعات ، ولم يسمح لنا اتساع المعسكر الا بزيارة جزء منه ، وقد بدت على الجميع دهشة ممزوجة بالارتياح والسرور ، وبخاصة على الشبان منهم ، عندما رأونا . توقفنا بين جماعات منهم حيث قدموا الينا القهوة ، ويبدو أنه قد أثار اعجابهم أن يشعر اثنان من الأوربيين بالأمن بينهم .

اليوم الثـــانى

فى صبيحة اليوم التالى رحلنا ، كانت كل العيون مركزة علينا ،وبدا العرب أكثر اندهاشا عنـــدما راونا ننزل من فوق الجمـــال لنمشى بينهم بلا ســـلاح (١) .

وعندما كنا نريد أن نقدح بعض الزلطات (للحصول على النار) كانوا يجلبون الينـــا اكثرها شفافية اذ يظنونها افضـــل ما يصـــلح ليستعمل كقداحات . واذا ماتفحصنا ملابسهم ، كان شـــكل قبعاتنـــا ، وملابسنا الضيقة القصيرة ، والجلد الذى كنا نحبس فيـــه أقـــدامنا وسيقاننا .. كان كل ذلك يبدو غير مريح ولا نفع من ورائه . وبينما كنت أتفحص بنادقهم وخناجرهم سألنى احدهم أين توجد أسلحتى فأجبته على الفور مشيرا لى أسلحتهم : « هذه هى أسلحتى. ألست مسلحا كى تدافع عنى ؟ »فأجابنى: « أنت فرنسى طيب ، أذاهب مع أصدقائك الى الطور ؟ » (٢) .

كانت لدى الرغبة فى أن أعرف عدد الرجال والجمال الذين يكونون قافلتنا ، وكان يستحيل على أن اعرف ذلك عن طريق الشيوخ (٣) ، وبعد محاولات عدة لاحصائهم قدرتهم ثمانمائة شخص ، ويضم هذا العدد أطفالا كثيرين وبعض النساء ، كما كان هنـــاك ١٫٨٠٠ ـــ ٢٫٠٠٠ جمل من بينها ٩٤ جملا محملا بالبضـــائع الى ســـوريا ، وتسير فى صحبة احدى قبائل الطور وهى قبيلة لم يسبق لنـــا التعامل معها . ويقود الرجل الواحـــد ثلاثة جمـــال . ولـــكى يمر خمسمائة جمل فان الأمر يحتـــاج الى خمس عشرة دقيقة ، وقد انفقت قافلتنا فى ذلك اكثر من ثلاثة أرباع الساعة .

ويحمل كل رجل خنجرا ، لكننى لم أحص أكثر من بندقية واحدة لكل ثلاثة رجال .

---

(١) كنت احوز سيفا بالغ الجمال كان لأحد المماليك ، وكنت أتركه على الدوام متدليا من قربوس برذعة الجمل الذى كنت أركبـــه حينما كنت أمشى بينهم .

(٢) طلب العرب نفس الشىء من المسيو فولنى Volney أثناء رحلته الى سوريا .

(٣) لا يعبر اهل الطور عن الكميات الا بكلمتى : قليل وكثير ، وهم لا يعدون لا أعمارهم ولا أعمار أولادهم ، وعندما تسألهم عن الأمر يجيبون بأنه شىء لايحتاجون لمعرفته .

استمر السير طيلة اليوم ، وكان راكبو الجمـــال منهم يندفعون الى الامام فى بعض الأحيان ، ثم يتوقفون لحظة لتناول القهوة ، ويستحق النظام المتبع فى اقامة المعسكر ، والدقة التى يتم ذلك بهـــا ، وقفـــة خاصـــة لتوضيح تفاصيله .

يحدد وجود الأعشاب التى تقابلها القوافل فى بعض مناطق الصحراء المنخفضة مكان اقامة المعسكر ، فهذه هى المناطق التى تبقى فيها ميـــاه الأمطار التى تسقط مرة أو مرتين فى العـــام لوقت أطول مما تبقـــاه فى مكان آخر مما يجعل البذور تنمو .

وتتوجه القوافل الى هناك لتستريح بعد مسيرة تبلغ ٨ــ١٠ ساعات . وأول قبيلة تصل الى المكان هى التى تعسكر أولا ثم تتبعها بقية القوافل على التوالى . ويتم ذلك دون ارتبـــاك أو تخبط . وتتشكل القبائل دائرة واسعة ، وتتخذ كل قبيلة مكانها المعتـــاد فى نفس النقطة من الدائرة ، ثم تنقسم هى بدورها الى زمرات وتتكون كل زمرة من عدة عائلات أو من مجموعـــات تعيش على الشـــيوع تتكون كل منهـــا من ستة الى عشرة أشخاص (٤) .

وفى لحظة خاطفة تنزل حمولة الجمال ، وتذهب هذه وحيدة ، أو يقودها طفل ، الى منطقـــة الـــكلأ والأعشاب التى تقع فى بعض الأحيان على بعد ميل من مكان المعسكر (٥) وعندئذ يجرى اثنـــان أو ثلاثة رجال من كل زمرة ليبحثوا عن بعض الأعشاب أو النباتات الجافة بينما يقـــدح واحد ممن بقوا القداحة ويشعل النـــار ثم يحرك الهواء بذيل ردائه ، وينحنى فى بعض الأحيان ليستقبل الريح بشكل منحرف ويوجه الهواء الى النـــار ، ويقوم آخر بتحميص البن (٦) ويقوم ثالث بعجن الدقيق وصب الروجا أو الفطير . وهو نوع من الأقراص ، لا خميرة فيـــه ، يبلغ سمك

---

(٤) حيث أن القوافل تتكون من نفس القبائل والعائلات فمن المرجح أن يظل نظام المعسكر هو نفسه على الدوام .

(٥) ليس ثمة ما يدل على الطريق ، فأقدام الجمال وأقدام الانسان لا تترك أى أثر فى هذا البحر من الرمال والزلط .

(٦) يحمص البن فى ملعقة حديدية ثم يصحن بعد ذلك بواسطة عصا غليظة فى اناء من الفخار .

الواحدة منها ٥ـ٧ مم ويتنـــاسب حجمها مع عـــدد أبنـــاء الزمرة الذين يشاركون فى أكلها . وبعد نحو أقل من ١/٤ الساعة يكون هـــذا العجين قـــد نضج بين الرمال الساخنـــة وقطع الفحم الصغيرة وبعرات الجمال المحترقة والتى تظل فى بعض الأحيان مشتعلة بعد نضوج الفطيرة (٧).

وسرعان ما تنتهى هذه الأعمال التى تستدعى الابتعاد عن المخيم ، ويجلس الناس من حول النـــار ، ويتنـــاولون القهـــوة بينما هم يأكلون الروجا ، ويزيد بعضهم على ذلك بعض الدقيق والأرز المطبوخ مع قليل من الزيت وبعض البصل ، ويضيف آخرون الفول والعـــدس ، وتنتهى الوجبة على الدوام بتنـــاول القهوة . وتمتد المناقشات فى كثير من الأحيان لساعات طويلة ، فيتحدث النـــاس عن السفن التى ينتظر قدومها من جدة وينبع ، وعن حمولة الجمال ، وعن المطر الذى طال انتظاره ، واذا كان ثمة راو للحكايات فانهم يصغون اليه بانتباه ويضيفون المـــاء الى ثفل البن. ولقد كنت أجلس على مسافة قصيرة من هذه الجماعات متخيلا اننى انصت الى تجمع من أبنـــاء ريفنا .

وعند نهاية النهار تعود الجمال من تلقاء نفسها ، وتسعى نحو المكان الذى انزلت فيـــه حمولتها ، فاذا اخطأت الطريق اليه ، فانها تسرع نحو صوت سيدها يناديها .

كنت كل ليلة اقوم بجولة فى جزء من المعسكر ، وكانت كل جماعة تدعونى لتناول القهوة وأن استريح على جلد المـــاعز ، فاذا ماقبلت كانوا يرددون : « طيب فرانسيس ، انت فى الطور ، سوا سوا » اى : « انت فرنسى طيب ،قادم الى الطور ، مع أصدقاء لك » .

وفى الغد ، قبل انبـــلاج النهار ، كان الناس يعملون فى تحميل الجمال ، بينما يضع الآخرون القهوة والروجـــة ، وبعـــد ذلك نرحل ، ويستتب النظام ، بشكل تلقائى ، وطبيعى .

---

(٧) اذا كان العدد اكبر مما ينبغى فانهم يصنعون اكثر من فطيرة .

اليوم الثالث

في هذا اليوم ، عسكرنا في المجرود ، على بعد حوالى ثمانيــة اميـــال من الســـويس حيث واتتنى الفرصـــة كى اتبين كم سيكون من الطبيعى ، لو أننـــا اصطحبنا معنا حراسا ، أن تقل الثقة فينا ، والتى كان من مصلحتنا أن نبثها فى نفوس العرب ، فلقد لحق بنا هناك ضابط مهندس ، لم يستطع الافادة من سفر قافلتنا ليصحبنا الى السويس .وقد أدركنا هنـــاك ، بعد مسيرة يومين ، ومعه حرسه . لمحه العربان عن بعد فلاحظت على الفور تغيراً فى سحنتهم وسرعان ماحدست السبب . لقد اعتقدوا أننى خدعتهم ، وأن حرسا قد جاء يصحبنا فى جبالهم . وعلى الفور مررت بعدد كبير من خيامهم وأنا اكرر : اننى اثق فى شرف العرب، ويمكنكم ان تثقوا فى شرف الفرنسيين ، سنذهب وحدنا ، رفيقى وأنا الى جبالكم ، وستصحبونا أنتم الى القاهرة ، فهذا الضابط الفرنسى (الذى ترونه) ذاهب الى السويس . وكرروا بأننا ذاهبون مع أصدقاء. وعسكر الجنود (الضـــابط وحرسه) بينهم ، وفى اليوم التالى عاودنا السير معا دون قلق أو شكوك .

اليوم الرابع

سرعان ماتركتنا القافلة تذهب كى تضرب خيـــامها فى عيون موسى بعد ان استدارت حول قمة قلزم السويس . كانت الجمال لم تشرب منذ غادرنا القاهرة اى منذ ٧٢ ساعة ، عندما وصلت الى العيون ، وذهبنـــا مع شيوخنا كى ننام فى السويس .

اليوم الخـــامس

فى اليوم التالى توجهنا بطريق البحر الى العيون حيث لحقت بنـــا جمالنا بعد ان دارت حول قمـــة الخليج ذى المد المنخفض ، كانت قافلتنا قـــد غادرت العيون فى الصباح ، وتهيأ كل امرىء للعودة الى قبيلته عبر الجبال ، وأنزلت حمولة ٩٤ جملا من قافلتنا وهى البضائع الذاهبة الى سوريا ، وظلت البضائع فى حراسة بعض أبناء الطور الذين يتعامل معهم التجار لنقل البضائع الى هذه البلاد .

بقينا مع شيوخنا الأربعة ومع العربان الذين يقودون جمالنا ، كنا قــد أصبحنا فى شبه جزيرة سيناء ، ولم يعد لدينا مانخشاه من العرب الغرباء الذين قد يكون عليهم دم ينبغى الانتقام له : لكن ماحدث للتجار الذين صحبونا حتى السويس وذلك المصير المحزن الذى كان من نصيب القــائد المساعد « ديلانو » (٨) قــد برهن لنــا أننــا لا ينبغى أن ننسى مخاوفنا فى رحلة لم نكن نستطيع أن نعرف موعد نهايتها ، اذ يعتمد ذلك على رجوع القافلة إلى القاهرة وهو الأمر الذى يتبع بدوره الحاجة التى يمكن أن يشعر بها العرب فى نقل بضائعهم الى هنــاك ، والذى يعود كذلك الى استتباب الأمن فى الداخل ، ومع ذلك فقد اتبعنا نفس طريقتنا فى الرحابة والثقة اللتين أظهرناها عند بداية الرحلة .

وبعد زيارتنا العيون (٩) واصلنا طريقنا ، تاركين البحر الأحمر الى الغرب، وكانت تقع الى يميننا الجبــال المسماة تيت (أو طيط) التىيسكن فى سفحها عربان الطور ، عسكرنا على بعد خمسة أميال من العيون عند خور ضيقيسمى عين، وهو قفر ليست به مياه ، ولا تنبت فيهأعشاب ولا أى نوع من الخضرة ، ولم نكن لنستطيع أن نوقد نارا لو أن العربان الذين يعرفون جيدا أحوال المناطق التى سنعسكر فيهــا لم يعوا أثنــاء الرحلة أو أثناء الطريق بالحصول على القش اللازم للوقود (١٠) .

اليوم السادس

فى اليوم السادس ، وبعد مسيرة ثمانى ساعات ونصف ، أحيــانا خلال سهل قاحل ، وأحيانا أخرى من خلال كثبان من الرمال والأعشاب الشوكية ،وصلنا الى أبى صويره ، فى مكانتغطيه أشجار الأثل والنباتات، مما ينبىء عن أرض أكثر رطوبة . وفى الواقع فان المرء يجد هناك عددا

---

(٨) اختطف العربان القائد المساعد ديلانو ، أثناء ذهابه منالاسكندرية الى القاهرة وقد افتدى الرجل بكيس ملىء بالنقود الفضية ، وعندما اختلف العربان على كيفية اقتسام النقود ، وتشاجروا فيما بينهم ، أطلق عليهأحد العربان رصاصة فقتله .

(٩) أنظر وصف هذه العيون بقلم المسيو مونج Monge ، الدولة الحديثة ، المجلد ١ ص ٥٥٥ (الدراسة السابقة فى هذا الكتاب) .

(١٠) كثيرا ما يبتعد العربان أثناء السير ويجرون لمسافة تزيد على الميل كى يلتقطوا بعض الأعشاب اللازمة لسهرة المساء .

كبيرا من الآبار . يبلغ عمق الواحدة منها مترين ونصف المتر تحت سطح الرمال ، وقد تقوض جزء من هذه الآبار ، وعلى الرغم من أن مياه هذه الآبار حبيسة — فيما عدا واحدة منها على الأقل — فانها أفضل من مياه عيون موسى . ويتردد عرب ترابين على هــذا المــكان ، وهم يمتلــكون المنطقة ابتداء من القاهرة حتى وادى الفرندل على شواطىء البحر الأحمر ،وقد وجدنا كثيرين منهم يرعون هنــاك ماشيتهم .

اليوم السابع

عند الرحيل من أبى صويرة يقضى المرء عشر ساعات فى سهل قاحل على شاطىء البحر، وبعد ذلك ، وبعد ان يجتاز كثيرا من الشعاب الضيقة، يصل الى وادى الفرندل . ويمتاز هذا المــكان بمياهه المعدنية الحارة التى تسمى حمامات فرعون وتجرى هذه المياه فى سفح جبل يبلغ ارتفاعه مابين ٢٩٠ — ٣٩٠ مترا (١٥٠ — ٢٠٠ قامة) . وتسيل ميــاه العين الأولى بعمق يبلغ بوصتين ، وفى هذه المياه يرتفع ترمومتر ريومور الى درجة ٥٦ ، وتغطى الأحجار التى تسيل فوقها هذه المياه وكذلك تلك التى تحيط بالترعة بالــكبريت المؤكسد . وتجرى مياه عيون كثيرة أخرى خلال الرمال بطول يصل الى خمسين خطوة .

وعلى ارتفاع اربعة امتار (حوالى قامتين) فوق مستوى هذه العيون نجد فتحتين : تلك التى تقع الى اليمين وتؤدى الى مايشبه مغارة يرتفع فيها الترمومتر الى درجة ٣٤ وسط جو رطب تصــحبه رائحة الــكبريت القوية : أما الأخرى فتشكل مدخل كهف لا يزيد علوه على نصــف المتر (حوالى ١٥ — ١٨ بوصة) ، فوق عرض أكبر من ذلك بقــدر طفيف ، ولذلك يضطر المرء كى يبلغ النبع ان يزحف عاريا لمسافة يبلغ طولها ٢٣— ٢٥ مترا (١٢ — ١٥ قامة) فوق رمل حار ورطب ، وهناك يرتفع الترمومتر الى درجة ٣٦ . وهذه الحرارة المتزايدة ، بالاضافة الى هذا الوضع المتعب للجسم والذى يضطر المرء لاتخاذه ، هى السبب فى النصيحة التى تقال للمسافرين هناك والتى مؤداها ان النور ينطفىء داخل هذه المغارات وان هناك خشية من أن يختنق المرء هناك فى وقت قصير . لم نبق هناك لوقت طويل يكفى للتأكد من صحة هذا الزعم ، لكننى لم أشعر بأن انفاسى قد ضاقت كما ان رائحة الكبريت فى هذا الجو المشبع بالرطوبة قد بدت لى محتملة .

ويبدو لى أن وادي الغرندل كان فيما مضى مرفأ بالغ الجودة ، اذ هو فى حمى من رياح الشمال والجنوب لأنه مفتوح الى الغرب ، كما يساعد على الخروج منه رياح الشرق ، وهى التى تسود البحر الأحمر فى معظم الأحيان . وهنـاك تشكل الميـاه التى تسقط فوق الجبال مرة أو مرتين فى العام ، أضرارا كبيرة ، اذ تحمل الى الوادى كميـة هائلة من الزلط ومن قطع الحجارة . وهذه هى المنطقـة التى يزعم كثير من المؤلفين أن موسى قـد أتى اليها بعد عبوره البحر الأحمر . وهذا الوادي (الخليج) جاف خال من الماء فى هذه الأيام .

اليوم الثـامن

عند الخروج من وادى الغـرندل يدخل المرء الى واد ضـيق ، أو بالأحرى فى شعب تحيط به جبـال عالية شديدة الانحدار ، ويبلغ طوله حوالى اربعة أميال ، وعند طرفه يصـل المرء الى ربوة توجد بها بعض اشجار النخيل . وثمة بئر يبلغ عمقها المتر (حوالى ٣ اقدام) توفر كمية ضئيلة من المياه الرديئة وصفها بوكوك Pococke بأن لها مذاق الصلب ، وسرعان ماتنضب مياه هذه البئر ، لكنها تتجدد من جديد فجأة ، ومن هذه المياه يسقى العربان جمالهم . ويطلق على هذا المكان اسم الحوزية وهو يقع على بعد ٢٤ ميلا من أبى صويرة . وعلى الرغم من شدة ارتفاعهفوق سطح البحر ، فهناك سلسلة من الجبال العالية تتحكم فيه وتمتد هـذه الجبال باتجاه سوريا . ويمتلك عربان الطور هذه الأراضى .

كان ما يزال علينـا ان نمضى أثنتى عشرة ساعة فى الطريق حتى نصل الى مكان المخيم وعلى الرغم من أن هذه المنطقة كانت أفضـل مكان قابلنـاه ، منـذ غادرنا القاهرة فاننا لم نبق بها الا لوقت يكفى بالـكاد لسقاية جمالنـا .

قادنا واد طويل الى الجنوب ، الى هضبة واسعة تحيط بها جبـال تجعلها فى حماية من رياح الشمال . كانت الحرارة هناك ، فى الساعة العاشرة من الصباح ، شـديدة الارتفـاع ومع ذلك فقد كان الترمومتر لا يتجاوز درجة ٢٥ . وبعد أن عبرنا سلسلة الجبال الى الجنوب الشرقى دخلنا الى وادي اتل ثم فى شعب ضيق دفن به شيخ يسمى ريسالشمالة

ويحمل اسمه احد جانبى الوادى ، وهو المكان الذى نوجد به مقبرته . ويودع العربان هناك عند مرورهم من هذا المكان بعض الأغصان او بعض قطع من القماش ، أما الجانب الآخر للوادى فيحمل اسم شبقية . وبعد ذلك ، وبعد ان نجاوز واديا مزروعا باشجار الأثل (المن) نلاقى البحر من جديد الى الجنوب الغربى ، وقد توقفنا هناك كى نذهب ، على بعد خمسمائة قامة الى الشمال ، لزيارة جزء من الجبل الذى يستخرج العربان منه الـكبريت . وفى واقع الأمر ، فقد وجدنا هناك بعض عينات من الكبريت شديدة التكلس .

وبمغادرة طريقنا نحو الجنوب دخلنا فى واد بالغ الاتساع، تحيط به جبال عالية مما يجعله فى حمى من رياح الشمال ، والشمال الشرقى ، والجنوب ، لكنه ، كما هو الحال فى وادى الغرندل ، يكاد يكون مردوما عن آخره . وبعد الالتفاف من حوله خوضا فى المياه لمسافة تبلغ حوالى الميل ، عسكرنا فى سهل المجرى (او المجره) وسط الكثبان التى كونتها غابات الاثل أو الطرفاء التى تصد الرمال التى تحملها رياح الشمال . وهناك توجد مياه غير طيبة . كانت مؤنتنا من مياه النيل قد نفدت عند السويس وجعلنا تلبك معدتنا نشعر بالفرق بين هذه المياه وبين تلك .

اليوم التاسع

بعد مسيرة ساعة فى هذا الوادى الملىء بالشجيرات ، دخلنا فى واد تغطيه كتل من الجرانيت والسماق (الرخام) والزلطات المستديرةالتى انفصلت عن السلسلة التى تطل على الجبال الجيرية التى اتبعنا اتجاهها، والتى اجتزناها بعد ذلك لكى نصل الى واد يسمى فيران ، حيث تمنا دون أن نعثر على ماء .

اليوم العاشر

فى اليوم العاشر ، تضينا ثلاث عشرة ساعة فى صحراء جرداء، وفى وديان نلقى فيها بالكاد بعض الأعشاب الشوكية : هناك نرى الى الغرب سلسلة جبال سيناء . وتوجد الى الشرق جبال من الحجر الجيرى . دخلنا وادى المغارة حيث اكتشفنا وسط اشجار النخيلشجرة دوم ، وهناك حوض مبني يبلغ عمقه ستة أقدام يوفر كمية من المياه

الجيدة ، وبعد أن عبرنا سهلا قاحلا ، رطبا مليئا بالملح ، وصلنا بعد مسيرة ساعة الى الطور .

بندر طور أو ميناء الطور

يشكل ميناء الطور خليجا يبلغ اتساعه حوالى الميل ، ويكاد يكون ذا عمق متساوى السطح ، ويقع الخليج تحت خط عرض ١٢َ ٢٨° وعند خط طول ٢٠َ ٣١° الشمالى من خط زوال باريس . وقاع هذا الميناء ليس طيبا على الدوام ، فهو يتكون من كتل من المرجان وكتل من الأحجار يغطيها المرجان والقواقع على عمق متر أو مترين (٣–٦ أقدام) بل ان بعض شعاب المرجان هذه تصل لمستوى سطح الماء لتجعل من الجزء الشمالى الغربى نوعا من روضة تنتشر فوق سطحها المغطى الورود . وفى حين يرتفع مد البحر فى السويس من ١ ½ الى مترين (٤ – ٦ أقدام) فانه لا يبلغ هنا اكثر من ثلاثة أرباع المتر فى أكثر حركاته قوة . أما فى النوبات العادية ، فانه لا يتجاوز ثلث المتر (١٠–١٢ بوصة) .

وتقوم سلسلة جبال سانت كاترين وسيناء بحماية هذا الميناء من رياح الشمال والشمال الشرقى ، كما تحميه من رياح الشرق غابات قديمة من اشجار النخيل وبقية قلعة الطور التى اصبحت شبه مهدمة تماما على وجه التقريب وان كان المرء لايزال يرى بها كوات فى مستوى سطح الماء تغطيها قباب على شكل مشكاة . كانت هذه المبانى المحطمة ، ومظهر الأرض ، وتلك الحدائق بالغة السوء ، وهذه الأسوار التى تكاد تكون كلها حطاما ، بالاضافة الى مظهر السكان البائس ، كان كل هذا يعطى صورة للخراب والموت . اما الميناء المفتوح الى الجنوب الغربى ، فتسده فى أكبر اتساع له كتلة صخرية ضخمة ، يبلغ ارتفاعها مستوى سطح الماء .

اما قريتا الشاذلية ، وبلد النصارى ، اللتان تكونان مدينة الطور القديمة فتضم من ٢٥ – ٣٠ مسيحيا ، ومن ١٠ – ١٢ عربيا مسلما وان كان هذا العدد لا يشتمل النساء والأطفال .

أما قرية الجبل الصغيرة ، الى جنوب قلعة الطور ، فلا تضم الا خمسة او ستة صيادين يعملون مرشدين للسفن التى تعبر الطور الى

السويس او الى جدة ولا يتجاوز سكان كل هـذه القرى والنجوع مائة وثلاثين فردا .

ويدير شئون المسيحيين واحد من رجال الدين من دير سانت كاترين فى جبل سيناء ، وهو الذى يتسلم المؤن القادمة من القـاهرة عن طريق القوافل والتى يبعث بها الى الدير ، وكذلك السمك الـذى يشرف على صـيده . ولا يفوق بساطة مسكنه الا بساطة تلك الـكنيسة الصغيرة الموجودة فى مِنائه .

وعلى بعـد ميلين من الطور ، الى الشمال الشرقى ، بالقرب من الجبال الجيرية ، يمتلك رجل الدين هذا حديقـة واسعة بعض الشىء ، تحيط بها الجدران ، وتزرع بها اشجار النخيل ، وتتفجر فيها عيون مياه معدنية حارة ، تسمى واحدة منها الحمامات . وهناك حوض واسع مسور تظل المياه فيه على ارتفاع ثمانية دسيمترات وفى درجة حرارة ٢٧ ويبدو الحوض وكأنه قد بنى خصيصا لهذا الغرض . وهنـاك كمية هائلة من سعف النخيل تغطى سطح هذه الأرض غير المزروعة .

وحيث أن اهالى الطور البؤساء لا يمتلكون على الاطلاق اية جمال ، اذ ليس لديهم ما يحملونه الى القاهرة للمقايضة عليه ، فانهم مضطرون للعمل على جلب القمح عن طريق القوافل ، مما يضاعف فى سعره ، ولهذا السبب فهم يستهلكون منه القليل ، ويعيشون على السمك .

وفى الطور ، تهب رياح الشمال لجزء طويل من العام فيما عدا فصل الشتاء ، اذ تهب الريح فى هذا الفصل من جهة الجنوب وذلك حتى منتصف النهار فقط ، ثم تستعيد اتجاهها فى بقية النهار .

وتدخل السفن الصغيرة فى الميناء التى يبلغ عمقها ، وكذلك عمق المضيق البحرى من ٦ الى ٨ اذرع ، لكن السفن التى تخشى عادة أن يلقى بها على الساحل المنحدر الأجرد فلا تتوقف هناك الا للتزود بالمياه ، أما السفن الضخمة فتبقى فى الخليج . ويجد الناس فى الميناء ، على بعـد مسافة صغيرة من البحر آبارا مبنية بالحجارة بقدر كبير من العنـاية ، توفر مياها بالغة الجودة . وتعلن هذه الآبار ، بالاضـافة الى الحصن وبعض بقايا المنشآت القديمة ، أن هذا الميناء كان فيما مضى مطروقا لجد

كبير . لكن فقر السكان الذين لايستطيعون انتاج اى شيء أو شراء أى شيء ، بالاضافة الى أحداث السلب التى مارسوها مرات كثيرة مع بعض السفن ، قد ابعد التجار عن هذا الميناء (١١) .

ولو أننا اتبعنا الطريق الذى اعتاد المسافرون ، وكذلك العربان المرافقون لنا اتباعه لكنا قد دخلنا الجبل فى الشمال كى نذهب الى جبل سيناء على بعد أربعة وعشرين ميلا من الطور ، لكننا كنا نرغب فى القيام بالدوران حول شبه الجزيرة للتعرف على الموانى الواقعة على طرفها وللتعرف على بحر الشرق (خليج العقبة) . ولكى نحقق هذه الغاية كان علينا أن نسير لمدة ثلاثة أيام بلا مياه ثم خمسة أو ستة أيام نقضيها وسط الجبال ، وهكذا كان يتعين علينا أن نمر وسط خيام قبيلة مزينة التى لا تشكل جزءا من تحالف قبائل الطور ، والتى لم تكن تربطنا بها أية معاهدة (١٢) ومع ذلك فلم يكن لمثل هذه الصعوبات أن تعرقل مشروعنا .

وقد لقينا اكبر مقاومة من جانب العرب الذين كانوا معنا ، فقد احتجوا بصعوبة نقل المؤن اليهم ونقل المياه الى جمالهم ، وقالوا لنا اننا لم نتفق معهم الا على الذهاب الى الطور ومن هناك الى جبل سيناء، كما حذروا بأننا قد نهاجم من قبل عربان قبيلة مزينة الذين قد يطمعون فى اقتسام ما معنا من خيرات . ذللنا كل العقبات باسترضاء جزء من رفقائنا ومرشدينا وذلك بتقديم المؤن اليهم والى جمالهم ، وبتوضيح عزمنا الذى لا يلين على القيام بهذه الرحلة حتى وأن لم يبق معنا سوى مرشد

---

(١١) لم يعد لدى أهالى الطور سوى تسع سفن صيد ، يمتلك الأروام ثماني منها ويرى المرء هناك بقايا سفينة جانحة ، وكانت هذه السفينة قادمة من ينبع ، ودخلت الميناء للتزود بالمياه . ويؤكدون أن مرشد الطور هو الذى جعلها تصطدم بالصخور عن عمد وانها نهبت بعد ذلك ، وكانت تحتوى على ١٣٠ بالة صغيرة من القماش ، تضم البالة الواحدة ثمانين قطعة ، وثمانين طردا من العدس ، سعة الواحدة نصف أردب ، ومائة وعشرة من الأرز (شرحه) وبالتين صغيرتين من النحاس زنة الواحدة ستمائة رطل . ويلقى العرب بمسئولية السلب على الأروام ، وهؤلاء يلقون بها على العرب ، وقبل مجيئنا الى الطور بخمسة عشر عاما نهبت قبيلة القرارشة احدى السفن ، فحرم عليهم المماليك المجيء الى القاهرة، وهكذا لم تعد الطور تدخل ضمن نطاق الموانيء التى يتوقف فيها التجار .

(١٢) لعل عربان هذه القبيلة هم الذين نهبوا البضائع التى كانت قافلتنا قد نقلتها معنا من القاهرة حتى مدخل الجبال .

واحد ، وقلنا لهم فى النهاية : من حق العربان أن يخشوا قبيلة معادية . أما الفرنسيون فهم أصدقاء لكل القبائل . وعندئذ قال أحد الشيوخ المسنين : لا يقول الفرنسيون سوى كلمة واحدة . سنذهب معك حتى لا يصيبك سوء .

اليومان الحادى عشر والثانى عشر

لم يخدعنا رجالنا العربان . مشينا لمده يومين ، على مسافة قصيرة من البحر ، أحيانا فى سهل رملى قاحل نادرا ما تلقى فيه بعض الشجيرات، وأحيانا أخرى وسط جبال من الرخام السماقى والجرانيت المرقق (أى تتكون صخوره من طبقة فوق طبقة وهكذا) .

وكنا فى فصل تتقلب رياحه الجنوبيه والغربيــة ، أى فى فصل العواصف ، وهو الفصل الذى يرغبه العربان أكثر من غيره لأنه يهيىء بعض المياه ، لكن الحرارة فى بعض الأحيان كانت أكثر ارهاقا لنا من أعلى حرارة عانينا منها فى صعيد مصر كما كانت درجة الحرارة أكثر ارتفاعا(١٣) وبعد أن سرنا طويلا الى الجنوب الشرقى دخلنا الى الجنوب فى واد طويل أو بالأحرى فى شعب عميق تحف به من الجانبين جبال تتكون حتى قمتها من أحجار مستديرة ، وكان الطين الذى يثبتها قد اكتسب قدرا من الصلابة حتى أن قطعا ضخمة منه كانت تسقط مندفعة نحو الوادى دون أن تتفتت . ويقع ميناء رأس محمد عند قمة الساحل ، وهو يشكل فيما يبدو نقطة انتصاف فى شبه الجزيرة .

ويقفل هذا الميناء المفتوح عند شرق الشمال الشرقى ، لسان من الأرض فهو شبه جزيرة ، قمتها رأس جبل مرتفع بعض الشىء وهذا هو ما جعلهم يطلقون على هذا المكان اسم رأس محمد . وحيث يقترب الميناء بشدة من الجبل فانه يكاد يكون مطموسا فى جزء منه بالرمال والأحجار التى جرفتها السيول .

ولم نجد هناك اى نوع من المساكن .

---

(١٣) سجل ترمومتر ريومور درجة الحرارة فى الظل بـ ٣٢درجة

اليوم الثالث عشر

فى اليوم الثالث منذ رحيلنا من الطور ، أو اليوم الثالث عشر من بدء رحلتنا ، سافرنا من رأس محمد للذهاب شرقا من خلال الجبال الى ميناء شرم (الشيخ) التى تقع تحت خط طول ١٠ً ٥٨َ ٢١° من خط زوال باريس وخط عرض ١٠ً ٥٦َ ٢٧° حيث وصلنا بعد مسيرة ثلاث ساعات. وتقسم هذا الميناء ، الذى يقع مدخله الى الجنوب ، قمة جبل يبلغ عرضه حوالى مائة قامة وبانحدار مماثل . ويجد المرء على مسافة قصيرة من الشاطىء آبارا مبنية بكتل ضخمة من الجرانيت . كانت السفن تأتى الى هناك فيما مضى للتزود بالمياه ، وعندما كانت تفاجئها رياح معاكسة ،يلوح لها أن مدنها سوف تطول ، فانها كانت تفرغ هناك بضسائعها التى كانت تنقل برا الى القاهره ، وهناك ضريح وكثير من أحجار أضرحة كثيرة ، لعلها تنبئنا أن هذا الميناء كان فيما مضى آهلا بالسكان ، وقد شاهدنا هناك بعض الصيادين الذين لا يعيشون الا على السمك ، ابتعنا سمكا منهم ، واكلوا هم غداءهم بالقرب منا ، وكانت الدهشة تبدو على أطفالهم ، الذين استملناهم الينا ببعض البارات ، من شكل قبعاتنا بشكل خاص .

وتقع شرم (الشيخ) فيما يبدو على بعد ستة الى ثمانية أميال من بحر الشرق (خليج العقبة) الذى ميزناه بدقة بواسطة جباله الواطئة للغاية ، وبدا لنا فى اتساعه يختلف قليلا عن اتساع بحر العرب، ولمحنا جبال الشاطىء الآخر تنخفض وتمتد لتتوغل فى الصحراء الغربية . قطعنا مسافة كبيرة بطول الساحل وكنا نود الذهاب الى العقبة ، قمة نهاية الخليج ، لكن ذلك كان يستوجب منا أن نعبر صحراء خالية لم يكن عرباننا يعرفونها ، فضلا عن اننا كنا سنبتعد عن جبل سيناء الذى كان هو الهدف من رحلتنا . ودخلنا الجبل عن طريق الطرف الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة .

وبعد ذلك بوقت قصير قابلنا فوق أحد التلال بعض الخيام فاقتربنا منها ، ولم يبد على النسوة الفزع لرؤيتهن لنا بل طلبن الينا اعطاءهن بعض الابر والبارات .

اتبعنا نفس الوادى باتجاه الشمال الغربى فوجدنا مرة أخرى بعض الأشجار ومخيما اكبر اتساعا ، كان هذا هو مخيم قبيلة مزينة ، لم يخدعنا

اذن شيوخنا ، حيث لم يبد أولئك مسرورين لرؤيتنا فلم يقدموا لنا أى شيء عند مرورنا من أمام خيامهم ، وسأل أحد العربان وهو يصحن بعصاه فى هاون من الخشب خليطا ويصنع منه البارود ، سأل بحدة مترجما « لماذا جئت بهؤلاء الكلاب » ولم يقم شيخ هذه القبيلة بدعوتنا الى داخل خيمته حسب عادة العرب كى لا يجعلنا نقترب من مخيمهم الذى كنا برغم ذلك قد اجتزناه . وعندما مدت مائدة الطعام وسط الوادى لم نبد أى ضيق أو قلق ، واتخذنا مكاننا بينهم لنأكل العنزة دون أن نوجه الينا دعوة . وقدمنا اليهم البن ، ونمنا بينهم فى هدوء .

اليوم الرابع عشر

قدم الينا عرب المهاتنة ، وهى قبيلة صغيرة تنتمى الى عرب العواتمة الذين التقينا بهم فى اليوم التالى فى وادى النصب ، قدموا الينا فكرة أكثر دقة عن الطريقة الأبوية التى يتعامل بها العرب مع الأغراب ، وقدم الينا الشيخ الحاج حسن وأجلسنا الى جواره فى مدخل خيمته وأمر بذبح عنزة وأعطانا مانغتسل به ، وبينما كانت النسوة يعددن الطعام ، وبينما نحن نتناول القهوة قام أحد المغنين ، وبعد أن ابتهل الى الله ، غنى المقاطع التالية مصطحبا آلة ذات أوتار ثلاثة (١٤) ، كان يعزف عليها أنغامه بقوس فى يده .

ينفق الناس كثيرا من مالهم كى يذهبوا الى مكة
ويتركون أبناءهم عاما كاملا كى يذهبوا الى مكة

---

(١٤) تتكون هذه الآلة من جفنة صغيرة من الخشب مغطاة بجلد جمل ، عليها من أحد طرفيها بمسافة ٢ ديسيمتر (حوالى ٧ بوصات) حديدة مسطحة عرضها من ١٢ — ١٥ مم وطولها ٣ ديسيمتر (١١ — ١٢ بوصة) . ويرفع طرف الجفنة السميك الذى يبلغ طوله ٢ ديسيمتر (٧ بوصات) على الأرض .

وهناك فى الطرف الآخر عصا ذات ذراع يبلغ طولها ٤ الى ٥ ديسيمتر (١٨ بوصة) ويوجد فى أحد طرفيها ثلاثة ملاوى أو أوتاد تستخدم فى شد ثلاثة أحبال مكونة من اتحاد شعيرات عديدة مثبتة فى الطرف الآخر بعد أن تمر على مشط .

أما القوس المصنوع من قطعة من الخشب الخام يبلغ طولها ٤—٥ ديسيمتر (١٨ بوصة) فيحمل حزمة من الشعيرات مثبتة من أحد طرفيه ومشدودة الى الطرف الآخر بواسطة أصبع .

وعندما يزوج شيخ ما ولده يحضر له كل شيخ من شيوخ القبـــائل الأخرى عنزة ثم ينتهى بما يلى :

أولادى كثيرون ، ويأكلون كثيرا ، وذراعاى قصيرتان

(أى أنه قلبل الحيلة) فلا أستطيع أن أحصل لهم على الخبز .

وبعد أن انتهى الطعام (١٥) ، استرحنا تحت ســقف خيمتنــا التى اقمناها فى مواجهة خيمة الشيخ .

ولقد وجدنا نفس كرم الضيافة عند القبــائل الأخرى ، ومع ذلك فلا يمكن لأى من شيوخ هذه القبائل أن يكون ندا لهذا الشيخ فى صفاته الكريمة ، فتقاطيعه بالغة التمايز وروحه بالغة التوقر على الرغم مما يبدو عليه من شرود . ولقد كانت له علاقات مع التجار والأغراب كما سبق أن قام برحلة مكة (الحج) مرتين ، ويؤدى فريضـــة الصـــلاة بشكل بالغ الانتظـــام (١٦) .

اليوم الخامس عشر

لم نكن قـــد قابلنـــا حتى اليوم سوى أشجار السنط وبعض الأثل (الطرفاء أو المن) وبعض غابات من الأعشاب الجافة ، بالاضافة الى جبال الجرانيت والسماق المورقة (أى التى تتشكل من طبقة فوق طبقة) ولم نكن نلقى المياه الا فيما ندر وبكميات بالغة الصفاء تجرى فى واد الكيد بين كتل ضخمة من الحجارة الجرانيتية ، وهـــا نحن نرى كذلك أجزاء من الأرض تكسوها الخضرة ويغطيها النعناع لمسافة يبلغ طولها حوالى الميل ويبلغ عرضها من ست قامات الى خمسين قامة . وتنمو فى هـــذا الوادى أشجار النخيل والنبق ، وهنـــاك بعض الأســـوار من الحجارة الصلبة تســـتخدم كمأوى وأماكن اقامة ومستودعات للعرب الملاك الذين

---

(١٥) وصفت مائدة الطعـــام فى مقال عن عادات وتقاليـــد العربان (فى آخر الدراسة) .

(١٦) بعد أن عدنا الى القاهرة ، ظهرت على هذا الشيخ كثير من علامات الجنون . ومن المؤكد أن مقبرته (بعـــد موته) ستكون موضـــع التقديس .

يأتون ليحصدوا ثمارها ، ومع ذلك فان أحدا لا يقيم فى هذا الوادى الا فى فترة الحصاد ، وفضلا عن ذلك فاننا لم نجد به على الاطلاق استراحات مناسبة .

اليوم السادس عشر

لم نكن فى هـــذا اليوم محظوظين كما كنا فى اليوم السابق ، فقد قضينا النهار والليل فى وديان قاحلة جرداء دون أن نقـــابل ظلا لنبـــات أخضر .

اليوم السابع عشر

وأخيرا ، فى هذا اليوم ، وبعد أن عبرنا مع جمالنا جبـــالا كنا نجد فى معظم الأحيـــان مشقة بالغـــة فى تسلقها بأقـــدامنا ، وصلنـــا الى دير سانت كاترين .

كان أحد الأخوين اللذين اصطحبانا حتى الطور قـــد سلك الطريق الأقصر حتى يلتقى بنا ، وكان ينتظرنا بقدر كبير من اللهفة والقلق .

يؤدى الى هذا المكان المنعزل منفذ صغير يعلو الجدران التى يبلغ ارتفاعها من عشرة إلى اثني عشر مترا . وهـــذا المنفـــد هو المـــدخل الوحيد الى هذا المكان المنعزل (١٧) ، وتغطى هذا المنفذ بكره يمر فوقها حبل ضـــخم يلتف حول اسطوانة مثبتة فى نسبه ردهة وينزل الحبل الذى ينتهى بحلقة من الحبال يدخل فيها الشخص الذى يراد رفعه وتدار الاسطوانة بواســـطة روافع متشابكة ، تشبه تلك التى تستخدم فى الموانى لانزال الأحجـــار من فـــوق السفن .

وعندما جاء الآباء لاستقبالنا ، رأينا ترحيبا حارا يكاد يبلغ مرتبـــة الملق واقتادونا الى رواق الأغراب ، ومكثنا هناك خمسة أيام زرنا خلالها الدير والأماكن المقدسة المحيطة به .

---

(١٧) ومع ذلك فيوجد باب للعربات ولكنه مســـور ومغطى جزئيـــا بالأتربة ، كما أنه لا يفتح الا لاستقبال زيارة البطريرك .

ويقع هـــذا الدير ، الذى تشكل جدران ســـوره ، المبنية بكتل من الجرانيت يبلغ ارتفاع الكتلة الواحدة منها حوالى نصف المتر (١٨بوصة) وعرضها أكبر من ذلك بقليل ، مربعا يبلغ طول ضلعه حوالى ١٦٢ مترا (اى ٨٤ قامة والقامة تساوى ياردتين) — يقع هذا الدير عند سفح جبل حوريب أو خوريب .

ونشعر وأنت بداخل الدير بعـــدم انتظام سطح الأرض التى أقيم فوقها ، وهو يتكون من عدد كبير من المبانى غير المنتظمـــة المقـــامة على مستويات مختلفة ، ويضم كنيسة مكرسة لسانت كاترين ، و٢٦ كنيســـة أخرى لها نفس العدد من المشرفين ، ومسجدا (١٨) ومسارب بسيطة تتصل بدهاليز خارجية ومغطاة بالخشب وبعض مصـــانع يدوية لصنع الأشــــياء الضرورية لحياة رجال الدين ولصيانة الدير .

ويقيم فى هذا « السجن المقدس » ستة من رجال الدين واثنـــان وعشرون راهبا . وتتكون الكنيسة من أجنحة ثلاثة تفصلها عن بعضـــها البعض عواميد من الجرانيت تحمل سقفا خشبيا مطليـــا بلون أزرق بالغ الجمال تتناثر فيه النجوم الذهبية اللون وتغلق المحراب قطع من الخشب جميلة ، محفورة ومذهبة . أما المذبح فمن زخارف حرشـــفية تشبه جلد السمك ، مطعمة بالصدف ، ومشغولة بشـــكل بالغ الجودة ، أما المنبر فمن الرخام لكن كرسى المطران مصنوع من الخشب المنقوش والمذهب ، ويزدان التاج بلوحة منقوشة على الخشب نرى فيها فى منظور (١٩) سيىء التنفيذ تفاصيل بالغة الدقة للدير ، وتغطى الجدران لوحات سيئة لحد ما مرسومة فوق الخشب ، أما البلاط فمن الرخام والجرانيت ويتخذ السلم شكلا حلزونيـــا (٢٠) .

وجـــــدران الســــــور مسننـــــة ، بها استحكامات بارزة ذات زوايا

---

(١٨) أخبرنا رجال الدين ان هذا المسجد قد بنى فى الفترة التى كان العرب يعملون فيها فى خدمة الدير .

(١٩) انظر اللوحة ١٠٣ ؛ الدولة الحديثة ، المجلد الثانى .

(٢٠) لا يوجد بالدير جرس ، وينادون هنـــاك على الصلاة وكذلك لبقية الممارسات الدينية بالطرق بواسطة بيزر (مطرقة ذات رأسين) على لوحة طويلة من الزان مغلقة أفقيا من الطرفين .

اربع تحمل كوات تغطى قطعا صغيرة من السلاح تطلق قـذائف من زنة الرطلين ، لكن هذه المدافع لم تنطلق أبدا الا لكى تحدث ضجيجا فى الجبل (أى لم يحدث أمر جدى يستدعى انطلاقها) .

وتشتمل ترسانة الدير على عدد صغير من البنادق ذات المحاور ، اضطر الرهبان لاستخدامها فى بعض الأحيان ضـد العربان الذين كانوا يأتون بقصد انتهاب حديقة الدير الخارجية التى تحيط بهـا جدران أكثر انخفاضا وأقل صـلابة من جدران الدير . ويصـل سـكان الدير الى الحديقة عن طريق ممر سفلى يغلقه باب مزدوج من الحديد ، وهذه الحديقة واسعة بعض الشيء لـكنها مزروعة بشكل غير جيـد ، ومع ذلك فهى تنتج الخضروات التى تشبه بعضها ماننتجه نحن من خضـار ولـكنها أقل جودة ، كما تنبت فيها الكروم وأشجار اللوز والبرتقال والليمون والمشمش والتفاح والبرقوق والزيتون. أما العربان، أولئك الذين لايعتنون بزراعتهم، ولا يقلمون أشجارهم بشكل دقيق ونادرا مايلجأون الى تطعيمها فينتجون فواكه ضئيلة الحجم لكنك تجدها لذيذة الطعم حيث أنت فى مكان تندر فيه الفاكهة الى هذا الحد . ولا يعرف رجال الدين التطعيم عن طريق شق القشرة ، وقـد علمتهم طريقـة التطعيم بالبراعم وكيفية تكاثر أشـجار الـكروم عن طريق ترقيد العقل (العقلة) .

والمياه فى الدير وفيرة ، ويخترق الحديقة جدول تسيل فيه الميـاه وبعمق يبلغ أكثر من ثلاث بوصات حتى ولو لم تكن قـد سقطت أمطار منذ عام كامل ، وعلى الرغم من أن معظم العيون عندئذ تكون قد نضبت .

وحياة رجال الدين شديدة الزهد ، ويقتصر عمل الرهبان على القيام بأعمال بالغة الضآلة فيصنعون الزيت وقليلا من النبيذ من عنب كرومهم، كما يصنعون الخمور من البلح والتين والعنب المجفف ، ولا عمل لهم بعد ذلك الا أن يأكلوا ويحصل الدير من القاهرة على كل احتياجاته من المؤن التى تجلبها اليه القوافل والتى يرسلها الـدير الرئيسى هنـاك . ويثرى هذا الدير عن طريق صدقات المسيحيين الذين يطمحون فى أن يحصلوا بهذه الوسيلة على هبات السماء عن طريق دعوات رجال الدين فى جبل سيناء . واذا ما استثنينا قـداس الصـباح ، وبعض الصـلوات التى تتلى فى السماء ، فان هؤلاء الرهبـان الورعين يقضـون كل وقتهم فى انجاز لا شيء .

وهنـــاك مكتبة جميلة لحد لا بأس به ، تضم عددا كبيرا من المجلدات اليونانية ، ومع ذلك فقد بدا لنـــا أن أحدا لايتردد عليها . ويتحدث الجميع باليونانيـــة وليس ثمة الا عـــدد صـــغير من الرهبـــان يفهمون العربيـــة ويتحـــدثون بها . وهؤلاء هم الذين يقـــومون بالســـفر الى القـــاهرة لتدبير شئون الدير .

اليومان الثامن عشر والتاسع عشر

يشكل جبل خوريب او حوريب ، الذى يقع الدير فى سفحه ، ربوة تقع الى الشمال ، يمر فوقها الناس وهم ذاهبون الى جبل سيناء (٢١) .

وعلى مسافة حوالى ٥٠ قامة (١٠٠ ياردة) الى الجنوب من الدير تقابل عين ميـــاه تسمى بئر الاسكافى تهيىء طيلة العـــام كمية صـــغيرة من المياه بالغة الجودة ، وعند نقطة الالتقاء توجد كنيسة صغيرة يطلق عليها اسم كنيسة مارى أو كنيسة المفوض . وفوق هذا الجبل يوجد خزان مياه مبنى وكذلك شىء يشبه حوضـــا كبيرا للسمك يمتلىء بمياه الأمطار . كان كلاهما ـــ الخزان والحوض ـــ جافين منذ زمان طويل ، وفوق الربوة توجد شجرة سرو تمتاز بجمالها ، وعلى ارتفاع متر ونصـــف المتر (٤ اقدام) يبلغ محيط هذه الربوة مايقرب من مترين وثلاثة ارباع المتر (٨١/٢ اقدام) مع ارتفاع مناسب (٢٢) . وعلى جزء أكثر ارتفاعا على نحو طفيف من نفس الهضبة توجد كنيستان صغيرتان تحملان اسمى : أيلى ، ايليزيه، وجدرانها مغطاة بأسماء أولئك الذين قدموا لزيارة جبل سيناء الذى يبلغ المرء قمته بعد مسيرته ساعتين صعوداً فوق سلم يتكون من درجات من الصخور وكتل الجرانيت التى جلبت الى هذا المكان . ويغلق الممر المؤدى اليه بعض الأحيان ويقوم بحراســـة الأبواب رجل لايسمح بمرور احـــد الا من كان مسيحيا مزودا بكتاب من بطريرك سوريا . ويرى المرء أيضا من فوق هذا الجبل أطلال كنيسة صغيرة مبنية بالجرانيت ، كما يرى مسجدا يرتفع فوق مايشبه قبوا صغيرا يبلغ ارتفاعه مايقرب من متر ونصف المتر (٤ أقدام

---

(٢١) عادة ما نضع على الخريطة كلا من جبل حوريب وجبل سيناء باعتبارهما كتلتين تنفصل بينهما مسافة قصيرة ، وهذا خطأ ، فجبل حوريب ربوة من جبل سيناء ، أما تلك الكتلة التى تنفصل عنه فهى قمة جبل سانت كاترين ، وهذه أكثر منه ارتفاعا بنحو طفيف .

(٢٢) يلاحظ وجود ربوة مشابهة داخل الدير .

و٧ بوصات) فوق مايماثلها من العرض والعمق . وينظر الى هذا المكان باعتباره المكان الذى أمضى فيــه موسى أربعين يوما . ويوجد فى مقــابل هذا المكان كهف بالغ الضيق هو ذلك الكهف الذى اختبأ فيه موسى ــ كما يقال ــ عنــدما تجلى له ربه . ويرى المرء بالمثل أطلال كنيسة ثانية خربها العربان لأنها كما يزعمون كانت تمنع المطر من السقوط . وهنـاك كثير من الآبار المحفورة فى الجرانيت ، لــكنها جافة .

كان العرب ينتظروننا عند سفح الجبل ، وهنــا وقع حادث ،طبيعى فى هذا الفصل ، لكنه نادر ، يتلهف الناس لحدوثه منذ زمن طويل ، جاء ليضيف الى الاحترام الذى يكنه هؤلاء العرب للفرنسيين ولتقديرهم لنا ، لم تكن قد سقطت أمطار منذ عام ، وكانت القطعــان تعــانى ، وكانت مصادر المياه تتناقص . وسمعنا ونحن فوق الجبل الرعد يزمجر عن بعد، وبدأ المطر يتساقط بينما كنا نهبط ، لم نكن قد شاهدنا مطرا يسقط منــذ زمن طويل . فتمتعنا بلذة أن نحس بأنفسنا مبللين ، ولم يكن يخطر على بالنا مطلقا أن ننسب لأنفسنا فيما يحدث فضلا حين سمعنا العرب يهتفون، وعندما حاذيناهم هبوا جميعا واقفين يهللون : « ماشاء الله ! ماشــاء الله ! عظيم غفار ! أيها الفرنسيون الطيبون . لقد صليتم من أجلنا فوق جبل سيناء ! لقد ساعدتم (بذلك) فى ان يهطل المطر علينا ، وهو اثمن علينا من الذهب » كانوا يقبلون أكمامنا وذيل ملابسنا ويبتهلون الى السماء وهم يرددون : أيها الفرنسيون الطيبون ! أيها الفرنسيون الطيبون ! كان الجو مشبعا للغــاية . وكان لون السماء يماثل لونها فى أوربا قبل هطول ثلج كثير . وأبديت هذه الملحوظة لزميلى ثم أجبتهم . « اننــا مسرورون منكم ، لقد صلينا على الجبل ودعونا الله من اجلــكم ، وسيستجيب على الفور لأمنياتنا وأمنياتكم » . وبالكاد ، كان لدينا الوقت الذى يكفى لأن نحتمى تحت سقف مبنى ردىء من مبانى الرهبــان ، تدخله الرياح من كل اتجاه ، وظل المطر يسقط بغزارة شــديدة ، واستمر بنفس القوة لفترة طويلة من الليل .

رحلنــا فى اليوم التــالى عند انبلاج النهار لكى نذهب لزيارة جبل سانت كاترين ، وأمضينا اربع ساعات لكى نبلغ القمة بادئين من عنــد السفح ، نسير احيــانا فوق قمم حادة مدببة واحيانا فوق صــخور من السماق المورقة أو المفتتة بشكل تام . وفى كل لحظة كانت مساقط المياه،

والأخوار . والشعاب التى شكلتها الثلوج التى سقطت فى العشية عند ذوبانها والتى كانت لاتزال تغطى الثلث الأخير من الجبل .. كان كل ذلك يجعل عبور بعض الممرات امرا بالغ الصعوبة . وكانت الرياح تهب من جهة الشمال ، وعلى الرغم من ان الترمومتر لم يكن يشير الى درجة التجمد ، فقد كان الجو جد قارس بالنسبة لنا ، نحن الذين لم نعد نعرف منذ زمن طويل لا البرد ولا المطر . ولا الجليد . كانت السماء صافية فوق رءوسنا ، لكن بخر المياه التى سقطت فوق الصخور الدائنة على الدوام قد شكل من حولنا ، ومن تحت أقدامنا سحابا كثيفا ، كأننا كنا فى داخل جزيرة ، وكأنما قمم الجبال العالية من حولنا تشكل عددا مماثلا من صخور البحر ، وسط هذا البحر من البخار . وفوق هضبة الجبل شديدة الضيق ، ينهض كوخ متهدم بشكل جزئى ، ويغطى صخرة من الجرانيت، هى موضع تقديس من جانب المسيحيين . وقد شرح لنا الأخ الذى كان يصحبنا والرهبان الذين كانوا معنا ، فى أثناء عودتنا الى الدير سر هذا التقديس .

لقد استشهدت سانت كاترين ، عذراء الاسكندريه ، حسبما يذكر مؤرخو القرن التاسع فى مدينتها الاسكندرية . فى عهد ماكسيمانوس الثانى ، الامبراطور الرومانى فى ذلك الوقت . وفى هذه اللحظة ، وجد الناس على صخرة سانت كاترين هذه جثة لفتاة . واخبر بعض المسيحيين احد الرهبان بالأمر ، وذهب الجميع للتعرف على الجثمان . واقروا بأنه جثمان لشهيدة . وانه لابد ان يكون جثمان سانت كاترين . التى نقلت بالتأكيد ، حسب المعتقد الراسخ فى الدير . من الاسكندريه الى هنا بواسطة الملائكة الذين انزلوا الجثمان عند سفح جبل حوريب (٢٣)

وسرعان ماذاع صيت هذه المعجزة ، وتزايد عدد الحجاج القادمين من سوريا ومن القاهرة (كذا) ، وسرعان ما امد هؤلاء الرهبان بوسائل لاقامة كنيسة صغيرة كانت هى أصل منشأ هذا الدير .

وبعد ذلك وضع الجثمان فى صندوق له نافذة من الرخام الابيض

---

(٢٣) يحدد رجال الدين المحطات التى استراح فيها حاملو الجثمان. وهم يقدمون كذلك الصخور الأفقية التى وضع الجثمان فوقها .

وحفظ بالطريقة التى يقضى بها الدين ، وفى أيام العيـد تعرض الرأس واليد اليمنى أمام النافذة وتنال تقديس النـاس ، أما النافـذة الموازية فلا تدع أحدا يلمح الا أجزاء من الهيكل (٢٤) .

رجونا رئيس الدير ان يسمح لنـا بالمشاركة فى هذه الحفلةالدينية، فوافق على تحقيق هذا الرجاء فى الغد ، وعندئذ زينت الكنيسة كما فى أيام الأعياد الكبرى ، وأضيئت كافة الشموع والمصابيح ، وبعـد أن خر رئيس الدير والرهبـان ساجدين ابتـداء من أسفل الـكنيسة حتى بلغوا المحراب ، جاء هؤلاء ليقبلوا جبهة القديسة والخاتم الـذى يحيط بأحـد أصـابعها .

ولقد لفت هؤلاء أنظارنا عند هبوطنـا من الجبل الى زهور نسرين بالغـة الازدهار والتفتح ، يطلق عليها الرهبان اسم شـوك النـار ، وقـد أعجبنا عند مرورنا بالوادى الواقع بين جبل سيناء وجبل سـانت كاترين ، بكتل رائعة من الخزف الهولندى تحيط بحوض أسـماك واسع كانت الأمطار قد ملأته اثناء الليل .

وعلى بعد مسافة قصيرة من ذلك ، عند منتصف الوادى ، لفتهؤلاء انظارنا الى الصخرة التى خرج عندها موسى من الماء (٢٥) .

---

(٢٤) أسترعى رجالالدين انتباهىالى انه اذا كانالملائكة لم يعرضوا الجسد كله ، فقد كان ذلك من جانبهم تقديرا لاعتبارات العفة والفضيلة.

(٢٥) تتشكل الأمطار بسقوطها فوق الجبال أخوارا ، تحمل معها ، بينما هى تتبع نفس الاتجـاه لوقت طويل ، الطين والأحجـار ، والزلط المستدير ، وتتشكل بهذه الطريقة صخورا تستعصى على حركة التنقلهذه، كما تحفر جداول يزداد عمقها بقدر ماتزيد رخاوة الحجر وبقدر ما يحدث المزيد من الأخوار ، حتى يحدث أن تندفع هذه الصخور من تلقاء نفسها ، بعد أن تفقد القاعدة التى كانت تنهض عليها بفعل انحـراف الأرض من تحتها ، الى الوادى ، ولقد اندفعت كتلة من الجرانيت تبلغ مساحةسطحها ٥ر٤ أمتار مربعة ، (حوالى ١٤ قدما مربعا) الى وسط الوادى ، وترى اليوم على سطحها جدولا صغيرا يبلغ عرضـه ٥ر٢ ديسيمتر ، وعمقـه ديسيمترا واحدا ، وتقطعه من ١٠ ــ ١٢ قطعا يبلغ عمق القطع منهـا ٣ــ٤ سم (٥ر١ــ٢ بوصة) ، وقد تشكلت هذه بفعل بقـاء الميـاه فى الأجزاء الأكثر رخاوة من هذه الـكتلة ، التى يسميها الرهبـان والعرب صخرة موسى . ويضع الأخـيرون العشب فى هـذه الأفواه المزعومة ، ويطعمونها جمالهم ، عندما تكون مريضة .

وعلى مسافة عدة أميال من هذا المكان ، تتلاقى عدة وديان وتشكل باتحادها هضـــبة واسعة مليئة بالرمال وكتـــل الجرانيت والزلط وتحمل اسم سهل الاسرائيليين . وهنـــاك وسط هذه الصحراء تل قليل الارتفاع يسمى جبل هارون ؛ وقـــد اكد لنـــا مرافقونا أن بعض العرب يذهبون الى هناك لذبح العنزات ؛ وبمواصلة طريقنا ، رابنـــا صخرة مجوفـــة ؛ يزعم الرهبان بأن العجل الذهبي قد صب (صيغ) فيها .

كانت القافلة هى نقطة البدء لعودتنـــا الى القاهرة ، وكان علينـــا أن نحرص على انتهاز هذه الفرصـــة والا فاننـــا سوف نخاطر بالبقاء فى الصحراء حتى يحين موعد سفر القـــافلة التالية اى لمدة أكثر من ســـتة اسابيع اذا مالافترضـــنا – فوق ذلك – أن حـــدثا طـــارئا لن يأتى ليعطل مسيرتها . اذن فقد عدنا الى الدير . وفى اليوم التـــالى فارقنـــا هؤلاء الرهبـــان لكى نعود الى القاهرة عن طريق الجبـــال . كان شيوخنا فى انتظارنا عند سفح الـــكهف . وكانت القبائل الأكثر بعدا قـــد بدأت بالفعل مسيرتها لكى يلتقى الجميع عند مدخل الوادى لعبور صحراء السويس ، لكى يتبادلوا الحماية ضد القبائل المعادية التى قد يصادفونها .

وبينما كنا نشرف على تحميل جمالنـــا ، جاء احد مترجمينا واخبرنى ان عربيا قد ابلغه أن الأتراك قد سيطروا على القاهرة وقتلوا الفرنسيين . كان بمكننى استدعاء هذا الأعرابى **وسؤاله** حول صحة هـــذا الخبر وأن افحمه لو كان الخبر مختلقا لاثارة العربان ضدنا . لكن مثل هذه المناقشة سوف تكون لها مساوئها . فقد كان بعضهم حانقا لأن رحلتنا قـــد عادت ببعض الفوائد على عدد قليـــل منهم . واعطيت امرى للمترجم ان يذهب ليقول لراوى الخـــبر ان الفرنسيين اصـــدقاء للاتراك ، وانه ـــ هو ـــ لايعرفنـــا حق المعرفة . ان كان يظن انه بذلك سيخيفنا ؛ واننى أرسل له حفنة من البارات باعتباره منشدا وراوى قصص . وبعـــد أن ركبنا جمالنا (الهجين) ؛ وزعنا البارات على الفقراء ، والقينا بها الى الأطفال

كما كانت عادتنا ان نفعل عندما كنا نغادر احدى القبائل ، ورحلنا بينما ادعيات وبركات الرهبان الطيبين ، تنهال علينا (٢٦) .

اليوم العشرون

بعد مسيرة ست ساعات من وادى الراحة وبعد مسيرة ساعتين فى وادى الشيخ صالح عسكرنا بالقرب من اولاد سعيد الذين لقينا فى كنفهم افضل استقبال . قادنا الشيخ الى خيمته ، ودار حوار عنيف اثناءالطعام بينه وبين جار له كان يود أن يستضيفنا . وفقنا بينهما واعدين الأخير أن نذهب لنأكل عنزة معه فى الغد قبل رحيلنا .

اليوم الحادى والعشرون

لم يعد أمامنا سوى مسيرة ساعتين لكى نصل الى وادى فيران الخصيب والذى تحتله قبيلة القرارشة ، وهى أكبر القبائل عددا ، ويعد شيخها فى نفس الوقت أقدم المشايخ ويحمل لقب الشيخ الكبير . ويبلغ طول هذا الوادى ، المزروع بأشجار النخيل وبعض اشجار النبق حوالى ثلاثة أميال وعرضه حوالى ٢٠٠ الى ٣٠٠ متر (١٠٠ — ١٥٠ قامة) . ويحتوى على أسوار كثيرة جدرانها من الحجارة الصلبة ، تشكل عددا مماثلا لعددها من الملكيات التابعة لأكثر ابناء القبائل المجاورة ، ميسرة ، والذين يأتون ليجنوا هناك بلحهم ، وهناك شخص بعينه يأخذ علىعاتقه الحفاظ على هذه الحدائق التى تحظى بحماية الشيخ الكبير .

وهذا المعسكر كبير فى مساحته واهميته ، فهو يتكون من حوالى اربعين خيمة تنهض بين اشجار الطرفاء (المن) ، وهى تضم الجزءالأكبر من أبناء القبيلة ، ويجد المرء هناك آبارا عديدة تهيىء المياه بوفرة كافية . وهم ينزحونها من عمق عشرين قدما ، وقت أن كنا فى رحلتنا هذه .

---

(٢٦) كانت قطعة من جوار السور قد تهدمت ، ولم تكن لديهم وسيلة لترميمها ، فوعدناهم بأن نرسل اليهم بنائين سافروا بالفعل مع اول قافلة تبعا لاتفاق عقدناه مع العربان . وبعد ذلك بسنوات وجد أحد الرحالة الروس ، الذى سافر برا من سوريا الى جبل سيناء ، اسمنا مدونا فى حجرة الأغراب ، دليلا على عرفانهم بالجميل .

Extrait du Journal du Monde élégant, Berlin, 1806.

وكان الطعام الذى قدم لنا هناك هو نفس ذلك الطعام الذى قدمته الينا القبائل الأخرى ، لكن تجمعهم الكبير العدد كان يضم من ٤٥ الى ٥٠ شخصا ، أى كل رجال وأطفال القبيلة .

ثمة ما يجعلنا نلمس واقعة هامة . كان بوكوك Pococke وبصفة خاصة نيبيور Niebhur قد وجدا على بعد مسيرة يوممن وادى فيران احجارا تغطيها النقوش الهيروغليفية يبدو انها تشير الى وجود مقابر مصرية ، وقد تحدث الناس اليهما كذلك عن وجود مدينة قديمة ، الأمر الذى يتفق لحد كبير مع ما واتتنا الفرصة مرات عديدة للتعرف عليه فى صعيد مصر، اذ من المعروف انك عندما تجد خرائب مدينة فانك على يقين من انك ستلقى مقابر غير بعيدةمن هذا المكان ، والعكس صحيح . ولما كنا نعيش منذ قرابة شهر مع رجالنا العربان ، ولما كانوا يبدون شديدى الثقة بنا للحد الذى لا يقدر أحد أن يحصل عليه من هذه الشعوب المرتابة ،فقد كانتلدينا من الأسباب مايكفى لأن نأمل بمساعدتهم فىالعثور على الآثار القديمة التى رسمها ووصفها نيبيور ، وعليه ، فقد سألنارجال الدين الذين قاموا بالسفر الى هناك عدة مرات ، كما سألنا الرجال الطاعنين فى السن ، وأولئك الذين لبس لديهم مايخفونه حيث لايمتلكون شيئا يخشون من فقده ، ووافق الجميع على ان يدلونا على أطلال مدينة قديمة تقع فى نفس المكان ، وعلى بقايا أحجار منقوشة فى مكان آخر ، هو بالتأكيد المكان الذى اشار اليه نيبيور ، لكن ، لقد خدعتنا امانينا ، سواء كان ذلك بدافع من الجهل أو بدافع من سوء الطوية والظن منجانب مرشدينا ، فاننا لم نذهب الى المكان الذى توجد به الأنقاض القديمة ،التى كنا نتلهف على زيارتها .

اليوم الثانى والعشرون

بعد ساعة من خروجنا من وادى فيران ، اكتشفنا فوق تل يبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثين مترا (١٥ قامة) وجود هضبة تحيط بها جبال عالية . وقد رايت وسطها كذلك انقاض مساكن قديمة تفتقد الذوق فى بنائها . وقد بنيت هذه بكتل من الحجارة غير المشذبة ، كما بنى جزء منها بالطوب النيىء . ويوجد فى اسفل الجبل بقايا جدار سميك يبدو انه كان

قد بنى بقصد دعم التربة ، أو لاستخدامه كسور ، كما توجد ثمة مغارات محفورة فى الصخور ، لكن مداخلها ظلت ناتئة غير مشذبة .

ويؤكد العربان والرهبان أن المبانى الموجودة فوق التل وسط الهضبة هى أطلال مدينة صغيرة كان يسكنها المسيحيون ، وخربها العربان الذين طردوهم منها ، ويزعم آخرون أن هذه المدينة قد انهارت فوق سكانها الذين وجدت جثثهم تحت أنقاضها .

وعلى قمم شديدة الارتفاع تسمى رأس الطاحونة توجد أساسات كنيسة قديمة تعود الى نفس الزمن الذى تعود اليه المبانى الموجودة فى أسفل ، وكل ما هناك ينبىء ببؤس وجهالة السكان القدامى لهذه المبانى التى تهدمت حيث لا شىء منه شبيه بالمبانى المصرية فى شكلها ومتانتها .

وعلى بعد خمسة عشر أو ستة عشر ميلا (مسيرة يوم) مررنا كذلك بسفح جبل تغطيه النقوش مع الأرقام العربية ١١٠ ، ١١١ ، ١٥٠ ، ٥٠٠ ، ٦٠٠ ، وبجوار أكبر هذه الأرقام يوجد عدد ضئيل من الحروف لدرجة لا يمكن منها أن تكون شيئا آخر سوى أسماء يسبق الكثير منها — أو يتبعها — رسم الصليب . وقد رأينا هناك خيولا وجمالا منقوشة ، ورجالا على ظهر حصان وهناك رجل بين آخرين ، يحمل رمحا تشبه قمته رأس السهم .

وتوضع هذه النقوش أحيانا فوق أحجار أفقية ، وأحيانا أخرى فوق أحجار رأسية ، وكان الكثير من هذه الحجارة **مقلوب** لأنها انفصلت عن الجبل منذ نقشها ، ولا يزيد ارتفاعها مطلقا على مايزيد على ثلاثة أمتار ونصف المتر (١٠ — ١٢ قدما) بل انها نادرا ما تبلغ هذا الحد من الارتفاع . وفى هذه السلسلة من الجبال ، التى يبلغ طولها حوالى ثلاثة أميال ، والتى تقطعها فى أماكن عديدة شعاب أو وديان صغيرة ، لا يجد المرء مطلقا أحجارا منقوشة وان كان ذلك قد يحدث أحيانا عند زوايا الممر .

ولا تنبىء أى من هذه النقوش لا عن موهبة — بل ولا حتى عن عادة — النقش فوق الأحجار . وقد حفرت كلها بواسطة أحجار مدببة صلبة أو بقادوم ، فيما عدا عدد ضئيل منها تم حفره بواسطة أزميل .

ومن الصعب الا يدرك المرء الغاية من هذه الكتابات ، بل ومن الصعب أكثر أن نتردد حول التفسير الذى ينبغى أن يعطى لها ، اذ هى لا يمكن أن تكون قد تمت الا على أيدى مسيحيين كانوا يذهبون للحج (الزيارة) الى جبل سيناء . ويوجد أكبر عدد من هذه النقوش فى مكان استراحة الليل، وهناك القليل منها فى مكان استراحة النهار فى الوقت الذى لانجد فيه أى نقش على الاطلاق فى أى مكان آخر على الطريق .

وقد نسخنا العديد من هذه النقوش ، ثم دخلنا بعد ذلك الى الشرق فى واد ضيق حيث نصبنا خيامنا بعد أن قطعنا ثلاثة أميال فى سفح جبل جرانيتى وسط قبيلة العوارمة .

اليوم الثالث والعشرون

وفى هذا اليوم ، لم نقطع سوى أحد عشر ميلا فى واد ضيق ، بين جبلين رمليين ليس بهما أثر لخضرة من أى نوع ، لكى نصل الى هضبة مرتفعة تسمى وادى الخميلة ، حيث قضينا الليل .

اليوم الرابع والعشرون

باتباعنا الوادى . مع الانحراف قليلا الى الغرب ، عبرنا عدة شعاب مغطاة بصخور رملية وجرانيتية وسماقية (رخامية) ، ثم توقفنا فى وادى النصيب على بعد عشرة أميال من وادى الخميلة ، فى سفح جبل من الجرانيت تغطيه النقوش .وعلى الرغم من أن هذا المكان ليس سوى استراحة نهارية ، فإنه ينبغى عليك أن ترسل الجمال الى مسافة عدة أميال من هناك اذا كنت تريد الحصول على الماء .

كنا وسط قبائل العليقات ، وقادنا شيخها . الذى كان قد هرع الينا من مخيمه حيث نمنا بعد أن اكلنا العنزة تحت سقف خيمته .

اليوم الخـــامس والعشرون

فى هذا اليوم ، وجدنا آخر النقوش (٢٧) فى واد يسمى وادىالحمور بعد مسيرة نحو خمس ساعات وبعد أن اجتزنا واديا عميقا ورطبا مليئـــا بالبوص ، وبه بعض أشجار النخيل ، ويغطيه فى جزء منه الملح والبارود الأبيض بطول يبلغ ثمانية أميال ، وصلنا الى واد عسل ، حيث قضـــينا الليــل .

اليوم الســـادس والعشرون

وباتباع الوادى ، الى الشمال الغربى ، استرحنا للحظات فى مكان يقع الى الجنوب من وادى الغرندل لكى نذهب لنقيم خبامنا فى خور فرق

---

(٢٧) لمعرفة كل النقوش أنظر اللوحات A , E المجلد الخامس ، كما يمكنك أن تجد جزءا منها فى Voyage de Niebuhr en Arabie المجلد **الأول**.

ومن المرجح اننا ابتعدنا لمسافة قصيرة من الجبل الذى نسخ عنـــه هذا الرحالة الممتاز الكتابة الهيروغليفية المنقوشة فى مؤلفه ، ولكن سواء كان ذلك عن جهالة أو عن سوء طوية فأن عرباننا قد اكدوا لنـــا أنهم لايعرفون أحجارا أخرى منقوشة . وقد واصلنا طريقنا **ونحن** واثقون من اننا سنعثر على النقوش الهيروغليفية ، لأنهم عندما أخبرناهم أنه لاتزال توجد احجار أخرى ، دلونا على مكان أكثر بعـــدا لنبحث عنهـــا هنـــاك ، ولم ندرك أننا قد خدعنا الا عندما وجدنا النقوش الأخيرة . كانت القافلة تسير ولم يعد ذلك هو الوقت الملائم لكى نواصل البحث ، بل لـــكى نعود أدارجنـــا لنلحق بالركب .

وفى أثناء عبورنا الصحراء ، سببت لنا الـــكثير من القلق ، احدى القوافل التى كانت تسير على مسافة بعيدة منـــا ، ثم تعرفنـــا فيها على قبيلة صديقة .

وعلى مسيرة يومين من القـــاهرة ، عندما كنا معسكرين ، فوجئت غزالات ثلاث بأنفسها سجينة داخل المعسكر ، وبدأت تطاردها صـــيحات العربان ، وكلما فرت قابلتها نفس العقبة (الصياح) وقد اجتازت احداهن الشباك ، وافلتت الأخرى على الرغم من جراحها ، وأسرت الثالثة .كان العربان من قبل قد ذبحوا لنـــا غزالة كنا قد اشتريناها عشية وصـــولنا الى دير سانت كاترين، ويماثل لحمها كثيرا لحم اليحمور (نوع من الأيائل) البـــالغ اللذة .

على بعد عشرة أميال من الحوزية **وذلك** بعد أن بلغنا هضـــبة شـــديدة الارتفاع وجدنا فيها مياها بالغة الرداءة داخل مايشـــبه كهفا مكونا من الأحجـــار الجيرية . اجتزنا وادى الغرندل الذى يغطيه أشجار الطرفاء (المن)حيث يأتى عرب العليقات يصنعون الفحم .

اليوم السابع والعشرون

كنا بعد على بعد أكثر من عشرين ميلا من عيون موسى . وكنا منذ نهاية اليوم الثانى قد تركنا الجبال لكى ندخل صحراء قاحلة قطعنا فيهمـــا سته عشر ميلا ثم نصبنا خيامنا فى وادى الحلزا .

اليوم الثامن والعشرون

فى هذا اليوم وصلنا فى ساعة مبكرة الى عيون موسى . كان المـــد قـــد بدأ يهبط وعبرنا ذراع البحر (الخليج) تجاه السويس ، وفى أماكن كثيرة كانت الميـــاه من حولنا تبلغ عمقا يقدر بأكثر من أربعة أقدام . وفى اليوم التالى لحقنا بالقافلة فى العجرود . وكانت القافلة تتكون من ١٢٠٠ جمل ومن ٤٠٠ الى ٥٠٠ رجل وفى اليوم الحادى والاربعين منذ رحلينا ، وصلنا الى القاهرة .

تقاليد وعادات عرب الطور

يسمى سكان شبه جزيرة سيناء الطورة أو عرب الطور . وهؤلاء ـــ شأن كل العربان . ذوو قامة يبلغ طولها فى المتوسط من متر ونصف المتر الى متر و٧٣٢ مم (٤ أقدام وست بوصات) . ولون بشرتهم حائل، شديد السمرة ، بل يكاد يكون أسود تمـــاما ، وعيونهم حادة ســـوداء ، تغطيها الجفون بعض الشىء . وهم فى العـــادة نحيفو الأجسام ، جادو التقاطيع دون أن يوحوا بالكآبة ، وهم على دين محمد ، لكنهم لا يعرفون عن محمد سوى اسمه ، ولا يعرفون عن القرآن سوى شهادة لا اله الا الله ، محمد رسول الله . ولم نقابل من بينهم سوى رجل واحد يؤدى الصلاة بانتظام ، كما قام بالسفر الى مكة (الحج) مرتين .

وعلى الرغم من أن الاقامة الاعتيادية لهؤلاء العربان فى جبال صخرية ووسط أرض قاحلة لايمكن أن تغرى أحدا على الاطلاق على انتزاع هـــذه

البلاد منهم ، فقد منحتهم هذه الحيـــاة ــ كما منحت كل العربان البدو ــ روحا من الحرية أساءوا استخدامها فى معظم الأحيان . وعلى الرغم من أن الضرورة تفرض عليهم أن يكونوا على الدوام مسلحين لحماية تجارتهم وللدفاع عن أنفسهم ، وعلى الرغم من أن حوادث الانتقام (٢٨) التى قـــد يكون عليهم أن يمارسوها ضد قبيلة معادية قد دعمت لديهم الميل الى السلب حين يكونون منتصرين فان المرء مع ذلك لا يستطيع أن ينكر أنه يجد ــ رغم ذلك ــ فى كل القبائل العربية بقايا ثمينة من تلك التقاليـــد الأبدية التى نقلها الينـــا سفر التكوين فى قصـــة ابراهام ، وكما وصفها المسيو فولنى Volney بقدر كبير من الدقة والعذوبة فى مؤلفه الهام الحالة السياســـية لسوريا Etat Politiqu de la Syrie ان مانستطيع أن نؤكده هو أننا فى خلال الواحد والأربعين يوما التى أمضيناها مع عـــرب الطور لم نستشعر من جانبهم أى نوع من القلق أو أن نتوجس منهم خيفة ، كانت خيمتنـــا على الدوام مفتوحة بل وكثيرا ماكنا نغادرها ، وكانت أسلحتنا ملقاة كيفما اتفق، ومع ذلك فلم نفقد شيئا على الاطلاق مهما يكن ضئيلا .

ولقد وجدناهم شديدى التحفظ تجاه الفرنسيين ،ولكى ندعم مواقفهم الطيبـــة هذه معنا ، فاننـــا لم نعدهم بشىء على الاطلاق دون أن نـــكون عند وعودنا ، كما لم نطلب اليهم ما يستحيل عليهم أن يفعلوه . ومع ذلك فقد كنا نفرض مانريد بقدر من الحزم كنا نبدو معه وكأن لدينـــا من القوة مايجعل الغير يستجيب لارادتنا .

« كلمة الفرنسيين واحدة » ، هكذا كانوا يقولون على الدوام . وقد سألنى كثيرون منهم ، وهم دهشون لرؤيتنا نركب جمال الهجين ونســير بينهم ، نتحمل نفس المتاعب ونفس صنوف الحرمان التى يعانون منها ، سألونى : ان كان كل الفرنسيين أقوياء مثلى . وكنت أقول لـــكل سائل انك ذاهب الى القاهرة ، وسوف ترى بنفسك أننى لست واحدا من أكثر الفرنسيين فتوة كما أنى لست واحدا من أكثرهم قوة فكانوا يجيبون : لقد خلقتم معشر الفرنسيين للاسفار .

---

(٢٨) هناك قانون عام عند العرب يقضى بأن دم كل قتيـــل لابد من الانتقام له بدم قاتله وهو يسمى بالثأر أو القصاص .

كل مايرتديه عرب الطور كملبس هو قميص من الصوف الأبيض ينزل الى منتصف الساق ، وأكمامه قصيرة ، وكذلك جلباب من الصوف المقلم بالأبيض والغامق ، مفتوح من الأمام ، وليست له أكمام ، ومشقوق من الجنبين لمرور الذراعين ، وسروال من التيل .

ولا يرتدى الأطفال سوى الجلباب ، وكثيرون منهم عراة ، وفى الصيف لا يرتدى الرجال سوى القميص مع حزام من الجلد أو من قماش صوفى . أما الشيوخ ، وهؤلاء هم أكثرهم ميسرة ، فيرتدون ملابسهم على طريقة المصريين وقد تلقى كثير منهم عباءات (خلعات) من حكام البلاد.

ويرتدى البعض منهم نعلا نربطه الى قدمه سيور من الجلد أو خيوط من الصوف ، لكن سيقان الجميع عارية حسب عادة المصريين ، ويرتدون غطاء للرأس ، قلنسوة تحت عمامة رديئة من الصوف الأحمر أو الأبيض، وتكاد تكون رءوس كل الأطفال عارية .

ويحمل هؤلاء العرب كسلاح بندقية ذات سير جلدى وخنجرا مقوسا طوله ٥١ ديسيمتر (حوالى ٢١ بوصة) وهو ذو حدين ومزخرف بالفضة فى معظم الأحيان وهم بحصلون على هذا السلاح المصنوع فى فارس عن طريق جدة وهو يوضع فى مقدمة الحزام من الشمال الى اليمين .

وهناك ما يشبه جعبة من الجلد تعلق بالمثل فى الحزام من الأمام ، وتمتلئ بعلب من البوص أو الخشب ليوضع بها البارود ، وبالاضافة الى ذلك ثمة جراب يتكون من سيور صغيرة من الجلد المجدول ، تنتهى بأهداب مزدانة فى بعض الأحيان بقطع صغيرة من الرصاص ، ومزود به حقيبة من الجلد للصوفان (مادة اسفنجية للجراحة) وفتائل مطلية بالكبريت ، وحقيبة اخرى للاحجار . وتعلق به قداحة لها سلسلة صغيرة ، وهناك حقيبة ثالثة صغيرة توضع بها المقذوفات وعلبة كبيرة من الخشب على شكل مخروط تمتلىء كذلك بالبارود ، بالاضافة الى جعب كثيرة مشابهة تعلق بهذا الجراب .

وتشبه ملابس النساء ملابس نساء القاهرة ، سروال ضيق من قماش فاتح ، وفستان طويل من التيل الأزرق ، مفتوح عند الصدر ، وله

أكمام واسعة مشقوقة حتى منتصف طولها ، برقع أو رباط من القماش الأسود يبلغ عرضه ٢ ديسيمتر (٨ــ٩ بوصات) وطوله ٥ــ٦ ديسيمترات (١٨ ــ ٢٠ بوصة) ، معقود من جانبى الرأس فوق العينين وعند منتصف الجبهه بشريط صغير تغطيه البارات (قطع النقد الفضية) فى بعض الأحيان ، على هذا النحو تتكون ملابسهن ، وفى نفس الوقت ينبغى أن نضيف الى ذلك قناعا من التيل الأزرق وعقودا وأساور من الحلى الزجاجية ، ولبعضهن حلقان كبيرة من الفضة فى أسفل الساق العارية (خلخال) والتى لايغطيها جراب (شراب) .

الأثاث

تشتمل أثاثات عرب الطور على خيمة من قماش من الصوف الغامق يصنعونه بأنفسهم ، ورحى من الحجارة لطحن القمح ، وغلاى أو غلايين للقهوة من النحاس ، وقدر معينة ، وأطباق من الخشب وملعقة من الحديد لتحميص البن وهاون من الخشب ليصحن فيه البن بواسطة عصا ــ هذا هو أثاث الميسورين من هؤلاء العرب والذين يمتلكون زيادة على ذلك ، حقائب من الصوف لنقل الفحم .

المخيم

نادرا مايضم المخيم القبيلة بأكملها ، ولا يتجاوز عدد الخيام الخاصة بكل قبيلة والتى توزع هنا وهناك تبعا لوجود الأعشاب والشجر التى يعثرون عليها فى الوديان ، ١٢ أو ١٥ خيمة ، وينبغى استثناء عرب القرارشة الذين يمتلكون ٣٥ الى ٤٠ خيمة لأنهم يقيمون فى وادى فيران الخصيب .

وتنهض الخيام ، وهى مفتوحة من الأمام ، فوق عارضة من الخشب يحملها وتدان يبلغ ارتفاعهما المترين (حوالى ٦ أقدام) ، وتنزل بشكل منحدر لمسافة يتفاوت طولها فوق عارضة أخرى يبلغ ارتفاعها نصف المتر (١٨ ــ ٢٠ بوصة) وهى من الطين ، وتنهض فوق العارضة الأخرى بشكل عمودى . وتقفل الجوانب بنفس القماش أو بقطع عديدة مختلفة الألوان . وفى معظم الأحيان تنقسم هذه الخيام بشريط من القماش يمتد الى الأمام قليلا ويستخدم فى عزل المكان المخصص للنساء .

الممتلكات

اذا استثنينا بعض الأراضى فى وديان الكيد وفيران ، وهى المحاطة بأسوار متهدمة ومزروعة بأشجار النخيل والنبق ، واذا ما استثنينا كذلك الدير وحديقة الرهبان ، فيمكن القول بأنه ليست هناك ملكيات فى شبه جزيرة سيناء ، فجمل أو عدة جمال ، بالاضافة الى بعض العنزات هى ثروة العربى ، وتنتشر كل قبيلة فوق منطقة محددة من الأرض ترعى فوقها قطعانها وتصنع فحمها ، وتقدر الثروة هناك بعدد الجمال ، ويعد فقيرا من لا يملك جمالا : أبو فقير ، مفيش جمل ، أى انه فقير لا يملك جمالا مطلقا ، فليرعه وليعطه المالك .

الصناعة

تتناسب صناعة عربان الطور مع احتياجاتهم بالغة البساطة ، فهم يصنعون ملابسهم ، ويصنعون بأنفسهم أقمشة خيامهم من الصوف ووبر الماعز الذى يغزلونه دون ازالة الشحم منه (٢٩) .

وعلى الرغم من أن بيع الفحم هو مصدر دخلهم الأساسى ، فليست لديهم الوسائل اللازمة لقطع الخشب ، وهم يضعون النار عند جذر الشجرة ، ويكسرونها بقطع ضخمة من الأحجار . واذا كانت لدى البعض

---

(٢٩) تحمل الخيوط التى تشكل سداة القماش ، عصوان موضوعتان بشكل افقى . ومثبتتان بالأرض من كل من طرفيهما ، وتبتعد كل منهما عن الأخرى بمسافه تزيد أو تنقص (حسب الغرض المطلوب) ، وهناك جزء من غزل صوفى مماثل ، ملفوف حول عصا طولها ٣ ديسيمترات (حوالى ١ قدم) تستخدم كمكوك ، وتصنع لحمة القماش بتمرير هذا المكوك باليد بالتبادل خيطا فوق خيط من تحت ، ويكون الصانع فى هذه الحالة راقدا ، ثم يسحب المكوك ويمرر من جديد حتى يبلغ الطرف الآخر من خيوط السداة ويضمون خيوط اللحمة الى بعضها بضربها بمشط له ١٠ الى ١٢ من الأسنان . وعندما يضم الخيط بأكمله يعود المكوك الى الجانب الآخر بنفس الوسيلة . وأعتقد أن الخيط الواحد لاينسج ولا يضم فى أقل من ١٠ دقائق أو ربع الساعة وتقوم النسوة بهذا العمل ، بينما يصنع ازواجهن الفحم ويحملونه الى القاهرة .

بلطات صغيرة (قادوم) فهى ضعيفة وبالغة السوء لدرجة لا يمكن معها أن يستخدموها الا لقطع الأغصان ، وعندما سألتهم لماذا لايجلبون من القاهرة بلطات أحدث أجابونى : هكذا كان يصنع آباؤنا . وهؤلاء العرب لايولون أى اهتمام لما يضيع بددا من خشب ماداموا سيظلون يعثرون على الدوام على خشب يستعملونه فهم لايفكرون مطلقا ان كانوا سيظلون يجدون الكثير منه ولوقت أطول لو أنهم استخدموا وسائل أفضل « ربك يدبرها » ، وهم يصنعون الفحم بوضع الخشب بشكل أفقى وتغطيته بالتراب ، ويكتمونه دون أن يرطبوه . ويمكن أن يكون هذا الفحم بالغ الجودة لو أنه كان أكثر سمكا بقليل مما هو عليه . لكنه مع ذلك يكفى لأعمال المطبخ وكذلك فى العدد الأكبر من محلات الحدادة فى القاهرة .

ولكى لايبذل جهد لا جدوى منه . فان أحدا لا يصنع من الفحم الا الكمية التى تستطيع جماله أن تحملها . ويصنع العرب الفحم فى نفس المكان الذى أسقطت فيه الشجرة . **ويملؤون** منه حقائبهم ويتركون هذه الحقائب على الأرض أو يحملونها الى طربق التافلة لكى تأخذها عند مرورها .

التجـــارة

تشتمل تجارة عربان الطور على الفحم الذى يحملونه الى القاهرة، وعلى نقل البن والسلع الأخرى التى تصل الى السويس عن طريق البحر الأحمر .

ويباع الفحم بالقاهرة بسعر ٦ **بوطاقات** أو ١٨ فرنكا للحمولة الكبيرة اذا كان منفحم السنط (أو السيال) و بـ ٤ ١/٢ **بوطاقات** أو خمس **بوطاقات** اذا كان من خشب الطرفاء (الاثل أو المن) .

ولا يحمل العدد الأكبر من الجمال سوى نصف أو ثلثى الحمولة . مما يعطى ثمنا يبلغ ٩ ، ١٢ فرنكا .

وعن طريق بيع الفحم يدبر العرب عيشهم وعيش عائلاتهم وجمالهم لمدة ستة أسابيع تستغرقها الرحلة الى القاهرة ، وعن طريق هذا المبلغ المتواضع أيضا يشترون البن والدقيق أو القمح والتبغ **والنارجيلات** التى

تمثل احتياجا كبيرا بالنسبة لهم ، كما يمكنهم أن يتزودوا بقطع الملابس ومعدات الجمال التى لايمكنهم صنعها .

وقد يصعب على المرء أن يتصور كيف يمكن بمقدور هؤلاء أن يعيشوا بمثل هذا الدخل الهزيل ، وقد يصعب عليه بدرجة اقل مما سبق ان يتصور أيضا كيف يمكن أن توجد بينهم بعض العائلات الميسورة ــ أى التى تمتلك جمالا كثيرة ــ اذا لم يكن لها مصدر آخر للثروة ، أو على الأقل ، اذا لم تكن تلجأ الى استخدام اكثر ادرارا للربح لهذه الحيوانات (٣٠) .

ويقوم العرب عادة بعمليات النقل من السويس الى القاهرة ويقوم التجار باخطار شيخ أو عدة شيوخ ، عند مرورهم بالطور ويتعاقدون معهم على نقل حمولتهم التى قد تتطلب من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ جمل . ويذهب أولئك الذين تعاقدوا الى الجبل ليبرموا صفقات خاصة يحققون من ورائها بعض الأرباح ويدفع للحمولة (حمولة الجمل) الكاملة ٨ **بوطاقات** أو ٢٥ بارة مع جزء من البن .

وبخلاف هذه المنافع ، كان عرب الطور يتولون أمر القوافل الذاهبة الى مكة والتى كانوا يمدونها بثمانين جملا تذهب من القاهرة الى العجرود، وكانوا يتلقون من البكوات ٢٤ الف بارة أى ٨٠٠ فرنك وفردا من البن (قنطار يساوى ١٠٨ اقة) و١٢ أردبا من القمح وثلاثة أطقم ملابس .

الطعـــام

يتمثل طعام العربان فى بعض البصل ، والروجة أو الفطير ، وهى نوع من الأقراص المصنوعة من الدقيق المعجون بالماء بدون خميرة أو ملح ، ويصنعونها مرتين كل يوم ، ويضيف اليها الميسورون الفول أو العدس المطبوخ بالبصل وقليل من الزيت ويكتفى الفقراء بأكل الروجة

---

(٣٠) تحدد الثروة بعدد الجمال ، واذا سألت ان كان عربى ما غنيا او فقيرا فانك تحصل على هذه الاجابة . ان لديه جملا ، أو ان لديه عدة جمال ، ومن يمتلك من بينهم اربعة جمال يعد أكثر ثراء بأربع مرات ممن لا يملك سوى جمل واحد .

ولا يذبح عربان الطور العنزات الا ايام الأعياد أو عندما يستضيفون اغرابا ، وعندئذ يأكلون الأرز والبلح ان كان قد تم جنيه .

وقد عوملنا على النحو التالى عند كل القبائل فيما عدا قبيلة مزينة : تبسط امام مدخل الخيمة قطعة من السجاد أو بعض جلود الماعز ،ويجلس الشيخ أولا ثم قدامى القوم وشيوخهم بترتيب السن ، ويشكل كل أبناء القبيلة دائرة كبيرة وتوضع النار فى الوسط ، وعندما يكون آخر من يصل ، كانت القبيلة بأكملها تنهض واقفة ويجلسوننا بجوار الشيخ ، ويصبون على يدنا الماء بعد ذلك لنغتسل . وكانوا يدفئون الماء عندما يكون الطقس باردا ، وتقدم القهوة ، ثم يحضرون أمام الأغراب وكبار السن طبقا كبيرا من الخشب مليئا بالبلح ، ويمرر هذا الطبق بالتوالى فى نقاط كثيرة من الدائرة الكبيرة حتى يستطيع كل امرىء أن يأخذ منه ، ويظل شيخ القبيلة واقفا بالقرب من الفاصل الذى يشكل عازلا للحريم اللاتى يمرر اليهن الطبق بعد انتهاء الطعام .

وتغسل الأيدى مرة أخرى ، ثم نسلم النسوة الى الشيخ قطعة قطعة من العنزة المسلوقة فى ماء بدون ملح فوق قطعة من الفطير ، ويسلم الشيخ هذه القطع بادئا بالأكبر سنا ، ثم الى الشبان والى الأطفال. وزيادة فى اكرامنا كانوا يرسلون الينا فى طبق من الخشب قطعا كثيرة من العنزة مع عدد مماثل من قطع الفطير .

ويعيد الشيخ بقايا الطعام التى ترد اليه - بعد أن يأكل هو نفسه. ويظل هذا الرجل واقفا طيلة تناول الطعام ليكون على اتصال بالحريم ولكى يخدم المجموع .

ونغسل ايدينا للمرة الثالثة مع تمرير قطعة الصابون من يد لأخرى. وفى الفترات الفاصلة أثناء الأكل نتناول القهوة ، واخيرا يصل الأرز المطبوخ بالدقيق وقطع من الفطير وقليل من الزيت وبعض البصلات ،ويقدم هذا كله فى طبق كبير من الخشب يحمله شخصان فوق قطعة من السجاد او بالأحرى فوق جلباب . ويوضع الطبق امام أوائل الجمع .ويأكلون هذا النوع من العجين شأنه شأن غيره بالأيدى ، ويمرر الطبق على التوالى حول الدائرة . ويحصل الأطفال الذين لم يستطيعوا أن يعثروا لأنفسهم على مكان فوقفوا الى الخلف جزءا من هذا الطعام فى أيديهم ، ويعود

الطبق امام الشيخ الذى يمرره بعد ذلك الى النسوة . ولا توجه الى اى واحد من هؤلاء الآكلين دعوة الى الطعام ، فكل جائع يأكل ، ويبتعد عن المائدة فور شعوره بالشبع . وفى اثناء الطعام يتحدث كبار القوم (شيوخهم) وحدهم ويتناقشون ، وهو أمر نادرا مايحدث من قبل الشبان ، كما لايصدر مطلقا عن الأطفال ، وفى كل القبائل كان العرب يشعرون نحونا بالامتنان الشديد لأننا نعيش ونأكل على طريقتهم دون أى تمييز سوى أننا كنا نتصدر المكان فى مدخل الخيمة حيث كنا نجلس على جلد عنزة او فوق قطعة من القماش .

الــرقص

لا يستسلم العربان فى أيام الأعياد لمرح يكون اكثر صخبا مما اعتادوا ، ويقوم الشبان وحدهم ، وفى يدهم سيف أو خنجر ، بعمل بعض حركات الجسم والأعضاء التى تقلد شكل معركة بطريقة منفرة وخشنة . ولا يشبه رقص النساء فى شىء رقص العوالم (عالمة) فى مصر . ولا يحدث هذا الرقص الا فى الليل .

يتجمع رجال كثيرون فى شكل نصف دائرة متماسكين باليد وهم يهتزون ، أو يغنون بعض العبارات التى تتفق مع المناسبة (٣١) والتى يصحبونها من وقت لآخر بتصفيق منغم بالأيدى .

وفى اثناء الغناء تقبل امراتان كل واحدة منهما من احد طرفى الدائرة ، ويبسطان الذراعين ، ويمران بالتبادل قدما امام الأخرى ، ويقومان ببعض الانحناءات للتحية والتبجيل ، وهما يهزان جسميهما حتى تبلغا وسط نصف الدائرة وعند كل انحناءة احترام ينحنى المنشدون ثم يغادران نصف الدائرة وهما يصنعان نفس الحركات ، وتمثل مكانهما اثنتان أخريان ، وعند انحناءة الاحترام الأخيرة ينحنين ، وهم يطلقون صيحة من الحنجرة ، هى تلك التى

---

(٣١) اليكم بعض هذه الجمل : شكرا لله وللرسول لأن رجالنا قد وصلوا ــ كل القبيلة فى فرح منذ وصول مسالم مع صحبه ــ مسالم يترك خيمته مفتوحة لكل الناس ــ الذين طردوا المماليك كتبوا الى مسالم لكى يحظر ــ نرجو الله ورسوله ان يظل الذين يحكمون مصر الآن ، فهيا الى الأبد ــ كنا فى انتظار عودة مسالم لكى نحز راس الخروف .

تستخدم فى اناخة الجمال ، وكان احد شـيوخنا ويسمى كريبزات داخل الدائرة فغنين له :

كريبزات يحسن تحميل جماله .

وقد أرسلنا الى الراتصـات بعض قطع من الـذهب وبعض البن فغنين لنـا :

قدم الينا الفرنسيون البن مع السكر فى فناجين جميلة .

العـادات

عندما يموت شيخ يحل ابنه محله طالما كان هذا الابن شهما وطالما كان لبق الحديث وكانت خيمته مفتوحة امام كل الناس . وفى الحالة التى لايكون للشيخ المتوفى فيها ابن ، يعين اقرب أقربائه اليه أو الشخص الذى تتوفر فيه هذه الشروط ، ويجمع النـاس عليه ، ويعترف به دون أدنى اعتراض .

وتتشابه بعض وظائف الشيخ مع وظائف قاضى السلام Juge de Paix عندنا . وفى حالات المنازعات يأتى الناس لالتماس حكمه ، وتسلم اليه كل الأطراف المتنازعة وكذلك الشهود خناجرهم فيرشقها فى الأرض أمامه ، وعندما يتحدث اليهم يمسك بيده عدة خناجر يلوح بها . ويتحدث الجميع، أو عدد كبير منهم ، فى وقت واحد ، فيحـدثون بذلك ضجة كبيرة ، واذا لم يتفقوا فان الشيخ يصدر حكمه ، ويعيد اليهم أسلحتهم ، وتهدأ الضجة فى لحظة ثم ينسحبون .

أما الجرائم ، مثل القتل ، فيقتص لها بالدم ، أو تفتدى مقابل مبلغ كبير ، وتدفع دية الجرح بحسب حجمه ، ويقاس ذلك بحبات القمح .

واذا ما تشاجر رجل ميسور مع آخر فقير، ترجح كفة الرجل الفقير.

وحيث تختلط القطعان ، وحيث الخيام مفتوحـة ، فان العرب فى حاجة شديدة لكى يجعلوا من السرقة فيما بينهم أمرا يوحى بالذعر الشديد. ويقصون فى هذا الصدد ، وهم يمتدحون ، حكاية أب سرقت ابنته احدى

عنزاته ، فقد تابع الاب المذنبة فى الجبال ، ووجدها تشوى قطعة من لحم العنزة ، فقيد قدميها ويديها وألقى بها فى النار .

وتعاقب بنفس العقوبة الزوجة الخائنة والبنت التى تفقد شرفها ، ويتم التنفيــذ علنا ، اذ يقود الأب ومعــه الــكثيرون من الأهل المخطئــة الى الجبل .

ولا ينفذ الأب اى شىء كتابة ، اذ ليس من بينهم احد يقرأ أو يكتب، ولديهم قوانين وقواعد انتقلت اليهم عن طريق التقاليد ويتعلمونها بالممارسة (أى من وقائع الحياة) .

وترغم البنت على الزواج من الزوج الذى يقدمه لها أهلوها . لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للولد ، وعادة يفضل العرب أنيتزوجوا من نفس عائلتهم .

ويمكن للولد أن يتزوج من ابنة عمه او خاله لــكنه لايستطيع أن يتزوج أخت زوجته ولا أخت أبيه . ويدفع عند الزواج ١٠ **بوطاقات** على الأقل من ذات التسعين بارة (حوالى ٣٢ فرنكا) الى أهل البنت ولا يعطى شىء للبنت نفسها ، ولكن اذا طلق الزوج زوجته فانه يعطيها مائة قطعة من ذات الثلاثين بارة ، (حوالى ١٠٦ فرنك) أما اذا كانت هى التى طلبت الطلاق فانها لاتستطيع أن تطلب شيئا .

واذا مامات أب وترك ابنــا وابنــة ، يحصل الابن على ثلاثة أرباع القطيع ، أما اذا ترك ابنا وعدة بنات ، فيحصل الابن فى هذه الحالة على النصف فقط .

واذا ترك الزوج زوجة لا ابنــاء لها ، يكون لأهله الآخرين فىميراثه نفس الحقوق التى كانت ستؤول الى ابنائه ، وتؤول الاسلحة التى كانت للاخ الاكبر (المتوفى) الى اخيه او ابن أخيه او ابن عمه .

واذا ترك هذا الزوج زوجة ثانية لا ابناء لها ، وله ابناء من الزوجة الأولى فان الزوجة الثانية هذه لاتستطيع أن تفرض كحق لها الا ما أعطاه الزوج لها بموجب وصية أوصى بها أمام شهود .

ويتكفل باليتامى أحد الاقارب من الميسورين . ويتكفل كذلك بالقطعان التى سيقدم عنها الحساب عندما يكبر الأطفال .

واذا كان الأطفال بلا قطيع فان الله يرعاهم ، ومن لديه يعطيهم .

والامراض الشائعة عند العرب قليلة للغاية ، على الرغم من أن غالبيتهم ينامون عراة ، وقد لاحظت أن عددا كبيرا من بينهم يصابون بالسعال فى نهاية نوفمبر وان اطفالا كثيرين هناك يصابون بما يشبه السعال الديكى .

ويستخدم العرب الكى فى حالات كثيرة ، ويجلب بعضهم من القاهرة أدوية يبيعها **لهم** المشعوذون بسعر رخيص . وهم يشربون الماء المغلى فوق بعرات الحمير كعلاج لأوجاع الرأس .

عن شبه جزيرة سيناء

السكان

يبلغ تعداد عرب الطور حوالى ٩٠٠ الى ١٠٠٠ رجل يستطيعون حمل السلاح ويدخل فى هذا العدد سكان منطقة الطور ورجال الدين .

وللبعض من هؤلاء أكثر من زوجة تسكن كل واحدة منهن فى خيمة مستقلة . وثلثا عدد السكان على الأقل متزوجون ، وهم يسكنون الجبل على النحو التالى :

اسم القبيلة	عدد الرجال القادرين على حمل السلاح
العليقات	١٥٠
العوارمة	١٢٠
القرارشة	١٠٠
أولاد سعيد	١٣٠
مزينة	٢٥٠

وبالاضافة الى ذلك هناك خمس قبائل صغيرة اخرى أو عائلات . تنتمى الى تلك القبائل ، وهى الرزيدات ، العتايمة ، الجريزات ، الدزامة ، الحمادى .

واخيرا ، يشكل الجبالية ، الذين كانوا فى الماضى يقومون بخدمة دير سانت كاترين الواقع بالقرب منهم ، خمس قبائل صغيرة لكل واحد منها شيخ . ويبدو أنهم كانوا مسيحيين فيما مضى وأنهم كانوا يدخلون الدير ، ولكنهم منذ اعتنقوا الاسلام أو منذ حل محلهم العربان ، لم يعودوا يترددون على الدير أو يقومون بخدمة رجال الدين بأفضل مما تفعل بقية القبائل . وهؤلاء الجبالية هم أكثر هذه القبائل بؤسا ، وهذه هى أسماؤهم:

اسم القبيلة	عدد الرجال القادرين على حمل السلاح
السلايمة	٣٠
الحمايدة	٢٠
الوعيبات	١٥
أولاد جندى	٣٠
أولاد رزين	٤٠
المجموع	١٣٥

وعلى الرغم من إن الوقت والظروف لم تسمح لنا برسم خريطة ومسار الطريق فإننى دونت مذكرة دقيقة بكل نقاط هذا الطريق . وقد قست المسافات عن طريق الوقت الذى كنا ننفقه للذهاب من نقطة الى أخرى مع تقدير ميلين لكل ساعة للمسافة التى تقطعها الجمال محملة أو التى تسير فى قافلة دون أن يسرع بها قائدوها . وقد تبين لى انك لكى تذهب من القاهرة الى طرف شبه جزيرة سيناء مرورا من جهة البحر بالنقاط التى توجد بها المياه ، ولكى تعود من خلال الجبال فإن عليك أن تنفق مثلنا ٢٣٦ ساعة ، واننا نستطيع على هذا النحو ان نفترض أن هذا الطريق يبلغ ٤٧٢ ميلا أو ٢٣٦ فرسخا بالقياس الفرنسى .

واليكم واقعة تؤيد هذا التقرير .

وجد العالم الفلكى المسيو نويه Nouet عن طريق عمليـــة حساب مثلثات ان السويس تبعد عن القاهرة بـــ ٢٨ فرسخا مقـــدارها ٢٢٨٢ قامة (القامة = ٢ ياردة) أى ٦٣ ميلا و٨٩٦ قامة . وقد قطعنا هـــذا الطريق مرتين مع نفس القافلة ، وانفقنا فى كل مرة ٤٢ ساعة (مع فارق بضع دقائق زيادة أو نقصانا) ، الأمر الذى يعطينا تبعا للتقدير السابق ٦٤ الف قامة أو ٣٢ فرسخا ، طول الفرسخ الفا قامة .

ومن هنـــا نرى أنه ليس هنـــاك ســـوى فارق بين النتيجتين يبلغ ١٠٤ قامة .

الطريق من القاهرة الى طرف شبه جزيرة سيناء عن طريق السويس مع اشارة الى الأماكن التى توجد بها ميـــاه

ترتيب أيام المشى	أسماء الأماكن والاستراحات	المسافة بالميل	نوع
الأول	من القاهرة، فى الصحراء	١٢	بدون ماء
الثانى	»	٢٠	شرحه
الثالث	إلى العجرود	٢٤	شرحه
الرابع	إلى بير السويس	٦	مياه ملحية
	إلى السويس	٤	بدون ماء
الخامس	إلى عيون موسى	٦	مياه كبريتية وجبسية
	العين	٥	بدون ماء
السادس	أبو صويرة	١٥	مياه جبسية
السابع	وادى الغرندل	٢٠	بدون ماء
الثامن	وادى الحوزية	٤	مياه جبسية
	وادى إثل	٢٤	» »
التاسع	وادى المغارة	٢٦	مياه جيدة
العاشر	الطور	٢	» »
الحادى والثانى عشر	فى الجبال	٣٢	بدون ماء
الثالث عشر	شرم (الشيخ)	٦	جيدة
	قبيلة مزينة	—	بدون ماء
الرابع عشر	وادى نصيب	٢٠	شرحه
	وادى المندار	٢	مياه جيدة
الخامس عشر	وادى الكيد	١٨	» »
السادس عشر	فى الجبال	١٤	بدون ماء

ترتيب أيام المشى	أسماء الاماكن والاسراحات	المسافة بالميل	نوع المياه
السابع عشر	إلى دير سانت كاترين	٦	مياه جيدة
الثامن والتاسع عشر	فى جبال سيناء وسانت	١٢	جيدة
	كاترين وسهل الإسرائيليين	٨	—
	والعودة إلى الدير		
العشرون	وادى الشيخ صالح	١٥	جيدة، تنضب فى الصيف
الحادى والعشرون	وادى فيران	٤	جيدة
الثانى والعشرون	فى واد ضيق	٦	بدون ماء
الثالث والعشرون	وادى الخيلة	١١	شرحه
الرابع والعشرون	وادى نصيب	١٠	جيدة
الخامس والعشرون	وادى عسل	١٦	بدون ماء
السادس والعشرون	الحوزية	٨	—
	خور فرق	١٠	كلسية
السابع والعشرون	وادى الحلزا	٦	بدون ماء
الثامن والعشرون	عيون موسى	٤	—
التاسع والعشرون والثلاثون	إلى القاهرة	٧٢	—
والحادى والثلاثون			
	مجموع المسافة	٤٧٩	

الدراسة الخامسة :

رحلة الى بنى سويف والفيوم

ب. م. مارتان

* العنوان الأصلى للدراسة هو :

وصـــف هيـــدروجرافى لولايتى بنى سويف والفيوم .

(والهيدروجرافيا هى علم وصف المياه أو طبوغرافيا البحار . أما الكوروجرافيا فهى علم وصف البلدان . المترجم)

تثير ولايتا الفيوم وبنى سويف ، الواقعتان فى ذلك الجزء من مصر ، الذى كان يشار اليه فيما مضى باسم هبتانوميد ، والذى يعرف اليوم باسم الوسطانى ، أو مصر الوسطى . اهتماما كبيرا من ناحية كوروجرافيتهما ، التى لاتزال حتى يومنا هذا موضوعا لجدل ، لم تلتق حوله الآراء ، بين أكبر وأشهر جغرافيينا . ذلك أن الأوصاف التى خلفها لنا الأقدمون لهذين الاقليمين ، تختلف أشد الاختلاف عن تلك التى يقدمها لنا . عنها ، الرحالة ، وأشهر النقاد المحدثين ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وحين نريد التوفيق . بين هذه الاختلافات ، نجد أنفسنا فى كثير من الأحيان . عرضه للوقوع فى أشد الأخطاء خطوره .

وعند وصولنا الى مصر ، كان لابد أن تهدف لجنة العلوم والفنون الى العمل على ازالة كل هذه الشكوك ، والى أن نؤكد فى النهاية ، وبطريقة لاتقبل الجدل ، ذلك الرأى الذى لابد لكل امرىء أن يتوصل اليه ، بخصوص عظمة وعبقرية قدماء المصريين ، كما توضحهما مؤلفات تحظى بدرجة عالية من الاحترام ، مثل مؤلفات هيرودوت وسترابون ، وديودور (الصقلى) ، وبطليموس .. الخ ، وهى مؤلفات يستحيل على المرء مطلقا ان ينحيها جانبا أو حتى أن ينظر اليها نظرة استخفاف ، ونتيجة لذلك ، فقد توجه عديد من أعضاء هذه اللجنة الى بنى سويف والفيوم ، فى كل مرة كانت تسنح فيها الفرصة لأى منهم للقيام بمثل هذه الجولات ، وقد أبدى الأستاذان : جومار Jomard ، وجيرار Girard حماسة لا تعرف الكلل فى أبحاثهما التى قدمت نتائجها الى مجمع القاهرة .

لقد أخذ أولهما على عاتقه أن يتأكد من حقيقة الأوصاف التى قدمها كل من هيرودوت ، وديودور ، وسترابون لبحيرة موريس ، وبرهن بشكل شديد الوضوح على أن هؤلاء المؤرخين ، يعنون فيما دونوه فى مؤلفاتهم ، تلك البحيرة التى تعرف اليوم باسم بركة قارون ، اذ هى البحيرة الوحيدة التى تنطبق عليها الأحوال التى أوردها كل من هؤلاء (١) .

---

(١) انظر دراسة حول بحيرة موريس ، تأليف جومار ، العصور القديمة ، دراسات المجلد السادس . وصف مصر (الطبعة الثانية) .

أما المسيو جيرار ، فقد اهتم بشكل خاص بوصف الفيوم بوضعها الحالى ، بينما هو يعالج أمور الزراعة والتجارة ، لكنه ، على الرغم من ذلك النفاذ المعروف عنه ، والمعارف العميقة والغزيرة التى تميز كل مؤلفاته ، قد ظل عند مناقشته لهذه الموضوعات بعيدا عن مناقشة الطبوغرافية القديمة لهذا الاقليم .

وفى الواقع ، فان الدراسة العميقة التى قام بها المسيو جومار قد ازالت كل لبس ، فقد أصبحنا الآن على ثقة من الموقع الصحيح لبحيرة موريس ، واللابرنت ، واقليم أرسينويه . لقد كنا نعرف ضعف الأسس التى تنهض عليها افتراضات دانفيل d' Anville وجيبير Gibert ، ولم يعد بمقدور أحد أن يرى بحيرة موريس لا فى تلك الحقول المزروعة على الدوام ، مثل حقول الباطن (أى الداخل) ، ولا فى هذا الفرع المتعرج للنيل والذى يحمل اسم بحر يوسف ، ذلك الذى يكفى بالكاد لملاحة بعض القوارب الخفيفة ، ومع ذلك فان المسيو جومار لم يكن قد استطاع حتى الآن أن يدحض دانفيل وجيبير ، الا ببراهين من شأنها أن تقدم بعض افتراضات ، تشى بعدم قدرتها على الاقناع ، اذ كان دانفيل قد أنشأ ، دعما لرأيه ، وبينما هو يعبر عن فكرته بخصوص حقول الباطن تبعا لما زعمه الأب سيكار P. sicard ، خريطة ترك الأمر فيها معلقا ، حين يطلق على هذه الحقول اسم بحيرة موريس تبعا لما يذكره هيرودوت وريودور ، ثم يعود فيطلق فى الوقت نفسه اسم بحيرة موريس على بركة قارون تبعا لما يورده سترابون وبطليموس . وللوصول الى يقين حول هذه النقطة ، كان من الضرورى عبور الجزء الشمالى من البركة ، والا نظل نحدد اتجاهها واتساعها تبعا لأوصاف مبسطة الى هذا الحد ، وغير دقيقة ، ولقد كان لسوء الحظ ، مستحيلا على السيدين جومار وجيرار أن يقوما بهذا الاستطلاع . ففى الفترة التى عبرا فيها هذا الاقليم . لم تكن مصر ، غير الواثقة حتى ذلك الحين من مصيرها ، لتسمح للفرنسيين الدارسين أن يتجولوا فى ربوعها ، الا فى أعقاب فرق من الجيش ، أوكلت اليها مهمة تأكيد السلطة الجديدة . ولأنهما ، والحال كذلك ، لم يستطيعا أن يديرا حركتهما بالحرية اللازمة لعمليات تتسع على هذا النحو ، فانهما لم يشغلا نفسيهما فى هذا الوقت ، الا بالجغرافيا الفلكية ، فى دراسة المنشآت وطبوغرافيتها . وفى النهاية ، فلقد أدى الانتصار الباهر ، فى معركة

هليوبوليس ، واستعادة القاهرة عام ١٨٠٠ ، الى اعادة الهدوء الى مصر ، ويبدو أن السهولة التى أمكن بها تحطيم جهود العثمانيين ، الذين ينظر اليهم فى هذه البلاد ، باعتبارهم الأعداء الوحيدين الذين يخشى بأسهم (بالنسبة لنا) ، قد جعلت المصريين يألفون فكرة أن ينظروا الى الفرنسيين منذ الآن ، باعتبارهم حكاما يستحيل ردهم على أعقابهم ، فتأقلموا منذ ذلك الوقت معنا بتقاليدهم اللطيفة وطباعهم الودودة ، وكظموا أمانيهم ، وأزالوا العقبات التى كانت تعترض سبيل الفرنسيين ، وبدأ هؤلاء يجوبون أنحاء مصر ، وحدهم ، فى أمان .

وقد سارع أعضاء لجنة العلوم والفنون باقتناص هذه الظروف المواتية ، فانتشروا فى الأماكن غير المأهولة وغير المعروفة كى يضيفوا جديدا الى اكتشافاتهم ، ولكى يطابقوا نتائج أبحاثهم السابقة على الواقع ، عندئذ حدث أن قامت رحلات الى جبل سيناء ، ووادى التيه ، وبرج العرب ، وأقر مشروع لزيارة الواحات ، والذهاب الى الحبشة ، وأمكن باختصار أن نعمل بنجاح بالتفاصيل الكوروجرافية لمصر .

أما مهندسو الطرق والكبارى ، الذين أوكل اليهم بشكل خاص كل مايتصل بنظام الرى ، الذى ينهض عليه وجود مصر ، فقد شغلوا معظم أوقاتهم بدارسة نظام النيل ، وترع الملاحة ، والرى ، والتجفيف ، وكان من نصيبى ولايتا البهنسا والفيوم ، وتوجهت الى بنى سويف . قرب نهاية شهر ميسيدور من العام الثامن (منتصف يوليه ١٨٠٠) .

كنت أعى تماما كم ستكون مهمتى ضخمة وعسيرة بالنسبة لقدراتى ، لكننى تدفعنى ، أهمية نتائج هذا العمل ، قد افترضت أن الحماسة المتأججة والشجاعة ستعوضان عدم كفايتى ، واتخذت قرارى الحازم باجتياز هاتين الولايتين من كل أجزائهما ، وأن أنشىء لهما الخرائط التفصيلية على قدر استطاعتى ، وعزمت على وجه الخصوص أن أقوم بدورة حول بحيرة موريس هذه ، وهو عمل لم يقم به حتى اليوم رحالة قديم ولا رحالة محدث ، وأن أصل بذلك الى فكرة محددة حول شكلها ، وامتدادها ، وحقيقة الأغراض التى كانت تستخدم فيها فى العصور القديمة .

ويذكر التاريخ باعجاب ، العصور والرجال الذين نفذت بمقتضى أوامرهم ، تلك الأعمال التى ازدهرت بفضلها الزراعة فى مصر . انثراء

هذه البلاد لمدين لاسماء هؤلاء بالعرفان والمديح الواجبين . وكنت اقـــول لنفسى : يا لها من ميزة ستتحقق لوطنى ، فرنسا ، اذا ما اصبحت مصر، بعد تحقيق اعمال كهذى ، مستعمرة فرنسية ! واى مجـــد يمكن ان يكون للفرنسيين اذا خصصوا أعمالهم لخير البشرية .

واقدم هنا تفاصيل ابحاثى ومجهوداتى كى أتوصل الى تحقيق الهدف الذى وضعته نصب عينى ، وسوف تستخدم هذه التفاصيل كنص لتفسير الخرائط التى رسمتها ، والتى تشكل جزءا من الأطلس الجغرافى (٢) .

وتنقسم هذه الدراسة الى قسمين :

فى القسم الأول ، قدمت وصفا لولاية بنى سويف ؛

وفى القسم الثانى ، قدمت وصفا لولاية الفيوم .

---

(٢) انظر الخرائط أرقام ١٨و١٩و٢٠و٢١ فى الأطلس الجغرافى .

القسم الأول

ولاية بنى سويف

بدأت بعد بضعة أيام من وصولى الى بنى سويف ، حيث وجدت فى شخص الجنرال زيونشيك قائد الولاية ، صديقا متحمسا للعلوم ، سارع فوضع تحت تصرفى كل الوسائل اللازمة لتسهيل عملياتى — بدأت باقامة عدة مثلثات كبيرة ربطت فيها — تبعا لقواعد علم حساب المثلثات — قرى بنى سويف وبوش (*) بأعلى قمة لجبل المقطم ، الذى ينهض على الضفة الشرقية للنيل ، وكذلك بالهرم الذى يرى عند مدخل الفيوم ، وبعد ذلك وباستخدام الوسائل الطبوغرافية المعتادة عينت تفاصيل شمال الولاية ، وربطتها بهذه البنية المثلثية ، التى يمكن رؤيتها من كافة الجهات على وجه التقريب .

يجرى النيل ، كما يحدث فى كل بلاد الصعيد تقريبا ، عند سفح الجبل الغربى بطول ولاية بنى سويف ، وينقسم الشط الغربى من هذه الولاية ، من ناحية عرضه ، وهو الشط الوحيد القابل للزراعة ، الى قسمين متمايزين وذلك بخصوص الرى . والقسم الأول ، وهو يبدأ من عند حافة النيل ، اكثر ارتفاعا عن المياه العالية باتساع يبلغ حوالى الكيلومترين ، وترويه عدة ترع صغيرة، تختص كل ترعة منها بقرية واحدة، ويلجأ الناس الى الأذرع (الشواديف) ، والماكينات (السواقى) لرفع المياه حتى تغمر الأرض . أما القسم الثانى ، وهو الذى يمتد بعد ذلك الى سفح الجبال الصحراوية التى تفصل مصر (الوادى) عن الفيوم ،فهو يشكل ، تبعا لانحداره ، فى نمطين ، يصنع اتجاه كل منهما مع الآخر شكلا شبه عمودى ، أما النمط الأول فيتجه نحو الغرب أما الثانى فيتجه نحو الشمال وفق اتجاه مياه النهر . ولن آخذ على عاتقى مطلقا أن افسر سبب هذا التباين فى ارتفاع هذين الجزئين من أرض الوادى ، فقدعولجت

(*) احدى قرى بنى سويف [المترجم] .

هذه النقطة بما فيـــه الـــكفاية فى دراسة المسيو جيرار عن الزراعة فى مصر العليا (٣) .

وهذان الانحناءان محسوسان لدرجة أن المياه العاليـــة تظل تغمر الأرض بارتفاع يبلغ المترين ، ويبدو الريف فى هذه الفترة من الفيضان فى شكل بحر مترامى الأطراف ، ومثل هذا الموقع المواتى يغنى تماما عن الأعمال الميكانيكية فى الرى ، لكنه مع ذلك يتطلب أعمالا ضخمة للاحتفاظ بالمياه أثناء الوقت اللازم للزراعة ، لأن الانحدار الى الشمال ، ذلك الذى يسحب الميـــاه بنفس سرعة النهر أثناء تناقص الأخير ، يحول دون بقـــاء المياه فترة طويلة كافية فوق الأراضى .

ولعلاج هذه السوءة ، اقامت السلطات المحلية باتساع هذا الجزء من ارض مصر ، وعلى مسافات محددة ، جسورا تلامس الجبال ثم يظل ارتفاع هذه الجسور يتضاءل ليبلغ مرتبة الصفر عند الأراضى المرتفعـــة على ضفاف النيل ، وتسبب هذه الجسور انحسار الميـــاه حتى مستوى الأجزاء العليا ، وتظل على هذا النحو حتى تسمح لهـــا الأراضى ، وقـــد تشبعت بالمياه ، أن تنصرف بواسطة قطوع أعدت فى هذه الجسور .

وهذه الأعمال كما نرى ، ذات أهمية قصوى فى نظام الرى ، ولابد أن وجودها الذى بدأ مع بدء وجود الترع على مر العصور ، قـــد أثار اهتمام الحكام ، ونميز من بين هذه الجسور : الجسور الكبيرة ،والوسطى والصغيرة . أما الجسور الكبرى فقد بنيت باتساع الوادى كله ، وبوجد منها أحد عشر جسرا فى كل ولاية بنى سويف ، اكبرها واكثرها اهميـــة هو ذلك الجسر الذى يحمل اسم الوكشيشى ، ويقع على بعد حوالى ٢ ميريامتر (٢٠٫٠٠٠م) شمال بنى سويف ، وهو يبـــدأ عند النيل ، الى الجنوب من قريتى الزاوية والمصـــلوب ثم يمضى الى شـــمال قريتى قمن العروس وابجيج ثم يمضى جنوب الصحراء مارا بالقرب من قريتى أبويط، وكوم أبو راضى ، أما السهل الذى بنى من أجله فينتهى عند قرى بهبشين، ودلاص ، والزيتون .. الخ ، ويشمل مساحة حوالى ١٠٫٠٠٠ هكتار ، تناثرت عليها ١٨ قرية .

---

(٣) Decade egyptienne ، المجلد ، ص ٣٠ ، ٣١ .

أما الجسور الكبرى الأخرى فهى جسور : بهبشين ، صفانية ، صفط ، راشين ، النويرة ، الشوبك ، اهوة ، تدهل أو الشسنطور ، سمالوط ، منبال ، بردنوها .

أما الجسور المتوسطة ، والتى لاتخدم الا بعض الاراضى ، فيبدأ بعضها من ضفاف النيل ، ويبدأ بعضها الاخر من الجسور الكبرى نفسها ،وينتهى كلاهما بالالتحام بأحد المرتفعات التى بنيت القرى فوقها .

ومن جهة ثالثة واخيرة ، فان الجسور الصغرى جسور محلية ، تنشأ لصالح عدة قراريط أو أجزاء من القرية .

وقد اقتضى نفس وضع الانحدارات العرضية للوادى وجود نوعين من الترع .. الترع الكبرى ، وتحمل المياه الى أعلى ، اى الى الجزء الواقع الى اقصى الغرب حتى سفح الجبل ، والصغرى ، التى تبدأ اما من النيل نفسه ، واما تشكل فروعا من الترع الكبرى ، وتنتهى عند سفح المرتفعات المتناثرة فوق رقعة الأرض العالية ، الشديدة الاقتراب من النهر .

وقد يظن البعض ، نتيجة لذلك ، أن الأراضى الواقعة بالقرب من الجبال يمكن على الدوام أن تروى بشكل طبيعى بواسطة الترع الكبرى . مهما يكن ارتفاع فيضان النهر ، حيث أن منسوبها أدنى من منسوب أقل الفيضانات علوا ؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو ، اذ لايكفى لكى تروى هذه الأراضى ان يبلغ الفيضان نفس مستوى ارتفاعها ، بل لابد أن يتجاوز الفيضان ارتفاع قاع الترع التى ينبغى أن تحمل المياه الى هذه الحقول الشاسعة . ولايمكن أن يتحقق هذا الشرط الا بالعناية المستمرة من جانب حاكم عاقل مستنير ، وتلك ميزة لم يعرفها المصريون منذ قرون طويلة ؛ فهذه الأراضى الواقعة الى الغرب ، والتى حبتها الطبيعة الى هذا الحد ، والتى ينبغى أن تنهض عليها دوما آمال بقية مصر ، هى اكثر المناطق بؤسا ؛ فالمياه تنقصها كلية أثناء الفيضانات الضعيفة ، ولا تصل اليها الا بكميات ضئيلة أثناء الفيضانات العالية اذ يتسبب ارتفاع قاع هذه الترع نتيجة للاهمال الطويل فى الحيلولة دون تدفق المياه الى هذه الأجزاء المنخفضة ، ويحدث فقط عندما يتجاوز الفيضان ارتفاع قاع الترع أن تنزل المياه كشلال هادر ، لتغطى الأرض فى لمح البصر ، ولقد شاهدت هذه الأراضى جافة

فى ٢٤ ميسيدور من العام الثامن (١٢ أغسطس ١٨٠٠) ، وفى العاشر من فريكتيدور الذى يليه (٢٨ أغسطس) وجدت المياه تعلو بنحو مترين ونصف المتر ، الى ثلاثة أمتار ، عند سطح الصحراء فى حين لم يبلغ الفيضان الفعلى فى ذلك الوقت الا مترا واحدا و٢٥ سم .

وقد أدى ارتفاع فيضان العام السابع (١٧٩٩) ، الذى لم يستطع أن يتجاوز ارتفاع قاع العدد الأكبر من هذه الترع ، الى ترك مايقرب من ثلاثة أرباع الأراضى دون زراعة ، مما جلب الشقاء والأسى لعدد لاحصر له من العائلات فى حين كان ارتفاع منسوب المياه ، مع ذلك ، أعلى بدرجة كبيرة من ارتفاع هذه الأراضى التى كان يمكن أن تنتشر فوقها الحياة والرخاء ، لو انهما قد وجدا للوصول اليها سبيلا .

ينبغى اذن الا ننظر الى ترع الرى الكبرى فى مصر باعتبارها مجرد خزانات للمياه ، حفرت لنفسها بطول مجراها فروعا لها ، فهى وسائل أو قل « خراطيم » تجلب المياه الى المناطق النائية : وعلى هذا ، فياله من أمر بالغ الأهمية الا تسد هذه الطرق ، وان تستطيع المياه أن تجتازها دون عوائق ما أن تبلغ واحدا من أطرافها ، وهكذا فالهدف الذى يجب العمل فى سبيل بلوغه عند اعداد الترع فى مصر ، هو أن تحرص على أن تكون أطراف هذه الترع عند النهر على أدنى درجة ممكنة من الارتفاع ، وأن يكون هذا الارتفاع على مستوى أقل المناطق الداخلية ارتفاعا ، وهذا على وجه التقريب هو ما توصل اليه بطليموس ابيفان وحرص على تنفيذه ، فى الأعمال الكثيرة التى قام بانجازها ، ومن أجل هذا بالتحديد ، سجل حجر رشيد ذو النقوش الثلاثة اسمه كواحد من أبرز الذين قدموا لمصر الكثير من الأعمال النافعة .

أما أولئك الحكام الهمج والجشعون الذين تعاقبوا على مصر منذ ذلك الوقت ، ونحن لانستثنى من ذلك الرومان ، فقد أهملوا هذا الفرع الهام من فروع الاقتصاد السياسى ، وأى حظ ذلك الذى سيكون للفرنسيين ، لو أمكنهم ، كما كانت لديهم النية ، أن يضعوا فى سجلات التاريخ ، ذكراهم الى جانب ذكرى ذلك الحاكم الخير ، الذى ذكرته للتو .

تقطع شمال ولاية بنى سويف عديد من الترع الصغيرة التى تتفرع عن النيل ، والتى لا نجد من بينها سوى ترعة واحدة كبيرة تسمى ترعة

بنى عدى ، باسم القرية التى تجرى هذه الترعة بالقرب منهـا ، ويبلغ اتساع هذه الترعة فى العادة ٢٥ مترا ، وقد لمست أن ارتفاع المياه بها، فى الحادى والعشرين من ترميدور من العام الثامن (٩ أغسطس ١٨٠٠)، وبعد اليوم الذى اجتزناها فيـه ، يبلغ المترين و٥٠ سنم ، وتتبع هـذه الترعة من النيل مباشرة ، على بعد ١٥٠ ك.م من بنى سويف وتستطيع القوارب أن تعمل بها لمدة تقرب من ستين يوما ابتـداء من ١٥ أغسطس حتى١٥ أكتوبر ، ويتفرع من جانبى هذه الترعة عديد من القنوات الصغيرة لرى أول جزء مرتفع من أرض الوادى ، وبالقرب من طنسا تنقسم الترعة الى فرعين : يمضى أولهما الى هذه القرية حيث توجد قنطرة من القرميد لها ثلاثة أقواس ، تشكل الحد الذى تنتهى عنده الملاحة ، وبعد ذلك تمضى المياه لتفترش الأراضى الواقعة عند سفح الجبل : أما القسم الثانى فيقوم ببعض الالتفافات ، ويمر بالقرب من قرى الحافر ، ابو صير ، انفسط ، ابويط ، قمن العروس ، وبعد أن يغطى بمياهه كل السهل الواقع بين جسر وكشيش فى الشمال ، وجسر بهبشين فى الجنوب، يذهب مايفيض من مياهه ، عن طريق قناة تقع بالقرب من قرية معصرة الخليل (*)، الى منخفض غير مزروع ، بين جبلين فاصلين وصحراويين ، تجرى منه المياه نحو بحر يوسف ، لتمضى بعـد ذلك ، حيث تصب فى الفيوم ، مارة تحت قنـاطر هوارة .

ويوجد بالجزء الجنوبى من الولاية ، عدد أقل من الترع المتفرعة عن النيل ، وذلك بالمقارنة مع العدد الموجود بالجزء الشمالى ، لـكن الجزء الجنوبى ، يحصل على حاجته من المياه بنفس السهولة التى يحصل عليها بها الجزء الشمالى ، حيث تشقه باتجاه عرضه عديد من الترع الـكبرى المتوازية مع مجرى النهر ، فتغطى حتى فى حالات الفيضانات الضـعيفة شرائح الأرض الواقعـة بينها . وأهم هذه الترع : ترعتان يشير اليهما الجغرافيون باسمى : بحر يوسف ، وبحر الباطن . وقد ضللنا الأكاديميين

(*) يورد القاموس الجغرافى للاستاذ محمد رمزى أسماء عدةقرى فى هذه النواحى تحمل اسم معصرة ليس من بينها اسم معصرة الخليل . ولابد انه يقصد واحدة من هذه القرى . [المترجم]

دانفيل ، وجبير Gibert اللذين نظرا اليهمــا باعتبارهمــا نفس بحيرة موريس .

اما بحر يوسف ، الذى ترسمه على الدوام الخرائط الحديثة لمصر ، وهو ترعة تسير فى خطوط مستقيمة لمسافة تصل الى حوالى ٣٦ فرسخا، ابتــداء من ملوى حتى دخوله الى الفيوم ، فليس سوى فرع قــديم من فروع النيل ، متعرج بقدر مايتعرج النيل نفسه ، ويبلغ اتســاعه اليوم حوالى المــائة متر ، ويبلغ أقصى اتساع له فيما بين قريتى Hezè (*) ومنقطتين ، وقــد قسته بنفسى ، ١٤٠ مترا . ويحاذى هــذا الفرع من فروع النيل سفح الهضــبة الليبيــة (الغربية) كما يحاذى النيل نفسه سفح الهضبة العربيــة (الشرقية) ، وينقل بحر يوسف مياه النيل الى الفيوم ، ومجراه على الدوام أدنى من مستوى السهل الذى يعــد ، كما ذكرت من قبل ، أدنى من منسوب مياه النهر ، ومع ذلك فان بحر يوسف يتصل وقت الفيضان ، بالترع المتوازية معه ، فتغطى المياه الأراضى التى تقع بينه وبين النيل .

أما اسم الباطن ، الذى أطلق على سبيل الخطأ على احدى الترع، فليس على الاطلاق اسم علم ، ذلك أنه تسمية تطلق بشــكل عام على معظم الترع التى تعبر الأراضىالداخلية باتجاه من الجنوب الى الشمال(٤) ويطلق اسم باطن كذلك على ذلك الجزء من الأراضى الواقعــة بين النيل والهضبة الليبيــة . وتشتق هذه الــكلمة فى العربيــة من بطن بمعنى وسط ، أو البطن نفسها ، وعلى هذا النحو أطلق العرب اسم بطن البقرة على قمة الدلتا التى ينفصل عندها فرعا دمياط ورشيد .

وهناك اسم آخر أكثر خصوصية ، على الرغم من أن عــديدا من الترع تحمله ، هو : فيــاض : ويميز هــذا الاسم البواطن الــكبرى عن البواطن الصغرى.وأكبر هذه الفياضات الباطنيــة ، وهو الوحيد الذى

(*) لم اســتطع التحقق من هذا الاسم فآثرت ان اورده بحروفه اللاتينية كما ورد بوصف مصر . [المترجم]

(٤) انظر دراسة عن بحيرة موريس ، تأليف جــومار ، العصــور القديمة ، دراسات ، المجلد السادس .

أمكنه أن يضلل كلا من جرانجية Granger والأب سيكار ودانفيل ويوقعهم فى الخطأ ، لا يزيد طوله عن ستة فراسخ ، ويتفرع من النيل عند قرية الشيخ زياد ، على بعد حوالى ١٢ فرسخا الى الجنوب من بنى سويف، ثم يواصل بعد ذلك مجراه ، باتجاه الشمال الغربى ، ليمر على بعد فرسخ واحد الى الشمال من الفشن ، جنوب قرية بنى صالح ومن هناك يمضى لتفيض مياهه فى الأراضى حتى يحجزها جسر صفط راشين . وفى خلال الفيضان ، يتم اتصاله مع بحر يوسف ، الى الشمال قليلا من قرية مزورة ، ويبلغ اقصى عمق له ٣٦مترا ، وعندما قمت بعمل مجسات له فى العشرين من فريمير من العام التاسع (ديسمبر ١٨٠٠) لم يكن عمق مياهه لتبلغ اكثر من ١٥٠ سم وكان اتساعه يبلغ ٢٦٠ سم تحت مستوى سطح السهل .

والى الجنوب ، لأبعد من ذلك ، يوجد فيساض باطنى آخر ، ينبع من النيل بين قريتى النزلة وقلوصنا ثم يمضى بالقرب من قرية مطاى حيث يتفرع الى قسمين ، يصبح أحدهما ، وهو الواقع الى الشرق ، باطنا صغيراً ينتهى على بعد فرسخين من هناك ، فى أراضى ابو جرج ، أما الآخر ، الواقع الى الغرب فيتصل أثناء الفيضان ببحر يوسف عند قرية اهوة . لكن طوله لا يبلغ اكثر من ثلاثة فراسخ .

وهكذا فان رى أراضى ولاية بنى سويف ، يتم ، كما يتم فى كافة أنحاء مصر العليا عن طريق كل من الرى الطبيعى ، والرى الصناعى، مع فارق واحد هو أن الرى الطبيعى يتم حتى سفح السلسلة الليبية فى الجزء الشمالى للولاية ، حيث يستمر الانحدار حتى هناك ، فى حين يشكل المقطع الطولى للوادى ، فى الجزء الجنوبى من هذه الولاية ، شكل منحدرين ، أولهما يبدأ من ضفاف النيل ، ويبدأ الثانى من شط الفرع المسمى بحر يوسف ، بحيث يشكل هذان الانحداران عند التقائهما داخل الأراضى منخفضا او ترعة صغيرة تحمل اسم البحر الباطن اى النهر الداخلى بسبب احتفاظها بالمياه وقتا اطول مما تحتفظ بها الاجزاء الأخرى، وبسبب هذا الوضع كذلك فان الرى الصناعى لا يتم فى الجزء الشمالى الا فى شريط الأرض القريب من النيل فى الوقت الذى يتم فيه فى جميع انحاء الجزء الجنوبى على شواطىء كل من النيل وبحر يوسف .

والطرق التى تتبع فى هــذا الرى الصناعى بسيطة للغـــاية ، ولا تختلف الا حين يستوجب الأمر رفع الميـــاه بعلو يتفـــاوت قدره . وهذه الطرق ، هى على وجه التقريب نفس الوسائل المستخدمة فى كل انحاء مصر ، والتى وصفها عديد من زملائى . لــكننى أجريت بنفسى تجـــارب لا أرى بأسا من أن أورد هنـــا نتائجها .

ان أبسط كل هذه الوســـائل ، هى تلك التى رسمت فى الصورة رقم ٤ من اللوحة ٦ ـــ الدولة الحديثة ، المجـــلد الأول . وتمثل هـــذه الصورة رجلين ينكفئان فوق أكمة من الأرض يحملان ويؤرجحان ، بواسطة أربعة حبال ، سلة من أغصان الصفصاف ، مصنوعة على شكل قلنسوة كروية ومغطاة بالجلد . ويغترف هـــذان الرجلان المـــاء ، بواسطة هذه السلة « على الطائر » ويفرغانها بنفس السرعـــة على الأرض ، وتنتظم حركة تشغيل السلة ، وعب المـــاء وصبه **بأغنية** خاصـــة ، يمكن أن نجد نصها فى دراسة المسيو فيوتو Villoteau عن الحالة الراهنة لفن الموسيقى فى مصر (٥) ، وتكاد لاتستخدم هذه الطريقـــة فى مصر العليـــا لأنهـــا لا تفترض سوى فرق طفيف فى مستوى ارتفاع الأرض عن سطح المياه. ولهذا السبب فهى أكثر ملاءمة لمصر السفلى حيث تستخدم بكثرة ، وفضلا عن ذلك فاننـــا نرى أنها هى نفس الطريقة المستحدثة فى أوربا تحتاسم baquetage التى تلجأ اليها الناس فى عملية نزح المياه .

أما الوسيلة الثانية ، والتى تتطلب فرقا أكبر فى مستوى ارتفـــاع الأرض عن سطح الماء ، فهى الشائعة فى كل انحاء مصر العليا : وهى عبارة عن أداة تسمى « دلو » ، رسمت فى الصور رقم ١ ، ٢ ، ٣ ـــ اللوحة السادسة ، الدولة الحديثة . المجلد الأول ، وهذه عبـــارة عن رافعة من الخشب ، طولها ثلاثة أمتار وتبعد نقطة ارتكازها بمسافة متر عن أحد طرفيها . وتعلو مستوى الأرض بـــ ١٢٠ سم ، ويتصل بالطرف الأطول قضيب متحرك طوله ٢٦٥ سم . تتعلق بطرفه ، كما فى الوسيلة الأولى ، سلة من أغصان الصفصـــاف مغطـــاة بالجلد ، وتتحرك حول محورها ، وفوق الطرف الآخر من الرافعة يثبت ثقل (المقاومة) من الطين

---

(٥) انظر الدولة الحديثـــة ، الدراســـات ، المجـــلد الرابع عشر (الطبعة الثانية) .

الجاف الهدف منه سهيل حركة صعود السلة . ويقوم الشخص المكلف بادارة هـذه الرافعة باغتراف الميـاه ، وصـبها على الأرض ، أو فى قنـاة تحملها الى الأراضى التى يراد ريها . ويبلغ قطر السلة ٤٠ سم، ويبلغ عمقها ٢٥ سم ، وترفع حوالى ١/١٠٠ من المتر المكعب من المياه . وقد تابعت عدة مرات ، حركة اثنين من هذه الدلاء : كانت المياه فى حالة الدلو الأول تبعد عن الأرض بنحو ٢٣٠ سم ، وكان العامل يرفع الدلو ٦٤ مرة كل ٦ دقائق : أما فى الحالة الثانيـة ، فـكانت الميـاه تبعـد عن سطح الأرض بـ ٢١٠ سم ، لـكن العـامل لم يكن يرفع الدلو الا ٥٠ مرة كل ٦ دقائق . ولا يستطيع العـامل أن يعمل لأكثر من ساعتين فى اليوم الواحد ، ثم يستبدل به آخر ، ليعمل لنفس المـدة ، وهكذا ، فاذا ما افترضنا وجود رجلين يعملان بشكل منتظم منـذ شروق الشمس حتى غروبها ، فانه يلزم لرى الفـدان الواحد أن يعملا لمـدة خمسـة أيام : وتبلغ مساحة الفدان ٥٧٢٤ مترا مربعا .

ويستخدم الدلو للرى بالنسبة للأراضى التى تزرع بالشـعير والذرة والحنطة وبقية البقول والحبوب الزيتية ، وان كان قد يصعب استخدامه فى زراعة الأرز وقصب السكر وحبوب صـبغة النيـلة ، وغيرهـا من المحصولات التى تتطلب كميات كبيرة من المياه .

وتروى الأراضى التى تزرع بهذه المحاصيل بوسيلة ثالثة ، عبـارة عن دولاب ذى قواديس (الساقية) ورسمها مبين فى اللوحتين الرابعـة والخامسة ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، الفنون والحرف .

وفى هذه الآلة ، يعلق ثوران فى طرف رافعة يبلغ طولها ٢٩٠سم، تدار بواسطتها شجرة موضوعة بشكل رأسى ، تحمل بشكل افقى مدارا مسننا يبلغ طول نصف قطره ٨٠ سم ، ومزود بـ ٣٦ سـنة يبلغ طول الواحدة منها ٢٠ سم ، وتحمل تلك الشجرة التى تدور حول نفسها ، والتى يبلغ طولها ٢٧٠ سم ، فى طرفها الآخر ، دولابا آخر يبلغ طول نصـف قطره ١٢٠ سم ، تتحرك حوله ، بفعل دورانه سلسلة من الحبـال تحمل ١٨ قادوسـا من الطين (الفخـار) دائرية الشكل ، يبعد كل واحد عن الآخر بـ ٥٠ سم ، وهذه القواديس تحمل الميـاه الى أعلى الـدولاب

بارتفاع يبلغ ٣٢٠ سم فوق مستوى سطح النهر ، ثم تصبه فى حوض ، نمضى منه الى الأراضى المراد ريها عن طريق مسقاة صغيرة .

ويبلغ محيط الطريق (المدار) الذى تدور فوقه الثيران ١٨ مترا و٨٦ سم ، وتدور الثيران ١٥٠ دورة فى الساعة الواحدة . وبشكل متواصل يعمل ثوران لمدة ثلاث ساعات ، وفى نهاية هذه المدة يستبدل بهما غيرهما ليعملا ثلاث ساعات أخرى ، وهكذا يعمل بالساقية أربعة ثيران ، يبلغ اجمالى المدة التى يعمل خلالها كل اثنين منهم ست ساعات فى اليوم الواحد ، أى أن الدولاب يعمل لمدة ١٢ ساعة يدور خلالها ١٨٠٠ دورة ، وحيث تبلغ الأسنان الخشبية للمدار الأفقى (القنفذ) ٥٦سنة ، حيث تبلغ اسنان الدولاب الرأسى الصغير ٣٦ سنة فقط فان الدولاب الأخير يقوم بدورة كاملة و ٥/٩ الدورة كلما اكمل القنفذ الأفقى دورة واحدة ، وهكذا فان الدولاب الرأسى الصغير يكمل ٢٨٠٠ دورة فى مقابل ١٨٠٠ دورة التى يدورها القنفذ فى اليوم (١٢ساعة) . وحيث يبلغ قطر الدولاب الذى يحمل القواديس ٢٤٠ سم ويبلغ محيطه ٧٥٤ سم فى حين أن محيط الحزام الحامل للقواديس ٩أمتار فان عدد دورات الأخير يكون عكس محيطه . اى أن حبل القواديس يعمل ٨٣٧ ٧/٩ دورة كلما قام الدولاب بـ ١٠٠٠ دورة : وقد سبق أن رأينا أن الدولاب الرأسى الصغير . يقوم بـ ٢٨٠٠ دورة فى اليوم ولهذا فان الحزام الحامل للقواديس يتم ٢٣٤٦ دورة خلال نفس المدة . ويبلغ قطر القادوس حوالى ١٦ سم بعمق يبلغ ٢٦سم ، وهكذا تبلغ سعته ١/٢٠٠ من المتر المكعب (أى ٥٠٠٠ سم٣) مما يبلغ بسعة الـ ١٨ قادوسا الى ٩/١٠٠ من المتر المكعب (أى ٩٠،٠٠٠ سم٣) فى كل دورة ، أى ٢١١ مترا مكعبا و١٤ سم٣ من المياه خلال ١٢ ساعة من عمق يبلغ ٣٢٠ سم .

واذا أردنا أن نعقد مقارنة بين الدلو والدولاب ذى القواديس حسب التجارب التى انتهيت من ذكرها فسنرى اذا أخذنا الدلاء أساسا ، أن العامل الذى رفع بواسطة الدلو ٦٤ سلة مليئة بالمياه خلال ٦ دقائق على ارتفاع يبلغ ٢٣٠ سم لم يكن ليرفع سوى ٤٦ سلة على ارتفاع ٣٢٠ سم وخلال نفس المدة . وحيث أن سعة السلة تبلغ ١/١٠٠ من المتر المكعب (١٠،٠٠٠ سم٣) ، فان بمقدور هذا العامل أن يرفع ٤ ٦٠/١٠٠ من الأمتار المكعبة فى الساعة الواحدة ، أى : ٥٥ م٣ و ٢٠ سم٣ من المياه

خلال ١٢ ساعة . وهكذا فان انتاج الدلو بالنسبة لانتـاج الدولاب ذى القواديس بالأرقام ٥٥٢٠ الى ٢١١١٤ ، وعلى هذا النحو يمكن أن نضع أربعـة دلاء فى مقابل دولاب واحـد لـكن السـهولة القصـوى فى استخدام الماكينة الأولى بالاضـافة الى سهولة انشائها ونقلها والحصول عليها فى كل مكان ، تجعلنا نفضل استخدام الدلو ، الذى نراه منتشراً على ضفاف النيل وترع الرى ، فى كل أنحاء مصر .

وفى هذا الوصـف الهيدروليكى الذى انتهيت من تقديمه لولاية بنى سويف ، لم نر شيئا على الاطلاق يمكننا منطقيـا من ان نظن أن بحيرة موريس وملحقاتها تستطيع أن تجـد لنفسها مكانا ، فى هـذه الولاية ، والآن ، سندخل الى ولاية الفيوم ، وهنـاك سنرى كل الصعوبات قـد اختفت دون جهد ودون عوائق ، وسوف نعرف فى النهاية ، أن التفاصيل التى قـدمها القـدماء ، تنطبق تمام الانطبـاق على هذه الولاية ، حتى أنها لتغرينا على الدوام ، وفى كل خطوة ، أن نطلق على الأماكن الحالية، نفس الاسماء القديمة ، التى وصلتنا عنها .

القسم الثاني

ولاية الفيــــوم

على الرغم من أن الأبحاث التى أخذت على عاتقى القيــام بها فى الفيوم ، كانت هى الهــدف الأساسى من وراء رحلتى الى هذه المناطق ، فاننى لم أتمكن من النفاذ الى هنــاك الا فى الأيام الأولى من شهر نيفوز من العــام التاسع (نهاية ديسمبر ١٨٠٠) ، ذلك أننى وجــدت نفسى ، بعد أن انشغلت فى بداية رحلتى برسم خريطة مساحة لبنى سويف التى كان على أن الحق بها خريطة لولاية الفيوم ، غير قادر على القيام بالذهاب الى هذه المنــاطق ، وبأية وسيلة ، بسبب فيضــان للنهر غير عادى ، اوقف كل أعمــالى لأكثر من ثلاثة شهور . كان فيض بحر يوسف قد أوقف بشكل تام ، الاتصــال بين بنى ســويف والفيوم ، وتتسبب عزلة الولاية الأخيرة فى كل كارثة كبيرة تصــيبها ، ذلك أن العرب الغرباء لا يترددون مطلقا فى اغتنام هذه الفرصة كى يأتوا لينتهبوا السكان . وقد حدث ذلك خلال الفترة التى تحدثت عنها ، وحين قام قائد بنى سويف بانفاذ قوات النجدة التى ارسلها الى المدينـــة (*) ، فقد اختفى العربان ، الذين تلقوا تحذيرا بالأمر فى الوقت المنــاسب ، ومعهم أســلابهم ، قبل أن تصــل الفرق الفرنسية . وقــد يكون من الضرورى للغــاية ، كما ســبق أن أوضحت رأيى ، أن ينشأ طريق من بنى ســويف الى قريتى هوارة (**) واللاهون ، اللتين تقعان عند مدخل الفيوم .

وقــد رحلت أخيرا فى الثالث من نيفوز من العــام التاسع (٢٤

(*) يقول الأستاذ محمد رمزى فى قاموســة الجغرافى : « وذكر صاحب كتاب الفيوم وبلاده ، أن اسمها المدينة ، وهو اسم يطلق فى الفيوم على مدينة الفيوم تمييزا لها عن الاقليم المسمى باسمها » ، ومنــذ الآن سنشير اليها فى الترجمة العربية باسم مدينة الفيوم فى حين يعنى الفيوم الاقليم بأكمله . [المترجم] .

(**) هناك أكثر من قرية تحمل هذا الاسم ، ولعله يقصــد هوارة عدلان ، حيث يذكر القاموس الجغرافى للبلدان المصرية ، للاستاذ محمد رمزى عن هذه القرية انها « من القرى القديمة ، وكانت تسمى قــديما دموه اللاهون لأنها واقعة بجوار قناطر اللاهون » . [المترجم]

ديسمبر ١٨٠٠) مع رفيقى ، المسيو كاريسسى Caristie ، وذهبنا لننام فى هوارة الـكبيرة وهى قرية كبيرة تقع على الشط الأيسر لبحر يوسف عند الفتحة التى يأخذ منها هذا الفرع من النيل مياهه، وقبالتنا على الشط الأيمن ، رأينا قرية اللاهون الصغيرة ، ويتم الاتصال بين هاتين القريتين عن طرق قنطرة مبنيـة بالحجارة ، وتتكون من ثلاثة أقواس ، تبلغ فتحة كل منها ، فيما بين قوائمها التحتية المستقيمة ، ٢٨٠ سم ، ولا تهدف هذه القنطرة الى مجرد تحقيق الاتصـال بين هاتين القريتين ، لأن كلا من هذه الاقواس الثلاثة ينتهى بقنـاة تستخدم فى تنظيم كمية الميـاه التى ينبغى أن تحصـل عليها ولاية الفيوم . بحيث لا تسيل الميـاه اليهـا ، أثنـاء الفيضـانات الضعيفة بوفرة أكثر مما ينبغى ، أما فى حالة الفيضـانات العالية ، فتفتح أمام الميـاه فتحة أكثر اتساعا وتتخلص منها بذلك أرض مصر ، التى قـد يصبح مكث المياه فوقها ، لمدة أطول من اللازم ، مجحفا وضـارا .

وعند الحاجز الشرقى رأينا أثرا لثلاثة أحجار منتزعة اكد لى المملوك كاشف سليمان ، الذى كان يرافقنا ، أنه قـد رأى عليها كتابات عربيـة تبين أن هذه القنطرة قـد شيدها السلطان سليمان بن محمد ، فى القرن السادس الهجرى ، ومما تجدر ملاحظته أن هذه الفترة هى نفس فـترة حكم الأسرة الفـاطمية ، التى أصبحت مصر من جـديد تحت سيطرتها، مملـكة مستقلة (كذا !) ، وفى هذه الفترة كان السلاطين الحاكمون ، نتيجة لذلك ، يعملون لصالح مصر ، ولتحقيق منافعها الخاصة .

وفيما بين قنطرة وقرية اللاهون ثمة قنطرة تحتجـز الميـاه التى تجلبها ترعة بنى عـدى الـكبرى ، والتى تمضى بعد سـقوطها ، عن طريق قنـاة المعصرة ، فى ذلك المنخفض الواقع عنـد سـفح جبل أبى صير ، لتروى بعض الأراضى حول ترعة اللاهون ، ثم تذهب بعد ذلك ، عن طريق بحر يوسف الى الترعة التى تصل إلى طامية .

وتشيع بين أهالى الفيوم فكرة متواترة عن الحالة القـديمة لهـذه الولاية ، أعتقد أن ليس خروجا على الموضـوع أن نوردها ، وقد علمت هـذه الفكرة عن طريق رجلين وجـدت فيهما درجة عالية من الذكاء ،

بالنسبة لمواطنيهما ، احدهمـــا هو سيد أحمد الشيخ الأكبر لمدينة الفيوم، أما الآخر فهو المملوك الكاشف سليمان ، الذى سبق أن تحدثت عنـــه ، والذى كان يقطن الفيوم منذ مدة طويلة . وقـــد أكد لى هـــذان الرجلان، أن ولاية الفيوم تبعـــا للحكايات المـــأثورة ، والموانرة من زمن الى آخر، لم تكن قبل عهد يوسف بن يعقوب ، الذى يعودون به الى عصر ضـــارب فى القـــدم ، سوى بحر واسع ، جاءت مياهـــه عن طريق النيل ، وان يوسف قـــد أمر ببنـــاء جسر فى اللاهون كى لا يتـــدفق المزيد من المياه الى هذا الخليج ، وان المياه التى بقيت قـــد انصرفت الى البحر ، ممـــا أدى لحدوث عمليـــة جفاف كبير للأراضى ، وعندما بلغ ارتفـــاع الميـــاه (فى هذا الخليج) الى مستوى السرير الذى تجرى فيـــه ، ظلت المياه الزائدة فى المناطق الواطئـــة ، وكونت بركة قارون وبركة الغرق اللتين أصبحتا مستودعين لمياه الاقليم ، وبدأ يقل ارتفاع مياههما بفعل البخر .

ان هذا الرأى ، الذى يبدو بشكل واضح ، فوق مستوى المصريين المحـــدثين لحد كبير ، لا يمكن أن يكون نتيجة لخيالهم ، لـــكنه يحمل ملحما من رواية مأثورة قديمة ، ولعلنا لو تفحصناه عن قرب لوجدنا فيه تفسيرا لهذا الاتساع الـــكبير للغاية والذى أعطاه الأقـــدمون لبحيرة موريس ، وكذلك على وجه الخصوص ، لتلك المنـــافع التى يقـــولون ان المصريين كانوا يحصلون عليها من هـــذه البحيرة ، حين كانوا يستخدمونها ، المرة بعد المرة بمثابة وعاء وحوض وخزان . وتتفق هذه الرواية مع ماشاهدته حول بحيرة قارون ، كما أنّ النتائج التى سوف أحصل عليها ، ســـوف تفضى كذلك الى نفس معطيات هذه الرواية ، وربما بمزيد من الدعم .

وعندما نجتاز الفتحة التى يتركها الجبل بين هوارة وبين اللاهـــون نرى سهلا واسعا يشكل ولاية الفيوم ، وليس لهـــذا السهل من مستوى واحد ، وانما هو يشكل تكوينين ينحدران على نحو خفيف ، يتجه احدهما الى الشمال ، ويتجه الثانى الى الجنوب ، وفوق الخط الفاصل بين هذين المنحدرين توجد ترعة تبـدأ من قنطـــرة هوارة ، لتمر بعد ذلك بمدينـــة الفيوم ثم تعبر المـــدينة وتنقسم عند الطرف الغربى الى تسع قنـــوات صغيرة ، تمضين حاملات للميـــاه لأراضى القرى المختلفة ، وتحدد فتحة الميـــاه الخاصة بكل واحدة من هذه القنوات بواســـطة قنطرة روعى ان

يكون مستواها اعلى من مستوى سطح الأراضى التى تمر بها وأعلى كذلك من منسوب الأرض التى سترويها .

وتسمى أول هذه القنوات ، أى تلك التى توجد الى أقصى الشرق ، بحر نقاليفة ، وتمر بقريتى نقاليفة ، وسيلة .

أما الثانية فتحمل اسم بسنهور وتصل الى قرية تحمل هذا الاسم .

ويطلق على الثالثة اسم سينيرو وتتجه الى قرية فيديمين .

وتعبر الرابعة قرى العجميين ، أبشواى ، أبو جنشو ، أبو كساه .

وتسمى الخامسة ترعة تلات . وتذهب الى قرية تسمى بهذا الاسم .

وتمر السادسة بقرية السنباط .

وتحمل السابعة اسم بحر دسيا ، وتنقل المياه الى أراضى قرى : دسيا ، جردو ، طبهار ، المناشى (مناشى الخطيب حاليا) .

وتروى **الثامنة** أراضى : موتود ، وريد ، أبو دلشى (*) .

واخيرا فان القناة التاسعة التى تبدأ من أحد أقواس قنطرة جامع الحاج حسن ، تروى أراضى قرية الزاوية .

ومن جهة ثانية ، فثمة ترع أخرى عند الطرف الشرقى للمدينة ، تحصل على مياهها ، شأنها فى ذلك شأن الترع التى انتهينا من ذكرها ، من القناطر والخزانات : وتتجه أولى هذه الترع — وهى تقع قريبا من باب النويرة — الى قرية ترسا وذلك بعد أن تدور حول خرائب أرسنويه .

أما الترعة الثانية وهى تحمل اسم بحر سنورس فتمر بقرى : الكعابى ، بيهمو ، خنفشة ، أبويط ...

وتحمل الترعة الثالثة والأخيرة اسم بحر المعصرة وتروى قرى الزربى ، كفر فزارة ، منشأة الأمير ، سرسنا ، أنترتارس (**) .

(*) لم أتمكن من التحقق من صحة هذه الأسماء .
[المترجم] .

(**) لم أجد فى القاموس الجغرافى قرية بهذا الاسم ويحتمل أن تكون هى قرية مطرطارس . (**المترجم**)

وكما سبق لى أن ذكرت ، فمن الملاحظ أن الترعة التى تنقل الميــاه من هوارة الى مدينة الفيوم ، والتى تحمل طيلة هــذه المسافة اسم بحر يوسف ، هى اكثر ارتفاعا عن أرض الولاية ، كما أن مجــراها ذو قاع صخرى فى كل المناطق الجبلية التى تخترقها هــذه الترعة .

ونجد على بعــد حوالى ثمانيــة آلاف متر من جسر هوارة الكبير ، على الشاطىء الأيمن قرية هوارة الصغير ، التى شيد بالقرب منها ، وبكثير من الحذق جدار لتقوية الشاطىء ، يشكل خزانا صغيرا ويصنع فى الوقت نفسه مسقط مياه يبلغ حوالى سبعة أمتار .

وحين تعلو الميــاه فى بحر يوسف ، فوق هذا الخزان . فانها تسقط فى رشاح واسع ، لتمضى من ثم الى طامية ، ومن هناك الى بركة قارون ، بل ان هــذا الخزان ، فيما يبدو ، لم يكن كافيا على الدوام لاستيعاب الزيادة الشديدة فى الميــاه ، حيث نرى أبعــد من ذلك بثلاثة آلاف متر ، خزانا آخر يصب المياه كذلك من جديد داخل الرشاح الذى سبقت الاشارة اليــه عن طريق قناة صغيرة تفضى بها الى هناك .

وتشكل تفاصيل هذا الشط الأيمن لبحر يوسف ، ابتداء من اللاهون حتى هــذا الخزان الثانى أهمية قصوى ؛ فبالقرب من قرية اللاهون نقابل أول هرم ، قاعدته من الحجر الجيرى ، أما بقيته فمن القرميد ، ثم نرى أبعد من ذلك بثمانية آلاف متر هرما آخر من القرميد من نفس نوع الهرم الأول ، تمر عند سفحه قناة صغيرة تنبع من بحر يوسف قبل الخزان الأول الذى سبق أن تحدثت عنه . وتتجه هــذه القناة الى طامية باتجاه مواز لاتجاه الرشاح الكبير ، الذى يظل جافا طول السنة تقريبا ، اذ هو لا يتلقى الا الميــاه الزائدة عن حاجة الولاية ، ويطلق عليه لهذا السبب اسم بحر بلا ماء (أو النهر الفارغ) .

وتغطى الأرض حول هــذا الهرم الثانى أكوام من الأحجار الجيرية وأنقاض منشآت تدل بوضــوح على المكان الذى كان ينهض فيــه قصر اللابرنت الشهير ، الذى كان مقرا لاثنى عشر ملكا ، والذى يتفق معظم المؤرخين فى أن يضعوه الى الجنوب قليــلا من بحيرة موريس ، غير بعيد من كروكوديلوبوليس Crocodilopolis (أى مدينة التمســاح) وفى الواقع ، فاننــا ما نزال نرى هنــاك بقية من حجرة ، لكنها مطموسة

تماما ، بالاضافة الى قطع من الأعمدة المصنوعة من الجرانيت الصوانى، مقطوعة على النحو الذى قطعت به أعمدة معابد مصر العليا ، **على شكل حزمة من النباتات البصيلية لقباب** مصرية ضخمة من الجرانيت كذلك ، ويؤكد بلين Pline أن اللابرنت هو الوحيد من بين كل آثار مصر العليا الذى وضعت فيه أعمدة شكلت على هذا النحو .

وقد انتقلت الى هذا المكان ، فى العاشر من نيفوز من العام التاسع (٣١ ديسمبر ١٨٠٠) ، وقد ربطت ببعض العمليات المثلثية هرم اللاهون بهذا الهرم الثانى ، الذى اسميته هرم اللابرنت ، وكذلك بمئذنة جامع الروبى الواقع الى أقصى الغرب من مدينة الفيوم ، وبهذه الطريقة، استنبطت خطى طول وعرض هذه المدينة ـ ولم يكن المسيو نوية Nouet قد دونهما ، وقد وجدت أن خط عرضها هو ٤٨ ، ٢٨ ، ٢٩° شمالا، فى حين أنها تقع على خط طول ٩ ، ٤١ ، ٢٨° الى الشرق بالنسبة لخط زوال باريس .

وقد تبين لى أن طول الخط الواصل بين الهرمين يبلغ ٨١١٦ مترا و ٥٧/١٠٠ من الأمتار ، وانه يشكل مع خط الزوال المغناطيسى زاوية مقدارها ١٠″ ، ٤٩° الى الغرب .

وقاعدة هرم اللابرنت مربعة الشكل ، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعها ١١٠ من الأمتار . ومع ذلك فمن الواضح ان كانت ثمة تكسية لجدرانه لم نستطع تقدير سمكها ، ويرى المرء قبيل زاويته الشرقية فتحة مبنية ، وهى واسعة مستديرة تنتهى الى ممر تحت **الأرض** ويتجه نحو الجزء السفلى من الهرم ، ولقد نزلت من هذه الفتحة كى أتوغل فى هذا الممر تحت الأرض ، لكن سرعان ما أوقفتنى هناك كومة من الأنقاض يغص بها الممر . ويحتوى قاع هذه الفتحة على مياه تبينت أنها شديدة الملوحة . ويجد المرء اذا ما نزل عند نحو منتصف الرشاح ، تجاه هرم اللابرنت ، بقايا حائط كبير من الحجارة ، وقد استخلصت من ذلك أن هذا الحائط قد كان فيما مضى جسرا يحتجز المياه التى كانت تتسرب من أعلى الخزانات التى كانت مقامة على الترعة الكبيرة .

وليست للشط الأيسر لبحر يوسف نفس الاهمية التى للشط الأيمن

وتشهد نتوءات الصخر المتناثرة عليـــه ، والتى تشكل زوائد جبلية (إى مقدمات لظهور الجبل) بأن هذا الشط لم يكن عامرا من قبل قط ! وان كنا مع ذلك نجـــد عليه اليوم قرية دمشقين التى ترتبط اراضى ومصالح أهاليها مع ذلك بأراضى ومصالح قرية هوارة الكبيرة حيث تتجاور هذه مع تلك . بل انك لا تستطيع المضى فوق هـــذا الشط اذا كنت تبغى الوصول الى قريبه الحصنة التى تحدها بعد أن تجتاز الخزان الثانى بقليل ، والذى يقع بدوره على الشط الأيمن وقـــد سبق أن تحدثت عنه ، وبالقرب من قرية الحصة هـــذه ، الى الشرق منها والى الغرب يتم تخزين مياه بحـــر يوسف ، عن طريق ترعتين ، فوق منطقة تنحدر الى الجنوب وهكذا تروى القرى التى تنتشر بين بحر يوسف وبحيرة الغرق .

ويشكل سطح هـــذه المنطقة فيما يبدو ، الى جانب انحداره نحـــو الجنوب ، منحدرا هائلا نحو الغرب ليبلغ قمة بحيرة قارون . ويشق هذا المنحدر خور واسع يحمل اسم بحـــر الوادى . وقـــد شيد عليه ســـد ضخم رائع يحـــد من تدفق مياهه فوق هـــذا المنحدر . ويختلف هـــذا السد اختلافا بينا عن أمثاله من السدود التى تراها فى وادى مصر ، فهو مبنى من الأحجار والقرميد ، وتدعمه أكتاف سميكة متعددة ، وتمتاز بمتانة لا تهيئها عادة الا مراعاة قواعد فن البناء ويبتدىء هـــذا الجسر عنـــد قرية دفينو وينتهى عنـــد قنـــاة صغيرة تشكل حدود الأراضى المزروعة (فى هذه المناطق) ، ويبلغ طول هـــذا الجسر حوالى ٨٥٠٠ متر .

ولا يستطيع المرء أن يكتم دهشته البالغة حين يرى عمـــلا بهـــذه الضخامة لخدمة مثل هـــذه المنطقة الصغيرة من الأرض والتى تنحصر بين بحيرة الغرق وبين الجبال التى تفصل الفيوم عن مصر وبحر يوسف والسد، فى حين أن هنـــاك مناطق شاسعة للغاية من الأرض ، ولكنها مهملة فى وادى مصر كليـــة ، اذا ما صرفنا النظر من بعض المصاريف الزهيدة التى تنفق على الجســـور والترع التى تغذى أو تحمى هـــذه الأراضى . وهنـــاك ما يدفعنى على الاعتقـــاد بأن المنشأة التى تحدثت عنها ، مثلها فى ذلك مثل قنطرة هوارة ، هى من عمـــل واحـــد من ســـلاطين (الخلفـــاء) الفاطميين القدماء .

كان هدفى ان أجتاز كل منطقة البحر بلا ماء لكى ابلغ طامية وبركة

قارون وقد كنت أوشك أن أبدأ عمل مسح لها لكن الظروف التى صاحبت بعض التحركات العسكرية للفرقة المعسكرة فى الاقليم ، قد حرمتنى من الجنود الذين وضعوا تحت امرتى . وقد كنت شديد الحاجة اليهم لاتمام عملياتى . لذلك فقد اضطررت ، آسفا ، أن أعود أدراجى الى مدينة الفيوم — حيث اتخذت على الفور استعداداتى لبدء جولتى حول بركة قارون ، وهى الجولة التى كنت ارغب فى القيام بها منذ وقت طويل ، كما قد انتهزت بعض الفراغ الذى هيأه لى بطء الاستعدادات كى أزور موقع كركوديلوبوليس (أى مدينة التمساح) القديمة والتى تحول اسمها فى عهد البطالمة الى أرسينويه .

حين يخرج المرء من مدينة الفيوم عن طريق القنطرة الواقعة تجاه جامع الروبى ، فانه يجتاز ، بينما هو يتوجه الى الشمال ، فراغا كبيرا تتناثر فيه مقابر المسلمين ، ليجد بعدها باتجاه يمتد من الجنوب الى الشمال عديدا من المرتفعات التى تكونت من أنقاض من الأحجار الجيرية والطوب والفخار مبعثرة هنا وهناك لمسافة تبلغ حوالى ٣٫٥٠٠ متر نحو الشمال ، و ٢٫٥٠٠ متر من الشرق الى الغرب . وقد عبرنا ، المسيو كاريستى Caristi وأنا ، وزرنا ونقبنا فى كل واحد من هذه المرتفعات كى نتعرف فيها على اثر لبعض المنشآت ، لكننا لم نجد سوى انقاض شائهة لم نستطع أن نتوصل منها الى نتيجة سوى أنها تنبىء بسبب اتساعها وضخامة حجمها عن موقع مدينة (قديمة) ، وحيث لا توجد انقاض اخرى بهذه الضخامة فى كل الاقليم ، فقد استنتجنا أن هذه المدينة هى كروكو ديلوبوليس التى سميت فيما بعد : أرسينويه .

وسرعان ما تأكدت لنا هذه الظنون ، فقد وجدنا بفضل بعض العمليات المثلثية (أى باستخدام مبادىء حساب المثلثات) التى قمنا بها على هذه المرتفعات ان المسافة التى تفصل بينها وبين هرم اللابرنت تبلغ ٩٨/١٠٠ ٨٧٠٢ منها ١٢٥٠ مترا تمتد حتى منتصف الخرائب . ويقول سترابون بطريقة موضوعية ان المسافة فيما بين ارسينويه وهذا الهرم ، تبلغ ١٠٠ غلوة ، أما دانفيل فيرى ان من المحتم ان نطرح من اطوال هذه الأبعاد مقدار الثمن (فى مقابل التعرجات) لكى تتفق مع الخطوط المستقيمة ، وتبعا لحساب الأميال الرومانية ، التى يضع دانفيل كل اربعة منها مساوية لشونة مصرية واحدة ، وبذلك يبلغ طول الشونة المصرية

٣٫٢٤ قامة ، فان طول الغلوة يساوى ٥٠ قامة، و٦ بوصات أو ٩٨٫٣٦/١٠٠ مترا ، وبذا فان كل ٦٠ غلوة تساوى شونة واحـــدة . وهكذا فان المـــائة غلوة تساوى ٥٠٤٠ قامة ، وقدما واحـــدا ، وثماني بوصات ، أو ٩٨٢٦ مترا ، يحصم منها الثمن فيتبقى ٨٥٨٩ متر ، وهو ما يتفق لحـــد كبير مع المسافة التى توصلنا اليها باستخدام أساليب المساحة وحساب المثلثات .

سبق أن عرفنا فى مدينة الفيوم ، ان كانت توجـــد أطلال هامة الى الغرب من هـــذه المدينة ، وقد انتقلنا الى هناك ، لكننا لم نجـــد ســـوى منطقة يطلق عليها اسم العمود ، شاهدنا بها مسلة واحـــدة من الجرانيت على بعد حوالى ١٫٠٠٠ متر من قرية أبجيج وحوالى ٤٫٠٠٠ متر من مدينة الفيوم نفسها ، وقـــد اخـــذ المسيو كاريستى على عاتقه أن يقدم الرسوم وبعض التفاصيل الخاصة بهذه المسلة .

وما ان انتهت الاستعدادات لرحلتى حول بركة قارون حتى تمكنت من بدء طريق كى اتمم هـــذه الجولة الاستطلاعية . كنت قـــد استطلعت مبدئيا رأى كل من الشيخ احمد وسليمان كاشف حول هـــذه الرحلة ، وكنت اخبرتهما بأننى ــ وقد علمت المصاعب التى سوف الاقيها مع جنودى الفرنسيين ، وهى المصاعب التى يعانى منها اى انسان يقيم فى الصحراء لأيام كثيرة ــ قـــد عزمت على أن أصحب معى بعض العربان ، وقد سعيا كلاهما كى يثنيانى عن عزمى ، مؤكدين لى أن كل القبائل التى تجوب هذه البقاع تتحارب ، واننى لا أستطيع ان أضـــع ثقتى فى أى منها دون أن اجازف بمخاطر كثيرة ، وقد اكد لى صحة ذلك شيخ العرب الذى تعهـــد بأن يصحبنى مع ثلاثين من اتباعه لو اننى اصطحبت معى عددا مماثلا من الجنود الفرنسيين ، هنـــا طلبت ثلاثين جنديا من الكولونيل ابلير Eppler قائد الولاية ، لكنه أجاب بأنه يرحب بأن يضع تحت امرتى أى عدد أطلبه من الجنود لاجتياز القرى والأراضى المزروعة ، لكنه لن يجازف ويعطينى جنديا واحدا لمثل تلك الرحلة التى عزمت على القيام بها .

لكن الرغبـــة المتأججـــة التى كانت تدفعنى للقيـــام بهـــذه الجولة الاستطلاعية ، جعلتنى أحادث من جديد شيخ العربان ، وانضم الكولونيل ابلير لدحض الاعتراضات العديدة ، والتى تتولد بلا انقطاع ، والتى يقيمها

ردا على كل اقتراح لنـــا ، ومع ذلك فقد اقنعناه فى النهاية بان يصحبنى، ومعه ثلاثون من أتباعه من راكبى الخيول .

كان هـــذا العربى ، واسمه على ، شنابا لنـــا يتجاوز الثلاثين من عمره ، وهو ابن صالح ، الشيخ الأكبر لقبيلة السمالو ، التى اتخـــذت لنفسها مقر اقامة ثابت ، فى قرية مبنية تقع على شط بحر الوادى .

ويطلق اسم السمالو على هـــذا التجمع العـــام للقبائل التى تحيط باقليم الفيوم ، وكان لصالح هـــذا ثلاثة أبناء وابن أخ واحـــد ، يتولى كل منهم زعامة قسم من اقسام القبيلة ، وكان اولهم ، وهو الشيخ على يقيم فى مدينة الفيوم ، أما الثانى ، جروبة فكان قريبا منه فى المنيا ، أما الثالث فهو عثمان ، ويسكن أبو جندير ، وبالقرب منه يقيم بعض أبناء له آخرين انجبهم من امائة ، وكان هؤلاء زينة وبهجة شيخوخته، اما ابن اخيه ، على ابو بكر ، فكان يشغل النزلة ، وسوف اقدم فى نهاية هـــذه المذكرة جدولا مفصلا بكل القبـــائل الخاصـــة بولاية الفيوم وكذلك بقبائل بنى سويف .

والسمالو ، هم العربان الوحيدون الذين اتخذوا لأنفسهم مقر اقامة ثابت فى الفيوم ، وهم يقيمون هناك منذ زمان ضارب فى القدم كما أنهم قوم ذوو باس شديد لكنهم على الدوام فى حالة حرب مع القبائل الغريبة التى تأتى لتشن غاراتها داخل الاقليم ، ونقصد هنا عرب الضعفا ، من بنى سويف ، والذين يدخـــلون عن طـــريق قرى طامية انفسط وابويط حيث يتخذونها مقر اقامة لهم ما ان تصل الى أراضيها مياه الفيضان ، كما ينطبق الحال على عرب الفرجان الذين يسكنون صحراوات الاسكندرية والبحيرة، أولئك الذين يتجمعون فى الفيوم بعـــد مجيبهم عن طريق قصر قارون كى يشنوا غاراتهم العديدة التى يسلبون خلالها قرى السمالو .

وهكذا ، لم تكن مخاوف الشيخ على لتنهض على غير أساس ، ومع ذلك فقد اعتقدت بأننـــا مادمنا قـــد هزمناهم مرة ، فاننا الآن بمنأى عن الأخطار ، ولم اعد افكر الا فى مشروع رحلتى .

وضعت البرنس على ظهـــرى ، وغطيت راسى بطربوش يعممـــه شال ، هكذا رحلت ، فرنسيا وحيدا ، يحوطه ثلاثون بدويا تسلحوا بشكل

جيد ، وعرفوا ، كما اخبرونى ، **كيف** لا يمكنوا احدا **من أن** يلحق بهم العار أو الفزع ، وحيث اراد الشيخ — دون شك — أن يعطينى فكرة طيبة عن قبيلته ، فقد بدأ يظهر ضروبا من شجاعة فياضة لم اكن أعهدها فيه حتى هذه اللحظة ، وانتقلت هذه الشجاعة دون مشقة الى تابعيه .

غادرنا مدينة الفيوم فى السادس عشر من نيفوز من العام التاسع (٦ يناير ١٨٠١) فى منتصف النهار تماما ، وواصلنا طريقنا باتجاه الشمال بدقة بين عدة ترع ، وكانت تقع على شمالنا ترعة ، شاهدت على شاطئها خزانا مبنيا ، وسرعان ما مررنا بالقرب من قرية الأعلام التى كانت تقع يمينا ، ودخلنا فى دغل يغمره الضوء ، ويغص بأشجار النخيل، ووصلنا بعد ذلك الى قرية الكعابى الجديدة ، وكان اقصر الطرق بالنسبة لنا أن نسير باتجاه شمال الشرق نحو المعصرة وطامية ، ولكنا عندما قيل انه يوجد بالقرب من هنا مبنى سبق أن تحدث عنه بوكوك Pococke ، يعرف باسم أقدام فرعون ، فقد واصلنا طريقنا الى الشمال مجتازين الترعة التى تمر بقرية الكعابى ، فوصلنا الى سهل رملى واسع تقع به قرية بيهمو ، حيث يعلو بالقرب منها أقدام فرعون المزعومة : وليست هذه الأقدام سوى كتلتين كبيرتين ، تتكونان من أحجار جيرية ضخمة ، ويبلغ طول كل منهما حوالى ستة أمتار بعرض يبلغ مترا واحدا وثلاثين سنتيمترا ، كما يبلغ ارتفاعهما نحو المتر وهما مثبتتان ، كلتاهما ، بدون أسمنت أو مونة من أى نوع ، وتبعد كل منهما عن الأخرى بحوالى ١٢٠ مترا ، كما أنهما محاطتان **بكتل** صغيرة شكلت بنفس الطريقة .

وقد شاهدنا بالمثل أحجارا ضخمة متناثرة ، مما يدل على أن هاتين الكتلتين كانتا فيما مضى أكثر ارتفاعا مما نراها عليه الآن ، اذ هى لاتبلغ الآن اكثر من عشرة ارهاصات (مدماكات) ، ويقدر ارتفاعهما معا بعشرة أمتار ، أما سطحهما الداخلى فمربع يبلغطول ضلعه حوالى ثمانية أمتار . كنت قد لاحظت أن انحدار الأرض ، الذى بدأ منذ حوالى ٤٠٠ متر الى الجنوب ، قد بدأ يصبح محسوسا بشكل طفيف ، مما قد يحمل على الاعتقاد بأن البحيرة تمتد حتى تبلغ هذه النقطة ، وكانت مسيرتنا قد انتظمت منذ غادرنا مدينة الفيوم ، وكنا نقطع حوالى ٥٠٠ر٣٣ متر فى الساعة ، ومع هذا فلابد أن الساعة الآن قد بلغت الثانية الا الربع، ومن هنا ، من خلال هذه الأطلال ، كنت ألمح وسط دغل كبير من أشجار

النخيل ، الى الشمال ، قرية سنورس ، التى وصلنا اليها فى الساعة الثالثة وكنا قد غادرنا أقدام فرعون فى الثانية تماما .

سنورس قرية كبيرة بعض الشيء ، وهى مبنية فوق مرتفع ، هو اعلى المرتفعات التى شهدتها فى مصر ، ويقدر ارتفاعه بحوالى ٥٠ مترا، ويحتمل أن كان يشكل فيما مضى واحدة من جزر البحيرة التى يبدأ المرء يرى مياهها بمجرد بلوغه اعلى المرتفع ، ومن جهة أخرى فسنورس هى مستودع للأملاح التى تستخرج من البحيرة .

وقد نزلت عند الشيخ الحبشى الذى استقبلنى بمودة بالغة ، واشتريت من القرية الشعير والفول اللازمين للخيول فى الصحراوات ، ثم رحلت فى الساعة الخامسة متوجها نحو الشمال ، واستمرت مسيرتنا نهارا حتى السادسة والنصف بالرغم من أننا فى انقلاب الشتاء ، ووصلنا الى رشاح صغير يسمى البطش ، يجرى من الشرق الى الغرب ،وينقل المياه من طامية حتى بركة قارون ، وتصل المياه الى طامية عن طريق ترعة قادمة من الروضة عن طريق ترعة تمر عند سطح هرم اللابرنت ، وعن طريق رشوحات البحر بلا ماء .

وكان بالامكان عند النقطة التى وصلنا اليها ، أن نعبر الرشاح فاتساعه هنا يبلغ حوالى ثمانية أمتار فى حين لا يزيد عمقه عن ٣٢سم، بعد أن كنت قد لاحظت أنه كان محفورا على شكل ترعة بعمق يبلغحوالى عشرة أمتار ، وباتساع يبلغ ثمانين مترا . كنا لانزال على بعد يبلغ مسافة فرسخين الى الغرب من طامية وكانت المياه لما تزل بالغة الجودة ، مما يدل على أنها لم تتأثر مطلقا من قربها من البحيرة . وهناك تزودنا بما نحتاج من المئونة والمياه ، وملأنا قربنا بكمية تكفى فترة جولتنا بالصحراء .

اخبرنى الشيخ على أن هذه النقطة هى تلك التى تمر بها القوافل التى تمضى مباشرة من الجيزة الى سنورس . بل أن الفيضان نفسه لا يتسبب فى توقف مسيرة القوافل التى تمضى عندئذ صاعدة الى سيلة .

لاحظت أن الانحدار نحو البحيرة ، ابتداء من سنورس ، كان لايزال محسوسا حتى بيهمو ، وان سطح الأرض يتبع انحدارا آخر من

الشرق نحو الغرب ، وهذان الانحداران واضحان تماما ، حتى اننى لم أعد أرى ذروة رشاح البطش فى الجنوب الا كشريط عام يلتقى بشــكل حاد مع الأفق .

كان الظلام تاما حين انتهينـــا من ملء قربنا ، فمن المعروف أن مدة الغسق فى هذا المنـــاخ أقل بكثير من المدة التى يمكثها الغسق فى أوربا، لذا فقد عزمنا على أن نمضى ليلتنـــا فى هذا المـــكان ، وذهبنا لـــكى نقيم خيامنا على قمة الشط الشمالى ، على مسافة تبلغ مسيرة نصـــف ساعة الى الغرب من النقطة التى عبرنا عندها رشاح البطش .

منذ رحيلنا من مدينـــة الفيوم ، حذا رفاقى فى السفر فى سلوكهم نحوى حذو الشيخ على فى سلوكه ازائى . وكان هذا الرجل لا يفارقنى أبدا . وعلى الرغم من الصعوبة التى كنت أستشــــعرها فى التعبير عن نفسى وأفـــكارى بلغتـــه ، فانه لم يكن يحادث سواى . كان يقص على بقصد تسليتى وارضـــائى دون ريب ، حكايات كنت أجد ــ وهذا اعتراف منى ــ مشقة كبيرة فى تتبع تسلسلها ، وان كانت تشتت انتباهى لدرجة أكبر مما كنت أود ، اذ كنت غارقا تماما فى ملاحظاتى ، وفى بعض الأحيان كنت ألحظ عن بعد ، بينما هو يقص حكايتـــه ، أمرا يستنفر فضولى فكنت أجرى اليه ، ومع ذلك فقـــد كان حصـــانه يتعقب على الفور ، وبأقصى سرعة آثار حصانى ، وكذلك فقد كان العربان ، كى يدخلوا البهجة على نفسى يتصنعون فيما بينهم معارك ومبـــارزات ، وذلك بأن يجـــروا على التوالى ، فريقا فى اثر فريق ، ثم يأتى أحد الفريقين القريب منى لينشدنى أغنيات البطولة الخاصة بقبيلته . وكان مظهر السرور الذى أبديه ، هو بمثابة مكافأة اقـــدمها لهم ، فيعاودون من جديد ألعابهم التى لم تقلل برغم ذلك من جدية وانتظام مسيرتنا .

ما ان أعطيت اشـــارة التوقف لاقامة معسكر المبيت حتى نصـــبت خيمتى وكنت قـــد أحضرت مرتبتين صـــغيرتين : احداهمـــا للشيخ على والأخرى لى ، لكننى لم انجح مطلقا فى أن أحمـــله على تقبل المرتبة التى خصصتها له ، بل لقـــد اســـتطعت بعنـــاء شـــديد أن أقنعـــه على أن ينـــام داخل خيمتى ، حيث اكتفى بحصيرة بسطها فوق الرمال . وخلال بضع دقائق أعدت القهوة ، وقـــدمت ، وبدأت استعدادات العشـــاء .

وبانتظار ذلك ، ابديت رغبتى فى أن ارى كل رفاقى ، فأتوا يقبلون يدى، وينحنون مصطفين حول فراشى . وشـــاء احدهم ، وهو الذى قدمه الى الشيخ على بوصـــفه منشدا ، أن يعطينى فـــكرة عن امجـــاد وســـمو قبيلته ، فقص واحدة من هذه القصص التى تحكى أعظم انجازات السمالو والتى يتـــداولونها استلهاما للشجاعة ، كان المستمعون فى كل لحظـــة يطلقون « يا الله » دليلا على الاعجاب ولارضـــاء المنشد ، وعلى الرغم من أننى لم أكن أدرك معنى سوى القليل مما كان يقـــول ، فاننى لم أكن الأخير فى اظهار سرورى . كانوا جميعا مسرورين . وفى النهاية أحضر الدجاج والبيـــلاف (طعـــام شرقى من أرز ولحم وتوابل) أكلنا بنهم . وبعد الطعام صرف الشيخ على كل رجاله واوقد شعلتين حول خيمتى كى يبعد الضـــباع — حسبما يقول — وهى التى تتجول هنـــا وتكثر فى هذه المنـــاطق ، وتـــدثر كل من الباقين فى برنسه وقضى الليل على مقربة من حصـــانه .

فى السابع عشر من نيفوز (٧ ينـــاير) أزلنا خيـــامنا فى الساعة السادسة والدقيقة الأربعين من الصباح ، وكان الاتجاه الرئيسى لطريقنا يتجه من الشرق الى الغرب ، لكننا انعطفنا لحظة الى اليمين نحو الجبل العـــالى ، تاركين البحيرة عن يسارنا ، على بعد حوالى فرسخ ، وارتفع الانحـــدار بهـــدوء وبشكل غير محسوس ليختفى بعد ذلك فى واد واسع ينبسط نحو الشمال ، أخبرنى الشيخ على أنه هو الطريق المؤدى من مدينة الفيوم الى الجيزة ، والى الاسكندرية عن طريق البحر بلا ماء الذى يمـــر بالقرب من بحيرات النطرون ويتفق مايقول الشيخ على هنـــا ، مع رأى الجنرال أندريوسى (١) وسوف نرى فيما بعد النتائج التى استنتجتها حول طريقة استغلال البحيرة فيما مضى .

كان العربان شديدى اليقظة ، يجدون فى التعرف فى الرمال التى تغطى هذه الصحراء ، على ما ان كان قـــد مر من هنـــا منذ مدة قريبـــة عربان آخرون وبعد مسيرة نحو الساعة تعرفوا خلال الـــكثبان على آثار

---

(١) أنظر ملاحظات حول بحيرة موريس المدونة فى الاخطار الخامس بالثالث عشر من بروميير من العام التاسع .

عربان الضعفا الذين سبق للسمالو ان طردوهم من الفيوم قبل ذلك بنحو عشرين يوما كما قيل لى .

وقد وجدنا بين البحيرة والجبل كمية كبيرة من الأشجار التى جفت وهى بعد واقفة ، وهى تشبه منسغة (*) صغيرة جافة ، ويبدو أن احدا لا يفيد من هذه الغابة الصغيرة فى شىء فى حين أن من المستطاع أن تكون ذات نفع كبير لمدينة الفيوم .

وصلنا فى العاشرة الا الربع الى ضفاف البحيرة وهناك شاهدنا أكمتين كبيرتين تنعزل احداهما عن الأخرى ، ويبلغ ارتفاع كل منهما ٥٠ مترا، ويصل قطر أولاهما وهى مستديرة مائتى متر أما الأخرى فقاعدتها ذات أركان أربعة ، ويبلغ طولها ٥٠٠ متر بعرض يبلغ ثمانين مترا .وهذه الأخيرة هى الأدنى الى البحيرة ، وتغطى كليهما أحجار شديدة الصلابة من الحجر الجيرى مقطوعة بشكل خشن ، وقد رأينا هناك كذلك بعض انقاض من القرميد ، لكننا لم نلمح عليها لا نحتا ولا آثارا لمنشآت ، كانت الكتلتان نصف مطموستين فى الرمال ، وتقع احداهما بالنسبة للأخرى فى خط يسير من الشمال الشرقى نحو الجنوب الغربى بطول يبلغ حوالى الألف متر . فى هذه المنطقة يبتعد الجبل عن البحيرة بحوالى ثلاثة فراسخ على الأقل ، لكنه يميل بعد ذلك الى الاقتراب منها وتتناثر فى كل هذا الفراغ أكوام صغيرة من الأحجار الحمراء تتكون من نوع من الحجر الطباشيرى يشبه الى حد ما ، مانطلق عليه نحن الحجر الدموى أو الطباشير الأحمر Sanguine وقد نزل العربان جميعا من فوق خيولهم واكبوا على جمع هذه الأحجار بهمة شديدة ، واخبرونى بأن الناس يشترون منهم هذه الأحجار لاستخدامها فى صباغة المنسوجات ولطلاء الأخشاب .

ترجلت عند شاطىء البحيرة التى بدت لى مياهها الرائقة للغاية وكأنها تميل الى الملوحة ، وان كانت هى غير ملحية ، فسقينا منها جميعا خيولنا وتناولنا هناك وجبة خفيفة ، وقد أكد لى العربان أن البحيرة

(*) المنسغة : أحراش نبتت أشجارها الصغيرة على أرومات اشجار قديمة مقطوعة .

تحتوى على أسماك بالغة الجمال ولذيذة الطعم وان كان سكان الفيوم لا يصيدونها على الاطلاق ، وان صيادين من وادى النيل هم الذين يأتون الى هناك لهذا الغرض ابتداء من نهاية مارس وحتى ابتداء فيضان النيل . وتزدحم البحيرة كذلك بالطيور المائية . وكان عرض البحيرة عند النقطة التى نزلنا عندها يبلغ — فيما يبدو لى — حوالى الفرسخ .

وحين اجتزنا الهضبتين لاحظت أن الأرض ترتفع بطريقة شبه فجائية ، وان كان فى شكل مرتقى غير وعر ، ثم يصل المرء بعد ذلك الى هضبة واسعة صخرية السطح ، عارية من الخضرة ، تمضى لتتصل بالجبل الذى يبعد عن النقطة التى نحن عليها بحوالى الفرسخ جهة اليمين، كما يتوغل سطح الهضبة حتى ضفاف البحيرة على بعد ١٠٠ متر جهة الشمال ، وقد رأينا فى الفراغ الذى يفصل صخرتى الهضبة طبقات من أرض قابلة للزراعة تغطيها طبقة خفيفة من الرمال ، كما رأينا هناك أيضا بعض آثار لملاحات قديمة .

وقد وجدت فوق هذه الهضبة التى وصلت اليها بعد الظهر بعشر دقائق ، أطلال مدينة ، أو ربما أطلال قصر واسع أخبرنى العربان أنه يسمى قصر « طفشارة » أو مدينة النمرود ، كما رأيت هناك حائطا سميكا بالغ الارتفاع ، تعرفنا فيه على عدة مبان مختلفة ، تشهد حالها على قدمها ، وقد كنت أود لو استطعت أن أرسم الأسطح التفصيلية لهذه الخرائب ، لكن لم تتيسر لى لا المساعدات اللازمة ولا الوسائل، ولا الوقت اللازم . لذلك فقد اكتفيت برسم كروكى لها يشير اليها على خريطتى . وكانت الجدران مبنية بنوع من القرميد طوله ٢٠ سم وعرضه ١٠ سم وسمكه ٧ سم ، مصنوع من الجير الأبيض المخلوط بالقش المهروس مع قليل من الصلصال ثم جفف بعد عجنه بتعريضه لأشعة الشمس . وهذا الخليط هش للغاية ، ويتحول بسهولة بالفة بين الأصابع الى تراب .

وتمتد هذه الخرائب حتى شاطىء البحيرة ، بعرض يبلغ مائتى متر، وبطول يصل الى نحو ستمائة متر ، ويتجه من الشمال الى الجنوب ، وقد شاهدنا هناك كمية من القرميد المحروق والفخاريات وأوانى الموميات .. الخ . وحين تبين لى عجزى التام عن انشاء خريطة لهذا

المكان بسبب نقص الامكانيات ، ابديت للعربان رغبتى فى أن أقوم بعمل بعض الحفائر ، فبدأوا جميعا البحث ، واحضر لى واحد منهم نصلا مستقيما ذا حدين صنع مقبضه من القرون ، ويبلغ طوله ٩٠ سم وعرضه ٥٠ سم ، ويحمل فى أعلاه ، أسفل القبضة نقشا عربيا محفورا ، كما انه مطعم بسلك من الفضة ، وقد حملته الى فرنسا ، وان كان سرق منى فى مارسيليا ، فى نفس اللحظة التى كنت اتهيأ فيها للرحيل الى باريس .

نزلت من المرتفع الصغير الذى توجد هذه الأطلال فوقه ، وواصلت طريقى قريبا لحد كاف بين شواطىء البحيرة باتجاه غرب الجنوب الغربى . وظلت التربة هى نفس تلك الهضبة الصخرية التى وجدتها قبل قصر النمرود . وكان الجبل الواقع عن يمينى على بعد فرسخ صغير من البحيرة يواصل ميله على الدوام نحو الاقتراب منها ، وعند حوالى الثالثة كان طريقنا ، المتوازى على وجه التقريب مع الاتجاه الرئيسى للبحيرة ، يمضى بشكل ثابت نحو الجنوب الغربى ، وفى تلك اللحظة نزلنا فى منخفض ظننته فى البداية خليجا قديما ، لكننى رايته بعد ذلك يتوغل نحو الجبل مواصلا اتجاهه نحو الغرب . وعند مدخل هذا المنخفض، على شاطىء البحيرة ، لمحت مرتفعا صغيرا على هيئة هرم فذهبت الى هناك على الفور وسرعان ماتبينت أنه ليس سوى صخرة تغطيها اتربة تختلط بالرمال وتنمو عليها نباتات كثيفة .. وفى مواجهتها رأيت جزيرة منخفضة السطح وسط البحيرة .

فى كل هذا المنخفض تتناثر عدد كبير من الأكمات على شكل قمم، تغطيها فى معظمها ارض قابلة للزراعة ، وبقايا احجار جيرية شبيهة بتلك التى سبق أن رأيتها فى الصباح . وهكذا ، فاذا أخذنا بالافتراض المرجح القائل بأن البحيرة كانت تمتد حتى الجبل — وهو افتراض تدعمه الطبقات التى نراها ، والأكمات التى تحدثت منها ، والتى تآكلت بشكل افقى بفعل المياه ، وكذا القواقع التى كانت لاتزال على نفس حالها حين جمعتها من تحت قدمى — فان هناك مايدعو الى الظن بأن كل هذه الأكمات قد كانت بالمثل جزرا مأهولة ، أما الهرمان اللذان تحدث عنهما هيرودوت ، فلابد أنهما كانا يقفان فوق واحدة من هذه الجزر العديدة، وان كان قد

يصعب علينا أن نعرف فوق أى واحدة من هذه الجزر كان ينهض هذان الهرمان اذا ما استثنينا الجزيرتين الأوليين اللتين تقعان عنـــد منتصف البحيرة طولا وعرضا ، على افتراض انها كانت تبدأ عند طامية وتمتد من بيهمو حتى الهضبة الليبيـــة ، ذلك أننـــا اذا استبعدنا هذا الموقع الأوسط الذى يبدو هيرودوت وهو يشـــير اليه كما لو كان يستند الى شيء ثابت، فسوف نجد عددا كبيرا من الجزر يصلح اى منها لوجود هـــذين الهرمين تبعا لكمية وأحجام الأحجار الجيرية التى تغطيها .

أما وقد ظللنا نواصل طريقنا على الدوام باتجـــاه الجنوب الغربى فقد وصلنا فى الساعة الرابعة والدقيقة ٣٥ بعد أن أسرعنا فى الســـير قليلا ، الى موقع غابة ، تغطيه اشجار جافة تشـــبه ما كنت **شاهدته** فى الصباح ، بل لقد كان امتداد الغابة الأخيرة يبدو أكبر بكثير ، كما كانت جذوع الأشجار تبـــدو اقوى ، وكان الـــكثير منها له سمك ذراع الانسان، كما كان سمك البعض الآخر يماثل سمك الفخـــذ . من هنـــاك كنا نرى باتجاه الغرب قصر قارون . وكان قـــد خطر ببـــالى أن اذهب الى هناك لقضاء الليل حين لحق بنـــا احد العربان ، أرسله الشيخ صـــالح ، والد الشيخ على . وكان قد بلغه منذ تليل ان ثمانيـــة من رجاله قـــد انتهبوا بواسطة جماعة تتكون من ٣٠٠ من فرجان البحيرة (عرب الفرجان بولاية البحيرة) . لقـــد كلف الشيخ صالح هـــذا العربى بأنه يخبرنا بأنه يلزم حراسنا اليقظة ، كما طلب الينـــا بشكل خاص الا نغـــامر على الاطلاق بالدخول فى معركة ، نظرا لقلة عددنا ، ومع ذلك فقد اخبرنا أن نظل على هدوئنا (الا نفزع) وبأنه على صلة بمجريات الأمور لـــكى يعرف ما آل اليه حال أعدائه الفرجان ، وبأنه اذا مابلغـــه أنهم لايزالون على مقربة منا ، فسيأتى للقـــائهم على الفور وفى صحبته ٥٠ من السمالو ، هنـــا لفت الشيخ نظرى ، دون أن ترهبـــه هذه الأخبـــار ، أن ليس من حسن الفطن أن نصل الى قصر قارون مع قدوم الليل ، اذ يعد هذا المكان الملتقى المفضل للقوافل الجوابة وانه ، اذا مافترضنا أن فريقـــا من بينهم قـــد يقضى الليل فى المنـــاطق المجاورة ، فسوف يعـــاود سفره مع بزوغ النهار ويترك لنـــا الميدان خاليـــا . أدركت صواب رأيه ، وفضـــلا عن ذلك ، فلم نكن قد نلنا ـــ حتى ذلك الوقت ـــ أى قسط من الراحة منذ السادسة صـــباحا ، أى أننـــا قـــد سرنا بشكل متصـــل لمـــدة عشر ساعات لذلك

فقد اخترنا من الغابة مكانا دنيـــا وحصينا تحيط به المرتفعـــات ، حيث يتردد على الطريق الذى كنا سلكناه عرب الفرجان فى معظم الأوقات ، واقام الشيخ عليه حراسة ، وقضينا الليل فى هذا المـــكان .

كنا بالفعل على ضفاف البحيرة ، كما كنا فى نفس الوقت جد قريبين من الجبل . تذوقت المياه مرة اخرى فوجدتها تماثل تلك التى تذوقتها فى الصـــباح . وقـــد شربت منها كل خيولنا بل وكثير من خدمنـــا ، الأمر الذى يعـــارض بعض الشيء مع تأكيدات بوكوك Pococke الذى وجدها كما يقول اكثر ملوحة من ماء البحر . وفى الحقيقـــة ، فقـــد جاء هو الى هنـــاك بعد مثل الفصـــل الذى جئت فيـــه بشـــهر ونصـــف ، ولعـــل الفيضـــان الذى سبق رحلته كان بالغ الضـــعف ، فى حين كان الفيضان الذى سبق رحلتى بالغ الوفرة .

وفى اليوم التالى ، ١٨ نيفوز (٨ ينـــاير) واصـــلنا طريقنـــا فى الخامسة والربع صـــباحا ، لـــكننا لم نستطع أن نحاذى ضفاف البحيرة بسبب ادغال الأشجار التى تغطيها . لذلك فقد اضـــطررنا أن نقترب من الجبل ، الذى كانت المسافة التى تفصله عن البحيرة تضيق شيئا فشيئا، كما قـــد أصبحت طبقـــة الأرض القابلة للزراعـــة يزيد سمكها اكثر فأكثر دون أن تخالطها الرمال، ولهذا فلعل من المؤكد أن يكون هذا الجزء الشمالى من البحيرة قابلا للزراعة حتى سفح الجبل اذا أمكن رى أراضيه بميـــاه الفيضـــان العذبة .

وصلنا اخيرا حوالى الساعة السابعة والربع ، بعد مســـيرة أبطأ بعض الشيء من مسيرة البشـــارحة ، الى الطرف الغربى للبحيرة ، وهـــو يغرق كلية سطح الجبل وكنت اظن اننى هنـــا بصـــدد ذلك الجبل الذى يقطعه منذ مبدئه ، البحر بلا ماء ، والذى يسميه دانفيل فى مؤلفـــه مصر القـــديمة Aegyptus antiqua باســـم Lycus Fluvius ، ولـــكننى وجدت ، بدلا من هـــذه الفتحـــة ، أن السلسلة تتابع حتى مدى البصر باتجاه الجنوب الغربى ، وعرفت من العربان انه لا يوجـــد فى هـــذه المناطق لا البحر بلا ماء ، ولا منخفض من اى نوع يستطيع أن يقوم ادعاء على وجوده .

أما لسان الأرض الضيق ، والذى يسمح بالمرور بين طرف البحيرة وسفح الجبل ، فقد كانت تطمسه كومة من الأحجار الجيرية الضخمة التى لا يبدو عليها أى أثر لعمل الانسان والتى أعتقد انها ببساطة قد سقطت من الطبقات العليا للجبل ، وفضلا عن ذلك فقد كان هذا الممر وعرا لأن شواطىء البحيرة هناك مغطاة بقشرة ملحية تخور بسهولة تحت الأقدام وتوجد تحتها مياه عميقة لحد كبير فى بعض الأحيان . وتمكنت جمالنا بعد جهد بالغ المشقة من عبور هذا الممر .

وحيث كنت قد نفد صبرى شغفا لرؤية قصر قارون الذى كنت اراه منذ الصباح بشكل بالغ الوضوح : فقد تركت القافلة تواصل طريقها ، ورحلت وحيدا الى الأمام متخذا اتجاه جنوب الشرق نحو هذا المبنى الذى وصلت اليه فى الثامنة والربع . وهكذا أمضيت ساعة ، سار فيها حصانى بأقصى سرعته كى اقطع المسافة التى تفصل القصر عن طرف البحيرة ، إذ أن المنحدر لم يكن وعرا بل كان كبيرا . وفى نفس الوقت فان القصر مبنى فوق مرتفع صغير مما يسمح بالظن بأن مياه البحيرة كانت فيما مضى أكثر ارتفاعا ، وبأنها فى تلك الأزمنة التى كانت تمتد فيها لتبلغ الجبل ، كانت تأتى كذلك كى تبلل سفح هذا المبنى .

لن اقدم هنا مطلقا وصفا لقصر قارون ، فقد سبق أن قدم المسيو جومار Jomard الرسوم والخرائط الدقيقة لهذا المبنى (٦) . لكننى فقط اسمح لنفسى بأن اقرر أننى لست أعتقد أن مبناه قديم بنفس قدم معابد مصر العليا ، فأطلاله ، أولا ، لا تبدو حاملة لآثار تخريب الزمن لكنها تحمل آثار تدمير قامت به يد البشر . وثانيا فها نحن نرى عند مدخله أحجارا منحوتة بشكل خشن على طريقة الاغريق ، فوق الدعامات الأمامية ، وان كان من الممكن الافتراض بأنها قد أضيفت فى أزمنة لاحقة . وقد حفر دكتور بوكوك اسمه على انقاض عضادات باب الدخول الأول الواقع الى اليسار ، كما حفر بول لوكاس Paul Lucas اسمه على أنقاض العضادات الواقعة الى اليمين .

---

(٦) أنظر اللوحتين ٦٩ ، ٧٠ ، العصور القديمة ، المجلد الرابع .

كان هذا بمثـــابة اكتشاف له اهمية قصوى بالنسبة لى . هنا لم أستطع أن اقاوم نزوة أن ألمسها ، فكتبت هذه الـكلمات على العضادة الواقعة الى اليسار فوق اسم بوكوك .

عـــبر ب. م. مارتان ، المهنـــدس الفـــرنسى الجزء الشمالى من بركة قارون ، فى السابع عشر من نيفوز من العـــام التـــاسع لقيـــام الجمهورية الفرنســية (الموافق ١٧ يفـــاير ١٠٨١)

وقد تفحصت باهتمام ، من أعلى المبنى ، وبمنظار جديد ، امتـــداد الجبل الذى تركته عند شـــاطىء البحيرة ، فلم أجـــد على مدى البصر مايمكن ان يدعم افتراض وجود الفتحة التى يتحـــدث عنها كل من ليكاس ودانفيل ؛ بل وجدت الأرض تمضى صـــاعدة فى مرتقى لطيف يبتدىء عند البحيرة وينتهى ببلوغ قمـــة الجبل . ويرى المرء عن بعد كبير تلك الحلمة (القمة) التى حـــددها هـــذا الجغرافى فى خريطته عن مصر الحديثـــة تحت اســـم Haram Medaté el - Hebjad ولا تزال بعض جدران قصر قارون تنهض واقفـــة سواء من ناحيـــة الشرق أو من ناحيـــة الغرب ، بل ويوجد كذلك مبنى صـــغير امام مدخله ، ومع ذلك فلا توجد مطلقـــا قطعـــة واحدة من الجرانيت . وتقع حجرات القصر ، المربعة الشكل ، على خط يمتد بشكل تقريبى من الجنوب الى الشمال ، اما خط الواجهة الرئيسية او المـــدخل فيمتد من الجنوب الشرقى ، واذا ما رنا الانسان ببصره نحو الأفق فسوف يلاحظ عن قرب ، والى الجنوب ، قمة عالية من الأرض تدل بوضوح على الحد القديم للبحيرة .

غادرت قصر قارون عند الظهر تماما ، واتخذت طريقى مباشرة نحو الجنوب الشرقى ، كانت الأرض التى نطؤها صخرية خالصة تغطيها رمال خفيفة ، وتتنـــاثر عليها أكدأس صـــغيرة من الأحجار والقرميد ، ولـــكن بكميات بالغـــة الضآلة ، وهـــذا ما جعلنى أظن أننـــا نتوصل الى نتيجة مبتسرة حين نطلق على هذه الأطلال اســـم بلدة قارون ، ذلك أننى مقتنع بأنه اذا كانت توجـــد بعض مبـــان فوق هذه الصخرة فانها لابد أن تعود الى فترة جد قريبـــة ، جاءت بعد انحسار مياه البحيرة بزمن طويل ، كما

ان هذه المبـــانى ، من جهة اخرى ، ضئيلة الأهميـــة للغاية ، ولا يمكنها بأية حال أن تدلل على وجود مدينـــة قديمة ، وسيكون موقع مثل هـــذه المدينة ، فضلا عن ذلك بالغ السوء ، اذ يظل هذا المكا ن، على الدوام، عاريا من أية خضرة .

كنا نسير بخطو حثيث ، اذ كانت جمالنا قـــد سبقتنا بنحو نصـــف الساعة ، ووجدنا انفسنا عند حوالى الساعة الثانية فوق قمة بناء صغير يقع الى اليسار على شـــاطىء البحيرة ، ولاحظت أن قمة عاليـــة بعض الشىء تمتد بدءا من هذه النقطة ، على نحو مواز لهذا الشاطىء .

وبعد مسيرة نصف ساعة شاهدت مبنى آخر فوق نفس القمـــة ، وتلك على وجه التقـــريب هى الأماكن التى يطلق عليهـــا بوكوك اسمى قصر كوفو Couphou وقصر كوبال Copal ، وأخبرنى العـــربان انه يشار الى هـــذه المبانى فى عمومها باسم قصر البنـــات ، وتوجـــد على شواطىء البحيرة ، عند سفح الجبل الواقع الى يميننا فى ذلك الوقت ، ونحن باتجاه بحيرة الغرق ملاحات كان يستغلها أهالى النزلة . ولـــكى يتم لهم ذلك ، قاموا بحفر آبار تسحب اليها المياه المالحة ، وتترك لتتبخر فوق الأرض ، لتنتج ملحا لذيذ الطعم ، بالغ الجودة .

ويصبح الانحدار ، ابتداء من قصر قارون ، غير محسوس ، لكننى احسست فى الساعة الثالثة أن الانحدار قـــد عاد ليصبح بالغ الشدة. وعند الثالثة والربع وصلنا الى القمة التى تشكل نهاية الصحراء . هناك احسست بلذة يصعب وصفها فمنذ ثمانى واربعين ساعة ، لم تكن عينى النهمة للاكتشاف ، والتى كانت تحدق بلا انقطاع فى كل مايحيط بى ، لم تكن تقع الا على احجار ورمال . كانت صورة الموت وحدها ترتسم بخيالى دون أن تعطينى مع ذلك اى احساس بالحزن أو الانقبـــاض . كنت أبعد ما أكون عن الاحساس بالحرمان أو الاجهاد ، ذلك الاحساس العـــادى الذى ينتـــاب المسافر فى الصحراوات ، فلقد قمت بهذه الرحلة برغبتى بل وبترحاب كامل من جانبى ، بل انى لاشك أن أوربيـــا آخر يستطيع مهما تكن الظروف التى تحيط به ، أن يجد رحلة شبيهة برحلتى ، فلقـــد كانت روحى على الدوام فى توق لعملياتى ، كما انى لم أعان مطلقا من

حرارة الجو التى كانت ترتفع ، على الرغم من أننــا كنا فى يناير ، من ٢٢ الى ٢٤ درجة فيما بين العاشرة صباحا والثالثة بعد الظهر . لم يحدث ان فتحت قربتى ولو مرة واحدة كى أشرب اثناء الطريق بين لحظة وأخرى. ومع ذلك فان السرور الذىتملكنى عند أول رؤية للخضرة ، رؤية الطبيعة فى حالة حركة وحيــاة ، جعلنى احس برجفة تسرى فى جسدى ، وبأننى دون أن أدرى فى حالة من انفعال مستمر .

كنا نلمح عن بعد قرية النزلة ، فى نفس اتجاه جنوب الشرق الذى اتبعناه بدءا من قصر قارون ، وقام العربان الذين كانوا قد أوقفوا سباقهم اثنــاء فترة اجتيــازنا للصحراء ، بترقيص خيــولهم من حولى ، مرهقين اياى بالتحيــات والتمنيات وعبــارات الصــداقة . فــكانوا يصــيحون خلال فرحتهم بأنهم قــد أعادوا ، سليما ، معافى ، مدبر السمالو ، وهى كلمة تعنى منظم ، ويستخدمونها فى مقابل كلمة مهنــدس عندنا ، ولقــد قدموا لى شهادة كبيرة على تقديرهم ، حين أضافوا الى هــذا اللقب اسم قبيلتهم، واعترفبأننى لماكن متبلد الاحساسامام هذهالدلالات؛ فلقد جعلونى واحدا منهم ، وكان وجهى الذى لوحته الشمس ، كما كان شاربى الكث وردائى البــدوى كان كل ذلك يتحــدى أمهر خبير فى تمييز الملامح (أن يتعرف على) ، لذلك فقد لاحظت أن أحدا من كل الأهالى الذين قابلناهم بعد ذلك ، لم يحدس وجود رجل فرنسى ، بين هذه الكوكبة من العربان .

وصلنا الى النزلة فى الساعة الخامســة . وتقع هــذه القرية ، الــكبيرة بعض الشىء على بعد حوالى ثلاثة فراسخ من شواطىءالبحيرة، وعلى الشط الأيسر لترعة واسعة تعتبر امتدادا لبحر الوادى الذى سبق لى أن أشرت اليه . وفيما مضى ، كانت النزلة تحصــل على حاجتها من الميــاه عن طريق رشاح يأتى من مدينــة الفيوم ، لــكن المياه ، منذ أن قطع سد المنيا، ظلتتغمر الأرض، لدرجة أننى كنتأرى فىذلك الوقت بركا كبيرة الحجم ، على مقربة من القرية ، على الرغم من أن انخفاض المياه التى كانت تتدفق منذ مايزيد على ثلاثة اشهر ، ربما يكون قد ترك الأرض مكشوفة (أى معرضة للجفاف) فى كل مكان .

قضيت الليل فى النزلة ، ودعوت الى العشــاء معى شيخ هــذه القرية ، وكذلك الشيخ على أبى بكر ، ابن اخى الشيخ صــالح ، الذى

كان قــد قــدم على عجل لزيارتى . وقــد افدت من هذا اللقــاء ، اذ حصلت من كل منهما بشكل خاص على كافة المعلومات التى يمكن لمثليهما ان يقدماها لى عن الصحراوات المحيطة بالفيوم ، ولابد انيستنتج القارىء اننى لم اهمل ما يتصــل بالواحات . وقــد سررت سرورا جمــا حين لاحظت أن اجاباتهما تتطابق بشكل تام مع التفاصيل التى حصلت عليهــا قبل ذلك بعدة ايام ، من سليمان الكاشف ، ومن اثنين من اهالى الواحة الصــغيرة ، كنت لقيتهما فى مدينــة الفيوم ، وســأقدم فيما بعد نتائج هذه اللقاءات .

غادرنا النزلة فى التاسع عشر من نيفوز (٩ ينــاير) ، فى الساعة التاسعة والربع صــباحا ، واتخذنا طريقنــا ، بشكل مستمر ، باتجاه الجنوب الشرقى ، وسط الأراضى المزروعة ، والتى كانت متشققة فى ذلك الوقت ، مما جعل ســيرنا عســيرا ، الى أن وصلنــا بحر الوادى فى الحادية عشرة والربع ، تجاه قرية (العرين) الواقعة على الشط الأيمن. وهنــالك ، كان عمق الرشــاح لا يقل عن ١٦ الى ١٧ مترا بعرض يصل الى نحو مائتى متر ، نزلنــا نخوض فى ميــاه الرشاح ، وكان الســير فوق قاعه أقل مشقة من السير فوقحافته .كانت مياهه تجرى فى الجانب الأيمن من سريره ، وقــد صعدنا متجهين نحو الجنوب حتى بلغنــا فتحة ترعة صــغيرة ، كانت تأتى من قبل ، كما قيل لى ، من مدينة الفيوم ، مارة بالمنيا ، متجهة الى بركة قارون بعد أن تسقى أراضى القرى الواقعة على مجراها ، وقــد أكد لى العربان ان بحر الوادى الذى كنت أراه بالغ الاتساع قــد تكون نتيجــة لفيض مفــاجىء للميــاه التى تسربت فى ذلك الوقت ، حين تصــدع جسر المنيــا ؛ لــكننا سنرى فيما بعد ان هــذا الافتراض بعيد الاحتمال ؛ ولم تبد لى الجبــال الواقعــة الى الغــرب سوى انحدار طفيف تضيع ذروتها فى الأفق البعيد .

وفى الساعة الحادية عشرة والربع ، وصلنا الى أبى جنذير ،وهى قرية بالغة الارتفاع ، تقع الى جنوب الجنوب الغربى من النزلة . ومن فوق المرتفع الذى بنيت فوقه هــذه القرية ، كنت أرى بوضوح مدينــة الفيوم والنزلة ، وكل المنطقة الوسطى من ولاية الفيوم ، وعبر فرع من الرشاح القــادم من مدينــة الفيوم بالقرب من أبى جنذير ؛ وحيث تظل

تصل الميـاه حتى هذه المنطقـة فى مستوى سطح الأرض ، فانها تشكل عند تدفقها الى الوادى مسقط مياه يبلغ انحداره نحو عشرة أمتار ، وهذه ظاهرة غير معروفة فى بقية انحاء مصر .

وهكذا فان اقامة آلات تحركها مساقط المياه ستعود بنفع كبير للرى. وكان دليلى ، الشيخ على قـد لقى فى ابى جنـدير أخاه الشيخ عثمان، شيخ القبـائل المقيمة حول هذه القرية ، فلم نمكث فى خيمة الأخير سوى ربع الساعة تناولنا خلالها القهوة ، ثم واصلنا طريقنا باتجـاه الجنوب الغربى ، مصطحبين معنا هذا الشيخ عثمان .

وعند الثانية عشرة والربع ظهرا ، عـدنا الى الصحراء ، التى تشكل ارضها — وهى أعلى من الأرض المنزرعة — احجارا رسوبية تختلط بالرمال ، فوقها قطع من الأحجار الجيرية . لقد كنافوق ما يشبه هضبة، عند بدء انحدارها غير المحسوس نزولا ، جهة الشمال الغربى نحو قصر قارون ، وبدء انحدارها كذلك الى الجنوب الشرقى عند قرية ورشاح الغرق، حيث يتحول الانحدار الى مرتقى يمتد صاعدا بشـكل غير محسوس الى مدى البصر .

وفى الساعة الواحـدة الا خمس دقائق ، وصلنا الى مرتفع منعزل يسمونه « كوم الغرق بتـاع الملط » وهنـاك تعرفت على اطلال هائلة تمتد من جهاتها الأربع الى داخل السهل . صـعدت المـرتقى ، فرايت بحيرة الغرق ، فى أسفل ، وهى تمتد الى الجنوب لبعد يبلغ حوالى نصف الفرسخ، واسترعى مرافقى انتباهى الىوجود جبلين يقعان عن بعد باتجاه جنوب الجنوب الغربى ، ويوجد بينهما ريان (بئر) وكذلك الطريق المؤدى الى الواحة الصغيرة التى سأتناولها فيما بعد ؛ ويرى المرء الى الجنوب الغربى تلك **القرية** التى تحمل اسم مدينـة الغرق ، اما ظهر **الجبل** الـذى يفصل وادى الغرق عن وادى مصر ، فيشكل منحدرا لطيفا سهلا .

تركنا أطلال مدينة (معدى) فى الساعة الواحدة والنصف ، ونزلنا فى منخفض من أرض صـالحة للزراعة . تغطيها رمال غير كثيفة . ومن السهولة بمكان زراعة هـذه الأرض رغم كونها مهجورة ، اذ تتكاثر فيها دون أية مجهودات أو عناية تذكر ، مجموعات كبيرة من الأشجار والنباتات المتنوعـة .

وتجرى فى هذا السهل ترعة تزرع شطآنها ، وتمضى جنوبا لتصب مياهها فى البحيرة وقد صعدنا باتجاه هذه الترعة حتى مدينة الغرق فوصلنا الى هناك فى الساعة الثالثة بعد الظهر . ثمة سور يحيط بهذه القرية الدفاع عنها ، لكنها ، فى داخلها ، تشكل مظهرا بالغ البؤس ، وهناك منزل لأحد المماليك قد تحطم عن آخره ، وليست ضواحى القرية بأحسن من داخلها حالا : وبخلاف كل قرى مصر ، تلك التى يتعرف عليها المرء عن بعد بأشجار النخيل الكثيفة التى تحيط بها ، فان مدينة الغرق لاتحيط بها ولو شجرة واحدة ، فهى لا تمثل الا مظهر عرى بالغ الوحشية لحد يبعث بالرجفة الى القلب . وقد بقيت هناك لقضاء الليل ، وكنت اريد ان ارى « كوام الوزازى » وهم عربان تابعون للسمالو ، سمعت انهم لصوص ذوو حيلة ، ونصحنى كثيرون بأن اتجنبهم ، ولست أدرى ما ان كان ظهور الشيخ على والشيخ عثمان هو الذى كبح جماحهم ،ومهما يكن من امر فقد خرجت من قبضتهم دون ان يكون لدى ما اشكو منه ، ولقد حدثونى بسرور بالغ عن المدبر جيرار ، وكانوا قد صحبوه فى جولته قبل ذلك بعامين . وقد عرض على شيخهم كرامتى خدماته بأن يصحبنى الى البحيرة التى يسمونها الغرق بتاع الغرق ، وهى تبعد عن القرية بمسيرة ساعة ن نحو الجنوب .وقد قبلت صحبتهم ، لكننى اجلت الزيارة الى الفترة التى قد ازور فيها الجزيرة الصغيرة ، وهى زيارة كنت عزمت على القيام بها منذ عرفت تفاصيل موقع هذه الجزيرة الصحراوية . وان كنت مع ذلك قد صحبته معى لزيارة الأنقاض الواسعة التى تحمل اسم دير زخاوة بتاع الغرق والذى يبعد موقعه عن القرية بنحو فرسخ واحد باتجاه جنوب الجنوب الشرقى .

رحلنا من الغرق فى العشرين من نيفوز (١٠ يناير) فى الثامنة الا الربع صباحا فوصلنا الى قرية سنورس ، وهى قرية صغيرة تحيط بها الجدران ، وتعسكر حولها قبيلة المعربين ، على الشط الأيمن للترعة تجاه الغرق مباشرة ، وحين توجهنا بعد ذلك — على نفس طريقنا — الى الشمال الشرقى ، وجدنا السنة صحراوية كثيرة تعترضها اجزاء قابلة للزراعة ، وفى الساعة التاسعة والنصف عبرنا الترعة الصغيرة

التى تمضى فتصب مياهها فى الوادى شمال ابو جنـــدير ، ووصلنا الشط الآخر عند بداية الجسر الرائع الذى سبق ان تحـــدثت عنه والذى بينت فوائده عند شرح الحركة العامة للمياه فى الولاية ، واقدم الان التفاصيل التى حصلت عليها حول هذا الجسر .

يقدم لنـــا هذا الجسر ــ وهو مبنى باكمله من القرميد او الأحجار المتماسكة بشكل متين بفعل ملاط من الجير والاسمنت ــ نمطا لواحد من تلك الأعمـــال العظيمة التى نتجت عن رعاية حكومة عاقلة تضـــع فى اعتبارها العمل لصـــالح البشر،ويبلغ سمك هـــذا الجسر ستة أمتار عند ارتفاعه ، كما يبلغ ارتفاعه ابتـــداء من ادنى نقطة فيـــه ســـتة أمتـــار كذلك ، وتدعم الجسر وتقويه دعامات ومصدات مياه ، ولكن على الرغم من هذه الاحتيـــاطات فقد تصـــدع عند المنتصف بالقرب من قرية شدموه لمسافة تبلغ ٦٠ مترا . ويبـــدو أن هذا التصـــدع لا يعود الا لقوة اندفاع الميـــاه ، بمعنى أنه لم يحدث نتيجة لتخريب من اى نوع على يد الانسان فنحن لا نزال نرى هنـــاك كتل البنـــاء الضخمة التى حملتها الميـــاه معها الى بعيد فى قاع الترعة . وربما يقال تفسيرا لذلك ، وانا نفسى اشارك فى هذا الرأى ، بأن تصـــدعا كبيرا كهذا لا يمكن ان يتم الا بفعل الاهمال فى اصـــلاح أول تلف احدثتـــه الميـــاه ، فلقد كان كافيا أن يحدث تسرب للميـــاه ولو ضئيل لـــكى يحدث على المـــدى البعيد كل هـــذا الدمار ، ومنذ ذلك الوقت ، لم يعد للجسر من فائدة او معنى ، فلقد اصبحت حقول وادى الغرق غير مزروعة ، واخذت المياه تذهب عن طريق بحر الوادى، لتغرق ــ مشكلة بذلك خسارة تامة ــ تلك الأراضى التى تقع فيمـــا بين النزلة وبحيرة قارون .

وتقطع اعلى هـــذا الجسر على الدوام قنـــاطر صغيرة ، نفذت فى فتحاتها خزانات مخصصة ولا ريب لتنظيم ارتفاع الميـــاه حين تغطى وادى الغرق . ومن شأن هذا أن يدحض زعم العربان الذين يدعون بأن الوادى لم يكن يوجد مطلقا قبل قطع الجسر . لقـــد كان على المياه التى تعبر هذه الخزانات أن تتجه بالضرورة وعن طريق ترعة ما الى بركة قارون . وان كان يمكن ــ فقط ــ أن تكون مثل هذه الترعة اقل اتساعا مما هى عليه اليوم ؛ ومن جهة اخرى فان الجسر يقوم بدورات عديدة تبعـــا لانثناءات

و نعطافات الأرض ، ويتوغل نحو الشرق بطول يبلغ حوالى ٨٫٥٠٠ متر حتى قرية دفنو ، حيث ينتهى الجسر .

اقتربنا من قرية المنيـــا (*) حيث يقيم الشيخ الاكبر ابو صـــالح ، والد على وعثمان ، رفيق ســـفرى ، وسرى النبأ فى القرية ، فشاهدنا على الفور ظهور أخيهما الثالث جورية ، الذى أرسله أبوه ليهنئنا بسلامة الوصول .

ثم جاء هـــذا الشيخ (المسن) نفسه للقـــائنا ، وما أن اقترب منا بنحو مائة خطوة حتى ترجل ، واتجه نحوى سائرا على قدميه ، بادلتـــه على الفور نفس تحيته ، وتقدمنا ، وحدنا ، كل منا تجاه الآخر ، وكل منا على رأس جماعته ، وحتى هذه اللحظة ، كان الشيخ على يضع نفسه رهن اشارتى ، اللهم الا فى تلك اللحظات التى تركته خلالها عند طرف بحيرة قارون لاهرع وحدى الى قصر قارون . أما الآن ، فانه لم يتبعنى مطلقا ، لقد منعه من ذلك ، الاحترام الذى يكنه لوالده ، ولقد ابديت لأبيـــه من جانبى كل رضـــائى لأنه قـــد أتاح لى أن أصحب رفيقا مثل ولده ، وعربا مخلصين ذوى شهامة مثل اتبـــاعه الشجعان من أبناء السمالو . لاحظت انه تأثر لاطرائى ، ومنذ هذه اللحظة نشأت بيننا الثقة . امتطينا حصانينا من جديد ، وسار أبو صـــالح عن يمينى ، أما ابنـــاؤه الثلاثة فقد ساروا من خلفنا ، فشكلنا على هذا النحو ما يشبه الدخول المظفر الى المنيا . كان الوقت قـــد بلغ العاشرة والربع وكان السكان جميعا قـــد اصطفوا على جانبى طريقنا واسمعتنا النسوة زغاريدهن ، تلك العلامة المعتـــادة عند حلول الأفراح الـــكبرى .

يقطن ابو صـــالح فى المنيـــا بيتـــا واسعا بعض الشىء ، سرعان ما امتلأ بعدد كبير من المـــدعوين من كل الطبقات والأعمار ؛ وما أن جلسنا على الأرائـــك حتى قـــدم الى الشيخ صـــالح كل ابنـــائه ؛ لاحظت من بينهم واحدا لمـــا يتجاوز التاسعة او العـــاشرة من العمر ، يكن له أبوه عاطفـــة خاصـــة وكان هـــذا الصبى ، وله وجه بالغ الجمال ، يركب الخيل ، ويستعمل الأسلحة بقـــدر ما قد يفعل ذلك اكثر البـــدو تمرسا ،

(*) احدى قرى مركز أطسا . [المترجم]

ويبدى من حيوية الطبع ما يسر والده بشكل بالغ ، وقلت لأبى صـــالح انني كنت قـــد لاحظت وانا فى السهل رشاقة ومهارة هذا الصبى ومظهره الحسن ، دون ان اعرفه وكيعقوب جـــديد ، عبر لى أبو صـــالح ، وقد هزه المـــديح الذى انهـــال به على ولده المحبوب ، عن عرفانه بطريقة قـــد تبدو غير معقولة فى تقاليـــدنا ، لـــكنها ولا شك نتيجة افكارهم عن الرق ، فلقد قـــدم الى هذا الطفل قائلا ان بامكانى أن أصطحبه وان الحقه فى خدمتى ؛ فأجبته بأننى قـــد تأثرت للغاية بهذا العرض ، لـــكن ولده لن يكون مطلقا على خير مايرام ، بل انه قـــد يتلف بلا جدال لو انه نشأ بين قوم غير قومه ، وأن لى فضلا عن ذلك ، فى فرنسا ، طفلا كطفله ، تتعلق به كل آمالى ؛ واننى معرفة منى بقدر صنيع السماء ســـوف الوم نفسى اذ حرمت من خدمات رجل اود ان انظر اليه منذ الآن وان احبـــه كوالدى ، فرفع عينيه الى السماء شاكرا الله اذ جعله يجد فى شخصى صـــديقا حقا .

قد يدور بخلد البعض أنه قد لذ لى هنـــا ان اصور مشهدا من صنع الخيال ، او انني على الأقل قـــد جهدت فى أن أمنح هـــذا المشهد بعض مذاق الخيال ، لـــكن الحقيقـــة هى انني انقل بدقة ما قد حدث ، واننى اكاد اقـــدم احاديثنـــا كلمة بكلمة كما وجدتها فى مذكراتى ، التى دونتها فى مساء نفس اليوم ، ومع ذلك فينبغى على ان اقول كذلك ، تفســـيرا لمشاعر الصداقة هذه ، انه يبـــدو أن ابا صـــالح كان يريدنى ان أستشف أنه يرعانى بسبب صفتى مدبرا ، شخصية بالغـــة الأهمية ، وانه يريد أن يحملنى على العزم على اعادة ترميم الجسر وخزاناته وقد حدثته عن الحالة الراهنة لهذا المبنى باعتبارها تقارب حد الكارثة ، وان الفرنسيين كانوا ينتوون ترميمه فى أقرب فرصـــة ممكنة ، واكد لى هو من جانبه ، وقـــد تدفقت عواطفه وزاد عرفانه بأن بامكانى الاعتماد عليه ، وعلى كل قبيلة البهمالو ، الذين سيصحبوننى فى كل مكان اريد الذهاب اليه ، وانهم يمتثلون لأمرى فى الحياة وفى الممات ، وانتهزت انا هذه اللحظة لكى اعد لرحلتى الى الواحة ، وقـــد اكد لى دقة المعلومات التى حصلت عليها فى مدينـــة الفيوم وفى النزلة ، كما أكد بأننى ، عندما أخبره بيوم رحيلى ، سأجد كل شىء معدا للقيـــام بهذه الرحلة فى تمام واتقان . وهـــذه هى

التفاصيل التى جمعتها حول هذه الواحة ، وحول الطريقة التى اتفقنا عليها للقيام بالرحلة .

تبعد الواحة التى تقع على مرتفعات الفيوم ، والتى يشار اليها فى كل الخرائط القديمة باسم واحة برفا Oas's Parvs بنحو مسيرة ثلاثة أيام ونصف اليوم الى الجنوب الغربى للمدينة ، وهى عبارة عن واد صغير يوجد به عديد من ينابيع المياه الحارة والباردة ويتوزع سكانها على اربعة قرى ، تضم كل منها من ١٥٠ — ٢٠٠ نسمة ، يزرعون الكثير من اشجار النخيل وهى التى تشكل تجارتهم الرئيسية ، كما يزرعون الأرز والذرة وبعض أشجار الفاكهة ، مثل اشجار التين والموز والبرتقال والرمان ، لكنهم لا يزرعون القمح ، وهم ينقلون أو يعملون على نقل ما يفيض عن حاجتهم من المواد الغذائية عن طريق عرب الكومى من البحيرة الى الفيوم والقاهرة ويقايضونها بالأقمشة والحديد والقمح ، ولاتوجد فى هذه الواحة خيول ولا خراف ، وذلك بسبب عدم وجود المراعى بلا جدال ، والطقس هناك غير صحى على الاطلاق ، اذ تحمل اليها رياح الجنوب والشرق والغرب ، وهى نجتاز مساحة شاسعة من الرمال ، هبات حارة ومسممة ، من نوع رياح الخماسين التى تهب على مصر ، لذلك فالناس هناك ذوو قامة قصيرة . وهم على الدوام مرضى ، ويبدو عليهم لأول وهلة أن صحتهم بالغة السوء .

وينبغى على المرء ، كى يتوجه من مدينة الفيوم الى الواحة ، أن يمر ببحيرة الغرق ، وبجد على مسيرة ساعتين ، الى الجنوب ، بئرين تسميان ريان الكبير وريان الصغير ، ويرى بالقرب منهما مبنى يشبه قصر قارون ثم يجتاز بعد ذلك ، وباتجاه الجنوب الغربى ، ولمدة يومين ونصف اليوم ، صحراوات جرداء لا اثر فيها لمياه أو خضرة .

كان على ان اقوم بهذه الرحلة مع خمسين من العرب ، يقلهم خمسة وعشرون هجينا ، يحمل كل هجين منها من الطعام والشراب مايكفى راكبيه وما يكفيه هو نفسه، وهو الذى يعبر كل الصحراء دون أن يشرب ، ابتداء من بئر الريان الأخير حتى الواحة ، وقد شرب الرجال من البحيرة . وعند بئرى الريان ، حيث لم يملئوا الا قربة بالغة الصغر لكى يخففوا من حمولة الجمال ، ولذلك فقد كانوا يكتفون بشربة واحدة فى اليوم ،

وكان علينا ،الشيخ علي وانا ، ان يمتطي كل منا حصانه ، وكان ثمة جملان يحملان لنا الأمتعة والمؤن ، وثلاث قرب من المياه ، لكل حصان قربة في حين خصصت لنا نحن الاثنين ، القربة الثالثة .

اما بخصوص واحة آمون ، والتي تعرف باسم واحة سيوة ، فان الطريق اليها تقع الى الغرب منقصر قارون ويقتضي الأمر من المرء أنيصعد الجبل الى اليسار ثم ينجه على الدوام باتجاه الغرب ؛ وتفصل بين هاتين الواحتين مسيرة سبعة أيام ونصف اليوم ، لكن الأمر لايستغرق أكثر من عشرة أيام اذا بدات الرحلة من مدينة الفيوم ، ويعثر المرء بعد مسيرة اربعة أيام على بحيرة من المياه العذبة تسمى مجرارة ، وتقع هذه البحيرة في مكان متوسط بين الواحة ومدينة الفيوم ؛ وقد نستطيع أن نستخلص أن هذه البحيرة تقع داخل منخفض يتصل بمنخفض الواحة ؛ وبعد ثلاثة أيام نصل الى بئر من المياه المالحة تسمى هيجة ؛ وبعد ذلك بيومين نلتقي ببعض الأكواخ المأهولة . ثم يصل المرء في النهاية ، في اليوم التالي : الى سيوة .

وخلال هذه الرحلة ، تكفي قربة رجلين لمدة أربعة أيام ، وتكفيقربة واحدة في اليوم لكل حصان ، في حين تشرب الجمال عند البحيرة، ثم عند بئر الهيجة ، ثم سيوة ، لكنها لا تشرب مطلقا في المسافة التي تفصل بين محطة واخرى .

قمت بتقدير المسافات في هذه التفاصيل بعدد أيام السير . وقد حاولت في بعض الأحيان أن أتبينها بطريقة أكثر تحديدا ، لكن الأمر على الدوام كان مستحيلا ، واذا سألت كم فرسخا يقطعها المرء منذ بئر الريان حتى الواحة ؟ كان العرب يردون على دائما : فرسخ واحد فقط . وحين أطلب التفسير يقولون : ان الناس في الصحراء لايقيسون المسافات على نحو ما يفعلون في البلدان المزروعة ، حيث الفراسخ المعدودة هي على الدوام المسافة بين محطة واخرى ، لكننا في الصحراء نحسبها بالزمن، ومع ذلك فلو انني سألتهم : « اذن فكم ساعة تنقضي .. » لأجابوا : « يتوقف هذا على طول اليوم » ، ذلك أنهم يقدرون المسافة الزمنية بين شروق الشمس وغروبها باثنتي عشره ساعة ، مهما يكن الفصل من العام

مما يجعل المسافة التى يقطعونها فى الساعة أمرا يصعب تحديده بشكل مطلق .

قدم العشاء ، فوضع نهاية لهذه المناقشات الطريفة التى دارت بينى وبين أبى صالح وعربانه وأبنائه لأكثر من ساعتين ، وبعد ذلك افترقنا ونحن راضون تماما ، كل منا عن الاخر ، مع وعد متبادل من كلينا بأن نلتقى عما قريب . لكن هذا الوعد لم يقدر له ، للأسف ، أن يتحقق على الاطلاق ، فقد قطعت الأحداث كل مشروعاتى ، ولم أر بعد ذلك أبدا هذا الشيخ الطيب الذى كنت أكن له – كشىء طبيعى – عاطفة قوية .

رحلنا من جديد ، الشيخ على وأنا ، من المنيا فى الساعة الواحدة، متجهين نحو مدينة الفيوم باتجاه الشمال الشرقى ، ومررنا بقرية الجعافرة، على مسيرة نصف ساعة ، تاركين دفنو عن يميننا ، وبعد ربع الساعة وصلنا الى العتامنة ثم الى اطسا ، وهى قرى متقاربة فيما بينها ، وهناك اتخذنا الطريق بين أبى صير عن يميننا والمعصرة عن شمالنا ، واجتزنا الصوافنة ، ومررنا من جديد بالقرب من ابجيج ، فدخلنا المدينة فى الساعة الثالثة والنصف بعد أن راعينا أن تسير الخيل بأقصى سرعتها ابتداء من المنيا .

لقد أمكن للجولة الاستطلاعية التى قمت بها للتو أن تدعم فكرتى حول نظام الرى فى الفيوم ، ومع ذلك ، فلكى نشرح جيدا هذا النظام ، ولكى نوضح كيفية ارتباطه بما يذكره ، كل المؤلفين القدماء ، فقد كان من اللازم وجود معطيات دقيقة ومحددة حول علاقة كل مناطق الولاية بنظام النيل وبتربة وادى مصر : وكنت فى هذا الصدد أنتوى أن أقوم بعملية مسح ابتداء من النيل حتى قرية هوارة الكبيرة ، وأن اقيس مسقط قناطر هذه القرية ، وأن أواصل عملية المسح بعد ذلك حتى بركة قارون ، من جهة ، الى بحيرة الغرق من جهة أخرى ، لكننى تلقيت بعد عدة أيام الأوامر بأن أتوجه الى القاهرة ، ومن هناك الى دمياط، للقيام بمشروع شق طريق بين الصالحية والاسكندرية ولقد حدثت رغم ذلك عراقيل مناخية أعاقت تنفيذ هذا المشروع ، مما سمح لى أن آمل بان أواصل من جديد عملياتى بالفيوم ؛ بل لقد حصلت بالفعل على تفويض بالعودة الى هناك ، وأوشكت على الرحيل عند حوالى منتصف شهر

منتور (أول مارس ١٨٠١) فى صحبة الجنرال دماس Damas الذى عين قائدا للولايتين (بنى سويف والفيوم) ، لـكن قدوم الانجليز ، ثم ما تلى ذلك من رحيلنا عن مصر ، قد وضع نهاية لكل أعمالنا فى هذه البلاد .

خاتمـــة

على الرغم من كل ذلك ، فان ما شاهدته يكفى لالقاء ضوء كبير على موضـــوع الموقع الحقيقى لبحـــيرة موريس ، وشـــكلها ، وامتـــدادها ، واستعمالها ، ويتفق النـــاس جميعا حول نقطة واحـــدة ، هى أن بحيره موريس كان لها شكل البحر الواسع ، وأنها كانت لوقت طويل ذات نفع كبير فى استيعاب مياه الفيضانات بالغة العلو ، وفى رى وادى مصر عند انخفاض مستوى النهر ، لـكنهم يختلفون فقط حول وضع هذه البحيرة، كما أنهم يتشككون فى كون هذه البحيرة من صنع الانسان نظرا لمساحتها الهـــائلة .

وقد انفق البعض جهده ، تبعا لهذا النص من هيرودوت . « وتوجد بحـــيرة طويلة تتجـــه من الشمال الى الجنوب » فى البحث عن بحـــيرة موريس هـــذه فى ترعة تتجه نفس الاتجاه ، وحيث شاءوا لها أن يبلغ محيطها ٣٦٠٠ غلوة ، نفس المســـافة التى يحددها هـــذا المؤرخ ، وحيث لايستطيع احد ان يعثر على ترعة بهذا الطول فى ولاية الفيـــوم ، فقـــد اتجهوا ببحـــوثهم الى ولاية بنى ســـــويف حيث ظنوا انهم قـــد عثـــروا عليها هنـــاك .

وعلى العكس من ذلك ، فان آخرين أوقفوا جهودهم فى البحث عن بحيرة موريس على بركة قارون ، مستندين فى ذلك الى الوصف المفصـــل لهذه البحيرة ، والذى نجده عند سترابون ، « ان المساحة المائية الشهيرة باسم موريس ، انما هى بحيرة باهرة ، لها اتساع وشكل البحر ، كما أن لها شواطىء تماثل شواطىء البحار » .

اما انا من جانبى ، فلن ادخل طرفا فى هـــذا النقاش الذى اصبح اليوم أمرا لا جدوى منه ، والذى حسم بشكل علمى تام ودقيـــق ، كمـــا سبق أن ذكرت ، بعد تلك الدراسة التى قام بها المسيو جوماز Jomard

فبركة قارون اليوم هى بالتأكيد بحيرة موريس الأمس ، لكنها ، كذلك ليست سوى قاعها ، بمعنى كلمة قاع ، والذى بلغ عمقه اقصاه بفضل التوازن القائم بين البحر وبين المياه التى تصب فيها كل عام ، وينتج عن ذلك أنه لا ينبغى لنا أن نقارن محيطها الحالى بذلك المحيط الذى ينسبه لها هيرودوت ، فقد كانت البحيرة فى هذه الفترة ، وكذلك فى عصر سترابون ، تغطى كلية اقليم ارسينويت ، ويقرر هذا الجغرافى ذلك بنص العبارة ، وبأنها كانت تبدأ عند الانحدار الذى وجدته ـ أنا ـ محسوسا عند قرية بيهمو ثم تمضى ـ البحيرة ـ لتلامس الجبل من الجهة الشمالية ، وقد تأكدنا من صحة ذلك بفعل الارتفاع الكبير لقرية سنورس ، التى كانت تقع فوق جزيرة ، وبسبب طبقات الأرض القابلة للزراعة والتى خلفتها الترسيبات فوق كل الامتداد الواقع الى شمال البحيرة ، وتأكدنا من ذلك أخيرا بفعل الخطوط الأفقية التى يرى المرء آثارها فوق طبقات الجبل ، وبارتفاعه كله ، ويرى المرء وسط هذا الاتساع ، الجزر التى كان ينهض فوقها الهرمان اللذان تحدث عنهما هيرودوت .

كانت البحيرة تمتد بطول الجبل ، الى الغرب ، وحتى مسافة كبيرة للغاية ، ثم تعود بعد ذلك لتتجه نحو الجنوب ثم تمضى لتبلغ ذروتها عند النزلة حيث كانت تلامس الجبل الفاصل بين الفيوم ومصر .

واذا اخذنا فى الاعتبار الآن ، الامتداد الواسع لهذا التكوين فقد لانتردد فى تأكيد مسافه الـ ٣٦٠٠ غلوة التى يوردها هيرودوت أو فى تأكيد مقياس مقارب على الأقل ، حيث لاينبغى علينا ان ننظر للأطوال التى يغطيها هذا المؤرخ باعتبارها دقيقة من الناحية الرياضية ، بل لقد انذرنا هو نفسه بأنه لايستطيع ان يؤكد كأمر صحيح ، امرا لم يره ، ومن جانب آخر فان علينا الا نلتزم بكل ماينقله هو عن الآخرين ، بل ان نثق فى صدق تفاصيل الطريقة التى يؤكد انها استعملت لرفع ركامات وانقاض الأراضى التابعة للبحيرة ، لأمر يجعلنا نلزم جانب التحفظ ، وان نضع فى اعتبارنا انه قد حصل على كل ما يقول به عن طريق الكهنة المصريين . أما سترابون ، الذى راعى اكبر قدر من الدقة والذى لم يكن يدون الا ماهو بالغ الثقة من صحته ، فى مؤلفه الجغرافى البحت ، فقد لزم الصمت حول طول هذا المحيط الذى لم يستطع لا ان يراه ، ولا أن يقدره بدقة،

ولقد اكتفى بأن قال انها (أى البحيرة) تستحوذ على الاعجاب بحجمها ، حتى انها تشبه البحر .

أما الجزء الذى ربما تكون قد صنعته يد الانسان ، فهو الترعة التى تحمل اليوم اسم بحر بلا ماء الذى بربط مابين بحر يوسف وبركة قارون ، وهو الذى كان يقصده هيرودوت حين قال « انها تمتد من الجنوب الى الشمال » (٧) .

ولقد وجدت أن اللابرنت يقع بالضبط فى نفس المكان الذى سبق لى أن توصلت اليه ، أى على بعد مائة غلوة من أرسينويه — وهى نفس المسافة التى حددها سترابون حينما قال : « وعلى بعد مائة غلوة توجد بلدة اسمها ارسينويه » — وعند منشأ الترعة ، أعلى البحيرة بقليل ، أو كما يقول هيرودوت « على بعد ضئيل من بحيرة موريس » . وأخيرا ، فان الموروث الشعبى ، الذى شاء أن تكون ولاية الفيوم ، فيما مضى ، خليجا تكونه مياه النيل ، ثم جف واستزرع ، وأصبح يستخدم فى رى الأجزاء الواطئة من أرض مصر بفضل عناية امير عظيم .. كل ذلك يبرهن أن ليس ثمة مطلقا أى تناقض بين القدماء ، وأنهم جميعا قد وصفوا الأماكن كما نراها اليوم، أو على الاقل كما لازلنا نتعرف فيها على حالتها القديمة . ومع ذلك ، فقد يقال : كيف أمكن لبحيرة موريس أن تستخدم كوعاء يحتوى مياه الفيضان ، وخزان اثناء انخفاض مياه النيل ؟ وأجيب بأنه قد يكون من العسير ، وربما من المستحيل أن نقدم تبريرا أو تأصيلا لهذه الفكرة اذا ظللنا نحرص على الا نرى مدخل ومخرج المياه الا عن طريق نفس المنفذ ، لكن سترابون يتحدث بشكل موضوعى عن وجود فتحتين: تدخل المياه من احداهما وتخرج عن طريق الأخرى .

وعلينا أن نتذكر ان المياه تسقط فى الفيوم عن طريق هويس اقيم تحت قناطر هوارة الكبيرة ؛ وأن سرير الترعة التى تتلقى هذه المياه حجرى صرف ، ولهذا فان ارتفاعها ثابت لا يتغير . وفى فترة المد الأقصى لبحيرة موريس ، أى تلك الفترة التى اعقبت جفاف الخليج . كان مستوى

---

(٧) انظر دراسة موجزة حول بحيرة موريس ، العصور القديمة ، المجلد السادس .

الميـــاه أدنى بوضوح من مستوى أرض الاقليم . ومن جهة أخرى ، فقد شاهدنا كيف أن الترعة تتحكم فى سطح الأرض لأنها تقع على خط الذروة الذى يشكله التباعد بين منحدرين ، اذن فقد كانت المياه لا تستطيع العودة من جديد الى أرض مصر عن طريق فتحـــة هوارة الـــكبيرة ؛ فهـــذه لم تستخدم مطلقا كما يقول الأثر ، الا كخزان لتخليص مصر العليا من الكمية الكبيرة للغاية من المياه التى تضر بالأرض .

وقد رأينا فيما سبق أن الجزء الشمالى من البحيرة يشـــكل فتحـــة لوادى النيل تصـــل الى الجيزة ، فـــلابد اذن أن هـــذا الوادى قد شكل بالضرورة الفتحة الثانية كما كان يقدم للمياه ممرا فى أثناء انخفاض النيل، لكى تذهب وتروى أراضى مصر السفلى ، التى تعد أراضيها أدنى بكثير من أرض مصر العليا .

وبهذا تبين بشكل طبيعى تلك الطريقة التى كانت المياه تدخل بهـــا الى بحيرة موريس ، والتى كانت تخرج بها ، وكانت المياه بعد أن تتعرج، تتصل بفرع النيل مكونة جزيرة هرقل Hercleotique من ناحية الهضبة الليبيـــة ، وعن طريق بحر يوسف ، تروى أولا اقليم أرســـينويت ، ثم تمضى لتصب فى البحيرة الواسعة التى كانت تغطى هذا الاقليم عن طريق الترعة التى تتجه من الجنوب الى الشمال مارة أسفل اللابرنت . كانت هذه البحيرة تحتجز مياه الفيضانات الـــكبرى ؛ أما فى أثنـــاء انخفاض النهر ، فـــكانت الميـــاه تتجه بالمثل جنوبا وشمالا نحو ممفيس عن طريق ترعة أخرى ، لتروى أراضى مصر السفلى ، التى يسمح انخفاض سطحها بأن تتجه المياه اليها .

تلك هى نتـــائج أعمـــالى التى حصلت عليها من البحث عن الأماكن أثنـــاء الوقت الضئيل الذى قضيته فى ولاية الفيوم ، واننى لشديد الثقة بأن العمليات التى كنت أنتوى القيـــام بها بعـــد ذلك كان بمقـــدورها أن تمدنى ببراهين رياضـــية للرأى الذى أقدمه ، واننى لآسف اننى لم أستطع أن أتمها ، وأتمنى أن يحظى أحد الأوربيين ذات يوم بثقـــة أكبر من حكام وسكان هذه البلاد ، علّه يستطيع القيام بها بنجاح .

وحيث ان التفاصيل التى وعدت بايرادها فى ثنايا هذا الوصف عن عرب الفيوم وبنى سويف ، يمكن أن تصبح ، فى حالة تحقق افتراض كهذا ، ذات نفع كبير ، فقد اخذت على عاتقى — كواجب — أن أقدمها حتى أحقق كافة ما كنت أتمنى من معرفة تدور حول هذه المناطق الهامة .

قائمة بالقبائل العربية التى تقطن ولاية الفيوم

أسماء القبائل: الاسم العام	أسماء القبائل: الأسماء الخاصة (الفروع)	أسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التى يقيمون بها	عدد الرجال: خيالة	عدد الرجال: مشاة	عدد: خيام	عدد: جمال
السمالو (أبو صالح هو الشيخ الأكبر للقبيلة)	كوم الوزازى	كرامنى	شرق التوتون	٧٠	١٠٠	١٦٥	١٠٠٠
	المناسى	سالم جوربة	أبو جندير	٤٠	٧٠	١٦٥	١٠٠٠
	المعربين	حوت، الحاج محمد	سنورس	٦٠	١٠٠	١٤٠	١٠٠٠
	الروملة	محمد عبد الله	دفنو	٣٠	٧٠	٥٥	٤٠٠
	كامل الحمودات	رحيم	التوتون	٧٠	١٥٠	١٥٠	١٠٠٠
	حواطة	تقى الدين حسين	هلية				
		سليمان سيده	العدوة				
		داود	المعصرة	١٢٠	٢٠٠	٢٢٠	١٥٠٠
		نصر يوسف	المصلوب				
	الفرجان	سيد ديله	سرسنا				
		جندودة	جبلة				
		أبو القاسم	مطرطارس	١٠٠	٢٠٠	١٧٠	١٠٠٠
		جبلى عبد الله	باهى - آمون				
		أبو زيد عبدالله	ترسا				
		مبارك	الزاوى				
		. . . . . .	الروضة	١٥	٢٠	٢٠	١٥٠
			المجموع	٥٠٥	٩١٠	١٠٨٥	٧٠٥٠

قائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية بني سويف

أسماء القبائل		أسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التي يقيمون بها	عدد الرجال		عـدد	
الاسم العام	الاسم الخاص			فرسان	مشاة	جمال	أغنام
الضعفا	أولاد حيدة	عبد الأمير سالم أبو ديار	أبو صير العواونة	١٠٠	٢٠	٥٠٠	١و٠٠٠
	الوطنات	متيرد محمد جريب بليدى	قمن العروس إفوة ميدوم	١٠٠	٣٠	٦٠٠	١و٥٠٠
	أولاد سعيد	موسى عيسى عباس عمر الحبانى	الحمام	٦٢	١٥	١٠٠	٣٠٠
	السيدرات	أبو بكر	الحافر	١٨	١٥	٦٠	١٥٠
	القاضى	يوسف أبو ذيل عبد معيط	الميمون	٤٢	٠٠٠	٦٠	١٥٠
	أولاد يزيد	ابراهيم زعيطة لطفى	صفط ميدوم	١٣٠	٣٠	٤٠٠	٨٠٠
			المجموع ...	٤٥٢	١١٠	١٧٢٠	٣و٩٠٠

(تابع) قائمة بالقبائل العربية التى تقطن ولاية بنى سويف

أسماء القبائل		أسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التى يقيمون بها	عدد الرجال		عدد	
الاسم العام	الاسم الخاص			فرسان	مشاة	الجمال	الخيام
السعدى	السعدنى	يوسف حماط	دنديل				
		عواد	البرج				
		عبد القادر	الدوالطة				
		عبدالله صروف	دلاصن				
		عبد الرحمن	السبسى				
		على	بنى عدى	١٠٢	٠٠٠	٨٧	٤٠٠
		الندرك	أبو صير				
		رايد	منفسط				
		حسن على الصويلى	قمن العروس				
		على رستن	كوم إدريجة				
		أحمد منصور	باها				
		وسط جيومع	الميمون				
	الفرايات	جبرة	منهرا	٥٠	١٥	٥٠	٣٠٠
	كسادوة	يوسف أبو صوين	اهناسيا المدينة	٦٠	١٠	٢٠٠	٥٠٠
	يانين	عبد ربه	الزرابى	١٧	٨	٤٠	١٠٠
	المحاليف	اسماعيل جياصى محمد ماعونى	منهر منشية الحاج	٣٥	٥	٤٠	١٠٠
الكولى	كمسى	محمد عبد المجيد كسوم عمر	ميانة	١٢٠	٤٠	٢٠٠	٥٠٠
		محمد صقيرة موكر	ننا الدويك	٩٠	١٢٠	١٠٠	٤٠٠
	العلم	يربيط على ابراهيم عيد مختار	مزورة	٤٠	—	١٠٠	٥٠٠
	السنانجة	—	صفط رامشين	٣٥	—	٦٠	٢٠٠
	أبويه	سليمان أبو ناى	سمسطا	٣٠	—	٦٠	١٠٠
			المجموع ...	٤٤٧	٩٠	٨٥٠	٢٧٠٠

(تابع) قائمة بالقبائل العربية التى تقطن ولاية بنى سويف

أسماء القبائل		أسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التى يقيمون بها	عدد الرجال		عدد	
الإسم العام	الاسم الخاص			فرسان	مشاة	جمال	مواشى
المسارجة	المسارجة	أحمد أبو دياب محمود جيومع حسن أخميط	زاوية الوالى أبو شربان الشوبك	٨٠	٢٠٠	٥٠	٢٠٠
	فرجان	أحمد حمزة	—	٣٠	٤٠	٣٠	١٠٠
المحاريث	أولاد حينة	سفع عمر	طورفة	٦٠	١٠٠	١٠٠	١و٥٠٠
	الحمور	محمد	شرشة	٢٠	٦٠	٣٠	٥٠٠
	الحزاى	زيد	العزبة	١٠٠	٣٠	٢٠٠	٢و٥٠٠
	أولاد جيادر	أزيصة	—	٣٠	٢٥	٣٠	٨٠
	زعونة	عبد الله	جوادة	٣٠	٢٠	١٥	٦٠
	الحمايدة	إبراهيم يوسف حسن تركى	دافوف	٢٥	٨٠	٤٠	٢٠٠
	المرج	منصور أحمد سليمان خضرى	كوم والى	٣٠	٦٠	٣٠	١٠٠
	الأسمار	عمر شاكر عبد الله حسن	مرزوق	١٥	٣٠	٢٠	١٥٠
	الدهامسة	ابن حسن أبو موسى سليمان أبو سيجر	برماشة صفانية	٣٠	٦٠	٤٠	٦٠٠
	الجود	حسن	كوم السعل	٢٠	٥٠	٣٠	١٠٠
	تيبناط	الحاج بركة	الشيخ مسعود	٣٠	١٠٠	٦٠	٦٠٠
			المجموع	٤٢٠	٦٥٥	٦٢٥	٦٤٩٠

الدراسة السادسة :

العرب والعربان في مصر الوسطى

إ. جومار

● العنوان الأصلي للدراسة هو :

ملاحظات حول العرب في مصر الوسطى

مكنتني الرحلات التي قمت بها ، وكذلك تلك الفترة التي قضيتها في ولايات مصر الوسطى (١) ، من ملاحظة طباع وعادات العربان ودراسة النظام الداخلي للقبائل ، سواء منها تلك التى اقبلت على احتراف الزراعة منذ وقت طويل او فقط منذ اجيال عدة ، وسواء تلك التى لاتزرع الأرض أو حتى تستزرعها ، والتى لاتعمل ، عندما لاتكون فى حالة حرب، الا فى قيادة القوافل ورعى الماشية والجمال والماعز . وينبطق هذا التقسيم للعربان الى طبقتين كبيرتين على كل أولئك الذين يقطنون مصر منهم أو يترددون عليها . وسوف أستخدم هذا التقسيم فى مذكرتى هذه للتعريف بالقبائل التى قمت بزيارتها ، واننى بهذه المناسبة لأحذر من ان هذه الملاحظات ، على الرغم من كونها ذات طابع عام ، انما هي بالغة الخصوصية بالاقاليم التى تتحدث عنها .

ولست أدعى اننى اقدم هنا لوحة كاملة لتقاليد العربان ، اذ يقتصر عملى على أن اقدم تقريرا بالملاحظات التى أضمن صحتها اذ قمت بهما ودونتها فى نفس أماكنها حيث توفر لى الوقت والأمن الكافيان ، أكدهما

---

(١) تتكون مصر الوسطى من ولايات الجيزة ، والبهنسا ، والفيوم، واطفيح ، والأشمونين ، وقد اخذت الثانية والأخيرة أثناء الادارة الفرنسية اسمى : بنى سويف ، والمنيا ، على اسم مدينتين رئيسيتين كان يغرقهما الفيضان ، بينما كانت الأماكن الداخلية فى منأى عن هذا الفيضان لوجودها فى الداخل بعيدا عن مجرى النيل . ويتفق موقع هذه الولايات الخمس مع موقع اقليم هبتانوميد Heptanomide الذى كان يضم مدن : ممفيس Memphis اكسيرينشبس Oxyrynchus وهيراكليوبوليس Heracléopolis وافروديتو بوليس Aphroditopolis وانتبنوى Antinoé وكينوبولبس Cynopolis وهرموبولس الكبرى Hermopolis magna
وفى أثناء السنوات ١٧٩٩ ، ١٨٠٠ ، ١٨٠١ ، عبرت هذه البلاد وجمعت هذه المذكرات التى تنطبق اكثر ما تنطبق وبوجه خاص على ولايتى أطفيح والأشمونين .
ومن الضرورى أن نتذكر ذلك ، للاحاطة بالظروف التى كتبت فيها هذه المذكرة .

اننى كنت مصحوبا فى جولاتى على الدوام بفرسان من نفس هذه القبائل، او اننى كنت اقيم بينهم . وسـوف أولى اهتمامى بشكل اساسى ،بالعربان فى علاقاتهم المعتـادة مع البلاد ، وعلى ذلك ، فان هذه الملاحظات — مع انها قـد تبدو للوهلة الأولى منعزلة — سوف تساهم فى تقـديم ملامح لهذه الأمة الفريدة ، وفى خدمة تاريخها .

وحيث يمارس العرب المزارعون فى مصر نفوذا كبيرا ، وحيث ان طباعهم وعاداتهم ليست معروفة لنـا جيدا ، فسأبدأ بما يوضح أحوالهم، ثم أعرض بعد ذلك ملاحظاتى عن العرب البدو الرحل وهم فى وقت معا محاربون ورعاة . وينبغى أن تنقسم الطبقة الأولى الى طبقتين اخريين : الاولى وهى التى استقرت فى مصر منذ مدة طويلة وهى من اصل آسيوى، ويزرع هؤلاء الأرض بأنفسهم ، ويسكنون المدن التى تقع فى غالب الأحيان على شواطىء النيل ، أما الأخرى فلم تعمل بالزراعة الا منذ فترة قريبـة وتتكون بصفة أساسية من عرب قدموا من شمال افريقيا ، وهؤلاءالأخيرون يشغلون جزءا من ارض الشـاطىء الأيسر « الغربى » وهم فى غالبيتهم يقيمون تحت الخيام ويستزرعون أرضهم بواسطة الفلاحين اى ابناء مصر، ولهؤلاء وأولئك مقر ثابت ويخضعون للضرائب .

الفصل الأول

العرب المزارعون

١ ــ القبائل التى استقرت فى مصر منذ زمن بعيد :

هناك عائلات عربية بدأت الزراعة فى مصر منذ دخول الاسلام ، وهناك أخرى اقبلت على احتراف الزراعة فقط منذ دخول الأتراك ، وقد زاد تعداد هذه العائلات بشكل كبير . ولقد طور هؤلاء الزراعة والصناعات الزراعية بأكثر بكثير مما صنع الفلاحون ، الا تدار أرضهم بعناية اكبر ، وهى كذلك افضل ريا ، كما أن قراهم أكثر ازدحاما بالسكان وبشكل عام فانه يكاد يعود الى العرب فضل زراعة وصناعة السكر فى مصر الوسطى . وحيث أنهم يكادون يسكنون جميعا شاطىء النيل الأيمن « الشرقى » وهو ضيق الاتساع بعض الشىء حيث يحدق به الجبل ،فانهم لم يدعوا نقطة واحدة لم يزرعوها بدءا من مجرى النيل وانتهاء بسفح الصخور . ولهذا نجد لهذه القرى ملمحا خاصا يميزها بسهولة علىالقرى الأخرى ، ويمتلك السكان الخيل والجمال بأعداد كبيرة ، كما كان يفعل آباؤهم من قبل أن يقبلوا القيام بأعمال الزراعة وقبل امتلاكهم بالتالى لمراع وفيرة ، ومع ذلك فعند أول اشارة للحرب يرى المرء هؤلاء المزارعين وقد تحولوا على الفور الى فرسان يتسلحون بالحراب شأن البدو ، بل ويعسكرون فى السهول الى جوار مساكنهم الخاصة .

ومن السهل أن نميز هؤلاء عن الفلاحين عن طريق تقاطيع وجههم وطباعهم وكل خصالهم ، فلقد استمر الدم العربى يتدفق فى عروقهم دون اى اختلاط حتى انك لا تستطيع أن نميز ملامحهم عن ملامح العربان

المحاربين ، فما أن يمتطوا الخيول ويتلفعوا بالبرنس (٢) حتى نعـدم كل وسيلة للتعرف عليهم . فقد احتفظوا بخطوط الوجه ، وبخاصـة بالعينين الصغيرتين اللامعتين اللتين تميزان هذا الجنس ، وان كانوا قد احتفظوا فوق كل شيء بروح الجشع والضراوة والشجار والمماحكة .

وجيرة كهذه لا يمكن أن تكون بالنسبة للفلاحين سوى كارثة ، فهم يجورون باستمرار على اراضى الأخيرين ، مرة تحت الادعاء بأن النيل قد اكل جزءا من أراضيهم وأن عليهم أن يستعيضوا عنهـا من أراضى الشط الآخر من النهر ، ومرة أخرى بادعاء حقوق قـديمة مزعومة قـد تعـود حسب أقوالهم الى عشرة اجيال ، وأخيرا فانهم عندما لايجدون ذريعة يمكن أن تسعفهم فى جورهم هـذا ، فانهم يركبون خيـولهم ويسـتولون بقوة السلاح على الأراضى التى تناسبهم . وليس ثمة مثال واحد على أن محاولة من هذه المحاولات لم تلق نجاحا ، واذا حدث أن اسـتنفرت بعض القرى أبنـاءها لمقاومتهم بالقوة فانها تدفع ثمن ذلك باهظا ، ويجد العربان أفضل دعم لادعاءاتهم فى قوة سلاحهم وكثرة تعـدادهم عن الآخرين .. وهكذا يعيش الناس فى مجاورتهم فى خوف لاينقطع وعلى مر الأيام يتناقص سكان القرى المحيطة بهم حتى تهجر تماما .

وتبنى الأخصاص التى يسكنونها بشكل ردىء . واذا ماأردنا الدقة فاننـا نقول بأن هذه ليست فى غالب الأحيـان سوى أكواخ ، فى حين يجد المرء فى قرى الفـلاحين على الدوام بيوتا مناسبة وجيدة البناء (٣) . ولا يرى فى قرى العربان بيوت للمماليك ؛ فهؤلاء لا يذهبون مطلقا للاقامة بين العرب وهم لا يحصلون الضرائب من هناك الا بمشقة بالغة مع ترك تقديرها على الدوام لادعاءات مشايخ هذه القرى ، لذلك يمكن القول بثقة بأن المماليك لم يكونوا يحصلون على ضريبـة عن كل مصر ، ولنفس هذه

---

(٢) رداء أبيض اللون ، مزود بغطاء للرأس ، ومصنوع من صـوف تتفاوت درجة نعـومته يغطى به العربان كل جسمهم فيما عـدا الوجـه والأطراف .

(٣) ومع ذلك فهناك قرى عربية مثل بنى حسن وبرشة وقرى أخرى مبنية على نحو طيب .

الأسباب لاقى الفرنسيون كبير عناء فى تحصيل الضريبة من كثير من هـذه القرى ، التى لم تكن تدفع ضرائب على الاطلاق لأى شخص .

ويكاد يكون سكان كل قرى الشط الأيمن للنيـل فى ولايات أطفيح واشمونين ومنفلوط من العرب القدامى الذين ينتمون الى قبيـلة تسمى العطيات : وكثير من هؤلاء لم ينخرطوا فى الزراعة الا منذ عهد على بك، كما أنهم لم يستقروا فى وادى الطير وطهينة الا منذ عشر سنوات .وتستمد القرى المعروفة باسم العمارنة اسمها من اسم جدها ، وهو عربى قـديم يسمى عمران ، قـدم من بلاد الحجاز الى مصر ، فخرب تلك المدينة الكبيرة الواقعة بين الحواطة والتل وبنى من حولها بعض المساكن . ولقد تصارع أبنـاؤه لسنوات طويلة على امتلاك الأراضى الواقعة على شاطىء النهر، ولا يزال أحفـاد هؤلاء حتى اليوم متنازعين حول الأمر نفسـه . وقـد شاهدت بنفسى شجارا قام بين سكان بنى عمران وسـكان نزلة سـعيد بسبب اختطاف احدى السيدات على يد واحد من أفراد احـد الفريقين : وقد قتل مدبر هذا الشجار ، ووضع موته حدا للمعركة ، فقليل من الدم المسفوح يهـدىء فى العـادة كل هذه الحروب العائلية لفترة من الزمن على الأقل .

وليس ثمة قرية عربية الا وبها عديد من المشـايخ ، ويعيش هؤلاء الشيوخ عادة فى شقاق فيما بينهم ، وبذلك تبدو قراهم منقسمة الى اجزاء عديدة متميزة وسرعان ما تؤدى العداوة التى تسود بينهم الى الاقتتال ، وينساق الى خوض هذه المعـارك الأهل والأصـدقاء ، ويحدث أن يموت احـدهم بعد وقت يطول أو يقصر ، وتضطر أسرة القتيل الى الفرار مع جزء كبير من السكان ، ولكن الى أين وقـد انتزعت عنهم كل أراضـيهم ومنشآتهم وعقاراتهم ؟ لـكن لا تظنن بهم الحيرة ، فلسوف يتجهون الى مسافة فرسخين من أرض المعركة ، ويقيمون فوق أراضى الفـلاحين اما باستخدام القوة الصريحة عندما يكون المهزومون بعد اكثر قوة ممـا يلزم لصـدهم عن هذه الأراضى ، وإما عن طريق المخاتلة عندما يعدون بهزيمة خصومهم وتعويض الفـلاحين عن أراضيهم ، بتلك التى سيستولون عليها . وهكذا رأينـا مصر ، عاما بعد عام ، تغص بهذه القرى الصـغيرة التى ليست سوى أكداس من الأكواخ ليس بها نخلة واحدة ، وتحمل كل منها

اسم الشيخ العربي الذى أسسها ، ومن اللافت للنظر انها تسمى نزلة أو نزل وهى كلمة تعنى النزول . انها اذن نوع من المستوطنات تدين بنشأتها ككثير غيرها الى الغزو واستخدام العنف ، ويمكن أن نذكر فى هذا الصدد اسماء نزل ابو جانوب فى ولاية اشمونين أو المنيا ونزل المطاهرة فى اطفيح ونزل بنى حسن (٤) وثلاثين نزلا آخر ، وهكذا تستمر مشاحنـات القرى العربية خلال الأجيال حيث هناك ماينبغى الحصول عليه ، سواء كان ذلك لصالح الحزب المنتصر ، أو كان ذلك لصالح الحزب المهزوم .

ومعظم الجزر ذات الأهمية مملوكة للعرب . ولكن اذا ماعـدنا الى اصل هذه الملكية فسنجدها قد قامت على الاستبداد والظلم ، اى أنه تحت الادعاء بأن النهر قـد أكل أراضيهم وأن من حقهم الحصول على شواطىء الجزر المقابلة متذرعين بذلك المثل المصرى القـائل بأن النهر يرد من جهة ما أخذه من جهة اخرى ، ثم بعد ذلك يتوغلون باطراد فى داخل هذه الجزر ثم ينتهى بهم الأمر بطرد سكانها القدامى ، وأعرف على ذلك امثلة عديدة، ولـكن اكثرها اهمية بلا جدال هو مثال جزيرة الزعفرانة الكبرى التى كانت ملكا لقرية منشية دعبس (٥) والتى انتزعها سكان قرية الشيخ تمى وسكان قرية بنى حسن ، وهما قريتان عربيتان تقعان فى مواجهتها ، وانتزعوها حديثا من فلاحيها دون مراعاة لأبسط قواعد الشكلية ، وحيث كان الأمـر سـوف يستغرق كثيرا فى تبين الحدود القديمة التى نماها الفيضان وتنظم حقوق كل طرف بالتالى ، فقد سلك العربان الطريق الأقصر وهو طـريق العنف ،فقطعوا النخل المزروع بالجزيرة وخربوا بيوت القرية وقتلوا شيخ المنشية وجرحوا ابنـه ومعه كثير من الفلاحين ؛ ويعيش فيها العرب اليوم ملاكا آمنين بينما هى تعد واحدة من اجمل جزر النهر .

وتضع القرى العربية أيضا يدها على الأراضى التى تتاخم الشاطىء الأيسر للنهر ، وقـد حصلت على هذه الأراضى بنفس الطريقة التى حصلت

(٤) عقب المعارك التى نشبت فجأة فى بنى حسـن ، والتى جعلت اهاليها يتركونها منذ خمسين عاما ، كون الأهالى اثنين من هذه النزل او القرى التابعة تحت قيادة ابو عمر . وقـد انفرط عقد هذين النزلين من تلقاء نفسيهما اذ اتجه سكانهما الى الشط الأيسر ليكونوا هناك قرية تسمى كرم أبو عمر .

(٥) تقع على بعد حوالى اربعة فراسخ الى الجنوب من مدينة المنيا.

بها على اراضى الجزر بلا جدال ، وتمتد هذه الملكيات الى ربع الفرسخ داخل الأرض ، وهناك فوق هذه الأراضى الرملية ، التى يغرقها النيل ثم ينحسر عنها على النوالى يزرع العرب التبغ والبطيخ وصبغة النيلة كما يزرعون قصب السكر ، كل ذلك بقصد تدعيم حقوقهم فى هذهالأراضى. هكذا يرى المرء اطراد زيادة ممتلكاتهم فى مصر ، ولست أشك فى أنهم سوف يستولون بطريقة غير محسوسة على اكبر مساحة من الأرض اذا لم تضع الحكومة (٦) حدا لغزواتهم ، واذا لم تسن قوانين محددة بالنسبة لحدود الأراضى ، وفى الواقع فاننا نرى أن هذا السلوك الاستبدادى للعرب المزارعين سيؤدى بهم أن يصبحوا سادة لمجرى النيل ، اى لتلك القطعة الأكثر أهمية من أرض مصر بالنسبة للتجارة ولشئون الدفاع عن البلاد ، بل لقد اصبحوا كذلك بالفعل مع بعض التحفظ حيث يوجد فى قراهم اكبر عدد من النوتية « المراكبية » والعدد الأكبر من الصنادل والقوارب من كل نوع ، ومع ذلك فنحن لم نر الا فى عدد قليل من هذه القرى قوارب مبنية ، وقد يكون علينا أن نضيف بهذا الصدد بأن بقية انواع القوارب التى لديهم تأتيهم عن طريق السلب .

وفى بعض الأحيان يستولى سكان الشاطىء الأيمن على قطعة من الأرض تقع على الشاطىء الآخر ويزرعونها دون أن تكون لهم هناك قرى، وفى أحيان أخرى يبتنون هناك لأنفسهم دون أن يكون ثمة أرض لهم، وفى هذه الأحوال يزرعون أراضى القرى المجاورة ، لكنهم على الدوام لا يحصلون لأنفسهم على هذه المساكن الا باستخدام العنف ، ويحدث هذا عندما تجرد أسرة أو أكثر من أسرة من أرضها وفى هذه الحالة يعبر هؤلاء النهر بلا تردد ويبتنون لأنفسهم فى عجلة أكواخا تتحول شيئا فشيئا الى قرى ، ويستأجرون من جيرانهم بالقوة بعض أراضيهم مع احتفاظهم بحق املاء الشروط .. وهكذا .. ففى الوقت الذى يدفع فيه الناس فى بلاد أخرى ثمن اقامتهم ، فان العرب هنا يبتزون أولئك الذين يستضيفونهم .

---

(٦) اقصد بكلمة حكومة هنا حكام مصر الذين يحكمونها حسب انظمة أو مؤسسات البلاد كما سلك الفرنسيون اثناء حملتهم ، وكماسلك المماليك انفسهم ، ويستطيع القارىء الذى قد يرغب فى الحصول على معلومات خاصة حول حكومة مصر أن يعود الى الدراسات الخاصة بهذه المادة .

وقد قابلت من شيوخ القرى العربية بعض الرجال لا يشاركون قومهم هذا الميل نحو السرقة والعنف ، على سبيل المثال فى قرى وادى الطير وزاوية الميتين بالقرب من المنيا ونزلة نوير وأماكن اخرى . وقد قدمت بعض هذه القرى خدمات للجيش الفرنسى حيث يمتلك سكانها وسائل أوفر مما يملك الفلاحون سواء فى الخيول والجمال أو سواء فى العلف ، وفى نفس الوقت فبالعناد الآخرين واصرارهم على رفض أداء الضريبة ، وكم قتل هؤلاء من جنودنا !

وحيث اننا لا نعرف جيدا الكيفية التى تغيرت بها ملكية اراضى مصر عند دخول العرب ، فقد يجوز لنا ان نستنتج ان الجزء الأكبر من الجيش العربى بعد الاحتلال الكامل للبلاد قد عاد الى آسيا وان جزءا منه بعد أن سرح — قد أنتشر كثير من أفراده فى مصر وعاشوا على السلب والسطو ، ولأن هؤلاء كانوا أضعف من أن يسيطروا على الوادى الكبير فقد استقر بهم المقام على الشاطىء الأيمن حيث تحدق الصخور فى غالب الأحيان بالنهر ، وهناك أخذوا يتقدمون خطوة بعد خطوة من الرمال حتى بلغوا الاراضى المزروعة ، وبعد ذلك أصبحوا مزارعين ، ثم بشكل غير محسوس ، ملاكا لقرى هذا الشاطىء بعد أن طردوا سكانها بفعل الخوف والرهبة من العدو والسلاح .

قلت ان هؤلاء المزارعين « العرب » هم الأحسن تسليحا . وفى الواقع فان قراهم تهيىء وفرة كبيرة فى البنادق والطبنجات والمسدسات والسيوف .. الخ .. لكن مهارتهم كبيرة فى اخفائها ، وهناك سلاح نادرا مايتركونه ، وهو ماينقص فلاحيهم — أقصد بذلك تلك الحربة القصيرة ، يضعها على الدوام الى جانبهم الفلاحون البسطاء بل واكثرهم فقرا ، وهم الذين يعملون فى ري الأراضى ، وعندما يتجمع هؤلاء بأعداد كبيرة للقيام بعملهم ، الأمر الذى يحدث غالبا فى الشتاء ، يرى المرء على رأس الترع غابات من الحراب المرشوقة بالأرض ولا يمكن تصور أن هذا السلوك يقصد من ورائه الذود عن املاكهم ، اذ أن هؤلاء لايكادون يملكون شيئا ، بل ولا يمكن تصور أن ذلك يتم بقصد حماية ملابسهم لأنهم يذهبون الى عملهم شبه عراة ؛ لكن عادة أن تكون مسلحا هى عادة مطبوعة عند العرب .

وعندما تكون لك مصالح ينبغي أن تسويها معهم ، سـواء كان ذلك مع كبارهم أو مع أبنـاء الطبقات الدنيـا منهم فستلمس فى اسـتقبالهم فى البداية شيئا من الفتور والاستخفاف والصمت المتصنـع — أما اذا حـدث أن ابتسموا لك ، فلابد أنهم بذلك يقصدون خـداعك ، فالـكذب عادة متأصلة فيهم ، وبخاصة فى علاقتهم مع الفلاحين والأوربيين ، ومهما يكن كذبهم هـذا مطبوعا ، فانهم لا يمارسونه طواعية ، وبهذا القدر من الطبيعية والنجاح ، الا اذا كانوا بصـدد التعامل مع هؤلاء الآخـرين . ويتحدث الناس كثيرا عن فضـائل العرب ، وعن صراحتهم ، وعن العقيدة الدينية التى تدعم كلمتهم ، وعن ميلهم الى اكرام الضيف .. لكن أيا يكن الأمر من هذه المزايا ، فان عليك أن تبحث عنها فى مكان آخـر ، وليس عند هؤلاء العرب الذين يقطنون مصر ، فهـذه الفضـائل ، عنـد هؤلاء لاتكون مطلقا على حساب مصالحهم الخاصة ؛ فالزيف والرياء والكذب ، هى أسلحتهم المعتادة ، وليس ثمة مايفوق مالديهم من تصنع وعنف ،حين يريدون تنفيذ مآربهم ، وبصفة خاصـة عندما يتعاملون مع آخرين ، من غير العرب .

ووقت تصنيع السكر ، يتعرف المرء من بعيد على القرى التىتحدثت عنها عن طريق صوت الطواحين ورائحة ثفل القصب ودخان المداخن ، اما عن قرب فانك تستطيع تمييزها على الدوام وفى كل الفصول ..وكأمر مؤكد ، عن طريق ملامح السكان وتقاطيعهم . ففى الواقع ، فانك ستجد فى أول رجل تقابله هذه العيون اليقظة التى ليست الا للعرب . وعندما يبرز فى قراهم رجال لا يعرفونهم فان تماسكهم يضطرب كما يحدثللصوص اخذوا على غرة ، ومع ذلك فان حيطتهم تبلغ درجة لا يمكن تصـديقها ، وعندما يبلغهم نبـأ اعتزام بعض الفرق « العسكرية » المرور بقريتهم فانهم يخبئون دوابهم وخيولهم أو يرسلون بها الى الصحراء ، وعنـدما تصـل الفرق بينهم ، يحتفظون بهدوئهم ويظلون بـلا حراك ، فيما عـدا نأمات ملامحهم ، وتلك النظرات الكئيبة والحزينة التى تقذف بها أعينهم ، ولكن ينبغى أن يكون مفهوما أن هذا السلوك يحدث فقط من أبنـاء الطبقـات الدنيـا وان كنت قـد شاهدت شيوخا يمكن أن ينطبق هذا الوصفعليهم . وختاما ، فاننـا اذا نحينا جانبـا هذا المظهر الخارجى وهـذا الاستقبال

المعيب ، فلابد أن نتفق على اننا كنا فى معظم الأحيان نجد فى هذه القرى مئونة اكثر بل وتعاونا افضل مما كنا نجده فىقرى الفلاحين، وان كان الأمر فى ذلك يعود الى أسباب كثيرة منها انه يوجد فى القرية العربية مشايخ عديدون لابد أن يكون من بينهم ولو واحد علىالأقل، يتقدم الصفوف ويتعهد بتقديم المئونة المطلوبة شريطة ان يحصل على ثمنها ، ومنها كذلك انه مع تساوى درجة مقت الفلاحين والعرب للأوربيين ، الا أن ما لدى العرب من تروات غذائية ودواب يفوق ما لدى الأولين ، كما أن ما لديهم منوسائل فى كل ضرب أكبر بكثير مما لدى اولئك ، ومنها أخيرا أن الشيوخ فىالقرى العربيــة يبدون اكثر سطوة على مزارعيهم ، من ذلك النفوذ الذى يحوزه الشيوخ فى القرى الأخرى .

والمحصولان الرئيسيان عند العرب همـا قصب السكر ومحاصـيل الاعلاف مثل الحلبــة والبرسيم .. لأن ما لديهم من جمال وخيل وماشية اكثر مما لدىالآخرين ، ويأتى بعد ذلكالذرة والشعير والقمح والخضروات، وحيث تلقى الزراعة عندهم عنــاية أكبر ، فاننا نجد لديهم من الشواديف اكثر مما نجــد فى أى مكان آخر ، ويبــدو الرجال الذين يديرونها وكأنما يستعصون على التعب ، وهم يقتنون هذه الآلات من أجل زراعات القصب والقمح والشعير الشتوى ، وكما يولون بالمثل عناية فائقة بخيولهم .

وكثيرا ما يستخدم العرب فى زراعات الــذرة وكذا القمح نوعا من السماد يعرف بالسباخ ، وهو عبــارة عن الرماد والأتربة التى تستخرج من أنقاض المساكن القــديمة ، وهى التى تحتوى على نسبة كبيرة من نترات الصــوديوم . وهم ينخلون هــذا السباخ لاستخراج قطع العملة والعــاديات والأنتيكات من كل نوع والتى تحتويها عادة ، وحيث أن القرى العربية أكثر سكانا من غيرها فان من يعملون بها بهذا العمل ، اكثر ممن يفعلون نفس الشيء فى قرىالفلاحين الذين يستخدمون بالمثل هذا السماد.

ويزرع سكان القرى العربية بوفرة أشجار النخيل كما رأينا فى بنى حسن وكذلك بالقرب من انتنوى ويزرعون كذلك الكثير من أشجار الأكاسيا والنبــق . لكنى لم أر مطلقـــا حــدائق فى القرى ، فالعرب لا يفعلون مالا ضرورة له حتى ولو كان بقصد المتعة ، وهم يبتنون مســاكنهم على

الدوام تقريبا على حافة الأراضى الزراعية ، او فوق أرض لا تزال تغطيها الرمال رغبة فى الاقتصاد فى الأرض القابلة للزراعه .

وفى تلك المساحة الضيقة من الأرض الواقعة على الشط الأيمن ، حفر العرب المزارعون كثيرا من الترع والقنوات التى تاخذ مياهها من النيل ، ولقد حفروها بعناية كبيرة ؛ ولا تروى اى من هذه الترع الا اراضى القريه التى حفرتها ،وهذا امر ضرورى بالنظر الى قلة عرض الأرض هناك، لكننى لم اشاهد جسورا بين ارض واخرى واقصد بذلك جسورا كبيرة لانه توجد جسور لا مفر منها فى حقول الذرة ، واظن أن غيبة هذه الجسور كانت أمرا لابد منه حتى يكون من الميسور تماما انشاء ترعة أو ترعتين بكل قرية ، دون أن يتكلف الأمر مصاريف باهظة ، ولرى الأراضى دون انتظار للمياه التى يمكن أن تجىء من القرى العليا « الجنوبية » ، وهناك سبب ثان لذلك ، وهو أن صيانة هذه الجسور ــ حالة وجودها ــ وقطعها واعادتها سوف تكون موضوعات مستمرة للشجار .

والصناعات الرئيسية لعرب هذه القرى هى تلك التى ترتبط بمحاصيلهم أى صناعة السكر (٧) وصناعة صبغة النيلة . وتغزل نساؤهم الصوف ، ويصنعون منه فى قراهم عن طريق بعض المسيحيين ، او بعض الفلاحين الذين يرى اولئك ان يسمحوا لهم بذلك ، اثوابا خشنة تسمى بشت ، وهو قماش غامق اللون يستخدمه الفلاحون رجالا ونساء فى صنع ملابسهم ،اما الاكثر ثراء من بين هؤلاء فيشترون اثوابهم وطربوشهم (٨) من المدن .

واكبر تجارة لدى العرب هى تجارة السكر والبلح .. وهم يذهبون لبيعها فى مصر العتيقة ؛ لكنهم يحتفظون بالقمح والشعير لاستهلاكهم او من أجل استهلاك خيولهم . أما فى الأسواق فيبيعون الماشية ودواب الحمل كما يبيعون الصوف وكميات قليلة من فحم السنط .

---

(٧) يصنع العرب السكر بكميات كافية بحيث قلما يتجاوز ثمن القنطار ٤ ريالات (بوطاقات) وبذلك يكون ثمن الرطل زنة مارك (marc) ٥ ــ ٦ سو (sous)

(٨) نوع من غطاء الرأس . أحمر اللون . ومصنوع من الصوف ؛ يلف من حوله العمامة .

ولدى الشيوخ معلومات دقيقة عن اعماق الوديان فى الصحراء ، ولكنهم يدينون بمعرفتهم تلك للبدو الذين ينصلون بهم على الدوام للتزود بالأشياء الضرورية لحياتهم ، وعن طريق هؤلاء يعرفون مخارج الوديان واتجاهات الأخوار أو مياه الأمطار وبذلك يعرفون كل المناطق التى يمكن لهم أن يجدوا بها الماء ، وهم يستطيعون تمييز الطرق القابلة للاستعمال من تلك التى لا تصلح لهذا الغرض ، وهكذا يستطيعون حسب مشيئتهم أن يقدموا خدماتهم أو يمنعوها عن الفرق « العسكرية » التى تحتاج الى التوغل فى الجبال ، وبذلك يكون فى مقدورهم أن يسلموهم الى العطش ، وأن يضللوهم وأن يجعلوهم يهلكون فى الصحراء . ولقد انحاز كثير من هؤلاء الشيوخ الى المماليك ثم الى الفرنسيين ، كل بدوره ، فى تلك الحرب الأخيرة ، ودائما أبدا من أجل الحصول على المال . وفى معظم الأحيان كانوا يرشدون الفرق الفرنسية الى طرق عكسية لتلك التى كان عليهم أن يسلكوها للحاق بالمماليك ، لذلك فنادرا ما استطاع الفرنسيون أن يأخذوا هؤلاء على غرة ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الكثير من العربان نافعين لنا ، وكم أرشدونا الى الطرق التى تصلح لمرور المدافع وتلك التى يستطاع فيها سقاية القوافل .

وليس هناك ما يمكن قوله حول طعام العربان دون أن يكون الأمر منطبقا على طعام الفلاحين ، فطعامهم يضم بالدرجة الأولى خبز الذرة واللبن والبيلاف « طعام شرقى يتكون من أرز ولحم وتوابل » . أما طبقهم الكبير المشتمل على الخروف والدجاج المسلوقين معا فشهى ولذيذ الطعم ، وبصفة عامة فانهم يتغذون على نحو ما بشكل أفضل من بقية السكان ، ويفعل أولئك مثلما يفعل هؤلاء حين يقيمون الكثير من أبراج الحمام .

وهناك فرق ملحوظ بين هؤلاء العرب وبين غيرهم من العرب الآخرين ، ذلك هو أنهم لاينطقون اللغة مثلهم لكنهم ينطقونها مثل الفلاحين ، فهم على سبيل المثال لا يعطشون الجيم فيقولون جسر وجامع بدون تعطيش للجيم كما يفعل الفلاحون وليس بتعطيشها كما يفعل العرب المحاربون « البدو » . وبالمثل فهم لا يقولون ثلاثة « بالثاء » وانما تلاتة « بالتاء » . وهذه الملحوظة تشمل أكبر عدد منهم ، ومع ذلك فكثيرون منهم ينطقون اللغة على طريقة البدو .

ولسكان هـذه القرى ملامح اخـرى مشتركة مع الفـلاحين ، فهم يشاركون هؤلاء فى تلك اللامبالاة بل فى ذلك النوع من الازدراء الـذى ينظرون به نحو الآثار القديمة المصرية والرومانية ، وهم لايقدرونها الا من اجل ما يعود عليهم منها من نفع عندما يحصلون منها على مواد تصـلح لاحتيـاجاتهم اليومية .. وفضـلا عن ذلك فهؤلاء ليسوا أقل من اولئك جهلا وخرافة بخصوص الأصل الذى ينسبونه لهذه المبانى ، فهم يعتقدون أن الجن هم الذين حفروا المحـاجر والمغارات وشيدوا القصور والمعابد، بل ويدعون أنهم يعرفون أسماء وتاريخ هؤلاء الجان .

وهناك شكوى لا تنقطع من هؤلاء اللصوص المرعبين الذين يسكنون شواطىء النيل فى الصعيد ، وانه لمن الخطأ أن نتهم أبنـاء البلاد ،فليس هؤلاء اللصوص سوى سكان هذه القرى العربية ، ومهـارتهم فى ذلك تفوق التصور ، وهى شائعة ومعروفة لحد سيكون مضيعة للوقت أن نضرب هنـا الـكثير من الأمثلة . ولقد كانت فرقنا فى الصعيد شهودا على الوف الأساليب الجسورة والوقحة ، والتى تبعث على الدهشة دائما ، ويجـد المرء صعوبة فى تصـديقها على الرغم من كونها وقائع . فـكم من مرة اخفوا الخيول وهى على مقربة من فرسانها ، أو اخذوا الأسلحة من موقع أو داورية استطلاع أو من الحراس أنفسهم ! ولقد كنا نرى هؤلاء الرجال يختبئون فى النهار بين أكداس العليـق « العلف » ، ويخرجون بالليـل ليمارسوا السرقة ، وكنا نجدهم عراة يكادون يقطعون النفس بين هـذه الاكوام ، ومعهم الأسلحة التى اخذوها .. بل لقد انتزعوا حقائب وبنادق من تحت رءوس الجنود ، وسرقوا السـيوف وهى الى جانب حقـائب الضـباط !.

وهناك من هذه القرى ، من يمارس كل سكانها ــ بما فيهم شيوخها انفسهم ــ مهنة اللصوصية . فهم يقطعون الطريق ويسلبون الصـنادل مهما تكن حمولتها ، كما ينهبون الأسواق والمسافرين ، ولدى البعض منهم قوارب يستخدمونها فى الهجوم على الصنادل الملاحية ، وبعض هؤلاء يأتى سابحا لينتزع بمهارة كل مايستطيع الامساك به . ويمكن أن نـذكر نزلة النوايل ، وهى قرية تقع على الشط الأيمن الى الشمال قليلا من منفلوط، كمثال لقرية كل سكانها لصوص محترفون ، ولقد قيل لى أن المماليك قـد

قتلوا من سكان هذه القرية ستين رجلا دفعة واحدة منذ عدة سنوات . لابد ان تكون بلاد كهذه بائسة لحد كبير ، لا حماية فيهـا ولا أمن ، حتى تحدث فيها كل هذه السرقات واعمال قطع الطريق دون ان تقمع ، وفي الواقع فان هؤلاء يرتكبون هذه الجرائم دون ان يلقوا ادنى عقاب ثم يعودون بعد ذلك الى اعمالهم . بل أنهم يدفعون الضرائب . وهنـاك سكان قرية أخرى مثل بنى حسن لا يجرؤون على الاقامة في بيوتهم المبنيـة بشـكل جيد ، ويفضلون الاقامة فى اكواخ من البوص وسط اشجار النخيل حتى ينفذوا مشروعاتهم بشكل افضل ولكى لا يكونوا فى متناول يد البحث « عن اللصوص » وما أن تصل قراهم حتى يستولى عليهم الفزع ، وذلك الشعور الملازم للجريمة ، مما يجعلهم يجرون أمامك مارين فتجد المنازل مهجورة ، وتكاد لا تعثر فيها على عجوز تعطيك جرعة ماء .

والجانب الاكبر من القرى السبع التى يطلق عليها فى مجموعها اسم العمارنة واهمها قرية بنى عمران قد احترف هـذه المهنة المزرية ، وقـد شاهدت عرب هذه القرى يوقفون بلا حياء ، وفى وضح النهار قاربا كان يتجه الى الجنوب لينتزعوا منه النسـاء على الرغم من صـيحاتهن ومن مقاومة الملاحين . وثمة واحد من اكثر المشاهد التى رايتها فى حياتى تهورا ووقاحة ، قـد رايتـه عند ركوبى النهر . كان ريس أو ملاح صـندلى واقفا ممسكا بالمجداف فى يد ، وفجأة خرج واحد من سكان العمارنة ، وصعد الدفة ، وانتزع من فوق رأس الريس العمامة والطربوش وسـارع بالقاء نفسه فى النيل ، واختفى تحت الماء ، وظل غاطسـا لوقت طويل ليخرج بعد ذلك على بعد ٤٠٠ قامة من هناك ، على الشاطىء المقابل للنيل .

٢ ـ القبـائل التى استقرت حديثا :

لقد جاءت كثير من القبائل العربية القادمة من شمال افريقيا لتستقر فى مصر منذ حوالى قرن . وقد حصل هؤلاء العرب على اراضى عدة قرى وزرعوها أو استزرعوها فى غالب الأحيان : وهم يزرعونها عادة بمحاصيل العلف ، ويرعون فيها خيولهم ودوابهم لمدة تسعة أشهر فى العام ، ومن بين هؤلاء ، تلك القبـائل التى تعرف بأسماء : بنى وافى ، ابو كرايم ، محارب ، الطحيوى ، وهنـاك قبائل أخرى قد تفرعت عن هذه القبـائل الأساسية .. ولا تزال القبيلتان الأوليان وتلك القبائل التى تفرعت عنهما

مثل الجهمة والطراهونة يسكنون تحت الخيام ، لكنهم لا ينصبون هذه الخيام الا فوق أرضهم او فوق الأرض التى يستأجرونها ويدفعون عنها الضرائب . ومع ذلك فانهم لا يستسلمون مطلقا للهزيمة اذا ما هاجمهم عربان الخيش ، فلديهم هم أيضا خيامهم ورماحهم ، وجمالهم وخيولهم معدة على الدوام للجوء الى الصحراء اذا ماحدث ان جردوا من الأراضى التى تملكوها .والمعارك والمشاحنات كثرة بين هذين الفريقين من العرب. وقد شهدت كثيرا من المعارك الدامية ورايت عند هذا الفريق وعند ذاك شجاعة حقة او بالأحرى سلوكا مليئا بالشراسة والبغض والأحقاد .

ويشكل العرب « المزارعون » الذين لا يزالون يستخدمون الخيام حدا فاصلا بين العرب المزارعين الذين تحدثت عنهم فيما سبق وبين العرب المقاتلين أو الرعاة . فهم يتميزون عن الأولين بأنهم لا يشكلون جزءا من سكان القرى وبانهم لا يزرعون مطلقا بأيديهم ، ويتميزون على الآخرين « البدو » بانهم لا يغيرون من اماكن اقامتهم أو على الأقل المنطقة التى يقيمون فيها . وهناك شيخ معين من بينهم يمتلك اراضى ثلاث أو أربع قرى بحكم كونه ملتزما « ملتزم » ، وهو أغنى شيخ فى كل الولاية .لذلك فهؤلاء العرب مرهبون من جانب الفلاحين ، وبحرص هؤلاء على ارضائهم اذ يرون على ابواب قراهم مايصل الى ستمائة فارس مستعدين لانزال العقاب عند ظهور ادنى مقاومة (من جانبهم ضد العرب) .

بل يمكن القول بأن الفلاحين يحترمونهم كسنادة لهم ، ويستقبل اقل واحد من هؤلاء العربان شأنا ، سواء كان مسافرا على ظهر جمله ، او سائرا على قدميه ، باحتفال فى الريف فيهرع اليه الناس حاملين الماء ان كان عطشانا ، والبلح والخبز ان كان جائعا ، أو على الأقل، فان اى فلاح هناك يستجيب لتقديم هذه الاشياء عند اول طلب . ويسير العرب على الدوام مسلحين ببندقية ذات حمالة ، وعندما يركبون الخيول ، فانهم يتسلحون بالاضافة الى ذلك ، بحربة ورمح قصير فى اليد . أية مقاومة يمكن أن تبديها هذه القرى ، ضد جماعات الفرسان هذه ، والتى تتهاون معهم الحكومة ، فى حين ان رؤساءهم أنفسهم من كبار الملاك؟ انك لاتستطيع أن تحصر عدد الجرائم والمظالم والأعمال الجائرة التى يرتكبها هؤلاء الفرسان، ففى

أسواق القرى على سبيل المثال حيث يتجمع الناس فى شكل جمهور ليبيعوا الماشية والبلح والذرة والدخان .. الخ ، يكون كل الغنم فى جانب العرب ، اذ هم يفرضون بسهولة سطوتهم على الحشد ، فليس هناك من فلاح واحد يكون بمقدوره أن يجادلهم فى ثمن اى شىء يعرضونه ، والا يعطيهم سلعته بالثمن الذى يحددونه هم ، وتبدو الحربة التى يغرسها العربى ، فى صلف وقحة ، الى جانبه ، فى عرض السوق وكأنها تقول « اننى هنا ، صانعة القانون » ونستطيع أن نميز هؤلاء عن بعد فى تجمعاتهم الكثيفة ، ومن ملابسهم البيضاء ، وصوتهم الحاد ، وهم يستولون — بمعنى كلمة يستولون — على السوق ، وينتهى بهم الأمر أن يبيعوا وأن يشتروا لصالحهم كل ما يريدون ، وفى واقع الأمر ، فانهم يعملون فى خدمتهم سلاحا ليس بأقل اثرا من رماحهم وحرابهم ، ذلك هو دهاؤهم الشديد ، والذى لا يمكن مقارنته الا بجسارتهم .

واليكم الملابس التى يرتديها العربان وهم فى السوق : على الرأس طربوش احمر ، بلا عمامة فى معظم الأحيان . وعلى الجسم برنس أو معطف أبيض من صوف تتفاوت درجة نعومته يغطون به عادة أعلى الوجه وتحت الذقن ، وهو يغطيهم من الرأس حتى القدمين . ويلبسون تحت هذا المعطف قميصا من الصوف وحزاما ، ويرتدى الميسورون منهم صديريا فوق القميص ، وفى القدمين ينتعلون خفا أحمر اللون ، ويراهم المرء فى هذه الأسواق حاملين مسدساتهم ، وسيوفهم ، ومطارقهم ، وحرابهم ، وبنادقهم ذات السونكى (٩) ، ويعرضون بضائعهم وهم مسلحون على هذا النحو على الفلاحين ، كما انهم متعودون على حمل قرابينهم خلف ظهورهم ولا يخلعونها مطلقا حتى عندما يلقى القبض عليهم . ولشيوخ القبائل والأثرياء الفرسان مهاميز جميلة ، مذهبة ، واسرجة فخمة لا تختلف عما لدى المماليك الا فى أن ظهر السرج مقوس واكثر انخفاضا مما يجعله بالنسبة لهم بمثابة كرسى مريح . فهل مع اناس يحتشدون على هذا

---

(٩) توضع المظاريف بعناية فى جيب من الجلد ، ويوضع صندوق البارود الى جانب البندقية .

النحو ، ويتسلحون الى هذا الحد ، يستطيع الفـلاح الأعزل أن ينـازع في شيء ؟ (١٠) .

وعلى الرغم من القوانين التى تحرم استخدام العنف ضد الفلاحين، فانه من المعتاد ان ترى فى المساء ، عند عودة النـاس من سـوق من الأسواق ، اثنين أو ثلاثة من الفرسان « العرب » ينقضون فجـأة على الفلاحين (*) وهم عائدون بمواشيهم ، لينتزعوها منهم ، فان أبدى هؤلاء شكلا من أشكال المقاومة ، فان الفرسان يجـرحونهم أو يقتلونهم ، واذا ماذهب الناس لشكواهم الى رئيس القبيلة ، فهو — كما يقول — لايدرى شيئا عن الأمر ، أو هو ينكر ان هؤلاء الفرسان ينتمون الى قبيلتـه .. وهكذا تظل الجريمة بلا عقاب . ولقد رايت كثيرا من هـذه المشاهد فى صنبو والقوصية . بل ان شيوخ القرى انفسهم لم يكونوا اقل من هؤلاء الفلاحين البسطاء تعرضا للرعب من جانب هؤلاء العربان ، وسيكون حادث العنف الذى سأقصه الآن دليلا كافيا على ذلك ، وهو أمر يتكرر بلا انقطاع في الوف من الأشكال المختلفة .

ذهب بعض العربان من قبيلة أبى كرايم لينصبوا خيامهم فى أراضى ترب « ببلاو » واتفقوا مع شيخها على مبلغ محدد بالغ الاعتدال فى مقابل أن ترعى ماشيتهم فى حقل « حلبة » . وذات ليلة وجدت بندقيتان وزوج من المسدسات ضائعة من خيامهم . وعندما حل النهار ، ذهب العرب على خيولهم الى القرية مطالبين باستعادة سلاحهم ، وهم ينعتون الفـلاحين بأنهم لصوص وقطاع طريق لكن الشيخ الذى لم يكن لديه أدنى علم بهـذه السرقة الصحيحة أو المزعومة ، لم يستطع أن يجيبهم بشيء مقنع . فهددوا

---

(١٠) كنت عدة مرات شاهدا على الجراة المندفعة التى يبدونها فى اسواق القرى . ولم يكن هؤلاء العرب بأقل من ذلك زهوا واعتدادا بازاء جنودنا الفرنسيين ؛ بل لقد واتت أحدهم جراة وقحة لحد أنه عرض على أحد جنودنا شراء نجوم ضـابط فرنسى كان قـد قتله . وهم لايبـدأون مطلقا بالتحية كما لا يردونها مطلقا . وأكثر مايجذب انتباههم فى الشخص الذى يلوح لهم هو السلاح الذى معه أو الملابس الذى يرتديها أو الحصان الذى يمتطيـه . وعنـدئذ يبـدأون فى تصـور الطريقة التى تمكنهم من الاستيلاء عليها .

(*) الترجمة هنا بتصرف طفيف . (المترجم) .

باطلاق النـــار على الأهالى اذا لم ترد اليهم اسلحتهم ، فلم يجـــد هؤلاء مفرا من أن يركبوا هم ايضــــا الخيول الى جانب شيوخهم . وحيث كان عدد العرب فى ذلك الوقت قليلا فان الحظ لم يحالفهم وقتل من بينهم رجل كان ينتمى الى قبيلة الفوايد وهى قبيلة قدمت الى مصر حديثا كما قتـــل فى نفس الوقت سيدة وفرس .. واضطر هؤلاء الى الانسحاب وفى اليوم التالى غادر شيخ القبيلة بنفسه ، الشيخ على ابو كرايم ، مقر اقامته فى ساو وجاء على راس سبعمائة فارس وحاصر ببلاو وطالب بقاتل العربى، وكان هذا مختبئا ولم يستطع احد اكتشاف مخبئه . عندئذ امر الشيخ على بالقبض على اربعة من اكبر شيوخ القرية سنا ، واصطحبهم الى خيمته ، وهناك فرض مبلغا كبيرا من المال على سبيل «الدية» ، اى ثمنا للدم . وهى عادة يعاد بمقتضاها شراء دم كل قتيل بمبلغ محدد من المال ثم أمر بضرب هؤلاء الشيوخ التعساء بالعصى ويكاد يكون الأمر قـــد تم كله أمام ناظـــرى ، ولقد تركت « ببلاو » دون أن أعرف ما ان كان الشيخ على قد أطلق سراح الشيوخ ، وما هو المبلغ الذى تقاضاه ثمنا لذلك (١١) .

تلك هى المساوىء والمظـــالم التى يرتكبها العرب الملاك كل يوم . وهؤلاء الرجال بالغو الثراء، ولهم نفوذ كبير فى البلاد، وان كانوا يستمدون مكانتهم تلك من الفزع الذى يحدثونه فى النفوس . ليكن العربى محقا أو مخطئا ، ليكن معتديا أو عكس ذلك . فشيخ قبيلته فى كل الأحوال يدافع عن شجاره على الدوام بنفس الحرارة التى بدافع بها النـــاس عن أعدل القضايا ، ويكرس كل الوسائل للانتقام أو للانتصار له .

وثمة ضرب من العنف من جانب هؤلاء ، لا يستطيع الفـــلاحون ان يضعوا له حدا ، وذلك هو ماترتكبه قبيلة عندما تأتى لتستأجر اراضى بينهم . فى البداية يأتى فريق من القبيلة ليضرب خيـــامه فى منطقة كثيفة المرعى، وما أن يحس هؤلاء ان الأرض مناسبة لهم وما ان يســـتقروا هنـــاك حتى يبـــدأوا يســـاومون الفـــلاحين على ثمن المـــكان . ولـــكن ماذا ؟ فلقـــد أكلت الخيول والجمـــال بالفعل جزءا كبيرا من المرعى وانتشرت الخيـــام

(١١) ارتكب عبد الله بن وافى مثل هذا العنف حين احتجز شـــيوخ القصير وبنى عمران لأنهم لم يقروا على حصوله ، أو بالأحرى على استيلائه بالقـــوة على الأراضى التى تقع على الشـــط الشرقى وهى تعد مواتيـــة بالنسبة له .

فى كل مكان . ما العمل اذن ؟ عندئذ يقترح شيخ العرب ثمنـا للارض لا يبلغ فى معظم الاحيان سوى جزء واحد من عشرة اجـزاء من القيمـة الحقيقية ولا يكون امام الفلاح من نصرف آخر سوى أن يقبـل . ولقـد رأيت فى كل مكان حوادث مماثلة ، وشهدت السهل يغص بهذه المخيمات المتناثرة . الا يعطينا ذلك ابلغ دليل على بؤس الفلاحين وعبوديتهم الخانقة؟ انهم يئنون فى مناعبهم ويتصبب منهم العرق لكى يطعموا هؤلاء السـادة المتعالين . وينقصهم الملبس والخبز ليتوفر كل شيء عند العـرب الذين ينهبونهم . ونادرا مايسمح أولئك المساكين لانفسهم بأن يهمسوا بالشكوى، واذا ماحدث الأمر فانه يتم بصوت خفيض خفيض خفيض . انه لأمر يبعث على الأسى حقا ان نري اقاليم بأكملها تكاد نكون قد ضربت فيها من أقصـاها لأقصاها مخيمات العربان . وفى الواقع فان عدد هذه المخيمات يماثل عدد القرى ، ويفد اليها على الدوام فرسان جدد ، ليسوا من أفراد القبيلة ، وانما وفدوا الى هنـاك ليحصلوا على اذن بالسطو لأن شيوخ هذه القبيلة هم هنا أصحاب الأمر . لذلك فكم هناك من أراض مهجورة وغير مزروعة فى « ميدان » الخيام والمنـاطق المجاورة له . وكم من منـاطق اختفت فيهـا الحبوب وقت البـذار : أما حين يستزرع العرب ارضا تروق لهم فانهم على الدوام واجدون كل الوسائل لاغراقها بالميـاه على حسـاب جيرانهم ، ومخالفين لـكل العادات والأصـول المرعيـة . فهم يتوجهون والسلاح معلق بأيديهم الى احد السدود ودون ان ينتظروا حتى تحصـل الأرض العالية على مايكفيها من الميـاه ، يقطعون السد بأنفسهم فتجرى المياه لتسقى اراضيهم هم، ثم يحتفظون بالمياه بالقدر وبالمدى اللذين يروقان لهم ، دون أن يشغل بالهم مطلقا أن تروى او لا تروى الأراضى التى تقع الى شمالهم . واذا ماحتاجوا لمياه احدى الترع فانهم يحدثون فيها قطوعات بالعدد الذى يرونه مناسبا دون ادنى تفويض أو استئذان . وباختصـار فهم يسدون ويفتحون ، ويطيلون مدى الترع كما يتراءى لهم ، ويقيمون السدود أن يهدمونها بحسب مصالحهم هم، ويتم الأمر دون ادنى معارضة، لأنهم أقوى من القانون ، ومن أجل خاطرهم وحدهم تغيب الشرطة ، وليس من الضرورى ان اضيف هنا أنهم لا يساهمون مطلقا فى مصـاريف تطهير الترع أو بنـاء الجسور ، بل ولا فى أية مصروفات مشابهة على الرغم

من ان هذه الأعمـــال تعود بجل نفعها عليهم هم وبأكثر بكثير مما تعــود على الآخرين .

ان المرء ليتملكه غضب شديد وهو يرى قطاع الطرق النبــلاء هؤلاء يجوسون بوقاحة خلال الديار التى خربوها أو يعسكرون من حول القرى التى افرغوها من سكانها . وعنــدما يراهم المرء يجتازون الوادى من كل اتجاه وهم راكبون خيولهم فانه سيوقن بأنهم سادة البــلاد . وأى بلاء سببوه للصناعة عندما طردوا شيئا فشيئا من القرى المعلمين «والأسطوات» من ابنـــاء البلاد (*) والمثال على ذلك واضح فى ساو والعرين وعلى وجه التقريب فى كل القرى التى يرويها بحر يوسف ، فبســبب ظهور هؤلاء الطغـــاة ، فان قرى بأكملها حيث يسيطرون ، قــد هجرها أهلوهـــا بل نكاد تكون قد خربت لأن هؤلاء العربان لا بزرعون ولا يبنون ، واذا كانت اراضى بعض هذه القرى لاتزال تزرع فالسبب فى ذلك ان مياه النهر تفيض فترويها تلقائيا كل عام ، وبذلك لا يلزم أى عمل سوى البذار والحصاد . وعلى الرغم من كل ذلك ، فالفلاحون مرغمون على العودة من بعيد ،ومن جميع الجهات ليزرعوا أراضيهم التى أصبحت ملكا للعرب .. وتلك هى اللوحة الحزينة التى يقدمها لنـــا هذا الجزء من مصر العليا . أما فى مصر السفلى فان العرب هناك أقل سطوة ونفوذا .

ويمكن للمرء أن يسأل : ماذا تفعل كل هذه القبائل العديدة؟ وللاجابة على ذلك ينبغى ان نضع فى الاعتبار أن الجزء الأكبر من كل قبيلة يشكل مخيما كبيرا يقطن فيه الشيخ : لكن كثيرا من العائلات تنتشر فى الوقت نفسه بشكل منعزل فى مناطق مختلفة ، وتشكل مخيمات تتكون من خمس الى ست خيمات . وهنـــاك ترعى هذه العائلات جمالها وحميرها وخيولها ودوابها . وأكثر من نصف رجال هذه العائلات لم يركبوا الخيـــل « أى ليسوا فرسانا » ويشتغلون كما قلنا للتو باصطحاب القطعان الى المراعى، أما الفرسان فيقضون وقتهم فى القيـــام بجولات فى السهل وهم يبحثون على الدوام عن شىء يسلبونه . وفى أيام الأسواق العامة يتوجهون الى هنـــاك مسلحين ويصحبون معهم جمالهم وماشيتهم ليستبدلوا بهـــا الذرة

(*) الترجمة هنا بتصرف طفيف للغاية (المترجم) .

والشعير والبلح والدخان واشـــياء اخرى من مواد الاستهلاك اليومى . اما عن البلح (١٢) ، فانهم يبيعونه بأنفسهم عندما يأتون من الواحات حيث يجلبون منه كميات كبيرة (١٣) كما يجلبون معه فى قوافلهم المشمش الجاف والأرز الذى يعد من مرتبة ادنى من ارز الدلتا ، كما يحضرون معهم مؤنا متنوعة . وتشغلهم هذه القوافل لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر فى العام ، وهم يبدأون رحلتهم عادة من الواحة الصغيرة التى تقع على مسيرة ثلاثة أيام من دلجا ، كما يلجأون على الدوام الى هذه الواحة عندما يطاردون فى مصر ، وكذلك فى أوقات الفيضـــان فى اغلب الأحيان ، لـــكنهم فى هذه الحالة يكتفون بأن يضربوا خيامهم على حافة الصحراء . وعنـــدما يصبح القش « التبن » نادرا فى مصر ، فانهم يذهبـــون الى الواحات لتتغـــذى خيولهم على قش الأرز ، ويقوم عرب الفيوم كذلك بهـــذه الرحلة ، وهم يجلبون بخلاف البضائع التى تحدثنا عنها ملح المناجم الذى يستخرجونه من الجبال المجاورة لهذا الاقليم (١٤) .

ويربى العربان فى مخيمانهم كثيرا من الخيول والجمال ، وهذا مالا يفعله الفلاحون مطلقا ، وسيظل هذا الأمر دائما على الدوام لعـــدم دفع العرب الى خارج البلاد ، اذ ليس ثمة ســـواهم الآن من يستطيعون أن يمدوا البلاد بالخيول والجمال ، ولابد أن عدد هـــذه الدواب سيكون بالغ الضآلة الآن فى البلاد لو ان كل الحيوانات التىاستخدمها الجيش الفرنسى قـــد أخذت كلها من الريف ومعروف ذلك التقدير الذى يكنـــه الفرســـان العرب للفرسات . وقد سألت البدو الذين كنت أسافر معهم عن السبب لـــكنهم لم يخبرونى ، وعادة مايظن المرء ان الأمر يعود الى أن الفرسان

---

(١٢) هـــذا البلح جاف ولـــكنه طيب المذاق لحـــد كبير ، ويساوى القنطار ثمنه ٣ــ٤ بوطاقات (ريالات) .

(١٣) يبدأ طريق الواحات من خلف نزلة الشيخ عباس الى الشمال من سرقنـــا . وينبغى التزود بمياه تكفى ثلاثة أيام . وتوجد فى البـــلدة نفسها مصـــادر للمياه ، وهى تقدم الشعير والبلح بالاضـــافة الى الأرز والبلح ، ويواصل الطريق ارتفاعه حتى يبلغ جبل بهاية . وهنـــاك طرق عدة أخرى تؤدى الى الواحات ، احدها فى مواجهة التونة ، وثمة طريق آخر أمام بنى خالد ، ومن هذين الطريقين تخرج فروع تؤدى الى البهنسا والى الفيوم .

(١٤) انظر دراسات عن العصور القديمة ، المجلد السادس .

يتجنبون صهيل الجيـــاد التى تعلن عن وجودهم ، وبذلك لايمكنهم اخـــذ فريستهم على غرة ، لـــكن الحقيقة فى الأمر هى أن الفرس تتحمل العطش بشكل افضل من الحصان ، كما أن احتياجاتها أقل بالاضافة الى انها أقل طيشا واكثر ملاءمة لرجال يظلون فى غالب الأحيـــان عدة أيام متتاليـــة ، راكبين خيولهم دون أن يكادوا ينزلون عنها .

والفرس العربية نحيفة عجفاء لكن ذلك لايقلل من سرعتها فهى لاتقل فى ذلك عن أفضل خيولنا تغذية . ويكاد يكون لكل فرس شرابة بيضـــاء أو زرقاء أو حمراء تحت الرقبة وأحيـــانا فوق الأذنين . ولا تقل عاطفـــة العربى نحو فرسه عن العاطفة التى يكنها عاشق لعشيقته . وعلى الرغم من أن العربى يظل قلقا تجاه فرسته ، حريصا على الا ينقصها من الرفاهية شىء ، الا أنه لا يكلف نفسه عناء القيام بأى جهد لتوفير طعـــام جيد لها الا اذا تم الأمر على حساب الغير . وكم من مرة رأيت فرسان العرب ، بينما كنت أسافر الى جانبهم يترجلون على الـــدوام — يكاد يتم ذلك كل خطوة — ويتمهلون بها فى حقول البرسيم والشعير بل حتى لو كان القمح أخضر أو ذا سنابل ! كانوا يجعلونها تأكل على الـــدوام حتى ظننت أن السبب لايعود الى الرغبة فى اشباع جوعها بقدر ماهو اللذة فى اطعامها من حقول الآخرين ، فليس هناك عند العرب لحظة أحلى من تلك اللحظة التى يلوح له فيها شىء يمكن له أن يسلبه !

والقبيلة العربية التى لا تمتلك أو تستأجر الا بعض الأراضى ، تمارس مع ذلك نفوذا ونوعا من السيطرة فى دائرة هى أكبر بكثير من هذه الأراضى نفسها . وهذه الدائرة محددة ومميزة عن دوائر القبـــائل الأخرى المجاورة، فالقبيلة لا تخرج مطلقا ، أو لا تخرج فى معظم الأحيـــان عن حدودها لكى تجور على دوائر القبـــائل الأخرى . انه نوع من الاتفاق الضمنى وضعت قواعده نتيجة للمشاحنات والمعارك والحـــروب التى دارت بسبب هـــذا الموضـــوع .

ودوائر النفوذ هذه متلاصقة وتشتمل فى مجموعها على أراضى هذه البلاد ؛ وليس ثمة ماهو اكثر غرابة من رؤية هؤلاء السادة المزعومين لمصر، وهم يمسحون أراضيها على هـــذا النحو ، ويحددون الحدود التى تضمن

حقوق كل فريق منهم . وهم لا ينظرون الى الأراضى التى تقع داخل كل دائرة الا على انها أرضهم وبلدهم ، ويعنى هذا بالنسبة لحماة دائرة ما أن ليس من حق أحد من العرب الآخرين أن يسلبوا أو يرتكبوا احداث عنف داخل دائرة تقع فى حمايتهم ، وقد بلغ الأمر الى حد أننى لم استطع مطلقا أن اصطحب معى الى ما وراء دائرة عرب وافى الفرسان العرب الذين كانوا معى كحراس ، ولا أن اصحب الى ما وراء ملوى الفرسان الذين ارسلهم الى الشيخ على ابو كريم ، ونفس الأمر بالنسبة لعرب محارب ، والسبب من وراء ذلك أن العرب ، الى جانب أنه لا يسمح لهم بالمرور فى اراضى قبيلة اخرى ، لا يحبون أن يسيروا على ضفاف النيل أو يمروا بالقرب من المدن الكبرى مثل ملوى والمنيا عندما يكون عددهم صغيرا ، فعندما يكون العربى بمفرده ، فى مكان منعزل فانه يستشعر الرهبة من المشاعر التى يكنها نحو العرب شيوخ القرى ، لذلك فهو بالغ الحذر لا يريد أن يعلن عن وجوده ، وفى واقع الأمر فان الناس يعاقبون فى بعض الأحيان أول عربى يلقونه على شر أرتكبه عربى آخر . فكل راكب حصان ، يرتدى الزى الأبيض ويتسلح بالبندقية انما هو فى نظر الفلاحين نهاب قاطع طريق ، وهم فى ذلك ليسوا مخطئين على الاطلاق .

واليكم كيف قسمت الأراضى بين مختلف القبائل التى ذكرتها :

تعسكر قبيلة بنى وافى — وهى قبيلة بالغة الثراء بخيولها من منتصف ترعة تسمى ترعة العسل وحتى صنبو فى الشمال . ومكان اقامتها الرئيسى فى تتالية وهى قرية تقع الى شمال منفلوط ، يوجد بالقرب منها دير بالغ الأهمية ، وهذه القرية هى مقر الشيخ عبد الله بن محمود بن وافى ويمتد زمام الدائرة حتى ضواحى الأصفر ، المير ، القوصية ، صنبو .

أما دائرة قبيلة ابى كرايم التابعة للشيخ على فتشمل المسافة بين صنبو وملوى . اما مقر اقامة الشيخ فيوجد فى قرية ساو . وقد عسكر هؤلاء العرب بالقرب من ببلاو ، ودشلوط ، وساو ، وديروط الشريف ، ودلجا ، ودير مواس ، والبدرمان ، وباويط ، وامشول ، وابو الهدر ، وأسمو ، بنى حرام ، وسرقنا ، بل وكذلك تندة وطوخ .

وينتمى عرب التراهونة الى هذه القبيلة ، وهؤلاء قد اقاموا خيامهم

فى تندة اما الجهمة فيرابطون على الشط الأيسر « الغربى » لبحر يوسف بين دجلة ، وديروط ام نخلة حتى صفط خمار امام مدينة المنيا. ولهؤلاء خيام متناثرة فى اماكن شديدة التباعد فيما بينها ، بل ويوجد بعض منها وسط قبيلتى ابن وافى وابى كرايم .

أما عرب محارب فيقيمون كلهم على وجه التقريب فى بيوت ، وقد كفوا عن حياة الخيام منذ حوالى خمسة عشر عاما .. ودائرتهم بالغة الأهمية فهى تمتد على الشط الأيمن من بحر يوسف ابتداء من النقطة الواقعة تجاه التونة حتى جبل البهنسا على بعد عشرين فرسخا من ملوى. وأهم مواطن هذه القبيلة هو قرية العرين حيث يقيم الشيخ أبو زيد « شيخ القبيلة » ، أما الشيخ زيد فيقيم فى ديروط أم نخلة ويقيم الحاج عبد الله فى ابشادة ، ويشغل عرب هذه القبيلة قرى المحرص ، ديروط ، ابشادة ، اشمنت .. وقرى كثيرة أخرى .

ويتفرع من قبيلة محارب عرب جبار أو الجبابرة ، وعرب غزالة، والدرابسة والشوادى ، وهم ينتمون اليها كما أنهم جميعا مزارعون ويقيمون فى قرى .. ويشغل **الأولون** طوخ الخيل ، أما **عرب غزالة** فيقيمون فى ديروط أم نخلة وكذلك الى الشمال ، فى العزبة فى اقليم بنى سويف، اما الدرابسة والشوادى فيشغلون ضواحى بنى سمرج وطهطا ويوجة ، ولا يزال للدرابسة بعض الخيام .

اما العرب المسمون بالخوين والغريب فيشغلون ضواحى سمالوط اما عرب الطحيوى أو المصراتى أو بالأحرى عرب طه فسنتناولهم فيما بعد.

وتمتلك قبيلة ابى كرايم الف حصان وعددا كبيرا جدا من الجمال، وأهم شيوخها هما الشيخان على وسليمان ، أما الجهمة فيمتلكون أكثر من خمسمائة حصان . وتذهب القبائل الأربع : ابن وافى ، أبو كرايم، الجهمة ، محارب الى الواحة الصغيرة ويعودون من هناك ليبيعوا بضائعهم فى الأسواق الكبرى فى دشلوط ودلجا وصنبو والقوصية .

وتعمل النسوة فى المخيمات العربية فى غزل الصوف الذى يصنع فى القرى ، ويتخذ أكثر الناس بؤسا ملابسهم من هذه الأقمشة الخشنة، أما الآخرون فيشترون من المدن البرنس المصنوع من أقمشة فاخرة .

ويوكل الى النساء ايضا طحن الذرة وصنع الخبز وتجهيز البيلاف « طعام شرقى من لحم وأرز وتوابل » وكذلك كل اعمال المنزل ، والخبز عندهم عبارة عن قرص مسطح يجففونه فى الخيمة ثم ينضجونه على وقود من روث الجمال يخرج من خلال « بوز » وهو فتحة صغيرة مصنوعة من الطين على هيئة فرن ، وهكذا يجد العربان فى متناول ايديهم الخبز والوقود . وما انتحصل اسرة ما على مئونتها من الذرة حتى يصبح بامكانها أنتستغنى عن كل ماتقدمه مصر لها من عون ، ولا يعود يعنيها الا أن نضرب خيامها بالقرب من مكان توجد به مياه ، وهذا أمر يعرف العربان اكثر من اى قوم آخرين كيف يحققونه . ونحتوى خيام العربان على مخزون من البلح والأرز والذرة وعلى قليل من الشعير والقمح والفول ، ويودع كل شىء بحذاء جدران الخيمة وبطريقة تدع المكان بالغ الاتساع ، وفى منتصف الخيمة يوجد النساء والأطفال ويكاد لا يكون هناك فرق يذكر بين ملابس السيدات وملابس الرجال ، فهن يرتدين مثل الرجال حذاء نصفيا « خفا » وينغطين بقطعة من قماش صوفى أبيض اللون من القدمين حتى الرأس ، ولم أرهن يتحجبن كما تفعل المصريات ، وهن فى نفس الوقت ، ولحد ما ، اكثر بياضا من زوجات الفلاحين ، وعند بقائهن هكذا سافرات الوجه أمام الأوربيين ، فقد كن يظهرن لى على شىء من القحة والمجون اللذين هما طابع العربان ، والذى يميزهم عن المصريين . ولا يحتم الرجال على نسائهم — اما لانهم اقل غيرة او لأنهم اكثر ثقة بهن — ارتداء الحجاب الذى قد لا يكون له من غاية الا تفادى نظرات الفضول عن طريق هذا القناع الشائه الذى لا يبعث على البهجة ، لكنه وسيلة اقل فاعلية من غيابه هو نفسه ، فأى شىء يمكنه أن يصد الفضول ويقتل الرغبة اكثر من وجه شوهته هذه الرسوم السوداء والزرقاء « الوشم والكحل » (١٥) .

ويبدو الرجال فى خيامهم ، أو على الأقل راكبو الخيل منهم ، وكأن ليس لديهم ما يشغلهم ، فتراهم ، وطربوشهم فوق أذنهم ، يتجولون من

(١٥) من المعروف أن النسوة فى مصر يرسمن بشكل حاد رموشهن وجفونهن باللون الأسود (الكحل) وأنهن يضعن بقعا زرقاء على الذقن وبقية اجزاء الوجه (الوشم) .

خيمة لأخرى ، يتطوحون فى مشيتهم وأيديهم خلف ظهورهم . يرتسم المرح على وجوههم ، وهم فى عمومهم ذوو مظهر طيب ، ويبدو البيض منهم ، بتقاطيع وجوههم ، وسمنتهم ، ومشيتهم المتعاظمة وملابسهم الفضفاضة والمتلئة ، يبدون بمظهر الأثرياء العاطلين أكثر مما يبدون بمظهر الفرسان المحاربين ، وهذا المظهر من الرضا والسعادة هو أكثر ماأدهشنى عند العرب .

ومع ذلك ، فان الأمر الذى لا يقل عن ذلك جدارة بالملاحظة هو اهمالهم لطقوس الدين ، فلم أرهم مطلقا يتوضأون أو يصلون مثل بقيه المسلمين ، كما انهم يشربون الخمور فى بعض المناسبات ولا يولون كبير اهتمام بشهر رمضان ، وحين يقومون بأداء الحج الى مكة فانما يفعلون ذلك لفائدة سيجنونها من هناك .

وتبعا لما سبق ، فاننا نجد مخيماتهم شبيهة بالقرى الكبرى وسكان تلك المخيمات أكثر بلا جدال من سكان بقية القرى فى مصر ، ناهيك عن الذهب والفضة اللذين تكتنزهما هذه البيوت المتنقلة . وفى هذه الخيام يجد المرء كل ماهو ضرورى للحياة ، ويحصل العربان من بيع المواشى والجمال وبعض المواد الغذائية على دخول أكبر بكثير مما ينفقون على شراء الأسلحة والسروج والملابس ، وفضلا عن ذلك ، فان من الممكن لنا أن نؤكد أن الغالبية منهم يتسلحون بأسلحة مهربة أو مختطفة تحت آلاف الادعاءات ، بل ان الكثير منهم يرتدون ملابس سرقوها من الفلاحين .

أما الفضة والأموال التى يكدسها العرب بين أيديهم بهذه الطريقة، فيمكنها أن تسهم فى تثبيت سيطرتهم على مصر بأكثر مما يمكن أن تفعل اعدادهم وفروسيتهم . الست ترى أن هذا النفوذ لابد له — بحكم طبائع الأشياء — أن يتضاعف أكثر فأكثر لحد يضع مصر ذات يوم فى قبضة العرب .

ولا يحتاج هؤلاء الرجال فى مخيماتهم الا للقليل ، فهم بالغو القناعة، لكنهم يصبحون بالغى النهم وشديدى الالحاح اذا ما لجأ اليهم مسافرون يحتاجون لحراستهم ، فهم فى هذه الحالة يصرون على طعام منتقى لابد أن يحتوى على اللحم المشوى والبن والدخان بوفرة ، بحيث يتكلف طعام

كل واحـــد منهم فى اليـــوم مالا يقل عن **بوطاقة** (١٦) ويدعى هـــؤلاء أن هـــذا هو طعـــامهم المعتـــاد . وفى نفس الوقت فهـــؤلاء العـــرب لبسوا بدمثى الخلق ولا بالمجـــاملين المـــلاطفين . هـــذا ما شـــعرت به وأنا بين عـــرب بنى وافى وعـــرب ابى كرايم وعـــرب محـــارب الـــذين اتخذت من بينهم حراسا أثناء جولاتى . ولقد كان الأولون يبـــدون اثنـــاء وجودى بينهم اقل قسوة على الفـــلاحين ، أما عرب محارب فكانوا ينتهزون فرصـــة قدومى ليجتـــازوا القرى ، راكبين خيولهم ، ليحصلوا لأنفسهم على آلاف الأشـــياء بدعوى أنها للفرنسيين .. وهكذا تتاح لهم فرصـــة جديدة لكى ينتهبوا ويسلبوا دون أن يلقوا عقابا ، وتحت اسم الغير (١٧) .

وتشغل قبيلة محارب هذه جزءا كبيرا من اقليم المنيـــا كما سبق أن قلت ، وتمتد امتيازاتها الى بعيد ، وتنقسم هذه القبيـــلة الى بطون كثيرة تسكن فى قرى عديدة . ومنذ وقت طويل ، لم بعد هؤلاء يقيمون تحت الخيام كما كفوا عن ارتداء الثوب الأبيض « البرنس » ، ولا يمكن لك أن تميزهم للوهلة الأولى عن طريق ملابسهم عن شيوخ الفلاحين ، وأقل هؤلاء العرب شأنا يرتدى ملابس جيدة ، وترى واحداً بهذه الصفة منهم فى وضع افضل من وضع شيخ قرية ذلك انه يرتدى فوق جسده اسلاب اربعة شيوخ .. وتساهم هذه الأبهة فى الزى فى زيادة زهوهم ، واذا ماذهبـوا للسلب وسلكوا الطرق العـــامة أو ضفاف النيل فانهم لايرتدون ملابس اقـــل من هذه ابهة ، وليس بمقدور احد ان يحصل على اى عون ضدهم لأنه يستحيل عليه أن يجد شخصا يشكو اليه . وفى هذه الحالة الراهنة ، لايستطيع المرء أن يجد الكيفية التى ينظر اليهم من خلالها ، فهم معروفون فى السر لصوصا ، ومع ذلك فليس فى مقدورنا أن نطاردهم ، لأن شيوخهم يسلكون

---

(١٦) قطعة نقدية تساوى ٩٠ بارة (حوالى ٣ جنيهات و٨ سو) .

(١٧) تدل الصغائر المهينة التى يقترفونها بقلب بهيج على قســـاوتهم بقدر ما تدل على ضعف الفلاحين ؛ وقـــد شاهدتهم بعينى رأسى يستولون عنوة من امرأة بائسة اضنتها الشيخوخة على حمـــولة كبيرة من اغصـــان اشجار التمرهندى ، كانت تحملها بمشقة كبيرة فى الصـــحراء ، دون أن يكون لديهم حتى ذريعة أن الخشب ينقصهم ، وحيث كانوا يهللون لسرقتهم هذه ، فقد وجدت مشقة بالغة فى حملهم على رد هذه الأعشاب الجافة مع قيامى بدفع ثمنها لهم .

ظاهريا سلوكا طيبـــا فى قراهم واراضيهم ، حتى انه ليبدوا عليهم انهم لم يشاركوا فى السلب على الرغم من انهم يكونون قـــد اقتسموا الأسلاب . . وعندما وصلت اثنـــاء جولى الى دائرة عرب محارب دون أن أدرك ذلك ، سمعت أحاديث كثيرة عن الاغتيالات التى كان هؤلاء العرب يقترفونها كل يوم ، ورايت انه قـــد حان الوقت لأن أدعم حراستى الضعيفة بعدد من العرب ، فاستأجرت فى ديروط اثنى عشر فارسا مسلحين تسلحا جيدا . وفى الطريق كنت أكثر من سؤالى اياهم حول السرقات وحوادث العنف التى يمارسها العرب فى الوادى وفوق شاطىء النيل وبالقرب من ملوى ، لكننى لم أظفر مطلقـــا باجابة . وعرفت فيما بعـــد أننى كنت اتحدث الى نفس الذين يقترفون هذه الفعال ، وتأكدت من ذلك بوسائل مختلفة . كم كان قلقى كبيرا عندئذ ! لقد اسلمت نفسى بنفسى الى قطاع طريق ، وكثيرا ماذهبت معهم لمسافات طويلة داخل الصحراء . . ولكم اثار طمعهم اكثر من مرة أدواتى وخيولى والمال الذى كانوا يظنونه معى . . ومع ذلك فقد اكتفى هؤلاء اللصـــوص الشرفاء بالأجـــر الذى كانوا يحصـــلون عليـــه منـــا وبمـــا كانـــوا يســـتطيعون أن يســـلبوه من القـــرى . ولـــكنهم كانوا سعداء عندما يجدون بمقدورهم أن يتركوا فرسانهم ترعى مجانا فى مراع وفيرة ! ومع ذلك فقد كان هؤلاء الشجعان يرتجفون فرقا عندما استوجب الأمر دخول مدينة المنيا اذ كانوا يخشون الجند الفرنسيين ، لكن ارتباطهم كان يلزمهم بذلك . فمشوا اليها وكأنما هم يستجدون ، كما لم يدخلوهـــا الا اثنـــاء الليل وقد رحلوا على حين فجأة ودون أن يلحظهم أحد .

وكل القرى التى استقر بها عرب محارب فقيرة ومهجورة ونصـــف مهدمة وتخلو من الأشجار (١٨) ويكاد لايوجد بها سوى بعض الفلاحين يقومون بزراعة الأراضى المملوكة لعرب محارب — وليس بزراعة أراضيهم الخاصة ، ذلك أن هؤلاء العرب لا يزرعون بأيديهم على الاطلاق ، فليس ثمة من مهنة أكثر نبلا من وجهة نظرهم من أن تعيش من خيرات الغير دون مشقة ودون عمل ، وليس ثمة أكثر مهانة عندهم من عمل المحراث ، وكلمة فلاح عندهم مرادفة لألفاظ السباب فهى تعنى : رجل الطين ، الذى خلق من أجل الشقاء

---

(١٨) القرى التى تئن تحت وطأة نفوذ العرب محرومة من النخيل ؛ ولها مظهر عار يميزها عن بعد .

والذي ولد خصيصا لانتـــاج طعـــام العربان . ويذهب هؤلاء القوم الى بعيد فى تحقير مهنـــة الفلاح حتى انهم يأنفون من ان يحطوا من قدر البدو فيرفضون أن يطلقوا اسم البـــدو على هؤلاء الذين شاءوا من بنى قومهم ان يحترفوا مهنـــة الزراعة مثل عرب طه والريرمون فيقولون عنهم : انهم فلاحون حقراء واخساء لم تعد تجرى فى عروقهم الدماء العربية . .

اما عرب المصراتة او **الطحيوى** ، أو بمعنى آخر عرب طـــه ، فلهم قرى بالغة الفخامة ، تقع على بعد اربعة فراسخ الى الشمال من المنيا، وهم قـــد استقروا هنـــاك منذ عدة اجيـــال ، ولقد قدم هؤلاء العرب الى الزراعة ، على النقيض من العرب الآخرين ، خـــدمات جليـــلة ، وبذلك حصلت الأرض على مزية مزدوجة . أن تزرع بشكل ممتاز ، وأن يدافع عنها فرسان شجعان ضد أعمال العنف التى تصدر عن العرب المجاورين. وهم فى حالة سوء تفاهم على الدوام مع الآخرين لـــكن اليد العليا تكون لهم على الدوام فى كل المعارك التى تدور بين الفريقين .

ولم اشاهد فى مصر فلاحين أكثر سعادة من عرب طـــه ، فهنـــاك تسيطر الحرية ويسود الرخاء تحت سيادة قوانين خيرة وتحت حكم أسرة محبوبة ، ولذلك ازدهرت هنـــاك الصـــناعة والزراعة ، وليست ثمـــة قرى أكثر ثراء من قرى عرب طه فى المواشى وبخاصة فى البقر ، وليس هنـــاك أرض توزع عليها الميـــاه على نحو افضل . والسدود فيها معتنى بها بشكل احسن . من أراضيهم .. هكذا جعل الشيخ على الطحيوى من هذه القرية واحدة من اغنى قرى الاقليم ، وهكذا على الدوام يكون تأثير الشيخ الطيب وعلى هذا النحو يكون اثر المقاومة المدعومة التى تقف ضد الابتزازات والمظالم . وقـــد كان هؤلاء مصدرا لآلاف المعونات ، ولســـد مالا يحصى من احتياجات الفرنسيين وبشكل أكثر يسرا بكثير مما هو فى مقدور عشرين قرية فى جهة اخرى .. منذ وقت طويل كف هؤلاء العرب عن الاقامة تحت الخيـــام ، وعن ارتداء الثوب الأبيض « البرنس » .. وارتدوا نفس رداء الفـــلاحين ، اى ثوبا من الصوف الغامـــق ، وتجد بينهم ، مثلما تجد بين بقيـــة العرب رجالا سود البشرة ، وهؤلاء على الدوام فرسان ممتازون . ولقـــد شاهدت معركة دارت بينهم وبين عرب الشوادى ، تبين لى خلالها أنهم — أى عرب طه — لم يفقدوا مطلقا

المزاج المقـاتل حين أصبحوا فلاحين ، ولربما كنت أخذت على عاتقى أمر تدريبهم لو لم اكن قـد توصلت الى ايقـاف نزيف الدم بين القريتين .. وانك لواجد مشقة كبيرة حين تحاول تصور السرعة التى يتهيأ بها عربه الطحيوى للمعركة . ففى لمح البصر ، يخلع الواحد منهم اكمامه الطويلة، ويصطنع من عمامته حزاما يملؤه بالخرطوشات، ويصرع على الفور غريمه، بينما هذا الطحيوى يقاتل وحده ضد عشرة رجال .

وكل هؤلاء العرب الذين تناولتهم فى هذه الدراسة ، اذا ما استثنينا عرب الطحيوى الذين تحدثت للتو عنهم ، يظهرون نحو الفـلاحين عجرفة متزايدة يبدو وكأنهم رضعوها مع لبن امهاتهم . وحيث أن هؤلاء لايتصاهرون الا فيما بينهم فانهم يزعمون انهم بذلك قد احتفظوا بدمهم نبيلا نقيا ، خلق خصيصا لحكم مصر . وليس ثمة من بينهم فى مخيماتهم ، حتى الأطفـال انفسهم الذين التقيت بهم من لايشارك فى هذه العجرفة .

ولابد أن نتخيل أن من خاصية هذه العجرفة أن تمنحهم شعورا بالقوة والسمو فوق المصريين ، وتجعلهم يقدمون بنجاح على أمور بالغـة الجرأة والجسارة ، فادعاءات كهذه لن تكون وبالا على أناس بهـذه الدرجة من القوة سواء بفعل عددهم أو بتأثير تقاليدهم وأسلحتهم . دخلت ذات يوم فى احد مخيمات عرب ابى كرايم ، وجاء عديد من العرب الفضوليين ليجلسوا الى جوارى وتحدثوا بألفة مع حراسى ، لكن سرعان ما **اصطحبهم** واحد من رؤساء القبيلة موجها اليهم التعنيف الحاد . لقد الفيتهم اطفـالا صدمتنى ملابسهم وكان بين هؤلاء ابن الشيخ ، كان يرتدى ثوبا أبيض بالغ النعومة وطربوشا جميلا أحمر اللون وخفين ، وما أن اقتربت منه حتى قال على الفور وبلهجة تزدرى سامعه « أنا بدوى ! » ولكنى لقيت عند عرب الجهمة استقبالا افضل ، فقد هرعوا الى ، واستعلموا بفضول عن أخبار القاهرة، ومع ذلك فلابد أن ننسب ذلك الاستقبال لدوافع الخوف والقلق .

ويمكن التعرف على قرى الفلاحين التى تسيطر عليها هذه القبائل، فى أن سكان هذه القرى يبدون اقل خضوعا للسلطة ولقوانين البـلاد ، كما لو أن حماية العرب تكفى لحمايتهم من العقاب الذى يستوجبه التمرد . ولقد كانت هذه القرى على الدوام هى آخر من يسدد الضرائب وأول من

يبدأ العصيان . وهنـاك تستقبل قوات الحكومة استقبالا مسيئا . وفى الوقت الذى يفرط هؤلاء البؤساء فى ثرواتهم للقبـائل العربية بدرجة كبيرة من عدم التبصر ، فانهم يتجاسرون على رفض تقديم ماهو ضرورى للفرق التى تمر ببلادهم ، ذلك انهم يأملون فى الافلات من سطوة سادة بعيـدين عنهم ، فى حين يرضخون لطغاة يماثلون نسر بروميتيوس ✻ فهؤلاء الطغاة لا يتركون فريستهم لحظة . وفى اقليم المنيا تخضع قرى كبيرة مثل ديروط الشريف ، ودلجا ، ودشلوط لنفوذ العربان الذين يأتون ليقيموا خيامهم على الأبواب . وحين لايجرؤ شيوخ هـذه القرى على مقاومة الأوامـر التى يتلقونها من القاهرة مقاومة صريحة ، فانهم على الأقل يبدون شـيئا من العجرفة وسوء النيـة والعدوانية يحثهم عليها العرب ، مما يجعل مثل هذه المشاعر دائمة بينهم . صحيح أن الناس فى أماكن أخـرى ثرية فى مواشيها ، ومسلحة تسليحا جيدا يسهل الدفاع عنها مثل قـرية المير ، لا يخشون من اقامة العرب فى السهل ، اذ هم يستطيعون على الأقل أن يعاقبوا هؤلاء على جسارتهم اذا ما تجرأوا على محاولة تجريبها ، وسعداء هؤلاء الفلاحون الأقوياء لحد يسود بينهم هذا الطبع ! فهم يعيشون هادئين ملاكا أحرارا لعقاراتهم وثرواتهم التى لا تلبث أن تتضاعف على حساب ضعف الآخرين وخرابهم .

أما القرى التى تحاول بالرغم من ضعف قوتها أن تدافع عن استقلالها، فان العرب يقومون بغزوها بشكل مفاجىء ، فيقتلون المشايخ ، ويستبدلون بهم غيرهم بشكل استبدادى، ويهدمون بيوت هؤلاء الذين يسمونهم أعداءهم، ويستولون على أراضيهم ويتصرفون بمهـارة حتى أن الأمر ينتهى بهم أن يحصلوا على محبة الآخرين .

اما تلك القرى التى تخضع كأمر حتمى للعرب بسبب ضعفها وموقعها القريب من الصحراء ، فانها تقدم لهم صـداقتها كأمر طبيعى ، ولكل شىء حسـابه فهذه الصـداقة تكلف الفلاحين أقل مما كان سيكبدهم الحقـد المكشوف .

✻ من المعروف أن العقاب الذى أنزله جوبتر ببرومثيوس عقابا له على سرقة النار هو أن يصلب فوق جبـل القوقاز وأن يأتى النسر ليلتهم كبده الى أن خلصه هرقل . (المترجم) .

ومن جهة اخرى فان العائلات العربية ، قليلة العدد ، والتى تمتلك قرى صـــغيرة شديدة القرب من بعضها البعض ، تظل على الدوام فى حالة نزاع على الحدود وعلى اقامة او قطع السدود ، وعلى مسيرةواتجاه الميـــاه ، وحيث لا توجـــد محاكم تحسم قضـــايا من هذا النوع فان سكان هذه القرى يحسمون هـــذه الأمور بأيديهم فهم يقتتلون ويلاحقون بعضهم البعض بلا هوادة وبشراسة لا تصـــدق ، وحتى تفنى فى معظم الأحيـــان واحدة من العـــائلات المتشاحنة عن بكرة أبيها ، وعندئذ يستولى المنتصر دون مبالاة بأبسط الشكليات، ودون رسميات أخرى على اراضى المهزومين، ويثبت فيها عائلته أو من يلوذون به . وفى نفس الوقت ، فان الحكومة لا تقوم بأى معارضـــة لأى من هـــذه الحروب الأهلية الصغيرة كمـــا لو كان لايهمها فى كثير شخص من سيدفع الضريبـــة ، بل انها تغبط نفسها على الدوام ، فالضريبة ستؤدى برغم كل شىء مع انها ـــ اى الحكومة ـــ فى كثير من الأحيـــان لا تحصل منها اى شىء ، ويكون السبب أن قادمين جددا قد هاجموا وخربوا بدورهم ، أولئك الذين سبق لهم ان انتصروا.

وشكل خيام العرب معروف . فهذه مصنوعة من قمـــاش يسمى : خيش . يصنع بشكل اساسى فى ولاية الفيوم . ويشكل العرب منه قطعة يبلغ طولها ٢٠ ـــ ٣٠ قـــدما وعرضها ١٥ قدما ، ويدعمونها من أركانها الأربعـــة بأوتاد يبلغ ارتفاع كل منها ٤ اقدام كما يدعمونها من الوســـط بوتدين يبلغ ارتفاعهما ستة اقـــدام مما يعطى للخيمة من أعلى هيكل السقف المسطح ، وهذه الخيام فسيحة مريحة . وحيث انها شـــديدة الانخفاض ومثبتة بالحبال فهى لاتخشى مطلقـــا هبوب الرياح . وعندما يسقط المطر فانه لا يمكن الدخول اليها الا من الأمام فهى الجهة الوحيدة المفتوحة .

وقد لاحظت فى هذه الخيام نوعا من المهد « الهودج » المصنوع من اغصان القرانية « شجر زينة » بالغة الجفاف يبلغ سمكها بوصة ،ومصنعة بشكل تتداخل معه فيما بينها وعلى نحو مقبض ، وقاع هذا الهودج بيضاوى الشكل او مقعر ، ولونه داكن ٪ وهو منتظم من أعلى . ويوضع هذا الهودج فوق جمل ، ويستخدم فى نقل سيدة وطفلهـــا . وخشب الهودج من جهة اخرى أسود اللون بفعل الدخان ويبطن قاعه بالجلد أو يكون كله فى بعض الأحيان من الجلد . فاختطاف النســـاء هـــو أخشى مايخشاه العرب من أعدائهم . وبمعنى آخر فان هذه الهوادج المرتفعة قـــد صنعت لحمايتهن،

وتستخدم هذه الأسرة الصغيرة كذلك فى التنقل كما فى حالة القوافل . وفى اثنــاء قيامى بجولة بلغت ثلاثين فرسخا فى عرض الصــحراء كانت الفرصــة مواتية لــكى ارى على الدوام جمالا محملة بالنساء على هــذا النحو ، ولابد أنــكم تتخيلون هذا القدر من الانتباه والعناية الذى يوليــه ازواج هؤلاء النساء أو أهلوهن فى حراستهن ، حيث يبعثون على الدوام بفرسان يسبقونهم بمسافة فرسخ كامل ليستكشفوا الطريق لهم .

ومما تجدر ملاحظته كذلك فى مخيمات العرب هو السلوق أو كــلاب الصيد ، وتلحق هذه بالأرانب والثعــالب ، وتقدم خدمات جليلة عند صيد الغزلان التى يلذ العربان من أكل لحومها كثيرا ، وهم يطلقون على كلاب السلوق كنية « عدو الغزالة » ، وهذه الكلاب صهباء اللون ، وهى أصغر حجما من كلابنا واكثر منها سرعة ، ويلبسها العربى قطعــة من الجوخ ويضع فى رقابها عقدا ويمسكها على الدوام من مقودها ، وهم يجلبونها من سيوة حيث توجد منها أعداد هائلة ، ويدفع فيها لأصحابها ثمنــا كبيرا يبلغ حوالى ٣٠ ــ ٤٠ **بوطاقة** ومن العسير ان تحصل لنفسك على واحــد منها . ومع ذلك فقد توصل كثر من الفرنسيين الى الحصول على هــذه الكلاب وبعض منها فى الوقت الحالى فى حوزة بعض الجنرالات (١٩) .

---

(١٩) شاهدت فى مغارات وكهوف مصر الوسطى رسوما مصرية تثير الفضــول الى حد كبير ، وتمثل بدقة طريقة صيد الغزال هــذه ، ومن اليسير ان نتعرف فيها على كلب السلوق نفسه ، وتشــكل رســوم هذه المغارات وشروحها جزءا من المجلد الرابع للعصور القديمة، اللوحة ٦٦ .

الفصل الثانى

العرب المحاربون أو العربان الرعاة أو الرحل

اما الطبقة الثانية من العرب فتشمل أولئك الذين يضربون خيامهم فى أعماق الصحراء أو على مشارف مصر ، والذين هم فى حرب مع الحكومة فى بعض الأحيان ، وفى أحيان أخرى فى سلم معها ، ولا تمتلك هذه الطبقة أرضا ولا تدفع ضريبة على الاطلاق ، وهى الطبقة الاكثر عددا والأكبر قوة سواء فيما تملك من خيول وأسلحة أو فيما لديها من جمال وماشية . وهى التى تمد القوافل بالجمال التى تحتاج اليها لأغراض التجارة .

ولا يسمح لنا تغيير هذه القبائل المستمر لمكان اقامتها ، وان كان يتم فى معظم الأحيان فى اطار نفس المنطقة ، لا يسمح لنا ذلك بمعرفة اسمائها . وفى الفترة التى كنت أتجول فيها فى مصر الوسطى ، كانت قبائل أولاد على هى أكثر هذه القبائل قوه ، وكانت مخيماتها تقع فى ادمو بالقرب من المنيا . وكانت تضم ألف حصان . أما قبيلة الفوايد فكان يبلغ عدد أفرادها الألف من بينهم ثلاثمائة فارس ، وبالاضافة الى ذلك فقد كان ثمة قبائل أخرى فى أبى الهدر والسدرمان ودروط وبالقرب من سمالوط فى اقليم بنى سويف وفى ضواحى الفيوم .

ويغير هؤلاء البدو من منطقة اقامتهم اذا مابدت لهم منطقة اخرى أكثر وفرة فى مراعيها أو فى مياهها أو أكثر مواتاة لمشروعاتهم ولأغراضهم فى السلب وأعمال العنف ، فهؤلاء فى الواقع سواء فى حالة حرب أو فى حالة سلم يمارسون نفس القدر من اعمال السلب والعنف ، مع فارق واحد ، هو أنهم يمارسونها فى حالة السلم بعيدا عن مقر اقامتهم المعروفة وبحيطة أكبر ، فالبدو فى حالة السلم لايرتكبون السرقات ولا

اعمال القتل مطلقـــا بالقرب من مخبمهم . وانما فى أماكن نبعد عن ذلك بفراسخ كثيره .

وحيث أنه ليست لـــكثير من هذه القبـــائل الجوابه من مصالح فى داخل البلاد فانها ىرتكب جرائمها دون أن تلقى عقابا ، مادامت نحرص على أن تظل على بعد كاف داخل الصحراء حيث بطعمون ماشيتهم على قـــدر مايستطبعون . لـــكنهم فى غالب الأحيـــان يعسكرون على حافة مصر ، وهنـــاك توجد كثير من الأراضى التى كانت تزرع فى الماضى ، كما نستدل على ذلك من الآثار التى يحفرها العرب هنـــاك والتى تردمها الرمال كل يوم أكثر فأكثر . وفى غالب الأحيـــان . تصل مياه الفيضـــان لتغمر هذه الأراضى ، وعندئذ ينمو نوع من البرســـيم بالغ القصر له أوراق بالغـــة النعومة تنفتح فى تىواشىه ورود صـــفراء وىسمونه كتة ، وهو علف جيد بالنسبة للمواشى ، فى جودة البرسيم نفسه بل ويتفوق عليه حسبما يذكر أهل البلاد الذين كثيرا مارأينهم يذهبون الى هنـــاك ليحصدوه لخيولهم ، وهو قصـــير لـــكنه بالغ الـــكثافة . وبعد الفيضانات الكبرى « كفيضان سنة ١٨٠٠ » ينمو هذا النبـــات بوفرة شديدة حتى أن العـــرب يرعون هنـــاك ماشيتهم وخيولهم وجمـــالهم على نحو واســـع ، ويتراخون فى الذهاب لاتلاف محاصيل علف الفلاحين ، وعام كهذا هو عام مبارك بالنسبة للقبائل العربيـــة التى تأتى لتغطى بخيامها كل حواف الصـــحراء . لذلك شاهدنا فى عام ١٨٠١ مجىء كثير من القبـــائل العربية من أفريقيا بعـــد أن جذبتها أنبـــاء الفيضان الـــكبير . وينمو فى هذه المنـــاطق بالاضافة الى محصول العلف هـــذا ، نبـــاتات عطرية صغيرة الحجم تشكل مرعى ممتازا للخراف والماعز . ونتيجة لذلك تقوم الماشية بتسميد هذه الأراضى، وبهذه الطريقة يكون من السهل اعادة زراعتها لولا فقر وكسل الفلاحين أو بالأحرى لا مبـــالاة الحكام . والأرض التى تنتج هذه النبـــاتات هى فى واقع الأمر صلبة لحد تستعصى معه على المحراث المصرى أن يشقها ،ومع ذلك فلماذا الاصرار على استخدام المحاريث لهذا النوع من الأراضى ؟ انها سوداء كالأرض المزروعة لـــكنها أكثر تماسكا ، ويبدو لى أنها تدين بذلك لوجود طمى بالغ النعومة قـــد تكدس على مر السنين وازداد جفافه أكثر فأكثر ، لأن الجزء الأكثر نعومة من الطمى هو الذى يقوم النهر بترسيبه جد بعيد من مجرى النيل ، وتتشكل الأراضى من هـــذا النـــوع فى بعض

الأحيان مراعى شاسعة تمتد حتى الريف ، وتجعل الحدود الحقيقية للأرض المزروعة غير مؤكدة ، ولهذه المراعى المليئة بالورود الحمراء والبنفسجية، شكل ورائحة جذابة ، لذلك فان حواف الصحراء على بعض المناطق مثل المير والأقصار وأماكن أخرى ، تبعث على البهجة أكثر مما يبعث عليها اى مكان آخر فى مصر التى تعرف بأنها لاتنمو بها الأعشاب .

هكذا يضطر العرب الذين يطردون من الأراضى المزروعة اذن على الهروب الى مشارف الصحراء أو الى أبعد من ذلك بقليل ، وبينما يظنهم الناس قد ذهبوا الى بعيد فانهم يكونون شديدى القرب من مصر ، ومن اولئك الذين يطاردونهم ، مختفين وراء تل من الرمال .. وهم يعرفون الآبار وكافة البحيرات والبرك التى يكونها الفيضان فيلجأون اليها عندما يتوغلون داخل الرمال . واذا ماتتبعت آثار جمالهم فستقودك هذه الآثار بالتأكيد الى اماكن توجد بها مياه صالحة . فلا يتخيلن احد أنه يسبب أذى للعربان اذا ماشن عليهم الحرب كما حدث ، فلسوف يعرفون مقدما أن هناك صفا من الجنود المشاة يجدون فى اثرهم ، عندئذ يحملون حبوبهم وخيامهم ويبعثون بها الى الأمام ثم يتجمعون كلهم فوق خيولهم ليتبعوا اشياءهم وبذلك يصبحون بعيدا عن متناولك قبل ان تدرك انت ما صاروا هم اليه ، واذا مالحقت بهم فسيدافعون بسهولة عن انفسهم ضد أناس منهكين قليلى العدد ، وهم يسببون لعدوهم من الأذى اكثر بكثير مما يسببه هو لهم ، وسرعان ما يرهقون مشاة نصف مهزومين بفعل العطش ،وأخيرا فاذا كان عدوهم فى حالة تمكنه من دفعهم ، فانهم يهربون ويلحقون بجمالهم فى اعماق الصحراء لدرجة يستحيل مطاردتهم هناك .. وليس هذا هو كل شيء ، فعندما يعرفون ان صف الجنود قد مضى ، فانهم يستعيدون موقعهم بكل ثقة ، عارفين جيدا أن العدو لن يهاجمهم مرة ثانية ، اما اذا حدث ذلك ، فانهم على اتم استعداد للقيام بنفس التاكتيك ، الذى لا يسبب لهم على الاطلاق اى تعب ، ويهربون من المطاردة الثانية ، بسهولة أكبر .

وقد شاهدت كثيرا من القبائل تتصرف على هذا النحو فى مصر العليا ومصر السفلى ، ولم يستطع لا الفرسان ولا المشاة ان يسببوا لهم ادنى أذى ، وليس فى مقدور عدوهم أن يحطم لهم اى شيء اللهم الا هدم بعض

الأكواخ واشعال النار فى بعض اكوام القش . وللعــرب مزية لا تقــدر بثمن ، هى ان لهم داخل القرى نفســها مســتودعات مضمونة للحبوب وللمؤن الأخرى التى قد تسبب لهم الارتباك عند هروبهم ، وهم يحصلون بلا مشقة على هذه الخدمة الجليلة من جانب شيوخ القرى وليس لأحد من سبيل للتعرف على هذه المستودعات .

وعندما طردت قبيلة أولاد على من ضواحى الاسكندرية فى صــيف عام ١٨٠٠ فقد انسحبت هذه القبيلة الى الصعيد دون أن يخامر احد الشك فى (امكانية) حدوث ذلك ، اذ بينما كنا نظنها مقيمة فى ليبيا ، قدم أكثر من الف فارس ليقيموا فى ادمو مع عدد هائل من الجمال ، وأردنا ذات يوم أن نفاجىء فريقا معاديا كبيرا منهم عند مدينة سمالوط ، لكن النبأ بلغهم فى الوقت المنـاسب فأنقذوا كل شىء على وجــه التقريب دون أن يخسروا رجلا واحدا .

هل يستحيل اذن اللحاق بقبيلة معادية ؟

لو حدث أن كان لدينا العديد من فرق الجنود ، موزعة توزيعا جيدا ومسلحة بسلاح جيد ، يركبون الجمال ويحملون معهم مؤنا تموينية ومياها بحيث تهون من عملية مطاردة الفارين منهم لمدة خمسة أو ستة أيام فى الصحراء اذا اقتضى الأمر ، واذا أمكننا زيادة على ذلك أن نعتمــد على جواسيس مخلصين ، فليس هنــاك من شك فى أننــا فى النهاية سنلحق بالجمال المحملة ، فأسـلاب كهذه هى بالتــأكيد أكثر الأمور اغــراء للجنــود كى يواصلوا هــذه الجولات المرهقــة .. اذا حدث وتم لنــا ذلك فلا يمكن أن تكون ثمة قبيــلة عربيــة على الاطلاق ، ومهما كانت قوتها ، لا يمكنها الا أن تتحطم فى ظرف عدة أيام ، أو على الأقل ، تتبعثر وتحرم من نسائها واطفالها وخيامها وجمالها ومئونتها بعد مطاردة كهذه تتم على يد خمسمائة فارس ـــ جمال « هجانة » تتوفر لهم قيــادة جيدة ، ومعلومات موثوق بها ومعرفة بالطرق الصحيحة التى ينبغى أن يسلكوها (٢٠) .

---

(٢٠) ينبغى ان نحكم على هذا الزعم عن طريق النتائج الأولية التى حصل عليها الفرنسيون عن طــريق تنظيم مشــابه اقاموه أثنــاء حملتهم على مصر .

هنـــا يثور سؤال آخر . هل يمكن عقد السلم مع قبيلة جوالة ؟ أم أنه ينبغى علينا أن نعامل كل القبائل من هـــذا النوع باعتبارها معادية ؟ دون أن نستثنى من ذلك حتى العـــرب المزارعين الـــذين يقيمون داخل مصر .

اذا ما وضـــعنا فى اعتبارنا أننا لن نحصل على أى نفع من وجود العرب ، بل وجدنا انهم بالعكس قادرون على الاضرار بنا فى كل لحظة بدعم حركات التمرد والاسهام فيها ، وبتقويه صفوف جانب مناوىء لنـــا قـــد يظهر فى الأفق ، فسوف يكون لزاما علينا الا نترك قبيلة واحدة فى حالة سلم ما لم يمنعنا من ذلك خوفنـــا من أن تنقصنا الجمـــال والخيول على الفور فى أسواق مصر . وفى الحقيقه ، فانه من الممكن أن نشجع تربيـــة هـــذه الحيوانات فى الأرياف وأن ننتج منها فى فتره محددة كمية كافيـــة ، لـــكن هذه الفترة لن تأتى الا بعد وقت جـــد طويل ، وهكـــذا سنجازف — لو فعلنـــا ذلك — بأن تنقصنا هذه الحيوانات فجـــأة وعلى الفور . ومع ذلك فان ثمة أسبابا هامة تدعونا بألا نسمح لأية واحدة من هذه القبـــائل الجديدة التى تأتى كل عام الى مصر بأن تثبت أقدامها فوق أرض البـــلاد ، فان أغرابا يعسكرون على أبواب بلد لا يمكنهم فى الواقع الا أن يكونوا أعـــداء مزعجين ، فأية كارثة يكونها أمثال هؤلاء القوم فى واد بمثل ضيق مصر ! وهل هى سياسة سليمة على الاطلاق أن تقاسى داخل البلاد من فرق معادية على هذا النحو وأن نظل « البلاد » راضخة لتجار الخيول هؤلاء ؟ وهل من الحكمة أن ندعهم ينتزعون الجزء الأكبر من أموال البلاد؟ بماذا تنبىء كل هذه الهجرات القادمة من بلاد البربر حتى ولو لم يكن بينهم العائلات التى تخرج من هذه البلاد ولديها هذه الرغبة المتأججة فى الاثراء على حســـاب مصر ، وهـــو الأمر الذى لم يعد بالنسبة لهؤلاء الا أمرا بالغ السهولة بفضـــل تراخى الحكومات ؟ واذا ما حسبنا حساب كل شيء لوجدنا أن من الواجب ألا نتفاوض مع هذه القبائل الجديدة، حيث أنه لا توجد معاهدة على الاطلاق لا تحتوى على منافع متبادلة .

اما عن العرب الملتزمين « أى الذين يقومون بوظيفة ملتزم » ، فاذا ما اعترفنا بأن ممتلكاتهم تعود كلها الى حوادث غزو ، وأن حوادث الغزو هذه تعود الى عهد جد قريب حتى أن الملاك الحقيقيين يستطيعون المطالبة

باستعادتها أو استرجاعها بأنفسهم فقد يكون من المحتم بلا جدال أن يطرد من مصر ، وبلا أى استثناء كل العرب الذين أقاموا فيها أو على الأقل أن نقلص من مكانتهم ليصبحوا مجرد مزارعين بسطاء ، وأن نجعلهم يعدلون عن حمل السلاح وركوب الخيل وان ينفضوا من حول رؤسائهم وأن يتخلوا عن نظـام القبيلة الذى يحكمهم واخيرا أن ندمجهم بالشعب .. ومع ذلك فان الأمر ليس على هـذا النحو ببساطة ، فكثير من القرى انما هى ملك خاص للعرب اذ يوجد فى صعيد مصر منذ وقت لا تعيه الذاكرة عرب ملاك بل ومستقلون ، كانوا على الدوام حكاما خلصا فى مقاطعـاتهم حتى فى زمن المماليك ، بل ان الكثيرين منهم هناك قد نالوا تقدير الناس لمـا لهم على الزراعة من فضل وما بذلوه فى سبيلها من عناية .

اذن فليس بالامكان سوى أن نلغى الابتزازات القديمة والحديثة وأن ندع للعرب الأراضى التى فى حوزتهم بفعل حق الملكية القديمة ، ومع ذلك فان الأمر يقتضى منا فى كل الحالات أن نمنع وأن نستبعد بكل شدة عادات وطباع الخيام ، فما أن يتفرق هؤلاء الفرسان فى القرى ، حتى يجدوا لزاما عليهم بالضرورة أن يهبوا أنفسهم للزراعة ، وعندئذ سنرى انقطاع احداث السلب كما سينتهى بخاصة ذلك التمايز المحزن بين العرب والفلاحين ، وقد لايكون من الظلم أن نمنع هؤلاء الرجال من أن يقيموا خيامهم ، أو أن نبعدهم كلية عن البـلاد اذا ما قاوموا ، ذلك أن بلدا متحضرا ، من اليسير على راكبى الخيل أن ينهبوه ، لاينبغى له مطلقا أن يتسامح فى وجود هذا العدد الـكبير من العاطلين ، الذين ليس لهم من مقر ثابت والذين لا يتحملون مسئولية فعـالهم ويضعون أنفسهم فوق القـانون .

ومهما يكن من أمر فان المرء لا يسـتطيع أن ينظر باسـتخفاف الى التزايد المطرد فى أعداد هؤلاء الفرسـان الطموحين ، الذين لا يخضعون لشىء ، والذين يهددون بغزو غير منظور لـكل الأراضى بل والسيطرة على البـلاد . ولربما نصحوا ذات يوم فاذا بالوقت قـد فات ، فلا نسـتطيع أن نقاوم مائة قبيلة ، تضم كل منها خمسمائة فارس .. ألن يكون جيش كهذا ، اذا ماحدث أن تجمع ، قويا لحد يمكنه من السيطرة على مصر ؟؟

لنضف الى هـذه القوة العسكريه قوة المـال الذى يتكدس دونما انقطاع فى أيديهم بنفس القـدر الذى قلنـاه عن العرب المزارعين . وفى

الواقع فان حصيلة بيع ماشيتهم ، والأجور التى يحصلونها من القوافل، ومنتجات خيولهم وجمالهم وعائد تجارتهم .. كل ذلك يؤدى لذهاب كميات كبيرة من النقود الى خيامهم ، وهذه تبلغ رقما لا يعود ١/١٠ منه الى مصر ثمنا لضرورات حياتهم ، لأن العرب يكادون لا يحتاجون لشىء .

ان النهم للمال والفضة عند العرب هو أولى غرائزهم ، فمجرد رؤية قطعة من الذهب تجعل أساريرهم تنفرج ، وتجعل الابتسامة ترتسم على شفاههم ، وهم لا يقدرون رجلا الا لما يمتلك من المال او الا بقدر ما يأملون فى الحصول عليه منه ، واذا ما نقص مال هذا الرجل ، فسوف يجد فيهم أناسا لا يمكن الوصول اليهم أو الحصول على شفقتهم . ولكم شاهدت أبناء الاسكندرية البؤساء الذين عانوا من مجاعة مفزعة وهم **يستجدون** هؤلاء العرب شبه جاثين على ركبتهم والنقد فى أيديهم أن يبيعوهم بعض مكاييل من القمح لاطعام أسرهم التى ظلت على الطوى مدة يومين ، لكن العربان كانوا يرفضون البيع بالمدينى ، فقلب البدوى قطعة من صخر لا يمكن أن تلين الا على رنين الذهب ، والذهب وحده (٢١)

ويحتفظ العرب الرحل على الدوام ، سواء كانوا فى حالة حرب او فى حالة سلم مع حكام البلاد ، بعلاقات متينة مع بعض شيوخ القرى تؤمن لهم المواد والمعونات الخفية ، بمعنى أن هؤلاء الشيوخ يكونون على استعداد لاخفاء أمتعة هؤلاء البدو وحبوبهم وأشيائهم . ولربما أخفى شيخ عنده ذات نهار ما سرقه العرب منه هو شخصيا ليلة البارحة. ومع ذلك ، فهكذا قدر على الفلاحين أن يقبلوا يد قاتلهم ، فلقد سمعت

---

(٢١) كثيرة هى النقود التى كسبها العرب من الاسكندرية اثناء شهور الحصار الستة ، فبعد أن ضيق الانجليز عليها الخناق ، لم يعد بامكانها أن تحصل على أية مئونات من رشيد لاعن طريق البر ولا عن طريق البحر . وفى النهاية أمكن للعرب أن يدخلوا اليها بالحبوب بالطواف حول بحيرة مريوط ، وحيث لم يكن الناس يستهلكون هناك الا المواد الحيوية، وكان العرب وحدهم هم الذين يقدمونها بأسعار متزايدة ، فمن الواضح أنهم قد نزحوا من هذا المكان اكثر من مليونى قطعة ذهبية اذ كان يوجد هناك اكثر من الفى شخص ينفق كل منهم سكينا « عملة ذهبية قديمة » كل يوم ، بالاضافة الى أنهم كانوا يسلمون الينا كل يوم ١٣ الف جراية ، (حصة طعام الجندى فى اليوم) .

ألفلاحين يصفون بالطيبة والشرف هذا الفريق من العرب الذين لا يقتلونهم وانما يكتفون فقط بنهبهم .

وهذا الخطأ الذى يقترفه الشيوخ فى تقبلهم هذه المخازن السرية هو واحد من أهم الأخطاء التى تقود الى الدمار والهلاك . وقد رأيت من هؤلاء الشيوخ ، الذين أصيبوا بعمى البصيرة لحد يجعل منهم شهداء ثمنا لكلمة صدرت منهم ، يحتفظون بثروة العربان على حساب ثروانهم الخاصة ، بل وعلى حساب حريتهم ؛ بل لقد رأيت من بينهم من يتحملون عقابا مشينا . ويتلقون لوقت طويل عذاب الضرب بالعصى قبل أن يرغموا على الاعتراف على المخازن التى أوكلت اليهم . لكن هذا ليس من البطولة فى شىء فلست أحب هذا الوفاء للوعود التى انتزعت بفعل الرعب . لكننى ألوم هؤلاء « الشيوخ » لرعبهم وضعفهم ، وأعيب عليهم أن يجدوا أنفسهم بفعل وضعهم المزرى قد انساقوا الى العمل ضد الحكومة والى حماية أعدائها . وكم يتألم المرء وهو يرى العقوبات القاسية الى هذا الحد والمهينة الى هذا الحد وهى تطبق على مسنين يحظون بالتقديس بين ذويهم ، على رجال هم قضاة ورجال دين وسادة فى وقت معا وفى نفس المكان الذى يحكمونه . ولما كنت قد وجدت نفسى شاهدا على حوادث مماثلة ، فقد كنت آمل على الأقل أن أمثلة هذه القسوة سوف تخلص الشيوخ من عيوبهم هذه وأن سيكون بمقدورها أن تقود خطاهم نحو مصالحهم الحقيقية ، ولن تكون هذه المصالح مطلقا فى معاونة شذاذ آفاق يتعاقبون عليهم ، ويأتون لينهبوهم كل بدوره .. لكن هذه المصالح ستكون فى الارتباط بالحكومة التى تظل على الدوام هى هى ، ثم يطلب هؤلاء الشيوخ بعد ذلك دعمهم ضد قطاع الطرق هؤلاء فالضرائب التى يدفعونها للحكومة تعطيهم الحق فى هذه الحماية .

ومع ذلك فهكذا تمضى الأمور ، فشيخ البلد يقوم مرة باستقبال طيب للفرق « العسكرية » التى تمر بقريته لمطاردة العربان ، ومرة أخرى لهؤلاء العربان أنفسهم الذين يعاودون المرور بقريته بعد ذلك ، وسوف تكون سعادة هذا البائس مفرطة لو أنه لم يلق المهانة على يد أحد الفريقين عقابا له على استقباله الفريق الآخر وتقديم عونه للفريقين ..

ذات مرة وجــدت فى اشميت حوالى العشرين من العربان الذين اشتهروا بالسلب ، وعنــدما شاهدوا مجىء مقــدمه جنودنا خرجوا من القرية ، وامتطوا خيولهم .. كان الطرفان « جنودنا والعربان » جــد قريبين من بعضهما البعض لحــد لا يمكن معه أن يستعد أيهما للمعركة ، فتلاصــق العربان فيما بينهم واطلقوا بنــادقهم من خلف ظهــورهم ثم وضــعوها مستقيمة فوق الركبة علامة على الحرب ، ثم مضوا فى تحــد وفى شكل استعراضى ، وحيث كان عدد من تجمع من جنودنا لم يبلغ بعد ، سبعة أو ثمانية . وحيث كان هؤلاء مرتبكين بأمتعتهم ، فقد اضطروا ان يتركوا هؤلاء يفلتون دون أن يجــدوا فى أثرهم ، وأن ينتهزوا فرصــه أخــرى لعقاب هؤلاء اللصــوص النهابين . وعلى الفور هــرع الينــا شــيوخ القرية واستقبلونا بحفــاوه .. وكان هــذا الاستقبال الحافل هو نفس الاستقبال الذى قدموه منذ زمن قصــير للعربان ، ولقد قالوا لنــا عنهم الــكثير من السوء ، بنفس القدر الذى قالوه عنا لهم ، دون شك .

رأينــا من قبل أن العرب الجوابين يطعمون خيولهم ومواشيهم فى أغلب الأحيان على مشارف الصحراء ، من تلك الأعشاب التى تنمو هناك، لــكن ذلك لا يحدث الا عندما لا يستطيعون ان ينهبوا العلف من الفلاحين، حين لا يكون أولئــك البــدو كثيرين للحــد الذى يكفى للاقامة هنــاك وعندما يخشون بعض المقــاومة . أما فى الحــالة الأخرى فلن ينقصهم العلف مطلقــا ، ولن يحرموا من جانبهم شيئا على الاطلاق ، فهم يمررون خيولهم على المحاصيل ســواء كانت ناضجة ثمت ثمارها أو مازالت بعــد عشبا أخضر ، ويجعلونهــا تأكل القمح أو الشعير وهو لا يزال بعد نباتا صغيرا ، وانه لتناقض فريد أن ترى التلف الذى تحدثه الفرسات الطليقة بين القمح والبرسيم ثم نرى بعد قليل جواد شــيخ القريه « وصــاحب الحقل » مقيــدا الى وتد يرعى الــكلأ ونبــات الحلفا ، ويحدث فى بعض الأحيــان أن يشعر السكان بالمهــانة من هذا السلوك ، وعندئذ — اذا ما توفر لديهم بعض الفرسان — يطبقون على العــربان ولا يتردد هؤلاء مطلقا فى الهروب ، ولــكن اذا ما فقد العرب رجلا فى المعركة ، فسوف تكون معركة لا تلوح لهــا نهاية ، اذ يأتى أهل القتيل فى أعــداد كبيرة يطالبون بالقصــاص ، فلا ينــالون بغيتهم ، وعندئذ يأتون ليحصلوا على ذلك بأيديهم ، وهنــا تتبــادل حــوادث القتل والاغتيــال الفردى بين

الفريقين ، فقتل عربى واحد فى قرية يمكن أن يعرض هذه القرية لانتقام قبيلة بأكملها لسنوات طوال ، ولابد من ارضاء هذه القبيلة على وجه السرعة ، اذا شاءت هذه القرية الا ترى نفسها وقد خربت ، وكم شاهدت من قرى لم تعد فى الوقت الحاضر ، وبعد أن مرت بحالة كهذه ، سوى اطلال هجرها سكانها لأنها تجرأت على خوض معركة ، كان العرب فيها هم المعتدين .

وعندما يأتى الفيضان ، ينسحب البدو نهائيا من العمل لمدة ثلاثة اشهر ، وتكون هذه الفترة بالنسبة اليهم هى ابأس شهور السنة واكثرها مدعاة للأسى ، فليس هناك ما يلطف قبظ الصحراء الرهيب ، تلك التى لا يجدون مناصا من البقاء فى اسارها ، ويحتم الأمر أن تقرض خيولهم اغصان التمرهندى ، لكن ذلك ليس بمتوافر على الدوام . عندئذ يضطرون خلال هذه الفترة أن يقدموا الشعير لخيولهم ، وان كان ثمة ما يزيد على ثمانية أشهر من شهور السنة الاثنى عشر لا يحدث فيها ذلك على الاطلاق .

وينتهى الفيضان، ولا يلبث محصول الذرة أن ينضج . . وعندئذ تبدأ جولات الغزو والسلب . وبالسوء حظ تلك القرى التى يبلغ ضعفها حدا لاتستطيع معه أن تذود عن محاصيلها ! ذلك أن الذرة هى خبز العربان ، وهى نفس الوقت خبز الفلاحين لكن الأمر ينتهى بأن **تؤول** الذرة — ولو فى جزء **منها** على الأقل الى الأولين . . الى هؤلاء الأكثر قوة .

ويكون طعام العربان الرحل عادة أكثر سوءا من طعام الآخرين، واغلب هؤلاء غير حسنى الهندام ، ولون ملابسهم حائل كما انهم اكثر استعصاء على التعب ، لذلك فملامحهم أكثر جمودا ، وهى صارمة على الدوام وقاسية . وزى الفرسان على الدوام أبيض اللون ، اما ملابس السيدات وملابس الراجلين منهم فذات لون قاتم . ويرى فى مخيماتهم كثير من الرجال يضعون عصابات على أعينهم كما يحدث فى مدن مصر ، ذلك انه من الخطأ الاعتقاد بأن هؤلاء البدو لا يصابون بالرمد ، وهم لا يبذلون أى جهد ليحصلوا على الشفاء ، بل يظلون يلزمون خيامهم وينامون فى الظل كما تعودوا . وليس لهؤلاء العربان من عمل ثابت . وان كانوا على الدوام فى حالة حركة وفى حالة زحف ، وهم يذهبون كما

الضوارى الشهباء يبحثون عن فريستهم ، ولا يتوقفون الا حيث تستبقيهم الأسلاب .

وفضلا عن ذلك فان تقاليدهم وعاداتهم هى نفس عادات وتقاليد العرب الآخرين . فهم راضون سعداء بحظهم فى الحياة وبما يملكون ، وكما ينال الشيخ التقديس من قبل قبيلته فان رب الأسرة يلقى احترامه من قبل اسرته ، واذا ما امتلك الرجل منهم حصانين وجملين واربعة خراف وبندقية وخيمة ، فلقد نال كل ما يبغى وتحققت كل رغباته وحيث لا توجد لهم فى الغالب من قوانين الا القوانين الأسرية .. وحيث لايدفعون اية ضرائب ولا يلتزمون بأى التزامات اخرى فان مخيماتهم تبدو صورة مجسمة حقة لحرية لا يتمتع بمثلها مجتمع آخر على الاطلاق . ولا يهتم بدوى ما الا بنفسه ومكاسبه وشئون حياته هو وبفعاله ، وعندما يتم تجهيز قافلة فانه يؤجر جماله ويقدر هو الثمن الذى يرتضيه دون أن يكون عليه أن يوضح أمره لا لشيخه ولا لأحد آخر ، وهو يضخم من ماله الخاص عن طريق بيع الجمال الصغيرة والفرسان الصغيرة والبان ضأنه وعن طريق عائد التجارة التى يمكنه أن يمارسها . وبهذه الطريقة يبلغ سن الشيخوخة وهو مبجل عزيز على أولاده ويموت بعد أن يكون قد استمتع طيلة حياته باثمن ثروات الرجل : الصحة والحرية . وعند موته يترك أبناءه وهم متزوجون ، بل وآباء ، أغنياء بثروته هو ، وبما يكونون قد كسبوه .

واكثر العرب بؤسا هم أولئك الذين لا يمتلكون على الاطلاق خيولا ولا جمالا لأنفسهم ، بل ولا خياما وان كانوا يمتلكون بعض الحمير التى يربونها ويبيعونها فى الأسواق ، لكن هؤلاء الرجال لا يبدون تعساء، فتعودهم على ضروب الحرمان يجنبهم عدم التوافق مع الحياة ، وهم لا يرغبون فى ثروات يجهلونها أو ينظرون اليها على انها ابعد منالا مما قسم لهم ، لكنهم سرعان ما يفلتون من هذا القدر ، فحيث ان طموحهم الرئيسى ينحصر فى أن يكونوا ملاكا لفرس فانهم لا يلبثون أن يحصلوا على ثمنها عن طريق بيع بعض الخراف وبعض الحمير . وبعد اقتناء الفرس يتزودون فى أقرب وقت ممكن ببندقية وسيف . وفى النهاية يرى المرء هؤلاء الناس ، فى اشد حالاتهم بؤسا ، لكنهم يشاركون شيوخ

اقـدم العـائلات فى التبـاهى بأنهم بدو ، يكنون الاحتقار للأوروبيين ، ولـكل ماهو غير عربى ..

وعلى العموم ، فاننـا لا نجد لدى البدو البسطاء الا الأشـياء التى تعد من ضروريات الضروريات (٢٢) .

ولـكن ينبغى الا نحكم بما نرى عند هؤلاء على رؤساء القبـائل ، فمصادر دخل هؤلاء لا تجعلهم فى منزلة اقل من العرب الملاك ، وكبـار شيوخهم وعائـلاتهم وكـذلك شـيوخهم الشرعيون هم اغنيـاء بالنسبة للمصريين ، فهم يحصلون على دخول كبيرة من القوافل ، ويتخذون العديد من الزوجات والـكثير من الخـدم ، وطعـامهم بسـيط لـكنه صـحى ووفير ، والأسلحة الجميلة والخيول الجميلة ليست أمورا نادرة هناك ، ويشترى هؤلاء فى بعض الأحيان عبيدا سودا ليتخذوا منهم فرسانا .

وقلما تنقص البـدو الذخيرة التى يطلقونها ، وهم يتزودون بها من قرى تصنع فيهـا بشكل سرى ، ومع ذلك فهذه الذخيرة من نوع ردىء ، وتمدهم قرية الأشمونين الـكبيرة بالـكثير منها ، اذ يوجـد هنـاك من البـارود أكثر مما يوجد فى أى مكان ، بفضل اتساع أطلال هرموبوليس الـكبرى ، التى بنيت فوقها المدينة (٢٣) .

وعلى الرغم من أن العرب الرحل قلقون متوجسون فانه يحدث مع ذلك ان يؤخـذوا على غـرة وعنـدئذ يكتفون — ما أن يلمحوا الفـرق العسكرية — بترحيل خيولهم وجمالهم على وجه السرعة ، هـذا ان لم يسعفهم الوقت باقتـلاع خيـامهم ، وعندئذ لا يبقى فى الخيـام سـوى النساء والشيوخ والأطفـال ، ويستقبلك هؤلاء استقبالا طيبـا ، فتظن نفسك فى معسكر صديق ولست فى معسكر أعداء تجد فى البحث عنهم .

---

(٢٢) من هذه الضرورات التبغ ، وان يكن ينقص **الكثيرين** منهم ، وهم يجدون فى البحث عنه ليتخذوا منه نشوقا وسعوطا ؛ وقـد رأيت عربانا يدوسون على كبريائهم للحصول عليه ، لدرجة انهم كانوا يتحدثون بمودة مع جنودنا .

(٢٣) تهيىء هـذه الخرائب ترابا تحدثنا عنه من قبل ، يحتوى على الـكثير من ملح البارود .

ومع ذلك فقد يكون من الميسور فى بعض الأحيان أن تنتزع قطعان ضخمة من الجمال ، لأن هذه القبائل لا تقيم لأنفسها حرسا على الاطلاق اذا لم تكن تعرف أنها ملاحقة وأن ثمة من يجد فى أثرها . فهم فى العادة يعهدون بمئات من هذه الجمال الى ثلاثة رجال أو أربعة ليقودوها الى المرعى ، وفى بعض الأحيان تذهب كل جمال القافلة التى يبلغ عددها ألفين لترعى على بعد فرسخ من المخيم دونما حراسة من أى نوع ..

ولقد استقرت بعض هذه القبائل الجوالة منذ وقت طويل فى مصر ، وظلت على الدوام فى حالة سلم مع الحكومات ، بل تقدم اليها المساعدات ، ولا يمكن لأحد أن يوجه الى سلوكها لوما ، فهو فى مجموعه سلوك طيب لا يتعارض مع مصالحهم ويمكن أن نورد أمثلة على ذلك فى قبائل : طرابين ، الحويطات ، بلى .. وهؤلاء يقومون بكل قوافل السويس ، وسوريا ، ولولاهم لكانت تجارة البحر الأحمر عن طريق السويس بالغة المشقة .

ويختلف نطق اللغة العربية على لسان البدو تماما عنه على لسان الفلاحين .

ولا يمكن لنا أن نعد لهجة البدو جافة ، كما أنها لا تخلو من زخارف . ففيها بعض الرقة ، ويعتريها تناغم فى الصوت أكثر رخاوة، وتتآكل على لسانهم بعض المقاطع ولكن يعيبها أنها مبتورة وأكثر صعوبة . وهم يتحدثون على الدوام تقريبا بصوت خفيض ، وتكون اسنانهم حينذاك مطبقة ، ونبراتهم متنوعة ، وصوتهم منغما وغنائيا فى احاديث البسيطة ، وفى المناقشة الاعتيادية ، ويرفع أغلبهم صوته حتى يصبح ناشزا ، ولم أسمع مطلقا حرفا يلفظونه أكثر نقاء من حرف الزاى، وبشكل أكثر جاذبية حرف الزاى اللاثغة « الذال » ويفعلون ذلك دون ان يخلط هذان الحرفان على الاطلاق ، وأخيرا فان كل مخارج الألفاظ الخاصة باللغة العربية ، بل وحرف الخاء والنغمات الحلقية تأخذ فى افواههم رقة خاصة تقترب من اللغات الأوربية وتثير الدهشة فى مصر، ويتضح هذا بشكل خاص فى نطق الجيم التى يلفظها الكثيرون ليس غير

معطشه كما يفعل أبنــاء القاهرة وانما معطشة كما يفعل العرب بشكل عام ، ولــكن يشوبها نوع من نطق الزاى على طريقة الأطفال أو الرجال المخنثين . وتسمع من اقوالهم حرف الثــاء بشكل قاطع الرقة فى الكلمات التى يدخل فى تكوينها هذا الحرف . وقــد سمعتهم مرات كثيرة يغنون أثنــاء تجوالهم على الخيول فى لحن رتيب يخرج من الأنف ، وليس لكلماته معنى مفهوم ، ويكاد يتم الأمر بدون أن تفتر شفاههم ويلاحظ المرء فى هذا اللحن تكرار المقطع « ديا » على الدوام . ويتميز البــدو عموما بهــذه الطريقــة فى الغنــاء من بين أسنانهم . وفى النهاية فانهم يظهرون الكثير من الاحتقار للطريقة التى يتحدث بها المصريون ، وينطقون بهــا اللغــة العربيــة .

***

ولقد تبدو الملاحظات التى كانت موضــوعا لهذه المــذكرة ، والتى تمت بشكل مبدئى فى مسرح الأحــداث بهدف وحيد هو دراســة العرب وتقاليدهم ، قــد تبدو بلا هــدف مالم تكن ترتبط باطار عام ، أو كانت قد اقتصرت على تقديم بعض النتائج التى تقلق روح القارىء المنصف .

ولكى نكتفى فى هذه العجالة بأكثر هذه الملاحظات أهمية ، فان من الميسور أن نضيف الى ما سبق أن العرب المستقرين فى مصر يتزايدون اكثر فأكثر ســواء فى اعدادهم أو فى قوتهم وانهم سيستولون يوما على السلطة اذا لم يوضع حد لوقف غزواتهم . وفى الواقع ، فمهما تكن أصول واقــدار هؤلاء العرب ســواء هؤلاء الــذين يســكنون الخيــام منهم أو أولئك الذين يقطنون القرى ، وسواء كانوا يزرعون أو يستزرعون الأراضى أو كانوا لا يشتغلون الا بالقوافل وتجارة المــاشية ودواب الحمل ، وسواء كانوا ينتمون الى القبائل العربية القادمة من آسيا أو تلك التى قــدمت من شمال أفريقيا ، وسواء تلك التى تعيش فى حرب أو سلم مع حكام البلاد ، فاننــا نرى أنه تتوقد فيهم جميعا نفس الروح ، وأنهم يرون أنفسهم اعلى قــدرا من ابنــاء البلاد الشرعيين او المولودين على ضفاف النيل ، وانهم ينظرون الى مصر باعتبارها عقارا خاصا بهم . ان خلاص هذه البلاد يكمن

فى الانقسام الحالى بين هذه القبائل ، الأمر الذى يعود بشكل خاص الى غيبة زعيم يتولى قيادتهم ويكون فى ذلك قويا وقادرا للحد الكافى ، واذا كان هناك حدث هام قد جاء ليشتت اهتمام حكام مصر ، فقد تكون الاشارة الأولى كافية لاطلاق الشرارة ، واذا كان يحق لنا ان نوازن بين الترجيحات عندما يتصل الأمر بالمستقبل ، فلابد ان ينظر المرء الى هذا التطور باعتباره واحدا من اكثر التطورات التى تتهدد الشرق احتمالا .

أما عن طباع العرب كما صورتها ، فسوف يرى القارىء أن هذه الصورة ، لا تتفق فى كثير مع ما اشتهر عن هذه الأمة من النزاهة والصراحة ، وغير ذلك مما منحه لهؤلاء القوم هذا العدد الكبير من الرحالة . ومع ذلك فقد أردت أن أنقل الى القارىء باخلاص ، نفس الانطباع الذى تكون لدى وأنا بينهم ، فى مخيماتهم .

لقد كان على أن اقدم العرب كما قد رايتهم فى مصر ، وليس كما هم فى أماكن أخرى . أما الأفكار التى راودتنى وأنا أراهم يسلكون ، والانطباعات التى إستولت على أثناء تدوينى هذه الأفكار ، فقد احتفظت بها لنفسى ، مقتنعا بأن للرحالة هدفا يختلف عن هدف المؤرخ ، وأن عليه قبل كل شىء ، أن يولى اعتباره للمشاعر البسيطة التى شعر بها .

ومما لا شك فيه أن بدو الصحراء ، الذين ينطبق عليهم هذا الوصف ، وبخاصة ابناء شبه الجزيرة العربية ، يقدمون ملامح مختلفة بعض الشىء عما قيل ، واننى أميل الى الاقتناع ، بأنهم ليسوا فقط أقل جشعا ، وبأن لهم تقاليد أكثر لياقة ، ولكن ، فوق ذلك ، بأنهم يمارسون كرم الضيافة ، وبأنهم يصدقون فى ارتباطاتهم ، وفى بقية الأمور ؛ بل ان هؤلاء الذين رايتهم فى مصر ، انفسهم ، لا تنقصهم مطلقا الفضائل الأسرية ، لكن وضع هؤلاء يختلف عن وضع الأولين، فثراء البلاد التى يترددون عليها ، فى مقابل قحولة الصحراء ، يثير فيهم اكثر فأكثر ، الجشع والنهم والبخل ، أمهات الغدر والخيانة وكل الجرائم .

ومن جهة أخرى ، فان مثـــال المصريين والمماليك ، لم يفعل سوى ان اضاف الى عيوبهم ؛ فلقد ولد عندهم احتياجات كانوا يجهلونهـــا فى صحروانهم ، واذواقا غريبة على تقاليدهم البسيطة والأبوية ، والتى تشكل الطابع المميز للعرب ، وهو طابع ملحوظ لحد ظل معهم على نفس حاله منذ زمان لا تعيه الذاكرة ، دون أن تعتريه سوى تحورات بالغة الرهافة، على الرغم من أن دين محمد ، قـــد بوأ هـــذه الأمة عروشا كثيرة ، في آسيا ، وأفريقيا ، واوربا .

الدراسة السابعة :

القصير والعبابدة

دى بوا - إيميه

العنوان الأصلى للدراسة : مقالة عن مدينة القصير وضواحيها ، وعن الأقوام التى تسكن هذه المنطقة ، التى كانت ، فى الأزمنة القديمة ، مقرا لسكان الكهوف ..

تقع مدينة القصير على شواطىء البحر الأحمر ، عنـد خط عرض ٥١ ٥٦ شمالا ، وخط طول ١٢ ٤٤ ٣١ ، وهى تنهض بالقرب من الشاطىء ، فوق ساحل رملى ، يبلغ مائتين وخمسين مترا ، أما عرضها فلا يزيد على مائة وخمسين من الأمتار .

وبيوت هذه المدينة منخفضة ، وهى مبنية عادة من الطوب النيىء. واليكم هـذا الوصف الموجز للتقسيم المعتـاد لهـذه البيوت : ثمة فناء كبير ، وفوق البـاب مقصورة صغيرة مربعة الشكل ، وينتهى هذا الطابق العلوى بشرفة ، أما الطابق الأرضى ، فيضم حجرة أو حجـرتين بالغتى الضيق ، يلتصق بهما من الخلف جـدار السور . ويستخدم الفناء مخزنا، وان كان هذا أمرا لا يخلو من عيب ، فى بلد لاينذر به سقوط الأمطار .

وليس ثمـة بيت غـير مزود بخزان للميـاه . وتأتى الميـاه التى يستخدمها الأثرياء من عين تسمى درفاوة التى تقع على بعـد ثمانيـة أو تسعة فراسخ من المدينة ، ومياه هذه العين طيبـة لحد ما ، وتباع فى القصير بسعر ٢٠ــ٣٠ بارة للقربة الواحدة (١) ، وتزن هذه حوالى تسعة كيلوجرامات . وعلى بعد أربعة أو خمسة فراسخ ، توجد عين مياه أخرى وان كانت مياهها أقل جودة ، واخيرا ، فقد حفر الفرنسيون على مسافة قصيرة الى الجنوب الغربى من المدينة بئرا يبلغ عمقها مترا واحـدا فى مجرى جاف لأحد الأخوار ، ومياه هذه البئر ليست مالحة على الاطلاق ، وان كانت ماسخة الطعم بقدر ماهى ثقيلة ، الأمر الذى ينبغى أن ننسبه الى سلفات الجير التى تحتفظ بها الميـاه بعد تحللها . ويمكن لهذه البئر أن تمد بالمياه ما يقرب من ستمائة رجل كل يوم .

ومآذن المساجد هناك أقل ارتفاعا بكثير عن مثيلاتها فى مصر ، مما يعطى ملمحا للقصير مختلفا عن بقية مدن هذه البلاد .

---

(١) بارة أو مدينى وهى عملة صغيرة تساوى حوالى ٩ drachmes أى درهم ، وهو نقد رومانى ثم فرنسى ضئيل القيمة .

أما القصر ، فيقع خلف المدينة ، ويتحكم فيها بشكل تام ، فهو مشيد فوق هضبة مرتفعة من الجير الحجرى ، مغطاة بزلط مستدير الشكل ، يتجمع فى سلسلة من تلال تتكون كلها من هذا الزلط المستدير من مختلف الصخور ، وتعد هذه التلال التى تنحدر نحو البحر، بمثابة نهاية لسلسلة الجبال العالية التى تحد الأفق من جهة الغرب .

وكان هذا القصر عند مجىء الفرنسيين ، عبارة عن معين تعلوه اربعة ابراج ، ويبلغ سمك جدرانه من ٢٦ الى ٣٠ **ديسيمترا** . وهى مبنية بالحجر الجيرى ، ولا يحتوى القصر الا على عدد صغير من الغرف . كما يضم بئرا محفورة بأكملها فى الجص ، مياهها بالغة التقل ومائلة للملوحة وتكاد لاتستخدم الا فى سقاية الماشية . وعلى بعد مائة خطوة من الواجهة الجنوبية الغربية خارج القصر ، يوجد خزان مياه قديم ، مكسو بالطوب يمكنه أن يحتوى على ٤٥ مترا مكعبا من المياه ، وينتهى الى قاع الخزان مسارب عديدة ، تهبط من التلال المحيطة والمجاورة ، بحيث يمتلىء الخزان بشكل طبيعى بالمياه فى فصل الأمطار .

وفى الجهة الأخرى من الحصن (القصر) كان يوجد مسجد وعديد من الأضرحة أو المقابر هدمها الفرنسيون .

ولا يقطن هذه المدينة الا تجار قادمون من مصر ومن الجزيرة العربية، ويتوجه هؤلاء وأولئك اليها لاتمام أعمالهم ، ومع ذلك فليس لهذه المدينة سكان بمعنى الكلمة : بل ان شيوخ المدينة أنفسهم هم تجار من ينبع ، اكتروا من الحكومة المصرية جزءا من الضرائب الجمركية (أى حصلوا على التزام الجمارك هناك) .

وضواحى القصير صحراوية تماما ، وفيما عدا بعض نباتات الحنظل، وهى مع ذلك نادرة ، لا يكاد المرء يرى أى نوع من الخضرة . والأرض هناك رملية ، وان كنا نجد عند الاقتراب من البحر طبقات من الصلصال، على عمق بضعة ديسيمترات تحت الرمال .

والميناء مفتوح تماما أمام رياح الشرق ، أما من جهة الغرب فتحمى الشاطىء من الشمال هضبة من الشعاب المرجانية تمتد لمسافة مائتين وخمسين مترا داخل البحر ، وهذه الهضبة تنحدر بشكل رأسى ، وتأتى

السفن لترسو عندها ، فهى على نحو ما مرفأ طبيعى بناه المديخ (*) فى هذا المكان ، لكن المياه تغطيها فى حالات المد العالى بحوالى ثلاثه ديسيمترات ، أما فى حالات المد المنخفض ، فيبدو سطحها خشنا وعرا لحد لا يستطيع المرء معه أن يسير فوقه الا بمشقة بالغة . ومن المدهش حقا أن السكان لم يفكروا فى رفع هذه الهضبة قليلا (عن طريق الردم فوقها) لكى يقيموا فوقها مدينتهم ، ولو أن ذلك قد تم لكان بالامكان تحميل وتنزيل البضائع بسهولة بالغة ، أما فى حالتنا الراهنة، فان الناس مضطرون لنقل البضائع فى قوارب لا يمكنها أن تقترب من الشاطىء الا لمسافة ثمانية أو عشرة أمتار ، حيث يصبح البحر ضحل العمق كلما اقتربنا من المدينة ثم يكون عليهم بعد ذلك أن يخوضوا فى المياه ، حاملين البضائع فوق أكتافهم .

أما قاع الميناء فهو من الرمال ، وهو مستو بعض الشىء ، ومع ذلك فحيث أن قلسات (حبال) غالبية السفن العربية رديئة — اذ تصنع من التيل أو حتى من سعف النخيل (٢) ، مما يجعلها ضعيفة لحد كبير بالنسبة لمثيلاتها المصنوعة من القنب — فانهما (أى السفن العربية) تتعرض فى بعض الأحيان لحوادث قد لا تصيب مطلقا غيرها من السفن الأفضل تجهيزا .

ويشكل الميناء عند الغرب منحنى مقعرا ، تحيط به سلسلة من أحجار مرجانية ، وينتهى بصخرة من نفس النوع ، تتوغل داخل البحر بحوالى خمسمائة متر جهة الشرق ، وعلى بعد حوالى الف متر من هذه الصخرة، وبحذاء الساحل ، يقابل المرء صخرة أخرى يبلغ طولها ١٫٢٠٠ متر ، وهى بالمثل من المرجان ، وتغطيها المياه عندما يكون المد عاليا ويبدأ الشاطىء (البلاج) ، الذى يظل شديد الانخفاض حتى هذه النقطة ، فى الارتفاع ، وسرعان مايشكل تلالا من الزلط المستدير .

ويقع ميناء القصير عند مداخل وديان تؤدى كلها الى مصر ، وقد

(*) جنس حيوانات بحرية من المجوفات .

(٢) تصنع هذه الحبال من السعف الذى يغطى أغصان النخيل .

ادى ذلك الى حتمية اختياره على الدوام مستودعا لتجارة مصر العليا مع الجزيرة العربيـــة . وترســـل مصر الى هنـــاك فى الوقت الحـــاضر ، القمح والدقيق والفول والشعير والزيوت ومواد غذائية اخرى ، وترسل الجزيرة العربية البن والفلفل والصمغ والموسيلين وبعض الأقمشـــة من صناعة الهند (٣) .

واثناء اقامتى فى القصير ، ابتداء من الأول من بريريال من العـــام الســـابع حتى منتصـــف ترميدور (من منتصـــف مايو ١٧٩٩ حتى بداية اغسطس) كانت الرياح التى تهب على الميئـــاء قادمة من شمال الشرق ، وقد دخلت الى الميناء خلال هذه المدة خمسون سفينة ، يبلغ عدد اضخمها تسع أو عشر سفن ، كانت قادمة من جدة ، وكان خمس أو ست من هذه السفن مملوكة لعرب الساحل ، وكانت السفن الأخرى قادمة من ينبع . ولم تكن هذه السفن ذات سطوح على الاطلاق ، وهى تتبع الساحل على الدوام فى رحلاتها ، وعندما تكون الرياح بالغة الشـــدة فانها تحتمى فى خلجان الساحل الصغيرة ، فهى لا تمخر عرض البحر الا اذا كانت تريد عبوره

هنـــا يسمون البحر الأحمـــر بالبحر المـــالح ، أما فى الســـويس فيسمونه بحر القلزم ، ويبلغ اقوى مد للبحر رايته فى القصير حوالى ٨ ديسيمترات ، وان كان فى العادة لا يتجاوز ٥ ديسيمترات ، بينما يبلغ البحر فى السويس حوالى المترين .

وبطول الساحل ، يجـــد المرء كميات كبيرة من الاسفنج والمرجان وقواقع تتنوع الوانها بالغـــة الجمال ، ومن جهة أخرى فالســـاحل هنـــا عزيز الأسماك ، وأستطيع أن أقـــدم فـــكرة عن ذلك ، اذا ماتحدثت عن الطريقة التى كان الجنود الفرنسيون يصيدون بها السمك ، فقـــد كانوا يأخذونه أخذا بأيديهم ، بعد أن يقتلوه بضربة من السيف أو العصا .

وتسكن هـــذا الساحل قبـــائل من صيادى الأسماك ، كان لهـــا

---

(٣) لمزيد من التفاصيل ، انظر : دراسة موجزة عن تجاره الصعيد مع الجزيرة العربية ، وصف مصر .

مخيم على شـــاطىء البحر الى الشمال من القصير ، هجره سكانه عنــد قدومنا ، وكان كل كوخ من اكواخ هــذا المخيم مغطى بعظام السلاحف . ولا تعيش هذهالشعوب الا على اكل الأسماك وهم يحصلون عليها بالشباك او على أسنة الرماح ، ويجففون منها كميات كبيرة ، ويأتون الى القصير ليقايضوا بها بعض الأشياء اللازمة لهم . ويستخدم هذا السمك المجفف فى تموين الســفن . اليس ممــا يلفت النظر اننــا قــرأنا فى حكايات الأقــدمين (٤) أن الساحل الغربى للبحر الأحمر ، كانت تسكنه شــعوب جوابة آكلة للأسماك ، كان من بينهم شعب من آكلى السلاحف (٥) ، وكان افراده يستخدمون صــدفات هــذه السلاحف لتغطية اكواخهم ؟ هكــذا اذن أمكن لهــذه القبــائل الضعيفة أن تفلت من حكم الزمن ، وأن تعبر القرون تلو القرون ، محافظة على حريتها وعاداتهــا ، فى حين تقلبت أحوال أمم كثيرة بالغــة القوة ، فتغيرت انظمتها وحكوماتها بشــكل تام ، وتغيرت مع ما تغير عاداتهــا ، وفى نفس الوقت الذى اندثرت فيــه أمم أخرى ، فلم يعد هنــاك ما يدل عليها الا ما نقرؤه عنهــا فى حوليــات المؤرخين . ولــكن دهشتنا ازاء ذلك لابد على الفور أن تتوقف ، فالبؤس فى واقع الأمر لا يثير أطمــاع الآخرين وحنقهم ، وهكذا سوف تظل البلاد الخصيبة ترى على الدوام سـادة جددا ، فى حين تبقى رمال الصحراء القاحلة ملكا لآخر احفاد ملاكها الأول .

ولا يزال يعيش فى هذه المنطقة شعب يستحق ـــ بسبب تشابهه مع سكان الــكهوف القــدامى ـــ أن ندخل فى بعض التفاصيل حول عاداته وتقاليده ، **هؤلاء** هم العبابدة ، وهم أبنــاء قبيــلة جوابة تشغل الجبــال الواقعــة الى الشرق من نهر النيل ، فى جنوب وادى القصير وهى منطقة كانت تعرف فيما مضى باسم : Troglodytique « اى سكان الكهوف » ،

---

(٤) انظر بطليموس Patlymouth ، الــكتاب الرابع ، سترابون Strabon ، الــكتاب السادس عشر ، بوزاميــاس Pozamias الــكتاب الأول ، ديودور الصقلى ، الــكتاب الثالث والثلاثون ، بلين ، الــكتاب السادس .

(٥) يضع ديودور الصقلى اكلة السلاحف فى جزر قريبة من سواحل اثيوبيا ، ويذكر بلين أن بعضا منهم يوجدون بالقرب من الخليج الفارسى .

وتمتلك هذه القبيلة كذلك عدة قرى على الشط الأيمن (الشرقى) للنيـل أهمها دراو ، الشيخ عامر ، الرديسية .

ويدفع كل التجار الذين يمارسون تجارة القصير الى العبـابدة ٢٣ مدينى عن الجمل المحمل ومكيالا صـغيرا (٦) من القمح أو الفول أو الدقيق أو الشعير حسبما يحمل الجمل ، كما يأخـذ العبـابدة عينا ١/٢٠ من الخراف والماعز والدجاج والمواد التموينية الأخرى ، من تلك الأنواع التى تصل الى القصـير . وقـد اقام هؤلاء مخيمهم الذى نصبوه فى ضواحى هذه المـدينة بقصـد منع اى نوع من التهـرب (من الاتاوة) من جانب التجار ، ومن جهة أخرى فقد كان العبابدة ملزمين — فى مقـابل هـذه الاتاوة — بالسهر على تأمين الطريق وحراسة القوافل ، لكنهم لايتعهدون مطلقا بالرد على الحوادث وبخاصـة تلك التى يمكن أن تأتى من جانب عربان الحويطـات الذين ينتشرون فى هـذه الصـحراوات حتى قلزم السويس ، وتدور بين هاتين القبيلتين (العبـابدة والحويطـات) حرب مستمرة منذ زمان لاتعيه الذاكرة .

وفى وقت معين ، عندما يشـكل القمح والمواد الغـذائية الأخرى التى يقدمها التجار أكواما هائلة وسـط المخيم ، يتزايد عدد العبابدة ، ويبداون يمارسون تقسيم هذهالحصيلة فيما بينهم . ولم اتمكن من الحصول على اية معلومات حول الطريقة التى يتم بها هذا التقسيم ، ومع ذلك فمن الممكن الافتراض أن الأمر لا يتم على الدوام وفقـا « للذمة والأمانة » اذ ينتهى بمشاجرات فى معظم الأحيان .

وعدد الخيول لدى العبابدة بالغ القـلة ، فهؤلاء لا يركبون سـوى الهجين (٧) ولا يختلف هـذا الهجين عن الجمل الا فى أن قامة الأول اكثر رشـاقة بكثير ، كما أنه اكثر خفـة وسرعة اثنـاء الجرى ، ولا تشبه السروج التى يستخدمها العبـابدة لجمالهم على الاطلاق تلك التى تستخدم فى مصر ، اذ هى تتكون من قطع مختلفة من الخشب مربوطة الى بعضها البعض بسيور من الجلد ، كما أنها ليست ضخمة الحجم ، ومع ذلك يجد

(٦) ١/٢٤ من الأردب .

(7) Dromadaire des Naturalistes.

الانسان نفسه فيها مستريحا بشكل تام لأن الخشب محفور بطريقة تجعل السطح مقعرا مما يمنع الجسم من أن « يحمل » على جانب واحد ، وفى العادة يبسط فوق هذا السطح المقعر جلد خروف ، ومن فوق هذه السروج ، لا تتدلى ساقا الراكب كما يحدث للفارس المتطى حصانا، لكنه يكون جالسا ، وساقاه ممتدتان الى الأمام ، تستقران أو تتشابكان فوق رقبة الهجين .

ويربى العبابدة عددا هائلا من الجمال ، يؤجرون أو يبيعون جزءا منها للقوافل ، وهذا فيما اعتقد هو مصدر الجزء الأكبر من دخولهم ، وهم يجنون من جبالهم كمية كبيرة من السنامكى والصمغ العربى، كما يستغلون هناك النطرون والشبة وبعض المواد المعدنية الأخرى . فاذا ما أضفنا الى ذلك بعض العبيد الذين يجلبونهم من الحبشة ، فسوف نكون فكرة عن أهم السلع التى يأتى العبابدة ليستبدلوا بها فى أسواق مصر العليا ، الحبوب والمنسوجات والآنية من كل نوع ، وكل مايحتاجون اليه .

والعبابدة مسلمون ، لكن البلاد التى يقطنونها وكذا الحياة النشطة التى يحيونها على الدوام ، لا تمكنهم من اتباع كل مبادىء هذه الديانة باخلاص وورع .

ويتباهى العبابدة بأنهم شعب محارب ، واذا ما بادرت أحدهم بالسؤال : من أنت ؟ فانه يجيبك على الفور فى زهو واعتداد : أنا جندى . ولقد أجاب على هذا النحو كل الذين بادرتهم بهذا السؤال .

ويزعم العبابدة بأن بامكانهم أن يضعوا تحت السلاح الفى رجل، ولعل هذا تقدير مبالغ فيه ، وينبغى أن نتشكك فى صحته ، ولو على الأقل ، تبعا لذلك الميل الذى يغرى الناس عادة بالمبالغة فى قوة أمتهم .

وتتيح لهم طريقتهم فى الترحال أن يجتازوا بلدا صحراويا بالغ الاتساع ، فيقطعون ما يبلغ مائة فرسخ فى أربعة أيام ، ويحمل معه كل راكب هجين ، ثلاث قرب تتدلى بطول السرج : واحدة مليئة بالفول ،

واخرى بالميــاه ، اما القربة الثالثة وهى اصغر فتمتلىء بالدقيق . وفى بعض الأحيــان ، وبعد أن يكونوا قد تجهزوا على هــذا النحو ، يتجمع العبــابدة ويتوغلون لمسافة مائة أو مائة وخمسين فرسخا فى الصحراء، ليبــاغتوا بالهجوم قبيـلة هم فى حالة حـرب معها ، أو ليكمنوا ، فى انتظار مرور قافلة يبغون انتهابها .

ويختلف العبابدة اختلافا تاما فى تقاليدهم ولهجتهم وعاداتهم ، وبنيتهم الجسمانية عن القبــائل العربية التى تشغل مثلهم الصحراوات التى تحيط بمصر ، فالعربان بيض البشرة يحلقــون رءوسهم ، ويرتدون العمــامة ، ويلبسون ملابسـهم ، ولديهم أسـلحة نارية ورماح يبلغ طولهــا من أربعة الى خمسة امتــار ، وسـيوف مقوسة للغاية .. الخ .. اما العبــابدة فسود البشرة ، لــكن ملامحهم تتشابه فى كثـير مع ملامح الأوربيين ، وشعرهم جعد بشكل طبيعى ، لــكنه ليس كوبر الصوف ، وهم يحتفظون به طويلا يتــدلى على أكتافهم ، اذ هم لا يحلقون رءوسهم مطلقا. وتنحصر ملابسهم فى قطعــة من القمــاش يعقدونها أعلى الــكليتين ، ولا تتدلى لأبعد من منتصف الفخذين .

وحيث أنهم يتعرضون شــبه عراة لهــذه الشمس الحارقة فانهم ــ وذلك دون شك لــكى يخففوا من اثرهــا ولــكى يحتفظوا ببشرتهم ناعمة ــ يدهنون كل جسمهم بالدهون . بل انهم يضعون كمية منه فــوق رأسهم قبل أن يكون قــد ذاب بشكل تام ، حتى ليظنن المرء أنهم يضعون المساحيق على طريقــة الأوربيين . وشــيوخهم ، هم وحــدهم الــذين يرتدون العمامة فى بعض الأحيــان ، بالاضــافة الى قميص يستخدمونه أحيانا بمثابة ثوب .

وليست لدى العبابدة أسلحــة نارية على الاطلاق ، ويتسلح الرجل منهم برمحين يبلغ طول الواحــد منهمــا ١٦٠ ــ ١٨٠ ســم ، وبسيف مستقيم ذى حدين ، وبسكين مقوسة يعلقونها فى ذراعهم اليسرى ،ويحمل بمثــابة سلاح دفاعى ــ ترسا مستديرة من جلد الفيل يبلغ قطرها ٦٠ ــ ٧٠ سم .

ويعرف العبابدة اللغة العربية وان كانت لهم لغة اخرى خاصة بهم .

وربما كان هؤلاء يتحدرون من اصلاب تلك الشعوب الجوابة التى كانت تمتلك هذه المناطق فى الزمن القديم ، والتى حدثنا عنهم المؤلفون القدامى (٨) فالتر جلوديت Troglodytes (أى سكان الكهوف) كما يذكر هؤلاء المؤلفون ، كانوا يحملون من السلاح دروعا مستديرة من الجلد، ورماحا ، وكانوا عراة فيما عدا منطقة الفخذين والكليتين ، كما كانوا يمارسون الختان ، وأخيرا فقد كانت لهم طريقة لدفن الموتى خاصة بهم ، فقد كانوا يلقون بالحجارة فوق الجثة حتى تغطيها بشكل تام، وتمارس هذه الطريقة حتى اليوم عند العبابدة ؛ وفى واقع الأمر ، فقد لفت البعض نظرى فى وادى القصير الى اكوام عديدة من الحجارة ، كانت هى مقابر لبعض العبابدة الذين قتلوا فى احدى المعارك ، وقد رايت كذلك فى منتصف الطريق ، على بعد ثلاثة فراسخ من القصير ، تلالا من الحجارة ، وقد قيل لى أن من المحتمل أن هذه الحجارة تغطى جثة احد اثرياء التجار ، قد قتل على يد العربان .

ويبدو ان ديودور الصقلى كان يخشى ، وهو يدون منذ ثمانية عشر قرنا ، أن يحمل الناس ما يقصه عن سكان الكهوف (الترجلوديت) على انه خرافات ، وها نحن نجد من جديد على نفس الأرض ، وبنفس الطريقة ، نفس الأسلحة والجزء الأكبر من استخداماتها الكثيرة — وانه لأمر يبعث على الدهشة حقا أن يكون بمقدورنا على هذا النحو ، وبعد انصرام كل هذه القرون ، أن نكون شهودا على صدق مؤرخ .

ولم نشاهد اية خيمة فى ذلك المعسكر الذى كان للعبابدة بالقرب من القصير . وفى اثناء النهار عندما تلتهب حرارة الشمس ، يضع الرجل من هؤلاء على الأرض سرج جمله ، ويقيم تجاهه على مسافة معينة حجرا يماثله فى الارتفاع ثم يضع على هاتين الدعامتين سيفه ورماحه ، ثم يبسط فوق ذلك كله جلد خروف ، وهكذا ينهض بيت ، قلما يبلغ ارتفاعه فى الواقع اكثر من أربعة أو خمسة ديسيمترات . ولا يستطيع الرجل بداخله الا أن يكون راقدا ، ويحتمى آخرون من الشمس فى كهوف صغيرة

---

(٨) سترابون ، الكتاب السادس عشر ، ديودور الصقلى ، الكتاب الثالث .

كانوا قـــد حفروها على منحدر الجبل ، ولم اشاهد فى هـــذا المعسكر نساء على الاطـــلاق ، ومن المحتمل الى حد كبير أن تكون الأكواخ والخيام فى المعسكرات التى توجد بها نساء ، أكثر من تلك اتساعا لحد طفيف .

ولقد دفعنى الفضـــول مرات كثيرة للذهاب الى العبـــابدة ، وكنت على الدوام القى استقبالا طيبا ، كنت الفرنسي الوحيد الذى كانوا يرونه بشكل اعتيادى ، وسرعان مانظروا الى كواحد من اصدقائهم ، وكنت شـــاهدا لمرات كثيرة على مباهجهم وضروب لهوهم .

وليس للرقص عنـــدهم اية علاقـــة بذلك الرقص الشهوانى الخليع الذى للمصريين ، فهو يتخـــذ على الدوام صـــورة المعـــارك والمبارزات، فيتسلح الراقصـــون بالرمح أو السيف وبالدرع . ويخطون وهم يتبادلون الهجوم خطوات عـــديدة بخفة وقوة . وتتجلى المهـــارة فى الـــدفاع عن الدرع وتحل الهزيمة بمن يترك درعه تلمس ، وفى كثير من الأحيـــان ، ينـــدفع احد الراقصـــين نحو واحـــد من المشاهدين ، ويضع طرف سيفه على صـــدره مطلقـــا صيحة عالية ينبغى أن يجيب عليها بكلمة : عبابدة ! وعندئذ يبتعد الراقص عنه ويواصل رقصه .

وليس فى موسيقاهم ذلك الشجن وتلك الرتابة اللتـــان لموســـيقى المصريين : والعـــازف هو الشاعر نفسه فى ذات الوقت ، وتدور أغانيه حول امتداح أمجاد قبيلته والشجعـــان من ابنـــائها . وفى بعض الأحيان كذلك تتخـــذ من العشق موضوعا لها . ويجلس القوم من حوله يستمعون فى صمت وهو يغنى فى مصـــاحبة نوع من الماندولين ، وفى هذه الحالة تستطيع أن ترى المرح أو الخوف ، الشفقة أو الغضب يرتسم كل بدوره على وجوه السامعين .

ويبلغ عدد الوديان التى يمكن لنـــا أن نسلكها كى نتوجه من القصير الى مصر اذا ما سلمنا فى ذلك بما اخبرنا به العبـــابدة ، ستة وديان أو سبعة ، ويبلغ طول ذلك الوادى الـــذى عبرته مرتين حـــوالى الأربعين فرسخا ، تنبسط ابتداء من القصير حتى بير الأنبار .

وفى البداية يجد المرء على بعد فرسخين من القصـــير ، ذلك الخور

المسمى لمباجة (٩) ، ومياهه صافية شفافة ، لكنها ثقيلة ومذاقها غير مستساغ ، ويزعم العرب أنها ضارة بالصحة الى حد كبير ، ولذلك فهم لا يستخدمونها الا لجمالهم ، ومع ذلك فقد شربت منها ، وفعل نفس الشيء كثير من الفرنسيين دون أن يصيبنا منها اى اذى . وعلى شواطىء هذا الخور يرى المرء بعض اشجار النخيل ، وقليلا من الخضرة والوفا من الطيور ، وبخاصة الحمام البرى الذى اقام هناك اعشاشه، وهو يسكن فى تجويفات الصخور ويعيش على الحبوب التى تتساقط من القوافل .

ولا يمكن أن يعد اللمباجة شيئا فى بلاد خصيبة أما فى وسط العزلة وبين قحولة الجبال الجرداء فان خورا وبضعة اشجار بالاضافة الى بعض الكائنات الحية تكفى لتجعل من المنطقة مكانا بهيجا . ولعل هذا التعبير لن يبدو مبالغا فيه بالنسبة لهؤلاء الذين سبق لهم أن استراحوا فى هذا المكان وهم يعبرون هذه الصحراء . ولسوء الحظ ، فان مياه هذا الخور تضيع فى الرمال على بعد مسافة قصيرة من منبعه . ومع ذلك ففى فصل الأمطار يصبح هذا الخور فى بعض الأحيان نهيرا بالغ الاهمية يصب فى البحر بالقرب من القصير .

وعلى بعد أربعة عشر فرسخا من هذه الواحة الصغيرة يجد المرء عيونا تسمى المدوة ، وهذه عبارة عن ثقوب محفورة فى الرمال فى سفح هضاب منحدر من الشست ، وابعد من ذلك بفرسخ وربع الفرسخ، يجد المرء عين مياه مشابهة تسمى الأحمر ، كما يلمح هنا وهناك بعض الأكاسيا (السنط المستحية) (١٠) وقد عددتها فوجدتها تبلغ العشرين فى كل مساحة الوادى .

وقد قطعنا المسافة من الأحمر الى الجيتة فى ثلاث عشرة ساعة

---

(٩) قبل الوصول الى اللمباجة ، يلمح المرء على اليمين ، المحاجر التى استخرجت منها الأحجار والتى استخدمت فى بناء القصير .

(10) Mimosa nilitica.

ونصف الساعة ، هنـاك تتجمع الوديان الأخـرى ، وآبارها بالغـة الاتساع ، يكسوها القرميد ، وثمة منحدر يسمح للحيوانات بالنزول حتى سطح المـاء ، وعمق هذا المنحدر لايزيد عن متر تحت سـطح الأرض ؛ ويلمح المرء بالقرب من الآبار بعض بقايا الأبنية القديمة ، وخانا صـغيرا يستخدم لايواء المسافرين .

وابتداء من القصير حتى ما قبل الجيتة بحوالى فرسخ كنا نسير على الـدوام بين جبـال عاليـة وعارية ، من الحجر الجيرى ، والشست ، والجرانيت ، والحجر الرملى ، والرخام ، تتباعد قليلا بعضها عن البعض الآخر ، بل ثمة بعض السلاسل التى لا يتجاوز عرضها ١٢ ــ ١٥ مترا ، وهنـاك تسد قطع الصخور الطريق لحد أن جملين محملين ، يسيران فى طابورين يجـدان صعوبة فى أن يمرا فيها معا فى وقت واحـد ، لـكن الوادى عند الجيتة يبدأ فى الاتساع لحد كبير وسرعان مايشـكل سـهلا واسعا من الرمال ، ينتهى فى اتجاه مصر بسلسلة من تلال صـغيرة من الرمال والزلط المستدير .

بعد الجيتة ببضعة فراسخ لمحنا على البعد ارضا مزروعة ، آه !. كم بدت مصر جميلة فى عينى فى هـذا الوقت وهى التى قلمـا بدت لى مقبضة على النحو الذى مضى . وهذه الغـابات من اشجار النخيل التى لا يكاد المرء يحس بأن لها ظلا .. كم جعلتنى افتقـد غابات وطنى ! وكم بدت لى مقرا للنضارة والانتعاش ! اما النيل .. أيمكننى حقا أن اصـور ما شعرت به ما أن رأيتـه عند خروجى من تلك الصحراء التى قضـيت بها مدة ثلاثة اشهر ؟ كانت الخماسين تهب عندئذ بلفحتها الملتهبة ، لـكن هذه الميـاه العذبة ، موطن امانينـا ، كانت تخفف من التـأثير السيىء لتلك الرياح ، فكم يخفف الأمل فى خبر قريب من الم الحـاضر ، وعلى الرغم من اننـا كنا متعجلين ، عطاشى وجائعين فقد منحنا الخيال الفاكهة وماء النيل ، واسرعنا من عدو جمالنا ، فى حين كنا طوال الطريق منـذ القصير نسير فى خطو وئيد .. ولقد استمر هذا العدو مدة ساعتين لكننا كنا رجالا وجمالا ، قـد نسينا التعب وسرعان ما وصلنا الى بير الأنبار .

وبير الأنبـار هذه قرية صغيرة تقع على تخوم الصـحراء والأرض المزرعة . وهى تبعد بحوالى فرسخ وربع الفرسـخ على مدينـة قفط

القديمة ، الواقعة على بعد نصف الفرسخ من نهر النيل ، وعلى بعد ثمانية او تسعة فراسخ من الجيتة . وتتبع هذه القرية قبيلة العزايزى العربية ، ويجد المرء بها آبار مياهها بالغة الجودة فى أوقات الفيضانات، اما فى أوقات المياه الواطئة فانها تكتسب مذاقا غير مستساغ ، هو طعم الأيدروجين المخلوط بالكبريت . ويعود هذا الطعم دون جدال الى قذارة الآبار .

استغرق وصولنا من بير الأنبار الى قنا — وهى مدينة صغيرة على ضفاف النيل — اربع ساعات ، وهذه المدينة هى ملتقى القوافل التى تضطلع بتجارة القصير ، وتلك كانت نهاية رحلتى .

والوادى الذى انتهيت من وصفه هو الوادى الذى يسلكه عادة حجاج مكة والتجار الذين يمارسون التجارة مع الجزيرة العربية .

وقد دلنا بروس Bruce وبراون Browne وهما رحالنان انجليزيان على واديين آخرين . لكن اكثر هذه الوديان اهمية هو الوادى الذى اتبعه الضابط المهندس باشلو Bachelu ، ويقع هذا الوادى الى الشمال من ذلك الوادى الذى تحدثت عنه . ويجد المرء فيه الكثير من الآثار القديمة ، وتبلغ المسافة بينهما حوالى اربعة فراسخ ، وهذه الآثار هى نوع من المحطات الحصينة والتى بنيت على نمط واحد ، فهى عبارة عن فناء كبير مربع الشكل ، تحيط به جدران ضخمة وتعلوه الأبراج ، وتجد بداخله بعض الأطلال لمساكن كانت مبنية بداخله فيما مضى . وفى وسط الفناء توجد بئر بالغة الاتساع ، لها منحدر ، تستطيع الحيوانات بواسطته ان تنزل لتروى . وهذه الآبار مطموسة جزئيا ، ولكن من المحتمل ان نجد بها المياه اذا ما حفرناها قليلا .

واول محطة تقابلها عند خروجك من مصر تقع بعد اربعة فراسخ الى ماوراء آبار الجيتة ، وقد كانت هذه بلا شك فيما مضى أول محطة حصينة على هذا الطريق . ويبلغ عدد هذه المحطات حتى القصير ستا او سبعا ، وتبعد الأخيرة عن القصير بحوالى ستة فراسخ ، وفى النقاط التى ينقسم فيها الوادى الى عدة أفرع اقيم مكعب من المواد البنائية ، فى الفرع الذى ينبغى على المرء أن يسلكه . وعند حوالى منتصف الطريق ،

ياخذ الطريق فى الارتفاع تدريجيا ، وبشكل غير محسوس ، وبعد بلوغه قمـــة الجبل ، يهبط ثانية الى الوادى الذي يمتد بعد ذلك دون أى انقطاع آخر ، حتى خور اللمباجة ليتصل بالوادى الذى سبق أن وصفته .

وقد تحدث سترابون عن طريق يذهب من قفط Cophtos إلى ميوس هرموس Myos - Hormos . وهى مدينة تقع على شـــواطىء البحر الاحمر ، وكانت مينـــاء بالغ الاهميـــة فى ذلك الوقت ، ويضيف سترابون بأن هذا الطريق كان مطروقا بشكل اعتيـــادى ، وان النـــاس فى الأزمنة الأولى كانوا يحملون معهم الميـــاه اللازمة فى أسفارهم ، وكانوا يتوجهون مسترشدين بالنجوم ، ولـــكن حفرت الآبار بعد ذلك وانشئت خـــزانات الميـــاه للاحتفـــاظ بمياه الأمطار ، ويبلغ طول هـــذا الطريق مسيرة ستة أو سبعة أيام سيرا على الأقدام .

ويستشـــهد كثير من المؤلفـــين بهذا النص لسترابون Strabon ويطبقونه على طريق قفط ـــ بيرينيس Bérénice ، ومع ذلك فلو اننـــا قرأنا ماكتبه هذا الرحالة بانتبـــاه لوجدناه يتحدث بالفعل عن طريق قفط ـــ ميوس هرموس وبالموقع الذى حدده له .

وقـــد ظن دانفيل d'Anville ، الذى استوعب تماما كل ماأورده المؤرخون القدماء حول موقع ميوس هرموس ، أن عليه أن يعطى لهـــذه المـــدينة موقعا على بعد عشرين فرسخا الى الشمال من القصير ، حيث يبدو من المؤكد أن كان يوجد فى هذه المنطقة ميناء بالغ الأهمية .

واذا تبنينا هذا الرأى ، فان الوادى الذى نقابل فيه هذه المحطات الحصينة يمكن أن يكون جزءا من الطريق القـــديم الذى تحدث سترابون عنه ، والذى كان يفضى بالقوافل الى منطقـــة تبعد خمسة أو ستةفراسخ من القصير ، حيث نجد المحطة الحصينة الأخيرة ، وهنـــاك يتغير الاتجاه ويتخذ جهة الشمال حتى يبلغ ميوس هرموس .

ويهيىء لنـــا هذا الطريق ، الذى ظل مجهولا حتى وقت مجىء الحملة الفرنسية الى مصر ، خدمة جليلة ، ذلك انه سوف يستخدم بالضرورة ، فى تحديد موانىء البحر الأحمر ، التى كان يتردد عليها القـــدماء ، بطريقة اكثر دقـــة ، وبشـــكل لم يكن هنـــاك من استطاع حتى ذلك الـــوقت ، التوصل اليه .

الدراسة الثامنة :

القبائل العربية في صحراوات مصر

دي بوا - إيميه

العنوان الأصلي للدراسة هو : دراسة موجزة عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ..

ليست مصر ، ابتداء من أســوان حتى القاهرة ، سوى واد ضيق طويل (١) تحيط به الجبــال الجرداء ، التى لا يكاد ينمو عليها حتى تلك الطحالب الدقيقــة التى تغطى جبال أوربا وتلون أحجارهــا المعرضــة للهواء . ولا يشق هذه الجبــال نهر أو مجــرى من أى نوع ، اذ أننــا لانستطيع أن نطلق أيا من هــذين الاسمين على تلك الأخوار العــابرة التى تحدث نتيجة لسقوط الأمطار ، بالغة الندرة . ولا يمكن المرء أن يلقى هنــاك بعض النبــاتات المتناثرة اللهم الا فى قاع الوادى ، كما لا يمكنه أن يعثر ، الا على مسافات بالغة التباعد ، على الآبار . وليست هذه الآبار فى غالب الأحيــان سوى ثقوب ضحلة العمق حفرت وســط الرمال ، وتكاد مياهها على الدوام تميل الى الملوحة ، بالرغم من كونهــا صــالحة للشرب ، لــكنها فى كل الأحوال ليست غزيرة لحد يكفى أن ننشأ عليها بعض الزراعات . وتتقاطع هــذه الوديان فى اتجاهات عديدة ، أما تلك التى تؤدى الى وادى النيل ، فتبــدأ فى الاتساع كلما اقتربنــا من مصر لتشكل عندئذ سهولا من الرمال تتصل بالأرض المزروعة ، وبالنيل فى بعض الأحيان . وليس ثمة نشــاط نبــاتى اذا صح القول الا فــوق الأراضى التى يرويها النهر بشكل طبيعى أو بشكل صناعى — وتتناقص الخصوبة الشديدة لهذه الأراضى وبشكل صارخ مع ذلك الاطــار الخــارجى الذى يحيط بها .

والى الشمال من القاهرة ، يتفرع النيل عــدة أفرع ، وتتسع مصر ، وتأخذ الجبــال فى الانخفــاض لتنتهى بعد قليل الى سهول فسيحة من من الرمال لتنتهى شــمالا بالبحر المتوســط ولتنــداح من جهــة الشرق بصحراوات ســوريا والجزيرة العربية ، أما من جهة الغرب فانها تمتد لتصل مصر بأعماق افريقيا .

هذه الجبــال الجــرداء ، وتلك الوديان القــاحلة ، وكــذلك تلك

---

(١) يبلغ متوسط عرضه حوالى ثلاثة فراسخ .

السهول الرملية التى تضـــغط على مصر من كل الجهـــات ، والتى تبدو وكأنها تتحفز للوتوب حتى لينتهى بها الأمر أن تغطى أرضها الخصبة ، هى برغم ذلك كله مناطق آهلة ، يسكنها رجال ضخام أشداء يسمون بالعربان البدو (٢) ، وهؤلاء يتجولون بينما هم ينقسمون الى عائلات — مع قطعانهم فى هـــذا الخلاء الموحش . والمـــدن عند هؤلاء هى المخيمات ، وبيوتهم هى الخيـــام ، أما المراعى الوحيـــدة لقطعانهم فهى نبـــات العليق وبعض النبـــاتات الشوكية المبعثرة هنـــا وهناك ، وبامكان هـــذه القطعان أن تفى بكل احتيـــاجات هؤلاء العربان ، لـــكن الحرب والسلب يقدمان لهم مصـــادر ووسائل أخرى للمعيشة ، ويشاهدهم المرء يحومون حول مصر ، كما لو كانوا ذئابا جائعة تحوم حول فريسة دسمة ، وان كان العربان يسعون فى بعض الأحيـــان وعن طريق معاهـــدات يعقـــدونها مع حكام مصر أن يحصلوا على الاذن بالاقامة فى منـــاطق خصيبة ، وفى أحيـــان أخـــرى يقتحمون عنوة هذه المناطق ، والسلاح مشهر فى أيديهم لينتزعوا القطعان والمحاصيل ، ثم ينسلون فجأة ليلوذوا بصحاريهم ، فاذا ماجاء من يلاحقهم فان عادتهم فى تحمل العطش لوقت طويل ، والصبر على المتاعب بالغـــة الشدة ، تمنعانهم عن عدو غير معتـــاد الا على حيـــاة أقل خشـــونة ، . فالصحراء بالنسبة لهم ، حصن منيع يعز اقتحامه ، يلوذون بها فى أوقات الأخطار الـــكبرى .

اننا نحن فى اوربا ، نستولى على حقـــول العـــدو ومدنه عنـــدما يهرب ، ونثرى أنفسنا بأمواله وكنوزه وسائر مصـــادر دخله ، ذلك أنه يخلف وراءه أهلا وأصـــدقاء وممتلكات يأسى عليها ، أما البدوى فلا يخلف وراءه الا رمالا قاحلة .. أما اذا أرغمتـــه الظروف على أن يترك أى شىء فسرعان ماسيعوضه بأســـلاب جديدة ، فلسوف يعود هؤلاء البدو — بعد أن تكون قـــد ظننت انك قـــد دفعتهم بعيـــدا عن مصر — ليشنوا هجمات مضـــادة . ولهؤلاء البدو حفر سرية يخفون فيها البلح بل وعلف قطعانهم ، ويسهل عليهم الأفق الواسع المحيط بهم ، وكذا بيـــاض الرمال التى يبدو الرجال والحيوانات عليها مجرد بقع سوداء ، أن يكتشفوا العـــدو على

---

(٢) تعنى هذه الكلمة « رجل الصحراء » .

نفس المسافة التى ىمكن فيها الرؤية عنـدما يكون الانسان فوق سـطح البحر . وليس ثمة ما على هؤلاء أن يخشوه سوى المفـاجآت الليلية ، لـكنهم ، فى كلمة ، « أسـاتذه » يعرفون متى يقبلون المعـركة ومتى يرفضونها ، فاذا رأوا أنفسهم فى المركز الأقـوى فلابد أن ينتظرهم نصر مؤزر . أما اذا كانوا فى المركز الأضعف فسيفرون ولن يجنى العدو شـيئا من فرارهم .. لذلك فـكل الحروب النى يشنونهـا على مصر تنتهى فى العـادة لصـالحهم .. وينتهى الأمر بحكام هـذا البلد فى معظم الأحيان بأن يتركوا لهم بعض الأراضى الخصـبة على تخوم الصحراء ، وينعهـد البـدو من جانبهم الا ينهبوا الريف بعـد ذلك ، بل وفى معظم الأحيان بأن يدفعوا ضريبـة عن الأراضى التى تركت لهم ، ومع ذلك فحيث أن السلاح فى أيديهم على الدوام ، وحيث أنهم يحطون رحالهم على الدوام عند حافة الصحراء فانهم لا يحرصـون على احترام معاهـدة أملاها عليهم التعب والخوف ، وتظل تتحين الخيانة المطبوعة الفرصة لتمزيقها .

ومع ذلك فهناك بعض القبـائل ، التى لانت طبائعها بفعل سـلام طويل .. قـد انتهى بها الأمر أن هجرت الصـحراء وانتشرت داخل مصر وانتقلت بشكل تدريجى من حالة البـداوة الى حالة الزراعـة ، وكان فقدانها لحريتها المطلقـة هو على الدوام النتيجة التى ترتبت على ذلك ، ويقدم الصعيد مثـالا قريبـا على مانقول ، فقد كانت قبيـلة الهوارة ، وهى التى جاءت الى مصر من المناطق المجاورة لمدينة تونس بعد وقت قصير من هزيمة مصر على يد السلطان سليم ، كانت هذه القبيلة قـد استقرت فى الصعيد ، وفى البداية أقامت على مشارف الصحراء ، ثم اسـتولت فيما بعد بواسطة القوة والمهارة الحربيـة على جزء كبير من مصر العليا، ودعمت وضعها هـذا بدفع اتاوة الى حكومة القـاهرة ، وحين أصـبح الهوارة من ثراة الملاك ، كانوا قـد فقـدوا تدريجيـا عاداتهم الرعوية فاستبدلت بالخيـام بيوتا وتحول الحب الطاغى للحرية الى حب للوطن.. وظل هؤلاء العربان فى رخائهم يبـدون أسعد حالا من قومهم بالصحراء ، حتى أعلن عليهم على بك الحرب بعـد أن أثارت حفيظته قوتهم وطمع هو فى ثرواتهم ، وكان أن هزمهم فى لقاءات عدة . هكذا لم يعد بامكان هؤلاء العربان بعد أن فقدوا القـدرة على احتمال الرمال الحارقة وعلى مكابدة

صنوف الحرمان التى كانوا يعـــانون منها فى صحرائهم — لم يعد بامكانهم أن يفلتوا من سطوة المماليك .

وعدد القبـــائل الطليقـــة فى صحراوات مصر كبير واليكم أسماء تلك القبائل التى تعرفت عليها أثناء اقامتى فى هذه البلاد :

طرابين الـــكبرى ، الطميلات ، النفـــاحات ، العبـــابدة ، بلى ، الهوارة ، طرابين الصغرى ، الجوابى ، الهنادى ، الزهرات ، محاز ، بنى واصل ، السمالو ، الفرجان ، الترافع ، العزبزى ، بن وافى (٣) .

ويفترض أن هذه القبائل تستطيع اذا ما تجمعت أن تضع تحت السلاح مايقرب من ٣٠ — ٤٠ الف فارس .

ويرتبط بكل من هذه القبـــائل عادة ثلاث فئـــات من الرجال شديدى الاختـــلاف : الأسرى الذين حصـــلوا عليهم اثنـــاء الحروب ، والعبيـــد المشترون ، والفـــلاحون ، والفئتـــان الأوليان قليلتا العدد لحد كبير ، أما الفئـــة الأخيرة فيتفـــاوت عددها قلة أو كثرة تبعا لســـكان الأراضى الخصيبة التى احتلوها وكذلك بحسب عـــدد البؤساء من الفلاحين الذين هربوا الى مخيماتهم بحثا عن ملاذ من طغيان الأتراك والمماليك .

وعلى الرغم من الحروب العديدة ، والأحقـــاد المتوارثة التى تقسم هذه العصب ، فان علينا أن ننظر اليهم باعتبارهم يشكلون أمة واحدة ، فأصلهم المشترك ولغتهم وعاداتهم توضح ذلك بجلاء .

ولن آخـــذ على عاتقى هنـــا أن اقـــدم حكايات حروبهم وهزائمهم ومعاهداتهم ، ولن أدخل فى تفاصيل تاريخية عن الأحـــداث والشخصيات الشهيرة ، وانما سأكتفى بأن أبين بعض الملامح التى قد تكون بذات نفع فى التعرف على تقاليدهم وحالتهم السياسية .

---

(٣) حيث أن للعبابدة واكلة الأسماك فى سواحل البحر الأحمر أصلا وعادات مختلفة عن القبـــائل الرعوية الأخرى ، فاننى لم اتناولهم بالحديث هنـــا — راجع ماذكرته عنهم فى مقالتى عن مدينة القصير (الفصل السابع من هذا الـــكتاب) .

تنتمى كل القبائل الرحل التى استقرت فى مصر الى اصل عربى فيما عدا العبابدة (٤) واذا كان ثمة قبائل قد جاءت من جهة الغرب لتبدو وكأنها قد حطمت هذه القاعدة فلابد أن نتذكر أن هذه القبائل عربية وأنها ذهبت الى المغرب فى عهد الخلفاء الأول . وأغلب مزارعى مصر الذين يشار اليهم باسم : فلاحين ينتمون لأصل مشابه ، وهم قد استقروا هناك كمنتصرين عندما أصبحت مصر جزءا من امبراطورية العرب وكونوا الجنس المسيطر ، حتى اليوم الذى انتقلت فيه مقاليد البلاد الى أيدى المماليك الأتراك . وبينما استطاع العرب الذين ظلوا حتى هذه الحقبة يحتفظون بالعادات الرعوية التى ورثوها عن آبائهم ، أن يتملصوا من قانون المنتصر ، فان أولئك الذين كانوا قد انغمسوا منهم فى زراعة الأرض أو احتراف الحرف والفنون ، وسكنوا القرى والمدن قد كانوا مضطرين للخضوع للسادة الجدد ، وتضاءلوا شيئا **فشيئا** حتى بلغوا اليوم حالة لا تختلف فى كثير عن حالة العبودية .

ولقد سبق للعرب البدو فى زمن سابق أن يهزموا مصر ، ذلك أن المرء لايمكنه أن يشك فى أن ليس هؤلاء العرب سوى أولئك الذين أراد المؤلفون القدامى أن يشيروا اليهم عند الحديث عن هذه الشعوب الرعوية التى أخضعت مصر واحتفظت بها قرونا طويلة ، ثم طردوا منها قبل عهد سيزوستريس بحوالى ثلاثمائة عام (٥)

---

(٤) أنظر الهامش السابق .

(٥) حول هذا الموضوع اليكم هذه النبذة شديدة الأهمية نقلا عن مانيتون ولابد أن يتذكر المرء أن هذا المؤرخ المولود فى مصر داخل الطبقة الدينية قد استطاع افضل من اى شخص آخر أن يستفيد من الحوليات والكتب المقدسة فى امته : فى عهد « تيماؤوس » . أحد ملوكنا ، سمح الرب وكان غاضبا علينا دون أن نفهم لذلك سببا ، بأن يأتى من جهة الشرق جيش ينتمى لشعب ليست له أية شهرة وأن يسيطر بسهولة على بلادنا وأن يقتل بعضا من امرائنا ويضع السلاسل فى أيدى آخرين ، وبأن يحرق مدننا ويدمر معابدنا وأن يعامل السكان بغلظة شديدة ويقتل عددا كبيرا منهم وأن يسبى النساء والأطفال وأن ينصب ملكا علينا واحدا من أمته يسمى سالاتيس .

=

وثمة اعتقـــاد راسخ لدى العرب ، ودعمه القرآن ، يجعل هـــؤلاء العرب ينحدرون من صلب اسماعيل ، ابن ابراهام (ابراهيم) الذى قال عنه الرب « سيكون رجلا فخورا . ورعويا وحشيا ، ســـيرفع يده فى وجه الجميع وسيرفع الجميع ايديهم ضـــده ، وســـيرفع أغلامه أمام كل اخوته ، سأباركه وأمنحه ذرية كبيرة وعديدة » (٦) وفى هذه اللوحة عن

= وقد جاء هذا الحاكم الجديد الى ممفيس وفرض ضريبة على المقاطعات العليا والسفلى على السواء وأقام فيها حاميات قوية ، وبخاصة فى جهة الشرق لأنه كان يرى أن الأشوريين ما أن يحسوا بأنهم قد اصبحوا أقوياء، سيسعون لهزيمة هذه المملكة ، وعنـــدما بدا له أن مدينة أفاريس فى اقليم سابت الى الشرق من بوباسطة ذات موقع مناسب ، فقد قام بتحصينها تحصينا قويا ، ووضع فيها وفيما حولها كثيرا من المحاربين بلغ عـــددهم حوالى ٢٤٠ الف جندى . وكان يأتى الى هنـــاك فى أوقات الحصاد كى يبـــاشر جمع المحصول ولـــكى يســـتعرض قـــواته ليحافظ على مستوى تدريبهم وانضباطهم لحد لا يجرؤ معـــه الأجانب على بدء التحرش به بغية امتلاك دولته . وقـــد سيطر هذا الحاكم لمدة تسعة عشر عاما ، ثم أعقبه بيون وقـــد مكث فى الحكم ٤٤ سنة ثم ابخناس وحكم ٣٦ عاما وســـبعة أشهر ، أما أبوفيس الذى أعقبه فقد حكم لـــدة ٦١ عاما ، وحكم جانياس الذى اعتلى العرش بعده لمدة خمسين عاما وشهرا واحدا ثم أعقبه أسيس الذى حكم لمدة ٤٩ عاما وشهرين .. ولم توجد وسيلة للقضاء على الجنس المصرى الا ولجـــأ اليها هؤلاء الملوك الستة ، وكان هؤلاء جميعا يسمون الهكسوس أى الملوك الرعاة ، لأن كلمة هك فى اللغة المقدسة تعنى : ملك وسوس باللغة الدارجة تعنى : رعاة . ويقـــول البعض انهم كانوا عـــربا » .

ويضيف فلافيوس جوزيف Falvius Joseph (Réponsa à Appidon, trad d'Arnauld d'Antilly, liv. I. Chap. 5) الذى نقل الينا هذا النص من مانيتون بأن هذا المؤرخ يقرر أن ملوك الصعيد ، اذ لم يكن قـــد تم اخضاعهم كلية ، قـــد خاضوا حروبا طويلة ضـــد هؤلاء الرعاة وهزموهم وطردوهم فى النهاية من مصر التى كانوا قـــد احتلوها مدة ٥١١ سنة ، وأن هؤلاء الرعاه قد انسحبوا الى الصحراء وانقضوا على سوريا وانتهى بهم الأمر ان استولوا على اقليم يسمى يهوذا حيث أسسوا مدينة أورشليم.

(٦) سفر التكوين ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ١٢ والاصحاح السابع عشر الآية ٢٠ . وما ورد فى المتن ترجمة للاقتبـــاس كما جاء فى النص الفرنسى ، واليكم نص هاتين الآيتين كما جاءتا فى التوراة :

« وانه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحـــد عليه ، وأمام جميع اخوته يسكن » « وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها انا أباركه وأثمره وأنجحه كثيرا جدا . اثنى عشر رئيسا يلد واجعله أمة كبيرة » . (المترجم)

اسماعيل يتعــرف المرء على البــدو ، فالأبنـــاء لا يمكن لهم أن يشبهوا آباءهم بأكثر مما يشبه العرب أباهم اسماعيل .

أن المرء مدفوع على أن يقر بان هــذا الاعتقـــاد ليس خادعا على الاطلاق ، ولــكن الشيء الذى لا يمكن أن يتطرق اليه الشك ، هـــو أن للعرب والعبريين أصلا مشتركا ، فلنقرأ التوراة بانتباه ، وسوف يدهشنا هذا التشابه فى التقاليــد بين قــدماء البطاركة وبين تقاليد العرب البدو ، وستكون هذه القراءة بالغة الفــائدة اذا أمكن احد أن يقراها كما قراتهـــا أنا فى أرض جاسان على شواطىء البحر الأحمر ، وفى عيون موسى أو فى الصحراوات التى يحدها عند الأفق جبال حوريب وسيناء (٧) .

كل هذا يؤدى بنـــا أن ننسب الى العرب أصلا من أقدم الأصول ، وربما لا يوجد شعب يستطيع أن يتبــاهى بأنه قـــد أمكنـــه أن يحتفظ

---

(٧) تستحق التوراة التى تنـــال من البعض ازدراء أكثر مما ينبغى ، وتنـــال من الآخرين ، وهم الذين ينظرون اليها باعتبارها أساسا لمعتقداتنا الدينيـــة ، تقديسا أكثر من اللازم ، وتستحق أن تنـــال اهتمام الجميع من زاوية تاريخية محضة ، ذلك لأنه اذا كانت صروف الطبيعة تبدو فيها غير قابلة للفهم ، واذا كان التـــاريخ فيها غير مؤكد واذا كانت الوقائع التى ترويها مشكوكا فى صحتها ، فسوف نتفق على الأقل بأنه كان من المستحيل أن ترسم لوحة للحياة الخاصـــة للعائلات الهائمة فى الصحراء بمثل هذه الدرجة من الحقيقة : اذ نحن ما نزال نجد بينهـــا نفس العـــادات ونفس الطريقة فى العبـــادة بل ونفس مبادىء القـــانون العـــام ونفس الفنون ونفس الآنية ، بل نكاد نقول نفس اللغة .

فقـــانون القصـــاص وحق الانتقـــام الذى يؤول للأهل الأقربين . وحتى شراء الدم (الدية) وسطوة الشيوخ وعقاب المجدفين ، والختان ، وتقـــديم الأضحيات فوق أماكن مرتفعة ، والالحـــاح فى طلب امارة على بكارة الفتيـــات يوم زواجهن والعقم الذى ينظر اليه كلعنة من السماء ، والرغبة فى انجاب ذرية كبيرة العدد ، وحقوق الملكية والميراث ، واعداد الأطعمة ، والفزع من لحم الخنزير ، والمجوهرات والملابس ، وطريقـــة شن الحروب ، واقتسام الأسلاب المنزوعة من العـــدو ، وعادة السكنى تحت الخيـــام حتى فى البـــلاد الخصيبة والمليئة بالمـــدن ، وعادة القـــاء التراب فى الهواء فى أوقات الأخطار الكبيرة ، وفى أيام الأحزان الفظيعة . كل هـــذه أمور مشـــتركة عنـــد كلا الشـــعبين ، وفى زمن محمـــد كان يوجد عدد كبير من القبائل الطليقة فى الصحراوات تتبع ديانة موسى .

بملامحه القـــديمة بأكثر مما أمكن لهؤلاء العرب أن يفعلوا (٨) منذ العصور

---

(٨) واليــكم ما نقـــله الينـــا ديودور الصـــقلى عن العـــربان فى الصحراوات . وهو ما كتبه منذ ١٨ قرنا « أنهم يسكنون فى الخـــلاء ، دون أن يظلهم أى سقف ، وهم يتخذون من العزلة علما عليهم ووطنا لهم، وهم لا يختارون مطلقا لاقامتهم الأماكن القريبـــة من الأنهـــار وينابيع المياه خوفا من أن يجـــذب ذلك الأعداء الى مجاورتهم . ولا يسمح لهم قانونهم او عرفهم ان يبذروا الحب ولا أن يزرعوا اشجار الفاكهة ولا أن يشربوا الخمر ولا أن يعيشوا تحت ســـقف ، ومن ضـــبط من بينهم مخالفا لهذه العادات يعاقب بالموت لا محالة ، اعتقادا منهم بأن هؤلاء الذين يخضعون لمثل هـــذه العـــادات سيخضعون عما قريب لحكام يستعبدونهم . وبعض هؤلاء يرعون الجمـــال وبعضهم يرعى الماعز فى الخلاء . ولبس ثمة أغنى من هؤلاء الأخيرين بين العـــرب ، لأنهم . على الرغم من كونهم ليســـوا الوحيدين الذين يمتلكون قطعـــانا فى **الخلاء** ، يقومون فى نفس الوقت ـــ وعددهم لا يتجاوز ١٠ آلاف ـــ ببيع البخور والمر وعقاقير أخرى ثمينة حصلوا عليها من سكان اليمن ليبيعوها على شواطىء البحر ، وفضلا عن ذلك فهم شديدو الغيرة على حريتهم ، وعندما يبلغهم خبر مفاده أن جيشا يقترب منهم فانهم يلجأون الى أعمـــاق الصحراء التى تعتبر حوافها بفعل امتدادها بمثـــابة متاريس لهم ، لأن الأعداء حيث لا يعرفون فيهـــا موطن المـــاء ، لن يجرءوا على اجتيـــازها ، فى الوقت الذى يكون فيه العرب فى أمان من هذه الحاجة ـــ الحاجة الى الماء ـــ حيث قـــد سبق لهم أن أعدوا لأنفسهم آنيـــة ضخمة خبـــأوها تحت الأرض ، ولا يعرف سواهم العـــلامات الدالة على هذه الآنية . وحيث ان الأرض كلها لا تكون الا من أرض طفلية رخوة فانهم يجدون الوسيلة كى يحفروا فيها مغارات عميقـــة وواسعة على شكل مربع يبلغ طول كل ضلع منها ذراعا ، وفتحتها بالغة الضيق ، وعنـــدما يمتلىء هـــذا الـــكهف (الجب) بمياه المطر يقفلون مدخله ويسوونه بسطح الأرض التى تحيط به ويتركون عليه بعض علامات لا يمكن أن يتعرف عليها ســـواهم . وهم يعودون القطعان التى يخطفونها الا تشرب الا كل ثلاثة أيام وذلك حتى تعتاد فى تلك الحالة التى سيكون عليهم أن يحيوها عنـــدما يهربون بعيـــدا بعض الشىء عبر سهول قاحلة على أن تقـــاوم العطش بعض الوقت ، وهم يعيشون على اللحوم واللبن والفواكه الشائعة والعـــادية وتوجد فى أراضيهم اشـــجار الفلفل وكذلك كثير من ذلك العسل الذى يسمى العسل الوحشى وهم يشربونه مع الماء، وثمة أجنـــاس أخرى من العرب يعملون فى فلاحة الأرض ، وهم يخضعون لحكومات مثل السوريين ، وهم يتشابهون فى أمور كثيرة فيما عـــدا أن السوريين يسكنون فى منازل .

ديودور الصقلى ، الـــكتاب التاسع عشر ، ترجمة الأب Terrason

الضاربة فى القدم . وهؤلاء العرب - منقسمين الى قبائل ، وخاضعين لشيخ العائلة ، وساكنين تحت الخيام — يهيمون مع قطعانهم من من ضفاف الفرات الى ضفاف النيل ومن شواطىء المتوسط حتى الخليج الفارسى وبحر الهند ، لم يغز أرضهم أجنبى ولم يغير من لغتهم أو تقاليدهم غاز ، ولكم أرادت أمتان أكبر قوة وأكثر شهرة بسبب فتوحاتهما وهما الفرس والرومان ، أن تخضعا العرب لسيطرتهما ، بلا جدوى ولكن ما أن أصبح هؤلاء العرب فاتحين فى عهد الخلفاء ، حتى غطوا بجيوشهم شمال افريقيا ، وأسبانيا ، ووسط فرنسا ، وسوريا ، وفارس ، وآسيا الصغرى ، وعندما حدث أن طردوا وقت هزيمة فقد كانوا يعرفون على الأقل ، ودائما ، كيف يحتفظون بوطنهم القديم . وينظر البدو ، وهم الفخورون بنقاء عنصرهم ، وبأنهم يستطيعون الدفاع دوما عن حريتهم ، ينظرون باحتقار الى أمم العبيد التى تحيط بهم .

وقد حدد الحب الأبوى والاحترام البنوى شكل حكومتهم ، كما أن هاتين الرابطتين هما اللتان تربطان بين مجتمعهم ، فكل أسرة تطيع من بينها هذا الشخص من أفرادها الذى جذب لنفسه أكبر قدر من الاهتمام بفضل حكمته وقدراته وثروته ، ويكون هذا الشخص فى العادة رجلا مسنا ويتخذ لقب شيخ ومعنى هذه الكلمة : العجوز أو المسن (٩) .

وعندما لا تكون الأسرة كبيرة العدد لحد تستطيع معه حماية نفسها بنفسها ، فانها تنضم الى أسرة أخرى ، ويعطى أكبر الشيوخ نفوذا اسمه للقبيلة التى تشكلها هذه الأسر المتحدة ، ويمارس عليها جميعا السلطة التى لم تكن له فى البداية الا على أهله ، وسلطة هذا الشيخ جد محددة فيما يختص بالأفراد ، لكن نفوذه كبير فى الأمور المتصلة بالصالح العام: فهو الذى يقرر السلام كما يقرر الحرب، وهو حق خطر مالم يمنعه صالحه الخاص — وهو مرتبط بشكل حميمى بصالح قبيلته — من اساءة استعماله . وهو لا يتقاضى أى راتب عن وظيفته ، ويتكون دخله — شأنه شأن بقية العربان — من منتجات قطعانه ، ومن الزراعة الوقتية لبعض

---

(٩) كلمة شيخ معناها عجوز ، ومع ذلك فيمكن اطلاقها على شاب مثل كلمة Senior عند اللاتين التى جعلنا منها كلمة Seigneur

الأراضى ، ومن نصيبه من الأســلاب وضريبــة المــكوس التى تدفعهــا القوافل التى تمر من أرض قبــلته . وتنظم سلطته طبقا للعادة ، وليست ثمة قوانين تحددها بشكل قاطع ، ولــكن اذا ما دفعتــه نزواته ، وكثرة اصــدقائه وخدمه على اســاءة استخدام هذه السلطة وجعلته فى نفس الوقت بمنــأى عن الانتقــام ، وهو الأمر الذى تجلعه حــاة الصحراء مبسورا على الذبن وقع الحيف عليهم ، فاننــا نرى على الفور جمهرة من العائلات تنفصل عنه لتنضم الى قبــائل أخرى . وبهذه الطريقة ، اندثرت فى بعض الأحيان قبــائل كانت كبيرة العدد ، وانتهى بها الأمر أن اختفت بشكل نهائى ، بينما تضاعف عدد قبــائل أخرى فى وقت سريع وهى التى لم تكن تحظى بأى نصيب من الشهرة .

وكلما أطلنا التفكير ، كلما تبينت لنــا قلة وسائل القهر فى حكومة المشــايخ ، حيث لا توجد فى مخيماتهم سجون يمكن أن يزج اليها بالبراءة الطليقــة لتجاور الجريمة البشــعة ، كماأنه ليست ثمة سراى يستطيع الحاكم فيها أن يخفى أفعــاله عن كل الأنظار ، ويمضى الشيخ العــربى حيــاته فى الهواء الطلق دون حــرس ودون موكب ، ويشــهد على كل أحاديثه ، وكل فعاله جميع رجال القبيلة ، فهو اذن لايستطيع أن يخفى شيئا عن رقابة الرأى العــام ، كما لايستطيع أن يغطى على سوءة من مساوىء سطلته تحت قناع الصالح العام . كما أن رعاياه ليسوا عديدين لحد يستطيع معه عن طريق لعبة اقتســام المصــالح أن يضرب البعض بالبعض الآخر .

ولا تختلف الحياة الخاصة للشيخ عن حيــاة بقيــة العربان الا فى غذاء أوفر لحد ضئيل ، وفى ملابس أفضل وأسلحة أكثر انتقــاء : ومهما يكن له من خدم فانك لتراه ينظف ســلاحه ، ويقــدم الطعــام لخيــله ويسرجها بنفسه ، وتعد له زوجاته وبنــاته وجبات طعامه ، وهن يغزلن ملابسه ويغسلنها وســط المخيم ، ويذهبن حاملات الجرار ليجلبن المياه من العين المجاورة ، أو ليجلبن لبن القطيع . تلك كانت تقاليدهم القديمة التى لم يهمل هوميروس تصويرها باخلاص ، وتلك حتى اليوم هى حياتهم الأبوية التى لا يزال سفر التكوين يحتفظ لنا بلوحاتها البسيطة والشيقة.

قلنا ان كل قبيلة تحمل اسم شيخها ، لكن تسميتها بهذا الاسم تعود الى وقت تكوينها ، أو تعود الى احدى الفترات الهامة التى مرت بها . لأن هذا الاسم لا يتغير مطلقا من جيل لآخر ، فالاسم يبقى هو نفس الاسم ، حتى يأتى شيخ يستطيع أن يصنع لنفسه ، بفضل حكمته ومواهبه العسكرية ، شهرة تمحو شهرة أسلافه ، ويصبح رعاياه تحت حكومته اكثر ثراء واكثر عددا واكثر هيبة ، ويجعل منهم على نحو ما شعبا جديدا . . هنا يأخذ اتباعه يتعودون شيئا فشيئا أن يشيروا الى انفسهم باسم ذلك الرجل الذى أخرجهم من الظلام ، وسرعان ما ينتهى الأمر بهذا الاسم أن يحل كلية محل الاسم الذى كان لهم فيما سبق .

ويوضع عادة أمام اسم كل قبيلة كلمة بنى وهى تعنى ابناء . وهكذا فبدلا من أن تقول قبيلة واصل تقول قبيلة بنى واصل . واسم الابن هذا الذى يتخذه كل العرب بلا تمييز ، هو فى نفس الوقت سلسلة فى حكومة أبوية يخضعون لها : ياله من بون شاسع بين هذا الاسم ، وبين اسم العبد الذى تستخدمه غالبية الشعوب !

وتقدم الخلافات من كل نوع الى محكمة الشيخ ، لكن سلطة الشيخ هى بالأحرى سلطة حكم أكثر منها سلطة قاض . ومهما كانت الجريمة خطيرة ، فانه نادرا ما يصدر حكما بالموت .

واليكم الصيغة المتبعة فى هذه الأحوال : يتوجه امرؤ الى الشيخ طالبا اليه القصاص . ويجلس الشيخ على عقبيه على طريقة أهل البلد، وأمامه يجلس المتقاضون على نفس طريقته ، ويطلب الشيخ اليهم نزع الخنجر الذى يحملونه عادة فى حزامهم ويضعه على الأرض ، ثم ينصت الى ادعاءات كل منهم ، فاذا مارفض التدبير الذى اشار به فانه يستدعى اليه شخصية أو شخصيتين تحظيان بالاحترام بحكم سنهما وأخلاقهما ، ويعرض القضية ثم يدعوهما الى ابداء الراى ويستطيع الشيخ أن يستشير مسنين آخرين اذا اقتضى الأمر ، لكن من النادر أن يتسع الامر لهذا الحد ، وعادة ما ينبرى الحضور الذين جذبهم الفضول الى مكان المناقشات للطرف العنيد ويصحبونه معهم وهم يقولون : هيا ، انت مخطىء ، فقد جانبك الصواب ، انصرف ، انصرف . . ويبدون وهم

يقولون له ذلك بمظهر الاصـــدقاء الملاطفين الذين يريدون أن يحصلوا عن طريق اللباقة والرقة على ما قررته حكمة الشيخوخة ، ولـــكن اذا ما ظل هذا سادرا فى تمرده ، واذا مارفض الاستجابة للرأى العام ، وهو عندهم بمثابة الحكم الأعلى ، فانه يطرد من القبيلة وتصادر ممتلكاته .

هذا بخصوص القضــايا ذات الصبغة المــدنية البحتة . أما اذا اختص الأمر بالسرقة أو بأية جنحة اخرى غير اراقة الدم ، اى من نوع تلك الجنح التى تعكر صـــفو الأمن العـــــام فيما عدا القتل ، فان نفس الاجراءات ســـوف تتبع ، مع هذا الفارق الوحيد ، وهو انه ما أن يثبت الاتهام حتى ينفذ العقـــاب على الفور ، ويعاقب المدان عادة بدفع غرامة أو بتلقى عدد معين من ضربات العصا . وهو أمر لا يأنف الشيخ من القيام به أحيـــانا بنفسه ، ويسارع كل الشاهدين الى معونته ، فيرقدون الرجل المـــدان على بطنه ، ويعلقون قـــدميه فى حلقتين من الحـــديد مثبتتين عند منتصفهما بعصاة ، ويمسك رجلان بطرفى هـــذه العصا ، ويرفعان ساقى المـــذنب ، وتلمس ركبتاه الأرض ، ويظهر باطن قدميه فى الهـــواء بشكل افقى وفى وضع ثابت . وعلى هـــذا الجزء يتم الضرب بعصا مرنة لحـــد ما ، أو بنوع من السياط يسمى كرباج مصنوع من جلد الفيـــل او جلد فرس النهر .

وتعد المشروبات الـــكحولية والمواد المسكرة مصـــدرا لعـــدد كبير من الجرائم عند الشعوب التى اعتادت عليها ، لـــكنها عند العرب « حيث هم لا يشربونها » ليست مصدرا لأى جرم ، ويساهم هذا فى الحفاظ على الهـــدوء فى معسكراتهم .

واذا ما رأيت الحـــدة التى ينـــاقشون بها لأتفـــه الأمور ، فانـــك ستدهش من أن الضربات لا تعقب هذه الكلمات الحادة ، وتكاد مناقشاتهم كلها تمضى فى تبـــادل الصرخات ، ولعل الســـبب فى ذلك هو أن رجالا كهؤلاء ، مسلحين على الدوام ، لا يمكنهم الاندفاع فى الشجار دون تقدير منهم لعواقبـــه ، فنتـــائج القتل على الدوام خطيرة اذ يكون لأهل القتيل أن ينتقموا له ، وفى هذه الحالة يبـــاح الاغتيال . وهكذا يصبح القصاص قانونا مقدسا لا يستطيع الشيخ نفسه أن يتملص منه . لكن الأمر البشع

فى كل المسألة هو ان القاتل هنـــا لا يلاحق وحده ، بل يلاحق معه أهله الأقربون . وعنـــدما يكون لأسرة ما ثارات عليها القيـــام بها تجاه أسرة اخرى ، فانه يقال حينئذ أن بين هاتين العـــائلتين دما ، ويكون عليهما أن تنفصـــلا وان نعيشا فى حالة حرب تستمر فى بعض الأحيان لعدة أجيال، ذلك ان الثـــأر يوجب ثارات أخرى وهكذا ، بل أن موت القاتل نفســـه لايأتى مطلقـــا بالهدوء ، واذا ماهلك احد من آله بسببه فان الأحقاد تتزايد بدلا من أن تقل . وهذه المعـــارك الباطنية لا تنتهى ، خاصة اذا ما كانت العـــائلات المتمادية تنتمى الى قبـــائل مختلفة لأن القبـــائل المعنيـــة تتخذ عادة موقف الدفاع بالنسبة لأبنـــائها ، وتنتج عن ذلك حرب عامة . وثمة حروب من هذا النوع بدأت منـــذ زمان لا تعيـــه الذاكـــرة . ومع ذلك فيمكن ــ فى بعض الأحيـــان ، وقبل أن تتعقد الفتنـــة لأكثر مما يجب ــ تهدئة العـــائلة المـــكلومة بواسطة تقديم هـــدايا اليها ، تتكون بدرجـــة اساسية من الماشية ، ويسمى الاتفـــاق الذى يتم على هذا النحو بالدية او اعادة شراء الدم . ونرى فى التوراة أن شراء الدم هـــذا كان معروفا منذ زمن موسى بين القبـــائل الرحل التى كان هو مشرعا لها . أما عندما تكون العائلتان المتعـــاديتان تنتميان الى نفس القبيلة فان عقد اتفاق الدية يصبح أقرب منالا . وفى هذه الحالة يستخدم الشيخ وكل مسنى القبيـــلة كافة نفوذهم .

ويحدث القصاص والدية أيضا بالنسبة للجروح، وللآباء على ابنائهم حق الموت ، ويطبق الرجال هـــذا العقاب على أى من زوجاتهم او بناتهم او اخواتهم تخرج عن سبيل الرشاد .

وليست المبارزة معروفة عنـــد العرب ، وهم يستعيضون عن ذلك كما قلنـــا للتو بالاغتيالات ، ويلاحظ الأمر نفسه عند غالبية الشعوب ، قـــديمها وحديثها على حد السواء ، ذلك أن هذه العادة النبيلة ، عادة تحدى الخصم ومبارزته بسلاح مماثل ، وهى العـــادة التى تجعل من هذا الحقد الشـــائك والانتقـــام البشع نوعا من النزاهة والشجاعة لا تحدث الا عنـــد أمم شـــمال اوربا . ومع ذلك ، فاننـــا نجد فى الواقع ونحـــن نتصفح التـــاريخ العربى مثل هذه المبـــارزات الفريدة التى حدثت عنـــد كل الشعوب ــ سواء كانت هذه المبـــارزات بين عدد ضئيل من المحاربين

الذين اوكلت اليهم باتفـــاق مشترك ، مهمة أن يتولوا وحدهم الدفاع عن مصـــالح قريتهم ، او ســـواء بين شخصين شـــجاعين عنـــد استعراض الجيوش المتعـــادية لمجرد تبـــاه بالشجاعة . لـــكن مثل هذه الأمور من قعقعة السلاح لا ينبغى أن تختلط بالمبـــارزة بالشكل الذى نعرفه نحن فى اوربا منذ زمان ضارب فى القدم كرد على الاهانات الشخصية .

وتقتضى مصالح امن هؤلاء العرب أن يقوم شيوخهم بدراسة اخلاق وطباع حكام الدول المجاورة، وكنا على الدوام ندهش من صوب أحكامهم. وهم يتفاوضون بقدر من الشرف ، ويستطيعون ويعرفون كيف يدافعـــون عن حقوقهم بمهارة ورقة ودبلوماسية لا يمكن لدبلوماسيينا أن ينكروها . ولـــكم اتهمناهم بسوء الطوية ولـــكن هل درينـــا ما أن كان قـــد حدث من جانبنـــا تصرف معاد نحو تلك **القبائل** الصـــديقة والتى كان يصعب علينا على الدوام ان نميزها عن تلك القبـــائل التى كانت ماتزال فى حالة حرب معنا ، وما أن كان مثل هـــذا التصرف من جانبنـــا هو الذى هيـــأ لهم اسبابا عادلة لمعـــاودة حمل السلاح ضـــدنا ؟ ولقد كنت لمرات عدة شاهدا على مثل هذهالاساءات غير السارة ، واتذكر وسط ذكريات أخرى، انه حدث عند عبورنا وادى الطميلات مع فصـــيلة مدفعيـــة : ان قابلت مقدمتنا عند حوالى آخر النهار ، عربيا بدويا يجلس على الأرض معاثنتين من السيدات ، وبالقرب منه كان حصانه وسلاحه ، وغير بعيـــد من ذلك كانت تبـــدو بعض البقرات وبعض الخراف ، ولو أن العربى كان قد أخذته المفاجأة ،لـــكانت ما تزال لديه الفرصـــة كى يقفز فوق حصـــانه وينجو بنفسه ، لـــكنه لم يفعل ، وانما ســـارع برسم علامة الصـــداقة لجنودنا وهى عبـــارة عن تقريب ابهـــامى كلتا يديه وهو يلفظ : سوا ، سوا ، « معا ، معا » . ولـــكن هـــذا من جانبه كان بلا جدوى ، ذلك أن جنودنا ـــ وقد حرضهم على ذلك انكشارى تركى كان يعمل مرشدا لنـــا ـــ قـــد شتموه وشتموا نساءه وجروا خلف ماشيته . واضطرته طلقة بندقيـــة صوبت اليـــه أن يقرر الهرب ، فاندفع بهمة الى داخل الصحراء وهـــو يذود عن نفسه بسلاحه ضـــد أولئك الذين يحدقون به ، واطلقت عليـــه طلقـــات عديدة من البنـــادق لـــكنه لم يصب بأذى . واسرع صـــوت البنادق هـــذا من خطو بقيـــة الفرقة ، وكنت على حصـــانى وتقـــدمت

الجميع ، وسرعان ما وصلت الى المقـدمة . وبينمـا انا استعلم عمـا حدث ، أشار خادمى المصرى بيده الى المراتين ثم قال لهما :

« توجها الى هذا الرجل وهو كفيل بحمايتكما » فهرعتـا على التو نحوى وقبلتا طرف ردائى ، فطمأنتهما وتوصلت مع بقيـة الضباط الذين وصلوا معى الى تسوية الأمر ، وحيث أن الانكشارى الذى تحدثت عنـه قـد أكد أن البـدوى الذى فر ينتمى الى قبيلة معـادية فقد اسـتولينا على قطيعه . وصحبنا السيدتين لنسليمهما الى شيخ أول قرية سنعبرها. وفى أثنـاء ماتبقى من طريقنـا لاحظت أن انكشارينا يحرض الجنود على عدم اسـتخدام الرحمـة مع أسـيرتينا ، وكان يريد أن ينتزع من هاتين البائستين الأشـياء القليلة التى كانت معهما . واضطررت أن أتوعـده بعقـاب قاس كى أجعله يكف عن اضطهاده الجبان لهما . وعنـدما حل الليل توقفنـا ، وبينما نحن نوشك على أن نغـادر خيـامنا ، شـاهدنا مشايخ الطميلات قادمين ، وكانت هـذه القبيـلة فى ذلك الوقت فى سلم معنـا . وكان معهم ذلك البـدوى الذى هاجمنـاه البارحة ، وشكوا الينا فى لهجة معتـدلة اعتداءنا الظالم على رجل لم يكن يحق لنـا أن نعتـدى عليه . واسرعنا نوجـه اليهم كل الترضـيات الواجبـة واعيـدت الى المراتين معظم مجوهراتهما التى كان الانكشارى قد سلبهما اياها ، وتلقى هو على الفور ، وفى حضرة البـدو عددا محددا من الضربات بالعصا ، واعيدت المـاشية أو دفع تعويض عنها ، وبعد أن تنـاول الشيوخ العرب بعض أقـداح القهوة معنـا عادوا بالغى السرور . لكننى هنا اتساءل: لو أن هؤلاء البـدو كانوا قـد ذبحوا افراد جنودنا الذين كان من الممكن أن يقابلوهم منعزلين ، بدلا من أن يأتوا الينا ليبثونا صراحه شكواهم . . الم نكن سنتهمهم عندئذ بالخيانة ، بينما هم لم يفعلوا سوى أن انتقموا منا؟

وعندما يتم السلام بين قبيلتين يتبـادل الشيوخ الهدايا ، ولهذه الرسميات سطوتها . وعندما يتعامل حكام أجانب مع العرب فانهم يعنون بالامتثال لهذا الأمر . ومن المعتاد كذلك فى مناسبة مماثلة أن يأكلوا معـا وهو مايسمى بتحالف أو اتفـاق الخبز والملح وهو أمارة على صـداقة لن تهدر . وايا كانت مكانة الشخص الذى تلقى من عربى أقل طعـام فانه سيكون واثقا انه سينال احترام كل القبيلة .

ولدينا على ذلك الوف الأمثلة من الأسرى الذين اخذوهم منا اذ كانت تتوقف اساءة معاملتهم اياهم منذ اللحظة التى يأكلون فيها معهم ، وأقرر فى هذا الخصوص واقعة سجلها المسيو دينون فى مؤلفه ، وقد سمعت من يتحدثون عنها بعد قليل من حدوثها . منذ عدة أشهر طويلة كان لدى بعض العربان أسير هو ضابط فرنسى .. وفجأة ظهرت احدى وحداتنا على مقربة من مخيمانهم .. وتفرق العربان على الفور داخل الصحراء وقد أخذهم الفزع وأصبح كل مايمتلكونه فريسة للمنتصر ، ووجد شيخهم نفسه — بعد أن هام على وجهه — وحيدا مع اسيره وسط الصحراء ولم يعد معه سوى قطعة خبز هى كل طعامه، ولابد أن قلبه كان مفعما بالنقمة على الفرنسيين ، الذين تسببوا فى كل ما أصابه من آلام ، ومع ذلك فقد اقتسم مع ذلك الفرنسى الذى كان فى حوزته ، قطعة الخبز الوحيدة التى بقيت له ، وقال له : ربما سأحتاج اليها غدا ، لكنى لا أتحمل لوم نفسى لنفسى لو تركتك تموت من الجوع لأضمن أنا وجودى .

ان مثل هذه الأخلاق والطباع لتشرف الانسانية بأسرها ، ولا ينبغى علينا بالمثل أن نسىء القول فى حق أمة تضم رجالا بمثل هذا الكرم بين أبنائها . لكن السوءات هى التى تسترعى انتباهنا بشدة بينما تفوتنا الفضائل ! وفضلا عن ذلك فان الفضائل لا يمكن أن تكون هى نفسها عند كل الشعوب ! فالحدث الفاضل هو ذلك الحدث الذى يكون مفيدا بشكل مباشر أو غير مباشر للمجتمع الذى يطريه . وليس هناك من هذه الفضائل الا عدد ضئيل يمكنه أن ينال امتداح كل الناس بدون تمييز .

فعندنا على سبيل المثال ، لا يتعرض المسافر المولود فى بلد هو فى حالة حرب معنا لأن يقتل او يسلب ، ذلك ان مصالحنا تحملنا على استقبال الأجانب وحمايتهم وأن نبسط علاقتنا معهم . لكن العكس من ذلك هو ما يصدق على الصحراء فان أى رجل ليس حليفا للقبيلة سوف يجرد من أمتعته ، بل ويقتل أحيانا على يد العربان الذين يقابلونه، والعربى الذى يحظى بتقدير أكبر هو الذىيستطيع أن ينتزع أكبر قدر من الأسلاب لأن السلب بشكل واحدا من أهم دخول قومهم . ومع ذلك،

بحيث انهم بدورهم يتعرضون لنفس المخاطر ، ويجدون انفسهم فى بعض الأحيان فى حاجة الى مأوى عند أعدائهم أنفسهم ، فان البدو قد جعلوا من كرم الضيافة أول واجباتهم ، ولابد أن نقر بأنهم يمارسونها بسخاء لا يعرف فى مكان آخر : فالأجنبى الذى استطاع أن يصل الى خيامهم أو حتى يلمس عتبة خيمتهم لن يناله فقط أى أذى — بل انه — وكما كان يحدث فى زمن ابراهام — سيحصل دون اجر على طعامه بل أن القبيلة بأكملها قد تتحمل مخاطر حرب خطيرة دون أن تسلمه الى أعدائه . وقد حدث لى ، كما حدث لكثيرين غيرى من أعضاء الحملة، أن سافرنا وحدنا مع عربان وبقينا بينهم شهوراً عدة دون أنْ يكون لدينا على الاطلاق ما نندم منه على تقتنا بهم .

وبخلاف التحالف الخاص بين قبيلة وأخرى ، توجد تلك العصب الكبيرة التى تعترف بواحد من مشايخ هذا التجمع على أنه شيخها الأوحد ، وبأخذ هذه العصب اسما مميزا ، مثال ذلك ما يحدث فى مصر السفلى حيث توجد اثنتان : الأولى تسمى : سعد والثانية تسمى : حرام.

وقلما يقاتل العربى البدوى الا وهو يمتطى حصانه ، وهو مسلح عادة بسيف بالغ القصر وخنجر وحربة طويلة كما يكون فى غالب الأمر مسلحا برمح وكمية من الأسلحة التى يعلقها فى قوس سرجه ، وفى بعض الأحيان يستعيض عن رمحه ببندقية كبيرة يستخدمها بمهارة حتى عندما يعدو به حصانه ، رافعا يده دون أن يترك عنان فرسه بطريقة يستطيع بها أن يثبت سلاحه وأن يصوبه كما لو كان راجلا ، وبالرغم من أنه مدرب على القاء حربته لأبعد مدى وبدقة شديدة فانه من النادر مع ذلك أن يتخلى عنها فى المعركة ، فهو يمسك بها عادة بالقرب من سهمها ، ويرمى بها بقوة تاركا اياها تنزلق من يده دون أن يتخلص منها كلية وبحركة معاكسة يستعيدها سريعا الى وضعها الأول وحيث أن كفاءته كفارس أكبر منها عن درجة تباهيه بسلاحه ، فانه يحرص على اتخاذ الجانب الأيسر من خصمه ، وهو يحوم حوله ويتفادى ضرباته هاربا بحصانه الذى تخدمه مرونته المذهلة بشكل رائع فى تلك المعارك التى يلتحم فيها المقاتلون .

ويصنع البــدو بأنفسهم البـــارود الذى يستخدمونه وهو ردىء ، وتزيد فيــه على الدوام نسبة الفحم بدرجــة أكبر مما ينبغى . وليســت لديهم مدفعيــة ، فالمــدفعية حسب أسلوبهم فى القتـــال ليست مفيــدة بالنسبة لهم ، واذا ما اضطروا للتجمع فانهم سهــاجمون كرماة ، ويتم هذا دون أدنى نظام ، فكل منهم يتخذ مكانه حسب هواه . وليست معاركهم الا تلاحمات ، اذ يبــادر أكثرهم شجاعة بالاندفاع نحو الخصم ، ويثير بذلك حميــة رفاقه . هــذا هو واجب القــائد عندهم ، وهو الوحيــد الذى تسمع أوامــره ، وسرعان ماينم احــراز النصر ، ويتفرق المهزومون فى الصحراء ، ويحميهم الليل من ملاحقة أعدائهم .

واذا ما دارت معركة على مشهد من المخيم ، أو اذا كانت مع الفريقين أسرهم ، فانك ترى النساء والفتيات ، جماعات جماعات ، يدققن طبولهن ويثرن بصرخاتهن وأغنيــاتهن حميــة المقاتلين : ووسط كل هذه الضجة، لا يكون عليهن أن يخشين بأسا . فالجميع يحترمون ضعفهن .

ولا يهاجم العربان مطلقا أثنــاء الليل ، ويتلخص تاكتيكهم فى مفاجأة العدو بانقضاضات سريعــة وهجمات غير متوقعة ، وفى نصب الــكمائن له ومناوشته لانهاكه عنــدما يكون هو الأقوى ، وهم فى هــذه الحــالة لا يتحرجون من أن يفروا ، ليعيدوا حشــد سلاحهم وهم يجــرون بأقصى سرعة ثم يعودون الى المعركة حيث لا يكون ذلك متوقعا . والويل لأولئك الذين يبتعــدون من أعــدائهم عن فرقتهم ! لــكم شـــاهدت فرنســيين يختطفون وهم على مدى مرمى بنــادق زملائهم ، ثم جردوا وذبحوا أمام فرقنا قبل أن يكون لدى زملائهم الوقت لنجدتهم .

وكم دهشنا ، ونحن نراهم يهربون أمامنـــا على الرغم من تفـــوقهم العددى علينــا فى حين أننـــا شاهدناهم فى مرات أخرى وعلى العكس من ذلك يهاجموننـــا بشراسة برغم أنهم كانوا فى موقف أضعف بالنسبة لنـــا ، وتفسير ذلك أنه لم يكن مع جنودنا فى الحالات الأولى أى أمتعة يمكن لها أن تغرى عدوا لا يقاتل الا للحصـــول على مغانم ، بينما كنا فى الحالات الأخرى نصحب قوافل تثير لعـــاب شهيتهم التى لا تشبع ، ذلك أنه لا ينبغى علينـــا أن ننظر للعربان مثلما ننظر للأمم الأوربيــة ! فالدول الأوربيــة تسمى منتصرا من ســـاد ميدان القتـــال ، بينما من الممكن عند

العرب أن يعد نصرا ان تلوذ بالفرار بشرط الا تفقد من الرجال الا اقل مما فقد العدو ، وبشرط ان نحصل على بعض الأسلاب . وكثيرا ماخدعنا فيهم ، فقد كنا نظن جبانا ذلك الذى يهرب منا بينما هم ينظرون اليه فى معسكرهم — ربما — على أنه بطل .

وحيث ليست لديهم لا مدفعية ولا مشاة فان اقل سور كفيل بايقاف زحفهم ، لذلك فان معظم المدن فى مصر ، قد احاطت نفسها — حتى نحمى من غاراتهم — بسور عال يبلغ سمكه طوبة واحدة ، ويكفى ذلك كى يجعل من الأمر فى نظر العربان حصنا لا يمكن الاستيلاء عليه الا باستخدام القوة المسلحة ، عندئذ يضطرون للقيام بحصار المكان ، وهو نوع من المعارك لايتفق مع تلهفهم وعجلتهم، لذلك فانهم سرعان مايوافقون على الابتعاد فى مقابل الحصول على بعض الهدايا .

ولنفس هذا الغرض يقيم الفلاحون فى هذه البلاد ، هنا وهناك، وسط الحقول المزروعة احواضا من الطين على شكل ابراج يعلوها سطح مزود بمتراس . ويزرع هؤلاء البؤساء وعيونهم يقظة : وهم لا يتركون سلاحهم مطلقا ، ويزرعون وهم يرتجفون تلك الأرض التى عليها أن تطعمهم ، وما أن يلمحوا البدو قادمين حتى يسوقوا — على وجه السرعة — حيواناتهم إلى اكثر الأبراج قربا ، ويتسلقونه على درجات صغيرة محفورة فى جسمه الخارجى ، ومن سطح هذا البرج يذودون عن ممتلكاتهم ويبعدون عدوهم بطلقات البنادق .

وعندما تقوم حرب بين قبيلة وأخرى فان العرب لا يتخذون مطلقا من اسراهم عبيدا ، فهم يطلقون سراحهم بعد أن يسلبوهم أمتعتهم ، واذا ما استبقوا بعضهم فانما ليتخذوا منهم رهائن ، لكنهم لا يسلكون نفس المسالك مع الأجناس الأخرى وانما هم فى هذه الحالة كذلك — يحتفظون بعدد قليل من الأسرى ، لكن هؤلاء الأسرى يكونون بمثابة عبيد ، يستخدمون فى أعمال البيت وبخاصة فى طحن الحبوب ، وهذا النوع من العمل يضعهم مباشرة تحت امرة النساء فى القبيلة : ونستطيع أن نميزهم عن العبيد المشترين ، وهم كذلك قليلو العدد — فهؤلاء الأخيرون زنوج فى غالب الأحيان ، يشترون وهم صغار ، ويعاملون بقدر من الرأفة كما لو كانت تربطهم بالقبيلة روابط الدم . وعندما يصبحون

كبارا ، يتبعون سادتهم الى الحروب ويحصلون فى الغالب على حريتهم مكافاة لهم على شجاعتهم ، ويحصلون كذلك على عطاء من الامتعةالضرورية لحالتهم الجديدة ، بل انهم فى بعض الأحيان يقتسمون تركة سيدهم مع ابنائه ، وفى معظم الأحوال يعترف بهم كورثة وحيدين لسادتهم اذا لم يكن (١٠) لهؤلاء الأخيرين ابناء ، حتى ولو كان لهم اهل عديدون وعندما يصبحون أفرادا فى القبيلة ، يكون بمقدورهم أن يتوصلوا هم وأحفادهم الى مرتبة الشيخ . وبهذا يكون الأمر هنا أقرب الى التبنى منه الى العبودية .

وأخيرا فان البدو لا يرغمون الأسرى الذين يحصلون عليهم فى الحروب على اعتناق الاسلام لكنهم يرغمون على ذلك العبيد الذين يشترونهم . ولا يعنى الأمر انهم شديدو التدقيق فى مسألة الدين ، فقلما يكون هؤلاء مسلمين الا بالاسم ، وتنظر اليهم بقية الشعوب التى ندين بهذه الديانة على أنهم غير مؤمنين . والختان ، هو الممارسة الدينية الوحيدة التى تحظى بالاحترام بينهم ، ومن المعروف أنها كانت تمارس قبل مولد محمد « صلى الله عليه وسلم » بزمن طويل . أما الوضوء الذى امر به هذا النبى فلا يمكن المواظبة عليه فى الصحراوات حيث المياه نادرة وثمينة لحد كبير . وعلى الرغم من أن القرآن قد فرض الصلاة خمس مرات فى اليوم الواحد ، فان هؤلاء لا يؤدون الصلاة فى معظم الأحيان الا مرة عند شروق الشمس ومرة أخرى عند الغروب . بل وربما كانوا يخلطون بين ذلك وبين التقديس الذى يولونه لكل النجوم، ولعل ذلك شىء قد بقى من ديانتهم القديمة تلك التى كانت بسيطة بقدر ما كانت طبيعية . وهم يعبدون كائنا ساميا ، وينظرون الى الأجسام السماوية كوسطاء بينهم وبينه وهى التى تبدو وسط سماء بهذا الجمال وعلى هذه الدرجة من الصفاء وكأنها تدل على عظمة الله التى تتبدى هنا بقدر من الروعة أكبر مما تبدو به فى بقية مظاهر الطبيعة (١١) .

---

(١٠) نجد فى التوراة عادات مشابهة ، فقد كان ابراهام ينظر الى ابن خادمه كوارثه الوحيد قبل أن تجعل منه هاجر أبا (سفر التكوين ، الاصحاح الخامس ، الآية ٣٧) على الرغم من أن ابراهام كان ينتمى الى اسرة كبيرة العدد .

(11) Voltaire, Essai sur les moeurs.

ولا يرى مطلقا فى معسكرات العربان مكان مخصص للصلاة . فكل امرىء يؤديهـا حيث شـاء . ويسلك فى هـذا الأمر على النحو الذى سمع به ، اذ ليس ثمة رجال دين او أئمـة على الاطـلاق ، ولـكن ثمـة قاضـيا ، وان كان هـذا الفقيه الذى ينبغى أن يحفظ القرآن ويعـرف القوانين والتفاسـير لا يعرف حتى القراءة . يقول شيخ القبيـلة لأحد العربان : أنت قاض . فيكون كذلك . ولقـد أخذوا بهذه الاجراءات بدافع سياسى ولارضـاء جيرانهم ، لـكن ما يميزهم على وجه الخصـوص عن بقيـة المسلمين هو أنهم لا يكنون لا حقـدا ولا احتقارا للأديان الأخرى ، بل ويقال انه لا تزال توجد داخل الجزيرة العربيـة قبـائل يهودية ينظر إليها أبناء البدو المسلمين ، على أنهم اخوة لهم .

وفى بعض الأحيـان ، ومن المستحسن أن يحدث ذلك فوق الأماكن المرتفعـة ، يذبح العربان خروفا أو جملا صـغيرا ، وبذكر اسم الله ، ويوزعون على الفقراء جزءا من لحم الضحية (١٢) .

وتوقير المسلمين للحيتهم امر شـائع ، ولا يستطيع العبيد أن يطلقوا لحاهم . وحلاقـة ذقن رجل حر أمر مهين لكرامته : لذلك يقسم البـدو بلحاهم وهم ممسكون بها بأيديهم ، وفى احيـان أخرى يقسمون براسهم، لـكن اكثر الايمان تقـديسا وأكثرها قوة ، هو القسم الذى لا يلجـأون اليه الا فى الحـالات ذات الأهميـة القصوى ، ويلفظ به مع رفع طرف الرداء والامساك بعضـو التـذكير ، وعادة القسم بالأعضـاء التناسلية يعود الى زمن جد بعيد فلقد قال ابراهام لخادمه « ضع يدك تحت فخذى، واقسم أن تذهب الى بلاد ما بين النهرين لتتخذ زوجة لاسحاق ابنى » *

---

(١٢) ذبح الأضحيات فوق الأماكن المرتفعة تقليد شائع عند العرب منذ الأزمنة الضـاربة فى القدم ، فعلى إحد الجبـال قاد أحد شيوخهم ابنه، لكى يذبحه قربانا الى الله (سفر التكوين ، الاصـحاح الـ ٢٢) وتقـدم التوراة العديد من الأمثلة المشابهة .

* هذه ترجمة للنص الفرنسى واليكم النص كما جاء فى التوراة :

« وقال ابراهيم لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له ، ضع يدك تحت فخذى ، فأستحلفك بالرب اله السماء واله الأرض الا تأخـذ زوجة لابنى من بنـات الـكنعانيين الذين انا ساكن بينهم ، بل الى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى اسحاق » ــ وهكذا تزوج اسحاق من رفقة بنت بتوئيل ابن أخى ابراهيم ــ سفر التكوين ــ الاصـحاح الرابع والعشرون . (المترجم)

وللتعاويذ والتمائم نفوذها الكبير على العقلية الساذجة لهؤلاء القوم البسطاء ، حيث يحمل الكثيرون منهم كيسا صغيرا من الجلد ، مدلى فى رقبته أو تحت ابطه ، ويحتوى على قطعة من الورق كتبت عليها كلمات غامضة على يد درويش بل وفى كثير من الأحيان على يد مسيحيين أو يهود وهم الذين ينظر اليهم البدو على انهم اكثر علما من المسلمين فى تلك الأمور التى تتصل بالتمائم والرقى . وقد شاهدت بعضا منهم يحملون كذلك بعض أحجار عليها نقوش بحروف كوفية لايفهمونها على الاطلاق بل وكذلك بعض التعاويذ المصرية القديمة ، وفى النهاية فانهم يولون ثقتهم الكبيرة فى التميمة التى عملت خصيصا لمرض أصابهم أكثر مما يولون هذه الثقة لكل فنون الطب وأسراره . ويحرصون على وضعها فوق الجزء المصاب من الجسم ، وقد يثير الأمر ضحك البعض، وأنا مقر بذلك ، ولكن ، هل ينبغى لمثل هذه الأمور أن تثير سخريتنا بينما نحن برغم كل حضارتنا مازلنا أسرى لخرافات مشابهة .

وعندما تنمو شجرة بالقرب من مقبرة ، أو فى أية ظروف قد تضفى عليها نوعا من مظهر المعجزة ، فانها قد تحمل البدو على الاعتقاد بأن بها روح جنى ، وتصبح منذ ذلك الوقت أمرا مقدسا ، بحيث لا يمكن انتهاك حرمتها بقطع فرع منها أو حتى بقذفها بحجر ، ويعلقون بها شعر الرأس وشعر الجسم ومزقا من القماش ،وقطعا من الورق خطت عليها حروف غريبة وكلمات سحرية ، ويأملون من وراء الطقوس التى يصحبون بها هذا الفعل ان يسخروا القدر لصالحهم وان يوقعوا الضرر والأذى بأعدائهم ، وقد شاهدت وسط الصحراء ، بين القاهرة والسويس، شجرة ضخمة من اشجار الأكاسيا مغطاة بمزق من القماش ، ويعسكر بالقرب من هذه الشجرة عادة القافلة الكبيرة التى تتوجه كل عام الى مكة « للحج » ويقوم العرب بهذا الأمر فى تقديس كبير ، وقلما يفوت الحجاج أن ينذروا هناك نذورهم اذا ما كتبت لهم النجاة من اخطار السفر ، وذلك بأن يعلقوا فى فروعها جزءا من ملابسهم .

كنت أود لو أستطيع ان أقدم هنا تفاصيل الحفلات الدينية التى تصاحب عند كل الشعوب بعض المناسبات الهامة فى حياة الناس ، لكنى لن أتحدث هنا ـ حيث أنى سأقتصر فى هذه الدراسة على الوقائع

التى لمستها وتلك التى تحققت منها بنفسى — عن حفلات الزواج والميلاد، وتحت بند الأخلاقيات والعـادات المدنية .

يتزوج العربان فى سن جد مبكرة ، وهم شديدو الغيرة على نسائهم، فالخنجر مشرع عند اقل هفوة خيـانة ، وهم لا يخفون على الاطلاق نيتهم فى استعادة اى من نسـائهم يقعن سـبايا فى الحرب لتضمهن احضان المنتصر ، وتستطيع الفتاة التى مرت بهذه المحنة أن تعثر على زوج وكأن شـيئا لم يحدث لها ، ومع ذلك فان هذه الفتـاة فى حالات اخرى ، اذا لم تبن بكارتها ليـلة زفافها — ستطرد الى اهلها مجللة بالخزى ، وينتظر هؤلاء الأهل بفـارغ الصبر فى خيمة الزوج قطعـة القمـاش المخضـبة بالدم والتى تشهد بتعقل ابنتهم واسـتقامتها ، بل ويعرضونها أحيانا خارج الخيمة لانظار الجمهور ، ثم تطويها الزوجة الشابة بعنـاية وتحتفظ بهـا طيلة حياتها .

ولا يعرف شباب العربان هـذه السوءة شـديدة الانتشـار لسوء الحظ فى أوربا والتى تحطم قوىالاخصاب عند ابنائها، وتقضى على البهجة التى ينبغى أن تقرب بين البشر وتحيل الحيـاة الى كآبة منفرة ، تصـيب صـاحبها بالانطواء ، وقتـامة المزاج وتجعل منه انانيـا فظا وتتسبب له فى أمراض الوهن والعجز القاسية بل والى موت مؤس مالم يؤد حب النساء الى علاج سريع له ، لـكن هـذه السوءة تحل محلها هنا سوءة اخرى عرفت فى المـاضى عند اليونان ، وكانت شـائعة فى كـل الأمم الرعوية ، تلك هى عادة أن يتبادلوا الحب فيما بينهم .ويحدث هـذا على وجه الخصوص اثنـاء مسيراتهم الطويلة حيث ليس ثمة من مجتمع يحيط بهم سوى قطعانهم .. وهناك ، ينغمسون فى امور تبعث على الخجل .

ويؤدى الزواج الى اختفاء أو على الأقل الى التخفيف من هذه الملاذ الآثمة . والعربان كما سبق القول يتزوجون فى سن جد مبكرة ، وليس ثمة ما يأملونه اكثر من الحصـول على الـكثير من الأطفـال فتلك هى الوسيلة الاكيـدة للنفوذ والثروة . ومولد طفـل ، هو حـدث يملؤهم بالفرح الطـاغى ، وبسبب هـذا الحب الابوى الـكبير فانهم يضيفون الى اسمهم اسم مولودهم : فاذا كان الأب يسمى محمـدا وابنـه يسمى

علما فان اسم الأول يصـــبح هكذا : محمد ابو على ، او ابو على فقط ، وهو ما يعنى والد على .

ويحمل الشبان من جانبهم اعظم احترام لواهبيهم الحيـــاة ، كمـــا يحترمون كل الشيوخ على وجه العموم ، فينهضون عند قدومهم ، وينصتون اليهم باحترام شديد ، بل ويكفون عن التدخين فى حضرتهم الا اذا طلب اليهم ان يواصلوا التـــدخين . وهكذا تتـــأسس حكومة القبيلة على هذا الخضوع التلقـــائى لحكمـــة السنين وخـــبرة الأيام ، وعلى حب الآباء لأبنـــائهم .. وهذا هو ما سبق أن لاحظنا من قبل حول هذا الموضوع .

والعربان رشيقو الاجسام ، خفيفوا الحركة اكثر من كونهم اشداء ، تتميز اجسامهم بالنحافة ، لـــكنها نحافة الصـــحة ، وثمة نوع من التشابه الـــكبير فى شكل قامتهم ، اذ قلما تشذ عن طول يتراوح من خمسة اقدام وبوصتين الى خمســـة اقـــدام واربع بوصـــات ، ولا نرى بينهم مطلقـــا ــ كما نرى عندما ــ اقزاما الى جوار عمالقـــة ، او مقعدين الى جانب اشـــداء مفتولى العضل كما لا يرى بينهم على الاطلاق من هو كسيح منذ مولده .. فهنـــاك تتقارب القوى الفيزيقيـــة ، كما تتقـــارب الصـــفات الأخلاقية والعـــادات الاجتماعية بقـــدر من المساواة لا مثيل له فى مكان آخر من العالم .

والعربان بيض الوجوه : لـــكن الشمس لوحت بشرتهم لحد كبير ، حيث يشتد اثرها اذ تنعكس اشعتها بفعل الرمال : ولون لحيتهم وشعرهم وعيونهم اسود ، اما اسنانهم فناصعة البيـــاض متناسقة ، فى العادة ، وجميلة وملحمهم روحانى ورقابهم كثيرة العضـــل ، واكتافهم وصـــدورهم عريضـــة ، لـــكن الركبة كبيرة بعض الشىء ، ولعل هـــذا قد نتج عن طريقتهم فى الجلوس على الأرض حيث تشابك سيقانهم من تحتهم .

وعيون النساء اكثر اتساعا من عيون الرجال لـــكنها سوداء بالمثل ، كذلك فان اســـنانهن بيضاء متناسقة . وقامتهن هيفاء مرنة ، اما اذرعهن وأيديهن وسيقانهن واقـــدامهن فعلى درجة من الجمـــال تصلح معها اية واحدة منهن أن تعد انموذجا « موديل » ، لـــكن ملامحهن فيما عدا عيونهن قليلة التعبير ، تنقصها الحيوية ، وهو امر ينبغى أن نعود به دون جدال

الى عادة اخفــاء الوجه تحت النقاب بمثــابة لا يولينها لأى جزء آخر من جسمهن ، وانفهن كبير ، وفمهن واسع ، وتصبح الـكثيرات منهن قبيحات بالفعل عندما يغطين وجوههن بوشم يجعلهن قريبات الشبه بهنود امريكا.

وسرعان ما تتهدل صـدورهن ، وهو الذى كان ناضـجا وجميـلا عنـدما كانت المرأة ما تزال فتـاة فى سن العـاشرة أو الثانية عشرة، وما ان تنجب الواحـدة منهن طفـلا حتى يسـتطيل صـدرها بدرجـة كبيرة ، ومما يساعد فى تشويهه اكثر فأكثر انهن لا يبـذلن اية عنـاية لحمله أو اخفـائه ، لذلك فالجميـلات من نسائهن فى حكم النادرات ، ومع ذلك فهنـاك بعض الجميلات يمكن لك أن تلمحهـن وبخاصـة بين صغيرات السن منهن .

وتتميز هؤلاء النسوة جميعـا بخصوبة هائلة ، وعنـدما لا تنجب سيدة متزوجة فانهـا تلقى الاحتقـار ولا يتردد زوجها فى تطليقها ، أو على الاقل ، فى اتخاذ زوجة اخرى ، ذلك أن الطلاق وتعـدد الزوجات أمران مسموح بهما .

ومن اصـعب الأمور عليـك ان تستطيع تمييز شـيوخ العرب من شبانهم عن طريق ملابسهم ، فهم يرتدون بصـفة اساسـية اقل هـذه الملابس خشونة وتنفيرا ، اضف الى ذلك أن رداء العربان لا يتغير ، على الاطلاق ، اذ يظل هو نفس ما كانه فى الأزمنة الخوالى ، وينبغي أن يقود هذا الى الاعتقاد بأن الأمر انما هـو نوع من التقـدير الذى تحظى به الشيخوخة ، اما عندنا ، فعلى العكس من ذلك ، فأهواء الموضـة تتغير كل يوم .. ومن ثم تأتى سن معينة يجد المرء نفسـه فيها لايسيغ أهواء « موضات » جـديدة ، فيثبت على بذلة لا تعود تتغير طيـلة السنوات الأخيرة من عمره ، لذلك فسرعان ما تعد ملابسه مضـحكة حيث يكون الشباب وهو الذى يبعث البهجة فى كل شىء ، قـد كف عن استخدامها. ومن جهة أخرى فان الموضـة فى أوربا لا تؤدى فقط الى تنويع الملابس، بل انهـا تبسط سطوتها على كل ضروب الحيـاة ، وينتج عن ذلك فى غالب الأحيـان تنـاقض قاس بين الشباب وبين الشيخوخة ! فملابس الآباء تبـدو فى عين الأبناء مضحكة ، بينما لا يكف الآباء عن انتقاد الزمن الحـاضر ولا يملون من الأسف على الزمن الذى فات ، ويتبـادلون فيما

بينهم المرارة فيقولون : فيما مضى كنا نفعل كذا .. وهذه الكلمات التى قد يلفظها البعض بسخريه ومد يلفظها الآخرون بأسى ، تبدو كما لو كانت تعيد الى الأذهان ذكرى زمن سابق على الوقت الحاضر بقرون عدة ، بينما هى فى اغلب الأحيان لا تتعلق الا بفترة مضت منذ حوالى العشرين عاما . لكن الأمر ليس نفس الأمر عند أمم الشرق ، فالعادات ثابتة لا تحول . يقول العرب هكذا كان يفعل آباؤنا وعلينا أن نحذوا حذوهم . ومع ذلك فلابد أن نتفق على انه اذا كان مثل هذا الأمر فى معظم الأحيان ، افضل من ذلك التغيير الذى يحدث بلا انقطاع فان له أيضا عيوبه ! ذلك أن شيئا لن يتطور بمرور الوقت .

ويرتدى العربان جلبابا بالغ الاتساع من القماش أو من الصوف، وهم يشدونه حول وسطهم بواسطة حزام عريض . ويرتدون تحته كملابس داخلية سروالا من التيل . وهم يحلقون رءوسهم بالموسى ويغطونها بعمامة ، ويطلقون لحيهم ، وتظل عارية رقابهم وأذرعهم وسيقانهم . وفى معظم الأحيان يرتدى العربان الذين يقطنون صحراء مصر الغربية فوق ملابسهم معطفا أبيض اللون « عباءة » من قماش صوفى شديد الرقة . وقد شاهدت عربانا آخرين فى مناطق تحيط بمدينة السويس يلقون فوق ظهورهم أثناء الشتاء جلدا ثقيلا من جلود الخراف يعقدون قدميه الأماميتين فوق الصدر ويدلى الذيل الى الأرض وهو الأمر الذى يشبه تمام الشبه تلك الطريقة التى يبدو لنا هرقل بها وهو يرتدى جلد أسد ، ويبدو هذا المعطف البدائى على درجة من الجاذبية والروعة ، أما ملابس السيدات فتكون عادة من رداء طويل يستخدم فى نفس الوقت فستانا ، ومن سروال وعمامة وحجابين ، أولهما وهو الأوسع يوضع فوق الراس اما الآخر وهو اقل اتساعا فيوضع فوق الوجه أسفل العينين مباشرة ، ويثبت بقصاصتى قماش تعقدان خلف الراس . وثمة أطواق من الفضة — وهى فى اغلب الأحيان من الزجاج الأزرق — تحيط بالذراعين والساقين أما الحلى التى يتزين بها، فهى الخواتم والأقراط المصنوعة من النحاس أو الفضة ونادرا ما تكون من الذهب ، وبعضهن يثقبن احدى فتحتى الأنف لتتدلى منها حلقة فوق الفم .

ونظن النسوة من كافة الفئات أنهن يتزين عندما يصبغن بالأصفر باطن القدمين واليدين « بالحناء » وهو أمر بدا لى على الدوام بالغ القبح ، لكننى سأقول عكس هذا الراى بخصوص عادتهن فى احاطة جفونهن بخط أسود يمتد قليلا عند ركن الجفنين فقد كان تأثير ذلك على الدوام طيبا بالنسبة لى ، فالعين تكتسب بذلك حيوية وتبدو نجلاء وأكثر اتساعا ، ويمكن أن نستنتج من الخطوط التى نراها محفورة حول عيون التماثيل المصرية ان هذه كانت نفس عادة النسوة فى مصر القديمة.

ومنقولات البدوى كما لابد أن يتخيل المرء تتضاءل الى حد الضرورة المباشرة : رحاة ، رقيقة من الحديد لتحميص حبوب القمح أو لانضاج الخبز ، اناء لصنع القهوة « كنكة » ، دلو من الجلد لصب المياه ، بعض القرب ، قصعات من الخشب فناجين صغيرة لشرب البن ، قدر ، حصيرة تستعمل سجادة وفراشا ، وفى بعض الأحيان نول لنسج الاقمشة الخشنة، الأسلحة التى سبق أن تحدثنا عنها ، ماسورة طولها من ٤ — ٥ اقدام ، قليل من الملابس ، نوع من الماندولين (١٣) طبلة وهى عبارة عن اناء من الفخار المحروق لا قاع له ويغطى من احدى فتحتيه بجلد مشدود بقوة . . هذا هو كل ما نضعه على وجه التقريب خيمة البدوى ، وهذه الخيمة ترتفع الى ٥ — ٦ أقدام ، وهى مربعة الشكل ومصنوعة من قماش غامق خشن يصنعه العربان بأنفسهم من وبر الجمال . أما الجزء الخارجى من الخيمة ، وهو الذى يصنع سقفها ، فهو قليل الانحدار ويتخذ فى غالب الأحيان شكلا أفقيا ، وثمة فاصل من نفس القماش يفصل داخل الخيمة حجرة الحريم عن حجرة الرجال .

---

(١٣) استخدمت كلمتا ماندولين وكمان ، على الرغم من أن هذه الآلات تختلف كثيرا عن تلك التى تطلق عليها هذه الأسماء فى فرنسا . وقد اطلقت كلمة ماندولين على تلك الآلة التى تهتز أوتارها بواسطة قطعة صغيرة من قرن أو من خشب ، وكلمة كمان على تلك الآلة التى يعزف على أوتارها بواسطة قوس ، وبامكان من يرغب فى معرفة هذه الأشياء ، بتفصيل أكثر دقة ، أن يعود الى الدراسات التى نشرها المسيو فيوتو Villoteau عن الموسيقى ، فى نفس هذا المجلد (من الطبعة الأولى الفرنسية والسابع فى الترجمة العربية) .

وتتناثر كل خيـــام العرب بلا نظام الواحدة بعد الأخرى ، ولكن فى نفس الوقت بطريقة تجعلها تحوى فيما بينها فراغا فسيحا يستخدم كميدان عام وكمربط للقطعـــان ، واذا ما شاءوا أن يرحلوا فان كل عائلة تعبىء منقولاتها الخفيفـــة فى قمـــاش خيمتها وتحملها فوق جملها وتساق القطعان فى مقدمة الركب ، يتبعها النسوة والأطفـــال والشيوخ ، ويســـير بعض هؤلاء على قـــدميه ويمتطى البعض الآخر الجمـــال أو الحمير ، وهنـــاك بعض الرجال ، على صهوات جيادهم ، يرشدون ويقودون المسيرة ولا شىء يبقى فى المؤخرة ، وسرعان ما تأتى الرياح لتمحو آخر أثر لهـــذه المـــدينة المؤقتـــة .

والعربان قوم بالغو القنـــاعة اذ تكفيهم بضع بلحـــات وحفنـــة من القمح أو الشعير المحمص غذاء ليوم كامل : بل لقـــد رأيت البعض منهم فى أعمـــاق الصحراء يكتفون ببعض من الفول النيىء كانوا يأخـــذونه من طعـــام جمالهم ، ويأكلونه دون اية تجهيزات سوى أن يكسروه الى قطع صغيرة بواسطة حجر حتى يتمكنوا من مضغه بسهولة اكبر ، وهكذا ، فست أوقيات من الطعـــام أو سبع هى كل مايستهلكه البدوى من طعـــام طيلة اليوم فى الصحراء ، وهم يأكلون اكثر من ذلك بقليل عنـــدما يحلون بأرض خصبة ، ومع ذلك فان زهادنا ، وهم المعتـــادون على فترات الصيام الطويل ، لا يستطيعون بحال أن يقتربوا من بساطة هؤلاء وقنـــاعتهم ، فهؤلاء يشربون اقل من القليل ، ويتحملون العطش لأيام بأكملهـــا ، وبلا جدال فانه نتيجة لهذه القناعة المستمرة فان افرازاتهم ، نتيجة لهذه القناعة الدائمة ، جد قليلة (١٤) .

---

(١٤) يمكن أن يعد انعدام العرق عنـــدهم بشكل مطلق فيما أعتقـــد واحدا من الأســـباب وفى نفس الوقت واحـــدا من النتـــائج لقنـــاعتهم، فاذا كانوا لا يعرقون مطلقـــا فان الأمر لا يعود فقط لأنهم يأكلون قليـــلا وانما لأن جلدهم يجف بسبب تعرضهم لشمس حارقة ، وهم لا يرتدون الا ملابس شـــديدة الخفـــة ، وبسبب جفـــاف جلودهم وخشونتها تضـــيق مسامهم وتسد بشـــكل تام . وحيث انهم يتعرضون لقدر قليل من الفقد من طريق العرق فان حاجتهم للطعـــام لاستعادة قواهم تقل تبعا لذلك ، لكننى أمسك عن الخوض فى الأمر أكثر من ذلك مفضـــلا أن أترك الأمر ليحسمه الفسيولوجيون .

واليكم ما يأكله العربان عادة : فطائر صغيرة من الذرة أو القمح لم تنضج لحد كاف ، ارز ، بلح ، عدس ، فول ، لحم ولكن فى أضيق الحدود، لبن طازج أو رائب ، زبد ، جبن شـديد الجفـاف ، مالح ولاذع الطعم يصنعونه دوما من لبن الفرس والبقر والجاموس والحمـير والمـاعز بلا تفرقة ، ولا يشربون سـوى المـاء والبن بدون سـكر ، وهم يحولون القمح الى دقيق بواسطة رحى شـقاها من حجارة أو يسحقونه ببساطة فى حجر مقعر على شكل مدقـة (هاون) ، بنفس الطريقة التى يصنع بها الرسامون الوانهم .

وبعد عجن الدقيق ، يبسط العجين على سطح من الحـديد المحمى من قبـل فـوق النـار داخل حفرة فى الرمال ويغطى الجميـع بالرماد الساخن ، ويجذب الخبز قبل أن يبلغ بكثير درجة النضوج التى نعطيها له فى فرنسا . وهذه عادة استمرت فى الصحراء منـذ زمن لا يمكن تذكره « أنضجوا الخبز تحت الرماد » هكذا كان يقول ابراهام لسارة .

ويستخدم نفس هذا اللوح الحـديدى الذى ينضج فوقه الخبز فى تحميص حبوب القمح والشعير التى يأكلها العرب عادة بدلا من الخبز .

أما روث الماشية المجفف فى الشمس ، فهو على وجـه التقريب ، الوقود الوحيد الذى يستخدمونه ، ومن العسير عليهم فى الصـحراء أن يتزودوا بوقود غيره .

وفى وجبة الاحتفالات يقدم عادة خروف بأكمله .

وقد تناولت العشاء ذات يوم مع بعض البدو ، ولقد استخدم هؤلاء لحثى على الطعـام وسائل قد لا تقع موقع الاستنكار من اكثرنا تأدبا نحن الأوربيين وهأنذا أقص هـذه الحكاية التى سـوف تسهم فى تعريفنـا بمضيفى من زوايا عدة :

كنت مكلفا أثناء شتاء العـام السابع (١٧٩٩) بعبور وادى التيه، الذى لم يكن قـد سبق لأى من جنودنا أن اجتـازه من قبل .ورحلت من القاهرة مع سرية تتكون من خمسة وعشرين رجلا من المشاة ، وكان مع كل جندى من الخبز مايكفيه لمدة اربعة ايام ، وكان معنـا جملان يحملان

المياه التى قــدرنا اننــا سنحتاج اليها . وعنــدما وصلنا عنــد غروب الشمس قرب مدخل الوادى ، على مشارف الأرض المنزرعة ، قررت أن نمضى الليل فى هذا المكان ، وتمدد الجنود على الرمال ، وبينما هم يأكلون خبزهم ، مغموسا فى قليل من المــاء ، كان خيــالهم الذى استثاره اسم الوادى ، قــد جعلهم يتخيلون آلاف المخاطر الخرافية واردت ان اتبين — يتوجهى الى قرية كنا غير بعيدين عنها ، ما ان كان بمقدورى أن أتزود من هنــاك بمرشد يدلنــا على الطريق : اخذت بندقيتى وسرت وحيدا ، ولكن سرعان مادفعتنى الرغبة فى التعرف على مدخل الوادى الى القيام بدورة كبيرة ، ابتعدت معها دون ادراك منى عن سريتى ، وما أن تسلقت بعض التلال التى حجبتنى كلية عن الأنظار . حتى وجدت نفسى فجأة أمام مخيم عربى : فكرت فى الانسحاب لكننى تبينت أن بعض البدو من راكبى الخيول قد قطعوا على كل خط رجعة ، فقررت أن أجعلهم يدفعون ثمن حيــاتى غاليا . كنت مسلحا بشكل جيد ، اذ كان معى بخــلاف بنــدقيتى المحشوة وسونكيها ، مسدسان ممتازان ، ونادرا ما يحدث أن اخطىء هدفى عنــد التصويب. شهرت بندقيتى ، لكننى اردت فى نفس الوقت أن أجرب — وأنا رجل جرىء صــاحب حيلة — ما ان كنت بمستطيع أن اتفادى معركة غير متكافئة لحد كبير ، فأعطيت اشــارة للعربان الذين كانوا يحدقون فى أن يقــتربوا منى ، وتوجهت فى نفس الوقت اليهم ، بادى الثقــة ، وما أن أصبحت على مسافة تكفى كى يسمعوا خلالها صوتى ، حتى طلبت اليهم أن يصحبونى الى شيخ قبيلتهم لأتحــدث اليــه . بدأ عليهم أنهم دهشوا لطلبى ، وتبــادلوا النظرات فيما بينهم ، فكررت اليهم **بلهجة** حازمة طلبى، فأشاروا الى أن أتبعهم ، وسرعان ما أصبحنا فى داخل المخيم ، ونبحت الــكلاب عند اقترابنا .

كنت أرى هنــا وهناك عديدا من الخيول المسرجة ، مربوطة بالقرب من الخيــام ، ولاحظت فى دهشــة أن العــديد من النسوة كن يغطين وجوههن بعنــاية تماثل ما كان يمكن أن تصنعه زوجات الفلاحين فى موقف كهذا . توقفنــا أمام خيمة الشيخ التى لم تكن تختلف فى كثير عن بقيــة الخيــام الا فى كونها أكثر اتساعا بعض الشىء . دخلت فى شىء من التوجس ، فوجــدت الشيخ ومعه اثنــان من العــربان ، وهم منهمكون جميعا فى التــدخين وشرب البن . كانوا جالسين على الأرض حول قليل

من النــار اســتقر فوقها الفلاى ، وكان دخان هــذا الموقد ، وكــذلك دخان **النارجيلات** ، بالاضــافة الى السحنة الجادة والمهيبــة لهؤلاء الرجال الثلاثة ، وكذا المسدسات والخنــاجر التى كانوا يتسلحون بهــا .. كان كل هــذا يتطابق مع الفكرة التى كانت لدينا عن مغارات اللصــوص .. القيت عليهم بتحية الاســلام : السلام عليكم ، فردوا الســلام دون أن يخرجوا عمــا فى أيديهم ، ثم اضــافوا وهم يقدمون الى قدحا من القهوة « اجلس واشرب » استجبت على الفور ، فقــد كنت أعرف أنه نوع من الحماية لك أن تشرب أو تأكل معهم ، وقلت للشيخ : « عرفت أنك تعسكر هنــا فتركت قافلتى على مسافة واتيت وحدى بثقة ، طالبا اليك دليــلا ليقودنى حتى البحر الأحمر عن طريق وادى النيه ، ويمكنك أن تثق بأنه سينال أجرا طيبــا » واضــفت : « ليست معى الآن نقود لكننى سأدفع اليه مقدما نصــف الأجر الذى سنتفق عليه ما أن أعود الى سريتى » ، فأجابنى « ستحصل على دليل فأنا فى سلم مع الفرنسيين » واخبرنى بعد ذلك أن الفرنسيين قد تركوا له أراضى وقرية البساتين التى كان يعسكر بالقرب منها وأن قبيلته هى قبيلة طرابين .

وبينما نحن نتحدث ، لاحظت أن نساء الشيخ كن يزحن قليــلا حتى يريننى فاصل القمــاش الذى يفصل حجرتهن عن حجرتنــا ، ولابد أنه كان أمرا مثيرا لفضولهن أن يرين واحــدا من الفرنسيين الذين قص عليهن بالضرورة محاربوهن مئات الحكايات الخرافية عنهم والذين كانت ملابسهم ولغتهم وأسلحتهم تختلف اختلافا بينا عما تعودن .

استأذنت فى الانصراف ، بعد أن تيقنت أن دليلا سيأتى فى الغــد ليلحق بى فى المــكان الذى أوضحته لهم ، وعدت الى معسكرى مغتبطــا أننى قد توصلت الى هذه النتيجة السارة .

وعندما عدت الى القاهرة ، بعد ذلك بشهر . قصصت مغامرتى على كثير من زملائى ، واتفقنا معا على تنظيم رحلة لرؤية هــذا المخيم . وفى يوم الرحلة ، كنا اثنى عشر رجلا جيدى التسليح ، نركب جيادا ممتازة ، ويسبقنا سياسنا (سايس)[١٥]. الذين كانوا حسب عادة أهل البلاد يجرون

(١٥) السياس (سايس) خدم مصريون . وهم فى الوقت نفسه مختصــون بأمر الخيل ويجرون بجوار سادتهم وهم لا يعرفون التعب ويحملون معهم فى معظم الأحيان وبخلاف عصاهم بندقية مخدومهم .

على اقـــدامهم ، وبأيديهم عصى طويلة . سرت وحـــدى فى المقـــدمة كى أنزع كل شك من **الطرابين** حول مشروع زيارتنـــا .. وعلى الفور ، تعرفوا على ، وعندما وصل زملائى بعد ذلك بقليل ، لقوا ترحيبا طيبا .

وبعد ان استرحنا وتجولنا خـــلال مخيمهم ، وشربنـــا معهم بعض اقـــداح البن ، شرعنا فى الرحيل على الرغم من الحاح كبار القبيلة الذين أرادوا استبقاءنا كى نشاركهم الطعـــام من الخروف الذى ذبحوه عنـــد وصولنا ، لكننا ، بتصنعنا الأوربى ، شكرناهم مدعين أن لدينـــا أعمـــالا لا تمكننا أن نبقى لأكثر من ذلك ، ولاحظت أنهم لم يســـتريحوا لرفضنا ، ومع ذلك ، فبعد أن تبـــادلوا بعض الكلمات فيما بينهم بصوت خفيض ، استعادوا ملمحهم البشوش الذى كان لهم حتى ذلك الوقت ، وقال لنـــا الشيخ وهو يمتطى حصـــانه مع بعض العربان ، انه ذاهب معنا ليدلنـــا على طريق أفضل من ذلك الذى نعرفه . وما أن خرجنـــا من المخيم حتى افتعل مناوشة ، وقضينا نحن بعض وقت فى ملاحظة المهارة التى يوجهون بها خيولهم وينقاذفون بها الجريد (١٦) .. كنت قد شاهدت هـــذا الأمر مرات عديدة ، وحيث أننى شـــغوف بهذا النوع من الألعـــاب ، فاننى لم أستطع أن أمنع نفسى من المشاركة فيها ، فدخلت بينهم ، واستمر اللعب طيلة مسيرتنا .. وفى النهاية وصلنا الى شـــواطىء النيل ، حيث غابة صغيرة من النخيل ، وهنـــاك فوجئنـــا بوجود وجبة معدة ببذخ على حصير مبسوطة على الأرض ، فقال الشيخ :

---

(١٦) والجريد . عصـــا يبلغ طولها ٤ ــ ٥ اقـــدام وتســـتخدم كرمح ، ويفصل العرب عادة الفروع الخضراء من النخيل لأنها جد ثقيلة . ويستطيع الرجل وهو واقف أن يرمى الجريد على بعـــد أكثر من ٥٠ قـــدما ، أما اذا كان ممتطيا حصانه ويعـــدو بأقصى سرعته فانه يستطيع أن يلقى بها لأبعد من ذلك بكثير ، وهنـــاك من بينهم من يستطيع أن يقـــذف بها بقوة لدرجة يمكن لهذه العصـــا معها أن تتسبب فى حدوث جرح خطير ، بل وفى قتل من لايستطيع تفاديها . وقـــد حدث لى ذات مرة أن وقعت على الأرض دون أن أعرف واحدا ممن كنت ألعب معهم ، وفى نفس اليوم تلقيت ضربة بالجريد منعتنى لشهر كامل من أن استخدم ذراعى .

« ها نحن نجد وجبة فى طريقنا .. بامكاننا أن نتناولها معاً دون أن نضيع عليكم مزيدا من الوقت » فترجلنـــا ، وبدأنا فرنسيين وعربا ، ونحن جالسين على الأرض نأكل بشهية طيبـــة .. كان ثمة لبن فى آنية كبيرة ، ودجاج ، وجبن أبيض ، وعسل ، وبعض الفطائر وخبز ، ووسط كل ذلك خروف بأكمله فوق تل من الأرز لم يكد ينضج ، وبدون شوك ولا ملاعق ، وباستخدام أيدينـــا مثل العربان ، كنا ننزع قطع اللحم ، ونأكل كيفما اتفق من نفس الأطبـــاق . واذا كان قـــد سبق لنـــا أن تندرنا على عدم مهارة العرب فى استخدام الشوكة فى طعامهم فقد كان بامكانهم فى ذلك اليوم أن ينـــدروا من الطريقـــة المبتسرة التى كنا نقلدهم بها ، وكان بعضهم يغمس اللحم بالعسل فحاولنا أن نفعل نفس الشىء ولكننا وجدنا الطعم غير مستساغ لنـــا ، وشربنا ميـــاه النيل الرائعـــة وقـــد بردوها بالقلل (١٧) .. كانت وجبة بالغة المرح على الرغم من أن نصف المدعوين كانوا يجدون مشقة فى فهم النصف الآخر .

ولقد انتهى مضيفونا من الطعام قبلنا ، وعندما كان يشبع أحـــدهم كان ينهض قائلا :شبعت والحمد لله .

وعندما نهضنا جميعا اتخذ خدمنا وكذلك خدم العرب أماكنهم ، وقال الشيخ بصوت عال حسب عادة العرب « يا أبنـــاء البلاد ، تقدموا وكلوا » وعندئذ اتخذ بعض فقراء الفـــلاحين الذين جـــذبهم الجوع أو الفضـــول أماكنهم حول الحصـــير ، ولاحظت أن أقل شىء يشبعهم وانهم يفسحون بسرعة أماكنهم لآخرين وسرعان ما اختفى كل شىء . ركبنا الجيـــاد من جديد مع البدو وتفرقنـــا كأصدقاء قـــدامى بعد أن تبادلنا التحية العربية علامة على المودة ، وهى عبارة عن التـــلامس عـــدة مرات باليد اليمنى ووضعها عدة مرات فوق الصـــدر مع قول . خذ بالك من نفسك ، حماك الله ؟ وهى مجاملة لا يمل المرء مطلقا من ترديدها .

منذ ذلك اليوم وانا أعود على الدوام لرؤية الطرابين ، ولقد أخذت عنهم معظم الأفكار التى أدونها اليوم . وعنـــدما كلفت بعد ذلك بعمليات

---

(١٧) القلل آنية فخارية ، غير مطليـــة ، تنسغ الميـــاه من خـــلال مسامها ، وتوضع فى الظل فى تيـــار الهواء ، ويؤدى البخر الذى يحدث فوق جسمها الخارجى الى تبريد المياه التى تحويها .

كثيرة جعلتنى اجتاز صحراوات مصر السفلى أو العليا واتتنى الفرصة أن انعرف على قبـــائل أخرى ولاحظت فى كل مكان نفس العـــادات ونفس **السمات والموارد والاحتياجات المتشابهة . ومع أن هذه** الجولات **كانت** مرهقة بالنسبة لى ، **فإن** رغبتى فى التعرف جيـــدا على هذه الشعوب المفردة ـــ كانت تجعلنى اقـــوم بها بسرور ، واضـــيف بأننى كنـــت على الدوام أتوغل فى الصحراء رغم انه كان ينقصنى تقريبا كل شىء ، اذ لم اكن احمل معى الا قليلا من البسكويت وبعض البلح وقدرا من الماء يكفى لكى لا اهلك من العطش ، وكنت افضـــل ذلك على أن أبقى فى مدن مصر وسط الوفرة والرخاء فجو الصحراء صحى لدرجـــة قصـــوى ، ونادرا ما يبلغها الطاعون ، أما أمراض العيـــون فقليـــلة هنـــاك ، ويكاد يكون الجدرى هو المرض الوحيد الذى ينبغى على المرء ان يخشاه فى الصحراء. وبالرغم من هذا الجو الصحى ، الذى لا يقـــدر بثمن بالنســـبة لأحوال المنـــاطق المجاورة فانه من العسير علينـــا أن نقتنع أن رمالا قاحلة كهذه يمكن ان تقتسم الى ملكيات مميزة ! ومع ذلك فلقد اقتسمت القبائل العربية هذه الرمال ، كما أنها تكن لهذه المناطق الموحشة لحد الرعب نفس مايكنه المواطن الفرنسى من الحب للحقول اليانعة ، والظلال الوارفة فى وطنه، وهم ينـــافحون ويذودون عنها ضـــد العـــدو بنفس القدر من الجـــدارة التى تدافع بها الأمم الأخرى عن أراضيها شـــديدة الخصوبة . وامتلاك بئر هو على وجه الخصوص كما كان فى زمن البطاركة العبريين أمر بالغ الأهمية ولابد أن ندرك بأن الحـــدود فى بلد ليست مزروعـــة ولا تقطعها الأنهار أو مجارى المياه ، كما لا تغطيها المبانى والمنشآت ستكون بالضرورة عسيرة التحديد . لذلك تتولد على الدوام الاحن ، بين القبـــائل من أجل المراعى ومن أجل المكوس التى تفرض على القوافل ..

وتبرق السماء اللازوردية بالضـــوء خلال النهـــار ، كما أنها شديدة الصفاء خلال هدأة الليل ، ومع ذلك فالأمطار تسقط على المناطق الجبلية بقـــدر أكبر قليلا من القـــدر الذى تسقط به فى بقيـــة أنحاء مصر ـــ وهو قدر ضئيل ـــ كما أن رياح السموم تعكر فى بعض الأحيان صفاء الجو .

وتهب السموم أو الرياح المسممة من الجنـــوب الغربى ، وسرعتها ليست ثابتـــة ، فهى تسرع وتبطىء من لحظة لأخرى ، وترفع معها الى

مسافة جد عالية دوامات الرمال التى تردم — كما حدث أكثر من مرة — قوافل ، بل جيوشا بأكملها ، وينسب الى هذه العواصف الهوج سبب ضياع الجيش الذى أرسله قمبيز لتأديب سكان واحة آمون «سيوة» وهذه الدوامات الضخمة ، وهى نادرة لحسن الحظ ، أقل حدوثا فى صحراوات مصر الشرقية عنها فى صحراواتها الغربية حيث الرمال هنا أكثر حركة ولكن السموم ، حتى عندما لا تثير أية دوامات أمامها تعد كارثة رهيبة ، اذ هى محملة على الدوام بالرمال الدقيقة والساخنة، وهى تحجب ضوء الشمس ، وتعطى للجو لونا كابيا ، وتصل بالحرارة الى درجة غير محتملة ، وتجفف النباتات بل وتقتل الانسان والحيوان مالم يتجنبوا فى لحظة هبوب الزوابع أن ينشقوها وهم يغطون وجوههم أو يستديرون عنها برءوسهم .. وهذه الخواص الضارة والشريرة لهذه الرياح هى التى جعلت الناس يطلقون فى الصحراء عليها اسم السموم، وهى تسمى داخل مصر — حيث هى أقل خطورة — الخماسين ذلك أن الناس يشعرون بهبوبها لمدة الخمسين يوما التى تواكب الربيع .

وهناك ظاهرة أخرى تقدمها الصحراء ، وهى تلك التى وصفها وشرحها المسيو مونج بذلك الوضوح الذى هو صفة مميزة لكل انتاج هذا العالم الشهير .فهناك يظن المرء انه يرى على بعد حوالى الفرسخ مساحة هائلة من المياه . بل ان الأجسام التى ترى على هذا البعد ترى صورا معكوسة لها فى أسفلها ، انه السراب كاملا ، وكم من المرات هلك مسافرون بؤساء استدرجهم هذا المظهر الخادع ، فهلكوا فى ميتة قاسية وهم يسعون الى الارتواء من عطشهم من هذه البحيرة — الوهم التى تتراجع امامهم على الدوام ، فى حين يظن زملاؤهم فى مؤخرة الركب أن هؤلاء قد وصلوا الى تحقيق بغيتهم ، ويغبطونهم على ما يظنونهم قد وصلوا اليه . وتعود هذه الظاهرة الى انكسار الضوء عند اختراقه للطبقات السفلى من الهواء الذى تتخلخل كثافته على سطح الأرض بفعل حرارة الرمال .

وتستخدم الغزالة الرشيقة ، ذات الخفر ، والحياء والعيون السود اليقظة ، فى معظم الأحيان كصورة يرسمها العاشق العربى لمحبوبته الجميلة ، أما النعامة السريعة ؛ والحرباء البطيئة ، فهما الحيوانان

الوحيدان اللذان رأيتهما فى الصحراء (١٨) ، وفى معظم الأحيان ، كنا نرى حول الخيام كلابا قوية البنية ، كستنائية الشعر ، لا يملكها فرد بعينه ، وانما تعيش فىحالة شبه وحشية وهذه لاتصاب مطلقا بالسعار، على الرغم من الحراره الشديدة والحرمان شبه التام من المياه ، وهى تعيش على جثث الحيوانات الميتة والقاذورات الدنسة .. الأمر الذى يساهم فى الحفاظ على صحية الجو من حول المخيمات ، وبالاضافة الى ذلك فان هذه الكلاب التى تستطيع أن نميز الأغراب من أبناء القبيلة تعد حراسا اماميين تسارع عن طريق نباحها بتقديم الانذار عندما يلوح أى خطر ، وتوجد كذلك عند بعض جماعات من العربان كلاب سلوقية « كلاب صيد » من سلالة جميلة .. لكنها لا نعيش طليقة مثل الأولين ، فلها سادة يمسكون بها مقيدة فى معظم الأحيان ويستخدمونها فى مطاردةالنعام والغزلان .

وتضطر القوافل التى تعبر الصحراء الى دفع المكوس للقبائل المالكة للأراضى التى تمر بها خوفا من أن تهاجم وتسلب امتعتها ويؤخذ أفرادها عبيدا وسبايا أو يشتتون فى الصحراء ، ومع أننا كنا على الدوام نستنكر هذه العادة ، الا أنها فى حقيقة الأمر تتفق كثيرا معنظام الضرائب عند بقية الأمم ، اليست لنا نحن أيضا قوانين صارمة بخصوص جوازات السفر وتحصيل الجمارك على البضائع الأجنبية التى تعبر اراضينا ؟ السنا نعاقب بالمصادرة والسجن والسلاسل بل وبالموت نفسه أولئك الذين يلجأون الى الخديعة أو الى القوة للتملص منها ؟

وأرض القبيلة ملك مشاع لكل الأفراد الذين يكونونها . واذا كانت هذه الأرض جرداء ، فان كل واحد يقود قطعانه الى حيث يشاء ، أما اذا كانت خصيبة فانهم يستزرعونها بواسطة الفلاحين أو يستزرعونها فى غيبة هؤلاء بواسطة اسراهم وعبيدهم وخدمهم ، ويقسم العائد بعدالة شديدة بين الأسر المختلفة .

---

(١٨) توجد فى الصحراوات حيوانات مفترسة اخرى مثل ابن آوى والذئب الأفريقى والضبع ... الخ ، لكننى لا أتحدث هنا الا عما شاهدته بعينى .

وبخلاف الصحراء التى هى ملك كامل لهم ، ينظر البــدو لأنفسهم كحكام شرعيين لمصر ، وينظرون الى الأتراك والمماليك باعتبارهم غاصبين ونتيجة لذلك فقد اقتسموا هــذه المنطقة ، واخذت كل قبيلة تحصــل فى المنطقة التى الت اليها بعض الضرائب العينية ، وبذلك يتخذ الفــلاحون التعساء لانفسهم حمــاة يدافعون عنهم ضد القبائل الأخرى التى ترغب فى انتهابهم ، بل ويشترون كذلك فى معظم الأحيان ملاذا يلجأون اليه عند الحاجة للاحتماء من طغيان الحكومة ومن الجشع النهم لسادتهم .

اما الملكيات الخاصة عند العربان فهى الأثاث والآنيــة والقطعــان ومنتجات بعض المهن ، مثل صــناعة بعض الأنســجة الخشــنة والزبد والجبن وبيع الجيــاد والجمــال واكراء الجمــال للقوافل ـــ كما تتمثل هذه المهن ايضـــا حسب المــكان فى تجارة بعض البضـــائع مثل الفحم، والسنامكى ، والملح البحرى والأسماك المقددة والنطرون والصودا والشبة والجدائل المستخدمة فى صناعة الحصر .

ويقتنى العرب كثيرا من الجمال ، وهــذا الحيوان ذو نفع كبير لهم ولولاه ما استطاعوا سكنى الصحراوات ولاستسلموا « لحياة الخضوع » لذلك يقال فى معظم الأحيان ان الله ـــ أو الطبيعة ـــ قد خلقه خصيصا كى يجعل الصحراوات قابلة لسكنى البشر . وهو قول لا يعادل خطأه الا الغرور البادى فيه (١٩) .

---

(١٩) تعيش الجمال على نحو طيب فى الصحراء لأن تكوينها يجعلها لا تحس بحاجة لا تستطيع الوفاء بها ، لــكن القول بأنها خلقت خصيصا من أجل الصحراء ، بل ولكى تجعل الصحراء آهلة بالانســـان ، انما هى فــكرة تصــدر عن غرور كبير . ومع ذلك فهــذه الطريقـــة فى التعبير والشروح قــد تبنــاها فلاســفة وعلماء طبيعة يتميزون عن أولئك الذين تركوا أنفسهم ينساقون بفعل مشاعرهم الى تجاوز الحقيقـــة البــاردة . وعندما يتــأملون فى تفاصيل تطابق مدهش لحيوان أو نبات فانهم يقولون لانفسهم : ان الطبيعــة الخيرة قــد منحته هــذا العنصر كى يؤدى هــذه الوظيفة الأساسية للحيــاة أو لقد أعطته هذه الوسيلة للدفاع كي تمنعه من الانقراض على يد اعدائه ! الا يكون من الأبسط أن نقول : انه يعيش لأن له هــذا العضو أو لأن له هذه الوسيلة للدفاع فقد استطاع ان يقاوم أعداءه ، ولولا ذلك لمــا ظهر مطلقــا على ظهر الأرض أو لــكان سرعان ما اختفى منها ، فأين كانت هذه الجودة الخيرة المزعومة للطبيعة بخصوص الانواع التى انقرضت بشكل تام .

وعندما يجد العربى نفسه بلا ماء ولا حب ولا غطاء ، طريدا فى الصحراء ، وعندما يرى جياده وأبقاره وخرافه تنفق من التعب أو الجوع فلسوف تبقى له جماله ولسوف تكفيه . فهى تحمله على ظهورها ، وتطعمه من لبنها وتتحمل الجوع والعطش وتواجه هذه العزلة الشاسعة لتحميه شر أعدائه .

وتكاد الجمال لا تحتاج الى الراحة ، وهى تقرض فى طريقها بعض النباتات الشوكية التى قد يعافها أى حيوان آخر ، ويطعمها العربان عادة بالقش المهروس « التبن » والفول ونوى البلح . وفى أثناء رحلة قمت بها فى عرض الصحراء لم تشرب الجمال التى كانت معى الا فى اليوم السابع .

وليس للجمال الكبيرة سوى سنام واحد ، ومشيتها المعتادة هى : الخطو ، ووقع عدوها ثقيل ولا يمكنها أن تستمر فيه لوقت طويل ، ويقودها العربان بواسطة زمام « مقود » وعندما تسير الجمال فى شكل قافلة فانهم يربطونها الواحد بالآخر من ذيولها ، ويستطيع شخص واحد فى العادة أن يعنى بستة جمال ، وتحمل الجمال على ظهورها كل الأحمال ، لأن الانسان لا يعرف فى الصحراء لا العربات ولا الزلاجات ، وينقسم الحمل على جنبى الجمل بواسطة برذعة مزودة بالحبال ، ومن النادر أن يبلغ وزن الحمولة أكثر من مائتى كيلوجرام الا اذا كانت المسافة التى على الجمل أن يقطعها بالغة القصر .

ومتوسط السرعة لقافلة تتكون من مائة جمل محملة على هذا النحو ، وتسير بخطو معتاد ، حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة متر فى الساعة ، وقد يقطع الجمل اذا سار بمفرده أكثر من ربع هذه المسافة زيادة على ذلك فى هذه المدة نفسها .

وثمة نوع أكثر ضعفا وأكثر رشاقة وأكثر خفة عند الجرى يسميه العرب ، الهجين ، ولا يستخدم هذا الحيوان الا للركوب ، ويقوده العرب بواسطة حبل مربوط فى حلقة مدلاة من منخاره ، وليس له الا سنام واحد كالجمل ، يوضع عليه السرج ، وعدوه فى العادة أكثر رقة ويكاد

يبلغ عدو الحصان ، ومهما كان عدو الحصان بالغ السرعة فان الهجين سيلحق به اذا ما طال الطريق .

وعندما يراد تحميل جمل أو ركوبه فان الانسان يضطر بسبب ارتفاعه الى جعله ينيخ ، ومن اجل ذلك يعودونه على طاعة بعض الأوامر التى يبلغونها اليه عن طريق اطلاق أصوات خشنة من الحلق تكاد تشبه صوت الانسان عندما يتغرغر ، ويبدأ الحيوان أولا بأن يطوى الركبتين . ويطوى ساقيه الأماميتين تحته ثم بدع الساقين الخلفيتين تنزلقان الى الامام لتحبذا بعد ذلك مكانهما الى جانبيه ; وتلامس بطنه الارض .

وعلى المرء عندما يركبه أن يتخذ مكانه بمهارة على السرج وأن ينحنى الى الخلف والى الأمام ، لأن الجمل ينهض — ما أن تضع قدمك فى الركاب — بشكل فجائى على قدميه الخلفيتين ثم على قدميه الأماميتين بطريقة تجعلك تميل أولا ناحيـة رأسه ، الى الأمام ، ثم تلقى بك بعد ذلك الى الخلف . وعلى المرء أن يعرف كيف يسيطر على هاتين الحركتين المتعارضتين ، وهما شديدتان . وتتتابعان بسرعة . ولحم الجمال طيب المذاق ، ويكاد يكون له نفس مذاق لحم البقر ، وهو مفضل بشكل خاص على لحم الحصان .

وتتمتع الخيول العربية الأصيلة بسمعة طيبة ، وهى تنقسم الى جنسين متميزين : العبادية والنبيلة ، وتسمى الأخيرة : حيل ، وهى أكثر قدرة فى صحراوات مصر منها فى صحراوات الحجاز وسوريا. ولا يمكن لحصان أن يعرف بأنه نبيل الا اذا كان أبوه وامه كذلك فى وقت معا ، وقول مثل هذا الرأى فى حصان ما سيكون له أثره الكبير فى تقدير سعره فان الناس يحرصون عندما يراد اتصال فرس نبيلة بحصان من نفس النوع أن يسجلوا بذلك حجة فى حضرة شهود ، وتصحب هذه الحجة على الدوام حركة بيع الخيول ، ويعلقها الناس فى رقاب الخيل داخل جراب صغير من الجلد ، وهى تحتوى عادة على كتابة غامضة مخصصة لجلب السعادة للحصان وفارسه . والعرب غير معتادين على الاطلاق أن يخصوا خيولهم ، أو أن يقطعوا ذيولها أو آذانها ، اذ لا يلجأ الناس الى تشويه هذا الحيوان النبيل على هذا النحو الا فى اوربا ،

فالأسلوب الذى سيطر بشكل مستبد فوق هـذا الجزء من العـالم قـد أخضع الحيوانات نفسها لهفوات شاذة .

وابتداء من سن الـ ١٨ شهرا ، يأخذ العرب فى تعويد خيولهم حمل الركاب ، وعندما تبلغ هـذه سن العـامين يدعون أطفالهم يركبونهـا ، ولا تستطيع الخيل فى هذه السن الا أن تخطو أو أن تعـدو ، وهى تأكل فى النهار القش المهروس وعنـد غروب الشمس تأكل من ٥ ـ ٦ أرطال من الشعير ، ولا يقـدم لها العشب مطلقـا ، وهى لا تشرب فى اليوم الا مرة واحدة ، ويقل هذا بثلاث مرات عما يشربه الحصان الفرنسى .

وتضعف ساقا الخيول العربيـة الأماميتان وهى فى سـن مبكرة . ويعود ذلك لسببين رئيسيين : الأول ، هو الوضع المتقدم **للغاية** للسرج ، والثانى هو الطريقة التى يوقفبها العرب خيلهم وهى تجرى بأقصى سرعة، اذ يجذبون اللجـام بقوة ، فيرفع الحصان ساقيه الأماميتين ، ويزحف على قدميه الخلفيتين فتصطدما بالأماميتين . وهكذا يتوقف فجأة وهو فى أقصى سرعته .

ويستخدم العربان شكائم جافة لحد كبير ، ولذلك فانهم يضـطرون عندما يدفعون خيولهم بأقصى سرعة أن يطلقوا أيديهم كليـة ، وعنـدما يستحثونها على مواصلة السرعة فانهم يضايقونها لحد كبير .

ولسرج العربان ، وهو نفس الحـال فى السرج الذى يسـتخدمه المماليك ، مسند يبلغ ارتفـاعه من ٨ ـ ١٠ بوصات ، وهو يشبه ظهـر الأريكة الى حد كبير ولهذا السرج فى مقدمته قربوس فى سمك الذراع ، يرتفع رأسـيا من ٥ ـ ٦ بوصـات ، أما الركاب فيتـكون من لوح من النحاس ، مقوس من الجانبين بطريقـة تجعل منه متكأ للقـدم . مسطح الشكل ، وأكثر طولا وعرضـا من القـدم نفسها وهو محدب بعض الشىء وشكله رباعى ، وزواياه التى تجاور خصرى الحصـان مقواه بالصلب ، وتغنى هذه عن استخدام المهاميز .

وهذا النوع من السروج مناسب للغاية . فعندما تكون ساقا الفارس فى ركابين قصيرين على هذا النحو ، فانه يستطيع أن ينهض واقفا عندما

يجرى بأقصى سرعة أو عندما يقاتل . وحيث أنه يستطيع أن يستند الى مسند سرجه فانه يجد نفسه مهما يكن مقاتلا غير كفء ، طليق الحركة ، مسيطرا على كل حركاته (٢٠) .

وعندما ينتهى العربان من سباق عملوه فانهم يحرصون قبل ربط خيولهم على أن يسيروا بها فى خطو بطىء لمدة نصف ساعة حتى ولو لم تكن هذه الخيول تشعر بالحر من جراء الجرى ، ثم يدعونها مدة نصف ساعة بلا طعام .

ولا يرى المرء عند العربان لا جيادا كبيرة الحجم ولا جيادا صغيرة. اذ تكاد تبلغ قامة كل منها ٤ اقدام و٩ بوصات ، ويقابل المرء بعضا منها — كما يحدث فى كل مكان — وقد نزع عنها السن والمرض كل حيوية ، لكنه لن يقابل مطلقا كما هو الحال عندنا حصانا شائها أو رخوا لا يستطيع برغم عافيته وقوته ان يعدو ، اذ هو ثقيل لا يفيد الا فى جر العربات أو حمل الأثقال . جرب وضع سرج على ظهر حصان عربى عجوز يدور بالطاحونة منذ سنوات عدة ، عندئذ ستراه ينهض ليعدو الى حلبةالسباق ، ويضع نفسه فى خدمة سيد جديد ، يمكنه أن يظل يستخدمه — مادام به رمق من حياة — كحصان عظيم .

والحصان العربى ، فى معظم الأحيان ، بالغ الرقة ، واعتقد أن وداعته تعود جزئيا الى القيود الكثيرة التى تحمل بها سيقانه منذ سنه الباكرة ، وقد كنت فى كثير من الأحيان ارى عربيا متعبا أمام حصانه ممسكا اياه من رسغه ، ويدخن بهدوء **نارجيلته** ، بينما يظل الحصان ، الذى أهاجه القرب من بعض الفرسات . . بلا حراك ، يعبر فقط بصهيله عن نفاد صبره .

وتعرف الخيول العربية بدقة سيقانها ، وصغر حوافرها وخفة

---

(٢٠) يدين المماليك بجزء كبير من هذا التفوق الملحوظ ، الذى كان لفرسانهم على فرساننا فى بداية اقامتنا فى مصر ، لشكل سروجهم ، فقد كنا على نحو ما نقاتل ونحن جالسون، وكانوا هم يقاتلون وهم واقفون، فكانت المعركة بذلك غير متكافئة .

رأسها وبقلة سرعتها عن سرعة خيولنـــا التى تستخدم فى السباق ، ومع ذلك فالخيول العربية أكثر مرونة بشكل لا يمكن المقارنة معه ، فهى تعدو فجأة وبأقصى سرعة اذ بامكان المرء أن يضعها على مبعدة ٦ ـــ ٧ خطوات من حاجز ما ثم يجعلها نعبر عـــدوا هـــذا الحاجز بعـــد هـــذه المسافة الصغرى، كما أن بامكانه أن يجعلها تدور حول نفسها وفى كافة الاتجاهات بأيسر من اليسر وأن يضيق من الدوائر التى ندور فيهـــا لحـــد يبعث على الدهشة دون أن يقلل ذلك من سرعتها، وهذه المرونة المذهلة وكذا السهولة القصوى التى يوقفونها بها فجأة عندما تندفع حتى ليلامس بطنها الأرض، تجعلانها ثمينة لحـــد لا يقـــدر بثمن فى حالات القتـــال جسدا لجسد ، ولذلك فهى مرغوبة بشكل كبير من الأمم المجاورة ، وهكذا فتجارة الخيل واحدة من أهم تجارات العرب ، ولهذا السبب يفضلون الاحتفاظ بالفرسات، ويقال انهم يفضلون ركوبها عن ركوب الجياد لأنها اقل صـــهيلا ، كما أن أسفارها الليلية اقل صخبا ، وهذه ميزة لا يمكن اهمالها عند شعب تعتمد حروبه على المفاجأة الشديدة لعدوه .

والبدو قليلو التعليم، ويكاد لايقابل المرء من بينهم سوى بعض الشيوخ الذين قد يعرفون القراءة ، ومع ذلك فان لديهم الكثير من تلك المعـــارف التى يعطيها طول الملاحظة، فهم يعرفون على سبيل المثال كيف يسترشدون بالنجوم وهم يسيرون فى الليل وســـط أراضيهم الجرداء والمتشابهة والتى لم يشق بها طريق واحد ، وهم يحددون الوقت الذى تبلغ فيـــه الشمس درجة الزوال ، ويقسمون النهار بواسطة قياسهم لطول الظل ، وتتطابق القاعدة التى يستخدمونها بحسب الفصول المختلفة لحد كبير مع خط طول البلد الذى يسكنونه ،ولهم بعض الممارسات فى مجال الطب ، كما لايمكن على الاطلاق الاستهانة بفن البيطار عندهم ، وهم يعرفون عادات حيوانات الصحراء والنباتات التى تمتاز ببعض الخاصـــيات النافعة ، وقبل أن يكتشف علماء النبـــات عنـــدنا بوقت طويـــل أجنـــاس النبـــاتات ، كان العرب يستخدمون تسميات مذكرة ومؤننة لتمييز اشجار النخيل التى لاتنتج ســـوى الزهور من تلك التى تنتج الزهور والثمار ، وكانوا يعـــرفون أن ذرات الأوليات اللازمة لاخصاب الأخريات ، وعندما يريدون اثنـــاء حملاتهم السريعة ايقاع الأذى بأعدائهم فانهم يكتفون بقطع النخلات الذكور وهذه على الدوام قليلة العدد .

والعرب البدو ذوو خيال مطبوع ، متوهج وجاد ، وهم يتحدثون على الدوام بأسلوب مليء بالكنايات والاستعارات ، فهذه اللغة هى لغة طفولة الشعوب ، كما انها لغة طفولة الرجال : قليل من التجـريد وكثـير من الصور . وعند الشعوب التى نسميها **نحن** شعوبا متوحشة فان الانسان لا تضايقه الا الأحداث ، اذ ليس هنـاك هذا الحشد من القوانين والقواعد والقيود من كل نوع ، تلك التى تعوقه على الاطلاق عن استخدام ملكاته، بل انه هناك ليس مضطرا للرضوخ للأغلبية ، فحيث أن احتياجاته قليلة ، فانه يهرب اذا ما كدره أمره ، وبامكانه أن يجد لنفسه مأوى فى أى مكان وفى كل مكان ، كما أن مشاعره لا يصيبها ذلك الانهـاك ، الذى يصيب مشاعرنا ، بفعل هـذا التوافق والتطابق فى الحيـاة التى ، وان كانت لا تخلو من قلاقل ومضـايقات ، فانها على الأقل خالية من تلك الأخطار الـكبرى التى نجتازها دون اختيار منا لأفعالنا . اما عنـدنا نحن ، فان البعض منا تشغلهم شئون الدفاع المشترك ، بينما يقوم الآخرون بالزراعة، ويقوم فريق ثالث باعداد الخبز الذى يطعمنـا والأقمشـة التى تكسونا، فنحن باقتسامنا العمل على هذا النحو نزود انفسنا دون شـك بمبـاهج اكثر ، لـكننا فى نفس الوقت نستعيد أنفسنا . وعلى العكس من ذلك فالانسان فى المجتمع البدائى قليلا ما يعتمد على رفاقه . وحيث أنه يشعر فى كل لحظة باحتيـاجات كبيرة وبأخطـار كثيرة ، فان روحه أكثر قلقـا وعواطفـه اشـد جموحا فلماذا اذن لاتعكس لغتـه أسلوبه فى الحياة. انه نادرا مايستخدم الكلمة بمعناها الأصلى ، الكلمة المجردة ، انما هـو يكدس الصـور والتشبيهات ، لأنه انما يعبر عن عواطفـه هكـذا .. وهكذا أيضـا فهو غير معتـاد على قمع عواطفه هو .. انه لن يقول « أن هذه السيدة جميلة ، وهى تتصف بهذه الميزة أو تلك ، وسـأحميها ضـد أعدائها » لـكنه سيقول لنفسه : « انها جميلة كأول ضوء نهار ، كالقمر عندما تنعكس صـورته على سطح البحار ، لها رقة النسيم العليل فى قيظ الصيف ، يتدلى شعرها على كتفيها العـاجيتين فى تموجات ماء رقراق ، ان هـذا الشعر ليشبه اغصـان نخلة غضة ، وتشبه عينـاها عيون الغزلان ، أما صـدرها فيشبه يحمورين « نوع من الأيائل » توأمين يرعيان بين الزنابق : سأظل بجوارها كلبؤة غضوب تدافع عن صغارها ،

وسأرعاها بسيفي ، وسأجعل منه بمثابة حصــن لها يعز اقتحـامه .. الخ .. الخ » .

وهذه اللغة ، التي ليست عند الشعوب المتحضرة سوى لغة عــدد صغير من الأشخاص الموهوبين بخيــال متقد ، هي لغة الغالبية عند العرب الذين لا يزالون برغم أصلهم الضارب في القدم في طور طفولة الحضارة ، والذين تشبه حيـاتهم حياة الشعوب الأولى .

وقد يجادلني البعض دون شك بأن الأسلوب المجــازي لا يزال هو أسلوب كل أمم الشرق التي وصلت الى مرحلة انهــارت فيها حضــارتها وخضعت للاستبداد المطلق ، هذا صحيح ، لكن هــذه ليست المرة الأولى التي تتشابه فيها الشيخوخة مع الطفولة مع الاختــلافات الملازمة لــكلا الطورين من الحياة ، فــكلا الحالتين يسهل تحديدها ، انها نفس الموجة من الأفــكار التي تتدافع في الصدور لــكنها في الحالة الأولى «الطفولة» حية مبهجة ، بينما هي في الحالة الثانية متهدجة وحزينة ، ونفس الشيء يمكن أن يقال بالنسبة للاندفاع غير المنتظم للخيال عند الانسان الحر والذي نلاحظه بســهولة بين تلك اللغــة المليئــة بالتكلف ، وتلك التي تمالىء المخاوف . ففي الحالة الأولى ، تعبر اللغة في محسناتها عن تلك الرغبة التي يريد المرء أن يبلغها ، بينما تظل اللغة في الحالة الثانية تحوم وتدور دون أن تجرؤ على الاقتراب مباشرة من أهدافها .

وحب البــدو للشعر هو نتيجة طبيعية لــكل ما انتهينا اليه الآن ، ويتمتع شعراؤهم بهذا الاحترام والتقــديس الذي كنا نكنه في المــاضي لشعراء البطولة عندنا ، ذلك أن شعراء العرب اليوم هم ما كانه أولئك في المــاضي ، أي موزعو الأمجاد .. وأي امرىء هــذا الذي لن يكون مولعا ببلوغ المجد ؟ وفي بعض الأحيــان تخصص اشعارهم للحب ، وغالبا ما يجلس الواحــد منهم أمام خيمته وقت الغسق ونسيم المســاء ينعش النفوس ، يدعوها للمبــاهج السهلة ، ويغريها بالترويح بعد نهار شاق ، وعلى النغمات المنبعثــة من أوتار ربابته يهرع العربان جماعات ويجلسون من حوله على الرمال ، متشابكي السيقان ، يعــيرونه آذانا صــاغية ، أما هو ، فبعد أن يجرب ببعض النغمات آلته لبضع لحظات ، يبدأ ، وعيناه

شاخصتان نحو السماء ، او خفيضتان الى الأرض ، وفى هيئة من يحاول أن يتـذكر وقائع الأزمنة الخوالى ، يبـدأ يغنى انتصـارات قبيلتـه ، وللمفـاخر التى صـنعها شـجاع شنهم ، أو لتلك المـآسى التى حاقت بعاشقين (٢١) ، وكم من مرة لم الاحظ فيها وانا جالس بينهم ان الشمس قـد اختفت وراء الأفق فى الصحراء ! كانت اشـعة الغسق تضىء الوجه المتقد للشاعر المغنى وتضع فى دائرة الضـوء حركاته المعبرة ، بينما كان المستمعون يمدون اجسامهم الى الأمام ، ويصغون فى صـمت ، وبداوا جميعا وقـد أسـتغرقتهم الرواية التى يقصـها يتركون دون أن يدروا نارجيلتهم الطويلة ، واخـذت ترتسم على وجوههم البرونزية أمارات الرقة والاعجاب والفخار ، ولنتخيل كل هؤلاء الرجال المتـدثرين فى خيلاء على أفضـل نحو يستطيعون تتـدلى منهم لحيتهم السوداء وتفتر شفاههم عن اسنانهم العـاجية البيضـاء وتمتلىء عيونهم السوداء بحيوية دافقـة ، يهز شـالهم وعباءتهم وأرديتهم الطويلة نسيم الليل ، وبالقرب منهم تربض أسلحتهم ، وتحيط بهم من كل جانب تلك الصحراء الصموت ، بينما لايقطع صمت الطبيعـة الا صـوت ذلك الرجل الملهم .. وبعيدا بعيدا ، يأتى صوت صهيل الخيول المسرجة استعدادا للمعـارك ، وهى تضرب الأرض بقدمها ، معبرة عن ضجرها بقيودها ، بينما تنيخ الجمـال الصبورة على ركبتيها وتمضغ فى وقار بعض النبـاتات الشوكية تحاول أن تصـل الى الأسماع شكاياتها الحزينـة . ولنرسم وسط هذه اللوحة ، رجلا فرنسيا بملابس بلاده ، مقبولا بكل ثقة ، وعلى الرحب والسعة ، من كل رجال القبيـلة .. عندئذ ستتكون لدينـا صـورة لمشهد صـحراوى كان على الدوام مثار فضـولى .. وعنـدما كانت تتوقف الأغنيات ، كانوا يشعلون من جديد نارجيلاتهم من الموقد الموضوع وسط الدائرة ، وهناك فى غلاى كبير كانت تعـد القهوة ، وتدور اقـداح مليئـة بهذا المشروب من يد ليد

---

(٢١) وهكذا فعن طريق اغنيات تنتقل من عصر لعصر ، نقلت الشعوب تاريخها ، من قبل أن يخترع الانسان هـذا الفن الدءوب ، فن تجسـيد الـكلمات بالرسم ، ومخاطبة العين بالـكتابة ، لذلك فقد كانت الكتابات الأولى شـعرية ، لأنه كان على الانسان أن يبدأ بنقل ما كان يعرفه من الذاكرة ! ولأن الكلمات — التى كانت تغنى على الدوام — قياسا على ذلك كانت كلها منظومة .

لتعيد الى المرء قوته المنهكة ، وتزوده بخدر لذيذ دون أن نغيب عن وعينا كما تفعل بنا مشروباتنا القوية .. وهكذا يعود النشاط ، وتتنبه الحواس، ويلتهب الخيـــال ، وتمتد السهرة أوقاتا اخرى ، ثم يتفرق النـــاس وفى مخيلتهم تجول ذكريات المجد ، وذكريات الحب التى تبهج الأحلام ..

ولدى العرب عدد هائل من الحكايات على نمط الف ليلة وليلة (٢٢)، يلعب فيها العمالقـــة والجنيـــات دورا كبيرا ولا ينبغى على الاطلاق ان ندهش من ذلك فحيـــاة المقاتلين مليئـــة بالمغامرات ، وهذا هو الأمر الذى يحدد ميلهم نحو الحكايات الرائعة ، أليست لدى الجنـــود الفرنسيين ، كذلك ، حكايات من هذا النوع ، لا يغيب فى واحدة منها ذكر الشيطان او السحرة (٢٣) .

---

(٢٢) اذا كانت الحكايات التى جمعت تحت هذا العنوان تبهج القارىء العـــادى ، فانهـــا مثـــار اهتمـــام أكبر ، لأولئك الذين زاروا الشرق ، فالتقاليد والعـــادات ، والأثاثات ، بل والبلد نفسه ، كل ذلك قد وصف بأكبر قدر من الدقة والصدق .

(٢٣) فى معسكراتنا ، وبعـــد أن يختار كل امرىء المـــكان الـــذى سيهجع فيـــه وبعد أن تصف الحقـــائب والأمتعـــة على الأرض لتستخدم كمخدات ، يرقـــد الجميع ثم تصـــدر عن أحد الجنود صيحة عالية ، كما لو كان ليقول .. هل تريدون أن تصـــغوا الى ؟. فاذا ما ســـمع من كل الأركان الصيحات التى تعلن الموافقـــة يبدأ ، كان ياما كان فى ســـالف الأزمان .. وفى هذا النوع من الحكايات ، يدور الأمر حول أميرة شـــابة جميلة كانت تحتقر كل السادة الشبان المتـــأنقين فى بلاطهـــا وكذلك كل رجال الطبقة الحاكمة ذوى النفوذ ، وتصبح عاشقة لجندى بسيط وتتزوجه وتغـــدق عليه الشرف والجاه والثروة ، وبتوســـع الراوى فى امتـــداح الشجاعة والميزات الأخرى ، فيجعـــله يصـــارع ويهزم الشيطان نفسه، ويشرب براميل من الخمر دون أن يغيب وعيه ويصـــل به لمرتبـــة هيرقل فى غرامياته ، ويتفنن فى وصـــف مفاتن محبوبتـــه بأسلوب حسى لايخفى منها شـــيئا ، ويصحب ذلك كله بايمان مغلظة ، وهـــذا ما يعجب الجنود، ذلك أن خيالهم سوف يمنيهم للحظات بمصـــير مشابه لمصير رجل يشبههم، ولـــكن النعاس سرعان ما يتغلب على مباهج الرواية بسبب تعبهم ،ولهذا السبب يعنى الراوى بأن يتـــأكد أنهم يصـــغون اليه بأن يطلق من لحظة لأخرى نفس صـــيحته الأولى ، وتطمئنـــه صيحات المستمعين ، وعنـــدما تصبح الصيحات التى ترد عليه قليلة أو عندما لا تعود تسمع فانه سرعان مايستغرق فى النوم مثلهم .

وقد يدهش المرء للوهلة الأولى من تلك اللوعة والرقة اللتين يبثهما الشعراء العرب فى تعبيراتهم عندما يتغنون للحب ، ولكن لماذا ؟ هل نريد أن نقول بأن مثل هذه العاطفة المحمودة لا ينبغى أن تسود عند أبناء أمة لا تختلف فيها حياة النساء عن حياة العبيد ؟ أتساءل هل يمكن للرجل والمرأة هكذا خاضعة لمشيئته أن يجعل منها مالكة لمصيره .؟ قد يبدو أن مثل هذه الأسئلة تقوم على أسس قوية لكن انعدام الفكر سرعان ما يجعلها فى حكم العدم ، حقا أن النساء عند أمم الشرق يحيين فى عزلة تامة حيث يحرم عليهن مجتمع الرجال ، وعندما يخرجن فثمة حجاب صفيق يخفيهن عن كل النظرات . لهذا كان من المفترض أن تكون مغامرات الحب هنا شديدة الندرة ، لكن كثرة وزيادة التحفظ والاحتياطات القوية ضد أقوى العواطف وأبعدها عن الخضوع والسيطرة .. كل هذا يجعلها أكثر قوة وحدة ، فاذا ما لمح شاب أثناء لقاء عابر ملامح سيدة جميلة أو صورها له خياله على هذا النحو ، فان الصعاب ستؤجج رغباته وتبدأ التعبيرات الملتهبة ترسم كل مايشعر به .

وفى واقع الأمر ، فماذا يهم أن تكون النساء أكثر أو أقل ارتباطا بأزواجهن ، ينلن احتراما أكبر أو أقل فى محيط الأسرة ، ذلك أن الأمر ليس أمر من يمتلك ، ولكن أمر من يغتبط بالتملك ، ويبالغ فى قدرة المملوك ويتحدث عنه بحماسة مشبوبة .

أما عندنا ، فحيث أننا نرى أكبر عدد من النساء ونعيش معهن فى مجتمعهن فلابد أننا قد تحصنا ضد مفاتنهن ، أن لنا بالتطع رغباتنا لكنها أكثر غموضا ، واذا ما تسلطت هذه الرغبات على المرء منا لبعض الوقت وهو بمفرده فنادرا ما يطول به الأمر ، اذ سرعان ماتجذب عواطفنا مفاتن أخرى لسيدات أخريات .. وهكذا فسوف نغنى لمذاق الحب فى فرنسا ، وللواعجه عند العرب : حيث أن لتطرفات الأنين والشكوى مباهجها ..

وزيادة على ذلك فالنساء عند عربان الصحراوات عادة أكثر اعتبارا منهن عند بقية أمم الشرق ، بل لقد رأينا زوجات الشيخ يحكمن القبيلة بعد موت زوجهن ، وهناك حادثة كنا شهودا عليها تبرهن بشكل طيب

ان تـــدر النساء العربيات ليس مطلقا على هذه الدرجة من العسف التى كنا نظنهن عادة عليها . فقد حدث أن فاجأ بعض البدو المنصورة وذبحوا حوالى المـــائة من جنود الخيـــالة الذين كانوا يحرســـون هـــذا الموقع واصطحبوا معهم ســـيدة ايطالية كانت زوجة العريف الذى لقى حتفه فى هذه المعركة. وعندما حل السلام ، اشترطنا ضرورة ان نستعيد هذه المرأة فوافق البدو على ذلك لكنها هى التى لم تشأ ان تفيد من هذه المـــادة من بنود المعاهدة وفضلت أن تبقى بينهم . وراودنا الشك فى ان الشيخ الذى تزوجها كان تـــد لمحها فى شوارع المنصورة عندما دخلها ذات يوم متخفيا فى زى فلاح فهام بها حبـــا حتى أنه عندما عاد الى مخيمه جمع أعوانه ، واستثار حماستهم ممنيا اياهم بالمغانم والأسلاب .

واختتم مذكرتى هـــذه بأن آمل أن تكون الوقائع التى تحتويها بذات نفع ولو ضئيل ، وسيكون هذا هو الجزاء الأوحد الذى سيعود على بفضل سماحة قرائى .

الدراســـة التــاسعة

كيف خرج اليهود من مصر القديمة

تأليف: دى بوا - إيميه

« العنوان الأصلى للدراسة : مذكرة موجزة عن اقامة العبرانيين فى مصر ، وعن هروبهم الى الصحراء (١) ، تأليف دى بوا — ايميه مراسل المجمع العلمى الفرنسى ، وعضو شعبة العلوم والفنون بمصر ، وعضو أكاديميـــة العلوم فى تورينو ، والفارس الحائز على وسام الشرف »

---

(١) قدمت هذه الدراسة الى شعبة مصر فى اول أكتوبر عام ١٨١٠ باعتبارها مكملة لدراسة اخرى للمؤلف حول القبائل العربية فى صحراوات مصر ، ثم سحبها المؤلف بعد ذلك ليدخل عليها بعض التعديلات ، وأرسلها الى اللجنة فى أكتوبر ١٨١٣ .

الفصل الأول

مقـــدمة

اشـــتهر المصريون ، فى عهـــدٍ بعض ملوكهم ، بمهارتهم فى فنون القتـــال ؛ كمـــا حازوا شهرة أكبر من ذلك بكثير بفضل حكمة قوانينهم ، واتساع معارفهم ، فلقد ولدت غالبية العلوم والفنون بين أيديهم ، وحين قاموا — هم — بتحضير اليونان ، فقد غدوا أساتذة لأوربا .

ولقد اختفت هذه الأمة الشهيرة ، كما اختفت مئات الأمم غيرها ،فى حين يظل يعيش حتى اليوم شعب كان عبدا للفراعنة ؛ ومع أنه قـــد بات مشتتا فوق الـــكرة الأرضية كلها ، خاضعا لكل صنوف الحكومات ، فقد احتفظ بكل عاداته وشرائعه ، ولغته وملامحه ؛ وفى الوقت الذى تجد اقوى الأمم فى اوربا نفسها غير واثقة من أصلها ، وفى حين يجهل الفرنسى الذى انتزع النصر من فونتنوى وفينا وبرلين وموسكو وروما ان كانت الدماء التى تتدفق فى عروقه هى نفسها التى تتدفق فى عروق أعدائه ، وفى حين لايعرف اكان أجداده من الفرنج أو من الغاليين ، أكانوا يقطنون ضـــفاف السين أو التبر او الدانوب ، فان أبسط يهودى يعوز ذلك الشىء ، الذى قد يكون مدعاة فخار للمتحكمين فيـــه ، أى انه يمتلك اصـــلا ينتمى لجنس قـــديم ؛ ان بامكانه أن يقول ، سواء كان قد ولد فى بولونيا أو فى أسبانيا ، لقد كان أجدادى يقطنون حقول سوريا وصحراوات مصر فى وقت لم تكن قـــد وجدت فيـــه بعد روما ولا اثينا ولا اسبرطة ولا أى من تلك المدن التى تشكل مباهج العصور القديمة وأمجادها .

وتعود هذه الظاهرة السياسية الى قـــوة تلك الشرائع والمؤسسات التى أقامها موسى فانه بعزله شعبه هكذا ، وبشكل تام ، عن بقية البشر ، قـــد جعل من تشتته أمرا سهلا ، لـــكنه فى الوقت نفسه جعل فناءه كذلك

مستحيلا ؛ ان اليهود — منتصرين — لم يستطيعوا (بفعل هذه الأنظمة) أن يجعلوا من قوتهم أقوى من قوى الأمم التى أخضعوها ، أما عندما كانت تحيق بهم الهزيمة فلم يكن بمقدورهم أن يختلطوا بالمنتصرين .

وتعود غالبية النقائص التى تعاب عليهم اليوم الى حالة الاذلال التى انتهوا اليها فى كل مكان ؛ وحيث أنه لا دور لهم فى ادارة شئون الدولة، كما أنه ليس بمقدورهم أن يتملكوا الأراضى ولا أن يتمتعوا بحرية العمل الحقلى ، تلك التى تربى الروح والوجدان ، بل ولأنهم — فوق ذلك — يضطرون لأن يقيموا فى أحياء منفصلة فى داخل المدن ، تغلق عليهم بواباتها كل مساء ، وأن يعيشوا فيها مكدسين بعضهم فوق بعضهم الآخر ، والا ينخرطوا فى اى فن شريف ، فلم يعد يتبقى لهم من عمل يقومون به الا أن يشتروا وان يبيعوا ؛ أما الذهب ، ذلك الذى يمنحهم الوسائل لاذلال قاهريهم ، الذهب الذى لا يزال يعطيهم بعض ضروب المتعة ، فقد بات هو الهدف الوحيد لطموحهم ، وليست هناك شهوة تستطيع أن تتلف الانسان فى جسده وروحه أكثر من هذه .

وقد يكون من غير المجدى أن نحاول أن نثبت أن عيوبهم هذه تعود الى شرائعهم وتنظيماتهم ؛ ولنتأمل للحظة المسيحيين الخاضعين لسيطرة الأتراك ؛ فنفس الأسباب قد سربت الى هؤلاء نفس المساوىء ؛ فالانسان، ولو كان حرا مليئا بالشجاعة ، ربما يصبح ، مهما تكن الدماء التى تتدفق فى عروقه ، مخاتلا ورعديدا حين يصير عبدا مهانا .

وفى البلدان التى تحسن فيها الأفكار والفلسفات ، والديانة السمحة من قدر اليهود ، ينهض من بينهم — هناك — رجال فضلاء وأدباء متميزون ولقد رأينا فى أيامنا هذه إسرائيليين يقاتلون بعظمة تحت راية فرنسا .

اذن فعلينا الا نحط من قدر امة لاتحتاج ، كى تصبح جديرة بالاحترام، الا لأن نحترم ؛ ودينها فضلا عن ذلك ، هو قاعدة لديننا ؛ وعلينا الا ننسى بصفة خاصة انها اظهرت وسط المحن والآلام خاصية عظيمة ، وانه اذا كان العفو يعد شرفا للقوة فان المشاعر الرقيقة تكون شرفا للضعف ؛ ونسوق مثالا على ذلك لا ينسى ، لقد تجرأت اورشليم على قتال روما التى كان يرتعد امامها أعتى ملوك الأرض ؛ ثم اقام اليهود المهزومون ، فى روما ،

بأيديهم المـكبلة بالقيود الحديدية النصب الضخم وقوس تيتوس * Titus الذى تخلد نقوشه البـارزة ذكرى سقوط المدينة المقدسة ، حسن ، لقد انقضت حتى اليوم سبعة عشر قرنا لم يمر خلالها مطلقا ، من تحت هذا القوس الذى يكرس هزيمتهم ، احد من احفادهم أولئك الذين ظلوا على الدوام يحفظون ذكرى هذه الاهانة ؛ وعن طريق منفذ ضيق شقوه لأنفسهم قريبا من هذا المبنى، كان اليهود يخرجون من الفورم ** Forum قبل ان تؤدى عمليات الهدم والتنقيب التى تمت هناك الى فتح منافذ اتصال أخرى .

وذات يوم ، كنت اتأمل فى هذه النقوش البـارزة لهـذا القوس، شمعدانا ذا سبعة شعب يزين المسيرة الظافرة للامبراطور ، ومر بالقرب منى رجل عبرانى ؛ تعرفت عليه من تلك الملامح التى لم يستطع اى طقس ان ينـال منها ، واظننى قرات فى نظرته التى القى بها على هذا المبنى، أبيات الشعر هذه ، التى وضعها شاعر كبير :

اى صهيون ، يامن يستحق الرثاء ؛
ماذا صنعت بمجدك ؟
فالعالم كله ماخوذ بعظمتك ؛
اما انت : فلم تعد سوى غبار ؛
ولم يعد يبقى لنـا من هذا المجد ،
الا الذكريات الحزينة .

« استير ، الفصل الأول ، المشهد الثانى ».

وقلت لنفسى : كم من الأسئلة يمكن ان يلقيها هذا العبرانى على ، لو عرف أننى اقمت بمصر ، واننى اقمت خيمتى فى أرض جاسان ، وعبرت البحر الأحمر سيرا على قدمى ، وتجولت هنـا وهناك ، وسرت على غير هدى فى الصحراوات التى يحيط بها جبلا حوريب وسيناء !

---

* امبراطور روما من ٧٩ الى ٨١ ، وكان يطلق عليه اسم « ملاذ البشر » ، وكان واحدا من الحكام الذين يسعون باخلاص شديد لتخفيف آلام شعبهم ، وحين لم تواته الفرصة فى أحد الأيام لتقديم الخير صـاح لقد ضاع يوم من حياتى ، وفى عهده حدثت كارثة بركان فيزوف (عام٧٩) (المترجم)

(**) ميدان عام فى روما حيث كان الشعب يتجمع ليناقش المسائل العـامة . (المترجم) .

ومع ذلك فأى انسان هو ، مهما تكن معتقداته ، ذلك الذى لن ينهمر بأسئلته على رحالة وطئت أقدامه أرض المعجزات والأمجاد هذه ؟ وهل هناك ملاحظة ، ولتكن اصطناعية لأى مدى ، يكون من شأنها ان تعود بنا الى التقليب فى تاريخ الاسرائيليين .. دون أن يستمع اليها الانسان بشغف ؟ وعلى هذا ،فمع يقينى بأن من شأن هذا أن يسترعى كل انتباه، فسأحكى ما أملته على عملية التنقيب فى المواقع ، حول اقامة العبرانيين فى أرض جاسان ، وحول هروبهم الى الصحراء ، وستتواثب الفائدة من وراء هذا الموضوع من ثنايا ما احكيه .

عن الأسفار

أسفار موسى هى مجموعة الكتب الخمسة التى خطها موسى ، سفر التكوين ، سفر الخروج ، سفر اللاويين ، سفر العدد ، وسفر التثنية .

وعلى الرغم من التناقضات التى يعتقد بعض النقاد أنهم قد وجدوها فى هذه الأسفار (٢) ، وعلى الرغم من اختلاف آرائهم حول زمن نشرها، فان الجميع مضطرون للاعتراف بأنها اقدم أثر مكتوب قد وصل الينا ، كما أنهم لا يستطيعون ، مهما تكن طبيعة آرائهم الدينية ، أن يرفضوا مانجده فى هذه الكتب من فائدة كبيرة ترتبط بالتأريخ لشعب كان رعويا جوابا ، ثم زراعيا ، ثم جماعة من العبيد ، ثم عاد مرة أخرى الى حالة التجوال ليصبح بعد ذلك غازيا . ان تغييرات شبيهة تستخدم عند التعريف بالجنس البشرى ، لأنها تشكل تاريخه ، فى الوقت الذى تكون فيه تاريخا لشعب بعينه .

---

(٢) وفضلا عن ذلك فما هى غالبية هذه التناقضات التى تم اكتشافها بكثير من الطنطنة والتقعر ؟ بعض اخطاء من الناسخين ، وعدة تفسيرات عارضة هى من اجتهاد المترجمين ، ثم لا شىء اكثر ، اليس من الأسهل على سبيل المثال أن نتقبل فكرة ان رجلا ينسخ فى سوريا ، فى غرب الأردن ، نصوص الأسفار ، قد أمكنه أن يضع عبارة فيما أمام هذا النهر فى موضع ما كان مذكورا فى الأصل على أنه الى ماوراء ، وأن يشير الى مقاطعات قديمة بأسمائها الحديثة ، وأن يذكر كذلك اسماء المدن التى انشئت فيها بعد ذلك ؟

وفى الوقت نفسه ، فاننا عند تصدينا لمادة من هذا النوع ، نحاذر ان نجرح اى رأى : فليقرأنا المسيحى واليهودى والمسلم والربانى دون ان يستشعر اى حرج او اهانة ؛ فلسنا هنا بصدد كتاب دينى ، ولكننا ننظر اليه كوقائع تاريخية ، وجغرافية ، ومبادىء اخلاقية وروحية .

ومع ذلك فلماذا لا يتقبل اولئك الذين يرون أنهم ليسوا فى حاجة الا لعقيدتهم الدينية حتى أنهم يؤمنون ايمانا مطلقا بكل ماجاء فى الأسفار ، لماذا لايتقبلون عن طيب خاطر أن هناك بعض الوقائع (التى ترويها هـذه الـكتب) تعز على التصديق حين تستخدم طرق أخرى للتفكير ؟ أما هؤلاء الذين تدفعهم شكوكهم الى تنحية كل عمل يكتشفون فيه بعضا من الخطأ ووضعه فى مرتبة الأسـاطير ، والى النظر الى وقائع بالغـة البساطة باعتبارها أمورا مبهمة تكتنفها الشكوك لمجرد أنها تختلط — فى نظرهم — بظواهر تنتمى الى ماوراء الطبيعة — لماذا نراهم غاضبين حين يحاول بعض تبديد شىء من شكوكهم ؟ وأما اولئك الذين يتعرفون على الله فى نظـام الطبيعة الرائع فلماذا — هم بدورهم فى النهـاية — يكابرون ، عن غير حق ، فيعتقدوا أن اسبابا روحية يمكنها أن تمارس تأثيرها على المادة ، وأن الصلوات وان الدموع تستطيع أن تغير شيئا ما من نواميس العـالم الفيزيقى ؛ ولماذا يسعى هؤلاء الذين لايمكنهم أن يتقبلوا أن يكون اله الكون شبيها بآلهة هوميروس ليصارع بدوره فى سبيل أشخاص زائلين أو أمور فانية ، لالقاء الملامة على أبحاثنا ، اذا ماسمعت هذه الأبحاث الى أن تجلو أمامهم تاريخ شعب فريد . وذلك بأن نقدم لهم بعضا من المعجزات التى ترفضها وتتأباها عقولهم باعتبارها شيئا من المصادفات السعيدة التى تجود بها ظواهر الطبيعة ؟

عن الرعاة الرحل

لم يجد الانسان ، فى اكثر مناطق العالم بدائية يمكن أن تصل اليها قدماه ، أشباهه منعزلين ، بشكل تام ، كل منهم عن الآخرين ؛ لكنه وجدهم متجمعين فى شكل قبائل تتفاوت احجامها ؛ واذا لم يكن لدينـا فى هـذا الصدد من زعم اجماعى مثل ما لدى الرحالة فان فكرة التماثل قـد تقودنا فى قضيتنا هذه اذا مالاحظنا بعناية مايدور فى عالم الحيوان ، واذا ماقارنا

التنظيم عند هذه الحيوانات بتنظيمنا ، وعاداتنا الطبيعية وخصائلنا الروحية والجسدية بمثيلاتها التى سوف نجدها عند الحيوان .

وتحمل هـذه الاعتبارات نفسها ، اذا ما أضيفت الى الشهادات التاريخية ، على الظن بأن الانسان كان صيادا وراعيا قبل أن يكون مزارعا ، وأنه قد ساح فى الأرض قبل أن يكون لنفسه فيها مقار ثابتة ، وان الناس فى كل مكان خصيب التربة ، رقيق الطقس ، صحى الهواء لدرجة كبيرة ، قد تزايدوا بسرعة هائلة ، بعد أن مروا ، من باب أولى ، من الحالتين الأوليين (الصيد والرعى) الى الثالثة (الزراعة) .

وفى هذه الحالة الجديدة خلق الانسان لنفسه ، وقد أصبح أقل انشغالا بأمور غذائه والدفاع عن نفسه ، احتياجات جديدة ؛ اصطناعية بلا جدال ، لكنه يلذ له أن يفى بها ، فارتقى بالفنون ، وزاد من عددها ، واخترع العلوم ؛ وعندما داخله الزهو من تسامى معارفه بدأ يحتقر جهل المتوحشين (البدائيين) ، ورد الأخير على الاحتقار باحتقار مماثل فاذاق الأول ، لأكثر من مرة ، ماتستطيعه القوة والشجاعة ، وليدتى الاستقلال والفقر .

وبسبب هاتين الحالتين بالغتى التعارض تولدت أحقاد واضحة وحروب دائمة بين الشعوب الرعوية والشعوب المزارعة . وفوق ذلك ، فلقد ساهم هذا الأمر نفسه فى تناقص الأولين لأنهم — فى حالة انتصارهم — يأخذون عادات المهزومين ، ويرغمون — فى حالة هزيمتهم — على هجر أنماط حياتهم ؛ وكان يمكن أن يندثر هؤلاء الرعاة — على المدى الطويل — كلية لو لم تكن توجد على ظهر الأرض أقاليم تحول تحولتها ، أو عدم صحيتها ، دون تقدم أحوال سكانها ، وحيث لايستطيع الانسان أن يعيش الا بمعونة القطعان ، مع تغييره المستمر لمكانه ، ولو لم توجد فى النهاية أماكن يجد فيها هذا الانسان المأوى الأمين ضد جيوش الأمم بالغة القوة . أما هذه الأماكن ، فلقد كانت ، من بين مناطق أخرى ، صحراوات مصر والجزيرة العربية وسوريا وبلاد مابين النهرين التى سكنتها فيما مضى قبائل العبرانيين ، والتى لا تزال تقطنها حتى اليوم قبائل الرعاة الرحل .

ان الحالة الطبيعية لهذه البلاد لاتقدم جاذبية من أى نوع لقدوم غزوات أجنبية ، كما أنها لاتدع فرصة للاختيار بين عدد كبير من الأنماط.

لا فى طرق المعيشة ولا فى العادات أو العلاقات السياسية لسكانها ؛ اذن فعلى المرء أن يعثر هنـــا على عادات وتقاليد تاريخ ضارب فى القـــدم؛ ان هذا فى الواقع هو ماحدث ، اذ يبدو تاريخ الأسباط القدماء هو نفسه تاريخ شيوخ العرب فى أيامنا هذه (٣) .

ابراهـــام

فى تلك الصحراوات القاحلة التى انتهينا من الحديث عنها تطلعت عشـــائر بأسرها الى تلك الفكرة الســـامية التى تتحدث عن وجـــود اله واحد (٤) . وهنـــاك نشأت هذه الديانة التى انتشرت وسادت فى أكبر جزء من هذا العالم حاملة اسم اليهودية أو المسيحية أو الاســـلام بحسب التعديلات التى تناولتها .

أما فى أقاليم اليونان الزاهية ، على ضفاف نهرى روفيا وسيفيزا * فقد اســـتطاع الانسان أن يعبد ، تحت أسماء فلورا وخيريس وبومونا ، الطبيعة وقد جملتها الورود والمحاصيل والثمار ، كما أمكنه ، متمتعا بمباهج الفنون الجميلة ، أن يتضرع اليها باسم منيرفا أو أبوللو ، أما فى قبرص المعطرة وأيونيا الرخوة ، وسط أجواء تحمل النفس الى الدعة فقد يعبـــد

---

(٣) أنظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٧٧ (الدراسة السابقة من هذا المجلد)؛ لكننى أكتفى بأن أضيف هنـــا الى القائمة التى قدمتها عن بعض العادات الشائعة عند الشعبين ، عادة تمزيق هـــؤلاء وأولئـــك لملابسهم واهالة التراب على وجوههم علامة على الحزن الشديد .

(٤) تقدم لنـــا القبائل العربيـــة التى أخذت على عاتقها ، بعد أن تجمعت فى شكل دولة تحمل اسم الوهابيين ، أن تقوم وأن تنقى الدين الاسلامى (من الشوائب التى شابته) ، برهانا جديدا لمـــا نقوله الآن ؛ فلقد توصل هؤلاء الرجال الخشنون ، فى بساطتهم هذه ، الى نفس نقطة المعتقد الدينى الذى توصل اليه غالبيـــة الرجال المتحضرين فى أرقى أمم الأرض ، أى الألوهية الخالصة ؛ فالوهابيون لا يدعون لله شريكا قط ، ولا يبتهلون الا اليه ؛ أما محمد وموسى والمسيح فليسوا بالنسبة لهم سوى حكماء (أنبياء) ، أما الأمجاد الدينية التى يردها النـــاس الى هـــؤلاء (وقـــد يعنى هنـــا التوسل بهم مثلا ، أو تعظيمهم — المترجم) فليست فى نظر هؤلاء الوهابيين سوى وثنية .

* فى البلوبونيز (المترجم)

فى قسمات وملامح اجمل النساء اللذة التى تجر الىجنس يسحر الألباب، وحيث كان يحصل على مباهجه بمئات الطرق فقد كان يجد فى كل بهجة الها محسنا مختلفا .

وتحت سماء أقل حظا أمكن أهالى تراقيا ، كما استطاع الجرمانيون، الذين كانوا هؤلاء واولئك قد تعودوا فى صيدهم وحروبهم الدائمة على سفح دماء فرائسهم أو نظرائهم ، كل يوم ، أن يجدوا مقر رب الحرب فى هذه الغابات المعتمة التى تبدو همهمة الريح فيها كما لو كانت صيحات شاكية تتوجع من الآلام .

لكن ، أكان شعب رعوى ، يضرب فى سهول فسيحة من الرمال ، بمستطيع أن يعبد الأرض مع خواصه العديدة واحداثه المتنوعة فى حين كانت تبدو الأرض بالنسبة له شحيحة للغاية واحادية الشكل ؟ أكان بوسعه ، وهو يجهل ترف الفنون أن يؤله خالقيها (أى مظاهر الطبيعة التى تؤدى الى نشأتها) ؟ وفى الوقت نفسه الذى نجده فيه انسانيا ورقيقا ، يعيش على لبن قطعانه ، أكان فى مقدوره أن يعبد اله الحرب شأنه شأن المتوحش الذى لا يلجأ الا لقوته عندما تجابهه مخاطر الأيام ، والذى يتغذى على لحم ينبض (بالحياة) ويروى غلته بالدماء ؟ كلا ، وانما النجوم وحدها هى التى تبعث على اعجابه : فالشمس التى تحيى وتوقظ المخلوقات هى التى تعطى القوة لأجسامهم كما تنشط أفكارهم ؛ هكذا تأله القمر وتألهت النجوم التى تضىء ليالى الصحراء ، تلكالليالى الممتعة للغاية بعد حرارة النهار الملتهبة ؛ وديانة كهذه كانت أقرب بكثير من أية ديانةاخرى لكى تسمو بالانسان حتى يدرك الكائن الأسمى .

وفى واقع الأمر ، فكل شىء فى السماء لا نهائى ، يشمله نظام يدعو الى الاعجاب ويبدو بوضوح للوهلة الأولى ؛ أما هنا على الأرض فكل شىء محدود ، يبدو وكأنه متروك لقدر أعمى ، فما البحر ، والأرض ، والهواء ، والظواهر التى تصدر عنها والتى لا يمكن للمرء أن يتنبأ بها، و ضروب الجمال فى الريف ، وفنون المدن ، والشهوات الانسانية فهذه كلها أمور محددة ومتميزة لحد يكون من العسير معه عليها أن تولد فكرة السبب الأوحد ، محرك الكون : وعلى العكس من ذلك ، فان مراقبة النجومتكشف

التشابه القائم بينها على أوسع نطاق ، وسرعان ماتبدو حركتها المنتظمة التي تخلع النقاب عن مواضعها نتيجة لارادة عليا ، ودائمة .

اذن فقد كانت الآلهة التي اصطنعها الانسان لنفسه حين ثبت عينيه على الأرض اما طيبة واما شريرة ، تدعو الى المحبة أو تبعث على الأسى، لكنها كانت على الدوام متعددة كذلك كانت سلطتها محددة ، أما حين رفع الانسان بصره نحو السماء ، فقد اهتدى الى اله واحد ، لا نهـاية لقوته وحكمته : فكرة سامية ، وهى حين تضع كل البشر على مسافة متساوية من الكائن الأسمى ، فانما تجعل من العبد المكبل بالأغلال حـرا ، مالم تكن الخرافة والعبودية قد امتهنتا بعد ، وبالدرجة الكافية ، روحه حتى ليرى فى أولئك الذين يزعمون لأنفسهم انهم سادته ، صورة من الرب .

أما ابرام ، ابراهام أو ابراهيم ، كما شاء الناس أن يسموه ، فيبدو انه هو الذى بشر ، بأكبر قدر من الحماسة عرفتـه العرب ، بوجود اله واحد ، ليجعل عبادته تحل محل عبادة النجوم (٥) ؛ ولقد كان المجد الخالد هو جزاء هذا الصنيع الطيب ؛ ففى حين لاتكاد تعـرف اليوم ، اللهم الا لأشخاص معدودين ، أسماء مثل أتيلا * وجنكيز خان ، وكل أولئك الملوك الذين ظنوا انهم قـد ملئوا العالم بأسمائهم ، فان راعيا صحراويا بسيطا ظل موضع تقديس من كل شعوب الأرض برغم كل القـرون التى انقضت منذ تحول جسده الى رماد ؛ فالطفل الذى يبدأ فى تعلم القراءة يتأتىء بالفعل اسمه ، كما أن المسيحى واليهودى والمسلم يطلقون على الاله الذى يعبدونه اسم **رب ابراهيم** ، صحيح ان بعض العلماء النابهين يعتقدون أن غالبيـة

---

(٥) كانت بعض القبائل بالفعل تعبد « العلى » ومن بينها شعب شاليم (سفر التكوين ، الاصحاح ١٤) ، وان كان ابراهام قـد أعطى روعة خاصة لهذه العقيدة ، عندما خلصها من كل ما كان من شأنه أن يشوه بساطتها .

* اتيلا ملك الهون الذى انتصر فى عام ٤١٥ على أباطرة المشرق والمغرب ودمر بلاد الغال (وهى المنطقة المحيطة بجبـال الألب وتشمل شمال ايطاليا والبلاد الواقعة بين جبال الألب والبرانس وبين المحيط ونهر الربن ، وكانت تسكنها شعوب كثيرة مقاتلة) ولـكنه لقى الهزيمة فى سهول قطالونيا عام ٤٥١ بالقرب من شالون ومات على ضفاف الدانوب عام ٤٥٣ (المترجم)

الشخصيات الشهيرة فى الأزمنة البطولية ؛ الألسيد والجازون * وحتى ابراهيم وموسى والمسيح نفسه هم كائنات مجازية ، لا يرون فى تاريخها الا تاريخ الأجرام السماوية ، ومهما يكن حظ افتراضاتهم هذه من الحذق فليس بمقدورنا ان نقبلها لأنها تبدو لنا متعارضة مع مسيرة العقل الانسانى، ومع مانلمسه نحن كل يوم ، لقد كانت للانسان أساطيره قبل أن تكون له علاقة بعلم الفلك . بل ان ماحدث ، فى معظم الأحيان ، هو أن النجوم ومجموعات النجوم كانت تسمى ، ولا تزال ، بأسماء تذكر بأحداث تمت على الأرض ، وفى النهاية ، فان الانسان حين يؤله كائنات بسيطة فانية، ويغطى فعالها بقناع من الرمز ، حين ينسب اليها أعمالا لايمكنها أن تتحقق الا على يد الطبيعة ذاتها وتلك نتيجة للمصداقية الدينية (مايؤدى اليه الدين من قابلية خاصة للتصديق أو الايمان) ، تلك التى تسهب أو تضخم من افعال البشر الذين تجعل منهم آلهة أو أولياء أو أنبياء وتنسب الى مقدرتهم أو الى وساطتهم عددا كبيرا من الأحداث المتخيلة أو الحقيقية.

لقد اختلطت الخرافات بالتاريخ فى كل مكان ، فلقد راقت الأعجوبة للبشر على الدوام ، ولسوف تظل تغريهم الى الأبد ، ولدينا كل يوم الوف الأمثلة على ذلك . فلنتعلم كيف ننحيها بحكمة عن كل رواية ، ولكن لنحذر فى الوقت نفسه من أن نقع فى تطرف آخر ، مقابل ، بأن ننكر فى رعونة بالغة الوقائع التى تختلط بأحداث خارقة ، وماذا نقول فى هذا الذى يخلص من رفضه أن يصدق أن راية الصليب قد ظهرت فى الأجواء عندما زحف قسطنطين ضد ماكزانس ** ان هذين الحاكمين لم يوجدا على

---

* Les Alcides ، أحفاد هيرقل ، و Les Jasons هم أبناء جازون ابن ايزون ملك يولكوس Iolcos ؛ وكان جازون قد قاد أبطال الأغريق (الارجوتوت) للحصول على جزات الذهب من كولشيد، وهناك أحبته ميديا ابنة ملك كولشيد الساحرة وهربت معه وتزوجها، لكنه هجرها ليتزوج من خريوس ابنة سيزيف ، وانتقمت ميديا لنفسها بأن عملت على دمار سيزيف وخريوس وطفليها . (المترجم)

** ماكزانس هو امبراطور روما من عام ٣٠٦ الى ٣١٢ وقد غرق فى نهر التيبر بعد أن منى بالهزيمة عند أسوار روما على يد قوات **قسطنطين** الأول امبراطور روما من ٣٠٦ الى ٣٣٧ ؛ وأدى انتصار الأخير الى اقتناعه بضرورة جعل المسيحية دينا رسميا للامبراطورية ، ثم أصدر فى عام ٣١٣ مراسيم ميلانو التى تنص على حرية العقيدة الدينية، ثم نقل عاصمته الى بيزنطة (القسطنطينية) . (المترجم)

الاطلاق؟ أما عن ابراهام، فان مايحول بصفة خاصة دون أن ننظر اليه باعتباره مخلوقا رمزيا يمكن أن يرمز حسب فكرة قديمة عن نشأة الكون الى بعض خواص المادة أو بعض خصوصيات الذكاء الأسمى ، هو انه لم يحدث أن اتخذ منه أحد فى أى مكان على الاطلاق الها أو واحدا من سلالة اله، برغم ان زهو كثير من الشعوب كان شغوفا بذلك ، وبرغم ان عبادة الأوثان التى انغمسوا فيها كانت تحبذ مثل هذه الفكرة ؛ وأخيرا فان اسم ابراهام قد جذب الى مكة ، منذ زمان ضارب فى القدم ، شعوب الجزيرة العربية ، فقبر محمد نفسه فى المدينة ليس بالنسبة للمسلمين انفسهم سوى شىء ثانوى فى طقوس الحج بالمقارنة مع الكعبة ، فهذا (المعبد)، فى رأى العرب ، هو أول بيت رفع للناس لعبادة الاله الحق ، وهم ينسبون بناءه الى ابراهيم واسماعيل ، ويبدو أن ديودور الصقلى كان على معرفة به عندما يذكر انه « يوجد على شاطىء البحر الأحمر معبد شهير يقدسه كل العرب » (٦) وحين أبطل محمد عبادة النجوم، وازال الأوثان (٧)

---

(6) Biblioth. hist. lib III.

(٧) كان الحجر الأسود ، وينتظمه اليوم جدار فى احدى زوايا الكعبة ، هو الوثن الوحيد (كذا !) من أوثان الكعبة الذى حظى باحترام محمد ، وسبب ذلك بلا ريب هو أن هذا الحجر لم يكن يجسد أى شكل انسانى أو حيوانى ، ومن المحتمل أن يكون هذا الحجر الخام أو غير المصقول كان مخصصا — قبل مجىء العقيدة الاسلامية — لعبادة الشمس ومن المعروف أن الشمس كانت تعبد فى سوريا على هذه الصورة ، وان روما قد شهدت فى عصر هليوجابال حجرا أسود بسيطا يتصدر آلهة ايطاليا واليونان التى كانت تجسد فى أعظم أعمال النحت ، فوق جبال بالاتان . وقد يكون من المثير أن نبحث عن الدافع الذى قد يكون وراء عبادة أروع النجوم واكثرها بريقا ولمعانا فى أكثر الأشكال خشونة واكثر الألوان قتامة ؛ فلعل هذه الأحجار كانت نيازك سماوية ، وبهذا يكون الناس قد تصوروا أن كرة ملتهبة تهبط من السماء تصحبها ضجة مفزعة لابد أن تكون قطعة من الشمس ولابد كذلك ان تنال الاحترام والولاء من البشر الفانين ؛ وبالمثل فانهم قد رمزوا بها فى كثير من الأديان الى الأشياء بالغة الحقارة والدناءة عندما يظنون ان هذه الأشياء تنتمى الى اله أو قديس .

التى اقامها الناس لها بين جدران الكعبة المقدسة ، فقد احترم الأثر القديم الخاص بهذين الأبوين ؛ كما كرس القرآن عملية الحج القـــديم الى مكة تخليدا لاسميهما القديمين والمقدسين ، ولعله قد تم كذلك بقصد سياسى يهدف الى ربط الأمم التى ستدين للاسلام عن طريق هذه التجمعات المهيبة؛ فجعل القرآن من الحج فريضة دينية على كل مسلم .

كذلك كان العبرانيون ينظرون لابراهام باعتبـــاره زعيما لجنسهم ، وهو مايتطابق مع شهادة العرب الذين يشكل العبرانيون ، فى رأينـــا ، واحدة من أقدم قبائلهم (٨) . وتتباهى أمم كثيرة فى الشرق ، فى الحقيقة،

= ولا يزال حجر الـــكعبة (الأسود) حتى اليوم موضع تقـــديس من جانب المتعبدين المسلمين ، فعلى الحجاج أن يطوفوا به سبع مرات ؛ أما أولئك الذين لا يستطيعون أن يقبلوه فيجاهـــدون كى يلمسوه باليـــد على الأقل ؛ وهو من بين كل « الأحجار » المعروفة أكثرها قدما أكثرها حظا من التبجيل والاحترام .

تعقيب : ينهار زعم المؤلف من أساسه اذا مااستعدنا قصة اعادة بنـــاء الـــكعبة فى حياة الرســـول صلى الله عليه وسلم ، فقد تم ذلك قبل بعثه بالرسالة ، وعلى يد قبائل قريش مجتمعة وبادر الرسول الكريم بوضع الحجر فى مكانه حسما للخلاف بين هذه القبائل . . الى آخر القصة المعروفة ، أما ازالة الأوثان فلم يتيسر للرسول (ص) الا فى العام الثامن من الهجرة . عند فتحه لمكة ، ولم يكن الحجر الأسود أحد هذه الأوثان كما يزعم المؤلف الذى تبدو معلوماته عن الاسلام وتاريخه بالغة القصور . والقيمـــة الحقيقيـــة للحجر الأســـود ، كما فسر لى أحد العلماء الاجلاء، هو أنه حجر أسود بين أحجار بيضاء . وانه يحدد بدء الطواف بالـــكعبة وييسر بالتـــالى تعـــداد مرات الطواف بدقـــة ، وهـــذا شرط أساسى فى مناسك الحج . (المترجم)

٨ - نجد فى التوراة ان غالبية العشـــائر الرحل التى كانت تقطن صحراوات سوريا والجزيرة العربية سواء كانت تنتمى الى اسماعيل أو الى عيسو ، كانت تشترك فى أصلها مع العبريين أو كانت تتحـــد معهم برباط الدم ، ولا تزال تشهد شطآن الفرات ، كما شهدت شواطىء النيل والأردن ، حتى يومنا هذا قبائل من الرحل يعرفون بهذا الاسم النوعى : العرب البدو ، ويحيون على وجه الدقة نفس حياة الأسباط أو العشائر الأول ؛ ومع ولأن العبرانيين قـــد سكنوا جزءا من أرض الـــكلدانيين يعدون من الـــكلدان كما أن البدو الذين أشرنا اليهم للتو ليسو فرسا ولا مصريين ولا سوريين ؛ وفضلا عن ذلك ، فلا يهمنا كثـــيرا أن نعـــرف ما ان كان العبرانيين هم من نسل العرب أو كان العرب هم الذين جاءوا من أصلاب اليهود ؛ ويكفينا أن نعرف أن لهم أصـــلا مشـــتركا ، وتقاليـــد وعادات متشابهة .

بان ابراهيم هو واحد من أجدادها ؛ واذا نحينا جانبا الرأى القائل بأن هذه الشخصية ، لهذا السبب ، لم توجد قط ، كما عبر عن ذلك بعض المؤلفين ، فاننا نرى فيه ، على العكس من ذلك ، شهادة على شهرة لم تكن لتنتشر قط عند الكثير من الأمم لو لم يكن لها من أساس واقعى ؛ فلقد تنازعت مدن كثيرة على شرف انتساب هوميروس بمولده اليها ، فهل يمكن القول بأن هذا الشاعر ، لهذا السبب ، لم يكن موجودا قط ؟ من ذا الذى لايعرف زهو وخيلاء البشر ؟ والشعوب ، مثلها مثل الأفراد بصفة خاصة ، يهتبلون بنهم واضح أقل الشواهد احتمالا لبلوغ أصل قديم ضارب فى القدم ، وبعد أن ينجحوا فى خداع الغير ينتهى بهم الأمر أن يخدعوا أنفسهم ؛ والخطأ الذى يحظى بالاعجاب سرعان مالا يعد بعد خطأ .

ويتطابق تاريخ ابراهيم كما قرأناه فى كتب العبرانيين ، فى نقاطه الأساسية ، مع كتابات المؤلفين العرب والفرس . ومع ذلك ففى حين يقدم سفر التكوين لوحة ساذجة وأمينة عن حياة أحد مشايخ الصحراء ، فان هؤلاء المؤلفين قد خلطوا ذلك بأساطير تجافى العقل ؛ وهكذا نجد ابراهيم ، طبقا لأقوالهم ، قد رفض حين جاء الى الدنيا صدر أمه ووجد فى أصابعه هو غذاء ربانيا . فمن أحد أصابعه كان يتدفق اللبن ومن أصبع آخر تدفق العسل ؛ وعندما بلغ شهره الخامس عشر كانت له قامة رجل يبلغ من العمر خمسة عشر عاما ، وحكمة ومعرفة رجل ناضج ؛ وحين أصبح ملاذا للفقراء واستنفد مخازن حبوبه بفعل الصدقات الكثيرة التى كان يقدمها تحول الرمل من أجله الى دقيق ؛ وقد أمره الله ان يأخذ أربعة من الطير وأن يمزقها اربا وان يوزع هذه الأشلاء فوق أربعة جبال وأن يناديها فتجمعت أشلاء الطيور على صوته وطارت نحوه ؛ وحين ألقى به فى لهيب متقد فقد لاطفته النار بدلا من أن تلتهمه * .

ومع ذلك فوسط هذه الحكايات الطفلية ، الصبيانية بخيالها الفاسد لدى الشرقيين ، فهناك نص يتميز بنبل بساطته وسمو العقيدة التى يكرسها جاء فيه : « وبينما كان ابراهيم يمشى مع أبيه أثناء الليل ، وهو بعد طفل ،

---

* يلاحظ القارىء ولابد أننا بازاء كاتب يرفض فكرة المعجزة تماما ، وهو على هذا الأساس يرفض الأخذ بكثير مما نعده نحن من المسلمات . (المترجم)

رأى فى السماء نجوما من بينها ، مع نجوم اخرى كوكب الزهرة الذى كان يعبده كثيرون ، وتفكر ! قد يكون هذا هو الرب سيد العالم ، ولكن بعد بعض من الوقت والروية قال لنفسه : أرى هذا النجم يغرب ويختفى ، فلا يكون هذا اذن هو مدبر الكون ، ونظر كذلك للقمر فى تمامه ثم قال : لعل هـذا هو خالق كل شىء وهو نتيجة لذلك ربى ، ولكنه عندما رآه ينزل عند الأفق مثل الكواكب الأخرى أصدر عليه الحكم نفسه . وبعد أن عكف على التأمل والتفكير بقية الليل بطوله ، وجد نفسه بالقرب من بابل عند شروق الشمس ، ووجد أعدادا لا حصر لها من الناس كانوا يعبدون هذا النجم ويسجدون له مما جعله يقول : هذا كائن يبعث ولابـد على الاعجاب وسأتخذ منه خالقا وسيدا لكل الكون ؛ ولكننى تبينت أنه ينحدر ويتخذ طريق الغروب كما تفعل النجوم الأخرى ، ليست الشمس اذن خالقى ولا الهى ولا ربى . وبعد ذلك رأى ابراهيم النمرود جالسا على عرش بالغ الارتفاع وحوله يصطف ، وفقا لمراكزهم ، فرقـة من العبيد رائعى الشكل من هذا الجنس وذاك ، وسأل ابراهام على الفور : من هذا الشخص الذى يعلو الآخرين على هذا النحو ، فأجابه والده : هـذا هو رب كل الذين تراهم محيطين به وكل هؤلاء القوم يرون فيـه ربهم . وعندئذ تأمل ابراهيم النمرود ، وكان بالغ القبح وقال لهم : كيف يمكن أن يكون هذا الذى تدعونه ربكم قد صنع مخلوقات تفوقه فى جمالها ؟ وكانت هذه هى المرة الأولى التى بدأ فيها ابراهيم يسعى كى يحرر اباه من أوهام الوثنية ، ويدعوه الى وحدانية الله خالق كل شىء » . ٨

---

(8) D'Herbelot, Bibliothèque Orientale.

الفصل الثاني

عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر (١٠)

كان العبرانيون فى أقدم مراحل تاريخهم ، يشكلون جزءا من هـذه الشعوب الجوابة التى ـ على الرغم من كونها ذات أسماء مختلفة ، ومع عادات وتقاليد متشابهة ـ لم تكن تكف عن الاستحواذ على بعض منـاطق فيما بين الفرات والنيل .

وهم يستمدون اسمهم من عابر ، وهو اسم أحد أجداد ابراهيم ؛ وقد ظلت عادة اتخاذ اسم أحد رؤساء القوم القدامى وخلعه على الأبناء شائعة لدى العرب المحدثين .

وحيث كان هؤلاء العبرانيون قد انغمسوا ، شأنهم شـأن البدو ، فى الحياة الرعوية ، وكونوا مثلهم منشآت زراعية قليلة الدوام ، فقـد تركوا أرض كلدان كى يمضوا الى منطقة من أرض مابين النهرين تابعـة لسوريا ؛ وكانوا فى ذلك الوقت وثنيين ؛ وكان تارح ، والد ابراهيم ، من ناحور وآران ، على رأس قبـائلهم . وعند موته انقسم القوم : فظل بعض فيما بين النهرين تحت حكم ناحور ، وواصل الآخرون مسيرتهم الى ما وراء الفرات ، أبراهيم ولوط ، ولدا أران ، وتكرر حـدوث انقسامات مماثلة عند الشعوب الرحل ؛ ونستطيع هنا أن نلحق بالأسباب التى حتمت حدوث الانقسامات هنـاك تلك الديانة الجديدة التى كان قـد بشر بهـا ابراهيم . وهى ديانة لم يتبنها فى الواقع أولئك العبرانيون الذين ظلوا فى

---

(١٠) نرجو من الذين سيقرأوننا الا يغيب عن ناظرهم مطلقا اننا لسنا هنـا بصدد أن نبرهن على أن هذا الرجل أو ذاك قـد وجد ، أو أن هذا الحدث أو ذاك قد وقع فى حقيقة الأمر ، ولـكننا نريد أن نقول فقط انه من المحتمل ، أو على الأقل ، من الممكن أن تكون الأمور قـد جاءت على هذا النحو الذى نسوقه نحن .

بلاد مابين النهرين . وقد أشار سفر التكوين الى هذا الدافع الذى يكمن وراء الانقسام ، اذ نرى فى هذا السفر أن ابراهيم قد انفصل عن أخيه(١١) حتى يستجيب لوحى مقدس. وفى هذا تتطابق التقاليد العربية والفارسية، وطبقا لذلك فقد حدث أن ابراهيم ، كى يحافظ على عقيدته وينأى بها عن اضطهادات الوثنيين ، قد انسحب الى جوف الصحراء . ومع ذلك فقد ظل يسيطر هذا الوفاق الأفضل بين القبائل التى انقسمت على هذا النحو ، ويكفى للتدليل على ذلك زواج ابن ابراهيم (اسحاق) من (رفقة) بنت بتوئيل بن ناحور ، وزواج يعقوب من بنات لابان بن بتوئيل (١٢) .

وتقدم ابراهيم فى البداية نحو الجنوب عبر أرض السوريين ، وبعد ذلك دخل مصر ثم عاد الى سوريا. وهناك انفصل عن (لوط) ابن أخيه ، وبعد مرور وقت قصير انتزعه من أيدى أعدائه (أعداء لوط) ، وينظر بعض الكتاب الى المعركة التى شنها ابراهيم فى هذه المناسبة باعتبارها عارية من أى ترجيح ، وبرغم ذلك فليس فى هذا الأمر مايمكن أن يعد خارقا بالنسبة لشخص عبر صحراوات سوريا وعرف تقاليد الشعوب التى تقطنها . وفى واقع الأمر فان ماهو أكثر من ذلك طبيعة — أى أنه أمر عادى للغاية — أن نرى رؤساء أو ملوكا أمثال ملوك ورؤساء شنعار وعيلام والاسار (بشده على اللام) وجوييم يشنون الحرب على ملوك سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم وبالع (أو صوغر) . وهذه الأسماء الأخيرة هى أسماء مدن ذائعة الشهرة ويمكن الظن بأن الأسماء الأخرى تشير الى بعض فصائل من الفرق الآشورية تقيم بين أربعة شعوب تخضع على الدوام لهذه الأمبراطورية (الآشورية) ، كان شيوخ المدن والقرى والقبائل يتحاربون فيما بينهم ؛ وكان شيخ فريق ما من البدو يعيش لأكثر من مرة فى حياته فى حالة حرب مع سلطان امبراطورية الترك القوية ، ومع

---

(١١) « وقال الرب لابرام اذهب من أرضك وعشيرتك ، ومن بيت أبيك الى الأرض التى أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة وابارك مباركيك ولاعنك ألعنه » سفر التكوين الاصحاح الثانى عشر .

(١٢) توجد عند العرب البدو هذه العادة نفسها ، عادة تفضيل الأصهار على أشخاص من العائلة نفسها .

ذلك ، فمهما تكن قوة الأمراء الذين أخضعوا البنتابول الأردنى (١٣) ، فقد استطاع ابراهيم ، باتحاده مع ثلاثة من مشايخ الصحراء هم عائر واشكول وممرا الأمورى أن يفاجىء وأن يلحق الهزيمة بالمنتصرين . ويقدم لنا التاريخ عددا لا حصر له من أحداث مشابهة ؛ فقد استطاع خالد ، على رأس ثلاثة آلاف عربى أن يحطم ويشتت فى عصر هرقل وبعد معركة من اشد معارك التاريخ بأسا وعنادا جيشا يتكون من عشرين الفا من الرجال من خيرة جيوش الامبراطورية (الرومانية) ؛ واستطاع على بك ضاهر فى عصر اقرب ، بخمسمائة من البدو أن يلحق الهزيمة بخمسة وعشرين ألفا من الدروز ؛ وعلى ضفاف الأردن ، عند سفح تل طابور ، شتت ٥٠٠ر١ جندى فرنسى بقيادة كلبير Kleber ، أمامهم جيشا **« ينتمى الى مائة شعب مختلف »** كما يقول أهل البلاد **« ويساوى فى عدده نجوم السماء ورمال البحر »** (١٤) .

وفى الحقيقة فان اسم **ملك** الذى تمنحه التوراة لرئيس مدينة بمفردها أو شيخ قبيلة واحدة قد أمكنه أن يتوج قصة انتصار ابراهام بهالة مبهرة ، فنحن ننسب لهذه الكلمة معنى المقدرة العظيمة (والملك الشاسع)، لكن الكلمات نفسها لاتعنى فى كل الأحوال الأشياء نفسها ، وتظل معانيها تتغير فى مختلف البلدان ؛ فشيخ بضعة الوف من الرجال فى الشرق قد يتسمى باسم أمير الأمراء (أو ملك الملوك) ؛ وفى حين أن لقب ملك هو مانطلقه نحن على لويس الرابع عشر او بطل ترموفيل Thermophyles٭

---

(١٣) منطقة خماسية المدن (أى بها خمس مدن) ، ويطلق اسم البنتابول على العديد من تجمعات مدن مماثلة ، ويتكون البنتابول الأردنى من مدن : سدوم ، عمورة ، ادمة ، صبوييم ، بالع (التى هى صوغر كما تذكر التوراة) .

(١٤) تدر هذا الجيش بنحو خمسين الف رجل أكثرهم من الفرسان .

٭ او الأبواب الحارة ، ممر شهير فى تساليا ، حاول عنده ليونيداس الأسبرطى ومعه ثلاثمائة من الاسبرطيين أن يوقف جيش الفرس بقيادة كسركسيس ؛ وحيث لم يتخيل الأخير أن هذه الحفنة من الرجال تعتزم حقا ان تقطع عليه الطريق فقد كتب الى ليونيداس رسالة لاتضم الا هاتين الكلمتين : « سلم اسلحتك » فكتب اليه الأسبرطى تحت كلماته « تعال خذها » ؛ ولكن احد الخونة ارشد الفرس الى ممر وسط الأحراش يسمح لهم بالاحاطة بالجبل الذى كان يتحصن فيه ليونيداس ؛ وحين تبين الأخير أن من المستحيل عليه أن يتفادى الموت ، دعا رفاقه الى وجبة طعام متقشفة ثم قال لهم « فى هذه الليلة سنتعشى عند بلوتون اله الموتى » . (المترجم)

فانه يخلع فى الساحل الأفريقى على رئيس بضع ضـــياع صـــغيرة من ضيعات الزنوج ؛ وبالمثل فقد تلقى شيشرون التحية من الفرق العسكرية التى أطلقت عليه لقب امبراطور بعد حملته على صقلية ، ومع ذلك فليس هنـــاك من يخلط بين سطوة هـــذا المواطن الفاضل وبين القوة الغاشمة لأولئك الطغاة الذين رفعوا عروشهم عالية فوق أنقاض جمهورية روما .

وبعد أن خلص ابراهام لوطا ، عاد الى بلوطات ممرا الأمورى ؛ وقد حدث بعد سنوات عديدة من الوقت الذى حـــددته التوراة لدمار ســـدوم وعمورة الذى ربما قـــد تسبب فى حدوثه صـــاعقة رعد أو ثورة بركان.

وتتطابق الرواية التى تحكى اقامة ابراهيم بعد ذلك فى ارض أبيمالك ملك الفلسطينيين وما قدمه اليه هذا الزعيم العبرانى من ثيران وماعز ، مع مايحدث فى أيامنا هذه عندما تريد قبـــائل جـــوابة أن تقيم فى أرض لا تملـــكها .

وقد خلف ابراهيم أبنـــاء عديدين أشهرهم اسماعيل واسحق . وقد أصبح الأول بفعل جسارته زعيما لقبائل عديدة تشكل اليوم الأمة العربية، وحملت فى ذلك الوقت طبقا لتقاليد الصحراوات اسمه وتنـــادوا باعتبارهم أبنـــاءه (١٥) ، أما الثـــانى فقد أعقب والده ، وترجع جـــولانه وحروبه وتحالفاته واخيرا سيرة حياته الى الوجود الخاص والسياسى لزعيم من زعماء البـــدو .

وبعد موت اسحق، انفصل ولداه يعقوب وعيسو، وتسمت القبائل التى اتبعت الأخير بعد ذلك (أو نسله كما تذكر التوراة) اسم الأدوبيين ؛ أما يعقوب فقد استحوذ على الجزء الأكبر من ميراث أبيـــه ، وتسمى الرعاة الذين ظلوا محيطين به ، وبشكل نهائى، باسم العبرانيين أو الاسرائيليين. وتجىء التسمية الأخيرة من اسرائيـــل ، وهى الـــكنية التى كان يحملهـــا يعقوب منذ عودته من بلاد مابين النهرين .

---

(١٥) انظر دراستنا عن القبائل العربيـــة فى صـــحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٨٠ (وهى الدراسة السابقة من هذا المجـــلد) .

وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا ، أشهرهم يوسف ، ولن أستعيد هنا قصته المؤثرة ، فكل الناس يعرفونها ، ويعرفون أنها تعبر بشكل تام عن تقاليد وعادات شعوب الشرق . وفيما بعد أصبحت أسماء ولديه واخوته تشير الى اسباط بنى اسرائيل .

كان يعقوب قد أصبح شيخا كبيرا حين الجأته المجاعة الى ترك ضواحى بير سبع والذهاب الى مصر حيث حصل من فرعون على اذن بأن يستقر فى أرض جاسان .

وكانت أسرة ملوك الرعاة تشغل فى ذلك الوقت عرش مصر ؛ ونعتقد أننا نجد الدليل على تجافى الحنق والتطير اللذين كان يمكن أن يستشعرهما الحكام من العنصر المصرى بالنسبة لرعاة القطعان — فى الترحيب الذى لقيه ابراهام من قبل، وفى تنشئة يوسف - وبالسماح ليعقوب وابنائه بالاقامة فى مصر . ١٦

---

(١٦) مانيتون ؛ يوسيفوس ، رد على ابيون ، الكتاب الأول ، الفصل الخامس .

وقد كان مانيتون مصريا من طبقة الكهان ، وكان يشغل منصبا كبير كهنة هليوبوليس والحافظ للأرشيف المقدس ، عندما كتب تاريخ مصر ، ويبدو لنا مؤلف كهذا أنه يستحق على أقل تقدير نفس القدر من الثقة التى تحظى به مؤلفات هيرودت وديودور ، برغم قدمها ؛ فمهما تكن المجاملة التى أبداها الكهان المصريون نحو هيرودت كبيرة ، فان المعلومات التى جمعها منهم عن تاريخ مصر لا يمكنها أن تقارن بمؤلف مستمد مباشرة من المخطوطات الأصلية عن طريق رجل يستطيع ، حيث هو موكل بحفظها ، أن يقارن بينها وأن يرجع اليها وأن يدرسها بعناية دون أن يكون فى عجلة من أمره ، شأن مسافر متسرع يريد أن يعرف كل شىء عن البلد الذى يجتازه ، تاريخه ، فلسفته ، عاداته ، جغرافيته ، تاريخه الطبيعى . . الخ .

ويتهم المسيو لارشيه Larchet المترجم الضليع لهيرودوت ، مدفوعا بشعور من عاطفة تشيع عند رجل يتجاوز دوره كمترجم ، يتهم مانيتون بالجهل فى كل مرة لا يكون فيها هذا المؤرخ على وفاق مع هيرودت ؛ دون أن يسترعى انتباهه أن مانيتون كان يعرف مؤلفات هذا الأخير ، وانه اكتشف فيها أخطاء عديدة ، وانه بهذه الطريقة على الأقل لم يبتعد عما جاء بها بسبب جهله . وأخيرا فان المسيو لارشيه ينسب معرفة اللغة المصرية القديمة لمواطن من هاليكارناس وينكرها على كبير كهان هليوبوليس ؛ ويعطى هذا الحق للأول لأن هذا الرحالة يقرر أن الكهنة

=

وسوف تساعدنا هذه الملاحظة على تعويض النقص الخطير الذى نجده فى الكتب المقدسة منذ موت يوسف وحتى مولد موسى ؛ وان كان لابد لنا أن نحاول فى هذه اللمحة السريعة حول نشأة وسقوط أسرة الملوك الرعاة فى مصر ، أن نلقى بصيصا من الضوء على هذا الجزء القديم من تاريخ العبرانيين .

عن فتح مصر على يد الرعاة ، وعن العبرانيين
منذ وفاة يوسف حتى هروبهم الى الصحراء

تتم هجرات الشعوب فى معظم الأحيان فرارا من عدو يحمل اليها معه القيود ، اكثر مما تتم سعيا وراء مناخ أفضل ؛ وفى معظم الأحيان كذلك ، يقوم هؤلاء الفارون ، حين يصبحون غزاة بالضرورة ، بتأسيس امبراطوريات قوية .

ولكن عندما يدفع حب السيطرة والمجد والثروة ، وحده ، أمة ما بأن تحمل السلاح ، فانها قد تستطيع أن توسع أملاكها بشكل هائل ، لكنها لا تغادر وطنها ، فالارتباط بمسقط الرأس أمر أكيد فى كل زمان ومكان ، وعندما تشكل الأقاليم المغلوبة والمستعمرات البعيدة دولا مستقلة فانها تحتفظ بعلاقات من المودة والاحترام مع الوطن الأم ، تستطيع المصالح أن تعكرها فى بعض الأحيان لكنها لا تقدر أن تنهيها بشكل تام الا بعد قرون طويلة .

=

المصريين قد ترعوا له حوليات بلادهم كما لو لم يكن بمقدور هؤلاء الكهان أن يشرحوا له باليونانية النصوص باللغة الأهمية من المخطوطات التى أتاحوا له رؤيتها ، ثم ينكرها على مانيتون بسبب العصر الذى كان يعيش فيه ومعنى ذلك فان أثر رشيد (حجر رشيد.) يبرهن على أن اللغة القديمة فى عصر البطالمة ، بل حتى الكتابة الهيروغليفية نفسها ، كانت لاتزال معروفة من كهان مصر .

وأخيرا فان هذا الاعتراض الذى تكرر مرات كثيرة من أن مانيتون لم يستطع أن يرجع الى الحوليات المقدسة التى انتزعها ارتكسركسيس — أوخوس حين ضرب هذا الأمير مصر فى الأولمبياد السابع والخمسين يسقط من تلقاء نفسه اذا التفتنا الى أن ديودور ، الذى يقص علينا هذه الواقعة ، يضيف بأن باجواس ، المقرب من ارتكسركسيس قد رد الى الكهان المصريين وثائقهم ، فى مقابل مبلغ كبير من المال .

وحين يخبرنا التاريخ بأن مصر قد غزاها جيش من الرعاة قادم من جهة الشرق . فانه لا يحيطنا علما بما ان كانت هى روح الغـزو أو هى ضرورة دفع عدو قوى هى التى حملت هـذا الشعب الرعوى على غزو الأراضى الخصيبة التى يرويها النيل ؛ وان كان المرء يستطيع طبقا للمبادىء السابقة أن يستخلص أن فتوحات الأشوريين ، بامتدادها الى جنـوب الفرات ، كان لابد لها أن تدفع الى مصر بالقبائل العربية البدوية ، التى تشغل جزءا من سوريا والجزيرة العربية . ويتطابق هذا الرأى مع شهادة مانيتون ، حين يقرر أن أول ملك من ملوك الرعاة حكم مصر قـد وضع الجزء الأكبر من جيشـه على الجبهـة السـورية لأنه كان يخشى قـوة الآشوريين .

وقـد تبنى الرعاة العرب ، دون جـدوى ، خلال امتلاكهم الطويل لمصر ، غالبية طقوس الديانة المصرية ، لكن احتفاظهم ببعض عقائدهم ، وبصفة خاصـة تحالفهم مع قبـائل الصحراء الذين واصلوا التضـحية لآلهتهم بحيوانات يقدسها المصريون ، جعل المواطنين من أهل البلاد ينظرون اليهم بكراهية وازدراء .

وقـد أدى انتشار أحد الأمراض ، هو البرص او الجـذام ، الذى أصبح اكثر شيوعا فى مصر لأن المنتصرين كانوا — ربما — يجهلون مبادىء الصحة التى تدعو اليها الديانة المصرية للتقليل من عمل طقس غير صحى — ادى بالقدامى من اهل البلاد أن يطلقوا عليه اسم مرض الرعاة ، وهو الشىء نفسه الذى فعله اهالى نابولى عنـدما أطلقوا اسم أمتنـا ، فى القرن الخامس عشر على مرض وافد ، وذلك بفعل ماكانوا يكنونه لنـا من أحقاد . وقد أوقع اسما « المجذومون او الأنجـاس » ، اللذان كان المصريون يستخدمونهما سرا للاشارة الى المنتصرين عليهم ، المؤرخين فى اخطاء خطيرة حين اعتقد هؤلاء أن الأمر هنـا يشـير بالفعل الى اناس أصيبوا بالجذام ، كما لو كان باستطاعة ذوى العاهات والمرضى أن يكونوا هيكل أمة وينشئوا جيوشا قوية !

أما ملوك مصر الشرعيين ، الذين لاذوا بالصعيد ، فقد كونوا هناك دولة مستقلة ؛ ثم نزل احدهم ويدعى اليسفراجمو توفيس ، ولعل ذلك قد تم بمعونة من الأثيوبيين وبدعوة من الساخطين ، نزل نحو منفيس ،

وأحرز انتصارات هائلة على العرب واضطرهم الى أن يركزوا قواهم فى أفاريس ، وهى مدينة بالغة القوة تقع فى أقصى الشرق من مصر السفلى ※

وباختصار ، فيمكن القول بأنه منذ هذه الفترة قد انتهى عهد ملوك الرعاة فى مصر ، بعد مرور نحو خمسة قرون من تأسيس أسرتهم وتربعها فوق عرش الفراعنة ، واذا كان كهنة ممفيس وهليوبوليس أو طيبة قد لزموا الصمت بشكل سام عن هؤلاء الملوك عند حديثهم الى هيرودوت فقد كان ذلك دون ريب لأنهم كانوا يضعون فى عداد ملوك مصر أولئك الأمراء من الجنس المصرى الذين حكموا مصر خلال الفترة نفسها من الزمن ، اذ كانوا يعتبرون هؤلاء الذين صمتوا عنهم ملوكا غاصبين .

أما تحيموسيس (أحمس) ، ابن وخليفة اليسفراجمو توفيس ، فقد حاصر فى أفاريس بقايا جيش الرعاة ، وعندما لم يتمكن من الاستيلاء عليها ، وافق أن تخرج الحامية من أرض مصر مع كل ماكانت تملكه .

وقد عبر هؤلاء الرعاة صحراء سوريا ، ولما كانوا يخشون بأس الآشوريين — وكان هؤلاء بالغى القوة فى آسيا — فقد استقروا فى جبال الجودية حيث أسسوا مدينة جيروزاليم (أو : أورشليم) (١٧) ؛وان كان هذا الفريق من الأمة التى أدى استحواذها على مصر لفترة طويلة ، الى تبعثرها بالضرورة فى كل البلدان ، قد اضطر للخضوع وأن يستسلم بدوره لما يمليه عليه قانون المنتصر .

※ يقول الأستاذ محمد رمزى فى قاموسه الجغرافى للبلدان المصرية، الجزء الأول الخاص بالمدن المندرسة ، من مدينة افاريس : أواريس مدينة أنشأها الهكسوس جنوبى بيلوز (الفرما) ، وأسموها هات أورات Hat Awrat ، ومنها اسمها أواريس ، وقد اتخذها رمسيس الثانى سكنا ومعسكرا له ، وسماها برمسيس أو مدينة رعمسيس . وقد اندثرت الآن وحل محلها تل الحبر أو الهير ؛ وظن بعض الباحثين أنها هى مدينة تيكو التى أسماها الرومان هيروبوليس ومكانها الآن تل المسخوطة .
(المترجم)

(١٧) كانت هذه المدينة فى واقع الأمر موجودة حين دخل الاسرائيليون ، بعد وفاة موسى ، أرض كنعان ، لكنهم لم يستحوذوا عليها بشكل مطلق الا فى عهد داود .

أما العبرانيون ، الذين كانوا قد وجدوا قبل ذلك فى مصر ، مأوى وحماية ، بسبب أصلهم المشترك وتطابق عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليد الرعاة (العرب) فقد واصلوا سكنى هذه المنطقة ، وجرت عليهم نفس أقدار المهزومين ، وانسحب عليهم ما كان يكنه الوطنيون من أحقاد نحو هؤلاء الرعاة ، وأخذ الوطنيون يشيرون الى هؤلاء وأولئك ، دون مواربة ، باسم الأنجاس أو المجذومين .

وقد ظل الأنجاس ، وهى تسمية كان ينـدرج تحتها كذلك المصريون الذين تمثلوا بعض ممارسات الرعاة الدينية ، يتمتعون فى مصر ، مع ذلك ، بقدر محدود من الحرية حتى عصر أمينوفيس ، والد سيزوستريس الشهير ؛ بل لعل القوم قد تركوا كذلك لعدد من القبائل مقاطعات صغيرة، ضئيلة الأهمية ، على تخوم صحراء ، أو فى مستنقعات مصر السفلى ، وهو أمر لا يزال يتم حتى اليوم مع البدو . وقد آمن أمينوفيس ، يدفعه فى ذلك الكهان ، انه سوف يتقرب الى الآلهة ، باضطهاده للرعاة ، وكل المصريين الذين لم تعد عقيدتهم — فى رأيه — خالصة نقية ، فجمع عددا كبيرا منهم ، أستخدمهم فى قطع الأحجار من جبل المقطم .

وبعد ذلك ، دفعت بعض المخاوف الأسطورية، والمتطيرة ، امينوفيس لأن يسمح لكل هؤلاء البؤساء بالانسحاب الى أرض جاسان ؛ وهنـاك اختاروا رئيسا لهم ، واحدا من كهنة هليوبوليس اسمه أوزرسيف ، كان قد نفى معهم بسبب آرائه الدينية دون شك ؛ ولحق به وانضم اليه كهان مصريون آخرون كانوا يشاطرونه معتقداته ، وتبع هؤلاء كل الأشخاص الذين يريدون الفرار من اضطهادات واقعة أو يخشون من حدوث اضطهادات جديدة ، لأنهم يفكرون بالطريقة نفسها ، وقد أعطى أوزرسيف لهذه الألوف من المنشقين المصريين ، وللقوم من جنس الرعاة ، ديانة خاصة كانت بالضرورة خليطا من ديانتى هذين الشعبين ، وأمر هؤلاء الا يتصاهروا الا فيما بينهم ، ولكى يحول دون حدوث أى صلح بين هؤلاء وبين المصريين ، أباح لأتباعه أن يأكلوا حيوانات كانت تعـد مقدسة عند هذا الشعب وأصدر تعليماته لهم بهدم تماثيل آلهة مصر .

وقد كانت النتيجة الحتمية للاضطهادات الدينية من جانب امينوفيس، والحروب والثورات ونوبات الغزو الأجنبي التي نبحث عنها ان اضطر

عدد كبير من العائلات أن تبحث لأنفسها ، ومعها آلهتها عن وطن جديد. وعلى هذا ، يكون هذا الوقت هو الفترة المحتملة التى نشأت خلالها مستعمرات عديدة فى بلاد الاغريق ؛ فان رأى البعض أن هذه الديانة لم تكن هى ، على وجه الدقة ، نفس الديانة المصرية القديمة فاننا نضطر الى الظن بأن مؤسسيها كانوا من هؤلاء الرعاة القدماء الذين لم يقتفوا جميعا — وهذا مرجح — معتقدات أوزرسيف ، والذين كانت لهم ، بالضرورة ، فىعاداتهم أوجه شبه معالفينيقيين والمصريين (١٨) ،باعتبارهم

(١٨) فى واقع الأمر فان الاحتمال ضئيل فى أن يكون المصريون قد اسسوا المستعمرات العديدة التى تنسب اليهم عادة ، فهم الذين أغلقوا لوقت طويل للغاية أبوابهم فى وجه تجارة البحر الأبيض المتوسط اذ كانوا ينفرون من هذا البحر ويكنون له الكراهية ، كما أنهم اخيرا كانوا يرتبطون بروابط كثيرة بمسقط رأسهم ، لأنهم أثرياء ، تجمعهم دولة وحكومة ، وتتحكم فيهم الأساطير الدينية ؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للرعاة ، فأمة تتكون من قبائل متفرقة يصعب عليها أن تظل متحدة ؛ فالرؤساء القلقون أو الساخطون ينعزلون بأنفسهم ، ويسعون لأن ينشئوا لأنفسهم مؤسسات أو أنظمة خاصة بهم ، ولم يكن الرعاة الذين فتحوا مصر يتعلقون ببلد أكثر مما يتعلقون بآخر ، لقد كانوا رحلا ومقاتلين ، وسرعان ما قدر عليهم أن يعملوا بالملاحة ، على طريقة هؤلاء العرب — وهم من نفس جنسهم ، وقدموا من نفس صحراواتهم — الذين حملوا معهم الى أسبانيا ، فى القرن الثامن (الميلادى) ، الفنونوالعلوم التى أرادوا هم انفسهم قبل ذلك بوقت قصير أن يمحوا كل أثر لها ، حين حرقوا مكتبة البطالمة [سبق لنا أن دحضنا هذا الافتراء عندما نقلنا راى جاستون فييت بهذا الخصوص عندما ورد مثل هذا الزعم فىدراسة جراتيان لوبير عن مدينة الاسكندرية ؛ انظر المجلد الثالث من الترجمة العربية — المترجم] .

اذن فيبدو مما لا ريب فيه ان هؤلاء الذين نقلوا الى اليونان فنون مصر ، هم هؤلاء الرعاة الذين أدى بهم استحواذهم الطويل على مصرلأن يتمثلوا هذه الفنون . وهذا الراى هو نفس رأى فريريه Fréret وهو لا يسلب قط عن مصر العليمة مجد انها أمدت اليونان بالبذور الأولى لحضارتهم ، وهى بذور ثمينة دون شك ، لكنها قد تطورت وتقدمت بسرعة بالغة تحت سماء اليونان الناضرة ، موطن ربات الفن والجمال حيث ارتقى الجنس البشرى لأسمى درجات النبل والحرية والسعادة .

ينتمون أصـــلا الى الشرق ، وتطبعوا بهذه الخصال على ضـــفاف النيل بفعل سلســـلة طويلة من الأجيـــال ، واذا لم يكن كتاب آريوس ، ملك لاسيديمونيا الى اونيـــاس كبير احبـــار اليهود ، مزيفـــا قط ، فانه يأتى ليدعم هذا الرأى ، الذى يعطى العبرانيين وبعض أمم الأغريق ، أصـــلا مشتركا (١٩) .

واخيرا فان علينا أن نجعل مولد موسى يتم فى عهد أمينوفيس هذا ، وان نضع فيه ايضا أول الاضطهادات التى لحقت بالعبرانيين ، والذىتشير اليه التوراة .

وقد دفع الخوف من سطوة فرعون ، وكذلك ، ودون جدال، الرغبة فى الانتقام ، أوزرسيف لأن يطلب من رعاة الجودية أن يلحقوا به ، ليزحفوا معا لفتح مصر ؛ وذكرهم بأنهم كانوا من قبل قد تملكوا هذه البلدان الثرية، وبأن قـــد لحقت بهم (هنـــاك) اهانات ينبغى الاقتصاص فيها ، وهرع اهالى أورشليم الى افاريس استجابة لنـــداء اخوتهم ، وانضموا اليهم ، وحملوا على مصر « فلم يكن ثمة ضرب من ضروب القسوة لم يرتكبوه ، كما يقول مانيتون ، ولم يكتفوا باحراق المـــدن والـــكفور وتحطيم صـــور الآلهة ، وانما قتلوا حتى الحيوانات المقدسة ، وارغموا الـــكهان المصريين والعرافين بأن يكونوا هم ذابحيها ، ثم اطلقوهم بعد ذلك عراة كما ولدتهم أمهاتهم » .

وانسحب امينوفيس الى ماوراء الشلالات على حدود مملكته ، وثبت هنـــاك بدعم من الأثيوبيين مدة ثلاثة عشر عاما ينـــاوىء الرعاة ؛ وفى

---

(١٩) واليكم ترجمـــة هـــذا الـــكتاب كما أورده المؤرخ يوســـفوس « من ملك الاسبطيين (أصل لاكيدايمونيا) اريوس أويناى ـــ تحيةوسلاما ، حدث أن وجدت فى بعض النقوش أن اليهود وأهل لاكيدايمونيا ينتمـــون لجنس واحد وان الأخيرين ليسوا بغرباء عن نسل ابراهام . لذلك فمن الأوفق ـــ مادمنااخوة ـــ أن تطلعونا على كل ماترغبون فيـــه ، ونحن من جانبنا سنفعل الشىء ذاته ، ولسوف نعتبر شئونكم مثل شئوننا ســـواء بسواء ، وبالمثل سوف تكون بيننا وبينكم علاقات مشتركة ، وان ديموتيليس الذى يحمل هذه الرسالة هو الذى سيقوم بحمل رسائلنا ، وهذه الرسالة مدونة فى صـــفحة مربعـــة الشكل وتحمل خاتما هـــو عبـــارة عن نسر يصارع ثعبانا » .

نهاية هذه المـدة جمع قوات كبيرة ، ونزل الى مصر السـفلى وهـزم اوزرسيف ، وطارده ، ودفع نحو سوريا شتات جيشه .

واذا ماصـدقنا رواية مانيتون ، فلابد ان يكون أوزرسيف هو موسى نفسه ، ولابد أن يعترف المرء ان التشابه بينهما شـديد ، بل قـد يكفى الافتراض بأن الجودية كانت قـد تم غزوها على يد قبـائل اخرى ،فى الوقت ألذى كان سكانها فيـه يخربون مصر كى نفسر أقامة الاسرائيليين الطويلة (تيههم) فى الصحراء ، وكذا الحروب التى كان عليهم ان يخوضوها كى يعودوا الى سوريا بعد أن تم طردهم من أرض جاسـان . ومع ذلك، فاذا ماقبلنا ، فيما يتصل بالوقائع الأساسية ، أن يكون هذا الراى محددا للاطار العـام لذلك الذى جاء فى اسفار موسى الخمسة ، فينبغى القول ايضا بأنه سيظل يوجد فى قصـة موسى ، اذا ماتبنينا هـذا الراى ،عدد هائل من الأحداث لابد ان نلقى بها جنبا الى جنب مع الأساطير . وفضلا عن ذلك ، فمن السهل أن نوائم بشكل افضل بين ما جاء بكتب العبرانيين وبين ما جاءت به كتب التاريخ الدنيوية ؛ وهكذا نستطيع، على سبيل المثال، القول ، مرتكزين على أسس كافية بأن جزءا من الرعاة الذين هـزمهم امينوفيس قـد ظلوا أسرى فى مصر ، حيث فرضت عليهم اقسى درجات العبـودية ، وان القبـائل الاسرائيلية ، قـد تلفتت فاذا بهـا ضـمن هؤلاء العبيد .

فلنقبل اذن الفكرة القائلة بأن العبريين كانوا لا يزالون يقطنون مصر حين اعتلى سيزوستريس العرش .

ومع ذلك فان المباهج التى تمتع بها المصريون فى عهد هـذا الملك الشهير تحول دون أن ننسب لعهده تلك الكوارث التى خربت هذه المملكة وادت الى تخليص شعب الله . لقد كان سيزوستريس شـديد البأس ، لحد لايستطيع معه أن يخشى من هؤلاء العبد البؤساء ، الذين عرف كيف يفيد منهم حين استخدمهم فى اقامة الجسور وحفر الترع وبناء المدن ، وهى أعمال خلدته بأكثر مما خلدته فتوحاته .

وقد خلفه ابنه الذى يسميه هيرودوت فيرون فى حين يسميه ديودور سيزوستريس الثـانى ؛ لـكن الابن لم يرث لا فضال ولا مواهب والده،

ويصوره التاريخ اميرا ضعيفا ، متطيرا ، يؤمن بالخرافات ، وقاسيا . ويبدو ان يد الرب ، على حد قول المؤرخين الدنيويين انفسهم ، قـد ثقلت عليه ، ففاض النهر بدرجة غير مألوفة ودمر القرى والحقول وافزعت العواصف والأعاصير والسيول الشعب ، واصيب الأمير بعمى البصـيرة حتى غمت عليه هذه العلامات التى تنذر بغضب السماء (٢٠) .

ونعتقد نحن من جانبنا أن فى عهد هذا الأمير ـ ولابد ـ تمت عملية هروب العبرانيين الى الصحراء .

هروب العبرانيين الى الصحراء

بعد الهزيمة الماحقة التى حاقت بالرعاة ، أرغم العبريون على ترك الحياة الرعوية ، وبعد أن كانوا بدوا تحولوا الى فـلاحين (٢١) وارهقوا بالأعمال ، ولكنهم لم يستطيعوا طيلة العهد الطويل والمجيد لسيزوستريس أن يتملصوا من العبودية ، ومع ذلك ، فحين لقوا بعض المعاملة الانسانية بلا ريب ، تضاعفت أعدادهم وحيث قد بدأوا يستوعبون حالتهم الجديدة ، فقد كان كل يوم يمر ، يجعل من العسير عليهم اكثر من ذى قبل ان يخرجوا (من مصر) ، ثم ارتقى فيرون العرش وأثقل كاهـل العبرانيين بنير من حديد (٢٢) ، فلم يجد هؤلاء البؤساء الذين كانوا يئنون فى صمت أية نهاية لآلامهم الى ان ظهر بينهم واحد من أولئك الرجال غير العاديين الذين يبدون وكأنما قـد جاءوا خصيصا لتغيير أقدار أمتهم ، وكان موسى عند طفولته قـد جرفه الماء ، وكان هذا فى عصر امينوفيس ، وانقذت ابنته حيـاة الطفل العبرانى ، لـكنها لم تكتف بما قدمته اليـه من رعاية واحسان ، وانما امرت بتعليمه كل حكمة المصريين وعلومهم ، ومن المعروف أن العلوم والفنون فى مصر كانت فى ذلك الوقت فى أوج ازدهارها ؛ واذ اضـطر

---

(٢٠) هيرودوت ، الـكتاب الثانى ؛ ديودور ، الـكتاب الأول .

(٢١) لاتزال تغييرات مماثلة تحدث فى بعض الأحيـان فى مصر ، بين القبائل العربية التى استقرت فيها ، أنظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٧٩ . [وانظر كذلك دراسة جومار عن العرب والعربان فى مصر الوسطى ، من هذا المجلد ـ المترجم] .

(٢٢) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث ، الآية ٧ .

موسى بعد موت تلك التى احسنت اليه لان ينجو بنفسه لائذا بالصحراء لقتله احد المصريين فقد فر الىالبحر الأحموليقيم بين عرب مديان (مدين)؛ وذكره نمط حياة هذه القبيلة بلا ريب بالزمن الذى كان ابراهام فيه يتجول فى عزلة بقطعانه ؛ وبدت له الحرية والاستقلال ، برغم ضروب المخاطر وصنوف الحرمان أفضل كثيرا من العبودية مع الوفرة والسكينة؛ وصمم مشروعه النبيل لقطع أغلال العبرانيين .

وعند قمة جبل حوريب ، وسط البروق والرعود ، وعلى مشهد البحر الهائج والصحراء الصموت ، تأمل طويلا ، فى عزلته بعيدا عن البشر ، مشروعاته الواسعة (٢٣) ؛ وفى النهاية رجع الى أخوانه ودعاهم للهروب ، وتذرع فى ذلك عند فرعون بأنهم سيقدمون أضحية فى الصحراء: « فدعا فرعون موسى وهارون وقال اذهبوا اذبحوا لالهكم فى هذه الأرض، فقال موسى لا يصلح أن نفعل هكذا ، لأننا انما نذبح رجس المصريين للرب الهنا ، أن ذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا ؟ » (٢٤) .

وتردد الملك : هل يعطى الاذن المطلوب منه ام يرفضه ، هل يخفف من شقاوات العبرانيين أم يضاعف منها ، ويتأرجح الملك بين هذا الموقف وذاك تبعا لدرجة الفزع الذى ينتابه كلما توالت الكوارث التى كانت تفكك وتدمر دولته * وعلى الدوام فان افكار الانسان المسبقة وخرافاته تربط اقداره بنظام السكون .

ولقد وردت فى ذلك الجزء من الكتب المقدسة الذى تناول هذهالفترة وقائع كثيرة ، لكنها برغم خروجها عن كل مألوف ، تتوافق مع روايات المؤرخين الدنيويين (٢٥) ومع الحالة الراهنة لهذه البلاد ؛ فلا يزال الحواة

---

(٢٣) نجد فى حياة محمد [ص] خصوصية مماثلة ، فقد كان ينشد العزلة فى غار فى جبل حراء ، ويمضى هناك خمسة عشر يوما (كذا!) فى حياة العزلة قبل أن يعلن نبوته . وليست هذه وحدها فقط هى نقطة التشابه التى نجدها بين هذين المشرعين (كذا !).

(٢٤) سفر الخروج ، الاصحاح الثامن ، الآيتان ٢٦و٢٧ .

* بسبب غضب الرب عليه لرفضه السماح بخروج بنى اسرائيل من مصر كما يشرح ذلك سفر الخروج . (المترجم).

(٢٥) هيرودوت ، ديودور .. الخ .

هناك حتى اليوم يأتون مع الثعابين بأشياء خارقة تعد من قبيل المعجزات، فهم يستدعونها وينومونها ويخدرونها حتى يظن أنها قد ماتت ، ويعلمونها كذلك كيف تنهض واقفة وتتبع سيدها على هذه الحال ، ثم يخبئونها فى ثنايا ثيابهم ويتلفعون بها حول رقابهم دون أن يخشوا أن تلدغهم ؛ ولعل جراح مصر التى لا تندمل تتمثل فى مياه النيل ، الصفراء والخضراء ، العكرة والضارة فى بعض الأوقات ، والتى يمكنها على نحو يكاد يكون ثابتا ، وحين تتغير أحوالها بغتة عاما ما ، أن تروع الشعب ، كما تتمثل فى الحشرات من كل نوع * تلك التى تكثر بوفرة فى بعض الأحيان فى مصر وبطريقة مفزعة فى كل مكان تشتد فيه الحرارة والرطوبة(٢٦) ؛

---

* يتحدث سفر الخروج عن أن الرب قد ابتلى مصر بالضفادع التى كثرت حتى ملأت البيوت والأنهار ثم ابتلاها بعد ذلك بالبعوض .. الخ . (المترجم)

(٢٦) يمكننى أن أذكر هنا ، نقلا عن المؤرخين العرب ، سنوات كثيرة كانت فيها الضفادع والثعابين وفيرة حتى ظن الناس أنها تتساقط من السماء ، واكتفى بأن أورد هنا واقعة كان المقريزى نفسه شاهدا عليها ، وقد كتب فى هذا الخصوص : أنه فى العام ٧٩١ والأعوام التالية تزايد الدود الذى كان يهاجم الكتب والأقمشة الصوفية بشكل كبير فى المنطقة المحيطة بمرعى الزيات الواقع خارج القاهرة بين المطرية وسرياقوس ؛ وقد أكد له رجل أهل للثقة أن هذه الحشرات قد قرضت له ١٥٠٠ قطعة قماش تشكل حمولة اكثر من خمسة عشر جملا ، وحين دهش المقريزى من حادثة شاذة لهذا الحد فقد اتخذ طبقا لعادته كل الاحتياطات اللازمة كى يتأكد من الحقيقة . فشاهد بعينى رأسه أن الخسارة التى سببتها الديدان لم يكن (تقديرها) مبالغا فيه ، وأنها دمرت فى الجهات التى نحدث عنها كمية كبيرة من الخشب والأقمشة ، وقد شاهد بالقرب من المطرية جدران حديقة بها صدوع وتشققات طويلة وعميقة أحدثتها هذه « الحيوانات » الصغيرة . وفى نحو العام ٨٢١ تكررت هذه الكارثة فى حى الحسينية الواقع خارج القاهرة ؛ فبعد أن أتت الديدان على كل مايؤكل وما يلبس الخ ، وهو ماسبب للسكان خسائر لا يمكن حسابها ، هاجمت البيوت وقرضت العوارض التى تصنع السقوف حتى أصبحت هذه العوارض جوفاء تماما ، وأسرع الملاك بهدم البيوت التى غزتها الديدان حتى كاد الحى أن يكون قد دمر دمارا تاما . ثم مدت هذه الحشرات نطاق دمارها حتى بلغت البيوت التى تجاور بابى النصر والفتوح . ولم تكن تلفياتها هناك أقل عنها فى المدينة ومكة حيث قرضت الديدان سقف الكعبة — عن ترجمة ايتان كارتمير .

وفى الطاعون الذى يخرب هذه البلاد من وقت لآخر ، ويبـــدو فى معظم الأحيان وكأنما يصر على افنـــاء جنس دون آخـــر ، وفى الرعود والبرد (بفتحة على الراء) ، نادرى الحدوث حتى أنه لايسمع بحدوثهما هناك ، وقد لايحدثان سوى مرة واحدة على مدار قرن بأكمله ، فهما اذا حـدثا لن يسببا سـوى الفزع الشديد ؛ وأخيرا فى أسراب الجراد التى تأتى من جوف الصحراوات ثم فى الظلام المؤقت الذى تسببه الدوامات الترابية التى ترفعها وتحملها رياح الخماسين ، وفى هذه الريح المؤذية نفسها والتى لايحس بها الناس فى كل أنحاء مصر ، دفعة واحدة (٢٧) .

فلنجنب اذن من وصـــف النكبات التى حلت بمصر تلك المبالغـــات الشاعرية المسموح بها ، لشخص يحلو له أن يسترسل فى وصف الظواهر التى استخدمها لتخليص شعبه وسوف نرى كل سطوة لها قد خبت ، ومع ذلك فان تتـــابع أحداث كثيرة غير مألوفة ، برغم كونها مع ذلك ظواهـــر طبيعيـــة ، مع مالها من نتـــائج على قلب فرعون القـــاسى ، يمكنه أن يعد برهانا قويا على حماية الرب .

فهذا الحـــاكم فى الواقع لم يستطع أن يقاوم شـــكاوى رعيته التى كانت تنسب آلامها ومصائبها ، بعد أن أصابها طاعون فتاك ، الى رقيات « الأنجاس » المؤذية فاعتقدت الرعية أن ابعاد هؤلاء ، سيجعل الآلهـــة اكثر لطفا بها : « فدعا ـــ أى فرعون ـــ موسى وهارون ليلا ، وقال قوموا اخرجوا من بين شعبى أنتما وبنو اسرائيل جميعا » (٢٨) .

---

(٢٧) عندما تهب الخماسين ، تصبح الشمس ذات صفرة كابية ، وتنحبس أشعتها ، وتزيد العتمة فى بعض الأحيان حتى يظن المرء أننـــا قـــد بتنا فى ليل شديد الحلكة ، على النحو الذى رأينا بأنفســـنا عنـــد منتصف النهار ، فى قنـــا ، احدى مدن الصعيد ، ويورد بعض المؤرخين العرب ، أنه عندما غزا السلطان سليم مصر ، فان السماء قد وهبته نفس « الخدمة » التى قدمتها لموسى ، فقد حجبت سحابات كبيرة ســـوداء ، مسيرة جيشه ، عن عدوه طومان باى .

(٢٨) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى عشر ، الآية ٣١ .

مسيرة العبرانيين فى الصحراء
حتى المنطقة التى عبروا عندها البحر الأحمر

رحل الاسرائيليون من أرض جاسان ، ولا يمكن أن تكون هذه المنطقة سوى منطقة السبع أبيار الممتدة الى الشرق من مصر نحو سوريا ، لأننا نقرأ فى سفر التكوين (الاصحاح السادس والأربعين) انه عندما غادر يعقوب ضواحى غزة كى يذهب الى مصر ، أرسل يقول ليوسف الذى كان يقيم فى ممفيس أن يأتى للقائه « فأرسل يهوذا أمامه الى يوسف ليرى الطريق أمامه الى جاسان ثم جاءوا الى أرض جاسان » ، وقد ترجم النص على هذا النحو فى التوراة اللاتينية * « وأرسل يعقوب يهوذا أمامه الى يوسف لينبئه بمجيئه لكى يأتى هو أمامه فى أرض جاسان » ؛ فقد كانت أرض جاسان اذن تقع على الطريق بين ممفيس وغزة ، وقد منحت للاسرائيليين بالطريقة نفسها التى منحناها بها ، أثناء اقامتنا فى مصر ، لثلاث قبائل عربية[٢٩] ، جاءت ، كما جاء العبرانيون ، من سوريا .

أما وقد عرفنا نقطة البدء ، فسوف يكون من السهل علينا أن نتتبع مسيرة الاسرائيليين ؛ كان موسى يريد أن يقودهم الى ضواحى جبل سيناء ، وكان واثقا أنه سيقابل بالترحاب من عرب مدين ، لأنه عاش طويلا بينهم ، وتزوج من (صفورة) ابنة كاهنهم يثرون ، وكان طريقه المباشر يقتضى المرور شمال البحر الأحمر ، لكنه خشى ان هو اقترب أكثر مما ينبغى من بلاد الفلسطينيين أن تنهض ضد الاسرائيليين حروب تجعلهم يأسفون لفراقهم مصر ويعتزمون العودة اليها (٣٠) ؛ ولذلك فقد

---

* الـ Vulgate هى الترجمة اللاتينية للتوراة ، وهى المستعملة فى الكنيسة الكاثوليكية ؛ وقام بالجزء الأكبر من هذه الترجمة سان جيروم ، وقد قرر مجمع الثلاثين فى العام ١٥٤٦ أن يعد هذا النص المرجع الأوحد للتوراة . (المترجم)

(٢٩) وهذه القبائل الثلاث هى : ترابين (أو طرابين) الكبرى . عرب طحا (أو عرب طه ؟) ، والأناجبر ، وكان هؤلاء فى ذلك الوقت فى حرب مع باشا غزة الذى كان قد دبر لاغتيال كبار شيوخهم .

(٣٠) سفر الخروج : الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٧ [وهذا هو نصها : « وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة ، لأن الله قال لئلا يندم الشعب اذا رأوا حربا ويرجعوا الى مصر »] .

آثر موسى أن يسير بحذاء الساحل الغربى للخليج العربى * ، وتجنب بذلك ، فى الوقت نفسه ، أن يثير ، لأكثر من اللازم ، وفى وقت مبكر ، الريبـــة فى عزمه على الهروب ، لدى فرعون ، الذى أعطاه الاذن بأن يقود شعب الله فى الصحراء لتقديم الأضحيات ، ولهذا فان موسى ، كما جاء فى سفر الخروج نفسه قـــد أمر بأن يقوم العبرانيون فى مسيرتهم بلفة طويلة ، وصحبهم ، متخذين طريق الصحراء التى تقع بالقـــرب من البحر الأحمر (٣١) .

لكن الوضع الحالى للخليج العربى ســـوف يحول فى الواقع دون تصور كيف وجد الاسرائيليون أنفسهم على الفور على شواطئه عندخروجهم من أرض جاسان ، ان لم يكن المرء على بينة من أن الخليج ، فى الفترة المتـــأخرة التى نحن بصددها ، كان يمتد الى مسافة قريبة من منطقـــة السبع ابيـــار : وتأتى طبيعـــة الأرض بين هذه النقطـــة وبين مدينـــة السويس ، مع ترسيبات القواقع البحرية ، وعدد لا حصر له من ملاحظات جغرافية أخرى ، تضـــاف اليها شهادات القدماء ــ لتعطى لهذا الرأى ، على أقل تقدير ، اكبر قدر من الترجيح (٣٢) وهكذا يمكننا أن نتصور كيف

* البحر الأحمر .

(٣١) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٨ [وهـــذا نصها : « فادار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف »] .

(٣٢) وهذا دليل جديد على صحة رأيى عن الحدود القـــديمة للبحر الأحمر . أنظر دراستى حول هذا الموضوع ، الدولة الحديثة ، المجـــلد الأول ، ص ١٨٧ [المجلد الثالث من الترجمة العربية] ولكننى اكتفى هنا بنقل هذه الفكرة عن نيبيور Niebuhr ، والتى لم أكن أعرفها فى حينها ، والتى تتفق مع أفكارى : « ويقول الرحالة دانوا Danois : ان شاطىء البحر قد تغير هنـــا كما حدث له فى أماكن أخرى ؛ ويقابل المرء على كل ساحل الجزيرة العربية آثار انحسار البحر ، فعلى سبيل المثـــال مخا التى يقول عنها كل القدماء بأنها كانت ميناء العربية السعيدة (اليمن) تقع اليوم بعيدا عن البحر بفراسخ عدة ، ونرى اليوم بالقرب من الوجة وجدة تلالا كبيرة تمتلىء بالمرجان والقواقع من الأنواع نفسها التى نراها حية فى الخليج العربى (البحر الأحمر) ، وتوجد بالقرب من السويس تكلسات من كل هذه الأشياء . وقد رأيت على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ نحو الغرب من هذه المدينة أكمة من القواقع الحية فوق صخرة لاتغطيها المياه الا بفعل حركة المد والجزر . وهى عالية لحد لاتبلغها معه مياه هذه الحركة ، اذن فمنذ الوفعدة من السنين كان الخليج العربى أكبراتساعا ، كما كان يمتد لأكثر من ذلك تجاه الشمال ، وبصفة خاصة ذراعه القريبة من السويس ؛ لأن الشط عند هذا الطرف من الخليج بالغ الانخفاض » .

سار الاسرائيليون ، فى ذلك الوقت ثلاثة ايام بالقرب من البحر الأحمر لكى يصلوا الى النقطة التى يحدد عندها الأثر طريقهم الذى شــقته لهم المعجزة بين الأمواج .

كان محطهم الأول يسمى سكوت ، وهى كلمة تعنى الخيمة ، ويمكنها ان تدفع الى الظن بأن هــذا الاسم لاينطبق أبداً على مدينة قديمة وانما على مجرد معسكر . وزيادة على ذلك ، فهناك خرائب عديدة على حواف الأرض التى هجرها البحر ، وهذه أو تلك يمكنها أن تنتمى الى ســكوت وفى اليوم التالى عسكروا فى ايتام عند طرف « البرية » (٣٣) .

ويدفعنى هذا الموقع لأن أجزم أنه بير السويس (٣٤) ، الذى يقع فى الحقيقة ، وكما يبدو ، عند طرف الصحراء اذا كنت قادما من جهة السبع ابيــار ، لأن البحر ، باتخاذه شكل مرفق يتجه الى الغرب ، يبدو ،عند اتصاله بسلسلة جبل عتاقة العالية ، وكأنه يشكل النهــاية الجنوبيــة للصحراء : وفضلا عن ذلك ، فان المياه العذبة بالغة الندرة فى كل هذه المنطقة ، كما أن الآبار ، ولابد ، هى التى تحدد النقاط التى تحط عندها القوافل .

وبعد ذلك تحدث الرب الى موسى قائلا : « كلم بنى اسرائيــل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون » (٣٥)

---

(٣٣) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ٢٠ .

(٣٤) بير السويس تعنى البئر الموجودة بمدينة السويس ؛ ويقع هذا المكان على مسافة نحو الفرسخ الى الشمال الغربى من السويس :وهو يشتمل على سورين صغيرين متلاصقين ، ومهشمين جزئيــا ، وينســب بنــاؤهما الى السلطان سليم الأول . ووسط واحد من هذين السورين توجد بئر لمياهها مذاق غير مستساغ تفوح منها رائحة هيدروجين كبريتى . ولا تستخدمها فى العمسادة الا الحيوانات ، ولــكننى شربت منها دون أن اشعر بقرف ، وكذلك فعلت السرية التى صحبتها معى . فقد وصلنا الى هنــا بالغى الظمأ وبعد نهار شديد القيظ ومسيرة مرهقة على الأقدام ، وقضينا منه الثمانية عشرة ساعة الأخيرة دون أن نشرب . ويلمح المرء خارج السور بقايا مجرى مائى كان يستخدم فيما مضى فى توصيل ميــاه البئر الى السويس .

(٣٥) سفر الخروج ، الاصحاح الرابع عشر ، الآية ٢ .

ومن السهل أن نتبين سبب هذا الارتداد الى الخلف ، فلعل فم الحيروث أن يكون مكانا حصينا به حامية مصرية . وفى الواقع فان المرء يرى أن الاسرائيليين لم يدخلوه قط ، وانما عسكروا تجاهه على شاطىء البحر ، وهنـــاك كان عليهم أن يعبروا ، وأمكنت حاجتهم للماء العذب أن تدفعهم إلى اجتياز هذه النقطة فى اليوم التالى ؛ وبمعنى آخر ، فعلى بعد نحو ثلاثه فراسخ من بير السويس ، مع الارتداد نحو وادى السبع أبيار ، نجد قصرا قديما وحصـــينا يسمى الها جيروث (العجرود) ؛ وفى النص العبرى نجد أن المقطع Phi (فى) ينفصل بصفة دائمة عن كلمة الحيروث ، بل لقد حذف تماما فى الآية الثامنة من الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد * . ويعتقد أن كلمة Phi أو Pi (فى أو بى) كانت هى أداة التعريف فى اللغة المصرية ثم ظلت كذلك فى اللغة القبطية . اذن فقد كان المحط الثالث يسمى هاهيروث ؛ وهـــذا التشابه مع كلمـــة هاجيروث (العجرود) لابد فى رأيى أن يسترعى الانتباه .

عبور البحر الأحمر

تجاه الهاجيروث ، على وجه التقريب ، تكونت نحو الجنوب الشرقى ، كتلة الرمال التى اقتطعت من البحر الأحمر هذا الحوض الواسع الـــذى نجده اليوم الى الشمال من هذا البحر . والذى لاتزال تربته ، وهى أدنى بكثير من أدنى حركات المد والجزر ، تحمل كل الخواص الدالة على اثر المياه ، ومع ذلك فقد كان من الضرورى ، قبل أن تكون هذه الـــكتلة من الرمال قـــد ارتفعت لحد يكفى لصنع بحيرة من الطرف الشمالى للخليج العربى ، أن يتبقى فى هذا المـــكان مستنقع ظل الخوض فيه مستحيلا ، لوقت طويل ، حتى عند حدوث نوبات المد الواطئة .

ومن المحتمل أن يكون الاسرائيليون قـــد اتبعوا موسى عنـــد هذه المخاضة ؛ فهـــذا الرجل الشهير ، الذى تربى على حكمة وعلوم المصريين ، والذى لاذ لوقت طويل بشواطىء البحر الأحمر ، كان يعرف امكانية عبورها

---

* وتقول هذه الآية : « ثم ارتحلوا من أمام الحيروث وعبروا وسط البحر الى البرية .. الخ » .

وهنا نلاحظ غياب كلمة فم التى يشير اليها المؤلف بالمقطع فى أو بى الوارد فى الآية الأولى من الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين (المترجم)

سيرا على الأقدام من عند هذه النقطه ، فى حين كان على عبيد بؤساء، غارقين فى أحط درجات الجهالة ، والذين لم يخرجوا قط من مصر من قبل، أن يعتقدوا ، عند ظهور الجيش المعادي من جانب ، ووجود البحر من الجانب الآخر ، ان خط الرجعة قد قطع عليهم (٣٦) ؛ ويورد فلافيوس جوزيف (٣٧) أن الاسرائيليين كانوا محصورين بين الجيش المصرى والبحر وصخور وعرة ؛ ويتفق هذا الوصف تماما مع الوضع الذى أنسبه للجيش الاسرائيلى ، اذ أن سلسلة الجبال التى يلمحها المرء الى الجنوب تتوغل فيما يبدو حتى الشط .

ولقد كان مع فرعون ، فى جيشه ، دون ريب ، أشخاص كثيرون، لم يكونوا ليجهلوا النقاط التى يمكن اجتياز البحر عندها ، ومع ذلك ،فاذا اكتفى فرعون بأنه قد أصبح على مرأى من الاسرائيليين ، فقد كان من الطبيعى للغاية أن ينشد الراحة للفرق العسكرية التى أرهقتها مسيرة لابد انها كانت بالغة التعجل دون أن يخشى ، مجرد خشية ، أن يتمكن هؤلاء البؤساء الشاردون ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، من الافلات منه؛ أما موسى ، فقد أفاد من الضباب أو دوامات الرمال التى يتحدث عنها الكتاب المقدس ويسميها « غبارا » ليخفى مسيرته عن العدو ، كما أمكنه أن يستغل نوبة المد الوطيئة لكى يخوض البحر على رأس العبرانيين. وقد اعترض بعض بأن عدد هؤلاء كان كبيرا لحد لا يمكنهم من اجتياز البحر فى تلك المسافة من الزمن ، التى تفصل بين حركة مد وأخرى ؛ ومع ذلك فلابد أن نتوخى الحذر عند وقوفنا على روايات المؤرخين ، عندما يحتمل أن تكون هذه قد جاءت متأثرة بفعل الكبرياء القومى (٣٨) . وفى هذا الصدد ، على سبيل المثال ، فان مانعرفه عن طبيعة الصحراء والقبائل التى تسكنها ، يحملنا على الاعتقاد أن بعض اليهود ، من أولئك المتحمسين للغاية لمجد أمتهم، سوف يستبيحون لأنفسهم، فى الأصحاح الأول

---

(٣٦) كذلك توجد فى البحر الأحمر ، تجاه السويس ، مخاضة يتردد عليها البدو ، وتجهلها غالبية سكان مصر .

(37) Antiquités Judaïques, liv. II Ch, 6.

(٣٨) فلنستبدل ، على سبيل المثال بكلمة ملك كلمة شيخ ، عندئذ سوف يمكننا أن نتصور كيف يستطيع يشوع أن يهزم فى معركة واحدة ٣١ ملكا (أنظر سفر يشوع) .

من سفر العدد واحدة من هذه التحريفات التى يعترف الكرادلة والمجامع المقدسة بامكانية وجودها فى الأسفار الخمسة. (٣٩) ؛ وتكفى ظروف نشر هذه الأسفار نفسها لتوليد الشكوك ، ان لم يكن بخصوص الوقائع الأساسية ، فعلى الأقل بخصوص التفاصيل ، لاسيما عندما يتعلق الأمر، كما هو الحال هنا ، بدقة العدد ؛ فمن المعروف فى واقع الأمر أن كتاب الشريعة قد نشر لأول مرة فى أرض مواب « فى عبر الأردن، فى أرض مواب ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة » (٤٠). اى بعد اربعين عاما من خروج العبرانيين من أرض مصر (٤١) ، ولم يكن قد ظل على قيد الحياة ، عندئذ ، فى كل اسرائيل ، ممن شهدوا الوقائع التى وردت بالأسفار (الخمسة) سوى اثنين هما : يشوع بن نون وكالب بن يفنة (٤٢) ، اللذان كانا متعاونين على الدوام مع موسى (٤٣) الذى باركهما وجعل منهما وارثى سلطته ، لقد كان الأبناء الذين لم يكونوا بعد يعرفون كيف يميزون أن يتبصروا الخير والشر ، حين كان آباؤهم يعسكرون فى صحراء فاران ، كانوا — وحدهم — الذين نالوا من الرب الاذن بدخول

---

(٣٩) عندما كان مصلحو القرن السادس عشر يسعون لاحراج بلاط روما بأن يجابهوه على الدوام بالكتب المقدسة ، كان رجال الكنيسة ، من حائزى ثقة البابا والمقربين اليه يقولون بصوت عال : ان هذه النصوص تستمد قداستها من تبنى الكنيسة لها ؛ ولم يقتصر التشيع لهذه الفكرة على رجال خاملى الذكر، بل ان قاصدا رسوليا فى مجمع الثلاثين ، هو الكاردينال وارمى Warmie لم يخش من مغبة أن يعلن فى مؤلف مطبوع انه لو لم تكن الكنيسة قد احتضنت الكتاب المقدس وبشرت به كمشروع كنسى لما استحق هذا الكتاب الكثير من الاعتبار أو طبقا لنص كلماته : « ذلك أنه من المؤكد أن مؤلفنا (الكتب المقدسة) هذا كان سيغدو عملا ضئيل الأهمية ، لولا أن سلطة الكنيسة قد علمتنا أن هذه الكتب المقدسة كتب أصيلة » ؛ وفى النهاية ، فان أكثر آباء الكنيسة علما من امثال اوريجين وسان أوغسطين لا يأخذون بالمعنى الحرفى للتوراة على اطلاقه ، ويرون فيما ورد فيها رموزا واستعارات .

(٤٠) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٥ ؛ والاصحاح ٢٩ الآية الأولى ، الاصحاح ٣١ ، الآيتان ٩ ، ٢٤ .

(٤١) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٣ .

(٤٢) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ .

(٤٣) سفر العدد ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٦ .

الأرض الموعودة (٤٤) ، فهل كان بمقدور هؤلاء ، وقد أصبحوا رجالا ، ان يعرفوا حقيقـة اعداد قبـائلهم عندما غادرت مصر ، وان ينحو جانبـا شهادة رجل كان هو نبيهم ، وفى الوقت نفسه مشرعهم وحاكمهم المطلق المرهوب (؟) أولسنا نعرف بأية سهولة يتبنى الرجل المتمدين ، كما يفعـل الرجل المتوحش ، اكثر المبالغات بعدا عن العقل اذا كان الأمـر يتعلق بقوة امته وعدد من هزمتهم من الأعداء ؟ واخيرا ، فان شريعة موسى فى أورشليم كما فى السامرة قد هجرت فى غالبية الأوقات من اجل عبادة آلهة مزيفة ، ولقد ضاعت الـكتب المقدسة الأولى ثم عثر عليها من جـديد ، واستوجب الأمر مرات عديدة تجديد الشعب اليهودى عهده مع الرب .لذلك فلا ينبغى ان يخالجنا الشك فى ان بعض تغييرات طفيفة قد حدثت للأسفار ، وان بعض الأخطاء فى الأرقام على وجه الخصوص تتسرب اليها حين يكون للكبرياء القومى بعض المنفعة من وراء الترويج لها (٤٥) .

وبمجرد أن علم الفرعون أن العبرانيين قد اجتازوا البحر ، أخذ فى ملاحقتهم ، واقتفت قواته ، مدفوعة بالحماسة التى تؤججها خطواتهم دون أن تلقى بالا لمد البحر الذى لن يدع لها الوقت الكافى لبلوغ الشط المقابل ، فأنقذ المد بعضا منهم وابتلع آخرين . وعلينا أن نضع فى الاعتبـار تلك

---

(٤٤) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٣٩ .

(٤٥) حين تعبر الأعداد عن نفسها بالأرقام فمن الممكن ان تقتـرف اكبر الأخطاء من مجرد جرة قلم ، وخصوصا اذا كان لهـذه الأرقام تشابه كبير فيما بينها ولها فى الوقت نفسه قيم شديدة الاختلاف . ويضاف الى أخطاء النساخ هذه خطأ من نوع آخر ؛ واذا شئنا على سبيل المثال أن نبين الى أى حد يمكن أن يؤدى سهو مترجم ما ، أو سعيه وراء كل ما هو عجيب أو غير مألوف ، الى تحريف مؤلف ما ، فلنفتح التوراة اللاتينيـة ، سـفر الخروج ، الاصحاح الثانى والثلاثين ، وسنجد فيه أن موسى بعد حادثة عبادة العجل الذهبى قد أمر بقتل ٢٣ (ثلاثة وعشرين) الفا من الاسرائيليين ، فى حين نجد الأمر فى النص العبرى ، وفى الترجمة السبعينية يتناول ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، وهو تقدير كبير مع ذلك ، وهناك خطأ آخر اكبر ، وهو الذى اقترفه المترجم نفسه حين قدر بـ ٥٠٠٧٠ (خمسين الفا وسبعين) عدد سكان بيشان المضروبين بالموت عنـد عودة التـابوت فى حين كان عليه أن يقول ان من بين هؤلاء الآلاف الخمسين هلك سبعون ، وقد نقلت هذه الأرقام (ثلاثة وعشرين الفا ، وخمسين الفا وسبعين) الى ترجمات اخرى نقلت عن التوراة اللاتينية ، ولعلها قد تذكر ذات يوم ، دليلا على دقة الأعداد ؛ وهذا مثال يوضح كيف يتخذ الخطأ بتكراره ، شكل الحقيقة .

الرياح القوية التى كانت تهب فى ذلك الوقت (٤٦) . وبذلك لن تعترينا الدهشة لأن جزءا من المصريين قد ابتلعتهم الأمواج (٤٧) .

يبلغ المد عند السويس نحو المترين ؛ وفى أوقات العواصف ، حين تهب بشدة رياح الجنوب ترتفع لمدى يبلغ فى بعض الأحيان ستة وعشرين ديسيمترا ؛ وهذا اكثر من كاف لكى يغرق المد جيشا كبيرا ؛ فاذا كان جيش المصريين لم يهلك قط بأجمعه ، وهومايوضحه فيما يبدو صمت المؤرخين الدنيويين ، فيمكن افتراض أن هذا الجيش ، وقد أفزعه حجم الخسائر التى لحقت به ، ولأنه قد بدأ يخشى فى ذات الوقت أن يكشف نفسه فى صحراء لايعرفها بالقدر الكافى ، لم يحاول قط أن يخوض البحر الأحمر عند نوبة المد المنخفض (الجزر) التالية .

وهكذا أمكن الاسرائيليين أن يترنموا بهذا النشيد :

١ ـ « ارنم للرب فقد تعظم ، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر ؛

٢ ـ « الرب قوتى ونشيدى ، وقد صار خلاصى ، هذا الهى فأمجده ، اله ابى فارفعه ؛

٣ ـ « الرب رجل الحرب ، الرب اسمه ؛

٤ ـ « مركبات فرعون وجيشه القاهما فى البحر ، فغرق أفضل جنوده المركبية فى بحر سوف ؛

٥ ـ « تغطيهم اللجج ، قد هبطوا فى الأعماق كحجر ؛

٦ ـ « يمينك يا رب معتزة بالقدرة ، يمينك يا رب تحطم العدو ؛

٧ ـ « وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك ، ترسل سخطك فيأكلهم كالقش ؛ .

---

(٤٦) سفر الخروج ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٢١ .

(٤٧) فى العام السابع من نشأة الجمهورية الفرنسية ، شاهدنا الجنرال بونابرت ، وهو عائد من عيون موسى ، يريد أن يعبر البحر عند المخاضة الواقعة قريبا من السويس بدلا من تلمس الخطوط الكنتورية لقمة الخليج ؛ وهو الأمر الذى يختصر طريقه لمسافة تزيد على الفرسخين؛ حدث هذا فى أول الليل ، وكان المد يعلو ، ثم ازدادت سرعة نوبار المد لدرجة لم يعد الانتظار معها ممكنا ؛ وتعرض الجنرال ومن معه لأشد الأخطار ؛ فى وقت كان معهم أدلاء من أهل البلاد .

٨ ــ « وبريح انفك تراكمت الميــاه ، انتصبت المجارى كرابية ، تجمدت اللجج فى قلب البحر ؛

٩ ــ « قال العدو اتبع ادرك أقسم غنيمة ، تمتلىء منهم نفسى ، أجرد سيفى، تفنيهم يدى ؛

١٠ــ « انفخت بريحك فغطاهم البحر ، غاصوا كالرصــاص فى ميــاه غامــرة ؛

١١ــ « من مثلك بين الآلهة يا رب ، من مثلك معتزا فى القداسة ،مخوفا بالتسابيح ، صانعا عجائب ،

١٢ــ « تمد يمينك فتبتلعهم الأرض ؛

١٣- ترشد برأفتك الشعب الذى فديته، تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك ؛

١٤ــ « يسمع الشعب فيرتعدون ، تأخذ الرعدة سكان فلسطين ؛

١٥ــ « حينئذ يندهش أمراء أدوم ، أقوياء موآب تأخذهم الرجفة ،يذوب جميع سكان كنعان ؛

١٦ــ « تقع عليهم الهيبة والرعب ، بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر حتى يعبر شعبك يا رب ، حتى يعبر الشعب الذى اقتنيته ؛

١٧ــ « تجىء بهم وتغرسهم فى جبل ميراثك ، المكان الذى صنعته يا رب لسكنك المقدس الذى هيأته يداك يا رب ؛

١٨ــ « الرب يملك الى الدهر والى الأبد ؛

١٩ــ « فان خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه الى البحر ، ورد الرب عليهم ماء البحر ، أما بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر . (٤٨)

هكذا كانوا يشكرون السماء على خلاصــهم ، كانت مريم النبيــة (اخت هارون) ، وكانت نساء اسرائيــل ، وقد انقسمن الى جوقات ، يكررن على صوت دفوفهن :

« رنموا للرب فانه قد تعظم ، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر » .

---

(٤٨) سفر الخروج ، الاصحاح ١٥ ، الآيات من ١ الى ١٩ .

فلو شاءت بعض العقول المدققة ان تتبين معنى هـــذا التعبير الذى جاء فى التوراة : « فدخل بنو اسرائيل فى وسط البحر على اليـــابسة ، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم » (٤٩) لجاءها الرد بأن الأمر لايعدو ان يكون اسلوبا مجازيا للتعبير عن أنهم كانوا يعبرون النهر عند مخاضة، ولمـــا لم يكن ينبغى لهم أن يبتعدوا لا ذات اليمين ولا ذات الشمال ، فقد كانوا محصورين بفعل المياه فى مساحة بعينها كما لو كانوا بين بحرين . هكذا . ان ترانيم شاعر ما لا يصح أن تفسر بقدر أكبر من الصرامة ، كما أن الآية الخامسة من الاصحاح ١٥ والتى اوردناها من قبل ، تبين لنا كيف أن المصريين قـــد سقطوا فى قاع البحر ، وليســت المياه هى التى عاودت سقوطها فوقهم (أو انطباقها عليهم) (٥٠) .

وقد احتفظ الأثر لدى العربان البدو بذكرى عبور البحـــر الأحمر ، فنجد على شاطئه الشرقى ــ على بعد ثمانية عشر الف متر الى الجنوب من النقطة التى افترض أن الاسرائيليين قد عبروها ــ عيون ميـــاه تسمى حتى اليوم عيون موسى .

ويعتقد بوكوك Pococke أن العبرانيين قـــد خاضوا البحر تجـــاه هذه العيون ، ولا يعطى سندا لقولته هذه الا أن هناك اثرا عن ذلك لايزال موجودا لدى البدو ؛ ومع ذلك فلو كان علينا أن نصدق فى هذا الصـــدد ما يقول سكان الصحراء .

لتحدد المسلك المؤدى إلى موقع العيون الذى نسالهم عنه .

ويرجع الدكتور شو Shaw بنقطة العبور هذه الى الجنوب بدرجة ابعد ، ويجعلها محددة تجاه وادى التيه ، وهناك من المؤلفين من يعتقدون أن بحرا واسعا وعميقا هو الذى تتجلى فيه اكثر من غيره قدرة الاله .

---

(٤٩) سفر الخروج ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٢٢ .

(٥٠) يترتب على أخذنا تعبيرات الشعراء الأقدمين بمعنـــاها الحرفى أن يختلط بالتاريخ كثير من الخرافات البعيـــدة عن كـــل عقل؛ ومع ذلك فليست هذه هى غلطة الشعراء بقدر ماهو خطأ تفكيرنا ؛ فعبارات مثل : امفيون الذى بنى طيبة على انغام قيثارته ، وأريحا التى انهدمت على صوت قرع دفوف بنى اسرائيل ، انما هى عبارات من السهل أن نعطيها المعنى الصحيح لها بقدر ماهو سهل أن نشرح هذا البيت من الشعر للشـــاعر الفرنسى بوالو Boileau : كونديه ، هذا الذى يكفى مجرد ذكر اسمه ، لاسقاط الحصون .

وفى مقابل ذلك ، فهناك آخرون يظنون ان بنى اسرائيل لم يعبروا البحر من شاطىء لآخر ، وانما هم — بعد أن دخلوا سريره (مجراه) في حالة المد المنخفض ، انسحبوا نحو الأرض مع بدء ارتفاع نوبة المد ، مواصلين مسيرتهم فوق منحنى بيضاوى الشكل ، من جهة المياه ؛ وهذا رأى لاينهض على أساس ، وانما يبرهن فقط كيف يصبح المرء عرضة للخطأ حين يعمل محض خياله ، وفى جهل تام بالواقع .

وهناك آخرون كثيرون كانوا اكثر توفيقا فى شرحهم عبور البحر الأحمر عن طريق المستنقعات ؛ فيتحدث أوزيب (٥١) Eusèbe ✻ عن شخص يدعى ارتابانوس Artapanus قد اورد هذا الرأى ناسبا اياه لكهان ممفيس ؛ وعندما خشى المؤرخ يوسيفوس أن تبدو روايته عن عبور البحر الأحمر بعيدة عن التصديق لدرجة كبيرة فقد قرر أن الشىء نفسه قد حدث للمقدونيين عندما عبروا بحر بامفيلى Pamphylie ✻✻ تحت قيادة الاسكندر ، واضاف « ومع ذلك فاننى اترك لكل امرىء أن يحكم على الأمر كما يشاء » . وهذا الاعتراف من جانب احد الأحبار ، وواحد من اكثر أعضاء الاكليروس اليهودى علما ، انما هو اعتراف ثمين للغاية لأنه يبين لنا ما كان عليه عندئذ رأى هذه الهيئة الدينية ؛ ولذلك فان لوما شديدا قد وجه الى يوسيفوس بسبب صراحته هذه ، من جانب اناس ظنوا ، برغم كونهم مسيحيين ، أن عليهم أن يبدوا اكثر منه فى يهوديته ، وهو مايستحيل على المرء أن يأخذ به عند قراءته لهذا المؤرخ، ومن بين المحدثين ، نجد نيبيور Niebuhr ولوكليرك le Clerc يحددان السويس موقعا لهذا الحدث بسبب المخاضة التى تقع امام هذه المدينة ، ولم يك بمقدور هذين الرجلين أن يعتقدا ، مثلى ، أن العبور قد تم لابعد من ذلك ، قليلا ، نحو الشمال ، وعند نقطة لايشغلها البحر اليوم ، لأن

(51) Proepar, evang. lib IV, Cap. 17.

✻ أما أوزيب فهو مطران قيسارية ، وله مؤلف ضخم عن التاريخ الكنسى ، (٢٦٥ الى ٣٤٠ م) (المترجم)

✻✻ احدى مقاطعات آسيا الصغرى قديما وهى اليوم مقاطعة اضاليا ، وهو هنا يشير الى خليج يحمل نفس الاسم . (المترجم)

الحدود القديمة للبحر الأحمر لم تكن معروفة لهما ، ولأنه لم تكن قد حدثت بعد اية عمليات تعدين فى هذا الجزء من البرزخ ؛ وفوق ذلك فهذان الرأيان لا يختلفان فيما بينهما الا بقدر طفيف للغاية حتى ليمكن للمرء أن يتبنى ، دون تفرقة، هذا الرأى أو ذاك، فلقد كان موقع حصن هاجيروت أو الحيروث الذى ضرب أمامه الاسرائيليون خيامهم ، بالاضافة الى أن البحر فى الفترة المتأخرة كان فى الأرجح أكثر عمقا تجاه السويس مما هو عليه اليوم — كان هذا كله هو الذى قد حسم اختيارى (٥٢) .

وهكذا رأينا ، ماهو ، فى نظرى، التفسير الأكثر طبيعية لعملية عبور البحر الأحمر ، فأما أولئك الذين يضعون الحدث فى صف الخرافات فسوف يتفقون معنا ، على أقل تقدير ، أن يحتمل أن يكون الأمر قد حدث على هذا النحو ، وأما أولئك الذين يعتقدون بصحة وقوعه فلا تثريب عليهم ، دون ريب ، ان لم يجدوا من الضرورى أن ينقلب نظام الكون كى نتعرف على قدرة الله فى تخليص العبرانيين ، وفى الحاق الخسارة بالمصريين .

المياه المرة تصبح مياها عذبة

« ثم ارتحل موسى باسرائيل من بحر سوف وخرجوا الى برية شور، فساروا ثلاثة أيام فى البرية ولم يجدوا ماء ، فجاءوا الى مارة ، ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر ، لذلك دعى اسمها مارة ، فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب ، فصرخ الى الرب فأراه الرب شجرة فطرحها فى الماء فصار الماء عذبا » (٥٣) .

لو أن موسى قد كان يعلم خاصية هذا الشجر اثناء هربه الأول الى الصحراء لظل هذا السر محفوظا لديه (أو معروفا منه) ، ولوجدناه

---

(٥٢) لابد أن البحر قد كان فى ذلك الوقت ، أمام السويس ، أكثر عمقا مما هو عليه الآن ، مادامت كتلة الرمال التى تحول دون امتداده نحو الشمال بحوالى خمسين الف متر لم تكن بعد عالية بالقدر الذى يكفى لابقائه داخل حدوده الحالية . أنظر دراستى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر ، الدولة الحيثة ، المجلد الأول ، ص ١٨٧ . (المجلد الثالث من الترجمة العربية) .

(٥٣) سفر الخروج ، الاصحاح ١٥ ، الآيات ٢٢ الى ٢٥ .

عند البدو الذين لهم بلا جدال مصلحة كبيرة فى جعل الماء صالحا فى صحراء تنقصها المياه الصالحة بدرجة كبيرة ؛ اذن فعلينا فى هذا الصدد ان ننقل ماقاله المؤرخ يوسف* واليكم نص ماقاله حول هذه القضية (٥٤) ؛
وبعد أن مشى الاسرائيليون طويلا ، وصلوا عند حلول المساء الى مكان يسمى مارا ، وسمى كذلك بسبب مرارة ميناهه ،وحيث كانوا منهكين للغاية فقد وقع اختيارهم على التوقف هناك فى الوقت الذى كانت تنقصهم فيه المؤن ، ذلك لأنهم وجدوا هناك بئرا جعلتهم يأملون ، برغم انها لم تكن لتستطيع أن تفى بحاجة مثل هذه الألوف العديدة ، فى بعض الانفراج فى احتياجاتهم ، كما ان هذه البئر قد واستهم ، لاسيما وقد قيل لهم انه لا توجد آبار مطلقا على طول طريقهم. لكن هذه المياه جاءت مرة حتى انه لا البشر ، ولا الخيول ، ولا الحيوانات الأخرى ، امكنها أن تشرب منها . يالها من مفارقة تدعو للاسى ، قد جعلت الشعب كله فى حالة من اليأس ووضعت موسى امام صعوبة اليمة وعجيبة ، فالأعداء الذين عليه أن يهزمهم هذه المرة ليسوا من أولئك الذين يمكن دفعهم بفعل بذل سخى ؛ انهم الجوع والعطش اللذان قد جعلا ، وحدهما ، هذه الألوف كبيرة العدد من الرجال والنساء والأطفال يشرفون على الهلاك ؛ وفى الوقت نفسه لم يكن موسى ليعرف نصيحة ما يأخذ بها ، واستشعر هو آلام الآخرين جميعا باعتبارها آلامه الخاصة اذ كان الجميع يلتجئون اليه ، فالأمهات يستعطفنه أن يكون شفوقا بأطفالهن ، والأزواج يلتمسون منه أن يحنو على زوجاتهم ، وكل امرىء يتضرع اليه كى يبحث عن بعض علاج لهذا الألم العظيم . وبينما هو فى مثل هذه الحاجة الماسة اتجه الى الله يطلب عفوه ورحمته وأن يحيل بقدرته وفضله هذه المياه المرة الى مياه حلوة ، فأنبأه الله انه قد منحه هذا الفضل ؛ عندئذ اخذ موسى قطعة من الخشب ، وشقها الى اثنتين ، وبعد أن القى بها فى البئر قال للشعب ؛ ان الرب قد استجاب لدعواته ، وانه سينزع عن هذه المياه كل مافيها من مرارة أو طعم غير مستساغ ، شريطة ان ينفذوا ما يأمرهم به . ثم طلب اليهم ماينبغى أن يعملوه .فأمر اشدهم قوة وامتنهم بنية بأن يسحبوا جزءا كبيرا من ماء البئر مؤكدا لهم أن الماء الذى

(54) Antiquités Judaïques, liv. III, Chap. 1.

* يوسف أو جوزيف أو يوسيفوس ، وهى طرق ثلاث لكتابة اسم واحد يشير الى المؤرخ نفسه (المترجم) .

سيتبقى سيكون صـــالحا للشرب . فأطاعوه ، فجنوا بعد ذلك ثمرة الوعد الذى أعطاه لهم » — عن ترجمة المسيو ارنو دانديى Arnaud d Andilly

هذا اذن هو تفسير المعجزة ؛ فمن المعروف انه بافراغ احدى الآبار، صبح الميـــاه التى تتبقى عادة أفضـــل بكثير ؛ وتتطابق هذه الملاحظة مع قوانين الطبيعة ، وفضلا عن ذلك فقد وأتتنا الفرصة أن نكررها مـــرات عدة فى مصر ؛ ففى المناطق الصحراوية التى اتممنا فيها بعض التحصينات، اصبحت الميـــاه المائلة للملوحة ، والنتنة فى معظم الأحيان ، افضل على الدوام بعد مرور بعض الوقت على اغترافها .

عن السحاب وعمود النار وعن بعض الظواهر الأخرى المثيرة للانتبـــاه

هنـــاك معجزة اخرى اخذت تتبدى للعبرانيين منذ خروجهم من مصر، وظلوا يحظون برؤيتها بعـــد عبورهم البحر الأحمر ؛ لقـــد بدا الرب لهم نهارا فى صورة سحاب وليلا فى شكل عمود نار ؛ وعلى هذا النحو سار فى مقدمتهم ليرشدهم الى طريقهم . . ثم يجلس فوق مظلة حين يعسكرون. أليس ثمة احتمال فى وجود بعض أخطاء ، أو سوء فهم ، من جانب الشراح المتبحرين فى التوراة ؟ وهل يمكن أن يستدعى موسى مثل هذه الشواهد عند مسيرة العبرانيين ، ليقدمها كمعجزة ؟ الأمر المؤكد هنا هو أن القوافل تستخدم فى بعض الأحيان ، اثناء سيرها الليلى ، شعلات ضخمة يحملها الأدلاء يسبقون بها الموكب ، واليكم حول هذا الموضوع ، نصنننقله عن العـــدد ٢٤ من بريد مصر Courrier de l'Egypte ، وهى الصـــحيفة التى كانت تطبع فى القاهرة (أثناء الحملة الفرنسية) :

« فى العاشر من نيفوز ، رحلنا من السويس ، واتجه الجزء الأكبر من القافلة نحو الاجرود ، ومضى القائد العام وفى صحبته الجنرالات برتييه Berthier ، ودمارتان Dommartin ، وكافاريللى Cafarelli ، والمواطنان مونج Monge وبرتولليه Berthollet — الى الطرف الشمالى الأقصى للخليج ، كى يتبينوا على الطبيعة ما ان كانت توجد أى آثار لتلك الترعة التى ترسمها الخرائط باعتبـــارها كانت تقيم اتصـــالا بين النيـــل والبحر الأحمر ، وفى الواقع ، فقـــد تم العثور على مثل هذه الآثار ، وكان اول

من تبينها هو الجنرال بونابرت نفسه . ثم سارت الفرقة لمسافة أربعـــة فراسخ فى مجرى الترعة نفسها ؛ وفى الوقت نفسه ، فمع السير فى هذا الاتجاه ، ابتعدت هذه الفرقة كثيرا عن العجرود ، حيث كان عليهـــا ان تعود لتلحق ببقية القـــافلة حيث المـــاء والمؤن والأطعمة ، كان الليـــل يقترب ، وكان موقع العجرود بالنسبة لها غير معروف ؛ وتعرض من فى الفرقة لخطر ان يضلوا الطريق .

وصحب كل من الجنرالين بونابرت وبرتييه رجلا فوق حصـــانه ، وسارا فى المقدمة ، واتجها باقصى سرعتيهما نحو النقطة التى كانت تغيب عندها الشمس ، وساقهم هذا الاتجاه لحسن الحظ الى العجرود ، وأمر القائد العـــام باطلاق تذيفة مدفع ، وباشتعال النـــار فوق أبراج القصر ، وبأن توضع فوق بعض النقاط العاليـــة من الطريق الذى انتهى هو من اجتيازه **مشاعل (أو فوانيس) من تلك التى تتزود بها القوافل على الدوام لتكون علامات على الطريق اثنـــاء الليل ؛ وهذه الشعلات بالغة البساطة، فالشعلة منها اسطوانية الشكل ، توضع بها نار قوية ولامعة ، اذ توقد بها قطع بالغة الجفاف من خشب السنط ؛ وهذه المشاعل مثبتة فى الجزء العلوى منها بعصا يصل طولها خمسة الى ستة اقدام، وتغرس فى الأرض حين يراد التوقف ؛ فاذا شاءت القـــافلة ان تسير خلال الليل ، يمشى فى مقدمتها رجال عديدون يحملون شعلات مماثلة ، ويحرصون على بقـــائها عالية ليلمح كل مسافر نارها .**

وعند المساء ، التـــأم شمل الجميع (٥٥) .

سيقال ، بلا جدال ، ان ليست هذه قط شعلات تماثل تلك التى تكون السحاب وعمود النار اللذين تشير اليهما التـــوراة ، ذلك اننـــا نقرأ فى التوراة ، فى الآية ٢١ من الاصحاح الثالث عشر من ســـفر الخروج أن الرب كان يسير أمام العبرانيين . ومع ذلك فهل يتحتم علينا ان نأخـــذ هذا التعبير بمعناه الحرفى فى حين يعرف المرء أن شعبا شديد التـــدين

(55) Cowrrier de l'Egypte, No. 24, le 27 nivôse an 7. de la Republique Française.

يجعل كل شيء من صنع الرب ، وان الاسرائيليين ، بشكل خاص كانوا يتقبلون فى الشعر ، وفى النثر ذاته ، كل المبالغات التى تتجاوز كل حد؟ ولدينا نحن ، حيث تضع اللغة الكثير من التحفظ والتعقل او القيود ، السنا نجد اناسا يتسمون ملائكة او كائنات مقدسة او مخلوقات سماوية؟ لنضع انفسنا لحظة فى مكان العبرانيين ؛ اجنبى يسير على راسنا ليهدينا السبيل فى صحراء مجهولة منا ، الشعلة التى يحملها فى الهواء تلقى خلال النهار دخانا ، وخلال الليل لهيبا يهتدى على ضوئه رجالنا . الأمر المؤكد أن لن يكون ثمة ماهو ابسط ولا ايسر من أن نقص ذلك بأسلوب يخلو من الشاعرية . ومع ذلك فعلينا الا نواجه الأمر فى ذاته ، ولنتدبر نتائجه ، وعندئذ سوف نغير من لغتنا ، ولسوف نقول : كيف هبط علينا هذا الرجل فى الوقت نفسه الذىنحتاج اليه فيه اشد الاحتياج؟ كم نحن محظوظون أن وهبنا اياه ! **انه رجل مبارك ، انه ملاك ، انه اله !**

وحيث يتعاظم كل شيء ، بالنسبة نفسها فى لغة الحماسة ، تتحول الشعلة الى عمود من النار ، الى عمود من السحاب ، الى مجد الرب (٥٦) .

ومما يدل على أن موسى لم يكن يريد أن يقدم هذه الواقعة باعتبارها أمرا خارقا للطبيعة انه يخبرنا بأن حماه ، هذا العربى من مديان (مدين)* ، هو الذى قاد الاسرائيليين ، واليكم مانقرؤه حول هذا الموضوع فى سفر العدد ، الاصحاح العاشر :

آية ٢٩ : « وقال موسى لحوباب بن رعوئيل المديانى ، حمى موسى ، اننا راحلون الى المكان الذى قال الرب أعطيكم اياه ، اذهب معنا فنحن نحسن اليك ، لأن الرب قد تكلم عن اسرائيل بالاحسان ؛

آية ٣٠ : « فقال له لا اذهب ، بل الى أرضى والى عشيرتى امضى ؛

آية ٣١ : « فقال لا تتركنا **لأنه بما انك تعرف منازلنا فى البرية تكون لنا كعيون ؛**

---

(٥٦) أطلق القديس يوحنا على مطارنة الكنائس الآسيوية السبعة اسم ملائكة هذه الكنائس : « وقال ابن الرب اكتب الى ملاك كنيسة ايفيزوس » .

* وهى احدى المدن الآيونية على بحر ايجه . (المترجم).

آية ٣٢ : « وان ذهبت معنـا فبنفس الاحسان الذى يحسن الرب الينا نحسن نحن اليك ؛

آية ٣٣ : « فارتحلوا من جبل الرب مسيرة ثلاثة أيام وتابوت عهـد الرب راحل أمامهم مسيرة ثلاثة أيام ليلتمس لهم منزلا » .

وبالتـأكيد ، فلو أن ملاك الرب كان حقيقة هـو الذى يمشى أمام العبرانيين لـكان موسى فى غير حاجة الى حميه ليكون مرشداً لهم ولـما كان وعده بالـكثير من « الاحسان » ــ أى الثروات ــ ليحمله على البقاء بالقرب منه .

أما هذه العبارات : **ان الرب أو ملائكته كانوا يقودون جيش اسرائيل فى شكل دخان أو لهيب** فيقتصر معناها على أن تابوت العهد كان محمولا فى مقدمة المسيرة (٥٧) .

اما هذه الوسيلة فى ارشاد الفرق أو الجيوش ، عن طريق اشارات نارية توضع اثنـاء نوبات الراحـة فوق خيمـة القـائد ، فأمر لايخص العبرانيين وحدهم . فمن المعروف أنها كانت مستعملة عند الفرس ، كما اننـا سـوف نقرأ هنـا باهتمام النص التـالى عنـد كينت ــ كورس . Quinte - Curce * بسبب تشابهه الشديد مع ما جاء بالاصحاحين التاسع والعاشر من سفر العدد . يقول كينت كورس عنـد حديثـه عن

---

(٥٧) التابوت عبارة عن صندوق من خشب السنط تكسوه صـفائح من ذهب ، ويبلغ طوله ذراعين ونصف الذراع ، وعرضه ذراعا واحـداً ونصف الذراع وبارتفاع يماثل عرضه ؛ وقد حفظت فيه ألواح الشريعة؛ ويسمى غطاء التابوت **المـائدة** ، ويعلوه اكليل من الذهب ، يشكل جناحاه المبسوطتان مايشبه مقعـدين يفـترض أن تجلس عليهما ذات الرب غير المرئية ، سفر العدد ، الاصحاح السابع ، الآية ٨٩ . وكان جانبا التابوت، من ناحية الطول ، مزودين بحلقتين كانتت تدخل فيهما العصوان اللتـان تستخدمان فى حمله فوق الأكتاف ، ويمكننا أن نرى فى أطلس العصور القديمة ، اللوحة الثانية ، المجلد الأول ، الشكل ٤ ، رسما بارزا فى جزيرة فيله يماثل التابوت لدرجة كبيرة ، وهو ماسبق أن لاحظه من قبل المسيو لانكريه Lancret فى دراسته عن وصف جزيرة فيله ، ص ٢٧ .

* مؤرخ لاتيني عاش في القرن الميلادى الأول وله مؤلف كبير عن تاريخ الاسكندر . (المترجم) .

الاسكندر : « وعندما كان يريد أن يفض معسكرا ، كانت الطبـــول تعطى الاشارة ، ومع ذلك ، فحيث كانت الضجة فى معظم الأحيان تحول دون سماع دقات الطبول ، فقـــد كان الاسكندر يأمر بأن توضع على خيمتـــه عصـــا يستطيع أن يلمحهـــا الجميع وأن ترفع فوقهـــا شـــارة الرحيل : **وكانت هذه نارًا اثناء الليل ودخانا اثناء النهار** » (٥٨) .

ونقرأ فى الاصحاح التاسع من سفر العدد :

آية ١٥ : « وفى يوم اقامة المسكن غطت السحابة المسكن خيمـــة الشهادة ، وفى المساء كان على المسكن كمنظر نار الى الصباح ؛

آية ١٦ : « هكذا كان دائما ، السحابة تغطيه ، ومنظر النار ليلا ؛

آية ١٧ : « ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة كان بعـــد ذلك بنو اسرائيل يرتحلون ؛ وفى المـــكان حيث حلت الســـحابة هنـــاك كان بنو اسرائيل ينزلون » .

وفى الاصحاح العاشر :

آية ١ : « وكلم الرب موسى قائلا ؛

آية ٢ : « اصنع لك بوقين من فضـــة ، مسحولين تعملهما فيكونان لك لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات ؛

آية ٣ : « فاذا ضربوا بهما يجتمع اليك كل الجماعة الى باب خيمة الاجتماع » .

ولا يمكن المرء بالتأكيد أن يجد تشابها اكبر بين عادات الأمتين فيمـــا يتصل بمسيرة فرقهما .

معجزات أخرى كثيرة يمكن تفسيرها بشكل طبيعى مماثل لمـــا تم مع المعجزات السابقة . كذلك فان السمان ، الـــذى يكون منهكا بعد رحلة طويلة يتساقط الـــكثيرون منه فى الأيدى عند شاطىء البحر ، فى الفصول

---

(58) De Rebus Gestis Alex, Lib, V. Cap. 7.

نفسها التى كان العبرانيون يستخدمونه خلالها طعاما لهم . ونقرأ عند ديودور الصقلى أن مصريين منفيين لادانتهم بالسرقة فى عهد اكتيزانيس، فى صحراء برزخ السويس ، كانوا يتغذون بالطريقة نفسها ، أما المن ، فما برح يحصد من شجرات لعلها كانت فى الماضى وفيرة العدد فى المناطق المحيطة بجبل سيناء ، أما النار اليونانية ، فهى مثال على أن الشرقيين قد عرفوا ، فى فترات سابقة ، كيف يشعلون النار ، وكيف يستخدمونها على هذا النحو المخيف .

ومع ذلك فان كل هذه التفسيرات لا تتعارض فى شىء مع الرأى القائل بأن من المستطاع أن يكون الرب قد جاء لمساعدة شعبه ؛ فهذا الاتفاق العارض أو الفجائى لأحداث مواتية ، والتى ليس بمقدور أحد ان يكررها ، يمكن ان ينظر اليه باعتباره (فى حد ذاته) معجزة ، وفضلا عن ذلك فلا ينبغى أن نتوقف عند هذا الأمر اكثر من ذلك ، ولنصل مباشرة الى تلك اللحظة التى اقام فيها الاسرائيليون ، دون جلبة ، فى الصحراء، بعد أن هزموا العماليق فى رافيديم .

الشريعة تتنزل على جبل سيناء (٥٩)

كانت كل الشعوب القاطنة فى ضواحى جبل سيناء على يقين من ان الرب يقيم هناك ؛ ذلك انه يكاد ينظر الى الجبال العالية فى كل مكان ، باعتبارها المقر الاعتيادى للالهة ؛ وهذا أمر طبيعى ، فليس هناك واحد منا لم يستشعر عند سفح هذه الكتل الصخرية المظيمة ضعفه ، وهو أمر ينتج عنه خشوع وتأمل يهيئان لانبعاث روح الأفكار الدينية ، وفضلا عن ذلك فان الجبال تكون مسرحا لعدد كبير من الظواهر المفزعة ، التى تبدو كما لو كانت جهازا هائلا فى ايدى آلهة جبارة ؛ ولقد ملح الخوف ، بأكثر مما فعلته المعرفة ، البشر اولى افكارهم عن الألوهية، فمن قممها تندفع السيول المدمرة ، كما تتكون فى باطنها وعلى ضجيج الانفجارات التى تزلزل وتقلب باطن الأرض ، الأحجار الملتهبة ، والمعادن المنصهرة التى تبتلع المدن وتدمرها حين تخرج فى شكل شواظ من نار

(٥٩) يسمى العرب هذا الجبل باسم جبل موسى .

وأنهـــار من حمم ؛ كذلك ، على ذراها ، تزمجر الرياح العاتيات ، وتتراكم السحب التى تتخذ من الأشكال مايبعث على الرهبـــة ، وتتفجر الرعود الهـــائلة وسط البروق التى تبدو وكأنها ستصعق الوديان (٦٠) .

على مشهد عاصفة مماثلة ، أراد موسى أن يصدم خيال الاسرائيليين حتى ينتهى باقتنـــاعهم بصحة تلك العـــلاقة القـــائمة بينه وبين الرب ، لم تكن سماء مصر قد قدمت لهم من قبل ، شيئا شبيها بذلك ، فهى تتوهج بالضوء البـــاهر أثناء النهار ، وبأجمل لون لازوردى أثناء الليالى الهادئة، ولا تحجبها قط أية ســحب معتمة ؛ وفى الربيع فقـــط نرى بعضـــا من سحب بالغة الارتفـــاع تدفعها بسرعة ريح الشمال ، لتمضى سريعـــا كى تتراكم فوق جبال الحبشة العالية ، حيث تتحول الى أمطار ينشأبسقوطها عدد لا حصر لـه من الأخوار التى تصب فى النيل مكونة فيضان هذا النهر. اما الخماسين أو الريح المسممة (ريح السموم) ، بدواماتهـــا الترابيـــة الملتهبة وأعمدتها الرملية فتعكر وحدها صفو الجو ، ومع ذلك ، وبخلاف انها لا تهب على مصر الا مرة أو مرتين على مدار العـــام فانها هناك ضارة أو مؤذية اكثر منها مفزعة ، فهى تمارس على الحيوانات والنباتات آثارها الضـــارة ، وتسبب أمراضها ، بل قد تقتلها أحيـــانا ، فان ذلك يحدث فى معظم الأحيان بالطريقة التى تحدث بها آثار السموم ، تلك التى تعمل دون جلبة ، دون عنف ظاهرى ؛ وبالأضافة الى ذلك ، فبامكاننـــا ، أن نحكم عليها بدواماتها تلك بأنها بنت الأرض أكثر منها وليدة للسماء ، لذلك

---

(٦٠) عندما قرأت فى المجمع العلمى بالقاهرة ، فى السادس عشر من بروميير من العـــام التاسع ، مذكرتى هـــذه عن عبور الاسرائيليين للبحـــر الأحمر ، وعن اقامتهم عند سفح جبل سيناء ، أعلنت أن هذا الجبل يمكن أن يكون بركانا خامدا ؛ فالاحجار البركانية الضخام التى كنت رأيتهـــا فى صابورات السفن (الصابورة : ثقل يوضع فى سفينة لحفظ توازنها) عند مدينـــة الطور تلك التى كانت تصل الى السويس والقصير ؛ كما أن الوصف الذى يعطيه موسى للحظة تجلى الرب فوق جبل سيناء قد رجحت عندى هذا الرأى ؛ وبعد وقت من قراءة دراستى توجه اثنان من رفاق رحلتنـــا همـــا السيدان كوتل Coutelle وروزيير Rozière الى كهف فى جبل سيناء ، وتبين لهما أن الجبل جرانيتى وليس به أى أثر لبركان ، ومع ذلك فان الأعاصير أو العواصف ، تتفق بنفس القدر مع مايمكن أن تحدثه ثورة بركانية كتلك التى جاءت فى رواية موسى .

فنحن نعتقد أن قدماء المصريين قد اتخذوا منها رمزا للقدوة السيئة . وعلى هذا يكون من السهل علينا أن نتصور كيف كان العبرانيون مأخوذين بفعل رعب دينى عند أول مرة يرون فيها البروق تشق ظلمات السحب ، ويسمعون فيها هزيم الصواعق فوق الجبال العالية ، تتزايد أصداؤه وتمتد لأبعد مدى قعقعاته (٦١) . وفى الواقع فان السحب نقدم لمن يرصدها اشكال شياطين بالغة الغرابة ، كما أن حركتها ، واشكال المسخ التى تقدمها قد أفزعت فى معظم الأحيان والهبت خيال الضعفاء من الرجال أو جهالهم ، فقد رأى بعض فيها علامة على غضب السماء ورأى آخرون فيها آلهتهم ذاتها أو أرواح أجدادهم الهائمة . أما الرعد ، فقد جعلت منه كل الشعوب سيد الكون ، وها نحن نرى ، برغم تقدم العلوم والفنون الذى يهيئه التعلم ، ان كثيرا من الناس مابرحوا يخافونه بأكثر مما يخافون الأخطار الوشيكة أو الداهمة ، والسبب فى ذلك بالغ البساطة ؛ أن من الممكن لنا أن نصارع ضد هذه الأخطار فى الوقت الذى لانملك فيه وسيلة ما لدرء أخطار الرعد . وزيادة على ذلك ، فكل ضجة هائلة تولد الاحساس بوجود قوة عظيمة ، كما يجعل منها الخيال صرخة غضب هائلة تصدر عن كائن عظيم وقادر فى حالة غضب وهياج .

لقد ظل موسى لوقت طويل يرعى قطعان حميه فوق جبل سيناء ، وهناك كان شاهدا على ظواهر وأشكال سامية شكلتها الرعود والعواصف فوق هذا الجبل الشامخ ، وبلا ريب فان ذكرى ما كان هذا الرجل الماهر قد استشعره منها هى التى دفعته الى استغلالها فى تحقيق مآربه .

وننقل هنا نصا حرفيا من جزء من الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

آية ١ ، ٢ « فى الشهر الثالث بعد خروج بنى اسرائيل من ارض

---

(٦١) اثناء فترة اربع سنوات قضيتها فى مصر ، لم اسمع سوى مرة واحدة صوت الرعد ؛ ومع ذلك فقد كان هذا الصوت ضعيفا حتى ان كثيرا من الاشخاص ، ممن كانوا معى ، لم يلحظوه قط .

مصر ، فى ذلك اليوم جاءوا الى برية سيناء ؛ ارتحلوا من رفيديم وجاءوا الى برية سيناء فنزلوا فى البرية . هناك نزل اسرائيل مقابل الجبل ؛

آية ٣ : « وأما موسى فصعد الى الله ، فناداه الرب من الجبل قائلا : هكذا تقول لبيت يعقوب ، وتخبر بنى اسرائيل ؛

آية ٧ : « فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدامهم كل هذه الكلمات التى أوصاه بها الرب ؛

الآيات من ٨ الى ١٢ : « فأجاب جميع الشعب معا وقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل ، فرد موسى كلام الشعب الى الرب ؛ فقال الرب لموسى ها أنا آت اليك فى ظلام السحاب لكى يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك ايضا الى الأبد ، وأخبر موسى الرب بكلام الشعب فقال الرب لموسى اذهب الى الشعب وقدسهم اليوم وغدا وليغسلوا ثيابهم ؛ ويكونوا مستعدين لليوم الثالث . لأنه فى اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء ؛ وتقيم للشعب حدودا من كل ناحية قائلا احترزوا من أن تصعدوا الى الجبل أن تمسوا طرفه . كل من يمس الجبل يقتل قتلا » .

وفى واقع الأمر ، فليس من العسير أن يتنبأ بحدوث الرعد قبل موعده ببضع ساعات (٦٢) ؛ فالبحارة وسكان الجبال العالية يبرهنون لنا كل يوم على صحة ذلك اذ تحملهم غريزة البقاء على أن يلاحظوا بعناية كل نذر الظواهر الجوية التى يخشونها ، وقد تطلب الأمر من موسى — وقد عمل لمدة طويلة راعيا فوق جبل سيناء — أن يقوم هناك بتأملات

---

(٦٢) تتضح نذر الثورات البركانية كذلك ، وبطريقة تكاد تكون شبه مؤكدة ، عن طريق توهج المستنقعات والأبخرة التى تحمل روائح كبريتية وكذلك عن طريق الهواء الثقيل والحار ، والأصوات تحت الأرضية وجفاف الآبار ، ونقص — وفى بعض الأحيان التوقف التام — للدخان الذى يتصاعد عادة من فوهات البراكين القديمة ، وكذلك عن طريق الفزع الذى يتملك الحيوانات فتعبر عن قلقها بصرخاتها وسيرها المتخبط والقلق ، وتفعل الطيور نفس الشىء فتطير هنا وهناك — هذه كلها علامات على قرب حدوث العواصف أو الأعاصير أو الزوابع ، كما أنها فى الوقت نفسه نذر بحدوث هذه الكارثة الرهيبة (ثورة البراكين) .

وملاحظات مماثلة . أما عن الفترة المحددة والتى تبتعد قليلا عن الأيام الثلاثة التى حددها موسى فى الآيات من ١١ الى ١٥ فان علينا أن نعتقد ان موسى ، عند حديثه الى العبرانيين ، كان يعطى لكلماته غموض الوحى القائم بالوساطة بين الناس وبين الرب ، والذى يكرر ذلك دون ان يصيبه الفشل ، وان كان يدون نبوءاته (الغامضة تلك) — ما أن تمضى الحوادث ، بطريقة واضحة محددة (٦٣) .

ونواصل مرة أخرى النقل عن الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

آية ١٦ : « وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أن صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة ؛

آية ١٧ : « وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله ، فوقفوا فى أسفل الجبل ؛

آية ١٨ : « وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل ان الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون ، وأرتجف كل الجبل جدا » .

الآيتان ٢٠ ، ٢١ : « ونزل الرب على جبل سيناء الى راس الجبل، ودعا الله موسى الى راس الجبل فصعد موسى ؛ فقال الرب لموسى انحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا الى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون » .

السنا نضع أيدينا الآن على وصف بالغ الدقة للرعد ؟ السنا نرى كم كان موسى يخشى أن يأتى أحد أبناء شعبه ليجده وسط السحب التى تغطى قمة الجبل ، لكنه لن يجد هناك الرب المقدس الذى اصطنع له ذكاء موسى وحكمته ، وقابلية هؤلاء للايمان والتصديق مكانا هناك . **وأما موسى فقد اقترب الى الضباب حيث كان الله** ، هكذا تخبرنا الآية ٢١ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج .

---

(٦٣) انظر بالاضافة الى ذلك ماسبق أن ذكرناه فى الجزء الخاص بعبور البحر الأحمر عن نشر الاسفار .

ويتعرف المرء كذلك ــ ولا يزال ــ فى هذا الاصــحاح نفسه على الدوافع التى حدت بموسى ان يقود الاسرائيليين الى جبل سيناء، اذ يقول لهم : « انه الله انما جاء لكى يمتحنكم ولكى تكونمخافته امام وجوهكم حتى لا تخطئوا » .

« انتم رايتم اننى ــ اى انا الرب ــ من السماء قد تكلمت معكم »*

وبعد ذلك ، وبعد أن منع موسى أن يتبعــه أحد ، ذهب فوق الجبل، وامضى هنــاك أربعين يوما ، وخط خلال هــذه العزلة لوحى الوصــايا وقدمهما الى الشعبباعتبارهما حسبقوله « المكتوبين باصبع الرب »**

وبهــذه الطريقــة نفسها فرض غالبية المشرعين الاحترام الــكبير لشرائعهم ؛ نوما Numa يستلهم حورية المــاء والغــاب ايجريا ، والملك جبريل يملى القرآن على محمد ، ومانكو كاباكا Manco Capac يتحــدث باسم الشمس ، وليكورج ، نفسه ، حتى ليكورج Lycrgue الحكيم يبحث عن دعم لشرائعه فى وحى معبد دلفى ، ان هؤلاء الرجال العظام ، الاكبر مهارة والأكثر علما من عامةالناس***يفيدون منظواهر الطبيعةالمعروفة لهم جيدا كى يحيطوا انفسهم بالمهابة والقداسة . السنا نرى كريستوف كولمبوس ، فى زمن اكثر حداثة ، وحين كاد يهلك جوعا ، ينذر البسطاء، سكان جمايكا ، بأنهم ، ان لم يجلبوا الأطعمــة الى معسكر الأســبان ، فسوف تعاقبهم يد الله ، ثم حدث كسوف الشمس الذي كان يتوقعه فخر القوم سجدا من الرعب ، وأطاعوه .

---

* اقتبــاس من الآيتين ٢٠ ، ٢٢ من الاصحاح العشرين من ســفر الخروج . (المترجم)

** سفر التثنية ، الاصحاح التاسع ، الآية ١٠ (المترجم) .

*** ينظر المؤلف الى الجميع بلا استثناء باعتبارهم مشرعين وبذلك يطبق فكرته على المشرع الحقيقى والمشرع المفترض وجوده وكذلك الأنبياء. وفكرته هنــا تعميمية لاقصى حــد ، قــد تصلح دليلا على حذقه هو ولكنها لاتعد دليلا على صدق مايذهب اليه . وقد وضح من سياق مقاله قلة معرفته ــ ويكاد يكون جهله ــ بالاسلام ونبيه العظيم . أما الــذين يشــير اليهم هنــا فهم :

=

حقا ! ان طفولة الشعوب تمتلىء على الدوام بالمعجزات (٩٤) .

= نوما Numa : ثانى ملوك روما كما تحكى الأساطير (٧١٤ — ٦٧١ ق.م) وكانت السلطة فى ذلك الوقت فى يد الرؤساء أو السيناتوريين، أما الملك فكان يقوم بدور الكاهن الأكبر . ولكى يلزم شعبه وقومه الهمجى فى ذلك الوقت بالأخلاق القويمة وجد أن من الضرورى له أن يبدو فى صورة من يستلهم كلماته من غير حكمة البشر فادعى أنه يلتقى فى الليل بايجريا، الحورية المقدسة التى تلهمه الرشد والنصيحة ، وأفلح بذلك فى توحيد دين قبائل روما وتقويت وحدة الدولة وزاد استقرارها .

مانكو كاباكا Manco Capac : مؤسس امبراطورية بيرو وأول ملوك الانكا ؛ عاش فى القرن العاشر الميلادى .

ليكورج Lycurgue يقول عنه هيرودوت انه أبن عم الملك كاريلوس ملك اسبرطة ، تلقى من الوحى فى دلفى بعض مراسيم يراها البعض قوانين ليكورج نفسها ويراها آخرون تصديقا ربانيا على قوانين ليكورج . وقد وجد باعتباره مشرعا أن افضل طريقة لتغيير عادات الناس القائمة ولادخال عادات جديدة أن يقدم قوانينه باعتبارها أوامر من عند السماء . وفى حين يجزم بعض المؤرخين بأنه واضع قوانين اسبرطة يرى كثيرون انه شخصية خيالية ، ولعل هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل واحد بعينه ، ولكنها طائفة من العادات تحولت الى قوانين وسميت باسم الشخص الذى قام بجمعها وتدوينها . (المترجم) .

(٩٤) ليس هناك ماهو اسهل من خداع الطبقة الدنيا من الشعب عن طريق معجزات مزعومة حتى عند الشعوب المتحضرة . الم يهرع القوم فى ايطاليا ، فى ايامنا هذه ، ليحيطوا بصورة العذراء المقدسة التى كانوا « يرونها » وهى تحرك عينيها ؛ ولهذا السبب لم يكن القساوسة يكلفون انفسهم عناء تحريك اى جهاز لاتمام « المعجزة » ، كانوا يكتفون بالقول : هل ترون ؟ ويجيب الجميع . نعم . نحن نرى .

وكم يكون الخيال قادرا على الخلق !

موت موسى

بعد أن سار الاسرائيليون لبعض الوقت على غير هدى ، وعلى طريقة العربان ، فى المناطق المحيطة بجبل سيناء ، حاولوا التوغل فى أراضى سوريا الى الغرب من البحر الميت .

كان موسى قد استنهض عزيمتهم مخبرا اياهم ان الرب قد اعطى لنسل ابراهيم أرض كنعان . ومع ذلك فقد رفضوا عند وصولهم الى حدود هذه الدولة أن يمضوا لأبعد من ذلك فقد أفزعتهم تقارير جواسيسهم ، ثم عادوا فطلبوا أن يدخلوا المعركة بعد أن استنفرتهم ملامات موسى ، وحدس هذا الرجل الذى كان شاهدا على ما أبدوه من فزع منذ وقت قصير أنهم سيهزمون لو تجاسروا على الهجوم برغم منعه اياهم من ذلك ؛ ولم يستمعوا اليه ، وحاقت بهم الهزيمة التامة (٦٥) . وادرك موسى من هزيمتهم تلك ، ومن عصيانهم الذى تفجر قبل ذلك بقليل ، ان الاسرائيليين ، لم يصبحوا بعد ، مضرسين بالقتال ولا منظمين بالقدر الكافى حتى يمكنهم أن يستقروا بالقوة القاهرة فى أرض السوريين ؛ فانتظر فى الصحراء ثمانية وثلاثين عاما حتى مات غالبية العبرانيين الذين ولدوا بمصر . ولقد سمعهم مرات عديدة يأسفون على قيودهم ، وشعر كم هو عسير أن يولد روحا قومية لدى رجال ربما كانوا ينتمون لأجناس متفرقة ، وولدوا فوق ذلك فى اغلال العبودية . واستغل من جانبه كل هذا الوقت فى تطويعهم لشرائع تتناسب مع أوضاعهم وما يهدف هو اليه . ولقد نجح فى ذلك . وحين يتخيل المرء صعوبة هذه المحاولة من جانب موسى ، فانه يجد مايغريه على أن يضع هذا المشرع فى مقدمة كل المشرعين الآخرين ، ليس فقط لأنه انتزع عبيدا من سادتهم وانما — كذلك — لانه جعل منهم أمة شهيرة غير قابلة للفناء ، واذا كانت فتوحاته وفتوحات من خلفوه لا يمكنها من ناحية الاتساع والأهمية أن تقارن بفتوحات محمد وخلفائه ، فى ظروف تكاد تكون متشابهة ، فقد تم الأمر على هذا النحو لأن موسى كان يجابه فى زمنه أمما قوية وشعوبا مضرسة بالقتال تشغل أرض سوريا وفارس

(٦٥) سفر العدد ، الاصحاح الرابع عشر

ومصر وبلاد العرب ، أما عند ظهور محمد ، فقد كانت امبراطورية الرومان العملاقة وكذلك امبراطورية الفرس قد بليتا من القـــدم بعد ان اقتسمتا العالم ، وكانت الشعوب التي أخضعها هؤلاء والتي سئمت أغلالها تظن انها تحطم أغلالها بانتقالها من سيطرة سيد قديم الى أيدى سادة جدد ✻ ؛كذلك فان موسى كي يخلق من عبيد دولة متماسكة قد اضطر أن يوحى اليهم بالهلع من الأجانب وهو شعور ظلوا يحملونه بين جوانحهم حتى أنهم يفضلون أن يستأصلوا شأفة عـــدوهم عن أن يهزموه ، بل انهم يزدرون المعتنقين الجدد لدينهم حتى في ذراريهم ، فلا يعطون الا للجيل العاشر من هؤلاء الحق في دخول جمـــاعة الرب . في حين أن محمدا ، بعد أن أخضع للاسلام كل العرب — وكان لدى هؤلاء شعور قومى بالغ الوضوح منذ زمان بعيد ، قد أمكنه أن يستخدم القوة والاقتنـــاع لحشد انصار جدد مانحا اياهم كل الحقوق المقررة للمؤمنين القـــدامى ، وبهذه الطريقة ضاعف قواته الظافرة بجنود من الأمم التي فتحها ✻✻

وقد عكف موسى ، كما سبق لنـــا القول ، لأكثر من ثمانية وثلاثين عاما منذ انتصـــار الـــكنعانيين (٦٦) ، على تطويع العبرانيين لشرائعه، وفي النهاية حاول من جديد أن يستقر في ســـوريا ، وزحف نحو الشرق من البحر الميت ، متخذا هذه المرة ، طريقـــا مختلفا عن الطريق الذى كان قـــد اتبعه عند حملته الأولى ، متجنبا في كل الأحوال أن يمر بأرض ملك أدوم الذى كان يخشى بأسه (٦٧) ؛ وضمن موسى لنفسه ، من هذه الناحية دعم أو على الأقل حيدة كثير من العشائر حين أذاع أن العبرانيين يشتركون معهم في أصل واحد ، وحين وعد باحترام أملاكهم وبأن يدفع حتى ثمن المـــاء الذى سيشربه هو وقومه عند عبورهم بلادهم (٦٨) .

✻ لا يمكن أى منصف أن يقبل هذه الأفكار على أطلاقها ، بالاضافة الى أن الكثير مما جاء في كلامه مردود عليه ولا يمكن تفسيره الا بالتحامل أو تجاهل معطيات التاريخ ، وهو أمر يؤسف له من جانب رجل يتســـم بروح متحررة ، وباطلاع واسع . (المترجم) .

✻✻ وهكذا تتحول الميزات والفضـــائل الى عيوب ومآخـــذ عند من يريدون التحامل على الاسلام بأية وسيلة (المترجم) .

(٦٦) سفر التثنية ، الأصحاح الأول ، الآية ٤٦ ؛ والاصحاح الثانى ، الآية ١٤ .

(٦٧) سفر العدد ، الاصحاح العشرون .

(٦٨) سفر التثنية ، الاصحاح الثانى .

وعندما شنت عليه معـــارك اثنـــاء مسيرته ، فقد انتزع انتصارات عديدة لا بأس بها ، واستولى على منطقة خصيبة تقع الى الشمال من نهر الأردن ؛ وهنـــاك ، حيث شعر بقواه تخور ، شاء أن يجعل من موته أمرا مفيدا فى تحقيق مآربه ، فأعلن للشـــعب ان الرب قـــد رفض أن يدخله الأرض الموعودة لأنه قـــد شك مرة واحـــدة ، واحدة فقط ، فى قدرته * واعلن باسم الرب الخالد أن يشوع بن نون قد صـــار خليفة له ؛ وبعد أن صعد موسى جبـــال عباريم ونبو اشـــار بيده للعبرانيين الى الأرض التى سيكافئهم بها الرب جزاء فضائلهم ولا سيما عقيدتهم الدينية .

* * *

وهانذا استحضر صورة هذا الرجل المسن ، الجدير بالقداسة ، فى ملامح موسى الذى رسمه ميكل انجلو فى كنيسة القـــديس بطرس ، فى روما ؛ جبهته التى جعـــدتها السنون لا تنم الا عن الهـــدوء ، أما عيناه فتحتفظان ببريقهما مع القدر الاكبر من الرقة والحنو ؛ ولقـــد احترمت يد الزمن عظمة تقاطيعه ، أما أســـنانه البيضاء كالعـــاج (٦٩) فتظلها لحيـــة كثيفة تتـــدلى فوق صـــدره ، هذا هو يمشى ببطء ولـــكن فى ثقة ، أما شحوب لونه ونظراته الشاخصة الى السماء فتنبىء وحدها انه تارك الأرض كى يذهب الى مقام أكثر قداسة ، يحيط به المقـــاتلون والنساء والأطفال ، بل والعبيد ، كلهم قلقون ، لـــكنه بصوته الملهم يتنبـــأ لهم بأقدارهم التى يحملها لهم المستقبل ، ويباركهم ؛ ويجثو الشعب على ركبتيه ، وحين يعلن لهم عن موته الوشيك يتفجر النحيب وتنساب الـــدموع ، فى كل مكان ، ويقول لهم كلمة الوداع الأخير ثم يبتعد ؛ يندفع النـــاس ليتبعوه ، لـــكنه بحركة واحدة من يده الخائرة يلزمهم ، اماكنهم ؛ من يتجاسر على عصيان

* تقرأ فى التوراة : « فقال الرب لموسى وهارون ، من اجل انكما لم تؤمنا بى حتى تقدسانى أمام أعين بنى اسرائيل ، لذلك لاتدخلان هـــذه الجمـــاعة الى الأرض التى أعطيتهم اياها » ســـفر العـــدد ، الأصـــحاح ٢٠ ، الآية ١٢ .

وكذلك :"لأنكما خنتمانى فى وسط بنى اسرائيل عند ماء مريبة قادش فى برية صين إذ لم تقدســـانى فى وســـط بنى اسرائيل فانك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل الى هناك ، الى الأرض التى اعطيتهـــا لبنى اسرائيل » . سفر التثنية ، الاصحاح ٣٢ ، الآية ٥٢ . (المترجم)

(٦٩) « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته » سفر التثنية . الاصحاح الرابع والثلاثون ، الآية ٧ .

هذا الرجل الذى اصطفته السماء فى اللحظة نفسها التى يذهب فيها كى يتحد بالذات الخالدة ؟ ولم يره أحد بعد ذلك يعاود الظهور ، أما يوشع المخلص الوحيد لما كان يهدف اليه ، وكذلك بلا ريب لقراره الأخير ، فيقود الاسرائيليين من جديد فى عربات موآب حيث يظلون يبكونه ثلاثين يوما ؛ مشرعا ونبيا وأبا .

ومع ذلك فلن أمضى لأبعد من ذلك فى بحثى ، فالجيل الذى عبر الأردن كان غريبا عن مصر ، وقد لا يتصل تاريخه بقدر كاف بخطة هذا المؤلف ❊ لكننى أختتم بهذه الفكرة ؛ ان كل ماانتهينا الى استخلاصه من الأسفار الخمسة انما هو احتمال وقريب كذلك من الصحة ، ويتطابق أو يتفق بشكل تام مع روايات المؤرخين الدنيويين لدرجة يستحيل معها أن تكون هذه الأحداث أسطورة ،كما شاء بعض أن يزعم ذلك بفعل خيال عزرا أو حلقيا ❊❊ اللذين كانا يعملان خيالهما لمقاصد سياسية ودينية . وفضلا عن ذلك فلعل هذين الجدين اليهوديين قد اصطنعا — مع ذلك — للعبرانيين اجدادا أثرياء وأقوياء ، ولعلهما قد قصرا حديثهما على الانتصارات وليس عن الهزائم ؛ فحين يخترع انسان ما تاريخ أمة ، فان الكبرياء القومى هنا هو الذى يملى عليه كل جملة يقولها .

❊ وصف مصر .

❊❊ Esdras او Helcias ونلمس هنا خلطا فى الأسماء وقع فيه المؤلف ، فنحن فى الواقع بصدد رجل واحد هو عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا ، أحد مصلحى وباعثى القومية اليهودية عند نهاية الأسر البابلى ، وهو كما تصفه التوراة « كاتب ماهر فى شريعة موسى » ، عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد وهو حفيد الكاهن الأكبر الذى كان نبوخذ نصر قد أمر باعدامه بعد استيلائه على أورشليم، وبعد عودة اليهود من الأسر ،بعد أن سمح لهم بذلك الملك كورش اصبح حاكما للجودية ، وظل صاحب نفوذ قوى على قومه ، وقد أمرهم بالتخلص من زوجاتهم غير اليهوديات باعتبارهن « من شعوب الرجاسات » وأن عليهم الا يتزوجوا ابدا بأجنبية كى لايزيدوا « على اثم اسرائيل » .ويرى بعض المؤرخين انه هو واضع « أخبار الأيام الأول » و « أخبار الأيام الثانى » المتممين لسفر الملوك الذى قام هو كذلك بوضعه ، كما يقال انه قد غير الكتابة العبرية القديمة واستبدل بها الحروف العبرية الحديثة وهى نفسها الحروف الكلدانية (المترجم) .

الدراسة العاشرة :

حصر للقبائل العربية التي تقطن بين مصر وفلسطين

أندريه جوبير

العنوان الأصلى للدراسة هو :

حصر شامل للقبائل العربية التى تقطن بين مصر وفلسطين ابتداء من خان يونس وغزة حتى نهر العــاصى ، والجزء الشــمالى من الصحراء التى تفصل مكة عن سوريا .

اصبحت اليوم تقاليد وعادات العرب الذين يهيمون منذ زمان لاتعيه الذاكرة فى صنجراوات مصر وسوريا ، معروفة بشكل كاف ، ولقد نقل الينا مؤرخو وفلاسفة وجغرافيو العصور القديمة ، فى هذا الخصوص، تفاصيل لاتختلف فى كثير عن تلك التى نقرؤها فى مؤلفات الرحالة المحدثين، لـــكن الأسماء الحالية للقبائل وقوتها العسكرية المفترضة ، والأماكن التى تقطنها ، لا توجد فى أى مؤلف من هذه المؤلفات ، بكل التحديد والدقـــة المرغوبين .

واذا لم نول بالا الا للظلام الدامس الذى يبدو وكأنه مقدر على هذه العشـائر نصف المتوحشة ، وانعدام اتصالاتنا بهم ، فقد يبدو أمرا ضئيل الأهمية فى الواقع أن نتعرف على كل الخصوصيات الماسة بهم ، اللهم الا اذا كان من شأن هذه الخصوصيات أن تلقى بصيصا من الضوء على جغرافية صـــحراواتهم بحيث تصبح بذات فائدة للرحالة الذين يأتون من بعـــدنا ، ذلك أن العرب ، وهم بطبيعتهم متعجـــرفون ومتغطرســـون ، لايرحبون الا بأولئك الذين يقدرونهم ويحترمونهم ، خاصة ، أولئك الذين يعرفونهم ، لذلك فقد ظننت أن حصرا لهذه القبائل العربية ، أى لهـــذه الجماعات الرحل التى تقطن البلاد الواقعة بين نهر النيل ونهر العاصى، لن يكون أمرا عديم الجدوى . ولكى يكون لهذا العمل ، ذلك النوع الوحيد من التقدير الذى نرجو أن يناله ، فقد قارنا بعناية فائقة هذه المعلومات التى هيأها لنا رجال من أهل البلاد لاجئين الى فرنسا بتلك المعلومات التى جمعت فى نفس أماكن حدوثها أثناء الرحلتين المختلفتين (اللتين قمنـــا بهما) ، وقد دونا أسماء الأعلام بالحروف العربية والفرنسية ، وتفادينا بشكل خاص أن ندرج ، سواء فى العمود الخاص بالأسماء ، أو بالعمود الخاص بالملاحظات كل ما قد يكون عرضة لعدم الدقة وكل ماقـــد يكون مدعاة للتشكك .

بيـــان بالقبـائل العربيـــة

فى مصر السفلى

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عـــرب الترابين أو ترابين	وادى التيه ؛ ضـــواحى غزة وبخاصة المنطقـــة المسماة دير التين	٥٠٠ فارس
عرب السواركة	نفس الصحراوات حتى جبـــل الطور	مجهول
عـــرب الطور	تسكن هذه القبيلة كما يوحى بذلك اسمها ضواحى جبل الطور	٤٠٠ فارس
عـــرب محـــارب أو نفعيات	ضواحى بلبيس والقرين	أكثر من ٤٠٠ فارس
عرب التهاينـــــة عرب الطرابنس عرب بن البرائق	تسكن هـــذه القبائل الثـــلاث الضواحى الرملية والقاحلة لخان يونس	من ٢٠٠ الى ٣٠٠ فارس
عرب الحنـــاجرة	الصـــحراء الى جنـــوب خان يونس	العدد مجهول

ملاحظات	المصادر والمراجع
كانت هـــذه القبيلة التى يعرفها كل من زاروا مصر فى الأزمنـــــة الأخيرة ، أكبر عـــددا فيما مضى عما هى عليه الآن . فهى واحدة من تلك القبـــائل التى عانت من غضبة على بك عندما عزم هـــذا الزعيم المملوكى على تخليص مصر من العربان .	استخلصت هذه المعلومات بمعرفتنا ومن نفس الأمـــاكن التى توجـــد بها القبيلة .
هذه القبيلة فى تحالف مع القبيـــلة السابقة ، وكان اسم شيخها فى عام ١٧٩٩ يسمى ابن معوى .	هذه المعلومات مستخلصة من مذكرات فى حوزتنا وصلت الينا عن طريق المرحوم ميخائيل صباغ النـــاسخ العربى بالمكتبة الملكية .
ينقل عرب الطور الى القاهرة الفحم وفواكه هذا الجبل وكذلك بعض سلع الهنـــد القـــادمة عن طريق السويس .	من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنهـــــا ومذكـــرات د. روفائيل أعدت حديثا ونشرها مايو Mayeux
لا ينبغى ان نخلط بين هـــذه القبيلة وقبيلة أخرى تحمل نفس الاسم وسنتناولها فيما بعد .	من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنهـــا ومن مذكرات ميخائيل صباغ .
على الرغم من أن هذه القبائل تابعة لحكومة غزة الا أنها تعتبر قبائل مصرية بسبب رحلاتها العديدة الى القـــاهرة . وفى عام ١٧٩٩ لم يكن لها سوى شيخ واحد يسمى أبو شكال وحيدى .	من مذكرات فى حوزتنا نقلها الينـــا السورى خليل مسعد .
. . . . .	شرحه

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب القطاب	ضواحى القاهرة ، الى مسيرة يوم من شرق الجنوب من هذه المدينة	٦٠٠ فارس على الأقل
عرب البساطين	على بعد ثلاثة فراسخ من القاهرة	قليلو العدد
« الحويطات	تجاور القبيلة السابقة	٤٠٠ فارس
« الصوالحة	ضواحى العريش والى الشمال منها	٤٠٠ فارس
« نصف حرام	شواطىء بحيرة صغيرة تسمى بركة الحج بالقرب من القاهرة	٥٠٠ فارس
« البيصار	ضواحى مصر العتيقة	٣٠٠ فارس
« العايدى	ضواحى القاهرة ، على مسيرة يوم الى الشرق من المدينة	١٠٠٠ فارس
« الحبايبة	على مسيرة يوم ونصف من القاهرة فى الصحراء	٦٠٠ فارس
« نصف سعد	نفس المكان	٣٠٠ فارس
« بلى	شرحه	٣٠٠ فارس
« الزناتى	شرحه	٢٠٠ فارس
« الطميلات	واد يحمل نفس الاسم كانت تمر به فيما مضى ترعة السويس المسماة خليج أمير المؤمنين	٥٠٠ فارس

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	من مذكرات المرحوم ميخائيل صباغ .
. . . . .	شرحه ، وكذلك من مذكرات الدكتور روفائيل .
كانت لهذه القبيلة علاقات كثيرة ودية مع الفرنسيين	من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها .
الصوالحة متحالفون مع القبيلة السابقة . وكان شيخها الذى تعرفنا به شخصيا فى عام ١٧٩٩ يسمى الشيخ محمد بن صالح .	شرحه
. . . . .	شرحه
يجد المرء بالمثل عربانا يحملون نفس الاسم بالقرب من أهرام الجيزة.	شرحه ، ومن مؤلف المسيو مايو Mayeux
تنقسم هذه القبيلة الكبيرة العددالى فروع كثيرة أسماؤها مجهولة لنا.	من مذكرات ميخائيل صباغ
كانت هذه القبائل الأربع وبخاصة القبيلتين الأخيرتين فى حالة حرب ضد الفرنسيين .	شرحه، ومن معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها .
. . . . .	من مذكرات ميخائيل صباغ ، ومن معلومات استخلصناها بمعرفتنا.

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب العايد « قلازين « الجبارات « العمارين	مناطق التل ، وعراق المنشية	مجهولة العدد
« بكير	بين غزة وجبل الخليل وهو مقر القبيلة القديمة يهوذا وتعد الخليل مدينة مقدسة منذ زمان طويل باعتبارها مكان قبر ابراهيم	. . .
« الوحيدات	بين العريش وغزة وفى الصحراء الواقعة الى الجنوب الشرقى من هذه المدينة الأخيرة	٣٠٠٠ فارس على الأقل
« الأمارة	ضواحى الرملة واللد (ديوسبوليس القديمة)	٢٠٠—٣٠٠ فارس
« أبو كشك	شواطىء النهر الذى يجرى الى الشمال من يافا والمرتفعات التى تطل على هذه المدينة	٢٠٠ فارس

ملاحظات	المصادر والمراجع
كان شيخ القبائل فى عام ١٧٧٩ يسمى ابن‌حسين الدايمى وحيدى	مستخلصة من مذكرات السورى خليل مسعد
. . . . .	شبرحه
تسيطر هذه القبيلة القوية على كل البلاد الواقعة اسفل خط عرض ٣١ بين البحر المتوسط والبحر الميت وينتمى اليها على الدوام شيوخ القبائل المجاورة وتنقسم الى عدة فروع أشهرها عادة عرب عايشة أو عايشية الذين يقطنون بالقرب من غزة .	من معلومات استخلصناها من نفس اماكنها ، وكذلك من مذكرات د. روفائيل .
يقوم الأمارة عادة بحراسة الأشخاص الذاهبين للحج الى بيت المقدس وفى عام ١٧٩٩ كان شيخهم يسمى سلامة الأمير .	من معلومات استخلصناها من نفس اماكنها وكذلك من مذكرات السورى خليل مسعد .
كان شيخ هذه القبيلة فى عام ١٧٩٩ يسمى أحمد بكير .	مستخلصة من معلومات نقلها الينا يعقوب حبيب شيخ الشيفا عمر فى سوريا .

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الملاح (أو باعة الملح)	نفس المناطق	قليلو العدد
عرب عدوان	ضواحى القدس الشريف	« «
« المسعودى	تجاور القبيلة السابقة وتعيش كذلك على شواطىء نهر الأردن	« «
« النفعيات	يعيش هؤلاء العرب فى القوافل التىنقابلها بالقرب من قيساريةفلسطين ويرون على الدوام يتجولون فى أطلال هذا المقر القديم للصليبيين	« «
« السعدية	نفس المناطق	قليلو العدد لحد كبير
« الحوارث	« «	« «
« النعيمات	المناطق الواقعة بين قيسارية وروحة وشواطىء البحر حتى طنطورة	« «
« براريش	البلاد الواقعة بين المرج وروحة اى سهل جبرائيل القديم أو سهل ازدريلون المشهور بخصوبته ومراعيه	٢٠٠ فارس
« المساعيد	جبل الكرمل	٢٠٠ فارس
« زبيدات	المناطق الخلفية الجبلية من بلدة نابلس ، وهى شكيم القديمة فى بلاد السامرة	٢٠٠ فارس
« السناقرة	البلاد الواقعة بينيافا ونابلس التى كانت تسكنها قديما قبيلة أفرايم	قليلو العدد

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	من مؤلف المسيو مايو
. . . . .	من مذكرات الشيخ يعقوب حبيب
. . . . .	» » » »
كان شخهم فى عام ١٧٩٩ يسمى عبد الله السراب .	شرحه وكذلك من معلومات حصلنا عليها بأنفسنا .
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	»
نستخلص ان هذه القبيلة هى نفس القبيلة التى يشير اليها روفائيل باسم باراريش فى مذكراته .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»

العدد المفترض	أماكن اقامتها	اسم القبيلة
شرحه	المناطق التى تشكل ممتلكات قبيلة منسى	عرب الغابة
٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ فارس	الصحراء الواسعة التى تمتد من شرق البحر الميت والتى كانت فيما مضى موطنا للرعاة المؤابيين .	« الصقر
قليلو العدد	ضواحى صفد	« الحلف
شرحه	مكان يسمى العوجة	« العوج
شرحه	من قاقون حتى جسر ابن عامر	« التركمان
العدد مجهول	ابتداء من هذا الجسر حتى بيسان وهى مدينة بيتشان القديمة فى نابلس	« الصقر بادية
كثرة العدد	بين جسر بنات يعقوب والقنيطرة	« السمكية
شرحه	نفس المناطق	« السميرات
«	شرحه	« الجعاثين
العدد مجهول	ضواحى القنيطرة من جهة الشرق وهى بلدة كثيرة الأشجار .	« تركمات الثلجية

ملاحظات	المصادر والمراجع
وكما يدل عليها اسمها فان البلاد التى نقطنها كثيرة الأشجار .	شرحه ، وكذلك مذكرة الدكتور روفائيل .
تقوم هذه القبيلة القوية الشكيمة بجولات متعددة فى بلاد صفدالتى كانت قديما جزءا من ممتلكات قبيلة نفتالى وحتى اسوار نابلس وعكا وصور .	معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها ومن معلومات قدمها يعقوب حبيب وكذلك من خريطة المسيو بولتر Poultre
. . . . .	من معلومات الشيخ يعقوب .
كان شيخ هؤلاء العربان فى عام ١٧٩٩ يسمى ابو كشك شأنها شأن القبيلة التى تحمل نفس الاسم والتى ذكرناها آنفا :	شرحه ، وكذلك من معلومات السورى خليل مسعد
لا يشترك **هؤلاء** التركمان الا فى الاسم مع القبائل التى تسكن سهل انطاكية وضواحى الجنوب الغربى لدمشق وبلدة عنيبة .	شرحه
يسكن هؤلاء العرب البلاد التى كانت فيما مضى تشكل جزءا من قبيلتى يساكر وزبولون ، وقد حاربوا وكذلك العرب الذين سنذكرهم بعد ذلك الفرنسيين فوق تل طابور .	يعقوب حبيب ومن معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها . ومن الجغرافى القديم دانفل d'Anville جـ٢ ، ص١٧٧
. . . . .	يعقوب حبيب
. . . . .	د. روفائيل
يتحدث هؤلاء العربية والتركية	د. روفائيل والشيخ يعقوب .
. . . . .	شرحه

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب نعيمات الشرقية	ابتداء من القنيطرة حتى منطقة تسمى الجيدور	كبيرة العدد
« خيط بوادى	جنوب بحيرة طبرية بين صفد وجسر بنات يعقوب	١٠٠٠ فارس
« مساعيد امارة وعرب الوهايب	ضواحى أريحا أو جيركو القديمة	العدد مجهول
عرب كاظم أمارة	الشواطىء الغربية للبحر الميت والجبال الواقعة الى شمال القدس الشريف	شرحه
« التمابية	من القدس الشريف حتى نهر الأردن	«
« الفهيدات	شواطىء نهر الأردن حتى بيسان	«
« الشمالبة	نفس الأماكن	العدد مجهول
« البشاتوه	الجبل الذىيشرف على بحيرة طبرية الى الشرق	قليلو العدد
« المشاليخة	نفس المناطق حتى نهر الأردن	« «
« الغور	شواطىء البحيرة الصغيرة المسماة الحولة	٣٠٠ فارس
«صخور الغور	شواطىء بحيرة طبرية الى الشمال حتى البلاد التى يشغلها العرب السابقون (الغور) وهى بلاد صخرية	٣٠٠ فارس
«المغوارنة	نفس الأماكن	العدد مجهول
« الصبيح	ابتداء من شفا الغور حتى الجزء الأوسط من تلطابور	شرحه
« الدكاشرات	الى الغرب من القبيلةالسابقة	«

ملاحظات	المصادر والمراجع
هؤلاء العرب أثرياء فى مواشيهم	معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها وكذلك الشيخ يعقوب .
. . . . .	شرحه ، وبخصوص العدد ، من مذكرة د. روفائيل .
المناطق التى تتجول فيها هذه القبائل العربية تشكل جزءا من أملاك قبيلة بنيامين	يعقوب حبيب
. . . . .	شرحه
. . . . .	«
كان هذا السهل يشكل جزءا من ممتلكات قبيلة منسى .	«
. . . . .	شرحه وكذلك د. روفائيل .
. . . . .	شرحه
. . . . .	«
. . . . .	الشيخ يعقوب
. . . . .	خليل مسعود
. . . . .	شرحه

العدد المفترض	أماكن اقامتها	اسم القبيلة
العدد مجهول	ضواحى حاصبيا وظهر الهضبة السورية التى تناخم بلاد المتاوله	عرب النميرات وعرب محمدات
كثيرو العدد	ضواحى البلقاء والسلط	« العباد
العدد مجهول	صحراء بلقة وضواحى شفا الغور والسلط والزرقا	« اهتيم أو « العدوان
شرحه	البلاد المعروفة باسم عمان وجرش الى الشرق من القبيلة السابقة	« الغنيمات
«	نفس المناطق	« المهداوى
«	شرحه	« بنى حسن
	ضواحى ملكه	« بنى كلاب
٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ فارس	البلاد الواقعه بين حمص وحماه وحلب	« الموالى
كثيرو العدد	سهل يسمى الغوطة ويمتد بين لبنان والهضبة السورية	« الحدايد
قليلو العدد	ابتداء من البقاع بالقرب من بعلبك حتى جبل الدروز	« بنى سعيد
الف خيمة	يقضون الصيف فى سوريا والشتاء فى قونية	« الرشوان

المصادر والمراجع	ملاحظات
الشيخ يعقوب حبيب	. . . . .
شرحه	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
»	. . . . .
شرحه وكذلك د. روفائيل .	. . . . .
شرحه ، أما بخصوص موضع الفوطة ، فعن المكتبة الشرقيةفى Herbelot	. . . . .
شرحه	. . . . .
الشيخ يعقوب ، ومن مؤلف نشر حديثا وعنوانه : Itinéraire d'une partie de l'Asie Mineur	يتحدثون العربية والتركية لكن اسم قبيلتهم عربى بلا شك .

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب القثليــــة	شواطىء النهير المسمى النهر الكبير الذى يصب فى البحر بالقرب من اللاذقية	العدد مجهول
عرب القدامسة	ضواحى اللاذقية	كثيرو العـــدد
« قره حجلة	شواطىء نهر العاصى	« «
« عنزة	الصحراء الواسعة الواقعــة بين مكة والفرات واللجاة	« «
« الهوارى	الصحراء الممتدة الى الجنوب من دمشق	قليلة العـــدد
« عرب السردية	الصحراء التى اشتهرت باسم اللجـــاة	شرحه
« الدمالجة	الصحراء الواسعة التى تعرف اليوم كما كانت تعرف قديما باسم جبل حوران	«

ملاحظات	المصادر والمراجع
تنبع هاتان القبيلتان مذهب النزاريين	يعقــوب حبيب ، د. روفائيــل ، والمؤلف السابق ذكره
. . . . .	الشيخ يعقوب حبيب
عنزة هو الاسم الأصلى لهذه القبيلة القوية التى تنقســم الى عــدد لا حصر له من الفروع أشهرها في سوريا بنى صنخرة .	شرحه، د. روفائيل ، خريطة بولتر Poultre الخ الخ .
هذه القبيلة ، البالغة الشهرة فى سوريا تشغل البــلاد التى كان يقطنهــا فيما مضى العمونيون أو بنو عمون .	الشيخ يعقوب ؛ خريطة بولتر .
. . . . .	شرحه
. . . . .	»

ملحـــق

على الرغم من أنه لا يدخل فى موضوعنا أن نعرف القارىء بالقبائل العربية التى تعسكر فى مصر العليـا والوسطى والسفلى ، وكذلك بتلك القبائل التى تتجول فى ضواحى الاسكندرية ، وعلى الرغم من انالمعلومات

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الهوارة	بين اسوان وجرجا	٢٠٠٠ فارس على الأقل
« العبـــابدة واللبابدة	ولاية جرجا	كثيرو العدد
« زناتى	طهطـــا	٤٠٠ فارس
« هنادى أو الهنـــادوة	ولاية جرجا	كثيرو العدد
« العطايات	منفلوط	قليلو العـــدد
« ابن وافى والطحيوى	الى الشمال من منفلوط	شرحه
« أبو كرايم ومنهم :	ملوى	«
« الجهمة	نواحى بحر يوسف حتى المنيا	«
« التراهونة	تـــلة	«
« الخوين	ضواحى سمالوط	«
« الفوايد	ولاية بنى سويف	٣٠٠ فارس
« العدايد	شرحه	العدد مجهول
« السحارات	«	شرحه
« المحاز		«

التى تزودنا بها بهذا الخصوص ليست بالغة الاتساع وليست كذلك دقيقة للحد الذى كنا نتمناه ، ومع هذا ، فحيث انه كانت لهؤلاء العربان علاقات عديدة مع الفرنسيين ، وحيث أنه قد ورد ذكرهم كثيرا فى الدراسات التى عالجت الحالة الحديثة لمصر ، فاننا نعتقد ان من المفيد للقارىء ان نقدم اليه هنا أسماء القبائل الرئيسية .

ملاحظات	المصادر والمراجع
يتم اختيار شيخ هذه القبيله بالانتخاب وهو يقيم فى فرشوط.	من معلومات جمعت فى مصر ، ومن مذكرات ميخائيل صباغ
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	من دراسة دى بوا — ايميه
كان شيخهم يسمى الشيخ عبد الله ابن محمود	شرحه
كان شيخهم يسمى الشيخ عبد الله ابن على	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب محارب	ولاية المنيـــا	شرحه
« بنى واصل	. . . .	«
ومنهم :		
« السمالو	. . . .	«
« الفرجان	. . . .	«
« الترافع	. . . .	«
« المزايزى	. . . .	العدد مجهول
« بنى وائل	ضواحى المنيـــا	شرحه
« بنى حرام	ضواحى الأطفيحية	٤٠٠ فارس
« الضعفا	ضواحى شمال بنى سويف	٢٠٠ فارس
« الخويلد	ولاية البهنسا	٤٠٠ فارس
« نجمـــا	نفس الأماكن	٢٠٠ فارس
« غـــزالة أو خبيرى	ضـــواحى الجيزة والمنـــاطق القاحلة بجوار الأهرام	العدد مجهول
« الزيدية	مكان يسمى أوسيم بالقـــرب من الجيزة	٣٠٠ فارس

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
كان شـــيخها فى عام ١٧٩٩ يسمى ابو بكر	مستخلصة من ميخائيل صباغ
. . . . .	شرحه
على الرغم من قلة عدد هذه القبيلة فهم مرهبـون تماما فى البهنسا .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
كان شيخهم فى سنة ١٧٩٩ يسمى أحمد	»
يقال انهم من نسل المماليــك الذين طردهم السلطان سليم من مصر عام ١٥١٧	»

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الجويلى	ولاية البحيرة	٥٠٠ ، ٦٠٠ فارس
« ابن بغداد	ولاية المنوفيـــة	٤٠٠ ، ٥٠٠ فارس

ضواحى الاسكندرية

« الجوابى	نواحى بحيرات النطرون	٦٠٠ فارس
« السمالو	نفس الأماكن	٢٠٠ فارس
« مسينيد	المكان المسمى الميمون	٥٠٠ فارس
« اولاد على او بنى على	ضـــواحى الجنوب الغربى من الاسكندرية	١٠٠٠ الى ١٢٠٠ فارس
« مطيرد	وادى الميمون عــلى مســيرة يومين الى الفـــرب من الاسكندرية	

السفلى

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	ميخائيل صـــــباغ
. . . . .	شرحه
وبحيرات النطرون	
يبدو ان عرب الجوابى من اصـــل افريقى ، وهم يقومون بنقل ملح النطـــرون من البحـــيرات حتى الاسكنـــدرية والطرانة وبنقـــل البضائع الخاصـــة بواحة آمون (سيوه)	شرحه، ومن معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها
. . . . .	ميخائيل صـــــباغ
. . . . .	شرحه
هذه القبيلة قوية بنفسها وبحلفائها ويسكن شيخها قرية تسمى القتلية بنـــاها أجـــداده الى جوار الدير المحرق	شرحه، ومن معلومات استخلصناها من نفس أماكنها
. . . . .	شرحه

الفهرس



٣
وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

دراسات عن

المدن والأقاليم المصرية

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

دار الشايب للنشر
١٠ ش سليمان الحلبي - التوفيقية
ت : ٥٧٤١٣٧١ - ٥٧٢٦٨٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات عن
المدن والأقاليم المصرية

هذا هو المجلد الثالث من الترجمة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر وأقصد بالترجمة الكاملة ـــ كما قلت من قبل فى مقدمتى المجلدين الأول والثانى من هذه الترجمة ـــ النص الكامل ، حيث لاتتعرض الدراسات التى تقدم هنا لأى تصرف من أى نوع .

وهذه هى المرة الثالثة كذلك التى أجدنى ملزماً بتقديم هذا العمل إلى القارىءوأرجو المعذرة هذه المرة إن قلت إننى لم أعد استشعر حاجة إلى الحديث لا عن أهمية وضرورة وصف مصر ، ولا فى إعطاء القارىء فكرة عن أجزائه ومحتوياته ، ولا عن خطة الترجمة التى أتبعها وبالذات فى تقديم الدراسات المتوسطة والقصيرة فقد تناولت ذلك كله فى تقديمى للمجلدين السابقين : دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ؛ والعرب فى ريف مصر وصحراواتها .

وعلى الرغم من ذلك كله أشعر أن « المنهج » المتبع يحتاج إلى إعادة نظر بين وقت وآخر : فحين نتصفح المجلد الذى بين يدينا والذى يدور حول « مدن وأقاليم مصر » نجد أنه فى الحقيقة متمم للمجلد الثانى الذى سبق أن تناول بدوره « مدن مصر وأقاليمها » أيضاً ، وإن ظلت الدراسات التى اختيرت داخل إطاره تقصر حديثها على المدن والأقاليم الصحراوية ؛ لكننا نستطيع أن نضع المجلدين ، الثانى والثالث ، داخل إطار واحد يمكن أن نطلق عليه اسم « موسوعة المدن والأقاليم المصرية » الجزء الأول : الأقاليم الصحراوية ، أو أطراف مصر ، والجزء الثانى : الوادى والدلتا .

وهكذا يجدنا القارىء الكريم نخلع من عندياتنا أسماء وعناوين على دراسات جاءت بوصف مصر مبعثرة على مجلداته المختلفة ، وليس فى هذا تحريف من أى نوع ، فلقد كان عسيراً بل مستحيلا تقديم دراسات وصف مصر كما جاءت بنفس ترتيبها فى الأصل الفرنسى ، أى أنه كان لابد من خيط يضم هذه الحبات المتناثرة ليتكون هذا « العقد » أى أنه كان لابد من اتباع خط بعينه ، أو تلمس هذا الخط فى الحقيقة ، لكى تتجاور دراسات كانت متناثرة ، وتتباعد دراسات كانت متلاصقة أو متجاورة ، فلم أجد مستساغا مثلا أن أقدم دراسة عن ملح النوشادر تعقبها دراسة عن مدينة القصير وتليهما دراسة عن الضرائب على الأطيان الزراعية ثم دراسة عن مقياس النيل .. وهكذا ؛ وإذا كان الأصل الفرنسى قد جاء على هذا النحو ، فقد فعل ذلك لأنه اتخذ لنفسه إطاراً أوسع وأعم هو « وصف » مصر .

بل إن المضى فى الترجمة لأشواط أبعد قد يدفع دفعاً إلى تعديل هذا المنهج ذاته ؛ فمن المعروف أننى اقتصر حتى الآن على تقديم الدراسات التى نشرتها مجلدات الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر ، أو مصر كما شاهدها علماء الحملة الفرنسية ؛ وحين نصل إلى الدولة القديمة أو الحالة القديمة لمصر سنجد دراسات تتعرض لموضوعات بعينها سبق أن تناولتها مجلدات الحالة الحديثة ،وبذلك يبرز منهج جديد لماذا لانضع الدراستين اللتين تتناولان موضوعا واحداً: دراسة عن حالته القديمة ثم دراسة عن حالته الحديثة إلى جوار بعضها البعض ؛ فهناك فى الحالة القديمة على سبيل المثال دراسات عن البحر الأحمر وموانيه القديمة ، وعن فروع النيل القديمة ... ويمكن أن تضاف هذه الدراسات « لموسوعتنا » هذه عن مدن وأقاليم مصر ، لتكون متممة ومكملة لها .

وسوف يلاحظ القارىء أيضاً فى المجلدين الثانى والثالث أننى لجأت إلى اختيار عناوين للدراسات أسرع من العناوين الأصلية لها وأكثر حداثة ، ولقد كان ذلك ضروريا ، فقارىء اليوم لايمكن أن يسيغ عنوانا لدراسة يبلغ أحيانا حوالى ثلاثة أو أربعة أسطر ، ومع ذلك فقد قدمت ترجمة حرفية لعنوان الدراسة ؛ وأرجو ألا يجد البعض فى ذلك تصرفا معيبا .

كذلك سوف يستشعر القارىء حاجة ماسة إلى وجود الخرائط التى أعدها علماء الجيش الفرنسى لهذه الأماكن ، وإذا كان ذلك عسيراً على هذه المرة ، فأرجو ان اتمكن من ذلك فى دراسات تالية أو فى طبعة تالية لنفس هذا المجلد ؛ إن وصف مصر ليس بالعمل الهين ، وتقديمه ليس بالأمر السهل من كافة النواحى ، ومع ذلك فأرجو ألا يعد الاقدام عليه رعونة أو تهوراً أو غروراً أحمق ، وعلى الله دوما قصد السبيل .

بل إننى أشعر بمدى رغبة القارىء فى أن يرى لوحات وصف مصر ؛ وجزء من أسباب احتجاب اللوحات حتى الآن ، يعود إلى أن الدراسات التى تقدم حتى الآن لا تلعب فيها اللوحات دوراً كبيراً ، بل أن غالبيتها العظمى لاتصحبها لوحات على الإطلاق ، اما الجزء الثانى فيرتبط بالمنهج : هل تقدم اللوحات مستقلة كما هو الأصل الفرنسى ، أم تقدم اللوحات مع الدارسات التى تتصل بها ، وكيف يمكن علاج مشكلة الحجم .. بالإضافة قطعاً إلى مشكلة الإمكانيات وإن كنت أرجو أن يكون السبب الأخير قد بدأ ينتهى بعد أن شاءت مكتبة الخانجى مشكورة أن تحمل أعباء طبع ونشر هذا العمل على نفقتها ، فحملت عنى عبئا ثقيلا كنت أنوء به وكان له أثره بالتأكيد فى ذلك الخطو البطىء والمتعثر الذى سار عليه العمل فبدا معه وكأنه يحبو ، ولهذا السبب لابد لى أن أبدأ بشكر الحاج محمد نجيب الخانجى وولده الأستاذ محمد أمين الخانجى على العون الصادق الذى قدماه لهذا الجهد .

وحين أصل إلى تقديم الشكر ، أجدنى أواجه سؤالا هاماً : هل يمكننا أن نصف جهداً ما بأنه جهد فردى ؟ حين يتباهى كثيرون بأنهم يقدمون عملا من خلقهم وحدهم ، فإنهم يجافون الحقيقة فى الواقع ، فهل يمكن إغفال كل الذين عاونوا فى « صنع » هذا العمل ؟ وماذا سيكون هذا العمل لو لم يتوفر له من يعاون على صنعه ، منذ كان مجرد فكرة إلى أن أصبح واقعاً ملموساً ؟ ويدرك ذلك حقيقة كل من بذل جهداً علمياً أو فكرياً .. وأبسط سؤال فى هذا المجال : ماهى قيمة عمل مهما بلغ شأنه حين لايجد من يقدمه للناس ويوفره لهم .

ويدفعنى الانصاف والوفاء أن أقدر دور كل الذين ساهموا فى رأيى فى تقديم هذا العمل ونشره على الناس ، وتأتى مجلة الثقافة ، ويأتى رئيس تحريرها الدكتور عبد العزيز الدسوقى فى مقدمة من يستحقون الشكر ، ولست أبالغ حين أعد المجلة ورئيس تحريرها شريكين حقيقين فى هذا العمل فقد احتضنته المجلة منذ كان مجرد فكرة ، وأفردت له من صفحاتها الكثير ، مما كان له أكبر الأثر فى المضى قدما بهذا المشروع ، كما سيظل هذا العمل مديناً للأخوة الأساتذة : رينيه خورى ، والدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، والدكتور عبد الرحمن زكى وإبراهيم المويلحى على ماقدموه من عون علمى صادق ، كما أن لابد أن أوجه الشكر لكل الأقلام التى رحبت بالعمل ، ولكل الذين منحونى من تشجيعهم ماكان له الأثر فى نفسى على تحمل هذا العمل الشاق ، وفى هذا الصدد لابد أن أقدم للسيدة زوجتى شكراً خاصاً.

على أننى احتفظ بأكبر قدر من الشكر والتقدير لكل من يتفضل بالنصح والإرشاد حتى يبلغ هذا العمل القدر اللائق الذى يجعله فى الشكل الذى يليق بأن نهديه لأمنا مصر وأهلنا المصريين .

زهير الشايب

سبتمبر ١٩٧٨

(١)
« مالو »

رحلة الى شرق الدلتا

العنوان الأصلى للدراسة : مستخلص من دراسة عن الحالة القديمة والحديثة للأقاليم الشرقية لمصر السفلى

المسيو مالو .

تذكر كل المؤلفات القديمة التى تتحدث عن جغرافية مصر أن النيل كان يصب مياهه فى البحر عن طريق سبعة مصبات لكن الجغرافيين المحدثين لايعرفون بعد سوى فرعين لهذا النهر هما فرع رشيد وفرع دمياط ، لأنهما الفرعان الوحيدان اللذان يمكن عن طريقهما اختراق الأقاليم التى يمران بها والتى لاتزال تحتفظ بظلال التحضر وذلك بتأثير حركة التجارة .

وبالرغم من الانتقادات الهامة التى قدمها العلامة الجغرافى دانفيل d'Anville فإن أبحاثه هو نفسه عن آثار مصبات النيل السبعة لم تفض إلى شىء ، كما أن الخريطة التى قدمها بعد أبحاث عديدة تمتلىء بالأخطاء وبالمعلومات غير الدقيقة . لكن الأمر لاينبغى أن يكون مدعاة للدهشة فهذا هو هيرودت نفسه وهو الذى جاب الجزء الأكبر من هذه البلاد يخطىء فى تحديد بعض فروع النيل السبعة هذه وكذلك فى تحديد اسم بعض مدن مصر ، حيث كانت البلاد فى الفترة التى كان يجوبها فيها هذا المؤرخ خارجة للتو من حرب طويلة مما جعل الظروف غير مواتية للقيام بملاحظات جغرافية .

وعندما كلفت فى أشهر الحملة الأولى — ومعى المسيو فيفر M.Fèvre باستكشاف الدلتا والأقاليم الشرقية لمصر السفلى ، واتتنى الفرصة لاجتياز تلك البلاد مع قوات كافية لحماية أبحاثى وسأكتفى هنا بالحديث عن الفرع التانيسى الذى عثرت عليه وعبرته بكل امتداده ، وهو أقصى فروع النيل الشرقية التى ماتزال باقية حتى اليوم .

كان يوجد بين هذا الفرع وبين خليج السويس الفرع البيلوزى الذى كان مايزال صالحا للملاحة فى عصر الإسكندر الذى اخترق أسطوله مصر عن طريق هذا الفرع ، لكنه الآن يكاد يكون مطموساً برمال الصحراء وإن كان مصبه على البحر لايزال قائما على الرغم من أنه يقع أبعد بمقدار أربع مرات عن بيلوز القديمة كما كانت

فى زمن سترابون Strabon [1] فهى تقع عند طرف سهل يسميه العرب الطينة وهى الترجمة العربية للكلمة اليونانية بيلوز Pèlos أى الطين .

كان ينبغى أن يكون الفرع التانيسي ــ وهو الفرع الثانى عند البدء من جهة الشرق ــ أفضل حالا حيث هو أكثر بعداً عن الصحراء ولو كان هذا الفرع قد ظل موجوداً حتى اليوم لكان بمقدوره أن يصبح منفذاً جديداً للتجارة وللاتصالات العسكرية .

ولكى نعثر على آثار هذا الفرع من فروع النيل ، ولكى نحدد موقعه ، رحلنا من القاهرة مع كتيبة قوية محاذين فرع النيل الذى ينتهى عند دمياط ، وفى اليوم الثالث من مسيرتنا وصلنا إلى مشارف ولاية قليوب التى تنتهى عند أتريب ، وقد بنيت هذه القرية الصغيرة على طرف خرائب مدينة كانت تحمل نفس الاسم والتى يبدو أنها كانت تحظى بمكانة مرموقة حيث كانت عاصمة لأحد الأقاليم . ويبلغ طول خرائبها ١٦٠٠ متر وعرضها ١٥٠٠ متر . وقد أرشدنا الناس إلى قصر الحاكم ، وهو يقع فى المنطقة مابين الشارع الكبير والميدان العمومى ولم يكتشف بعد أى من أطلال القصر ، ويدعى السكان أنه يعثر على كتل من الرخام عند القيام بأية عمليات حفر .

ونستنتج نحن من ذلك أنهم قد حولوا كل ماوجدوه فى أيديهم من حجارة إلى جير وأن كل الأحجار الجيرية التى كانت توجد وسط أنقاض المدينة قد لقيت نفس المصير . وتلك هى عادة هؤلاء السكان مع كل الأحجار التى يعثرون عليها فى كل المدن القديمة ، البعيدة عن المحاجر . وقد شاهدنا كذلك فى خرائب هذه المدينة بقايا بعض أفران الجير (الجيارات) ـــ وثمة آثار لبعض القباب الصغيرة توجد تحت الأرض

---

(١) يقول سترابون إن محيط بيلوز كان يبلغ ٢٠ غلوة (١٠٢٠ قامة = ٦٨٠ ياردة) . وهذا هو طول أسوار بيلوز فى الواقع ، ويضيف سترابون أن هذا السور كان يقع على نفس هذه المسافة من جهة البحر ، واليوم ، فإن مصب الطينة يبعد عن بيلوز (بالوظة) بـ ٨٠٠٠ ياردة .

وتشبه تلك التى يدفن فيها سكان القاهرة اليوم موتاهم . لقد كانت هذه على وجه التقريب مقابر ، وكان الشارع الكبير الذى مايزال ظاهراً لحد كبير يؤدى عمودياً إلى النيل الذى تبلل مياهه أطراف هذه الخرائب . وثمة شارع آخر أقل أهمية يخترق المدينة من الوسط ذاهباً إلى الشمال .

وعلى بعد فرسخ من هنا توجد قرية مويس وهذا هو نفس اسم لترعة كبيرة وهذه المنطقة هى جزء من إمتدادها . وكان اتساع فرع دمياط فى تلك الفترة التى دخلنا فيها ـــ أى فى التاسع عشر من ديسمبر وبعد الفيضان بحوالى ثلاثة شهور — يبلغ ٣٠٠ متر كما كان اتساع هذه الترعة يبلغ ١٥٠ متراً ويجرى جزء من مياه النهر المتجهة إلى الشمال الشرقى بسرعة فى هذا الفرع الجديد ويبين للوهلة الأولى أن هذه الترعة لم تحفرها يد الإنسان وإنما هى فرع النيل الذى كان على أن اكتشف مجراه ، فشواطئها مسطحة وفى مستوى السهل الذى تمر به . ولم أستطع أن أحصل من السكان على أية معلومات عن البلاد التى تعبرها هذه الترعة فقد أكدوا لى جميعاً بأنها تضيع فى الأراضى على بعد مسافة من منبعها وأن السهل الذى ترويه يتردد عليه العربان البدو .

وقد نزلنا لمسافة ستة فراسخ فى هذه الترعة دون أن نجد شيئاً لافتاً للنظر على شواطئها ؛ فالسهل الذى تخترقه يتكون من أرض سميكة ومزروعة بشكل طيب ، وهى تنتج القمح والذرة والقطن وقصب السكر ، كما يخترقها عدد كبير من الترع التى تمتلىء وقت الفيضان والتى تحجز فيها المياه بواسطة قناطر أقيمت عند منبعها فى الترعة الكبيرة .

وعند مرتفع دنوهيا تتفرع الترعة إلى فرعين ، وقد سرنا نحن فى الفرع الشرقى ، أما الفرع الثانى فينقسم إلى عدة جداول تنضم كلها فيما بعد إلى الفرع الذى كنا نجتازه .

وقد لمحنا عند نقطة انفصال هذين الفرعين خرائب هائلة قال عنها الأهالى إنها تسمى تل بسطة ، فهى إذن خرائب بوباساطة القديمة ، فوجدناها وقد احتلها العربان ، ولقد مررنا هناك بعدة مبان يمكن لها أن تكون ذات نفع فى دراسة تاريخ العمارة المصرية . كان ثمة كتل هائلة من الجرانيت تغطيها كتابات هيروغليفية مشوهة إن قليلا أو كثيراً . وكانت هذه الكتل مكدسة بطريقة تبعث على الدهشة . ولا يكاد المرء يستطيع أن يتصور أية قوة أمكنها أن تحطم هذه الأحجار وأن تكدسها هكذا واحدة فوق الأخرى ، وقد قطع عديد من هذه

الأحجار لاتخاذها كأثاثات . وقد رأينا ركامات كاملة من أحجار ضخمة تركت فى مكانها وذلك بلا جدال بسبب نقص وسائل نقلها .

وقد بنيت هذه المدينة — ككل المدن القديمة فى مصر السفلى — على مصاطب كبيرة من الطوب النيىء ترفعها فوق منسوب مياه الفيضان ، ويبلغ طول قالب الطوب قدما واحداً كما كان عرضه وسمكه يبلغان نفس الحجم .

ولقد استخدم الإسرائيليون وقت أسرهم فى إنشاء وإقامة هذه المصاطب ، وفى فترات عديدة من سفر الكتابة نراهم يشكون من أنهم قد أرغموا على القيام بهذا العمل الشاق والمحط . ويبلغ اتساع بوباسطة من كل الجهات مابين ١٢٠٠ — ١٤٠٠ متر وثمة حوض واسع فى داخلها يقع وسط المنشآت التى رأيناها .

ويدعى هيرودت أن ديانا كانت تسمى فى اللغة المصرية بوباسطة (*) ، ويطلق أوفيد على هذه المدينة اسم بوباسطة المقدسة ، وقد عثرنا فيها على آثار لعبادة القمر . فقد كان ثمة حجر مرصع بالنجوم ويمثل شكل قبة على النحو الذى نراه فى المعابد وفوق أحجار السقوف . وكانت الاحتفالات بعيد ديانا تقام فى الواقع كل عام فى هذه المدينة وكان هو العيد الرئيسى عند المصريين ، كما كانت تتجمع فيها أعداد هائلة من الأجانب يقدرهم هيرودت بـ ٧٠٠,٠٠٠ نسمة دون أن يدخل الأطفال فى هذا التعداد ، وكان هذا العيد فى الواقع نوعا من طقوس العربدة واللهو شبيها بأعياد باخوس عند الأغريق . ويتحدث القدماء عن كميات كبيرة من النبيذ كانت تستهلك هناك . وكانت تدفن فى هذه المدينة مومياوات القطط التى كان يقدسها المصريون بنفس القدر الذى كانوا يقدسون به عجول أبيس ،وكما كانوا ينقلون مومياوات

(*) يقول صاحب القاموس الجغرافى للبلدان المصرية القديمة بأنها إحدى المدن المصرية القديمة وان اسمها المصرى القديم هو Per Bastit أى مدينة الآلهة Bastit ، وكان اسمها الرومى هو Boulostis أما اسمها بالقبطية فكان Bouloast ؛ ووردت فى قوانين ابن مماتى بسطة من أعمال الشرقية ،وقد خربت وتعرف اطلالها اليوم باسم تل بسطة، حيث مبانيها تشغل أرض حوض التل رقم ١٢ بأراضى شوبك بسطة على بعد كيلو متر واحد جنوب شرق الزقازيق (المترجم) .

هذه العجول المقدسة إلى هرموبوليس فقد كانوا ينقلون مومياوات القطط المقدسة إلى بوباسطة .

وتجاه المدينة ، ثمة جزيرة كبيرة يكونها الفرع الذى تحدثنا عنه من قبل ، وكان القدماء يسمون هذه المدينة ميكفوريس وهى ولاية قائمة بذاتها كانت تسكنها قبيلة تخصصت فى صنع السلاح . وهذه المنطقة اليوم تضم سهلا طيب الزراعة به غابات كبيرة من أشجار النخيل وقرى شديدة الصغر من بينها قرية القنايات التى منحت اسمها للفرع الغربى من الترعة .

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من بوباسطة ، وعلى نفس الشاطىء توجد مدينة صغيرة حديثة تسمى ههيا وهى محاطة بغابة كثيفة من النخيل ، وعلى الرغم من أن أسمها كان مجهولا من كل الجغرافيين ومن أنها لم تكن معروفة فى ذلك الجزء من البلاد الذى يعد متحضرا . فإنها فيما يبدو كانت تضم سكانا كثيرين كما كانت توجد حول أسوارها زراعة ممتازة ليست لدى البلدان المحيطة بها . والجزء من غابة النخيل القريب من السكان ، يزرع فى شكل تخميسة « أربع فى زوايا المربع وواحدة فى الوسط »وبعناية تشبه العناية التى تلقاها الحدائق الأوربية ، وتحاط المدينة بسور به فتحات يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار وهو فى حالة جيدة وتعلوه أبراج قوية مسلحة بصف مزدوج من متاريس الطوابى وتعلو أبوابها التى صنعت بشكل أسطوانى جزءاً من هذا السور . ويبدو سكان هذه المدينة أكثر تحضراً من جيرانهم . ومنذ غادرنا النهر وجدنا الناس فى كل مكان يحملون السلاح ، يسودهم روح من التمرد والضجر . وفى هذه المدينة ، وعلى الرغم من أننا كنا — ربما — أول أوربيين يمثلون أمام ناظرهم ، خرج الناس فى شكل جمهور ليقدموا لنا الأطعمة ولم نلمح من بينهم رجلا مسلحاً .

وإبتداء من ضواحى المدينة ، وحتى الجزء الأدنى من الترعة ، لاحظنا على الشاطئين وجود عدد كبير من الأبراج المبنية بلا أبواب ولا نوافذ والتى تخترقها بعض الطوابى ، وهذه الأبراج تستخدم كمأوى للسكان عندما يفاجئهم أو يلاحقهم عربان الصحراء فيصعدون إليها بسلالم من حبال .

وفيما وراء ههيا ووسط سهل منخفض وملىء بالمستنقعات ترتفع خرائب مدينة كانت تسمى قورب حسبما يذكر السكان . وقد قامت فى هذا المكان قرية هوربيط قد عثرنا على قدم وجذع لأحد التماثيل الضخمة كما وجدنا أيضاً قطعاً من الأعمدة وشظايا من الجرانيت ، وكانت هذه المدينة فيما يبدو ضئيلة الأهمية وكانت مساحتها تبلغ ربع مساحة بوباسطة على أكثر تقدير .

وعلى بعد فرسخ من ذلك وعلى الشاطىء المقابل توجد قرية تسمى كفر فورنيجة (*) وينظر إليها فى هذه الجهات باعتبارها نهاية الأراضى المتحضرة إذ لا يمكن لقوارب الجزء الأعلى من الترعة أن تجرؤ مطلقاً على أن تتقدم لما وراء ذلك ، كما لا يمكن لقوارب الجزء الأدنى كذلك أن تصعد لأبعد من ذلك . وخط الانفصال هذا شديد الوضوح لحد أن الترعة نفسها تفقد اسمها عنده ليصبح اسمها بعد ذلك ترعة صان . وتبدو القرى التى وجدناها بعد هذه النقطة وبها عدد كبير من الأبراج . وكل البيوت هناك مسورة بجدران متينة وليس لهذه القرية سوى باب واحد ، ويسير فيها السكان وهم مسلحون على الدوام حتى عندما يمارسون أعمالهم فى الحقول .

وإبتداء من « فورنيجة » يأخذ اتساع الترعة فى الضيق فلا يعود يبلغ أكثر من ٦٠ متراً أما عمقها فيظل كما هو . وقريباً من بحيرة المنزلة حيث تصب هذه الترعة يبلغ عمقها أربعة أمتار . وإبتداء من هوربيط يقطع البلاد الواقعة على كلا الشطين عدد هائل من الترع والبرك والمستنقعات التى تجعل من المواصلات أمراً بالغ الصعوبة ، ويحتفظ بعض هذه الترعة بمياهه لمدة ستة أو ثمانية أشهر .

وفى مواجهة قرية اللبايدة على الشاطىء الأيسر لمحنا بحيرة واسعة تتصل بالترعة عن طريق فروع عدة بمياهها لمدة ثمانية أشهر فى العام وهى صالحة للملاحة لجزء من هذا الوقت وتمتد حتى أبى داود ولا يفصل هذه البحيرة عن بحيرة المنزلة إلا لسان من الأرض وليس ثمة أى اتصال بينهما .

(*) هكذا فى الأصل ، وإن كنت لم أستطع العثور على الاسم الصحيح لهذه القرية حيث لم يرد هذا الاسم فى القواميس الجغرافية للبلدان المصرية التى رجعت إليها (المترجم) .

وعلى بعد فرسخين من طرف الترعة وقبل أن تصب فى بحيرة المنزلة ترتفع خرائب صان أوتانيس التى أعطت اسمها من قبل لهذا الفرع من فروع النيل . وتشتهر هذه المدينة بكثرة عدد سكانها وبالمنشآت التى خلفها هناك ملوك مصر وبالمعجزات التى أتى بها موسى هناك قبل أن يغادر أرض مصر . وترى هناك أيضاً مسلات مقلوبة وقمم أعمدة تتشابه نقوشها مع النوع الكورنثى ، كما يرى كذلك مبنى متهدم من الجرانيت ومنقسم إلى جزءين وقد أستنتجنا أنه مقبرة ، وقد عثرنا فيها على بقايا زهريات مصنوعة من طين بالغ النعومة وبعضها مدهون بطلاء لامع مازال موجوداً حتى اليوم . وقد عثرنا كذلك على طوب محروق من أنواع متعددة وعلى أجزاء من الزجاج والكريستال المصقول بشكل جيد :

وإلى الشمال من صان توجد ترعة صغيرة تؤدى إلى الصالحية لكنها غير صالحة للملاحة إلا لمدة شهر واحد . أما السهل الموجود فيما وراء هذه المدينة وفى بحيرة المنزلة فتخترقه أعداد هائلة من الترع تتقاطع فى كل الاتجاهات . وعلى طرف هذا السهل تدخل الترعة إلى البحيرة وتخترقها لمسافة ١٢ فرسخاً تظل خلالها محتفظة بمجراها ولا تختلط ـــ برغم ذلك ـــ مياههما ، حيث لايبلغ عمق البحيرة هناك أكثر من المتر ، لذا فإننا نميز فى كل مكان مجرى هذه الترعة .

وهكذا وصلنا إلى أقصى الترعة بعد أن تأكدنا بأنفسنا أنها صالحة للملاحة فى كل أجزائها . وحسب المعلومات التى جمعناها فقد علمنا أنها لا تستخدم بالنسبة للسفن الكبيرة إلا لمدة ثمانية أشهر فى العام ،وبعد هذه المدة يمكن لبعض الوقت فقط أن تستخدم فيها القوارب الصغيرة والخفيفة ولكن فقط فى الجزء الأدنى منها . ولمدة تسعة أشهر من العام تجرى مياه النيل بحرية نحو بحيرة المنزلة ، وفى أثناء الأشهر الثلاثة الأخيرة من العام تمتد مياه البحيرة إلى الأراضى الأدنى من مستوى الترعة . ولتفادى هذه الكارثة يبنى كل عام فى كفر مويس سد يمكث ثلاثة أشهر . وعلى الرغم من هذه الحيطة ، فإن المياه المالحة تطغى على الأرض لمسافة تبلغ من ٧ ـــ ٨ فراسخ . وفى أثناء الأوقات المتأخرة من الفيضانات تصبح المياه أمام اللبايدة ـــ حيث لم يعد يوجد من مياه الترعة إلا مايبلغ عمق قدم واحد ـــ مالحة تماماً .

تلك هى المعلومات التى استطعنا أن نتزود بها عن هذه الترعة : عن طولها وعن عمقها وعن العدد الهائل من الخرائب التى توجد على شطآنها ،ويكاد يكون من المؤكد أن مجراها هو نفس مجرى الفرع التانيسى القديم . ولن نسوق هنا ، للبرهنة على ذلك ، نفس الملاحظات التى سقناها فى مكان آخر كما أننا لن نقدم أيضاً أية ملاحظة عن مصب هذا الفرع فى بحيرة المنزلة وعن الفائدة التى نستطيع أن نجنيها من الترعة الواطئة التى يمكن استخدامها للمواصلات من دمياط ومن الصالحية ، لكننا نكتفى بأن نلاحظ فيما يتعلق بمواصلات القاهرة أنه سيكون من الأسهل أن نتوجه مباشرة من صان عن طريق مويس بدلاً من أن يتم ذلك عن طريق بحيرة المنزلة ، وبذلك نتفادى إنزال البضائع فى دمياط ثم نقلها أيضاً إلى البحيرة ثم تحميلها من جديد وسوف يكون هذا اقتصاداً فى الوقت وفى التكاليف أما سبب قلة استخدام هذه المواصلة السهلة والمفيدة فهو السلب الدائم الذى يدور هناك ، كما أن غيبة قوة الحكومة قد أرغم الأهالى على أن يتحاشوا ذلك بقدر الإمكان . من هنا تولدت هذه الأحقاد من قرية نحو الأخرى ، ومن هنا نشأت هذه الحروب الصغيرة التى خنقت الثقة بشكل تام .

ولو أن هذه المنطقة البائسة كانت فى حوزة شعب متحضر لكان مثل هذا الاتصال الجديد بين النهر والبحر وفى داخل البلاد ذا نفع هائل للتجارة ، ولكان قد ضم فى وقت سريع إلى الحضارة مساحة من البلاد تبلغ حوالى ٥٠ فرسخا لايسكنها إلا قوم همج لاهم لهم إلا شن الحروب المستمرة، بينما تنقصهم وهم يعيشون فوق هذا السهل الخصيب ، الضرورات الأولى للحياة .

* * *

(٢)

« أندوريوسى »

جولة فى بحيرة المنزَلة

العنوان الأصلى للدراسة : دراسة عن بحيرة المنزلة ، تبعاً لنتائج داورية الاستكشاف التى تمت فى فندمير من العام السابع (سبتمبر وأكتوبر ١٧٩٩) وقد نشرت هذه المقالة فى Dècade Egyptienne وهى دورية كان يصدرها الجيش الفرنسى فى القاهرة كل عشرة أيام .

(٢)

كانت مصر مهداً للعلوم والفنون ، ولكن مبادىء هذه العلوم والفنون ظلت رهينة مدارس الكهنة ، أو حبيسة داخل هذه الهيروغليفية التى لم تفك طلاسمها بعد . وكان الكهنة المصريون ، المشغولون بشكل خاص فى تأمل السماء ، يولون إهتماماً أقل بالظواهر الطبيعية التى تتم تحت ناظرهم ، ولذلك فقد لاحظ هيرودت ، عندما كان فى ممفيس ، وعند حديثه مع الكهنة أنهم كانوا يجهلون أسباب التغيرات التى كانت تحدث فى الجزء الأسفل « الشمالى » من بلادهم ، الواقع بين بداية السهل وحتى البحر والتى يبدو أنها كانت تفاجئهم .

ومع ذلك فثمة ظروف ينبغى أن توضع فى الحسبان ، ذلك أن مصر ـــ فى الفترة التى كان أبو التاريخ هذا يتجول فى ربوعها ـــ كانت خارجة لتوها من حرب طويلة ، أهمل خلالها كل مايتصل بالنواحى الاقتصادية العامة ، وتأثرت بذلك بطبيعة الحال تلك العناية التى تعطى للترع . وكانت هذه البلاد تئن فضلا عن ذلك تحت وطأة حكم عسكرى تشبه حكومته حكومة المماليك ، كما كانت المناطق القريبة من الصحراوات تتعرض للدمار على يد اللصوص وقطاع الطرق ، شأن مايحدث فى هذه الأيام .

إذن فلقد وجد هيرودت مصر فى نفس الحالة تقريبا التى وجدها عليها الفرنسيون ،ولم يستطع أن يرى ولا أن يجمع عدداً كبيراً من الوقائع . وعلى الرغم من أن الوقائع التى ضمنها مؤلفه الهام قيمة لحد كبير ، إلا أنه تركنا فى حالة من الشك حول كثير من وقائع أخرى . ولقد أضاف سترابون وديودورالصقلى أشياء قليلة إلى ماقدمه هيرودت . ولم يصنع أبو الفداء وهو يعرفنا بجغرافية عصره ، وكذلك لم يصنع المؤلفون الآخرون فى القرن الثالث عشر بترجيحاتهم ، سوى أن زادوا من شكوكنا . وفضلا عن ذلك فقد تحتم على مصر التى استعبدت أكثر من مرة أن تغير من لغتها ماأن يتغير السادة المسيطرون عليها ، وهكذا ، فقد عانت مختلف تسميات الأشياء من التعديل والتحوير بل اختفى بعضها بشكل نهائى ... ولم يلبث كل هذا أن ألقى بكثير من الأضطراب حول الأفكار ذاتها .

ولم يكن بمقدور مؤلفي اليوم إلا أن يعودوا إلى ماكتبه هؤلاء المؤلفون القدماء وأولئك الرحالة المحدثون ، ولقد نتج عن أبحاثهم ، وعلى وجه الخصوص أبحاث دانفل ، استنتاجات حاذقة ، بنى على أساسها هذا الجغرافى الشهير خرائطه لمصر القديمة والحديثة ، وهى الخرائط التفصيلية الوحيدة التى ظلت متداولة حتى مجيء الجيش الفرنسى إلى هذه البلاد . ولقد لاحظنا فى البداية ، عند استخدامنا لهذه الخرائط احتواءها على كثير من الأخطاء،ويبدو أنه كان من العسير ، على الرغم من التمحيص الشديد الذى بذله دانفيل أن يكون الأمر على نحو مخالف .

ولقد هيأت المدة التى بقيها الجيش الفرنسى فى مصر ، الوسائل لمراجعة العدد الأكبر من هذه الأخطاء ، كما أتاحت لنا أن ننزع كثيراً من الشكوك وأن نعيد تأسيس وقائع كاد يطويها النسيان بفعل حقبات الأزمان ووقوف همجية الحكومات حائلا ضد كل بحث .

وعندما تلقيت أوامر القائد بالقيام بجولة استطلاعية لبحيرة المنزلة ، فقد كانت الارشادات المبدئية التى زودنى بها وكذلك المساعدات العلمية التى أمدنى بها البعض ، هى ماجعلنى فى وضع استطعت معه أن أعطى لعملياتى من الشمول والدقة مايتجاوز بقليل ماتحصل عليه الاستطلاعات العسكرية عادة (١) . وسوف أتقدم بملاحظاتى ، كما سأقدم دراساتى مدعما إياها بالبحوث التى ظهرت ، وعندما استعنت بينما كنت أتناول بعض الوقائع الجغرافية بتراث المؤلفين الأوائل ، فإننى لم أتبن آراءهم بشكل تام ، لكننى رجعت إلى الطبيعة ، التى هى أكثر من هؤلاء المؤلفين القدامى قدما ، كما أنها فى نفس الوقت معاصرة لنا .

* * *

(١) أنشئت بعد ذلك خريطة لهذه البحيرة . بمزيد من العناية والتفاصيل ،وضعها السيدان جاكوتان ولوجنتى Jacotin &le Hentil . [انظر الخريطة الطبوغرافية لمصر] .

(١)
اكتشاف الفرع التانيسى القديم

كان القدماء يرون أن النيل يصب مياهه فى البحر عن طريق سبع فتحات [١] ، إذن فقد كان ثمة سبعة فروع كانت تأخذ المياه منذ خروجها من الجبال لتسير بها إلى هذه الفتحات السبع .

وعلى النحو التالى ، كان النظام الذى عرف عليه القدماء هذه الفروع السبعة ذاهبة من الشرق إلى الغرب :

١ - الفرع البيلوزى أو بوباسطة .
٢ - الفرع التانيسى وهو الذى يحمل اليوم اسم ترعة أم فارج .
٣ - الفرع المنديسى أو فرع الديبة .
٤ - الفرع البلنتينى وهو اليوم فرع دمياط .
٥ - الفرع السبنيتى أو فرع البرلس .
٦ - الفرع البولبيتينى أو فرع رشيد .
٧ - الفرع الكانوبى أو فرع أبى قير .

فهل بقيت حتى اليوم هذه الفروع ، بأكملها ، أو فى جزء منها ، وهل يمكن العثور على آثار ما درس منها ؟ هذا ماسوف نتفحصه بخصوص الفروع الثلاثة الأولى ، وهى التى تدخل فى إطار المهمة الاستطلاعية التى قمنا بها .

كان الفرع البيلوزى صالحاً للملاحة عندما توغل الاسكندر فى مصر إذ أنه ،

---

(١) أطلق الشعراء على كل من هذه المصبات السبع فم النيل (أورا) ، وتعود هذه التسمية إلى ما أرادوا أن يمنحوه للنيل من عظمة ، ولكننا عندما نكون بصدد الحديث عن جغرافية مصر الطبيعية سنأخذ على عاتقنا أن نضع تمييزاً محدداً : فتسمى فروعا ، تلك الترع التى تتجه إلى البحر المتوسط إبتداء من المنطقة الواقعة شمال ممفيس ، فى حين نطلق كلمة فم على فتحات هذه الفروع نفسها عند البحر . وهذا التمييز بالغ الأهمية ، حيث أن بعض الفروع التى كانت موجودة منذ الأصل ، قد اندثرت كلية أو فى جزء منها ، فى حين نجد فتحاتها هنا وهناك ، تشكل وسيلة اتصال بين مختلف بحيرات مصر مع البحر المتوسط .

أدخل من هذا الفرع أسطوله الذى استدعاه من غزة ، لكن الرمال تسد اليوم هذا الفرع ، ولاتزال ترى حتى اليوم عند بيلوز « بالوظة » فتحته التى كانت تؤدى إلى البحر ، وهى مليئة بالطين . وقد أمكننى التيقن من أن آثار هذا الفرع لابد وأنها موجودة اليوم ، فى واقع الأمر ، فى ولاية الشرقية بالقرب من قرية بسطة ، وهى مدينة خربة ، كانت تعرف فيما مضى باسم بوباسطة وهى التى نلمحها على مسافة قصيرة إلى الشمال من بلبيس ونحن فى طريقنا إلى سوريا . ويخيم ظلام كثيف ، لايمكن اختراق حجبه حول الفرعين : التانيسى والمنديسى اللذين كانا يأتيان فى الترتيب « من الشرق إلى الغرب » بعد الفرع البيلوزى واللذين كانا يصبان فى مكان تشغله بحيرة المنزلة وكان يسمى فيما مضى تنيس .

وعندما توغلت فى بحيرة المنزلة ، عن طريق فتحة فم الديبة فى الثانى عشر من فندميير « ٤ أكتوبر » . أدهشنى كثيراً إتساع وعمق الترعة التى تقع إلى اليمين بعد اجتياز الفتحة ، وبدأت أتشكك أن قد تكون هى طرف الفرع المنديسى القديم ، وحاولت العثور على إتجاه مجراها بإستخدام مجسات متتالية ، لكن الظروف التى دخلت فيها البحيرة لم تسمح لى على الإطلاق بأن أتم هذا العمل .

ومع ذلك فإن مالم أستطع إنجازه بالنسبة للفرع المنديسى قد استطعت أن أتممه فيما أعتقد بالنسبة للفرع التانيسى الذى كانت فتحته « فمه » هى نفسها فتحة « مصب » ترعة أم فارج . ويمر المرء عند ذهابه من هذه الفتحة إلى سمنة ، وعلى يمينه ، بجزيرتى تونة وتنيس ، ثم يتوغل فى ترعة بحر مويس . ومدخل هذه الفتحة غزير المياه ، وقاعها من الطين الأسود ،ويخوض المرء على يمين جزيرتى تونة وتنيس فى مياه يبلغ عمقها من ١٦ إلى ٢٠ ديسمتر « ١,٦ م إلى مترين » ، أما الجزء الأيسر فصالح لاستخدام القوارب الصغيرة فقط ، ولا يتجاوز خط حدود الملاحة فى بحيرة المنزلة لأبعد من الخط الواصل بين هاتين الجزيرتين ، أما الجزيرات الصغيرة والأجزاء الضحلة التى تتقارب لحد التلاصق فى جنوب هذه الجزر فتبعث على الشك بأن ثمة قارة غارقة .

وتتوغل ترعة بحر مويس التى تروى ولاية الشرقية من بحيرة المنزلة إلى الجنوب

الغربى من جزر المطرية . ويبلغ إتساع هذه الترعة إبتداء من سمنة حتى البحيرة من ٥٠ إلى ١٢٠ متراً ، ويبلغ عمقها من ٣ إلى ٤ أمتار ، وهى متصلة بالنيل وتصب فى البحيرة أثناء الفيضان كمية هائلة من المياه تندفع فيها لمسافة كبيرة دون أن تصبح مالحة الطعم . وشواطىء هذه الترعة مسطحة مما ينبىء أنها لاتعود مطلقاً إلى الأزمنة الحديثة كما سنرى فى القسم الخامس .

وهذه الآثار فى مجموعها هى أكثر من كافية كى تجعلنى أظن بأن بحر مويس هذا ليس سوى جزء من الفرع التانيسى الذى كان يمتد حتى فم « مصب أو فتحة » أم فارج ، والذى توجد على شاطئه الأيمن مدينتا : الطينة وتنيس ، ولقد تيقنت فى هذه الأثناء .. وعند عودتنا ، وفى وقت إنشائنا خريطة البحيرة تبعاً للبيانات التى حصلنا عليها من العمليات التى قمنا بها حول إتجاه ترعة مويس أن جزر الطينة وتنيس وفتحة أم فارج ليست مصطفة فى خط مستقيم ... وإنما يتخذ الخط الواصل بينها شكل المنحنى الطبيعى الذى تصنعه مجارى المياه . كما لابد أن أشير إلى أن آثار الفرع المنديسى وفمه هو فتحة فم الديبة ، ينبغى البحث عنه بالاتجاه نحو ترعة أشمون .

(٢)
الوضع الحالى لبحيرة المنزلة

تقع بحيرة المنزلة بين خليجين كبيرين ، يتجزأ كل منهما إلى خلجان أخرى صغيرة ، وبين لسان طويل من الأرض المنخفضة ، ضيق الإتساع ويفصلها عن البحر . ويشكل الخليجان بإندماجهما فى بعضهما البعض شبه جزيرة المنزلة التى توجد على طرفها جزر المطرية ، وقد تكوّن هى الجزر الوحيدة المكونة هناك ويبلغ أقصى إتساع للبحيرة بإتجاه غرب الشمال الغربى حوالى ٨٣,٨٥٠ م « ٤٣,٠٠٠ قامة » وهو يمتد من دمياط إلى بيلوز « بالوظة » أما أصغر إتساع لها ، وهو إتجاه عمودى مع الإتجاه الأول بدءاً من المطرية فيبلغ ٠٠٠ر ١٧ متر « ٨,٧٢٢ قامة » .

وجزر المطرية كثيفة السكان ، وتغطى كل مساحتها الأكواخ التى تؤوى سكانها ، وهذه مبنية فى جزء منها بالطين وفى جزء آخر بالطوب . وتتناثر الأكواخ فى

جزيرة ميت المطرية وتختلط بالمقابر ، وهى أشبه ماتكون بأكداس من الحجور منها إلى مساكن الآدميين .. ويبلغ عدد سكان هذه المنطقة ــ غير النساء والأطفال ١١٠٠ رجل من العاملين بصيد الأسماك والطيور المائية .

ويخضع هؤلاء لنفوذ أربعين رئيساً ، يخضعون بدورهم لحسن طوبار الذى يحتكر حق الصيد فى بحيرة المنزلة نظير أتاوة يقدمها للبكوات « المماليك » ... وبخلاف ذلك فحسن طوبار هذا هو واحد من أكثر ملاك مصر ثراء . ولعله الوحيد الذى تجرأ على تكديس هذا الكم من الأملاك العقارية التى يتملكها ، وعائلته من أكبر عائلات المنزلة . وهى تضم أربعة أو خمسة أجيال من الشيوخ . وسلطة حسن طوبار جد هائلة ، وهى تقوم على نفوذه ، وثقة الناس به ، وعلى ثروته ، وأهله الكثيرين ، وعلى العدد الهائل من الأجراء الذين يرتبطون به ، وكذلك على دعم البدو الذى يمنحهم الأرض لزراعتها ، ويغرق شيوخهم بالهدايا ، وتستطيع هذه الجماعات من العربان الوصول إلى ترعة بحر مويس عن طريق الصالحية ، التى تتفرع عنها ، ومن هناك يبلغون البحيرة للاتصال بسكان المنزلة والمطرية . وهؤلاء الأخيرون باعتبارهم الملاك الوحيدين لحوالى ٥٠٠ إلى ٦٠٠ قارب صيد تجوب البحيرة ، متحالفين مع جيران على هذا النحو « العربان » ــ يعدون السادة المرهوبين والمتحكمين فى كل البحيرة والبلاد الواقعة على شطآنها . وتقوم تجارتهم على السمك المملح والسمك الطازج والبطارخ . أما صيد أسماك البورى الذى يهيىء بيضه البطارخ فيتم بالقرب من فتحة فم الديبة ؛ ولهذا السبب يسكن ٥٠ إلى ٦٠ صياداً مع عائلاتهم داخل أكواخ من الحصير على قمم الجزر التى تجاور هذه الفتحة .

وصيادو بحيرة المنزلة ، وكذلك بدو القرى ، أناس بالغو النهم والجشع كما أنهم جاهلون جهلا عميقاً ، فهم لا يعرفون مطلقاً تقسيم الوقت إلى ساعات ولا حتى قياس الوقت بوسيلة الظل كما يفعل عربان الصحراء . فشروق الشمس ، وغروبها ، ومنتصف النهار هى الفترات الوحيدة التى يميزونها فى كل الأربع والعشرين ساعة ، وباستعارة هذه التقسيمات الموجودة عندهم ، وبإعطائها تقديراً للمسافات ، يستطيع

المرء الحصول على بعض المعلومات حول مواقع الأماكن فى مناطقهم .

أما المنزلة ، التى منحت البحيرة اسمها ، فهى مدينة قليلة الأهمية ، خربة فى جزء منها ، وتقع على الشط الأيمن لترعة أشمون على بعد ثلاثة فراسخ من المنزلة ، وستة فراسخ من دمياط ، ويبلغ تعداد سكانها حوالى الألفين ، وتوجد فيها مصانع للأقمشة الحريرية وأقمشة القلاع التى تحتاجها المطرية ، وبها كذلك مصابغ وبعض مصانع أخرى ضئيلة الأهمية .

ويرى المرء فى بحيرة المنزلة جزرا كانت آهلة فيما مضى ، وتغطيها الأنقاض وتشكل نتوءات بالغة الأهمية متناثرة وسط المياه ، مما يجعل السكان يطلقون عليها اسم الجبال [١]، وسنوضح فيما بعد أن هذه الجزر كانت مدناً تنتمى إلى قارة غارقة .

وتبدو جزيرتا تنيس وتونة باعتبارهما أهم الجزر ، وقد احتفظت الأولى باسمها القديم ، أما جزيرة تونة فقد أصبح يطلق عليها إسم الشيخ عبد الله ، وهو اسم شيخ أو ولى أقيم له ضريح فى هذه الجزيرة . وتبعاً لملاحظة المسيو فولنى فإن هذه التسميات : شيخ ، ولى ، مجنون ، ابله .. إنما هى مترادفات . فالأولياء هم أولئك الأشخاص الذين يثيرون أثناء حياتهم دهشة الناس فى آسيا بذلك الغموض المبالغ فيه والذى يحيط بما يأتون به من فعال ، وتقام لهم بعد مماتهم أضرحة مقدسة ، لأنها تثير حماسة المؤمنين الذين يودعون فيها بدافع من الورع بعض الصدقات للفقراء . ومع ذلك أليست لكنائسنا الكبرى وكنائسنا الصغيرة المنعزلة فى الأرياف أو فى الطرق النائية بصناديق الصدقات فيها وبمصابيحها المتوهجة ، وتلك الصور التى على الجدران ريشة الروحانيات أو الخرافة .. أليست لها نفس الأغراض ؟

وجزر بحيرة المنزلة التى نراها فى مستوى سطح الماء ، إنما هى قاحلة وغير مزروعة ولا يجد المرء أى نتاج فيها سوى نباتات بحرية . وتوجد فى بعض منها أضرحة تعلو هذا

---

(١) فيقولون : جبل تنيس ، بجبل التونة ، جبل سمنة .

السطح المستوى ، وهى نقاط الاستدلال الوحيدة التى أمكننا أن نجدها هناك لإنشاء خريطتنا .

ومياه بحيرة المنزلة أفضل مذاقاً على نحو مامن مياه البحر ؛ وتكون صالحة أثناء الفيضان على بعد مسافة كبيرة من فتحات الترع التى تصب فيها مياهها مثل ترعة بحر مويس . ويجد المرء المياه مالحة على نحو خفيف أو ذات مذاق ماسخ ، لا مذاق له ولا لذة ، وذلك على الشواطىء التى تخترقها المياه التى تتسرب من مزارع الأرز .

ومياه البحيرة فوسفورية ، أما هواؤها فصحى لدرجة كبيرة للغاية ، ومنذ مايزيد على ثلاثين عاماً لم يعرف سكان المنزلة شكل الطاعون فى جزرهم ، ويبلغ عمق مياه البحيرة فى عمومه المتر ، لكنه يبلغ مابين مترين إلى خمسة أمتار تجاه الفرعين القديمين التانيسى والمنديسى .

وقاع البحيرة من الصلصال المختلط بالرمال عند المصبات ، ومن الطين الأسود عند فتحتى فم الديبة وأم فارج ، ومن الطين المختلط بالقواقع فى بقية أجزائها وتغطيه الطحالب فى معجم أجزائه .

وبحيرة المنزلة ثرية فى أسماكها ، ويتردد على مدخل فتحاتها خنازير البحر ، ولم نشاهد الكثير من الطيور فوق البحيرة ، لكننا شاهدنا ذلك فوق البلاج بطول البحر ، فى الأماكن التى انحصرت عنها المياه منذ مدة قصيرة .

وتتم الملاحة فى البحيرة بواسطة الشراع ، وبالمجداف وبالعصى الطويلة ، وتضاعف الريح العكسية من الوقت اللازم لرحلة ما ، وأحياناً تصل به لثلاثة أمثاله ، وذلك بحسب قوتها ، ويرسى الصيادون قواربهم بربطها إلى عصوين طويلتين ، يغرسون أولاهما من الأمام والأخرى من الخلف بسهولة بالغة . ولمراكب الصيد فى بحيرة المنزلة نفس الشكل على وجه التقريب الذى لمراكب الصيد فى النيل ، أى أن لها جؤجؤا « مقدمة السفينة » أكثر ارتفاعا بحوالى ٧٠ سم من كَوْثَلها « مؤخرتها » لكن مؤخرة المراكب الأولى تنغمس فى الماء على نحو أكبر ، مما يعطى سهولة كبيرة للصياد الواقف على السطح فى أن يجمع شباكه وأن يقذف بها وأن يسحبها . وصالب هذه القوارب

« العارضة الرئيسية التى تمتد بطول القاع » مقعر ، مما يسبب حوادث الجنوح كثيرة الحدوث فى بحيرة قدر عليها أن تضم كثيراً من المناطق الضحلة .

وعندما يذهب أهالى المطرية إلى الصيد بعيداً عن جزرهم ، فإنهم يأخذون معهم المياه العذبة فى جرار كبيرة تربط فى قاع قواربهم ، وفى كل قارب واحدة من هذه الجرار .

ويبدو أن صيادى المطرية يشكلون فئة خاصة . وحيث أنهم يحرمون الصيد فى بحيرة المنزلة على جيرانهم فاتصالهم بهؤلاء الجيران قليل ، وحيث أنهم على الدوام تقريباً عراة فى الماء ، منهمكون فى أعمال شاقة ، فإنهم أقوياء الجسم ، ضخام الهيئة ، نشطون وأولو عزم . وعلى الرغم من تقاطيعهم الجميلة فإن لهم منظراً وحشيا ، وبشرة لوحتها الشمس ، ولحية سوداء خشنة تزيد مظهرهم وحشية .. وعندما يجدون أنفسهم فى حضرة أعدائهم ، يطلقون آلاف الصرخات الهمجية بنغمة مرعبة ، ويضربون على نوع من الدفوف وعلى سطح قواربهم ، وفوق كل مامن شأنه أن يحدث ضجة ، فينفخون فى الأبواق ،وينشرون عن طريق أصداف القواقع هذه إلى بعيد صوت « رُحّهم » (١) المشهور . يقول جنودنا الذين سمعوا مثل هذه الضجة لو أننا كنا رجال الأمن هنا لأفزعتنا هذه الضجة حتى لنلقى بأنفسنا إلى المياه وهكذا يحتفظ جندنا الفرنسيون بمرحهم فى كل مكان ، ويعرفون كيف يخففون بكلمة طيبة من الضجر الذى يحاصرهم أو الخطر الذى يحدق بهم ، والذى يجدون أنفسهم فى خضمه وقد دفعتهم إليه الظروف .

ولاتتصل بحيرة المنزلة بالبحر إلا عن طريق فتحتين يمكن اجتيازهما وهما : فتحة فم الديبة وفتحة أم فارج ، واللتان كانتا مصبى الفرعين التانيسى والمنديسى ، القديمين .

---

(١) أى : « روح عنى ياكلب »

وبين هاتين الفتحتين توجد فتحة ثالثة كان يمكنها أن تتصل بالبحر ، لولا هذا السد الصناعى المكون من صفين من الأوتاد ، تملأ الفراغات بينها باتات بحرية متراكمة ، وثمة فتحة مشابهة لكنها تغطى الآن بالرمال ، وتقع خلف فتحة أم فارج ، وكان القدماء يعرفون هذه الفتحات ويشير إليها سترابون باسم الفتحات الكاذبة .

أما لسان الأرض الذى يفصل البحر عن البحيرة والذى يمتد عند الفتحة الفاتنيسية ـــ أو فتحة مصب دمياط ، حتى الفتحة البيلوزية أى فتحة المصب البلوزى فليس به سوى أربعة قطوع على امتداد يبلغ ٩٢,٠٠٠ من الأمتار . وهذا اللسان ، الذى يتسع نوعاً مافيما بين دمياط والديبة ، وبين أم فارج وبيلوز ، يضيق إلى حد كبير فيما بين الديبة وأم فارج . وهو شديد الإنخفاض ، كما أنه مزروع ، تغطيه فى جزء منه ، شأن جزر البحيرة ، نباتات بحرية ، وليس البلاج هنا ثريا فى قواقعه على الاطلاق ولا يرى المرء هناك لازلطات مستديرة ولا أية أحجار أخرى ، وإنما فقط بعض النسفات « حجارة خفيفة نخرة توجد عند مرمى الموج » التى يرمى بها البحر . وأشهر القواقع هناك هى الحلزون وذات الصدفتين من النوع الصغير .

ويغلق كل فتحة من جهة البحر مرفأ مستدير فى جزء منه ، يتصل طرفاه بالساحل عند صخور الشاطىء ، وتختلف هذه المرافىء عن تلك التى توجد عند مصب النيل فى دمياط ـــ والتى لها فضلا عن ذلك نفس الشكل ونفس الموقع ـــ فى أن ليس لها على الإطلاق أى بوغاز ، ولكن حيث أن الرياح ترفع المياه فى المضيق لما يقرب من ٦ ديسمترات ، وأكثر فى بعض الأحيان ، فان بالإمكان عبور هذه المرافىء بواسطة زوارق ذات غاطس معتدل . ولكى تكون هذه المرافىء بوغازات ، ينبغى أن توجد تيارات كبيرة فى هذه الفتحات ، لكن التيارات التى توجد هناك يحتويها نوع من التوازن بين مياه البحر ومياه البحيرة أثناء وبعد الانقلابين كما سنوضح .

ففى أثناء انقلاب الصيف ، تدفع رياح الشمال الغربى مياه البحر إلى جزء من سواحل مصر ،وتبقيها هناك معلقة ، مما يجعل مياه بحيرة المنزلة تطفو فوق الجزر الواطئة

وعلى شواطىء البحيرة نفسها ، ومن جهة أخرى فان البحيرة تستقبل مياه الفيضان التى يكون فيها سطح هذا الحوض الواسع مستويا .

وعندما تتوقف رياح الشمال الغربى تنحسر مياه البحر من جديد بفعل ثقلها ، لتترك بلاجا مكشوفا يبلغ عرضه حوالى المائة متر ، وفى نفس الوقت يبدأ فيضان النيل فى الإنخفاض ، وتنسحب مياه البحيرة من فوق الجزء الذى غطته من أرض الجزر ، كما تهجر مياه الفيضان أرض مصر ، ويتكون عند فتحتى فم الديبة وأم فارج تيار من البحيرة إلى البحر تبلغ سرعته حوالى ثلاثة آلاف متر فى الساعة ، مما يحدث بالضرورة وبعد إنقضاء فترة معينة ، إنخفاضاً محسوساً فى مياه البحيرة .

إذن فمصر تتطلب منا أن ننظر إليها فى حالتين : الأولى فى الفترة التى تغطى فيها مياه الفيضان البلاد ، والثانية عندما تنصرف المياه كلية عن أرضها .

(٣)

عن الوضع الحالى للأراضى المجاورة لبحيرة المنزلة

تعد المناطق المحيطة بالمنزلة قاحلة فى جزء منها ومنزرعة فى جزء آخر ، كما أن ألسنة الأرض ، التى تمتد من مصب النيل حتى فتحة بيلوز ، بطول البحر ، هى الأخرى قاحلة ، أما سهل بيلوز وحواف البحيرة ، بالإتجاه جنوباً نحو ولاية الشرقية ، فأرض صحراوية . ويخترق هذه الولاية ويروى أرضها بحر مويس ، وتروى هذه الترعة كذلك ، بالإضافة إلى ترعة أشمون ، جزءاً من منطقة المنزلة ، وتستقبل منطقة فارسكور مياها تعرف بهذا الاسم ، أما شبه جزيرة دمياط ، وشبه جزيرة المنزلة ، فتغطيهما حقول الأرز الجبلية . وتروى أراضيها ترع للرى ، تجاورها ترع أخرى للصرف . وقد أعطانى اقتراب ترعة قصب القش من ترعة روهار سلامة ، على بعد فرسخ إلى الجنوب من دمياط ، مفتاح نظام الرى المتبع فى هذه المنطقة ، كما مكننى من التعرف بسهولة ، ودون القيام بعمليات مسح ، على الفرق بين ارتفاع مياه النيل وارتفاع مياه البحيرة .

وتأخذ الترعة الأولى مياهها من النيل وتتجه نحو البحيرة ، ولكنها لا تتصل بها ، إذ تسدها الأنقاض والأتربة ، وتتفرع منها – عن طريق قطوع – جداول للرى .

أما الثانية فتتصل بالبحيرة ، وهى أكثر إنخفاضاً من ترعة قصب القش ، التى تنتهى فى مواجهتها ، ولا تنفصل عنها إلا بجسر قليل السمك ؛ وهذه الترعة مخصصة لتلقى مياه الصرف من مزارع الأرز .

وبمقارنة ارتفاع المياه فى هاتين الترعتين ، فى الجزء الجنوبى من الجسر الذى يفصل بينهما ، وجدنا أن مستوى المياه فى الترعة يعلو على مستواه فى الترعة الثانية ، فى الخامس عشر من فندمير ٣٥٠ مم ، وهو نفس ما سجله فى هذا اليوم منسوب ارتفاع النيل فى الجزء المقابل لبحيرة المنزلة، حيث أن العلاقة بين هذين المنسوبين ومنسوب المياه فى الترعة الأولى ومنسوبها فى الترعة الثانية ، ينبغى أن تتغير تبعاً للكميات التى تنخفض إليها « أو تعلو » كل من مياه النيل ومياه البحيرة .

وتوجد إلى أسفل المنزلة ترعتان تعطيان النسبتين نفسيهما ، ولابد أن الأمر لا يختلف عن ذلك فى خليج فارسكور ، وسوف يوضع مقياس للنيل وآخر للمنزلة ، يوضحان فى كل هذه النقاط العلاقة اليومية بين هذه التغيرات « فى منسوب ارتفاع المياه » .

وتقسم أراضى حقول الأرز إلى أجزاء ، تحدها جسور صغيرة ، توجد بها قطاعات تفتح وتغلق حسب الطلب ، لإدخال مياه الرى أو لصرفها . وبنفس هذه الطريقة تعد الحقول للبذار ، وتعد كذلك مربعات استخراج الملح البحرى عن طريق البخر ، وفى الحالة الأخيرة تتعرض المياه للبخرة الأولى بحصرها فى خزان منفصل ، وعندما تركز على هذا النحو ، يقوم العمال بإدخالها إلى التقسيمات المشار إليها ، حيث تنتشر على السطح فى عمق قليل ، أما المياه الأم فتتجه إلى خزان أكثر إنخفاضاً .

وعندما يراد البذار ، تحرث الأرض حرثة أولى ثم تغمر بعد ذلك بالمياه ؛ وبعد أربع وعشرين ساعة ، وبعد أن تكون الأرض قد نالت كفايتها من البلل ، يدخل إليها رجال كثيرون ، يحرثون فيها حفرات بأيديهم ، ويسوونها ، ويلقون إلى الخارج بقطع

الطين شديدة الصلابة ، وبعد إنتهاء هذه العملية تصرف المياه ، وبعد وقت قصير تبذر البذور ، وبعد بضعة أيام تكسو الخضرة كل الحقل . وقد لاحظنا أن أكوام الردم التى تحيط بترع الرى ، تستخدم سماداً ، فيقوم الفلاحون بوضعها أكواماً فى الحقول قبل أن تخطط هذه خطوطاً ، ويتم ذلك بالطريقة نفسها ، التى تجهز بها أكوام القمامة فى أوربا . ويلاحظ المرء فى هذا النظام ، وجود ترعة علوية تغذى الحقول بمياه الرى ، وترعة سفلية تستقبل صرف هذه المياه نفسها بعد إستعمالها .

وعندما لا يصبح فى الإمكان تزويد هذا المستوى العالى بالمياه ، فإن مياه الرى هذه ترفع إليها بواسطة سواق ذات قواديس أو سواق ذات ثقوب مجوفة ، ويفضل استخدام الأخيرة ، عندما لا تكون قناة التغذية منخفضة انخفاضاً كبيراً .

تلك هى الكيفية التى تتم بها زراعة الأراضى فى ضواحى دمياط والمنزلة . ويتبع المنزلة بالقرب من البحيرة ، وفى الجزء الواقع بين الفرعين اللذين تنقسم إليهما ترعة أشمون ، إلى الشمال من المدينة ، مستنقعان ملحيان ، يهيئان كمية كبيرة من الملح الذى يتم استخلاصه ، بالوسيلة التى سبقت الإشارة إليها ، ناصع البياض ، متبلوراً فى طبقات يبلغ سمكها ٦ ــــ ٨ مم.

ويتجه أحد فرعى ترعة أشمون نحو العصافرة ، وتستخدم مياهه فى تغذية حقول الأرز ، أثناء الفيضان ، وفى سقاية سكان جزر المطرية وسكان القرى المجاورة . وينتهز السكان هذه الفرصة المواتية ليملأوا الخزانات العامة ، وهى خزانات مياه كبيرة ذات سقف مفتوح ، ومبنية بمواد بناء ، وتكسوها من الداخل طبقة من الأسمنت بالغ النعومة ، وتخزن فيها المياه بعمق خمسة أمتار ، وعندما ينضب هذا المصدر ، تفتح فى الريف آبار يبلغ عمقها حوالى ثلاثة أمتار ، وهى شديدة الوفرة فى مياهها ، وليس من الغريب أن تطفو المياه فى هذه الخزانات الصناعية المحفورة فى أرض ندية ، تغرقها المياه أربعة شهور فى العام ، وتتكون طبقاتها السفلية من صلصال لزج ، لا تنفذ من خلاله السوائل .

(٤)
تكوين بحيرة المنزلة

تبعا لما سبق أن قلناه عن الاتجاه القديم للفرعين التانيسى والمنديسى ، فقد كان هذان الفرعان ، فيما يبدو ، يعبران ، كى يتجها إلى البحر ، تلك الأرض التى تغطيها اليوم بحيرة المنزلة ، فهذه البحيرة إذن ليست بحيرة على الإطلاق تشابه تلك التى نراها على سواحل لانجدوق (*) وروسيُّون ، وعلى ذلك ، فهذه البحيرة لم تكن موجودة منذ البداية . لكن يا ترى ، ما هو السبب فى تكوينها ؟ هذا ما نحن بصدد تفسيره .

قلت للتو إن هذه البحيرة ليست على الإطلاق بحيرة بحرية ، فطبيعة قاعها الذى يوجد فى كل مكان منه طمى النيل ، وكذلك عمق المياه بها ، الذى لا يزيد عن متر واحد فى العادة ؛ بينما يغوص هذا العمق لأكثر من ذلك بكثير من الاتجاهين المفترضين للفرعين التانيسى والمنديسى ، كل ذلك يعلن بوضوح أن حوض بحيرة المنزلة هو أرض رسوبية كونتها فروع النيل ، ولم يتكوّن قط بفعل حركة مياه البحر .

وقلت فى مكان آخر إن ليس بالمستطاع أن تتكوّن هذه البحيرة ، إلا بفعل فقدان التوازن بين مياه البحر من جهة ، ومياه الفرعين التانيسى والمنديسى ، من جهة أخرى .

أما الفرع الفانتيسى ، أو فرع دمياط ، فحيث أن يد الإنسان هى التى حفرته — كما يخبرنا بذلك هيرودوت — فلابد أنه لم يكن على الأرجح فى نفس الحجم الذى نراه عليه اليوم ، ومن المحتمل أن يكون حجمه قد كبر على حساب الفروع البيلوزى والتانيسى والمنديسى ، بحيث أن المياه عندما شحت من الفرعين الأخيرين فإنهما لم يعودا فى حالة تمكنها من صنع التوازن اللازم مع مياه البحر ، ومن هنا اقتحمتهما المياه المالحة ، ولابد أن ذلك قد تم بقدر كبير من السهولة ، ذلك أن رياح الشمال الغربى ، وهى التى يستمر هبوبها شهوراً عديدة من السنة على السواحل المصرية ، ترفع

(*) إحدى مقاطعات فرنسا القديمة .

من منسوب البحر ، وتدفع بمياهه ، كما سبق أن لفتنا النظر ، لتستقر فوق الأراضى المجاورة .

وعمل هذه الرياح أمر يسترعى الانتباه فى ضواحى دمياط ، ولابد أن يكون كذلك فى أماكن أخرى ، حتى أن أضخم الأشجار ، مثل أشجار الجميز ، تميل دائما نحو الجنوب ، أما قممها ، من ناحية الشمال ، فتكون عارية من الأوراق ، وتكون أغصانها الجرداء ملتوية ، وملفوفة ، كما لو كانت قد قلمت بمقص . وثمة واقعتان قريبتان حدثتا فى مصر ، تنهضان لدعم افتراضاتنا هذه .

ففى بداية القرن الأخير « السابع عشر » ، طغت مياه البحر الهائجة على الساحل بين رشيد والإسكندرية ، وحفرت لنفسها هناك مجارى عميقة (١) ، وعندما فتحت بعد ذلك من جديد ترعة الفرعونية ، إندفعت مياه النيل فى هذا المجرى الجديد ، ولكن هنا شحت المياه من فرع دمياط فتوغلت فى هذا الفرع ، ولمسافة كبيرة ، مياه البحر ، وكان الدمار كبيراً ، لحد اضطر معه أولو الأمر إلى أن يعيدوا إغلاق مدخل هذه الترعة على وجه السرعة ، وهى التى كان قد أعيد فتحها دون اتخاذ أية احتياطات (*) . ومن المحتمل أن تكون بحيرة البرلس قد تكونت بالطريقة نفسها .

أما عن تفتت الأرض ، الذى نتج ولابد عن إندفاع مياه البحر ، وعن تحركاتها ، فى الحوض الذى تشغله بحيرة المنزلة ، فقد يكفى أن نسوق هنا مثلا من نهر الموز : (**) ألم يؤد انهيار سدود هذا النهر فى عام ١٤٢١ ، إلى تحول الأرض إلى بحيرات شاطئية ، « أى بحيرات تقع بين الأرض والرصيف وتتصل بالبحر بعدد من المجارى ، » ، بها عدد كبير من الجزر والأجزاء الضحلة ، يبحر الناس من خلالها الآن ؟ وقد غطت هذه

---

(١) انظر :

Voyage de Paul lucas au Levant ,tome II Pag ,19 et s.

(*) كانت هذه الترعة تأخذ مياهها من فرع دمياط تصب فى فرع رشيد . (انظر رحلة إلى أعماق الدلتا والدراسة الرابعة من هذا الكتاب) ـــ (المترجم)

(**) وهو نهر ينبع من فرنسا ، فى مقاطعة المارن العليا ، ويروى فرنسا وبلجيكا وهولندا — المترجم .

البحيرات مساحة واسعة من البلاد ، كانت تضم أكثر من مائة قرية بأراضيها الزراعية . ومن المعروف أن هذا المستنقع الواسع يحمل اسم بيبس ـــ بوس ، أى غابة البوص .

ومن جهة أخرى فإن تضخم فرع دمياط ، لم يكن هو السبب الوحيد لإضمحلال الفروع : البيلوزى والتانيسى والمنديسى ، فقد ساهم فى حدوث ذلك ، تلك الإدارة السيئة للمياه ، ونقص العناية بالترع ، كما أن وضع هذه المناطق وموقعها قد هيئا فرصة حدوث ذلك .

وإذا ما تأملنا المضيق الذى يفصل البحر الأحمر عن البحر الأبيض ، فسوف نرى أن جبلى المقطم وكاسيوس ، هما شناخا هذا البحر من الرمال (*) ، كما ينبىء هذا النتوء والذى يوجد بينهما ، والذى يكاد يكون غير محسوس ، وهو ما قد لا تراه العين فى مجمله ، وإن كان هذا لا يعنى عدم وجوده فى الطبيعة ـــ ينبىء هذا النتوء عن انفصال خليج السويس عن خليج غزة ، وهكذا فإذا ما تحدثنا من وجهة نظر طبوغرافية ، فسنجد أن النيل ينتمى إلى أفريقيا ، أكثر من انتمائه إلى آسيا [1].

وعلى الرغم من أن الإدارة السيئة للمياه قد ساهمت فى تدهور حالة الفروع البيلوزى والتانيسى والمنديسى ، فإن مياه النيل من جانبها لم تكن قليلة الميل للذهاب عبر هذه الفروع ، للحد الذى يكون من المستحيل معه إعادتها إليها من جديد ، بل أن هناك ظرفا بعينه ، وهو ارتفاع قاع النيل ، وهو الذى أدى بدوره إلى زيادة ارتفاع منسوب هذه المياه ، يجعل من رأينا هذا أكثر إحتمالا ، وسوف نتوصل بإعادة العمل إلى الفرعين التانيسى والمنديسى إلى تجفيف بحيرة المنزلة . ومع ذلك فإن من المفيد ـــ حتى نحكم على الوسائل التى قد نستطيع اللجوء إليها لهذا الغرض ـــ أن نتفحص تلك الطريقة التى قد تكون الدلتا قد تكونت بها ، فلهذين الموضوعين ـــ فيما بينهما ـــ علاقة مباشرة .

(*) شناخ : أنف الجبل الخارج منه والداخل إلى البحر . (المترجم) .

(١) من المعروف أن النيل فى الأزمنة القديمة كان يفصل أفريقيا عن آسيا .انظر بلين Pline .

(٥)
تجفيف بحيرة المنزلة

عندما تنتظم الجسور مجرى نهر ما ، فإن من خاصيتها أن تحصر كمية المياه التى كانت تفيض على مساحة كبيرة فى رقعة محددة ، ونتيجة لذلك أن ترفع من منسوبها . وعندما تكون هذه المياه حاملة للعكارة والأوحال ، فسوف يكون من خاصية هذه الجسور كذلك أن ترفع قاع الترع ، لأن المياه فى هذه الحالة ترسب فى مكان بالغ التحدد ، تلك العكارة التى كانت تنشرها فى مساحة أكبر إتساعاً .

وقبل أن تقوم جسور لنهرى البو والمانشو « فى ايطاليا » لم تكن فيضانات النهر الأخير لتصل حتى مدينة مانتو (١)، أما الآن فهى تفيض فى البحيرة الدنيا . ومنذ سنة ١٦٠٧ رفعت الفيضانات قاع النهر الذى كان يبلغ عمقه ٢٣ ديسمتراً بمقدار الثلث ، بفعل عمليات الترسيب (٢). وحيث تأتى مياه البحر ، كما فى الفيضانات الكبرى ، نتيجة ارتفاع المياه فى البحيرة العليا ، وحيث يبلغ اختلاف المستوى بين البحيرتين ما يقرب من المترين ، فقد رأينا أنه بانحصار النهرين ، البو والمانشو ، بين جسرين ، فإن منسوب البو قد ارتفع إلى مستوى ٤٣ ديسمتراً ،وهو المستوى الذى لم يكن ليبلغه من قبل . وينتج عن ذلك أن سرير مجرى البو قد ظل عاليا ، بالنسبة لتلك السهول الخفيضة التى تجاور مجراه ، لأنها لم تنل نصيباً من ترسيبات النهر ، كما لم تحصل على أية ترسيبات خارجية ، وأن الأراضى التى تجفف عن طريق صرف مياهها ، مهددة فى كل لحظة بأن تغرق غرقا تاماً إذا ما انقطعت جسور النهر أثناء الفيضان (٣) .

---

(١) Bertazzolo Del Sostegno di Governalo.p.31

(٢) Ablati Mari, Montovano Idraulica Pratica ragionata.

(٣) قدم المستر دولوميو Dolomieu آراء مشابهة فى مقالته القيمة عن مصر ، والتى نشرت فى عام ١٧٩٤ ، وإننى لأشعر بزهو شديد ، إذ تلاقيت فى هذه النقطة مع هذا العالم الطبيعى الفذ ، والذى كنت أتمنى لو أننى كنت ألممت بمقالته تلك ، فى وقت أكثر تبكيرا .

والشيء نفسه بالنسبة للأراضي التي تعبرها كل النهيرات المجسرة في إيطاليا وهولندا وزيلندا . والتلاندر البحرية .. فإن هذه الدلتاوات التي تكونت بفعل ترسيبات الرين والموز والاسكوت ، وليس بفعل ترسيبات لاحقة ، تعاني من نفس الأمر .

ونخلص في المقابل إلى أنه ، عندما يوجد سهل خفيض يجاور البحر ، وتخترقه نهيرات تحمل ترسيبات طينية ، وعندما يكون هذا السهل أعلى من منسوب ارتفاع مياه أقوى الفيضانات ، فلابد أن يكون هذا السهل قد تكون بفعل الترسيبات .

لنطبق الآن على النيل ما سبق أن قلناه عن نهر البو ، وبإمكاننا أن نقيم مقارنة شيقة بين هذين النهرين ، من حيث أن لكليهما مجرى طويلا ، وأنهما يحملان رواسب طينية ، ويتمتعان بفيضانات موسمية .. كما يتجهان كلاهما ليصبا في نفس البحر .

وقبل أن ينتظم مجرى النيل ، كانت مياهه بعد خروجها من الجبال تنتشر ، مثل مياه البو ، فوق مساحة شاسعة كانت تغرقها طيلة العام . وقد لَمَّ سيزوستريس مياه النيل في ترع إلى الشمال من ممفيس وحصرها بين جسور ، وبهذه الطريقة شكل النهر دلتاوات عدة ، ولو أن قدماء المصريين قد حالوا بين مياه النيل وهذه الدلتاوات ، لحرموها من الزراعة ليس فقط بسبب طبيعة المناخ ؛ ولكن تبعاً لما سبق أن عرضناه فبدلا من أن نكون بصدد نيل يجرى بين شواطىء شكلها لنفسه .. فقد أصبح لدينا نهر محصور داخل جسور اصطناعية يتحكم في تربة مصر .

لننته إذن إلى هذه النتيجة ، وهي أن دلتاوات مصر قد تكونت بفعل ترسيبات ساعدت على حدوثها أعمال البشر .

ولابد أن نفترض أن الدلتا التي أصبحت محصورة بشكل قاطع بين الفرعين الحاليين للنيل ، كانت تمتد لتنحصر بين تلك الجبال النائية والمتباعدة إلى الغرب نحو الإسكندرية ، وبين تلك التلال التي ينتهي إليها جبل المقطم . وتنبئنا مواقع فروع النيل القديمة ، والتي يدل انتظامها على عمل الإنسان أن هذا هو الامتداد الطبيعي الذي حددته الطبيعة ، والذي كان المصريون القدماء يحددون به الدلتا .

وتبعاً لما انتهينا إليه ، فإن تجفيف بحيرة المنزلة يقتصر على اتخاذ الخطوات الآتية :

١ ـــ التعرف على الاتجاه القديم للفرعين التانيسى والمنديسى ، وإعادة حفرهما .

٢ ـــ إدخال مياه النيل أثناء الفيضان إلى الدلتاوات الفرعية للحصول على الطمى ، وهذا ما يمكن حدوثه ، دون المخاطرة بتبديد كمية ضخمة من مياه النيل ، عن طريق فرع دمياط وترعة بحر مويس .

٣ ـــ عمل قطوع تقفلها هويسات فى مناطق من الساحل ، لتلك الفرو ع التى يراد إنشاؤها .

٤ ـــ وأخيراً فتح هذه الهويسات عندما تنحسر مياه البحر من عند جنوب الساحل ، حتى تساعد على تصريف مياه النهر بعد أن تكون قد رسبت طميها .

وتتطلب كل هذه العمليات ، على الرغم من إمكانية تنفيذها ، أن تتم بأكبر قدر من الحذق والحذر فى وقت معاً ، حتى لا تشح المياه فجأة وبدرجة أكبر مما ينبغى فى فرع دمياط ، الذى قد يتطلب الأمر العمل مستقبلا على تضييق مجراه .

كان هيرودوت هو أول من ذكر أن الدلتا هبة النيل .. ويجادل بعض المحدثين فى هذه الفكرة ، وكان فريريه [١] هو الذى تصدى أكثر من غيره لدحض هذه الفكرة مدفوعاً بما توصل إليه حول بعض الأنظمة الجيولوجية ، بل لقد ذهب إلى حد التشكك فى إمكانية أن تشكل العكارات التى يحملها النيل أية ترسيبات ... ولكن كيف نفسر إذن انسداد الترع فى مصر ما لم يكن السبب هو طمى النيل ؟ ولماذا ننكر على المياه التى تنتشر على السطح ، والتى تقل نتيجة لذلك سرعتها ، أن ترسب من طميها ، بينما تتمتع بهذه الميزة تلك المياه المحصورة فى الترع ، والتى لا تتقلص سرعتها لتلك الدرجة ؟

---

(١) Frèret, Memoires de Li'academie des inscripions

وكان هيرودوت كذلك هو أول من ألمح بذكاء ، إلى سبب تكون مصادر المياه ، وهو الأمر الذى لم يتيسر تأييده إلا فى القرن الأخير « الثامن عشر » عن طريق حسابات ماريوت والتى قدم لها ديكارت تفسيراً هندسياً وإن يكن أقل ترجيحاً ، ولهذا فلم يعد المرء ليشك فى هذه الميكانيزم البديعة لدورة مياه البحر نحو الجبال ... ومن الجبال نحو البحر ، بفعل عملية البخر ، وبواسطة ذلك الفاصل الزمنى الذى تستغرقه مسيرة الرياح بين البحر وبين الجبال ، وينبغى أن نضيف : وبواسطة ميكانيزم درجات الحرارة المتعارضة ، إذ أننى أعتقد أن من المستطاع التأكيد بأن السحب فى السلاسل المركزية والعالية لا تتجاوز مطلقاً خط منتصف المياه وشيكة السقوط ، إذ يفصل هذا الخط درجتى حرارة الممرات الجبلية ، وهى الأجزاء سهلة المنال والتى يمكن لهذا الخط اختراقها ، ولكيلا تكون السحب على هذا الحد من الارتفاع ، فإنها ينبغى فى نفس الوقت ألا تكون فى موقع أقل منه ، بالنسبة لبؤرة ثورات الطقس .

وهذا المبدأ الذى تشكل مع محاولة تفهم حركة الرياح المسيطرة أثناء الانقلابين « الشتوى والصيفى » ــ يفسر أسباب تلك الأمطار الموسمية التى تحدث فيضان النيل ثم فيضان نهر النيجر ، وهو النهر الذى يجرى على الجانب الآخر من جبال أثيوبيا .

وتسترعى الطريقة التى فسرنا بها تكون الدلتا أنظارنا إلى أن هذه الدلتا تعلو فى نفس الوقت ، وأن قاع النيل يرتفع معها بالمثل . لكن ماهى العلاقة بين هاتين الزيادتين فى المنسوب ، وما هى احتمالات أن يفيض عليها النيل فى أضعف فيضاناته كما فى أكثرها غزارة بالمياه ، بشكل كاف ، وليس بشكل أكبر من اللازم ؟ هذا ماليس من السهل تحديده .

ولقد شعر قدماء المصريين ، منذ زمن طويل ، أنه لابد لهم أن يسيطروا على مياه النيل ، إذا ما شاءوا ألا يتعرضون مطلقاً لخطر وجود مساحات كبيرة من الأرض محرومة من أحد عوامل النمو والخضرة « الماء » ، ويزعم المؤرخون أنهم قد حفروا بحيرة موريس « بحيرة قارون » لكى تكون خزاناً منظما لفيضانات النيل ، فالمياه التى تصب

فى هذا الخزان الواسع ، والذى يستقبلها أو يصرفها حسب الطلب عن طريق بحر يوسف ، تعوض فيما يقال انخفاض مياه الفيضانات بالغة الضعف ، أما فى حالة الفيضانات الشاذة والعالية فقد كان هذا الخزان يخلص أرض مصر من المياه التى كان من الممكن أن تظل تغطيها لوقت بالغ الطول ، ولربما كانت هذه هى نفس الفكرة الضخمة التى كانت لديهم على الدوام ، ولعلها فى نفس الوقت أنسب الأفكار التى من شأنها ازدهار بلد ما ازدهاراً حقيقياً (١) .

ولا تزال توجد حتى اليوم تلك الترعة التى كانت تنقل المياه من بحيرة موريس « قارون » أو بالأحرى من النيل من مصر العليا إلى بحيرة ماريوتيس « مريوط » ، وإن كان التلف قد أصاب نهاية مجراها .. ولهذا السبب ، نجد الجزء المجاور من ولاية البحيرة للصحراء ، والذى سبق أن خصبته مياه هذه الترعة ، محروماً اليوم من الزراعة .

(٦)
طبيعة لسان الأرض
الذى يفصل بحيرة المنزلة عن البحر

رأينا تبعاً لما قلناه فى هذه المقالة أن جيولوجيا مصر السفلى تخضع لمبادىء بالغة البساطة ، فحيث لا تعرف الطبيعة هنا على الإطلاق نوبات المد الكبرى ، أو البراكين والزلازل ، أو تلك العواصف والإعصارات العنيفة ، التى ينظر لما تحدثه من دمار باعتباره كوارث تظل محفورة فى الذاكرة ، فقد وجب على أشكال الأرض فى هذه البلاد أن تحتفظ بالخواص العامة للمادة ، وأن تتبع تغييرات هذه الأشكال حركة العناصر الموحدة على الدوام ، والتى تتم بموجب قوانين الحركة والمقاومة . فالأمطار التى تسقط بشكل منتظم كل عام أثناء انقلاب الصيف فوق جبال الحبشة تنحت قمم هذه الجبال لصالح وادى النيل والدلتا ، ويترسب الطمى الذى يحمله النيل من هناك

---

(١) أوضحنا فى مقالتنا عن بحيرات وادى النطرون ، وفى ملاحظات عامة حول بحيرة موريس ، ما نراه حول هذه البحيرة ، وحول النظام المبدئى للمياه فى مصر . (انظر المجلد الثانى من الترجمة العربية) .

فى كل مكان تقل فيه سرعة مياهه ، فيرتفع مستوى الأرض التى تظل المياه فوقها زمناً ، وتكون كتلا من الرمال ، وتحدث بعض تغييرات عشوائية فى مجرى النهر ، وتساهم فى تشكيل المرافىء واتساع البلاجات .

وتحمل الأعاصير الرمال من قاع البحر ، وتلقى بها إلى الساحل ، وفى أوقات انحسار المياه تجف الرمال ، وتحملها الرياح من جديد من فوق صخور الساحل ، ولهذا السبب ترتفع البلاجات والكثبان ، وتتحول الأماكن المغطاة من صخور الساحل إلى بلاجات .

ويلتقى التيار الساحلى الذى يتبع سواحل المتوسط من الغرب إلى الشرق ، بمجرى فروع النيل ، وينتج من جهة اليسار ، وبسبب تضاؤل السرعة لهاتين القوتين المندفعتين ترسيباً يتخذ شكل قمم ، تتفاوت فى درجة حدتها ، بينما يتخذ البلاج على اليمين ، وهو الذى يقع بين إتجاه مجرى النهر وهذه القمم الحاصلة ، شكلا دائريا ؛ وهذان الشكلان دائمان ، ويجدهما المرء عند مصب فرع دمياط ، وعند فتحتى فم الديبة وأم فارج .

وتشكل الرمال والطين التى تجلبها هذه الحركة المزدوجة ، فى اتساع البلاجات ، وبخاصة تلك التى تقع إلى اليمين ، حيث تنشأ تلك القمم أو الرءوس التى يراها المرء بين دمياط وبيلوز ، كما تساهم فى ذلك صخور الرصيف وهذا المنحدر الطويل الذى يتوغل إلى الشمال فى المياه ، والذى يبعد عن الشاطىء تلك المرافىء العميقة ، وتتبع هذه المرافىء بطبيعها اتجاه الرمال والطمى . والخليج دمياط على يسار مصب النيل قاع صلب من الطين الأسود فى حين أن قاع خليجى بغافة ورأس بو، اللذين يقعان إلى اليمين ، من الطين الرخو الضارب إلى الصفرة ، وهناك تقوم السفن بالصيد فى بعض الأحيان ، دون مخاطر ، على بعد فرسخين أو ثلاثة فراسخ .

ويحملنا التماثل على الاعتقاد بأن البلاجات التى تربط بحيرة البرلس وبحيرة البحيرة على فروع النيل تدين بتكوينها لنفس الأسباب .

وأخيراً فإن التيار الساحلى ، سواء فى حركته العادية أو عندما تدفعه الرياح القادمة من الغرب ، يشكل عند مقابلته لخليج غزة دوامات غير معروفة لنا إلا فيما

ندر ، إذ هى تكاد لم تدرس على الإطلاق ، وقد ساهمت هذه الدوامات فى طمر الخليج من جهة بيلوز ، وسوف تواصل التقليل من اتساع هذا البلاج .

والآن ، فإذا أخذنا فى اعتبارنا أن النيل ، بدءاً من الدلتا حتى قمة جبال الحبشة ، يمر بين سلسلتين من الجبال الحجرية حتى أسوان ، والجرانيتية إلى الجنوب من هذه المدينة ، فسنحصل على فكرة تقريبية عن كل ما يتعلق بجيولوجية مصر . وتبدو التلال التى تحيط بالصحراوات الليبية فى الجزء الأدنى من مصر ، على أنها تلال رملية إذ تغطيها الرمال الصوانية ، وإن كانت نواتها فى الواقع من الحجر الصخرى .

وقد اقتنعنا بذلك تمام الاقتناع عندما نزلنا فى الكهوف التى بها مومياوات الطيور إلى الجنوب من سقارة ، وعندما دخلنا المقابر الملاصقة لأهرام الجيزة ، وعندما تأملنا أبا الهول ، بل كذلك الأرض التى قامت عليها الأهرام نفسها .

(٧)

لمحة سريعة عن بعض المدن التى لها صلات ببحيرة المنزلة

تقدم بلاد مصر التى زرتها ، فى كل أنحائها تقريباً ملمحاً لفراغ سكانى كبير ، ولقد قدر على مدن هذه المنطقة الواقعة عند مدخل سوريا أن تجد نفسها تحت أقدام الغزاة ، وكان عليها أن تستشعر قدوم جيوش الغزو التى كانت تنتمى فى غالبيتها العظمى إلى شعوب همجية ، ويقودها قادة لا سبيل إلى التعامل معهم ، من قمبيز أو عمرو ، العاتى الفظ ، على أن السبب الرئيسى فى التدهور التام لمدن هذه المنطقة ، كان بلا جدال هو جفاف الفروع البيلوزى والتانيسى والمنديسى .

كانت تقع على شواطىء هذه الفروع أو فى المناطق المجاورة لها ، مدن هامة مثل تنيس [١] وتونة ، وسمنة ، وبيلوز ، بالإضافة إلى مدن أخرى أقل أهمية .

ولقد أصبحت مدينتا تنيس وتونة ، الخربتان ، تقعان اليوم وسط المياه ، وتنتميان كما سبق أن قلنا إلى بحيرة المنزلة .

---

(١) تنيس Tennys ، مدينة رومانية ، بنيت فوق أنقاض مدينة مصرية ، وكانت تنيس هذه مزدهرة أيام أغسطس .

وكانت هاتان المدينتان ككل المدن التى تصلها مياه الفيضان ، تنهضان فوق بسطة صناعية ، لكن أرضهما المليئة بالأنقاض ، والتى نسير فوقها اليوم ، أرض غير مزروعة بشكل تام ، بل إن سطحها قد أصيب بنوع من التبلور بحيث تئز الأرض وتتفتت تحت الأقدام ، كما يفعل البرد ، وقد بدأ فى التجمد ؛ وهذا مايجعل السير خلال هذه الجزر أمراً شاقاً وعسيراً .

كانت تنيس مدينة بالغة الاتساع ، وكان يقوم بالدفاع عنها سور من الجدران ، تعلوه أبراج وحصون ، وبه آبار تمتلىء بالمياه ، لكنها اليوم خالية من أى مبنى ، فأنقاض حمامات ، وأطلال بعض القباب تحت الأرضية والمبنية بحذق بالغ ، والتى يغطى جدرانها أسمنت بالغ الصلابة ، بل هو يبدو بالغ الحداثة ، وأنقاض كهف مستطيل من الجرانيت الأحمر ... تلك هى كل المبانى التى يستطيع أن يميزها المرء وسط أنقاض واسعة من الطوب الأحمر ، والخزف والفخار ، والقطع الزجاجية من كل لون .

ويقوم سكان البلاد المجاورة باستمرار بالحفر فى هذه الجزيرة ، ويجمعون من هناك موادا يستخدمونها فى إقامة مساكنهم ، وبهذه الطريقة نقلت العمد وقواعد العمد ، وقممها ومواد البناء المختلفة التى نراها اليوم موضوعة بشكل شديد الهمجية فى المساجد والمنشآت الرئيسية ، أو الملقاة كيفما اتفق فى المبانى العادية ، وعتبة ثكنة دمياط على سبيل المثال إنما هى قطعة من مسلة بالغة الجمال ، تملؤها النقوش الهيروغليفية ، ولقد وجدنا فى هذه المدينة بجوار أحد الأبواب ، قاعدتين عموديتين مليئتين بكتابتين احداهما يونانية والأخرى لاتينية ، كما وجدنا فى أحد مساجدها عموداً من الرخام الغامق المجزع ، يحمل نقوشا يونانية متأخرة ، امتد إليها بعض التلف .

وكانت تونة أقل أهمية من تنيس ، ولقد قادتنا الصدفة السعيدة لنعثر فيها ، فوق سطح الأرض ، على تمثال قديم من العقيق المجزع يقف فوق قاعدة من العقيق ، ويبلغ طوله ٢٦ مم وعرضه ٢٨ مم ويمثل رأس إنسان من منظور جانبى ، ينطق بتعابير كثيرة : عين ثاقبة ، وملمح شجاع ، وشفاه لامبالية تدل على الازدراء ، وشواهد

أخرى ، وكل هذا يحملنا على الظن بأننا هنا بصدد تمثال لرأس أغسطس ، ذلك الذى استطاع أن يقاوم سحر وجمال كليوباترة ، وأن يتغلب على كل الصعاب التى كانت تحول بينه وبين السلطة .

وتقع سمنة (١) على شاطىء ترعة بحر مويس ، ويبدو أنها كانت مدينة هامة فى الماضى ، وأنها كانت تمتد كثيراً محاذية للترعة ، ونرى بداخلها نوعاً من الفورَم ، أو الميدان العمومى ، على شكل مستطيل ، له مدخل كبير من ناحية الترعة ومنافذ فى الأجزاء الجانبية ، ويتجه المحور الكبير لهذا الميدان من الشرق إلى الغرب ، ولقد لمحنا فوقه كثيراً من المبانى المحطمة والمسلات المكسورة والمقلوبة . وعندما نتأمل أنقاضاً بهذه الضخامة ، فقد يحق أن ندهش من المجهودات التى لابد قد بذلت لقطع هذه المسلات بالقرب من قاعدتها ، ثم قلبها فى الأتربة ، بأكثر مما ينبغى أن ندهش من الوسائل والجهود التى استخدمها الناس أو بذلوها لإقامتها . ولقد احترم الزمن النقوش الهيروغليفية لواحدة من هذه المسلات وقد أخذنا رسماً لها .

واليوم ، فإن سمنة هى مستودع البلح الذى يجلب من الصالحية ، والذى يذهب صيادو البحيرة ليأخذوه مبادلة بالسمك المملح .

أما بيلوز (٢)فتقع على الطرف الشرقى لبحيرة المنزلة بين البحر والكثبان ووسط سهل قاحل عار من أية خضرة . ويعبر طرف الفرع البيلوزى الذى تضاءل ليصبح قناة كبيرة تملؤها الأوحال ــ يعبر هذا السهل بادئاً من البحيرة إلى البحر . ويوجد على شاطىء هذه الترعة قصر الطينة ، الذى انهار أنقاضاً ، بعيداً عن الشاطىء بمسافة كافية ، ويبدو أنه يعود إلى عصر دخول سليم إلى مصر . أما خرائب الفرما فتقع إلى الشرق من بيلوز نحو البحر .

---

(١) سمنة Samnah ، وصان هى مدينة تانيس القديمة ، وقد أطلق عليها فى الترجمة السبعينية (للتوراة) التى تمت فى مصر اسم تزوان Tzoan ومنها جاءت كلمة صان . (انظر d'Anville).

(٢) بيلوز ، كلمة مشتقة من كلمة يونانية تعنى : الطين ، وقد احتفظ لها العرب بهذه التسمية عندما سموها الطينة .

وبعد أن اجتزنا المرفأ الواقع عند مدخل الفتحة البيلوزية ، وجدنا عمقاً كافياً من المياه فى مساحة معينة ، تكفى كى يحتمى فيها أسطول صغير من المراكب الصغيرة . من هذه المنطقة كانت مراكب بحيرة المنزلة تمارس عمليات التهريب إلى سوريا .

أما الطريق الذى يؤدى من فتحة أم فارج إلى قطية (١) فيمر إلى الغرب من الطينة ومن خلال بيلوز . وهذا الطريق موحل للغاية ، ومن الأفضل أن يحاذى المرء فى سيره الفتحة البيلوزية .

وقد لاحظنا ، أثناء مرورنا ، أن ارتفاع الكثبان التى تقع إلى الشرق من بيلوز ، والتى تتجه جنوباً نحو ولاية الشرقية ، أمر يسمح لنا بالتأكد من أن ترعة الاتصال بين الخليج العربى « البحر الأحمر » والبحر المتوسط ، لايمكن أن تؤدى إلا إلى الفرع البيلوزى ، وعلى مسافة كافية من مصب هذا الفرع . ومن هناك كانت الترعة تتفرع من النيل نحو البحر الأحمر ، وبرغم من فلسوف يكون الخوف من اندفاع مياه هذا البحر نحو البحر الأبيض ، والذى أعتقد أنه لاينهض على أسس كافية ، أقل احتمالا بكثير ، إذا ماأقيمت هويسات لتفادى هذا الاندفاع المفترض .

---

(١) يبدو أن قطية هى المدينة التى كان يطلق عليها كينت كوريس Quinte Curce (الكتاب الرابع) معسكر الاسكندر .

وإليكم النص الذى ذكره ، نقلا عن ترجمة بوزيه Bèauzée : « بعد رحيل الأسكندر بسبعة أيام من غزة ، وصل إلى هذه المنطقة من مصر ، التى تحمل اليوم اسم معسكر الاسكندر ، ومن هناك سير جنوده نحو بيلوز ، ثم أبحر عن طريق النيل مع رفقة من صفوته ،وقطية هى المعسكر الوحيد ، بسبب بعض الآبار الغزيرة التى توجد بها ، والتى يمكن أن يجدها المقدونيون فى اليوم السابع من رحيلهم من غزة ، وهى كذلك النقطة شديدة الاقتراب لتسيير فرق عسكرية إلى بيلوز ، وقد قطع جنود نابليون هذه المسافة فى ستة أيام فى حين قطعها جنود الأسكندر فى سبعة .

(وقد درست هذه المدينة الثانية قطية كما يذكر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، الذى وضعه المرحوم محمد رمزى)

(المترجم) .

ويجد المرء فوق سطح سهل بيلوز ، وهو يتجه من البحر إلى الكثبان ، وعلى بعد مسافة قصيرة من هذه ، قواقع تنتشر فى البداية بوفرة كبيرة ، ثم تأخذ بعد ذلك فى التناقص حتى تصبح نادرة ، وفضلا عن ذلك تغطى كل سطح الأرض على وجه التقريب قشور ملحية ، وهكذا يعلن كل شيء أن مد البحر يصل إلى هناك ، وتظل المياه فوق هذه المنطقة لمدة من العام وقت انقلاب الصيف على وجه التقريب . وظاهرة السراب شديدة الانتشار فى سهل بيلوز ، وتبدو الأشياء بعد نصف ساعة من شروق الشمس ، شائهة ، حتى أن المرء لا يعود قادراً على التعرف عليها (١).

ويقول سترابون إن محيط بيلوز كان يبلغ عشرين غلوة ، وإنها كانت تقع على مسافة مماثلة من البحر . وبالفعل فإن امتداد السور الحائطى الذى يوجد فى بيلوز يبلغ عشرين غلوة ، وإن كان البحر يبعد عنها الآن بمسافة أكبر أربع مرات ، من تلك التى كان يبعد بها عنها فى زمن سترابون ، بحيث أننا لو قمنا برسم قوس من بيلوز إلى النقطة من البلاج الأكثر اقتراباً من البحر ، لبلغ طول هذا القوس ٦٠ غلوة . وقد رأينا على الشمال من مدخل قرية أم فارج منطقة واسعة من الأرض تكونت عن طريق الإيداعات التى رسبها النهر بوفرة ، وعن يمين هذه المنطقة يتحرك ذلك التيار الساحلى الذى يسير بحذاء سواحل البحر الأبيض ، متجهاً من الغرب إلى الشرق . ولسوف يؤدى ذلك إلى اختفاء هذا المجرى الطويل ، الذى نشأ كما هو واضح عن تكوين جديد ، وسيزيد اقتراب جزيرة تنيس من البحر بفرسخين ، مما سيؤدى إلى أن يتطابق موقعها فى هذه الحالة ، مع ذلك الموقع الذى حدده لها المؤلفون القدماء .

ولايوجد أقل أثر للخضرة فوق السهل ، حيث تقع بيلوز ، ويرى المرء داخل أسوارها ربوة منعزلة تتوجها الأشجار الصغيرة ، وبعض العصافير هى ضيوف هذا

---

(١) عرف القدماء ظاهرة السراب . واليكم ماقاله كيت كورس ، الكتاب السابع ، الفصل الخامس « فى صحارى سوجديان (بالقرب من سمرقند) تؤدى حرارة الشمس فى أثناء الصيف الى التهاب الرمال ، وفضلا عن ذلك ، يخرج البخار من جوف الأرض بالغ الالتهاب ، فيجعل الضوء مبهراً ، فلا تعود الأرض تبدو سوى بحر واسع عميق » .

الدغل الوحيدون ، وهم الذين يخففون بعض الشيء من تلك العزلة المقبضة التى ترين هناك . وفضلا عن ذلك فسوف لايرى المسافر الذى تستبد به الدهشة ، فى هذا المكان الذى كانت توجد به ذات يوم مدينة كبيرة وشعب كثير ، إلا بعض الأعمدة الراقدة فى الأتربة ، وبعض الأنقاض الفقيرة ، وسيظل يبحث بلا جدوى فى الضواحى عن ظل أثر لمقاتل عرف السعادة زمناً طويلا ، وكان عليه فى النهاية أن يخضع لمشيئة قيصر ، لكنه لن يجد هناك سوى ذكرى هذا الرجل الشهير ، ضحية الغدر والنكران ، وأكثر حوادث الاغتيال خسة وجبناً ونذالة .

إن نصباً يقام فوق هذا الشاطىء المهجور الذى دفنت فيه بقايا بومبى (*)

(*) بومبى Pompèe ، واحد من قادة روما العظام ، وهو ينحدر من أسرة غنية من طبقة الفرسان . وقد خاض الكثير من المعارك ، ونال اعجاب مواطنيه بشجاعته واعتداله وحذقه لكل ضروب الالعاب وفنون الحرب ، ولكنه كان مرهف الشعور ، شديد الحياء ، جميل الخلقة . وحين تقدمت به السن أثر حياؤه كما أثرت بدانته فى مقدرته على القيادة ، وكان تردده سببا فى هزائمه القاصمة أمام قيصر حين أدى الصراع بينهما إلى اشتعال الحرب الأهلية .

وقد كان هو وقيصر فى البداية صديقين ، وأقر قيصر كل السلطات الاستثنائية المطلقة التى منحت لبومبى — ضد رغبة مجلس الشيوخ — وذلك حين كلفه بومبى بتأديب القراصنة الذين قطعوا سبل التجارة على روما فى البحر المتوسط . وقد نجح فى مهمته نجاحا منقطع النظير ، كما ضم إلى روما ممالك وبلدانا جديدة وأنشأ مايزيد على ٣٧ مدينة ، وملأ خزائن روما بالمال وتدفقت عليها الغلال .

وحين رفض مجلس الشيوخ ، برغم ذلك ، المعاهدات التى وقعها بومبى ، كما رفض كل اقتراحاته ، وقف قيصر إلى جانبه وتألفت منهما بالاضافة إلى زميلهما كراسس حكومة ثلاثية .

لكن موت كراسس فى إحدى حملاته فى الشرق أدى إلى اختلال التوازن بين الزعامتين الكبيرتين . وبينما كان قيصر يخوض غمار القتال ضد قبائل الغال أدت الأحداث والقلاقل إلى زيادة نفوذ بومبى الذى فوض فى النهاية قنصلا « بغير زميل » وهى عبارة مهذبة تعنى الديكتاتورية القديمة .

واستصدر بومبى تشريعا يحول بين قيصر وبين ترشيح نفسه قنصلا ، وكان بومبى فى هذه الأوقات قد تحالف مع كل المحافظين والرجعيين بينما كانت الطبقات الفقيرة فى روما تتلهف لعودة قيصر .

وإذ خشى قيصر مغبة مايدبر له من مكائد ، ومايراد لبلاده فقد بادر بالهجوم بأحد فيالقة ، وبرغم قلة جنوده كان النصر حليفه فقد فتحت له المدن أبوابها فى حين أدى تردد بومبى وترهل جيوشه إلى الانسحاب المرة بعد الأخرى . وبرغم كل الانتصارات التى أحرزها قيصر فإن قيصر قد عرض المرة تلو المرة الصلح على بومبى لكن الأخير كان يرفض على الدوام .

وعندما دارت المعركة الفاصلة ولاحت الهزيمة فر بومبى ونصح أتباعه بالاستسلام بقيصر وركب هو سفينة وصحب زوجته وبعض رجاله معه إلى الاسكندرية .

سوف يكون تخليداً لآلاف الذكريات [١] وفوق ذلك ، فلسوف يحدد هذا النصب تلك الفترة التى جاء فيها أحفاد هؤلاء الفرنسيين [٢] أنفسهم الذين حملوا آخر طلقاتهم إلى بيلوز ، بعد أن خاض هؤلاء الأحفاد معركة خالدة ضد أوربا المتحالفة ، وبعد أن اجتازوا المتوسط واخترقوا الإسكندرية .. جاءوا بعدستة قرون ، ليس كفرسان مغامرين متعصبين ، وإنما كمقاتلين أصدقاء للبشر ، وللفنون والعلوم ، ليرسموا معالم الطرف الآخر من قاعدة مصر « الدلتا » ، والطريقين اللذين يؤديان إلى آسيا وإلى الهند ، وبلغوا فى مهمتهم تلك أرض النوبة الحارقة ، ولسوف يسعون لتخليد إقامتهم فى هذه المناطق ، بنصب تذكارى يكون لائقاً بالدرجة الأولى بحضارة شعوب الشرق .

* * *

= لكن بوثينس Pothinus ، خصىّ بطليموس الثانى عشر ووزيره ، أمر الخدم بأن يقتلوا بومبى اتقاء لغضب قيصر أو سعيا لرضائه ومكافأته ، فطعن بومبى طعنة نجلاء حين وطأت قدماه أرض الشاطىء بينما كانت زوجته تنظر اليه فى هلع ، وهى على ظهر السفينة .

وحين جاء قيصر ، أهدى إليه بوثينس رأس القائد بومبى الذى فصله القاتل عن جسده ، لكن قيصر ولى وجهه جزعا واستنكارا ، وأخذ يبكى من فرط تأثره :

(المترجم)

(١) ويمكن للمرء أن يخط هذه العبارة البسيطة فوق هذا النصب : « من بونابرت » ، تخليداً لذكرى بومبى .

(٢) الصليبيون .

ملحق

إليكم ، بشكل تقريبي ، تعداد سكان المدن والقرى التى تجاور بحيرة المنزلة :
أقول بشكل تقريبي ، حيث لم يكن هناك ماهو محدد فى هذا الخصوص ، وسط هذه الأنقاض ، إذ أن المعلومات التى يمكن المرء أن يحصل عليها ، فى مثل هذه الظروف ، تكون غامضة لحد كبير .

العزبة (1)	٢٥٠
.....	١٥٠
.....	١٥٠
.....	٢٠٠
دمياط	١٨,٠٠٠
السنانية	٣٠٠
منية شريف (حالياً) (ميت شريف)	١٥٠
.....	١,٠٠٠
قصب القش	١٢٠
.....	١٠٠
.....	١٠٠
الرحامية	١٥٠
المنزلة	٨,٠٠٠
منطقة المنزلة	٥٠٠
النسايمة	٢٠٠
.....	١٠٠
المطرية	٣,٠٠٠
.....	٠٨٠
المجموع	٣٢,٥٥٠

(١) لم يتم تصحيح املاء هذه الأسماء بسبب غيبة المعلومات اللازمة (وقد تعذر بالتالى ترجمة وتصويب هذه الأسماء فآثرت أن أترك مكانها خالياً) (المترجم) .

(٣)

شابرول ، لانكريه

رحلة إلى غرب الدلتا

العنوان الأصلى للدراسة : نبذة طبوغرافية عن الجزء من أرض مصر الواقع بين الرحمانية ومدينة الاسكندرية ، وعن ضواحى بحيرة مريوط .

(١)

بينا فى دراستنا عن ترعة الاسكندرية (*) ، المواقع بالغة الأهمية التى يقابلها المرء بطول مجرى هذه الترعة ، ولقد كان الغرض من تلك الدراسة أن نتعرف على حالة الملاحة حالياً فى هذه الترعة ، وعلى الوسائل التى يمكن أن تجعل منها مجرى صالحاً للملاحة طيلة العام ، ويتبقى علينا هنا أن نضيف بعض التفاصيل حول هذه المنطقة من أرض مصر التى ترويها ترعة الاسكندرية ، والتى تلامس منطقة المريوطية ، كما يمكن لهذه المعلومات أن تستخدم فى تكملة اللوحة الطبوغرافية لذلك الإقليم المسمى : ولاية البحيرة .

يوجد القليل من الآثار فى كل هذه المنطقة التى عانت كثيراً من التغييرات الفيزيقية والسياسية ، فقد أدى طول مكث المياه ، والأعمال التى تتطلبها الزراعة وكذلك غزو رمال الصحراء لأراضى هذه المنطقة ـــ أدى ذلك كله بالضرورة وبدرجة كبيرة إلى إختفاء آثار العصور السابقة على غزو الاسكندر ، هذا إن كانت هذه المنطقة فى تلك العهود مسكونة أو مزروعة على الإطلاق .

وبرغم ذلك فقد عثرنا هناك على آثار قديمة ، ففى سماديس رأينا قطعتين لعمود من الجرانيت الأحمر يبلغ طول قطره ٤٠ سم ، كما وجدنا فى قرية أفلاقة ، وهى تقع على بعد حوالى ألفى متر من النيل ، على الشاطىء الأيمن لترعة الاسكندرية ، بالقرب وإلى الشمال من دمنهور ، وجدنا ثلاث قطع لنحت مصرى يحمل كتابات هيروغليفية ، ولم تكن هذه الكتابات شديدة الوضوح ، لكنها كانت منحوتة بعناية كبيرة ، وفى واحدة من رسومها البارزة والتى انقسمت إلى جزئين توجد وجوه لبعض الحيوانات ، وثمة رسم لأوزة صغيرة ضمن رسوم أخرى ، لكن ماهو أكثر إثارة من الرسوم الثلاثة التى تحدثنا عنها من قبل وفى مكان سابق هو وجه لسيدة جالسة ، وهو عمل بالغ الروعة ، منحوت بشكل بارز ، وفى الفراغ ، على حجر صلب بالغ النعومة ، من نفس نوع حجر أنيتوبوليس .

(*) الدراسة العاشرة من هذا الكتاب .

وإذا ما عدنا إلى الرسم الموجود فى هذا العمل ، فسوف نرى أن رقة التمثال لم تفارقه مطلقاً ، مثله فى ذلك مثل النقوش البارزة فى أجمل معابد مصر العليا ، فكل شيء يعلن أن هذه القطعة الثمينة ربما كانت جزءاً من إفريز أو من رسم بارز لمعبد كان يوجد فى ضواحى هذه المنطقة لرفات نسر ، نتعرف فى وجهه ورأسه المغطاة ، على الآلهة إيزيس ، التى يرتسم على ملامحها تعبير يطفح بالرقة والرضا .

وعلى بعد مائة متر من قرية محلة داود التى تقع على شاطىء ترعة دمنهور ، وعلى بعد ٤٠٠ متر من الرحمانية ، شاهدنا مبنى قديما من الطوب مساحته كبيرة ، وبجواره كومة ضخمة من الملاط المختلط بالجير ، وقد علمنا أنه كانت توجد فى هذا المكان فى الزمن القديم مدينة مسيحية ، وأن هذه المبانى كانت لحمامات هذه المدينة . وفى الواقع فقد رأينا أن بعض هذه المبانى واسع وبعضها الآخر ضيق ، ويتخذ هذا وذاك إما شكل دائرة وإما شكل نصف دائرة وكانت كل هذه المبانى مطلية بأسمنت رائع أحمر اللون ، تغطيه طبقة من أسمنت أبيض بالغ الصلابة والنعومة ويقول أهالى البلاد بأن هذا الأسمنت قد عومل بالزيت . وبعد صفين من الطوب يوجد أسمنت مماثل وطلاء مماثل .

وبعد أفلاقة وقابيل بالاتجاه نحو الغرب ، وجدنا كثيراً من الخرائب وهى أنقاض لمدن أو كفور كانت فى الماضى مزدهرة . ويحيط شاطىء الترعة أكوام مغطاة بالطوب المحروق وهى بقايا مساكن قديمة وبقايا أشياء اندثرت منذ زمن طويل . وعلى الرغم من الفوائد التى تقدمها هذه الترعة . فقد فقدت هذه البلاد كل أهميتها وهجرها على وجه التقريب كل سكانها ، بل إن الزراعة نفسها قد توقفت . وكانت قرية بسنتواى هى آخر قرية فى هذا الجانب والتى ما يزال لها بعض من الأهمية .

وحسب المعلومات التى قدمها لنا شيخ العرب مسبك : فإن بحيرة من النطرون تقع على بعد ثلاثة فراسخ فقط من دمنهور ، لكن هذا النطرون محدود القيمة . ويتفق هذا الموقع لحد ما مع قرية محلة خيل ، غير بعيد من الحد الشرقى الأقصى لبحيرة مريوط . وفى إتجاه الشمال الغربى ، بالقرب من قرية سنهور ، نجد فوق أرض سميكة

بالغة السواد مياها مالحة ، وملحاً بحرياً متكلساً ، يختلط دون شك بقليل من النطرون (١) .

وعند أبي الخدر ، وهي قرية تقع على شاطيء ترعة الاسكندرية ، كما أنها اليوم غير مأهولة بالسكان ، توجهنا إلى قرية كوم البركة وعبرنا الترعة ، وعلى بعد حوالى ٢٥ متراً عبرنا ترعة أخرى بالغة الانتظام ، يبلغ عرضها من ١٦ ـــ ١٧ مترا وتندمج بالقرب من القروى مع الفرع الحالى وتتجه من الجهة الأخرى نحو بسنتواى ،ويقول أهالى البلد إن هذه ترعة قديمة تأخذ مياهها عند أطفيح بالقرب من فوه . وقد عثرنا على هذه الترعة وعبرناها عندما اتجهنا مباشرة من برك الحمام إلى الرحمانية على بعد ¼ فرسخ قبل بسنتواى وإن كانت فى هذه المنطقة أصغر كثيرا منها عند كوم البركة . ولعل السبب فى ذلك . هو نفس الرأى الذى استنتجناه بخصوص ترعة الاسكندرية الحالية التى ننظر إليها على اعتبار أنها قد تكونت من اتصال عدة ترع كانت فيما مضى ترعاً مختلفة (٢) .

وعلى شاطيء هذه الترعة يوجد تجاه قرية أبى الخدر كوم بالغ الارتفاع يغطيه الطوب . وهذه المنطقة من ولاية البحيرة تزخر بأعداد لا حصر لها من الكثبان المتشابهة وبخاصة فى المنطقة الواقعة بين قرية كوم البركة والاسكندرية وثمة تل تجاه هذه القرية نفسها فى الجانب الآخر من الترعة . وقد لمحنا فى بقعة واحدة خمسة عشر تلا ، وهذه المرتفعات هى بلا أدنى شك بقايا مدن أو قرى قديمة . وينبغى على المرء أن يرى بنفسه هذا السهل الفسيح ، حتى يستطيع أن يكون فكرة عما كانت عليه هذه المنطقة فى الماضى .

---

(١) كتبت هذه الملحوظات فى عام ١٨٠٠ ، وقد تغيرت أحوال هذه المنطقة بعد أن قطع الجيش الانجليزى سد هذه الترعة ودخلت مياه البحر المجرى القديم لبحيرة مريوط وهو الحادث الذى يعود إلى عام ١٨٠١ . وتشكل هذه القرية اليوم جزيرة وسط هذه البحيرة.

(٢) شاهدنا فى بسنتواى غزلانا تتجول على حريتها فى السهل .

لِلُوحَهْ [*] واحدة من هذه القرى المهجورة ، وتقع على الشط الأيسر للترعة ، وتوجد على الشط الأيمن قرية النشو التى تقع فى نفس الوقت فى الزاوية الجنوبية الشرقية لبحيرة أبى قير . وهناك تبدأ سلسلة من المرتفعات الموازية للترعة ، والتى تلامسها بالقرب من قرية الكريون ، لكنها ليست على الإطلاق خرائب من الطوب ، ونحن نحدس أنها كانت تستخدم سداً أو هويساً لإحدى الترع ، ويوجد بالقرب من ذلك حائط من الحجارة ، يفصل الترعة عن بحيرة أبى قير ويبلغ سمكه من ١ إلى ١,٣ مترا ، وأسمنت هذا الحائط بالغ الصلابة ، وهو جزء من سد أرضى يبلغ سمكه حوالى ستة أمتار [١] . وفى مناطق عديدة نجد مبان مماثلة يبدو أنها ذات أصل أغريقى ، وتفصل الترعة عن المستنقعات المالحة جدران بالغة الضخامة من الحجارة ، لكن بعض هذه الجدران قد تقوض حتى الأساس . وفى البيضا التى تقع على مرتفع ، يوجد حائط قديم من الطوب الذى يبلغ طول الواحدة منه من ٢٠ ــ ٣٠ سم وهو متماسك بفعل كثير من المونة . وثمة آبار واسعة مبنية من الطوب كتلك التى توجد فى قرية كوم البركة .

وفى قرية الكريون وبالقرب من أحد خزانات المياه ، وجدنا أيضاً أنقاضاً تعود إلى الأزمنة القديمة ، وهى عبارة عن بقايا نقش بارز من الحجر الجيرى يبلغ ارتفاعه حوالى المتر ، أما طولاه الآخران فيبلغان ٢٠ ، ٣٠ سم وعلى إحدى واجهاته رسمت زينات تسمى سلاسل الرماح ، والتى يحسن أن نقارنها بنباتات رمزية . فهل جلبت هذه الشظايا وكذلك مثلها التى توجد فى قرية أفلاقة من مكان آخر ، أم كانت توجد مبان مصرية قديمة فى كل هذه الأماكن المختلفة ؟ أما نحن ، فإننا محمولون على الاعتقاد بأن هذه وتلك قد أتت من خرائب جزيرة هيرموبوليس القديمة ، وهى التى كانت تقع فى نفس المكان الذى تشغله اليوم مدينة دمنهور .

(*) أو للوها Léloha . وقد جاء بوصف مصر ، الدولة الحديثة ، مجلد ٣ ، الفهرس الجغرافى ص ٨٤٢ ، أنها قرية مهجورة
(المترجم) .

(١) تحدثنا فى دراستنا عن ترعة الاسكندرية عن سد حجرى يبلغ سمكه من ٦ ــ ٧ أمتار ، لكن ذلك هو السمك الإجمالى للسد ، فالسمك الحجرى لا يبلغ إلا متراً واحداً أو $\frac{1}{3}$ ١ من الأمتار .

(٢)
بحيرة إدكو وضواحيها

يرتفع البحر أحياناً ما بين إدكو وسدود أبي قير فوق مستوى سطح الأرض بكثير ، وعندما ينحسر فإنه يترك أرضاً سوداء عارية تتكون من رواسب بالغة القدم من رواسب النيل . وتعلو هذه المسافة من الأرض لقدم أو قدمين فوق مستوى سطح البحر ، وهي مغطاة في كل مكان بالرمال ، ومع ذلك فهناك منطقة تدوس فيها القدم على نفس الأرض القديمة ، وعلى نفس الطريقة نرى واحداً أو اثنين من كثبان من الطين الأسود المختلط ببقايا من الفخار ، وتلك مرتفعات كانت تنهض فوقها فيما مضى بعض القرى [١].

ومنذ عامين ألحف سكان إدكو في طلب قطع جسر طويل يمتد على شاطىء النيل ويحمي ديروط ، وقد ووفق على الطلب دون دراسة كافية ، وقطع الجسر شمال ديروط بنصف فرسخ ، وجرت مياه النيل بكميات كبيرة للغاية إلى البحيرة . وفي عام ١٨٠٠ كان الفيضان كبيراً فطفت المياه في البحيرة بوفرة شديدة ، وأتت هذه المياه التي لم تحجزها أية ترعة على جزء كبير من أراضي ديروط ، واجتاحتها من كل الجهات وخلطت بأرضها كميات كبيرة من الرمال ، وهذان أمران يحول كل منهما دون زراعة الأرز . فالأمر الأول لا يسمح بأن تسوى الأرض بطريقة تسمح باستقبال نوبات الري الصناعي ، أما الثاني – وهو الرمال – فينزع عن الأرض خاصية سرعة إنماء المحصول ، ذلك أنه من الجدير بالملاحظة أن كل الأراضي التي يزرع بها الأرز تكون سوداء لحد كبير حتى في أكثر الحالات جفافاً ، وهو مايعني أنها لا تحتوي على أي جزء

---

(١) لاحظنا أن النباتات في هذه المنطقة تنمو بسرعة كبيرة وبدرجة أكبر مما هو معتاد في مصر ، فقد رأينا أن القمح التركي ، بعد خمسين يوما من زراعته قد نما لطول ٥ أقدام بل لقد بلغ طول بعض السيقان ٦ أقدام أي حوالى المترين . وهكذا فمع افتراض أن النمو يحدث بنفس النسبة مع الزمن وهذا صحيح لحد ما ، فإننا نستنتج أن هذه السيقان الخارجة عن المألوف كانت تنمو بمعدل ٤ سم في اليوم الواحد أي بمعدل $\frac{1}{6}$ سم في الساعة الواحدة .

(القمح التركي هو الذرة الشامية) .

من الرمال . واستوجب الأمر أن يقفل الجسر الذى قطع برعونة كى تعود إلى أراضى ديروط خصوبتها القديمة ، وهو ما لا يمكن أن يتم دون كثير من الوقت والجهد والتكاليف .

وتشبه إدكو الواقعة على الطريق بين رشيد والإسكندرية لمدينة صغيرة أكثر مما تشبه لقرية ، ويوجد بها عديد من المآذن والمنازل المبنية بالطوب المحروق وهو نفس ما نجده فى رشيد ، حيث المنازل واسعة وتتكون من عدة طوابق . ولا تشاهد فى هذه الأماكن أية حيوانات ضخمة ولا يسكنها إلا الصيادون . وقد تزايد عدد سكانها بسبب تهدم القرى المجاورة لأبى قير .

وقد دفنت الرمال التى يخرجها البحر من جوفه باستمرار ، والتى تحملها رياح الشمال فوق إدكو جزءاً من المدينة بالفعل ، وسوف تتقدم هذه الرمال باستمرار وعلى الدوام حتى تبلغ رشيد وهى التى تواجه نفس الوضع .

والبحيرة الواقعة قريباً من إدكو كثيرة الأسماك ، ويشكل الصيد بالنسبة للأهالى كما هو الحال بالنسبة للحكومة دخلا كبيراً . وهذه البحيرة ليست سوى مستنقع ضحل لا يصل عمقه فى أى مكان لأكثر من متر تحت مستوى سطح الأرض . وهى تستقبل مياه النيل وقت الفيضان ، وعندما يكون الفيضان بالغ الوفرة تصب المياه فى البحر بالقرب من بحيرة أبى قير عند الوكالة أو منزل المسافرين التى يطلق عليها الفرنسيون إسم : المنزل المربع .

وهذه الوكالة مبنية بالحجارة وهى شديدة المتانة ، وعندما تتصل مياه البحيرة بماء البحر تغرق المياه جدرانها ، وكان عمق منطقة الاتصال فى عام ١٨٠٠ يبلغ حوالى من ٦ — ٧ أمتار وعرضها حوالى ٣٥ متراً . وتكفى الرمال التى يحملها البحر عادة لإغلاقها . وهذا المكان ، هو نفسه المعدية التى تحدثت عنها كل مؤلفات البحارة المحدثين إذ لم يكن قد تم فى عهدهم قطع سدود أبى قير .

وفى عام ١٨٠٠ تلقت بحيرة إدكو ، بخلاف المياه التى تأتيها من ديروط مياهاً أخرى من جزء من سهل دمنهور بفعل قطع حدث فى جسور ترعة الإسكندرية بالقرب من سنهور ، وهذا ما يدل على حقيقة المستوى الخاص بهاتين

البقعتين . وأخيراً فقد تلقت البحيرة مزيداً من المياه بين الفتحة المسماة : أبو جاموس بالقرب من قرية محلة داود عن طريق المستنقع الذى ننظر إليه باعتباره مجرى الفرع الكانوبى القديم . وهذا المجرى الأخير ، حسب أقوال أهل البلاد ، هو المنفذ الوحيد الذى كان فيما مضى يحمل المياه إلى البحيرة .

ولو أن جسور ديروط كان قد أحسن بناؤها ، لكان فى الإمكان زراعة كل أراضيها ولزادت كمية إنتاج البحيرة من أسماك الصيد ولأمكن لفتحة : « أبى جاموس » أن تحصل كل عام على كمية كافية من المياه ، بل ولربما كانت قد عادت تبعاً لذلك شواطىء الفرع الكانوبى القديم لتصبح آهلة بالسكان . ولكن ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن معدل الانحدار من ديروط إلى البحيرة شديد السرعة ، فلو أن ترعة قد أنشئت فى هذه المنطقة لأصبحت بالغة الاتساع ولأحدثت لكثير من الأضرار .

وعندما يكون الفيضان ضعيفاً أو عندما يهمل فتح الجسور التى ينبغى أن تسمح بمرور مياه النيل إلى بحيرة إدكو ، فإن البحيرة تتضاءل لتصبح صغيرة الاتساع ولتصبح مياهها شديدة الملوحة ويصبح عائد الصيد منها بالتالى ضئيلا [١] .

(٣)

بحيرة مريوط

لم تكن شواطىء بحيرة مريوط وقت مجىء الحملة الفرنسية [٢] — وكما يعتقد البعض — ممحوة تماماً ، فعند رحيلنا من البيضا متبعين الإسكندرية لاحظنا بعد مسيرة ثلاثة أرباع الساعة وعلى بعد حوالى ٥٠ — ٦٠ متراً من الترعة منحدراً سريعاً على مقربة فرسخ أو اثنين من الإسكندرية . وكان هذا المنحدر نفسه شديد الاقتراب من الترعة . وكنا نرى على قمة هذا المنحدر ومن مسافة إلى أخرى بقايا جدران ليست من الطوب وإنما من الحجر الجيرى . كانت أرض قاع المنحدر رطبة بدرجة ملموسة ، بل

---

(١) ينبغى أن نتذكر أن الفترة التى كتبت فيها هذه الملاحظات هى عام ١٨٠٠ .

(٢) على الرغم من أن الأماكن قد تغيرت كثيراً منذ الوقت الذى كتبت فيه هذه الملاحظات فإننا نعتقد مع ذلك أن من الواجب الاحتفاظ بها هنا بالشكل الذى سجلناه فى مذكراتنا عن هذه الرحلة .

وكانت تحتوى على عدة مستنقعات من الماء المالح ، كما كانت أيضاً أكثر رملية من بقية أراضى مصر .

ويذكر بيلون Belon أنه رأى بحيرة مريوط مليئة بالمياه ومن السهل تبين ذلك ، فعندما تكون مياه النهر فى قمة ارتفاعها فإن كل السهل الواقع إلى يسار الترعة يمتلىء بالمياه التى تبقى حتى مجىء الربيع ، ولا تقل هذه المياه مطلقاً أثناء الشتاء بسبب الأمطار التى تسقط هناك دائماً بكميات تكفى لتعويض الفقد الذى يسببه البخر .

وتدعم الجسور اليسرى لترعة الإسكندرية المجاورة للمستنقعات المالحة بالقرب من المخفض بحائط من الحجارة تقويه من مسافة لأخرى دعائم سميكة ، ويبدو أن هذا الحائط قد صنع لحماية الجسر من مياه بحيرة مريوط التى كانت فى هذه الفترة دون شك تحتفظ بمياهها طيلة العام ، وحيث أن المياه لا توجد بها الآن إلا لفترات محدودة ، وحيث أن مياهها لم تعد تعلو فإن هذا الحائط لم يعد ضرورياً .

وعندما نتوجه من الإسكندرية إلى البيضا عن طريق أقصر فإننا نعبر مجرى بحيرة مريوط (مريوتيس) القديمة ، لكن هذا الطريق لا يستخدم إلا فى الصيف إذ توجد المياه فى الأوقات الأخرى فى هذا الاتجاه ، وترتفع هذه المياه لتبلغ نحو قدم ، بل إن الأرض حتى فى الصيف تكون شديدة الرطوبة ، ويتكلس الملح فوق كل مكان من سطحها .

وعند الاتجاه إلى الجنوب الغربى من قرية كوم البركة ولمسافة ثلاثة فراسخ ونصف إلى سيدى غازى وهى القرية التى تقع على وجه التقريب عند أقصى المنطقة القابلة للزراعة فى هذا الإقليم . وهذه القرية تابعة لعربان مزارعين ، وتروى أرضها عن طريق الترعة الغربية التى تشكل امتداداً لترعة بنى يوسف والتى يغذى مجراها فروع عديدة مثل فرع الطرانة ، وفى بعض الأحيان يوجد بها مياه كثيرة ، وفى عام ١٨٠٠ تلقت الترعة كمية كبيرة من المياه بلغت مستوى النيل وسالت بكميات كبيرة خلف دمنهور لتصب فى بحيرة مريوط بعد أن روت المنطقة [١] .

وعند الاتجاه إلى الغرب من سيدى غازى وبعد مسيرة ثلاث أو أربع ساعات

---

(١) بنيت قرية سيدى غازى على نحو مخالف بعض الشىء لقرى الداخل ، فكل البيوت تقريبا على شكل قباب ، وقد وجدنا فى مسجد القرية محلا كبيراً لأدوات الزراعة وأوانى الألبان التى تنقلها السيدات على ظهور الجمال وكذلك تلك الأغطية التى يصنعها العربان ، وتوجد بالقرب من هذه القرية ، وفى بعض الأماكن من ضواحيها ، مستنقعات كثيرة من المياه الحلوة لكن لونها يميل إلى البياض كما أنها محملة بالجير .

بدأنا نخوض فى أرض رطبة كانت وقت الفيضان شديدة الوحولة ، تلك هى بقية الجزء الغربى من بحيرة مريوتيس القديمة ، وبعد أن سرنا حوالى الفرسخ من هذا المكان وجدنا أنفسنا عند بداية وادى مريوط . هناك يبدأ الجبل الذى يحد بارتفاعه أضيق فروع البحيرة ، وقد ميزنا المكان بزاوية ولى يسمى الشيخ على ينهض مقامه فوق صخرة ، وقد استغل الصخر للحصول منه على الأحجار بل لقد حفرت فيه كهوف ومغارات ، وتوجد بالقرب من ذلك مياه حلوة تأتى مثلها مثل مياه سيدى غازى من الأمطار التى تسقط بكميات وفيرة فى كل هذه المنطقة . وتبلغ المسافة من هذه الزاوية حتى شاطىء البحر مباشرة حوالى الفرسخين لكن هذه المسافة تقل إلى فرسخ واحد إذا اتجهنا إلى الإسكندرية .

ووادى مريوط الذى يعبره المرء وهو متجه من الزاوية إلى البحر ، منبسط تماماً وأرضه سوداء موحلة يختلط بها كثير من الرمال ، وعند الاقتراب من الشاطىء ترى كمية كبيرة من كتل الحجارة الضخمة المقتطعة .

والأرض هناك مغطاة بالقواقع لدرجة تبدو منها بيضاء تماماً . وأرض هذا الوادى وكذلك أرض بحيرة مريوتيس مالحة ولا يمكن لها مطلقا أن تزرع لذا يسميها أهل البلاد : السباخة .

وربما كانت الروابى المجاورة للضريح (الزاوية) هى تلك التى كان ينمو عليها النبيذ المريوطى الذى تغنى به هوراس ، والأرض هناك طباشيرية كما هو الحال فى شمبانيا ، أما الأراضى المجاورة وكذا أرض الضريح فهى طباشيرية بالمثل ويزرع فيها بكثرة صنف من البطيخ الشهير بجودته البالغة وهو يماثل بطيخ بحيرة البرلس . وهذه الأراضى بيضاء تماماً ويبدو أنها تتكون من أحجار مسحوقة ، ويزرع البطيخ فى خطوط طولية وعلى عمق يزيد على المتر .

وتقع خرائب مريوط وبقايا مدينة ماريا القديمة على بعد حوالى ثمانية فراسخ من الإسكندرية وقد وصفناها فى مكان آخر .

وعند الطرف الشرقى للوادى الطويل ، الذى شاهدناه يمتد بعيداً نحو الغرب ليصبح الفرع الضيق لبحيرة ماريوتيس ، والذى يسميه العربان وادى مريوط وهو يوازى شواطىء البحر ثم ينفصل عنها بواسطة واد يسمى درياح البحر ــ تسقط الأمطار فى الوادى الأول بسبب حالة خاصة من البرودة ،وذلك بخلاف مياه النيل ، وبرغم هذا يشاهد هناك قليل من العربان ، ولا يمكن أن يشاهد المرء فى هذه المنطقة سوى غابات من النخيل تبتعد الواحدة عن الأخرى بمسافة كبيرة ، كما أنها ليست سوى أدغال يبلغ ارتفاعها بين ٣ و ٤ أمتار كما توجد فى نفس المنطقة ٥ أو ٦ نخلات نمت على نحو طيب ، بالقرب من الضريح الذى يسمى ضريح أبى الخير .

ويبلغ عرض وادى مريوط بالقرب من الإسكندرية حوالى فرسخ واحد لكنه يأخذ فى الضيق شيئاً فشيئاً ، وبالقرب من أبى صير ــ تابوزيريس القديمة ــ حيث يقع برج لا يعود اتساعه يبلغ سوى ¾ فرسخ فقط .

وبدءاً من تل حمامات كليوباترة حتى المكان الذى ينتهى فيه التل ليغلق مدخل الوادى المسمى درياح البحر ، أى فى مساحة تبلغ أكثر من ثلاثة فراسخ توجد المحاجر التى استغلت على نطاق واسع والتى استخدمت فى بناء مختلف مدن الإسكندرية .

ولا يستطيع المرء أن يمشى فى وادى درياح البحر لأكثر من ٤٠٠ متر دون أن يقابل آثار حوائط إما موازية لطول الوادى وإما متعامدة عليه ، ويرى المرء فيها أيضاً معالم جداول مطلية بالأسمنت لنقل المياه ، وثمة خرائب مماثلة فى ذلك الجزء من وادى مريوط الذى نتبعه قبل أن يندمج فى وادى ديارح البحر ونلاحظ عن فتحة الوادى على اليمين آثار حائطين متوازيين يبلغ ارتفاع كل منهما مابين ٥ إلى ٦ أمتار ويبلغ طول كل منهما ٩٠٠ متر .

ولابد أننا سنخطىء لو أننا افترضنا أن كل هذه الخرائب إنما هى بقايا منازل ، لأن الأمر لابد أن يعنى عندئذ أنه توجد مجموعة من المنازل المتوالية على امتداد عشرة فراسخ ، لكن الأقرب إلى الصحة أن تكون هذه الأنقاض بقايا لأسوار وحدائق وبساتين . كما لابد أن نستنتج كيف أن الصناعة التى كانت فى مدينة مجاورة بحجم الإسكندرية قد قضت بانتزاع جزء من أرض ترويها مياه الأمطار بشكل يكفى لإمكانية أن تبنى فيها خزانات للمياه . ثم إن إمتداد هذه الأسوار التى يقطع بعضها الوادى بشكل عمودى لأمر مناسب تماماً لمثل هذا الاستغلال .

وقد رأينا فى نفس الوادى ــ وادى درياح البحر ــ قطيعاً كبيراً من الماعز وحوالى العشرين من الثيران والأبقار ، وهى من نوع يختلف كثيراً عن ماشية الداخل فهى أصغر منها بكثير كما أن سيقانها أقصر نسبياً ،ولونها أشقر يضرب إلى اللون البنى أما أسفل بطنها فأسود اللون ، ويتماثل كل القطيع فى هذا اللون .

ويحتل كل هذه الوديان العربان الذين يرعون فيها قطعانهم أو ينسحبون إليها عندما يطردون من داخل مصر . وعند جولتنا كانت هذه المنطقة فى حوزة قبيلة أولاد على الكبيرة العدد (١٠ فبراير ١٨٠١) لكننا لم نجد فى وادى درياح البحر سوى رجلين أو ثلاثة رجال وطفلا واحداً وسيدة مسنة لم يكن قد تسنى لهم الوقت الكافى للفرار قبل مجيئنا فظلوا مختبئين بين الصخور وكثبان الرمال التى تفصل الوادى عن البحر .

(٤)

دى بوا ــ ايميه
جولوا

رحلة إلى أعماق الدلتا

العنوان الأصلى للدراسة هو : رحلة إلى أعماق الدلتا ، وتتضمن هذه الدراسة بحوثاً جغرافية عن بعض المدن القديمة ، وملاحظات عن عادات وتقاليد المصريين المحدثين .

القسم الأول
لمحة عامة عن الدلتا ــ الرحيل من القاهرة
الوصول إلى منوف ــ وصف المنوفية

الدلتا ، هي ذلك الجزء من أراضي مصر المحصورة بين البحر الأبيض المتوسط وبين فرعي النيل اللذين يصبان بالقرب من مدينتي رشيد ودمياط .

وفيما مضى ، عندما كان النيل يصب في البحر عن طريق سبعة أفرع كبيرة كان اسم الدلتا يعني كل الأراضي الواقعة بين الفرع الكانوبي الذي كان ينتهي بالقرب من موقع أبي قير حالياً والفرع البيلوزي الذي يمكن أن نحدد مصبه عند الطرف الشرقي لبحيرة المنزلة .

والشكل المثلث لهذه الأراضي هو الذي جعل الإغريق يطلقون عليها اسم الدلتا ، وهو اسم حرف من أبجديتهم كانوا يرسمونه على شكل مثلث . هكذا كانت تبدو لهم مصر السفلى في شكل مثلث ، قاعدته ترتكز على المتوسط وتنتهي قمته في الجنوب ، نحو ممفيس .

ولا يكاد يكون هذا الاسم معروفا لدى المصريين المحدثين الذين قسموا أراضيهم على نحو مخالف لما كانت عليه في عهد الإغريق . وحيث أن الدلتا قد تكونت من الطمي الذي رسبه النهر ، فليس بها على الإطلاق أي مرتفع طبيعي ،إذ ليس بها سوى بعض الكثبان الصناعية وبعض النتوءات التي نتجت عن الخرائب والأنقاض التي تحيط بالمناطق المسكونة وكذا بعض الكثبان الرملية .

تلك فقط هي أشكال عدم الاستواء في أرض الدلتا ... وثمة عدد هائل من الترع يقطع هذه الأرض من كافة الإتجاهات . وثمة بحيرة تشغل مساحة هائلة في أقصى الشمال لا يفصلها عن البحر سوى لسان ضيق من الأرض ، كانت تعرف في الماضي باسم بحيرة بوتس لكنها اليوم تحمل اسم البرلس .

وتبلغ المسافة ما بين قمة الدلتا في الجنوب وبوغازي رشيد ودمياط ، وفي خط

مستقيم ما يقرب من ١٦ ميرمامتر « ١٦٠ ألف متر » أما طول فرعى النيل اللذين يصبان عند هاتين النقطتين فيصل طولهما من ٢٣ إلى ٢٤ ألف متر ، ويبلغ طول قاعدتها إذا ما أدخلنا فى الحساب طول التعرجات الساحلية ١٤٥ ألف متر بينما يصل طولها كخط مستقيم بين مدينتى رشيد ودمياط ، طرفى هذه القاعدة ، إلى ١٣٧ ألف متر .

ذلك هو الملمح العام ، وتلك هى مساحة البلاد التى سوف نعبرها فى رحلتنا هذه ، وهى بلاد قل من كان يعرفها من الرحالة الأجانب قبل مجىء الحملة الفرنسية ، بسبب الأخطار التى كانوا يستشعرونها ، ما أن كانوا يبتعدون عن شواطىء النيل .

رحلنا من القاهرة فى الخامس من فندمير من العام الثامن « ٢٧ سبتمبر ١٧٧٩ » . وكنا مكلفين بأن نشق فى الدلتا طرقا عسكرية وأن تقوم ببعض تمهيدات للأرض . وأن نتعرف وأن نحسن من نظام ترع الملاحة والرى وأن نقيم خطوطاً تلغرافية بين القاهرة وشاطىء المتوسط (١) .. وبعد أن تلقينا التعليمات حول هذه الموضوعات ، أبحرنا نحو بولاق ، تلك المدينة التجارية الواقعة على ضفاف النيل على بعد ربع فرسخ من القاهرة حتى أنها تعتبر على نحو ما ضاحية من ضواحيها .

ركبنا واحداً من تلك القوارب الخفيفة التى تسير بالشراع والمجداف ، وعند مؤخرة القارب كان ثمة حجرة مجهزة على نحو طيب ، وكنا نستخدمها كمأوى ضد حرارة الشمس بالنهار وضد الرطوبة بالليل .

وعلى بعد حوالى نصف فرسخ من بولاق ، لمحنا عن يميننا قصراً خرباً ، كان

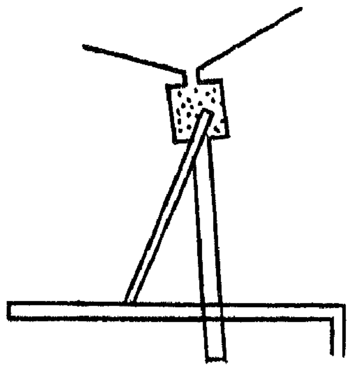
---

(١) لأن جيشنا كان قد بدأ يضعف . فقد أصبح فى مسيس الحاجة لكى يعرف على وجه السرعة أخبار العدو . ومن هنا ندرك كم كان من المفيد إنشاء خطوط تلغرافية ، وكانت تستبعد على الفور أية فكرة نتبين أنه يصعب تنفيذها . ومن العبث أن يقال إنه كانت تنقصنا المواد اللازمة ، فلقد كان الجيش يجد فى شخص المسيو كونتيه Conté ، مدير الورشة الميكانيكية ، رجلا عرف بعبقريته الإبداعية ، تلك العبقرية التى صمدت كثيراً للاختبار ، كيف يتغلب على كل العقبات ، فلقد صمم فى وقت وجيز منظارات رائعة ، وأقام عدداً كبيراً من خطوط التلغرافات على نمط جديد . وحيث قد مات المسيو كونتيه قبل أن ينشر وصفاً لجهاز التلغراف الذى صممه ، فقد ظننت أن من الأفضل أن نقدم له هنا هذا الوصف الموجز . =

البكوات « المماليك » يذهبون إليه فى موكبهم الفخم ليستقبلوا الباشوات الجدد الذين كان يرسلهم بلاط القسطنطينية .

كانت تتحرك من حولنا لوحة حية تتشكل من عديد من القوارب تتقاطع فى شتى الإتجاهات [١] وهى تشق الأمواج بشراعها أو مجدافها وسط ضجيج

= يتكون التلغراف ، وهذا هو شكله من :



١ — صارى رأسى يثبت طرفه الأسفل فى طوار البرج .

٢ — قطعة من الخشب على شكل حرف L تتحرك حول مسمار قلاووظ بشكل أفقى ، بحيث يثبت أكبر ضلعيها عند الطرف العلوى للصارى .

٣ — ذراع خشبى يمر عن طريق طوق معدنى يثبت على الصارى عند منتصفه تقريباً ، ويرتبط الطرف العلوى لهذه الذراع بالقطعة الخشبية حرف L بحيث تجعلها تدور رأسياً حول مسمار القلاووظ المثبت فى قمة الصارى . وتحدث الحركة بجذب الذراع أو بدفعها بقبضة موضوعة فى طرفه الأسفل ، ويتحرك امتداد هذه الذراع ليوضع على التوالى فى عدة ثقوب موجودة فى سمك اللوح الخشبى الموضوع بشكل رأسى على أسفل الصارى . وتحدد هذه الثقوب بالنسبة للقطعة L مواضيع مختلفة ، توضح عن طريق معطياتها ، الجمل المستقبلة .

ولما كان المسيو كونتيه قد رغب فى معرفة المعادلة الجبرية للمنحنى الذى يخطه المحرك على اللوحة الرأسية الممتدة ، فقد وجدت أنها معادلة جبرية من الدرجة السادسة ، ومن السهل أن نتبين أنه إذ كان علينا أن نعتبر الطوق المعدنى فى نقطة ثابة فوق محيط الدائرة المعطاه التى يرسمها الطرف العلوى للذراع والذى يمر بهذا الطوق ، وإذا كانت الذراع مساوية لقطر الدائرة المعطاة ، فإن فرعى منحنى التلغراف سيتكونان : أحدهما من فوقيه علوية والآخر من قوس دائرى ، بطريقة تجعل من كليهما فوقية علوية وقوساً دائرياً كاملين . وتبين المعادلة من الدرجة السادسة نظام هذين المنحنين ، وتقدم كذلك المعادلتين المنفصلتين اللتين تحكمهما ، بانقسامهما إلى معاملين : أحدهما من الدرجة الثانية ، والآخر من الدرجة الرابعة .

(دى بوا — إيميه)

(١) تؤدى قلة ارتفاع ضفاف النيل ، بالإضافة إلى هبوب رياح الشمال بشكل دائم ، إلى جعل الملاحة فى النيل سهلة ، سواء كنا نتجه مع التيار أو ضده .

من أغنيات البحارة ، واختفت الشمس خلف الهضبة الليبية ، بينما آخر أشعتها لا تزال تلامس قمم الأهرام ، تلك التى كانت تبدو كتلتها السفلى وهى غارقة فى الظلال كما لو كانت تتباعد شيئاً فشيئاً عن سماء أرجوانية اللون ، وكانت صفوف النخيل الطويلة تلوح فى شكل دائرى بهيج ، وكانت تمتد من حولنا حتى تصل إلى رمال الصحراء مراعى البرسيم ، وكنا نلمح على شواطىء النيل قطعانا من الجاموس جاءت تغمس أجسادها فى النهر ، وكانت طيور أبى قردان البيضاء تحط فى وداعة وهدوء فوق ظهور الجاموس السوداء ، وكان الأطفال الصغار بأجسامهم العارية وألوانهم البرنزية يلعبون بعضهم مع بعض ، وعندما ، أحياناً ، يتوقف أحدهم بلا حراك ، يخيل إليك أنك ترى فى وقفته وهيئته تلك ، واحداً من تماثيل مصر القديمة وقد عادت إليه الحياة .

كانت هذه النباتات الإفريقية ، وتلك الأغنيات العربية ، وتلك الآثار السابقة فى وجودها على الحضارة الأوربية وأخيراً اختلاؤنا بأنفسنا وتذكرنا ما نحن فيه ... كان كل ذلك . يذكرنا ببعدنا عن فرنسا ، وبتلك المسيرة الشاردة للحياة الإنسانية ، وبزوال امبراطوريات كانت أكثر إزدهاراً منا ، وكنا نقول لأنفسنا : بعد وقت طويل ، سوف يزور هذه الأرض القديمة ، مهد العلوم والفنون ، أناس آخرون ، وإذا ما كان الفرنسيون يومها قد اختفوا من فوق الأرض ، شأنهم شأن كثيرين غيرهم من الأمم الشهيرة ، فلسوف تبقى هذه الأهرام شاهدة على انتصاراتهم ،وسوف تظل آلاف النقوش التى خلفوها تشهد على مرورهم بهذه البلاد ، وسوف تحتفظ بذكراهم ، ولسوف يقال عندئذ ، لقد كان ثمة محاربون شبان ، ولدوا فى تلك البقعة الجميلة التى يحدها البحر ونهر الرين وجبال الألب والبرانس ، ولقد جاء هؤلاء يحاربون لينتزعوا مصر من أبناء القوقاز المتعجرفين ، من أولئك المماليك البواسل . وعندما نسمع فى مراقدنا مثل هذا الثناء ، فى ذلك المستقبل البعيد . وفوق أطلال الأزمان والقرون ، فلسوف تخفق قلوبنا ونحن فى اللحد ، حبا للوطن وحنوا عليه .

فاجأنا الليل ونحن فى خضم أفكارنا تلك ، ومررنا أمام ترعة « أبو منجة » ، وعندما تجاوزناها بخمسة آلاف من الأمتار لنصل إلى ذلك المكان الذى يعانق النيل

فيه دلتاه بينما هو ينقسم إلى فرعين ، سرنا فى فرع دمياط ، ذلك الذى يمضى إلى الشمال ، بينما يسير زميله فرع رشيد ليتخذ شكل مرفق يتكيء إلى الغرب . ويسمى أهل البلاد نقطة انفصال هذين الفرعين : بطن البقرة .

حاذينا الجسور التى تسد ترعة الفرعونية القديمة ، وبعد عدة أمتار تركنا فرع دمياط لندخل فى ترعة صغيرة من ترع الدلتا ، لا تصلح للملاحة إلا أوقات الفيضان ، وقادتنا هذه الترعة إلى أسفل التل الصناعى الذى أقيمت عليه مدينة منوف .

وبعد عدة أيام من وصولنا إلى المدينة ، أردنا البدء فى تطهير ترعة الفرعونية ولهذا السبب توجهنا إلى القرية التى تحمل هذا الإسم والتى تقع على فرع دمياط .

لم يكن قد سبق لنا أن اتخذنا لأنفسنا حراساً ، وكثيراً ما هوجمت فى هذا الطريق بعض سرايانا ومع ذلك فقد كنا سعداء أكثر منا حذرين ، وفى الوقت نفسه فلربما كان الفلاحون أنفسهم قد أصبحوا أقل جسارة منذ خبروا قوة جيشنا وكفاءة جنودنا . ومهما يكن الأمر ، فلقد لاحظنا بحق أن هؤلاء الفلاحين ليسوا بالغلظة التى كنا عادة نظنهم عليها ، كما أن أولئك الذين عملوا منهم فى خدمتنا قد قدموا الدليل على المودة والاستقامة والشجاعة ، يضاف إلى ذلك كرم الضيافة التى يحض عليها دينهم . كل ذلك سيكون على الدوام بمثابة ضمان أمان للمسافر الذى ، إن كان يعرف لغتهم ، فلسوف يسير بكل طمأنينة أمام أولئك الذين يرتاب فيهم كأناس سيئى القصد ، ولسوف يطلب إليهم أن يصحبوه إلى رئيسهم وسوف يقول هذا الرئيس مشيداً بشجاعته وفضائله وكرم ضيافته أنه قد جاء إليه وهو واثق مطمئن . ولقد نجحت هذه الطريقة على الدوام معنا حتى فى تلك المناطق التى لم تكن بعد كلية فى حوزتنا ، وسوف لا نتردد فى استخدامها مطلقاً مع أى أناس مهما كانوا ، ذلك أن البشر ، مهما كانت غالبيتهم فى معظم الأحيان قساة ،ومهما كانوا فى العادة سيئين ، فإنهم على الدوام حساسون ، يستجيبون لصوت الشرف ، وليس ثمة ما ينبغى عليك أن

تفعله إلا أن تعرف كيف تحسن اختيار الوقت المناسب الذى تجعلهم فيه يستجيبون لصوت هذا الشرف .

قدمنا أنفسنا إلى شيخ قرية الفرعونية ، الأمير « أحمد » الذى أوكلت إليه مهمة حراسة جسور الترعة الكبيرة والعناية بها . وكانت قد تهيأت لواحد منا – من قبل – الفرصة لإسداء خدمة جليلة إليه من قبل القائد العام للجيش الفرنسى ، فاستقبلنا بسرور وترحاب ؛ ثمنا وتعشينا فى كنفه . وفى صباح اليوم التالى دخل علينا الحجرة ومعه ابنته ،وهى طفلة جميلة فى حوالى السابعة من عمرها ، جاءت لتقدم إلينا الفاكهة والفطائر ، وكان وجهها مكشوفاً ، وكانت هى شاهقة البياض . وبالتأكيد ، فإن زيارة هذه الطفلة لنا ، خاصة وقد خلعت النقاب عن وجهها ، لدليل قوى – بالنسبة لعادات الشرق – على الترحيب الكبير ...

عند رحيلنا ، أراد الشيخ أن يضع فى أيدينا مبلغاً كبيراً من المال ، لكننا رفضنا ، فقدم إلينا حصانين فأجبناه بأن ليس من عادة الفرنسيين قبول هدية بهذه القيمة فنظر إلينا دهشاً ، وسمعنا خدامنا العرب يقولون لبعضهم البعض بصوت خفيض أنه لابد أن هؤلاء السادة رجال « جدعان » وإن كانوا مجانين بعض الشىء ، فلقد بدا رفض الهدية فى نظرهم بمثابة عته واختلال فى العقل . على أن عادة تقديم الهدايا لمن قدمت إليهم واجبات الضيافة إنما تعود إلى الماضى السحيق . ألم يتلق أوليس من مضيفه السنيوس كمية كبيرة من الذهب ، ورداء وكأساً ؟ كان علينا – ربما – أن نتمثل بعض عادات الشرق ، لكن ذلك كان يعنى بالنسبة لنا ، وعلى نحو ما ، أن نتقاضى ثمن خدمات سبق أن قدمناها . لقد تغلبت العادة وعملنا نحن من جانبنا كل ما أمكننا عمله ، حتى يبدو رفضنا أقل فظاظة .

يبدو أن كلمة فرعونية مشتقة من فرعون . وهو الإسم الذى كان يطلق على ملوك مصر القدماء ، وحيث كان سكان هذه البلاد وما زالوا – ينسبون إلى هؤلاء الملوك بناء كثير من المنشآت التى يأتى الأجانب إلى بلادهم شوقا لرؤيتها ، فإن بإمكاننا أن نستنتج أن قرية الفرعونية تضم بعضاً من مخلفات الماضى ، التى عمل الزمن

والغزاة البرابرة على إخفائها ، لكننا نجهل أى مدينة قديمة تنهض هذه القرية على أطلالها .

مسحنا مجرى ترعة الفرعونية كله ، وقمنا بما يلزم من تطهير وتسوية . تبدأ الترعة من فرع دمياط إلى الشمال قليلا من القرية التى تحدثنا للتو عنها وتخترق الجزء الأعلى من الدلتا لتنتهى فى فرع رشيد شمال قرية نادر . وانحدار تلك الترعة الذى يبلغ فى مجمله ثلاثة أمتار و ٩٦٣ مم على مدى يبلغ ٣٧ ألفاً ومائتين وخمسين من الأمتار ، بالإضافة إلى ما سبق أن قمنا به من عمليات تعبيد وتطهير فى أماكن أخرى من الدلتا ، إلى جانب ذلك الشح المتواصل فى كمية المياه التى تجرى فى فرع رشيد . كل ذلك يدفع على الاعتقاد بأن هذه المساحة من أرض مصر تعانى من انحدار عام يتجه من الشرق إلى الغرب ..

كانت مياه الفرع الشرقى بفعل الانحدار التى تحدثنا عنه تصب فيما مضى بوفرة شديدة فى ترعة الفرعونية لدرجة أن الأقاليم التى تليها ، بالقرب من دمياط ، لم تكن تحصل على المياه اللازمة لرى أراضيها وحتى أن البحر كان يغطى بمياهه الأرض الأكثر انخفاضاً . واضطرت حكومة القاهرة بسبب الخسائر التى نجمت عن ذلك إلى إغلاق ترعة الفرعونية . ويبدو أن مراد بك هو أول من أخذ على عاتقه هذا الأمر ؛ ولكن السدود – لأنها بنيت بشكل سىء – لم تستطع مقاومة ضغط المياه وعندما استولى أيوب بك الشيخ ، على الحكم عاود العملية ،ولكن ما أن انتهت حتى سارع أيوب بك نفسه وعثمان بك – تحركهما مصالحهما الخاصة – بقطع السدود . وفى النهاية استقر الأمر على إغلاق الترعة نهائيا بموجب أمر من مراد بك عندما عاد هذا المملوك ليعتلى قمة الأحداث . وأوكل الأمير أحمد – الذى التقينا به فى الفرعونية – بأن يتكفل بهذا العمل فتمكن بمشقة بالغة من إنجازه وذلك بأن ألقى فى مدخل الترعة وقت إنخفاض منسوب المياه كتلا ضخمة من الحجارة ، وكانت مياه فرع دمياط تتسرب وقت الفيضان من خلال السدود لتدخل إلى مجرى الترعة لتتصل بتلك المياه التى تدخلها من جهة فرع رشيد ، مما كان يسمح بالملاحة فيها لبضعة شهور من

العام بواسطة القوارب الصغيرة (١) .

وشواطىء ترعة الفرعونية ليست – كغيرها من شواطىء غالبية الترع فى مصر – محاطة بنتوءات طينية نتجت عن التطهير السنوى ، لكنها تشبه شواطىء أفرع النيل الرئيسية ، وتقوم على جانبيها زراعة جيدة كما تنهض قرى شديدة الاقتراب كل منها بالأخرى .

يطلق على المنطقة التى كنا نعبرها : ولاية المنوفية وهو إقليم أقل من غيره من أقاليم الدلتا تعرضاً لغارات العربان ، وجزؤه الأعلى المحصور بين فرع دمياط وفرع رشيد وترعة الفرعونية ، يسهل الدفاع عنه ضد العدو حين تكون قوات هذا العدو مكونة فقط من الفرسان (٢) .

تقدمنا إلى الأمام ، إلى داخل هذه الجزيرة : وعرفنا أنها تروى – عموما – عن طريق ترعة أبو سرة التى تأخذ مياهها من ترعة الفرعونية حيث تعود لتصب فيها مرة أخرى عند الرملة عن طريق مصبين مختلفين بعد أن تكون قد حملت مياه النيل عن طريق شعاب كثيرة إلى عدد كبير من القرى .

وتبقى مياه الفيضان فى هذه المنطقة من مصر لوقت قصير ، وهذا ما يؤدى بالضرورة بالهواء أن يكون صحيحاً أكثر منه فى المناطق الأخرى لذا فإن الطاعون هنا أقل خطراً وانتشاراً عنه فى شمال الدلتا (٣) . ويزرع هناك القمح والشعير والذرة والنيلة والكتان والسلجم والبرسيم والترمس والبصل والفول والعدس وبعض البقول المناسبة ،

---

(١) فى أثناء الفيضان الكبير الذى حدث فى العام التاسع ، اكتسحت المياه السدود لتصب فى ترعة الفرعونية التى عادت بذلك صالحة للملاحة ، وظلت طيلة العام تعمل كفرع كبير من فروع النيل ؛ لكن رحلتنا فى أعماق الدلتا ، كانت سابقة على هذا الحادث .

(٢) أوقات انخفاض المياه ، يصبح من السهل اختراق النيل فى مصر السفلى من عدة نقاط ،وهذا هو الوقت الذى كان العربان يختارونه للنفاذ إلى الدلتا .

(٣) الطاعون من الأمراض المتوطنة فى مصر . ويخطىء بوضوح أولئك الذين يظنون أنه يفد إليها كل عام من القسطنطينية ، فها هى تنقضى أربع سنوات منذ أن احتل الجيش الفرنسى مصر ، توقفت فيها العلاقات تماماً =

وكذا بعض الخضروات التى تتناسب مع الطقس مثل البامية التى تؤكل ثمارها بعد

= بين مصر وتركيا ، وطبقت هناك – بعناية فائقة كافة الاحتياطات الصحية التى تتخذ فى كورتينات أوربا ، ومع ذلك جاء الطاعون فى أوقاته المعتادة ولم تكن أخطاره على مصر أقل من ذى قبل . ولماذا نندهش ؟ ألسنا نعرف أن السكنى بجوار المستنقعات تسبب أنواعاً من الحمى الوبائية أكثر خطورة من مجرد ارتفاع درجة الحرارة ؟ فبعد الفيضان تصبح كل أنحاء مستنقعات واسعة تجف تباعاً بطريق البخر ، وفى نفس الوقت فإن الخضروات التى تذبل والحيوانات التى تنفق فى الأوحال تتعفن بسرعة وتنتشر رائحتها الكريهة بفعل الشمس الحارقة ورياح الخماسين المسممة التى تهب من قلب أفريقيا لتصبح أكثر التهاباً بينما هى تجتاز سهول الرمال الواسعة . ولهذا فإن حمى المستنقعات – وهى خطيرة فى كل بلاد العالم – لابد وأن تتخذ هنا بالضرورة طابعاً معدياً شديد الوضوح .

ولقد لوحظ أن كل الأوبئة الفتاكة ، كانت تسبقها فيضانات عالية .. وفى هذه الحالات كان الطاعون يهبط من مصر العليا ، لأن الصعيد هو المكان الذى يغرقه الفيضان أولا . ولكن حيث أن الجسور هناك – على العكس – قوية ، فليس ثمة مناطق تغرق أو مستنقعات تتكون إلا فى مصر السفلى .. ولنفس السبب أيضاً يبدأ الطاعون فى الظهور فى مصر السفلى ثم يؤدى الاحتكاك والمواصلات إلى امتداده إلى الداخل ، ذاهباً من الشمالى إلى الجنوب ...

ومع ذلك فمن الممكن أن يفد الطاعون إلى مصر عن طريق البلدان المجاورة ، ولكن إذا حدث ذلك فى الوقت الذى لا يحدث فيه الطاعون عادة فى مصر فإنه سرعان ما ينتهى" .

وقد يقال إن تصاعد الأبخرة من التربة لا يمكن أن يؤدى فى حد ذاته إلى حدوث الطاعون ، وأن الرياح هى التى تنقله بسرعة من مكان لآخر ، بل ويلاحظ أن أقل حفرة أو أبسط حاجز كفيل بإيقافه ، لكن هذا الاعتراض مجرد اعتراض شكلى وليس ثمة ماهو أسهل من دحضه . فلابد أن نقر منذ البداية أن مركز هذه المستنقعات هو مصر السفلى ، لذا سوف يكون من العبث أن ينعزل الناس بعضهم عن بعض ليهربوا من الطاعون ، فإنهم بانعزالهم هذا لن يفعلوا سوى أن يقللوا من درجة الخطر وذلك بتجنبهم للأخطار التى يمكن أن تتهددهم بكل الطرق إلا الخطر الذى ينتج عن طريق الهواء ، ومع ذلك فقد تكون هذه العزلة بذات فائدة فى المدن ، وإن كانت تلك على الدوام أقل صحية من المستنقعات التى تحيط بها . وفى نفس الوقت فإن هذا الاحتياط الحكيم لن يكون بمقدوره أن يحمى كلية ضد كافة الأخطار ،ويقدم لنا التجار الأوربيون الدليل على ذلك ، فإنهم برغم حيطتهم البالغة بعدم اختلاطهم بالشعب المصرى قد أصابهم الطاعون فى بعض الأحيان ، وقالوا عندئذ وهم محقون لابد أنها قطة أو عصفور هو الذى نقل إليهم المرض . لذا ينبغى أن نفكر فى أسباب مماثلة . وأخيراً فإن الطاعون فى مدن أوربا – حيث لا يشكل سوى خطر عارض ، وليس ثمة سبب لحدوثه إلا الاختلاط بالأجسام الحاملة له – له نفس الملمح الرئيسى – فسوف يظل هناك الهواء كسبب للانتشار ، ومن المؤكد أن حائطاً أو حفرة يمكنها أن توقف هذا المرض القاتل . ويمكن للأوكسيجين حسب التجارب الرائعة للكيمائيين المحدثين أن تهلك أو حتى تحيد تلك الروائح العفنة ، إذاً فإن الهواء الطبيعى ـــ شريطة ألا يكون حاملا للأبخرة التى تتسبب فى حدوث المرض ـــ كاف لقتل العناصر الضارة . إذ يمكن أن يصاب المرء وهو على بعد بضعة مللمترات من مريض أو من بالة قطن ملوثة بالطاعون فى اللحظة التى تفتح فيها – كما يمكن أن يصاب بالمرض دون أية ملامسة بل يسقط فى بعض الأحيان بعن منه . وقد حدث من ذلك أمثلة عديدة ، ولكنا إذا ما ابتعدنا عن ذلك المكان الملوث بعض الشيء فلن يكون ثمة مانخشاه ، ذلك أن كتلة الأكسجين فى تلك المسافة كافية لكى تقضى على كل الروائح الكريهة الحاملة للمرض . =

طهوهافى المياه وهو طعام غير مستساغ بسبب لزوجته ، والملوخية وهى عشب يخرط

= كل هذه تفسيرات بادية البساطة ، ولهذا بالضبط تبدو غير مقنعة ، ذلك أن الإنسان يجب عندما توصف الأخطار التى تتهدده ، أن يقف على الرائع ، على الأمر غير العادى ، وسوف تكون مثل هذه الأسباب الأقل احتمالا ، طالما هى خارجة على المألوف ، هى التى تبعث برغم كل شىء على الإقناع . إنه من السهل على الودام أن نلهب الخيال أكثر مما نستطيع أن نضىء العقول .

كانت أشد نوبات الطاعون – التى واجهناها فى مصر – فتكاً هى تلك التى حدثت فى العام التاسع ، فقد هلك سكان عديد من قرى الصعيد عن بكرة أبيهم ، أما القاهرة فقد قدمت أعظم المشاهد مدعاة للحزن والأسى ، وكثيراً ما تبدو لى البيانات التى أعدت فى تلك الفترة ، ونشرت فى أوربا عن حالات الوفيات أقل من الواقع . فلقد كانت تسمع الأنات والصرخات من كل البيوت ، وكنا نقابل فى كل خطوة جنازة ، وغالباً ما كانت تجمع العديد من الجثث فى نفس النعش . وفى بعض الأحيان كنت أرى الرجال الذين يحملون النعوش ، وهم يسلمون حمولتهم لآخرين ، ليرقدوا على الأرض يعانون من كل أعراض الطاعون .

وذات يوم ، بينما كنت أعبر السهل الخالى ، سهل إبراهيم ، الذى يفصل القاهرة عن جزيرة الروضة ، شاهدت منظراً لن ينمحى من ذاكرتى مدى الحياة . كانت عن يسارى صفوف متوالية من الأنقاض ، ينهض فوقها معقل معهدنا ، وكانت عن يمينى حقول وأشجار نخيل وجميز ، وكان الجيش فى ذلك الوقت مشتتاً بسبب المناوشات الطائشة للجنرال مينو ، كان العدو يقترب ، وكنا نخلى مستشفى إبراهيم ، وكانت رياح الخماسين تغطى بدواماتها الترابية كل شىء بقناع معتم ، بل إنها صبغت الشمس نفسها بلون شاحب ، وشاهدت صفاً كبيراً من الجمال تتخذ طريقها نحو القلعة ، حيث كان الناس يلتمسون المأوى من تلك الرياح ، وعبرت السهل .

كانت تسمع بين لحظة وأخرى صيحات « الندابات » . ومر بالقرب منى رجل تركى ، يقود حماراً ، وترقد أمامه على ظهر الحمار جثة رجل فرنسى ، وشاهدت رجلا آخر يتقدم بخطى واسعة ، وهو يحمل على رأسه سلة ، تتبعه عن قرب سرية المحارب البائسة ، وكان يتمتم بأدعيات الجناز عند المسلمين ، وعلمتنى أذرع الأطفال ، وأقدامهم الصغيرة ، التى تتدلى من السلة التى يحملها الرجل فوق رأسه ، أن نفس المنجل ، منجل الموت ، قد حصد فى نفس الوقت ، الغنى والفقير ، القوى والضعيف ، الصديق والعدو . وفى نفس هذه اللحظة ، وبينما أنا غارق فى هذا المشهد ، وفى تأملاتى ، التقطت أذناى هذه الكلمات ، كأنما ينطق بها صوت نبى :

أيتها المدينة المليئة بالضجيج ،
سوف يموت كل أطفالك ،
لكنهم لن يموتوا بحد السيف ،
فملاك الموت سائر أمامى ،

تلفت ، وتعرفت عليه . كان ضابطاً مسه الجنون منذ بعض الوقت ، وأصبحت ذاكرته منذ مرضه مشوشة لدرجة عجيبة ، ولطالما سمعته يردد بحماس كبير ، بعض أشعار هوراس ، ومقطوعات مطولة من هوميروس ، ومن التوراة . كان يكاد يكون عارياً ، وكان وجهه ملتهباً . وعيناه ثابتتين ، وشعره مبعثر ، وكانت لحيته تتدلى فوق صدره ، وكانت ضجة سلاسله ، وحركاته وصوته ، والمآسى التى ينذر بها ـــ كان كل ذلك يكاد يهد بالأرض من تحت أقدام حراسه ، ويبعث الرجفة فى سلاحهم ؛ كان يصيح :

=

ويطبخ وهى طعام مرغوب من السكان لكنها قلما تحوز رضا الأوربيين لما بها من مادة رغوية لزجة ، والقلقاس الذى تطهى درناته فى المياه وهو طعام شهى ، كما يزرع الخيار والباذنجان والبطيخ والشمام وأخيراً الخبازى التى يأكلونها ثم الحلبة التى لا نستخدمها فى أوربا إلا كعليق لكنهم فى مصر يستخدمونها كغذاء ويأكلون نباتها نيئاً وبلا تتبيل لبذرتها كما أنهم يأكلون سيقانها الصغيرة .

ولا يزرع القنب إلا بكميات قليلة ولسبب يختلف عن السبب الذى يزرع من أجله فى فرنسا ، إذ يبدو أن المصريين الذين علموا الأوربيين فيما مضى فن غزل الكتان وصنع الحبال والأقمشة منها ، لم يعرفوا أن القنب يمكن أن يستخدم فى نفس الأغراض ، أو أنهم على الأقل قد أهملوا زراعته لهذا الغرض ، فهم يدخنون هذا النبات بدلا من التبغ أو يتناولون بذوره كمخدر يزيد من قوتهم وشجاعتهم ويدفعهم إلى القيام بالأعمال بالغة الجرأة ، ويحبه العامة منهم حباً شديداً ويبدو أنه بالنسبة لهم بمثابة تعويض عن المشروبات الروحية التى حرمها عليهم نبيهم ، ذلك أن الناس فى كل مكان يسعون لتخدير العقل – هذا الذى يتباهى به بنو البشر – إما ببعض النباتات أو ببعض المشروبات . أتكون الآلام العالقة بوجودنا نفسه هى سبب تلك اللذة التى يبدو أننا نحس بها ما أن ننسى كل شىء ؟

= احفروا قبوركم كما أنذرتكم كلمات الأنبياء والقديسين ،
لقد جاء يوم الغضب ،
ودخل الرب إلى مصر ،
وسوف تنهشها لعناته .
ويستريح هنيهة ثم يعود ليقول :
ها قد خرست أصوات الطبول ،
وما عادت تسمع صيحات الأفراح ،
وأسكتت القيثار أوتارها العذبة ،
واختفت المدينة الرائعة من خريطة العالم .

كانت هذه الكلمات الكئيبة ، وتلك الأناشيد والطقوس الجنائزية ، وتلك العاصفة والدوامات المدمدمة تتلاقى عند عمد المعهد ، ترسم لوحة مريعة تطرق بالحاح فى مخيلتى ، حتى أخالنى اليوم ، أراها ، وبأدق تفاصيلها .
(دى بوا ـــ إيميه)

ومظهر مدينة منوف مظهر غير لائق ، فمنازلها منخفضة ومبنية باللبن ، وشوارعها ضيقة ومتعرجة ،وأكوام الخرائب والانقاض التى تحيط بها تحجب عنها الرؤية كلية من الشرق أو من الغرب . وتحيط بها مياه النيل فى أوقات الفيضان وإن كانت تنصرف عنها سريعاً ، لذا فهى واحدة من أحسن مدن مصر السفلى من الناحية الصحية . ويمكن أن نميز بسهولة بين أولئك الذين احترفوا الزراعة من سكانها وبين أولئك الذين لا تستدعى أعمالهم الحركة ، فالأولون نحيلو الأجسام وأشداء ، بينما الآخرون أكثر سمنة ، وهم بدرجة أساسية النساجون ، وهم كثيرون فى هذه الولاية .

ولا توجد بمنوف أية آثار لمنشآت قديمة ، ولا ينبىء التل الصناعى المبنى بالطوب اللبن والذى تنهض فوقه أنه كانت توجد هناك واحدة من مدن مصر القديمة – ويعود ذلك بلا جدال إلى أن أطلال هذه المنشآت القديمة قد غطتها من جديد أطلال المنازل الحديثة . وفى الواقع فإن علينا أن نعود بمنوف إلى أصل ضارب فى القدم ، فقد كانت هذه المدينة بالفعل وقت دخول العرب مصر مدينة هامة لحد أنها أعطت أسمها لإقليم بأكمله من أقاليم الدلتا . وربما كان علينا أن نضع فى موضعها الحالى – أو أبعد من ذلك بمسافة جد قصيرة – مدينة نيسى Nicii التى تذكرها الخرائط القديمة والتى كانت عاصمة لإقليم بروزوبيتس Prosopites .

ذلك بأن نيسى حسب مسار أنطونين كانت تقع على بعد ٤٨ ألف متر من ممفيس و ٢١ ألفاً من أندروبوليس وهما المدينتان اللتان يتفق كل الباحثين على مكانهما (١) . فالأولى تقع بالقرب من أهرام سقارة عند قرية ميت رهينة حيث عثرنا بالفعل على خرائبها ، أما الثانية فتقع عند قرية شابور على الشاطىء الأيسر لفرع رشيد .

وقد رأينا فى بعض مساجد منوف أعمدة من الجرانيت يبدو أنها جلبت من مبان قديمة ، كما اكتشفنا عند باب أحد المنازل حجراً أثريا يستخدم كمقعد بينا يمكن

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Les mèmoires sur L' Egypte, par d'Anville

أن يدفع تجار العاديات فيه أغلى الأثمان ، وهو عبارة عن كتلة ذات زوايا أربع ، وهو من الجرانيت الأسود وكامل الاستقامة ، وتوجد على أحد جوانبه آثار نقشين واحد بالحروف الهيروغليفية المائلة تماثل تلك التي نراها على أغلفة المومياوات وأوراق البردى ، والآخر بحروف يونانية جميلة .. ويبلغ طول هذا الحجر ١,٢٤ م وثمة إطار طوله سنتيمتر يحيط بالنقوش ويحد من طول الأسطر المكتوبة إلى ١٢٠ سم ، أما زوايتاه البارزتان فمهمشتان ، وكلا النقشين فى حالة من العطب الشديد ، وقد نقلنا عدة كلمات من النقش الأول ، ولا تترك المقارنة التى قمنا بها بينها وبين النقوش الوسطى التي وجدناها فوق حجر رشيد أدنى شك حول هوية الحروف . وقد شاركنا هذا الرأى كلية زميلنا المرحوم المسيو ريج Raige الذى أطلعناه على النصوص التى كانت فى حوزتنا ، ولعله كان بقادر على أن يقدم لنا تفسيراً لهذه النصوص لو لم يفاجئه الموت وهو منهمك فى أعماله الهمة التى كان يعمل بها وقت العثور على حجر رشيد (١) .

أما حروف النقش الثانى فلا تدع مجالا لأى شك ، فهى باليونانية ، لكننا لم نستطع أن نقرأ بوضوح سوى الكلمات الثلاث الأولى وبداية الكلمة الرابعة .

من الملك الشاب ، دائماً ...

وينبغى أن تكون النقوش — إذا ما حكمنا عليها من ناحية الحجم — أكبر أهمية من نقوش حجر رشيد ، فالنقوش اليونانية فى هذا الحجر الأخير لا تشغل سوى مثلث عرضه ٣٤ سم وطوله ٧١ سم بينما يبلغ عرض مثلث منوف ٣٦ سم وطوله ١٢٠ سم كما أن التماثل اللافت للنظر والقائم بين هذين الحجرين يحملنا بالطبع على الاستنتاج بأن لحجر منوف بالضرورة نقشاً ثالثاً باللغة الهيروغليفية .

ومن المعروف أن الأثر الحجرى الذى عثر عليه فى رشيد يتضمن مرسوما (٢)

---

(١) هذا الأثر الحجرى هو أثمن الأحجار التى حصلنا عليها منذ وقت طويل ، وتوجد عليه ثلاثة نقوش : الأول باللغة الهيروغليفية ، والثانى بالمصرية القديمة الدارجة ، والثالث باليونانية .

وقد عثر عليه زميلنا المسيو بوشار Bouchard ، بينما كان يقوم بالتنقيب بهدف ترميم حصن قديم يقع شمال رشيد بـ ٤٥٠ متراً على الشاطىء الأيسر للنيل .

(٢) انظر شرح النقش اليونانى لحجر رشيد ، الذى أعده المسيو أميون

Ameillon, Paris 1803 ,in - 40

أصدره الكهنة المصريون يطلبون فيه القيام بصلوات خاصة على شرف بطليموس أبيفان الذى نودى به إلهاً فى معبد ممفيس . وإليكم أولى كلمات هذا المرسوم : فى عهد الملك الشاب الذى أعقب ...

ليس ثمة أى خلاف فى بداية النقش الذى عثرنا عليه وذلك الذى عثر عليه فى رشيد ؛ إنه فى الواقع يتضمن مرسوما من نفس النوع . هذا هو الإنسان فى هوانه المعهود ، وهؤلاء هم الكهنة يصدرون لأكثر من مرة مثل هذا المرسوم العام والعلنى سعياً وراء تملق ومداهنة ملوك الأغريق عندما آل إليهم حكم مصر .

وقد عثر زميلنا كارستى Caristie فى القاهرة على حجر آخر من نفس نوع الحجرين سالفى الذكر لكنه يختلف عنهما فى الحجم (١) ، وقد جعل هذا الأثر من الرأى الذى قلناه للتو بخصوص عدد وأنواع النقوش أكثر ترجيحاً .

---

(١) إليكم ما جاء بخصوص هذا الموضوع فى الرسالة المؤرخة فى ٣٠ فنتوز من العام العاشر ، برقم ١٠٨ من بريد مصر Courriers d'Egypte : « اكتشف المواطن كارستى ، مهندس الطرق والكبارى ، فى بداية هذا العام فى جامع الناصرية الواقع فى حى من أحياء القاهرة يسمى بهذا الإسم ، حجراً أو لوحة من الجرانيت الأسود كانت تستخدم عتبة لباب هذا المسجد ، وتعرف فيها على ثلاثة نقوش بثلاث لغات قديمة . وقد وافق الجنرال مينو على أن ينتزع هذا الحجر وأن ينقل إلى المعهد حيث هو الآن . ومقاييس هذه النصف — لوحة التى تلفت وتهشمت عند منتصفها كما يلى : الطول ٦ أقدام ، العرض ١٥ بوصة ، السمك ١١ بوصة . وهو من الجرانيت الأسود الجميل ، البالغ النعومة .

ويلاحظ وجود ثلاثة نقوش عليه مكتوبة الواحد منها فوق لآخر :

أولها وأعلاها باللغة الهيروغليفية ويتكون من ٢٦ سطراً محددة باطار .

والثانى بلغة يشك فى أنها إما الهيروغليفية المائلة وإما اللغة الدارجة للمصريين القدماء ، وهى تشبه الحروف المنقوشة على أغلفة المومياوات ، ويبلغ عدد سطوره كذلك ٢٦ سطراً.

أما النقش الثالث فهو باليونانية ويبلغ ٧٥ سطراً . وعلى العموم فإن حروف هذه النقوش الثلاثة معطوبة تماماً . بل لا تكاد تقرأ ، وعلى الجزء الأعلى من هذا الحجر ، عند الحافة المهشمة تجاه العرض ، رسم لجناحين مفرودين ، يماثل تلك الرسوم التى تزين واجهات المعابد المصرية القديمة ، وأسفل ذلك ، نتعرف جيداً على صور لبعض الأشخاص .

وهذا الحجر الذى توجد عليه ثلاثة نقوش ، بثلاث لغات مختلفة ، أكبر كثيراً من الحجر الذى عثر عليه فى حصن جوليان بالقرب من رشيد ، وهو من نفس نوعه وطبيعته .

وهو من الحجر الذى تحدثنا عنه فى رقم ٣٧ من بريد مصر ، لكنه أقل منه فائدة لأن من الصعب بمكان أن نفك بعض كلمات متوالية منه . وهو يشير إلى أنه يعود إلى زمن البطالمة .

أقمنا فى منوف فى منزل واسع لحد ما ، وكان المباشر القبطى يشغل الجزء السفلى من هذا المنزل ، وقد شاهدناه من نافذتنا مرات عديدة وهو يأمر بجلد أولئك الفلاحين الذين لم يدفعوا الضريبة المقررة عليهم ، فى فناء منزله . ولكم توسلنا إليه مراراً من أجلهم ، لكن القبطى كان يجيبنا فى كل مرة بأن هذا هو التصرف المعتاد طيلة حكم المماليك ، وأن الفلاحين لن يدفعوا شيئاً إن لم يرغموا على ذلك بالقوة . ويذكر أميان مارسلان Ammien Marcellin أن الضرائب كانت تحصل بنفس الطريقة فى أيام الرومان ، فلقد كان المصريون يجدون أن من العار – حسبما يقول – أن يدفعوا الضريبة طواعية وعن طيب خاطر وبدون أن يرغموا على ذلك بضربات السياط . وفى الواقع ، فكثيراً ما شاهدنا الفلاح من هؤلاء ، بعد أن يكون قد تلقى عدة ضربات بالسوط بلا جدوى ينتزع فى النهاية من فمه أو من ثنايا عمامته النقود المطلوبة ويقدمها للمباشر . ياله من قدر عجيب ! هؤلاء هم الفلاحون المسلمون ، والذين ربما كانوا ينحدرون من أصلاب صحابة محمد ، يضربون بالسياط فى بلد إسلامى على يد الأقباط المسيحيين والمماليك المارقين ! ولقد كانت شفاعتنا لهم تأتى بالنفع فى بعض الأحيان ، ولابد أن المباشر كان يلعننا فى سويداء قلبه دون أن يجرؤ على الافصاح عن ذلك ، ولقد أحبنا الناس فى منوف لهذا السبب ، وأصبح الأمر الذى كنا نفعله فى البداية بدافع من مجرد الشفقة ، يختلط بالنسبة لنا بشعور من الكبرياء القومى ، قد لا يدرك كنهه من لم يفارق وطنه .. فأنت ـــ بعيداً عن الوطن ـــ تعطى للوطن وتنسب إليه كل شيء ، وليس ثمة ما تنسبه لنفسك ، ولن يهمك فى كثير أو قليل أن يذكر اسمك ، شريطة أن تسمعهم ، كما كنا نسمعهم يقولون : « إنه فرنسى ذلك الذى قدم لى العون من حافظة نقوده ، وأسبغ على حمايته من ماله ، إنه فرنسى ذلك الذى أنقذنى من يد الأعداء » .

الرحيل من منوف . وصف الفرع الترموتى ـــ أطلال أتريشيش وبيبلوس وبوزيريس ـــ الوصول إلى سمنود

أقمنا فى منوف لعدة أشهر إلى أن صدر الأمر لفصيلة من جنودنا – من حامية المدينة – تتألف من خمسة عشر جندياً ، من جنود المدفعية ، بالتوجه إلى سمنود ، فسارعنا بانتهاز الفرصة لعبور هذا الجزء من الدلتا فى حماية هذه الفصيلة .

رحلنا سائرين على الأقدام فى العشرين من فريمير ، وبعد مسيرة ثلاث ساعات وصلنا إلى شبين الكوم . وهى قرية كبيرة على ترعة واسعة تسمى القرينين ، على بعد فرسخين ونصف فرسخ من منوف . دخلنا القرية كى نقضى فيها بقية النهار ، وقادنا البعض لهذا الغرض إلى بيت المماليك . وثمة أمثال هذا النوع من البيوت فى غالبية القرى ، وهى مخصصة لإقامة رجال الحكومة الذين يجوبون الأقاليم . وليس فى هذه البيوت أثاثات على الإطلاق ولا آنية للطبخ ، والسكان هم الملزمون بتأثيث هذه البيوت وإمدادها بكل ماهو ضرورى لإقامة من ينزل فيها من رجال الحكومة .

أرسل شيخ القرية خبزاً وخروفاً حياً اقتسمناه فيما بيننا ، وجاءنا بعض الفلاحين يبيعوننا الدجاج والبيض (١) وبدأ جنودنا يعدون وجبتهم بينما كان خدمنا المصريون يعدون طعامنا . وذهبنا نحن للتنزه فى القرية ، ولاحظنا وجود أعداد هائلة من الخرائب والأطلال التى تنبىء أن ثمة مدينة قديمة كانت ، ولسنا نشك فى أننا لو حفرنا هنا ، لعثرنا على مبان قديمة .

لعل من الجائز أن تكون هذه الخرائب هى اطلال مدينة أتريشيش التى حدثنا عنها هيرودت والتى أشار إليها سترابون باسم أفروديس بوليس Aphrodispolis وقد نكون مصيبين بعض الشيء لو أننا نسبنا إلى هذا الموقع مدينة نيسى Nicii ذلك أن هيرودت يضع أتريشيش داخل جزيرة بروزوبيتس ، وقال إنه رأى هناك معبداً مخصصاً

---

(١) فى الأيام الأولى من إقامتنا ، كنا نشترى ١٢ بيضة فى مقابل ثلاث بارات ، كما كنا نشترى الدجاجة بنحو ٥ ـــ ٦ بارات . لكن هذه الأسعار تضاعفت بعد ذلك . وتساوى البارة حوالى ٧,٥٠ سنتيمات .

لعبادة فينوس ، ويضع سترابون مدنية فينوس (أفروديس بوليس) فى إقليم أبروزوبيتيس وهى بالتأكيد نفس المدينة المسماة بروزوبيتس أو بروزوبيتيس كما يذكر بعض الجغرافيين ويعدها بلين ضمن مدن الدلتا ، أما إسمها اليونانى أفروديس بوليس (مدينة فينوس) فقد منح لها بسبب العبادة التى كانت تقام فيها لتلك الآلهة . أما اسمها المصرى فله نفس الاشتقاق ، واحتفظ اسمها هذا فى اللغة القبطية بنفس معناها السابق (مدينة فينوس) .

ومن أتريشيش ـــ كما يذكر هيرودت ـــ كانت تذهب السفن إلى كافة أنحاء مصر لتجلب عظام الثيران كى تدفن فى احتفال دينى مهيب (١) . وتبرهن هذه الملاحة أن أتريشيش كانت تقع على فرع من فروع النيل صالح للملاحة ، وشبين الكوم بموقعها الحالى تفى بهذا الغرض .

وليس ثمة فى أى جزء من هذه الترعة ما يدل على أثر لعمل الإنسان ، إذ هى تنبع قرب قرية القرينين من فرع النيل الرئيسى المتجه إلى دمياط ، لتجرى دفعة واحدة عبر الدلتا حتى تصل إلى قرية شبين الكوم حيث تنقسم إلى فرعين : ويقطع أحد هذين الفرعين الدلتا أفقياً ليصب بالقرب من قرية الفرستق فى فرع النيل ، أما الثانى وهو أهمها فيصب مياهه أسفل قرية سبنتيس فى ترعة التبانية التى تصب مياهها فى بحيرة البرلس غير بعيد من أطلال يمكن أن ننسبها بكثير من الترجيح إلى المدينة القديمة بوتو Buto . ويسمى هذا الفرع الثانى باسم ترعة مليج وذلك ابتداء من شبين الكوم حتى اتصاله بترعة التبانية .

كل هذا يحملنا على الاعتقاد بأن تلك الترعة التى حددناها للتو – منذ منشئها من فرع دمياط حتى مصبها فى بحيرة البرلس – ليست شيئاً آخر سوى فرع النيل القديم الذى كان يسمى بالفرع السبنيتى الذى يذكره سترابون وبذا يكون

---

(١) كانت العجول تدفن بقرونها فوق سطح الأرض ، حتى يستطيع سكان أتريشيش الموكل إليهم جمع عظامها أن يعثروا على هذه العظام بسهولة (هيرودت ـــ الكتاب الثانى) .

له نفس المجرى القديم للفرع الترموتى فى عصر البطالمة ، بعد أن نضيف إليه ذلك الجزء من فرع دمياط ، الواقع بين قرية القرينين وقمة الدلتا .

كان الفرع السبنيتى الذى تحدث عنه سترابون صالحاً للملاحة وكانت المياه تجرى فيه طوال العام ، وكان اندفاع المياه فيه سريعاً بعض الشيء كما كان عرضه يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ متر ، وكان فى بعض المناطق يتفرع إلى فروع كثيرة مشكلا بذلك كثيراً من الجزر . كما كان يغذى كثيراً من الترع التى تروى أراضى المدن والقرى الرئيسية فى الدلتا . وهكذا وصلت مياه النهر إلى ماتحت أسوار المحلة الكبيرة (الكبرى) ومحلة أبو على .

فى صباح يوم ٢١ أبحرنا فى هذه الترعة مع حراسنا لنقطع حوالى سبعة آلاف متر حتى نصل إلى قرية مليج التى تحمل الترعة اسمها . ولقد لمحنا جنوب هذه القرية ، حيث تنحنى الترعة لتتخذ شكل مرفق ، مرتفعات عالية من الطوب اللبن وهو ما يدل على موقع مدينة قديمة بالغة الأهمية ، نعتقد أنها مدينة بيباوس التى تحدث عنها كل من كتسياس وايتيان دى بيزانس . ونحن نعرف أن المصريين عندما أرادوا النكاية بالفرس وضعوا على رأسهم ايناروس ملك ليبيا ، وأن هذا الأمير ، بعد أن دعمه الاثينيون ، وبعد أن أحرز انتصارات واسعة استولى على مصر ، لكنه فى النهاية هزم على يد الفرس وطرد من ممفيس واضطر للتحصن مع فلول جيشه فى جزيرة بروزوبيتيس حسبما يذكر ثيوخيديد أو فى بيبلوس كما يذكر كتسياس ، ومن هنا ، فحيث أن هذه الوقائع قد حدثت تحت نظر هذين المؤرخين ، فإننا نستطيع أن نستنتج من ذلك أن بيبلوس كانت تقع فى جزيرة بروزوبيتيس وكان لهذه الأخيرة تسعة فروع صغيرة تدور حولها حسبما يذكر هيرودوت ..والموقع الذى حددناه لمدينة نيسى فى ضواحى منوف يضع خرائب مليج عند الطرف الشمالى للجزيرة وهذا ما يتفق مع الموقع الذى يعطيه العلامة دانفيل لمدينة بيبلوس حسب بعض المعلومات التاريخية ،وقد لاحظ دانفيل أن الفرس بعد حصارهم بيبلوس لمدة عام ونصف ، قد استطاعوا فى النهاية أن يجففوا المياه من حول السفن الاثينية ، تلك التى كانت تساهم بقوة فى الدفاع عن المكان . ولعل

الفتحات التى نزحت بواسطتها مياه الترعة هى التى حملته على الظن بأن مدينة بيبلوس تقع فى الجزء الأدنى للجزيرة . ونحن نجد فى الواقع ، فى أعلى مليج فرعين عامين ، أحدهما كما سبق القول يتفرع قرب قرية شبين الكوم لينضم إلى فرع رشيد قرب قرية الفرستق ، أما الثانى وهو أقل أهمية لدرجة كبيرة وأكثر قربا من مليج ، فهو يجرى إلى الشمال نحو مدينة طنطا . ويمكن الاستنتاج بأن هاتين الترعتين هما من عمل الفرس أثناء حصار بيبلوس ، وأن اختفاء جزيرة بروزوبيتيس يعود لإنشائهما ، أو أنها بالأحرى قد اختفت بفعل الترع التى كانت تحيط بها .

واصلنا السير فى مجرى الترعة ، وأخذ واحد من بحارتنا المصريين ، أكثر حبا للعشرة مما اعتدناه من بقية مواطنيه ، يرفه عنا بأسئلته الساذجة . وحيث أن أفكاره حول بعض الأمور تماثل أفكار كثير من المصريين من أبناء طبقته ، فسوف نذكر أشد هذه الأفكار غرابة .

لم يكن هذا البحار (النوتى) يستطيع على سبيل المثال أن يصدق أن لدينا فى فرنسا نهراً آخر بخلاف النيل ، ولكنه فى مقابل ذلك لم يشأ أن يضىء سماءنا نفس القمر الذى يضىء سماء مصر . وهذا الرأى الذى نراه غير معقول للوهلة الأولى ، يعود مع ذلك إلى جهل عميق أكثر مما يعود إلى عقلية منحطة ، فحيث أنه لا يعرف مطلقاً المجرى الكامل للنيل وحيث أنه لم ير ترعة لا تتفرع منها ترعة أو فرعاً آخر ، فمن الممكن له إذن أن يظن أنه إذا ما قابل واحد — أى واحد — نهيراً عذب المياه ، وفى أى مكان ، فلا بد أن يكون هذا النهير جزءاً من المجرى الواسع لنهر النيل أو من أحد فروعه العديدة ، وكذلك ، وبفكر مشابه ، فها هو ذا يرى القمر كامل الاستدارة فوق رأسه ، فكيف يمكن لهذا القمر إذن أن يضىء سماء شعب آخر ، يبتعد عن مصر بكل هذه المسافة ، وهو الشعب الفرنسى .

وقد كانت ديانتنا أيضاً مبعث دهشة له . وكثيراً ما سمعنا مصريين آخرين ، يقدمون حول هذا الأمر آلاف الاعتراضات الغريبة . وكان احترامنا لديانتهم ، وتلك

الديباجة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، التى استقيناها من كتبهم المقدسة ليقرأوها فى بداية كل بلاغاتنا وكل منشوراتنا العامة ، لا يمكن لها فى فى رأيهم أن تتفق مع ديننا المسيحى الذى يظنونه دين كل الأوربيين والذى يرونه عدواً للدين الإسلامى . وعندما لاحظ بعضهم أن الفرنسيين لا يمارسون أية طقوس دينية ، ظنوا أنه ليست لدينا أية معرفة بالله ، وظنوا أن هذا هو الوضع الأمثل لنا ، إذ يصبح من الميسور – والحالة هذه – أن نعتنق الإسلام أكثر مما يكون ميسورا لو أننا كنا نعتنق دينا معادياً لديانتهم . وبسبب هذا الاعتبار لقيت أمتنا لديهم بعض الترحيب .

وفيما نحن نستمع إلى أسئلة ملاحنا ، وإلى الأفكار التى كان يقترحها علينا مررنا أمام قرى ميت عافية ، ديا ، الجعفرية ، عشما ، شبرابلولة ، أبو الجهور الواقعة على الشط الأيمن للترعة وكذلك قرى بركة السبع ، كفر الحاج داود ، السنطة ، على الشط الأيسر .

وقد توقفنا أمام القرية الأخيرة . وفى اليوم التالى أبحرنا إلى الشط المقابل وسرنا على أقدامنا حتى قرية المنشية ومنها إلى شرشابة . وتروى أراضيها بواسطة ترعة تتفرع من ترعة مليج ، ثم وصلنا بعد ذلك إلى سنباط بعد أن مررنا بجسر يقوم بحجز المياه أيام الفيضان ؛ وأسفل هذا الجسر فتحة ترعة . ثم مررنا فى طريقنا على قريتى شبرا والبنوان ووصلنا أخيرا عند قدوم المساء إلى بوصير [1] وهى قرية كبيرة تقع على شط النيل .

وكل هذه المنطقة من الدلتا – كما رأينا – مزدحمة بالسكان ، وهى كذلك شديدة الخصوبة وزراعتها طيبة ، وعدد العربان هناك أقل منه فى كافة أنحاء مصر ، كما أن الفلاحين هنا لا يستخدمون كوقود إلا سيقان الذرة المجففة وروث الماشية

(١) ينبغى أن نذكر أنها تكتب فى عديد من الخرائط أبو صير بدلا من بوصير . واعتقد أننا نحن أنفسنا قد سمعنا سكان هذه القرية يلفظون اسمها هكذا . وبلا جدال ، فإن إضافة أداة المعرفة « ال » هو سبب هذا الخطأ ، ذلك أن الجغرافيين العرب : الإدريسى والمقريزى وأبو الفدا وآخرين يكتبون اسمها : بوصير .

بعد أن تعجنها النساء مع قليل من القش المهروس ، ثم يلصقنها بجدران البيوت حتى تجف بفعل الشمس ، وهذه الطريقة تساهم فى اعطاء القرية مظهرا لايليق ، سيما وأنها – القرية – مبنية بشكل ردىء ، ومن الطوب اللبن أو ببساطة من الطين .

أقمنا خيامنا خارج بوصير تحت بعض أشجار النخيل المزروعة على شط النيل ولاحت لنا القرية بالغة الكبر وأجمل بناء من القرى التى مررنا بها . وقد عثرنا فوق الأطلال التى تحيط بها على كتلة كبيرة من الحجر الرملى تحمل آثار بعض الكتابات المصرية القديمة ، وتنهض هذه القرية على مرتفع صناعى مربع الشكل يقع على بعد ٣٠٠ متر من هذه الأطلال ، كما كان لاسمها رنين خاص عند دانفيل ، الذى يحدد فى مكانها موقع مدينة بيزيرس أو بوزيريس عاصمة أحد الأقاليم القديمة . كان يوجد فى هذه المدينة كما يقول هيرودت معبد كبير مخصص لعبادة إيزيس حيث كان يقام فى كل عام احتفالا بهذه المناسبة الالهية ، عيد يعد من أهم الأعياد فى الديانة المصرية القديمة بعد عيد بوباسطة . وكانت جماهير من الناس من كلا الجنسين يتوجهون إلى بوزيريس من كافة أنحاء مصر ، وكانوا يستعدون لتقديم القرابين بالصيام والصلوات ، ثم يذبحون عجلا ينزعون عنه جلده ، وأمعاءه ، وأفخاذه وأكتافه ورقبته وأردافه .. ثم يملأون جسمه بالدقيق والعسل والعنب المجفف والتين والبخور والمر ، ومواد أخرى ذات رائحة ، وبعد أن تعد الأضحية بهذه الطريقة ، تشعل فيها النيران وهى موضوعة فوق أتون ، وكانوا يغذون النيران بالقاء الزيوت عليها ، وفى هذه الأثناء كان المتفرجون ينتحبون ويصفقون ويلطمون أنفسهم . ولكن هيرودت الذى نقل إلينا هذه التفاصيل أضاف بأنه لم يسمح له بأن يقول على شرف من كان المصريون يظهرون كل هذه الأحزان . وإذا كان من الممكن لنا على الإطلاق أن نبدى رأياً حول موضوع مماثل ، فإنه يلوح لنا بالرغم من مرور كل هذا الزمان وبالرغم من تحفظ المؤرخين أن هذه الأحزان كانت حتما من أجل موت أوزيريس ، ذلك أن بلوتارك فى روايته عن إيزيس وأوزيريس يؤكد أنه بالرغم من وجود مقابر عديدة فى مصر أنشئت خصيصاً من أجل أوزيريس فإن جثمانه فى الواقع موجود فى بوزيريس وأنه ولد هناك . وثمة بعض من الناس يشتق اسم هذه المدينة من الكلمات المصرية القديمة بى – أوصيرى أى مقبرة أوزيريس أو كلمات أخرى تعنى نفس الشىء . ومهما يكن الأمر فيما يتعلق بهذه

الاشتقاقات المختلفة فإننا نستنتج منها دائماً أن مدينة بوزيريس قد أخذت اسمها من اسم أوزيريس ، ويمكن أن نرتب على ذلك أنهم كانوا هناك يقيمون عبادة خاصة لهذا الإله . وبمعنى آخر فإن الكهنة جعلوا من انحدار الشمس إلى نصف الكرة الجنوبى ، وانحسار مياه النيل ، وهما الفترتان اللتان تسمحان بقيام احتفالات جنائزية مهيبة ، مقابلا لموت أوزيريس رمز الشمس والنيل عند المصريين ، كما أن الأشخاص غير المؤهلين لفهم أسرار الديانة كانوا يعتقدون أنهم يحتفلون بذكرى موت حق لواحد من آلهتهم .

ويدعى بعض علماء الميثولوجيا كذلك أن مدينة بوزيريس تأخذ اسمها من بيزيريس ، ملك مصر الطاغية المستبد الذى كان يذبح قربانا لجوبتر كل الأجانب الذين يفدون إلى بلاده وأن هذا الأمير قد قتل على يد هرقل بينما كان هذا الأمير يعد له نفس المصير ، لكن سترابون يؤكد أن هذه خرافة لا أساس لها وأنها قد اخترعت ــ ربما ــ للانتقام من المصريين لأنهم غير مضيافين نحو الأجانب . ونحن فى هذا الخصوص نشارك سترابون رأيه تمام المشاركة ، لكنه عندما يضيف بأنه لم يكن ثمة ملك مصرى على الاطلاق يحمل اسم بيزيرس ، فلسنا نستطيع أن نجزم أيهما كان على حق : هو أم ديودور الذى ذكر أميراً مصريا بهذا الاسم ونسب إليه تأسيس طيبة . وفى نفس الوقت فإن ديودور يتفق مع سترابون فيما يختص بالأحداث الاسطورية التى تنسب إلى فرعون ويقدم لها تفسيراً بالغ الاقناع فيقول : إن ملوك مصر القدماء كانوا يقدمون كأضحيات على مقبرة أوزيريس رجالا يشبهون طيفون بشعرهم الأشقر ، وكانت هذه الأضحيات تأتى دائماً من بين الأغراب حيث أنه من النادر أن نجد مصريين لهم هذا اللون ؛ هذا هو أصل الأسطورة التى جعلت الإغريق يرون فى بوزيريس ملكا مصريا يذبح الأجانب ، وفى مقابل ذلك فإن المصريين لايرون فى هذا الاسم مطلقاً اسماً لواحد من ملوكهم وإنما هو يعنى فى المقام الأول : مقبرة أوزيريس .

وفى اليوم التالى ، عند انبلاج النهار ، تركنا بوصير ، وبعد أقل من ساعتين وصلنا إلى سمنود بعد أن اجتزنا شمال هذه المدينة ترعة كبيرة متفرعة عن النيل .

عن مدينة سمنود ــ خوائب بهبيت

سمنود « بكسر السين » أو سمنود ، « بفتحها » هي أهم المدن التي يمر بها المرء منذ أن يسير مع مجرى النيل من القاهرة حتى دمياط . وحيث أنها تقع على النيل ، وحيث أنها محاطة بالترع الملاحية الكبيرة ، كما أنها تجاور المحلة الكبيرة « الكبرى » ، أهم مدن الدلتا الصناعية ، فقد أصبحت سمنود بهذا الموقع المحظوظ مركزاً بالغ الحيوية للتجارة ، فثمة أسواق عديدة تجذب الناس من البلدان المجاورة حتى أن المرء كثيراً ما يلقى صعوبة في المشى في الشوارع . وأغلب المنازل هناك مبنية بالطوب وبناؤها حسن المظهر ، وليس ثمة مثيل لمساجدها ، وأكبر منشأة فيها هي وكالة كبيرة [1] تقع على شاطىء النيل . ويبلغ تعداد الوفيات في سمنود في الأوقات العادية من ١٣ ــ ١٧ نفساً في الشهر الواحد وهو رقم يجعلنا نفترض أن تعدادها يصل من ٤ ــ ٥ آلاف نفس .

والسهل المحيط بالمدينة بالغ الخصوبة ، ويخترقه عديد من الترع أهمها اثنتان : تنبع احداهما من الجنوب بالقرب من سمنود وتنبع الأخرى من الشمال قرب التبانية ، وهما تجريان نحو الغرب لتلتقيا بترعة مليج حيث تبدو سمنود والأراضي المحيطة بها أشبة بجزيرة .

وهذه المدينة جزء من ولاية الغربية ، وقد أصبحت عاصمة للولاية إبان الحكم الفرنسي ، ذلك أن العمليات الحربية جعلت الفرنسيين يفضلونها على المحلة الكبيرة ، فجعلوا منها مقراً لقيادة الولاية .

---

(١) تبنى الوكالات تقريباً على نفس النمط ؛ فهي تشتمل على فناء كبير ، مربع الشكل ، يحيط به دهليز تدعمه أعمدة من الجرانيت أو الرخام ، يتكون جذعها من قطعة واحدة ويلاحظ في ذلك ، على الدوام ، أن تاج العمود يحل محل قاعدته والعكس ، وفي الطابق الأرضي ، توجد أبواب المحلات تحت الدهليز وتكون الأدوار العليا بنفس التقسيم الذي نراه في الدور السفلي ، كما توجد حجرات ملحقة بالمحلات ، وممرات تؤدي إلى الدهاليز . وتخصص هذه الوكالات للمسافرين ، وهي ليست سوى نوع من الفنادق التي يجدها المرء في مصر . وعلى المرء أن يحضر معه فراشه ، وأدوات الطبخ الخاصة به ، وأن يعد لنفسه طعامه .

(جولوا)

ويتفق كل العلماء على أن سمنود هى نفسها سبنيتوس القديمة كما كان يسميها الإغريق والتى كان الأقباط يسمونها سيجيمنوت Sjemnout ، والتماثل بين هذه الأسماء كما نرى شديد الوضوح ، وبالرغم من أن هذا لايعد دليلا كافياً فإنه مع ذلك لاينبغى أن نهمله ، ذلك أننا نجد فى مصر العديد من المدن والقرى التى لم تتغير أسماؤها منذ عصور بالغة القدم أو أنه لم تتناولها إلا تعديلات طفيفة . كما أن الاطلال التى تحيط بسمنود والتى تمتد مسافة طويلة نحو الغرب من المدينة ، تحمل فضلا عن ذلك ملامح الماضى القديم ، وحيث أن هذه الاطلال قليلة البعد عن ترعة مليج [١] ثم تقترب منها مشكلة منحنى يشبه المرفق ، فلابد أن هذه الاطلال تقع فى نفس المكان الذى كانت توجد فيه ولابد مدينه سبنيتوس على الفرع السبنيتى الذى يذكره سترابون ، وكذلك هيرودت ، والذى يتكون من ترعة التبانية ومن الجزء العلوى من فرع دمياط [٢] بالإضافة إلى هذه الترعة . وفى النهاية فإن النهر يشكل شمال جزيرة واسعة لحد ما ، يمكن أن تكون هى كسيوس Xios التى يذكرها سترابون كعاصمة للإقليم السبنيتى .

ولاتشغل مدينة سمنود إلا جزءاً ضئيلا من الحيز الذى كانت تشغله سبنيتوس ، ونذكر أنه بين التحف الثمينة التى عثرنا عليها هناك كان التمثال (جسم بلا رأس ولا أطراف) الذى حمله إلى فرنسا فيال Vial وكذلك كتلتين من الجرانيت ، يحتمل أنهما كانتا فوق مرتفعات الاطلال التى تجاور المدينة .

ويبلغ طول إحدى هاتين الكتلتين مترين وعرضها ٥٠ سم وارتفاعها ٦٠ سم ، وفى أعلى أحد طرفى التمثال جزء من عش كروى ويوجد على أحد وجوهه بقايا جعران كبير مفرود الجناحين وهو الرمز الذى يشير إليه الأثريون باسم الجعران ذى الأجنحة ، أما بقية الوجوه وكذلك الجزء الكروى فمغطاة بحروف صغيرة تماثل فى

---

(١) سبق أن قلنا إن هذه الترعة كانت الفرع السبنيتى الذى يذكره سترابون .

(٢) انظر خريطة مصر التى صممها مهندسو جيش الشرق .

وضوح الكتابات الهيروغليفية ،وقد سبق أن رأينا مثيلات لها على أوراق البردى وعلى أغطية المومياوات ، وفى واحدة من مقابر الملوك فى طيبة . ونعتقد أن هذه الحروف — على مايبدو — هى حروف من الهيروغليفية المائلة التى تختلف عن تلك التى نجدها فوق المنشآت القديمة . ومن الجائز أن هذه الأخيرة قد تناولها التغيير شيئاً فشيئاً لتصبح أكثر سهولة ، فلقد انتهى المصريون دون قصد إلى الحروف التى نجدها على أوراق البردى ثم أخيراً إلى الحروف التى تشكل النقش الثانى فى حجر رشيد . وربما كانت لديهم فى وقت معا ثلاثة أنواع من الكتابات : الهيروغليفية المائلة الدارجة ، والهيروغليفية المائلة ، والهيروغليفية بشكلها الأصلى ، وذلك دون أن نشير إلى تلك اللوحات المحفورة أو المرسومة فوق جدران المعابد ، والتى تذكر بالأحداث الكبرى للتاريخ وبأسرار الديانة ومظاهر الطبيعة .

كانت لدينا رغبة شديدة فى الذهاب لزيارة خرائب بهبيت التى تقع إلى الشمال من سمنود : وقد سهل لنا الأمر الجنرال فوجيير Fugière قائد الولاية ولن ننسى مدى الحياة الحفاوة التى لقينا بها ولا تلك الروح العسكرية التى يتحلى [1] بها .

---

(١) أثناء معركة أبى قير ، التى دارت فى السابع من ترميدور من السابع ، كسر الذراع الأيمن للجنرال فوجيير بطلقة بندقية ، لكنه لم يشأ أن ينزل عن حصانه ، ولا أن يترك قيادة وحدته ، وبعد لحظات جاءت قذيفة أخرى لتخلع له نفس الذراع عن كتفه . وقابله القائد العام الجنرال بونابرت ، بينما كانوا ينقلونه إلى مؤخرة الجيش ، فأبدى له عميق تأثره للحالة التى وجده عليها ، فأجابه الجنرال فوجيير : « سوف تغبطنى ذات يوم على هذا المصير . فلقد مت فى ساحة الشرف » . [من تقرير النائب العام بونابرت إلى حكومة الديركتوار] . ولم يستطع المسيو لارى Larry ، الجراح الأول للجيش الفرنسى ، أن يقوم ببتر عظمة مقدمة الذراع ، فاضطر لبترها كلية من عند الكتف . وخلال هذه العملية الأليمة نسى كثير من الضباط الجرحى آلامهم وزحفوا نحو خيمة الجنرال فوجيير ، وعبروا بدموعهم عن الألم الذى يستشعرنه لفقد هذا القائد الشجاع ؛ ذلك أن الجميع كانوا على يقين من موته ولكنه ، وبوجه يستعذب الألم ، لم يستطع شبح الموت ولا آلام الجراحة أن تغير من ملامحه لحظة واحدة ، وجه إليهم كلمات عزاء ، وأوصاهم بالحرص على النصر والوطن والشرف . إنها مشاعر النفوس النبيلة التى تتبدد أمامها الآلام . وعندما شفى — وقد حدث ذلك كما لو كان بفعل تميمة من التمائم — أراد أن يواصل فى شجاعة خدمته العسكرية ، وأصبح قائداً لولاية الغربية ، وقت وصولنا إلى هناك .

« دى بوا — إيميه »

وفى اليوم المحدد للذهاب إلى هناك ركب حصانه وسار معنا يحرسه بعض الفرسان ويصحبه بعض مشايخ الولاية . وقد عرجنا فى منتصف الطريق على ترعة التبانية التى تلتقى إلى الغرب من هنا بترعة مليج .

وعندما اقتربنا من بهبيت لمحنا عند حامل مدفع فى شرق القرية مرتفعاً من الأرض . كانت تلك هى الخرائب التى كنا نسعى إليها ، هرعنا نحوها وسرعان ماوجدنا سوراً له زوايا أربع يبلغ طل أكبر واجهة له ٢٦٢ مترا ويبلغ طول أصغرها ٢٤١ مترا ويبلغ ارتفاعه فى بعض المناطق ٩ ـــ ١٠ أمتار ، وله فتحتان من الواجهة الغربية ومثلهما فى الواجهة الجنوبية وفتحة واحدة فى الشمال ، ولايمكن أن يعرف المرء أن هذه الجدران مبنية بالطوب النيىء إلا فى أماكن محدودة جدا لأن هذا الطوب فى الغالب محطم ومختلط لدرجة لايبدو معها من الخارج إلا كتلة من الطين ،ويزرع جزء من الأرض التى يحيط بها هذا السور وثمة قناة تحمل إليها المياه اللازمة للرى فى أوقات الفيضان ، وفى حوالى منتصف هذا المكان وعلى بعد ١٢٠ مترا من الواجهة الغربية للسور ترتفع فى فضاء مساحته ٥٠ × ٨٠ أطلال مبنى ضخم . إنها كومة مختلطة من الأحجار الجرانيتية نميز من بينها تيجان عمد ورءوس ايزيس وأحجار سقوف وجذوع أعمدة نقشت فوقها رسوم بارزة نفذت بعناية فائقة ، وقد يبدو لأول وهلة أن من الغريب أن يوجد فى مصر السفلى معابد بأكملها مبنية بالمواد المستخرجة من محاجر أسوان بينما شيدت قصور مصر العليا ببساطة من أحجار رملية أو جيرية . لكننا هنا وعلى الفور نتعرف على فكرة المصّريين القدماء عن العظمة والخلود التى كانت تقودهم على الدوام فى تنفيذ وتصميم منشآتهم . لقد كانوا يعرفون أن الحجر الرملى والحجر الجيرى لايعمران طويلا إذا ماتعرضا لهواء البحر فلم يترددوا فى استخدام الجرانيت فى الدلتا ، وليس ثمة صعوبة يمكن أن تثنى شعباً يضاعف من قوته صبره وعناده ، وفى مقابل ذلك ففى الصعيد ، حيث السماء صحو صافية ، وحيث لايذوب الخشب ذاته ، وحيث تفلت من البلى أجسام الحيوانات التى دفنت بلا تحنيط شريطة ألا تغمر

الأراضى التى دفنت فيها مياه الفيضان (١) . فقد كان على المصريين أن يفضلوا الأحجار الأكثر سهولة مادامت تتساوى فى مقاومتها لفعل الزمن مع الأحجار الأخرى الأشد صلابة . ولن نتوسع هنا فى وصف خرائب بهبيت ، فقد تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل ٢٥ من وصف مصر ـــ الأزمنة القديمة .

وتبين خريطة بوتانجيه Peutinger أنه كانت فى الدلتا ثلاث مدن تضم معابد مخصصة لعبادة ايزيس . من بينها دون جدال واحدة يتطابق موقعها مع موقع بهبيت . على أن استنتاج وجود مدينة قديمة فى نفس موقع بهبيت أمر يمكن الاستدلال عليه بفعل تلك الاطلال الرائعة أكثر مما يمكن الاستدلال عليه من شهادات مؤرخى العصور القديمة .

---

(١) عندما كنا نحن الاثنين فى سيوط ، فى مصر العليا ، مع صديقنا ادوار ديفلييه E.Devilliers وآخرين من زملائنا ، وافق أحد العربان ، بعد أن شرينا منه بثمن سخى مومياء ذئب ، وبمعنى أدق مومياء ابن آوى ، كان قد عثر عليها فى الجبل الواقع غرب وادى النيل ؛ وافق أن يصحبنا إلى مكان توجد فيه كما قال مومياوات للرجال ، وفى اليوم المحدد ، رحلنا بلا حراسة ، وبلا أى شىء يذكر من امتعتنا ، خوفا من أن يعترض على رحلتنا قائد المنطقة خشية منه علينا . وتسلق الأعرابى سلسلة الجبال الليبية ، ونزلنا نحن من الجهة الأخرى ، عبر واد ضيق ، سرنا فيه لمدة ساعة ، ثم صعدنا عدة تلال ، ثم عبرنا بمجموعة متوالية من الوديان الضيقة حيث كانت الحرارة مرتفعة لحد كبير ، بسبب إنعكاس أشعة الشمس التى تردها أرض بيضاء عارية عن أية خضرة ، وفى النهاية ، وبعد مسيرة نحو ساعتين ، قال لنا مرشدنا ، وهو يشير لنا إلى بقايا منشأة قديمة ، وقريباً من بعض القباب التى ترتفع ارتفاعا طفيفاً عن سطح الأرض : « هنا توجد مومياوات لآدميين » . وعرفنا بسهولة ، أننا لسنا إزاء مقابر تعود إلى مصر القديمة ، ولكنها أطلال مسيحية ، مآو بائسة لاولئك الرهبان الذين جاءوا إلى هنا ، فى الأزمنة الأولى للمسيحية ، معتقدين أنهم يهربون من غرائرهم ، فى وقت لم يكن لهم فيه من مرشد سوى خيالهم المشبوب . جاءوا إلى هنا والقلب مفعم بالشوق ، يختبئون وسط أحجار الصعيد ، ويبحثون فى صمت الوحدة ، وفى كافة ضروب الحرمان ، عن غذاء لرغباتهم الغامضة . وفى الوقت الذى كنا نتفحص فيه أطلال هؤلاء الرهبان المقدسين ، بدأ الأعرابى ينقب تحت واحدة من هذه القباب الصغيرة ، وسرعان مانادانا ليرينا لحداً من خشب الجميز كان قد جذبه لتوه ، كان اللحد يضم رجلا أبيض البشرة ، وكانت عضلاته ، وجلده ، وأسنانه ، وأظافره ، ولحيته فى حالة جيدة ، وكذلك كان الكفن المحيط بالجثمان . ومع ذلك لم نعثر على أثر لتحنيط أو عطور ، ويرجع هذا الحفظ الجيد ، دون ريب ، إلى الأرض الجافة التى لايمكن أن تصلها مطلقاً مياه النيل ولا مياه الأمطار ، وكذلك إلى جفاف الجو وخلوه من الرطوبة ، وإلى حرارة الشمس الحارقة ، وإلى تلك السماء الصافية ، الخالية من السحب والأنواء .

[دى بوا ـــ إيميه]

عن مدينة المحلة الكبيرة وطنطا ـــ عن بعض الأطلال المصرية وعن خرائب مدينة سايس

غادرنا سمنود لنعبر الدلتا ابتداء من فرع دمياط حتى فرع رشيد مروراً بالمحلة الكبيرة وطنطا ، وهما أكبر مدينتين فى مصر السفلى .

وتقطع المسافة بين سمنود والمحلة الكبيرة مشياً فى حوالى الساعتين ونصف الساعة . ونصف هذه المسافة على وجه التقريب يمضى بحذاء ترعة سمنود ثم يبحر المرء عبر فرع صغير يتفرع عن ترعة مليج ليمضى حتى المحلة الكبيرة ، وفى الطريق ، قابلنا قرية كبيرة تسمى قرية محلة أبو على ثم ضريحين لوليين يجلهما رجال القرية ، وعند الضريح الثانى لحنا تجويفاً منحوتاً فى قطعة من الصخر على شكل مكعب ينتهى بمخروط ارتفاعه ١٠ سم . ويبلغ طول التجويف الإجمالى ١١٥ سم .

والمحلة الكبيرة هى عاصمة الغربية ، واسمها يعنى حرفياً : المدينة الكبيرة . وهى فى الواقع جديرة بهذا الاسم لأنها أكبر مدن الدلتا اتساعا ، لكنها ليست أكثرها إزدحاما بالسكان بالنسبة للمساحة التى تشغلها ، ففيها أحياء بأكملها خالية تماماً من السكان ، ويدور بها بعض النشاط التجارى ، لكنها تلك التجارة التى تحدث فى مدينة صناعية ،وليست تلك التى تحدث فى مناطق التبادل والمستودعات الجمركية ، كما هو الحال فى مناطق عديدة فى مصر حيث الأسواق الكبيرة التى تجذب البضائع الأجنبية والوطنية من كافة الأنحاء .

وأكبر المصانع عدداً فى المحلة الكبيرة هى مصانع نسج الحرير . ومما يضاعف من أهمية هذه المصانع أنه لايوجد لها مثيل فى أية مدينة مصرية أخرى ، ويأتى الحرير من سوريا فى هيئة شرانق إلى دمياط وهناك تفك خيوطه لتلف فى بكرات ويصبح عندئذ أصفر اللون وتشوبه بعض الشوائب ، ثم يبيض فى المحلة الكبيرة وتغلى البكرات فى النطرون وتحل خيوطها ، وتوضع فى شلات تضرب فوق حجارة مسطحة ثم تغمر بالمياه ، ويعطى هذا التجهيز للحرير لوناً أبيض رائع الجمال ، وفى المشغل الذى تفقدناه باهتمام شديد ، لاحظنا أنهم لايصبغون الحرير إلا بثلاثة ألوان فقط هى

الأسود والأحمر والأصفر ، وهم يحصلون على اللون الأسود من النيلة والأحمر من الدودة القرمزية ، والأصفر من البليحة ، وتزرع الأخيرة فى إقليم الشرقية المواجه لسمنود . وتصنع كل ملابس النساء الحريرية على وجه التقريب فى مشاغل المحلة الكبيرة ، كما تصنع هناك أيضاً المناديل التى يغطين بها رءوسهن وكذا الأقمشة التيلية الزاهية التى يصنع منها المصريون قمصانهم . وقد شاهدنا فوق الأنوال تلك الفوط والمناشف التى تستخدمها السيدات فى الحمامات وحوافها مطرزة بالحرير وهى تصنع من الكتان ومصبوغة بألوان عديدة .

وتضم المحلة الكبيرة بعض أطلال لمنشآت قديمة ولا تنبئنا الآثار عن وجود مدينة قديمة فى هذا المكان ، ولعله كانت تقوم هنا فى الماضى مدينة سينوبوليس Cynopolis التى كانت تابعة لإقليم بوزيريس والتى يضعها انطونين فى مساره على بعد ٣٥ ميلا من تمويس ، ويشكل هذان الموقعان إطاراً حول موقع المحلة الكبيرة عند المقارنة بينه وبين موقع بوصير وتمى الأمديد [١] . أما عن مسافة الـ ٤٢ ميلا الواقعة بين سينوبوليس وأندرو Andro فهى نفس المسافة بين سينوبوليس وموقع طوا Toua القديمة على طريق طنطا ، أما الآثار التى نعثر عليها فى المحلة الكبيرة فهى وثيقة الصلة بالآثار التى وجدناها فى بهبيت .

والمحلة الكبيرة هى ملتقى كل بغايا الدلتا بل وملجأ لكل اللآتى يتخوفن على أنفسهن ـــ فى أماكن أخرى بما فيها القاهرة ـــ من ملاحقة الشرطة لهن . وهن يرتعن هنا فى حرية مطلقة ، ومن هناك تدير زعيمتهن رحلاتهن إلى المناطق المجاورة ،وتجذب الأسواق وموالد الأولياء على الدوام عدداً كبيراً منهن ، وقد حدث أكثر من مرة أثناء جولاتنا بالمدينة أن شاهدنا بعض هؤلاء الفتيات يهرولن أمام فرق جنودنا ويشوشن بنغمات الدفوف والصاجات التى يحملنها على موسيقانا العسكرية ، كما كن يلجأن لكل فنون التأنق لإغراء جنودنا كما كن ينصبن خيامهن وسط مخيماتنا .

---

(١) من المعروف أن بوصير هى بوزيريس القديمة ، كما ان خرائب تمويس Thumuis تقع على مقربة من تمى الأمديد .

ويوم وصلنا إلى المحلة الكبيرة أقمنا عند واحد من أغنى سكانها ، وكان فى ذلك اليوم يحتفل بزواج رجل شاب هو رئيس خدمه ، وقد لقينا بكثير من المودة والترحيب وأراد أن يشهدنا على كافة تفاصيل حفل الزفاف . كان المنزل مزداناً بالأضواء وكان أصدقاء الزوج متجمعين مع بقية الناس فى فناء المنزل ، وكان الجميع جالسين على مقاعد ، وكانت تسمع من وقت لآخر أغنيات من بعض المغنيات الجالسات فى المندرة (١) ، وسط النساء وصديقات الأسرة . واستمرت هذه الأغنيات التى تصحبها الدفوف وبعض الآلات الموسيقية الأخرى لمدة تقرب من ساعة ونصف . حتى نزلت اثنتان من العوالم (٢) إلى الفناء حيث قامتا بأداء رقصات جنسية عنيفة وكانت إحداهما تقوم بدور الرجل ، بينما قامت الأخرى بدور المرأة ومثلتا بحركات معبرة – بل مسرفة فى التعبير لكى يفهمها الأوربى – هجمات العاشق ومحاولاته وتمنع العروس الشابة ومقاومتها .. ويجد الشرقيون لذة كبرى فى هذه التمثيليات الصريحة ، ويحضر الشبان من كلا الجنسين هذه الحفلات بحرية تامة .

---

(١) المندرة حجرة فسيحة فى الطابق الأول ، تفتح على الفناء ، وتتجه دائماً نحو الشمال وتزدان واجهتها عند الأثرياء بعمدان من الرخام ، تشكل ممرات تعلوها عادة بواكى من الخشب ، حيث النقوش والتصميمات العربية ، والرسومات ذات الألوان المتعددة ، وهناك درابزين ، إما مصنوعة من الخشب وإما مبنية ، وترتفع فوق واجهة الحجرة بعلو يسمح بالاتكاء ، وتمتد فوقه شبكة تمنع الذباب من الدخول إلى الحجرة . وسقف المندرة شديد الارتفاع ، بحيث يسمح للهواء أن يتجول فيها بحرية . وفى هذا المكان يستقبل رب البيت أصدقاءه ، ويصرف شئونه ، وتشكل الحجرة التى تقع أسفل المندرة ، فى الطابق الأرضى ، مدخلا يقيم فيه الخدم . وواجهة المندرة عادة ، هى أكثر أجزاء المنزل زينة ، فهى المكان الذى يحرص الأثرياء أن يكون جميل البناء ، رائع العمارة .

(جولوا)

(٢) تتعلم الفتيات اللاتى يعددن كى يصبحن عالمات (عالمة) ، منذ نعومة أظفارهن ، كل مايمكن أن يبعث على الإثارة الشهوانية ، ويكون شغلهن الشاغل تعلم الموسيقى المخنثة ، وأشعار العشق والغزل ، والرقص الجنسى ، وليس ثمة مثيل لرشاقتهن ، ولو أن ملامح وجوههن كانت على الدوام فى مثل رشاقة قامتهن ، وفى جمال أذرعهن وأيديهن ، وفى نفس دقة تكوين سيقانهن وأقدامهن ، لما وجدت فينوس لنفسها ، فى أى مكان من العالم ، وصيفات يلقن بها مثلهن . والعوالم فى مصر ، هن بهجة الأعياد . وفى الأحيان يغنين ، وفى البعض الآخر يقمن بدور عاشقين ، وفى أحيان ثالثة يرقصن على نغمات الدفوف ، ويحملن الصاجات ، مقلدات فى رقصتهن حركات الجماع ، وحين يقلدن هذه الحركات الجنسية ، يقفزن فى الهواء هازات دفوفهن ، وتستدعى جلبتهن الحسية تلك ، وكذا رشاقة وحيوية خطوهن ، إلى الأذهان ، منظر الغانيات وهن يتقصعن ويتمايلن .

(دى بوا — إيميه)

وما أن انتهى الرقص حتى ظهر رب البيت وأصدقاؤه فى المندرة . ودعينا لاحتلال مكان الصدارة وكان يجلس إلى جوارنا العريس وكان اسمه على ، وكان جالساً على كنبة ، أما عروسه الشابة عيوشة ، والتى لم يكن قدر رآها حتى الآن فكانت فى حجرة مجاورة محاطة بسيدات منهمكات فى تزيينها . وعندما انتهت من زينتها جاء من يصحب عليا لدخول هذه الحجرة وافتضت أمام عينة بكارة تلك التى أصبحت زوجته . وجاءوا بعد ذلك نحونا ، وبدأ العريس كأنما يسير القهقرى ، كان خطوه بطيئا وكان يستند إلى سيدتين وكانت تتبعه العروس وهى مسنودة بنفس الطريقة ، وكانت تزينها جواهر ثمينة ، كما كانت تزين رأسها عمامة محلاة بسلاسل من ذهب وفضة ، وكانت جبهتها وخداها مصبوغة باللون الأحمر ورسمت فوقها بأوراق ذهبية رسوم غريبة وكانت عيناها خفيضتين فى حياء وعندما يحدث أن ترفع عينيها ، فإنما لكى تثبتهما فوق عريسها السائر أمامها .. وهكذا وصل كلاهما على مقربة من الكنبة التى كنا نجلس عليها ، واتخذ العريس من جديد مكانه إلى جوارنا ، أما العروس فظلت واقفة أمامه لا تتحرك ، وقام أحد الشيوخ — وهو صديق حميم للعائلة — لينتزع قطعة من الذهب من فمه ليضعها فى فمها ، وبعد ذلك عادت إلى الغرفة المجاورة تصحبها على الدوام هاتان السيدتان اللتان كانتا تسندانها وكانتا تصيحان من وقت لآخر : السعيد من يعيش فى ظل شريعتك يانبى ... وغيرت العروس ملابسها وظهرت من جديد أمامنا تتألق فى ملابس جديدة ، ولم يعد على منذ الآن يتابعها وأخذت تقوم بجولة فى الحجرة ، وجاءت مرة أخرى لتجلس أمامنا وفى هذه المرة وضع العجوز قطعة الذهب على صدرها بدلا من فمها ، وتكررت هذه العملية الغريبة خمس مرات فى حضورنا ، وتكررت كثيراً بعد ذلك فى الليل مع ظهور العروس فى كل مرة بملابس أخرى جديدة . وفى أثناء الفترات الفاصلة بين ذلك كانت المغنيات يؤدين بعض الأغنيات مصحوبات بالآتهن الموسيقية المنفرة ، وقام الموسيقيون الذين يصحبون العروس —

وكذلك القابلة ـــ بجمع بعض البارات من المتفرجين (١) . ولم نبق لننتظر نهاية الحفل فقد كنا فى أمس الحاجة إلى الراحة . فانسحبنا إلى الحجرة التى كانت قد أعدت لنا .

وفراش المصريين فى العادة عبارة عن حشية من القطن مفروشة على الأرض فوقها غطاء من الكتان ، ويحتفظ الرجال والنساء أثناء الليل عادة بأجزاء من ملابسهم وبالذات غطاء رءوسهم ، وتغطى الحشية ناموسية وهى تقى من لذعات الحشرات المنزلية . وأثناء النهار يطوى كل ذلك ويخبأ فى دولاب بحيث لاتجد بعد ذلك أثراً لفراش منصوب فى البيوت ، كما أن المرء لايرى هناك لاكرسياً ولا منضدة . أما أرضية الحجرات فمغطاة حتى ثلاثة أرباعها بحصيرة . وبطول جدران الحجرة تصطف المراتب القطنية تغطيها سجادة تتدلى حتى تغطى جزءاً من الحصيرة . وتصف فوق المراتب ، ملاصقة للجدران مخدات ضخمة قماشها من الحرير . فى هذه المنطقة يجلسون عادة ، وعلى الداخل أن يخلع نعليه فى ذلك الجزء من أرضية الحجرة الذى لاتغطيه إلا الحصيرة والسجادة . وفى هذا الجزء المكشوف كذلك يوضع الابريق والطشت والحنفية وباختصار كل مايمكن أن يتسبب فى اتساخ السجادة التى يتمددون عليها أو يجلسون القرفصاء لفترة طويلة من النهار . ويجلس الرجال على عادة الأوربيين أمام باب منازلهم فى بعض الأحيان على مقاعد كبيرة من الخشب لاظهر لها ولا مساند « دكة » . وقد استعاضوا عن المنضدة ـــ وهى تنقصهم ـــ بأن يسندوا الورق على يدهم اليسرى أحياناً على لوحة متنقلة يحملونها فى أيديهم أو يضعونها فوق ركبتهم وذلك عندما يريدون الكتابة ، أما عند الطعام فتقدم الوجبات على حصيرة مفروشة على الأرض أو على صينية دائرية من النحاس يحملها كرسى بلا مساند مصنوع من الخشب الملون المطعم بالصدف ،ويجلس المدعوون حولها فوق السجادة

(١) لانستطيع أن نجزم أن كل حفلات العرس فى الدلتا تتم على نفس النحو الذى وصفناه ، فمن المحتمل ألا تظهر العروس فى القاهرة على سبيل المثال ، مكشوفة الوجه أمام الرجال . وقد شاهدنا فى المحلة نساء ، كن غير محجبات أمامنا داخل بيوتهن ، لكنهن كن يسارعن بوضع الحجاب ، فوق وجهوههن ، فى كل مرة يستدعى الأمر فيها أن يحادثن واحداً من الرجال ، وقد قلن لنا إنهن لايكشفن عن وجوههن إلا أمام زوجهن وإخوتهن .

وسيقانهم مثنية تحتهم ، أما الفقراء فيستخدمون حصيرة خشنة كفراش بالليل وكمجلس ونضد أثناء النهار ، وتغلق النوافذ بقضبان خشبية شديدة الضيق تسمح بمرور الهواء وهو احتياط له ما يستوجبه فى بلاد بمثل هذه الحرارة . وهذه القضبان التى يتم تشكيلها من فوق تستخدم أيضاً بدافع من الغيرة إذ هى تسمح لمن بالداخل أن يرى مافى الخارج دون أن يكون عرضة لأن يراه أحد . ولم نشاهد ثمة من يستخدمون الشيش الزجاجى إلا بعض عدد قليل من أهل المدن كانوا على صلة ببعض الأوربيين ، وكانوا يستخدمونه أوقات الشتاء فحسب وثمة قلل « قلة » وهى زهريات صغيرة غير مطلية ، مصنوعة من طين ذى مسام ولونها رمادى ضارب إلى الزرقة وتوضع فى النوافذ فى ظل القضبان الخشبية ويؤدى تيار الهواء الذى يتدفق على الدوام فى هذا المكان إلى تبخر الماء الذى ينز من مسام القلة مما يبرد مايتبقى من الماء داخل القلة بشدة . ويشرب المصريون من هذه القلل على الدوام ويعطرونها أحياناً.

وعندما تركنا المحلة الكبيرة عرجنا على طنطا عبر سهل خصيب يخترقه عدد هائل من الترع المتفرعة عن ترعة مليج بحيث يمكن أن يقال إن لكل قرية ترعتها ، وثمة جسور قوية من الطين تحمى الأرض من مياه الفيضان ولكى تحافظ على المياه حتى تظل تمر تباعاً إلى الحقول التى تحتاج إليها .

والمحاصيل هى فيما يبدو نفس المحصولات التى سبق أن رأيناها فى أماكن أخرى . وهى تكاد تكون موحدة فى كل أراضى الدلتا إذا مااستثنينا الأرز الذى تكثر زراعته فى القرى المجاورة لكل من رشيد ودمياط . وربما كانت أشجار وشجيرات : الجميز ، الموز ، التين الشوكى ، التمر هندى ، النبق ، الست المستحية ، الحنة ، الأكاسيا ، البرتقال ، الليمون ، الرمان ، التين ، القطن .. هى فقط كل مايمكن للمرء أن يقابله من أشجار .

وقد مررنا فى طريقنا بعدة قرى أخرى أهمها : برقين ، صفط ، طوخ ، أخنوى .. وفى المناطق غير المزروعة ، كانت الشقوق العميقة التى يسببها جفاف الأرض بعد الفيضان تجعل السير عسيراً على الخيول التى لم تنشأ فى مصر . ويبدو أن

رقة وذكاء الحصان فى مصر وبلاد العرب تعود بالتأكيد إلى الألفة التى تقوم بينه وبين سادته ، إذ هو مايكاد يولد حتى يلعب مع أطفالهم . ويعتنى الأطفال به ، وفى تبادل المنافع والملذات هذه تعلم الحصان أن يفهم الإنسان وأن يجعل الإنسان يفهمه ، إنه صديق أكثر منه عبداً ، ويكاد المصرى ، والعربى عموماً ، يعتبره واحداً من أفراد أسرته حتى ليصعب عليه أن يبيعه مهما كان الثمن المعروض فيه ، أما تلك الخيول التى تربى فى بعض أنحاء أوربا فى حرية كاملة وسط المراعى والغابات فتحتفظ فى أغلب الأحيان فى علاقتها بالإنسان ببعض المساوىء الناتجة عن تربيتها الوحشية ، لقد قلنا فى علاقتها مع الإنسان ، ذلك أن مانراه سوءة عند الآخرين ليس فى الغالب سوى فضيلة تبعث الضيق ، فالكائن الحر الشجاع ينظر إليه على الدوام ككائن غير مفيد أو مزعج لأولئك الذين يريدون أن يبسطوا سيطرتهم عليه . ولا تلقى الخيول فى الدلتا نفس التقدير الذى تلقاه فى الصعيد ،وفى مقابل ذلك فليس للماشية فى الصعيد نفس القيمة التى لها فى الدلتا ، فهى فى الدلتا أشد جمالا ،والثيران على وجه الخصوص ضخمة ولايمكن للعجول البقر أن تبلغ مبلغا من الحجم ، ومن النادر أن تستخدم هذه الثيران فى فلاحة الأرض بل تستخدم فى هذا الغرض عجول البقر بينما تخصص « فحول » الجاموس للاخصاب . ويشكل لبن الجاموس غذاء دسماً للفلاحين . والخراف هناك من النوع المسمى الخراف البربرية وهى لاتخصى ،ولحومها لذيذة الطعم ، أما الماعز فأعدادها قليلة وهى تشبه النوع الذى يطلق عليه العلماء إسم ماعز الشرق ، وشعرها قصير ، ورأسها محدب بشدة ، وآذانها طويلة مدلاة ، والحمير هناك ، وفى كل أنحاء مصر ، قوية ، أما الجمال فليس لها قوة الجمال التى تعيش فى المناطق المتاخمة للصحراوات . ولا تربى هناك خنازير ، فالدين الإسلامى يحرم أكل لحوم هذه الحيوانات التى كان المصريون القدماء ينظرون إليها من قبل كحيوانات دنسة . وفى النهاية فإننا نجد فى القرى أعدادا هائلة من الحمام والدجاج ، وحجم الدجاج صغير للغاية ، وبلا جدال فإن العادة الموجودة فى مصر منذ العصور القديمة ، عادة إفراخ البيض إفراخاً صناعياً بواسطة الأفران لها أكبر الأثر فى تشويه جنسها .

وتقع مدينة طنطا ، التى وصلنا إليها بعد سفرنا من المحلة الكبيرة على مسافة من القاهرة تساوى تقريباً المسافة بينها وبين كل من دمياط ورشيد ، فهى بحق المدينة المركزية فى الدلتا .

وتروى أراضى المنطقة المحيطة بطنطا عدة ترع ترفد عن ترعة القرنين الكبيرة ، وتصل هذه الترع حتى شرق المدينة وغربها ويحطن بها ، وهى ترع قليلة العمق ، ونتيجة لذلك فإن نواحى طنطا التى كانت تلمع بها الخضرة وقت مررنا بها تصبح أراضى قاحلة تماماً إذا ماكان فيضان النيل ضعيفاً . ذلك أن العشب قلما ينمو من تلقاء نفسه فى هذه البقعة من أرض مصر التى تمتدح خصوبتها عن جدارة ، إذ قلما نرى فيها إلا مزروعات بذرتها يد الإنسان ، أما الأراضى التى لاتروى فتظل بلا خضرة ، وأما تلك التى تزرع فتبدو بعد الحصاد فى شكل أرض قاحلة . ولهذا السبب فقد كتب عمرو بعد فتحه لمصر إلى عمر بأن هذه الأراضى تبدو على التوالى فى شكل حقول من التراب ثم بحار من الماء ثم بساط من الورود ، ولتربة مصر خاصة أخرى لاتقل أهمية ، وهى أن الخضروات الأوربية عندما تبذر فى أرضها تأتى بمحصول وفير فى السنة الأولى لكن البذور التى تنتج عنها بذرة عقيم أو أن هذه البذور لاتعطى ـــ إذا مازرعت ـــ إلا محاصيل هزيلة خواصها أقل بكثير من الأولى ، بحيث يتحتم أن تجلب بذور جديدة فى كل عام وهذا مايفعله الأوربيون بشأن الخضروات التى يزرعونها فى حدائقهم . وأخيراً فثمة خاصية أخرى ـــ بالغة الخصوصية ـــ تلك هى التشابه القائم فى هذا الأمر بين النبات والإنسان ، ذلك أن الأجانب الذين لايتزاوجون إلا فيما بينهم بدلا من الاختلاط بأهل البلاد لايعمرون بأكثر مما تعمر النباتات الأجنبية المجلوبة ، ويقدم المماليك مثالا محسوساً على ذلك : فمنذ أن استقروا فى مصر ، من عدة قرون ، وهم يتزايدون على الدوام عن طريق شراء الرقيق وليس عن طريق التناسل ، إذ كان أطفالهم ـــ كلهم على وجه التقريب ـــ يموتون فى شباب غض ، ويقال إنه كان من النادر أن يستمر جنسهم حتى الجيل الثانى .

ويشرب كل أهالى طنطا بلا تمييز من مياه النيل فى أوقات الفيضان ، لكن

الأغنياء وحدهم هم الذين يظلون يتمتعون بهذه الميزة بقية العام ، لأنهم يستطيعون الاحتفاظ بالمياه فى خزاناتهم ، بينما تقنع الغالبية من الناس بالشرب من المياه الملحة التى يستخرجونها من الآبار ، وهى المياه التى تزيد ملوحتها بقدر ماينخفض منسوب النيل ، وهذه الآبار عميقة لحد يكفى أن تمتلىء كلها بالمياه حتى فى الأوقات التى ينخفض فيها ماء النهر لحده الأدنى . وتتكون فوهة هذه الآبار عادة من قطعة من عمود قديم مجوف من داخله .

وطنطا ، شأنها فى ذلك شأن كل مدينة فى مصر محاطة بالخرائب . وعند شرقها ، ترى كوماً كبيراً من الطوب اللبن أقام عليه السكان مقابرهم ، وهو مقطوع رأسياً فى عدة أماكن مما يسمح برؤية طوب كبير الحجم .

وهذه التلال الصناعية قد بناها سكان مصر القدامى كى يجعلوا مدنهم بمنأى عن مخاطر الفيضان وإذا ماحدث ولجأ المصريون المحدثون فى بعض الأحيان لعمل مشابه ، فمن الممكن تمييزه عن الأعمال الأولى بصغر حجم المواد المستخدمة ، إذن فقد كان ثم مدينة قديمة فى نفس المكان الذى نشأت فوقه مدينة طنطا .

وبالرغم من أن هذه المدينة تعد أكبر مدن الدلتا ازدحاماً بالسكان ، فليس بها سوى ١٠ آلاف من السكان ، وبيوتها مبنية من القرميد وهو يصنع فى البلدة نفسها من تراب الخرائب التى تحيط بالمدينة (١) ومن السهل أن نحدد حركات التوسع التى تمت فى عمران المدينة ، فالبيوت تشكل شارعا حول المدينة القديمة وهى مبنية فوق الأطلال المتراكمة على سفح الدور الأول ، وقد نتج عن ذلك أن المدينة بكل شوارعها ليس لها سوى منفذين ،وهو وضع لم نقابل له مثيلا فى أى مكان آخر فى مصر .

وتضم مدينة طنطا ضريحاً لأحد الأولياء يجتذب المتدينين الذين يأتون من شتى

---

(١) كل مدن مصر محاطة بالخرائب ، ذلك أن المواد الناتجة عن تهدم البيوت القديمة لاتصلح للاستخدام فى إقامة منشئات جديدة ، لذلك يضطر الناس لنقلها إلى خارج المدن ؛ كما أنهم يفضلون التضحية بجزء من الأرض ليكدسوا فوقها كل هذه الأنقاض ، عن أن يبسطوها فوق الحقول ، التى قد ينتهى بها الأمر ــ إذا ماارتفع منسوبها ــ إلى أن تحرم من مياه الفيضان .

بقاع مصر فى شكل حجيج . لذلك فإن على بك المعروف بما أولاه للتجارة من رعاية وبالإنشاءات النافعة التى أقامها خدمة لها عرف كيف يستفيد بمهارة من هذا الوضع كى يجعل من هذه المدينة مركزاً هاماً للتجارة . فأنشأ فيها منذ حوالى أربعين عاماً وكالة واسعة من أجل الاغراب .

والولى الذى تحدثنا عنه للتو هو السيد أحمد البدوى . وقد ولد فى فاس سنة ٥٩٦ هـ ؛ ١٢٠٠ ميلادية ،ومر بمصر فى طريقه إلى مكة وأنهى حجه وعاد من مكة إلى طنطا فى يوم واحد [١] . واستقر هناك ومات عن تسعة وسبعين عاماً، وقد صنع فى حياته عدداً لايحصى من المعجزات فأحيا الموتى ، وجعل الكسيحين يمشون والعميان يبصرون .. إلخ وكل هذه الوقائع مدونة فى تاريخ طويل ،ورآها حسب أقوال النساك المسلمين جمهور كبير من الناس رأى العين .

وفى عام ٧٠٠ هـ ألحق السلطان الملك الناصر بالمبنى الصغير الذى أقيم فى البداية حول ضريح الولى مسجداً يضارع أجمل وأفخم مساجد القاهرة بسبب اتساعه ودقة تصميمه ، وبسبب التحسينات المتتالية التى أدخلت عليه . وتبدو فخامته بحق فى القبة التى يرقد تحتها جثمان السيد أحمد البدوى . ولم يبخل على بك حين أمر بترميمها لا بالمال ولا بالجهد وقد يظن أحد أن على بك كان فى ذلك الأمر واحداً من النساك أو المريدين بينما هو لم يكن فى الواقع سوى سياسى ماهر . وكانت الجدران حتى بداية القبة مغطاة بالرخام أما القبة وهى من الخشب ، فمغطاة بالرصاص ومزدانة فى الداخل بنقوش مذهبة وزخرفات عربية جميلة .

ويحاط ضريح الولى أو الشيخ بسور من البرنز ويعلق فوقه مايشبه بلتكانة من القطيفة ، وثمة عمامة ضخمة شالها من الكشمير موضوعة فوق الجهة التى تتفق مع موضع رأس الولى . أما أبواب القبة وأقفالها الخشبية فمغطاة بطبقة من الفضة .

وتهرع أفواج الزوار إلى طنطا من كل أنحاء مصر ومن جهات بلاد البربر

---

(١) تبلغ المسافة من مكة إلى طنطا ٣٢٠ فرسخ .

المتطرفة فى مملكة دارفور ومن أعماق الحبشة وعموماً من كافة البلدان التى تدين بالإسلام . ويأتى هؤلاء فى اعتدال الربيع ولهيب الصيف وبخاصة فى الأيام الأولى من هذين الفصلين .

وتكاد تكون الروحانيات على الدوام هى الأسباب الرئيسية لنشأة الأسواق ذائعة الصيت . فالناس تحت صيت المعجزة التى أتى بها واحد من أشباههم ربما كانوا هم أنفسهم يسيئون معاملته وقت حياته ، يهرعون نحو ضريحه ، فحب المعجزة يجذبهم ويجعل أجناسهم المختلفة تختلط عند سفح نفس المحراب ، وهناك تصهرهم الدموع والندم وتقارب مابينهم ، وقد يكون كل منهم مجهولا للآخر ، لكنهم سرعان مايعقدون من الصداقات ما سوف يوحد ربما إلى الأبد بين أسرهم عن طريق تلك الذكريات الحلوة ، فهناك يحكى كل منهم للآخرين عن رحلته ، ويتحدث معهم عن منتجات مسقط رأسه ومنتجات البلاد التى مر بها ، ويطلع بعضهم بعضاً على الأشياء التى جلبوها من هناك ويتبادلونها فيما بينهم ، وتتحول شوارع المزار إلى سوق واسعة وتصبح الروحانيات وقد بانت للدنيا فائدتها عربة للتجارة ، وتربط بفعل الاحتياجات الجديدة بين الناس ، أولئك الذين كثيراً ماباعدت بينهم التجارة نفسها فى عنف وشراسة .

والحج إلى ضريح السيد أحمد البدوى مثال على ذلك فهو يجذب أفواجاً عديدة من الغرباء ، لدرجة أن سكان طنطا يؤكدون لنا أن الحقول حول طنطا وعلى بعد فرسخين تكون مغطاة بالبشر ، ويقدرون عدد الزوار بـ ١٥٠ ألف زائر .

وليس من العسير أن يلاحظ المرء أن البيوت فى طنطا مبنية بشكل يتناسب مع أغراض التجارة . فالجزء من الطابق الأرضى الذى يطل على الشارع مخصص فى أحياء كثيرة لمحلات صغيرة تؤجر للتجار الغرباء من أوقات الأسواق . ويقيم كثير من الزوار خيامهم خارج المدينة وتزدان الخيام والبيوت فى الليل بالأضواء وتسمع من كل الانحاء صيحات الفرح مختلطة بضجيج الآلات الموسيقية المصرية ، وتستمر هذه الأسواق ثمانية أيام وتعود على الإقليم بفوائد جمة ،لكن هذه الأسواق لم تقم مطلقاً فترة وجود الجيش الفرنسى فى مصر ، ذلك أن الطاعون قد أدى إلى إيقافها بسبب الخوف من

الأخطار التى يمكن أن تنجم وقت انتشار الوباء من تجمع مثل هذا العدد الهائل من الناس .

وبعد أن مكثنا بطنطا عدة أيام واصلنا من جديد طريقنا ومررنا بقرية بيار أو ابيار ، حيث اتصلنا بالفرع الغربى لترعة القرينين الذى يشير إليه البعض باسم فرع شبين الكوم ، لأنه ينبع قريباً من هذه القرية . وقد أنهينا يومنا الأول بالقرب من قرى : النحارية ، أسديمة ، حيث نشاهد بقايا منشآت قديمة يمكن أن تكون أطلالا لمدن مصرية قديمة ويمكن أن تكون واحدة منها هى سيوف Siuf التابعة لإقليم سايتس Saites التى ولد بها أمازيس الذى أصبح فوعوناً .

وفى اليوم التالى أبحرنا فى ترعة شبين الكوم حتى مصبها عند قرية الفرستق ثم ذهبنا بعد ذلك إلى صا الحجر وهى سايس القديمة ، حيث لا تزال ثمة أطلال هامة . وسوف نتعرف فى الجزء الأول من اسمها على ملامح الاسم القديم ، أماكنية الحجر فقد أعطاها اياها العرب بسبب الأحجار وأنقاض المنشئات التى توجد بها . وكان المؤلفون الأقباط يسمون هذا المكان بأسم ساى Saii [1] ، ولا يمكن أن يثار أدنى شك حول تطابق هذا الاسم مع سايس ، بالإضافة إلى أن موقع خرائب صا الحجر يتفق تماماً مع الموقع الذى حدده سترابون لمدينة سايس ، لكن الشىء الذى يشهد أكثر من ذلك على وجود هذه المدينة القديمة ، إنما هو الخرائب الهائلة التى لا تزال موجودة فى صا الحجر ، والأنقاض تتشكل أساساً من كوم شديد الاتساع يبلغ طوله ٨٨٠ م وعرضه ٨٢٠ م ويضم كمية كبيرة من الأنقاض وخرائب الأزمنة القديمة وقد تحدثنا

---

(١) كثيراً ما تؤخذ الكلمات المصرية والإغريقية : سايس وسايتيك Sais Saitique وتانيس وتانيتيك Tanis Tanitique إحداهما فى مكان الأخرى ؛ وذلك بلا جدال ، بسبب تماثل النغمة فى أذن الأجانب ؛ لكننا وجدنا فى اللغة القبطية ، حيث بقيت كلمات كثيرة من اللغة المصرية القديمة ، اسم : سايس ، ويسمى فى القبطية ساس ، واسم تانيس ، حيث لا يمكن أن يكون الحرف الأول منها موجوداً لا فى الفرنسية ، ولا فى الإغريقية ، ولا فى العربية . وقد حاولنا أن نعبر عنه فى لغتنا بالحروف : dj, sj, tz مما يجعلها تلفظ على التوالى : دجانيس ، سجانيس ، ترانيس . انظر ما ذكر عن الفرع التانيسى ، وعن مدينة سايس فى مقالنا عن وصف فروع النيل القديمة ، وعن وصف مدينة هليوبوليس .

عنها بالتفصيل فى الفصل الخامس والعشرين من وصف الدولة القديمة .

كانت سايس مقرا للفراعنة وقد اهتم أمازيس على وجه الخصوص بتجميلها ، لكن ما جعلها أكثر إشراقاً هو أن الاسم الذى خلعوه عليها ذو رنين . ومن هذه المدينة اصطحب شكروبس Cècrops الجالية المصرية التى أنشأت أثينا ، تلك التى خسف مجدها منذ كانت فى المهد أمجاد وأعلام مصر القديمة إذ كثيرا ما يكون لمنجزات وعبقرية بل وحتى لأخطاء شعب حر دوى أكبر ومنفعة أعظم من تلك الثروة والأوضاع الداخلية لأمة تخصص فيها السلطات والمعرفة لفئة محدودة ، بينما يكون الجهل والعمل من نصيب الأغلبية .

أضعنا يوماً فى ظل التنقل من صا الحجر إلى دسوق محاذين شواطىء النيل ، وعبرنا عند حوالى منتصف الطريق ترعة كبيرة تجرى لتبدد مياهها فى بحيرة البرلس .

ودسوق قرية كبيرة . وقد شاهدنا فى أحد مساجدها ضريحاً لأحد الأولياء يجذب مرتين فى العام عدداً هائلا من المتسلمين ،وهو الحجيج الأكبر رواجاً فى مصر بعد مولد السيد أحمد البدوى الذى تحدثنا عنه ونحن بصدد الحديث عن مدينة طنطا .

وقد أرشدنا البعض ، على بعد فرسخين إلى الشمال الشرق من دسوق ، وعلى شواطىء ترعة كبيرة إلى خرائب تسمى كوم فرعون ، ويتفق هذا الموقع إلى حد ما مع موقع كبازا Cabaza عاصمة إقليم كباستى Cabastie ، ويؤكد رأينا هذا إسم شباس الذى يحمله عديد من القرى المجاورة : شباس الملح ، شباس عمير ، كوم شباس ..

اتخذنا طريقنا نحو فوه على بعد ربع فرسخ من شمال دسوق وعبرنا ترعة كبيرة صالحة للملاحة طيلة العام تقريباً ، وعند حوالى منتصف الطريق قابلنا قرية سلمية التى اقتحمتها قواتنا وأحرقتها فى العام الماضى عقاباً لأهلها على هجماتهم المتكررة على قواربنا ، ومع ذلك فقد كان يبدو أن هؤلاء الناس لا يكنون أية ضغينة على أمتنا كما سبق أن لاحظ بحق ، المسيو دينون Denon من قبل .

وسوف نلاحظ فى هذا الخصوص أن المصريين الذين يظلون يسعون لأجيال عديدة متعاقبة ، وعن طريق عمليات القتل والاغتيال ، للانتقام لذويهم الذين فقدوهم فى مشاحنات خاصة ، يغفرون فى نفس الوقت تلك الآلام التى تسببها لهم الحروب الصريحة ؛ فها نحن أولاء ، وبعد كل هذه الآلام التى كابدتها فى مصر بعض المدن الكبرى التى هاجمناها ، لا نستطيع أن نسوق دليلا واحداً على أن جندياً واحداً من جنودنا قد اغتيل هناك ، بل إن لنا أن نؤكد بأن ليس ثمة واحدة من البلدان التى حملنا ضدها السلاح ، كنا فيها محبوبين بقدر ما كنا فى مصر ، ومن المعروف أن فى مصر مثلا يقول « اتكلم فرنساوى » ويعني ذلك : « اتكلم دوغرى » ،ولقد سمعنا واحداً من قناصلنا فى إيطاليا ، كان قد أقام فى القاهرة بعد رحيل جيشنا يحكى أن العامة كانوا يسبونه على الدوام فى الشوارع ناعين عليه أنه لا يحيط حكومته علماً بالفظائع التى ترتكبها القوات التركية فى بلادهم يومياً : « فلو أن الفرنسيين قد أحيطوا علماً بذلك — فيما يقول هؤلاء البؤساء — لعادوا إلينا وخلصونا » . ويالة من شرف لأمة تترك فى أعدائها المهزومين مثل هذه الذكريات !

أما سكان الدلتا على وجه الخصوص ، فهم أحسن مما يعتقد المرء عادة . صحيح أنهم فى بداية دخول قواتنا إلى مصر قد أبدوا من المقاومة أكثر مما أبدت أقاليم أخرى فذبحوا عدداً من الجنود الفرنسيين وهاجموا بعض فرقنا .. ولكن لنضع أنفسنا فى نفس وضعهم ، وهو أمر ينبغى فعله على الدوام قبل إصدار أى حكم على طباع أمة ما .. فلو أن المسلمين قد أنزلوا عنوة جنودهم عن طريق البحر فى واحد من أقاليمنا شديد التمسك بدينه الكاثوليكى ، وتحكموا فى مدنه الرئيسية فهل يظن أحد أن فرقهم العسكرية المنعزلة — فى الأيام الأولى لسيطرتهم — سوف تستقبل فى قرانا بالترحاب ، وأن الناس هناك لن يقاوموها بالسلاح وخاصة عندما يأتون لجباية الضرائب من كل نوع ، أو أن الحكومة المخلوعة — والتى لم تصف بعد نهائياً برغم ذلك — لن تحرضهم على حرب نبيلة ؟ حسن ، هذا بالضبط هو موقف المصريين نحونا ، ومع ذلك فبعد ثلاث سنوات من الإقامة بينهم ، وبعد أن ألف المصريون سادتهم الجدد ، فإنهم

أصبحوا يلاقون بالترحاب سرايانا المعزولة وجنودنا السائرين بمفردهم . ولقد سافر واحد منا بمفرده من سمنود إلى القاهرة ، وكثيراً ما قمنا برحلات طويلة ، اثنين اثنين ، وبدون أية حراسة ، إما فى أعماق الدلتا ، وإما فى مقاطعات مصرية أخرى ... ومما لا جدال فيه أن ثمة بلدانا فى قارتنا الأوربية يضطرب فيها الأمن بحيث يحتاج المرء أثناء السفر فيها إلى حراسة أكبر من تلك ، مثال ذلك بعض أجزاء إيطاليا المطلة على البحر المتوسط .. وفى النهاية فها هى تجربة تمت منذ أربع سنوات ، تبرهن على أن مصر لو ظلت لوقت أطول فى حوزة الفرنسيين لكان النظام والأمن قد استتبا فى ربوعها ، ليس ذلك فحسب ، بل لكانت شعوبها قد استوعبت – وبسهولة أكبر مما كان المرء يعتقد فى البداية ـــ فنوننا وأذواقنا وتقاليدنا .

تقع فوه على شاطىء النيل ، وتكاد تكون موازية للإسكندرية ، وهى تقترب كثيراً من الموقع الذى حدده لمدينة ميتليس Metelis . وهى ليست مزدحمة بالسكان بالنسبة لاتساعها ، وكانت فى القرن الخامس عشر مستودعا لكل التجارة التى كانت تتم بين الإسكندرية حيث ترسو السفن القادمة من أوربا وبين القاهرة حيث تأتى القوافل من داخل أفريقيا وبلاد العرب ، لكن بسبب الإهمال الذى بدأت تعانى منه الترع التى تتم بواسطتها التجارة بين فوه والإسكندرية فى عهد المخربين الأتراك ، استوجب الأمر أن تمر البضائع المرسلة من القاهرة عن طريق النيل حتى رشيد ثم تنقل من هناك بالبحر حتى الإسكندرية ، ومنذ ذلك الحين تدهورت فوه بعد أن فقدت المزايا التى كانت تعود عليها من موقعها – تدهورت بشكل لافت للنظر بينما أدت نفس الأسباب إلى ازدهار سريع لمدينة رشيد حيث نقل إليها قناصل أوربا مقارهم نتيجة لذلك – وقد كانوا من قبل يقيمون فى فوه .

وعلى بعد فرسخين من تلك المدينة الأخيرة ، نجد القرية الكبيرة المسماة مطوبس الواقعة على شاطىء النيل . وتعرف هذه القرية بتقاليدها الغريبة والمتساهلة ، فهى مقر لعدد كبير من العوالم . وتوجد بالقرب منها أكوام عديدة من الأنقاض تسمى كوم الحمر ، ولعلها أطلال مدينة قديمة ، وربما كانت على وجه التحديد هى

بقايا ميلسيان Milèsians التى كانت كما هو معروف بمجاورة لبحيرة بوتوس Butos .

وهذه البحيرة قريبة جداً من مطوبس ، وتشغل من الشرق إلى الغرب أكثر من نصف قاعدة الدلتا ، وهى كذلك أكثر اقتراباً من فرع رشيد عنها من فرع دمياط ويفصلها عن البحر لسان ضيق من الأرض ، وتتصل به عن طريق فتحة وحيدة وهى المصب القديم للفرع السبنيتى وتوجد على شواطئها بعض الأطلال وهى فى معظمها أكوام من الأنقاض وفتات من الطوب ويحمل أكبر هذه الكثبان إسم الكوم الكبير ، ويقع عند حوالى منتصف شاطىء البحيرة المطل على البحر المتوسط ، وعلى بعد فرسخ نحو الشرق توجد كومة أخرى من الأنقاض الحمراء يرتفع وسطها عمود نلمحه عن بعد شديد ، ونقابل أيضاً فيما بين البحيرة والشاطىء الغربى لترعة التباتيه فراغا يمتد من ٥ — ٦ فراسخ توجد فى أماكن عديدة منه خرائب وتلال صناعية تنبىء أنه كانت توجد هنا عدة مدن قديمة ، وثمة ثلاثة من هذه الأطلال تسمى على التوالى : الدمراوى ، التميرى ، الكالية ، وهى تقع كلها على الفرع السبنيتى ، وأخيراً نرى على بعد خمسة فراسخ من هناك مع الاتجاه نحو الشمال مع شواطىء البحيرة وعلى الشرق من مصب الترعة — نرى فوق تل الخنداحور ، حتى اليوم ، وبعد مضى أربع سنوات قبل وصولنا إلى مصر ، وذلك منذ الوقت الذى أمر فيه احد الكشاف بانتزاعها ، ثلاثة أحجار ضخمة لعلها من أطلال بعض المنشآت القديمة . ويبلغ طول تل الخنداحور حوالى ألف متر وعرضه حوال المائتين وهو يتكون من أراض يغطيها قليل من الرمال وبعض قطع من الأحجار . ربما كان هذا هو المكان الذى كانت توجد فيه فيما مضى مدينة باخنامونيس عاصمة الإقليم السبنيتى الأدنى التى يضعها بطليموس شرق الجزء الأدنى من الفرع الترموتى ، وهو ما يتطابق مع موقع تل الخنداحور بالنسبة لسمنود أو سبنيتوس القديمة ومع ترعة التبانيه التى هى جزء من المجرى القديم للفرع الترموتى .

أما بوتوس فكانت تقع على الشط الآخر حسبما يقول نفس العالم الجغرافى ، وينبغى نتيجة لذلك ونتيجة لمشاهدات هيرودت أن نبحث عن موقعها فى المناطق

المجاورة للترعة وللبحيرة ، بين الخرائب التى سبق أن تحدثنا عنها إذ يقول هذا المؤرخ بأنها تقع بالقرب من مصب الفرع السبنيتى للنيل ونقابلها عندما ندخل البحر عن طريق هذا المصب .. إلخ وتوجد بالقرب منها بحيرة فسيحة .. وكانت هذه المدينة واحدة من أهم مدن الدلتا وكان يوجد بها معبد هائل لإحدى الإلهات المصريات التى اعتبرها الإغريق مثل آلهتهم لاتون وكانت تقدم لها الأضحيات العظيمة ، وكانت تعتبر فى مصر من أكبر الآلهة تأثيراً .

وينقل إلينا هيرودت عن هذه المدينة تفاصيل هامة : « كانت ترى فى بوتوس معابد عديدة هى معبد أبولون وديانا وكذلك معبد لاتونا Latone حيث كانت تقدم الأضحيات ، وهذا المعبد الأخير معبد ضخم له دهاليز شديدة الارتفاع ، وكان أكثر ما أثار دهشتى فى النطاق المخصص للإلهة لاتون هو معبد هذه الآلهة ، إذ هو منحوت فى حجر واحد مكعب الشكل وطول كل بعد من أبعاده أربعون ذراعاً وثمة حجر آخر مربع الشكل طول حافته أربعة أذرع يستخدم كغطاء له . وجزيرة خميس هى الأخرى مثارة للعجب ، وهى تقع فى بحيرة عميقة وفسيحة بالقرب من معبد لاتون ويذكر المصريون أن هذه الجزيرة جزيرة عائمة على الرغم من أننى لم أرها تعوم أو تتحرك . ويلفت النظر فيها معبد كبير لابولون له ثلاثة مذابح ، وينمو فى أرضها تلقائياً عدد كبير من أشجار النخيل وغيرها من أشجار فاكهة تؤتى أكلها . وإليكم السبب الذى من أجله كما يرى المصريون تسبح هذه الجزيرة : فلاتونا وهى إحدى الإلهات المعبودة منذ زمن ضارب فى القدم كانت تقيم فى بوتوس حيث يوجد الآن محرابها . وحيث أن إيزيس قد سلمت إليها أبوللون (أو حورس) كوديعة فإنها خبأته فى هذه الجزيرة التى تسمى الآن الجزيرة العائمة وهى التى كانت من قبل ثابتة لا تتحرك . وبذلك أنقذته فى الوقت الذى وصل فيه طيفون حين كان يجد فى البحث عن ابن أوزيريس فى كل مكان ، إذ يقال إن أبوللون وديانا قد ولدا من باخوس ، وإن لاتونا كانت مرضعة لأبوللون ؛ وقد سمى أبوللون عند المصريين حورس ، وسميت خيريس Cères إيزيس ، كما سميت ديانا بوباستيس .

وتضم بحيرة البرلس عددا كبيرا من الجزر ، أراضى معظمها موحلة ، وسوف يكون من الممتع أن نبحث بين هذه الجزر عن جزيرة خميس وهلبو المشهورتين فى العصور القديمة . وقد سبق أن نقلنا عن هيرودت ما كان يعرفه عن الجزيرة الأولى ، ونضيف الآن أن اسمها الذى أطلقه عليها الإغريق ربما يأتى من خمى أو خيمى وهو اسم مصر فى اللغة الإغريقية القديمة . ومن هنا يمكن أن نستنتج أن المصريين ربما يكونون قد أسموا هذه الجزيرة « جزيرة مصر » [1] تشريفاً لها إذ كانت تستخدم ملاذا لآلهتهم . أما عن جزيرة هلبو فهى تعرف على وجه الخصوص بأنها الجزيرة التى أقام فيها أحد الفراعنة ، وكان أعمى ، عندما طرده من العرش ساباكوس Sabacos ملك أثيوبيا ، وظل هناك مختبئاً لمدة خمسين عاما هى فترة السيطرة الأجنبية . وقام بعض المصريين المخلصين بمد أميرهم الضرير سرا بالأغذية ، وكان كل واحد يقدم من المؤن حسب ثروته كما كانوا ينقلون إلى هذه الجزيرة الأتربة لكى يرتفع مستوى أرضها الموحلة عن سطح المياه .

وكانت البحيرة والأراضى غير المنزرعة التى تجاور بحيرة البرلس وبالذات إلى الشرق والجنوب تكون الإقليم الذى كان يطلق عليه القدماء إسم اليارخى Elèarchie وعن طريق هذه المستنقعات خرج ابسماتيك بعد أن نفاه زملاؤه الأحد عشر — لكى يطردهم من العرش ، كما أن أميرتيه Amyrtèe قد ناوأ من هناك ولمدة طويلة قوات الفرس .

---

(١) غالباً ما تلصق النعوت بأسماء المدن المصرية . ومن الطبيعى أن يستعمل الأجانب فى بعض الأحيان هذه النعوت بدلا من الأسماء نفسها ، ولعل هذا هو السبب فى أن نجد أحد الفراعنة يسمى عند الإغريق خميس Chemmis ، أو أن نجد مدينة بانوبوليس تسمى خمو أو شمو Chemmo أو خمين (شمين) Chemmin ، كما يسميها ديودور الصقلى ؛ كما رأينا العرب عند دخولهم مصر ، يعطون اسم شمون أو أشمون لكثير من القرى والمدن فى هذه البلاد وأخيراً ، فإذا كان العرب قد أطلقوا على قصر بابليون آن — شيمى اسم قصر الشمع أو قصر الأضواء ، فإن ذلك يعود ، بلا جدال إلى أنهم ، عندما وجدا فى هذا الحصن معبداً مخصصاً لعبادة النار ، قد استمدوا من لغتهم هم ، الكلمة التى يمكنها أكثر من غيرها ، مع قربها كذلك من الكلمة المصرية الأصيلة ، أن تكون وثيقة الصلة بعبادة النار وقد حرف كثير من جنودنا أثناء إقامتهم فى مصر ، عن طريق قياس مماثل ، الكثير من أسماء الأشخاص والأماكن . (دى بوا — إيميه)

كانت هذه المناطق فى ذلك الوقت البعيد آهلة بسكان أولى بأس شديد وهم لا يزالون كذلك حتى اليوم ، حسبما نراهم فى أولئك الصيادين الشجعان الذين يتميزون بأنهم أكثر شجاعة وأكثر استقلالا من الفلاحين داخل هذه البلاد .

وبعد أن عبرنا معا أرض الدلتا على هذا النحو افترقنا ، وعاد أحدنا ليقطن مدينة سمنود ، واستقر آخر فى منوف ، وأصبح من السهل علينا أثناء إقامتنا الطويلة فى هاتين المدينتين أن نسجل وأن نبسط المعلومات والملاحظات التى جمعناها خلال رحلتنا هذه .

* * *

(٥)

« جراتيان لوبير »

جولة بين بحيرات مصر

العنوان الأصلي للدراسة هو : « مستخلص من دراسة عن بحيرات وصحراوات مصر السفلى » .

بحيرات وصحراوات مصر السفلى (*)

تناول المؤلف بالبحث ، بحيرات مصر السفلى بالترتيب التالى :

١ — بحيرة ماريوتيس (مريوط) . ٢ — بحيرة المعدية .
٣ — بحيرة إدكو . ٤ — بحيرة البرلس .
٥ — بحيرلة المنزلة . ٦ — بحيرة سربونيد (البردويل).
٧ — البحيرة بين البحرين (المرة) . ٨ — بحيرة موريس (قارون).
٩ — بحيرات النطرون .

أولا — بحيرة مريوط

كانت مياه كل من بحيرة مريوط والبحر (المتوسط) تصنع فى الأزمنة القديمة من أراضى مدن الإسكندرية ، فى الوسط ، ونكروبوليس وكانوبى ، فى الشمال الشرقى ، والمدينتين اللتين تحملان كلاهما اسم تابوزيريس ،ومدينة بلنتين ، فى الجنوب الغربى ، شبه جزيرة طويلة وضيقة ، تمتد ، بلا انقطاع ، لمسافة تزيد عن ١٠ ميريامتر . وفى الفترة التى احتل فيها الجيش الفرنسى مصر ، من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١ ، لم تكن تشكل هذه البحيرة سوى سهل رملى ، تحتجز المناطق الواطئة منه مياه الأمطار التى تظل تغطيها الجزء الأكبر من فصل الشتاء .

ويذكر سترابون أن بحيرة ماريا أو ماريوتيس ، التى كانت تمتد من تابوزيريس (برج العرب حالياً) ، كانت تبلغ مايقرب من ٣٠٠ غلوة (٢٨,٥٠٠ قامة) طولا ، فى حين يبلغ عرضها أكثر من ١٥٠ غلوة (١٤,٢٥٣ قامة) ، وكانت تضم كما يذكر المؤرخ ثمانى جزر ،كما كانت تغص شطئانها بالمساكن الفخمة . وكانت تتلقى المياه من عدة ترع سواء من الأجزاء العليا من النهر أو الجانبية منه ، وبالإضافة إلى ذلك

(*) هذه ترجمة حرفية لما جاء فى كتاب وصف مصر ، ولم نتناول نحن الدراسة بأى اختصار ، وجدير بالذكر أن عدداً من الدراسات التى نشرت فى وصف مصر كانت موجزات للدراسات الأصلية .

كانت مركزاً لتجارة مزدهرة للغاية حتى أن ميناء الاسكندرية الذى يطل على هذه البحيرة كان أكثر ازدهاراً من مينائها المطل على البحر المتوسط ، وقد أدت فيضانات النهر إلى اتساع مساحتها لدرجة كبيرة (١) .

ويذكر بلين Pline ،نقلا عن كلوديوس قيصر Claudius Coesar الذى كان قد قاس مساحتها (٢) ، أن عرضها يبلغ ثلاثين ألف خطوة ، فى حين يبلغ محيطها ١٥٠ ألف خطوة ، مما يؤدى إذا احتسبنا كل ألف خطوة ب ٧٥٦ قامة إلى أن يصبح عرضها ٢٢,٦٨٠ قامة وأن يبلغ محيطها ١١٣,٤٠٠ قامة ، ويضيف نفس المؤرخ أنها قد تكونت ونمت نتيجة فيض الفرع الكانوبى .

وكانت أهم ترعتين تنتهيان إلى البحيرة هما : أولا ، تلك الترعة التى كانت تأخذ مياهها من النهر فى إقليم أرسينويت ، ومن بحيرة موريس عند النيل الأدنى ، لتصبها عند سفح الجبل الغربى الذى يحد وادى مصر ، مارة عند سفح الأهرام لتلتف بعد ذلك عائدة إلى بحيرتنا هذه بعد أن تكون قد روت أقاليم عديدة وبخاصة إقليمى نيتريت وماريوتيت اللذين يلامسان عند الغرب الصحراوات الليبية ؛ أما الترعة الثانية فهى ترعة شيديا التى كانت تتفرع عن الفرع الكانوبى ، والتى لا يبدو لنا مع ذلك أن مجراها يتبع على نحو دقيق مجرى ترعة الإسكندرية (الحالية) التى حلت محلها ، فى جزئها الأدنى على الأقل .

وهكذا كانت بحيرة مريوط ، كما سبق القول ، قد جفت بشكل تام عندما استولينا على هذه البلاد ، ويرى المرء عن طريق ما أورده أبو الفداء سنة ١٤٠٠ وبيلون Belon سنة ١٥٣٢ ، وفيلامون Villamomt عام ١٥٩٠ ، وتيفنو Thevenot عام ١٦٦٣ ، أن هذه البحيرة ، وكذا الترع القديمة التى كانت تصب فيها ، كانت لا تزال

(١) جغرافية سترابون . الكتاب السابع عشر .
(٢) بلين ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب الخامس ، الفصل الأول ، المجلد الثانى ، طبعة ١٧٧١

موجودة فى هذه الأزمنة المختلفة [١] . ويذكر Villamont على وجه الخصوص ، أن صيد السمك فى هذه البحيرة التى تبعد عن مدينة الإسكندرية بنصف فرسخ كان يدر عائداً كبيراً . وعلى هذا فإن جفافها لا يمكن أن يعود إلا إلى نهاية القرن السابع عشر أو بداية القرن الثامن عشر .

وفى الرابع عشر من جرمينال من العام التاسع (١٤ أبريل ١٨٠١) قطع الجيش الإنجليزى التركى جسور ترعة الإسكندرية عند الطرف الغربى لبحيرة المعدية ، على مسافة ٧,٥٠٠ متر من باب رشيد الواقع إلى الشرق من السور القديم لمدينة الإسكندرية ، فتدفقت مياه هذه البحيرة المالحة وكذا مياه البحر الذى يتصل بها عن طريق المعدية ، عن طريق ثلاث أو أربع فتحات حتى نهاية شهر بريريال (١٥ يونيه ١٨٠١) ، واستغرق الأمر سبعين يوماً متوالية لكى يمتلىء ، وبشكل تام ، الحوض القديم لبحيرة ماريوتيس [٢] .

ثانيا – بحيرة المعدية

المعدية ، أو بحيرة أبى قير ، بحيرة تكونت حديثاً ، مياهها ، من حيث ملوحتها من نوع مياه البحر الذى يتصل بها عن طريق بوغاز يشغل على وجه التقريب نفس موضع الفتحة (أو المصب) الكانوبية القديمة . وقد سميت هذه البحيرة باسمها هذا لأن المياه الموجودة فى بوغازها تعبر « أى تعدّى » الطريق بين الإسكندرية ورشيد [٣] . ويقع البوغاز وسط جوين عميق يكونه خليج أبى قير على مسافة ٦,٠٠٠ متر

---

(١) Belon ، الكتاب الأول ، الفصل الثامن عشر ، ص ٩٢ ، طبعة ١٥٥٤ .فيلامون ، رحلات ، Voyages ، الكتاب الثالث ،الفصل السادس عشر Thevenot ، المجلد الثانى ، الفصل الثانى ، طبعه ١٦٧٤ .

(٢) انظر فى دراستى من الجزء الغربى من ولاية البحيرة ما قلته بخصوص داورية الاستكشاف وعمليات الجس والتفدين التى قمت بها فى أرض البحيرة وقت إغراقها بمياه البحر .
(الدراسة الثانية من المجلد الثانى من الترجمة العربية) .

(٣) المعدية كلمة عربية تعنى ممر أو مرور المياه . ويعبر الناس فى الواقع بوغاز المعدية فى قارب يوجد عند هذه النقطة من الطريق بين الإسكندرية ورشيد . وبوغاز كلمة عربية أخرى تعنى مصب أو فتحة لفرع نهر أو نهير أو بحيرة فى البحر .

(١,٠٧٨ قامة) جنوب الجنوب الشرقى لرأس يحمل هذا الإسم ، ويتراوح عمقه بين مترين وثلاثة أمتار حسب اتجاه وقوة الرياح ومدة هبوبها ، فحين تهب رياح البحر بشدة فإن العمق يصل إلى أربعة أمتار ، ويكون المرور هناك فى معظم الأحيان صعباً وخطراً .

ويجد الإنسان فوق لسان الأرض ، الرملى ، الذى يفصل هذه البحيرة عن البحر بقايا لآثار جسر مبنى فى جزء منه بالأحجار ،وفى جزء آخر بالخشب ، ويبلغ طوله شبه المتواصل حوالى ثلاثة آلاف متر (١٥٣٩ قامة) ، ويسير بحذاء الساحل قادماً من الغرب ومتجهاً نحو الشرق ، ونقرأ فيما ذكر عن رحلات بول لوكاس Paul Lucas أن هذا الجسر قد قطع فى عام ١٧١٥ بفعل اندفاع مياه البحر بعنف ، وأن المياه قد غمرت بحيرة المعدية منذ هذا التاريخ كما أن هذا الجسر قد أصابه الكثير من الأذى أيضاً عام ١٧٨٢ بسبب حادث مماثل ، ويعتقد أن هذا الجسر ، الذى اضطررنا لعمل ترميمات عدة له ، يعود إلى عصر السلطان سليم عند حوالى منتصف القرن السادس عشر ، أو هذا على الأقل هو ما يمكن استنتاجه من الأعمال الهائلة التى تم إنجازها فى عهد هذا الحاكم ، على ساحل مصر كله .

ويمتد طول هذه البحيرة من ٤ إلى ٥ آلاف متر من شرق معديتها حتى قصر القياصرة بالقرب من مدينة الإسكندرية ، وبعرض يبلغ من ١٥ إلى ١٦ ألف متر . أما أقصى اتساع لها ، وهو يبدأ من نفس النقطة ، المعدية ، حتى تل الجنان ، إلى الجنوب الشرقى ، فيبلغ ١٢ ألف متر (٦,١٦٠ قامة).

ويبلغ عمق مياهها حوالى المتر (٣ أقدام) ، كما يخبرنا بذلك تقرير المستر ولسون Wilson ، وبالكاد تستطيع القوارب الخفيفة أن تسبح فوقها لكن عملية إغراق بحيرة مريوط بواسطة مياه البحر بسبب القطع الذى تم إحداثه فى جسور ترعة الإسكندرية ، فى أبريل ١٨٠١ ، قد أدى بالضرورة إلى تكوين حفر عميقة بعض الشىء ، لحد سمح لسفن الأسطول الإنجليزى التركى ، التى يبلغ غاطسها من متر إلى مترين بالملاحة فيها ، وبالذهاب من خليج أبى قير ،عن طريق المعدية ،إلى بحيرة مريوط .

ثالثا – بحيرة إدكو

تشغل بحيرة إدكو جزئياً ، وهى التى تتخذ اسمها من اسم قرية كبيرة لحد ما ، تقع فى هذه الانحاء ، الفراغ الواقع بين المعدية التى انتهينا من الحديث عنها ، وبين فرع رشيد ، وكانت هذه البحيرة كبيرة بعض الشيء قبل مجيء الحملة الفرنسية ، وكان عائد صيد الأسماك منها يشكل الدخل الرئيسى لمنطقة إدكو ، لكنها منذ زمن ، كادت تبلغ حد الجفاف التام لأن جسور الترع التى تحمل إليها مياه النهر لم تفتح . وبخلاف المياه التى تحصل عليها من ترعة الإسكندرية ، عن طريق خور أبى جاموس ، فإنها تحصل كذلك على مياه النهر عن طريق فرعين آخرين ، ينبع أحدهما عند قرية سنابادة بالقرب من فوه ، وينبع الآخر عند قرية ديروط .

وخلال الفيضان الذى تم فى العام ٧ / ٩ (سبتمبر ١٨٠٠) ، حصل سكان إدكو على تفويض من الحكومة الفرنسية بفتح جسر ديروط ، تلك القرية الكبيرة نوعاً ما والتى تقع على الشط الأيسر للنيل ، إلى الغرب من فوة ، وكذلك جسر أبى جاموس . وكان الفيضان فى ذلك العام وفيراً حتى أن مياه البحيرة التى ارتفعت إلى نحو ٥٠ إلى ٦٠ سم فوق مستوى مياه البحر قد تسببت فى حدوث بعض الخسائر للبلاد ، فشقت لها فتحة إلى البحر باتساع بلغ حوالى ١٥٠ متراً ، وبعمق قدره ٣ إلى ٤ أمتار ، بالقرب من وكالة أو نزل كان الفرنسيون يشيرون إليه باسم البيت المربع La maison Carrèe .

رابعاً – بحيرة البرلس

تشغل بحيرة البرلس الجزء الأكبر من الساحل البحرى الواقع بين فرعى دمياط ورشيد ، وتدين هذه البحيرة التى يبلغ أقصى اتساع لها ٣٥ ألف متر (١٧,٩٥٧ قامة) باسمها إلى رأس منخفض رملى ، كان الأقباط يطلقون عليه اسم برولو Broullo أو بارالو Parallou ويبدو أن مياه البحر كانت تهاجم هذا الساحل بشكل دائم ، حيث أننا نجد اليوم تحت مياه هذه البحيرة أطلال مسجد وإحدى القرى .

ولا يزيد عمق مياه بحيرة البرلس عادة عن متر واحد ؛ لذلك فمن العسير الملاحة بها ، وتصب فيها ترع عديدة متفرعة عن النيل ، أهما ترعة التبانية التى تبدأ من سمنود على فرع دمياط .

أما بوغاز البرلس ، فى اتساعه الذى يتراوح بين ٢٠٠ إلى ٢٥٠ متراً فيبلغ عمقه من ٣ إلى ٤ أمتار تبعاً لحالة النهر .

خامساً – بحيرة المنزلة

تمتد بحيرة المنزلة من دمياط حتى ما وراء قصر الطينة ، بالقرب وإلى الشمال من أطلال بيلوز [١] . وتفصلها عن طريق البحر كتلة من الرمال ضيقة الاتساع ، تقطعها فتحات عديدة لتصل البحيرة بالبحر ، وأهم هذه الفتحات فتحتا فم الديبة وأم فارج .

وتدين هذه البحيرة باسمها لقرية المنزلة ، وهى مكان رئيسى فى منطقة تقع إلى الغرب من لسان من المياه يشكل إلى الجنوب مصباً لترعة أشمون .

وتمتد مياه المنزلة من الطينة عن طريق القنطرة التى تقع على طريق الصالحية – قطية لمسافة حوالى ٣٥ ألف متر إلى الجنوب نحو مركز البرزخ أو القلزم .

وتشكل المياه ألسنة غير صالحة للملاحة يسميها العرب بركة البلح . وهذه الألسنة التى تغطيها النباتات والشجيرات ذات الطبيعة الملحية ، والتى كانت توجد منذ القدم كما يذكر سترابون Strabon ، تنتهى إلى الجنوب الشرقى بمكان يشير إليه العرب باسم رأس الميه (رأس المياه أو البلاح) . ويجد المرء فى ضواحيها بعض مرتفعات من أنقاض مساكن قديمة ، وتوجد قريباً منها بعض الشىء ، ناحية الشرق ، آبار أبى الروك التى تعطى مياهاً عذبة أو تميل للملوحة قليلا .

---

(١) دراسة عن بحيرة المنزلة تأليف الجنرال (بالمدفعية) اندريوسى ، الدولة الحديثة المجلد الحادى عشر ، ص ٥١٩ إلى ٥٥٤ (من الطبعة الثانية من وصف مصر) .

ويتردد على هذه المناطق العربان الذين يسعون إلى إخفاء سيرهم من مصر إلى سوريا .

سادساً – بحيرة سربونيس أو سباخة البردويل

كانت بحيرة سربونيس كما يذكر كل من هيرودوت ، وديودور ، وسترابون تبدأ من رأس كاسيوس الواقع إلى الشرق من بيلوز ، وتحاذى الساحل البحرى لمسافة تزيد على مائتى غلوة (١٩ ألف قامة) ، ويبلغ أقصى اتساع لها ٥٠ غلوة (٤٧٥٠ قامة) (١) .

وحتى اليوم ، لا تزال تتطابق الأوصاف التى تركها لنا كل من ديودور الصقلى وسترابون مع وضعها الحالى ، إذ يذكر ديودور أن « فرقاً عسكرية قد هلكت فيها حيث كانت تجهل حقيقة هذه المستنقعات العميقة التى كانت تغطيها الرياح بالرمال التى حجبت هوّاتها » ويضيف بأن الرمال والأوحال لم تكن تغوص فى البداية تحت الأقدام إلا قليلا ، كما لو كان الأمر لإغراء المسافرين الذين يظلون يواصلون تقدمهم لحد لا تستطيع المساعدات التى يقدمونها لأنفسهم – حالما يدركون الخطأ الفادح الذى وقعوا فيه – أن تنقذهم ، فكل المجهودات التى يبذلونها حينئذ لا تؤدى إلا إلى جذب المزيد من الرمال من المناطق المجاورة وينتهى الأمر بأن تبتلع الرمال هؤلاء المسافرين التعساء ، ولهذا السبب فقد أطلق على هذا السهل الطينى اسم bàrathrum أى سهل الهوات أو سهل جهنم .

ويذكر سترابون أن كل المنطقة من غزة حتى سربونيس ، وكذلك تلك المنطقة التى يمدها من الغرب رأس كاسيوس حتى بيلوز ذات طبيعة رملية تامة ، قاحلة وتخلو من أية مياه عذبة ، كما أن تربتها على الدوام منخفضة وعميقة وموحلة مثل تربة فينيقيا ، وكانت توجد عند المنتصف فتحة طمستها الرمال . ومن كاسيوس يبدأ الطريق المؤدى إلى بيلوز ،ويجد المرء فى هذه الانحاء هوات تكونت بشكل طبيعى ، حيث هى تقع فى ضواحى بيلوز ، من فيض النيل على مناطق واطئة .

---

(١) هيرودوت ، الكتابان الخامس والسادس ؛ ديودور ، الكتاب الأول ، الباب الأول ، الفصل السابع عشر .

ويذكر نفس هذا الجغرافى فى الكتاب الأول (١) أثناء حديثه عن هذه الجهات « لابد أن البحر قد كان فيما مضى يغطى أرض مصر حتى هذه المستنقعات المجاورة لبيلوز ولرأس كاسيوس والمرتفعات المجاورة لسربونيس ، ذلك أننا لا نزال نجد حتى اليوم ، عندما تحفر مناجم للملح فى أرض مصر كتلا من الرمال ومن القواقع المتحجرة ، كما لو كان البحر فى الزمن القديم يغطى هذه البلاد ، ولابد كذلك أن كل ضواحى كاسيوس وكذا المكان المسمى جرها Les Gerrhes ، كانت قاعا ضحل العمق يلامس خليج بحر أريتريا ، ولابد أن البحر عند انحساره قد كشف هذه الأرض ، لكن المياه قد بقيت فى بحيرة سربونيس التى أصبحت بعد ذلك ، وبفعل تدفق جديد للمياه مستنقعاً » ويضيف نفس المؤلف : « وفى أثناء إقامتى فى الإسكندرية ، ارتفع البحر عاليا بين بيلوز ورأس كاسيوس وأغرق الساحل المحيط بهذا الجبل حتى أصبح بمثابة جزيرة وسط المياه ، وحتى أن الطريق المؤدى إلى فينيقيا كان يمكن أن يقطعه الناس بواسطة السفن ، لذلك لا ينبغى أن ندهش لو حدث أن البرزخ الذى يفصل البحر المصرى (المتوسط) عن بحر أريتريا (البحر الأحمر) قد هوى أو تفتت فإن هذين البحرين سيتصلان ببعضهما البعض بواسطة مضيق ضيق يشبه مضيق أعمدة هيرقل » (مضيق جبل طارق) .

وتحمل بحيرة سربونيس اليوم اسم سباخة البردويل باسم بودوين Baudouin ملك أورشليم الذى مات فى العريش أثناء عودته إلى سوريا ، فى عام ١١٧٧ ، بعد الحملة التى سيطر فيها على الفرما (بيلوز) ، وتشكل هذه البحيرة بشكل أساسى كل الفراغ الواقع بين رأس ستراكى ورأس كاس والتى تبلغ مسيرة نحو سبع إلى ثمانى ساعات بحذاء شواطىء البحر الرملية ، ويحد اتساعها إلى الجنوب طريق قطية — العريش الذى يبلغ طوله ١٠ — ١١ ألف متر (٥١٣٠ إلى ٥٦٤٣ قامة) ، وكل هذه المساحة ، هى الحوض القديم للبحيرة ، ولا تزال الرمال المتحركة حتى اليوم تغطى جزءاً

---

(١) سترابون ، الجغرافيا ، الكتاب الأول والسادس عشر والسابع عشر ، الترجمة الفرنسية لهذا المؤلف ، باريس ، سنوات ١٨٠٥ وما بعدها .

كبيراً منها ، وهذه الرمال المتحركة هي التي تركتها هناك نفس الهوات التي تحدث عنها كل من ديودور وسترابون ، وإننا لندين ليوميات زحف السيد الجنرال مينو ، عند عودة الجيش من سوريا إلى مصر بتفاصيل شيقة حول هذا الجزء من الساحل ، الذى اتبعه هذا القائد من العريش إلى قطية [1] ، وإليكم نص هذه اليوميات .

خط السير من العريش إلى قطية عن طريق
سواحل البحر المتوسط ، الذى اتخذته فرقة
من الجيش الفرنسى أثناء عودتها من سوريا إلى مصر

« رحلنا من العريش ، فى الساعة الخامسة من بعد الظهر . وبعد مسيرة نصف الساعة باتجاه الشمال الغربى ، وصلنا إلى شواطىء البحر ، وسرنا بحذاء الشاطىء بإتجاه ٥,٢٥ إلى الجنوب الغربى لمدة ساعة ونصف ساعة قبل أن نصل إلى بئر المسعودى حيث تزودنا بالمياه ، وواصلنا السير فى الساعة الثامنة مساء حتى الحادية عشر ، متخذين نفس الاتجاه ، فقطعنا بذلك حتى نقطة أول استراحة لنا أربعة فراسخ .

« وفى اليوم التالى واصلنا السير فى الخامسة صباحاً ، وفى الساعة السابعة قمنا بالتنقيب فى الأرض التى تنتشر بها حفر كثيرة لكن المياه التى عثرنا عليها كانت بالغة الملوحة ، ويتوغل الشاطىء فى هذه المنطقة نحو الشمال ، وكنا نسير بميل يبلغ $\frac{1}{4}$ درجة جهة الشمال ، ثم واصلنا مسيرتنا باتجاه غرب الشمال الغربى حتى وصلنا إلى رأس بالغ الانخفاض يطلق عليه دانفيل d'Anville فى خريطته رأس ستراكى ، وقد تجاوزناه فى العاشرة والنصف صباحاً .

---

(١) يعود الفضل فى تدوين يوميات هذا الزحف إلى المسيو لازوسكى Lazousky ، الذى كان فى ذلك الوقت رئيس سرية فى سلاح المهندسين ، التابع لفرقة الجنرال مينو ، أثناء زحفه من العريش إلى قطية ، عن طريق الساحل ، فى المدة من ١ إلى ٣ ميسيدور من العام السابع (١٩ ـــ ٢١ يونيه ١٧٩٩) ، وعندما نقدم هنا نص هذا التقرير الهام ، فإننا نحقق إحدى رغبات الجنرال الذى اصطحبته دوماً فى جولات استطلاع وحملات عسكرية أخرى ، وقد أودعنى هذا التقرير فى القاهرة كى أعمل على نشره ، الأمر الذى تحقق فى هذه الدراسة .

« وعندما وصلنا إلى هذا الرأس كنا قد قطعنا تسعة فراسخ ، وهو ما يتفق فى كثير مع الخريطة ؛ ولا يزيد ارتفاع الساحل – وهو منخفض إلى حد كبير – عن ٥ إلى ٦ أقدام فوق مستوى مياه البحر ؛ ويشكل الشاطىء ، شأنه فى ذلك شأن الصحراء التى كانت عن يسارنا ، سهلا خفيضا ، وحين اقتربنا من رأس ستراكى وجدنا العديد من البحيرات الصغيرة ، كان قاع بعضها مغطى بملح أبيض جميل تعلوه ست بوصات من المياه ، وقد وجدنا بعض البحيرات كذلك خالية من المياه ، كما وجدنا أن بعضها عميق الغور ، لكنها جميعاً قليلة الإتساع . سرنا بقية النهار ، عن يسارنا سلسلة من بحيرات متشابهة ، فى حين تمتد الصحراء على مدى البصر فوق سهل واسع شديد الانخفاض ، يخلو تماماً من أية خضرة .

« بعد رأس ستراكى يتخذ شاطىء البحر من جديد اتجاه الغرب ، وغرب جنوب الغرب ، مشكلا منحنى يشبه المنحنى الذى انتهينا من اجتيازه بمحاذاة البحر ، ابتداء من العريش ، وينتهى هذا المنحنى الذى نحن بصدده عند رأس كاس كما تسميه خريطة دانفيل ، ويتكون هذا الرأس من كثبان بالغة الارتفاع تتصل بأرض مرتفعة ، تبدأ من داخل الصحراء لتشكل نهاية لسرير بحيرة قديمة لم تعد بها مياه ، ويغطى هذه المرتفعات نبات العليق أو العيص ، وتبدو قابلة للزراعة ، وتدل المدقات العديدة التى تخترقها ، وكذا روث الجمال والخيول والماعز الذى يغطيها ، على أن العربان يترددون على هذه المناطق ، وقد اكتشفنا خلف وفى سفح الكثبان ، خزاناً للمياه قاعه رملى ، وتكسوه جذوع صبار مطمورة تماماً ، ووجدنا حوله كذلك أنقاضاً لا نهاية لها من الفخار الطينى ومن بعض مواد البناء ، على شواطىء البحر .

« كنا قد قطعنا حتى ذلك الوقت ١٦ فرسخاً ، وقد حاولنا اجتياز الصحراء باتجاه الجنوب الغربى ، كى نصل إلى قطية ، لكن أحواضا أخرى لبحيرات قديمة بالغة الإتساع ، شكلت عوائق بالنسبة لخيولنا وجمالنا ، إذ كانت تغوص فيها حتى بطنها ، لدرجة اضطررنا معها أن نعود أدراجنا نلتمس من جديد شواطىء البحر ، التى يفصلها عن هذه المستنقعات جسر رملى يبلغ عرضه من ١٠٠ إلى ١٥٠ قامة ، ويبلغ

ارتفاعه حوالى ستة أقدام فوق مستوى سطح البحر وقطعنا بعد ذلك أربعة فراسخ حتى بلغنا استراحة الماء ، وفى اليوم التالى ، وبعد أن سرنا بحذاء البحر ، الذى يمضى شاطئه هناك فى خط شبه مستقيم ، بإتجاه ¼ درجة نحو الجنوب ،وبعد مسيرة خمس ساعات وجدنا مبنى من القرميد جيد البناء ، له شكل المنزل المربع يقسمه من الداخل جدار ، ويقع هذا الطلل ، الذى تتناثر من حوله آثار أخرى من مواد بناء ، فى الطرف الشمالى الشرقى لمرتفع لا يشكل مطلقا رأساً فى البحر ، وإن كان يشكل ، من جهة الغرب ، نهاية أحواض كبرى للبحيرات القديمة التى سبق أن تحدثنا عنها ، وفى هذا المكان ، أمر قائد الفرقة مينو بالسير إلى قطية ، وكنا عندئذ قد قطعنا ابتداء من العريش حوالى ٢٥ فرسخا فوق رمال متحركة ، دون أن نعثر على مياه ، بخلاف تلك التى وجدنا فى بير المسعودى .

« أما بخصوص خزان رأس كاس ، فقد يكون من المفيد القيام بتطهيره لمعرفة نوع وكمية المياه الموجودة به وهو يقع على بعد تسعة فراسخ من طلل القرميد الذى تحدثنا عنه من قبل ، ومن المرتفعات التى اجتزناها لنتجة صوب قطية . وبعد مسيرة ساعة دخلنا الطريق المؤدى من الطينة إلى قطية » .

حرر فى قطية ، فى الثالث من ميسيدور من العام السابع

قائد لواء المهندسين لازوسكى

(توقيع)

وهكذا نتبين من هذه الأوصاف ، أن طبيعة هذه المناطق لم تتناولها تغيرات ملحوظة ، منذ ما يقرب من عشرين قرناً .

سابعا – البحيرة المرة أو البحيرة بين البحرين

إن البحيرة التى أشار إليها مؤلف دراسة « القناة التى تربط بين البحرين » المسيولوبير Lepère ، أخى الأكبر ، والذى كنت واحداً من معاونيه ، باسمها القديم ، البحيرة المرة ، تتخذ فى هذه الدراسة تسمية جديدة ، هى البحيرة بين البحرين ، وهو الاسم الذى أطلقته عليها والذى يبدو منطبقاً تمام الإنطباق على حالتها ، وعلى موقعها وسط قلزم السويس ، وعلى الدور الذى قامت به فى الإتصال القديم بين بحر الهند وبحر اليونان ، وعلى الدور الذى تستطيع أن تقوم به بشكل طبيعى عند إعادة فتح هذا الإتصال [١] .

ثامناً – بركة قارون أو بحيرة موريس

تعتبر بحيرة موريس ، بين كل الأعمال المدهشة التى قام بها قدماء المصريين ، هى ذلك العمل الذى تحدث عنه المؤرخون القدامى بأكبر قدر من الاطراء والحماسة ، ومع ذلك ، فحين نعرف عبقرية شعوب الشرق فى كل العصور ، وروح وأسلوب كتابهم ، فإن المرء لايدهش بعد أن يجد ، كما يقول سترابون حين يتحدث عن هوميروس ، أن الأساطير والخرافات تتداخل فى كتاباتهم ، ولهذا على وجه الدقة ، فإننا لن نجافى الحقيقة حين نحمل محمل الأسطورة ما كتبه هيرودت عن أعاجيب بحيرة موريس ، وفى الواقع ، فإن هذا المؤرخ ، وهو أقدم هؤلاء الذين كتبوا عن مصر ببعض التفصيل ، هو سبب الأخطاء والمعلومات غير الدقيقة التى جعلت كتابنا المحدثين ، حتى عصرنا هذا ، مشغولين بهذه المسألة الجغرافية ، سواء كان ذلك من هيرودوت بفعل تقليد خاطىء أو مغلوط منه أو كان بسبب تفسيرات غير دقيقة حصل عليها من الكهنة المصريين .

---

(١) انظر دراسة المسيو Lepère عن القناة التى تربط بين البحرين ، الدولة الحديثة ، المجلد الحادى عشر ، ص ٣٧. (الطبعة الثانية) .

لكننى لن أدخل فى هذا الصدد فى أية مناقشات حول موضوع أرى أنه قد توضح الآن بشكل كاف حتى لأعده بذلك منتهياً ، بعد هذا الذى كتبه ونشره فى مصر ، المسيو جومار Jomard ، الذى كان ضابطاً فى سلاح المهندسين الجغرافيين (١) .

تاسعاً ـــ سباخة النطرون أو بحيرات النطرون

يضم الوادى المتاخم لمصر السفلى ، فى جزئه الأوسط والأكبر انخفاضاً ، بعض ألسنة يطلق عليها بحيرات النطرون ، باسم مادة ملحية حجرية تنتجها هذه البحيرات ؛ وتتجه هذه البحيرات إلى شمال الشمال الغربى موازية الفرع الغربى للنيل ، الذى يبعد عنها بمسيرة نحو ١٠ إلى ١٢ ساعة نحو الغرب ، ويبدأ ظهور هذا الوادى بين أهرام سقارة والجيزة ، وينتهى عند تخوم ولاية البحيرة إلى الجنوب من ماريا Marèa ، عاصمة إقليم المريوطية القديم .

وتقع بحيرات النطرون على خطوط موازية لقريتى مينت سلامة والطرانة على النيل ، على مسيرة ١٢ ساعة إلى الغرب من الطرانة أى مسافة نحو ٤٨ ألف متر من هذه القرية ، على اعتبار أن مسيرة الساعة تساوى أربعة آلاف متر .

ولابد أن يتبادر إلى ذهن المرء أن قاع هذه البحيرات أدنى من مجرى النيل وكذا من مستوى مياه البحر المتوسط ، بل إننا مدفوعون إلى الاعتقاد كذلك بأن مياه النيل تتسرب إليها عن طريق الرشح حاملة معها المادة الملحية الحجرية التى تحللها من التربة التى تخترقها ، والتى تستخدم فى تشكيل وتجهيز النطرون فى هذه الحفرات الطبيعية ، ذلك النطرون ، الذى استطاع العلم فى كل العصور أن يعده لاحتياجاتنا الصناعية ، ويقول هيرودوت بهذا الخصوص « إن النيل أثناء فيضاناته الكبرى يغرق ليس الدلتا فقط ولكن كذلك مناطق الصحراوات الليبية وكذلك بعض أجزاء من بلاد العرب ،

---

(١) دراسة عن بحيرة موريس ، الدولة القديمة ، المجلد السادس ، ص ١٥٥ (الطبعة الثانية) .

إذ يفيض على الجانبين لمسيرة نحو يومين » ويؤكد بلين Pline هذا الاستنتاج عندما يقول إن مياه النيل تحدث فعلها فى ملاحات النطرون .

وعلى غير سند قوى ، فى رأيى ، رفض واحد من أحدث رحالتنا هو المسيو سونينى Sonnini رأى الطبيعيين اللاتين ، الذى تبناه وتوسع فيه الجنرال أندريوسى فى دراسته الموجزة عن وادى بحيرات النطرون (١) وحيث أننى لست أستهدف هنا الدخول فى تفاصيل كثيرة حول هذا الوادى ، فإننى أحيل هنا إلى الدراسة التى دونتها فى بريد مصر Courriar de l'Egypte وبصفة خاصة إلى الدراسات التى سبق أن ذكرتها لكل من المسيو سونينى والجنرال أندرويوسى ،وأذكر هنا (٢) حكاية طريفة من

---

(١) Memoire sur la vullèe des Laco des Natroun وصف مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى عشر . وهو الدراسة الرابعة من المجلد الثانى فى الترجمة العربية .

(٢) فى أثناء الرحلة التى قمت بها إلى بحيرات النطرون صحبت معى ، بناء على رغبته ، السيد قائد الفرقة الجنرال مينو ، وكان على رأس ٥٠٠ من رجال المدفعية وقت إبرار الجيش الإنجليزى — التركى فى أبى قير ، فى السادس والعشرين من ميسيدور من العام السابع (١٤ يولية ١٧٩٩) ، وكان — هو — مكلفاً بمسح الصحراء ، بهدف قطع خط الرجعة الرجعة على مراد . وكان هذا البك ، المتحالف مع العدو ، والذى كان يهدد فى ذلك الوقت سواحل أبى قير ، يجتاز البحيرة مع بعض أحزاب المماليك والعربان ، حيث كان يسعى إلى تأليب هذه الولاية ضدنا ، لكنه عرف كيف ينسحب من هناك فى الوقت المناسب . وقد عانينا فى هذه الحملة العسكرية ، فى هذا الوقت من السنة ، من أشد درجات حرارة الصيف ،ومن أقسى المتاعب ، ومن الخسائر فى الرجال والخيول ، كما سنعرف للتو ، فى التفاصيل التالية :

بعد أن رحلنا فى الخامس عشر من يوليو ١٧٩٩ من إمبابة ، وهى قرية تقع على الشط الأيسر للنيل ، حازت شهرة بسبب معركة الأهرام ، أصبحنا فى السادس عشر من الشهر داخل الصحراء فى منطقة مرتفعة ، على مسيرة ثلاث ساعات إلى الغرب من وردان ، وزحفنا نحو الأديرة اليونانية والسريانية الموجودة عند بحيرات النطرون ، وهنا اضطر نقص المياه ، الجنرال مينو إلى التماس النيل مرة أخرى ؛ وكنا قد فقدنا حتى ذلك الوقت بسبب متاعب العطش رجلين ، أحدهما يونانى ، قتل نفسه يأساً ببندقيته ، وقد بلغنا النيل بعد ساعتين ، بالقرب وإلى الشمال من ميت سلامة ، وعندما عاودنا الرحيل ، عند الساعة الرابعة ، عدنا مرة أخرى إلى الصحراء حيث ضربنا خيامنا ، وفى اليوم التالى وصلنا ، عند حوالى الساعة العاشرة ، إلى دير القديس مكاريوس ، بعد أن فقدنا مرة أخرى أربعة رجال ، وحصاناً ، وجملا ، واستغرقت مسيرتنا من شواطىء النيل إلى هذا الدير عشر ساعات من السير المتواصل ، وبعد وصولنا استشعرت سعادة غامرة حين تمكنت من إنقاذ حياة ثلاثة جنود ، زحفوا ، وفمهم يرغى رغوة الموت ، وجسدهم يرتجف بشدة ، نحو الدير الذى كان دخوله ممنوعاً على الفرقة ، وبعد أن وضعناهم فى ظل الجدران ، =

شأنها أن تعرفنا على طبيعة الصحراوات التى تقع فى وسطها بحيرات النطرون ، وعلى الخطر الكامن فى اجتيازها فى فصول السنة شديدة الحرارة وبخاصة لو أن ذلك قد تم ، دون اتخاذ الاحتياطات الضرورية .

وفى رأيى أن من المهم أن يلم بهذه الحكاية الطريفة أولئك الذين يتحتم عليهم أن يسافروا إلى هذه المناطق .

= وبعد أن قدمنا لهم الماء المنعش بالقدر المناسب ، استطعت أن استعيدهم إلى الحياة التى خرجوا منها بعد ذلك بربع الساعة ، وبلا عودة ؛ عندئذ حفرت الفرقة وهى تجرى هنا وهناك ، الرمال ، على بعد ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر من الدير ، حيث عثرنا على قليل من المياه المالحة تكفى بالكاد لرى عطش لا سبيل إلى وصفه ، وكان لابد أن تحدث بعضُ إصابات بالحمى الرهيبة ، التى يتسبب فى حدوثها فى هذه الصحراوات عطش مهلك ، تبلغ قسوته درجة لا يمكن تخيلها أو وصفها ، ولسنا فى حاجة بالتأكيد إلى أن نلتمس فى عاصفة هبت على هذا البحر من الرمال الليبية ، السبب فى ضياع جيش قمبيز الذى ابتلعته هذه المنطقة من بلاد آمون ،ذلك أنه تكفى ببساطة هبة ملتهبة من رياح الخماسين لمدة يوم أو يومين فقط ، أو مجرد زحف اضطرارى فى هذه الصحراوات الخالية من المياه ، كى يهلك هناك جيش بأكمله .

وفى التاسع عشر من يوليو ، وبعد مسيرة خمس عشرة ساعة من دير السيدة (أو دير السريان) بلغنا النيل من جديد ، من جهة الشمال الشرقى ، عند العويجة ، وفى أثناء هذه الرحلة فقدنا رجلين آخرين بعد ساعة واحدة من السير إلى غرب النهر ، وقد وضع المسيو جاكوتان Jacotin الكولونيل بفرقة المهندسين الجغرافيين عند رسم خريطة مصر الكبرى ، نقاطاً تبين هذه المسيرة الصعبة التى كان على القائد أن يتحملها مع الجندى ، إذ كانت هذه الحملة جد متسرعة ، لحد لم يكن لدينا من الوقت ما يكفى كى نتزود لا بالخيام ولا بأية مؤن ضرورية أخرى ، أما عنى أنا ، فبعد مسيرة سبعة أيام من زحفنا ، أربعة منها فى الصحراء ، لحقت فى أبى قير بالجنرال مينو ، الذى تولى قيادة حصار هذا الحصن . وبعد استسلام الحصن عدت إلى رشيد حيث عانيت من آلام شديدة مع كل الأعراض التى تصاحب الطاعون الذى أنقذتنى منه لحسن الحظ نوبة عرق غزير ، جاءتنى نتيجة سير اضطرارى . وعند العودة إلى القاهرة ،بعد ذلك بشهر ، هاجمتنى نوبة رمد ، حرمتنى كلية ، طيلة اثنى عشر يوماً ، من النظر ، وهى نوبة لم أشف منها إلا بعد ستة أسابيع . وقد عانى آخرون ، كثيرون ، من الظروف القاسية للغاية التى صحبت هذه الرحلة ، وقد ظل حصانى ، وكذا حصانان آخران من خيول الجنرال ، مرضى بسبب هذه الرحلة لمدة ١٥ — ٢٥ يوماً حتى أنها استطاعت بالكاد أن تواصل السير معنا فى اليوم الأخير حين اتجهنا من العويجة إلى الرحمانية ، وقد أتيح لى أن ألاحظ وأن أقتنع كذلك بأن سبب الحوادث التى عانيت منها بصفة خاصة يعود إلى أثر الفرق الملحوظ والمؤثر أبلغ الأثر فى الجسم ، بين الحرارة الشديدة فى النهار والتى تبلغ من ٣٢° إلى ٣٥° وبين البرودة الشديدة بالليل وسط هذه الصحراوات ، وبخاصة حين لا يحرص المرء على أن يغطى نفسه جيداً أثناء الليل ، وهذا أيضاً سرّ الإرهاق الشديد الذى يحس به المرء هناك ، ذلك أن امتناع العرق فى مصر ، كما فى كل البلدان الحارة ، هو أحد الأسباب الأولى لوجود الأمراض الملازمة لاجوائها .

ملاحظات عامة

يقول المسيو جراتيان لوبير Gratien lePére إنه قد اطلعنا فى الوصف الخاص الذى قدمه عن بحيرات مصر والذى نقلناه بالنص فيما سبق ، على ما لم يكن قد نشر من قبل :

١ – إن حوض بحيرة مريوط ، الذى يمتد بطول الساحل البحرى للاسكندرية حتى برج العرب ، لمسافة من ٣٨ إلى ٤٠ ألف متر ، والذى كان قد جف تماماً فى عام ١٨٠٠ ، قد ظل حتى اليوم أدنى من منسوب البحر بشكل ملموس ، بحيث أن المياه المالحة ، نتيجة لعملية تخريبية ، تغمره اليوم كله ، ويبلغ عمقها فى نقاط عديدة سبعة أو ثمانية ، وربما عشرة أمتار .

٢ – أن قاع حوض كل من بحيرات المعدية ، وإدكو ، والبرلس ، وكذلك بحيرة المنزلة التى تلامس بقية الشاطىء البحرى للدلتا القديمة ، والتى تتصل مباشرة بالبحر بواسطة فتحة أو عدة فتحات ، ينخفض بوضوح عن مستوى البحر ، حيث تتخذ مياه هذه البحيرات الملحية ، حين تتناقص بتناقص منسوب النيل ، كل ملوحة مياه البحر التى تصب فيها عندئذ ، وترتفع بدرجات تتفاوت بحسب قوة واتجاه الريح القادمة باتجاه عرض هذه البحيرات .

٣ – أن بحيرة سربونيس التى تمتد من رأس ستراكى إلى رأس كسارون ، والتى تغطيها قشرة ملحية ، تضم ، شأنها فى ذلك شأن الألسنة المتاخمة من جهة الغرب باتجاه الطينة ، نفس الهوات التى كانت موجودة هناك منذ ألفى عام .

٤ – أن بركة البلح ، التى تتصل شمالا بالمنزلة ، وتمتد حتى رأس المية عند حوالى منتصف قلزم السويس ، لا تزال حتى اليوم ، وبشكل ملموس للغاية ، أدنى من مستوى سطح البحر المتوسط ، حتى أنها ليست سوى فيض بمعنى الكلمة لمياه حلوة أو مالحة من المنزلة ، تبعاً لحالات المنزلة المختلفة ويتم ذلك بفعل القنطرة التى تفصلهما على الطريق من مصر إلى سوريا والذى يمر بالصالحية .

٥ – أنه يتضح بشكل ملموس لكل من يعبر قلزم السويس من بحر لآخر ، على نفس خط عمليات المهندسين الفرنسيين ، مدى إنخفاض أرض البحيرات المرة عن مستوى سطح البحر الأحمر ، وتتطابق النتائج التى توصل إليها المهندسون الفرنسيون فضلا عن ذلك مع تلك التى توصل إليها من قبل مهندسو داريوس ، كما تقول الروايات المتواترة ، وكذلك مع الشهادات التاريخية للمؤلفين القدامى والمحدثين ، كما تتطابق كذلك مع شهادات الأقباط ومثقفى القاهرة .

٦ – أن بحيرة موريس – وبركة قارون ليست سوى أدنى بقعة من هذه البحيرة القديمة – تشكل كذلك ، وهو أمر ملموس ، اتساعا لمنخفض يمكن أن يبلغ عمقه – وهو أمر لم تحققه أية عملية قديمة أو حديثة – نفس ما ذكره هيرودوت ، أى ٥٠ أورجى Orgyies (٩٢ متراً) تحت أعلى مياه فى هذه البحيرة ، وأنه ، إذا لم يكن هذا العمق صحيحاً فى موقع النهرين اللذين أقامهما موريس ، فلا شىء ، فى الواقع ، يتعارض مع ما يمكن لهذا العمق أن يبلغه بالنسبة لأية منطقة أخرى ، حيث تبدو تربتها أدنى بكثير من سرير النيل ، وترتيبا على ذلك ، أدنى من منسوب البحر المتوسط .

٧ – أن تربة البحر بلا ماء ، والتى يعود جفافها بلا جدال ، وكذلك جفاف كل البحيرات الأخرى فى مصر ، تلك التى لم تعد تتغذى بمياه النهر أو البحر ، إلى الأعمال التى قام بها ، فيما مضى ، موريس ، الذى يتحدث عنه هيرودوت ، وكذلك إلى البخر المستمر فى هذه الصحراوات من الرمال القاحلة والملتهبة ، وأن تربة هذا الوادى ، حسبما أرى ، لابد أن تكون بالمثل ، أدنى من مستوى البحر .

٨ – وأخيراً ، أن حوض بحيراء النطرون ، حيث يجد المرء محجراً طبيعياً غير قابل للنفاد ، من هذا الحجر الملحى ، لابد أن يكون دون أدنى ريب من سرير النيل الذى تجرى مياهه ، فيما يبدو ، تحت قاع هذه البحيرات فتجلب إلى هذه الوهاد رطوبة ملحية ، هى واحدة من العناصر التى تكون هذه المادة المعدنية . ومن الممكن أن نقرر هنا – ولا يتم ذلك على غير أساس – أن التربة ، هنا بالمثل أدنى من مستوى مياه البحر المتوسط .

وإذا ما حاولنا ، بعد أن تعرفنا هكذا على بحيرات مصر ، أن نضع فى اعتبارنا الطبيعة العامة والخاصة لهذه البحيرات ، التى تحيط بها سهول منخفضة وقاحلة حيث نجد رمالا متحركة ، تبللها مياه مشبعة بالأملاح من كل نوع ؛ وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا فى النهاية أن رطوبة الليالى الدائمة ، تهيىء بشكل مستمر فى طقس هذه البحيرات ، والصحراوات التى تحيط بها ، رطوبة ملحية تخترق مسام الأجسام وتفعل فيها فعلها ، فإننا نتوصل إلى أن قلزم السويس ، وكل مصر السفلى ، وكذلك كل الساحل المتاخم من الغرب لواحة آمون فى الصحراوات الليبية ، وتطابقاً مع الرأى الذى كان يحدسه الكهنة المصريون ، والذى نقله وتبناه هيرودوت ، وسترابون ، وكل فلاسفة الأزمنة القديمة ، تشكل بلا جدال امتداد بحر جفت مياهه .

وقد شارك فى هذا الرأى كل الرحالة المحدثين ، الذين زاروا هذه المناطق ؛ ويمكن أن نذكر من بين هؤلاء الرحالة هورنمان Hornemann ، الذى تعرف فى هذه الصحروات ، بعد أن عبر أفريقيا سنة ١٨٠٠ من الشرق إلى الغرب مروراً بواحة آمون (سيوة) ، على الآثار المحسوسة للغاية لإقامة طويلة لمياه البحر (فوق هذه المناطق) ، وأضيف إلى ذلك ، تبعاً لرأى الكهنة المصريين ورأى هيرودوت ، أنه يحتمل ألا يكون وادى النيل اليوم ، وهو الذى ترتفع تربته بشكل مستمر من القاهرة وهو يتجه جنوباً نحو الصعيد ، سوى ترسيب هائل لطمى النهر ، وأن وديان بحر بلا ماء ، وكذا بحيرات وادى النطرون قد أمكنها أن تشكل فيما مضى خلجاناً مشابهة لخلجان البحر الأحمر ؛ وأضيف إلى ذلك ، أخيراً ، أن الواحات –[1] وذلك من حيث ينظر إلى الصحروات الليبية والإفريقية بشكل عام ، باعتبارها أجزاء من أرضية بحر جفت مياهه – وهى تلك الأنواع من الجزر المزروعة أو القابلة للزراعة ، والتى نراها مبعثرة باتساع هذا البحر من الرمال ، ليست سوى وهاد ، مثل تلك التى توجد فى قاع البحار ، والتى لا تزال تربتها ، جزئياً ، أدنى من المستوى الحالى لمياه البحر المتوسط .

ويقول مؤلف هذه الدراسة : لم يكن منوطاً بى أن أحدد سبباً للثورة الفيزيقية التى أمكنها أن تغير على هذا النحو سطح كثير من هذه المناطق ، لذلك فلست

أدعى بأننى قد توصلت للعثور على هذا السبب الثانوى ، سواء بالإشارة إلى أثر المد والجزر غير الاعتيادين ، واللذين ، تبعاً لما يقول سفر الخروج ، والذى تتفق روايته القديمة مع ما يذكره ديودور [١] عن أكله الأسماك Ichthyophages ، وهى شعوب سواحل البحر الأحمر ، ربما يكونان (أى المد والجزر) قد جففا جزءاً كبيراً من هذا البحر ؛ وسواء كذلك بافتراض أن إنخفاضاً قد تم آليا لمياه المتوسط بسبب انقطاع أحدث مضيق أعمدة هيرقل ، المسمى حالياً مضيق جبل طارق [٢] ، كما أننى أخيراً لا ألتمس السبب فى ذلك الانحسار السريع للمياه بعد عصر تلك الكارثة العامة التى تحتم خلالها على الكوكب الذى نعيش فيه ، أن يدور ، خلال قرون ، تحت غلاف بحر لا حدود له ، وهى كارثة لا تزال السهول وكذلك الأغوار بالغة العمق ، والجبال شديدة الارتفاع عن سطح الأرض ، تحمل شواهد لا تنمحى منها ، إن من العبث أن نعذب روح الإنسان ، القلقة فى حد ذاتها ، بافتراضات تتفاوت فى درجات حذقها أو درجات احتمالها لتفسير أسباب هذه الثورات الكبرى ، كما أن أسباب وأوقات هذه الأحداث المرعبة ، التى تهددنا بمسارها ، الدورى ، ربما مجهولة لنا ، وستبقى مدفونة فى طيات ليل الأزمان الأبدى .

ولكى نعود إلى الغرض الذى من أجله أعددنا هذه الدراسة ، فإننا ننتهى بأن نقدم هنا لوحة موجزة لمساحة أسطح البحيرات البحرية لمصر الدنيا ، مع مقارنة هذه المساحة ، بمساحة الدلتا القديمة والدلتا الحديثة .

---

(١) سفر الخروج ، الاصحاح الرابع عشر ، الآية الحادية والعشرين .

(٢) بين كل هذه الروايات أو الافتراضات ، تبدو رواية انخفاض مياه المتوسط بسبب انقطاع مضيق الأعمدة ، وهى الرواية التى كانت موضع دراسة فى جغرافية سترابون ، أكثر الروايات مدعاة للقبول ، كما أنها أكثرها احتمالا . ولذا فنحن نقبل بأن المتوسط كان يغطى فيما مضى الجزء الأكبر من صحراوات ليبيا وأفريقيا ، وأن هذه المياه ، عندما انخفضت عن ارتفاع بعينه ، بفعل قطع طبيعى أو صناعى لمضيق جبل طارق ، قد كشف اتساع هذه السواحل التى حولها الجفاف إلى بحر من الرمال القاحلة والملتهبة . انظر سترابون ، الكتاب الأول من المجلد الأول الترجمة الفرنسية ، وكذلك بلين ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب السادس ، الفصل الأول .

لوحة موجزة للمساحات المقارنة لبحيرات مصر السفلى [١]

التسميات الحديثة والقديمة للبحيرات	المساحة بالهكتار
١ – بحيرة مريوط . (بحيرة ماريوتيس)	٨٥,٧٨٤
٢ – « المعدية	١٣,٨٣٢
٣ – « إدكو	٣٣,٧٧٢
٤ – « البرلس	١١٢,٨٦٠
٥ – « المنزلة	١٣,٠٢٨
المجموع	٤٤٣,١٢٠

٦ – سباخة البروديل .. سربونيس

٧ – البحيرات بين البحرين .. البحيرات المرة

٨ – بركة قارون .. بحيرة موريس

٩ – سباخة النطرون ...

ويرى المرء من مساحة الـ ٤٤٣,١٢٠ هكتار ، ما إن كانت مصر ستفعل ما فعلته هولندا ، ذلك البلد الذى تنخفض أرضه بشكل عام بـ ٣ إلى ٥ أمتار عن مستوى سطح المحيط ، والذى يقدم مثلا يدعو إلى الإعجاب ، على مقدرة الإنسان

(١) سجلت المساحة المحسوبة جزئياً بالنسبة للبحيرات أرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ على الخريطة الجديدة لمصر ، بمقياس رسم ديسمتر واحد لكل ١٠ آلاف متر أى بنسبة ١ إلى ٦٠٠٠ بالنسبة للمقياس الطبيعى .

ولم نكن نظن أنه يبغى علينا أن نقدم مساحات البحيرات الملحية أرقام ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ لأننا لم نكن نعرف أطوالها بالقدر الكافى ، ولأن تربتها فضلا عن ذلك غير قابلة لأن تزرع بعد تجفيفها .

حين انتزع نصفها أو على الأقل ثلثها ، عن طريق تجفيف كل هذه الألسنة المائية الضارة ، التى تفرخ كل أنواع الأمراض الوبائية والمستوطنة فى البلدان الحارة ؛ إن مصر بزيادة وتطهير أرض أقاليمها البحرية ، سوف تجنى بعد وقت قصير عشرة أضعاف القروض التى يمكنها أن تحصل عليها من شركات التجارة والصناعة التى قد تسعى إلى الحصول على تنفيذ هذا المشروع الكبير .

ومن بين كل الأعمال التى ينبغى على حكومة عاقلة ومستنيرة أن تقوم بها لصالح ورفاهية هذه المنطقة ، فإن الأعمال التى تستهدف الرى وتجفيف الأراضى لابد وأن تنال الأولوية عند هذه الحكومة ، وعنايتها الكبرى ؛ ذلك أنه لولا الترع والجسور لكانت مصر ، وقد كفت عن أن تكون ولودة معطاء ، مجرد كتلة هائلة تغمرها مياه النهر أكثر مما يجب ،ولهلك شعبها ، فالعناية السنوية بالجسور والترع هى إذن أساس الوجود الفيزيقى لهذه المنطقة . وإذا كان تاريخ مصر لا يحدثنا بإطراء عن منجزات تمت على أرض مصر – ولست أقصد هنا هذه الأعمال العظيمة والعلاقة التى تبدو اليوم وكأنها تزدرى بكبرياء وأنفة بعض حكامها ، بل أقصد هذه الأعمال الكبيرة والنافعة ، التى لم تكن تهدف إلا إلى توسيع وتطهير ، وكذا ازدهار هذه الأرض القديمة والمقدسة – فإننا مع ذلك سوف نجد بعض الذكريات مدونة فوق سطح هذه التربة . ومهما يكن من ضعف هذه الذكريات ، فإنها تشهد بأن مصر يمكنها أن تصبح من جديد ما كانته تحت عهود هؤلاء الحكام الممتازين ، وفى الواقع ، فإننا حين نعبر مصر السفلى – وأرضها بلا جدال كما قال هيرودوت هبة النيل – نبحث دون جدوى عن مجرى الفرعين الرئيسيين للنهر ، واللذين كانا يكونان جانبى دلتاه القديمة ، ولا نعود نجد وسط هذه السهول المزروعة والخصيبة ، هنا وهناك ، سوى ترعة مطموسة أو متقطعة ، ولا تشكل فروعها الكثيرة ، والتى تتقاطع فى كل اتجاه ، إلا آثارا نتعرف عليها بالكاد لنظام للرى ، كما لا يلمح المرء اليوم فى مكان هذه الكفور والمدن التى كانت تزدحم بالبشر ،سوى أكوام من الأنقاض العارية والقاحلة : تلك هى بقايا المساكن القديمة قد تحولت إلى رماد . وأخيرا فإن المرء لم يعد بعد يرى سوى ألسنة طينية مليئة

بالأوبئة ، أو رمال قاحلة تنسبط وتغزو بلا انقطاع ، أرضاً سبق لدأب الإنسان أن انتزعها من الصحراوات ومن البحر ، لنلق إذن بنظراتنا على الخريطة الجديدة لمصر ، ومع ذلك فإن هذه الخريطة لن تقدم للمشاهد سوى فكرة ضعيفة عن الوضع البائس والمحزن الذى تردت إليه هذه المنطقة . وحتى يكون حكمنا فى ذلك أكثر دقة ، فإننا نختم هذه اللوحة بمقارنة بين مساحة الدلتا القديمة ، وتلك المساحة للدلتا الحديثة .

قدم لنا هيرودوت القاعدة البحرية للدلتا القديمة ، وحددها ابتداء من بحيرة سربونيد (أو سربونيس أى البردويل حالياً) بالقرب من رأس كاسيوس حتى تابوزيريس إلى الغرب ، على الخليج البلنتينى ، وهو يقدر هذه القاعدة بـ ٣,٦٠٠ غلوة ، أى ما يساوى ٣٥٣,٦٢٨ مترا ، باعتبار أن الغلوة المصرية الصغيرة تساوى ٩٨ مترا و ٢٣ سم [١] ، لكننا ، مع تضييق هذه المسافة إلى تلك القاعدة (قاعدة الدلتا) التى تقع بين تقع أطلال بيلوز (شرقاً) وبرج العرب (غرباً) ، نجد أيضاً أن هذه المسافة ، التى نقيسها تبعاً لانحناء الساحل ، على الخريطة الملحقة بالدراسة عن الترعة التى تربط بين البحرين ، حوالى ٣٥٠,٠٠٠ متر .

أما بخصوص جانبى الدلتا ، فإننا سنحصل على المسافة مباشرة من المقياس الواقع عند القمة الجنوبية لجزيرة الروضة ، التى يرتبط موقعها بالفسطاط العربية ، أو ببابليون المصرية ، حتى أطلال بيلوز إلى الشرق ، وبرج العرب إلى الغرب ، باعتبار ذلك هرما يشكل الدلتا القديمة ، لكننا سننقل هذين الجانبين ، فيما يتعلق بالدلتا الصغيرة (الحالية) ، إلى المدينتين البحريتين الواقعتين على فرعى النيل الكبيرين : دمياط ورشيد ، وحيث أننا نعتبر هاتين المسافتين المثلثتى الشكل (لكل من الدلتا القديمة والحديثة على التوالى) تابعتين لقطاع من نفس الدائرة يشكل جانبا كل منهما ،

---

(١) الغلوة التى يشير إليها هيرودوت تبلغ $\frac{1}{60}$ شونة ، وهو مقياس يستخدمه المصريون كما يذكر هذا المؤرخ ويساوى Parasanges . وبعبارة أخرى فإن الشونة تعادل ٤ أميال رومانية وتساوى ٣,٠٢٤ قامة مما يصل بالغلوة المصرية إلى ٩٨ م و ٢٣ سم .

ل ب ق قامة

(٩ ٤ ٢ ٥٠) . انظر ترجمة هيرودوت التى قام بها المسيو لارشيه ، الكتاب الثانى ، الفصلين السادس والسابع .

قطرى هذه الدائرة ، فإننا نحصل على الأبعاد والنتائج الآتية :

دلالات		الأبعاد بالمتر	
		القاعدة البحرية	سواحل الدلتا
أبعاد الدلتا	القديمة	٣٢٠,٠٠٠ م	١٧٠,٠٠٠ م
	الحديثة	١٣٥,٠٠٠ م	١٧٠,٠٠٠ م
تبعاً لهذه الأطوال نجد أن المساحة المترية للدلتا القديمة تبلغ [1] :		٢,٧٢٧,٥٨٣	٦٣ ٣٦
وينبغى أن نقتطع منها مساحة المثلث الذى يكونه الجزء الواقع إلى الغرب من الصحراوات الليبية (مساحة بحيرات النطرون) ، وحيث أن قاعدة هذا المثلث تبلغ ١٩٨ ألف متر وارتفاعه يبلغ ٤٠ ألف متر فإننا نحصل على :		٣٩٦,٠٠٠	٠٠ ٠٠
حاصل الطرح الأول من مساحة الدلتا القديمة :		٢,٣٣١,٥٨٣	٦٣ ٣٦
نستبعد منها مساحة الدلتا الجديدة الذى يبلغ :		١,١٤٧,٥٤٩	٤٠ ٠٠
وبذا يكون مساحة الجزء المفقود من الدلتا القديمة		١,١٨٤,٠٣٤	٢٣ ٣٦

(١) على الرغم من أن الشاطىء الغربى للدلتا الكبرى قد يبلغ ١٩٨ ألف متر ، فإننا لا نعتمد سوى ١٦٧ =

من هذه النتيجة نتبين أن الدلتا القديمة قد فقدت أكثر من نصف مساحتها ؛ وتغطى حوالى $\frac{1}{5}$ مساحتها كذلك مياه بحيرات مريوط ، المعدية ، إدكو ، البرلس المنزلة ، وهى هى الآثار المحزنة للامبالاة الحكام المسيطرين ، بل المخربين لهذه البلاد البائسة .

لقد تحدثت فى هذه الدراسة عن الأعمال العظيمة للرى والتجيف ، التى يمكن القول بأنها استخلصت مصر من قلب البحر ، ووضعتها فى أعلى درجات الأزدهار ولم يعد على سوى أن أعبر عن أمانى بأن تصدر القرارات اللازم اتخاذها بشكل عام ، لمواصلة تنفيذ هذه الأعمال ، التى بلغت اليوم مرحلة العدم التام ، بفعل تخريب البشر ، أكثر منه بفعل أى دمار يكون الزمان قد أحدثه .

* * *

= ألف متر بسبب الأجزاء الداخلة فيه من الصحراء ، والتى نعتقد أن من الواجب استبعادها .

أما المسافة من المقياس إلى أطلال بيلوز ، والمدونة فوق الخريطه فتصل إلى ١٦٨ ألف متر ، وقد رفعناها إلى ١٧٠ ألف متر بسبب الفروق الصغيرة التى توجد فضلا عن ذلك على جانبى الدلتا الصغيرة اللذين ينتهيان عند دمياط ورشيد .

وتعطى الخريطة ١٥١ ألف و ٥٠٠ م من أطلال هليوبوليس إلى أطلال بيلوز وتختلف هذه المسافة عن تلك التى يذكر هيرودوت بأنها تبلغ على وجه الدقة ١٥٠٠ غلوة تعطى (بحساب الغلوة ٩٨ و ٢٣ سم) [أى ٥١ قامة] ١٠٧ ألف و ٣٤٥ متراً ؛ وهذا قد يصل بالفرق إلى ٤ آلاف و ١٥٠ م أى ما يساوى ٤٢ غلوة .

(٦)

« دى برا ـــ ايميه »

الحدود القديمة للبحر الأحمر

(الدارسة الأولى)

يقع الطرف الشمالى للبحر الأحمر على بعد ستة إلى سبعة آلاف متر إلى الشمال من مدينة السويس . وفيما وراء ذلك ، ثمة حوض ينتهى بعد حوالى ستين ألف متر إلى الشمال من هذه المدينة ، ويبلغ أقصى اتساع لهذا الحوض ١٢ — ١٥ ألف متر ، ويضيق كثيراً عند الجنوب .

وبفعل مظهره ، فإن هذا الحوض ، الذى اجتزته مرات عدة ، يدل على أن البحر كان يغمره فيما مضى ؛ فهناك يعثر المرء على طبقات من الملح البحرى ، تتخذ فى بعض المناطق شكل قباب ، تئز الأرض عندها تحت أقدامنا ويلمح المرء من خلال شقوق صغيرة ، وعلى عمق أربعة إلى خمسة أمتار ، مياهاً ، نتعرف فيها على نفس مذاق مياه البحر ، وفى مناطق أخرى ، نجد الأرض موحلة .

ونعثر هنا وهناك على مستنقعات من مياه مالحة ؛ وحين يحفر المرء فى الأماكن الرملية ، لعمق يبلغ ١٥ ديسمتراً فقط ، فإنه سيعثر على المياه المالحة ، تحت طبقة من صلصال وحمأ . والأرض فى هذا الحوض تغطيها القواقع ، وتنخفض عن سطح البحر لحد كبير (١) ؛ وعلى الرغم من ذلك . فلا يفصلها عن البحر سوى كتلة من الرمال ، يبلغ عرضها من أربعة إلى خمسة آلاف متر ، وبارتفاع يندر أن يتجاوز المتر الواحد فوق مياه الخليج ، وفى النهاية فإننا نلمح فوق التلال المحيطة به ، خطاً يتكون من مخلفات نباتات بحرية تشبه تمام الشبه ذلك الأثر الذى تتركه البحار فوق الشواطىء ، لكن ما يلفت النظر هنا بشكل كبير ، هو أن هذا الخط يوجد على نفس مستوى المد العالى للخليج العربى .

ولكل هذا ، فإنه يبدو لى ، وبوضوح ، أننا هنا بصدد أرض كانت تغطيها فيما مضى مياه البحر . لقد جاء يوم تكونت فيه كتلة من الرمال جنوب السويس بقليل ، بالقرب من أضيق مكان بالبحر ، ولابد أن أسباباً عديدة قد أدت إلى زيادة هذه الرمال بشكل غير محسوس ، وهنا أصبح كافياً أن تهب عاصفة لترفع هذه الرمال

---

(١) يبلغ الفرق فى أماكن عديدة من ١٢ إلى ١٥ متراً .

إلى ما فوق المستوى المعتاد للمياه . وبذلك يشكل الطرف الشمالى للبحر الأحمر بحيرة بدأت بعد ذلك فى الجفاف بفعل البخر (١).

ومن العسير ، بل وربما كان مستحيلا ، أن نحدد على وجه الدقة متى حدث ذلك ، ومع هذا ، فلا بد أنه قد تم بالتأكيد قبل عصر أرديان . وحين نظن أننا قد تعرفنا على آثار الترعة التى حفرها الخلفاء (المسلمون) بعد استيلائهم على مصر ، إذ أن ترعة القدماء ، تلك التى يتحدث عنها هيرودت ، بلين ، سترابون .. إلخ ، كانت تنتهى عند الطرف الشمالى للحوض الذى انتهيت لتوى من تحديده .

وعندما أعلنت عن رأيى هذا بخصوص الحدود القديمة للبحر الأحمر فى مقالة قرأتها فى المجمع المصرى (٢) ، فإن هذا الرأى قد تعرض للرفض من قبل كافة المهندسين الذين ساهموا ، مثلى ، فى عمليات تفدين (*) قلزم السويس ، لكن غالبيتهم عادوا بعد ذلك ، ليضموا صوتهم إلى صوتى وليعتنقوا رأياً لم أطرحه من قبل إلا كمجرد احتمال .

وأضيف هنا ، إلى البراهين التى استخلصتها عن البنية الفيزيقية لخليج السويس ، شهادات القدماء من أشهر المؤرخين والجغرافيين .

يذكر هيرودت (الكتاب الثانى ، الفصل ٥٨) أنه كانت توجد ألف غلوة بين رأس كاسيوس وبحر أرتيريا ، أى خمسمائة ألف متر ، إذا تبنينا التقييم التقريبى الذى يقدر الغلوة الواحدة بمائة متر (٣) .

وحسبما يذكر سترابون (الكتاب السادس عشر) ، فقد كان رأس كاسيوس

---

(١) منذ حملة البرتغاليين فى البحر الأحمر ، بقيادة كاسترو ، سنة ١٥٤١ ، سدت الرمال خليج السويس لدرجة خطيرة ؛ ولذا فبالإمكان التنبؤ بأن البحر سيتراجع فى حالتنا هذه نحو الجنوب .

(٢) كان عنوان هذه الدراسة عن عبور الإسرائيليين للبحر الأحمر ، وعن بعض المعجزات التى تمت على يد موسى ، وقد طبعت هذه الدراسة مع بعض التعديل فى المجلد الرابع من Mèmoires Sur L'Egypte .

(*) أى قياس ارتفاعات وانخفاضات الأرض .

(٣) اتفاق طول الغلوة الصغرى مع تقسيمنا العشرى لربع الزوال الأرضى ، أمر جدير بالملاحظة .

عبارة عن جبل رملى يتوغل داخل البحر الأبيض ، فى حين يضعه مسار أنطونين على مسافة أربعين ميلا من بيلوز ، وعلى نفس هذه المسافة بالضبط من أطلال بيلوز نجد اليوم كثيباً عالياً من الرمال يتوغل داخل البحر ، حيث يشكل رأساً صغيراً يسمى رأس الكسارون ، ولا يمكن لأحد الشك فى أن هذا الكثيب هو كاسيوس القديم نفسه ، وتبعاً لذلك تكون المسافة من هذه النقطة إلى ما وراء الحدود القديمة للبحر الأحمر ، مائة ألف متر ، الأمر الذى يتفق تمام الاتفاق مع الألف غلوة التى يذكرها هيرودت .

وقد يعترض البعض بأن هيرودت قد قال فى موضع آخر (الكتاب الرابع ، الفصل ٤١) ، بأنه توجد مسافة ألف غلوة أو مائة ألف Orgyies ، وأن هذا التقييم للغلوة stade ، يدفعنا إلى الاستنتاج بأن هيرودت كان بصدد الحديث عن الغلوة الأولمبية التى تساوى نحو ١٨٥ متراً ، وليس عن الغلوة المصرية التى تساوى مائة متر ، وأن المسافة بين كاسيوس والخليج العربى كانت تبعاً لذلك ١٨٥ ميلا وليس مائة ألف متر .

لكن هذا التقدير الأخير ، سيرجع بالطرف الحالى للبحر الأحمر نحو الجنوب بمقدار ٦٠ ألف متر ؛ وعندئذ يكون البحر قد تراجع من الشمال كل هذه المسافة ، فى حين أن شكل الأماكن يثبت على العكس من ذلك ، أنه قد انسحب إلى الجنوب ، تاركاً حوضاً واسعاً ، قد يملؤه من جديد ، إذا ما رفعنا فقط أربعة إلى خمسة آلاف متر مكعب من الرمال ، وعندئذ لن يفصله ، بعد ، عن كاسيوس أكثر من ألف غلوة صغيرة .

ومن جانب آخر ، فإننى على ثقة بأن هيرودت ، فى وصفه لمصر ، قد استخدم على الدوام الغلوة الصغيرة . فهل يمكن أن يكون هذا المؤرخ قد استخدم بخصوص القلزم وحده مقياساً مختلفاً ، فى حين تتعارض المسافة التى تسج عن ذلك كثيراً مع المشاهدات الجيولوجية التى يؤكدها الافتراض الأول ؟ يخيل إلى أنه ليس من

العسير أن نتقبل فكرة أن هيرودت ، بعد أن قدر فى الكتاب الثانى من تاريخه امتداد القلزم بألف غلوة ، قد وقع فى خطأ حول طبيعة الغلوة التى كانت فى متناوله فى ذلك الوقت ، وأنه ، عندما عاد إلى الحديث عن القلزم من جديد فى الكتاب الرابع ، لم يفعل سوى أن كرر على نحو ما سبق أن قاله ، لقد كان يعرف من قبل أن هذه المسافة تقدر بنحو ألف غلوة ، وهذا سهو من السهل ارتكابه ، جعله يقدر هذه المسافة ب ١٠٠ ألف أورجى ، ونحن نعرف أن هيرودت قد ارتكب خطأ مشابهاً حين قارن المسافة بين بيزا Pise وأثينا بالمسافة بين هيلوبوليس والبحر الأبيض .

ومع ذلك ، فإن كل هذه الشروح تصبح عديمة الجدوى ، إذا ماتبنينا ذلك الرأى ، الذى ينهض ، فيما يبدو لى ، على أن الغلوة الصغيرة كانت تنقسم شأنها فى ذلك شأن الغلوة الأولمبية ، إلى مائة قسم متساو ، يسمى كذلك باسم أورجى Orgyie فعندئذ ستطابق شهادة هيرودت ، ما سبق أن ذكرته بخصوص الحدود القديمة للبحر الأحمر .

ويخبرنا بلين Pline (الكتاب السادس ، الفصل ٢٧) أن طول الترعة التى نهض بمشروعها سيزوستريس ، لتربط النيل بالبحر الأحمر ، كان يبلغ ٦٢ ميلا (١) ، وأن هذه المسافة كانت فى ذلك الوقت أقصر مسافة بين النيل والخليج العربى ، ويبدو من المؤكد أن هذه الترعة كانت تتفرع عن النيل جنوب بوباسطة بقليل (هيرودت ، الكتاب الثانى ، الفصل ٥٨) ، حيث يصنع النهر فى الواقع مرفقاً يتجه نحو الشرق ، وفى هذه الحالة ، نجد لدينا من هذه النقطة إلى طرف نهاية الخليج ، وفى خط مستقيم ، ٩٠ ميلا ، فى حين أننا لو تتبعنا تعرجات وادى السبع أبيار ، وتوقفنا عند الحدود القديمة للبحر الأحمر ، سنحصل على ال ٦٢ ميلا التى يذكرها بلين .

ونمضى الآن فى تجميع راهين أخرى .

يقع وادى السبع أبيار ، كما يطلق عليه العرب ، عن خط عرض ١٠ً ٣١َ ٣٠ْ

(١) يساوى الميل ٧٥٦ قامة أو $\frac{٤٧}{١٠٠}$ ١٤٧٣ مترا .

شمالا ، ويبدو على بعد نحو ٢ ميريامتر (*) من بلبيس ، ويتجه من الغرب إلى الشرق ، وتتوغل فيه مياه النيل أحياناً فى أوقات الفيضان ، كما توجد فيه على الدوام مياه عذبة حين نحفر لعمق ١٢ إلى ١٥ ديسيمتر . ولأرض هذا الوادى نفس طبيعة وملح أرض مصر ومع ذلك ؛ فحيث تغطيه مياه النيل لفترة أقل على الدوام ،فإن طبقة الأرض الصالحة للزراعة ، والتى يرسبها النهر ، أقل سمكا ، إذ قلما يبلغ سمكها هذا ثلاث ديسيمترات ، توجد تحته طبقة من صلصال خفيف ، مختلط بالرمال ، وقد حفرت الترعة التى تجلب إليه مياه النيل عل امتداد يبلغ ١,٥٠ ميريا متر خلف تل يحف بالوادى من جهة الشمال ، مما يسهل كثيرا على السكان مهمة الحصول على المياه اللازمة للزراعة . ومع ذلك فقد يحدث أن تمر فى بعض الأحيان سنوات عدة ، دون أن يصل النهر إلى مثل هذا الارتفاع الكافى لإمداد هذه الترعة بالمياه ؛ وفى هذه الحالة يستخدم الناس الآبار لرى الأرض .

وعند مدخل الوادى توجد قرية العباسة ، التى تقع إلى القرب منها بحيرة يسميها العرب بركة الفرجة أو بركة الحج القديم ، ويقودنا الإسم الأخير الذى يعنى : البحيرة القديمة للحجاج ، إلى أن نستنتج أن موكب الحج الكبير ، الذى يمر الآن ببئر العجرود كان يتبع فى الأزمنة الأولى التى بدأ فيها الحج إلى مكة ، وادى السبع أبيار ، ليلتف من حول الخليج ، إما لأن قاع هذا الخليج كان يمتد عندئذ إلى جهة الشمال لمسافة أكبر من تلك التى يمتد إليها اليوم ، وإما لأن كتلة الرمال التى كانت قد كونت حديثاً ، بحيرة اقتطعتها من الجزء الشمالى للخليج ، لم تكن تهيىء مطلقاً ، حتى ذلك الوقت ، أى طريق مناسب للمرور . وتتوقف الترعة على مسافة ٢ ميريامتر من العباسة ، وهنا كذلك ينتهى وادى الطميلات ، الذى يتخذ اسمه من اسم قبيلة عربان الطميلات التى تقطن هذه المنطقة ، ويمتد وادى الطميلات بعد ذلك لمسافة ٢ ميريامتر نحو الشرق ؛ وفى نحو منتصف هذا الجزء من الوادى ، نجد كومة واسعة

(*) يساوى الميريامتر ١٠ آلاف متر .

ضخمة من الأنقاض ، تنبىء عن موقع مدينة قديمة . ويطلق العربان على هذا المكان اسم : أبو كيشيد (*) وعند قمة مرتفع يتكون من هذه الأنقاض ، توجد كتلة ضخمة من الجرانيت ، نقشت فوقها بحروف بارزة ، ثلاثة آلهة مصريين ، هى فيما أعتقد : أوزيريس ، إيزيس ، حورس ، وتتبدى فى هذه الرسوم عظمة إنسانية ، ويجلس كل إله منهم إلى جوار الآخر ، أما ظهر الكتلة ، وكذلك الأجزاء الأخرى المسطحة ، فتغطيها النقوش الهيروغليفية (انظر الرسم الذى جمعه المسيوفيفرFèvre والذى يوجد بين آثار الدلتا) ؛ ونجد كذلك ، فوق الأنقاض ، عدداً كبيرا من شظايا الحجر الرملى الأحمر الصوانى ، تشابه حجر الجبل الأحمر القريب من القاهرة ، وفوق الكثير من هذه الشظايا ، توجد نقوش هيروغليفية .

وثمة اعتبارات كثيرة تدفع إلى الاعتقاد بأن هذه الأنقاض تنتمى إلى مدينة هيروبوليس القديمة .

ويذكر فلاريوس جوزيف Flairus Joosephe (الكتاب الثانى ، الفصل الرابع) إنه ، عندما رحل يعقوب من بير سبع ، جاء ابنه ،وزير فرعون ليلقاه فى هيروبولس . وتفسر الترجمة السبعينية للتوارة ، على نفس النحو (الآية ٢٨ من الإصحاح ٤٦ من سفر التكوين) على الرغم من أن الأمر ، فى النص العبرى ، لم يكن يتحدث عن هيروبوليس بشكل خاص ، وإنما بأرض جاسان على وجه العموم ، وقد تمت هذه الترجمة فى مصر ، بعد حوالى نصف قرن من فتح الأسكندر ، لذلك ينبغى أن نولى بعض الثقة ، للتفاصيل الجغرافية التى تحتويها هذه الترجمة . إذن فقد كانت مدينة هيروبوليس ، فى زمن هذه الترجمة السبعينية تقع فى أرض جاسان ، فى المكان الذى يحدد فيه الأثر (التوراة) لقاء يوسف بأسرته ، وعلى هذا فقد كانت المدينة تقع على الطريق المؤدى ، من بير سبع أو من ضواحى غزة إلى ممفيس ، أى بعيداً جداً عن الموقع الحالى للبحر الأحمر ، وفى نفس الوقت ، فإن اسم الخليج الهيروبوليتى

(*) تل المسخوطة حالياً . (المترجم) .

Golfe Heroopolite الذى كان القدماء يطلقونه على هذا الطرف من بحر أريتريا ، يبرهن على أن هيروبوليس كانت تقع على شواطئه (١) ، بل يذكر ذلك بشكل قاطع كل من بلين وسترابون ، حين يتحدث الأخير عن امتداد البحر الأحمر فقد كانت هيروبوليس على الدوام ، هى التى تحدد طرفه الشمالى .

ويختفى هذا التعارض الظاهرى ، إذا افترضنا أن البحر كان يملأ الحوض التى تحدثت عنه : وتبدو أطلال أبى كيشيد ، بوجودها عندئذ على الطريق بين ممفيس وغزة ، وبعيداً بعض الشىء عن شاطىء البحر ، تبدو مناسبة لموقع هيروبوليس وفى نفس الوقت ، فإن دانفيل d'Anville ، الذى لم يكن يعرف شيئاً عن أطلال أبى كيشيد ، والذى كان يجهل أن البحر قد تراجع بالمثل نحو الجنوب ، فقد وضع هيروبوليس فى نفس الموقع ، على وجه التقريب .

ويبدو أن هيروبوليس هى نفس المدينة التى تشير إليها التوراة باسم بيثوم Pithom وثمة ترجمة قبطية عن نص إغريقى ، ترجمت فيها هيروبوليس بيثوم ، وقد ظن كثير من العلماء ، وقد جرهم إلى ذلك التشابه الذى يجدونه بين بيثوم Pithom وباتوموس Patumos ، أن هذين الأسمين يشيران إلى نفس المدينة ، ومن المؤكد أن الإغريق قد حرفوا بشكل كبير أسماء البلدان الأجنبية بإعطائها على الدوام نهاية يونانية ، وفضلا عن ذلك ، فان هيرودت ، يذكر أن الترعة التى تحمل مياه النيل إلى البحر ، كانت تصب فى البحر ، بالقرب من باتوموس ، وقد رأينا أن هيروبوليس ، كانت تقع ، على مسافة قريبة من من الأراضى التى هجرها البحر .

وكانت مدينة كليسما Clysma تقع على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر ، وعلى بعد ٦٨ ميلا من هيروبوليس ، تبعاً لمسار أنطونين Antonin ،وتقودنا هذه المسافة ، إلى مدخل وادى التيه ، أى إلى حوالى ½ درجة جنوب السويس ، فى حين يضع

---

(١) وهكذا فإن مدينة القلزوم ، التى كانت توجد فى ضواحى السويس . قد أعطت لهذا الجزء من البحر اسم بحر القلزوم ، الذى يحمله حالياً ، وهكذا أيضاً بدأ العرب يسمونه اليوم بحر السويس .

بطليوس Ptolèmèe كليسما ، على درجة بأكملها جنوب طرف الخليج ، وإننى لأعرف جيداً أنه لا ينبغى أن نلتزم أكثر مما ينبغى بالتحديدات الجغرافية لبطليموس ، الذى لم يفعل بتحويله مقابل الاتجاهات إلى درجات ، سوى أن ضخم من الأخطاء وجعلها أكثر خطورة ، حين أعطاها مظهراً من الدقة الفلكية ، ومع ذلك فإن من المستحيل على الأقل ، أن نتقبل خطأ يبلغ أربعين دقيقة بين نقطتين متجاورتين إلى هذا الحد ، وتقعان ، كما يمكن القول ، تحت نفس خط الزوال (الطول) ؛ ومع ذلك ، فتلك هى الغلطة التى كان يمكن أن يقع فيها بطليموس لو أن قد كان البحر فيما مضى يجرى داخل الحدود التى له الآن ، فى حين يبلغ الخطأ ، إذا ما تقبلنا فكرة أن البحر كان فى عصره ، يمتد إلى جهة الشمال بالمسافة التى سبق تحديدها ، لا يبلغ أكثر من ١٢ إلى ١٣ دقيقة ، وهى نسبة تقريبية كبيرة إلى حد ما فى مناقشة من هذا النوع .

أما عن البحيرات المرة ، فسوف نخطىء إذا ما اعتقدنا أنها تشغل الحوض الذى يقع إلى شمال السويس ، ذلك أن بلين Pline ، بخلاف البراهين التى قدمتها لدحض فكرة أن البحر كان يغرقها فيما مضى ، يذكر بشكل موضوعى أن الترعة المتفرعة عن النيل ، كانت تبلغ فى طولها ٣٧ ميلا ونصف الميل حتى البحيرات المرة ، وحيث كانت هذه الترعة تنبع تبعاً لأكبر الاحتمالات ، إلى الجنوب من بوباسطة ، فإننا نرى أن البحيرات المرة ، كانت – ولابد ـــ تبدأ إلى الغرب قليلا من هيروبوليس ؛ وفى الواقع ؛ فإنه يوجد بين هذه النقطة ، وبين الطرف القديم للخليج ، أى بامتداد يبلغ حوالى ٣ ميريا متر ، كثير من البحيرات التى كانت تستقبل مياه النيل فى أوقات الفيضانات الكبرى .

ونرى من النصوص المختلفة التى انتهينا من إيرادها ، أن المؤلفين القدماء يؤكدون ماقد دلنى عليه مجرد مشهد الأماكن ، ويبدو لى أن هذا الإتفاق يشكل احتمالا متساويا لكل ما يمكن أن يطلق عليه الناس فى مجال التاريخ اسم ثقة .

إن معرفة الحدود القديمة للبحر الأحمر ستفيدنا بكل تأكيد ، فى أن نحدد بصورة أكثر دقة مما أمكن فعله حتى اليوم ، موقع المدن التى كانت توجد فيما مضى

على شواطىء الخليج ، والتى اضطر الجغرافيون المحدثون أن «يكدسوها» فى ضواحى السويس ، فى حين نجد ، قريبا من الأرض التى هجرها البحر ، اطلال عديد من المدن ، كانت تقع جميعاً ــ وهذا هو الأمر الجدير حقاً بالملاحظة ــ فوق مستوى منسوب أعلى نوبات المد بالخليج العربى ، وسأذكر على سبيل المثال تلك المدينة التى كانت تقع عند الطرف الشمالى للحوض : فقد وجدنا هناك كتلا كثيرة من الجرانيت ، تنتسب إلى مبنى دائرى يبلغ قطره حوالى أربعة أمتار ، وهذا مايتعرف عليه المرء من شكل بروز بناء منحوت فوق واحدة من هذه الأحجار ، ونقابل قريباً من ذلك عدداً كبيراً من قطع وشظايا الجرانيت ، والحجر الرملى ، والحجر الجيرى ، والتى تنبىء عن موقع مدينة قديمة ، يبدو لى ، أنها لابد وأن تكون مدينة كليوباتريس Clèopatris ؛ فقد كانت هذه المدينة كما يذكر سترابون (الكتاب السابع عشر) ،تقع فى الجزء الثانى من الخليج العربى ، كما يذكر فى الكتاب سالف الذكر ، أن الترعة المتفرعة عن النيل ، كانت تنتهى إلى البحر ، قريباً من هذه المدينة ، وبمواصلة السير مع الساحل الغربى للحوض ، نقابل كذلك ، بين الأنقاض والخرائب التى تحدثنا عنها للتو ، وبين السويس بقايا منشأة قديمة ، نقشت عليها حروف فارسية .

★ ★ ★

(٧)

دى بوا ـــ إيميه

الحدود القديمة للبحر الأحمر

(الدراسة الثانية)

العنوان الأصلى لهذه الدراسة هو : « ملحق للدارسة التى سبق لنا أن قدمناها عن الحدود القديمة للبحر الأحمر » .

الفصل الأول

عن حالة الأماكن [1]

منذ نشرت دراستى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر [*] وأنا أدرك ضرورة أن أدعم رأيى ببراهين تاريخية جديدة ، وبأن أضيف إلى الوصف الذى سبق أن قدمته عن الأماكن بعض وقائع قد تجر — إذا مالزمنا الصمت عنها — إلى افتراضات خاطئة . وفضلا عن ذلك ، فإن كل ملاحظة تتم عن الأماكن نفسها ، وكذلك كل معطى يقدمه الواقع ، لابد وأن يهدف — كل ذلك — إلى التعريف بالحالة الفيزيقية للأرض ، داخل موسوعة كهذه لأن تقربنا — على أفضل وضع ممكن — من الوصول إلى الوصف الكامل والدقيق لمصر .

ولقد سبق أن ذكرت (فى دراستى السابقة) أن الحوض الواقع إلى شمال السويس ، والذى سأطلق عليه منذ الآن حوض القلزم ، لاتفصله عن الخليج العربى إلا كتلة من الرمال يبلغ عرضها نحو أربعة آلاف أو خمسة آلاف متر ، وبارتفاع يبلغ متراً واحداً فى أكثر أجزائه علواً حسب خط التفدين [**] الذى أقمناه . ولقد كانت كل هذه المقاييس معتسفة بعض الشيء ؛ ولهذا السبب فقد شئت أن أتجنب لوماً قد يوجه لى بأننى أنتقى من المعطيات مايدعم افتراضى ؛ وهأنذا أقدم لكم المقاييس التى

---

(١) عنيت بأن أضع على الخريطة التى أرفقها بدراستى عن فروع النيل القديمة ، كل ما يمكن أن يعين على فهم هذه الدراسة ، وتلك التى سبقتها كذلك . انظر هذه الخريطة ، الأطلس الحديث ، المجلد ١ ، ص ٢٧٧ ؛ كما أن من الضرورى مراجعة دراستى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر . الدولة الحديثة ، المجلد ١ ، ١٨٧ (وهى الدراسة السابقة فى هذا الكتاب) وكذلك دراسة المسيو روزيير Rozière عن الجغرافية المقارنة والحالة القديمة لسواحل البحر الأحمر .الأطلس الحديث ، المجلد ، ص ص ١٢٧ ، ٢٢١

(*) الدراسة السابقة من هذا الكتاب .

(**) التفدين هو قياس أو مسح الارتفاعات المختلفة لجزء من الأرض .

نتجت عن هذا التفدين [١] .

رقم الموقع	المسافة بين الموقع والذى يليه	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد	الفرق بين مستوى السطح ومستوى سطح البحر	ملاحظات
	بالمتر	لنية بوصة قدم	لنية بوصة قدم	
	٠	٠ ٠ ٠	٠ ٠ ٠	يبين الموقع صفر وتد القياس الموضوع فى مستوى سطح البحر فى الخامس من بليفوز إلى السابع منه على مسافة ٢٢٧٠ متر شمال السويس
	٣٨٠	بعده ٦ ٣ ٤	٤ ٢ ٢	وضعت مسطرة الارتفاع لقياس ما هو خلف الموقع رقم ١ فوق وتد الموقع صفر
		قبله ٢ ١ ٢	فوق سطح البحر	
		الفرق +٤ ٢ ٦		

(١) كانت مسطرة القياس التى استخدمناها تنقسم إلى أقدام وبوصات الخ ، أما السلسلة الحديدية التى كنا نقيس بها المسافات فكانت تنقسم إلى أمتار .

ولمزيد من الدقة فقد نقلنا من مفكرتنا عن عملية التفدين هذه الأرقام دون أن ندخل عليها تعديلا من أى نوع .

رقم الموقع	المسافة بين الموقع والذى يليه	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد	الفرق بين مستوى السطح ومستوى سطح البحر	ملاحظات
	بالمتر	لنية بوصة قدم	لنية بوصة قدم	
٢	٦٤٠	بعده ٣ ١ ٣ قبله ٤ ٩ ٢ الفرق +٣١١ ٠	٣ ٦ ٢ ٣ ٦ ٢ شرحه	الموقع رقم ٢ هو أعلى نقطة فى خط تفدينا، وقد أقيم بين كتل الرمال التى تفصل البحر عن حوض القلزم حالياً .
٣	٨٠٠	بعده ٢ ١ ٣ قبله ١٠ ١٠ ٤ الفرق −١١ ٨ ١	٤ ٩ شرحه	
٤	٨٠٠	بعده ١١ ٣ ٤ قبله ٣ ٠ ٣ الفرق +٣٨ ١	٠ ١ ٢ شرحه	

رقم الموقع	المسافة بين الموقع والذى يليه	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد	الفرق بين مستوى السطح ومستوى سطح البحر	ملاحظات
	بالمتر	لنية بوصة قدم	لنية بوصة قدم	
٥	٨٠٠	بعده ٨ ٥ ٢ قبله ١٠ ٧ ٣ الفرق —٢ ٢ ١	١٠ ١٠ ٠ شرحه	
٦	١٢٠٠	بعده ٧ ٨ ١ قبله ٤ ٤ ٣ الفرق — ٧٩ ١	١١ ٨ ٠ تحت سطح البحر	ابتداء من هذا الموقع تأخذ الأرض فى الانحدار نحو حوض القلزم وهذا الحوض أدنى فى كل جزء منه فى البحر الأحمر ، وقد وجدنا الفرق يبلغ أحياناً نحو ٥٤ قدماً وثلاث بوصات

وهكذا ، فالمسافة يبلغ طولها ٨٤٢٠ متراً من نقطة البدء . حتى اجتيازنا لكتلة

الرمال التى كونتها التراكمات الأرضية التى سبق أن تناولتها فى دراستى السابقة ؛ وكانت أعلى نقطة فى خط التفدين الذى اتبعناه لاجتياز هذا السد الطبيعى تبلغ قدمين وست بوصات ولنيتين فوق المستوى المتوسط لأعالى المياه فى البحر الأحمر (١) .

وحين نلقى نظرة على اللوحة الثانية (الدولة الحديثة) فسوف نجد أن نقطة بدئنا كانت تقع على بعد ٢٢٧٠ متراً إلى الشمال من السويس ، وسوف نرى كذلك أننا لوكنا بدأنا من قاع الخليج كما تحدده خطوط المدى (٢) التى تبلغها أعلى مستويات المد ، لكننا قد وجدنا أن هذه المسافة حتى النقطة التى تنخفض عندها الأرض إلى ماتحت مستوى سطح البحر لا تبلغ سوى خمسمائة أو ستمائة متر .

وفى النهاية فإننا نستنتج من الملحوظات التى لاحظناها فى السويس أن البحر يرتفع فى نوبات المد غير العادية إلى قدمين وست بوصات فوق مستوى المد الذى استخدمناه قاعدة للمقارنة فى تفديننا (٣) . وعلى هذا فإن السد الطبيعى الذى يحول اليوم دون أن يلقى البحر ، فى أقصى نوبات مده ارتفاعا ، بمياهه فى حوض القلزم ، قد لا يعلو فوق مستوى مياه البحر بأكثر من ثلاث لنيات ، كما توضح لنا الأرقام التالية :

	لنية	بوصة	قدم
مستوى أعلى مياه للبحر فى الخامس من بليفوز من العام السابع	٠	٠	٠
مستوى أعلى مد معروف للبحر فى الخامس من بليفوز من لعام السابع	٠	٦	٢
مستوى الموقع رقم ٢ وهو أعلى موقع أقمناه فوق التراكمات التى تحدثنا عنها ...	٣	٦	٢

---

(١) عندما نتحدث عن مياه البحر الأحمر . فاننا نعنى على الدوام المستوى الذى وصلت إليه ، فى السويس ، فى الخامس من بليفوز من العام السابع (٢٤ يناير ١٧٩٩) عند أعلى نوبات المد . وقد بلغ الفرق بين أعلى وأدنى مستوى البحر فى ذلك اليوم خمسة أقدام وست بوصات .

(٢) تستخدم هذه الكلمة هنا ، كما تستخدم فى كثير من المؤلفات للاشارة إلى المخلفات النباتية ، وربما كذلك القواقع والأصداف التى يلقى بها البحر على شواطئه والتى تحدد على نحو ماتعرجاته أوخطوطه الكنتورية.

(٣) انظر دارسة المسيو لوبير Lepère عن اتصال بحر الهند بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق البحر الأحمر وقلزم السويس ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٢١

وفى الواقع فلقد تم هذا الجزء من عملية التفدين التى قمنا بها ، فى قاع خور ضيق ، وكانت مساطر قياس الارتفاع مثبتة على الدوام فى أكثر المناطق انخفاضاً ، وأخيراً فقد أمكن لخط المد الذى استعنا به فى تحديد خطوط أكثر نوبات المد ارتفاعا ، أن يزيد ذلك ببضع بوصات ، بالنظر إلى مايحدثه اندفاع الأمواج من تأثير ، وإلى ما للرياح كذلك من أثر فى بعض الأحيان . وهكذا ، فحتى إذا لم نتشبث ببوصاتنا الثلاث ، فإننا على الأقل نستطيع أن نؤكد أن البحر الأحمر ، خلال نوبات المد غير العادية ، يصل على وجه التقريب إلى نفس مستوى سطح بعض أجزاء من الأرض التى تفصله عن حوض القلزم .

ومع ذلك ، فإذا كان هذا القدر الضئيل من الارتفاع ومن الاتساع كافياً كى يسد هذا الخور أو هذه الترعة التى تتبعناها فى هذا الجزء من عملية التفدين التى قمنا بها ، ولكى يحول بين البحر وبين الامتداد إلى ماوراء حدوده الحالية ، فلماذا نمنع أنفسنا إذن من أن نصدق أن سداً طبيعياً مشابهاً ، يقع عند الطرف الشمالى من حوض القلزم يمكن أن تكون له نفس النتيجة عندما كان البحر فيما مضى يملأ كل حوضه ؟ وإذا كان هناك بعض من عبروا عن شكوكهم فى ذلك ، فإن كل المهندسين وكل أعضاء شعبة العلوم والفنون المصرية ، الذين شاهدوا حوض القلزم [1] ووادى السبع أبيار قد شاطرونى هذا الرأى ، أقول إنه كان يوجد إلى شمال حوض القلزم سد طبيعى مماثل للسد الذى يفصله حالياً عن الخليج العربى ، ونجد البرهان على ذلك فى الموقع رقم ١٦٠ الذى يعلو بمقدار قدم واحد وتسع بوصات وأربع لنيات فوق مستوى أعلى مياه البحر الأحمر وفيما بين هذين الموقعين كان يوجد المستوى الذى نشير إليه ، وعند

---

(١) أعضاء الشعبة الذين عبروا وادى السبع أبيار وحوض القلزم هم السادة : لوبير ، ديهلييه ، شابرول ، سان جينى ، فافيه ، جراتيان لوبير ، دى شانوى ، فيفر ، وأنا وقد مر آخرون فيما بين حوض القلزم والسويس ، لكنهم لم يعبروا هذه المنطقة ، بل لم يلمحوها ولو من بعيد .

نقطة أكثر ارتفاعا من تلك التى سجلنا عندها الارتفاعات [١] ذلك أن مسطرة القياس قد سجلت بعده تسعة أقدام وأربع بوصات وسبع لنيات ، أما مسطرة الارتفاع التى وضعت قبله فقد سجلت خمسة أقدام وثمانى لنيات . ومن جهة أخرى فحتى إذا ماافترضنا ـــ وهو مع ذلك أمر مستحيل ـــ أن أداتنا كانت تسجل ارتفاعا

---

(١) لم ننشر فى وصف مصر إلا بعض معطيات هذا التفدين ، ولعله ، كان من المفيد أن نعرف بهذه المعطيات كلها ، مع تفاصيل ارتفاعات المواقع عند كل تغير فى الارتفاع . ولو فعلنا ، لكانت لدينا ، ليس فقط معطيات كل المواقع ، وإنما كذلك ، وعلى وجه الدقة ، ارتفاع النقاط الوسيطة بين المواقع المتعاقبة ، مع مقارنة الارتفاع الآنى للسطح بالارتفاع السابق عليه واللاحق له . ولعله كان من المثير للاهتمام كذلك أن ننشر بتفصيل أكبر ، يوميات التفدين بعد أن يراجعها كل المهندسين الذين ساهموا فى عملية التفدين هذه .

وقد شاء المسيو لوبير أن يتفضل فيسمح لى أن أستخلص من هذه العملية المعطيات التى أقدمها هنا ، وقد راجعتها على مسودة الخريطة المرسومة للقاهرة ، وكذلك على أصول المذكرات التى كان يدونها المهندسون خلال عملية التفدين .

رقم الموقع	المسافة بين الموقع والسابق عليه	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد	الفرق بين مستوى السطح ومستوى سطح البحر	ملاحظات
	بالمتر	لنية بوصة قدم	لنية بوصة قدم	
١٥٠	٨٧٠	بعده ٠ ٦ ٧	٧ ١١ ٠	
		قبله ١١ ٣ ١	فوق مستوى البحر	
		الفرق +١ ٢ ٥		
١٥١	١٢٠	بعده ١٠ ٨ ٠	١١ ٩ ٧	
		قبله ٤ ٦ ٩	تحت مستوى البحر	
		الفرق −٦ ٩ ٨		

رقم الموقع	المسافة بين الموقع والسابق عليه	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد	الفرق بين مستوى السطح ومستوى سطح البحر	ملاحظات
	بالمتر	لنية بوصة قدم	لنية بوصة قدم	
١٥٢	٥٨٠	بعده ٢ ٣ ٧ قبله ٣ ٢ ٦ الفرق +١١ ٠ ١	٠ ٩ ٦ تحت مستوى السحر	وجدناه فيما بين الموقعين ١٥٢ ، ١٥٣ حواف حوض القلزم التى بينت لنا من جديد مدى مشابهاً لمدى البحر الأحمر ولها نفس المستوى الذى للمدى الآخر
١٥٣	٣٢٠	بعده ٤ ١ ٩ قبله ١٠ ٠ ٣ الفرق +٦ ٠ ٦	٦ ٨ ٠ تحت مستوى البحر	يبعد هذا الموقع عن السويس بـ ٧٧,١٢٢ مترا .
١٥٤	٧١٠	بعده ١ ٤ ٠ قبله ٣ ٤ ٥ الفرق −٢ ٠ ٥	٨ ٨ ٠ تحت مستوى البحر	
١٥٥	٤٤٠	بعده ٥ ٠ ٥ قبله ٢ ٤ ٦ الفرق −٩ ٤ ١	٥ ٠ ٧ تحت مستوى البحر	=

....

=

رقم الموقع	المسافة بين الموقع والسابق عليه	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد	الفرق بين مستوى السطح ومستوى سطح البحر	ملاحظات
	بالمتر	لنية بوصة قدم	لنية بوصة قدم	
١٥٦	٧٢٠	بعده ١ ٨ ٧ قبله ٠ ١١ ٦ الفرق +١ ٩ ٠	٤ ٣ ٦ تحت مستوى البحر	
١٥٧	٤٠٠	بعده ٤ ٥ ٨ قبله ٤ ١ ٤ الفرق +٠ ٤ ٤	٤ ١١ ١ تحت مستوى البحر	يوجد هذا الموقع أسفل أكمة تتكدس فوقها أنقاض تعود إلى عصور قديمة أشرنا إليها فى الخريطة باسم سرابيوم
١٥٨	٦٦٠	بعده ٨ ١ ٤ قبله ٤ ٨ ٥ الفرق −٨ ٦ ١	٠ ٦ ٣ تحت مستوى البحر	
١٥٩	٢٠٠	بعده ٨ ٢ ٦ قبله ٣ ٣ ٥ الفرق +٥ ١١ ٠	٧ ٦ ٢ تحت مستوى البحر	وجدنا أن الأرض فيما بين الموقعين ١٥٩ ، ١٦٠ تعلو بمقدار قدمين وعشر بوصات عن خط نوبات المد العالية بالبحر الأحمر . =

رأسياً يبلغ كل طولها ، أى أربعة أقدام [١] ، لكانت النقطة التى وضعت فيها قد بلغت قدمين وعشر بوصات فوق مستوى عرض البحر الأحمر . وأخيراً فقد كانت مساطر الارتفاع ، فيما بعد الموقعين ١٦٠ ، ١٦١ ، اللذين يبعد كل منهما عن الآخر بـ ٤٥٠ متراً ، تسجل ٩ أقدام و ٣ بوصات و ٦ لنيات ، ثم ١٣ قدماً وبوصتين ، مما يعطى للنقطة الوسيطة التى توجد بها الأداة ارتفاعاً يبلغ على الأقل سبعة أقدام وعشر بوصات فوق سطح البحر ، وكنا عندئذ بجوار سرابيوم وأنقاضها أكثر من ذلك ارتفاعاً . وتتصل الربوة التى توجد فوقها سرابيوم بسلسلة من الروابى والتلال ، تقفل حوض القلزم عند الشمال .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه مما يلفت النظر ذلك الاتجاه الذى اتخذته مياه الفيضان الكبير فى العام التاسع (١٨٠١) ، فلقد اندفعت المياه بغزارة إلى وادى

رقم الموقع	المسافة بين الموقع والسابق عليه	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد			الفرق بين مستوى السطح ومستوى سطح البحر			ملاحظات
	بالمتر	لنية	بوصة	قدم	لنية	بوصة	قدم	
١٦٠	٦٠٠	بعده ٧	٤	٩	٤	٩	١	
		قبله ٨	٠	٥	فوق	مستوى	البحر	
		الفرق +١١	٣	٤				
١٦١	٥٤٠	بعده ٦	٣	٩	٤	١	٢	وهكذا نجد أن الأرض بين الموقعين ١٦٠ ، ١٦١ تعلو عن البحر بأقل من ٧ قدم و ١٠ لنيات .
		قبله ٢	٢	٣	تحت	مستوى	البحر	
		الفرق –٨	١٠	٣				

(١) كانت الحفر التى نشبت فيها طرف أداتنا ثابتة بحيث تجعل خط ارتفاع المنظار ٣ ق و ٦ بوصات فوق

السبع أبيار كما ارتفعت عند خرائب الموكل (*) إلى أربعة أقدام وست بوصات وثلاث لنيات ، في الثلاثين من برومير فوق النقطة الأدنى من مجرى الترعة (١) والتي يبلغ عمقها في هذه المنطقة خمسة عشر قدما وعشر بوصات ولنيتين تحت مستوى سطح البحر الأحمر بـ ١١ قدما وثلاث بوصات و ١١ لنية ، وأدنى كذلك ، ولأسباب واضحة ، من الأراضي التي ترتفع عن سطح هذا البحر والتي تحف بحوض القلزم من جهة الشمال .

لم تكن المياه في الموكل لأكثر من ذلك ، بل ثمة اعتبارات كثيرة تحملني على الاعتقاد بأنها لم تحتفظ بهذا الحد من الارتفاع إلا لوقت بالغ الضآلة ؛ فمن الثابت أن قوافلنا ودورياتنا وقواتنا ، وكذلك قوافل الأهالي ، كانت تعبر من هناك دون مشقة خلال مدة الفيضان بأسرها ، فلقد كانت تلك هي نقطة الاتصال الوحيدة بين

(=) مستوى الأرض ، لكننا هنا نفترض أن الأرض صلبة لايمكن لقمم الحديد المدببة والموجودة في أطراف أقدام المنظار – وهي قمم يبلغ طولها البوصتين وسبع لنيات – أن تغوص فيها وعلى هذا لابد أن تكون أدتنا في الأرض الرملية أكثر انخفاضاً بثلاث أو أربع بوصات على الأقل ، ويبلغ ارتفاع الأداة وأرجلها معاً أربعة أقدام ، بدءاً من المنظار حتى أدنى الطرف الحديدي المدبب . وقد أخذنا الحد الأقصى للارتفاع حتى نفوت الفرصة على من يشاء أن يتهمنا بأننا نختار المعطيات التي تتفق مع رأينا .

(*) Le Mouqfâr ، ووردت في القاموس الجغرافي لوصف مصر باسم خرائب الموكل ، وهي نفسها المكفر ، وتقع على مسافة قريبة إلى الجنوب من طريق الاسماعيلية ـــ القاهرة وكان يطلق عليها رمسيس عند حفر قناة السويس .

(المترجم)

(١) يبلغ ارتفاع أعلى جزء من صخرة الموكل بدءاً من أدنى نقطة من الترعة ثمانية أقدام وأربع بوصات . وحين رآها المسيو ديفليه أثناء فيضان العام التاسع وجدها تبلغ متراً واحداً و٢٤ سم أي ثلاثة أقدام وتسع بوصات وتسع لنيات فوق سطح الماء . ويعطى هذا النقص الذي يبلغ ثمانية أقدام و ٤ بوصات ، عمقاً للمياه يصل إلى أربعة أقدام وست بوصات وثلاث لنيات . ويقول المسيو لوبير في صفحتي ٤٤ ، ٤٥ إن هذا العمق ، في الواقع يبلغ نحو أربعة أقدام ، كما أن الترعة يمكن اجتيازها . وسنجد في نهاية الدراسة مستخلصاً من يوميات المسيو ديفلييه .

بلبيس والصالحية ، إذ تغطى الطريق الذى يربط بينهما مباشرة مياه بالغة الارتفاع لحد لا يمكن معه اجتيازه ؛ ولسوف نلاحظ بعد ذلك أن المياه ــ بعد أن كانت تتقدم بشكل بالغ البطء فى فندمير من العام التاسع ، فى وادى السبع أبيار (١) ــ لم تعد تبدى على الإطلاق ، فى الثلاثين من برومير ــ أى تحرك ملموس بين رأس الوادى وأبو كيشيد (*) ، فى نفس الوقت الذى تنطلق فيه ، فيما وراء الموكل ، وبالقرب منها ، بشكل بالغ الاندفاع (٢) وتوضح لنا الكلمات التى تفوه بها المسيو لوبير Le Pepère بهذا الخصوص أن هذا الاندفاع قد بدا له أكبر بكثير من اندفاع مياه النيل فى فرع من فروعه الطبيعية . ويقدر المسيو ديفلييه هذه السرعة فى الاندفاع بأربعة أقدام فى الثانية مما يبرهن على أنها تصل إلى أراض أكثر انخفاضاً بكثير ، كى تنتشر فوقها . ومع ذلك فأين كانت تصب هذه المياه ؟ أكان ذلك فى حوض القلزم كما ظن ذلك البعض ؟ كلا ، ولقد تأكد من ذلك السادة شابرول ولوبير وديفلييه عندما اجتازوا هذا الحوض متوجهين إلى السويس ؛ إذن فلابد أن المياه كانت تنتهى إلى رأس المية كما أكد شيوخ

---

(١) تقصد بهذه التسمية كل الوادى الذى ينفتح بالقرب من العباسة ثم ينبسط من الشرق إلى الغرب حتى ماوراء آبار السبع أبيار .

(*) أو أبو خشب هى تل المسخوطة حالياً ، وتقع على بعد ٦٠٠ م إلى غرب أبو صوير على حافة ترعة الاسماعيلية إلى الجنوب ، ويتطابق موقعها مع بلدتى هيروبوليس وبثيوم القديمتين . (المترجم)

(٢) يوميات المسيو ديفلييه ، ودراسة المسيو لوبير ، ص ص ٤٠ ، ٤٥ . وقد أخطأ المسيو لوبير فقط فى تحديده للتواريخ ، فلم يكن الأول من برومير من العام التاسع مطلقاً هو اليوم الذى رحل فيه السادة لوبير وشابرول وديفلييه من القاهرة . وإنما تم ذلك فى السابع والعشرين من فريمير . وفى الواقع ، فاننا نجد فى ص ١٦٤ المسيو لوبير يخبرنا بأنه وجد نفسه بالقرب من الشيخ هنادى فى الأول من فريمير ، وهذا صحيح ، لكن ذلك يحول دون أن يصبح فى الإمكان عودته إلى القاهرة فى الحادى عشر من برومير كما يذكر هو فى ص ٤٨ ؛ تلك ولابد هى غلطة الناسخ ، وقد خولنى ــ هو ــ بأن أذكر أن من الضرورى أن نقرأ الشهر على أنه فريمير فى هذا الجزء من دراسته بدلا من برومير ؛ وكذلك فان لدى المسيو ديفلييه الرسالة الأصلية من المسيو لوبير ، وهى مؤرخة فى ٢٤ برومير ، ويطلب إليه فيها هذا المهندس الرئيس أن يستعد للرحيل معه ومع المسيو شابرول للتعرف على مسيرة المياه فى الوادى ؛ ومن المهم تصويب هذا الخطأ ، وهو من النوع الذى يسهل الوقوع فيه .

العرب إلى المسيو ديفلييه حين عاد فى العام التاسع إلى وادى الطميلات [١] ، وفضلا عن ذلك ، فمن الضرورى أن تجعلنا نتائج التفدين ، وشكل الأرض ، نحدس ذلك ، إذ أن الألسنة المسماة كراش ، إلى الشمال من سرابيوم والشيخ هنادى تتلقى مياه النيل أثناء الفيضانات غير العادية . وقد أقر ذلك بشكل موضوعى ، الجنرال رينييه Reynier [٢] ، وهو الذى تولى القيادة ، لفترة طويلة ، فى هذه المنطقة من أرض مصر ، وبذلك فقد كان فى متناوله أن يستعلم من السكان على الدوام ، ويبدو أنه لم يعلم منهم مطلقاً أن مياه النيل تنتهى إلى حوض القلزم ؛ بل إننا فى وضع يسمح لنا بأن نؤكد أن ذلك لم يحدث فى أية فترة على الإطلاق حتى لو افترضناها ضاربة فى القدم ، فلو كان ذلك قد حدث ذات يوم لكنا قد عثرنا عن آثار لطمى النيل على النحو الذى نجده فى كل المناطق التى توغلت إليها مياه النهر ؛ ولقد قمنا بتنقيبات عديدة فى حوض القلزم دون أن نعثر على أقل شقفة من طمى ، فى حين وجدنا هذا الطمى ، وفى شكل طبقات أفقية ، فى وادى السبع أبيار .

ولسوف يكون خطأ بيناً أن يعارض أحد شهادتنا هذه بفقرة وردت فى دراسة المسيو لوبير ، قال فيها إن مياه النيل كانت تصل إلى الشيخ هنادى [٣] ، إذا كان هذا

---

(١) كان المسيو ديفلييه خلال هذه الفترة مكلفاً ـــ ومعه المسيو فيار Yiard ـــ باكتشاف ترع النيل ابتداء من القاهرة حتى وادى السبع أبيار . انظر (فى نهاية هذه الدراسة) المعلومات التى جموعها (حول هذا الموضوع) .

(٢) مصر بعد معركة هليوبوليس ، تأليف الجنرال رينييه .

(٣) يقدر المسيو لوبير ، ص ١٦٤ ، معطى تفدين مكان يسمى – كما قال – الشيخ هنادى بـ ١٥١ قدماً و ١١ بوصة و ١٠ لنيات ، الأمر الذى يبدو وكأنه يضع هذا المكان تحت مستوى سطح البحر الأحمر بقدم واحد و ١١ بوصة و١٠ لنيات . ومع ذلك فلابد لنا أن نثق بأن ليس هذا مطلقاً هو المعطى الصحيح لضريح الشيخ هنادى لأن هذه المنطقة لم تكن مطلقاً واحدة من محاطنا إذ تركه إلى الشمال خط تفديننا . وهكذا نرى أن المسيو لوبير قد توسع فى إطلاق اسم الشيخ هنادى إلى أرض مجاورة له . وتوضح لنا الخريطة فضلا عن ذلك أن المحط رقم ١٦٤ والذى يتفق معطاه مع الـ ١٥١ قدماً و ١١ بوصة و ١٠ لنيات يقع على بعد نحو ٣,٠٠٠ متر من الشيخ هنادى . وأخيراً ، فعندما يضيف المسيو لوبير بأن هذا الجزء من الصحراء كانت تغمره مياه فيضان النيل فى سنة ١٨٠٠ ، فلابد أنه لم =

المهندس الرئيس يعنى سفح الربوة التى أقيم فوقها هذا الضريح ، كما أنه لم يكن ليكلف نفسه عناء الإشارة إلى ذلك إلا لأن خريطته توضح ذلك الأمر بشكل كاف . أما المسيو ديفلييه Devilliers ، الذى كان يرافق المسيو لوبير ، فقد تناول هذا الأمر ، فى يومياته عن الرحلة ، بشكل بالغ التحديد ؛ وهذا هو نص كلماته : « تمتد المياه حتى سفح الربوة التى أقيم فوقها ضريح الشيخ هنادى ، وحول جزء من الهضبة المجاورة يمكن الوصول إليه عن طريق لسان من الأرض . وهذه الهضبة — التى تسمى جبل كُراش والتى تستمد اسمها من ألسنة تجاورها تسمى بهذا الاسم — تشكل أثناء فياضانات النيل غير العادية بحيرة تشير إليها الخرائط باسم بحيرة التمساح [1] . ويعلو جبل كراش بنحو ٤٠ إلى ٥٠ قدماً عن الأراضى الطينية التى تحف بالجزء الشمالى منه : إلى هذه المستنقعات كانت تصل المياه ، ومع ذلك فلم يخطر ببال أحد من المهندسين الذين شاهدوها أن هذه المياه يمكن لها أن تعلو لتبلغ قمة الهضبة التى تقفل شمال حوض القلزم وتتحكم فيه » .

وقد سبق لنا القول بأن عمق مياه النيل ، فى الثلاثين من بروميير من العام التاسع ، لم يبلغ سوى ٤ أقدام و٦ بوصات و٣ لنيات فى أدنى مناطق الترعة بالقرب من الموكل — وهى التى ظلت على الدوام يسيرة العبور — كما رأينا أنه قد يستوجب لعبور حوض القلزم أن تعلو المياه لأكثر من اثنين وعشرين قدماً فى نفس هذه المناطق ، أو بشكل أكثر تحديداً لأكثر من ٢٢ قدماً و ١١ بوصة ، منها ١٢ قدماً و ١٠ بوصات ولنيتين لكى تصل إلى مستوى سطح البحر الأحمر ، وفضلا عن ذلك فلقد كف النيل عن الزيادة منذ الثانى عشر من فندميير ، وتنبىء سرعة المياه فى الموكل أنها قد وجدت أراضى أكثر انخفاضاً كى تنتشر فوقها ؛ وقد عرف السادة شابرول

= يكن يقصد بذلك حتى أنها كانت تصل إلى المحط رقم ١٦٤ ، إذ كان ينبغى ، ليتم ذلك ، أن تعلو مياه النيل بـ ١٣ قدماً و ١٠ بوصات و٤ لنيات فى الموكل ، فى حين كان أقصى ارتفاع وصلت إليه هو ٤ أقدام و ٦ بوصات و ٣ لنيات . وقد وافقنى المسيو لوبير على هذا الإيضاح حين هرعت بابلاغ نتيجة بحثى إليه .

(١) يقول المسيو لوبير فى ص ٥٨ إن هذه البحيرة تسمى ذنب التمساح .

وديفلييه ولوبير أن المياه لاتصل مطلقاً – بالرغم من ذلك ـــ إلى حوض القلزم . ومنذ ذلك الحين لم يتمكن أى مهندس ولا أى عضو آخر فى شعبة العلوم والفنون ، بسبب أحداث الحرب ،من العودة إلى هذه المنطقة من الصحراء ؛ اللهم إلا فى نهاية نيفوز ، عندما توجه المسيو ديفلييه بعد ذلك بشهر إلى وادى السبع أبيار ، ووصل إلى ماوراء العباسة بقليل ، وسأل هناك العديد من مشايخ العربان وعدداً من الأهالى ، واتفق هؤلاء جميعاً على القول بأن المياه لم تتجاوز مطلقاً الشيخ هنادى ، وأنها تصل إلى رأس الميه أو البلاح مما يعنى أنها تصب فى بحيرة المنزلة .

وقد عرفت فى دراستى الموجزة عن الحدود القديمة للبحر الأحمر بالشكل الداخلى لحوض القلزم ؛ وقد أضيف بأن الملح البحرى (موريات الصودا أو هيدروكلوريد الصودا) توجد بهذا الملح بوفرة شديدة عما توجد عليه مع أى ملح آخر ؛ ويجعل العرب من هذا الملح موضوعا لتجارة هامة بعض الشىء مع مصر وسوريا . وبشكل أساسى ، تتكون الكتل التى تشكل أرضاً رنانة وكثيرة الكهوف ، من هذا الملح ، وإن كان يغطيه فى بعض الأماكن قليل من الرمال .

وتوجد هذه الطبقة الملحية ، هنا وهناك ، مفتتة . مما يجعل المسيو لوبير يشبهها بأكداس من قطع مكسورة من الثلوج يصنعها فيض نهير فوق شط قاحل ورملى (١) (فى مناطق باردة) ولكى أدعم هذا التشبيه أقول أيضاً إن هذه الهضبة الملحية كانت تشكل فى مجملها مانراه فى معاملنا عندما يركز محلول ملحى ، حبيس

---

(١) يذكر المسيو لوبير فى ص ١٦٣ ، أن المرء يظن هذه الكتل الملحية من نوع جبسى .ونرى أنه هنا لايعبر عن رأى شخصى له ، ذلك أن الرأى الذى يكتفى بايراده إنما يصدر عن شخص لم يزر المناطق التى يتحدث عنها أو أنه لم يلاحظها بالعناية الواجبة ، نظراً لطبيعة الأرض . وقد كان المسيو لوبير قد ألحقنى بعملية التفدين لأننى كنت بالغ الاهتمام بعملية التمدين هذه أكثر من أى واحد من زملائى ويذكر المسيو ديفلييه – الذى كان متعمقاً هو الآخر فى هذا الفرع من التاريخ الطبيعى ـــ فى يومياته مايتفق مع ماقلته من أن موريات الصودا توجد بكميات كبيرة فى كل الأماكن التى يحدث الملح فيها شروخا أو صدوعاً وأنه ـــ هو ـــ لم يستطع ـــ وسط هذه الشروخ ـــ أن يتوصل عن طريق مقياس (مجس) طوله متر إلى عمق هذه الشروخ (بمعنى أنها أكثر من ذلك عمقاً) ، أما التوضيحات التى بينها فى يوميات التفدين فانها لم تصلنى مطلقاً .

فى كبسولة ، لدرجة تتكون معها على سطحه قشرة ، ثم تمور هذه القشرة وتتكسر بفعل بخر يتولد عن السائل الموجود فى أسفلها . ولم نر شيئاً مشابهاً لذلك فى مناطق أخرى من القلزم . ولايمكن لفتات هيدروكلوريد الصودا التى يجدها المرء فى أماكن أخرى ، أن تقارن مطلقاً بكتلها الضخمة ، الموجودة هنا .

أما عن الجبس الذى شاهدناه فى حوض القلزم ، فإنه يختلط فى معظم الأحيان بأملاح أخرى . وقد تكون أخوار مياه الأمطار ، على الرغم من ندرتها فى هذه المناطق ، كافية ـــ مع ذلك ـــ كى تذيب مع الزمن أكثر الأجزاء قابلية للذوبان من غيرها ، وأن تحفر خطوطاً فى الأرض فى بعض الأماكن بحيث تكون كتلا منعزلة ، تبدو ـــ من مسافة بعينها ـــ فى هيئة جذوع شجر مقطوعة ، تعلو فوق سطح الأرض بقدمين أو ثلاثة أقدام ؛ وفى بعض الأحيان تبدو سلفات الجير متكلسة على شكل إبر لامعة وبذلك تشكل طبقات شديدة الكثافة .

ويرى البعض فى وجود سلفات الجير هنا دليلا على أن البحر لم يغمر من قبل مطلقاً حوض القلزم . ومع ذلك ، فلو أمكن أن ينحسر البَحر تجاه القصير ، لكشف عن أرض جبسية ، كما أن هناك الكثير من التلال ، تقع على شاطىء البحر قريباً من هذه المدينة ، وتتكون من هذه المادة (الجبس) ، كذلك فإن كل المياه الجوفية التى تصب فى البحر ، تحتوى على جزء كبير من محلول هذه المادة .

ومن جانب آخر ، فإن الأصداف التى نلمحها فى قاع الحوض ليست أصدافاً نهرية ، كما أنها ليست متحجرة شأنها شأن القواقع التى يلقاها المرء متراكمة فى شكل كتل فى وادى التيه (١) ، ذلك أن أصداف أو قواقع حوض القلزم ليست

---

(١) كثيراً ماعبر زملاؤنا وادى التيه ، وقد حدد المسيو ديفلييه الخطوط الكنتورية لهذا الوادى ، وقد دون عمله هذا على الخريطة الكبرى لمصر . وعندما عبرته فى شهر نيفوز من العام السابع (١٧٩٩) لم يكن قد سبق لفرنسى قبلى أن اجتازه ، وإن كنت لم أتتبع الوادى فى حد ذاته ، وإنما شعباً من شعابه ، ذلك أن دليلى هنادى لم يحسن قيادتى . وقد وصف السيدان جيرار ولوبير وادى التيه ، لكننى أذكر هنا مالاحظته فى الوادى المجاور له .

يفصل هذا الوادى عن وادى التيه على بعد عدة فراسخ من البساتين ، وهى قرية تقع عند مدخل الوادى=

متماسكة فيما بينها كما أنها ليست ملتصقة بالأرض ، وهى تشبه تلك التى يقذف بها

= وعلى مسيرة فرسخ واحد إلى الجنوب من القاهرة . وإننى لأفترض هنا أن دليلنا العربى ، حين قادنا فى الشعب الأيسر . كان يهدف إلى تجنب آبار الجندلى ، وإلى أن يخفى عنا كل مصادر المياه التى يمكن لهذه المنطقة أن تهيئها لقبيلته إذا ماحدثت قطيعة بينها وبين الفرنسيين .

وأول الجبال التى يلقاها المرء هى جبال جيرية ، وتشكل هذه فى بعض الأحيان كتلا تتكون كلية من أصداف متراكمة فوق بعضها البعض . ويجد المرء فى قاع هذا الوادى كثيراً من قواقع متحجرة قد انفصلت عن هذه الصخرة .

أما الأرض التى يسير الناس فوقها فثابتة للحد الكافى ، بل إن المرء ليلمح فى أماكن عديدة صخرة جيرية عارية ، وإن كان يغطيها قليل من الرمال الصوانية ؛ وبعد ذلك يأخذ الوادى فى الضيق أما الجبال الواقعة إلى شمال الوادى فهى من الحجر الجيرى ،أصفر اللون وبالغ النعومة ، ويتشكل من طبقات أفقية ، كما نجد بها كذلك طبقات أفقية من سلفات الجير المتكلس . وبعد ذلك بمسافة كبيرة ، يلمح المرء إلى اليمين سلسلة من تلال عالية بعض الشىء ، وتتميز عن السلسلة الجيرية بأشكالها ، وبألوانها السوداء ، وتتكون هذه التلال من يشب يشار إليه باسم الزلط المصرى . وهذه الزلطات شديدة التقارب ، وتتصل ببعضها البعض بأسمنت صوانى أبيض اللون عند مكسره ومشرب بحمرة طفيفة ، ممايدل على فعل ضئيل للنار ، كما يفسر اللون الأسود الموجود خارجه . وهذه الصخور بالغة الجمال بسبب شدة صلابتها وتنوع ألوانها . وبسبب الرسوم الغريبة التى توجد داخل الزلط المصرى . ولم يتعرف أحد قبلى على وجود هذه الصخرة التى لايمكن اعتبارها — كما أظن — لاركتالة (أى صخرة من الحصى المتماسك كأنه مرصوف بالبلاط) ولا ركاماً مسنناً ، ويقابل المرء فى الوادى الكثير من الزلط المصرى وقد انفصل عن صخوره ، وأستنتج من ذلك أن الزلطات التى نجدها فى أماكن أخرى قد تنتمى إلى صخرة مماثلة فى سبيلها لأن تتفتت .

قضينا الليل فى هذا المكان ، وسقط المطر فوقنا طيلة الليل ، كما قاسينا من البرد .وفى اليوم التالى عاودنا السير فى ساعة مبكرة ، وتتابعت لبعض الوقت ، عن يميننا تلال الزلط المصرى ، ورأينا فى المناطق الأكثر انخفاضاً فى الوادى عدداً كبيراً من الشجيرات ، ومع ذلك فلا ينبغى أن يظن أحد أننا بصدد غابات كغابات أوربا حيث نجد الظلال ، وحيث تكفى بضع خطوات (فى داخلها) كى يختفى المرء عن الأنظار ، فأكثر المناطق شجراً فى وديان مصر الصحراوية لاتوفر مطلقاً أية حماية من الشمس ، ومن خلال سيقان الأشجار الهشة والمتباعدة ، يستطيع المرء الرؤية لمدى بعيد ، كما لو كان فى سهل عار من أية خضرة .

حاذينا الجبال التى تحف بالوادى من جهة اليسار ، وهى شديدة الانخفاض ، وكانت تتمثل لنا هى الأخرى فى طبقات أفقية من كربونات الجير ، وبلورات من الجبس .

وعند الظهيرة ، صار الجنود المالطيون الذى يشكلون قافلتنا ، متعبين من السير منهكين من العطش لحد اضطررنا لأن نجعلهم يركبون — واحداً بعد الآخر — فوق الجمال التى كانت تحمل أمتعتنا. وكانت هذه الحيوانات تحمل فى اليوم الأول كمية من المياه ، كنا قدرنا أنها ضرورية لرحلتنا ، مع افتراض بأننا سنحصل على مياه جديدة من بئر الجندلى ، الذى لم نمر به على الإطلاق ، ولم تكن المياه ميسورة لنا مطلقاً ، ثم جاء حادث طارىء ليفقدنا بعض ماكان معنا من مياه .

البحر على شواطئه ، ويمكنني أن أضيف إلى شهادتي ماقاله نيبور Niebuhr ، فقد رأى هذا الرحالة بالقرب من السويس كتلة من القواقع الحية فوق صخرة لاتغطيها من مياه سوى مياه المد ؛ كما شاهد — هو — قواقع مماثلة ، لكنها فارغة ، في مكان آخر لايصل إليه البحر . ومع ذلك فرأى هذا الرحالة لايتطابق تماماً مع رأيي ،لقد أدرك على نحو طيب أن البحر الأحمر قد انسحب نحو الجنوب ، لكنه نسب الأمر إلى انخفاض مياهه ، في حين أن أجزاء رملية ضئيلة هي التي انتزعت من البحر مناطق أدنى من منسوب مستواه ؛ ومع ذلك فإن الخطأ الذي وقع فيه نيبور من السهل

= لزمت المركز الأخير في الصف مع قائد الفصيلة ،لكي أرغم الجنود على السير ، وفي كل لحظة كان يرتمي البعض منهم على الأرض ، رافضين الذهاب لأبعد من ذلك ، وكنا نوقفهم ، ونسندهم ، بل كنا نضطر أحياناً لضرب بعضهم لكي ننتشلهم من موت محقق ، وإلا لهلك الجميع من العطش ، كما حدث بعد ذلك لفصيلة اضطرت لترك أربعة عشر رجلا ، كانوا مرهقين لحد لم يستطيعوا معه المضي في السير لأبعد من دلك ، وعندما عادت بعد ذلك بنحو ثلاث أو أربع ساعات للبحث عنهم ، ومعها الماء الذي عثرت عليه بالقرب من هناك ، كان أوان ذلك قد فات ، فقد مات الرجال الأربعة عشر ، وقد كنت أسعد من ذلك حظاً إذ أنني لم أفقد سوى جندي واحد بسبب العطش . أما الجنود الآخرون ، الذين لم يستطيعوا التعرف علينا بعد ذلك ، وكانوا (أثناء رحلتنا) يشعرون بالضجر الشديد من الوسائل التي استخدمناها لقسرهم على مواصلة طريقهم ، فقد ظلوا ينظرون إلينا باعتبارنا منقذين لهم . ولحسن الحظ أيضاً فاننا لم نقابل أي جانب عربي معاد ، وإلا ماكنا بقادرين على إبداء مقاومة كبيرة ضدهم ، ذلك أن الجميع كانوا قد علقوا بنادقهم فوق جمالهم ،فيما عدا الضابط الذي أشرت إليه ، وجنديين أو ثلاثة جنود ، وأنا .

لم أعان كثيراً من العطش ، لكنني عانيت كثيراً مخافة أن أضطر لأن اترك في الصحراء بعضاً من رجال حرسي ، وكانت الرعاية التي أبذلها في سبيلهم تحول بيني وبين مواصلة ملاحظاتي عن الوادي ، كما قدر علينا الخوف أن نكون أبعد عن السويس عما كنا نقدر ، فلقد اضطررنا أن نسير جزءاً من الليل ؛ وكنا نكتفي بين وقت وآخر ببعض وقفات نلتقط خلالها الأنفاس .

وفي النهاية ، وجدنا أنفسنا عند انبلاج النهار ، عند مدخل الوادي ، فتتبعنا المجرى الجاف للخور إلى مسافة قريبة من قصر هجروت أو العجرود . ويضم هذا القصر بئراً ذات مياه ملحية الطعم ، الحاجة وحدها هي التي تجعلها قابلة للشرب . وتنزح مياه البئر بواسطة عجلات ذات قواديس (ساقية) ، وخارج أسوار القصر توجد خزانات مياه واسعة ، ومبنية ، تملأ مقدماً عندما يحين وقت مرور المحمل الكبير (قافلة الحج) التي تسافر كل عام إلى مكة . ويظل البئر الذي يقع غير بعيد من هناك جافاً لأطول مدة من العام . وتصب مياهه خلال موسم الأمطار (حوالي فريمير ونيفوز) في البحر ، بالقرب من السويس بعد أن تملأ حوضاً يسمى مية الجسر أو المستنقع الأفريقي ، ويستخدم هذا المستنقع في سد احتياجات السكان .

وقد وصلنا إلى السويس ، في نهاية الأمر ، أثناء النهار .

ارتكابه ، حيث لم يكن بمقدور هذا الرحالة القيام بأى تفدين . وإن كانت الوقائع التى يعتمد عليها تأتى لتدعم ملاحظاتى الخاصة .

تحدثت فى مكان آخر عن هذا الخط المكون من أصداف وبقايا نباتات بحرية يلاحظها المرء بنفس ارتفاع المياه بالنسبة للأراضى التى تحيط بحوض القلزم . وإليكم الآن كيف عبر المسيو لوبير عن ذلك (فى دراسته) فى صفحتى ١٦٣ ، ١٦٤ : « نلاحظ على سطح الصحراء آثارا لشواطىء بحيرة ، وهذه محسوسة بنفس القدر الذى نلمس فيه خطوط المدى العادية عند شواطىء البحر ، والتى نتعرف عليها بأكوام الأصداف والقواقع ، وبالحصى والحصباء والزلط الملفوف . وفى واقع الأمر فلابد أن حوض البحيرات المرة ، يشكل ذراعاً كان للبحر فى هذا الجزء من القلزم ، كما ينبغى أن نلاحظ أن عملية التفدين تدل بالقدر الكافى على طبيعة مستواه ، حيث تقدم لنا معطيات المحيطين اللذين تقع بينهما خطوط المدى هذه ١٥٠ قدماً ، وهو نفس المعطى الذى يقدمه مستوى سطح البحر الأحمر » .

وفى الحقيقة فقد ادعى البعض أن خطوط المدى هذه قد أمكنها أن تنشأ بفعل المياه الحلوة التى يمكن أن يكون النيل قد صبها فى حوض القلزم . لكن ذلك لابد له أن يعنى أننا نتناسى أن هذه الخطوط لها نفس مستوى نوبات المد العالية التى للبحر ؛ أو أنه قد يعنى ـــ إن كنا نذكر ـــ أن نقر بأن مياه النيل يمكنها أن تهبط فى وادى السبع أبيار ، وأن ترتفع منه إلى مافوق مستوى البحر الأحمر ؛ وهذه نتيجة مستحيلة بالنظر إلى شكل الأرض ، وانحدارها وكذلك انحدار فروع النيل ؛ أما إذا قلنا إن مياه النيل قد أمكنها أن ترتفع فى لحوض القلزم ، إلى نفس مستوى سطح البحر دون أن يتبع ذلك بالضرورة أن تصل إلى نفس هذا المستوى فى كل امتداد ترعة الملوك ، فلابد أننا نرتكب بذلك خطأ بالغ الشذوذ ، وبدرجة لاأجد لدى معها القدرة على وصفه .

ولنا أن نتساءل الآن ما إن كانت هذه الكتل الملحية ، وهذه الأصداف والقواقع البحرية وخطوط المدى هذه التى تصل إليها مياه البحر فى أعلى نوبات

مدها ، والتى لمسنا وجودها للتو فى حوض البرزخ .. ماإن كانا ذلك كله بقادر على أن يدل على أن البحر الأحمر كان يشغل فى الزمن القديم كل هذِهِ الأرض ،مع منح كلمة الزمن القديم هذه قيمة غامضة ، على نحو يدفع إلى الاعتقاد بأنها ترتبط هنا بواحدة من هذه الثورات الداخلية لكوكب الأرض ، فى أزمنة سابقة على العصور التاريخية أو على نحو نفهم منه أنها تدل على فترة زمنية قريبة منا بالشكل الذى افترضه أعضاء شعبة العلوم والفنون فى مصر ، الذين زاروا هذه المناطق (١) ، فهؤلاء جميعاً يظنون ــ كما ظننت أنا ــ أن المكان الذى أشرنا إليه على خريطتنا باسم سرابيوم كان يقع على شواطىء الخليج العربى (٢) عندما قام هيرودت بزيارته لمصر .

وقد يبعث على الدهشة للوهلة الأولى أن البحر الأحمر قد شغل حوض القلزم دون أن يشق لنفسه ــ على المدى ــ طريقاً إلى البحر الأبيض المتوسط ، وإلى وادى السبع أبيار . وفى الواقع ، فقد كانت الأراضى التى تفصل البحرين لاتعلو عن مستوى سطح الخليج العربى إلا بقدر طفيف . ومع ذلك فمثل هذا الاعتراض يختفى إذا ماتذكرنا أن الأرض التى تحول بين البحر الأحمر اليوم وبين أن يصب فى حوض البرزخ (٣) أقل من هذا ارتفاعاً .

وينتج عن كل ماقلناه أنه لم يكن هناك ماهو أيسر من ربط البحرين ، لكن الصعوبة الكامنة هنا ، كانت تتمثل فى الحيلولة دون أن تغرق مياه البحر الأحمر أراضى مصر السفلى . لقد كانت الترعة التى شقها الفراعنة ترفد عن النيل إلى الجنوب قليلا

---

(١) سبق أن ذكرنا أسماءهم فى هامش سابق .

(٢) نرى من الهامش الذى ينهى دراسة المسيو لوبير ، وصف مصر ، المجلد الأول ص ١٥٩ ، أن مجموعة الوقائع التى جمعها ، وناقشها بمهارة كبيرة ، قد ألزمته وهو ينهى مؤلفه ، أن يتبنى بشكل كامل ، نفس الرأى الذى سبق أن عبرت عنه فى البداية ، لمجمع القاهرة ، فى السادس عشر من برومير من العام التاسع ، حول الحدود القديمة للبحر الأحمر ، وأن ينظر الآن للبحر الأحمر على أنه كان يشغل بصفة مؤكدة ، فى زمن هيرودت ، حوض القلزم ؛ لذلك سوف يكون خطأ ، عند دعم الرأى المعارض ، أن نستند إلى ماسبق أن ذكره فى صفحتى ٥٩ ، ٦٠ .

(٣) ألم يحدث ان عادت إلى الوجود ترعة ماريوتيس بسبب قطع بلغ اتساعه بضعة أمتار ، حدث أثناء حصار الاسكندرية عام ١٨٠١ ؟ فلقد غزت مياه البحر عندئذ أرضاً بلغ محيطها أكثر من ثلاثين فرسخاً .

من بوباسطة ؛ وقد بات من السهل حين تقدمت الأعمال فيها نحو الشرق فى وادى السبع أبيار ، إدراك أن البحر الأحمر ، بمده العالى ، كان أعلى مستوى من منسوب فتحة مياه النهر ، بل إن فيضاناً مماثلا لفيضان العام التاسع قد جاء ليضع يدنا بسرعة على هذه الحقيقة ، ولكى يجعلنا نحدس كل أخطار المشروع دون أن يكون من الضرورى أن نتحسس فرق المنسوبين عن طريق عمليات هندسية . ولقد فات المصريون كما نرى ، وهم الذين دفعوا إلى الأمام الكثير من العلوم والفنون ، أن يقوموا ببعض التطبيقات الهامة ، ذلك أن ما اعتبروه فى ظروفهم تلك أمراً بالغاً العسر والمشقة ، سيقوم تنفيذه مهندسونا دون صعوبة تذكر .

★ ★ ★

الفصل الثانى

شهادات تاريخية

يقول هيرودت إن على المرء لكي يتوجه من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربى أن يسلك الطريق البرى مروراً برأس كاسيوس ، فذلك أقصر من تتبع ترعة الملوك ، وتتطابق هذه الفقرة من حديثه تمام المطابقة مع افتراضنا .

لقد كان هيرودت يريد (بقوله هذا) دون شك ، أن يقارن بين الطريقين اللذين كانت تطرقهما التجارة ، كما أنه لم يكن يقصد مطلقاً بما قال عن المسافة ذلك الخط المستقيم الواصل بين الطرفين إذ أنه يقدر أحد الطريقين بـ ١٠٠٠ غلوة (١) ، ويقدر الثانى بيوم إبحار واحد ، ويلفت النظر بأن الطريق الثانى يزيد طوله بقدر ماتزيد تعرجاته .

ولابد أن الطريق البرى الذى يتحدث عنه هيرودت ويقدر طوله بألف غلوة ، كان يطرقه السوريون على وجه الخصوص ، ويتفق هذا الطول مع الطول الذى أعطيناه من قبل للحدود القديمة للبحر الأحمر ،ويمكن التأكد من ذلك على خريطتنا، على أن نأخذ فى الاعتبار أن نجعل من رأس كاسيوس نقطة بدء لنا على البحر الأبيض المتوسط ؛ ويشكل هذا الجبل حسبما يقول سترابون بشكل قاطع رأساً فى البحر ، لذلك ينبغى أن نضعه عند رأس الكسرون ، وليس فى قاع خليج بيلوز .

وإذا تتبعنا آثار الترعة القديمة مند مبدئها عند بوباسطة حتى سرابيوم . فإننا نجد طولها يبلغ ٩١,٩٩٠ متراً (٢) ، وهو مايتفق بدقة مع الأطوال التى قدمها بلين Pline ، ومع ذلك فمن الممكن أن تكون الترعة فى عهد الفراعنة قد بلغت طولا

---

(١) الغلوة التى استخدمها هيرودت حين كتب عن مصر ، هى الغلوة المصرية التى تنقسم إلى $\frac{1}{9}$ ١١١ درجة ، وهى التى تحدث عنها أرسطو فى مؤلفه معاهدة السماء ، إذن فان طول هذه الغلوة يبلغ بشكل محدد مائة متر . وقد قسمت كما رأينا بنفس الطريقة المتبعة فى نظام مقياسنا المترى أى بالتقسيم العشرى لربع درجة الزوال . وهذا الاتفاق بين العمليات الفلكية القديمة والحديثة أمر يسترعى الانتباه .

(٢) انظر دراسة المسيو لوبير ، وصف مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٧٩ .

أكبر من ذلك بكثير . وفى الواقع ، فإننا إذا تتبعنا مجرى مياه النيل أثناء فيضان العام التاسع حتى بحيرة التمساح ، إلى الشمال من سرابيوم ، وإذا اتجهنا بعد ذلك إلى الجنوب نحو حوض القلزم ، وهى نفس الدائرة التى أشار إليها هيرودت فى كتابة الثانى ، الفقرة ١٥٨ ، فسنجد أنفسنا بصدد مسافة يبلغ طولها ١٠٢,٠٠٠ متر أو ١,٠٢٠ غلوة ، ولابد أن الملاحة فى معظم الأوقات كانت تتم فى هذه الترعة عن طريق جر السفن بالحبال ، كما يحدث فى مصر حتى اليوم حيث لاتقطع السفن ، وهى تجر على هذا النحو بواسطة البحارة ، أكثر من أربعة أو خمسة فراسخ فى اليوم ، وهكذا لم يخطىء هيرودت مطلقاً حين قدر طول هذه الترعة بأربعة أيام من الملاحة ؛ ومن جهة أخرى ، فقد كان الطريق البرى ١,٠٠٠ غلوة ، أى ٢٢ فرسخاً ، ومن المؤكد إن كان بمقدور القوافل أن تقطعه فى مدة يومين ونصف اليوم أو ثلاثة أيام على الأكثر [١] ، وهكذا أيضاً ، فسواء كان هيرودت يضع فى اعتباره طول هذين الطريقين ، أو الزمن اللازم لقطعهما ، فإنه سيظل محقا فى قوله بأن طريق رأس كاسيوس كان هو الطريق الأقصر ، وأخيراً ، فلعله كان يريد أن يقارن الطريق البرى عن طريق رأس كاسيوس برحلة أكثر طولا بكثير ، كان لابد من القيام بها للانتقال بطريق الماء من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر وذلك بصعود النيل حتى جنوب بوباسطة ثم تتبع ترعة الملوك .

وإذا كان هيرودت ، فى كتابه الرابع ، يقدر عرض القلزم كأمر مؤكد بألف غلوة ، فلابد لنا أن نصدق أنه ، تبعاً لما قاله عنه سابقاً (فى الكتاب الثانى) ، لم يكن يعرف المسافة الأقصر بين البحرين حين جعل هذا الخط ماراً برأس كاسيوس ، وأنه لأمر طبيعى فى الواقع أن يكون الأهالى الذين لجأ إلى سؤالهم قد دلوه على واحد من الطرق ، مطروق أكثر من غيره ، يصل مابين البحرين الأبيض والأحمر ، ذلك أن الطريق الواصل من بيلوز إلى الخليج العربى ، والذى يشير إليه بلين ، قد لايكون

---

(١) لاتستغرق المسافة بين القاهرة والسويس بالنسبة للقوافل سوى مسيرة يومين ونصف اليوم ؛ ويبلغ طول الطريق نحو ١٢٥٠ غلوة .

موجوداً فى زمن هيرودت أو قد لايكون مطروقا إلا فيما ندر . ويميز بلين هذا الطريق عن الطريق الآخر المار برأس كاسيوس ، وإليكم نص ماذكره بهذا الخصوص ، وسأنقل ماقال بشيء من الإفاضة لأنه هام لأكثر من اعتبار :

« بعد خليج إيلانيتيك AElanitique (أى خليج إيلات أو العقبة) نجد خليجاً آخر يطلق عليه العرب اسم إيوانت EAant (لعله خليج السويس) وهناك توجد مدينة الأبطال ، كما كانت توجد أيضاً هناك ، فيما بين عرب نايل وعرب المراشدة (*) مدينة قصبيز (كبريت حالياً) التى كان ينقل إليها مرضى الجيش ؛ تأتى بعد ذلك أمة العمالقة Tyres ثم ميناء دانيون Danèon التى أريد أن تبدأ منها حتى الدلتا ترعة ملاحية يبلغ طولها ٦٢ ألف قدم ، هى المسافة بين النيل والبحر الأحمر ، وكان أول من فكر فى هذا المشروع سيزوستريس ، ملك مصر ، ثم داريوس (دارا) ملك الفرس وبعد ذلك بطليموس الثانى ، الذى أمر بحفر ترعة تصل إلى البحيرات المرة ويبلغ عرضها ١٠٠ قدم ، وعمقها ٣٠ قدما ، فى حين يبلغ طولها ٣٧,٥٠٠ قدم ، لكن بطليموس لم يتم مشروعه خشية غرق المنطقة إذ وجد أن مستوى البحر الأحمر ، يعلو بمقدار ثلاثة أذرع عن مستوى سطح أرض مصر ،وان كان ثمة تفسيرات مخالفة عند آخرين ، حيث يرى هؤلاء أن بطليوس قد خشى أن يتلف البحر مياه النهر إذا ماصب الأول مياهه فى النيل ، وهى المياه الوحيدة القابلة للشرب . ومع ذلك فقد كان هناك على الأقل ، ابتداء من بحر مصر ، ثلاثة طرق يطرقها الناس : يبدأ أحدها من بيلوز ويمضى عبر الرمال ، وكانت تحدده أعواد البوص المغروسة فى الأرض ،وبدون ذلك تضيع معالم الطريق بسبب الرمال ، أما الثانى فيبدأ على بعد ميلين إلى ماوراء رأس كاسيوس ، ثم يعبر أرض العرب الأوسيين (عرب الأوس) Les Arabes Auteens ،وبعد مسافة ٦٠ ألف خطوة يلتقى هذا الطريق بطريق بيلوز ؛ ويبدأ الثالث من جرها التى يطلق عليها البعض اسم أدسبى Adispe وبعد أرض نفس العرب ، ويبلغ طوله أقل من ٦٠ ألف

(*) كانت فى مصر بقايا قبائل من جزام منها فخذ يدعى نايل : Les Nèles ، أما المراشدة Les Marchades فهم عرب من بنى قضاعة وهذا الاسم تحريف للاسم الصحيح وهو الرواشدة . (المترجم)

خطوة ، لكن الجبال وقلة الماء قد جعلت منه طريقاً شاقاً . وتؤدى هذه الطرق المختلفة إلى مدينة أرسينويه (.) التى بناها بطليموس فيلادلف على خليج Charandre والتى أطلق عليها اسم أخته ،وهذا الحاكم هو أول من أخضع Troglodiytiques أى سكان الكهوف ، وقد أطلق اسمه على النهيز الذى يمر أمام أرسينويه » .

إذن فالطريق الثانى الذى يورده بلين هنا ، يمر حسب قوله برأس كاسيوس ولابد أن يكون هذا الطريق تبعا لذلك هو نفس الطريق الذى حدثنا عنه هيرودت ، ومع ذلك فإن بلين يقدر طوله (من بدايته) حتى النقطة التى يلتقى عندها بطريق بيلوز بـ ٦٠ ألف خطوة ، ثم يظل أمامنا بعد ذلك ، للوصول إلى هناك من ١٢ إلى ١٥ ميلا مع جعل نقطة الالتقاء هذه عند أقرب موقع ممكن من الخليج ، الأمر الذى يمنح هذا الطريق ٥ ــ ٦ آلاف خطوة ، أكثر من الطول الذى يعطيه له هيرودت ، حين قدره بـ ١٠٠٠ غلوة ، ولعل ذلك قد نتج عن أن سكان هذه المناطق يضعون تحت اسم كاسيوس ، فى المنطقة المجاورة لمكان يطلق عليه اسم رأس الكسرون ، سلسلة من التلال أو الكثبان الرملية تمتد لمسافة بعينها ، أى أنهم لايطلقون هذا الاسم ، على نقطة بعينها ، وثمة اعتبارات كثيرة ترجح هذا الرأى . أما الطريق الثالث فكان طوله يبلغ كما يذكر بلين أقل من ستين ميلا ويبدأ من جرها ، وقد بينت خرائب هذه المدينة على خريطتنا فى مكان عنب دياب Anbdiab على بعد ثلاثة فراسخ إلى الشرق من بيلوز ؛ وبمعنى آخر ، فإننا نجد بدءاً من هذه النقطة إلى سرابيوم وفى خط مستقيم ، ٥٢ ميلا ، ينبغى أن نضيف إليها التعرجات الطبيعية بطريق يعبر كثبانا عالية ، وهو الأمر الذى أشار إليه بلين ، وهذه المسافة بالأميال تنزع كل شك حول تقدير طول الغلوة التى استخدمها هيرودت ، أى تلك الغلوة التى استخدمها فى تقدير المسافة من البحر الأحمر حتى الطرف الشمالى لحوض القلزم .

ويقدر بلين الطول الذى كان عليه تلك الترعة التى أقامها الفراعنة لتحقيق

(*) يتفق موقعها مع المنطقة المواجهة للمحطة البحرية لقناة السويس حاليا عند الكيلو ١٥٠ (المترجم)

اتصال مائى بين الدلتا والبحر الأحمر بـ ٦٢ ألف خطوة . وليس من الطبيعى فى عمل بهذا الشكل ألا يحسب حساب لتعرجات الأرض ، وليس ثمة كذلك أى دافع للاستهانة بأهمية هذه التعرجات ، ولأى سبب للوقوع فى خطأ من شأنه ـــ فى حالة مقاييس تؤخذ على الطبيعة ـــ أن يعطى تقديراً أقل من إجمالى التقدير لمسافة تقاس فى خط مستقيم ، ومع ذلك فهذا مالعله قد حدث لو قدر أن كانت للبحر فى ذلك الوقت نفس الحدود التى له اليوم ، ذلك أننا نجد ، وفى خط مستقيم ، مسافة تزيد عن المسافة التى يعطيها بلين بمقدار الثلث ، فى حين أننا نجد نفس المسافة ، مع اتباع التعرجات ، بدءاً من وادى السبع أبيار حتى حوض القلزم (١) ، ويضيف بلين أن الملك بطليموس لم يصل بالترعة التى أمر بحفرها إلا لمسافة تبلغ ٣٧,٥٠٠ خطوة حتى العيون المرة ، وتبعاً لذلك فلابد أن كانت هذه العيون تشغل منطقة المستنقعات الواقعة بين رأس الوادى وأبو كيشيد (٢) ؛ كذلك فإن من الممكن أن يكون الأقدمون يقصدون بهذه التسمية وكذلك تحت اسم البحيرات المرة ، تلك البحيرات والمستنقعات الواقعة إلى الشمال من سرابيوم والتى أشرنا إليها باسم مستنقعات كراش وبحيرة التمساح إلخ .

ولسوف نقع فى خطأ مزدوج إذا افترضنا أن البحيرات المرة التى تشغل حوض القلزم ، وكذلك أن نعتقد أن الجزء الذى تم تنفيذه من القناة التى أمر بحفرها بطليموس فيلادلف كان يقع بين هذا الحوض وبين الطرف الحالى للبحر الأحمر ،ذلك أننا نجد أنفسنا هنا فى تناقض بين يستحيل أن يفوت على أحد ، لأننا حين نضع البحيرات المرة فى هذا الموقع نجد أنه كان يكفينا أن نحفر ترعة طولها ٣٠٠٠ ـــ ٤٠٠٠ خطوة لكى يتحقق الاتصال بين الخليج وبين البحيرات المرة ، فى حين يذكر بلين أن

(١) تبعاً لما يقول المسيو لوبير ، ص ٧٩ ، كان لابد أن يبلغ طول الترعة التى كانت تربط الفرع البيلوزى القديم بالقرب من بوباسطة بحوض القلزم ، قريباً من سرابيوم ٩١,٩٩٠ متراً . وهذا الفرق الطفيف وقدره ٦٣٥ متراً ليس بذى أهمية كبيرة ؛ فمن الممكن أن تنتج بعض اختلافات طفيفة فى تحديد النقاط القصوى وفى قياس انعطافات وانثناءات الأرض .

(٢) فى فيضان سنة ١٨٠٠ كونت المياه فى الشرق ، وبالقرب من الجسر الكبير فى رأس الوادى ، مايشبه بحيرة .

بطليموس أمر بإيقاف العمل بعد أن تم حفر ٣٧,٥٠٠ خطوة بعد أن وصل الحفر إلى العيون المرة ، ولابد أن مسافة الـ ٣٧,٥٠٠ خطوة ، البادئة من السويس ، والمتجهة شمالا إلى سرابيوم كانت تخترق مايقرب من كل طول حوض البرزخ ،وقاع هذا البرزخ كما هو معروف أدنى بكثير من مستوى مياه البحر ، وفضلا عن ذلك ، فإن الحوض — فى الافتراض الذى نحن بصدده — لابد أن يمتلىء بمياه النيل ، وهكذا يكون عمل بطليموس فيلادلف مستحيلا وغير ذى جدوى ، فى نفس الوقت .

ولايمكن على الاطلاق تفسير هذا النص من بلين على نحو مخالف لما فعلناه ، كما أننا نرى فيه بوضوح أن طول القناة ابتداء من الفرع البيلوزى حتى البحر الأحمر كان يمكن أن يبلغ ٦٢ ألف خطوة لو أن العمل بها كان قد تم ، لكننا نعرف فى الوقت نفسه أن هذا العمل قد توقف بعد مسافة ٣٧,٥٠٠ خطوة ، بأمر الملك بطليموس .

كان لابد أن تتجمع الطرق الثلاثة التى أشار إليها بلين ، بالقرب من سرابيوم ، فى طريق واحد ، يحاذى الشط الغربى للبحر ابتداء من طرفه الشمالى وانتهاء بموقع قريب للموقع الذى تشغله السويس اليوم ، حيث يتفق كافة المؤلفين على أن يضعوا فى هذه المنطقة مدينة أرسينويه [(١)] ، وكانت تقع هذه المدينة ، تبعاً لما يذكر الجغرافى

---

(١) ظننت أن على فى الدراسة السابقة أن أميز أرسينويه ، عن مدينة كليوباتريس وأن أضع الأخيرة بالقرب من سرابيوم . لكن فحصاً أكثر عمقاً وتأنياً قد أوحى لى بشكوك حول هذا الموقع ، ولست أملك من المعرفة مايجعلنى أحسم أى نص من النصين الواردين عند سترابون ينبغى على أن أتبناه ، أهو النص الذى ذكر فيه أن البعض يطلقون على مدينة أرسينويه اسم كليوباتريس ، أم النص الذى يضع فيه كليوباتريس إلى شمال أرسينويه فى الجزء الأدنى من الخليج .

فإذا تبنينا النص الأول ، فإننا نستطيع أن نفسر التناقض البين الذى وقع فيه سترابون ، بأن نفترض أنه قد أضاف فوق كلمة أرسيويه كلمة كليوباتريس مرادفة لها فوقع الناسخون فى الخطأ والخلط .

أما إذا حدث العكس ، وملنا نحو الرأى الآخر ،فينبغى لنا أن نقول إن سترابون الذى لم يقم مطلقاً بزيارة هذا الجزء من مصر ، والذى كان يعرف أن الترعة النيلية كانت تنتهى بالقرب من كليوباتريس ، تبعاً لما قاله فى الكتاب السادس عشر ، قد ظن أن الأعمال التى تمت بالقرب من أرسينويه هى امتداد لهذه الترعة ، وأن يخلط بين المدينتين ، عندما تحدث فى الكتاب السابع عشر ، عن النقطة التى تنتهى عندها الترعة . ولكنه تلافى سبب الوقوع فى الخطأ ، قد عاد بعد ذلك بعدة أسطر ،ليفصل هاتين المدينتين كلا منهما عن الأخرى . وتبعاً لهذا الافتراض يمكننا أن نقول إن كليوبازيس كانت تقع بالقرب من سرابيوم ، فى المكان الذى توجد به الأنقاض =

بطليموس ، على مسيرة أربعين دقيقة إلى جنوب هيروبوليس (أو هيرونبوليس) ،وعلى مسيرة ثلاثين دقيقة إلى الشرق من نفس هذه المدينة [(١)] (هيروبوليس) والتى نتعرف عليها اليوم فى أطلال أبو كيشيد (أو أبو خشب وهى تل المسخوطة) وبمعنى آخر فإننا نجد فيما بين هذه المنطقة قديماً والسويس اليوم ، وبشكل يكاد يبلغ حد التطابق ، نفس الفروق فى خطوط الطول وخطوط العرض .

أما اسم النهر البطلمى ، الذى يطلق على خور تأتى مياهه لتضيع فى البحر أمام أرسينويه ، فإن من شأنه أن يدفع على الاعتقاد بأن القناة الواصلة من النيل إلى البحر كانت تنتهى عند هذه المدينة . لكن بلين كان يميز أحدهما عن الآخر ، فكان يطلق لفظ نهر على الأول ويطلق اسم ترعة (أو قناة) على الآخر ، ويقول لنا بشكل قاطع إن الأخيرة لم يكن قد حفر منها سوى ٣٧,٥٠٠ خطوة ابتداء من الفرع البيلوزى . وهكذا كانت هذه الترعة كما نرى أبعد من أن تنتهى عند أرسينويه .

وحين أسس بطليموس فيلادلف مدينة أرسينويه ، لكى ييسر على المصريين سبل التجارة فى البحر الأحمر ، فقد كان أهم عمل يمكن أن يفكر فيه إنسان على الاطلاق هو توحيد مجارى المياه العذبة التى تأتى بها الأخوار المتقاربة وأن يوجهها (هذه المياه) نحو موقع المدينة الجديدة ، ولقد كان من الطبيعى لدرجة كافية أن يعطى الملك الحاكم اسمه للنهر الذى انتهى من إنشائه والذى يستطيع وحده أن يمنح الخضرة والحياة لهذا الساحل ، القاحل والمهجور مادام قد أطلق اسم أخته ــ هو ــ على هذه المدينة الجديدة .

= اليوم وقد تناولت دلك فى دراستى السابقة ، ولعل هذا المكان قد سمى فيما بعد باسم ميناء دانيون الدى نلقاه اليوم عند بلين .

أما عن الخرائب التى تقع على بعد يبلغ نحو فرسخين ونصف الفرسخ إلى الشمال الشرقى من السويس ، فنحن نظن أنها تنبىء عن موقع مدينة كان يسميها العبرانيون بيلسفون ، وكانت هذه تقع على الشاطىء الآخر للبحر تجاه فى ــ حاحيروس التى نظن أنها تقع فى نفس مكان هاجيروث (أو العجرود) .

(١) بلين ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب الرابع ، الفصل التاسع والعشرين .

واليوم ، لم يكد يبقى من هذه الأعمال سوى درسها ومع ذلك فإننا نستطيع أن ننظر إلى مستنقع أفريقيا ، الذى يطلقون عليه اسم مية الجسر ، والذى يقع على بعد نصف فرسخ من السويس ، باعتباره جزءاً من هذه الأعمال : فهناك تتجمع مياه الأمطار ويتزود الناس بصفة أساسية بمياه خور يأتى فى الشتاء من جبال وادى التيه ماراً بالقرب من هاجيروث (العجرود) ، وينهض سد حجرى صغير يحتجز جزءاً من المياه قبل أن تبدد فى البحر ،ومع ذلك فإنه يضيع منها على الدوام كمية محدودة ، قد يكون الاحتفاظ بها ، فى مثل هذه الصحراء أمراً ثميناً ويتعرف المرء فى المنطقة مابين هذا المستنقع والمدينة على آثار ترعة صغيرة .

تتبعنا كذلك ، وحتى جبل عتاقة على بعد ثلاثة فراسخ إلى غرب الجنوب الغربى من السويس ، مجرى خور آخر كان جافاً فى ذلك الوقت ، ثم دخلنا إلى واد ضيق حفرته المياه ، وسرعان مابلغنا طرف هذا الشعب الذى ينتهى بصخور عالية ، تندفع منها المياه فى بعض الأحيان فى شكل شلال . لم تكن المياه تجرى فى ذلك الوقت ، لكن آثارها كانت بالغة الوضوح فوق الصخور . صعدت فوق هذا الشلال بقليل من المشقة ، وكان يؤدى مباشرة إلى هذا الموقع مايشبه مجرى هندسياً طبيعياً محفوراً فى الصخور . تقدمت فى هذه الترعة فوجدت كهوفاً تمتلىء بمياه بالغة العذوبة ؛ وكانت الصخرة عبارة عن حجز جيرى أملس ، أبيض وأحمر . وعند الخروج من الوادى ينقسم الخور إلى عدة روافد تصب مياهها فى البحر ، بل إننى أعتقد أن واحداً من هذه الروافد ينتهى بالقرب من مستنقع أفريقيا .

وقد ينظر الناس ـــ خطأ ـــ فى البلاد الأجنبية ، بل وفى مصر نفسها إلى هذه الأعمال ، التى يرجح كثيراً أنها تمت ولا ريب لتجميع وتوجيه مياه الأخوار المختلفة نحو أرسينويه ، باعتبارها استمرارا للترعة التى كانت ـــ ولابد – تحقق الاتصال بين النيل وبين البحر الأحمر ؛ وقد ينظرون نفس النظرة كذلك إلى بعض الأعمال التى تمت فى نفس ذلك العهد كى تحتفظ لبعض أجزاء البحر بعمق معين فى مضايقة البحرية ، ولكى تزيل كتل الرمال التى كانت تعوق الملاحة فى أرسييويه ، إلى الشمال من هذه المدينة ، تلك الكتل الرملية التى إنتهت بأن فصلت عن البحر مانسميه اليوم بحوض

القلزم وكم هناك من أخطاء وقع فيها المؤرخون القدامى ، وقد اضطروا ــ مع أنهم لم يزوروا الأماكن نفسها ــ لأن يكتبوا (ماكتبوه) نتيجة لاستدلالات غير متأنية نقلها بعضهم عن بعضهم فى أغلب الأحيان . لقد علموا من مصادر عديدة أن مشروعاً قد تم لربط النيل بالبحر الأحمر ، وأن ترعة من المياه العذبة كانت تصب فى البحر الأحمر فى ميناء أرسينويه ، وأن هناك هويسات وسدوداً كانت تحجز مياه هذه الترعة ، وأن أعمال تطهير قد تمت بالقرب من هذا المكان لكى تمهد سبيل الملاحة نحو الشمال أمام بعض السفن فى البحر الأحمر . ألا يمكن لهؤلاء أن يخلطوا بين هذه الأعمال المختلفة ، وأن يأخذوا هذه فى مكان تلك (١) ؟

أما عن مدينة هيروبوليس ،ولعلها هى نفسها مدينة أفاريس (٢) فاننى مصر على أن أضعها فى نفس المكان الذى تشغله اليوم أبو كيشيد . ويغطى هذا الموقع بشكل تام تلك المسافة التى يعطيها مسار أنطونين ؛ ويبدو لى أننا حين نضع هذه المدينة القديمة بالقرب من السويس كما يفعل البعض ، بسبب خط العرض الذى وضعها عليه بطليموس (الجغرافى) ، وحين نلزم الصمت عن الموقع الأكثر مدارية

---

(١) لم يكن ديودور أو سترابون ، نفساهما ، يعرفان لا أرسينويه ولا أى جزء من القلزم شمال السويس ، وعلى سبيل المثال ، فقد ارتكب سترابون فى حق مناطق أخرى زارها من مصر أخطاء أشد خطورة بكثير من تلك التى ننسبها إليه هنا ، أى فى منطقة لم يرها مطلقاً ، وفى واقع الأمر ، فاننا نعرف أن هذا الجغرافى قد أخذ ترعة فى منطقة الصعيد على أنها النهر نفسه .

(٢) أوضحت فى مذكرتى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر رأى البعض ممن يرجحون أن تكون هيروبوليس هى التى تشير إليها التوراه باسم بيتوم Pithôm ولكن يبدو أن الاحتمال الأرجح هو أن المدينة التى أسماها العبرانيون باسم بيتوم كانت هى تلك التى أطلق عليها الإغريق اسم باتوموس Patoumos ، وأطلق عليها الرومان اسم توم Thoum ، وفى الواقع فان هذه الأسماء الثلاثة لاتختلف إلا فى « حركة الإعراب » اليونانية واستعمال أو إهمال أداة التعريف المصرية .

(*) ويقول الأستاذ محمد رمزى فى قاموسه الجغرافى للبلدان المصرية ، الجزء الأول الخاص بالبلدان المندرسة عن مدينة أفاريس : أواريس مدينة أنشأها الهكسوس جنوبى بيلوز (الفرما) وأسموها Hat Awart (هات أورات) ومنها اسمها أواريس . اتخذها رمسيس الثانى سكناً ومعسكراً له وسماها برمسيس أو مدينة رعمسيس . وقد اندثرت الآن وحل محلها تل الحير أو الهير . وظن بعض الباحثين أنها هى مدينة تيكو التى أسماها الرومان باسم هيروبوليس ومكانها الآن تل المسخوطة . (المترجم)

(اتجاهاً نحو الجنوب) بـ ٤٠ دقيقة والذى يعطيه هذا الجغرافى لمدينة أرسينويه ، وكذلك حين نضع هذه المدينة هى وهيروبوليس مجاورتين للسويس ـــ أقول إنه يبدو أننا حين نفعل ذلك لاتسعفنا كثيراً شهادات الأقدمين .

ولقد أورينا فيما سبق أن موقع هيروبوليس ، بالمقارنة مع أرسينويه ، وتبعاً لما ذكره بطليموس ، إنما يتفق للغاية مع موقعى أبو كيشيد والسويس .

ومن جهة أخرى ، فإذا مابدا أن بطليموس فى مكان آخر من مؤلفه يعطى نفس خطوط العرض والطول لمدينة هيروبوليس ولطرف (نهاية) البحر الأحمر فإنه لاينبغى لنا أن نلزم الصمت أو نمر مرور الكرام بنص آخر يضع فيه هذا الجغرافى هيروبوليس أبعد إلى الغرب بمسيرة ٢٠ إلى ٣٠ دقيقة ، وإلى الشمال بمسيرة ١٠ دقائق ؛ قد لاتكون أبو كيشيد على هذه المسافة من الطرف القديم للخليج ، لكن أهم من ذلك أن نعرف أن هاتين النقطتين (أو الموقعين) لم تكونا متطابقتين ، وأن هيروبوليس كانت تقع إلى الشمال الغربى من قمة الخليج . ولايحق للمرء أن يتوقع صرامة أكبر فى الكتاب الذى نحن بصدده ، والذى اكتفى فيه بطليموس فى معظم الأحيان بأن يثبت خطوط الطول والعرض تبعاً لمقاييس يقل حظها من الدقة ، كانت تقدمها له بعض خطوط السير .

وهكذا فإننا نظن أن هذا الجغرافى لم يضع مدينة هيروبوليس عند طرف الخليج إلا لتمييزه عن خليج أولانيتيك أى خليج إيلات أو العقبة ، وأنه قدم فى هذا المكان ماظنه خطى عرض وطول الطرف الشمالى للبحر الأحمر ، وليس خطى عرض وطول هيروبوليس التى يوردها فى بقية مؤلفه واضعاً إياها فى الشمال الغربى كما قلنا لتونا ؛ ومع ذلك فقد نستطيع أن نفترض ، تبعاً للنصوص التى أشرنا إليها ، أن هيروبوليس كانت لها ، على الرغم من وقوعها فى مكان خرائب أبو كيشيد ، بعض منشآت تقع على شاطىء البحر (١) ؛ لكننا فى كل الأحوال لانستطيع الاستناد إلى شهادة بطليموس لكى نضع المدينة نفسها على الشاطئ .

---

(١) قد تكون هذه المنشئات ، بعد اتساعها ، هى التى أدت إلى نشأة مدينة كليوباتريس التى يتحدث عنها سترابون ؛ أو نشأة ميناء دانيون Por Danèon الذى يشير إليه بلين .

وقد سبق أن قلنا إن واضعى الترجمة السبعينية (للتوراة) كانوا يضعون مدينة هيروبوليس فى وادى جاسان أو السبع أبيار ، على طريق ممفيس ـــ غزة ؛ وسوف يكون من العبث ـــ لدحض هذه الشهادة ـــ أن نتهم هؤلاء المترجمين بأنهم ظنوا أن الفعل العبرى هورروث ،ومعناه يخبر أو يعلن أو ينبىء إنما هو اسم لمدينة ؛ فمثل هذا الاعتراض لن يفعل سوى أن يزيد من الاقتناع بالأمر الذى نتصدى له ، لكننا قد نقول منذ البداية إن من العسير أن نتقبل أن خطأ فاحشاً كهذا ، لايمكن أن يقع فيه أصغر تلميذ ، يستطيع أن يقع فيه سبعون حاخاماً ، لديهم معرفة عميقة باللغتين العبرية واليونانية ، وأن من الأفضل لنا ـــ بالأحرى ـــ أن نعتقد بأن هؤلاء المترجمين المتبحرين ، لم يسيئوا هنا ترجمة كلمة من كلمات لغتهم ، ولكنهم أضافوا ـــ فيما يرجح ـــ شيئاً ما إلى النص العبرى لكى يجعلوا الترجمة أكثر وضوحاً أو ليرسخوا معنى بعينه ، الأمر الذى حدث منهم فى أماكن عديدة (من ترجمتهم هذه) . فلنقارن إذن النص العبرى للآية التى نحن بصددها بترجمته اليونانية ، وسنجد أن « السبعين » لم يشاءوا مطلقاً أن يترجموا هذا النص ترجمة حرفية ، وإنما شاءوا أن يفسروه . ويدل على ذلك ، على سبيل المثال أن كلمة جاسان تتكرر مرتين فى العبرية فى حين لا نجدها فى اليونانية حيث تقرأ كلمتى هيروبوليس ورعمسيس ، اللتين لا توجدان مطلقاً بالنص العبرى . ولايمكن أن يعود هذا الاختلاف ، وغيره كثير ، إلى خطأ يمكن أن نلصقه بالسبعين ؛ وزيادة على ذلك ، فليكن هؤلاء قد تصرفوا تبعاً لدافع قد نفترضه فيهم ، أو ليكونوا ـــ حتى ـــ لم يفهموا كلمة هورروث ، فلن يكون أقل من ذلك حقيقة أنه ماكان لهؤلاء أن يتكلموا فى هذا الموضوع عن هيروبوليس لولا أن قد كانت هذه المدينة ، فى زمانهم ، قريبة من الموقع الحالى للسويس فى وادى جاسان أو السبع أبيار . وتنطبق نفس هذه الملحوظة على المؤرخ يوسيفوس الذى يضع كذلك مدينة هيروبوليس على الطريق من ممفيس إلى غزة .

ولنتذكر أن العبريين عندما خرجوا من مصر لينسحبوا إلى صحراء سيناء قد

ساروا بحذاء الشاطىء الغربى للبحر الأحمر ابتداء من أرض جاسان إلى المكان الذى عبروا فيه البحر . وهذا مانقرؤه فى سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٧ : « وكان لما أطلق فرعون الشعب ، أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة ، لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا أرادوا حرباً ويرجعوا إلى مصر » ، والآية ١٨ : « فأدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف » أى إلى الطريق الصحراوى القريب من البحر الأحمر .

كيف سيكون بإمكاننا هنا تفسير هذا النص لو أن كانت للخليج العربى ، فى ذلك الوقت ، نفس الحدود التى له اليوم ؟ .

أما عن الـ ٩٠٠ غلوة التى يعطيها سترابون لعرض القلزم ابتداء من بيلوز حتى الخليج العربى بالقرب من هيروبوليس ، فإننا لقادرون أن نجدها بسهولة إذا تقبلنا ، وهذا أمر محتمل للغاية ـــ أن تكون المعلومات التى جمعت من مصر فى العصور القديمة ، عن طريق الرحالة الأجانب ، عن المسافات التى كانت توجد بين مختلف الأماكن ، قد أعطيت لهم فى غالب الأحيان بالغلوة المصرية التى يبلغ طولها ١٠٠ متر ؛ وفضلا عن ذلك فلابد ألا ننسى أن هيروبوليس كانت تبعد قليلا عن البحر الأحمر ؛ وكانت هذه المدينة ومدينة بيلوز ، على البحرين (الأحمر للأولى والأبيض للثانية) هما مكانا التجارة المتقاربين للغاية ، وفيما بينهما كان يتم تبادل السلع القادمة من أوربا وتلك القادمة من الهند . ولذلك فقد كان من الطبيعى أن يعطى سترابون ، وهو يتحدث عن اتساع القلزم نفس طول الطريق الذى كان يتبعه الناس ، للتوجه من بيلوز إلى الخليج العربى ، مروراً بهيروبوليس . ولذلك نجد نحو ٧٠٠ غلوة من بيلوز إلى أبو كيشيد ، و ٢٠٠ من هذا المكان إلى سرابيوم .

وهذه الاعتبارات المختلفة تفسر بطريقة بالغة اليسر ، لماذا كانت تلتمس هيروبوليس فى روايات الأقدمين ، على الدوام ، فى المنطقة التى كان ينتهى إليها الخليج العربى باتجاه مصر ، على الرغم من أن هذه المدينة لم تكن تقع مباشرة على

ساحله (١) . ألسنا لانزال نرى حتى اليوم العديد من المدن الواقعة فى الداخل وهى تعد ــ مع ذلك ــ موانىء بحرية ؟ .

ولسنا نستطيع أن نقترح أية مقاييس أخرى إلى جانب تلك التى ذكرناها تبعاً لشهادات القدماء ، وإن كان بإمكاننا أن نعطيها قيمة مختلفة قد يكون من شأنها أن تضع قاع الخليج إلى الجنوب بمسافة أكبر بكثير مما هى عليه اليوم ، يدل على ذلك أننا محقون فى تقييمنا لهذه المقاييس كما كنا محقين فى تطبيقها على الطبيعة ، وإلا ، فهل ثمة أقل احتمال لأن يكون البحر فيما مضى أقل امتداداً نحو الشمال مما هو عليه الآن ؟ ألا يوجد ــ على العكس من ذلك ــ عدد كبير من الوقائع الدالة على أن هذا البحر قد انحسر نحو الجنوب ؟ .

وقد ننهى دراستنا هذه بأن نكرر هنا أإنالعيون والبحيرات المرة ، تبعاً لما نرى ، كانت تقع إلى الشمال الشرق وإلى الشمال من حوض القلزم ؛ وأن هذا الحوض ، فى الزمن الذى عاش فيه هيرودت كان يشكل جزءاً من البحر الأحمر ؛ وأن أعمالا لابد وأنها قد تمت فى عصر البطالمة لكى يبقى البحر على عمق بعينه فى المضايق البحرية جنوب أرسينويه ، الأمر الذى جعل من الممكن أن يطلق على هذا الذراع من البحر اسم النهر أو النهر البطلمسى ؛ وأنه قد أمكن إطلاق هذا الاسم كذلك على خور من مياه الأمطار كان يصب فى الخليج بالقرب من أرسينويه ؛ وأن الترعة التى شرع الفراعنة فيها والتى تجدد الشروع فيها فى عهد داريوس ، وفى زمن خلفاء الاسكندر قد حفرت ابتداء من الفرع البيلوزى ، عبر الوادى حتى البحيرات المرة ؛ وأنه إلى ماوراء هذه البحيرات ، قد توغلت هذه الترعة دون شك نحو البحر ؛ وإنه كان من الطبيعى بالنسبة لملوك وحكام مصر أن يوقفوا هذا العمل ماأن يتبينوا الأخطار الكبيرة التى

---

(١) من الضرورى ، عند الرجوع إلى خريطة مهندسى الشرق أن نعرف أن الحدود المعطاة لحوض القلزم ليست دقيقة إلا فى النقاط التى مر فيها خط عملية التفدين بكنتورات الحوض ، وأن هذه الحدود قد خططت على الدوام بشكل تقريبى بالنظر إلى أنه لم يتم هناك مطلقاً أى تفدين إلا ماتوضح على الخريطة ، كما أن هذه الخريطة لم تبين خطوط المدى ، أى خطوط أقصى مدى للاغراق يمكن أن يبلغه البحر .

كان يشغلها ارتفاع مياه البحر الأحمر وإنخفاض مستوى النيل ؛ وأنه فى فترات مختلفة ، على الرغم من ذلك ، قد أمكن للملاحة ، فوق هذه الترعة ، وفوق البحيرات المرة ، أثناء فيضان النيل ، أن تمتد لمسافة قريبة من البحر الأحمر ؛ وأن الرحلة البحرية ، بدءا من هذه النقطة وحتى الخليج عندما اقتصرت على نقل أشياء بالغة الضآلة ، قد جعلت من الممكن للناس أن ينظروا إلى الاتصال المائى (بين البحرين) ، فيما يختص بالتجارة ، كأمر ثابت ، وأننا نستطيع على هذا النحو أن نفسر الواقع الذى حدا بكليوباترة إلى أن تأمر بنقل سفنها براً ليمكن لهذه السفن أ تنتقل من بحر لآخر (١) ، فى نفس الوقت الذى يذكر فيه الكثير من الكتاب ـــ مع ذلك ـــ أن ترعة الملوك كانت قد تمت على يد أسلافها (٢) ؛ وأنه أمكن أخيراً فى عهود الخلفاء القيام بمحاولة لإعادة دفع البحر الأحمر إلى الأراضى التى كان يغطيها فيما مضى شمال القلزم ، وإن لم تكن هذه الأعمال ، التى سرعان ماأهملت ، بكافية على الإطلاق كى تعيد البحر ، بطريقة ملموسة ، إلى حدوده القديمة .

* * *

---

(١) Plutarque, Vie d'Antoine, Dion Cassius, Hist, Rom liv II.

(٢) Strabon, Gèogr., liv XVII. Diodor de Sieile Bibl hist liv J.

مستخلص من يوميات رحلة المسيوديفلييه
مهندس الطرق والكبارى

رحلت من القاهرة فى السابع والعشرين من بروميير من العام التاسع مع السيدين لوبير وشابرول .

ومن القاهرة إلى بركة الحج ، يوجد سهل رملى يغطيه نوع من اليشب البيضاوى ، يعرف بالزلط المصرى ؛ ويجد المرء إلى اليسار أراضى مزروعة ، كما يلمح ، على اليمين ، ولمسافة نصف فرسخ ، سلسلة من كثبان الرمال على ارتفاعات متفاوتة ، كما يتفاوت امتدادها مابين ربع ونصف الفرسخ وتقطع الأرض من وقت لآخر أخوار صغيرة تنمو حولها الخضرة ؛ وتستمر الكثبان إلى مسافة قريبة من بلبيس . وعند الخروج من هذه المدينة نحو الصالحية ينبسط ـــ مع ميل غير محسوس ، وإلى مسافة بعيدة ـــ سهل رملى يغطيه الزلط المصرى .

وعلى مسافة فرسخ إلى الجنوب من السويس ينتهى الجبل الجيرى ، ويمكن أن يصل ارتفاعه إلى خمسين قدماً فوق سطح الأرض المزروعة .

وبالقرب من راهورنى [١] . تبدأ كثبان رملية جديدة ، تمتد بطول وادى الطميلات وحتى أبو نشابة ، ويبلغ عرضها تجاه هذه النقطة ، فرسخاً واحداً ؛ وتغمر المياه (مياه الفيضان) هذا الوادى .

---

(١) تقع هذه القرية على بعد نحو ٣٠٠٠ متر إلى الجنوب الشرق من العباسة بالقرب من بحيرة تسمى الفرجة أو بركة الحج القديمة ؛ويدفع هذا الاسم ، بالإضافة إلى بقايا المنشئات التى يقابلها المرء على طريق بلبيس وعلى جسر السنيكة ، الذى يسمى الجسر السلطانى ، وهى المنشئات التى يخبرنا سكان البلاد أن حجاج مكة كانوا يستخدمونها فيما مضى ـــ كل ذلك يدفع على الاعتقاد بأن قافلة المحمل التى كانت تتجمع كل عام بالقاهرة ، والتى كانت تمر بالقرب من هجيروت (أو العجرود) . كانت تتبع فى ذلك الوقت وادى الطميلات ، لتدور بعد ذلك حول الخليج العربى ، الأمر الذى يأتى كذلك لكى يدعم رأى المسيو دى بوا ـــ إيميه du Boia-Aymé عن الحدود القديمة للبحر الأحمر .

(المترجم) لم أجد اسم هذه القرية فى القاموس الجغرافى للأستاذ محمد رمزى ، وإن كنت قد وجدت اسم راوارنى أو الراوارنى فى الفهرس الجغرافى الوارد بكتاب وصف مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الثالث ، فى نفس المنطقة التى تحددها هنا هذه الدراسة .

وإلى ماوراء ذلك ، أى شمال الجانب الآخر من الوادى ، يوجد سهل بالغ الإنبساط يغطيه الزلط ؛ أما الجزء الجنوبى من الوادى ، فيما بين أبو نشابة ورأس الوادى فبالغ الإنخفاض ،وليست للمياه به أية حركة محسوسة ، ويصل عمقها إلى ٨ ـــ ٩ أقدام . وهى تزحف إلى بعض الأماكن من خلال الكثبان الرملية . ومن هناك نرى الجبال المجاورة للسويس .

وتغطى المياه كل المنطقة إلى ماوراء رأس الوادى ، ويشكل الفيضان سطحاً بالغ الاتساع يحده إلى الغرب الجسر الكبير ، ونجد أشجار النخيل بالقرب من رأس الوادى وقد غمرتها المياه حتى سعفها . وتتجمع المياه فى المكفر (أو الموكل) داخل ترعة ، ويلزمها متر وأربعة وعشرون سنتيميرا لكى تبلغ الجزء العلوى من الحجر الجرانيتى الذى استخدم نقطة استدلال فى عملية التقدين .

وتحيط المياه بآبار السبع أبيار ، وبعيداً عن ذلك حفرت المياه لنفسها مجرى عميقاً بعض الشيء وتآكلت بسببها الكثبان ؛ وهناك تجرى المياه بسرعة أمكن تقديرها بأربعة أقدام فى الثانية .

فإذا مضينا لأبعد من ذلك ، نجد المياه لاتزال تزحف ، بعد أن تقوم بدورة كبيرة إلى اليسار لتملأ بعد ذلك حوضين واسعين ، يبلغ محيطهما ٦ ـــ ٧ فراسخ (١) .

ثم تمتد المياه لتبلغ سفح الكثيب الذى أقيم فوقه ضريح الشيخ هنادى ، لتحيط بجزء من الهضبة المجاورة ، التى يمكن الوصول إليها عن طريق لسان من الأرض .

تركنا المياه فى الأول من فريمير لنتجه مباشرة إلى سرابيوم متتبعين الكثبان . أما سرابيوم فعبارة عن مبنى دائرى الشكل ، يبلغ قطره من ١٢ إلى ١٥ قدماً ، يتعرف فيه المرء على نتوء بارز أقيم فوق كتلة بيضاوية الشكل من الجرانيت ؛ وثمة خرائب أخرى تقع إلى الجنوب الشرقى ، نجد فيها قطعاً من الجرانيت والحجر الرملى والحجر الجيرى ،

---

(١) أشير إليها على الخرائط باسم بحيرة التمساح .

ويشبه الأخير تلك الكتلة الحجرية التى تشكل الهضبة التى نجد فوقها أطلال هذه المدينة القديمة .

توجهنا من سرابيوم إلى طرف جبال السويس ، وقطعنا مسافة ثلاثة فراسخ ، اجتزنا خلالها البحيرات ، أو الأجزاء الدنيا التى توجد فى هذا الاتجاه (١) . وخلال الفرسخ الأول ، يلاحظ المرء وجود سلفات الجير ، متكلسة على هيئة إبر لامعة ،وفى شكل كتل منعزلة يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثة أقدام ،ولها مظهر جذوع نخيل مقطوعة ، وتبدأ الأرض لتصبح رخوة تتدنى ، وأخيراً نجد الطين ومياها تميل كثيراً إلى الملوحة ؛ وقد بدا لى أن موريات الصودا توجد بكثرة فى هذه المياه ، وبدرجة أكبر مما نجدها عليها فى مياه البحر . وفى الجانب الآخر ، نجد الأرض وقد تشققت إلى كتل كبيرة يبلغ حجم الواحدة من ١٥ إلى ٢٠ قدماً وتعلو كل منها إلى أربعة أقدام ، لكن المياه تذيب هذه الكتل وتفتتها ، وتتكون هذه الكتل من قطع كبيرة ، بل وهائلة الحجم فى بعض الأحيان ،من موريات الصودا ، ومن الرمال المختلطة ببللورات صغيرة من سلفات الجير ؛ وبعد فرسخ ونصف الفرسخ من هذه الأرض الخربة والمهلكة تنخفض التربة لدرجة أكبر وتصبح رطبة موحلة . ومن الجهة الأخرى ، يجد المرء مع ارتفاع الأرض بعض الأصداف والقواقع على الرمال ، ثم يجد رمالا بدون أصداف تتناثر فوق كربونات الجير التى أخذت فى التحلل ،وأخيراً بعض بللورات الجبس اللامعة وقد اتجهت قممها إلى أسفل ، أما الأرض هناك فمنتفخة متشققة ، دون أن يبدو الأمر وكأنه قد تم بفعل إنكماش بين أجزاء هذه الكتل ، بل على العكس من ذلك ، كما لو أن تمدداً هائلا قد تسبب فى رفعها ثم تكسيرها .

أما الأجزاء الأكثر ملحية من هذه الأرض ، فهى كتل من موريات الصودا ، تشكل كهوفاً أو شقوقاً صغيرة ، يبلغ عرضها بضع بوصات ، وقد وضعت مجسات

---

(١) تشكل هذه البحيرات جزءاً من حوض القلزم .

داخل هذه الشقوق دون أن تبلغ قاعها وكانت المجسات قد وصلت لعمق المتر أسفل موريات الصودا .

وفى الثانى من فريمير مشينا ، بعد الخروج من هذه الوهاد ، نحو الجنوب الغربى ، واقتربنا كثيراً من الجبال التى يمر بالقرب منها طريق بلبيس ــ السويس ؛ وبعد ذلك اتخذنا وجهتنا نحو الشرق ، وعبرنا بقايا ترعة تقع إلى جنوب وهاد وسط القلزم ، وعدنا بعد ذلك مباشرة إلى السويس ، مجتازين هضبة عالية تتكون من رمال كبيرة الحجم ؛ وقريباً من البحر عدنا ثانية إلى غرب الترعة ، ووصلنا إلى السويس .

معلومات جمعت عن طريق مشايخ وسكان وادى الطميلات فى الأيام الأخيرة من نيفوز من العام التاسع ، بواسطة المسيو ديفلبيه المكلف باكتشاف ترع النيل ابتداء من القاهرة ، حتى وادى الطميلات

يبلغ أقصى ارتفاع للمياه فى الوادى ، فى المنطقة الواقعة مابين العباسة ورأس الوادى . وطبقاً لما يذكره سكان طميلات الشريف يمكن أن ترتفع المياه إلى ١٥ قدماً بالقرب من العباسة ؛ وعندما تنخفض تنكشف ضواحى العباسة أولا ثم تجف بعد ذلك الأرض المجاورة لرأس الوادى ، ويتركز الإغراق بالقرب من أبو نشابة ، التى توجد بها ــ على مايبدو ــ أدنى نقطة فى الوادى .

ولاتتوغل المياه فى الوادى إلا عن طريق ترع صغيرة تتفرع من ترعة بلبيس ، وإن كان قاعها أكبر ارتفاعاً لدرجة أن المياه لايمكنها أن تدخل إلى هذه الترع الصغيرة إلا أثناء الفيضانات الكبرى ، التى قلما تتم إلا مرة كل خمس أو ست سنوات ؛ لذلك يستوجب الأمر أن يعطى أهالى الطميلات لأنفسهم سلطة قطع جسور العباسة والسنيكة رغم مشيئة سكان القرى العليا ،ويتم هذا القطع فيما بين السنيكة والمسيد . ويذكر القوم أنه كانت توجد فى الماضى قنطرة كبيرة تتكون من قوس واحد فيما بين السنيكة والمسيد على بحر الرمل بالقرب من بحطيط . أما الفائدة التى تعود من وراء إنشاء ترعة تصل بالمياه بشكل منتظم إلى رأس الوادى فأمر لاجدال فيه . وقد يكون كافياً أن نعمق واحدة من الترع الصغيرة التى سبق أن تحدثنا

عنها . ومع ذلك ، فسوف يكون من الضرورى فى نفس الوقت أن نعيد تثبيت جسور السنيكة أو العباسة حتى لاتمر إلى الوادى إلا كميات المياه اللازمة لريه دون أن تغرقه ، فهذا الإغراق الكامل يضيع على الزراعة سنة بأكملها تستغرقها المياه لكى تنحسر ، إذ لا يمكن ـــ والحالة هذه ـــ زراعة أرض الوادى إلا فى الصيف التالى . وفى السنوات القليلة التى لاتصل فيها مياه الفيضان إلى داخل الوادى ، تتم الزراعة القليلة التى يمارسها القوم هناك بواسطة مياه الآبار التى لاتنضب أبداً .

وخلال الفيضانات العالية فى تلك السنة (العام التاسع) ، قطعت المياه جسر الوادى ، ولم تتجاوز إلى الشرق وإلى الجنوب المكان المسمى بالشيخ هنادى ، لكنها زحفت إلى الشمال حتى رأسَ الميه (أو البلاح) وأخبرنا أحد شيوخ العرب أن « رأس مية البلاج قد « رأت » مياه النيل هذا العام » . ونحن هنا ننقل تعبير هذا العربى بنصه .

ولايقطع الناس مطلقاً جسر رأس الوادى . ويقول أهالى الطميلات إنهم لايجدون فى ذلك فائدة ما ، ويمكن إدراك ذلك بسهولة .

ومنذ أربعة وعشرين أو ثلاثين عاماً ، لم يحمل النيل مزيداً من المياه إلى الوادى .

★ ★ ★

(٨)

« كوستاز »

دراسة عن النوبة والنوبيين

وفيما بين فيلة وأسوان ، تتناثر فى النيل ألوف لايحصيها عد من صخور الجرانيت التى تنهض من قاع المجرى لتشكل جزراً بالغة الضآلة ، وهناك يجرى النيل سريعاً تتكسر مياهه على هذه الصخور ، أو تندفع الأجزاء الفاصلة فيما بينها بصخب واضطراب غير عاديين ، ليكتسى كل سطحه باللون الأبيض ، حتى ليظنن المرء أن مياهه قد تحولت كلها إلى زبد .

وينتج عن تلاطم الأمواج وتكسرها فوق الصخور زئير مستمر تردد الجبال صداه ليمضى صوت الصدى إلى بعيد بعيد . وفى هذه المناطق الصحراوية ، تشكل هذه المجموعة من العوامل مشهداً يهز النفوس بشكل عميق .

وتعرف هذه المنطقة باسم الشلال ، شلال أسوان .. لكننا إذا ماقصدنا المعنى الحرفى للكلمة ، سنقول بأن ليس هذا شلالا على الاطلاق . حقيقة أن النيل هناك سريع وصخاب ، لكننا لانرى هناك مساقط كبيرة للمياه ؛ وهى تلك التى اعتدنا أن نطلق عليها اسم شلالات بل إن جزءاً من مياه النهر ، تجرى فى نفس المجرى ، تستطيع المراكب أن تصعدها فى موسم الفيضانات إذا ماجادت عليها الطبيعة بريح مواتية . لكن الشلال الحقيقى يوجد على مسيرة عدة أيام إلى الجنوب من شلال أسوان هذا ، كما يسمونه .

ويقابل المرء بشكل شبه دائم ، عند سفح الصخور التى تحصر فيما بينها نهر النيل ، أجزاء صغيرة من الأرض الصالحة للزراعة ، كونتها ومهدتها تلك الترسيبات السنوية لمياه الفيضان حيث الظروف هناك مواتية لحدوث مثل هذه الترسيبات .. وفى كل مكان تتوافر فيه هذه الظروف المواتية ، زرع النوبيون أشجار النخيل ونصبوا السواقى لرفع المياه لرى الحقول التى يزرع فيها هذا النوع من الذرة البيضاء الذى يطلقون عليه اسمه «درة» ، وكذلك بعض الخضروات .

وترين فوق هذه الصخور حرارة مرهقة ؛ وعلى الرغم من أننا كنا مانزال فى اعتدال الخريف ، فقد ظل ترمومتر ريومور الموضوع فى الهواء الطلق ثابتاً طيلة اليوم على درجة ٣٥ ، وهى درجة حرارة أعلى من درجة حرارة الدم إذ أن هذا الترمومتر يهبط

فى الواقع ثلاث درجات إذا وضعناه فى الفم أو تحت الابط . وكنا نحس بلهيب الشمس المزعج من خلال نعال أحذيتنا المصنوعة من جلد الماعز . ومنذ عدة أيام رفض أحد أبناء البلاد ، وكان موكلا بتوصيل إحدى الرسائل ، أن يبدأ سيره قبل غروب الشمس ، حيث الحجارة فى أثناء النهار ، تجعل أقدامه تلتهب .

وعلى بعد كبير من قرية باب ، يلمح المرء جداراً عاليا أقيم عند سفح الجبل الشرقى ليقطعه بشكل عرضى : وقد تسلقنا الجبل كى نرى الجدار عن قرب ... فوجدناه بالغ السمك ، مبنيا بقطع غير منتظمة من أحجار الجرانيت والحجر الرملى بدون ملاط « مونة » ،ويمتد هذا الجدار إلى بعيد بحيث لم نستطع التعرف على بدايته البعيدة على النيل . وقد بدا لنا أن هذا الجدار قد بنى كسور لصد هجمات الشعوب المعادية لأهل هذه البلاد .

وللنوبيين زوارق ينقلون بواسطتها ـــ بين الشلال الصغير والشلال الكبير ـــ الأشياء التى يأتون بها من مصر لاستهلاكهم . وتتمثل هذه التجارة المحدودة بصفة أساسية فى الأقمشة التى يشترونها من اسنا والتى يقاضون بها البلح المجفف « التمر » . ويستخدمون فى ملاحتهم الشراع ، وهو يشبه شراع القوارب المصرية ، وهو صالح بشكل خاص لملاحة الأنهار حيث يساعد على سرعة حركة القوارب بفعل الرياح ، وعلى الرغم من ذلك فهذه الرياح فى جنوب أسوان غير مواتية بفعل تعرجات النهر الكثيرة للغاية ويضطر الناس لوقت طويل إلى جر قواربهم بالحبال .. لذلك تكون الملاحة هناك بطيئة بالضرورة .

ويقوم بإدارة القرى هناك رجال قضاء يسمون السيميلى ، وهؤلاء يحوزون نفس السلطة التى يحوزها شيوخ القرى فى مصر ، على وجه التقريب .

وتخضع كل المنطقة حتى الشلال الكبير للسيطرة العثمانية وإن كانت سطوة هذه السيطرة تقل فى الواقع وفى غالب الأحيان فى مثل هذه المناطق النائية . ومع ذلك فالنوبيون يدفعون للسلطان ، أو للذين يحكمون باسمه ، ضريبة من التمور والعبيد السود . وهم يشترون هؤلاء العبيد من قوافل سنار ، لأن النوبيين لا يتجرون مطلقاً فى

رجال من أبناء أمتهم ، كما لاتسود بينهم هذه العادة الهمجية : عادة اصطناع أغوات .

والنوبيون فى العادة لطيفو المعشر ويعيشون فى حالة سلم بقدر ما يستطيعون مع جيرانهم العربان ، وعندما يشن هؤلاء عليهم هجوماً ، فإنهم يلجأون إلى الصخور وهناك يتخذون وضع الدفاع ، ويبدو أن العربان لايحبذون القيام بغارات فى أرض غير مواتية لخيولهم وتشكل فى نفس الوقت مأوى آمناً لسكانها أو معاقل حصينة ، سيندمون فى معظم الأحيان إذا أرادوا اقتحامها .

وفى كل عام ، ينزل كثير من النوبيين إلى مصر هاربين من فقر مسقط رأسهم كى يبحثوا هناك عن عمل ، وهو الأمر الذى يكاد يماثل مايفعله أبناء سافوى وأوفرن « إحدى مقاطعات فرنسا فى التقسيم الإدارى القديم » ، حين يأتون إلى باريس . ويفعل أولئك مثلما يفعل هؤلاء إذ يظلون يحتفظون على الدوام بالرغبة المتأججة للعودة لقضاء آخر أيامهم وسط صخورهم ، ومإإن يحصلوا على وسيلة لعيش ميسور بعض الشيء حتى يسارعوا بالعودة إلى بلادهم ليتخذوا لأنفسهم زوجات من بنات أمتهم . وعدد النوبيين فى القاهرة كبير ، ويشير إليهم التجار الأوروبيون باسم «بربران» Barbrin . ويتمتع هؤلاء بشهرة كبيرة فى الاستقامة والأمانة ،ويوحى إخلاصهم الذى لم يكذب مطلقاً بالثقة المنشودة ، ويكاد يعهد إليهم بحراسة بوابات كل البيوت والأسواق .

ترى من أين جاء لهذه الأمة كل هذا السمو الأخلاقى الذى يميزهم بدرجة كبيرة عن جيرانهم العربان ، الذين تبدو اللصوصية عندهم مهنة شريفة بل يمكن القول مهنة قومية ؟ أينبغى أن نبحث عن السبب فى ذلك ، فى نوع الحياة التى يحياها كل من هذين الشعبين؟ فالنوبيون مزارعون والعربان رعاة . والحياة الزراعية تجعل الناس أكثر حساسية واستجابة لأفكار العدل والنظام والملكية . أما فى الحياة الرعوية فيحدث العكس من ذلك ، حيث تؤمن سهولة التنقل ، التملص من العقاب وعدم الوقوع تحت طائلته ، بخصوص كل الجرائم على وجه التقريب . ولهذا السبب فإن هذه الحياة ، التى يمتدحها الشعراء ، ويترحم عليها كثير من أولئك الذين لم يتمعنوا الطبيعة

البشرية ، تقود إلى اللصوصية والنهب ، وإذا كان مانقوله يحتاج إلى تأكيد عن طريق ضرب الأمثلة فيكفينا أن نذكر والأكراد يعيشون بلا مقر ثابت وإنما يقودون مثل العربان قطعانهم من مرعى إلى مرعى ، ولهم نفس عادات السرقة واللصوصية التى تسود عند هؤلاء .

والنوبيون مسلمون شديدو الحماسة لدينهم . وعلى الرغم من رقتهم ولطف معشرهم فإنهم يكنون الكثير من النفور والمقت نحو الأجانب ، ومن العسير عليهم على الدوام أن يروا هؤلاء فى بلادهم . ولقد قال لى أحد هؤلاء الذين كنت على صلة بهم فى فيلة : « إنها هى هذه المبانى « الآثار » التى تجذب هؤلاء الأغراب إلى هنا ، حسن ، ما أن يرحلوا حتى نبدأ فى هدمها كى يتركنا الناس هادئين فى بلادنا » .

لكن النوبيين لحسن الحظ ليسوا بالقوة ولا بالمهارة اللتين تكفلان لهم أن ينفذوا هذا المشروع الذى لايمكن أن نعقله . ولم يكن هذا الطابع الجفول والشكاك للنوبيين ليقلقنا على أى نحو . ذلك أننا كنا فى حراسة قوة كافية ، ومع ذلك فيحسن بالرحالة العزل والمتفرقين الذين قد يأتون لزيارة الآثار الموجودة فى فيلة ، أو إلى الجنوب منها، حيث هم لايتمتعون بحماية كالتى فى حوزتنا ، أن يتخذوا كافة الاحتياطات الممكنة لكفالة سلامتهم وأمنهم .

ويكاد يكون لون بشرة هؤلاء النوبيين وسطاً بين الأسود الأبنوسى ، لون سكان سنار ، والأسمر البرنزى ، لون المصريين من أبناء الصعيد .

وهو يشبه بالضبط لون خشب شجر الأكاجة المصقول الغامق .

ويفيد البرابرة من هذه النقطة كى يضعوا أنفسهم فى صفوف البيض .

سألت ذات يوم واحداً منهم عما إذا كانت إحدى القبائل التى كان قد حدثنى عنها للتو سوداء ، فأجابنى : « كلا ، كلا .. إنهم بيض مثلنا ..» .

وفى الحقيقة فإن ملامح النوبيين أقرب إلى ملامح الأوربيين منها إلى ملامح الزنوج فنسيج بشرتهم بالغ الرقة ، وليس للونهم أى تأثير منفر وتعطى الحمرة المختلطة به مظهراً

من مظاهر الصحة والحيوية ، أما تقاطيعهم المعبرة والحية فتنبيء عن طيبة شديدة وتمتليء تقاطيع الشبان منهم على وجه الخصوص بالرقة .
كما أنهم يختلفون كذلك عن الزنوج فى أن شعرهم الطويل والمجعد على نحو خفيف ليس له شكل الصوف . ولقد تأملت عديداً من أطفالهم كان شعرهم خليطاً من خصلات سوداء وأخرى شقراء ، وإن كان بريق هذه الشقرة ليس هو نفسه عند الأوربيين، وإنما يقترب كثيراً من اللون الذى يكتسبه الشعر الأحمر عند اقترابه من النار ، وليس هناك ماينبيء عن أن شعر هؤلاء الأطفال قد اكتسب هذا اللون بشكل صناعى .

ولقد وجد الفرنسيون عندما دخلوا لأول مرة جزيرة فيلة فتاة نوبية تركتها أسرتها بعد أن أخذت ــ للمحافظة على عذريتها ــ احتياطاً بالغ القسوة إذا خاطوا بشكل تام عضو إخصابها ، وتنبيء هذه الواقعة أننا بصدد شعب تنهشه غيرة متأججة ، وفضلا عن ذلك فإن هذه العاطفة المتطرفة تتجلى فى تلك العناية التى يخفى بها النوبيون نساءهم عن نظرات الأغراب ، وقد حدث فى أثناء زيارة لنا إلى بعض قراهم ــ وكان يتبعنا منهم جمهور كبير ــ أن شاهدنا رجالا يتسلحون بالعصى ولاهم لهم إلا طرد النسوة اللائى جذبهن الفضول إلى موكبنا ، وبرغم ذلك فإن عادة التحجب الشائعة فى مصر ليست مستقرة بين النسوة النوبيات ، فهن يظهرن بوجه مكشوف ، ويتوزع شعرهن بين عشرات من الخصلات « البوكلات » الصغيرة المجعدة بشكل لولبى والتى تتماوج على الجبهة وعلى كل جوانب الرأس . وأرديتهن تغطى أجسامهن بشكل تام ، وقد شاهدنا البعض منهن يتلفعن ملابسهن على نحو يبقى الذراع الأيمن والكتف عاريين . وتبدو حركاتهن وهيأتهن تحت هذا الملبس ، رقيقة تكسوها مسحة من نبل .

ويتكون رداء البنت التى لم تبلغ سن البلوغ من حزام مصنوع من حبال صغيرة مجدولة فيما بينها وتتدلى أطرافها كأهداب حتى ثلث الفخذين ، ولا يخفى عريهن هذا أى حجاب آخر ، ومهما تكن هذه العادات لاتتطابق فى كثير مع أفكار

العفة عند الأمم المتحضرة إلا أنها فى الوقت نفسه أكثر اقتراباً إليها من العرى التام ، وهو الأمر الشائع فى مدن مصر بل وحتى فى القاهرة ذاتها .

أما الرجال البالغون فيرتدون قميصاً أزرق أو أحمر اللون مثل الفلاحين المصريين ، ويظل الأطفال عراة حتى سن الختان وعندئذ يتخذون لأنفسهم رداء ، وقد شاهدت كثيرين منهم يرتدون شالا « إيشارب » أبيض يتدلى من الكتف اليمنى فيغطى الكليتين والأعضاء التناسلية . ولهذا الملبس أثر طيب على نحو ما .

ولغة النوبيين رقيقة . ليس فيها على الإطلاق هذه الأصوات الحلقية الشائعة فى اللغة العربية والتى تبدو غريبة على الأذن الفرنسية حتى لتصدمها عند سماعها إياها لأول مرة . ومن الممكن كتابة هذه اللغة (النوبية) بحروف الهجاء الفرنسية دون أن يتحور بذلك نطق الكلمات . ولقد قمت بعدة تجارب فى هذا الصدد ونجحت باعتراف أبناء النوبة أنفسهم ، وقد لاحظوا هم بدورهم تطابق نغماتنا ونغماتهم وقال لى أحدهم : « فى أول مرة سمعت فيها الفرنسيين يتكلمون ، ظننتهم أناساً يتحدثون لغتى نفسها دون أن أستطيع فهمهم » .

وقد تفضل المسيو فنسان Vincent عضو جمعية الفنون فى مصر ، والذى أصبح يتحدث اللغة العربية بمهارة شديدة ، فقبل بأن يكون بالنسبة لى مترجما لتجميع المعلومات الواردة فى هذه المذكرة ، ولم نكن نستطيع أن نعقد صلة إلا مع هؤلاء النوبيين من الذين يعرفون العربية ، وكانت المخارج الصوتية القوية لهذه اللغة ترق فى أفواههم ، ويتخذ العرب من ذلك مادة للسخرية من هؤلاء النوبيين ، ذلك أن كل أمة ترى عادتها قاعدة للمفاضلة ونمطا للجمال .

وحيث أن الفترة التى أقمناها بين النوبيين لم تستمر إلا لبضعة أيام ، قضيناها كلها على وجه التقريب فى دراسة الآثار القديمة ، فانه لم يتيسر لى من الوقت مايكفى لكى أجمع من اللغة النوبية المعلومات التى تكفى لتجعلنى فى وضع من يستطيع أن يحكم على ميكانيزماتها وعلى المصاهرات اللغوية التى قد تكون لها مع اللهجات المحلية

الأخرى التى تستخدمها مختلف شعوب أفريقيا ، ومع ذلك فأظننى أستطيع أن أؤكد أنها لاتختلط مع لغة أى شعب عرفناه حتى اليوم .

وقد ظن بعض الناس أن النوبيين (البرابرة) يمكن أن يكونوا مستعمرة للبربر ، والأخيرون هم ذلك الشعب الذى يسكن جبال أطلس والذى يتكلم هو الآخر لغة متميزة عن لغة كل المحيطين به ، لكن هذا الافتراض الذى ينهض على تشابه فى الأسماء ساقط من أساسه ، ومن السهل التدليل على ذلك بمقارنة الأسماء التى تميز الأرقام العددية الأولى فى اللغتين . وقد حصلت على الأرقام فى لغة البرابرة (النوبيين) وأنا مقيم بينهم وعن طريق رجل من أهل البلاد ، أما أرقام اللغة البربرية فقد حصلت عليها عن طريق المسيو لانجليه Langlès الذى ألحق بترجمته لرحلة هورنمان Hornmann ملخصاً بالمفردات الأساسية للغة البربرية قام بوضعه المسيو فنتور Venture والمودع على شكل مخطوط بالمكتبة الملكية .

الرقم الفرنسى (العربى فى الترجمة)	الرقم النوبى	الرقم البربرى
واحد ـــ واحدة	ويرا	وين ـــ ايان
(احد ـــ احدى)		وان ـــ وا
اثنان ـــ اثنتان	أوو	سن ـــ سنست
ثلاث ـــ ثلاثة	توسكو	كراد
أربع ـــ أربعة	كمسو	كوز
خمس ـــ خمسة	ديجه	سموس
ست ـــ ستة	جورجو	سديس
سبع ـــ سبعة	كولدا	ست
ثمان ـــ ثمانية	إروو	تم
تسع ـــ تسعة	أوسكدا	دزا
عشر ـــ عشرة	ديمه	ميزوا

وقد شاء المستشرق المسيو مارسيل Marcel عضو المجمع المصرى استجابة لطلب منى أن يشكل لوحة توضح التقارب بين الأسماء المعبرة عن الأرقام العددية الأولى فى ثمان وعشرين لغة إفريقية قديمة وحديثة ولم أجد أى تشابه بين الأرقام النوبية والأرقام التى تنتسب إلى لغات أخرى .

وحيث أن العربان يشغلون الصحراوات التى تفصل النيل عن البحر الأحمر وكذلك تلك التى تقع إلى الغرب من الصخور المحيطة بالنيل فقد نتج عن ذلك أن اللغة النوبية قد انحصرت بشكل تام فى ضفاف النيل حيث لا تنتشر إلا فى مساحة خمس درجات فقط من خطوط الطول .

وتعتبر قرية قناق الواقعة على الشط الأيمن (الشرق) للنيل على بعد ٦ ميرياميتر « ٦٠ ك . م » من أسوان عند الإتجاه شمالا نحو كوم أمبو النقطة القصوى فى إتجاه الشمال والتى يسكنها النوبيون ، ويبدو سكان هذه القرية كما لو كانوا مستعمرة منفصلة ومنعزلة بين بقية الشعب النوبى ، ويمكن العثور عليها بالصعود إلى جنوب أسوان من جديد ويقطن المنطقة العازلة ، وكذلك مدينة أسوان ، مصريون .

ويسكن جزيرة الفانتين ويقوم على زراعتها النوبيون ، وعندما يبحر المرء إلى الجنوب لمدة ستة أيام يجد هذه الأمة حوله على الشاطئين ثم يجد لمدة يومين آخرين قبيلة عربية وبعد ذلك يجد المرء نفسه من جديد محاطاً بالنوبيين الذين تمتد منطقتهم حتى الشلال الكبير .

لقد حصلت على هذه التفاصيل عن طريق نوبى حاد الذكاء يسمى الحاج محمد ، وهو قد ذهب عدة مرات إلى الشلال الكبير ، وقد أضاف بأنه يوجد فى جنوب الشلال الكبير شعب مزارع بالغ الطيبة يسمى المحس ،ويخضع هذا الشعب لعربان الشيقية الذين يخطفون فى أثناء إغارتهم الأطفال ويلحقونهم بالمحس بقصد زيادة عدد الفلاحين الذين يعملون لحسابهم . وهناك احتمال كبير فى أن يكون المحس ينتمون لنفس النوبيين ؛ ويمتد هذا الجنس إلى جنوب الشلال حتى دنقلة عند الدرجة الـ ١٩ من خطوط العرض .

وقد رأينا فى تقرير الرحلة التى قام بها بونسيه Poncet فى عام ١٦٩٨ حين كان متوجها إلى أثيوبيا عن طريق الواحة الكبرى ، أنه بعد أن عبر صحراوات الشب وسليمة قد وصل إلى النيل فى مكان تقع فيه ضيعة ضخمة تسمى مشو يقول بأنها « تتبع ملك سنار وتشكل بداية لبلاد البارورا الذين نسميهم نحن بربران » وفى الواقع فإن النوبيين يعرفون بهذا الاسم « بربران » عند التجار الإفرنج المقيمين فى القاهرة .

ولقد أقام المستر براون Brown لمدة ثلاثة أعوام فى كبة فى دارفور ووجدها مدينة عامرة بالتجار المولودين على ضفاف النيل فى المحاز ودنقلة ، وهما منطقتان تروعهما كما يقول هجمات عربان الشيجية « الشيقية » وهو الأمر الذى يطابق المعلومات التى قدمها لى الحاج محمد ، وفضلا عن ذلك فإن المستر براون يقول بأن لون هؤلاء التجار زيتونى ، وأن ملامحهم تشبه بعض الشىء ملامح الأوروبيين ، وأن تقاطيعهم على وجه العموم مناسبة ومعبرة . وفى هذه الملامح لا يمكن أن نخطىء النوبيين حتى لو لم ينقل إلينا هذا الرحالة بأن هؤلاء يتحدثون فيما بينهم بلغة البرابرة .

وقدم إلى الحاج محمد أسماء كثيرة من القرى والنجوع التى يسكنها النوبيون والتى تقع على ضفتى النيل إلى الجنوب من فيلة .

وتقع اثنتان من هذه القرى إلى الشمال مباشرة من الشلال الكبير ، ويطلق على تلك التى تقبع على الشط الشرقى للنيل اسم سيوارتى أما الأخرى الواقعة على الشط المقابل فتسمى اللواناتى ، وتضم القائمة التى كتبت بإملاء من الحاج محمد ٨٣ نجعاً يقع أربعة وأربعون منها على الشاطىء الشرقى وتقع التسعة والثلاثون الأخرى على الشاطىء الغربى .

ومن بين تلك النجوع الواقعة على الشاطىء العربى « الشرقى » توجد الدر وابريم اللتان ينبغى أن نوضح أهميتهما : فابريم تعتبر بمثابة عاصمة لبلاد النوبة ، وربما يكون لنا أن نطلق عليها إساءة منا لاستخدام المصطلحات اسم مدينة وتذكر سبع من القرى الواقعة على الشاطىء الغربى باعتبارها تضم أطلالا وآثاراً مصرية قديمة . وقد أكد الحاج محمد وعديد من النوبيين الذين شاركوا فى مهمتنا أن الكثير من هذه

الأنقاض تماثل فى ضخامتها ودقتها آثار فيلة التى كنا فى ذلك الوقت نراها بأعيننا وهذه القرى هى :

١ – دبودة التى يمكن الذهاب إليها من فيلة فى بضع ساعات .

٢ – أبسكو .　　　٣ – قرتاس .

٤ – هنداو « وهذه الأماكن الثلاثة شديدة القرب من بعضها البعض ، ويمكن الذهاب إليها من فيلة فى بحر يوم » .

٥ – كلابشة غرب : وتقع على مسيرة يومين من فيلة .

٦ – العلاق وتقع على مسيرة أربعة أيام ونصف يوم من فيلة « وقيل لى إن بها مبنى أثريا ضخما وثلاث مسلات كبيرة » .

٧ – السبوع على بعد خمسة أيام من فيلة .

وكنت فى ذلك الوقت أجهل أن المسيو نوردان قد اتجه عن طريق النيل جنوبا حتى « الدر » وأنه قد تعرف على أطلال آثار مصرية فى ثلاث نقاط على الشاطىء الغربى .

وإليكم تبعاً لما ذكره نوردان أسماء الأماكن التى تقع بها هذه الآثار :

سهداب ، الدكة ، أبو هور ، على الشاطىء الشرق ، دبودة ، هنداو ، تيفا ، مارية ، الدندر ، قرشة ، السبوع ، عمدا ، على الشاطىء الغربى .

ومما تجدر ملاحظته أن هاتين القائمتين لا تقدمان سوى ثلاثة أسماء مشتركة هى : دبود ، هنداو ، السبوع كما ترد فى قائمة الحاج محمد والتى نجدها عند نوردان : دبدوده ، هنداو ، السبوع . ويبدو تبعاً لذلك انه توجد أطلال « آثار » فى أربعة أماكن أفلتت من أبحاث هذا الرحالة ، لكننى أظنه قد خلط بآثار هنداو تلك الآثار التى يضعها الحاج محمد فى ابسكوو قرتاس ، فقد ذكر هذا النوبى هذين المكانين باعتبارهما قريبين من هنداو ويحكى المسيو نوردان أنه لاحظ فى مساحة تبلغ أكثر من ربع فرسخ على مرتفعات هنداو وجود جدران وأساسات لمنشئات متعددة بالغة الروعة ، ولابد لخرائب تشغل كل هذه المساحة أن تبرهن على أن مدينة هائلة كانت فيما مضى تقوم فى هذا المكان .

ويخيل إلى كذلك أن الآثار التى يضعها الحاج محمد فى كلابشة غرب هى نفس آثار تيفا التى يتحدث عنها نوردان ، وفى الواقع فإن تيفا فى خريطة نوردان تقع على الشط الغربى للنيل ، فى مواجهة مكان يسمى كلابشه ويقع على الشط الشرقى ، ومن جهة أخرى فإن كلمة كلابشة غرب تعنى كلابشة الواقعة جهة الغروب وتقع فى البيانات التى قدمها الحاج محمد فى مواجهة كلابشة شرق تماماً ، وتعنى هذه الكلمة « كلابشة شرق » كلابشة الواقعة جهة الشروق .

ونجد على الدوام فى هذا الجزء من مجرى النيل قرى تقع الواحدة فى مواجهة الأخرى ، وتحمل كل منهما نفس الاسم ، وتتميز كل منهما بالصفتين : شرق وغرب ، ونجد على ذلك أمثلة عديدة فى تقرير نوردان وكذلك فى قائمة الحاج محمد التى سأدونها فى ذيل هذه المذكرة .

ولو أن قائمة أسماء النجوع والقرى التى كونتها حسب المعلومات التى قدمها إلى هذا النوبى ، الحاج محمد ، كانت لا تشتمل إلا على البلاد التى رآها المسيو نوردان لما وجدت أهمية تذكر من وراء نشرها ، ذلك أن الوقائع التى رآها فى أماكنها رحالة أوربى ستكون على الدوام أكثر مدعاة للثقة ولإشباع الفضول من تلك التى يقدمها واحد من أهالى البلاد لا يزال – حتى مع ذكائه الشديد – فى مرتبة أدنى بالنسبة لهذا الرحالة من ناحية العلم ودقة التفكير ، لكن قائمة الحاج محمد تحتوى جزءاً من مجرى النيل لم يره المسيو نوردان مطلقا وهى تلك المنطقة الممتدة من جنوب الدر حتى الشلال الأكبر ، ولما كانت المعلومات التى تثير فضول الجغرافيين حول هذه البلاد تنقصنا بشكل تام ، فإنه يبدو لى أن نشر هذه القائمة لن يخلو من نفع ، حتى ولو لم نكن نرجو من وراء نشرها ، إلا أن تثير وأن تعين على تخيل أفكار قد تقود ذات يوم ، إلى معارف أكثر دقة .

الجانب العربى أو ما يطلق عليه الجانب الشرق أو شرق	الجانب الليبى أو ما يطلق عليه الجانب الغربى أو غرب
الباب	الحصة
—	تنجار
قلة طود	بشير
كوندى	دبود
بهانة	—
جودى	أبسكو
سيالة	قرتاس
دهميت	هنداو
الأمبركاب	تيفا
كلابشة شرق	كلابشة غرب
أبوهور شرق	أبوهور غرب
مارية	مرواو
قرشة شرق	قرشة غرب
كشتمنة شرق	كشتمنة غرب
العلاق	العلاق
سيالة	قورته
باردة	—
كرسكو	أدندان
الديوان	شاتورمة

الجانب العربى أو ما يطلق عليه الجانب الشرقى أو شرق	الجانب الليبى أو ما يطلق عليه الجانب الغربى أو غرب
—	الريقة
أعراب	—
—	جبل حمام
—	توماس
الدّر	—
تنقالة	—
الشيقية	—
—	كركر
—	العفت
—	مصمص
إبريم	—
توشكى شرق	توشكى غرب
أرمنا	أبو سنبل
أدندان	فرس
سرة شرق	سرة غرب
فرقندة شرق	فرقندة غرب
أشكيت	أرقين
دبروسة	—
وادى حلفا	—(*)

(*) الشرطة فى كل المواضع التى وردت فيها فى هذا الجدول ، تشير إلى اسم قرية لم يتيسر تحقيقها ، برغم الرجوع إلى كل المصادر المتاحة ، ولعل هناك تحريفات فى أسمائها عندما كتبت بحروف لاتينية ، وهو ما حدث أيضا مع كثير من القرى التى تم تحقيقها . وتقتضى الأمانة هذا التنبيه (المترجم) .

(٩)

« جولوا »

وصف

مدينة رشيد

العنوان الأصلي للدراسة هو : « دراسة موجزة عن مدينة رشيد » « وتشمل هذه الدراسة على وصف عبورنا عن طريق البحر من الإسكندرية إلى هذه المدينة ، وكذلك على وصف الرحلة من رشيد إلى القاهرة عن طريق النيل »

الفصل الأول

العبور من الإسكندرية إلى رشيد

بعد بضعة أيام من نزول الفرنسيين إلى الإسكندرية أعطى القائد العام ، بعد أن قام باستعراض للجيش ، إشارة الرحيل ، فتوجهت فرقة إلى رشيد ، بينما تقدمت الفرقة الرئيسية نحو دمنهور ، لكي تصل بعد عبورها جزءاً من الصحراء ، إلى تلك السهول الخصيبة من وادى النيل . وكنا قد استولينا لصالح الجيش على كل ما كان يوجد بالإسكندرية من مؤن ضرورية ، وكان على الذين لم يتلقوا – مثلى – أمراً بوجهتهم أن يبقوا بالمدينة ليعانوا طيلة الأيام من مشاق ضخمة فى سبيل التزود بضرورات الحياة .

وفى هذه الظروف ، الشاقة بقدر ما هى حرجة ، اتخذت مع عديد من الرفاق قراراً بالتوجه إلى رشيد ؛ وهى مدينة تقع على شواطىء النيل ، وقد كنا نظنها – ونحن محقون فى ذلك – زاخرة بكل أنواع المؤن . وبعد أن اجتزنا الآلاف من المشاق والصعوبات ، مما لا نرى فائدة من تعداده هنا ، أبحرنا فوق مركب حربى صغير من مراكب الحراسة كان راسياً فى الميناء الجديد . اجتزنا الممر القريب من الفنار وسرنا بحذاء الشاطىء ، ووصلنا لنرسو وسط الأسطول الفرنسى الذى كان قد ألقى رواسيه فى خليج أبى قير . وفى اليوم التالى أبحرنا نحو فتحة مصب النيل .

وسواء كانت الرياح التى تهب بعنف قد أقلقتنا ، أم كنا نخشى ألا يكون عمق مياه البوغاز (١) كافياً فإننا لم نقرر مطلقاً فى هذه الظروف أن نعمل على إدخال مركبنا إلى النهر . عندئذ جعلونا نمضى فوق زورق مدفعية غاطسه غير عميق .

---

(١) كلمة بوغاز بالتركية تعنى gosier أى الحلقوم . والبوغاز عبارة عن مدخل شديد الضيق ، يصل إليه المجرى مخترقاً كتل الرمال ، مكوناً ذراعاً عند مصب النيل . وهذه الكتل الرملية قد نتجت عن ترسيبات النهر ، حين يفقد سرعته عند اقترابه من البحر . وليس هناك ما هو أكثر تقلباً من هذا الممر ؛ فكتل الرمال التى يخترقها ، تتحرك على الدوام بفعل أمواج البحر ؛ وعندما تهب رياح الغرب ، أو رياح الشمال ، بشىء من العنف تندفع مياه النيل من جديد عائدة إلى مصدرها ، فيضطرب المجرى فى كل مكان ، حين تلقى المياه أدنى مقاومة .

وحيث كانت المياه شديدة الهياج فإن تغييرنا لسفينتنا لم يتم إلا بشق الأنفس . صعدنا إلى زورق المدفعية ونحن نلعن البحر والأسفار ، وعلى بعد ثلاثة أرباع الفرسخ من مصب النيل كان لون المياه أخضر فاتحاً ، بل لقد لمحنا بوضوح ، الخط الفاصل بين اللون الأخضر ، لون مياه النيل ، واللون الأزرق ، لون مياه البحر . وما أن اجتزنا البوغاز حتى تغير اللون الأخضر إلى اللون الأصفر ، الناتج بلا ريب من لون الرمال التى ينقلها النهر إلى مصبه ، والناتج كذلك من لون الطمى العالق بمياه النهر . وعندما يكون البحر هائجاً فإن عبور البوغاز يشكل بالفعل مشهداً مفزعاً . كذلك فإن كثبان الرمل التى تحيط بفتحة مصب النهر متحركة مثل الأمواج ذاتها . وليس لمن يبحر فى هذه المنطقة أن يأمل فى النجاة من الغرق إلا إذا كان يقوده بحار متمرس شديد الخبرة . ولقد كان معنا لحسن الحظ بحار بالغ المهارة جنبنا بحذق شديد مهالك يمكن القول بأنها كانت تحيط بنا من كل مكان . وما أن دخلنا النهر حتى أبدى البحار ابتهاجا شديداً ، وعبر له بعض الركاب ، وهم يعطونه بعض قطع النقود ، عن بالغ تقديرهم لمهارته وحذقه .

كنا قد خلفنا وراءنا العواصف والبحر الهائج ، ولم نعد نسمع صوت ضوضاء الأمواج التى كانت تتدافع لتتكسر فى صمت على كتل الرمال وعلى الشاطىء ، وكنا نستمتع بالهدوء شديد العمق ، وكنا نتابع بعيوننا جمال شواطىء النيل الذى يستعصى على الوصف فلم نجد أى أثر للمبالغة فى تلك الحكايات التى كان يقصها الرحالة الذين سبقونا إلى هذا المكان ، وكانت الريح تملأ شراعنا ، وكنا نتقدم بسرعة نحو مدينة رشيد ، الهدف القريب من رحلتنا ، وسرعان ما اجتزنا أنقاض حصن قديم مهجور ، كان يستخدم فيما مضى لحراسة مدخل النيل والذى خاض منه الفرنسيون فيما بعد

معركة دفاع بطولية (١) بعد أن كان قد أصبح بعد ترميمه (٢) مقراً للعجزة والجرحى الفرنسيين .

خلفنا عن يسارنا جزيرة كبيرة بعض الشيء ، تغطيها الخضرة وتنتج أجمل المحاصيل ، أما عن يميننا فقد كان ثمة غابات من النخيل ذات خضرة أخاذة ، وحيث أن شطئان النهر قليلة الارتفاع فقد كان مدى البصر يمتد إلى بعيد حيث القرى الصغيرة والخصيبة ، وكنا نلمح هنا وهناك كفوراً تتكون من عدة منازل بعضها من الطوب وبعضها مجرد أكواخ من قش البوص ، وكنا نلمح هنا وهناك كذلك بعض مساكن منعزلة ومآذن رائعة وأضرحة ومقابر لأولياء المسلمين تتجمع حولها بشكل جذاب بعض مجموعات من النخيل . أما من جهة الدلتا ، فقد كانت العيون تستقر بارتياح وإعجاب فوق حقول يغطيها الأرز ، فتشكل واحداً من أبهج المشاهد . وغير بعيد من النهر ينمو بوفرة شديدة عديد من المحاصيل والشجيرات يلاحظ من بينها غابات من أشجار البرتقال وأشجار الليمون التى تنشر شذى طيباً . أما شطئان النيل نفسها فتزينها نباتات الغاب والخيرزان والبشنين « عروس النيل » ، وتتوزع هنا وهناك فى كل مكان أشجار الجميز الضخمة والتى تغطى أفرعها الكبيرة مساحة واسعة ، فتشكل واحداً من أبهج مشاهد الخضرة ، وتدب الحياة فى هذه اللوحة الرائعة

---

(١) فى التاسع من جرمينال من العام التاسع (١٩ أبريل ١٨٠١) ، هوجم حصن جوليان . وقد أطلق الفرنسيون عليه هذا الإسم ، وهو اسم مساعد قتل عند النزول إلى الإسكندرية بيد الإنجليز ، وقد أبدى الحصن مقاومة كبيرة ، وتحمل حصاراً دام عشرة أيام ، على الرغم من النيران المستمرة التى كانت تطلقها المدفعية القوية المعادية . وفى النهاية استسلمت الحامية ، يوم التاسع والعشرين ، بعد أن نالت كل أمجاد وشرف القتال .وسأل الإنجليز ، وهم لا يرون إلا صفاً من العجزة والمشوهين : متى إذن ستخرج الحامية ؟ ذلك أنهم لم يكونوا ليتصوروا مطلقاً ، أنهم كانوا مشتبكين فى هذا القتال العنيف مع عجزه وعميان .

وينبغى أن نتذكر هنا ، أنه عند عمل تنقيبات ، وقت ترميم هذا الحصن ، عثر المسيو بوشار **Bouchard** ، الضابط المهندس ، على حجر رشيد الشهير ، ذلك الأثر الثمين ، الذى وضع منذ وقت طويل تحت يد علماء أوربا ، وقد صورت الكتابات الثلاث الموجودة على هذا الأثر المصرى على اللوحات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، المجلد الأول ، الدولة القديمة .

(٢) انظر شكل هذا الحصن ، المجلد الأول ، اللوحة ٨١ ، الدولة الحديثة .

حين يظهر بين الحين والحين بعض السكان الذين كانوا ، بلحيتهم الطويلة وردائهم ، يشكلون بالنسبة لنا شيئاً رائعاً وغير مألوف فى وقت معا ، وكان هذا المشهد مثارا لاهتمامنا الكبير على الدوام .

وفى النهاية ، وصلنا إلى ميناء رشيد ، وكانت القوات الفرنسية قد سبقتنا إلى المدينة فى اليوم السابق .

★ ★ ★

الفصل الثانى

المظهر الخارجى لرشيد وضواحيها

تقع رشيد أسفل خط العرض ٣٥ً ٨َ ٢٨ْ وعلى خط طول ٣٤ً ٢٤َ ٣١ْ وهذه المدينة ، التى كانت قليلة الأهمية فى زمن أبى الفداء ، هى اليوم واحدة من أهم مدن مصر بسبب موقعها وتجارتها واتساعها .

وحيث أن رشيد قابعة على شط النيل وعلى بعد ثلاثة فراسخ من البحر ، فإنها تستخدم كمستودع للبضائع القادمة من القاهرة ، والمناطق العليا من مصر « الصعيد » كى تنقل إلى أوربا عن طريق الإسكندرية ، وبنفس الطريقة ، فهى تستقبل البضائع التى تنزل إلى الإسكندرية قادمة من أوربا ؛ وتنقل هذه البضائع إلى القاهرة عن طريق النيل ، ومن هناك تتوزع إلى كافة أنحاء مصر . ويرجع إنشاء رشيد إلى القرن التاسع ، ويخبرنا المكين بأنها قد بنيت فى عهد المتوكل خليفة بغداد حوالى عام ٨٧٠ . ولقد ورثت رشيد المكانة التى كانت تحتلها من قبل مدينة فوه والتى كانت فيما مضى ، شأنها فى ذلك شأن مدينة رشيد ، مستودعا للتجارة ، ومقرا للقناصل الأوربيين ، ثم زال عنها اليوم مجدها القديم .

وقد استمد فرع النيل الذى يمر أمام هذه المدينة اسمه من اسمها ، وكان هذا الفرع يحمل فى العصر القديم إسم الفرع البولبيتينى نسبة إلى مدينة بولبيتين الواقعة على نفس الفرع . ويشير إتيان دى بيزانس إلى هذه المدينة دون أن يحدد موقعها بدقة ، ويتحدث بلين عن فتحة « مصب » بولبيتين على النهر لكنه لا يتحدث ولو بكلمة واحدة عن المدينة . ويمكن الاعتقاد بأن موقع بولبيتين كان يوجد إلى الجنوب من رشيد غير بعيد عن حصن أبى منضور الذى سنتحدث عنه عما قليل . وفى الواقع فإنه يوجد فى أسفل هذا الحصن خليج صغير ، نصف دائرى ، يبدو أنه كان يستخدم فيما مضى كميناء ، وقد أصبحت تسده هذه الأيام رمال الصحراء ومنذ فترة غير بعيدة تمت تنقيبات فى هذا المكان فعثر فيه على أعمدة رائعة من

الجرانيت [١] ، وهذا سبب جديد يحبذ الاعتقاد فى صحة الرأى الذى عرضناه للتو عن الموقع المحتمل لمدينة بولبيتين القديمة .

ولكى نصل إلى حصن أبى منضور ، سرنا بحذاء الشط الأيمن للنيل ، وهو شط مناسب لحد كبير ، وفى النهاية لمحنا ثلاث قطع من الأعمدة الجرانيتية ، اثنتين منها تمثلان بقية الأعمدة المزدوجة التى كانت مقامة على شواطىء النهر ولكن لعل هذه القطع التى وجدناها كانت بعيدة بعض الشىء عن موقعها الأصلى . وقد رأينا كذلك على بعد مسافة من هذه القطع جذعا آخر لعمود كان الأهالى يستغلونه فى صنع الرحيان « رحى » . وهذه الآثار القديمة التى عثرنا عليها فى هذا المكان الذى أشرنا من قبل إليه تأتى لتدعم أكثر ، احتمال كون هذا المكان هو الموقع الجغرافى لتلك المدينة التى أعطت اسمها فى العصر القديم للفرع البولبيتينى .

وعند سفح حصن أبى منضور ، توجد صومعة إسلامية « زاوية » يشكل مظهرها النظيف تناقضاً صارخاً مع تلك المساكن القذرة فى أحط أحياء رشيد ، وهى ملحقة بمسجد أقيم تكريماً لولى مسلم تقع مقبرته فى داخله . وأبو منضور هو اسم هذا الولى ، وهذا الإسم يعنى بالعربية : أبو الروعة وأبو الجمال ، أما المكان نفسه فهو بمثابة مزار يتوقف عنده البحارة والمسافرون ليقدموا نذورهم إلى شيخ الجامع حتى يحوزوا بركة ورضاء الولى ، كما يحدث الأمر نفسه فى مزارات كثيرة لأولياء آخرين عرفناهم فى مصر ، حيث يبلغ الوهم بالناس أن الولى من هؤلاء ، قادر على جلب الخصوبة للنسوة العقيمات اللاتى يجئن إليه ضارعات .

وينهض حصن أبى منضور على أحد المرتفعات المبتعدة إلى الجنوب ، والتى تلامس الخليج الصغير الذى تحدثنا عنه ، وهو مربع الشكل ويبدو أنه قد بنى فى زمن العرب ، وهو متهدم حتى أساسه وينذر بانهيار قريب ، ومن حوله تتراكم الرمال التى

(١) انظر رحلة إلى مصر العليا ومصر السفلى ، تأليف سونينى Sonnini ، المجلد الأول ، ص ٤٠٥

تذروها رياح الصحراء فغاص فيها حتى منتصف ارتفاعه ، وتحيط به المقابر وكأنما الأمر نذير بالدمار الذى سيكون عليه هذا المكان ذات يوم .

وعندما صعدنا إلى المبنى تمتعنا بواحد من المشاهد الجميلة والتى تختلف اختلافاً بيناً عن تلك المشاهد التى ألفناها فى أوربا ، فهى ليست تلك المشاهد الرومانسية التى تعلن عن نفسها تلقائياً بتنوع مناظرها الطبيعية حيث الجبال والسهول تشكلان تناقضات جذابة للعيون ، فالتناقضات هنا محددة بحسم ، فهناك الصحراء الليبية فى جانب ، وفى الجانب الآخر هناك شواطىء النيل البهيجة ، وهكذا يمكن القول بأن الحياة والموت يتجاوران . وإلى الغرب نلمح تلك الصحراء التى تفصل رشيد عن الإسكندرية ، لكن المشهد يضيع وسط الرمال المتحركة التى لم تبق مطلقاً على أثر لخطوات الرحالة . ولقد كان من الممكن ألا نلحظ الآثار الواقعة على طريق الإسكندرية – رشيد لو لم تكن تشير إليها وتلفت الأنظار تلك الأعمدة من الطوب النيىء التى تنهض تباعاً بطول الطريق ، وتزحف هذه الرمال المتحركة حثيثاً نحو مدينة رشيد حتى ليبدو وكأنها تريد أن تغزوها كلية ، فهى تتراكم حول أشجار النخيل وحول أقل العوائق التى هناك لتكون كثباناً يتزايد عددها يوما بعد يوم ، ولسوف تغطى عما قليل ، الرقعة المنزرعة من الأرض ، وحينئذ ستكون هذه الرمال – كما سبق أن عبر المصريون القدماء بدقة – هى طيفون الرهيب الذى يهدد بغزو مملكة أوزيريس ، أى أرض مصر الخصيبة .

وعندما ينتقل المرء بنظراته نحو الشرق ، يرى تحت بصره نيل مصر العظيم ، تسبح فوقه قوارب ذات شكل جذاب . ويرى كذلك ريف الدلتا البهيج حيث تمتد حقول الأرز وصفوف أشجار النخيل والجميز ذات الخضرة اليانعة ، رائعة الجمال . كل شىء فى هذا الجانب ينم عن حيوية دافقة ، وكل شىء فيه يمتلىء بالحياة ، فهناك ترى قطعان الجاموس ، ترعى الكلأ أو تغمس جسدها فى النهر ، وترى الفلاح منهمكا فى أعمال الحقل دون أن يسمح لنفسه بالتقاط أنفاسه . فتراه وهو يدير ماكينة الرى

كى يسقى حقوله فينمو محصول الأرز وينضج فيحصل بذلك على مقابل ما بذله من جهد بالإضافة إلى ما يبتغى من ربح .

وليس الريف فى شمال الدلتا بأقل ثراء أو أقل خصوبة ، ولا هو أقل محصولا ، وتقطع الريف هناك وتخترقه آلاف من الترع والقنوات الصغيرة التى توزع فى كل مكان مياه النهر ، سواء كانت تأتى إليها المياه بشكل طبيعى أو كانت ترفع إليها عن طريق ماكينات هيدروليكية من تلك التى تستخدم فى هذه البلاد . ويشكل البحر خلفية هذه اللوحة ، حيث يمتزج امتداده الواسع بالسماء .

ويمكن للمرء من حصن أبى منضور أن يلاحظ حركة السفن التى تسير بحذاء شاطىء البحر كى تدخل إلى مصب النيل ، كما يمكنه أن يرى تلك السفن الضخمة التى تمخر عباب البحر وكم من مرات تملكتنى النشوة فى هذا المكان وأنا واقف اتطلع إلى ذلك المشهد الرائع ، فبعد أن أكون قد أنهكت طويلا فى العمل كنت أذهب إلى هناك ساعياً للترويح عن النفس ، وعلى نفس المنوال . فعندما كانت ذكرى الوطن الحلوة تلح على مخيلتى بشكل قوى ، كنت أذهب إلى البرج وهناك كنت أرى – فى مخيلتى – الطريق المؤدى نحو الوطن ، نحو فرنسا ، التى لا يمكن للمرء مطلقاً أن يفارقها دون أسى . وذات يوم ، وبينما أنا غارق فى أفكارى الحزينة ، تتولد فى نفسى هذه المشاعر ، دوى فى أذنى فجأة صوت مكتوم ، وتكرر الصوت مرة ثانية ، وثالثة ، وأخيراً تبينت الأمر ، إنها أصوات مدافع .

كانت أول فكرة خطرت لى هى أن هذه الأصوات لا يمكن أن يكون مصدرها إلا الأسطول الفرنسى الذى ألقى رواسيه فى خليج أبى قير ، عندئذ ألقيت ببصرى فى هذا الاتجاه فأبصرت كل بحريتنا ، لكن الشمس كانت عندئذ تغيب خلف الأفق ، وعندما أصبح الليل معتما أمسى فى الإمكان رؤية البروق الناجمة عن طلقات المدافع ، وأطلقت السفن دفعة واحدة مدافعها ، وعلى الفور حلت ضجة مفزعة مكان ذلك

الصمت العميق ، آه .. لقد اشتبك الأسطول الانجليزى مع أسطولنا ودارت معركة وحشية . وظهر بريق أبيض أخذ وضوحه يزداد على الدوام ليعلن أن ثمة سفينة قد اشتعلت فيها النيران ، وبرغم ذلك فإن هذه السفينة (١) لم تتوقف عن صب مدافع أجنابها بينما تتلاعب بها الأمواج مظهرة مؤخرتها تارة وجانبها تارة أخرى ، كانت تشتعل بينما هى تقاتل ، وضلت على هذا الحال نحو ساعة ، حتى قفزت عالياً فى الهواء عندما وصلت النيران إلى مخزن البارود .. وفى حياتى كلها ، لم تر عيناى مشهداً يبعث كهذا المشهد على الروعة والرعب فى وقت معاً ، ولتتصوروا حزمة كبيرة من النيران ترتفع من وسط البحر داخل دائرة من سحب الدخان والأنقاض الملتهبة ، إن انفجار بركان لا يمكنه مطلقاً أن يقدم مشهداً أكثر روعة وفى نفس الوقت أكثر رعباً . وفى واقع الأمر ، فإنك ما أن تتخيل مجرد تخيل أخطار معركة بحرية فسوف ترتجف على الفور : فكل شيء هناك يتواطأ على هلاك الإنسان : البحر الهائج والرياح المزمجرة والنار المهلكة المدمرة .

لنحو عشر ساعات من الليل كفت أصوات المدافع عن أن تسمع ، ولكن ما كادت أصوات المؤذنين فى اليوم التالى تنادى الناس إلى الصلاة من فوق المآذن (٢) حتى عادت المعركة تنشب من جديد ، وعندما يكون المرء بالغ التأثر لحد عميق ، وعندما تأكله الأفكار والهموم والقلق فإنه يخلع على الأشياء الخارجية ذلك اليأس الذى يستبد بنفسه هو ، ذلك أنه لم يسبق لى مطلقاً من قبل أن رأيت نداء هؤلاء المؤذنين وهو الذى يتم على الدوام فى نغمات مقبورة ، حزينا هذه الدرجة من الحزن والأسى . وأسرعت إلى حصن أبى منضور . كانت ثمة سحب من الدخان كما كانت هناك ضجة مكتومة تعلن أن المعركة تدور بضراوة ، وبعد ذلك لاح منظر شبيه بالمنظر

---

(١) كانت هذه السفينة تسمى لوريان l'orient ، أى الشرق ، وهى مكونة من ثلاثة طوابق ، وكان يقودها الأميرال بروى Brueye .

(٢) يدعو المؤذنون للصلاة خمس مرات فى اليوم ، فى الصباح قبل شروق الشمس ، وفى الساعة التاسعة (كذا) ، وعند الظهيرة ، وفى الساعة الثالثة ، وعند غروب الشمس .

الذى رأيته فى المساء : سفينة [١] أخرى تشتعل فيها النيران وهى تقفز فى الهواء . لنكف الآن عن الحديث عن هذه المعارك القاتلة والمحزنة فلم يكن النصر حليف الفرنسيين هذه المرة ، ولم يكن لهذا النصر أن يقدم لهم مباهجة إلا بعد عام كامل ، وفى نفس مكان تلك المعركة الشهيرة : معركة أبى قير [٢] ، حيث سحق الفرنسيون جيشاً تركيا بأكمله يتكون من ١٥ – ١٨ ألف جندى ، ألقى بكثير منهم فى البحر ، ووقع الباقون أسرى ، دون أن يتمكن رجل واحد منهم من الهرب .

وطيلة إقامتنا فى رشيد كنا نتابع جولاتنا إلى خارج المدينة ، وعبرنا المراعى التى تقع إلى الشمال من المدينة تجاه البحر ، وتروى هذه المراعى قنوات ضيقة تغذيها بالمياه – فى الوقت الذى لا تمتلىء فيها هذه القنوات بشكل طبيعى – سواق سوف نتحدث عنها بعد قليل بشىء من التفصيل ، وعندما يقترب المرء أكثر فأكثر من البحر ، تصبح التربة فى شكل مستنقعات ولا يعود الشاطىء نفسه يتكون إلا من رمال .

لم نستطع أن نقاوم طويلا رغبتنا فى زيارة جزيرة وارسى الواقعة أسفل مدينة رشيد ، فقد كان منظرها البهيج يستحثنا على زيارتها . عرجنا على قرية يشى مظهرها بالبؤس ، فبيوتها عبارة عن أكواخ فقيرة ، دائرية الشكل تعلوها أبراج الحمام ، وسقف هذا النوع من الأكواخ مصنوع من جذوع النخل وتمتلىء الفراغات فيما بين هذه الجذوع بقش البوص ، ويغطى ذلك كله بالطين . لكن ما يعوضك عن مشهد هذه البيوت البائس ، هو ما يغطى الجزيرة كلها من خضرة يانعة ، بالإضافة إلى أشجار

---

(١) هذه السفينة هى الفرقاطة l'Artèmise ، التى كان يقودها الكابتن ستانلى ، وعندما لم تطاوع قائدها نفسه على الاستسلام ، أضرم النار فى سفينته ، بعد أن قاتل حتى النهاية . وقد أنزل كل بحارته على البر ، وكان هو نفسه فى أمان ، لكنه حين لاحظ أن النار لا تنتشر فى السفينة بالسرعة الكافية ، عاد إلى سطح السفينة ، وجمع اثنين من البحارة كانا مخمورين فى العنبر ، وهرع بهما إلى قاربه . وأشعل بنفسه النار فى كل مكان ، وانصرف ، وبعد لحظات لم يكن للسفينة من أثر .

(٢) حدثت هذه المعركة فى السابع من ترمهدور من العام السابع (٢٥ يولية ١٧٩٩)م .

الجميز الضخمة التي يجد فى ظلها المسافرون ، بين مسافة وأخرى مأوى من لهيب الشمس كما يجدون فيها مشهداً ساحراً .

وفى نفس الوقت فإن الأشجار المنتشرة فى هذه الجزيرة ، وفى ذلك الجزء الموازى لها من الدلتا تنحصر فى أشجار النخيل والتوت . وقد شاهدنا فى الدلتا – عن قرب – حقول الأرز التى تصنع ثروة هذه البلاد ، ويقوم الفلاح بإغراق هذه الحقول بمياه النهر التى يرفعها إما بيده « الشادوف » وإما بواسطة ماكينات هيدروليكية « السواقى » ، ويصنع الفلاح سدوداً صغيرة من الطين حول مربعات مزروعة بالأرز ، وعندما يريد إدخال المياه إليها يقوم بقطع هذه السدود ويحدث هذا دون جهد يذكر . وتقطع الأرض فى هذه المناطق ترعة رئيسية صغيرة توزع المياه بعد ذلك عن طريق ترع أكثر صغراً « المساقى » .

وقد جذبت بساتين رشيد ، وهى على الدوام تحظى بالإعجاب ، انتباهنا . وكانت هى فى معظم الأحيان الهدف المنشود من نزهاتنا ، وكنا فى كل مرة نزور حديقة « جنينة » إبراهيم بك التى أصبحت نتيجة لأحداث الحرب عقاراً فرنسياً ، ولا ينبغى عليك أن تأمل فى العثور فى مثل هذه الجناين على المشاهد والاستعدادات التى تراها جميلة فى حدائقنا ، فثمة اختلافات كبيرة فى الواقع بين هذه وتلك ، تماثل تلك الاختلافات فى التقاليد والطباع التى توجد بين المصريين والفرنسيين ، إذ يظل هؤلاء على الدوام نقيض أولئك . فقلما يغير المصريون من مكانهم بل أنهم لا يعرفون مطلقاً معنى أن تتريض ، وعلى العكس من ذلك فحيوية الفرنسيين ونشاطهم يجعلانهم على الدوام فى حركة دائبة .

وتحتوى جنينة إبراهيم بك على كمية هائلة من أشجار الفاكهة ، لكنها مبعثرة بلا فن ولا ذوق كما لو كانت فى داخل غابة ، وترى هناك عدداً كبيراً من أشجار الموز ذات الأوراق العريضة والطويلة والتى يبدو نسيجها وكأنما صنعته يد الإنسان ، كما يرى المرء هناك كذلك أشجار البرتقال والليمون والريحان والرمان بوفرة . ويظهر العنب فى آلاف الأماكن المتفرقة يلف سيقانه المرنة حول جذوع الأشجار والشجيرات ،

وترتفع أشجار الجميز هنا وهناك كما لو كانت ملوك الأشجار المتوجة لتعلو فوق كل هذه الشجيرات التى تنشر شذاها إلى مدى بعيد .

يقطع جنينة إبراهيم بك عدد كبير من قنوات الري، الصغيرة التى تصلها المياه بفعل ماكينات سوف نصفها بعد قليل . وثمة حجرة عند مدخل الجنينة كان البكوات يأتون إليها طلبا للراحة وتنسم الهواء . وهى مرصوفة بالرخام ، وفى وسطها حوض مثمن الزوايا وعميق بعض الشيء ، وهو يمتليء بالمياه . وتوجد حول الحوض منصات مرتفعة كانوا يجلسون عليها القرفصاء على طريقة المصريين . هنا كان إبراهيم بك يستقبل المقربين إليه ، وينصت باهتمام بينما هو يدخن نارجيلته ويشرب قهوته للحكايات التى كان يقصها عليه متملقوه لتسليته ، أو للأمور الجادة التى جاء رجاله ليضعوها رهن إشارته ، وبرغم ذلك فليست هذه الحجرة على الدرجة المفترضة من النظافة ، وهى من هذه الناحية مثل كل الحجرات من هذا النوع ، والتى أتيح لنا أن نراها منذ نزلنا إلى مصر .

وقد يتهيأ المرء وهو يعيش وسط أشجار وشجيرات بساتين رشيد لأن يترك لخياله العنان ، وأن يدع نفسه مع أحلامه ، لولا أن الاضطرابات وانعدام الأمن الذى يسيطر على هذه المزروعات سرعان ما يحطم هذا الحلم . وبرغم ذلك فإنك لا تستطيع إلا أن تستسلم للبهجة التى تصنعها الروائح التى تشذو من كل مكان ، وللمشهد الأخاذ لزهرة الرمان ذات اللون الأرجوانى ، ولزهرة الريحان ذات اللون الأبيض الباهر ، ومع ذلك فهل يمكن لهذه الجداول التى تنشر الماء والنماء فى كل مكان والتى تحمل مياهها الموحلة طمياً مائلا للسواد .. هل يمكن لها أن تدخل فى مقارنة مع نهيراتنا الرائعة ، التى تتسلل وسط غاباتنا وحدائقنا ، حيث تنشر وتروى هذه الأبسطة من الخضرة التى لا نلمح لمثلها أثراً فى أى مكان من حدائق رشيد ، وبلا جدال فإن ثمار التين التى لا تحصى والتى تغطى شجرة الجميز تروح عن النفس ، كما أن أسبطة البلح الضخمة والمدلاة من أشجار النخيل تحث المرء حثا على تذوق ثمارها ، ثم إن تلك الرمانات الضخمة تعد بانعاش صحى ، أما عن ثمرة الموز فلابد أن المرء سيجدها فى

الغالب لذيذة الطعم .. ولكن ، أتستطيع هذه الفواكه أن تتفوق على الفواكه التى تنتجها فرنسا بتنوع ووفرة شديدين ؟ لكن تلك مسألة لا يمكن أن يحسمها سوى الذوق والاعتبار .

ويزرع فى جناين رشيد الشمام والبطيخ ، وهى فواكه تبدو رائعة فى بلد تشتد فيه درجة الحرارة .

وتقع كل بساتين رشيد هذه على وجه التقريب على حافة الصحراء وتشكل سياجاً يحدد مساحتها ، وكذلك فإن الأشجار التى تزرع فيها تصنع ما يشبه حواجز تصد عن المدينة رمال الصحراء فتتراكم حولها « أى حول الأشجار » .

وإذا كان لنا أن نتغاضى عن كل الأشياء الواقعة إلى خارج رشيد ، فإننا لا نستطيع أن نلزم الصمت إزاء مدافن الموتى . وتقع هذه المدافن غير بعيد من البساتين التى تحدثنا عنها للتو ، إلى الغرب ، وعلى بعد مسافة قصيرة من المدينة . وتمثل مبانى هذه المقابر أنماطاً خاصة برشيد حيث لم نجد مثيلا لها لا فى أبى قير ولا فى الإسكندرية ، على الرغم من أنهما لا تبعدان كثيراً عن رشيد . وقد رسمنا واحدة من هذه المقابر فى اللوحة رقم ٨٢ « الصورة رقم ١٢ » بالمجلد الأول – الدولة الحديثة . وهو يشكل نمطاً بالغ التأثير وبخاصة فى لعبة الظلال . ويبدو أن هذا القبر قد أنشىء لعائلتين متصاهرتين .

وقد استخدم الخشب بشكل رئيسى فى بنائه ، وتبدو الشرائط المخصصة للحفاظ على بواكيه مكشوفة بلا غطاء ، بل إنك تلاحظ وجود الخشب كذلك فى أجزاء كثيرة من المبنى حيث زال جزء كبير من الملاط الذى يغطيه ، أما العَمد التى تحمل القائمة الوسطى فهى من الرخام . أما فوق المقابر الأكثر بساطة والتى توجد فى المقدمة ، فيلاحظ وجود حفرة مربعة الشكل يبلغ عمقها حوالى ١٤ – ١٥ سم ويوضع بها كمية من التراب يمكن أن تزرع فيه بعض النباتات ، وتبعث أرضية المقابر على الحزن فهى بيضاء اللون فاتحة ، وهنا وهناك تتبعثر قطع الأحجار الصغيرة ونادراً ما تلمح فيها أثرا لنبات ، ويشكل الرسم رقم ١١ من اللوحة المشار إليها مقبرة لا يبين

منها إلا جزؤها الأعلى بالنظر إلى أنها تظهر من فوق سور المدافن . وتدخل المقابر الموجودة إلى الأمام فى نطاق هذا السور ، وهى تبدو مقوسة من الداخل ويبدو أن الأجساد توضع فيها فى جزئها الأمامى تحت الأرض .

وتقضى النسوة أيام الذكرى السنوية للمتوفين ، نهارا ، كما هو معروف ، فى المدافن ، فيحضرن معهن طعامهن ويزرعن سعف النخيل أو الورود فى تلك الحفر الصغيرة التى نفذت فوق المقابر ، وتلك عادة تماثل كثيرا العادة التى نتبعها هذه الأيام فى مناطق عديدة من فرنسا ، بل وفى باريس ذاتها .

* * *

الفصل الثالث

الماكينات المستخدمة فى الزراعة والرى

أخذت على عاتقى أن أتناول فى دراسة مستقلة ، مختلف الأدوات المستخدمة فى الرى والزراعة التى رأيتها خلال جولاتى المتعددة ، لذلك فلن أتناول هنا هذا الموضوع إلا بشكل موجز ، مادمت قد قدمت فى مكان آخر دراسات أكثر شمولا عن هذه الأمور ، وبخاصة تلك التى شاهدتها فى عاصمة مصر .

وتنقسم الماكينات المستخدمة فى الرى فى رشيد وضواحيها إلى ثلاثة أنواع ، هى تلك التى تسمى الشادوف [1] ، والمنطال ، والعجلة ذات الثقوب المجوفة ، والعجلة ذات القواديس .

ويتم الرى بواسطة الشادوف عن طريق رجال يتخذون أماكنهم فى طوابق يختلف عددها بحسب ارتفاع الأرض المطلوب زراعتها بمياه النهر ، وفى كل طابق من هذه الطوابق يرتفع جداران صغيران من الطين وأحياناً يكتفى بغرس شعبتين فى الأرض ، يوضع عليهما بشكل عرضى جذع شجرة ، تعلق عليه بشكل رأسى عند ربع طوله من جهة الطرف الغليظ سلة طويلة . وعند طرف الذراع الأطول لهذه الرافعة يعلق حبل تدلى منه سلة مستديرة من سعف النخيل ، أو حقيبة من الجلد ، أما فى الذراع الأقصر للرافعة فتمرر حلقات من الطين مهمتها أن تقوم بدور المقاومة . ويقوم الفلاحون الموجودون فى الطابق الأكثر انخفاضاً أى عند مستوى النهر بنزح المياه ثم يرفعونها إلى الطابق الأول ، وتؤخذ المياه مرة أخرى وبنفس الطريقة لترفع من الطابق الأول إلى الطابق الثانى ، ثم من الثانى إلى الثالث . وهكذا حتى تصل إلى أعلى حيث تصب فى خزان توزع منه على قنوات الرى .

أما طريقة الرى المسماة منطال [2] فهى تتم عن طريق فلاحين نصف جالسين

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٦ ، الشكل ١ ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة .
(٢) انظر الفنون والحرف ، نفس اللوحة ، نفس الشكل .

على كومة من الطين المرتفع على شاطىء النهر ، ويمسك كل منهما بكل يد من يديه حبلا تتدلى منه قفة أو نوع من الجردل المصنوع من سعف النخيل ، ويقذفان بهذه الجرادل فى النهر حيث تمتلىء ، وعن طريق الحركة التى يحدثانها بارتدادهما إلى الخلف ينتزعان الجرادل من النهر ويفرغانها فى خزان صغير فى مستوى جداول الرى .

أما الماكينة (١) المستخدمة فى الرى فهى العجلة « الدولاب » ذات الثقوب المجرفة « الساقية » . وهى تستخدم فى الأماكن التى لا تصلها مياه النيل بشكل طبيعى وعندما لا يتجاوز ارتفاع الأرض المزروعة عن منسوب المياه بـ ٢,٥٠ — ٣ أمتار فقط . وهذه الماكينة عبارة عن شجرة موضوعة بشكل أفقى أقيمت عليها عند منتصفها وبشكل رأسى ، العجلة ذات الثقوب وتثبت محاورها فى الجدران الجانبية لخزان مياه صغير ، توجد فيه المياه مباشرة أو تتسرب إليه من النهر . وهناك عجلة مسننة ، تلتصق بالعجلة ذات الثقوب المجوفة ، تشتبك بعجلة أخرى أفقية مسننة هى الأخرى ، ومثبتة على شجرة أفقية وتتشعب هذه الشجرة فى جزئها الأعلى لتقوم بدور نقطة الإرتكاز لذراع الرافعة الطويل ، الذى يعلق فيه ويدور به حصان أو جمل أو بقرة أو جاموسة . وبفعل الحركة تقوم العجلة ذات الثقوب المجوفة بنزح مياه الخزان عن طريق الثقوب التى نفذت عند سطحها ، فتمتلىء الفراغات بالماء ، ثم تخرج المياه التى نزحت بفعل حركة العجلة وعن طريق نفس الثقوب ، لتسقط من جديد فى خزان صغير تذهب فيه بعد ذلك إلى قنوات الرى المعدة . ومن نافلة القول أن نذكر أن طول قطر العجلة ذات التجاويف يحدد بالعمق الذى توجد فيه المياه فى المكان الذى يراد إقامة الماكينة فيه . ولكن من المفيد أن نلفت النظر هنا ، إلى أنه من الممكن أن يرتب الأمر ، بحيث يرفع أو يخفض مدار محور العجلة المسننة التى تلتصق بها العجلة ذات التجاويف ، فهى مصممة بدقة بالغة ، لكن هذا الأمر لا ينطبق على العجلات المسننة « الأفقية » التى تحدث الحركة .

وحيث أن ارتفاع منسوب المياه فى آبار رشيد لا يعانى مما يعانيه فى أى

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٣ ، نفس المجلد .

مكان آخر فى مصر أثناء ارتفاع أو انخفاض النيل ، وحيث أن ارتفاع أو انخفاض النهر هنا أقل منه فى المناطق المرتفعة فى مصر ، لدرجة لا يمكن معها عقد مقارنة ، لذلك نرى أن استخدام العجلة « الساقية » ذات التجاويف يقتصر على هذه المنطقة « رشيد » ، لكنها فى نفس الوقت تستخدم فى دمياط وهى التى تعيش فى نفس ظروف رشيد فيما يختص بمنسوب النيل . أما فى المناطق الأخرى فقد تعود الناس استخدام الطريقة الثالثة فى الرى والتى أشرنا إليها .

أما العجلة ذات القواديس [١] التى تسخدم فى ضواحى رشيد [٢] فهى – شأنها فى ذلك نفس شأنها فى كل أنحاء مصر – عبارة عن حبل بالغ الطول يمر على عجلة تتحرك بنفس طريقة العجلة ذات التجاويف ، ويمكن للمرء أن يطيل أو يقصر من تدلى الحبل حسب منسوب مياه النهر ، وتعلق القواديس فى هذا الحبل ويمكن زيادة أو انقاص عددها حسب القوة المحركة التى يعتمد عليها وحسب المقاومة التى تبديها الحركة .

وقد واتتنا الفرصة أكثر من مرة أثناء جولاتنا إلى حصن أبى منضور أن نقوم بزيارة طاحونة يضرب فيها الأرز ، وهذه الماكينة [٣] عبارة عن مدقات دائرية من الحديد المجوف مثبتة فى طرف روافع متحركة فى خط رأسى ، وتحركها شجرة أفقية مسلحة بعملة « مساكة مزلاج » تمارس ضغطا على ذراع الرافعة الأصغر . وتتحرك الشجرة نفسها بفعل عجلة مسننة شبيهة بتلك التى سبق أن بيناها . والخيل والأبقار والجمال هى القوة المستخدمة فى ذلك . ويوضع الأرز فى ثقوب مرتبطة بالمدقات لكى يتم ضربها ، وثمة عامل يجلس فى مقدمة الماكينة يلملم تحت هذه المدقات الأرز الذى

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحتان ، ٤ ، ٥ نفس المجلد ، مع شرح هاتين اللوحتين .

(٢) انظر اللوحة ٧٨ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

(٣) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٩، الأشكال ٥ ، ٦ ، ٧ مع شرح هذه اللوحة .

يتناثر قبل إتمام ضربه [١] . وقد زرنا فى رشيد طاحونتين شبيهتين بتلك التى انتهيت من وصفها .

وفى أثناء إقامتنا فى رشيد أيضاً جمعت رسومات لآلة لدرس الحب تعرف فى هذه البلاد باسم النورج ، ويمكن أن نرى فى اللوحة التاسعة من الفنون والحرف تصميم وتركيب النورج ، وقد قدم المرحوم المسيو كونتيه صورة لماكينة مشابهة فى اللوحة الثامنة الصورة رقم ٢ فى نفس مجلد الفنون والحرف . ويكفى مجرد النظر إلى الصورة للحصول على فكرة دقيقة عن هذه الماكينة التى تضم فى جزئها الأسفل عجلات خشبية مثبت عليها بشكل رأسى عند المحور ، سكاكين دائرية من الحديد ، ويجر الآلة ثور بقر يقوده طفل ، وبمرور النورج وتوالى مروره فوق حزم القمح يتكسر القش وتنفصل عنه الحبوب . ولكى يعزل كل منهما عن الآخر « الحب والتبن » يرفع التبن بمذارة فيبقى الحب ، وتختتم العملية بتنظيفه بتعريضه للهواء لتحمل الريح الأجزاء الخفيفة ، وبهذه الطريقة تتم عملية التذرية .

وتوجد فى رشيد طواحين للقمح ، ويضم كل بيت فى العادة واحدة منها ، وليست ثمة اختلافات بين هذه الطواحين فيما عدا أن طواحين الأغنياء تدار بواسطة الحيوانات بينما تدار طواحين الفقراء بواسطة سواعد الرجال ، وتتم الحركة فى طاحونة الميسورين بأيسر السبل . وهذه الطاحونة عبارة عن عجلة موضوعة بشكل أفقى ومعشق بها فانوس ، ويخترق كلا من شقى الرحى محور الفانوس ، وشقة الرحى العليا أصغر من الشقة السفلى وتتحرك الشقة العليا بفعل القوة المحركة ، وتوضع الاثنتان فى وضع مائل حتى لا يتمكن الدقيق عند خروجه من النفاذ إلا عن طريق فتحة فى الشقة السفلى للرحى ، ويستقبل الدقيق فى سلة أو قفة .

أما الطواحين ذات الأذرع فتتكون من شقين من الجرانيت أخذتا فى العادة من أعمدة المنشئات القديمة . وقد قطع الشق الثانى للرحى بطريقة تجعل فى مركزها نوعا من عجلة صغيرة ناتئة تدخل فى ثقب منفذ عند مركز الرحى المتحركة ، وحول هذه العجلة الناتئة تحدث تلك الحركة الدائرية .

---

(١) لمزيد من التفاصيل ، انظر دارسة المسيو جيرار Girard عن الزراعة والصناعة والتجارة فى مصر (المجلد الرابع من الترجمة العربية) .

الفصل الرابع

البيوت فى رشيد ، عمارتها وشكلها الخارجى

شوارع مدينة رشيد ضيقة ومتعرجة ، وهى فى معظم الأحيان مليئة بالنفايات ، كما أنها ليست مرصوفة ، لكن أسواقها أكثر اتساعا وأكثر تهوية من أسواق الإسكندرية . وثمة مشهد يبدو بالغ الغرابة ، هو ذلك العدد الهائل من الكلاب الضالة التى يقابلها المرء فى الشوارع ، وبخاصة فى ميناء رشيد ، وهو نفس المشهد الذى تلقاه فى كل مدن مصر ، لكنه أصابنى فى رشيد بما يشبه الصدمة لأننى رأيته هناك للمرة الأولى وكونت عنه انطباعى ، والكلاب هناك من النوع المسمى الكلاب الذئبية ، ويبدو أنه لا الأهالى بل ولا السلطة ، يشغلون أنفسهم بأمر إطعام هذه الكلاب ، على الرغم من أن هذه الحيوانات تقدم إليهم خدمات جليلة وبخاصة فى حراسة الميناء . وفى أثناء الليل تطلق هذه الكلاب عواءها المرعب ويبدو أن سكان رشيد ، عندما يعودون إلى بيوتهم بعد انتهاء اليوم لا يلقون كبير بال لهذه الضجة .

وإذا مضى المرء نحو الأحياء المتطرفة من المدينة فسيقابل هناك عدداً كبيرا من الناس يقعون بلا حراك بينما مبسم الأرجيلة فى فمهم . وقد شاهدنا كذلك كثيراً من الأطفال والنساء ، ولم يكن هؤلاء النسوة سوى نساء من الشعب ، يرتدين قمصاناً زرقاء غير نظيفة ومشقوقة من الأمام فى جزئها الأعلى ، مما يتيح رؤية صدورهن مدلاة ، وثمة حجاب قذر مثل ثيابهن يغطى كل الوجه فيما عدا العينين .

وللعمى ضحايا كثيرون فى رشيد ، ويبدو أنه أكثر شيوعا بين النساء عنه بين الرجال . وثمة مشهد يلفت بشدة انتباه الأجانب القادمين إلى رشيد ، هو ضعف بنية أطفالها ، وهم يمشون وحدهم فى وقت مبكر لكن أطرافهم هشة ودقيقة ، وقد يعود السبب فى ذلك جزئيا إلى أن المرأة ترعى عدة أطفال فى نفس الوقت . وتحمل الأمهات هؤلاء الأطفال – متباعدى الساقين – على أكتافهن . وحيث تعوز هؤلاء الأطفال القوة التى تكفى لاحتفاظهم باستقامة أجسامهم فإنهم ينكفئون منحنين .

وعندما لا يكون المرء متعوداً على مثل هذا المشهد فإنه يرتجف خوفا من أن يصيب هؤلاء الأطفال حادث ما .

وفى المساء ، عندما ينادى المؤذنون الناس من فوق مآذنهم للصلاة ، فليس ثمة ما هو أكثر روعة من منظر مدينة رشيد ، فالناس يتوجهون جموعا وفى صمت إلى المسجد ، ويذهب العدد الأكبر من هؤلاء ، ممن لا يملكون وسيلة للوضوء فى بيوتهم أو جنانهم ، إلى شط النيل لأداء هذا الواجب ، فيغسلون لحيتهم ثم يؤدون صلاتهم متخذين قبلتهم الكعبة المقدسة ، ويعنى الذين يحوزون سجاجيد منهم ، وهؤلاء عدد بالغ الضآلة ، ببسطها على الأرض لأداء هذه الفريضة الدينية ، أما أولئك الذين لا يملكون سجادات فيستعيضون عنها بالعمامة التى تغطى رأسهم .

وما أن ينقضى وقت الصلاة ، أى ما أن يقدم الليل ، حتى يعود السكان إلى بيوتهم . وبعد ذلك لا يمكنك أن تقابل فى الشارع فرداً واحدا .

وتضيء المدينة أثناء الليل فوانيس معلقة فوق مداخل البيوت .

وقد زرت أحياء من رشيد كانت مهجورة تماماً فلم تعد سوى « مقالب » للقمامة والنفايات . وقد اعتاد السكان ألا يجروا أية ترميمات لبيوتهم ، وهم يهجرونها ما أن يبدأ يتساقط منها بعض الأتربة (أمارات البلى) ليبتنوا لأنفسهم مساكن جديدة فى مكان قريب أو فى حى آخر من أحياء المدينة . وفى المنطقة التى تجاور الصحراء من مدينة رشيد ، ثمة بيوت خربة قد غزتها الرمال بالفعل . وكنا نرى فى معظم الأحيان فى هذه الأحياء المهجورة نساء من الشعب منهمكات فى إعداد روث الماشية فيشكلن منه أقراصاً صغيرة [١] مستديرة الشكل وغير سميكة ، ويخلطنها بالقش المهروس ثم يعرضنها للشمس بوضعها على الأرض أو يلصقنها فى غالب الأحيان على جدران المساكن . وتكاد هذه الأقراص تكون هى الوقود الوحيد الذى يستخدمه السكان للحصول على النيران اللازمة للطهى . ومن المعروف أن المصريين يستخرجون من السناج ملح النوشادر .

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٨٢ ،الشكل رقم ١ ؛ وكذلك شرح هذه اللوحة .

ويقوم على حراسة بيوت الأثرياء نوبيون سود البشرة ، وهم معروفون بامانتهم وإخلاصهم الذى يصمد لكل اختبار ، كما يعهد إلى هؤلاء كذلك بحراسة أخشاب الوقود وأخشاب البناء التى تمتلىء بها الميناء .

وأثناء عبورنا المدينة ، مررنا عدة مرات بمدارس عامة ، ويمكن للمرء أن يسمع ضجيج هذه المدارس بعد أن يكون قد ابتعد عنها بمسافة طويلة ، وأطفالها عند قراءتهم ، أو عندما يحفظون عن ظهر قلب ، يهتزون إلى الأمام وإلى الخلف ويغنون ما يحفظونه أو ما يقرأونه ، وينتج عن ذلك مشهد بالغ الغرابة .. والمدارس فى رشيد كثيرة العدد ، وهو ما يتناقض كثيراً مع الجهالة التى كان من المعتاد افتراضها فى سكان مصر .

وكل بيوت رشيد من طوب ضارب إلى الحمرة ، غامق اللون ، ويعود ذلك إلى درجة احتراق هذا الطوب ، وقد لاحظنا أن البيوت فى الاسكندرية مبنية كلها من الحجر الرملى ومونتها من الجير والرمل ، وتتزعزع الحجارة فى هذه البيوت بفعل الطقس البحرى الذى يتلف هذه المدينة بينما لا تمس المونة ، ويختلف الأمر عن ذلك فى رشيد اختلافاً بيناً ، فالطوب فى رشيد يقاوم تقلبات الهواء ، لكن الأسمنت الذى يثبته هو الذى يتساقط .

وفى أثناء جولاتنا بالمدينة لاحظنا وجود بيوت بدا لنا أنها من الداخل أفضل من بيوت الإسكندرية ، ولكن فى رشيد ، كما هو الحال فى الإسكندرية ، تزين الأعمدة البيوت بشكل بالغ الغرابة ، وهذه الأعمدة مأخوذة من المبانى الأثرية ، ويلاحظ فقدان الذوق بالمثل فى استخدامها فتوضع قمة العامود فى مكان قاعدته أو يحدث العكس .

وقد جعلتنا جولاتنا المتعددة هذه فى وضع يسمح لنا بتكوين فكرة عن داخل بيوت بعض الأثرياء ، وقد تظنن فى البداية أنها تستخدم كمأوى لحيوانات دنسة وليست كمساكن لآدميين : فالحجرات معتمة سيئة الإضاءة ، والجدران عارية من أية زينة ، مغطاة بالأتربة القذرة .. وذلك هو مشهد البيوت المعتمة التى تشغلها الطبقة الميسورة بعض الشىء فى رشيد ؛ وسوء النظافة هناك أمر عام لحد يمتد معه إلى

المبانى العامة ، وفى هذا الخصوص فإن المساجد ليست بأحسن حالاً من البيوت .

وفى مصر ، يطلق أحياناً كنوع من التباهى ، اسم القصر على البيوت بالغة التواضع سواء فى اتساعها أو فى مبناها ، لكن هذه البيوت تكتسب أهميتها من أهمية أولئك الذى يقطنونها . وفى أثناء عيد ١٤ يولية الذى احتفلت به الحامية فى رشيد جاء المفتى إلى الحى الكبير ليقسم بأنه لن يقوم مطلقاً بفعل أى شىء ضد الجيش الفرنسى . وتلقى من الجنرال مينو تأكيداً بأن ممتلكات السكان سوف تحترم . وبعد الحفل عاد المفتى إلى قصره الذى لم يكن مظهره ليختلف فى شىء عن مظهر بيوت فلاحينا فى فرنسا .

وقد حاولنا أن نأخذ فكرة دقيقة عن المسجد الرئيسى فى رشيد ، أفضل من تلك الفكرة التى تسمح بتكوينها انطباعاتنا عن البلد ، حيث لم يكن مخولاً لنا على الإطلاق دخول المساجد . ترتفع مئذنة الجامع برشاقة وسط الفضاء ، وهى تتكون من أربع طوابق من الدرابزين ، والمسجد بالغ الاتساع لكنه فى تقسيمه لا يتبع شكلاً منتظما ، وثمة صفوف من أعمدة صغيرة إلى جانب أعمدة ضخمة تزينه من الداخل ، وكل صحن الجامع مغطى بالحصر . وفى بناء ملحق بالمسجد توجد أماكن لقضاء الحاجة وأحواض يتوضأ فيها المتعبدون المسلمون قبل أداء الصلاة ، وثمة أحواض أخرى مخصصة لنفس الغرض والماء الذى يملؤها ليس شديد النظافة ولا يبدو مطلقاً أنه يتجدد فى معظم الأحيان ، ونوافذ المسجد مغلقة بتقفيصات حديدية جميلة ، مصنوعة بشكل متقن وهى مجلوبة من القسطنطينية .

وتكاد تكون كل بيوت رشيد قد بنيت على نفس النمط ، ومن الطوب كما سبق أن ذكرنا ، وكلها باستثناء فروق ضئيلة ، لها نفس المظهر الخارجى . وقد حرصنا على أن نقوم بعمل عدة رسومات لواحد من أهم بيوت المدينة (١) وأحسنها موقعاً وكانت إحدى واجهات هذا البيت تطل على النيل ، وقد قيل لنا إن هذا البيت كان يخص

---

(١) نفس اللوحة ٨٢ ، الشكل ٥ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

أحد البكوات . وكانت واجهة البيت المطلة على الشارع الرئيسى فى رشيد تشكل فى الطابق الأرضى باب مدخل كبير وكذلك بابين آخريين أقل حجما ، وثمة أربعة أعمدة ذات ارتفاعات ومقاسات غير متساوية مقامة على قواعد تشكل نوعاً من الزينة شديد الغرابة ، ويبنى مدخل الباب الرئيسى (١) كله وكذا الواجهة من طوب شديد الانتظام ، وثمة قطع من الخشب تختلط بهذا البناء وتظهر أحياناً بالعرض وأحياناً لا يظهر منها إلا أطرافها ، وفى بعض الأحيان تزدان هذه القطع الخشبية بالرسوم والحفر . وفى الجزء الأدنى من الباب بارتفاع العضد توجد أعمدة صغيرة من الخشب المضلع محشوة فى زوايا البناء .

والقوس الذى ينتهى به الباب الكبير هو هنا قوس دائرى ، وفى بعض الأحيان يكون هذا التقوس على شكل نصف دائرة بل وأحياناً على شكل قوس على النمط القوطى . وتغلق النافذة الوحيدة أو الشباك الوحيد الموجود فى الطابق الأرضى تقفيصة من الحديد (٢) . ويقتسم بقية الارتفاع ثلاثة طوابق تبين معالمها عن طريق كمرات خشبية تظهر أطرافها من الخارج لتشكل نوعاً من الزينة . وهذه الطوابق الناتئة عالية ، وتبرز عن واجهة الدور الأرضى بقدمين أو ثلاثة أقدام . ويتكون هذا النتوء من ألواح خشبية رئيسية تتجاوز البناء وتسند أطرافها دعامات أو أفريز ، ويغطى الجميع بألواح خشبية تتجمع إلى بعضها البعض لتشكل فى مجموعها سطحاً أملس .

وينفذ الضوء إلى الأدوار العليا عن طريق نوافذ كبيرة تغلقها تقفيصات من الخشب مربعاتها كبيرة ، وتوجد فوقها فتحة أصغر ، تغلقها هى الأخرى تقفيصة صغيرة المربعات ، ولبعض الشبابيك تقفيصات (مشربيات) أكثر أناقة وتوضع ناتئة فوق الواجهة العارية ، وفى هذه الواجهة فتحات لكى تسمح بتهوية الحجرات ، وثمة فتحات كذلك فى الجوانب لكى تجعل من الميسور الرؤية عن بعد فى الشوارع ، حتى

---

(١) نفس اللوحة ، الصورة ١٠

(٢) تقفل النوافذ السفلى للبيوت فى رشيد عادة بواسطة أسياخ حديدية متينة ومتقنة ، وهذه تصنع فى القسطنطينية ، وقد سبق أن أشرنا إلى مثيل لها عند حديثنا عن جامع رشيد الكبير .

ترضى فضول النساء اللاتى يستطعن بهذه الطريقة أن يرين دون أن يراهن أحد . وتعطى هذه المشربيات الناتئة كذلك الفرصة لوضع قلل المياه لترطيبها ، وهذه القلل عبارة عن آنية صنعت فى صعيد مصر من نوع من الصلصال المائل للبياض والمعجون جيداً ، وهى تحرق فى النار نصف حريق وهذا ما يحتفظ لها بطبيعة مسامية تدين لها هذه القلل بخاصية التبريد التى تتميز بها . وأشكال هذه الفازات (القلل) لا ينقصها الجمال . ويملأ الناس هذه القلل ويعرضونها لتيار الهواء فتتبخر المياه التى تتسرب من خلال المسام مما يتسبب فى برودة الماء الموجود فى داخل القلة . وتنخفض درجة حرارة مياه القلة على الدوام حوالى ٤ : ٥ درجات .

وثمة طابق رابع يرتفع على جزء من المنزل الذى نحن بصدده ويشكل نوعاً من الأكشاك ويؤدى دون صعوبة إلى شرفة المبنى ، ومن هذه الشرفات يستطيع النسوة أن يروحن عن أنفسهن دون أن يراهن أحد . ومع ذلك فمن الممكن رؤيتهن عن طريق المؤذنين الذين يدعون الناس للصلاة من أعلى المآذن ، لكن الناس قد احتاطوا لهذه الصورة حيطة تتفق مع خطورة التقاليد الإسلامية ، إذ لم يكونوا يختارون للقيام بعمل المؤذنين إلا رجالا من العميان .

وليس لواجهة البيت من جهة النيل سوى طابق واحد ، ونتيجة لذلك فإن التعقيد هنا أقل ، فثمة ثلاثة أبواب ، أحدها رئيسى يؤدى إلى الطابق الأرضى الذى ينفذ إليه الضوء عن طريق نوافذ صغيرة « مشربيات » ذات مربعات كبيرة ، وثمة عمودان فى الزوايا يحملان ركائز ناتئة بعض الشيء فوق الجدار العارى ، وفى واحدة من هذه الزوايا يوجد سبيل يحتوى على جرار مليئة بالمياه وأناء للعب منها ، وهى بذلك تقدم للمارة الوسيلة لرى غلتهم . ويعنى صاحب البيت بالجرار على الدوام فيأمر بملئها بالمياه ، وفى بلد بمثل هذه الدرجة من الحرارة يمكنك أن تتصور قيمة مثل هذه المنشآت ، لذلك فهى كثيرة العدد . وثمة بيوت تقدم المياه للمارة بطريقة مختلفة ، إذ يوجد فى داخل هذه البيوت قادوس (زير) يعنى به على الدوام ويملأ بالمياه ويوضع بالقرب من الجدار الخارجى ، وثمة مصاصة ينغمس فرعها الأطول فى القادوس أما

فرعها الأقصر فيخترق الحائط لينتهى بصنبور يأتى المارة ليضعوا عليه أفواههم ، ويمتصون المياه حتى يرتووا . وفى المساجد وبيوت الأثرياء يخترق هذا الصنبور نضدا من الرخام نقشت عليها آيات من القرآن (١) .

ويتكون الطابق الوحيد الكائن فى الواجهة المطلة على النيل من ثلاثة أفنية أمامية تفصلها ردهتان ، وينير كل واحد من هذه الأفنية نوافذ تغطيها مشربيات ذات مربعات كبيرة ، توجد فوقها نوافذ أصغر تحيط بها هى الأخرى مشربيات . وينتهى أعلى البيت بشرفة بنيت أرضيتها من ملاط شديد البياض ، وتظل أطراف دعائمها إلى الخارج وتشكل كما سبق أن لفتنا الأنظار نوعاًمن الزينة (٢) .

أما الواجهة الجانبية (٣) لهذا المسكن فأقسامها مماثلة لتلك التى انتهينا من وصفها فيما عدا أنها فى جزء منها تزيد طابقا واحداً عما سبق وصفه ، ويمكن أن نلاحظ فيها مساقط نور صغيرة وكثيرة العدد لإضاءة حجرات الطابق الأرضى . وعلى العموم فإن الطابق الأرضى كله مخصص لاسطبلات الخيول والجمال ، والمخازن الأعلاف ، ولحجرات منفصلة تودع بها سروج الخيول ، وللمطبخ والكرار ، وللمكاتب ، ولرحى القمح ، كما تخصص بعض حجراته أيضاً لخدم البيت ولغيرهم .

ولن تكون فكرتنا عن داخل بيوت رشيد دقيقة إذا ما تصورنا أن ألواح الأرضيات الخشبية لها نفس المستوى ، وأن الإنسان يمكنه أن ينتقل بسهولة من حجرة لأخرى ، إذ ينبغى على المرء -- على العكس من ذلك -- أن يصعد أو يهبط سلمة وأحياناً اثنتين أو ثلاثا لكى ينتقل من جناح لآخر . وليس ثمة سبب ظاهرى على الأقل لمثل هذا الوضع ، وإلا لأمكن تفادى هذا الوضع الغريب والذى لا يمكن أن نجد تفسيراً له إلا فى عادات أهل البلاد .

---

(١) انظر الآنية الفخارية والأثاثات والأدوات ، اللوحة F.F ، الدولة الحديثة ، المجلد ٢ ، من ريبوتيه Reboutè.

(٢) انظر اللوحة ٨٢ ، الشكل ٣ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة .

(٣) انظر اللوحة ٨٢ ، الشكل ٤ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة .

وتكفى التفاصيل التى ذكرناها للتو لكى تعطى فكرة عن عمارة بيوت أثرياء رشيد ، ويمكن لنا أن نحصل على مزيد من الأفكار التى قدمناها إذا ما اطلعنا على الرسوم الموضحة فى اللوحة رقم ٨٢ الشكلان ١ ، ٢ واللوحة ١٠٢ الأشكال ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ومن خواص نوافذ البيوت التى يوضح الشكل رقم ٢ مقدار ارتفاعها أنها تغلق بمصراعين أيضاً بخلاف المشربية . وينبغى أن نضيف هنا أن نوافذ بيوت الأثرياء فى رشيد تغلق من الداخل على الدوام بواسطة شيش زجاجى . أما غالبية البيوت الأخرى فلا يوجد مثل هذا الشيش الزجاجى وهكذا ينفذ الهواء الخارجى بحرية إلى داخل الحجرات .

وعلى العموم فإن شرفات البيوت فى رشيد مائلة ، ولها مزاريب تسهل تصريف مياه الأمطار التى تسقط على رشيد بوفرة وغزارة فى بعض الأحيان فى فصل الشتاء .

وتختلف الديكورات الداخلية للبيوت كثيراً تبعاً لاستخدام الحجرات ودرجة ثراء وطبقة المالك . فالحجرات ترصف بمربعات من الطين المحروق ، أما الجزء الأول من حجرات الاستقبال الفخمة وكذلك دورات مياه السادة وحجرات الحمام ، فهى مرصوفة بالرخام .

ويكتفى بتغطية الجدران بطلاء أملس للغاية ناصع البياض ، وتنقسم كل حجرة فى إرتفاعها إلى قسمين متساويين على وجه التقريب ، عن طريق حزام من خشب دقيق للغاية لكنه بارز ويدور بدائر الحجرة ، ويمتلىء الجزء الأسفل من الحجرة بدواليب كبيرة ، تشكل مصاريعها المرسومة بأشكال متعددة نوعا من الزينة . وثمة دواليب أخرى ذات أحجام متنوعة وهناك كذلك كثير من التجويفات المزدانة بأشغال خشبية تستكمل نظام الديكور لمختلف الحجرات . أما الأثاث فعبارة عن أرائك موزعة بدائر الحجرة تشكل مقاعد منخفضة ، واسعة ، ومريحة ، وتتكون هذه المقاعد من حشيات ومخدات ضخمة من القطن ، وتبسط هذه الحشيات على بنوك يبلغ إرتفاعها ١٥ — ١٨ سم وهى إما مصنوعة من ألواح خشبية أو من مجرد أقفاص من الجريد ، وتغطى هذه الحشيات والمخدات أقمشة تتفاوت قيمتها ونوعها بحسب

مكانة ودرجة ثراء المالك . وتخصص أثمن هذه الأقمشة لتغطية أرائك الشرفات أو النوافذ الأمامية التى تحدثنا عنها من قبل . وهناك تستريح النسوة فى معظم الأحيان ويستنشقن الهواء المنعش الذى لا يتوفر فى الأنحاء الأخرى من حجراتهن .

ولا يمكن لك أن تجد فراشاً فى أى مكان بالبيت أثناء النهار . وينام الرجال والنساء على هذه الآرائك أو على مفرش يبسطونه وسط الحجرة ، وفى بعض الأحيان لا يكون الفراش سوى حشية بسيطة مغطاة بسجادة ، وثمة ناموسية من الحرير الشفاف أو الكريب تحمى مس حشرات الفراش أو من الناموس ، ولكن فى أثناء النهار تطوى كل هذه الأدوات وتوضع فى صناديق .

وينام الكثير من الناس رجالا ونساء دون أن يخلعوا ملابسهم ، كما ينام الخدم بكامل ملابسهم أيضاً ولكن على حصر بسيطة .

وقد أتيحت لنا فرصة الدخول إلى بيت واحد من أغنى رجال رشيد ، كان قد لاذ بالفرار عند اقتراب الجيش الفرنسى . ينقسم هذا البيت إلى جناحين أساسيين : جناح المالك ، وجناح الحريم ، وفى جناح المالك كانت الشابيك مغلقة بمشربيات خشبية كبيرة المربعات ، أما هذه المربعات فى جناح الحريم فكانت أصغر ، وليس ثمة أى إتصال بين الجناحين إلا عن طريق سلم صغير وكذلك عن طريق كوة دائرية تستخدم فى إيصال الطعام إلى الحريم . وفى كلا الجناحين كانت الغرفة الرئيسية عبارة عن حجرة واسعة مزينة بطريقة مماثلة لتلك التى سبق لنا أن عرضناها ، مع اختلاف واحد ، هو أنه توجد فى أعلى الدواليب فى جناح الحريم نو ع من المقصورات التى تحيط بها قضبان ، بحيث يمكن الاستنتاج بأن النساء كن معتادات على الجلوس فيها . ويضم هذا البيت مطابخ وحمامات وأفراناً وشرفات ، وعموما كل ما يمكنه أن يضمه مسكن واحد من أثرياء الخاصة . أما المراحيض فمغطاة بمربعات كبيرة من الرخام ، حفرت بها فتحات طويلة وضيقة .

وقد سبق لنا القول بأن مختلف الطوابق فى بيوت رشيد تكون إما ناتئة أو بارزة ترتكز على دعائم بعضها فوق بعض ، وينتج عن ذلك أن البيوت بعد ارتفاع الطابق

الأرضى تصبح متقاربة لحد كاف من بعضها البعض حتى تكاد تتلامس الشرفات بطريقة لا يعود يفصل بينها إلا مسافات جد ضئيلة ، ويؤدى هذا الوضع إلى تغطية سماء الشوارع المخصصة للأسواق ، أو الأسواق نفسها ، بشكل شبه تام بحيث تجعلها فى حمى من أشعة الشمس .

ولكل بيوت رشيد فيما عدا بيوت الأثرياء من أهلها سلم خارجى مبنى فى معظم الأحيان من الحجارة لكنها محاطة بفاصل كبير – بدلاً من الدرابزين – وذلك لحجب رؤية النساء عند خروجهن من البيت أو دخولهن إليه .

وقد ترددنا كثيراً على الأسواق العاملة فى رشيد ، ولفت انتباهنا هناك بشدة ذلك الصمت الذى يخيم على المكان والذى يشكل تناقضاً لافتا للنظر مع الضوضاء التى تنبعث من أسواقنا ، ذلك أن أهل هذه المدينة يتكلمون قليلا ، ولهجتهم على الدوام جادة وقورة ، لكن حديثهم لا يمنعهم من تدخين الأرجيلة أثناء الكلام ، وهم يجلسون أمام محلاتهم بلا حراك ، وكأنهم مجرد علامات قياس .

وتجار رشيد – كما بدوا لنا – متشككون ،ويخشون على الدوام أن يخدعوا من قبل الغير ، لذا فهم لا يسلمون البضائع التى اشتريت منهم إلا إذا حصلوا الثمن مقدماً .

وفى الأسواق أكثر من أى مكان غيرها تواتيك الفرصة لملاحظة عادات السكان فى بلد ما . ويبدو سكان رشيد للوهلة الأولى مختلفين لحد تستطيع معه أن تتعرف بسهولة على التركى أو القبطى أو الاسكندرانى ... ويعرف الأروام على وجه الخصوص ببشرتهم البيضاء وذقونهم الحليقة .

ومقاهى رشيد – كما هو الحال فى الإسكندرية – أماكن بالغة القذارة لا يمكن لك أن تقترب منها دون أن تشعر بالاشمئزاز . وهى عبارة عن صالة واسعة ترتفع بدائر جدرانها ، وفى وسطها ، منصات مبنية (مصاطب) تغطى بالحصير . على هذه المنصات يأتى الناس ليشربوا القهوة ويدخنوا الأرجيلة التى لا تفارقهم مطلقاً . وينعسون أو يستمعون إلى إنشادات الشاعر المرتجل أو إلى حكايات يرويها حاك لا يمل

الحكى ويستمع الناس إليه على الدوام بلذة متجددة . وقد لاحظنا من بين هذه المبانى مقهى يستحق عنده وقفة خاصة بسبب نظافته الظاهرة وجمال موقعه .

تقع هذه المقهى عند الميناء بالقرب من شاطىء النيل . وطول مبناها (١) يبلغ على وجه التقريب ضعف عرضه ، وهى تنقسم من الداخل إلى قسمين ، ويوجد فى وسطها ممر يؤدى إلى بابين خارجيين موجودين على واجهتيها ، ويقود الباب الرئيسى إلى النهر ، ويصل الضوء إليها عن طريق شباك مزدوج يعلوه قوس على النمط القوطى تستند قاعدته على ثلاثة أعمدة خشبية ، وفوق هذين الشباكين يوجد عمود آخر أصغر لكنه مستطيل الشكل ، وترتفع فى وسط المبنى منصتان يوجد حولهما أنواع من المقاعد المبنية بطريقة مشابهة وتؤدى لنفس الغرض . وسقف المبنى ناتىء ليحمى من لهيب الشمس ، لكن أصحاب المقهى يحتاطون للأمر زيادة على ذلك بشكل أفضل عن طريق سقيفة من البغدادلى تدور حول مبنى هو بمثابة سرير تمتد فوقه تكعيبات العنب المزروعة أمام الواجهة فتغلفه من كل جانب بأغصانها الطويلة المرنة . أمام هذه العرائش تأتى العوالم – أو الراقصات العموميات – والموسيقيون والمنشدون والشعراء ليجذبوا انتباه شاربى القهوة لاستخلاص بعض قطع النقود منهم .

ويندمج المترددون على الملهى فى لعب أدوار شطرنج أو أدوار منقلة (٢) وهؤلاء المترددون إناس ينتمون للطبقة المتوسطة ، ذلك أن الأثرياء يعدون قهوتهم فى بيوتهم ولا يترددون مطلقاً على هذه الأماكن .

---

(١) انظر اللوحة ٨٢ ، الشكلين ٦ ، ٧ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة .

(٢) تتكون المنقلة من لوحتين ، بكل واحدة منهما ستة ثقوب ، ويلعب الدور شخصان . وفى البداية يضع كل لاعب فى الثقوب التى أمامه ٦ قطع من الزلط أو الحجارة ؛ ويبدأ أحدهما اللعب بأن يأخذ الزلطات من ثقوب يختارها ليضعها بعد ذلك واحدة واحدة فى الثقوب ، بادئاً من اليمين ، ومواصلا بنفس الطريقة حتى ينتهى مما معه من زلط . وإذا كان رقم الثقب الذى وضع فيه زلطته الأخيرة زوجياً : ٢ ، ٤ ، ٦ تكون هذه الزلطة له ، ومعها كل الزلطات الموجودة فى الثقوب المجاورة وهو يتجه إلى الخلف وعندما لا تبقى أية زلطة فى الثقوب ، يبدأ اللاعبان العد ، ويكسب الدور من يكون منهما قد حصل على أكبر عدد من الزلطات . انظر

Voyage en Arabie par Niebuhr tom I, Planche XXV et ,p. 139.

بقى علينا الآن أن نتحدث عن بعض المبانى التى أقيمت فى رشيد بقدر لا بأس به من الفخامة ، وتلك هى الوكالات (وكالة) التى يجد الناس فيها كل أنواع البضائع . ويبلغ طول المبنى من هذه الوكالات أربع أو خمس مرات قدر عرضها ، وهى تضم فناء توجد حوله ممرات تدعمها أعمدة ، وتعلو هذه الأعمدة أقواس على النمط القوطى . وتوجد المحلات داخل هذه الأروقة وينفذ الضوء إلى هذه المحلات عن طريق ثقوب تعلو الأبواب . ونجد فى الطابق الأول نفس التقسيم الذى وجدناه فى الطابق الأرضى ، وبنير الدهليز الذى يحل محل الرواق فى الطابق الأرضى والذى يؤدى إلى مداخل المحلات عدد كبير من النوافذ ، كما هو الحال فى الأرواق ، مع فارق بسيط هو أن نوافذ الدهليز تعلوها فتحات مربعة صغيرة .ونفس الأمر بخصوص الطابق الثانى غير أن فتحات الدهليز المطلة على الفناء مستطيلة الشكل وأكثر عدداً . ويقدم الشكلان ٩ ، ١٠ من اللوحة ١٠١ ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، فكرة دقيقة عن هذا التقسيم . وهذه الدهاليز والأروقة التى توصل إلى المحلات تستخدم وقت الحاجة لتهوية البضائع التى تخزن فيها .

ولقد صدمتنا قناعة سكان رشيد ، وهى قناعة نلاحظها فى بقية أرجاء مصر . وتبدو ثمرات النخيل (البلح – التمر) باعتبارها غذاءهم الرئيسى ويأكلون معها فى نفس الوقت قليلا من الخبز المصنوع بدون خميرة وعلى شكل أقراص صغيرة مستديرة ورقيقة . وهذا الخبز الذى أنضج فى أفران توقد بواسطة روث الماشية وبخاصة الجمال والذى جهز بالطريقة التى سبق أن شرحناها – يحتفظ بقدر من رائحة غير مستحبة بالنسبة للأجانب . ولست أستطيع أن أنسى على الإطلاق أننى كنت فى الأيام الأولى من إقامتى بمصر أشم رائحة الجمال فى كل ما كنت آكله .

* * *

الفصل الخامس

الصناعات اليدوية والحرف

كنت أنتوى أن أدون فى هذا الفصل تلك الملاحظات التى جمعتها عن الصناعات اليدوية والحرف التى يمارسها السكان فى رشيد ، لكننى وجدت أن الفرق ضئيل بين الصناعات والحرف التى تمارس هنا وتلك التى تمارس فى العاصمة والتى عولجت فى مكان آخر ، لذلك فقد اكتفيت أن أورد هنا بعض تفاصيل موجزة للغاية .

لاحظت باهتمام حرفة الخراطين ذات الإنتاج الواسع الانتشار حيث تقوم هذه الحرفة بإنتاج كل التقفيصات التى تستخدم فى البيوت . وتحاط هذه التقفيصات فى البرج بأطر خشبية لكن هذا أمر من صنع النجار ... وليس ثمة ما هو أبسط من تلك الآلة التى يستخدمها الخراط ، فهى عبارة عن لوحة كبيرة أقيمت بشكل أفقى ترتفع فوقها لوحتان عموديتان ، إحداهما ثابتة والأخرى متحركة ، وثمة محوران حديديان بين هاتين اللوحتين ، مهمتهما تثبيت القطعة التى يراد خرطها . ويتكون المثقب الذى يمررونه حول هذه القطعة من ذراع خشبية طويلة يتدلى من طرفيها سير جلدى عريض بعض الشيء . ويحرك الخراط المثقب بيده اليمنى ، ويقرب ويدير الآلة القاطعة باليد اليسرى والقدم اليمنى وهى تتكيء على قضيب من الحديد موضوع هو نفسه على لوحتين رأسيتين ، ويكفى ثقل هذه العارضة الحديدية فى معظم الأحيان لحفظ العروسة وللتحكم فى تلك الدمية المتحركة . ومحل الخراط هو أبسط المحلات التى يمكن أن يقابلها المرء ، وهو يحتوى فقط على ثلاث آلات قاطعة وثلاث أدوات للحفر ومثقب وزجاجة صغيرة بها بعض الزيت لترطيب الأجزاء التى يحدث حولها الثقب ، وقفة أو سلة توضع بها الأشياء

المصنعة [١] . وهذه المحلات بالغة الصغر ويبلغ طول أى من أضلاعها مترين على وجه التقريب ويمكن أن نرى صورة لذلك فى اللوحة رقم ٨٢ – الشكلين ٨ ، ٩ الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

ولا تزال النجارة هى الأخرى فى طور الطفولة ، فالنجار يعمل وهو راكع على ركبته ، أو وهو جالس . وهو لا يستخدم إلا عدداً ضئيلا من الأدوات أهمها الفارة كما يستخدم بلطة يطلق عليها اسم قادوم [٢] .

وصناعة الأقفال فى مصر ليست سوى فرع من النجارة لأن الأقفال هناك تصنع من الخشب « ضبة » ويتكون القفل من قطعتين من الخشب موضوعتين فى الزاوية اليمنى . كل منهما فوق الأخرى ، وتحتوى القطعة الرأسية على تجويف تغلقه قطعة صغيرة من الخشب مكعبة الشكل ، تخترقها عدة ثقوب توضع فيها أسنان حديدية يتزايد سمكها فى جزئها الأعلى ، ويتساوى عدد هذه الثقوب بالضبط مع عدد مماثل من ثقوب أخرى منفذة فى قطعة الخشب الأفقية والتى تتحرك على نحو تسقط فيه الأسنان الحديدية بفعل ثقلها الخاص فى الثقوب السفلى – وذلك عندما يكون القفل فى مكانه – دون أن تتمكن هذه الأسنان فى نفس الوقت من الإفلات من الثقوب العليا ؛ عندئذ يقفل القفل . ويستخدم المرء لفتحه مفتاحاً ليس سوى مسطرة خشبية مزودة فى أحد طرفيها بقطع صغيرة من الحديد من نفس العيار ، مصفوفة على نفس نظام الثقوب ، بحيث ترفع الأسنان الحديدية للقفل عند إدخال هذا المفتاح فى التجويف المنفذ فى القطعة الخشبية المتحركة من المفتاح ، وعندئذ يجذب المرء كلا من المفتاح والقطعة المتحركة من القفل وينزلق الكل بلا عائق ويفتح القفل .

وتعتبر صناعة النحاس أكثر الصناعات المصرية تقدماً ، وتصنع الأوانى فى رشيد من النحاس ، مثل الكاسرولات والصوانى والطشوت والمواقد ... إلخ مع شيء واضح

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٥ ، الشكل ٤ ، الدولة الحديثة ، ج ٢ ، مع شرح هذه اللوحة .

(٢) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٣٠ ، الأشكال ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ مع شرح هذه اللوحة .

من الدقة وخصوصاً إذا ما أخذنا فى الاعتبار الأدوات التى يستخدمها عمال هذه الصناعة حيث كتب عنها بإفاضة فى مكان آخر (١) .

لكن الصناعة التى يمكن القول بشأنها بأنها قد بلغت درجة يشهد معها لهذه الصناعة بالدقة ، فهى صناعة الأرجيلات . ففى بلد يدخن فيه الجميع غنيهم وفقيرهم فإن الأرجيلات تصبح ضرورة أولية ، لذلك فهى تصنع هناك بكميات ضخمة وبأشكال متنوعة . فهى تصنع هناك من نوع من الطين الخزفى معجون بعناية فائقة ، ويتكون من جزءين هما الجسم واليد ويصب كلاهما فى قالب ملىء ، وحيث يتم صب هذين الجزئين بشكل منفصل فإنهما يجمعان بعد ذلك بينهاهما لا يزالان طازجين تماماً ويصنع الثقب الذى ينبغى أن ينفذ منه الدخان بحيث لا يسقط الرماد إلى قاع الأرجيلة . وشكل هذه الأرجيلات ليس ثابتاً ويمكننا أن نرى نماذج متعددة لها فى لوحات الآنية والأثاثات والأدوات (٢) . وحين يكون الطين لا يزال رطباً ترسم على الجسم واليد زينات تنم عن ذوق راق فى بعض الأحيان ، وقد يلصق على هذه الزينات فى بعض الأحيان بعض من ماء الذهب لتصبح أكثر جاذبية .

ولثقب خرطوم الأرجيلة يستخدم العامل ماكينة صغيرة (٣) على شكل طوق يثبتها بين قدميه ، وهى مزودة بخيط سميك من النحاس الأصفر ، ويدخل هذا الخيط عن طريق مثقاب يندفع رأسه باستمرار حتى الطرف الآخر . وتغطى خراطيم الأرجيلات هذه بعد ذلك بالأقمشة الحريرية التى تزينها أشرطة رفيعة أو شراشيب ، وهى تنتهى بمبسم من الكهرمان ثمين القيمة لحد كبير فى بعض الأحيان .

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٩ ، الشكل ٢ ، مع شرح هذه اللوحة .

(٢) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٦ ، الدولة الحديثة ، حيث رسمت مجموعة من الأرجيلات .

(٣) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٧ ، الشكل ١ ، التى رسمها المسيو كونتيه Conté فى القاهرة ؛ وكذلك شرح هذه اللوحة .

وتأتى صناعة القفف [١] من حيث الجودة بعد صناعة الأرجيلات ويتكون نسيجها من سعف النخيل ، وهذه الشجرة « النخل » مصدر بالغ الأهمية فى مصر ، فهى تعطى بوفرة بالغة ثماراً حلوة المذاق يتخذ منها السكان طعامهم الرئيسى ، كما يستخدم جذوعها فى عمليات البناء ، وتصنع من أغصانها الأقفاص التى يقام فوقها الفراش أو توضع عليها الأرائك ، أما السعف أو الأوراق الصغيرة التى توجد بطول جانبى الأغصان فتستخدم فى صنع جدائل ، تخاط بعد ذلك لتصنع منها القفف أو السلال ، وهى تخاط بمهارة وسرعة بواسطة أحبال رفيعة صنعت هى كذلك من ليف النخيل . وتستخدم القفف بكثرة فى رشيد وهى تستعمل فى تعليب كل أنواع البضائع والحبوب كما تستعمل فى نقل الأرز .

تحدثنا للتو عن الأقفاص التى تصنع من فروع النخيل . ويمسك صانعها بمثقب يحدث به كل الثقوب اللازمة فى فروع النخيل لكى تجمع بعد ذلك الأجزاء التى تكون القفص . وتشبه تلك الأقفاص مستطيلة الشكل التى يستخدمها سكان مصر تلك الكراسى المصنوعة من الخيزران التى نستخدمها فى فرنسا .

وفى بلد مثل مصر ، حيث يعتاد الناس جميعاً شرب البن ، كان لابد أن تنشأ مهنة خاصة لإعداد هذا البن لكى تحصل عليه كل طبقات المجتمع ، لذلك توجد فى رشيد محلات يحمص فيها البن وتنزع عنه قشرته ، حيث توضع صوانى كبيرة من النحاس على سطح موقد فتحمص حبوب البن وتطحن بعد ذلك بواسطة هاونات من الجرانيت ، وأيديها من النحاس . وبسبب استخدام هذه الهاونات فى بعض الأحيان بعض المساوىء فقد يحدث فى بعض الأحيان أثناء عملية الصحن أن تنفصل أجزاء صغيرة من الجرانيت لتختلط بالبن وقد لمست ذلك بنفسى .

وتمارس فى رشيد كذلك حرفة صياغة المجوهرات ، وفى هذه المدينة حى مخصص لهؤلاء الصاغة . وكنت بعد دخولى المدينة أمنى النفس بأننى سوف أرى

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٢٠ ، الشكل ٢ ، وشرح هذه اللوحة .

محلات هؤلاء الصاغة باعتبارها أجمل محلات المدينة ، لكننى كنت مخدوعا فى ذلك . فهى مجرد محلات معتمة صغيرة وقذرة لا يرى فيها من أثاث إلا منفاخ دائرى الشكل يعمل باليد وموقد فقير وبعض البوتقات الحجرية تشبه ما لدينا إلى حد كبير . ذلك هو كل ما يحتويه محل الصائغ ومع ذلك فلابد أن نضيف أن فى حوزتهم شواكيش ومطارق مصممة بشكل جيدوهم لا يعرضون فى محلاتهم شيئاً من إنتاجهم بعكس ما يحدث عندنا ، ويبدو أنهم لا يصنعون إلا حسب المقاس وحسب الطلب ، وقد شاهدتهم بعينى يصنعون خاتماً بشكل منفر خال من الذوق ، بحيث بدا شكل الخاتم وكأنه سبيكة من الذهب .

* * *

الفصل السادس

عن سحرة الثعابين

لم يتح لى أثناء إقامتى فى رشيد أن أشهد العيد الكبير الذى يقام هناك كل عام احتفالا بسيدى إبراهيم ، ولكن من المعروف أن المرء يشاهد فى العرض ، الذى يشكل جزءا من الاحتفال بهذا العيد ، كل طوائف الحرف التى تصطف كل منها تحت رايات محمد التى تحمل فى شكل أقواس نصر ، يتبعهم الشيوخ وهم فى هذه البلاد بمثابة القسس عندنا ، ويغطون رءوسهم بأغطية رأس طويلة تشبه تاج الأسقف ويسير هؤلاء خلف مواكب الطوائف بخطى وئيدة وهم ينشدون بعض آيات من القرآن ، وبعد هؤلاء جميعاً يأتى الحواة الذين يلتهمون الثعابين الحية . وقد قص علينا سافارى Savary هذا المشهد العجيب بالتفصيل (١) وقد كان هو شاهدا عليه ، وليس من هدفنا هنا أن نعيد ذكر أشياء معروفة ، لكننا لا نستطيع أن نمسك عن الأفضاء هنا ببعض الوقائع ، تلك التى حدثت تحت بصرنا أو تلك التى نقلها إلينا أشخاص جديرون بكل ثقتنا . وهذه الوقائع تخص حواة الثعابين ، أو سحرة العصر الحديث .

توجد فى مصر فئة من الرجال يمسكون دون أن يلحق بهم أذى بالثعابين والحيات والعقارب ، هؤلاء هم الحواة ، شعوب الأحباش ، الذين كانت لديهم حسبما يذكر سترابون Strabon القدرة الغامضة على حماية أنفسهم ضد لدغات الثعابين .

وتعتبر الثعابين والعقارب عادة فى مصر زواحف مؤذية ، يمكن أن تؤدى لدغاتها إلى أوخم النتائج وهى فى أغلب الحالات تفضى إلى الموت . وقد مر الجيش

---

(١) Letters Sur l'Egypte ,t,I.p.62

الفرنسى نفسه فى بعض الأحيان بهذه التجربة المحزنة . ينبغى إذن أن ننظر إلى الرجال الذين كرسوا أنفسهم لتخليص البلاد من مثل هذا الخطر باعتبارهم أناساً خيرين ، وبمعنى آخر فإن مثل هذا الهدف الخير يتم جزئياً على يد نوع من السحرة ، يستطيعون بأعمالهم هذه إلى أن يطمئنوا من روع السكان .

ويمتلك السحرة المحدثون قدرة غامضة على تخليص المساكن من الثعابين التى قد تكون بداخلها ، كما يدعون كذلك القدرة على تأمين الناس ضد خطر لدغات هذه الزواحف ، وكذا لدغات العقارب ، ويجوب صائدو الثعابين هؤلاء شوارع مدن وقرى مصر وهم يعلنون بصوت جهورى على الناس ، أنهم على استعداد لتخليصهم من الثعابين التى قد تكون كامنة بمساكنهم ، وهم يحملون فى ذراعهم سلة يضعون فيها ما اصطادوه من ثعابين ، ويحيطون على الدوام أعمالهم تلك بضروب من السحر .

ولكى يعرفوا إن كانت ثم ثعابين فى مسكن ما فإنهم يبدأون أولا بإعمال بصرهم والإتيان ببعض الحركات ، ويتخذون هيئة منجم ويديرون أبصارهم بشكل غامض فى كل أركان الحجرة ، وينتهى الأمر بأن يتوقفوا عند المكان الذى تختبىء فيه الثعابين بالفعل ، ويتشممون كما لو كان ليتأكدوا عن طريق حاسة الشم من وجود هذه الزواحف ، ثم يمسكون بعصا عرافة ويلفظون ببعض النصائح والمواعظ مع تغيير وإطالة فى نغماتهم وبصوت ممطوط ويستغرق الأمر ما يقرب من خمس دقائق ، ثم يبصقون على الأرض وينحنون فجأة لينهضوا على الفور ، وهم يشيرون إلى ثعبان كان مختبئاً لوقت قريب فى أحد الشقوق بعد أن حملوه على عصاهم العرافة تلك . وقد يظن المرء أن هذه العملية ليست إلا نتيجة لبعض من أعمال الدجل ، لكننا نستطيع أن نؤكد أن ليس ثمة شىء من ذلك على الإطلاق ، فنحن هنا نعرض وقائع كنا شهود عيان عليها ، وقد جردناها من كل سحر أو من كل أمر غير عادى يمكن أن نكون واقعين تحت تأثيره ، وبإمكان القارىء أن يثق بأننا هنا إنما نعرض الحقيقة عارية .

ومع ذلك فنفس هذه الوقائع فى النهاية ، إذا ما خضعت للنقد والتمحيص ، لا تقدم شيئاً لا يمكن تفسيره بشكل طبيعى إذا ما قارناها بوقائع أخرى كنا شهوداً

عليها كل يوم . ألا توجد فى الواقع آلاف الظروف التى نستمع فيها إلى تلك التبديلات والتحويرات المختلفة فى صوت الإنسان ليجذب إليه الحيوانات المتسأنسة بل وحتى المتوحشة ؟ وعندما يجلس الإنسان على حافة نهير ويختبيء وسط أوراق الشجر ويختفى عن كل النظرات ألا يهرع عند سماع صوته المخادع كل ذى جناح فى الغابة ؟ فلماذا إذن لا تنجذب الثعابين هى الأخرى بفعل تحويرات معينة فى صوت الإنسان وتغادر بالتالى مكامنها ؟ أما عن التعرف على أماكن وجود الثعابين فإن من المحتمل دون ريب أن يكون الحواة يستدلون عليها عن طريق الشم ، ذلك أنه قد ثبت عن طريق الوقائع التى كانت موضع دارسة من علماء الطبيعة ، وجود رائحة مسكية تعلق بهذه الحيوانات ، ويستطيع من تدرب على الأمر أن يستدل على وجود هذه الحيوانات عن طريق هذه الرائحة .

أما الطرق التى يستخدمها السحرة لتأمين الناس ضد لدغات الثعابين والعقارب فتسبقها وتتبعها ممارسات غامضة من شأنها أن تبهر آلاف الناس الذين يسهل خداعهم . وهذه العملية عبارة عن وضع قليل من الماء فى إناء ثم يضاف إلى الماء الزيت والسكر ويجاهد السحرة فى تكوين شراب من هذا الخليط ويتمتمون أثناء ذلك ببعض الأدعيات ، ثم يبصقون فى النهاية فى المشروب الذى انتهوا من تجهيزه ، ويأمرون الشخص الذى يطلب « العهد » ضد لدغات الثعابين والعقارب بأن يتجرع هذا المشروب ، ثم يعلقون فى أذنيه ثعبانين كبيرين من أسنانها ، ويتركونهما هكذا لمدة ربع الساعة ، وعندئذ تنتهى العملية ويدفع المريد من كيس نقوده ثمن الخدمات التى أديت له ، ثم ينصرف وهو مقتنع بأنه سيكون فى المستقبل آمناً من لدغات العقارب والثعابين .

هل يمكن الاعتقاد بأن هؤلاء الذين يقومون بهذه الأعمال دون أن تلدغهم الثعابين مجرد دجالين ؟ هذا بالتأكيد ما لا يمكن لشخص واع أن يحاول الاعتقاد فيه . لكن يمكن القول إنهم قد حصلوا على هذه النتائج بسبب أن شعورهم بالخوف قد

ضعف لحد كبير ، فهم يتجرأون على هذه الحيوانات لأنهم - كما يمكن القول - قد ألفوها .

لذلك فهم يستطيعون نتيجة لحالتهم تلك أن يقربوها بثقة بل وعن طيب خاطر ، وحيث أنهم لم يعودوا يخشونها فهم يحاذونها بنوع من الطمأنينة لا تشي بأنهم من جانبهم ينتوون بهذه الحيوانات شراً ، وهو سبب كاف لئلا تسبب لهم هذه الزواحف أى أذى ، إذ من المعروف جيداً أن كثيراً من الحيوانات لا تضر بالإنسان إلا إذا اقترب منها بكثير من الحذر ، مما يجعها تظن فيه نوايا عدوانية نحوها . ومع ذلك فكيف يمكن فى الواقع أن نفسر كيف أن أناساً يستطيعون - كما يفعل هؤلاء السحرة - أن يحملوا فى ثنايا ملابسهم بل وعلى صدورهم نفسها زواحف مختلفة يلتقطونها كيفما اتفق دون أن يقع لهم حادث مزعج ، وأن يضعوا العقارب تحت طربوش عمامتهم دون أن تلدغهم ؟ أيا كانت الإجابة فهذا هو ما شاهدناه فى كل مدن مصر ، ولن يكون بذى جدوى أن نفسر هذه الظواهر عن طريق افتراض أنهم قد نزعوا أسنان الثعابين أو قطعوا فكى العقارب ، فقد أمكننا أن نتأكد بأنهم لا يخضعون هذه الحيوانات لأى نوع من البتر ، كما قد علمنا عن طريق أناس جديرين بكل ثقتنا وتصديقنا ، بأن نفس هذه الحيوانات التى لا تضر بهؤلاء « المأذونين » كثيراً ما سببت للآخرين أحداثاً بشعة (*) .

* * *

(*) انظر دراسة مشابهة لذلك ، فى المجلد الأول من الترجمة العربية : دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، الملاحق ، « فن الأفاعى أو سحرة الثعابين » .

الفصل السابع

الرحيل من رشيد إلى القاهرة

بعد أن مكثنا فى رشيد لمدة ما يقرب من ستة أسابيع ، أبحرنا فى الأول من فريكتيدور من العام السادس « ١٧ أغسطس ١٧٩٨ » فى حوالى الساعة السادسة ، على ظهر سفينة كانت مخصصة للقيام بعمليات الاتصال مع القاهرة ، لكن الليل الذى لم يلبث أن طوانا فى عتمته لم يمكننا على الإطلاق بأن نستمتع بمشاهدة شواطىء النيل ، ومع ذلك فقد واتتنا الفرصة ، فى أثناء اللحظات القليلة التى أبحرنا فيها ولما يزل فى الأفق ضوء الغسق ، أن نلم فى الدلتا بمناظر طبيعية كثيرة التنوع وبالغة الجمال فى نفس الوقت . وقد أعطى أفول الشمس لأشجار النخيل ملمحاً غامقاً كما أظهر مجموعات الأشجار المختلفة التى كانت تلوح لناظرنا بشكل أكثر كثافة ، وإذ كانت الريح هادئة فقد قطعنا خلال الليل مسافة قصيرة فقط من الطريق ، بحيث لم يفتنا الكثير من مشهد شواطىء النهر .

وفى اليوم التالى رأينا عدداً أكبر من القرى ، ومررنا على التوالى أمام مطوبس وديروط وهما قريتان كبيرتان لحد ما ، ثم وصلنا فى الحادية عشرة إلى ميناء فوه ويتعرض النيل لعدد هائل من التعرجات (١) فيما بين هذه المدينة ومدينة رشيد . وقد بنيت كل هذه القرى التى لفتت انتباهنا من الطين (٢) بطريقة تبدو معها وكأنها أكوام من الطين المجفف ، ويبدو أن بيوت هذه القرى قد بنيت من الطوب . ومنازل هذه القرى واطئة ، وقلما ترتفع فوق الأرض لأكثر من اثنى عشر قدماً . وتعلو بعض هذه البيوت أبراج

---

(١) انظر الأوراق ٣٦ ، ٤٠ من الخريطة الكبرى لمصر ، والتى تقع فى ٤٧ ورقة .

(٢) انظر اللوحة ٧٩ ، الأشكال ٢ ، ٣ ، ٤ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

حمام بنيت بشكل هرمى وتتجمع داخل هذه الأبراج أعداد لا حصر لها من الحمام . وفضلا عن ذلك فبيوت القرى مجرد أكواخ قذرة قبيحة المنظر يخرج من جوفها فى « عز » حرارة الصيف الشديدة سكانها ، وهم نصف عراة لينهمكوا فى أعمال الزراعة المرهقة ، فيبقى بعضهم إلى جوار جاموساتهم التى تدير السواقى ذات القواديس [١] التى تنهض على ضفاف النيل والتى تسمع عن بعد ضجتها الزاعقة والرتيبة فى وقت معاً ، ويقود البعض الآخر حيواناتهم التى تجر المحراث والتى تعلق بنيره ، ويمكن القول بأن المحراث لا يفعل إلا أن يخدش سطح الأرض ، ويجلس عدد كبير من الفلاحين فى وضع متدرج على شاطىء النيل يروون الحقول المزروعة بصعوبة بواسطة الدلو « الشادوف » تحت إشراف المالك أو المزارع . وقد شاهدنا فى مكان آخر رجالا لا يعملون إلا بالصيد ، ويقف هؤلاء وهم عراة — كما ولدتهم أمهاتهم — على شواطىء النهر معرضين أجسامهم للهيب أشعة الشمس ، ويحملون فى أيديهم قصبات طويلة معلقة فيها شباك ، وينتظر الصيادون فى صبر وأناة حتى تأتى السمكة من تلقاء نفسها لتدخل فى شباكهم . لكن مياه النهر العكرة تمنحهم الثقة منذ بداية الأمر أنهم سوف يحصلون على ثمن صبرهم وأناتهم تلك .

وليست أشجار النخيل وحدها هى التى تشكل زينة لشواطىء النهر ، فثمة أشجار الجميز وهى تعطى للمشهد تنوعاً محبوباً وتمد إلى بعيد ظلها المرتجى ، وقد لاحظنا أن أغصان هذه الشجرة الجميلة تتحرك كلها فى نفس الاتجاه وهو اتجاه الرياح الشمالية الغربية التى تسيطر معظم الأوقات على البلاد .

وقد بنيت فوه فى واحد من أجمل المواقع على شواطىء النيل ، ويصنع أحد أذرع النيل جزيرة فيما قبل هذه المدينة ويشكل الفرع الرئيسى الذى يتجه نحوها بشكل شبه عمودى ترعة واسعة أو قل إنه نوع من لسان البحر الذى يبدو وكأنه قد امتد إلى هنا عن عمد ليقدم مثل هذا المشهد الرائع . وكانت فوه فيما مضى وكما سبق

(١) انظر نفس اللوحة ؛ وكذلك اللوحة ٧٨ ، الشكل ١ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

لنا القول هى المكان الذى ترسو فيه كل سفن أوربا ، لكن المزايا التى كانت تعود إليها ، قد انتقلت كلها إلى مدينة رشيد وذلك منذ أن ابتعد عنها مصب النيل نتيجة لامتداد الدلتا ، ومنذ أن ردمت أو سدت الترع التى كانت تربط ما بينها وبين الاسكندرية . ولقد تضاءلت فوة اليوم لتصبح فى وضع قرية لا تتميز عن بقية قرى الدلتا إلا بجمالها وتنوع أشكال مآذنها ومساجدها العديدة . وشوارع فوة بالغة الضيق ، ويسكن العوالم أحد أحياء هذه المدينة ، وهن أولئك الراقصات اللاتى يمتعن برقصاتهن الشهوانية والخليعة والتى تدور على أنغام موسيقى منفرة ، أثرياء أهل البلاد وكذلك القابعات فى معاقل الحريم .

وما أن غادرنا فُوَّه حتى وصلنا بعد قليل إلى مابين قريتى الشرفا (*) وسرتباى اللتين تواجه كل منهما الآخر على شاطىء النيل ، ثم اجتزنا دسوق وهى قرية كبيرة تقع فى داخل الدلتا ، وبعد مسافة قصيرة من هناك بلغنا مرتفع الرحمانية ، حيث تلوح تلك الترعة التى تتفرع عن النيل لتحمل المياه إلى الاسكندرية .

وعندما كنا نقترب من القرى كان الأهالى يهرعون بفعل فضولهم إلى الشط تملؤهم الثقة ، وقد لاحظنا من بينهم كثيراً من الأطفال ، والفتيات الصغيرات على وجه الخصوص ، وهؤلاء كن عاريات تماماً ، وهو تناقض يبعث على الغرابة مع تلك العادة الصارمة التى سترغمهن فيما بعد على أن يحتجبن بعناية شديدة ، وبشرتهن غامقة اللون بل تكاد تكون سوداء . وفى بعض الأحيان كنا نصل إلى القرب من بعض القرى دون توقع من أهاليها ، عندئذ كانت تسارع تلك النسوة ، اللاتى كن على شط النيل ليغترفن المياه واللاتى كنا سافرات الوجوه ثقة منهن أنهن وحدهن ، يسارعن ما إن كنا يلمحننا برفع ذيل ملابسهن ليخفين وجوههن (١) تاركات بذلك نهباً للرؤية أجزاء من جسم المرأة تخفيها النسوة فى أماكن أخرى بعناية بالغة . ياله من اختلاف يبعث على

(*) لعله يقصد قرية الشراك أو الأشراك وهى إحدى قرى مركز شبراخيت .

(١) انظر الملابس والوجوه ، اللوحة A ، وستجد رسما لإحدى نساء الشعب اللاتى نتحدث عنهم هنا .

الدهشة بين عادات أوربا وعادات إفريقيا ! وقد هيأت لنا هذه الأمور برغم ذلك الفرصة كى نرى تلك القامة الممشوقة والجذابة لنسوة الطبقات الشعبية ولتأمل جمال تكوينهن ، وهو ما يتناقض بشكل غريب مع ملامح وجوههن ، فبشرة النساء شأنها فى ذلك شأن بشرة الرجال تميل للون النحاسى الغامق .

ويحب المصريون الاستحمام حباً شديداً ، وهو ميل طبيعى فى بلد على مثل هذه الدرجة من الحرارة ، وقد شاهدنا ونحن فى طريقنا عددا كبيرا منهم يهرعون إلى النهر ويعومون بمهارة لا تصدق ، وكثيرا ما كانوا يخرجون من الماء ليغطوا أجسامهم بالتراب ، ويظلون لفترة معرضين أجسامهم للأشعة الحارقة ، ثم ينهضون ليغمسوا من جديد أجسامهم فى النهر .

ومع مواصلة طريقنا إلى أعلى النيل كنا نلمح مشاهد طبيعية كانت تشد أعيننا أكثر فأكثر لتغرينا على التطلع ، فقد كنا نرى أماكن شاسعة أرضها قاحلة وليس بها بشر ، ولقد رأينا فى الدلتا على وجه الخصوص سهولا شاسعة غير مزروعة ، يغطيها الكلأ وأعشاب لا جدوى منها ، ولا تحتاج هذه السهول كى تكون منتجة إلا لأيد نشطة وعاملة ، لأن الأرض هناك خصبة وجيدة ، كما أن المياه اللازمة لإنمائها غير بعيدة عنها .

وفى أثناء مرورنا أمام قرية صا الحجر لمحنا سوراً هائلا وتلالا من الأنقاض تعرفنا فيها على أطلال سايس القديمة (١) . وعن طريق سايس وصلنا إلى مرتفعات الفرستق عند فتحة ترعة كبيرة تسمى ترعة شبين الكوم ، وهى تصل ما بين فرعى رشيد ودمياط خلال المنطقة الوسطى من الدلتا .

وفى بعض الأحيان ينحصر النيل داخل مجرى شواطئه العمومية ليرتفع فى أثناء فترة الفيضان التى وصلنا خلالها إلى ما بين ٦ — ٧ أقدام فوق مستوى سطح البحر ،

---

(١) انظر رحلة إلى أعماق الدلتا ، المجلد الثانى ، ص ١١٦ ، الدولة الحديثة (الدارسة الرابعة من هذا الكتاب من الترجمة العربية) ؛ وكذا العصور القديمة الفصل ٢٥

وفى أحيان أخرى لا يعود النهر يعرف لنفسه حدوداً ويمتد إلى بعيد ، وهذا ما أمكننا أن نراه على وجه الخصوص ابتداء من الفرستق حتى قرية نادر عند فتحة ترعة منوف الكبيرة ، التى يمكن اعتبارها بمثابة نهر [١] يربط خلال الجزء العلوى من الدلتا ما بين الفرعين الرئيسيين لنهر النيل .

وفى هذه الفترة من العام والتى قمنا خلالها برحلتنا هذه كان أكبر عدد من الجزر وكتل الرمال يشاهد فى نفس هذه الفترة حقولا كاملة من البطيخ الذى امتدحه كثير من الرحالة وهم محقون فى ذلك ، فهذا البطيخ قد أنقذ منذ وقت قريب حياة عدد كبير من الفرنسيين فى أثناء زحفهم العسير من الإسكندرية إلى القاهرة . أما محصول الذرة فكان فى قمة ازدهاره فى حقوله التى تمتد حول شواطىء النيل .

وقد جنح قاربنا مرات عديدة فى تعريجات النيل حين كانت تأتى الرياح معاكسة لاتجاهنا . عندئذ كان كل البحارة – بعد أن يخلعوا ملابسهم – يلقون بأنفسهم فى المياه ويجرون القارب بالحبال . وطيلة طريقنا كانت تصدمنا قناعة الناس ، فلم نشاهدهم مطلقاً يأكلون إلا خبزاً جافاً أسمر اللون ، يغمسونه فى بعض الأحيان فى ماء مغلى ، وهو ما يشكل نوعاً من الحساء غليظ القوام يأكلونه بأصابعهم .

وبين مسافة وأخرى كنا نلمح على شواطىء النيل أكواخاً صغيرة كان يأتى إليها الرجال والنساء للراحة والاحتماء من لهيب الشمس ، وهى عبارة عن أربعة من فروع الأشجار مغروسة فى الأرض وتوضع فوقها أغصان جافة ، كما كانت تدهشنا تلك الأعداد الكبيرة من قطعان البقر والجاموس التى كنا نلمحها على الشاطىء الآخر . وتحب الجاموس الماء كثيرا وتبقى فيه لمدة طويلة حيث تغمس أجسادها حتى رأسها . ومن المشاهد التى تبعث على الفضول أن ترى قطعانا بأكملها من الحيوانات تعبر النيل أو تستحم فيه ، وكثيرا ما شاهدنا رجالا وأطفالا صغارا يتسابقون فى عبور النهر وكانوا يمسكون تحت أبطهم بحزمة من القرع لتحملهم ، وكانوا يعقدون ملابسهم حول رأسهم كما كانوا يستخدمون أيدهم كمجاديف لتغيير الاتجاه .

وبعد أن استمتعنا بكل هذه المشاهد المتنوعة وبكل ما يلفت الانتباه وصلنا إلى

---

(١) انظر رحلة إلى أعماق الدلتا وكذلك الأطلس الجغرافى .

بطن البقرة ، وهى النقطة التى ينقسم عندها النيل إلى قسمين ليشكل فرعى دمياط ورشيد . ويبلغ اتساع النهر هناك مداه حتى ليظنن المرء نفسه يسبح وسط بحر .

كنا قد لمحنا بالفعل الأهرام الشهيرة عندما كنا مانزال بعد على مسافة أكثر من ثمانية أو عشرة فراسخ ، وما إن كنا نتقدم حتى كانت تبين أكثر فأكثر تلك الهضبة التى تنهض فوقها الأهرام ، ثم ظهرت الأهرام نفسها بمشهدها الطاغى . وفى أثناء رحلتنا هذه نزلنا فى بعض الأحيان من قاربنا وذهبنا نلتمس البطيخ من القرى المجاورة . وقد استقبلنا الفلاحون بحفاوة ، وباعونا بلهفة تلك الفاكهة التى وجدناها لذيذة للغاية فى بلد يكاد يحرقها لهيب الشمس . وفى أثناء جولاتنا تلك خارج قواربنا لمسنا كم أن الشمس حارقة ، كما وجدنا السماء ملتهبة وخانقة بسبب ما كان يقابلنا من لفحات هواء ، بدا لنا ساخناً ، كما لو كان يصدر عن فتحة فرن .

وفى أثناء ذهابنا من بطن البقرة إلى القاهرة لمحنا على الشط الأيمن رجلا وامرأة راكبين فوق ظهر جمل وكان يسير خلفهما أهلهما وأصدقاؤهما ، وهؤلاء بدورهم يركبون الجمال التى كانت بالإضافة إلى ذلك تحمل الأمتعة . لقد كانت زوجة جديدة وكان زوجها يصحبها إلى مسكنه ، وبدا لنا وكأننا نرى ربيكا [١] تسير خلف الخادم العجوز لإبراهيم ، والذى جاء يصحبها لتصبح زوجة لابن سيده [٢] . وفى كل خطوة فى مصر سوف تجد هكذا تلك التقاليد والعادات كما جاءت فى نفس شكلها الساذج والبسيط فى سفر التكوين .

وأخيرا وصلنا إلى بولاق فى الثالث من فريكتيدور فى حوالى الساعة الخامسة مساء ، ويمكن اعتبار هذا المكان بمثابة ميناء للقاهرة ، عاصمة مصر ، والتى سوف تكون بعد قليل موضع فضولنا الذى لا يشبع .

* * *

---

(١) سفر التكوين ، الأصحاح ٢٤ ، الآية ٥١

(٢) سفر التكوين ، الأصحاح ٢٤ ، الآية ٦١

(١٠)
« لانكريه ــ شابرول »

دراسة موجزة عن
ترعة الاسكندرية

يتفرع فرع رشيد [١] ، عند اقترابه من الرحمانية ، إلى ذراعين أساسيين مشكلا سلسلة متتابعة من الجزر ، يبلغ طولها في مجموعها ١٨٠٠ متر ؛ وأهم هذين الذراعين هو الذراع الأيمن ، الذى يظل على الدوام صالحاً للملاحة ، أما الآخر – وقد كان يظل يحتفظ ، حسب شهادة أبناء البلاد بالمياه طيلة العام – فقد غص بالطمى منذ ما لا يزيد على اثنى عشر عاماً على أكثر تقدير ، لدرجة يظل معها هذا الذراع ، منذ ذلك التاريخ ، جافاً لمدة ثمانية أو تسعة أشهر فى العام .

على شواطىء هذا الذراع توجد قرية الرحمانية ، ومن هذا الذراع كذلك ، وعلى بعد ١,٢٠٠ متر إلى الشمال من الرحمانية ترفد ترعة الإسكندرية ، حيث تدخل إليها المياه عن طريق فتحتين ، تعلو كل فتحة منهما بمقدار ٢,٨ من الأمتار فوق منسوب أدنى مياه النهر ، كما تبعد كل منهما عن الأخرى بنحو ٦٠٠ متر . وأدنى هاتين الفتحتين هى فى نفس الوقت أقدمهما ، لكنها قد أهملت لأن أعمال التطهير المتعاقبة قد رفعت من جسورها حتى أن الرياح (اللازمة لتسيير المراكب) لم تعد بقادرة على الوصول إلى القلاع ؛ وهكذا أنشئت الفتحة الثانية كى تقوم مقامها .

وليست ترعة الإسكندرية ، فى الفرسخ الأول من مجراها [٢] ، سوى ما يشبه حفرة يبلغ اتساعها ٥ إلى ٦ أمتار . وقد حفر هذا الجزء من الترعة لربطها بفرع رشيد حين انسد ذلك الجزء من الفرع الكانوبى ، الذى كان يشكل فيما مضى مجرى هذه الترعة الأصلى ؛ ثم يلتقى هذا الجزء (من الترعة) بالفرع الكانوبى القديم على بعد ٢٥٠ متراً من قرية كفر محلة داود ، ولا يفصله عن الترعة إلا جسر يبلغ سمكه فى هذه المنطقة أربعة أو خمسة أمتار .

وبمجرد أن نتقدم إلى ما بعد هذه النقطة ، تصبح الترعة أكثر اتساعاً ، ويصبح

---

(١) قرئت هذه الدراسة بالمجمع العلمى بالقاهرة ، فى الأول من نيفوز من العام الثامن (٢ ديسمبر ١٧٩٩) .

(٢) الفرسخ الذى تقدر به المسافات الكبيرة والذى ورد فى هذه الدراسة هو الفرسخ الذى يبلغ طوله ٢٤٠٠ قامة (وتساوى القامة ٢ ياردة) .

شكلها كذلك أكثر استواء ؛ وتستمر القرى على هذه النحو حتى قرية سماديس ، حيث يبلغ متوسط اتساعها خمسين متراً ، وتظل تحتفظ بهذا الاتساع إلى ما وراء قرية أفلاقه ، أى لمسافة تبلغ نحو الفرسخين ونصف الفرسخ .

وترتفع قمم شواطىء الترعة لأكثر من أربعة أمتار فوق مستوى قاعها ، فى حين لا يبلغ عمق هذا القاع فى حقيقة الأمر سوى متر واحد أدنى من مستوى أرض السهل . ويحمل هذا الجزء من الترعة كل خصائص وسمات الماضى القديم ، إذ نجد عليه مرافىء نصف دائرية ، يبلغ اتساعها ٨٠ متراً ، الأمر الذى لا يمكن أن نشك معه أن كانت تتحرك فى هذه المنطقة أعداد كبيرة من القوارب بالإضافة إلى حركة تجارية بالغة النشاط ، وفى الواقع فإن هذا المكان هو ما يمكن أن يقع عليه اختيارنا اليوم حين نرغب فى تجميع منتجات ولاية البحيرة لكى نرسلها إلى الإسكندرية ؛ وفضلا عن ذلك فهذا المكان يقع بالقرب من قرية كبيرة ، منذ وقت طويل ، نعنى ذلك دمنهور ، التى تشغل اليوم – فيما يبدو – موقع هرموبوليس بارفا القديمة (١) .

وبعد ذلك لا تقدم الترعة شيئاً متميزاً خلال الفرسخين التاليين فيما عدا أن قريتى زاوية غزال وقابيل قد هجرتا الترعة القديمة إلى ترعة حفرت حديثاً بعمق منتظم ، كما أنها قد شقت فى شكل خط مستقيم .

وبعد قابيل نجد أنفسنا فى قرية جد مختلفة عن تلك التى تجاوزناها للتو ، حيث لا نعود نمضى فى سهل خصيب ، مزروع وعامر بالقرى ، بل فى أرض غير مزروعة ، وقرى خربة ، ومدن مهجورة ؛ وقد يكون هذا المشهد أبعث على الرعب من مشهد الصحراء لأننا لا ننسى أنه كان فيما مضى على حالة من الازدهار لم يعد لها وجود .

ويصبح متوسط اتساع ترعة الإسكندرية ابتداء من قابيل ولمدة أربعة فراسخ متوالية عشرين مترا ، وتغدو جسورها فى بعض الأحيان قليلة الارتفاع ، وفى أحيان

---

(١) تمر ترعة الإسكندرية إلى شمال دمنهور بنحو ١٢٠٠ – ١٥٠٠ متر ؛ وتحصل هذه المدينة على مياه النيل عن طريق ترعة خاصة تمضى لتنتهى إلى ترعة الإسكندرية ، إلى الجنوب قليلا من قرية أفلاقة .

أخرى تعلو هذه الجسور لتبلغ أكثر من ثمانية أو عشرة أمتار ؛ وهذا الجزء من الترعة هو أجمل أجزائها وأكثرها تماثلا وانتظاماً سواء من ناحية العرض أو ناحية العمق ؛ وتحتفظ الترعة فى الفرسخ التالى ، أى عند للوحا (*) بنفس العرض ونفس التماثل والانتظام الذى كان لها قبل ذلك على وجه التقريب ، لكن السهل المحيط بها يأخذ فى الانخفاض شيئاً فشيئاً بحيث يصبح قاع الترعة على نفس مستوى سطح هذا السهل ، بل إننا نجد القاع فى أماكن عدة يرتفع عن منسوب سطح السهل نفسه ، ولا تعود الزراعة لتصبح تحت مستوى سطح السهل إلا قبل الإسكندرية بنصف الفرسخ .

وبعد للوحا مباشرة تتسع الترعة بشكل مفاجىء لمسافة تبلغ نصف الفرسخ ، فيبلغ عرضها مائة إلى مائتين بل ثلاثمائة وخمسين متراً فى حين لا يكاد يبلغ ارتفاع جسورها المترين ؛ وهذه الجسور ضعيفة لحد أن المياه تتسرب من خلالها ؛ وتضيق الترعة بعد ذلك كثيرا فلا يعود يبلغ عرضها عند المرور بالبيضا أكثر من خمسة أمتار ، وهناك تهدد الجسور التى يبلغ ارتفاعها أكثر من سبعة أمتار ، والتى تغطيها رمال متحركة ، بطمس الترعة بشكل تام . وفى هذا المكان ، تسير الترعة على مسافة تبلغ فى المتوسط نحو المائة متر من بحيرة أبى قير ، ثم تبتعد عنها بعد ذلك ، لتتخذ ولمدى فرسخ واحد نفس الانتظام والاتساع اللذين كانا لها عند للوحا ؛ ثم تقترب الترعة من البحيرة عند طرفها الغربى ، وتضغط عليها عن قرب حتى لا يعود يفصلهما سوى جسر حجرى يبلغ سمكه من ستة إلى سبعة أمتار . ويقوم حائط سميك آخر ، يبتعد عن الأول بخمسين مترا ، بدور الجسر من جانب السهل ؛ وهذا المكان الذى يعرف باسم البوصة بسبب تلك الكمية الهائلة من البوص (الغاب) الذى ينمو فيها بكثرة ، هو أكثر مناطق الترعة انسدادا لأن الأتربة الناتجة عن عمليات التطهير السنوية كانت تلقى على الدوام ، ذات اليمين وذات الشمال فى داخل الجسور ذاتها .

وبدءا من طرف البحيرة ، تجتاز الترعة أرضا تقطعها مستنقعات مالحة ،

(*) للوحا أو للوها Lelôha ويذكر القاموس الجغرافى لوصف مصر أنها قرية خربة ومهجورة كما سبق لنا القول (المترجم) .

تغطيها طبقة من الملح يبلغ سمكها ١٠ – ١٢ سم ، ثم تمر بعد ذلك وسط دغل من أشجار النخيل يمتد لمسافة نصف الفرسخ ، تاركاً عن يمينه عددا كبيرا من الآبار ، يحمل بعضها طابع البنايات اليونانية أو الرومانية ، وإن كان معظمها قد شوهته الترميمات التى أدخلت عليه فى الأزمنة الحديثة ؛ وتحيط بهذا الجزء من الترعة ، وهو الجزء القريب من الإسكندرية ، من جهة اليمين ، أكوام تغطيها بيوت خربة ، هجرها منذ سنتين أو ثلاث سنوات ، العرب ، وقد كانوا آخر سكانها ، وهناك نجد بالمثل جذوعاً عديدة لأعمدة من الجرانيت بالإضافة إلى قطع من الفتات والحطام ، تنتمى لعمارة الإغريق الذين أنشأوا ، وجملوا فى الوقت نفسه ، هذه المنطقة من أرض مصر .

ويصبح عمق الترعة على مسافة نصف فرسخ من الإسكندرية أكثر انخفاضاً بقليل عن مستوى سطح البحر ، لكنها بدءا من هذا المكان ، وحتى سور العرب تمر بمنحدر عكسى ، أى أنها ترتفع مع اقترابنا من هذا السور .

وفى النهاية تستدير ترعة الاسكندرية ، وقد بلغ اتساعها الآن ٢٠ – ٢٥ مترا ، حول سفح تل ينهض فوقه عمود سفيروس ؛ وبعد ذلك مباشرة تصبح بالغة الضيق ، ثم تمر من خلال سور العرب (*) لتبلغ نهايتها فى الميناء القديم ، فى شكل مجرى أو مجرور .

ويبلغ الفرق بين أعلى وأدنى مياه للنيل عند مدخل ترعة الاسكندرية ، نحو أربعة أمتار فى السنوات المعتادة ؛ كما يبلغ متوسط عمق المياه فى هذه الترعة ، حينما تصل إلى أقصى ارتفاع لها نحو ١,٦ مترا .

وتصبح الزيادة السنوية لمياه النيل محسوسة عند الرحمانية ، فيما بين ١٠ و ٢٠ يوليه ؛ ونحو نهاية الشهر التالى تبلغ هذه الزيادة مدخل ترعة الإسكندرية وتستغرق المياه شهرا كاملا لكى تقطع هذه الترعة ، إذ يبطىء من مسيرة المياه عدم الاستواء فى انحدار الترعة ، وكذلك ، وبصفة خاصة بسبب تعرجاتها العديدة ، لذلك يبلغ طول

(*) انظر دراسة عن مدينة الإسكندرية ، تأليف جراتيان لوبير ، وهى الفصل الأخير من كتابنا هذا .

امتدادها عشرين فرسخاً ، على الرغم من أن المسافة بين طرفيها لا تصل لأكثر من خمسة عشر فرسخاً ؛ وهكذا لا تصل المياه إلى الإسكندرية إلا فى نحو العشرين من سبتمبر ؛ وحيث يلاحظ انخفاض مياه النيل عند الرحمانية ابتداء من الخامس من أكتوبر ، فإنه يترتب على ذلك أن الملاحة فى الترعة لا يمكن لها أن تدوم لأكثر من عشرين أو خمسة وعشرين يوماً .

وحين تصل المياه إلى الإسكندرية ، تدخل فى أربع قنوات تحت أرضية ، تتوزع مداخلها بطول نصف الفرسخ الذى يسبق مصب ترعة الإسكندرية .

وتمضى المياه عن طريق هذه القنوات إلى خزانات ، وترفع منها عن طريق السواق إلى مجار هندسية تتولى توزيعها على آبار وخزانات المدينة المختلفة . وتدار هذه السواق ، ويصل عددها إلى ٧٢ ساقية ، بواسطة خيول وثيران تلتزم ولاية البحيرة بتوفيرها كل عام ، لهذا العمل (١) .

ومنذ زمن ليس بالبعيد كان عدد الخزانات التى تستقبل المياه يصل إلى ٣٦٠ خزاناً ، لكننا الآن لا نجد أكثر من نحو ٣٠٨ خزانات ، وقد ينخفض هذا العدد سريعاً لأن بناء هذه الآبار يعود إلى زمن ضارب فى القدم ، كما أنه لم يجر أى ترميم لها منذ زمن طويل ، كذلك كان يوجد عدد أكبر من القنوات الفرعية ، لكنها بعضها قد انسد ، فى حين لا يفضى بعضها الآخر إلا إلى بعض الحدائق الخاصة .

ولا يقفل مصب الترعة مطلقاً فى الميناء القديم أثناء العمل على ملء الخزانات . ذلك أن المنحدر العكسى الذى تحدثنا عنه ، يحول دون تدفق المياه عن طريق هذا المنفذ بكميات أكثر مما ينبغى ، أما المياه التى تفيض عن ذلك فتستخدم فى تموين السفن .

وعندما تكون كل خزانات مياه الإسكندرية قد امتلأت على نحو كاف ، فإنه

---

(١) ينبغى رفع المياه لارتفاع عشرة أمتار حتى تصل إلى الخزانات الموجودة ناحية باب رشيد ، ولارتفاع خمسة أمتار فقط لكى تصل إلى الخزانات الواقعة بالقرب من الميناء القديم .

يسمح لسكان القرى الواقعة على ضفاف البحيرة بقطع جسورها ، لرى أراضيهم أو لملء خزاناتهم ، على حد سواء .

وينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر ، الفلاحون الذين يقطنون القرى الواقعة على شط الترعة الأيمن فى جزئها الأعلى ، والذين تروى حقولهم ترع أخرى ، لكى يقطعوا جسور ترعة الإسكندرية حتى يصرفوا إليها على وجه السرعة المياه التى ظلت فوق أراضيهم وحتى يجففوها على وجه السرعة ، وفى الوقت الذى نجد فيه هؤلاء مضطرين لتصريف هذه المياه إلى الترعة ، فإن هذه المياه نفسها سوف تستخدم فى رى الأراضى الواقعة فى الجزء الأدنى من الترعة والتى لا ترويها مياهها بالقدر الكافى . ولا تسمح الفيضانات الكبرى إلا برى جزء من الأراضى ، أما فى حالة الفيضانات العادية فتبقى الأرض دون زراعة ، ويهجر الفلاحون مقارهم لكى يذهبوا باحثين عن عمل فى المدن أو القرى الكبيرة ، منتظرين إلى أن يروى النهر حقولهم كى يعودوا إلى قراهم .

لقد حفرت هذه الترعة دون شك بأقل قدر من العناية ؛ وينبغى لنا أن ننسب هجر شواطئها إلى ضآلة كميات المياه التى تحملها الترعة كل عام ، ذلك أن الأرض هناك قابلة للزراعة لحد كبير ، فتربتها هى نفس التربة فى بقية أنحاء مصر ، وإن كانت الرمال – للحقيقة – تغطيها فى بعض أنحائها ، وقد كان ذلك نتيجة لعزلة هذا الإقليم ، وليس سبباً لها .

وتحت حكم المماليك ، كان يعسكر أحد الكشاف من حامية ولاية البحيرة ، على شواطىء الترعة ، ابتداء من اللحظة التى تدخل إليها فيها المياه ، وحتى الوقت الذى تمتلىء فيه خزانات الإسكندرية ، وكان الهدف من ذلك ، هو منع عربان الصحراوات وكذا الفلاحين ، من إحداث قطوع فى جسورها ، ولكى يقوم هذا الكاشف بنفسه بإصلاح هذه الجسور إذا ما أنذرت كميات المياه الكبيرة للغاية بقطع بعض أجزاء من الجسر . وحالما تمتلىء خزانات الإسكندرية ، كان يدخل (هذا الكاشف) المدينة لكى يتأكد من حدوث ذلك ، ويقوم بذلك ، وبناء على طلب

منه ، كل من قائد المدينة والقاضى والعلماء ؛ وبعد ذلك كانت تملأ جرة من مياه هذه الخزانات ، وتقفل بواسطة الذين أشرفوا على هذه العملية ، وترسل إلى حاكم القاهرة ، وبرفقتها حجة تؤكد لهذا الحاكم أن المياه فى حالة طيبة ، وأن الخزانات قد امتلأت .

وبعد أن تعرفنا على ما يسمى اليوم بترعة الإسكندرية ، وعلى النظام الذى تخضع له مياهها ، فسوف نتناول بإيجاز حالتها القديمة ثم نلقى بنظرة سريعة على صلاتها بالتجارة والزراعة ، وفى النهاية سوف نتحدث عن الإصلاحات التى تتطلبها والتى لابد منها ، وعن التحسينات التى يمكن إدخالها عليها .

لم يبق من أثر يدل على أن ترعة ما قد حملت مياه النيل من بحيرة ماريوتيس إلى المنطقة التى تشغلها الإسكندرية . ويبدو أن سكان حواشى راكوتيس ، وكذلك الحامية التى كان ملوك مصر يحرصون على وجودها هناك ، كانوا يحصلون على المياه الصالحة ، وبالقدر الكافى من الحفر التى كانوا يحفرونها هناك على شاطىء البحر . ومن المعروف أن قيصر ومعشوقته ، حين كانا محاصرين بالإسكندرية ، قد اقتصرا لوقت طويل على هذا المصدر الوحيد للمياه . وقد يكون بالإمكان اللجوء إلى هذه المياه ، فى أيامنا هذه ، إذا اقتضت الأحوال ، وقد تمت (بالفعل) تجارب للتأكد من صلاحيته .

ومع ذلك ، فإذا لم تكن شواطىء ماريوتيس تزرع قبل الإسكندرية ، فإننا لا نستطيع أن نشك فى أن جزءاً من السهل الواقع بين الإسكندرية ودمنهور كان يروى ويزرع بصفة مؤكدة على يد قدماء المصريين ، إذ لا يزال المرء يجد هناك فتات كتابات هيروغليفية تدل على أنهم أقاموا المنشئات هناك ، فنجد فى قرية أفلاقة ، كما فى قرى أخرى ، أن باب إحدى الطواحين يزدان فى تناسق بثلاثة أحجار منحوتة ، ويحمل أكثر هذه الأحجار أهمية ، رسماً لإيزيس وهى منكفئة ، بحجم يبلغ ست ديسمترات ؛ تغطى رأسها بجلد نسر ، وتمسك بيدها تلك العصا التى تنتهى بزهرة اللوتس . وقد حفظت هذه الشقفة من الحجر الجيرى بأكبر قدر من العناية ؛ وقد نقش هذا الرسم بحروف بارزة فوق التجويف ، بنفس العناية ، وبنفس التفاصيل التى نجده

عليها فوق جدارن معبد دندرة [١] .

أما الرأى القائل بأن هذه الترعة إنما هى نفس الترعة التى حفرت بعد تأسيس الإسكندرية ، حينما تقدمت المدينة وازدهرت بشكل عام ، فنحن نعتقد أن علينا أن نجرى حول هذا الرأى أبحاثاً عديدة .

نعرف عن طريق الشهادات الموضوعية لسترابون ، أن المرء عند خروجه من الإسكندرية عن طريق باب كانوب ، كان يجد يمينه ترعة تحمل هذا الاسم ، توازى شاطىء البحر ، وعلى مسافة قريبة منه . ولقد كان لهذه الترعة منفذ على بحيرة ماريوتيس فى الوقت الذى لم يكن لها فيه بالتأكيد مثل هذا المنفذ بالقرب من كانوب الواقعة على شاطىء البحر ، لكن هذه الترعة كانت تحصل على مياه النيل عن طريق ترعة ترفد عن الفرع الكانوبى بالقرب من شديا ، وعلى مسافة قصيرة من فم النيل ، ماذا يمكن إذن أن يكون ذلك الدافع الذى حدا بالمهندس المعمارى دينوكراتوس لكى يشق ترعة يبلغ طولها ١٨ فرسخاً فى حين قد كان بمقدوره الحصول على المياه من جوار كانوب عن طريق ترعة لا يتجاوز طولها ستة أو ثمانية فراسخ ، فقط ؟

وبلا جدال ، فلقد كانت ترعة كانوب هذه ، هى الترعة الوحيدة التى تحمل إلى الإسكندرية المياه المخصصة للشرب ، ذلك أننا لو افترضنا أنه كان من الضرورى – وقد أصبحت هذه المدينة أكثر مدن مصر ازدحاماً بالسكان – شق ترع أخرى ، بدءاً من قمة الدلتا ، كى تزيد من كمية المياه الصالحة للشرب فى الإسكندرية ، لكان علينا كذلك أن نقر بأن هذه المياه لم يكن بمقدورها الوصول إلى المدينة إلا بعد أن تتجمع إلى المياه التى كانت تحملها ترع شديا أو كانوب ؛ وبمعنى آخر ، فقد كان على هذه المياه أن تجتاز بحيرة ماريوتيس ، حيث كانت بالضروة سوف تفسد .

ومع ذلك فلعل ذلك الجزء من الترعة الحالية ، الواقع بين قرية الكريون

---

(١) انظر المجلد الخامس ، مجموعة العصور القديمة .

والمستنقعات البحرية التى تحدثنا عنها ، هو ما تبقى من إحدى هذه الترع التى كانت تهدف إلى زيادة كمية المياه فى ترعة كانوب . وهذا الجزء يدور حول الموقع القديم لبحيرة ماريوتيس . كما أن قاعه أعلى بكثير من مستوى سطح السهل . وهكذا ، فيما يبدو لنا ، يحتمل أن يكون القوم قد أنشأوا بالقرب من المياه المالحة ، ترعة خصصت لنقل المياه اللازمة لاحتياجات الحياة .

ومن جهة أخرى ، فقد كان يصل إلى بحيرة ماريوتيس ، طبقاً لشهادة سترابون ، عدد كبير من الترع أو القنوات التى رفدت عن الأجزاء العليا من النهر ؛ وكانت واحدة منها تمر بهرموبوليس بارفا ، وقد سبق لنا أن لاحظنا أن الترعة تحمل طابع الماضى فى المنطقة المجاورة لهذه المدينة التى تسمى اليوم دمنهور . وهكذا فلسنا نشك أن العديد من الترع القديمة كان يتصل ببعضه البعض على التوالى ، لتتكون فى النهاية تلك الترعة التى بقيت حتى اليوم ، ويمكن لذلك أن يفسر لنا سر الالتواءات الغريبة والكثيرة وسبب كثرة مرات عدم الاستواء التى تعانى منها هذه الترعة ، فى حين أنها تخترق أرضاً يمكن لها فيها أن تتخذ شكل الخط المستقيم ، مع أكبر قدر من الانتظام والاستواء .

ويقودنا تاريخ ترعة الإسكندرية إلى التصدى لموضوع آخر ، ليس غريباً عن ذلك الذى نعالجه .

نحن نعلم عن طريق قصة حرب قيصر فى الإسكندرية أن جزءاً من هذه المدينة كانت تعبره ترعة تفى مياهها باحتياجات جزء كبير من شعب الإسكندرية ؛ ذلك أن أثرياء المدينة والذين يرتبطون بهم لم يكونوا ليكتفوا بمياه الخزانات أو الآبار . وقد ظن بعض النقاد أن هذه الترعة كانت هى نفسها التى تربط – فى ذلك الوقت – بحيرة ماريوتيس بميناء كيبوتوس ، دون أن يأخذوا فى اعتبارهم ، أنه حتى بافتراض أن مياه هذه البحيرة قد أصبحت صالحة للشرب عن طريق هذا العدد الهائل من الترع النيلية التى تصب فيها ، لكانت هذه المياه تميل بالضرورة للملوحة فى الترعة التى تحملها إلى البحر ، ذلك أن هذه الترعة كان لابد أن لها أن تكون واسعة ما دامت قد كانت

صالحة للملاحة . وفضلا عن ذلك فقد كان التعبير الذى أطلقه هيرتيوس (١) Hirtius ، والذى أطلق فيه اسم نهر النيل على الترعة التى كان الناس يشربون منها لم يكن مما يحبذه أولئك الذين يعتقدون أن هذه الترعة إنما كانت ترفد عن بحيرة ماريوتيس . هكذا نجد أنفسنا مدفوعين إلى الاعتقاد بأن المياه التى كان يستعملها القوم إنما كانت تستمد من ترعة كانوب هذه ، والتى تحدثنا عنها فيما سبق .

وقد نضيف بأن هذا الرأى لا يتعارض مطلقاً مع رواية هيرتيوس حول وضع قيصر حين كان محاصراً بالإسكندرية ، والذى لم يكن – كما هو معروف – يبسط نفوذه على الحى الذى تخترقه الترعة المسماة نهر النيل ، فهذه الترعة التى نحن بصددها ربما لم تكن – فى واقع الأمر – تمر بحى القصور التى يملكها قيصر ، ولابد أن هذه الترعة كانت تخترق المدينة بين سورها الجنوبى والشارع الطويل ، كما لابد أنها كانت تصب مياهها عن طريق فتحة ضيقة فى تلك الترعة التى كانت تربط بين بحيرة ماريوتيس وميناء كيبوتوس .

وهكذا نرى من وصف ترعة الإسكندرية أنها لم تعد محاطة فى الجزء الأكبر من مجراها إلا بخرائب وصحراوات ، ومع ذلك فلما تكد تمضى أكثر من ٤٦٠ عاماً منذ ذلك الوقت الذى كانت لاتزال هذه المنطقة فيه تتحلى بكل ثروات مصر . وأنقل هنا فقرة عن الكاتب العربى أبى الفداء الذى كان يعيش فى هذه الفترة ، حيث يقول فى البداية عند حديثه عن الإسكندرية :

« ويجلب إليها القمح من الخارج ، فالحقول الميحطة بها قاحلة لأن أرضها مشبعة بالملح » .

ثم يقول فى الهامش :

« تقع الإسكندرية داخل جزيرة رملية ، شكلها كل من البحر وترعة الإسكندرية ، وهذه الجزيرة التى يصل طولها لأقل بقليل من مسيرة يوم واحد ، مزروعة

---

(١) De Bello Alex. Cap. V

بالكروم ، وتزدان بالحدائق ؛ وعلى الرغم من أن الأرض لا تتكون إلا من الرمال فإن مظهرها مع ذلك لا يخلو من جمال . وتقدم الترعة التى تحمل مياه النيل إلى الإسكندرية مظهراً منعشاً ؛ ويزدان مجراها بالحدائق والبساتين على جانبيها » .

ولكى نتفهم هذين النصين من أبى الفداء ، واللذين يبدوان متعارضين لأول وهلة ، فلابد أن نلاحظ أن النص الأول يتعلق بذلك الجزء من السهل الذى يقع على يسار الترعة ، والذى يتشبع بالفعل بالملح البحرى ، حيث كان يقع فيما مضى ، تحت مياه بحيرة ماريوتيس . أما النص الثانى ، فإنه ينطبق على كل الفراغ فيما بين الشط الأيمن للترعة والبحر ، ولم تكن هذه الأرض – فى معظمها – فى ذلك الوقت تغطيها المياه ، كما هى اليوم : لأن بحيرة أبى قير ، التى لا يصح أن نخلط بينها وبين بحيرة إدكو (المعدية سابقاً) لم تكن قد نشأت بعد (١) .

ولا يمكن للمرء الشك فى أن شواطىء ترعة الإسكندرية لم تكن بالغة الازدهار حتى وقت سيطرة العرب على هذه المدينة . وتدل القناطر الأربع التى شيدوها بطول الفرسخ الذى يسبق الإسكندرية ؛ على أن الحاجة للاتصال بين شط وآخر ، فى زمنهم ، كانت ملحة ، وقد خربت القنطرة الأقرب إلى السور العربى ، وقد شيدت الثلاث الأخريات على نفس النمط ، فهى تتكون من قوس واحد على النمط القوطى ، شاهق العلو ، بسبب احتياجات الملاحة .

وقبل أن نتحدث عن الأعمال التى تتطلبها ترعة الإسكندرية ، سنعرض للدوافع الأساسية التى ينبغى أن تحثنا على صيانتها .

---

(١) لم توجد بحيرة أبى قير بشكلها الحالى إلا منذ عام ١٧٧٨ أو ١٧٨٠ ، وقبل هذا التاريخ ، كان ثمة سد حجرى ، لايزال جزء منه باقياً حتى اليوم ، كان يمنع المياه من التوغل داخل الأراضى ؛ وإذ قطع هذا الجسر دون أن يسعى القوم لإصلاحه فقد غمرت مياه البحر كل السهل الأدنى من منسوبها هى ، وتكونت بحيرة أبى قير ، وقد غرق كثير من القرى نتيجة هذه الكارثة .

وعند حوالى بداية القرن الأخير قطع هذا الجسر بفعل إعصار ، كما يقص علينا بول لوكاس Paul Lucas ، لكنه أصلح بعد ذلك بقليل .

تعد ترعة الإسكندرية أكثر تلك الترع ، التى لابد أن ينشغل بها حكام مصر ، أهمية ، بعد ترعة السويس ؛ إذ تغدو حلقة لا غنى عنها لتلك التى قد تربط البحر الأحمر بالنيل ، ذلك أنه أيا كانت النقطة التى ستنتهى إليها الترعة الأخيرة ، فلسوف يكون من اللازم أن تصل السفن التى تبحر فيها إلى الإسكندرية ، وسيكون من الحرص أن نجعل هذه السفن تصل إلى هناك عن طريق ترع داخلية ، بدلا من أن نسلمها فى معظم الأحيان إلى بحر هائج ، أو أن نعرضها فى أوقات الحرب لعمليات العدو ؛ وقد أدرك الإغريق كل هذه الأسباب ، ولذا كانت تتم التجارة فى عهدهم عن طريق بحيرة ماريوتيس ، التى كانوا يفضلون موانيها على موانىء البحر الأبيض المتوسط . ومع ذلك فإن ترعة الإسكندرية – بعيداً عن مشروع قناة السويس – تتمتع فى حد ذاتها بأهمية كبيرة وتستحق أن نوليها القدر الأكبر من الاهتمام ؛ وفى واقع الأمر ، ومهما تكن الوسيلة التى قد ترسل بها سلع الهند والبحر الأحمر إلى مصر عن طريق السويس أو القصير ، فلابد أننا ندرك أن على هذه السلع أن تتجه على الدوام إلى الإسكندرية لكى تشحن من هناك على سفن توزعها على كل أوربا . وبمعنى آخر ، فإن الأسباب التى ذكرناها للتو عن ضرورات النقل الداخلى ، تحتم كذلك أن تغدو الإسكندرية صالحة للملاحة طيلة العام ؛ وفضلا عن ذلك فسوف يكون هذا المشروع مصدر ازدهار لمصر ، فلسوف يعود إلى الزراعة جزء هام من أرض أفقدها إياه الإهمال الإجرامى من جانب حكامها ، ولسوف نرى من جديد شواطىء هذه الترعة – وهى اليوم جافة ومهجورة – وقد استعادت خصوبتها التى كانت لها فيما مضى ، ولسوف تفى هذه الظروف بشكل يدعو للإعجاب بالاحتياجات الجديدة للإسكندرية التى سيزيد نشاطها مع زيادة عدد سكانها ، والتى لن تمتص – مع ذلك – الجزء الأكبر من منتجات مصر فى الوقت الحاضر .

ومهما تكن المضاربات التى سوف تستهدف الترعة التى نتحدث عنها ، فإن مدينة الإسكندرية ضرورية للغاية لمصر وللحد الذى لا يمكن معه أن تترك حتى تفقد اتصالها بالنيل ، ولو للحظة واحدة .

وقد سبق لنا القول بأن ثمة جسراً حجرياً عند طرف بحيرة أبى قير ، يبلغ سمكه من ٦ إلى ٧ أقدام ، يفصل البحيرة عن البحر ، وعلى الرغم من أن هذا الجسر قد بنى حديثاً ، إلا أنه قد بنى بشكل متين بعض الشيء ، وإن كان لا يلقى أى قدر من العناية ، لذا فإنه يتدهور ، وسوف تترتب على تصدعه سلسلة من الأحداث الخطيرة ، فحيث أن مياه البحر أكثر إنخفاضاً من مياه الترعة ، فإن مياه الترعة ستنصرف كلية إلى البحر ؛ وأكثر من ذلك ، فلو جاء هذا التصدع نتيجة لإعصار يمكن أن يجتاح الجسر الثانى للترعة ، فإن مياه بحيرة أبى قير عندئذ سوف تزحف على كل السهل الذى كانت تشغله فى الماضى بحيرة ماريوتيس ، والذى لايزال – حتى اليوم – أدنى من مستوى سطح البحر ، وبذلك سوف تجد الإسكندرية نفسها ذات يوم فوق برزخ بالغ الضيق ، كما كان حالها عند وجود هذه البحيرة ، ولكن مع فارق واحد ، هو أنه لن يكون بالمستطاع إيصال مياه النيل إليها (١) .

ينبغى إذن إعادة إنشاء الجسور التى تفصل البحيرة عن الترعة ، بل لابد من بناء جسور جديدة فى كل المناطق التى يمكن لها أن توحى ببعض المخاوف ؛ بل ربما كان من الأحوط والأيسر أن نبعد الترعة عن البحيرة . ولن يكون الأمر فى هذه الحالة باهظ التكاليف ،فحيث أن السهل الذى تخترقه الترعة بالغ الانخفاض ، كما سبق لنا القول ، فقد يكون كافياً أن نقيم الجسور فتتكون الترعة ، وأخيراً ، فإننا إذا أعدنا إقامة الجسر الذى يفصل البحيرة عن البحر ، أو على الأقل ، إذا حرصنا ألا يتهدم لأكثر مما هو عليه الآن ، فلن يكون علينا أن نخشى الأحداث التى يمكن أن تتسبب فيها التحركات الكبرى للمياه .

وبلا جدال ، فلن يكون بالإمكان ، فى سنة واحدة ، القيام بكل الأعمال اللازمة ، لكى يمكن أن تظل ترعة الإسكندرية صالحة للملاحة بشكل دائم ؛ وإن

---

(١) تحقق هذا القصور للأمور بفعل الأحداث ، وذلك عند حصار الإنجليز والأتراك للإسكندرية فى عام ١٨٠١ ، حين قطعوا جسور الترعة ، فزحفت إلى السرير القديم لبحيرة ماريوتيس ، مياه بحيرة أبى قير والبحر الأبيض المتوسط .

كان من المستطاع إدراة هذه الأعمال بحيث يمكن لها – منذ السنة الأولى – أن تعود بفوائد جمة . وهكذا يتيسر خلال عام واحد تسيير الملاحة لمدة ثلاثة شهور فى العام التالى ، وقد يكفى لإتمام هذا المشروع مبلغ لا يتجاوز ٢٦٠ ألف فرنك . وإليكم كيف يمكننا الحصول على هذه النتيجة .

لقد أوضحت لنا عملية تفدين تمت للفراسخ الثمانية الأول من الترعة بدءا من الرحمانية ، أن انحدار الترعة فى هذا الجزء كبير للغاية بحيث لا تعانى الترعة بعد ذلك من أى انحدار فى بقية مجراها . وهذا الانحدار هو نتيجة لترسيبات الطمى السنوى ، وهى كبيرة للغاية عند الرحمانية ، فى حين تقل عن ذلك كثيراً بالقرب من الإسكندرية ؛ لذلك فقد يكفى أن يتم العمل فى الثمانية فراسخ الأول ، بالحفر لعمق مترين ونصف المتر عند مدخل الترعة مع إنقاص هذا العمق بشكل يتناسب مع المسافة التى تكون عليها من هذا المدخل ، بحيث نصل بعد هذه الفراسخ الثمانية إلى نفس مستوى قاع الترعة ؛ وبتنفيذ هذه العملية ، بعرض يبلغ عشرة أمتار ، يكون علينا أن نرفع ٤٦٨ ألف متر مكعب من الأتربة ؛ فإذا أضفنا إلى ذلك ١٣٢ ألف متر مكعب أخرى لأعمال تقتضيها بعض أجزاء الترعة وبخاصة أقرب هذه الأجزاء إلى بحيرة أبى قير ، يكون جملة الركام الذى علينا أن نرفعه هو ٦٠٠ ألف متر مكعب ، تتكلف مع تقدير تكاليف رفع المتر المكعب الواحد من الركام ١٢ مدينى ، شاملة كل المصاريف اللازمة ، ما جملته ٢٦٠ ألف فرنك ،أما الوقت اللازم لتنفيذ هذا العمل فسوف لا يزيد عن ١٥٠ يوماً إذ سيكون بالإمكان جمع ٢٧٠٠ عامل ، يرفع كل منهم دون شك أكثر من متر ونصف المتر المكعب فى اليوم الواحد ؛ وفضلا عن ذلك فلن يكون بمقدور الفلاحين أن يتفرغوا لذلك العمل لأكثر من ١٥٠ يوماً خلال الفترتين الواقعتين بين موسمى البذار والحصاد ، ثم بين موسم الحصاد والفيضان .

لن ندخل فى كل التفاصيل المتعلقة بالشروط التى لابد من توفيرها فى مناطق بعينها من الترعة كى تصبح الملاحة فيها أكثر يسرا ، لكننا قد نلاحظ فقط أنه ينبغى أن نفعل كل ما يلزم حتى يكون من المستطاع صعود الترعة وهبوطها على حد سواء وفى

كل الفصول – مع ملاحظة أن المجرى العام للترعة يتجه بصفة عامة من الشرق إلى الغرب وأن الرياح التى تسود فى هذه المنطقة تتجه على الدوام من الشمال إلى الجنوب – مما يقتضى منا أن نحرص على ألا يمضى أى من انحناءات الترعة داخل الاتجاه . أما عن فتحة الترعة ومصبها فلابد من إحداث تغييرات لا مفر منها ،وهذا ما نحن بسبيلنا إلى توضيحه .

لعل التغيير الذى ينبغى أن ندخله على منبع الترعة هو أن ننقله قريباً من معقل الرحمانية ؛ فهذا الموقع ، الذى تظل المياه فيه على عمق ثلاثة أمتار ، فى الوقت الذى يقل فيه هذا العمق عن ذلك فى أماكن أخرى ، قد يصبح بقليل من الجهد مرفأ واسعاً ومناسباً ، كما سيكون قريباً من جزيرة قد نجدها مواتية للغاية لإقامة المخازن الضرورية لمثل هذه الملاحة . أما العقبات التى ينبغى تجنبها بأكبر قدر من العناية فى تلك المسالك الجديدة التى نسعى لتقديمها للملاحة فهى عمليتا الشحن والتخزين المستمرة والتى تتسبب فى حدود تأخيرات على الدوام ، والتى تقتضى كذلك إنشاء الجمارك وفرض المكوس على السلع نتيجة لذلك . ولهذا السبب فقد يلزم أن تتصل الترعة بالبحر حتى لا نضطر لأن ننقل برا هذه السلع التى نجلبها عن طريق الترعة ، ولكننا قبل أن نتبين موقع المرفأ الذى سيغدو مناسباً أن تنتهى الترعة إليه ، فإننا نعيد إلى الأذهان أن القوم ، حين عمل الاسكندر على ربط جزيرة الفنار بالأرض الصلبة ، وأعطى الإسكندرية بذلك مينائين ، قد لمسوا الحاجة إلى جعل هذين المينائين يتصلان فيما بينهما حتى تستطيع السفن أن تخرج فى كل الفصول على وجه التقريب ، فتركوا لهذا الغرض فتحتين عند الهبتستاديوم Heptastadium ، وقد أقفلت هاتان الفتحتان حين اتسعت الهبتستاديوم بفعل أعمال الردم ، حتى شملت المدينة الحديثة فيما شملت ، وكما هو معروف ، موقع هذا الطريق أو الممر القديم .

وحيث تظل الحاجة إلى وجود إتصال فيما بين المينائين هى نفسها على الدوام ، فنحن نظن أننا حين نحدث قطعاً واسعاً يربط بينهما ، فلابد لنا أن نجعل ترعة

الإسكندرية تنتهى إلى هذا القطع نفسه بطريقة تجعلها مرتبطة بالمينائين ، بحيث تخترق المدينة الحديثة باتجاه طولى .

ومن جهة أخرى فإن الوجود الدائم لمياه النيل فى الإسكندرية سوف يغدو فى حد ذاته ذا ضرورة مطلقة فى حالة افتراض ازدياد حجم سكانها ، إذ أن كميات المياه التى تحويها كل خزانات المدينة لا يمكنها أن تكفى – على أكثر تقدير – إلا لمدة عام ونصف العام ، للعدد الحالى من سكانها .

وفى الحقيقة ،فإن مصباً جديداً لمياه النيل قد يضعف لحد كبير فرع رشيد ، الذى تختلط فيه بالفعل مياه البحر (بمياه النيل) لمسافة أربعة أو خمسة فراسخ إلى جنوب مصبه ؛ ومع ذلك فإلى جانب أن بمقدورنا على الدوام أن نزيد من (اندفاع) مجرى للنيل بتضييق فتحات مصابه على البحر ، فسوف نتحكم على الدوام فى مجرى الترعة بحيث لا نعطيها سوى كميات المياه الكافية لاحتياجات الناس ولمراعاة المتطلبات الصحية ؛ كما أن هويساً يقام عند منتصف طولها وآخر عند طرفها نحو الميناء ، قد يكفيان لمنع ضياع المياه الزائدة (عن الحاجة) ، بل إن الهويس الموجود عند الطرف قد يكفى وحده للوفاء بنفس هذا الغرض ، وإن كان ينبغى أن تكون أبوابه بالغة الارتفاع ، كما لابد أن تكون الجسور بالمثل شديدة العلو ، مما يلزم أن تكون قمتها أفقية بطول الترعة كلها .

لكننا لن نأخذ على عاتقنا أن نمضى لأبعد من ذلك فى مناقشة الوسائل التى تجعل ترعة الإسكندرية صالحة للملاحة طيلة العام ، ولا فى تعداد الأعمال الفنية التى ينبغى أن تعاضدها ؛ ولربما كان أهم ما فعلناه هو أن قدمنا تقييما عنها حيث كان من المستحيل أن نقيم ولو بطريقة احتمالية كل ما يمكن أن ندخله تحت اسم : بناء ، فى حين أن بمقدورنا أن نفعل ذلك بخصوص رفع وإزالة الأتربة .

ولقد أورينا بالفعل أن ٢٦٠ ألف فرنك قد تكفى لجعل الترعة صالحة للملاحة لمدة ثلاثة شهور ؛ ومع ذلك فقد لا يحق لنا أن نستنتج أنه بضرب هذا الرقم فى أربعة سوف نحصل على المبلغ اللازم لجعلها صالحة للملاحة طيلة العام ، إذ ينتج عن قانون

حركة مياه النهر أنه إذا كان علينا فى الحالة الأولى أن نخفض مدخل الترعة بعمق مترين ونصف المتر ؛ فإنه لن يلزمنا فى الحالة الثانية أن نزيد العمق إلا لمتر واحد و ٣, من المتر ، أى بحيث يصل إجمالى العمق فى المرحلتين ٣,٨ من الأمتار ، وفضلا عن ذلك ، فإننا حين نقدر عرض الترعة على الدوام بعشرة أمتار ، فى الوقت الذى يبلغ امتدادها فيه ١٩ إلى ٢٠ فرسخا ، وفى الوقت الذى نجدها فيه على عمق كاف بالقرب من الإسكندرية ، فإننا نجد أن علينا أن نزيل عنها ١,٧٣٠,٠٠٠ متر مكعب (من الأتربة) ؛ أى ما يمكن أن يتم ، طبقاً للتقديرات السابقة ، خلال سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر ، وبتكاليف لا تتجاوز ٧٥٠ ألف فرنك .

* * *

(١١)

« جراتيان لوبير »

دراسة عن مدينة الإسكندرية

« لقد أصبحت قصور الملوك مأوى للحيوانات الضارية ؛
وأضحت مذابح الآلهة مرتعا للزواحف الدنسة ..
آه !
كم من مجد أفل نجمه ،
وكم من المنشئات قد اندثر !
هكذا تفنى أعمال البشر ،
وهكذا ...
تغرب شمس الامبراطوريات والدول

فولني Volney من كتابه :

« تأملات حول سقوط الأمبراطوريات »

أصبحت الإسكندرية فى عهد البطالمة ، خلفاء الاسكندر ، مؤسسها الذى منحها اسمه ، عاصمة لمصر ، ومركزاً لتجارة الهند ، وارتفعت فى عهد الأمبراطورية الرومانية إلى مرتبة المدينة الثانية فى العالم ، وظلت تحتفظ بمكانتها ، مع ما ظل لها من مجد وعظمة ، كأغنى مستودع للمعارف الإنسانية . ومنذ استقرار المسيحية ، وحتى عصر الامبراطورية الواطئة ، كانت كنيسة الإسكندرية ، أولى كنائس الشرق ، واحدة من مدن المسيحية الحصينة فى هذه المنطقة ؛ لكن السطوة التى كانت لها ، والتى تزعزعت على يد القنصل العام الثانى قد سلبت منها كلية ، على يد القنصل الثالث ، لتنتقل منها إلى القسطنطينية ، على الرغم من معارضة البابوات ، وأخيراً سقطت الإسكندرية ، بعد أن عانت طويلا من التمزقات ، فى قبضة العرب الحديدية حملة الدعوة الإسلامية ، ولم تتوقف منذ ذلك الحين عن الإنحدار نحو الهاوية ؛ وإذا كانت لاتزال بها اليوم بقية من حياة ، فيمكن القول بأنها قد تضاءلت – بعد أن عانت طويلا طيلة اثنى عشر قرناً – فى عهد الامبراطورية العثمانية ، فلم يعد يعيش بها سوى شعب صغير ، لا يزال يقيم وسط خرائبه وتراب مقابره ، ونحن نكتفى هنا بأن نستعيد ، باختصار ، أهم العهود والتطورات التى مرت بهذه المدينة الشهيرة ، فى حوليات العالم .

فى العام ٤٢٢ من تأسيس روما ، الأول من الأولمبياد الـ ١١٢ ، والعام ٣٣٢ قبل الميلاد ، لم يكن أمام فاتح آسيا والهند ، إلا أن يستولى على مصر ، لكى يحكم سيطرته على هذه المنطقة ، وأن ينشىء فيها المدينة الجديدة التى حملت اسمه ، والتى علت وتدعمت بعظمة لمدة ثلاثمائة عام فى عهد الحكام البطالمة ، خلفائه .

وفى العام ٧٠٦ من تأسيس روما ، أى السابع والأربعين قبل الميلاد ، استولى يوليوس قيصر على الإسكندرية ، واعمل فيها الحديد والنار ، انتقاماً من دفاع سكانها العنيد .

وفى العام ٧٢٣ من تأسيس روما ، وهو العام الثلاثون قبل الميلاد ، مر بمصر

أوكتافيوس أغسطس ، ليطارد أنطونيو وكليوباترا ، واستولى على المدينة ، وتحت أسوارها قضى إلى الأبد على عدوه الذى لم تكن تفتر له همة .

وفى عامى ٢٦٩ و ٢٧٥ من العصر الحديث ، كان على هذه المدينة أن تتحمل فترتى حصار طويلتين وبائستين ، وذلك فى عهد الامبراطورين ؛ كلود الثانى ، وأورليان .

وفى عام ٢٩٨ حاصر الامبراطور دقلديانوس Dioclètien المدينة واستولى عليها ، ولقد كان يجد فى الحصول عليها ، على الأقل لتعويض خسائره .

وفى عام ٦١٥ استولى الفرس على الإسكندرية ، واندفعوا نحو أفريقيا عن طريق البنتابول (*) الليبى .

وفى العام العشرين من الهجرة أى الـ ٦٤٢ من العصر الحديث ، قام مبعوث الخليفة عمر ، وهو عمرو الرهيب ، وبعد أربعة عشر شهراً من الحصار والقتال العنيد بين كلا الجانبين ، باقتحام المدينة وقلبها رأساً على عقب .

وفى العام ٥٦٢ من التقويم الهجرى أو السنة ١١٦٧ ميلادية حاصر الأفرنج المدينة واقتحموها ، لكن السلطان صلاح الدين طردهم منها فى العام التالى .

وفى سنة ١٢٠٢ ميلادية استولى البنادقة على الإسكندرية ، واستعادت المدينة تحت سيطرة هذه الجمهورية ، التى كانت قوية فى ذلك الوقت ، بعض ازدهارها بسبب التجارة التى قامت بها عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى .

(*) Pentapolis وهو الاسم الرومى المقابل لكلمة أنطابلس Antapulus العربية ؛ ويعنى هذا الاسم : المدن الخمس ؛ وتذكر كتب القبط أنه يعنى المدن الخمس جهة الغرب ؛ ويطلق جغرافيو العرب على مجموعة المدن الخمس المذكورة اسم إقليم برقة ، ويظن بعضهم أن بَرقة أو أنطابلس اسم مدينة ، والصواب أنه اسم إقليم يشتمل على خمس مدن ، هى : بنغازى Berénice ؛ طوقرة Tokhira ؛ طلميته Tolimais ؛ قرناه وهى الآن قيرنيا Cyréne ويسمونها باريتشى أى باريس ؛ درنه Adirnai .

أما القرية التى يطلقون عليها اسم برقة فهى قرية المرج الواقعة بين هذه المدن الخمس فى منطقة أراضى الجبل الأخضر ببرقة الذى يسميه الفرنجة Cyrénaique نسبة إلى Cyréne التى كانت قاعدة له قديماً .

نقلا عن القاموس الجغرافى للأستاذ محمد رمزى ، الجزء الأول ، البلدان المندرسة . (المترجم) .

وفى سنة ١٢٥٠ ، وبينما كان لويس التاسع يتباحث فى أمر افتداء نفسه من سلطان مصر ، استولى ملك قبرص من جديد على هذه المدينة وخربها .

وفى العام ٧٦٧ من الهجرة أو ١٣٦٧ ميلادية ، غزا الفرنجة المدينة من جديد وانتهبوها .

وعلى الرغم من هذه الكوارث الجمة ، فقد ظلت الإسكندرية مزدهرة حتى نحو نهاية القرن الرابع عشر ، حسبما يذكر أبو الفداء ، الذى قام بزيارة لها فى عام ١٣٨٣ .

وفى عام ١٥١٧ ، استولى السلطان سليم على هذه المدينة من يد حكام مصر وسوريا الذين كانوا مستقلين عن الباب العثمانى ، ومنذ هذه الفترة ، يبدأ تاريخ أكبر تغيير جلب الانحدار والخراب الكامل إلى هذه المدينة .

وفى الرابع عشر من ميسيدور من العام السادس لتأسيس الجمهورية الفرنسية (٢ يونيه ١٧٩٨) أى العام ١٢١٣ الهجرى ، استولى الفرنسيون من جديد على الإسكندرية تحت قيادة بونابرت ؛ فلم يكد هذا القائد ينزل على الساحل الأفريقى حتى تقدم للهجوم على المدينة ، ولابد أن أسلافنا ، سوف يصعب عليهم أن يصدقوا أن ثلاث ساعات فقط كانت كافية لكى يتمكن ثلاثة آلاف من الفرنسيين أن ينتصروا ، وأن يستولوا على هذا المكان ، الذى كان الباب العثمانى ينظر إليه باعتباره الطريق لأمبراطوريته فى أفريقيا ، ومع ذلك ، فمع اعترافنا بأن جدران أسوار هذه المدينة لم تعد منذ وقت طويل سوى مجرد أثر من آثار قوتها فى الماضى ، فإننى أعيد إلى الأذهان بأنه ، قبل ذلك باثنين وعشرين يوماً ، لم تصمد عاصمة لجزيرة اشتهرت منذ القدم بأنها عسيرة الغزو ، والتى لا يمكن فى الحقيقة قهرها بسبب حصونها ، هى جزيرة مالطة سوى يوم واحد أمام الهجوم المفاجىء لجيش بحرى كان وجود قائده سبباً فى انتصاره ، وبعد سيطرة القائد المظفر على هذا المكان ، الذى يعد مفتاحاً لمصر من جهتها الغربية ، غادرها بعد عدة أيام قضاها فى استعدادات حربية لاستكمال حملته . وكانت إحدى هذه الاستعدادات تقتضى من مختلف فرق المهندسين فى الجيش (الفرنسى) التعرف على المدينة ، وعمل خريطة لها . وهنا نستطيع بحق أن نقول بأنه

بعد البطل العبقرى الذى أسسها ومنحها اسمه ، قد جاء اسكندر آخر بعد واحد وعشرين قرناً ، ليعيد إليها إزدهارها القديم .

ذلكم هو موجز تواريخ الإسكندرية ، ورغبة منا فى ألا نؤذى عيون القراء بالصفحات الدامية من تاريخ اضطرابات هذه المدينة ، والتى اقتصرنا على تسجيل أبرزها ، فسوف نقدم هنا وصفاً لحالة المدينة كما وجدها عليها الفرنسيون بينما القرن الثامن عشر يوشك على نهايته .

ولكى نفهم هذا الوصف ينبغى أن يكون تحت أبصارنا الخريطة العامة للإسكندرية التى ألحقها المسيو لوبير ، أخى الأكبر ، بدراسته عن القناة التى تربط بين البحرين [(١)] وإلى هذه الخريطة الطبوغرافية التى يسمح مقياس رسمها بتبين الآثار القديمة لهذه المدينة ، ظننت أن من الواجب على أن أضيف بمقياس رسم أصغر ، تخطيطاً ، أو بالأحرى خريطة عامة تقدم فى نفس الإطار خليجها ، وميناءيها ، وأحياءها ، وضواحيها .

إذن فبمعونة من هاتين الخريطتين ، سوف نمسح موقع هذه المدينة القديمة ولسوف تمتد هذه الأبحاث لتشمل كل الآثار التى يجدها المرء هناك .

وحتى نعالج الأمر بنظام ووضوح فسأقسم دراستى إلى جزئين أو قسمين :

---

(١) انظر الخريطة العامة للمدينة وللمينائين ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، اللوحة ٨٤ ، وكذلك تلك الدراسة عن القناة التى تربط بين البحرين ، الجزء الثالث ، الفصل الخامس ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ص ١٣٨ ، ١٣٩ والذى رد فيه المؤلف إلى السادة المهندسين ، المدنيين والعسكريين ، وبالاسم ، الفضل فى الجزء الذى قاموا به فى هذا العمل المبدئى الذى قام به الفرنسيون فى مصر . وهذه الخريطة التى عملت بأكبر قدر من العناية فى كافة تفاصيلها ، والتى رسمت بدرجات مختلفة ، قد رسمت بمقياس ٠,٠١ من السنتيمتر لكل ١٠٠ متر أى ٠,٠٠٠١ على الطبيعة . أما الخريطة العامة للخلجان والموانىء والمدن التى قمت برسمها لفهم هذه الدراسة (انظر اللوحة ٣٢ من المجلد الخامس) فقد رسمتها بمقياس رسم ٠,٠٠٤ ملليمتر لكل مائة متر ، أى ٠,٠٠٠٠٤ = $\frac{٤}{١٠٠٠٠٠}$ = $\frac{١}{١٥٠٠٠}$ من الحجم الطبيعى . وسنرى أننى بتجميع كل المعطيات الناتجة عن العمليات الجغرافية لمهندسى الجيش الفرنسى كنت أسعى إلى إعطاء هذه الخريطة التى يعود تنفيذ رسمها الرائع إلى عناية المسيو كولان M.Collin كل التفاصيل مع كل ما تحتويه من فائدة .

الجزء الأول : وسيكون وصفاً مبسطاً للأماكن فى حالتها الحديثة ، أى فى الحالة التى وجد عليها الجيش الفرنسى هذه المدينة عند استيلائه على مصر .

أما الجزء الثانى : فسيكون مناقشة مقارنة ومدعومة عن الحالة الحديثة والحالة القديمة ، وسنحدد فى هذه المناقشة الآثار التى ستكون فى نفس الوقت شاهدة على ثراء وعظمة هذه المدينة القديمة : إذ ترتبط هذه المناقشة بالآثاز شديدة الشهرة ، وسننهى هذه الدراسة بلمحات عامة حول إمكانية ترميمها .

★ ★ ★

الجزء الأول

الحالة الحديثة لمدينة الاسكندرية تحت حكم امبراطورية الباب العثمانى

١ – تقع مدينة الإسكندرية ، وهى التى تسمت باسم مؤسسها الإسكندر ، عند الطرف الشرقى للساحل الأفريقى ؛ وقد بنيت فوق كتلة من الرمال ربطت القارة بجزيرة فاروس القديمة ، وهذه الجزيرة التى أدت عمليات الردم إلى تحويلها إلى شبه جزيرة تحمل نفس الإسم القديم ، تشمل المدينة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، وminائيها الطبيعيين – وهما الميناءان الوحيدان اللذان تمتلكهما مصر – وذلك لمسافة ستين فرسخاً من سواحل البحر المتوسط .

واليكم موقع المدينة تبعاً لمعلومات قدمها السيدان نوى Nouet وكسنو Quesnot الفلكيان بجيش الشرق :

خط الطول (شرق خط زوال باريس)	٣٠ً	٣٥َ	٢٧ْ
خط العرض (شمالا)	٥ً	١٣َ	٣١ْ

وتحد أرض الإسكندرية التى تلامس فى الشمال البحر الأبيض ، جنوباً بحيرة ماريوتيس القديمة (مريوط) والتى كان حوضها الواسع قد جف تماماً فى المدة التى استولينا فيها على مصر ، بينما تغزوه الآن مياه البحر . وتدفق مياه البحر هذه والتى تعود كارثتها لمجهودات تلك القوة الأوربية ، غريمتنا فى السلم ومنافستنا فى مجال العلوم والفنون ، كما هى عدوتنا الأبدية فى الحرب (بريطانيا) – ربط من جديد وبطريقة لا لبس فيها أرض هذه المدينة بشبه الجزيرة التى تكونها سلسلة متتابعة من الحجر الجيرى ، والتى تمتد من رأس أبى قير فى الشرق إلى ما وراء برج العرب على بعد ثمانية ميريا مترات ، إلى الجنوب الغربى .

٢ – وأول مينائى الاسكندرية ، الذى تقابله السفن القادمة من جهة الشرق عند وصولها إلى هذا الجزء من الساحل الأفريقى ، هو الميناء القديم ، ويقع فى جنوب خليج فسيح يتكون من سلسلة من صخور تختبىء جزئياً تحت المياه وتظهر جزئياً على سطحها ، ويمتد قاع هذه الشعب الصخرية من رأس الشيخ (العجمى) حتى رأس التين الواقع على أقصى نقطة إلى الغرب من شبة جزيرة فاروس حيث الفنار ، بطول ٨٣٠٠ متر (٤٢٥٨ قامة ، ٣ أقدام) .

ولهذا الخليج ثلاثة ممرات طبيعية ، أسهلها وأعمقها ، على الرغم من تعرجه وعدم استواء قاعه ، هو الممر المسمى بالأوسط ، ومع ذلك فإن الجزء الذى يقع منه ناحية الشيخ لا يزيد عن ثلثه ، ويبلغ عرض هذا الممر حوالى ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر ، ويبلغ عمقه فى أكثر أجزائه ضحالة من ٥ إلى ٦ باعات (الباع = ١,٦ م) ، وهو الوحيد القادر على استقبال الفرقاطات والسفن البحرية بدون بطارياتها ، وقد ظن ضباط بحريتنا أن كل سفينة لا يزيد غاطسها عن ٢٣ قدماً بعد إنقاص تباينها إلى الصفر ، يمكنها أن تدخل الخليج عن طريق هذا الممر فى حالته الراهنة ، وبدون أية تجهيزات . وسنظل نقرأ على الدوام بشغف ذلك الكتاب الذى أرسله الأميرال برووى Brueye إلى الحكومة الفرنسية ، قبل عدة أيام من معركة أبى قير البحرية . ونورد هنا ، فى الهامش ، هذا الكتاب الذى يحتوى من حيث علاقته بموضوع دراستنا ، على معلومات من المهم الإلمام بها لخير الملاحة [(١)] .

أما الممران الآخران المساعدان فيبلغ عمق مياههما ٣ إلى ٤ باعات لكن

---

(١) كتاب الأميرال برووى Brueye ، قائد الأسطول الفرنسى فى حملة مصر ، والموجه إلى حكومة الإدارة للجمهورية الفرنسية :

من ظهر سفينة الشرق L'orient، بخليج أبى قير ، فى ٢١ ميسيدور من العام السادس (٩ يوليه ١٧٩٨) :

« فى التاسع عشر من ميسيدور ، وبعد أن عرفنا أن السفن لا تستطيع أن تدخل الميناء بسبب ضحالة =

اتساعهما وعمقهما غير مستويين ، واتجاههما متعرج ، وقاعهما ملىء بالأعشاب الصخرية مما يجعل الرسو فيهما صعباً ؛ وثمة ممر أخير ، يقع إلى أقصى الشرق ، وهو غير صالح إلا لدخول الزوارق والسفن الصغيرة التى تقوم بالتجارة بين مدن السواحل .

أما الرياح التى تسهل أكثر من غيرها الدخول إلى الممرات ، فهى تلك التى تهب فيها بين غرب الجنوب الغربى وشرق الشمال الشرقى مارة بالشمال ، وحيث أنها رياح شبه دوارة فهى تؤدى إلى حدوث دوامات تجعل من مغادرة الممر أمراً شاقاً ، وفى الواقع فإنه يحدث فى بعض الأحيان ، أن تضطر السفن إلى الانتظار ، وبخاصة فى موسم الرياح العنيفة ، أشهرا بأكملها حتى يمكنها مغادرة الخليج .

وعندما نلقى البصر على هذا الخليج ، الذى يسمح له عمقه واتساعه أن يستقبل الأساطيل كبيرة العدد ، فإننا لنأسف لأن الطبيعة التى فعلت الكثير كى تزوده بشاطىء وطىء لايمكن الوصول إليه من أية نقطة أخرى من الساحل ، لم تكمل صنيعها فتوسع من ممراته التى يمكن الدفاع عنها دون كبير وعناء .

= المياه عند مدخله ، رفعت أشرعتى ومعى ١٣ سفينة وثلاث فرقاطات كى نلقى رواسينا فى خليج أبى قير .
وهذا الموقع هو أكثر المواقع التى يمكن الحصول عليها منعة فى خليج مفتوح ، حيث لا يكون بمقدور أحد أن يقترب من الأرض لحد يكفى لإقامة البطاريات ، وحيث لا تستطيع سوى سفينتين معاديتين أن تصلا إلى المسافة التى تناسبهما وأنه لأمر مرعب ألا يكون للاسكندرية ميناء تستطيع السفن أن تدخل إليه ؛ فالميناء القديم الذى حظى بمديح الكثيرين ، تغلقه شعب الصخور البارزة فوق سطح المياه أو المختفية تحته لتشكل مداخل بالغة الضيق لا يزيد اتساع أى منها عن ٢٣ إلى ٢٥ أو ٥٠ قدماً من المياه . والبحر هناك فى العادة عال ، ومن هنا نرى أن سفينة مزودة بـ ٧٤ مدفعاً ستكون معرضة تعريضاً شديداً للخطر بحيث تتحطم بعد $\frac{1}{4}$ ساعة من إصابتها . واستجابة منى لرغبات القائد العام فقد عرضت ١٠ آلاف فرنك لأى ملاح من أهل البلاد يستطيع أن يمرر الأسطول ، لكن أحداً لم يشأ أن يتعهد إلا بالسفن التى يبلغ غاطسها ٢٠ قدماً على أكبر تقدير ؛ ومع ذلك فانى آمل أن نتوصل إلى ممر نستطيع عن طريقه أن ندخل سفننا ذات الـ ٧٤ مدفعاً ، ولن يكون ذلك إلا ثمرة لجهودات بالغة الصعوبة ، وبعد ذلك قد نستطيع أن ندخل دون أخطار كبيرة ، وقد يزيد عمق القاع عند الشعب الصخرية إلى ١٥ باعاً ، ومع ذلك فسيظل الخروج على الدوام بالغ الصعوبة ويستغرق وقتاً بالغ الطول .

وعلى هذا ، فإن هذا المكان بالنسبة لأية سفينة هو مكان بالغ السوء » .

أما الصخور التى تشكل قاع هذا الخليج فهى من طبيعة جيرية ، ويمكن ببعض المجهودات الفنية التوصل إلى إعطائها اتساعاً أكبر وعمقاً أكبر (١) ، ويستطيع المرء أن يتصور أية أهمية تعلق على إنجاز مثل هذا العمل الذى سيوفر لمصر حماية لتجارتها عن طريق إنشاء بحرية عسكرية ، ذلك أن هذا الخليج ، على الرغم من الحماية الطبيعية المتوفرة له ، يمكن أن ينال حماية أكبر عن طريق أرصفة حاجزة للأمواج ، وعن طريق منشئات أخرى على شطئانه ، بل وكذلك على نقاط مختلفة على خط الشعب الصخرية التى تحيط بمدحله ، وبوسع الطبيعة الجيرية للسلسلة التى تمتد بطول الساحل الجنوبى الشرقى ، أن تسهل إنجاز مثل هذه الأعمال الأخيرة .

وتجعل صعوبات ممرات الخليج مما لا مناص منه اللجوء إلى معونة المرشدين الساحليين لكل سفينة تريد الدخول إليه ، ومع ذلك فإن الطقس القاتم واضطراب البحر الذى ينتج عنه لا يسمحان فى معظم الأحوال للمرشدين البحريين بالاستجابة لنداء الإشارات . ويمكن علاج هذا العيب بانشاء منارات على الشاطىء ، ويتمثل ذلك فى بناء بعض الأبراج المرتفعة لحد يكفى كى تلمحها السفن على بعد فرسخين وهى فى عرض البحر ؛ ويمكن لهذه الأبراج أن تستخدم فى نفس الوقت كمنارات ونقاط حصينة وفنارات ، ذلك أن الحاجة ماسة لمضاعفة الضوء المخصص لتأمين الملاحة أثناء الليل ، حيث أن الساحل منخفض وخطير بسبب الترسيبات التى تتم على شاطئه .

---

(١) يعتقد أنه عن طريق بعض الجسور العائمة المسلحة ببطارية ذات أجراس ، ومسلحة بمطارق معدنية وتقام فوق قطع طويلة وقوية من خشب البلوط ، والمسلحة بسبائك من الحديد المدبب والقاطع ، يمكن التوصل إلى تقويض وتحطيم وإنقاص نتوءات الصخور البارزة تحت خط الشعب الصخرية فى الممرات .

كما يمكن بطريقة أسهل أن نزيل وأن نرفع أنقاض وركامات هذه الصخور لتطهير قاع الممرات بواسطة جهاز للغواصين ، يسمح استخدامه لثلاثة أو أربعة من العمال أن يعملوا معاً لمدة أربع إلى خمس ساعات متتالية على عمق ٣٠ أو ٤٠ قدماً تحت سطح الماء .

٣ – أما الميناء القديم ، الواقع عند الطرف الشرقى للخليج فيحده الفضاء الدائرى الواقع بين رأس التين والساحل فى الجنوب ، وتجعله مرتفعات شبه جزيرة الفنار كلية فى حمى من نوائب رياح الشمال الغربى وكذا رياح الشمال والشمال الشرقى ، تلك التى تهب بعنف وانتظام ، على نحو ما ، على شواطىء مصر ، وهذا الميناء فسيح وعميق ، والرسو مضمون فيه ، وتستطيع أكبر السفن التجارية أن ترسو هناك على مسافة من الأرض تعادل نصف طول قلسها (حبالها أى حوالى ١٠٠ متر فقط) ، وفى نفس الوقت ، فقد يكون من السهل ، عن طريق بعض الأعمال الفنية وبعض المنشئات البحرية الأخرى ، جعل هدا الميناء ،واحداً من أصلح الموانىء ، مثل ما هو ، طبيعياً ، واحداً من أجمل موانى العالم ، وقد عرفنا عن طريق المجسات أن الفرقاطات والسفن الحربية تستطيع الرسو فيه ، وقد كان دخوله فيما مضى محرما على السفن الأوربية ، ونحن نأمل أن يكون الباب العالى الآن أكثر استنارة وإدراكا لمصالحه ، فيأمر بفتح هذا الميناء منذ الآن لتجارتنا ، وكذلك لتجارة الدول الأوربية الأخرى [١] .

٤ – ويتكون الميناء الجديد ، أو الميناء الشرقى ، من خليج صغير شبه دائرى تبلغ فتحته من جهة الشمال ١٧٨٩ متراً (١٩٧ قامة و ٥ أقدام) ، وهو بالمثل محصور بسلسلة من الشعب الصخرية أو الصخور التى لا تبلغ مستوى سطح الماء ، ويقلل هذا من إتساع الممر القابل لمرور السفن إلى حوالى ٥٠٠ متر ، وحيث هو مفتوح كلية أمام رياح الشمال والشمال الشرقى فليس بإمكانه أن يستقبل إلا بعض الفرقاطات والسفن الحربية الصغيرة .

ويبدأ ممر هذا الميناء على مسافة قلس (القلس هو حبل السفينة ويبلغ طوله ٢٠٠ متر) إلى الشرق من حصن الفنار ومن الصخرة فى المقدمة ،والتى تسمى الزمردة والتى يمكن الاقتراب منها بشدة (دون خطر) ،ويبدأ الرسو عند هذه المسافة مع

---

(١) للتعرف على موانىء الاسكندرية يمكن الرجوع إلى الـ ٢٢ لوحة من أرقام ٨٥ إلى ٩٦ وذلك بخلاف ورقتين للخرائط . انظر الدولة الحديثة ، المجلد الثانى .

الاتساع إلى جنوب الجنوب الشرقى للفنار ؛ وتضطر السفن التجارية التى لا تستطيع أن تلقى رواسيها إلا عند هذه السلسة ، إلى الحصول على هلبين لكى تقاوم دفع رياح الشمال والشمال الشرقى ، وهذه كما سبق القول كثيرة الهبوب ، وكثيراً ما يؤدى عنف هذه الرياح إلى تحطيم السفن التى تقاومها لتهوى إلى القاع ، وفى حالات الطقس المثقل والقاتم فى الشتاء ، لا تستطيع السفن أن تحتفظ بتوازنهافتضطر للذهاب إلى الميناء القديم لترسو فيه .

ويبدو الميناء ، الذى يسهل الدخول إليه والجرى منه للوهلة الأولى فسيحا ولكنه على وجه العموم ضحل العمق ، تحده شعاب من الصخور فى مستوى سطح الماء توجد حتى منتصفه ، وهو فضلا عن ذلك يغص بالرمال والأحجار التى تلقى به منذ قرون السفن التى ترسو هناك ، كما أن قاع الميناء الصخرى يجعل من الرسو أمراً خطراً بعض الشيء ، وتضطر السفن فيه أن تبقى كابلات رسوها عائمة حتى لا تتعرض للقطع بواسطة القاع الصخرى أو الحجرى التى يسير موازيا كل خط الرسو ، ويعود انسداد هذا الميناء ، وهو الذى قد كان فيما مضى رائع العمق ، على نحو كبير إلى الرمال التى تنقلها إليه دون إنقطاع تيارات البحر التى تتنوع تبعاً لضعف واتجاه الريح ، وكذا إلى تيارات مياه الفرع الغربى للنهر فى أوقات الفيضان ، كما تم كذلك بفعل تفتت الصخور الجيرية للساحل الغربى ، الأمر الذى يحدث بفعل الحركة المدمرة للبحر .

٥ — حركة مد البحر وجزره ليست ملموسة ، كما أنها ليست دورية على الإطلاق على سواحل الإسكندرية كما هو شأنها فى كل البحر المتوسط ، وهى ترتبط بالرياح أكثر من ارتباطها بأى شيء آخر محسوس ودائم ، ولا يبلغ أقصى ارتفاع لهذه الحركة التى تتم عند محاور الرياح القادمة من الغرب والشمال الشرقى لأكثر من ١٨ إلى ٢٤ بوصة (٤٩ — ٦٥ سم) .

وبعد أن ذكرنا كل ما ينبغى أن نعرفه عن الممرات والرسو فى الخلجان وفى مينائى الإسكندرية ، سنتناول الأرض ، ونجتاز خرائب المدينة التى سقطت من

جديد ، وربما لعدة قرون ، بين تراب مقابرها ، حين أفلتت من سيطرة الفرنسيين ، تلك السيطرة التى كان يمكن لهذه المدينة فى ظلها أن تأمل فى بعث جديد .-

٦ – يحمى مدخل الميناء الجديد ، الذى لم يكن مسموحا للسفن الأوربية قبل حملتنا بالرسو إلا فيه وحده ، حصنان بنيا فوق الرءوس التى ينتهى بها شكله شبه الدائرى ، هما حصن الفنار فى الغرب ، وحصن المنارة Pharillon فى الشرق .

أما حصن الفنار ، فعبارة عن سور محصن تحصيناً حديثاً ، ويضم برجاً ، مربع الشكل (١) بنيت على جوانبه أربعة أبراج صغيرة ، تعلو سطحها منارة بها فانوس توقد فيه النار ليلا (٢) ، وقد شاهدت فى الحجرات شديدة الارتفاع من هذا الحصن أكواماً من السيوف والأسلحة الأخرى التى بليت تماماً بفعل الصدأ ، والتى جعلتنا أشكالها والعلامات التى تحملها ندرك بأنها تعود إلى الصليبيين ، وبلا جدال ، فإنها تعود إلى صليبيى حملة لويس التاسع البائسة .

ويتم الاتصال بالفنار عن طريق جسر ضيق تحميه طرق مغطاة ، ومقامة عليها

---

(١) انظر ارتفاع هذا الحصن باللوحة ٨٥ ، الدولة الحديثة ، المجلد ٢ . ويقدم هذا المنظر الذى ندين به للمسيو سيسيل Cècile دقة كبيرة فى التفاصيل .

(٢) حدد علماء الفلك التابعون للجيش الفرنسى من فوق حصن الفنار موقع مدينة الإسكندرية . ويعود إلى هؤلاء الفلكيين أنفسهم نتائج الحسابات التى قامت على أسس حساب المثلثات والتى استخدمت فى تشكيل خرائط الإسكندرية ، وإليكم هذه النتائج :

المسافة من الفنار [........ إلى الشيخ (العجمى) ١١,٧٢٨ م
.... إلى العمود ١٠,٩٣٦ م

المسافة من الشيخ (العجمى [........ إلى خط الزوال ٩,٢٢٨ إلى الغرب .
.... إلى الرأس ٧,٢٤٠ إلى الجنوب .

أما ملاحظاتهم على البوصلة فقد أدت إلى النتائج التالية :

درجة الميل إلى الغرب	٠	٦	١٣
زاوية الميل	٠	٣٠	٤٧

ملحوظة : عبرنا عن مجسات الموانى ، التى يعود الفضل فى الحصول عليها إلى عناية السادة ضباط البحرية ، ومهندسى الطرق والكبارى ، بحسب مقياس القدم الفرنسى .

متاريس ، وطولها ٥٥٠ متراً . ويكاد هذا الجسر الذى بنى فوق سلاسل صخرية يستوى فوق سطح الماء وعلى صخور ضخمة وقطع مفتتة من الأعمدة الجرانيتية ، رميت وتكدست بشكل أفقى ، وتخترقها بعض القناطر الصغيرة التى نفذت بعرض الطريق ، والتى تؤدى إلى تحطيم وإضعاف قوة الأمواج التى تندفع لتصطدم بها فى عنف ، بواسطة رياح الغرب والشمال الغربى ، لكن هذه الفتحات الصناعية يعيبها أنها ، عندما تترك مياه العرض تتدفق إلى الميناء الجديد ، تسمح بمرور كمية كبيرة من الرمال إلى الميناء ، مما يساهم فى الإسراع بإغلاقه (نتيجة تكدس الرمال فيه) .

٧ – أما الزمردة ، أو الماسة ، فهى صخرة بمستوى سطح الماء ، تقع بالقرب من حصن الفنار وإلى الشمال منه ، وتكون مكشوفة فى الأوقات الهادئة ، ويلاحظ أن على سطحها آثار مبان قديمة ، وتحيط بها قطع من الحجارة شذبتها يد الإنسان ، وقد فسر ذلك بعض الرحالة بأن هذه الصخرة كانت تستخدم فى الأصل كقاعدة للفنار القديم ، وإن كان سطحها لا يبدو مطلقاً أنه كان ممتداً لهذا الحد ، وقد عرفنا مما أوضحته المجسات أن مياه البحر فى كل مكان من حول هذه المنطقة ، شديد العمق لحد كبير .

٨ – أما شبه جزيرة الفنار، والتى تسمى بالعربية روضة التين – إذ كانت تزرع هناك بنجاح كبير أشجار التين التى تنتج أفخر الثمار – فتغطى الميناء القديم بطول يبلغ ٢٦٥٠ متراً بالاتجاه نحو الجنوب الغربى ، وتربتها الملحية الفاصلة ليست سوى صخرة جيرية يبهر ويؤذى العين لونها الأبيض الذى تجعله الشمس باهراً على الدوام ، وكل شبه الجزيرة هذا محاط بشعب صخرية فى مستوى سطح الماء ، وبخاصة إلى الغرب من جسر حصن الفنار . وترى هناك كذلك بقايا مصانع قديمة ومبان أخرى من الطوب والأسمنت أمكنها أن تقاوم تكسر أمواج البحر ، فى الوقت الذى أمكن لهذه الأمواج أن تحدث دماراً فى صخور هذه الشعب .

ويدافع عن الرأس الواقع إلى جنوب غرب شبه الجزيرة هذه ، والذى لا يمكن

الاقتراب منه ، بطارية قريبة تتسمى باسم رأس التين ، وهناك حصنان آخران لهما طابع عربى يحميان المينائين من الداخل . ويوجد بالقرب من الميناء القديم وإلى الشمال الغربى منه لسان من المياه المالحة ، ينتج بشكل طبيعى ملحاً شديد البياض ، وإن كان له مذاق أكثر لذوعة من مذاق الملح البحرى من العادى .

وهذا الجزء من شبه الجزيرة الذى يتوازى مع أرض المدينة الحديثة مخصص فقط لمقابر المسلمين . وقد بحثنا على الخريطة ، بواسطة خطوط صغيرة سوداء وممتلئة المدافن الخاصة بالعائلات ، وهذه تشكل أضرحة من الرخام الأبيض أو من الحجر الجيرى ، بنيت فى بساطة تتفاوت درجتها ،وتتفاوت كذلك درجة تزيينها بالرسوم والكتابات .

٩ – وبعد أن يجتاز المرء حى المقابر هذا ، ينفذ إلى داخل المدينة الحديثة التى تفصل بين المينائين . وقد بنيت هذه المدينة فوق كتلة من الرمال تكونت حديثاً ونتجت عن تراكم الرمال الذى سبق أن تحدثنا عنه . يقول المسيو دى ماييه M.de Maillet الذى أقام بمصر أربعين عاماً بوصفه قنصلا لفرنسا : « هكذا كانت تتم هذه الترسيبات ، بحيث أنه فى ظرف مدة ٢٦ عاماً ، أى من ١٦٩٢ إلى ١٧١٨ ، أصبح ارتفاع هذه الترسيبات يبلغ أربعين قدماً أمام منزل القنصلية الذى كنت أقيم فيه حتى أن الناس قد ابتنوا لأنفسهم بيوتاً فوق تربة هذا الشاطىء الجديد » . وقد امتدت حركة الترسيب هذه لأبعد من ذلك بكثير داخل الميناء ، حتى أصبحت الرمال تهدد بغزوه كلية فى مدى أقل من قرن واحد .

ولا تضم هذه المدينة أى مبنى له أهمية ، وتمتلىء مساجدها الرئيسية التى يبلغ عددها من ٢٥ إلى ٣٠ مسجداً ، وكذلك الوكالات والمتاجر العامة والبيوت الخاصة ، والأرصفة هناك ، بأدنان من أعمدة من الحجر الجيرى أو الرخام أو الجرانيت أو الألبستر . وتوجد عليها نقوش قديمة ، وهى مأخوذة من قصور قديمة خربة . وقد اكتفينا بالإشارة بالحروف فقط كى نبين على الخريطة مكان المنشئات المتصلة بخدمة

البحرية والإدارات العامة ، وليس هناك من بين كل هذه المنشئات ، منشأة واحدة تستحق وصفا خاصاً. وإذا ما استثنينا تصميم الوكالات ، فإن البناء والتوزيع الداخلى للبيوت بالغ السوء ويستعصى على الفهم . ولا تشكل واجهات البيوت إلا واجهات ملساء تميل للبياض وتخترقها نوافذ صغيرة تغطيها تقفيصات من الخشب ذات مصلبات ضيقة . أما شوارعها الضيقة ، غير المرصوفة ، والتى ليس بها أى مجرى لتصريف مياه المطر فتظل متربة أو موحلة حسب الطقس .ولا نشاهد هناك حركة إلا باتجاه الأسوار أو الأحياء التجارية ؛ وباختصار ، فكل شيء يساهم فى إعطاء المدينة مظهراً حزيناً وطابعاً رتيباً فى ناظر كل أوربى ، تجذبه إلى هذه المنطقة من العالم ، التجارة أو حب السياحة .

وهذه المدينة محرومة بشكل طبيعى من المياه الحلوة كما سنوضح ذلك فيما بعد . وتستطيع آبار المدينة ، التى تمدها بالمياه والتى ترتبط بمساجدها العشرين أن تحتوى على ١٥,٤٠٠ حمولة جمل ، وتقدر حمولة الجمل الواحد بـ ٢٠٠ بنتة (البنتة = ٠,٥٦٨ من اللتر) تزن ٤٠٠ لبرة أو ١٩٥ ك ج و ٨٠ ديكا جرام (ديكا جرام = ١٠ ج) ، ويمكن لهذه الكمية أن تكفى الاستهلاك لمدة ١٢٨ يوماً أو أربعة أشهر لثمانية آلاف نفس يشكلون تعداد سكانها عادة ، وتمتلئ هذه الآبار سنوياً حتى نصفها عن طريق مياه الأمطار التى يعتمد عليها ، أما النصف الآخر فيجيء عن طريق نقل المياه .

وفضلا عن هذه الخزانات العامة ، فإن لكل منزل خزانه الصغير ، يعمل المالك على ملئه بواسطة القرب المحمولة على ظهور الجمال أو البغال أو الحمير ، كما توجد هناك أيضاً آبار قليلة العمق ، تستخدم مياهها التى تتفاوت درجات ملوحتها فى الأعمال المعتادة وتقدم بعض هذه الآبار مياهاً صالحة للشرب ، ويضطر أكثر الأهالى فقراً ،وهم أولئك الذين لايمتلكون فى منازلهم آباراً أو خزانات للمياه ، للذهاب

للحصول على المياه اللازمة لاستهلاكهم اليومى من الخزانات الكبرى فى المدينة القديمة .

ولا توجد فى هذه المدينة أية طاحونة تدار بالمياه ، وثمة طاحونة هواء تقع على شط الخليج إلى الشمال من شبه جزيرة الفنار ، بنيت منذ حوالى ٢٠ إلى ٣٠ عاماً على يد واحد من أبناء رودس ، وهى الطاحونة الوحيدة من نوعها فى كل مصر . وقد أنشأنا نحن طاحونتين من هذا النوع فى ضواحى القاهرة . ولتفادى سوءات هذه الماكينات يمتلك كل فرد غنى فى بيته طاحونة تدور بواسطة الخيول أو الحمير ، وتخصص بعض هذه الطواحين للخدمة العامة . ويمتلك أكثر الأهالى فقراً لاستعمالهم الخاص طواحين ذات ذراع (رحاة) تديرها عادة نسوة لا يقمن عادة بأى عمل آخر ، وهن يقمن بعملهن هذا حتى وقت متأخر من الليل .

١٠ — لا يمكن تحديد فترة بعينها أنشئت فيها هذه المدينة الحديثة ،فقد بنيت وسكنت من جهة بمجرد أن شكلت أكوام الرمال ما يبلغ مرحلة الردم ، ومن جهة أخرى ، عندما كانت الحروب المدنية والدينية ، أو تلك التى تشنها الدول الأجنبية ، تنشب لتسبب فى المدينة القديمة دماراً يدعو إلى هجرها بشكل جزئى ، ولا يعود أكبر اتساع حدث بالنسبة لهذه المدينة إلا إلى منتصف القرن السادس عشر ، بعد بضع سنوات من هزيمة مصر على يد سليم الأول .

وينبغى أن نختم ذلك بمقتطف من عند جان ليون الأفريقى Jean Lèon d' Afrique [1]

---

(١) يقول جان ليون الأفريقى الذى كان فى جولة فى مصر عام ١٥١٧ وهى نفس السنة التى هزمت فيها على يد سليم الأول أن المدينة العربية ، وهى التى تشغل جزءاً من موقع المدينة القديمة ، كانت فى هذه الفترة لا تزال مزدحمة بالسكان . ويضيف هذا الرحالة بأن كل بيوتها كانت تنهض فوق خزانات . وكان يطلق على الميناء الجديد اسم مرسى السلسلة .

ويوجد بالمدينة جبل مرتفع شكله غير طبيعى ، وهو مغطى ببقايا فخارية، ويوجد على قمته برج أو مرصد .

Collection de Ramusis en 3 vol t. Ier

١١ – ويوجد على شاطىء الميناءين بعض الجدران وبعض الأرصفة البحرية لتسهيل عمليات الإبحار ، وقد بنيت هذه المنشئات فى الجزء الأكبر منها من أجزاء من أعمدة مكدسة ، أما المحال والمبانى الأخرى المرتبطة بخدمة ورش إصلاح السفن ، فإن حالة الإهمال والخراب التى توجد عليها هذه المنشئات ، لتجعل المرء يتعرف على روح اللامبالاة من جانب الحكومة التركية ، التى تركت كل شىء يتآكل وينهار دون ترميم أو صيانة .

١٢ – وقد بنيت فى الإسكندرية بعض السفن التجارية الكبرى ، وسفن الكرافيل (مركب سريع بثلاثة صوار أو أربعة) وهى نوع من الفرقاطات التركية المزودة بـ ٤٠ إلى ٥٠ مدفعاً ، والمراكب التجارية التى تقوم بتجارة الشط (أى نقل البضائع بين المدن الواقعة على الشط) بين رشيد ودمياط عن طريق مصبى النهر (١) . أما طبقة السكان التى تعمل فى خدمة البحرية فتسكن شواطىء الميناءين وبالذات الشواطىء الواقعة إلى الجنوب من شبه جزيرة الفنار والمخصصة للإنشاءات البحرية . أما أهل الإسكندرية الذين يعملون بالصيد أو بتجارة الشط فهم بحارة شديدو المراس ، وهناك من بينهم سباحون مهرة ، وكذلك – بصفة خاصة – غطاسون ذوو مهارة كبيرة ، وتروى عنهم حكايات تثير الدهشة

١٣ – كان تعداد شعب الإسكندرية أثناء فترة سيطرتنا على مصر ، يبلغ حوالى ثمانية آلاف نفس ، وقد تناقص إلى سبعة آلاف نفس فقط عند جلائنا ويتكون هذا الشعب من مصريين خلص ، ومن أتراك وعرب ومغاربة وأروام وسوريين ويهود ، ومن بعض المسيحيين من الأوربيين . وإنه لأمر مثير للفضول حقاً ، أن تنظر فى ظل الأسواق او فى الأحياء التجارية ، إلى تجمع حشد كبير من الناس ، ينتمون إلى جنسيات مختلفة ، تجمعهم فى سلام مصالح العلاقات التجارية ، لتفرقهم – هى

---

(١) نستطيع أن نرى فى دراسة عن القناة التى تربط بين البحرين مقالا عن الملاحة فى النيل (جـ ٢ فصل ٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ١٢٣) ، ونجد فيه وصفاً لمختلف أنواع السفن التى تبنى فى مصر .

نفسها – فى ضجة عشر مرات وربما عشرين مرة فى اليوم الواحد . إن المرء لا يمكنه إلا فى لوحة حية أن يقدم العناصر التى لا نهاية لها ، والتى هى بصمات الطبيعة على المكان بمثل مالها من بصمات كذلك على حركة جسم الانسان ، وفى هذه اللوحة الحية فقط يمكن أن تبين كذلك الاختلافات الخلقية والخلقية ، التى يضيفها الطقس والتعليم والدين ، إلى طابع الإنسان وإلى آرائه ووجوده .

إننى لن أحاول هنا أن أقدم هذه اللوحة ، فلسوف تكون مثل هذه اللوحة ناقصة طالما ظلت محرومة من الألوان التى يتطلبها مثل هذا النوع من اللوحات ، ذلك أن أقوى الخطوط لن يكون بمقدوره أن يعوض غياب الريشة ، ولو أننى حاولت مجرد المحاولة لخرجت عن الإطار الذى ينبغى أن أحصر نفسى بداخله .

١٤ – وسأمسك كذلك عن الحديث عن الإدارة المدنية وعن القوة العسكرية للحكومة التى تسهر على حماية أمن ووجود سكان هذه المدينة ، وسأكتفى بالقول بأن المؤسسات التى كانت تنشغل على وجه الخصوص بالإدارة المدنية لمصر ، كانت ترتبط بالدين فيما مضى ، وأن الأمور بهذا الخصوص قد ظلت على حالها ، فلا يزال القرآن حتى اليوم بالنسبة للمفتين (مفتى) والقضاة ورجال الدين هو الكتاب المقدس ، الذى يشكل مجموعة القوانين ويضع قاعدة التقاليد والعادات . أما عن القوة العسكرية ، فهذه لم تكن فى معظم الأحيان سوى سند للمساوىء الظالمة السائدة ، إذ لم يكن يسودها اعتدال عاقل ، كما كانت تفتقد – على وجه الخصوص – إلى النظام الصارم .

١٥ – ويمكن القول بأن تجارة الإسكندرية اليوم لا تشتمل على تصدير الحبوب والأرز والنطرون من مصر ، فى مقابل بن الجزيرة العربية وبعض بضائع من الهند تصل إليها عن طريق البحر الأحمر . وعن طريق موانى هذه المدينة تتبادل مصر وأثيوبيا الأصواف والحراير والآنية الزجاجية وأشياء أخرى ، من مارسيليا وليفورنيو والبندقية والقسطنطينية وموانى الشرق الأخرى .

وقبل مجيئنا ، كانت الإسكندرية ، التى ينبغى ألا ننظر إليها اليوم إلا كمستودع للبضائع ، تضم حسبما يذكر المسيو أوليفييه Olivier :

٨٨ مسجداً من بينها ٣٦ مسجداً من الدرجة الأولى و ٤٢ من الدرجة الثانية .

٢٠٠ نول لصنع المنسوجات الحريرية الخفيفة والخاصة بملابس الطبقة الميسورة من كلا الجنسين .

٤٠٠ نول لنسج قماش التيل المسمى مغربين لصنع القمصان التى يرتديها أبناء الطبقات الشعبية .

٥٠ نولا لصنع منسوجات صوفية خشنة لملابس العربان .

٣٠ مصنع صابون تستورد الزيوت اللازمة لها من المورة وكريت وسوريا ، ويصنع هناك أيضاً الجلد المراكشى الأحمر ، وهذه جلود ثمينة بالغة الجودة وتحظى بإقبال كبير فى القاهرة ومدن مصر الأخرى وفى داخل أفريقيا .

١٦ – وطقس الإسكندرية صحى إلى حد كبير ؛ وعلى الرغم من شدة حرارته صيفاً فإنه يكون معتدلا عن طريق نسيم الليل ؛ أما ندى المساء ، وعلى وجه الخصوص فى فصل الرياح الشديدة فيحدث فى هذه المدينة ، وذلك شأنه فى كل مناطق مصر الساحلية ، رطوبة ملحية تخترق مسام الأجسام . وشتاء الاسكندرية غزير المطر ؛ وفى هذا الفصل الرطيب تظهر الأمراض الموسمية بدرجات متفاوتة [1] ، ويقول سترابون وهو

---

(١) كان على الجيش أن يلاحظ بمزيج من الدهشة والقلق تلك الخسارة التى لحقت بنا والتى كلفتنا ١٦٥٠ رجلا من حامية الاسكندرية فى أثناء الشهور الثلاثة لأول شتاء قضيناه فى هذه المدينة أى فى ديسمبر ١٧٩٨ ويناير وفبراير ١٧٩٩ فى حين لم يصب الطاعون إلا عدداً ضئيلا من السكان . ويرى بعض الرحالة وهم يتحدثون عن أسباب تأصل الطاعون فى مصر ، أن هذا المرض ليس متوطناً على الاطلاق فى مصر ، وأنه لايأتى إليها إلا عن طريق سفن قادمة من القسطنطينية أو أنه يأتى من داخل أفريقيا ، وأعتقد أن كبار الأطباء الضباط فى الجيش وهم الساده ديجينيت des genettes ، كبير الأطباء ، ولارى Larry ، كبير الجراحين ، وسافارسى Savaresy ، وفرانك Frank ، وبالم Balme وهم ضباط أطباء عاديون .. وكذلك آخرين من الذين عالجوا هذا المرض فى مصر ، والذين نشروا عنه دراسات هامة لا يشاطرون هؤلاء الرحالة هذا الرأى . لماذا لا نعتنق رأى سترابون Strabon الذى نجد فيه الأسباب معروضة بطريقة واضحة ، وبسيطة ، وطبيعية للغاية . فهل العقل الانسانى لا يسير فى نسق منتظم فيكون عليه أن =

يتحدث عن طقس هذه المدينة : « يلاحظ بوضوح أن هواء المدينة صحى ، ويعود

= يقبل على الاطلاق آراء فى قرن ما ليهدمها وينقضها بآراء جديدة فى القرن الذى يليه ؟ ومع ذلك فيمكننا أن نتفق ، بعد أن نكف عن تعميم الأمور ، على أن ركود المياه والرطوبة التى تنتج عنها ، هى هنا ، كما هى فى كل البلدان الحارة ، بذرة كل الأمراض المتوطنة والوبائية التى تسيطر هناك باستمرار . فلنتذكر مثلا تلك البلاد التى تمارس فيها هذه الأمراض دمارها : غيانا ، سان دومنجو ، مصر ، هولندا .. الخ ، وفرنسا فى الأجزاء الرطبة منها مثل : جافلين gavelines وروشفور RoChefort ، وسوف نكون على يقين تام بأن هذه الأوبئة قد انتشرت فى كل هذه البلاد عن طريق أبخرة الطاعون ، التى تحدثها الشمس فى المياه الراكدة فتترك بعد تبخرها أراضى موحلة ، من يستطيع إذن أن يشك فى أن الأوبئة التى تجتاح الحيوانات ليست سوى أنواع من الطاعون تنتج من المياه الراكدة التى تشربها ماشيتنا فى أوقات الجفاف ؟ وقد يعترض البعض بأن الطاعون يظهر أيضاً فى صعيد مصر حيث لا تكاد الأمطار تسقط على الاطلاق ، وحيث لا توجد مستنقعات ، هذا صحيح ، ومع ذلك فقد لوحظ أن الطاعون لا يحدث هناك إلا بعد فيضان غير عادى للنهر ، ويكون ذلك بلا جدال بفعل رطوبة الأرض الشديدة ، الناتجة عن بقاء المياه فترة طويلة ، وعندئذ يكون الطاعون ذا قوة وكثافة مرعبتين ، إذ يدمر قرى بأكملها كما حدث فى نفس العام الذى جلونا فيه عن مصر ، أى فى عام ١٨٠١ ويلاحظ أن الطاعون فى هذه الحالة يهبط مع النهر إلى مصر السفلى ، بينما يحدث فى نوبات الوباء الاعتيادية أن يتخذ الوباء مساراً مناقضاً أى أنه يتجه من البحر إلى الداخل ، نحو الجنوب .

وينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا أيضاً أن هذا التتابع الدائم بين الحرارة الشديدة أثناء النهار ، والرطوبة الشديدة أثناء الليل ، وبخاصة فى فصل الأمطار وفصل الفيضان ، يحدث ارتباكاً فى توازن الأمزجة ، وأن آثار هذه التغييرات الفجائية والمتكررة تؤدى إلى تحلل الدم ، وهو الذى قد أضعفه إلى حد كبير العرق الغزير والمتكرر ، وفى مثل هذه الحالة ، فإن الجسم – وهو مستعد والأمر كذلك لاستقبال أشد المؤثرات ضآلة بسبب الطقس الثقيل فى المساء والملىء بالأبخرة الآسنة فى النهار – يسربه عن طريق كل المسام ، ذلك أن الدم مثله مثل الهواء والماء ، إنما هو سائل ذائب يفسد ويتحلل بسبب الركود وفى نفس الوقت فاننى أبعد ما أكون عن أن أنكر أن الطاعون يمكنه فى بعض الأحيان أن يأتى إلى مصر من الخارج ، وبخاصة من داخل أفريقيا ، ذلك أنه ، إذا كان هذا الوباء يحدث فى كثير من الحالات نتيجة للاحتكاك ، فلابد إذن أن نوقن أن الرياح ، وهى المركبات التى تركبها الأبخرة الضارة والمهلكة التى يغص بها الجو ، تنقله سريعاً من منطقة لأخرى ؛ وينبغى ألا تدع سرعة انتشار هذا الوباء ، التى حصدت فى فترات عديدة سنوات ١٧٦ ، ٢١١ ، ٢٥٢ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٥٨ ، ٧٤٧ ، ١٠٠٦ ، ١٣٤٨ من العصر الحديث ما يقرب من ثلث السكان فى أوربا ، وهددت بقية الكرة الأرضية ، ينبغى ألا تدع مجالا للشك حول هذا الموضوع ، فمن الممكن أن ينتقل واحد من هذه الطواعين ، وبخاصة إذا كان قادماً من داخل أفريقيا مع سرعة الرياح إلى مصر وسوريا ، ومن ثم ينتشر فى أوربا . إذن فإنى أوافق على أن الطاعون متوطن ووبائى فى وقت معاً ، أو يأتى من تلقاء نفسه حسب حالة الطقس ، فى مصر بالذات . إن مارآه سترابون هو الذى قادنى إلى الوصول لهذه الاعتبارات الفيزيقية عن الطاعون ، كما أنه يتطابق مع الرأى الذى سقته هنا تبعاً للملاحظات التى قمت بها والتى كنت فى وضع يسمح لى بالقيام بها ، فى المرتين اللتين أصبت فيهما بهذا المرض فى مصر ، واللتين لم أفلت منهما إلا بفضل الطاقة والحيوية اللتين يهيئهما صغر السن ، وكذلك بفضل طبعى المتفائل وكذلك بفضل نوبات العرق العزير التى كانت تأتينى فى الوقت المناسب .

بعد ذلك إلى موقعها حيث تلامسها المياه من جهتين ، كما يعود كذلك إلى الفوائد التى تجنيها من فيضان النيل ، ذلك أنه فى كل المدن الواقعة على شواطىء البحيرات ، لا يستنشق الإنسان أثناء حرارة الجو الشديدة إلا هواء ثقيلا وخانقاً ، ينتج عن الأبخرة التى تحدثها الشمس ، كما أن الأوحال تظل لمدة طويلة على حواف البحيرات مما يؤدى إلى انبعاث روائح مستنقعية تنشر فى الطقس بذور الأمراض ويتولد عنها الطاعون ، أما فى الإسكندرية فإن النيل الذى يفيض فى كل عام فى بداية الصيف يقوم برفع مياه البحيرة ، وبذلك لا يدع الأجزاء الموحلة مكشوفة فلا تصعد منها أبخرة ضارة ، وعندئذ تجلب الرياح العنيفة التى تهب من الجزء الشمالى ، من أعالى البحار ، النسيم المنعش إلى سكان الإسكندرية فيمضوا الصيف على نحو طيب » .

وبالنسبة لى ، فليس بالإمكان أن نقول شيئاً أكثر من هذا تحديداً ودقة ، وعلينا أن نضيف قبل أن نختم هذه الفقرة للجغرافى الإغريقى أن امتلاء بحيرة ماريوتيس (مريوط) يظل داخل حدود صحيحة ، طالما هو يغطى الأجزاء الموحلة من حوضها الجاف ؛ وكما سبق أن قلنا فى دراستنا عن البحيرات المصرية ، الجزء الخاص ببحيرة مريوط ،فإن هذا الامتلاء هو صاحب الفضل فى المباهج الصحية التى كانت تنعم بهذه المدينة قديماً . لقد قلنا قديماً إنه يبدو أن الأوبئة التى تخرب فى معظم الأحيان هذه المدينة ، كما تدمر مصر بشكل عام ، كانت فى ذلك الوقت أقل تردداً أو أنها كانت أقل انتشاراً عنها الآن ، ومنذ أن سقطت المنطقة تحت سيطرة شعب تجعل منه معتقداته الدينية يتدنى عن القدر الذى لا فكاك منه بخصوص مصير الإنسان ، لا يتخذ أدنى حيطة أو ووقاية .

وبعد أن عالجنا كل ما يهم أن نعرفه عن المدينة الحديثة ، نواصل الآن مسيرتنا ودراستنا ونحن نطالع بعيوننا خريطة موقعها القديم .

١٧ — عندما نترك أرض الروم فى المدينة الجديدة لكى تصل إلى القارة القديمة ، فإننا ندخل عن طريق أبواب عالية إلى سور واسع حصين لم يعد يضم سوى بقايا الإسكندرية القديمة . وهذه الأطلال الأثرية تجذب عموماً فضول الناس ؛ ويبدو

أن النفس تجد فى ظل الآثار القديمة للأجيال الماضية بعضاً من جمال الذكريات المليئة بالشجن تذكر بها هذه المبانى ، فمظهرها الصامت يبث فى الروح انفعالا خفيا يهزها ويتسامى بها ، كما أن الإنسان يجب أن يتأملها فيفارقها بصعوبة ويعود إليها بشوق ، لكن آثار الإسكندريه على العكس من ذلك لاتوحى إلا بحزن مرير وعميق ، إذ هى لا تقدم إلا صورة بشعة وكئيبة للدمار التام الذى يصيب الإنسان ومنجزاته . وفى الواقع ، ففى فراغ فسيح ، يحيط به سور مزدوج ، تعلوه أبراج عالية ، فإن الأرض لا تغطيها إلا أطلال المبانى القديمة المدفونة تحت تلال من الأنقاض ، والأعمدة وتيجان الأعمدة المهشمة أو المقلوبة ، وقطع متماسكة من جدران منهارة ، وقباب مدفونة ، وتكسيات الجدران التى تآكلت أحجارها الشوهاء بفعل رطوبة وملح وأحماض البحر .. فى كل مكان يجد المرء آبار وخزانات نصف مطموسة ، أوحفراً عميقة يستخرج منها السكان أحجاراً جيرية لا تزال تحمل آثار عمل الإنسان ، والتى حولها الإنسان بدوره إلى مجرد جير ؛ فى كل مكان لا يسير المرء إلا على بقايا فخار ، وزجاج ، ومخلفات معدنية ، وإلا على فتات من كافة أنواع الرخام ، ووسط أتربة تميل للبياض ترفعها الرياح وأقدام المارة لتدور بها فى شكل دوامات .. وسط هذه الفوضى يبدو هذا البعض من المساكن المنعزلة ، والتى بها المقابر ، وكأنها لم تنهض وسط هذه الخرائب إلا لتغطى بظلالها مأوى الموت ، وهذه المقابر التى تتكون من كهوف صغيرة ، تضم جثثاً ترقد فوق أرض ترابية ، ترابها هو آخر بقايا الإنسان الهش .. فى داخل هذا الفناء تتأثر أتربة وأنقاض مدينة واسعة ،نبحث عنها دون جدوى ، ونتخبط نحن وسط أسوارها .

١٨ — وأول ما يظهر لعيون المسافرين ، فى حقل الخرائب هذا ، مرتفعان يسمح علوهما ، الذى يبلغ من ٥٠ إلى ٦٠ متراً ، بأن يستخدمهما هؤلاء المسافرون نقطتى استرشاد عند الإقتراب من ميناء مصر الوحيد . ويحمل أول هذين المرتفعين ، وهو الذى يقع إلى أقصى الشرق ، اسم هضبة سانت كاترين ، وهو الاسم الذى خلعه عليها الفرنجة أو مسيحيو هذه البلاد ، أما الآخر فيقع إلى الغرب ، وتنتهى قمته ببرج

صغير يستخدم مرصدا . ولا يتكون هذان المرتفعان إلا من أنقاض آنية فخارية وأنقاض أخرى يحملها إلى هناك كل يوم سكان المدينة ، وتتوج قمتى هذين المرتفعين ، حيث يستطيع البصر أن يمتد إلى بعيد فوق الأرض وفوق الماء ، بحصن صغير من سلسلة الحصون التى تلتف حولهما وتحمى أطراف المدينة (١) ومن الضرورى ألا يكون هذان المرتفعان قد تكونا إلا منذ أقل من ربع قرن ، ويبدو أن المرتفع الغربى ، حسبما يذكر ليون الأفريقى الذى سبق أن أوردنا ما قاله قبل ذلك ، كان موجوداً أيام سليم (الأول) فى عام ١٥١٧ ، إذ من المعروف أن هذا السلطان ، لكى يعالج الآثار الضارة لجبال الأنقاض التى يبدو أن القاهرة وبقية مدن مصر كانت توشك أن تدفن تحتها ذات يوم ، قد أصدر أمرا بنقل كل مخلفات المدن براً أو نهراً إلى مصبات النيل ، وسوف نتحدث عن الجانب المفيد الذى قد يكون لهذه التلال (من الأنقاض) والتى تحمل الرياح منها على الدوام أجزاء تسقط فى معظم الأحيان كأمطار من تراب فوق المدن التى تشرف هذه التلال عليها وتغطى جزءاً كبيرا منها .

١٩ — هناك شىء ينجذب إليه المرء بأكبر قدر من الإهتمام ، ذلك هو تلك المسلة التى يلمحها المرء عند شواطىء الميناء القديم ، وقد دفعتنى قمتها المرتفعة فى شكل سهم والتى تجذب انتباه المسافرين لأبدأ وصفى لهذا الأثر ،وهو الأثر الأوحد ، أو الأكثر كمالا وسلامة من بقايا المدينة القديمة .

---

(١) كرم القائد العام الجنرال بونابرت ذكرى اثنين من كبار ضباط الجيش المهندسين ، ماتا فى ساحة الشرف ، وذلك بأن أطلق اسميهما على هذين الحصنين فأطلق على الحصن الشرقى اسم حصن كريتان Fort Crétin ، وهو اسم كولونيل مهندس قتل فى موقعة أبى قير فى يولية ١٧٩٩ . أما الثانى فقد سمى حصن كافاريللى Fort Cafarelli ، وهو قائد فى نفس الجيش مات متأثراً بجروحه فى واحدة من عمليات حصار حصن عكا فى سوريا فى ٢٧ أبريل ١٧٩٩ ، وقد كان كافاريللى ، وهو ضابط شجاع بقدر ماهو مهندس بارع ، يحتفظ على الرغم من الخسارة التى كلفته إحدى ساقيه فى بداية حصار مدينة مايانس Mayence فى أكتوبر ١٧٩٥ ، بنشاط يدعو إلى الدهشة وفى نفس الوقت فقد كان مشهوداً له بأحلى الصفات الروحية وبمعارفه المتنوعة والواسعة فى العلوم الفيزيقية ، وفى الأخلاق والسياسة ، لذلك فقد سبب موته أعظم الأسى للجيش ، كما بكاه القائد العام ، وكذا الجنرالات والجنود وأعضاء مجمع العلوم والفنون الذى كان كافاريللى بمثابة أب وصديق له فى نفس الوقت فى مصر . وليس ما أقول هنا هو مجرد عاطفة تذكر فى ذكراه كنوع من الوفاء والعرفان ، لكنه شهادة عدل شاء رئيس أركان حرب الجيش ، عن طيب خاطر ، أن يقدمها لتلك المميزات العظيمة لهذا الجنرال الذى كان أفضل ضباط جيش حملة مصر .

إلى الجنوب ، وقريبا من أحد أبراج السور ، الذى يسمى برج الرومان ، وهو يطل على الشاطىء الشرقى للميناء الجديد ، توجد مسلتان من الجرانيت ، جرى العرف على تسميتهما مسلتى كليوباترة ، باسم تلك الملكة الرائعة ، آخر سلالة البطالمة التى اضطرت بعد أن اعتلت وحدها عرش خلفاء الإسكندر ، أن تهجر مقاليد الحكم ، وأن تتخلى عن مباهج حياة وهبتها لغريم أغسطس (أكتافيوس) ، وأن تقتل نفسها ، بعد معركة أكتيوم .

ومسلتا كليوباترة ، هما مسلتان من الجرانيت الشرقى ، إحداهما مقلوبة ، أما الأخرى فقد ظلت تنهض على قاعدتها ، وحجما هاتين المسلتين يتماثلان على وجه التقريب ، ولكل منهما وجوه أربعة مليئة بالنقوش الهيروغليفية . وقد رسمت نقوش واحد من الوجوه الأربعة للمسلة التى كانت مقلوبة .

ويلاحظ المرء من بين علامات هذه الكتابة الرمزية رسوما مقلدة بشكل بالغ الدقة ، ومنقوشة بحروف بارزة لوجوه بعض الحيوانات منها : الثور ، الثعبان ، الجعران ، البومة ، البزمة الصلعاء ، السحالى ، طائر أبى منجل ، طائر اللقلق ، البط ، وطيور أخرى وحشرات ذات أجنحة لا نعرف عنها الكثير ، وبين هذه النقوش الموضوعة داخل إطارات تمثل لوحات سيمترية لا يمكن للمرء أن يخطىء الأعضاء الجنسية للإنسان . ويقول هيرودوت حول هذا الموضوع : إن سيزوستريس قد أمر بحفر هذه النقوش تحقيرا للشعوب التى كان قد هزمها وجللها بالعار ، وذلك عندما أخضعها بدون قتال .

أما مقاييس المسلة المقلوبة التى قمت بقياسها فهى :

الارتفاع حتى القمة الهرمية = ٥٧ قدما (١٨,٥١٦ م)

ق ب
عرض الضلع = ٧ ٤ (٢,٣٨٢ م)

وعلى الرغم من أن زوايا قاعدة هذه المسلة قد تهشمت بل وتشوهت فقد

ق ب
حسبت أن عرض الضلع الأدنى لهذا الوجه الذى رسمته كان ٦ ١٠ (٢,٢٢٠ م) بينما

ق ب ل
يبلغ عرض الضلع للوجه الملاصق ، والذى قام بقياسه المسيو بلزاك ٧ ٥ ٥

(٢,٤٢٠ م) ، وهذه الاختلافات فى عرضى الوجهين المتلاصقين لوجوه المسلات الرباعية تبدو موجودة بشكل عام فى هذه المسلات كما تبدو فى جوانب الأهرام ، ويلاحظ فى الزوايا الأربع لتصميم قاعدة هذه المسلة أربع فتحات للتعشيق عرضها من ٢٠ إلى ٢٥ سم وهو نفس طول عمقها ، وكانت هذه مخصصة بلاشك ، كما هو الحال فى المسلات الأخرى ، لكى توضع بها السنة التعشيق التى ينبغى أن تدعمها عند قاعدتها .

ومن المعروف أن أباطرة من الشرق ومن الغرب قد نقلوا فى عصور مختلفة مسلات مختلفة إلى روما وإلى القسطنطينية [١] . وقد حصرت فى الرحلة التى قمت

---

(١) انظر A ، المجلد الخامس ، اللوحتين ٢٢ ، ٣٣ . وقد ذكر فى مؤلف ولسون أن لورد كافان Cavan عندما كان يتولى القيادة فى الاسكندرية ، قد أمر بعمل اللازم لنقل المسلة المقلوبة فى هذه المدينة إلى لندن ، ثم اعترضت تنفيذ هذا المشروع عقبات مختلفة . ويذكر مستر ولسون أن مصاريف النقل قد قدرت بـ ١٥ ألف جنيه استرلينى (تاريخ حملة الجيش الإنجليزى على مصر فى عامى ١٨٠١ ، ١٨٠٢ تأليف روبرت ولسون ، لندن ، ١٨٠٣ ، فى مجلدين ، الفصل الثامن) .

وحيث أن مسلة الاسكندرية كانت قد أزيلت من حولها الأنقاض تماماً فقد أمكن قياس أطوالها بكل دقة ، وكانت كما يلى :

	ل	ب	ق
الجزء الأعلى ابتداء من فجوة اللسان	—	—	٦١
الجزء السفلى تحت فجوة اللسان وداخل القاعدة الخشبية	—	٣	٧
إجمالى الطول	—	٣	٦٨

وإذا ما راعينا طول القدم الإنجليزى بالنسبة لطول القدم الفرنسى فاننا نجد أن الطول الإجمالى لهذه المسلة

	ل	ب	ق
بالقدم الفرنسى	١٦	٦٠	٦٣

أما العرض فكان كما يلى :

	ل	ب	ق
العرض عند القاعدة	٧	٧	٧
العرض عند أضيق نقطة عند القمة	٤,١	١	٥

(نفس المؤلف ، الجزء الثانى ، ص ٦٢) .

وهذه المقاييس تتطابق لحد كبير مع المقاييس التى حصلت عليها وقدمتها عن نفس هذه المسلة .

بها إلى روما عام ١٨١٠ حوالى ١٠ – ١١ بين هذه المسلات ارتفعت بزهو لتتحدث عن أمجاد روما ، ومع ذلك فينبغى أن نسجل أن المهندسين الذين أقاموا هذه المسلات قد بددوا ما لها من تأثير عظيم فى النفوس حين أقاموها فوق قواعد لم تحافظ على النحافة التى كانت لها ، فى حين أن المصريين القدماء كانوا قد نصبوها كما نشاهد ذلك حتى الآن فى هليوبوليس وطيبة فوق قاعدة صغيرة يبلغ ارتفاعها من ٢٥ إلى ٣٠ سم على الأكثر فوق الرصيف أو فوق الأرض المحيطة به . وبنفس الطريقة فقد حجبنا جزئياً الأثر الرائع لأعمدة قصورنا حين أقمناها فوق قواعد نزعت عنها – حين قللت من قوة الدعم أو الثبات البنائى الخاص بها – طابعها المزدوج : طابع الجرأة وطابع الأناقة التى ينبغى أن تبدو عليها .

ويصل وزن المسلة المقلوبة التى يبلغ طولها ، بما فى ذلك قمتها الهرمية التى بتر

ب ق

طرفها المدبب ٦ ٦٣ ، أى ما يعادل ٢٠,٦٢٧ م [1] حوالى ٤٥١,٤٦٩ لبرة و $\frac{٨٠}{١٠٠}$ من اللبرة أى ما يساوى ٢١٩,٠٦٨ ك ج و $\frac{٤٢٠}{١٠٠٠}$. وفى رأيى أنه يمكن الاكتفاء بسفينة حمولتها ٢٢٥ إلى ٢٥٠ طناً لكى تنقل مثل هذه المسلات ، ولابد لنا أن نستنتج أنهم قد استخدموا لنقل المسلات الموجودة فى القسطنطينية وروما جسوراً عائمة أو طوافات لمعاونة السفن الشراعية أو السفن ذات المجاديف التى قامت بهذه المهمة .

واكتفى بهذا القدر من الحديث عن تلك المنشئات التى تتطلب وصفاً خاصاً وبالذات عندما يكون ذلك داخل إطار الحديث عن مجموعة المسلات المصرية ؛ وأتفحص الآن الأطلال بالغة الأهمية والتى يحتويها السور .

٢٠ – لا يحتوى سور هذه المدينة المهجورة والذى قويت أجزاء منه بسور ملاصق يعلوه أكثر من مائة برج من أشكال مختلفة ، إلا على جزء من المدينة

---

(١) يقدر وزن القدم المكعب من الجرانيت المصرى المسمى بالشرقى بـ ١٨٦ لبرة زنة مارك أى ٩١ ك . ج و ٥ ديكا جرام (٥ ح) ووزن المتر المكعب وهو الذى يحتوى على ٧٩ ق و ١٧٤ م ، ٥٤٢٦ لبرة و $\frac{٣٦}{١٠٠}$ من اللبرة زنة مارك أى ٢٦٥٦ ك . ج و ٢٤ ديكا جرام . أما مكعب هذه المسلة فيبلغ ٧٧,٣٩ م بما فيها ٢,٧٧ م هى حجم قمتها الهرمية ، وقد قدرنا حجمه المذكور قبل ذلك بواقع ٤٩٠ جم للبرة زنة ١٦ أونسة (أوقية) .

الإغريقية أو الرومانية القديمة التى يشار إليها من زمن طويل باسم فناء مدينة العرب إذ يظن أنها من عمل حكام هذه الأمة التى ضمت لامبراطوريتها ، الاسكندرية ومصر كلها من اثنى عشر قرنا . وفى الواقع فإن هذا السور الذى يبلغ محيطه ٧٨٩٣ متراً (٤٠٥٠ قامة) كان فى جزء منه من عمل العرب فى القرن التاسع ، وتبدو جدرانه بشكل عام بحالة سيئة . وهذه الجدران مليئة بالثقوب (الطاقات) الصغيرة ، وعدد كبير من هذه الأبراج العالية جيد البناء ، كما يلاحظ أن بعضاً منها ، وبالذات تلك التى تطل على البحر عند الميناءين أو بالقرب من المدينة الحديثة ، يعود تاريخها إلى القرون الأولى من تاريخ الاسكندرية . وهكذا شاءت المقادير أن يكون أحد هذه الأبراج ، وهو المطل على الميناء الجديد ، من صنع الرومان ، ولايزال يحمل اسمهم . ويقع هذا البرج إلى الشمال وبالقرب من مسلتى كليوباترة . وهناك برجان آخران يلفتان النظر بضخامتهما ولونهما الحائل ، ويقع الأول عند الميناء الجديد مطلا على داخل الفناء (الساحة) حيث يصب مجرى ماء هندسى ، أما الآخر فيقع إلى أقصى الغرب ، ويطل على الميناء القديم ، ويضم بداخله برجاً آخر مركزيا وهذا البرج المزدوج الذى تتلامس جدرانه داخلياً عن طريق قبة حلقية (دائرية) شديد الاتساع ، كما أن بناءه بالغ الفخامة . وكان من الضرورى على الأبراج الأخرى أن تخزن المياه الاحتياطية فى أجزائها السفلية ؛ وفى أحد الأبراج التى تشرف على الجانب الأوسط من المدينة الحديثة خزان جميل .

وقد رمم الحصن الواقع عند الزاوية الناتئة (إلى خارج المدينة) إلى الجنوب الغربى من السور ، ووضع فى حالة دفاع يخشى معها بأسه لحد كبير . ويشار إلى هذا الحصن باسم الحصن المثلث ، نسبة إلى الشكل الذى يميزه .وقد دمر هذا الحصن كلية بسبب النيران التى شبت بمخزن البارود فى حوالى نهاية ١٨٠١ . ويقول المستر ولسن الذى ذكر هذه الواقعة فى تأريخه للحملة الانجليزية على مصر ، حيث كانت الاسكندرية فى هذه الفترة تحت سيطرتهم ، بأن أحداً لم يستطع معرفة سبب هذا الحادث .

وترتفع أبراج السور المبنية على نمط التاكتيك العسكرى القديم ، بعظمة فوق الجدران التى كان عليها أن تذود عنها . وكل هذه الأبراج متوجة بطوار بارز تمنع بفعل مراميها من الاقتراب من محيطها . ويكاد يكون لكل الأبراج الموجودة فى الخط الخارجى أبواب سرية أو أبواب خروج تؤدى إلى خنادق . وتختفى هذه الأبواب السرية اليوم ، وهى التى ترتفع عتبتها إلى مترين فوق قاع الخنادق ، تحت أكداس من فتات الأرصفة وقطع البناء .

ويلاحظ المرء فى جسم جدران السور ، وبخاصة فى أسفل جدران معظم الأبراج عدداً كبيراً من الأعمدة الرخامية والجرانيتية أقيمت بها بشكل أفقى ، ويرى أحد أطرافها مطلا إلى الخارج ،وسوف أقدم فى الجزء الآخر من هذه الدراسة رقم ٨٩ — الملاحظات التى سأوصى بها بخصوص هذا الاستعمال الشاذ لهذه الأعمدة داخل هذه الكتلة الصلبة فى مبانى جدران السور . وقد كانت بعض أجزاء واجهات هذه الجدران ، وبخاصة من جهة الجنوب ،مغطاة بطلاء من ملاط الجص بقصد حماية طلائها من أثر الرطوبة البحرية ، ومن التلف الذى ينتج عن سقوط الندى المتواصل على الجزء الساحلى لمصر ، وكذلك على هذه الواجهة لجدران السور بالقرب من الزاوية الناتئة إلى جنوب باب رشيد حيث نرى آثار تفتت هذه الأحجار الجيرية (١) .

٢١ — ويبلغ عدد الأبواب المنفذة فى جدران هذا السور خمسة أبواب هى : اثنان يطلان على واجهة المدينة الحديثة ، واحد يقع إلى الشرق ويسمى باب رشيد ، وآخر يقع إلى الجنوب ويسمى باب العامود ، وخامس يقع إلى الغرب ويؤدى إلى الميناء

---

(١) وجوه حجارة هذه الجدران مغطاة فى جزء منها بتخاريب سوس محفورة بشكل بالغ الانتظام فى كل اتجاه حتى ليعتقد المرء لأول وهلة أنها عمل غير عادى من صنع الانسان ، ولكن عندما نتفحصها جيداً وباهتمام فاننا ندرك أنها تخاريب طبيعية نتجت فيما يقال عن طريق ديدان تقرض الحجارة ، بمثل مايوجد نوع منها يقرض الخشب فى الهواء أو فى الماء . وتقليداً لذلك ، يلاحظ على سطح بعض الأحجار الجيرية أن نوع الحفر المعروف باسم نخر السوس Vermoulure قد اقتبس واتبع فى نمط العمارة الريفية rustique بمثل مانراه منفذاً فى أسفل الجدران وعلى الأعمدة والأعمدة الناتئة فى قصرى التويلرى واللوفر فى باريس . انظر فيما يتعلق بطبيعة الديدان التى تقرض الحجارة Les Journal des Savants لسنة ١٦٨٨ .

القديم عن طريق البرج الضخم الواقع إلى أقصى الغرب من السور [١] .

وقد أقيمت هذه الأبواب فى الأبراج التى تعلو السور ، وقد طمست جدران الأبراج منافذها ،وتستخدم هذه الأبواب للإرشاد وللدفاع عن الموقع على طريقة الأبواب السرية فى أجنحة حصوننا ، ويغطى الواجهة الخارجية لمصراعى كل واحد من هذه الأبواب ، وهى مصنوعة من هيكل قوى من خشب الجميز ، بنصال حديدية مثبتة بمسامير مدببة الرءوس ومتعددة الأشكال وإن كان حديدها قد تآكل بسبب الصدأ وأصبح فى حالة من التفتت التام بينما يكاد يكون الخشب قد ظل على حاله ، بل وكأنه يكتسب المزيد من الصلابة بمرور الزمن ؛ ويمكننا أن نستنتج الأزمنة التى بنيت فيها هذه الأبواب عن طريق الكلمات العربية المكتوبة بخط الكوفة على واجهاتها .

٢٢ – ومن بين المبانى التى عثرنا عليها مبعثرة داخل السور العربى الواسع ، كانت توجد قرية مجاورة لباب (بوابة) رشيد ، وقد دمرت هذه القرية عن آخرها نتيجة للحرب التى دارت فى السنتين الأولى والأخيرة لاحتلالنا لهذه المدينة . أما بخصوص المبانى الأخرى المبعثرة إلى الجنوب الغربى والتى لم تعان مطلقاً من أحداث الحرب ، فقد ظلت على العكس من ذلك تمتد فى مساحة واسعة بل تعد أن مساحتها قد ازدادت اتساعاً بفعل خرائب المبانى التى تحدثنا للتو عنها .

٢٣ – وقد عثرنا بين كثير من الخرائب على ديرين ومعبد يهودى ، هى أطلال منشئات أسستها تلك المذاهب العديدة التى سببت فى هذه المدينة الكثير من الانشقاقات والثورات والآلام والتعاسة فى أثناء القرون الأولى للمسيحية . أما اليهود الذين ينبغى ذكرهم على الدوام ،وفى المقام الأول ، فى أحداث الحروب الدينية

---

(١) لست أدخل فى عداد أبواب هذا السور بابين جديدين فتحهما الفرنسيون ، الأول بالقرب من الحصن المثلث المسمى حصن باب المقابر ، وهذا ليس سوى ثغرة فى جسم السور ، والآخر فى الاستحكام البارز بكورتينة ملحقة بالحصن الأخير بالقرب من الباب الذى يطل على ساحة الباب الجديد ، وقد أقيمت هذه الكورتينة الحصينة للدفاع عن المدينة الحديثة أثناء حصار الاسكندرية على يد الجيش الانجليزى ــ التركى فى عام ١٨٠١ .

فيحتفظون هناك بمعبد يقع بالقرب وإلى الجنوب من مسلتى كليوباترة ، وتقع مقابرهم إلى ماوراء المدينة العربية ، إلى الشرق من برج الرومان ، ولايستطيع المرء إلا أن يدرك مدى ارتباط وتعلق هذا الشعب الدائمين بعادته القديمة حتى فى الأحجار التى يستخدمها فى المبانى التى تغطى مقابر هذا المدفن .

وبالقرب ،وإلى الشرق من هذا المعبد يوجد دير يونانى ، هو مقر بطريرك الأقباط (الروم) أى المطران الأول لهؤلاء المسيحيين الذين تشبثوا بوجودهم فى مصر بحكم أصلهم المصرى ، بعد أن آلت هذه المنطقة إلى سيطرة العرب والمسلمين .

وإذا مااتجهنا نحو وسط المدينة العربية من جهة الباب الشمالى الذى يطل على ساحة الميناء الجديد ، نجد ديراً آخر للمسيحيين الكاثوليك من طبقة الدعاة أى من رجال الدين القادمين من الأرض المقدسة . ولدخول هذا الدير الذى زرته ، يصعد المرء أولا فوق أكوام من الأنقاض تحيط به ، ويضطر المرء بعد ذلك للهبوط عدة سلمات قبل اجتياز الباب . ويكاد يعتقد المرء أنه يدوس فى داخل هذا الدير على الأرض المبدئية للاسكندرية ،ولست أعرف ماإن كان ثمة أشخاص آخرون يمكنهم أن يقدموا تفاصيل أكبر عن داخل هذه الأديرة ، وقد واتتنى الرغبة والفكرة أكثر من مرة للذهاب إلى هناك لقضاء ١٥ يوماً فى هذه العزلة لكى اغترف من هناك معلومات هامة . وإننى لأشعر بشديد الأسف لأننى لم أتصل فى هذه المدينة ، كما فعلت فى القاهرة ،بهؤلاء الرهبان القائمين بأعمال البر والذين استبقاهم حبهم لدينهم ــ وهو حب يختلف أشد الاختلاف عن هذه الحماسة العمياء التى كانت لهؤلاء النساك الزاهدين فى أديرة صحراوات النطرون والصعيد ــ استبقاهم ولايزال ، فوق نفس أطلال مدينة المسيحية العتيدة والقوية ، وبين شعب لم يعد يحتفظ من بغضائه القديمة إلا بازدراء ماس بالمسيحيين .

٢٤ — نميز من بين المساجد أو معابد الديانة المحمدية والتى بقيت داخل الحى العربى مسجدين ، يقع أحدهما بالقرب من الباب الذى يقع إلى أقصى الغرب ، ويحمل هذا المسجد منذ وقت طويل اسم مسجد (جامع) السبعين ، لأنه قد حدث

هنا ، حسبما يقول الأثر ، منذ ثلاثمائة عام قبل المسيح أن بطليموس بن لاجوس قد أمر بترجمة التوراة العبرية إلى اللغة اليونانية بواسطة السبعين مترجما الذين أرسلهم الكاهن الأكبر إليعازر ، ويضم هذا المسجد ذو الشكل المربع والذى تبلغ أبعاد أى من واجهاته ١١٧م × ١٢٦م ، فى داخله رواقا له صفان من الأعمدة الرخامية أو الجرانيتية ، وهى من بقايا مبان قديمة خربة ، وحيث لم تعد تقام فى هذا المسجد منذ وقت طويل الشعائر الإسلامية ، فقد رممت جدرانه وأقيم به مربض حصين لمدفعيتنا (١) .

٢٥ – ويقع المسجد الثانى ويسمى جامع سانت أثناز (*) عند منتصف المدينة على بعد ٢٥٠ متراً إلى الشرق من الدير المسيحى الذى تحدثنا للتو عنه ، ويستمد هذا الجامع اسمه من اسم مؤسسه ذلك أنه قد حل محل كنيسة مسيحية ، هى واحدة من الكنائس التى بناها سانت أثناز فى مدينة الاسكندرية عند نحو منتصف القرن الرابع ، وتبلغ أطوال الواجهة الواحدة من واجهاته ٥٤ × ٦٢ .

ومن المعروف أن سانت أثناز ، بطريرك الاسكندرية ، الذى اضطهد فى عهده سان مكاريوس وانسحب إلى صحراوات بحيرات النطرون حيث بنى بعض المغارات (الأديرة) التى تحمل اسمه ، قد أصدر فرماناً كنسيا ضد آريوس زعيم المذهب الهرطقى للآريوسيين فى السنة ٣٦٤ من الميلاد ، وفى عهد هذا البطريرك تسببت الانقسامات الدينية للدوناتيين والآريوسيين لهذه المدينة البائسة فى انشقاقات طويلة ودامية بنفس القدر الذى أحدثته انقسامات الـ Guelfes والـ Gibelins (**) التى

---

(١) أنظر تصميم هذا المسجد فى A من المجلد الخامس ، لوحة ٣٨

(*) جامع سان أثناز = كنيسة بناها الأسقف ثيوناس (٢٨٢ – ٣٠٠) بالقرب من الميناء الغربى ، ثم أعاد بناءها وزاد من حجمها الأسقف اسكندر ، وبقيت حتى نهاية القرن الرابع الكنيسة الكبرى ومقر الأسقف ، وكانت هذه الكنيسة هى التى هاجمت فيها الحامية الرومانية إثناسيوس (سان اثناز) وهو على رأس المصلين وأخيراً حولها العرب إلى مسجد ، بعد أن كانت قد فقدت أهميتها بعض الشيء فى القرن السادس حين أصبحت كنيسة القيصرون (الكيزايوم) هى الكنيسة الرئيسية . وسمى هذا المسجد بالجامع الغربى أو جامع الألف عمود. (المترجم)

(**) حزبان قويان أحدثا انقساماً كبيراً فى إيطاليا ابتداء من القرن السابع حتى القرن الخامس عشر ، وكان الأولون يتبعون البابا بينما يتبع الآخرون الأباطرة الألمان . (المترجم)

روعت إيطاليا عند حوالى منتصف القرن السابع [١] .

ويحتوى محراب هذا المسجد الذى لم تطأ أرضه أقدام المسيحيين ، فى وسطه ، على رواق بالغ القيمة مبنى من منشئات وآثار مصرية قديمة ، ولم يكن يلزم أقل من جيش منتصر حتى يمكن اجتياز عتبة هذا المسجد ، وحتى يمكن انتزاع هذا الأثر من هذا المكان حيث ظل مجهولا ومفقودا لفترة طويلة من الزمن ، إنه حوض من الرخام الصناعى الأخضر ، تحمل كل وجوهه الخارجية والداخلية كتابات ورسوم هيروغليفية ، وله شكل شبه منحرف ، أما أطواله كما قستها فهى كما يلى : ٢,٩٠ م لطول كل من الواجهتين الكبيرتين حتى زاوية اتكاء الرأس ، كما أن عرض كل منهما عند هذه النقطة يبلغ ١,٦٠ م فيما بين طرفى قوسه الخارجى ، إذ أن شكل الرأس مقوس ، أما أطوال الواجهتين الصغيرتين فهى ٩٣,٠م و ١,٢٤ م . وهو محفور من الداخل بشكل مواز لشكله الخارجى على عمق يبلغ ١,٠١ م فى حين يبلغ هذا العمق من القاع إلى قمة قوس الرأس ٢,٤٠ م ، أما سمك جدران هذا الحوض فيبلغ ٠,٢٣ م ، ولابد أن وزنه يصل إلى ١٢ – ١٣ ألف لبرة زنة مارك ، أى حوالى (٥٨٧٤ – ٦٣٦٣ ك . ج) . وهذا الأثر هو واحد من أكثر الآثار التى بقيت من الحضارة المصرية القديمة ، مدعاة للفضول ، وقد كان واحداً من تلك الآثار التى كلفت بنقلها إلى فرنسا مع اثنين من زملائى [٢] لكن ماقدرته مسيرة الحرب كان أمراً مغايراً .

---

(١) انظر تصميم هذا المسجد فى A من المجلد الخامس ، لوحة ٣٨ .

(٢) كان القائد العام كليبر قد عين ثلاثة أعضاء هم السادة : نوية الفلكى Nouet ، ديكوستيل Des-Costils ، وأنا . وقد سافرت من القاهرة فى السابع والعشرين من بليفور من العام الثامن أو ١٦ فبراير ١٨٠٠ لكى نبحر مع هذا الأثر الجميل لجامع سان أتناز بالاضافة إلى حوضين آخرين من القاهرة ، عرف أحدهما لوقت طويل باسم حوض أو نافورة العشاق ، وكان يوجد اسفل سلم جامع ابن طولون مطلا على أكبر شوارع القاهرة . أما الآخر فقد نفذ على شكل جسم إنسان وكان معنا كذلك مسلتان صغيرتان من الحجر الأسود يبلغ طول كل منهما من ٣ إلى ٤ أمتار ، وكذلك حجر ذو كتابات ثلاث وقبعة أحد التماثيل الضخمة من ممفيس ، وقطع مفتتة من أحواض وتماثيل أخرى وقد فسخت النقوش الهيروغليفية من على المسلتين الصغيرتين المصنوعتين من البازلت ، كما قمت برسم تصميم ومقاطع للنافورة التى على شكل جسم إنسان . أنظر التفاصيل التى قدمها السيدان جومار Jomard ورافينو Raffeneau ، فى A من المجلد الخامس ، اللوحات ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ .

وإذا كانت الأحداث العسكرية الأخيرة التى أدت إلى جلائنا عن مصر قد حرمت فرنسا من إحدى المغانم التى كان يمكنها أن تثرى متحف العاصمة ، فليس للآداب والفنون أن تأسى ، فخسارتها لم تكن تامة ، فهذه الغنيمة تظل بفضل عزيمتنا التى لاتلين فى متناول أيدينا ، إذ يستطيع العلماء والفنانون أن يذهبوا لتأمل هذا الأثر الذى لايقدر بثمن بالنسبة للفنون والتاريخ ، فى متحف لندن .

٢٦ — تجاه جامع أثناز وبالقرب منه ، يلاحظ المرء كذلك ثلاثة أعمدة من الجرانيت الأحمر واقفة ، ويمكن أن يبلغ ارتفاع الواحد منها ١٢ ـــ ١٣ متراً × ١٫٤٠ سم هو قطرها الأوسط ويوازى هذا الصف من الأعمدة الجميلة التى يفصل بين كل واحد منها ١٠ ـــ ٢٠ خطوة ، الشارع الذى يفضى إلى بوابة فى الاتجاه القادم من الباب الغربى للميناء القديم . ويرى المرء بالمثل ، من ٧ إلى ٨ أعمدة ضخمة واقفة كذلك ، وملتصقة بجدران الواجهة الداخلية للبيوت الواقعة إلى اليمين عند الوصول إلى القرية المتاخمة للبوابة الشرقية للسور ، وهذه القرية اليوم محطمة عن آخرها ، وفى عام ١٦٩٢ أحصى المسيو دى مابيه Maillet القنصل الفرنسى عددا كبيرا من هذه الأعمدة توازى أيضاً هذا الشارع القديم .

٢٧ — أما الخرائب الهائلة التى نراها على بعد ١٦٠ متراً إلى الشرق من نفس هذا المسجد ، والتى تشكل بقايا جدران ضخمة لمبانى قديمة من الطوب الأحمر ، فتعود ، مثلها مثل تلك التى تقع على بعد ٣٥٠ مترا إلى الشمال الشرق من جامع السبعين ، إلى قصور قديمة ، حيث لانزال نلمح فيها حتى اليوم أقواس قناطر وبقايا أحواض أو خزانات مياه ؛ ويستخلص من فحص هذه الأطلال ، أن هذه المبانى كانت تشتمل على حمامات ونافورات عمومية ، وأن كتل الأسمنت الأحمر التى تغطى الطوب الأحمر المسطح ، الكبير الحجم ، المستخدم فى هذه الأبنية السميكة والضخمة قد اكتسبت بمرور الزمن تماسك الصخور وصلابتها الشديدة .

٢٨ — وقد تناقص اليوم عدد الحمامات ـــ وقد كان فيما مضى هائلا ـــ إلى حمامين أو ثلاثة فى كل هذه المدينة ، وثمة واحد من بينها مفتوح للعامة ، يقع فى ظهر

خرائب القصر بالقرب من جامع أثناز . ولن أقدم هنا وصفاً خاصاً لهذا الحمام ، إذ هو يشبه كل الحمامات المفتوحة للعامة فى القاهرة وسائر المدن المصرية الأخرى ، وقد نيط بآخرين غيرى أن يضيفوا رسوماً إلى التفاصيل الوصفية ليقدموها فى وصف مصر .

٢٩ – أما المجرى الهندسى للمياه والذى تحمل قناطره العالية المياه من المدينة العربية إلى البرج الضخم عند البوابة الشرقية والذى يطل على ساحة الميناء الجديد ، فإما أنه بناء حديث وإما أنه يعود إلى القرون الوسطى ، وقد هدم هذا المجرى بسبب أعمال التحصينات الجديدة التى قام بها الفرنسيون .

٣٠ – أما المبانى التى أفلتت ــ جزئياً على الأقل ــ من تخريب الزمن فهى خزانات المياه المخصصة للتموين السنوى للمدينة . وهذه المنشئات تحت الأرضية والتى بنيت فوقها المدينة تشكل قباباً تدعمها عواميد على شكل قناطر مقوسة من طابقين أو ثلاثة طوابق ، جدرانها الداخلية مطلية بطبقة سميكة من الأسمنت الأحمر المسمط ، الذى لاتنفذ من مسامه المياه ، وقد أنشئت هذه الخزانات على قيعان متفاوته الارتفاع ، ولكنها على الدوام أدنى من سطح البحر بحوالى ٥ ــ ٦ أمتار ، وهى واسعة وعميقة ومتعددة الفتحات ، وتمثل الزوايا آباراً شبه دائرية على الحواجز الرأسية ، التى نفذت فيها حفرات يستخدمها العمال سلالم يضعون عليها أقدامهم عند الهبوط أو عند الصعود ، عندما يقومون بأعمال الإصلاحات التى يستدعى الأمر تنفيذها ، لتطهير الآبار من الطمى الذى يرسبه فيها مياه النيل كل عام .

إن خريطة للمنشئات تحت الأرضية لمدينة الاسكندرية ستكون مثيرة للفضول بقدر ماتكون هى مثيرة للاهتمام حين نربطها بخريطة الاسكندرية وموقعها (١) ، ذلك أن هذه الخريطة سوف تسهل لنا مهمة دراسة أحوال المناطق

(١) عهد بتصميم الخريطة تحت الأرضية للاسكندرية إلى المسيو فاى Faye مهندس الطرق والكبارى ، والذى كان مكلفاً بالأعمال الهيدروليكية للميناء ، وإننى أقدم هنا هذه التفاصيل تبعاً للمقاييس والمعلومات التى توصل إليها هذا المهندس .

والأماكن القديمة حين توضح لنا اتساع وكثرة مصادر المياه التى أنشاها لنفسه شعب كبير العدد ، لإشباع واحدة من أهم الاحتياجات الأولى لحياته .

كان عدد الخزانات لايزال حتى بضع سنوات يصل لحوالى ٣٨٠ ــ ٤٠٠ خزان ، لكنه الآن يبلغ بالكاد ثلاثمائة وثمانية خزانات ، ومن المحتم أن يتناقص هذا العدد بسبب الإهمال فى صيانة الآبار والعناية بها ، حتى تكفى على الأقل احتياجات الشعب الحالى للاسكندرية ، ولتفى كذلك باحتياجات البحرية لعامين متتاليين . إن المرء ليستطيع أن يجزم بأن عددا هائلا من الخزانات تحت الأرضية القديمة مطمورة الآن تحت أنقاض المدينة .

ولقد تناقص عدد الخزانات الصالحة للاستعمال إلى ٢٠٧ ، تبلغ طاقتها بعد طرح ١/١٠ من سعتها ، وهو تقديرنا لحجم أعمدة ودعائم القباب والقناطر المقوسة ، ٣٣,٤٣٨ مكعباً ، بمتوسط قدره ١٦١ م٣ للخزان الواحد ، ومن جهة أخرى ، فإذا كان المتر المكعب من المياه الحلوة يزن ٢٠٤٢ لبرة و ١٧٣/١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ رطل من زنة مارك أى مايساوى ٩٧٩ ك . ج وديكا جرام واحد (١٠ج) من العدد الدائرى مثل الطن البحرى ، وحيث أن ٧٠ رطلا تساوى ٣٤ ك ج و ٢٧ ديكا جرام هى زنة القدم المكعب من المياه الحلوة ، فإننا نحصل على كمية تبلغ ٦٦,٨٧٦,٠٠٠ رطل ، تعطى عندما نقسمها على ٦ أرطال هى وزن ثلاث بنتات (*) من المياه ــ نصيب الرجل الواحد فى اليوم ــ ١١,١٤٦,٠٠٠ نصيباً أى مايكفى لاستهلاك ٢٠ ألفاً من الرجال ، يدخل فيهم نصف حامية الاسكندرية ، فى حالة الحصار لمدة تبلغ ٥٥٧ يوماً ، أى مايقرب من عام ونصف العام ، ولايضع هذا الإحصاء فى اعتباره الخسارة التى تنتج بفعل البخر ونقل المياه ، ذلك أن هذه الخسارة التى لايمكن تفاديها ، تعوض بشكل مجز عن طريق مياه الأمطار ، وكذلك مياه الآبار التى تتفاوت درجة صلاحيتها للاستعمال ، والتى نجدها فى كثير من البيوت فى المدينة الحديثة ، كما قلنا من قبل ، كما تعوض هذه الخسارة كذلك عن طريق مصادر أخرى سنتناولها فيما بعد .

(*) البنتة ، كيل للسوائل يسع ٠,٥٦٨ من اللتر .   (المترجم)

٣١ — وبخلاف هذا العدد من الخزانات فإننا نحصى هناك أيضاً ، داخل الحى العربى ، ٧٣ مجروراً يبلغ عمقها من ١٥ إلى ٢٠ متراً ، تستقبل مياه النيل عن طريق جداول سفلية تتفرع من الخليج ، سنتحدث عنها فيما بعد . وهذه المجرورات الواسعة ، ذات الشكل الدائرى ، والتى يبلغ عمق قاعها ١٠ ـــ ١٢ متراً تحت مستوى سطح البحر ، تستخدم فى تغذية الخزانات أولا بأول للاستهلاك ، كما تساهم فى رى الحدائق التى تزرع داخل المدينة . وتستخرج منها المياه بواسطة عجلات ذات قواديس ، على شكل سبحة (ساقية) . وتدور هذه الماكينات ذات التصميم الريفى بواسطة ثيران تلتزم ولاية البحيرة بمد الإسكندرية بها كل عام .

٣٢ — ويعهد بصيانة الخزانات والعناية بها إلى خدمات ورقابة الشوربجى تحت إشراف الكاشف أو حاكم المدينة [1] . ويرصد للتطهير السنوى لهذه الخزانات مبلغ لابأس به وهذه الأعمال ـــ كما لابد أن نتصور ـــ بالغة الأهمية ، حيث تتوقف على القيام بها حياة أهل الإسكندرية . لكن هذه الصيانة ، وكذا تطهير هذه الخزانات ، وبالمثل تطهير كل ترع مصر ، كان وسيظل لوقت طويل لسوء الحظ ، يتم بشكل ردىء ، بل ويهمل كلية ، مادام يتم تحت رحمة هذا الجشع الإجرامى للجنود الذين يفتشون عليه .

---

(١) تتراوح المبالغ المخصصة سنوياً لمصاريف إصلاح الخرابات بالمدينة ، مثلها فى ذلك مثل مصاريف ترعة الاسكندرية بين ٢٠ إلى ٢٥ ألف قرش (يساوى القرش ٤٠ مدينى) أى مايبلغ من ٢٨,٥٧١ جنيهاً و ١٠ سو إلى ٣٥,٧١٤ و٧ سو من العملة التورية (نقد فرنسى قديم مسكوك فى مدينة تور على الطراز الملكى) . وبواسطة هذه المبالغ يأخذ الحاكم على عاتقه مهمة التموين السنوى لخزانات المدينة ، وتحرر حجة أصلية بهذه العملية ، وترسل حسب الأصول ، إلى باشا القاهرة . وتحتوى هذه الحجة على محضر يثبت أن كل الخزانات قد امتلأت بالمياه اللازمة لاستهلاك المدينة أثناء السنة .

وبخلاف هذه المبالغ ، يحصل الشوربجى على أتعاب تبلغ ٣٥,٨٠٠ مدينى أو ١٢٧٨ جنيها و ١١ سو : ٨٥٠ منها عن طريق الكاشف و ٤٢٨ عن طريق الجمرك . وقد تحدث المسيو أوليفييه Olivier عن هذا الموضوع بالتفصيل فى تقريره عن رحلته إلى داخل الأمبراطورية العثمانية ، مصر واليونان ، جـ ٣ ، ص ص ١ ، ٧٨ ؛ كما يمكن أن نعود حول هذا الموضوع إلى الدراسة عن الترعة التى تربط بين البحرين ، الجزء ٣ ، الفصل ٣ ، ص ١٢٩ ، فيما يتصل بترعة الاسكندرية ؛ وكذلك إلى دراسة المسيو إستيف Estève عن مالية مصر ، ص ٣٧٣ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

٣٣ — وكما رأينا فى الفقرة الخاصة بترعة هذه المدينة ، فى الدراسة عن القناة التى تربط بين البحرين ، فإن المدينة لاتحصل على مياهها الحلوة إلا عن طريق الترعة التى تأخذ مياهها من النيل ، عند الرحمانية ، وتعبر من الشرق إلى الغرب . إقليم البحيرة بطول يبلغ ٩٣,٥٣٠ متراً . ويعبر هذه الترعة شديدة التعرج ، أربعة قناطر عند ضواحى الإسكندرية ، وهى القناطر الوحيدة التى نجدها فوق مجراها (١).

وهذه القناطر ، وهى عبارة عن أقواس معلاة ، ومبنية على الطراز القوطى ، هى من إنشاء العرب ، وهى كذلك فى حالة سيئة بعض الشيء . ولم تعد هذه الترعة التى أفاض المؤرخون العرب فى وصفها وامتداحها ، سوى امتداد لحفرة ، لم تزل على الرغم من أنها توشك أن تكون شبه مردومة ، تتجه إلى المدينة ، حيث توزع مياه النهر على كل المجرورات ، عن طريق أربعة جداول سفلية . وأقصى هذه الجداول من جهة الغرب هو نفس امتداد الترعة ،التى تذهب لتصب فى الميناء القديم على شكل مورد للسفن (المكان الذى تتزود فيه السفن بالمياه العذبة). وإلى هذا المورد ، الضرورى للغاية لمنشأة بحرية ، والذى يشبه بالنسبة لهذا الميناء حزان مياه حقيقى ، تذهب السفن للتزود بالمياه ، أوقات فيضان النيل (٢) .

---

(١) يمكن أن نعود إلى خريطة القناطر والخلجان فى الاسكندرية لنرى بداية هذه الترعة التى تجمع عندها الانجليز والأتراك وقاموا بقطعها ؛ وبسبب ذلك فقد حدث ، فى شهرى أبريل ومايو من سنة ١٨٠١ ، أن صب البحر ماءه فى حوض ماريوتيس (مريوط) عن طريق بحيرة المعدية ، فأغرقت مايقرب من ثلاثين قرية فى منطقة لاينبغى أن ترويها سوى مياه النيل وحدها ، كما كان يحدث وقت وجود هذا الاقليم القديم .

(٢) حددنا مربعات مرسومة بخطوط منقطة فوق جداول ترعة الاسكندرية ، فتحات هذه المجارى الهندسية ، وكانت هذه فتحات لادخال الضوء والهواء إلى هذه المجارى تحت الأرضية ، ولتسهيل عمليات التطهير والصيانة السنوية اللازمة .

ويتحدث المسيو دى ماييه ، الذى سبقت الإشارة إليه ، عن قنوات أخرى تحت أرضية كانت فى عصره (١٦٩٢ — ١٧٣٢) تنقل مياه النيل ، محاذية الساحل كله من الاسكندرية حتى أبى قير إلى الشرق ، أى بطول يزيد على ٢٠,٠٠٠ متر ، ومايقرب من ٥,٠٠٠ إلى ٦,٠٠٠ متر بحذاء المقابر إلى الجنوب الغربى ، ويقول هذا القنصل الفرنسى الذى أقام أربعين عاماً « إن الترعة تحت الأرضية ، التى كانت تمتد إلى الشرق ، كانت واسعة حتى ليستطيع رجل أن يعبرها واقفاً بكامل راحته » . وهذا مايلاحظه المرء ، فى الواقع ، فى الجداول الأربعة المتجهة إلى الجنوب ، ويمكن الظن بأن الترعة التى تحدث عنها المسيو دى ماييه ، هى الترعة القديمة المكشوفة ، والتى يحتمل أن تكون قد غطيت بمرور الزمن ؛ وكانت هذه تتجه من الاسكندرية إلى كانوب وهيراكلى ، أى أبى قير حالياً .

٣٤ – ووسط الخرائب التى انتهينا من عبورها ، لا يجد المرء ما يمكن أن يجذب ناظره أو يوقف خطو المسافر المحزون سوى خضرة بعض شتلات النخيل فى الحدائق القائمة حول المساكن المنعزلة والتى تحيط بها . وبخلاف أشجار النخيل يجد المرء فى هذه الحدائق أشجار التين ، والتوت ، والرمان ، والمشمش ، والبرتقال ، والعناب ، والحنة ، وشجيرات أخرى . ومن بين الخضروات يزرع هناك الباذنجان والكرنب ، والخس ، والهندباء ، والقنبيط .. إلخ ؛ وفضلا عن ذلك ، فإن النسيم الذى يستمتع به المرء فى هذه الحدائق سيئة التنظيم ، يجعل الطقس مناسباً لدرجة كبيرة حتى ليغامر المرء بأن يصل إليها ، من خلال أتربة بيضاء مالحة فى أرض ملتهبة .

٣٥ – وعندما نخرج من هذا السور لنجتازه إلى خارجه ، فإننا لا نقابل سوى مبنى واحد تستطيع بسبب ارتفاعه ، وإذا ما اعتليناه ، أن نبصر ما يدور فى أعالى البحار . وأود أن أتحدث هنا عن هذا العامود الضخم الجديد بلفت أنظار المسافر الذى يتجه إلى مصر عن طريق الإسكندرية . يقوم هذا العامود ، الذى نلمحه إلى جنوب سور المدينة العربية ، فوق ارتفاع يبلغ ١٢ ـــ ١٥ متراً ، نلاحظ فيه كتلا هائلة من مبان قديمة . فوق هذا المرتفع أقيم هذا العمود الأثرى من الجرانيت الشرقى ، ويبلغ ارتفاع جذعه ٣ (ل) ١ (ب) ٦٣ (ق) أو ٢٠,٥٠ متراً على محيط أوسط يبلغ ٢,٥٦ م ويزن ٥٧٣,٧٣٠ رطلا من زنة مارك أى ١٢٨ , ٢٨١ ك م و ٧٠ ديكا جرام (٧٠٠ ج) ، غير شامل قاعدته وأساسه وقمته التى يبلغ ارتفاعها ٩ (ل) ٤ (ب) ٢٥ (ق) أى ٨,٥٢ م ، وهو ما يجعل الطول الإجمالى للأثر : ٦ (ل) ٨٨ (ق) أى ٢٨,٧٥ م . ويبدو أن هذا العامود ، الذى كان يسمى حتى هذه اللحظة على نحو غير دقيق عامود بومبى ، قد أقيم على شرف الامبراطور سبتيموس – سيفيروس (١) . ويمكن القول بأنه يشبه برجا ، كان

---

(١) جاء أبو الفداء ، أميرسوريا ، والمؤرخ الجغرافى العربى إلى المدينة عام ١٣٨٣ . ويقول هذا المؤلف إن العامود فى زمنه كان يحمل اسم (سبتيم – سيفير – Septime Sèvère) كما أنه قد أقيم على يد أهل الإسكندرية اعترافاً منهم بالمكاسب التى حصلوا عليها من هذا الامبراطور الذى زار مصر سنة ٢٠٠ ميلادية ، ومما لاجدال فيه أن الكتابات اليونانية التى كان يصعب قراءتها فى زمن أبى الفداء ، والتى لم يعد من الممكن قراءتها الآن ، كانت فى =

الهدف من إقامته أن يستعمل دليلا للسفن التى يمكنها أن تلمحه على بعد يزيد على فرسخين فى الماء ، فى الوقت الذى تختفى فيه عن الأنظار الأبراج المقامة فى الحى العربى فى أرض سواحل مصر المنخفضة والمتعرجة .ونرى أن جذع هذا العامود يزيد فى وزنه عن وزن المسلة المقلوبة بحوالى الربع ، وهى المسلة التى تحدثنا عنها من قبل ، والتى كان يلزم لنقلها سفينة تبلغ حمولتها ٣٠٠ طن . ولن أواصل الحديث عن هذا الأثر ، الذى يمكن أن نشاهد قامته وتفاصيله فى ٨ من المجلد الخامس ، اللوحة ٣٤ .

٣٦ — ولكى نتابع بانتظام ، الأبحاث الأخيرة التى كان علينا القيام بها ، شأننا فى ذلك شأن المسافر الذى يعد خطواته حتى لايعود أدراجه من جديد ، فإن علينا أن نعود إلى الميناء الجديد ، وأن نعبر ، من الشرق إلى الغرب ، الخرائب الأخرى التى توجد خارج هذه المدينة .

عندما نخرج من السور العربى ، عن طريق برج الرومان المؤدى إلى الميناء الجديد ، نجد فى كل خطوة — إذا ماسرنا بحذاء الشاطىء — بقايا وآثاراً من مبان قديمة ، مثل الحمامات ، والبواكى التى نتعرف على كتل بنائها من الطوب الأحمر والأسمنت وكتل من الأحجار الضخمة ،وأجزاء من أرصفة كانت جزءاً من ميناء وخرائب أخرى . ويمكن القول بأن هذا الجزء الشرقى للميناء الجديد ، هو الآن مهجور

= ذلك الوقت لاتزال تشهد على هذا الحدث التاريخى ، ويدعى عالم الجليزى ، أمكنه فيما يقال أن يفك رموز هذه الكتابات بعد رحيلنا ،أنها تحمل فى الواقع على الاعتقاد بأن هذا العامود قد أقيم على شرف سبتيموس — سيفيروس . ويقدم المسيودى شاتوبريان Chateaubriand الذى زار المدينة فى أكتوبر وديسمبر ١٨٠٦ هذا النص اليونانى الذى نترجمه كما يلى : إلى امبراطور الاسكندرية البالغ الحكمة ، دقلديانوس أوغسطوس ، حاكم مصر ، لكن هذا النص لايهدم فى رأيى الشهادات التى تنسب إقامته إلى سبتيموس — سيفيروس . أنظر : L'Itinéraire de Jerusalem à Paris, Par M. de Chateaubriand t. III Pag 100 etc

ويمكن أن نرى الوصف الخاص الذى قدمه عن هذا العامود المسيو نورى Norry المهندس المعمارى ، وعضو مجمع العلوم والفنون فى مصر ، فى مجلدات العصور القديمة ، وصف مصر ، فصل ٢٦ .

ويقول المستر ولسون ، فى الجزء الثانى من مؤلفه ، ص ١٤٩ « من بين الآثار القديمة التى عثر عليها الانجليز ، يلفت الأنظار حجر على شكل مائدة كبيرة عليها نقوش هذه ترجمتها : إلى كل من يهمه الأمر ، أقيم هذا العامود على شرف سبتيموس سيفيروس على يد جنود الفيلق الحادى عشر . وهذه المائدة طرف الجنرال كوت Coat » .

تماماً ، بدءاً من برج الرومان حتى رأس المنارة Pharillon ، وملىء بأنقاض المبانى القديمة ، التى قلبتها يد البشر رأساً على عقب ، أكثر مما فعلت أمواج البحر التى كانت تضرب سفحها بلا انقطاع .

٣٧ – والـ Pharillon (المنارة) هو هذا الحصن الصغير الذى سبق أن تحدثنا عنه ، والذى يتخذ اسمه من موقعه تجاه حصن الفنار ، وهو مقام على حافة شريط من الشعب الصخرية التى تقفل مدخل الميناء الجديد الذى يقوم الفنار بالدفاع عنه . أما الجسر الذى يؤدى إلى هذا الحصن الصغير ، فهو بنفس مستوى مياه البحر التى تغطيه فى أيام الطقس المعتم (الشتوى) .وهذا الحصن الصغير ، ليس اليوم سوى برج مربع الشكل تحول إلى خراب . وقد شاهدت هناك بعض قطع ضخمة من موقع حديدى ، حولته الأكسدة التى تسببها الرطوبة المالحة ، الناتجة من مياه البحر ، إلى مثل هذه الحالة من التفتت ، حتى أن الحديد يتساقط إذا لامسته النصال أو أية قطع معدنية .

٣٨ – ووسط الخرائب الموجودة على الشاطىء إلى الشرق ، لانجد سوى خرائب فناء واسع تغلقه جدران يبلغ ارتفاعها ٧ ــ ٨ أمتار ، وواجهات هذا السور ذى الجوانب الأربع ، والمفتوحة من بعض الجهات والتى تعلوها بعض الأبراج الصغيرة ، يمكن أن يبلغ طولها من ١٢٠ إلى ١٤٠ متر ؛ وجدران هذه الخرائب الضخمة التى تسمى بلغة البلاد : قصر القياصرة ، ذات سمك كبير ؛ ويشكل بناؤها ، وهو من الحجارة التى تميل إلى اللون الأبيض ، ومن النوع الجيرى ، وكذلك من الطوب الأحمر ذى الأحجام الكبيرة ، الطبقة المميزة من الطبقات الأفقية والمنفصلة لارتفاعات مختلفة ، على طريقة المصانع والمحلات الرومانية . وفوق المرتفعات التى تحيط بخرائب هذا القصر ، الذى يبعد بمسافة ٤٣٥٠ متراً إلى الشمال الشرقى من بوابة رشيد ، دارت معركة ٣٠ فنتوز من العام التاسع (٢١ مارس ١٨٠١) بين الجيش الفرنسى من جهة ، والجيش الإنجليزى – التركى من جهة أخرى .

٣٩ – ولايعود الإنسان يقابل على شبه الجزيرة الطويلة والضيقة والتى تمتد إلى

الشمال الشرقى حتى أبى قير ، إلا بعض الخزانات والبيوت المتفرقة وسط أشجار مزروعة أو غابات أشجار النخيل ، تحيط بها رمال الصحراء ومياه البحر إلى الشمال ومياه بحيرة المعدية إلى الجنوب من كل اتجاه .

٤٠ – أما أبو قير ، الذى يعيد إلى الأذهان على الدوام أعظم ذكرياتنا من انتكاسات وانتصارات الجيش الفرنسى فى مصر ، فهو رأس متقدم فى البحر ، يشغل قمته أحد الحصون ، وتبلغ المسافة بينه وبين حصن الفنار فى خط مستقيم ، ٢٢,٢١٠ متراً كما تبلغ ٢٠,٧٠٠ م إلى الشمال الشرقى من ميناء رشيد . وقد دمرت القرية التى كانت تقوم تحت جدران هذا الحصن عن آخرها أثناء معركة أبى قير وحصار هذا الحصن نفسه ، من ٧ إلى ١٥ ترميدور من العام السابع (٢٥ يولية إلى ٢ أغسطس ١٧٩٩) [1] .

٤١ – وقبل الوصول إلى أبى قير ، نجد على الشاطىء وعلى مسافة حوالى ٢٥٠٠ م إلى الجنوب الغربى لهذا الحصن ، مرتفعات تكونت من الأنقاض التى تعود إلى كانوب القديمة (أبى قير حالياً) ، ومن بين قطع الجرانيت والرخام المبعثرة على الشواطىء ، نميز جذع الأعمدة ورؤوس بعض الأعمدة ، وكرياتيد [*] ، وأبا هول ، وتماثيل أخرى مشوهة أو محطمة ؛ وعند هبوطنا إلى الساحل ، نجتاز بعض منشئات تحت أرضية يرتفع مستوى أرضها بـ ٥ إلى ٦ أمتار فوق مستوى سطح الأرض ؛ ونرى هناك بقايا حمام محفور فى الحجر الجيرى الذى يقفل ويحد ساحل الاسكندرية حتى أبى قير ، حيث يتوقف فجأة كى لايظهر بعد ذلك إلا على شاطىء سوريا فى الشرق . وينتهى هذا الحمام الذى يضم حجرات متنوعة موزعة بشكل منتظم ، وإلى الشمال ، بردهة نصف دائرية ، تصل منها مياه البحر عن طريق أربع فتحات تتصل بدهليز يدور بشكل مركزى على هيئة نصف دائرة ، وتخترق بواكى هذا الدهليز نفسه ، إلى

---

(١) انظر شكل هذا الحصن ، الدولة الحديثة ، مجلد ١ ، اللوحة ٨٣

(*) تمثال لامرأة يقوم مقام الأعمدة (المترجم)

الخارج ، أربع فتحات أخرى تصب فى البحر ، متخذة اتجاها معاكساً للاتجاه الذى تتخذه الفتحات الأربع الداخلية ، وكل حجرات هذا الحمام ، وكذلك هذه الدهاليز الدائرية منحوتة فى الصخور ، والفكرة من وراء هذا التصميم ، وهى واضحة تماماً ، تهدف كما يمكن لنا أن نستنتج إلى تكسير وإضعاف ضربات أمواج البحر حتى لاتدخل إلى الحمام إلا مياه هادئة وشفافة ؛ وقد تحممت عدة مرات فى هذه الحمامات ، أما حجراته التى يبلغ عددها سبع حجرات أو ثمانية ، فهى تغص بالرمال عن آخرها ، فيما عدا أكبر هذه الحجرات التى لاتزال تحتفظ بـ ٣ إلى ٤ أقدام من المياه ، عند مصبات الفتحات الداخلية الأربع للدهليز الدائرى ، ونصل إلى هذا الحمام عن طريق طرقات وحجرات سفلية ، وقد استوجب الأمر أن يكون حماما مغطى ، ولابد أنه كان تابعاً لأحد القصور أو لمنشأة عامة على درجة كبيرة من الأهمية ، ونجد آثاراً مشابهة على كل ساحل المقابر فى جنوب غرب الاسكندرية ، وق كانت الحمامات بلا جدال ذات نفع عظيم كما كانت تشكل متعة كبيرة فى هذ المناطق الساحلية ، ويمكن لنا أن نعتقد أنها كانت تساهم فى مباهج تلك الأعياد الخليعة التى كان يتوجه إليها شباب الاسكندرية فى شكل جماهير ، والتى كانت تقو فى مدينتى كانوب وتابوزيريس ، ولكن ، فلنعدالآن إلى قصر القياصرة ، الذى لم نبتع عنه إلا لإلقاء الضوء فى كلمات سريعة على الأرض التى تحد من جهة الشرق مدينا الاسكندرية .

٤٢ — إذا ماتوجه المرء من قصر القياصرة نحو الجنوب وخارج سور المدينة فإنه سيقابل سهلا منخفضا ومالحاً ، حيث يغوص سطحه الرطيب تحدثاً شيئاً من الطقطقة تحت أقدام المسافر ، كما لوكان يطأ ثلجاً متجمداً ؛ ثم وبعد أن يترك عن يمينه المرتفعات التى ليست — كما سبق أن قلنا — سوى أكوام من الأنقاض ، فإنه يصل إلى القنطرة القصوى من جهة الشرق ، المقامة فوق الخليج أو ترعة الاسكندرية ، التى نجد على شواطئها عدداً هائلا من الآبار وخزانات المياه . ولكى نتعرف جيداً على شكل هذه القنطرة ، وهى شبيهة بشكل القناطر الثلاث الأخرى التى لاتزال باقية

حتى اليوم داخل سور المدينة باتجاه الغرب ، فإن علينا أن نعود إلى الرسوم التى قدمها لنا المسيو بلزاك (١) ، ووجود هذه القناطر الأربع ، وهى الوحيدة التى بنيت فى ضواحى الاسكندرية ، على كل مجرى الترعة التى يبلغ طولها حتى الرحمانية ٩٣,٥٣٠ متراً ، يبرهن إلى أى حد كانت هذه المنطقة ولابد مزروعة وآهلة فى عهد الرومان ، وخلفائهم العرب ، وكان بمقدور المرء حتى بضع سنوات خلت ، أن يرى بعض غابات النخيل على شواطىء هذه الترعة ، وكذلك فى شبه الجزيرة التى تمتد حتى أبى قير ، لكن هذه الأشجار ، التى يجد الناس فى السعى إلى ظلالها الضئيلة ، والتى تعد ثمارها واحدة من أكبر مصادر الدخل فى مصر ، قد اختفت مع مجىء الجيوش المتعادية التى دمرت ، الجيش تلو الجيش ، ضواحى هذه المدينة فيما بين عامى ١٧٩٨ و ١٨٠١ .

٤٣ – بالقرب ، وإلى الجنوب من عامود سبتيموس سيفيروس ، وهى تسميته ، أصبح من المناسب منذ الآن أن نطلقها على هذا المبنى ، يوجد مكان فسيح ، لايسمح شكله المستطيل الذى ظل يحتفظ به ، وكذلك نتوء شوكته المقتطعة والمنحوتة فى صخرة صلبة ، بأن يتسرب أى شك بأن هذا ليس سوى بقايا مضمار (لسباق الخيل) قديم يبلغ طوله ٥٥٤,١٧ م وعرضه ٥١,٦١ م ، أما طوله من الخارج من فوق المحور الكبير ، فيبلغ ٦١٤,٦٠ م ، وهو مايدل على أن عرض المدرج المخصص للمتفرجين على الألعاب يبلغ ٣٠ متراً .

وتبعاً لهذه المقاييس ، فإننا نستنتج أن العربات التى كان يراهن عليها فى ألعاب السيرك كان عليها أن تعبر ٦,٥٠ غلوة يونانية أو أولمبية (٢) وعند الطرف الغربى من الشوكة ، نرى ثقبا عميقا ، حيث كانت تنتهى ـــ عل الأرجح ـــ ترعة تتصل ببحيرة مريوط ، كانت تستخدم ، إذا صح هذا الاحتمال ، فى إدخال المياه إلى حلبة السيرك .

٤٤ – وبعد أن تعبر الترعة عند مرفقها الموجود فى أقصى الغرب ، فإنك تقابل

---

(١) انظر الأطلس ،الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، اللوحة ٩٩

(٢) انظر رسم السيرك للمسيو بلزاك فى A من المجلد الخامس ، اللوحة ٣٩

مرتفعاً مكوناً من صخرة حجرية صلبة ، تجد فيها مغارات مقتطعة على شكل دهاليز أو كهوف تحت أرضية ، وتعرف هذه الكهوف المخصصة للدفن باسم : المقابر .

ويلاحظ عند الحواجز الرأسية لهذه الدهاليز وحجراتها ثلاثة أو أربعة صفوف من المقابر المحفورة فى الصخور فوق بعضها البعض ، والتى لايظهر منها بسبب هذه الطريقة فى الحفر إلا الجزء الذى تنتهى إليه أقدام الجثث التى تدفن فيها ، ويختلف هذا الوضع ــ البالغ الفائدة من كافة النواحى ــ عن الوضع الذى نلاحظه فى مقابر مالطة وروما ، التى زرتها ، الأولى فى يونية ١٧٩٨ والأخيرة فى مارس ١٨١٠ ،والتى تحفر كلها على شكل اخصاص أو حجرات رمسية (مقابر) بالاتجاه الطولى للدهاليز ، ويشعر المرء على الفور أن مثل هذا الوضع الذى يتطلب فراغا كبيراً لابد وأن يضم عدداً أقل من الأجساد عما لو كان قد حفر على غرار مقابر الاسكندرية ، ومن جهة أخرى فإن التشابه القائم بين مقابر الاسكندرية هذه وبين مقابر روما ومالطة ينبغى أن يدفعنا للاعتقاد بأن مقابر الاسكندرية كانت تستخدم مقابر للمسيحيين الأوائل ، أثناء اضطهادات الكنيسة ، فى عهد أباطرة الشرق .

٤٥ — ويتردد أهالى الإسكندرية والعرب البدو على المسجد الذى يقع إلى الغرب قريبا من هذه المقابر ، وهم يذهبون إلى هناك لأداء الصلوات وتقديم الصدقات فى فترات معينة من السنة .

٤٦ — يشكل الشاطىء الذى ينحدر إلى الجنوب محيطا بخليج الميناء القديم ، صخرة جيرية تلطمها المياه وتفت فيها منذ قرون ، ويتراوح ارتفاعها من ٥ إلى ١٠ أقدام فوق مستوى سطح البحر ، وقد اكتشفنا على هذا الشاطىء أعداداً لاحصر لها من الكهوف تحت الأرضية ، كانت ملحقة دون شك بمدينة المقابر للإسكندرية القديمة ، وجزء من هذه الكهوف مكشوف ، وبعض منها تسده الرمال ، ونتيجة لذلك فقد أعطيت لكل هذا الجزء من الساحل اسم شاطىء المقابر .

وكل هذه المقابر تؤدى إلى البحر ، ولها حمامات يتفاوت حجم اتساعها ، أما أكثرها لفتاً للأنظار ، فهى تلك المقبرة التى تقع على بعد ٣٥١٠ مترا إلى الجنوب

الغربى من عامود سبتيموس سيفيروس ، وكان العامة يطلقون عليها – وقد جانبهم الصواب فى ذلك ـــ اسم حمامات كليوباترة ؛ وقد أشرنا إليه على خريطتنا تحت اسم : معبد تحت أرضى ، ولايمكن للمرء إلا بمشقة بالغة ، وبالاستعانة بمشاعل ، أن يدخل هذا المعبد نصف المطموس بفعل رمال الصحراء وأنقاض المبانى التى تحيط به ، وهو فسيح ، ومنتظم ، وعمارته بسيطة ، تتناسب مع الغرض من إقامته (١) .

وتدل أكوام العظام ، وهى التى لايمكن أن تكون إلا عظام خراف وجمال وخيل وماشية أخرى ، على أن مساكن الموت هذه كانت تستخدم كمأوى لحيوانات متوحشة أو لكواسر جارحة كانت تجر إلى هذه الكهوف جثث فرائسها ، وينبغى على المرء أن يدلف إلى هذه المساكن السفلية بحذر شديد ، مخافة أن تفاجئه بعض هذه الحيوانات المتوحشة التى لاتخرج منها الا للبحث فى عتمة الليالى عن غذائها والذى تجده فى معظم الأحيان فى مقابر المدينة .

وكثيراً مايقابل المرء فى هذه المنطقة وفى ضواحيها ، كمية كبيرة من فتات وقطع الرخام من كل صنف ، مما يشهد بأن هذه الأماكن كانت تضم مبان جنائزية على درجة من الأهمية ، ولا ينبغى أن نولى بالا لما يحكيه العربان ، الذين يدعون بأن هذه المقابر تمر من تحت حوض مريوط وأن دهاليزها السفلية تمتد حتى دهاليز الأهرام ، فهذه خرافة بينة ، ومع ذلك فهذه الدهاليز تمتد بالفعل لمسافة كبيرة ، ولابد أنها تشكل مايشبه اللابرنت (التيه).

٤٧ – وعندما يواصل المرء مسيرته نحو الجنوب الغربى ، فإنه يجد فيما وراء هذه المقبرة الأخيرة بقايا قناة لابد أنها كانت تربط الترعة ببحيرة ماريوتيس ، وتقع هذه القناة على بعد ٥٨٥٠ متراً ، من عامود سبتيموس سيفيروس ،ويبلغ طول شواطئها من البحر حتى البحيرة ١٤١٦ قدما ، وهذه القناة مطموسة ، ولايزيد ارتفاعها الآن فوق

---

(١) انظر تصميم هذا المعبد تحت الأرضى الذى رسمه بعناية السيدان فاى Faye ومارتان Martin ، مهندسا الطرق والكبارى A ، المجلد الخامس ، اللوحة ٤٢ .

مستوى سطح البحر بأكثر من متر ، ويكفى لإعادتها إلى العمل ، القيام ببعض الأعمال البسيطة والميسورة للغاية ؛ وسوف يعود ذلك بأجل الفوائد الى تجارة الاسكندرية وملاحتها .

٤٨ — ولايشكل الجزء الباقى من الشاطىء حتى الشيخ (العجمى) إلا صحراء ، ثم تبدأ السلسلة الصخرية ، التى تحيط به الى وراء آثار القناة التى تحدثنا عنها للتو ، تسمح لنا بأن نلقى نظرة غير متمكنة على المحاجر العديدة التى استغلت فى الماضى ، والتى استخدمت حجارتها دون شك فى بناء مدينة الاسكندرية .

ويزرع حول لسان المياه المالحة الذى نجده قبل أن نصل الى الشيخ (العجمى) البطيخ والشمام من نوع رائع ، وتدعم هذه الزراعة الرأى القائل بأن مياه هذا اللسان تأتى فى جزء كبير منها عن طريق المطر ، وتستخدم هذه المياه فى رى هذه الحقول ذات الطبيعة الرملية .

٤٩ — أما الشيخ أو الضريح (العجمى) فهو حصن صغير أقيم على قمة السلاسل الصخرية التى هى فى مستوى سطح مياه لسان إلى الجنوب الغربى من خليج الاسكندرية ، ولا يحمى هذا الحصن ، الذى تبلغ المسافة بينه وبين حصن الفنار حوالى ١١,٧٢٨ متراً ، إلا على نحو ضعيف منفذ مضيق الخليج ؛ وبالقرب من هذا اللسان قام الجيش الفرنسى بعملية انزال جنوده فى ١٣ ميسيدور من العام السادس (أول يولية ١٧٩٨).

٥٠ — ويجد القارىء فى دراستى عن الجزء الغربى من ولاية البحيرة وعن بحيرة مريوط (*) ، وصف الجزء الباقى من الساحل والذى يمتد حتى برج العرب إلى الجنوب الغربى وتنتهى معه أرض الاسكندرية ، ويبقى على الآن أن أتكلم عن الطبيعة الجدباء لهذه المدينة .

٥١ — لاتتكون أرض الاسكندرية ، وكذا كل أرض شبه جزيرة رأس أبى قير فى

(*) أنظر الدراسة الثانية من المجلد الثانى من الترجمة العربية لوصف مصر .

الشرق ، وحتى برج العرب فى الجنوب الغربى بطول يبلغ ٦ – ٧ ميريامتر ، إلا من صخرة جيرية ضاربة إلى البياض ؛ وتغطيها فى جزء منها كثبان رملية متحركة .

وعلى الرغم من أن هذه الأرض ذات طبيعة رملية ، قاحلة وملحية ، فإننا نجد فيها فى نفس الوقت بعض المياه المالحة والتى تتفاوت درجة صلاحيتها للشرب ؛ ويتحقق ذلك بالنسبة لشاطىء شبه الجزيرة إلى الشمال الشرقى وإلى الجنوب الغربى ، بمجرد أن نحفر عدة أقدام فى رمال هذه الصحراوات ، وقد اضطر الجيش الإنجليزى – التركى لاستخدام هذه المياه أثناء الشهور الستة التى حاصر خلالها الإسكندرية .

ومن بين النباتات البرية التى تتكاثر بشكل طبيعى على أرض الصحراء المجاورة نجد الـ nitraire والـ ficoides وأنواعا مختلفة أخرى من الصودا (الأثنان) التى يجمع رمادها القلوى لينقل تجارياً إلى أوربا ، حيث يستخدم فى صناعة الصابون [1] .

٥٢ – قبل أن تغرق مياه البحر بحيرة مريوط ، كنا نرى على شواطىء هذه البحيرة التى يمتلىء حوضها بمياه المطر ، وبالمياه التى يصبها النهر أثناء فيضانه فى الترع التى تتفرع عنه ، كنا نرى كما نرى الآن على شواطىء بحيرات أخرى فى مصر السفلى أعداداً هائلة من الطيور من كل صنف مثل أبى قردان الأبيض ، وطائر أبى منجل ، والنحام (طائر طويل الساق والعنق) والبط البرى ، والبط المائى ، وزمج الماء (طائر بحرى طويل الريش) ، والبجع ، وأنواع أخرى ؛ وفى تلك الأيام كان العربان يجلبون إلى الإسكندرية البط ، والبط المائى ، الذى يصيدونه بواسطة الشباك ، وهناك نوع آخر من الطيور التى تستهلك منها كمية كبيرة فى هذه المدينة ، والتى لا يتطلب صيدها أدنى مشقة ، تلك هى طيور السمان ، وعصفور التين ، والقبرة ، وطيور أخرى

---

(١) نجد فى روايات سونينى Sonnini وأوليفييه Olivier اللذين سبقت رحلتهما إلى مصر الحملة الفرنسية بعدة سنوات ، تفاصيل هامة فيما يختص بتاريخ الإسكندرية ، وتجارتها ، وطبيعة الصحراوات التى تحيط بها . انظر :
Le Voyage en Egypte dans l'année 1778 par Sonnini, tome Ier, Chap VII, VIII, IX et X ,pag 100 à 106 ; Le Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte et la Perse .en 1792, par Olivier ,tom III,pag 1 à 78 .

مهاجرة ، تسقط بفعل الإعياء ، بعد الرحلة الطويلة التى قطعتها فوق البحار والتى تقوم بها كل عام فى شهر أكتوبر ، تسقط منهكة على أول شريط من أرض مصر ، لتقع فريسة فى يد الإنسان . وقد حدث أثناء عودتنا إلى فرنسا ، فى ٢٧ إلى ٢٩ سبتمبر ١٨٠١ وفى أثناء توجهنا من سواحل مصر أن كان بإمكاننا إن نلاحظ الهجرات الموسمية للطيور المسافرة ، وكانت هذه تسقط جماعات مصطدمة بصوارى وأحبال سفينتنا ، فى حين لم تكن هذه الطيور قد عبرت بعد نصف المتوسط ، وكان بعضها يستريح للحظات على سطح الماء ، محاذراً ألا يدع نفسه يغوص بجناحيه أكثر مما ينبغى ، وقد شاهدنا بعضاً منها لا تستطيع النهوض برغم المجهود الكبير الذى تبذله لتعاود تحليقها فى الأجواء ، ذلك أنها كانت قد بللت أجنحتها أكثر مما يلزم .

٥٣ – وأخيراً ؛ فمن بين الحيوانات ذوات الأربع ، التى تقترب من ضواحى الإسكندرية ، والتى تجتاز أسوارها فى غالب الأحيان ، نذكر ابن آوى ، والضبع ، وتتخذ هذه الحيوانات الضارية عادة مآويها فى قاع الكهوف والمغارات تحت الأرضية ، ولا تخرج منها إلا ليلا ، كى تذهب لتبحث عن فرائسها فى المقابر وأماكن رمى القاذورات ، وتجرها من مسافات كبيرة حتى مخابئها . ويمكننا أن نعد أيضاً من بين هذه الحيوانات النهمة ، الكلب المصرى ، على الرغم من أنه يقطن نهاراً فى سلام فى القرى ، وضواحى المدن الآهلة بالسكان ، فإنه يحيا طليقاً لا صاحب له ، فى قطعان أو عائلات متفرقة (١) تنتشر فى الليل وسط المساكن ، كى تبحث عن غذائها .

---

(١) ليست الكلاب فى مصر ، على نفس حال مثيلاتها فى البلاد الأخرى ، أى أنها ليست حيوانات مستأنسة ؛ ويلاحظ أنها تعيش هناك وسط المدن والقرى ، حرة طليقة بلا صاحب ، ولكن فى شكل أسر متميزة فى غالب الأحيان فى هذا الحى أو ذاك حسب اختيارها ، تطارد وتسىء معاملة الكلاب الأخرى التى تريد اقتحام حيها ، ومن المعروف أنه توجد فى مصر منشئات خيرية لتأمين غذاء الكلاب والطيور . وهذه الأخيرة من النوع آكل الحبوب ، وكانت تجد الحب يومياً فى أصص على شكل مناضيد صغيرة ، كانت توضع فى قمة أسهم مآذن المساجد . وتعود هذه العادة إلى بقية من الاحترام المقدس الذى كان قدماء المصريين يحملونه للحيوانات .وأذكر هنا ، أننا فى الأيام الأولى من إقامتنا فى مصر ، كنا مضطرين أن نرسل ليلا ، إلى الإسكندرية ، والقاهرة ، ورشيد ، ودمياط ، وكذلك إلى مدن أخرى ، سرايا عديدة – كنا نفعل ذلك كما لو كان إجراءاً حربيا وقائياً – لمفاجأة وقتل هذه العصابات من الكلاب الجائعة والمتشردة ، والتى كان نباحها الحزين والمرعب حقاً يبدو كما لو كان يستثير الناس =

وكان كل الجزء الأول من الخليج ، فيما بين القناطر الأربعة ، بطول ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ م ، يزرع على يد العربان ، بواسطة المياه التى يحصلون عليها من الآبار وخزانات المياه العديدة التى تحيط بجسور هذه الترعة . وهكذا كنا نرى هناك بعض حقول البرسيم ، والحلبة ، والشعير ، والقمح ، كما كانوا يزرعون أيضاً بعض الخضروات ، مثل البقول التى نجدها أكثر كثافة فى بساتين المدينة العربية ، وعلى سبيل المثال :

الفوم ، والفول والباذنجان ، والخس ، والبصل ،وغيرها

٥٤ – تلك كانت لوحة للحالة التى بدت عليها الإسكندرية للجيش الفرنسى ، قرب نهاية نهاية القرن الثامن عشر ، وبعد ما يزيد على ألفى عام من تأسيسها .

وهنا ، أصل إلى ختام وصفى للحالة الحديثة لهذه المدينة ، ثم أمضى بعد ذلك إلى القسم الثانى من هذه الدراسة ؛ تلك التى تهدف إلى معرفة حالتها القديمة ، أيام مجدها وازدهارها تحت حكم الإغريق والرومان .

* * *

= ويحفزهم ليلا للقتال ، ولم يكن يخطر على بالنا فى الواقع أن السكان كانوا سيسمحون مطلقاً ، قبل مجيئنا ، بترك هذا النوع من الحيوانات غير المرغوب فيها ليتضاعف عددها ، لو أن هذه الحيوانات كانت معتادة على تعكير هدوء الليالى هكذا بنباحها ، الذى لا يمكن – فى رأينا – أن يسببه إلا فزع ، كان مجهولا قبل مجيئنا .

القسم الثانى

الحالة القديمة لمدينة الاسكندرية فى عهد امبراطورية الإغريق والرومان ، مع مقارنة هذه الحالة بحالتها الراهنة

٥٥ – بنيت المدينة التى أسسها فى مصر ،فاتح آسيا وأسماها باسمه ، مكان قرية كانت موجودة قبل ذلك بوقت طويل ، وكانت تقع على شواطىء البحر المتوسط تجاه وبالقرب من جزيرة فاروس ، وكان بهذه القرية التى تسمى راكوتيس (١) معبد صغير لعبادة إيزيس وسيرابيس Serapis ،وكان يقطنها الصيادون والرعاة الذين كانوا يشغلون هذه النقطة من لسان ضيق ، تحيط به مياه المتوسط أو بحر الإغريق من الشمال ، ومياه بحيرة ماريا Maréa من الجنوب ، وقد قام الفرس ، ومن قبلهم فراعنة مصر ، بتحصين هذه القرية ، وكذلك جزيرة فاروس ، حتى يكونوا فى مأمن من إغارات الإغريق ، وهكذا كان سكان هذه الضاحية والذين يطلق عليهم اسم أبناء راكوتيس ، فى حالة تمكنهم من صد اعتداءات هؤلاء القراصنة ، الذين كانوا يروعون سواحلهم . يقول سترابون فى هذا الخصوص : « وحيث كان ملوك مصر الأوائل يشعرون بالكفاية بما لديهم ، فإنهم لم يستشعروا كبير حاجة إلى استيراد أشياء من الخارج ؛ ومن جهة أخرى فقد أقام هؤلاء الملوك ، حتى يرصدوا حركات البحارة (المغيرين) وبخاصة الإغريق منهم ، أولئك الذين تدفعهم قحولة أراضيهم إلى الذهاب إلى مكان آخر للحصول على ، أو لسلب مالا يجدونه عندهم ، حامية مهمتها الدفاع عن سواحل هذه المدينة ضد الأجانب ، ومع ذلك فلم تكن راكوتيس بالضرورة كبيرة فى الوقت الذى ظهر فيه الإسكندر ، إذ أن هيرودت ، الذى زار مصر عام ٤٦٠ ق م قبل ذلك بقرن لم يشر إلى هذه القرية فى كتابه ، فى الوقت الذى يذكر فيه مدن كانوب إلى الشمال الشرقى ، وماريا وأبيس إلى الجنوب باعتبارها مدناً كبيرة .

---

(١) راكوتيس حسبما يذكر سترابون ، الكتاب السابع عشر ، وراخوتى حسب الكتابة القبطية .

ويرجع المؤلفون العرب تأسيس هذه القرية إلى عصر مصرايم ابن حفيد نوح ، ويرجعه آخرون إلى أمير اسمه شداد Chedad ، وهو سابق على مجيء الفاتح المقدونى بزمن طويل ؛ وحيث كانت هذه المدينة مزودة بثلاثة أسوار حصينة ، فلابد أنها قد دمرت ، وأعيد بناؤها فى فترات مختلفة ، على يد الآراميين ، وأن شداد هذا لم يفعل سوى أن رممها ، ثم على يد الفرس بقيادة بختنصر ، وهو نفسه ملك الآشوريين الذى خرب ممفيس ، والذى يسميه سفر الكتابة نابوخوذنصر ؛ ويقول المقريزى [١] ؛ إنه فى عام ٢٣٥٦ بعد الطوفان ، العام ١٦٨٤ قبل تحطيم معبد أورشليم ، فى السنة ١١ شمسية بعد هذا الحادث ، أنشأ الإسكندر بن فيليب ، وهو نفسه الذى هزم داريوس وسيطر على فارس ، هذه المدينة (الإسكندرية) ومنحها اسمه ، ونقل إليها مقر امبراطوريته الذى كان قبل ذلك فى ممفيس ، ويتفق كل المؤرخين لحد كبير على هذا الحادث ؛ فمن المعروف أن مصر كانت تئن منذ مائتى عام ، تحت سيطرة الفرس ، عندما تقدم الإسكندر ، بعد أن دمر صوره الرائعة ، نحو مصر التى استقبلته كمنقذ محرر ، وفتحت بيلوز (تل الفرما كما يسميها العرب ، وبالوظة الآن) مفتاح مصر ، وممفيس التى كانت عاصمة لها ، أبوابهما للفاتح ، وبعد أن قدم القرابين إلى العجل أبيس فى مدينة ممفيس ، ركب الإسكندر النهر حتى كانوب (أبى قير) ، والتف حول ماريوتيس (مريوط) إلى الشمال ، وتوقف عند راكوتيس التى أعجبه موقفها ، لكى يفيد من المميزات الطبيعة التى يقدمها هذا الموقع ، فقد قرر أن يؤسس هنا مدينة ، وعهد بتنفيذ هذا المشروع إلى دينوكراتوس Dinocrate ، المعمارى المقدونى الشهير ، فى نفس عام انتصاره دون شك ، أى فى السنة ٤٢٢ من تأسيس روما ، السنة ٣٢٢ ق .م ، وقد حدث بعد هذه الإجراءات ، حسبما يذكر أريان Arrien [٢] أن

---

(١) يذكر المستشرق لانجليه Langlès ، الذى ترجم المقريزى ، ذلك المؤلف العربى الشهير بجغرافيته التاريخية عن مصر ، فى طبعة باريس ١٨٠١ عن رحلات نوردان Norden ، المجلد الثالث ، ص ١٥٧ ، تفاصيل هامة ، رجعنا إليها ، وستقابلنا مقتطفات منها فى هذه الدراسة .

(٢) أريان ، الكتاب الثالث ، الفصل الثانى . انظر بخصوص أريان ، الترجمة الجديدة لمؤرخ الاسكندر هذا ، والتى قام بها شوسار Chaussard ، المجلد الأول ، ص ٢٣٧

رحل الإسكندر ، وهو الذى كان يرغب فى إعلان نفسه ابنا لجوبيتر ، إلى معبد آمون ليستشير وحيه .

وتبعاً لهذه الشهادات ، فإنه لا ينبغى أن ينظر لفاتح آسيا باعتباره مؤسس الإسكندرية ، وإنما باعتباره فقط قد قام بتوسيعها وتحصينها وتجميلها ليتخذ منها مقراً لامبراطوريته الجديدة ، وحسبما يذكر ديودور وكينت كورس [١] Quinte Curce فإن السور الذى خطط لها ، والذى رسم فى جزء منه بالجير وفى جزء آخر بالدقيق ، كان يضم كل المساحة الواقعة بين البحر وبحيرة ماريوتيس ، وكان طول الجهتين اللتين تمتدان بطول البحر والبحيرة يبلغ ٣٠ غلوة ، أما الجهتان الصغيرتان الأخريان اللتان تعبران اللسان بعرضه فكان طولهما يبلغ من ٧ إلى ٨ غلوات حسبما يذكر سترابون و ١٠ حسبما يذكر آخرون ، أما السور الذى يشبه سترابون شكله بشكل معطف مقدونى [٢] فقد كان طول محيطه يبلغ ١٥,٠٠٠ خطوة ، أى مايساوى حسبما يذكر دانفل d'Anville ١٢٠ غلوة ، وإن كان كينت كورس لا يقدره بأكثر من ٨٠ غلوة وفى النهاية فإن المؤرخ يوسفوس Josephe (فلافيوس جوزيفوس) يقدر طول المدينة بـ ٣٠ غلوة وعرضها بـ ١٠ غلوات [٣] ونحن فى هذا كله نميل إلى ترجيح معلومات سترابون ، حيث أن هذا المؤلف ، فضلاً عما يشتهر به من صدق ، قد خصص دارسة

---

(١) ديودور ، الكتاب ١٧ ،ص ٥٨٩ ؛ وكينت كورس ، الكتاب الرابع ، الفصل السابع ، ولا تزال هذه العادة متبعة حتى اليوم فى مصر ؛ فلرمى أساسات بيت أو منشأة ، يقوم المعلم ، أى البناء ، حيث لا يعرف هناك لا مهندس معمارى ولا حتى مهندس عام كما هو الحال فى أوربا ، بتخطيط التصميم على الأرض بواسطة الجص أو بودرة الجير ، وعندما تحدد الأسوار بهذه الطريقة ، وبدون تصميمات وبدون رسوم أو مقايسات تقديرية ، تقام الجدران الرئيسية ، وبعد ذلك يطلب المالك فى معظم الأحيان من المعلم هذا المكان أو ذاك ، وهذه الحجرة أو تلك حسبما يتراءى له ، وعلى الطبيعة ، وينبغى أن ننسب إلى هذه العادة السيئة عدم التناسق فى المبانى ، وكذلك الأخطاء التى نلاحظها فى مساكن العامة وكذلك قصور الكبار . وفى الواقع فكل المبانى مقسمة إلى حجرتين أو حجرات ثلاث كبيرة ، تحيط بها على الدوام حجرات صغيرة أرضيتها ليست على مستوى واحد ،أما السلالم التى يبلغ ارتفاع درجاتها من ٢٠ إلى ٢٥ سم ، فهى على الدوام ضيقة ومعتمة وغير مريحة .

(٢) Pline,Hist ,nat .liv V, chap X, et Plutarque ,vie d'Alexandre

(٣) Josephe ,Do bello Jud .liv, II ch XVI

مفصلة لوصف مدينة الإسكندرية فى كتابه الجغرافى الذى تناول فيه مصر [(١)].

٥٦ – يقول سترابون إن الإسكندرية كانت تغرقها من الشمال مياه البحر ، ومياه البحيرة من الجنوب ، ولم يكن من المستطاع الوصول إليها براً إلا عن طريق لسانين ضيقين يسهل الدفاع عنهما ؛ وكانت تغطيها جزيرة فاروس التى كانت تشكل بالنسبة لها ميناءا طبيعياً فى منأى عن رياح الشمال والشمال الغربى ، وحتى تتم الإفادة من هذه الميزة الكبيرة فقد تم توصيل القارة بالجزيرة عن طريق جسر ضيق يبلغ طوله ٧ غلوات ، يسمى كما يذكر هذا الجغرافى هبتاستاديوم Heptastadium ، ويقدر هيرتيوس Hirtius طوله بـ ٩٠٠ خطوة [(٢)] وكان هذا الجسر يتكىء من جهة المدينة على ميدان كبير ، يقع عند سفح جدران ينفصل عنها بواسطة قنطرة ، يحميها من الأمام أحد الحصون ، وعند طرفها الشمالى يغطى حصن ثان قنطرة ثانية تتصل بجزيرة فاروس . وتتكون هاتان القنطرتان من أعمدة عالية ، مثبتة بالبحر ، وترتفع إلى حد ما فوق سطح المياه ، لتشكل ممراً حراً إلى السفن . ويقسم هذا الجسر الذى يتجه من القارة إلى الجزء الغربى من الجزيرة ، الميناء الطبيعى إلى قسمين ، يحمل القسم الغربى منها فى عهد الرومان اسم Eunostus Portus ، بينما كان يحمل القسم الآخر ، الواقع إلى الشرق اسم Magnus Portus .

٥٧ – وعند الدخول إلى الميناء الكبير ، يجد المرء على يمينه برج الفنار ، وقد أنشأه Sostrate de Cnide فى عهد بطليموس فيليب فى عام ٢٨٢ ق م . وكان هذا

---

(١) سنكف منذ الآن عن الإشارة إلى الكتاب السابع لسترابون الذى صحب اليوس جالوس Elius Jalus فى حملته على مصر ، والذى نقل إلينا فى هذا الكتاب ، الذى خصصه لتاريخ هذه المنطقة ، تفاصيل خاصة عن مدينة الاسكندرية ، ونحن فى الواقع ، مدينون لهذا العالم الجغرافى ، بالمعلومات التى لدينا عن تاريخ هذه المدينة فى الأزمنة القديمة .

(٢) يقدر هيرتيوس طول هذا الطريق ٩٠٠ خطوة أى $\frac{٩}{١٠}$ من الميل الرومانى ، أى ما يبلغ ٦٨١ قامة حيث يقدر الميل بـ ٧٥٦ قامة . ومن جهة أخرى فإن الهبتاستاد تساوى حسب الغلوة اليونانية ٦٦٥ خطوة وهو ما يبلغ حوالى نصف غلوة (ستاد) بالاشارة إلى الطول الذى يعنيه سترابون . انظر
Hirtius De bello Civili Chap CII

البرج ، الذى شيد على صخرة تلاطمها من كل مكان مياه البحر ، يرتفع لعدة طوابق ، يحيط بكل طابق منها دهليز يدعمه صف من الأعمدة ، ويحمل البرج هذا النقش « من سوستراتوس من اكنيدوس ابن ديكسيفان إلى الآلهة الراعية للملاحة » وفى أثناء الليل يضىء هذا البرج ، الذى يبلغ ارتفاعه ٤٠٠ قدم ، شعلتين يراهما المسافر على بعد ٣٠٠ غلوة من عرض البحر ، ذلك أنه يصبح من الضرورى ، حيث أن الساحل منخفض وخطر بسبب كتله الرملية وشعابه الصخرية ، وجود إشارة عالية ترى من أعالى البحار لترشد السفن بأمان إلى الميناء [١] .

وهناك أثناء النهار ، مرآه معدنية تلتقط صور السفن قبل أن تظهر فى الأفق وكانت هذه السفن تضطر لكى تدخل الميناء أن تقترب بشدة من الفنار ، حيث لم تكن الصخور ولا الشعاب الصخرية الواقعة إلى اليسار لتسمح لها بالاقتراب من هذه الناحية ، وهو نفس ما يحدث اليوم . وكان هذا البرج يستخدم كذلك بمثابة حصن .

٥٨ — وكان الدفاع عن شمال مدخل الميناء ، يتم عن طريق قصر حصين ، بنى فوق شناخ (أنف الجبل الخارج منه والداخل فى البحر) يتوغل كثيراً داخل المياه ، وكان هذا القصر يحمل اسم لوخياس Lochias ، ولكى يضيق المدخل أكثر من ذلك كثيراً فقد أقيم أمام هذا الحصن رصيف حاجز ، ينهض فوق صخور فى مستوى سطح الماء يطلق عليه اسم arcolôchias أى رأس لوخياس [*] وقد أشار إليها يوسيفوس باسم الساق التى صنعتها يد الإنسان [٢]. ويرى المسافر عندما يواصل

---

(١) يلمح المرء على هذه المسافة ، التى تبلغ ٣٠٠ غلوة يونانية تساوى ٢٨,٥٠٠ قامة أو ١٠ فراسخ بحرية ، أنوار الفنار ، ولم تعد هذه المسافة بذات بال بعد إقامة هذا البرج ، ذلك أننا نستطيع بسهولة ونحن فى كاليه على شواطىء فرنسا أن نلمح أثناء الليل أنوار فنارى ميناء دوفر Douvres على السواحل الانجليزية ، وتبلغ المسافة التى تفصل هذين المينائين ٢١,٣٦٩ قامة تساوى سبعة فراسخ بحرية ونصف الفرسخ ، تبعاً لحسابات السيدين بيكار Picard ولاهير le Hire ، ويذكر أبو الفداء وبعض المؤرخين العرب ، إن المرآة كانت لا تزال موجودة فى برج الفنار فى العام ٩٢ من الهجرة (٧١٢ م) ، وهى الفترة التى انتزعت منه .

(٢) Josephe ,De bello Judaico lib V

(*) السلسلة حاليا .

طريقة على اليسار ، حى القصور الذى يحيط به البحر . وعند بداية حاجز لوخياس ، كان ثمة ميناء صغير مغلق خصص لسفن الملوك أى للبخرية الملكية ؛ ويحدد لها سترابون مكاناً آخر يقع تجاه جزيرة صغيرة تسمى Antirrbodos ، وكان لها هى الأخرى ميناء صغير به قصر ؛ وبمواصلة الطريق ، يقابل المرء المسرح الذى كان يتصل بالقصر عن طريق ممر يطلق عليه بوليب (١) Polybe اسم Syrinx ،ويفصل هذا الممر ميدان الألعاب الرياضية عن المضمار (سباق الخيل) ؛ وبعد ذلك يرى البوزيديوم Posidium وبه معبد مخصص لعبادة نبتون Neptune (*) ، وهو مقام فوق لسان من الأرض يتجه إلى داخل الميناء ،وقد أمر مارك أنطونيو بأن ينشأ فيه حاجز آخر أكثر توغلا فى البحر ، ينتهى القصر الذى أسماه تيمونيوم Timonium ؛ وبعد ذلك يأتى الكوزاريوم أو القيصرون Coesarium (معبد قيصر ، وهى الرمل حاليا) والسيباستيوم Sebasteum ثم قصر الملوك وقد أقيمت من قبله مسلتان وأخيراً يأتى الأمبوريوم Emporium والأبوستاذ Les Apostases ، أما بقية محيط هذا الميناء ، التى كانت تشغله المنشئات التابعة لترسانات البحرية ، فكانت تمتد حتى الهبتاستاديوم .

٥٩ — وفيما وراء الهبتاستاديوم يجد المرء الميناء الثانى الذى كان يحمل اسم أونوستوس Eunostus الذى كان الإقبال عليه أقل بكثير من الإقبال على الميناء الأول على الرغم من أنه أوسع منه لغير ما حد ؛ وكان يضم ميناء آخر يسمى كيبتوس Kiptos أى القوس وكان مزوداً بكل مايتناسب مع الخدمة البحرية ، كما كان يستقبل مياه الترعة التى كانت تعبر المدينة لتتصل ببحيرة ماريوتيس ؛ وفيما بعد هذه الترعة بقليل كانت تنتهى المدينة لتنهض تحت أسوارها مباشرة قرية نكروبوليس Necroblis مدينة الموتى أو الجبانة .

(١) Polybe, Excerpt. lib.V.

(*) إله البحا

ويتمتع ميناء اونوستوس (١) من الداخل بهدوء تام ، كما يسمح عمقه لأضخم السفن بالاقتراب من الرصيف ، أما الشعاب الصخرية التى تتكسر عليها الأمواج فتمنع الدخول إليه من جهة العرض .

٦٠ — وقد بنيت الإسكندرية فى عهد بطليموس بأنقاض هليوبوليس وممفيس وطيبة ، كما زينت بأعمدة هذه المدن ومسلاتها التى نقلت اليها بتكاليف باهظة ، ويخترق الإسكندرية من الداخل شوارع مخططة بطريقة تسمح باستقبال نسيم رياح الصيف القوية ، أى أن الشوارع تتجه من الشمال إلى الجنوب ، ومن شمال الشمال الغربى إلى جنوب الجنوب الشرقى ، وتستطيع العربات أن تمر فيها بحرية ، كما يعبر المدينة بطولها وعرضها شارعان كبيران ، يبلغ عرض الواحد منهما ما يقرب من مائة قدم ، يتقاطعان بزوايا مستقيمة عند منتصفها ، ويبلغ طول أكبرهما حسبما يذكر سترابون ٣٠ غلوة ابتداء من منشئه عند بداية كانوب ، حتى نهايته من جهة الغرب عند بوابة نيكروبوليس (وهو شارع طريق الحرية حاليا) . ويقدم يوسيفوس نفس المقاييس وإن كان ديودور يقدره بـ ٤٠ غلوة ، ولكنه يضيف إليه دون شك امتداده إلى الضاحية الشرقية . أما الشارع الكبير الآخر ، الذى يعبر المدينة بعرضها ، فقد كان يبلغ امتداده ٧ — ٨ غلوات ، بادئاً من موانىء النهر فى ماريوتيس ، لينتهى عند مبانى الترسانة البحرية فى الميناء الكبير (شارع النبى دانيال حاليا) .

وعند نقطة تقاطع الشارعين الكبيرين ، أى جوالى وسط المدينة ، نلاحظ ميداناً فسيحاً يقسمها إلى أربعة أقسام أو أحياء ؛ لكن فيلون Philon ، معاصر سترابون ، يذكر أن الإسكندرية كانت منذ عهده تنقسم إلى خمسة أقسام تحمل الحروف الخمسة الأولى من الحروف الهجائية الإغريقية . وقد أطلق اليهود اسمهم على اثنين من هذه الأحياء ، حيث كانت توجد مساكنهم الخاصة بهم (٢) ويقول

---

(١) تتناسب تسمية Eunastos Portus ، أى « ميناء العود الحميد » على الدوام مع ميناء الإسكندرية القديم (الميناء الغربى) ، الذى كان الدخول إليه بالغ اليسر ، بسبب رياح الشمال ، والغرب ، والشمال الغربى ، التى تسود فى غالب الأحيان ، والذى يكون الخروج منه ، لنفس السبب ، بالغ المشقة لحد كبير ؛ حيث تكون هذه الرياح عكسية بشكل مباشر .

(٢) فيلون ، كاتب يهودى ، كان يعيش فى الاسكندرية من عام ٣٠ — ٤٠ م انظر De pells Alex in Flaccum, p. 753

يوسيفوس [١] إن اليهود كانوا يسكنون جزءا من حى القصور على شواطىء البحر ؛ وقد أطلقت أسماء أخرى على هذه الأحياء ، التى كان أقدمها ، وأكثرها أهمية ، هو حى القصور أو حى بروخيون Bruchion وحى راكوتيس Rachotis أو سيرابيوم Serapeum .

٦١ – وكان حى بروكيون يشمل كل الخلاء الواقع بين الميناء والساحل إلى الشرق ،ابتداء من لوخياس Lochias (السلسلة) حتى بوابة كانوب ؛ وكان يضم القصور والمينائين : الميناء الملكية ، وميناء الجزيرة الصغيرة انترودس Antirrhodos ، والمسرح والدهليز الخاص به ، والبوزيديوم Posidium ، والتيمونيوم Timonium والكيزاريوم أو القيصرون Coesarium ، وميدان الألعاب الرياضية والمصارعة والمضمار (مكان ترويض وسباق الخيل) أو ميناندروز Menandros والمتحف والجمناز ، وهو عبارة عن مبنى واسع تزينه الأروقة والأعمدة لمساحة يزيد طولها على غلوة وهو مخصص لدراسة العلوم . وترتبط هذه المنشأة بقصر الملوك ، وتمتد حتى بوابة كانوب ، وكانت ترى به المكتبة الشهيرة ، التى كان مؤسسها إما بطليموس سوتر (الأول) Ptolemè Soter وإما بطليموس فيلادلفوس P.Philadelphe [٢] وكانت ترى هناك كذلك معابد أخرى وغابات مقدسة . هنا صد يوليوس قيصر قوات البطالمة وأهل الإسكندرية ، ومنذ ذلك الوقت حصن هذا الحى بسور خاص عزله عن بقية المدينة ، وجعل منه شكلا من أشكال القلاع ، وقد صمد لهجوم آخر فى عهد الأمبراطور كلوديوس الثانى Claude II فى عام ٢٧٠ م ، ثم تحطم الحى تماماً على وجه التقريب ، منذ بضع سنوات فى عهد أورليان فى عام ٢٧٥ . ويذكر سان جيروم S.Jerôme أن

(١) يوسيفوس ، كاتب يهودى ،كان يعيش فى الإسكندرية من عام ٦٠ – ٧٥ م .

(٢) تكونت المكتبة على يد بطليموس فيلادلفيوس ، وتوسعت على يد خلفائه وكانت تضم ٤٠٠ ألف مجلد ، وقد أحرقت جزئياً أثناء حصار الاسكندرية ، على يد يوليوس قيصر فى العام ٧٠٦ من تأسيس روما ، العام ٣٧ ق . م ، فقد وصلت نيران السفن الراسية فى الميناء إلى حى الملوك ، وأحرقت جزءاً كبيراً منه ، وكذلك من المكتبة .

ولا نفصل هنا المتحف عن الجمناز الذى لم ينشأ منه إلا مبنى واحد ، على الرغم من أن سترابون ، فيما يبدو ، يفصله عنه ليجعل منه مبنى قائماً بذاته .

الحى كان فى عصره ، أى حوالى ٤٢٠ م منعزلاً عن المدينة وأنه كان يستخدم كمأوى لبعض الزاهدين المنعزلين ؛ وبعد ذلك بقرن واحد ، فى عصر سانت إبيفان S.Epiphane ، أصبح الحى خراباً تماماً .

٦٢ – وكان حى راكوتيس يشتمل على معبد سيرابيس Sérapis ، الذى أعيد بناؤه على يد بطليموس ابن لاجوس Lagus ، مكان معبد صغير كان مخصصاً لسيرابيس وإيزيس ISis معاً ؛ ويقول سوزومين Sozomène إن هذا المعبد كان يقع على ربوة صغيرة إلى الشرق من الترعة ؛ ويقول روفان (١) Rufin الذى زاره قبل بضع سنوات من قيام تيوفيل Thèophile بطريرك الاسكندرية بتدميره نهائياً فى عام ٣٩٠ م ، إن هذا المعبد قد بنى فوق مرتفع ليس من فعل الطبيعة وإنما من صنع الإنسان ، وهذا المبنى الواسع ، كما يضيف روفان ، كانت تدعمه شرفات مقدسة يصعد إليها عن طريق سلم تبلغ درجاته مايزيد على المائة ، وكان داخله ، الذى تزينه الأعمدة والأورقة ، يضم حجرات مختلفة ، مخصصة للأسرار المقدسة وكذلك لمساكن الكهنة الموكلين بهذه الأسرار . وكان يوجد بهذا المعبد مقياس للنيل مخصص لسيرابيس وكان يحمل اسمه ، وقد أمر قسطنطين باقامته فى عام ٣٢٨ م ، لكى ينقل بعد ذلك إلى كنيسة الإسكندرية ، ولاتزال توجد بها حتى اليوم المكتبة الثانية التى أثرت بما تبقى

---

(١) يقول روفان ، إن تيوفيل ، وهو فى سبيله للقضاء على الوثنية نهائياً فى كل مصر ، قد حصل فى عام ٣٩٠ م من الامبراطور تيودوسيوس Thèo-dose على مرسوم يسمح له بأن يدمر كل المعابد المصرية ، وتبعاً لأمر من الامبراطور قسطنطين Constantin ، قام بطريرك الاسكندرية بانتزاع تمثال سيباريس عام ٣٢٨م وكذلك المقياس الذى يستخدم فى ملاحظة مياه النيل ، وقد أحرق الوثن ، أما المقياس أو الـ Separi فقد نقل إلى كنيسة مسيحية ، فى ذلك الوقت ، من كنائس المدينة هى كنيسة سانت أثناز التى بناها جريجوار الأريوسى Gaégoire l' Arien ، وعندما أراد الامبراطور جوليان Julien أن يعيد عبادة الأوثان ، فقد أمر أن ينقل إلى السيرابيوم ، المقياس الذى كانت بواسطته تحدد درجات فيضان النيل ، وقد بقى المقياس هناك حتى سنة ٣٩٠ م ، وهو الوقت الذى حطم فيه تيوفيل نهائياً هذا المعبد ، حسب أوامر الامبراطور تيودوسيوس .

ويطلق المصريون اسم سيرابيس Sérapis ، أو بالأحرى شيرابى Cherapi على المنشئات المخصصة للملاحظة السنوية لفيضانات النيل ، صانعة الخصوبة والوفرة اللتين كان المصريون يقدسونهما تحت اسم أبيس .

ويقول جابلونسكى Japlonski ،إن اسم سيرابيس هذا يتكون من كلمتين مصريتين ، احتفظت بهما اللغة القبطية هما : سير Ser ، أو شير Cher ، أو سار Sar ومعناها كلها عامود ؛ وأبيس Apis ومعناها مقياس .

وهكذا ، فقبل إنشاء الاسكندرية ، كانت لممفيس سيرابيوم أى معبد مخصص لأبيس ، وكان ينهض فوق ربوة صغيرة تسمى سينوبى Synopi (أى المكان الذى يتم فيه القياس) ، وكان المعبد مخصصاً لدفن العجل أبيس =

من مكتبة المعبد (١) ، التى أحرقها من قبل يولوس قيصر Jules Cèsar (٢) .

= (مأخوذ من مذكرات المسيو لانجليه Langlès .

(Voyage de Norden; Tome III p. 236 et 241)

(١) أقيمت المكتبة الثانية بعد وقت قصير من حريق مكتبة المتحف فى عهد يوليوس قيصر ، وكانت تضم ٥٠٠,٠٠٠ مجلد ، عندما تحولت إلى رماد ، تنفيذاً لأوامر عمرو (بن العاص) فى العام ٢٢ من الهجرة (٦٤٢ م) ، فقد كتب الخليفة عمر إلى قائده الذى استولى لتوه على الاسكندرية (ما معناه) « إذا كانت هده الكتب لا تضم إلا ما جاء به القرآن فاحرقها إذ لا حاجة لنا بها ، وإذا كانت تضم شيئاً مخالفاً فاحرقها لخطورة ما تحتويه » . ويقول التاريخ (٥) ، إنه تبعاً لهذا الأمر الذى لا يتصور صدوره عن رجل متحضر ، فقد بعثرت كل كتب هذه المكتبة ، ووزعت على حمامات المدينة لاستخدامها فى التدفئة ، وظلت تشتعل لمدة ستة شهور ، وكان قد بنى منذ وقت طويل ، فى مكان المعبد ، كنيسة تحمل اسم الامبراطور أركاديوس Arcadius والتى يظن بعض المؤرخين دون سند ، أنها اليوم هى الجامع المسمى جامع الألف عمود الذى يقول موروث البلاد إنه ترجمة لكلمة السبعين .

ووجود هذه المكتبة أمر يجادل فيه ، عن سوء نية ، بعض المؤرخين المحدثين ، فهذه قد تكونت من بقايا مكتبة المتحف ، وهى الأقدم ، وقد بينا أن حى بروخيون الذى كانت تقع فيه المكتبة (الأقدم) كان قد تهدم تماماً منذ بداية القرن الخامس ، وقبل نهاية القرن الرابع بقليل .

وقد قدم المسيو لانجليه Langlès فى النبذ التى ساقها ، والتى استخلصها من المؤرخين ، المعلومات التى من شأنها أن تثبت الوقائع (التى انتهينا إليها) . .

انظر : Voyaye de Norden

(٥) يحق لنا أن نستشهد هنا بما يسوقه حول هذا الموضوع مؤرخ فرنسى معاصر هو جاستون فييت فى كتابه :

Précis de l'Hsiotoire d'Egypte par divers historiens et archèo- logues tome II,par Gaston Wiet, l'Egypte musulmane, de la Conquête arabe a la Conquēte ottomane- le Caire ,1932 p. 111 - 112.

حيث يستبعد هذا المؤرخ تماماً ، تلك الرواية التى يوردها عبد اللطيف البغدادى عن أمر الخليفة عمر بحرق مكتبة الاسكندرية ، وهى الرواية التى بنى عليها كل المؤلفين فى الغرب موقفهم فى هذا الخصوص .

ويرى جاستون فييت أنه على الرغم من أن هذا الحادث ممكن الوقوع أثناء الحروب القديمة ، ويستشهد على ذلك بحرق المغول لمكتبة بغداد ، وحرق الفرنجة لمكتبة تونس ، فإن الرواية فى حد ذاتها غير صحيحة ،ويرى أن بالإمكان إهمالها كلية ، ويستند فى ذلك على مايلى :

١ – أن هذه الرواية لم ترد إلا عند عبد اللطيف البغدادى ، وبعد مرور ٢٠٠ (مائتى) سنة على الحادث المزعوم .

٢ – أنها لم ترد عند مؤرخين عرب ثقاة مثل الكندى وابن عبد الحكيم والبلاذرى والطبرى والمسعودى .

وقد يكون هذا كافياً لدحض ذلك الاتهام الذى يحاول المؤلف أن يلصقه بالعرب والمسلمين (المترجم)

(٢) بنى فوق معبد سيرابيس ، كنسية كانت تحمل اسم أركاديوس ، بتضرع من يوحنا المعمدان ، وقد افتتحت فى احتفال مهيب .

(Histoire du Bas - Empire, tome per ,liv XXIV)

٦٣ – أما السوما Sôma (*) التى كانت تتبع حى القصور حسبما يذكر سترابون ، والتى كانت تضم قبر الإسكندر ، فكانت تقع حسبما يقول تاتيوس Tatius عند نحو مركز المدينة ، حيث كانت تعد جزءاً من حى يحمل اسمها .

٦٤ – وفى أحياء أخرى من المدينة ، كان المرء يجد مبان عامة مختلفة لم تتحدد مواقعها بدقة ، مثال ذلك مبنى الستاديوم Stadium والفوروم Forum حيث كان يتم التقاضى . أما البانيون Panium (**) الذى يقع على مرتفع ينتهى بقمة مدببة ، فيبدو أنه صخرة طبيعية على الرغم من أنه من صنع الإنسان ، ويتم الصعود إليه من الداخل بواسطة سلم دائرى لولبى ، ومن قمة هذا المرتفع يشرف المرء على كل المدينة ؛ وأخيرا نرى المدرج أو السيرك ، وكذلك بعض معابد تهدمت كانت مبنية عند نيكوبوليس Nicopolis .

٦٥ – أما القناة التى تربط بحيرة ماريا بميناء أونوستوس Eunoste عن طريق الكيبوتوس Kibôtos (الميناء الصغير الداخلى) ، فتعبر الطرف الغربى من المدينة ، وكانت القناة تسمى ترعة ماريا ، وفيما بعد ترعة شديا Schedia ، وكانت هذه الترعة المتفرعة من الفرع الكانوبى عند قرية شديا (كوم الجيزة حاليا) ، تبعد عن الإسكندرية من جهة الشرق ، بـ ٤ شونات (١٢,٠٩٦ قامة أى ٥٤/١٠٠ ٢٣٥٧٥ م) وكانت تنقل كما هو شأنها اليوم ، المياه العذبة إلى المدينة . يقول استرابون « عندما يغادر المرء الإسكندرية عن طريق بوابة كانوب ، يجد عن يمينه ترعة تصل إلى البحيرة وتؤدى إلى مدينة كانوب ، ويستطيع المرء أن يبحر عن طريق البحيرة نحو النهر ثم يتوجه إلى كانوب وإلى شديا ، وقبل أن يمضى إلى إيليوزين Eleusine (***) يجد على يمينه ترعة تؤدى إلى شديا ، تبعد عن الإسكندرية بـ ٤ شونات (١) » .

(*) السوما أو السيما ومعناها الجبانة الملكية وتقع كما يذكر محمود الفلكى فى كتابه عن الإسكندرية القديمة عند تقاطع طريق الحرية مع شارع النبى دانيال . (المترجم)

(**) البانيون ، تل صناعى أقيم تعظيما للاله بان بحيث تشرف قمته على المدينة كلها ، وتحيط به حديقة جميلة . ويظن بأن بقايا هذا التل هى مانعرفه اليوم باسم كوم الدكة . (المترجم)

(***) النزهة حالياً .

(١) انظر دراسة عن القناة التى تربط بين البحرين ، القسم الثانى ، الفصل الأول ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، من ص ١٢٤ ـــ ١٣٠

وكانت مياه النهر توزع ، بواسطة مشاريع هندسية تحت أرضية ، على الآبار والخزانات المحفورة تحت المدينة ؛ ويقول هيرتيوس Hirtius الذى أشرنا إليه من قبل ، وهو يتحدث عن هذه الخزانات والآبار « يكاد يكون محفورا تحت الإسكندرية بأكملها خزانات سفلية ، تتلقى مياه النهر ، وتأتى لها هذه المياه عن طريق مسارب توزعها على خزانات بيوت الخاصة حيث تركد وتنقى شيئاً فشيئاً ؛ ولا تشرب المدينة مياها أخرى ، إذ لا توجد بها مطلقاً أية عيون طبيعية . ويضطر العامة لاستخدام المياه التى ينزحونها من مجرى النهر أو الترعة ، ولكن فحيث أن هذه المياه عكرة للغاية ، فإنها تسبب أمراضاً مختلفة » ويطلق أوزون Ausone على الإسكندرية ، وهو يتحدث عن العدد الهائل بها من الخزانات أو الصهاريج المخصصة لحفظ المياه اللازمة لاستهلاك سكان هذه المدينة ، « بيت النهر » .

٦٦ – ويقول ديودور [١] إن عدد سكان هذه المدينة يتناسب مع اتساعها إذ كان قد بلغ فى عهد أغسطس ما يزيد على ٣٠٠,٠٠٠ مواطن حر ، الأمر الذى يفترض وجود شعب يبلغ تعداده حوالى ضعف هذا العدد ، إذا ما أضفنا إلى هؤلاء عدد العبيد ، لكن هذا الرقم يبدو لنا مبالغا فيه ، ومع ذلك فإن كليتوفون Clitophone يقول أثناء حديثه عن شعب الإسكندرية ، إنه « عندما يتأمل هذه الألوف من سكانها ، فإنه لا يستطيع أن يتصور أن من الممكن أن توجد مدينة كبيرة لحد تستطيع معه أن تضم هذا العدد الهائل ، كما أنه – من جهة أخرى – لا يستطيع أن يتصور وجود عدد ضخم من الناس لحد يستطيعون معه أن يشغلوا امتداد هذه المدينة الواسعة » .

٦٧ – كانت الاسكندرية هى وطن كل من أوريجين Origène ، إقليدس Eucide ، إبيان Appien ، هيروديان Hérodien ، فيلون Philon .. إلخ وإلى مدارسها الأكاديمية الضليعة جاء مانيتون Manèthon وإيراتوستين Eratesthène الذى كان أول أمين لمكتبة المتحف التى أنشأها بطليموس إيفرجيتوس ، وكذلك جاء العالم الجغرافى بطليموس ، بالإضافة إلى آخرين جاء هؤلاء جميعاً لينهلوا من المعارف التى نقلوها إلينا فى

---

(١) ديودور الصقلى ، الكتاب السابع عشر .

كتاباتهم ، ومن ناحية أخرى ، فقد وضع أتباع كل من كليمان Clément ، وجيروم Jérôme ، وجريجور ، وأغسطس ، مؤلفاتهم بالإسكندرية .

٦٨ – كانت جزيرة فاروس ، كما سبق القول مأهولة قبل مجيء الاسكندر بوقت طويل ، وقد حصنها البطالمة قبل يوليوس قيصر كما نعرف ذلك من تاريخ حربه فى الإسكندرية حيث لقى الكثير من المصاعب لكى يستولى عليها ، وقد كان لقرية فاروس ، شأنها فى ذلك شأن المدينة ، أبراج عالية تربط مابينها أسوار تقفل القرية بسور منيع بعض الشيء ، وكان يقطن هذه القرية بحارة يمارسون القرصنة ، وكانت مياه النيل تأتى إلى كل مكان من هذه المدينة عن طريق مشروع هندسى مبنى بطول الهبتاستاد ، وقد تحطم هذا المجرى ، وكذلك قناطر الهبتاستاد ، بالإضافة إلى هذه القرية الرائعة ، أثناء حصار الإسكندرية على يد يوليوس قيصر .

٦٩ – وعند الخروج من الإسكندرية ، عن طريق بوابة كانوب ، يجد المرء على يساره ضاحية اليوزين Eleusine (النزهة) والتى يشطرها من طولها شارع كانوب الكبير والتى تحاذى البحيرة والبحر ، والتى خططت شوارعها على غرار شوارع الإسكندرية ، ويقابل المرء بعد هذه الضاحية مجرى هندسيا يسير بطول الساحل ويتجه إلى كانوب ، وفيما بعد إليوزين ، كان ثمة سيرك أو هيبودروم Hippodrome ينتهى عند نيكوبوليس .

٧٠ – وتقع مدينة نيكوبوليس (ومعناها النصر) على شاطيء البحر ، وتبعد عن الإسكندرية بـ ٣٠ غلوة حسبما يذكر سترابون ، وبـ ٢٠ غلوة حسبما يذكر يوسيفوس ، وقد سميت كذلك نسبة إلى الانتصار الذى أحرزه أوكتافيوس أغسطس على مارك أنطونيو ، وكانت تقام هناك احتفالات بهذه المناسبة ، مرة كل خمس سنوات .

٧١ – أما كانوب (أبو قير) ، تلك المدينة التى اشتهرت بمعبد سيرابيس المقام فيها ، وبورعها وفجورها ، فكانت تقع على بعد ١٢٠ غلوة من الإسكندرية ، وكانت تقوم على ضفاف الترعة التى تؤدى إلى فنادق صغيرة ، كان يطرقها على الدوام

ألوف الرجال والنساء ، الذين كانوا يتوجهون كل عام إلى هذه المدينة ، للاحتفال بالأعياد التى يسودها المجون الجامح الذى يسود الأعياد الباخوسية عادة .

٧٢ – وإلى ما وراء كانوب ، كانت تقوم هيراكليوم Heracleum التى تقع عند رأس خليج أبى قير ، والتى أطلق عليها هذا الاسم مرة أخرى على اسم معبد قديم كان مخصصاً لهيرقل .

٧٣ – أما فتحة كانوب التى كانت تلى مباشرة هذا الموقع الأخير ، مشكلة بذلك النقطة الشمالية للقاعدة الغربية للدلتا ، فكانت تقع حسبما يذكر بلين Pline على بعد يساوى ٩٠٧٢ قامة أى $\frac{٦٦}{١٠٠}$ ١٧٦٨١ إلى الشرق من الإسكندرية .

٧٤ – أما قرية نكروبوليس ، أى مدينة الموتى ، حيث كان هذا المكان مخصصاً كلية لدفن موتى الإسكندرية ، فكانت تبدأ من نفس جدران السور ، وتمتد إلى الجنوب الغربى من البحر والبحيرة (*) .. ولقد كانت قرية بمعنى الكلمة ، تحتوى على كثير من البيوت المزدانة بالحدائق ، توجد تحتها أماكن سفلية نسميها مقابر .

٧٥ – وأخيراً ، فقد كان يوجد بعد هذه « القرية » قصر الشرسونيز La Chersonèse ، المبنى على قمة رأس يقع على بعد ٧٠ غلوة من الإسكندرية ، وقد حصن هذا القصر ، وكانت له حامية ، وهو نفس المكان الذى نطلق عليه اليوم اسم الشيخ (العجمى) ، وهو الذى يقفل خليج الإسكندرية من جهة الجنوب الغربى .

والآن ، بعد أن قدمنا كل هذه المعلومات التى حصلنا عليها عن الإسكندرية القديمة ، والتى كانت ضواحيها تغص بمساكن جديدة وفخمة ، والتى تغطيها اليوم الرمال وكل قحولة الصحراوات الليبية ، فإننا نمضى إلى الجزء الأخير من الدراسة والذى يقدم مقارنة مدعومة – حيث هو يتفرع عن القسمين السابقين – عن حالتى هذه المدينة العريقة .

(*) كانت هذه الجبانة الغربية للاسكندرية تشغل المناطق التى تسمى حاليا ، الانفوشى كوم الشقافة ، الورديان (المترجم) .

القسم الثالث

فحص موثق عن حالة مدينة الاسكندرية بشكلها القديم مع مقارنتها بحالتها فى شكلها الراهن

٧٦ – بعد أن قدمنا فى القسمين السابقين حالة مدينة الإسكندرية فى عصور حياتها المختلفة، سوف نشير حسب المعلومات التى حصلنا عليها أثناء إنشاء الخريطة الطبوغرافية بهذه الدراسة – إلى وضع أكثر الأماكن والمبانى فى هذه المدينة شهرة ، وسوف يقودنا ذلك إلى فحص موثق ، تدعمه بعض الأسئلة التاريخية والجغرافية ، التى من شأنها أن توضح مدى صحة الرأى حول الانتقادات الموجهة حول قيمة المقاييس الطولية التى قدمها المؤرخون القدماء ، والتى تدور حول إتساع هذه المدينة .

٧٧ – كانت تنقص الأبحاث العلمية ، لكل من بونامى Bonamy ودانفيل d'Anville [1] وهما اللذان قد عالجا ، كلاهما هذه المسألة ، وقد فحصنا أبحاثهما

---

(١) قدم المسيو بونامى Bonamy عضو أكاديمية النقوش والفنون الجميلة ثلاث دراسات عن مدينة الإسكندرية ، نشرت فى عام ١٧٣١ فى مجلد دراسات هذه الأكاديمية المجلد التاسع ، ص ٤١٦ . وقد رجعنا إلى النبذ الدقيقة لهذا الأكاديمى ، والتى ذكرنا بعضها فى هوامش هذه الدراسة .

وفى حوزتنا بالإضافة إلى ذلك ، دراسات عن مصر ، ألفها دانفيل ، وقد ذكرنا مؤلفه هذا – الذى استخدم كدليل للجيش الفرنسى – كمصدر له احترامه فى هذه الدراسة ، وإن كنت أعتقد أن بالإمكان على الأقل ، استبعاد بعض آرائه . ويمتدح دانفيل أبحاث بونامى ، لكنه يضيف بأن ذلك لا يعنى أنه يستطيع أن يمتدح بالمثل خريطة الإسكندرية التى ألحقها هذا الأكاديمى – بونامى – لدراساته ، ويقول بونامى إنه قد حصل على هذه الخريطة من مكاتب البحارة ؛ ولذلك فلابد أن تكون هذه الخريطة غير كاملة ، ولا يمكن القياس عليها بالمقارنة بتلك الخريطة التى قدمها دانفيل على اعتبار أنها الأفضل ، والتى ضمنها هذا الجغرافى فى دراساته المطبوعة فى عام ١٧٦٦

وقد قدم نوردان Norden ، الذى سافر إلى مصر فى عام ١٧٣٩ ، خريطة أقل خطأ . ويقول هذا الرحالة : إن هذه الخريطة قد تم إنجازها على يد فرنسى يأسف لعدم معرفته باسمه .

وفى الواقع ، فقد كان إنجازاً كبيراً فى ذلك الوقت ، أن يستطيع رحالة بوسائله البسيطة أن يقدم تخطيطاً متصوراً لمدينة مصرية ، بل ومدينة شرقية على الاطلاق .

وفى عام ١٨٠٢ ، أورد المسيو شوسار Chaussard فى كتابه تاريخ الحملات على مدينة الإسكندرية Histoire des expèditions d' Alex الذى ترجمه عن آريان المؤرخ الإغريقى فى القرن الثانى – أورد وصفاً =

عند وضع تصميم دقيق لخريطة الإسكندرية ، ووجدنا أنه كانت تنقصهم على وجه الخصوص معرفة الأماكن ، وهى المعرفة التى توفرت لنا ، حتى يستطيعا أن يحددا بدقة الحالة القديمة للمدينة ؛ وقد بين دانفيل ، وهو المشهود بالنظر الثاقب فى بحوثه الجغرافية ، أن الإسكندرية كانت ، بما لا يدع مجالا للشك ، تشغل مساحة أكبر بكثير من تلك المساحة التى يحددها السور الحالى ، الذى يقول عنه إنه لابد أن يكون قد بنى حديثاً ، ويتطلب هذا الظن من جانبه — ونحن نشاطره الرأى فيه — المزيد من الدرس والمناقشة .

٧٨ — أما الاختلاف الذى يوجد ، نسبياً ، فى أطوال هذه المدينة فى تقارير المؤلفين القدماء : ديودور ، سترابون ، بلين ، كينت كورس ، يوسيفوس ، وكذلك هذا التفاوت الهائل فى المقاييس التى لم توضح بدقة فى كتاباتهم ، فإنه يلقى بالشك حول تحديدهم للأماكن نفسها .

= موجزاً لحالات ثلاث متتابعة لمدينة الإسكندرية ، ويتطابق ما يقوله هذا المؤلف عن المدينة تماماً مع الرأى الذى قدمه دانفيل فى دراساته عن مصر صفحات ٥٢ إلى ٦٣ ، وقد رسمت الخريطة التى ألحقها المسيو شوسار بكفاءة ، وهى الخريطة التى أصاب التلف بعض أجزائها ، رسمت تبعاً للخريطة التى أنشأها السادة المهندسون العسكريون والمدنيون التابعون لجيش الشرق ،والتى كان مقياسها ، وهى ملحقة بهذه الدراسة ، ٤٠٠ :م لكل ١٠٠ متر .

وقد شاهدنا فى القسم السابق أن معطيات هذه المقاييس تتنوع كما يلى :

البيانات التى يقدمها المؤرخون القدامى	المقاييس			
	الطول	العرض	الواجهة	المحيط
ديودور مقدراً بالغلوة	٤٠	١٠	٤٠٠	١٠٠
سترابون مقدراً بالغلوة	٣٠	٧ – ٨	٢٢٥	٧٥
كينت – كورس مقدراً بالغلوة	٣٠	٧ – ٨	٢٢٥	٨٠
يوسيفوس مقدراً بالغلوة	٢٠	١٠	٢٠٠	٦٠
بلين مقدراً بالخطوة الرومانية	٢٠	١٠	٢٠٠	١٢٠

ويظل الأمر على نفس الدرجة من الصعوبة ، عندما نحاول أن نكتشف فى هذه البيانات المختلفة طول المقياس المتخذ كوحدة ، حيث لم يحدد هؤلاء المؤلفون طول الغلوة ، فنحن مثلا نعرف فى دراسة سترابون عدداً كبيراً من الغلوات المختلفة ، وبمعنى آخر فإن كل المؤلفين القدامى الذين كتبوا عن الإسكندرية كانوا إما إغريقاً أو رومانيين ، فهل كانوا على الدوام يستخدمون مقاييس بلادهم ؟ هذا ما قد نجازف بالأخذ به ، ومع ذلك فلم يكن هذا – فيما يبدو – هو ما يحدث على الدوام ، إذ كانوا فى غالب الأحيان ، وببساطة شديدة ، يأخذون بالمقاييس المصرية ، كما يذكرها لهم علماء مصر ، أو أولئك الذين سبقوهم فى رحلاتهم .

وإذا ما قبلنا ، مع المسيو لارشيه ، مترجم هيرودت الحاذق ، أن سترابون لم يتحدث إلا عن الغلوة الأولمبية ، فسوف نتبين كيف ستكون المسافات التى يقدمها عن مدينة الإسكندرية ، وعن الأماكن المحيطة بها ، بالغة الضخامة لحد مبالغ

فيه (١) . أما الثلاثون غلوة التى يعطيها ذلك الجغرافى للشارع الكبير الذى يبدأ من بوابة نكروبوليس لينتهى عند البوابة الكانوبية فإنها تساوى ٢٨٥٠ قامة (= $\frac{٧٥}{١٠٠}$ ٥٥٥٤ م) ، لكن الخريطة الكبيرة التى رسمت بمقياس ٠٢٥٠, م لكل مائة متر لا تبين هذه المسافة ، ابتداء من البوابة الكبيرة على الميناء القديم وحتى بوابة رشيد إلا ٣٢٢٥ متراً أى ١٦٥٤ قامة وأربعة أقدام . وفى هذه الحالة يظل هناك فرق يبلغ ١١٩٦ قامة أى ١٢ غلوة فى أقل طول من أطوال المدينة .

ويقدر يوسيفوس هذه المسافة نفسها بـ ٢٠ غلوة من نفس النوع أى ١٢٥ خطوة لكل غلوة أى ما يبلغ $\frac{١}{٨}$ الميل الرومانى . وبذلك لا يبلغ طول هذا الشارع حسب تقدير هذا المؤرخ إلا ١٩٠٠ قامة أو $\frac{١٧}{١٠٠}$ ٣٧٠٣ متراً أى ما يزيد على طول المدينة الحديثة بـ ٢,٥٠ غلوة اغريقية .

٧٩ — ومن هنا نرى أن هذه البيانات لا تتفق كذلك مع بقية المسافات ، وقد حاول دانفيل ، وهو يسعى إلى تدعيم الرأى الذى رجحه ، وهو أن السور الحالى لمدينة الإسكندرية أصغر لحد كبير من سورها القديم ، وذلك حين لم يجد فى الخريطة التى كانت معه لهذه المدينة ، المقاييس اللازمة لكى يؤسس عليها ، حاول أن يعطى للغلوة الواحدة طولا لا يمكن بمقتضاه توسيع حدودها . وفى هذا الصدد فإنه يحدد موقع الهبتاستاد ، الذى كان لا يزال غير محدد ، فى المسافة التى توضحها خريطته بين البرج الشمالى فوق الميناء القديم والبرج الواقع إلى الشرق من شبه جزيرة فاروس على الميناء الجديد . ويحدد هذا الجغرافى هذه المسافة بـ ٥٣٠ قامة ، وبقسمة هذا الرقم على ٧ كما تعبر عن ذلك نفس تسمية الهبتاستاديوم . (أى الطريق التى يبلغ طوله سبعة ستاد أى سبع غلوات) فإنه يقدر بذلك قيمة الغلوة التى ينبغى اتخاذها أساساً

---

(١) يبين سترابون فى كتابه الثانى طول الغلوة الواردة بجغرافيته على نحو نستنتج منه أن طول الغلوة عنده يبلغ $\frac{١}{٨}$ الميل الرومانى أى ١٢٥ خطوة ، أى أن الميل الرومانى يحتوى على ثمانية غلوات إغريقية ؛ ومن المعروف أن الميل الرومانى يساوى عادة ٧٥٥ ياردة و ٤ أقدام وثمانى درجات ، ويقربها دانفيل إلى ٧٥٦ ياردة أى أن الثمن يساوى ٣ قدم و ٩٤ ياردة (الترجمة هنا بتصرف وباختصار) .

لتحديد الأطوال الدقيقة لهذه المدينة القديمة بـ ٧٦ قامة .

وينبغي الاعتراف بأنه ، إذا كان طول هذه الغلوة الجديدة ، لا يرتكز إلا على هذا المعطى لكانت النتيجة خاطئة بقدر ما قد يعترى القاعدة التى تكون قد استخدمت فى تحديدها ، حيث أن الخريطة التى تحدد هذا الطول على أساسها غير دقيقة ، ذلك أن جسر الهبتاستاد ، الذى يربط بين المدينة وجزيرة فاروس ، يظل مفقوداً بشكل تام ، وسط كتلة الرمال التى ترتكز عليها المدينة الحديثة .

كيف يمكننا إذن أن نتعرف فى واقع الأمر على طرفى هذا الطريق الذى يبلغ طوله كما يذكر هيرتيوس ٩٠٠ خطوة أى $\frac{٩}{١٠}$ من الميل الرومانى أو ٦٨١ قامة ، والذى تفضى نهايتاه كلاهما إلى ميدان يحميه حصن وتقع أمامه قنطرة ؟ وقد يكون بمقدورى أن أعتقد أن أسوار الرصيف القديمة ، التى تحيط بمنشئات البحرية فى الميناء القديم هى بقايا وأنقاض الهبتاستاد ، لكن هل كان هذا الجسر الذى يتجه إلى الجزء الغربى من جزيرة فاروس يتبع خطاً مستقيما ؟ أم تراه أنه كان مقطوعاً مثل ذلك الجسر الذى يتصل اليوم بحصن الفنار ؟ هذا ما نجهله ، وفضلا عن ذلك فمن أية نقطة ينبغى أن نبدأ فى تعداد الغلوات السبع ؟ هذا أيضاً مالم نتمكن من معرفته طوال السنوات الثلاث التى احتل الفرنسيون خلالها مصر ؛ لكننا نستطيع هنا على الأقل أن نلاحظ المسافة التى تقدمها الخريطة الكبرى للإسكندرية ، والتى رسمت بمقياس ٠٫٢٥ م لكل ١٠٠ م ، بين نفس النقطتين اللتين حددهما دانفيل ، واللتين أشرنا إليها من قبل ، تبلغ ٦٦٥ قامة (أى $\frac{١١}{١٠٠}$ ١٢٩٦ م) أى ٧ غلوات اغريقية ، طول الغلوة ٩٥ قامة أو $\frac{١٦}{١٠٠}$ ١٨٥ م .

٨٠ – أما إذا أقمنا أبحاثنا على أنواع أخرى من الغلوات لوجدناها تنطبق على الغلوة المصرية التى يقدرها دانفيل بـ ٥١ قامة أى $\frac{٤٩}{١٠٠}$ ٩٩ مترا .

هذه هى النتائج التى يعطيها تطبيق هذه الغلوة الصغيرة على الامتداد الحالى للإسكندرية ، وقد شاهدنا من قبل أن طول الشارع الكبير ، بدءا من بوابة الميناء القديم وحتى بوابة رشيد ، كان يبلغ ٣٢٢٥ مترا ؛ أما بخصوص متوسط عرض السور

ابتداء من باب البحر المطل على ساحة الميناء الجديد إلى باب العمود فى الجنوب فيبلغ ١٠١٣ مترا . وهذه المقاييس تعطى طولا قدره ٣٢ غلوة وعرضاً قدره ١٠ غلوات ، طول كل غلوة ٥١ قامة .

وأكثر من ذلك ، فإننا إذا أخذنا محيط السور الحديث بالتتابع ، وبأكبر قدر من التحديد ، بفتحات ثلاث مختلفة لبرجل ، أطوالها على التوالى ١٠ ، ٢٠ ، ٥٠ قامة ، كما فعلنا نحن على « كروكى » الخريطة الكبيرة لهذه المدينة ، لوجدنا امتداداً قدره ٤٢٥٠ قامة أى ٨٣ غلوة ، طول الغلوة ٥١ قامة .

٨١ - هذا الانضباط فى تطابق العلاقة بين هذه المقاييس الأخيرة الموجودة على خريطة مضبوطة ، رسمت بمقياس رسم كبير هو ٠,٠٢٥ م لكل ١٠٠ م ، مع المقاييس التى طبقها سترابون على سور ندعى مع دانفيل أنه هو السور الحديث ، يبدو أنه ينهى المشكلة وأنه يحسم أن الغلوة التى حددها هذا الجغرافى اليونانى فيما يمس اتساع الإسكندرية هى الغلوة المصرية الصغيرة ذات الـ ٥١ قامة وليست الغلوة الأولمبية ذات الـ ٩٥ ، وأخيرا ، فإن السور الحالى لهذه المدينة التى ننسبها للعرب سيكون هو سورها فى عهد الإغريق والرومان . ومن الواضح أنه إذا كان هذا الاحساس ، وهو منتشر إلى حد ما [1] لا يجد الأساس اللازم لتأكيده ، لأول وهلة ،

---

(١) استولى عمرو بن العاص ، قائد الخليفة عمر ، على مدينة الاسكندرية ، بعد أربعة عشر شهراً من الحصار ، فقد أثناءها ٢٣ ألف رجل ، ولم يكن لدى هرقل امبراطور القسطنطينية ، الذى جمع قوات هائلة لنجدة هذه المدينة ، وكذلك لنجدة أورشليم (بيت المقدس) ، التى كانت فى نفس الوقت محاصرة بواسطة عمر (كذا!) ، لم يكن لديه إلا الوقت الذى يكفى لكي يعطى حبر (مقوقس) الاسكندرية سلطات مطلقة للتفاوض ، وبعد أن أنصت عمرو فى برود - وكان معسكراً فى ضواحى المدينة - إلى مقترحات المقوقس ، أجابه وهو يشير إلى عمود كبير كان أمامهما : « أترى هذا العمود ؟ لن نخرج من مصر إلا بعد أن تكون التهمته » . وقد كتب ، وهو الذى كان قد وقع فى قبضة أهالى الإسكندرية قبل ذلك ببضعة أيام فى إحدى جولاته الاستطلاعية وأفلت لحسن حظه بفضل مهارة الجندى الذى كان يرافقه ، كتب بعد أن استولى فى النهاية على الإسكندرية إلى الخليفة عمر أنه وجد فى هذه المدينة ٤٠٠٠ قصر ، وعدداً مماثلا من الحمامات العامة ، و ٤٠٠ سيرك أو ساحة للألعاب ، و ١٢,٠٠٠ حديقة ، و ٤٠,٠٠٠ يهودى يدفعون الجزية ، وقد حطم هذا الغازى البغيض (كذا !) المعابد والكنائس وأمر بإحراق مكتبة سيرابيوم (راجع ماسبق أن أوردناه نقلا عن جاستون فييت - المترجم) ودك الأسوار ونقل مقر الأمبراطورية الجديدة (!) إلى الفسطاط التى تسمى حالياً مصر العتيقة . =

وذلك فيما يتصل بالعلاقة الدقيقة للمقاييس التى للسور الحالى مع المقاييس التى قدمها بعض المؤلفين القدامى فإن المرء مع ذلك لا يستطيع كلية ألا يستفيد مما يذكره المؤرخون العرب ، الذين يشهدون بأن عمرو بن العاص قد قلب هذا السور رأساً على عقب ، فى حوالى السنة ٢٢ من الهجرة الـ ٦٣٢ من الميلاد ، وبأن ابن طولون حاكم مصر ، قد أمر بتشييد أسوار جديدة لهذه المدينة بعد ذلك بـ ٢٣٣ سنة ، وأن هذا السور الجديد قد قلص من اتساعها المبدئى إلى النصف [١] ، ونسعى الآن لكى نقيم الدليل على هذه الشهادات الأخيرة .

٨٢ – وهكذا ، فإذا تبنينا نحن الغلوة المصرية ذات الـ ٥١ قامة ، فإننا لن نجد بعد ، هذا الاتساع الذى ينسبه إلى المدينة ، كل المؤلفين القدامى الذى انتهينا من ذكرهم فى أبحاثنا السابقة .

يقدر سترابون المسافة الواقعة بين الباب الغربى للإسكندرية وبين مدينة نيكوبوليس الصغيرة [٢] (بولكلى) ، والتى حددنا موقعها فى مكان قصر القياصرة ، بـ ٦٠ غلوة ؛ ويعطينا هذا الرقم ٣٠٦٠ قامة أو ٥٩٦٤ مترا إذا كانت الغلوة تبلغ

= من كتاب :

Histoire du Bas - Empire, Tome XII Liv LVIII et LIX.

وثمة كثير من المبالغات بالتأكيد فى هذا النص ، وعموماً فى كل تاريخ الشرقيين فكيف يمكن أن نصدق على سبيل المثال وجود ٤٠٠ سيرك أو ميادين ألعاب ، و ٤٠٠٠ حمام ومثلها من القصور ؟

(١) فى العام ٢٦٠ من الهجرة (٨٧٥ من العصر الحديث) أمر ابن طولون كما يقول المكين ببناء أبراج وأسوار للإسكندرية بالشكل الذى توجد عليه اليوم . وهذا الحاكم هو الذى أمر بتشييد الجامع الكبير والرائع الذى يحمل اسمه ، والذى يقع إلى الجنوب من القاهرة داخل سور قصر قديم كان يقيم فيه ، والذى لا يزال يحمل اسم قلعة الكبش ، وكان هذا القصر يحمى مدينة الفسطاط إلى الشمال ، وينبغى الظن بأنه فى العام ٦٠٠ من الهجرة (١٢٤١ من العصر الحديث) ، أمر السلطان صلاح الدين ، وهو الذى شيد قلعة القاهرة ببناء أسوار ضخمة لمدينة الإسكندرية .

(٢) يحدد سترابون المسافة من نيكوبوليس إلى الاسكندرية بـ ٣٠ غلوة ، وعلى هذا، فحيث أنه كان لهذه المدينة الأخيرة نفس الطول من البوابة الكانوبية إلى بوابة نكروبوليس ، فإننا نضيف هنا هاتين المسافتين ، بقصد البدء من نقطة محددة ومعروفة ، وهى النقطة من الباب الغربى للاسكندرية، فى حين يظل موقع البوابة الكانوبية المقابلة ، عند الطرف الشرقى غير محدد .

٥١ قامة ، و ٥٧٠٠ قامة أو ١١١٠٩ $\frac{٥}{١٠٠}$ مترا اذا كانت تبلغ ٩٥ قامة ؛ على أن المسافة الفعلية التى تعطيها الخريطة الملحقة بهذه الدارسة هى ٤٠٠٠ قامة أو ٧٧٩٦ مترا و ١٥ سم [١].

ويلاحظ المرء أنه يوجد هنا وهناك فى هذا التقسيم اختلاف يجعل الغلوة المصرية أصغر بمقدار يتجاوز الربع ، بينما تظل الغلوة الأولمبية أكبر بنفس النسبة على وجه التقريب ، حيث سنحصل على أرقام ٧٨ غلوة مصرية ، و ٤٢ غلوة إغريقية .

٨٣ – وإذا قمنا بنفس الحساب لمسافة الـ ١٢٠ غلوة التى يذكرها نفس هذا الجغرافى ابتداء من البوابة الكانوبية فى مدينة الإسكندرية حتى مدينة كانوب ، فسنجد أن هذه الـ ١٢٠ غلوة تعطى ٦١٢٠ قامة بحساب الغلوة الصغيرة ذات الـ ٥١ قامة ، بينما يرتفع الرقم إلى ١١,٤٠٠ قامة بحساب الغلوة الإغريقية ذات الـ ٩٥ قامة للغلوة الواحدة ؛ أو مع ذلك فقد سبق أن قلنا فى الفقرة ٤١ إن خرائب كانوب تقع على بعد ٢٥٠٠ متر أو ١٢٨٢ قامة ، على الساحل ، إلى الجنوب الغربى من خليج أبى قير ، وإذا بدأنا القياس من بوابة رشيد ، وجدناها تبعد بـ ٢٠,٧٠٠ م أو ١٠,٦٢٠ قامة وثلاثة أقدام ؛ وعلى هذا فإن الـ ١٠,٦٢٠ قامة تعطى حين تنقص منها ١٢٨٢ قامة ٩٣٣٨ قامة أى ١٨,٢٠٠ متر ، وهى المسافه التى تعطيها فى الواقع خريطة هذا الجزء من سواحل مصر .

ونرى هنا أيضاً أن هذين النوعين من الغلوات ليسا قابلين للتطبيق على المسافة التى يشير إليها الجغرافى الإغريقى ، لأننا إذا ما قسنا المسافة الفعلية والتى تبلغ ٩٣٣٨ قامة من الإسكندرية حتى خرائب كانوب بـ ٥١ قامة للغلوة فسنحصل على ١٨٣ غلوة مصرية وهو رقم كبير لحد مبالغ فيه ، أما إذا قسمناها بحساب الغلوة ٩٥ قامة ، فسنحصل على ٩٨ غلوة ، وهو رقم صغير لحد مبالغ فيه كذلك .

---

(١) هذه الخريطة للسواحل المتاخمة إلى الشرق وإلى الجنوب الغربى ، قد رسمت بمقياس ٠,٠٠٥ /م لكل ١٠٠ م ، ويعود الفضل فيها إلى المسيو تاسكان Tasquin ، الضابط ذى العبقرية الحربية فى جيش مصر . -

وإذا ما تابعنا نفس الحسبة لمسافة الـ ٧٠ غلوة والتى أشار إليها بالمثل سترابون ، من باب نكربوليس إلى شيرسونيسوس برومونتوريوم Chersonesus Promontorium وهو خليج على الساحل ، إلى الجنوب الغربى من الإسكندرية ، الذى يشغل مكانه حالياً الحصن الصغير التابع للشيخ (العجمى) ، فإننا سنجد أن هذه المسافة تبلغ ٣٥٧٠ قامة تساوى ٦٩٥٨ ٦/١٠٠ متراً ، بحساب الغلوة المصرية ذات الـ ٥١ قامة ، و ٦٦٥٠ قامة تساوى ١٢٩١ ٩/١٠٠ متراً ، بحساب الغلوة الإغريقية ذات الـ ٩٥ قامة ، ولكن المسافة التى تعطيها نفس الخريطة تبين أن تلك المسافة التى بينت قبل ذلك تبلغ ٦٠٧٥ قامة تساوى ١١٨٤٠ ٤/١٠٠ متراً بمحاذاة شاطىء الخليج .

وأخيراً ، فإننا نرى أن الغلوة المصرية ستكون أكثر صغراً من ذلك ، مادامت المسافة التى تعطيها ليست إلا حوالى النصف من المسافة الفعلية مع تقريب يبلغ ١/١٢ ، ويمكن أن يكون هذا الاختلاف ناتجاً عن بعض الانحناءات والتعرجات التى كانت تزيد عن طول الطريق القديم بهذه النسبة .

٨٤ — بينت للتو فى هذا الفحص ، أن الغلوة المصرية كانت بالغة الصغر وأن الغلوة الإغريقية كانت فى المقابل بالغة الطول ، لحد لا نستطيع معه أن نجد فى استخدامهما الامتداد الحقيقى للإسكندرية القديمة وللمدن المحيطة بها ؛ كما سبق أن قلت إن دانفيل ، الذى يشاطرنا هذا الإحساس ، كان قد انطلق من قاعدة غير مؤكدة فى أبحاثه حول متوسط طول الغلوة التى وجدها فى نسبة ٣ : ٤ على الأكثر أو على الأقل مع هذين المقياسين القديمين . وسأقدم فى الجدول الآتى بيانات عن المسافات المقارنة فى استخدام هذه الغلوات المختلفة :

بيانات عن المسافة الطولية للأماكن		عدد الغلوات المبينة	العدد بالقامات للغلوات ذات		المسافات المختلفة للأماكن		عدد الغلوات باعتبار الغلوة تساوى		
			٥١ قامة	٩٥ قامة	بالقامة	بالمتر	٥١ قامة	٧٦ قامة	٩٥ قامة
الاسكندرية	القديمة	٣٠	١,٥٣٠	٢,٨٥٠	—	—	٦٠	٤٠ ١/٣	٣٢
»	الحديثة	٣٠	١,٥٣٠	٢,٨٥٠	١,٦٥٤٤_	٣,٢٢٥_	٣٢	٢١ ٢/٣	١٧ ١/٣
	نيكوبوليس (بولكلى)	٣٠	١,٥٣٠	٢,٨٥٠	٤,٠٠٠_	٧,٧٩٦_	٧٨	٥٢ ١/٣	٤٢
من الاسكندرية إلى	كانوب (أبى قير)	١٢٠	٦,١٢٠	١١,٤٠٠	٩٣٣٨_	١٨,٢٠٠_	١٨٣	١٢٣	٩٨
	شيرسونيسوس (حصن العجمى)	٧٠	٣,٥٧٠	٦,٦٥٠	٦٠٧٥_	١١,٨٤٠_	١١٩	٨٠	٦٤

وإذا ما قارنا هذه المعطيات فيما بينها ، ومع دلالات المسافات كما أمدنا بها المؤلفون القدامى ، فلن نجد سوى علاقات غير متوافقة ، وسوف نقتنع ، كما بين ذلك المسيو جوسلان Gosselin ، فى أبحاثه عن الجغرافية اليونانية ، أن سترابون لم يقدم عن الإسكندرية إلا مقاييس خاطئة ، لأنه هو نفسه لم يكن يعرف قيمة الغلوات المختلفة التى قدمها فى جغرافيته لمصر .

وقد أكون أكثر ميلا لتبنى ، كمقياس ، قيمة الغلوة كما يقدرها دانفيل أى بـ ٧٦ قامة ، تساوى ١٤٨,١٣ متراً ، إذ يبدو لى هذا الطول وسطاً نسبياً بحيث أنه يقرب أطوال المسافات عن تلك التى أعطيت – على وجه التقريب – بشكل تخمينى ، للإسكندرية القديمة ؛ ولكننى سأقف بأبحاثى عند هذا الحد ، إذ سيكون من التجاوز أن أسعى لكى أضع الأسس لغلوة جديدة ، فى الوقت الذى يتبنى فيه العلماء هذا العدد الكبير من الغلوات المختلفة ، وفى الوقت نفسه الذى ينقسمون فيه ، إلى هذا الحد ، حول النظام المترى للقدماء ؛ لكننى سأكتفى بملاحظة حول هذا الموضوع ، هى أن النص الذى انتقل إلينا من المؤلفين القدامى ، لابد أن يكون قد أصابه بعض التحوير على يد المترجمين أو الشارحين ، بقدر ما ينبغى أن نقتنع بذلك عن طريق القيام بفحص مدروس لجغرافية إيراتوستينوس Eratostpène وبطليموس ، ومؤلفين آخرين أقل قدما .

٨٥ – يبقى على أن أبرهن على أن السور الحالى الذى ينسب إلى العرب ليس هو نفس السور فى عهد الإغريق ، وهذا ما ذهب إليه – على عكس رأى المسيو دى توت M.de Tott [1] – كل من دانفل وبوكوك Pococke ونيبور Nicbuhr ، وسونينى Sonnini ، ومؤلفين آخرين محدثين أشاطرهم نفس رأيهم .

٨٦ – أما الخرائب الهائلة التى نجدها فى ضواحى الإسكندرية ، وبشكل

---

(١) يظن المسيو دى توت (Mèmories sur les Turcs Tome II,p. 180) أن السور الحالى المنسوب للعرب هو نفس سور الإغريق ؛ لكن دانفيل Memorie ، وبوكوك (Voyage en Orient, t. ler p493) ، يذكرون على العكس من ذلك ، أنه فى العام ٦٠٠ من الهجرة (١٢١٢ م) أمر خلفاء صلاح الدين بإعادة إنشاء أسوار الاسكندرية ، ويقول نيبور (Voyage en Arabie) إن النقوش الكوفية ، sur L'Egypte الموجودة على الأبراج الرئيسية للسور الحالى لمدينة الإسكندرية ، تنسب بناءه إلى الحكام العرب .

أساسى على طول الساحل الشرقى للميناء الكبير ، وكذلك فى الشمال الشرقى وإلى الجنوب ، وفيما بين السور وشواطىء ماريوتيس ، فهى قرائن تشهد بأن المدينة كانت تحتل فى الماضى مساحة من الأرض أكبر اتساعاً بكثير . وفى الواقع فثمة نقطة يتفق عليها كل المؤرخين ، هى تلك التى تحدد العرض الذى كانت تشغله المدينة ، أى فيما بين البحر والبحيرة ، إلى الجنوب . يقول كينت كورس « كانت الإسكندرية تشمل فى الواقع ، كل الفراغ الواقع بين البحيرة والبحر » وعلى هذا ، فإذا كنا فى وضع يسمح لنا بملاحظة امتداد مياه الاغراق الحديثة والقريبة من هذه البحيرة والتى تأتى عن طريق البحر ، وأن نلاحظ كذلك خرائب المبانى الموجودة على شواطئها ، على الرغم من أننا لم نستطع معرفة أين كانت توجد حدودها الأخيرة ، وما إذا كان النهر ، كما حدث قديماً ، يصب فيها المياه التى تزيد من اتساعها ، فإننا على الأقل ، نستطيع أن نحددها بربطها بخرائب الأرصفة وأنقاض الحواجز والخزانات أو الصهاريج ، التى نجدها على حواف الشواطىء الجنوبية للخليج أو ترعة الإسكندرية .

وقد سبق أن قال سترابون ، قبل كينت كورس « إن المرء لم يكن يصل إلى الإسكندرية إلا عن طريق برزخين ضيقين ، بينما لا يمكن الوصول إليها من جهة البحيرة إلا عن طريق موانى النهر » ويضيف هذا الجغرافى « أن النيل الذى يزيد فيضانه عن حجم بحيرة مريوتيس لا يترك للإسكندرية ، عند إنحساره ، أى جزء من مستنقعات يمكن أن ترتفع منها روائح كريهة وضارة » إذن ، فلقد كانت البحيرة ، فى حالة المياة المنخفضة ، تغرق الأسوار وأرصفة موانى النهر ، وكذلك السور الجنوبى لهذه المدينة .

٨٧ — وينبغى كذلك أن نكون أكثر ميلا للاعتقاد بأن السيرك أو الهيبودروم Hippodrome ، وكذلك المرتفع الذى ينهض عليه اليوم عمود سبتيموس سيفيروس (عمود السوارى) ، كانت كلهاتقع داخل المدينة ، اللهم إلا إذا كنا نفترض أن كل هذه المواقع والخرائب العديدة التى نقابلها ، كانت تشكل جزيرات متباعدة داخل مياه ماريوتيس .

٨٨ — وثمة دراسة أخرى ، يتفق عليها بشكل عام ، وهى أن كل الجزء الواقع إلى الشمال الشرقى ، خارج السور الحالى ، والمطل على الميناء الجديد ، والذى كان

يسمى فيما مضى portus magnus أى الميناء الأعظم (وهى حاليا الميناء الشرقية) . كان يشكل جزءاً من هذه المدينة القديمة ، ولا يدع وصف سترابون ، الذى يضع هناك حى بروخيون أو حى القصور ، وميناء الملوك ، وكذلك وصف هيرتيوس Hirtius الذى يعطيه له فى كتابه عن الحرب الأهلية فى الإسكندرية ، لا يدع كلا هذين الوصفين أى شك حول هذا الموضوع .

إن الخرائب الهائلة التى يعثر عليها ، والتى تذكر بقاياها بكل المبانى التى تتطابق مع هذه الشهادات بنفس النظام والترتيب اللذين ينسبهما إليها جغرافيونا . يقول يوسيفوس ، الذى كتب تاريخ اليهود فى هذه المدينة ، فى حوالى السنة ٧٠ من الميلاد ، إن اليهود كانوا يسكنون فى زمنه جزءاً من حى القصور ؛ ويقول سان جيروم ، الذى كتب عن نفس المدينة فى حوالى عام ٤٢٠ ، إن هذا الحى نفسه ، والذى كان منفصلا فى ذلك الوقت عن المدينة ، قد أصبح ملجأ لبعض النساك المنعزلين ، كما كان مهجوراً تماماً فى عصر سانت إبيفان ، الذى كان يعيش فى نحو نهاية هذا القرن .

وينتج عن هذه الشهادات التى لا يمكن الطعن فى صحتها ، أن السور الحالى للمدينة سور حديث ، حيث أن كل الجزء الذى كان مأهولا للغاية فى عهد البطالمة وحتى نهاية القرن الرابع ، والذى يستخدم اليوم كمدفن خاص بالطائفة اليهودية ، يظل مهجوراً كلية ، وخارج هذا السور نفسه الذى ننسب بناءه إلى الحكام العرب .

٨٩ — قلنا فى القسم الأول من هذه الدراسة ، الفقرة رقم ٢٠ إن المرء يلاحظ بدهشة ، ذلك الاستخدام غير المألوف فى أى مكان آخر ، لعدد كبير من الأعمدة التى أدمجت فى بناء جسم أبراج وجدران هذا السور . وأن هذه الأعمدة الموضوعة بشكل أفقى ، بين مسافة وأخرى ، تسمح برؤية أطرافها على واجهات هذه الجدران ، وإليكم الملاحظات التى يمكن استنتاجها من ذلك والتى تأتى لتدعم تحليلنا .

لا يتخيلن المرء إلا أن بناة الإسكندرية قد استطاعوا أن يجلبوا بنفقات باهظة ، من الصعيد ، ومن ممفيس ، وهليوبوليس ، بل ومن اليونان نفسها ، وإيطاليا ، هذه الكمية الهائلة من الأعمدة من الحجر الرملى ، وكذا الأعمدة الجرانيتية والرخامية ،

والتى تنتمى إلى أنواع أخرى (١) لكى يستخدموها فى بناء الأسوار الحصينة ، التى التحمت بجسمها هذه الأعمدة ، على هذا النحو الغامض ، ذلك أنهم بالتأكيد لم يكونوا ليكلفوا خاطرهم كل هذه المشقة ولا أن يتكبدوا كل هذه النفقات فى قطعها وصقلها – الأمر الذى لا يزال واضحاً حتى اليوم ، أو الذى كان واضحاً فيما مضى ، حيث يتحدث كل المؤرخين القدامى عن هذه القصور ، وهذه المعابد ، وهذه الأروقة وهذه الشوارع المزدانة بالأعمدة ، والتى كانت مثار إعجاب كل من زار هذه المدينة ؛ كما لا ينبغى الاعتقاد بالمثل ، بأن ألوف الأعمدة التى تراها مكدسة ، لتشكل أرصفة وحواجز بحرية فى مينائى المدينة الحديثة ، قد قطعت مبدئياً لهذا الغرض . أليس من الطبيعى للغاية أن نظن أن هذه المدينة الرائعة – التى أحنى عليها الزمن والتى دمرتها الحروب السياسية والدينية أثناء قرون المسيحية الأولى ، والتى انتهى عمرو البغيض (كذا !) بأن قلبها رأساً على عقب ، وحيث لم تعد تشكل إلا مدينة الأنقاض والخرائب عند خلفاء هذا الغازى – قد أعيد بناؤها من نفس مواد أنقاضها ؛ وأن ثمة ألوفاً من الأعمدة المحطمة والمقلوبة ، والتى لم يعد لها نفع فى تجميل معابد مخصصة لعبادة اندثرت أو لقصور أخرى ومبانى عامة ، سوف تستخدم منذ الآن فى دعم وتقوية جدران هذا السور (٢) ، ونضيف إلى ذلك أن الطابع الذى تحمله عمارة الجدران والأبراج الجميلة فى الإسكندرية هو – وبشكل مطلق – نفس الطابع الذى تحمله الأجزاء التى ماتزال ظاهرة من السور ، وبخاصة قلعة القاهرة ، ونتيجة لذلك فإننا نقرر بشكل موضوعى أن سور عاصمة مصر الحديثة وقلعة هذه المدينة ، يعود إلى حكام مسلمين ، وبصفة خاصة إلى السلطان صلاح الدين الذى أمر ببنائه فى الجزء الأكبر ، فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر .

---

(١) يقال إن من الضرورى أن كثيراً من هذه الأعمدة المصنوعة من الرخام الأبيض قد جلبت من اليونان أو من إيطاليا ،حيث أنه من المعروف أن كل المبانى القديمة فى مصر العليا ، لاتشتمل إلا على أعمدة حجرية أو جرانيتية ، وفضلا عن ذلك ، فإننا لا نعرف محاجر للرخام الأبيض فى مصر .

(٢) لابد لنا أن نظن أن استخدام هذه الأعمدة التى وضعت على هذا النحو فى جسم الجدران كانت له غاية مفيدة ، هى منع أو إيقاف سقوط الأجزاء العليا من هذه الجدران فى الحالة التى تكون فيه الأجزاء السفلى قد تكسرت أو تقوضت بفعل المنجنيق أو أية آلات حربية أخرى ، كانت تستخدم فى ذلك الوقت ، أوقات الحصار .

٩٠ – وهناك ملحوظة أخيرة تأتى لتدعم افتراضنا ، تقوم على الشكل الدفاعى الذى للسور ابتداء من البرج المسمى بالبرج الرومانى على الميناء الجديد

ب قدم قامة

وحتى باب رشيد ، والذى يبلغ امتداده ٥٩٠,١متراً ٨ ٤ ٨١٥ ؛ ويلاحظ المرء فى الواقع أن نظام كل هذا الجزء هو أن يدافع عن نفسه دفاعا ذاتياً ضد المناطق الخارجية التى تحتلها اليوم مقابر اليهود ، والتى تقع كما سبق أن بينا فى نفس حتى بروخيون القديم أو حى قصر الملوك ، ومن جهة أخرى فنحن نعرف أن يوليوس قيصر كان قد قام بتحصين هذا الحى من بقية المدينة ، على نفس نظام قلاعنا ، أثناء الحصار الذى تحتم عليه القيام به ضد قوات البطالمة وأهل الإسكندرية ؛ لذلك لا يمكن للمرء على الإطلاق أن يستخلص فى هذه الحالة ، أن السور الحالى لهذا الجزء من المدينة ، كان جزءا من مدينة الإغريق على أى وجه من الوجوه ، حيث أنه قد بنى بنظام الدفاع المضاد أى أنه يصارع ويحارب – على العكس – حى الملوك القديم (١) .

٩١ – ويمكن الاعتقاد ، تبعا لما يقوله أحد المؤرخين العرب ، وهو ابن عبد الحكم والذى يورده الفرجان فى صفحة ١٥٩ ، أن هذه المدينة كانت مزودة بثلاثة أسوار بالشكل الذى كانت عليه كل المدينة القديمة على وجه التقريب ، ومن المحتمل عندئذ أن السور العربى الذى نحن بصدده هو السور الداخلى للحصن القديم الذى على أنقاضه ، قام الحكام المسلمون بإعادة بنائه ؛ لكن صمت المؤلفين القدامى عن موضوع هذه الأسوار الثلاثة لا يسمح بالتوقف كثيراً عند هذا الاحتمال ، الذى لا يمكن أن يعد سوى دعم ضعيف لما نحن بصدده .

---

(١) لابد أن نكون على يقين من أن هذه المدينة قد قلبت رأساً على عقب ، وأن سورها الحالى الذى يعلوه مائة برج ، ليس فى جزئه الأكبر ، إلا عملا بالغ الحداثة ، حتى أننى تعرفت عند باب رشيد ، فى الحفريات التى قام بها المهندسون العسكريون لتغطية هذا الباب ، أثناء حصار هذه المدينة فى يولية ١٨٠١ ، على حصن نصف دائرى تذود عنه من الأمام حفرة ، كما أننى تعرفت على طريق مرصوف بالبازلت الأسود على طريقة الشوارع الرومانية . وقد شق هذا الطريق على عمق خمسة أقدام تحت نفس هذا الباب الحديث ، وعلى هذا النحو كانت تزدحم شوارع روما كما نتعرف على ذلك اليوم فى عمود تراجان ، وفى قوس سبتيموس سفيروس وفى أماكن أخرى من عاصمة العالم القديمة هذه .

٩٢ – وأنهى هنا هذه المناقشة التى تؤكد بشكل لا نزاع فيه ماقلته من أن السور الحالى ، الذى قلص إلى حوالى نصف الاتساع الذى كان عليه فى زمن الإغريق ، لا يمكن أن يكون فى الواقع إلا من عمل الحكام العرب أو ربما أباطرة المشرق ، ذلك أنه يمكننا أن نستنتج من النص التاريخى الذى أوردناه من حصار الإسكندرية على يد عمرو ، أن هذا السور قد تقلص ، ولابد ، فى جزء منه عند نحو منتصف القرن السابع إلى الإتساع الذى له اليوم من ناحية الجنوب ، لأن هذا الغازى كان ولا شك معسكراً إلى فوق مرتفع سبتيموس سيفيروس عندما أعطى هذه الإجابة البالغة الحدة لمقوقس الإسكندرية ؛ هل ترى هذا العمود ؟ لن نخرج من مصر إلا إذا أكلته [1] . ومع ذلك فلابد أن هذه المدينة كانت قوية للغاية فى هذه الفترة ، حيث فقد على أسوراها هذا القائد ٢٣ ألف رجل بعد حصار دام ١٤ شهراً ، وإنى لأميل إلى الإعتقاد بأن أول إعادة لبناء سور الإسكندرية ، قد تمت قبل وقت قليل من انتهابات هذه المدينة تحت حكم الامبراطورين كلوديوس الثانى وأورليان فى عامى ٢٦٩ و ٢٧٥ من العصر الحديث .

٩٣ – وبعد أن أوضحنا أن المرء لا يمكنه أن يؤسس على معطيات المؤرخين القدماء ، فيما يخص الامتداد المبدئى (للإسكندرية) فى عصر امبراطوريتى الإغريق والرومان ، حين حلت الصحراء محل الجزء الأكبر من أرض هذه العاصمة القديمة لمصر ، فلا يبقى على سوى أن أبرز المواقع التى حددتها لبعض هذه المبانى على الخريطة المرفقة .

ولن أضع فى اعتبارى هنا أن أقيم مناقشة جديدة سعيا للعثور على الشكل الذى كان عليه سور هذه المدينة ، والذى يقارنه بلين Pline بمعطف مقدونى إذ ليس لذلك كبير أهمية ، وفضلا عن ذلك فلابد أن نفترض أن نقاشا كهذا سيكون فيه من الحذق أكثر مما فيه من الدقة والتحديد ؛ لابد إذن أن أنبه مسبقا أن الخط الذى بينته على الخريطة قد تأسس على تصور الأماكن فى حالة دمارها الحالى أكثر مما هو مؤسس على أبعادها التى قدمها عنها المؤرخون القدماء الذين يصعب أن نوفق بين مقاييسهم

---

(١) انظر الهامش السابق وروده مع الفقرة ٨١ من هذه الدراسة .

المختلفة ، ولابد أن القارىء سيقتنع بذلك حين يطلع على الأطوال المتنوعة للمقاييس القديمة والحديثة التى بينتها فى هذا الخصوص ، على هذه الخريطة .

٩٤ – قلت من قبل إننى أعتقد ان حصن الفنار ، كان يمثل موقع هذا المبنى القديم ، أحد أعاجيب الدنيا السبع ، وقد تأسس هذا الرأى على شواهد تاريخية ، وعلى البراهين الآتية :

ينسب المؤرخون العرب إنشاء الفنار (١) إلى الفرعون العاشر مصرايم بن بوصير ، وهو نفس الفرعون الذى أسس راكويتس ؛ كما ينسبونه كذلك إلى الملكة دوليكا Douleka وإلى دارا (داريوس) الفاتح وإلى بطليموس فيلادلفوس ؛ وإلى كليوباترة ، وما يقوله هؤلاء المؤلفون عن هذه المقاييس هو بلا شك أمر مبالغ فيه . ومع ذلك ، فينبغى القول على الدوام بأن هذا المبنى جدير بأن يعد من عجائب الدنيا السبع ؛ وقد تحطم الفنار جزئياً عند حوالى نهاية القرن الهجرى الأول فى عهد الخليفة وليد بن عبد الملك ، حوالى عام ٧٠٥ من الميلاد ، بفعل خدعة من أحد الأروام كما يذكر المقريزى ، وقد أدت هزة أرضية ، حدثت سنة ١٧٧ هجرية أو ٧٩٣ م إلى انهيار جزء من قمته ؛ وهكذا كان الفنار مبتوراً فى السنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) ، وفى حوالى ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) أمر أحمد بن طولون بتتويج الفنار بقبة خشبية . ونجد على الواجهة الشمالية ، وهى تلك التى تطل على البحر ، نقشاً يبلغ طول حرف من حروفه ذراعا وبعرض يبلغ الشبر ، وهذه الحروف التى لم يقدم لها شرح ما ، كانت ولا شك هى حروف النقش الإغريقى الذى أمر بتنفيذه هناك سوستراتوس من إكنيدوس Sostrate de Cnide سنة ٢٨٣ق . م ؛ وقد أدى زلزال أرضى مرعب ، شعر به الناس فى بلاد البربر ومصر وسوريا ، إلى تحطيم جزء آخر منه . وفى العام ٦٧٣ هـ (١٢٧٤م) تقوضت أعمدة وسقوف الفنار ؛ كما أنهار مسجد بنى فيه فى عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٣م) بفعل زلزال أرضى آخر ، أضر بالفنار وبعض أجزاء من جدران أبراج الإسكندرية ، حتى أنه لم يكد يبقى شىء من هذا المبنى ، وقد أمر الناصر محمد بن

---

(١) Voyage d'Egypte et de Nubie, par Norden, t. III èdition de Langlès, p. 162 et . 169, Paris. 1801.

قلاوون ؛ فى السنة التالية ، بإعادة بناء المسجد ، الذى ظل موجوداً حتى زمن المقريزى ، فى حوالى نصف القرن الخامس عشر .

ومن جهة أخرى ، فإننا نقرأ عند عبد الرشيد أن سليم (الأول) ، فى عام ١٥١٧ ، قد أمر ببناء مسجد وقصر فى نفس مكان الفنار ، الذى كان فى ذلك الوقت قد تخرب تماماً ، ولا يزال المسجد والقصر موجودين حتى اليوم ، ويحملان نفس الاسم (١) .

٩٥ — وسوف ندرك بالتأكيد ، تبعا لتفاصيل هذه الأحداث ، أن الفنار القديم لم يستطع البقاء فوق الصخرة المسماة الماسة Diamant ، التى تحدثت عنها فى القسم الأول ، الفقرتين ٦ ، ٧ حيث أن أنقاض هذا المبنى الضخم ، الذى قوضته رأسا على عقب زلازل أرضية عديدة ، قد غصت البحر فى المناطق المجاورة ؛ كما يلاحظ المرء فى الواقع ضحالة المياه فيما حول حصن الفنار ، فى الوقت الذى لا نجد فيه على العكس من ذلك ، إلا مياها شديدة العمق حول الماسة .

٩٦ — ولا يفوتنى عند الحديث عن الفنار القديم أن أتناول الجزيرة التى منحته اسمه ، والتى كان موقعها موضعا لمناقشات طويلة بين المؤلفين والجغرافيين المحدثين ، ولن أتناولها هنا إلا لكى أحسم الأمر ، إن كان ذلك ممكنا ، تبعا لما ذهب إليه سترابون ، وبفعل المعرفة الكاملة التى حصلت عليها عن مواقع الأماكن .

يقول سترابون Strabon ، إن هوميروس الذى كان قد سافر إلى مصر ، كثيراً ما كان يخلط الأساطير بتاريخه الشعرى ، وفى الواقع ، فإنه يمكن الظن بأن هذا المؤلف قد استخدم الأساطير على هذا النحو ، فى تلك الفقرة التى أدت إلى هذه المناقشات الطويلة ؛ يقول هوميروس « إن جزيرة فاروس كانت تبعد عن الشاطىء المصرى بمسافة تساوى تلك التى تقطعها سفينة تدفعها ريح مواتية فى يوم كامل (٢) »

---

(١) Dècade Egyptienne,t,Ier p. 237.

وكذلك : Mèmoire sur l'Egypte, t.II p. 54, Paris , 1800

(٢) هوميروس ، الأوديسا ،الكتاب الرابع ، الأبيات من ٣٥٤ إلى ٣٥٧ .

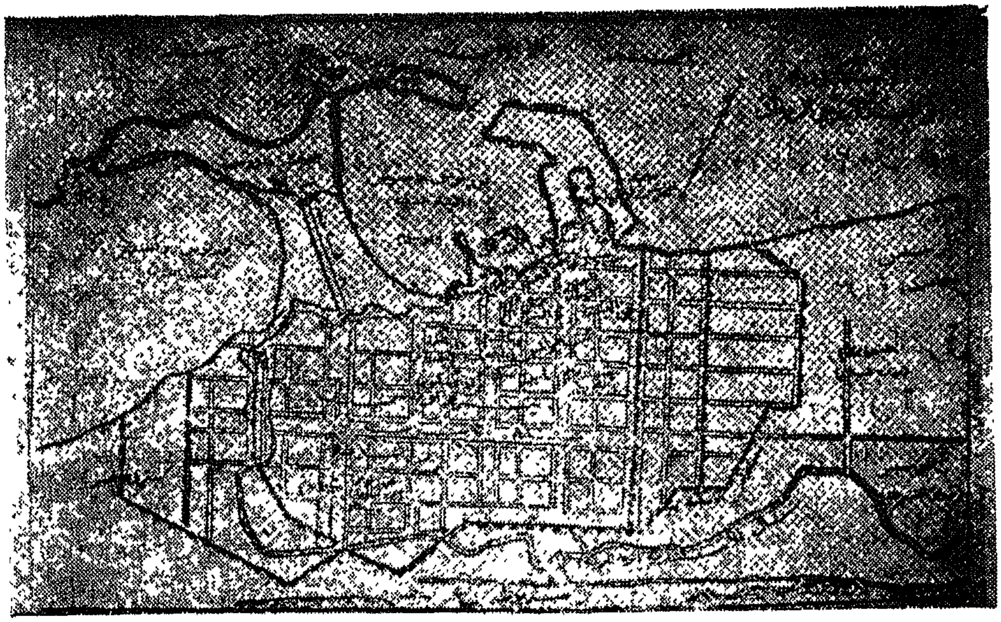
وقد جاء هوميروس بعد حرب طروادة بـ ٣٧٧ سنة ، وهى الحرب التى قامت حسبما يذكر هيرودوت فى العام ٣٤٣٤ من العصر الجوليانى أو ١٢٨٤ قبل الميلاد .

إن هذا النص الذى ارتكز عليه خطأ كثير من المؤلفين المحدثين كى يتلمسوا تقدم ترسيبات الدلتا ، هو أبعد عن أن يكون قد توضح بدرجة كافية ؛ وهذا هو الفحص الذى يدعم رأيى بهذا الخصوص .

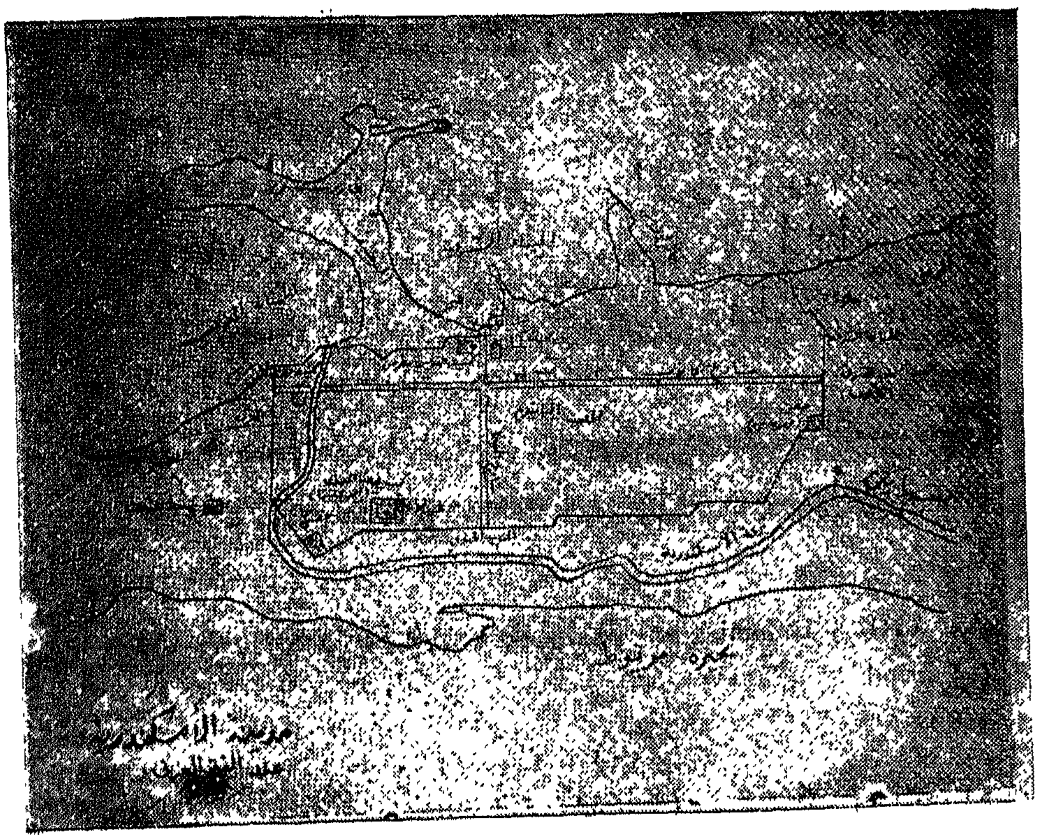
إذا لم يشأ المرء أن يفهم من كلمة فاروس ، إلا أنها هى هذه الجزيرة الصغيرة التى كانت تقع بالقرب ، وإلى الشمال الغربى ، من راكوتيس ، تلك القرية البحرية التى بنيت عندها مدينة الإسكندرية ، فإننى فى وضع يسمح لى بأن أوكد أن هذا النص عار من كل دقة جغرافية ، حيث لم تكن تبعد هذه الجزيرة الصغيرة عن مدينة الإسكندرية إلا بمسافة ٧ غلوات ، وهو مايساوى ٦٦٥ قامة أى ١٢٩٦ ١٢/١٠٠ متراً ، وبمعنى آخر ، فإن هذه المدينة قد بنيت فوق شبه جزيرة طويلة ، تمتد (أى شبه الجزيرة) من المصب الكانوبى عند الشرق إلى جنوب الجنوب الغربى ، لمسافة ١٠ ميريامتر أو ٢٠ فرسخا ، وترتبط ، حيث هى تتكون من سلسلة من الجبال تتصل بمرتفعات يبدو أنها كانت تنتهى إلى البحر الفارغ فى الصحراوات الليبية ؛ لكن هذه السلسلة ، التى ليست سوى صخرة متصلة من طبيعة حجرية ترتفع عادة من ٥ إلى ١٠ إلى ٢٠ متراً فوق مستوى سطح الماء ؛ وكانت شبه الجزيرة هذه وكذلك جزيرة الفنار موجودتين فى زمن هوميروس ، حيث قد جعل هذا الشاعر بطله مينيلاس ، الأمير الإغريقى ، يرسو فى كانوب ، وهى المدينة التى كانت تقع نحو الطرف الشرقى لشبه الجزيرة هذه بالقرب من رأس هيرقل ، المسمى حاليا خليج أبى قير ، حيث كان ينتهى الفرع الكانوبى ويصب مياهه فى البحر ؛ وهكذا فإن جزيرة الفنار أقل ارتفاعا عن مستوى أرض كل شبه جزيرة الإسكندرية ، أما المسافة التى تفصل بينهما ، والتى تبلغ ٢١,٧٢٠ متراً (١١,١٤٤ قامة) محسوبة باستخدام حساب المثلثات ، وفى خط مستقيم مع خليج هيرقل ، فهى أقل بكثير جداً من الإبحار ليوم ، وهو الذى يقدر بـ ٥٠٠ غلوة أو ٦٠ ميلا رومانيا [١] ، أى ما يبلغ ٤٥,٠٠٠ إلى ٤٧٠٠٠ قامة تساوى ستة عشر فرسخاً بحريا ونصف الفرسخ .

---

(١) يقدر الابحار ليوم كامل كما يذكر دولوميان Dolomien فى ملخصه حول نفس الموضوع (Journal de Physique de 1793, t XLII , P. 176) بـ ٥٠٠ غلوة أو ستين ميلا رومانياً ؛ فالـ ٥٠٠ غلوة تساوى =



الاسكندرية فى العهد الاغريقى والرومانى



الاسكندرية عند الفتح العربى لمصر

إذن فعلينا أن نبحث فى مكان آخر عن شبه الجزيرة هذه ، ومن الإسكندرية حتى كانوب ، بل وحتى المصب الكانوبى ، عن الساحل الذى أراد أن يشير إليه الشاعر الإغريقى فى هذه الإشارة الجغرافية الصرف ، وإلى المسافة التى تفصل جزيرة فاروس عن الساحل المصرى ، ولذلك فإذا ما أريد أن يفهم – تبعاً للتفسير الذى نورده لبعض العلماء المدققين ؛ نذكر من بينهم المسيو جوسلان – أن مسافة ابتعاد جزيرة فاروس التى تحدث عنها هوميروس قد قدرت على أساس ابتعادها عن ايجبتوس Aegyptus ، وهو الاسم الذى كان النهر يحمله فى ذلك الوقت ، وليس مطلقاً عن مصر التى كانت شواطئها فى ذلك الوقت ليست سوى أرخبيل ، فإننا نرى أنه ينبغى – والحالة هذه – أن يكون مصب النهر الموجود إلى أقصى الغرب ، وهو المصب الكانوبى – كما كان يسمى زمن حصار طروادة ، فى ميتيليس Metelis أو فى هرموبوليس Hermopolis (حالياً فوه ودمنهور) الواقعتين على بعد ١٤ و ١٦ فرسخاً إلى الجنوب الشرقى ، ومن العسير أن نفسر على خلاف ذلك ، نص الشاعر الإغريقى ، الذى كان ، حسبما يذكر سترابون على علم ببرزخ السويس الذى كان موجوداً فى عصره .

ولكن ، هل كان لهوميروس أن ينسى عند حديثه عن جزيرة فاروس هذه أن يتكلم عن شبه الجزيرة هذه ، الطويلة والضيقة والتى تقع أمامه على بعد سبع غلوات فقط ، وتضم مدن كانوب ، راكوتيس ، نيسيى ، بلنتين (رشيد) ، ومدينتى تابوزيريس إلخ .إلخ ، اللهم إلا إذا لم يكن يعنى بهذا الاسم شبه الجزيرة هذه نفسها ؛ لكن هذا الصمت عن وجود شبه الجزيرة التى كان ينبغى أن يلحق بها كذلك بقية الجزر ، وكل الساحل الصحراوى المرتفع ، والذى ينتهى جنوبا ببحيرة ماريوتيس ، هذا الصمت لابد أن يحمل على الاعتقاد أن جزيرة فاروس التى تحدث عنها الشاعر

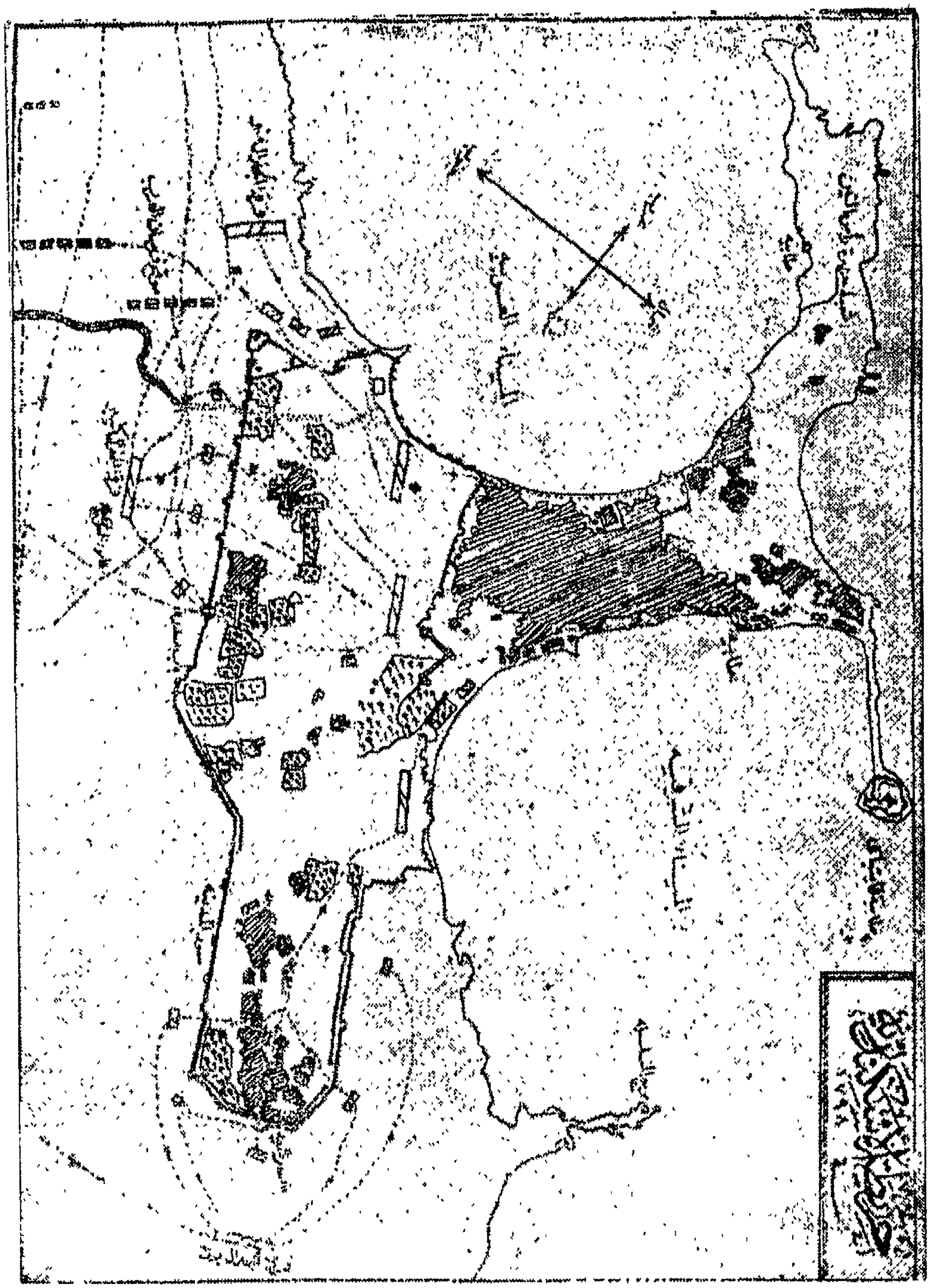
= ٤٢,٢٥٠ وتقدر الـ ٦٠ ميلا رومانياً بـ ٤٥,٣٦٠ وهو ما يبلغ ١٦,٥٠ فرسخاً بحرياً ، ويساوى الفرسخ البحرى ٢٨٥٣ قامة ، ويقدر الإبحار لنهار وليل بـ ١٠٠٠ غلوة أو ٩٤٥٠٠ قامة حسبما يقدر تيوفيل Thèophile ، كما يذكر الأستاذ جوسلان Gosselin فى كتابه . Navigation des aneiens, t, II. p. 38

الإغريقى ، والذى قال إنها كانت تقع فى أعلى البحار ، لابد أنها قد غرقت ، أو بمعنى أصح أنها لم تكن سوى أسطورة أو جموح شعرى ، إن لم نقل بأنها مبالغة ، حيث أننا لا نستطيع مطلقا أن نحملها ، كما رأينا ، على أنها الجزيرة الصغيرة التى أمر بطليموس ، بعد أكثر من ستمائة عام بأن يشيد عليها هذا البناء ، أحد عجائب الدنيا السبع ، والذى عرف باسم فاروس ، وتوجد هذه الجزيرة الصغيرة اليوم ، وقد اتصلت بفعل عمليات ردم الرمال بشبه جزيرة الإسكندرية .

ويخيل إلى أن ماسقته الآن يحسم نهائياً هذه المسألة .

٩٧ – أعود الآن إلى الميناء الجديد الذى يحمى مدخله عند الشرق حصن صغير ، والذى أدى موقعه أمام وفى مواجهة حصن الفنار لأن يشار إليه باسم المنارة أو الموقد Pharillon ، ولست أظن أن هذا الحصن الصغير يشغل مكان حاجز الموج القديم الذى كان يعرف باسم أكرولوخياس (السلسلة حالياً) لأن هذا الحاجز ولابد ، قد كان فيما مضى يتوغل كثيراً داخل البحر باتجاه الفنار ، إذا ما أعتمدنا فى ذلك على نص من لو كان Lucain ؛ إذ يقول هذا الشاعر بأن كليوباترة عندما أرادت اللحاق بقيصر فى الإسكندرية ، قد دخلت إلى هناك عن طريق الميناء الكبير ، بعد أن أدركت حاكم الفنار ، الذى فتح لها سلسلة فناره وتركها ترسو فى ميناء حى الملوك حيث كان يسكن قيصر ، ويبدو أن مدخل الميناء الكبير ، كانت تقفله سلسلة كانت لا تزال تستخدم حتى عام ١٥٥٠ كما يذكر ليون الأفريقى ، الذى كان يطلق على هذا الميناء اسم مرسى السلسلة أى ميناء السلسلة ، وقد رأينا فى القسم الأول ، الفقرة ٤ أن فتحة هذا الميناء الذى يقع بين الحصنين اللذين يذودان عن مدخله ، كانت تبلغ ١٧٨٩ متراً (= ٥ ق ٩١٧ قامة) ، ولسنا نتصور – دون شك – أنه يمكن أن تمتد هذه السلسلة من حصن لآخر بعرض هذا الممر ، بل يمكننا أن نستخلص أن الأكرولوخياس كان متقدماً بكثير نحو الفنار مع خط السلسلة الصخرية وخط أعماق المياه الضحلة ، كما أوضحناه على خريطة الإسكندرية .

٩٨ – وقد رأينا فى هذا القسم ، الفقرة ٧٩ ، أن المرء يظن أنه قد تعرف على



الاسكندرية وقت الحملة الفرنسية

اتجاه الهبتاستاد فى الخط الذى يمر بالبرج الشمالى لسور الميناء القديم ، والحصن الواقع فى الميناء الجديد ، بالقرب وإلى الجنوب الشرقى للطريق الذى يغطيه حصن الفنار ، وتماثل هذه المسافة التى تبلغ ٦٦٥ قامة مع تلك التى تبلغ سبع غلوات أولمبية ، لكن اتجاهها لا يتماثل مع ذلك الذى يقدمه سترابون ، حين يقول إن الهبتاستاد كان يبتدىء من القارة ويتجه نحو الطرف الغربى لجزيرة فاروس ، بحيث أننى أذهب لحد أن أعطيه نفس الاتجاه الذى للبرج الكبير المشرف على ساحة الميناء الجديد ، نحو الحصن الصغير الواقع فى مركز الجوين الذى تكونه جزيرة فاروس إلى الشمال الشرقى من الميناء القديم ؛ أما المجرى المائى الهندسى ، الذى تحطم اليوم ، والذى تحدثنا عنه فى القسم الأول ، الفقرة ٢٩ ، والذى قد يكون هو أنقاض ذلك المجرى الذى كان ينقل المياه ، حسبما يذكر سترابون ، إلى جزيرة فاروس عن طريق الهبتاستاد ، فيقدم بعض الدعم لهذا الرأى ، ومع ذلك فكيف كانت مياه هذا المجرى تعبر المينائين اللذين كانا يسمحان بمرور السفن من خلال الهبتاستاد ؟ واضح أن هذا السؤال يقدم بعض الصعوبات التى سيكون علينا أن نخوض طويلا لنبحث فى صميمها .

٩٩ – ووسط الخرائب التى تحيط بالشرق الشرقى للميناء الجديد ، يتعرف الإنسان ، حين يترك جسر الأكرولوخياس المحطم ، والمسمى حالياً بالمنارة Pharillon ، على حاجز بحرى ، لابد أنه كان جزءا من مدخل ميناء الملوك المغلق .

١٠٠ – لم نستطع العثور على آثار جزيرة أنترودس Antirrhodos التى كانت تحجب ، كما يذكر سترابون ، مدخل هذه الميناء ، اللهم إلا إذا كانت هذه الجزيرة قد احتلت موقع هذه الشعاب الصخرية التى توجد بحذاء سطح المياه ، والتى لا تزال توجد عند مركز الميناء الجديد ، منعطفة نحو غرب الجنوب الغربى .

١٠١ – وبمحاذاة الساحل إلى الجنوب ، توجد بقايا حاجز بحرى آخر ، يلفت النظر ببنيانه الحجرى الذى يتكون من أحجار بالغة الضخامة ، وتعود هذه الخرائب بلا جدال إلى هذا المرفأ أو الممر الذى يسميه بوليب : سيرنكس Syrinx ؛ والذى كان يؤدى إلى البوزيديوم posidium ــ ذلك الذى حددت مكانه بين تلك الخرائب الهائلة التى توجد فى هذه المنطقة تحت اسم قصر خرب palais ruiné (فى الخريطة) فى هذه المنطقة أيضاً كان يوجد معبد لنبتون ، الذى أقام تجاهه مارك أنطونيو

بعد أن هجرة حزبه ، وهرب مع كليوباترة من خصمه اللدود أغسطس ، قصراً أسماه تيمونيوم Timonium لكى يعيش فيه منسياً من العالم ، على غرار Timon تيمون الفظ ، كاره البشر (*).

١٠٢ – لا يمكن للمرء أن يخطىء موقع الكيزاريوم أو القيصرون Coes-arium أو قصر الملوك ، بسبب وجود المسلتين اللتين تحدثنا عنهما فى القسم الأول الفقرة ١٩ ، حسبما يذكر بلين Pline ، الذى يقول : « توجد مسلتان ومعبد لقيصر ، ويبلغ طول المسلة الواحدة أربعين ذراعا ، وقد أخذتا من آثار الملك مسفيس Mesphees rex .

١٠٣ – وقد سبق أن قلت إن الطول الإجمالى لكل من هاتين المسلتين ، اللتين ذكر بلين أن ارتفاع كل منهما يبلغ أربعين ذراعا ، يصل من القاعدة وحتى قمتها الهرمية ٦ ب ٦٣ قدما أو ٢٠ ٦٢٧/١٠٠٠ م ، وإذا كانت هذه الإشارة من بلين pline دقيقة محددة ، وهذا مالا نستطيع أن نعول كثيراً عليه ، فإن قيمة الذراع تصل فى هذه الحالة إلى ١٩ بوصة تساوى ٥١٦, من المتر .

١٠٤ – وقد تصورت أنه ينبغى أن أضع الجمناز Gymnase فى المكان الذى يجد فيه المرء الاطلال الهائلة لذلك القصر الخرب المطل على الشارع الكبير ، حيث أن الصفوف المتوازية من الأعمدة الضخمة ، التى لا تزال موجودة فى تلك الجهة ، تذكر بالدهاليز المغطاة لهذه المبانى ، والتى كان يبلغ طولها أكثر من غلوة .

١٠٥ – يضع كل من بونامى Bonamy ودانفيل d'Anville السيرابيوم Serapeum تحت جبل الأنقاض الواقع إلى الشمال الغربى من سور الميناء القديم ، والذى كان لا يزال مقاما فوقه حتى عدة سنوات برج للمراقبة ، وأظن أن على أن أحدد مكان هذا المبنى ، الذى ذكر سترابون بأنه كان يقع إلى الشرق من الترعة عند مرتفع صغير ، بالقرب وإلى الجنوب منه ، حيث يجد المرء هناك خرائب هائلة ، لمبنى فخم بنى بالطوب الأحمر يشبه طوب القصر الخرب بالقرب وإلى الشرق من جامع سانت أثناز.

(*) فيلسوف أغريقى من القرن الخامس قبل الميلاد .

١٠٦ – وأضع على قمة عمود سبتيموس – سيفيروس البانيوم panium الذى يضعه كل من بونامى ودانفيل تحت ربوة أو جبل سانت كاترين ، الواقع إلى الجنوب الشرقى للسور الغربى ، حيث أن هذا المرتفع الذى نجد فوقه بقايا بناء ، يتفق لحد كبير مع الوصف الذى يعطيه سترابون للبانيوم ، الذى كان عبارة عن مكان مرتفع ولكن ارتفاعه هذا ليس من فعل الطبيعة وإنما هو من صنع الإنسان ؛ ومن قمة هذا المبنى يستوعب النظر كل المدينة والموانى القائمة على البحر والبحيرة فى سهولة .

وأرانى الآن مدفوعا إلى الاعتقاد بأن العمود الضخم ، عمود سبتيموس – سيفيروس (عمود السوارى) ، إنما هو واحد من تلك الأعمدة التى كانت تشكل جسرى الهبتاستاد ، واللذين من تحتهما كانت ترى السفن القادمة من Mangnus portus والذاهبة إلى Eunostus portus ؛ ومما يرجح هذه الفكرة وجود تلك الأعمدة ذات الأحجام المماثلة له أو المتقاربة معه على الأقل ، والتى قال المسيو دى مايية Maillet إنه رآها فى البحر عند مدخل الميناء الجديد ، لأنه إذا كانت هناك أعمدة كبيرة على هذا النحو ، قد أقيمت فوق قاع البحر وتشكل كما يقول سترابون جسرين تمر من تحتهما السفن عن طريق الهبتاستاد ، فلابد أن يكون حجمها هائلا لحد غير معتاد .

١٠٧ – ويتحدث سترابون عن سيرك كان موجوداً عند مدينة نيكوبوليس الصغيرة (بولكلى) ، لكننى لم أتبين أثراً لذلك إلا بالقرب وإلى الجنوب من عمود سبتيموس (عمود السوارى) ، فهل كان ثمة خطأ فى النص من جانب النساخ الذين ربما كتبوا نيكوبوليس على أنها نيكروبوليس ! ذلك أن السيرك يوجد فى الواقع عند بوابة هذه المدينة الأخيرة ، اللهم إلا إذا كان هذا السيرك قد بنى فى الأزمنة اللاحقة ، كعمل من أعمال أباطرة روما أو سلاطين القسطنطينية .

١٠٨ – إذا كنا قد استطعنا أن نطبق كما ذكرنا فى هذا القسم ، الفقرة ٨٢ ، واحداً من مقاييس الغلوات المصرية أو الألمبية على مسافة الـ ٤٠٠٠ قامة التى توجد بين الطرف الغربى لشارع الإسكندرية الكبير والموقع الحالى لقصر القياصرة حيث حددنا موقع نيكوبوليس القديمة ، فلن يخالجنا أدنى شك حول قيمة الغلوة التى يشير إليها سترابون ، حين يقدر هذا الجغرافى نفس هذه المسافة بـ ٦٠ غلوة ، ومع ذلك ، فعلى الرغم من أننا قد رأينا أن طول كل من هذه الغلوة وتلك لا يتفق وهذا

البيان ، فإننا لن نتردد فى أن نحدد عند قصر القياصرة موقع هذه المدينة القديمة ، ويدعم رأينا هذا تلك الخرائب الهائلة التى نجدها فى هذا المكان ، وكذلك بعض التماثيل من الرخام الأبيض التى اكتشفناها هناك ، والتى استخرجناها من وسط أنقاضها .

١٠٩ – ويمكن أن نستنتج أن قصر القياصرة يعود إلى عصر جوستنيان Justinien ، فهو الذى أمر فى منتصف القرن السادس ببناء عدد كبير من المنشئات ، فى صحراوات سوريا وفى جبل سيناء وفى مصر وفى البنتابول الأفريقى ، ونقرأ عند procope de Cèsarée أن هذا الامبراطور قد أمر بإقفال مكان يسمى فيال phiale بجدران حصينة ، كانت تستخدم فى احتواء مخزون الحبوب عن طريق ترعة شيريه Chérée التى كانت تحمل مياه بحيرة ماريا ، ويتفق هذا النص تماما مع شكل وموقع هذا الحصن ، الواقع إلى القرب من الإسكندرية ، والذى لم يعد باقياً منه سوى جدران ذات سمك كبير (١) ، كما سبق أن قلنا فى القسم الأول من هذه الدراسة ، الفقرة ٣٨ .

١١٠ – أما المقابر التى تحدثنا عنها فى القسم الأول ، الفقرة ٤٦ ، والقسم الثانى ، الفقرة ٧٤ ، فهى بلا جدال من انجاز شعب كبير العدد ينتمى لسلسلة طويلة من الأجيال ، ويقول المسيو أوليفييه Olivier بهذا الخصوص إن علينا ألا ننسب لا إلى الإغريق ، ولا إلى الرومان الذين جاءوا بعدهم ، الأعمال الضخمة لهذه الكهوف المقبرية حيث كان هؤلاء وأولئك يحرقون أجساد الموتى بدلا من تحنيطها على طريقة المصريين . ويستخلص هذا العالم من هذا الرأى أن مدينة الإسكندرية كانت ولابد هائلة لحد كبير قبل مجىء الفاتح الذى منحها اسمه ، مادام ينبغى ، تبعاً لرأيه ، أن ننسب هذه المنشئات إلى الشعوب التى سكنتها قبل مجىء هذا الحاكم (الإسكندر) . وعلى الرغم من أننى قد قلت فيما سبق أن راكوتيس كانت بالضرورة قرية على درجة من الأهمية قبل فتح مصر على يد الاسكندر ، إلا أننى مع ذلك أذهب إلى عكس ما ذهب إليه المسيو أوليفييه ، فأرى أن هذه المقابر تنسب إلى سكان هذه المدينة فى عصرها الإغريقى بل وكذلك فى عهدها الرومانى ، حيث ترك هؤلاء وأولئك – الإغريق والرومان – للشعوب التى أخضعوها عاداتهم ، وبخاصة احتفالاتهم الدينية والجنائزية .

---

(١) Procope de Cèsarèe, traduit du Grec par Cousin tome II, liv VI

ونحن نعرف ، فى الواقع ، أن الرومان لم يهتموا مطلقاً بنشر ديانتهم فى مصر ، بل إنهم على العكس من ذلك ، قد أقاموا فى روما معابد لإيزيس ولإلهات مصريات أخريات ، وفضلا عن ذلك فإن المعبد تحت الأراضى الذى يشار إليه على نحو غير دقيق باسم حمامات كليوباترة يرتبط بالنمط اليونانى وليس بالنمط المصرى فى فن العمارة ؛ بهذا التناسق والانتظام فى تصميمه ، وبحفره من الداخل حيث هو منحوت فى الصخور .

١١١ – ويضم المسيو أوليفييه . دونما سند يدعم رأيه مدينة نكروبوليس إلى الإسكندرية ، حين يذكر أن الترعة التى كانت تتجه من بحيرة ماريوتيس إلى الكيبوتوس Kipôtos عبر الـ Eunostus portus (١) ، وليسمح لى هذا العالم بأن ألاحظ وجود صخرة قد اكتشفت على مسافة ١٠٠ إلى ١٢٠ متراً من مصب هذه ترعة القديمة فى الخليج .. كانت تشكل نوعاً من ميناء كان يذود عنه حاجز بحرى ؛ إذا كانت هذه الصخرة طبيعية . فإنها لا تكفى لدعم رأى سوف يعطى الإسكندرية ، فى الواقع ، وبالشكل الذى يطلق عليه هذا الاسم ، مساحة كبيرة لحد لا نهاية له ، وذلك حين يؤدى مايذهب إليه المسيو أوليفييه إلى أن نضع مقابر هذا الساحل دون جدال فى ذلك الجزء من المدينة القديمة ، المسماة نكروبوليس أو مدينة المقابر .

وهنا أجد من الضرورى أن أنهى الأبحاث التى قمت بها أو عرضتها فى هذا القسم ، لأنها تكفى بوضوح كى تبين صعوبة التوفيق بين تقارير القدماء عن الاتساع الحقيقى لسور هذه المدينة القديمة .

★ ★ ★

---

(١) نشر المسيو أوليفييه ، الطبيب ، وعضو المجمع العلمى الفرنسى فى عام ١٧٩٤ رحلته فى داخل الامبراطورية العثمانية ومصر وفارس - Voyage dans l'Empire ottoman ,L Egypte et la Perse فى ثلاثة مجلدات ، وقد خصص فى مجلده الثالث وصفا مفصلا لمدينة الإسكندرية فى فصل عدنا إليه فى كثير من الأحيان ، وكان على الدوام ذا نفع لنا .

ملخص

١١٢ – لقد أوضحت على التوالى فى ثنايا هذه الدراسة :

(أ) أن مدينة الإسكندرية الحديثة ، والتى قدمنا وصفاً لها ، قد بنيت فوق كتلة من الرمال انتهى بها الأمر أن ربطت القارة القديمة بجزيرة فاروس ، وهى تدين بتكوينها إلى إنجازات مستمرة فى عمليات الردم على سواحل مصر ، وبخاصة إلى هذا الطريق القديم الذى أنشىء بقصد وصل القارة بهذه الجزيرة والذى اتخذ اسمه (الهبتاستاد) من طوله الذى يبلغ ٧ غلوات (ستاد تعنى غلوة) .

(ب) أن أرض المدينة القديمة التى نقل إلينا سترابون وصفاً لها لم تعد تشكل اليوم سوى أكوام من الأنقاض ، وبعض بقايا شائهة للمنشئات التى صنعت ازدهار الإسكندرية وعظمتها فى ظل امبراطورية البطالمة ثم امبراطورية الرومان .

(جـ) أن السور الحالى المسمى سور العرب لا يشكل سوى جزء من السور الذى كان لهذه المدينة فى عهد البطالمة والرومان ، ومع ذلك فلا يمكن أن نحدد نحن بدقة حدوده القديمة ، حيث لم يقدم لنا المؤلفون الذين نقلوا إلينا أوصافاً له ، سوى إشارات غامضة حول مختلف أنواع المقاييس التى تختلف أطوالها من إقليم لآخر ، على الرغم من أنها تحمل نفس التسمية ، على النحو الذى يتنوع به الميل والفرسخ عند مختلف شعوب أوربا .

١١٣ – وعندما يأسى كل الرحالة المحدثون فى كتاباتهم على ما آلت إليه هذه المدينة الرائعة ، التى سوف تنمحى وتزول أطلالها عما قريب من فوق أرضها ، وهو نفس المصير الذى آلت إليه منذ قرون كثيرة عابرة خرائب طروادة الإغريق ، وأطلال بابل وطيبة وممفيس وتدمر وصور وقرطاجة وروما ، تلك الحاكمة القديمة للعالم وأطلال مدينة اليهود المقدسة ، وأطلال مدن أخرى اختفت من فوق الأرض ، فإننى أكرر مع هذا المؤلف المتميز الذى يبدو وكأنما أراد أن يبعث الحياة فى رماد كثير من مدن خربت بشكل تام فى مؤلفه : الخرائب ، أو تأملات حول سقوط الأمبراطوريات :

Ruines,Ou Mèditations Sur Les revolutions des Empires.

أكرر هذا النص الذى شكل تصديراً لدراستنا هذه :

« لقد أصبحت قصور الملوك مأوى للحيوانات الضارية ؛

وأضحت مذابح الآلهة مرتعاً للزواحف الدنسة .

آه ! كم من مجد أفل نجمه

وكم اندثرت من روائع المنجزات ؛

هكذا تفنى أعمال البشر ، وهكذا تزول الأمبراطوريات والدول ! »

ومع ذلك ، فلو قدر للإسكندرية أن تئول إلى حكم أمبراطورية أو دولة قوية متنورة كما كان شأنها فى عهد البطالمة ، فسوف يكون بمقدورها أن تجعل منها مركزاً لتجارة كل من أفريقيا والهند مع أوربا .

وإنى فى هذا الصدد ، أحيل القارىء إلى الآراء التى قدمها مؤلف دراسة : القناة التى تربط بين البحرين ، وهو المسيو لوبير ، أخى الأكبر ، والذى كنت أنا واحداً من معاونيه ، وهى الآراء التى عرضها فى دراسته حول مشروعات إعادة ترميم هذه المدينة ، ومع ذلك ، فهل يا ترى سيكون بمقدور هذه الآراء ، التى أحيل القارىء إليها ، أن تتحقق ذات يوم ، من أجل رفاهية سكان مصر ومن أجل ازدهار تجارة الأمم الأوربية .

ملحوظة : يحيل مؤلف هذه الدراسة عند حديثه عن الطقس ودرجة الحرارة فى الإسكندرية ، الفقرة ١٦ وكذلك الفقرة ٥٠ ، إلى دراسته عن البحيرات البحرية فى مصر ، ومع ذلك فلابد من ملاحظة أن هذا المؤلف لم يضمن دراسته هذه فى كتاب وصف مصر ، إلا على شكل ملخص (الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، ص ٤٦٩ إلى ٤٨٢) أما الدراسة بأكملها والتى تبلغ ٣٥ صفحة بحجم الفوليو ، والتى طبعت فى شهر يونيه ١٨١٥ ، فقد نسخت منها ١٠٠ نسخة أو دعت المكتبة الملكية ومكتبة المجمع العلمى ومكتبات أخرى عامة ، أو وزعت على عديد من العلماء ، ويستطيع من يشاء الاطلاع عليها كاملة ، أن يجدها فى الهيئات التى حددتها للتو .

★ ★ ★

(١٢)

دى بوا ــ إيميه

الفروع القديمة لنهر النيل

العنوان الأصلى للدراسة : « مذكرة حول فروع النيل القديمة ومصباتها فى البحر ، تأليف دى بوا ــ ايميه . مراسل المعهد العلمى الفرنسى ، وعضو لجنة العلوم والفنون الخاصة بمصر ، وعضو أكاديمية العلوم فى تورين .. الخ وضابط عظيم سابق * »

(*) تليت هذه الدراسة باللجنة الخاصة بمصر فى الحادى والثلاثين من اغسطس ١٨١٣ .

يتفق كل مؤلفى العصور القديمة فى تحديدهم لعدد مصبات النيل أو فتحاته ، فيحصون من بينها سبعا رئيسيات ، فى حين يطلقون اسم الفم الكاذب أو المصب الزائف على فتحات أخرى كانت تربط النيل بالبحر (المتوسط) ، وذلك إما لأن هذه المصبات الزائفة كانت فى واقع الأمر أدنى أهمية من الأوليات ، وإما بسبب أفكار دينية ، كان الأقدمون يولونها للرقم سبعة ، أو لأن الشعراء ، فى النهاية قد كرسوا وثبتوا ، بفعل أناشيدهم وأشعارهم هذه الفروع السبعة لنهر النيل :

فرجيل ، الأينيدة (أو الأنيادة) ،

الكتاب الرابع ، البيت ٨٠٠

ولولا تلك العنايات المتضاعفة ، التى تنم عن إدراك حكيم ، والتى أولاها المصريون لرى أراضيهم ، وتسيير مياه النهر فى الترع الكبرى لما استطاعت فروع النيل السبعة أن تبقى ، صالحة ، وسط أراضى مصر السفلى ؛ ولسوف يدرك المرء هذه الفكرة بسهولة ، إذا ماتفكر فيما يمكن أن يفعله نهر كهذا حين يجد نفسه وهو يضخ فى فترة بعينها من العام ، كميات هائلة من المياه ، بعد أن يكون قد انحصر فى إسار واد طويل ، يجتاح سهلا منبسطا ، وواطئا ، لا تعوقه بعد صخور ولا تلال تستطيع ، حين تعترض طريقه ببعض العقبات ، ان تحدد له مساره ، والدليل على ذلك أن الأراضى المنزرعة فى مصر ، فى ظل كل حكومات الفوضى التى تعاقبت على حكم مصر ، منذ سقوط الامبراطورية الرومانية ، وحتى يومنا هذا ، قد تضاءلت مساحتها بدرجة كبيرة حتى لاتكاد مساحة الدلتا الجديدة أن تبلغ نصف الدلتا القديمة ، فافتتاح لبعض الترع أسىء تقديره ، بالإضافة إلى إهمال ظل يحظى بالرعاية فى عمليات تطهير الترع التى تغص بالطين ، سوف يكونان ، هذا وذاك ، أكثر من كافيين لحرمان ولايات بأكملها من نوبات رى كانت تحتاجها ، وسيؤدى ذلك كله فى النهاية لأن تقتحم مياه البحر لتجتاح فتحات العديد من الفروع القديمة [1] ، التى ستشاهد أسرتها ،

---

(١) يرى المرء حين يلقى نظرة عابرة على خريطة مصر السفلى ، أن البحر قد كون بحيرات عند أفواه الفروع التى هجرتها مياه النيل . وتوجد هذه البحيرات جميعا فى مناطق لم يكن بها قط ، فى الماضى بحيرات مالحة ؛ أو أن مياه هذه البحيرات قد غدت مالحة ، بعد أن كانت – من قبل – عذبة .

مع مرور الزمان ، تعلو حتى تختفى معالمها ، فى بعض المناطق ، . بفعل الترسيبات والانهيارات ، والرمال التى تذروها الرياح ، إذ لم تعد هذه الفروع تستقبل بعد ، مياه النيل ، إلا اثناء الفيضانات العليا ، فى حين تحتفظ هذه الفروع بمياه الفيضانات تلك ، شبه راكدة ، فى الأوقات الأخرى .

ومن هنا تجابهنا بالضرورة ، صعوبات كبرى ، عندما نحاول أن نعثر على الفروع القديمة لنهر النيل [١] ، ولاينبغى لامرئ أن يدهش إذا ما تباينت افتراضات وآراء العلماء بهذا الخصوص .

ومن بين هؤلاء جميعا يظل دانفيل صاحب الرأى الذى يقترب برأيه أكثر من غيره ، من رأيى ؛ ولقد كان ذلك فى حد ذاته ، وبالفعل ، فألا حسنا بالنسبة لعملى ؛ ومع ذلك فيبدو لى أن هذا الجغرافى الشهير لم يكن قد حدد جيدا قمة الدلتا القديمة ، كما أنه قد أخطأ حول منبع الترعة الترموتية ذلك أنه لايوجد أى اثر لترعة قريبا من الموضع الذى يضعها فيه ، وبالاضافة لذلك ، فإنه لم يعرف كيف يفسر التعارضات التى اكتشفها بين كتابات لكل من هيرودوت وسترابون خاصة بالفرع السبنيتى ؛ وأخيرا فإنه لم يجسر على تقديم أى افتراض حول الفرع البوقوليكى ؛ وأود أن أقول ، يدفعنى إلى ذلك دون جدال احترامى لذاتى ، إنه لو كان لدى دانفيل ، وتحت ناظره ، خريطة جغرافية ، تعادل فى دقتها تلك التى أقمناها منذ زمن قريب لكان رأيه حول الفروع القديمة لنهر النيل ، هو نفسه الرأى الذى سأشرع فى بسطه .

وسأبدأ بتحديد فتحات أو مصبات أو أفواه النهر القديمة ، متجها من الشرق إلى الغرب . وأما أسماء هذه الفتحات فهى :

---

(١) يأسف المرء كثيرا لأن الجنرال أندريوسى لم يتعهد هذا العمل ، فقد اقتصر فى دراسته عن بحيرة المنزلة على تعريفنا بالفروع الثلاثة الشرقية للنيل ، ولهذا فقد مال إلى تحديد أفواهها فى البحر دون أن يحدد كامل مجرى (الفرع) الخاص بها ، ولم يتصد قط بالمناقشة لما تقدمه الآراء المتباينة (للمؤرخين الأقدمين) من أمور تبدو متعارضة (فيما بينها أو مع الرأى الذى ينتهى هو إليه) .

١ — الفتحة البيلوزية la Pelusiaque

٢ — « السايتية (أو السايسية) أو التانيسية la Saitique ou la tanitique

٣ — « المنديسية la Menèsienne

٤ — « البوقوليكية أو الفاتيميتية la Bucolique ou phatmètique

٥ — « السبنيتية la Sèbennytique

٦ — « البولبيتينية la Bolbitine

٧ — « الكانوبية أو الهيراقلية أو النقراطية la Canopique ou Hèraclèotique, ou Naucratique

ثم أقوم بالتدليل على أن الأسماء الحديثة الموافقة لها هى :

١ — فم (أو فتحة) الطينة	وتتصل بحيرة المنزلة عن طريق
٢ — « « أم فارج	هذه الفتحات الثلاث بالبحر
٣ — « « الديبة	الأبيض المتوسط .
٤ — فم (أو فتحة) دمياط	
٥ — « « بحيرة البرلس .	
٦ — « « رشيد .	
٧ — « « بحيرة المعدية أو أبى قير .	

ويعرفنا بطليموس على اثنتين من بين الفتحات الزائفة أو الكاذبة هما بينبتيمى Pineptimi وديلكوس Dilcos ، ويضعهما بين الفتحتين الفاتيميتية والسبنيتية ؛ وإن كنا نعثر عليهما ، في الواقع ، فيما بين فتحتى دمياط والبرلس ؛ ويجد المرء ، بالمثل ، فى كثير من الاتصالات الصغيرة ، التى تربط بحيرة المنزلة بالبحر ، بعضا من هذه الأفواه الكاذبة التى يتحدث عنها سترابون .

وكانت فروع النيل ، فى العصور القديمة ، تحمل الأسماء نفسها التى كانت

تحملها مصباتها ، وسأشير إليها فى هذه المذكرة على هذا النحو ؛ ومع ذلك فإن من الضرورى ، كيما نفهم المؤرخين القدماء ، أن نعرف أن قد كانت لهذه ، كذلك أسماء أخرى ؛ فقد كان النهر الكبير ، فى مؤلف بطليموس ، أو مجرى النيل حتى الفتحة الهيرقلية يسمى **أجاتوس دايمون** Agatos Daemon ، كما كان يُطلق على الفرع البولبيتينى اسم نهر **طالى** Tali ، وكان يتسمى الفرع السبنيتى باسم الترموتى ؛ كذلك كان بطليموس يشير بأسماء **الأتريبى والبوصيرى (البوزيريسى) والبوباسطى** Atribique , Busiritique. Bubastique إلى أفرع النيل التى كانت تغمر مدن أتريب (بنها) ، بوزيريس (أبو صير) وبوباسطة (تل بسطة) الخ [(١)].

ومع ذلك ، فإن أقصى ماسوف آخذه على عاتقى هنا ، هو أن أبحث فيما كانته الفروع السبعة لنهر النيل فى مصر فى عصر هيرودوت ؛ وسأحاول فى هذه المفكرة أن أوفق بين ماكتبه هيرودوت ومايذكره سترابون . ولقد شرعت فى هذا العمل آملا فى النجاح ، فلقد واتتنى الفرصة ، على الدوام ، للتعرف ، فى المواقع ذاتها ، على القدر من الدقة الذى وصفت به مصر عن طريق هذين الرجلين ذائعى الصيت ؛ وان كنت لا أقول الشىء ذاته بخصوص بطليموس . إذ ينبغى ، عند تحويل مقاييس خطوط السير إلى أقواس ودوائر ، أن يكون هذا الجغرافى إما قد أخطأ بأكثر مما يظن الناس عادة ، وإما أن يكون عمله قد تعرض للتحريف ، بينما هو يستنسخ المرة تلو المرة حتى وصل إلينا بدرجة كبيرة .

* * *

(١) بطليموس ، الجغرافيات ، الكتاب الرابع .

عن الفرع البيلوزى

كان الفرعان البيلوزى والكانوبى يشكلان قمة الدلتا ، ويحدانها من ناحيتى الشرق والغرب [١] ؛ ونجد الفرع الأول ، اليوم ، فى ترعة أبو مِنجّة تلك التى يبدأ منشؤها على الشط الأيمن لنهر النيل ، على بعد ٢ ميرياميتر (٢٠ كيلو مترا) إلى شمال شمال الشرق من أهرام الجيزة . ولن يعترض أحد هنا قط بأننا قد نأينا بالدلتا لأكثر ممايبنغى نحو الجنوب ، إذا ألقينا بالا إلى أن بلين [٢] ، وهو الوحيد من بين المؤلفين القدامى الذى يبتعد بقمة الدلتا إلى منطقة تتجاوز ممفيس بكثير ، لم يحص أكثر من خمسة عشر ميلا ، أى نحو ٢٢ ألفا من الأمتار ، بين هاتين النقطتين ، وإلى أننا (بالموضع الذى نحدده نحن) لم نزل بعيدين عن خرائب ممفيس [٣] وعن الموضع الذى يُثّبت فيه القمة القديمة للدلتا ، بأكثر من ثمانية عشر ميلا رومانيا ؛ ولنضف إلى هذا أن مدينة ، جركيزورنا Gercesurna الواقعة على حافة الهضبة الليبية ، كانت تحدد النقطة الأولى لتفرع النيل [٤] وان لدينا ، لتحديد موقع هذه المدينة ، موضع مدينة

---

(١) هيرودوت ، التاريخ ، الكتاب الثانى ، الفصلين الخامس عشر والرابع عشر ؛ سترابون ، الجغرافيات ، الكتاب السابع عشر ، بلين ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب الخامس ، الفصل التاسع .

(٢) بلين ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب الخامس ، الفصل السابع .

(٣) أكثر خرائب هذه العاصمة القديمة لمصر استرعاء للانتباه ، يوجد بالقرب من ميت رهينة ، وسط غابة من أشجار النيل . ولقد اجتزت هذه الخرائب ، وهى شاسعة لكنها ليست سوى أنقاض وبقايا ، ولايرى فيها المرء قط ، على نحو مايرى فى مصر العليا ، معابد وقصورا لم يكد يمسسها ضر ، إذ لايوجد هنا عمود واحد قائم ، كما أن المسلات والتماثيل الضخام مقلوبة أو أن أنقاضها مبعثرة ؛ ولم تخلف الميادين العامة ، ولا الشوارع والمبانى أى أثر عن الموضع الذى كانت تشغله أو مع ذلك ، وفى الوقت نفسه . فقد تأسست ممفيس بعد طيبه ، نعم ، ولكنها كانت تتعرض للدمار دوما على يد الجيوش المعادية ؛ فمن بين كل عوامل الهدم التى تزخر بها الطبيعة ، فلا شىء يعدل غضب الانسان واهتياجه . وفضلا عن ذلك ،فيبدو أن المنشئات الأساسية لممفيس كانت من الجرانيت ، كما كان الحال فى كل مدن مصر السفلى ، ولقد نقلت هذه الخامات الثرية ، على التعاقب ، إلى الاسكندرية ، لتجميل العاصمة الجديدة . أما فى مصر العليا ، فقد كانت الحال عكس ذلك . إذ كادت كل المنشئات هناك تكون من الحجر الرملى الصوانى . الذى كان الأقدمون يرونه ، بالتأكيد ، أقل صلاحية فى البنايات القريبة من البحر . إذ أننا لم نعثر على أثر واحد يدل عليه فى مصر السفلى . وهكذا فإن ماكان من شأنه ، فى ظاهر الأمور ، أن يؤمن عمرا أطول لقصور ممفيس ، قد كان ، هو ذاته ، واحدا من أسباب دمارها .

(٤) هيرودوت ، التاريخ ، الكتاب الثانى ؛ سترابون ، الجغرافيات ، الكتاب السابع عشر .

هليوبوليس التى كانت تقابلها على الشط الآخر [١] ؛ وبمعنى آخر، فإن خرائب هليوبوليس هذه ، توجد تحت خط العرض نفسه الذى تقع عليه ترعة **أبو مِنجَّة** ، ومع ذلك ، فلقد يقال إننا نجد عند المؤلفين العرب ان ترعة ابو منجة قد افتتحت عند بداية القرن السادس الهجرى [٢] ، وهكذا فليس بمقدورنا أن ننظر إليها باعتبارها فرعا قديما للنيل دون أن نجازف بارتكاب مغالطة تاريخية لايمكن التسامح فيها ؛ وأجيب على هذا الاعتراض بأن الاحتمال قليل فى أن تكون قد حفرت ترعة جديدة بدلا من تنظيف أو تطهير الفرع البيلوزى القديم ، الذى كان يغمر فيما مضى أراضى ولاية **الشرقية** ، مادام القوم لم يشرعوا فى هذا العمل إلا بناء على التماسات سكان هذه المنطقة ، الذين كانوا يقدمون الشكاوى من أن أراضيهم لم تعد تروى ، كما كان الحال فيما مضى ؛ أما عن الاسم الحديث الذى تحمله هذه الترعة ، فإن الملق والعرفان لدى الشعوب ، كثيرا مايؤديان بها لأن تخلع على أعمال عظيمة اسم أولئك الذين لم يفعلوا سوى ترميمها . ويقدم لنا التاريخ على ذلك ألوف الأمثلة ؛ وبالإضافة إلى ذلك . فلعل منبع الترعة قد تغير ببضعة أمتار ، ولعلها اليوم ليست ، على وجه الدقة ، فى الموقع نفسه الذى كان النيل فيما مضى يتفرع عنده إلى فرعين ليشكل دلتاه ؛ بل إننى قد أكون مدفوعا إلى أن أعود بهذا الموضع إلى الجنوب بمسافة أكبر ، وليس أن أدفع بها إلى الشمال ، وذلك بالنسبة لما سبق لى أن قلته عن المسافة بين هذا الموضع وبين مدينة **ممفيس** .

وزيادة على هذا ، فإن الترعة ، موضوع حديثنا ، لا تحمل اسم **أبو منجة** إلا ابتداء من منبعها وحتى مدينة **بلبيس** ، ثم تمر بعد ذلك بخرائب **بوباسطة** التى تحمل اليوم اسم **تل بسطة** [٣] تاركة على يمينها مدينة **فاقوسا** (فاقوس) ، لتمر من تحت

---

(١) سترابون ، الجغرافيات ، الكتاب السابع عشر .

(٢) المقريزى .

(٣) يبدو أن هذه المدينة هى تلك التى دار الحديث بشأنها فى الكتاب المقدس باسم فى أو فى ـــ باست (سفر حزقيال ، الاصحاح الثلاثون ، الآية ١٧)(*) ، ذلك أن الترجمة اليونانية للتوراه تخلع على هذه المدينة اسم **بوباسطة** ، كما أن مؤلفين أقباطا يكتبونها Pou-Bast ؛ ولهذه التسميات كلها ، علاقة شبه وثيقة باسم **تل بسطة** ، =

(*) وفى النسخة العربية من التوراة نجد هذه الآية تقول : « شبان آوَنَ وفيبستةَ يسقطون بالسيف وهما تذهبان إلى السبى » . المترجم .

الأسوار الخربة لقصر الطينة ، ثم تجرى بعد ذلك إلى الشرق ، متجاوزة عن يمينها موقع مدينة بيلوز القديمة (١) ، حتى تنتهى إلى البحر ، غير بعيدة عن هذا الموضع الأخير .

= أى التل الواقع قرب بسطه ، وهو الاسم الذى أطلقه العرب على الخرائب التى نقدم الان وصفا لها . فهذه الخرائب عبارة عن تل صناعى يبلغ محيطه نحو خمسة آلاف متر ، ويتكون فى جزء منه من الطوب النيىء ، طول الطوبة الواحدة منه ٣٣ سم بعرض وسمك مقدارهما ٢٢ سم . وعند مركز هذا التل ، تنخفض الأرض كثيرا ، لتشكل مايشبه ميدانا فسيحا توجد وسطه كومة هائلة من الأنقاض الجرانيتية ، نميز فيها قطعا مهشمة من العمد والمسلات والكرانيش تكسوها النقوش الهيروغليفية ، وهى نقوش باذخة ثرية تعد دليلا قاطعا على المجد التليد الذى للمعبد الذى كان موجودا فى هذا الموقع ؛ والذى كان مخصصا لعبادة القمر (لونا) تحت اسم بوباستيس Bubastis . وينطبق الوصف الذى تركه لنا هيرودوت عن مدينة بوباسطة ، بشكل تام ، على كل ماانتهيت من قوله عن تل بسطة حتى أننى لاأستطيع أن أمنع نفسىَ عَن متعة وضع هذه المقارنة تحت عيون قرائى ؛ فيقول هيرودوت : « فى هذه المدينة يوجد معبد لبوباستيس يستحق أن نتوقف عنده ؛ وإذا كان بمقدور المرء أن يرى معابد أكبر منه وأكثر روعة ، إلا أنه لا يوجد معبد أمتع منظرا منه . وبوباستيس (عند المصريين) هى نفسها ديانا عند الاغريق . ويشكل معبدها شبه جزيرة ، ينفذ الناس إليها عن طريق أحد جوانبها ، هو وحده المفتوح ؛ وهناك ترعتان من تر ع النيل ، لا تختلطان ببعضهما البعض قط ، تتجهان إلى مدخل المعبد ، ثم نفترقان هناك لتحيطا به ، كل واحدة من جانب ، ويبلغ عرض كل واحدة من هاتين الترعتين بنحو ١٠٠ قدم ، وتظللهما الأشجار ؛ ويصل ارتفاع المدخل إلى ست اورجيات Orgyies ؛ وهو يزدان بأشكال بالغة الجمال تعلو بمقدار ستة أذر ع . ويقع هذا المعبد عند مركز المدينة ، ويستطيع من يتجولون بالمدينة أن يروه من كل الجوانب . بكل طوله ، من أعلى إلى أسفل ، فحيث قد ظل هذا المعبد على نفس المستوى أو المنسوب الذى بنى عليه منذ البداية ، وحيث ارتفع مستوى أرض المدينة بواسطة أتربة جلبت من خارجها ، فإن المرء هناك يرى المعبد بكل أجزائه . ويحاط هذا المكان المقدس بجدار أو سور نقش عليه عدد كبير من الأشكال . توجد فى فنائه غابة ، بمعنى الكلمة ، مزروعة حوله ، وأشجار هذه الغابة بالغة الارتفاع . ونجد تمثال الإلهة داخل المعبد . وللمكان المقدس ، من كافة الجهات ، منصة يبلغ طولها مقدار عرضها ، أما الشار ع المؤدى إليه فيجتاز الميدان العام ، ماضيا نحو الشرق حتى يفضى إلى معبد عطارد ، وله أربع غلوات طولا على أربع بليثات عرضا ؛ وهو مرصوف ، وتحيط به من الجانبين أشجار بالغة الضخامة (هيرودوت ، التاريخ ، ترجمة لارشيه ، الكتاب الثانى ، الفصل ١٣٨) .

وكانت تنقل إلى بوباسطة من كافة أنحاء مصر مومياوات القطط ، وهناك كانت تحفظ تحيطها هالة من الاحترام البالغ .

وفى هذه المدينة كان يقام الاحتفال بالعيد الرئيسى عند المصريين ؛ وكان يتوجه إليها جمهور عريض من الشعب عن طريق استخدام القوارب ، ولم يكن يسمع فوق هذه القوارب . وكذلك على الشاطئ ، سوى الأناشيد وصيحات الفرح ورنات الصنوج وموسيقى الناى . ولابد أن حركة الملاحة هذه كانت تقدم للعين منظرا شبيها بما يقدمه خليج القاهرة فى أيام الأعياد .

(١) تقع بيلوز ، كما كانت فى زمن سترابون ، على مسافة ٢٠ غلوة من البحر ، وحين خلع العرب عليها اسم الطينة فقد احتفظوا لها بمعنى اسمها اليونانى القديم : بيلوز . وكنت قد اعتقدت ، فى البداية ، عند نشر هذه المذكرة لأول مرة ، فى عام ١٨١٢ ، إنها هى تلك المدينة التى يشير إليها سفر حزقيال باسم سين ، (الاصحاح الثلاثون ، الآية ١٥) . لكننى بعد ذلك رأيت الترجمة السبعينية (للتوارة) تجعل من سين هذه مدينة سايس . =

ويتطابق المجرى الذى انتهينا من تحديده ، بشكل تام ، مع مايخبرنا به الأقدمون عن الفرع البيلوزى ، إذ كان هذا الفرع ، تبعا لما يذكرون ، هو أقصى هذه الفروع من ناحية الشرق (١) ، وكانت بوباسطة و فاقوسا تقعان على شواطئه (٢) كما أن ماقلته عن مصبه ومنبعه (أو مصب الترعة ومنبعها) يضيف إلى رأيى بعض الترجيح كذلك فإن النيل ، فى فيضاناته العالية ، يتبع — لايزال — هذا المجرى القديم . كما حدث فى العام ١٨٠٠ ، عندما كنا فى مصر .

* * *

وقد لعبت بيلوز ، على الدوام ، دورا هاما فى التاريخ ، كما أن النهاية التراجيدية لرجل عظيم من غرماء قيصر ، لقى حتفه فيها ضحية لخيانة بشعة (*) قد منحتها شهرة مأساوية . وكل ماتبقى منها اليوم هو سور خرب وأنقاض وبقايا منشئات واتساع صحراوى . فذلك هو كل مابقى من هذه المدينة التى كانت مزدهرة فيما مضى ، ولعل السماء قد نقمت عليها فاقتصت حقوق الضيافة المقدسة .

(١) انظر هيرودوت ، التاريخ ، الكتاب الثانى ، الفصل السابع عشر ؛ سترابون ، الجغرافيات ، الكتاب السابع عشر ؛ بلين ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب الخامس ، بطليموس ، الجغرافيا ، الكتاب الرابع ؛ وهذين البيتين من لوكان Laucan (الكتاب الثامن) :

Dividui pars maxima Nili
In vada decurrit Pelusia septimus amnis.

(٢) ليس هناك من يشك فى أن بوباسطة كانت تقع على الفرع البيلوزى ، وسنذكر ، من بين أدلة أخرى ، اسم البوباسطى Bubastique الذى كان بطليموس يطلقه على ذراع النيل الذى يفضى إلى الفتحة البيلوزية ، ومايقوله هيرودوت ، الكتاب الثانى ، الفصل ١٥٨ ، من أن القناة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر وكانت تنبع فوق (جنوب) بوباسطة بمسافة قصيرة ، وكانت هذه المدينة ، طبقا لبطليموس ، تقع خارج الدلتا ؛ فإذا كانت اليوم عند قمة ما يماثل شبه جزيرة يصنعها ذراعا الفرع البيلوزى . فالسبب فى ذلك ، بلا جدال ، هو أن ميكو فوريس الواقعة تجاه بوباسطة مباشرة (هيرودوت ، التاريخ ، الكتاب الثانى ، الفصل ١٦٦) سوف تتسع من هذه الناحية حين يضاف إليها كل الموضع الذى تشغله هذه المدينة ، وهو أمر يسهل تصوره حين نتصور كيف أن ترعة نيقوص Nècos المتفرعة عن النيل ، فوق بوباسطة بقليل (المصدر السابق ، الفصل ١٤٨) ، =

(*) لعله يشير إلى بومبى . أنظر الهامش الذى أضافته الترجمة العربية عن هذا الرجل فى نهاية الدراسة الخاصة ببحيرة المنزلة من هذا المجلد نفسه (المترجم) .

حول الفرع الكانوبى

إذا واصل امرؤ مسيرته ، ابتداءً ، من النقطة التى حددتها باعتبارها منبع الفرع البيلوزى متعقبا مجرى النيل حتى بطن البقرة (١) ؛ وإذا ماهبط فرع رشيد حتى قرية **الرحمانية** ، ثم واصل سيره ، على الأقدام ، حتى بحيرة أبى قير ، فى إثر ترعة كبيرة تسمى **ترعة المجُارين** (٢) ، تلك التى نبدأ فى أكتشاف آثارها على مسافة الفرسخ من الرحمانية ، إلى اليمين من ترعة الاسكندرية ، وإذا ماوصل هذا المرء ، فى النهاية ، بعد أن يجتاز بحيرة أبى قير إلى الفتحة المسماة **المعدية** التى تتصل عن طريقها بحيرة أبى قير بالبحر المتوسط ، غير بعيد من خرائب **كانوب** القديمة ، وإلى الشرق منها ؛ فإنه يكون قد اجتاز الفرع الكانوبى فى مجمله .

ولقد أدت المائة والخمسون غلوة ، التى كانت تشكل ، طبقا لسترابون ، المسافة من الفنارة حتى طرف الفرع الكانوبى ، مقيسة فى خط مستقيم ، ببعض الناس أن يظنوا أن اتصال بحيرة إدكو بالبحر هو الفتحة الكانوبية القديمة ؛ ودعما لهذا الرأى يشيرون إلى التكوين الحديث لبحيرة أبى قيرة الذى يريدون أن يعودوا به إلى

=وكذلك الفرع الذى كان يحيط بمعبد ديانا (المصدر السابق ، الفصل ١٣٨) قد استطاعا ، بسبب شدة اقترابهما من بعضهما البعض . أن يتصلا بعد سلسلة من فيضانات بالغة العلو بشكل شاذ . ويصل طول الجزيرة التى تحدثنا عنها من ٨ إلى ٩ ميريا مترات (٨٠ إلى ٩٠ كيلو مترا) ؛ وهى تضم عددا كبيرا من القرى والأكوام والأنقاض ؛ وحين نستبعد عنها الجزء الذى كانت تشغله مدينة بوباسطة يظل حجمها ، مع ذلك ، هائلا لدرجة امكنها معها أن تشكل إقليما بأكمله هو إقليم **ميكو فوريس** الذى يحدثنا عنه هيرودوت وأما عن مدينة **فاقوسا** ، أهم أماكن **الإقليم العربى** nome Arabique فإن سترابون يضع هذه المدينة على الفرع البيلوزى ، ويحدد بطليموس هذا الموضع إلى الشمال الشرق مباشرة من بوباسطة أى أنها كانت تقع بجلاء فى اتجاه هذا الفرع من فروع النيل . وهناك مرتفعات من الأنقاض ، أطلق عليها العرب اسم **تل فاقوس** تحدد موقع هذه المدينة على مسافة ثلاثة ميريا مترات (٣٠ كيلو مترا) إلى الشمال الشرق من بوباسطة .

(١) على هذا النحو تسمى اليوم نقطة انفصال فرعى رشيد ودمياط ، عند قمة الدلتا الجديدة .

(٢) انظر ، فى المفكرة التى كتبها المسيو لانكريه حول الفرع الكانوبى وصف ترعة **المجارين** التى يصل اتساعها كما يقول نفس اتساع فرع دمياط أو رشيد فى حين يصل عمقها إلى نحو المترين ، كما أنها لاتزال ببعض حوافها شاقولية .

العام ١٧٧٨ أو ١٧٨٠ ، فحيث قد انقطع ، فى هذا التاريخ ، سد حجرى كان يحجز مياه البحر ، فقد توغلت مياه البحر ، ولابد ، فى الأراضى ، لتشكل بحيرة أبى قير .

ومع ذلك ، أو ليست بحيرة إدكو اقرب فى تكوينها من هذا التاريخ ؟ يقول الجنرال **رينييه** فى مؤلفه الرائع **مصر بعد معركة هليوبوليس** « ولقد تكونت بحيرة إدكو حديثا أثناء الاغراق الذى تم فى العام التاسع (١٨٠٠ ــ ١٨٠١) من العهد المسيحى ، حين أمر الجنرال مينو ، بخفة ودون دراسة ، بفتح جسور ترعة ديروط ، فانتشرت المياه الغزيرة فوق أرض خفيضة . ثم شقت لنفسها خلال الكثبان اتصالا مع البحر ، وبعد أن تم الإغراق ، وحين انخفض مستوى المياه العذبة ، لم تعد هذه المياه تنصرف عن طريق الترعة التى صنعتها قريبا من البيت المربع ، توغلت مياه البحر إلى هناك مكونة البحيرة الجديدة » .

وعلى هذا يكون فم بحيرة إدكو أكثر حداثة من فم بحيرة أبى قير ، حتى لو لم يرجع تاريخ هذه الأخيرة إلا إلى العام ١٧٨٠ ؛ وإن كنا ، من جانبنا ، أبعد من أن نصدق ان تكوينها على مثل هذه الدرجة من الحداثة ، إذ يبرهن السد الحجرى الذى أدى إلى نشأتها ، أن هذا الاتصال بين البحر وبين أراض أكثر انخفاضا عن مستواه كان قائما فيما قبل عصيان ١٧٨٠ . وفى الواقع ، فإننا نقرأ عند بول لوكاس Paul Laucas ، أن هذا السد كان قد قطع أثناء عاصفة هبت قبل عام ١٧١٦ . كذلك فقد ورد حديث عن البحيرة وعن ممر المعدية عند الإدريسى . وهو مؤلف عربى كان يكتب فى القرن السادس من الهجرة أى القرن الثانى عشر من تقويمنا .

كذلك فإن مما يبعث على الاعتقاد بأن فتحة أبى قير تتوافق مع الفتحة الكانوبية القديمة ، وليس فتحة بحيرة إدكو ، مايورده المسيو لانكريه عن **ترعة المجارين** أو الفرع الكانوبى ، الذى ينتهى ، طبقا لرأيه ، إلى بحيرة أبى قير ، وفى الواقع فإننا نتعرف على آثار السرير القديم للنهر ، فى ذلك الجزء من بحيرة أبى قير الذى يتوغل نحو الشرق فى الأراضى الواطئة التى تغطيها أشجار الغاب (البوص) ، الممتدة إلى ماوراء ذلك . وهذا التوغل من البحيرة فى داخل الأراضى لم يظهر بشكل واضح بالقدر الكافى فى الخريطة (التى أقمناها) لمصر السفلى ، إذ نجده (فى هذه الخريطة) قريبا من

جزيرة أشير إليها باسم خرائب ، ولايمكن هذه الخرائب أن تكون ، فى الواقع ، سوى أطلال شديا ، تلك المدينة التى كانت تبعد عن القاهرة بمسافة أربع شونات ، تبعا لرأى سترابون ، والتى كانت تقع على الفرع الكانوبى ، قريبا من منبع الترعة التى كانت تفضى إلى الاسكندرية .

ولنضف إلى ذلك أيضا أن خرائب كانوب ، حين توجد على مبعدة نحو ثلاثة أرباع الفرسخ باتجاه قصر أبى قير ، سوف تجعلنا نتبين أن المسافة القائمة بين الفتحة الكانوبية وهذا القصر أكبر مما يقتضى الأمر ، عما لوكنا قد وضعناها قريبا من البيت المربع الذى يشير إليه الجنرال رينييه ، والسبب فى ذلك :

١ – أن أميان مارسلان Ammien Marcelin يضع كانوب على بعد اثنى عشر ميلا من الاسكندرية ، ويضع بلين الفتحة الكانوبية على هذه المسافة نفسها من هذه المدينة ؛ وفى الواقع فإننا نجد مسافة اثنى عشر ميلا تفصل بين الفنارة pharillon وكانوب ، وكذلك مسافة اثنى عشر ميلا أيضا تفصل بين كانوب وبين الطرف الشرقى من خرائب الاسكندرية ، خارج السور العربى ، فى حين نجد مسافة نحو ستة عشر ميلا ، تقوم بين هذه النقطة ، فى شكل خط مستقيم ، وبين فتحة بحيرة إدكو ، ولسوف تزيد هذه المسافة بقدر أكبر بكثير ، إذا ما اتخذنا من الفنارة نقطة بدء .

٢ – أن سترابون يرى أن الفنار Phare تقع على مسافة ١٥٠ غلوة من الفتحة الكانوبية ،وأن الاسكندرية تقع على مسافة ١٢٠ غلوة من مدينة كانوب وهكذا ، فسواء كنا نقيس المسافة بين الاسكندرية وكانوب بدءا من الفنار ، أو بدءا من الموقع المفترض لمعبد سيرابيس القديم قريبا من حصن كافاريللى ، فلن نجد ، فى شكل خط مستقيم ، سوى ١١٠ غلوات ، وستتقلص هذه المسافة إلى ٩٥ غلوة فقط ، إذا ما أخذنا نقطة البدء الطرف الشرقى لسور العرب ؛ وهكذا فان سترابون لم يكن يقيس مسافاته فى شكل الخط المستقيم ؛ فإذا ماسلمنا بذلك ، وإذا نحن قسنا تعرجات الطرق التى تسلكها القوافل اليوم ، فسنجد بين أيدينا مسافة الـ ١٢٠ غلوة التى يذكرها سترابون بدءا من الموضع الذى كان يشغله معبد سيرابيس القديم فى

الاسكندرية ، وحتى كانوب ، وكذلك الـ ١٥٠ غلوة التى كانت تفصل بين الفنار وبين فتحة أبى قير . ومن جهة أخرى ، فإننا إذا افترضنا ـــ وهذا أمر بالغ الاحتمال فيما يبدو ـــ أن الطريق التى كان سترابون يضع عليها مسافتى الـ ١٢٠والـ ١٥٠ غلوة هاتين ، كانت تمر بكانوب . فسنجد لدينا ثلاثين غلوة كمسافة تفصل بين هذه المدينة وبين مصب النهر (١) ؛ وهذه فى الواقع هى المسافة بين أطلال كانوب ونقطة اتصال بحيرة أبى قير بالبحر ، فى حين توجد خمس وسبعون غلوة بين هذه الأطلال نفسها وبين فتحة بحيرة إدكو ، ولقد استخدمتُ الغلوة الأولمبية حتى أتحاشى أى اعتراض . بل إن استخدام غلوة أصغر من هذه بكثير ، على غرار الغلوة ذات السبعمائة درجة والتى ينسب إلى سترابون أنه كان يستخدمها ، قد يعطى المزيد من الثقل إلى رأيى .

تتطابق شهادة سترابون إذن ، وبشكل تام ، مع ملاحظاتى ، ومع رواية بلين وإميان مارسلان .

وقد كان يطلق على الفرع الكانوبى اسم الفرع **الهيرقلى** ؛ ويخبرنا ديودور وبلين ، ونجد ذلك أيضا عند هيرودوت ، السبب من وراء هذه التسمية : فيذكر هذا المؤرخ (هيرودوت) انه كان يوجد على شاطىء البحر ، عند فتحة الفرع الكانوبى ـــ معبد لهيرقل ـــ وهو ملاذ لايمكن المساس بحرمته للعبيد الذين كانوا يلوذون به ؛ ويبدو أن بيوتا قد شيدت من حول هذا المعبد ، بيت بعد آخر ، قد أدت إلى نشأة تلك المدينة المسماة **هيرقليون** والتى رأينا سترابون ، منذ قليل ، يشير إليها ؛ ويذكر بلين أن بعض الأشخاص كذلك ، كانوا يطلقون على الفرع الكانوبى اسم الفرع **النقراطى** بسبب وقوع مدينة **نقراطيس** على شواطئه .

وقد كان جزء من المجرى الأدنى الذى ننسبه إلى الفرع الكانوبى يسير فى اتجاه

---

(١) لعل مدينة **هيروقليون** التى يضعها سترابون بين هاتين النقطتين كانت تقوم على شاطىء البحر ، على بعد ١٨٠٠ متر جنوب أبى قير ، فى موضع نجد فيه الآبار وأكوام الأنقاض ، وشىء من الفتات الجرانيتية .

متواز مع شاطىء البحر ؛ ولايوجد فى ذلك أى تعارض مع الحالة الفيزيقية للأماكن . ولافيما لاتزال مصر تقدمه (من ظواهر طبيعية) فى مواضع أخرى : أو لسنانرى فرع دمياط يوازى ، فى جزء طويل منه ، شطئان بحيرة المنزلة ، ويقترب منها بأكثر مما يقترب بالفرع الكانوبى من البحر المتوسط ؟ وأخيرا ، أفلا يجرى النيل . بدءا من كفر أبى يوسف حتى البوغاز . فيما تحت (شمال) العزبة ، بين البحر وبحيرة المعدية ، فوق أرض تبدو غير قادرة على تشكيل أى عائق يحول بينه وبين أن يصب فى البحر ، أو فى البحيرة ، باتباع أقصر خط للسير ؟

* * *

عن الفرع البولبيتينى

حسبما يذكر هيرودوت ، فإن يد الإنسان هى التى حفرت الفرع **البولبيتينى** ، ويُعدّه سترابون بعد الفرع الكانوبى ، مع الاتجاه شرقا ؛ وهو يتفق فى ذلك مع ديودور ، وكذلك مع بطليموس ، الذى يشير إلى هذا الفرع تحت اسم **نهر طالى** ، مع احتفاظه لفتحته باسم الفتحة البولبيتينية ، ونعثر ، نحن ، على هذا الفرع القديم فى المجرى الحالى لنهر النيل بدءا من الرحمانية حتى بوغاز رشيد [١] : وبعد أن كان هذا الفرع فيما مضى ينبع عن الفرع الكانوبى ، كما كان أقل أهمية منه ، طبقا لشهادة كل المؤرخين ، فقد أخذ يكبر تدريجيا ، وبشكل غير محسوس ، على حساب هذا الفرع (الكانوبى) ، وانتهى به الأمر أن ادى إلى اختفائه كلية ، إذ أن المسافة من الرحمانية إلى فتحة رشيد [٢] ، أقل من تلك التى تفصل بين الرحمانية والبحر بالقرب من أبى قير ؛ وحيث أن سرير الفرع البولبيتينى ، أقل تعرجا عما كان عليه الجزء الأدنى من الفرع الكانوبى ، فلابد أن مياه النيل كانت تميل أكثر إلى سلوك المجرى الذى لها الآن . ولهذا ، فلسوف يكون كافيا ، بالقرب من نقطة انفصال الفرعين ، أن تتكون بعض التراكمات الرسوبية فى فرع كانوب ، أو أن يحفر النيل الفرع البولبيتينى بدرجة أكبر (أى يعمق فيه مجراه) لكى تحسم المياه طريقها ، وأن تتخذ طريقها إلى البحر باستخدام الفرع الاكثر انحدارا (أى الأشد عمقا) ؛ وقد تم هذا بقدر هائل من اليسر حتى أن الأرض الرسوبية التى كانت تجتازها لم تستطع أن تشكل سوى عائق واهن ، لم يبد مقاومة تذكر ضد توسيعه لمجراه .

* * *

---

(١) لابد أن مدينة بولبيتين كانت تقع إلى جنوب رشيد بقليل ، بالقرب من برج أبى منضور ؛ فقد وجدت هناك ، مدفونة تحت الأرض ، عمد هائلة وانقاض أخرى تنتمى إلى العصور القديمة .

(٢) توغلت فتحة رشيد فى البحر ، بالضرورة ، منذ الزمن الذى يشغلنا الآن ، ولابد أن البحر ، عكس ذلك ، قد اتجه إلى ناحية الفتحة الكانوبية القديمة ، وهكذا فلابد أن الفرق فى المسافة بين الرحمانية وهاتين النقطتين قد كان — فيما مضى — أكبر مما هو عليه اليوم .

عن الفرع السبنيتى

يبدو أن منبع الفرع السبنيتى ، طبقا لنص من هيرودوت [١] ، كان فى عصره على نفس المستوى من الارتفاع الذى كان للفرعين البيلوزى والكانوبى ، صحيح أن انقسام النهر إلى فروع ثلاثة ، وعند نقطة بعينها على وجه التحديد ، أمر ضئيل الاحتمال ، وأن سترابون يقرر بشكل واضح أن الفرع الثالث للنيل [٢] يبدأ تحت (شمال) الفرعين الآخرين بقليل ، وأن بطليموس ، فى النهاية ، يتفق فى ذلك مع سترابون ؛ ومع ذلك فإن من المستطاع ، من ناحية أخرى ، أن تكون بعض الترسيبات الطينية قد غيرت من شكل القمة العليا للدلتا ، فى ذلك المدى من الوقت الذى انقضى بين رحلات كل من هيرودوت وسترابون [٣] ، وتوجد اليوم بين القمتين ، القديمة والجديدة ، للدلتا جزر عدة ، تسمح باقتسامها المجرى الحالى للنيل ، على نحوما ، إلى فرعين ، بتقبل رأى هيرودوت .

وقد كان الفرع السبنيتى ، يجرى إلى الشمال ، جائسا خلال الدلتا ، ولابد أنه كان يمر بمدينة **سبنيتوس** (سمنود) مادام ـــ هو ـــ قد اتخذ اسمها ، وكان يصب فى البحر شمال مدينة **بوطو**Buto بقليل ، تلك التى كانت توجد قريبا منها بحيرة واسعة [٤] .

وطبقا لكل ذلك . فلابد أن الفرع السبنيتى الذى يشير إليه هيرودوت ، يتكون من ذلك الجزء من مجرى النيل المحصور بين منبع ترعة **أبو مِنَجّه** و **بطن البقرة** ؛ ومن فرع دمياط الحالى بدءا من بطن البقرة حتى شمال مدينة سمنود وهى سبنيتوس القديمة [٥] ؛ ومن ترعة **التبانية** ، بدءا من منبعها بالقرب من بهبيت [٦] إلى مصبها

---

(١) التاريخ ، الكتاب الثانى ، الفصل السابع عشر .

(٢) أقصد بالفرع الثالث للنيل هنا الثالث ونحن نتجه من الجنوب إلى الشمال .

(٣) وضع سترابون مؤلفاته بعد نحو أربعمائة وخمسين عاما بعد هيرودوت .

(٤) هيروروت ، التاريخ ، الكتاب الثانى ، الفصلين ١٥٥ – ١٥٦ .

(٥) احتفظت هذه المدينة ، كما نرى ، فى التسمية العربية التى أطلقت عليها ، بآثار من اسمها القديم وهى اليوم واحدة من أهم كبريات المدن فى الدلتا ؛ أما خرائب المدينة القديمة فتشتمل على انقاض وبقايا جرانيتية تغطيها النقوش الهيروغليفية .

(٦) تتفرع ترعة التبانية عن النيل عن طريق فتحتين ، توجد إحداهما بالقرب من التبانية ، وتوجد الثانية =

فى البحر ، بعد أن تجتاز الجزء الشرقى من بحيرة البرلس ، ولعل هذه البحيرة كانت تتوغل فى هذه الناحية لمدى أقل ، قبل أن يؤدى ضعف الفرع السبنيتى إلى اندفاع مياه البحر إلى داخل الأراضى الواطئة . أما عن انطباقه أو اندماجه ببحيرة بوطو فأمر يقره كل الدارسين ؛ ولن آخذ على عاتقى قط أن أقيم الدليل عليه ، واكتفى بأن أضيف بأننا نجد على شواطىء هذه البحيرة ، عند الجزء الأدنى من ترعة التبانية خرائب هى أطلال مدينة بوطو ، طبقا للموضع الذى ينسبه هيرودوت إلى هذه المدينة .

ولقد استرشدنا فى رسمنا لمجرى الفرع السبنيتى الذى يشير هيرودوت إليه ، على النحو الذى فصلناه الآن ، بما يخبرنا به هذا المؤرخ عن الفرعين السايسى ، والمنديسى ؛ ذلك أنه يقول إن هذين الفرعين كانا يتفرعان عن السبنيتى ؛ كما أن أى افتراض آخر لمجرى هذا الفرع . عن ذلك الذى نقدمه ، لن يفى قط بهذه الشروط (أو التحديدات) .

* * *

= على بعد نصف الفرسخ إلى شرق الجنوب الشرقى من بهبيت . وإذا كنت قد آثرت الفتحة الأخيرة ، فى الوصف الذى أعطيته للفرع السبنيتى ، فذلك لأن هذا التفرع بالقرب من التبانية ، يجرى بعد ذلك نحو الغرب مباشرة ، ولأكثر مما ينبغى ، مسافة لصف الفرسخ لكى يتصل بشكل طبيعى بالمجرى الأعلى لفرع دمياط . وتوجد بالقرب من بهبيت خرائب هائلة ، هى ، طبقا لرأى دانفل d'Anville أطلال مدينة **إيزيس** ، تلك التى تناولها بلين فى مؤلفه التاريخ الطبيعى ، الكتاب الخامس الفصل العاشر ، أنظر الفصل الخامس والعشرين من دراسات العصور القديمة (وصف مصر) ، دراسة السيدين جولوا ، ودى بوا ـــ إيميه .

عن الفرع التانيسى أو السايتى (السايسى)

إذن فقد كان الفرع السبنيتى هو الذى أدى إلى نشأة الفرع السايسى (أو السايتى نسبة إلى سايس Saïs أو سايت Saïte ؛ وإن يكن هيرودوت لم يقل لنا قط إن هذا الفرع كان يجرى بالقرب من الفرع الأول ، كما فهم ذلك خطأ (مترجم) المسيو لارشيه [١] الذى شاء ، بالتالى ، أن يجد فرع سايس مارا بالقرب من مدينة **سايس** ويصب فى البحر ــ فيما بين الفتحتين السبنيتية والبولبيتينية ؛ فهو (لارشيه) لم يلق بالا إلى أنه لاتوجد أنه ترعة تفى بكل هذه التحديدات أو الشروط ، كما لا توجد أية فتحة أو مصب فيما بين فتحتى رشيد والبرلس . ولعل نصا من سترابون يكون من شأنه أن يقودنا إلى العثور على الفرع **السايسى** ، وهو النص الذى يضيف فيه هذا الجغرافى ، بعد أن يتحدث عن الفرع **التانيسى** أن البعض يطلقون على هذا الفرع نفسه اسم **الفرع السايسى** ، بل يخيل لى أنه كان من الأيسر أن نجد السبب المحتمل فى وجود هاتين التسميتين فى هذا التشابه النغمى الذى لابد أن يكون ، فى اذن الأجنبى ، لاسمى **سايس و تانيس** فى اللغة المصرية القديمة [٢]، مادمنا نرى مدينة تانيس تتسمى باسم **تزوان** Tzoan أو Tzoain . وسايس تأخذ اسم سِنْ sin أو سين Sein فى النص العبرى للتوراة ، ولقد أطلق العرب اسم **صان** على خرائب تانيس واسم **صا** على أطلال سايس .

وإننى لواثق أن المسيو لارشيه يظن أن العبريين قد أرادوا باسم تزوان أن يشيروا إلى سايس وليس إلى ثانيس ، تلك التى كانت على الدوام ، فى رأيه ، مدينة ضئيلة لا شأن لها ، ولحد لايمكن أن تغدو معه مقرا لواحد من فراعنة مصر ــ ولدىّ ، فيما أعتقد ، ضد هذا الأمر ، وقائع عديدة ــ قاطعة وواضحة للغاية :

١ – أن السبعين (أصحاب الترجمة السبعينية وهى النص اليونانى للتوراة)

---

(١) ترجمة هيرودوت ، المجلد الثانى ، الحاشية رقم ٥٥ .

(٢) سايس وثانيس هما اسمان أطلقهما على هاتين المدينتين الإغريق ، وهم الذين يحرفون الأسماء الأجنبية ، أكثر مما يفعل أى شعب آخر .

الذين كانوا ، بالضرورة ، يعرفون تمام المعرفة جغرافية مصر ، والذين ظلت رواية الأحداث القديمة للتاريخ العبرى معروفة منهم ومحفوظة على وجه اليقين ، قد ترجموا اسم **تزوان** بكلمة **تانيس** .

٢ – أن المؤلفين الأقباط كانوا يطلقون على سايس اسم **صائ** ، وعلى **تانيس** اسم **دچان** أو **دچانى** ؛ ولسوف نخطىء ، كما يلاحظ بحق المسيو إتيان كاترمير [(١)] ، إذا اعتقدنا أن **دچان** ليست سوى تحريف للكلمة الإغريقية **تانيس** ، ؛ فمن المرجح أن تكون **دچان** أصلا للكلمة العبرية (تزوان) ، وهى تشير فى اللغة المصرية إلى الأرض الواطئة ؛ ويتفق هذا الاسم تمام الاتفاق مع (حالة) مدنية تانيس ، الواقعة فى تلك المقاطعة التى أطلق عليها العرب اسم **أسفل الأرض** أى الجزء الواطىء من الأرض .

٣ – حين هرب العبريون من مصر ، كانوا يسكنون أرض جاسان ، عند طرف الوادى المسمى اليوم بوادى **السبعة بيار** (السبعة آبار) ، على نحو ماأظننى قد اقمت عليه الدليل فى دراساتى [(٢)] ؛ وكانت الجولات المتكررة التى قام بها موسى مع شعبه إلى بلاط فرعون . ثم زحْف هذا الحاكم للحاق بالعبريين الفارين ـــ كان كل ذلك يعلن بشكل كاف أنهم كانوا يسكنون فى ذلك الوقت مدينة بالغة القرب من الوادى (وادى السبعة بيار) ؛ وليس هذا مطلقا هو حال سايس .

٤ – تشهد خرائب صان بعظمة تانيس وبالروعة التى كانت لها قديما ؛ ويذكر الجنرال **أندريوسى** ، الذى جاس خلال هذه المناطق كمراقب يقظ مستنير ، أنه « يبدو أنه كانت هناك مدينة شاسعة ، يرى المرء بداخلها نوعا من الفورم أو الميدان العام ، له شكل مستطيل ، وله مدخل كبير من ناحية ترى **بحر مويس** ومنافذ مؤدية إلى الأجزاء الجانبية ؛ ويوجد المحور الكبير لهذا الفورم فى الاتجاه من الشرق إلى الغرب .

---

(١) Memoires sur l'Egypte , tom I ,pag.290

(٢) مذكرة حول إقامة العبرانيين فى مصر ، وحول هروبهم إلى الصحراء (وهى الدراسة الأخيرة من المجلد الثانى من الترجمة العربية الكاملة لوصف مصر) الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٠ (المترجم) .

ويلاحظ فوق هذا المحور الكثير من المبانى الخربة والمسلات المقلوبة والمهشمة » [١] .

٥ — يقرر سترابون أن تانيسى مدينة كبيرة ، واذا كان يوسيفوس [٢] يذكر أن تيتوس قد أبرر فى مدينة تانيس الصغيرة ، فإن هذا دليل فقط على أن هذه المدينة كانت ، فى هذا الوقت ، قد نزلت عن مكانتها القديمة .

٦ — وأخيرا فإن المسيو لارشيه يخطىء مرة أخرى عندما يخلط بين تانيس Tanis ومدينة تنيسوس Thennisus التى كانت واقعة وسط البحيرة [٣] .

وهكذا لم يكن هيرودوت هو الوحيد ، كما رأينا من نص سترابون الذى أشرنا إليه من قبل ، الذى اطلق اسم الفرع السايسى (أو السايتى) Saitique على فرع النيل الذى كان يمر بتانيس ؛ وهناك نص من فلافيوس جوزيف يذكر فيه هذا المؤرخ لما نيتون [٤] انه كان يشار فى اللغة اليونانية القديمة تحت اسم سايت Saite إلى كل الجزء الشرقى من مصر السفلى [٥] .

---

(١) دراسة عن بحيرة المنزلة ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٢٧٦ (وهى الدراسه التالية فى هذا المجلد) .

(٢) حرب اليهود ضد الامبراطورية الرومانية ، الكتاب الرابع ، الفصل ٤٢ .

(٣) يطلق العرب على خرائب تنينوس اسم تنّيس .

(٤) Reponse à Appion ، ردّ على أبيون ، الكتاب الأول ، الفصل الخامس .

(٥) *Εὑρὼν δὲ ἐν νομῷ τῷ Σαΐτῃ πόλιν ἐπικαιροτάτην, κειμένην μὲν πρὸς ἀνατολὴν τοῦ Βυβαστίτου ποταμοῦ, καλουμένην δὲ ἀπὸ τῆς ἀρχαίας θεολογίας Ἄβαριν, ταύτην ἔκτισέ τε, καὶ τοῖς τείχεσιν ὀχυρωτάτην ἐποίησεν, ἐνοικίσας αὐτῇ καὶ πλῆθος ὁπλιτῶν εἰς εἴκοσι καὶ τέσσαρας μυριάδας ἀνδρῶν πρὸς φυλακήν.*

*Inveniens autem in præfectura Saïte civitatem opportunissimam, positam ad orientem **Bubastis fluminis, quæ** appellabatur à quadam antiqua **theologia** **Avaris, hanc** fabricatus est et muris maximis **communivit, collocans ibi** multitudinem armatorum usque **ad ducenta quadraginta** millia virorum **eam custodientium.***

وبهذا يكون الدليل قد قام ، فى رأيى ، على أن الفرع السايسى أو السايتى الذى يشير إليه هيرودوت ، هو الفرع التانيسى الذى يرد ذكره عند كافة كتاب العصور القديمة ؛ وحيث كان هذا الفرغ يأتى ، طبقا لرواياتهم . بعد الفرع البيلوزى . بدءا من الشرق إلى الغرب ، والذى يجعله هيوردرت متفرعا من الفرع السبنيتى . فإننا نعثر عليه اليوم فى ترعة **بحر مويس** (١) ، تلك التى تنبع على مسافة ثلاثة أرباع الفرسخ شمال خرائب **أتريبيس** (تل اتريب) (٢) على الشط الأيمن من فرع دمياط (٣) ؛ وعند مرتفعات بوباسطة (تل بسطة) تنقسم هذه الترعة إلى أذرع عديدة ، وأقصى هذه الأذرع ناحية الغرب هو الذى ينتمى إلى الفرع التانيسى ، ثم يمر بعد ذلك بقرية **القنايات** وهى قرية واسعة تقع على شطها الأيمن ، ويطلق بعض أبناء هذه المنطقة اسمها على الترعة ؛ وتمضى هذه الترعة تاركة إلى يمينها قرى فاسوكة ، بيشه ، منزل حيان ، هو ربيط ، كفر عبد الله ، كفر جنات ، كفر الجراد ، عتريف ، كفرزنين ، صان ، ومتجاوزة عن يسارها قرى تل حمام ، مباشر ، كفور نجم ، كفر شنيت ، عبد الله ، اللبايدة ، لتصب مياهها بعد ذلك فى بحيرة المنزلة شمال أطلال تانيس ، ويتوغل مجراها أرض البحيرة حتى يصل إلى فتحة **أم فارج** .

---

(١) قد يكون بمقدورنا أن نعود إلى الجنوب قليلا بأصل أو منبع الفرع التانيسى ، حتى النقطة التى كانت تتفرع عندها ترعة **فلفل** القديمة عن النيل وتتحد هذه الترعة بترعة بحر مويس ، على مسافة نحو ثلاثة آلاف متر ، إلى الشرق من قرية **أتريب** .

(٢) توجد بالقرب من خرائب هذه المدينة قرية صغيرة لاتزال تحتفظ باسم هذه المدينة ، وقد فاتت هذه الخاصية عن بعض الجغرافيين المحدثين الذين يضعون بوباسطة فى هذا الموضع . وفضلا عن ذلك ، فجدير بالملاحظة ، طبقا لرأى بطليموس ، أن أتريبيس كانت تقع فى داخل الدلتا فى حين توجد بوباسطة عند الشرق من الفرع الشرق الأقصى للنيل ، وهو مايتفق تمام الاتفاق مع الموقع الذى نعطيه لهاتين المدينتين ، وكذلك مع المجرى الذى ننسبه إلى فروع النيل المختلفة .

(٣) لاينبغى أن يفوتنا أن الجزء الأعلى من فرع دمياط حتى سمنود ينتمى إلى الفرع السبنيتى ، كما يحدده هيرودوت .

ولترعة بحر مويس كل الملامح التى تميز فرعا طبيعيا من فروع النيل (١) ، فهى صالحة للملاحة ثمانية أشهر فى العام بالنسبة لأكبر الماشات (ماشة) (٢) ؛ وهى تروى أراضى جزء من ولاية الشرقية ، وتتجمع تفرعاتها الكثيرة فى أماكن عدة بأذرع الفرع البيلوزى ـــ وأذكر من هذه ، من بين تفرعات أخرى ، الترعة من بنى شبلنجة إلى بوباسطة ، وتلك التى تبدأ من شبراوين إلى هوربيط (٣) .

---

(١) انظر فى العشرية المصرية **Dècade Egyptienne** دراسة المسيو مالو **Malu** حول الفرع التانيسى .

(٢) نوع من القوارب تبلغ حمولتها نحو ستين طنه (*) (* والطنة مقياس دولى لسعة السفن يساوى ٢٫٨٣ م٣) ؛ وهى تسير بالشراع والمجداف معا .

(٣) قرية هوربيط ، التى يذكرنا اسمها باسم مدينة فاربايتوس التى سميت بعد ذلك فى ـــ أربيط **Phi-Arbait** ، وهى قرية لاتزال تحيط بها الأنقاض ـــ هذه القرية تدلنا على أنه كانت توجد فى موضعها هذا واحدة من مدن مصر القديمة ؛ وقد عثرنا هناك على أنقاض تمثال ضخم ، وعلى قطع مجدوعة من الأعمدة ، وفتات الجرانيت الصوانى التى تنتمى إلى منشئات قديمة .

الفرع المنديسى

بعد الفرع السايسى (أو السايتى ، أو التانيسى) الذى انتهينا من تحديده لتونا ، يؤدى الفرع السبنيتى كذلك إلى نشأة الفرع المنديسى ، طبقا لرأى هيرودوت [1] ، وهو الفرع الذى يضع سترابون مصبه إلى الغرب مباشرة من مصب الفرع التانيسى ، ولهذا السبب فإننا على يقين ان الفرع المنديسى لابد أن يكون — هو — ذلك الجزء من فرع دمياط ،المحصور بين منبع ترعة التبانية والمنصورة ، ومن ترعة **أشمون** ، التى تبدأ عند المنصورة وتصب فى البحر عن طريق فتحه **فم الديبة** بعد أن تجتاز بحيرة المنزلة ، وهى الترعة التى يرد ذكرها عند كتاب عرب كثيرين ، لاسيما **الأدريسى** ، باعتبارها ذراعا طبيعيا للنيل ، بحيث لايكون فرع دمياط ، فى رأيهم ، سوى تفرع عن هذه الذراع .

ويبدو أن مدينة **أشمون** تشغل ، على نحو التقريب ، موقع مدينة **منديس** القديمة ؛ وهذا هو رأى دانفل وكذلك رأى المسيو لارشيه Larchet المترجم المتبحر لهيرودوت ؛ وفى الواقع فإننا نعثر على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ إلى جنوب الجنوب الغربى من هذه القرية على اكوام هائلة من الأنقاض . ويخلط اولئك الذين يضعون منديس على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب الشرقى من مدينة المنصورة ، بالقرب من **تمىّ الأمديد** حيث توجد فى الواقع خرائب مصرية تنبئ عن مدينة كبيرة — يخلطون — **هؤلاء** — فى رأيى ، بين **ثمويس** و **منديس** ، وهو الأمر الذى ينتج ، بلا جدال ، من أن إقليمى ثمويس ومنديس ، اللذين اتحدا فى عصر بطليموس ، كانت لهما ، فى ذلك الوقت عاصمة مشتركة هى مدينة **ثمويس** .

---

(١) التاريخ ، الكتاب الثانى ، الفصل السابع عشر

عن الفرع البوقوليسى أو الفاتيميتى

لايمكن أن يغدو الفرع البوقوليسى كما يحدده هيرودوت ، وهو الفرع الوحيد من فروع النيل ، الذى بقى علينا أن نتناوله ، شيئا آخر سوى ذلك الجزء من فرع دمياط الذى لم نضمّنه قط فى توزيع الأذرع القديمة للنيل ، أى أنه — هو — الجزء الواقع بين منبع ترعة أشمون وبوغاز دمياط . وقد رأينا منذ قليل أن بعض الجغرافيين العرب ظلوا ينظرون إليه — حتى القرن الثانى عشر — باعتباره شيئا من عمل الانسان ، وهو الأمر الذى يتفق مع رواية هيرودوت .

فالفتحة التى يصب عن طريقها هذا الفرع مياهه فى البحر تسمى الفتحة البوقوليسية أو الفاتيميتية . ويبدو لى أن الاشتقاق اللغوى الذى يمنحه المسيو كاتر يمير عن هذه الكلمة الأخيرة من أوفق الاشتقاقات ، إذ يجعلها مشتقة عن الكلمة القبطية [illegible] أو [illegible] اللتين يترجمهما إلى **نهر الوَسَط** ، وهذا دليل جديد يقف إلى جوار ماقلته عن الفرع السايتى أو السايسى ، فلو أننى قد تبنيت ظن المسيو لارشيه لما عاد الفرع الفاتيميتى — بعد — هو الفرع الأوسط ، أى الفرع الرابع من بين فروع النيل السبعة وإنما سيكون الثالث ، إذا مابدأنا العد من ناحية الشرق .

ولم يرد قط ذكر للفتحة الفاتيميتية عند هيرودوت ، وإنما قد ورد ذلك بوضوح عند كل من سترابون وبلين وديودور وبطليموس ؛ وحيث أن هؤلاء لا يتحدثون قط عن فتحة بوقوليسية . وحيث أنهم يتفقون مع هيرودوت بخصوص الفتحات أو المصبات الست الأخريات ، فلابد أن يكون هناك بالضرورة تطابق بين الاسمين : البوقوليسى والفاتيميتى ؛ وفضلا عن ذلك فإن الترتيب الذى ينسبه الأقدمون إلى الفرع الفاتيميتى يجعل منه متطابقا مع بوغاز دمياط .

وفى الحقيقة فإن هليودور Hèliodore يضع البوقوليس Bucolies قريبا من المصب الهيرقلى أو الفتحة الهيرقلية ؛ وقد يكون لنا طبقا لذلك أن نبحث فى المنطقة المجاورة لهذا الفرع عن ذلك الفرع الذى كانوا يشيرون إليه ، فى عصر هيرودوت ، باسم الفرع البوقوليسى ؛ ومع ذلك ، فبخلاف أنه لاينبغى علينا أن نعتمد على

تفاصيل جغرافية بالغة الدقة (أى أن نسلم بها على أنها كذلك) فى مؤلف شبيه برواية هليودور ، فإن اسم **بوقوليس** الذى كان يطلق **على الأراضى الواطئة أو أراضى المستنقعات** فى شمال الدلتا ، بسبب القطعان التى كانت تربى هناك ، يمكنه أن ينطبق على أكثر من موقع فوق هذا الساحل .

* * *

الفرق بين الفرع البوقوليسى والفرع الفاتيميتى

ومن أجل هذا فلبسنا نظن أن الفرعين اللذين يجعلهما كل من هيرودوت وسترابون يفضيان إلى هذه الفتحة هما فرع واحد ؛ وقد أورينا ماهو الفرع البوقوليسى كما يحدده هيرودوت ، فبعد أن حفرته يد الانسان ، طبقا لرأى هذا المؤرخ ، فإنه قد أخذ يتسع للأسباب نفسها بلا ريب التى حددناها عند حديثنا عن الظروف المماثلة التى مر بها الفرع البولبيتينى، وانتهى به الأمر ، فى مدى أربعة إلى خمسة قرون بأن يتغلب ، اتساعا وعمقا ، على الفروع الجانبية ، ولهذا السبب فإن سترابون لم يستطع أن ينظر إليه باعتباره تفرعا عن الفرع المنديسى ، وشكّل ـــ هو ، أى سترابون ـــ الفرع الفاتيميتى مما يدخل اليوم فى تكوين فرع دمياط بأكمله ، أى من الجزء الأعلى من الفرع السبنيتى كما وصفه هيرودوت ، حتى منبع الفرع البوقوليسى ـــ ثم من هذا الفرع كله حتى البحر .

* * *

الفرق بين الفرع السبنيتى كما حدده هيرودوت
والفرع نفسه كما يصفه سترابون

ومع ذلك فحيث يقتضى الأمر أن نعثر على فرع سبنيتى ، فقد إصطنعه سترابون من واحدة من الترع الكبيرة التى رآها هيرودوت ، بلا ريب ، رأى العين ، عندما كان يحدثنا عن جزيرة بروزوبيتيس prosopotis وهذه الترعة هى **ترعة مليج** التى تتفرع عن فرع دمياط قريبا من قرية **القرينين** (١) ، والتى تحقق فيها كافة الشروط المطلوبة كى تغدو — هى — الفرع السبنيتى المنشود ، من حيث أنها تمتلىء بالمياه الجارية طيلة العام ، كما لو كانت واحدا من الفروع الطبيعية لنهر النيل ، ومن حيث أنها تتصل بترعة التبانية أسفل سمنود ، وهكذا نراها تمر قريبا من سبنيتوس (سمنود) وتصب مياهها فى البحر أسفل **بوطو** ، عن طريق الفتحة السبنيتية .

إذن فقد أمكن أن يقول سترابون عن الفرع الفاتيميتى ماكان يقوله هيرودوت بخصوص الفرع السبنيتى ، من أنه الفرع الثالث فى الترتيب من ناحية الحجم ، ومن أنه ينبع قريبا من قمة الدلتا ، دون أن يحول ذلك عن أن يتفق الرجلان ، من أجل ذلك ، فى نقاط أخرى خاصة بالفرع السبنيتى (٢) .

لكن هذا التفسير بالغ البساطة قد فات رجلا مثل دانفيل الذى يجعل الفرع

---

* انظر : رحلة إلى أعماق الدلتا ، للمؤلف نفسه مع زميله جولوا ، وهى إحدى دراسات هذا المجلد (المترجم)

(١) تقع هذه القرية على مسافة ٢ ميريامتر (٢٠ ك . م) إلى الشمال بقليل من نقطة انقسام النيل إلى فرعى دمياط ورشيد ، وتمنح اسمها للجزء الجنوبى من ترعة **مليج** حتى **شبين الكوم** .

(٢) أما بطليموس فقد حاذى رأى هيرودوت حول أصل أو منبع الفرع السبنيتى ، ويطلق عليه — هو — الفرع الترموتى ، ويجعله متفرعا عن **أجاثوس دايمون** عند قمة الدلتا الكبرى ؛ وهكذا يغدو منبعه هو ذلك الذى نسباه نحن إلى الفرع السبنيتى على النحو الذى يحدده هيرودوت ؛ كما أن مجراه يتكون من الجزء الأعلى من فرع دمياط حتى **القرينين** ، ومن ترعتى مليج والتبانية ، أى أنه جزء من الفرع السبنيتى كما يحدده هيرودوت ، أو هو الفرع كله كما يحدده سترابون ، ذلك أن بطليموس حين اصطنع ترعة أسماها **البوصيرية** Busiptque تفضى حسب تصوره إلى الفرع الفاتيميتى فإنه لم يتمكن من أن يحدد للفرع السبنيتى أو النهر الترموتى مجرى آخر سوى ذلك الذى انتهينا من تحديده ، ذلك أن مدينة **بوزيريس** (أبو صير) تقع على فرع دمياط ، فوق (جنوب) مدينة سبنيتوس (سمنود) .

السبنيتى ، فى محاولة منه للتوفيق بين هيرودوت وسترابون ، فمضينا إلى بوغاز دمياط بمهر ، ناسيا أن هيرودوت [١] يقرر أن المرء يلقى مدينة بوطو عند صعوده (اتجاهه نحو الجنوب) الفتحة السبنيتية عن طريق البحر ، وأنه توجد بالقرب من هذه المدينة توجد بحيرة عميقة مترامية الأطراف – وهذه الأمور كلها تحثنا بقوة على التعرف على الفتحة السبنيتية فى ذلك الاتصال القائم بين بحيرة البرلس والبحر .

وأخيرا . فلو أننا أعطينا مع بعض جغرافيين محدثين ، للفرع السبنيتى كما يحدده هيرودوت ، المجرى انتهينا من نسبته إلى الفرع نفسه كما يحدده سترابون ، لنتج عن ذلك ألا يكون الفرع المنديسى متفرعا – بعد – عن الفرع السبنيتى ، وهو الأمر الذى يتعارض بشكل مطلق مع رواية هيرودوت [٢] .

تلكم كانت فروع النيل التى ورد ذكرها عند هيرودوت وسترابون ؛ ويرى المرء أن التعارضات التى قد يظننّ أحد أنه يلاحظها فى رواياتهما ، لم تكن سوى تعارضات ظاهرية يؤدى إلى ذهابها بددا أى فحص أو تمحيص متعمقين للنصوص .

★ ★ ★

(١) التاريخ الكتاب الثانى ، الفصلين ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، الفصل السابع عشر .

(١٣)

لانكريه

مفكرة
حول الفرع الكانوبى

تليت هذه الدراسة فى المعهد العلمى بالقاهرة ، فى الحادى والعشرين من فريمير من العام الثامن (١٢ ديسمبر ١٧٩٩) .

منذ قام الجنرال أندريوسى باستطلاعه للجزء الشرقى من مصر السفلى ، وكل فروع النيل القديمة فقد باتت معروفة لنا فيما عدا الفرع الكانوبى ؛ ومع ذلك فإن هذا الفرع قائم موجود ، ووجوده محدد واضح المعالم ، نجد أثره فى مجرى يزيد طوله على فراسخ ستة . لكنه ــ أى المجرى ــ محروم من المياه طيلة اشهر العام على وجه التقريب ؛ وحيث لم تسنح لى الظروف أن اجتازه بكل طوله ، فلست بمستطيع أن أحدد ، بشكل واضح ، سوى واحدة من نقاطه ؛ أما النقاط الأخريات ، فسأقدم بخصوصها ماجمعته عنها من معلومات .

يعد نظام الرى فى سهل دمنهور هو نفسه فى بقية سهول مصر السفلى ؛ فعندما يصل الفيض الأكبر للنيل أقصى مداه ، تُحجز المياه بواسطة جسور تقام على الأراضى بالغة الارتفاع ، بأكبر مما تكون عادة شطئان النهر ، وحين تحصل هذه الأراضى على كفايتها من مياه الرى ، تقطع هذه الجسور لتنصرف المياه إلى الأراضى ذات المنسوب الأدنى ؛ وتتكرر هذه العملية عدة مرات متعاقبة ، حسبما يقتضى الأمر ، كأن تكون كمية المياه أقل مما كان ينبغى ، أو أن تكون الأرض بالغة الانحدار .

ويشكل الجزء من سهل دمنهور ، الممتد بطول ترعة الاسكندرية ، بدءا من قرية **سنهور** حتى الرحمانية ، مايشبه حوضا قد تمكث فيه مياه الفيضان لوقت أطول مما تتطلبه عملية البذار ، لو أن الفلاحين لم يبادروا بفتح جسرى الترعة لتحقيق تصريف أسرع للمياه ، إلى الأراضى الواقعة عن يمينها ، وتنصرف هذه المياه عن طريق حفرات صغيرة إلى الفرع الكانوبى ، ليقوم هذا الفرع بتصريفها إلى بحيرة أبى قير ؛ وأكثر هذه القطوع جدارة بالاهتمام ، والتى تتم هكذا كل عام فى جسرى ترعة الاسكندرية ، الجسر المسمى **أبو جاموس** الواقع بالقرب من قرية **كفر محلة داود** على مسافة فرسخ من الرحمانية ، ويشكل هذا القطع . على نحو ما ، مدخل الفرع الكانوبى ، وهناك فقط نبدأ فى العثور على هذا الفرع ، وعند هذا الموضع كذلك قمت باستطلاعه ، وتقدمت لنحو نصف ربع الفرسخ داخل هذا السرير القديم للنهر ، وهو يماثل ، من ناحية اتساعه ، فرعى دمياط أو رشيد ، أما عمقه فيبلغ نحو المترين ، كما أنه لايزال يحتفظ لنفسه حتى الآن بشطئان شاقولية .

وقد علمت عن طريق معلومات ، حصلت عليها ــ هي نفسها ، أكثر من مرة ، أن هذا الذراع القديم للنيل المعروف اليوم باسم **المجارين** ، كان يمر جنوب قرية **فيشه** ،وموقعها معروف جيدا ،وأنه بعد ذلك ، وبعد أن يجتاز نحو خمسة فراسخ فى أرض قاحلة خالية من السكان كان يبلغ قرية أبى قير ؛ ونستطيع نحن أن نحدد نقطة أخرى من مجراه بواسطة خط السير الذى حدده المسيو بيرت Berte مهندس المساحة ؛ فعلى بعد فرسخين من **البركة** مع الاتجاه نحو رشيد ، يجتاز المرء ، فى شكل زاوية قائمة على وجه التقريب ، أرضا أكثر انخفاضا من السهل ، بنحو المتر ، ويصل عرضها إلى مايقرب من اربعمائة متر ، وتنبسط لغير نهاية إلى اليمين وإلى اليسار . وتسترعى هذه الأرض الانتباه ، على وجه الخصوص ، بسبب الكمية الهائلة من المروج والمراعى التى تغطيها ؛ ذلك أن كل السهل الذى يحيط بها عار تماما من أية خضرة ، وحين نرسم النقاط الثلاث التى انتهيت من تحديد مواقعها ،يرى المرء أنها تكاد تكون على الخط المستقيم نفسه ، وأن هذا الخط يمر بدقة بالقرب ، وإلى الشرق ، من أبى قير ، أى يمر بالفتحة الكانوبية .

وجدير بالملاحظة أن المرء يجد بقايا شديدة التميز لهذا الفرع القديم ، إلى اليمين من ترعة الاسكندرية ؛ وأنه بدءا من هذه الترعة ،وحتى النيل ، بامتداد يبلغ الفرسخ ، لايعود المرء يلقى أى أثر له ! ومع ذلك فلابد لنا أن نأخذ فى اعتبارنا أن المحراث ، فى هذا السهل الأخير ، وهو مزروع على الدوام ، ظل يعمل بلا انقطاع على محو هذه الآثار ؛ فى حين أنه ، على الجانب الآخر ، المهمل منذ زمان طويل ،فلا شىء هناك قد أمكنه أن يسهم فى تسوية الأرض (أى فى محو معالمه).

ومع ذلك ، فلا يبدو لى مستحيلا أن نحدد من بين الترع المختلفة ، التى تروى الأراضى الواقعة بين ترعة الاسكندرية والنيل ، تلك الترعة التى قد تكون البقية الباقية من الفرع القديم ؛ ذلك أن من المرجح للغاية ألا يكون الانسان قد قام بطمسها بشكل كامل أو أن تكون ــ هى ــ قد تحولت إلى ترعة للرى ؛ ولذلك فإننى مدفوع على الظن بأن الترعة التى تأخذ منبعها شمال قرية **مرقاس** تندمج بترعة دمنهور ، وأن

الجزء من هذه الترعة الأخيرة ، المحصور بين نقطة الالتقاء (بين الترعتين) وكفر محلة داود ، إنما هو من بقايا الفرع الكانوبى ، وزيادة على ذلك فإننا نتصور أن اتجاهها بامتداد الفرسخ لاينبغى ان يختلف فى كثير من الاتجاه العام الذى لها ؛ وتبعا لذلك نستطيع أن نقرر أن بداية الفرع الكانوبى ، أو حتى يكون حديثنا أكثر دقة وصوابا . الموقع الذى ينثنى الفرع فيه على شكل مرفق (كوع) لكى يتوجه صوب كانوب ، كان يقع فوق (جنوب) **الرحمانية** ، أى بين هذه القرية وقرية **مرقاس** .

واليكم كيف امكنتنا محاولة تفسير لماذا كف النيل عن التدفق داخل هذا السرير القديم . إن من المعروف أن فرع النيل ، الذى يتجه الآن نحو رشيد ، لم يكن فى البداية سوى ترعة حفرتها يد الانسان ، كانت تتفرع عن الفرع الغربى للنيل ، فى الموضع الذى كان هذا الفرع فيه يتخذ طريقه صوب كانوب أو هذه الترعة التى كانت تحمل اسم **نهر طالى** ، فى زمن بطليموس ، لم تكن عندئذ بالضخامة التى هى عليها اليوم ، لكنها أخذت تتعاظم شيئا فشيئا على حساب الفرع الكانوبى إذ أن انحدارها اشد من انحداره ؛ ولأن المسافة بين الرحمانية وبوغاز رشيد اقل منها بين الرحمانية وأبى قير ، ولأن كمية المياه ، وبالتالى سرعتها ، كانت تقل تدريجيا فى هذا الفرع يوما بعد يوم فإن هذا الفرع لم يلبث أن طمسته الرمال ؛ وحيث لم يعد — هو — يحصل على القدر الكافى من المياه لإبقاء الملاحة فى ترعة الاسكندرية ، فقد لزم الأمر مدّ هذه الترعة خلال الفرع الكانوبى حتى فرع رشيد ، حيث تأخذ منبعها حاليا ؛ وحيث كفت المياه عن التدفق عن طريقها القديم فقد ادت الأمور إلى تكون بحيرة أبى قير أو على الأقل ، إلى أن تزيد اتساعها بدرجة كبيرة .

كما تحتم كذلك أن يفرغ السهل الذى يحيط بها من سكانه إذ لم يعد يجد كفايته من مياه الرى ؛ لاسيما وان مياه النيل لم تعد تدفع مياه البحر على نحو ماكانت تفعل فى الماضى مما أدى إلى تسرب مياه البحر من كل جانب إلى الأراضى حتى تشبعت هذه بملح البحر ، الذى حال دون زراعة هذه الأراضى بصفة نهائية ،وفى الواقع ، فإننا نلاحظ أن هذا الملح يطفح على كل الأرض ، حتى تلك التى لم تغرقها

المياه قط والتى لاتنمو فيها أية خضرة ؛ وعكس ذلك ، فإن قاع الفرع الكانوبى ، برغم أنه مشبع كذلك بالملح ، تكسوه النباتات من نوع نبات الصودا وغاب البوص ، وهى النباتات التى تساعد على نموها بكثرة مياه النيل ، التى تتدفق فى مجراه ، كل عام ، لنحو خمسة عشر يوما ، أو عشرين يوما ، فى أفضل الأحوال .

ومع ذلك فإن ماانتهيت إلى قوله عن الحالة الراهنة للأراضى المحصورة بين بحيرة أبى قير وترعة الاسكندرية ، شىء لايتصف بالعمومية ، إذ يلقى المرء فيها ، برغم ذلك بعض القرى ، وبالتالى مياها صالحة يضخها القوم إلى آبار يبلغ عمقها من ثلاثة إلى أربعة أمتار . وفى الوقت نفسه ، فإن هذه حالات بالغة الخصوصية ، تعود إما إلى طبقات الرمال التى سمحت لمياه النيل ؛ إن تتسرب إلى هذا البعد القصى تحت الأرض ، وإما إلى وجود طبقات صلصالية تجمعٌ مياه الأمطار ، وتحتفظ بها فى الموضع نفسه .

* * *

إضافة

قلم إ . جومار

قبل أن يسلم المسيو لانكريه مفكرته هذه إلى المطبعة ، كان قد آلى على نفسه بأن يضيف إليها الكثير من التفاصيل ، لكن المنية قد حالت بينه وبين إتمام ماكان ينتويه . وهكذا يظل الكشف عن الفرع الكانوبى ، بالشكل الذى عرض به فى المفكرة السابقة أمرا يحول دون تسرب الشكوك ؛ على أن اكتشاف هذا الفرع ، فى حد ذاته ، ذو أهمية قصوى فيما يتصل بالجغرافية القديمة لمصر ، لدرجة لاتكفى المشاهدة وحدها كى تمنح أهمية كبيرة لما جاء بهذه المفكرة ، وسنحاول هنا أن نضيف بعض البحوث الجغرافية حتى يتم التعرف على الأماكن ،الأمر الذى سيكون عونا لنا عند مطابقة أو تمحيص النتائج التى ذكرت من قبل .

لم يستحوذ الموضع المحدد للفتحة الكانوبية ، كما كان ينبغى للأمر أن يكون ، على اهتمام الجغرافيين ؛ ومع ذلك . فحتى نكون فى وضع يسمح لنا بمد خطوط المجرى أو السرير الكامل للفرع القديم ، فلابد أن نعرف إلى أى موضع من البحر كان يفضى هذا الفرع .

وجدير بالذكر ، ابتداء ، أنه لاشىء فى مصر قد تغير باكثر مما تغيرت حالتها البحرية ، فحيث ظلت مصر تتعرض لكل مقادير الحرب . ولغزوات القراصنة فقد خربت السواحل ، وتهدمت المدن ، وخوت على عروشها البيوت ؛ بل أن الطبيعة التى نراها منضبطة ثابتة فى كل مكان ، قد تعرضت فى مصر ، هى الأخرى لتحورات هائلة ؛ فهناك ، حيث كان النيل يصل قديما ، توغلت الرمال واعقبت المياهُ الملحةُ المياه العذبة ، واتسع الشط عن طريق ترسيبات سنوية يقوم بها النهر ، وتغيرت مصبات النيل أكثر مما تغير شىء آخر ، ففى حين انطمست بعض هذه

المصبات فقد زاد حجم أخريات منها ، وإذ كفت مياه النيل عن التدفق من خلال الأوليات ،فقد طغى البحر وأدى اندفاع مياهه إلى نشأة بحيرات واسعة من المياه المرة ؛ وإذ ظل النيل يحمل عن طريق الفتحات الأخرى كل مياه النيل ، بما فيها مياه الأفرع التي تم هجرها ، فقد عمق من سريره وتوغل المجرى داخل مياه البحر . ومن سنة إلى سنة ، تراكمت طبقات الطمى المترسب على الشطئان ، وأسهم ذلك فى إطالة الفتحات أو المصبات حتى أن بعض مواقع على الشط ، كانت فيما مضى أكثر تقدما ، قد باتت اليوم ، هى نفسها ، أكثر تراجعا ، أى أن خلجانا قد أعقبت الرءوس ، كما أن رءوسا قد اعقبت الخلجان ، بالتبادل ؛ وهذا الأمر الذى نستطيع بإنعام الفكر النظرى أن نصل إليه ، نجده وقد قام عليه الدليل الواضح فوق خريطة السواحل الحالية لمصر ، إذ نرى عليها الفتحات الكانوبية والسبنيتية والبيلوزية وقد غاصت إلى أعماق بعيدة ، فى حين نتأت الفتحتان البولبيتينية والفاتيميتية واستطالتا ؛ وهكذا لم تكن الجغرافيا الفيزيقية لسواحل مصر بأقل تغيرا عن جغرافيتها المدنية ، فكيف إذن لايستشعر المرء الصعوبة فى أن يعرف ، بشكل محدد ، موقع الفتحات أو المصبات القديمة ؟

وبعد ذلك ، فما هى الأسانيد التى فى حوزتنا كيما نحدد موقع الفتحة الكانوبية ! سترابون الذى يحدد المسافة بين الاسكندرية وهذا الموقع بمائة وخمسين غلوة ، أم بلين الذى يعطى هذه المسافة نفسها اثنى عشر ميلا رومانيا ؟ اما كانوب نفسها فإن أميان مارسلان يحدد بعدها عن الاسكندرية باثنى عشر ميلا !

إن فتحة برجل (قوس دائرة) باتساع خمسين غلوة (أى بنحو ٢٧ ألفا و ١٥٠ م . طبقا للحسابات الأكثر وثوقا للغلوة التى استخدمها سترابون) حين ترتكز من ناحية ، على طريق الهبتاستاد » بالاسكندرية ، فإنها تسقط من الجهة الأخرى فوق **خان القوافل** الواقع على بعد ثلاثة عشر ألفا من الأمتار من أطلال كانوب ، وعلى

---

(٥) انظر دراسة المسيو جراتيان لوبير عن مدينة الاسكندرية . وهى الدراسة الأخيرة فى هذا المجلد ـــ المترجم .

مسافة ثمانية آلاف متر إلى الجنوب الشرقى من **المعدية** أو من فتحة بحيرة أبى قير ، وهناك يوجد اليوم اتصال آخر مع البحر ـــ أى أنها تسقط على وجه الدقة عند نهاية الاثنى عشر ميلا التى يذكرها بلين كمسافة تفصل بين الهبتاستاد وموقع كانوب .

ولقد خيل لبلين أن كانوب والفتحة الكانوبية لايشكلان سوى موضع واحد ؛ أما الذى أدى به إلى هذا الظن ، فليس فقط هذا الاسم المشترك . بل لأنه كانت توجد كذلك ترعة خُطَّت بشكل مواز للساحل ، كانت تتصل بالفرع الكانوبى وتحمل المياه حتى مدينة كانوب كما يذكر سترابون ، وهكذا فقد كانت توجد ، على نحو ما ، فتحة كانوبية ثانية ؛ ومع ذلك فإليكم الأسس التى أبنى عليها فكرتى بصفة أساسية ، إذا مانحينا سترابون ، الذى ينبغى الاحتكام إليه قبل التعرض لكل التكوينات الجغرافية ؛ إن اتجاه الفرع (الكانوبى) على النحو الذى نجده بين أيدينا من تلك النقاط الثلاثة التى يذكرها المسيو لانكريه ، يسقط إذا ما امتددنا به فى داخل بحيرة إدكو ، وإذا امتددنا به على خط **البركة ـــ رشيد** بطول الفرسخين (انظر المفكرة السابقة) فسوف تبتعد النقطة التى يسقط عندها هذا الخط ، كلية ، عن بحيرة أبى قير ، وبالتالى كذلك ، فسوف يبتعد الاتجاه العام للفتحة ، وهذا الاتجاه يمر بخان القوافل . وهناك ينبغى أن يتوقف ؛ ولو أنا قد شئنا أن نمضى إلى ماوراء الفرع الكانوبى ، لوجدنا فى حوزتنا خطا متوازيا مع البحر . شديد الاقتراب من الساحل ، ويمتد لمسافة ثمانية آلاف متر ، مما يتناقض كلية مع شكل الفتحات الأخرى ، تلك التى تسقط عموديا على البحر الأبيض المتوسط ، وزيادة على ذلك ، فمن المستحيل أن نتصور ، فى الأزمنة القديمة ، مظهرا آخر للشط غير الذى نجده اليوم ، طالما تظل صخوره عارية بطول الساحل ؛ أما التغيير الوحيد أو الرئيسى الذى قد ألم به ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، فهو أن النتوء المتقدم الذى كان يشكل الفتحة ، هو اليوم **جُونٌ** عميق ، بسبب طين الترسيب الذى تراكم جهة الشرق ، وإلى شمال الشرق ، حتى القمة الحالية التى يصب عندها الفرع البولبيتينى . وباتباع هذه القاعدة ، التى تنطبق على كافة الفروع ، فلابد لنا أن نبحث فى قاع الخليج ، أو فى المناطق المحيطة

بهذه النقطة ، عن الموضع القديم للفتحة الكانوبية ، ومهما كانت متانة هذا الرأى المستمد من الجغرافية الطبيعية ، فلسوف نكون أبعد من أن نؤثره على غيره من الآراء التى تمدنا بها ، براهين مباشرة تهيئها لنا المقاييس القديمة ، لو أنه – هذا الرأى – لم يكن متطابقا معها ، لكن المائة وخمسين غلوة التى حددها سترابون تسقط بدقة ، على نحو ماسبق ان قلنا ، فوق خان القوافل ، بالقرب من قاع الجوين .

ويفسر هذا الموقع (الذى نقدمه) للفتحة الكانوبية وجود مدينة **هيروقليون** بين هذه الفتحة وبين مدينة كانوب ؛ وفى الواقع فإن مسافة فاصلة مقدارها ثلاثة عشر ألف متر تكفى وتفيض بالنسبة لهذا الموقع الوسط ، كما أنه يفسر كذلك ، وبسهولة ، نصا لبلين ، تم تصحيحه دونما ضرورة ، بواسطة بعض الناشرين ، وهو النص الذى نظر إليه باعتباره معيبا ؛ فبعد أن يسمى بلين مدينة **نقراطيس** ، يضيف (فى الكتاب الخامس ، الفصل الثانى) نصا يمكن ترجمته بسهولة إلى : « **نقراطيس التى أدى اسمها بكثيرين إلى أن يطلقوا اسم الفتحة النقراطية ، على تلك الفتحة التى يسميها آخرون بالفتحة الهيرقلية ، دونما إشارة إلى الفتحة الكانوبية التى تجاورها** » بل إننا نقرأ فى إحدى المخطوطات نصا يدل على وجود مسافة ستة أميال تفصل بين الفتحة الهيرقلية والفتحة الكانوبية . وصحيح أننا نجد بين كانوب ، حيث كانت تفضى ترعة هذه المدينة ، وبين خان القوافل ، مسافة تسعة أميال بدلا من ستة ، لكننا لاينبغى أن نستنتج من هذا النص المحرف سوى واقعة أودلالة إيجابية ، هى وجود فتحتين للنيل فى هذا الموضع ، وكل منهما بعيدة عن الأخرى ، فالفتحة الكانوبية ، بمعنى الكلمة ، والتى أسماها آخرون الفتحة الهيرقلية أو حتى النقراطية هى إذن شىء متميز عن فتحة ترعة كانوب التى يطلق عليها بلين ، مع ذلك ، فى أحد المواضع من مؤلفه اسم أستيوم كانوبيكوم OStium Camopicum (أى الفتحة الكانوبية) كما لو كانت هى الفتحة الرئيسية ، ونستنتج من ذلك أن موضع الفتحة الكانوبية كان قريبا من المنفذ الحالى لبحيرة إدكو ، وغير بعيد عن قاع

خليج أبى قير ، وبذلك نضع أو بالأحرى ندع بلين فى وفاق مع نفسه فى نقطتين أساسيتين : الأولى ، عندما يقول إنه يوجد اثنا عشر ميلا بين الاسكندرية والفتحة الكانوبية ، والثانية حين يحصى اربع فتحات زائفة أو كاذبة للنيل بخلاف الفتحات السبع الشهيرة ، ذلك أننا نجد ، على هذا النحو ، الفتحة الصغيرة لترعة كانوب وكذلك الفتحتين الكاذبتين اللتين يذكرهما بطليموس ، واللتين تتسميان باسمى ديلكوس وبينيبتيمى Dilcos,Pineptimi ، والفتحة البوقوليسية التى يرد ذكرها عند هيرودوت ، والتى كانت مجهولة من المؤلفين الآخرين ، أما اسم السيرامية cèramique الذى يطلقه أيثنايوس على الفتحة الأكثر اقترابا من نقراطيس ، بسبب المشغولات الخزفية التى كانت توجد بوفرة فى هذه المدينة ، (الكتاب الحادى عشر ، ص ٢٣٧) فينبغى بالأحرى ، ان ننظر إليه باعتباره اسما ينتمى إلى أى من الفتحتين النقراطية أو البولبيتينية ، أكثر من أن ننظر إليه باعتباره اسما خاصا (لفتحة محددة) ؛ وبمقدور القارىء أن يجد فى مظان أخرى ، مايلقى المزيد من الضوء على فتحات أو مصبات النيل .

إ . ج

★ ★ ★

الفهرس الجغرافى

أو

قائمة شاملة بأسماء الأماكن فى مصر

موزعة على الولايات ، ويمكن استخدامها للمطابقة بين نصوص « وصف مصر » ، ولوحات الأطلس الجغرافى

فى الوقت الذى بُدىء فيه فى حفر (لوحات) الأطلس الجغرافى ، تبينت وزارة الحرب ، التى وضع ضمن اختصاصها هذا العمل ، الأبجدية التوافقية التى تصورها المسيو فولنى Volney ؛ وكُتبت أسماء كافة الأماكن على الخرائط ، سواء باستخدام إشارات هذه الأبجدية أو بحروف المطبعة العربية . ولم تكن لجنة المنشئات المصرية فى وضع يسمح لها بأن تهنىء نفسها ، فى هذا الوقت ، بأن بمقدورها أن تدخل هذه الخريطة الكبيرة فى خطة النشر لديها ، فقد كان هناك ، فضلا عن ذلك ، انشقاق بين آراء أعضائها حول هذا النمط من التكييف الأبجدى فى عملية الهجاء . أما الدافع الرئيسى الذى أدى إلى استبعاد هذه الخريطة ، فقد كان غيبة حروف هذه الأبجدية ، التى كان من الميسورَ خطها على النحاس ، لكنها مع ذلك لم تكن قد حُفرت من قبل فى أية مطبعة ، وفوق ذلك ، فقد كانت هناك اعتراضات بخصوص صعوبة التمييز ، فوق الخرائط ، بين العلامات التى لاتكاد تُدْرك والمصاحبة للحروف الجديدة ، ولاسيما الصنوف الثلاثة من حرفى d,t والصنفين من حرفى h,s الخ ، فقد كان من العسير ، بشكل خاص ، إدراك أو تمييز الحروف المتحركة الحاملة للإشارة الدالة على حرف العين العربى ، عن تلك التى ميزت ، بشكل عرضى ، بوضع نقطة عليها ، أو حتى الاشارات الدالة على المواقع الجغرافية ، ولقد وجدت اللجنة ، باختيارها لنمط

أبسط فى عملية التكييف الهجائى ، على غرار ذلك الذى ارتأته ، وباستخدامها لحروف مطبعية تستخدمها كافة المطابع ، وجدت فى ذلك ميزة أنها توفر للعلماء ورجال الأدب الوسيلة الميسرة للنقل عن هذا المؤلف ، فى كتاباتهم ، بدقة ، ولم تكن هذه اللجنة بقادرة على أن تغبط نفسها بأنها قد تحاشت كافة السوءات ، وإنها قد قدمت ، على الدوام ، وفى كافة الكلمات ، تكييفا هجائيا بالغ الصرامة ، معبرا عن كل نغمة أو نبرة فى اللغة العربية ؛ لكنها تبنت إشارات موحدة ، نمطية ، لها صفة الثبات ، لتلك النغمات الصوتية الغريبة عن اللغة الفرنسية ، فاستعارت عن المستشرقين إشارات كرسها طول الاستخدام ، وأخيرا فإنها حين أخذت فى اعتبارها اختلاف نوعيات القراء المدعوين إلى قراءة **وصف مصر** ، فقد عدلت فقط عن التعبير عن بعض الفروق الضئيلة ، بالغة الرهافة ، التى تفلت من أذن العدد الأكبر من الرحالة ، وبهذه الطريقة ، فقد بسّطت كتابة اسماء معقدة الهجاء ، بحيث لايحول تعقد هجائها ، بين قارئ ما وقراءتها ؛ وباختصار فمما لاجدوى منه أن نلح على الدوافع المختلفة التى كانت تنهض وراء عزمها ، والتى عرضت فى **التنبيه** الذى يعقب مقدمة الأطلس الجغرافى ، وليس علينا هنا سوى أن نتذكر ماتقرر بخصوص هذ الأطلس .

وإذ كانت أسماء الأماكن جميعا ، فى ثنايا الدراسات ، قد جاءت طبقا لنمط عملية التكييف الهجائى الذى أخذ بها المؤلّف ، فقد خشينا مقدما أن قد يقوم نوع من عدم التوافق بين هذه الدراسات والأطلس الجغرافى ، ولإعادة الائتلاف اللازم بين هذين الفرعين الكبيرين من **وصف مصر** فقد تقرر أن يوضع فى النهاية فهرس جغرافى أو قائمة بأسماء كل المدن والقرى والأماكن المسجلة على الخرائط ، مع شكلى التكييف الهجائى ، اللذين اتبع أحدهما ، مرة ، الأبجدية التوافقية (فى الأطلس) واتبع ثانيهما داخل المؤلّف ، وأن ترافق ذلك الأسماء نفسها بحروف المطبعة العربية : وهذا هو الغرض من القائمة الشاملة التى ستعقب ذلك ؛ وتنقسم هذه إلى ولايات وليس إلى لوحات أو خرائط (بمعنى أنه لم توضع الأسماء حسبما ورد بلوحة أو خريطة ما وإنما تبعا

لأقسام مصر الإدارية) ؛ ومع ذلك فسيكون من اليسير ان نتعرف على موقع الأماكن المحفورة على كل واحدة من الورقات السبع والأربعين التى يضمها الأطلس الجغرافى ؛ وفى الواقع فإن واحدا من أعمدة أو خانات القائمة يشير إلى رقم الخريطة ، ويشير الثانى إلى رقم المربع الذى يوجد به المكان ، ويحدد الثالث شط النيل الذى يقع عليه ، أو يحدد بصفة عامة ، موقع هذا المكان بالنسبة إلى النهر ؛ وهكذا تأتى هذه القائمة معادلة لاثنتين : الأولى وتنقسم طبقا للترتيب الجغرافى (أو الادارى) أما الأخرى فقد جاءت طبقا لترتيب اللوحات ؛ وسيعقب هذه لوحة بالإضافات أو التصويبات الرئيسية ، التى ينبغى القيام بها للأسماء المحفورة على الخرائط ، مما سيعالج نوبات الحذف ، والأخطاء التى كان من المستحيل تفاديها فى هذا التعداد ، الذى سنقدم موجزا له .

وبالإضافة إلى أسماء المدن والقرى ، فقد أوردنا فى هذه القائمة كذلك أسماء الوديان والبرك والترع والأسبلة والجسور والجبال والجزر الخ وقد أشير إلى كل منها بعلامة خاصة ، وتتضمن الإشارات الست الحروف الأولى من الكلمات العربية المقابلة وهى : O للوادى و B للبركة و S للسبيل و g للجسر و (G) g للجبل ، ومن المفيد أن ننبه إلى أنه وسط الأماكن غير الآهلة ، هناك أرض بدون قرى ، تحمل مع ذلك اسماء خاصة بها ، على نحو مانلاحظ فى أوربا ، وفى كافة بلدان العالم .

إدْم ـــ فرانسوا جومار

تعقيب الترجمة العربية :

إذا كانت هذه هى دوافع اللجنة المشكلة لنشر **وصف مصر** ؛ وإذا كان هذا هو السبب فى أسلوب العمل الذى اتبعته هذه اللجنة فى إعداد هذه القائمة على هذا النحو الذى أوضحه المسيو جومار ، والذى قدمته لأسباب عدة أهمها الحرص على تقديم النص كاملا — فأرجو أن يتقبل القارىء العربى الأسلوب الذى اتبعته عند إعداد هذه القائمة للنشر ضمن الترجمة العربية الكاملة لوصف مصر ، والذى يقوم — هذا الأسلوب — على مايأتى :

١ — حذف الشكلين الاملائيين الفرنسيين اللذين يشير أولهما إلى الشكل المتبع فى كتابة أسماء الأماكن المصرية فى الأطلس الجغرافى ، ويشير الثانى إلى الشكل الذى كان كُتّاب الدراسات والمفكرات التى تتضمنها نصوص وصف مصر قد أخذوا به . فالشكل الهجائى الأول ، إذا ماكنا حريصين على بقاء كل شىء على ماهو عليه ، موجود بالفعل على خرائط الأطلس الجغرافى نفسه ، أما الشكل الثانى . فقد جاء فى الترجمة العربية بشكله الهجائى العربى (على النحو المتبع فى مصر) بعد التنقيح بل التصويب أحيانا ، ولهذا السبب ، فليس هناك داع لوجوده بالنسبة لقارىء الترجمة العربية .

٢ — الإبقاء على أرقام اللوحات والمربعات لمن يشاء الاسترشاد بها فى البحث عن موقع مدينة أو قرية ما .. فى لوحات الأطلس ذاته .

٣ — تحويل الإشارات الفرنسية إلى إشارات عربية ، إذ أشرنا إلى الوادى بالحرف و ، وإلى البركة بالحرف ب وإلى الترعة بالحرف ت وإلى السبيل بالحرف س ، أما الجسر فقد أشرنا إليه بحرف جـ فى حين أشرنا إلى الجبل بحرف ج وإلى الجزيرة بحرف جَ .

أما الغرض الذى يدفعنى إلى تقديم هذه القائمة ، فيختلف بدوره عن غرض اللجنة الفرنسية من وراء إعدادها ، إذ ينحصر غرض الترجمة العربية فى تقديم الصورة

التى كان عليها التقسيم الإدارى لمصر فى ذلك الوقت ، باعتبار ذلك وثيقة تاريخية هامة ، تستحق فى حد ذاتها كل العناء الذى واكب عملية إعدادها للنشر مع الترجمة العربية من تحقيق ومقابلة وتصويب فى بعض الأحيان ، وسيلاحظ القارىء فى بعض الأحيان وجود شكلين هجائيين غربيين للاسم ذاته ، أما الأول فهو الشكل الذى جاء بالقائمة الفرنسية مكتوبا بحروف عربية ، وأما الثانى فهو الشكل الصحيح له بعد التصويب والمقابلة ، أو أنه الشكل الذى يكتب عليه الآن بعد أن مر الاسم نفسه فى العربية ببعض تغييرات لاسبيل — الآن — إلى التنقيب وراءها أما إذا تحقق من وراء نشر هذا الفهرس الجغرافى فوائد أخرى غير الذى نقصد إليه ، فسيكون ذلك مدعاة لمزيد من السرور ، بالإضافة إلى اننى سأجد فيه بعض التعويض عن الجهد المبذول .

المترجم

ملاحظة : استخدمت فى مراجعة ومقابلة اسماء الأماكن الواردة بهذه القائمة ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية الذى وضعه المرحوم الاستاذ محمد رمزى ، وقد أشرت بعلامة × على الأسماء التى لم ترد فى فهرس القاموس الجغرافى المشار إليه ؛ كذلك لم يكن متيسرا قط التحقق من اسماء القرى أو النجوع التى اكتفت القائمة الفرنسية بالإشارة إليها بكلمة « كفر » .

* * *

الفهرس

رقم الإيداع ٨٤/٤٧٢٠

الترقيم الدولى .ISBN

٩٧٧ - ٥٠٥ - ٠١٢ - X

٤
وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

موسوعة

الحياة الاقتصادية فى مصر
فى القرن الثامن عشر

الجزء الأول

الزراعة ـ الصناعات والحرف ـ التجارة

تأليف
ب . س . جيرار

ترجمة
زهير الشايب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يعد هذا المحلد الرابع من الترجمة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر الجزء الأول من موسوعة الأحوال الاقتصادية لمصر عند مجئ الحملة الفرنسية . ويعنى هذا القول من جانبنا أننا سنوالى إصدار الدراسات التى تناولت ظروف مصر الاقتصادية فى كتاب وصف مصر ، بغض النظر عن أنها لم ترد مرتبة على هذا النحو فى وصف مصر

ويتضمن هذا المجلد دراسة واحدة من وضع بير سيمون جيرار ، مهندس الطرق والكبارى ، وعضو الأكاديمية الملكية للعلوم ، وعضو المجمع المصرى والفارسى الحائز على وسام الشرف من الطبقة الملكية . وقد ولد فى Caen عام ١٧٦٤ وتوفى عام ١٨٣٦ وترك مؤلفاً فى ثلاثة مجلدات عن نظم الرى .

وتعد هذه الدراسة من ناحية المهج واحدة من أكمل الدراسات التى جاءت بوصف مصر ، ففيها من الدقة والإحاطة والشمول ما يلمسه القارئ من مجرد تصفح الكتاب أو من مجرد إلقاء نظرة عابرة على فهرسه ، أما الجهد الذى بذله المؤلف والتفانى الذى أبداه فيه فإننا نمسك عن الحديث عنه خشية ألا نستطيع أن نوفيه فى ذلك حقه ، فلقد بلغ من تفانيه وحرصه فى عمله أن كان زملاؤه من علماء الحملة يتندرون عليه ويصفونه بالفلاح .

وقد كنت أود أن ألحق بهذه الدراسة دراسة أخرى للمؤلف عن المقاييس المصرية القديمة وهى التى كانت لا تزال تستعمل فى مصر حتى وقت مجئ الحملة الفرنسية لولا أننى خشيت أن أخرج عن حدود المنهج الذى أتبعه وهو تقديم دراسات الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر بالشكل الذى بينته فى مقدمات المجلدات الثلاثة السابقة كما كنت أود أن أقدم دراسات قصيرة أخرى تناولت بعض الحرف والصناعات التى أشار إليها المؤلف فى الباب الثانى ولم يوفها حقها اكتفاء منه بما جاء

فى هذه الدراسات التى وصفها غيره ، مثل دراسة بوديه عن دبغ الجلود ، ودراسة روزيير وروييه عن معامل التفريخ ودراسة ديكوتيل عن ملح النوشادر لكن ذلك كان من شأنه أن يزيد من حجم هذا المجلد لحد قد لا يكون مناسباً .

ويبقى لكى تكتمل هذه الموسوعة عن الاقتصاد المصرى عند مجئ الحملة الفرنسية أن نقدم دراسات لانكريه عن الريف المصرى تحت حكم المماليك ، وإستيف عن مالية مصر وصامويل برنار عن النقود والموازين العربية بالإضافة إلى الدراسات القصيرة التى أشرت إليها فى الفقرة السابقة ، وستكون هذه الدراسات كلها هى موضوعات المجلدين الخامس والسادس بإذن الله .

ولا يبقى علىّ فى هذه العجالة إلا أن أكرر شكرى لكل من قدم لى عوناً أو تشجيعاً من أى نوع وهؤلاء كثيرون بحيث لا يتسع المقام لحصرهم على أن واجب الوفاء يحتم تخصيص الشكر لنفس الأسماء التى ذكرناها بالتفصيل فى مقدمات المجلدات الثلاثة السابقة وبالذات الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة والأستاذ رينيه خورى .

والله أسأل أن يكون فى هذا الجهد ما ينفع بلادى مصر وإخوتى المصريين وسيكون هذا لو تحقق هو أفضل ما أنتظر من جزاء .

زهير الشايب

القاهرة فى نوفمبر ١٩٧٨

٥

بعد احتلال الجيش الفرنسى لمختلف أقاليم مصر ، كلفت بالتوجه إلى أعالى النيل حتى الشلال الأول ، للتعرف على تأثير هذا النهر فى خصوبة هذه البلاد ، وبأن أجمع المعلومات الضرورية لوضع خطة عامة لنظام الرى بها .

رحلت من القاهرة فى التاسع والعشرين من فنتوز من العام السابع (١٩ مارس ١٧٩٩) مع كثير من أعضاء لجنة الفنون ، واهتم كل منا أثناء الرحلة بالأبحاث التى تجره إليها ميوله الطبيعية ، ولما كانت البحوث التى أخذتها على عاتقى ، تتصل بشكل خاص بتطوير وإصلاح أحوال هذه البلاد ، فقد كان من الضرورى قبل كل شئ أن أحصل على المعرفة الضرورية عن أحوالها الحالية ، وعن الإمكانيات التى تهيؤها لها الزراعة والتجارة والصناعة . وهكذا كان مجال المعلومات التى على أن أجمعها بالغ التحديد ، وقد رصدتها بكثير من التفصيل ، لدرجة يمكننى معها القول بأننى قد تمكنت من معرفتها بشكل تام .

بدأت منذ رحيلنا نفسه أدون فى يوميات رحلتى المعلومات التى بدأت أجمعها ، وكنت أحصل على هذه المعلومات عن طريق مشايخ القرى الذين كنت أستدعيهم كما كنت أحصل عليها فى بعض الأحيان من فلاحين بسطاء ممن كنت أصادفهم ، وحصلت عليها من جهة ثالثة ، وفى أغلب الأحيان عن طريق مسافرين من أبناء البلاد كنا نستضيفهم فى قاربنا . وحيث لم يكن على المترجم الذى كان يصحبنا إلا أن يكرر بشكل دائم تقريباً نفس الأسئلة إلى كل من كنت أسألهم ، فإنه سرعان ما توصل إلى روح إجاباتهم ، وإذا حدث أن كان ثمة نوع من الاختلافات فى هذه الأجوبة فإننى واثق أنها قد نقلت إلى بأمانة تامة .

كان الجزء الأعلى من الصعيد لم يتم احتلاله نهائياً على يد قوات الجنرال ديزيه Desaix عندما وصلنا إلى سيوط (أسيوط) . وقد اضطرتنا هذه الظروف إلى البقاء فى هذه المدينة من ٢٨ مارس حتى ١٨ مايو الذى يليه .

وكنت فى أثناء هذه الفترة شاهداً على جزء من أعمال الحصاد ، وقد تابعتها باهتمام شديد ، ومنحتنى هذه الأعمال الفرصة لكى أعرف من أفواه الفلاحين أنفسهم الأعمال الزراعية التى يقومون بها فى فصول السنة الأخرى .

وبعد ذلك ، توجهنا براً ، وفى جولات صغيرة محاذية الشط الأيسر للنيل ، من سيوط إلى قنا التى وصلنا إليها فى ٢٥ من مايو ، وقد وجدنا هناك الجنرال بليار Belliard الذى كان يتولى القيادة فى هذا الإقليم ، وكان قد انتهى لتوه من إعداد حملة برياسته كان الهدف منها الاستيلاء على ميناء القصير ، وغداة وصولنا كانت الحملة مستعدة وكانت هذه فرصة كبيرة قد واتتنا لكى نتعرف على أعماق الصحراء التى تفصل وادى النيل عن البحر الأحمر ، ولكى أحصل على المعلومات التى كنت أحتاج إليها عن التجارة التى تتم بين مصر والجزيرة العربية عن هذا الطريق . رحلت إذن إلى القصير مع هذه الحملة ، وقد اكتفت الحملة بوضع حامية فرنسية فى هذا الميناء وعدنا من هناك فى الرابع عشر من يونية .

أقمنا فى قنا حتى السادس والعشرين ، وهناك كما حدث فى سيوط ، أتيح لى الوقت أن أطابق وأعدل ما سبق أن عرفته عن أعمال ومحاصيل الزراعة . وقد عرفت ما هو خاص بهذا الإقليم من أقاليم مصر وما هى أنواع الحرف المختلفة التى يعمل بها سكانها .

حاذينا الشط الأيمن للنيل كى نتوجه إلى إسنا حيث وصلناها فى الثلاثين من يونية ، وحصلت فى هذه المدينة – فيما يختص بأبحاثى – على نفس المعلومات التى حصلت عليها فى سيوط وقنا . وبعد أن مكثنا هناك تسعة أيام رحلنا من هناك فى التاسع من يولية لكى نبحر جنوباً حتى الشلال الأول . وفى الثانى عشر منه وجدنا أنفسنا فى اسوان،وقد امتدت إقامتنا فى هذه المدينة حتى السادس والعشرين من نفس الشهر،وفى الثلاثين منه كنا قد عدنا إليها مرة أخرى لنمضى فيها عشرة أيام ، بدأنا فى نهايتها زيارتنا لسهل طيبة وصلنا إلى هناك فى الحادى عشر من أغسطس ، وقد أقمنا فى البداية على الشاطئ الأيسر للنيل ، فى قرية الأقالتة التى تقع على مسافة قصيرة من معبد Mamnonium ومن مدينة (كوم امبو) . وانتقلنا فى ١٩ أغسطس إلى الشاطئ المقابل ومكثنا فى الأقصر حتى ٢٩ وأخيراً اتجهنا جنوباً نحو إسنا حيث مكثنا لثالث مرة حتى ١٤ سبتمبر . وهكذا قضينا ٢٥ يوماً فى هذه المدينة على ثلاث مرات منفصلة .

لم أكن بحاجة للتوقف فى قنا حيث كانت إقامتنا فيها قد امتدت لمدة تقرب من شهر عندما كنا ذاهبين إلى أعالى النيل ، لكننى كنت وقتها قد عبرت دون توقف ولاية جرجا إحدى أهم ولايات الصعيد ، ولما كنت أود أن أجمع من هناك بعض المعلومات فقد مكثت بها من ١٢ إلى ٢٠ سبتمبر ، وقضيت بعد ذلك ثلاثة أيام فى أخميم على الشاطئ الأيمن للنيل ، وأخيراً أبحرنا شمالا فوصلنا سيوط فى ٣ فندميير من العام الرابع (٢٥ سبتمبر ١٧٩٩) .

كانت مياه الفيضان التى سبق أن غطت أرض الريف قد بدأت تنحسر . وكنت شاهداً على عملية البذر الذى كان موسمه قد بدأ . وكان الجنرال ديزيه قد اتخذ منذ بعض الوقت من سيوط مقراً لقيادته ، ومن هناك كان يراقب تحركات مراد بك ، ورحل من هناك فى الأول من أكتوبر لكى يشرع فى مطاردته وليتوغل فى الصحراء فيما وراء الفيوم مغطياً الشاطئ الأيسر لبحر يوسف ، وقد صحبته فى هذه الجولة ، ولكن بعد عشرة أيام تلقى الجنرال ديزيه نبأ رحيل القائد العام (بونابرت) إلى فرنسا وتلقى فى الوقت نفسه أمراً بالعودة إلى القاهرة ، لذلك استوجب الأمر أن أعدل هذه المرة عن زيارة ولاية الفيوم . اتجهنا نحو المنيا ومن هناك أبحرنا فوق النيل فى ٤ أكتوبر ووصلت إلى القاهرة فى السادس عشر منه بعد غيبة استمرت سبعة أشهر .

وقد غير الجنرال كليبر الذى أصبح على رأس الجيش نظام أعمال المجمع العلمى المصرى ولجنة الفنون ، فكون لجاناً عديدة وكلفها بجمع مختلف الوثائق التى رأى أنها أكثر فائدة . وقد ألحقت أنا بلجنة الزراعة والتجارة . وقد أنفقت جزءاً من شهرى نوفمبر وديسمبر سواء فى تبويب المعلومات التى حصلت عليها من الصعيد أو فى التزود بمعلومات جديدة للقيام بنصيبى فى عمل اللجان التى كنت عضواً فيها . وقد زرت خلال هذين الشهرين سهول هليوبوليس والأهرام وسقارة حيث أمضيت أياماً كثيرة . وفى أثناء هذه الفترة أقمت علاقات متينة مع أبرز تجار القاهرة من مسيحيين وأتراك ، وهى العلاقات التى جعلتنى فى وضع يسمح لى بالحصول على

معلومات حول التجارة المصرية الحالية وهى التى سأعرضها فيما بعد فى هذه الدراسة .

وقد انتهزت فى يوم ٢٤ ديسمبر ١٧٩٩ الفرصة التى لاحت لى للتعرف على الطريق المؤدى من القاهرة إلى السويس عبر وادى التيه . وقد وصلنا إلى هذا الميناء (السويس) فى الثامن والعشرين بعد مسيرة أربعة أيام . وقد أقمنا هناك حتى ٢٢ يناير ١٨٠٠ مما أتاح لى أن أضيف معلومات جديدة إلى تلك التى سبق لى أن حصلت عليها عن التجارة المصرية مع الجزيرة العربية . وعند عودتنا إلى القاهرة اتخذنا الطريق الأقصر وهو الذى يصل بين المقطم وبركة الحج . وعدنا فى ٢٤ يناير إلى القاهرة .

فى هذه الأثناء كانت مصر مهددة ، وسرعان ما غزتها القوات التركية واستوجب الأمر إيقاع هزيمة ثانية بالأتراك وهو ما انتهت إليه معركة هليوبوليس ، وقمت من جهتى باستغلال هذه الفترة فى مراجعة المعلومات التى سبق أن حصلت عليها عن الزراعة فى ضواحى القاهرة .

ولم ترحل الحاميات الجديدة التى خصصت لصعيد مصر إلا فى ١٠ مايو ، وقد صحبت الجنرال زايونشيك Zayonchek الذى أوكلت إليه قيادة أقاليم بنى سويف والفيوم . وقد سرنا مع قوات المشاة وحاذينا الشاطئ الأيسر للنيل ووصلنا إلى بنى سويف فى الثالث عشر .

وقد هيأ لى الزحف لمسافات قصيرة (أى مع التوقف بين مسافة وأخرى) ومع جزء من القوات القوية لحد كاف – الوقت للحصول على معلومات جديدة عن زراعات البلاد التى كنا نعبرها .

وبعد أن قضيت ثلاثة أيام بالقرب من الجنرال زايونشيك رحلت لزيارة إقليم الفيوم . وقد اجتزت الإقليم فى كل جهاته مع قائد الفرق الذى كان يحصل الضرائب من هناك . وقد مكثت فى هذه المنطقة من ١٧ مايو حتى ٢٣

يونية ، وفى هذا اليوم نفسه رحلت من بنى سويف فى صحبة ستة من الانكشارية الذين صحبونى حتى القاهرة ، وقد وصلت إليها بعد مغادرتى لبنى سويف بثلاثة أيام .

كان القائد العام ، الجنرال كليبر ، قد اغتيل فى ١٤ يونية وانتقلت القيادة إلى أيد أخرى ، وأقمت فى القاهرة لمدة حوالى الخمسة أشهر فى انتظار اللحظة المناسبة لعبور مصر السفلى ، وكان فيضان هذا العام شديد الوفرة ، وكان لابد من الانتظار حتى تنحسر مياه الفيضان التى تغطى الأرض حتى يمكن زيارة الدلتا بطريقة مناسبة . وأخيراً رحلت فى العاشر من ديسمبر فاجتزت أولا ولاية المنوفية من الوسط إلى الشمال ، ثم أقمت فى طنطا ووصلت إلى فرع النيل الذى يتجه إلى رشيد عند الموقع المقابل للرحمانية ، ومن هناك توجهت إلى الشرق فوصلت إلى سمنود على فرع دمياط مروراً بالمحلة الكبيرة (الكبرى) .

غادرت سمنود فى ٣١ ديسمبر ، وأبحرت فى ترعة التبانية التى تصب فى بحيرة البرلس ، وعبرت هذه البحيرة ليلا فوصلت إلى قرية بلطيم ، وهى أهم تلك القرى التى يراها المرء قائمة فوق لسان الأرض الذى يفصل البحيرة عن البحر ورحلت من هناك فى ٢ يناير ١٨٠١ وتوجهت بمحاذاة البحيرة إلى قرية الروس الواقعة إلى يمين النيل تجاه رشيد .

كان الجنرال زايونشيك يتولى القيادة فى هذه المدينة . وقد بقيت بالقرب منه حتى اليوم التاسع من يناير ، وهناك ، كما حدث فى الفيوم ، زودنى بترحاب كبير بكل الوسائل التى من شأنها أن تسهل مهمة أبحاثى .

عبرت النيل مرة أخرى عند مصبه وسرت بحذاء شاطئ البحر لمدة يومين مشياً على الأقدام حتى بوغاز البرلس ، وتلك هى الفتحة الرئيسية التى تصب عن طريقها مياه البحيرة فى البحر . وكان على أن أمشى ثلاثة أيام أخرى حتى أصل من هناك إلى دمياط التى وصلت إليها فى ١٣ يناير .

كانت تلك هى المرة الثانية التى أزور فيها هذه المدينة ؛ فقد سبق أن أقمت

فيها منذ عامين إقامة اضطرارية لمدة تقرب من شهرين ، وهناك انتهيت من استكمال المعلومات التي كنت بدأت في الحصول عليها حول التجارة مع سوريا ، وحول الزراعة في هذه المنطقة من أرض مصر . ومكثت هناك حتى ١٨ من نفس الشهر ، ثم توجهت إلى المنزلة وهي قرية كبيرة أعطت إسمها للبحيرة التي تغطي الجزء الشرقي من الدلتا ، وبعد ذلك زرت منشآت الصيد في المطرية ، ثم اتخذت طريقي في ٢٣ يناير نحو المنصورة متجهاً إلى الجنوب عن طريق ترعة أشمون ، وامتدت إقامتي في المنصورة من ٢٥ إلى ٢٧ ، ومن هناك اتجهت شمالا إلى صان عن طريق بحر مويس ، ومن صان توجهت إلى الصالحية فوصلتها في ٣٠ ثم رحلت في أول فبراير إلى بلبيس ، وفي النهاية وجدت نفسي يوم ٤ فبراير في القاهرة من جديد .

وبعد وقت قصير من عودتي أوقفت أحداث الحرب التي أخذت تتلاحق بسرعة كل الأسفار ، واستوجب الأمر الالتحاق بفرقة من فرق الجيش كان يقودها الجنرال بليار Belliard وبقيت فيها حتى تم إبحارنا من أبي قير إلى فرنسا في بداية شهر أغسطس من نفس العام .

ويرى المرء من تتبع المسار الذي انتهيت من رسمه أن الأبحاث التي أخذت على عاتقي الاضطلاع بها قد شملت كل أقاليم مصر ، ولابد أن المثابرة والدأب والعناية التي راعيتها في جمع هذه المعلومات ستعطي لنتائج أبحاثي الدرجة من الدقة التي يمكن لعمل مماثل أن يحصل عليها . وقد كان موضوع أبحاثي كما سبق أن قلت هو التعرف على أحوال الزراعة والصناعة والتجارة في مصر في الوقت الراهن . وسيجد القارئ هذا التقسيم موجوداً بشكل طبيعي وموضح تحت كل من هذه العناوين .

* * *

الباب الأول
عن الحالة الراهنة للزراعة فى مصر

الفصل الأول
حالة ومساحة الأراضى القابلة للزراعة
أعمال الرى – الوسائل الصناعية للرى

يجرى النيل ابتداء من أسوان حتى القاهرة ، كما هو معروف ، لمسافة تبلغ مائة ميريامتر من الجنوب إلى الشمال ، فى واد يبلغ عرضه ثلاثة فراسخ ، ومحصور بين سلسلتين من الجبال ، تمتد إحداهما جهة الشرق حتى البحر الأحمر وتنتهى الأخرى جهة الغرب بالصحراء الليبية .

وعلى مسافة قصيرة شمال القاهرة يتباعد هذان الجبلان كل منهما عن الآخر ، فيستدير الأول نحو البحر الأحمر ويمتد الثانى إلى الشمال الغربى حتى شاطىء المتوسط أما الفراغ المتكون بين هاتين السلسلتين وبرزخ السويس فهو أرض غرينية كونها النيل واخترقها على فترات عديدة متبعاً مسارات متعددة ، ويشكل هذا الترسيب العظيم وقاع الوادى الضيق الذى تحدثنا عنه من قبل بالإضافة إلى ولاية الفيوم التى يربطها بالنيل ترعة كبيرة – يشكل كل ذلك الأرض القابلة للزراعة فى مصر ، والتى تبلغ مساحتها الكلية حوالى المليونين ومائة ألف هكتار .

وتتكون تربة هذه المساحة من طمى مائل للسواد ترسب فوق طبقات من الرمل الناعم تتفاوت درجة سمكه ، وتتسرب من خلاله مياه النيل كما تتسرب من خلاله أيضاً تلك المياه التى تغطى الأرض أثناء الفيضان .

إن منطقة كهذه ، تقع بين خطى عرض ٢٤° و٣١° ، تكاد لا تسقط فيها أمطار على الإطلاق ، لا يمكن أن تخصب إلا بفيض النهر الذى يخترقها أو بواسطة الرى الصناعى .

يبدأ النيل فى الزيادة مع بداية الانقلاب الصيفى ويبلغ أقصى فيضانه فى اعتدال الخريف ، ثم يبدأ فى الانخفاض تدريجياً حتى انقلاب الصيف من العام التالى ، وهكذا يفيض النيل لمدة ثلاثة أشهر ثم ينخفض لمدة تسعة أشهر ، الأمر الذى يعطينا فكرة عن نظامه .

وعندما تكون مياه النيل فى أقصى انخفاض لها ، تكون أرض الوادى تعلوها بثمانية إلى عشرة أمتار فى الجزء المدارى من أرض الصعيد ، ومن ٤ إلى ٥ أمتار بالقرب من القاهرة ومتر واحد فقط عند فتحتى فرعى دمياط ورشيد .

وبعد شهرين من بدء النيل فى الزيادة ، أى فى الفترة من ٢٠ — ٢٥ أغسطس تقطع السدود التى كانت قد أقيمت قبل ذلك ببعض الوقت على رأس ترع الرى المحصورة من مساحة لأخرى على شاطئ النهر ، وتتجه هذه الترع فى مصر العليا — مع تفاوت فى درجات ميل كل منها — نحو سلسلتى الجبال اللتين تحيطان بالنيل ، وعندما تصل هذه الترع إلى سفحهما فإنها تمتد بشكل مواز لهاتين السلسلتين فى الصحراء ، لكن سدوداً عرضية تسد مجراها بحيث ترتفع المياه التى توقفها هذه السدود فتغرق جزءا من الأراضى التى تحيط بها ، ونستنتج من ذلك أنه كلما كان الفيضان عالياً كلما ارتفعت المياه لتعلو السدود التى تحدثنا للتو عنها ، وكلما زادت بالتالى مساحة الأرض التى نعمرها .

وعندما يبلغ غمر المياه أقصى ارتفاع له ، يقطع السد الذى يحجز المياه ، فتسيل عندئذ إلى ما وراء السد ، متبعة نفس مسار الترعة التى تستطيل من تلقاء نفسها على حدود الصحراء حتى يصطدها سد ثان أن تتوقف وأن تتكدس وأن تنتشر فوق جزء من المساحة المحصورة بين الجسرين العرضيين المتعاقبين

ويقطع السد الثانى كما سبق أن قطع السد الأول ، وتنزل المياه بنفس الطريقة لتواجه سداً ثالثاً يحدث بدوره فيضا للمياه يغمر مساحة محدودة من الأرض ، ويستمر الأمر هكذا حتى تغرق ضفتا الوادى المقسمتان إلى طوابق متعاقبة بفعل السدود التى انتهينا من بيان أوضاعها ، وبواسطة المياه المتفرعة عن النيل .

وتتحدد منابع المياه المتفرعة عن هذا النهر من مسافة لأخرى بواسطة ترع خاصة ، تصلح من تلفيات التفريعات العليا (الجنوبية) وتزيد من مساحة الأراضى المعمورة ، عن طريق الكميات الجديدة من المياه التى تفيض عنها هناك .

ولكى تظل مياه الفيضان فوق الأرض دون أن تنحسر من جديد نحو النهر من فوق السدود التى تتكدس (المياه) من خلفها ، تحاط شواطئ النيل بجسور تتفاوت درجة ارتفاعها ، وتستخدم هذه كطرق أثناء الفيضان ، بحيث تصبح المياه الداخلية المحجوزة عن طريق هذه الجسور فى أماكن كثيرة فى هذه الفترة من العام ، أكثر ارتفاعا عن مستوى النهر .

وهكذا يشتمل نظام الرى الذى انتهينا من وصفه على تكوين سلسلة من البرك على ضفتى النيل أثناء الفيضان ، وتتدرج هذه البرك فى الارتفاع فوق بعضها البعض ، وفى الوقت الذى يستمر فيه انحدار النهر حسب نسق معين من التواصل بطول مجراه من الشلال الأول حتى البحر المتوسط ، فإننا نجد نفس هذا الانحدار يستمر على درجات بطول الترع التى تخترق بالتتابع مختلف الأراضى التى تحيط بها .

ومن الميسور أن نستنتج مما سبق أن تطوير نظام الرى فى مصر ، لا يعتمد على العمق الذى حفرت عليه الترع بقدر ما يعتمد على العناية بالجسور التى تقطع الوادى بشكل عرضى . وهذه الجسور التى تتجه عادة من قرية إلى أخرى تستخدم كطرق فيما بين هذه القرى أثناء الفيضان ، ويولى السكان عنايتهم بها ، وحيث أنها مبنية بالطين ، فإنها معرضة للقطع عندما تهتز المياه التى تحجزها بفعل الرياح ، لذلك تكسى هذه الجسور بصف أو عدة صفوف من الحصر المصنوعة من السمار تدعمها أوتاد عمودية .

ويتبع هذا الأسلوب فى الرى فى داخل الدلتا وعلى حافتى النيل فى صعيد مصر على حد سواء ، وفى رأينا أن مساحة الأرض التى تغمرها مياه الفيضان ترتبط باعتبارين ؛ أولا : ارتفاع الفيضان ؛ وثانياً : طول المدة التى تترك خلالها المياه تتكدس خلف الجسور التى تحجزها ، ولكن ؛ فحيث أن الأراضى التى تقع أسفل هذه الجسور مباشرة تظل جافة حتى تطلق فيها المياه العالية بفتح الجسور ، فإن من السهل أن نستنتج أن القرى الدنيا يمكنها أن تفقد بفعل التراخى فى فتح هذه الجسور كل المزايا التى تتمتع بها البلاد العليا وحدها والتى يظل الفيضان غامراً لأراضيها ، وهذا

الاختلاف فى المصالح فى إعداد مياه الرى يؤدى فى غالب الأحيان إلى حدوث متساجرات دامية فى المنطقة الواحدة ، وتؤدى غيبة الشرطة إلى تعميق وتوسيع هذه الأحقاد التى تنتج عنها ، ولذلك فثمة بعض قرى متحاورة قد دبت بينها عداوة لا يمكن علاجها ، منذ زمان لا تعيه الذاكرة .

ومن جهة أخرى فإننا لن نأخذ على عاتقنا هنا أن نشير إلى كل الترع المتفرعة عن النيل لغمر الأراضى الملاصقة لها بالمياه ، وذلك أن بإمكاننا أن نحصل على فكرة دقيقة عن النظام العام الذى تكونه هذه الترع بإلقاء نظرة عابرة على خريطة مصر ، لكننا هنا نكتفى بالقول بأن الوادى الذى يجرى فيه النيل ، بعد أن يأخذ فى الاتساع جنوب جرجا ، تبدأ تتفرع عنه ، من الشاطئ الأيسر لهذا النهر ، ترعة يطلق عليها اسم بحر يوسف وتمتد هذه الترعة متبعة على الدوام مشارف الصحراء الغربية حتى تبلغ إقليم الفيوم الذى ينفصل عن باقى أرض مصر والذى يمكن أن يتحول إلى أراض جرداء قاحلة إذا لم تصب فيه هذه الترعة (بحر يوسف) جزءاً من مياهها .

وتنفذ المياه إلى هناك مارة تحت قناطر أقيمت فوق الجسر الذى يسد بداية ترعة اللاهون وتجرى من هناك حتى وسط الهضبة الأكثر ارتفاعاً فى الاقليم ثم يستقبلها حوض منتظم يقع بين مدينة الفيوم وخرائب أرسينويه القديمة Arsinoé ومن هذا الخزان الكبير تتوزع المياه بين القرى المختلفة ، وتغلق الترع التى تنقل هذه المياه إلى القرى ومن بدايتها جسور صغيرة مبنية بالطوب الأحمر ، ينبغى على المياه أن تجتازها فى نفس الوقت الذى تبلغ فيه إرتفاعاً معيناً ، وتجرى المياه فى البداية بملء الترعة ، وعندما ينخفض منسوب النيل تهبط إلى مستوى الخزانات ، ويضطر الناس لعمل فجوات بقصد إطالة مجراها لكن هذه العملية من جانبهم تتم على غير قاعدة ، وبشكل سرى على الدوام مما يؤدى إلى حدوث قلاقل كبيرة بين المزارعين فى بعض الأحيان ، حيث ترى قرى بأكملها مهجورة ، لأن جيراناً لها أشد بأسا قد استولوا بقوة قاهرة على المياه التى كانت مخصصة لها .

ويعهد بنظام الرى فى الفيوم إلى أفندى الولاية ، وهو الذى تودع عنده الحجج

التى يدون بها عدد القرى وكمية المياه التى ينبغى أن توزع على كل منها ، وتوضح هذه الحجج مبلغ المال الذى يبغى على كل قرية أن تدفعه سنويا نظير تنظيم صيانة المشروعات ذات الصالح الخاص ، حيث أن صيانة المشروعات ذات الصالح العام مثل بحر يوسف وتغطية المنشآت المنية فى بعض الأماكن بقصد تقوية الضفاف ، أمر تأخذه الحكومة على عاتقها .

وتكاد تجرى المياه ابتداء من حوض التوزيع الذى انتهينا من الحديث عنه ، فى نفس مسوب الأرض حتى الحافة العربية للهضبة التى تكون أكثر مناطق الإقليم ارتفاعا ، وهناك تجرى المياه فى أخوار يبلغ عمقها من ٨ إلى ١٠ أمتار حتى تصل بحيرة قارون وهى كانت تعرف فيما مضى باسم بحيرة موريس Moeris .

إن سهولة توزيع المياه مى خزان ، عندما يكون هذا الخزان أعلى من مستوى الأرض المتاخمة له ، قد جعلت ظروف الرى فى ولاية الفيوم أفضل بكثير من بقية أقاليم مصر ، لحد جعلها صالحة لإنتاج أكبر عدد من المحاصيل . وفوق ذلك فعن طريق القناطر التى تتفاوت درجة قربها من بعضها البعض ، تظل المياه تغمر الأرض لحد يكفى لإخصابها .

وتقطع غالبية الجسور التى تخترق مصر العليا وأعماق الدلتا عن طريق قنطرة أو عدة قناطر مبنية عادة من الطوب الأحمر ، ويبلغ اتساع أقواسها حوالى الثلاثة أمتار ، ويشغل المسافة بين عمود وآخر مصرف أو مصب مبنى بالمثل بالطوب الأحمر تجرى فيه المياه بعد أن تكون قد مكثت مدة كافية فى الأراضى التى تقع فى أعلى هذه القناطر .

وتخصص كل الأراضى التى تغرقها مياه النيل منذ لحظة فتح الترع حتى قطع الجسور لزراعات بعينها ، هى التى يطلق عليها فى مجملها اسم البياضى ، وهذه لا تحتاج لرى منذ زراعتها حتى حصادها . أما المحاصيل التى تزرع أثناء الفصل نفسه فى الأرض التى لم يغمرها النيل مطلقا ، أو تلك التى لم تغطها المياه لفترة كافية ، فتتطلب ريات صناعية ، ويطلق على هذه المحاصيل اسم « الشتوى » أى المحاصيل التى تزرع فى الشتاء .

وبعد حصاد محاصيل *البياضى* والشتوى تبدأ رراعة المحاصيل المسماة النيلى أو « الصيفى » أى تلك التى تررع فى فصل الصيف ، وهده تررع فى أثناء الفترة التى تكون فيها مياه النيل فى أقصى انخفاض لها ، وهى تحتاج دوما للرى ، الأمر الدى يزداد مشقة يوماً بعد يوم .

وتتلو زراعات الصيف ، أخيراً ، وعندما يبدأ النيل فى التزايد ، تلك المحاصيل التى يشار إليها باسم الدميرى عندما تزرع فى أراض واطئة ، أو النبارى عندما تررع فى أراض عالية يتبعى ريها . وتجدر الإشارة إلى أن الرى الصناعى أثناء هذا الفصل يصبح يوما بعد يوم أكثر سهولة بسبب زيادة منسوب النيل ودخول مياهه إلى ترع الرى .

وهذا التتابع فى الزراعة **يقسم** فى مصر، **بشكل طبيعى، السنة** الرراعية إلى **ثلاثة** مواسم يبلغ كل موسم منها أربعة أشهر . ويتفق الموسم الاول مع مدة الزراعات الشتوية. ***البياضى*** والشتوى ، ويتفق الثانى مع فترة المحاصيل الصيفية : القيظى أو الصيفى ، أما الثالث فيتفق مع محاصيل الخريف : الدميرى والنبارى . وعندما تكون الأراضى المزروعة أثناء الموسمين الثانى والثالث واقعة بطول النيل أو على شواطئ الترع المتفرعة عنه ، فإنها تروى بذراع الإنسان وذلك برفع مياه من الترع بواسطة دلاء من الجلد تسمى : دلو أو شادوف ، وعند محاصيل القيظى أو الصيفى تروى حقول مصر العليا عن طريق ثلاثة طوابق من الدلاء يستخدم فى كل طابق منها عاملان ينهضان بالتبادل ، أما أثناء المحاصيل النبارى فلا يوجد سوى طابق واحد من هده الماكينات التى لا تستوجب إلا استخدام أجيرين .

وعندما تكون الأراضى واقعة على بعد معين من ضفاف النيل أو الترعة ، تنزح المياه المخصصة للرى من قاع البئر بواسطة حبل دائرى ، مزود بقواديس من الفخار ، يلتف حول ترس صغير يديره ثوران معلقان بالمدار (الساقية) .

وفى مصر السفلى وبخاصة فى الجزء الشمالى من الدلتا ، حيث الآبار التى تحفر للرى غير عميقة ، تستخدم عجلات مسننة لرفع المياه منها ، وتقوم الثقوب التى يمتلئ بها محيط هده العجلات بنزح المياه من الخزان ورفعه إلى مستوى الأرض وتتحرك هذه العجلة بواسطة مدار تجره ثيران من الجاموس أو البقر .

وحيث قد سبق لنا أن نشرنا وصفا لكل هذه الماكينات (١) ، فنحن نعفى أنفسنا من الدخول فى تفاصيل كثيرة حول تكوينها ، لكننا نلفت الأنظار فقط إلى أنها بالغة البساطة ، بالإضافة إلى أنها أكثر الأدوات التى يمكن استخدامها ملاءمة فى بلد أجر الأيدى العاملة فيه شديد الانخفاض .

ويتكون الدلو أو الشادوف من رافعة معلقة عند حوالى ثلثها فوق عارضة أفقية يدعمها ارتفاعان رأسيان أقيما عند حافة النهر أو الترعة التى تنزح منها المياه ، ويحمل الذراع الأقصر لهذه الرافعة ثقلا للمقاومة من الطين الجاف ، ويحمل ذراعها الأطول قضيباً خشبياً مربوطاً بحل ناقل للحركة بطريقة يظل معها هذا القضيب الخشبى أثناء حركة تعاقب الرافعة فى وضع عمودى ، أما فى الطرف الأدنى فيتدلى الدلو الجلدى ، ويقوم عامل يتخذ مكانه على مرتفع ناتئ من الأرض أو فوق منصة من الخشب بعب الماء بالدلو ثم يرفع الدلو إلى مستوى صدره ، ليصبه بعد ذلك فى جدول يؤدى بها - إن كان الأمر ضروريا - إلى خزان صغير ، حيث يعاد نزحها مرة أخرى بواسطة ماكينة مشابهة تنقله إلى ماكينة ثالثة وهكذا حتى تبلغ مستوى ارتفاع الأرض المطلوب ريها .

ويقوم كل دلو برفع الماء لارتفاع ثلاثة أمتار ، ويوضع ثلاثة أو أربعة دلاء كل منها فوق الآخر حسب وقت ومكان الرى .

ونرى نحن من هذا الوصف الموجز للدلو أن الرجل المكلف بتحريكه ليس له من عمل إلا توجيه القضيب الخشبى العمودى ،الذى يتدلى منه الدلو ، وصب المياه التى رفعت بواسطة المقاومة فى الجدول الذى يقوم بتوزيعها على الأرض .

وقد دلت تجربة أجريت على واحدة من هذه الماكينات أخبرنى بنتيجتها المسيو دوشانوى Duchanoy على أن العامل المصرى يمكنه أن يرفع بواسطة الدلو ٤٩ لتراً من الماء فى كل $\frac{٢٧}{١٠٠}$ من الدقيقة ومن ارتفاع يبلغ ٢,٨٨ من الأمتار ، وهو ما ينقص

(١) الفنون والحرف ، اللوحات . ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ الدولة الحديثة ، المجلد ١٢

بكثير عن القوة الاعتيادية للرجل كما تعودنا أن نحسبها فى طقسنا الأوربى [١] .

وقد أجرى نفس المهندس تجربتين أخريين لمعرفة نتاج ماكينة ذات قواديس (ساقية) يبلغ طول قطر العجلة التى يجرها ثور بقر معلق فى مدارها ٢,٦٠ من الأمتار ، وتبلغ عدد أسنانها أربعين سنة ، أما العجلة الرأسية التى تحرك العجلة السابقة فيبلغ طول قطرها ١,٦٨ م ولها ٢٦ سنة وكانت هذه الماكينة ترفع المياه إلى إرتفاع رأسى يبلغ ٦,٧٥ م .

أما العجلة التى يدور حولها الحبل الذى يحمل القواديس فتبلغ متراً دائريا ، وهذا الحبل مزود بـ ٢٢ قادوساً يصعد منها ١١ قادوساً وهى مليئة بالمياه بينما تهبط الـ ١١ قادوساً الأخرى فارغة .

وقد أعطت التجربة الأولى فى ١٥ دقيقة نتاجا بلغ ١,٥٩٣٢٤ م^{٣} من المياه ، ثم أعطت الثانية نتاجا بلغ ١,٨٠٥٦٦ م^{٣} فى ١٧ دقيقة ، ومن هاتين التجربتين نحصل على متوسط يبلغ ٠,١٠٦٢ م^{٣} أو ١٠٦ لتر مرفوعة إلى علو يبلغ ٦,٧٥ م فى الدقيقة الواحدة ، وهو الأمر نفسه ؛ ٧١٧ ك . ج ترفع على علو يبلغ المتر فى نفس الزمن [٢] .

---

(١) إنتاج الماكينة هو كما نعرف محصلة وزن المياه التى رفعت رأسيا ، أى أنه هنا $٤٩\frac{٢٧}{١٠٠}$ ك ج × ٢,٨٨ م = ١٤٢٨٩ ك . ج مرفوعة إلى ارتفاع متر واحد فى الدقيقة . وقد استخدمت نفس الماكينة فى بعض عمليات نزح أجريت مؤخرا عند ترعة سان دينيس S . Denis وقد وجد أن الرجل يرفع فى الدقيقة ٥٥ لترا أو ك . ج إلى ارتفاع يبلغ أربعة أمتار أى ٢٢٠ ك . ج إلى ارتفاع يبلغ المتر الواحد إذن فهناك فرق يبلغ ٧٧١١ بين محصلة هذا الدلو ومحصلة الدلو فى مصر ، وهذا ما يعود إلى الفرق فى القوة بين العاملين هنا وهناك . وزيادة على ذلك فإن التجربة التى قام بها كبير المهندسين ديفيليه Devilliers عن الدلو المستخدم فى ترعة سان دينيس قد أكدت ما سبق أن عرفناه . وفى واقع الأمر فإن الحركة الديناميكية لرجل متوسط القوة يعمل بنفس الطريقة تبلغ فى الدقيقة ١٨ ك ج × ٠,٢ م = ٣,٦ ك . ج أى أنها تبلغ فى الدقيقة ٢١٦ ك . ج .

Architecture hydraulique de Bèlidor, edition de M . N avier, p. 396 .

(٢) تبلغ محصلة هذه العجلة ذات القواديس التى يجرها ثور واحد $١٠٦\frac{٢١}{١٠٠}$ ك . ج × =

وقد بينت تجربة أخرى بالتفصيل قام بها المسيو جولوا Jollois[١] عن العجلات ذات القواديس أن الماكينة التي تتكون مسبحتها من ٥٦ قادوساً قد رفعت ٠,٦٧٦٦ م٣ إلى ارتفاع ١٠,٣٩ م فى الدقيقة الواحدة . أى أن محصلة هذه الماكينة نتيجة لذلك تبلغ ٧٠٣ ك . ج ترفع لعلو يبلغ متراً واحداً خلال هذه الوحدة الزمنية ، أى أنها تساوى بوضوح نفس النتيجة التى توصل إليها عن طريق التجربتين الأوليين اللتين نقلنا نتيجتهما .

وحيث أن إنتاج الماكينات فى نفس الوحدة الزمنية يتناسب مع قوة المحركين اللذين يقومان بتحريكها ، وحيث كان إنتاج الدلو (الشادوف) والعجلة ذات القواديس (الساقية) يبلغان بالنسبة لبعضهما نسبة ١٤٢ : ٧١٧ أى ١ : ٥ تقريباً فإنه ينتج عن ذلك أن خمسة رجال فقط فى مصر يمكنهم أداء نفس العمل الذى يقوم به ثور واحد .

وعندما ترتفع المياه أو تنخفض فى المجرورات التى تقوم عليها مدارات السواقى ذات القواديس ، يقرب الناس أو يباعدون القواديس بعضها من بعضها الآخر حتى يتيسر للثيران التى تدير هذه السواقى أن تؤدى نفس الحركة التى عليها القيام بها .

وتروى كل الحدائق (الجناين) ذات الأسوار الموجودة فى ضواحى المدن والتى يملكها الخاصة بالغو الثراء بواسطة هذه السواقى ذات القواديس .

= ٦,٧٥ م فى الدقيقة أى = ٧١٧ ك . ج مرفوعة إلى علو يبلغ المتر الواحد . وتقدر القوة الديناميكية لحصان معلق فى مدار بـ ٤٥ ك . ج × ٠,٩ م فى الثانية (المصدر السابق ص ٣٦٩) وتبلغ فى الدقيقة ٢٤٣٠ ك . ج ترفع إلى علو متر وإذا أخذنا ثلثى هذا التقدير فقط فى احتكاك ومقاومة الماكينة فإن محصلة العمل الديناميكى لحصان معلق فى مدار ويسير الخطى تبلغ ١٦١٠ ك . ج مرفوعة لعلو متر فى الدقيقة ، وهى كمية تزيد على ضعف الكمية التى توصلنا إليها بخصوص العجلات ذات القواديس فى مصر . وهذا الفرق الباهظ ناتج بصفة خاصة عن عدم صلاحية هذه الماكينات حيث المركز الذى تدور حوله العجلات غير دقيق كما أنها تسننها غير منتظم .

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحات ، الدولة الحديثة . المجلد ١٢ ، ص ٤١٢ .

الفصل الثانى
عن المحراث – النورج – الأدوات الزراعية الأخرى
وعن الحيوانات التى تستخدم فى جرها

تبدو الأدوات الزراعية التى يستخدمها المصريون فى أبسط شكل يمكن للإنسان أن يتصوره . وإذا ما حكمنا على هذه الأدوات من ناحية ما لدى هذا الشعب من استعدادات ضئيلة للتطور ، فلابد أن نستنتج أن هذه الأدوات إنما تعود إلى عصور ضاربة فى القدم .

ويتكون محراث المصريين (الذى وصفناه فى المجلد السابع من الفنون والحرف ، ص ٤٢٢ ، الدولة الحديثة) من قطعتين من الخشب ، تلتقيان عند طرفيهما بزاوية ٥٠° أو ٦٠° ، ويمكن توسيع أو تضييق هذه الزاوية عن طريق وتد مثبت فى القطعة السفلى أو المتحركة والتى تنفذ فى ثقب أحدث فى القطعة العلوية . ويثبت هذا الوتد فى الوضع المناسب بواسطة مسمار من الحديد . وعلى هذا النحو يمكن توسيع وتضييق قطعتى المحراث الرئيسيتين بحسب درجة العمق التى نريد أن يصل إليها المحراث . وتستخدم القطعة الطولى والتى تمتد منحنية بشكل أفقى كعريش ، وتحمل النير الذى تعلق به الثيران بالعرض ؛ أما القطعة القصرى ، والتى تختص بتخطيط الأرض فتنتهى بسلاح من الحديد على شكل فأس ، هو الذى يستخدم فى شق الخطوط فيقلب الأرض بالتساوى على الجانبين .

وفى هذه القطعة السفلية قائمتان رأسيتان - تتصل كل منهما بالأخرى - وهما ترتفعان إلى أكثر من المتر طولا ، وعلى مسافة تقترب من الديسيمتر (١٠ سم) ، عند أسفل طرف كل منهما - عن طريق عارضة يمسك بها الفلاح بيده بينما هو يسوق باليد الأخرى الثيران المعلقة بالمحراث . وتربط هذه الثيران بنيرها أحبال مجدولة ، مصنوعة من سعف النخيل . ويتم التقاء النير بالعريش على بعد ٢٥٠ سم من قمة الزاوية التى تتكون من هذا العريش ومن القطعة المتحركة التى تنتهى بالسلاح . ويبلغ طول النير نحو المترين . وتغنى اللوحة الثامنة عن إيراد الكثير

من التفاصيل حول أطوال مختلف القطع الخشبية التى يتكون منها المحراث ، لكننا نقتصر هنا على القول بأن المحراث المرسوم فى اللوحة ، يستخدم بصفة خاصة فى مصر السفلى وفى ضواحى القاهرة ؛ أما المحراث المستخدم فى المنطقة المدارية بالصعيد ، فهو أكثر خفة ومصنوع بشكل أكثر خشونة وبدائية .

ولكى نكون فكرة عن المحراث الأخير ، يكفى أن نتصور قطعتين من الخشب بارتفاع المتر ، متصلتين على شكل مرفق ، وبشكل طبيعى ، عند طرفهما الأدنى بزاوية تبلغ نحو ١٠٠° . وهاتان القطعتان المتماثلتان مشدودتان بثبات إلى بعضهما البعض على مسافة ديسيمتر واحد (١٠ سم) كل منهما إلى الأخرى ، بواسطة عارضتين : يبلغ طول الأولى ٤٠ سم وطول الثانية ١٠٠ سم فوق هذا المرفق . وتخترق هذه العارضة الأخيرة كلا القطعتين ، وتشكل بعيداً عنهما قبضتين يمكن إمساكها بواسطتهما .

وفى المسافة التى تتركها هاتان القطعتان فيما بينهما يمر العريش ، وهو موضوع بشكل رأسى فوق عارضة أفقية تخترقه ، كما تخترقه رافعتان تحتضنانه . وتوضع هذه العارضة عند مرفق (زاوية التقاء) هذه الروافع ، وتندمج بمتانة بقطعة الخشب التى تمسك بالسلاح عند الأجزاء المتحركة منها ، تبعاً للطول المطلوب . وحيث أن القطعة التى تشكل العريش تتحرك حول عارضة أفقية ، فمن الممكن صنع الزاوية التى تشكلها مع العارضة الأولى ، وبحسب الحاجة ، ليكون المحراث أكثر أو أقل عمقاً ، ويمكن تثبيت جوانب الزاوية فى وضع محدد عن طريق لسان عمودى من الخشب ، مثبت فى القطعة الخشبية التى تحمل السلاح وتنفذ فى العريش وتثبت فيه بواسطة وتد صغير .

أما السلاح فعبارة عن حديدة فأس ، يبلغ طولها ٢٠ سم بعرض يبلغ ١٣ سم ، أما العريش فمجرد عصن شجرة يبلغ طوله المترين ويثبت فى طرفه وصلة يبلغ طولها المتر ، وفى منتصف قطعة الوصل هذه يعلق النير بشكل أفقى ، وهكذا نجده على بعد $\frac{1}{2}$ ١ متر من المرفق (الكوع) الذى تكونه الرافعتان ، ويبلغ

طول هذا السير نحو ثلاثة أمتار (انظر الشكل MM فى مجموعة الأثاثات والأدوات) .

ويدير الفلاح المحراث ، بأن يمسك بكلتا يديه ، أو بيد واحدة ، العارضة العلوية التى تخترق قائمتى ذراع المحراث . وهذا المحراث ، الذى انتهينا من وصفه ، هو ما نراه منقوشاً على مبانى مصر العليا .

ولا يعرف المصريون مطلقاً عادة استخدام الشوكة (أداة مسننة تجر فوق الأرض المحروثة لتسوية الأرض وطمر الحبوب) وعندما تحرث الأرض ، ويلزم تسوية سطحها ، يمرر المصريون فوقها جذع نخلة موضوع بالعرض ، ويجره وهو على هذا النحو ثور أو ثوران . وتربط هذه العارضة الخشبية من طرفيها بحبل رخو ، يتشكل نصفاه عند جذبه زاوية حادة تتفاوت درجتها ؛ ويعلق فى قمة هذه الزاوية حبل آخر تربط به الثيران . وعندما يراد فى بعض الأحيان زيادة ثقل هذا الجذع ، لتفتيت كتل الطين التى تغطى بها الأرض (بعد حرثها) ، يجلس الرجل الذى يتولى قيادة الثيران فوق هذه الخشبة الأسطوانية الشكل .

وعندما يبغى الناس تقسيم أرض تروى بشكل صناعى إلى أحواض ، أو عندما يلزم تمهيد سطحها ، تستخدم المسوجة ، وهذه عبارة عن لوح خشبى يبلغ طوله ٨٠ سم وتحمل فى أحد جانبيها ذراعاً يبلغ طوله ١٤٠ سم ، وتحمل من الجانب الآخر حبلا من الليف يجره رجل أو رجلان ، بينما تتحرك هذه الأداة من الجانب الآخر بواسطة شخص يمسك بذراعها .

وتستخدم هذه الأدوات قبل البذر . وبعد أن تتم هذه الأعمال ، لا يكون على الفلاحين سوى أن يذهبوا إلى الحقول لمجرد إلقاء نظرة عابرة ، وإلى أن يحين وقت الحصاد . وتحصد بواسطة الشرشرة تلك أعواد المحاصيل التى لا يتم اقتلاعها . وهذه الشرشرة ، فى العادة ، أصغر وأقل تقوساً من مثيلتها التى نستخدمها نحن فى المناطق الشمالية من فرنسا .

وحين يتم الحصاد ، توضع المحاصيل ، وعموما كل النباتات التى تشكل موضوعاً لزراعات واسعة ، فى شكل حزم أو ربطات ، وتنقل إلى مكان معد لهذا

الغرض ، سواء فى نفس الحقل الذى تم حصاده أو فى مكان تم اختياره على مسافة قريبة . وفى بلد تكاد تكون درجة الحرارة فيه ثابتة ، ولا يتعرض طقسها لأية تقلبات ضارة تجعل حالة السماء غير مأمونة لعدة مرات خلال فترة قصيرة من نفس النهار ، كما يحدث فى الطقس عندنا ، فإن الناس هناك ليسوا بحاجة لجراحات تحمى محاصيلهم من الأمطار ومن الصقيع ، لذا تظل المحاصيل فى الهواء الطلق إلى أن يحصلوا على منتجاتها .

ولا تعرف فى مصر مطلقاً طريقة استخدام المدقات لدرس الحبوب . وفى المنطقة الأكثر مدارية من الصعيد ، يبسط القمح ، على الحالة التى حصد عليها ، على مدار لتدوسه أقدام الثيران ؛ وبهذه الطريقة لا يتم إخراج الحب من السنابل وحسب ، بل يهرس القش كذلك وهو بالغ الجفاف وهش للغاية . وبعد أن يتم تجهيزه على هذا النحو فإنه يستخدم كعليق .

أما فى بقية أنحاء مصر ، فتتم هاتان العمليتان بواسطة آلة تسمى النورج ، يمكن أن نرى رسماً لها فى اللوحة الثامنة من الفنون والحرف .

وتتكون هذه الماكينة من قاعدة أفقية ، تتكون بدورها من أربع قطع تتجمع فيما بينها فى زوايا قائمة ، وتلتقى اثنتان من هذه القطع ، وهما تواريان الأخريين بمحورين من الخشب تثبت فيهما عند المركز ثلاث أو أربع عجلات من الحديد المسطح ، يبلغ سمكه ٢ مم وقطره نحو ٤٠ سم . ويتحرك جسم النورج أفقياً على هذا النحو ، فوق هذه العجلات وهى تتخذ الوضع المشار إليه ، بشكل تتحرك معه العجلات التى يخترقها محور ما فى نصف منطقة الفراغ الموجود بينها وبين العجلات التى يخترقها المحور الثانى (بحيث تتداخل عجلات المحورين فى هذا الفراغ) . ويعلو هذه القاعدة مقعد مصنوع من خشب ، بشكل خشن ، ويجلس على هذا المقعد قائد الثيران المعلقة بالنورج ، وهناك طوق حديدى مثبت بالعارضة الداخلية للقاعدة التى ترتبط بالعريش المتحرك بواسطة حبل ، ويوضع فى طرف هذا العريش ، وبشكل عرضى ، نير أفقى يمر فوق رقاب هذه الحيوانات .

وتفك وتبسط حزم النباتات التى تحتوى الحبوب والتى يراد درسها بواسطة هذه الماكينة ، فوق أرض جرن يبلغ قطره من ١٥ إلى ٢٠ متراً ، ويحدد مركزه أحياناً بواسطة كومة من هذه الحبوب ؛ وبعد ذلك تدور الماكينة فى هذا الجرن بشكل دائرى . وبهذه الطريقة تدوس أقدام الماشية هذه الحزم التى انفرطت ، الأمر الذى يؤدى إلى خروج الحب من السنابل ، بينما يهرس القش أثناء نفس العملية بواسطة العجلات الحديدية التى يتسلح بها النورج ، والتى تدور فوقه (أى فوق هذا القش) .

ويحمل قش محاصيل الحبوب والأعلاف الجافة ، بعد مروره بهذه العملية ، (أى بعد أن يهرس) إلى المدار الخارجى للجرن على يد رجال يستخدمون مذراة خشبية طويلة ذات أسنان .

ويتكون النورج المستخدم فى مصر السفلى والقاهرة عادة من قطع أكثر ثقلا كما يصنع بعناية أكبر من تلك التى يصنع بها فى الصعيد ؛ أما النورج المستخدم فى درس الأرز فى دمياط ورشيد فيصنع بأحجام أكبر من ذلك بكثير .

وهناك بعض المحاصيل التى تفصل عنها حبوبها عن طريق ضربها بعصى غليظة فى مكان أعد لهذا الغرض ؛ هى هذه المحاصيل التى لا يمكن أن تستخدم أعوادها الجافة غذاء للماشية ، وإنما ينبغى لها أن تستخدم فى شكل وقود .

ومهما تكن الوسيلة التى تستخدم فى فصل الحبوب عن سنابلها أو البذور عن كبسولاتها ، فلابد أن يتم تنقيتها من الشوائب التى يمكن أن توجد مختلطة بها . وتذرى الحبوب لهذا الغرض بشكل بدائى خشن ، وذلك بتعريضها للهواء بكميات قليلة بواسطة مذراة من الخشب ذات أسنان متقاربة ، ثم تغربل بعد ذلك لعدة مرات .

ويتم الحرث عادة بواسطة الثيران ، وإن كان يحدث عادة أن تعلق بالمحراث بقرات . وقد شاهدت فى بعض القرى من صعيد مصر عمليات حرث تتم بواسطة الحمير ، وأخرى فى الدلتا تتم بواسطة الجمال . وإن كانت هذه الأمور بالغة الندرة .

وتتم كل الحمولات اللازمة لأعمال الزراعة على ظهور الجمال أو بواسطة الحمير ، التى تلفت النظر فى مصر بقوتها وجلدها .

الفصل الثالث

عن المقاييس الزراعية - المكاييل - الموازين - النقود

آليت على نفسى عندما تصديت لموضوع الزراعة عند المصريين أن أقدم بشكل خاص مقارنة إنتاجها بإنتاج أوربا فى نفس المجال ، ولهذا السبب فينبغى علينا أن نقيم المقاييس المستخدمة فى مصر بمقاييس معروفة لنا (فى أوربا) مادمنا سنستخدم المقاييس (المصرية) فى التعبير عن نتائج أبحاثنا

وفى مكان آخر ، عالجنا بإفاضة المقاييس الزراعية فى هذه البلاد (١) ، ونكتفى هنا بأن نستعيد ما سبق أن قلناه عن تلك الأنواع من المقاييس التى لا تزال تستخدم حتى اليوم .

تحمل وحدة القياس الزراعى عادة اسم : فدان ، وهو مربع يبلغ طول ضلعه ٢٠ قصبة وبذلك تبلغ مساحته ٤٠٠ قصبة مربعة .

والقصبة مقياس طولى يبلغ طوله ٦ ٢/٣ ذراع بلدى فى المعاملات التى يمارسها الأفراد فيما بينهم ، أما فى المقاييس التى تتم بقصد تحديد الوعاء الضريبى على الأراضى المنزرعة فتقدر القصبة ٦ ١/٣ ذراع فقط أى أنها أقصر بـ ١/٣ ذراع بلدى عن قصبة الفدان الكبير .

وينقسم الذراع الذى يشار إليه باسم الذراع البلدى إلى ٢٤ قيراطا ويبلغ طوله ٠,٥٧٧٥ من المتر (٢)

وعلى هذا النحو فإن طول قصبة الفدان عند المزارعين يبلغ ٣,٨٥ م ويبلغ طول ضلع الفدان ٧٧ م أما مساحته فتبلغ ٥٩٢٩ متراً مربعاً .

---

(١) دراسة عن المقاييس الزراعية عند قدماء المصريين (الصوت والحرف)

(٢) حولية العام الثامن محسوبة بالنسبة إلى خط زوال القاهرة ، ص ٥٦ ، دراسة عن المقاييس الزراعية عند قدماء المصريين (الصوت والحرف) .

أما طول قصبة الفدان الذى يتخذ أساساً لتقدير الضريبة فيبلغ ٣,٦٥٨م ، وبذلك يبلغ طول ضلع الفدان ٧٣,١٦ م ويبلغ مساحته حوالى ٥٣٥٣ متراً مربعاً أى أكثر بقليل من $\frac{١}{٢}$ هكتار . وينقسم الفدان ذو ال ٤٠٠ قصبة – مهما يكن طول القصبة – إلى ٢٤ حزءاً يسمى الجزء منها قيراط . وقد استقر هذا التقسيم فى كل مصر العليا حتى القاهرة ، لكن تعديلات معينة تعتوره فى الدلتا وفى كل المناطق الشمالية .

فالفدان فى هذه المناطق لا ينقسم على الدوام إلى ٢٤ قيراطاً كما فى الصعيد ، بل هو ينكمش فى بعض الولايات إلى ١٢، ١٥، ١٨، ٢٠ قيراطاً أى إلى $\frac{١}{٢}$ أو $\frac{٥}{٨}$ أو $\frac{٣}{٤}$ أو $\frac{٥}{٦}$ الفدان الأصلى . ويرتبط الأمر بمشيئة ملاك القرى وبالسلطة التى يمارسونها .

وقد لاحظت فى ضواحى دمياط وجود نوع خاص من الأفدنة . فالفدان هناك مستطيل يبلغ أحد طوليه ٢٤ قصبة ويبلغ الآخر ١٨ قصبة فقط ، وبذلك تبلغ مساحته ٤٣٢ قصبة مربعة ، وفضلا عن ذلك فإن طول القصبة هناك يبلغ ٣,٤٩ م وهذا ما يجعل مساحة الفدان تبلغ ٦٨٧٧,٤٨ متراً مربعاً أى ما يقرب من $\frac{٧}{١٠}$ من مساحة الهكتار عندنا .

لكننا فى كل ما سنورده فيما بعد ، سنقصر حديثنا على فدان الصعيد ذى الـ ٤٠٠ قصبة مربعة والـ ٢٤ قيراطاً التى تبلغ مساحة كل منها $\frac{٢}{٣}$ ١٦ قصبة مربعة .

ويسمى المكيال المستخدم فى كيل الحبوب والمواد الجافة بالأردب ويتفاوت حجمه بشكل طفيف فى مختلف أقاليم مصر ، لكن أردب القاهرة معروف فى كل مكان ، وسوف نتخذ من أردب القاهرة هذا وحدة قياسية تقدر بها كل كميات البذور والمحاصيل التى ستواتينا الفرصة للحديث عنها .

ويحتوى أردب القاهرة كما ذكرنا فى مكان آخر [١] على ٢٠ مكيالا رومانياً قديماً يبلغ حجم كل منها كما هو معروف $\frac{١}{٣}$ قدم مكعب . فإذا ما افترضنا أن طول القدم الرومانى – فى رقم دائرى – يبلغ ٠,٣ م وهو أقل بقليل من طول أكبر

---

(١) دراسة عن المقاييس الزراعية عند قدماء المصريين (الفنون والحرف)

الأقدام الرومانية كما قاسها الأب بارتيليمى Barthélémy فإن المكيال الرومانى سيبلغ ٠٠٩ , م٣ أى تسعة ألتار (لتر) وبهذا يبلغ حجم ال ٢٠ مكيالا التى تكون الأردب ١٨٠ لتراً .

وقد أظهرت نتيجة تجربة أجريت فى أسواق القاهرة ومحلات القمح الموجودة فى جزيرة الروضة أن أردب القاهرة يعادل ١/٦ ١٤ مكيالا باريسياً مع ملاحظة أن المكيال الباريسى يحتوى على ١٣ لتراً ، وحسب هذه التجربة فإن أردب القاهرة قد يساوى ١٨٤ لتراً (١) .

وقد تبلغ نسبة أردب سيوط إلى أردب القاهرة ١١ إلى ١٢ .

أما أردب رشيد ، وهو الذى يستخدم فى كيل الأرز ، فتبلغ نسبته إلى أردب القاهرة ٣ إلى ٢ .

وتوجد فى دمياط وحدة أخرى للكيل تخصص لكيل الأرز الشعير تسمى (ضريبة) وتبلغ نسبة ٣٦ إلى ١٣ بالنسبة لأردب القاهرة ، وينقسم الأردب وكذلك كل المقاييس التى تحدثنا عنها للتو إلى ٢٤ جزءاً أو ربعاً (ربع) .

وفضلا عن ذلك ، فعندما لا يكون الأمر يتعلق بكميات صغيرة ، فإن غالبية الحبوب الجافة تقدر عن طريق الوزن شأنها شأن كل المواد التموينية وكذلك خشب الوقود .

والدرهم هو وحدة القياس الوزنى الوحيدة التى لا تقبل التغيير دلك أن قيمته قد حددت بأكبر قدر من الدقة فى نقود القاهرة وتبلغ ٨٨٤/١٠٠٠ ٣ جرام أو ٥٨ حبة و ٣/١٦ من زنة المارك (وزن قديم يساوى ٣/٤ ٢٤٤ جرام) .

وعلى أساس الدرهم ، تتكون ثلاث وحدات من المثاقيل المستخدمة :

الوحدة الأولى هى الأقة وتزن ٤٠٠ درهم أى ما يساوى ١ ك ج و٣٦/١٠٠ ٢٣٥ جرام .

(١) أنظر فى ديل هده الدراسة الجداول الموثقة رقم (١) .

والوحدة الثانية هي الرطل ويزن ١٤٤ درهما أو ٤ هكتوجرام و٤٤ جرام و$\frac{٧٣}{١٠٠}$ من الجرام .

أما الوحدة الثالثة فهي الرطل الذى يزن ١٦٨ درهما أو ٥ هكتوجرام و$\frac{٨٥}{١٠٠}$ ١٨ جراماً .

وتستخدم الأقة على وجه الخصوص فى دمياط والإسكندرية ورشيد وكل مصر السفلى بيما يستحدم الرطل فى داخل البلاد .

ووحدة الورن ذات الأهمية الكبيرة هي القنطار ، وهو يرن مں ١٠٠ ، ١١٠ ، ١٥٠ وأحياناً ٢٧٥ رطلا حسب نوع المادة الغذائية التى يستخدم فى قياسها . وستواتينا الفرصة أن نقدم فى ثنايا هذه الدراسة تفاصيل أكبر حول هذا الموضوع .

وسنقدم التقييمات الضرورية بعملة هذه البلاد .

وهذه النقود هي البارة والمدينى والبوطاقة .

والبارة أو المدينى هى قطعة صغيرة من الفضة المخلوطة بالنحاس ، وهى تتداول فى كل بلاد الشرق ، وتساوى كل ٢٨ منها فرنكا فرنسياً واحداً .

والبوطاقة قطعة وهمية (افتراضية) تبلغ ٩٠ مدينى ، وتبلغ نسبتها إلى قطعة نقدنا ذات الخمسة فرنكات نسبة ٤٥ إلى ٧١ أى أنها تساوى ٣ فرنكات و٢١ ستيما . وهناك وحدات نقدية أخرى ، لكن المعاملات الخاصة والحسابات العامة تستبعد هذه العملات ليقتصر الأمر على الوحدات التى انتهينا من بيانها .

ويتنوع الأجر اليومى للعامل المستخدم فى مجال الزراعة فى مختلف أقاليم مصر فيبلغ فى الصعيد ٥ — ٨ مدينى ، ويرتفع فى ولاية الفيوم وضواحى القاهرة وفى بلاد الدلتا إلى ٨ — ١٩ مدينى .

ويعمل هؤلاء العمال منذ شروق الشمس حتى غروبها ، ويتناولون فى اليوم وجبتين ، الأولى عند حوالى الحادية عشرة صباحاً والأخرى يتناولونها فى المساء وهم يعيشون على خبز الذرة والأرز والبصل غير المطبوخ والخيار والجبن والفول والعدس ... الخ .

وهؤلاء نادراً ما يتناولون اللحم إلا فى شهر رمضان فيأكلون عندئذ عنزة مسلوقة أو لحم الجاموس ... إلخ . ويمكن تقدير الطعام اليومى لفلاح الصعيد بـ ٣ مديبى . ولا يرتدى هؤلاء الفلاحون كملابس إلا أروابا (جلاليب) غامقة اللون فى العادة تسمى حبة ، وهى تصنع من قماش صوفى مأخوذ من حراف البلاد وبلونه الطبيعى . ويدخل فى صناعة الجبة الواحدة حوالى أربعة أرطال من الصوف المغزول .

ويبلغ ثمن الرطل من هذا الصوف المغزول ٦٥ مدينى ويتكلف من أجل نسجه ٣٠ مدينى كما يتكلف تفصيل الجبة ١٥ مدينى مما يجعل تكاليفها تبلغ حوالى ٣٠٠ مدينى أو أربع بوطاقات على الأكثر . ويعمر هذا الرداء لمدة عام أو نحو أربعة عشر شهراً .

ويعطى الفلاحون أكتافهم كذلك بقطعة من القماش الصوف على شكل شال يبلغ ثمنه ٢ بوطاقة . وهم يستخدمون هذا الشال لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر ، ونفس الأمر بالنسبة لذلك الشال الدى يغطون به رأسهم والذى يساوى عادة مائة مدينى ، وفوق ذلك فإنهم يستهلكون كل عام ثلاثة أزواج من الأحذية من النوع المسمى بابوش يبلغ سعر الزوج منه ٣٠ مدينى .

تلك هى كل المصاريف التى ينبغى على الفلاح البسيط أن ينفقها فى العام ، وهكذا فإن إنفاقاته على احتياجاته الشخصية تبلغ سنوياً حسب هذه القائمة ٥٣٠ مدينى أو حوالى ٦ بوطاقات ، وحيث قد قدرنا طعامه اليومى بـ ٣ مدينى فإن الطعام وحده يكلفه سنوياً ١٠٩٥ مدينى أى أقل بقليل من ١٢ بوطاقة . وهكذا يبلغ الإنفاق السنوى لفلاح مصر على غذائه واحتياجاته الشخصية حوالى ١٨ بوطاقة ينبغى أن نضيف إليها أربعاً أخرى لاستهلاكه العرضى للحم والبن . إذن فمن الممكن أن نحسب إجمالى إنفاقاته السنوية على أساس ٢٢ بوطاقة أى ما يتجاوز بحد طفيف ٧٠ فرنكاً فرنسياً .

وينطبق ما انتهينا إليه فى هذا الصدد بشكل خاص على فلاحى الصعيد ، أما استهلاك فلاحى الدلتا فيمكن أن يقدر بأكثر من ذلك بقدر بالغ الضآلة .

وكان يمكن لكمية العمل التى ينجزها هؤلاء الفلاحون أن تزيد عما يحزونه بالضرورة لو أن طعامهم كان أكثر تغذية ، ولو أنهم كانوا يعوضون عن طريق طعام أكثر رياً (يمتلىء بعصارة أكثر) الفقد الغزير الذى يحدثه فى قواهم هذا العرق المستمر ، وإليكم فى النهاية بعض المعطيات التى يمكن أن تساهم فى تقديم هذه الكمية من العمل .

يستطيع الرجل الذى يقود محراثاً معلقاً به توران أن يحرث فداناً واحداً من الأرض فى يومين أو فى يومين ونصف اليوم على أكثر تقدير .

وقد سبق لنا القول بأن الفلاح الذى يقوم بالرى بواسطة الشادوف برفع فى الدقيقة الواحدة ٤٩ ٢٧/١٠٠ لتراً من المياه إلى ارتفاع ٢,٨٨ م ، ونسوق الآن تجربة أخرى تبين كمية الردم (أو رفع الأنقاض) التى يمكن لفلاح أن ينجزها أو ينقلها فى يوم واحد .

حفر ثلاثة رجال عملوا لمدة ثلاثة أيام ونصف فى سهل سيوط بئراً رأسية يبلغ عمقها ٥,٥٢٢ م وقطرها ١,٥ م ورفعوا ردمها إلى إرتفاع ١,٥ م فوق سطح التربة ، ويكاد يكون شكل البئر دائرياً .

وقد بلغ حجم الردم حوالى ٩ ١٣٨/١٠٠٠ من الأمتار المكعبة وقد رفعت إلى علو يبلغ متوسطه ٣,٢٦ م .

وكان الحفر يتم بواسطة معول صغير يده بالغة القصر وتتخذ حديدته شكل المجرفة ، ويمكن القول بأن عمل العمال قد تضاءل لحد أنهم كانوا يخدشون سطح التربة مجرد خدش ثم يعبئونها بعد تجهيزها فى شكل أجزاء صغيرة بمعولهم هذا فى قفة أو سلة مرنة من خوص النخيل يمسكون بها مفتوحة بين ساقيهم بينما هم منحنون ويقومون بالحفر .

وعندما تمتلىء هذه السلة بقطع الطين ويقتضى الأمر رفعها فإنهم يرفعونها بشكل رأسى من قاع البئر ويعلقونها من مقبض من حبل الليف (أذن القفة) مثبت بها فى سنارة معقوفة من الخشب معلقة هى نفسها فى حبل ليفى يمسك به ويجذبه العمال المتخذون أماكن لهم على حافة البئر .

وعندما نكون بصدد نقل الردم أو الأنقاض فى مجال أفقى أو فى مطلع أو

منحدر، وهو ما يحدث كثيراً فى مصر عند بناء أو ترميم الجسور ، يضع العمال المستخدمون فى القيام بهذا العمل ، رجالا ونساءً وأطفالا ، فوق رءوسهم قففاً مليئة بالردم يسندونها بيد ويذهبون سائرين الخطى ليلقوا بما فيها فوق المكان المقصود .

وتتم النقلات البعيدة على ظهور الجمال أو الحمير ، ولا تتجاوز حمولة الجمل أردبين من القمح يبلغ وزنهما الإجمالى ٢٥٠ ك . ج عندما يكون عليه السير لمسافة طويلة بعض الشيء ، ويستطيع الجمل وهو يحمل هذه الحمولة ويسير الخطى أن يقطع ألفى متر فى خمس وعشرين دقيقة كما تأكدت من ذلك بنفسى بواسطة تجارب عديدة .

ويحمل الجمل بخلاف حمولته العادية من المواد الغذائية قائده فى بعض الأحيان . ويقدر طعام الجمل فى اليوم بـ ٧ مديبى . ولا تتجاوز حمولة الحمار أردباً واحداً .

ولا يستخدم فى أعمال الزراعة سوى الثيران (الجاموس) ، ويقدر طعام الثور بـ ٨ – ١٢ مدينى فى اليوم . وفى مصر العليا لا تقتنى قطعان الجاموس إلا من أجل ألبانها ، ولا يحاول الناس مطلقاً استخدامها فى تشغيل ماكينات الرى (السواقى) لأن هذه الماكينات ليست فى حمى من الشمس التى لا تستطيع هذه الحيوانات أن تتحمل لهيبها . ولكن فى الدلتا ، تستخدم ذكور الجاموس فى هذا العمل حيث الطقس هناك أكثر اعتدالا ، وفى نفس الوقت ، فقلما تكون السواقى ذات القواديس غير مظللة بشجرة أو أكثر من أشجار الجميز .

الفصل الرابع
عن حالة الفلاحين المصريين
نبذة موجزة عن إدارة القرى

تكفي التفاصيل التي انتهينا من إيرادها حول احتياجات وغذاء وأسلوب حياة الفلاحين ، لتوضيح أن خصوبة مصر لا تساهم في كثير في رفاهية أبنائها ، وأن الزراعة لم تلق هناك تشجيعاً كبيراً . ويعود ذلك إلى أن الفلاحين ليسوا هم المالكين لأرضهم ، وإلى أن الأرض في ظل حكومة المماليك كانت تئن تحت وطأة كل أنواع الضرائب التي يمكنها أن تتحملها ، وحيث كان المماليك أقل استعداداً للإفادة من تجارب الماضي بنفس الدرجة التي يهملون فيها التطلع إلى المستقبل ، فإن هؤلاء المماليك لم يكونوا يواجهون إلا اللحظة الحاضرة ، وحيث كانوا واثقين من أنهم سيحصلون عن طريق القوة القاهرة على كل ما يريدون ، فقلما كانوا يقلقون أنفسهم بتحسين حالة الأرض التي يمكن القول بأنهم لم يكونوا يستخدمونها إلا كطريق للمرور عليها ، وبمعنى آخر ، فإن الشكل الغريب لنظام حكمهم كان يقصي كل نظام متبع لإصلاح الأرض ، بينما يحتم إصلاح هذه الأرض درجة كبيرة من التقدم ، حتى يمكن أن تقرر القيام به مثل هذه المجموعة من الناس العارين من كل معرفة والذين لا يعرفون إلا الملذات والرفاهية .

وفي هذه الحالة من التدهور ، فقد تحسنت برغم كل ذلك ، تلك المنطقة الواقعة ما بين سيوط وقنا عند نحو منتصف القرن الأخير (الثامن عشر) ، وقد يبدو أنه قد بذلت هناك عناية كبيرة بصيانة الجسور والترع اللازمة للري ، ومع ذلك فقد كان الأمر - بالضبط - على نحو مخالف لما هو منتظر ، لأن المماليك في هذه الفترة لم يكونوا يحكمونها .

يسكن حواف النيل من جهة الشرق قبائل العربان القادمة مباشرة من اليمن ، ويسكنها من جهة الغرب قبائل عربية أخرى جاءت ، بعد أن كانت قد انتشرت في كل شمال أفريقيا والأجزاء الغربية من أوربا ، على فترات مختلفة ، لتقترب من تلك البلاد التي

كانت فى الماضى الوطن الأصلى لها ، وواصل البعض من هؤلاء العربان حياة التجوال والسكنى مع قطعانهم على تخوم الصحراء أما الآخرون فقد اقتربوا أكثر من هؤلاء من النيل وأصبحوا مزارعين .

وقد استقرت واحدة من تلك القبائل القادمة من ضواحى تونس منذ حوالى مائتين وخمسين عاماً فيما بين جرجا وفرشوط ، واستقرت فى البداية فى أراض لم تكن مزروعة على الإطلاق ، وقامت بتملك بعض القرى ثم استولت بالقوه على قرى أخرى. وانتهى الأمر بها أن احتلت كل الأرض الواقعة بين الهوارة والشيخ سليم وأصبح معظم أبناء هذه القبيلة المعروفة باسم الهوارة ملاكاً أثرياء وكانوا تحت إمرة شيخ كبير منهم يقيم فى فرشوط ، أما آخر هؤلاء المشايخ واسمه همام ، فقد حكم الصعيد ابتداء من سيوط حتى أسوان ، وكان يحصل الضرائب لحسابه الخاص ، مقدراً إتاوة سنوية تبلغ ١٥٠,٠٠٠ أردب من القمح كان يدفعها إلى بكوات وباشوات القاهرة .

وكان يمكن لنفوذ الشيخ همام ، الذى كان يسبب القلق منذ وقت طويل لحكومة القاهرة ، أن يزيد لغير ما حد بسبب شقاقات المماليك وانقساماتهم ، لو لم يستول على بك على السلطة المطلقة ؛ فما أن شعر على بك أنه قد حاز كل مقاليد السلطة بين يديه حتى سير ضد الشيخ همام جيشاً عهد بقيادته إلى محمد أبى الدهب رجله المفضل ، وتقدم الشيخ همام على رأس ٣٥,٠٠٠ فارس يقيمون فوق أرضه لإيقاف جيش أبى الذهب ، لكنه هزم مرتين بالقرب من سيوط ، وعندما تفرق فرسانه ، هرب إلى إسنا حيث مات فى عام ١٧٦٩ .

وكان أبناؤه أكثر من سعداء لأنهم استطاعوا أن يشتروا السلام بثمن دفعوه من ثروات آبائهم ، فقد جردوا من الجزء الأعظم من عقاراتهم ، ونكاد نحس أن سياسة البكوات منذ ذلك الوقت لم تعد تسمح بتعاظم شأن عائلة هدد نفوذها نفوذهم .

وإذا كان لنا أن نحكم على إدارة الشيخ همام من واقع السمعة التى تركها فى خلفه ، فيمكننا القول بأن مصر العليا كانت تنعم بالسعادة فى عهد حكومته ، فجميع السكان المصريين ، أثرياؤهم هناك ، وفقراؤهم ، مسلموهم وأقباطهم ،

يقدسون ذكراه ، وليس هناك من لا يتحدثون عنه ، مع تعبير بالأسف على الأمن الذى أقامه والعناية التى بذلها لصيانة الترع والجسور ، وعلى إزدهار الزراعة فى عهده ، وإذا كانت تشوب هذه القصص بعض المبالغات ، فإن هذه الشهادات المتحمسة تبرهن على الأقل أن الشيخ همام قد صنع بعض الخير للبلد الذى حكمه ، ومن هذه الزاوية فإن ذكرى اسمه ستظل باقية هناك لوقت طويل .

وقد أصبح الصعيد بعد موته ملاذا للبكوات الذين بدأوا يلاحقون بعضهم البعض بلا انقطاع ، وكان طموح كل هؤلاء الفارين يتركز كما هو معروف فى العودة إلى حكم القاهرة ، ولكن كان ينبغى لاكتساب الوسائل لتحقيق هذا الغرض أن تحمل الأرض بضرائب باهظة .. هكذا ارتبط تاريخ هؤلاء المنفيين بتاريخ تدهور الزراعة فى أرض الصعيد .

كان محمد أبو الذهب بعد أن طرده على بك هو أول مملوك يلجأ إلى الصعيد مع زميله إسماعيل ، وبعد ذلك عاد كلاهما إلى القاهرة ، وأرغما على بك على ترك العاصمة ثم أسراه بالقرب من العريش وأرسلاه إلى مصر حيث مات فيما يبدو مسموما . وفى نفس الوقت تقدم محمد أبو الذهب إلى سوريا واستولى على يافا ومات أمام عكا فارتد جيشه بلا نظام إلى القاهرة ، ونصب مراد وإبراهيم كاشفا بيته (بيت المملوك هو كل رجاله ومماليكه) بكوين ، وبدا عندئذ أن الحكومة قد انقسمت إلى عصبتين : العصبة الأولى هى عصبة بيت على بك وكان على رأسها حسن وإسماعيل ، والأخرى هى عصبة بيت محمد بك وكان يقودها إبراهيم ومراد . وما أن حلت الهزيمة بالأخيرة حتى انسحب أميراها إلى الصعيد فى عام ١٧٧٥ وكانا قد سيطرا على مجرى النيل ابتداء من بنى سويف إلى ما وراء أسوان عندما زحف إسماعيل ضدهما ، ولكن فجأة هجره رجاله ، وبخاصة رفيقه حسن فى لحظة التقاء الفريقين جنوب فرشوط . لذا فقد اضطر للهروب فانسحب إلى سوريا أولا ومن هناك مضى إلى القسطنطينية ثم اتجه بعد ذلك إلى درنة على الساحل البربرى (المغربى) .

وهرع مراد وإبراهيم إلى القاهرة ، ومن هناك حكما مصر كلها لمدة عام

بالتسيق مع حسن بك ، لكن الوئام لم يستمر طويلا بين هؤلاء الثلاثة ، فاتجه حسن بعد أن اضطر لإخلاء الميدان إلى السويس وأبحر من هناك مع بعض أصدقائه ورسا فى القصير ثم دهب ليقيم فى قنا . وعندما بلغ إسماعيل نبأ هذا الانشقاق الجديد أسرع إلى اللحاق بزميله (حسن) عابرا الصحراء المحيطة بالشاطئ الأيسر (الغربى) للنيل وجدد الأميران ارتباطاتهما القديمة ، وجمعا وسائلهما واتفقا على حماية البلاد الواقعة بين قنا وأسوان واقتسام دخولها .

كانت الأمور تسير على هذا النحو عندما كتب سافارى Savary وفولنى Volney رحلتيهما . ومنذ هذا التاريخ بدأت أقدار البكوات تعانى من تقلبات أكبر ؛ فما أن نزل قبطان باشا إلى مصر فى عام ١٧٨٥ حتى طرد إبراهيم ومراد من القاهرة ودعا إليه أميرى الصعيد (حسن وإسماعيل) وترك تحت إمرتهما جزءا من جيشه استخدماه فى مطاردة خصميهما القديمين واللدودين اللذين عادا أدراجهما إلى بنى سويف وقد انتهزا فرصة رحيل الجيش إلى القسطنطينية ليثبتا من جديد حدود حكومتهما دون أن يستطيع أحد أن يدفع بهما إلى ما وراء ذلك (إلى الجنوب) .

وأقام إبراهيم ومراد لمدة خمسة أعوام ، أولهما فى منفلوط والآخر فى جرجا حتى مات إسماعيل وبعض البكوات الآخرين وكثير من المماليك المرتبطين به ، ماتوا فى القاهرة بالطاعون ، وحدس الأمير حسن الانتقام الذى سيحل به على يد إبراهيم ومراد ، فهرب إلى الصعيد مرة ثانية بعد أن خانه وانفض من حوله العدد الكبير ممن أفلتوا من الطاعون ، وعاد إبراهيم ومراد حاكمين للقاهرة بدون قتال ، وسارا على الفور لمطاردة عدوهما . ودفعا به إلى ما وراء الشلال الأول ، وعندما أرهقتهما الحرب فى النهاية ، وعندما يئسا من هزيمته فى النوبة عقدا معه معاهدة صلح وحصل بموجبها حسن بك ، وعثمان وصالح اللذان تبعاه ، لكى يحافظا على بيتهما ، على دخول الأرض الواقعة بين أسوان حتى جبلين بشرط ألا ينزلوا مطلقا شمال هذه النقطة الأخيرة ، ومن أجل ضمان هذه المعاهدة ، سلموا اثنين من بكوات حزبهم (رهينتين) كان أحدهما لايزال يعيش بالقاهرة عندما استولى الفرنسيون على مصر .

وهكذا ، فإن الصعيد الذى تعاقب على حكمه منذ وفاة الشيخ همام بكوات هاربون كان يشغلهم أمر تدبير أمورهم ، لم يلق أى إصلاح على يد هؤلاء ، وهكذا أيضاً ظل أبناء الريف هناك يعيشون فى أقصى حالة من الضنك ، فالقرى مكونة من أكواخ من الطين ، تحيط بأعلها (القرى) خرائب تعلن تناقص عدد السكان ، ويعيش هؤلاء كما سبق القول وهم الذين يعملون لجزء من العام فى أعمال الرى الشاقة على خبز الذرة وبعض الخضروات ، وليس لهم من أثاث إلا عدد ضئيل من الآنية الفخارية وبعض الأوانى الحقيرة ، ولا يجدون إلا بشق الأنفس وسيلة لتحديدها من حاصل عملهم هذا إن تبق لهم شئ منه بعد دفع الضرائب .

ومن جهة أخرى ، فقد كان النفوذ الذى مارسه الشيخ همام على المناطق الأكثر مدارية (الصعيد الأقصى) من مصر قد شحب من كل القبائل العربية التى تحتل الطرف الأقصى من وادى النيل ، تلك السطوة التى كانت لها على الفلاحين فى أجزاء أخرى من مصر ، بفضل تأثير النظام الذى أقامته حكومته هناك ، وكان البكوات المنفيون من القاهرة يجدون هناك مصادر للدخل لم يكن لمناطق مصر الأخرى أن تهيئها لهم .

ويشغل شاطئ بحر يوسف على شمال (أى غرب) النيل وكذا ولاية أطفيح فى الجانب المقابل عرب أصبحوا مزارعين ويسيطرون على قرى عديدة . وعلى الرغم من تبنى هؤلاء العربان لنمط جديد من الحياة ، فإنهم مع ذلك لم يعدلوا عن عاداتهم القديمة ، وعلى وجه الخصوص عادتهم فى الحصول عن طريق القوة القاهرة على الشئ الذى لا يريدون الحصول عليه عن طريق العمل ؛ فهم يستولون عنوة على أجود الأراضى ، ويوجهون مجارى المياه (الترع) أثناء الفيضان ويقطعون الجسور فى أفضل الأوقات التى تناسبهم دون أن يشغلوا بالهم بخصوص مصالح جيرانهم إذا ما اعتقدوا أن هؤلاء ليسوا فى حالة تمكنهم من المقاومة . وهذا النمط من المزارعين الذين يمكن القول بأنهم يمسكون بالمحراث بيد ويمسكون الحربة (الحراب) باليد الأخرى ، يمارس نوعا من السيادة الاقطاعية على الفلاحين ، وحيث أنه من المستحيل دفعهم إلى سداد

الضرائب التى تتحملها الأرض المنزرعة بالنظر إلى ما يحوزون من صنوف المقاومة التى تدعم رفضهم ، فإن هذه الميزة التى انتحلوها لأنفسهم تتم على حساب السكان القدامى ، الذين يتزايد ما ينبغى أن يدفعوه بقدر ما يقل ما يدفعه أولئك (*) .

ويبلغ بهؤلاء العربان فى اغتصابهم للحقوق بدون أدنى مراعاة لعرف أو لأية قاعدة ولو كانت شكلية أنهم يستولون على محاصيل القرى الواقعة فى متناول أيديهم إذا كان المحصول الذى حصدوه من أراضيهم هم لا يكفى لمئونتهم ، وإن كانوا فى الواقع يتعهدون فى مقابل ذلك بتقديم نوع من الحماية إلى هذه القرى التى يصبح سكانها بهذه الطريقة بمثابة أتباع لهم (دافعى جزية) ومع ذلك فإن هذه الحماية ليست لها فاعلية على الدوام ، ذلك أن كل قرية تقع بين قبائل متعادية تسلب المرة بعد المرة وبالتبادل على يد كل من هذه القبائل المتشاحنة .

وإذا كانت محاورة العربان الذين أصبحوا فلاحين خطرة لهذا الحد بالنسبة للفلاحين ، فيمكن القول بأن على هؤلاء الأخيرين أن يخشوا وبدرجة أكبر أولئك العربان الذين لا يزالون يعيشون تحت الخيام ، والذين يأتون ليستقروا فى هذه النقطة مرة ، وفى تلك مرة أخرى ذلك انهم على الدوام مستعدون للاستيلاء على ما يرونه مفيدا لهم ، والهرب مع قطعانهم عندما تمكن هزيمتهم بواسطة قوات أكبر من تلك التى يملكونها .

وباختصار ، فليس هناك واحد من هؤلاء البدو لا يضع نفسه فى مرتبة فوق مرتبة الفلاح ، ويستشعر هؤلاء البدو نوعا من العار من القيام بنفس عمل الفلاح ، وحيث أن هؤلاء لا يعرفون حقاً أكثر مشروعية من حق القوة ، وأنهم لا يهاجمون فى العادة إلا الذين لا يمتلكون القدرة على الدفاع عن أنفسهم فإن المكاسب التى يحصلون عليها تجعلهم بشكل طبيعى فى وضع ينظرون معه لأنفسهم باعتبارهم الملاك الحقيقيين .

(*) انظر العرب والعربان فى مصر الوسطى ، وصف مصر ، تأليف جومار – المجلد الثانى فى الترجمة العربية . (المترجم) .

وفى نفس الوقت ، فليس فلاحو مصر الوسطى وحدهم هم الذين يقاسون من مجاورة العربان ! فبعض أجزاء ولاية الفيوم تتعرض بالمثل للانتهابات التى تأتى القبائل الجوالة لتمارسها هناك من وقت لآخر .

وفى الحقيقة ، فإن هذه القبائل التى تنتمى فى أصولها جميعاً إلى بلاد البربر (المغرب) متعادية فيما بينها ، ولربما كانوا ليدمروا بعضهم البعض لو أن ماشية الفلاحين ومحاصيلهم لم تكن بالنسبة لهم سلبا غير مضمون ، وهم يوحون بدرجة من الرعب حتى أن الناس يفرون عن كل شئ عند اقترابهم ، وفضلا عن ذلك فإنهم يتبادلون فيما بينهم الريبة والحذر الشديد .

وعندما عبرت ولاية الفيوم وجدت ثمة قبيلتين كانتا قد استقرتا هناك ، هما قبيلة الفرجان فى الشمال والسمالو فى الجنوب ، وتتكون كلتاهما من عربان ظل البعض منهم يحتفظ بعاداته الرعوية فى حين انتشر البعض الآخر فى القرى وتعودوا عادات الفلاحين . وفيما يبدو على الأقل ، فإن هذه القرى التى تتلقى الدعم من القبيلة التى ينحدر منها سكانها لم تكن تتعرض للسلب إلا على يد العصبة المناوئة ، أما تلك القرى التى لا تتلقى حماية من هذا النوع فيعيش أهلوها كيفما اتفق ، وهم يخشون على الدوام أن يدب الرعب بينهم فى أية لحظة إما على يد هؤلاء ، وإما على أيدى أولئك من هؤلاء الجيران الخطرين .

وتعد ضواحى المدن الكبرى التى تحتفظ فيها الحكومة ببعض القوات فى مأمن أكبر من غارات العربان ، لكن أغلب ريف مصر السفلى يتعرض كما هو الحال فى ولاية الفيوم للخراب والنهب على يد القبائل العديدة التى تجوب صحراوات قلزم السويس أو حواف بحيرة ماريوتيس (مريوط) ، إذ ، فجأة ، يجتار فرسان هذه القبائل نهر النيل ، ويحدقون بالقرى وينتزعون الدواب والأغذية التى يجدونها هناك .

وثمة ظرف خاص يستخدم ذريعة لتغطية هذه الانتهابات :

فأغلب سكان الدلتا ينقسمون فيما بينهم إلى حزبين متعاديين تحت اسم سعد وحرام ، ويسعى كل فريق إلى مضايقة الفريق الآخر بشتى الوسائل . وعندما

سئلوا عن أصل هذا الانقسام قصوا حكايات مضحكة أكدت عن يقين أنهم يجهلونه ، وبمعنى آخر فإن هذا الأصل لا يهمهم فى كثير . وحيث أن الأعمال العدائية بين الفريقين لم تتوقف مطلقاً فقد ظل لدى كل حزب على الدوام إهانات حديثة لابد من الانتقام منها .

وعلى الرغم من أن وجود هذين الحزبين أمر شائع بدرجة عامة فإن شيوخ (علماء) القاهرة الذين ينظر إليهم باعتبارهم يعرفون أكثر من غيرهم تاريخ بلادهم ليسوا على اتفاق حول الوقائع التى أدت إلى نشأة هذين الحزبين . وأكثر الأمور معقولية فيما سمعت ينحصر فيما يأتى :

فى أثناء الحرب الأهلية التى روعت الجزيرة العربية فى عهد الخليفة يزيد بن معاوية فى حوالى العام ٦٥ من الهجرة ، اتخذ الجيشان المتحاربان ككلمة يصمون تحت لوائها أثناء إحدى المعارك الليلية اسمى سعد وحرام اللذين كانت تعرف بهما عائلات رؤساء الجيشين ، وتشبث المحاربون من ذريتهم بهذين الاسمين وظلوا يطلقونهما على أنفسهم فيما بعد مما أدى إلى استمرار الشقاق ووضع عقبة كأداء فى سبيل تقاربهم ، أما العرب الذين جاءوا ليستقروا فى مصر على فترات مختلفة ، فقد حملوا معهم أحقادهم المتأصلة ضد بعضهم البعض ، عندما حملوا معهم اسم الحزب الذى كان ينتمى إليه أجدادهم ، واستمر هذا الحقد من جيل إلى جيل حتى اليوم .

وإلى هذه الانقسامات الداخلية ينبغى أن ننسب سطوة العرب البدو وكذلك الرعب الذى يحدثونه فى أعماق الدلتا ؛ فكيف نفسر أن عددا محدوداً من الفرسان يستولى بلا أدنى مقاومة فى العادة على قطعان كبيرة دون أن يكون بمقدور شعب كبير العدد أن يذود عنها بالقوة المسلحة ؟ علينا أن ندرك إذن أن هؤلاء العربان يثقون على الدوام أنهم سيتلقون النجدة والحماية على يد قرى الحزب المناوئ للحزب الذى ينهبونه ، وحيث أن هؤلاء العربان لا يحتفظون لهم بعلاقة مع أى فريق من هذين الفريقين إلا بقدر ما تمليه مصالحهم الوقتية ، فإنه يظل بمقدور هؤلاء أن يمارسوا سرقاتهم فى ربوع البلاد دون أن يلقوا عقاباً .

أما عن الإدارة الداخلية للقرى ، فيهض بها – بدرجة تتفاوت فى فاعليتها – شيخ واحد أو أكثر من شيخ يقومون بحماية الضرائب مع المحصلين الأقباط ، وتهيئ لهم هذه الوظائف نفوذاً أكيدا يسيئون استخدامه فى بعض الأحيان . وباختصار فإن هؤلاء المشايخ المنقسمين على أنفسهم من قرية لأخرى يسلحون فلاحى البعض ضد البعض الآخر عند أبسط الذرائع ، ولا يتوانى المماليك فى دعم هذه الانقسامات التى يتأكد بفعلها نفوذهم وسلطتهم .

الفصل الخامس
عن المحاصيل الزراعية فى مصر

تخصص المحاصيل التى تزرع فى مصر لتغذية الإنسان ، أو تستخدم كعلف للماشية ، أو تستعمل فى صناعات متنوعة .

ونصف هنا طريقة زراعة كل من هذه المحاصيل على حدة .

١ - زراعة القمح

يزرع القمح (triticum) فى كل أنحاء مصر إبتداء من أدفو ، على بعد حوالى ثمانية عشر فرسخا إلى الشمال من أسوان ، حتى الطرف الشمالى من الدلتا ومع ذلك فليست كل مناطق مصر متساوية فى قابليتها لهذه الزراعة ، كما أن طرق الزراعة تتنوع حسبما إذا كانت الأراضى تروى من مياه النيل بشكل طبيعى ، أو أنها تروى بطريقة صناعية ، سواء بسواعد الإنسان ، أو بمعاونة الدواليب ذات القواديس التى يطلق عليها كذلك اسم ساقية .

أما أكثر مناطق مصر التى تجود فيها زراعة القمح ، هابطين من الجنوب إلى الشمال فهى ولايات طيبة ، وجرجا ، وسيوط ، والمنيا ، والقاهرة ، والمنوفية ، والمنصورة .

ويبدأ البذر بعد انحسار مياه الفيضان مباشرة ، أى عند بداية شهر أكتوبر ، وذلك فى مصر العليا ، أما فى الدلتا ، فيتم الأمر بعد هذا الوقت بخمسة عشر يوماً ، وتحرث الأرض حرثة أولى بواسطة محراث خفيف للغاية (١) ، ويجر هذا المحراث ثوران يقودهما رجل واحد . ويلزم يومان من العمل لحرث فدان واحد .

وعندما تكون الأرض قد ظلت لوقت طويل غارقة بالمياه ، كما يحدث مع تلك

---

(١) نجد رسما لهذا المحراث بين رسوم الأثاثات والأدوات : الفنون والحرف ، اللوحة التاسعة ، الصورة الأولى ، وكذلك اللوحة M M

الأراضى الواقعة بين الجسور العرضية التى تقطع وادى مصر العليا ، فإنها لا تحتاج إلى هذه الحرثة الأولى . ويتم البذر بينما الأرض لا تزال موحلة فتبذر البذور « على الطائر » كما يحدث فى أوربا .

وتبلغ كمية البذور المستخدمة فى الصعيد $\frac{1}{2}$ أردب فى العادة لكل فدان ، ويستطيع شخص واحد بمفرده وبسهولة ، أن يتم بذر الفدان فى يوم واحد .

وعندما تبلغ الأرض درجة معينة من التماسك ، بعد انحسار المياه ، يقوم الفلاح بتغطية البذور بحرثة ثانية ، وإذا ما كانت الأرض قد غمرت بالمياه لوقت طويل ، وإذا ظلت ، بعد البذر ، رطبة وموحلة ؛ فإن البذور تغطى بواسطة زحافة ، هى عبارة عن جذع نخلة ، يجرها بالعرض ثوران .

وفى مختلف ولايات مصر العليا ، لا تتطلب زراعة القمح الذى يبذر فى أرض تروى بشكل طبيعى ، أى عمل ابتداء من وقت البذر حتى وقت الحصاد ، أى خلال خمسة إلى ستة أشهر .

ويتم الحصاد عند نهاية شهر مارس أو بداية شهر إبريل . وتسمح حالة الجفاف التى تكون عليها الأرض ، وكذا الشقوق التى تقطعها ، باقتلاع المحصول بجذوره بسهولة بالغة ، ويقسم المحصول إلى حزم صغيرة ، تزن الواحدة ١٠ إلى ١٢ رطلا . وتكفى أربعة أيام عمل لرجل واحد لحصاد فدان من القمح ، ويحصل الحاصدون على أجورهم حبوباً : ويقدر أجر العامل عن اليوم الواحد بربعة أو $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب .

وتنقل حزم القمح على ظهور الجمال إلى جرن ممهد على مسافة ضئيلة من الحقل ، وتحتوى حمولة الحمل الواحد عادة على ٣٠ حزمة . وتوضع بعضها فوق بعض ، بطريقة تشكل دائرة يبلغ قطرها حوالى عشر خطوات فى وسط الجرن ، ويبسط حول المدار ، الذى يبلغ قطره حوالى ٢٠ إلى ٢٥ خطوة، طبقة من حزم تم فكها ، ويمرر فوقها نوع من عربة أو كرسى متحرك يسمى : نورج ، وقد سبق أن قدمنا وصفاً له ، وحين ينفصل الحب عن سنابله ، بهذه الطريقة ، وحين يتم هرس القش بالدرجة الكافية ، فإنه يجر بواسطة أمشاط كبيرة من الخشب (مذراة) إلى

خارج مسار النورج ، الذى توضع فيه ما بين كل نصف ساعة وآخر حزم جديدة من القمح . أما الثيران التى تجر النورج فيتم تغييرها كل ساعة . ويبلغ أجر الثور الواحد فى اليوم ، مثله مثل أجر العامل $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب قمحاً ويلزم يوما عمل، أو يومان ونصف اليوم ، لدرس محصول فدان واحد ، يستخدم خلالها أربعة من الثيران وعاملان . وفى العادة ، تنتج كل ٧٢ حزمة من القمح اردبا من الحبوب ، يزن حوالى ٢٧٥ رطلا أى ما يعادل ١٢٥ كيلو جراما .

وفى إدفو ، وهى كما سبق القول أكثر منطقة مدارية يزرع فيها القمح فى مصر ، يكتفى بهرس حزم القمح المبسوطة فى الجرن تحت أقدام الثيران . وقش هذه المنطقة فى العادة بالغ الجفاف والنعومة حتى أنه يتحول بعد أن يتعرض لهذه العملية لوقت قصير ، إلى تبن بنفس الدرجة التى كان يمكن أن يتحول إليها لو أنه كان قد درس بواسطة النورج .

وحين ينتهى درس القمح فإنه يذرى ، وذلك بتعريضه للهواء بواسطة شوكة خشبية متقاربة الأسنان (المذراة) ، وبهذه العملية تنتهى عادة كل مراحل الحصاد ، ويسدد عيناً أجر كل هذه الأعمال ، بما فيها التذرية ؛ أى بقمح تم درسه ، ويبلغ إنتاج الأرض ، بعد استبعاد هذه المصاريف ١٢ إلى ١٤ مثلا (من كمية البذور) ، وتكاد تحصل كل الضريبة المفروضة على هذه الأراضى عينا ، وتشكل هذه الجزء الأكبر من القمح الذى يصدر خارج مصر .

وثمة اختلافات تتناول زراعة وإنتاج هذه الحنطة فى الفيوم وولايات الدلتا . وهكذا تترواح كمية البذر لفدان واحد فى هذه المناطق ما بين $\frac{١}{٢}$ إلى $\frac{٣}{٤}$ الأردب ، وبذلك يتضح أنها أكبر قليلا من كمية البذر المستخدمة فى الصعيد لنفس المساحة من الأرض .

أما أراضى الدلتا ، فتحرث كلها بشكل عام قبل البذر . وفى بعض الأحيان يعلق فى المحراث جاموس بدلا من البقر كما أنه لا تروى مطلقا بعض الأراضى بعد بذرها ، وإن كانت هذه الأراضى لا تمثل إلا أقل القليل من تلك المساحة من الأرض

التى خصصت لزراعة هذا المحصول ؛ أما بقية هذه الأرض ، فإنها على الرغم من أن المياه تغمرها بشكل طبيعى ، تروى مرتين : مرة بعد انتهاء البذار بستين يوماً ، وأخرى بعد البذر بتسعين يوماً .

ويتم الرى عن طريق دواليب ذات قواديس (سواق) ولرى فدان واحد يلزم يومان ونصف اليوم تعمل خلالها واحدة من هذه الماكينات (السواق) بشكل دائم .

وتكون سيقان نبات القمح فى مصر السفلى أعلى منها فى الصعيد ؛ مما يسمح بحصدها بواسطة المنجل .

ويستطيع ثمانية أو عشرة رجال أن يحصدوا فداناً من القمح خلال يوم واحد ، وحيث تكون البذرة أقل جفافا عنها فى مصر العليا ، وحيث أنها (هنا) أكثر التحاما بسنبلتها فإنه يلزم ثلاثة أيام عادة لدرس محصول فدان واحد ودرس تبنه . ويتطلب عمل النورج ، كما هو الحال فى الصعيد، رجلين وأربعة ثيران .

ويحصل عمال الحصاد فى الدلتا كذلك على أجورهم عينا ، وإن كان هذا الأجر يقدم لكل منهم هنا فى شكل حزم من القمح بدلا من القمح المدروس .

وعندما يبذر القمح فى تلك الأراضى التى لا تغمرها مياه الفيضان ، وإن كانت تقع بجوار النيل أو الترع ، فإن الأمر يستوجب ريها أربع مرات أو ست بواسطة الدلو أو الشادوف .

وتنتج أفضل أراضى الدلتا محصولا من القمح أقل مما تنتجه مثيلاتها فى مصر العليا ، إذ يبلغ إنتاجها نسبة ١٠ : ١ (*) ، بل إن بعضها لا ينتج سوى ستة أو سبعة (إلى واحد) . وعموما فإن قش (سيقان) القمح ، الذى يروى بطريقة صناعية ، يكون أطول من قش القمح الذى لا يروى مطلقاً بهذه الوسائل . وفى الحقيقة فإن محصول القمح الذى يشار إليه باسم شتوى (أى الذى يزرع شتاء) يفوق إنتاج محصول القمح البياضى، وإن كانت مصاريف الرى تجعل منه (أى من الشتوى) أكثر

(*) بالنسبة لكمية البذور (المترجم)

تكلفة . ويتم حصاد القمح فى كل من مصر العليا ومصر السفلى بواسطة المنجل .

وتوجد فيما بين سقارة وبنى سويف أراض مرتفعة ، يضطر الناس لحرثها بواسطة المجرفة ، ويتطلب حرث الفدان عشرين يوم عمل ، وحيث أن مثل هذا العمل شاق للغاية ، فإن أجر يومية العامل يصل عادة إلى ١٥ مدينى أى ما يزيد بمقدار الثلث عن يومية العامل الذى يقوم بأعمال الرى .

وقش القمح المهروس (التبن) هو الغذاء المعتاد للخيول ولكل الحيوانات التى تستخدم فى أعمال الزراعة ، وعلى العموم فإن أراضى الصعيد تنتج عدداً من حمولات الجمل من القش المهروس يساوى عدد أرادب القمح التى تغلها ؛ ولكن إنتاج التبن من القمح المزروع فى الدلتا يزيد عن ذلك زيادة طفيفة .

وتحصل أسواق القاهرة على مئونتها من القمح من غلال الصعيد ومصر السفلى ، وتبلغ زنة الأردب من النوع الأول ٢٦٤ رطلا ، فى حين يزن الأردب من النوع الثانى ٢٩٢ رطلا من زنة مارك (١) .

ثانيا : زراعة الذرة والذرة الشامية

يزرع الذرة (holcus sorghum) فى كل أقاليم مصر بدءاً من جزيرة الفانتين حتى القاهرة ؛ فهى الحبوب التى تشكل الغذاء العادى للفلاحين ، ويبذر الذرة على فترتين ، الأولى عند حوالى منتصف مايو ، والثانية عند نهاية شهر أغسطس .

ويسبق هذان البذران ، كما نرى ، غرق الأراضى بفيضان النيل : وهكذا تتطلب زراعة الذرة على الدوام رياً صناعياً ؛ وعلى ذلك فإن الأراضى التى تصلح أكثر من غيرها لهذه الزراعة هى التى تكون أكثر اقترابا من النهر أو من الترع التى تحتفظ بالمياه طيلة العام .

---

(١) انظر فى نهاية هذه الدراسة ، الجداول الموثقة (رقم ١) ، وكذلك التقرير الذى أعد للقائد العام حول صناعة الخبز .

(Dècade egyptienne , tom III, Pag . 129)

وهبوطاً من جزيرة الفانتين حتى إدفو (أى مع الاتجاه شمالا) ، يزرع هذا المحصول مرتين فى العام ، لكنه لا يزرع تحت (شمال) إدفو ، وفى بقية أنحاء مصر إلا فى الصيف ، خلال تلك الفترة من العام التى تسمى القيظى .

وينمو فى معظم الأراضى التى ترتفع بعض الشىء ، وبشكل تلقائى نوعان من النباتات ، يسمى أحدهما حلفا (Poa multiflora) ، وهو يستخدم فى صنع الحصر ، أما الثانى ، ويطلق عليه اسم عاقول (hedysarum alhagi) فيستخدم مرعى للجمال . وحين يراد زراعة هذه الأراضى بالذرة فإن الناس يبدأون ذلك بإحراق هذه النباتات وهى واقفة (أى بدون انتزاعها) ثم يقومون بعد ذلك بحرث الأرض ، وبعدها يقسمونها إلى مربعات (أحواض) عن طريق جسور صغيرة تتقاطع بزوايا مستقيمة ، تحفر فى قمتها جداول تقوم بنقل المياه إلى كل واحد من هده الأحواض . وهذه الجسور الصغيرة ، التى ترتفع إلى ٢ – ٣ ديسيمترات (٢٠ – ٣٠ سم) ، تقام بشكل بالغ العجلة بواسطة نوع من المكشطة تسمى مسوجة التى تستخدم فى وقت معاً فى تحديد (تجهيز) الأرض وفى إقامة الجسور فيما حول الأحواض ، ويقام منها عادة فى الفدان الواحد إذا كان يقع بالقرب من النيل نحو المائتين ، وإن كان هذا العدد يزيد حسب درجة ابتعادنا عن المصدر الذى ينبغى أن يمدنا بالمياه اللازمة للرى .

ويتطلب تجهيز الأرض على هذا النحو يومى عمل وبعد ذلك يقوم الفلاح بواسطة الفأس بحفر حوالى ٦٠ أو ٨٠ حفرة صغيرة (نقرة) عمق كل منها أربعة قراريط ، وذلك فى كل واحد من هذه الأحواض ، ثم تبذر فى كل حفرة من هده الحفر بعض بذور الذرة .

وتبلغ كمية البذار (للفدان الواحد) من $\frac{١}{٢٤}$ إلى $\frac{١}{١٢}$ من الأردب ، ويستطيع القيام بذلك ثمانية إلى عشرة رجال يعملون لمدة يوم واحد ؛ يحصل كل منهم مقابل ذلك على ٨ – ١٠ مديبى .

ويبدأ الرى بمجرد أن تغطى البذور ، ويستمر هذا الرى بلا إنقطاع خلال الأيام العشرة الأولى ، بهدف تأكيد إنباتها واسرع نموها .

ويتم هذا الرى فى جزيرة الفانتين بواسطة الدولاب ذى القواديس (الساقية) وتستطيع كل ساقية أن تروى من ٥ – ٦ فدادين ؛ وفى الجهات الأخرى يتم الرى بيد الإنسان وبواسطة الدلو .

وخلال الفصل المسمى القيظى ، الذى يتفق حلوله كما سبق لنا القول مع أكبر انخفاض لمياه النيل ومع أقصى درجات الحر فى الصيف ، يتم الرى كل أسبوع ، على ثمانى مرات متفرقة ، ويلزم استخدام أربعة أو ستة رجال لرى فدان واحد ، فى مدة يومين .

وفى بعض قرى الفيوم ، لا تحرث الأراضى المخصصة لزراعة الذرة مطلقا قبل عملية البذور : فتصنع الحفر (الجورة) التى ستوضع فيها البذور بالفأس (المنقرة) ، وبعد أن تتم تغطيتها ، تعطى ريتين متتاليتين . وبعد ذلك يشق المحراث بين صفوف البذور خطوطاً يبلغ عمقها من ٢ إلى ٣ ديسيمترات ، تستبقى فيها المياه بارتفاع معين يكفى لغمر جذور هذه النباتات بالقدر المناسب ؛ وينمو المحصول بسرعة ويبلغ درجة النضوج بعد ثلاثة أشهر من البذر . وخلال هذه المدة تقتلع الحشائش بعناية من حقول الذرة ؛ كما تقتلع السيقان الضعيفة أو التى تأخر نموها والتى يمكنها ، ما أن تصل إلى نفس الأرومة أن توقف نمو السيقان الأساسية (المحصول الأساسى) ، وتستخدم هذه كعلف للماشية .

وعندما تقترب الذرة من نضوجها ، يعنى الفلاحون عناية كبيرة بمنع الطيور من أن تحط على سيقانها حتى لا تأكل حبوب الذرة وهى فى سنبلتها . وحيث أن هذه السيقان ترتفع عادة ليبلغ طولها نحو المترين ، فإن الناس يقيمون من مسافة لأخرى فى حقول الذرة أكمات من الأتربة يصعد فوقها الرجال الذين « يهشون » الطيور بصيحاتهم .

وعلى الرغم من أن زراعة الذرة القيظى أمر بالغ المشقة فى مصر العليا ، إذ تتطلب فى بعض الأحيان ما يقرب من مائة يوم عمل لرى كل فدان ، فإن الناس هناك مضطرون للجوء إليها كغذاء للسكان الذين لا يزرعون القمح أو الشعير إلا من أجل تسديد الضريبة أو لإرساله إلى أسواق المدن الرئيسية التى يصدر منها .

وعندما يصل الذرة إلى مرحلة نضوجه ، فإنه يقطع عند ارتفاع حوالى ٢ ديسيمتر من سطح الأرض بواسطة نوع من المنجل أصغر حجما وأقل تقوسا من النوع المستخدم فى فرنسا . ويلزم عشرة من الحاصدين لقطع محصول الفدان فى يوم واحد، وفى بعض الأحيان تعرض رءوس النباتات (شواشيه) للشمس وبعد ذلك توضع فى حرن حيث تطؤها أقدام الثيران . ويمكن لثورين إذا عملا لمدة خمسة أيام أن يدرسا إنتاج فدان . وتنظف الحبوب عن طريق تعريضها للهواء (تذريتها) بواسطة مذراة خشبية ؛ وأخيراً توضع فى أكوام تغطى بالحصر ، أو تحفظ فى قفف مصنوعة من سعف النخيل .

قلنا إن المحصول الأول من الذرة القيظى يتم فى أغسطس فى المنطقة الأكثر مدارية من مصر ، وبعد ذلك مباشرة يبدأ إعداد نفس الأراضى من جديد لاستقبال الذرة الانبارى ؛ وهنا تتبع نفس الأساليب السابق ذكرها سواء عند الزراعة أو عند الحصاد ؛ ومع ذلك ، فحيث يكون النيل فى هذه الفترة من العام فى أقصى ارتفاع له ، فإن عملية الرى تتطلب جهداً أقل بكثير ، بل إن هناك مناطق فى جرجا وسيوط يرتفع فيها الفيضان فى بعض الأحيان لحد يكفى لتغطية الأراضى التى بذرت فيها الذرة بعلو يبلغ عدة سنتيمترات . وتسمح هذه الظروف بإيقاف عمليات الرى الصناعى لمدة تقرب من شهر ؛ وبعد ذلك يستأنف الزراع عمليات الرى هذه ، ويجددونها بواقع مرة كل عشرةِ أيام ، إلى أن يحين موعد الحصاد .

ويبلغ محصول الفدان من الذرة القيظى عادة ستة أرادب ، فى حين يزيد عن ذلك بكثير محصول الفدان من الذرة الأنبارى ، إذ يبلغ فى بعض الأحيان ١٠ إلى ١٢ أردبا ؛ ويبلغ متوسط ثمن الأردب ١٣٠ مدينى ، ولا يزرع فى مناطق مصر الواقعة إلى الشمال من جرجا سوى الدرة الانبارى ، فمع الاتجاه شمالا بطول النيل يتطلب الذرة وقتاً أطول للنضوج ، كما يتطلب مجهودات أقل بكثير فى عملية ريه .

ويبذر الذرة فى الفيوم وفى ولايتى بنى سويف والجيزة مع بداية شهر يولية ،

ويظل فى الأرض مدة أربعة شهور ، ولا يروى إلا بواقع مرة كل عشرين يوما ، ويحصد فى بداية نوفمبر

ولا تفصل الحبوب عن **سنابلها** عن طريق وطء هذه **الكيزان** بأقدام الثيران كما يحدث فى مصر العليا : وإنما بتعريض هذه الكيزان للشمس لمدة خمسة عشر أو عشرين يوماً ، ثم تضرب بالعصى ؛ ويلزم لعامل واحد أن يشتغل لمدة عشرة أيام كى يدرس محصول فدان واحد ، وحيث أن حبوب هذا المحصول نادراً ما تصدر من المناطق التى ترزع فيها ؛ وحيث قد لا تجد الحكومة وسيلة للعمل على بيعه فى أسواق المدن ، فإن الضريبة التى تفرض على الأرض التى تبذر فيه تحصل نقداً ، وعادة ما تدفع الأراضى التى تزرع محصول الذرة القيظى الضريبة بواقع ٣ بوطاقات للفدان ؛ أما التى تزرع بالمحصول الانبارى فتدفع ٥ بوطاقات عن نفس المساحة : مما يوضح بشكل تقريبى النسبة بين إنتاجى المحصولين ، وتدفع مصاريف بذر الذرة وريه نقداً بصفة عامة ، بواقع ٨ إلى ١٠ مدينى مقابل يوم العمل ؛ وعلى العكس من ذلك أعمال الحصاد إذ تدفع مقابلها عينا فى شكل حزم وأحياناً فى شكل حب مدروس .

وفى العادة ، فإن الفدان ينتج عدداً من حمولات الجمل من سيقان الذرة يساوى ما ينتجه من أرادب من الحبوب ؛ وتباع حمولة الجمل من هذه السيقان بـ ٨ إلى ١٢ بارة ، وتستخدم هذه وقوداً وذلك بعد تجفيفها ؛ ويكاد يكون هو الوقود الوحيد المستخدم فى مصر العليا لانضاج الطوب الأحمر والفخاريات وفى صناعه الجير وفى الأغراض المنزلية الأخرى .

ويستخدم قش الذرة كذلك فى تغطية (عمل سقوف) الأكواخ .

وأخيرا فإن العربان والمزارعين فى ضواحى أسوان وطيبة يشكلون من هذا القش حزماً يضعونها تحت صدورهم ليستطيعوا العوم بأقل جهد حين يعبرون النيل .

ويطلق المصريون اسم الذرة الشامية على ما نسميه نحن بالقمح التركى ؛ وهو يزرع بكميات ضئيلة فى ضواحى قنا ؛ ولزراعته تعد الأرض على نفس النحو الذى تعد به لزراعة الذرة البلدية ؛ وتبذر بذوره فى شهر أغسطس ، ويروى لمدة ثلاثة

شهور ، ثم يحصد بعد الشهر الرابع . ويقطع النبات ، وتنزع السنابل عن سيقانه وتحفظ للحصول على حبوبها بقدر الحاجة ، ويبلغ محصول الفدان فى بعض الأحيان ١٠ إلى ١٢ أردبا ؛ ويخلط دقيق هذه الحبوب بدقيق القمح ؛ وفى بعض الأحيان يستخدم الذرة وحده فى صنع خبز الفلاح .

وفى بعض مناطق الدلتا يحل محصول الذرة الشامية ، وهو الذى لا يعد فى الصعيد سوى محصول مساعد ، محل الذرة الصعيدية ، التى تعد فى هذه المناطق غريبة تماماً .

وتخصص بعض الأراضى فى ضواحى طنطا وسمنود بالذات لزراعة الذرة الشامية ، وتبدأ عمليات الزراعة بتغطية هذه الأراضى بطبقة رقيقة من الرماد أو من الأنقاض التى توجد حول القرى . ولتغطية أرض فدان واحد تلزم عادة ٢٠ أو ٢٤ حمولة حمار . وتبذر البذور فى خطوط خطها المحراث ، ثم تسوى أرض الحقل بتمرير جذع نخلة تجرها الثيران فوقها بشكل أفقى ، ثم تقسم فى النهاية إلى مربعات (أحواض) لريها .

وتبذر الذرة الشامية فى انقلاب الصيف ؛ ولبذر فدان واحد يلزم عادة $\frac{٦}{٢٤}$ من الأردب من بذره ، ويبدأ النبات فى الظهور على سطح الأرض بعد ستة أيام من البذار ؛ ويروى مرة كل خمسة عشر يوما حتى وقت الحصاد وهو يتم قرب اعتدال الخريف ؛ ويتم رى الذرة الشامية بيد الإنسان ؛ ويستطيع خمسة رجال أن يرووا الفدان الواحد فى طرف يومين ، ويحصل كل منهم (مقابل ذلك) على ١٢ مدينى .

ويكفى خمسة أو ستة حاصدين لكى يتموا حصاد محصول فدان من الذرة الشامية فى يوم واحد ؛ وهم يستعملون المناجل (فى ذلك الغرض) . أما عن أجورهم ، فإنهم يحصلون عليها عينا ، ويعطون من حزم الذرة ما يستطيعون حمله .

وفى العادة يعطى الفدان ذو الـ ٢٤ قيراطاً أربعة أو خمسة أرادب من الحبوب متوسط ثمنها ٢ بوطاقة : وهكذا يبلغ إجمالى إنتاج هذا المحصول ما نسبته حوالى ١٨ إلى ١ (بالنسبة لكمية البذور) ؛ دون أن ندخل فى ذلك قيمة القش الذى لا يستخدم إلا باعتباره وقوداً .

وتنقل الذرة الشامية على ظهور الجمال إلى مكان يقع على مشارف القرية ، وهناك تقوم النسوة والأطفال بفصل السنبلة عن الساق ، وبعد ذلك تجرد هذه السنابل من الأوراق الكبيرة التى تغلفها . ويستطيع خمسة عشر أو ستة عشر من هؤلاء العمال أن يجهزوا على هذا النحو خلال يوم عمل واحد محصول فدان ؛ ولكى تجف السنابل على نحو تام فإنها تعرض للشمس لمدة ١٢ إلى ١٥ يوماً ، وبعدها تخزن ، ويدرس منها على قدر الحاجة بغرض فصل الحبوب عن السنابل ، وبعد ذلك مباشرة ، وقبل تحويل هذه الحبوب إلى دقيق ، فإنها تتعرض داخل أحد الأفران لنوع من « التحميص » ، أما سنابل الذرة الشامية التى لا تزال خضراء ، فتجمع فى شكل حزم تتكون من خمس أو ست سنابل ، ثم تشوى ، فتشكل بهذا الإعداد نوعاً من الغذاء يقبل عليه الأطفال بنهم شديد . وعلى هذا النحو وحده ، يستعمل فى صعيد مصر هذا القدر الضئيل من الذرة الشامية التى تزرع هناك .

ثالثا : محصول الأرز

لا يزرع الأرز (Oryza Sativa) إلا فى الجزء الشمالى من مصر السفلى الواقع بين البحيرات التى تحيط بساحلها وبين خط مستقيم يقتسم الدلتا من الرحمانية على الفرع الغربى للنيل حتى المنصورة على الفرع الشرقى لهذا النهر . وهذه الأراضى مخصصة لزراعة هذا المحصول،حيث قلما يهبط مستوى منسوب النيل هناك بالقرب من مصبه ، فى موسم المياه الواطئة ، إلى أكثر من متر أو متر ونصف المتر عن مستوى المنسوب العالى الذى يبلغه خلال فترة فيضانه ، بحيث يكون ميسوراً هناك بأفضل مما هو فى أى مكان آخر أن تعطى لحقول الأرز نوبات الرى الدائمة التى تحتاج إليها .

وتتم نوبات الرى بواسطة الدواليب ذات الأسنان (الساقية) والتى تقام على محرور (خزان مياه) مستطيل الشكل تصل إليه مياه النيل أو الترع بواسطة إحدى الحفرات .

وفى صواحى دمياط ، تلزم فى العاده ثلاثة من هده الدواليب لرى مساحة سلع عشرة فدادين وحيث أن مستوى (سطح) مطقة رشيد أقل (من أراضى دمياط) ارتفاعا عن مستوى مياه النهر ، فإنه تكفى واحدة من هده الماكينات لرى نفس العدد من الأفدنة والتى تبلغ (مساحتها) بالنسبة لمساحة مثيلاتها فى دمياط ، فضلا عن ذلك ، نسبة حوالى ٦٠ إلى ٧٠ ، وتبعاً لصغر أو كبر قطر هده السواق ذات الأسنان ، فإنه يستخدم ثور أو ثوران لتشغيلها ، وتحتاج السواق الصغيرة إلى أربعة ثيران ، أما الأخرى فتحتاج إلى ستة من الثيران لخدمتها اليومية

وحيث أدى أحد الأوبئة التى اجتاحت الماشية عام ١٧٨٤ إلى تقليل عدد هده الثيران بشكل كبير ، فقد بدأ الناس فى هذه الفترة ، يحلون الجاموس محل الثيران فى أعمال الرى ، ومنذ ذلك الوقت ظلت الجاموس تستخدم فى هذا الغرض .

ويراقب حركة ماكينات الرى ، رجلان يتناوبان العمل ، كما يعنيان فى نفس الوقت بالثيران أو الجاموس التى تعمل فيها .

ويقوم الزراع الذين يقيم عندهم هؤلاء الأجراء بإطعامهم ، ويعطونهم زيادة على ذلك ٥ أو ٦ بوطاقات ، مكافآت سنوية .

ويبذر الأرز عند بداية شهر أبريل ؛ وقبل وضعه فى الأرض ، يملأ قفف منه ويغمر لمدة خمسة أو ستة أيام فى النيل أو فى واحدة من الترع المتفرعة عنه ؛ وبعد أن تشرب البذور القدر الكافى من المياه ، تبسط على حصر ، ويشكل منها أكوام يغطونها بالعشب ؛ وتسرع الحرارة المتولدة عن ذلك بعملية الانبات ؛ وبعد أن يكون الجنين (القمة النامية) قد نما بشكل كاف ، يوضع الأرز فى الأرض (يبذر) .

أما الأرض المخصصة لاستقبال البذور ، فتظل فى البداية مغطاة بالمياه لعدة أيام ، وتحرث بعد ذلك فى اتجاهين مختلفين ، بتقاطع أحدهما مع الآخر بشكل عمودى ؛ ثم تحرث للمرة الثانية وتغمر بعدها بالمياه ، ثم يمرر فوقها ، بقصد تسوية سطحها ، جذع من النخيل ، يجر بشكل أفقى ؛ وتنظف الأرض بعد ذلك بواسطة ما يشبه الشوكة ؛ وفى هذه الحالة تكون الأرض بعد موحلة ، ويبذر فيها الأرز وهى لا تزال على هذه الحال .

أما الأردب المستخدم فى كيل الأرز فليس على الاطلاق هو نفس أردب القاهرة ؛ بل إن أردبى رشيد ودمياط يختلفان فيما بينهما فى التسمية وفى السعة.

وتبلغ نسبة أردب رشيد إلى أردب القاهرة ما قيمته ١٣ إلى ١٢ ؛ فى حين أن أردب دمياط والمنزلة ، وهو الذى يسمى ضريبة ، ييبلغ ما قيمته ٣٦ إلى ١٣ بالنسبة لأردب القاهرة .

وفى دمياط وضواحيها ، يبذر $\frac{٣}{٨}$ من الأردب من الأرز لكل فدان مساحته ٦٨٧٧ متراً مسطحاً ؛ وعلى هذا فإنه يستخدم فى مساحة معطاة (بعينها) كمية من البذور تعادل ضعف كمية بذور القمح التى تستخدم فى نفس هذه المساحة . وإن كان جزء من أعواد الأرز التى تنتج عن هذا البذر ينبغى لها أن تستزرع مرة أخرى فى مكان آخر ، كما سنذكر بعد قليل .

وبعد ثمانية وأربعين ساعة من البذر ، تغمر الأرض بمياه يبلغ علوها نحو خمسة سنتيمترات وتترك المياه فيها لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، تصرف بعدها لتستبدل بها مياه جديدة ، تظل هناك لنفس المدة ، وتتكرر هذه العملية حتى الحصاد . وبعد حوالى عشرين أو ثلاثين يوماً من البذر ، تبعاً لما إذا كان نمو النبات أكثر أو أقل سرعة ، يبدأ الناس فى عزق حقول الأرز ، ويعنون بتنظيفها على هذا النحو كلما تكاثرت فيها أعشاب غريبة .

وتتم عملية نقل شتلات الأرز عند نهاية شهر يولية . وتحدث هذه العملية فى العادة بالنسبة للأراضى التى سبق أن كانت مزروعة بالقمح ، والتى لم يكن قد سبق حصادها بعد وقت بذر الأرز .

وتحرث الأرض التى ينبغى أن تنقل إليها شتلات الأرز بواسطة المحراث أو تعزق بالفأس ، وتروى بعد ذلك ثم تسوى بواسطة جذع نخلة ، مثلها مثل الأراضى التى تعد لبذر الأرز . وبعد ذلك ينقل حوالى نصف السيقان التى ينتجها الحقل المبذور بالأرز إلى حقل بنفس المساحة أعد لهذا النحو . وهذا هو السبب فى أن كمية بذور هذا النبات ، التى تبذر فى الفدان الواحد تبلغ حوالى ضعف كمية القمح التى كان يمكن أن تبذر فيه .

وفى معظم المناطق التى يزرع فيها الأرز ، تكون الحقول التى ينقل إليها الأرز غير بعيد عن الحقول التى توفر شتلاته ؛ وإن كان الأرز الذى يزرع فى المنزلة يأتى عادة من فارسكور ، وهى قرية تقع على شاطئ النيل ، على بعد فرسخ واحد إلى الجنوب من دمياط . وتحمل شتلات الأرز على قوارب تنقله عبر البحيرة حتى المنزلة ؛ وتكفى حمولة القارب لتغطية فدان واحد ، وفى العادة يبلغ ثمن النبات تسليم المنزلة ٢٠ إلى ٢١ بوطاقة ؛ وبعد ذلك ينقل نبات الأرز على ظهور الحمال ابتداء من نقطة نزوله من القارب إلى الحقل الذى سيزرع فيه .

ويدفع مقابل عملية زرع الشتلات فى كل فدان بوطاقة ونصف بوطاقة . ويتم اقتلاع وشتل الأرز فى ولايتى المنصورة ودمياط بواسطة عمال من أبناء البلاد ، لكن عمالا من ولاية بلبيس هم الذين يذهبون فى هذا الفصل للقيام بهذا العمل فى الدلتا وولاية رشيد ؛ وهؤلاء لا يحصلون على أجورهم باليومية ، وإنما يأخذون على عاتقهم اقتلاع وشتل الفدان الواحد بالمقاولة مقابل (أجر) ٥ بوطاقات .

ويحصد الأرز عند حوالى منتصف نوفمبر : وعلى هذا النحو فإن هذا المحصول يمكث بالأرض لمدة ستة شهور ، ويروى خلال الأشهر الأربعة منها ريا صناعياً ؛ ويروى خلال الشهور الثلاثة الباقية عن طريق رى يسهله فيضان النيل (بالراحة) ؛ وهو يحصد كما يحصد القمح ويربط فى حزم صغيرة وينقل إلى جرن حيث تفصل حبوبه عن سنابله بواسطة النورج ، ويستطيع ١٠ إلى ١٢ رجلا أن يحصدوا فى يوم واحد إنتاج فدان ، وحين يقوم بهذا العمل أناس من أبناء البلاد تدفع لهم أجورهم فى شكل حبوب ، فيحصلون على $\frac{٢}{١٦}$ من الضريبة .

أما عمال المنصورة وبلبيس الذين يذهبون إلى رشيد وإلى الدلتا لحصاد الأرز فتدفع أجورهم نقداً : ويعطون ٤ بوطاقات مقابل حصد محصول الفدان وربطه فى حزم ونقله إلى الجرن .

ويمكن أن يدرس محصول الفدان الواحد تحت النورج فى ظرف يوم وليلة بواسطة ثمانية رجال و أربعة ثيران ؛ ويدفع أجر هذا الدرس على الدوام عينا ، أحيانا فى

شكل حزم أرز كما فى رشيد ، وأحياناً فى شكل حبوب كما فى دمياط . ويعطى لكل عامل أربع حزم من الأرز أو $\frac{١}{٣٢}$ من الضريبة من الحبوب .

وتتم تذرية الأرز بنفس الطريقة التى يدرى بها القمح أى بتعريضه للهواء بواسطة ما يشبه مضربا خشبيا ، وإن كان الهواء لا يفصل إلا الأجزاء بالغة الخفة ، ويظل الأرز ، كى يصبح نظيفا على نحو تام ، فى حاجة لأن يمرر فى غربال لعدة مرات ، الأمر الذى يتم فى الطواحين حيث تنزع عن الأرز قشرته .

ويدفع فى مقابل تذرية الأرز $\frac{١}{١٠٠}$ من كمية الأرز المذرى .

ويبلغ متوسط المحصول السنوى للفدان فى دمياط والمنصورة $\frac{١}{٢}$ ٣ ضريبة ، ويلزم $\frac{٣}{٤}$ من الضريبة لبذر وإنبات فدانين ؛ وهكذا يبلغ متوسط نسبة البذار إلى المحصول الناتج فى حقول أرز هاتين الولايتين حوالى ١ إلى ١٨ .

أما فى الدلتا وفى رشيد فيبلغ المتوسط السنوى لإنتاج الفدان ٧ إلى ٨ أرادب ؛ وحيث يتلقى كل فدان بذوراً تساوى $\frac{١}{٢}$ الأردب فإن النسبة بين البذار وبين الحصاد تعادل نسبة ١ إلى ١٦ . وهكذا يمكن النظر إلى كل أراضى مصر الصالحة لزراعة الأرز باعتبارها على نحو ما خصيبة .

ومع ذلك فليس ثمة على الإطلاق محصول يتغير ناتجه على مثل هذا النحو ، فقد أكد المزارعون فى ضواحى دمياط أن ناتج محصوله فى بعض الأحيان لا يزيد على نسبة ٥ إلى ١ (بالنسبة لكمية البذور) فى حين يرتفع فى بعض الأحيان إلى نسبة ٣٢ إلى ١) .

ولا يهرس قش الأرز مطلقا كما هو الحال بالنسبة لقش القمح ، فهو أكثر سمكا وأكثر صلابة من هذا الأخير ، ولكنه يكسر فقط تحت النورج ، ولا يستخدم إلا وقوداً ، وقبل أن يتداول الأرز فى التجارة ويعرض للاستهلاك ، فإنه يحتاج – وهو لا يزال شعيراً – لأن يبيض : أى أن تنزع عنه قشرته وإليكم بعض التفاصيل حول هذه العملية .

تعرض الحبوب أولا للشمس لمدة ١٠ إلى ١٥ يوماً ، ثم تمرر بعد ذلك أسفل مدقات أسطوانية الشكل من الحديد الأجوف ، يبلغ علوها ٣ ديسيمترات ويبلغ قطرها ديسيمتراً واحداً ؛ وتثبت كل واحدة من هذه المدقات بشكل عمودى على هيئة مطرقة ذات مقبض يتحرك فى خط رأسى فوق محور حديدى يوضع على مسافة متر من المدق ومدعوم بقوة فوق مرتكزات مبنية . وتنتج الحركة القلابة التى تقوم بها المدقات ، شأنها فى ذلك شأن مطارق الحداد ، نتيجة للضغط الذى تمارسه فوق طرف مطرقتها ، عند الجانب الآخر من المحور ، أربع حدبات تخترق بشكل عمودى شجرة أفقية تستخدم كمحور أو مدار إلى عجلة مسننة تتشابك عموديا بعجلة مسننة أخرى أكبر حجما . وفى محور هذه العجلة الكبيرة رافعة يعلق بها ثور واحد أو عدة ثيران حسبما إذا كان ينبغى للماكينة أن تحرك مدقين أو كان عليها أن تحرك أربعة مدقات [1] .

وتوجد أسفل هذه المدقات ثقوب أسطوانية عملت فى الأرض على شكل هاونات ، يحتوى كل واحد منها على $\frac{1}{10}$ ضريبة من الأرز . ويبعد كل هاون عن الآخر بحوالى المتر ، بحيث يستخدم الجدار الوسيط الذى يتكيء عليه محور دوران المدقات كمسند لظهر العامل الجالس الذى يكون شغلة الدائم هو أن يعيد بيده إلى تحت المدقات حبوب الأرز التى تتباعد عند كل دورة .

وتمر الحبوب فى البداية بهذه العملية لمدة ساعتين ، تكفيان لنزع جزء من القشور عن الحبوب ؛ ولكن حيث تصبح عملية الدوران والطرق ، مع مواصلة هذه العملية على نفس الكومة من الحبوب ، أمراً لا جدوى منه على الإطلاق بسبب هذا الجزء من القشر الذى تم فصله بالفعل عن الحبوب ، فإن الأرز يسحب لتنظيفه للمرة الأولى ، ثم يعاد وضعه تحت المدقات تمارس الدق عليه لمدة ساعتين ؛ ثم ينظف الأرز من جديد ليتم نفس العمل للمرة الثالثة ؛ وينتهى الأمر بتبييض الأرز وذلك بوضعه للمرة الرابعة أسفل المدقات مع كمية محددة من الملح ، وبعد ذلك يتداول فى الأسواق بالحالة التى نراه عليها .

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة التاسعة ، وكذلك وصف الأشكال ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ من هذه اللوحة ، والذى قدمه المسيو جولوا Jollois.

ويلزم على الأقل ثلاثون ساعة ليتم تنظيف ضريبة الأرز الشعير بشكل تام وتنتج هذه الكمية ، حين يكون الأرز من صنف جيد ، $\frac{٢}{٣}$ ١ أردب من الأرز الأبيض ، أما إذا كان من صنف أدنى ، فإنها تنتج فقط أردباً ونصف الأردب ، وهكذا نستطيع أن نقدر أن متوسط إنتاج الأردب (*) هو أردب و$\frac{٧}{١٢}$ من الأردب ؛ وعادة ما يقدر إنتاج كل خمسة أرادب من الأرز الشعير بأربعة أرادب من الأرز الأبيض .

ويتطلب استغلال طاحونة (مضرب) ذات مدقين ، وتعمل ليلا ونهاراً ، تشغيل تسعة من الثيران وسبعة من العمال يتبادلون نوبات العمل . وتصل المصاريف اللازمة لإطعام الثيران ولدفع أجور هؤلاء العمال ، وفائدة (ربح) السلفيات الأولية ، وصيانة الماكينة ومنشآتها ، تصل بثمن تبييض ضريبة الأرز إلى ٥ بوطاقات ، أما بالنسبة للأردب فتصل إلى ٣ بوطاقات و ١٥ مدينى فإذا أضفنا إلى هذا المبلغ ربح التاجر ، محسوباً على أساس ٢٠٪ فإن ثمن أردب الأرز فى السنة العادية ، تسليم مخازن دمياط سيساوى ٢٢ بوطاقة ، وأخيراً ، فحيث أن الجزء الأكبر من الأرز الذى تنتجه مصر مخصص للتصدير ، فإننا نستخلص أن ثمن هذه السلعة الغذائية يزيد أو ينقص تبعاً لنشاط التجارة أو كسادها ، وفى أثناء احتلال الجيش الفرنسى لهذه البلاد ، انخفض سعر أردب الأرز فى رشيد إلى ١٢ بوطاقة .

رابعاً : زراعة الشعير

يعتبر الشعير (hordeum hexastichum) هو أكثر النباتات التى تشيع زراعتها فى مصر ، فهو يزرع فى واقع الأمر ابتداء من جزيرة فيله والفانتين حتى لسان الأرض الذى يفصل بحيرة البرلس عن البحر الأبيض المتوسط .

ومع ذلك فإن الاختلافات فى درجة الحرارة ، فى مثل هذه المسافة الشاسعة ، تؤدى إلى وجود اختلافات بالغة تتناول هذا المحصول سواء فى زراعته أو فى غلته .

(*) كذا فى النص وصحتها الضريبة .

فى جزر النيل الكبرى ، وعلى شواطئه هبوطا من إسنا إلى إدفو يبذر الشعير عند نهاية نوفمبر ، بعد الزراعة الثانية للذرة : ويبدأ الأمر بحرث الأرض حرثة أولى ؛ وحيث أن هذه الأرض عالية بالقدر الذى لا يسمح بغمرها بشكل طبيعى بمياه النيل ، فإنهم يقسمونها إلى أحواض تغمر بالمياه عن طريق الدلاء (دلو) أو بواسطة الماكينات ذات القواديس (السواق) ، وبعد أن تبلل الأرض بالقدر الكافى تتم عملية البذر : وهناك يستخدم للفدان الواحد نصف أردب من الحبوب .

وفى هذا الجزء من مصر ، حيث تعطى الأرض نفسها بواسطة الرى الدائم ثلاثة محاصيل فى العام ، فإن نفس العمال هم الذين يقومون بكل أعمال الزراعة فى عدد بعينه من الفدادين وفى العادة يتعهد ثمانية رجال ، وعدد مماثل من الأولاد خمسة إلى ستة من الأفدنة .

وتبلغ غلة فدان الشعير فى جزيرة إلفانتين ، وإلى الشمال من إسنا حوالى ٥ إلى ٦ أرادب ، ويمكن أن يرتفع المحصول إلى ثمانية أو تسعة حين تكون السنة مواتية ، وينتج المحصول كذلك عدداً مماثلا من حمولات الجمل من القش المهروس ، ويتراوح ثمن أردب الشعير من ١ إلى ٢ بوطاقة ؛ كما تباع حمولة الجمل من القش المهروس بـ ١٥ إلى ٢٠ مدينى .

ولا يبدأ الناس فى بذر بذور هذا المحصول فى الحقول التى تغمرها بشكل طبيعى مياه الترع المتفرعة عن النيل إلا فى شمال إسنا ؛ ومع ذلك فليس ثمة إلا جزء من أراضى هذه المنطقة هو الذى يتقبل مثل هذا النمط من الزراعة ، فى حين أن هذا المحصول لا يبذر ، وعلى نفس طريقة القمح ، إلا فى الأراضى التى يغطيها الفيضان وذلك إلى الشمال من سهل طيبة وكذلك فى ولايات جرجا وسيوط والمنيا .

وعندما لا تحرث الأرض على الإطلاق قبل عملية البذار – تبلغ كمية البذور المطلوبة للفدان الواحد $\frac{٢}{٣}$ الأردب وأحياناً الأردب بأكمله . وحين تعد الأرض بحرثة تمهيدية فلا تبذر سوى نصف هذه الكمية . وتتراوح غلة الفدان بين ٦ إلى ١٠ أرادب تبعاً (لظروف)السنين .

وهكذا تشبه زراعة الشعيرالبياضى هذه وبشكل تام ، زراعة القمح ؛ ويلزم أربعة رجال كى يحصدوا فى يوم واحد محصول الفدان . ويحصل هؤلاء الحاصدون على أجورهم عيناً ، ويحصل كل منهم على $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب . ويبلغ ثمن الأردب من الشعير عادة بوطاقة واحدة فى ولايتى جرجا وسيوط . وعلى العموم فإن ثمن الشعير فى مصر يعادل نصف ثمن القمح .

ومن جهة أخرى فإننا نجد الرى الصناعى الذى يبدو أمراً لا فائدة منه فى وادى النيل ابتداء من جرجا حتى القاهرة ، نجده شيئاً ضرورياً للغاية فى ولاية الفيوم حيث لا تبقى مياه الفيضان على سطح الأرض إلا لوقت قصير .

وهناك يبذر $\frac{٢}{٣}$ الأردب من الشعير لكل فدان ؛ ويروى المحصول ثلاث مرات أثناء مكوثه فى الأرض ، ويعطى الفدان ٥ أو ٦ أرادب ومثل هذا العدد من حمولات الجمل من القش المهروس .

ويروى الشعير الذى يزرع فى مناطق الدلتا المختلفة ، كما يروى القمح مرتين أو ثلاث مرات ابتداء من بذره حتى حصاده . وتتراوح كمية البذور التى تستخدم لفدان واحد مساحته ٢٤ قيراطاً بين $\frac{١}{٢}$ و$\frac{٣}{٤}$ من الأردب ؛ كما يتراوح إنتاجه كذلك تبعا لظروف المكان إذ لا يبلغ سوى ٣ أرادب فى ضواحى منوف ، وإن كان يصل إلى سبعة بالقرب من طنطا ، وفى بعض الأحيان يرتفع إلى ٨ أو إلى ١٠ أرادب فى ولايتى رشيد والمنصورة . وقش (ساق) الشعير فى الدلتا أقصر من قش القمح . لذلك لا ينتج منه من حمولات الجمل من القش إلا عددا يساوى $\frac{١}{٢}$ عدد أرادب الحبوب التى تغلها مساحة بعينها . وفضلا عن ذلك ، فهو عليق أقل قيمة من قش القمح . كما أنه يستهلك بشكل شبه دائم فى نفس مناطق إنتاجه .

وتنتج بعض أجزاء من اللسان الضيق الذى يفصل بحيرة البرلس عن البحر القليل من الشعير ، وتبذر بذوره فى خطوط خططت بالفأس ، ثم يسوى سطح الأرض بعد ذلك بواسطة جذع نخلة تعمل عمل المشط والأسطوانة .

وتحل الخاصية الشعرية (القدرة على الامتصاص) التى تتمتع بها الأرض هناك ، التى تحرى تحتها على الدوام المياه العدبة للبحيرة طيلة الفيضان على عمق ضئيل للغاية بالإضافة إلى الأمطار التى يكثر هطولها فوق هذا الساحل – تحل محل الفيضان ومحل الرى الصناعى معاً . وتتطلب زراعة الشعير هذه فى قرية بلطيم ، كما رأينا ، مصاريف ضئيلة للغاية . لكنها كذلك قليلة الانتاج ، إذ لا تنتج فى العادة إلا ٣ أو ٤ إلى ١ (نسبة المحصول إلى كمية البذور) .

ولا يستخدم الشعير عادة فى مصر إلا لتغذية الخيول . وهو فى ذلك يقوم مقام الشوفان الذى يقدم لها فى بعض أنحاء من أوربا .

ويحصل حزء من الضريبة التى تخضع لها أراضى مصر العليا فى شكل شعير يباع فى أسواق القاهرة ؛ كما يمثل الشعير صادراً بالغ الأهمية فى موانى القصير ودمياط ورشيد .

خامساً : زراعة العدس والحمص والترمس

يعتبر العدس (ervum lens) إنتاجاً خاصاً بتلك المنطقة من مصر ، التى تمتد من إدفو حتى مرتفعات الجيزة ، بما فى ذلك الفيوم ؛ ولا تمارس زراعته لا فى أطراف المنطقة المدارية فى الصعيد ولا فى الدلتا .

ولا تصلح لزراعة العدس سوى الأراضى التى تغمرها مياه ترع الرى بشكل طبيعى ، ولذلك فمساحة هذه الأرض هى نفس مساحة تلك الأرض التى يطلق عليها اسم **البياضى** ،ولا تتطلب هذه الزراعة إلا قدراً ضئيلا من المجهود .

وفى بعض الأحيان تعطى الأرض حرثة أولية عقب انحسار المياه ؛ ومع ذلك ، فإذا كان الفيضان وفيراً ، وإذا لم تكن الأرض قد جفت بشكل تام عندما يحل وقت البذر ، فإنه يكتفى ببذر الحبوب على الأرض وهى لا تزال بعد موحلة ؛ ويبذر فى كل فدان من $\frac{1}{2}$ إلى $\frac{2}{3}$ الأردب . وتغطى البذور ، وذلك بأن تمرر فوقها قطعة من الخشب يجرها أربعة أو خمسة رجال أو عن طريق إعطاء حرثة ثانية للأرض . ويظل العدس فى

الأرض حوالى أربعة شهور أى أقل من المدة التى يمكثها القمح بثلاثين أو خمسة وثلاثين يوماً ، ويحصد العدس باقتلاع سيقانه وذلك حتى يبذر فى الأرض مع محاصيل أخرى كما يحدث فى الصعيد ؛ أو يحصد (بحش سيقانه) عندما يكون قد بذر وحده كما يحدث فى الفيوم وضواحى القاهرة .

ويلزم تسعة أو عشرة أيام من العمل كى يستطيع عامل واحد أن يقتلع محصول فدان من العدس . ويحزم المحصول فى حزم ، تنقل على ظهور الجمال إلى الجرن حيث تدرس تحت النورج ، كما يحدث للقمح .

ويدرس إنتاج الفدان أربعة رجال وأربعة ثيران يعملون جميعاً لمدة يوم واحد وتتم تذرية وتنظيف العدس بنفس الطريقة التى تتم بخصوص الحبوب الأخرى . وتتطلب هذه العمليات كلها تسعة أو عشرة أيام عمل ، يدفع مقابل كل يوم منها $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب من العدس .

ويستخدم قش العدس الذى يهرس تحت النورج عليقاً للجمال والماعز . ويستخرج منه عادة عدد من حمولات الحمل (من التبن) يعادل عدد ما ينتجه المحصول من أرادب من الحبوب . وتباع الحمولة من هذه السيقان المهروسة بـ ٣٠ إلى ٤٠ مدينى .

ويتغير إنتاج الفدان تبعاً (لظروف) السنين ؛ ويبلغ (عادة) ٦ إلى ٧ من الأرادب ويصل أحياناً إلى ٣ أو ٤ فقط .

وعادة يبلغ ثمن أردب العدس ١٠٠ مدينى وذلك فى مصر العليا ، فى حين أنه يبلغ فى القاهرة وولاية الجيزة ١٥٠ مدينى .

وفى ولايتى سيوط والمنيا تكون هذه الزراعة مجزية أكثر منها فى أى منطقة أخرى ، وبعد ذلك يقل عائدها صعوداً تجاه الصعيد أو هبوطاً باتجاه القاهرة .

وتخضع حقول مصر العليا التى تبذر بالعدس لضريبة تدفع عينا ، ويخزن العدس الذى يحصل فى مخازن بمصر القديمة ، حيث يسحب لتغذية أسواق مصر السفلى أو ليتم تصديره .

أما العدس الذى يخصص للاستهلاك فتنزع عنه قشرته فى العادة ؛ ولا تباع فى أسواق المدن إلا الفلقتان (المصان) من هذه البقول : وهذه الفلقات ذات لون برتقالى بالغ الجمال ، ويكفى لتنقية أو تنظيف العدس على هذا النحو أن يدعك أو يفرك بين رحوين صغيرتين من الصلصال المجفف فى الشمس يبلغ نصف قطرها ٢٥ سم أو ٣٠ سم وتكون الرحاة السفلى ثابتة فى حين تكون العليا وحدها هى المتحركة ، وتدور حول مركزها بواسطة عامل واحد مثل طواحين الخردل . ويبلغ ثقل هذه الرحى المتحركة ، المصنوعة من الصلصال الجاف نحو ٢٠ أو ٢٥ كيلو جراماً .

ويبذر الحمص (Cicer arietinum) ، كالعدس فى أراض غمرتها المياه ، وتتلقى الأرض نفس التجهيزات قبل وبعد البذر الذى يتم مباشرة عقب انحسار المياه .

ويبذر فى الفدان الواحد من $\frac{١٤}{٢٤}$ إلى $\frac{١٦}{٢٤}$ من الأردب من الحمص ، وهو ما يتطلب عادة ثلاثة أيام عمل ، ويبقى الحمص بالأرض لمدة سبعة أشهر ؛ ويقتلع المحصول ثم يدرس تحت النورج ؛ ويمكن لأربعة رجال مع أربعة ثيران أن يدرسوا فى يوم واحد إنتاج أحد الأفدنة ؛ ويحصلون معاً كأجر على $\frac{١٨}{٢٤}$ من الأردب من العدس بما فى ذلك إيجار النورج .

ويتغير إنتاج الفدان المزروع بالحمص تبعاً (لظروف) السنين ؛ وفى مناطق الصعيد التى تكثر بها زراعته ، يتراوح هذا المحصول من ٤ إلى ٨ أرادب ، كما يتراوح ثمن الأردب من ٥٠ إلى ١٣٠ مدينى .

وبالإضافة إلى الاستخدامات اليومية للحمص فى غذاء الفلاحين ، فقد جرت العادة فى القاهرة ورشيد ودمياط وفى مدن أخرى من مدن الدلتا على تحميص حبوبه فوق نار موقدة فى مستوقد واسع ، ويؤكل بعد أن يحمص على هذا النحو .

وينطبق ما سبق أن انتهينا من قوله ، وبلا تحفظ على زراعة الترمس (Lupinus Termis) . ويبذر فى الفدان الواحد منه $\frac{١}{٢}$ أو $\frac{٢}{٣}$ الأردب تبعاً لما إن كان سيوضع فى جورات تحفر باليد أو إن كان سيبذر « على الطاير » على الأرض التى لا تزال بعد موحلة ؛ ويحصد بجزه بعد مرور خمسة شهور . ويلزم عشرة أو اثنا عشر يوماً لحصاد

فدان . وحيث لا يمكن استخدام سيقانه ، التى تكاد تكون ليفية فى تغذية الماشية ، فإنها تستخدم وقوداً ، أو بصفة خاصة فى صنع نوع من الكربون يدخل فى صناعة بارود البنادق فى هذه البلاد ، وتستخلص الحبوب بضرب سيقانه ، بعد أن تكون هذه قد جفت بشكل تام ، بالعصى ؛ وهى ممارسة تعود فى الشرق إلى عصور ضاربة فى القدم ، وتحل فى مصر محل استخدام المدقات .

وتدفع مصاريف زراعة ودرس الترمس عيناً بواقع $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب لكل حاصد .

سادساً : زراعة الفول

يزرع الفول (Vicia fala equina) بوفرة فى ولايات جرجا وسيوط والمنيا فى أراض تروى بشكل طبيعى .

ويبذر الفول فى بداية شهر نوفمبر دون حرثة تمهيدية ؛ ويلزم أردب واحد ، أو $١ \frac{٣}{٢٤}$ أردب (من البذور) لكل فدان تبعاً لما إن كانت الأرض أكثر أو أقل وحولة . وبعد البذر يقوم خمسة رجال بتغطية البذور وذلك بجر قطعة من الخشب فوق الأرض . ويحصل هؤلاء على أجورهم عيناً بواقع $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب من الفول لكل منهم .

ويبقى الفول فى الأرض لمدة ثلاثة أشهر ونصف ، ويحصد عند نحو منتصف شهر فبراير ، وتقطع سيقانه ثم تدرس تحت النورج ويلزم أربعة ثيران وأربعة رجال يعملون لمدة يومين لدرس محصول فدان واحد ويحصل كل منهم على $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب .

وبعد أن تسدد مصاريف الحصاد والدرس على هذا النحو ، يعطى محصول الفدان فى السنوات الطيبة ٧ أرادب من الفول ، فى حين يعطى فى السنوات غير المواتية ٢ إلى ٣ أرادب فقط ؛ ويتراوح ثمن الأردب من ٥٠ إلى ١٠٠ بارة ، ويرتفع إلى ٢ بوطاقة فى الأماكن التى يسهل فيها تصدير هذا المحصول .

وتستخدم سيقان الفول ، التى تهرس تحت النورج ، كعليق للجمال والثيران والماعز . وينتج الفدان عادة ثلاث أو أربع حمولات جمل من السيقان المهروسة (التبن) ، تباع الحمولة الواحدة منها بـ ٤٠ مدينى .

وفى الفيوم وضواحيها ، تعطى الأرض المخصصة لزراعة الفول فى بعض الأحيان حرثة أولية ؛ وحين يبدأ النبات فى الجفاف ، تقتلع سيقانه بدلا من قطعها بالمنجل . وعادة ما يكون محصول الفول أكبر على نحو طفيف منه حين يبذر بينما تكون الأرض لا تزال موحلة .

وبمجرد أن نهبط الدلتا ، تصبح زراعة الفول أقل عطاء ، وتكون نتيجة لذلك أقل انتشاراً . وهو يبذر هناك على الدوام فى خطوط خطتها المحاريث ، وتعلو سيقانه بقدر يفوق ارتفاع سيقان الفول فى الصعيد . ويدفع ٤٠ بارة مقابل اقتلاع محصول فدان واحد ، ثم يترك المحصول ليجف فى نفس مكانه أو يعرض للشمس ، وأخيراً يوضع تحت النورج . ويبلغ إنتاج الفدان ٥ أو ٦ أرادب .

ونادراً ما تمتد زراعة الفول فى مصر العليا إلى ما وراء قوص ، كما لا تمتد فى الدلتا إلى ما تحت (شمال) سمنود . وتصدر منه كميات هائلة إلى الجزيرة العربية عن طريق القصير . كما يصدر كذلك إلى المشرق عن طريق موانى البحر الأبيض المتوسط . وتمون أسواق القاهرة ومعظم مدن مصر السفلى بالفول الناتج عن حصيلة الضريبة العينية التى تحصل من الصعيد .

وفى بعض الأحيان تنزع قشرة الفول الذى يباع فى هذه الأسواق ، كما يحدث للعدس ، بواسطة رحوين صغيرين من الصلصال المجفف يجرش بينهما الفول .

سابعاً : زراعة البصل – البطيخ – الشمام والخضروات الأخرى

يشكل البصل (allium cepa) موضوعاً لزراعة كبيرة فى كل أنحاء مصر على وجه التقريب ، فيما عدا المنطقة المدارية فى ولاية طيبة ، وكذلك فيما عدا الأجزاء الدنيا من الدلتا .

وفى البداية تحرث الأرض ثم تسوى بجذع نخلة ، وبعد ذلك تقسم إلى أحواض

بواسطة **المسوجة** (*) ، وتبلغ تكاليف العمليات المتتالية لإعداد فدان الأرض ٢٠٠ مدينى .

ويبذر البصل بعد القمح والبرسيم وبقية الحبوب التى تبذر فى الأراضى التى تروى بشكل طبيعى . ومن أجل ذلك تشكل ، باستخدام معول صغير ، خطوط صغيرة تلقى فيها البذور . ويمكن لعشرة رجال أن يقوموا بهذا العمل خلال يوم واحد على مساحة قدرها فدان . ويستخدم للبذر $\frac{1}{24}$ من الأردب من البذور يبلغ ثمنها فى العادة ٩٠ إلى ١٢٠ بارة . وفى أثناء نمو النبات يزاد أو يقلل عدد الريات تبعاً لكون الأرض أكثر ارتفاعاً أو أكثر انخفاضاً ، ففى حالة ارتفاع الأرض تكرر الرية كل أسبوع . وتصل مصاريف رى الفدان ، الذى يتم بواقع ست أو ثمانى مرات إلى نحو ٣٠ مدينى .

وبعد خمسين أو ستين يوماً من البذر يشتل البصل فى حقل آخر حرث من قبل ثلاث مرات . ويكفى البذر الذى تم فى مساحة بعينها لتغطية مساحة تصل إلى ما يعادلها بـ ١٢ ضعفاً .

ويحصد البصل وهو أخضر كى يستخدم مباشرة كغذاء ، أو يترك ليجف على ساقه (فى الحقل) كى يباع فى الأسواق ، وهو يبلغ درجة النضوج عادة بعد ثمانين أو تسعين يوماً من شتله ، ويلزم ١٥ إلى ٢٠ يوم عمل لكى يتمكن عامل واحد من حصاد محصول فدان ، ويدفع مقابل كل يوم عمل ٦ بارات فى ولاية سيوط .

وينتج الفدان من ٢٠ إلى ٣٠ أردباً من البصل ، يباع الأردب الواحد منها عادة مقابل بوطاقة (واحدة) فى ولاية سيوط والمنيا ، ويصل إلى ٢ بوطاقة فى ضواحى قنا . ولا ينتج هذا التفاوت فى الثمن فقط لأن مصاريف الزراعة فى قنا تزيد عن نظيراتها هناك ، بل كذلك لأن هذا البصل يصدر من هناك بكميات ضخمة إلى الجزيرة العربية عن طريق القصير .

(*) لعلها هى التنانة التى تصنع الحدود بين الأحواض والتى يطلق على الواحد من هذه الحدود اسم التن (المترجم) .

وعلى الرغم من أن البصل المصرى قد فقد بعض شهرته فإنه أكبر حجما من البصل الذى تنتجه أوربا ؛ كما أنه حلو المذاق لدرجة يؤكل معها نيئا دون أى تتبيل . وهو يستخدم ، كما كان يستخدم فى الماضى ، فى غذاء سكان الريف ، الذين يحتمل أنهم كانوا سيزرعونه بكمية أكبر لو أن زراعته كانت تتطلب سلفيات أقل .

وتدفع الضريبة العقارية المفروضة على الحقول المزروعة بالبصل ، نقداً ، وتصل إلى ٦ أو ٧ بوطاقات (ريالات) للفدان الواحد .

وهناك محصول غذائى آخر بالغ الوفرة فى كل أنحاء مصر ، هو البطيخ أو شمام الماء (Cucurbita Citrullus) .

ويزرع هذا المحصول فى الجزر أو على حواف النيل التى تظل مكشوفه خلال فصل المياه الواطئة أو التى تغرقها المياه أثناء الفيضان . وتشكل هذه الحواف منحنيات بالغة الانحدار ، يتكون سطحها من رمل ناعم للغاية . وتعمل فيه حفرات مثلثة الشكل يبلغ طولها المتر بعرض يبلغ ٢ ديسيمتر (٢٠ سم) ، وبعمق يكفى لتمكين المياه الآتية من باطن الأرض أو تلك القادمة من النيل من أن تبقى على الرطوبة اللازمة فى هذه الحفرات . وتوزع هذه الحفرات فى خطوط موازية لمجرى النيل ، وتبعد كل منها عن الأخرى بنحو المتر . وحيث يكون بمقدور الريح أن تنقل بسهولة هذا النوع من التربة ، وحيث من الممكن لهذه الرمال المتحركة أن تردم نباتات البطيخ وهى بعد صغيرة ، فإن الزراع يوقفون هذه الرمال بواسطة سياج صغيرة من جذوع حافة توضع بشكل اعتراضى (بالعرض) بالنسبة لخطوط البذور ؛ ويشكل الرمل الذى يتكدس بظهر هذا السياج نوعاً من الوجاء يحتمى خلفه ساق النبات من لهيب الشمس .

وينتج كل نبات فى العادة ثلاث أو أربع ثمرات ، تباع الواحدة منها بـ ٤ إلى ٥ مدينى .

وفى بعض الأحيان يبذر البطيخ فى الأراضى الواطئة التى تحف بالترع الداخلية عوضاً عن بذره على حواف النيل ، فتصنع فى هذه الأرض عند نحو بداية فبراير

جورات تبعد كل منها عن الأخرى بمتر ، ويبلغ عمقها حوالى ٢ ديسيمتر (٢٠ سم) ، ويوضع فيها ملء اليدين من زبل الحمام ، الذى يترك مكشوفاً لمدة ثمانية أو عشرة أيام ، يتم البذر فى نهايتها . ويلزم لبذر الفدان $\frac{١}{٤٨}$ من الأردب من البذور مما يكلف نحو ٢٠ بارة . ويستطيع عشرة رجال أن يتموا هذا العمل فى ظرف يوم واحد . ويمكن أن تصل قيمة إنتاج الفدان الواحد إلى ٣٠ بوطاقة ؛ وإن كانت لا تبلغ فى بعض الأحيان سوى ١٢ أو ١٥ بوطاقة .

ولعل زراعة البطيخ ، التى تدخل على الدوام فى عداد تلك الزراعات التى يطلق عليها اسم **الدميرى** ، هى الوحيدة التى تناسب لسان الأرض الذى يفصل بحيرة البرلس عن البحر . ويصنع سكان قرية بلطيم ، المبنية على مثل هذه الأرض ، جورات صغيرة يبلغ عمقها نحو ٢٠ إلى ٢٥ سم ؛ الأمر الذى يسمح بالوصول إلى مستوى منسوب المياه العذبة التى تجرى خلال الشتاء من البحيرة إلى البحر مارة تحت سطح هذه الأراضى الرملية ؛ ويضع الناس فى قاع هذه الجورات ، كما يحدث فى مصر العليا ، زبل الحمام ويبذرون بذور البطيخ ، وحين تصل الثمار إلى درجة النضوج ، تنقل إلى الاسكندرية ورشيد ودمياط ، بواسطة صنادل تأتى إلى بوغاز البرلس للحصول على حمولات منها ، أو ينقل البطيخ بواسطة قوارب أصغر إلى سمنود والمحلة الكبيرة والمنصورة ، وإلى أماكن أخرى فى الدلتا . وتصل هذه القوارب عادة من داخل البحيرة إلى الفرع الترقى للنيل صاعدة الفرع السبنيتى القديم .

وقد يكون علينا الآن أن نتحدث عن بعض النباتات الأخرى ، التى توفر للسكان فى كل أنحاء مصر ، وفى كل فصول العام طعاماً يتفاوت مقدار الطلب عليه ، مثل البامية (Hibiscus Esculentus) ، والخيار (Cucumis Olitorius) واللذين يبذران مرتين فى العام ، مرة فى شهر مارس وأخرى فى شهر يولية ، والملوخية (Corclrorus Olitorius) ، التى تزرع بالمثل فى فترات مختلفة ، لو لم تكن تعد مثل هذه الزراعات منتجات بساتين أكثر منها محاصيل زراعية ، وسنكتفى هنا بالقول بأن الأراضى المخصصة لهذه الزراعات الصغيرة التى تتطلب أعمال رى متواصلة ، تقسم إلى أحواض بواسطة جسور صغيرة ، تعمل فى قممها الجداول التى توصل المياه إلى كل واحد من هذه الأحواض .

وينتج فدان السامية فى ضواحى قنا ما يقدر نقداً بـ ٩٠ إلى ١٢٠! مديبى فى اليوم الواحد لمدة ثلاثة شهور . وعندما تنضج الملوخية ، تستمر الحشات التى تؤخذ من نفس الحقل وتتحدد لمدة شهر ونصف الشهر . وفى خلال هذه الفترة الزمنية يمكن أن يصل الإنتاج اليومى للفدان الواحد إلى ٩٠ أو ١٠٠ مديبى .

وفى العادة ، تحاط الحقول المزروعة بمحاصيل الخضار بصفوف من القصب ، والقرطم أو بأسوار صغيرة من سيقان الذرة الجافة .

ويدفع الفدان الذى يستغل على هذا النحو ضريبة تصل إلى ٥ أو ٦ بوطاقات (ريالات) فى العام .

ثامناً : زراعات البرسيم – والحلبة – والجلبان – والبسلة

البرسيم (Trifolium alexendrinum) هو العليق المفضل ، والذى تنتشر زراعته عموماً فى مصر ، حيث لا توجد ، كما هو معروف ، مراع طبيعية ، وقلما تمتد هذه الزراعة ، التى تخصص لها مساحات كبيرة من أراضى الدلتا ، إلى ما وراء فرشوط فى الصعيد ، إذ أن الأراضى التى تغرقها مياه النيل هناك تجف بسرعة شديدة حالما تنحسر المياه عنها ، ولأن الرى الصناعى الذى لابد منه لضمان نبات المحصول ، يصبح هناك باهظ التكاليف .

ويبذر البرسيم على الدوام بدون أية حرثة تمهيدية ، فى أراض تغمرها المياه بشكل طبيعى . ويتطلب هذا البذر ، الذى يتم بينما لا تزال الأرض بعد موحلة ، $\frac{1}{3}$ أردب من هذه البذور لكل فدان . وتغطى هذه البذور عادة بواسطة جذع شجرة يجرها الثيران أو الرجال .

وتتم الحشة الأولى من البرسيم بعد البذر بنحو أربعين أو خمسة وأربعين يوماً ، ومبكراً عن ذلك بقليل فى جرجا وفرشوط ، إذ يتم نموه هناك بشكل أسرع . وتباع هذه الحشة الأولى من البرسيم عادة بـ ٨ بوطاقات لمحصول الفدان الواحد فى ولايتى سيوط والمنيا .

وبعد ثلاثين يوماً تتم الحشة الثانية ، وتباع بـ ٤ أو ٥ بوطاقات .

وعندما يراد حصاد بذور البرسيم ، لا تتم سوى حشة وحيدة من هذا العليق ليتم استهلاكها وهى خضراء ، وتترك الحشة الثانية لتتم على ساقها . ثم تنقل هذه إلى حرن حيث تطؤها أقدام الثيران . ويتكلف حصاد الفدان ودرسه ٧٥ مدينى ، ويستخلص منه أردبان من البذور ، يتراوح ثمنها بين ٢٠٠ إلى ٣٦٠ مدينى .

وحيث يكون الرى الصناعى أكثر سهولة فى الفيوم عنه فى بقية مناطق مصر ، فإن حقول الذرة تبذر بالبرسيم قبل حصاد الذرة بشهر . ولا يبذر سوى $\frac{1}{4}$ أردب للفدان ، الأمر الذى لا يتطلب سوى $\frac{1}{2}$ يوم عمل يقوم به واحد من العمال المستخدمين فى الرى ، ويكون نبت البرسيم سريعاً لحد تتم معه الحشة الأولى بعد قطع الذرة مباشرة . وإذا تم استهلاك البرسيم وهو قائم (أى دون حشة من الأرض) ، فإن بمقدور فدان من البرسيم أن يغذى ثورين لمدة شهر .

وبعد الحشة الأولى ، يروى البرسيم خلال فترة عشرين إلى خمسة وعشرين يوماً ، على مرتين متباعدتين . ويكفى هذا الوقت لحلول موعد الحشة الثانية التى تكون على الدوام أقل عطاء من الأولى . وفى بعض الأحيان تستخلص البذور من الحشة الثالثة ؛ وعندئذ يرتفع إنتاج الفدان إلى $\frac{1}{2}$ ٢ – ٣ أرادب من البذور ؛ ولكن عندما يكون الفيضان مواتياً ، فإن الحشة الثالثة تستهلك هى الأخرى وهى خضراء ، وتستخلص البذور من الحشة الرابعة التى لا توفر بالنسبة لكل فدان سوى $\frac{1}{2}$ ١ أردب .

ويبيع المزارع البرسيم الذى يغطى أرضه قائماً وذلك حين لا تستهلك ماشيته هذا البرسيم . ويتراوح ثمن القيراط أو $\frac{1}{24}$ من الفدان بين ٣٠ إلى ٣٥ مدينى .

وتنتشر زراعة البرسيم كثيراً فى ولاية الجيزة ، على مشارف القاهرة . ولا يشكل إعداد الأرض هناك أية خصوصية ملحوظة ، وإن كانت كمية البذور التى تبذر هناك فى مساحة بعينها تصبح أكبر منها بكثير فى مساحة مماثلة فى الصعيد والفيوم ، إذ يبذر هنا أردب لكل فدان واحد ، ويبلغ ثمن الأردب ٦ بوطاقات .

وتتم الحشة الأولى للبرسيم بعد ستين يوماً من البذر ، وتتم الثانية بعد ثلاثين يوماً من إتمام الأولى ، ثم الثالثة أخيراً بعد الثانية بأربعين يوماً . وعلى ذلك فإن إنتاج البرسيم يتم حصاده فى مسافة زمنية تبلغ نحو أربعة شهور ونصف ، وتباع الحشتان الأوليان لفدان واحد بـ ٢٤ بوطاقة .

وإذا كان الفيضان ضعيفاً ، فلا يحش البرسيم إلا مرتين ؛ ويحتفظ بالحشة الثانية لإنتاج البذور . ويستخلص عادة ٤ أرادب من البذور من الفدان الواحد وذلك إما بدرس المحصول وهو جاف تحت النورج ، أو بضربه بعصى طويلة (مساوق — مسوقة) .

وحيث تستهلك فى القاهرة كميات كبيرة من هذا العلف فى تغذية الخيول والحمير ، فإن الجزء الأكبر من المحصول الذى يزرع فى ضواحى القاهرة ينقل إليها وهو أخضر على ظهور الجمال ليستهلك يوماً بيوم خلال الموسم ، وفى بعض الأحيان تجفف الحشات الثلاث المتوالية من حقل البرسيم ، وتخزن ليتم استهلاكها وهى على هذه الحال خلال الصيف .

وفى الدلتا ، حيث يخصص البرسيم لغذاء الثيران من البقر والجاموس فإنه يؤكل وهو فى حقله (دون حشه) . وتدخل المواشى الحقل بعد ستين يوماً من عملية البذر . ويؤجر الفدان من هذا المرعى بواقع ٥ إلى ٦ بوطاقات ؛ ويمكن أن يبدأ فى استهلاك الحشة الثانية بعد ذلك بثلاثين أو أربعين يوماً ، وفى الفترة التى تفصل بين الحشة الأولى والحشة الثانية ، يقوم أولئك الذين يرعون ماشيتهم فى هذه الحقول بريها . وفى ولاية منوف ، يقدر أن ثورين يمكنهما أن يأكلا فى اليوم الواحد $\frac{1}{24}$ من الفدان .

وهنا ، تكون كمية البذور المستعملة أقل منها فى أى مكان آخر ، حيث لا تبلغ سوى $\frac{1}{6}$ أردب للفدان الواحد ، وحين يراد الحصول على بذور هذا العليق لا يرعى الحقل إلا مرة واحدة ، وبالإضافة إلى ذلك فإن البرسيم لا يرعى إلا بعد البذر بشهرين .

قلنا إن البرسيم يبذر فى بعض الأحيان فى مصر العليا مع الذرة ؛ وهو كذلك يبذر فى مصر السفلى مع الذرة الشامية وقبل نضوجها بشهر ، وينمو نبات البرسيم الصغير فى ظل السيقان الطويلة للذرة الشامية ، ويستفيد من الريات الأخيرة التى تعطى لها . ويؤجر فدان بذر على هذا النحو ، ولمدة أربعة شهور بـ ٥ إلى ٨ بوطاقات . ويقدر فى طنطا أن روجاً من الثيران يمكنه أن يعيش على محصول فدان ونصف الفدان طيلة هذه المدة ، بواقع $\frac{٣}{٤}$ فدان لكل رأس ؛ كما يقدر بأنه يلزم فدان كامل من هذا العلف لإطعام ثور الجاموس (خلال نفس المدة) .

ومع النزول (الاتجاه شمالا) نحو مصبات النيل . تكون عمليات الرى أيسر وأكثر وفرة ، ويسرع معدل نمو البرسيم فى نفس الفترة ، وهكذا يمكن القيام بأربع حشات فى مزارع أرز رشيد ودمياط ، حيث يبذر هذا العليق بعد حصاد الأرز مباشرة ، بدون أى إعداد ، اللهم إلا الإبقاء على الأرض مغطاة ببضعة سنتيمترات من المياه خلال يومين أو ثلاثة أيام . وتتم الحشة الأولى بعد البذر بشهرين ، وتلى ذلك الحشة الثانية بعد مرور ثلاثين يوماً . أما الثالثة والرابعة فتأتى كل منهما بعد مرور عشرين يوماً من سابقتها على التوالى .

وفى العادة ، يلزم ستة من الثيران لرى عشرة أفدنة من البرسيم ؛ ويخصص لإطعامها ثلاثة فدادين تستهلك وهى خضراء ، ويجفف محصول السبعة أفدنة الآخرين ، ويخزن لإطعام البقر والجاموس خلال جزء من العام .

ويستهلك ثلثا البرسيم الذى تنتجه حقول الأرز فى الدلتا وهو أخضر كطعام للماشية من كل نوع والتى يضطر المزارع للاحتفاظ بها ؛ أما الثلث الأخير فيستهلك وهو جاف .

ويبدو البرسيم الذى ينمو فى مزارع الأرز أقل من حيث مادته الغذائية من برسيم المناطق العليا (الجنوبية) من الدلتا وضواحى القاهرة بسبب سرعة نموه ، الأمر الذى يعود إلى الريات الصناعية التى يفيد منها .

أما الحلبة (Trigonella Fenum Jroecum) فهى عليق خاص بمصر الوسطى ، ولا تزرع لا فى المناطق المدارية من الصعيد ، ولا فى الدلتا . وهى تزرع فى نفس الموسم وبنفس الطريقة التى يزرع بها البرسيم . وتختلف طريقة حصادها إذ أنها تقتلع بدلا من أن تحش ، وذلك بعد ستين أو سبعين يوماً من البذر ؛ وبعد ذلك تعطى طعاماً لكافة أنواع الماشية . أما بذورها ، التى يضعونها فى الماء بقصد استنباتها ، فتستخدم كغذاء .

ويبذر $\frac{١٤}{٢٤}$ من الأردب لكل فدان ، ويباع إنتاجه من العليق بـ ٨ إلى ١٠ بوطاقات .

وعندما تترك الحلبة لتبلغ درجة النضوج ولتجف وهى قائمة ، يستطيع خمسة عشر رجلا ، يحصل كل منهم على ستة مدينى ، أن يقتلعوا فى يوم واحد إنتاج فدان . ويستخلص من هذا المحصول ٢ إلى ٥ أرادب من البذور تبعاً لظروف السنين . ويدرس النبات وهو جاف تحت النورج . وتستخدم السيقان التى تهرس عن طريق هذه العملية كغذاء للجمال .

ويزرع فى الفيوم وفى كل أنحاء مصر العليا علفاً آخر يسمى جلبان (Lathyrus Sativrus) وهو يبذر على طريقة البرسيم والحلبة ، فوق أرض غمرها الفيضان ؛ وتجهز الأرض بنفس الطريقة التى تتبع عند بذر العدس ؛ ويلزم $\frac{٢}{٣}$ أردب من البذور لكل فدان .

ويقتلع هذا العليق بعد ستين يوماً ، ويستهلك وهو أخضر . وينتج الفدان الواحد فى العادة من ١٠ إلى ١٥ حمولة جمل ، تباع ككل بـ ٦ إلى ٨ بوطاقات . أما النبات الذى يراد الحصول على البذرة منه ، فيبقى مائة يوم على ساقه ، ويعطى الفدان منه عادة ٥ أرادب . ويدرس هذا العلف وهو جاف تحت النورج . وتستخدم السيقان المهروسة (التبن) غذاء للجمال وحدها .

ويدفع بواقع $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب لكل من العمال الأربعة والثيران الأربعة الذين يستخدمون فى درس محصول فدان واحد ؛ ويدفع بالمثل $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب إيجاراً للنورج . ويباع أردب الجلبان بـ ٩٠ إلى ١٥٠ مدينى .

ومع صعود النيل (الاتجاه جنوباً) يلاحظ أن سعر هذا العلف يزيد ؛ ويعود ذلك إلى صعوبة زراعة الجلبان بكميات كافية ، إذ يزرع عوضاً عنه فى ولايتى طيبة وقنا ، أى فى الطرف المدارى للصعيد نبات البازلاء (Pisum arvense) ، ويسمى فى مصر البسلة وهى تسمية نلمح فيها الاسم الذى نطلقه نحن عليها Bisaille أوPiselli D'IEalie . ويبذر هذا العليق ويجمع فى نفس أوقات الجلبان ، كما ينتج على وحه التقريب نفس القدر الذى ينتجه محصول الجلبان ، وعندما يبدأ المحصول فى الحفاف ، يبدأ استهلاكه بأن يقدم للجمال ، والثيران من الأبقار والجاموس ، والماعز ، والخراف .. الخ ؛ ولا تستخدم البسلة مطلقا فى تغذية الخيول . ويخصص حوالى $\frac{١}{١٠}$ مساحة الأرض التى يزرع بها الجلبان والبسلة لتوفير البذور . الأمر الدى يدعو إلى الافتراض بأن ما ينتجه هذان المحصولان من محاصيل العلف من الحبوب يبلغ ما يقرب من نسبة ١٠ إلى ١ (بالنسبة لكمية البذور) .

وفى الفيوم حيث لا تبقى مياه الفيضان فوق الأراضى إلا لوقت قصير ، تبذر الحلبة والجلبان والبسلة فى حقول الذرة ، وقبل أن تنضج الذرة بأربعين يوماً . وتفيد محاصيل الأعلاف هذه ، على هذا النحو ، من الريات الأخيرة التى تعطى للذرة ، ولا تروى مطلقاً بعد حصادها . ويستخدم أهالى هذه الولاية البسلة كمحصول غذائى .

تاسعاً : زراعة السلجم – الخس – السمسم

يزرع فى ولايتى سيوط وجرجا نوع من اللفت يسمى السلجم (Brassica arvensis) تستخدم بذوره فى إنتاج الزيت . ويبذر السلجم فى الأراضى التى تغرقها مياه الفيضان بشكل طبيعى عقب انحسار المياه مباشرة . ويتم هذا البذ ر الذى يستعمل فيه $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب للفدان ، على الطائر خلال يوم واحد وعلى يد عامل واحد .

ويبقى السلجم فى الأرض ثلاثة شهور ؛ ويبلغ نضجه بعد هذه المدة ويتم حصاده باقتلاع النبات ، ويتطلب ذلك عشرة أيام عمل للفدان ، يدفع عن كل يوم

منها ٧ مديني ، وهو كذلك نفس الأجر الذى يعطى للعمال الذين يدرسون السلجم ليستخلصوا منه البذور ، ويتم هذا الدرس باستخدام عصى طويلة فوق جرن أعد لهذا الغرض . ويلزم عشرة رجال لكى يدرسوا فى يوم واحد محصول الفدان .

ويتم تذرية البذور وتنظيفها على نحو ما يتم بالنسبة لبقية الحبوب ، ويدفع فى مقابل هذه العملية بواقع $\frac{٢}{٢٤}$ من الأردب للفدان .

ويتراوح محصول الفدان من البذور من ٤ إلى ٦ أرادب تبعاً لظروف السنين ، كما يتراوح ثمن الاردب بين ٩٠ إلى ١٥٠ مدينى .

وتستخدم السيقان الجافة لهذا النبات كوقود ؛ وإن كان المزارعون عادة يتركونه فى الجرن كى يأتى الفلاحون الأكثر فقراً ليأخذوه لاستعمالهم .

وفوق قنا (إلى الجنوب منها) ، وكذلك فى الجزء المدارى من ولاية طيبة ، تحل زراعة الخس (Lactuca sativa) محل السلجم . وتبذر بذوره إما مع العدس أو مع الشعير فى الأراضى التى تغمرها مياه الفيضان بشكل طبيعى ، وإما كذلك فى الأراضى التى تزرع بالذرة باستخدام الرى الصناعى . وفى الحالة الأولى يخلط $\frac{٢}{٢٤}$ من الأردب من بذور الخس مع $\frac{٨}{٢٤}$ من الأردب من العدس أو الشعير ؛ وفى الحالة الثانية يبذر $\frac{٤}{٢٤}$ من الأردب من الخس فى حقول الذرة قبل حصاد هذا المحصول بنحو عشرين أو خمسة وعشرين يوماً أى فى فترة لا يحتاج خلالها للرى .

ويبقى الخس ، وهو لا يحتاج لأى رى خلال نموه ، ستة أشهر فى الأرض . وحين ينضج المحصول ، تقطع قممه المحملة بالبذور ، ويحمل إلى جرن حيث يبقى النبات معرضاً للشمس لمدة ستة أيام ، يدرس بعدها بنفس الطريقة التى يدرس بها السلجم .

وينتج فدان الأرض الذى تبذر فيه بذور الخس مع العدس أو الذرة أو الشعير من ٢ إلى ٦ أرادب من البذور . ويبلغ ثمن الأردب فى قنا حوالى ٢ بوطاقة .

ويزرع الخس بكثرة فى ضواحى إدفو ، ويبذر فى الفدان الواحد $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب

من بذور الخس تعطى فى السنوات العادية عائداً يبلغ $\frac{1}{2}$ ١ أو $\frac{3}{4}$ ١ أردب . ويدخل هذا المحصول فى عداد تلك المحاصيل التى يطلق عليها اسم النبارى . ويباع الأردب من بذور الخس فى هذه المنطقة عادة بـ ١٤٠ مدينى .

وفى غالب الأحيان ، يستهلك جزء من سيقان هذا المحصول وهو لا يزال أخضر كعليق ، ويؤدى ذلك إلى إنقاص إنتاجه من البذور بدرجة كبيرة . وفى بعض الأحيان تتغذى الثيران كذلك على الخس الجاف ، وإن كان هذا النبات لا يفضل كثيراً كعليق .

أما السمسم (Sesamum Orientale) ، الذى تستخدم بذوره فى إنتاج زيت الطعام ، فيزرع فى ضواحى قنا ، فى مصر العليا ، وفى كل أنحاء الدلتا على وجه التقريب ، وهو محصول صيفى ، تتم زراعته فى نفس وقت زراعة الذرة والدرة الشامية بعد حصاد الحنطة (القمح) . ويؤدى اختلاف الطقس واختلاف أنماط الرى إلى تنوع أساليب زراعة المحصول فى الصعيد عنها فى مصر السفلى .

وقد حصلت على المعلومات التى أوردها هنا قريباً من قنا . ويبدأ الناس بإعطاء الأرض عدة حرثات تتكلف نحو ١٤٠ بارة (لكل فدان) . وبعد ذلك تقسم الأرض إلى أحواض على النحو الذى يتم به ذلك عند زراعة الذرة ، ثم يبذر $\frac{٢}{٤٨}$ أو $\frac{٣}{٤٨}$ من الأردب من البذور للفدان الواحد ، ويروى الحقل خلال ثلاثة أشهر بواسطة الدلو ، ويقوم نفس الرجال الذين يعهد إليهم بالرى بتنقية الحقل من الأعشاب ، وفى النهاية يقومون هم أنفسهم بحصاد المحصول حين يبلغ درجة النضوج ، وتلزم خمسة أيام لحصاد محصول فدان واحد .

وبعد حصد سيقان السمسم ، توضع فى حزم تعرض للشمس لمدة عشرين يوماً مع إبقائها واقفة وهى مستندة إلى حد متدود إلى دعامات عديدة ، وبعد هذه الفترة ، تهز حزمة السيقان فوق الجرن الذى عرضت للشمس فيه ، فتخرج البذور من السنابل البالغة الجفاف ، ثم توضع الحزم فى الشمس من جديد لينتهى الأمر بجفافها ، وبعد يومين أو ثلاثة أيام ، تهز من جديد لتتساقط منها البذور التى كانت لا تزال فى سنابلها .

ويبلغ متوسط محصول الفدان نحو ٦ أرادب من البذور ، يباع الأردب منها عادة بـ ٥ إلى ٧ بوطاقات . وتستخدم سيقان السمسم ، بعد أن تستخلص البذور منها كوقود .

وإليكم الآن المعلومات التى أعطيت لى عند ضواحى سمنود عن زراعة السمسم فى مصر السفلى .

حيث ينبغى أن تبذر البذور فى الأرض فى أوقات الفصل بالغ الجفاف ، وحيث تتطلب هذه الزراعة مضاعفة الريات الصناعية ، فإنه يتم اختيار المناطق شديدة الاقتراب من السواقى . وتبدأ مراحل الزراعة برى الأرض رية كبيرة تستغرق عدة أيام بواسطة هذه الماكينات . وبعد أن تبتل الأرض بالقدر الكافى ، تبذر بذور السمسم « على الطائر » ثم تغطى بواسطة القيام بحرث الأرض . وتبلغ كمية البذور اللازمة للفدان نحو $\frac{1}{24}$ من الأردب .

وبعد البذر بعشرين يوماً ، يروى المحصول ريته الأولى . ويتجدد الرى مرة كل عشرة أيام حتى فيضان النيل ؛ وعندئذ يحاط حقل السمسم بجسر صغير تنفذ فيه حسب الحاجة فتحات تدخل منها المياه إلى الأرض المزروعة .

ويبقى السمسم بالأرض لمدة خمسة شهور ، أى حتى نهاية أكتوبر ويتم حصاد محصول الفدان فى يوم واحد بواسطة عشرة عمال يحصل كل منهم على ٨ إلى ١٠ مدينى . وبعد ذلك ينقل هذا المحصول إلى جرن يعد لهذا الغرض ، وهناك يبسط النبات ويعرض للشمس لمدة شهر ، ويعهد إلى ثلاثة رجال بتقليب السمسم على أرض الجرن كل يوم وذلك بقصد تجفيف المحصول من كل جانب ؛ وفى النهاية تستخلص البذور من النبات عن طريق ضرب السيقان الجافة بعصى طويلة ، ويدفع مقابل حراسة السمسم خلال كل فترة تجفيفه فى الهواء الطلق ٧٠ مدينى . ويكلف حصاد وغربلة محصول فدان من السمسم نحو ١٤٠ مدينى ويتراوح ما يغله من البذور من ٤ إلى ٥ أرادب ؛ يباع الواحد منها عادة بـ ٧ إلى ٨ بوطاقات .

عاشراً : زراعة القرطم

يشكل القرطم موضوعاً لزراعة منتشرة لحد كبير فى وادى مصر ؛ ابتداء من إسنا حتى القاهرة ، ولا تمتد هذه الزراعة مطلقاً لما وراء إسنا ، كما لا يعمل بها أحد لا فى الفيوم ، ولا فى الدلتا . ولهذه الزراعة غرضان أساسيان : جنى وروده التى تستخدم فى الصباغة ، وجمع بذوره التى تستخدم فى صناعة نوع من الزيت .

ويزرع القرطم بصفة أساسية ، وعلى وجه الخصوص فى ولاية سيوط . وفى بعض الأحيان لا تلقى الأرض المخصصة لزراعته أى إعداد وفى هذه الحالة تبذر بذور القرطم « على الطائر » وفى أحيان أخرى تحرث الأرض حرثة أولى ثم تبذر البذور فى خطوط حددها المحراث ، وبهذه الطريقة يزيد إنتاج المحصول بمقدار طفيف . ويبذر فى الفدان الواحد من ٥ إلى ٧ أرباع « ربع » أو $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب ، من البذور التى ينبغى على الدوام أن تغطى بحرث الأرض « بعد بذرها » . ومع ذلك فإن المزارعين الفقراء يبذرون القرطم كما يبذرون الذرة ، فى حفر صغيرة ، يحرثوها ويغطونها « بالتراب » بأيديهم . ويتطلب بذر الفدان الواحد فى هذه الحالة خمسة عشر يوماً . ويتم هذا العمل فى نفس فترة بذر القمح . ويبدأ جنى زهوره بعد ثلاثة أشهر ، ويمتد موسم الحصاد من أول إبريل حتى ٢٤ منه ، وفى بعض القرى فى ضواحى طهطا يمتد هذا الموسم حتى بداية شهر مايو ؛ ويتم الأمر على يد نساء وأطفال يقطفون كل صباح طوال فترة تفتح الزهور وعند شروق الشمس بتلات « تويجات » الورود التى تفتحت للحد الكافى . ويستخدم عادة لجنى الفدان الواحد من ١٢ إلى ١٥ من هؤلاء العمال ، يعطى لكل واحد منهم من ٢ إلى ٣ مدينى حيث لا يعملون إلا لبضع ساعات . وتبسط البتلات التى جنيت على هذا النحو فوق الحصر لمدة يوم كامل فى الظل . ويتكلف إعداد محصول فدان كامل على هذا النحو أربعين بارة عن كل الوقت الذى يستغرقه الجنى . وعند منتصف موسمه يكون محصول الجنى أكثر وفرة .

وبعد ذلك تدق بتلات ورد القرطم بعصا طويلة فى هاون من الخشب حتى ينتهى بها الأمر أن تصبح نوعاً من العجين ، تشكل منه أقراص صغيرة مسطحة يبلغ

قطر الواحد منها من ١٠ إلى ١٢ سم . وهذا التحويل إلى أقراص والذى يتم يوماً بيوم ، يتطلب عمل رجل لمدة ساعة أو ساعتين . وبعد ذلك توضع أقراص القرطم فى الظل لمدة خمسة عشر يوماً كى تجف ، مما يجعلها تفقد حوالى نصف وزنها . ويبلغ وزن العشرة أو الخمسة عشر من هذه الأقراص بعد أن تصبح يابسة رطلا واحداً . ويتداول تجارياً على هذا النحو باسم : زعفران وعندما يبذر القرطم وحده ، وتكون السنة مواتية ، يبلغ إنتاج الفدان حوالى ثلاثة قناطير من هذه الأقراص ، ويتراوح ثمن القنطار من ٨ إلى ١٥ بوطاقة حسب قلة أو كثرة الطلب عليه من قبل التجار .

ولزيادة وزن أقراص الزعفران ولإعطائها مزيداً من التماسك ، تصحن أحياناً بعض زهور القرطم مع كمية محددة من مسحوق الترمس ويخلط الاثنان بنسبة رطل واحد من هذا المسحوق إلى ١٠ أرطال من الزهور . وهذا الغش الذى يقلل من ثمن الزعفران يمارس عادة فى ولاية جرجا . أما القرطم البالغ النقاء فهو قرطم طهطا الذى ينال لهذا السبب التقدير الأكبر ، ويأتى بعد ذلك قرطم سيوط ، وأخيراً القرطم الذى تنتجه ضواحى القاهرة ، ويباع الأخير بـ ١٨ إلى ٢٠ بوطاقة للقنطار .

وفى حين يبذر القرطم فى إقليمى سيوط والقاهرة غير مخلوط ببذور أخرى ، فإنه يبذر مخلوطاً بالعدس فى إقليمى طيبة وجرجا ، ولا يبذر فى هده الحالة إلا بواقع ٢/٢٤ من الأردب للفدان الواحد . وهكذا يزرع هذان المحصولان زراعة مشتركة . لكن محصول العدس يتم حصاده قبل جنى القرطم بأربعين يوماً . وفى هذه الحالة يكون إنتاج القرطم أقل منه حين يبذر وحده . فلا يدر الفدان الواحد سوى قنطار أو قنطار ونصف قنطار من الزعفران ، أو على الأكثر يدر قنطارين عندما تكون السنة مواتية لحد ممتاز .

ومدينة سيوط هى المستودع العمومى لكل الزعفران المصنع فى الصعيد ، ويبيعه المزارعون إلى تجار من أبناء هذه المدينة ، يتعاملون فيه بدورهم مع تجار من القاهرة ، ويصدر جزء منه كذلك إلى بلاد العرب عن طريق ميناء القصير .

وزراعة القرطم هى واحدة من أكبر الزراعات إدراراً للربح فى مصر ، ومع دلك

فحيث يتطلب جنى وروده بعض المصاريف ، وحيث ينبغى تصريفه فى الوقت المناسب فى حين يمكن أن تأتى الطلبيات عليه متأخرة ، فإن فقراء المزارعين لا يزرعونه إلا بقدر صئيل للغاية ، وهؤلاء يحيطون به حقول البطيخ والخضروات كنوع من الحدود .

وبعد أن تجنى ورود القرطم ، يترك النبات ليجف على ساقه لمدة ١٠ إلى ١٢ يوماً ثم تقتلع بعد ذلك سيقانه التى تستخلص منها البذور بضربها بالعصى ، ويستطيع ١٠ إلى ١٢ عاملا أن يقتلعوا سيقان فدان من القرطم فى يوم واحد ، ويلزم مثل هذا العدد من الأيام لدرسه ولتنظيف بذوره

ويعطى فدان القرطم الذى جنيت وروده فى السنة الاعتيادية من ٢ إلى ٣ أرادب من البذور ، ويرتفع هذا الإنتاج فى بعض الأحيان إلى ستة أرادب عندما يزرع القرطم خصيصا من أجل البذور ، كما يحدث فى ذلك الجزء من مصر العليا الذى يمتد من منتصف فرشوط حتى اسنا . وعلى العكس من ذلك : فعندما يزرع القرطم مع العدس فإنه لا ينتج من نفس المساحة من الأرض سوى أردب واحد أو أردب ونصف الأردب من البذور ، يتراوح سعره تبعاً للجهات التى يزرع بها ، فما يساوى ٢ بوطاقة فى سيوط قد يباع فى أسواق القاهرة بـ ٨ إلى ١٠ بوطاقات .

حادى عشر : زراعة الكتان

حيث لا يكون سطح كل الأراضى التى تغمرها مياه الفيضان بشكل طبيعى على نفس المستوى ، فإنه تخصص أكثر هذه الأراضى انخفاضاً ، والتى تبقى المياه فوقها لمدة أكثر مما تبقى فوق غيرها ، لزراعة الكتان (Linum usitatissimum) . وهو واحد من أهم محاصيل ولايات سيوط والمنيا والفيوم وأعماق الدلتا ؛ وإن كانت تتناول زراعته اختلافات كبيرة تبعاً لظروف الأماكن التى يزرع بها .

ويبذر الكتان فى أولى هذه الولايات فى انقلاب الشتاء . ولا تتلقى الأرض التى تغرقها المياه بشكل طبيعى أية إعدادات ، وأفضل هذه الأراضى (بالنسبة لهذا

المحصول) هى تلك التى ظلت مغمورة بالمياه لفترة طويلة ؛ وحيث تكون الأرض لا تزال موحلة فإن البذور تغوص فيها لحد لا تكون معه بحاجة لتغطيتها . ويستخدم أردب (من البذور) لكل واحد .

ولا تتطلب الحقول المبذورة بالكتان أية عناية حتى يحين حصاده ، ويتم هذا الحصاد عند بداية أبريل ، أى بعد ثلاثة أشهر ونصف من بذره . وعندما يبلغ النبات مرحلة نضوجه ، فإنه يقتلع باليد ويقسم إلى حزم . ويصل محصول الفدان عادة إلى ٤٠٠ حزمة تشكل حمولة خمسة جمال . ويتطلب اقتلاع محصول فدان من الكتان ثمانية أو عشرة أيام عمل ، يدفع عن كل منها ٧ مدينى .

وتنقل حزم الكتان إلى المكان الذى تفصل فيه بذور الكتان . وتتم هذه العملية عن طريق ضرب الطرف العلوى للحزمة من نبات الكتان بالجانب السفلى لجرة من الطين المحروق تسمى بلاص ، وترقد فوق حزم من الكتان تعلو بنحو متر عن الأرض . وتوضع هذه الجرة وسط سور دائرى صغير ، يتكون من حزم من الكتان ، موضوعة بعضها فوق بعض ، لكى تمنع الحبوب عند خروجها من قمة السيقان من أن تتناثر فى كل اتجاه . ويتكلف استخلاص البذور من محصول فدان واحد ، وبهذه الطريقة ، ٦٠ مدينى . وبمجرد إتمام هذه العملية ، يحزم الكتان من جديد ، ويحمل إلى أحواض على شكل متوازى أضلاع ، يبلغ طول كل جانب منه ١٥ — ٢٠ قدماً ، بعمق يبلغ متراً ونصف المتر ، ومكسو بجدار مبنية من القرميد ، ويقع عادة بالقرب من ماكينة لرفع المياه (ساقية) . وهناك توضع حزم الكتان بشكل عمودى (أى واقفة) ، الواحدة إلى جوار الأخرى ، مع ضمها إلى بعضها بقوة كى لا تحملها المياه التى تدخل إلى هذه الأحواض وهو الأمر الذى يحرص الناس على تجنبه عن طريق تحميل هذه الحزم ببعض الأحجار ، ويخرج الكتان من الماء بعد أن يظل مغموراً به لمدة خمسة عشر أو عشرين يوماً ثم يعرض للشمس حتى يجف بدرجة كافية . وعندئذ تكسر سيقانه عن طريق ضربها بالعصى بعد وضعها فوق حجر ، وبعد هذا يمررونها بين أسنان مشط من الحديد يفصل الشعيرات عن شظايا الساق (المتكسرة) والتى تختلط بها . وبعد هذه العمليات يطرح الكتان للتداول .

وتباع الحزم الأربعمائة من الكتان عادة ، والناتجة من محصول فدان واحد ، بـ ١٠٠٠ إلى ١١٠٠ مديني . ويمكن أن نستخلص منه ، بعد التجهيزات التي انتهينا من وصفها ، نحو ٦٠٠ رطل من الكتان الجاهز للغزل . ويبلغ ثمن الرطل من الكتان في سيوط وصواحيها نحو ٤ بوطاقات (*) ، مما يصل بعائد محصول الفدان الواحد إلى ٢٦ بوطاقة و٦٠ مديني .

ويبدو في رراعة هذا النبات في الفيوم بعض الاختلافات ، لأن أراضي هذه المنطقة تحصل على أقل بكثير مما تحصل عليه الولايات والمناطق الأخرى من مصر من مياه الفيضان الطبيعي .

ويبدأ الناس هناك بإعطاء الأرض التي ينبغي أن يزرع فيها الكتان حرثتين وأحياناً ثلاث حرثات باتجاهات متقاطعة ؛ وتسوى الأرض بعد ذلك بتمرير جذع نخلة فوق سطحها . ويبذر الكتان « على الطائر » ولا تغطى البذور على الإطلاق ولكن الحقل يروى على الفور بعد البذر الذي يتم عند انقلاب الشتاء ، وتتكرر عمليات الري التي تتم بالدلو أو الشادوف كل خمسة عشر يوماً ؛ ويستخدم عادة لري الفدان الواحد ماكينتان من هذا النوع تعملان عند كل رية لمدة يومين . ومع ذلك فحين يكون الندى أو الطل وفيراً ، فإنه يستغنى عن الري الصناعي . ولا تحتاج حقول الكتان لأن تغرق وأن تنقى من الأعشاب الضارة خلال المائة يوم التي يبقاها هذا النبات في الأرض .

ويقتلع الكتان عند نهاية شهر مارس ، وحيث يكون المحصول في هذه الفترة أقل جفافاً من محصول الصعيد ، فإنه يعرض لمدة اثني عشر أو خمسة عشر يوماً للشمس بعد حصاده ويعني الناس بتقليبه لكي يتم جفافه من كافة الجهات بدرجة واحدة ، وتكون منه بعد دلك حزم تنقل على ظهور الجمال إلى الجرن الذي ينبغي أن

(*) كذلك في النص وصحتها ٤ مديني إد تساوي البوطاقة ٩٠ مديني ، وبدلك تكون قيمة المحصول على النحو التالي $\frac{٤ \times ٦٠٠}{٩٠}$ = ٢٦ بوطاقة و ٦٠ مديني . (المترجم) .

تستخلص البذور فيه . ويتم ذلك ، كما سبق لنا القول ، بطرق قمة النبات ، الذى يمسكون به باليدين من ناحية جذره ، بجرة من الطين المحروق ترقد بشكل أفقى . ولا تؤدى مطلقاً هذه الطرقات ، التى تفصل السنابل التى تحوى البذور عن السيقان ، إلى إخراج البذور من سنابلها ، وإنما تسحق هذه السنابل بتمريرها بين شقى رحى صغيرة من الصلصال الجاف ، تشبه تلك التى تستخدم عند جرش العدس والفول (لتخليصهما من قشرتهما) .

ويلزم اثنا عشر يوماً كى يتمكن عامل واحد من حصد فدان من الكتان ، وتتكلف عملية الحصاد ٩٠ مدينى ؛ ويكفى رجلان أو ثلاثة رجال لتجفيف وتحزيم محصول الفدان ، ويحصلون مقابل دلك على $\frac{١}{٥}$ من هذه الحزم . وبعد ذلك تتكون ربطات تضم كل واحدة مها وتسمى « كرته » ١٢ حزمة تدفع بارة واحدة مقابل تكسير كل واحدة منها . ويبلغ ناتج كل فدان ٤٠ إلى ٥٠ كرته ، تباع معاً بنحو ٢٠٠٠ مدينى . ويتراوح متوسط ثمن الأردب مں بدور الكتان بين ٢ إلى ٦ بوطاقات . ويبلغ محصول الفدان منها ثلاثة أو أربعة أرادب .

وبعد تكسير سيقان الكتان وإعادة وضعه فى حزم ، ينقل لكى ينقع ، فى إحدى البرك ، حيث يغمر بالمياه تحت ثقالات من الأحجار يغطى بها ؛ ويبقى الكتان هناك اتنى عشر أو خمسة عشر يوماً تبعاً لما إن كان من المستطاع أو من غير المستطاع تغيير مياهه . وبعد أن تنتهى عملية النقع يجفف الكتان فى الشمس على مرتين مدة كل منهما أربع وعشرون ساعة ؛ وأخيراً ينقل إلى المزارع ، وتكسر سيقانه بضربها فوق حجر وبواسطة مطرقة خشبية ذات رأسين ؛ وبعد ذلك تفصل من شعر الكتان شظايا الساق التى توجد متداخلة بها ، وذلك بضرب هذا الشعر فى الهواء بواسطة عصا كبيرة من الخشب ؛ وأخيراً فلكى يتم تنظيف الكتان بشكل تام ، فإنه يمرر بين أسنان مشط من الحديد ، وفى العادة ، تقوم النساء بهذه العملية الأخيرة .

وعند ضواحي القاهرة يقوم زراع الكتان ببيعه قائماً (وهو فى الحقل) إلى أولئك الذين يجهزونه للغزل . ويصل ثمن محصول الفدان حين يباع على هذا النحو إلى ٤٠ بوطاقة . ويتمثل الاختلاف الوحيد فى وسائل حصاد الكتان فى طريقة حلجه (أى تكسير السيقان) ، إذ يطرق هنا بعصى طويلة قبل نقله إلى المستنقع .

وتخضع زراعة الكتان فى الدلتا لتغييرات عامة يسببها اختلاف الطقس وشدة انخفاض الأرض للزراعات الأخرى .

فقبل البذر ، تحرث الأرض مرتين أو ثلاث مرات فى خطوط متعامدة . وتكلف كل حرثة ١٢٠ بارة ، وبعد ذلك تسوى الأرض وتقسم إلى أحواض لريها ، ويبذر الكتان على الدوام بنسبة $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب لكل قيراط ، أى أردب واحد لكل فدان . ويتم ذلك فى الخمسة عشر يوماً الأولى من ديسمبر ، ويتم الحصاد بعد ذلك بأربعة شهور ، وخلال هذه المدة يروى المحصول ثلاث مرات بواسطة الدلو ، وتستغرق كل واحدة من هذه الريات ثلاثة أيام ، وحيث يكون وقت نمو الكتان هو نفس الوقت الذى تنخفض فيه مياه النيل ، فإن الرية الأولى لا تتطلب سوى ستة عمال ، فى حين تتطلب الرية الثانية ثمانية ؛ والثالثة عشرة رجال . ويبلغ إنتاج الفدان الواحد من البذور فى العادة ثلاثة أو أربعة أرادب ، و١٦ إلى ١٨ ربطة ، تتكون الربطة الواحدة من ٢٤ حزمة .

ويتراوح ثمن الأردب من البذور من ٢ إلى ٧ بوطاقات ، ويبلغ ثمن الربطة المكونة من ٢٤ حزمة ١٣٠ مدينى فى العادة فى زمن السلم . ويصل صافى حصيلة زراعة فدان واحد ما بين ٤٢ إلى ٤٥ بوطاقة .

وفى ضواحي شبين (الكوم) ومنوف ، تنثر على الأرض المخصصة لزراعة الكتان ، بعد أن تحصل على الحرثات اللازمة ، طبقة من السباخ ، وهو سماد يتكون من الأتربة ، ورماد الأفران والأنقاض المكدسة حول القرى . ويستخدم للفدان الواحد ست أو سبع حمولات جمل من هذا السباخ ، تتكلف الحمولة الواحدة ٣ مدينى . ويتراوح الإيجار اليومى للجمل بين ٣٠ إلى ٤٠ مدينى .

ويصنّع جزء من الكتان الذى تنتجه مصر على يد نساجين من أهل البلاد ، يوجدون بكثرة فى مدن وقرى مناطق سيوط والفيوم والدلتا .

ويصدر جزء آخر فى شكل شعر إلى جزر الأرخبيل . ويتجه إلى هذه الوجهة الكتان الذى تنتجه مصر السفلى بصفة خاصة : وهذا هو السبب فى أن صافى حصيلة هذا المحصول ، والذى قدرناه بـ ٤٢ إلى ٤٥ بوطاقة ، يتناقص فى أوقات الحرب ، وتستخدم بذور الكتان فى إنتاج زيت يستخدم فى الإضاءة .

ولا يشكل القنب موضوعاً لزراعة واسعة فى مصر ، ولا يعتاد الناس هناك على هذا النبات باعتباره صالحاً للنسج ، وتبذر منه كميات بالغة الضآلة على حواف بعض الحقول ليكونوا من أوراقه نوعاً من مستحضر مخدر يقوم مقام الأفيون .

ثانى عشر : زراعة القطن

على الرغم من أننا نجد فى كل أنحاء مصر بعض حقول مزروعة بالقطن ،. فإن بإمكاننا القول إن هذه الزراعة تختص بالمنطقة الأكثر مدارية من مصر لأقصى الجنوب ، وبالدلتا كلها . وتختلف طريقة زراعة هذا المحصول وكذلك ناتجه تبعاً للمناطق التى يزرع فيها .

ففى منطقة طيبة ، يبذر القطن (Gossypium arborescens) على فترتين من العام : الأولى فى بداية شهر أبريل أما الثانية فتتم فى يولية .

وتمهد الأرض أولا بحرثة أو بحرثتين ، ثم تقسم بعد ذلك إلى مربعات (أحواض) يبلغ عددها المائتين فى كل فدان ، ولا يبذر القطن مطلقاً فى داخل هذه المربعات ، التى تزرع عادة بالبامية والملوخية ، ولكن فوق الحدود الصغيرة التى تشكل محيط هذه المربعات ، وتحفر فى هذه الحدود حفرات صغيرة تبعد الواحدة منها عن الأخرى بحوالى المتر ، ويبلغ عمق كل منها ثلاثة أو أربعة أصابع « قراريط » ويوضع فى كل منها أربع أو خمس بذور .

وعندما يزرع القطن فى شهر أبريل ، تكون نوبات الرى اللازمة لإنباته أكثر تكلفة ، إذ تكون المياه أكثر انخفاضاً فى هذا الفصل ، الأمر الذى يتطلب وجود ثلاث أو أربع طبقات من الدلو « الشادوف » وتتم هذه الريات لمدة خمسة أيام كل ١٧ يوماً ، ويستخدم لإدارة الدلو رجلان ، وتبلغ يومية الواحد منهما ٨ بارات . ويبدأ جنى القطن المبذور فى أبريل فى شهر أغسطس .

أما إذا زرع القطن فى موسم تزايد مياه النيل ، فلابد أن نستنتج أن ما يلزم من عمل لرى هذا المحصول يكون أقل وإن كان نضجه يتأخر بفعل برد الشتاء . ولا تتم الجنية الأولى إلا فى بداية شهر مارس من العام التالى . وعموماً فقليلة هى الحقول التى تبذر بالقطن فى طيبة فى هذه الفترة .

وفى بعض الأحيان ، يبذر القطن على رؤوس عدد محدود من الخطوط التى تكونت بالفأس داخل هذه المربعات « الأحواض » نفسها ، ويتم البذر بشكل خماسى « أى أربع جورات على الأطراف واحدة فى الوسط » مع ترك مسافة تبلغ المتر بين كل من هذه الجورات .

وينبت القطن بعد أربعة أو خمسة أيام من وضع البذور فى الأرض ، وتتفتح زهور المحصول «بالنوار » بعد مضى خمسة أو ستة شهور ، وبعد تفتح الزهور بتسعين يوماً تتم الجنية الأولى من هذا النوع من النوى « اللوزة » التى تحتوى على القطن الشعر . وهذا الجنى الذى يمتد لمدة ثلاثة أشهر يتم كل يوم بواسطة النساء والأطفال ، وتوضع لوزات القطن لتجف فى الشمس ، وتنزع قشرتها باليد ، ثم تستخرج البذور بعد ذلك من القطن الشعر أو الوبر الذى يحيط بها بواسطة آلة بالغة البساطة ، سنتحدث عنها فيما بعد . وتتطلب زراعة القطن ريات دائمة لا تتوقف إلا خلال أشهر الشتاء الأربعة . وتبعا لما قلناه سابقاً فإنه يلزم ثلاثة أو أربعة طوابق من الدلو « الشادوف » أثناء فترة المحاصيل القيظية وطابق واحد فقط أثناء فترة المحاصيل الدميرى .

وتبلغ تكاليف تجهيزات الأرض قبل زراعة القطن خمس أو ست بوطاقات للفدان الواحد .

ويزرع القطن فى حقول لا تتجاوز مساحة الحقل منها على الإطلاق ثلاثة أفدنة وفى معظم الأحوال تكون مساحة الحقل فدانا واحدا أو فدانا ونصف الفدان .

وتستمر زرعة القطن الواحدة ثمانى أو عشر سنوات ، وفى أثناء السنتين أو الثلاث سنوات الأولى تزرع البامية والخضروات الأخرى فى المسافات التى توجد بين سيقان القطن . وفى أثناء الست أو السبع سنوات الأخيرة يبقى القطن وحده . ولا يقوم الفلاحون مطلقا بتقليم شجيراته ، بل يكتفون بتجريدها من فروعها الجافة وذلك بتكسيرها باليد حتى تصبح الفروع الجديدة أكثر إنتاجا .

وعلى الرغم من أن شجيرات القطن فى الصعيد تكون قوية ومعمرة وأن زرعة واحدة يمكن لها أن تستمر لمدة عشر سنوات ، فانه مع ذلك تغل أكبر إنتاج لها حتى العام الثالث ثم تبدأ إنتاجيتها بعد ذلك فى التدهور

ويعطى الفدان الواحد فى حالة أقصى غلة له ثلاثمائة رطل من القطن ، ويبلغ ثمن الرطل من ١٠ إلى ١٢ بارة ، ويستخدم قطن مصر العليا فى مصانع منسوجات البلاد ، وينال تقديراً أكبر مما يناله قطن سوريا .

ولا يزرع القطن فى الدلتا إلا كمحصول سنوى ، ولا يبذر إلا فى فترة واحدة من العام ، فى بداية شهر أبريل ، بعد حصاد القمح .

فبعد أن تجف الأرض تماما فى هذه الفترة من السنة ، يغمر الناس الأرض بالماء وبعد ذلك تحرث هذه الأرض ، وتحفر بالفأس حفر صغيرة تترك بين كل واحدة وأخرى مسافة ٢٠ — ٣٠ سم وتبذر البذور فى هذه الحفر . ويتم هذا العمل فى خلال عشرة أيام ويدفع عن اليوم الواحد ١٠ مدينى ، ويبلغ ثمن البذور التى تبذر فى الفدان الواحد ٤٥ بارة .

ويروى نبات القطن ثلاث مرات خلال مدة خمسة شهور ، وتتم الريتان الأوليان بواسطة العجلات ذات القواديس أو ذات الأسنان واللتين تسميان بلا تمييز : « ساقية » وتتم الرية الثالثة بغمر هذا المحصول بمياه الفيضان .

ويبدأ الناس فى جنى القطن فى الأيام الأولى من شهر سبتمبر . ويقتلع النبات بأكمله مليئا بلوزاته ويوضع فى جرن لكى يجف . ويكفى لهذا الأمر عمل أربعة أيام لرجل واحد . وبعد ثلاثين يوماً من التجفيف ينزع القطن من اللوزات التى تحتويه ، وتستطيع ستون امرأة أو طفلا أن يتموا هذا العمل فى ظرف يوم واحد ويدفع لكل منهم – أو منهن – خمسة مدينى ، ويترك لهم بالإضافة إلى ذلك سيقان النبات الجافة .

ويبلغ إنتاج فدان القطن بالقرب من سمنود قنطارا ونصف القنطار ، أو قنطارين ، زنة القنطار ١٢٠ رطلا . ويبلغ ثمن القنطار ١٦ بوطاقة عندما يكون البحر حراً ، ويبلغ ٩ بوطاقات فقط فى أوقات الحرب .

ويتجدد القطن الذى يزرع كل عام فى ولاية المنصورة ، ولكن ، فبدلا من اقتلاع كل سيقان القطن دفعة واحدة وتجفيفها بتركها معرضة للشمس لمدة شهر ، يتم جنى لورات القطن بمجرد نضوجها ، ويستخدم الأطفال فى هذا العمل منذ أول ضوء نهار وحتى بعد شروق الشمس بثلاث ساعات .

ويفصل عن القطن الشعر البذور التى تكون بداخله بواسطة آلة بالغة البساطة وتتكون هذه من اسطوانتين من الخشب المتين يبلغ طولها ٤ ديسيمتر وسمكها من ١٢ – ١٥ ملليمترا ، وتدخل هاتان الاسطوانتان ، وهما متوازيتان فيما بينهما ، وبينهما مسافة فاصلة تبلغ ٢ – ٣ ملليمترات – تدخلان بين رافعتين رأسيتين يبلغ ارتفاعهما ٢ ½ ديسيمتر « ٢٥ سم » ، وهاتان الرافعتان مثبتتان بزاوية قائمة فى لوح يبلغ سمكه حوالى ديسيمتر واحد « ١٠ سم » وتحمل كل واحدة من هاتين الاسطوانتين الصغيرتين فى أحد طرفيها بين الجهة المقابلة مقبضاً صغيرا ، وتدور الاسطوانتان فى اتجاهين مغايرين مثل سلندرات آلة صقل الورق ، وعندئذ تتراجع بذور القطن إلى الخلف ويذهب القطن الوبر إلى الأمام . وإذا ما رأيت هذه الآلة وهى تعمل فلابد أن تتعرف فيها على الفور على أول نمط للاسطوانات التى كان يمرر بينها القطن فى آلات الغزل .

ثالث عشر : زراعة النيلة

لا ينهض بزراعة النيلة (indigofera tinctoria) عادة إلا ملاك ميسورون أو فلاحون يكونون فيما بينهم جمعية يعملون من خلالها بأنفسهم فى استغلال حقولهم ، وفى صناعة خامة لب صبغة النيلة التى تتداول فى التجارة .

ويبدو أن المناطق المدارية من الصعيد هى أكثر المناطق صلاحية لزراعة هذا النبات ، ذلك أنه على الأقل ، يزرع فى هذه المناطق من أرض مصر بأكثر مما يزرع فى المناطق الأخرى ، وفى نفس الوقت فإن المناطق التى تجود فيها زراعة القمح وتنتجه بوفرة ، مثل ولايتى سيوط والمنيا حيث يغطى فيض المياه الطبيعى مساحات واسعة ، لا توفر من هذا النبات سوى كميات ضئيلة ، شأنها فى ذلك شأن الفيوم . وقد شاهدنا حقول هذا المحصول تتقارب بعضها إلى بعض على نحو كاف وذلك على الشاطئ الأيسر للنيل ، وهبوطا من بنى سويف إلى الجيزة ، ثم تنقطع هذه الزراعة بشكل تام شمال القاهرة وفى مصر السفلى .

وتشكل بداية شهر يونيه الفترة التى تبذر فيها النيلة فى ولايتى جرجا وطيبة ، فتعد الأرض بحرثها مرتين فى اتجاهين متقاطعين . وتكسر قطع الطين التى توجد متماسكة فوق سطح الحقل بعد حرثه على هذا النحو ، وذلك بطرقها بعصى طويلة . وتقسم الأرض بعد إعدادها بهذه الطريقة إلى أحواض مربعة الشكل ، يبلغ طول ضلعها ثلاثة أو أربعة أمتار ، وتفصل كل منها عن الأخرى جسور صغيرة يصل ارتفاع الواحد منها إلى ٢ – ٣ ديسيمتر (٢٠ – ٣٠ سم) .

وتعمل فى داخل هذه الأحواض ، جورات صغيرة ، عمق كل منها نحو أربعة قراريط ، وتبعد كل منها عن الأخرى بـ ١٥ إلى ١٦ سم ، ويوضع فى كل حورة ثلاث أو أربع بذور من نبات النيلة ثم تغطى هذه البذور بالتراب ، وبعد ذلك يسوى كل حوض أفقيا بقدر الإمكان بواسطة المسوجة (البتانة) كى تحصل الأحواض على قدر متماثل من مياه الرى .

وتأتى بذور النيلة فى العادة من سوريا ، ذلك أن البذور التى تنتجها مصر أقل قيمة .

وتتكلف الحرثتان اللتان تعطيان للأرض قبل البذر ٢٤٠ مدينى .

وتتطلب زراعة فدان من النيلة عملا متصلا لتسعة رجال ، يستخدمون فى رى الحقل وعزقه (وتخليصه من الأعشاب) ، وبعد أن تتم هاتان العمليتان بالعناية المناسبة يصبح من الممكن عندئذ القيام بالحشة الأولى من نبات النيلة ، وذلك بعد ثلاثة أشهر من البذر ، أى عند بداية سبتمبر .

ويقطع النبات على ارتفاع قيراطين من الأرض ، ويبدأ الناس فى استخلاص اللباب بمجرد إتمام الحصاد . وعلى الرغم من أنه يمكن – عند الاقتضاء – النظر إلى هذا الاستخلاص باعتباره ضرباً خاصاً من ضروب الصناعة ، وأن من المستطاع نتيجة لذلك أن ندخل وصفه ضمن وصف فنون الصناعة ، فإننا نعتقد أن علينا أن نتناوله بالحديث فى هذه الفقرة ، سواء بسبب بساطته ، أو بسبب أنه يتم على يد نفس الرجال الذين يزرعون النبات ويحصدونه .

ينقل هذا النبات بعد أن يقطع على النحو الذى انتهينا من بيانه إلى مستودع صغير مسقوف ، يبلغ طوله خمسة أمتار وعرضه أربعة أمتار ، ثم يخرط ويقطع إلى قطع بواسطة سكينة كبيرة ، ويوضع وهو مقطع على هذا النحو فى جرار كبيرة من الطين المحروق ، يبلغ ارتفاعها ٨ ديسيمترات (٨٠ سم) ويبلغ قطرها ٦ ديسيمترات ، وتغرس هذه الجرار فى الأرض حتى بداية رقبتها ، ويصب على النبات المقطع ماء فاتر حتى ثلثى ارتفاع هذا النوع من الدلاء . . ثم تسد بغطاء يتكون من نسيج من سعف النخل ، أحدث به ثقبان يستخدمان فى إدخال عصوين يحركهما عاملان لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات ، لتحريك قطع النبات واستخلاص المادة الملونة منها .

وتحتوى الورشة عادة على أربع جرار متشابهة تستخدم منها اثنتان فى نفس الوقت للعمل الذى انتهينا من الإشارة إليه .

وبعد أن ينتهى العمل ، تنقل المياه المحملة باللباب من هذه الجرار الأول إلى جرار أخرى أصغر حجما ، وموضوعة فوق الأرض ، وتبلغ سعة الجرة منها حوالى ½ سعة الجرة من النوع الأول ، ثم تصفى الأوراق المنقوعة فى دلاء وذلك بأن توضع هذه الأوراق فى أطباق مصنوعة من سعف النخيل موضوعة بدورها فوق هذه الدلاء .

تترك المياه الملونة ساكنة فى هذه الدلاء ، فيترسب اللباب فى القاع . ولكى تتم تصفية المياه (التخلص منها) بمجرد أن تفقد المادة الملونة ، وأن يكتسب اللباب المترسب قدراً من التماسك ، تصنع ثلاثة ثقوب فى جدار الجرة بشكل أفقى ابتداء من حافتها العليا ، يبعد كل منها عن الآخر بـ ١٦ إلى ١٧ سم ؛ وبعد مضى ست ساعات من عملية نقل المياه إلى الجرار الصغرى والتى تحدثنا عنها ، تفتح الفتحة العليا أو الثقب الأعلى لتنسكب كمية محدودة من المياه ، ثم تفتح الفتحتان الأخريان على التوالى ، وبعد ذلك لا يبقى فى قاع الجرة سوى اللباب الذى يكون قد اكتسب قدراً كبيراً أو قليلا من التماسك .

وفى بعض الأحيان لا يثقب جدار الجرة إلا ثقباً واحداً ، على مسافة ٥٠ سم أسفل حافتها العليا ؛ ويترك الإناء ليتم ترسب اللباب أثناء الليل ، ويفتح هذا الثقب فى اليوم التالى لتصفية المياه التى كانت تغطى هذا اللباب المترسب .

وتتطلب أعمال الورشة الواحدة اثنتى عشرة من هذه الجرار المصنوعة من الطين المحروق .

ويجمع فى جرة واحدة اللباب المترسب من ثمانى أو تسع جرار أخرى ، ويترك فيها لمدة أربع وعشرين ساعة ، وفى خلال هذه المدة ، يضغط اللباب بدرجة أكبر ، وفى النهاية تصفى لآخر مرة تلك المياه التى كانت طافية فوق هذا اللباب . وعندئذ تحفر حفرة صغيرة فى الأرض ، وبعد أن يفرش قاعها وجدرانها بالرمال ، يصب فيها اللباب الذى تم الحصول عليه ، ويصفى هناك لمدة ساعتين ، وأخيراً وبينما هو لا يزال متماسكاً كالعجين ، فإنه يوضع فى قوالب حيث يجف بشكل تام ، ويتداول فى التجارة فى شكل قوالب جافة يزن الواحد منها رطلا ونصف الرطل أو رطلين ، لكى يستخدمها الصباغون .

وبعد الحشة الأولى للنيلة بخمسة وثلاثين يوماً ، تتم الحشة الثانية ؛ وبعد ذلك تأتى الثالثة ، والتى تعقبها هى الأخرى فى بعض الأحيان حشة رابعة ؛ وتتم هذه الحشات المتعاقبة كل منها وراء الأخرى بمسافات زمنية متساوية ، بحيث أنه تمضى منذ بذر نبات النيلة حتى الحشة الأخيرة منها نحو ثمانية أشهر .

ومع ذلك فإن ناتج هذه الحشات ليس متساوياً ، إذ تعود الحشة الأولى عادة بما قيمته ٥٠ بوطاقة عن كل فدان ، وتعود الثانية بـ ٣٨ ؛ والثالثة بـ ٢٥ ؛ والرابعة إذا ما حدثت بـ ١٢ أو ١٥ بوطاقة فقط ؛ وهكذا نرى أن الإنتاج يتناقص على نحو ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ .

ويصل متوسط ثمن رطل صبغة النيلة ، التى صنعت على هذا النحو بيد الفلاحين : ١٦ أو ١٨ مدينى .

وتعطى الحشة الأولى من الفدان عادة نحو ٢٥٠ رطلا من النيلة ، وتستمر هذه الحشة لمدة ١٥ أو ٢٠ يوماً وكذلك الأمر بالنسبة لصنع قوالب اللباب الناتجة عنها . ويكاد يكون الأمر على هذا النحو بالنسبة للحشات التالية .

ويستمر حقل (زرعة) النيلة فى مصر العليا لمدة ثلاث أو أربع سنوات ، لكن أوفر إنتاج لهذا الحقل هو ما تغله السنة الأولى .

وتصل الضريبة التى تفرض على فدان النيلة بشكل عام من ٦ إلى ٨ بوطاقات .

وتبذر النيلة فى ولايتى بنى سويف والجيزة حيث تنتشر بشكل كاف هذه الزراعة ، عند بداية شهر مارس ؛ ولهذا الغرض ، تشق خطوط متوازية ، تبعد كل منها عن الأخرى بـ ٢٥ إلى ٤٠ سم . وخطوات استخراج اللباب هى نفس الخطوات المتبعة فى الصعيد ، ولكن لا تؤخذ من حقل هذا النبات سوى ثلاث حشات فى العام ، كما لا يمكث المحصول فى الحقل سوى سنتين ؛ وهنا تكون الحشة الثانية هى التى تدر العائد الأكبر ، فتوفر بالنسبة للفدان الواحد ١٦٠ رطلا من النيلة يتراوح ثمنها بين ١٢ إلى ١٨ بوطاقة تبعاً لاحتياجات الاستهلاك .

وإذا كانت الأراضى التى تزرع فيها النيلة واطئة بقدر يكفى لريها بمياه النيل ، وغمرها بفيضانه ، فإن المحصول يتلف : ذلك أنه ينبغى أن يتم رى هذا المحصول بقدر كبير من العناية والانتظام .

وعلى الرغم من أن الأراضى تصبح ملائمة بدرجة أقل لزراعة النيلة مع اتجاهنا نحو الشمال ، وبمجرد أن يصبح الطقس أكثر اعتدالا ، فقد لاحظت مع ذلك وجود بعض حقول منها فى الدلتا ، على الشاطىء الأيمن للفرع الغربى للنيل .

رابع عشر : زراعة قصب السكر

تصلح كل أراضى مصر لزراعة قصب السكر Saccharum Officinarum ولكن التكاليف الباهظة التى تتطلبها هذه الزراعة لا تسمح إلا لعدد محدود من الأهالى بالانخراط فيها ، وتتركز - كما يمكن القول - فى ولاية جرجا فى أراضى فرشوط وأخميم . أما ما يزرع من قصب فى بقية أنحاء البلاد فلا يستخدم فى صناعة السكر ، ولكن تجمع أعواده فى شكل قطع وتعرض للبيع فى أسواق المدن ، لكى تؤكل أو بمعنى أدق تمص ، كنوع من الفاكهة دون أية تجهيزات .

وتعد الأرض المخصصة لزراعته فى حوالى نهاية مارس وذلك بحرثها أربع أو خمس مرات فى اتجاهات متقاطعة . وعندما تصبح الأرض معدة بشكل كاف عن طريق مرات الحرث هذه ، تخط فيها خطوط متوازية ، وتوضع فيها بشكل أفقى قطع القصب الطازجة ، ثم تغطى هذه بالتراب لارتفاع يبلغ قيراطين أو ثلاثة قراريط ، وبعد ذلك يبدأ الناس على الفور فى رى المحصول بواسطة الماكينات ذات القواديس والسواق .. وتستطيع الواحدة من هذه الماكينات أن تروى ستة أفدنة من القصب إذا عمل عليها اثنا عشر ثوراً ، إذ ينبغى أن يخصص لكل فدان ثوران ، ولابد أن يستمر عمل الرى بلا انقطاع حتى فترة الحصاد الذى يتم بعد الزراعة بأحد عشر شهراً . وينحصر عمل الحصاد فى قطع الأعواد التى بلغت مرحلة النضج من فوق الجذر بقليل ، ويستطيع عاملان « فلاحان » يستخدمان لهذا العمل أن ينتهيا من حصاد فدان فى مسافة زمنية

تصل لمدة خمسة عشر يوماً . إذ يقطعان فى اليوم الواحد ست أو سبع حمولات جمل من القصب .

ولا تبقى قصبات الزراعة فى كل غلتها إلا لمدة عام واحد ، أما أجزاء القصب التى تترك بجذورها فتنتج قمما نامية جديدة تستخدم فى تجديد الشتلات فى العام القادم .

وحيث أن صنع السكر فى مصر يمثل فناً صناعياً فإننا نرجىء الحديث عنه إلى مكان آخر ، ويكفينا أن نقول إن فدان الأرض المخصص لهذه الزراعة ينتج فى العادة عشرين قنطاراً من السكر واثنى عشر قنطاراً من الثفل ويتراوح ثمن القنطار من السكر زنة ١٠٥ أرطال ما بين عشر واثنتى عشرة بوطاقة ، أما قنطار الثفل فيبلغ ثمنه ثلاث بوطاقات فقط .

خامس عشر : زراعة التبغ

أما التبغ nicotina tabacnm فيزرع بشكل خاص فى كل ولايات مصر العليا .

وتبذر بذور هذا المحصول مباشرة بعد انحسار مياه الفيضان . وعندئذ لا تكون الأرض فى حاجة لأية تجهيزات ، وتبذر البذور أحياناً فى الربيع فى نفس موسم الذرة النبارى . وعندئذ يتطلب الأمر حرث الأرض مرة أو مرتين .

ويستخدم لبذر $\frac{١}{١٢}$ من الفدان « أى مساحة قيراطين » $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب من بذور التبغ وبعد أربعين أو خمسين يوماً يصبح النبات قوياً لحد يكفى لشتله « أى زرعه فى حقل آخر » .

وتختار أجود الأراضى لشتل النبات ، وتجهز هذه بحرثتين متقاطعتين وبعد ذلك يمرر جذع نخلة « كزحافة » فوق هذه الأراضى لتسوية سطحها .

وتكلف هذه التجهيزات الأولية ما يصل إلى ٢٥٠ مدينى ، وتبلغ المسافة بين الحفر المخصصة لاستقبال بذور النبات حوالى ثمانية قراريط وهو نفس ما يبلغه عمق

الواحدة منها . ويتطلب الأمر عملا يستمر لمدة ٢٥ – ٣٠ يوماً لتغطية مساحة فدان من التبغ المشتول على هذا النحو .

ويبدأ الحصاد بعد ذلك بشهرين ونصف الشهر وذلك بقطع النبات بشرشرة ويترك جزء صغير من ساقه فوق الجذور . وبعد هذه الحشة الأولى تنمو من نفس الساق فروع جديدة « فسائل » تحش بالمثل بعد مضى ثلاثين يوماً .

وبعد أن يقطع النبات وفسائله على هذا النحو ، تنزع السويقات « الذنيبات » وجوانب أوراق التبغ ، وتعرض بعد ذلك فى الشمس لمدة ثمانية أيام . وبعد أن تجف الأوراق على هذا النحو تحفظ داخل حصر « حصيرة » وأخيراً تشكل منها حزم اسطوانية الشكل تتداول فى التجارة . وتبغ هذه البلاد ، وهو ذو لون ضارب إلى الخضرة ، هو الوحيد الذى يستهلك فى أرياف مصر العليا .

وتتطلب الحشة الأولى لفدان واحد من التبغ من ١٠ – ١٢ يوم عمل ويسدد أجر هذا العمل بأوراق تبغ يمكن أن تساوى من ٨ إلى ١٠ مدينى .

وتنتج الحشة الأولى كذلك عشرين حزمة من الورق المجفف تزن الواحدة منها ٤٠ رطلا . أما الثانية فلا تنتج سوى ست حزم من ذات الوزن وهذا ما يصل بإجمالى إنتاج الفدان إلى حوالى حمولة ثلاثة جمال .

وهناك فى مجال التجارة فرق بين إنتاج الحشتين ، إذ يكون ثمن ما تنتجه الحشة الثانية عادة ، أدنى بمقدار الثلث بالنسبة لثمن إنتاج الحشة الأولى ، تلك التى يباع القنطار منها بنحو ٢٥٠ إلى ٣٠٠ مدينى .

سادس عشر : زراعة أشجار الورد

تأتى ورود كل مياه الورد التى تصنع فى مصر من ولاية الفيوم ، فهى الولاية الوحيدة التى تشكل أشجار الورد فيها موضوعاً لزراعة كبرى .

وفى البداية تنظف الأرض وتجهز بحرثها خمس مرات متوالية ، وبعد ذلك تشق

فيها جداول تقسمها إلى مربعات « أحواض » صغيرة تزرع فى داخلها شجيرات ورد صغيرة تبعد الواحدة منها عن الأخرى بحوالى ٥٠ سم . ولا يكلف ثمن كمية الشتلات اللازمة لزراعة فدان واحد أكثر من ١٠٠ — ١٥٠ مدينى . وتتم هذه الزراعة عادة عند الانقلاب الشتوى وتتطلب أربعين يوماً من العمل . وما أن تنتهى حتى يبدأون فى ريها . وتجدد الرية كل خمسة عشر يوماً على مدار العام كله إلا فى الفصل الذى تكون الأرض خلاله مغمورة بمياه الفيضان .

وتتطلب زراعة أشجار الورد عملا مستمراً لأربعة رجال ، يشتغلون حسب الحاجة ، فى أعمال الرى ، وعزق الحقل وتنقيته من الأعشاب ، أو فى جنى الورود .

ويتم الجنى طوال شهر أبريل وبداية مايو ، ففى كل صباح خلال هذه المدة تقطف نوارات الورد المتفتحة وتستخدم على الفور فى مصانع مياه الزهر . وحيث لا توجد هذه المصانع إلا فى عاصمة الولاية « الفيوم » فإن أشجار الورد لا تزرع إلا فى ضواحى هذه المدينة ، الوحيدة فى الولاية كلها .

ولا تنتج شجرة الورد عادة إلا فى السنة الثانية من زرعها ، ويصل إنتاجها إلى ذروته فى السنة الثالثة وحتى الخامسة وهى السنة التى اعتاد الناس على تجديد شجيرات الورد بعد انتهائها .

ويباع القنطار من نوارات الورود بـ ٦ إلى ٧ بوطاقات ، وأحياناً يصل ثمن القنطار زنة مائة رطل إلى ١٠٠٠ مدينى . ويبلغ متوسط إنتاج الفدان ٨ قناطير من الورد .

سابع عشر : زراعة النخيل والكروم وبعض الأشجار الأخرى

أما شجرة النخيل Phoenix dactylifera فهى الشجرة التى تنتشر بشكل عام فى كافة أنحاء مصر ، وتغطى هذه الأشجار سهولا بأكملها فى الأقاليم المختلفة ابتداء من أسوان حتى البحر المتوسط . وقد تحولت ضواحى مدينة

منفيس القديمة اليوم إلى غابة من النخيل ، كما أن الجزء الشرقي من إقليم بلبيس حيث تقع قرية الصالحية الكبيرة لا يحصد سوى البلح . ويكاد يكون هذا المحصول هو الوحيد للسان الأرض الذى يفصل المتوسط عن بحيرة البرلس ، وأخيراً فإن كل قرى مصر محاطة بأشجار النخيل التي تغطى مرتفعات الأنقاض التي بنيت هذه القرى فوقها . وحيث تحتفظ هذه الأشجار بأوراقها طيلة العام فإن كل قرية ، وبخاصة قرى الدلتا ، تبدو عن بعد كما لو كانت أيكة واسعة .

وفى أثناء إقامتنا فى القاهرة نشرت مقالة مفصلة للغاية فى العشرية المصرية (١) Décade Egyptienne عن زراعة أشجار النخيل ، ولسنا نهدف هنا سوى أن نبين الوسائل العامة المختلفة لمختلف طرق زراعتها وأن نقدم لمحة عن إنتاجها ، ونحن نحيل إلى هذه المقالة للحصول على كل التفاصيل التي ليس من طبيعتها أن تدخل فى مقالنا هذا .

تنمو نخلة البلح عن طريق البذر أو عن طريق شتل الأغصان . وللحصول عليها بالوسيلة الأولى يوضع نوى البلح عادة فى حفر صغيرة يبلغ عمقها ١٥ – ٢٦ سم ، تنفذ فى منتصف أحواض الرى التى قلنا إن الملوخية والخضروات الأخرى تزرع فيها .. وهكذا تستفيد بذور النخيل من الرى الذى يعطى لهذه النباتات . وعندما تبدأ النخلة الوليدة فى الظهور من الأرض بعد مضى ٤٠ – ٥٠ يوماً فإنها تواصل نموها فى حمى الظل والرطوبة التى تهيئها هذه النباتات لها .

وبعد خمس سنوات من وضع نوى البلح فى الأرض تقطع الأوراق السفلى التى تغطى ساق الشجيرة الصغيرة ، وهكذا يبدأ جذعها يتحدد ، ويظل يزيد نمواً وارتفاعاً إما عن طريق سقوط الأغصان القديمة بشكل تلقائى وإما عن طريق القطع السنوى « التقضيب » الذى يتم عند انقلاب الشتاء . وفى نهاية عشر سنوات تعطى شجرة النخيل أولى ثمارها .

---

(١) ملاحظات حول شجرة نخيل البلح بقلم المسيو لوى رينيه .
Louis Reynier D . E Tome III p . 179 .

وعندما تنمو النخلة عن طريق شتل الأغصان ، تبدأ فى إعطاء ثمارها فى ظرف ست إلى ثمانى سنوات .. وتكون طريقة رراعتها فضلا عن دلك هى نفس الطريقة المتبعة فى حالة استنباتها عن طريق البذور ، وهذه الطريقة تتطلب بالمثل رياً متكرراً وبخاصة أثناء السنوات الأولى .

ومن المعروف أن هناك أشجاراً مذكرة وأخرى أنثى .. لذلك يمارس إخصاب الأنثى على الدوام تقريباً بوضع باقة من زهور الذكر وسط مجموعة زهور الأنثى . وهذه العملية هى الطريقة الصناعية الوحيدة التى يعرف المصريون استخدامها لزيادة محاصيل زراعتهم وأشجار فاكهتهم .

ويهتم سكان قرية بلطيم الواقعة فى أراضى البرلس كثيراً بزراعة أشجار النخيل ، وهؤلاء يضاعفونها أيضاً بشتل أغصانها التى يغرسونها فى شعاب كثيرة كونتها كثبان الرمل التى تغطى هذا اللسان من الأرض . وهم يضعون قبل غرسها فى قاع الحفرة المخصصة لاستقبال الشتلة حوالى نصف أردب من « زبل » الحمام كنوع من السماد يحرصون على أن يضعوه من وقت لآخر حول هذه الأشجار . وعلى الرغم من أن هذه الأشجار تكون مغروسة فى رمال قاحلة ظاهرياً فإن خضرتها تكون شديدة النضرة كما تبدو بالغة الرسوخ لأن جذورها تمتد حتى تبلغ المياه الحلوة التى تجرى بلا انقطاع من بحيرة البرلس إلى البحر من تحت التربة .

وأصناف البلح هنا كثيرة العدد لحد كبير . وبلح مصر العليا عادة أصغر حجما من بلح مصر السفلى وهو كذلك أكثر تبكيراً ، ولبابه أكثر جفافاً بكثير . ويستهلك جزء من بلح الصعيد فى مناطق إنتاجه ، ويرسل الجزء الآخر إلى أسواق المدن وبخاصة القاهرة مركز الاستهلاك البالغ الأهمية فى كل أنحاء مصر .

وسواء كان الأمر نتيجة لاعتياد طويل ، أو كان لأن حكومة البلاد قد هزتها كثرة مصادر الرزق التى توفرها زراعة النخيل لسكانها فإن هذه الزراعة هى الوحيدة التى تحظى بالتشجيع حيث لا يخضع محصول النخيل لأية ضريبة . وأشجار النخيل التى نراها من حول القرى هى ممتلكات خاصة ؛ أما تلك التى يغرسها الفلاح فى

أراض ليس له فيها سوى حق الانتفاع فهى تعود إليه بالمثل وله كل الحق فى أن يتصرف فيها حسب إرادته .

ويقدر الإنتاج السنوى لنخلة فى حالة ازدهارها الأقصى فى صعيد مصر بـ ١٢٠ إلى ١٨٠ مدينى .

وحسب المعلومات التى أعطيت لى ، فإن مدة بقاء الشجرة تبلغ ثمانين عاماً ، بل وقد تبلغ قرناً بأكمله .. ومع ذلك فكيف تمكن الثقة فى دقة هذه المعلومات إذا كان أولئك الذين يقدمونها يجهلون فى معظم الأحيان تاريخ مولدهم هم أنفسهم ؟

ويؤكل البلح طازجاً بعد جنيه بوقت قليل ، أو يؤكل جافاً ، أو يؤكل بعد بداية تخمر سكرى يحدثونه عن طريق تجهيزات خاصة ، ويخضع لهذه التجهيزات على وجه الخصوص البلح المسمى برلسى ويزرع منه فى بلطيم ثلاثة أنواع مختلفة .

ويجنى البلح الأحمر الذى يشكل النوع الأول قبل أن ينضج بقليل ، وينتهى به الأمر أن ينضج وهو معرض للشمس فوق الحصير ، ويضغط بعد دلك بين الأصابع ثم يترك مدة أخرى فى الشمس لمدة ثلاثة أيام وأخيراً يكبس فى قفف من سعف النخيل ، ويباع هذا العجين « العجوة » بسعر ٥ بوطاقات للقنطار زنة ١٠٨ أقة .

أما النوعان : الثانى ويسمى ركوده ، والثالث ويسمى العامرى فهما بلح أصفر ، يجنى قبل نضجه تماماً ، ويضغط بعد جنيه ويكبس فى قفف بعد أن يترك معرضاً فى الشمس لمدة ١٢ يوماً بالنسبة للنوع الثانى ولمدة خمسة وعشرين يوماً للنوع الثالث . ويباع القنطار المعد على هذا النحو بـ ٧ بوطاقات . ويقدر ما يمكن أن تعطيه النخلة الواحدة من البلح فى العام بحوالى ٢٧ أقة .

ويرسل هذا البلح المعجون « العجوة » كله تقريباً إلى الإسكندرية ورشيد .

وهكذا نرى أن نخلة البلح هنا تنتج كل عام ، مثلها فى ذلك على وجه التقريب مثل نخلة الصعيد ، ما قيمته حوالى ١٥٠ مدينى . وتستخدم ثمرتها كذلك فى صنع

نوع من الخل ونوع من الخمور تحدثنا عنهما فى مكان آخر [١]

ومن بين كل الأشجار التى تنمو فى مصر ، فإن النخلة هى الشجرة التى يحصل المصريون منها على أكبر النفع فى عمليات البناء وفى الاقتصاد المنزلى . فجذوع هذه الأشجار تستخدم عوارض وكمرات لسقيفات مختلف البيوت ، ويصنع من مختلف أجزاء سعفها الأقفاص والسلال والقفف وباختصار معظم الأثاثات والآنية التى يستخدمها سكان الريف ، وأخيراً يستخدم هذا النوع من الضفائر من الألياف الغامقة التى تغطى بداية أغصان السعف فى صنع الحبال .

* * *

وتعتبر أشجار الكروم ، الثانية بعد النخيل ، والتى يولى لها أكبر القدر من العناية .

وعلى الرغم من أننا نجد بعض تكعيبات منها فى كل حدائق مصر فإن العنب يزرع بشكل خاص ، وبالذات ، فى ولاية الفيوم ، وفوق لسان الأرض فى البرلس ، وتزرع كرومه منفصلة متباعدة ، وهم يغرسونها فى شكل ترقيدات ، كما أنهم يسندونها – كما يحدث فى إيطاليا – فوق قطع أفقية من الخشب تحملها قوائم عمودية .

وفى البرلس تحفر الحفرات المخصصة لاستقبال فسلات الكروم حتى تصل إلى الماء ، ويوضع فى قاع هذه الحفرات كمية محددة من « زبل » الحمام وفى بعض الأحيان تغرس الكروم فى قسطل اسطوانى كان أرومة لنخلة عجوز ماتت واقفة وقطعت من فوق جذرها ببضع ديسيمترات ؛ والهدف من ذلك هو تأمين الكرمة الشابة من شمس شديدة الحرارة وتأمين حصول جذورها على الرطوبة اللازمة ، ويسمدها الزراع كل عام بزبل الحمام الذى يجلبونه من الدلتا ومن ولاية الشرقية ، ويباع الأردب من هذا السماد بـ ٩٠ إلى ١١٠ مدينى .

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة الحادية عشرة .

وتنقل أعباء البرلس عن طريق البحر إلى دمياط ورشيد والإسكندرية . أما تلك التى تغذى أسواق القاهرة فى أثناء موسم هذا المحصول فتأتى من ولاية الفيوم . ويوجد فى هذه المنطقة من البساتين أكثر مما يوجد فى مناطق مصر الأخرى ؛ فنرى فيها بعض أشجار الخوخ وبعض أشجار المشمش فى بساتين مغلقة . أما أشجار الزيتون والتين فتنمو فى عرض الحقول . وينبغى أن نضيف إلى هذه الأنواع المختلفة من الأشجار شجرة الصبار Cactus opuntia التى تصنع منها أسوار يصعب اختراقها ، والتى تصلح بدرجة كبيرة لإيقاف تيارات الرمال (الزاحفة) وأن تثبت عند منحنى التلال تلك الأراضى الهشة التى يمكن للمياه أن تجرفها معها .

ويزرع فى مصر بالمثل أشجار الرمان والبرتقال والليمون فى حدائق يملكها الأثرياء ، وتقع هذه الحدائق عادة خارج المدن وعلى مسافة شديدة القرب منها ؛ وأهم هذه الحدائق هى تلك التى توجد بالاسكندرية ورشيد والقاهرة والجيزة كما أنها متنوعة فى فواكهها على نحو أكبر ، وفى النهاية ، فمن المقبول أن يكون لدى المرء ما يقوله حول زراعة أشجار الفاكهة فى بلاد تجهل أساليب التطعيم والتقليم .

يطلق اليوم على جزيرة فاروس القديمة ، والتى تغطى مينائى الاسكندرية اسم جزيرة التين ، إذ تزرع هذه الأشجار هناك بأكبر قدر من النجاح ، وتحاط كل شجرة من هذه الأشجار بسور دائرى مصنوع من الغاب والبوص وسعف النخيل ؛ ويرتفع هذا السور إلى ٢ أو ٣ أمتار مع ابتعاده لمسافة خمسة أو ستة أمتار عن جذر الشجرة ؛ وبهذه الطريقة تكون الشجرة فى حمى من رياح الشتاء ومن لهيب الشمس دون أن تحرم لا من أمطار الشتاء ، ولا من ندى الصيف الوفير .

ويلاحظ أن عدد أصناف الأشجار التى تنتج فاكهة ضئيل للغاية ، فليس ثمة أشجار حراجية (تنتمى إلى الغابة) بهذا المعنى . ومن هذه الناحية نجد مصر اليوم هى ما كانته منذ أيام Columbelle ، وبالكاد يعد المرء فى الريف أربعة أو خمسة أنواع مختلفة منها ، وهذه تغرس عادة حول القرى التى يراها المرء عن بعد ، حتى فى أوقات الجفاف الشديد ، وهى تحتفظ بمظهر جذاب يبعث على الانتعاش حيث تظل الأشجار التى تشكل سوراً من حولها محتفظة بأوراقها .

أما أكثر الأشجار شيوعاً فهو شجرة الجميز (ficus sycomorus) التى تنهض تحت ظلها فى معظم الأحيان الماكينات المستخدمة فى رفع المياه (السواق) لرى الأراضى ؛ وتستخدم أخشاب هذه الشجرة فى بناء القوارب التى تعمل فى النيل ، كما يصنع منها كذلك ألواح الخشب السميكة الشبيهة بألواح البلوط والسنديان .

وتصنع العجلات (الدواليب) المسننة للسواق من أخشاب أشجار النبق rhamnus napeca وكذلك من أشجار السنط mimosa nilotica ؛ وتحل بذور الشجرة الأخيرة فى مصر محل لحاء البلوط فى دبغ الجلود .

وتنتج شجرة من السنط فى كامل نموها نصف أردب من هذه البذور ، يبلغ ثمنه نحو ٢٤٠ مدينى .

الفصل السادس

عن الحيوانات التي يربيها الفلاحون

تتم أعمال الحرث ، وكل الأعمال اللازمة لإعداد الأرض ، وكذلك عمليات رفع مياه الرى ، ودرس الحبوب ، وبشكل عام كل العمليات الزراعية ، يتم كل ذلك فى الجزء العلوى من مصر بواسطة الأبقار ذلك أن الحرارة هناك تكون أشد مما ينبغى بالنسبة لتربية الجاموس .

وفى جزيرة الفانتين ، تتغذى الأبقار بسيقان الذرة الخضراء وبالتبن ؛ ومع النزول من هذه المدينة إلى إسنا يبدأ الناس فى زراعة الجلبان والبازلاء التى يستخدمونها علفاً لهذه الأبقار بالإضافة إلى سيقان العدس والترمس ، إلخ . ولا يكلف شراء زوج من هذه الأبقار ، فى هذه المنطقة من مصر ، أكثر من ٥٠ إلى ٦٠ بوطاقة ، وفى بعض الأحيان يهبط السعر إلى أدنى من ٤٥ بوطاقة .

ويرتفع هذا الثمن مع هبوط النيل (الإتجاه شمالا) ، إما لأن النقود تصبح أكثر وفرة ؛ وإما لأن الأبقار تكون أكثر قوة ، ويبلغ ثمن زوج الأبقار ، ذكوراً أو إناثاً ، نحو ١٠٠ بوطاقة فى العادة .

وفى ضواحى قنا وسهل طيبة ، حيث يستخدم الجلبان والبازلاء عليقاً للأبقار لمدة تبلغ نحو أربعة شهور تقدر الجراية اليومية للواحدة من هذه الحيوانات بـ ١٢ — ١٥ مدينى ، وأما فى بقية العام فإن الأبقار تعيش على القش المهروس (التبن) والفول وتصل تكلفة الجراية اليومية لواحدة من هذه الأبقار إلى ١٠ مدينى فقط : فهى تستهلك فى الشهر الواحد خمس حمولات جمل من القش وأردبا من الفول .

وقد سبق لنا القول بأن الناس ابتداء من فرشوط يأخذون فى زراعة البرسيم ، إذ تعيش عليه الأبقار خلال ثلث العام ؛ ويستهلك اثنان من هذه الحيوانات خلال هذه الفترة حشتين متتاليتين لفدان من البرسيم . وتستخدم إناث الأبقار كذلك فى أعمال الزراعة ، وهى تعطى اللبن خلال الشهور الأربعة من بداية حملها لكنها تتوقف عن ذلك كلية خلال الثمانية شهور الباقية ، ويباع العجل البالغ ثلاثة أشهر بـ ٥ إلى ١٠ بوطاقات .

وفى الدلتا يرتفع ثمن زوج من ثيران البقر فى العادة إلى ١٢٠ بوطاقة وتتغذى خلال أربعة شهور بالتبن والفول ، وخلال خمسة شهور أخرى بالبرسيم الأخضر ، أما فى الشهور الثلاثة الباقية من السنة فتأكل البرسيم الجاف ويتكلف غذاء ثور ، يسير على هذا النحو ، عشر بارات فى اليوم .

وعندما يحل وباء حيوانى ، وهو الأمر الذى يحدث بين وقت وآخر فى الدلتا ، يضطر الناس لأن يجلبوا من سوريا أو من جزر الأرخبيل أبقارا أخرى تحل محل الأبقار التى انتزعتها الجائحة .

أما قطعان الجاموس التى نلقاها فى مصر العليا ، فإنها لا تربى إلا من أجل الألبان التى توفرها ، وهى تتغذى على نفس ما تعيش عليه الأبقار ؛ وزيادة على ذلك فإنهم يتركونها لترعى أعشاباً تسمى الحلفا تغطى عادة كل الأراضى التى لا تزرع بسبب نقص المياه ، والتى يشار إليها باسم « شراقى » ، ويبلغ ثمن الجاموسة فى ضواحى قنا ٢٠ أو ٣٠ بوطاقة .

ويبدو الجاموس أقل فظاظة مع الهبوط نحو الشمال ؛ ويرى بعض منها فى ولاية الفيوم وهى تستخدم فى إدارة ماكينات الرى (السواقى) ؛ وتباع فى هذه المنطقة بثمن يصل إلى ٥٠ أو ٦٠ بوطاقة ؛ ولا يقدم لها طعام سوى القش ، وتستهلك الجاموسة منه حمولة جمل كل خمسة أو ستة أيام ، ولا يقدم لها الفول على الإطلاق ، ولا يقوم بعبء العمل منها فى الفيوم وفى الدلتا سوى الذكور ، ولهذا السبب فهى ترهق من يقودها كثيراً بسبب قلة قابليتها للطاعة .

ومن جهة أخرى فإننا نجد على شواطئ ترعة التبانية ، إلى الجنوب من قرية بيلا ، فى الدلتا ، مستنقعاً يمتد حتى بحيرة البرلس ، وتستخدم أعشاب هذا المستنقع مرعى لقطعان الجاموس نصف المتوحش والتى تبقى فيه طوال العام ، وهناك يأتى بعض سكان القرى الواقعة على مشارف المستنقع وعلى حدود الأرض القابلة للزراعة ويقيمون فى أخصاص يصنعون فيها الزبد والجبن من لبن أى من هذه الجواميس يكون أكثر قابليه لاستئناس الناس .

ويفضل قصابو المدن التزود بلحوم هذه الحيوانات ؛ ويبلغ متوسط ثمن جلد الجاموسة ٢ أو ٣ بوطاقات .

أما الجمال التي تقوم بمهمة نقل كل المواد الغذائية عندما يتعذر نقلها نهراً عن طريق النيل أو الترع التي تقطع البلاد فيما بينها ، فإننا نراها في الصعيد أقل حجما وقوة عنها في مصر السفلى ، وتعد تربية هذه الحيوانات واحدة من الاهتمامات الرئيسية للقبائل العربية التي تقيم على حواف وادى مصر ، وهذه القبائل هي التي تغذى أسواق مختلف الولايات بالجمال ، ويتراوح ثمن الجمل من ٣٠ إلى ٦٠ بوطاقة تبعاً لسنه وقوته ، وتعيش الجمال على الفول والتبن وسيقان الجلبان والبازلاء وكل أصناف العلف أخضر كان أو جافا : ويتكلف غذاؤها اليومى ٧ بارات ، ويؤجرونها بواقع ٢٥ إلى ٣٠ مدينى في اليوم ؛ ويستطيع الجمل أن يعمل لمدة عشر سنوات .

ولا تكون الجمال التي تستخدم في نقل المحاصيل مملوكة على الدوام للمزارعين ، فهم يستأجرونها تبعاً للحاجة التي يستشعرونها ، أما نقل المواد الغذائية التي يتصادف القيام بها بقية العام فيتم على ظهور الحمير ؛ وليس ثمة مزارع على الإطلاق لا يمتلك بعض الحمير ؛ فهذه الحيوانات هي التي تستخدم ركوبة معتادة له ولأسرته : ويجعل منها صبرها وقناعتها ، كما يحدث في كل مكان ، بالغة النفع ؛ لكن حمير مصر قد وهبت قوة غير عادية وقلما يصل ثمن غذائها اليومى إلى ما يزيد عن ٤ أو ٥ مدينى ، كما لا يتجاوز ثمن شرائها ١٠ – ١٢ بوطاقة .

وإلى جانب الأبقار اللازمة لاستغلال الأراضى ، يمتلك المزارعون في مصر العليا عادة قطيعاً صغيراً من الماعز والضأن ؛ وتوفر الماعز قدراً من الألبان التي تستهلكها القرى ، ولابد أن يصل عددها في العادة نصف عدد الفدادين التي يتم استغلالها (في قرية ما) ويصل ثمن العنزة الناضجة نحو ١٥٠ مدينى .

وخلال الفيضان ، وحين تكون المحاصيل لا تزال قائمة (أى لم تحصد بعد) أى خلال ثمانية أشهر في العام ، تتغذى الماعز بالبرسيم الأخضر أو الجاف ، ويقدر طعامها ، تبعاً للفصول وظروف المكان ، بمدينى واحد أو بمدينى ونصف في اليوم ،

وخلال الشهور الأربعة الأخرى يعاد القطيع إلى المرعى حتى يقرض ما يتبقى بها من عشب ، ويقوم بحراسة قطيع مكون من ١٠ أو ١٢ عنزة صبى واحد فى العادة ، يعطى ٣ مدينى أجراً يوميا ، وتكفى ثلاثة تيوس (تيس) لقطيع يتكون من ١٠٠ عنزة ؛ وتحمل العنزات من النوع الجيد مرتين خلال العام ، وتضع فى العادة عنزتين ترضعان لمدة أربعين يوماً ، وتباع العنزة الصغيرة من سن سنة واحدة بـ ٩٠ إلى ١٠٠ بارة ، وفى كل أنحاء مصر ، تصنع القرب التى تستخدم فى نقل المياه على ظهور الرجال أو الحمير من جلود الماعز والتيوس .

وتكاد تكون كل خراف الصعيد داكنة اللون ، ويجز صوفها مرة واحدة فى العام عند نهاية مايو أو فى بداية يونية . وتزن جزة الخروف الواحد من ٢ إلى ٤ أرطال ، وتباع فى ضواحى سيوط بـ ٦٠ إلى ٩٠ مدينى . وبعد ذلك يغسل الصوف ، ويضرب ، ثم يغسل للمرة الثانية ، وبعد أن يعد للغزل على هذا النحو يباع بسعر الرطل ٤٠ إلى ٥٠ بارة .

والفيوم هى المنطقة التى يربى فيها أكبر عدد من الخراف فى كل أنحاء مصر ، كما أن صوف هذه المنطقة أكثر قيمة من سواه ؛ والخراف هناك بالغة الجمال ، وبها عدد كبير من الخراف بيضاء اللون ، فى حين نجد خراف الصعيد داكنة اللون كما سبق لنا القول .

ويتم جز خراف الفيوم على فترتين مختلفتين خلال العام : إذ تتم الأولى فى منتصف شهر يونيه وتتم الثانية فى الشتاء . ويمتاز صوف هذه الخراف بأنه طويل وناعم لحد كاف ، وتغطى الخراف بعد جزها بغطاء منسوج من سعف النخيل يقيها من لهيب الشمس . وتزن جزة خروف منتقى من بين أشد الخراف قوة من ٤ إلى ٥ أرطال فى العادة .

وهنا تغسل الخراف قبل جزها بدلا من غسل الصوف نفسه بعد أن ينفصل عن جسم الحيوان ، وبعد ذلك يبسط الصوف على اليد ويندف بعناية ، الأمر الذى يقوم مقام حلجه ، وبعد هذه العمليات البدائية يتم غزله فى قرى هذه الولاية .

ويبلغ ثمن الخروف عادة ٢ أو ٣ بوطاقات ، ويربى حوالى ثمانمائة خروف فى القرية التى تبلغ مساحة ما يزرع بها ألفى فدان .

ولا تسمح حالة الفقر التى يعيش فيها الفلاحون فى مصر لهم بأن يطعموا حيوانات مستأنسة أخرى بخلاف تلك الحيوانات التى لا غنى لهم عن استخدامها فى زراعة الأراضى ، أو تلك التى يمكنها أن توفر جزءاً من المأكل أو الملبس لعائلاتهم : لذلك لا نجد فى كل قرى مصر إلا عدداً محدداً من الأبقار والجمال والماعز والخراف . أما الخيول ، فيبدو أن المصريين يقدرونها لحد لا يسمح لهم باستخدامها فى أعمال الزراعة ، فهذا الحيوان فى ناظرهم ليس سوى شئ يرتبط بالبذخ والرفاهية ؛ وحيث يكاد يعتمد النجاح على الدوام فى تلك الحروب التى تنشب بين القرى على زيادة عدد الفرسان الذين يكون بمقدور أحد الفرقاء أن يجندهم ، فقد جرت العادة على قياس قوة رجل ما ومدى نفوذه والاعتبار الذى يولى له بعدد الخيول التى يقتنيها ؛ ويبلغ ثمن الحصان العادى نحو ٤٠ إلى ٦٠ بوطاقة .

وأخيراً فإن تربية الخيول لا تزال أمراً موقوفاً على العرب الذين أصبحوا مزارعين أو أولئك الذين لا يزالون من بينهم يقيمون تحت الخيام عند مداخل الصحراوات .

وتشكل حصيلة ما يبيعونه من هذه الحيوانات التى يربونها جزءاً من ثرواتهم ، وهؤلاء العرب أيضاً هم كذلك الذين يمونون بالمواشى الأسواق فى مختلف مدن وقرى مصر ؛ سَواء كانت الحيوانات التى يعرضونها للبيع ناتجة من قطعانهم الخاصة ، أو كانت آتية من أسلاب انتزعوها عنوة وبقوة السلاح من القرى التى انتهبوها تحت ادعاء من أى نوع .

ويربى الفلاحون وعائلاتهم كذلك كميات كبيرة من الحمام ، والدجاج ، ويحصلون من بيعها على مكاسب ضئيلة : وقد قدمنا فى مكان آخر وصفاً مفصلا لتلك الأنواع من المعامل التى يتم فيها افراخ الكتاكيت ؛ لكننا لن نعود هنا مطلقاً إلى هذا الموضوع (١) .

---

(١) انظر دراسة السيدين روزيير Rozière ورونييه Ronyer عن فن إفراخ الكتاكيت ، الدولة الحديثة ، المجلد ١١ ص ٤٠١ ، وكذلك اللوحة الثانية من الفنون والحرف .

يبقى علينا أن نتحدث عن النحل وعن طريقة جمع العسل ، وعلى الرغم من أن الناس يهتمون بتربية النحل فى مختلف مناطق مصر ، فإن ما سنقوله الآن هو ملخص لما شاهدناه فى ضواحى سيوط وينطبق بشكل خاص على هذه المنطقة . هناك خلايا نحل بكميات متفاوتة فى كل القرى على وجه التقريب وهذه توضع أحياناً فى حدائق ، وتوضع أحياناً أخرى فوق شرفات المنازل . وهذه الخلايا عبارة عن أسطوانات مجوفة من الطين المجفف فى الشمس مثل الطوب اللبن . ويبلغ طول الأسطوانة نحو ١٢ ديسيمتر (١٢٠ سم) ويبلغ قطرها نحو ٢ ديسيمتر (٢٠ سم) ، وتوضع الأسطوانات بشكل أفقى فوق بعضها البعض ، بحيث تتخذ الخلايا فى مجموعها شكل قطع مكدسة من الخشب . وتباع الواحدة من هذه الأسطوانات ، التى تشبه فى شكلها شكل طرف أنبوبة أو خرطوم ، بثلاثة مدينى .

وتشترى الخلايا (جماعات النحل) بعد بذ ر البرسيم بسعر يبلغ فى المتوسط ٦٠ بارة .

وفى السنة العادية تنتج كل ست خلايا خمسين رطلا من العسل ورطلين من الشمع ، ويباع قنطار العسل ، زنة مائة رطل ، بـ ٥ إلى ٨ بوطاقات ؛ أما الشمع فيباع بواقع ٤٠ بارة للرطل الواحد ، وعسل سيوط بالغ اللذة ؛ وتبقيه حرارة الجو الطبيعية فى حالة سائلة على الدوام وتنقل كميات معينة منه داخل جرار لتباع فى أسواق القاهرة . ولا تنتقل الخلايا فى الصعيد بطريق النيل كما يحدث للخلايا فى مصر السفلى .

وتوجد الأقراص التى يصنعها النحل داخل الاسطوانات المجوفة التى تشكل الخلية على هيئة أرغفة صغيرة من الخبز يبلغ سمكها ٤ سنتيمترات ، ومصفوفة فى نظام رأسى خلف بعضها البعض ، ويسمح هذا الوضع بانتزاع أقراص الشمع والعسل بدون قتل النحل . ولهذا الغرض توقد نار عند مدخل الخلية بروث الجاموس أو الجمال المجفف ، ويؤدى الدخان إلى تراجع النحل الذى يشغل هذا الجزء من الخلية الشديد القرب من مدخلها ، وتفتح الخلية عن طريق انتزاع قرص الطين الذى يستخدم فى إقفالها ؛ وبعد ذلك وبواسطة ملعقة حديدية يتم تحريكها بشكل دائرى بين جدار

الأسطوانة الداخلى وبين أقراص الشمع ، تفصل الأقراص عن الأسطوانة ، ويتم إحراجها ؛ ويستمر تدخين الحلية ، وانتزاع الأقراص واحداً بعد الآخر ، حتى لا يعود النحل الذى يتراجع إلى آخر الخلية ، يشغل سوى نحو ثلث الاسطوانة فيترك له العسل الباق ، ولا تتم هذه العملية إلا مرة كل سنة ، وحين يراد شغل خلية جديدة بالنحل ، توضع فيها أقراص النخاريب مع النحل .

الفصل السابع
عن إعداد الحقول فى مناطق مصر المختلفة

تعد جزيرة الفانتين أول أرض مزروعة يقابلها المرء إلى الشمال من شلال النيل الأخير ، كما أنها ، ويبدو أنه قد وجب عليها أن تقدم لنا فكرة عن خصوبة مصر – هى أفضل أجزاء هذه المنطقة زراعة ، كما أنها المنطقة التى تستريح فيها الأرض على نحو أقل (أى أنها تجهد من كثرة زراعتها) .

وقد سبق أن قلنا إن السنة الزراعية عند المصريين تنقسم إلى ثلاث فترات ، تتمثل فى كل واحدة منها نفس الأحوال التى تقدمها السنة الزراعية ذات الاثنى عشر شهراً فى المناطق ذات الأجواء المختلفة ؛ ويتكرر كل من حرث الأرض والبذر والحصاد فى جزيرة الفانتين ثلاث مرات فى العام .

وقبل انقلاب الصيف ، تبدأ زراعة المحاصيل التى يشار إليها باسم : القيظى ، وخلال هذه الفترة يزرع الذرة للمرة الأولى (الزراعة الأولى) وتؤدى حرارة الموسم وكذا الرى الوفير الذى يحصل عليه النبات إلى التعجيل بنضجه ، فيتم حصاده ، بعد ثلاثة أشهر من بذره .

عندئذ تبدأ الفترة الثانية (الموسم الثانى) ، أى فترة المحاصيل النبارى والتى يزرع خلالها الذرة للمرة الثانية ، ويبقى محصول الذرة الخريفى هذا فى الأرض لمدة تبلغ نحو مائة يوم .

وأخيراً ، فمع قرب قدوم انقلاب الشتاء ، تبدأ فترة المحاصيل الشتوية ؛ والشعير هو المحصول الوحيد الذى يزرع خلال هذه الفترة ، ويتم حصاده بعد زراعته بأربعة شهور .

وبخلاف هذه المحاصيل الثلاثة المتعاقبة ، يحصل أهالى جزيرة الفانتين من بعض أجزاء صغيرة من جزيرتهم على إنتاج بعض الخضروات التى يزرعونها لاحتياجاتهم اليومية ؛ وزيادة على ذلك ، فهناك نحو أربعمائة وأربعين نخلة .

ويمكن أن يصل تعداد شعب هذه الجزيرة إلى مائتى رجل ، يعمل منهم خمسون رجلا فقط بشكل دائم فى أعمال الزراعة ، أما الآخرون فيعملون بحارة (مراكبية) على قوارب النيل ، ولا يعود هؤلاء إلى الجزيرة إلا أثناء أشهر الشتاء الثلاثة .

ولا تزيد مساحة الأرض القابلة للزراعة فى جزيرة الفانتين عن أربعين فدانا ؛ وتروى هذه بواسطة ست ماكينات ذات قواديس تعمل بشكل دائم لأن الأرض هناك ، حيث ظلت ترتفع بشكل دائم منذ قرون طويلة عن طريق ترسيبات المياه حاملة الغرين ، والتى تصب فيها ، قد أصبحت اليوم أعلى من منسوب أعلى فيض للنيل .

ويتطلب تشغيل كل ماكينة (ساقية) عمل ١٢ إلى ١٤ من الأبقار ، أى نحو ثمانين ثوراً للسواقى الست ، ويوجد فى الجزيرة فوق ذلك نحو مائة أو مائة وخمسين عنزة وخروفا .

وقلما يختلف إنتاج كل واحد من هذه المحاصيل الثلاثة التى اختصت بها جزيرة إلفانتين من سنة لأخرى : فالذرة القيظى ، أو الصيفى يعطى أردبين للفدان الواحد ، أما الذرة النبارى أو ذرة الخريف فيعطى الفدان منها أربعة أرادب ، وأخيراً فإن الفدان من الشعير الشتوى يعطى خمسة أو ستة أرادب .

ومن أسوان إلى ادفو ، يزرع الناس الأرض على نفس الفترات الثلاث من السنة الزراعية والتى انتهينا من تسميتها ؛ ومع ذلك فثمة اختلاف بين إعداد هذه الأراضى وبين إعداد أراضى الفانتين ، حيث لا تزرع نفس القطعة من الأرض بشكل متوال .

وهكذا ، ففى أراضى إدفو البالغة عشرة آلاف فدان قابلة للزراعة ، لا يستغل سوى ٨٠ إلى ١٠٠ فدان فقط خلال موسم القيظى ، وتختص كلها بزراعة الذرة بشكل خاص ؛ وتشكل الأراضى التى تزرع على هذا النحو ، شاطىء النهر .

وعندما تصبح المياه عالية لحد يكفى لإدخالها إلى الترع ، فإن شواطىء هذه الترع تزرع بالمثل بالذرة أثناء موسم النبارى ، وتمتد هذه الزراعة لتغطى نحو ٦٠٠ فدان .

وتزرع بقية الأراضى خلال الموسم الثالث وليكن البياضى إدا ما غمرت المياه الأرض بشكل طبيعى ، أو ليكن الشتوى ، وذلك عندما لا تصعد المياه فوق الأرض وعندما تروى هذه الأراضى بواسطة الدلو . وينبغى أن نلاحظ فى النهاية أن البذور (المحاصيل) التى تبذر أثناء الشتاء فى الأراضى التى تغمرها المياه بشكل طبيعى ليست هى نفسها التى تبذر فى تلك التى تحتاج إلى رى صناعى .

وتبذر فى الأراضى التى تغمرها المياه بشكل طبيعى محاصيل : القمح ، الشعير ، العدس ، الحمص ، الترمس ، الخس ، الجلبان ، والبازلاء ؛ ولكن ليس ثمة ما يروى خلال الشتاء سوى محاصيل القمح والشعير والقطن .

والقمح هو أكثر المحاصيل التى انتهينا من بيانها ربحا ، ويأتى بعده الشعير والعدس والذرة الخ .

وحين تروى الأرض بشكل طبيعى لعدة سنوات متوالية ، يصبح من الممكن أن يبذر فيها القمح ، ومع ذلك ، فحين يكون الفيضان أقل ملاءمة ، يتم تناوب المحاصيل بإبقاء محاصيل الشعير والعدس والأعلاف للسنوات التى يكون فيضانها أقل وفرة .

وبشكل عام ، فمن بين كل ٣٠ فداناً تزرع بالبياضى هناك ١٠ أفدنة تبذر قمحاً ، ومثلها تبذر بالشعير ، وتتوزع العشرة الأخيرة بين العدس والجلبان ومحاصيل أخرى ضئيلة العائد .

أما السهل الذى ترى فيه اليوم أطلال طيبة ، فلا تزرع منه سوى نصف مساحته : ليس لأنه تنقصه وسائل الرى الطبيعى ، ولكن لأن الفلاحين هناك ليسوا فى حالة تمكنهم من الحصول على القروض اللازمة لزراعته كله . وقد بدا لى أن الشط الأيسر لهذا السهل مزروع على نحو أقل جودة من الشط الأيمن ، وهذا هو التوزيع المعتاد فى معظم الأحيان لمحاصيل مواسم السنة الزراعية الثلاثة .

من بين ٤٠٠٠ فدان ، يزرع ألفان بياضى وألف قيظى ، و٧٠٠ نبارى وأخيراً ٣٠٠ شتوى : وعلى هذا النحو يمكن إعداد أراضى قريتى الكرنك والأقصر والتى تضم نحو

١٢٠٠ فدان ، ولكن وفى حالة الإهمال الحالية حيث أهملت الترع العمومية المخصصة لتسهيل عمليات الرى ، فإن الحبوب الناتجة من سهل طيبة تستخدم فى تموين أسواق قوص وقنا ، حيث تصدر من هناك إلى الجزيرة العربية عن طريق القصير ، وفى هذه المنطقة يكون محصول القمح هو أكثر المحاصيل إدراراً للربح . وحيث أن ظروف الأرض هى التى تحدد الموسم الذى ينبغى أن تزرع خلاله ، فإن الأراضى المجاورة للنيل هى التى تخصص لزراعة المحاصيل النبارى ، وحيث أنها لا تثمر سوى مرة واحدة فى العام فإنها تظل ثمانية أشهر فى العام بدون أن تزرع ، ويتكاثر هناك خلال هذه الفترة وبشكل تلقائى نباتا الحلفا والعاقول (١) اللذان يستخدمان مراعى للجمال والجاموس .

ثم يبدأ الناس فى تنظيف الحقول التى ينبغى أن تزرع فيها الذرة من هذين النباتين ، وتمتد جذور النبات الأول إلى عمق كبير ، ولذلك ، فمن أجل تسهيل عملية الاقتلاع ، يتم إحراق الحلفا وهى قائمة (دون انتزاعها) . وبعد أن يتم اقتلاع النبات الثانى بواسطة الفئوس يوضع فى شكل أكوام يجرى حرقها بالمثل ، ويترك الرماد فوق الأرض لتحرث بعد ذلك مرة ثانية .

وتزرع ضواحى قنا فى المواسم الثلاثة للعام الزراعى ، وهناك تبدأ زراعة الفول البياضى وتعد هذه الزراعة أكثر الزراعات انتشاراً بعد الحنطة التى تحتل وحدها حوالى ثلث الأراضى المستغلة ؛ وابتداء من قنا كذلك ، ومع الاتجاه شمالا مع النيل ، تأخذ زراعة السلجم أو اللفت فى الظهور .

ولا تروى مطلقاً أراضى هذه المنطقة من مصر ، والتى تبذر بالمحاصيل الشتوى بواسطة الماكينات ذات القواديس أو السواقى ، كما يحدث فى جزيرة الفانتين ، ولكنها تروى فقط بواسطة الدلو .

وقد أدت إقامة الشيخ همام فى فرشوط ، بالإضافة إلى الحكمة التى اتسمت بها إدارته والتى جعلت الناس فى هذه المنطقة أكثر ثراء من سكان بقية الإقليم ، أدى

---

(١) الحلفا **Poa multiflora** والعاقول **Hedysarum Alhagi**

ذلك كله إلى أن أصبح بمقدور الأهالى هناك أن يتصدوا لزراعة المحاصيل التى تتطلب تكاليف باهظة ، وأن يحصلوا كذلك على أكبر قدر من النفع من الأراضى القابلة للرى .

وتتوزع محاصيل ١٠٠ فدان من البياضى على هذا النحو ، بشكل تقريبى :

الحنطة	٤٧ فدانا
الفول	٢٠ «
العدس	١٥ «
الشعير	٦ أفدنة
الجلبان	٩ «
البرسيم	٣ «
	١٠٠ فدان

ومن هنا نرى أن زراعة القمح ، وهو أكثر المحاصيل إدراراً للكسب بشكل عام ، تشغل حوالى نصف مساحة الأراضى التى تروى بشكل طبيعى .

أما عن الأراضى المستغلة فى المحاصيل النبارى والقيظى ، والتى تشكل حوالى $\frac{1}{10}$ من الأراضى المزروعة بالشتوى . فمن الممكن القول بأنه بين كل عشرة أفدنة ، يزرع ستة بقصب السكر وأربعة بالذرة ؛ ويتطلب هذان المحصولان استخدام ثلاث سواق وثمانية ثيران ، وهذا ما يكفى لإعطائنا فكرة عامة عن تجهيز الأرض فى هذه المنطقة .

وكلما كان الرى يسيراً كلما قل انشغال الناس بأعمال رراعة الصيف الشاقة ، فتتركز كل عمليات الزراعة عندئذ فى الموسمين الآخرين : وهذا على الأقل هو ما يتم فى شمال فرشوط ، فى جرجا وطهطا .

وفى هذه المنطقة من ولاية جرجا يزرع النبارى خلال الخريف فى شكل محاصيل الذرة والبطيخ وبعض الخضروات .

ويزرع الشتوى خلال فصل الشتاء بمساعدة وسائل الرى الصناعية ، فتزرع بعض الحقول بالشعير والقمح .

وأخيراً فإن زراعات البياضى تشتمل على محاصيل القمح والشعير والفول والعدس والحمص والبرسيم والجلبان والحلبة والقرطم . وإليكم توزيع هذه المحاصيل على مساحة ٧٣ فداناً :

القمح	٣٠ فدانا
الفول	١٥ «
العدس	١٠ أفدنة
البرسيم	١٠ «
الشعير	٥ «
الجلبان	٢ ١/٢ «
الحلبة	٢ ١/٢ «
	٧٣

وإعداد الأرض فى جرجا يتم بشكل تقريبى على نفس هذا النمط فيما عدا أن زراعة البرسيم تغطى مساحة من الأرض أكبر : ويأتى ذلك من أنه يربى فى هذه المنطقة عدد أكبر من الخيول منه فى المناطق الأخرى من مصر العليا ، حيث تقع غالبية القرى فى حوزة شيوخ عرب ، ففى واحدة من هذه القرى ، تصل مساحة أرضها المزروعة من ١٠٠٠ إلى ١٢٠٠ فدان ، يمكن أن نجد نحو أربعين أو خمسين فارساً . ومن جهة أخرى ، فإن زراعات النبارى ، التى تتم بمساعدة الماكينات ذوات القواديس (السواقى) ، تتطلب عدداً أكبر من الثيران لإدارة هذه الماكينات .

وتكاد تكون العادة قد جرت هناك على مناوبة الزراعات وعلى بذ ر نفس الأرض بالقمح مرة كل سنتين : إذ تبذر الأراضى التى يحصد فيها هذا المحصول فى السنة الأولى بالبرسيم والفول والعدس الخ فى السنة الثانية .

وتشغل زراعتا قصب السكر والذرة ، اللتان تزرعان كمحاصيل نبارى فى ضواحى أخميم ، حوالى ١/٧ مساحة الأرض هناك .

وزيادة على ذلك فإن زراعة قصب السكر بمساحة كبيرة تتوقف على الشاطئ الأيسر للنيل عند مـر تـمعات جرجا على وجه التقريب ، ولا تعود على الشاطئ المقابل إلا فى ولاية أطفيح . وتحل محلها فى ضواحى طهطا زراعتا القرطم والكتان .

وينظر لهذه الزراعة الأخيرة كواحدة من أكثر الزراعات إدرارا للكسب عند ضواحى سيوط ، أما الأرض التى تناسبها بشكل أفضل فهى تلك التى تبقى لأطول مدة مغمورة بالمياه فى أثناء الفيضان .

وعلى الدوام تصلح نفس الأراضى الواقعة على شواطئ ترع الرى لنفس المحاصيل البياضى ويبدو أنه فى ضواحى سيوط فقط ، حيث سمحت لى إقامتى الطويلة هناك بالحصول على معلومات أكثر تفصيلا ، تتم مناوبة المحاصيل بالنظام الآتى :

فى السنة الأولى تزرع الأرض بالبرسيم الذى تأكل المواشى الحشة الثانية منه والمحصول بالأرض ، ويجعل السماد الذى تتركه المواشى ، الأرض صالحة بقدر أكبر لاستقبال الحنطة التى ينبغى لها أن تبذر فى السنة التالية .

فى السنتين الثانية والثالثة تزرع الأرض بالقمح .

وفى السنة الرابعة تبذر بالفول والعدس .

وفى الخامسة والسادسة بالقمح .

وفى السابعة يعاود الناس زراعة البرسيم ، وهكذا تبدأ الدورة من جديد .

وكذلك يبذر الكتان فى أرض حصد للتو ما كان بها من برسيم ، ويتبع بزراعة الفول أو العدس ثم بزراعة القمح ثم تعود بعد ذلك زراعات البرسيم والكتان.. الخ مع مواصلة الأمر بهذا النوع من التتابع المنتظم ، ولا يعطى الفلاحون ، الذين اعتادوا تجهيز الأرض على هذا النحو ، لذلك الأمر من سبب ، سوى أنه عادة استمرت منذ زمان لا تعيه الذاكرة . وإليكم مثالان لاعداد الأرض ، مأخوذان من ولاية سيوط ، وينطبق الأول على استغلال مساحة ١١٤ فداناً :

الحنطة	٥٠ فداناً
الفول	٢٤ »
العدس	٢٢ »
البرسيم	١٠ أفدنة
الحمص	٦ »
الشعير	٢ فدانان
	١١٤

ونلاحظ فى هذا الإعداد للأرض أن الحنطة تشغل نحو نصف مساحة هذه الأراضى ، ويعلف المزارع (من إنتاج هذه المساحة) عشرين ثوراً أو بقرة واثنى عشر خروفا .

أما المثال الثانى فينطبق على ٥٨٢ فداناً تقسم على هذا النحو :

الفول	٤٠٠ فدان
الحنطة	١٢٠ فداناً
العدس	٢٠ »
الشعير	١٢ »
الجلبان	١٠ أفدنة
الكتان	١٠ »
الحمص	١٠ »
	٥٨٢ فداناً

وقد أدت ظروف خاصة إلى ضرورة انتشار زراعة الفول الذى يخصص إنتاجه للتصدير . وفى مصر ، كما فى كل مكان آخر ، يسعى الناس لإنتاج ما يعد بيعه مضموناً ، وتبعاً لارتفاع السعر الذى تبلغه هذه السلعة الغذائية أو تلك ، تنتشر زراعة محصول وتتقلص زراعة محصول آخر ، إلى أن يشتد الطلب على سلعة غذائية أخرى ، فتحظى بالأفضلية لدى المزارعين .

وأخيراً فإننا لسنا بحاجة للقول بأنه لا يمكن لتجهيز الأرض على النحو الذى انتهينا من بيانه للتو ، أننا لا نورد هنا إلا أمثلة بالغة الخصوصية ما دامت الأرض التى تروى بشكل طبيعى تعد صالحة لاستقبال بذر معين أحياناً ، وبذر آخر فى أحيان أخرى دون حاجة إلى إستخدام الأسمدة .

وتزرع أراضى الفيوم كل عام بسبب السهولة التى يجدها الناس فى إمكانية الحصول على مياه الرى لهذه الولاية وإن كانت لا تزرع سوى مرة واحدة (فى السنة) فيما عدا الأراضى التى تزرع بها الذرة الخريفى .

وأكثر الزراعات شيوعا هى محاصيل القمح ، والفول ، والشعير ، والبرسيم والحلبة ، والكتان ؛ وتزرع هذه المحاصيل بالأراضى التى تغطيها مياه الفيضان بشكل طبيعى .

وإليكم اعداد الأرض وتوزيعها الأكثر شيوعا وذلك بخصوص مساحة تبلغ ٦٢ فدانا .

القمح	٢٠ فدانا
الفول	٢٠ «
الشعير	٥ أفدنة
البرسيم	١٠ «
الحلبة	٤ «
الكتان	٣ «
	٦٢فدانا

وقد اعتاد الناس (هناك أيضاً) على زراعة الحنطة عامين متتالين فى نفس الحقل .

أما عن المحاصيل النبارى ، أى تلك التى تتطلب عمليات رى صناعية ، فهى الذرة ، والنيلة ، وقصب السكر ، وأشجار الورد ، وأول هذه المحاصيل هو فى العادة أكثرها انتشاراً ، إذ تؤدى سهولة رى الحقول إلى سرعة نمو الذرة وزيادة محصولها .

ولا يزرع العدس فى الفيوم إلا بكميات قليلة ، وينتج فى أفضل السنوات ملاءمة محصولا ضئيلا لا يكفى لاستهلاك البلاد (المنطقة) .

ولا تتم رراعات الحلبة والجلبان والبارلاء ، فى الفيوم ، وعلى نحو ما ، إلا بطريق الصدفة ، ويلجأ الناس إلى رراعتها فى سنوات الجفاف ، أو فى الأراضى التى لا تروى على نحو طيب يكفى لإنتاج البرسيم ، ويوجد فى هذه المنطقة من مصر من البساتين والحدائق أكثر مما يوجد فى أية منطقة أخرى . وتتكون أسوار هذه البساتين ، كما سبق القول ، من أشجار الصبار أو التين الشوكى Cactus opuntia وتغرس فى هذه الحدائق أشجار النخيل والكروم والتين والزيتون وهى الأشجار التى تصدر ثمارها .

وتنتج ولايتا بنى سويف والجيزة ، اللتان يلقاهما المرء عند الاتجاه شمالا مع النيل ، نفس المحاصيل التى تنتجها الفيوم ، ويزرع فيهما فوق ذلك القرطم والبصل والنيلة والتبغ ، وهذه المنطقة من مصر هى أقل المناطق حظا من مياه الرى ، ويزرع قصب السكر هناك بكمية كبيرة بعض الشئ على الشط الأيسر للنيل فى ولاية أطفيح .

وتؤدى متطلبات الاستهلاك فى القاهرة ، وما تحتاجه أسواقها من مواد تموينية إلى تغيير فى زراعةبالأرض فى ضواحي هذه العاصمة : إد توجد بها نسبياً مساحة أكبر من الأرض مخصصة لزراعة الخضر ؛ ويجلب الناس هذه الخضر من جناين مصر القديمة والجيزة وجزيرة الروضة وبولاق ، وتروى جميعها بواسطة السواقى ، ويأتى الزبد والجبن الطازجان اللذان تمون بهما أسواق القاهرة من القرى المجاورة ، وبشكل خاص من قرية امبابة الواقعة تجاه بولاق : وتربى هناك لهذا الغرض قطعان كثيرة من الأبقار والجاموس ، مما يتطلب زراعة أكبر جزء من مساحة أراضى هذه القرية بمحاصيل العليق .

ويبدى توزيع وإعداد الأرض فى داخل الدلتا بعضا من التغييرات الطفيفة ؛ ونجد هناك ، كما نجد فى الصعيد ، زراعات للشتاء وزراعات للصيف .

ويدخل فى عداد الزراعات الأولى : القمح ، والشعير ، والفول ، والبرسيم ، والكتان .

وعندما تزرع الأرض (فى سنة ما) بالقمح والشعير ، فإنها تبذر بصفة عامة بالبرسيم والفول فى العام التالى ، وهكذا بالتناوب .

والبرسيم هو محصول العليق الوحيد الذى يزرع فى مصر السفلى ؛ فلا يزرع هناك لا الجلبان ولا البازلاء ، ولا أية محاصيل أخرى مما تتغذى عليها الماشية فى مصر العليا .

ومن بين كل مائة فدان ، يزرع خمسون منها بالقمح أو الشعير ، وتزرع الخمسون الأخرى بالفول والبرسيم والكتان .

ومن المعروف أن المحاصيل فى الصعيد تنقسم إلى زراعات بياضى وهى التى تتم فى الشتاء فى الأراضى التى غمرت بالمياه بشكل طبيعى ، وإلى زراعات شتوى تتم فى نفس الفترة بواسطة عمليات الرى الصناعى ، ولا توجد فى الدلتا على الإطلاق محاصيل بياضى بمعنى الكلمة :إذ تحصل المزروعات التى تبذر عقب الفيضان ، دائماً ، على بعض ريات صناعية حتى يحين وقت حصادها .

وفى أوقات السلم ، حين يكون من المستطاع تصدير الكتان أو الأقمشة التى تصنع منه ، تعد زراعة هذا النبات هى أكثر المحاصيل إدراراً للكسب ، وحين لا تسمح الظروف مطلقا بهذا التصدير ، تحل زراعة البرسيم محل هذا النبات (الكتان) ، وذلك ليتسنى إطعام العدد الأكبر من الماشية .

وفى العادة ، يزرع من كل مائة فدان :

بالبرسيم	٢٥ فدانا
بالقمح	٣٠ «
بالشعير	١٠ أفدنة
بالقمح والشعير مخلوطين معاً	٣٥ فداناً
	١٠٠ فدان

ويستخدم الشعير غذاء للخيل ، ويطحن القمح والشعير المخلوطان معاً ويصنع من دقيقهما خبز الفلاحين .

ومن بين هذه المائة فدان ، يزرع ٢٥ منها فقط خلال الصيف :

بالذرة الشامية (أو القمح التركى)	١٣ فداناً
بالسمسم	٦ أفدنة
بالقطن	٦ «
	٢٥ فداناً

ويرش فوق كل الأراضى المخصصة لزراعات الصيف ، قبل بد رها ، نوع من السماد يسمى : سباخ ، يتكون ، كما هو معروف ، من أتربة ورماد القرى ويستخدم كذلك لكل الأراضى التى لا تتلقى أية ترسيبات من (طمى) النيل ، والتى تسمى لهذا السبب « أراض ضعيفة » .

ويتطلب استغلال مائة فدان من أراضى الدلتا موزعة ومعدة على النحو الذى انتهينا من بيانه ، عمل عشرين ثوراً أو بقرة لأشغال الحرث والرى ودرس الحبوب ، و ست من الجاموس تستخدم ألبانها ، بعد تجهيزات معينة ، فى صنع جزء من طعام المزارعين ، وأربعة من الجمال تستخدم فى نقل المواد الغذائية ، وتترك بعض الخراف لترعى فى الحقول ؛ ويربى منها حوالى الخمسين على مساحة تبلغ المائة فدان .

أما الخمسة والعشرون فداناً التى تزرع خلال الصيف فتتطلب عمل ست من السواقى .

أما بخصوص عدد عمال اليومية والخدم الذين يحتاجهم هذا الاستغلال (للأرض) ، فإنه يتكون من حمال ، وكلاف للعناية بالجاموس ، وكلافين آخرين للثيران والبقرات ، ورحلين لصيانة وإدارة ماكينات الرى ، وكذلك أربعة آخرين للحرث .

وفى ولاية المنصورة ، نجد المحاصيل أقل من ذلك تنوعا ، وإليكم توزيع وإعداد مساحة ١٠٠ فدان :

الحنطة	٣٣ فدانا
البرسيم	٣٣ »
الشعير	٢٣ »
الكتان	١١ »
	—
	١٠٠ فدان

والقطن ، هو المحصول الوحيد الذى تتم زراعته فى فصل الصيف فى هذه الولاية نفسها .

ويبقى علينا أن نتكلم عن حقول الأرز فى ولايتى دمياط ورشيد ، إذ تنتج هذه الأراضى التى تقع فى الشمال الأقصى لمصر ، والتى تعد أكثرها انخفاضا فى نفس الوقت ، مرتين كل عام ، وحيث يتم بذر الأرز عند بداية شهر أبريل ، فمن الممكن أن ندخل زراعة هذه الحبوب (الأرز) ضمن المزروعات الصيفية . وبعد حصاده مباشرة ، وهو الأمر الذى يتم عقب فيض النيل ، تبذر نفس الأراضى بالبرسيم أو بالقمح ؛ وتخصص الأراضى ذات المستوى الأعلى لزراعة الشعير ، وتزرع فيها كذلك خلال الصيف كمية ضئيلة من الذرة .

الفصل الثامن

عن مكاسب الزراعة ، وعن الاستخدام الأفضل للأرض فى مصر

حين قدمنا وصفاً للزراعات المختلفة الخاصة بمصر ، فإننا قد بينا المصاريف التى تتطلبها وكذا الأرباح التى تعود بها . لذلك يجد القارىء فى كل فقرة من الفصل الخامس من مؤلفنا هذا ، المعطيات اللازمة لتقدير مكاسب كل واحدة من هذه الزراعات . لكننا ، بقصد التسهيل على الباحث الذى قد يريد التصدى لهذا الموضوع نقدم هنا فى شكل جداول مصاريف وعوائد الاستغلال الزراعى ، الذى يعمل به عادة العدد الأكبر من الأيدى العاملة ؛ وحيث كان من المناسب أن نقدر الثروة التى تدرها أرض مصر فى كل فصول العام ، فقد أخذنا الأمثلة التى سنقدمها هنا على التوالى من بين الزراعات **البياضى** والنبارى والشتوى .

وهكذا فسوف نختار من بين الزراعات الأولى محاصيل القمح والفول والبرسيم والقرطم فى ولاية سيوط .

ومن بين الزراعات الثانية : الذرة والنيلة ؛ ومن الثالثة : القمح فى ولاية طيبة ؛ والكتان فى الفيوم والدلتا . وأخيراً فإننا سنقدم بالتفصيل مصاريف استغلال وإيرادات مزارع الأرز التى تحف بالجزء الشمالى من مصر السفلى .

وتنطبق النتائج التى سنقدمها على مساحة ١٠ أفدنة (أى أن المؤلف افترض مساحة موحدة قدرها عشرة أفدنة لكل محصول) ، يشتمل كل منها على ٥٩٢٩ مترا مسطحا ، وهكذا فإن عشرة أفدنة تعادل ٥ هكتارات و $\frac{٩٢٩}{١٠٠٠}$ من الهكتار أى نحو ٦ هكتارات على وجة التقريب .

أولا : زراعة القمح البياضى

مصاريف الزراعة

لايتم حرث أراضى سيوط ، التى يغرقها الفيضان بشكل طبيعى ، وذلك قبل بذرها .

	مدينى	بوطاقة
١ – البذار : يبذر نصف أردب من الحنطة لكل فدان . ومتوسط ثمن أردب الحنطة فى ولاية سيوط حوالى ٢ بوطاقة و ٣٠ مدينى ؛ ٥ أرادب لبذر ١٠ أفدنة تساوى حسب هذا السعر ...	٦٠	١١
٢ – البذر : يمكن لرجل واحد أن يبذر فداناً كل يوم . ويحصل على أجر يبلغ ١٠ مدينى ، فتبلغ تكاليف بذار ١٠ أفدنة	١٠	١
٣ – حرث الأرض لتغطية البذور بعد بذرها : عشرون يوم عمل لزوج واحد من الثيران وسائقهما ويدفع عن اليوم الواحد ٤٥ مدينى	–	١٠
٤ – مصاريف الحصاد : يحصل الرجال القائمون بالحصاد على أجورهم عيناً فى شكل حبوب : ويحصل كل منهم على ١/٢٤ من الأردب من الحنطة عن كل يوم . ويساوى أربعون يوماً لازمة لحصاد ١٠ أفدنة ، بهذا السعر ، أردباً واحدا و ١٦/٢٤ ، تعادل نقداً ما قيمته	٨٠	٣
٥ – الدرس : يلزم يومان لدرس إنتاج فدان واحد ، يستخدم خلال كل منهما أربعة رجال وأربعة ثيران ، ويحصل الجميع على أجورهم عيناً بواقع ١/٢٤ من الأردب لكل منهم . وبذلك يساوى ٦٠ يوم (عمل) بهذا السعر ٦ أرادب و ١٦/٢٤ من الأردب ، تعادل ما قيمته نقداً	٥٠	١٥
ويدفع للنورج أو العربة المستخدمة فى درس القمح كإيجار ١/٢٤ من الأردب فى اليوم ، ويحصل فى مقابل ٢٠ يوم عمل على أردب واحد و ٤/٢٤ من الأردب (*) ، تساوى نقداً	٨٠	١

(*) كذا فى النص : وصحتها إذا كان التقدير سليما ٢٠/٢٤ من الأردب (المترجم) .

	مدينى	بوطاقة
٦ – نقل المحصول إلى بيت المزارع أو إلى المخازن : يحمل الجمل ثلاثين حزمة من الحنطة ، وتلزم عادة حمولتان و ٢/٥ الحمولة أى ٧٢ حزمة ، لإنتاج أردب واحد من الحبوب .		
ويقطع الجمل فى خطوه العادى ٢,٠٠٠ متر كل ٢٥ دقيقة فإذا افترضنا أن المسافة بين الجرن الذى يتم فيه الدرس وبين المكان الذى يخزن فيه (التبن) والحبوب تصل إلى ١,٠٠٠ – ١,٥٠٠ متر ، وأن جملا واحداً ، يعمل ثمانى ساعات فى اليوم يقطع رحلتين كل ساعة ، فإن الجمل سوف ينقل فى تسعة أيام ، سبعين حمولة من التبن . وحيث تبلغ أجرة يوم الجمل وكلافه ٧٠ مدينى ، فإن عملية النقل سوف تكلف	–	٣
٧ – انتقالات أخرى مختلفة ، صيانة الأدوات ، نثريات ، مقدرة بـ ١/١٠ من المصاريف الموضحة أعلاه	٦٤	٤
إجمالى المصاريف	٧٤	٥١

الانتاج

وهذا هو ما تنتجه الأرض المبذورة بالقمح البياضى فى ولاية سيوط :

	مدينى	بوطاقة
١ – عدد مكاييل الحبوب المستخدمة فى تسديد مصاريف الحصاد والدرس عيناً . وتبعا للبند السابق ، تصل هذه الكمية من القمح بالنسبة لعشرة أفدنة إلى ٩ أرادب و ١٢/٢٤ من الأردب ، بسعر الأردب الواحد ٢ بوطاقة و ٣٠ مدينى ، فتساوى فى مجملها	٣٠	٢١
٢ – عدد مكاييل الحبوب التى تبقى تحت تصرف المزارع بعد تسديد مصاريف الحصاد والدرس ، وينتج فدان الأرض فى السنة العادية ٧ أرادب من القمح ، أى ٧٠ أردبا لكل عشرة أفدنة ، تساوى نقدا	٣٠	١٦٣

	مدينى	بوطاقة
٣ – القش المهروس تحت النورج (التبن) : ٧٠ حمولة جمل من القش المهروس ، بواقع ٢٠ مدينى لكل حمولة	٥٠	١٥
إجمالى الانتاج	٢٠	٢٠٠
الفرق بين الانتاج ومصاريف الاستغلال (أى صافى الربح)	٣٦	١٤٨

ثانياً : زراعة الفول البياضى

مصاريف الزراعة

لا تحرث الأرض مطلقا قبل البذر :

	مدينى	بوطاقة
١ – البذور . يبذر أردب لكل فدان . متوسط ثمن الأردب نحو بوطاقة ونصف ، فتساوى بذور ١٠ أفدنة	–	١٥
٢ – عملية البذر : يمكن لرجل واحد أن يبذر فدانين فى اليوم . أجرة العمل ليوم واحد نحو ٨ مدينى ، فيبلغ أجر بذر عشرة أفدنة نحو	٤٠	–
٣ – تغطية البذور بعد إتمام البذر : لا يغطى الفول المبذور مطلقاً بواسطة عملية حرث ، وإنما تجر قطعة من الخشب بشكل أفقى فوق الحقل المبذور . ويستطيع خمسة رجال يقومون بهذه العملية أن ينتهوا من تغطية مساحة فدان واحد على هذا النحو فى ظرف يوم ؛ ويحصلون على أجورهم عينا ، ويحصل كل منهم على $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب ، وتبلغ جملة الأجور بالنسبة لعشرة أفدنة ٢ $\frac{٢}{٢٤}$ أردبا ، ثمن الأردب الواحد بوطاقة واحدةونصف ، فيبلغ الثمن الإجمالى	١٢	٣

٤ – مصاريف الحصاد : تقطع أعواد الفول بالمنجل ويلزم رجلان لكى يحصدا فى يوم واحد محصول فدان . ويحصل

	مدينى	بوطاقة
هؤلاء العمال الذين يتقاضون أجورهم عينا على $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب ، فيلزم للعشرة أفدنة ٤ أرادب و $\frac{٤}{٢٤}$ من الأردب (إجمالى الأجر) تساوى ما قيمته نقداً	٢٧	٦
٥ – درس المحصول تحت النورج وتنظيف الفول . ويمكن لأربعة رجال وأربعة ثيران ، يعملون جميعاً لمدة يوم واحد أن يدرسوا وينظفوا إنتاج فدان واحد .		
٩٠ يوم عمل ، بواقع $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب (لليوم) ، بما فى ذلك إيجار النورج ، تساوى بحسب هذا الأجر ٣ أرادب و $\frac{١}{٢}$ الأردب ، تبلغ قيمتها نقداً	٤٥	٤
٦ – نقل الحبوب والقش المهروس (التبن) . يلزم لإنجاز عملية نقل المحصول إلى بيت المزارع أو إلى المخازن، تسعة أيام عمل لجمل واحد مع كلافه مقابل ٣٠ بارة لليوم	–	٣
٧ – تنقلات مختلفة ، توزيع وصيانة الآنية إلخ . ويقدر ذلك بـ $\frac{١}{١٠}$ المصاريف الموضحة أعلاه	٢١	٣
إجمالى المصاريف	٥٥	٣٥

الانتاج

منتجات الأرض المزروعة بالفول البياضى هى :

	مدينى	بوطاقة
١ – عدد مكاييل الفول التى تستخدم فى تسديد جزء من مصاريف البذر والحصاد والدرس . ويعطى عن كل هذه الأعمال بالنسبة لعشرة أفدنة ٩ أرادب و $\frac{١٤}{٢٤}$ من الأردب من الفول ، ثمن الأردب الواحد $\frac{١}{٢}$ ١ بوطاقة . فيبلغ إجمالى ثمنها	٥٦	١٤
٢ – عدد مكاييل الفول التى تبقى فى حوزة المزارع : يعطى فدان الفول ، بعد استبعاد المصاريف التى تسدد عيناً ٩ أرادب من الفول ، أى ٩٠ أردبا من العشرة أفدنة ، ثمن الأردب الواحد $\frac{١}{٢}$ ١ بوطاقة ، فيكون إجمالى الثمن	–	١٣٥

	مدينى	بوطاقة
٣ – سيقان الفول المهروسة تحت النورج (تبن الفول) يستخرج من محصول ١٠ أفدنة ٤٥ حمولة جمل من تبن الفول تستخدم فى تغذية الماشية ، بسعر ٢٥ مدينى للحمولة	٤٥	١٢
إجمالى الانتاج	١١	١٦٢
وبذلك يكون الفرق بين إجمالى مصاريف الزراعة وإجمالى الانتاج (أى صافى الربح)	٤٦	١٢٦

ثالثا : زراعة البرسيم البياضى

مصاريف الزراعة

لا تحرث الأرض مطلقاً قبل بذر البرسيم

١ – البذور : يبذر $\frac{1}{3}$ من الأردب لكل فدان ؛ ولكل عشرة أفدنة $\frac{1}{3}$ ٣ أرادب ، ثمن الأردب الواحد ٣ بوطاقات ، فيصل إجمالى ثمنها إلى	–	١٠
٢ – عملية البذر : يبذر رجل واحد مساحة فدانين فى اليوم ، ويحصل مقابل ذلك على ٨ مدينى . خمسة أيام عمل بهذا الأجر لإتمام بذر عشرة أفدنة ، تساوى	٤٠	–
٣ – تغطية البذور : خمسون يوم عمل لرجل واحد بواقع ٦ مدينى عن اليوم	٣٠	٣
٤ – حصاد فدانين مخصصين للبذور ؛ ويتم هذا الحصاد بالمنجل ؛ ويحصد ثمانية رجال يعملون خلال يوم واحد ، إنتاج الفدان ، ويحصلون على ٨ مدينى (عن يوم العمل الواحد)	٣٨	١
٥ – الدرس : لا يدرس البرسيم الجاف مطلقا تحت النورج لكنه يهرس تحت أقدام الثيران . وتتكلف هذه العملية بالنسبة لمحصول فدان واحد ٧٥ مدينى ، مما يجعل تكاليف درس محصول فدانين	٦٠	

	مدينى	بوطاقة
٦ – نقل البرسيم الجاف إلى بيت المزارع ؛ ويتطلب هذا النقل يوم عمل لحمل واحد مع كلافه	٣٠	–
٧ – صيانة أدوات ونثريات أخرى	٦٤	١
مجموع المصاريف	٨٢	١٨

الإنتـاج

منتجات الأرض المزروعة بالبرسيم **البياضى** هى :

	مدينى	بوطاقة
١ – الحشة الأولى وتُستهلك خضراء : تباع هذه الحشة التى تتم بعد البذر بثلاثين يوماً واقفة بواقع ٨ بوطاقات للفدان ، فيكون عائد عشرة أفدنة	–	٨٠
٢ – الحشة الثانية وتستهلك خضراء : تباع هذه الحشة التى تتم عقب الحشة الأولى بنحو عشرين أو خمسة وعشرين يوما ، واقفة ، بواقع ٥ بوطاقات للفدان ، فيكون إجمالى عائد الأفدنة الثمانية حيث يخصص الفدانان الآخران لإنتاج البذور ...	–	٤٠
٣ – بذور البرسيم التى تستخلص من فدانين : ينتج فدان البرسيم الذى يترك ليجف واقفا أردبين من البذور ، وتساوى الأرادب الأربعة الناتجة من محصول فدانين ، والتى يبلغ سعر الواحد منها ٣ بوطاقات	–	١٢
٤ – برسيم جاف بعد درسه (تبن البرسيم) . يستخدم البرسيم الجاف الذى تستخلص البذور منه غذاء للجمال والماعز . وينتج الفدانان المخصصان لهذا الغرض ١٢ حمولة جمل ، ثمن الواحدة منها ٣٥ بارة ، فيكون إجمالى ثمنها	٦٠	٤
قيمة إجمالى الإنتاج	٦٠	١٣٦
الفرق بين مصاريف الزراعة وقيمة إجمالى الإنتاج	٨٨	١١٧

رابعاً : زراعة القرطم البياضى

مصاريف الزراعة

لا تحرت الأرض مطلقاً قبل البدر :

	مدينى	بوطاقة
١ – البذور : يبذر لكل فدان $\frac{1}{4}$ أردب من بذور القرطم بسعر ١٣٥ مدينى للأردب . وبهدا السعر ، يبلغ إجمالى ثمن $\frac{1}{2}$ ٢ أردب لازمة لبذر عشرة أفدنة	٦٧	٣
٢ – عملية البدر : تلزم عشرة أيام ليقوم عامل واحد ببذر ١٠ أفدنة ، يحصل مقابل كل يوم منها على ٨ بارات	٨٠	—
٣ – عملية حرت بقصد تغطية بذور القرطم بعد بذرها . عشرون يوم عمل لزوج من الثيران مع سائقهما ، بواقع ٤٥ مدينى (ليوم العمل الواحد)	—	١٠
٤ – جنى الورود : يستخدم فى اليوم الواحد من ١٢ إلى ١٥ امرأة وطفلا ، يدفع لكل منهم بواقع ٣ مدينى لكل رطلين من الورود . وينتج الفدان عادة ٣٩٠ رطلا ، مما يصل بتكاليف حصاد فدان واحد إلى ٥٨٥ مدينى وبذلك تكون تكاليف حصاد ١٠ أفدنة	—	٦٥
٥ – تحويل ورود القرطم إلى زعفران : يلزم ٤٥ يوم عمل لرجل واحد ليتم تحويل إنتاج محصول الفدان إلى زعفران . ويبلغ أجر يوم العمل الواحد نحو ١٠ مدينى . وبهدا السعر تبلغ تكاليف أربعمائة وخمسين يوم عمل (اللازمة لتحويل محصول ١٠ أفدنة)	—	٥٠
٦ – حصد البذور : يعمل رجل واحد لمدة خمسة عشر يوما لاقتلاع سيقان (محصول) فدان واحد . وتتكلف المائة والخمسون يوما (اللازمة) والتى يبلغ أجر اليوم منها ٨ بارات ...	٣٠	١٣

	مدينى	بوطاقة
٧ – درس السيقان وتنظيف البذور : لمحصول ١٠ أفدنة تلزم مائة يوم عمل ، بواقع ٨ بارات عن اليوم ، فتكون جملة تكاليف هذه العملية	٨٠	٨
٨ – نقل السيقان الجافة وبذور القرطم : أربعة أيام عمل لجمل واحد مع سائقه ، بواقع ٣٠ مدينى ليوم العمل الواحد.....	٣٠	١
٩ – نثريات ومصروفات إضافية ، تقدر بـ ٤٥ مدينى لكل فدان	–	٥
إجمالى المصاريف	١٧	١٥٨

الإنتاج

منتجات الأرض المزروعة بالقرطم هى :

	مدينى	بوطاقة
١ – نشا أو لباب الزعفران اللازم للصباغة : ينتج الفدان الواحد فى السنة العادية $\frac{1}{2}$ ٢ قنطار من الزعفران ، وبذلك تنتج ١٠ فدادين ٢٥ قنطاراً تساوى ، بواقع القنطار الواحد ١٢ بوطاقة	–	٣٠٠
٢ – بذور القرطم ، يستخلص $\frac{1}{2}$ ٢ أردب من البذور من كل فدان ، ومن ١٠ أفدنة ٢٥ أردباً ، تساوى بواقع الأردب الواحد ٢٣٥ مدينى	٤٥	٣٧
٣ – سيقان النبات الجافة : تنتج العشرة أفدنة ثلاثين حمولة جمل من سيقان القرطم ، التى تستخدم وقوداً بعد تجفيفها ؛ وتساوى الحمولة ٣٠ مدينى وبذلك تبلغ قيمة الثلاثين حمولة	–	١٠
قيمة إجمالى الناتج	٤٥	٣٤٧
الفرق بين المصاريف وبين الناتج من محصول القرطم	٢٨	١٨٩

خامسا : زراعة الذرة النبارى

مصاريف الزراعة

	مدينى	بوطاقة
١ – حرث وإعداد الأرض : تحرث الأرض المخصصة لزراعة محصول الذرة قبل البذر . وتتطلب الحرثة الأولى لكل فدان ثلاثة أيام عمل لزوج من الثيران مع سائقهما ، وبذا يلزم للفدادين العشرة ثلاثون يوم عمل بواقع ٣٢ بارة عن يوم العمل الواحد	٦٠	١٠
٢ – البذور : يبذر عادة لكل فدان ٥/١٢ من الأردب مما يتطلب لعشرة أفدنة ٤ ١/٦ أردب ، ثمن الأردب الواحد منها ١٢٠ مدينى ، وبذلك تساوى البذور اللازمة	٥٠	٥
٣ – عملية البذر : يلزم لعشرة أفدنة مائة يوم عمل لرجل واحد ، بواقع ٨ مدينى كأجر عن اليوم الواحد	٨٠	٨
٤ – الرية الأولى عقب البذر : يروى الذرة مباشرة عقب البذار ، العمل الذى يتطلب من أجل عشرة فدادين مائة وعشرون يوم عمل بواقع ٧ مدينى عن كل يوم	٣٠	٩

٥ – رى النبات أثناء نموه : عندما تكون السنة مواتية يمكن إدخال مياه الفيضان إلى حقول الذرة ، وتوجه المياه لهذا الغرض بواسطة جداول (مسقى) . ويمكن الإفادة من هذه الميزة (ميزة الرى الطبيعى) لمدة شهرين . ويستغنى الناس خلالها عن الرى باليد وهو الأمر الذى يصبح ضرورياً عندما لا تكون السنة مواتية . ونفترض ، للحصول على نتيجة متوسطة ، أن أعمال الرى تبقى متوقفة لمدة شهر بسبب حدوث الفيضان . وأنه تكفى عندئذ متابعتها أثناء خمسة وأربعين أو ستين يوماً ، فيلزم خلال هذه المدة ، ليتم رى وعزق (وتنقية المحصول من الأعشاب

	مدينى	بوطاقة
الضارة) ١٠ فدادين ، خمسمائة يوم عمل ، تساوى بواقع اليوم الواحد ٧ مدينى	٨٠	٣٨
٦ – مصاريف الحصاد : يقطع عشرة رجال (محصول) فدان من الذرة فى يوم واحد ، ويحصلون على أجورهم عيناً ، ويتلقى الواحد منهم $\frac{1}{24}$ من الأردب من الحبوب ، وهى كمية تحتسب دائماً خارج (أى تستبعد) من إنتاج المحصول . وبهذا السعر (الأجر) فإن مائة يوم (عمل) تكلف $\frac{1}{6}$ ٤ أرادب ، ثمن الأردب الواحد ١٢٠ مدينى ، وبذلك (يساوى مقدار ما يدفع عيناً كأجر)	٥٠	٥
٧ – درس شواشى نبات الذرة ، وتنظيف الحبوب : تهرس رؤوس نبات الذرة بعد أن تتعرض للشمس تحت أقدام الثيران . فيتكلف هذا العمل بوطاقة واحدة عن (محصول) الفدان ، ويتكلف بالنسبة للفدادين العشرة	–	١٠
٨ – نقل الحبوب والتبن إلى بيت المزارع : اثناعشر يوم (عمل) لجمل واحد مع سائقه ، بواقع ٣٠ مدينى (عن يوم العمل الواحد)	–	٤
٩ – توزيع الأدوات وصيانتها ومصاريف متفرقة ، ويقدر ذلك كله بـ $\frac{1}{10}$ من المصروفات الأخرى	١٨	٩
إجمالى المصروفات	٨	١٠٢

الإنتـاج

منتجات الأرض المزروعة بالذرة النبارى هى :

١ – كمية الحبوب المستخدمة فى تسديد مصاريف الحصاد عيناً : يعطى للحاصدين مقابل حصد ١٠ أفدنة ، $\frac{1}{6}$ ٤

	مدينى	بوطاقة
أرادب ثمن الأردب الواحد ١٢٠ مدينى ، فتساوى الكمية كلها ..	٥٠	٥
٢ – كمية الحبوب التى تبقى للمزارع بعد تسديد مصاريف الحصاد : يبلغ هذا القدر من الإنتاج عادة عشرة أرادب للفدان ، و ١٠٠ أردب للعشرة أفدنة ، ثمن الأردب منها ١٢٠ مدينى ، فيساوى إجمالى المحصول	٣٠	١٣٣
٣ – أعواد الذرة الجافة وهى تستخدم كوقود : ينتج الفدان عادة ١٠ حمولات جمل من الأعواد الجافة ، وتنتج العشرة أفدنة ١٠٠ حمولة ، ثمن الحمولة الواحدة ١٥ بارة فيبلغ ثمن المجموع	٣٠	١٣
قيمة إجمالى الإنتاج	٢٠	١٥٢
الفرق بين مصاريف الزراعة وعائد الاستغلال (*)	١٢	٥٠

سادسا : زراعة النيلة

مصاريف الزراعة

يزرع نفس الحقل بمحصول النيلة فى مصر العليا لمدة ثلاث وأحياناً أربع سنوات متوالية ؛ وتختلف مصاريف ومنتجات الاستغلال من سنة لأخرى بنسبة تبلغ ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ على وجه التقريب .

خلال السنة الأولى

١ – حرث الأرض ثلاث مرات مختلفة ، وتقسيم الأرض إلى أحواض من أجل الرى ، وتتكلف هذه العملية التمهيدية ٢٤٠ مدينى للفدان ، وتتكلف بالنسبة للعشرة فدادين	٦٠	٢٦

(*) هذا هو المعنى المقصود فى حين أن ما ورد فى النص يتحدث عن مصاريف الاستغلال ، والخطأ فى هذا واضح (المترجم) .

	مدينى	بوطاقة
٢ – البذور : يبذر لكل فدان $\frac{٥}{٢٤}$ من الأردب من بذور النيلة السورية ، سعر الأردب منها ٤٨ بوطاقة ، ويلزم لعشرة أفدنة $٢ \frac{٢}{٢٤}$ أردب ، تساوى حسب هذا السعر	–	١٠٠
٣ – البذ ر : تلزم عشرة أيام ليبذر عامل واحد مساحة فدان ، وتلزم مائة يوم (عمل) لبذ ر ١٠ أفدنة ، أجرة اليوم منها ٨ مدينى	٨٠	٨
٤ – الرى وعزق النبات (لتخليصه من الأعشاب الضارة) وصناعة النشا (اللباب) المستخدم فى الصباغة : يستخدم تسعة رجال فى العام للقيام بالرى وعزق نبات النيلة وصناعة النشا ؛ متوسط أجر يوم (العمل) ٧ مدينى : وبافتراض ٢٥ يوم عمل لكل شهر ، تبلغ مصاريف استغلال فدان واحد نحو ١٤٠ بوطاقة ، وتبلغ بالنسبة لمساحة ١٠ فدادين .	–	١٤٠٠
٥ – مشتريات الأوانى اللازمة لصناعة الصبغة . مائة وستون إناء من الطين المحروق ، ثمن الواحدة ١٥ بارة	٦٠	٢٦
٦ – صيانة وتوزيع الآنية ومصاريف نثرية أخرى بتقدير يبلغ $\frac{١}{٢٠}$ (من المصاريف السابقة)	١١	٧٨
إجمالى المصاريف خلال السنة الأولى	٣١	١٦٤٠
خلال السنة الثانية :		
الرى والعزق والتصنيع ، الخ	–	١١٠٢
خلال السنة الثالثة :		
الرى والعزق الخ	–	٧٣٥
خلال السنة الأخيرة ، الرى وخلافه	–	٣٦٧
إجمالى مصاريف الزراعة بالنسبة للسنوات الأربع	٣١	٣٨٤٤
متوسط مصاريف الزراعة عن السنة الواحدة	٨	٩٦١

الإنتاج

تتم خلال السنة الأولى من زراعة النيلة أربع حشات متوالية من النبات . ويختلف ثمن الرطل من النيلة تبعا لدرجة جودته ولكمية الطلب عليه ؛ وإن كان إنتاج الحشات الأربع فى السنة نفسها يتعرض للتناقص .

وتنتج الحشة الأولى من فدان النيلة عادة	٤٢٠ رطلا
« « الثانية منه	٣٧٠ «
« « الثالثة	٢٨٠ «
« « الرابعة	٢٢٥ «
مجموع إنتاج فدان واحد فى السنة الأولى	١٢٩٥ رطلا
مجموع إنتاج عشرة أفدنة	١٢٩٥٠رطلا

	مدينى	بوطاقة
متوسط ثمن رطل النيلة ٢٠ مدينى ، وتساوى		
١٢٩٥٠رطلا بهذا السعر	—	٢٤٤٦
ويبلغ ثمن إنتاج السنة الثانية	—	١٨٣٥
ويبلغ ثمن إنتاج السنة الثالثة	—	١٢٢٣
وثمن إنتاج السنة الرابعة..........................	—	٦١٢
ثمن إجمالى إنتاج السنوات الأربع	—	٦١١٦
متوسط ثمن إنتاج السنة الواحدة	—	١٥٠٤
الفرق بين متوسط مصاريف الزراعة ومتوسط ثمن الانتاج فى سنة واحدة	٨٢	٥٤٢

سابعا : زراعة القمح الشتوى فى الفيوم

مصاريف الزراعة

١ — حرث الأرض قبل البذر : يلزم عموماً يومان عمل من

	مدينى	بوطاقة
ثورين مع راعيهما لحرث فدان واحد ، وتبلغ أجرة اليوم للحميع نحو ٣٦ مدينى ، فتبلغ بالنسبة للحرثة الأولى للعشرة أفدنة	—	٨
٢ - البدور : يبذر فى كل فدان $\frac{٢}{٣}$ الأردب وفى العشرة أفدنة $\frac{١}{٣}$ ٦ أرادب . ثمن الواحد منها ٢ بوطاقة و ٤٥ مديبى فتساوى كلها ..	٧٥	١٥
٣ — البذر : عشرة أيام عمل لرجل واحد ، بواقع ١٠ بارات عن اليوم	١٠	١
٤ — الحرثة الثانية لتغطية الحبوب بعد البذر : كالسابق .	—	٨
٥ — الرى بواسطة يد الإنسان : يتم الرى بواسطة الشادوف ويتكرر لأربع مرات منذ البذر حتى الحصاد . ويروى أربعة رجال يعملون لمدة أربعة أيام فداناً واحداً ، مما يتطلب على هذا النحو ٦٤ يوم عمل لتمام رى فدان واحد مما يتطلب بالنسبة لعشرة أفدنة ٦٤٠ يوم عمل ، تساوى بواقع أجرة يوم العمل الواحد ٨ مدينى	٨٠	٥٦
٦ — الحصاد : لا يقتلع القمح الشتوى مطلقاً كما يقتلع القمح البياضى وإنما تقطع أعواده بواسطة المنجل . ويلزم عشرة رجال لحصد فدان واحد . ويبلغ أجر يوم العمل الواحد $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب وتساوى الفدادين العشرة المحصودة على هذا النحو ٤ أرادب و $\frac{٤}{٢٤}$ من الأردب ، ثمن الأردب ٢ بوطاقة و ٤٥ مدينى ، فيبلغ إجمالى التكاليف	٣٣	١٠
٧ — الدرس تحت النورج : ثمانون يوم عمل من رجل واحد وثمانون مثلها للثيران ، وعشرون يوما للنورج ، بواقع $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب لليوم الواحد . وتساوى الـ $\frac{١}{٢}$ ٧ أرادب (إجمالى أجر ما سبق) نقدا ..	٦٨	١٨
٨ — نقل المحصول إلى بيت المزارع : تسعة أيام عمل لجمل واحد ، بواقع ٢٥ بارة عن اليوم	٤٥	٢
٩ — صيانة وإصلاح السواقى ، ويقدر ذلك بـ $\frac{١}{١٠}$ المصاريف السابقة	١٣	١٢
إجمالى المصاريف	٥٤	١٣٣

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
منتجات الأرض المزروعة بالقمح الشتوى فى ولاية الفيوم هى : ١ – كمية الحبوب المقدمة باعتبارها أجرا لمصاريف الحصاد والدرس إلخ ، تبلغ هده المصاريف المسددة عيناً حسب التفاصيل الواردة بالفقرة السابقة $\frac{١٦}{٢٤}$ ١١ أردباً ، ثمن الأردب الواحد ٢ بوطاقة و ٤٥ مدينى ، فتساوى (كلها)	٤٥	٢٨
٢ – كمية الحبوب التى تبقى تحت تصرف المزارع بعد الحصاد : ينتج القمح الشتوى ، حيث يحظى على الدوام بعناية شديدة ، كمية كبيرة للغاية من الحبوب والقش (التبن) بالنسبه لما ينتجه القمح البياضى ويمكننا أن نقدر متوسط إنتاج الفدان بـ ٨ أرادب ، و بـ ٨٠ أردباً بالنسبة للعشرة أفدنة ، ثمن الأردب منها ٢ بوطاقة و ٤٥ مدينى ، فيساوى المحصول..............	–	٢٠٠
٣ – القش المهروس تحت النورج (التبن) : ثمانون حمولة جمل ، ثمن الواحدة ١٥ بارة	٣٠	١٣
إجمالى الإنتاج	٧٥	٢٤١
الفرق بين إجمالى الإنتاج وبين مصاريف الزراعة	٢١	١٠٨

ثامناً : زراعة الكتان فى الدلتا

مصاريف الزراعة

	مدينى	بوطاقة
١ – حرث الأرض : تحصل الأرض التى ينبغى أن تزرع بالكتان على حرثتين متتاليتين ، ومتقاطعتين بشكل عرضى وتتكلف كل حرثة من هاتين الحرثتين ، بالنسبة لفدان واحد ، ٦٠ بارة ، مما يجعل تكاليف حرث عشرة أفدنة................	٣٠	١٣

	مدينى	بوطاقة
٢ – تسوية الأرض وتقسيمها إلى أحواض : ويتكلف ذلك بالنسبة لفدان واحد ٤٥ مدينى ، وبالنسبة للفدادين العشرة	–	٥
٣ – البذور : يبذر بالفدان أردب واحد من بذور الكتان ثمنه ٤ بوطاقات ، أى ما يساوى بالنسبة لعشرة فدادين	–	٤٠
٤ – عملية البذر : يوما عمل لكل فدان ، بواقع ٨ بارات عن اليوم ، وبالنسبة لعشرة فدادين	٧٠	١
٥ – الرى : يروى الكتان أثناء الشهور الأربعة التى يقضيها فى الأرض ، ثلاث مرات مختلفة ، وتتطلب كل واحدة من هذه الريات ، والتى تستمر ثلاثة أيام متعاقبة ، عملاً أكبر كلما ازداد انخفاض المياه . وينبغى استخدام ستة عمال لكل فدان عن الرية الأولى ، وثمانية عن الرية الثانية ، وعشرة عن الثالثة ، أى أن كل فدان يتطلب ٧٢ يوم عمل للريات الثلاث ، أى أن الفدادين العشرة تتطلب ٧٢٠ يوم عمل ، بواقع ٨ بارات لكل يوم عمل ، وبذا تبلغ جملة تكاليف الرى	–	٦٤
٦ – حصاد الكتان : يتطلب اقتلاع محصول الفدان الواحد تسعة أيام عمل ، بواقع ٧ بارات عن اليوم ، وبذا تبلغ جملة التكاليف للعشرة أفدنة	–	٧
٧ – تجفيف المحصول فى الشمس وربطه فى شكل حزم : ثلاثون يوما لمحصول الفدادين العشرة ، بواقع ٧ مدينى لليوم الواحد	٣٠	٢
٨ – درس الكتان لاستخلاص البذور : تتكلف هذه العملية بوطاقة لمحصول الفدان الواحد ، أى تتكلف بالنسبة لمحصول عشرة أفدنة	–	١٠
٩ – إعادة وضع الكتان فى شكل حزم لنقله إلى الأحواض	١٥	١

	مدينى	بوطاقة
١٠ – نقل الكتان من داخل هذه الأحواض : تلزم خمسة أيام كى يقوم جمل واحد بنقل محصول ١٠ أفدنة ، بواقع ٣٠ بارة عن اليوم	٦٠	١
١١ – تنظيم الكتان فى الأحواض ، إخراجه من هذه الأحواض ، تعريضه للشمس ، إعادة وضعه فى شكل حزم للبيع : تتكلف كل هذه العمليات ½ بوطاقة بالنسبة لإنتاج الفدان الواحد ، فتبلغ جملة التكاليف بالنسبة لإنتاج عشرة أفدنة	–	٥
١٢ – صيانة وتوزيع أدوات ، ومصاريف نثرية أخرى تقدر كلها بـ	١١	١٥
إجمالى مصاريف الزراعة	٣٦	١٦٦

الإنتاج

١ – أعواد الكتان بعد إعدادها للبيع : ينتج الفدان الواحد عادة ١٨ ربطة ، تتكون الواحدة من ٢٤ حزمة ؛ ثمن الربطة بوطاقة و ٤٠ مدينى ، مما يجعل عائد الفدان الواحد ٢٦ بوطاقة ، وعائد العشرة أفدنة	–	٢٦٠
٢ – بذور الكتان : ينتج الفدان ½ ٣ أرادب من البذور ثمن الأردب منها ٤ بوطاقات ، فيبلغ إنتاج الفدان ١٤ بوطاقة ويبلغ بذلك ثمن إنتاج العشرة أفدنة	–	١٤٠
إجمالى الإنتاج	–	٤٠٠
الفرق بين المصاريف وناتج الاستغلال	٥٤	٢٣٣

تاسعا : زراعة الأرز

مصاريف الزراعة

تررع الأرض ، فى نفس السنة التى تخصص فيها لزراعة الأرز ، بالقمح أو البرسيم ؛ وعلى هذا ، فلابد لكى نقيم عائد الإنتاج أن نقارن إجمالى المصروفات التى تنفق على التوالى لكل زراعة ، بالعائد المتتالى لهذه الزراعة ولتلك .

كذلك فإن الرى المستمر الذى تتطلبه حقول الأرز ، يضطر المزارعين لاقتناء عدد أكبر من الثيران مما يتطلبه رى المحاصيل الأخرى . وينبغى أن تضاعف لنفس السبب عدد ماكينات الرى ، ومشتروات الماشية وحالات الوفيات التى تسببها . وتؤدى إقامة هده الماكينات وصيانتها اليومية إلى إنفاق مصاريف بالعة الضخامة ينبغى أن تعد فوائدها السنوية (فوائد هذه المصاريف باعتبارها رأس مال يقدر له نسبة مس الربح) جرءاً من التكاليف .

ومما يميز استغلال حقول الأرز ، على نحو خاص ، أن المزارع بدلا من أن يستخدم عمال يومية بحسب حاجته ، يعطى راتباً سنوياً لرجال يستخدمهم . وبسبب هذه الظروف المختلفة ، يقترب استغلال حقول الأرر بدرجات متفاوتة من استغلال مزارعنا فى أوربا .

وتتضمن المصاريف اللازمة لزراعة الأرز فوائد المبالغ المدفوعة مقدما بهدف اقتناء الماشية وماكينات الرى والأدوات الزراعية ؛ وينبغى أن نضيف إلى ذلك حالات الوفيات التى تتعرض لها المواشى عادة كل عام ، ومصاريف تجديد الماكينات وأدوات الرى بعد وقت معين من استخدامها ؛ ولابد أن نضيف كذلك مصاريف غذاء المواشى ، وأجور ومكافآت العمال الذين يجرى استخدامهم ، وثمن البذور ، ومصاريف الزراعة والحصاد بالمعنى المحدد للكلمتين .

ويبلغ سعر فائدة الأموال فى مصر عادة ١٠ بالمائة ؛ وكما يحدث فى كل مكان ، فإن ادعاءات وأطماع المرابين لا تعرف لنفسها من حد ، اللهم إلا ما تحدده درجة إلحاح حاجة أولئك الذين يضطرون للاقتراض . ومع ذلك وبصفة عامة ، فإن فائدة المال ينظر إليها فى هذه البلاد باعتبارها ربا إذا ما تجاوز سعرها السنوى عن ذلك .

	مديني	بوطاقة
١ – فوائد القروض المستخدمة فى شراء الثيران :		
يستخدم عادة لزراعة عشرة أفدنة ، اثنا عشر ثورا ، يبلغ متوسط ثمنها ٧٢٠ بوطاقة وبذلك تكون الفوائد المقدرة على ذلك هى	–	٧٢
وإذا افترضنا أن حالات المرض أو الوفاة التى تصيب الماشية لن تعوض مطلقا عن طريق المنافع التى يمكن أن تتحقق من تربيتها ، فسوف تقدر الخسائر المحققة التى يتعرض لها المزارع فى هذه الماشية بمقدار $\frac{١}{١٠}$ من إجمالى عددها ، ويقدر ذلك بـ	–	٦٠
٢ – ماكينات الرى ، والأدوات الزراعية : تلزم ثلاث سواقى لرى عشرة أفدنة ، تساوى كل واحدة منها ، فى المتوسط ٣٠ بوطاقة وتساوى الماكينات الثلاث ٩٠ بوطاقة ،		
وتساوى الفائدة السنوية لهذا المبلغ	–	٩
وبسبب رداءة بناء هذه السواقى ، يضطر المزارعون لتجديدها مرة كل خمس سنوات . وبتقسيم قيمة هذه الماكينات على كل واحدة من هذه السنوات ، نجد أن المصاريف السنوية (لهذا الغرض) تبلغ	–	١٨
أما الأدوات الزراعية الأساسية فتشتمل على محراثين وماكينة لدرس الأرز . وتبلغ قيمة الجميع ٣٠ بوطاقة ، تساوى الفائدة المقدرة عليها	–	٣
تجديد ، وصيانة هذه الماكينات وتوزيعها	–	٣
٣ – تغذية الثيران : تعيش الثيران لمدة أربعة شهور على الفول والتبن .		
ويبلغ ثمن التبن فى السنة العادية	–	٧٥

	مدينى	بوطاقة
ويبلغ ثمن الفول	–	١٠٠
وفى خلال خمسة شهور أخرى تعيش الثيران على البرسيم الأخضر ، ويقدر ثمنه بـ	–	٢٠٠
وأخيراً ففى خلال الشهور الثلاثة الباقية ، تغذى الماشية بالبرسيم الجاف ، بحصيلة حش تسعة فدادين من الأرض ، بواقع ١٢ بوطاقة لمحصول الفدان الواحد ، فتكون جملة المصاريف هنا .	–	١٠٨
٤ – أجور العمال المستخدمين طول العام : رجلان يوكل إليهما العناية بالماشية ، يحصل كل منهما على ٣٠ مدينى فى الشهر ، فتساوى الأجور فى عام	–	٨٠
خمسة رجال آخرون ، يستخدمون بالمثل طول العام ، ويكلفون بالعناية بماكينات رفع المياه ، وبأعمال يومية أخرى ويحصلون على ٩ مدينى فى اليوم (لكل منهم) ، مما يتكلف فى العام	–	١٨٠(*)
كما يستخدم المزارعون كذلك رئيساً أو ملاحظاً للعمال يدفعون له سنويا عادة	–	٧٢

٥ – الحرث : يقوم العمال الذين انتهينا من الإشارة إليهم والذين يعيشون على نفقة المزارعين بالحرثات اللازمة ....

٦ – البذور : يبذر فى الفدان الواحد $\frac{٣}{٨}$ أردب من الأرز ، وإن كان لا يبذر سوى نصف الأرض المستغلة ، أما النصف الآخر فيخصص لكى تشتل به أعواد النبات الزائدة عن الحاجة والتى تقتلع من الأرض التى بذرت بها فى البداية .

(*) هذا هو التقدير الصحيح فى حين جاء بالنص أنه ١٠٨ . (المترجم) .

مدينى بوطاقة

ولهذا فيلزم لعشرة أفدنة ١ ٥/٨ من الأردب ، تساوى بواقع ٢٤ بوطاقة للأردب .... — ٤٥

٧ – أيام العمل اللازمة لشتل الأرز وعزقه وتنقية النبات من الأعشاب ، إلخ بخلاف العمال الموكلة إليهم أعمال الاستغلال طيلة العام ، فإن المزارعين يضطرون لاستخدام عمال يومية غرباء إما لشتل الأرز أو عزقه وتنقية النبات من الأعشاب الضارة ، وكذلك لتطهير ترع وقنوات الرى ، ويمكن أن يصل عدد أيام عملهم إلى ٤٥ يوماً للفدان الواحد ، وإلى ٤٥٠ يوماً للأفدنة العشرة ، أجرة اليوم منها ١٠ مدينى ، وبدلك يبلغ إجمالى المصاريف .... — ٥٠

٨ – مصاريف حصد ودرس الأرز : يحصد الحاصدون الأرز ويضعونه فى حزم وينقلونه إلى جرن حيث يدرس ، ويحصل هؤلاء على أجرهم عينا ، ويبلغ أجرهم عن ١٠ أفدنة أردباً من الأرز .... — ٢٤

أما الدين يقودون الثيران المعلقة بالنورج ، فيحصلون مقابل درس محصول ١٠ أفدنة على ٥/١٦ من الأردب ٤٥ ٧

وبعد أن يحصد الأرز مباشرة ، تغمر الأرض بالمياه لمدة بضعة أيام ، وتبذر من جديد ، دون أى إعداد مبدئى بالبرسيم . وهو محصول العلف الوحيد المعروف فى ولايات الدلتا ورشيد .

٩ – بذور البرسيم : يبذر لكل فدان ثلاثة مكاييل من بذور البرسيم ، يباع المكيال منها بـ ٣٠ مدينى ؛ مما يجعل تكاليف بذور الفدان بوطاقة واحده، وتكاليف ١٠ أفدنة .... — ١٠

١٠ – حشات البرسيم المتعاقبة : لا يتكلف حصد هذا العليق ، الذى تحش منه ثلاث حشات ، ابتداء من شهر نوفمبر

	مدينى	بوطاقة
حتى الربيع ، إلا عشر بوطاقات ، إذ يتم جزء من هذا العمل على يد العمال المستخدمين خلال العام والذين حسبت أحورهم فيما سبق	—	١٠
إجمالى مصاريف الزراعة	٤٥	١٠٥٤

الإنتاج

هذه هى منتجات الأرض المزروعة بالأرز والبرسيم على التوالى :

	مدينى	بوطاقة
١ – كمية الأرز المعطاة بمثابة أحور لمصاريف الحصاد والدرس : تبعا للفقرة السابقة ، تبلغ هذه الكمية بالنسبة لعشرة أفدنة $\frac{٥}{١٦}$ ١ أردب ؛ وبواقع ٢٤ بوطاقة للأردب ، فإن هذه الكمية تساوى	٤٥	٣١
٢ – كمبة الأرز التى تبقى فى حوزة المزارع بعد تسديد مصاريف الزراعة : فى أفضل السنوات ، تنتج الأراضى المحيطة بدمباط ورشيد ما يصل إلى ٦ أرادب من الأرز للفدان الواحد ؛ لكنها فى السنوات السيئة لا تنتج سوى أردبين (للفدان) . متوسط الإنتاج ٤ أرادب فيكون ثمن الإنتاج لعشرة فدادين ، بواقع ٢٤ بوطاقة للأردب	—	٩٦٠
٣ – قش الأرز المهروس تحت النورج (التبن) . ولا يستخدم هذا القش إلا فى الوقود . وتبلغ قيمة القش المحصود من مساحة ١٠ أفدنة	—	١٢
٤ – البرسيم الأخضر : تباع الحشة من البرسيم الأخضر للفدان الواحد بواقع ١٥ بوطاقة ، والحشات الثلاث المتعاقبة بـ ٤٥ بوطاقة ، فيبلغ إجمالى إنتاج ستة أفدنة	—	٢٧٠

	مدينى	بوطاقة
٥ – البرسيم الجاف : تباع حشة فدان واحد من البرسيم المخصص للتجفيف لفصل الشتاء بـ ١٢ بوطاقة ، فتساوى الحشات الثلاث لمساحة أربعة أفدنة	–	١٤٤
قيمة إجمالى منتجات الأرز والبرسيم	٤٥	١٤١٧
قيمة الفرق بين مصاريف الزراعة وعائد الإنتاج	–	٣٦٣

ويبقى علينا أن نوضح مقدار الكسب الذى كان سيتحقق لو أن العشرة أفدنة التى ينطبق عليها بحثنا ، قد زرعت بالقمح بدلا من البرسيم ، عقب حصاد الأرز .

مصاريف الزراعة

	مدينى	بوطاقة
مصاريف زراعة الأرز كما توضحت سابقاً	٤٥	١٠٥٤
يقوم بالحرث ، وبالتجهيزات الأخرى للأرض التى ينبغى أن تبذر فيها الحنطة الرجال التابعون للمزارع . وحيث ندخل أجورهم ضمن المصاريف العامة للاستغلال ، وكذلك الحال بالنسبة لتغذية الثيران المستخدمة فى هذه الأعمال ، فليس ثمة ما ينبغى أن نضيفه هنا إلا قيمة البذور ، ومصاريف الحصاد .		
١ – البذور : يبذر فى الفدان الواحد عادة ١/٢ أردب من الحنطة ؛ فتبلغ تكاليف بذور العشرة أفدنة ، بواقع ثمن الأردب أربع بوطاقات	–	٢٠
٢ – مصاريف حصد ودرس القمح ، مقدرة على نفس أسس محصول الأرز ، بواقع ٢ بوطاقة للفدان	–	٢٠
وعلى هذا النحو ، تبلغ المصاريف السنوية التى تقتضيها زراعة عشرة أفدنة تبذر على التوالى بالأرز والحنطة	٤٥	١٠٩٤

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
إجمالى قيمة ناتج محصول الأرز كما توضح سابقاً........	٤٥	١٠٠٣
أما إجمالى ناتج زراعة الحنطة فى نفس الأرض فهى :		
١ – كمية الحبوب التى تستخدم فى سداد مصاريف الحصاد : تبلغ هذه الكمية ½ أردب للفدان ، وخمسة أرادب للعشرة أفدنة ، بواقع ٦ بوطاقات للأردب ، فيبلغ إجمالى الثمن ..	–	٣٠
٢ – كمية البذور التى تبقى فى حوزة المزارع بعد سداد مصاريف الحصاد : تنتج الأرض المزروعة بالحنطة فى السنة العادية ½ ٧ أرادب للفدان ، بواقع ٤ بوطاقات للأردب فيبلغ ثمن إنتاج عشرة أفدنة	–	٣٠٠
٣ – القش المهروس تحت النورج (التبن) : يباع إنتاج فدان الأرض من القش المهروس بـ ٦ بوطاقات فى العادة ، وبالنسبة لعشرة أفدنة	–	٦٠
قيمة إجمالى الإنتاج من الأرز والحنطة	٤٥	١٣٩٣
قيمة إجمالى الفرق بين مصاريف الزراعة وعائد الاستغلال	–	٢٩٩

وقبل أن نمضى لأبعد من ذلك ، فقد نلاحظ أن العشرة أفدنة التى نطبق عليها مصاريف وعوائد زراعة الأرز ، كما بينا للتو بالتفصيل ، تقع ضمن أراضى دمياط ، حيث المقاييس أكبر مساحة من بقية أراضى مصر بنسبة ٦٨٧٧ إلى ٥٩٢٧ ؛ لذلك ينبغى أن نضغط بنفس النسبة مصاريف وعوائد زراعة الأرز ، بهدف وضعها فى شكل قابل للمقارنة مع مصاريف ومنتجات الزراعات الأخرى فى مصر .

وإذا أخذنا هذه الملاحظة فى الاعتبار ، فسنجد أن مصاريف زراعة الأرز فى مساحة ١٠ أفدنة عادية (أى بالمساحة المعتادة فى بقية أنحاء مصر) :

		مدينى	بوطاقة
١ – عندما تزرع هذه الأرض نفسها بالبرسيم فى نفس السنة		–	٩٠٨
٢ – عندما تزرع نفس الأرض بالحنطة		–	٩٤٢

وكذلك ، نجد إجمالى عائد الإنتاج :

١ – أرز وبرسيم	–	١٢٢٢
٢ – أرز وحنطة	–	١٢٠٢

ونستطيع الآن أن نوجز فى الجدول التالى مصاريف ومنتجات المحاصيل المختلفة التى اتخذناها أمثلة .

الزراعات	المصاريف		الإنتاج		صافى الأرباح	
	مدينى	بوطاقة	مدينى	بوطاقة	مدينى	بوطاقة
القمح البياضى	٧٤	٥١	٢٠	٢٠٠	٣٦	١٤٨
الفول البياضى	٥٥	٣٥	١١	١٦٢	٤٦	١٢٦
البرسيم البياضى	٧٢	١٨	٦٠	١٣٦	٧٨	١١٧
القرطم البياضى	٨٠	١٥٧	٤٥	٣٤٧	٥٥	١٨٩
الذرة البارى	٣	١٠٢	٢٠	١٥٢	١٧	٥٠
النيلة	١٢	٩٦١	–	١٥٠٤	٧٨	٥٤٢
القمح الشتوى	٥٤	١٣٣	٧٥	٢٤١	٢١	١٠٨
الكتان	٣٦	١٦٦	–	٤١٧	٥٤	٢٥٠
أرز مع برسيم	–	٩٠٨	–	١٢٢٢	–	٣١٤
أرز مع قمح	–	٩٤١	–	١٢٠٢	–	٢٦٠

وقد يكون من نافلة القول أن نضيف إلى التفاصيل التى قدمناها حول مصاريف ومنتجات الزراعات الرئيسية فى مصر ، التى تتماثل مصاريفها وعوائدها مع الزراعات الأخرى ، التى وصفناها فى الفقرات السابقة ؛ وسوف نكتفى بأن نقدم فى

الجدول الآتى ، موجزاً للأبحاث التى كانت هذه الزراعات بالمثل موضوعاتها [١] .

الزراعات	المصاريف		الإنتاج		صافى الأرباح	
	مدينى	بوطاقة	مدينى	بوطاقة	مدينى	بوطاقة
الشعير البياضى	١٤	٢٨	٤٩	٨٥	٣٥	٥٧
الشعير الشتوى	٥١	٩٤	٤٢	١٣٩	٨١	٤٤
العدس البياضى	٢٥	١٨	٧٥	٨٠	٥٠	٦٢
الحمص	٦٣	٢٧	٣٨	٧٥	٥٥	٤٧
الترمس	٨٠	٢٧	٣٠	٨١	٦٠	٥٣
البصل	٢	٦٨	٣٠	٢٣٥	٢٨	١٦٧
الحلبة	٢٣	٢٣	٧٤	٩٣	٥١	٦٩
الجلبان	٨٧	٣٠	٨٧	٩٠	—	٦٠
البازلاء	٤	٤٢	٦٠	١١١	٥٦	٦٩
السلجم	٦٥	١٦	٦٠	١٠١	٨٥	٨٤
الخس	٤	٣٩	٧٥	١١٩	٧١	٨٠
القطن	١٠	٣٧٤	—	٥٣٤	٨٠	١٥٩
السكر (قصب)	٤	٨٣٩	—	٢٠١٠	٨٦	١١٧٠
التبغ	٣٠	٦٩	٨٠	٢٨٨	٥٠	٢١٩

وبإلقاء نظرة على هذين الجدولين لمختلف الزراعات فى مصر ، يجد المرء أن عائد الإنتاج ، نقداً ، يتعرض لاختلافات شاذة ؛ ومع ذلك فلابد أن ننظر للأرباح التى تتحقق من هذه الزراعات ، من خلال وجهتى نظر مختلفتين .

إننا ، فى الواقع ، ينبغى أن نميز ، عند تقديرنا للأرباح التى تعود بها الزراعة ، بين الربح الناتج عن الاستخدام الأفضل للمال ، وبين ذلك الربح الناتج عن الاستخدام الأمثل للأرض ، ذلك أن هذا الربح أو ذاك من بين ضروب الربح التى يسعى الناس

(١) انظر تكملة هذه الدراسة فى الجزء التوثيقى ، رقم ٢

عادة للحصول عليها تبعاً لحالة ما إذا كانت الأموال أو كانت الأرض هى الأكثر ندرة ، فيكون لها بالتالى قيمة نسبية أكبر .

ولكى نجعل مما نقول أمراً ملموساً ، فإنى أفترض أننا خصصنا لزراعة معينة مساحة محددة من الأرض ؛ وأن مصاريف الاستغلال هى على سبيل المثال ١٠ بوطاقات ، وأن الناتج ٣٠ بوطاقة ، فإن عائد الربح فى هذه الحالة هو ٢٠ بوطاقة أى ضعف المبالغ التى دفعت مقدماً (فى عملية الاستغلال هذه) .

ثم لأفترض الآن أننى لكى أنشئ زراعة أخرى على نفس هذه المساحة من الأرض ، أنفقت ١٠٠٠ بوطاقة (مقدم إنتاج) وأن الإنتاج هو ١٥٠٠ ، عندئذ سيكون عائد الربح هو ٥٠٠ بوطاقة أى نصف مصاريف الاستغلال .

ففى المثال الأولى ، يمكننا أن نعتبر أن المال كان مودعاً مقابل ربح يعادل ٢٠٠٪ ، ذلك أنه ، عن طريق مساحة محددة من الأرض ، زاد رأس مال المزارع بواقع ٢٠ بوطاقة . وفى الحالة الثانية لم يودع المال إلا بواقع ٥٠٪ (نسبة ربح) ، ذلك أن استغلال نفس المساحة قد أضاف لرأس مال المزارع ٥٠٠ بوطاقة .

هكذا رأينا فى الافتراض الأول أن المال قد استغل بطريقة أفضل عن الطريقة التى استغل بها فى الافتراض الثانى ، ذلك أنه (فى الافتراض الأول) قد عاد بنسبة ربح أكبر ، على الرغم من أن الأرض قد استغلت بشكل أفضل فى الافتراض الثانى عنه فى الافتراض الأول ، حيث أن استغلال نفس المساحة من الأرض قد أضاف لرأس مال المزارع ٥٠٠ بوطاقة بدلا من ٢٠ بوطاقة فقط (فى الافتراض الأول) .

وكما رأينا ، يقوم الربح المتحقق عن طريق الاستخدام الأفضل لرأس المال على العلاقة بين إجمالى عائد الزراعة وبين المصاريف التى تتطلبها ؛ فى حين أن الاستخدام الأفضل للأرض ليس سوى الفرق بين ما تنتجه مساحة بعينها من الأرض وبين مصاريف استغلالها .

وللتفرقة بين هذين النوعين من الربح ، فسوف أطلق على النوع الأول اسم الربح النسبى ، وعلى النوع الثانى اسم الربح المطلق .

وحين نجرى على مصر تطبيقاً مباشراً لهذا التمييز بين هذين الضربين من ضروب الربح ، فإننى أفترض فى البداية أننا نتخذ من الرقم ١٠٠ تقديراً للمصاريف الدائمة لاستغلال مساحة الأرض ، تتسع مساحتها أو تقل ، مخصصة لكل واحدة من الزراعات التى انتهينا من ذكرها . وسوف تمثل الأرباح النسبية بالأرقام الواردة على التوالى فى العمود الثالث من الجدول الآتى :

رقم مسلسل	اسم المحصول	بيان الربح النسبى
١	البرسيم البياضى	٦٢١
٢	السلجم	٥٠٠
٣	الفول البياضى	٣٥٣
٤	العدس البياضى	٣٥٠
٥	التبغ	٣١٨
٦	الحلبة	٣٠٤
٧	القمح البياضى	٢٨٥
٨	البصل	٢٤٧
٩	الخس	٢٠٣
١٠	الشعير البياضى	٢٠٨
١١	الترمس	١٩٣
١٢	الجلبان	١٩٣
١٣	الحمص	١٧٥
١٤	البازلاء	١٦٦
١٥	الكتان	١٥٠
١٦	السكر	١٣٩
١٧	القرطم البياضى	١٢٠
١٨	القمح الشتوى	٨١
١٩	النيلة	٥٧

رقم مسلسل	اسم المحصول	بيان الربح النسبى
٢٠	الذرة النبارى	٥٠
٢١	الشعير الشتوى	٤٨
٢٢	القطن	٤٣
٢٣	الأرز مع البرسيم	٣٥
٢٤	الأرز مع القمح	٢٨

وفى الحالة الثانية سأفترض أن مساحة ثابتة من الأرض قد خصصت على التوالى لهذه الزراعات المختلفة ؛ ولكى تكون المقارنة محسوسة لإنتاج هذه الزراعات ، فإننى أمثل بالرقم ١٠٠ الربح المطلق الناتج عن زراعة القمح ؛ عندئذ نجد ما يلى :

رقم مسلسل	المحصول	بيان الربح المطلق
١	السكر	٧٩٦
٢	النيلة	٣٦٩
٣	الأرز مع البرسيم	٢١٣
٤	الأرز مع القمح	١٧٧
٥	الكتان	١٧٠
٦	التبغ	١٥٠
٧	القرطم البياضى	١٢٩
٨	البصل	١١٤
٩	القطن	١٠٩
١٠	القمح البياضى	١٠٠
١١	الفول البياضى	٨٦
١٢	البرسيم البياضى	٨٠
١٣	القمح الشتوى	٧٤
١٤	السلجم	٥٨

رقم مسلسل	المحصول	بيان الربح المطلق
١٥	الخس	٥٥
١٦	البازلاء	٤٨
١٧	الحلبة	٤٨
١٨	العدس البياضى	٤٣
١٩	الجلبان	٤١
٢٠	الشعير البياضى	٣٩
٢١	الترمس	٣٧
٢٢	الذرة النبارى	٣٥
٢٣	الحمص	٣٣
٢٤	الشعير الشتوى	٣١

وبمقارنة هذين الجدولين ، نرى أن نفس المحاصيل لا تشغل فى كل منهما نفس الترتيب ؛ وفى الواقع فإن التماثل أو التطابق المطلوب لا يمكن أن يتحقق إلا إذا أمكن قيام نوع من التوازن بين إنتاج الأرض وإنتاج المال ، وهو التوازن الذى لا تزال مصر بعيدة عن الوصول إليه .

وفى الواقع ، فإنه من الميسور أن نتقبل تبعاً للتعريفات التى قدمناها للنوعين الربح النسبى والربح المطلق ، فكرة أن علينا أن نبحث عن هذا الضرب أو ذاك من ضروب الربح تبعاً لما إذا كانت للمال قيمة أكبر مما للأرض أو لما إذا كانت للأرض قيمة أكبر مما للمال .

وهكذا ، فهناك حيث الأراضى أقل قيمة والمال أكثر ندرة يهتم الناس بشكل خاص بالزراعات التى تتطلب قروضاً (أو مصاريف) أقل فتعطى بذلك ربحاً نسبياً أكبر ، فى حين أن الناس فى البلدان التى تتوفر فيها النقود وترتفع قيمة الأرض ، يفضلون الاستغلال المكلف (أى الذى يتطلب نقوداً أكثر) لأنه يعود عادة بربح مطلق بدرجة أكبر بكثير .

وتفسر لنا حالة العوز التى نجد عليها غالبية المزارعين المصريين لماذا يزرع السكر هناك فى مساحات قليلة على الرغم من أنه يعود بربح مطلق أكبر بكثير (مما يعطى غيره من الزراعات) . ولأسباب مناقضة ، قد تشكل هذه الزراعة وكذلك زراعة النيلة والقطن أعمدة رأسمالية .

الفصل التاسع
عن حق الملكية وعن رسم تحصيل الضريبة

كان من الضرورى لكى أكمل العمل الذى أخذته على عاتقى ، أن أحدد الرابطة بين إنتاج الأرض وبين الإيجار الذى يحصل عليه المالك من المزارع . وقد بحثت من هذه الزاوية ، وبأكبر قدر من العناية ، فى طبيعة وأصل الملكيات العقارية ؛ وقد سألت فى أماكن عديدة أفراداً من كل الطبقات . وعلى الرغم من أنه كان من حقى أن آمل فى الحصول على توضيحات محددة بسبب الشهرة التى يحوزها بعض من سألتهم وبسبب المكانة التى يشغلونها ، فإننى لم أحصل منهم إلا على معلومات غامضة .

ومع ذلك ، ففى انتظار أن يتمكن آخرون من الحصول على أفكار كافية بدرجة أكبر حول هذا الموضوع ، أرجو أن يؤذن لى بأن أجازف بتقديم هذا الفرض البسيط هنا .

منذ أول احتلال لمصر ، كان حق الغزو هو السند الوحيد الذى ترتكز عليه حكومتنا . وقد مارس هذا الحق على التوالى كل من الفرس والإغريق والرومان والعرب والمماليك ، دون أن يحد من هذه الممارسة أى قانون على الاطلاق . وإذا كان الانتفاع ببعض أجزاء من الأرض الزراعية قد ترك فى بعض الأحيان للشعب المهزوم ، فلم يكن ثمة مايلزم ، لايقاف هذا الانتفاع الهزيل سوى صدور فعل يعبر عن إرادة آخر الغزاة . ولاتزال هذه هى حالة مايطلق عليه اسم الملكيات الخاصة ؛ نعم تظل هذه الملكيات فى نطاق نفس العائلة . ليس بسند من حق الإرث بقدر ماهو دليل على حسن صنيع الحكومة التى تظل تحتفظ لنفسها بحق التصرف فى هذه الأراضى حسب مشيئتها . وكما رأينا ، فليست هذه الملكيات سوى إقطاعيات قابلة للنقل (إلى آخرين) ، ولهذا السبب نفسه غير قابلة للبيع أو للتنازل .

ولهذا السبب فلا ينبغى علينا هنا أن نلصق بتعبير « بيع عقار من الأرض » فكرة تخويل متبادل ومطلق ، ولكن فقط فكرة الرهن المؤقت مقابل مبلغ من المال يأخذ فى شكل سلفة .

ويمتلك المقرض الأرض بنفس هذا التشكل من الملكية إلى وقت تحصيله لقروضه ، وفى هذه الفترة يقوم المنتفع أو الذى آل إليه حق الانتفاع خلالها بالانتفاع بالأرض التى ارتهنها .

ويمكن أن يرهن فدان الأرض إذا كانت من أرض بالغة الجودة أو ثمينة الموقع على أساس ٥٠ ، ٤٠ ، ٣٠ بوطاقة . وحيث أن سعر الربح العادى للنقود يبلغ ١٠ بالمائة ، فإنه يترتب على ذلك أن يكون الإيجار السنوى للفدان ٥ و ٤ و ٣ بوطاقات حيث ينبغى أن تغل الأرض ، وهى فى يد الشخص الذى ينتفع بها بشكل مؤقت ، ربح المال المقترض على أقل تقدير .

وهذا مايتطابق مع جهة أخرى مع سعر الإيجارات البسيطة . وتحصل الضريبة عن طريق الملتزم .

وحين يسدد الالتزام المقرر على الأراضى عينا ، يتم فى البداية استبعاد الضرائب من إجمالى إنتاج المحصول . ويقسم الباق بالتساوى بين المالك والمزارع إذا كانت المصاريف قد سددت مناصفة ، لكن المزارع يحتفظ لنفسه بالثلثين (من باق المحصول بعد تسديد الضرائب) إذا كان قد تكفل وحده بمصاريف الزراعة .

ويدير بعض المماليك لحسابهم الخاص العديد من مصانع السكر فى ولاية جرجا ، فيوفرون الأرض ، ويتكفلون بإنشاء وصيانة المبانى ويشترون الماشية ، ويدفعون ثمن غذائها . وبعد ذلك يقتسمون عائد الاستغلال بالتساوى مع الصانع الذى تتمثل المصاريف التى ينفقها فى توفير الأيدى العاملة .

وعلى الرغم من أن كل أرض الصعيد ملك للحكومة ، فإنها مع ذلك مقسمة بين القرى المختلفة ، ويحق لسكان هذه القرى أن يزرعوا مساحة محدودة من أطيانها . ويوزع المشايخ هذه الأطيان بين الفلاحين ، ويحرصون على أن تبذر فى الوقت المناسب ، كما أنهم مسئولون عن تحصيل الضرائب ، وهى مسئولية عهد إليهم من أجلها باستقطاعات يتفاوت قدرها .

وتفرض الضريبة فى مختلف المناطق إما نقداً وإما عيناً ، وتسدد فى بعض المناطق نقداً فى جزء منها وعيناً فى جزئها الآخر . وتفرض هذه الضرائب بشكل عام على قدر نسبة جودة الأراضى ؛ ومع ذلك ، فحيث أنها لا تتأسس على أية قاعدة ثابتة ، فإنها تختلف من ولاية لأخرى تبعاً لإرادة حاكمها . وهكذا نجد أن الطرف الأقصى لولاية طيبة ، الذى ترك تحت حكم حسن بك كان مثقلا بالضرائب عن بقية أرض الصعيد على الرغم من أن درجة خصوبته أقل .

ويتم تحصيل الضرائب وتقدير وعائها ، كما هو معروف ، على يد المسيحيين الأقباط ؛ فبعد أن دخل العرب مصر منتصرين ، تركوا لهؤلاء الأقباط شئون المساحة ، وظل العرب بهذه الطريقة فى حاجة لخدماتهم على الدوام ، فى كل العمليات التى تتصل بفرض الضرائب .

وقد أدرك الأقباط من جانبهم ، وقد استبعدوا بسبب الديانة التى يعتنقونها من الوظائف الإدارية الأخرى ، ولأنهم لا يستطيعون أن يتطلعوا إلى أية مكانة عالية لدى شعب لا يبدى التقدير إلا لكل ما هو إسلامى - أدركوا أية فائدة تعود عليهم حين يظلون نافعين بشكل تام لهؤلاء الحائزين على السلطة المطلقة ؛ ونتيجة لذلك فقد أخفوا كل ما يمكن أن يساعد على نقل الوظائف التى يشغلونها إلى أيد أخرى ، ولقد توصلوا بمعونة من المبادىء الأولية للحساب ، وبأسلوب الكتابة الدارجة ، وبحروف لغتهم القديمة التى يستخدمونها فى كتابة العربية ، توصلوا إلى عمل مسح غير دقيق ، وجعلوا من توزيع تزيد درجة استبداده أو اعتباطه أو تنقص ، فناً غامضا وملغزا هم وحدهم المتمرسون به .

ويتبين المرء بوضوح أن أمثال هؤلاء القوم لابد أن يكونوا أقل استعداداً لتقديم المعلومات حول الوسائل التى يحرصون على إحاطتها بالغموض . ولقد تبين لهم بوضوح أن إقامة الفرنسيين بمصر قد تضع نهاية لهذا النوع من الامتياز الذى استأثروا به حتى الآن ، وتجعل منهم أناسا لا نفع من ورائهم . وهذا ما يفسر بقدر كاف سر القلق الذى كان ينتابهم من الأسئلة التى كنت أوجهها لهم وكذلك سوء نيتهم حين كانوا يضطرون للإجابة .

ومع ذلك فلابد لى من أن أعترف بأننى قد وجدت بعضا منهم على درجة من الإخلاص أشعرتنى بالرضاء عنهم . وحيث قد تطابقت المعلومات التى قدموها إلى مع تلك التى استخلصتها من مصادر أخرى ، فإننى أعتقد أن بإمكانى أن أثق فى دقة ما ذكروه لى .

يوجد بين أعضاء هذه الطائفة نوع من الهيرارشية (السلمية) قد يكون من المناسب منذ البداية أن نتعرف عليه .

لكل بك (مملوك) وكيل قبطى (مباشر) مرتبط بشخصه ، يقيم معه فترة من العام فى عاصمة الولاية التى أوكل إليه أن يحكمها .

وتقسم هذه الولاية عادة إلى عدد محدود من الدوائر ، تتكون كل دائرة منها من أربع عشرة أو خمس عشرة قرية ، يحكمها كاشف أو قائمقام البك .

ويوجد إلى جوار الكاشف قبطى يعمل نائب وكيل ، ومرءوس أو عدة مرءوسين يعملون فى وظيفة كاتب فى كل قرية من القرى التى تتكون منها الكاشفليك .

وهؤلاء الأخيرون (الكتبة) مكلفون بجمع الميرى بمجرد أن يكون الفلاحون فى حالة تمكنهم من تسديده ، الأمر الذى لا يقومون به عادة إلا على دفعات صغيرة . ويسلم الكتبة حصيلتهم إلى كتبة أو محصلى الكاشف ، وهؤلاء يسلمونها إلى الوكيل الرئيسى الذى يقوم بعدها بنفسه لخازن البك ويحصل منه على مخالصة .

ولا يحصل أى من هؤلاء الموظفين الأقباط على راتب ثابت . فقد كان يقرر للكتبة الأول مبلغ ست بارات فى اليوم ليقوم مقام ما نطلق عليه نحن مصاريف مكتب .

وكانت رواتبهم عبارة عن استقطاعات من حصيلة الضريبة . وتبلغ هذه الاستقطاعات ٥ بارات عن كل بوطاقة بالنسبة للوكيل الرئيسى ولأولئك المقيمين فى الكاشفليك أو مقر الدائرة . أما الاستقطاع الذى يتم لصالح الكتبة المرءوسين فلا

يبلغ سوى ٢ بارة ؛ وإن كان هؤلاء يتناولون طعامهم عند سكان القرى التى يجمعون الضرائب منها .

ولابد أن نلاحظ أن هذا الاستقطاع الذى يبلغ فى مجمله ٧ بارات لكل بوطاقة كان يفرض على المزارعين زيادة على الضريبة (المقررة) .

وحين يدفع ذلك عيناً فإنه يبلغ خمسة أو ستة أرادب عن كل مائة أردب ، ويفرض بالمثل زيادة على الضريبة .

وهذا الاستقطاع ، وهو الوحيد الذى تعترف به الحكومة ، هو أقل جزء من المنافع التى يجنيها الأقباط ، فلقد وجدوا من الوسائل ، مستغلين جهل الفلاحين ، مع إشراكهم العدد الأكبر من مشايخ القرى فى الأرباح الضمنية التى يحصلون عليها ، وكذلك فى معظم الأحيان بالحصول على أتاوات من الفلاحين فى مقابل تمكينهم من الإفلات من عقوبات مقررة – مما جعلهم يرفعون مصاريف التحصيل (التى يحتفظون بها لأنفسهم) إلى ربع الحصيلة التى يجمعونها من الضرائب ، وهذا باعتراف عدد كبير منهم أنفسهم . وسنرى كيف استطاعوا عن طريق النظام المستقر للأمور أن يقتطعوا لصالحهم الخاص أكثر من ثلث الضرائب المفروضة على مصر .

وحيث تختلف غلة الأراضى باختلاف حالات فيضان النيل ، وحيث يزرع أكثر من محصول (فى الأرض نفسها) فى نفس العام ، فلقد كان من اللازم حصر مساحة الأرض المنزرعة فى المواسم المختلفة . ولقد كان واحد من الأقباط ، يختاره الوكيل الرئيسى أو كتبة الكاشف ، يشار إليه باسم المساح ، هو الذى يقوم بمسح هذه الأراضى ، وكان يصحبه واحد من أهالى القرية مهمته أن يدل على أسماء المزارعين . وكانت أسماء هؤلاء مدونة فى سجل مع مساحة الأرض التى يستغلونها . وكان المساح يحصل منهم فى مقابل هذه العملية على أتاوة تتراوح بين ١٨ إلى ٣٠ بارة ، تبعاً للمناطق المختلفة .

وكانت حالة الأراضى التى تم مسحها تبلغ فى كل دائرة إلى الكتبة الأول ، وهؤلاء ينقلونها إلى وكيل البك ، وبعد أن يلقى الأخير نظرة عليها ، يقوم بتقدير

الضريبة المقررة على الفدان ، ذلك أن مبلغ الضريبة لم يكن ثابتاً على الإطلاق ، إذ كان يزيد أو ينقص تبعاً لوفرة أو نقص الفيضان ؛ وهذه عادة قد تأسست على ارتفاع أسعار المواد الغذائية حين تنتج هذه بكميات قليلة ، ويشكل ذلك للحكومة دخلا شبه مستمر مستقلا عن فيضان النيل .

وبعد ذلك تحصل الضريبة فى القرى ، إما بعد البذر ، وإما قبل الحصاد مباشرة ، لكن حصيلة هذه الضريبة لا تصل مطلقاً لما كان ينبغى أن تصل إليه ، لأن حالة (مساحة) الأرض كما قدرها المساح لا تكون صحيحة على الإطلاق . وفى الواقع ، ففى هذه العملية (مسح الأرض) يتجلى أكبر عمليات الخداع التى يقوم بها الأقباط والتى تعود عليهم بالأرباح الطائلة ، كما أنها أسهل ما يمكن ارتكابه من عمليات الغش وأكثرها فى نفس الوقت صعوبة فى إمكانية اكتشافها .

وعندما تقاس قطعة من الأرض ، يقوم المساح بحساب مساحتها وهو فى الحقل ، ويعلن ذلك بصوت عال ، فى حضور سكان القرية . ويمكن أن تكون هذه العلانية، لو كانت عند شعب أقل جهالة ، حماية لمصالح الجميع ، لكنها هنا ليست سوى ضرب من الوهم ، لا يستخدم إلا لدعم الأحوال الفاضحة التى تتناول مسح الأرض ، وبطريقة بالغة الإتقان وذلك بتزييف هذه العملية بزيادة أو بنقصان عدد الفدادين التى سيتم استغلالها فى الواقع .

وفى الحالة الأولى يقوم الشخص الذى يرى نفسه مكلفاً بعدد من الفدادين أعلى من العدد الذى يعتقد أنه قد زرعه بمساومة المساح كى يحصل منه ، بعد تقديم مبلغ من المال على خفض بضعة أفدنة ، فإن تقبل ذلك منه ، فإنه لا يدون فى السجلات إلا المساحة التى تساوى على نحو التقريب تلك التى يستغلها بالفعل ؛ أما إذا حدث العكس ، فإنه لا يقوم بأية شكوى أو احتجاج ، ولا يتخذ أية ترتيبات خاصة ، وإنما يدفع على الفور وفى نفس المكان ، أتاوة تتجاوز بقدر متفاوت تلك الضريبة التى كان عليه أن يدفعها فى الحقيقة ، والتى يظل مقدارها رهن مشيئة المحصلين .

أما فى الحالة الثانية فيتفق الشخص الذى زرع مساحة محددة من الأرض ، لكنه يريد أن لا يدفع الضريبة إلا على جزء منها فقط ، يتفق مع الأقباط الذين يحصلون منه على ثمن هذا التخفيض .

وتشكل الضريبة التى تحصل عيناً مادة لغش أكثر إدراراً للربح ، يرتكب بشكل علنى ؛ فعندما يقوم الأقباط بجمع الحبوب ، فإنهم يستخدمون مكاييل أكبر حجماً بكثير من تلك التى يستعملونها عندما يودعونها فى المخازن العمومية . ويصل الفرق بين هذه المكاييل ، وهو بأكمله ربح خاص لهم ، إلى نحو ٢٥ و ٣٥ أردباً من كل مائة أردب فى بعض الأحيان .

وتقتسم هذه الأرباح الخفية ، بالإضافة إلى مكاسب أخرى أقل أهمية ، بين كل أبناء هذه الطائفة ابتداء من آخر كاتب حتى كتبة الكشاف . أما عن وكيل البك ، وهو عادة شخصية لها اعتبارها ، ويقوم بتعيين شاغلى الوظائف الأولى ، فإنه لم يكن ليدخل مطلقا فى تفاصيل هذه القسمة ، ولكنه كان يفرض أتاوة سنوية تبلغ ألفين إلى ثلاثة آلاف بوطاقة على كل واحد من الكتبة الرئيسيين ، وهؤلاء يتكسبون بدورهم من توزيع المساحين والكتبة المرءوسة لهم .

وقد سبق أن قلنا أنه يوجد على الأقل واحد من هؤلاء الكتبة فى كل قرية ؛ ويبلغ عددهم ثلاثة أو أربعة فى بعض المناطق ، ومع كل منهم أسرة يرعاها وخدم يعيشون فى كنفه . لذلك فلا أظننى قد جانبت الصواب عندما قدرت بثلاثين ألفاً ، عدد أولئك الذين يعيشون على جمع ضرائب الميزانية فى مصر ، وحين أوضحت أن الإحباط المطلق للزراعة وكذلك تخلخل الكثافة السكانية فى الريف ، يعودان إلى أساليب المخاتلة والغش التى يمارسها هذا النوع من جباة الضرائب ، أكثر مما يعودان إلى استبدال البكوات المماليك .

الباب الثانى

عن الحالة الراهنة للصناعة فى مصر

تمهيد

تكفى المعلومات التى قدمت فى دراسات عدة من هذا المؤلف (وصف مصر) حول حكومة مصر وعادات سكانها ، للدلالة على أن صناعة هؤلاء السكان ، لابد لها أن تنحصر داخل حدود بالغة الضيق . وفى واقع الأمر ، فإن هذه الصناعات تنحصر ، فى أقاليم مصر فى الحرف التى تفى بالضرورات الأولى ، وفى الأعمال اليدوية التى تتناول بعض المنتجات الزراعية التى تفى بإشباع حاجات الاستهلاك اليومى ، والتى قد تكون موضوع تبادل محدود للغاية . أما فى المدن ، فيعمل عدد صغير من العمال فى بعض الورش التى تصنع الأقمشة والسجاد ومعدات الحرب . أما سلع الترف اللازمة للأسر الميسورة وصاحبة النفوذ ، فتنهض بعبء توفيرها التجارة الخارجية .

وسنتبع فى هذا الجزء الثانى من دراستنا (عن الاقتصاد المصرى) نفس النهج الذى اتبعناه فى الجزء الأول ، فلسوف نوضح الوضع الراهن للصناعات عند المصريين المحدثين ، هابطين مع النيل من أسوان حتى شواطئ البحر المتوسط .

الفصل الأول

صناعة الآنية الفخارية وغيرها من الآنية
وصناعة لبنات البناء النيئة والمحروقة

لعل الآنية الفخارية التى من شأنها احتواء ونقل الأغذية ، كانت واحدة من أوائل الاحتياجات التى كان على الصناعة أن توليها جل اهتمامها . ولقد استلزم الأمر أن تكون المادة المستخدمة فى صنع هذه الآنية هى المفضلة على الدوام فى هذا الغرض ، حيث أنها بحكم طبيعتها تقترب من درجة الصلابة المطلوبة ، كما أنها تمتاز بطبيعتها المسمطة (أى عدم قابليتها لنفاذ السوائل منها) ؛ فهى ، والحالة هذه ، لن تكون بحاجة لأن تكتسب عن طريق الإحراق خواص ، لابد أنها بالفعل تتمتع بها . ولهذا السبب فهناك حيث أقامت الطبيعة محاجر الطلق (أو حجر الدهن) (وهى أحجار سهلة النحت) ظلت هذه المادة تستخدم من زمان لا تعيه الذاكرة ، فى نفس الاستخدامات والأغراض التى تقوم بها منذ ذلك الزمان ، وهى صناعة الآنية الصلصالية التى يشتد عليها الطلب .

يصنع عند الطرف المدارى لمصر ، فى تلك الصحروات المجاورة لشلال الفانتين آنية من فخار سهل التشكيل ؛ وتعرف هذه الآنية هناك باسم « برام » على اسم المكان الذى تقع فيه المحاجر التى تهيئ المادة التى تصنع منها . فهذه الآنية ليست سوى كتل من هذه المادة ، جوفت من الداخل بشكل دائرى ، ودورت من الخارج بطريقة تجعل لجدرانها سمكاً يبلغ من ٣ إلى ٤ سنتيمترات . وفضلا عن ذلك ، فإن هذه الآنية تصنع يدويا بشكل منفر بالغ الخشونة وهى تستخدم فى طهو الأطعمة باعتبارها نوعا من القدور أو المراجل . ويقوم العرب المقيمون فى ضواحى أسوان ببيع هذه الآنية فى هذه المدينة ، كما يحملونها إلى سوق إسنا . وهؤلاء العرب ينتمون إلى قبيلة العبابدة ، وهم يقيمون فى الرديسية ؛ وقلما نقابل واحداً منهم إلى الجنوب من هذه البلدة .

ومن أجل تقليل سمك جدران هذه الآنية من حجر الطلق ، فإنهم يقومون — عن طريق الإحراق — بصنع آنية أكثر دقة وأكثر خفة . ولهذا الغرض ، يحولون حجر برام إلى مسحوق ، يخلطونه بكمية مماثلة من الصلصال ، يحصلون عليه من سفح جبل أسوان ، ثم يضربون هذا المخلوط لمدة ثلاث أو أربع ساعات ؛ وتصنع من هذا المخلوط آنية تقوم النسوة بتدويرها باليد . وقلما يبلغ ما تصنعه إحداهن خمسة أو ستة آنية فى اليوم الواحد . وتجفف هذه الآنية فى الشمس لمدة ثمان وأربعين ساعة . وتنتهى هذه العملية بعد ذلك بإعطاء الآنية درجة الصلابة اللازمة وذلك بإحراقها على نحو خفيف ؛ ولا يتم ذلك مطلقاً فى فرن خاص ، وإنما يتم الأمر فى جرن أقيم لهذا الغرض فوق سطح الأرض ، توضع فيه ١٠ — ١٢ قطعة من هذه الآنية ، ثم تحاط هذه القطع بالوقود ، وتستمر النار مشتعلة لمدة حوالى ١٠ ساعات . ويتكون هذا الوقود من أقراص جافة من روث الثيران والجمال . ولا تتجاوز قيمة ما يلزم من الوقود لهذه العملية ست أو سبع بارات .

ولقد ظلت صناعة الفخار على تخوم مصر فى حالة طفولتها الأولى ، فهناك نراها ربما على نفس حالتها التى كانت عليها قبل أن يستخدم الناس المخارط لصناعة الفخار ، تلك التى يرجع اختراعها إلى زمان سحيق .

وتوجد فى كل مدن مصر العليا التى يمر بها المرء وهو يهبط النيل (يتجه شمالا) ، مصانع للفخار تتفاوت درجة خشونة منتجاتها . وطمى النيل هو أساس صناعة الفخار فى هذه البلاد . ولا تطلى الآنية التى تصنع من الطمى بأى نوع من الطلاء . وتسمح هذه الآنية بسبب انخفاض درجة احتراقها بأن ينسغ الماء من مسامها بدرجات متفاوتة ؛ كما تتراوح أحجامها ابتداء من آنية وحرار المطبخ حتى القدور والدنان المخصصة لصنع النيلة والسكر إلخ . وهذه الفخاريات الخشنة الصنع ، حمراء اللون مثل لبنات الطوب الأحمر . ولقد زرنا مصنع الفخاريات الهائل فى مدينة إدفو . وهناك تصنع هذه الآنية الكبيرة من الفخاريات دائرية الشكل ، والتى تقوم مقام الدست والدلو فى المصانع المختلفة ، كما أنها فى هذه البلاد تحل محل صناعة الآنية المعدنية الضخمة والبراميل ؛ لكنها لا تتحمل فعل النار ، وإن كانت تحتفظ بالسوائل

التى تملأ بها على نحو طيب ، وهو ما ينبغى أن ننسبه إلى سمك جدرانها أكثر منه إلى درجة نضجها .

ويستخرج من قاع ترعة تقع إلى الشمال الشرق من مدينة قنا ، عند الحد الفاصل بين الصحراء والأرض القابلة للزراعة ، فى بداية شعب ضيق يصل بين وادى النيل والبحر الأحمر ، نوع من الصلصال ، يضرب لونه إلى البياض ؛ وتصنع منه آنية تسمى « بردق » وهذه تدين لمسامها بخاصية تسوع المياه التى تحويها . وتتبخر هذه المياه الناسفة بمجرد أن ترطب جدران البردق ، ويؤدى هذا البخر إلى خفض درجة حرارته فتبرد المياه التى يحويها بدورها . وبخاصية التبريد هذه ، تجعل برادق قنا مطلوبة فى كل مكان فى مصر ؛ ويبدو أن صناعتها تتركز فى هذه المدينة منذ زمان ضارب فى القدم .

وهذا النوع من الصناعة ، على درجة كبيرة من الأهمية كافية كى تجعلنا نتوقف بعض الوقت لوصف العمليات التى تمر بها .

يخلط الصلصال الضارب إلى البياض ، والذى تحدثنا عنه للتو بحوالى ما يعادل ثلث حجمه من رماد الأفران التى يتم حرق هذه الآنية فيها . ويضرب المخلوط لعدة ساعات ، وتتشكل منه قوالب متفاوتة الحجم ، ثم تسوى بعد ذلك الواحد بعد الآخر ، لمدة تبلغ الساعة ، ثم تنزع عن هذه القوالب قطع أقل حجما ، تحمل إلى المخرطة حيث تأخذ الشكل والاتساع المطلوبين .

وحيث أن حرفة صناعة الفخار فى مصر قد ظلت على بساطتها الأولى ، وحيث لا يتناولها سوى تغييرات طفيفة من مكان لآخر ، فسوف نحيل إلى الوصف الذى قدمه المسيو بوديه Boudet فى اللوحة رقم ٢٢ من الدولة الحديثة ، المجلد الثانى عشر ، ص ٤٧٠ ، وهى تمثل مصنعاً للفخار من الداخل ، ونحيل كذلك إلى اللوحة الثانية من نفس المجلد حيث رسمت مخرطة الفخار وفرنه ؛ دون أن تكون بنا حاجة لأن نتوقف لتكرار ما تضمنته هذه الأوصاف ، وسنمضى إلى التفاصيل التى تنطبق بشكل خاص على إعداد البردق .

يستطيع العامل الذى يعد خليط الطمى والرماد أن يجهز فى اليوم الواحد ما يكفى لصنع مائتين من هذه الآنية ، فى مقابل أجر يصل إلى ٨ بارات . وتمر قوالب الصلصال بعد خروجها من يده إلى يدى مقولب (عامل القولبة) ، لصبها فوق المخرطة ، ويعد هذا العامل على نحو ما رئيس المصنع ، ويعمل العمال الآخرون لحسابه ، وهو يستطيع أن يقولب من ٥٠ إلى ٧٥ بردقا فى اليوم الواحد (انظر الأشكال المختلفة لهذه الآنية ، فى اللوحة FF من المجلد الثانى ، (الدولة الحديثة) .

وبمجرد أن يتشكل واحد من هذه الآنية ، فإنه ينتقل إلى أحد الأجران حيث يجف فى الشمس مدة يومين ؛ وليس ثمة خوف من أن تلتصق هذه الآنية بالأرض فتتصدع إذا ما كانت هذه الأرض قد أعدت بعناية .

وعندما تكتسب البرادق الموضوعة فى الجرن درجة الجفاف اللازمة ، يقوم المقولب نفسه بجمعها وإدخالها فى الفرن الذى ينبغى أن تنضج فيه ؛ ويقوم بهذه المهمة الأخيرة عامل آخر ، يتولى إحضار أعواد الذرة التى تستخدم وقوداً ، كما يتولى رعاية النار ، ويحصل مقابل ذلك على أجر يبلغ ٩٠ بارة فى مقابل كل ألف بردق ، وهو الرقم الذى يكون عادة كل « طرحة » فرن .

وبعد أن يقوم المقولب بإخراج الآنية من الفرن ، يتم بيعها فى مقابل ٥٠٠ بارة لكل ألف منها إلى تجار من قنا ، لديهم مخازن لتخزينها ، أو لأصحاب مراكب تعمل فى النيل ، ويأتى هؤلاء بغرض شراء حمولات كاملة ، أو أجزاء من حمولات لنقلها إلى سيوط والمنيا وبنى سويف والقاهرة ومصر السفلى . ويبلغ سعر كل ألف بردق تسليم مخازن قنا من ٥٥٠ إلى ٥٦٠ بارة .

ولا تضم الورشة عادة إلا فرناً واحداً ومخرطتين ، ولذلك فهى لا تحتاج لإدارتها إلا لمقولبين اثنين ومساعديهما .

وتشتعل النار فى الفرن طيلة عشرة أيام ، لكن صناعة البرادق لا تتم على مدار العام كله ، وإنما خلال تسعة أشهر فقط ، تخرج أثناءها من ورش قنا من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ألف بردق . وهناك تباع هذه الآنية بالقطاعى بواقع بارة للإناء الواحد ؛ لكنه فى مدن مصر الأخرى يساوى ٢ إلى ٣ بارات تبعاً لبعد المسافة وظروف النقل ، وهى الأمور التى تساعد على زيادة أثمانها .

ويوجد فى ملوى ومنفلوط ، وهما مدينتان فى مصر الوسطى ، مصانع للجرار الكبيرة ، ولآنية تشبه تلك التى تصنع فى إدفو ، والتى تستخدم فى تجهيز صبغة النيلة والسكر ، والتى يستخدمها الصباغون والدباغون .. الخ . وعلى الرغم من سمك هذه الآنية الكبير فإنها لا تصبح مع ذلك مسمطة إلا بعد استخدامها لبعض الوقت .

أما الجرار المسماة « بلاص » (الشكل ٢١ ، اللوحة EE المجلد الثانى ، الدولة الحديثة) والتى تخصص لاحتواء الزيت والسمن ، فلها شكل خاص ، وتحصل على درجة أكبر من الإنضاج (الإحراق) ، كما أنها تصنع بصفة خاصة فى إحدى القرى ، ومنها جاءها هذا الاسم .

ومن جهة أخرى، فإن الآنية التى يتركز فيها أكبر قدر من الاستهلاك كل عام ، وفى كافة أنحاء مصر ، هى القواديس التى تتعلق بالأحبال الدائرية والتى تدور مع دولاب بغرض رفع المياه المستخدمة فى الرى من الآبار والترع (السواقى ذات القواديس) (الأشكال أرقام ٣ ، ٩ ، ٢٠ ، اللوحة EE ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة) : وتوجد مصانع لهذه الآنية فى كل مكان ، وتشكل شقفاتها المتراكمة الجزء الأكبر من أكوام الأنقاض التى تلفت نظر المرء حول المدن والأماكن الآهلة بالسكان .

وفى مدينة القاهرة وحدها ، يتم تصنيع نوع من الخزف الخشن ، تصنع منه أوانى الحلوى وفناجين القهوة . ومن نافلة القول أن نذكر أن هذا الفرع من فروع الصناعة قد لا يستحق مجرد الذكر ، سواء بسبب رداءته ، أو بسبب الكمية القليلة المنتجة منه .

وتتميز بعض الفخاريات التى تصنع فى منوف أو ضواحيها بطلاء أزرق ؛ ويتكون هذا الطلاء من النطرون ونترات الصودا وأكسيد النحاس . ويستخرج هذا الأكسيد المسمى (طوبان) من المراجل التى يبيضونها بالقصدير ؛ فهو ليس سوى القشور الرقيقة التى تنفصل عن هذه المراجل ، حيث تغمس فى الماء بعد أن تكون قد جففت بشكل تام .

وتكاد تكون كل المبانى الخاصة فى مصر ، قد بنيت بالطوب المحروق أو بالطوب النيىء . وقلما يتعدى استخدام اللبنات من النوع الأول حدود المدن .

أما النوع الثانى ، فهو المادة الوحيدة التى تصنع منها مساكن الفلاحين ، ما لم تكن هذه قد تقلصت إلى مجرد أكواخ طينية يغطيها البوص وحطب الذرة ؛ فبعد أن يمر طمى النيل بنفس التجهيزات التى يمر بها الطين الصلصال فى أوربا لصنع اللبنات المستخدمة فى البناء ، فإنه يستعمل فى نفس الغرض فى مصر . ويبلغ طول اللبنة التى تصنع من الطمى ٢ ديسيمتر ، فى حين يبلغ عرضها ديسيمتراً واحداً ، بسمك يبلغ خمسة سنتيمترات . ويلزم تجفيف اللبنات التى تستخدم نيئة تحت أشعة الشمس طوال أربعة أو خمسة أيام قبل أن يبدأ استعمالها . وتباع فى هذه الحالة بواقع ١٥ إلى ٢٥ بارة مقابل كل ألف لبنة منها .

وتستوعب الأفران الخاصة بإحراق هذه اللبنات عادة أربعة إلى خمسة آلاف لبنة ، وتشتعل فيها النار لمدة أربع وعشرين ساعة ، وتستخدم فى ذلك أعواد الذرة المجففة وسيقان الفول وأوراق اللفت . أما فى مصر السفلى فيحل قش الأرز محل هذه الأصناف المختلفة من الوقود . ولا تبرد الأفران بشكل تام إلا بعد أن تخمد نيرانها بيومين . وتباع اللبنات المحترقة بواقع ٦٠ إلى ١٠٠ بارة لكل ألف منها . ومن جهة أخرى فلا يلزم لإحراق فرن من هذه اللبنات إلا حمولتان من سيقان الفول أو أوراق اللفت أو أى نبات آخر لا يستخدم علفاً للحيوانات .

وينظر إلى حطب الذرة باعتباره أفضل أنواع الوقود ، ولذلك يباع بمعدل ٢٠ إلى ٢٥ بارة للحمولة الواحدة منه ، فى حين لا تساوى الحمولة من أى وقود آخر سوى ١٤ أو ١٥ بارة .

وتقام أفران الطوب بطريقة يمكنها معها أن تضم بخلاف الأربعة آلاف لبنة التى تتكون منها « الطريحة » المعتادة ، من ١٢ إلى ١٥ جرة كبيرة ، يبلغ ثمنها من أربع إلى خمس بارات .

وتعتبر صناعة الجير لأعراض البناء ولتبييض غزل الكتان فرعاً من فروع الصناعة ، يمارس فى كافة أنحاء مصر العليا ، إذ تقدم الجبال الجيرية التى تحف بالوادى ، المادة المطلوبة لإنتاجه . وقد وصف المسيو جومار أفران الجير (الجيارات) ، ويمكن أن نراها فى الأشكال أرقام ٤ ، ٥ ، ٦ من اللوحة الثانية ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة . وقد أقيم عدد كبير من أفران أصغر من هذه فى ولاية أطفيح ، إذ لا يبلغ إنتاج الواحد منها أكثر من ١٥ إلى ١٨ قفة من الجير ، قلما يتجاوز إجمالى ثمنها ٢٠٠ إلى ٣٠٠ بارة . وهنا ، يستخدم كذلك حطب الذرة المجفف وقوداً لإنضاج الجير . ويمكننا أن نذكر من بين الأسباب التى أدت إلى دمار آثار مصر السفلى المبنية بالحجر الجيرى بسرعة أكبر من دمار سواها من الآثار المبنية بالحجر الرملى أو الجرانيت ، أن الأهالى قد لمسوا سهولة أكبر فى استغلال هذه الخرائب ، بدلا من التماس المواد التي يحتاجون إليها لتصنيع الجير من الجبال القريبة . وحيث لا يدخل ضمن موضوعنا أن نتناول أية تفصيلات حول مختلف عمليات البناء المتبعة فى مصر ، فإننا نمضى الآن إلى صناعة نسج الأقمشة .

الفصل الثانى
صناعة المنسوجات القطنية والكتانية
ومختلف أنواع الأقمشة

لا تتوفر المواد التى تنهض عليها حرفة النسيج فى مصر ، بنفس الدرجة من الوفرة ، فى كافة أنحاء البلاد هناك ، ويقوم الناس تبعاً لظروفهم المحلية تلك بتصنيع القطن أو الكتان أو الحرير ، ولهذا السبب نجد أن المنسوجات القطنية هى النوع الوحيد من الأقمشة التى ينتجها الناس فيما بين أسوان وجرجا ، فى حين تغلب صناعة الأقمشة الكتانية فيما بين جرجا والساحل الشمالى ، وبشكل خاص فى الفيوم والدلتا ، وقد أدى القرب من سوريا ، التى يرد منها الحرير المستخدم فى دمياط والمحلة الكبيرة والقاهرة ، إلى أن تتركز فى هذه المدن صناعة الأقمشة الحريرية ، وفضلا عن دلك فإن هذا الضرب من النشاط يكاد يقتصر على صنع بعض أقمشة الزينة التى تخصص لتأثيث البيوت ، وسوف نتحدث هنا بشكل مركز عن هذه الأنواع المختلفة من الأقمشة . أما بخصوص تلك الأقمشة الصوفية التى « يتلفع » بها كل الفلاحين ، فهى تصنع فى كافة القرى من الصوف الناتج عن جز الخراف التى تربى هناك .

وقد سبق لنا القول فى الباب السابق أن القطن المزروع حول إسنا هو أفضل أصناف القطن فى مصر ، كما سبق لنا أن شرحنا كيف يستخلص القطن الشعر من البذور التى يحيط بها .

وبعد أن ينظف القطن بهذه العملية الأولية (عملية ندف القطن) يدخل فى محلج نجد رسماً له فى اللوحة رقم ١٥ ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة . وبعد تجهيزه على هذا النحو تغزله النساء بمغازل ثم يقدم إلى النساجين ، وقد أعطى المسيو كوتل Coutelle وصفا للنول الذى يستخدمه النساجون ، ونجد رسما له فى اللوحة الثالثة ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة .

وتنتج الأنوال الموجودة فى إسنا وضواحيها كل الأقمشة اللازمة ، ليس فقط

لسكان هذه المدينة والقرى التى تجاورها ، وإنما أيضا للقبائل العربية التى تتردد على أسواقها .

وتمارس نفس الحرفة ، وعلى نحو أوسع ، فى مدينتى قوص وقنا ؛ إذ يوجد فى هاتين المدينتين ما يزيد على ١٥٠ نولا ، حيث يجلب القطن من سوريا ومن الدلتا ، ذلك أن القطن الذى تنتجه هذه المنطقة لا يكفى لعمل هذه الأنوال .

ويقوم تجار من القاهرة بجلب القطن من سوريا إلى مصر العليا ، وهم يبيعونه عادة بسعر الرطل زنة قنا ٧٥ بارة ، ويساوى هذا الرطل ثلاثة أرطال ونصف الرطل حسب وزن القاهرة . ويتكلف حلج هذا الرطل من القطن ست بارات ، ويسلم النساج رطلا ونصف الرطل إلى الغازلات اللاتى يعدن إليه بعد مضى شهر فى العادة رطلا واحداً من الغزل ؛ وهكذا تسبب عملية الغزل تالفا يبلغ أكثر من ٣٠٪ ، وينبغى الملاحظة أن النسوة لا يقمن بالغزل إلا حين يفرغن من عمل البيت . ويسلم الغزل إلى النساج بدرجات متفاوتة السمك ، ويعنى النساج بالمواءمة بين خيوط الغزل (بأن يضع السميك مع السميك والرفيع مع الرفيع) كى يصنع منسوجات موحدة الصنف ، وتبلغ طول قطعة القماش من القطن الأبيض ستة من الأذرع البلدية ، بعرض يبلغ ذراعا ونصف الذراع ، وتلزم مدة يومين لإنجازها .

ويباع الذراع من هذا المنسوج بالقطاعى بـ ٧ إلى ٨ بارات مما يصل بثمن القطعة كلها (التوب) إلى ٤٥ بارة فى المتوسط .

وبخلاف الأقمشة من القطن الأبيض التى تستخدم فى الأمور العادية والمنزلية ، تصنع فى قنا شيلان القطن المخططة بالأزرق والتى تغطى أكتاف الفلاحين وأكتاف الغالبية العظمى من سكان البلاد .

وتصنع هذه الشيلان فى شكل قطع ، تتكون كل قطعة منها عادة من شالين وتتكلف الواحدة من هذه القطع ٤٥ بارة كأجرة يد ؛ ويبلغ طولها ١٢ ذراعا بعرض $\frac{1}{2}$ ١ ذراع ، وتلزم أربعة أيام لصنعها ، ويبلغ وزنها فى العادة رطلا واحدا زنة قنا ، وقد سبق أن ذكرنا أنه يساوى $\frac{1}{2}$ ٣ من الأرطال زنة القاهرة .

ويبلغ ثمن الزوج من هذه الشيلان فى الجملة حوالى ٣ بوطاقات أى ٢٧٠ بارة ، ويبلغ ثمنه بالقطاعى ٣٠٠ بارة أو قرشين أسبانيين ، ويباع جزء من هده الشيلان داخل البلاد ، أما الجزء الآخر فيباع لقوافل سنار ودارفور ، ولمناطق أخرى فى أواسط أفريقيا .

ويقوم نفس نساجى الأقمشة القطنية ، السادة والمخططة ، بصناعة أقمشة خشنة من الصوف الغامق يشيع استعمالها فى الأرياف ، وقد رسم نول نسج الصوف فى اللوحة رقم ١٤ ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة .

ويقوم بغزل الصوف رجال ونساء ، فى نفس الوقت الذى يرعون فيه قطعانهم ، أو فى أوقات فراغهم بين أنشطتهم المعتادة ، ونرى فى اللوحة رقم ١٥ ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة ، رسما لغازل بجلس القرفصاء ، ويعمل هؤلاء الغازلون أيضاً وهم سائرون .

ويباع الرطل من غزل الصوف بـ ٨ إلى ١٠ بارات .

ويدخل فى صناعة قطعة من القماش طولها ١٦ ذراعا بلديا ، وعرضها ذراعاً واحداً ، من أربعة إلى خمسة أرطال من الصوف ، ويلزم للنساج أربعة أيام لنسجها يحصل عنها أجراً يبلغ ٢٥ - ٣٠ مدينى ، ويستخدم هذا النوع من الأقمشة على وجه الخصوص ، وكما سبق أن ذكرنا ، لصنع ملابس الفلاحين ؛ أما لون الشيلان التى يصنع منها الفلاحون عماماتهم فتكون أقل قتامة . ونزن كل قطعة قماش تتكون من شالين حوالى ٥ أرطال زنة القاهرة ، وتبلغ تكاليف صنعها (أجرة يد) ٣٥ مدينى ، وتباع بـ ١٨٠ مدينى .

وبخلاف هذه الأقمشة الصوفية القاتمة ، تصنع فى قنا شيلان العمائم من صوف يضرب إلى البياض ، ولا يمر بأية تجهيزات سوى ندفه بعد غسله ، ويباع الرطل من غزل هذا الصوف بـ ٥٠ بارة ، ويلزم رطل واحد ونصف الرطل لصنع شال طوله ستة أذرع ، وتبلغ أجرة نسج هذا الشال ٣٠ بارة ، أما سعره الاعتيادى فيبلغ فى معظم الأحيان حوالى ١٢٠ بارة .

ويصنع كذلك فى قنا ، كما يصنع فى جرجا وفرشوط ، أقمشة قطنية وشيلان من نسيج مضمومة خيوطه على نحو أكبر بكثير ، وتكون هذه فى العادة مخططة بالأحمر والأزرق وتتغطى بها النسوة من أقدامهن حتى رءوسهن ، فهى الرداء الوحيد الظاهر منهن ، كما أنها تشكل فى الوقت نفسه نوعا من الزينة لشيوخ القرى الميسورين ، فيغطون بها أكتافهم وصدورهم .

ويجلب القطن الذى يصنع فى هذه المدن الثلاث من سوريا ومن الدلتا ، إذ قلما يستخدم القطن الذى تنتجه هذه المدن نفسها إلا فى إسنا ، ومع ذلك ، فهناك فى إسنا ، تصنع منه كما سبق القول أجمل الأقمشة القطنية التى تنتجها مصر العليا .

وعند سيوط وضواحيها تصبح الأقمشة الكتانية أكثر استعمالا ، إذ يكاد يرتديها خلال الصيف كل سكان هذه المنطقة . ويصبغ هذا القماش منذ البداية باللون الأزرق باستخدام صبغة النيلة ؛ وهو اللون الغالب فى صباغة الكتان والقطن .

وقد أمكننى أن أجمع فى بنى سويف حيث أقمت هناك عدة مرات ، معلومات أوسع حول صناعة الأقمشة ، وقد تأكد لى هناك أن نسج القطن القادم من سوريا ومصر السفلى قد حل بشكل تام محل صناعة نسج الكتان . ويرد فى السنة الاعتيادية إلى هذه المدينة ، وكذلك إلى ولاية الفيوم من ٦٠٠ إلى ألف طن من القاهرة ، يزن الطن منها ١٢٠ رطلاً .

ويبلغ ثمن الرطل منها ، زنة ١٤ أوقية ، من ٢٨ إلى ٣٠ بارة ، وتدفع ٣ بارات فقط فى حلجه وندفه ، و١٠ بارات فى مقابل غزله .

ويدخل فى صناعة القطعة الواحدة من الأقمشة القطنية حوالى رطلين من الغزل ، ويبلغ طولها حوالى ١٩ ذراعا بلديا كما يبلغ عرضها ٢٢ قيراطاً أى $\frac{11}{12}$ من الذراع .

ويمكن للعامل أن ينتج خمساً من هذه القطع فى ثمانية أيام يحصل كأجرة يد عن كل واحدةمنها ١٥ بارة . ويبلغ عدد النساجين فى بنى سويف خمسمائة إلى ستمائة نساج ، أما عدد الحلاجين فيبلغ الثلاثين .

ولا ترسل الأقمشة القطنية من إنتاج بنى سويف مطلقاً لا إلى القاهرة ولا إلى مصر السفلى ، إذ تبقى هناك لاستهلاك سكانها ولاستهلاك القبائل العربية فى مصر الوسطى ؛ وفضلا عن ذلك فالناس هناك مضطرون لاستجلاب الأقمشة الصوفية والكتانية اللازمة لهم من حارج الولاية ، إذ تبين أن عدد الأنوال المخصصة لصنع هذا النوع من الأقمشة فى هذه المدينة قد تقلص إلى ثمانية أو عشرة أنوال على الأكثر .

وإذا كانت ولاية بنى سويف قد اقتصرت على استخدام القطن فى صناعة الأقمشة ، فإن ولاية الفيوم المتاخمة لها قد توسعت فى ذلك حيث استخدمت كل المواد التى يمكن نسجها ؛ ولذا نجد فى مدينة الفيوم ، عاصمة هذه الولاية ، عدداً كبيرا من العمال يقومون بصناعة المنسوجات القطنية والكتانية وكذلك الصوفية .

ويجلب القطن الذى يصنعونه هناك من القاهرة عن طريق النيل حتى قرية بوش أو مدينة بنى سويف ، ومن هناك ينقل براً إلى داخل الفيوم .

ويبلغ عدد الأنوال التى تقوم بسبج الأقمشة القطنية فى مدينة الفيوم وحدها ثمانين أو مائة نول . وتبلغ تكاليف ندف القطن وحلجه ، وهما العمليتان اللتان تجعلان القطن قابلا للغزل ، $\frac{1}{4}$ ٢ بارة لكل رطل . وبعد ذلك تشتريه الغازلات ، وهن فى العادة زوجات الفلاحين .

وتستخدم خيوط القطن ، تبعاً لدرجة سمكها وخواصها الأخرى ، فى صنع نوعين من الأقمشة يتميزان عن بعضهما البعض، كذلك تبعاً لعرض القطع (الأثواب) التى تصنع منهما . ويبلغ طول القطعة من كلا النوعين عشرين ذراعا بلدياً ، ولكن عرض القطعة من الصنف الثمين يبلغ ذراعا بلدياً كاملا ؛ وتبلغ أجرة صنعها ٣٥ بارة ، وتتطلب ثلاثة أيام عمل ، ويبلغ ثمنها فى تجارة القطاعى حوالى ١٦٠ بارة . ولا يبلغ عرض قطع القطن من الصنف الأدنى سوى $\frac{3}{4}$ ذراع ، ويتم صنع هذه فى مدة يومين ويبلغ أجر صنعها ١٥ بارة ، وتباع بمائة بارة فقط .

أما الكتان الذى يزرع فى مساحات واسعة بعض الشئ فى الفيوم ، فيقوم بتصنيعه عدد كبير من النساجين المنتشرين فى مختلف قرى الولاية ، ونجد منهم ما بين ١٠٠ إلى ١٣٠ فى مدينة الفيوم وحدها .

ويفصل الكتان عن مشاقته عن طريق تمريره ، كما يحدث عندنا فى أوربا ، بين أسنان مشط من الحديد . ويوضع الكتان الممشط فى حزم ، يتراوح ثمن الواحدة منها بين ٧ و ٨ بارات . وبعد تجهيز الكتان على هذا النحو ، تأتى العازلات ليحصلن عليه من سوق المدينة أو من أسواق القرى الكبيرة .

ويبيض الغزل الذى تقوم هؤلاء النسوة بإعداده وذلك بغليه فى غسول من النطرون والجير الحى ، ويغسل بعد ذلك فى ماء بارد ، ثم يجفف ويقدم للنساج .

وتنقسم الأقمشة التى تصنع من الكتان إلى ثلاث درجات ، وتباع القطعة منه بـ ٩٠ ، ١٢٠ ، ١٦٠ ، ٢٠٠ مدينى بحسب درجة نعومتها وعرضها ؛ ويتراوح هذا العرض بين $\frac{٣}{٤}$ ذراع و$\frac{١}{٢}$ ذراع ؛ أما الطول فيبلغ بالنسبة لها جميعاً حوالى ثلاثين ذراعا .

ولا تصدر من هذه الأقمشة الكتانية المصنوعة فى الفيوم إلا كمية بالغة الضآلة ؛ لكن هذه الولاية تصدر إلى القاهرة وإلى مدن مصر السفلى معظم الأقمشة المستخدمة فى التعليب والتغليف — وهذه تصنع من غزل مصنوع من مشاقة الكتان تتفاوت درجات سمك خيوطه . وأقمشة التعليب والتغليف هذه ، والمسماة بالخيش لا تصنع مطلقاً فى شكل قطع (أتواب) ، وإنما فى شكل قطع قصيرة يبلغ عرض الواحدة منها ذراعين ، ويبلغ طولها أربعة أذرع . وهى تباع بالزوج . وفى زمن السلم ، حين يكون البحر حراً ، تصدر الفيوم ما يصل إلى ٢٠ ألف زوج من قطع الخيش إلى سوريا وإلى مناطق مختلفة فى أوربا .

وللنساجين فى مدينة الفيوم ، كما لطوائف الحرف الأخرى ، شيخ خاص موكل إليه تحصيل الضريبة المفروضة على الطائفة ، وفض المنازعات التى قد تنشأ بين أعضائها . ووظائف هذا الشيخ وراثية فى نفس الأسرة ، إذا ما ظل الورثة يحترفون نفس الحرفة ، أما إذا تركوا هذه الحرفة ، أو إذا مات الشيخ دون ابن يخلفه ، فإن النساجين يقومون بانتخاب شيخ آخر .

وتبلغ الضريبة المقررة على طائفة النساجين حوالى ٢٠ ألف بارة وهى توزع على كل منهم بنسبة حجم العمل الذى يفترض أنه حصل على دخله منه .

وتفرض ضريبة مماثلة ، وبنفس القيمة ، على الجير المستخدم فى خيوط الكتان .

وقد سبق أن قلنا عند حديثنا عن تربية الخراف فى الفيوم ، بأن صوفها من نوع أرق من صوف الخراف التى تربى فى بقية أنحاء مصر ، وفى نفس الوقت فإننا نجد فى الفيوم صوفا أكثر بياضاً مما نجد من الصوف فى أى مكان آخر . وقد أدت هذه الظروف إلى نشأة عدد كبير إلى حد ما ، من الأنوال المستخدمة فى صنع الشيلان البيضاء التى يستعملها الناس فى هذه الولاية ، وفى الولايات الأخرى .

وبعد أن يغسل الصوف وبعد أن ينظف ويندف باليد ، يغزل فى القرى ، ويبيع الفلاح صوفه مغزولا على هذا النحو ؛ وخيط الصوف البالغ النعومة والشديد البياض هو فى نفس الوقت الأعلى قيمة ، ويباع الرطل منه ، زنة ١٢ أوقية ، فى مقابل ٦٠ بارة .

أما خيوط الصوف من الدرجة الثانية فتباع بـ ٤٥ بارة للرطل ، ويباع الرطل من الدرجة الثالثة مقابل ٣٠ بارة فقط .

وتكاد تتركز صناعة الشيلان البيضاء التى تنتجها ولاية الفيوم فى مدينة الفيوم ذاتها . وقد بلغ انتشار هذه الصناعة هناك درجة أن القوافل التى كانت تسافر كل أسبوع من هذه المدينة إلى القاهرة ، كانت – قبل مجئ الحملة الفرنسية – تنقل معها فى بعض الأحيان ما يبلغ ألفين (٢,٠٠٠) من هذه الشيلان .

وكانت هذه القوافل تتجه براً إلى غايتها ، عابرة الصحراء حتى الجيزة ، أو كانت تتوجه إلى قرية بوش حيث تشحن السلع التى تحملها على مراكب تعمل فى النيل .

وكانت الضريبة المقررة على صناعة شيلان الصوف ، تحصل بواقع ٢ مدينى فى الأسبوع عن كل نول .

وكانت صناعة الأقمشة الصوفية ، الرمادية أو غامقة اللون ، تنتشر فى كل قرى الولاية ؛ أما الأقمشة الأكثر خشونة ، والتى تصنع من وبر الماعز أو الجمل ، والتى يصنع منها العربان خيامهم ، فقد كانت نسوة هؤلاء العربان ، هن اللائى ينسجنها بأنفسهن داخل الخيام .

وتصنع الأقمشة الكتانية بشكل خاص في مناطق الدلتا ، حيث يزرع هذا المحصول بكميات أكبر بكثير مما يزرع بها في مناطق مصر الأخرى .

وتشتغل كل نساء الفلاحين في معظم ولاية منوف ، وبشكل عام في كل أنحاء الدلتا ، في غزل الكتان ، الذى يشترينه من الأسواق حيث يعرض للبيع بعد أن يمر بكل التجهيزات اللازمة . ويبيع هؤلاء النسوة غزلهن بواقع ٤ بارات لكل ربطة خيط (*) . وفى العادة ، تنفق الغازلة ٢٠ يوماً كى تتم صنع ٢٥ ربطة خيط .

ويتم تبييض غزل الكتان قبل تسليمه إلى النساج ؛ ويتم ذلك فى محلول ماء مغلى أذيب فيه على نحو متساو كل من النطرون والجير الحى . ويجلب النطرون من الطرانة ، ويباع بواقع ٤ بارات للرطل الواحد ، أما الجير فيأتى من طره بالقرب من القاهرة . وهذه الطريقة فى التبييض هى المتبعة فى كل أنحاء مصر السفلى .

ويدفع عادة ٢٥ بارة أجرة يد لصنع قطعة واحدة من الكتان ، طولها ٢٨ ذراعاً بلدياً .

وتصنع فى منوف أقمشة كتانية من أصناف مختلفة :

١ — أقمشة بيضاء ، نسيجها ضيقة خيوط لحمته ، وإن كانت الخيوط التى تستخدم فى صنع هذه الأقمشة تتفاوت فى درجة سمكها ؛ ويبلغ ثمن أغلى قطع هذا الصنف ١٨٠ بارة للقطعة الواحدة ؛ وهناك قطع منه يبلغ ثمنها ١٦٠ ، ١٤٠ ، ٩٠ بارة .

٢ — أقمشة ناصعة البياض ، يحيط بها عند حافتيها شريط خيوط نسيجه أكثر ضيقاً (البرسل) ؛ وتستخدم هذه الأقمشة فى صنع قمصان نساء الريف ، وتباع القطعة من هذا الصنف ، والتى يبلغ طولها ٢٦ ذراعا ، فى مقابل ٩٠ — ١١٠ بارة ويسمى هذا الصنف : « مقطع بحواشى » .

(*) يبلغ طول الربطة عادة حوالى ١,٠٠٠ متر . (المترجم) .

٣ – وأخيراً هناك نوع من الأقمشة بالغ الخشونة ، يستخدم فى صنع أغطية الفراش وفى صنع الخيام . وتباع القطع البيضاء من هذا الصنف ، والتى يبلغ طولها عشرة أذرع مقابل ٧٥ بارة ؛ أما القطع الزرقاء فقد صبغت خيوط نسيجها ، ويصنع منها نوعان من الأقمشة : تساوى القطعة من النوع الأول ١١٠ بارة ؛ وتساوى القطعة من النوع الثانى ٨٠ بارة ، ويبلغ طول أى منهما ٢٣ ذراعا .

ويزيد عدد صناع الأقمشة الكتانية فى شبين (الكوم) عنه فى منوف ، حيث يبلغ عدد الأنوال فى شبين من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ نول . وتصنع فى كل من هاتين المدينتين ، وبكميات ضئيلة أقمشة صوفية تسمى : صوف .

أما مدينة طنطا ، وهى التى يزيد عدد النساجين بها عنه فى شبين ، بدرجة كبيرة ، فلا تصنع سوى الأقمشة الكتانية .

وتنتج مصانع طنطا أقمشة سادة من نسيج ضيقة خيوط لحمته ، يبلغ طول القطعة منها ثلاثين ذراعا ؛ ويتراوح ثمنها من ١٠٥ إلى ١٥٠ مدينى .

وبخلاف ذلك ، توجد بعض الأنوال التى تقوم بصنع قماش ذى مربعات زرقاء ، يستخدم فى بعض المناطق ملابس للرجال والنساء . ويبلغ طول القطعة من هذا المنسوج ١٦ ذراعا ، وتباع بواقع ٤٥ إلى ٦٠ بارة ؛ وكذلك يصنع نوع من النسيج الأزرق ، بالغ الضيق (أى عرضه ضيق) ، يسمى كركة (أو كركا) ، ويبلغ طول القطعة من هذا النوع (أى التوب) ١٨ ذراعاً ، وهو لا يستعمل داخل البلاد ، وإنما يصدر إلى سوريا عن طريق دمياط ؛ وفى النهاية فإنه يصنع فى طنطا قماش للتغليف ، تباع القطعة منه بـ ٤٥ بارة ، ويبلغ طولها ٢٠ ذراعاً .

وتنتشر صناعة هذه الأصناف المختلفة من المنسوجات فى كل القرى المجاورة لطنطا ، وبشكل جزئى فى محلة مرحوم ، وبرما ، وإبيار ، وبسيون الخ . ويأتى النساجون فى هذه البلاد ليبيعوا منتجاتهم فى سوق طنطا ، الذى يقام يوم الأحد من كل أسبوع .

وبالإضافة إلى مختلف أصناف الأقمشة التى انتهينا من الحديث عنها ، وإلى الأقمشة الصوفية التى يشار إليها عادة باسم « صوف » تقوم بعض قرى الدلتا ، وعلى وجه الخصوص قرية قلين ، بإنتاج نوع من الشيلان تخصص لاستهلاك البلاد . وهذه تتكون من أقمشة « شد » تصنع من خليط من الخيوط من الصوف والتيل .

أما الأقمشة الفاتحة ، « بحواشى » والتى تحمل على حافتيها أربعة أو خمسة خطوط منسوجة على نحو أكثر ضيقاً (الترسل) ، والتى تستخدم فى صنع الملابس البيضاء والزرقاء ، فهى الأقمشة الكتانية الوحيدة التى تصنع بكميات كبيرة فى سمنود ، حيث يدور ما يقرب من ٣٠٠ نول . وإن كان عدد الأنوال التى تعمل فى ضواحى هذه المدينة أكبر من ذلك بكثير . ويبلغ طول « الثوب » من هذا القماش ٢٦ ذراعاً بلدياً ، كما يبلغ عرضه ٢٠ قيراطاً من نفس الذراع . وتقدر الأطوال هنا تبعاً للمقاييس المستخدمة فى القاهرة ، وليس تبعاً لتلك المقاييس المستخدمة فى منوف وطنطا وإبيار الخ ، والتى يزيد الذراع فيها بمقدار ٤ قراريط أى أنها تبلغ ما نسبته ٢٨ إلى ٢٤ من الذراع البلدى المستخدم فى القاهرة .

وتتطلب صناعة القطعة (الثوب) الواحدة من هذا المنسوج أربعة أيام عمل ، يحصل النساج مقابلها على أجر يبلغ ٢٤ بارة . ويتراوح ثمن القطعة الواحدة من هذا الصنف ما بين ١٠٥ إلى ١٦٠ مديني ، تبعاً لدرجة نعومتها وسمكها .

وتقوم فى سمنود كل أربعاء سوق تغص بالأقمشة الكتانية من كل نوع ، صنعت فى الدلتا وبشكل خاص فى المحلة الكبيرة ، ويشترى تجار المدن جزءاً من هذه الأقمشة ، يصدرونه إلى سوريا عن طريق دمياط ، كما يرسلون جزءاً منه كذلك إلى القسطنطينية عن طريق ثغرى رشيد والاسكندرية .

وتقدم الخراف التى تربى فى ولايتى الغربية والشرقية الصوف الذى تصنع منه فى الدلتا تلك الأقمشة التى يطلق عليها اسم « صوف » ، والتى تستخدم كما سبق القول فى صنع « الروب » أو الثوب الخارجى للفلاحين (البشت) ، وقد يحتفظ هذا الثوب باللون الأصلى الداكن الذى للصوف ، وقد يصبغ باللون الأزرق الغامق . ويبلغ عرض هذه الأقمشة نفس العرض الذى للقطع الكتانية ، وإن كان طولها لا يزيد عن ١٨ ذراعا . ويلزم النساج ثمانية عشر يوماً لصنع واحدة من هذه القطع ، يحصل عنها من ٩٠ إلى ١٠٠ بارة أجرة يد .

وتباع هذه الأقمشة تبعاً لنوعها بسعر يتراوح من ٣ إلى ٥ بوطاقات (ريالات) . وتدير صناعة هذه الأقمشة الصوفية حوالى الخمسين نولا فى سمنود ، وهناك عدد أكبر من الأنوال فى القرى التى تحيط بها تستخدم فى صنع أقمشة من الصوف الأسود ، بنفس الأطوال ، يشتد الطلب عليها من جانب الأثرياء ، وتباع بثمن يصل إلى ١,٠٠٠ مديني للقطعة الواحدة ، كما أنها تمثل نوعاً من الصادرات الهامة على نحو ما إلى سوريا .

وتكاد تستحوذ مدينة المحلة الكبيرة فى كل الدلتا على صناعة الأقمشة الحريرية ، إذ يعمل بهذه الحرفة بشكل دائم ما يصل إلى ٩٠٠ عامل .

وتستخدم هذه الأقمشة ، من إنتاج المحلة الكبيرة ، فى صنع ستائر النوافذ وأغطية الديوان والمخدات ومفارش المائدة المطرزة بالذهب والفضة ، والأحزمة ، واليشمك (البرقع) الأسود للسيدات ، ومناديل من نفس اللون يستخدمنها فى تغطية رءوسهن ، وفى صنع نوع من ملابس النساء يسمى شلست .

وتستهلك هذه السلع المختلفة التى تصنع فى المحلة الكبيرة فى كل مدن مصر ، أو تصدر إلى كافة أملاك الدولة العثمانية .

وقد استقرت فى هذه المدينة كذلك مصانع لصباغة الحرير ؛ وتتم الصباغة بالألوان : الأصفر ، الأسود ، الأخضر ، البرتقالى ، والأزرق السماوى ، والأزرق الغامق ؛ ولا تتم الصباغة باللون الوردى إلا فى القاهرة ، كما يجلب من هذه المدينة أيضاً الخيوط الذهبية والفضية التى تدخل فى صناعة المنسوجات المطرزة فى المحلة الكبيرة .

وتتم التجارة بين المحلة الكبيرة وسوريا عن طريق تجار من دمياط ، يقومون باستجلاب الحرير من سوريا ، ثم يعيدون إليها جزءا من هذا الحرير بعد أن يتم تصنيعه فى مصر .

وكان يعمل فى نسج الأقمشة القطنية فى المحلة الكبيرة ما يصل إلى ألف عامل ، لكن هذا العدد قد تقلص إلى ٥٠٠ فقط أثناء إقامتنا فى هذه البلاد . ويأتى

القطن الذى تصنعه المحلة من ولاية المنصورة ، ومن سوريا التى كان يجلب منها قطن من أرق الأصناف ويبلغ طول القطعة من الأقمشة القطنية (التوب) التى تنتجها هذه المصانع ١٦ ذراعا ، ولا تختلف عن بعضها البعض إلا فى العرض أو الدرجة ، ولهذا يتراوح ثمنها ما بين ٤٥ إلى ١٥٠ مدينى .

وقد كان يصنع فى المحلة الكبيرة كذلك كمية ضئيلة من الأقمشة الكتانية وإن كانت هذه أدنى درجة بكثير مما تنتجه القرى التى تجاورها .

وتحور مدينة رشيد مصانع عديدة لصنع الأقمشة الكتانية والقطنية ، وكذلك لصنع أقمشة من نوع خاص يختلط فيها الكتان مع القطن ، كما تصنع رشيد كذلك نوعا من أقمشة كتانية بها خطوط من الحرير الأبيض ، تستخدم بصفة خاصة فى صنع قمصان النساء .

ويستجلب صناع رشيد الكتان من ضواحى هذه المدينة ، ومن ولايتى الغربية والمنوفية ، كما يستجلبون القطن من ولايتى دمنهور والمنصورة ، كما أنهم يستوردون من سوريا الحرير الذى يصنعونه .

وتمارس فى دمياط نفس حرفة تصنيع الكتان والقطن والحرير ؛ وتستجلب هذه الخامات من نفس المناطق (التى سبق ذكرها) ، وإن كانت هذه المدينة ، بصفة خاصة ، تقوم بصنع أقمشة كتانية ، لها حواف من الحرير الملون كنوع من الزينة .

ولهذا السبب توجد هناك مصانع للصباغة يتم تشغيلها بشكل دائم . وأكثر الألوان التى تخصص لهذا الغرض هى الأصفر والأخضر والأزرق والأحمر والبرتقالى والقرمزى والبنفسجى .

ويصدر هذا الصنف من الأقمشة الكتانية ذات الحواف الحريرية الملونة إلى سوريا ، وتصنع منه الشيلان والعمائم . وهناك نحو ثمانى إلى عشر درجات مختلفة من هذا القماش تبعاً لنعومة المنسوج ولأطوال القطع (الأتواب) ، وعرض حوافها الحريرية .

ويبلغ طول القطعة من هذا المنسوح عادة ثلاثة أذرع بلدية ويبلغ عرضها ثلاثة أرباع الذراع ، ويباع المنسوج من الدرجة الأولى بـ ١٨٠ مدينى ، فى حين يبلغ ثمن القطعة من الدرجة الأخيرة بـ ٣٥ إلى ٤٥ مدينى ، ويتراوح ثمن القطعة من الدرجات المختلفة فيما بين هذين الحدين .

ولا يلزم النساج سوى يوم واحد لصنع قطعة من هذا النسيج ، تلك التى لا تعد فى الواقع سوى فوطة أو منشفة ، يضاف إليها نوع من الحلية أو البدخ وذلك بطلائها بالورنيش ودعكها بحجر مشذب .

ويوجد فى دمياط وفى قرية المنية المجاورة حوالى ٣٠ نول تعمل جميعها فى صنع التيلان الكتانية ، وهناك أيضا ما يقرب من خمسين نولا لصناعة النوع من الأقمشة الناصعة المسمى « بحواشى » ، وتدفع أجرة يد قدرها ١٨ – ٢٠ مدينى مقابل شغل كل قطعة منه ، طولها ١٨ ذراعاً ، وهى تتطلب من يومين إلى ثلاثة أيام عمل .

وبخلاف هذه الأصناف من المنسوجات ، يصنع فى دمياط كذلك ، ويكاد الأمر هنا يكون قاصراً على هذه المدينة ، نوع من الأقمشة الحريرية المسماة : « خيش » ، ومنه تتخذ خمارات النساء (البرقع) التى تكون سوداء أو قرمزية اللون .

ويبلغ عرض قطعة الخيش ، وهى التى يتطلب صنعها أربعة أو خمسة أيام من العمل ، يدفع مقابلها من ٥٠ إلى ٥٥ مدينى أجرة يد ، نصف الذراع ، كما يبلغ طولها ٤٣ ذراعاً ، تنكمش إلى ٤٠ ذراعاً فقط بعد الصباغة .

وتنتشر هذه الخمارات المصنوعة فى دمياط فى كل أنحاء مصر ، وخاصة فى ولايتى الغربية والمنصورة .

وفى نفس الوقت ، تمتلك عاصمة الولاية الأخيرة ، الواقعة على الفرع الشرقى للنيل ، إلى الجنوب من دمياط ، بعض مصانع لإنتاج الأقمشة الكتانية ، وخاصة أقمشة القلوع المخططة بالأزرق والأبيض ، والتى تستخدمها المراكب التى تعمل فى النيل .

وهناك نوعان من تلك الأقمشة المستخدمة فى صناعة القلوع : الأول ويصنع من الكتان الصرف ويباع بـ ٩٠ مدينى ، والثانى ويصنع من خليط من الكتان والقطن ، ولا يتجاوز طوله ١٢ دراعاً ، ولا يتجاوز ثمنه ٦٠ مدينى .

ولا يقتصر صنع هذه القلوع على المنصورة وحدها ، إد تصنع القلوع كذلك فى المنزلة ودمياط والبرلس ورشيد والإسكندرية ، وكذلك فى قرية إمبابة بالقرب من القاهرة ؛ وأفضلها جميعاً هو ما يصنع فى رشيد .

ولا تتطلب القطعة من قماش القلوع ، التى تصنع كلية من الكتان ، سوى يومى عمل ، أما تلك التى تصنع من خليط من القطن والكتان فلا تتطلب سوى يوم عمل واحد . ويدفع أجر صنع هذه وتلك بواقع مديبى واحد فى مقابل كل ذراع . وهذه القطع من قماش القلوع ليست سوى أشرعة عرضها بالع الضيق .

ولا تدير صناعة الأقمشة الكتانية السادة فى المصورة سوى ٢٠ نولا ، فى حين يدير القماش المسمى « بحواشى » مائة نول ، بل يرتفع الرقم إلى ثلاثمائة نول فى أوقات السلم .

أما الكتان الذى يغذى حاجة هذه الأنوال ، فيزرع فى ولاية المنصورة ، ويصدر جزء من الأقمشة التى تصنع هناك إلى سوريا وجزر الأرخبيل . إلخ .

وتعد حرفة النسيج واحدة من أقدم الحرف التى مارستها مصر ، وكل شىء يدعو إلى الاعتقاد بأن الطرق المستخدمة فى هذه الصناعة قد ظلت على وجه التقريب على نفس ما كانت عليه منذ العصور الضاربة فى القدم ، فلقد ظلت على نفس الدرجة من البساطة ، ولا تتطلب ممارستها على الاطلاق أى تدريب (أو تلمذة) ، ومدة التدريب عليها غير محددة بزمن ، فحين يريد أى عامل أن يمارس لحسابه حرفة النسيح ، فإنه يصنع قطعة من القماش ، ويتفنن فى إتقانها ، ليضعها – كأفضل ما يستطيع إنجازه – تحت فحص « أسطوات » الطائفة ، الذين يجتمعون لهذا الغرض ، وحين يحكمون بأن هذا العامل ماهر للحد الكافى فإنهم يقبلونه بينهم بعد تناول وجبة خاصة يعدها لهم ، ويصبح بذلك مقبولاً فى اقتسام ميزات وعمل وواجبات الطائفة .

ويدبر شئون طائفة النساجين ، ويسهر على رعايتهم فى كل المدن واحد من كبار « أسطواتها » ، ويحتفظ هذا الشيخ المنتخب بوظائفه عادة طيلة حياته ، إذا لم يبد منه خلال ممارسته لمهامه ما يسبب الكثير من الضجر أو السخط . وتشتمل وظائفه بشكل خاص على توزيع الضريبة أو الميرى المفروض على الطائفة ، على مختلف أفرادها ، وعلى تحصيل هده الضريبة ، وعلى التوفيق والحكم فى الخلافات التى يمكن أن تنشأ بين أصحاب العمل وبين العمال .

الفصل الثالث

صناعة الحصر

يمكن على نحو ما ، إدخال صناعة الحصر ضمن حرفة النسيج ، (انظر الشكل رقم ١ من اللوحة العشرين ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، وكذا الوصف الذى قدمه لها المسيو جومار) . وتمثل الحصر فى مصر نوعين من الاحتياجات الأولية باعتبارها أثاثات ضرورية ؛ وهى فى القرى ، لا تقوم فقط مقام الأسرة الأوربية ، وإنما تقوم أيضاً مقام الديوان والمخدات التى يضطجع عليها سكان المدن فى كل بلاد الشرق ، كما تقوم مقام المفارش التى تغطى موائدهم . وفى واقع الأمر ، فإن المصريين من سكان سيوط وإسنا وقنا يقضون ليالى الصيف مفترشين حصراً مبسوطة أمام أبوابهم أو فى أواسط دورهم ؛ وتجد على هذه الحصر المبسوطة على الأرض ، أطباقا مكدسة باللحم والأرز والخضر التى يتغذون عليها ؛ وحين يتجمع هؤلاء للمشاركة فى وليمة عامة ، فإن المدعوين يجلسون القرفصاء فوق الحصر كذلك ؛ وهذه عادات مشتركة بين الفلاحين فى مصر العليا وبين العرب المتناثرين فى الصحراوين اللتين تحفان بهذه البلاد : ولهذا السبب لا توجد قرية واحدة ليس بها نساجون عديدون لصناعة الحصر ، وأكثر هذه الحصر خشونة وأكثرها شيوعا فى الصعيد ، هى تلك التى تصنع من الحلفا Poa multiflora وهو يتكاثر فى الأراضى البور ؛ كما تصنع الحصر فى كل مكان من سعف النخيل ، تلك الشجرة التى يعود كل جزء من أجزائها على الناس بالنفع ؛ ونجد هذا النوع من الحصير فى كل المناطق الآهلة إبتداء من أسوان حتى الاسكندرية ، ويحصل عليها الناس بثمن يجعلها فى متناول البائس الفقير ؛ ويصنع من هذه الحصر كذلك نوع من الأكواخ يحتمى الناس فى داخلها من الشمس ؛ وتقيم البغايا عادة وهن اللاتى يعشن حياة عامة فى بعض المناطق على شاطىء النيل ، تحت خيام تسد فتحتها حصر من سعف النخيل .

أما أغلى أنواع الحصر ، والتى يشيع استعمالها فى المدن الكبرى ، فيصنع من سمار تنتجه فى الفيوم حواف بحيرة قارون ؛ كما ينمو فى منطقة الطرانة على شواطىء بحيرات النطرون .

وهناك قرية كبيرة فى الفيوم تسمى طامية ، هى مقر هذا الضرب من ضروب الصناعة ، وهى تقع بالقرب من بحيرة قارون عند بداية شعب يصل ما بين هذه البحيرة وبين أهرام الجيزة ، عبر الصحراء التى تحد وادى النيل من جهة الغرب . ويعمل فى هذه الحرفة ، فى بعض القرى المجاورة لطامية وخصوصا فى قريتى المعصرة وسنورس ، عدد من العمال ، ويوجد فى طامية ما يقرب من مائة صانع ، يستخدم كل منهم اثنين إلى خمسة من العمال ، يتراوح الأجر اليومى لكل منهم من ٥ إلى ١٠ بارات ، أى ما يقل قليلا عن الأجر اليومى الذى يتقاضاه عامل الزراعة ، إذ يبلغ هذا الأجر عادة ، فى هذه المنطقة ، ١٠ بارات .

ويستجلب السمار الذى تستخدمه أنوال طامية لصنع الحصر من قرية الروضة الواقعة على شواطىء البحيرة . ويكاد يعمل كل سكان طامية فى صنع الحصر ويعيشون على إنتاجه .

ويمكننا اعتبار الإنتاج الزراعى فى هذه القرية فى حكم العدم ؛ فالأرض هناك ، ابتداء من الشعب الذى يؤدى إلى الأهرام ، مغطاة بصلصال مائل إلى اللون الأبيض ، وهو على وجه اليقين من نفس نوع الصلصال الذى تصنع منه البرادق ، والذى يوجد فى قنا ، عند بداية الشعب المؤدى إلى مدينة القصير ، على البحر الأحمر .

وتمتاز مدينة منوف ، بين كل مدن الدلتا ، بجمال الحصر التى تصنع فيها ؛ ويشتد الطلب على هذه الحصر فى كل أنحاء مصر . ولا يمارس الأهالى هذا الضرب من ضروب الصناعة فى هذه المدينة وحدها ، إذ تنتشر هذه الصناعة كذلك فى عدد من القرى المحيطة بها .

ويأتى السمار المستخدم فى صناعة هذه الحصر ، كما سبق لنا القول ، من منطقة الطرانة ومن الصحراء المجاورة لبحيرات النطرون ، ويكاد يقتصر جمع هذا السمار على قبيلة عرب الجوابى الذين يستحوذون على هذه الصحراوات ، وهؤلاء يقومون بنقل السمار إلى قرية تسمى قصر داود ، تقع على الشاطىء الأيمن من الفرع الغربى للنيل ؛ وهناك يحفظ السمار فى مخازن يأتى إليها أصحاب المصانع فى منوف للحصول على حاجتهم منه .

ولا يعمل هؤلاء الصناع ، والعمال الذين يعملون لديهم ، فى إنتاج الحصر ، إلا خلال بضعة أشهر من العام ، أما فى بقية العام فيقومون بزراعة مساحة ضئيلة من الأرض .

ويستخدم صناع منوف العمال من كافة الأعمار . ويدفع للأطفال أجراً يومياً يصل من ٥ إلى ٦ مدينى ، أما يومية الرجال البالغين فتصل إلى ١٠ – ١٢ مدينى ، ويبلغ أجر العمال المهرة ٨٠ مدينى فى الأسبوع .

ويمكن لأربعة عمال يشتغلون معاً لمدة يوم واحد أن يصنعوا حصيرة مربعة الشكل ، طول ضلعها أربعة أمتار .

ويرسل الجزء الأكبر من حصر ولاية منوف إلى القاهرة وبولاق ، إما لاستهلاك هاتين المدينتين ، وإما لتجزيها لحين تصديرها .

ويقوم بشراء هذه الحصر إما تجار أتراك يبيعوها بعد ذلك فى القسطنطينية وأزمير وجزر الأرخبيل ، وإما تجار سوريون ينقلونها إلى عكا وأورشليم (القدس) ودمشق. إلخ .

وفى أوقات السلم يصل عدد عمال نسج الحصر فى ولاية منوف إلى ستمائة أو سبعمائة عامل ، وكان ثمن السمار الذى يستخدمونه ، يقدر قبل مجىء الحملة الفرنسية بواقع ٤ بوطاقات (ريالات) مقابل كل حمولة جمل . وقد ارتفع هذا السعر إلى ست أو سبع بوطاقات أثناء إقامتنا فى مصر ، على الرغم من أنه لم تكن هناك أية تجارة خارجية (أى على الرغم من توقفها) ، وقد نتج هذا الارتفاع فى الأسعار من أن العربان الذين كانوا يقومون بجمع السمار من صحراء الطرانة ، كانوا يتعرضون للمطاردة والملاحقة على يد الفرنسيين .

الفصل الرابع

الزيوت المختلفة وطريقة صنعها

تستخدم مختلف أنواع الزيوت التى تصنع فى مصر فى تتبيل بعض المأكولات ، أو لإنارة الشوارع أو للإضاءة داخل البيوت .

ويستخدم فى صنع الزيوت بذور الخس والقرطم واللفت والكتان والسمسم . ويتفاوت استهلاك الزيوت المصنوعة زيادة ونقصاً فى مناطق مصر المختلفة ، تبعاً للتفاوت الذى يوجد بين قابلية أراضى هذه المناطق لإنتاج النباتات الزيتية التى انتهينا من ذكرها .

ولهذا السبب ، فإن الناس فى المنطقة المدارية لمصر لا يستخدمون فى حياتهم سوى زيوت الخس والقرطم ؛ أما فى مصر الوسطى فإنهم يستهلكون بشكل خاص زيوت اللفت والكتان والسمسم ، وفى مصر السفلى يستهلك الناس زيوت الكتان والسمسم .

وزيت الخس ، هو زيت الطعام الوحيد الذى يستهلكه الناس فى إسنا وولاية طيبة ؛ وقد وصفنا طريقة زراعة هذا النبات ، وبينا إنتاجه من الحبوب الذى يصل عادة إلى نسبة ٣٦ : ١ (نسبة المحصول إلى البذور) . وهكذا ، فإن أردباً من البذور ، يبلغ متوسط ثمنه ١٥٠ مدينى ، يعود بإنتاج مكيالين من الزيت ، من النوع المسمى : بلاص ، يزن كل بلاص منهما حوالى ٣٥ رطلا من زنة القاهرة ؛ ويبلغ ثمن الرطل من هذا الزيت ٧ – ٨ بارات .

ولا يزرع القرطم فى هذه المنطقة إلا من أجل ما ينتجه من بذور ؛ فهناك يهمل إنتاج هذا المحصول من الزهور ، التى تعود بنفع كبير للغاية ، كما رأينا ، فى ولاية سيوط .

وعندما تكون البذور هى الإنتاج الوحيد الذى يراد الحصول عليه من هذا

المحصول ، فإنه يبذر على الدوام كما هو الحال فى الخس ، ولكن بنسبة أكبر ، مع العدس والحمص والذرة . وهكذا ، ففى حين تبلغ كمية بذور الخس المبذورة فى الفدان الواحد $\frac{٢}{٤٨}$ من الأردب ، فإن بذور القرطم (فى نفس المساحة من الأرض) تبلغ $\frac{٣}{٤٨}$ ، وتنتج عادة أردبين (من البذور) ، أى ما نسبته ٣٢ : ١ ؛ ويبلغ ثمن الأردب حوالى ١٥٠ بارة ، ويزيد السعر مع هبوط النيل (الاتجاه شمالا) حيث يزيد عدد سكان هذه المناطق بالنسبة لمساحة الأرض المزروعة ؛ وبذلك يصبح استهلاك كافة المواد الغذائية بالمثل أكبر ؛ ففى قنا على سبيل المثال ، تباع بذور الخس والقرطم بواقع ٢٠٠ بارة أى بزيادة قدرها ٢٥ ٪ عن نفس ثمنها فى إسنا . وثمة سبب آخر لهذه الزيادة ، وهو أن جزءاً من الزيت الذى يستخرج من هذه البذور (هناك) ، يصدر إلى الجزيرة العربية عن طريق القصير ؛ وتستخدم مدينة القصير مستودعاً لهذه التجارة .

وينتج الأردب من بذور القرطم بلاصاً ونصف البلاص من الزيت ، أى ما زنته ٥٢ رطلا ، مما يصل بإجمالى إنتاج الأردب إلى ٣١٢ بارة ، بواقع ٦ بارات للرطل الواحد ، ولا يستخدم هذا الزيت إلا فى الإنارة .

ويبلغ ثمن بذور السلجم أو اللفت ، وهو الذى يصبح مع الاتجاه نحو الشمال ابتداء من قنا ، موضوعاً لزراعة واسعة ، حوالى ١٨٠ بارة للأردب . وينتج هذا القدر من البذور بلاصين من الزيت ، يزن الواحد منهما ٣٥ رطلا ، بثمن قدره ٥ بارات للرطل الواحد ، مما يصل بإجمالى عائد أردب البذور ٣٥٠ بارة نقداً ؛ ونفس الحال فيما يختص بالبذور التى تستخلص من بذرة الكتان ، إذ يباع الأردب من هذه البذور بواقع ١٨٠ بارة حين تخصص البذور لإنتاج الزيت ؛ وينتج الأردب منها بلاصاً وثلاثة أرباع البلاص فى العادة ، أى ٦٠ رطلا من الزيت ، ثمن الرطل الواحد منها ٧ بارات ، مما يصل بعائد الأردب من بذور الكتان ، بعد أن يتحول إلى زيت ، إلى ٤٠٠ — ٤٢٠ مدينى .

وتبعاً لأحوال المناطق المختلفة ، تستعمل مختلف أصناف الزيوت التى انتهينا من الحديث عنها استعمالا مزدوجاً : للطعام وللوقود . وهى تصنع كلها بنفس الطريقة

(انظر الصناعات والحرف ، اللوحة ١ ؛ الأشكال ١ ، ٢ ، ٣ ؛ الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى ؛ وكذا شرح هده اللوحة كما قدمه المسيو ديفلييه Deviliers – وانظر كذلك : معصرة الزيت من الداخل ، وهى مرسومة باللوحة ١٢ ؛ الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) .

وتتحول بذور النباتات الزيتية فى البداية إلى نوع من البرغل (جريش) تحت رحوين تشبهان الطواحين العادية ؛ وينقل هدا البرغل إلى رحوين من الجرانيت على شكل مخروط مبتور ، تدوران حول جذع شجرة عمودى ؛ وتبسط العجينة التى يحصل عليها من العملية الثانية بين حصر من سعف النخيل ، يبلغ قطرها حوالى ٥٠ سم ، تسمى أبراش (برش) ؛ وتوضع هذه الأبراش فوق بعضها البعض ؛ ويبلغ عدد هذه الأبراش من ٨٠ إلى ٨٥ برشاً ، وهو ما يشكل عموداً أسطوانياً يصل ارتفاعه حوالى المترين ، ويكفى أن نمارس فوقه ضغطاً خفيفاً لكى ينفصل الزيت عن هذه الشطائر من عجينة البذور الموجودة بين الأبراش . ويتم هذا الضغط بواسطة رافعة من الدرجة الثانية (انظر الصناعات والحرف ؛ اللوحة الأولى ؛ الشكل الأول ؛ الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) ، تتحرك حول نقطة ارتكاز قوية فى أحد جدران المصنع ؛ وتحمل هذه الرافعة فى طرفها الثانى ، حلزونا ثابتا يمر من خلاله لولب رأسى ، ينتهى بكتلة من الحجر تعلق به وتستخدم بمثابة مقاومة ، وترتفع حسب الحاجة بواسطة هذا اللولب بشكل تنخفض معه الرافعة . ويسيل الزيت المعصور بهذه الطريقة حول العمود لينتهى إلى حفرة توجد أسفل هذا العمود ، وينزح من هناك بعد ذلك لكى يحفظ فى جرار فخارية تسمى : بلاص .

وتمثل الأشكال من ١ إلى ١٠ هذه الطريقة فى عصر الزيوت (الصناعات والحرف ؛ اللوحة الأولى ؛ الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) . ويعفينا وصف هذه اللوحة من الدخول فى تفاصيل واسعة حول هذه الصناعة ؛ لكننا نكتفى بالقول بأن رواسب أو ثفل هذه البذور الزيتية المختلفة ، والتى يستخرج منها الزيت ، تستخدم فى تغذية الثيران التى تعمل فى جر الرحوات التى تتحول تحتها البذور إلى عجين ، ويشرف على هذه العملية فى العادة رجلان ، مهمتهما تعليق وفك الثيران التى تقوم بهذا العمل ،

مرة كل ساعتين ، وأن يعيدا بلا انقطاع تحت الرحوات عجينة البذور التي تنزلق من هناك بشكل دائم . وهم يستخدمون لهذا الغرض حاروفاً صغيراً أو « شوكة » من الخشب .

ومعصرة الزيت ، بالشكل الذى وصفناه للتو ، هى أكثر الماكينات التى أتيح لنا أن نراها فى مصر تكلفة ؛ ويرتفع ثمنها فى بعض الأحيان إلى ٤٠٠ بوطاقة .

وبواسطة هذه الآلة ، يصنع فى اليوم الواحد بلاصان من الزيت من أى من الحبوب التى يستخرج منها ، لذلك فالفرق طفيف للغاية بين تكاليف صناعة هذه الأصناف المختلفة من الزيوت . وحيث أن هذه السلعة تشكل احتياجاً ضرورياً ، فإننا نجد المعاصر بأعداد متفاوتة فى كافة أنحاء مصر ؛ فيصل عددها إلى نحو عشر فى مدينة سيوط وحدها ؛ كما يبلغ عددها ١٤ — ١٥ معصرة فى منوف ، وهذه المعاصر الأخيرة تستخدم كلها فى صناعة زيت الكتان .

ومن جهة أخرى فإن تصنيع زيت السمسم يمر بعمليات خاصة به ؛ إذ يبدأ الناس بغسل بذور السمسم ، وبعد تركه مغموراً بالمياه لبعض الوقت ، يحمص بشكل خفيف فى فرن خاص ، (نجد رسماً له فى الأشكال ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ من اللوحة الأولى ؛ من الصناعات والحرف ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى) . وتوضع بذور السمسم التى مرت بعملية التحميص هذه تحت رحوات من الحجر تجلب من سوريا ، وتتحول البذور تحتها إلى ما يشبه العجين ؛ ويوضع العجين بعد ذلك فى دن مبنى على هيئة جزء من كرة يبلغ قطره من أعلى متراً ونصف المتر ؛ ويقوم رجل يقف فى هذا الدن ، ممسكاً بيده حبلا يتدلى من فوق رأسه ، بالدوس فوق هذا العجين ، لينفصل عنه الزيت ، الذى يخرج من حواف كتلة السمسم التى يطؤها معجونة على هذا النحو ؛ ويستقبل الزيت فى إناء من النحاس ، يحتفظ بها العامل عن طريق إحدى قدميه ، مائلة بشكل مناسب باتجاه النقطة التى يسيل منها الزيت ؛ وحين يمتلىء هذا الإناء ، فإنه يقوم بصب الزيت الذى يحتويه هذا الإناء فى بلاص .

ويعطى الأردب من بذور السمسم فى العادة قنطاراً من الزيت ، يبلغ ثمنه فى المتوسط ما يقرب من ١١ بوطاقة .

وتصنع كميات قليلة من زيت السمسم فى مصر العليا ، وخاصة فى مدينة قنا ، فى حين تنتشر هذه الصناعة بشكل خاص فى القاهرة والدلتا .

الفصل الخامس

صناعة النبيذ ، وأنواع الخل المختلفة والمياه الروحية

لعل الفيوم هى الولاية الوحيدة التى يصنع بها النبيذ ، وفوق ذلك فهو يصنع هناك بطريقة قاصرة .

فبعد أن يهرس العنب لمدة ساعة ، فى إناء فخارى ، أسطوانى الشكل ، على هيئة دن صغير ، يوضع فى جوال كبير ، مصنوع من قماش صوفى بالغ السمك ، ثم يعتصر الجوال بشدة ، ويستقبل عصير العنب الذى يسيل من الجوال على هذا النحو ، فى إناء فخارى شبيه بالإناء الأول لتتم فيه عملية التخمير ، التى تستغرق مدة تبلغ من ٨ إلى ١٥ يوماً . وبعد ذلك يصب السائل فى قوارير (أمفورات) كبيرة ، تستخدم فى مصر فى نقل زيوت بلاد البربر (المغرب) . وتدفن هذه القوارير فى الأرض حتى رقبتها ، وتغلق فتحتها بسدادة خشبية ، يحكم إقفالها بالجبس . وعلى الرغم من هذا الاحتياط ، فإن النبيذ لا يظل على حاله لأكثر من بضعة شهور ، نجده بعد مرورها عادة فى حالة خل .

وقد يكون من الصعب أن نتعرف فى تلك الطرق التى تتبع لصناعة نبيذ الفيوم ، الذى لا يستهلكه فى العادة سوى الأقباط ، على تلك الأساليب التى كانت تتبع فى الماضى فى صنع نبيذ إقليم المريوطية الشهير . ومع ذلك فإن أعناب مصر بالغة الجودة ، فالأرض هناك صالحة للغاية لزراعة الكروم . ولا جدال فى أنه لا يزال بإمكان هذه البلاد أن تنتج كروماً قيمته تماثل كروم الأرخبيل ، لو كان يسكنها أناس غير أولئك المسلمين ، الذين يحرم عليهم دينهم ، كما هو معروف ، تناول هذه المشروبات الروحية .

وبخلاف خل السيد (العرق) ، يصنع فى مصر كذلك نوعان من الخل (العرق) أحدهما من العنب المجفف ، والثانى من البلح .

وتأتى الأعناب المحفمة هذه (الزبيب) من قبرص وجزر اليونان ؛ ويقبل الناس على الخل الذى يستخرج منها ، ويباع بواقع المكيال ١٢ بارة ، وتبلغ سعة هذا المكيال حوالى اللتر . وإن كان الخل الذى يستمد من البلح أقل جودة ، ويباع نفس المكيال منه بواقع ٦ إلى ٨ مدينى .

وتعفينا التفاصيل التى أوردها المسيو روزيير Rozière حول صناعة تقطير الخل ، فى ذلك الوصف الذى قدمه (الصناعات والحرف ، اللوحة الحادية عشرة ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى) من أن نتوسع فى الحديث عن هذا الفرع من فروع الصناعة . ونحن من جانبنا نحيل القارىء بالمثل ، ولنفس السبب ، إلى الشكل رقم ٢ من نفس اللوحة ، وإلى وصف فن التقطير ، وهو ما ندين به للمسيو جومار Jomard ؛ إذ أننا نجد به كل ما له صلة بتصنيع المشروبات الروحية من البلح ، والذى تباع البونصة من أفضل أنواعه مقابل ٩٠ إلى ١٠٠ مدينى ، ويعادل هذا المكيال حوالى البنتة (*) وحيث لا يستهلك هذا المشروب سوى الأقباط ، فإن عدد مصانع التقطير فى القاهرة لا يتجاوز ١٠ – ١٢ مصنعاً .

(*) ٠,٥٦٨ من اللتر

الفصل السادس

تقطير ماء الورد

سبق أن قلنا فى الباب الأول من هذه الدراسة إن الفيوم هى المنطقة الوحيدة التى يصنع بها ماء الورد ؛ فحين تكون السنة وفيرة يقام فى مدينة الفيوم ، وهى قاعدة هذه الصناعة ، عدد من أجهزة التقطير يصل إلى نحو الثلاثين .

ويتكون هذا الجهاز بالغ البساطة من مرجل من النحاس ، يبلغ قطره من ٧٠ إلى ٩٠ سم ، ويحيط به ، بطول ارتفاعه ، فرن صغير مبنى من القرميد . وتغطى هذا المرجل قمة نصف كروية على وجه التقريب . وتحمل هذه القمة فى داخلها قصبة دائرية تعمل كميزاب ، إذ تستقبل الماء المقطر وتحمله عن طريق خرطوم مائل ، إلى إناء مخصص لاستقباله .

وتتكاثف الأبخرة على الجدار الداخلى لهذه القمة ، التى تغطى لهذا الغرض بكمية محدودة من الماء البارد ، يحتفظ بها داخل غلاف مزدوج من نفس معدن القمة (نصف الكروية) ، ومثبت بها .

وليست هناك حاجة للقول بأن المرجل والقمة التى تغطيه ، يتماسكان معاً بواسطة قطعة من الطين ، وأن من الضرورى أن نلفت النظر إلى حقيقة أنه يستخدم فى صنع هذا الطين ، أو هذا النوع من العجين ، رواسب بتلات أو تويجات الزهر ، بعد تقطيرها .

وفى العادة ، ينتج كل خمسين رطلا من هذه التويجات ، مضاف إليها خمسون رطلا من الماء ، خمسة وعشرين رطلا من ماء الورد العادى .

وكان البكوات (المماليك) ، والشخصيات الأخرى ذات النفوذ فى القاهرة تستصنع لنفسها فى مدينة الفيوم ، ولاستخدامهم الخاص ، ماء ورد من صنف أرق بكثير من ذلك الصنف الذى تتداوله التجارة . فكانت تستخلص كمية معينة من

ماء الورد ، من قنطار من تويجات الزهور ، ويصب ماء الورد هذا على قنطار آخر من الورود ، ويعاد التقطير من جديد ، وبذلك يتم الحصول على ماء ورد مركز ، يصب بدوره على قنطار من التويجات للحصول على إنتاج ثالث أكثر تركيزاً .

ويباع القنطار من تويجات الزهر بخمس أو ست بوطاقات (ريالات) ، ويبلغ ثمنه فى بعض الأحيان ١٠٠٠ بارة . ولا تزرع شجيرات الورد إلا حول مدينه الفيوم ، وكذلك فى بعض القرى المحيطة بها ، إذ لا يقطر ماء الورد ، كما سبق القول ، إلا فى هذه المدينة ، كما أن تويجات هذه الورود لابد أن تستخدم طازجة (عند تقطيرها) .

وللمقطرين المقيمين هناك وكلاء فى القاهرة ، يبعثون إليهم العربون مقدماً ، ويتعهدون ببيع ماء الورد فى بقية أنحاء مصر وكذلك فى سوريا ، وهى البلد الأجنبى الوحيد الذى ترسل إليه طلبيات من ماء الورد .

الفصل السابع

صناعة السكر

نشأت مصانع السكر فى أراضى مدينتى فرشوط وأخميم بشكل خاص . (انظر الفنون والحرف ، اللوحة السابعة ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ؛ وانظر كذلك وصف هذه اللوحة ، الذى قدمه المسيو سيسيل Cécile ، المجلد السابع ، ص ٤١٩ ، الدولة الحديثة) . .

ويجلب قصب السكر على ظهور الحمال من الحقول إلى المصنع ، الذى ينى عادة على هيئة مستطيل طوله أربعون مترا ، وعرضه عشرون متراً ، وتوجد خلف جدرانه ، التى تبنى عادة بالطوب ، مختلف أجزاء المصنع .

وعند أحد أطراف هذا الفناء يوجد الباب الخارجى ، ويدخل منه إلى فناء صغير ، وفى قبالة هذا الباب ، وعند نهاية الفناء ، نجد فى العادة مخزنا تودع به أعواد القصب بمجرد أن تصل من الحقول . وهناك تجرد الأعواد من أوراقها بواسطة نساء وأطفال .

وبعد أن تجرد الأعواد من أوراقها تنقل إلى مبنى آخر ينقسم إلى قسمين متساويين بواسطة جدار (قطوع) . ويضم كل قسم من هذين القسمين آلة أو معصرة تستخدم فى إخراج العصير من الأعواد .

وهذه الآلة عبارة عن أسطوانتين من الخشب ، مثبتتين بشكل أفقى ، على شاكلة المصفحة أو صقالة الورق ، وتدور هاتان الأسطوانتان فى اتجاهين متضادين عن طريق ترس . يحركه هو نفسه مدار يعلق به ثور . وتدخل أعواد القصب فيما بين الأسطوانتين الخشبيتين ، ويتفاوت مقدار الضغط أو العصر الذى تتعرض له الأعواد ، تبعاً لتفاوت درجة اقتراب هاتين الأسطوانتين إحداهما من الأخرى . ويستقبل العصير الناتج عن هذه العملية فى جرة كبيرة من الفخار ، مدفونة أسفل هذه المعصرة .

وينقل العصير بعد الحصول عليه بهذه الطريقة إلى قسم آخر من أقسام المصنع ، مقام إلى ظهر جدار طولى من ناحية باب الدخول . وهناك يصب أولا فى جرار فخارية ، ثم يمضى إلى مراجل من النحاس تتفاوت أحجامها ، وتقام فوق مواقد عادية مبنية بالطوب ، أما باب المستوقد فيقع خارج المبنى : ويشعل به قش الذرة أو حزم من قش الحنطة المهروس . وبواسطة هذا الوقود تظل النار مشتعلة تحت المرجل ، وهناك يغلى العصير غليته الأولى ، التى تستمر لمدة تقرب من الساعة . وبعد أن يزال الزبد ، ينقل العصير إلى جرار أخرى ، وفى النهاية ، يصب العصير فى قوالب مخروطية ، ليتبلور فى شكل أقماع من السكر .

وبعد أن تمتلىء القوالب على هذا النحو ، توضع فوق متكآت ، بحيث تكون قمتهاإلى أسفل ؛ ويتم ذلك فى ممر مسقوف ، حيث تترك لتصفى لبعض الوقت ، ثم تمضى من هناك إلى محمى (أو مكمر) لتكتسب الدرجة اللازمة من الصلابة ثم ينقل إلى حيث يبدأ تداوله ؛ ويوضع فوق قاعدة هذه القوالب المخروطية ، بعض من الصلصال أو من طمى النيل الرطب ، فتمر المياه التى يحتويها الطمى أو الصلصال خلال السكر وتنقيه ، ومن هنا يحدث أن تكون قاعدة أقماع السكر المتداولة فى التجارة ، أكثر بياضاً على الدوام من قمتها . التى تتراكم بها كل الشوائب التى تشوب نقاءها .

وننتقل الآن إلى الحديث عن عدد وتوزيع العمال المستخدمين فى مصانع السكر فى فرشوط وأخميم .

يعمل عاملان بشكل دائم أثناء وقت تصنيع السكر ؛ إذ يقودان ويرعيان الجملين اللذين ينقلان إلى المصنع أعواد القصب التى ينتجها فدان واحد من الأرض ، ويقوم عاملان آخران بنزع أوراقها بمجرد وصولها ، ويعدانها للعصر ؛ كما يعمل عاملان لإدارة المعصرة ، وجمع العصير الناتج عن أعواد القصب ، يحل كل منهما محل الآخر بالتناوب ، أما الثيران التى تقوم بجر الترس فتعمل هى الأخرى بالتناوب ، إذ يحل اثنان منها محل اثنين آخرين مرة كل ساعتين . ويقود هذه الثيران ويعنى بها عاملان ؛ ويقوم

اثنان آخران برعاية النار تحت المرجل ، كما يسهر عاملان داخل المصنع على عمليات إنضاج السكر وتحويله إلى أقماع . ويدير كل هذه الأعمال رئيس المصنع ، ويحصل (كل) من الاثنى عشر عاملا الذين يديرهم على ٦ بارات فى اليوم إذا هم حصلوا على أجورهم نقداً ، أو على رطلين من العسل الأسود إذا حصلوا على أجورهم عيناً .

أما متوسط يومية الثور الواحد فتصل إلى ٢٠ – ٢٢ بارة ؛ كما يلزم من ٢٠ إلى ٢٥ يوم عمل لتحويل إنتاج فدان من قصب السكر ، إلى سكر .

ويزيد عدد العاملين المستخدمين فى مصنع ما من مصانع السكر بنسبة مساحة الأرض التى أقيم هذا المصنع لتصنيع إنتاجها من القصب .

وفى السنوات المواتية للغاية ، ينتج الفدان من القصب نحو ١٥ إلى ٢٥ قنطاراً من أقماع السكر ؛ ومن ١٠ إلى ١٢ قنطاراً من العسل الأسود ، ويزن قنطار السكر ١٥٠ رطلا ، زنة الرطل ١٢ أوقية .

ويبلغ ثمن قنطار السكر فى السنة العادية حوالى ١٠ بوطاقات ، وبهذا يبلغ صافى إنتاج فدان الأرض المزروعة بقصب السكر إلى ٢٠٠ بوطاقة .

ويشكل القصب فى ولاية أطفيح – وهى أقرب ولايات مصر العليا إلى القاهرة – موضوعاً لاستغلال هائل . ويكاد يتفرغ الناس لصنعه هناك ، فى بعض القرى التى يقطنها عربان تحولوا إلى مزارعين .

ويزرع قصب السكر كذلك فى الدلتا ، ولكن بقصد بيع أعواده فى أسواق المدن ، باعتباره نوعاً من الفاكهة ، كما سبق لنا أن بينا فى مكان آخر .

الفصل الثامن
صناعة ملح النوشادر

على الرغم من أن إنتاج ملح النوشادر قد ظل لزمن طويل ، قاصراً على الصناعة المصرية ، وعلى الرغم من أن المرء يستطيع العثور على المواد اللازمة لتصنيعه فى كافة أنحاء مصر ، فإن المصانع التى تقوم بذلك لم تنشأ إلا فى القاهرة .

وتحتوى الدراسة الهامة التى أعدها المسيو كوليه - ديكوتيل Collet-Descotils ، والتى نشرت فى ثنايا هذا المؤلف (وصف مصر) حول صناعة ملح النوشادر ، على التفاصيل الكثيرة التى عالجها هذا الكيميائى الماهر ، بدرجة تفوق ما تستطيع مقدرتنا أن تفعله ، وبدرجة كبيرة ، ونحن نحيل إلى هذه الدراسة المنشورة بالمجلد الثامن* ، الصفحة الأولى ، وصف مصر ، ونحيل كذلك إلى الفنون والحرف ، اللوحة الثانية ، الأشكال ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ؛ الدولة الحديثة ، المجلد الثانى - وذلك للحصول على المعلومات التى لا يمكن أن تشتمل عليها هذه اللمحة البسيطة ، التى كان علينا أن نلتزم بها هنا ، حتى لا نقع فى تكرارات لا جدوى منها .

يتم الحصول على ملح النوشادر من السناج الناتج عن إحراق الأقراص الجافة من روث الماشية ، والتى تستخدم باعتبارها وقوداً .

ويقوم بجمع هذا السناج من القرى رجال حصلوا من شيخ البلد ، على كامل الحق فى جمع هذه المادة (الالتزام) مقابل ١٠ - ١٢ بوطاقة فى العام .

ويتم جمع حصيلة هذه المادة بعد انتهاء الشتاء ، ويتم تصنيعها خلال الصيف ، لأن الطلاء الصلصالى الذى لابد أن تطلى به الكرات الزجاجية التى تتم بها عملية التصعيد (أو التحويل) sublimation ، يجف خلال هذا الفصل بسرعة بالغة ، بفعل حرارة الشمس .

وتتكون مصانع ملح النوشاد من ورشتين متمايزتين للغاية : تتخصص الأولى

---

* المجلد ٥ من الترجمة العربية . (المترجم) .

فى صنع الكرات الزجاجية التى تحدثنا عنها للتو ، وتتخصص الأخرى فى صنع الملح .

ويتكون فرن الزجاج المرسوم فى الفنون والحرف ، اللوحة الثانية ؛ الأشكال ١٧ ، ١٨ ١٩ ، الدولة الحديثة ، من طابقين ، يوجد بالجزء الأدنى منهما المادة فى حالة انصهارها ، وذلك فى تجويف هذا الجزء أو حوضه ؛ ويأخذ النافخ من هذه المادة ، فى طرف أنبوبته ، كمية تكفى لصنع الكرة (الزجاجية) ، وبعد أن تنفخ الكرة نصف نفخة ، يدخلها النافخ فى الطابق الأعلى للفرن ، وهو الذى يستخدم للإنضاج ، ويتم ذلك عن طريق فتحة موجودة فى سقفه ، وتأخذ الكرة شكلها النهائى فى فرن الانضاج ، ومع ذلك فحيث أن الحجم الذى تكتسبه ، والذى يبلغ ٤٥ إلى ٥٠سم ، بالنفاذ من نفس الفتحة التى تعمل حلقة اتصال بين فرن الصهر وفرن الانضاج ، فإن هذه الكرة يتم سحبها من الفرن الأخير عن طريق قناة أكثر اتساعاً ، موجودة فى أحد جوانب الفرن . ولصنع هذه الكرات ، تستخدم شقفات من الزجاج ، يتم شراؤها من القاهرة والمدن الأخرى ، بواقع ٤ بوطاقات للقنطار زنة ١٠٠ رطل : وتختلط هذه القطع الزجاجية ببقايا الكرات (الزجاجية) التى سبق استخدامها (كقنينات لاحتواء السناج) .

وتوقد النار فى الأفران بواسطة حزم من قش الأرز أو قش الذرة أو مشاقات الكتان . وعلاوة على ذلك فإن الوقود ، يختلف تبعاً لمناطق التصنيع ولكن تظل سيقان هذه النباتات الحافة على الدوام هى التى توفر الوقود القوى والنظيف .

وتغطى هذه الكرات قبل ملئها بالسناج الذى يستخرج منه ملح النوشادر بطلاء من الطين المختلط بالصوف المندوف ، ويبلغ سمك الطلاء ٣ إلى ٤ سم ، ويتكون من أربع طبقات متتالية ، تجفف كل منها بتعريضها للشمس لمدة يومين . ويقدر ثمن الكرة الزجاحية المطلية على هذا النحو بـ ٢٢ مدينى .

ويمكن للكرة الواحدة أن تستوعب نحو ٥٠ رطلا من السناج ، وتملأ الكرة إلى ما تحت رقبتها بنحو قيراطين . وتساوى هذه الـ ٥٠ رطلا نحو ٤٢ بارة . ولا يقفل حلق الكرة مطلقاً عند وضعها فى فرن التصعيد أو التحويل ، المرسوم فى الفنون والحرف ،

اللوحة الثانية ، الأشكال ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ الدولة الحديثة ، المجلد الثانى . وفى البداية تعطى دفعة قوية من النيران الشديدة ليتم بشكل نهائى تبخير أية رطوبة يمكن أن تكون بالسناج ولكى ينتهى فى الوقت نفسه تحويل الأجزاء الأولى (من السناج) التى تسد حلق الكرة إلى ملح . وتظل النار مشتعلة بصفة دائمة تحت الكرات لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال .

وبعد إتمام عملية التصعيد أو التحويل تكسر الكرة بعد تبريدها ، وتؤخذ من جزئها العلوى شريحة من ملح النوشادر تزن من ٤ إلى ٦ أرطال .

ويبلغ ثمن الرطل من هذا الملح وقت السلم ، حين يكون تصديره آمناً ، ٥٠ إلى ٦٠ بارة ، وإن كان هذا القدر قد هبط إلى ٤٠ فقط أثناء وجودنا بمصر .

ولقد كان بمقدور مصنع ملح النوشادر فى المنصورة ، الذى حصلنا منه على هذه المعلومات ، أن يوفر سنوياً مائة قنطار من هذا الملح .

ويزن القنطار منه مائتى رطل وثمانية أرطال ، مما يعطى إجمالى إنتاج قدره ٢٠,٨٠٠ رطل ، ثمن الرطل الواحد منها ٥٠ بارة ، أى أن الإنتاج فى مجمله يساوى ١٢ ألف بوطاقة ؛ ومن المحتمل أن يكون قد أدرج ضمن هذا التقدير إنتاج الأفران الأخرى فى نفس الولاية .

ومن المنصورة يعمل بإنتاج النوشادر ، ثلاثون عاملا بشكل دائم ، ويحصلون على أجورهم بواقع ٢ ½ بوطاقة فى الشهر (الواحد) . كما يتناولون طعامهم على حساب صاحب العمل . وتشتعل النار فى أفران التحويل بواسطة أقراص مصنوعة من روث الماشية ، وتساوى هذه خلال الأيام الثلاثة والليالى الثلاث التى تستغرقها العملية ٣ ½ بوطاقات (ريالات) ، ويتسع الفرن الواحد لعشرين أو اثنتين وعشرين كرة .

ولا يوجد بالمنصورة سوى مصنع واحد لملح النوشادر . ويصل عدد مصانعه إلى ستة فى قرية من قرى الغربية تسمى دميرة ، كما يوجد مصنع واحد فى قرية فارسكور القريبة من دمياط ، كما يوجد مصنع واحد كذلك فى كل من صفط وكفر

كلا ، وهما تنتميان لنفس الولاية . وقد نشأت مصانع أخرى فى دمنهور وبرنبال بالقرب من رشيد على الفرع العربى للنيل . وكذلك يوجد مصنع آخر فى ولاية منوف ؛ وأخيراً فإننا نجد مصنعين فى القاهرة وبولاق مما يصل بعدد مصانع ملح النوشادر فى كل أنحاء مصر إلى ١٦ مصنعاً ، أمكنها ، فى وقت ما ، أن تغذى أوربا بحاجتها من هذا الملح .

الفصل التاسع

صناعة إفراخ البيض
(أو معامل التفريخ)

هناك ضرب من ضروب الصناعة أكثر قدما عند المصريين من صناعة ملح النوشادر ، وهو افراخ البيض فى مكامير خاصة بذلك تسمى معامل التفريخ . وقد وصف هذه الصناعة بالتفصيل زميلاى السيدان روزيير Rezière وروييه Rouyer . لذلك فسوف يقتصر ما نقوله بخصوصها هنا على بعض الملحوظات العامة .

توجد فى كل أنحاء مصر مكامير أو مفرخات صناعية ، وإن كانت هذه المنشآت أكثر انتشاراً فى الدلتا عنها فى الصعيد ، ومع ذلك فقد حصلنا على المعلومات الأولية التى نقدمها هنا من الأقصر ، وهى واحدة من القرى التى تقوم اليوم فى نفس موقع طيبة القديمة . (انظر الفنون والحرف اللوحة الأولى ؛ الأشكال : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ؛ واللوحة الثانية ؛ الأشكال : ١ ، ٢ ، ٣ الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) .

ومعمل التفريخ عبارة عن مبنى مستطيل الشكل ، مبنى من الطوب اللبن على شكل دهليز مستطيل ، تنهض فى كل جهة من جهاته مكمرة تتكون من طابقين ، وتنقسم إلى ١٢ أو ١٦ غرفة بواسطة جدران اعتراضية (قاطوعات) وتغطى هذه الغرف قباب نصف أسطوانية ، تنفذ من وسطها فتحتان ، الأولى ، لكى توصل ما بين الطابق الأرضى والطابق الذى يعلوه ، أما الأخرى ، فبقصد تسريب الدخان ، وإدخال الهواء الخارجى إلى الدهليز عند الحاجة .

أما الجدران العرضية التى تشكل فاصلا بين الحجرات فتخترقها هى نفسها ـ فى الطابق الأرضى وحده – نوع من النوافذ الضيقة ، يمكن للعامل عن طريقها أن يمر من حجرة لأخرى وأن يتجول بالمبنى بطوله .

ولابد أن يوضع البيض المراد إفراخه فى الطابق الأرضى ؛ ويصف على طبقتين ، وتوقد النيران اللازمة للإفراخ فى الطابق العلوى .

وتستوعب كل حجرة من حجرات الطابق الأرضى للمكمرة نحو خمسة آلاف بيضة . ويدفأ الطابق العلوى عن طريق إحراق أقراص من روث الماشية أو تس القش إلخ ، ويقوم برعاية النار ليلا ونهارا ثلاثة من العمال توكل إليهم كذلك مهمة المرور على البيض وتغيير مكانه ، والعمل على نقل الكتاكيت بمجرد خروجها من بيضها إلى حجرة علوية ، وهو ما يتم عادة بعد عشرين أو اثنين وعشرين يوماً من هذا التفريخ الصناعى ؛ وسوف يكون تزيداً لا داعى له من جانبنا أن نكرر هنا ما سبق أن قدمه السيدان روزيير ورويبه عن مدة الحضان وعن درجة الحرارة اللازمة للإفراخ ، أو بشكل عام عن ظروف هذه العملية .

والشتاء ، هو الفصل الذى تتم خلاله هذه العملية التى تتكرر أثناءه مرتين أو ثلاث مرات ، مما يصل بعدد البيض الذى يتم إفراخه فى السنة ، فى معمل واحد ، إلى نحو مائتى ألف بيضة . ومن بين كل ١٢ بيضة تخصب عادة تسع بيضات ، ويجلب البيض من القرى المجاورة (للمعمل) . ويرد القائم على أمره ، فى مقابل كل ١٦ بيضة يحصل عليها ، أربعة من الكتاكيت .

وبشكل عام ، فإن حاكم الولاية هو الذى يتملك معامل التفريخ ، ويقوم بالتزامها أحد أتباعه ، وقد أوكل معمل التفريخ فى الأقصر إلى كاتب القرية فى مقابل ٣٠ بوطاقة ، ويقوم هو باستلام البيض الذى يجمع له ، كما يحتفظ لنفسه بثلثى الكتاكيت التى تتبقى بعد أن يكون باعة البيض قد حصلوا على $\frac{1}{4}$ عدد البيض الذى وردوه (فى شكل كتاكيت) وهو يعطى $\frac{1}{3}$ هذا الباق إلى عماله ، وعلى هذا فسوف يحصل موردو البيض على $\frac{1}{4}$ عدد البيض الذى وردوه فى شكل كتاكيت ، ويحصل ملتزم المعمل على النصف ويحصل العمال على الربع الأخير ، وذلك فى حالة أن يكون البيض مخصباً ، ولكن ، فحيث أن $\frac{1}{4}$ عدد البيض لا يخصب فى العادة ، فإن الملتزم والعمال لا يقتسمون — كما أوضحنا — إلا نصف عدد البيض الذى ورد إليهم .

ويبلغ ثمن كل مائة من البيض من ثمانية إلى عشرة بارات ، فى حين يبلغ ثمن كل مائة كتكوت خرجت للتو من بيضها ، مائة بارة ، أى عشرة أمثال ثمن البيض .

الفصل العاشر

عن الصيد

يشتغل بعض أبناء القرى الساحلية بصيد الطيور البحرية على سواحل البحر المتوسط ، والبحيرات التى تغطى الساحل الشمالى لمصر . وفى أثناء فصل الشتاء ، تتوفر بكثرة فى أسواق : دمياط ورشيد والاسكندرية وكذلك فى أسواق المدن الرئيسية فى الدلتا طيور البط وأبو الروس ، تلك التى يصيدها الصيادون فى شباك . ويشكل السمان ، الذى يكثر بوفرة على الشواطىء الرملية لمصر فى شهرى سبتمبر وأكتوبر من كل عام مصدراً لنوع من الصيد يتفاوت فى درجة وفرته : إذ تصل هذه إلى الشاطىء بالغة التعب وتحلق وهى شديدة الاقتراب من سطح الأرض حتى أنها تظل تتخبط داخل الشباك التى ينصبونها لهذا الغرض على الساحل . ولا يزيد طول هذه الشباك عن المتر أو المتر ونصف المتر ، وتنصب بشكل رأسى على أطراف من البوص معروسة فى الرمال ، وفى بعض الأحيان يكون السمان ، الذى يحصل عليه الصيادون بهذه الطريقة ، وفيراً وبكميات هائلة ، فى فترة بعينها ، عند ضواحى الاسكندرية ، حتى أن سكان المدينة فى مثل هذا الموسم يجعلون منه طعامهم الوحيد .

وعلى الرغم من أن النيل سخى بأسماكه ، وأنه يوجد فى كل المدن والقرى الواقعة على ضفافه رجال يجعلون من صيد الأسماك حرفتهم الوحيدة ، فليس ثمة منشآت لصيد الأسماك ، تستحق هذا الاسم ، إلا على شواطىء بحيرتى البرلس والمنزلة .

وتعد قرية بلطيم أهم موقع لمصايد الأسماك على بحيرة البرلس ؛ ومن بين الأربع عشرة من القرى أو الكفور الأخرى ، والتى نشأت على ذلك اللسان الرملى الذى يفصل البحيرة عن البحر ، توجد أربع قرى يسكنها كلية صيادون ، فى حين أن ربع أبناء القرى العشر الأخرى فقط هم الذين يعملون ، خلال جزء من العام ، بصيد نوع

من الأسماك ، يشكل بيضه بعد أن يجفف فى الشمس نوعا من الفطائر تسمى بطارخ ، على كل سواحل البحر المتوسط ، ويبدأ صيد هذه الأسماك عادة عند منتصف الربيع أى قبل زيادة مياه النيل بنحو شهرين .

وكان التزام حق الصيد فى هذه القرية من حق واحد من كبار البكوات (المماليك) ، وقد علمت من الرجل الذى كان يشترى حق الالتزام هذا ، أنه كان يدفع أتاوة سنوية قدرها ٣٣٠٠ بوطاقة ، كما أخبرنى أن عدد الصيادين الذين يعملون لحسابه هو ، يصل إلى أربعمائة صياد .

وتتكون قريتا المطرية من المنشآت الرئيسية لمصايد الأسماك التى يلقاها المرء على شواطىء بحيرة المنزلة ، وتمتلك هاتان القريتان على الأقل $\frac{1}{2}$ عدد القوارب الثلاثمائة التى تغطى فى بعض الأحيان سطح البحيرة خلال موسم صيد البورى ، وترسل طازجة إلى المنصورة تلك الأسماك التى تأتى من المطرية ، ويرسل إلى دمياط الجزء المخصص للتمليح (من هذه الأسماك) ، ففى هذه المدينة يتم تمليح السمك وتصديره إلى القاهرة وسوريا وبقية اسكاليهات (ثغور) المشرق ، ويستهلكه المسيحيون خلال نوبات الصيام الكثيرة التى يمتثلون لها .

الفصل الحادى عشر

عن صناعة الملح البحرى وملح البارود

ينتج الملح الذى يستخدمه الناس فى تمليح السمك ، وفى مختلف الاستعمالات المنزلية ، عن طريق البخر الطبيعى للمياه المالحة التى يستقبلونها فى ملاحات صغيرة على شاطىء البحر . ويوجد بعض من هذه الملاحات فى جزيرة الفنار أمام الإسكندرية ؛ كما يلتقط الملح كذلك ، بعد أن يكون قد بلغ شكله النهائى ، على طول الساحل ، من المستنقعات التى تقطع الساحل الرملى الذى يغطى بحيرة المنزلة ، إلى الشمال وإلى الشرق ، كما يجمعه الناس من داخل قلزم السويس ، لكن هذا النوع من الملح الطبيعى ، الذى يتزود به الناس دون أى جهد يبذلونه ، سوى جهد التقاطه ، لا يمكن أن يدخل فى عداد المنتجات الصناعية .

وليس الأمر على هذا النحو فيما يختص بالملح الذى تنتجه ملاحات الفيوم : فهذه الملاحات تزود من عيون مياه مالحة ، موجودة بالوادى ، وعلى الشواطىء الغربية لبحيرة قارون . وتنبثق عيون المياه هذه من آبار تصل إلى عمق يبلغ ١,٣ م تحت سطح الأرض ، وإن كان منسوب هذه الآبار يعلو لأكثر من دلك أثناء الفيضان ، حينئذ تكون المياه التى تعطيها هذه الآبار أقل ملوحة .

وتصب هذه المياه فى حفرات يصل عمقها إلى ٢٠ أو ٢٥ سم . وحيث لا تكون هذه المياه مشبعة بالملح ، بالقدر الكافى ، فإنه تلقى فيها كمية محدودة من الأتربة يتم الحصول عليها من المناطق المجاورة . ويستخدم الملح العادى الذى تنتجه هذه الملاحات فى كل من ولاية الفيوم ، وبوش ، وبنى سويف ، وكدلك فى ولاية أطفيح .

وتوجد كذلك عشرون حفرة مماثلة يملكها مستغل واحد ، تنتج كل يوم جوالين من الملح ؛ وتعادل كل ثلاثة من هذه الأجولة أردبين اثنين سعة القاهرة . ويباع الجوال بسعر ٤٠ بارة . ويستخدم مالك هذه الحفرات المنتجة للملح ، فى اليوم الواحد

غلامين أو ثلاثة غلمان يعطى كلا منهم ٤ بارات . وبالإضافة لذلك ، يدفع كل ملاح ضريبة ملح سنوية تبلغ ٥٠ بارة إلى شيخ قرية ترسا التى توجد بالقرب منها تلك الحفرات التى نشير إليها هنا ، والتى يتجمع بها نحو ثلاثين من صناع الملح . ويوجد عدد مماثل من هؤلاء على وجه التقريب ، فى قرية سنورس ، التى تقع إلى شمالها كذلك ملاحات مشابهة .

وفى نفس هذه الولاية ، تستعل كذلك طبقة من الملح البحرى ، يبلغ سمكها بضعة قراريط ، تتكون وتتجدد بعمق عدة سنتيمترات تحت التربة الرملية والهشة التى يمر بها المرء بطول الصحراء ، عندما يتجه من مدينة الفيوم إلى قرية هوارة .

وعلى وجه العموم ، فإن الملح الذى يستهلكه الناس فى مصر العليا يستخرج من الصحراء الليبية حيث يكاد يوجد هذا الملح هناك ، تحت سطح التربة مباشرة ، فى طبقة ضئيلة السمك ، حتى أن المرء أثناء سيره ، يسمع صوت الملح وهو يتكسر تحت وطء أقدامه . وسوف تواتينا الفرصة بعد ذلك ، لنفسر تكوين هذه الطبقة الملحية .

ومن جهة أخرى ، فإن كل الآبار التى تحفر فى وادى مصر ، على مشارف الصحراء ، تعطى مياهاً تتفاوت درجة ملوحتها ، وقد يكون بمقدور البخر أن يستخلص منها الملح اللازم لاستهلاك البلاد ، هذا إن لم يجده الناس جاهز التكوين بشكل تام ، كما أوضحنا ذلك من قبل ، وعلى سطح الصحراء تقريباً .

وكذلك فإن صناعة ملح البارود ، تبلغ درجة كبيرة من الأهمية بسبب استخدام هذا الملح فى صنع بارود البنادق : ومن الممكن استخلاصه عن طريق غسيل المواد التى تتكون منها أكوام الأنقاض التى تحيط بقرى ومدن مصر . ومع ذلك فليس ثمة مصانع للبارود تعمل بشكل دائم إلا فى عدة أماكن ، وأهم هذه المصانع ما يوجد فى الدهاشنة بالقرب من قنا ، وتلك التى تقع فى مصر العتيقة ، وهى التى تناولها الجنرال أندر يوسى بالحديث ، فى التقرير الذى أعده عن بارود المدافع (١) ، وفضلا عن ذلك فإن الطرق المتبعة فى صنع البارود هى نفس الطرق المتبعة فى أوربا .

---

(١) Decade Egyptienne, tom ler, Pag. 15.

الفصل الثانى عشر

عن الصناعات والحرف ، وعن الصناعة في المدن بشكل عام

تمارس ضروب الصناعة المختلفة التى انتهينا من الحديث عنها حتى الآن فى مدن مصر وقراها على حد سواء ، وتنهض الصناعة فى هذه البلاد على ما تنتجه أرضها ، ومع ذلك فإن المدن على الدوام ، وبشكل خاص ، وشأنها فى دلك هو نفس شأنها فى كل مكان ، تظل هى مقرا لصناعة أكثر تقدما ، كما أنها تشتغل بتحويل الخامات المستوردة من الخارج إلى سلع للاستهلاك ، ويستوى الأمر فى ذلك أن تنتشر هذه السلع على نطاق واسع أو كانت تنحصر فى مجال ضيق .

وتوضح لنا لوحات الفنون والحرف الواردة فى هٰذا المؤلف (وصف مصر) ، والتى تمثل الطحان والحبار والحلوانى والفطاطرى ، كما تفسر لنا الشروح التى صحبت هده اللوحات ، وبشكل كاف ، الوسائل والطرق المتبعة فى العمل بهذه الحرف ، كما تعفينا – هنا – من الحديث عنها .

وبالإضافة إلى المصانع التى تنتج فيها الأقمشة الكتانية والقطنية والصوفية والحريرية ، تنتشر فى كل أنحاء مصر ، مصانع أخرى ، تمتلك منها المدن الرئيسية ، والقاهرة بشكل خاص ، عدداً تتفاوت أحجامه وتصنع به أشغال الزركشة والخيوط الحريرية (القيطان) الممزوجة بخيوط الذهب والفضة ، كما تصنع به الشرابات والأهداب ، وبصفة عامة ، كل ما يمكن استخدامه لدندشة وتطرير الملابس الشرقية . ولقد ذهب فن السروجية هناك إلى مدى بعيد ، كما يصنع الناس فى هذه البلاد على وجه العموم ، وبدرجة عالية من الجودة ، كل ما له صلة بإعداد الخيول . أما النقش على الجلود ، وبخاصة الجلود الماسية التى تستخدم حلية لهذه الأشغال المختلفة فتبلغ درجة لافتة للنظر . وتمثل اللوحة السابعة عشرة (الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) منظر

مصنع تطريز من الداخل، في حين تمثل اللوحة الرابعة عشرة (الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) عاملا يشتغل بصنع الأحزمة التى ينتشر استخدامها .

ويعمل القصارون (أى صناع السقالات) والنجارون وصانعو الأقفال فى ورشهم وهم جالسون ، ولا ينهضون واقفين إلا لكى يضعوا الأشياء التى أتموا صنعها فى المكان المخصص لها ، وترينا اللوحة الثامنة عشرة (الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) هؤلاء العمال فى أثناء العمل . وتستورد معظم الخامات التى يشتغلونها من خارج مصر ، ففى بلد يكاد يسمح جمال طقسه بقضاء النهار والليل فى الهواء الطلق ، نستطيع أن نتفهم لماذا لا تنتشر فخامة البنيان ورفاهية الأثاث بين الطبقة الوسطى من أبنائه .

أما النحاسون والحدادون ، فهم – على نحو ما – الذين يصنعون وحدهم النحاس والحديد . ويعد فن الأولين متقدما للحد الكافى ، إذ أن كل أوانى الطهى مصنوعة من نحاس يطلى بالقصدير ، وإننا لندين للمسيو كوتل Coutelle بوصف هذه المهنة ، وكذلك بشرحه اللوحة الحادية والعشرين ، (الدولة الحديثة ، المجلد الثانى) وبها شكل يمثل النحاس . أما طرق الطلاء بالقصدير فهى نفس الطرق التى نتبعها نحن فى أوربا . وإذا علمنا أن ملح النوشادر وهو أحد العناصر الرئيسية فى فن الطلاء بالقصدير – هو كما يمكن القول انتاج خاص بمصر ، فلابد أن يصبح من الأرجح لحد كبير أن تكون هذه العملية المعدنية واحدة من أقدم العمليات المعدنية التى مارستها مصر .

ويصنع الحداد معظم الأدوات التى يستخدمها الآخرون .

وقد قام المسيو كوتل بوصف كير الحدادة والأفران . ونجد ذلك ماثلا فى اللوحة الحادية والعشرين (الدولة الحديثة ، المجلد الثانى) . ومن المحتمل أن تكون أشكالها تعود إلى زمن بالغ القدم . وفى الواقع فإنه يستفاد من معلومات حصلت عليها من تجار قادمين مع قوافل دارفور، أن شعوب أواسط أفريقيا تستخدم منافخ من نفس الشكل . ومن جهة أخرى فإن ما انتهينا من قوله عن الحداد ينطبق تمام الانطباق على

صانعى الأدوات الحديدية ، والذين يصنعون بصفة خاصة أدوات الزراعة والحدائق ، وكذلك أدوات البنائين والقصارين والنجارين ، إلخ .

وقد كان إعداد الجلود موضوعاً لوصف خاص ندين به للمسيو بوديه Boudet ونحن نحيل إليه فى هذا الخصوص . ويمثل الشكل رقم ٤ من اللوحة السادسة والعشرين (الدولة الحديثة ، المجلد الثانى) بعض وسائل صناعة الجلود الفاسية .

وفى القاهرة ، وكذلك فى المدن الرئيسية الأخرى ، يتركز كل ضرب من ضروب الصناعة فى حى خاص ، وهو نفس ما كان يحدث فى الماضى فى مدننا الأوربية . وهكذا نجد شوارع بأكملها لا يعيش بها سوى نحاسين ، وأخرى لا نصادف بها سوى الفطاطرية وباعة الحلوى الآخرين ، وهناك نوع ثالث من الشوارع التى يشغلها السروجيون وصناع مهمات الخيل ، وكذلك نجد أحياء خاصة بالصاغة وتجار المجوهرات ونقاشيها ، وتوجد بها مصانعهم ، ويحرس ويقفل هذا الحى بحرص وعناية بأكثر مما يحدث فى الأحياء الأخرى .

ويكاد يكون كل هؤلاء الصناع الأخيرين الذين يشتغلون فى خامات ثمينة ، ويتطلب العمل بها معرفة أكبر ومهارة أفضل ، من المسيحيين السوريين أو من الأرمن ؛ كما يجدر بالملاحظة أن معظم النساجين فى مصر العليا ، وكذلك معظم الحدادين والنجارين هم من أقباط مصر ، فهناك ، كما فى كل مكان آخر ، تصبح الحرف اليدوية قسمة بين أولئك الذين تستبعد الحكومة دينهم (أى يحرمون من وظائف الحكومة بسبب دياناتهم) (*) ، وبذلك تنحصر الوسيلة التى يستطيعونها فى الواقع لاكتساب نوع من الاستقلال ، فى التخصص فى هذا الضرب من ضروب الصناعة ، إذ يستطيعون بذلك أن ينقلوا فنونه معهم فى كل مكان .

ويوضح ما سبق أن قلناه عن مختلف الحرف التى يمارسها المصريون المحدثون ، وبشكل كاف ، تلك الحالة من البدائية التى ترددوا إليها : فإنتاج المواد الضرورية اللازمة

(*) راجع ما سبق أن ذكره نفس المؤلف بخصوص الضرائب وإدارة القرى ؛ الباب السابق ؛ الفصل الأخير . (المترجم) .

للغذاء أو الكساء أو سكنى البشر ، هذا هو الحد الذى انتهوا إليه . وزيادة على ذلك ، فلسوف يتفهم المرء دون عناء كم سيكون من المستحيل فى هذه المنطقة من العالم ، حيث يضطر الناس لاستيراد الأخشاب والمعادن من الخارج ، وحيث يلقى نظام الحكم المطلق الشكوك فى مقدرة الناس على التمتع بثرواتهم الخاصة — كم سيكون من المستحيل أن يتوسع الناس فى ممارستهم لأية واحدة من هذه الحرف التى لا يتعهدها إلا جو الرفاهية ، حيث يستطيع المرء أن ينفق عن سعة وبشكل آمن ما يفيض عنه .

ومن جهة أخرى فإن عمل الإنسان وعمل الحيوان أقل تكلفة مما قد يتكلفه استخدام معظم آلاتنا . وفى الحقيقة ، فإن هناك عدداً كبيراً من الآلات لكنها لا تعمل إلا فى شىء واحد ، هو رفع المياه لرى الأراضى ولتغذية الآبار والأسبلة بالمياه ، وقد قدمنا لهذه الماكينات أوصافا تحت اسم الدواليب ذات الثقوب ، والدواليب ذات القواديس . وعلى الرغم من خشونة مبنى هذه الماكينات فإنها تعطى فكرة مبدئية عن كيف تدور التروس التى تتحرك بشكل عمودى ، نتيجة تحرك وتعاقب تروس أخرى بشكل أفقى ، تحدثه الماشية وهى تدور حول مدارها ، حيث تستخدم محركا (لهذه التروس الأفقية) .

ويجد المرء كذلك كيف تنتقل الحركة فى طواحين الدقيق ، وفى الأشكال الأسطوانية المستخدمة فى عصر القصب ؛ ومن اليسير أن يعرف المرء فى هذه الأسطوانات ، وفى تلك التى تصغرها على نحو أكبر بكثير ، والتى بواسطتها تفصل بذور القطن عن شعره الذى يغلفه ، فكرة السلندر المستخدم فى سحب المعادن ؛ ومع ذلك فإن المصريين لم يقوموا بتطبيق هذه الفكرة فى هذه الحالة الأخيرة ، فشرائح المعادن التى تصنع منها النقود لا تنسحب إلى السمك الذى ينبغى أن تبلغه إلا بواسطة مطرقة . ألا يدفع ذلك إلى الاعتقاد بأن فن صناعة السكر ، الذى دخل إلى مصر مع زراعة قصب السكر لم يعرف هناك إلا منذ قرون قليلة ، فى حين أن الطرق المستخدمة فى سك النقود ، وهو فن ضارب فى القدم فى هذه البلاد ، قد ظلت على حالها دون أن يطرأ عليها أى من التطورات التى تناولتها فى أماكن أخرى ، نتيجة للتقدم الحضارى .

كذلك ، فإن الرحوات التى تطحن تحتها الحبوب الزيتية تدار كما سبق لنا القول ، بواسطة حيوانات تعلق بمدارها ، وهو نفس ما يحدث بخصوص الرحوات التى يسحق تحتها الجبس .

وسوف نلاحظ بخصوص الوسيلة الأخيرة أنه قد تناولتها فيما يبدو درجة من التحسن لم تصل إليها مطلقاً تلك التى تستخدم فى فرنسا فى سحق هذه المادة ، ذلك أن الرحال هنا (فى فرنسا) هم الذين يدقون فى جرن بأذرعهم ، وهذا بالتأكيد أقل انجازاً بكثير ، من تعريض الجبس المتكلس لضغط أسطوانة حجرية عمودية تدور بواسطة مدار .

ومن جهة أخرى ، ففى بلد تتوفر فيه بكثرة أغذية الإنسان والحيوان ، ونتيجة لذلك لا ترتفع أجور الأيدى العاملة لحد كبير ، يكون من الأسهل استخدام قوى الإنسان والحيوان فى العمل مع تفضيل ذلك على أى وسيط آخر ، كذلك فلابد أن نأخذ فى اعتبارنا أن هذه البلاد لا توفر أى مجرى طبيعى يمكن استغلاله كقوة محركة ، كما أن الفروع التى قد يمكن إرفادها عن النيل ، لكى تقام عليها دواليب هيدروليكية لن تفى بهذا العرض بشكل تام ، إذ سيكون متالها أن تجف بالضرورة خلال فترة من العام .

ومع ذلك ، فإذا لم يكن بمقدور الصناعة أن تجد فى مصر محركات نافعة على مجارى المياه ، فلابد أنها قد تجدها فى انتظام الرياح وقوتها ، فمن المعروف أن الرياح الغربية ، والشمالية الغربية ، والشمالية تكاد تهب هناك فى الواقع طيلة العام ، كما أن المرتفعات المصطنعة التى بنيت فوقها القرى ، توفر بالإضافة إلى ذلك أماكن مناسبة لإقامة طواحين الهواء . ولهذا السبب ، فقد تكون هذه الطواحين ، أولى الآلات التى ستقام فى هذه البلاد ، وذلك إذا ما ازدهرت التجارة والزراعة بشكل مضاعف ، وإذا ما ارتفعت أجور عمل الإنسان والحيوان ، لدرجة يصبح من المفيد معها أن تحل محل قوتهم البدنية محركات غير حيوانية ؛ نقول أولى الآلات التى سوف تقام هناك ، لأنه لا ينبغى لنا أن ندخل فى الحسبان طواحين الهواء السبع أو الثمانى ، التى يجدها المرء فى

الاسكندرية وجزيرة الفنار ، ومع أنها قد أنشئت هناك منذ زمان قديم فـــإن استخدامها لم يمتد إلى داخل البلاد . ولا نجد منها إلا ما هو على هذا الساحل ، حيث جلبها الأوربيون ، حسبما تشير كل ظواهر الأمور . ويبرهن ذلك ، وهو أمر نقوله بشكل عابر ، على أن قدماء المصريين لم يعرفوا مطلقاً هذه الآلة البارعة .

الباب الثالث

عن الحالة الراهنة للتجارة عند المصريين

(تمهيد)

يتم تبادل منتجات أقاليم مصر بين مدينة ومدينة ، وبين قرية وأخرى فى أسواق عامة تقام فى يوم محدد من أيام الأسبوع ، حيث يتوجه إلى هناك من كل مكان البائعون والمشترون ، أما ما يزيد عن حاجة الاستهلاك من هذه المنتجات ، بالإضافة إلى بعض المنتجات الصناعية للمصريين المحدثين على الرغم من رداءتها ، فيعرض فى أعماق أفريقيا وبعض مناطق من آسيا وأوربا حيث تحصل مصر فى مقابلها إما على نقود أو على بضائع تحتاج إليها . وقد بقيت مصر ، وسوف تظل ، بفضل موقعها الجغرافى ، المكان الملائم للتجارة الخارجية حيث تتخذ منها هذه التجارة مستودعاً لمنتجات العالم القديم .

الفصل الأول
عن التجارة الداخلية فى مصر

لا يسمح ضيق الوادى فيما بين جزيرة إلفانتين وإسنا بأن يصدر جزء من المحاصيل التى تزرع هناك لتستهلك فى مكان آخر ، إذ هى تكفى بالكاد لسداد الضريبة وكذلك لإطعام عدد ضئيل من السكان الذين يظلون طيلة العام قائمين بأعمال الحقل ، فى حين يمارس الجزء الأكبر من هؤلاء السكان مهنة الملاحة فى القوارب والصنادل التى تعمل فوق النيل .

ومنذ عدة سنوات من قبل مجئ الفرنسيين ، كانت مدينة إسنا مقراً لكثير من البكوات المطاردين ، وأصبحت لهذا السبب نفسه منطقة للاستهلاك الكبير لحد ما ، بالإضافة إلى كونها مركزاً لتجارة مصر مع القبيلتين العربيتين : العبابدة والبشارية اللتين تمتلكان الصحراء المتاخمة ، إذ يأتى هؤلاء العربان إلى سوق إسنا ليحصلوا على الحبوب وبخاصة الأرز ، وكذلك الحديد والمعادن الأخرى التى يحتاجون إليها . ويقوم هذا السوق كل أسبوع حيث تباع كذلك منسوجات قطنية وكتانية وآنية منفرة خشنة وبعض الملابس المصنوعة من الجوخ .. إلخ . ويبيع العربان فى مقابل ذلك الجمال والعبيد السود الذين يختطفونهم من القوافل التى تعبر صحراءهم أو الذين حصلوا عليهم هم بأنفسهم من أعماق أفريقيا ، ويجلب هؤلاء إلى سوق إسنا أيضاً الصمغ الذى يجمعونه من أشجار الأكاسيا (السنط) التى تنمو فى الصحراء ، كما أنهم يحولون خشب هذه الأشجار إلى فحم ينقلونه إلى قرية الرديسية ، حيث يشتريه تجار إسنا ويقومون بنقله عن طريق النيل إلى القاهرة وإلى مدن أخرى من مدن مصر .

ويجلب فلاحو المناطق المجاورة إلى هذه السوق الزبد والجبن والحبوب ، والدجاج والحمام والخضروات والأصواف والقطن الوبر والقطن المغزول ، كما يعرضون هناك للبيع الأبقار والجاموس والجمال والخراف والماعز وبصفة عامة فإن سكان هذه المنطقة الأكثر مدارية من مصر يأتون إلى إسنا بكل البضائع التى ترسل إلى هناك من القاهرة .

وتشتمل هذه بالدرجة الأولى على الحديد والرصاص والنحاس والصابون والأرز ... إلخ وعلى الأجواخ الواردة من أوربا من أنواع مختلفة وعلى الأقمشة الواردة من سوريا . وتستخدم هذه المدينة أيضاً كمستودع لبعض البضائع الواردة من قوافل سنار مثل ريش النعام والعاج والأبنوس والعبيد الصغار من الجنسين ، وإن كان هؤلاء لا يتوقفون هناك إلا للوقت الضرورى للراحة والانتعاش ثم يسارع التجار بإرسالهم عن طريق النيل إلى القاهرة .

ويرسل من هناك إلى القاهرة كذلك وبنفس الطريقة زيت الخس بكميات كبيرة لحد كاف وكذلك كمية قليلة من زيت القرطم والقمح والحبوب الأخرى وكذلك البلح والفحم والسنامكى والشبة .

وتبلغ زنة قنطار الزيت ١٢٢ رطلا ، ويدفع عنه كمصاريف شحن ٤٠ بارة من إسنا حتى القاهرة ، وتبلغ المسافة بين هاتين المدينتين ٧٠ ميريامتر (٧٠٠ ك . م) .

ويطلق اسم مد على وحدة الكيل الخاصة المستخدمة فى تجارة البلح المجفف الذى تنتجه أسوان والنوبة . ويبلغ وزن هذا المكيال من البلح ٢٠ رطلا ويباع فى أسوان بسعر ٤٠ — ٥٠ بارة . وتبلغ رنة القنطار ٢٥٠ رطلا وتصل تكاليف نقله إلى القاهرة إلى ٨٠ بارة . وتجارة البلح فى أسوان بالغة الأهمية . وهناك تجار يرسلون من هذا البلح ، لحسابهم الخاص ، ما يبلغ أربعة أو خمسة آلاف قنطار فى العام .

ويعد السنامكى بعد البلح أهم الأشياء فى تجارة أسوان . وهذا النبات ينمو بكثرة وتلقائياً فى الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر بالاتجاه إلى الجنوب ابتداء من إسنا .

ويقوم عربان قبيلة العبابدة الذين يجنون هذا المحصول بتقليم النبات بطول بضعة ديسمترات فوق سطح الأرض عندما يكون قد أثمر حبوبه ، ثم يجففون هذا النبات فى الشمس لمدة يومين ، ثم يضعونه فى ركائب أو قفف كبيرة تصنع من سعف النخيل ، وينقلونه على ظهور الجمال حتى أسوان ، حيث يشتريه خمسة أو ستة من التجار الذين لهم صلة بهؤلاء العرب .

ويبلغ ثمن حمولة الجمل من السنامكى فى أسوان تبعاً لمبيعات العربان ٥ – ٦ زر محبوب يبلغ قيمة الواحد منها ١٨٠ مدينى .

ولم تكن تجارة السنامكى فى مصر حرة على الإطلاق ، فقد سيطر عليها البكوات واحتفظوا لأنفسهم بالحق فى إدارتها . ويبلغ الثمن السنوى لهذا الالتزام ستين كيساً ، ووقت مجيء الحملة الفرنسية كان الملتزم هو المسيو كارلو روزيتى قنصل البندقية والنمسا وكان يقيم بالقاهرة .

وكان هذا الملتزم قد نقل صلاحياته إلى وكيل له مقيم فى أسوان . وكان الأخير يشترى السنامكى من التجار الأتراك الذين قاموا بشرائه من العربان مع إعطائهم $\frac{1}{5}$ أو $\frac{1}{6}$ الربح ثم يقوم بنقله إلى الملتزم على أساس ١٥ بوطاقة لحمولة الجمل الواحد .

ويرسل السنامكى الخام ، وبالحالة التى جمعه عليها العرب من أسوان إلى القاهرة عن طريق النيل على قوارب نيلية كبيرة ، وتدفع ٣٠ بارة كمصاريف نقل عن الحمولة الواحدة منه .

وتبلغ الكمية التى كانت ترسل منه عن هذا الطريق من ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ قنطار . وفى القاهرة يتم السحب من هذه البضاعة فى المحلات تبعاً لنوعها وتحت رقابة الملتزم . وبعد إتمام هذه العملية يبلغ متوسط سعر السنامكى الذى يسمى سنامكى الالتزام ٣٠ بوطاقة للقنطار زنة ١٠٠ رطل .

قلنا فيما سبق إن كمية كبيرة من فحم الخشب المستهلك فى مصر الوسطى والقاهرة ، يتم صنعها على يد العربان الذين يسكنون الصحراء الواقعة على الشط الأيمن للنيل وعلى مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام من النهر . ويقوم مساعدو بعض تجار إسنا الذين ينحصر معظم نشاطهم فى هذه التجارة بشراء هذا الفحم من العربان الذين يحضرونه إلى الرديسية .

ويباع الفحم فى هذه المنطقة بسعر ٩٠ – ١٢٠ بارة لحمولة الجمل الواحد ، وتدفع مصاريف نقله بواقع ٣٠ بارة للقنطار من هناك حتى القاهرة التى يرسل إليها كل

عام ٣ – ٤ آلاف قنطار ، ويباع القنطار الواحد عادة فى أسواق هده المدينة بـ ٢ زر محبوب أو ٣٦٠ بارة .

أما الشبة فهى موضوع تجارة قرية الجوبانية الواقعة على الشط الأيسر للنيل على مسيرة أربع ساعات ونصف إلى الشمال من أسوان . ويقوم سكان هذه القرية وسكان بعض القرى المجاورة ، مضافاً إليهم بعض عرب العبابدة ، بتشكيل قافلة تذهب مرة كل عام للحصول على الشبه فى الصحراء على مسيرة عشرة أيام باستخدام طريق الجوبانية . وتتكون هذه القافلة من ٣٠ – ٤٠ رجلا وحوالى الخمسين جملا ، وتتجه إلى الجنوب الغربى ، وتمشى لمدة عشرة أيام وسط حبال رملية ثم تجد وراء ذلك سهلا رملياً فسيحاً يمتد خلاله الطريق هابطاً على شكل منحدر سهل نحو المكان الذى توجد به الشبة . ويوجد هذا الملح فى طبقة وحيدة يتراوح سمكها من ٢ إلى ١٥ بوصة تغطيها طبقة خفيفة من الرمال تكون بنفس سطح التربة ويبلغ ارتفاعها من ٦ إلى ٨ بوصات ، وهذا الرمل جاف وهش ، وترقد طبقة الشبة فوق فراش آخر من الرمل الرطب له نفس مذاق الشبة لكنه يتفاوت فى سمكه .

وتكون الشبة رطبة لحظة استخراجها ، ويقوم الناس بتقطيعها إلى قطع ويجففونها فى الشمس لمدة ١٠ إلى ١٢ ساعة ، وبعد ذلك يضعونها فى قفف كبيرة مصنوعة من سعف النخيل ، وتنقل على ظهور الجمال حتى الجوبانية ، حيث يأتى الناس لشرائها من قنا وسيوط والقاهرة والمحلة الكبيرة ومناطق أخرى من مصر .

ويستغرق استخراج الشبة مدة يومين ، بعدها تبدأ القافلة فى طريقها للعودة إلى الجوبانية . وتتطلب هذه الرحلة بالنسبة للذهاب والعودة كما رأينا من ٢٢ إلى ٢٥ يوماً (١) . ويتكون تموين القافلة من الخبز والعدس والزبد والدقيق . وتوجد فى الطريق

---

(١) إليكم تفاصيل مسار هده القافلة . على مسيرة فرسخين من الجوبانية توجد بئر فى سفح جبل فى مكان يسمى كركر وبعد مسيرة ثلاثة أيام توجد أيضاً بعض عيون مياه فى واد يسمى دنحل ، وعلى بعد مسيرة ثلاثة أيام من هده العيون توجد عيون أخرى تسمى الألمى . وأخيراً ، فبعد مسيرة أربع وعشرين ساعة توجد بئر محفورة فى الأرض يشار إليها باسم البصاقة . ومياه هده البئر بالغة العذوبة ، لكن مياه الآبار الأخرى ليست على هده الدرجة من العذوبة ، وإن كانت أكثر صلاحية من مياه بئر الجيتة ، وهى محطة تقع على طريق القصير. وقد حصلت على هذه التفاصيل حول استخراج الشبة والمكان الذى توجد به ، فى أسوان ، عن طريق أحد سكان =

أدغال أشجار يستخدم خشبها كوقود ، وتحمل القوافل معها كذلك الذرة والشعير لإطعام الجمال .

وتباع الشبة التى تجلب إلى الجوبانية إلى التجار الذين يأتون لشرائها من هناك بسعر المد ٥٠ – ٦٠ بارة ، والمد هو مكيال يساوى بالنسبة لهذه البضاعة $\frac{١}{١٠}$ أردب من القاهرة .

ويدفع مقابل جزء من منتجات المنطقة الأكثر مدارية من مصر والتى انتهينا من إيضاحها فى شكل بضائع قادمة من القاهرة . وتشتمل هذه بالدرجة الأولى على المنسوجات الكتانية والجوخ والأقمشة السورية والصابون والأرز والحديد والنحاس والرصاص والملح .

(=) الجوبانية ، وهو يذهب كل عام فى هذه القافلة للبحث عن هذا الملح فى الصحراء . وقد واتتنى الفرصة لملاحظة واقعة تقدم فيما أعتقد ، وعن طريق التماثل ، وسيلة لتفسير كيف نشأت هذة الطبقة من سلفات الألمنيوم وسط الرمال .

يشكل ذلك الجزء من أطلال طيبة الذى تقوم فوقه اليوم قرية الكرنك سلسلة من المرتفعات الأرضية بالغة الضعف والرخاوة ، نتجت من تهدم الطوب النيئ الذى كانت منشآت هذه المدينة فيما يبدو مبنية به ، وكذلك من الأنقاض من كل نوع والتى تكدست هناك على فترات مختلفة . وتوجد على حواف هذه المرتفعات طبقة صغيرة من النطرون ومن نترات الصودا يبلغ سمكها من ٣ – ٤ سم وتوجد على عمق ١٥ – ٢٠ سم تحت سطح التربة التى تتبع انحناءاتها من كل اتجاه حتى تبلغ ارتفاعاً معيناً ينتهى عنده وجود هذين الملحين فى شكل طبقة دائمة ، هذا على الرغم من أن الكتلة من هذه الأنقاض فى مجموعها تحتوى على شئ منهما فى كل مكان بدرجة متفاوتة ويمكن الحصول عليه عن طريق غسلها .

ولكى نتصور تكون هذه الطبقة الملحية ، ينبغى أن نلاحظ أن مرتفعات الأنقاض التى نحن بصددها تقوم فوق سهل تغمره عادة المياه أثناء الفيضان ، وعندئذ فإن المياه التى تعرق السطح تخترقه فى جزئه الأدنى ثم بارتفاعها فوق مستوى منسوبها كما فى الأوعية الشعرية ، يتحلل الملح الذى تحتويه الأنقاض وتتشبع به لدرجة أنه يصعد ، لكن لصعوده حداً ، ويحدث أن يبدأ الملح فى لتكلس عندما يكون سطح الأنقاض قد جففته الشمس لدرجة كبيرة ، وعندما تصل المياه التى كانت مشبعة به قريباً من هذا السطح لدرجة تبخرها معها الحرارة الخارجية حيث ينفذ إشعاعها من خلال التربة . وهكذا تتكون طبقة من الملح يزيد سمكها كل عام بقدر ما يبقى السهل مغموراً بالمياه . ويبدو لى أنه من الممكن أن نفسر بنفس الطريقة تكوين طبقة الشبة التى يستغلها سكان الجوبانية فى الصحراء . فالمياه التى تحمل هذا الملح متحللا تتسرب من خلال الرمال من تحت إلى فوق وكان يمكن لها أن تسيل على سطح التربة لو أن الرمل على بعد ٨ – ١٠ بوصة تحت هذا السطح قد جف بالفعل لدرجة تكفى بفعل حرارة الشمس لكى تبخر هذه المياه بمجرد وصولها إلى السطح .

ولم تكن هناك على الإطلاق رسوم مقررة لدخول مختلف الأشياء إلى إسنا التى كانت تعد بمثابة مستودع لهذه البضائع ، وتبلغ نسبة ربح تجار هذه المدينة عادة من ١٠ إلى ٢٠ ٪ ، وهى نفس النسبة لسعر النقود التى تقرض فى أسوان إذ تبلغ سعر الفائدة من ١٠ إلى ١١ ٪ .

ويهىء النيل طريقاً حد مناسب للانتقال من جنوب مصر إلى شمالها ، بحيث لن يدهشنا أن نعرف أن التجارة الداخلية لهذه البلاد قد اتبعت هذا الطريق منذ زمان لاتعيه الذاكرة ، لذلك فالنهر ملىء بالقوارب الكبيرة والصغيرة التى تعبره بلا انقطاع . ويعمل فوق معظم قوارب مصر العليا ، كما سبق القول ، ملاحون من ضواحى أسوان ومن فيله ، بل ومن النوبيين الذين لا يجدون ما يتعيشون عليه فى بلادهم ، فيعملون بالملاحة فوق النيل لجزء من العام ، ويجلبون لمعيشة أسرهم عوائد أجورهم ، سواء كان ذلك فى شكل نقود أو فى شكل بضائع لها صفات الضرورات الأولية .

وبالإضافة إلى أن هذا الطريق المستخدم فى نقل بضائع التجارة الداخلية لمصر طريق اقتصادى لحد كبير ، فلابد من أن نذكر أن هذا الطريق النهرى أكثر ضماناً وأمناً من الطريق البرى ، فالغيبة شبه التامة للشرطة ، بالإضافة إلى قلة اتساع الوادى وعادات العربان المحيطين به ، تعرض المواد التى تنقل براً للتسلب والنهب فى حين أن الصنادل الضحمة التى تحمل هذه البضائع ، وتحمل معها بخلاف الملاحين والنوتية ، عدداً لا بأس به من المسافرين ، هذه الصنادل هى أكثر أمناً من السلب والنهب ولو إلى حد ضئيل .

وتعد كل المدن الواقعة على النيل وكذلك بعض القرى محطات تتوقف فيها القوارب التى تأخذ منها أو تفرغ فيها حمولتها أثناء موسم الفيضان . وعندما تصبح الترع المتفرعة من النهر صالحة للملاحة فإنها تستخدم فى نقل بضائع القرى الداخلية إلى هذه الموانى بواسطة صنادل أصغر حجما . أما فى بقية العام ، فيتم ذلك على ظهور الجمال والحمير .

وعند التوجه شمالا من إسنا عن طريق النيل ، تكون مدينة قوص أو قفط

القديمة هى أهم مدينة تقابلنا ، فهى مستودع للقمح وبقية الغلال المخصصة للتصدير بحراً إلى الجزيرة العربية عن طريق ميناء القصير الواقع على البحر الأحمر ، وترسل من قوص إلى القاهرة أيضاً كمية ضخمة من الشيلان الصوف بيضاء اللون من نوع تلك التى تصنع فى قنا . ويتردد الناس على سوق هذه المدينة الأخيرة الذى يقام مرة كل أسبوع ليتزودوا منه ، ومن المحلات التى أقيمت فيه بمواد البلاد وبالبضائع الأوربية التى تنقلها القوافل إلى القصير . وترسل من قنا إلى القاهرة الأقمشة القطنية وزيت الخس والقمح وحبوب أخرى وأخيراً كمية ضخمة من الآنية الفخارية المبردة التى تعرف باسم البردق ، وتحظى هذه بتقدير أكبر من كل الآنية من نفس النوع والتى تصنع فى مصر .

وفى غالب الأحيان ، فإنه تنهض كل ثمانية أيام فى كل مدينة من مدن مصر العليا سوق يأتى إليها سكان القرى المجاورة ليبيعوا المواد والأقمشة التى يصنعونها . وينقل ما يفيض عن الاستهلاك إلى مناطق أخرى عن طريق التجار الذين يتجرون فى هذا النوع من البضائع . وهكذا يصدر إلى القاهرة سكر فرشوط وأخميم وجرجا ، وزعفران طنطا ، والأقمشة الكتانية من صنع سيوط ، وكذلك الغلال والفول والعدس وزيوت بذر الكتان والقرطم واللفت . وتستبدل بكل المنتجات الزراعية وكذلك مختلف الأشياء المصنعة التى تناولناها عند معالجتنا للزراعة والصناعة فى مصر العليا بضائع تأتى من القاهرة . وما لم تكن ثمة ظروف خاصة تتناول هذه البضائع فإن هذا التبادل لا تتناوله إلا تغييرات طفيفة فى المواد التى تكون موضوعاً له .

وتقام فى مدينة الفيوم ، عاصمة ولاية الفيوم ، سوق هائلة يأتى إليها العرب الذين استقروا على تخوم هذا الإقليم ليتزودوا بما يحتاجون إليه فى نوع الحياة التى يحيونها ، وهناك يبيعون الجمال التى يربونها والبلح الذى جمعوه من الواحات . ويتميز هؤلاء العرب عن بقية السكان الذين يترددون على الأسواق بنوع الملابس التى يرتدونها وبالحربة التى يتسلحون بها على الدوام حتى وهم سائرون على الأقدام . أما الفلاحون فيأتون إلى هناك ليس فقط ليبيعوا فواكههم وخضرواتهم ولكن أيضاً ليبيعوا شيلان (شال) الصوف التى يصنعونها .

ويدفع أولئك الذين يمونون أسواق المدن المصرية بالبضائع رسماً فى مقابل التصريح لهم بعرض بضائعهم للبيع هناك . وكانت رسوم الأسواق تحصل لصالح الكوات أو الكشاف الحاكمين الذين كانوا يعهدون بها إلى محصلين . وقد بلغ ثمن التزام ضرائب الأسواق فى المدينة ١٤٠,٠٠٠ مدينى وكان الملتزم يحصل على الأقل ١٧٠,٠٠٠ مدينى بحسب تعريفة كانت تنظمها ضريبة النصاب بحسب نوع وطبيعة البضاعة ؛ وهكذا فقد تقررت كرسوم ١٠ مدينى لكل أردب من القمح فى مقابل لا شيء بالنسبة للقطن المغزول أو للأقمشة القطنية والكتانية ، ذلك أن الضريبة التى كانت تسددها طائفة النساجين كانت تعفى كلية الإنتاج الذى يصنعه أبناؤها ويعرضونه للبيع من كل رسم تقرره الخزينة . وتبلغ فائدة المال فى الفيوم ١٠٪ .

وتتلقى مدينة القاهرة ، التى يمكن أن ننظر إليها على اعتبارها أهم مركز للاستهلاك فى مصر ، المواد الغذائية من كل أقاليم البلاد وتدفع ثمنها كما قلنا إما بالنقد وإما فى شكل بضائع واردة من أوربا . ويتم بيع هذه البضائع فى أسواق عامة تقام بشكل منتظم فى أيام محددة من الأسبوع أو فى أسواق مخصصة لكل واحدة منها . وسيكون بيان هذه الأسواق المتخصصة والكثيرة لحد كاف جزءاً من وصف طبوغرافية القاهرة .

ولكننا نكتفى هنا بالقول بأن الخضروات وكل أنواع الوقود عادة كالفحم وخشب الوقود تباع بالوزن وكذلك اللحوم والخبز . وهذه الطريقة التى اتبعت بلا جدال لتفادى ما يمكن أن يقع فيه المشترون من غش لو أن الباعة قد استخدموا وسائل أخرى لتقدير كمية البضاعة موضوع التعامل ، هذه الطريقة لم تكن تحقق على الدوام الهدف المرجو منها . فالبيع بأوزان غير صحيحة أمر شائع لحد كبير بين تجار الوقود وتجار بقية القائمة السابق بيانها . لذلك فقد كان قمع هذه المخالفة واحداً من أهم صلاحيات أحد الأغوات (أغا) المكلفين بأعمال الشرطة فى المدينة . وكان هذا الأغا يقوم بجولات فجائية فى مختلف الأسواق ، وكان يسبقه ، وهو يسير ممتطياً ظهر حصانه ، أحد موظفيه حاملا معه ميزاناً كبيراً من الموازين المعتمدة ، ويتبعه حشد كبير من الخدم المسلحين بالعصى ، فإذا قابله أحد المشترين وأظهر شكه حول دقة

وزن البضاعة التى يحملها ، فإن الأغا يسترشد عن محل البائع ويتوجه إليه على الفور ويقوم حامل الميزان فى نفس مكان الواقعة وعلى الملأ بالتحقق من وزن الشيء المبيع ، فإذا ما وجد أن الوزن أقل مما بيعت البضاعة عليه ، فإن التاجر يتلقى على الفور وأمام دكانه هو ، الضرب بالعصا ، وبعد تلقيه هذه العقوبة يرفه جيرانه الذين يجدون فى ذلك فائدة كبيرة لهم إما لأنهم قد سبق وحصلوا منه على نفس « الخدمة » ، وإما لأنهم كانوا سيحصلون عليها بين لحظة وأخرى .

وتتم الرقابة على الأسواق عادة وبنفس **الطريقة** فى بقية مدن مصر الكبرى ، ولكن بحزم أقل مما يحدث فى القاهرة .

وإلى سوق منوف الذى يقام مرة كل أسبوع ، يحمل نساجو الأرياف أقمشتهم ، وهناك يشتريها تجار هذه المدينة الذين يقومون بنقلها إلى القاهرة والاسكندرية ، وكان يبلغ ما يصدر من الأقمشة من منوف ما يقرب من ١٥٠ ألف قطعة ، وكذلك كان تجار أشمون والقاهرة يجوبون قرى ولاية المنوفية ويشترون جزءاً كبيراً من الأقمشة التى تصنع فيها

ويمتلىء سوق منوف بخلاف الأقمشة ، بكميات كبيرة من الصوف والكتان والوبر وغزل الكتان والفخاريات من كل نوع ، والحبوب والخضروات الجافة والطازجة وبخاصة درنات القلقاس التى تزرع بشكل خاص فى شبين (الكوم) وضواحيها .

وتعد مدينة طنطا ، التى نادراً ما زارها الرحالة الأوربيون قبل الحملة الفرنسية ، أهم مدينة تجارية فى أعماق الدلتا . وهذه المدينة ، بالإضافة إلى وقوعها فى منطقة بالغة الخصوبة وإلى أن سكانها يمارسون صناعة أقمشة الكتان الذى يزرع هناك بوفرة ، هذه المدينة هى كذلك مقر لأسواق بالغة الشهرة . وتدين هذه الأسواق بأصلها شأن كل أسواق الشرق إلى الورع الروحى عند المسلمين ، فهم هناك يقدسون مقبرة أحد الأولياء المشهورين، ويسمى سيدى أحمد البدوى، وتوجد هذه المقبرة فى المسجد الرئيسى لمدينة طنطا .

ويذهب الناس إلى هناك فى شكل حجيج (مزار) فى فترتين من العام ، مرة فى اعتدال الربيع ومرة أخرى عند انقلاب الصيف . وإليكم ما يذكر بشكل خاص عن أحمد البدوى :

ولد أحمد البدوى فى فاس فى بلاد البربر (المغرب) فى سنة ٥٩٦ هجرية وجاء إلى مصر أثناء توجهه مع أسرته إلى مكة وكان يبلغ عندئذ الحادية عشرة من عمره . وعند عودته من مكة توقف فى طنطا حيث عاش حتى سن الثانية والسبعين ، وحصل هناك بفعل سلوكه على شهرة واسعة كولى ، وبعد موته شيد بناء صغير حول قبره وبدأ المسلمون يزورونه بدافع من الورع والتقديس . وفى حوالى العام ٦٦٠ من الهجرة أمر السلطان بيبرس ببناء المسجد الذى نراه اليوم فى طنطا ، ثم قام اسماعيل بن إيواظ بتجميل هذا المسجد منذ حوالى قرن وتم تجميله مرة أخيرة على يد على بك منذ حوالى خمسين عاماً .

ولهذا الجامع عوائد كبيرة ، فهو يمتلك قرية تبلغ مساحتها خمسمائة فدان وتسمى قحافة ، كما يمتلك زيادة على ذلك فى مدينة طنطا وكالة وحماماً والمكان الذى يطحن فيه البن ، ويتلقى فوق ذلك كثيراً من النذور من سكان مختلف أقاليم مصر .

وتعفى الأسواق التى تقام فى طنطا أثناء عيد (مولد) الولى من كل رسوم تحصل لصالح الحكومة ، ويقوم بمهمة الشرطة هناك كاشفان (كاشف) ، واحد من ولاية المنوفية وآخر من ولاية الغربية . ويعلن عن يوم المولد عن طريق رسائل (بريد) تحمل فرماناً من الباشا إلى أقاليم مصر السبعة وتشتمل على الصعيد ، وولايات : الجيزة ، البحيرة ، المنوفية ، الغربية ، والشرقيين .

ويبلغ عدد الوكالات فى طنطا ١٠ - ١٢ وكالة وهى مخصصة لأبناء مختلف مدن مصر ولمختلف الأمم المحمدية ، ويوجد بخلاف هذه الوكالات وفى شوارع متعددة مساكن كانت تؤجر إلى التجار المتنقلين ، كما كانت كل الحقول المحيطة بالمدينة مغطاة بالخيام .

أما الأشياء التى تقوم عليها التجارة فى طنطا فتشتمل على المواشى من كل نوع والأقمشة الكتانية والقطنية ، ويجلب تجار القاهرة والاسكندرية إلى هناك بضائع واردة من أوربا والهند .

كذلك كان يقام فى مدينة تحظى ببعض الأهمية فى أعماق الدلتا وتسمى محلة

مرحوم ، سوق يتردد عليه الكثيرون بسبب المنسوجات التى تصنع فى هذه المدينة وضواحيها .

ولابد أن نعلم فوق ذلك أن الأسواق التى تقام فى مدن وقرى الدلتا لم تكن على الدوام مأمونة لحد كبير ، لأن السكان الذين يترددون عليها وكذلك عرب الولايات المجاورة ، ينقسمون كما سبق أن قلنا إلى عصبتين متعاديتين (سعد وحرام) وكانا يتبادلان أشد ما يستطيعان من أذى يحمله أساؤهما على أيديهم فى أى مكان يلتقون فيه معاً .

ولابد أن نذكر بعد الأماكن المختلفة التى انتهينا من ذكرها باعتبارها أهم أسواق الدلتا : مدينة سمنود التى جعل منها موقعها على الفرع الشرقى للنيل ، مستودعاً طبيعياً للبضائع الأجنبية التى ترد إلى مصر عن طريق دمياط ، مثل الحديد والخردة والفحم ، بالإضافة إلى أنها نقطة الاتصال بين ولايات الشاطىء الأيمن وولايات الشاطىء الأيسر .

وليست لمدينتى رشيد ودمياط على الإطلاق أسواق بمعنى الكلمة لشئون التجارة الداخلية ، لكنهما مستودعان لتجارة دول أوربا وشعوب سوريا ، وستواتينا الفرصة للعودة إليهما فيما بعد .

وتقع على الشط الشرقى للنيل وعلى مسافة قصيرة إلى الشمال من سمنود مدينة المنصورة ، وهى مستودع للبضائع ينقل منها إلى القاهرة ودمياط ورشيد جزء من قطن الولاية (الدقهلية) وكذلك الزبد والجبن والكتان وزيت السمسم وكل هذه المواد من منتجات الولاية التى تخزن فى حوالى ٣٠ وكالة مخصصة لاستقبال البضائع من الخارج .

وتقوم تجارة تهريب على حدود مصر من جهة سوريا على يد العربان الذين استقروا هناك ، تتم فيها مقايضة الأشياء التى يكون دخولها إلى مصر وتلك التى يكون خروجها منها محظوراً ، أو تلك التى ينبغى أن تدفع رسوما باهظة لحد كبير لجمارك القاهرة ودمياط .

كان يمكن لنشاط التجارة الداخلية فى مصر أن يتضاعف لو أن مختلف طرق المواصلات كانت آمنة وكان استخدامها ممكنا من مكان لآخر ، لكن نشاط الشرطة لا يمتد لأبعد من أسواق المدن ، كما أن تقاليد العربان وجهل الفلاحين لا يقدمان أية ضمانات لتأمين البضائع التى تعبر بلادهم ، وينبغى لكى نحصل على هذه الضمانة ، أن يتجمع التجار عندما يسافرون براً فى قوافل صغيرة وعندما يسمح موسم الفيضان بالملاحة فإن التجار يتعرضون بالمثل لمخاطر أن ينهبوا على يد سكان بعض القرى التى تقع على ضفاف النيل ، والذين لا يتعيشون إلا على السرقات وقطع الطريق التى يمارسونها على الصنادل المحملة بالبضائع والتى تمر قريباً منهم . إن إقامة نظام أفضل للأمور لتأمين الطرق لن يساهم فقط فى ازدهار التجارة الداخلية ، وإنما سوف يساهم أيضاً ، بتسهيل تموين موانى مصر بمنتجات البلاد ، فى اتساع نطاق تجارتها الخارجية التى حان الوقت لكى نتحدث عنها . وسنتناول فى عدد من الفصول المستقلة العلاقات التجاريه لمصر مع أعماق أفريقيا ومع آسيا وأوربا .

ولكننا قبل أن ندخل فى الموضوع نرى من المناسب أن نلاحظ أن البوطاقة ذات الـ ٩٠ مدينى لا تستخدم كوحدة نقدية كما يحدث فى الأسواق التى يتعامل فيها المصريون مع بعضهم البعض ، ذلك أن تقييم معاملاتهم مع أسواق الخارج يتم أحياناً بوحدات نقدية مخالفة ، بحسب طبيعة البضاعة موضوع التعامل ، وبحسب البلاد التى قدمت منها أو أرسلت إليها . وأهم الوحدات النقدية المستخدمة فى التجارة الخارجية لمصر الحديثة هى :

السكين (العملة الذهبية) زر محبوب **القاهرة** ذات الـ ١٢٠ مدينى (القيمة الاسمية) أو ذات الـ ١٨٠ مدينى حسب التعريفة التى نظمت قيمة مختلف القطع النقدية أثناء الحملة .

سكين القسطنطينية ذو الـ ٢٠٠ مدينى .

الفندقلى ذو الـ ١٤٦ مدينى .

البوطاقة الذهبى أو الـ ½ زر محبوب ذو الستين مدينى (حسب القيمة الاسمية) .

القرش التركى ذو الـ ٤٠ مدينى .

القرش الأسبانى ذو الـ ١٥٠ مدينى .

التالو أو التالارى وهو يساوى كذلك ١٥٠ مدينى .

وأخيراً السكين البندقى ويساوى ٣٤٠ مدينى .

الفصل الثانى

عن العلاقات التجارية لمصر مع أعماق أفريقيا

يذهب العرب الذين يسكنون الصحراء الليبية ابتداء من سيوط حتى الفيوم ، كل عام إلى الواحات ، كى يحصلوا على محصول البلح ، ثم يأتون ليستبدلوا به فى الأسواق المختلفة الأشياء والملابس التى يستخدمونها ، وتذهب قبيلة معينة فى البحيرة للحصول على النطرون من بحيرات هذه الصحراء ، وأخيراً فقد قلنا من قبل إن هناك قبيلة عربية تقوم بجمع محصول السنامكى إلى الغرب من أسوان ثم تجلبه إلى هذه المدينة ، ومع ذلك ، فعلى الرغم من أن هذه الأشياء المختلفة تنتج فى مناطق مختلفة تتفاوت مسافة بعدها عن وادى النيل ، وحيث أن العرب الذين يقومون بتجارة التبادل هذه ، هم – على نحو ما – مستقرون على الحدود التى تفصل مصر عن الصحراء ، فقد نظرنا إلى هذه التجارة على اعتبار أنها فرع من التجارة التى تتم بين مدينة وأخرى أو بين قرية وقرية .

لكن الأمر لن يكون على هذا النحو بالنسبة للتجارة التى تقوم بها القوافل التى تأتى من مناطق مختلفة من داخل أفريقيا ، وفى أوقات محددة من العام ، والتى تقضى عدة أسابيع ، وأحيانا عدة أشهر ، وهى فى طريقها إلى مصر ؛ وأهم هذه القوافل هى قوافل دارفور ، وسنار ، وفزان ، وسندخل باضطراد فى بعض التفاصيل المتعلقة بكل منها .

١ – قافلة دارفور

الواردات

وفى أثناء إقامتى بمدينة سيوط ـ ام ١٧٩٩ مرت ذه المدينة قافلة دارفور وقد حصلت من واحد من أهم تجارها على المعلومات الآت :

تجلب هذه القافلة إلى مصر العاج ، والتمر هندى ، والقرب المصنوعة من جلد الجمال ، وبعض جلود النمور ، والصمغ ...الخ ، لكن تجارتها الرئيسية تتمثل فى العبيد السود : وهؤلاء هم أطفال من الجنسين اختطف بعضهم من قرى مملكة دارفور عن طريق أناس يحترفون هذا النوع من الاختطاف ، أما الآخرون فينتمون إلى أسرى الحرب الدين أصبحوا عبيدا ؛ ويباع الطفل من هؤلاء فى القاهرة بـ ٤٠ إلى ٦٠ قرشاً أسبانياً . ويذكر تجار هذه القافلة الذين سألتهم أن مدينة دارفور تبعد عن سيوط بمسيرة اربعين يوماً خلال صحراء توجد بها بعض المياه بين مسافة وأخرى ، ويؤكد هؤلاء أن الناس هناك يزرعون القمح فى أراضيهم وأن الأمطار تهطل من وقت لآخر وأنهم يحتفظون بمياهها فى خزانات . وأضيفت إلى ذلك معلومات أخرى أكثر اتساعاً حصلت عليها فى القاهرة من ذلك الشخص الذى كان مكلفاً ببيع عبيد دارفور باعتباره العميل الأكبر للجلابة ، وهى التسمية التى يشار بها إلى تجار هذه المهنة .

تجلب القافلة إلى مصر ، بخلاف العبيد الصغار من الجنسين ، سن الفيل ، والتمر هندى أو **عجينا مكونا** من ثمار التمر هندى بعد سحقها وتجفيفها ، الصمغ العربى ، الششم [١] ، وهو بذور صغيرة ، مائلة للون الأسود ،**تحولت** إلى دقيق يستخدم ظاهرياً فى حالات الرمد ؛ والكرابيج (كرباج) أو سبرا من جلد فرس النهر يستحدمه الفرسان كسوط ؛ ريش النعام ؛ قربا مصنوعة من جلد الجاموس أو الجمال ، وكذلك ملح النطرون والشبة .

والمعلومات المتوفرة حتى اليوم عن طريق دارفور قليلة ، ويرجع الفضل فيها إلى هؤلاء التجار – ويقول هؤلاء ، ومن المحتمل أنهم يقولون ذلك بنوع من مبالغة طبيعية فيهم – ان هذه المدينة تماثل القاهرة فى حجمها وعدد سكانها ويضيفون أن سكان جزء كبير من داحل أفريقيا يأتون إلى هناك ليبيعوا أو يتبادلوا مختلف المواد التى انتهينا من ذكرها ، لكن سكان دارفور وحدهم هم الدين يقومون بالسفر إلى مصر .

---

(١) Cassia absus, Lin انظر مذكرة عن العقاقير التى يستخدمها المصريون ، تأليف روييه Rouyer ، الدولة الحديثة ، المجلد ١١ ، ص ٤٢٩ [من الطبعة الثانية] .

والبضاعة الرئيسية فى هذه التجارة هى العبيد ، وهؤلاء وكما سبق القول عبارة عن أسرى تم أسرهم أثناء الحروب المستمرة التى تمزق أمم وسط أفريقيا المجاورة لدارفور ، وفى بعض الأحيان يتم احتطاف أسر بأكملها فى حالات السلم من القرى التى تسكنها ، ويساق هؤلاء العبيد من الجنسين ومن مختلف الأعمار إلى سوق دارفور ، ويختص ملك هذه المملكة لنفسه بخمس هؤلاء ، ويعطى خمساً ثانياً لرئيس شرطته ، ولا يتبقى فى أيدى الآسرين إلا ثلاثة **الأخماس** الأخيرة .

ويباع الرجال البالغون فى دارفور ، إلى أناس يستخدمونهم فى الأعمال المنزلية ، أما أولئك الذين كانوا من نصيب ملك دارفور فإنهم يرسلون إلى مكان فى داخل أفريقيا يسمى كاركتين دار السعيد ويقع على مسيرة عشرين يوماً على طريق دارفور ، ويعد نوعا من مستعمرة ، وهنا يزوجونهم من زوجات إماء ويخصص $\frac{1}{10}$ أطفالهم و $\frac{1}{10}$ إنتاج محاصيلهم التى هى عبارة عن الذرة الشامية والذرة للملك ، الذى يرسل كل عام واحدا من ضباطه لتحصيل الأتاوه (١) .

وتبعاً لما يذكر الحلاتة فإن الناس فى دار فور لا يستخدمون النقود المعدنية ، إذ تقيم الأشياء التى يتعاملون فيها بالعبيد ، ويقدر العبد من هؤلاء عادة بأربع أو **خمس** قطع من قماش الكتان من صنع سيوط أو من قماش القطن صنع المحلة الكبيرة .

وحيث أن طريق دارفور – مصر يتم خلال صحراء تصطرد فيها ندرة المياة فإن القافلة التى تأتى إلى القاهرة كل عام تنقسم إلى فريقين ، يبدأ أحدهما الطريق قبل الآخر بعدة أيام ، وهكذا تستطيع الآبار التى نضبت مباشرة بعد مرور الفريق الأول أن تمتلئ من جديد فى خلال المدة التى ستنقضى حتى يحين مرور الفريق الثانى .

وتتكون كل قافلة من حوالى خمسة آلاف جمل ، وتستغرق عادة ما بين أربعين وخمسين يوماً حتى تصل إلى سيوط ، وهى تتوقف فى الصحراء فى كل مكان تجد فيه الماء ، لكن نقاط التوقف هذه تتباعد حتى أن المسيرة تبلغ بين كل نقطة وأخرى أربعة أو

---

(١) جاء إلى القاهرة منذ حوالى خمسة وعشرين عاما (كتب هذا عام ١٨٠٠) أحد أبناء ملك دارفور ، وكان يصحب معه كما يقول تجار القافلة ١٢,٠٠٠ رجل و ٢٤,٠٠٠ جمل نفى جزء كبير منها فى مصر العليا

خمسة أيام ، بل وفى بعض الأحيان ، عشرة أيام . وعندما تضطر هذه القوافل للتوقف فى أماكن ليست بها آبار ، فإنها تحصل على حاجتها من الماء من مؤونة المياه التى تحملها الجمال .

ويخصص ثلث العدد الإجمالى للجمال التى تتكون منها القافلة لحمل مياه التموين اليومى هذه ، كما يخصص ربع العدد الإجمالى أيضاً لحمل الطعام ، ولا يستخدم لحمل البضائع – بمعنى الكلمة – سوى $\frac{1}{8}$ العدد الإجمالى فقط ، ويخصص العدد الباقى لحمل المرضى أو لحمل تلك الحمولة التى كانت تحملها الجمال التى جرحت أو تلك التى نفقت أثناء الطريق .

وكانت قافلة دارفور تتوقف فى الصحراء فى مكان يسمى بيريس ، وهى قرية هامة تقع على مسيرة اثنى عشر يوماً من مدينة سيوط . وكانت القافلة تضطر للتوقف هناك انتظاراً للكاشف الذى يرسله البكوات فى القاهرة للتفتيش عليها . وكان شيخ بيريس مسئولا عن القافلة حتى تحصل على الإذن بمواصلة طريقها نحو مصر .

وكذلك كانت القافلة تتوقف على مسيرة ستة أيام من سيوط مرة أخرى فى قرية تسمى الخارجة . وهناك يقوم الكاشف بتقدير الرسوم التى ينبغى عليها أن تسددها ، بينما يقوم قائد القافلة بتقدير نصيب كل تاجر من تجار القافلة من هذه الرسوم ، لكن الرسوم لم تكن تسدد إلا بعد مسيرة نصف فرسخ من سيوط فى مكان تتوقف فيه القافلة لآخر مرة ، حيث تقوم ببيع كمية من بضائعها تكفى للحصول على الرصيد اللازم لسداد هذه الرسوم .

ولم يكن يسمح للقافلة بالتقدم إلى شمال سيوط إلا بعد أن تكون قد سددت بالفعل الرسوم المطلوبة منها بالكامل .

وتبعاً لعادة الشرق الشائعة ، عادة ألا يبدأ الناس ممارسة تبادلاتهم التجارية إلا بعد تبادل تقديم الهدايا ، فقد كانت القافلة تقدم باسم ملك دارفور إلى الكاشف الذى يأتى للتفتيش على قافلة دارفور فى بيريس عبدين وجملين ، كما كانت تقدم فى الخارجة – فى نفس لحظة تقدير الرسوم الجمركية – هدية مضاعفة ، أى أربعة عبيد

وأربعة جمال . وعند العودة ، يتلقى رئيس القافلة من الكاشف ، من قبل البك الحاكم لولاية سيوط « طقما » كاملا من الملابس .

وكانت الرسوم التى تحصل من قافلة دارفور عند دخولها إلى مصر تقدر على النحو التالى : ٤ زر محبوب عن كل رأس عبد ؛ و ٢ سكين لكل رأس جمل ؛ وكان الكاشف يحصل كذلك رسما قدره ٩ مدينى عن كل عبد و٤ مدينى عن كل جمل .

ويأتى سنوياً من دارفور إلى مصر من خمسة إلى ستة آلاف من العبيد أربعة أخماسهم نساء ، تتراوح أعمارهن بين خمسة أو سبعة أعوام حتى ثلاثين أو أربعين عاماً ، وإن كانت أعمار غالبيتهن تتراوح بين عشرة وخمسة عشر عاماً .

وتسير كل قافلة تحت إمرة رجل تابع لملك دارفور ومرتبط ببيته . ويتلقى هذا القائد من كل واحد من تجار القافلة الذين يكونونها ٢٣ بارة عن كل رأس جمل و٥٤ بارة عن كل رأس رجى ، كأجر له .

ويبلغ عدد التجار ومن يعملون فى خدمتهم كالجمالين وبقية الخدم أربعمائة أو خمسمائة شخص فى العادة .

وقبل أن تأتى قوافل دارفور إلى القاهرة ، فإنها تستريح لبعض الوقت فى سيوط وبنى عدى ومنفلوط والمناطق المحيطة بها حيث تبيع جزءاً من بضاعتها .

ويبلغ الثمن المخفض للعبد فى السنوات العادية حوالى ٣٥ زر محبوب .

ويبلغ ثمن العبيد الذين تحولوا إلى طواشيين (طواشى) ضعف أو ثلاثة أمثال هذا الثمن فى العادة . وهذا هو السبب فى أن قادة قوافل دارفور كانوا يتوقفون فى أبى تيج ، وهى مدينة صغيرة فى مصر العليا ، حيث ثمة حلاقون يقومون ببتر العضو الجنسى للأطفال ؛ وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه العملية لا تمارس إلا لأطفال لم يتجاوزوا سن الثامنة أو العاشرة . ويمكن أن تقرأ المزيد حول هذا الموضوع فيما كتبه د . فرانك Frank فى المقالة التى عالج فيها تجارة العبيد السود فى مصر (١) .

---

(١) Collection de mèmoires sur I'Egypte, Tom. IV, èdition de P. Didot, an XI.

وتحمل قافلة دارفور عادة إلى القاهرة حمولة ١٥٠ جملا من سن الفيل ، تبلغ زنة الحمولة منها ثلاثة قناطير زنة القنطار ١١٠ رطل . ويباع القنطار الواحد ما بين ثلاثين وستين فندقلى حسب جمال العاج والبلد الذى قدم منه .

وتجلب القافلة بخلاف ذلك حوالى ٦٠٠ قنطار من التمر هندى Tamardindus India ، ويباع القنطار زنة ١١٠ رطل بـ ١٥ — ٣٠ بوطاقة .

وتجلب كذلك من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ قنطار من الصمغ العربى زنة القنطار ١٥٠ رطلا ويباع القنطار بسعر ٢٠ فندقلى .

وحوالى ٦٠٠ قنطار من الششم ، سعر القنطار زنة ١١٠ رطل ٢٠ بوطاقة .

كما تجلب مائتى أو ثلاثمائة كرباج ، يباع الواحد منها عادة بـ ٤٥ — ٦٠ مدينى .

ويباع ريش النعام الوارد إلى مصر عن طريق قافلة دارفور بالوزن ، ويمكن أن تبلغ الكمية المستوردة منه ما بين ٢٥ إلى ٣٠ قنطاراً ؛ وأغلى أنواعه هو الريش الأبيض ويبلغ ثمن القنطار من أجود أنواعه ١٥٠٠ بوطاقة فى حين أنه قلما يبلغ ثمن القنطار من الصنف الأدنى قيمة وهو الريش الأسود ٢٠٠ بوطاقة . وينتقل هذا الصنف من البضائع من دارفور إلى القاهرة فى حقائب من الجلد ، ولا يشتريه فى القاهرة إلا اليهود أو المسيحيون الذين يصدرونه كله على وجه التقريب إلى أوربا .

وفى مصر ، تستخدم قرون الكركدن فى صنع مقابض السيوف أو الخناجر ، ويعتقد الأتراك والمماليك بصفة خاصة فكرة مسبقة مؤداها أن سلاحاً معداً على هذا النحو يمنح حامله الشجاعة والاقدام ؛ وتتحكم ندرة هذه البضاعة أو وفرتها فى رفع أو خفض سعرها ، ويصل منها سنوياً ألفا قرن يباع الواحد منها بـ ٥ — ٧ بوطاقات . وقد ارتفع سعره إلى ١٥ بوطاقة أثناء الحملة الفرنسية .

وتدخل قافلة دارفور إلى مصر حوالى أربعة آلاف زوج من القرب المصنوعة من جلود الثيران أو الجمال ، ويباع الزوج الواحد من القرب بـ ١٠ — ١٢ بوطاقة .

ولابد أن نضيف إلى هذه الواردات المتنوعة ١٠٠٠ قنطار من النطرون ، يباع القنطار منه زنة ١٢٠ رطلا بـ ١٤ — ١٥ بوطاقة [١] .

وتحصل قافلة دارفور وهى فى طريقها إلى القاهرة من الصحراوات التى تجتازها وهى متوجهة إلى القاهرة على كمية محدودة من الشبة تحلبها من هناك إلى القاهرة . ويبدو ، تبعاً للمعلومات التى قدمها إلى الحاج سلطان ، شيخ الحلانة ، أنهم يستخرجونها — كما يحدث للنطرون — من قاع بعض البحيرات التى ترسبت فيها ، وفى العام التالى يجدونها فى نفس مكان العام السابق وهكذا .. ويبلغ وزن الشبة التى ترد إلى مصر عادة عن هذا الطريق مائتى قنطار ، زنة القنطار ١٥٠ رطلا ، يبلغ سعره من ٣ — ٤ بوطاقات .

وبعد وصول القافلة مباشرة إلى مصر ، حيث تكون كل البضائع التى انتهينا من حصرها قد شحنت عن طريق النيل ، تحاول قافلة دارفور التخلص من الجمال التى تصبح بالنسبة لها عديمة الفائدة فتبيع $\frac{١٦}{٢٠}$ أو $\frac{١٧}{٢٠}$ من إجمالى عدد الجمال التى صحبتها معها ، ويبلغ ثمن الواحد من هذه الجمال ، تبعاً **لعمره وقوته** ، ما بين ١٨ و ٢٠ زر محبوب .

وحيث يشكل العبيد الجزء الرئيسى من واردات هذه القافلة ، فلابد أن نستنتج أنه يلزم لنقل المياه ومؤن الطعام الأخرى التى تلزم لغذائهم أثناء الرحلة إلى مصر عدد من الجمال أكبر بكثير من ذلك العدد الذى تحتاجه القافلة عند عودتها .

وبمجرد وصول القافلة إلى سيوط فإنها تدفع للبك أو السنجق المقيم هناك رسماً يبلغ ٤ زر محبوب عن كل رأس عبد و $\frac{١}{٢}$ ٢ زر محبوب على كل رأس/ جمل **محملا** كان أو غير محمل ؛ كما يحصل فى مصر القديمة رسم يبلغ $\frac{١}{٢}$ ١ بوطاقة عن كل جمل .

---

(١) انظر الحالة العامة للبضائع الواردة إلى مصر بواسطة قوافل دارفور أثناء الحملة الفرنسية من وضع الأستاذ مركور — جوزيف لابانوز Mercure - Joseph Lapanouse المنشورة فى :
Mèmoires sur L'Egypte, tom. IV. p. 88, èdition de Pierre Didot, an XI.

وفى النهاية ، فإن القافلة تدفع إلى الجمارك عند دخولها القاهرة واحد زر محبوب عن كل رأس عبد و½ زر محبوب للإقامة فى الوكالة ولاستخدام السوق الذى ستعرض بضائعها فيه للبيع .

الصادرات

تضطر قوافل دارفور بسبب أعمال التجارة التى تمارسها مع مصر عادة أن تمد فى فترة إقامتها هناك لفترة تبلغ ستة أو ثمانية أشهر ؛ ولذلك يحدث كثيراً أن تصل قافلة قبل أن ترحل القافلة التى سبقتها .

وتشترى هذه القوافل عند عودتها أشياء تختلف عما توررده إلى مصر ، سواء كان ذلك من منتجات هذه البلاد أو كان من البضائع الأوربية .. الخ .

فمن بين أشياء الشرق ، تشترى القافلة المنسوجات الحريرية والقطنية المصرية والسورية وأقمشة الكتان والقطن من صنع مدن الدلتا وسيوط ، وأقمشة أخرى تسمى « ألاحة » ، وكذلك الموسيلين والشيلان البيضاء وارد الهند ، ومعدات الخيول ، وملابس الفرسان ، والبن والسكر ، وقليلا من الأرز ، وفى بعض الأحيان عدداً صغيراً من الخيول . ومن البضائع الأوربية التى تتزود بها قوافل دارفور من مصر ، ينبغى أن نضع فى المقام الأول الحلى الزجاجية وارد البندقية وبخاصة الحمراء والبيضاء والسوداء ، والحلقات الزجاجية من مختلف الألوان والتى تستخدم كأساور ، وحبوب الكهرمان والمرجان ونوعاً خاصاً من الجلجل تستخدمه النساء حلية وزينة ؛ وكذلك الجوخ والقطيفة والأمواس ، والنصال والقصدير والرصاص والنحاس والبنادق والمسدسات والسيوف وبارود البنادق ، وأخيراً نوعاً من الأصداف يسمى الغورى (Cupera - Moneta) ، وكان يستخدم كقطع نقد صغيرة فى داخل أفريقيا .

ونستطيع أن نستنتج أن كميات وقيمة البضائع التى تحملها قوافل دارفور عند عودتها تختلف تبعاً للظروف ، لذلك ينبغى أن نقتصر على التفاصيل التى لدينا والتى تعد متوسطاً لمعاملات سنوات عديدة :

يبلغ عدد قطع المنسوجات الحريرية والقطنية المسماة « قطنى » وهى التى تحتل المقام الأول فى الصادرات التى تحملها معها قوافل دارفور حوالى ١٠٠٠ قطعة ، يبلغ طول كل قطعة منها ١٢ ذراعاً وتساوى ١٠ — ١٥ بوطاقة .

أما ثانى أشياء هذه الصادرات فهو عبارة عن ٢٠ أو ٢٥ ألف قطعة من تيل المحلة الكبيرة ، يبلغ طول القطعة منها ١٨ دراعا وتساوى ١٣٥ بارة .

وثالث هذه الأشياء هو صناعات (مانيفاتورة) محلية عبارة عن ١٠٠ إلى ٢٠٠ قطعة من القماش المسمى ألاجة ويبلغ ثمن القطعة ٥ بوطاقات .

وينبغى أن نضيف إلى ذلك ٥ إلى ٦ آلاف قطعة من أقمشة كتان سيوط يبلغ طول الواحدة منها ٢٧ ذراعاً ويبلغ ثمنها حوالى ½ ١ بوطاقة .

وهناك صنف آخر يتكون من ألفى قنطار من الشيبة أو سيقان أو وريقات الأنسلت Artemisia Judaica الذى يستخدم كعقاقير طبية أو كعطر وذلك بغليه مع خشب الصبر ، ويبلغ ثمن قنطار الشيبة حوالى ٢ بوطاقة .

ومن المعروف أن المصريين والعرب يصعون سرج خيولهم على قطعة من اللباد الصوفى متفاوتة السمك ومطوية عدة طيات ؛ وتحمل قافلة دارفور حوالى ثلاثمائة من هذا اللباد تباع الواحدة منها بـ ٩٠ مدينى .

كما تحمل منها أيضاً ١٠٠ — ١٥٠ من ملابس الفرسان (دروع) يبلغ ثمن الواحد منها ٥٠ زر محبوب . ويبدو أن المحاربين فى هذه المنطقة من أفريقيا يستخدمون اليوم هذا الملبس كسلاح دفاعى .

أما بضائع الهند وآسيا ، التى كانت تصدر من مصر عن طريق قافلة دارفور فهى :

من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ قطعة قماش حريرى ثمن الواحدة ٦ — ٨ بوطاقات ؛

حوالى ٨٠٠ قطعة من الموسيلين سعر القطعة ٧ — ١٠ بوطاقات ؛

٢٠٠٠ شال ثمن الشال الواحد ٥ — ٨ بوطاقات ؛

٥٠ قنطارا من بن اليمن زنة القنطار ١٠٠ رطل ويساوى ٢٠ – ٢٥ قرشا ؛ وأخيراً ١٠٠ قنطار من السكر المصرى .

ولا تحمل القافلة معها أرزاً إلا ما يكفى احتياجاتها أثناء الطريق .

وفى السنوات العادية ، تصحب القافلة معها مائة جمل محملة بالحلى الرحاجية من صسع البدقية ، تزن حمولة الجمل من هذه الحلى خمسة قناطير ، زنة القنطار منها ١٠٥ أرطال ، ويبلغ ثمنه حوالى ١٢ رر محبوب .

كما تصحب خمسين جملا محملة بالسمسال أو اللاونده ، ويأتى هذا النبات الجاف من تريستا ويستخدم بين استخدامات أخرى فى صنع أدوات التجميل وتثيت الشعر وذلك بخلطة بالزيت . وتزن الحمولة ½ ٢ قنطار زنةالقنطار ١٥٠ رطلا ويبلغ ثمنه ٣٠ أو ٣٢ بوطاقة .

ويصدر من مصر أيضاً البضائع الأوربية الآتية :

١ – قنطار واحد من حبوب الكهرمان زنة القنطار ١٠٠ رطل وثمن الرطل ٧ – ٨ بوطاقات .

٢ – ٤ قناطير من حبوب المرجان يباع الرطل منه بـ ١٥ – ٢٠ زر محبوب .

٣ – من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ مكيال من نوع من الجلجل . الذى يستخدم شأنه شأن الصنفين السابقين كزينة للنساء فى داخل أفريقيا . ويشترى عادة بسعر بوطاقة للمكيال الواحد .

ولا تحمل قافلة دارفور مطلقا أصوافاً على هيئة أقمشة ، لكنها تحمل حوالى ١٠٠٠ بنيش جاهز ، ويدخل فى صنع هذا الملبس أربعة إلى خمسة أذرع من الجوخ ويبلغ ثمن الذراع من خمس إلى ست بوطاقات وبذلك تبلغ تكاليف البنيش الواحد عادة ٣٠ بوطاقة . ويشتد الطلب على الألوان : الوردى ، الأخضر ، الأحمر ، الأصفر وكذلك كل الألوان الزاهية ، ذلك أن كل الألوان المعتمة أو القاتمة لا تناسب فى العادة أذواق الأفريقيين .

ويسعى أن نضيف إلى هذه الأحواب **المتوسطة الجودة** والتى تكون هذه الصناعة ٥٠٠ ذراع من القطيفة يبلغ ثمن الذراع منها ٥ – ٦ زر محبوب ، وتستخدم هذه القطيفة فى صنع ملابس أعيان البلاد وفى تغطية سروج بعض الخيول .

أما الحدايد التى تتزود بها قوافل دارفور من مصر فهى عبارة عن :

١ – عشرين صندوقا من الأمواس تحتوى على أربعة آلاف حزمة ، تساوى الحزمة الواحدة ١ زر محبوب .

٢ – حوالى ألف لفة من النصال تتكون اللفة الواحدة من أربعة نصال وتباع بـ ٩٠ مدينى .

وتحمل القافلة معها أيضاً ٢٠٠ – ٥٠٠ قنطار من سلفور الرصاص أو الرصاص الممزوج بالكبريت ، ويزن القنطار من هذه المادة ١٤٠ رطلا ويباع بـ ٦ – ١٠ بوطاقات .

أما المعادن التى تزودها بها القاهرة فتنحصر فى القصدير والرصاص والنحاس القديم (المستعمل) ، ويبلغ المقدار السوى من هذه البضائع ٥٠٠ قنطار من القصدير ، سعر القنطار ٣٠ بوطاقة ، و ٥٠٠ قنطار من الرصاص ثمن القنطار ٢٠ – ٢٢ بوطاقة ، وأخيراً ألف قنطار من النحاس المستعمل بسعر القنطار ٢٠ – ٢٥ بوطاقة . ويعاد تصنيع المعدن الأخير فى دارفور لتصنع منه حلى النساء .

أما عن الأسلحة فإن القافلة تشترى فقط نحو عشرين أو ثلاثين بندقية من صنع أوربا بسعر القطعة ٥ – ٦ زر محبوب ، وحوالى عشرين مسدساً ، وكذلك مائة نصل من سيوف الفرسان من صنع ألمانيا ، ويباع النصل الواحد عادة بـ ٢ بوطاقة ، وتجهز فى مصر .

وأخيراً فهى تحمل معها ٥٠ قنطاراً من بارود البنادق من صنع القاهرة على هيئة خرطوشات جاهزة يبلغ ثمن القنطار منها ١٠٠٠ بارة .

ويدفع عن الجمل المحمل بالبضائع ، عند بدء رحلته من بولاق للعودة إلى دارفور ، ٣٨ بارة كرسوم جمارك .

وفى غالب الأحيان فإن مختلف الأشياء الواردة من دارفور إلى مصر تستبدل بها بضائع أخرى ؛ ومن بين كل ١٠٠٠ قرش يأتى فى شكل أشياء مستوردة يستخدم ٩٠٠ قرش فى هذا التبادل التجارى ، أما المائة الباقية فتصدر فى شكل بضائع عينية لكى تحول إلى أساور أو زينات أخرى من الفضة .

٢ - قافلة سنار

الواردات

يسلك التجار الذين يكونون هذه القافلة عدة طرق باتباع ومحاذاة شاطئ النيل عند مدينة فى النوبة تسمى أبريم . وابتداء من نقطة التلاق هذه فإنها تسير خلال الصحراء موازية الشط الأيمن للنيل ، داخل أراضى عرب البشارية الذين يقطنون ما بين النيل والبحر الأحمر ؛ وحيث يحدث أن تقوم هذه القبيلة بنهب القافلة ، فإن الأخيرة تزود نفسها بحرس من عربان العبابدة يسيرون أمامها حتى أبريم ، ثم يقودونها حتى قرية دراو ، حيث تتخذ طريقها بعد أن تترك الصحراء إلى وادى مصر .

ويحصل العبابدة فى مقابل هذه الحماية التى يخلعونها على قوافل سنار ٣سكين زر محبوب عن كل رأس عبد ، وسكينا ونصف سكين عن كل جمل ، محملا كان أو غير محمل .

ونستنتج من مسار لقافلة سنار قام بنشره المسيو لابانوز Lapanouse فى الجزء الرابع من مقالات عن مصر Memoires sur l 'Egypte [1] أنه يلزم للتوجه من سنار إلى أبريم ١٨ يوما و١٥ يوماً للذهاب من أبريم إلى دراو .

وعند مرور قافلة سنار بالأرض التى تشغلها القبيلة العربية « العبابدة » فإنها تعطى هدية إلى كل واحد من عربان هذه القبيلة عبارة عن مكيال صغير من البلح أو من دقيق الذرة .

(١) قام بطبعها فى العام الحادى عشر P. Didot,

وعند وصولها إلى إسنا تدفع إلى الجمرك الذى تحصل الحكومة عوائده : ٤ زر محبوب عن كل رأس عبد و ٢ زر محبوب عن كل جمل فيما عدا الجمال المحملة بريش النعام وسن الفيل إذ تدفع القافلة عن كل واحد من هذه الجمال رسما غير اعتيادى يبلغ ½ ٥ زر محبوب .

وبعد أن تسدد القافلة فى إسنا كل هذه الرسوم المختلفة وبعد أن تبقى فى هذه المدينة للمدة التى تلزمها لكى تبيع جزءاً من جمالها فإنها تبحر عن طريق النيل مع بضائعها ، وما إن تبحر هذه البضائع حتى تصبح فى حراسة رئيسها وعشرين من أهم تجارها هم الذين يذهبون معها إلى القاهرة ، أما التجار والجمالة الآخرون فيتوقفون فى دراو أو إسنا فى انتظار عودة رفاقهم .

وعند مرور هؤلاء التجار (القافلة) بمنفلوط فإنهم يسددون عن كل رأس عبد من الخنسين رسم مرور يبلغ ٢٢ مديني ثم يدفعون فى المنيا رسما يبلغ ١٢ مدينى فقط ، وأخيراً فإنهم يدفعون عند وصولهم إلى بولاق رسما مشابها يبلغ ١٠ مدينى .

وتعتبر قافلة سنار أقل أهمية من قافلة دارفور ، ومع ذلك فإنه تصل منها فى بعض الأحيان عدة قوافل على مدار العام . أما الأشياء التى توردها إلى مصر فهى على وجه التقريب نفس ما تجلبه إلى هناك قافلة دارفور : عبيد من الذكور والإناث (اماء) ؛ الصمغ العربى ، ريش النعام ، سن الفيل ، تراب الذهب ، الكرابيج ، القرب المصنوعة من جلد الثيران والجمال ، والشبة .

وقلما يتجاوز عدد العبيد المائة والخمسين ثلثاهم من النساء ، نجد من بينهم عادة ثمانية أو عشرة من الأحباش .

ويباع هؤلاء العبيد فى بلدة سنار على يد الجنود الذين أسروهم فى الحرب ، وليست للحروب التى يشنها ملك هذا البلد من غاية سوى الحصول على هذا النوع من الأسلاب . ويخصص نصف العبيد للملك أما النصف الآخر فهو من نصيب الجنود الذين قاموا بالحملة ، ويرسل الأولون إلى الجزيرة العربية ، أما الآخرون فيشتريهم تجار القافلة التى تذهب إلى مصر .

وفى أثناء الطريق تخفى القافلة عن الأنظار ما معها من عبيد أحباش ، ذلك أن هؤلاء على الرغم من لونهم الأسود فإنهم يتمتعون بالشعر الطويل والتقاطيع الأوربية .

والعبيد الذين تجلبهم قافلة سنار أعلى سعراً من أولئك الذين تجلبهم قافلة دارفور ، إذ يبلغ ثمن الواحد من أولئك ٦٠ زر محبوب .

ويشكل الصمغ العربى المادة الأكثر أهمية فى بضائع هذه القافلة ، وتقدر كمية الوارد منه حمولة ألف جمل، ويبلغ وزن الحمولة الواحدة ثلاثة قناطير زنة القنطار ١٥٠ رطلا ، ويباع قنطار الصمغ بـ ٨ إلى ١٠ فندقلى . وهو يجمع من كل أنحاء البلاد ويخزن فى المدن حتى تحين لحظة رحيل القافلة .

وتجلب القافلة إلى مصر كذلك ٨ إلى ١٠ قناطير من ريش النعام (والريش الأبيض كما سبق القول هو الأعلى سعراً والأكثر تقديراً ، ويباع فى القاهرة بنفس الأسعار التى تبيعه بها قافلة دارفور) ؛

وكذلك حمولتين أو ثلاث حمولات من الكرابيج (تحتوى الحمولة الواحدة على ٥٠٠ كرباج ويباع الكرباج الواحد بـ ٦٠ – ١٠٠مدينى) ؛

وكذلك ١٥ – ٢٠ حمولة جمل من سن الفيل ، تزن الحمولة ثلاثة قناطير زنة القنطار ١١٠ رطل (ويبلغ ثمن القنطار حوالى ٦٠ فندقلى) ؛

وتجمع الكمية القليلة من تراب الذهب التى تدخل إلى مصر عن طريق قافلة سنار بعد نوبات الأمطار الكبرى فى مجرى الأخوار . ويباع فى حالته الطبيعية أى فى شكل شذرات وحبيبات أو فى هيئة سبائك صغيرة مستديرة بعد صهره ، وتتداول هذه السبائك فى التجارة كالنقود ، ويبلغ سعر الأوقية المصرية منه فى أسواق القاهرة ٩ سكين بندق .

وكما تفعل قافلة دارفور فإن قافلة سنار تترك على الدوام فى مصر جزءاً من الجمال التى تصحبها معها إلى هناك ، ويبلغ سعر الجمل من جمال هذه القافلة ١٥ – ٣٦ زر محبوب ؛ كما تترك هناك أيضاً حوالى مائة زوج من القرب المصنوعة من جلد الثيران أو الجمال ، بسعر الزوج منها ٧ بوطاقات .

وأخيراً فإن بعض التجار يجلبون معهم بقصد البيع الثوم القصبى (بقول تشبه البصل فى الطعم والشكل) وعدداً من إناث الببغاء ، ويتم ذلك بكميات قليلة لا تكفى لكى نعدها ببساطة بين الواردات التى نحن بصدد الحديث عنها ، ولم نتناولها نحن إلا بدافع من الفضول .

الصادرات

تحمل قافلة سنار معها فى مقابل البضائع التى بيناها السمبال أو اللاوندة والصابون والمحلب [١] والقرنفل ، والأقمشة القطنية المصبوغة باللون الأحمر، ونوعا آخر من القطن المصنع فى القاهرة ، وسلفور الرصاص ، وحليا زجاجية واردة من البندقية ، ومرايا صغيرة ، وخشب الصندل ، والمسك ، والملابس المصنوعة من الجوخ ..الخ .

وإليكم تفصيلا وافياً لهذه الصادرات :

حوالى حمولة ثمانين جملا من اللاوندة تساوى فى مجموعها ٦٠٠٠ بوطاقة ؛

ونفس الكمية من المحلب وبنفس الثمن تقريباً ؛

مائة حمولة جمل من الصابون ، وزن الحمولة ٥ قناطير ، زنة القنطار ١١٥ رطلا ويساوى ٢٠ بوطاقة ؛

١٠ أو ١٢ قنطاراً من القرنفل زنة القنطار ١١٠ أرطال ، وثمن الرطل ٣٠٠ بارة

ثلاثون بالة من قماش القطن المصبوغ باللون الأحمر ، تحتوى الواحدة على ٢٠ قطعة من القماش وتساوى ١٢ زر محبوب ؛

ألفا قطعة من قماش القطن المصنع فى القاهرة يبلغ ثمن القطعة ١٢٠ بوطاقة ؛

٥٠ أو ٦٠ قنطاراً من سلفور الرصاص (زنة القنطار ١١٠ أرطال وثمنه من ٦ إلى ٧ بوطاقات) ؛

---

(١) نوع من الكرير البحرى Prumus mahaleb Lin . انظر مقالة عن العقاقير ، الدولة الحديثة ، المجلد ١١ ص ٤٤٢ (الطبعة الثانية) .

حوالى مائة قنطار من الحلى الزجاجية صناعة البندقية (زنة القنطار ١٠٥ أرطال ويشترى من القاهرة بثمن ١٠ – ١٢ رر محبوب ، وتشتمل هذه البضاعة على حبات من الزجاج الأبيض والأصفر والأزرق والأحمر والأخضر وهى الألوان التى تفضل بشكل أساسى) ؛

١٠ حمولات جمل من المرايا الصغيرة ذات الأيدى ، تشكل فى مجموعها ثلاثة آلاف حزمة ، تضم الحزمة الواحدة ست مرايا (ويبلغ ثمن الحزمة ٨٠ بارة) ؛

قنطاران من خشب الصندل وخمسون رطلا من المسك ؛

وأخيراً مائة بنيش من الجوخ من ألوان مختلفة ، ويبلغ ثمن الذراع من الجوخ ٥ بوطاقات مما يجعل تكلفة البنيش الواحد تبلغ ٣٠ – ٤٠ بوطاقة من ذات الـ ٩٠ مدينى .

وينبغى أن نضيف إلى هذه الأجواخ الصوفية مائة قطعة من القماش الحريرى الخفيف وارد القسطنطينية ، ويبلغ ثمن القطعة الواحدة ١٠ – ١٢ بوطاقة .

ومن هذا نتبين أن كل الأشياء التى تصدرها مصر عن طريق قافلة سنار ، فيما عدا بعض الأقمشة القطنية ، إنما هى من منتجات الهند أو من البضائع الأوربية . وتشحن البضائع فى النيل من بولاق وتتجه جنوباً حتى دراو ، ومن هناك تحمل فوق الجمال التى تركتها القافلة وديعة عند عربان العبابدة عند وصولها إلى مصر ، حتى تستعيدها عند مغادرتها لها . ولذلك فقلما يتجاوز عدد الجمال التى تعود معهم العدد الإجمالى للجمال التى سبق أن صحبوها معهم .

وتدفع قافلة سنار عند مرورها من أرض عرب البشارية التى تضطر القافلة لاجتيازها أثناء عودتها ، قطعتين من القماش عن كل رأس جمل وتسدد نفس الرسوم عند عبورها أبريم ، وعند وصولها إلى سنار فإنها تعبر عن ولائها ومحبتها لملك هذا البلد بتقديم طاقم كامل من الملابس إليه .

٣ – قافلة فزان

تقع بلدة فزان فى أعماق بلاد البربر (المغرب) على مسيرة عشرين يوماً من

طرابلس وأربعين يوماً من القاهرة . وتخضع هذه المدينة لولاية طرابلس التى ترسل إليها حاكماً لتحصيل الضرائب من هناك ، وتسدد هذه الضرائب عيناً وتشتمل على القمح والشعير ، وتشكل حوالى ١/٢٠ من إنتاج الأراضى .

ويحصل الحاكم بالإضافة إلى ذلك ضريبة عن أشجار النخيل عن إنتاجها من البلح . ويسكن شعب فزان فى حوالى ١٢ قرية تبعد كل واحدة منها عن الأخرى بمسيرة نصف يوم على الأقل أو مسيرة ثلاثة أيام على الأكثر . وتفصل هذه القرى عن بعضها البعض مساحات صحراوية . والأمطار هناك نادرة مما يضطر الناس لزراعة الأرض باللجوء إلى الرى الصناعى عن طريق رفع مياه الآبار بواسطة الدلاء (دلو) .

ولعرب هذه المنطقة طباع مسالمة ، وهم يرعون الماعز والجمال والحمير وليست لديهم لا خراف ولا خيول .

وكان شيخ قافلة فزان الذى جاء إلى القاهرة فى شهر يولية سنة ١٨٠٠ والذى حصلت منه على هذه التفاصيل ، قد أحضر معه ٢٥ جملا ، وكان بصحبته سبعة أو ثمانية تجار مثله ومعهم نفس العدد من الجمالة . ويسافر هؤلاء العربان غير حاملين سلاحاً وليس عليهم أن يخشوا من أن ينهبوا إلا عند اقترابهم من مصر ، أى عندما لا يكونون على مبعدة منها إلا بمسيرة أربعة أو خمسة أيام .

أما ما سبق من الطريق فيخلو من المخاطر بشكل تام ؛ ويجد هؤلاء فى طريقهم المياه كل يوم ، أو على الأقل مرة كل يومين ، وفى كل مكان توجد به مياه توجد أيضاً أشجار نخيل ، وحيث أن عربان هذه الصحراوات يأتون إلى هناك ليجنوا ثمار هذه الأشجار فى موسم نضجها فإن هذا الموسم من العام هو الوقت الأقل أماناً بالنسبة لهم . وتبلغ المسافة بين درنة وسيوة مسيرة ثلاثة أيام على هذا الطريق .

وتجلب قافلة فزان إلى مصر البلح المكبوس (العجوة) ، وكذلك قبعات أو طواقى من الصوف الأحمر تسمى طرابيش ، ومعاطف أو ملابس من الصوف الأبيض تسمى برنس ، وأغطية من نفس القماش . وهى تجلب هذه الأشياء المختلفة فيما عدا البلح من طرابلس . ومن بين الخمسة والعشرين جملا التى كانت مع التجار الذين

قابلت شيخهم ، كانت هناك ستة جمال محملة بالبضائع ، و ١٠ – ١٢ محملة بالبلح ، أما الجمال الأخرى فكانت تستخدم فى حمل المؤن وهى عبارة عن الدقيق والمياة ؛ وفى طريقها تجد القافلة فى كل مكان الخشب اللازم لطهو الأطعمة .

أما القافلتان اللتان سبقتا هذه التى انتهينا من تناولها هنا بالحديث فقد تعرضتا للسلب على يد عربان أولاد على الذين يسكنون حواف ولاية البحيرة (١) .

ويحمل عرب فزان معهم إلى بلادهم من مصر ، أقمشة كتانية وقليلا من الأرز ، ويحملون من طرابلس الحديد وبقية البضائع الأخرى التى يحتاجون إليها .

ونرى مما سبق أن عرضناه عن قلة اتساع بلاد فزان وعن قحولتها أن من طبيعة الأمور أن تكون علاقاتها التجارية مع مصر على نطاق ضيق ؛ وليس من النادر أن تكون القوافل الصغيرة التى تأتى من هناك مكونة من حجاج ذاهبين إلى مكة ، ويريدون عن طريق بعض مكاسب بسيطة تعود عليهم من تجارتهم أن يعوضوا المصروفات التى ينفقونها .

٤ – عن تجارة مصر مع دول البربر

الواردات

تتم تجارة مصر مع الساحل الشمالى لأفريقيا إما بواسطة القوافل التى تذهب إلى مكة وإما عن طريق السفن التى تأتى مباشرة من نقاط متفرقة على هذا الساحل أو من بعض الموانى الأوربية الواقعة على البحر المتوسط .

ويأتى من بلاد البربر ، وبخاصة من تونس : زيت الزيتون ، الطرابيش ، الشيلان الصوفية البيضاء ، النعال المصنوعة من جلد السختيان الأصفر ، معاطف مزودة بغطاء للرأس تسمى : برنس ، أغطية من الصوف ، العسل ، الزبد ، والشمع .

---

(١) تعرف من بلاد فزان فى أواسط أفريقيا مدينة تمكتو . وفى بعض الأحيان يمر بمصر بعض أبناء هذه المدينة الذين يعتنقون الإسلام وهم فى طريقهم إلى مكة .

وتستقبل الإسكندرية من فاس وسوز بواسطة السفن الأوربية التى تقوم بعمليات النقل البحرى من ميناء لآخر من موانى الشرق : الزيت والطرابيش ، ويبلغ عدد السفن التى تجلب هذه السلع فى السنوات العادية من سبع إلى ثمانى سفن . وينقل زيت البربر فى جرار كبيرة من الفخار ، تميل إلى اللون الأبيض من الخارج ومطلية من الداخل بطبقة من أكسيد الرصاص . ويبلغ عدد الجرار التى تزن الواحدة منها فى حالة امتلائها من ٤ إلى ٥٠٠ رطل وقد ترتفع من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ وفى العادة ، يبلغ ثمن قنطار الزيت زنة ١٥٠ رطلا من ١٥ إلى ٢٠ بوطاقة .

ويصل سنوياً عن نفس الطريق :

٣٠٠ صندوق من الطرابيش ، يحتوى كل صندوق على ٥٠ — ١٠٠ دستة ، ويتراوح ثمن الدستة من ١٠ إلى ٢٥ بوطاقة حسب النوع ؛

٣٠ — ٤٠ بالة من الشيلان الصوفية البيضاء للعمامة وتضم كل بالة من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ قطعة ، متوسط ثمن القطعة ٢ بوطاقة ؛

حوالى ثلاثين ألف زوج من النعال المغربية الصفراء المصنوعة فى مراكش وطرابلس وتونس .. الخ ؛

٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ برنس أو معطف أبيض ، بعضها من الصوف وبعضها من الحرير (وتصنع الأولى فى تونس ويباع الواحد منها بـ ٣ إلى ١٠ بوطاقات ؛ ويصنع النوع الآخر فى مدينة الجزائر ويتراوح ثمن الواحد من ٢٠ إلى ١٠٠ بوطاقة) ؛

حوالى ستة آلاف من الأغطية الكبيرة أو قطع من الأقمشة الصوفية البيضاء تسمى الواحدة منها : حرام ، ويمكن أن نعد من هذه الكمية ألفين من نوع راق ثمن الواحدة منها ٢٠ بوطاقة ، وأربعة آلاف من نوع ردىء تباع الواحدة منها بـ ٥ — ١٥ بوطاقة ؛

ثلاثة إلى أربعة آلاف أقة من الشمع تجهزه مدن : تونس ، الجزائر ، طرابلس ، ويتراوح ثمن الأقة من ١٠٠ إلى ٢٠٠ مدينى ؛

خمسة إلى ستة آلاف من القرب أو الحقائب الجلدية المليئة بالعسل ، وتحتوى الواحدة على ٤٠ — ٥٠ أقة ويبلغ ثمن القربة الواحدة ٢٥ بارة ؛

وأخيراً ألف جرة من الزبد تزن الواحدة ٣٠٠ — ٣٥٠ رطلا ، ويبلغ ثمن القنطار زنة ١٠٠ رطل ، ألف بارة .

وهذه السلع الأخيرة ، أى الشمع والعسل والزبد ، والتى يمكن أن تتحول إلى سائل بفعل حرارة الشمس إذا ما نقلت براً من خلال الصحراء ، تأتى إلى مصر عن طريق البحر ، وعن هذا الطريق أيضاً تأتى زيوت بلاد البربر ؛ وهذه تأتى فى شحنات مجانية باعتبارها من أمتعة الحجاج الذاهبين إلى مكة .

أما أولئك الحجاج الذين يسافرون عن طريق البر فى قوافل فيجلبون معهم سلعاً خافة وأقل إرباكا مثل البرانس والطرابيش والأغطية الصوفية ..إلخ .

وتعفى كل السلع التى يعترف بأنها تابعة لحجاج مكة من كل رسم عند دخولها إلى مصر ولا تخضع لأى تفتيش جمركى .

وترسل مدينة درنة إلى مصر عن طريق الحجاج كذلك الزبد والعسل وبعض الفاكهة .

وتسمح العلاقات التجارية التى ينظمها الحج بصفة منتظمة بين دول البربر وبين مصر ، لتجار هذه البلاد أن يتعاملوا فيما بينهم فى بيع سلعهم سواء بالنقد أو بالأجل لمدة عام ، وفى الحالة الأولى يتراوح سعر الخصم من ٧ — ١٢ فى المائة .

الصادرات

تعتبر صادرات مصر إلى الدول البربرية أكثر أهمية بكثير من الواردات التى انتهينا من بيانها . أما المدن الرئيسية التى تستورد البضائع من الاسكندرية والقاهرة فهى كما سبق لنا القول : تونس ، الجزائر ، طرابلس ، فاس ، مراكش وتطوان التى تقع تجاه جبل طارق .

وتنقل القافلة إلى تونس بصفة أساسية أقمشة الكتان من صنع سيوط ومنفلوط وأبو تيج والقاهرة . وتصدر إليها إيضاً أقمشة من القطن من إنتاج مصانع المدينة الأخيرة وكذلك الفلفل ، والبن ، وورود الزهر الجافة ، وحبة النيلة ، وملح النوشادر ، وخشب المر ، والقرفة ، ومواد العطارة الأخرى .

وترحل كل عام من الاسكندرية إلى تونس ١٠ إلى ١٢ سفينة يحمل على ظهر كل منها ٥٠ — ٢٠٠ بالة من أقمشة الكتان أو القطن ، وتحتوى كل بالة على ٣٠٠ — ٤٠٠ قطعة ، سعر الواحدة ٦٠ — ٢٠٠ بارة .

وتحصل مدينة تونس على احتياحاتها مں الفلفل بشكل أساسى من ليفورنيو ، ولا يحدث أن تصدر إليها الاسكندرية هذه السلعة إلا عندما لا يكون فى الإمكان التزود بها مں هناك .

ويصدر كل عام مں هذا الميناء (الاسكندرية) إلى تونس :

٢٠ — ٥٠ فرداً (بالة تزن ١٨٠ ك ج) من البن ؛

٢٠ — ٣٠ بالة مں ورود الزهر **الجافة** تزن البالة الواحدة من ثلاثمائة إلى أربعمائة رطل ، يباع القنطار زنة ١٠٠ رطل فى مقابل ٢٠ فندقلى ؛

٢٠٠ مكيال من حبوب النيلة ، يساوى المكيال الواحد $\frac{٤}{٢٤}$ مں الأردب ، ويباع فى مصر مقابل ١٠ بوطاقات ؛

١٠ — ١٢ صندوقاً من ملح النوشادر ، يزن الصندوق الواحد قنطارين ، زنة القنطار ٢٠٤ أرطال ؛

وأخيراً يرسل من الاسكندرية إلى تونس البخور من أجود الأنواع ، ويبلغ ما يرسل عن هذا الطريق ٢٠ قفصاً أو سلة كبيرة ، تزن الواحدة ٥ قناطير ، ويبلغ ثمن القنطار زنة ١٥٠ رطلا من ٢٥ إلى ٣٠ بوطاقة ذهبية ؛

وعندما لا يصدر الهولنديون القرفة بشكل مباشر إلى دول البربر فإن هذه البلاد تقوم باستيرادها من مصر ، ولكن قلما تتجاوز الكمية المصدرة فى هذه الحالة ٤ إلى ٥ صناديق .

أما طيب الزباد فسلعة قليلة الأهمية ، وقلما يتجاوز الصادر منها مائة أوقية فى العام ، ثمن الأوقية الواحدة ٥ – ٦ بوطاقات .

وتعد الجزائر المدينة الثانية بعد تونس التى تستورد من مصر أكبر كمية من البضائع . وترسل مصر إلى هناك أقمشة كتانية من صنع سيوط ومنفلوط ، وأقمشة قطنية من صنع القاهرة ، وأقمشة حريرية يطلق عليها اسم قطنى ، وأقمشة الألاجة القطنية وارد دمشق ونابلس ، والحرير وارد بيروت ، والكتان الشعر والمغزول والبن ، وكمية ضئيلة من الفلفل ، وملح النوشادر ، **والسكر** ، والسحور ، وطيب الزباد ، وصمغ الصنوبر ، ولبان جاوة (البخور الحاوى) اللذين يستخدمان كعطور عن طريق احتراقهما . ويورد الهولنديون إلى هناك مباشرة مواد التوابل .

وتشغل هذه التجارة سنوياً ثلاث أو أربع سفن ، هى التى يتوجه عليها إلى الاسكندرية حجاج الجزائر الذاهبين إلى مكة ، وهذه البواخر هى من بين تلك التى تقوم بقافلة اسكليهات (موانى) الشرق ، وهى تتبع على الدوام بعض الدول الأوربية . ويرسل فى السنوات العادية على ظهر هذه البواخر حوالى ٣٠٠ إلى ٤٠٠ بالة من الأقمشة الكتانية والقطنية تماثل تلك التى ترسل إلى تونس والتى بينا للتو مقاديرها وإليكم بياناً بما يصدر منها إلى الجزائر :

٣٠٠ إلى ٥٠٠ قطعة من تلك الأقمشة الحريرية المصنوعة فى القاهرة والمسماة قطنى ، وتباع القطعة الواحدة بـ ٦ إلى ٧ بوطاقات ؛

٢٠ أو ٣٠ بالة من حراير بيروت من اللونين الأبيض والأصفر ، وإن كان الجزء الأكبر منها من اللون الأبيض ، ومتوسط ثمن البالة ٥٠٠ بوطاقة ؛

٤٠ – ٥٠ فرداً (بالة زنة ١٨٠ ك ج) من بن اليمن ؛

حوالى عشرين بالة من غزل الكتان ، تزن البالة من ٥ إلى ٦ قناطير وتبلغ زنة القنطار من هذه السلعة ٣٠ أقة ، ثمن الأقة من ٣٠ – ٥٠ بارة ؛

٢٠ قنطاراً من ملح النوشادر ؛ ٤ أو ٥ أقفاص من البخور ؛ كمية قليلة من

السكر لا تستحق أن ندخلها فى الاعتبار ، إذ أن السكر الذى تستهلكه مدينة الجزائر يكاد يأتى كله عن طريق التجارة مع أوربا ؛

١٠ – ١٥ قنطاراً من البخور الجاوى ، زنة القنطار ½ ١١٢ رطلا ، ويتراوح سعر القنطار من ٦٠ إلى ١٢٠ بوطاقة .

وتصل كل عام من طرابلس إلى الاسكندرية باخرتان أو ثلاث بواخر تحمل الحجاج وما يصحبونه معهم من بضائع . ويأخد هؤلاء الحجاج عند عودتهم أقمشة كتانية وقطنية من صنع مصر ، بالإضافة إلى المنتجات الهندية التى يشترونها أثناء رحلتهم . وهؤلاء الحجاج ليسوا سوى أفراد عاديين لا يحترفون التجارة ، ولكنهم يريدون أن يحصلوا عن طريق الأرباح التى يحققونها من تبادل سلعهم بمنتجات مصر والهند على تعويض عن مصاريف الحج إلى مكة .

ويتوجه مسلمو تونس والجزائر وطرابلس الذين يؤدون الحج إلى مصر عن طريق البحر كما سبق لنا القول ويمرون عادة بليفورنيو ، ويعودون إلى بلادهم من نفس الطريق ، أما حجاج مراكش وفاس فإنهم يتجمعون فى قافلة كبيرة العدد ، تعبر الصحراء حتى الاسكندرية ، ويحملون معهم عند عودتهم من ٣٠٠ إلى ٦٠٠ بالة من الحرير السورى ثمن البالة الواحدة ٥٠٠ بوطاقة ، وأقمشة قطنية مصبوغة باللون الأحمر ، وخيوط غزل من نفس اللون بكميات كبيرة للنوعين تكفى لحمولة ٥٠٠ إلى ٦٠٠ جمل ، وتزن حمولة الجمل خمسة قناطير زنة القنطار ١٠٠ رطل ، ويحتوى القنطار عادة على ٩٠ إلى ١٠٠ قطعة من القماش ، يتراوح سعر القطعة منه بين ٦٠ إلى ١٠٠ بارة ؛ .

ويحمل هؤلاء معهم بخلاف ذلك حوالى مائة جمل محملة بالأقمشة القطنية السورية وأقمشة الألاجة والقطنى ، ويمكن على وجه العموم أن نقدر ثمن كل حمولة جمل بـ ٥٠٠ إلى ٦٠٠ بوطاقة ؛

وبإمكاننا كذلك أن نقدر بـ ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ بوطاقة قيمة البخور الجاوى والمسك وطيب الزباد التى تجلبها قوافل فاس ومراكش من مصر .

الفصل الثالث
علاقات مصر التجارية مع آسيا

قل أن تكون للمصريين المحدثين علاقات تجارية مع آسيا إلا عن طريق القوافل التى تذهب إلى مكة والتى تعود منها ، وهذا هو السبب فى أن هذه العلاقات قد انحصرت فى هذه المبادلات التى تقوم مباشرة بين البلدين المتاخمين لمصر وهما سوريا وبلاد العرب . وإذا كانت بعض أشياء هذه التجارة تنقل عن طريق البحر فإن سفناً أوربية هى التى تقوم عادة بهذا النقل فى البحر المتوسط كما أن سفناً عربية هى التى تقوم بذلك فى البحر الأحمر .

١ - التجارة مع سوريا
الواردات

توفر سوريا لمصر ، بالإضافة إلى بعض المنتجات من أرضها وصناعة سكانها ، بضائع مختلفة واردة من الهند ، تأتى إلى دمشق عن طريق بغداد والبصرة أو تجلبها إليها قافلة مكة .

وترسل مدن يافا وغزة ونابلس وعكا والقدس إلى مصر: الصابون، وزيت الزيتون ، والقطن الوبر ، وبذور النيلة ، والسمسم ، والأقمشة القطنية من نابلس ، والعفصة وكمية قليلة من الشمع .

ويشحن جزء من هذه السلع بحرا فى موانىء يافا وعكا وتأتى إلى دمياط ، وينقل جزء آخر صغير عن طريق قوافل صغيرة من عربان القبائل المجاورة للقاهرة والعريش .

ويستورد فى السنوات العادية عن طريق هذه السبل المختلفة من ١٠٠٠ إلى ١٢٠٠ صندوق من الصابون ، يزن كل واحد منها من ٧٠٠ إلى ٨٠٠ رطل زنة الرطل ١٤٤ درهما ، ويحسب كل ½ ١١ رطلا بـ ١٠ أرطال فقط كفرق وزن (طبة الميزان) ويساوى الصابون فى سوريا ٩٥ مدينى للرطل . لكن هذا الرطل يبلغ ستة أمثال من زنة الرطل بالقاهرة .

وينقل زيت الزيتون فى جرار فخارية كبيرة تحتوى كل واحدة على $\frac{1}{2}$ ٣ قناطير أو أربعة قناطير ، زنة القنطار مائة رطل . ويصل الاستهلاك السنوى من هذه المادة الغذائية إلى ثلاثمائة جرة . ويبلغ ثمن الرطل من هذا الزيت فى أسواق القاهرة ١٠ — ١٢ مدينى .

وتتراوح كمية القطن الذى تستورده مصر من سوريا بحسب ما تنتجه مصر منه ، فعندما لا يغل المحصول إنتاجاً كافيا فى مصر فى سنة ما ، فإن الإستيراد يرتفع إلى ألفين أو ثلاثة آلاف بالة ، تزن البالة $\frac{1}{2}$ ٣ قناطير ، زنة القنطار ١٢٥ رطلا . ويباع قنطار القطن فى عكا بـ ١٤٠ — ٢٠٠ قرش ، يساوى القرش الواحد ٤٠ مدينى ، وهذا القرش هو وحدة نقدية يستخدم عادة فى تسوية الحسابات فى المعاملات التجارية التى تقوم بين مصر وسوريا ، وتساوى زنة قنطار عكا أربعة أمثال من زنة قنطار القاهرة .

ويباع مكيال حبوب النيلة الذى يبلغ $\frac{٤}{٢٤}$ من الأردب بمتوسط سعر قدره ثمانى بوطاقات . وتنتج ضواحى نابلس أجود أصناف هذه الصبغة التى يشتد الطلب عليها ، ويرد منها إلى مصر فى السنة الاعتيادية حوالى ٦٠٠ أردب من سوريا ، وهو الأردب الذى يساوى بالنسبة إلى مكيال القاهرة ما نسبته ١٣ : ١٢ . وفوق ذلك فإن هذه البذور تتراوح كميتها بحسب الطلبات التى تتم عليها .

ويجلب من سوريا أيضاً بذور السمسم ، وتصل منها سنوياً ألفا قفة سعة كل منها $\frac{1}{2}$ أردب ، ويباع هذا المكيال فى القاهرة بحوالى ٤ بوطاقات .

ويسمى قماش القطن الذى يصنع فى نابلس باسم أتكى (أو عاتكى) ، ويستورد منه سنوياً حوالى ٦٠٠ بالة ، تحتوى الواحدة منها على ٩٠ — ١٠٠ قطعة ، طول القطعة ١٨ ذراعا ويبلغ ثمنها ١٨٠ مدينى .

أما العفصة من إنتاج حلب والتى تستخدم فى مصر فى الصباغة باللون الأسود فتمثل صادرا بالغ الأهمية ، يصل منه سنويا حوالى مائة حقيبة (صندوق) تزن الواحدة من ٣ إلى ٤ قناطير زنة القنطار ١٣٠ رطلا .

أما شمع فلسطين فلا يورد منه إلى مصر إلا كميات بالغة الضآلة كما سبق أن قلنا فى مناسبة سابقة .

وتقوم بين مدينة دمشق ومصر تجارة خاصة : فيجلب من هناك أقمشة حريرية من النوع المسمى : قطنى من إنتاج مصانع هذه المدينة ؛ ويجلب منها كذلك أقمشة من الحرير والقطن من صنفين : الأول يسمى ألاجة شامى ؛ والثانى ويسمى ألاجة هندى ؛ وكذلك أقمشة من القطن تسمى أتكى (أو عاتكى) شامى ؛ ثم المشمش المجفف ؛ وعجين المشمش المسمى قمر الدين ؛ وأخيرا صبغة حمراء تسمى فوه شامية .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه تأتى عن طريق دمشق شيلان من الكشمير من خمسة أصناف مختلفة يطلق عليها نفس العدد من التسميات ، كما يصل الموسلين الهندى (وارد الهند) ؛ وأقمشة من القطن أكثر خشونة تأتى من نفس البلاد (الهند) ؛ وعقار (عقاقير) يسمى مغات ؛ وشيلان من الصوف ، والحرير الفارسى ، والفضة واللآلىء . وهذه السلع المختلفة تأتى إلى دمشق من بغداد عن طريق القوافل التى تصل إلى هناك ثلاث أو أربع مرات فى العام ، ويبلغ عدد جمال كل قافلة ألفين أو ثلاثة آلاف من الجمال ؛ ولكن ينبغى أن نلاحظ أن كمية ضئيلة جداً من البضائع التى تحملها هذه القوافل تخصص لمصر إذ تستهلك كلها على وجه التقريب فى الأجزاء الأخرى من الامبراطورية العثمانية .

ويبلغ الوارد السنوى من الأقمشة الحريرية المسماة قطنى عشرة آلاف قطعة يتراوح ثمن القطعة فى دمشق ، تبعاً لصنفها ، ما بين ١٥ و ٢٠ قرشاً تركياً يساوى القرش الواحد ٤٠ مدينى .

وزيادة على ذلك يأتى من دمشق مباشرة من ١٥ إلى ٢٠ ألف قطعة من الألاجة ثمن القطعة الواحدة ٩ — ١٥ قرشا ، وتستهلك مصر حوالى ألف بالة من صنف القماش المسمى أتكى (عاتكى) شامى وتحتوى كل واحدة من هذه البالات على ٥٥ قطعة طول الواحدة ٢٤ ذراعا وعرضها ذراع وربع ذراع ؛ ويبلغ ثمن القطعة من سبعة إلى تسعة قروش .

ويصل كل عام من دمشق ٥٠٠ صندوق من المشمش الجاف ، يزن كل صندوق ½ ٢ قنطار ، زنة القنطار ١٠٠ رطل وتباع بسعر ٣٠ – ٣٥ قرشا للقنطار السورى الذى يساوى ١٨٠ أقة .

وعادة ما تبلغ كمية قمر الدين ، أو عجينة المشمش المستورد من سوريا ٥٠٠ أو ٦٠٠ صندوق زنة الصندوق ١٥٠ رطلا والسعر المعتاد للرطل الواحد ثلاث بارات .

ويرسل ايضا من دمشق إلى مصر نوع من الأقمشة من الحرير الأحمر والأسود الزاهى للغاية ، وتصنع النساء منه قمصاناً وأقنعة ، ويسمى كريشة ويصل منه فى العام حوالى ٢٠ صندوقا يمكن أن تحتوى على ألف قطعة ، ويبلغ ثمن القطعة من ١٨ إلى ٢٠ قرشا . وتصدر هذه السلعة عادة من بيروت إلى دمياط .

وبخلاف الأقمشة الحريرية الأخرى التى انتهينا من بيانها ، يصدر كذلك إلى مصر عن طريق موانئ اللاذقية وبيروت وطرابلس وصور وصيدا كمية محددة من الحرير على هيئة لفات . وتشترى هذه السلعة بالوزن فى كل سوريا ، ووحدة الوزن المستخدمة فى تجارة هذا الصنف والتى تسمى الرطل تساوى ٢٢٩ درهما من وزن القاهرة .

وحرير اللاذقية أبيض اللون ويساوى الرطل منه ٣ ـــ ٤ بوطاقات ، ويصل منه سنويا مائتا (٢٠٠) بالة صغيرة تزن الواحدة ١٣٥ رطلا .

وغالبا مايكون حرير بيروت أصفر اللون ويباع فى المتوسط بـ ٦ بوطاقات للرطل وهو كما نرى أكثر جودة من حرير اللاذقية ؛ ذو الدرجة متوسطة الصنع فى دمياط و المحلة الكبيرة والقاهرة . ويقدر مايستورد منه سنويا بألفى بالة زنة ١٣٥ رطلاً .

ويصدر من طرابلس فى سوريا إلى مصر من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ بالة صغيرة من الحرير ، زنة البالة الواحدة منها ١٣٥ رطلا ، ويستعمل هذا الحرير فى مدن مصر التى أشرنا إليها للتو ، وهو أبيض اللون وله ثلاث مراتب ، يباع الصنف من المرتبة الأولى بـ ٥ بوطاقات للرطل ، ومن المرتبة الثانية بـ ٤ إلى ½ ٤ بوطاقات وأخيراً يباع الرطل من المرتبة الثالثة بـ ½ ٣ إلى ٤ بوطاقات .

ولا يصل من صور إلا ٤٠ أو ٥٠ بالة صغيرة من الحرير ، تزن الواحدة من ١٢٠

إلى ١٢٤ رطلا ويباع الرطل بـ ٤ بوطاقات .

ويجلب من صيدا كذلك مائتان أو مائتان وخمسون بالة صغيرة من الحرير الأبيض بنفس زنة البالة من الحرير القادم من بيروت ، ويفضل حرير بيروت عادة على الحرير القادم من صيدا .

ويشكل تبغ اللاذقية سلعة استيراد بالغة الأهمية فى مصر ، ويقدر ما يصل منه إلى مصر كل عام أربعة آلاف بالة ، زنة كل منها حوالى ٤٠٠ رطل . ويباع تبغ اللاذقية فى القاهرة بـ ٦٠ إلى ١٨٠ بارة للأقة زنة ٤٠٠درهم . ويصل كذلك من صور ٤٠٠ أو ٥٠٠ بالة من التبغ تزن البالة الواحدة ½ ٤ قناطير ، ويساوى القنطار من هذا التبغ هناك بسعر شراء ، من ٧٠ إلى ٢٠٠ قرش ؛ ويجلب أخيراً من هذا الميناء ٥٠٠ أو ٦٠٠ قفة من التين المجفف ويبلغ ثمن القنطار من ٢٠ إلى ٤٠ قرشاً .

ولم يكن يصل عن طريق البر من هذه البضائع المختلفة سوى كميات ضئيلة فهى تشحن كلها على وجه التقريب من موانى بيروت وعكا وصيدا وصور فوق مراكب شحن يونانية أو تركية ، أو فوق مراكب أوزبية تقوم بقافلة الشرق .

وتبلغ مصاريف الشحن عادة ٥ قروش لكل حمولة تزن ½ ٢ قنطار من زنة القاهرة . وتتراوح أرباح التجار من مختلف أنواع السلع الواردة من سوريا من ١٠ إلى ٣٠ فى المائة ، وفى عهد حكومة المماليك ، كانت تجارة المنسوجات الحريرية هى التى تعود بأكبر الأرباح .

الصادرات

يسدد جزء من ثمن المأكولات والسلع المرسلة من سوريا إلى مصر عن طريق صادرات تشتمل بالدرجة الأولى على الأرز ، والقمح ، والعدس ، والحمص ، والكمون ، والزعفران ، والكتان وكل ما تنتجه زراعة البلاد ، وتصدر كذلك من مصر جلود السختيان الأحمر ، والبن ، وبذور النيلة وعقاقير من أنواع مختلفة ، والتمر هندى ، والسمسم ، وصدف الأحجار الكريمة ، وحبوب المسابح المصنوعة من نواة ثمرة الدوم ؛ والفلفل والزنجبيل والعبيد السود .. الخ

ويتم إرسال الجزء الأكبر من هذه الصادرات عن طريق ميناء دمياط كما يتم تصدير بعضها كذلك عن طريق رشيد .

ويرسل فى السنة العادية عن طريق ميناء دمياط وحده ٣٠ ألف أردب من الأرز بسعر ٢٠ إلى ٢٢ بوطاقة للأردب .

ولا يرسل القمح من مصر إلى سوريا إلا فى حالة حدوث قحط فى البلد الأخير ، وإن كان يرسل فى العادة نحو ألف أردب من الفول ومن ألفين إلى ثلاثة آلاف أردب من العدس ومائة أردب من الكمون .

ويباع أردب الفول بـ ١٤٠ — ١٦٠ بارة ، وأردب العدس بـ ١٨٠ ، وتبلغ ثمن أردب الكمون عادة ٥ بوطاقات .

وتبلغ كمية ما يصدر إلى سوريا كل عام من الزعفران ٥٠٠ قنطار يتراوح ثمنها تبعاً للظروف من ٨ إلى ٢٠ بوطاقة للقنطار الواحد .

أما كمية ما يصدر من السنامكى فتبلغ أكثر من مائة بالة ثمن البالة الواحدة ١٨٠ بوطاقة .

ويصدر حوالى ٢٠٠٠ من الجلود بسعر يصل ٣ إلى ٦ بوطاقات للجلد الواحد تبعاً للنوع والجودة .

وتحصل سوريا من مصر سنوياً على حوالى ١٠٠٠ قنطار من السكر تخصص منها ١٠٠ قنطار فقط لاستهلاك دمشق ، إذ تحصل هذه المدينة من الهند عن طريق بغداد على بقية تموينها من السكر . ويساوى القنطار من سكر مصر درجة أولى ٢٥ بوطاقة ، أما السكر العادى فيساوى من ١٢ إلى ١٥ بوطاقة . ويتم التصدير عن طريق دمياط فى أقفاص يحتوى كل منها على ٣ قناطير زنة القنطار ١٠٥ أرطال ؛

كما يصدر حوالى ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ بالة من قماش الكتان من إنتاج مصانع القاهرة وضواحيها ، وتحتوى كل واحدة من هذه البالات على ١٠٠ إلى ٢٠٠ قطعة ويشتد الطلب على الأقمشة المصنوعة فى ميت غمر وبلبيس ، وتباع البالة بـ ٢٠٠ إلى ٣٠٠ بوطاقة ؛ وعادة ما تسرب الطرابيش تهريبا داخل هذه البالات من الأقمشة .

ويقل الطلب فى سوريا على الأقمشة الحريرية المصنوعة فى مصر ؛ أما الأقمشة التى ترسل إلى هناك من هذا النوع فتخصص لصناعة الأثاث وتأتى هذه من مصانع المحلة الكبيرة .

أما النيلة المستخدمة فى محلات الصباغة فى دمشق فتأتى من الهند ؛ أما تلك التى تستخدم فى بقية أنحاء سوريا فتأتى إلى هناك من مصر ، ويمكن أن يبلغ حجم الصادر من هذه المادة الصابغه فى العام ٥٠٠ قنطار ، زنة القنطار ٢٠٠ رطل ، ويبلغ ثمن القنطار من ٤٠ إلى ٤٥ بوطاقة . والنيلة المصرية التى يشتد الطلب عليها فى سوريا هى تلك التى ينتجها إقليم بلبيس .

ويبلغ التصدير السنوى من ملح النوشادر إلى دمشق ٣٠ قنطاراً ، أما ما يصدر إلى بقية المدن السورية فيبلغ ٧٠ قنطاراً ، ويزن القنطار من هذا الملح ٢٥٠ رطلا ، ويباع القنطار من الصنف الممتاز منه بـ ١٠٠ إلى ١٢٠ بوطاقة ، أما الصنف الردىء فيباع بـ ٨٠ إلى ٩٠ بوطاقة للقنطار .

ولا يذهب من مصر إلى سوريا إلا حوالى ١٠٠ قنطار من التمر هندى زنة القنطار ١١٠ رطل ، ويبلغ سعره من ١٥ إلى ٣٠ بوطاقة ؛ كما لا يرسل البن من مصر إلى سوريا إلا فى السنوات التى لا تجلب فيها قوافل دمشق وبغداد منه كمية تكفى استهلاك هذه البلاد .

ويبلغ إجمالى وزن الششم الذى يصدر إلى هناك ١٠ قناطير ، زنة القنطار ١١٠ رطل ويبلغ ثمنه ١٠ — ١٢ بوطاقة .

وتحصل سوريا من بغداد عادة على العقاقير الأخرى المستخدمة فى الصيدلة .

وتباع أصداف الزينة بالألف ؛ ويباع الألف من الحجم الكبير بـ ٥٠ بوطاقة ، ومن الحجم الصغير بـ ١٠ إلى ٣٠ بوطاقة . ويصدر سنوياً من ١٠٠ إلى ٢٠٠ ألف من هذه الأصداف التى تصنع بشكل خاص فى بيت المقدس وفى أماكن متفرقة من فلسطين ، حيث تعمل منها المسابح وأشياء أخرى من هذا القبيل يشتريها الحجاج من العالم المسيحى .

وترسل من مصر إلى القدس كذلك حبة تسمى بذريات (؟) تستخدم فى نفس هذه المصنوعات . ويبلغ ما يصدر من هذه السلعة ٥٠٠ قنطار ، زنة القنطار ١٥٠ رطلا .

وتباع الأقة زنة ٤٠٠ درهم من هذه السلعة بـ ٢٠ إلى ٤٠ بارة .

ويباع الألف من نوى الدوم الذى يستخدم كذلك فى صنع المسابح بـ ٥ إلى ٧ بوطاقات ، وتقدر كمية الصادر السنوى منه بـ ٢٠٠ ألف .

وتأتى كل التوابل على وجه التقريب المستهلكه فى سوريا عن طريق البصرة وقلما يبلغ ما يصدر من مصر مى هذه السلع فى العام الواحد مائتى بالة ، ويبلغ وزن الفلفل وحده ١/٤ هذه الكمية . ويساوى القنطار من هذه العطارة من ٦٠ إلى ٧٠ بوطاقة .

أما بخصوص العبيد السود من الجنسين والذين تجلبهم إلى مصر قوافل وسط أفريقيا فيرسل منهم إلى سوريا كل عام حوالى المائة ، لكن هذه الإرساليات لا تتم إلا بموجب طلبات خاصة .

ويتراوح المجرى المعتاد للربح عن السلع المصدرة من مصر إلى سوريا من ١٠ إلى ٣٠ فى المائة . وتحدد رسوم الخروج عن طريق ميناء دمياط بـ ٦٠ مدينى كسعر ثابت للقنطار من أية سلعة كانت . ومع ذلك فيستثنى من هذا الأقمشة التى يراد تشجيع تصديرها والتى يشملها اتفاق خاص ، وتسدد كل قطعة رسماً يبلغ فقط بارة ونصف البارة . وتدفع مصاريف شحن نهرى من القاهرة حتى دمياط للصندوق أو البالة الصغيرة زنة خمسة قناطير مقدارها ٢٠ إلى ٢٠٠ مدينى حسب نوع السلعة ، أما إذا اتبع الطريق البرى فإن أجر نقل نفس الوزن على ظهر الجمال يصل إلى ٨ — ١٠ بوطاقات .

وتقل أو تزيد مصاريف الشحن من دمياط إلى موانئ سوريا المختلفة بحسب وفرة أو قلة السفن التى تقوم بالنقل ، وتتراوح هذه المصاريف بين ٢٥٠ إلى ٤٠٠ مدينى لكل بالة بضائع زنتها ٥ قناطير .

ويتم كذلك نقل بعض البضائع من مصر إلى سوريا عن طريق البحر الأبيض ، لكن الأمر يختص هنا بتجارة التهريب .

وليس لتجار سوريا المقيمين فى مصر ، شأنهم فى ذلك شأن كل التجار الأجانب ، قناصل فى القاهرة . وعندما تثور بينهم خلافات حول موضوع تجارة ما فإنهم يحاولون التوفيق فيما بينهم فى البداية عن طريق التحكيم ، فإذا تعذرت محاولات التوفيق هذه تلجأ الأطراف المعنية إلى القضاء التركى الذى ينهى المنازعات على الفور .

وتسوى حالات الإفلاس – كما هو الحال فى أوربا – تبعاً لإرادة الدائنين ، وحسب إمكانيات المدين ، أو حسب كثرة أو قلة الثقة التى يوحى بها .

وكانت المظالم التى يتعرض لها التجار السوريون فى ظل حكومات المماليك تتمثل فى الحصول على سلع لا يسدد ثمنها على الإطلاق ، أو فى اقتراض أموال لا يبالون (أى المماليك المقترضون) بردها . كما كان يزج بهؤلاء التجار فى بعض الأحيان فى السجن ، لإرغامهم على شراء حريتهم بدفع مبلغ من المال يتفاوت مقداره للخروج من هذا السجن .

أما عن أنواع القطع المعدنية المستخدمة فى تسديد جزء من المبادلات التى انتهينا من بيان أهم أشيائها ، فإنه تذهب من مصر إلى سوريا قطع المدينى وسكين القاهرة (قطع نقد ذهبية قد تكون هى الزر محبوب) ، بينما تأتى من سوريا إلى مصر القروش الأسبانية وسكين القسطنطينية وسكين البندقية . وفى العادة ، وإن ما كانت تحصل عليه سوريا سنوياً من النقد أكبر قيمة بكثير مما كانت تدفعه ، إذ كان يدفع نقداً على الدوام ثمن كل الحرير الذى كان يأتى من هذه المنطقة لكى يصنع فى مصر .

وكان من الطبيعى أن تتوقف التجارة بين هذين البلدين فى أثناء احتلال الجيش الفرنسى لمصر ؛ وحينئذ كان التعامل يتم مع ملتزمى الصيد فى بحيرة المنزلة . وكانت السلع التى تخزن فى ميناء دمياط تنقل عبر هذه البحيرة إلى صان والطينة حيث كانت تأتى لتأخذها قوافل من العرب السوريين .

وكذلك كان ثمة عرب آخرون يقومون بمهمة نقل البضائع المودعة فى مدن القاهرة وبلبيس ورفتى وميت غمر إلى سوريا ، وكانوا يسلكون الطريق المعتادة للقوافل ، ويمرون بالصالحية ، إذ كانت رسوم البضائع التى يحملونها قد سددت ، أما أولئك العرب الذين كانوا يخاطرون بتمرير هذه البضائع بطريق التهريب فقد كانوا يبتعدون عن طريق الصالحية ويطوفون حول وادى السبعة أبيار .

وفى بعض الأحيان كان يشارك شيوخ هذه القوافل تجار من القاهرة أو من أية مدينة أخرى ، وفى هذه الحالة كان شيوخ القوافل هؤلاء يأتون ليأخذوا من هذه المحلات السلع التى تعهدوا بنقلها إلى سوريا ، ثم يعودون بعد ذلك ليخزنوا فى هذه المحلات السلع التى جلبوها عند عودتهم . وفى بعض الأحيان كان الشيوخ يمارسون التجارة لحسابهم الخاص ، وفى هذه الحالة كانوا يخزنون بضائعهم فى مخيماتهم حيث كان يأتى تجار المدن المصرية ليختاروا ويشتروا من هذه البضائع .

وفيما مضى لم يكن هؤلاء العربان يمارسون التجارة بأنفسهم مطلقاً ، ولم يكونوا ليأخذوا على عاتقهم سوى استخدام الجمال فى نقل البضائع خلال صحراواتهم الأمر الذى لم يكن يعود عليهم إلا بربح بالغ الضآلة ، ولكن عندما أغلق الطريق البحرى جهة دمياط فقد استوجب الأمر بحكم الضرورة اللجوء إلى هؤلاء ، وهكذا تحكموا فى أسعار الشحن ثم استخدموا جزءاً من الأرباح غير الاعتيادية التى هيأتها لهم هذه الظروف ، فى ممارسة التجارة لحسابهم الخاص مما سيؤدى إن عاجلا وإن آجلا إلى إحداث ثورة فى تقاليدهم .

وزيادة على ذلك ، ينبغى على الداوم الحذر الشديد فى اختيار هذا النوع من الشاحنين ، إذ يحدث فى بعض الأحيان أن يتعرض العربان الذين أوكل إليهم نقل بضائع ليست ملكا لهم للسلب فى الطريق على أيدى قبائل يدعون أنها معادية لهم ، ويكونون هم على تفاهم معها ، وبعد ذلك يقتسمون مع هؤلاء الأشياء التى سلبت .

٢ – تجارة مصر مع الجزيرة العربية والهند

الواردات

كان من الطبيعى أن تؤدى خصوبة مصر وقحولة الجزيرة العربية إلى قيام

علاقات تجارية واسعة للغاية بين هذين البلدين المتجاورين ؛ كذلك فإن مصر تبادل عن طريق الجزيرة العربية جزءاً هائلا من منتجات أرضها بالأقمشة والتوابل من الهند التى يذهب إليها التجار العرب للحصول على هذه السلع ويخزنونها فى موانيهم .

وتتم التجارة بين مصر والجزيرة العربية بحراً بواسطة سفن صغيرة تأتى من مينائى جدة وينبع لترسو فى مصر عند القصير أو السويس ، أو تتم براً بواسطة قوافل تعبر الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر .

ويقع ميناء القصير داخل خليج صغير مفتوح من جهة الجنوب الشرق ، وتقفله من الشمال صخرة تتجه نحو شرق الجنوب الشرق ، وتتوغل فى البحر لمسافة مائتين وستين متراً بدءاً من الشاطئ . وهذه الصخرة التى تبدو ذات سطح شبه مستو تنكشف فى حالة المد المنخفض ، وتنتهى بشكل رأسى فى داخل الميناء بالعرض حيث تمتد من الجنوب إلى الشمال موازية للساحل .

أما الشاطئ من جهة الجنوب ، فمحاط بالمثل بسلسلة من صخور الشاطئ تشكل منحنى ذا شكل بيضاوى يبلغ قطره حوالى ثلاثة أرباع الفرسخ .

وهذا الموقع يجعل ميناء القصير فى حمى من رياح الشمال والجنوب التى تهب بشكل شبه دائم على البحر الأحمر ، كما تحمى المرتفعات هذا الميناء من رياح الغرب التى تهب عليه بعرضه .

ويقع المرفأ عند قمة الصخرة الشمالية ، وقد وجدت أن عمق المرفأ هناك فى حالة المد المنخفض يبلغ ستة أذرع ، ويقل هذا العمق أكثر فأكثر مع الاقتراب من الساحل ، بحيث لا يعود يبلغ على بعد خمسين متراً من هذا الساحل أكثر من نصف ذراع .

وقاع هذا المرفأ من الرمل الناعم ومستو لحد كبير ، ولكن حيث أن السفن العربية تكون عادة سيئة التجهيز فقد يحدث فى بعض الأحيان أن تنقطع كابلاتها حين تهب رياح الشرق بعنف ، وهى الرياح الوحيدة التى لا يستطيع الميناء أن يكون فى منأى عنها ، ومع ذلك فهى نادراً ما تهب .

ولا تستطيع السفن الاقتراب من المدينة لغيبة الارصفة . ويضطر الناس لتحميلها أو تفريغها باستخدام زوارق لا تستطيع بدورها أن تلامس الشاطئ ، بل ينبغي أن تنقل منها البضائع ، وأن يحملها رجال يخوضون فى الماء حتى منطقة وجود هذه الزوارق . ويبلغ علو المد فى حالاته الوسطى فى القصير نحو المتر .

وأكبر السفن التى ترسو هناك ليست مجسرة على الإطلاق ، ولا تحمل سوى أربعمائة مكيال من القمح أى ما يعادل حوالى التسعين طناً .

وتكاد رياح الشمال تسود طيلة العام . أما الرياح التى تهب من جهة الجنوب فتستمر أثناء شهور الشتاء الثلاثة .

ومدينة القصير ، إذا كان بالإمكان أن نمنحها اسم مدينة ، مكونة من أخصاص متناثرة أو مكدسة على ساحل مهجور ، محرومة من المياه العذبة ، وهى تمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى لمائتين وخمسين متراً ، ويبلغ أقصى اتساع لها ١٦٠ متراً ؛ ويخترقها فى هذه الاتجاهات شارعان رئيسيان يبدءان من شاطئ البحر حتى ميدان صغير أمام القصر .

وقد أقيم هذا القصر فوق ربوة صغيرة من الزلط المستدير تمر من خلف المدينة وتمتد على الساحل من الشمال إلى الجنوب . وهو عبارة عن سور من الجدران الكبيرة على شكل معين طول ضلعه سبعون متراً ، وتعلوها أربعة أبراج . وهذا المبنى هو الوحيد الذى يبدى بعض مظهر من تماسك ، أما أسس هذه الجدران فمن الحجارة . ويضم هذا السور بعض المبانى ، بالإضافة إلى بئر من المياه المائلة للملوحة .

ويسكن ميناء القصير تجار عرب يجدون فى أرباح التجارة التى يقومون بها هناك التعويض الكافى عن صنوف الحرمان التى يرغمهم المكان عليها ، ويتلقى هؤلاء التجار ، **الوافدون** فى معظمهم من ينبع وجدة من عملائهم فى هاتين المدينتين سلع الجزيرة العربية والهند ، ويمررونها إلى مصر عن طريق قوافل يصحبونها عادة بأنفسهم .

ويكاد يكون بن اليمن هو السلعة الوحيدة التى يتم استيرادها إلى مصر عن

طريق ميناء القصير . ويرسل إلى هناك عن طريق مينائى ينبع وجدة . ويباع القنطار زنة القاهرة فى المدينة الأولى بـ ١٢ — ١٥ قرشاً أسبانيا ، ويدفع عنه ١٥ مدينى كمصاريف و ٢٠ مدينى كرسوم خروج . وتتم الرحلة إلى القصير عادة فى ثلاثة أيام .

وينقص سعر قنطار البن القادم من جدة بمقدار قرشين عن سعر مثيله القادم من ينبع ، ولكن يعوض هذا الانخفاض فى السعر برسم يبلغ ٣٠ مدينى يحصل لحساب شريف مكة . وتتكلف المصاريف من جدة إلى القصير ٣٦ — ٤٠ بارة للقنطار الواحد .

ويتراوح عدد السفن القادمة من ينبع وجدة والتى ترسو كل شهر بالقصير بين ١٠ إلى ٢٠ سفينة بحسب الفصول ، وتحمل السفن القادمة من جدة على الدوام كميات أكبر بكثير من تلك التى تحملها السفن القادمة من ينبع .

وعندما ينزل بن ينبع إلى القصير فإنه يدفع عينا رسماً قدره $\frac{1}{2}$ ٤ أرطال عن القنطار الواحد ، ويدفع زيادة على ذلك ٤٧ مدينى نقداً ، تشتمل على أجر المحصل .

وعندما تسدد هذه الرسوم ينقل البن إلى قنا على جمال حملت من هذه المدينة القمح والمنتجات المصرية الأخرى التى تحملها السفن عند عودتها . وتبلغ حمولة الجمل أربعة قناطير من البن .

ويبلغ ثمن إكراء الجمل قرشين أسبانيين ، وينبغى أن يدفع بالإضافة لذلك ٢٥ بارة عن كل جمل مقابل حرس الحماية الذى يوفره عرب العبابدة للقوافل أو بالأحرى كضمان ضد السلب الذى كان يمكن أن يمارسوه هم أنفسهم .

أما الرسوم الجمركية بمعنى الكلمة فتحصل فى قنا ، وتبلغ ثلاثة قروش ونصف القرش عن القنطار ، وهكذا فإذا ما أضفنا معاً كل الرسوم التى يتحملها القنطار من البن حتى خروجه من قنا ، فسنجد أن المجموع يصل إلى أربعة قروش و ٨٥ مدينى أى ما يوازى تقريباً ثلث ثمن شراء هذه السلعة من موانى الجزيرة العربية .

ويتم نقل البن من قنا إلى القاهرة عن طريق النيل كما سبق أن ذكرنا فى مناسبة

سابقة . وتدفع مصاريف للقنطار الواحد ما بين ١٢ إلى ٤٥ بارة حسب الظروف . ويباع القنطار فى القاهرة بـ ٢٥ إلى ٣٠ قرشاً .

أما بضائع الهند التى تشكل عادة جزءا من حمولة سفن ينبع وجدة فتجلب إلى هاتين المدينتين بواسطة قوافل الهنود الذين يأتون إلى مكة للحج أو عن طريق سفن الهند التى يركبها فى بعض الأحيان أبناء هذه البلاد . وإن كان يركبها فى الغالب انجليز . وحيث ليس لهؤلاء الانجليز من قناصل فى موانى البحر الأحمر فإنهم نادرا ما يرسون سفنهم هناك ويذهب التجار مع موظف الجمرك إلى ظهر سفنهم حيث تتم المعاملات . وهم فى العادة يحرصون على أن يبيعوا الأشياء المختلفة فى حمولتهم بسعر أقل من نفس سعر الأشياء حين تجلبها القوافل أو السفن الهندية . ويسدد لهم الثمن بالقروش الأسبانية ، ومن النادر للغاية أن يأخذ الانجليز بضائع عند عودتهم .

وفى القصير تسدد الرسوم عن أقمشة الهند والتوابل والبخور والصمغ ، وعادة عن كل البضائع التى تشكل حمولة سفن جدة وينبع فيما عدا البن . وتبلغ هذه الرسوم ١٠ ٪ عينا وهذه هى الرسوم الوحيدة التى تتحملها هذه البضائع حتى تصل إلى القاهرة .

وبخلاف الأقمشة والموسلين التى تنقل من الهند إلى القصير ، يوجد أيضاً الحرير المصنع فى انجلترا والذى يعانى من الكساد فى مناطق أخرى .

وتباع شيلان الكشمير فى ينبع وجدة بسعر ٣٠ إلى ٥٠ قرشاً ، لكن هذه من نوع ردىء . وهذه السلع ، وكذلك كل بضائع الهند التى تجلب إلى مصر توضع داخل بالات صغيرة تكفى اثنتان منها حمولة لجمل ؛ ويدفع ٦٠ إلى ٨٠ مدينى لنقل الواحدة من هذه البالات ، عن طريق النيل ، من قنا حتى القاهرة .

أما مدينة السويس ، وهى أكبر حجما من مدينة القصير ، فقد شيدت عند الطرف الشمالى وعلى شاطىء البحر الأحمر . ولا ترسو فيها السفن مطلقاً إلا بعد أن تفرغ حمولتها ، وتظل فى الخليج على بعد حوالى خمسة أرباع (١ $\frac{1}{4}$) فرسخ إلى الجنوب من المدينة . وينحصر هذا الخليج بين ساحلين تغطيهما المياه وقت نوبات المد العالية ، وقاعه من الرمل الناعم ، ويبلغ عمق المياه به فى حالة المد المنخفض من ١٨

إلى ٦٠ قدماً . وفضلا عن ذلك فهو فى حمى من الرياح التى تهب من المنطقة الشمالية من الشرق حتى الجنوب الغربى . ورياح الجنوب هى وحدها التى يكون بمقدورها أن تسبب به بعض الاضطرابات ومع ذلك فلن يكون ثمة خطر يخشى فى هذه الحالة إذا ما كانت الكابلات التى تمسك بالعكس قوية لحد كاف ، وإذا ما كانت السفن مجهزة على نحو طيب .

أما الحزام الشرقى للمدينة ، فتقفله بعض بقايا جدران رصيف مبنى بحجارة دبش . وهناك ترسو قوارب صيادى الأسماك وكذلك قوارب السفن التى توجد فى الخليج . ويتصل بهذا النوع من رصيف الركوب أو الشحن الموجود داخل الخليج ممر مائى يتجه جنوباً موازياً الشاطئ لمسافة خمسمائة أو ستمائة متر إلى داخل الخليج . وفى حالات المد المنخفض يبلغ عمق المياه فى هذا الممر ٦ إلى ٨ أقدام ، لكنه مسدود عند فتحته بواسطة ذراع من الرمال لا يبلغ عمق المياه فوقه أكثر من أربعة إلى خمسة أقدام . وتدين هذه الذراع بنشأتها للتوازن القائم فى هذه المنطقة بين تيار المد الصاعد وتيار المياه التى تنقل على الدوام عند هبوطها من أعماق البحر الأحمر كمية ضئيلة من الرمال .

وترى إلى الشمال الشرقى من السويس ربوة صغيرة يطلق عليها اسم القلزم ، وتبعاً لحكايات البلاد فقد كان هذا الموضع مكاناً لمدينة قديمة . وقد اجتزت هذه المنطقة بانتباه ، لكننى لم أجدها سوى مرتفع يشبه تلك المرتفعات التى تحيط بكل مدن مصر والتى تتكون من الحصى والأنقاض والقاذورات التى يلقى بها الناس عليها .

ولا يجد المرء مطلقاً فى ضواحى السويس مياهاً عذبة ، ونتيجة لذلك فليس ثمة أية خضرة ، وتجلب إليها الحبوب والخضروات وبقية الأشياء الضرورية من داخل مصر وبأسعار باهظة . ويذهب الناس الآن ليجلبوا المياه الضرورية لاحتياجات السكان من الساحل الشرقى للخليج على بعد فرسخين ونصف الفرسخ من المدينة . وتسمى العين التى تخرج منها هذه المياه : النبع ، وهذه ليست سوى ثقب يبلغ عمقه من ثمانية إلى تسعة أقدام ومحفورة وسط كومة من الزلط الدائرى تكدست عند سفح

سلسلة الجبال العربية . وتميل هذه المياه بدرجة خفيفة نحو الملوحة . ولا نزال نجد حتى اليوم آثار مجرى علوى كان يبدأ من هذه العين نفسها ويتجه نحو السويس . وكان قاع هذا المجرى وكذا جدرانه قد تكون من نوع الخرسانه المكونة من الجير والرمل الحجرى والحصى والأصداف ، إذ من السهل التعرف على ذلك من بعض أنقاضه المتناثرة على الأرض .

ولم تكن العين هى وحدها التى تحصل منها المدينة على المياه اللازمة لها ، فقد كان الناس فيما مضى يذهبون إلى عيون موسى الواقعة على بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب الشرقى من ساحل الجزيرة العربية . ويبلغ عدد هذه العيون سبع عيون أو ثمانى ، محفورة فى الرمال على بعد ثمانمائة أو تسعمائة قامة من ساحل البحر . وتقدم بعض هذه العيون مياهاً مائلة للملوحة بينما تقدم اثنتان أو ثلاث منها مياهاً عذبة لحد كاف . ويرى المرء بقايا لمجرى علوى كان يحمل المياه من واحدة من هذه العيون إلى ما يشبه خزاناً يبعد لمسافة قليلة عن الشاطئ الحالى . ويلاحظ المرء أيضاً حول هذه العيون أكواماً من الأنقاض وقطع الفخار وقطع المواد البنائية مما ينبئ عن وجود مدينة قديمة فى هذا المكان . وفوق ذلك كله ، فإن من المدهش ألا يجد المرء خرائب أكثر أهمية فى منطقة من هذا الساحل توجد بها مياه عذبة ، وهى ميزة ثمينة كان بوسعها أن تسمح بأن يزرع هناك ، وبنجاح ، بعض المحاصيل النافعة ، وهو حكم يستطيع المرء أن يصدره مستنداً إلى وجود تلك الخضرة اليانعة المتمثلة فى هذا النخيل الكثيف الذى يحيط بهذه العيون .

وليس ما تبقى من أعمال أقيمت لكى تجلب المياه إلى السويس ، أو إلى تلك المدينة القديمة التى خلفتها هذه المدينة الحديثة ، هو البرهان الوحيد على أهمية هذه المدينة وعلى حالة الازدهار التى كانت تتمتع بها فيما مضى ؛ فنوع البناء فى أغلب المبانى التى تحيط بأرصفتها وأماكنها المختلفة ، كل ذلك يقدم براهين أخرى .

ويحصى فى السويس كذلك ثمانى عشرة أو عشرون وكالة مخصصة لسكنى التجار الأغراب ولكى يستخدمها هؤلاء كمخازن . وتبنى الوكالات على نمط

موحد الشكل ، إذ هى عبارة عن أسوار مستطيلة الشكل يبلغ طول ضلعها أربعين إلى خمسين متراً ، وحيث تشكل هذه مبنى منعزلا فإن فناءها الداخلى الذى أقيمت المساكن من حوله ، له عادة منفذان أو ثلاثة منافذ . والجزء الأدنى من جدران سور هذه المنشآت تكسوه الأحجار .

وشوارع السويس مصفوفة (أى منتظمة المبانى) ويبلغ عدد الميادين العامة هناك ثلاثة ميادين أو أربعة ، وهى لا تخلو من نوع من الانتظام ، بل إن البيوت الخاصة بالمدينة تحمل نوعاً من المسحة الأوربية لا نجدها فى أى مكان آخر من مصر .

وعلى الرغم من الميزات التى تقدمها هذه المدينة للتجارة ، فقد انهارت بشكل بالغ الغرابة منذ نحو أربعين عاماً . فقد كان عدد سكانها عند ئذ يبلغ أكثر من ألف نسمة من بينهم عدد من التجار الأروام ؛ ويكاد لا يجد المرء فيها اليوم مائتى شخص . أما فترة ازدهارها العظيم فربما تعود إلى زمن دمار الاسكندرية على يد العرب المسلمين فحيث قد أصبحت القاهرة (كذا) مقراً للحكومة ، وحيث قد أصبحت هذه العاصمة مركزاً لكافة الأعمال والمعاملات فقد استوجب الأمر أن يكون ميناء البحر الأحمر ، وهو الأقرب إليها ، هو الذى تمارس عن طريقه علاقات مصر التجارية مع الهند والجزيرة العربية .

ولربما كان السبب الأوحد فى بقاء السويس بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح هو ذلك العبور السنوى لقافلة مصر (موكب الحج) الذى يبحر جزء منها من هذا الميناء عند السفر إلى مكة ، كما ينزل فيه عند عودته .

وعلى وجه التقريب ، تتم اليوم كل التجارة بين مصر والهند بوساطة هذه القافلة ، وكذا عن طريق ذلك الرباط القائم بين مينائى السويس وجدة .

وقد بنيت معظم السفن العربية التى تقوم بالملاحة فى البحر الأحمر ، فى الهند ، وتباع الواحدة هناك بسعر أربعة أو خمسة آلاف قرش أسبانى وتبلغ حمولتها ٧٥ إلى ٨٠ طناً . وفى نفس الوقت توجد فى جدة ترسانة لبناء السفن يزودها الإنجليز بالخامات .

وتسود رياح الجنوب عادة البحر الأحمر منذ بداية ديسمبر وحتى منتصف فبراير ، وفى أثناء الشهرين اللذين يليان اعتدال الربيع . وهذان الفصلان اللذان يسمى أولهما الحربانية ، ويسمى الثانى النجم هما موسما إرسال السفن من جدة وينبع إلى السويس ، وفى أثناء بقية العام تهب الرياح من المنطقة الشمالية . وعندئذ يصبح فى الامكان إرسال السفن من السويس إلى الجزيرة العربية . وعندما تكون الرياح مواتية تصل السفينة من جدة إلى السويس فى خمسة عشر أو ستة عشر يوماً، فى حين أن المدة التى تستغرقها الرحلة الاعتيادية تبلغ عشرين أو اثنين وعشرين يوماً ، تزيد بمقدار ثلاثة أو أربعة أيام بالنسبة للسفن القادمة من ينبع .

ولا ينبغى أن ننسب إلى صعوبات الملاحة فى البحر الأحمر هذا البطء فى اجتياز البحر ، ذلك أن الأمر يعود بالأحرى إلى جهل البحارة العرب ، وإلى عادتهم فى إلقاء مراسيهم كل ليلة فى الخلجان الصغيرة التى يقابلونها على الساحل الشرقى للبحر ، ولهذا السبب فإنهم يتبعون حافته دون أن يغيبوا عن البصر مطلقاً .

ويصل إلى السويس سنوياً خمسون أو ستون باخرة قادمة من جدة ، وتشتمل حمولتها بشكل رئيسى على البن والصمغ العربى والبخور والتوابل والعقاقير من أنواع مختلفة ؛ أما بخصوص الموسلين وأقمشة الهند الأخرى ، فإنها تجلب عادة عن طريق حجاج مكة .

وينبغى أن نضيف إلى هذه السلع المتنوعة مائة قنطار من السنامكى تأتى من ضواحى هذه المدينة ، وهذه السلعة تدخل شأنها شأن السنامكى المزروع فى أسوان فى الاحتكار (الالتزام) الذى منحه مراد بك لقنصل البندقية المسيو س . روزتى .

وأخيراً فإنه يجلب سنوياً من الجزيرة العربية إلى مصر من ٢٠ إلى ٣٠ عبداً أسود ، ويحظى هؤلاء بتقدير أكبر مما ينال عبيد أفريقيا .

وقبل الخمسة عشر عاماً الأخيرة التى سبقت حملتنا على مصر كان يأتى إلى السويس من عشرين إلى ثلاثين ألف حمولة من البن ، تزن الواحدة ثلاثة قناطير وثلث القنطار ، زنة الواحدة منها ١٠٥ من الأرطال . ومنذ هذه الفترة تدهورت تجارة البن عن

طريق السويس ، فلم يعد يصل إليها سوى ١٥ إلى ١٧ ألفاً من الحمولات عن هذا الطريق ، ويرسل الباقى عن طريق القصير . وفى نفس الوقت فإن القيمة الإجمالية لهذه السلعة هى الآن أقل مما كانت عليه فيما مضى .

وتتفق المعلومات التى حصلت عليها من السويس عن سعر طن البن فى جدة وينبع ، وعن الرسوم التى تخضع لها هذه السلعة ، تتفق تماما مع تلك التى سبق أن حصلت عليها فى القصير : فيسدد ٦٠ إلى ٨٠ مدينى لنقل القنطار من البن من جدة إلى السويس .

أما القنطار والرطل المستخدمان فى موانئ الجزيرة العربية فهما نفساهما المستخدمان فى مصر ، وقد سبق أن لاحظ بروس Bruce أن هذه الأوزان هى نفسها أوزان البندقية مما يبرهن – ونحن فى هذا نتفق مع رحالتنا – أنهما (أى القنطار والرطل) أدخلا إلى الشرق عندما كان البنادقة يكادون يحتكرون ممارسة التجارة هناك .

أما التوابل وبقية سلع الأرخبيل الهندى فتجلبها كل عام إلى جدة خمس عشرة أو عشرون سفينة صغيرة ماليزية أو عربية ، وبواسطة ثلاث أو أربع سفن انجليزية .

أما السلع الهندية التى تأتى إلى السويس ، فكانت تشتمل بدرجة أساسية على الأقمشة الحريرية والأقمشة القطنية ، وصوف الكشمير .

وقبل مجئ الحملة على مصر بحوالى العشرين عاماً كانت تتم هناك واردات بواسطة قافلة مكة أكبر بكثير من تلك الواردات التى كانت تأتى عن طريق السويس والقصير ؛ لكن العدد الكبير من القبائل الجوابة التى كانت تقطع الطريق الذى كانت القافلة (المحمل) مضطرة لاتباعه ، قد جعلت من الأفضل فى الآونة الأخيرة استخدام طريق البحر . ومهما يكن من أمر فإن قيمة الأشياء المستوردة بواسطة القافلة كان لا يزال يبلغ سنويا ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ألف قرش أسبانى ، وتجارة الواردات هذه (أى التى يقوم بها الحجاج) كانت معفية من كل الرسوم الجمركية .

وكان يوجد بالقاهرة فيما مضى ١٥ إلى ٢٠ بيتا للتحار الأتراك الذين يمارسون تجارة الهند ، لكن هذا العدد تضاءل اليوم إلى ثلاثة أو أربعة : ويوحد عدد مماثل على وحه التقريب من السماسرة الأتراك مستقرين بجدة .

وتحتكر أربعة قبائل بشكل شبه تام عملية نقل البضائع الواردة بحراً من السويس إلى القاهرة ، وهذه القبائل ، التى تسلك كل واحدة منها طريقاً مختلفا هى قبائل : طرابين ، الحويطات ، عرب الطور ، العايدى .

ويسكن الأولون ضواحى مصر القديمة وقرية البساتين ، ولهم كذلك مخيمات فى بعض منافذ وادى التيه .

أما الحويطات فيستقرون فى ولاية القليوبية .

ويشغل عرب الطور ساحل الجزيرة العربية حتى رأس محمد وضواحى جبل سيناء (جبل الطور) وكل شبه الجزيرة المحصورة بين بحر القلزم (خليج السويس) وخليج العقبة .

وأخير فإن عرب العايدى يسكنون ضواحى المطرية وبركة الحج .

ويقدم هؤلاء العرب الجمال بجماليها وعدداً مناسباً من قائدى الجمال الذين يخضعون هم أنفسهم لأوامر بعض الشيوخ .

ويحمل الجمل الواحد من السويس إلى القاهرة من ٥ إلى ٦ قناطير من البن ، يدفع عن كل واحد منها ٩٠ مدينى .

وكانت عوائد جمرك السويس تقسم بين مراد بك وإبراهيم بك ، لكن إبراهيم كان يتمتع بها وحده عندما وصل الفرنسيون إلى مصر ، وفى نفس الوقت كان يحصل رسم مقداره مدينى واحد عن كل رطل بن لصالح باشا القاهرة ، ورسم قدره ١٤٦ مدينى عن كل حمولة لصالح أمير الحج .

ولابد أن تجارة الهند عن طريق البحر الأحمر كانت تدر مكاسب كبيرة لدرجة جعلت القوم يفكرون فى تكوين منشآت فوق شواطئ رملية بقدر ما هى قاحلة مثل

تلك التى أنشئت فوقها مدينتا السويس والقصير ، ولهذا السبب ، فإنه أملا فى الاستمتاع بهذه المزايا فقد بذلت قرب نهاية القرن الأخير بعض محاولات لكى يفتح من جديد أمام تجارة الهند ، ذلك الطريق الذى كانت تتبعه هذه التجارة قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح .

ومن المعروف أن على بك الذى حكم مصر فى الفترة من ١٧٦٣ إلى ١٧٧١ كان قد أعد مشروعاً يهدف إلى استقلاله عن الباب العثمانى ، وقد بين له قنصل البندقية الذى كان يوليه – أى على بك – ثقة كبيرة ، الفائدة التى يمكن أن تعود بها عليه تجارة الهند مع أوربا ، لو أنه استطاع أن يتوصل إلى جعلها تمر بمصر باعتبار ذلك الوسيلة الأكيدة لتنمية ثرواته ، ولتأكيد استقلاله .

كان الأمر يقتضى أولا السيطرة على موانى البحر الأحمر التى تحتفظ بأوسع العلاقات مع الهند ، وكذلك على السوق التى تتجمع بها القوافل التى تقوم بالتجارة معها براً ، ونتيجة لذلك فقد احتل جدة ومكة بواسطة بكوين من بيته هما حسن الجداوى ومحمد أبو الدهب .

ولكى يجذب على بك الأوربيين إلى جدة فقد ارتضى أن يكون لهم فيها مندوب معتمد ، كما أنقص رسوم الجمارك التى ينبغى أن تحصل هناك إلى ٣ ٪ فقط من قيمة السلع .

لكن الظروف لم تسمح مطلقاً بأن توضع هذه المشاريع موضع التنفيذ، **إلا أن** النية التى أبداها على بك فى جعل الملاحة فى البحر الأحمر حرة ما لبثت أن وجدت من يتفهمها ، وبنفس القدر ، فى الهند .

لقد أعد بعض التجار فى ذلك الوقت مشروعا ليرسلوا إلى الشرق عن هذا الطريق البضائع المختلفة التى تتداول هناك ، وجاءت إلى السويس سفن عديدة كانت تدفع عند وصولها ٥ ٪ من قيمة حمولتها ، وأكتفى بأن يفرض فوق ذلك رسماً إضافياً قدره ٦ ٪ من نفس هذه القيمة ، عندما يقوم تجار القاهرة بشراء هذه السلع .

ولقد شجع محمد أبو الدهب خليفة على بك ، مثله فى دلك مثل سلفه ، التجارة مع الهد ، فلم يكتف فقط بأن يسمح للمراكب الإنجليزية التى يحرسها حرس حاص بها بأن تفرغ حمولاتها فى السويس ، بل ألزم تجار القاهرة الدين يتعاملون معها بأن يسددوا ثمن البضائع التى يحصلون عليها منها فى حلال ثلاثين يوماً . وقد أوحت المنافع والمكاسب التى أدت إلى وجودها هده الحماية من حانب حكومة مصر ، وكذلك تلك الشهرة التى لم تتوان فى تصحيح الأمور – أوحت إلى أصحاب سفن آخرين أن يحاولوا الإفادة منها بدورهم ، ومع دلك فإن شركة الشرق الإنجليزية التى تبيع فى كافة أنحاء الامبراطورية العثمانية أقمشة النعال الواردة من محلات شركة الهند قد خشيت أن يؤدى الطريق الجديد الذى فتحته مصر إلى الإضرار بمصالحها ، ونتيجة لدلك فقد التمست من ديوان الآستانة ، عن طريق سفير انجلترا هناك ، صدور فرمان يحرم على الأوربيين الملاحة فى البحر الأحمر جنوب جدة .

لقد انقضى وقت طويل بعض الشيء حتى حصل هؤلاء على هذا الفرمان وفى أثناء هذه الفترة استمرت التجارة بين مصر والهند محققة مكاسب هائلة ، ولكن فى النهاية ، أرسل إلى باشا القاهرة دلك الفرمان الدى التمسه عملاء الحكومة الإنجليزية من القسطنطينية .

وكان حاكم البنغال من جانبه قد منع التوريد المباشر لسلع الهند إلى مصر على مراكب إنجليزية .

ولكن ، وعلى الرغم من هذا المنع ، ومن فرمان السلطان ، فقد وصلت إلى السويس فى عام ١٧٧٨ سفن عديدة سرت الأنباء بأن قنصل فرنسا يهمه أمر حمولتها ، ويحكى فى هذا الصدد أن هذا القنصل لكى يعمل على وصول هذه السلع إلى القاهرة بأكبر قدر من السلامة ، قد حرص على أن يتم نقلها بواسطة جمال مملوكة لواحد من كبار البكوات ، وبلا جدوى ، ظل عرب الطور الدين يدعون لأنفسهم حق القيام بعمليات النقل يطلبون أن توكل إليهم هذه المهمة كما هو متبع مند القدم ، وعندما رفض هدا الطلب ، فقد أنقصوا مطالبهم إلى طلب واحد هو الحصول على تعويض نقدى عن

الحسارة التى أدعوا أنها لحقت بهم من حراء هدا الخرق ، وقد أثارهم دلك الرفض الحديد الدى مىى به مطلبهم : فنصبوا كميناً ، وانتهبوا القافلة ، وهو أمر كان ميسوراً للغاية بالنسبة لهم بقدر يماثل قدر اعتماد المسافرين من كافة الحنسيات ، والذين كانوا يصاحبون القافلة ، على الحماية التى سبق أن تمتعوا بها من قبل أثناء الرحلات السابقة ، فلم يتخذوا لذلك الاحتياطات اللازمة من أى نوع ، ليدافعوا عن أنفسهم هذه المرة

وبعد دلك أصبحت السفن التى تصل إلى السويس تصادر بواسطة باشا القاهرة بما تحمله من بضائع ، وفى نفس الوقت كان هناك أناس آخرون من أهل البلاد يشترون بثمن بخس تلك السلع التى سلبت من القافلة .

وتكاد تكون كل السفن التى ترسل مباشرة من الهند إلى ميناء السويس محملة لحساب ضباط عسكريين ، أو لحساب مدنيين يعملون فى خدمة الشركة الإنجليزية .

وبعد هذا النجاح المشئوم الذى لاقته هذه الحمولات ، فإن السفن ما لبثت أن توقفت تماماً عن استخدام هذا الطريق ، وبالإضافة إلى ذلك ، فبدءاً من هذا التاريخ ، أصبح للانجليز نائب قنصل فى الاسكندرية ، وحتى ذلك الوقت ، لم تكن شركة الهند قد اعتمدت فى القاهرة سوى عميل أوكل إليه العمل تمرير البرقيات براً ، سواء فى ذلك البرقيات القادمة من أوربا إلى البنغال ، أو تلك القادمة من البنغال إلى أوربا .

الصادرات

فى مقابل البن وعقاقير الجزيرة العربية وسلع الهند التى تصل إلى الطريق بواسطة السفن العربية ، تقوم هذه السفن عند عودتها بحمل القمح والدقيق والفول والعدس والسكر والزبدة وزيت الخس وزهور القرطم ونسيج الكتان .

ويرسل جزء من هذه السلع إلى ينبع وجدة مباشرة أو بواسطة سماسرة مستقرين فى القصير أو قنا ، ويعهد بهذه السلع إلى قباطنة السفن التى تنقلها فوق ظهرانيها ،

أو يحملها معهم كأمتعة سفر ، عدد من المسافرين ، جميعهم من سكان الصعيد وأواسط أفريقيا الذاهبين لأداء الحج إلى مكة ، وعادة ما تتم هذه الصادرات أثناء شهرى أبريل ومايو وبأكبر قدر من النشاط .

ويكيل القمح ، وكذلك كافة الحبوب المصدرة عن طريق القصير ، ليس بأردب القاهرة ، وإنما بالتلليسة ، وهى وحدة للكيل تبلغ قيمتها بالنسبة لأردب القاهرة ١٦ : ٩

وتباع تلليسة الحنطة فى قنا بـ ٣ – $\frac{1}{2}$ ٤ بوطاقات .

وتباع حمولة الجمل تزن حوالى ١٧٠ ك ح بـ ٣ تلليسة ، وتنفق قوافل الجمال المحملة على هذا النحو أربعة أيام للذهاب من قنا إلى القصير . وتتكلف مصاريف شحن تلليسة القمح من ٢٠٠ إلى ٣٨٠ بارة وهو مبلغ يعادل القيمة الأصلية للقمح كما يباع فى أسواق قنا وقوص وأبنود حيث تباع عادة الحبوب المخصصة للتصدير إلى الجزيرة العربية .

وفى نفس هذه الأسواق ، تباع تلليسة الشعير وتلليسة الفول بثمن يبلغ فى المتوسط ٢ بوطاقة و ٦٠ مدينى .

وتباع تلليسة العدس بـ ٤ بوطاقات و ٤٠ مدينى أى بنفس سعر تلليسة القمح تقريباً .

وكل جمل فى قافلة ما ، بخلاف حمولته من القمح والعدس ، يحمل كذلك كمية من الفول اللازم لغذائه أثناء الرحلة !

وعلى الدوام ، يدخل فى سعر اكتراء الجمل ، وهو الذى يتراوح بين ٣ – ٤ بوطاقات ، حسب احتياجات التجارة ، أجر الجمال المكلف بقيادة ستة جمال مع العناية بهم .

وكان من الممكن تحويل كل القمح المرسل إلى الجزيرة العربية إلى دقيق لولا غيبة الطواحين هناك (فى مصر) ؛ ولو تحقق ذلك لكان المصريون سيكسبون من وراء هذه العملية أجور الأيدى العاملة اللازمة لتشغيل الطواحين والتى تحسب بواقع ٤٨ بارة عن طحن كل أردب (مكيال القاهرة) .

وينتج قنطار القمح عادة ٩٠ رطلا من الدقيق ، وتبلغ مصاريف نقلها من قنا إلى القصير ١٠٠ مديني للقنطار . وتشكل الزبد موضوعاً هاماً لحد ما فى تجارة الصادرات ، وتجلب هذه من قرى مصر العليا الواقعة بين المنيا وإسنا ، وتباع بسعر ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ مديني للقنطار ، وتنقل فى قرب من جلد الجاموس ، ويستطيع الجمل أن يحمل منها أربعة قناطير ؛ وهو نفس ما يحدث بالنسبة للزيوت التى تستخلص من مختلف البذور الزيتية .

وتحتوى الجرة من الفخار ، والتى تسمى « بلاص » والتى تستخدم فى كيل الزيت على ٢٣ أو ٢٤ رطلا ، زنة القاهرة ، من الزيوت ، وتباع فى قنا بـ ٢٠٠ إلى ٢٤٠ بارة ؛ وعند نقل الزيت على ظهور الجمال ، يوضع فى قرب كبيرة ، ويستطيع الجمل أن يحمل ثلاثة قناطير أو أربعة .

ويباع قنطار السكر فى قنا بـ ٩ إلى ١٠ بوطاقات .

أما قنطار الزعفران أو زهرة القرطم فيباع بـ ٨ إلى ١٢ بوطاقة .

وأخيرا، فإن قطع قماش الكتان التى يبلغ طول القطعة الواحدة منها ٢٧ – ٢٨ ذراعاً ، والتى تصدر من مصر إلى الجزيرة العربية عن طريق القصير تباع بـ ١٢٠ بارة للقطعة ، ويستطيع الجمل أن يحمل مائتى قطعة .

وتكال الحبوب المصرية عندما تصل إلى القصير بواسطة مكاييل تختلف عن تلك التى تستخدم فى قنا ؛ ويبلغ أردب القصير بالنسبة إلى أردب قنا نسبة ٣ : ٥ ، وأول هذه المكاييل يساوى بالنسبة لأردب القاهرة نسبة ٤٤ : ١٠٠ ، وتبلغ تكاليف إرسال الأردب من كافة أنواع الحبوب ، من القصير إلى ينبع أو جدة ١٦٠ مديني .

ويباع القمح فى ينبع بستة قروش إسبانية لأردب القصير ، ويرتفع الثمن إلى سبعة قروش فى سنوات القحط .

ويباع قنطار السكر المصرى فى جدة وينبع بـ ٢٥٠٠ بارة فى حين يباع قنطار الزبد هناك بـ ١٢ – ١٥ قرشاً .

ويلاحظ ، أنه قلما يصدر عن طريق القصير سوى منتجات زراعية مصرية وكذلك الأقمشة وبعض المنتجات الأخرى من صناعات مصر البدائية .

وتحتل حافة الطريق التى يتبعها الناس خلال الصحراء للذهاب إلى هذا الميناء عربان من قبيلة العبابدة ، ولا يقوم هؤلاء بدور الشاحنين المعتادين فى هذا الطريق فقط ، بل إنهم مكلفون أيضاً بحراسة القوافل مقابل أتاوة تبلغ ٢٣ بارة ، تقدم لهم مقابل كل واحد من الجمال التى تتكون منها القافلة .

ولسوء الحظ ، فحيث ليس لدى هؤلاء العربان سوى ممتلكات قليلة يمكن المساس بها فإن من العسير إلزامهم بالمسئولية عن أحداث السلب التى قد ترتكب ضد القوافل وهى تحت حراستهم ؛ ولهذا السبب فإنهم لا يقومون بالتزاماتهم على الدوام بالأمانة الواجبة ؛ وبالإضافة إلى ذلك ، فإنهم لا يعرفون سوى الحياة الرعوية ، ومن هنا فهم أكثر نهما للأشياء التى تفى بالضرورات الأولية ، فى الوقت الذى تقل رغبتهم فيه فى أشياء الرفاهية والترف : وهذا هو السبب فى أنهم يطلبون بخلاف أتاوة الـ ٢٣ بارة التى تحدثت للتو عنها ، ١/٢٤ من أردب القمح ودقيق الشعير أو من الفول عن كل واحد من الجمال التى تحمل بهذه السلع ، فى حين أنهم لا يطالبون بأى مقابل عينى فيما يختص بحمولات السكر والزعفران والبن على الرغم من قيمتها الكبيرة .

وعندما تؤدى الحروب التى تتقاتل فيها القبائل العربية فيما بينها إلى جعل طريق القوافل أقل أمناً ، فإن القوافل تتجمع بانتظار أن تصبح كبيرة العدد لحد يكفيها أن تقوم بالدفاع عن نفسها ضد العصب التى قد تتمكن من مهاجمتها ؛ وفى هذه الحالة تسير القوافل فى حراسة مماليك يحصلون نظير حمايتهم تلك على ٦٠ بارة مقابل كل جمل .

ويتلقى ميناء السويس من القاهرة ، وهو أقرب الموانى إليها ، بخلاف كمية معينة من مواد ومنتجات مصر ، معظم البضائع الأوربية المخصصة للجزيرة العربية والهند .

وحيث لا تدفع هذه الصادرات أية رسوم جمركية عند خروجها ، وحيث لا تسجل حالتها مطلقا ، فإن من المستحيل أن نعرف على وجه الدقة كمية كل واحدة من هذه الصادرات : لذلك لا ينبغى أن ننظر للاشارات التى سنقدمها هنا ، إلا على أنها لمحات بسيطة ، حصلنا عليها تبعاً للمعلومات التى تلقيناها من موظفى جمارك السويس ، وبعض تجار القاهرة الذين يمارسون هذه التجارة .

وتقدر كمية الحبوب : القمح والفول والعدس ، التى ترسل سنويا من مصر عن طريق مينائى القصير والسويس إلى مينائى جدة وينبع بـ ٤٠ أو ٥٠ ألف أردب .

وتجلب الجزيرة العربية مباشرة من الهند الأرز الذى تستهلكه ، أما الأرز القليل الذى يصدر إلى هناك من مصر فقلما يتجاوز خمسمائة أردب فى العام .

ويتكلف شحن أردبين من القمح ، وهما يشكلان كما قلنا حمولة جمل واحد ، أربع بوطاقات ، كما يصل ثمن الأردب مجلوبا إلى هذا الميناء لنقله بحراً إلى ستة بوطاقات .

أما عن البضائع الأوربية التى تصدر عن هذا الطريق ، فهى تحتوى بشكل رئيسى على : الحلى الزجاجية وارد البندقية ، المرجان ، القرمزية (حشرة للصباغة) ، الزعفران ، الحديد ، الصلب ، النحاس والورق .

وتشكل الحلى الزجاجية وارد البندقية وكذا المرجان سلعة تقدر سنويا بـ ١٠٠ إلى ١٥٠ ألف بوطاقة ؛ وتقدر كمية القرمزية التى ترسل كل عام إلى الهند عن طريق ميناء السويس بثلاثين إلى أربعين برميلا ، وترتفع هذه الكمية فى بعض الأحيان لتصل إلى ثمانين برميلا ثمن كل واحد ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ بوطاقة .

وكان يصدر سنويا ٢ – ٣ قناطير من الزعفران ، يساوى القنطار الواحد منها ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ بوطاقة .

وتقدر قيمة الحديد والرصاص والنحاس المرسلة من السويس إلى جدة بخمسين ألف بوطاقة ، أما قيمة الورق فتقدر هى الأخرى بخمسين ألف بوطاقة ، وأخيراً فقد كان يصل ثمن أسلاك النحاس المذهبة أو الفضية وكذلك بعض الخردوات وجميعها مخصصة للجزيرة العربية والهند ، إلى ٣٠,٠٠٠ بوطاقة .

وإذا ما قارنا الصادرات التى انتهينا من بيانها بالواردات من الجزيرة العربية والهند إلى مصر ، فإننا نرى أن هذه الواردات كان ينبغى أن تسدد كلها على وحه التقريب نقداً ، وهذا ما كان يتم فى الواقع .

الفصل الرابع

عن العلاقات التجارية بين مصر وأوربا

كانت الأمم الأوربية التى تقتسم فيما بينها ، بشكل شبه تام ، تجارة مصر قبل الحملة الفرنسية هى ؛ البندقية ، توسكانيا ، وفرنسا . وكانت سفن هذه الدول وكذلك سفن جمهورية راجوزة تقوم بالتنقل بين الموانئ فى بحار الشرق ، متمتعة بكثير من الامتيازات ، حتى أن رسوم الدخول والخروج المفروضة على حمولات هذه السفن داخل موانئ الأمبراطورية العثمانية كانت أقل مما تخضع له حمولات السفن الوطنية . وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت المعاهدات التجارية التى التمست الامتيازات لكل الأمم المسيحية تراعى بصرامة . وحيث كان القناصل الأوربيون المقيمون فى الموانى المختلفة مكلفين بشكل خاص بالسهر على وضع هذه المعاهدات موضع التنفيذ ، فقد كانوا يلحون فى طلب مثل هذه المعاهدة عند الحاجة ؛ وبذلك فقد حرروا تجارة أممهم من الأعباء الهمجية التى كان من الممكن أن تنوء بها على يد حكام الولايات ، أو غيرهم من أصحاب السلطة المطلقة .

ولم يكن الأمر على هذا النحو مطلقاً بخصوص رعايا الدولة العثمانية ، إذ لم تكن لتجارتهم من حماية ، من أى نوع ، داخل موانئ بلادهم هم ، لذلك فقد تحملت تجارتهم وحدها كل الضرائب التى كان يحلو للسلطة أن تحملها إياها حسبما تهوى ، كما لم تكن لهذه الأتاوات التى تفرضها النزوات حدود تقف عندها ، اللهم إلا حدود جشع فارضيها .ولهذا السبب ، فقد كانت كل التجارة البحرية ، على وجه التقريب ، التى لهذه البلدان ، وعلى الرغم من كل المميزات التى يهيؤها الموقع الطبيعى لجزر اليونان ولكل سواحل تركيا ، تتم على أيدى أمم أجنبية .

ومع ذلك ، فلا ينبغى أن نستنتج من هذا أنه لم تكن هناك علاقات تجارية مباشرة بين مصر وبقية ممتلكات الباب العالى ، فلقد تضاعفت هذه العلاقات لحد سهل معه علينا أن نجمع عنها معلومات واسعة ؛ لكننا لم نتسرع ، اعتماداً منا على هذه

السهولة ، فى تحصيلنا لهذه المعلومات ، لكن العمليات العسكرية التى تمت فيما بعد ، والتى سبقت جلاءنا عن مصر ، لم تسمح لنا على الإطلاق بمواصلة العمل الذى كنا قد أخذناه على عاتقنا .

١ - تجارة مصر مع البندقية وتريستا

ترجع تجارة البندقية مع مصر إلى القرون الأولى من تأسيس هذه الجمهورية ؛ ولقد ظلت الأمم الأوربية لوقت طويل تحصل عن طريق هذه التجارة على بضائع الشرق . ومنذ أصبح ميناء تريستا نفسه مستودعاً ، كف البادقة عن ممارسة سيادتهم على البحر الأدرياتيكى ، واقتسمت تريستا والبندقية فيما بينهما تجارة الواردات والصادرات التى كانت تتخذ موضوعاً لها ، نفس هذه البضائع .

وكانت حمولات المراكب التى تتوجه من البندقية إلى الاسكندرية مقسمة عادة بين القبطان ، وهو مالك لحصة من هذا المركب ، وبين مجهزى السفينة الذين كانوا يسعون على الدوام لامتلاك أكبر حصة فيها . وبخلاف هؤلاء ، فقد كان يوجد فوق ظهر السفينة أشخاص ممن يطلق عليهم بازار يوتى Bazariotti أى صغار التجار الذين يعملون بحارة على ظهر السفينة ؛ وكانوا بهذه الصفة ينقلون بحراً ولحسابهم ، شحنات مجانية تتفاوت فى أحجامها وقيمتها .

وكان أصحاب السفن قد اقتنعوا باصطحاب هؤلاء البازار يوتى معهم لعدة أسباب : أولا ؛ لأنهم يقومون بالعمل بحارة أثناء الرحلة ؛ وثانيا : لأن مصاريف الشحن من البندقية إلى الاسكندرية كانت قليلة الارتفاع ؛ وأخيراً ؛ لأن هؤلاء البازار يوتى كانوا يضطرون لأن يغيروا وهم على ظهر السفينة بحمولاتهم المجانية بضائع تحملها نفس السفينة ويدفعون عنها مصاريف شحن عالية .

وكانت البضائع التى تدخل فى حصة القبطان ومجهزى السفينة تودع فى الاسكندرية فى محلات القومسيونجية أو ترسل بعد ذلك إلى القاهرة إلى التجار الذين وجهت السفينة إليهم .

وكانت الشحنات المجانية للبازار يوتى تباع عادة على ظهر السفينة وقبل نزولها على الأرض .

ويأتى من البندقية إلى مصر أجواخ حفيفة هى تقليد لأجواخ فرنسا بالإضافة إلى أجواخ حمراء اللون بالغة السمك تسمى ساى Saies ، وكذلك ساتان سادة ومقصب متعدد الأصناف ، وقطيفة سادة ومنقوشة بورود ، وورق كتابة أبيض اللون ، وورق لف رمادى اللون ، وأخيراً حبات زينة رحاجية من أشكال وألوان مختلفة ، لصنع العقود وأساور النساء .. الخ .

وفضلا عن ذلك يصدر عن طريق ميانى البندقية وتريستا السلع القادمة من ألمانيا : النحاس الأصفر ، الزنك ، الصلب ، رقائق النحاس ، المرايا ، المسامير من محتلف الأحجام ، النصال ، أسلاك النحاس المذهبة أو الفضية ، الأبر ، الشصوص (شص) ، الحدايد من محتلف الأنواع ، الزئبق ، المغنسيوم ، كبريتور الزئبق ، الزرنيخ ، أجواخ ليبزح ، وأخيراً كمية محددة من اللاوندة .

ومنذ أن أغلقت الحرب أمام تجارتنا معظم موانىء الشرق ، كان يأتى سنوياً من البندقية إلى مصر مائتا بالة من الجوخ « موضة » فرنسا ، فى حين كانت هده الواردات لا تشكل فيما مضى سوى أكثر من ٢٠ إلى ٣٠ بالة وتحتوى كل بالة على ١٢ قطعة ، طول القطعة ٣٠ إلى ٣٥ ذراعاً [١] وعرضها ذراعان . وكان يباع هذا الجوخ بسعر ١٨٠ – ٢٠٠ بارة للذراع . وكان أعلى هذه الأحواخ قيمة يساوى ٤ بوطاقات .

وكان يأتى من ساى (الحوخ السميك) البندقية خمسة أو ستة أصناف ؛ وكانت هذه الأجواخ مصبوغة باللون الأحمر بدرجاته المتفاوتة ، وكان الاستيراد السنوى منه يبلغ حوالى ٤٠٠ قطعة ، طول القطعة الواحدة خمسون ذراعاً ويبلغ عرضها أكثر من

---

(١) من المناسب أن نذكر هنا أنهم يستخدمون فى أسواق القاهرة نوعين مختلفين من الذراع . الأول ويبلغ طوله ٥٧٧٥,٠ من المتر وهو الذراع البلدى ، وهو يستخدم فى قياس المنسوجات الكتانية والقطنية المصنوعة فى البلاد ؛ أما الثانى ، ويبلغ طوله ٦٧٧, من المتر فهو الذراع الاستانبولى أو ذراع القسطنطينية ، ويستخدم لقياس الأقمشة الحريرية والأجواخ الأوربية .

ذراعين بقليل . وكان الذراع من القماش يباع بسعر يصل إلى ٨ قروش أسبانية فى عهد حكومة المماليك الذين كانوا يستهلكون منه كميات كبيرة ، لكنه لم يعد يساوى أكثر من ٤ إلى ٥ بوطاقات أثناء إقامة الفرنسيين فى مصر .

وكان يرد إلى مصر فى السنة العادية مائة قطعة من ساتان البندقية درجة أولى بسعر الذراع ١٣٠ مديني ؛ وأربعون إلى خمسين قطعة درجة ثانية بسعر الذراع ٨٠ إلى ٩٠ بارة وأخيرا مائة قطعة درجة ثالثة يباع الذراع منها بسعر ٧٥ بارة . ويبلغ طول القطعة ٨٠ إلى ١٠٠ ذراع من مقياس البندقية التى يبلغ طولها ٦٣٣٦,. من المتر ؛ وكانت الألوان المرغوبة أكثر من غيرها هى الأحمر والأخضر والأزرق .

وكان يصل حوالى ٤٠ قطعة من الساتان المطرز بالقصب بسعر الذراع ١٠٠ إلى ١٢٠ بارة ؛ ويبلغ طول القطعة الواحدة منها نفس طول القطعة من الساتان السادة ، وينبغى أن نضيف إلى هذه السلع أربعمائة أو خمسمائة قطعة من القماش المحلى بالقصب الذهبى أو الفضى وهو يستخدم ملابس للنساء وفى صنع الأثاث ، وكان يباع عادة بسعر ٦ بوطاقات للمازورة ؛ وزيادة على ذلك ٤٠ إلى ٥٠ قطعة من القطيفة طول الواحدة ٦٠ إلى ٧٠ ذراعاً ، ثمن الذراع الواحد ٢٤٠ مديني .

وكانت الواردات من ورق الكتابة المسمى ذا الثلاث هلالات تبلغ ٢٠ ألف رزمة ، يستهلك جزء منها فى مصر ، وجزء آخر فى الجزيرة العربية وفى داخل أفريقيا ؛ وكان سعر الرزمة يصل إلى ٢٦٠ — ٤٠٠ بارة .

أما الواردات من الورق الرمادى الخاص بالتغليف فتبلغ حوالى ١٥ ألف رزمة بسعر الرزمة ١٤٠ — ١٥٠ مديني .

وكانت الحلى الزجاجية من صنع البندقية ترسل فى براميل ؛ وكان يصل من هناك حوالى ٤٠٠ برميل من صنفين : الأولى ويسمى Conteria Ferraria والثانى ويسمى Conteria Mezza Libra . ويشكل النوع الثانى ثلثى الكمية الإجمالية التى تمر بمصر ، وهذه كما هو معروف حبوب من الزجاج المطلى بألوان مختلفة ؛ وكان يأتى من هناك صنف ثالث لاستعمال قوافل دارفور والحبشة ويسمى Conteria Transparente وهى تتكون

من حبوب من اللوبين الأخضر أو الأصفر الأحاد . وكان يصل منها حوالى العشرين برميلا ، يزن البرميل الواحد من ١٠ إلى ١١ قنطاراً ، زنة القنطار ١٠٢ من الأرطال .

وكان القنطار من الصنف المسمى Mezza Libra يساوى من ٥٠ إلى ٥٥ جيهاً بندقياً ، يساوى الواحد منها ٥٣ سنتيما من العملة الفرنسية .

وكان سعر النوع الثالث أكثر ارتفاعاً بقدر طفيف .

وكانت أقيم الحلى الزجاجية الواردة من البندقية إلى القاهرة هى تلك التى تسمى كارنيولى Carniole ، وكان يصل منها ٣٠٠ صندوق يحتوى الواحد منها على ١٥٠ طرداً ، ويباع الطرد الذى يحتوى على ٦٠ مسبحة بـ ٣ إلى ٥ بوطاقات . وكان يوجد زيادة على ذلك عدد كبير للغاية من أنواع مختلفة من حلى البندقية الزجاجية ؛ وقد ارتفع استيراد هذه السلعة فى بضع سنوات إلى مليون ونصف مليون من الفرنكات .

وعندما نضيف إلى هذه السلع التى انتهينا من بيانها حوالى المائتين من المرايا المصقولة ثمن يصل إلى ١٠٠٠ بوطاقة ، وهذه لم تكن ترسل إلا حسب الطلبات التى تتم عليها ، فإننا نحصل على الحالة التقريبية للواردات الناتجة من مصانع البندقية .

وإليكم السلع الناتجة من مصانع ألمانيا والتى كانت ترسل من هذا المبناء أو من ميناء تريستا :

ثلاثون برميلا من النحاس الأصفر فى شكل رقائق أو أسلاك مختلفة السمك ، ويزن البرميل الواحد ستة قناطير ، زنة القنطار ١٠٥ أرطال ، ويبلغ ثمنه ٥٠ فندقلى ؛

٣٠٠ صندوق من الصلب يزن الواحد من ٥ إلى ٦ قناطير بسعر ٦٠ بوطاقة ذهبى ، تساوى البوطاقة الواحدة منها ٦٠٠ مدينى ؛

حوالى ألف حزمة من صفائح النحاس والقصدير (سعر الحزمة من ٩٠ إلى ١٠٠ مدينى) ؛

٤٠٠ إلى ٥٠٠ صندوق من المرايا الألمانية الصغيرة ، تجهز بعد ذلك فى مصر حسب دوق البلاد (ويبلغ ثمن الصندوق من ٣٦ إلى ٤٠ بوطاقة) ؛

٤٠٠ برميل من المسامير (يزن البرميل من ٤٠ إلى ٦٠ أقة ، وتباع المسامير من أصغر الأنواع بسعر الأقة ٦٥ بارة ، ومن أكبر الأنواع بسعر الأقة من ٤٠ إلى ٦٠ بارة) ؛

عشرة صناديق تضم كل منها من ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ حزمة من النصال (تباع الحزمة من أربعة نصال بـ ٥٠ مدينى) ؛

حوالى أربعة آلاف ربطة من أسلاك النحاس المذهب أو الفضى (يباع الصنف الأول بـ ١٥٠ بارة للربطة ، والثانى بـ ٩٥ إلى ١١٠ بارة للربطة ؛ وهذه الأسلاك النحاسية تستخدم فى مصر لتزيين خراطيم النارجيلات التى تغطى كما هو معروف بنوع من الأقمشة الحريرية) ؛

١٠٠ برميل من الحدايد تشتمل على السكاكين من مدينة ستيرى (بالنمسا) ، مقصات ، أمواس ، إبر ، شصات الخ (ويمكن أن تصل هذه السلعة فى السنوات العادية إلى ٢٥ ألف أو ٣٠ ألف قرش) ؛

١٠ إلى ١٥ برميلا صغيراً من الزئبق فى حالته المعدنية ، يزن البرميل ١٩٠ رطلا (يباع القنطار زنة ١٠٠ رطل بـ ٧٠ قرشاً أسبانياً) ؛ وكان يصل أيضاً حوالى ألف أقة من كبريتور الزئبق الأحمر (بسعر الأقة ٥ إلى ½ ٥ بوطاقات) ؛

٢٠ إلى ٣٠ برميلا من أكسيد الرصاص الأحمر زنة البرميل ٦٠٠ إلى ٧٠٠ رطل (يباع القنطار زنة ١٠٥ أرطال بـ ٨ إلى ١٠ فندقلى) ؛

١٥ — ٢٠ برميلا من الزرنيخ ؛

٢٥ — ٣٠ بالة من أجواخ ليبزج ، تحتوى كل منها على ١٢ — ١٥ قطعة ، طول القطعة الواحدة ٣٠ ذراعاً (ويباع الذراع من هذا الجوخ بـ ٣ إلى ½ ٣ بوطاقات) ؛

٤٠٠ برميل من اللاوندة (وسبق أن قلنا أن هذا النبات المجفف يأتى من تريستا وأن القوافل القادمة من دارفور وسنار هى التى تشتريه أو يرسل إلى جدة) ؛

أربع أو خمس حمولات صغيرة من جذور العرقسوس التى تأتى من الجزر التابعة للبندقية ، وهى جزر: زانتى ، شيفانولى ، كورفو . ويتراوح ثمن الحمولة بما فى ذلك مصاريف الشحن ، بين ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ قرش تركى (يساوى القرش ٤٠ مديني) ؛

وبخلاف هذه البضائع المتنوعة ، كان يشحن كذلك من البندقية إلى مصر حوالى عشرة آلاف لوح من خشب الصنوبر المشكل من أحجام مختلفة ، تباع بمتوسط سعر للوح الواحد ٥٠ مديني .

وكان يشحن كذلك من تريستا كمرات وعوارض من نفس هذا الخشب ، ولم يكن ثمنها ليصل إلا ل ١٠,٠٠٠ بوطاقة .

وكانت أكبر الأرباح التى تتحقق عن البضائع الموردة من البندقية تعود من الورق الأبيض ، والورق الرمادى ، والحراير ، والصلب ، والحديد ، والحدايد ؛ فكانت تبلغ ٥٠ ٪ بالنسبة للورق ؛ وحوالى ٣٠ ٪ بالنسبة للحراير ؛ ومن ٢٠ إلى ٢٥ ٪ بالنسبة لبقية البضائع .

وكانت ترسو فى الأعوام العادية فى ميناء الاسكندرية ٦ إلى ٧ سفن تابعة للبندقية تبلغ حمولتها حوالى ٤٠٠ إلى ٥٠٠ طن ؛ وكانت هذه هى أكبر السفن التى ترسو فى الاسكندرية ؛ أما السفن القادمة من تريستا فلم تكن تحمل إلا حوالى مائتى طن ، ولم تبدأ التجارة بين مصر وهذه المدينة الأخيرة فى الاستقرار إلا فى عام ١٧٨٥ وهى الفترة التى ذهبت فيها بعض العائلات الشرقية للإقامة فيها .

وكانت الحمولات المرسلة من البندقية وتريستا توجه إلى أربع عائلات بندقية وأربع عائلات يهودية تقيم فى الاسكندرية والقاهرة .

وكان تجار البندقية تحت الحماية والرعاية المباشرة للقنصل العام لأمتهم ، وكان يقيم فى القاهرة ، كما كان يوجد بالإضافة إلى ذلك نائب قنصل فى الاسكندرية ، وكان كلاهما يتلقى رواتب ثابتة من حكومة البندقية . وكانت الامتيازات التى تحصل عليها هذه الجمهورية من قبل الباب العالى هى على وجه التقريب نفس الامتيازات التى تحققها الاتفاقيات التى تربط الباب (العالى) بفرنسا .

أما عن أسعار الشحن على مراكب البندقية التى تأتى إلى الاسكندرية فقد كان يدفع ٤ إلى ٥ قروش (قيمة القرش ٤٠ مدينى) عن شحن بالة الجوخ وكذلك عن بقية البضائع التى تماثلها فى الوزن . وكانت قيمة الشحنات تسدد على الدوام تقريباً فى شكل كمبيالات أو فى شكل نقود معدنية تسوى بواسطتها أثمان القطن والخمور والحرير التى تذهب السفينة للحصول عليها من قبرص وسوريا .

الصادرات

كانت المنتجات المصرية التى ترسل سنويا إلى البندقية وتريستا تشتمل على الزعفران ، وجلود الأبقار ، وملح النوشادر ، والنطرون ، ولب السنط المسهل ، والسنامكى بمختلف أنواعه ، وكمية ضئيلة من السكر . وكانت الأشياء القادمة من أواسط أفريقيا والتى ترسل إلى الأدرياتيكى من ميناء الاسكندرية تشتمل على الصمغ من دارفور وسنار ، والعاج والتمر هندى وريش النعام .

وأخيراً ، فقد كان يصدر من منتجات الهند والجزيرة العربية عن نفس الطريق : البن ، والصمغ العربى ، والمر ، والبوصير (ثمرة سم السمك وهى مسهل) والكركم أو زعفران الهند ، وراتنج الطلاء ، والحلتيت ، والصبر الكبدى ونوع آخر من الصبر .

ويرسل سنوياً إلى البندقية وتريستا كمنتجات ومواد غذائية مصرية من ١٥٠ إلى ٤٠٠ بالة من الزعفران ، وهذه السلعة تكون بالغة الخفة بقدر ما تكون بالغة النقاء ؛ وتزن البالة من الزعفران درجة أولى ٨٠٠ رطل ، أما البالة من النوع الأدنى فتزن حوالى ٩٠٠ رطل . ويباع القنطار زنة ١١٠ أرطال بـ ١٥ إلى ١٨ بوطاقة .

وقبل الوباء الحيوانى الذى ظهر بمصر قبل الحملة الفرنسية بسنوات قليلة ، كان يصدر فى السنة العادية ما يصل إلى ٢٠ ألف جلد بقر لم يكن يساوى الجلد منها إلا ٦٠ مدينى ، وبعد ذلك أصبح الصادر منها أقل ، فى حين تضاعف سعره .

وترسل إلى تريستا اربعة أوخمسة صناديق من ملح النوشادر ، يزن الصندوق الواحد ٥٠٠ إلى ٦٠٠ رطل ، ويباع القنطار رنة ٢٠٤ أرطال بـ ٨٠ إلى ١٢٠ بوطاقة .

ولم يكن يرسل نطرون مصر إلى البندقية وتريستا إلا عند نقص ملح الصودا الوارد من صقلية . وكان التصدير العادى يرتفع فى هده الحالة إلى ٥٠٠ ألف أقة ثمن الأقة الواحدة ٣ بارات .

أما التصدير السوى للسنامكى إلى البندقية وتريستا فكان يبلغ ٣٠٠ قنطار ، زنة القنطار ١١٠ أرطال ، ويبلغ ثمن القنطار من ٣٥ إلى ٥٠ بوطاقة . أما الصادرات من السنامكى من النوع المسمى بوصير فتبلغ ٢٠ قفصاً ، يزن القفص الواحد ٤٥٠ إلى ٥٠٠ رطل . ويباع القنطار منه ، وهو أيضاً يزن ١١٠ أرطال ، بـ ١٠ إلى ٢٠ بوطاقة .

ولا تستورد البندقية وتريستا السكر من مصر إلا فى حالة الحرب ، وفى هذه الحالة يتم الأمر على الدوام بكميات قليلة للغاية .

وينبغى أن نضيف إلى هذه السلع المصرية المختلفة حوالى العشرين بالة من الأقمشة الخشنة المسماة دمياطى وتصنع هذه فى رشيد وداخل الدلتا .

ومن الأشياء الواردة من داخل أفريقيا كان يصدر من مصر إلى البندقية وتريستا :

٥٠ قفصاً من الصمغ العربى من دارفور وسنار ، ويستخدم خصيصاً فى تجهيز الساتان والأقمشة الحريرية الأخرى (ويزن القفص ٩ إلى ١٠ قناطير ويساوى القنطار ٢٥ فندقلى) ؛

١٠ بالات من التمر هندى تقسم بالتساوى تقريباً بين البندقية وتريستا (تزن كل بالة من التمر هندى ٩ إلى ١٠ قناطير بسعر يبلغ ١٦ إلى ٢٠ بوطاقة للقنطار ، وأكثرها امتيازاً هو التمر هندى القادم من دارفور) ؛

صندوقان من ريش النعام إلى تريستا : يزن كل صندوق ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رطل ، ومتوسط ثمن الرطل حوالى ١٠ بوطاقات ، وإن كان هذا السعر يتنوع حسب صنف ولون الريش ؛ فيباع الصنف درجة أولى من الريش الأبيض بـ ٤٠ بوطاقة للرطل ، ومن

الصنف درجة ثانية بـ ٣٠ بوطاقة ، ودرجة ثالثة بـ ١٥ بوطاقة ، ودرجة رابعة بـ ٨ بوطاقات ؛ ويباع الريش الأسود بـ ٩٠ إلى ١٤٠ مدينى للرطل .

وأخيراً ، فقد كان يأتى إلى البندقية وتريستا من سلع الجزيرة العربية والهند ، عن طريق الاسكندرية :

٢٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ فردة من البن اليمنى (زنة الفردة كما هو معروف ½ ٣ قناطير ويصل ثمن القنطار إلى ٣٠ قرشاً أسبانياً ؛ وكانت الصادرات من هذه السلعة فيما مضى أكبر من ذلك بكثير ، إذ كانت تصل إلى ثمانية آلاف فردة) ؛

٢٠ إلى ٣٠ قفصا من الصمغ العربى من جدة (يزن كل قفص من ١٠٠٠ إلى ١١٠٠ رطل تساوى ال ١٣٠ رطلا منها قنطاراً سعره من ١٥ إلى ١٨ فندقلى) ؛

٤٠ إلى ٥٠ قفصا من البخور زنة القفص من ٦ إلى ٧ قناطير (قنطار البخور مثله فى ذلك مثل القنطار من كل العقاقير القادمة من الجزيرة العربية يزن ١٥٠ رطلا ويباع بـ ٢٠ إلى ٣٠ بوطاقة ذهبى ، وتنقص ال ١٥٠ رطلا بعد تنظيفها واستخلاص البخور بالحالة التى يصل بها من الجزيرة العربية إلى ١٠٠ رطل ؛ وهكذا فإنه يفقد عن طريق التنظيف ما بين الثلث والربع من وزنه) ؛

٥ أو ٦ أقفاص من المر ، يزن القفص الواحد ٩٠٠ إلى ١٠٠٠ رطل (زنة القنطار ١٥٠ رطلا ويباع بـ ٢٥ إلى ٥٠ بوطاقة ذات ال ٩٠ مدينى) ؛

١٢ إلى ١٤ بالة من البوصير (ثمرة سم السمك) زنة البالة ٩٠٠ إلى ١٠٠٠ رطل ، ويذهب هذا النوع من العقاقير كله تقريباً من البندقية وتريستا إلى انجلترا) ؛

٤ أو ٥ بالات من الكركم تزن ٩٠٠ إلى ٩٥٠ قنطاراً، يصل ثمنها ١٥ إلى ٢٠ فندقلى (وتشحن هذه السلعة بشكل خاص إلى تريستا) ؛

حوالى ٢٥ بالة من الحلتيت (صمغ كريه الرائحة والمذاق ، يستخدم لتسكين التشنجات) تتكون كل منها من فردتين ، تزن الواحدة منهما ٣٥٠ إلى ٣٦٠

رطلا (ويساوى القنطار زنة ١٥٠ رطلا وزنه خام مس ٢٠ إلى ٣٠ بوطاقة ، ولا يرسل مىها إلى البىدقية إلا خمس أو ست فردات ، أما العشرون فردة الأخرى فتمر بتريستا حيث تصدر إلى ألمانيا) ؛

وأخيراً ٢٠ فردة مس الصبر تقسم بالتساوى تقريباً بين البندقية وتريستا : وتزن الفردة $\frac{1}{2}$ ٢ قنطار ، زنة كل مىها ٥٢٥ رطلا ، ويباع بـ ١٨ إلى ٢٠ فندقلى .

٢ - تجارة مصر مع توسكانيا

الواردات

يصدر من ليفورنيو إلى مصر القرمزية (حشرة تستخدم فى الصباغة) ، الساتان ، التفتاز ، الفلورنس ، التفتار الأسود ، أقمشة حريرية مطرزة ، القطيفة السادة والمنقوشة ، الأجواخ والطرابيش ، العسر وحبات المسابح من خامات مختلفة وأصداف مختلفة ، المرجان ، ورق الكتابة ، سلفور الرصاص (للصباغة) ، الفساغ ، القرنفل ، الفلفل ، الفلفل الحلو ، الرصاص ، القصدير ، الحديد ، الزنك ، الأسلحة من صنع انجلترا ، الحدايد ، المغنسيوم ، الزرنيخ ، الأسلاك الحديدية ، مربعات الرخام ، الأعمدة الرخامية ، القروش الأسبانية ، التالير (نقد ألمانى) سكين البندقية (عملة ذهبية) .

وفى السنة العادية ، يأتى إلى الاسكندرية أربعون أو خمسون برميلا من القرمزية تباع اللبرة منها تسليم ليفورنيو بـ ٣ إلى ٥ قروش أسبانية ؛

وخمسون صندوقاً يحتوى كل منها على عدد من قطع الساتان يصل إلى نحو خمس وعشرين قطعة ، وتساوى هذه الصناديق ، تبعاً لعدد القطع التى تحتوى عليها من ٢٠٠ إلى ١٠٠٠ écus توسكانى ، وقيمة الواحد من هذه القطع النقدية بالنسبة إلى القرش الأسبانى تصل إلى نسبة ٢٥ : ٢٨ ؛

حوالى ثلاثين صندوقاً من التفتاز الفلورنسى (يضم الصندوق الواحد عادة

من ١٠ إلى ٢٠ قطعة من التفتاز ، يصل طول القطعة منها إلى نحو ٥٠ إلى ٦٠ ذراعاً ، بل يبلغ فى بعض الأحيان ١٠٠ إلى ١١٠ أذرع ، ويباع الذراع الواحد فى العادة بـ ٧٠ إلى ٨٠ مديني ؛

حوالى العشرين صندوقا من التفتاز الأسود ، يضم كل منها من ١٠ إلى ٢٠ قطعة ، ويبلغ طول القطعة من ٥٠ إلى ١٠٠ ذراع ، ويباع الذراع بـ ١٠٠ إلى ١٣٠ بارة ؛

من ٩ إلى ١٠ صناديق تضم أقمشة من الحرير المقصب بالذهب أو الفضة ، ويحتوى كل واحد من هذه الصناديق على أكثر من عشر قطع من الحرير ، طول القطعة منها ٣٠ إلى ٥٠ ذراعاً ؛ ويباع الذراع من هذا القماش عادة بـ ٥ إلى ٧ بوطاقات ؛ وتستخدم هذه الأقمشة فى صنع ملابس النساء وفى أعمال التأثيث .

وزيادة على ذلك كان يصل إلى مصر من ٥ إلى ١٠ صناديق من أقمشة الحرير المطرز ، ويضم كل صندوق من ٥ إلى ٢٠ قطعة ، طول الواحدة من ٣٠ إلى ٥٠ ذراعاً ، ويتراوح ثمن الذراع من ١٠٠ إلى ٢٠٠ بارة ؛

دستة واحدة من صناديق القطيفة ، يضم كل صندوق منها ١٢ قطعة ، طول الواحدة منها ٥٠ ذراعاً ، ويصل ثمن الذراع من هذه القطيفة عادة إلى نحو ٣ بوطاقات ؛

١٠ صناديق من الكريب ، يحتوى كل منها على ٢٠ إلى ٤٠ قطعة ؛ طول القطعة ٣٦ ذراعاً ، ثمن الذراع ٥٠ بارة ؛

١٦ — ١٨ صندوقا من الطرابيش المصنوعة فى فرنسا ، ويضم الصندوق من ١٠٠ إلى ١٢٠ دستة ، ثمن الدستة الواحدة من ١٠ — ١٢ بوطاقة ؛

٢٠٠ بالة من الجوخ الفرنسى ، تضم كل واحدة ١٢ قطعة ، طول القطعة الواحدة منها من ٣٠ إلى ٣٢ ذراعاً ؛ ويبلغ عرضها ذراعين . ولم يحدث أن استوردت هذه السلع عن طريق ليفورنيو إلا منذ حرب التحرير .

ويأتى من ليفورنيو إلى الاسكندرية ، لصنع العقود والأساور ، حبوب العنبر

الأصفر من عشرين حجما مختلفاً . وهذه الواردات عبارة عن ٤٠ صندوقا من هذه السلعة ، يضم كل صندوق منها ١٠٠ كيس من الحبوب ، ويزن من ٣٠ إلى ٣٦ أقة ؛ ويبلغ متوسط سعر الأقة نحو ١٧ مدقلى ؛

عشرون صندوقاً من حبوب المرجان تزن من ١٠٠ إلى ١٥٠ رطلا ؛ ويتراوح ثمن الرطل من ١٥ إلى ٣٠ بوطاقة ، بحسب حجم هذه الحبات ؛

٣٠٠ بالة من الورق ، وتحتوى البالة الواحدة على ١٢ إلى ١٥ رزمة ثمنها من ٤ إلى ١٥ بوطاقة . ويرد منها ثلاثة أصناف . ويشكل الصنف الثالث منها ، وهو أصغرها حجما ، ثلاثة أرباع إجمالى الوارد ؛

نحو ألف برميل من أكسيدالرصاص الأحمر ، زنة البرميل الواحد نحو ٥٠٠ رطل ، ويباع القنطار زنة ١٥٠ رطلا من هذه الخامة بـ ٨ أو ٩ بوطاقات ؛ وقد ارتفع ثمه إلى ٣٠ بوطاقة منذ الحرب ؛

نحو ٥٠ بالة من الفساغ تزن الواحدة ٤ او ٥ قنطار ، ويتراوح ثمن القنطار من ٥٠ الى ٨٠ فندقلى .

١٢ برميلا من القرنفل ، يزن البرميل الواحد من ٢ إلى ٦ قناطير ، رنة القنطار من هذه العطارة ١٠٠ رطل ، ثمن الرطل أربع بوطاقات ؛

٢٠ أو ٣٠ طنا من الفلفل الرفيع ، ويزن الطن نحو خمسمائة أقة ؛ وتباع الأقة بـ ٥٠ إلى ٦٠ بارة ؛

٥٠ إلى ٦٠ جوالا من الفلفل يزن الجوال الواحد أربعة قناطير ، زنة القنطار الواحد ١٠٢ رطل ، ويباع بـ ٦٠ بوطاقة ذهبى .

٦٠٠ إلى ٧٠٠ قنطار من القصدير ، زنة القنطار ٢٠٠ رطل ، وثمنه حوالى ٧٠ بوطاقة ؛

حوالى عشرة آلاف قنطار من الحديد ، ثمن القنطار ١٥ بوطاقة فى المتوسط ؛

٢٠٠ صندوق من الزنك ، ثمن الصندوق الواحد من ٦٠ إلى ٧٠ بوطاقة ذهبى ؛

٣٠ أو ٤٠ صندوقاً من الحدايد المختلفة : مثل السكاكين ، والمقصات ،

والملاعق ، والنحاس الأصفر.. ألخ – وكان يتراوح ثمن الصندوق بحسب أصناف البضائع التى يحتوى عليها ، من ٢٠٠ إلى ١٠٠٠ بوطاقة ؛

ثلاثة أو أربعة براميل من أسلاك الحديد ، يزن كل واحد منها نحو ثمانية قناطير ، ويبلغ متوسط ثمن القنطار ٤٠ بوطاقة ؛

ما يساوى نحو خمسين ألف بوطاقة من الأسلحة والسلع الانجليزية الأخرى المرسلة إلى مصر عن طريق ليفورنيو ؛

١٨ أو ٢٠ برميلا من المغنسيوم ، ويزن البرميل الواحد عشرة قناطير ، ثمن القنطار الواحد من ١٠ إلى ١٢ بوطاقة ؛

من ٥٠ إلى ١٠٠ برميل من الزرنيخ ، ويزن البرميل الواحد منها ٥ قناطير ، ثمن القنطار الواحد منها ٥٠ بوطاقة ذهبى ؛

نحو عشرة آلاف مربع رخام ، ثمن المربع من ٩٠ إلى ١٠٠ بارة ؛ وحوالى عشرين عموداً من الرخام تامة التجهيز ، تساوى تبعاً لأحجامها ٤٠ – ٥٠ بوطاقة إلى ٤٠٠ – ٥٠٠ بوطاقة .

وأخيراً ، فيقدر النقد المعدنى الذى كان يتدفق سنويا إلى مصر بـ ٣٠٠ ألف أو ٤٠٠ ألف من القروش الأسبانية والتاليرى ، وبـ ١٥ ألف سكين بندق ، وذلك لتخليص سداد السلع التى كانت تصدر منها إلى ليفورنبو .

الصادرات

يصدر من الاسكندرية إلى ليمورنيو ، فى شكل منتجات وسلع مصرية : القمح ، الأرز ، الفول ، الزعفران ، الكتان ، غزل القطن ، ملح النوشادر ، ملح البارود ، المنسوجات القطنية والكتانية ، السنامكى ، لباب سنط العنبر (مسهل) ، جلود الجاموس والأبقار والخراف والجمال .

ويصدر كذلك من الاسكندرية إلى توسكانيا ، كمنتجات وسلع قادمة من أواسط أفريقيا ومن آسيا : العاج ، التمر هندى ، صمغ سنار ، ريش النعام ، البن ، صمغ حدة وينبع ، البخور ، الكركم ، الألوة أو الصبر ، المر ، البوصير (ثمرة سم السمك) صمغ الطلاء والورنيش ، الحتليت (صمغ كريه الرائحة يستخدم فى تسكين التشنجات) .

وعندما كانت أوربا تعانى من نقص فى الحبوب ، كانت ليفورنيو تستورد من مصر كميات محددة من هذه الحبوب ، كما حدث على سبيل المثال خلال العامين اللذين سبقا حملتنا على مصر ، حين جاءت إليها من دمياط والاسكندرية نحو عشرين حمولة تشتمل على القمح والأرز والفول . وفيما مضى كانت صادرات الأرز وحدها كبيرة الحجم ، إذ وصلت إلى ما يزيد على ثلاثة آلاف أردب .

وتقدر كمية الزعفران التى تصدر سنويا إلى ليفورنيو بحوالى ألف قفص ، وتحتوى هذه الأقفاص ، أو هذه السلال المنشورية الشكل ، على ثمانية قناطير ، زنة القنطار ١١٢ رطلا ، ويبلغ ثمنه ٩ إلى ١٠ بوطاقات .

كما يقدر ما يصدر إليها من الكتان بستة آلاف إلى ٦٫٥٠٠ بالة ويتراوح ثمن البالة التى تزن مائتى أقة بـ ٢٥ إلى ٥٠ بوطاقة ، حسب الصنف .

أما غزل القطن ، الذى يصدر إلى توسكانيا ، فكان يأتى من القاهرة وضواحيها ؛ وكان يصدر منه كل عام من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ بالة ، تزن البالة الواحدة منها سبعة قناطير ، زنة القنطار ١٢٥ رطلا . ويتراوح ثمن رطل القطن المغزول ما بين ٢٥ إلى ٤٠ بارة .

وقلما يتجاوز مقدار الصادر سنوياً من ملح النوشادر العشرة أقفاص يزن القفص الواحد منها خمسة قناطير . ويباع القنطار من هذا الملح ، زنة ٢٠٤ من الأرطال بـ ٩٠ إلى ١٤٠ بوطاقة .

وقد استوردت توسكانيا منذ حروب الثورة كمية ضئيلة من ملح البارود من

مصر . وكانت كمية الصادر منه سنوياً تصل إلى أربعة أو خمسة آلاف قنطار ، ثمن الواحد منها من ٣ إلى ٥ بوطاقات .

أما منسوجات القطن المصرى التى ترسل سنوياً إلى ليفوربيو فكانت تسمى دمياطى ، وكانت تصنع عادة فى رشيد ، حيث كان يصدر منها كل عام ما بين ٣٠ — ٤٠ بالة ، تشتمل كل بالة منها على ٢٠٠ إلى ٤٠٠ قطعة ، طول القطعة الواحدة ثمانية أذرع ، ويتراوح ثمن القطعة بين ٦٠ إلى ١٢٠ مدينى .

وكان يصدر كذلك عشرون بالة من الأقمشة الكتانية من الصنف المسمى منوفية لأنه كان يصنع فى ولاية منوف . وكانت البالة تضم ١٥٠ قطعة ، طول الواحدة منها نحو ٢٥ ذراعاً ، وتساوى من ٨٠ إلى ١١٠ بارة .

وفى الماضى ، كان لابد أن تشتمل هذه الصادرات من الأقمشة الكتانية المصرية على جزء كبير من تلك الأقمشة المسماة أسيوطى . ولكن هذه الأقمشة لم تعد تشكل جزءاً من هذه الصادرات منذ ما يزيد على عشرين عاماً .

كذلك كانت تحصل ليفورنيو من مصر سوياً على نحو ٥٠٠ قنطار من السنامكى ، ويباع القنطار زنة ١١٠ رطل بـ ٣٠ إلى ٤٠ بوطاقة ؛

وتحصل بالإضافة إلى ذلك على عشرين قفصاً من لباب سنط العنبر ، يزن القفص منها من أربعة إلى خمسة قناطير ، ثمن القنطار الواحد من ١٢ إلى ١٥ بوطاقة .

ومنذ الوباء الذى حل بالماشية فى عام ١٧٩٠ ، لم يعد بإمكان مصر أن تصدر الجلود إلى ليفورنيو ، وكانت تصدر منها قبل هذا التاريخ من ٢٠ إلى ٣٠ ألفا كل عام ، ثمن الجلد الواحد منها من ٤٥ بارة (½ بوطاقة) إلى ٤ بوطاقات ، تبعاً للصنف .

أما السلع الواردة إلى مصر عن طريق قوافل دارفور وسنار ، فقد كان يرسل منها إلى ليفورنيو ، عن طريق الاسكندرية ، ما يقرب من ٣٠٠ طن من العاج ، ثمن الطن الواحد منها من ٦٠ إلى ٨٠ فندقلى ؛

وكذلك ٢٠ إلى ٣٠ قفصاً من التمر هندى ، زنة الواحد منها خمسة قناطير ، ويباع القنطار زنة ١١٠ أرطال بـ ٣٠ بوطاقة ؛

ومائتا قفص من الصمغ العربى وارد سنار ، يزن القفص من ١٠ إلى ١١ قنطاراً ، زنة القنطار ١٢٠ إلى ١٢٥ رطلا ؛ وحين يكون الصمغ خالياً من الشوائب ، يباع بسعر ٢٠ إلى ٢٢ فندقلى ، ويساوى الفندقلى ١٤٠ بارة ؛

٢٠ صندوقا من ريش النعام ، يزن كل صندوق منها من ٥٠ إلى ٢٠٠ رطل ، ويباع الرطل من أجمل أنواع الريش الأبيض بـ ٤٠ بوطاقة ؛ ويصل سعره أحياناً إلى ١٠٠ زر محبوب ؛ أما رطل الريش الأبيض من الصنف العادى فلا يتعدى ثمنه ١٥ بوطاقة ؛ أما ثمن الرطل من النوع الأسود من نفس الصنف (العادى) فلا يزيد على بوطاقتين .

أما السلع الواردة من الجزيرة العربية فيصدر منها سنوياً إلى ليفورنيو ١٣٠ فردة من بن موخا ، تزن الفردة من ثلاثة قناطير إلى ثلاثة قناطير ونصف القنطار ، ويبلغ ثمن القنطار ٣٠ بوطاقة ؛

مائة قفص من الصمغ العربى القادم من جدة وينبع ، ويحتوى كل واحد من هذه الأقفاص على ١٠ إلى ١١ قنطاراً . ويزن قنطار الصمغ العربى بعد تخليصه من الشوائب ١٢٠ رطلا ، ويباع بـ ١٨ فندقلى إذا كان قادماً من جدة ، وبـ ١٤ فندقلى فقط إذا كان من الصنف القادم من ينبع .

وعندما كانت الحرب بين الباب العالى وبين روسيا لا تسمح للروس مطلقاً بالحصول على البخور من القسطنطينية ، كانت ترسل منه من الاسكندرية إلى ليفورنيو كمية أكبر حجما (من المعتاد) ، تصل فى بعض الأحيان إلى ٣٠٠ قفص ، يزن القفص الواحد منها من ٨ إلى ٩ قناطير ، زنة القنطار الواحد ١٥٠ رطلا ، ويبلغ سعره من ١٥ إلى ٢٥ بوطاقة ذهبية .

كما كان يرسل سنوياً ١٠ بالات من الكركم ، تزن البالة الواحدة ٧ قناطير ، ويساوى القنطار زنة ١٥٠ رطلا ٢٠ فندقلى .

ويرسل كذلك كل عام إلى ليفورنيو خمسة أقفاص على الأكثر من المر ، زنة القفص من ٦ إلى ٧ قناطير ، ويتراوح ثمن القنطار زنة ١٥٠ رطلا من ٣٠ إلى ٥٠ بوطاقة ؛

ومائة بالة من البوصير (تمرة سم السمك) ، تزن البالة الواحدة من ٦ إلى ٧ قناطير ، زنة القنطار ١٥٠ رطلا ، ويباع بـ ١٥ فندقلى ؛

من ١٠ إلى ٢٠ قفصاً من صمغ الطلاء ، يبلغ وزن القفص من ستة إلى سبعة قناطير ، زنة القنطار ١٥٠ رطلا ؛

خمس أو ست بالات من الحتليت تزن البالة من سبعة إلى عشرة قناطير ، زنة القنطار ١٥٠ رطلا ويباع بـ ٢٥ بوطاقة .

وتتم التجارة بين مصر وتوسكانيا عن طريق بيوت تجارية أوربية مستقرة فى مصر ، أو عن طريق تجار شرقيين استقروا فى ليفورنيو ، ويتعاملون مع مسيحيين من دمشق وحلب .

ولم يستقر فى الاسكندرية سوى بيتين تجاريين تابعين لتوسكانيا ولم يستقر من هذه البيوت فى القاهرة سوى ثلاثة بيوت ؛ وفى نفس الوقت كان يوجد فى هاتين المدينتين خمسة عشر أو عشرون تاجرا سوريا ، واثنان أو ثلاثة من التجار اليهود ، كانوا يقومون مباشرة بممارسة هذه التجارة .

وكانت تصل فى السنوات العادية من ١٢ إلى ١٥ سفينة قادمة من ليفورنيو إلى الاسكندرية ، تنتمى إلى مختلف الأمم الأوربية .

وكان يدفع بمثابة سمسرة أو عمولة لوسطاء الاسكندرية ٤٠ بارة عن الصندوق الواحد ، أو البالة الواحدة مهما يكن حجم أو وزن أى منهما .

٣ – تجارة مصر مع فرنسا

الواردات

كان يصدر من فرنسا إلى القاهرة سلع مختلفة تنتجها المصانع الوطنية ، بالإضافة إلى بضائع متنوعة ، قادمة من بلاد أجنبية ، وخزنت فى مارسيليا .

وكانت أهم البضائع الفرنسية تشتمل على أحواخ لانجدوق المعروفة باسم لندران درجة أولى وثانية ، وكذلك على أجواخ من سيدان ومن لوفييه وآب فيل ، بالإضافة إلى الفلانل من مونبلييه ، ومنسوجات من ليون محلاة بجالونات ذهبية وفضية ، وأغطية رءوس حمراء تسمى طربوش صنعت فى بروفانس ؛ وحدايد وأسلحة من مصنع سانت إتيان ؛ وإبر وحمور من موبلييه وورق تعليف وخزف من ضواحى مارسيليا ، ومشروبات روحية من أصناف مختلفة ؛ وورود الخزامى ، أو اللاوندة ؛ وصابون وعطور ، ومشروبات وحلوى ، وأخيراً على حلى وماسات غير مصنعة .

أما السلع التى جلبت من الخارج بقصد تصديرها إلى مصر عن طريق مارسيليا فهى : الأسلحة من ألمانيا وبشكل خاص نصال السيوف سواء للجلابة أى لقوافل أواسط أفريقيا أو لعرب جدة ؛ والرصاص والحديد من السويد وموسكوفيا ؛ والقصدير ، وسلفور الرصاص ، والزنك ، والجلود والفراء ، والفستاغ ،والقرمزية ، والقرفة ، والفلفل ، والمستكة ، والفلفل الأسود ، والزنجبيل ، والأخشاب التى تدخل فى الصناعة .

وتشكل أجواخ لانجدوق الجزء الأكبر والأهم من صادرات فرنسا إلى مصر ، إذ كانت مصر تستهلك من هذه الأجواخ فى العام الواحد من ١٠٠٠ إلى ١١٠٠ بالة ، تضم كل بالة ١٢ قطعة ، تشتمل فى مجموعها على مائتى ذراع فرنسى ، ويبلغ عرض هذه الأجواخ $\frac{1}{4}$ ٢ دراع فرنسى .

ويتراوح سعر أجواخ لانجدوق تبعاً للصنف من ٧ فرنكات و ٥٠ سنتيما إلى ١٠ و ١٤ فرنكا للذراع الواحد .

ونادراً ما كان يبلغ الوارد السنوى من أجواخ سيدان ولوفييه وآب فيل الفاخرة ثمانى أو عشر بالات .

ويمكننا أن نقدر إجمالى ثمن منسوجات وحلى ليون التى تصدر كل سنة إلى مصر بنصف مليون من الفرنكات .

وقد أقيمت فى كل من مارسيليا وإكس مصانع للطرابيش على النمط التونسى ، وبدأت تصدر من هذه السلعة إرساليات كبيرة بعض الشئ ؛ وعلى الرغم من أن هذه المصانع لم تصل بعد ، فى صناعة هذه السلعة ، لنفس الدرجة من الجودة التى بلغتها مصانع الدول البربرية (دول المغرب) فإن صادراتها كانت تبلغ مع ذلك نحو العشرين صندوقاً ، يضم كل صندوق منها ثمانين دستة من الطرابيش ؛ ويبلغ ثمن الصندوق الواحد فى العادة من ألفين إلى ألفين وأربعمائة فرنك .

أما الحدايد القادمة من مارسيليا فكانت تشتمل على السكاكين ، والمرايا ، والشمعدانات ، والمقصات ، والأقفال ، والأمشاط ، والدبابيس ، والإبر .. الخ . وكان يبلغ ثمن كل هذه السلع سنوياً من ثلاثين إلى خمسين ألف فرنك .

وكانت أسلحة سانت إتيان التى ترسل إلى مصر عبارة عن البنادق والقرابينات والطبنجات والمسدسات المحلاة بالفضة أو المزدانة بطرق مختلفة .

كذلك كانت الإبر ترد من سانت إتيان ، وكانت هذه السلعة التى تخصص للتصدير تشتمل على ١٢ — ١٥ برميلا ، يمكن تقدير ثمن الواحد منها بـ ٢٥٠٠ فرنك .

أما الحنزار السائل المصنوع فى مونبلييه فكان يستخدم فى طلاء أعمال النجارة ، وكان يورد منها إلى مصر ٨ — ١٠ براميل فى العام الواحد .

وكان الورق الوارد من فرنسا ينقسم إلى نوعين : الأول وتحتوى البالة منه على ٢٤ رزمة ؛ والثانى وتضم البالة منه ١٤ رزمة فقط .

وكان النوع الأول يرسل عن طريق السويس إلى جدة ؛ أما الثانى فكان يستهلك فى مصر ، وكان الاستهلاك السنوى من هذين النوعين يبلغ ستمائة أو ثمانمائة بالة ، يبلغ متوسط ثمن الواحدة منها بحسب ثمن بيعها فى مارسيليا ٤٠ إلى ٥٠ فرنكا .

أما حرف هذه المدينة وضواحيها فلم يكن موضوعاً لتعامل تجارى كبير بالنسبة للبيوت التجارية التى تتجر مع الشرق ؛ لكنه كان يشكل شحنات مجانية خاصة بقباطنة وضباط السفن ، وكان يجلب منها نحو ٥٠٠ صندوق فى العام الواحد ، ويبلغ ثمن الصندوق ٢٥ إلى ٣٠ فرنكا .

كذلك كانت مشروبات مارسيليا الروحية ، شأنها شأن الخزف ، مجرد سلع بسيطة تنقل مجاناً لحساب القباطنة وبحارة السفن ؛ فكان يصل منها إلى الاسكندرية مائتان أو ثلاثمائة صندوق كل سنة ، حيث تستهلك الكمية الأكبر من هذه الصناديق . وكان متوسط ثمن الواحد من هذه الصناديق الصغيرة يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ فرنكا ؛ أما ورود الخزامى أو اللاوندة ، التى كان يورد منها فى السنة العادية من ٦٠ إلى ٨٠ بالة ، وكذلك الصابون والشربات والحلوى ، فقد كانت كلها بالمثل ، مجرد سلع تنقل مجاناً لحساب القباطنة والبحارة .

أما المجوهرات الواردة من فرنسا فتشتمل على ساعات من جنيف ، وحلقان من باريس ، وماسات خام تصنع فى القاهرة تبعاً للذوق الشرقى .

وحيث لم تكن هذه السلع لتعلن مطلقا للجمارك ، فإننا لا نستطيع أن نحصل على أى بيان بقيمة هذا الفرع من فروع التجارة .

ويشكل الحديد والصلب الواردان من السويد ، وكذا الرصاص والقصدير والزنك الواردة من إنجلترا ، وهى السلع التى توردها تجارة مارسيليا كل عام إلى مصر ، ما قيمته ٦٠٠ ألف فرنك . ولم تكن هذه المعادن تخص مصر وحدها ، فقد كان يذهب جزء كبير منها إلى الجزيرة العربية عن طريق السويس .

ويصدر من مارسيليا ثلاثمائة أو أربعمائة برميل من سلفور الرصاص ، يبلغ سعر البرميل الواحد منها ١٥٠ فرنكا ، وكانت هذه السلعة ترد من إكوس Ecosse أو سردينيا .

أما استيراد الفشاغ (دواء يسبب حدوث العرق) ، الذى يستخدمه المصريون بكثرة ، فيصل فى العام الواحد إلى عشرين أو ثلاثين برميلا ، يزن كل منها من ثلاثة إلى أربعة قناطير وعادة تساوى اللبرة منه ، زنة مارسيليا ، وهى التى تبلغ بالنسبة للبرة من زنة مارك ما يساوى ١٦ : ٢٠ ، ثلاثة فرنكات .

وتعد القرمزية واحدة من أهم السلع المستوردة من الخارج على ظهر مراكب فرنسية ؛ وتحظى القرمزية القادمة عن طريق مارسيليا بتقدير خاص عن تلك التى ترد عن طريق أماكن أخرى ، إذ كانت الأولى تنقى بعناية من كل الشوائب التى قد تقلل من جودتها قبل أن تبحر السفن بها .

ويصدر منها إلى مصر سنوياً مائة برميل ، يزن الواحد منها ٧٥ إلى ٨٠ أقة . وتساوى اللبرة منها فى مارسيليا ١٦ – ١٨ فرنكا ؛ وتستهلك مصر من ٥٠ إلى ٦٠ برميلا من هذه السلعة تستخدمها فى صبغ الحرير الذى تنتجه مصانع مختلفة فى داخل البلاد ؛ أما الجزء الباقى فيرسل إلى الهند عن طريق السويس وجدة .

أما التوابل ومواد العطارة مثل القرنفل والفلفل والمستكة ، الخ ، والتى ترسل من فرنسا إلى مصر ، فكانت ترد من أسواق هولندا ؛ ذلك أن الهولنديين يستحوذون بشكل تام على تجارة التوابل التى يجمعونها من جزرهم ، هناك فى الأرخبيل الهندى ، وحيث كانت كمية هذه السلع القادمة عن طريق البحر الأحمر لا تفى باحتياجات مصر ، فقد كانت مصر تستورد منها ، عن طريق الاسكندرية ، ما يبلغ إجمالى ثمنه نحو مائتى ألف إلى ثلاثمائة ألف فرنك .

أما أخشاب فرنامبوك ، التى تشحن من مارسيليا إلى مصر ، فقد كانت تأتى من البرتغال ، وكان يصدر منها عن هذا الطريق نحو ٤٠٠ قنطار ، يبلغ ثمن الواحد منها فى مارسيليا ٢٠ – ٣٠ فرنكا .

وقد حصل الفرنسيون على أفضلية على كل أمم أوربا التى كانت تتجر مع مصر إذ حرص الفرنسيون ألا يرسلوا إلى موانى المشرق إلا السلع جيدة الصنف .

كما كان يوجد بمارسيليا ، لمراقبة شحنات السلع المصدرة بمنتجات مصانعنا ، وبخاصة الأجواخ والورق ، مكتب أو أكثر للتفتيش . ولم تكن هذه المكاتب لتسمح بشحن أية سلعة إلا بعد التأكد من جودة نوعها ، وهو ما تؤكده بأن تلصق بالبالات أو بالبراميل الخاصة بهذه البضائع علامة مميزة ، وترفق هذا بمنح هذه البضائع شهادة بالجودة . وكانت هذه السلع تفحص من جديد بالاسكندرية بواسطة قنصل فرنسا ، الذى لم يكن مخولا له أن يمارس التجارة لحسابه الخاص ، وكان لهذا الوكيل العام ، الذى تحددت اختصاصاته بموجب المرسوم الصادر فى ١٧٨١ سلطة أن يرفض ، وأن يعيد على نفقة المصدر ، تلك السلع التى يجد فى تصنيعها بعض العيوب .

وفى الأزمنة الأخيرة كان ثمة أربع أو خمس بيوت تجارية فرنسيه مستقرة فى القاهرة ؛ وكانت هذه تمتلك عشر سفن نقل ، تبلغ حمولتها مائتين إلى ثلاثمائة طن ، وتقوم هذه السفن كل سنة برحلتين من مارسيليا إلى الاسكندرية ، ذهابا وإيابا .

وبالإضافة إلى هذه السفن العشر ، كان هناك ما يقرب من المائة سفينة ، تصل من موانينا المختلفة والمطلة على البحر الأبيض المتوسط لتشارك فى قوافل الشرق ، أو لتقوم بالمساحلة بين مرافئه ، وكانت هذه السفن تصل مرة على الأقل إلى الاسكندرية خلال مدة هذه القوافل ، والتى كانت تبلغ عامين على أقل تقدير ، وكثيراً ما كانت تمتد إلى أربعة أعوام .

وكانت النسبة المعتادة للأرباح التى يحققها التجار الفرنسيون من مختلف السلع الواردة إلى مصر ، والتى انتهينا من بيانها ، تصل إلى ٢٠ ٪ أو ٣٠ ٪ ؛ وهذه النسبة مؤكدة على الدوام بالنسبة للأجواخ بصفة خاصة .

وكانت تحصل نسبة ٣٪ كعمولة على دخول وخروج البضائع التى يستوردونها أو يصدرونها ؛ أما مصاريف النقل من مارسيليا إلى الاسكندرية فكانت تختلف تبعاً للظروف ، على الرغم من التعريفة التى وضعتها الغرفة التجارية فى مارسيليا .

أما المصاريف التى تتحملها السلع الفرنسية ابتداء من إفراغها فى الاسكندرية حتى وصولها إلى القاهرة ، فتصل إلى ١٠ ٪ أو ١٥٪ من أصل قيمتها . وهذه تشتمل على الرسوم الجمركية ومصاريف النقل والسمسرة .

الصادرات

تصدر مصر إلى فرنسا : الأرز ، القمح ، الزعفران ، ملح النوشادر ، النطرون ، الصودا ، القطن المغزول ، الأقمشة القطنية والكتانية من مختلف الأصناف ، السنامكى ، جلود الجاموس والأبقار والجمال .

وبخلاف هذه السلع المنتجة أو المصنوعة فى مصر ، كانت الأخيرة تصدر إلى

فرنسا أيضاً السلع الآتية والتى كانت تعد مستودعاً لها ، وهى تشتمل على السلع القادمة من أواسط أفريقيا ، عن طريق دارفور وسنار : الصمغ ، التمر هندى ، العاج ، ريش النعام ، وكمية ضئيلة من تراب الذهب (التبر) .

ويشتمل الجزء الأكبر من هذه السلع ، وهو الذى كان يأتى من الجزيرة العربية والهند عن طريق جدة — السويس ، على بن موخا (إحدى بلاد اليمن) وصمغ الطلاء ، والصمغ العربى وارد جدة وينبع والطور ، والحتليت ، والبخور ، والمر ، والألوة (أو الصبر) ، والوصير (أو ثمرة سم السمك) ، والكركم ، جور القئ ، وعقاقير أخرى نجدها مبينة بالتفصيل فى تعريفة جمرك السويس .

وكان الأرز يصدر فى العادة عن طريق دمياط ، ولم يكن لهذه التجارة نفس النشاط على الدوام ، إذ كانت تعتمد على وفرة أو ندرة الحبوب فى أوربا ، فلقد وصلت إلى أوربا فى سنوات بعينها ما يبلغ العشرين حمولة من الأرز ، ويبلغ صادر مصر من الأرز إلى فرنسا سنويا خمسة آلاف أردب .

أما القمح الذى يصدر إلى فرنسا فكان يخزن أولا فى رشيد ؛ ومن هناك يرسل فى مراكب إلى أبى قير والاسكندرية ، ومنها يبحر القمح فوق السفن التى تشكل قافلة المشرق ، وكان تصدير القمح شأنه شأن تصدير الأرز ، يتعرض لتقلبات كبيرة ، وعلى نحو شاذ ، وكانت السفن اليونانية على وجه الخصوص ، ومن مختلف جزر الأرخبيل ، هى التى تستخدم فى نقل القمح من فرنسا حين عانت إيطاليا من نقص الغلال وكذلك الولايات المتحدة الوسطى ، من نقص الغلال فى منتصف القرن الماضى ، وتقدر الكمية التى صدرت من القمح خلال سنوات القحط الثلاث ، والتى أصابت هذه المناطق ، بنحو ثمانين ألف أردب ، وفرض مراد بك ، وهو الذى كان يحصل على عائد جمرك رشيد ، رسم خروج قدره ١٨٠ مدينى عن كل أردب من القمح .

ويصدر فى السنة العادية إلى مارسيليا من ثلاثمائة إلى أربعمائة قفص من الزعفران ، يزن القفص منها من ٨ إلى ٩ قناطير ، ويتراوح ثمن القنطار بين ١٠ و ١٨ بوطاقة ، وكان أجود أصناف الزعفران ، الذى يجد فى الحصول عليه تجار فرنسا ، هو النوع الذى يزرع فى ضواحى القاهرة .

وتبلغ الكمية السنوية التى ترسل إلى فرنسا من ملح النوشادر مائة قفص ، يزن القفص منها من ٥ إلى ٦ قناطير زنة مارسيليا ، وتنتج هذا الملح بصفة شبه كاملة مصانع وسط الدلتا ؛ ويباع القنطار زنة ٢٥٠ رطلا بنحو ٦٥ إلى ٨٠ بوطاقة .

أما النطرون ، والذى سبق أن ذكرنا أن تجارته موضوع احتكار ، فلم يشق طريقه إلى فرنسا إلا منذ نحو عشر سنوات ؛ ويمكننا أن نقدر الكمية المرسلة منه كل عام بـ ١٥ ألف قنطار زنة مارسيليا ، وتباع الأقة من النطرون على ظهر المركب بـ $\frac{1}{4}$ ٣ إلى ٤ مدينى .

وكان العربان يحصلون على الصودا المصرية ، أو رماد الاسكندرية ، من ضواحى هذه المدينة ؛ وهى تنتج عن إحراق بعض النباتات التى تنمو هناك بكثرة على شواطئ البحر . ولم تطلب فرنسا هذا النوع من الصودا إلا بسبب افتقارها إلى صودا إليكانتى . وقد بلغ ما صدر إليها فى بعض الأحيان من هذه الصودا ١٢ إلى ١٥ شحنة ، تزن الواحدة ٣ – ٤ آلاف قنطار ؛ ومع ذلك فقد مرت فى أحيان أخرى مدة عشر سنوات دون أن يصدر إليها شئ منها . ويبلغ متوسط ثمن الأقة من هذه الصودا $\frac{3}{4}$ ٢ مدينى .

ويأتى القطن المغزول من الاسكندرية ، ورشيد ، والمحلة الكبيرة ، والقاهرة . ويستخدم هذا الغزل فى بروفانس . ويتراوح ثمن الرطل منه زنة ١٤٤ درهماً من ٢٠ إلى ٣٠ مدينى تبعاً لنوع الخيط ، كذلك كان يتراوح الصادر السنوى من هذه الخيوط من ٥٠ إلى ١٥٠ بالة ، تزن الواحدة من ٩ إلى ١٠ قناطير .

وتنقسم الأقمشة القطنية تبعاً لأصنافها إلى :

١ – عجمى : ويصنع فى القاهرة وضواحيها .

٢ – أمان : ولا يختلف هذا الصنف عن سابقه إلا فى طول (التوب) وعرضه .

٣ – محلاوى : ويصنع فى المحلة الكبرى .

٤ – قماش : وهو تقليد للأقمشة الغينية والمنسوجات الهندية .

٥ – منسوجات رشيد المسماة دمياطى .

وكان يصدر من ستمائة إلى ثمانمائة بالة من هده الأصناف المختلفة من المنسوجات ؛ وتساوى البالة التى تحتوى على ١٢٠ إلى ١٥٠ قطعة (توب) من القماش ، من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ قرش ، ويساوى القرش ٤٠ مديني .

أما الأقمشة الكتانية التى يشار إليها باسم المنوفى ، والشبيبى ، والفصلة ، والبتانونى ، والمغربين والسيوطى فكانت تصنع فى الدلتا ، وكان يصدر منها فى السنة العادية من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ بالة ، تساوى الواحدة منها ٤٥٠ قرشاً ، قيمة القرش ٤٠ مدينى .

ويصدر إلى فرنسا نحو ٥٠٠ قنطار من السامكى ؛ ويباع القنطار الواحد ، زنة مارسيليا ، فى القاهرة بـ ٤٠ إلى ٥٠ بوطاقة .

وتنقل كل واحدة من السفن العشر التى تأتى كل عام من مارسيليا إلى الاسكندرية نحو ألف من جلد الجاموس ، وتحمل معها كذلك بعض أنواع أخرى من الجلود ، يمكن أن يبلغ ثمنها فى المتوسط من ٤ إلى ٦ بوطاقات للجلد الواحد .

وإليكم الآن بياناً بالسلع الأجنبية عن مصر والتى تصدر عن طريق موانيها إلى فرنسا :

ثلاثمائة قفص من الصمغ العربى تنقلها إلى القاهرة قوافل دارفور وسنار ، ويزن القفص الواحد ١٠ إلى ١١ قنطاراً ، ويباع بـ ٥٠٠ قرش ، قيمة القرش ٤٠ مدينى .

ويصدر التمر هندى الذى تجلبه هذه القوافل نفسها فى أقفاص ، يزن القفص منها من ٨ إلى ٩ قناطير ، وكان يصدر منها سنوياً من ٢٥ إلى ٣٠ قفصاً .

ويباع سن الفيل تبعاً لصنف العاج ، بسعر ٤٠ أو ٥٠ فندقلى للقنطار الواحد ، ولم يكن يورد عادة منه سوى ٨ إلى ٩ بالات ، تزن البالة ٤ أو ٥ قناطير .

ويصدر كذلك ٨ أو ١٠ أقفاص من ريش النعام الأبيض والأسود ويتراوح سعره تبعاً لمقدار الطلب عليه .

أما عن تراب الذهب ، فإن الكمية الضئيلة للغاية التى ترسل منه إلى فرنسا ، لا تستحق مجرد الذكر هنا .

وتبلغ كمية الصادر السنوى من بن موخا مائة بالة ، تشتمل كل بالة منها على فردتين ، وتزن الفردة الواحدة كما هو معروف حوالى $\frac{1}{2}$ ٣ قناطير ، ثمن القنطار منها فى القاهرة من ٢٥ إلى ٣٠ قرشاً أسبانياً .

ويقدر الصادر من صمغ الطلاء بـ ٤٠ إلى ٥٠ قفصاً ، يزن القفص منها ٧ إلى ٨ قناطير ، ويباع بـ ٧٥٠ قرشاً ، قيمة القرش ٤٠ مدينى .

ويصدر كذلك حوالى ١٥٠ قفصاً من صمغ جدة ، وخمسين قفصاً أخرى من صمغ ينبع ، ويزن كل قفص من هذه الأقفاص ٨ — ١٠ قناطير ؛ ويباع القنطار من الصمغ العربى من النوع الأول بـ ١٢ — ١٤ فندقلى ؛ أما القنطار من النوع الثانى فيباع بثمن أقل قليلا من ذلك .

وإلى هذين الصنفين من الصمغ ، ينبغى أن نضيف ٤٠ أو ٥٠ قفصاً من الصمغ الذى يجمع ويرسل إلى القاهرة بمعرفة عرب الطور ، ويساوى القفص منها حوالى ٤٠٠ قرش ، قيمة القرش ٤٠ مدينى .

وتبلغ كمية الحتليت المصدرة إلى مارسيليا سنوياً ١٠ إلى ١٥ بالة ، تزن الواحدة ٦ — ٧ قناطير ، وتساوى ٥٠٠ قرش تركى .

أما عن الصادرات من البخور ، فإن كميتها تتوقف على حالة السلم والحرب بين الروسيا والباب العالى العثمانى ؛ ففى حالة الحرب تحصل روسيا من فرنسا على جزء من البخور اللازم لاستهلاكها . وفى هذه الحالة يشحن إلى مارسيليا ما يصل إلى ٥٠٠ قفص ، يزن الواحد منها ٨ — ٩ قناطير ، ويزن القنطار ١٠٠ رطل ، ويساوى ٣٠٠ إلى ٣٥٠ قرشاً . وتقل هذه الكمية فى زمن السلم بين الروسيا والباب العثمانى لتصل إلى ٥٠ قفصاً فقط .

ولا يرسل إلى فرنسا إلا حوالى ٤٠ قفصاً من المر ، ومثلها من الألوة أو الصبر ، ويساوى القفص من هذين النوعين ، فى القاهرة ، ٥٠٠ قرش .

ويرسل سنوياً حوالى الثلاثين بالة من البوصير ، تزن البالة الواحدة ١٢ قنطاراً ، وتساوى من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ قرش ؛ وأخيراً ٨ – ١٠ بالات من الكركم ، ومثلها من سيقان الزعفران ؛ وحوالى العشرين بالة من الأصناف الأخرى من العقاقير ، تحسب كلها بسعر واحد ، يقرب من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ قرش وتبلغ مصاريف خروج هذه السلع نحو ١٢٪ من قيمتها .

وقلما توفر تجارة الصادر لكل السلع التى انتهينا من بيانها أية أرباح ؛ إذ لا تتحقق هذه الأرباح إلا فيما ندر ، وبالنسبة للسلع التى تتضاعف كمية الصادر منها فى الظروف الاستثنائية مثل الأرز والقمح ، وبشكل عام كل السلع التى تمثل ضرورات أولية . وفوق ذلك فإن الخسارة التى يمكن أن تتحقق بالنسبة للسلع التى تصدر بشكل اعتيادى ، مثل الزعفران ، والقطن المغزول ، والأقمشة ، والصمغ ، الخ ، كانت على الدوام أقل كثيراً بالنسبة للأرباح التى تحققها صادراتنا إلى مصر .

وكان الأمر ينتهى بتسديد أثمان صادراتنا هذه بنقود معدنية ، سواء كان ذلك بالقروش الأسبانية أو بالتالارى الألمانى ، أو كان ذلك بالنقود التركية قبل أن تتعرض هذه النقود للتزييف ، إذ أن هذه النقود ، منذ حوادث التزييف المتتالية ، التى تعرضت لها ، لم تعد تتداول فى فرنسا .

وكانت رواتب قناصلنا فى اسكاليهات (مرافئ) الشرق ، تحصل لفترة من الزمن من عائد رسم قنصلية يبلغ ٢٪ من ثمن السلع المرسلة إلى تجار الأمة ؛ ولكن حين أصبح هذا الرسم يحصل فيما بعد لغرض مختلف ، بدأت تدفع رواتب القناصل عن طريق غرفة التجارة فى مارسيليا . وكان مرتب القنصل الفرنسى فى مصر يبلغ ١٦ – ١٨ ألف فرنك (سنوياً) .

وكانت المغارم التى يتعرض لها التجار الأوربيون فى مصر ، من جانب نظام الحكم المطلق للمماليك ، تشتمل على تقديم سلفيات اجبارية ، أو معدات أو سلع لا يسدد ثمنها على الإطلاق . وفيما مضى ، وافقت الحكومة الفرنسية على تعويض هذه الخسائر ، وعلى أن تقدم مساعدات للتجار الذين يتعرضون لمثل هذه المظالم ؛ وعندما

توقفت الحكومة عن دفع هذه التعويضات ، خولت الغرف التجارية مارسيليا ، لهؤلاء التجار الفرنسيين المستقرين بالقاهرة ، أن يفرضوا ، بمعرفتهم ، ولتعويض هذه الخسائر ، رسماً يسمى رسم حماية ، يبلغ ٢٪ من قيمة البضائع الواردة من فرنسا ، و ١٪ عن المواد أو السلع التى يصدرونها من مصر .

وقد اتخذت أحداث الثورة الفرنسية ذريعة لمظالم ظل تجارنا يتعرضون لها ، بأكثر بكثير مما يتعرض له تجار الأمم الأخرى من مظالم ومغارم على يد حكومة البكوات . وعندما كان المسيو دى كورش M . Descorches قائماً بأعمالنا فى القسطنطينية ، تلقى قنصلنا العام ، المسيو ماجالون M . Magallon الذى كان مقيما بالقاهرة ، الأمر بالذهاب إلى الاسكندرية ، وبدعوة كل التجار الفرنسيين بأن يتبعوه إلى هناك ؛ وظل الجميع بالاسكندرية نحو ثمانية أشهر ، أى إلى الوقت الذى أرسل فيه المسيو فرنيناك M . Verninac سفيرنا لدى الباب العالى ، إلى القاهرة ، فى عام ١٧٩٦ المسيو تانفيل M . Tainville الذى كان واحداً من موظفيه . وكان هذا المبعوث الدبلوماسى مخولا فى أن يضع اتفاقية جديدة تتناول مصالحنا التجارية ، وأن يذكر بضرورة مراعاة التطبيق المباشر للاتفاقيات والامتيازات .

وقد حصل على وعد بتسديد الديون التى كانت مستحقة لتجارنا ؛ كما حصل على وعد آخر بإزالة أسباب الشكاوى الأخرى ، وبأن يتمتع هؤلاء التجار بحرية كاملة فى العمل فى المستقبل ؛ لكن هذه الوعود ، بعد رحيله ، قد تنوسيت ، وعادت الأمور تسير فى مجراها المعتاد ، ومن جديد عادت المظالم والمغارم ، وتلقى قنصلنا ، مرة أخرى ، أمراً بالعودة إلى الإسكندرية ، واضطر أن يعود من هناك ، وبشكل نهائى ، إلى فرنسا . ولقد أدت هذه الحال التى سارت عليها الأمور ، إلى قطع كل العلاقات الودية التى أمكنها أن تظل قائمة ، حتى ذلك الوقت ، بين الحكومات الفرنسية وحكومة المماليك ؛ كما قد رجحت هذه القطيعة ، ولو بشكل ظاهرى ، أسباب قيام حملتنا على مصر.

الفصل الخامس

بيانات عن التجارة كما تقدمها سجلات الجمارك

إذا افترضنا جدلا أن الأمانة كانت تراعى بالنزاهة الواجبة فى عملية تحصيل مختلف الرسوم المفروضة على دخول وخروج كل أنواع السلع ، التى كانت تتداولها التجارة فى مصر ، فإن سجلات مكاتب الجمارك التى أنشئت فى مصر ، تستطيع أن تقدم لنا معلومات بالغة الدقة حول حجم الواردات والصادرات السنوية التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، ولقد سمح لنا وضعنا أن نلزم رجال الجمارك بشىء لم يستطع أى أوربى من قبلنا أن يتجاسر على طلبه منهم باسم الصداقة أو الصالح العام . ولقد انتهزنا نحن هذه الظروف المواتية ، فأعطى الجنرال كليبر — وكان كما سبق لنا القول قد كلف لجنة خاصة بتجميع المعلومات حول تجارة هذه البلاد — أعطى أوامره بأن يضع رجال جمارك الاسكندرية ودمياط والسويس وبولاق ، ومصر العتيقة تحت أيدينا مستخلصات من سجلاتهم عن عدة سنوات متعاقبة لكى نستنتج منها ، بأكبر ترجيح ممكن ، فكرة مفصلة عن المتوسط السنوى للواردات والصادرات .

وسوف نضع هذه المستخلصات تحت نظر القارىء ، مع ملاحظة أن الهدف الذى نبتغيه ليس مجرد أن نقيم الموارد التى كان يحصل عليها البكوات أو ملتزموهم من الرسوم التى كانت تحصلها مختلف جمارك مصر ، ولكن أن نبين نوع وصنف السلع التى كانت تخضع لهذه الرسوم .

وقد يكون من المناسب هنا أن نبدأ بتقديم فكرة موجزة عن إدارة الجمارك فى مصر فى أثناء حملتنا .

هناك مكاتب للجمارك منشأة فى موانىء : القصير ، مصر العتيقة ، بولاق ، السويس ، دمياط ، رشيد ، الاسكندرية .

وقد بدأ إبراهيم ومراد — بعد أن امتلكا مقاليد الأمور فى القاهرة — باقتسام

دخول كل الجمارك فيما بينهما بالتساوى فيما عدا جمرك القصير الذى ترك لبكوات مصر العليا .

ولكى يتفادى هذان البكوان الحيرة التى تسببها القسمة ، والجدل الذى يمكن لها أن تجره ، فقد وضعا على الفور ترتيباً جديداً احتفظ مراد بك بموجبه لنفسه بديوان القاهرة المكون من مكتبى مصر العتيقة وبولاق ، وكذلك بجمارك دمياط ورشيد والاسكندرية ، لكى يديرها على هواه ولكى يحصل بشكل كامل على عوائدها ، فى حين لم يحتفظ إبراهيم بك لنفسه إلا بجمرك السويس .

ولقد أنشأ البك الأول التزامات للجمارك المختلفة التى آلت إليه فى هذه القسمة ، فى حين كان البك الثانى يدير ميناءه لحسابه الخاص .

وكان الملتزم العام أو المدير العام لجمارك مراد بك ، يختار ويضع تحت إمرته ، مأمورى الجمارك الرئيسيين ، لمكاتب بولاق ودمياط ورشيد والاسكندرية ؛ وكان كل واحد من هؤلاء يترأس عدداً من الموظفين يتناسب مع حجم السلع التى تصل إلى كل من هذه الأماكن ، والتى يتحتم المرور عليها هناك .

وهكذا ، فبالإضافة إلى مدير الجمارك ، كنا نجد فى بولاق ستة من الكتبة ، ونحو أربعين من صغار الموظفين أو من غيرهم من التابعين ، يعملون جميعاً تحت إمرة هذا المدير ؛ وكانت مهمتهم تنحصر فى التعرف على مختلف السلع الخاضعة لرسوم الدخول والخروج ، وتحصيل هذه الرسوم .

وكان يوجد فى دمياط ، عند مصب النيل ، ثمانية كتبة وخمسون موظفاً مرءوساً ، وفى رشيد ثلاثة من الكتبة وعشرون مرءوساً ؛ وأخيراً كان بالاسكندرية اثنا عشر كاتباً وستون مرءوساً .

إذن فلقد كان الجهاز الإدارى للجمارك الأربعة التى يمتلكها مراد بك يتكون من أربعة من مأمورى الجمارك وتسعة وعشرين من الكتبة ، ومائة وسبعين من التابعين أو المرءوسين ، يعملون جميعاً تحت إمرة الملتزم العام .

وهذه هى الرواتب التى كانوا يتقاضونها :

كان المأمور العام لجمرك بولاق يحصل سنوياً على	٢٤٠٠ بوطاقة
» » » » دمياط » » »	٤٠٠٠ »
» » » » رشيد » » »	١٠٠٠ »
» » » »الاسكندرية» » »	٤٠٠٠ »
وكان الواحد من الكتبة يحصل على ٦٠ إلى ٣٠٠ بارة فى اليوم ، مما يصل براتبه السنوى إلى ٧٣٠ بوطاقة ؛ أى ما يصل بهذا البند من الانفاق السنوى بالنسبة لجميع الكتبة إلى	٢١,١٧٠ »
ويحصل كل من الموظفين المرءوسين عادة على ٤٥ بارة فى اليوم ، أى $\frac{1}{2}$ ١٨٢ بوطاقة فى العام ، وبهذا يحصل الـ ١٧٠ مرءوساً على	٣١,٠٢٥ »
وتبعاً لذلك ، تصل مصاريف الإدارة والرواتب إلى	٦٣,٥٩٥ »
وكان الملتزم العام للجمارك يدفع إلى مراد بك نحو ٢١,٠٠٠ بوطاقة كل شهر ، وبذلك يبلغ جملة ما يدفعه فى العام	٢٥٢,٠٠٠ »
فيكون المجموع الكلى للنفقات	٣١٥,٥٩٥ »

ولم يكن مأمورو الجمارك أو أى من تابعيهم ، يحصلون على مكافآت عن الحصيلة التى يجمعونها ، ومع ذلك فلم يكن من النادر أن يحصلوا على بعض الهدايا البسيطة من جانب التجار ؛ أما بالنسبة للملتزم ، فإنه بالإضافة إلى الديون المستحقة له والتى تضيع عليه ، وهو أمر يحدث بصفة دائمة ، وبالإضافة كذلك إلى بعض الترتيبات والتسويات الخصوصية التى تتم بين المتعاملين مع الجمارك ، وبين مأمورى هذه الجمارك ، فقد كان يقوم هو نفسه ، من وقت لآخر ، بتقديم هدايا تتفاوت قيمتها ، إلى مراد بك ، وإلى المقربين إليه .

وكان لابد أن يفيد هذا الملتزم ، حسب الأحوال ، من كل المنافع التى تنتج عن ذلك ، ومع هذا ، فحين تصل هذه المنافع إلى حد مبالغ فيه ، يفوق ما هو معتاد من هذه الأمور ، يتعرض هذا الملتزم لمظلمة تنرع عنه ما حقق من كسب ؛ وبهذه الطريقة حطم مراد بك كثيراً من رجال جماركه ، واحدا بعد الآخر . ويقدر أحد هؤلاء ، وهو الذى حصلت منه على هذه التفاصيل ، حصيلة جمارك بولاق ودمياط ورشيد والاسكندرية بـ ٤٠,٠٠٠ بوطاقة فى الشهر الواحد ، أى ٤٨٠,٠٠٠ بوطاقة فى السنة ، وقد سبق أن رأينا أن مصاريف التحصيل تبلغ $\frac{١}{٨}$ هذا المبلغ ، فإذا قدرنا بنحو الثمن كذلك ، الأكراميات والهدايا التى كان لابد أن يقدمها الملتزم إلى المماليك وإلى رجال آخرين من رجالات السلطة ، فسوف نجد أن المصاريف التى كان على الملتزم أن

	بوطاقة
ينفقها تبلغ حوالى	١٢٤,٠٠٠
ثمن التزامه	٢٥٢,٠٠٠
مجموع المصاريف	٣٧٦,٠٠٠
فى حين تبلغ حصيلة الرسوم	٤٨٠,٠٠٠
وبذلك يكون صافى أرباح الملتزم	١٠٤,٠٠٠

وتعتبر هذه الـ ١٠٤,٠٠٠ من البوطاقات ذات الـ ٩٠ مدينى ، والتى تساوى ٣٣٤,٠٠٠ فرنك ، مبلغاً شديد الضخامة ولدرجة أكبر مما ينبغى ، الأمر الذى يثير لعاب جشع البكوات ونهمهم ، فيجلب الكثير من المغارم والمظالم ، التى كانت تقع على الملتزمين العاملين للجمارك .

وكانت كل الرسوم التى تحصل عن مختلف السلع الواردة إلى مصر تنظم تبعاً لتعريفات لم تتناولها سوى تعديلات طفيفة منذ وضعها ؛ ومع ذلك فقد كان البن الذى يصل عن طريق السويس مثقلا برسوم كانت ترتفع بصفة مستمرة حتى بلغت ٢٢ بوطاقة عن الفردة الواحدة . وتبعاً للمعلومات التى قدمها إلى رجل الجمرك فى هذا الميناء ، فقد كان الوارد من هذه السلعة يصل إلى ٢٢ ألف فردة فى عهد إسماعيل بك .

وكانت الرسوم التى تحصل فى جمرك السويس ، تبلغ فى السنة الاعتيادية وتبعاً للأحوال التى حددها المسيو إستيف إلى ٤٠٩,٣٦٥ بوطاقات [١] ؛ أى أنها كانت تعادل حصيلة الجمارك الأربعة فى القاهرة ودمياط ورشيد والاسكندرية ، فى حين كانت مصاريف التحصيل (فى جمرك السويس) ، أقل بكثير (منها فى هذه الجمارك) ، وهذا هو ما يفسر لنا لماذا اكتفى إبراهيم بك ، وهو الذى كان يقتسم السلطة مع مراد بك بعائد جمرك السويس وحده ، تاركا لزميله عوائد الجمارك الأربعة الأخرى .

وتبعاً لهذه المعلومات المتنوعة ، يمكننا أن نقدر عوائد كل جمارك مصر على النحو التالى :

جمارك القاهرة ودمياط ورشيد والاسكندرية	٤٨٠,٠٠٠ بوطاقة
جمرك السويس	٤٠٩,٣٦٥ «
جمرك القصير	١١٠,٦٣٥ «
المجموع	١,٠٠٠,٠٠٠ «

أى ما يساوى خمسة ملايين فرنك ، تخصم منها المصاريف الإدارية وأرباح الملتزمين .

وإليكم الآن الجداول التى استخلصناها من سجلات الجمارك بمصر ، كما شاء أن يترجمها زميلنا المسيو أميديه جوبير :

(١) ٣٦,٨٤٠,٨٧٦ مدينى . دراسة عن مالية مصر ؛ الدولة الحديثة ، المجلد السابع ، ص ٤١ – الطبعة الثانية . (وهى إحدى دراسات المجلد الخامس من الطبعة العربية . المترجم .)

الحالة العامة للسلع التى سددت عنها الرسوم لجمرك مصر العتيقة خلال السنوات ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ هجرية الموافقة للسنوات ١٧٩٠ ، ١٧٩١ ، ١٧٩٢ ميلادية (*)

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال السنوات الثلاث	المتوسط السنوى
الجير	الصعيد	بالمركب	١٤٦	٤٩
خشب الوقود	»	»	٢٤	٨
فحم الخشب	الرديسية	»	٣٦	١٢
زبل الحمام	الصعيد	»	٣١٩	١٠٦
قصب السكر	»	»	٥٦٠	١٨٦ ٢/٣
البخور	الجزيرة العربية	بالجمل	٢٢	٧ ١/٣
عنب طازج	الفيوم	»	٣٢٦	١٠٨ ٢/٣
الكمثرى	الواحات	»	٤	١ ١/٣
السفرجل	»	»	١٣	٤ ١/٣
جذور العرقسوس	»	»	١٠٦	٣٥ ١/٣
أعواد الكتان	الصعيد	»	٣٤٠٧	١١٣٥ ٢/٣

(*) كان هذا الجدول الموحد ينقسم فى النص الفرنسى إلى عدة جداول ، يختص كل جدول فيها ببيان الوحدة القياسية التى تقاس بها السلعة (بالمراكب ، بالجمل ، بالقفص .. الخ) :

وتيسيراً على القارئ أدمجنا كل هذه الجداول فى جدول واحد مع إنشاء عمود إضافى توضح به الوحدة القياسية . (المترجم) .

السلع	المناطق التى حاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال السنوات الثلاث	المتوسط السنوى
كتان فى شكل كرات	الصعيد	بالجمل	١٥٩١	٥٣٠ ١/٣
سمار لصنع الحصير	الفيوم	»	٢٧	٩
العاج	سنار ودارفور	»	١٧٥	٥٨ ١/٣
الصمغ	سنار	»	١٣٩٧	٤٦٥ ٢/٣
عنب طازج	الفيوم	بالقفص	٥٨	١٩ ١/٣
تين	الفيوم	»	١٨٤٢	٦١٤
دحاج	الصعيد	»	٢٦٨٣	٨٩٤ ١/٣
أنثى الببغاء (دُرَّة)	سنار	»	١	—
الزعفران	الصعيد	بالنالة أو بالنالة الصغيرة	٣٣٣٣	١١١١
الصوف	الفيوم	»	٢٩٨	٩٩ ١/٣
بذور السنط	الصعيد	»	٨٢٢	٢٧٤
التبغ	»	»	١١٣١	٣٧٧
رصاص البنادق	»	»	٣٠١	١٠٠ ١/٣
نحاس قديم	»	»	٤٢٢	١٤٠ ٢/٣
ملح النوشادر	ضواحى القاهرة	»	٢	٢/٣
بذور الخيار	الصعيد	»	١١	٣ ١/٢
الثوم	»	»	٣٢	١٠ ٢/٣
الكراث الأندلسى (القفلوط)	»	»	١٣٥	٤٥
السنامكى	صحراء أسوان	»	١٠٤	٣٤ ٢/٣
بن وارد القصير	الجزيرة العربية	»	٢٣٣٠	٧٧٦ ٢/٣

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوخدة القياسية	عددها خلال السنوات الثلاث	المتوسط السنوى
حدور العرقسوس	الواحات	بالبالة أو بالبالة الصغيرة	٧٨	٢٦
الصعد (عشب طبى)	»	»	١٦	٥ ١/٣
الشنشم	سنار ودارفور	بالقربة	١٦٨	٥٦
العسل الأسود	الصعيد	»	١٠٨٤	٣٦١ ١/٣
الملح	»	بالقفة	١٣٤٣	٤٤٧ ٢/٣
العجوة	»	»	٦٦٣٨	٢٢١٢ ٢/٥
البلح	الواحات	»	٥١٣٣	١٧١١
البلح الجاف (التمر)	النوبة	»	١١٨٠٩	٣٩٣٦ ١/٣
الصمغ	الصعيد	»	١٠٢	٣٤
الصوف	الفيوم	»	٦٩	٢٣
التبغ	الصعيد	»	٩٢٣	٣٠٧ ٢/٣
النطرون	دارفور وسنار	»	١٧٤	٥٨
مشمش جاف	الواحات	بالأردب	٥	١ ٢/٥
بذور السنط	الصعيد	»	٤٥٨٧	١٥٢٩
« الكمون	»	»	٦١٢	٢٠٤
« اليانسون	»	»	١١٦	٣٨ ٢/٣
« اللفت	»	»	٤٦٠	١٤٦ ٢/٣
« الكزبرة	»	»	٢١٦	٧٢
« النيلة	»	بالقفة	٢١٥	٧١ ٢/٣
« الملوحية	»	»	٨٨	٢٩ ١/٣
بذور حبة البركة	الصعيد	»	٣٢	١٠ ٢/٣
« اليانسون الأخضر	»	بالقطعة	٧٠	٢٣ ٢/٣

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال السنوات الثلاث	المتوسط السنوى
جلود جاموس	الصعيد	بالواحدة	١٩٥١١	٦٥٠٣ ٢/٣
« ماعز	«	«	٤٢٤	١٤١ ١/٣
« ضأن بصوفها	«	«	٥٥	١٨ ١/٣
أقمشة صوفية غامقة وسوداء	«	«	٢٠٩١٣	٦٩٧١
قطع من هذه الأقمشة (توب)	«	بالقطعة	٢٤٢٣٣	٨٠٧٧ ٢/٣
أغطية للخيول	«	«	٢٨٧	٩٥ ٢/٣
أكلمة صوفية	الفيوم	«	٦٢٨	٢٠٩ ١/٣
شيلان كبيرة بيضاء	«	«	١١٤٥٧٧	٣٨١٩٢ ٢/٣
« صغيرة «	«	«	٥٨٢٠٢	١٩٤٠٠ ٢/٣
أقمشة للتعليف	«	«	٢٢٩٥٢	٧٦٥٠ ٢/٣
شيلان زرقاء وبيضاء	الصعيد	«	٧٥٩٤٨	٢٥٣١٦
أقمشة كتانية	«	«	٣٠٤٩٨٨	١٠١٦٦٢ ٢/٣

ولابد أن نلاحظ أن كل هذه السلع ، التى يشتمل عليها هذا الجدول هى التى سددت الرسوم الجمركية ، أما السلع التى كانت تأتى باسم البكوات فكانت معفاة من هذه الرسوم ، مما كان يقلل لحد كبير عوائد التحصيل .

جدول بالسلع التى سددت رسوم الجمارك
فى بولاق خلال السنوات ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ هجرية
الموافقة للسنوات ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ميلادية

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
الصلب	بلاد النصارى	بالصندوق	٢١٠	١٠٥
النحاس الأصفر	«	«	١٠	٥
الزئبق	«	«	٣٢	١٦
الزرنيخ	«	«	٧	٣ ١/٢
النيلة	«	«	٦	٣
برق لماع (لتزيين الملابس)	«	«	٩٢	٤٦
ذهب مورق	«	«	١٠	٥
نصال	«	«	٢٣	١١ ١/٢
حدايد	«	«	٥٤	٢٧
بلاتين للأسلحة النارية	«	«	٤٨	٢٤
بنادق وطبنجات	«	«	١٩٢	٩٦
مواسير بنادق	«	«	٣٥	١٧ ١/٢
زنك	«	«	١٦١	٨٠ ١/٢
سلفات الحديد	«	«	١٣	٦ ١/٢
زجاج	«	«	٨٧	٤٣ ١/٢
مرايا	«	«	١٨٤	٩٢
حلى زجاجية صنع فينسيا	«	«	٦١٣	٣٠٦ ١/٢
خزف	«	«	٣٥٣	١٧٦ ١/٢
مرجان	«	«	٢٣	١١ ١/٢
كهرمان	«	«	٣٦	١٨

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
قرفة	بلاد النصارى	بالصندوق	١٢٥	٦٢ ½
قرنفل	»	»	٤٣	٢١ ½
فلفل	»	»	٨٢	٤١
ملبس مشكل	»	»	١٩٠	٩٥
سوائل مختلفة	»	»	٨١	٤٠ ½
رورليو (شراب)	»	»	٢٥٥	١٢٧ ½
قطيفة	»	»	٢١	١٠ ½
ساتان	»	»	١٤٦	٧٨ (كذا)
تافتار أسود	»	»	٣٠	١٥
كريب	»	»	١٧	٨ ½
أقمشة متنوعة	»	»	١٢٢	٦١
فوانيس زجاجية	»	»	٨٤	٤٢
أمشاط وملاعق خشبية	الدولة العثمانية	»	١١٨	٥٩
مستكة أقراص	»	»	٣٤	١٧
مستكة على شكل صمغ	»	»	٣٣٠	١٦٥
بوتقات	بلاد النصارى	بالقفص	٦٠	٣٠
عجين مشمش (قمر الدين)	الدولة العثمانية	»	١٦٢	٨١
جبن وارد المنصورة	مصر	»	٢٠٣٠	١٠١٥
أقمشة كتانية سوداء	»	»	٣٧٠	١٨٥
عنب أسود مجفف (زبيب)	جزر اليونان	»	١١٨٧٦	٥٩٣٨
تين وعنب مجفف	»	»	١٢١٥٠	٦٠٧٥

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال ستين	المتوسط السنوى
فحم	الدولة العثمانية	بالقفص	١٤٥٦	٧٢٨
بذور خضراء	»	»	٨	٤
كربونات الرصاص	بلاد النصارى	بالقنطار	٥٠٠	٢٥٠
رئبق	»	»	٢٨	١٤
مغرة (للصباغة بالأحمر)	»	»	١٥٠	٧٥
كبريت عادى	»	»	٥١٠	٢٥٥
قشاع	»	»	٨١	٤٠ ½
ورود الحرامى	»	»	٢٤٤	١٢٢
خشب لصناعة الأثاث	»	»	٧٩٠٠	٣٩٥٠
قرنفل	»	»	٢٩٠	١٤٥
قصدير	»	»	٤٤٩	٢٢٤ ½
برق (لزينة الملابس)	»	»	١٠٩٩	٥٤٥ (كذا)
فلفل	»	»	٢٦٧	١٣٣ ½
سلفور الرصاص	»	»	٨١٤	٤٠٧
صلب	»	»	٧٦٥	٣٨٢ ½
زنجبيل	»	»	٣٨	١٩
محالب	»	»	١٦٤٠	٨٢٠
زجاج عادى	»	»	٧٤	٣٧
نحاس أصفر	»	»	٥٥	٢٧ ½
كبريت	الدولة العثمانية	»	٢	١
حروب	»	»	٢٣٨٣٣	١١٩١٦ ½
ماء نار صنع قرص	»	»	١٥٨	٧٩
عفصة	»	»	٥١٨	٢٥٩
ستيرين (لصنع المطاط)	»	»	١٥٥	٧٧ ½

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
رهور من دمشق	سوريا	بالقنطار	٨٠	٤٠
فوة (للصباغة بالأحمر)	»	»	١٨٧٥	٩٣٧ ١/٢
نحاس قديم صنع محلى	مصر	»	٦٢٠	٣١٠
تين وارد غرة	سوريا	»	٧١	٣٥ ١/٢
قصل (للصباغة)	مصر	»	٧٠٨	٣٥٤
مونات	الهند والجزيرة العربية	»	١٣١	٦٥ ١/٢
صمغ طبى	سوريا	»	٣١٧	١٥٨ ١/٢
كربونات الرصاص	بلاد النصارى	بالبالة	٣٨	١٩
مغرة (للصباغة بالأحمر)	»	»	٦٧	٣٣ ١/٢
مسامير	»	»	٢٠٠	١٠٠
شطة	»	»	٥٢	٢٦
أكسيد الرصاص	»	»	١٣	٦ ١/٢
مغنسيوم	بلاد النصارى	بالبالة	١٤	٧
ودنة (نبات زينة)	»	»	١٣٠	٦٥
قصدير	»	»	١٠٢	٥١
سلفور الرصاص	»	»	١٥٣	٧٦ ١/٢
صمغ طبى	»	»	١٣٤	٦٧
كبريت على شكل أنابيب	»	»	٥٩٢	٢٩٦
شبة	»	»	٥٣	٢٦ ١/٢
أول أكسيد الرصاص (مذهب)	»	»	١٢	٦
زيتون	الدولة العثمانية	»	٥٠	٢٥
عنب مغمور بالخل	»	»	٥٧٥	٢٨٧ ١/٢

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
قطران	الدولة العثمانية	بالبالة	٤٩٧	٢٤٨ ½
توتيا	»	»	١٢	٦
قلفونية	»	»	١٤٩	٧٤ ½
بودق (مسحوق أبيض متبلور)	»	»	٣	١ ½
زنبرة	......	»	٥	٢ ½
بيصورة	.....	»	٥	٢ ½
تبغ مصحون	بلاد النصارى	بالزجاجة	٨٣	٤١ ½
نبيذ	الدولة العثمانية	»	٦١٧	٣٠٨ ½
عسل	مصر	»	٢١٦٢	١٠٨١
حلويات مشكلة	الدولة العثمانية	»	٩١٣٥	٤٥٦٧ ½
سبائك رصاص	بلاد النصارى	بالقطعة	٢٨٤١	١٤٢٠ ½
بوتقات	»	»	١٠٢١٨٠	٥١٠٩٠
مربعات رخام	»	»	١٨١٤٠	٩٠٧٠
بنادق	»	»	٢٩٧٨	١٤٨٩
مصابيح زجاجية	»	»	٤٣٥٦٠	٢١٧٨٠
آنية خزفية	»	»	٢٨٩٠٠	١٤٤٥٠
كراسات مذهبة الأوراق	»	»	٤٤٤٠	٢٢٢٠
آنية خزفية	»	»	١٤٥٢٧	٧٢٦٣ ½
قضبان حديدية	»	»	٣٤٣٩٢	١٧١٩٦
ألواح من خشب الصنوبر	الدولة العثمانية	»	٤٨٠٠	٢٤٠٠
لعب أطفال	»	»	١٨٧٠	٩٣٥
دواسات	»	»	١٦١٢	٨٠٦

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
عصى	الدولة العثمانية	بالقطعة	٢٢٠٠٠٠	١١٠٠٠٠
مجاديف ودفات	»	»	١٥٨٤٠	٧٩٢٠
قروانات خشبية	»	»	٢٦٧٧٧	١٣٣٨٨ ½
أمشاط وملاعق	»	»	٣٣٦٠٠٠	١٦٨٠٠٠
قرب	»	»	٢٥٠٨٣	١٢٥٤١ ½
أيدى حراب	»	»	١٠٩٠٠	٥٤٥٠
بغرى	»	»	٦٨١٦٠	٣٤٠٨٠
ملاس حريمى	»	»	٨٥٤	٤٢٧
أحذية حريمى قديمة	»	»	٨٤٢٠٠	٤٢١٠٠
أغطية رأس بيضاء	»	»	٢٦٩٠١	١٣٤٥٠ ½
مكانس	»	»	٦٢٠٠٠	٣١٠٠٠
رحى طاحون	»	»	٢٠٤	١٠٢
حراطيم مواسير	»	»	١٨٧٠٠٠	٩٣٥٠٠
جلود لصنع الأحذية الفاسية	»	»	٢٣٨٩٠	١١٩٤٥
أغطية صنع تركيا	»	»	٢٨٨٨	١٤٤٤
أكلمة	»	»	١٤٠١٩	٧٠٠٩ ½
أغطية صنع تونس	بلاد البربر (المغرب)	»	١٥٢٣٩	٧٦١٩ ½
شيلان صنع تونس	»	»	١٣٧٢٢	٦٨٦١
أزواج صنادل (بابوش)	»	»	١٠٢٤٩	٥١٢٤ ½
فناجين قهوة صنع محلى	مصر	»	١٢٨٠٠٠	٦٤٠٠٠
مرجان	بلاد النصارى	بالحزمة	٦٣٨	٣١٩
نصال	»	»	١٠٣٠٠	٥١٥٠

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
بوص للأقلام	سوريا	بالحزمة	١٠٠٠	٥٠٠
أجواخ صوفية	بلاد النصارى	بالذراع	٥٥٢٠٠	٢٧٦٠٠
ستان صنع خيو	الدولة العثمانية	«	٦٠٦٨	٣٠٣٤
كريب	بلاد النصارى	«	٢٢٥٠٠	١١٢٥٠
تفتاز أسود	«	«	٤٦٣٨	٢٣١٩
قطيفة سوداء	«	«	٣٢١٠	١٦٠٥
ساتان	«	«	١٣٠٦٠٠	٦٥٣٠٠
سمسم	مصر	بالأردب	٣٠٦٣	١٥٣١ ½
أرز	«	«	٢٩٠١٣	١٤٥٠٦ ½
موسيلين تركى	الدولة العثمانية	بالمقطع	٢٣٨٥٠	١١٩٢٥
أقمشة حريرية وكتانية	«	«	٣٣٥٧٠	١٦٧٨٥
أقمشة قطنية فتلة مزدوجة	مصر السفلى	«	٨٨٧٨٥	٤٤٣٩٢ ½
أقمشة قطنية ناعمة	«	«	١٨٠٧٣٩	٩٠٣٦٩ ½
قماش بحز	«	«	٢١٢٢٥	١٠٦١٢ ½
أقمشة حريرية	«	«	٤٠٠٦٠	٢٠٠٣٠
« صنع منوف	«	«	١٩١١٣	٩٥٥٦ ½
« حسانى	«	«	٧١٣	٣٥٦ ½
أغطية فراش من الحرير	«	«	٢٢٨	١١٤
أقمشة نمرة ١ للقمصان	«	«	٤٨٥٩٥	٢٤٢٩٧ ½
« نمرة ١ كريب	«	«	٢٩٨١٠	١٤٩٠٥
مناديل حريرية	«	«	٣٢٥٢	١٦٢٦
تفتاز أسود (للخمارات)	«	«	٢٨٦٥	١٤٣٢ ½
شيلان	«	«	٩٠٠	٤٥٥ (كذا)

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
قمـاش نمرة ١ للقمصان ، نبرالى	مصر السفلى	بالمقطع	٧٢٩٩	٣٦٤٩ $\frac{1}{2}$
مناشف (فوط)	»	»	١٦٠	٨٠
كريب حرير	»	»	٤٦٨	٢٣٤
أقمشة قطنية	سوريا – دمشق	»	٤٥٥٢٥	٢٢٧٦٢ $\frac{1}{2}$
ألاجة	»	»	٤٤٠٤٩	٢٢٠٢٤ $\frac{1}{2}$
قماش حرير على قطن (قطنى)	سوريا – دمشق	بالمقطع	٢٥٩٣	١٢٩٦ $\frac{1}{2}$
شرحة مطبوع	»	»	٣٢٤٥	١٦٢٢ $\frac{1}{2}$
شرحة مموج	»	»	١٧٧٠	٨٨٥
أقمشة قطنية مرسومة	»	»	١٣٣٣	٦٦٦ $\frac{1}{2}$
قماش حرير على قطن (للعمائم)	»	»	٩٦٦	٤٨٣
شيلان فارسية	»	»	١٥٧	٧٨ $\frac{1}{2}$
شيلان صنع بغداد	»	»	١٢٥	٦٢ $\frac{1}{2}$
شيلان من الموسيلين	»	»	١١٣٣	٥٦٦ $\frac{1}{2}$
موسيلين	»	»	٨١٨٧	٤٠٩٣ $\frac{1}{2}$
أقمشة حشنة	»	»	٥٠٧	٢٥٣ $\frac{1}{2}$
« متنوعة	»	»	١٢٥	٦٢ $\frac{1}{2}$
مسامير	بلاد النصارى	بالأقة	٢٤٢٨٠	١٢١٤٠
فلفل	»	»	٢٢٨٠	١١٤٠
مواسير بنادق	»	»	٣٧٣١	١٨٦٥ $\frac{1}{2}$
أوكسيد النحاس	»	»	١٥٧٥	٧٨٧ $\frac{1}{2}$
سلفات الحديد	»	»	٧٩٠	٣٩٥
رربيح	»	»	١٠٢	٥١
صمغ النيلة	»	»	٢٥٠	١٢٥

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
قرفة	بلاد النصارى	بالأقة	٨١٦٠	٤٠٨٠
كهرمان	»	»	٩٨٦	٤٩٣
ورنيش طلاء	الدولة العثمانية	»	٨٢٠	٤١٠
مستكة على شكل صمع	»	»	١٦١٠٠	٨٠٥٠
مستكة عادية	»	»	٢٦٤٠	١٣٢٠
ستيرين سائل	»	»	٤٧٠٠	٢٣٥٠
حتليت	»	»	٣٠٤٣	١٥٢١ ١/٢
صلصال لصنع الغليون	»	»	٦٥٠	٣٢٥
حال	»	»	١٤٢٨	٧١٤
قراصيا	»	»	٧١٧٠	٣٨٥
جبن من اليونان	»	»	٤٩٧٠	٢٤٨٥
سحلب	»	»	٢٢٩٠	١١٤٥
فستق	»	»	٣١٦٠	١٥٨٠
حلوى جافة	»	»	٣٢٠	١٦٠
نحاس قديم	»	»	٤٧٧٣٨	٢٣٨٦٩
أوانى نحاسية	»	»	٤٨٤٣٠	٢٤٢١٥
حبوب صفراء (للصباغة)	»	»	١٢٣٥	٦١٧ ١/٢
بودرة صمغ (غراء)	»	»	٤١٤٠	٢٠٧٠
قلمونية	»	»	٧٦٠٠	٣٨٠٠
عجينة مشمش (قمر الدين)	سوريا	»	٢٢٦٧٤	١١٣٣٧

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
مشمش مجفف	سوريا	بالأقة	١١٦٤٥	٥٨٢٢ ١/٢
عنب مجفف (زبيب)	الدولة العثمانية	»	٦٠٨٣	٣٠٤١ ١/٢
فاصوليا جافة	»	»	٣٤١٠	١٧٠٥
قراصيا	»	»	٤٥٤٠	٢٢٧٠
حرير للحياطة	»	»	٤٩١٤	٢٤٥٧
أفيون	»	»	٨٠٠	٤٠٠
زيتون	»	»	٤٠٩٠	٢٠٤٥
سحق شرق	»	»	٢٧١٥	١٣٥٧ ١/٢
عنب مجفف	»	»	١٦٢٠	٨١٠
توتيا	»	»	١٤٤٠	٧٢٠
نحاس أصفر	»	»	٣٧٢٧٠	١٨٦٣٥
كريز برى	»	»	٨٠٠	٤٠٠
حديد قديم (خردة)	مصر	»	٥٢٠٠	٢٦٠٠
رنبرة	...	»	٥٤٠	٢٧٠
بيصورة	...	»	٤٧٠	٢٣٥
حلبة مرة	...	»	١٠٧٠	٥٣٥
بودرة صمغ	الدولة العثمانية	»	٤١٤٠	٢٠٧٠
...	سوريا	»	٩٣٠	٤٦٥
بوريك	الدولة العثمانية	»	٣٧٠	١٨٥
جذور العرقسوس	بلاد النصارى	»	٦٤٠	٣٢٠
حبوب خضراء	الدولة العثمانية	»	١٥٠	٧٥

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
أجواخ صوفية	بلاد النصارى	بالبالة أو بالبالة الصغيرة	٤٦	٢٣
فشاغ	»	»	٣٦	١٨
ورود الخزامى	»	»	٤٣	٢١ ½
الفراء	»	»	٨٤	٤٢
أجواخ	»	»	١٤٧٦	٧٣٨
روزوليو	»	»	١٠٨٢	٥٤١
جذور العرقسوس	»	»	١٥٨٢	٩٢٦
محالب	»	»	٢٥٦	١٢٨
ورنيش للطلاء	الدولة العثمانية	»	١٢	٦
زنجبيل	»	»	٤٤	٢٢
حرير خام	»	»	٢٩٨٥	١٤٩٢ ½
بودرة قصل (للصباغة)	»	»	١٢٣	٦١ ½
تبغ تركى	»	»	٣٠٦٧٣	١٥٣٣٦ ½
عفصة	»	»	١٧٩	٨٩ ½
حتليت	»	»	٤٨	٢٤
أحذية فاسية قديمة	»	»	٤٢	٤١
ألاجة من تركيا	»	»	١٣٢٥٠	٦٦٧٥
سجاجيد كبيرة	»	»	٧٧٨	٣٨٩
مكسرات (جوز ولوز ..)	»	»	٤٦٢٧	٢٣١٣ ½

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
صوفان (أسفنج للجراحة	الدولة العثمانية	بالبالة أو البالة الصغيرة	١١٤	٥٧
ستيرين سائل	»	»	٥٢	٢٦
أوراق القنب	»	»	٤٢٥	٢١٢ ١/٢
أسست	»	»	١٢٧٢	٦٣٦
زعفران	»	»	١٦	٨
قطران أبيض	»	»	١٤٨٧	٧٤٣ ١/٢
تبغ من دمشق	سوريا	»	٩٤١٣	٤٧٠٦ ١/٢
نبات الفوة (للصباغة بالأحمر)	»	»	٧٨٠	٣٩٠
صابون من الإسكندرونة	»	»	٢١٢٥	١٠٦٢ ١/٢
صابون من دمشق	»	»	٨٣١	٤١٥ ١/٢
شعر ماعز	»	»	٢٢	١١
خردوات صنع استانبول	الدولة العثمانية	»	٧٤٧	٣٧٣ ١/٢
أقمشة حريرية عادية	»	»	١٨٤	٩٢
حديد قديم (خردة)	مصر	»	٨٥	٤٢ ١/٢
زهور من دمشق	سوريا	»	٤٩	٢٤ ١/٢
أصواف	مصر	»	١٧٧	٨٨ ١/٢

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
مونات	الجزيرة العربية	بالبالة أو البالة الصغيرة	٥٣	٢٦ ١/٢
...	سوريا	»	٨	٤
بهيبة مرة	...	»	٢٤	١٢
فلفل من الحبشة	سنار	»	١٧	٨ ١/٢
حدرى (أو حدارى – كذا)	...	»	٣٠٤	١٥٢
جذور العرقسوس	بلاد النصارى	»	١٨	٩
ورق	»	»	١٠٨٢	٥٤١

(*) وضعنا فى هذا الجدول كما فعلنا فى الجداول السابقة ، مختلف السلع تبعاً للوحدات التى اتبعتها الجمارك لقياس كمياتها . وحين يتكرر وجود السلعة فى الجدول ، فإن السبب فى ذلك يعود إلى أن الكمية قد جلبت بوحدتى وزن مختلفتين : وعلى سبيل المثال فإن الـ ٥٠٠ قنطار وال ٣٨ برميلا من أكسيد الرصاص ، لا يشكلان سوى سلعة واحدة ، مما نستنتج منه أن وزن البرميل من هذه السلعة يقدر بنحو ١٣ قنطاراً .

جدول بالسلع الواردة من سوريا

والتى سددت رسوم الجمارك فى دمياط
خلال السنوات ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ – ١٢١٢
هجرية ، الموافقة للسنوات ١٧٩١ ،
١٧٩٢ – ١٧٩٨ ميلادية

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال ثمانى سنوات	المتوسط السنوى
تبغ من صور وبيروت	سوريا	بالبالة أو البالة الصغيرة	٦٨١٣٠	٨٥١٦ ١/٤
تبغ من اللاذقية	«	«	٢٣٦٣٠	٢٩٥٤
شرانق وخيوط دودة القز	«	«	٦٣٤	٧٩ ١/٤
حرير من دمشق	«	«	١٧٩٤٨	٢٢٤٣ ١/٢
أقمشة من دمشق	«	بالقطعة (المقطع)	٥٨٧٢٣٥	٧٣٤٠٤ ٣/٤
ألاجة من دمشق	«	«	١٠٥٦٢٠	١٣٢٠٢ ١/٤

الحالة العامة للسلع التى سددت رسومها

إلى جمرك السويس خلال السنوات ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢
من الهجرة الموافقة للسنوات ١٧٩٥ ، ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ ، ١٧٩٨ ميلادية

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال أربع سنوات	المتوسط السنوى
بن	الجزيرة العربية	بالبالة أو البالة الصغيرة	٥٦٥٧٦	١٤١٤٤
بخور	»	»	٨٣٢٩	٢٠٨٢
فلفل	الهند	»	٩٢٥	٢٣١
بوصيرة	»	»	٢٠٠	٥٠
لبان جاوة	»	»	٧٥	١٨ ٣/٤
الألوة (الصبر)	الجزيرة العربية	»	٤٥٠	١١٢ ١/٢
قاقلة (بذور تنتج دهون عطرية)	الهند	»	٧٥	١٨ ٣/٤
صمغ	الجزيرة العربية	»	٥٨	١٤ ١/٢
بن	»	»	٨٩	٢٢ ١/٤
كركم	الهند	»	٣٩٦	٩٩
خشب الصندل	»	»	٣٠	٧ ١/٢
حلبة طبية	...	»	٣٨٨	٩٧
كارى (بهار هندى)	الهند	»	١٤٦	٣٦ ١/٢
ششم	الجزيرة العربية	»	١	١/٤
جذور الزعفران	الهند	»	٢٣٢	٥٨
مر شرق	الجزيرة العربية	»	١٠٢	٢٥ ١/٢
جذور القلنجة	»	»	٣٩	٩ ٣/٤
ثمار جور الهند	الهند	»	٩٤٨	٢٣٧.

عطور (لإزالة تجاعيد الشعر)	الهند	»	٤	١
زنجبيل	»	»	١٤٩	٣٧ ١/٤
صمغ للصباغة	»	»	٩٨	٢٤ ١/٢
كاشو (عقار مستط للمعدة أو ماده مستخرجة من السنط الهندى للصباغة)	»	بالبالة أو البالة الصغيرة	١	١/٤
قرفة	»	»	٣٧	٩ ١/٤
تربول (عقار طبى)	»	»	١	١/٤
حب الملوك (»)	»	»	٥	١ ١/٤
كحل	»	»	٦	١ ١/٢
نحيوى (عقار طبى)	»	»	١٦	٤
زاهيبول (»)	»	»	١١٧	٢٩ ١/٤
إثمدية (»)	»	»	١٩	٤ ٣/٤
كبيلة (»)	»	»	٣٦	٩
سكوين	»	»	٢	١/٢
تنار (عقار طبى)	»	»	١	١/٤
قفل(حشب عطرى)	»	»	١	١/٤

ولا يشتمل الجدول الأخير ، الخاص بالسلع الواردة عن طريق السويس ، من الجزيرة العربية ومن الهند ، إلا على جزء من السلع التى ترد عن هذه المناطق فلقد قلنا فى مناسبة سابقة إن السلع الواردة عن طريق قوافل الحج من مكة ، لم تكن لتدفع أية رسوم جمركية .

وينقصنا ، لكى نستكمل معلوماتنا حول التجارة كما تقدمها سجلات الجمارك ، تلك المعلومات التى تتصل بمكاتب القصير ورشيد والاسكندرية .

وقد كانت رسوم القصير تحصل لصالح كاشف قنا ، ومع ذلك فلم تواتنى

الفرصة أثناء إقامتى فى قنا لكى أتزود بجداول تشبه تلك التى أوردتها فيما سبق ؛ كما كان جمرك رشيد قليل الأهمية ، ولم تكن أهميته لتزيد إلا عندما تعانى بعض بلدان أوربا من القحط ، عندئذ كانت الحبوب ، وبخاصة الأرز ، تصبح موضوعاً لشحنات ضخمة بعض الشيء ؛ وكانت هذه الشحنات تبحر من رشيد على صنادل تنقلها إلى الاسكندرية ، حيث تنقلها من هناك سفن أوربية .

ويستخلص من قوائم جمرك دمياط عن السنوات من ١٧٩١ إلى ١٧٩٨ أن كمية الأرز التى كانت تصدر عن طريق هذا الميناء قد بلغت خلال هذه السنوات الثمانى إلى ٢٢٨,٣٥٧ أردباً ، بمتوسط يصل إلى ٢٨,٥٤٤ أردباً فى العام الواحد .

أما جمارك الاسكندرية ، فإننا لم نستطع الوقوف على أحوالها لأن مديرها كان قد مات بالطاعون أثناء إقامتنا فى مصر ، وقام مراقبو الشئون الصحية بإحراق كل أوراقه وسجلات إدارته ؛ وإن كان قد سلم إلينا بيان بحصيلة الرسوم المختلفة التى جمعت هناك منذ عام ١٢٠١ حتى ١٢١٠ من الهجرة ؛ ونستخلص من هذا البيان أن الحصيلة العامة لهذا المكتب قد بلغت خلال هذه السنوات العشر ١,٣٧٦,٠٩٨ بوطاقة فى حين بلغت مصاريف التحصيل ٣٤٠,٤٠٤ ، وبذلك يكون صافى الحصيلة خلال هذه السنوات العشر هو ١,٠٣٥,٦٩٤ بوطاقة ، أى بمتوسط سنوى يعادل ٣٢٢,٨٧٢ فرنكا من العملات التى نتداولها نحن .

موجز وملاحظات عامة

رفعت ظاهرة الفيض السنوى لنهر النيل ، وكذا التتابع المنتظم لفصول العام ، عن كاهل سكان مصر ، عبء القيام بمعظم الأعمال التى تتطلبها الأرض من زراعها عادة فى مناطق أخرى ، وحيث لا يتطلب الأمر هناك – كى تعطى هذه الأرض محاصيلها الوفيرة والمتنوعة – سوى القيام بأدنى الجهود الممكنة ، فمن طبيعة الأمور إذن أن تظل الأساليب الزراعية هناك على نفس حالها ، وهكذا نتعرف هناك اليوم على ما سبق أن عرفه القدماء من نظم للرى وللبذر وللحصاد ! وإذا نحينا جانباً بعض الاستثناءات ، فسوف نجد القوم هناك لا يزالون يزرعون نفس الحبوب ، ونفس الخضروات ، ونفس المحاصيل التى تستخدم فى صنع المنسوجات . ولقد أوردنا من قبل أنهم لا يزالون فى مصر يحتفظون بنفس المقاييس الزراعية التى كانت تستخدم منذ الأزمنة السحيقة ، وأنه تبذر فى الأرض نفس الكمية التى كانت تبذر فى تلك الأزمنة البعيدة (لنفس المساحة) ، أما إذا لاحظ المرء وجود بعض فروق بين ما نورده اليوم ، وبين ما كان يحدث فى الماضى حسبما ترويه حكايات القدماء ، فلابد أن ننسب ذلك إلى مبالغات وقع فيها هؤلاء الذين حملوا الأمر على معايير أخرى حين أدهشتهم تلك الخصوبة الهائلة لأرض مصر ، والتى لا تتطلب كى تؤتى ثمارها إلاّ أقل جهد .

وفى واقع الأمر ؛ فلماذا لا يحق لهؤلاء أن يدهشوا من خصوبة أرض لا تحتاج فى معظم الأحيان حتى لأن تروى قبل أن تودع فى أحشائها البذور ، وتظل حتى فترة الحصاد وكأنها لا تقبل أن ينبت فيها محصول آخر ، وبذلك لا تحتاج لا للأسمدة ولا لتنقيتها من الأعشاب الضارة .

إن المزارعين هناك فى هذه الأرض ليس عليهم من مشقة يتحملونها سوى رى الأرض حين لا تغمرها المياه بشكل طبيعى ، أو حين يسعى هؤلاء إلى الحصول منها على زرعات عدة على مدار العام الواحد . ولقد أمكننا عن طريق قياس هذا العمل أن نقدر قوة الفرد العادى من رجال مصر . وسواء كان السبب يعود إلى العرق المستمر الذى ينهكهم تحت أشعة شمس حارقة ، أم كان يرجع إلى عدم كفاية الأطعمة التى

يتفذون عليها أو ربما إلى حقيقة أن رغبتهم فى تحسين أقدارهم ليست بالقدر الذى يمكنه أن يستثير همتهم فى ظل نظام للحياة لا يتيح للإنسان أن يأمل فى مستقبل أفضل – فإن الجهود التى يبذلوها فى الرى ، لا تمثل ، مع الاستخدام الأمثل لقواهم ، سوى ثلثى الجهد الذى يبذله فى أجوائنا رجال لهم نفس القامة ، ويعملون لنفس المدة من الوقت . صحيح أن هذا الفرق يلاحظ بنفس القدر فى الجهد الذى تبذله الماشية ؛ فالبقرة ، فى مصر التى تعلق فى ماكينة لرفع المياه من الخزانات لا تنتج إلا فيما يدر أكثر من ثلثى ما تنتجه جاموسة لها نفس القامة ، تعلق فى آلة مماثلة فى أوربا .

وحين نمتد بهذه المقارنة إلى أعمال الحرث ، ومع استخدام مقاييسنا الفرنسية ، فسوف نجد أن جاموستين مع سائقهما فى مصر ، يحرثون هكتاراً واحداً فى مدة ثلاثة أيام وثلث اليوم ، بافتراض أن يوم العمل يشتمل على عشر ساعات فى حين تلزم ، فى مناطق فرنسا التى تستخدم الأبقار فى الحرث ، أربعة أيام لإتمام نفس العمل فى نفس المساحة . وقد تبدو هذه النتيجة ، لأول وهلة ، متعارضة مع ما سبق لنا أن قررناه ، لكننا ، ببساطة ، نجد تفسيراً للأمر فى تلك الخفة المتناهية التى للمحراث المصرى مع قلة عمق الخطوط التى يشقها ، إذ لا يفعل المحراث المصرى فى واقع الأمر ، وعلى نحو ما ، سوى أن يخدش وجه الأرض .

ويبلغ متوسط أجر العامل فى اليوم فى صعيد مصر ٣٥ سنتيما ، وينخفض هذا الأجر بالنسبة لأعمال الرى إلى أدنى من ٢٢ سنتيما ، وقلما تزيد نفقات إطعام الواحد من هؤلاء العمال عن ١٢ سنتيما فى اليوم ، ويتكون هذا الطعام من خبز الذرة ، والخس ، والخضروات ، (ويحدث هذا طوال العام) ، فيما عدا شهر رمضان .

ونستطيع بصفة عامة أن نقدر ثمن طعام ومعيشة رجل يشتغل بالزراعة بـ ١٢٠ فرنكا فى العام .

وسوف نستخدم التفاصيل التى أوردناها عن أثمان الشراء ، وعن الطعام اليومى ، وعن رعاية الماشية التى يربيها المزارعون فى مصر ، أسسا للمقارنة بين تلك وبين

تكاليف تربية الماشية فى فرنسا ، لكننا نضيف هنا أن المصريين لا يعرفون تسمين الماشية ولا أيا من الطيور الداجنة ؛ فهل يعود ذلك إلى الجهل المطبق من جانبهم ، أم تراه يعود إلى قناعتهم التامة التى تجعلهم لا يعلقون كبير أهمية على كمية اللحوم التى يتغذون عليها ، أم ترانا نستطيع أن ننسبه إلى غيبة المراعى الطبيعية فى مصر ؟ إن هذا الظرف الأخير يكفى وحده كى يضطرهم إلى أن يقتصروا فى عدد الحيوانات الأليفة التى يربونها ، على ما يفى بضروراتهم المباشرة . وهم فى الواقع لا يستطيعون أن يزيدوا من قطعانهم ، اللهم إلا إذا خصصوا مساحة للمراعى أكبر مما هو حادث الآن . وهذا يعنى أنهم سيحدون بدرجة كبيرة من محاصيل الحبوب التى تقتضى حاجتهم إليها التوسع فى زراعتها لأكبر حد ممكن ، ذلك أنه ينبغى عليهم ، بالإضافة إلى مالا مندوحة عنه لاستهلاك السكان ، أن يوفروا ، فضلا عن ذلك ، الحبوب اللازمة لتسديد الضرائب التى تحمل بها أرضهم – إذ لابد أن تسدد هذه الضرائب عينا ، كى تستطيع البلاد أن تسدد بها ثمن جزء من البضائع الأجنبية اللازمة لاستهلاكها .

وقد استوجب الأمر أن تصل المساحة المخصصة للمراعى فى صعيد مصر إلى سدس الأراضى المزروعة ، فى حين تصل هذه النسبة فى الدلتا إلى الثلث . ومن الإقليم الأخير تأتى جلود الأبقار والجاموس التى تستخدم فى فرنسا وإيطاليا .

ولا يستريح من الأراضى فى مصر (أى لا تزرع) إلا تلك التى لا تغمرها مياه الفيضان بشكل طبيعى ، والتى لا يمكنها كذلك أن تروى بوسائل صناعية .

أما عن خصوبة الأرض ، فإنها تبذر بواقع ١٥٥ لتراً لكل هكتار ، ويبلغ الحصاد الناتج عن ذلك فى السنة الاعتيادية ٢٣٢٥ لترا . أما فى فرنسا ، فإننا نبذر فى أخصب أراضينا ٢ هكتولتر لكل هكتار لنحصل من ذلك على ٢٠ هكتولترا . وبذلك تنتج الأرض (فى مصر) ١٤ أو ١٥ مثلا من كمية البذور ، فى حين لا تنتج الأرض فى أخصب مقاطعاتنا سوى عشرة أمثال هذه الكمية ، ويصل الانتاج إلى ٣ أمثال فقط فى أردأ أراضى المقاطعات غير الخصيبة .

وهكذا ، فإن اتخذنا النسبة بين المحاصيل وبين كمية البذور فى مساحة معطاة

أساساً لتقدير خصوبة الأرض ، فإننا نقدر خصوبة أرض مصر بـ ١٥ ، مقابل متوسط خصوبة لأرض فرنسا يبلغ ½ ٦ ، وفضلا عن ذلك ، فلابد لنا أن نلاحظ أن من المحتم علينا أن نسمد أراضينا بوسائل صناعية ، فى حين لا تحتاج الأراضى المحيطة بضفاف النيل إلى شئ أكثر من أن تغمرها المياه بشكل طبيعى .

ويبلغ متوسط ثمن الهكتولتر من القمح فى مصر ٤ فرنكات و ٣٠ سنتيما ، فى حين أنه يبلغ اليوم (١) فى فرنسا نحو ١٤ فرنكا و٥٩ سنتيما : وبذلك تبلغ النسبة بين السعرين فى المتوسط ١٠٠ إلى ٣٣ .

وتتفق الفكرة التى قدمناها الان عن خصوبة مصر ، مع تلك التى تركها لنا الأقدمون عن نفس الشئ ، ولنضف إلى ذلك أنه من العسير أن نتبين سبيلا لإمكانية حدوث تغييرات محسوسة فى هذا الأمر ، فأية تحسينات يمكن أن ننتظر حدوثها فى الواقع من إدخال أساليب جديدة على الزراعة ، فى بلد تغنى فيه الطبيعة عن السماد ، بل وفى بعض الأحيان ، عن مجرد حرث الحقول ؟ فكلما كان العمل أكثر يسراً ، كلما قلت محاولات تطوير أساليبه .

ومع دلك ، فإذا كان علينا ألا نأمل فى جعل هذه الأرض أكثر خصوبة فسوف يظل بالإمكان أن نزيد مساحة الأراضى الخصيبة بمصر بشكل كبير ، فقد لا يتطلب الأمر إلاّ تهيئة النهر على نحو مناسب ، وذلك بحفر ترع جديدة وبإنشاء جسور جديدة ، أى باختصار ، بإقامة نظام للرى يتيح لأكبر مساحة من الأرض أن تفيد من الفيضان ، لأطول وقت ممكن من السنة .

وفى هذه الحالة ، يمكن لكل الأراضى أن تنتج محصولين أو ثلاثة محاصيل فى العام الواحد ، وهو الأمر الذى لا يحدث اليوم إلا فى بعض مناطق محظوظة ، وإن كانت هذه حالة محدودة للغاية .

وإذا ما تضاعفت هذه المحاصيل ، فسوف تحتاج حقيقة ، وبشكل دائم إلى

---

(١) نهاية أبريل ١٨٢٢ .

رى صناعى يحتاج نمطه المتبع (الآن) إلى تحسينات جذرية ، إذ تستهلك الحيوانات والرجال الذين يديرون ماكينات الرى الحالية ، بسبب خشونتها وبدائيتها قدراً هائلا من قواهم للتغلب على العقبات الناتجة عن بناء هذه الماكينات بشكل ردىء ؛ ويمكن لهذه الآلات أن يتضاعف حجم إنتاجها النافع لو أن العمال الذين ينفذونها قد أصبحوا أكثر مهارة – ولسنا نقول لو أنه كانت لديهم نماذج أو تصميمات أفضل ، إذ أن الدلاء والماكينات ذات القواديس أو ذات الثقوب ، هى أكثر وسائل الرى سهولة عندما لا تكون فى حوزة الناس محركات آلية . وتدفع كل الشواهد على الاعتقاد بأن هذه الوسائل المستخدمة فى مصر منذ زمان سحيق ، كانت تصنع فيما مضى على نحو أفضل بكثير ، بل إننا على ثقة بأنهم كانوا يستخدمون فى عصرهم ، لولب الاغتراف الذى يحمل اسم أرشميدس ، والذى لا نعثر له اليوم على أثر ، إذ أن الناس – وقد تدهورت الحضارة – قد بدأوا يكفون شيئاً فشيئاً عن استخدام الوسائل المختلفة التى يقتضى صنعها درجة معينة من المهارة .

وإذا نحن أقمنا نظاماً أفضل للرى ولآلاته ، فسوف نزيد بلا جدال كمية ما تغله أراضى مصر ، ومع ذلك فان ما سوف يزيد غلة الأرض بدرجة فريدة هو بالأحرى وجود نظام يجعل الفلاح مساهما فى امتلاك الأرض ، فهو لا يزرعها اليوم إلا لكى يقتات ولكى يسدد الضرائب ، ولو أن ما نقول قد حدث ، فلسوف يزرعها ليحيا بشكل أفضل وأيسر ؛ وحين يثق الفلاحون فى أنهم سيفيدون من جهودهم الشاقة فسوف نجد فى متناولهم حصاداً أكثر وفرة .

ولقد شغلت الجنرال ديزيه Desaix كثيراً ، فكرة تقسيم جزء من أرض الصعيد على الفلاحين ، وكان هو ينظر إلى تنفيذ هذه الفكرة باعتبارها الوسيلة الأكيدة للإسراع بخطى الحضارة فى هذه البلاد ، ولجعلها تتمتع على وجه السرعة بثمرة التطورات الأساسية التى ستصاحبها .

ومع ذلك فلا يمكن أن يتعهد بمحاصيل باهظة التكاليف مثل السكر والنيلة ، جريا وراء الأرباح الهائلة التى لا يحصل عليها سوى الملاك (وليس الأجراء أو المزارعين) . .

وهذا هو السبب فى أن أرباح هذه المحاصيل كانت قسمة بين البكوات والكشاف ، فلقد كان هؤلاء يمتلكون بعض قرى خصصت أراضيها لهذا النوع من الاستغلال .

وعلى الرغم من أن فن إنشاء وإقامة ماكينات رفع مياه الرى قد تدهور فى مصر مع إنطفاء ضوء آخر أشعة الحضارة هناك ، فإن الضرورة لم تسمح لهذا الفن أن يبيد على نحو تام ، فى حين أن ممارسة عدد كبير من الفنون الأخرى – وهى التى كانت تمارس هناك فيما مضى بدرجة معينة من الجودة – قد ذهبت بدداً .

فلنقارن إذن أكبر منشآت مصر الحديثة بمبانيها القديمة التى لا تزال تنتشر فوق أرض البلاد ، ولسوف نكتشف أى عمارة عالية تلك التى هوت . إن الإنسان لتصدمه الدهشة حين يشاهد هذه المعابد والقصور بأحجامها الهائلة . ومن يرى التماثيل بنقوشها الغائرة أو البارزة التى تزينها ، لابد له أن يبدى إعجابه ببراعة ومهارة العمال الذين نفذوها ، ومن جهة أخرى فلابد أن عدد هؤلاء كان كبيراً للغاية ، إذ تركوا فوق جزء من أرض البلاد شيئاً من إنتاجهم ، تلك البلاد التى قد لا نجد بها اليوم ، رجلا واحداً يستطيع مجرد أن يرسم وجها أو يجسم شكلا فى بساطة.

لكن الظلمات التى ترين على العصور القديمة تحجب عنا العصور التاريخية المختلفة التى أقيمت فيها معظم هذه المنشآت . وفى الوقت نفسه ، فكم من قرون لابد وقد انقضت قبل أن يأخذ الإنسان على عاتقه عبء استغلال المحاجر للحصول على كتل الجرانيت التى صنعت منها المسلات ، وكم من القرون قد انقضت قبل أن يتخيل الوسائل اللازمة لتحريك هذه الكتل الضخمة ونقلها إلى مسافات كبيرة ، وقبل أن يستخرج المعادن من مناجمها كى يصنع منها الأدوات الضرورية والخاصة بقطع هذه المسلات وتشذيبها ، وحفر النقوش الهيروغليفية الغائرة ، والتى تزدان بها أسطحها ، بدقة وجودة ملحوظتين .

ومن الواضح أن كانت لدى قدماء المصريين فنون أخرى نافعة للحياة ، أو التى كان من شأنها على الأقل أن تزيد من مباهجها ، متقدمة بنفس القدر الذى

وصلت إليه العمارة والنحت ؛ كما كانت رسومهم ، وورق البردى الذى يستخدمونه ، ونوع الكرتون الذى يستعملونه فى صنع صناديق مومياواتهم ، ناهيك عن فن التحنيط .. كان كل ذلك يتطلب – بلا جدال – استعدادات ومهارات لا يمكن لها إلا أن تكون نتاجاً لمجهودات كثيرة ولخبرات طويلة . ويمكننا أن نطنب فى الحديث عن منسوجاتهم التى وصلت إلينا مزق منها . وأخيراً فان الآلات الموسيقية ، والأسلحة ، والعجلات الحربية ، والاستعدادات التى نراها فى مقابر الملوك فى طيبة هى بالمثل أدلة على حضارة متقدمة ، وفن صناعى كان يغطى مجالات كثيرة ؛ وتقدم كتب موسى فى هذا الصدد شهادات لا يتطرق إليها شك ، إذ أن التوجيهات التى تقدمها لبنى إسرائيل لبناء المظلة وذبح الأضحيات ، وإنشاء أفنية المعابد ، والمباخر ، بالإضافة إلى الأوصاف التى تقدمها عن شكل وخامة ملابس رجال الدين ، إن هذا كله ليس سوى معطيات من الفنون المصرية ؛ ولابد أن يلفت نظرنا من بين كل هذه الفنون ، فن استخدام المعادن المختلفة ، وهو الذى يفترض وجود خبرة موغلة فى القدم فى استغلال المناجم ، كما ينبغى أن نولى التفاتاً لفن صقل الأحجار الكريمة بالغة الصلابة ، ورسم النقوش عليها ، وكذلك نسج الأقمشة الفاخرة ، وإعداد الجلود وصباغتها بالألوان المختلفة ، كما يوضح لنا كل ما سبق تلك السرعة المفترضة فى مسيرة الحضارة ، فى عصور العالم الأولى ، وكذلك حالة المعارف الإنسانية فى مصر فى زمن موسى ، مما يعطى أدلة لا يمكن دحضها على أن المصريين فى ذلك العهد كانوا يمثلون شعبا ضاربا فى القدم . ومع ذلك فانهم يظهرون اليوم فى مظهر شعب يبدو وكأنما قد خرج لتوه من طور التوحش ، كما يمكن القول كذلك بأنه لا يمارس إلا فنوناً بدائية خشنة من النوع الذى يكفى لسد الاحتياجات الأولى للانسان : فصناعة الحصر والأقمشة الكتانية والصوفية ظلت قائمة بالريف إذ هى ترتبط بالحياة الزراعية ، ولذلك فقد كان من المحتم على الدوام أن تهيىء مثل هذه الصناعات عملا طبيعياً للمزارعين حلال وقت الفيضان .

وليست معظم المدن ، فى ظل العلاقات الصناعية (علاقات الإنتاج) التى تمارس هناك ، سوى قرى كبيرة ، وهناك يعمل بعض الأقباط بالمعادن النفيسة ،

وهناك كذلك يمارس بعض اليهود والأرمن مهنة الصاغة ، وهذا هو ما انتهت إليه حال فنون الترف فى مصر ، فإذا كانت لا تزال هناك بعض بيوت تزينها أعمدة من الرخام والجرانيت المشذب ، فليست هذه العمد سوى أنقاض انتزعت من بقايا منشآت قديمة ، وعبثاً يعثر المرء بدءا من الفانتين حتى الاسكندرية ، على عامل واحد ، بمقدوره أن ينجز عمدا مشابهة .

ولسوف تخرج هذه البلاد بالتأكيد من حالة التدهور التى تردت إليها . ولسوف تنشأ هناك ذات يوم ضروب جديدة من الصناعة ، لكننا ، منذ الآن ، نستطيع أن نحدد تلك الدائرة الضيقة التى سوف تنحصر هذه الصناعة فى إسارها ، فليست هناك فى الواقع مجارى مياه ولا وقود يمكنه أن يحرك العجلات الهيدروليكية أو الآلات البخارية ، تلك المحركات غير الحيوانية التى تدين لها الصناعة الحديثة بتطورها المذهل . ومع ذلك ، فقد تشكل قوة الرياح وانتظامها وسيلة تقوم مقام عمل الإنسان والحيوان فى أعمال الرى وطحن الحبوب ، وصناعة الزيوت ، وتبييض الأرز ، ورغم ذلك فلابد قبل إقامة طواحين الهواء أن نطور بناء السواقى ذات القواديس وذات الثقوب ، والدلاء ، وبشكل عام كل الماكينات المخصصة لجلب المياه إلى الأرض ، تلك التى ستظل زراعتها على الدوام أكثر الأعمال إنتاجية فى مصر ، وهذا هو السبب فى أن تجهير القرطم ، وصناعة صبغة النيلة ، والسكر ، ستكون هى المجالات التى ستعمل بها أول المصانع التى ستزدهر فى هذه البلاد ، وتأتى بعد ذلك مصانع ملح النوشادر ، ونترات البوتاسيوم التى توجد مادتها الخام بوفرة ، بل ونستطيع القول ، بدون نفقات يمكن أن يتكلفها أولئك الرجال الأذكياء الذين سينقلون إلى مصر الوسائل التى تستخدمها أوربا اليوم للحصول على نفس المنتجات .

وفى نفس الوقت ، فلسوف تستمر صناعة الأقمشة الكتانية والقطنية اللازمة لتغذية احتياجات البلاد ، دون أن يمكننا ، على الأقل بشكل منطقى أن نأمل فى وصول هذه الصناعة هناك إلى هذه الدرجة من الجودة التى بلغتها فى الأزمنة الأخيرة فى أوربا ، فلن تستطيع مصر مطلقاً ، فى هذا المجال ، أن تدخل منافسة لأمم الغرب ، ولعل كل ما تبقى لها من الأمر هو أن تصدر إلينا الكتان والقطن اللذين تنتجهما ،

وذلك بعد أن تستوفى منهما احتياجات شعبها ولسوف تظل هذه السلع على الدوام ، وهى التى نعدها نحن من المواد الخام ، منتجات أفضل مصانعها على الاطلاق وأكثرها ربحاً ، ونعنى بذلك . ونكرر ، أراضيها . (أى أن الأرض الزراعية هى أفضل مصانع مصر إن صح هذا التعبير) .

ويمكن إدخال تحسينات جديدة على فن تجهيز الجلود الفاسية، وهذه صناعة عريقة فى الشرق . وإذا ما أدخلنا – أخيراً – فى اعتبارنا أن الناس يجمعون النطرون من فوق سطح الأرض فى صحراوات مصر ، وأن الكثير من النباتات الزيتية يزدهر على ضفاف النيل ، وأن اليد العاملة من جهة أخرى ، أقل تكلفة بكثير عنها فى أوربا ، فإن من الميسور لنا أن نتنبأ بأن المصريين سوف ينتهى بهم الأمر بأن يأخذوا على عاتقهم ، وبأنفسهم صناعة الصابون بكميات كبيرة ، كى يزيدوا من حجم صادراتهم .

ولا يحتاج العمال كى يقوموا بأعمالهم المجهدة والبالغة المشقة لأن يتلقوا تدريباً على يد عمال أكثر مهارة ، لكن العلاقات التى لا يمكن لها أن تغيب أو تتوقف بين الأمم الأوربية وبين مصر سوف ترفع هنا من ممارسة هذه المهن إلى مستوى قريب من ذلك الذى بلغته عندنا . ولقد كانت تلك واحدة من أهم النتائج التى نجمت بالضرورة عن الحملة الفرنسية ، وأول نجاح أمكن لهذه الحملة أن تحققه .

وليست بمصر مناجم على الإطلاق ، مع أن الفنون التى انهمكت فى ممارستها منذ العصور القديمة ، بل بالغة القدم ، كانت تتطلب استخدام أدوات من الحديد والصلب والبرونز . ولقد كان من الضرورى لذلك أن تحصل مصر عن طريق التجارة على المواد اللازمة لصنع هذه الأدوات . فهل كانت تجلب إليها هذه المواد من أفريقيا عن طريق قوافل الحبشة ، أم من أواسط آسيا بواسطة السفن الفينيقية التى كانت تمخر عباب البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ؟ ومع ذلك فلا يمكن أن يكون هذا هو المجال المناسب لدراسة مثل هذه القضية على أهميتها الفائقة وإن كنا نكتفى بملاحظة أن العلاقات التجارية القائمة بين شعب وآخر عن طريق الملاحة ، تفترض على الدوام وجود حالة من حضارة أكثر تقدماً عما تتطلبه العلاقات التى تستقر عن طريق الصلة

الأرضية بين الشعوب المتجاورة . ويقودنا ذلك إلى تقبل فكرة أن المصريين كانوا قد حصلوا على معادن من أواسط أفريقيا منذ وقت طويل وقبل أن تمدهم التجارة البحرية بهذه المواد ، ويدفع كل شئ على الاعتقاد ، فى واقع الأمر بأن المصريين قد صعدوا إلى الحبشة متبعين مجرى النيل ، وأسسوا على ضفافه ، وعلى التتابع ، المدن الكبرى التى كانت قواعد لامبراطوريتهم ؛ ومن ناحية أخرى ، فقد كان من السهل عليهم أن يجلبوا معهم – مع ما نقلوه – فنونا نشأت أصلا فى هذه البلاد وكذا الأدوات اللازمة لممارسة هذه الفنون نفسها أو على الأقل أن يواصلوا اجتلاب المادة التى تصنع منها هذه الأدوات من مناطق كانوا يجلبونها منها حتى هذا الوقت . وتتفق تلك الفكرة مع ما هو معروف من أن الحديد كان يصنع فى مملكة سنار وبلاد دارفور ، وفن معاملة المعادن لا يمكن له هناك أن يتبدد حيث توجد مناجمه ، وكلما كانت الوسائل المعدنية فى مكان ما لاتزال فى طور الطفولة كلما كان الاحتمال كبيراً فى أن الفن نفسه يعود إلى عصور بالغة القدم ، وفى الحقيقة ، فمن الواضح أنه حين تكتشف مناجم فى بلد جديد فلابد أن ينتقل إلى هذا البلد فن استغلال هذه المناجم بكل ما بلغه من تطور ، وتأسيساً على ذلك فإننا نستطيع أن ننتهى إلى حقيقة أن مصر قد بدأت تجارتها أولا مع أواسط أفريقيا ، وأنها لم تمارس أية علاقات تجارية أخرى حتى عصر سيزوستريس ، أول ملك من ملوكها يكون الأساطيل كما يقال ، ثم حذا خلفاؤه حذوه ، وواصلوا إرسال قوافل السفن التجارية إلى الهند . وكانت هذه التجارة (التى تمر بهذا الطريق) هى التى أدت بلا جدال إلى تراكم الثروات الكبيرة فى طيبة ، تلك الثروات التى أدت لبلوغ هذه المدينة درجة كبيرة من المدنية . وخلال هذه الفترة ، كانت الأساطيل التى أشرنا للتو إليها ترسو فى واحدة من النقاط على الخليج العربى (*) ، شديدة القرب من هذه المدينة العالمية القديمة التى كانت عاصمة المملكة المصرية .

وبعد تأسيس ممفيس كانت بضائع الهند تفرغ فى موقع آخر على البحر الأحمر أكثر اقتراباً من العاصمة الجديدة . وفى هذه الأوقات كان الفينيقيون هم سادة

(*) البحر الأحمر . (المترجم) .

التجارة التى تتخذ طريقها فى هذا البحر ، وكذلك فى البحر الأبيض المتوسط ؛ وهكذا كانوا يجلبون إلى مصر منتجات الشرق والغرب .

وقد أدى تأسيس مدينة نقراطيس (٥) فى عهد أمازيس ، وقبول اليونانيين فى مصر فى عهد أبسماتيك إلى مد آفاق علاقات مصر لتتصل بأوربا ، وبدءاً من هذه الفترة ، أخذت هذه البلاد تصبح معروفة للأجانب على نحو أفضل مما كانت معروفة عليه حتى ذلك الحين ، كما بدأ هؤلاء الأجانب ينهلون منها المعارف التى ازدهرت هناك ، قبل أن تخرج الشعوب الأخرى من طور الهمجية بوقت طويل .

وكانت مصر تقدم فى مقابل السلع التى يوردها إليها الفينيقيون والقرطاجيون والإغريق ، منتجات أرضها ومصانعها . وحين نعود إلى بعض فترات من العصور القديمة ، فسوف نجد الأثيوبيين يمدونها بالذهب ، وخشب الأبنوس ، والعاج ، والعطور ، والعقاقير الطبية المختلفة ، كما كانت الهند تمدها بالأقمشة الفاخرة والتوابل ، والأحجار الكريمة ، أما الجزيرة العربية فكانت تمد مصر بالبخور والصمغ . وكان الفلسطينيون يأتون إليها للحصول على الحبوب والأقمشة ، ومن جهة أخرى فقد كان الفينيقيون والقرطاجيون يحملون معهم من مصر – على نفس سفنهم – مقابل المعادن (التى يجلبونها لها) ، العبيد ، والأقمشة الصوفية ، التى كانت تأتى إليها بقصد البيع ، وفيما بعد كان الإغريقيون يقايضون زيوتهم هناك بالسلع الثمينة القادمة من الهند وأثيوبيا والتى كانت مصر تقتسم تخزينها مع مدينة صور . وتقدم لنا الكتب العبرية حول تجارة هذه المنطقة معلومات موضوعية : فتخبرنا بما كان يسورد منها ، وما كان يجلب إليها فى عصر يوسف ، كما تدلنا على المؤن التى أمر سليمان بشرائها من هناك ، وأخيراً فعندما أخبر حزقيال وأشعيا بنبوءتهما ضد مدينة صور الرائعة فقد كان كل ما قالاه ينطبق على مصر ، التى كانت تقتسم أرباح هذه التجارة ، ثم آلت إليها كلها بعد تأسيس الاسكندرية فكانت تشكل جزءاً كبيراً من دخول مصر . وقد أخذ فلادليف ، ثانى ملوك الأسرة البطلمية ، على عاتقه عبء القيام بأعمال هائلة لاختصار المسافات وتعبيد الطرق التى كان يحتم على التجارة أن تسلكها ؛ لقد أراد أن

(٥) حاليا كوم جعيف (المترجم) .

يجنب السفن التى كانت تستخدم فى هذا الغرض مخاطر الملاحة الكامنة فى قاع البحر الأحمر ، فأمر ببناء مدينة بيرينيس ، على الشاطئ الغربى لهذا البحر ، وفوق مرتفعات أسوان .

وكان الاتصال بين بيرينيس ومدينة قفط يتم عبر صحراء يسترشد الإنسان خلالها أثناء الليل بالنجوم ، ثم بعد ذلك يشق طريقه فى مسار حدد هذا البطليموس نفسه اتجاهه بشكل ثابت ، حين عمل على حفر اثنى عشر خزاناً بطول الطريق تتجمع فيها مياه الأمطار ، لسد حاجة المسافرين ستة أو سبعة أيام ، وكانت السلع التى تصل إلى قفط ، تنقل عن طريق النيل والترع التى تتفرع منه حتى الاسكندرية ، ومن هناك كانت تصل إلى كل سواحل البحر الأبيض المتوسط .

ويعد الازدهار الذى حظيت به الإسكندرية حين كانت عاصمة للأمراء الإغريق دليلا أكيداً على ما حصلت عليه هذه المدينة من مكاسب هذه التجارة ، ولقد ظل هذا الازدهار – مع نشاط أكبر – حين أصبحت مصر تحت سيطرة الرومان ، ويقرر سترابون ، وهو الذى زار مصر مع أليوس جالوس Aelius Galus بعد وقت قصير من موت كليوباترة ، أنه شاهد بنفسه فى ميناء ميوس هرموس Myos Hormos مائة سفينة تقلع متجهة إلى الهند ، فى حين لم يكن بهذا الميناء فى عهد البطالمة كما يقول Les Legèdes إلا عدد ضئيل من السفن كانت تنهض بالقيام بهذه الملاحة .

وقد أدت الثروات التى حققتها هذه التجارة إلى ثراء ورفاهية روما فى عهد أباطرتها الأول كما يخبرنا بلين Pline الذى نقل إلينا بيانا بعدد وقيمة السلع التى كانت ترد عن طريق الاسكندرية ، وقد أدت الحكمة التى كانت تتسم بها حكومة تراجان ، وكذا الحرية التى كانت تتمتع بها التجارة فى عهد هذه الحكومة ، إلى اتساع آفاق هذه التجارة ، وأخيراً ، فبعد أن حطم الامبراطور أورليان مدينة تدمر (بالميرا) أصبحت التجارة تتم كلية عن طريق مصر .

وبعد خراب قفط ، فى عهد دقلديانوس ، أصبحت قوص ، وهى أبوللينوبوليس بارفا Apollinopolis Parva القديمة مستودعاً لهذه التجارة ، ويذكر أبو الفداء أن هذه

المدينة كانت تعد فى عصره المدينة الثانية فى مصر ، وكانت تتصل فعلا بمدينة القصير التى تبعد عنها بمسيرة نحو ثلاثة أيام وحسب ، والتى كان هذا الجغرافى أول من تحدث عنها . وإننا لنجهل ما هى على وجه الدقة تلك الفترة التى أهمل فيها طريق بيرينيس ، وإن كان من الأرجح أن العرب حين أهملوا القيام بأعمال الصيانة التى كانت لازمة ، قد وجدوا أن من الأفضل لهم أن يذهبوا إلى البحر الأحمر سالكين الطريق الأقصر .

وقد حدت الهمجية التى سقطت فى براثنها مصر ، وكذا الأحقاد القوية التى تفجرت بين المسيحين والأتراك ، حدا كل ذلك بالأولين إلى سلوك طريق آخر لنقل بضائع الهند . فكانوا يلتمسونها فى بعض الفترات عند شواطىء بحر قزوين . وإن كان البنادقة ، الذين يعرفون تماماً كيف يكبحون جماح معتقداتهم الدينية أمام مصالحهم التجارية ، قد حصلوا من سلاطين مصر على الإذن لهم بالإقامة فى الاسكندرية ، وسرعان ما استحوذوا ، على الرغم من الجهود المناوئة من جانب غرمائهم من أبناء جنوة وفلورنسا ، على تجارة واسعة ، يدينون لها أن وضعتهم ، طيلة قرون عدة ، فى الصف الأول من أمم أوربا .

ولقد أثارت عليهم الأرباح الطائلة التى كانوا يجنونها من هذه التجارة حفيظة العالم كله ، وبدأ البحث المحموم للوصول إلى مصادر تجارتهم عن طريق آخر . وقد أدى البحث عن هذا الطريق الآخر إلى اكتشاف أمريكا ، وثنى على ذلك اكتشاف رأس الرجاء الصالح بعد هذا بعدة سنوات .

ولقد شعرت جمهورية البندقية بالضربة التى تتهددها ، فارتبطت بمعاهدات جديدة ، تحالفت فيها مع المماليك ، الذين مضوا بتحريض منها إلى تهديد العالم المسيحى لإرغام البرتغاليين على العدول عن التجارة مع الهند التى كانوا قد أقاموا فيها .

أما البرتغاليون – من جانبهم – فقد أخذوا على عاتقهم ، عازمين على تأكيد سيطرتهم الكاملة على هذه التجارة ، مهمة تدمير موانىء البحر الأحمر ؛ بل يذكر أن ألبوكيرك قد تطلع ، حين فشل فى تنفيذ هذا المشروع ، إلى القيام بوضع خطة لتحويل مجرى النيل فى الحبشة ، حتى يجعل من مصر صحراء خالية من السكان .

وقد حدثت تطورات لم يكن لتوقف تداعياتها أكثر الجهود الدبلوماسية مهارة ، كما قد فشلت الدبلوماسية البندقية فى مواجهة تلك الظروف القاهرة التى بدأت تجر كل الأمم التجارية على التوالى ، إلى المحيط الهندى عن طريق رأس الرجاء الصالح ؛ وفى الوقت الذى أخذ فيه التقـدم فى فن الملاحة يؤدى إلى تسهيل هذه الرحلة أكثر فأكثر ، كان استبداد حكام مصر وجهالتهم قد أديا إلى الانهيار شبه التام لتجارة الهند ، عبر هذه البلاد .

وفى ظروف كهذى ، فإن شق قناة تربط البحرين الأبيض والأحمر لن يكون سوى عون بالغ الضآلة لرعاية هذه التجارة ، حتى ولو أمكن استخدام المعارف والتزام الدقة الواجبة فى صيانتها . ومع ذلك فهل صحيح أن عملا كهذا يمكن له أن يوجد على الاطلاق ؟ وعلى الرغم من أن الشك الذى نؤسسه هنا يبدو صدمة لكل الأفكار التى تجمعت ، فثمة بعض أفكار تبرهن على أن شكا مثل هذا ، لا ينهض على غير أساس .

وينسب مؤرخو العصور القديمة إلى سيزوستريس الذى يحدد عهده بالعام ١٤٨٥ ق . م أنه قد قام بشق قناة كانت تربط النيل ببحر أريتريا ، ويفسر لنا ما يقوله هؤلاء المؤرخون عن مقدرة هذا الملك ، وعن الانتصارات التى حققها ، والأساطيل التى بناها ، كيف أمكن للروايات المتواترة أن تنسب إليه أقدم الأعمال التى تم انجازها فى مصر (أى التى نفذت قبله بوقت طويل) كما نسبت إليه تلك الأعمال التى لم يقدر لمشروعاتها ، التى لم تجل بخاطر أحد إلا فى قرون تالية ، أن تحتفظ بأسماء أصحابها بعيداً عن زوايا النسيان .

وبعد أن جلب أسماتيك المقيم فى سايس ، الاغريق إلى مصر ، وبعد أن سمح لهم بأن ينشئوا لأنفسهم فيها المدن ، أخذ نخاو ، ابنه وخليفته ، على عاتقه أن يحفر كما ذكر هيرودوت ، ترعة تربط النيل بالبحر الأحمر . وقد حكم نخاو قبل المسيحية بـ ٦٩٠٠ عام .

أما تلك القناة التى ينبغى أن يكون سيزوستريس قد فتحها قبل ذلك

بتسعمائة عام ؛ فإنها لم تكن قد وحدت بعد حتى عصر أبسماتيك ، فى الوقت الذى كانت مصر تتمتع خلال هذه القرون التسعة بالإزدهار والقوة ! فلقد أنشئت بها المعابد والقصور التى لا تزال بقاياها تشهد حتى اليوم بعظمة وقوة الملوك الذين أنشأوها .

ويذكر التاريخ أن نخاو بعد أن فقد مائة وعشرين ألف رجل فى أعمال حفر هذه الترعة قد اضطر للتخلى عن المشروع . ويذكر التاريخ كذلك ، أن داريوس ابن هستاسبيز ، بعد ذلك بقرنين ، وبعد أن انضوت مصر تحت السيطرة الفارسية ، قد بدأ بدوره فى تنفيذ مثل هذا المشروع ، لكنه تخلى هو الآخر عنه خشية أن تغرق مصر مياه البحر الأحمر عندما ينتهى العمل فى هذه القناة . هكذا نجد من الثابت أنه لم تكن هناك مطلقاً أية صلة بين النيل وبحر أريتريا حتى قبل مولد المسيح بنحو أربعمائة عام .

ويتفق كل من ديودور الصقلى وسترابون فى القول بأن بطليموس فيلادلف خلال العهد المقدونى ، قد أمر بحفر هذه القناة ، ووصل بها إلى ميناء يقع على البحر الأحمر ، أطلق عليه اسم أرسنويه أو كليوباتريس ، لكن الفاه أقفلت عند هذه الفتحة بفعل مشروع أطلق عليه اسم أوريب Euripe ، ولم يكن بمقدور هذا المشروع ، قبل اختراع الأهوسة ذات الأبواب المزدوجة أن يكون سوى خزان بسيط ، وفضلا عن ذلك ، فإذا ما نحينا الشك المتولد عن صمت القدماء حول شكل هذا المشروع ، فسيظل من الثابت على الأقل ، أن تلك القناة التى أشرنا إليها لم تكن بعد موجودة على الإطلاق خلال الفترة التى تولى العرش فيها بطليموس فيلادلف ، أى قبل مولد المسيح بقرنين .

وفى العام ١٣٢ من الميلاد شق الأمبراطور أدريان من بابيلون فى مصر حتى فاربونوس ، بلبيس حالياً ، ترعة اسماها قناة تراجان Trajanus Amnis وعند هذه النقطة فيما يذكر ، كانت هذه الترعة تلتقى مع قناة نخاو أو داريوس ، والتى كانت تتوغل حتى تبلغ البحر الأحمر : وهكذا لم يكن هناك فى وقت تولية أرديان أى اتصال ملاحى مستقر بين هذا البحر وبين البحر المتوسط .

ولقد كانت قناة تراجان هذه ، هى تلك التى يذكر المؤرخون العرب أنه قد أعيد حفرها على يد عمرو ، حاكم مصر ، عام ٦٤٣ ، وإن كانت الرواية التى يقدمونها فى هذا الصدد تزخر بخرافات لا يمكن أن نوليها أية ثقة ، وفى النهاية نجدهم يذكرون أن فتحة هذه القناة قد سدت عام ٧٧٥ ، وانها ظلت منذ هذا التاريخ على نفس الحالة التى نراها عليها اليوم .

نستخلص من هذه الشهادات التاريخية ، أنه فيما بين سيزوستريس ، والخليفة جعفر المنصور ، أى خلال فترة زمنية تبلغ ستين ومائتين وألفين من الأعوام ، نستطيع أن نحدد خمسة أوقات محددة لم يوجد خلالها مطلقاً أى اتصال مباشر ، سواء بين النيل والبحر الأحمر ، أو بين البحر الأحمر والأبيض المتوسط ؛ ومن جهة أخرى فإن هذه الفترات الخمس تتوافق ، على وجه الدقة مع مجئ سلطات جديدة خضعت مصر لسيادتها الواحدة بعد الأخرى ، وفى واقع الأمر ، فحين استولى الفرس على مصر ، لم يجد داريوس هناك تلك القناة التى نسبت أولا إلى سيزوستريس ، ثم إلى نخاو . فأخذ هو على عاتقه أن يحفرها . وفعل بطليموس فيلادلف نفس الشئ فى عصر الإغريق . وقام بنفس العمل فى عصر الرومان الامبراطور أرديان ، أما الذى قام بذلك فى عهد العرب فهو الخليفة عمر بن الخطاب . ولم يحرز أى من هؤلاء كبير نجاح فى هذا العمل . وهكذا نجد أنه لا المصريين ، ولا الفرس ، ولا الإغريق ، ولا الرومان ، ولا العرب قد أتموا هذا المشروع بشكل ناجح ، وإن كان هؤلاء جميعاً قد حاولوا انجاز هذا العمل كل منهم وراء الآخر . ويبدو لأول وهلة . أن انجاز هذا المشروع أمر بالغ السهولة ، وهذا صحيح بقدر ماهو صحيح أيضاً أن الغزاة مستعدون عادة للافادة من فتوحاتهم ، ولذلك فليس مما يثير الدهشة أن نجد أولئك الذين سقطت مصر فى قبضتهم قد عزموا — على التوالى — أن يفيدوا من المكاسب التى يعد بها هذا المشروع على النحو الذى يبدو عليه . ونحن أيضاً ألم ننظر إلى هذه القناة التى يمكن أن تصل السويس بالبحر المتوسط ، ما امتلكنا هذه المنطقة ، باعتبارها أول مشروع ينبغى أن يحظى بجل اهتمامنا ؟ .

ومع ذلك فقد ثبطت من عزيمتنا فى هذا الخصوص معارف أكثر عمقاً عن طبيعة المكان ، بل إن طبيعة التجارة التى نفتح لها هذا الطريق الجديد قد تحملنا على

تأجيل تنفيذ هذا المشروع ، فبضائع الهند التى تفرغ حمولاتها فى السويس هى من تلك الأصناف خفيفة الحمل غالية الثمن ، حتى أن مصاريف نقلها براً عبر البرزخ لا يمكنها أن تزيد بشكل محسوس من أثمانها فى مختلف مناطق أوربا . ومن جانب آخر ، فما دام المسلمون يقومون بقوافل الحج إلى مكة ، فسوف تظل هذه المدينة سوقاً كبيرة ، تتورع منها ، وبنفس الطريقة إلى كافة المناطق التى تدين بالإسلام ، بضائع الشرق وبضائع الغرب التى تصل إليها على ظهور الجمال ، بالإضافة إلى أن وجود هذا الدين فى حد ذاته سوف يحافظ على الدروب الحالية التى تسلكها التجارة ، كذلك فهناك سبب آخر يجنح إلى إبقاء التجارة هناك (فى مكة) : هو صعوبة حفر القناة الملاحية التى سوف تربط بين البحرين الأحمر والأبيض ، بالعمق والاتساع الكافيين لكى تتمكن السفن من المرور من بحر لآخر عن طريقها . هكذا سوف يظل على هذه السفن أن تفرغ حمولتها فى السويس وفى الاسكندرية ، وبذلك تصبح هاتان المدينتان ، بشكل خاص ، هما الأماكن الطبيعية لإقامة مستودعات تخزن فيها منتجات الشرق والغرب ، فإذا ما روعى أن تتداول هذه السلع بسرعة أكبر وبطريقة أفضل فلابد أن ينشأ فى هاتين المدينتين شعب تجارى أكبر عدداً وأكثر ثراء .

ومن جهة أخرى . فلسوف يجد الناس تحت سماء مصر ، وعلى كل سواحلها إقامة طيبة ، فى كل بقعة من أرضها ، حيث يسهل التزود بالمياه العذبة بوفرة . وفى هذا المجال ؛ فقد صنع الأقدمون للاسكندرية كل ما تبتغيه ، ليس فقط لتوفير ضرورات الحياة ، بل أكثر من ذلك لتيسير حياة الترف التى يجد الناس فى البحث عنها ، ولا يزال جزء من هذه الأعمال قائماً حتى اليوم ويكفى مجرد ترميمها أو صيانتها ، وإن كان الأمر ليس على هذا النحو فى السويس : فقد جلبت إليها المياه فيما مضى من العيون التى تنفجر عند سفح الساحل العربى ، لكن كمية هذه المياه ضئيلة لحد لا يسمح لهذه المنشأة أن تنمو ، إذ هى لا تدين بوجودها وبقائها إلا لقوانين الضرورة التى شاءت أن تحوز مصر والجزيرة العربية فى نهاية ذراع بحر يفصل بينهما ، محطا عاماً يمكن أن يتم عن طريقه تبادل السلع بينهما . ولسوف تصبح السويس مدينة هائلة ، والميناء الثانى لمصر فى اللحظة التى تمد إليها المياه الصالحة . وقد

يستوجب الأمر الحصول على هذه المياه عن طريق النيل ، وذلك بمد فرع منه عند جنوب القاهرة يغذى القناة والمجرى الذى سيصحبها بالمياه ، لأطول وقت ممكن ، خلال الفترة التى تفصل بين فيضان وآخر . وقد يكون من المستطاع كذلك أن يكون هذا الفرع بالحجم المطلوب حتى يكون صالحاً لملاحة الصنادل التى قد تحمل الحبوب إلى السويس ، وتنقل منها البن والعقاقير التى خزنت بها على مدار العام . وبعد إتمام هذا العمل الهام ، فإن المخازن الكبرى التى ستقام تحت الأرض ، وصوامع الغلال الواسعة التى ستقام فوقها ، سوف تكون حافزاً كافياً لمجىء التجار إلى هذا الميناء ، مما يجعله بعد وقت قصير مزدهرا بالقدر الذى يمكن أن يبلغه ؛ ذلك أنه لابد لنا ألا نظن أن ازدهار السويس يمكن أن يزيد لغير ما حد لمجرد القيام ببعض تحسينات تتناولها ، فلسوف تظل القاهرة ، على الدوام ، وبفضل موقعها ، هى مركز العلاقات التجارية لمصر مع الحبشة وأواسط أفريقيا ، كما ستظل هى المركز الذى تتكدس فيه رءوس الأموال الوطنية ، ونتيجة لذلك ، فسوف تبقى هى المحط الضرورى بين مينائى السويس والاسكندرية .

ونحن نعرف كيف أن أكتشاف رأس الرجاء الصالح قد أضاع على مصر مكاسب تجارة الهند ، وكيف أن قارة جديدة قد جذبت ، خلال ثلاثمائة عام ، جزءاً من سكان العالم القديم . ولقد كانت المناجم والمحاصيل الزراعية الخاصة بهذه البلاد مصدراً لثروة جذبت إليها كل من تهيأت لهم روح المغامر الجسور للبحث عن الثراء خارج أوطانهم . ولقد أصبحت أمريكا مكتشفة بشكل أكثر ومعروفة بشكل أفضل مما هو معروف عليه الساحل الشمالى لأفريقيا ، مع أنه أقرب إلينا من أمريكا بكثير .

إن نظاماً جديداً للأشياء يتهيأ للحدوث ، ومهما تكن الأقدار المقبلة والتى تنتظر القارة الأمريكية ، فسوف تظل هذه القارة لوقت طويل ، ميداناً فسيحاً لمغامرات الأوربيين ، ولكننا عندما نكون بصدد مستعمرات ينبغى أن نقيمها ، فلابد أن نفعل ذلك فى مكان آخر ، ولعله كان من الأنسب لنا أن نتجه إلى هناك فى القرن الخامس عشر ، لكن أنظار العالم المتحضر تتركز اليوم كلية على أمريكا . إن الاكتشاف الخالد الذى حققه كريستوف كولمبس – ولعله أكبر حدث يمكن له أن يتحقق على مدار

تاريخ البشر – قد أعاد إلى الوراء ، حتى أيامنا هذه ، تلك اللحظة التى يتحتم أن تنشأ فيها بين شعوب الشرق وشعوب الغرب فى أوربا ، تلك العلاقات التى ستطمس شيئاً فشيئاً الفوارق والاختلافات بين عادات وتقاليد هذه وتلك من الشعوب . وها نحن نجد أنفسنا فى القرن التاسع عشر ، فى هذا الصدد ، عند نفس النقطة التى تركنا عليها ليون العاشر (٥) : ومن هذه النقطة سوف ننطلق : إن الحضارة سوف تنفذ إلى الشرق ، ولهذا السبب وحده ، ستتمكن الدول الأوربية من أن تجعل من الشرق ، خلال فترة من الزمن ، مسرحا لحروبها . ولقد جعلت حملتنا على مصر ، سكان هذه البلاد ، يأتلفون مع عادات تختلف عن عاداتهم ولقد وسع ذلك من أفق أفكارهم وأضعف من سطوة خرافاتهم عليهم . كما قدر هؤلاء من جانبهم ، التفوق الذى يؤهلنا له عليهم ممارسة فنوننا الحديثة ، وهم اليوم أكثر استعداداً لممارسة هذه الفنون عما كانوا عليه من قبل ، وإذا ما حدث أن خضعوا لحكومة عاقلة ومستنيرة فلن ينقصهم عندئذ إلا أن يتعرفوا على ثراء أرضهم وأن يقدروا الفوائد التى يحققها موقع بلادهم ، حتى تعود هذه البلاد لتصبح مرة أخرى مستودعاً لتجارة العالم القديم .

---

(٥) هو جان دى ميديتيش بابا روما من عام ١٥١٣ إلى ١٥٢١ ، وكان راعياً للفنون والآداب والعلوم ، وإن كانت خلافته قد شهدت مولد انشقاق مارتن لوثر . (المترجم) .

مستندات ووثائق

أولا .

العلاقة بين الأردب من القمح

وبين وزنه بالقنطار من زنة مارك

فى العام الثامن من نشأة الجمهورية الفرنسية ، وبالتحديد فى الثامن عشر من شهر فندميير ، انتقلنا نحن جان بابتست رينييه ، المفوض العسكرى ، عقب صدور المرسوم الخاص بلجنة المواد التموينية ، المؤرخ فى ١٦ من هذا الشهر ، والذى عين بموجبه المواطن جارسان حارساً عاماً لمخزن المقياس ، ومكسيم كوديير ، الحارس العام الحالى للمكان المذكور ، ولوى إيلى كاف ، الموظف المعين من قبل اللجنة المذكورة لبيع الحبوب ، انتقلنا إلى جزيرة الروضة ، فى مخزن المقياس ، لكى نلمس :

أولا : علاقة أردب الشعير والقمح بالنسبة للقنطار Quintal (*) زنة مارك ؛

ثانيا : علاقة أردب القاهرة بالنسبة للصاع الفرنسى ؛ وعلاقة الأردب من القمح بالقنطار ، زنة باريس .

ولكى نقوم بالعملية التى أنيطت بنا بأكبر قدر من الدقة ، توجهنا إلى السوق العامة فى مصر العتيقة ، حيث عملنا بمعرفة الكيالين والوزانين العموميين بالسوق المذكورة على قياس ووزن ثلاثة أرادب من الحنطة ، أخذت من أكوام مختلفة ، وكانت النتيجة أن بلغ وزن الأردب الأول من الحنطة ٢٩٧ رطلا قائماً ، و ٢٦٩ رطلا قائماً من زنة مارك وذلك عند وزنه بالقبان ؛ أما الأردب الثانى فقد بلغ ٢٩٧ رطلا قائماً ، وبلغ وزنه بالقبان ، حسب زنة مارك ، $\frac{1}{4}$ ٢٦٣ رطلا ؛ فى حين أن الثالث قد وزن ٢٩٠ رطلا قائماً ، و $\frac{1}{4}$ ٢٦٣ رطلا قائماً من زنة مارك عند وزنه بالقبان .

(*) Quintal وهو يساوى ١٠٠ ك . ج ، فى حين يساوى القنطار المصرى ١٠٠ رطل فقط أى أن القنطار المصرى يساوى $\frac{4}{9}$ من هذا القنطار . أما الصاع فمكيال فرنسى يساوى ١٠ لترات . (المترجم) .

ينتج عن ذلك أن متوسط وزن الأردب هو ¼ ٢٨٥ رطلا قائماً ، زنة الرطل ١٤٤ درهماً ، كما أن متوسط وزنه حسب الميزان القبان ¼ ٢٦٧ رطلا قائماً زنة مارك .

أما وزن الأجولة الثلاثة مع أحبالها فقد بلغ وزنها ¼ ٣٠ رطلا ؛ وبلغت بالميزان القبان ¼ ٢٧ رطلا من زنة مارك ، مما ينقص وزن القمح إلى ٢٧٥ رطلا قائماً ، أما باستخدام القبان فإنه يصل إلى ٢٥٠ رطلا من زنة مارك .

وعندما عدنا إلى مخازن المقياس ، قمنا بتجربة جديدة ، فطلبنا أن تكال وتوزن ثلاثة أرادب من القمح ، أخذت من ثلاثة أماكن متفرقة .

وقد نتج عن ذلك أن الأردب الأول قد بلغ وزنه ٢٧٦ رطلا قائماً من زنة مارك ، وبلغ الثانى وزناً قدره ٢٧٠ رطلا قائماً ، والثالث ٢٦٣ رطلا ؛ وبذلك يكون متوسط وزن الأردب هو ⅔ ٢٦٩ رطلا قائماً ، وبحذف وزن الجوال والحبل ، يصل متوسط وزن الأردب إلى ٢٦٠ رطلا .

وحيث لم يكن لدينا مطلقاً فى مخازن المقياس فول ولا شعير ، بل ولم يكن يتوفر ذلك حتى فى السوق العمومية لمصر العتيقة ، فقد أنهينا وأقفلنا هذا المحضر .

حرر فى المقياس من أربع نسخ فى اليوم والشهر والسنة المبينة أعلاه .

طبق الأصل

رينييه جارسان ؛ ل.إ. كاف

ماكس كوديير

* * *

علاقة وزن أردب الشعير والفول بالقنطار زنة مارك وبالصاع الفرنسى

فى العام الثامن من قيام الجمهورية الفرنسية ، وفى التاسع عشر من شهر فندمير ، انتقلنا نحن جان بابتست رينييه ، المفوض العسكرى ، عقب صدور القرار

تشكيل لجنة المواد التموينية ، المؤرخ فى ١٦ من هذا الشهر ، والذى عين بمقتصاه المواطن جارسان حارساً عاماً لمخزن حبوب المقياس ، ومكسيم كوديير الحارس الحالى للمكان المذكور ، ولوى إيلى كاف ، الموظف المعين أيضاً من قبل نفس اللجنة المذكورة لشراء الحبوب ، وأنا المفوض العسكرى المذكور سابقاً – انتقلنا إلى مخازن الأعلاف فى بولاق بغرض تلمس :

أولا : العلاقة بين أردب الشعير والفول ، والقنطار من زنة مارك ؛

ثانياً : العلاقة بين أردب القاهرة والصاع الباريسى .

ولكى نقوم بالعملية الموكلة إلينا بأقصى قدر من الدقة ، قمنا باستدعاء كيالين ووزانين عموميين ؛ وفى حضور المواطن بورجان ، حارس مخازن الأعلاف ببولاق ، تم أخذ عدة أرادب من الشعير والفول من أماكن متفرقة فى المخزن ، وجاءت أوزان هذه الأرادب على النحو التالى :

وزن الأردب الأول ٢٤٤ رطلا قائما ، ووزنه بالقبان ٢٢٠ رطلا من زنة مارك ؛ وزن الأردب الثانى ٢٤٠ رطلا قائماً ، وبالقبان ٢١٨ رطلا من زنة مارك ؛ وزن الثالث ٢٣٧ رطلا قائماً ، وبالقبان ٢١٥ رطلا من زنة مارك .

وبهذا يكون متوسط وزن الأردب من الشعير ١/٣ ٢٤٠ رطلا قائما ، وبالقبان ٢/٣ ٢١٧ رطلا قائما من زنة مارك .

ويخصم من ذلك وزن الجوال والحبل وقدره ١/٣ ٨ أرطال أو ١/٣ ٧ أرطال من زنة مارك ، مما ينقص وزن الأردب من الشعير إلى ٢٣٢ رطلا ؛ وبالتالى إلى ٢١٠ رطلا قائما من زنة مارك .

وعندما كيلت أرادب الشعير بالصاع الباريسى أعطى كل منها ١/٣ ١٤ صاعا .

وقد أجريت نفس العمليات على عدة أرادب من الفول ، فوزن كل منها ٣٠٩ رطلا ، وبالقبان ٢٨٠ رطلا قائماً من زنة مارك ، وباستبعاد فرق الوزن ، بلغ وزن الأردب من الفول ٢/٣ ٣٠٠ رطلا قائما ، وبالقبان ٢/٣ ٢٧١ رطلا من زنة مارك ، قائما كذلك .

وعندما كيلت أرادب الفول المذكورة بالصاع الباريسى ، أعطى كل منها $\frac{1}{2}$ ١٤ صاعا .

تم وأقفل المحضر الحالى ، وحرر من ٤ نسخ ، فى اليوم والشهر والسنة المبينة أعلاه .

طبق الأصل

رينييه جارسان ؛ ماكس كوديير ؛

ل . إ . كاف ؛ بورجان

ثانيا

أحلنا فى النص إلى تفاصيل مصاريف زراعة ، وناتج استغلال ١٠ أفدنة بذرت بالشعير البياضى والشتوى ؛ وبالعدس ، والحمص ، والترمس ، والبصل ، والحلبة ، والجلبان ، والبازلاء ، والسلجم ، والخس ، والقطن ، وقصب السكر ، والتبغ ؛ وتكمل التفاصيل التى نقدمها الآن ، تلك التى سبق أن أوردناها فى ثنايا هذه الدراسة .

١ — زراعة الشعير البياضى

مصاريف الزراعة

لا تحرث الأرض قبل البذار:

	مدينى	بوطاقة
١ — البذار : $\frac{1}{4}$ أردب للفدان ، ويساوى الأردب بوطاقة واحدة فيكون ثمن بذار ١٠ فدادين	٤٥	٧
٢ — عملية البذر : ١٠ أيام عمل ، أجرة اليوم ٨ مدينى ،فتبلغ التكاليف	٨٠	—
٣ — الحرث بعد البذر : ٢٠ يوم عمل لزوج من الثيران ولسائقيهم ، بأجرة ٤٥ بارة لليوم الواحد فتبلغ التكاليف	—	١٠
٤ — مصاريف الحصاد : ٤ أيام عمل لرجل واحد لحصاد		

	مدينى	بوطاقة
الفدان ، أجره فى اليوم الواحد ٨ مدينى ، فيبلغ إجمالى التكاليف	٥٠	٣
٥ – الدرس : يدفع أجره عينا بواقع $\frac{1}{24}$ من الأردب مقابل عمل يوم واحد ، فتبلغ إجمالى التكاليف	٨٩	٣
٦ – النقل إلى الجرن وإلى المخازن : عشرة أيام عمل لجمل واحد ، أجرته فى اليوم الواحد ٢٠ مدينى ، فتبلغ التكاليف	٢٠	٢
إجمالى المصاريف	١٤	٢٨

الإنتاج
أو غلة المحصول

ينتج الفدان فى السنة الاعتيادية ٧ أرادب بعد اقتطاع مصاريف الدرس التى تدفع عينا ، ويباع الأردب ببوطاقة واحدة ، وبذلك يبلغ ثمن محصول الـ ١٠ فدادين	—	٧٠
الدرس : ويحسب خارج ناتج المحصول فى المادة السابقة ، ويقدر بـ ٤ أرادب يبلغ ثمنها	٨٩	٣
القش المهروس تحت النورج (التبن) ٧٠ حمولة ، تساوى الحمولة الواحدة ١٥ بارة ويبلغ إجمالى ثمنها	٥٠	١١
إجمالى الإنتاج	٤٩	٨٥
صافى الإنتاج (أى صافى الربح)	٣٥	٥٧

٢ - الشعير الشتوى
مصاريف الزراعة

	مدينى	بوطاقة
١ - الحرث بعد البذر : مثل القمح الشتوى ، وتبلغ مجمل التكاليف	-	٨
٢ - البذور : ½ أردب للفدان الواحد ، بسعر بوطاقة واحدة للأردب فتبلغ التكاليف لـ ١٠ فدادين	-	٥
٣- البذر : ١٠ أيام عمل بأجر ٨ مدينى للفدان الواحد فتبلغ التكاليف	٨٠	-
٤ - الحرث بعد البذر	-	٨
٥ - الرى خلال أربعة شهور مثل القمح الشتوى وتبلغ تكاليفه	٨٠	٥٦
٦ - مصاريف الحصاد وتدفع عينا ، وتقدر نقداً بـ	٨١	٦
٧ - الدرس : ويدفع بالمثل عينا ، ويقدر نقدا بـ	-	٥
٨ - مصاريف النقل إلى موقع المخزن ؛ ١٢ يوم عمل لجمل واحد مقابل ٣ مدينى فى اليوم ، فتبلغ التكاليف	-	٤
إجمالى المصاريف	٦١	٩٤

الإنتاج

١ - مصاريف الحصاد والدرس : وحسبت فيما سبق وقد خصمت من ناتج المحصول وتبلغ	٨١	١١
٢ - المحصول : ١١ أردبا من الشعير لكل فدان يبلغ إجمالى ثمنها ...	-	١٢٠
٣ - التبن : ٧٠ حمولة ثمن الواحدة ١٠ مدينى	٧٠	٧
إجمالى الإنتاج	٦١	١٣٩
صافى الإنتاج	-	٤٥

٣ — العدس البياضى

مصاريف الزراعة

مدينى   بوطاقة

١ — البدار : يبذر ١٥/٢٤ من أردب العدس لكل فدان ، ويبلغ سعر الأردب بوطاقة واحدة ، فيكون مجموع الثمن ٢٢   ٦

٢ — البذر : ٥ أيام عمل مقابل ٨ مدينى لكل يوم فيكون المجموع .... ٤٠   —

٣ — تغطية البذور : لا تحرث الأرض مطلقا بعد البذر ، ولكن تغطى البذور وذلك بسحب قطعة من الخشب أفقيا فوق الأرض المبذورة : ويتطلب هذا العمل شغل رجل واحد لمدة خمسة أيام لكل فدان ، ويسدد أجر العامل بواقع ١/٢٤ من أردب العدس . وبواقع هذا فإن ٥٠ يوم عمل للعشرة فدادين تساوى ٢/٢٤ ٢ أردباً ، أو ما يقدر نقداً بـ ٨   ٢

٤ — مصاريف الحصاد : يلزم ١٠ أيام لانتزاع نبات العدس لكل فدان ، وتسدد الأجرة عيناً بواقع ١/٢٤ من الأردب لكل يوم عمل . وتساوى الـ١٠٠ يوم عمل اللازمة لحصاد العشرة فدادين ، حسب هذا السعر ، ١/٦ ٤ أرادب أو ما يقدر نقداً بـ ١٥   ٤

٥ — الدرس تحت النورج ، وتنقية الحبوب .. الخ ، ويتطلب عمل ٤ رجال وأربعة ثيران ، يعملون جميعاً لمدة يوم لدرس وتنقية غلة فدان واحد فى اليوم .

٦ — الدرس تحت النورج : ٩٠ يوم عمل بواقع ١/٢٤ من الأردب أجراً لليوم الواحد ، بما فى ذلك أجرة النورج ، تساوى بهذا السعر ١/٢ ٣ أرادب ، أو ما يقدر نقداً بـ ٣٠   ٣

٧ — نقل المحصول إلى بيت المزارع : يتم نقل ٦٠ أردباً من

	مدينى	بوطاقة
العدس و ٣٠ حمولة من سيقانه المهروسة (التبن) فى ستة أيام ، تساوى بحساب أجر اليوم الواحد ٣٠ مدينى	—	٢
إجمالى المصاريف	٢٥	١٨

الإنتاج

ينتج الفدان الواحد فى ولاية سيوط عادة ٦ أرادب من العدس . ويساوى إنتاج عشرة فدادين بواقع بوطاقة واحدة لكل أردب	—	٦٠
مصاريف الحصاد مسددة نقداً على أساس ½ ٧ أرادب	٤٥	٧
٤٠ مدينى لكل حمولة تبن ، فيبلغ سعر الثلاثين حمولة الناتجة عن ١٠ فدادين	٣٠	١٣
إجمالى الإنتاج	٧٥	٨٠
صافى الإنتاج	٥٠	٦٢

٤ — الحمص
مصاريف الزراعة

١ — عندما يكون الفيضان مواتياً ، يبذر الحمص دون أن تحرث الأرض ، فهى لا تحرث إلا فى السنوات التى لا يكون الفيضان فيها وفيراً : ولتعويض السنوات ذات الفيضان الضعيف بتلك التى تتمتع بفيضانات وفيرة ، فسنحسب هنا نصف المصاريف التى يكلفها الحرث ، وعلى هذا النحو تبلغ تكاليف حرث ١٠ فدادين	٤٠	٤

	مدينى	بوطاقة
٢ – البذور : ١٣/٢٤ من الأردب للفدان الواحد ، سعر الأردب ١٠٥ مدينى ، فى عشرة فدادين ، فتبلغ المصاريف	٢٦	٧
٣ – البذر : خمسة أيام عمل لرجل واحد ، أجرة اليوم ٦ مدينى	٣٠	
٤ – الحرث بعد البذر : أو بالأحرى تغطية البذور بزحافة بمتوسط سعر يصل إلى	٤٤	٥
٥ – مصاريف الحصاد : تلزم تسعة أيام لاقتلاع غلة الفدان الواحد ، ويدفع فى مقابل عمل اليوم الواحد ١/٢٤ من الأردب ، وبذلك تصل تكاليف اقتلاع محصول ١٠ فدادين إلى ٤ ١٨/٢٤ من الأردب أى ما يساوى نقداً	٣٤	٤
٦ – الدرس تحت النورج وتنظيف (تنقية) الحبوب ، تسعون يوم عمل كما فى البند السابق ، يدفع كل واحد منها ١/٢٤ من الأردب ، فيبلغ مجموع ما يدفع ٤ ١٨/٢٤ أرادب ، أى ما يساوى نقداً	٣٤	٤
٧ – نقل المحصول إلى بيت المزارع : يتم نقل ٥٠ أردباً من الحمص ، بالإضافة إلى ٢٥ حمولة من التبن فى مدة خمسة أيام ، يدفع مقابل كل يوم منها ٢٥ مدينى ، فتبلغ جملة التكاليف ...	٣٥	١
إجمالى المصاريف	٦٣	٢٧

الإنتاج

١ – ينتج الفدان فى ولاية جرجا خمسة أرادب من الحمص فى العادة ، وتبلغ قيمة إنتاج عشرة فدادين ، باعتبار ثمن الأردب الواحد ١٠٥ مدينى	٣٠	٥٨

	مدينى	بوطاقة
٢ – مصاريف الزراعة المسددة عيناً والتى استبعدت فى البند السابق من الإنتاج وتبلغ ½ ٧ أرادب ، يبلغ ثمنها	٦٨	٨
٣ – خمسة وعشرون حمولة جمل من التبن ، بسعر ٢٥ مدينى للحمولة الواحدة	٣٠	٨
إجمالى الإنتاج	٣٨	٧٥
صافى الإنتاج	٦٥	٤٧

٥ – الترمس

١ – الحرث : عندما يكون الفيضان كاملا ، لا تروى مطلقاً الأرض التى ستزرع بالترمس ؛ فهذه لا تزرع إلا عندما يغطيها الفيضان بشكل كاف . وبافتراض أن عدد السنوات التى يكون فيضانها وفيراً يتساوى مع عدد السنوات ذات الفيضانات الضعيفة ، فليس لنا أن نحسب إلا نصف مصاريف الحرث المطلوبة فى السنة الاعتيادية ، وتبلغ هذه	٢	٥
٢ – البذور : ½ أردب للفدان الواحد ، ٥ أرادب للعشرة فدادين ، بسعر ١٠٥ مدينى للأردب الواحد ، فتبلغ التكاليف	٣٥	٦
٣ – البذر : يلزم ستة رجال لبذر فدان واحد ؛ وتدفع أجورهم عيناً ويحصل كل منهم على $\frac{1}{24}$ من الأردب ، وتساوى ستين يوم عمل على أساس هذا الأجر ½ ٢ أردب ؛ وذلك لبذر ١٠ فدادين ؛ وتساوى هذه الكمية بالنقود	١٧	٣

	مدينى	بوطاقة
٤ – تغطية الأرض : عندما لا تحرث الأرض مطلقاً قبل البذر ، تغطى الأرض بواسطة زحافة ، وفى الحالة الأخرى فإنها تحرث مرة ثانية وتبلغ التكاليف فى الحالة الأولى $\frac{1}{12}$ ٢ أردب ، تبلغ قيمتها نقداً	٦٠	٢
وتبلغ تكاليفها فى الحالة الثانية	٢	٥
	٦٢	٧
وبذلك تكون التكاليف فى السنة الاعتيادية (أى فى المتوسط)	٧٦	٣
٥ – مصاريف الحصاد : يستطيع ثمانية رجال أن يقتلعوا فداناً من الترمس فى يوم واحد ؛ وتدفع أجورهم عيناً ويحصلون على $\frac{1}{24}$ من الأردب : وتساوى ٨٠ يوم عمل هى ما يتطلبها حصاد ١٠ فدادين $\frac{1}{3}$ ٣ أرادب ، وهذه تساوى نقداً ...	٢٣	٤
٦ – الدرس : لا تفصل حبوب الترمس بوضع النبات تحت النورج ، ولكنه يضرب بالعصى بعد أن يترك فى الشمس عدة أيام ليجف : ويستطيع ستة رجال أن يدرسوا فى اليوم غلة فدان واحد ؛ ويحصلون على أجورهم عيناً بواقع $\frac{1}{24}$ من الأردب (ليوم العمل) : وتساوى ٦٠ يوم عمل ، وهى الزمن المطلوب لدرس ١٠ فدادين ، وعلى هذا الأساس ، $\frac{1}{2}$ ٢ أردب ، يبلغ ثمنها	١٧	٣
٧ – النقل إلى مكان المخزن : عمل جمل واحد لمدة ستة أيام ، أجرة اليوم الواحد ٣٠ مدينى ، وبذلك تبلغ التكاليف	–	٢
إجمالى المصاريف	٨٠	٢٧

الإنتاج

١ – ينتج الفدان ٥ أرادب من الترمس ، ثمن الأردب الواحد ١١٥ مدينى ، وبذلك يبلغ ثمن إنتاج عشرة فدادين.......	٨٠	٦٣
٢ – مصاريف الحصاد التى سددت عيناً والتى تضمنها البند السابق وخصمت من الناتج هى $\frac{٥}{٦}$ ٥ أرادب ، ثمن الأردب ١١٥ مدينى ، وبدلك يبلغ مجمل ثمنها	٤٠	٧
٣ – سيقان الترمس : وهذه تستخدم كوقود ، ويباع إنتاج الفدان الواحد ، ويبلغ حمولتين أو ثلاث حمولات جمل ، فى مقابل بوطاقة واحدة ، وبذلك يكون ثمن إنتاج العشرة فدادين ..	–	١٠
إجمالى الإنتاج	٣٠	٨١
صافى الإنتاج	٤٠	٥٣

٦ – البصل

تبذر بذور البصل فى البداية فى مساحة فدان ، وبعد مضى ستين يوماً تنقل شتلات البصل إلى ١٠ فدادين معدة لاستقبالها .

١ – حرث الفدان (الذى تبذر فيه البذور)	٧٠	–
٢ – استنبات البصل وتقسيم الأرض إلى مربعات	٤٠	١
٣ – البذور : يبذر فى هذا الفدان $\frac{١}{٢٤}$ من أردب البذور ، يبلغ ثمنها فى المتوسط ١٦ مدينى	١٦	١
٤ – رى المحصول أربع مرات خلال شهرين ، تحتاج لعشرين يوم عمل ،أجرة اليوم الواحد ٦ مدينى	٣٠	١

	مدينى	بوطاقة
٥ – حرث الـ ١٠ فدادين التى ستنتقل إليها الشتلات	٧٠	٧
٦ – غرس الشتلات ، ويتطلب أربعين يوم عمل للفدان مقابل ٦ مدينى لليوم الواحد ، فتبلغ التكاليف لعشرة فدادين	٦٠	٢٦
٧ – الرى ٤ مرات للعشرة فدادين ، ويتطلب رى فدان واحد فى كل مرة عمل ستة رجال ؛ وتساوى ٢٤٠ يوم عمل ، بواقع أجر اليوم الواحد ٦ مدينى	–	١٦
٨ – مصاريف الحصاد : يستطيع ستة عشر رجلا اقتلاع بصل الفدان فى يوم واحد : وتتكلف الـ ١٦٠ يوم عمل اللازمة لحصاد ١٠ فدادين ، بواقع أجرة اليوم الواحد ٦ مدينى .	٦٠	١٠
٩ – نقل المحصول إلى المزارع : ثمانية أيام عمل بالنسبة لجمل واحد ، أجرته عن اليوم الواحد ٢٥ مدينى	١٦	٢
إجمالى المصاريف	٢	٦٨

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
ينتج الفدان الواحد ٢٠ إردباً من البصل ، تباع فى السنة الاعتيادية بواقع ١٠٦ مدينى للأردب الواحد ، فيبلغ إجمالى الثمن للـ ٢٠٠ أردب	٣٠	٢٣٥
صافى الإنتاج أى صافى الإيراد	٢٨	١٦٧

٧ – الحلبة

لا تحرث الأرض قبل البذار .

	مدينى	بوطاقة
١ – البذور : يبذر للفدان الواحد $\frac{١٤}{٢٤}$ من الأردب ثمن الأردب ١٢٥ مدينى ، أى $\frac{٥}{٦}$ ٥ أرادب للعشرة فدادين ، يبلغ ثمنها	٩	٨
٢ – البذر : ٥ أيام عمل ، فى مقابل ٨ مدينى لليوم الواحد..................	٤٠	–
٣ – تغطية البذور : ٥٠ يوم عمل فى مقابل ٦ مدينى لليوم الواحد	٣٠	٣
ومن العشرة فدادين يحتفظ بفدانين كبذور ، وتستخدم الثمانية الأخرى كعلف أخضر .		
٤ – مصاريف الحصاد : يلزم ١٥ رجلا لاقتلاع محصول فدان واحد : ويدفع لكل منهم أجر يبلغ ٦ مدينى ، فتبلغ مصاريف ١٠ فدادين	–	١٠
٥ – درس ناتج الفدانين تحت النورج : ١٢ يوم عمل يدفع أجرها بواقع $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب لليوم ، ويقدر ثمن الـ $\frac{٣}{٤}$ أردب نقداً بـ	٤	١
٦ – نقل الحبوب إلى المخزن : يوم عمل لجمل واحد مقابل ٣٠ مدينى	٣٠	–
إجمالى المصاريف	٢٣.	٢٣

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
١ – إنتاج ١٠ فدادين (كذا وصحتها ٨) (علف أخضر) بواقع ١٠ بوطاقات قيمة إنتاج الفدان الواحد ، وبذلك تبلغ القيمة الإجمالية	–	٨٠

		مديني	بوطاقة
٢ — ينتج الفدان فى السنة الاعتيادية ٤ أرادب من الحبوب ، سعر الأردب ١٢٥ مدينى ، فيبلغ إنتاج الفدانين		١٠	١١
٣ — مصاريف الحصاد المدفوعة عيناً وتبلغ بالنقود.....		٤	١
٤ — تبن ، ويبلغ ١٠ حمولات جمل ، ثمن الحمولة الواحدة ١٥ مدينى فتبلغ		٦٠	١
إجمالى الإنتاج		٧٤	٩٣
صافى الإنتاج		٥١	٧٠

٨ — الجلبان

	مديني	بوطاقة
١ — نفس التجهيزات التى يمر بها العدس وتكلف	٤٨	٢
٢ — البذور : $\frac{١٣}{٢٤}$ من الأردب للفدان الواحد ، ويبلغ ثمن الأردب ١٩٢ مدينى ، أى أن كمية البذور اللازمة للعشرة فدادين تبلغ $\frac{١}{٢}$ ٦ أردب ، يبلغ ثمنها	٣٠	١٣
٣ — البذر : عشرة أيام عمل ، يدفع مقابل اليوم الواحد ٦ مدينى	٦٠	—
٤ — تغطية البذور : الحرثة الثانية وتبلغ تكاليفها	٨	٢
٥ — مصاريف الحصاد : يحتاج اقتلاع محصول الفدان الواحد إلى ١٥ رجلا وبذلك يلزم لاقتلاع محصول عشرة فدادين خمسون يوم عمل ، أجرة اليوم	—	١٠
٦ — الدرس تحت النورج........................	٢٦	٢

	مدينى	بوطاقة
٧ – نقل المحصول إلى المخزن ، يوم عمل لجمل واحد مقابل ٢٥ مدينى	٢٥	–
إجمالى المصاريف	٨٧	٣٠

الإنتاج

١ – يباع فدان الجلبان الذى يحصد فى شكل علف بـ ٩ بوطاقات وبذلك يبلغ ثمن بيع ٩ فدادين	–	٨١
٢ – وينتج الفدان الذى يحصد جافاً ٤ أرادب يبلغ ثمنها	٤٧	٨
٣ – درس فدان واحد تحت النورج	–	
٤ – حمولتا جمل من التبن ، ثمن الحمولة الواحدة ٢٠ مدينى	٤٠	–
إجمالى الإنتاج	٨٧	٩٠
صافى الإنتاج	–	٦٠

٩ – البسلة

مصاريف الزراعة

١ – نفس التجهيزات التى تقدم للعدس	٨٠	٣
٢ – البذور $\frac{١٨}{٢٤}$ من الأردب للفدان الواحد ، ثمن الأردب ٢٤٠ مدينى فتبلغ الكمية اللازمة لـ ١٠ فدادين $\frac{١}{٢}$ ٧ أردب ثمنها	–	٢٠
٣ – البذر : خمسة عشر يوم عمل ، مقابل ٦ مدينى لليوم الواحد	–	١

	مدينى	بوطاقة
٤ — تغطية الأرض بعد البذر	٨٤	٤
٥ — مصاريف الحصاد : يلزم ١٥ يوما لاقتلاع محصول فدان واحد ، ويكلف يوم العمل ٦ مدينى ، وتبلغ التكاليف لحصاد محصول عشرة فدادين........	—	١٠
٦ — درس محصول فدانين تحت النورج $\frac{٦}{٨}$ من الأردب ، ثمنها	—	٢
٧ — نقل المحصول إلى المخزن : عمل جمل واحد لمدة يوم مقابل ٢٠ مدينى	٢٠	—
إجمالى المصاريف	٤	٤٢

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
١ — يباع محصول فدان البسلة الذى يحصد وهو أخضر ، فى السنة الاعتيادية ، مقابل ١١ بوطاقة ، تبلغ لـ ٨ فدادين	—	٨٨
٢ — ينتج الفدانان اللذان يحصدان بعد جفافهما ٨ أرادب من البذور ، ثمن الأردب الواحد ٢٤٠ مدينى	٣٠	٢١
٣ — درس فدانين : حسبت عينا ضمن البند السابق	—	٢
٤ — التبن : حمولة جملين ، ثمن الحمولة ١٥ مدينى ...	٣٠	—
إجمالى الإنتاج	٦٠	١١١
صافى الإنتاج	٥٦	٦٩

١٠ – محصول السلجم
لا يحتاج المحصول إلى أية تجهيزات

	مدينى	بوطاقة
١ – البذور : يبذر $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب للفدان الواحد ، ويبلغ ثمن الأردب الواحد ١٨٠ مدينى ، وبذلك تتكلف العشرة أفدنة	٧٥	–
٢ – البذر : عشرة أيام عمل لرجل واحد تكفى لبذر عشرة فدادين مقابل ١٠ مدينى لكل يوم....................	١٠	١
٣ – مصاريف الحصاد : يستطيع عشرة رجال أن يقتلعوا فى يوم واحد محصول فدان واحد . ويدفع لكل منهم ٧ مدينى لكل يوم عمل ، وبذلك تبلغ تكاليف حصاد ١٠ فدادين	٧٠	٧
٤ – الدرس : ستة رجال يدرسون فى يوم واحد إنتاج الفدان مقابل ٧ مدينى لكل منهم ، فتبلغ تكاليف الـ ٦٠ يوم عمل اللازمة	٦٠	٤
٥ – تنظيف البذور مقابل $\frac{٢}{٢٤}$ من الأردب لمحصول الفدان الواحد ، فتبلغ تكاليف تنظيف محصول ١٠ أفدنة	٦٠	١
٦ – نقل البذور : يوما عمل لجمل واحد مقابل ٣٠ مدينى عن اليوم	٦٠	–
إجمالى المصاريف	٦٥	١٦

الإنتاج

١ – ينتج الفدان فى السنة الاعتيادية ٥ أرادب من بذور السلجم ثمن الأردب ١٨٠ مدينى ، أى أن إنتاج عشرة فدادين يصل إلى		١٠٠

	مدينى	بوطاقة
٢ – الدرس ، ويدفع ما مقابله عينا ، وقد تضمنه البند السابق ويقدر نقداً بـ	٦٠	١
إجمالى الإنتاج	٦٠	١٠١
صافى الإنتاج	٨٥	٨٤

١١ – الخس

لا يزرع الخس وحده مطلقاً ولكن مع العدس أو الشعير ويبذر فى الفدان الواحد $\frac{١}{٣}$ أردب من بذور الخس............

١ – بذر وحصاد العدس وتبلغ	٤	١٩
٢ – البدور $\frac{٢}{٢٤}$ من الأردب من بذور الخس للفدان الواحد سعر الأردب ٢ بوطاقة ، فيبلغ ثمن بذور ١٠ فدادين.....	٦٠	١
٣ – مصاريف الحصاد : سبعة أيام عمل لرجل واحد مقابل ٧ مدينى عن اليوم ، فيبلغ تكاليف حصاد ١٠ فدادين...	٤٠	٥
٤ – الدرس : ١٦ يوم عمل لمحصول الفدان الواحد مقابل ٧ مدينى عن اليوم ، فيبلغ تكاليف درس ١٠ فدادين ..	٤٠	١٢
٥ – نقل الخس إلى مكان المخزن : عمل جمل واحد لمدة يومين فى مقابل ٢٠ مدينى عن اليوم	٤٠	–
إجمالى المصاريف	٤	٣٩

الإنتاج

١ – الإنتاج من الخس	٥	٣٧

	مدينى	بوطاقة
٢ – ينتج الفدان فى السنة الاعتيادية ٤ أرادب من البذور ثمن الأردب ٢ بوطاقة ، فيبلغ إنتاج ١٠ فدادين	–	٨٠
٣ – ١٠ حمولات جمل من سيقان الخس ، ثمن الحمولة الواحد ٢٥ مدينى	٧٠	٢
إجمالى الإنتاج	٧٥	١١٩
صافى الإنتاج	٧١	٨٠

١٢ – القطن

مصاريف الزراعة

١ – الحرث : حرثتان فى اتجاهين متقاطعين بحيث تكون كل منهما عمودية على الحرثة الأخرى	٥٠	١٥
٢ – تجهيز الأرض للرى (تحويلها إلى أحواض)	–	٣
٣ – الغرس : يلزم عشرون يوم عمل لغرس فدان واحد ، مقابل ٧ مدينى ليوم العمل ، وبذلك تبلغ تكاليف غرس ١٠ فدادين	٥٠	١٥
٤ – الرى : يروى القطن خلال ثمانية شهور فى العام ، ويمكن الأفتراض أنه يلزم خلال هذه المرحلة عمل متواصل لرجلين للفدان : ٤٨٠٠ يوم عمل مقابل ٦ مدينى لليوم الواحد لرى ١٠ فدادين ، تبلغ تكاليفها	–	٣٢٠

٥ – مصاريف الحصاد : نفس الرجال المستخدمون فى الرى يستخدمون أيضاً فى الحصاد ، ويلحق بهم خلال شهر ونصف طفلان عن كل فدان ، يدفع لكل منهما ٢ مدينى فى

	مدينى	بوطاقة
اليوم ، وهكذا تبلغ تكاليف حصاد عشرة فدادين	–	٢٠
إجمالى المصاريف	–	٣٧٤

الإنتاج

١ – ينتج الفدان الذى زرع بشكل جيد ٢ ½ قنطار من القطن ، يباع القنطار الواحد بـ ٢٠ بوطاقة فيبلغ ثمن إنتاج ١٠ فدادين	–	٥٠٠
٢ – ويفترض أن مصاريف الحرث والبذر قد سددت فى السنة الأولى من النباتات البقلية التى تزرع داخل الأحواض (مع القطن) أى ما يساوى	–	٣٤
إجمالى الإنتاج	–	٥٣٤
صافى الإنتاج	٨٠	١٥٩

١٣ – زراعة وتصنيع السكر

مصاريف الزراعة

١ – المحراث : يلزم لاستغلال ١٠ فدادين محراث يبلغ ثمنه فى المتوسط ٢٢٥ مدينى ، ويمكن أن يبلغ عمر المحراث ١٠ سنوات وبتوزيع هذه القيمة على كل واحدة من هذه السنوات العشر فإن التكاليف السنوية تبلغ	٢٢	–
الربح المستحق للأقساط التى دفعت مقدماً بواقع ١٠٪ .	٢٢	–

مدينـى بوطاقة

٢ – الحرث : لابد أن تحرث الأرض التى تزرع بقصب السكر سبع مرات متوالية ، ويلزم يومان لحرث الفدان الواحد مرة واحدة ، وتساوى ١٤٠ يوم عمل بواقع ٨ مدينى مقابل اليوم الواحد ٤٠ ١٢

ويتم الحرث بواسطة ثيران المزارع :

٣ – الثيران : يتطلب زراعة ١٠ أفدنة بقصب السكر استخدام ٢٠ ثوراً أو بقرة ، يباع الزوج منها فى المتوسط بـ ١٠٠ بوطاقة .

الأرباح المستحقة للأقساط التى دفعت مقدماً .... – ١٠٠

ولا نحسب هنا أى مقابل لحوادث هلاك الحيوانات ، لأن هذه الحوادث العارضة يعوضها ، بل يعوض أكثر من ثمنها ، الألبان التى تنتجها والذرية التى تعقبها .

وتتغذى الثيران خلال سبعة شهور بالتبن والفول ويأكل زوج من الثيران ، كل شهر ، خمس حمولات من تبن القمح أو الشعير ، تساوى الحمولة الواحدة منها ٢٠ مدينى ، وأردباً واحداً من الفول ثمنه ١٠٥ مدينى ، وبذلك تبلغ تكاليف غذاء زوج من الماشية خلال شهر واحد ٢٠٥ مدينى ، وتتكلف العشرة أزواج خلال سبعة شهور على هذا الأساس ٤٠ ١٥٩

وفى أثناء الخمسة أشهر الأخرى يأكل الزوج من الثيران حشتين من فدان برسيم تقدران بـ ١٣ بوطاقة فتبلغ تكاليف اطعام ١٠ أزواج .... – ١٣٠

غرس قصب السكر : يتطلب الغرس ٢٠ يوم عمل للفدان الواحد مقابل ٧ مدينى لكل يوم عمل ، وبذلك تبلغ تكاليف غرس ١٠ فدادين ٥٠ ١٥

مدينى بوطاقة

ويأتى قصب السكر الذى يغرس دائماً من حقل يملكه المزارع .

٥ — ماكينة للرى (ساقية) : يتكلف إنشاء الساقية ١٠٠ بوطاقة ، وتستمر الساقية خمسين أو ستين عاماً .

الأرباح المستحقة للأقساط المدفوعة أولا بالنسبة لساقيتين تلرمان لرى الـ ١٠ فدادين .... — ٢٠

النصيب السنوى .... — ٨

٦ — العناية بالثيران : يلزم أربعة رجال للعناية بالثيران وتشغيل الساقيتين ، يدفع لكل مهم ٣ بوطاقات فى الشهر ، أى ٣٦ بوطاقة فى السنة ، وبذلك يبلغ إجمالى ما يدفع لهم .... — ١٤٤

٧ — العزق وانتزاع العشب الضار : يخصص رجل لكل فدان لمدة ثمانية أشهر ، يدفع له بواقع ٦ مدينى فى اليوم فتبلغ التكاليف للعشرة أفدنة .... — ١٦٠

٨ — مصاريف الحصاد : يتم حصاد محصولى فدان واحد فى ١٥ يوماً ، ويستخدم رجلان فى هذا العمل ويدفع لهما بواقع رطلين من العسل الأسود يومياً . وتساوى الـ ٦٠٠ رطل التى تقدم مقابل حصاد ١٠ فدادين على هذا الأساس وبواقع ٣ مدينى لكل رطل عسل .... — ١٨

مصاريف التصنيع

١ — انشاء المصنع : يتكلف مصنع ينشأ لصناعة السكر ، ١٠٠ بوطاقة ؛ ويلزم إنشاء مصنعين لاستغلال سكر ١٠ فدادين

	مدينى	بوطاقة
ويقدر أنهما يستطيعان الاستمرار لمدة ٢٠ عاماً ؛ وبذلك يصل نصيب السنة الواحدة إلى	—	١٠
الربح المستحق عن الأقساط التى دفعت مقدماً	—	٢٠
الأقساط السنوية	—	٨
٢ — نقل قصب السكر إلى المصنع ؛ ٧٥ يوم عمل لجمل واحد فى مقابل ٢٠ مدينى عن كل يوم عمل	٦٠	١٦
٣ — الجرار : يفترض أنه ينبغى كل عام تجديد $\frac{١}{٤}$ عدد الجرار المستخدمة فى تعبئة العسل الاسود ، وتساوى الجرة الواحدة ١٠ مدينى ، وبذلك يبلغ ثمن الـ ٨٠ جرة	٢٠	٢
مشتروات سنوية لأربعمائة إناء فخارية مخروطية الشكل تستخدم كقوالب ، تساوى الواحدة $\frac{١}{٢}$ مدينى ، وبذلك يبلغ مجموع ثمن القوالب	٢٠	٢
٤ — اليد العاملة اللازمة للتصنيع : يستخدم فى كل مصنع رجلان لنزع أوراق قصب السكر ، وأربعة رجال لتحريك الطواحين (العصارات) ، ورجلان للغلاية ، ورجلان آخران لملاحظة النار ، أى أنه يلزم ٢٠ عاملا للمصنعين : ويعمل هؤلاء لمدة شهرين ، ويحصل كل منهم يوميا على رطلين من العسل الأسود ، وبذلك يتكلف ١٢٠٠ يوم عمل	—	٧٢
٥ — وقود : قش الذرة وحزم من قش الشعير	—	٤٠
إجمالى المصاريف	٤	٩٣٩

الإنتاج

١ — ينتج الفدان فى السنة الاعتيادية ٢٠ قنطارا من

	مدينى	بوطاقة
السكر المصنوع ، ثمن القنطار ٩ بوطاقات و ٤٥ مدينى . وبذلك تبلغ قيمة إنتاج ١٠ فدادين	—	١٩٠٠
٢ — وينتج الفدان أكثر من ٧ قناطير من العسل الأسود ، ثمن القنطار الواحد ٣ بوطاقات . وبذلك تبلغ قيمة إحمالى الإنتاج من العسل	—	٢١٠
إجمالى الإنتاح	—	٢١١٠
صافى الإنتاج	٨٦	١١٧٠

١٤ — التبغ

مصاريف الزراعة

١ — البذور : يبذر الدخان فى نفس حقول الذرة وفى نفس وقت زراعتها : ويبذر $\frac{١}{٤٨}$ من الأردب لكل فدان ، بسعر ٦ مدينى لهذه الكمية ، وبذلك تبلغ تكاليف بدور ١٠ فدادين ..	—	٢
٢ — البذر	٢٠	١
٣ — حرثتان للأرض التى تزرع بالدخان	—	٢٠
٤ — إعادة شتل الدخان : يحتاج إعادة شتل الدخان فى فدان واحد إلى ٢٥ يوم عمل ، أحرة اليوم الواحد ١٠ مدينى ...	٧٠	٢٧
٥ — مصاريف الحصاد : يلرم ١٥ رجلاً للقيام بحصدتين (حصادها مرتين) لكل فدان من التبغ . يدفع لكل واحد منهم ١٠ مدينى ، وبذلك تبلغ أجور حصاد ١٠ فدادين	٦٠	١٦
نقل المحصول إلى المزارع : عمل جمل واحد لمدة خمسة أيام لمحصول الـ ١٠ فدادين	٦٠	١
إجمالى المصاريف	٣٠	٦٩

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
حصدتان لكل فدان ، تنتجان ٨ قناطير من ورق التبغ . ثمن القنطار ٣٢٥ مدينى ، وبذلك يبلغ قيمة محصول ١٠ فدادين	٨٠	٢٨٨
صافى الإنتاج	٥٠	٢١٩

انتهى بعون الله

الفهرس

صفحة

ص

الباب الثانى

الباب الثالث

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٨/٥١٧٩
الترقيم الدولي ١ – ٥١ – ٢٩٢ – ٧

الترجمة الكاملة
(٥)

وصف مصر

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية



دار الشايب للنشر

وصف مصر ٥
الترجمة الكاملة

وصف مصر

الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر

النظام المالي والإداري في مصر العثمانية

الجزء الثاني

ترجمة
زهير الشايب

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

دار الشايب للنشر

١٠ ش سليمان الحلبي – التوفيقية
ت: ٥٧٤١٣٧١ – ٥٧٢٦٨٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

هذا هو المجلد الخامس من الترجمة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر ، وهو فى الوقت نفسه الجزء الثانى مما أسميته « الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر » ، وهذا التبويب أو التصنيف الجديد لموسوعة وصف مصر هو اجتهاد خاص بالترجمة العربية أرجو أن أكون قد وفقت فيه ، مع العلم بأننى قد وجدت ذلك ضروريا للغاية ، ولأسباب عديدة ، على نحو ما أوضحته فى مقدمات المجلدات الأربعة السابقة .

ويضم المجلد الذى بين أيدينا ابوابا ثلاثة ، آثرت ان أطلق على كل منها اسم كتاب تيسيرا على القارىء من جهة ، ولكى أسهل على نفسى من جهة أخرى تقديمه فى ترتيب واضح ، وحرصا منى على عدم تداخل مدلولات الفاظ فى التبويب مستقرة ، وإن كنت أرجو الا أكون بسعيى وراء ذلك قد فعلت فى سبيل تحقيقه ، عكس ماكنت أبغى .

أما الكتاب الأول من هذا المجلد فيضم دراسة عن نظام الضرائب على الأطيان الزراعية التى كانت الأرض ، أوبمعنى أدق كان الفلاح ملزما بسدادها كل عام . ومؤلف هذه الدراسة هو لانكريه المولود فى عام ١٧٧٤ والمتوفى فى عام ١٨٠٧ ، وهو كما يذكر المؤرخ المصرى الكبير عبد الرحمن الرافعى فى الجزء الأول من موسوعته « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » من علماء الرياضيات ، ومن مهندسى القناطر والجسور ومن علماء الآثار ، وله أبحاث مستفيضة عن آثار الوجه القبلى نشرت فى وصف مصر ، كما أن له بحثا جغرافيا عن الفرع الكانوبى من فروع النيل القديمة ، وقد تولى العمل فى اللجنة المكونة لنشر وصف مصر فى عام ١٨٠٥ .

ويضم الكتاب الثانى دراسة هامة عن موارد الخزينة المصرية وإنفاقها ، ولتغطية ذلك كله قامت الدراسة بمسح شامل للنظام الإدارى فى مصر فى العصر العثمانى ، وهذه الدراسة من وضع السكونت استيف مدير خزانة الحملة فى البداية ثم مدبر الشئون المالية لمصر فى أواخر هذه الحملة الفرنسية ، ويمكن القول بأنها وضعت على أساس ما جاء بسجلاته وأوراقه ، بمعنى أنه ليس كاتبها كما نلمس ذلك من مقدمة فورييه التى نشرناها فى المجلد الأول فى طبعته الثانية .

ويحوى الكتاب الثالث ثلاث دراسات قصيرة عن بعض الصناعات المصرية التى اكتفى المسيو جيرار فى دراسته عن الزراعة والصناعات والحرف والتجارة فى مصر بأن يشير إليها إشارة عابرة أو بأن يقدم موجزا مركزا عنها محيلا الى الدراسات الثلاث التى نشرتها هنا ، وكنت أزمع أن أنشرها ملاحق لدراسة جيرار (وهى المجلد الرابع من الطبعة العربية) لكننى خشيت أن يزيد حجم المجلد الرابع اكثر مما ينبغى ، ولذلك فإننى أقدمها هنا مشيرا فى الوقت نفسه الى موضعها فى دراسة جيرار استكمالا للفائدة . أما هذه الدراسات الثلاث فهى : دراسة عن معامل التفريخ وهى تنقسم بدورها الى قسمين ، قسم كتبه روزيير ، وهو مهندس مناجم له ابحاث مستفيضة عن أحجار مصر ومعادنها وجيولوجيتها ، كما قام برسم احجارها وصخورها ومعادنها ، ونشر ذلك كله فى وصف مصر ، أما القسم الثانى فكتبه الكيميائى الصيدلى روييه ، ثم دراسة عن طريقة صنع ملح النوشادر، وهى من تأليف ديكوتيل، وهو كيميائى عين بعد انتهاء الحملة كبيرا لمهندسى المناجم فى فرنسا وكان عضوا بالمجمع العلمى المصرى شعبة الطبيعيات ، أما الدراسة الثالثة فهى من وضع بوديه كبير صيادلة جيش مصر ، وعضو المجمع العلمى المصرى (طبقا لما جاء بوصف مصر) والحائز على وسام الشرف .

وسوف يلاحظ القارىء بعض التكرار فى « الكتابين » الأول والثانى ولكنه تكرار تقتضيه طبيعة المعالجة لموضوع واحد ، وإن كانت وجهة كل من الدراستين مختلفة كما أن منهاجيهما يختلفان .

ويبقى علينا بعد ذلك لكى تكتمل ما أسميته موسوعة « الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر » أن أقدم دراستين أخريين

هما دراسة عن الموازين العربية فى مصر ، ودراسة أخرى عن النقود العربيــة فى مصر وكلتاهما من تأليف صــامويل برنار ، وهما معا تكونان المجلد السادس من هذه الترجمــة العربيــة ، وكنت أود أن ألحق بهمــا دراســة جيرار عن المقــاييس فى مصر القــديمة ، وهى دراسة تقع فى مجلدات وصف مصر عن العصور القديمة (لمصر) ، باعتبــار أن هــذه المقاييس كما ذكر جيرار نفسه فى المجــلد الرابع (من الترجمة العربية) تكاد تكون هى المقاييس نفسها التى كانت لاتزال تستخدم فى مصر عند مجىء الحملة الفرنسية ، لولا أننى اخشى الا يكون الجمع بين دراسات تتنــاول الدولة أو الحالة الحديثة فى مصر وتلك التى تتناول عصور مصر القــديمة امرا موفقا ، أو أنه قد يصيب ببعض البلبلة لدى القارىء .

ولقد واجهت صعوبات عدة فى تحقيق أسماء بعض الأماكن والوظائف التى جاءت فى دراسة الــكونت استيف عن النظام المــالى والإدارى لمصر ، كما لابد أن أشــير كذلك لصــعوبة تحقيق أســماء بعض القرى والقبائل ، بل وأحيــانا بعض الجهــات (او أجــزاء القــرى أو الأحــواض) وكذلك بعض أســماء الأفــراد المستفيدين من المخصصات أو الصدقات أو نحو ذلك — وقــد يكون ذلك أمرا جانبيــا أو ثانويا لا يؤثر مطلقــا فى ســياق الدراسة ، لــكن له أهميتــه القصوى فى نظرى ، وبخاصة كلما تبينت أنه قــد يكون على جانب أكبر من الأهميــة لبعض دارســين سيتناولون هذه الأمور نفسها ولــكن فى مجال مختلف ، ولذلك فقد انفقت فيهــا وقتــا طويلا ومشقة اكبر وارجو أن أكون قــد ابتعدت كثيرا عن مواطن الخطأ .

كما استميح القارىء عذرا لأننى ادخلت بعض تعديلات وجدتهاضرورية فى تنسيق الجداول الــكثيرة فى دراسة استيف لتصــبح أكثر وضــوحا — هكذا تصورت — عند قراءتها .

ومع أننى واحد ممن يعاون التكرار الا أننى لا أمل مطلقامن اســداء الشــكر لــكل من آزروا هــذا العمل وأخذوا بيــده منذ كان مجرد فــكرة وحتى الآن بعد أن قطع هــذا الشوط وفى مقــدمة هؤلاء الأخ الدكتــور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة الذى لا يفتــأ يقــدم من الخدمات لهذا العمل مايؤكد صحة قولى حين اعتبره — ومجلة الثقافة —

شريكين حقيقيين فى انجاز هـذا العمل ، ولابد كذلك أن أوجه شكرى لكل الاقـلام الجـادة والمسئولة التى رحبت بالعمل ، وفى أحيـان كثيرة دون صلة شخصية تربطنى بهم من أى نوع ، وهو الأمر الذى شرفنى بحق وزاد من إيمـانى وثقتى بأن كل الاقـلام وكل النفوس الشريفـة — أيا كانت مشاربها — تنبض بحب مصر ، التى لا اجد سواها وسـوى إخوتى فى الوطن ، المصريين ، لأتوجه بعملى هذا .

ولابد من توجيه شكر خاص للمؤرخ الـكبير الدكتور عبـد الرحمن زكى ، وللأخ الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، وللاستاذ رينيه خورى ، وللسيدة زوجتى التى ساندتنى بكل ماتستطيع ، فى الظروف العصيبة التى كدت أن افصـل فيها من عملى بسبب إصرارى على إتمام ترجمـة هـذا السفر الـكبير .

كما لابد لى أن أظل أذكر بالخير كل من عاون بالنصح أو التوجيه أو الإرشاد أو حتى بكلمة طيبـة ، وكل من عاون فى إخراج هذا العمل إلى حيز الوجود بدءا ممن أتاحوا لى فرصـة الحصول على الأصل الفرنسى إلى عمال الطبـاعة إلى مكتبة الخانجى التى أسهمت فى الإنفـاق على هـذا العمل الى الموزع الذى أتاح وصـول هذا العمل إلى يد القارىء الكريم. كما لابد أن أوجه شكرا خاصـا للجنة التفرغ بوزارة الثقافة التى تحملت مشكورة عبء تفرغى لاتمام هذا العمل الـكبير ، ولابد من توجيـه شكر واجب للجنة المختصة فى المجلس الأعلى للفنون والآداب التى قررت منحى جائزة الدولة التشجيعية عن ترجمة المجلدات الأربعة السابقـة وأوصت مشكورة وبعبارات طيبة للغاية بضرورة تشجيع هذا الجهد .

والله سبحانه وتعالى أسأل التوفيق والعون والسداد .

زهير الشايب

القاهرة ، سبتمبر ١٩٧٩

فهـــرس

صفحة

صفحة

الـكتاب الثالث :

الكتاب الأول

الريف المصري في عصر المماليك العثمانيين

تأليف : لانكريه

العنوان الأصلى للدراسة :

« دراسة فى نظام الضرائب على الأطيان ، وفى الإدارة الإقليمية فى مصر ، فى السنوات الأخيرة من حكم المماليك »

تشكل حكومة المماليك(١) فى التاريخ المصرى فصلا شاذا لدرجة يبدو معها أن من المفيد أن نجمع كل ملامحه وأن نحفظها بعناية فى ذاكرتنا ، كما يحتفظ علماء الطبيعة من بين كل معطيات الطبيعة الجميلة بغرائب المخلوقات وشواذها .

وليس ثمة واحد من الرحالة الذين سبقونا قد أولى عنايته بدراسة نظام الملكية والادارة فى الريف ، ومع ذلك فان هذه الأمور التى كان من العسير عليهم أن يدرسوها ابان زياراتهم للبلاد ، تشكل فى كل الدول جزءا اساسيا من نظام الحكم ، يستحق الدراسة .

ولقد كان الجنرال كافاريللى قد جمع حول هذا الموضوع عددا كبيرا من **المعلومات** ، فلقد كان يحب هذا النوع من الاهتمامات ، ولم يكن ثمة من يستطيع أكثر منه الالمام بسهولة بتفاصيل التشريع ، وبالخيط الذى يربط بينها جميعا ، لكنه رحل عنا واختفت معه معظم المعلومات التى جمعها ، وكم تجعلنا الملاحظات التى أمكننا العثور عليها فى أوراقه والتى تمس هذا الموضوع نشعر بالأسف لأنه لم يتم عمله . اننى أبعد ما أكون عن القدرة على أن أحل محله ، لكننى سوف أحاول على الأقل أن أقدم بعض المعلومات المفيدة لمن يرغبون أن يأخذوا على عاتقهم مثل هذه الدراسات .

وقبل الدخول فى الموضوع ، سوف أقدم بعض الأفكار العامة عن صعوبة الرجوع الى أصل غالبية العادات السائدة فى مصر .

ليس ثمة سوى قليل من البلدان التى خضعت على الدوام لحكم الغير يمكن القول بأنها قد خضعت لهذا العدد من السادة الأجانب الذى خضعت له مصر ، وفى مقابل ذلك فليس ثمة بلد استطاع بفضل سطوة طباعه وتقاليده أن يسجل مثل هذه الانتصارات الكثيرة على غزاته وأن يقوم

---

(١) قرىء هذا البحث فى المعهد العلمى المصرى فى الأول من فريمير من العام التاسع (٢٢ نوفمبر ١٨٠٠) .

[illegible] والتلقية ، ولهـذا السبب [illegible] عاداتها وتقاليدها التى كانت [illegible] قدلها حتى ايامنا هذه، برغم القرون [illegible] الذين تتابعوا ، [illegible]

[illegible] حول عبادة [illegible] البعض قد أنكرها كلية(١) . وفى [illegible] الذين حدثوا عنها قد اخطأوا [illegible] التى تصاحب حصاده، [illegible] عبادة للعنب والقمح تلك [illegible] جنى العنب وحصاد [illegible]

[illegible] فيها البصل [illegible] وقد شاهدت هذا كهذا فى [illegible] فى كل ولاية البحيرة بل والاقاليم [illegible] ويتمتع بصل [illegible] يدعون ان البصل [illegible] ويقوم الفلاحون بحصاد المحصول فى [illegible] أيام وهى خمسة ايام عيد ، فيأتى [illegible] الى مكان العمل بأعداد كبيرة، وبعضهم [illegible] ويخاصة الحلوى والبلح [illegible] ولست اعلم ما ان كان حصاد [illegible] فى بقية اقسام مصر . وعلى كل فانه [illegible] هذه العادة الى عيد مماثل [illegible] الرجالة [illegible] الملوقه ، [illegible]

وبالاضافة لذلك ، فإنه من [illegible] وأن [illegible] ذلك اقل غموضا ، [illegible] الاولاد ان يرزقن بالابناء [illegible] أنهن [illegible] حزنهن(١) . ومن جهة أخرى ، فإننا نعرف أن [illegible] الظاهرة [illegible] عند المصريين ، الذين تعبر عاداتهم [illegible] الدلالة على الحزن الشديد .

واخيرا فإن الرسوم [illegible] ([illegible]) وتلك الموجودة فى كهوف [illegible] تدرك ذلك [illegible] الذى يقوم بصنع بعض الآنية والادوات وبعض فنون [illegible] القديمة ، وبين مثيلاتها عند شعوب مصر الحديثة : [illegible] والزير [illegible] من الطين الاحمر [illegible] الاوانى [illegible] اليوم بنفس الشكل الذى كان عليه [illegible] .

وتبدو هذه التشابهات التى [illegible] كى تجعلنى اعتقد أن اصل كثير من العادات والتقاليد الحالية تعود الى عصور بالغة القدم وربما سوف تبقى [illegible] والتقاليد الى مستقبل غير مرئى .

ومع ذلك فإنه [illegible] (أى تشابهاته فى صنع اصل) [illegible] والعادات ، [illegible] السلطان سليم الاول . وفى الواقع فإنه [illegible] الكثيرون أن يقوموا بها حول اصل [illegible] من [illegible] على وجه التقريب — لابد من [illegible] السلطان [illegible] إليه احاديث العامة كل القوانين التى يعمل بها حاليا فى [illegible] ذلك فقد أوضح لنا الاستاذ فورييه Fourriar ان [illegible] من هذه القوانين بل انه لم يكن ليستطيع أن يفعل ذلك ، كما أثبت أن [illegible] الاسئلة التى [illegible] انها من وضع سليم ليست إلا من وضع خلفه سليمان الاول والباشوات الذين حكموا مصر نيابة عنه ، كما [illegible] الذى تقوم عليه احاديث العامة حين بين ان سليمان كان يتصرف على الدوام باسم والده سليم

---

(١) رأيت ومعى كثيرون من اعضاء لجنة العلوم والفنون هذه المشاهد فى الاقصر .

(*) الكاتب حاليا .

وهو الرجل الذى حفرت انتصاراته الكبيرة ذكريات عميقة فى عقل الشعب المصرى .

ولقد تدم لنا المسيو فوربيه — بينما هو يواصل قراءاته عن الثورات التى قامت بها مصر وعن تقاليد مختلف طبقات سكانها — كل ما أمكنه جمعه، ماسا بنظام ادارة الإراضى التى تعود فى معظم تفاصيلها الى مثابرة الأقباط . كما قدم لنا المسبو فوربيه لمحة عامة عن ظروف الفلاحين وعن نظام الملكية (*) .

إن الغاية التى الضعها على عاتقى هنا هى ان آخذ هذا الجزء من اللوحة التى رسمها وان انميها بكل العناية التى تقتضيها ، وبذلك اصل الى عرض لنظام ادارة الأرض الزراعية .

وسوف لا اعتبر المماليك فى البداية الا كمجرد ملاك للارض، وسوف نرى بعد ذلك مقدار الضرائب التى كانوا يحصلونها كحكام(١) .

١ — الوسائل المختلفة التى تملك بها الأرض
أنواع الملكية : الضرائب الرئيسية

يوجد فى مصر ثلاث طبقات من ملاك الأراضى الزراعية : الفلاحون (فلاح) ، الملتزمون (ملتزم) أو السادة ، واخيرا المساجد أو ملاك الأراضى الموقوفة .

ان معظم الفلاحين فى أية قرية هم ملاك اراضيها ، اى ملاكها الحقيقيون، بمعنى انهم يستطيعون ان يهبوها أو يبيعوها الى فلاحين آخرين(٢)

(*) انظر مقدمة المسيو فوربيه سكرتير المجمع العلمى المصرى للوحات وصف مصر التى نشرت مقدمة للطبعة الثانية من المؤلف الضخم والتى نشرناها نحن ملحقة بالمجلد الأول من الترجمة العربية فى طبعته الثانية تحت عنوان مصر والحملة الفرنسية . (المترجم)

(١) ينبغى أن أوضح اننى سأفترض فيما يلى أن مختلف القوانين والعادات ماتزال سارية بأكملها، ذلك لأن هدفى هو أن ابين حالة الأمور كما كانت قبل مجىء الفرنسيين الى مصر .

(٢) نادرا ما يبيع الفلاحون ارضهم لأن الأراضى عادة بخسة القيمة ، واذا ما أصبح فلاح ما حائزا على وسائل الزراعة فانه يحصل على الأرض دون شرائها . وفى نفس الوقت فانه من المؤكد ان الفلاحين كان حق بيعها، ولن نعدم امثلة على ذلك .

ومهما كانت التغييرات التى تصيبها ، تبق على الدوام مقيدة بضريبة ، ويحمل الشخص الذى تؤدى اليه هذه الضريبة اسم : ملتزم أو سيد . وهو فى الواقع سيد هذه الأراضى اذ هو يستطيع أن يزيد أو ينقص من قدر الضريبة التىيحصلها من هذه الاراضى(١) ، كما انه يستطيع أن يعطيها أو يبيعها لملتزم آخر ، كما أن هذه الأرض تصبح من بعده ملكا لأبنائه، ثم انه فى النهاية يضمها الى ملكه الخاص اذا ما مات الفلاح المالك دون وريث،وهو الأمر الذى لايحدث بخصوص أنواع الملكيات الأخرى التى يمتلكها الفلاح حيث إن منزل الفلاح وأثاثاته وقطعانه تؤول فى حالة موته الى بيت المال وليس إلى الملتزم .

وعندما يموت الملتزم ، ينبغى على أولاده ، حتى يحصلوا على حق ارث املاكه ، أن يحوزوا موافقة الباشا ، وكانوا يحصلون على هذه الموافقة بأن يدفعوا له ضريبة محددة ، كان الاتراك ينظرون اليها — أى الى هذه الضريبة — باعتبارها شكلا من اعادة الشراء للارض وبدون ذلك تعود الأرض لتصبح من حق بيت المال . واذا ما مات مالك دون أن يخلف أبناء أو يكتب وصية فان ممتلكاته تؤول الى بيت المال ، ولكن اذا ما كتبت وصية فان تنفيذها يقع علىعاتق من كتبت لصالحهم ايا كانوا،وبذا يكون عليهم أن يدفعوا الضريبة الى الباشا .

ولست أود هنا وأنا اتحدث بشأن المواريث أن احاول التعريف بها لايضاح كيفية اكتساب الناس حق ملكيتها ، فسوف تواتينا الفرصة للعودة الى هذا الموضوع نفسه عند الحديث عن وظائف الأفندية (أفندى) .

وعندما يجد فلاح ما نفسه عاجزا لحد لا يستطيع معهان يزرع كل اراضيه فانه يقوم برهن جزء منهانظير مبلغ معين يستغله فى زراعة الجزء من الأرض الذى احتفظ به،وعندما يستطيع ان يرد المبلغ الذى حصل عليه فان الرهن يتوقف وتعود الأرض التى رهنها الى حوزته : ويسمى هذا النوع من الرهن : الغروقة .

ولا يستطيع الملتزم أن ينزع من الفلاح الأرض التى يزرعها مادام —

---

(١) ربما لم تكن هذه الزيادات سوى انتهابات ، لكن هذه الانتهابات ظلت تمارس لوقت طويل لدرجة أن حق فرضها لم يعد يلقى مجرد الممانعة أو الاستنكار .

على الأقل — لم يلمس أن الفلاح غير قادر على زراعتها — فى الحالة المخالفة — وما دام الفلاح نتيجة لذلك يقوم بدفع الضرائب المقررة ، لكن الفلاح يحتفظ بحق العودة الى ارضه اذا ما تملك الوسائل التى تمكنه من سداد ما عليه من ديون متأخرة الى الملتزم(١) ، وبمعنى آخر فان الفلاحين يتمتعون بكل الحرية فى اختيار نوع المحاصيل التى يريدون أن يزرعوها فى أراضيهم فهم يستطيعون ان يبذروها بالقمح او الأرز أو الذرة حسبما يتراءى لهم بشرط ان يدفعوا الضريبة للملتزم وليس للاخير أن يرغمهم على شىء .

والضريبة التى ينبغى على الفلاح أن يدفعها عن ارضه للملتزم هى ما يطلق عليه اسم المال الحر ، وهى على الدوام اكبر من ضريبة المال الميرى ، وتسدد من ضريبة المال الحر هذه الضريبة المقررة للسلطان (الميرى) وما يتبقى بعد تسديد هذا الميرى يكون من حق الملتزم ويحمل اسم الفايض (الفايظ) .

وقد تقررت ضريبة الميرى على يد السلطان سليم او بالأحرى على يد خليفته حسب الملحوظة التى سبق أن قدمناها . ويبدو أن الأتراك بعد غزوهم لمصر قد وجدوا — عندما أرادوا أن يفرضوا ضريبة على الأراضى لصالح سلاطين القسطنطينية — أن سجلات الضرائب كانت قد أحرقت ، واستوجب الأمر عندئذ أن يلجئوا الى المعلومات التى كانت لدى اوجاق الجاويشية حول هذا الموضوع،وتبعا لذلك فقد قرروا الميرى لبس بحسب فدان الأرض ولكن بالنسبة للقرية وحدة واحدة،ثم اقتسم الملتزمون فيما بينهم هذه المهمة بحسب مساحة ممتلكاتهم . وهذا التقسيم المبدئى للميرى بحسب القرى هو الذى استمر العمل به حتى اليوم . وقد كان الأمر بالغ الحيف حتى ان نسبة من المال الحر تبلغ ٥٠ مدينى كان يخصص منها من للميرى ما يتراوح فقط بين ٢ الى ٢٠ مدينى .

وقد قرر سليمان — كذلك — فى بلاد الصعيد نظام دفع الميرى عينا أى بمواد غذائية حتى يتسنى تأمين طعام جنود فرق الأوجاقلو ، التى أعاد تنظيمها . وما تزال لدى بعض التفصيلات حول جمع واستخدام الميرى سوف اعرضها عليكم عندما يحين وقت الحديث عن الادارة المختصة بانفاق الميرى .

---

(١) يتوقف هذا كثيرا على ارادة الملتزم الخاصة .

ولقد استقر نظام المال الحر حسب عادة قديمة من عادات البــلاد والتى اتاح لها السلاطين العثمانيون أن تستمر بعــد أن أقروها بدورهم . ويبدو للوهلة الأولى ان هذه الضريبة كانت الضريبة الوحيده التى كان يحق للملتزمين تحصيلها بشكل قانونى ، لكنهم بعد ذلك وبالتدريج أخذوا يرغمون الفلاحين تحت ادعاءات مختلفة على زيادة نسبة هذه الضريبة ثم فرضــوا عليهم ضريبتين جديدتين : الأولى ، ويبدو أنها لم تقرر الا منذ حوالى مائة عام وتسمى المضاف ، والثانية، وهى لم تكن فى البداية الا نوعا من الهدايا التى كان يقدمها الفلاحون الى الملتزم،لكنها تأكــدت بالتدريج وزادت حتى أصبحت فى بعض الجهات تدر أكبر مما يدره الفايض (الفايظ) ، ولكنها لم تتقرر بشكل منتظم الا منذ حوالى خمسين عاما،وكانت تعرف باسم : البرانى، اى الضريبة غير الاعتيادية .

وفى النهاية ، فان هاتين الضريبتين — حيث إنهما يعودان لنفــس الأصل-كانتا تختلطان عادة بحيث أصبحتا ضريبة واحدة تحمل تبعا لاختلاف البلاد ولكن بدون اختلاف فى المعنى-اسم : المضاف او البرانى .

وقد استقرت هاتان الضريبتان الجديدتان على وجه الخصوص فى عهد على بك . إذ استولى هذا المملوك — بعد أن قضى قضاء شبه تام على فرقة الأوجاقلو ، والتى كان معظم أفرادها من كبار الملاك — استولى على القرى التى كانوا يمتلكونها ووزعها على أتباعه ، وزاد كثيرا من أعباء الفلاح وسار على نهجه فى ذلك كل الملتزمين الذين كانوا يدينون له ببعض الديون وذلك بأن فرضوا ضرائب جديدة وجائرة . وبعد عهده هذا ، جاء نظام محمد بك ، وبخاصة فى عهد ابراهيم بك ، ليتيح زيادات جديدة فى دخــول الملتزمين ، ومع ذلك فقد بقى نفر قليل للغاية من هؤلاء الملتزمين ، من أولئك الذين كانــوا يرون أن هــذه الضرائب الجديــدة ظالمة أو أولئــك الذين لم يكن بمقدورهم تحصيلها — يكتفون بتحصيل المال الحر . وبهذا ، ومع استبعاد هذه الاستثناءات — وصل جشع الملتزمين ، وبخاصة المماليك منهم ، الى مداه .

انتهيت الآن من شرح الطريقة التى كان الفلاحون يتملكون بها الأرض وكيف كانت ملكيتها تقسم بينهم وبين الملتزمين ، وسأتحدث الآن عن جزء آخر من الملكية كان فى حوزة هؤلاء الملتزمين،وهو يشتمل على الأراضى التى تتبعهم كلية والتى لم تكن تدفع من ضرائب الا ضريبة الميرى . وهذه الأراضى التى

كانت تعتبر ملكية خاصة للملتزمين كانت تسمى أرض الوسية أو أرض الملاك . ولم يكن هذا النوع من الملكية موجودا فى الصعيد بعد المنيا ، ولكن يمكن القول عامة أن أراضى الوسية فى مصر السفلى ، كانت تبلغ حوالى ١/١٠ من أراضى الفلاحين (*) .

وقد حاول الأتراك دون ان يكلفوا أنفسهم عناء الرجوع الى أصل نظام الملكية تفسير ذلك بأيسر السبل ، فظن الكثيرون أن الملتزمين هم مجرد فلاحين عند المالك الأكبر (السلطان) ، وأن ايجار الأرض هو ما يدفع تحت اسم الميرى وأن فائدة هؤلاء الملتزمين تتكون من : ١ — الفايظ ٢ — اجمالى دخل أراضى الوسية . وعلى هذا النحو كذلك فسروا ضرورة قيام الملتزمين بدفع ضريبة الارث الى المالك الكبير (الوالى — السلطان) . لكن هذا التفسير ليس صحيحا . واليكم ما يمكن أن نستنتجه من فحص السجلات القبطية وما يعرفه كذلك الشيوخ المتعلمون وهو ما سوف نقدمه كملخص لكل ما قلته للتو .

تقدر الضريبة المسماة : المال الحر على مجموع أراضى القرية . ويحوز الفلاحون جزءا من هذه الاراضى يسددون عنه للملتزم المال الحر . أما الجزء الثانى فيزرعه الملتزم بنفسه أو يؤجره ويعود اليه كل ناتج هذا الجزء . ومن المال الناتج عن هذين الجزئين يدفع الملتزم الميرى المقرر على قريته من قبل الحاكم ، أما البرانى فهو ضريبة مستحدثة اضافها الملتزمون .

نتحدث الآن عن النوع الثالث من الملاك،وهم كما سبق ان بينت ملاك الأوقاف وملكيات المساجد .

كل ملكيات المساجد قد وهبت اليها فى فترات مختلفة ، وقد تمت معظم هذه الهبات قبل مجىء سليم بوقت طويل ، بل ومنذ الأوقات الأولى لاستقرار الاسلام فى مصر . وعندما تقررت ضريبة الميرى لم تخضع ملكيات المساجد

(*) يذكر الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن فى كتاب الريف المصرى فى القرن الثامن عشر أن هذه النسبة لم تكن ثابتة كما انها كانت أكبر من ذلك عادة فكانت تبلغ النصف أو الثلث أو الربع وأحيانا كانت تتجاوز النصف كما حدث فى قرية ميت بشار . (المترجم)

لهذه الضريبة مطلقا ، وظلت حرة تماما من أية ضريبة كما كانت من قبل وكما ظلت حتى اليوم .

وتحمل المخصصات الدينية بالغلة العربية عادة اسم الأوقاف،ومعناه ما ينبغى أن يترك وما ينبغى أن يظل هكذا الى الأبد . ولعطاءات الأراضى اسم خاص هو الرزقة أو الاحسان ، لكن هذا العطاء لا يمكن أن يتم قبل الحصول على موافقة الباشا،وهى موافقة قلما كانت ترفض ، لأن هذه العطاءات ، وكل الأوقاف على وجه العموم ، كانت لها على الدوام أغراض دينية أو خيرية ، كما كان بعضها يخصص لصالح المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) ، أو للمستشفيات والمدارس .. الخ.كما كان يخصص بعضها لصالح بعض العبيد أو لبعض العائلات وأحيانا لعائلة مؤسس الوقف نفسه .

وقد بدأ تأسيس هذا النوع الأخير من الأوقاف ليتفادى الناس على وجه الخصوص اغتصاب المماليك ، فعندما كان يريد مالك ما أن يؤمن لخلفه جزءا من ثروته ، فقد كان يجعل منها وقفا لصالحهم ، وبهذه الطريقة كان خلفاؤه يحصلون على فائدة أخرى وهى اعفائهم من دفع ضريبة الوراثة للمالك الكبير ، ولهذا السبب فنحن ندهش من أن كثيرا من الملاك لم يجعلوا من ممتلكاتهم أوقافا . ومع ذلك فقد كان ثمة ما يمنعهم من ذلك وهو أن الاوقاف ليست قابلة للبيع والشراء ، فهم بوقفها ينزعون عن أنفسهم ، وكذلك عن خلفهم ، الى الابد،حق بيع هذه الثروات حتى فى حالة ما اذا احتاجوا لذلك، ومن جهة أخرى فمن المحتمل أن الحكومة — عندما سمحت بانشاء بعض الاوقاف — لم تشأ أن تحول كل الملكيات على هذا النحو ، لذا فقد كان على الملتزمين عندما كانوا يريدون انشاء مثل هذا النوع من العطاءات ، وحتى يحصلوا على موافقة المختصين أن يخصصوا جزءا من هذه العطاءات لمنشآت دينية على أن يؤول ما يتبقى من هذا العطاء الى المنشآت الدينية كذلك فى حالة انقراض ذريتهم .

وفى العادة ، عندما كان ينشىء ملتزم ما رزقه ، فإنه كان يأخذ الأراضى التى خصصها لذلك من أراضى الوسية ونادرا ما كان يأخذها من أراضى الفلاحين الذين يدفعون له الضريبة ، ومع ذلك ، فقد كان فى كلتا الحالتين يتنازل عن كل الضرائب التى كان يحصلها منها بل وكان يعفيها أيضا من ضريبة الميري وذلك بأن يتكفل هو بأن يسدد ما عليها من ضريبة من بقية دخله . وعلى الرغم من ذلك — وهذا فى الحقيقة أمر نادر الحدوث — فانه

اذا ما قام أحد الملتزمين بايقاف جزء كبير من ممتلكاته على مسجد ما أو أوقف عليه قرية بأكملها فان المسجد فى هذه الحالة يصبح ملتزما ويكون مكلفا بدفع الميرى المفروض على أراضى هذه القرية ، وتلك هى الحالة الوحيدة التى تكون فيها الأراضى المملوكة للمساجد خاضعة لهذه الضريبة المستحقة للمالك الكبير ، اذن فيمكننا أن نقول على وجه العموم أن الممتلكات العقارية الخاصة بالمساجد و المنشآت الدينية الأخرى كانت معفاة من كل انواع الضرائب ، وكان كثير من ملاك هذه المنشآت حتى يحصلوا على حماية الباشا فى عملية جمع دخولهم يدفعون له ضريبة صغيرة تسمى : مال حماية .

وكما قلت فانه لا المساجد ولا ملاك الأوقاف الآخرون كان لهم حق بيع هذه الأراضى ، لكنهم كانوا يستطيعون أن يهيئوا لها نوعا من التنازل يسمى : المدة الطويلة — وكانت هذه المدة تستمر فى العادة تسعين سنة . وكان هؤلاء الملاك يحصلون من هذا البيع المؤقت على مبلغ معين يدفع دفعة واحدة ثم على ايجار سنوى يسمى : أجر وهو يستخدم على نحو ما كحفظ لحق الملكية فى هذه الاراضى او العقارات . واذا ما حدث بعد مضى هذه التسعين عاما أن ظلت الأراضى أو المنازل التى بيعت بهذه الطريقة على نفس الحالة التى كانت عليها من قبل فانه يكون من حق المالك ان يستعيدها . اما اذا كانت الأرض قد زرعت بالأشجار ، أو اذا كانت قد أدخلت تحسينات على المنزل ، فان العقار يظل فى حوزة الشخص الذى أدخل هذه التحسينات بشرط أن يظل يدفع على الدوام الايجار السنوى الى المالك الأصلى، واذا ما نشأت منازعات بين الطرفين فان القاضى يقوم بالفصل فيها .

ولم تكن المساجد تستغل عائد مثل هذا البيع الا لكى تشترى عقارات أخرى ، كما أن هذا التحويل لم يكن يسمح به الا للممتلكات التى تكون فى حالة سيئة . ومع ذلك فيمكن لنا أن نستنتج أن كثيرا من ملاك الأوقاف كانوا يبيعون فى معظم الأحيان بهذه الطريقة عقارات ذات قيمة عالية ، ولا يمكن تصور ذلك الا على أنه وسيلة للافلات من القانون، حيث إن مثل هذا البيع لم يصبح أمرا معتادا الا بالنسبة للاوقاف التى لم تكن بحكم اسمها ونظامها لتسمح بالتصرف فيها .

كان لكل وقف ناظر أو مدير ، وهو فى العادة واحد من نسل مؤسس الوقف ، وكان هذا الناظر يقوم عادة بجمع ريع الوقف ويقوم كذلك بتوزيعه حسب ارادة مؤسسه كما سجلها فى حجة الوقف .

وكانت كل الرزق تسجل بمعرفة أفندى مكلف خصيصا بهذا الأمر ولم يكن هذا الأفندى عضوا فى هيئة أفنديه الميرى الذين سأتناولهم بالحديث فيما بعد . ولكن قبل أن أنتقل الى فقرة أخرى سأتوقف قليلا كى أقــدم ملاحظة تبدو لى ذات فائدة جمة .

نستطيع أن نستنتج أن مختلف الملاك ، فى ظل نظام قمع كهذا الذى كان موجودا فى مصر منذ وقتطويل لم يكونوا ليستشاروا فى وضــــع الضرائب — برغم أن كل واحد منهم كان سيدا فى دائرته — بحيث تكون الضرائب متماثلة والعادات (*) موحدة فى كل أنحاء الدّولة . لذا فقد كانت هناك اختلافات كثيرة بهذا الخصوص من منطقة لأخرى . ومع ذلك فقد كانت معظم العادات الخاصة بكل قرية مدونة فى سجلات بالغة القدم يســبرون حسب ما جاء بها أو يبتعدون عنها قليلا أو كثيرا بحسب الظروف .

ومن بين معظم المعلومات التى جمعتها ، اخترت أكثرها عمومية وهى التى تشكل نظام الملكية والضرائب ، وسوف أواصل على هذا النحو فى كل ما سيلى ذلك دون أن أهمل الأمور الخارجة عن المألوف اذا ما كانت هامة ويعمل بها فى أماكن كثيرة ، وحيث إن الكثير من هذه الأمور غير المــألوفة كان يعمل بها فى صعيد مصر فسوف أخصص لها فقرة خاصة .

٢ — ادارة الأراضى

كانت أراضى الفلاحين وكذلك أراضى الوسية فى كل قرية مقســمة كل منها الى ٢٤ جزءا . وكانت هذه الـــ ٢٤ **جزءا** تعود الى ملتزم واحد أو الى عدة ملتزمين . وكان يبلغ نصيب قرية فى بعض الاحيان عشرين ملتزما . ويتملك الملتزم على الدوام من قراريط وأجزاء من قيراط من أراضى الوسية بقــدر عدد القراريط أو أجزاء **القيراط** التى يمتلكها من أراضى الفلاحين . وقد استقرت هذه العادة لحد أن الملتزم لم يكن يستطيع مطلقا أن يبيع جزءا من أراضى الفلاحين دون أن يبيع جزءا مساويا من القراريط من أرض الوســية .

ومن السهل أن نعثر على سبب هذه العادة وأن ندرك كيف كانت هذه

(*) نوع من الأتاوات وكان يحصلها الملتزمون وفئات أخرى من رجال السلطة كما سيتضح فيما بعد . المترجم

المـــادة مفيدة لكل من الفلاحين والملتزمين على حد سوء . واليكم كيف امكنني استنتاج ذلك .

حيث إن عائد أراضي الوسية هو نسبيا الأهم والأكبر بالنسبة للملتزم بينما زراعتها تشكل عبئا باهظا على الفلاحين في بعض الاحيان حيث هم في بعض المناطق يرغمون على زراعتها بطريق السخره . وحيث إن أراضي الفلاحين في مقابل ذلك هي الأكثر نفعا لهؤلاء ، فنحن من هنا نستطيع أن نرى كيف يهم الملتزمون أن يتملكوا بقدر الامكان ما يستطيعون من أراضي الوسية ، وكيف يهم الفلاحون في نفس الوقت وبنفس القـــدر الا يدعوا الملتزمين يتملكون الا اقل ما يستطيعون من هذه الأراضي . وهكذا ينشـــأ توازن يحفظ حقوق الطرفين . لكن هذا التوازن سوف يزول اذا لم يرغب الملتزمون انفسهم في الاحتفاظ بهذا الحق في العقـــود التي يبرمونها فيما بينهم . وفي واقع الأمر ، فاذا كان البائع لا يريد أن يبيع ســـوى أراضي الفلاحين ، فان المشتري في المقابل لا يريد أن يشتري الا أراضي الوسية . ومن اختلاف المصالح هذا ينتج بالطبع الحل الوسط وهو الذي يقضي بأن يلحق دائما بعدد معين من قراريط أرض الوســـية عددا مساويا من قراريط ارض الفلاحين .

من هذا الشرح نستطيع أن نرى أن الملتزم لا ينبغي أن يتملك أراضي الوسية فقط . ولسنا نعدم أمثلة لتاكيد ذلك وان كنا نجد من جهة اخرى أن أراضي بعض القرى لاتشتمل على أراضي وسية .

أعود الآن الى ادارة الاراضي وسوف أتحدث على التوالي عن أراضي الفلاحين ، وأراضي الوسية ، وأراضي المساجد .

يختار كل ملتزم من بين الفلاحين الذين يمتلكون الاراضي التي يدفـــع منها حصته في الضرائب ، مزارعا رئيسيا ليصبح رئيسا للاخرين ويحمل اسم شيخ البلد . ويحدث ايضا أن تكون ممتلكات الملتزم في قرية واحدة بالغة الاتساع ، وعندئذ يقوم هو بتقسيمها حسبما يتراءى له الى أجزاء عديدة ويعطي رياستها لعدد مساو من المشايخ المختلفين ، مما يؤدي إلى أن يوجد في بعض القرى-سواء كانت أراضيها تتبع ملتزما واحدا او عدة ملتزمين-عدد كبير من مشايخ البلد يبلغ في العادة من ٨ــ١٠ مشايخ ، وليس من النادر أن نرى هذا العدد يرتفع ليصل الى ما فوق العشرين .

ويمارس شيخ البلد مهمة الادارة (البوليس) على الفـــلاحين الذين

يزرعون جزء الاراضى الذى يشرفون عليه ، ومنه وحده يطلب الملتـزم عائد الضريبة حيث قد ترك له مهمة جمعها من ايدى الفلاحين . ونتيجـة لذلك فللشيخ الحق فى أن يأمر بضربهم بالعصى او بحبسهم فى منـزل أرض الوسية(١) حتى يسددوا ما عليهم من ضرائب ، ومن جهة أخرى فان الشيوخ بدورهم أكثر حرصا على الا يهملوا أية وسيلة تؤدى بالفلاحين أن يدفعـوا ما عليهم،ذلك أن الملتزم سوف يوقع جزاءه عليهم اذا ما أحس منهم بأى تراخ فى تحصيل الضرائبه :

وعندما يموت أحد مشايخ البلد فان الملتزم يختار عادة خلفا له واحدا من ابنائه يخلع عليه « شال وبنيش » ، ويقدم له الشيخ الجديد بدوره كى يشكره هدبه تسمى : تقدمه،وهى عبارة عن حبوب ونقود فضية بل وتقدم احياناً فى شكل حصان ، وزيادة على ذلك فثمة قرى يلزم مشـايخها بأن يعطوا للملتزمين عددا معينا من البوطاقات(٢) ، وفى قرى أخرى لا تقدم مثل هذه العطاءات الا مرة كل ثلاثة أو أربعة اعوام ، وفى بعض القـرى لا تسرى مثل هذه العـادة .

وبخلاف ذلك فلكل من المشايخ وكبار الملتزمين-مثل البكوات وكبـار المماليك-مباشر أو وكيل يختارونه كما يتراءى لهم من بين الأقباط ، وكانت وظيفة المباشر الأساسية أن يشرف على الصرافين فى دائرته وأن يمسـك بدفاتر لتسجيل الدخول بمجرد تسديدها وكانت تودع لديه سجلات الميرى وواحد من كل من سجلات المال الحر(٣) والبرانى الخاصة بكل قرية ، وبالاضافة الى ذلك فهناك سجلان لهاتين الضريبتين الأخيرتين : واحد فى يد الصراف ويودع الآخر وهو الخاص بالفلاحين لدى الشاهد (*) .

وفى العادة لم يكن لكل قرية سوى صراف واحد يختاره المبـاشر القبطى ، والصراف هو الآخر وعلى الدوام قبطى ، وكانت مهمته تحصـيل الدخول والتأكد من قطع النقد وهو مسئول عن قيمتها ، وكان الصراف فى ضمانة المباشر، فهو مسئول عن تسديد ما قد يتبين من خطأ أو نقـص فى الايراد . ويعمل تحت رياسة المباشر القبطى كذلك عدد من الكتبة بحسب حجم مسـئولياته .

---

(١) حيث يقيم حكام القرية من المماليك

(٢) تساوى البوطاقة ٩٠ مدينى — وكل ٨٠ مدينى = فرنك واحد .

(*) ستوضح فيما بعد وظيفة الشاهد — المترجم .

(٣) لم يكن هناك سجل عام للمال الحر فى مصر .

وعنـــدما لا يكون للملتزم مبـــاشر فانه يقـــوم بنفســـه بتعيين صرافيـــه .

والشاهد على الدوام واحد من فلاحى القرية ، ويشترط فيه أن يعرف الكتابة والحساب ، وهو على نحو ما رجل الفلاحين فهو الذى يســـير مصالحهم ، وهو يمسك كشفا بالأموال التى دفعها الفلاحون على مـــدار العـــام لكى تخصم عند تحصـــيل الضريبة ، وليس للقرية الا شاهد واحد ويختار من قبل الفلاحين . وينبغى أن يحوز قبول الملتزمين أو أكبر هـــؤلاء الملتزمين نفـــوذا .

واذا حدث أن بعض قطع الأرض لم تصلها مياه الرى فان الملتـــزم يأمر بقياسها حتى لا يكلف الفلاحون الا بدفع الضريبة التى تتناسب مـــع مساحة الأرض التى يمكن لهم زراعتها ، وفى بعض الأحيان يرســـل لهذا الغرض مساحا قبطيا ، ولكن هناك فى معظم الأحيان واحدا من أهالى القرية، مكلفا بادارة زراعة أراضى الملتزم ويسمى : الخولى ، وهو الذى يقـــوم بمساحة الأرض وقياسها بينما الصراف يدون ويحسب . ويشهد هذه العملية شيخ البلد الذى تتبعه هذه القطعة من الأرض ، ويشهد هذه العملية أيضا القائمقام فى حالة كون قطعة الأرض التى لم ترو كبيرة المساحة .

وفى القرية التى يكون بها عدد من الملتزمين وبالتالى عديد من الخولة فان الخولى الأكثر نعلبما والأكثر نفوذا يكلف بالتمييز بين الملكيات الخاصـــة للزراع فى حالة ما إذا كانت سببا فى تفاقم النزاعات بينهم ، والخولى فى معظم الأحيان لا يعرف لا القراءة ولا الكتابة ويحتفظ بمعلوماته فى ذاكرته وحدها ، لذلك كان المعتاد أن يخلف الابن أباه فى وظيفة المســـاحة ، وفى نفس الوقت ، فانه اذا حدث أن ارتكب الخولى بعض الأخطاء فى قيـــاسه فان شيوخ البلد يبلغون أمره الى أقوى الملتزمين نفوذا ويرشحون له فى نفس الوقت رجلا قادرا على أن يحل محله ، عندئذ يعزل الملتزم الخولى المخطىء ويعين الرجل الذى رشحه الشيوخ خوليا بدلا منه .

وتدفع الأراضى المنزرعة نخيلا فى بعض البلاد بحسب مساحة الزرع وفى بلاد أخرى تحدد الضريبة على هذه الأراضى بعدد النخلات .

وتخضع العادات التى كانت متبعة فى ادارة أراضى الوسية لعدد كبير

من الاختلافات، اذ هى لا تختلف فقط من قرية لأخرى وانما تتنوع أيضا بحسب أهواء الملتزمين . وبرغم ذلك فاليكم ما كان يحدث فى العادة :

كان الملتزم اما أن يؤجر أرضه واما أن يزرعها بطريق السخرة . وفى الحالة الأولى يؤجر المالك أرض وسيته الى شيخ البلد الذى يدير فى نفس القرية زراعة أراضيه الأخرى . وثمن الايجار على الدوام أكبر من مجموع المال الحر والبرانى الذى تغله أراضى الفلاحين فى هذه القرية . وتتراوح هذه الزيادة من ١ — ٤ بوطاقات للفدان الواحد حسب جودة الاراضى وحسب اقترابها او بعدها من المدن ، لذلك كانت الأراضى المجاورة لبولاق تؤجر بسعر اكبر ارتفاعا .

وفى الحالة الثانية يكون للملتزم فى كل قرية من القرى التى تتبعه بصفة اساسية رجلان مكلفان بزراعة وحصد أراضيه (الوسية) ويسمى الأول : الخولى أو المشرف، ويسمى الثانى الوكيل أو المحصل .

ويقوم الخولى بالتنسيق مع مشايخ البلد بتوزيع الأرض على مختلف الفلاحين حسب حاجاتهم أو طلباتهم ، وهو — أو أى رجل آخر يوثق به — هو الشخص الذى تودع لديه الأموال اللازمة لدفع نفقات الفلاحين .

ويبدأ الوكيل القيام بأعماله عندما يحين وقت الحصاد ، فيمسك سجلا بكميات الحبوب المحصودة ويودعها فى بينه ويحضر معه شيخ البلد كشاهد، ويتلقى الفلاحون من ٤٥ الى ٦٠ مدينى عن زراعة الفدان الواحد . أما عن الحصاد فانهم يحصلون على مكيال من القمح او الشعير يساوى على أكثر تقدير ١/٢٦ من الأردب ، وذلك عن اليوم الواحد .

وفى الحالة الثالثة (*) ، وهى الحالة التى يتم فيها العمل فى أرض الوسية بطريق السخرة فان الخولى يظـــل على الدوام موزعا للاراضى ومشرفا على الزراعة، كما تبقى اختصاصات الوكيل بنفس الشكل الذى سبق أن أوضحناه .

وفى كل الحالات التى لا تؤجر فيها الأرض يقدم الملتزم كل الحيوانات

(*) من الواضح أنه كانت هناك ثلاثة طرق لاستغلال أرض الوسية :
١ — الايجار ، ٢ — الاستزراع بالاجر ٣-الزراعة عن طريق السخرة .
(المترجم)

اللازمة للرى وكذلك البذور اللازمة ، ويعهد برعايه الحيوانات الى حارس يسمى : كلاف . وفى القرى التى تزرع فيها اراضى الوسية بالسخرة يحصل الناس الذين يعملون فى الأرض بالمحاريث على اجر ، ويعيش على هذا العمل بالدرجة الأولى أشد طبقات الفلاحين بؤسا .

والفلاحون مجبرون على تطهير القنوات والترع الخاصة لكن ينبغى على الملتزم أن يدفع لهم بحسب الأجر الذى اقرته العادة . والخولى كذلك هو الذى يقوم بالاشراف على العمل .

وكما تدار أراضى الوسية تدار ايضا الأراضى المملوكة للمساجد وكل الأراضى التى تسمى رزقة،اى ان الناظر يقوم بتأجيرها او يعمل على زراعتها عن طريق خولى أو وكيل،وقد قيل لى أن الأراضى المملوكة للمساجد لا تزرع مطلقا عن طريق السخرة .

ولا أستطيع أن أنهى الحديث عن ادارة الأراضى دون أن أتناول بالحديث مختلف طبقات السكان وكذلك الطريقة التى تمارس بها حراسة الأمن بينهم .

هناك فى القرى بخلاف الفلاحين التابعين للمشايخ ، فلاحون لا يمتلكون ارضا ويستخدمون كأجراء عند أولئك الذين يتملكون الأراضى . وكثيرا ما يحدث أن يصبح هؤلاء الملاك انفسهم أجراء فى السنوات التى لا تصل الى اراضيهم فيها مياه الرى ، فهم عندئذ يتوجهون الى القرى التى يمكن أن تقدم لهم فيها فرص العمل . وليست هناك قرية مهما كانت صغيرة لا يوجد بها تجار للاقمشة الشعبية والمأكولات وكذلك بعض صناع الفخار (القلل والجرار) ، وبعض العمال بالاضافة لبعض البنائين والتجار ... الـخ .

ويوجد فى كل قرية شيخ بلد أو يمكن القول بأنه مأمور التصفية أو وكيل الدائنين (السنديك) فى البلدة،فهو الذى يقوم على وجه الخصوص بوظائف قاضى المصالحات كما أنه يفصل فى الخلافات التى لها بعض الأهمية، وتمتد سلطته ليس فقط الى كل الفلاحين المزارعين وانما الى سكان القرية. ومنصبه هذا ليس مجرد منصب شرفى فهو يحصل عن طريقه على بعض الفوائد . فعلى سبيل المثال ، اذا جاء المماليك ليطلبوا مبلغا من المال أو كمية من الأغذية فان شيخ البلد الأول يعمل على جمعها دون أن يدفع هو من ثرواته ولا ينازعه أحد فى حقه هذا. واذا كان من الصحيح أن المماليك

كانوا يهتمون بأن يحولوا دون أن يصبح مشايخ البلد الأول شديدى الثراء وذلك بأن يقرروا عليهم وحدهم من وقت لآخر بعض المغارم ، فقد ظل مع هذا — منصب الشيخ الأول على الدوام فى أيدى أكثر اهل القرى ثراء . وكان هذا المنصب ينتقل فى العادة من الأب الى الابن لكن ثمة أمثلة على خروج المنصب من اطار عائلة ما ليذهب الى أخرى اكثر ثراء واكثر نفوذا .

ومع ذلك فقد كانت توزان سلطة شيخ البلد ، واحيانا سلطة الشيخ الأول ، سلطة واحد من المزارعين يكون أكثر ثراء من الآخرين ، يعرف كيف يجمع حول نفسه تجمعا . ويرفض هذا المزارع احيانا أن يدفع الضرائب المقدرة عليه ويرغم الصراف على الهروب من البلدة ويلجأ هذا الأخير الى الملتزم التابع هو له ، فيتخذ الملتزم حينئذ الوسائل اللازمة لتحصيل عوائده .

ويحمل الخادم الأول عند شيخ البلد اسم : المشد ، وهو على نحو ما بمثابة بواب أو حارس للقرية ، فهو يعرف ويدل الغرباء الذين يصلون الى القرية على مسكن كل واحد من أهلها ، ويتعهد بارشادهم الى الأمور التى يمكن أن يكونوا هم فى حاجة لمعرفتها : كالطعام ودواب النقل .. الخ ، واجره المنظور عبارة عن بضع مئات من المدينى ، يدفعها له الملتزمون لكنه يعرف كيف يزيد من امتيازاته عن طريق الهدايا التى يحصل عليها مقابل الخدمات التى يؤديها .

واليكم الآن قائمة بالأجور المقررة لمختلف الشخصيات العاملة فى ادارة الأراضى التى تعرضنا لها فى هذا الفصل :

صراف القرية : ويدفع له الفلاحون أجره :

١ — فهو يحصل على ٢ مدينى مقابل كل ٩٠ مدينى يحصلها .

٢ — وهو اما ان يحصل على طعامه من الفلاحين ، ويقوم المشايخ بتوزيع هذه التكلفة على الفلاحين أو يتلقى بدلا من ذلك فى نهاية العام مبلغا ثابتا تحدده العادة .

٣ — واخيرا فهو لا يعطى ايصالا بالـ ٩٠ مدينى التى حصلها الا اذا كان قد حصل بالفعل ٩٥ مدينى . وتحصل هذه الاتاوة لصالح المباشر القبطى حين يكون للملتزم مشد ، وفى الحالات الأخرى تكون هذه الحصيلة

عادة اقل(١) .

ويحصل **الشيخ** من المالك فى مقابل الخـدمات التى يؤديها له على اعفاء من البرانى عن قطعة الأرض التى يحوزها ، وهى قطعة محددة فى كل قرية ، وزيادة على ذلك فان المالك يقـدم له من ٣٠٠ الى ١٠٠٠ بارة كمنحة ، ويقدم له هذا المبلغ دلالة على الرضا أكثر منه كأجر ويسـمى : مساهمة المشايخ .

ويعفى **الشاهد** أيضا من البرانى عن جزء من أراضيه،ويحصل علـى اجر ضئيل من الفلاحين بحسب مقدار الضريبة المقررة على كل منهم،لكن الأمر يختلف كثيرا من قرية لأخرى .

ويحصل **المشد** من الملتزم على ١٠٠ أو ٢٠٠ مدينى،ويسمى هذا الأجر: عادة المشـد.

ويدفع الملتزم كذلك الضريبتين الآتيتين :

عادة سقا دار الوسية : وهى تقرر لسقاء منزل المالك اذا كان يقطنـه الملتـزم .

عادة خدامين الوسـية : وهؤلاء الخدم هم : الخولى ، الوكيـل ، الكلاف ، المزارعين .

ويحصل **الخولى** من الملتزم فى مقابل العناية التى يقوم بها نحو زراعة اراضى الوسية والعناية بالترعة على :

١ — الاعفاء من البرانى عن بعض أرضه .

٢ — ١/٣ المنحة المخصصة للشيخ،كما يعطيه كل واحد من الفلاحين كذلك ١/٢٦ من الأردب من الحبوب باعتباره مساح القرية .

ويدفع أجر **الوكيل** عينا ويصل أجره السـنوى الى ١٠ أرادب من الحبـوب.

وحيث إن **الكلاف** مجرد خادم بسيط فان الملتزم يدفع أجـره حسب الاعتبارات الخاصة التى تقوم بينهما .

---

(١) عدد المسيو جيرار فى دراسة عن الزراعة والتجارة فى صعيد مصر الوسائل التى كان يلجأ اليها الاقباط لكى يحصلوا لأنفسهم جزءا كبيرا من دخول مصر .

واخيرا ففى المناطق من أرض الوسية التى تزرع بالسخرة يخصص الملتزمون — ان لم يكونوا شديدى الجور — كميات صغيرة من الحبوب الى اشد الفلاحين بؤسا .

٣

عن بعض العــادات الخاصة فى صــعيد مصر

توجد اختلافات شديدة كما قلت بين عادات الصــعيد وعادات مصر السفلى . وتعود هذه الاختلافات فى جزء منها الى الصعيد ذاته والى نمط الزراعة التى تقتضيها طبيعة أرضه،ومع ذلك فينبغى أن ننسب هذه الاختلافات اساسا الى بعد الصعيد-عن العاصمة والى الاضطرابات المستمرة التى كان الصعيد مسرحا لها،ذلك انه يبدو أن اضطرابا كبيرا كان قد سيطر على ادارة كل انحاء هذه المنطقة منذ غزو عرب الهوارة حتى الوقت الذى اصبح فيه الشيخ همام رئيسا لهم . وفى أثناء الوقت الذى كان فيه الشيخ همام قويا تم ادخال كثير من التحسينات فى الزراعة على يديه وانتظمت الادارة بشكل عادل ، ولكن بعد موته حين أصبحت هذه البــلاد مأوى للمماليك اللاجئين عــاد الاضطراب الى كل مكان واضيفت تعديلات جديدة الى التعديلات التى سبق ادخالها والتى لا يزال الصعيد يحتفظ بجزء منها .

ومهما كانت هناك من أسباب يمكن لها أن تغير من عادات الصعيد ، فسوف اعرض هنا للاختلافات الرئيسية التى نلاحظها عندما نقارنها بالعادات فى بقية انحاء مصر .

فى كل الجزء من الصعيد الواقع بين جرجا وشلالات اســنا ، فان الأراضى المتعلقة بكل قرية ليست موزعة على الفلاحين بأجزاء محددة كما فى مصر السفلى ، لكنها على نحو ما ملكية مشاعة للجميــع وتوزع على كل حسب امكانياته فى الزراعة . وحيث أن عدد الفلاحين محدود على الدوام تقريبا بالنسبة لمساحة الأراضى القابلة للزراعة ، فانه يمكن لاى فـــلاح مهما كان المكان الذى ينتمى اليه أن يشارك فى التوزيع أى ان يحصل على جزء من تقسيم الأرض — وكانت هذه الارض تسمى : المساحة .

ولا يتوقف هذا النمط من الملكية فجأة عند جرجا بل هو يمتد الى كل الاقاليم الادنى حيث كان يعرف كذلك نظام الملكيات المحددة وكانت تسمى هذه

الأراضى ، وهى التى أقسامها المحددة كذلك ترتبط بعائلات بعينها ، بأراضى الاثر .

وكان اقليم الفيوم وكذا الجزء الأدنى من اقليم اطفيح يقسم ويدار بنفس الطريقة المتبعة فى أقاليم مصر السفلى وتدفع كذلك نفس الضرائب .

وللفلاحين فى مصر السفلى حق بيع أراضيهم فيما بينهم . لكن الفلاحين فى مصر الوسطى لم يكونوا مطلقا ليبيعوا أرض الأثر التى كانت تخصهم . أما تلك التى يتملكونها عن طريق الميراث فاننا نجهل ما ان كان لهم حق بيعها أم لا ولكن ، بما أن مساحة الاراضى كانت أكبر بكثير من عدد الفلاحين فقد كانت عمليات البيع لهذا السبب مستحيلة .

وتنقسم الضريبة فى مصر العليا الى قسمين أساسيين : المال ، وهو الضريبة نقدا ، والخراج وهو الضريبة عينا ، وتدفع هذه وتلك الى الملتزمين: الأولى عن محصول الذرة والثانية عن محصول القمح والشعير .. الخ . لذلك ينبغى فى كل عام أن تقاس المساحة المخصصة لهاتين الزراعتين بغرض حساب ما على كل فلاح أن يسدده الى ملتزمه بحسب القيمة الثابتة التى لهما فى كل قرية ، وان كانت هذه القيمة تتغير من قرية الى اخرى .

من هذا نرى أن دخول الملتزمين تتغير حسب مساحة الاراضى المروية وكذلك حسب نوع الزراعة السائدة هنا أو هناك لكن الملتزمين ملزمون على الدوام — ومهما كانت كمية ونوع الضرائب التى يحصلونها — بتدبير نفس مبالغ الميرى نقدا كان أو عينا بحيث إنهم ، اذا حدث أن جمعوا أموالا أكثر مما جمعوا من المحاصيل ، يكونون مرغمين على شراء حبوب كى يسددوا بها حصة الميرى .

والملتزمون فى الصعيد ملاك بنفس الطريقة التى يتملك بها الملتزمون الآخرون فى بقية انحاء مصر وكذلك بنفس الشروط التى شرحتها فى بداية هذه المذكرة(١) .

---

(١) لا يتطابق ما قلته هنا تماما مع المعلومات التى وردت بمقال : عن الزراعة والتجارة فى صعيد مصر « تأليف جيرار » . فقد ظن كاتب المقال المشار اليه أن بيع مساحة من الأرض ليس سوى تعاقد مؤقت لا يدوم الا الى فترة السداد . ومع ذلك فقد لمسنا أن كل الملتزمين فى كل انحاء مصر كانوا يقومون فيما بينهم بعمليات بيع مطلقة .

وكانت الاراضى فى كل قرى الصعيد الأعلى وكذلك فى كل قرى مصر السفلى حيث الارض مملوكة لكل السكان على المشاع — كانت توزع على الأهالى بمعرفة شيوخ البلد . وكان المساح يقوم بمسحها بمعرفة القصاب او حامل المقياس (القصبة) ويدون مذكرة بذلك ويخبر كل فلاح مقدما بما ينبغى عليه أن يدفعه مستقبلا . ويحصل المساح وقصابه معا من الفلاحين من ٦ الى ١٠ مدينى عن كل فدان من الأرض التى قاما بقياسها . والمساح فى العادة قبطى ومع ذلك فبعض منهم مسلمون وليس ثمة شاهد فى القرى التى تقاس فيها الأرض بهذه الطريقة .

وثمة قرى عديدة فى الصعيد ، كل سكانها من الأقباط ، وفى هذه الحالة تكون مناصب شيخ البلد فى أيدى الأقباط ، ولكن فى القرى التى يعيش فيها المسلمون والمسيحيون معا فان هذه المناصب تكون فى أيدي المسلمين ؟ .

وقد اغفلت أن أدخل فى تعداد أنواع الملكيات المختلفة فى مصر السفلى تلك الملكيات التى تسمى : المسموحة لأن عددها هناك بالغ الضآلة ، ولكنها اكثر انتشارا نسبيا فى الصعيد وتسمى : الحطيطة ، وهذه الملكيات فى بعض الأحيان تكون عبارة عن دخول نقدية وتكون احيانا دخول عينية عن عقار ما من الأرض ، واحيانا تكون الحطيطة هى العقار نفسه ، وهى فى كل الحالات لا تدفع أى نوع من الضرائب . ويرجع السكان هذا النوع من الملكية لأصل يبدو لى طبيعيا لحد ما فيقولون أن هذه الحطيطة عبارة عن سرقات قام بها العربان الذين استقروا عنوة فى القرى المختلفة . وأن هذه السرقات قد تنوقلت بفعل الوراثة واكتسبت شرعيتها بمضى الزمن . وهذه الملكيات — التى ليست لها اهمية بالغة — تستقر فى غالب الأحيان فى يد مشايخ البلاد .

وفى النهاية ، فان الضرائب فى عدد كبير من قرى الفيوم ، لم تكن تقدر حسب مساحة الأرض ، ولكن كان على القرية فى مجموعها أن تدفع مبلغا محددا . وعندما توجد قطعة من الأرض لا تصلها مطلقا مياه الرى يعقد الفلاحون والملتزمون اتفاقا وديا ، واذا احس الأولون أن الاتفاق مجحف بهم يرفضون الزراعة ويلوذون بالفرار .

وفى مصر السفلى يوجد بعض الأمثلة على قرى بها قطع من الأرض

تدار بهذه الطريقة . ويطلق على هذه الاراضى اسم : شروه(١) .

---

(١) نجد عند هيرودت نصا ينعلق بدخل ملـوك مصر من ضرائب الاراضى عند توزيع هذه الأراضى وعند تخفيض الضرائب فى بعض الحالات وسأذكرها هنا ليس بقصد أن نعرف ما كان يحدث فى الماضى بل لكى نتعرف على ملامح الشبابه التى نجدها هنا مع ما سبق أن ذكرته بخصوص نفس النقاط عن الادارة المالية وبالذات فى الصعيد اكثر منه فى الوجه البحرى . يقول هيرودت :

« وقال لى الكهنة أيضا ان الملك سيزوستريس قد أمر بتقسيم الأرض مخصصا لكل واحد قسما متساويا ومربعا يعطى له كيفما اتفق . كل وقسمته، بشرط ان يدفع للملك كل عام على الاقل ضريبة محددة تشكل دخله . واذا حدث أن أغرق النهر جزءا من أرض أحدهم فانه يذهب لمقابلة الملك ويعرض عليه ما حدث فيرسل الملك الى أرض الفلاح بمساحين لقياس مانقص منالعقار حتى لا يدفع الفلاح من الضريبة الا ما يناسـب ما تبقى منه » . ويضيف هيرودت :

« وهذا فيما اعتقد هو أصل حساب المثلثات الذى انتقل من هذه البلاد الى اليونان » .

واظن انه ينبغى أن نربط بين هاتين الجملتين « اغرق النهر جزءا من حصته » و« تركت من حصـته أرض لم تغرقها الميـاه » ذلك أنه فى زمن سيزوستريس ، وكما يحدث الآن كان النهر دون شك لا ينزع من الأرض الا جزءا بالغ الضآلة بحيث لا يمكن ان يكون الأمر موضوعا لملاحظة كما كان النهر ولابد — كما يحدث الآن أيضا — يترك فى بعض الأحيان مساحات كبيرة من الأرض دون رى .

ويخيل الى كذلك انه لا ينبغى أن نقر بشكل عام فكرة تقسيم الأرض بأجزاء متساوية بين كل الأفراد ذلك أن هيرودت نفسه يقول بأنه كان لكل واحد من المحاربين ١٢ أرورة من الأرض أى حوالى ١٠٠ تواز مربع (تبعا لحساب دانفيل الذى يحسب الذراع المصرى بـ ٢٠ بوصة و٦ شرطات لكن حساب الارورة لا يصل الى ٢٤ تواز والـ ١٢ أرورة لا تساوى مربعا طول ضلعه ٨٣ تواز . وقد خلط دانفيل ومعه كل العلماء بين الذراع العبرى والذراع المصرى وهذا ما سوف أوضحه فى مقالى عن النظام المترى عند قدماء المصريين. ا. جومار) معفاة من الضرائب . ونعرف فضلا عن ذلك عن طريق ديودور الصقلى أن النظام الكنسى كان يمتلك كذلك أراض خاصة به . ومن جهة أخرى فكيف كان يمكن أن يحصل التجار والحرفيون على نصيب ما من هذا التوزيع .

يبدو لى اذن أن هذا التقسيم لا ينبغى أن يفهم الا على انه كان يتم بين المزارعين واذا كان مما يلفت النظر الآن ان زراعة الاراضى التى تحيط بقرية ما لا يمكن أن يعهد بها عقلا الا الى سكانها أنفسهم فاننا نستنتج من ذلك : ١ — ان القرى كانت تمتلك مساحة معينة من الأرض عن طريق الضريبة التى تدفعها الى الملك . ٢ — أن أراضى القرية الواحدة كانت توزع على كل الافراد من السكان بأقسام متساوية كل عام وكيفما اتفق .

═

٤ — عن مسائل الكشوفية او ضريبة الكاشف

قبل أن نوضح طبيعة هذه الضريبة التى تحصل كلها تقريبا لصالح حكام الولايات فربما يكون من المناسب أن نتحدث قليلا عن هؤلاء الحكام .

لم يكن البكوات يحتفظون بمنصب حاكم ولاية معينة الا لمدة سنة واحدة . وكانت مهامهم الرئيسية حفظ الأمن وفض الخلافات التى يمكن أن تنشب بين قرية وأخرى وتقديم الحماية للفلاحين ضد العربان وحماية الملتزمين فى تحصيل دخولهم .

وكان للبك عدد من الكشاف يصل أحيانا الى ٢٠ كاشفا ، وهؤلاء هم ملازموه (ملازم) ، الذين يتصرفون حسب أوامره . وكان البك يمر عادة بولايته ثلاث مرات أو أربع ويقيم فى افخم منازلها ومع ذلك فقد كان من الضرورى بالنسبة له الا يتغيب طويلا عن العاصمة خشية أن تطيح به احدى المؤامرات التى فشل فى التنبؤ بها فى الوقت المناسب ، فكان يترك على الدوام بعض كشافه يجوبون الولاية مع مماليكهم . كما كان يوجد فى كثير من الأحيان واحد أو اثنان أو ثلاثة قائمقام ، وهذا القائمقام اما مملوكا أو سراجا ويقطن فى بيت يسمى ارض الوسية أى بيت الحاكم ووظيفته فى القرى التى يحكمها (او وظيفتهم فى القرى التى يحكمونها) هى نفس وظيفة ومهام البك فى الولاية التى يحكمها .

وبخلاف الراتب الذى يدفعه لهم البك ، فقد كانوا يرغمون الفلاحين على مدهم بالأطعمة التى يحتاجون اليها .

= اذن فقد كانت القرى تمتلك اراضى فى الماضى كما تمتلكها تقريبا قرى الصعيد اليوم . فقط لقد أوقفنا تقسيم أراضى القرى فى الوقت الحالى بين المزارعين بنفس العدالة .

وإذا ما قارنا بين نص هيرودت الذى سبق ذكره والنص الوارد فى سفر التكوين حيث اضاف موسى بعد ان قص الطريقة التى اتبعها يوسف حتى يجعل من فرعون مالكا لكل الأراضى « ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم يدفع الى الملك فى كل انحاء مصر ١/٥ دخول الاراضى ، ويحدث هذا كما لو كان قانونا فيما عدا اراضى الكهنة التى ظلت معفاة من هذا العبء » . واذا ما تذكرنا الراى الذى يراه المصريون المحدثون بخصوص ملكية الأرض فسوف نرى انهم كانوا معتادين منذ وقت طويل أن ينظر الى ملاك الارض فى مصر على انهم مزارعو الملك . ويمكن أن نلاحظ ايضا فى هذا النص من سفر التكوين أن أراضى المنشآت الدينية كانت منذ قرون معفاة من الضرائب .

والخازندار هو واحد من مماليك البك . وكان الأشخاص الذين يشغلون مهام مختلفة تتصل بمالية بيت البك يشغلون فى العادة وفى نفس الوقت المهام المشابهة التى تتصل بمالية الولاية .

ويفرض جزء من مال الكشوفية على الملتزم، ويفرض الجزء الآخر على الفلاحين .

واليكم اقسام الجزء الذى يحصل من الملتزم :

مال الجهات : ويخصص عائد هذه الضريبة لمركب الترفيه الذى يسبق كل عام المحمل المسافر الى مكة . ويحصلها حكام الولايات وبعطى ليد شيخ بلد القاهرة الذى يعطيه الى اسلام باشى المكلف بمهمة التصرف فيه . ويدفع الملتزمون مال الجهات بنسبة عدد القراريط التى يمتلكونها وهو نفس ما يحدث مع الضرائب الأخرى الآتية .

خدمة العسكر : وقد تقررت هذه الضريبة فى الأصل كرواتب لجنود الأوجاقلو لكن حكام الولايات منحوها لأنفسهم .

عادة أوراق شتوى وصيفى : وكانت ترسل هذه الرسائل الى مختلف القرى لاخطار الأهالى بأن الوقت قد حان لسداد الضرائب .

واليكم الآن قائمة بالضرائب المكونة لمال الكشوفية المقررة على الفلاحين :

رفع المظالم : وتقررت هذه الضريبة على يد محمد بك ابو الذهب لكى تحل محل المظالم الهمجية . وفى هذا الصدد ثمة ثلاث طبقات من القرى : الأولى وتدفع ٢١٠بوطاقة ، الثانية وتدفع ١٥٠ بوطاقة والثالثة وتدفع ٨٠ . لكن تقرير هذه الضريبة لم يمنع المظالم الهمجية من ان تحدث كما كان الأمر من قبل .

مال التحرير : تقررت على يد ابراهيم بك لنفس الأغراض سالفة الذكر واصبحت مثلها مجرد أعباء جديدة على الفلاح . وقد قسم ابراهيم بك شأنه فى ذلك شأن محمد بك القرى الى ثلاث طبقات : الأولى وتدفع ١٥٠ بوطاقة ، والثانية وتدفع ١٠٠ بوطاقة ، والثالثة وتدفع ٥٠ بوطاقة .

مطالب حاكم الولاية : وهذه المطالب على الدوام عينية مثل الشعير والتبن ... الخ وقد تكون اطعمة للفرقة التى تصاحب الحاكم عندما يسافر ، وعندما تكون هذه الفرقة كبيرة العدد تبلغ كل قرية بالجزء من المصروفات التى عليها أن تدفعها . وهذه الضريبة غير محددة .

مصاريف النابة اللازمة : وهى المصاريف التى يتكفل بها مشايخ القرى عندما يقدمون الكلفة اى الوجبات الى الكشاف والى المماليك الآخرين الذين يمرون بالاقليم . وهذه المصاريف التى لا يمكن كما رأينا ان تكون محددة كان يقسمها المشايخ على الفلاحين .

حق الطريق : وهو أجر القواسين (القواس) وان كان يدفع أيضا لصغار المماليك الذين يقدمون الى القرية حاملين الأوامر . ويحدد هذا الأجر بمعرفة نفس الشخص الذى أرسل الأمر .

وتشكل كل الضرائب السابقة بالاضافة الى المظالم والمغارم الهمجية ما يطلق عليه اسم « مال كشوفية » . ويدون ما هو ثابت من هذه الضرائب عند المباشر القبطى .

لكن عوائد مال الكشوفية لا تذهب كلها لحكام الأقاليم وحدهم ، فهؤلاء ملزمون بدفع الميرى عن مناصبهم وذلك بخلاف تسديدهم مال الجهات المخصص لمحمل الحج . ويبلغ الميرى المستحق عن مناصبهم حوالى ٢٠ ، ٣٠ ، ٥٠ كيسا(١) عن الولاية ، حسب درجة ثراء الولاية نفسها . وكان عليهم كذلك فى العادة أن يقدموا مرة فى العام هدايا الى الباشا والى الكخيا والى الخازندار كما عليهم ان يدفعوا مكافأة الى كل الأشخاص المهمين فى بيت الباشا .

ولكى نقدم فكرة عن المظالم والمغارم التى كان يمارسها المماليك تجاه الفلاحين، وهى الابتزازات التى تحرم هؤلاء الفلاحين من اية ميزة كان يمكن ان تعود عليهم لو انهم اقتصروا على دفع الضرائب المنتظمة، فسوف أعرض لاثنتين من هذه المظالم كانتا تتكرران فى معظم الأحيان .

كانت القرى الواقعة على حافة الصحراء تتعرض لهجمات العربان الذين يأتون للاستيلاء على جزء من اراضيها لزراعتها وذلك بموافقة حكومة الولاية . ويحدث — عندما يحين موعد سداد الضرائب — أن يرفض العربان فى بعض الأحيان دفع هذه الضرائب . واذا لم يصل المماليك فى الموعد المناسب ليحملوهم على دفعها فان الجزء من الضريبة الذى كان عليهم ان يدفعوه عن الأراضى التى اغتصبوها يقسم على الفلاحين .

---

(١) الكيس = ٢٥٫٠٠٠ مديني .

وقد قلت فيما سبق ان الملتزمين كانوا يأمرون بقياس مساحة الأراضى التى لم تصلها مياه الرى حتى يقللوا من الضرائب بنفس النسبة ، لكن اذا ما حكم المماليك أو مباشروهم بأن بامكان الفلاحين ان يدفعوا الضريبة كلها ، فانه لا يسمح بأى تخفيض فى الضريبة المقررة .

واخيرا فان جشع المماليك لم يكن يعرف لنفسه حدا الا عندما يتبين عجز الفلاحين الكامل عن الدفع . ولم يكن هؤلاء البؤساء يستطيعون ان يلجأوا لأية وسيلة تواجه هذه المظالم الا بالهرب ، فعندما يجد فلاح ما نفسه عاجزا عن ارضاء جشع سادته ، فانه يترك حقوله ومنزله وتتبعه زوجته وأولاده ويذهب الى قرية أخرى يبحث لنفسه فيها عن أراض يزرعها وعن سادة أقل جشعا .

وبخلاف الانتهابات التى كان يقوم بها المماليك والصيارف ، فقد كان على الفلاحين ان يعانوا كذلك من غارات العربان الذين كانوا يغيرون ليغتصبوا منهم قطعان مواشيهم وكل ما أهمل الأولون ان يأخذوه .

وسأقدم هنا قائمة بالضرائب التى اضيفت الى المال الحر والتى فرضت كلها على وجه التقريب لصالح حكام الولايات ، حتى ولو كانت قد فرضت فى الأصل لأغراض مختلفة كما سنرى .

اعوادة جاويش كاشف : والجاويش هو الذى يرشد الكاشف ويقوده الى الأماكن التى يريد الذهاب اليها . فهذه الضريبة اذن مخصصة لجنود الأوجاقلو .

تسويف مقرر: وقد تقررت هذه الضريبة أيضا لصالح الفرق العسكرية .

عادة راس نوبة :

عادة مسوادة :

وهاتان الضريبتان قد خصصتا لبعض الأوجاقلو المسمين : راس نوبة ، ومسودة والذين كانت وظيفتهم حماية عملية سداد مال الجهات .

عادة خدام الرملة : وهى اجر الفرقة التى تحمل الزكائب التى تملأ بالتراب الذى يستخدم فى صنع الجسور .

عادة مسلم : والمسلم هو احد رجال عسكر الأوجاقلو .

عادة اليازجي : اي عادة كاتب الفرقة .

عـــادة تبن السلطانية : اى العـــادة المخصصة لتأمين التبن اللازم لفرق السلطان .

عادة حوالة الحوالات : وهى العادة المخصصة للشخص الذى يرسل الى دائرة القرية ليحصل الضرائب .

عادة خفر المال : وهم الحراس اللازمون لنقل ناتج القرية .

عادة جسر السلطانية : وهى مخصصة لجسور التـــرع التى اقيمت على حساب السلطان . ويوزع ناتج هذه العادة على أهم مشايخ البـــلد المـــكلفين بادارة العمـــل ، ويحـــدث نفس الشىء بخصـــوص العـــادات الثلاث الآتية :

عادة جرافة السلطانية(١) : وتخصـــص لدفـــع اجـــور أولئك الذين يعملون فى تطهير الترع الـــكبرى بواسطة الجرافة .

عادة شيخ الجرافة : اى عادة رئيس الأنفار الذين يشتغلون بواسطة الجـــرافة .

عادة صغار الجرافة : أى الأولاد الذين يعملون بالجرافة ، ولم يكن يدفع هذه العادة الا عدد ضئيل من القرى .

عادة مطمسين الجسور : اى حـــراس الجسور . وتخصص هـــذه العادة للرجال الذين يعملون لاعـــداد الطين للجســـور، والذين يقـــومون بحراستها اثناء الليل .

وتخصص العادات الخمس الأخيرة لأشغال الترع التى تقسام على نفقة السلطان،ولا يدفعها الا الملتزمون الذين يحتاجون الى هذه الترع لرى

---

(١) الجرافة : أداة تستخدم فى بعض أنحـــاء مصر لتطهير التـــرع وهى مثلثة الشكل ومصنوعة من ألواح خشبية ويبلغ طول سطحها حوالى ٩٠ سم ويبلغ ارتفاع حوافها حوالى ٢٠ سم على ٢٠ سم من الجـــوانب فقط . وعندما يراد استعمالها ، يبدأون بحـــرث قاع الترعة ثـــم يعلقون ثورين من البقر بحبال الجاروفة بحيث يتجه الجـــانب الـــذى لا حواف له ناحية الحيوانين ويركب رجل فوق هـــذه الأداة لاعطائها بعض الثقل ثـــم يساق الحيوانان فتدخل الأتربة فى الجاروفة من الجانب الذى لا حواف له وعندما تمتلىء الجاروفة يتجهون بها خارج الجسور ليفرغوها .

أراضيهم . وفى نفس الوقت فقد كان من النادر ان تلزم قرية بعينها بأن تدفع خمس ضرائب فى وقت واحد .

عادة تقرير أفندى الولاية : أى قاضى الولاية(١) .

عادة نايب ريبة : أى العادة المخصصة للشخص المكلف بحراسة الفتيات العامات (المومسات)،وقلة من القرى فقط هى التى تدفع هذه الضريبة،وهى من جهة أخرى ضريبة ضئيلة .

وقد تقررت بعض هذه الضرائب الـ ١٧ السابقة منذ وقت طويل لصالح فرق الأوجاقات ، أما بعضها الآخر فزيادات طرأت على يد نفس الفرق العسكرية.وهناك نوع ثالث من هذه الضرائب كتلك التى تقررت لصالح صغار الجرافة،وهى تبدو كما لو كانت فى الأصل مجرد اتاوات تحولت بمرور الزمن الى ضرائب قانونية .

وقد تحولت الآن كل الضرائب التى تقررت من أجل الترع وكذلك التى تقررت لصالح جنود الفرق العسكرية لصالح حكام الولايات ولم يعد هؤلاء يقومون باصلاحات تذكر الا للترع التى تبين أهميتها المطلقة مثل ترعة الاسكندرية .

ولم تكن كل قرية تدفع كافة الضرائب والعادات التى بينتها،فثمة بعض هذه العادات قد توقف فى بعض الجهات أو لم يعرف على الاطلاق فى جهات أخرى .

وكان يتم تحصيل هذه العادات وكذلك تحصيل مال الكشوفية الذى يدفعه الملتزم ـ على فترات مختلفة فى نفس القرية . وكان الشاهد والصراف يدونانها لكى يخصموها من المال الحمر عندما يحصل الملتزم هذه الضريبة .

٥ ـ عن الميرى وعن الأفندية

عهد بتحصيل واستخدام الميرى الى ادارة مكونة من مسلمين يسمون الأفندية ، ويقيمون بالقاهرة . وكان الأفندى الأول يعرف باسم الروزنامجى، وكان يختار من بين الأفندية ويعين لمدى الحياة بواسطة السلطان ويشغل رتبة نصف سنجق أو نصف بك . أما مناصب الأفندية فهى وراثية ويمكن

---

(١) كان القاضى يسمى كذلك أفندى .

أن تباع . ولكن يشترط على الدوام أن يكون المشترى متعلما لحد كاف وأن يحصل على موافقة الروزنامجى .

ووظائف الروزنامجى هى وظائف المدير العام والجابى ، فلم يكن ثمة غيره يحصل الأموال الناتجة عن الميرى . وكانت هذه الأموال توضع مباشرة فى خزينته . ويقتصر عمل الأفندية الآخرين على مسك الدفاتر الخاصة بأنواع تحويل أو تبديل الملكيات والوظائف التى تخضع لدفع ضريبة الميرى، وكذلك عمل الحسابات سواء عما ينبغى على كل مالك أن يدفعه أو عن المصروفات التى يجب استقطاعها من عائد هذه الضريبة . وسوف يتضح كل هذا عند ذكرنا لعدد الأفندية وتحديدنا للاعمال التى يشغلها كل واحد منهم.

الروزنامجى : وقد سبق أن حددت اختصاصاته ، ويعمل تحت امرته مباشرة أربعة أفندية يسمون حلفة ويمكن اعتبارهم بمثابة كتبة له ويشار اليهم هكذا : الأول : باش حلفا ، الثانى : ثانى حلفا ، الثالث : ثالث حلفا الرابع : رابع حلفا . ويكلف الباش حلفا بعمل حسابات الميرى الذى ينبغى أن يدفعه كل ملتزم يمتلك أراض فى ولاية الجيزة وتلك التى ينبغى أن يدفعها حاكم هذه الولاية . وهو مكلف فوق ذلك بأن يؤدى نفس هذا العمل لحاكم هذه الولاية ولثلاث قرى فقط من ولاية منفلوط وهذه القرى الثلاث هى : بنى رافع ، بنى حسين الأشراف ، وقرية حيط بلا غيط .

افندى الشرقية : وتتعلق اعماله بولايات الشرقية والمنصورة وقليوب وأطفيح والبحيرة ، وهى من نفس نوع الأعمال التى يقوم بها الباش حلفا بخصوص ولاية الجيزة.

افندى الغربية : وأعماله هى نفس الأعمال السابقة ولكن فيما يتعلق بولايتى الغربية والمنوفية .

أفندى *الشهر* : وتنقسم مهام هذا الأفندى الى قسمين : فهو أولا مكلف فيما يتصل بولايات الوجه القبلى بكل الأعمال التى يكلف بها الأفندية الثلاثة السابقون فى دوائرهم . وولايات الوجه القبلى هى : بهنسا ، الفيوم ، اشمونين ، منفلوط ، جرجا التى تضم كذلك الواحات . وهو ثانيا يقوم بعمل حسابات الميرى الذى ينبغى أن يدفعه كل التجار الملتزمين (ملتزم) ورجال الجمارك سواء أولئك الذين يعملون بموانىء البحر أو أولئك الذين يعملون بالموانىء الداخلية مثل بولاق ومصر القديمة .

افندى الغلال : وهو مرءوس للأفندى السابق ويعهد اليه بحسابات توزيع الحبوب المحصلة لحساب الميرى .

افندى المحاسبة : لا يمكن صرف التكاليف التى تتم على نفقة السلطان مثل كميات القمح التى ترسل كل عام الى المدينتين المقدستين واصلاح الترع الكبرى والكبارى والحصون .. الخ الا بعد ان يقوم هذا الأفندى بتسوية حساباتها .

افندى اليومية : ويعد منصبه أحد المناصب الهامة فهو رئيس لعشرة افندية مكلفين بعمل حسابات المصاريف الآتية : واحد للفقراء والعجزة ويسمى كاشدى ، وآخر للأرامل والأيتام ، وثالث لعميان الجامع الأزهر ، وكبار الشيوخ .. الخ ويسمى جوادى ، والسبعة الآخرون لفرق الأوجاقلو السبع .

افندى المقابلة : وهو الذى يقوم بفحص ومراجعة كل الحسابات التى ذكرت آنفا .

افندى الكوريكجى(١) : وهو يقوم بحساب ما ينبغى على كل ملتزم ان يدفعه لمصاريف نقل الأنقاض من القاهرة الى بوغازى رشيد ودمياط وهذه الضريبة المتضمنة فى مبلغ الميرى تسمى مال كوركجى وهى ضئيلة بحيث لا يبلغ اجماليها فى مصر كلها الا حوالى ٢٨ كيسا .

ولكل من الأفندية التسعة الذين سميتهم — مثلهم فى ذلك مثل الروزنامجى — ٤ حلفا فيما عدا افندى المقابلة فله ٥ حلفا بسبب عمله البالغ الأهمية . ولكل واحد من نفس هؤلاء الأفندية وكذا الروزنامجى وباش حلفاه : واحد كيسه دار أو حامل الحقيبة التى تضم دفاتر الحسابات وهؤلاء الكيسه دار يعتبرون حراسا لهذه الدفاتر وهم يعرفون الكتابة ويدخلون فى عداد الأفندية .

وبرغم هذا ، فليس هؤلاء هم كل أعضاء تلك الادارة الكثيرة العدد : فثمة أربعة كتاب خزنة اثنان منهم تركيان وهما أعلى مرتبة من الآخرين اللذين يختاران من بين اليهود . وفيما مضى كان الكتاب الأربعة جميعهم من

(١) كورك كلمة تركية بمعنى مجداف . ويسمى الافندى المكلف بالضريبة المخصصة لنقل الأنقاض كوركجى لأن هذا النقل كان يتم فى الماضى بواسطة القوارب .

اليهود ويقال ان هذا الوضع لم يتغير الا عندما هجر واحد من الكتاب الأربعة دينه لكي يعتنق الاسلام ، وعندما تبعه فى ذلك اثنان من ابنائه فقد أصبح هذان يعدان من الأتراك .

ويدخل ضمن اعضاء هذه الادارة اثنان من كتاب الباشا ويسميان : تذكرجى وهى كلمة تركية تعنى كاتب الأوامر . ويكتب أحدهما باللغة التركية ويعتبر الكاتب الأول أما الثانى فيكتب باللغة العربية .

وأخيرا فهناك ثلاثة صرافين ملحقين بادارة الميرى ، وثلاثتهم من اليهود ويدعى أحدهم صراف باشى او صراف أول ووظيفتهم عد النقود ومراجعة أنواعها .

ويخضع الصيارف وكتاب الخزنة مباشرة لاوامر الروزنامجى ، لكنهم يحصلون على اجورهم — شأنهم فى ذلك شأن بقية أفراد الادارة — من قبل الميرى . وبامكان هؤلاء أن يستعينوا بأى عدد يحتاجونه من الكتاب والصيارف ، لكنهم وليس الميرى هم الملزمون فى هذه الحالة بدفع اجور هؤلاء .

وينقسم الميرى الى قسمين رئيسيين : مال شتوى ومال صيفى : وتؤخذ عوائد القسم الأول من محاصيل الفول والشعير والقمح ، وهى أهم المحاصيل وأول ما يحصد منها لذلك فهى تخصص للمصاريف الداخلية ، وهذه على الدوام شديدة الالحاح . أما عوائد المال الصيفى وهى تحصل عن الأرز فتأتى متأخرة وتخصص للانفاقات الخارجية .

وكانت حسابات الأفندية وصرف الميرى تتم أربع مرات فى العام بين كل واحدة والاخرى ثلاثة اشهر . وتتم الأولى فى الفترة التى يكون فيها النيل فى أعلى درجات ارتفاعه . وتؤخذ الثلاث دفعات الأولى من التحصيل من المال الشتوى أما الرابعة فتؤخذ من المال الصيفى . واليكم كيف كان يتم الدفع :

يرسل الافندى الى الملتزم أو الى أى مدين آخر مع واحد من خدم الديوان يسمى نشاعوس مذكرة من الميرى بأن عليه ان يسدد ما عليه . وينتقل الملتزم مع هذا النشاعوس الى الروزنامجى الذى يعطى للملتزم بعد تحصيل المبلغ ايصالا مؤقتا ثم يقوم الافندى بموجب هذا الايصال المؤقت بتحرير الايصال النهائى .

وللافندية طريقة خاصة بهم فى مسك وكتابة حساباتهم والتى يقال انها أيضا مستخدمة من قبل الافندية فى القسطنطينية . وتبدو كتاباتهم التى تسمى خط القرمة ، تبدو للوهلة الأولى مشابهة لدرجة طفيفة للكتابة العربية . ومع ذلك فهى لا تختلف عنها الا فى أن حروفها أقل ارتفاعا من حروف الكتابة العربية وأكثر منها اتساعا فى الاتجاه الأفقى وتسمح هذه الطريقة فى الكتابة بتضييق السطور فيما بينها . وهذا ما يجده الأفندية بالغ الفائدة ، ليس ثمة سواهم على الدوام يستطيع قراءتها بسهولة .

ويمسك الاقباط حساباتهم بالكتابة العربية المعتادة ويسجلون المبالغ تحت دلالات* وهذا مما يجعل من العسير القيام بعملية الجمع لتكوين المبالغ الكلية . أما الذين تعلموا طريقة الكتابة فى القسطنطينية فانهم يتبعون الطريقة الاوربية ويكتبون المبالغ فى نفس السطر الذى نكتب فيه الدلالة مع مراعاة وضع كل المبالغ التى ينبغى أن تجمع الى بعضها ، كلا منها تحت الأخرى ، ويبدون بالغى الكفاءة فى استخدام هذه الطريقة . وفى بلد آخر غير مصر سوف يدهش المرء حين يرى الناس لا يتبنون مثل هذه الطريقة بوجه عام وبخاصة من جانب اناس كالأقباط — فعملهم الاساسى عبارة عن القيام بالعمليات الحسابية من جمع وطرح . ولكن فى مصر ، حيث تتغلب العادة ، فان مثل هذه الأمور لا ينبغى أن تكون مثارا للدهشة .

ويقدم الروزنامجى حسابات ادارته الى الباشا والى الدفتردار(١) ، وهو دائما برتبة بك . وكذلك الى شيخ بلد القاهرة . وعندما تعتمد هذه الحسابات ترسل الى القسطنطينية مدونة باللغة التركية وبخط القرمة . ويأمر السلطان فى بعض الأحيان بأن تراجع هذه الحسابات على يد اغا يرسله لهذا الغرض .

وعندما تخصم كل المصروفات التى ينبغى أن تؤخذ قانونا من الميرى ، فانه يتبقى بعدئذ حوالى ١٢ الف كيس . ويشكل هذا المبلغ ما يسمى خزنة عائد السلطان ، ويرسل اليه مع احد البكوات . و آخر مرة ارسل فيها هذا العائد كان فى عام ١١٧٣ هـ

---

* أى انهم يضعون فوق كل رقم الاشارة الدالة على نوعه مثل مليم ، مرش ، جنيه ، سهم ، فدان ، قيراط .. الخ — المترجم .

(١) آخر دفتردار هو أيوب بك الصغير وقد قتل فى معركة الاهرام .

ويمكن أن تنقسم المصروفات العامة التى تؤخذ من الميرى إلى اربعه اقسام رئيسية :

١ — جامكية المصر : تندرج تحت هذا البند المعاشات والاجور الممنوحة فى كل أنحاء مصر مثل مرتبات الفرق والافندية ... الخ وكذلك معاشات الارامل والايتام وعميان الجامع الازهر ومعاشات كبار المشايخ .. الخ .

٢ — مصروفات الحرمين : وهى المصروفات التى تخصص لصالح المدينتين المقدستين مكة والمدينة .

٣— مصروفات أمير حجى (أمير الحج) : ويفهم من هذا التحديد ليس فقط ما يخصص لأمير الحج ولكن أيضا أجور الفرق التى تحمى المحمل وكذلك مختلف الهدايا التى تقدم الى مختلف القبائل العربية الواقعة على طريق المحمل وذلك لالزامها احترامه .

٤ — مصروفات السعرة : أى مصروفات طوارىء مثل السكر والارز التى يطلبها السلطان فى بعض الأحيان وكذلك مصاريف اصلاح الترع والحصون . ويدخل تحت هذا البند أيضا الهبات التى تقدم لبعض المساجد أو بعض الشيوخ لكنها مصاريف اختيارية أكثر منها الزامية .

وما يتبقى بعد سداد كل هذه المصروفات يكون كما قلت عائد السلطان، لكن البكوات منذ سنوات عديدة أمكنهم أن ينظموا حساباتهم بطريقة بحيث لا يعود للسلطان أى عائد . وحيث انهم كانوا يسيرون الباشا على هواهم فقد كانوا يحصلون منه على فرمان بكل مصاريفهم الوهمية أو الحقيقية بحيث يكونون ظاهريا غير خارجين على القانون تجاه السلطان .

هذا ما كان بخصوص استخدام الميرى النقدى.ونتحدث الآن عن الميرى العينى : تقرر هذا المال من أجل اطعام جنود الأوجاقات السبعة وكان يوزع عليهم جزء منه فقط فى الواقع ، وبعد ذلك أصبح لبعض المنشآت الخيرية وتلاميذ مختلف المدارس وعدد كبير من العائلات مثل عائلة السادات والبكرى .. أصبح لهم حق فى هذا المال كما أصبح يحصل نصيبه منه كل من الأفندية والباشا وقاضى العسكر .. الخ كما كانت هناك مصروفات اخرى مثل طعام صناع بارود الحكومة وطعام الابقار التى تحرك الماكينات التى تزود القلعة بالمياه وهذه أيضا كانت تؤخذ من الميرى العينى . وفى استطاعتنا أن نقدر عدد الاشخاص الذين يحصلون على نصيبهم من أطعمة الميرى العينى المجموع من الصعيد بأكثر من خمسين ألفا .

ويعهد بتوزيع الأطعمة الى واحد من رجالات أوجاق الجاويشية يطلق عليه اسم أمير الشون : أى الخازن الامين وهو مكلف بتسلم المال العينى وتخزينه بالقاهرة وتوزيعه كذلك . وكان البكوات ملزمين بحمايته وقت التحصيل ووقت النقل ، ومن أجل هذا خصوا انفسهم بكمية هائلة من الشعير والقمح .

ولا اعتقد انه ينبغى على أن أدخل فى تفاصيل أكثر حول طبيعة المصاريف التى كان على عاتق الميرى أن يسددها،ولا أن انشر قائمة بكل الاشخاص والمؤسسات التى كانت صاحبة حق فى المصاريف النقدية او العطاءات العينية فليس لهذا العمل أدنى فائدة الا اذا اضيف الى كل الاجزاء الأخرى من مالية مصر بقصد تكوين حالة كاملة للدخول والانفاق فى هذا البلد قبل سقوطها فى أيدى الفرنسيين . وبالاضافة الى ذلك فاننى أقل استعدادا للحديث فى هذه المذكره عن الضريبة فى حد ذاتها وكذلك عن النظام الضريبى ، لذا فقد اكتفيت بالحديث عن الضرائب العقارية .

قلت ان الافندية يمسكون سجلات دقيقة لكل التحولات فى الملكيات العقارية حتى يمكنهم القيام بحساب الميرى المقدر كل عام على كل الذين يخضعون له ، لذا فان الأفندية — من حيث أن لديهم بهذه الوسيلة معرفة كاملة بكل الملكيات — هم أكثر الناس اهلية واستحقاقا للتوظف فى ادارة التسجيل ، لذا فقد عهد بادارة التسجيل اليهم . ويمكن أن تقسم حالات انتقال وتغيير الملكية الى ثلاث حالات :

١ — عن طريق الارث ٢ — بطريق البيع المطلق أو الوقتى ٣— بطريق الهبة .

فعندما يموت ملتزم فان أولاده أو الأشخاص الذين أوصى لصالحهم يقدمون أعلامهم الى أفندى الولاية التى توجد بها التركة . ويخبر الأفندى الباشا ليقدم الأخير موافقته الى الورثة،وهى الموافقة التى يعطيها لهم على الدوام بعد تحصيل عادة تسمى : حلوان ، يدفعونها له . وهذه العادة — وهى على الدوام غير بالغة التحديد — لا تتجاوز مطلقا مقدار ما يدعى بالفايض (الفايظ) لمدة ثلاث سنوات وهو يمثل كما رأينا الدخل الصافى والقانونى للملتزم . ويسلم الأفندى بعد ذلك الى الورثة شهادة أعلام أو تسجيل تسمى : تقسيط ، يصبحون بموجبها ملاكا شرعيين . ويحصل الأفندى ١٪ من قيمة ما تدفعه الأرض من مال الميرى .

ويتسلم مبالغ الحلوان صراف الباشا الذى تحدثت عنه فى البداية :

اما فى حالة انتقال الملكية عن طريق البيع أو الهبة فان الأمــــر لا يستدعى الحصول على موافقة الباشا نفسه ولكن يدفع الى كتبته ٢٨ مدينى عن كل قيراط من الأرض المبيعة او الموهوبة كضريبة تثبيت . ويسجل الافندية هذا الانتقال ويحصلون ١٪ من ثمن البيع عن الأشياء المبيعة،و١٪ من اجمالى الميرى عن الأراضى الموهوبة وفى هاتين الحالتين يعطى القاضى حجة اى وثيقة شرعية ويحصل ٢٪ .

وينظر الى عملية ايقاف الأرض لصالح العائلات على انها مجرد هبات، وتخضع هذه لنفس الاجراءات ، اما عملية ايقاف الأرض لصالح المنشآت الدينية أو الخيرية فتتم أمام قاضى العسكر وتسجل بمعرفة الأفندية . اما بيع الاراضى من فلاح لفلاح أو ما يســـمى « بالمغــاروقة » فيقــع فى دائرة اختصاص القاضى ، واخيرا فان القضاة هم الذين ينظرون عمليات التركات ومبيعات المنزل والاثاثات ويحصلون عن ذلك رسما يقدرونه بانفسهم بعدالة وتبعا لثروة المتعاملين .

ويقوم الفلاحون كذلك فيما بينهم بنوع آخر من التبادل ، فهم يؤجرون اراضيهم لعام واحد فقط ويتم هذا التعاقد بالتراضى فيما بينهم وبدون تدخل من القاضى . وعلى العموم ، فطالما كان للملتزمين أو للفلاحين فيما بينهم ثقة متبادلة فانهم ينهون اعمالهم بحضور شهود وبدون اللجوء الى القـــاضى ، وبمعنى أكثر دقة فانهم لا يطلبون من القاضى اجراء بخصوص تصرفهم فى هذا الجزء الضئيل من الثروة الذى يملكونه وذلك بقصد تقليل المصروفات .

وقد سبق لى القول فى بداية هذا المقال بأن ثروات الذين يموتون بلا ورثة تؤول الى خزانة الدولة ، واضيف هنا ان خزانة الدولة كانت تعرف باسم بيت المال وأن الثروات التى كانت تئول اليه كانت تخصص فيما مضى وفى جزء كبير منها لصالح الفقراء،وان ابراهيم بك الذى استأجر الاراضى التى آلت الى بيت المال كان يهب جزءا من دخلها — وان كان ضئيلا جدا فى الحقيقة — للقيام بدفن الموتى الذين تكون اسرهم بالغة الفقر لحد لا تستطيع معه توفير نفقات دفنهم .

ويتمتع الأفندية فى مصر بكثير من الاحترام بســـبب نزاهتهم وتعليمهم وتبعا لتقاليد هذه البلاد . وكان اغلبهم يتكلمون اللغة التركية بخلاف لغـــة

بلادهم التى يعرفونها جيدا وكل من هؤلاء يمتلك ثروة تضعه فى عداد الطبقة الميسورة ، أما أولئك الذين يشغلون منهم وظائف أعلى فينظر اليهم باعتبارهم اثرياء ؛ فبخلاف الاتعاب التى يحصلونها عن كل تسجيل ، كان لهم راتب سنوى يؤخذ من مال الميرى ويبلغ ١٥٠ كيسا (اى حوالى ٩٣٫٧٥٠ فرنك) وذلك لكل هيئة الافندية ويقسم المبلغ فيما بينهم بحسب اهمية وظائف كل منهم .

وكان يظن أن الأتراك قد تركوا ادارة ثرواتهم فى أيدى الاقبـــاط بسبب عدم كفاءة المسلمين لاداء عمل كهذا ، لكن هذا غير صـــحيح وكفى بادارة الميرى دحضا لهذا الزعم ، لكن السبب على نحو ما هو نفور الأتراك من التجديد ، وكذلك على وجه الخصوص لنفس الدافع الذى حدا بالماليك أن يتخذوا جباة من اناس لا يحركهم اى دافع فى ادارة جهاز الدولة ، وهذا ما ينبغى أن نفسر به لماذا ظل الاقباط يديرون الملكيات الخاصة .

وانهى مقالى هذا ببعض الملاحظات التى تتعلق بوراثة الوظائف العامة بل ووراثة الحرف كذلك عند المصريين .

ليس ثمة وظيفة فى مصر على الاطلاق ينبغى ان تكون بحكم نظـــامها وراثية ، ومع ذلك فان الوظائف تكاد كلها أن تكون كذلك . ويعود هذا الى طابع هذه الدولة العجيبة حيث يبدو كل شىء وكأنه يتجه نحو الثبـــات والتقولب . ولعل طقس مصر ، وهو على الدوام متشابه بتتابع فصوله كل عام فى نفس أوقاتها وبدقة ، كما تحدث فيها كل عام نفس المجمـــوعة من الظواهر الطبيعية ، لعل هذا الطقس هو — وعلينا أن نضع هـــذا فى اعتبارنا — واحد من أسباب هذا الوضع الذى طبع اهل البلاد بطـــابع الجمود والتقولب ، فكل ما قصه علينا الرحالة القدماء فيما يتصل بالمزاج الهادىء بل وشبه الخامل للمصريين فى ايامهم ، نجده الان فى مصريى اليوم . ولقد احتفظ المصريون كذلك بقلة الفضول والابتعاد عن الأســـفار ؛ فهـــم لا يرون على الاطلاق يغادرون وطنهم فى الوقت الذى يفد اليهم عدد هائل من الغرباء ، فقد جاء اليهم عدد هائل من السوريين ومن اهالى الشاطىء الشمالى لافريقيا للاقامة هناك(١) .

---

(١) يمكن القول بأن أهل الاسكندرية وحدهم هم اقل المصريين ميلا للقعود والخمول ذلك ان العـــلاقات التي ربطـــت بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، وكذلك كثرة عدد الجنسيات التى تقيم بينهم ، وعملهم بالضرورة بالتجارة الخارجية ... كل ذلك قد غير بالضرورة من مزاجهم نوعا ما .

وعلينا أن نضع فى اعتبارنا عند حديثنا عن هدوء طباع المصريين أن كل الثورات التى حدثت فى بلادهم وكل التغيرات التى شعرت حكومتهم بضرورتها تعود الى أجانب ، وذلك منذ أقدم الفترات التى سجلها التاريخ وان الهدوء يسيطر عليهم مادام يحكمهم امراء من بينهم .

وهذا الميل الى التقولب والثبات واضح لدرجة ادت الى نشأة قوانين معينة،فمن الواضح على سبيل المثال أن القانون الذى كا نيقضى بتقسيم المصريين الى سبع طبقات ينبغى فى داخلها أن يرث الابناء آباءهم فيمارسوا نفس مهنتهم انما يعود فى أصله الى هذا الميل . ان الأمور اليوم لم تتغير بدرجة اساسية حول هذا الموضوع ، فمازالت الحرف تشكل فى كل مدينة طوائف معينة ، ولكل طائفة منها شيخ خاص ، ومن النادر ان يخرج الابناء عن طائفة آبائهم ليلتحقوا بحرفة أخرى .

وبسبب هذا الكم الهائل من العادات التى لها سطوتها ، وبسبب هذه الفكرة المسبقة التى تحبذ ترك الأمور فى نفس حالتها فان وظائف : الشيخ، الخولى ، الشاهد .. السخ والتى قلت بانها من تعيين الملتزم او من اختيار الفلاحين انما هى فى غالب الأحيان وراثية ، وقلما يوجد سبب يقضى بخروج هذه الوظائف من العائلات التى استقرت فيها ، ولا يمكن أن يتم ذلك على الاطلاق بطريقة عشوائية .

وتبدو قوة العادة اكثر وضوحا فيما يتصل بمنصب شيخ بلد اول القرية . فهذا المنصب فى العادة يكون فى يد الشيخ الأكثر ثراء وهو الذى يكون كذلك اكثراحتراما، ذلك لان من المهم بالنسبة للشيخ — حيث هو يستمد نفوذه من المكانة التى يوحى بها — أن يحيا فى بحبوحة حتى يحتفظ بهذا النفوذ ،لذلك فنادرا ما ترى شيخ بلد يفقد سلطته ، كما أن الفلاحين يفضلون أن يؤول هذا المنصب الى ولد نفس الشيخ الذى كانوا يحترمونه ويهابونه ، فهذا افضل من أن يؤول هذا المنصب الى ايد أخرى حتى ولو كان من المحتمل أن تكون أكثر خبرة

ومع ذلك فقد كان يحدث أن يلجأ المماليك — وهم على الدوام غرباء عن مصر ، الدولة التى يحكمونها والتى كانوا يلقون بعاداتها التى لا تروق لهم تحت اقدامهم— الىانتزاع وظيفة الشيخ الأول بطريقةاستبدادية عن الشخص الذى يشغلها ليعطوها الى أحد صنائعهم أو لواحد من خدمهم يريدون مكافأته .

ويقودنى هذا الى فكرة اخيرة تتضح بشكل طبيعى ، تلك هى عدم التوافق الذى كان موجودا بين حكومات المماليك العنيفة والمدمرة على الدوام وبين ما تتطلبه طباع المصريين .. انه التعارض الدائم الذى كان قائما بين مزاج هـذا الشعب كما رسمته وبين مزاج سـادته المتوثبين والطموحين .

يا له من فارق غريب فى الواقع بين هـؤلاء المصريين المذعنين بل والهيابين ، الذين يسهل اخضاعهم وبين هؤلاء المماليك المتحفزين والمحاربين، المتنافسين على الدوام فيما بينهم والذين لا تجمع بينهم اية رابطة من روابط الدم ، بل والمتنكرين لكل روابط الصداقة ، والذين لا يعملون مطلقا ومباشرة الا لصالحهم ، والذين كانت كل افعالهم استبدادية وعشوائية ، تتحكم فيها ظروف اللحظة(١) .

---

(١) قد يكون من المفيد ان نذكر هنا ان المعلومات التى كتبت على اساسها هذا المقال قد استقيتها فى كل جزئياتها من رجال مشهود لهم بأنهم على دراية كبيرة بها ، اننى لم اكتب شيئا قبل أن احصل على عدد كبير من الاجابات المتشابهة على نفس السؤال المتعلق به . وقد استشرت القضاة والأفندية وشيوخ البلد المتعلمين فى القاهرة وكبار الأقباط وبخاصة أولئك الذين لا يرقى الى نزاهته منهم شك ، وقد سألت كذلك مشايخ البلد والعرافين فى القرى كما لم اهمل سؤال الفلاحين . واضـيف هنا (ولهـذا بعض الأهمية) اننى قد حصلت على الدوام على مترجمين جيدين . ولقد اتيح لى أن اراجع الاجابات التى حصلت عليها عند اشخاص تشغلهم هذه الأمـور وحصلت منهم على كثير من النقاط التى شاءوا أن يمدونى بهـا عن طيب خاطر .

ومهما كانت العناية التى راعيتها فى جمع هذه المعلومات، ومهما كانت كثرة المعلومات التى جمعتها فاننى لا استطيع على الدوام أن اتفاخر باننى كنت مصيبا على طول الخط . لقد تسرب بعض من عدم الدقة الى هـذا المقال ولسوف يقودنى الزمن وما ساحصل عليه من معلومات جديدة الى اكتشاف حقيقة الأخطاء التى قد اكون وقعت فيها .

كان كاتب هذا المقال ينتوى مراجعته وادخال بعض الاضافات اليه، ولكن حيث ان العناية الفائقة التى كان يبديها فى ادارة عمله ، والغاية المبتسرة والتى أبهجته أثناء قيامه بهذا العمل قد منعتاه من أن يقوم بنفسه بذلك ، فقد طبعت مقالته بالشكل الذى قرأها به فى المجمع العلمى المصرى فى الأول من فريمير من العام التاسع (٢٢ نوفمبر ١٨٠٠) ا. ج .

الكتاب الثانى

النظام المالى والادارى فى مصر العثمانية

تأليف / الكونت استيف

العنوان الأصلى للدراسة : « دراسة موجزة حول مالية مصر منذ فتحها السلطان سليم الأول (١) الى أن فتحها القائد العام بونابرت »، تأليف الكونت استيف الخازن العام للتاج والضابط الحائز على وسام الشرف ، والمدير العام للموارد العامة لمصر » .

---

(١) ضم سليم الأول مصر الى امبراطوريته فى العام ٩٢٣ من الهجرة، ١٥١٧ من العصر الحديث (الميلادى) .

مقـــــــدمة

لابد لنـــا ، قبل أن نقدم هـــذه الدراسة ، أن نقوم بعرض سريع لنظام الحكم ولنظم الملـكية فى مصر ، فقد لا يتيسر لنـــا أن نتـــابع مسيرة الضرائب هنـــاك دون أن نتعـــرف مسبقا على تلك المؤسسات والنظم التى تشكل أساسا لهذه الضرائب ، أو التى تكون — هى — مادة لها .

لقد أقام السلطان سليم نظاما للادارة والحكم خاصـــا بمصر ، لـــكن الموت الذى داهمه بعد وقت قصـــير من فتحه لها ، قـــد حال بينـــه وبين اتمام عمله الهام ، وحيث أن ابنـــه وخليفته سليمان هو الذى أتم انجـــاز هذا العمل فان من الواضح — فيما يبدو لنـــا — أن ننسب الى هذا الحاكم هذا النظام الخاص بمصر ، كما ينبغى أن تنتسب اليه كل مجموعة القوانين واللوائح التى تنظم شـــئون مصر ، ومع ذلك ، فان هـــذا هو الأثر الذى تحدثه الانتصارات والهزائم ، اذ تظل الشعوب مأخوذة ببريقها بأكثر ممـــا تلتفت الى النظم الادارية التى يكون لها الأثر الحاســـم على أسلوبها فى الحياة ، وهؤلاء هم مصريو اليوم لا يتذكرون سوى السلطان سليم ، فى حين أنهم قلمـــا يرد على لسـانهم ذكر للواضـــع الحقيقى للقـــوانين التى يتبعونها .

عن الحكومة

يرأس حكومة مصر باشا يحد من سلطته الديوان الـــكبير والديوان الصغير وتتمثل سلطة هذا الباشا فى رئاســـته لهـــاتين الجمعيتين وفى التصديق على قراراتهما ، وفى اعطاء الأوامر لوضعها موضع التنفيذ (١) . وكان الـــكخيا والدفتردار يتلقيان الأوامر منه قبل المـــداولات ثم يحيطانه علما بالقرارات التى أعقبت أوامره . وكان البـــاشا يقيم بقلعة القـــاهرة كما كانت وظائفه تزول بعد نهاية عام من توليته اللهم الا اذا صدر فرمان من السلطان يمد فترة ممارسته للسلطة .

---

(١) كان يحضر اجتماعات الديوانـين متخفيا خلف ستارة نافـــذة تطل على مقر الديوان .

ويعطى الشرقيون اسم ديوان لـكل جمعية تنشغل بشئون الحكومة والادارة . وقـد وكل سليمان للديوان الـكبير الحق المطلق فى البت فى شـئون البـلاد العامة والتى لايحتفظ الباب العالى لنفسه بحق ادارتها ، أما الديوان الصغير ، أو الديوان بالمعنى الحقيقى للكلمة ، فقد وكل بتسيير الشئون الجارية بحيث تدخل كافة نواحى الادارة فى اختصاصـه فيما عدا تلك التى يقتضى الأمر ، بحكم أهميتها ، أن تعالج بمعرفة الديوان الكبير ، وكان الديوان الصغير يجتمع كل يوم فى قصر الباشا ، ويحضر جلساته الـكخيا والدفتردار والروزنامجى وممثل عن كل أوجاق (فرقة) من أوجاقات الجيش ، بالاضـافة الى قائدى وكبار ضـباط أوجاقى المتفرقة والجاويشية . وكان هؤلاء ، بحكم مناصبهم ، أعضاء كذلك فى الديوان الـكبير ، الذى يتكون — بالاضافة اليهم — من أمير الحج ، وقاضى القـاهرة ، ومن الشـيوخ الهامين المنحدرين من سلالة محمـد (الأشراف) ، ومن المفتين العلمـاء الأربعة (١) وعدد كبير من رجالات الأوجاقلو ، وكانت الأوامـر الصـادرة من الباب العالى توجه الى الديوان الـكبير ، كما لم تكن هنـاك أوامر توجه لهذا الديوان الا عن طريق الباب العالى الذى يملك وحده حق عقد هذا المجلس .

وكانت الفرق العسكرية المنتصرة التى خلفها سليم بمصر تتوزع بين ستة أوجاقات ، ثم تكون من بينها اوجاق سابع (٢) بالاضافة الى المماليك الذين أفلتوا بعد دمار ملـكهم والذين تعهـدوا بالولاء للسلطان وطلبوا أن يخدموا فى صفوف جيشه . وقـد شكلت هـذه العصـب التى تتمتع بامتيازات هائلة حامية مصر وطبقتها المتميزة فى نفس الوقت ، وظل هؤلاء يحتفظون بهذه الامتيازات بشـكل وراثى بحيث كانت تنتقل الى ذريتهم ، وفى نفس الوقت كانت الخدمة العسكرية الاجبـارية تنتقل الى هـؤلاء الأحفاد ، اذ كانت هذه الامتيازات تابعـة لها . وكان لـكل أوجاق أفندى واحد أو عـدد من الأفنـدية موكلين بتحصيل موارده ودفع رواتبـه التى يتفاوت قدرها تبعا لسلاح الأوجاق وطبيعة الخدمة التى يؤديها ، كما كان

---

(١) هم رؤساء المذاهب السنية الذين يسيرون على نهج عمر (كذا) .

(٢) وكان يشار الى هذه الأوجاقات بالأسماء الآتيـة : متفرقـة ، جاويشية ، جامولیان ، تافكجبان ، جراكسة ، مستحفظان او انكشارية ، وأخيرا عزبان .

هؤلاء الأفندية مكلفين بسداد الانفاقات العامة للفرقة . وكانت شئون كل أوجاق تعالج بمعرفة ديوان خاص به يتكون من رجاله القدامى (اختيار ، ومعناها شيخ) وهؤلاء هم ضباط وبعض ضباط الصف من مختلف الرتب . ويتلقى هذا الديوان حسابات الأفنديه ، وبتصرف فى المناصب الدنيا ، ويرشح للباشا بعض الأفراد اللازمين لشغل المناصب الأعلى ، وينبغى لهذا الديوان أن بصدق فى الوقت نفسه على هذه الاختيارات اذا تمت من جانب الباشا . وكان على الأوجاقلو (أى رجال الأوجاقات) الذين ينضمون الى الديوان أن يقيموا بالقاهرة ، ولم يكن بمقدور هؤلاء أن يمارسوا اية مهمة يمكن لها أن تبعدهم عن الديوان ، وكانوا ، شأنهم شأن بقية الضباط ، يرتدون بذلة تختلف باختلاف رتبهم، ومن المفترض ان قوة هذه الأوجاقات مجتمعة بمكن لها أن تؤلف جيشا قوامه عشرون الف رجل ، وان كان من النادر ان يكتمل هذا العدد الذى حدده السلطان سليم بنفسه ، اذ برغم انه ينبغى أن تكون مصر هى مقرهم المعتاد ، فانهم لم يكونوا ليعفوا من تكوين فرق عسكرية تخدم بشكل عابر داخل الجيوش فى أقاليم أخرى من الامبراطورية العثمانية ، وكان اوجاق الانكشارية فى مقدمة من يزحفون الى اى مكان يرى السلطان من المناسب أن يستخدمه فيه ، وكان اغا هذا الأوجاق الذى تعقد له القيادة والذى كان قائدا للجيش اكثر منه مجرد رئيس احدى الفرق العسكرية ، يبسط نفوذه وسلطته على كل العسكر .

وقد أنشأ سليم ٢٤ (رتبة) بك طبلخانه (١) ، اسندت لاثنى عشر منهم مهام خاصة ومحددة ، بينما كان يوكل الى الآخرين القيام بمهام استثنائية أو أن يقوموا بمهام زملائهم الذىن تزول وظائفهم بعد عام من ممارستهم لها .

---

(١) طبلخانة اى صاحب حق فى أن تصحبه فرقة موسيقية ، وهذا الحق فى تركيا هو أحد رموز السلطة ، وكان لباشا القاهرة ، شأنه شأن زملائه فى الأجزاء الأخرى من الامبراطورية ، الحق فى أن تتبعه فرقة موسيقية ، فكان هناك موسيقيون ، بقيمون على نفقته الخاصة ، يقدمون له فى أوقات محددة من اليوم حفلات موسيقية تلبق بالمكانة التى يشغلها بين الباشوات ، فقد كان الباشوات يتميزون ما ان كانوا يشغلون مرتبة باشا بذيلين أو مرتبة باشا بثلاثة ذيول ، وكان البكوات يعاملون معاملة باشا بذيلين .

أما الاثنا عشر الأول من هؤلاء فهم :

كخيا الباشا .

الضباط البكوات الثلاثة الذين يحكمون جهات السويس ودمياط والاسكندرية .

الدفتردار .

أمير الحج .

أمير الخزنة .

الحكام الخمسة لولايات : جرجا ، البحيرة ، المنوفية ، الغربية ، الشرقية .

وكان الكخيا والدفتردار وأمير الحج هم وحدهم (من بين هؤلاء) الذين لهم حق دخول الديوان .

وكانت وظيفة الدفتردار تجعل منه ماسكا لسجل المتلكات ، كما أن عقود الملكية التى يعهد بها باسم السلطان (الى مستحقيها) لاتعد صالحة الا بعد أن يؤشر عليها هذا الموظف بعد تأكده من تسجيلها فى دفتره .

وكان أمير الحج يحمل الى مكة والمدينة الهدايا التى كانت ترسل اليهما سنويا باسم السلطان كما يقوم بحماية قافلة الحج التى تنضم اليه لكى تبلغ الأراضى المقدسة فى سلام .

أما أمير الخزنة فكان يحمل برا الى القسطنطينية ذلك الجزء من موارد مصر والذى ينبغى أن يدفع لخزائن السلطان .

أما ولايات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم فكان يحكمها كشاف (كاشف) كان لسلطتهم نفس الزمن والمدى اللذين كانا لسلطة البكوات ، ومن جهة اخرى فقد كان ينبغى أن تحظى أعمال هؤلاء وأولئك بموافقة الشوربجية والأوجاقلو (العسكر) الآخرين الذين يكونون الديوان الخاص بالولاية .

وفيما عدا الكخيا وحكام ثغور السويس ودمياط والاسكندرية كان لبكوات الآخرون يسمون من قبل الديوان ثم يقر الباشا ، وبعد ذلك

الباب العالى ، هذا الاختيار . وفى حين كان الأولون ، وهم الذين يرسلون من قبل الباب العالى ، يفقدون رتبة البكوية حين يعودون الى القسطنطينية بعد انتهاء مهمتهم ، كان الآخرون يظلون يحتفظون برتبتهم على الدوام اذ كانت هذه الرتبة ثابتة غير قابلة للزوال برغم تغير الوظائف التى يشغلونها على مدى السنين فيما عدا وظيفة البك الدفتردار .

وهناك فكرة شائعة مؤداها انه كان يتم اختيار البكوات من أوجاق المتفرقة ، وكانت صلة هؤلاء بالعسكرية تنقطع بمجرد أن يرفعهم هذا الاختيار الذى وقع عليهم من جانب الديوان الى هذه الرتبة .

وقد احتفظ الباب العالى لنفسه بتدبير مهام القيادة والدفاع عن موانى ومناطق السويس ودمياط والاسكندرية ، حيث كانت هذه المدن وهى تشكل مداخل للنفاذ الى مصر التى تحميها فى بقية حدودها صحراوات تفصلها عن شعوب اقل قوة — كانت تصون مصر من اى غزو خطير ، فى الوقت الذى تهيىء فيه منافذ عدة للقوات العثمانية فى حالة قيام تمرد بين اهليها ، وكانت حامية هذه الثغور ، التى تجدد كل عام ، ترسل من القسطنطينية مع الحكام الثلاثة الذين يتولون قيادتها ، وبرغم أن هؤلاء الضباط يدخلون فى عداد البكوات فانهم لم يكونوا لينتموا الى مصر الا عن طريق فترة الاقامة التى كانوا يقضونها هناك ، والا كذلك عن طريق الاعانات المالية التى كانوا يحصلون عليها من الخزانة العامة كرواتب ونفقات لفرقهم ، وفيما عدا ذلك فقد كانوا غرباء عن الباشا وديوان القاهرة ولم يكونوا يعترفون الا بأوامر السلطان .

وقد أكد خضوع مصر وهدوء الأحوال بها لمدة قرنين من الزمان حكمة ماذهب اليه سليم وسليمان ، اذ ما أن كان يتجاسر ، خلال هذه المدة ، باشا القاهرة على العصيان حتى يعتقله الديوان ويرحله الى القسطنطينية حيث يعاقب بالموت ، وقد خولت هذه البراهين على الولاء والاخلاص لهذا المجلس حق عزل الباشوات ، لكن طموح ابراهيم ورضوان كخيا أوجاقى الانكشارية والعزبان سرعان ماجاء ليهدد السلطة شبه المطلقة التى كان يحوزها الديوان بفضل هذا الامتياز ، اذ انهما ، بمجرد أن توصلا الى تثبيت نفسيهما فى المناصب السنوية التى شغلاها ، قد استخدما الأوجاقات لتأكيد سيطرتهما فى داخل الديوان . كما استخدما مماليكهما لاخضاع

الأوجاقات أنفسهم . وحتى هذه اللحظة لم يكن المماليك ، وهم مجرد عبيد اشتراهم البكوات والعسكر يشكلون تنظيما عسكريا خاصـــا ، ولم يكن يرى منهم سوى عدد ضئيل يصل الى المراتب الاولى ولم يكن ليتم ذلك الا بعد قبولهم فى داخل الأوجاقات ، وقد أبعد ابراهيم ورضوان الأتراك من كل المواقع كى يوزعاها على هؤلاء الأجانب ، وقد كان مماليك الأول بالغى الــكثرة والقوة معا حين مات سيدهم حتى أنهم قضوا على حزب رضوان وانتحلوا لانفسهم نوعا من السيادة خالعين على رؤسائهم الجـــدد لقب : شيخ البلد ، اى أمير البلاد (١) .

وقد تطلع على بك بعد ان تولى هذا المنصب بعـــد سبعة عشر عاما من انشائه الى الحصول على استقلال مطلق (٢) ، ولعل مهارته وشجاعته كانتا تؤهلانه للوصـــول الى تحقيق طمـــوحاته لولا تلك الدســـائس التى جعلته يتحامل على مملوكه محمد بك ، وحين اضطر الأخير ان يجاهر بعداوة سيده دفاعا عن حيـــاته هو ، فقد قاتله باصرار حتى ارغمه على الفرار من القـــاهرة واللجوء الى ســـوريا ، وهناك هيأ له المـــأوى والعـــون الشيخ ضاهر ، حاكم عكا ، ذلك الذى كانت المصلحة توحد بينـــه وبين على ، والذى كان هو الذى قدم له المثـــال الذى احتذاه للتمرد على سلطة البـــاب ، ولـــكن على بك الذى كان متسرعا اكثر مما ينبغى فى السعى للتغلب على نكبته ، لم يعد الى مصر الا لكى يلقى حتفه ، متأثرا بالجروح التى اصابته فى معركة الصالحية (٣) .

ولم يكن غريمه المنتصر قـــد اكمل بعد عامه الثـــالث فى الحكم حين فرضت عليه دوافعه الخاصة ، وكذلك اوامر الباب ، ان يغزو فلسطين ، فأخضع يافا وعكا ، لـــكن مرضا وبائيا قـــد جاء ليضع خاتمة لحيـــاته ، وسيطر البكوان مراد وابراهيم ، وريثاه فى السلطة ، دون تعارض بينهما لمدة عدة سنوات .

---

(١) من الضرورى الا نخلط بين هؤلاء وبين اولئك المماليك القدامى ، والذين كانوا يعرفون بالشراكسة ، اذ توقف الدور السياسى للاخيرين منذ فتح مصر على يد السلطان سليم .

(٢) فى عام ١١٨٠ من الهجرة ، ١٧٦٧ من الميلاد .

(٣) فى عام ١٧٧٣ (الميلادى) .

وعند نهاية هذه المدة أثار اسماعيل ، المملوك السابق لابراهيم ، كخيا الانكشارية ، حين ملأه السخط بسبب ابعاده عن المشاركة فى الحكم، اثار ضدهما حزبا ارغمهما على الانسحاب الى الصعيد ، وحين طاردهما اسماعيل ، اتخذ حسن بك ، رئيس مماليك بيت على بك ، والذى كان حتى ذلك الوقت مؤتلفا مع اسماعيل اذ كانا يشكلان قضية واحدة ، جانب غريميه اللذين اتاحت لهما هذه الردة (من جانب حسن) أن يعوضا كل ما كانا فقداه . ولجأ اسماعيل ، بعد أن اضطر الى الهرب الى آسيا ، الى الباب الذى نفاه الى بروصة ، وتمتع مراد وابراهيم بعد هذه الأزمة بفترة ازدهار طويلة ، أساءا استخدامها كى يتملصا من أوامر السلطان ، ويبددا موارده من مصر كما استبدا بالناس .

وعندما ضاق السلطان بهذا السلوك الذى لا يختلف فى قليل أو كثير عن التمرد ، كلف قبطان باشا بانزال العقاب بهما (١) . ولم ينتظر البكوان وصوله الى القاهرة ، وكان جزء من الصعيد قد احتلته من قبل قوات اسماعيل بك بعد أن انسل من منفاه ، وكان جزء آخر يحتله حسن بك بعد أن كان قد قطع صلته بهما ، وعندما هوجم مراد وابراهيم من ناحية القاهرة على يد قوات قبطان باشا ، وفى نفس الوقت هوجما من ناحية المؤخرة على يد مماليك كل من اسماعيل وحسن ، فقد قاوما كلا الفريقين . وحيث قد استدعى قبطان باشا الى القسطنطينية لقتال الروس ، فقد عقد الصلح مع هذين اللذين لم يكن قد قدر له بعد أن يلحق الهزيمة بهما ، تاركا فى حوزتهما عدة مقاطعات بالصعيد . ونال اسماعيل وحسن، اللذان تركهما حاكمين للقاهرة والدلتا وبقية الولايات المتاخمة ترحيب الباب العالى بفعل خضوع لم يبده سلفاهما على الاطلاق، وبعد مضى أربع سنوات اجتاح البلاد طاعون مميت ، اكثر هلاكا من كل طاعون مميت تعيه ذاكرة البشر ، فأتى على عدد كبير من مماليك القاهرة بمن فيهم اسماعيل بك نفسه ، وعندما أيقن عثمان بك طوبال ، خليفته ، أن لديه كل مايخشاه من حسن بك ، فانه لم يجد الأمن والملاذ لرجاله الا فى دعوة مراد وابراهيم (للحكم) ، ورحب الباشا بعودتهما الى السلطة ، الأمر الذى أعد ترتيبه بمهارة بالغة حتى أن مماليك حسن ، الذين شدهتهم المفاجأة حين ظهر هذان

---

(١) فى سنة ١٧٨٦ .

البكوان على حين غرة عند ابواب القــاهرة ، قــد وجدوا أنفسهم يهربون دون قتال ملتمسين فى الصعيد مأوى لهم .

ولم يتوان مراد وابراهيم ، وقد عادا الى قمة الحكم ، فى أن يجددا مساوىء السلطة التى ميزت الفترة الأولى من حكمهما ، وبدوا وكأنما هما قد حصلا على حق الاجتراء على سيدهما (السلطان) كحق مكتسب لهما ، بالاضافة الى حقهما فى قهر مصر والزراية بكل البشر الى أن وضــع قائد عظيم (بونابرت) حدا لحكمهما .

وهكذا نكون الان ، (من هذه المقدمة) قد وقفنا على تلك الأســباب التى ادت الى انهيار تلك الحكومة التى أوجدها سليم وسليمان عندما ادت مجريات الأمور الى عودة المماليك الى مصر .

ونمضى الآن كى نعرض للمبادىء التى استقرت بخصوص نظم الملكية فى هذه البلاد .

عن الملــكية

نستطيع أن نميز فى مصر بين ثلاثة انواع من الملكية ، هى :

ملــكية الأراضى .

ملــكية الوظائف .

ملكية الرسوم والضرائب على الصناعة والاستهلاك (التجارة) .

وقد اعلن السلطان نفسه المالك الوحيد ، فكل اراضى مصر ملك له ، ومع ذلك فحيث قــد انتقلت هــذه الأرض الى مستغلين يسمون ملتزمين (ملتزم) يستطيعون أن يتصرفوا فيها ، وحيث كان محرما ابطال هذا الحق الممنوح لهم ، وحيث كان من النــادر أن ترفض أيلولة حق الاستغلال هذا الى ورثة هؤلاء الملتزمين ، فان هذا النظام للاشياء ظل يحقق مزايا تتساوى مع نفس المزايا التى تحققها الملكية ، فقد احتفظ الفــلاحون بحق التملك المبــاشر والوراثى للجزء الأكبر من الأراضى التى آلت تبعيتها للملتزمين ، وان كان ذلك لايعطيهم حق بيع الأرض أو هجرها ، واذا حــدث ان مات بعضهم دون أبنــاء أو ورثة فان الأراضى التى كانوا يملكونها تعود لتصبح تحت تصرف الملتزم الذى يضطر لاعطائها الى فلاح آخر ، وحين يموت أحد

الملتزمين ، دون أن يخلف هو الآخر من يرثه تعود ارضـــه الى السلطان الذى يعهد بها بدوره الى ملتزم آخر .

وتنقسم أراضى مصر كلهـــا الى أراضى : الأثر ، الوســـية ، الرزق (رزقة) ، الاطلاق (أو الأتلاق) .

ويمتلك الفلاح أراضى الأثر .

وتؤول ملكية الوسية الى الملتزم .

اما الرزق فهى الراض أوقفت على الأعمــال الخــيرية ، وهى حرة وخالصـــة من اية ضريبـــة ، وقـــد وجدها سليم على هـــذه الحال واقر حصانتها حين امتنع عن أن يعهد بها الى ملتزمين ، وقـــد ظل الأشخاص الذين حددتهم حجج انشاء وادارة هذه الرزق ، يتمتعون حتى اليوم بنفس هذه الدرجة من الاستقلال .

وهناك بعض اراض تسمى اراضى الاطـــلاق ، وتتمتع بنفس هـــذه الحرية ، وهـــذه مخصصة لتوفير العليق اللازم لخيول الباشا والبكوات .

وقد حمل سليم كثيرا من الملتزمين بعوائد سنوية خصصها او اعترف بتبعيتها لأفراد او لمؤسسات عموميـــة أو خيرية ، وتعرف هـــذه العوائد باسم الأوقاف ، وقـــد اخضع خلفاؤه ملتزمين آخرين لعوائد مماثلة ، وفى النهاية انشأ بعض الملتزمين اوقافا جديدة ، وألزموا ورثتهم بهذه الالتزامات . وتسمى هـــذه العوائد ، التى تشكل ملكيات حقيقية ، اذ تعهـــد الملتزمون انفسهم بدفعها بصفة دائمة ، رزقا نقـــدية ، وهى تشكل عادة ، شـــأنها شأن رزق الأرض ، جزءا من عوائد الأوقاف ، واذ كان لأصحابها الحق فى النزول عنها او نقل ملكيتها للغير فقد كانت تسدد لأولئـــك الذين يحصلون على الحق فيها اما عن طريق الشراء واما عن طريق الارث .

ويمكننا أن نميز نوعين من الأوقاف : الأوقاف السلطانية، اىتلك التى انشئت قبل منقبل السلاطين والأوقافالخاصة . وتتكون الأولى من عوائد نقدية أو عوائد منالحبوب يوزعها السلطان بمعرفته على الجهة المخصصة لها ، أما الأخرى فلا يقتصر تكوينها على رزق الأرض أو الرزق النقدية أو رزق الحبوب ، بل هى تشتمل كذلك على البيوت والوكالات والحدائق التى تمتلكها فى مجموعها اما مؤسسة أو منشأة خيرية واما ذرية مؤسس هذا

الوقف او ذاك والذى لم يوجه ملكيته (التى اوقفها) لخدمة غرض دينى أو خيرى ، اللهم الا اذا لم يكن قد خلف ورثة على الاطلاق . وكان مثل هذا التصرف شائعا للغاية فى مصر ، اذ كان يضع تحت حماية الدين تلك الحقوق التى ينقلها صاحب الوقف الى ابنائه .

اما الوظائف فكانت اما سنوية واما ثابتة ، وقد عين السلطان مخصصات لهذه الوظائف أو تلك وهى عبارة عن امتيازات من الأرض ومن الحقوق أو الرسوم من كل نوع . ولم يكن لمن يتقلد الوظائف من النوع الأول أن يتمتع الا بميزات بسيطة تنتهى بانتهاء مدة وظائفهم . أما الوظائف من النوع الثانى فكانت لها طبيعة الملكية بمعنى أنه لم يكن يحق للسلطان ان يمنع أن يتقلد أى شخص هذه الوظيفة اذا ماباعه اياها صاحبها الأصلى او نزل عنها لصالحه . وقد رأينا هذه الوظائف وهى تنتقل بشكل عادى الى أبناء او ورثة الموظف الذى كان يشغلها .

وتتفرع ملكية الرسوم المقررة على الصناعة والتجارة من ملكية الوظائف وهى تتمثل فى التمتع الكلى والكامل بهذا النوع من الدخول الذى أنشأه سليمان لصالح شاغلى الوظائف وآخرين ، بشكل يحصلون معه على دخل يتناسب مع مالهم من مكانة وما عليهم من التزامات .

وتشكل البيوت ورءوس الأموال والقيم المنقولة ملكيات يبدو أنها كانت مجهولة من قبل الحكومة ، فكان المصريون ينتفعون بها بالبيع والشراء والهبة دون تدخل من جانب الخزانة .

الباب الأول

الضرائب العامة

الفصـــــل الأول

الضرائب على الأراضي

لم يتوصل الاتراك الى اقامة نظام ثابت للضرائب فى مصر الا بعــد كثير من الجهود والأبحاث ، فحيث كانت وثائق الحكومة قد احرقت بفعل المماليك ، فقــد حاول السلطان سليم أن يستعيض عنها بمعلومات حصل عليها من موظفى الادارة السابقة ، فعرف حصيلة الضرائب عنــدما ارغم الموظفين العموميين الذين كانوا يسلمون لكل ممول بيانا بما ينبغى عليه أن يدفعه ، أن يسلموه هو سجلات عملياتهم هذه . وفى نفس الوقت ، فحيث أن المعلومات التى حصل عليها عن هذا الطريق لم تهيىء له النتــائج التى كان يرغب فى الالمام بها فقد أمر بتقسيم عام للبلاد الى ولايات أو مقاطعات، ومدن ، وقرى ، ثم قسم كل زمام بدوره الى فدادين . وعلينا منذ الآن ان نتقبل فكرة أن اعمال هذا المسح لم تبلغ الدقة المرجوة لها بشكل تام على الاطلاق ، حيث لاتزال توجد فى كل هذه الولايات تقريبا أملاك وقرى بأكملها لاتزال مساحاتها مجهولة للحكومة .

اولا : عن المــال الحر

هناك مجموعة من الرسوم أو الضرائب تندرج كلها تحت اسم المال الحر ، أى الضريبــة الخالصــة ، وتستخــدم حصيلتها التى يقوم الملتزم بجبايتها :

١ ـــ فى سداد المال الميرى .

٢ ـــ فى دفع الــكشوفية .

٣ ـــ فى تكوين الفايظ (الفائض) .

ويدفع المال الميرى الى السلطان ، أما الـكشوفية فتعطى للبك أو الكاشف حاكم الولاية، فى حين أن الفايظ هو الدخل الخاص الذي يبقى للملتزم .

ونقدم فيما يلى جدولا بالمبالغ المفروضة على ولايات مصر والتى تدخل

اسم الولاية	أصل الميرى	كوريكجى أعمال (تطهير) الترع
	مدينى	مدينى
قنا	١ر٠٤٩ر١٢١	١١ر٠٤٥
اسنا	٥١١ر٦٠٠	١ر٠٥٠
جرجا	٥ر٤٤٣ر٤٣٧	٣٦ر٠٥٨
سيوط	٢ر١٩١ر٠٥١	٢٨ر٦٤٣
منفلوط	٨٠٦ر٨٧٠	٢٠ر٦٩٦
المنيا	٣٢٢ر١٣٠	٢٣ر٧٣٦
بنى سويف	٣ر٤٣١ر٠٠١	٤٩ر٢٩٢
الفيوم	٢ر٢٩٣ر٠٢١	٢١ر٨١٦
أطفيح	٦٣٢ر٧٨٠	٦ر٠٣٥
الجيزة	٤ر٣٣١ر٧٧٣	٣٣ر٨٣٤
القليوبية	٣ر٨٣٨ر٤٣٤	٣٠ر٢٧٤
الشرقية	٥ر٠١٢ر٣٥٩	٣٩ر٩٨٤
البحيرة	١١ر١٤٤ر٣٢٩	٤٢ر٦٨٩
المنصورة	٩ر٤٩٩ر١٤٢	٥٢ر٥٨١
الغربية	١٥ر٤٠٠ر٥٣٥	١٢٥ر١١٢
المنوفية	١٢ر٤٠٣ر٩٠٨	١١٠ر٠٤٦
الإجمالى . .	٧٨ر٣١١ر٤٩١	٦٣٢ر٨٩١

ضمن هذه البنود الثلاثة وقت مجيء الجيش الفرنسى ، ونجد فى سجلات المسيو استيف تلك الوسائل التى كان عليه أن يلجأ اليها للحصـــول على هــذا الجــدول :

تذاكر جاويشية	المجموع	ملاحظات
مديني	مديني	
١ر٧٩٧	١ر٠٦١ر٩٦٣	
١٠ر٥٣١	٥٢٣ر١٨١	فى هذه الولايات التى تكون فى مجموعها بلاد الصعيد يسدد الجزء الأكبر من الضريبة عينا . لكننا لم نورد هنا إلا ذلك الجزء من الميرى الذى يسدد نقداً .
١٣ر٥٧٩	٥ر٤٩٣ر٠٧٤	
٤ر٢٠٧	٢ر٢٢٣ر٩٠١	
٩٦٦	٨٢٨ر٥٣٢	
٩٦٦	٣٤٥ر٨٦٦	
٣٧ر٦٥١	٣ر٥١٧ر٩٤٤	
٢٢ر٣٧١	٢ر٣٣٧ر٢٠٨	
٨ر١٥٦	٦٤٦ر٩٧١	
٧٧ر٦٠٠	٤ر٤٤٣ر٢٠٧	
٦٢ر٠٣٤	٣ر٩٣٠ر٧٤٢	
٩٤ر٥٨٩	٥ر١٤٦ر٩٣٢	
٩٢ر٤٧٩	١١ر٢٧٩ر٤٩٧	
١٥٦ر١١٥	٩ر٧٠٧ر٨٣٨	
٢٦٠ر٥٤٧	١٥ر٧٨٦ر١٩٤	
٢٣٠ر٨٨٦	١٢ر٧٤٤ر٨٤٠	
		د س جنيها توريا ويعادل ٨ ١٥ ٢و٨٥٧و٧٨١
١ر٠٧٣ر٥٠٨	٨٠ر٠١٧ر٨٩٠	س وبالفرنكات ٥٢ ٢ر٨٢٢ر٥٠٠

اما الميرى فهو الضريبة التى خص بها السلطان نفسه ، ولم يكن الميري المقرر على الأراضى الزراعية يبلغ فى الأصل سوى ٥٩٨ر٨٩٨ر٧ ولكن السلاطين احمد ومحمد ومصطفى قد رفعوه على التوالى حتى بلغ الاجمالى الذى أوردناه .

وهذا التقسيم الذى رأيناه لهذه الضريبة هو نفس التقسيم الذى أنشأه سليم وسليمان . وسواء أكان الأمر ناتجا عن ثغرة فى العمل او كان تفسخا او كان نتيجة لتحسن طرأ على حالة بعض الأراضى ، فقد كان هذا التقسيم او التوزيع (لضريبة الميرى) معيبا للغاية ، اذ يرى المرء فى معظم الولايات اراضى شاسعة وخصبة لكن الضريبة التى قدرت عليها اقل من تلك التى فرضت على اراض اخرى ليست لها نفس المزايا .

وأما مبلغ الـ ٨٩١ر٦٣٢ مدينى التى وردت تحت بند كوريكجى فلم يكن يدخل فيما مضى ضمن موارد الخزينة العامة ، لكنه أصبح منذ الآن فصاعدا جزءا من المال الحر ، فكان يحصله احد الأفندية من الملتزمين مباشرة ليستخدمه فى نفقات النقل والأعمال اللازمة الأخرى ليتم ارسال انقاض القاهرة الى مصبات النيل حيث كانت تلقى فى البحر . ويراقب الروزنامجى هذا العمل فى كل مراحله ويتسلم الحساب الخاص بذلك من هذا الأفندى . وعندما اساء القادة المحليون استخدام حصيلة هذا البند ، أو بدأوا ينفقونه فى غير أغراضه ، منذ نحو قرن ، أمر الباب العالى بأن يدخل ضمن موارده ،وقد نتج عن توقف الانفاق على الأغراض التى كانت مخصصة لها حصيلة هذا البند قيام تلال صناعية فى ضواحى القاهرة كانت تفوح منها باستمرار روائح كريهة ، كما كانت تهب منها أتربة مزعجة وضارة بالصحة .

وقد تقررت تذاكر الجاويشية بمعرفة السلطان لتوفير أجر اضافى لأفراد اوجاق الجاويشية الموكلين بحماية تحصيل الميرى ، وكان ضباط هذا الأوجاق يحصلون بأنفسهم هذه الضريبة بشكل مباشر ، ومع ذلك ففى السنوات الأخيرة ، وحين رفض الملتزمون سدادها ، سارع الباشا الى معونة هذا الأوجاق ، الذى امسى بالغ الضعف لحد لم يستطع معه الزامهم بسدادها ، فأمر بموجب فرمان بأن يحصل هذا الرسم باعتباره جزءاً من الميرى وأن يوجه للغرض الذى حدده هذا الفرمان .

ننتقل بعد ذلك الى الحديث عن الـــكشوفية كما انشأها سليمان ، وهى التى اصبحت نتيجة لذلك جـــزءا من المـــال الحر ، لنميزها عن تلك الـــكشوفية الجديدة التى أضيفت (الى الضرائب المقررة) منذ عهد هـــذا الحـــاكم .

ويوضح لنا الجدول الآتى حصيلة هذه الضريبة وتلك .

اسم الولاية	كشوفية قديمة				كشوفية	
	مال الجهات	خدمة العسكر	كلفة	الإجمالي	رفع المظالم	
	بالمديني	بالمديني	بالمديني	بالمديني	بالمديني	
قنا	—	—	١٢٥,٦٦٤	١٢٥,٦٦٤	—	
إسنا	—	—	٩٥٤,٢٦٧	٩٥٤,٢٦٧	—	
جرجا	—	—	١,٨٧٨,٣١٦	١,٨٧٨,٣١٦	—	
سيوط	٨,٠٠٠	—	٨٥٠,٩٧٥	٨٥٨,٩٧٥	—	
منفلوط	٢٨١,٨٨٧	—	١٣٧,٧٤٨	٤١٩,٦٣٥	—	
المنيا	٥٨٢,٧٧٨	٤١٥,٠٣٣	—	٩٩٧,٨١١	—	
بني سويف	٩٦٦,٨٢٢	٤٥٨,٧٢٨	٨٢٢,٩٤١	٢,٢٤٨,٤٩١	١,١٢٨,٢٥٠	
الفيوم	١٩٤,٩٢٠	—	١٣٧,٣٤٩	٣٣٢,٢٦٩	٩٥,١٢٤	
أطفيح	—	—	—	—	—	
الجيزة	٣٢٢,١٥٧	١٠٨,٥٧٠	٤١,٦٢٥	٤٧٢,٣٥٢	٢٥٩,٦٠٠	
القليوبية	٣٨٢,٣٠٨	٢٣٥,٣٤٥	٤٣,٤٤٤	٦٦١,٠٩٧	٦٢٧,٣٦٥	
الشرقية	٦٤٧,٨٠٢	٦٠٦,٩٥٠	٩٣,٣٦٧	١,٣٤٨,١١٩	٢,٣٦٨,٨٠٠	
البحيرة	٦٠٤,٢٦٢	٤٥٦,٣٢٨	٤٩٩,١٠٠	١,٥٥٩,٦٩٠	٢,١٤٠,٩٢٥	
المنصورة	٧٤١,٨٨٣	٦٨٠,٧١٠	٣٤٠,٢٧٣	١,٧٦٢,٨٦٦	٢,٦٣٥,٠٢٥	
الغربية	١,٤٧٥,٤٨٧	٨٣٩,٢٣٩	٨٢,٩٣٨	٢,٣٩٧,٦٦٤	٤,٥٠٦,٣٢٠	
المنوفية	٧٤٢,٩٨٢	٥٩٥,٤١٠	٢٠٩,٣٠٦	١,٥٤٧,٦٩٨	٢,٥١٣,٤٣٠	
الإجمالي	٦,٩٥١,٢٨٨	٤,٣٩٦,٣١٣	٦,٢١٧,٣١٣	١٧,٥٦٤,٩١٤	١٦,٢٧٤,٨٣٩	

جديدة			الإجمالى العام	ملاحظات
فردة التحرير	كلفة	الإجمالى		
بالمدينى	بالمدينى	بالمدينى	بالمدينى	
—	—	—	١٢٥,٦٦٤	
—	١٢٥,٠٠٠	١٢٥,٠٠٠	١,٠٧٩,٢٦٧	
—	١٩٩,٣٦٦	١٩٩,٣٦٦	٢,٠٧٧,٦٨٢	
—	٦٣,٦٥٠	٦٣,٦٥٠	٩٢٢,٦٢٥	
—	٤٢٠,٤٢٠	٤٢٠,٤٢٠	٨٤٠,٠٥٥	
—	٢,١٠١,٩١٨	٢,١٠١,٩١٨	٣,٠٩٩,٧٢٩	
—	—	١,١٢٨,٢٥٠	٣,٣٧٦,٧٤١	
—	٢٢٠,٣٢٩	٣١٥,٤٥٣	٦٤٧,٧٢٢	
—	—	—	—	
—	١,٦٦٢,٨٠٦	١,٩٢٢,٤٠٦	٢,٣٩٤,٧٠٨	
٤٢٢,٠٠٠	—	١,٠٤٩,٣٦٥	١,٧١٠,٤٦٢	
١,٠٦١,٧٧٠	٦٩٥,٩٥٩	٤,١٢٦,٥٢٩	٥,٤٧٤,٦٤٨	
١,٧٠٨,٠٨٨	—	٣,٨٤٩,٠١٣	٥,٤٠٨,٧٠٣	ويعادل الإجمالى :
٨٨٦,٦٧٧	٨٧٤,٦٢٤	٤,٣٩٦,٣٢٦	٦,١٥٩,١٩٢	د س ج ت
١,٦١١,٦٠٧	١,٦٥٠,٠٧٤	٧,٧٦٨,٠٠١	١٠,١٦٥,٦٦٥	٣ ٤ ٢,٧٨١,٤٤٦
١,٤٠٦,٠٥٢	٩٣٠,٤٠١	٤,٨٤٩,٨٨٣	٦,٣٩٧,٥٨١	وبالفرنكات :
				سى ف
٧,٠٩٦,١٩٤	٨,٩٤٤,٥٤٧	٣٢,٣١٥,٥٨٠	٤٩,٨٨٠,٤٩٤	٣٦ ٢,٧٤٧,١٠٧

اما مال الجهات فهو عبـــارة عن ضريبة كانت تتم جبايتها فى كل قرى الدائرة . ويضع الملتزمون حصيلة هذه الضريبة ، التى يقع على عاتقهـــا اكبر قـــدر من مصروفات « الاسلامية » (*) تحت تصرف حكام الولايات ، ويقوم هؤلاء بسداد هذه المصروفات ، ويحتفظون بما يتبقى منها لحسابهم.

وتجبى ضريبة خدمة العسكر لحساب الشوربجية ولصـــالح ضـــباط وجنود آخرين من بقيـــة الفرق العسكرية ، وبخاصـــة من جنود أوجاقات التفكجيان والجاموليان والشراكسة المنتشرين فى الولايات للعمل هناك مكونين الديوانات (المحلية) أو باعتبارهم مراقبين للبكوات أو الـــكشاف الحكام . وكان هؤلاء العسكر يجبون هذه الضريبة مباشرة من الملتزمين طبقا لتفويض محرر من البك اوالكاشف . وعندما لاحظ محمد بك ان هذه الضريبة قـــد ازدادت بشكل كبير ، فقد اعادها الى القدر الذى حدده لها سليمان .

وتمثل الكلفة عدة عادات عينية ونقدية خصصـــتها اللوائح القـــديمة للحكام وافراد بيوتهم . وقد تحولت هذه الرسوم الى اعانات مالية ينبغى على الملتزمين أن يقوموا بدفعها . وقد أضفنا فى دراستنا الى هذه العادات عادة تعرف باسم حوالة الحوالات ، وهو تعبير عربى يعنى التعويض الذى يدفع لحملة الرسائل ، الذين يرسلون على وجه السرعة الى القرى ، لكى يخطروا المولين بالمبلغ الذى ينبغى عليهم أن يدفعوه ، لانه تبين لنـــا أن حوالة الحوالات كانت تضاف الى الكلفة فى كل ولايات مصر ، فيما عـــدا ولايتى الغربية والمنوفية .

وقبل وقت طويل من عهد محمدبك كان حكام الأقاليم قد منحوا انفسهم بشكل اســـتبدادى حق زيادة الـــكشوفية ، لـــكن الملتزمين ، فى عهده ، وقد كانوا فى حالة لا تسمح لهم بتحمل هذه الابتزازات ، التى لايقف تزايدها عند حد ، قـــد أشعروه بأن من الضرورى وضع حـــد لهذه الابتزازات . وادرك محمد بك انه اذا كان من المنـــاسب أن تزيد هذه الرســـوم (أو العادات) من جهة ، فان من الظلم الصارخ من جهة أخرى أن يترك تقدير ذلك لرأى الحكام . وحين قرر قراره على الغاء كل ماكان هؤلاء الحكام

(*) رسم يحصل لصالح محمل الحج كما سيرد بعد ذلك (المترجم)

يفرضونه ، زيادة عن الـكشوفية القديمة ، فقد منحهم حق تحصيل عادة جديدة سميت باسم عادة رفع المظالم .

وقد أراد القبطان باشا حسن ، الذى حاول أن يعيد النظام الى مصر بعد الاضطرابات التى أعقبت موت محمد بك ، أن يقلص الضرائب لـكى تعود الى نفس القدر الذى حددته لوائح سليمان ، لـكن أفـكارا لاحقـة قـد أثنته عن ذلك ، فتبنى نفس الاعتبارات التى أدت الى نشأة عادة رفع المظالم ، واكتفى بأن يطلق عليها اسما جديدا هو عادة حق **البيات** (أى عادة ثمن الاقامة) .

وحين ادت الأحداث التى أعقبت رحيله الى تثبيت سلطة البكوين مراد وابراهيم ، فان حكام الأقاليم قـد بزوا أسلافهم فيما كانوا يقومون به من الابتزازات وعمليات السلب ، بحيث أصبح الأمر يقتضى أن تتحول هـذه الى بنود ضريبية جديدة ، فأضاف ابراهيم ومراد الى الرسوم أو العـادات القائمة عادة فردة التحرير .

وبعد ذلك أضيف لحق الطريق الذى أنشـأه محمد بك لـكى يتكفل بنفقات تحصيل رفع المظالم رسم جـديد لحق الطريق يلزم لجبـاية فردة التحرير ، وفى النهاية جمعت كل الأعبـاء التى فرضت بشكل استبدادى على القرى منذ موت محمد بك فى ضريبة وحيدة أشير اليها باسم الكلفة ، وذلك بسبب تطابق الرسوم (أو العادات) التى تكونها مع تلك التى كانت تدخل فى اطار هذا الاسم فى الكشوفية القديمة .

ويبين الجدول الذى نقدمه هنـا الحصة التى تعـود الى الملتزمين من الضرائب فى حالة رى كل الأراضى .

أسماء الولايات	الفايظ	الزيادات: برانى قديم	الزيادات: برانى مستجد	الإجمالى	ملاحظات
		المديني	بالمديني	بالمديني	
قنا	٣,٠١٧,١٩٧	٢٩٧,٨٢٦	—	٣,٣١٥,٠٢٣	
إسنا	١,٩٤٦,٢٦٩	—	—	١,٩٤٦,٢٦٩	
جرجا	١٠,٣٣٩,٧٧٠	٤,٥٤٣,٤٩٩	—	١٤,٨٨٣,٢٧٨	
سيوط	١,٨٢١,٩٨٨	٣,٢٧٠,١٥٧	١١٠,٠٠٠	٥,٢٠٢,٦٤٥	
منفلوط	٢,٢٨٤,٥٧٨	٥٧٩,٢٦٦	١٦٢,٨٥٩	٣,٠٢٦,٧٠٣	
المنية	٢,٤٨٧,١٣٢	١,٠٣٩,١٧٠	—	٣,٥٢٦,٣٠٢	
بنى سويف	١٥,٢٢٨,٠٠٩	٧١٣,٣١٥	٣,٠٩٨,٦٩٠	١٩,٠٤٠,٠١٤	
الفيوم	٥,٤٢٦,٣١٠	٧٧٦,٦٧٩	٨٨٣,١٩٣	٧,٠٨٦,١٨٢	
أطفيح	٤,٦٢٤,٦٩٠	٣٦٢,٠٤٤	١٨٢,٤٤١	٥,١٦٩,١٧٥	
الجيزة	٨,٥٤٣,١٦٧	٩٣٧,٠٨٢	٧١٠,٩٦٣	١٠,١٩١,٢١٢	
القليوبية	٩,٠٢٦,٦٢١	٥٨٩,٤٢٨	٥,٥٠٣,١٥٠	١٥,١١٩,١٩٩	
الشرقية	١٢,٣٦٨,٧٢٦	٣,٢٣٢,٧٩٦	٣,٦٢٥,٩٢٦	١٩,٢٢٧,٤٤٨	
البحيرة	١٩,٨٠٠,٤٤٩	١,٥٥٢,٣٤٤	١,٧١٥,٥٧٨	٢٣,٠٦٨,٣٧١	
المنصورة	٢١,٦١٦,٦٦٠	٨,٦٥٨,٨٦٧	٦,٧٨٣,٣١٣	٣٧,٠٥٨,٨٤٠	د ٧ س ٣ حـ
الغربية	٣٩,٨٠٢,٨٨٦	١٢,٠٤٠,٨١٦	١٣,٧٦٦,١٠٣	٦٥,٦٠٩,٨٠٥	تعادل : ٧ ٣ ٩,٧٩٣,٨٥٠
المنوفية	٢١,٨٢٤,٠٤٦	٦,٧٥٧,٣٨٤	١٢,١٧٦,١٣٣	٤٠,٧٥٧,٥٦٣	س فرنك
الاجمالى	١٨٠,١٥٨,٥٠٧	٤٥,٣٥٠,٦٧٣	٤٨,٧١٨,٨٤٩	٢٧٤,٢٢٨,٢٠٩	٢٤ ٩,٦٧٢,٩٤٦

ملاحظات: حيث كان تحصيل المال الحر فى الصعيد يتم نقداً أو عيناً تبعاً لنوع المحصول الذى يزرعه الفلاحون فى أراضيهم فقد كان لزاماً علينا أن نحول الحصيلة التى يتم سدادها عينا كما يفعل الناس عادة بهذه البلاد إلى قيمة نقدية حتى يمكننا أن نقدر حصيلة الفايظ المستحق .

والفايظ (الفائض ، اى الجزء الذى يبقى) هو ذلك الجزء من المال الحر الذى خصصه السلطان للملتزم ، ولم يكن هذا الجزء محددا أو ثابتا بشكل مؤكد ، شأن الميرى او الكشوفية ، حيث لم يكن للملتزم أدنى حق فيه الا بعد أن يفى بالتزاماته قبل السلطان وحكام الأقاليم . ولما كانت الأرض التى لا تغمرها مياه الرى معفاة بشكل مبدئى من سداد اية ضريبة، فقد نتج عن ذلك ان الفايظ كان عرضة للزيادة والنقصان تبعا لاتساع أو انحسار المساحة المروية من الأراضى التى ينبغى عليها أن تسدد المال الحر.

وقد اطلق على الزيادات التى الحقت بالفائظ هذه التسميات : برانى قديم وبرانى جديد ، مضاف قديم ومضاف مستجد . وليس ثمة اى نص رسمى يدل على انشائها ، لكن الملتزمين قد جعاوا من الهدايا والأتاوات التى يدفعها الفلاحون مقابل خدمة عارضة أو طبقا لتقليد ما رسوما واجبة السداد بشكل حتمى .

وتعود جباية البرانى القديم الى زمن بالغ القدم ، وينظر اليه اليوم باعتباره ضريبة تماثل فى انتظامها ضريبة المال الحر المبدئى .

أما البرانى الجديد (أو المستجد) فقد ابتدعه البكوات المماليك متذرعين بنفس الادعاءات التى استخدمت من قبل لتبرير جباية البرانى القديم .

واليوم ، تحصل نقدا كل الرسوم (أو العادات) التى تشكل كلا من البرانى القديم والبرانى المستجد ، وبرغم انتظامها على هذا النحو فانها لم تدون فى جداول الضرائب المقررة على القرى ، لكننا لانجد نفس الشىء بالنسبة لمختلف فروع الكشوفية الجديدة ، فحيث أن الحكومة قد أوجبت على الملتزمين ، وهم مثقلون بالفعل بدفع الكشوفية القديمة ، أن يدفعوا لقادة الولاية ضرائب رفع المظالم وفردة التحرير والكلفة الجديدة فقد كان تحصيل هذه الضرائب يتم بموجب نص من السلطة لايمكن للقرية معه أن تنكرها ، وعلى العكس من ذلك فحيث أن البرانى لم يكن ملزما للفلاحين طبقا لنص محدد ، فقد كان من الضرورى للملتزم أن يواصل التذكيربالعادات المنشئة للرسوم التى تتكون منها ضريبة البرانى هذه .

وكانت الادارة الخاصـــة بقرية ما تنشىء مصروفات تحصيل تنفقها فى الاستجابة للمطالب المحلية وفى دفع اجور الموظفين الذين عينهم السلطان فى كل وحدة (ادارية) ، ولم تكن مصروفات التحصيل هذه تدخل ضـــمن الجداول التى سبق أن أوضحناها اذ كان الذين يقومون بجبايتها ينفقونها مباشرة فى الأغراض المحددة لها ثم يخصمونها من اجمـــالى المبـــالغ التى حصلوها لحساب الملتزم .

وسنقدم قائمة طبق الأصل بالضرائب التى كانت تجبى من احدى قرى مصر على النحو الذى قدمه واحد من هؤلاء الجباة . ويقتضى نسق هـــذا المؤلف أن تدخل هذه القائمة فى ثنايا دراستنا هذه عند حديثنا عن تحصيل الضرائب وسوف تبين هذه القائمة ، بوضوح بالغ ، كل ماسبق أن ذكرناه للتو ماسا بموضوع تقسيم الضريبة على الأراضى .

ثانيـــا : عن ادارى القرى

كان الملتزم موكلا بادارة القرية وتنظيم شئونها ، ويعمل بهـــا تحت امرته قائمقام يمثله هو وموظفون يختارهم ، وكان وجود هؤلاء ، وكذلك الحال بالنسبة لوظائفهم ، يتحدد بمقتضى لوائح وضعها السلطان .

وهؤلاء الموظفون هم : الشيوخ ، الشاهـــد ، الصراف ، الخولى ، المشد ، الخفراء ، الوكيل ، الكلاف .

وكان من الضرورى أن يختار كل من الشاهد والخولى من بين سكان القرية .

أما الشيخ فكان يفتش على الأرض وعلى الفلاحين ويراقبهم ، وهو مكلف بمراعاة الا تضار مصالح الملتزم بسبب اعوجاج سلوك هؤلاء أو بسبب اهمالهم ، كما كان ملزما بأن يسدد ما على المولين من ضرائب اذا هو لم يخطر سيده بهروبهم أو بأخطائهم . ولا تصل أوامر الملتزم الى الفلاح الا من خلاله . كما ينقل — هو — الى الملتزم مطالبهم واحتياجاتهم . ويعين الملتزم فى بعض الأحيـــان عـــدة شـــيوخ للاشراف على الأراضى التى تقع تحت امرته ، ويمارس أول هؤلاء — ويشار اليه باسم شيخ المشايخ — بالنسبة

لزملائه نفس السلطة التى يمارسها هؤلاء ازاء الفلاحين . واذا غاب الملتزم ولم يكن له بالقرية قائمقام فان هـذا الشيخ الأول ينوب عنـه . ويختار لشغل هذه الوظائف فى العادة فلاحون يمتازون بيسرهم وحـذقهم . وفى معظم الأحيـان تنتقل هذه الوظـائف من الأب الى الابن ، مما يدفع بأبنـاء شيخ ما على الظن بأن لهم الحق فى وراثة وظيفته .

وأما الشاهـد فيمسك بسجل يبين طبيعة ومساحة كل العقـارات التى تكون زمام القرية ، ويدون بهذا السجل أسـماء سكانها وملـكياتهم وكذلك كل عمليات نقل الحيـازة الطارئة ، ويشار اليـه بصفة العـدل (أو العادل) للتأكيد على النزاهة التى لابد لها أن تحكم أعماله .

ويقوم الصراف بتحصـيل الضرائب طبقـا لتوزيعها المـدون بسجل الشاهد ، ويتأكد من وزن وحالة المسكوكات (قطع النقود) التى تقـدم له ، ثم يسلم الحصـيلة الى الملتزم ويحصـل منه على مخالصة بذلك ، وكان الصراف فيما مضى يعمل فى خدمة الشاهد ويحصل على راتبه منه .

ويلتزم الخولى أو المساح بأن يعرف بدقـة بالغـة زمامات القرية والحدود التى تفصل بين أراضى الملاك ، كما يحسم كل المنـازعات التى تنشب حول هذا الموضـوع ، ويدير أعمال وزراعة الوسية ، وتزرع هذه الأراضى بالتراضى شأنها شأن عقارات الفلاحين الذين يستخدمون لأراضيهم اجراء ، وتنحصر الميزة الوحيدة التى يتمتع بها الملتزم فيما تقـرر له من افضلية تمنع تابعيه من أن يستخدموا عمالا فى زراعة أرضهم قبل أن تتم زراعة أرض الوسية .

والمشد هو المنفذ لأوامر الملتزم حين يريد أن ينزل العقـاب بالفلاحين عندما يخطئون أو يتأخرون (فى سداد ماعليهم) ، اذ ليس للشـيوخ او موظفى القرية الآخرين الحق فى أن يتصرفوا بأنفسهم ضد المخالفين ، بل انهم ينشدون سلطة المشد كما أن عليهم أن يقدموا له العون عندما يطلبه أو يحتاج اليه ، وبالاضافة الى ما سبق فان المشد موكل بأن يخطر القرية بأوامر الملتزم .

والخفراء (الخفير) هم حراس القرية ، ويتفاوت عددهم بين قرية واخـــرى ، وهم مكلفون بمنع السرقات ومنع كل ما يمكن أن يرتكب فى القرية مما يعـــد خروجا على النظـــام ، كما أنهم ينذرون القـــرية عنـــد اقتراب العربان . ويسهر الخفراء بصفة خاصة على حراسة بيت الوسية التـــابع للملتزم والذى يستخدم مخزنا للمحاصيل ، ويدخل ضمن واجباتهم كذلك حراسة الجســـور ومراعاة الا يقوم الفـــلاحون باحـــداث الثغرات فيها فى الأوقات التى تحرم خلالها هذه الأعمال .

ويقوم الوكيل باســـتغلال أراضى الوســـية ، لـــكنه ملزم باستخدام الخولى عند بذرها ، كما يتولى جمع المحاصيل والتصرف فيها طبقا لأوامر الملتزم .

ويعمل الـــكلاف — أى الراعى — تحت امرة الوكيل ، وهو موكل بحراسة قطعـــان الماشية والعنـــاية بها ، ويحصل لنفسه على منتجاتها من الصوف والزبد واللبن الخ ، ويفترض فى مهنتـــه الالمام بفن البيطـــار مما يعود بالفائدة على القرية كلها ، فهو ملزم بأن يقدم هـــذه الرعاية لمن يلتمستها منه من الفلاحين لعلاج ماشيتهم .

وبالاضافة الى كل هؤلاء يوجد بكل قرية امام وحلاق ونجار ، وعلى الرغم من أن لوائح السلطان لم تتناول هؤلاء ، فقد جرت العـــادة بأن يحصـــل هؤلاء على راتب من القرية ، ويترتب على ذلك أن كل واحـــد من هؤلاء ، كل فيما يخصه ، ملزم بأن يقدم خدماته لأهل القرية .

ثالثا : عن جبـــاية الضرائب

فيما مضى ، وعلى الرغم من أن الصراف يدخل فى عداد الوظـــائف الرسمية التى أنشأها سليمان ، فقد كان مرءوسا للشاهد ، ولم يكن له من عمل سوى أن يحصـــل من كل فـــلاح المبـــالغ المفروضـــة عليـــه من قبل ديوان الجبـــاية . ومع ذلك ، فحيث تعقـــدت وتزايدت الرسوم التى بدات تجبى حديثا ، مما جعل هذا العمل اكثر مشقة ، فان الملتزم والمزارع كليهما ، وقـــد حارا فى تحديد حقوقهما والتزاماتهما ، قـــد لجأ الى هؤلاء الذين اكتسبوا المعرفة التـــامة باللوائح وبالأساليب المتبعـــة عند تطبيقها.

وهكذا لم تعد هنـــاك قرية بها أرض زراعية ، لا نجد بها قبطيـــا (١) فى وضع يسمح له أن يقـــدم أدق وأوفى البيـــانات عن الرســـوم القـــديمة والحديثة ، ســـواء المفروضـــة محليا ، (أى على القرية بشكل خاص) أو تلك المفروضـــة بشكل عمومى ، وســـواء كذلك المشروعـــة منها (أى التى قررتها اللوائح) أو الجائرة ، والتى تجبى من ملاك هـــذه القرية . وقـــد جعلت منه معلوماته هـــذه وسيطا لابد منـــه بين الملتزم والفلاحين، حتى أن الاخيرين يبـــادرون مذعنين بسداد المبلغ المطلوب ما ان يتلفظ به، وهم يرضخون بفعل الخوف لأتاوات لم يطلعهم عليها من قبل . وبفضـــل خبرة الأقبـــاط فى هذا المجـــال فقد اصبحوا هم المبـــــاشرين للبـــكوات والملتزمين ، ونجـــد فيما بينهم نفس العـــلاقات التى تقوم بين أولئك الذين يدبرون — هم — لهم ثرواتهم ، فمبـــاشرو الملتزمين ومبـــاشرو ألبكوات يعترفون برياسة مبـــاشر البك شيخ البلد لهم ويلقبونه بالمباشر العمومى . وقبل أن يمارس هؤلاء مثل هذه الوظائف فانهم يتشربون هذه الأمور بالعمل تحت ادارة اسلافهم . وهم حريصـــون دوما على أن يحصروا داخل أمتهم هذا النظام المتبع (فى هذه الأعمال) والذى يشكل تراثا بالنســـبة لهم ، فهم لا يشركون فى أعمالهم ومعـــارفهم سوى الأقبـــاط ، ويعهـــد الملتزم بأعمال الصـــيرفة الى واحد من هؤلاء التـــلاميذ الذين يشار اليهم باســـم الـــكتبة (كاتب) . ويسترشد فى اختيـــــار هذا بمبـــاشره ، ولابد أن يوافق على هذا الاختيار المبـــاشر العمومى ، الأمـــر الذى يوضـــح مكانة وسطوة هذا الأخير على ادارة مصر فيما يتصل بتوزيع الوظائف التى تتفرع عن أعماله .

- وما أن تنحسر مياه النيل عن الأراضى ويتم البـــذر ، حتى يتوجـــه الصراف الى القرية الموكلة اليـــه ، مزودا بالبيـــانات التى تتصل بضرائب السنوات السابقة .ومعلومات من هذا النوع ،ويفترض الا يعرفها الا من ينتمى الى أمة الأقبـــاط ، لاتذاع الا عن طريق الشخص الذى زود بها . وبمجرد وصـــوله يدعو اليه ديوان الجبـــاية وهو عضو فيه بحكم النشأة. كما يدعو المشايخ والشـــاهد ويبدأ فى عمليـــة توزيع الضرائب وجبايتها.

---

(١) الاقباط هم سلالة أهل البلاد الذين رفضوا اعتناق دين محمد ، وهؤلاء يدينون بمسيحية شوهتها جهالتهم كما اتلفتها أخطاء نسطوريوس .

أما الديوان الذى يفترض فيه أنه المشرف او على الأقل الحكم فىهذه العملية فلم يكن سوى شاهد ، بل ان الفلاحين أنفسهم يفضلون ادارة الصراف على ادارة الديوان أو الشاهد ذلك أن حماسة الصراف التى لا تفتر والتى تسوغ ثقة الملتزم فيه لم تكن لتمنعه من أن يصطنع بعضا من اللباقة وشيئا من النزاهة فى اجراءاته ، وتسهم صفته باعتباره غريبا ، كما تسهم طبيعة عمله الذى ينتهى بنهاية العام باضفاء صفة الحيدة عليه ، فى حين يتهم المشايخ والشاهد على الدوام بأنهم أصحاب منفعة فى العوايد (أو العادات) المحلية مما يجعلها جائرة بشكل دائم .

وتتم جباية الضرائب وفاء لثلاثة أغراض متنوعة :

١ — لتحصيل المال الحر .

٢ — لتحصيل الاضافات التى تمت زيادة على المال الحر (١) .

٣ — لتحصيل المصروفات الطارئة والتى تستخدم للانفاق على احتياجات القرية .

ويستخدم سجل الشاهد ، الذى تحددت به مساحة وحالة الأرض التى يمتلكها كل ممول ، أساسا لعمل الصراف عند تقسيم وتوزيع الضرائب

وتوجد بكل قرية ، بخلاف الرزق ، والاطلاق ، والوسايا . والأثر ، أراض يطلق عليها اسم بور المناجز .

وقد سبق لنا القول بأن أراضى الرزق والاطلاق (أو الاتلاق) كانت معفاة من الضرائب . وينطبق ذلك على الأراضى غير المنتجة أو البور .

أما الأراضى من النوع الردىء ، والتى يطلق عليها اسم مناجزة ،

---

(١) وهى عبارة عن البرانى بنوعيه وعن الكشوفية الجديدة .

(*) وهى أراض أصابها الضعف ولم تعد جيدة الزراعة وهناك أيضا أراض تسمى بور الحوالى وهى التى يصيبها البوار فى بعض السنوات فلا تزرع (المترجم) .

ســـواء كانت تتبع الفلاحين أو كانت تتبع الملتزمين ، فتدفع ضريبة معتدلة، اقل من تلك التى تفرض على أراضى الوسية والأثر ، فهى تشكل درجـــة رابعة بالنسبة لـــكل هذه الأراضى التى تنقسم الى أراض ممتازة ، والأراض متوسطة وأراض دنيا (أو : عال ، ووسط ، ودون) ، وتخضع هذه وتلك بالمثل لضريبة المال الحر ، وتسدده حسب درجة جودتها (١) .

وبخلاف ذلك تتحمل أراضى الأثر وحدها الزيادات التى أضـــيفت الى هذه الضريبـــة ، وكذا المصروفات الطـــارئة والتى تتصـــل باحتيـــاجات القرية ، دون أية مراعاة لدرجة جودتها ، بل كان يكتفى بتوزيع الضريبـــة بنسب متساوية ، ولهذا كان يزيد أو ينقص مايدفعـــه فلاح ما من هـــذه المصروفات تبعا لعدد الفدادين التى يملكها .

وفى مصر العليا تعامل الأراضى من هذا النوع ، والتى تتبع المشايخ والموظفين الرسميين فى القرية بنفس الدرجة من الأفضلية التى تعامل بها ارض الوسية ، أما فى مصر السفلى فان هؤلاء الموظفين لايحصلون على هذه الميزة الا لجزء فقط من ممتلكاتهم .

وتقدر الضريبة على الزمامات التى لايتم قيـــاسها (أى غير محددة المساحة) بشكل اجمالى ، وتحدد الضريبة المقدرة عليها بمعرفـــة الصراف والادارة الداخلية للقرية ، وتسمى الضريبة من هذا النوع باسم كلالة . وهذه ، من ناحية العدد ، أكبر فى الصعيد عنها فى مصر السفلى . وقد تبست زمامات بعض القرى بين بين : وتقدر الضريبة على الجزء المقيس بواقع عدد الفدادين ، لـــكنها تقدر على الجزء الآخر بالكلالة .

وتتكون القرى عادة من عدة كفور ـــكل الا دائرة وحيدة ، تحمل اسم القرية الرئيسة .

---

(١) لكى نوضح بأية طريقة عشوائية كانت توزع هـــذه الضريبـــة ، يكفينا القول بأنها كانت تتراوح بين ٩٠ الى ١٠٠ مدينى للفدان من الدرجة الأولى ، ومن ٦٠ الى ١٥٠ مدينى لفدان الدرجة التانية ، بينما تفرض على أراضى الدرجة الثالثة وكذلك على أراضى المماير ضر ة مقدارها من ٣٠ الى ١٢٠ مدينى للفدان .

وتنقسم هذه الوحدة الادارية فى مجموعها ، ومهما تكن مساحتها ، الى ٢٤ جزءا ، تتبع كلها لملتزم واحد أو لعدة ملتزمين .

ونقدم الآن بيانا بالضرائب التى سددتها دائرة قرية الأنبوطين ، الواقعة فى ولاية الغربية ، فى عام ١٢١٣ من الهجرة ،وهو العام السابع من قيام جمهوريتنا (١٧٩٨) : وسنقدم كما سبق أن وعدنا جدولا بكل الضرائب المقررة على احدى القرى ، وبصفة خاصة تفاصيل الرسوم (او العادات) التى تشكل البرانى . وحيث تتنوع هذه من اقليم لآخر ، بل بين قرية وأخرى ، فقد كان علينا أن نكتفى بتقديم مثال من شأنه أن يبين لنا الضرائب المقررة والتى تعد اكثر من غيرها شيوعا .

قائمة بالضرائب المقررة على وحدة قرية الأنبوطين
بولاية الغربيــة عن العام ١٢١٣ من الهجرة

الأنبوطين . . . . قرية **رئيسة**

بقــلولة . . . . ⎫
منية حبيش . . . . ⎭ كفور أو قرى تابعة لها

	الأنبوطين	بقلولة	منية حبيش	المجموع
إجمالى زمام الأراضى	١٦٢٦ ٥٢٤/٥٧٦	٤٧٦ ٢٤٤/٥٧٦	١١٠٦ ٤٠/٥٧٦	٣٢٠٩ ٢٣/٥٧٦
يخصم من ذلك : أراض معفاة من الضرائب	٤٧ ٣٠٨/٥٧٦	١٦ ٢٧٦/٥٧٦	٢١ ٥٠٤/٥٧٦	٨٥ ٤١٢/٥٧٦
الباقى من الزمام والذى يخضع للضرائب ويبلغ	١٥٧٩ ١١٦/٥٧٦	٤٥٩ ٥٤٤/٥٧٦	١٠٨٤ ١١٢/٥٧٦	٣١٢٣ ١٩٦/٥٧٦

تفصيل الأراضى المعفاة من الضرائب:

	الأنبوطين	بقلولة	منية حبيش
رزق تابعة لأشخاص عدة	٤٥ ٣٨٤/٥٧٦	—	٢١ ٣٠٠/٥٧٦
أراض بور ، شواطىء ، طرق الخ	١ ٤٠٠/٥٧٦	١٦ ٢٧٦/٥٧٦	—

	الأنبوطيين	بقلولة	منية حبيش	الإجمالى	الإجمالى العام
	مدينى	مدينى	مدينى	مدينى	مدينى
الأنبوطين : ويبلغ زمامها $\frac{٣١٦}{٥٧٦}$ ١٥٧٩ فداناً منها $\frac{٦}{٥٧٦}$ ١١٤ مناجزة : أراض رديئة تدفع ضريبة ثابتة . .	٨٫٧٢١				
$\frac{٤٤٨}{٥٧٦}$ ١٢٦ أراض جيدة (عال) تشكل أرض الوسية وتقدر الضريبة عليها بواقع ١٠٧ مدينى للفدان .	١٣٫٥٦٥				
$\frac{٣٨٤}{٥٧٦}$ ٨٩٨ أراض متوسطة الجودة (وسط) وأراضى الأثر وتقدر الضريبة عليها بواقع ١٠٧ مدينى /فدان	٩٦٫١٥٨				
٤٤٠ أراض منخفضة الجودة (دون) وأراضى الأثر وتقدر الضريبة عليها بواقع ١٠٣ مدينى / فدان .	٤٥٫٣٢٠				
بقلولة : ويبلغ زمامها $\frac{٤٤٥}{٥٧٦}$ ٤٥٩ فدانا . منها :					
$\frac{١٧٦}{٥٧٦}$ ٣٢ ف مناجزة . . شرحه	—	٢٫٥١١			
$\frac{١٨٠}{٥٧٦}$ ٣١ ف جيدة ، الوسية ، شرحه	—	٣٫٣٥٠			
$\frac{٨٨}{٥٧٦}$ ٣٩٦ أرض متوسطة ، الأثر ، شرحه . .	—	٤٢٫٣٨٦			

خبيش : وزمامها ١١٢/٥٧٦ ١٠٨٤ر١ ف منها :					
٤٨٦/٥٧٦ ١٣ ف جيدة الوسية ، شرحه	—	—	١ر٤٧٤		
٢٣٠/٥٧٦ ١٠٧٠ر١ ف ضعيفة ، الأثر ، بواقع الفدان ١١٥ مدينى	—	—	١٢٣ر٠٩٣		
اجمالى الزمام ١٩٦/٥٧٦ ١٢٣ر٣ويسدد	١٦٣ر٧٦٤	٤٨ر٢٤٧	١٢٤ر٥٦٧		
الإجمالى المكون للمال الحر	—	—	—	٣٣٦ر٥٧٨	
الزيادات التى طرأت على المال الحر :					
ـ نصيب هذه القرية فى الـ ٧ر٤١٢ر٨٩٣ مدينى التى أضيفت إلى الميرى على يد السلاطين أحمد ومحمد ومصطفى	—	—	—	١٤ر٨٨٧	٣٦١ر٥٥٨
رسوم ثابتة على أراض جديده فى بقلولة . . .	—	—	—	٢٠٠	
زيادات على أراضى عربان قبيلة الأطياح(*) . . .	—	—	—	٩ر٨٩٣	
الإجمالى العام . . .	—	—	—	١ر٥٥٨	

(*) أو كما وردت بالنص العربى el-Atahyâ (المترجم)

	الأنبوطين	بقلولة	ميت حبيش	الإجمالى	الإجمالى العام
	مدينى	مدينى	مدينى	مدينى	مدينى
ويخصم من ذلك :					
مصاريف محلية وادارية تدفع لمستحقين :					
الختمية ، وهى أول عادة جباها راس نوبة ، وهم صغار ضـــباط الأوجاقات	٢٢٤	—	—	٢٢٤	
قايمة الرملة ، وهى عادة فرضت لصالح الشـــخص الذى يقوم بتنظيم حسابات بعض رسوم الكشوفية . .	١٦٥	١٦٥	١٦٥	٤٩٥	
تقادم المنشور : وهى هدايا تقدم لضباط الأوجاقات	١٦٥	١٦٥	—	٣٣٠	
للعناية بالثيران اللازمة للترع	١٦٥	١٦٥	١٦٥	٤٩٥	
مقدم الولاية : موظف بالولاية يسير أمام الحاكم .	١٦٥	—	١٨٠	٣٤٥	
مسودة الولاية : موظف آخر بنفس الولاية . .	٣٣٠	—	٣٦٠	٦٩٠	
موقى الولاية : ضابط بالولاية يرشد الحاكم الى معسكرات الجنـــود	١٦٥	١٦٥	١٦٥	٤٩٥	
الجرافة السلطانى : لمن يقوم بالتفتيش على الجسور العمومية	١٩٥	٢٢٠	٢١٠	٦٢٥	
جسر بنو جودى : وهو جسر ينبغى أن تسهم هـــذه القرية فى صيانته	٧٥	١٧٠	—	٢٤٥	

مقدم العسكر : وهو موظف بالولاية يعمل دليلا لعسكر الشوربجية	٦٠	—	—	٦٠
تسويف مقرر : وهو موظف آخر بالولاية . . .	١٨٧	٣٣٠	٣٣٠	٨٤٧
مظالم الولاية : ضابط بالولاية مهمته أخبار الحاكم بما يدور بالولاية	١٥٠	—	—	١٥٠
تقرير الأفندى : عادة للافندية الذين يقومون بتحصيل الميرى	٦٢٤	١٨٠	٩٠	٨٩٤
أغنام الضامة : وهى الخراف التى ينبغى ذبحها عند حصاد القمح	—	—	٩٦	٩٦
رأس نوبة : عادة ثانية لضابط بهذا اللقب . .	—	—	٣٨٧	٣٨٧
عادة الدعوة : وهى عادة مقررة للشخص الذى يفض الخلافات بين الفلاحين	—	—	٦٠	٦٠
نايب ريبة : وهو ضابط يقوم بالحفاظ على الاخلاق الحميدة فى الولاية	١٧٠	—	—	١٧٠
عادة الولى: وهو أحد الأولياء المحليين	—	—	٣٠	٣٠
برانى مقدم العسكر : زيادة فى العادة المقررة لهذا الموظف	٣٧	—	—	٣٧
عادة لصالح المشايخ	١١,٩١٠	٦,٥١٠	١٢,٦٠٠	٣١,٠٢٠

	الأنبوطين	بقلولة	ميت حبيش	الاجمالى	الإجمالى العام
	مدينى	مدينى	مدينى	مدينى	مدينى
لاقامة الجسور	٣٦٠	٢٤٨	٣٨٠	٩٨٨	
لحراسة المكان الذى تتم فيه عملية جباية هذه الرسوم واصطحاب الاموال الى القاهرة	٨١٦	١٦٦	٤٤٠	١,٤٢٢	
خولى الجرافة : وهو الذى يفتش على الجسور .	٢٠٢	—	—	٢٠٢	
الخفير الدوار : حارس القرية	٢٠٠	—	—	٢٠٠	
كلاف الاطوار : راعى ثيران القرية	١٠١	—	٥٠	١٥١	
للنجار الموكل باصلاح أدوات الرى	١٠٠	—	—	١٠٠	
للشيخ امام	١٠٠	—	—	١٠٠	
خولى الزرع : ويفتش على البذار وهو مساح كذلك	—	—	١١٠	١١٠	
صنغار الجرافة : أجر العاملين فى جسور الولاية .	١,٢٧٠	—	١,٠٣٨	٢,٣٠٨	
معاش لعربان قبيلة الأطياح	٤,٣١٥	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	٨,٣١٥	
عادة الصراف الجابى	١,٠٠٠	١,٠٠٠	١,٠٠٠	٣,٠٠٠	
رزق تدفع نقدا	٥,٠٠٠	١,٥٠٠	١,٥٠٠	٨,٠٠٠	
صيانة جسور خاصة بالقرية	٩١٧	—	—	٩١٧	
الاجمالى	٢٩,١٦٨	١٢,٩٨٤	٢١,٣٥٦	٦٣,٥٠٨	٦٣,٥٠٨
الباقى	—	—	—	—	٢٩٨,٠٥٠

ويوزع بمعرفة الملتزم ما يلى طبقا للوائح السلطان :				
الى السلطان باعتبارها ضريبة الميرى . . .	—	—	—	١٠٦,٣٣٦
الى الحاكم باعتبارها الكشوفية القديمة :	—	—	—	١٩,٠٨٩
وتفاصيلها كما يلى :	—		—	—
مال الجهات . . . . ١١٫١٤٥				
خدمة العسكر ٦,٩٣٠				
الكلفة { تبن السلطان . . ٥١٩				
الكلفة { حوالة الحوالات . . ٤٩٥		—		
الى الملتزم باعتباره الفايظ الخاص به	..	..	..	٧٢,٦٢٥
المبلغ الاجمالى(١)	..	..	..	٢٩٨,٠٥٠

(١) هذا المبلغ هو اجمالى المال الحر ، ونرى من ذلك أن المصروفات المحلية قد خصمت منه ، وتبلغ نفقات القرية ما نسبته ٢/١١٢٪ . وقد عرفنا فيما سبق أن هذه النفقات فى بقية البلاد تتراوح بين ١٠ و٣٠٪ .

	الأنبوطين	بقلولة	ميت حبيش	الإجمالى	الإجمالى العام
	مدينى	مدينى	مدينى	مدينى	مدينى
البرانى القديم					
لشراء الجمال	٨,٨٠٠	٤,٤٠٠	٨,٨٠٠	٢٢,٠٠٠	
لشراء الجديان	٢,٩٢٠	١,٤٦٠	٢,٩٢٠	٧,٣٠٠	
خراف للضيوف	١,١٦٨	٥٨٤	١,١٦٨	٢,٩٢٠	
لشراء السمن	٣,٠٠٠	٧٠٠	٣,٠٠٠	٦,٧٠٠	
كاشف الولاية	١,٩٠٧	٩٢٤	١,١٣٢	٣,٩٦٣	
قائمقام الولاية	١,٠٧٢	٥٩١	—	١,٦٦٣	
هدية أولى للمالك الملتزم	٥,٥٠٠	٢,٧٥٠	٥,٥٠٠	١٣,٧٥٠	
هدية ثانية له نفسه	٥,٥٠٠	٢,٧٥٠	٥,٥٠٠	١٣,٧٥٠	
هدية ثالثة له نفسه	٢٩,٠٠٠	١٤,٥٠٠	٣٤,٠٠٠	٧٧,٥٠٠	
حوالة الحوالات	٢,٤٠٠	١,٢٠٠	٢,٤٠٠	٦,٠٠٠	
خدم قائماقم الولاية	٢٠٠	١٥٠	٢٠٠	٥٥٠	
الاجمالى	٦١,٤٦٧	٣٠,٠٠٩	٦٤,٦٢٠	١٥٦,٠٩٦	١٥٦,٠٩٦
البرانى الجديد					
لشراء السمن	١٢,٨٠٠	—	—	١٢,٨٠٠	
لشراء الدجاج	٢,١٨٧	—	١,٦٠٨	٣,٧٩٥	
عادة التشاوس أى حاجب الملتزم	٦٠٠	—	٤٠٠	١,٠٠٠	
عادة الملتزم	١,٣٣٣	—	٢,٠٨٠	٣,٤١٣	

عادة حوالة الحوالات	٢٤,٠٠٠	—	١٦و٥٠٠	٤٠و٥٠٠	
هدية للملتزم	٢٠,٤٠٠	—	١٣و٦٠٠	٣٤و٠٠٠	
عادة كخيا الملتـــــزم	١و٨٠٠	—	١و٢٨١	٣و٠٨١	
عادة تســـويف مقرر	٣٣٠	—	—	٣٣٠	
مصروفات على أراضى محمد الغفار	٤و٢٨٠	—	—	٤و٢٨٠	
عـ.ـة مظـــالم الولاية	٨٩	—	—	٨٩	
ركبة الطـــوافة	١٥٠٠	—	—	١و٥٠٠	
زيادة الحقت بالعادة المذكورة	١٦٥	—	١و١٠٩	١و٢٧٤	
ثيران للعمل بالجســـور	٩٠٠	—	—	٩٠٠	
خراف من أجل موسم الحصاد	٣٠٠	—	—	٣٠٠	
جاويش الولاية	١٠٩	—	—	١٠٩	
نثريات محلية مختلفة تذكر للمرة الثانية	—	—	٨٢١	٨٢١	
الاجمــــــالى	٧٠,٧٩٣	—	٣٧و٣٩٩	١٠٨,١٩٢	١٠٨و١٩٢
الـكشوفية الجديدة					
رفع المظالم أو حق الطريق	١٧و٨٢٥	٦و٠٠٠	١٢,٠٠٠	٣٥و٨٢٥	
فردة التحـــرير	٦و٨٠٠	٣و٠٠٠	٤و٥٠٠	١٤و٣٠٠	
كلفة جديـــــدة	٥و٠١٥	١و٧٤٣	٣و٣١٥	١٠و٠٧٣	
اجمالى الرسوم المقررة على هذه القرية .	٢٩و٦٤٠	١٠,٧٤٣	١٩,٨١٥	١٩٨و٦٠	١٩٨و٦٠

التوزيع الجديد لهذا المبلغ

			مدينى
الى السلطان .	لضريبة الميرى		١٠٦ر٣٣٦
الى حاكم الولاية	للكشوفية القديمة	١٩ر٠٨٩	٧٩ر٢٨٧
	« الجديدة	٦٠ر١٩٨	
الى الملتزم	للفايظ وهو حصته	١٧٢ر٦٢٥	٤٣٦ر٩١٣(١)
	للبرانى القديم	١٥٦ر٠٩٦	
	« الجديد	١٠٨ر١٩٢	
الاجمالى			٦٢٢ر٥٣٦(٢)
مصروفات محلية وخلافها دفعت لمستحقين			٦٣ر٥٠٨
اجمالى الرسوم التى دفعتها هذه القرية			٦٨٦ر٠٤٤

ويفسر لنا المثال الذى قدمناه للتو ، كما يتطابق مع ماسبق أن قلناه ماسا بتقرير وتوزيع الضريبة . فالتفاصيل المتوفرة هنا حول البرانى القديم والجديد تؤكد بوضوح أن غرضها المبدئى كان ينحصر فى توفير الأناثات والعادات (العادة) والهدايا التى كانت القرية تقدمها للملتزم ، بالاضافة الى تلك التى كان على الملتزم أن يقدمها لمن هم أعلى منه ولغيرهم ، وحيث انتهى الأمر بهذه العادات أن أصبحت وجوبية وبشكل صارم ، اذ يكفى ، تبعا لتقليد له قوة القانون فى مصر ، أن يجبى مبلغ ما لمدة سنتين أو ثلاث سنوات متتاليات كى يصبح حقا واجب الأداء بشكل مطلق ، فقد أصبحت هذه العادات تدفع فى شكل رسم نقدى ؛ وليس البرانى القديم سوى أول رسم من هذا النوع تم تحصيله، ومع ذلك ، فعلى الرغم من أن البرانى القديم كان ينبغى له أن يحل محل كل العادات التى سبقته ، فان ذلك لم يمنع الملتزم من أن يحصل لنفسه على عادات مماثلة (لتلك التى حل البرانى القديم محلها) ، ومع مرور الوقت نبتت هذه العادات الجديدة ثم أبدلت بالمثل برسم جديد عرف بالبرانى الجديد أو المستجد ، واليوم فان كليهما يدخلان ضمن صافى حصيلة الملتزم التى يستغلها كلها لحسابه الخاص .

---

(١) غير مشتمل على دخول الوسايا .

(٢) بجمع هذا المبلغ الأبواب المختلفة للمال الحر والزيادات التى الحقت به ، ويكون مجموع كل الضرائب المعروفة أو الثابتة . انظر الجداول الخاصة بذلك .

وبخلاف البيـان الذى قدمناه والذى ضم المـال الحر المبـدئى وكذا الاضافات التى ادخلت عليه ، فقد أنشىء لكل قرية جدول خاص بالمصروفات الطارئة والاعتيـادية ، وادرج به كل الانفاقات التى تنجم عن زيادة رواتب موظفى مكتب القرية وعن اصـلاح الجسـور والترع غير السلطانيـة ، بالاضـافة الى الاتاوات أو العـادات التى تقدم للملتزم والبك والمبـاشر او لقبيلة ما من العربان ، وان كان هذا الجدول لا يشتمل على المطالب غير الاعتيادية التى يقوم بها هؤلاء من وقت لآخر .

هكذا نرى كيف يمكننا بسهولة ان نقرر أن هذه الأوضـاع كانت هى منبعا لمطالب استبدادية لا حد لها كانت تزيد على الدوام من حقوق الملتزم على الفلاح ثم من حقوق الحـكام على الملتزمين . وليس للبرانى القـديم والبرانى الجـدبد والـكشوفية القديمة والـكشوفية الجديدة من اصـل بخلاف ذلك ، وقد ظلت هذه الضرائب تتزابد فى الأزمنة الحديثة باصطناع وسائل مشابهة حتى اصبحت العـادات التى يحصلها الملتزم تشكل برانى ثالثا فى نفس الوقت الذى بمكن لنـا فيه أن نعـد الضرائب التى كانت تجبيها الحكومة بمثابة كشوفية ثالثة .

أما المطالب غير الاعتيـادية فـكان يسهل تحصيلها على الدوام بفعل تواطؤ المشايخ الموكلين بجباية الأموال التى تتقرر جبـايتها عن غير طريق الصراف ، ومع ذلك فقد كان من مصلحة الملتزم أن يداهن فلاحيـه ، وهنا يكون بمقدور شيخ محنك أن ينـأى بهؤلاء الفـلاحين عن اتخـاذ مواقف متطرفة قـد تصبح ضـارة بمصـالح الملتزم ، وأن يستدرجهم فى معظم الأحيـان لأن يسددوا ما يطلب منهم حين يبالغ فى سطوة ومكانة الشخص الذى أسس هـذه المطالب وما له عليهم من حقوق ، وبخاصـة عنـدما يوهمهم بأن هـذه المبالغ ، ما ان سددت هذه المرة ، فلن تتكرر المطالبـة بها مرة اخرى .

ولقد كانت هـذه العقليـة الحاذقة والدساسة تهيىء لهؤلاء الشيوخ الوسائل العديدة لتكوين الثروات ، ففى الوقت الذى كانوا على ثقة تامة فيـه بأنهم سيحصلون على هـدية من جانب الشخص الذى يجبـون له هذه المطالب ، فقد كانوا يحصلون على مكافأة مماثلة من القرية التى كانت تثق فى أن هؤلاء يعملون بحماسـة وغيرة فى سـبيل مصـالحها هى ، وهنـاك اتهام آخر يوجه لهؤلاء يتمثل فى عدم نزاهتهم فى توزيع أعبـاء

المصروفات التى من هذا النوع وذلك بأن يحصلوا من كل فلاح مبلغا اكبر على نحو طفيف مما كان ينبغى عليه ان يدفعه ، ومع ذلك فقد كان يتبغى عليهم أن يقتسموا عائد لصوصيتهم تلك مع الشاهد والصراف الذين لم يكن ليفوتهما أن يحيطا الملتزم علما بذلك اللهم الا اذا وجدوا أن من مصلحتهم ان يلزموا الصمت . وفى كل مرة كان يرسل فيهسا الملتزم أو من ينوب عنه ، ولسبب او لغير سبب ، من يحمل أوامره الى احدى القرى ، فقد كان عليه أن يسدد أتاوة حق الطريق التى كانت توزع وفقا لرتب أفراد (سرية) حق الطريق ، فيحصل القواس على ٢ الى ٣ بوطاقات ، ويحصل السراج على ١٥ الى ٣٠ بوطاقة ، والجندى من ٦٠ الى ١٠٠ بوطاقة اما الكاشف فكان يحصل على ٢٠٠ الى ١٫٠٠٠ بوطاقة . وعندما جلا الفرنسيون عن الصعيد ليبدءوا زحفهم ضد الأتراك والانجليز ، لم يتجاسر مراد بك الذى بسط نفوذه على هذه البلاد التى تم الجلاء عنها على أن يجبى الضرائب الاعتيادية ، ولكنه بدلا من ذلك قد ضاعف من ارسال حاملى الأوامر دون دافع حقيقى (الا الحصول على حق الطريق) ، وفرض من الفين الى ثلاثة آلاف بوطاقة عن أى بريد يرسله .

ويحرر الصراف بالتنسيق مع الشيوخ والشاهد قائمة بالجداول المدونة أو الثابتة . ويبدأ التحصيل فى الشهر الثالث من السنة القبطية ويستصحب كل شيخ من شيوخ القرية الفلاحين التابعين له ، فيسلمهم سجلا مدونة به أسماؤهم ومبينة أمامها الضريبة التى عليهم أن يسددوها .

ولابد أن يتم السداد مثالثة (أى الثلث فالثلث فالثلث) بشكل يتطابق مع دورة المحاصيل . وبعد تحصيل الثلث الثانى يجتمع الصراف والشيوخ والشاهد من جديد لاعداد جدول بالمصروفات الطارئة والمعتادة ، وعندما لا يكون الملتزم مقيما بأرضه ، فانهم يتوجهون الى القاهرة ليضعوا الأمر تحت تصرفه ، وعندئذ يفحص سير وسلوك الشيخ بكل عناية ، ويتم فصل كل المصروفات التى يسددون بالجدول عن تلك التى سنحذف منه اما لأن هناك أسبابا تدعو لعدم اظهارها واما لأنها لا تتفق مع ما طلب الى الفلاحين سداده ، ونادرا مايوقع الملتزم قائمة الحساب هذه دون أن يحصل منه على خدمة مماثلة ، فاما أن يحصل منه على جزء من الأرباح التى حققها (الشيخ) ، واما أن يعاقبه جزاء خياناته واختلاساته ، أما اذا أهمل الملتزم هذه الوسيلة الأكيدة لزيادة دخله فانه يتظاهر بأنه انما يضع نصب

عينيه سلوك شيخه ، ذلك ان استلابه لثروة هذا الرجل ليست سوى مسألة وقت ، فلابد أنه سوف يقع ، بعد وقت طال أوقصر ، على الفرصة المواتية كى ينتزع فى يوم واحد ماظل يحصله هذا الشيخ طيلة سنوات طوال .

وعند عودة هؤلاء الى القرية يجمع الصراف الى جانب تحصيله الثلث الثالث من الضريبة جباية المصروفات الطارئة والاعتيادية التى تم للتو اقرارها . وليست القائمة الجديدة التى يسلمها للممول شيئا آخر سوى نسخة جديدة من جدول توزيع الضرائب الثابتة مضافا اليها نصيب هذا الممول من المصروفات الطارئة والاعتيادية . ويدون فى هذه النسخة الجديدة كل اقساط الضرائب التى دفعها الفلاحون ، ولا يقوم هؤلاء الذين تصرفوا بالفعل فى محصولاتهم ، بسداد ما عليهم الا على مضض ومع كثير من المشقة مع استخدام العصى والحبس والأغلال لارغامهم على ذلك .

وبمجرد أن توشك جباية الضرائب على التمام ، يرسل الصراف حصيلتها الى الملتزم او يسلمها الى القائمقام طبقا للتعليمات التى تلقاها . وفى الحالة الأولى ، فانه يعهد الىخدمه هو ،أو الى خدم الملتزم بارسالها، لكنه يصر على أن يصحبهم اثنان من شيوخ القرية ، فحيث تعد القرية مسئولة عن احتمال تعرض اللصوص لهذه الأموال أثناء الطريق ، فسوف تكون شهادتهما نافعة للملتزم لاثبات الجريمة ولارغام فلاحيه فى نفس الوقت على أن يدفعوا للمرة الثانية .

وعندما يتبين الصراف أن اجمالى الضرائب قد تم سداده ، فانه يحصل على ضعف ذلك البند من قائمة الضرائب (المقررة على الفلاحين) الذى يبقى « على بياض » بحضور الشيخ والشاهد ، والعادة هى التى ثبتت هذه الطريقة من الجباية التى لايعرف لجشعها حد ، وعندما يحصل الفلاح على المخالصة فانه يبدى فرحة طاغية تبرهن بوضوح الى اى حد تروع هؤلاء الناس تلك المعاملات السيئة التى يتعرضون لها اذا ما تأخروا فى سداد ما عليهم .

ويقوم الصراف كذلك بجباية المصروفات المحلية والادارية التى تؤخذ خصما من المال الحر ، كما يجبى كذلك عادات الكشوفية القديمة والكشوفية الجديدة . وكان يحدث عادة أن يتصرف البكوات والملتزمون

فى دخولهم عن طريق توكيلات يعطونهـا لدائنيهم ، ويفـوذ هـذا الوفاء المستعجل بالنفع على الصراف الـذى كان يطلب استقطاعات من الدين تتناسب قيمتها مع السرعة التى يحققها فى اتمـام سداده ، وحيث كانت العـادة تخول له الحق فى تحصيل ٢ الى ٣ مدينى من كل ممول عنـدما يسلم اليه قائمة بالضريبـة المقدرة عليه ، وحيث كان يحصل منه على أتاوة مماثلة فى كل مره يسجل له فيها تنزيلا من الحساب ، وحيث كانت تتضاعف أمثال هذه العـادات أو الأتاوات فقـد كان كل ذلك يهيىء له تحقيق أرباح طائلة ، وبخلاف ذلك فقد كان يعطى له ضمن انفاقات القرية ثلاثة مدينى (من كل فلاح) عنـدما يقوم بتسليمه الشطبة أو المخالصـة النهائيـة . والى جانب هذا كله كان الصراف يحقق ارباحا من قطع المسكوكات (النقود) التى كانت تسلم له عنـد السداد ، وذلك بألا يتسلمها الا بسعر أدنى من السعر الذى تتداول به فى القاهرة . ويستغل الصراف حالة البؤس التى يرى عليها الفلاح وانخفـاض سعر الماشيه فى القرية التى يعمل بها كى يقوم بمضـاربات فى عمليات شراء من هذا النوع . اذ كان مركزه يهيىء له كل يوم أرصدة ماليـة كان من السهل عليه ان يستخدمها قروضا تعود عليه بربح كبير ، هكذا كانت لديه وسائل لا حصر لها تصل بدخوله الى مبـالغ هائلة ، ومع ذلك فحيث أن هذه الحصيلة فى مجملها معروفة لمباشر الملتزم فقد كان يؤول الى هذا الأخير جزء كبير من هذه الدخول ، وكان هذا المباشر بدوره يقتسم حصيلته من ذلك مع المبـاشر العمومى ، بل وفى بعض الأحيان مع نفس الملتزم الذى هو تابع له .

وكانت الضريبـة تسدد بالمدينى ، ويشكل كل ٩٠ مدينى قطعة نقد أصبحت قياسـية تسمى بوطاقة ، وفى نفس الوقت ، فحيث كان الملتزم لا يحتسب البوطاقة او الـ ٩٠ مدينى التى تسـدد له الا بسعر يبلغ ٨٥ مدينى فقط ، فقد نتج عن ذلك أن كانت القـرية تدفع ٩٠٠٠ر٩ مدينى كى لا تسدد سـوى ٥٠٠ر٨ مدينى ، وفيما عـدا ولاية الفيوم ، فقـد كانت البوطاقة تسلم الى الصراف بسعر ادنى من ٨٥ مدينى ، يتراوح بين ٨٠ و٨٥ فى حين كان الصـيارفة يحاسبون ملتزميهم على الدوام بواقـع ٨٥ مدينى للبوطاقة الواحدة مختصين انفسهم كذلك بالفروق الناتجة من ذلك ، وهذه البوطاقة ليست شيئا آخر سوى التـالارى Talaris او عملة الامبراطورية الجرمانية القديمة . وفى أيام الـكخياوين ابراهيم ورضوان كانت البوطاقة تساوى ٨٥ مدينى ، وبفعل تحوير تم فى سك هذه القطعة

النقدية أمر على بك بأن تبلغ قيمتها ٩٠ مدينى ، وحيث لم يشأ الملتزمون أن يتحملوا نتائج ستؤدى الى نقص السعر الأصلى للمدينى فقد أدخلوا العادة التى انتهينا من بيانها . ومنذ على بك تضاعفت عمليات التحوير هذه (فى سك هذه العملة) حتى أن التالارى الصبح يساوى اليوم من ١٥٥ الى ١٦٠ مدينى ، ومع ذلك فحيث وجد الملتزمون الوسائل التى تعوضهم عن الخسارة الناجمة عن هذا التدهور فى سعر المسكوكات فانهم لم يغيروا فى شىء هذا الأسلوب فى الدفع .

وقبل أن ينهى الصراف عمليات التحصيل يولى اهتمامه أرض الوسية لكى يتسلم ايجارها اذا كانت مستزرعة أو لكى يحصل عوائدها من الوكيل اذا كانت مستغلة لحساب الملتزم . وينهى الصراف عملياته فى القاهرة حيث يقدم للملتزم أو الى مباشره حسابا عن كل مراحل عمله .

لدينا الآن فكرة محددة ودقيقة عن أصل وطبيعة الضرائب التى تجبى عن الأراضى ، لكن الروتين السقيم الذى اقتضى من الباب العالى أن يحجم عن أى تغيير (فى هذا النظام) قد منعه من زيادة ضريبة الكشوفية والفايظ بالنسب التى كان يتطلبها تغير الأزمان وتغير قيمة المسكوكات ، وقد أساء حكام الولايات والملتزمون الافادة من هذا الاهمال حين فرضوا بأنفسهم مالا يدخل فى اختصاصهم ، ولم يعد الأمر يقتضى الا أن نبحث فقط فيما ان كانت العدالة تبرر هذه الدخول الجديدة التى قرروها لأنفسهم . وسوف يساعدنا فى حسم هذه المسألة أن نعقد مقارنة بين الضرائب التى كانت تحصل قديما وتلك التى تحصل حديثا من قرية الأنبوطين :

		مدينى
تدفع القرية تحت بند المال الحر المبدئى		٣٦١ر٥٥٨
وتحت بند البرانى القديم	١٥٦ر٠٩٦	
وتحت بند البرانى الجديد	١٠٨ر١٩٢	
وتحت بند الكشوفية الجديدة	٦٠ر١٩٨	
		٣٢٤ر٤٨٦
وهكذا يدفع ممولو القرية اليوم ضرائب مقدارها		٦٨٦ر٠٤٤
وكانوا يدفعون فى عهد سليم وسليمان		٣٦١ر٥٥٨
وهكذا تزيد قيمة ضرائب اليوم بفرق قدره		٣٢٤ر٤٨٦

ونفحص الآن ما ان كان المبلغ الذى كان يسدد فى السنوات القريبه من فتح مصر على يد سليم يشكل فى الحقيقة قيمة أعلى من قيمة تلك المبالغ التى تحصل اليوم .

بلغت قيمة التالارى الذى قدره على بك فى عام ١١٨٥ من الهجرة (١٧٧٢ م) بتسعين مدينى ، ١٥٠ مدنى عند دخول الفرنسيين مصر . ويمكن أن نتخذ هذا التغير اساسا نقيس بمقتضاه تلك التغييرات أو التحويرات التى تناولت القيمة الأصلية للمدينى خلال ٢٧ عاما ، بل ان هذا التغير يفترض حدوث تحويرات سابقة لن نبالغ مطلقا عندما نقدرها على أساس أن التالارى أو البوطاقة لم يكن يساوى فى عهد سليمان أكثر من ستين مدينى . ويبرهن لنا هذا التقدير على أنه كانت الـ ٣٦١ر٥٥٨ مدينى التى كانت تدفع خلال عهده تساوى ٩٠٣ر٨٩٥ بالقيمة الحالية فان قرية الأنبوطين حين تدفع اليوم ٦٨٦ر٠٤٤ مدينى هى الضرائب المقررة عليها طبقا للبيانات التى لدينا ، فانها — على هذا الأساس — لم تكن لتدفع فى عهده سوى ٢١٧ر٨٥١ مدينى (*) بحساب القيمة الحقيقية للضرائب التى قدرها سليمان .

وعندما نقوم بعمليات تقريب مماثلة بالنسبة لكل قرى مصر فاننا نصل الى نتيجة لاتختلف كثيرا عن تلك التى انتهينا من ايرادها .

وهكذا ، فاذا كانت الأعباء التى تقع على كاهل المولين قد تقلصت الى تلك التى أوردنا بيانا بها ، فان ماقلناه ماسا بهذه الأعباء الأخيرة يبرهن بالتأكيد أنها زيادات مشروعة ولا ينقصها لكى تصبح كذلك الا تصديق السلطان ، وعلى ذلك فحيث لم تتضمن هذه القائمة مطلقا المصروفات التى يطلق عليها اسم طارئة أو اعتيادية ولا تلك التى لم نجدها حتى مدونة فى القائمة المنفصلة التى تحرر خصيصا لكل قرية اذ كانت تتم جبايتها على يد العسكر ، ولما كان طغيان البك وجشع الملتزم واحتياجات الحكومة وانتهابات العربان ، وهذه أمور شبه دائمة ، تصل بهذه الأعباء الى مبلغ يماثل حجم ماتصل اليه الضرائب المقررة ، فسيكون من الميسور لنا أن نتفهم ماسبق أن قلناه عن اعتدال الضرائب المدونة وما بيناه فى نفس

(*) وهو مايعادل ماتدفعه حاليا تبعا للقيمة الحالية للعملة (المترجم)

الوقت عن الحرمان والشقاء اللذين يستنزفان فى الحقيقة مزارع هذه الأرض ، التى تعد أخصب أراضى العالم .

ومع كل ماسبق ، فقد لاحظنا ، وهو أمر بالغ الشذوذ لحد لا سبيل الى تفسيره ، كيف يكون الفلاحون أقل احساسا بالسعادة وحسن الحظ حين يجود الدهر عليهم بملتزم عادل ومنصف اذ يرونه ضعيفا وأقل مهابة، وهو مايتناقض مع استجابتهم لتلك الميزة المجافية لكل عقل ، ميزة أن يكون سيدهم رجلا قويا برغم أن الأول كان يعاملهم بنزاهة وانصاف ، وأن الأخير كان يبتزهم دون رحمة .

٤ — عن مصر العليا

فى مصر العليا ، أى فى ولايات قنا واسنا وجرجا واسيوط ومنفلوط والمنية وفى ثلث ولاية بنى سويف تتغير نظم الادارة بفعل أوضاع تتفق مع نظام الملكية القائم فى هذه المناطق .

وهناك تختلف أرض الأثر والوسية كل عام حيث أن الملتزمين والفلاحين يمتلكون الأرض على المشاع .

وبمجرد أن يسمح انحسار المياه ببذر الأرض ، يصل الى القرية المساح القبطى الذى عينه الملتزم ، فيقيس الأراضى القابلة للزراعة فى حضرة الملتزم وقائمقامه وموظفى الموقع . وتصبح الأرض التى تكون من نصيب الفلاحين لهذا العام هى أرض الأثر ، وتخضع لضرائب تساوى تلك التى يجبيها الملتزمون فى مصر السفلى . أما تلك الأراضى التى تخصص للملتزمين فتشكل أرض الوسية. ويدون فى أحد السجلات مساحات وحالات هذه الأراضى وتلك ، كما تحدد طبيعة الضرائب التى ستقدر عليها . ويعود سبب هذا النوع من التقسيم ومن التملك السنوى الى عدم انتظام أو استواء الفيضانات ، والى غرابة ماتحدثه ، حين تجعل فى بعض الأحيان أرضا كانت بالغة الجودة قاحلة ، أو تجعل أرضا لم تكن تساوى شيئا خصيبة معطاء.

ويساعد كل من الشاهد والخولى المساح فى أعماله ، ويراعون أن تكون هذه الأعمال منصفة منتظمة وغير متميزة . وتتفق ألقاب ومهام بقية

موظفى مكتب القرية بشكل تام مع مثيلاتها فى التنظيم الادارى لوحدات مصر السفلى .

ومهما تكن الاختلافات التى صنعتها العادة فى تسميات الضرائب العقارية التى تجبى فى الصعيد فان كافة فروعها ترتبط اما بالمال الحر واما بالزيادات التى الحقت بها تحت اسماء كشوفية وبرانى ، وهكذا فان الضرائب المقررة هناك ليست سوى التسميات المستخدمة للتعبير عن تطبيق هذه الضرائب على هذا النوع او ذاك من المحصولات ، فيطلق اسم نبارى على الضريبة المفروضة على الأراضى التى تزرع بالذرة أو الأعلاف عندما تروى هذه الأراضى بشكل صناعى أى بواسطة الشادوف، ويطلق على نفس هذه المحاصيل اسم بعلى اذا ما كان الفيض الطبيعى قد وفر الرى الطبيعى لها ، وفى حالتنا هذه فان الفلاح الذى قد يقوم فى بعض الأحيان بحصدة ثانية يصبح ملزما بدفع الانجر (؟) Ongre أما تلك الأراضى التى تزرع بالقمح والشعير والفول أو بغلال اخرى فتخضع لضريبة البياضى ، وذلك بخلاف ضريبة الشتوى التى يتم سدادها بمجرد أن تبدأ البذور فى الانبات .

ويدفع الفلاحون نقدا ضرائب النبارى والبعلى والأنجر والشتوى ، لكنهم يسددون ضرائب البياضى عينا فى شكل حبوب . وفى هذه الأيام ، تقدر الغلال اللازمة لسداد هذه الضريبة بـ ٤/٥ اجمالى الضرائب المقررة ، وهو الأمر الذى يبرهن على أن منتجات هذا الأقليم تتكون بصفة اساسية من الحبوب .

وفى حين تشكل المبالغ المحصلة عن الأراضى التى بذرت بالذرة والاعلاف ومحاصيل الشتوى المال الحر النقدى فان حصيلة البياضى تشكل المال الحر العينى (١) . أما الغلال التى تسدد بها هذه الضريبة الأخيرة

---

(١) يتراوح المال الحر المقدر على فدان واحد من أية درجة مزروع بالذرة أو الأعلاف من ١٠٠ الى ٢٥٠ مدينى بالنسبة لزراعات النبارى والبعلى والأنجر ، أما المال الحر المقدر على فدان من أى نوع بالمثل (أى دون تفرقة بين درجات جودة الأرض) تم بذره بالحبوب فيتراوح بين ٢٠ الى ٤٠ مدينى عن الشتوى ومن ٢ الى ٤ أرادب من القمح بمكيال القاهرة عن البياضى .

فتتحول دوما الى أرادب من الشـــعير بنسب متفق عليها لتثبت القيمـــة المقارنة للشعير وللحبوب الأخرى : فأردب من القمح يمائل اردبا ونصـــف الأردب من الشعير ، وأردب وربع الأردب من الشـعير يعادل اردبا واحدا من الفول أو العدس أو البسلة وهكذا .

وقد سبق لنـــا القول ان الميرى والـــكشوفية لم يكونا يختلفان قط فى مصر السفلى ، وهو نفس مايحدث فى الصعيد حيث تحصـــل هـــذه الضرائب كما رأينـــا للتو ، نقدا وعينا ، وفوق ذلك فان الملتزمين هنـــاك ملزمون بتحصيلها بنفس القيم التى حددتها اللوائح وبالطريقـــة التى يسدد بها الفلاحون المـــال الحر لهم : وهكذا فعلى الرغم من أن نوع زراعـــة الأرض يحدد فى مصر العليا طبيعة الضريبة التى يحمل بها هؤلاءالفلاحون، فقد كان الأمر لايختلف بالنسبة للسلطـــان ولحكام الولايات ســـواء زرعت الأرض بالذرة والأعلاف أو زرعت بالقمح والفول والشعير الخ .

ويطلق على القبطى الجابى للضرائب فى الصعيد ، وهو الذى يسمى بالصراف فى مصر السفلى ، اسم العامل ، وهنا كذلك يحل سجل المساحة محل سجل الشاهد فى قرى مصر الدنيا، فيستخدم أساسا لتوزيع الضريبة أما النسبة التى يجب سدادها نقدا فلابد أن تسدد قبل حصد المحاصيل ، و اما تلك التى تحصل عينا فتتم جبايتها بمجرد أن يتم الحصاد .

وينبغى أن تنقل الغلال الى مخزن يقع على شواطىء النيل مهما يكن موقع أملاك المولين ، ومن المسموح أن تكون الحبوب مخلوطـــة بمقـــدار السدس بالأجسام الغريبة أو الطين او القش أو بأية مواد أخرى ، فاذا تجاوزت هذه الأشياء عديمة القيمة نسبة السدس هذه فان الفلاحين ملزمون بتعويض ملتزميهم .

وتشتمل أملاك الملتزمين فى صـــعيد مصر على عـــدة نجوع ماهولة تشكل فى مجموعها وحدة ادارية واحدة تصل أهميتها الى حد أن الاقطاعيين (الملتزمين) الذين لا يقيمون بأراضيهم يضطرون لأن يعهدوا بها الى كاشف يتبعه عدد من القـــائمقامات يقيمون بالـــكفور أو النجوع التـــابعة للقرية الأساسية . وعندما يجد العامل (الصراف) نفســـه فى حالة لاتمكنه من الوفاء بمتطلبات العمل الموكل اليه فانه يعهد بجزء من مهامه الى مرءوسين له يسمون قوباض Qoubâd يحصل هو منهم على جبـــاياتهم وينظم لهم حساباتهم بحيث تندرج حركتهم ضمن حركته .

ولم يكن فلاحو مصر العليا على الاطلاق قيانا (، قين) للارض مثل حال فلاحى مصر السفلى ، فلم يكن الملتزم ليستطيع ان يرغمهم على البقاء وعلى العمل فى ارضه ، حيث لم يكن هؤلاء ليقبلوا فلاحة الأرض — وبالتالى يصبحون ممولين للضرائب — الا بموجب عقد اختيارى يقتصر على بذر وحصد زراعات عام واحد .

وقبل سيطره على بك كان شيخ العرب همام يحكم ولايات الصعيد باسم باشا القاهرة ، ولم تكن القوات العثمانية لتتوغل فى هذه البلاد مطلقا ، بل كان من النادر أن يظهر الأتراك فى القرى التى كانوا هم ملتزمين لها . وكانت هذه الاحتياطات تهدف الى اقامة حكومة تقى بلاده من مظالم الأجنبي وذلك بقيامه بتحصيل الميرى المستحق للباب العالى بكل دقة وبحرصه على الا يتسبب مشايخ البلاد فى حدوث مايمكن ان يكون موضوع شكوى سادتهم (الملتزمين) ، لكن القضاء على هذا الحاكم العادل قد أسلم الصعيد الى نفس طغاة مناطق مصر الأخرى : ومع ذلك فان الضرائب والابتزازات هناك لم تتزايد بنفس معدلها (فى مصر السفلى) أما بسبب المداراة والمراعاة اللتين لابد من الحرص على توفيرهما مع فلاحين قادرين على دمار سيدهم وذلك بهجرهم أرضه ، واما ، وهو أكثر الأسباب احتمالا ، لأن التدهور والخفض المستمر فى قيمة المسكوكات النقدية لم تكن تبرر مطلقا زيادة هذه الضرائب هناك حيث تظل للضرائب العينية على الدوام نفس قيمتها . وقد كان فلاحو مصر العليا يعفون من رسوم : رفع المظالم ، وفردة التحرير وكذلك من معظم العادات الداخلة ضمن مايطلق عليه اسم البرانى الجديد .

وكانت الحرية التى يتمتعون بها ، ووقت الفراغ الذى تتيحه لهم زراعة أقل مشقة تتوقف اعمالها طيلة ستة اشهر ابتداء من الحصاد حتى فيض المياه ، كان كل ذلك يسمح لهم بالانخراط فى العديد من ضروب الصناعة : فهم يصنعون الأقمشة والفخاريات والحبال والحصر ..الخ كما أنهم يمدون القاهرة بالكثير من العمال والخدم وبخاصة بوابو الوكالات الموجودة بهذه العاصمة ، ويتوجه هؤلاء عادة الى قراهم خلال فصل الحصاد ثم يعودون الى القاهرة بعد انتهاء مشاركتهم فى الأعمال المطلوبة .

ويدين شيوخ الصعيد لبعدهم عن مقر الحكومة وللنفوذ الذى اكتسبوه

تحت ادارة الشيخ همــام بالاختصـــاصات (التى فى حوزتهم) وهى أبعد مدى عن تلك التى فى حوزة اخوتهم المستقرين فى مصر السفلى ، كما أن الملتزمين هنـــاك متساهلون غير مدققين فى التمسك بامتيازاتهم ، كما أنهم يعفون الشيوخ من سداد الزيادات التى طرأت على المال الحر ويمنحونهم امتيازات اخرى اذ كان من المهم بالنسبة لهم أن يربطوا الى مصالحهم رجالا ذوى ارادة ولهم سطوة على فلاحيهم .

وسوف يوضح لنـــا الجدول الذى نورده فيما يلى حرفيـــا الضرائب النقدية والعينية التى تدفعها طهطا التابعة لولاية أسيوط خلال عام ١٢١٣ من الهجرة ، العام السابع من قيـــام جمهوريتنا (١٧٩٨) ، وسوف ينطبق مع كل ما انتهينا من قوله ماسا بأسلوب الادارة ووسائل جبـــاية الضرائب المقررة فى الصعيد .

بيان بالضرائب المقررة على أراضى طهطا
بولاية سـيوط عن عـام ١٢١٣ من الهجــرة

طهطا : قرية رئيسة

المـدمر ـ العتـــامنة ـ الــواقات ـ كوم العــرب الهلة ـ الساحل ـ القبيصات ـ الحومدية (*) ـ الطليمات ـ نزة ـ فزارة ـ جهينـــة ـ القرنة ـ الخضر ـ عنيبس ـ أولاد اسماعيل ـ الحرافشة ـ بنى عمار ـ كوم اشقاو . } **نجـــوع أو قــرى أخرى تابعة لها .**

مساحة الأراضى المحملة بالضرائب مع بيـــان توزيعها :

ق	ف	النبـــارى	مدينى	مدينى
١٩	٦	زرعت لأول مرة بمحصول النيلة		
		بواقع الفدان ٣٦٢ مدينى	٢٫٤٥٩	
٩	٤	زرعت لثانى مرة بمحصول النيلة		

(*) هكذا فى النص الفرنسى el Houmdyeh وان كان الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن يوردها فى كتابه الريف المصرى فى القرن الثامن عشر وكذلك الاستاذ محمد رمزى فى قاموسه الجغرافى باسم الحريدية والتشابه بين الاســمين ممكن فى الــكتابة بخط القــرمة الذى كان متبعـــا فى ذلك الوقت (المترجم) .

ق   ف   مدينى   مدينى

بواقع الفـدان ١٨١ مدينى . . ٧٩٢

١   ١ر٨٢١ زرعت بالذرة والأعـلاف بواقـع
الفـدان ١١٠ مدينى ٢١١ر٣١٥

١٢   ٢١٤ زرعت بالذرة والأعـلاف بواقـع
الفـدان ١١٠ مدينى ١٢ر٥٩٥

١٧(١)   ٢ر٠٤٦   ٢٢٧ر١٦١

الشتوى

ق	ف	الجهة	مدينى
١٦	٩٤٢	المـدمر	
١٨	٣٧١	العتـامنة	
١٨	٦٢	الواقات	
٠٨	١ر٧٣٢	الهلة والساحل	
١٢	٣ر١٠٩	بواقع الفدان ٢٢١/٤ مدينى	٦٨ر٧٩٨
١٤	٣٤٦	طهطـا	
٠٠	١٥٠	القبيصـات	
٠٠	١٢٠	الحومدية	
٠٠	٥٠٠	الطايحـات	
٠٠	٤٢٠	نـزة	
٠٠	٢٥٠	فـزارة	
٠٠	١ر٤٠٠	جهينـة	
٠٠	١١٠	القرنـة	
٠٠	١٢٠	الخضر	
٠٠	٥٧٠	عنبيس	
٠٠	٢٥٠	أولاد اسماعيل	
٠٠	١٢٠	الحرافشـة	
٠٠	١٣٥	بنى عمـار	
١٤	٤ر٤٩١	بواقع ٢٢١/٤ م/ف (٩٩ر٩٣٨)	
٠٢	٧ر٦٠١		١٦٨ر٧٣٦

١٩   ٩ر٦٤٧ تدفع الضرائب نقـدا .
١٢٥ فدانا تابعة لكوم العرب وقد خربت عن آخرها .
٠٨   ٥   خصومات سابقة .
٠٨   ١٣٠
٠٣   ٩ر٧٧٨

الاجمالى المـكون للمال الحر المبدئى   ٣٩٥ر٨٩٧(٢)

(١) مقـام هذه الـكسور هو ٢٤ (ومعروف أن الفـدان يساوى ٢٤ قيراطـا) .

(٢) لايغيب عن بالنا أن هذا الاجمالى يختلف من عام لآخر تبعا لنوع المحاصيل التى تبذر بها الأرض .

يخصـــم من ذلك :

انفاقات محلية ومصروفات ادارية دفعت الى مستحقين :
خصومات لمشايخ القرى عن الأراضى التى يزرعونها بالمحصولات
النبارى ومساحتها ٨ق ٥٤ف بواقع ١١٠م/ف ٩٧٧ر٥
خصومات للمذكورين عن الأراضى التى يزرعونها بالحبوب :
٢ق ٧٩٩ف بواقع ٨/٢٢١م/ف ٦٨٠ر١٧
٠٦ق ٦٤٢ف بواقع ٤/٢٢١م/ف ٢٩٠ر١٤
٩٧٠ر٣١

للنجارين الذين يقومون باصلاح أدوات الرى	٤٤٠
لجامع أبو دومه فى طهطا لشراء الزيت والحصر	١١٠ر٠
للمشايخ : محمد	٢٢٠ر٠
عبد الله	١١٠ر٠
سليمان النصيرى	٨٠٧ر٠
عمر	٥٠٠ر٠
موسى عبد الـكريم	٢٢٠ر٠
عبد الرحمن العربى	٣٩٧ر٠
عادة لشيوخ من الصوامعة	٠٠٠ر٦
عادة لشيوخ من الهلة	٥٠٠ر١
عادة لشيوخ من المـدمر	٧٠٠ر١
للشيخ ابراهيم العـاجز	٨٥
لحراس المرفأ الذى ترسو عنده المراكب	٣٠٠ر٠
للشيخ بكرى الزواقى	٠٠٠ر١
الى أبناء وهيلة (*)	٨٠٠ر٠

١٣٦ر٥٢

البـــاقى ٧٦١ر٣٤٣

ويوزع هذا الباقى بمعرفة الملتزم على النحو الآتى :
— الى السلطان : ضريبة الميرى، وكان المطلوب هو ٥١٤ر٤٣٩ مدينى ولكن لايخصص من ذلك هنا الا ٠٩٧ر٢١٢ فحيث أن حصيلة المال الحر لم تتجاوز ٧٦١ر٣٤٣ فانه لا يتبقى ما يزيـد عن ذلك بعـد سـداد الكشوفية التى سيأتى بيانها . وفى حالتنا هـذه

(*) أو الوهلة أو الوهيلة ونعتذر لصعوبة التحقيق . **(المترجم)** .

لايوجد اى فايض ويضطر الملتزم لأن يستقطع من حصـيلة البرانى مايكفى لسـداد الميرى المقـرر (أنظر بعـده) .

— الى حاكم الولاية عن ضريبة الـكشوفية :

. مصاريف الولاية	٨٦ر٧٨٨	
. حق الطريق	٦ر٠٠٠	١٣١ر٦٦٤
. الـكلفة	٣٨ر٨٧٦	
المبلغ الاجمـالى		٣٤٣ر٧٦١

مضاف قديم او برانى قـديم

مال المغارم المسمى مال شتوى ومال صيفى :

الجهة الشمالية	٦٧ر٠٨٦	١٩٢ر٧٤٧
الجهة الجنوبيـة	١٢٥ر٦٦١	
مال المراعى		١٣ر٣١٦
مال الجروف		١ر٩٦٦
حملة الكوبيات (الصرافين)		١٠ر٤١٢
غرامة العشر (ضريبة للاحسان)		٣ر٧٠٠
عادات قديمة مستحقة على قريه المدمر		٥ر٤٠٥
غرامة العشر على الخرفان		١ر١٠٠
خرفان الموسم		٠ر٢١٠
عادات (أو عوائد) على المقاييس		٠ر٥٤٣
عادات على السوق المقام كل سبت فى الهلة (*)		٢ر٥٠٠
عادات متنوعة		٠ر٢٤٠
من قرية نزة		٤ر٤٠٠
من ابراهيم الضبيبة		٠ر٤٠٠
كلفة الملتزم (وهى عادة عينية تحولت الى نقدية)		٢٠ر٤٧٨
عادة حوالة الحوالات		١٠٠ر٠٠٠
ثمن نقدى لعجول قررتها العادة		٢٠ر٤٤٠
القيمة النقدية للضرائب المستحقـة على كـوم العرب نظرا لخرابها **		٤٢ر٥٠٠
عادات على سوق طهطا		٨٥ر٠٠٠
الاجمـــالى		٥٠٥ر٣٥٧

(*) نجد فى القاموس الجغرافى قرية باسم المحلة ولعلها هى نفس القرية لكن الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن يورد من يسمون عربان هلة لذلك آثرت ترك الاسم على النحو الذى ورد به . (المترجم) .

(**) اى أن هذه الضرائب توزع على بقية القرى بسبب خراب هذه القرية (المترجم) .

ويخصم من ذلك ما خفض عن أو دفع الى متفرقين :

حصة كوم اشقاو التى لم تعد تابعة لالتزام طهطا	١ر٥٦٠
حصة كوم العرب التى خربت	٠ر٩٠٥
حصة كوم اشقاو عن حوالة الحوالات	٦ر٢٥٠
حصة كوم العرب التى خربت	٢ر٨٠٣
حصة كوم اشقاو عن اجمالى ثمن العجول	١ر٢٧٧
حصة كوم العرب	٤٢٥
مخصصات للعربان	٧٣ر٣٧٥
عادات لمتفرقين من عادة حوالة الحوالات	١٠ر٨٥٠
تنزيل قـــديم	٢٩ر٨٥١
عادة قائمقام طهطا	٤٤ر٤٣٤
اجمـــالى الخصـــومات	١٧٣ر٧٣٠
وبذلك يكون صافى حصيلة المضاف القديم هو (*)	٣٣١ر٦٢٧
وبذلك يكون صافى اجمالى الضرائب المقررة هو :	٦٧٥ر٣٨٨

مضاف مستجد ، او برانى جديد

عادات السردارية عن زراعات النبـــارى بواقع ١٠م/فدان	١٩ر٨٩٧
على مختلف القرى :	٣٨٢ر٤٧٤
هدايا للملتزم من زبد وخلافه	٣٠٣ر٠٦٥
مبالغ فرضت على هذه القرى كضريبة فردة	٢٩٦ر٠٠٠
اجمالى المضاف المستجد	١ر٠٠١ر٤٣٦

ويخصم من ذلك مادفع لمستحقين :

هدايا معتادة لمتفرقين	٢٦٩ر٨٤٧	
كسوة (هدية من الملابس لـــكبار الشيوخ عندما يجلبون العـــادات للملتزم)	١٠٠ر٠٠٠	
كسوة لصغار المشايخ (شرحه)	٣٢ر٦٦٧	
اجمـــالى الخصـــومات		٤٠٢ر٥١٤
اجمالى صافى المضاف المستجد		٥٩٨ر٩٢٢
وبذلك يبلغ اجمالى الضرائب المقررة على هذه القرية		١ر٢٧٤ر٣١٠

(*) اضطررت لادخال تعديلات طفيفة فى تنسيق هذه الجداول زيادة فى الايضـــاح (المترجم) .

ويتم التوزيع الجديد لهذا المبلغ على النحو الآتى :

الى السلطان : ضريبة الميرى	٤٣٩ر٥١٤
الى حاكم الولاية : ضريبة الكشوفية	١٣١ر٦٦٤
الى الملتزم { البرانى القديم	٣٣١ر٦٢٧
البرانى الجديد	٥٩٨ر٩٢٢
	٩٣٠ر٥٤٩

ويخصم من هذه الحصيلة مادفعه الملتزم من ماله لاستكمال الميرى ويبلغ	٢٢٧ر٤١٧
فيكون صافى حصيلة الملتزم	٧٠٣ر١٣٢
فنحصل على نفس المبلغ المطابق	١ر٢٧٤ر٣١٠

انفاقات محلية وخلافها تدفع لمستحقين :

خصما من حصيلة المال الحر	٥٢ر١٣٦
خصما من البرانى القديم	١٧٣ر٧٣٠
خصما من البرانى الجديد	٤٠٢ر٥١٤
ويبلغ اجمالى هذه الانفاقات	٦٢٨ر٣٨٠(١)
وبذلك يبلغ اجمالى عام الضرائب النقدية التى تسددها هذه القرية	١ر٩٠٢ر٦٩٠

جدول بالضرائب العينية (المسددة فى شكل حبوب)

والمقررة على نفس هذه القرية

ق ف

٢ ٧ر٦٠١ تخضع لضريبة الشتوى وتدخل هذه ضمن حساب الضرائب النقدية ، لكنها تسدد عادة ضريبة البياضى

ويخصم من هذه المساحة :

ق ف

٢٢ ١١٨ { ٠٠ ٧٠ يزرعها الملتزم لماشيته وخيوله
٢٢ ٤٨ احترقت محاصيلها خلال عملية عسكرية دارت بين المماليك والفرنسيين

٤ ٧ر٤٨٢ باقى المساحة وتسدد الضريبة بواقع ٤/٢١ أردب من القمح لكل فدان ٢١(*) ١٦ر٨٣٤ اردبا من القمح

---

(١) ونرى من ذلك أن الانفاقات تبلغ ٤٩ ، جملة الضرائب التى تسددها هذه القرية .

(*) سبق أن أوضح المؤلف أن مقام الكسور هو على الدوام ٢٤ .

زيادات فى المال الحر

ق ف

٦ ٢٤٨ { ٦ ٢٩٨ رزقة هى برك المدمر والهلة
{ ٥٠ نقص قـديم
وهذه المساحة تسدد الضريبة بواقع
٢ أردب قمح / فدان ١٢ ٤٩٦
٧٦ رزقـة بركة الأسـدارية بواقـع أردب
و١٦ / فدان { ١٦ ١٢٦ ١٦ ٥٠
نقص قـديم { ٧٦

ضرائب على أراضى العمار والغرق
فى المدمر والواقات ١٢ ٤٤٥
نقص قـديم ٣ ١٢ ٤٤٢
عن رزقة خميس فى الهلة ٨ ١١٣
٨ ٣٣ أراضى غائبة (لم يتيسر تحديدها) فى الهلة
بواقع ٢ اردب / ف ١٦ ٦٦
٠٠ ٧٩ رزقة القلايح فى جهينـة بواقع الفـدان
١٦ ١ أردب ١٦ ١٣١
اجمالى الزيادات ٨ ١٫٣٠١
اجمالى المال الحر بالأرادب بمكيال البلد ٥ ١٨٫١٣٦
فـرق مكيـال باحتسـاب زيادة قدرهـا ٨٠٪
كى يتم التقدير تبعا لمـكيال القاهرة ٢١ ١٤٫٥٠٨

اجمـالى عام للمـال الحر المسـدد بالحبوب طبقـا لمـكيال
القــاهرة (قمحـا) ٢ ٣٢٫٦٤٥

ويخصم من ذلك انفاقات محلية ومصروفات ادارية دفعت الى مستحقين
تخفيضات لصـالح الشيوخ كعادات لهم

ق ف

بمكيال البلاد بمكيال القاهرة

٢ ٧٩٩) ٨ق ١٫٤٤١ ف زرعت بمعـرفتهم
٦ ٦٤٢) بواقـع ٢/١ ٢ أردب لـكل فـدان ٣٫٢٤٣

للشيوخ فى قرى مختلفة ١٣ ٢٫٢١٩ ٤ ٥٥
للشيخ عثمان ١٢ ٧
« عمر طـه ٠٠ ١٠
« محمد النصيرى ٠٠ ١٠
« أحمد ابو السعود ٠٠ ٢٠
« أبو زيد النحاس ٠٠ ١٥

« تابع »

للشيخ احمــد عمر ١٠

« عبد الفتاح الحاجرى ٥٠

« مسعود ٠٠ ٣٠

« محمد الجابى ١١ ٧

« غــانم ٠٠ ١٠

« محمــد ٠٠ ٢٠

« القفتــير ٠٠ ٣٠

عادات مخصصة منذ زمن قديم للاشراف

والعلماء ٢١١/٢ ٨٠٧

عادات المطمسين (العمال المشرفين على

الجسور) ٠٠ ٢١

لحراس الجسور ٠٠ ٢١

ايجارات مخازن الحبوب ١٠٥

عادات قائمقــام طهطــا ٣ ٨٤

للقائم بتسلم الحبوب فى المخــازن ٢ ٤٣

١٥١/٢ ٦ر٤٨٨

وتزيد هذه عند تحويلها الى مكيال ٩١/٢ ١١ر ٦٧٩

القاهرة بواقع زيادة قدرها ٨٠٪ ١٨ ٥ر١٩٠

اجمــالى الخصــومات ١٢١/٢ ١٢ر٠٢٠

أردب قمح

وبذلك يكون صافى حصيلة المال الحر ١٣١/٢ ٢٠ر٦٢٤

أردب قمح

وباتخاذ الشعير أساسا للتعامل فان هذه الكمية بمكيال القاهره

تعادل باعتبار أن أردب القمح = ١١/٢ أردبا من الشعير ٢٠١/٤ ٣٠ر٩٣٦

وهذه توزع بمعرفة الملتزم على النحو الآتى :

الى السلطان : ضريبة الميرى ٨ر٠٧٣

الى حاكم الولاية : كمصروفات للولاية وعليق ١٣ ٤ر٥٢٠

زيادة فى المــكيال بواقع ٤١/٦ لــ ٨١/٢ ١٨٨

كلفة أثنـــاء جولاته :

لطعــامه (بالقمح) ٦٠

للبرغل ٨

للعــدس ٨

لطعــام الخيول ١٠٠

اجمــالى الــكلفة ١٧٦

الفرق عند تحويله الى شعير ٣٤

وبذلك يكون الاجمالى فقط بالشعير ٢١٠

وهكذا يكون اجمالى مايخص حاكم الولاية ٢١٣/٤ ٤ر٩١٨

الى الملتزم وهو الفايض الخاص به ٢٢١/٢ ١٧ر٩٤٤

وهى نفس الــكمية المطابقــة ٢٠١/٤ ٣٠ر٩٣٦

اردبا من الشعير بمكيال القاهرة

برانى يحصل لصالح الـكاشف ويرسله اليه الملتزم مقابل حكم القرية وتوابعها :

جراية السردارية : عادات لطعام السردار ولطعام خيوله خلال مدة اقامة تبلغ ٢٧ ليـلة
تخصم منها حصـة كوم اشـقاو التى لم تعـد تابعـة لهذه القريه وتبلغ ١ ٣/٤ ليلة

فيكون الباقى بعد ذلك ٢٥ ١/٤ليلة توزع كما يلى :

٧ ليالى فى الهلة)
٥ ١/٤ ليالى فى طهطا) ٢٥ ١/٤ ليلة بواقع الليلة ١٩ ١/٤ أردبا = ٢ ٤٨٦
١٣ ليلة فى جهينة)

عادات على قرى مختلفة ٧٥٠
عادات على كيالى الحبوب ٣٠
عادات على الرزق الآتيـة :

رزقة العلقية ومساحتها ١٨٤ ف } ٢٣٤ ف بواقع الفـدان
رزقة الربوة ومساحتها ٥٠ } ١ ١/٢ اردب ٣٥١

٢	١٫٦١٧
الزيادة مقابل الفرق بين المكيال ومكيال القاهرة ١٤	١٫٢٩٣
اجمالى برانى الـكاشف ١٦	٢٫٩١٠

وباتخاذ الشعير أساسا للتعامل فان هذه الكمية تعـادل باعتبار أن أردب القمح = ١ ١/٢ أردبا من الشعير ٤٫٣٦٦

يخصم منها مادفع لمستحقين :

حصة كوم العرب ، وهى قرية خـربة خصـما من غذاء الكاشف وخيوله (بالقمح) ١٠ ١١ بمكيال البلاد مخصصات لحساب المشايخ وتسمى هبة المشـايخ وتؤخـذ

خصما من حصته	٨	٧١١
هبـات لمتفرقين فى قرية عنيبس	٠٠	٨١
الاجمـالى	١٨	٨٠٣
يضـاف اليها الفـرق بين مكيال البـلاد ومكيال القاهرة بواقع ٨٠٪	٢٢	٦٤٢
الاجمالى بمكيال القـاهرة	١٦	١٫٤٤٦

وباعتبـار أن أردب القمح يساوى ١ ١/٢ أردبا من الشـعير فان هذه الـكمية تساوى بأرادب الشعير ٢٫١٧٠

وبذلك يكون اجمـالى الضرائب العينيـة التى تسددها هذه القرية ٢٠ ١/٤ ١٣٢ ٣٣٫
أردبا من الشعير

ويتم التوزيع الجديد لهذه الكمية على النحو التالى :

الى السلطان : ضريبة الميرى مقدرة بأرادب الشعير مكيال القاهرة		٨٫٠٧٣
الى حاكم الولاية : ضريبة الكشوفية	٢١١/٢	٤٫٩١٨
الى الملتزم : الفايظ (او الفايض)	٢٢٣/٤	١٧٫٩٤٤
الى الكاشف : البرانى الخاص به مقابل حكم القرية		٢٫١٩٦
وهى نفس الكمية المطابقة	٢٠١/٤	٣٣٫١٣٢

مصروفات محلية وخلافها دفعت لمستحقين :

على نفقة المال الحر ، قمح ١٢١/٢ ٢٠ ١٢٫٠٢٠ اردبا

(عليق) وتساوى (بالشعير)	١٩٣/٤ ٣٠ ١٨٫٠٣٠	} ١٩٣/٤	٢٠٠ ٢٠٫٢٠٠(١)
على نفقة البرانى	٢٫١٧٠		
اجمالى كمية الحبوب التى دفعتها هذه القرية بأرادب الشعير		١٦	٥٣٫٣٣٣

	مقدرا بأرادب الشعير مكيال القاهرة
يبلغ الميرى من الغلال المحصلة من مصر العليا	٣٦٥٫٠٧٣

وبسبب نقص المعلومات الكافية فنحن لانستطيع أن نبين هنا على وجه الدقة حصيلة الفروع الأخرى من الضريبة ، فاذا ماقدرناها طبقا للنسبة القائمة بين الميرى النقدى الذى يبلغ ١٢٫١٥٨٫٤٦٧ مدينى والميرى من الغلال فسوف نقدر :

الكشوفية القديمة والجديدة والتى تبلغ حصيلتهما النقدية ٩٫٢٧٠٫٦٠٢ مدينى بـ	٢٧٨٫٣٦١
الفايظ والبرانى القديم والجديد والتى تبلغ حصيلتها نقدا ٣٩٫٥٣٩٫١٨٥ مدينى بـ	١٫١٨٧٫٢١٣
وبذلك يصل الاجمالى ، غير شامل للانفاقات المحلية التى تخصم مباشرة من حصيلة القرى لتنفق مباشرة فى الأغراض المخصصة لها ، الى	١٫٨٣٠٫٦٤٧

(١) تعد هذه القرية واحدة من القرى التى تبلغ المصروفات المحلية بها حد الاسراف ، اذ نلاحظ كيف انها تبلغ ٦١٪ (من الحصيلة) .

وتعادل هذه الـــكمية اذا ما حولناها الى حنطة ، طبقا لمكيال القاهرة ٤٣١ر٢٢٠ر١ اردبا ، تساوى اذا قدرنا سعر الأردب بـــ ١٠ جنيهات أو ٢٨٠ مدينى ، وهو متوسط سعر أردب القمح فى هذه الأيام ٣١٠ر٢٠٤ر١٢ جنيها توريا (*) أو ٦٨٠ر٧٢٠ر٣٤١ مدينى ، وهو ما يعـــادل بالفرنـــكات ٦٣٩ر٠٥٣ر١٢ فرنكا و٥٠ سنتيما .

وبمقابلة هذا المبلغ بالضرائب التى تحصل نقدا فى هذه المنطقة التى لايدخل فيها الا ٢/١ ولاية بنى‌سويف و ٤/١ ولاية‌اطفيح ، ذلك أن‌ثلثى الولاية الأولى وكذلك ثلاثة أرباع الولاية الثانية تتبع مصر السفلى ، نتبين أن قيمة الضرائب العينية تزيد على حصيلة الضرائب النقـــدية بنحو خمسة أمثـــال مما قد يؤكد أن قائمتنا لم تبتعد عن الحقيقة حيث أننا نستخدم هذه النسبة عادة عند حساب الضريبة العينية التى تسددها مصر العليا ، بالمقارنة بما تدفعه من ضريبة نقدية .

ويوضح لنـــا الجدول الذى سنعرضه فيما يلى اســـتخدامات الميرى المحصل عينا . أما استخدام حصيلة الـــكشوفية ، والذى لم نستطع أن نورد قائمة به هنـــا ، بسبب عدم كفـــاية معلوماتنـــا فانه يتم فى نفس الأغراض التى تخصص لها الانفاقات النقدية ، التى تقع على عاتق البكوات أو الـــكشاف حكام الولايات ، وهـــو ماسنتناوله بعـــد ذلك فى بقيـــــة هـــذه الدراسة .

(*) تورى Tournois صفة لنقد فرنسى قديم كان يضرب فى مدينة تور على الطراز الملكى (المترجم) .

جدول باستخدامات الميرى المحصل فى شكل حبوب

		شريحة = ١٢ إردبا من القمح و ١٨ أردبا من الشعير		شريحة من الشعير = ١٥ أردبا		المجموع بأرادب الشعير
الى الباشا		٢٣١		٦٥١		١٣,٩٢٣
الى الأوجاقات						
الى خمس من هذه الفرق العسكرية الى نفس هذه الفرق نظير الذهاب	١٢/٢٤	٥٣	١٤/٢٤	٧١	١/٢٤	٢,٠٣٦
لاستقبال المحمل		١٠		١٧		٤٣٥
الى كيخيات (كيخيا) هذه الفرق الخمس		٩	١٦	٢١	١٨	٤٨٠
الى أوجاقات تفكجيان ، جمولیان ، شراكسة	—	—	٨	٢,٠١٧		٣٠,٢٦٠
الى الـ ٧٤ شوربجى بالأوجاقات		٧٤		٧٤		٢,٤٤٣
الى حاميات القلاع (أو الطوابى)	١٢	٣٣٥		٣١٩		١٠,٨٢٤
الى حراس القلاع على طريق القاهرة — مكة		٥٨		٣١٩		١,٠٤٤
الى البكوات :						
الى أمير الحج للتزود بالمؤن أثناء الطريق	٦	٣٢٤	٣٠	٤٧٣		١٢,٩٤٤
إلى دفتر دار البك		٤١	١٠	٣٣	٦	١٢٣٩
إلى فرق البكوات		٣٨٠		٦٠٨		١٥٩٦٠
الى البكوات القباطنة الثلاثة للسويس والاسكندرية ودمياط والى قائد رشيد		١٢٩		٦٠٨		٢,٣٢٢
الى قائد السويس		٢٠		٣٢		٨٤٠
الى قاضى القاهرة	١٦	٢٠		١٦		٦١٢
الى أفندية الديوان		٦٦	١٨	١٠٥	٦	٢,٧٧٤
الى خدم الديوان		٢٩	١٨	١٠٥		٥٢٢
الى كتبة سجلات الغلال		١٣	١٨	١٠٥		٢٣٤
الى صناع البارود اللازم للحكومة		٩		٣٠		٦١٢
لطعام الثيران المستخدمة فى مجرى العيون بمصر العتيقة		—	١٢	٣٠٩	١٢	٤,٦٤٢
الى المؤسسات الخيرية الآتى بيانها :						
الى المسجد الكبير المسمى بالجامع الأزهر						
الى العميان ومرضى المارستان						
الى المغاربة وطلاب آخرين يدرسون بجامعة الأزهر					٤	١٥٤,٣٣٩
الى موظفى وخدم الجامع المسمى الامام الشافعى						
الى الأوقاف الاسلامية بمصر						
عادات لعائلتى البكرى والسادات وغيرهما						

	شريحة = ١٢ إردبا من القمح أو ١٨ أردبا من الشعير		شريحة من الشعير = ١٥ أردبا		المجموع بأرادب الشعير	
أوقاف متفرقة لصالح مشايخ القاهرة		—	١٢	١٠	١٢	١٥٧
وقف ابراهيم باشا لصالح جامع اثر النبى	١٢	٢٥	٦	٣	١٨	٥٠٧
وقف اسماعيل باشا لصالح :						
قارىء القرآن بالقلعة		٥	٥	—	٣	٩٣
المفتين العلماء الأربعة	١٢	١٢		—		٢٢٥
ارساليات الى مكة والمدينة :						
الى شريف وخدم الحرمين بمكة والمدينة	١٢	٣.٥٥٨		—		٦٤,٠٥٣
الى قضاة هاتين المدينتين		٤٨		—		٨٦٤
الى بحارة المراكب التى تنقل الغلال الى مكة	١٢	٧٥		—		١,٣٥٩
نثريات يتحملها البكوات كنفقات للاشراف على التحصيل		—		—	٢٣	٣٩,٣٢٦
اجمالى مطابق لحصيلة الميرى من الغلال						٧٣٠,٦٣٥

وتدين الاراضى القابلة للزراعة فى مصر بوجودها لفيضانات النيل، فلو لم تروها مياه النيل لابتلعتها الرمال . وحيث لاتسقط الأمطار مطلقا فى هذه البلاد فان درجة فيضان النيل تعد الأساس الاوحد لقياس الأعمال والمحاصيل ، وبشكل مبدئى ، فان الضريبة لاتكون واجبة الأداء على الفلاحين اذا لم تغمر الفيضانات الأرض ، ومع ذلك ، فحدث يكفى ان تفتح الحكومة الخليج حتى يصبح الفيضان كافيا بشكل شرعى وكافيا لكى تتقرر الضريبة . فانه يترتب على ذلك ان عدم حدوث فيضان كاف لم يكن لبعفى الارض فى كل الاحوال من الضرائب . ولم يكن الباب العالى يؤجل مطلقا تحصيل الميرى . كذلك قلما كانت الحكومة تنقص من قيمة ضريبة الكشوفية . ومع ذلك فعندما يكون الفيضان مدمرا أو زائدا عن الحد مما يؤدى لان تصبح المحاصيل ضعيفة أو سيئة فان على الملتزم أن يوقف تحصيل الفايض ، ولكنه كان يفرض جبايته فى العام التالى بالاضافة الى الفايض المقرر هذا العام . ولم تكن هناك اية لوائح ترغم البكوات أو الملتزمين على انقاص الضرائب عندما تسوء احوال المحاصيل ، لكن

مشاعرهم الانسانية او بالأحرى كان عجز مموليهم فى معظم الأحيان ، كان يحدد قيمة التخفيضات التى كانوا يقررونها فى بعض الأحيان للفلاحين .

خامسا : عن الأوقاف

سبق لنا أن شرحنا المقصود بكلمة أوقاف ، ويبقى علينا الآن أن نوضح ماتشتمل عليه دخولها :

العوائد النقدية من الأوقاف السلطانية :

دشيشة الكبرى	١٫٩٠٧٫٧٦٥ مدينى	على سبيل التذكرة
المحمدية	١٫٢٠٦٫٢٧٤	
الأحمدية	٥٨١٫٠٣٣	
المرادية	٩٦٩٫٨٥٧	
الحرمين	٦٣٨٫٦٧٠	

الميرى المقرر على ناظر وقف دشيشة الكبرى ٥٠٫٠٠٠ مدينى

الميرى المقرر على الأوقاف المخصوصة :

وقف سليمان باشا	١٠٢٫٠٠٠
« السلطان الغورى	٣٧٫٥٠٠
« السلطان الأشرف	٢٥٫٠٠٠
« السلطان بيبرس	٢٠٫٠٠٠
« الوزير خاير باى	٣٠٫٠٠٠
« قايتباى	٣٠٫٠٠٠
« عبيد الله	١٥٫٠٠٠
« الوزير حيساظ باى	١٢٫٥٠٠

وكانت هذه الأوقاف الثمانية تسدد فيما مضى
علاوة على ذلك مبلغا قدره ١٢٠٫١٧٨
وهو مايسدد الباشا الآن بالنيابة عنها لأن أحد
اسلافه قد أعفاها منه . وبذلك يبلغ اجمالى عوائدها ٣٩٢٫١٧٨

اجمالى العوائد النقدية للأوقاف بنوعيها : ٤٤٢٫١٧٨

وتعادل بالجنيهات التوربة دد اس ١٥٫٧٩٢ جت

وبالفرنكات ١١س ١٥٫٥٩٧ ف

وقــد كان السلطان محمد بك شراكسة ، حاكم مصر الأسبق ، قــد اسس وقف دشيشة الـكبرى واحترم تصرفه هذا السلطان سليم ، حتى ان ملتزمى الاراضى التى عينها هذا السلطان لايزالون يدفعون حتى اليوم الضرائب المستحقة على هذا الوقف الى ناظــره ، وعلى التوالى انشــأ السلاطين محمد وأحمد ومراد ، خلفاء سليم الذين اعتلوا عرش القسطنطينية من بعده ، الأوقاف التى تحمل أسماءهم بدون أن ينتقصوا من قيمة الموارد العــامة ، ذلك أنهم عندما جددوا عقود الأراضى اخضــعوا الملتزمين الجدد لضرائب (اخرى) تكون (أو تعادل) عوائد هــذه الأوقاف . ويعود وقف الحرمين الذى انشاه احد السلاطين ، واقر سليم تصرفه هذا ، الى أصل مشابه لأصل وقف دشيشة الـكبرى ، وان كان يختلف عنه فقط فى عدم وجود ناظر له ، وفى أن عوائده تحصل وتدار بمعرفة الروزنامجى ، فى حين أن لــكل من هذه الأوقاف ناظــرا موكلا بادارتهــا تحت رقابة هــذا الموظف المــالى .

وتشكل المبــالغ التى أوردناها كافة الموارد النقــدية لهــذه الأوقاف الخمسة ، وحيث لم يكن لهــذه المبالغ الا أن تنتهى الى يد الروزنامجى ، الذى كان ينفقها كلية فى الأغراض المخصصة لها دون أن يشير الى ذلك فى سجلاته ، وحيث كانت تبدو هذه المبالغ وكأنما تنتمى لممتلكات خاصــة وليست جزءا من الضرائب أو الانفاقات العامة فاننا لم نوردها هنا الا على سبيل التذكرة .

وبخلاف هذه المبالغ فان للأوقاف السلطانية عوائد عينية من الغلال ومواد الأغذية الأخرى خصصت بدورها لنفس هذه الأغراض ، وكان يعهد بالنقود والحبوب التى تم تحصيلها ، بعد سداد كل المصروفات ، الى أمير الحج الذى يحملها الى مكة والمدينة حيث كانت توزع طبقا لوصية المؤسسين (منشىء الوقف) .

أما الأوقاف الخاصـــة (او الأهلية) التى أشرنا اليها فكانت قائمة بمصر بالفعل عندما فتحها سليم . ومع اقرار هــذا السلطــان لتصرفات مؤسسيها فقد أخضعها لضريبة الميرى التى لم ينقطع نظارها عن دفعهــا لخزينة الروزنامجى ، لــكننا لم نقدم هنــا اية اشارة لتلك الأوقاف التى انشأها السلاطين والباشوات منذ عصر هذا الحاكم بسبب كثرة عددها ، لأنها لم تكن تخضع لدفع أى ميرى .

الفصـــل الثـــانى

الضرائب على الوظـــائف

حيث كان الضباط الذين يعينهم السلطان يحصلون على دخولهم على هيئـــة تحويلات على الميرى فى القرى ، ولا سيـــما فى هيئة ضرائب غير مباشرة كان يعهد اليهم بجبايتها ، فقـــد كان هؤلاء يدفعون للسلطـــان ضريبة الميرى التى نشير اليها باعتبارها ضريبة على الوظائف ، حيث كانت هذه الضريبة تفرض على مجموع دخول الواحد منهم وليس على هـــذه او تلك من الضرائب أو العادات التى كان يتمتع بها .

ويوضح لنا الجدول الآتى أصحاب الوظائف الخاضعين لدفع الميرى :

البـــاشا	٠٠٠ر٦٢٥ر١ مدينى
الدفتردار	٧٩٤ر٢٦

البكوات والـــكشاف حكام الولايات الآتيـــة :

قنـــــا	٠٩٦ر٨٣٠ر١
اسنـــــا	
جـــرجا	
ســـيوط	
منفلـــوط	
المنيـــه (١)	
بنى ســـويف	٦٤٠ر٣١٩
الفيـــوم	٩٨٠ر٣٥١
اطفيح	٢٤٢ر٢٠٣
الجيزة	٠٤٠ر١٠٧
القليوبيـــة	١٩٥ر١٥٤
الشرقيـــة	٠٧٨ر٦١٩
البحـــيرة	٧٤٠ر٣٦٢
المنصـــورة	١٦٨ر٣٩٦
الغربيـــة	٢٤٠ر٨٦٩
المنوفيـــة	٩٣٠ر٦٠٧
. . . .	٣٤٩ر٨٢١ر٥

(١) كان يحكم هذه الولايات الست بك واحد .

الروزنامجى			٢٧ر٢٩١
مترجم الـــديوان			٧٥ر٠٢٤
امين الضربخانة (دار سك النقود)			٥٨٢ر٤٤٧
اغـــوات أوجاقات :			
	المتفرقـــة	٥٣ر٥٩١	
	الجاويشية	٢٨١ر٣٤٢	
	جامولـيــــان	١٠٧ر١٨٢	
	تفكجيان	١٠٧ر١٨٢	
	شراكسة	١٠٧ر١٨٢	
	مستحفظان	٤٥ر٣٨٢	
	عـــزبان	٤٨ر٢٣٠	
. . . .			٧٥٠ر٠٩١
الكخياوات الثلاثة لأوجاقات جامولیان وتفكجيان وشراكسـة(١)			٦ر٠٠٠
كتبـــة الأوجاقات :			
	المتفرقة	٥٥ر٩٧٠	
	الجاويشية	٥٨ر٩٤٦	
	الجامولیان	٣٧ر٥١٣	
	التفكجيان	٣٢ر١٥٥	
	الشراكسة	٢٦ر٧٩٤	
	المستحفظان	٦٤ر٣٠٩	
	العزبان	١٥ر٠١٨	
. . . .			٢٩٠ر٧٠٥
المعمرجى باشى			٥١ر٧٩٤
الجيبجى باشى			٦٦ر٩٩٣
القـــافلة باشى			٦٩ر٠٠٠
أمير احتساب (٢)			٤٤٣ر٦٣٨

---

(١) فى الأزمنة الأخيرة كان الباشا يسدد الميرى المقرر على هؤلاء .

(٢) لم يكن يدفع فى الأزمنة الأخيرة سوى ١١٩ر٢٦٩ مدينى ، حيث قبل البـــاشا طلب هذا الموظف وبدأ يدفع بدلا منـــه الـ ١٧٤ر٥٢٨ مدينى الباقية .

امين عنبر		٢٩٤ر٣٣٢
اغا المشاقة		٢٤ر٢٠٩
سردار جـرجا		١٥ر٦٠٠
اغـوات قـلاع :		
الاسكندرية	٢١ر٨٤٠	
سارى احمد بالاسكندرية	٧ر٢٨٠	
الروخنة بالاسكندرية	٩ر٨٨٠	
أبى قير	١٦ر٦٤٠	
رشـيد	٢٧ر٠٤٠	
القرين	٤ر١٦٧	
. . . .		٨٦ر٨٤٧
شـيخ الدلالين		٣٠ر٠٠٠
الـولاة (١)		
والى القـاهرة	١٥ر٤٦٤	
« مصر العتيقة	١٥ر٤٦٤	
« بولاق	١٥ر٤٦٤	
. . . .		٤٦ر٣٩٢
الأمنـدية :		
أمندى الشرقية	٧٤ر٨١٤	
« الغربية	٧٨ر٩٧٤	
« الشهر	٧١ر٧٥٠	
« الغلال	٨٢ر٠٣٦	
« غلال الميرى	٢١ر٤٣٦	
« الكوريكجى	١١ر٧٨٦	
« كشيدة	١٣ر٣٩٨	
« الأيتام الخ	٦١ر٩٤٣	
« الجوالى	٩٩ر٦٩٤	
. . . .		٥١٥ر٨٣١

---

(١) فى الأزمنة الأخيرة حل الباشا محل هؤلاء الولاة الثلاثة فى دفع الميرى المستحق عليهم .

أفندى الرزق			٢١٫٤٣٦
الاجمـــــالى			١٠٫٨٧٠٫٧٧٣
وهو يعادل	١٠د	١٧س	٢٤١ر٣٨٨ ج ت
وبالفرنكات		٧٩س	٤٤٨ر٣٨٣ ف

وكان الباشا ، وهو الذى يحتل أسمى هذه المناصب ، هو الشخص الذى تؤول اليه عادة الحلوان ، فعند موت أحد الملتزمين ، لم يكن لوريثه أن يحصل على الحجة اللازمة لكى يخلفه فى أرضه ووظيفتـــه وحقوقه الا بعد أن يدفع للسلطان عوائد ثلاث سنوات من صافى دخوله ، ومع ذلك فلم يكن يلتزم عند وراثته لاحدى القرى الا بأن يسدد ثلاثة أمثـــال مايظه بشكله المحدد (*) وفى مصر ، نزل السلطان عن هذا الحق الى الباشا الذى كانت له زيادة على ذلك عادات على الغـــلال والأطعمـــة وعلى كل الأشخاص الذين ينبغى ، اذا مارشحوا لتقلد احدى الوظائف ، أن يتقـــدموا كى يحصلوا على خلعة منه هى الجبة أو القفطان .

اما الدفتردار فـــكان يتمتع باتاوة قدرهـــا ٠٠٠ر١ مدينى عن كـــل كيس (**) من ثمن اية أرض تعطى لملتزم جديد ، وكان الدفتردار يسلم هذا الملتزم تقسيطا ، هو عقد ضرورى لكى يمارس حقوقه سواء كان هذا التغيير (فى شخص الملتزم) قـــد تم عن طريق الارث او عن طريق البيع والشراء .

وكان البكوات او الـــكشاف حكام الولايات يحصـــلون على رواتب من الخزينة العـــامة ، كما كانوا يحصلون على مورد كبير نحوا ما عن طريق النسبة المقررة لهم من عادات الـــكشوفية التى كانوا يحصلونها لحسابهم الخـــاص .

ويتمتع الروزنامجى بخصم (يستبقيه لنفسه) من مجموع كل بنـــد من بنود حصيلته المالية ، كما كان يحصـــل على هـــدايا أو بالأحرى على

(*) أى بدون احتساب البرانى . (المترجم) .

(**) يساوى الكيس ٠٠٠ر٢٥ مدينى (المترجم)

معاشات سنوية من الباشا والأوجاقات ، بالاضافة الى عادة كان يجبيها من كل من كان ينبغى عليه ان يتعامل معه .

كما كان مترجم الديوان يحصل على عادة (او اتاوة) من كل من يتلقى قرارا بتنصيبه فى احدى الوظائف .

أما مدير الضربخانة أو مدبر سك النقود فكان يعين من قبل الباب العالى . وكانت الفوائد التى تؤول اليه عن طريق صنعه للقطع النقدية هى التى تشكل راتبه ، ومع ذلك فقد كان يدفع ، بخلاف الميرى المقرر على وظيفته ، خمسة عشر كيسا الى الباشا ، ولم يكن له عمل محدد (بلوائح معينة) اذ كان عليه فقط أن يحرص على أن تكون المسكوكات التىيصدرها تتفق مع الشكل المطلوب . ومنذ عهد على بك ، ترك هذا المنصب لباشا القاهرة الذى كان يسدد الميرى المقرر عليه والذى كان يبيع التزامه على الدوام الى البك ، شيخ بلد القاهرة .

أما الأغوات ، أى قادة الأوجاقات السبعة فكانوا يتمتعون بحقوق مختلفة داخل فرقهم العسكرية ، وحيث كان اغا الانكشارية هو الذى يشرف على كل العسكر ورجال الشرطة فى مدينة القاهرة فقد كان يحصل منهم على اتاوات مضاعفة عن الأطعمة التى كان هو يحدد اسعارها أما اغا الجاويشية فكان يحصل على مبلغ مساو للمبلغ الذى يحصل عليه الدفتردار ، اى ١٠٠٠ر١ مدينى عن كل كيس ، فى كل مرة يتملك ملتزم جديد أرضه .

وكان السكخياوات الثلاثة ، اى الباش اختيارية (باش اختيار) ، او ملازمو اوجاقات الجامليان والتافكجيان والشراكسة يحصلون على رواتبهم من الباشا . وفى الأزمنة الأخيرة كان هذا الحاكم هو الذى يسدد الميرى المقرر على هذه المناصب الثلاثة ، اذ انه ، جريا على سنة استنها احد اسلافه ، لم يعد يقوم بدفع الرواتب المقررة لهذه الوظائف ، وأصبح هؤلاء اليوم يحصلون على معاشاتهم من فرقهم العسكرية .

وكان للأفندية عريفى (*) الأوجاقات السبعة حصة يستقطعونها من الأموال التى تمر بين أيديهم ، وعلاوة على ذلك فقد كانت فرقهم تصرف لهم رواتبهم .

اما المعمرجى باشى فكان موكلا بادارة كل المبانى العمومية ، وكان يحصل فى اليوم الواحد على زرمحبوب واحد عن كل منشأة يأمر بالعمل فيها مع مراقبة هذا العمل،ومن هنا نجد أنه كان المشرف على الهندسة المدنية والعسكرية .

وكان الجبيجى باشا موكلا بامداد الترسانات بالبارود والذخيرة ، وكان يحصل على ثمن ذلك من الخزينة العامة فيما عدا ما كان يستخدم من بارود فى الألعاب النارية الثلاث التى كانت تتم مرة عند وصول الباشا ، واخرى عند رحيل المحمل ، وثالثة عند ارسال الخزنة (مال السلطان) الى القسطنطينية . وكان يراس كل العمال الذين يصنعون البارود . وتتكون موارده المالية من عادات مختلفة تتم خصما من الميرى ومن عادات اخرى يحصلها من قريتين من قرى القليوبية .

اما القافلة باشى أو مفتش القوافل التى ترحل من مصر أو تلك التى تجتازها فكان له حق شبه مطلق فى توفير المرشدين أو الأدلاء وكذا الجمال التى تلزم لهذه القوافل ، وتدفع له كل قافلة أتاوة . وفوق ذلك فقد كان يحصل ١/٤ بوطاقة عن كل فردة (**) من البن تنقل من السويس الى القاهرة .

وكان امين الاحتساب يراقب التجار ويلاحظ ما ان كانوا يغيرون فى الموازين أو المكاييل كى يغشوا الناس . ويتكون راتبه من عادات مقررة لصالحه على التجار ؛ وعندما وجد أن الميرى المقرر على وظيفته بالغ الضخامة ، فقد انقصه أحد الباشوات : ١٩ر٥١٧٤ مدينى كان يدفعها (أى الباشا) نفسه . وكان على خلفاء هذا الباشا أن يحذوا حذوه اذ لا يمكن لدخول السلطان أن تقل .

(*) فى الأصل الفرنسى **quartiers - maitres** ومعناها العريف البحرى أو الدنى درجات البحرية .

(**) بالة تزن ١٨٥ ك.ج (المترجم) .

أما امين عنبر ، فـكان بحكم وظيفته كمدير للمخازن العمومية يحصل على العادات المقررة لصـالحه نقـدا وحبوبا من الملتزمين الذين يسددون ضرائبهم عينا ، وكان كل الموظفين العـاملين تحت امرته يحصـلون على رواتبهم منه . وكان مخولا له عند استلامه الغلال من المولين أن يستخدم مكاييل أكبر حجما على نحو طفيف من تلك التى يستخدمها عند تسليمه هذه الحبوب لتوزيعها على الجهات التى حددتها اللوائح .

أما أغا المشاق ومهمته توفير مشاقة الـكتان فـكان يحصل لنفسه من الملتزمين فى مصر السفلى على ٢٠ الى ١٠٠ مدينى عن كل قرية هناك، وكان ملزما بأن يرسل الى القسطنطينية كمية المشاقة التى تطلب منه . وكان يحصـل على ثمن اثاثاته شريطة أن يحصل على شـهادة من قاضى بولاق تحدد كمية هذه الأثاثات وأثمانها .

وكان سردار جرجا ، هو ملازم البك حاكم الصـعيد ، وكان هـذا المنصب يمنحه قرية بندار التبينـات وراتبـا يحصـل عليه خصـما من دخول البك .

وكان اغوات القلاع او الطوابى يحصـلون على راتب من الخزينـة العـامة كما كانوا يفرضـون اتاوات مختلفـة (عادات) على المـأكولات والأغذية التى تباع فى المناطق التى يديرونها ويتولون حمايتها .

أما شيخ الدلالين ، اى رئيس السماسرة والوسطاء فى القـاهرة ، فكان يفرض اتاوة على كل الدلالين الذين يبيعون فى الأسـواق العـامة الأسمال والبياضات والملابس .. الخ وبخلاف ذلك فقد كان كل واحد من هؤلاء الشيوخ (شيوخ الدلالين) يستطيع أن يبيع بنفسه ذلك أن وظيفـة الدلالين فى الأسواق لا غنى عنها ، وكان عـدد هؤلاء الشـيوخ اثنين : أحدهما تركى والآخر مصرى .

وكان الولاة الثلاثة : والى القـاهرة ، ووالى بولاق ، ووالى مصر العتيقة مكلفين بالقيـام بتفاصـيل أعمـال الشرطـة تحت رقابـة أغا الانكشارية . وكانت لهؤلاء عادات أو أتاوات يفرضـونها على التجـارة وعلى المخالفات ، وكانوا يحصـلون على راتب يدفعـه البـاشا ، ومنذ نحو سبعين عاما ، امتنع هـذا الأخير من دفـع هـذه الرواتب ، وأرغم والى القـاهرة على استرضاء زميليه ، وان ظل هو نفسه ملزما بدفع الميرى

المستحق على هؤلاء الضباط الثلاثة ، وادى هذا الوضع الى جعل والى بولاق ومصر العتيقة تابعين له ، وكان يتمتع بالاضافة لما سبق براتب مقرر على الخزينة العامة . كما كان ملحقا بخدمة الديوان حيث كان يشغل وظائف تماثل مايقوم به الحاجب او الشخص الذى يحضر للجلسات .

ويمسك افندى الشرقية وافندى الغربية وافندى الشهر بسجلات الميرى المقرر نقدا على كل الولايات ، فكان الأول موكلا بولايات مصر السفلى فيما عدا ولايات الدلتا التى كانت تدخل فى اختصاص الثانى أما الثالث فكان مختصا بولايات مصر العليا . وكان هؤلاء يحصلون على رواتبهم من الخزينة العامة ويفرضون عادات على الملتزمين الداخلين ضمن دوائرهم . أما افندى الغلال فكان يمسك بسجل لكل الأراضى التى تسدد الميرى فى شكل حبوب ، وكان يحصل على راتبه بنفس طريقة اقرانه . وكان الافندى المشرف على حبوب الميرى يراقب أعمال امين العنبر ، وكان يمسك سجلا بكل الغلال التىتدخل الصوامع (مخازن الحبوب) الهامة كما كان يمسك سجلا ينظم عمليات استخدامها . ولم يكن بمقدور أمين العنبر أن يتصرف فى شىء دون أن يشركه فى ذلك ، وكان الباشا والروزنامجى يشتركان فى دفع راتبه ، وكان يحصل بخلاف ذلك عادات على التوزيعات التى تتم بمعرفة أمين العنبر . أما افندى السكوريكجى فكان يمسك بالنسبة لهذا الفرع من فروع الميرى المقرر على الأراضى سجلا يبين الضرائب الواجبة السداد على كل قرية. أما اتعابه فكان يشارك فى دفعها كل من الوالى والروزنامجى والملتزمين. وكان افندى الكشيدة طواشيا مكلفا بدفع الرواتب المقررة لأقرانه الذين كان السلطان ينفيهم الى مصر ، وهو التكدير الذى كان يطبق على هؤلاء التعساء حين يفقدون حظوتهم عند سيدهم . أما افندى الأيتام .. الخ فكان يمسك بسجل المعاشات التى خصصها السلطان للأيتام والأرامل والشيوخ وغيرهم ، وكان يحصل على راتبه هو من الباشا كما كان يحصل على أتاوة من كل طرف مستفيد من هذه المعاشات . والافندى الجوالى هو الكاتب الذى يستخدمه الاغا الذى ترسله القسطنطينية سنويا لتحصيل الخراج اى الضريبة المقررة على الرعايا غير المسلمين. ويدبر الأغا راتب هذا الأفندى من حصيلة هذه الضريبة . وكان

كل هؤلاء يسيرون شئون وظائفهم تحت اشراف الروزنامجى ، وهو الأمر الذى كان يعرض بعض هؤلاء للعزل (*) .

ويمسك افندى الرزق بسجلات الأراضى او الأملاك العقارية التى يطلق عليها هذا الاسم (رزقة) . وكان يقوم بعمله مستقلا عن سلطة الروزنامجى ولا تدخل أعماله فى اطار أعمال الأخير ، وكان الباشا يجرى له راتبا ، كما كان يحصل علاوة على ذلك رسما عند أية عملية احلال أو ابدال تتم بخصوص هذه الرزق .

هؤلاء هم شاغلو الوظائف التى كانت خاضعة لضريبة الميرى . وقد لمسنا كيف انها لم تكن تشكل دخولا تضاف الى الخزينة العامة بقدر ما كانت تشكل أتاوات او عادات على الأراضى والأشخاص .

الفصل الثالث

الضرائب العامة على الصناعة والتجارة

اولا — الجمارك

انشأ السلطان سليمان اربعة جمارك رئيسة فى مصر هى :

جمرك فى بولاق ومصر العتيقة ،

« فى الاسكندرية ،

« فى دمياط

وجمرك فى السويس .

وكانت عوائد هذه الجمارك تؤول الى الجهات التى سيأتى ذكرها مع مراعاة تسديد ضريبة الميرى على النحو التالى :

(*) فى حين أن اللوائح تقرر أن الوظائف ثابتة على نحو ما سبق وروده فى الدراسة (المترجم) .

مدينى

الى أوجاق الانكشارية : عوائد جمركى بولاق ومصر العتيقة اللذين ضما معا وكانا يدفعان ميرى واحدا تــــدره	٨٧٢ر٣١١ر٤
الى نفس الفرقة العسكرية : عوائد جمرك الاسكندرية مقــابل ميرى قــدره	٣٩٦ر٧٤٤ر٦ (١)
الى نفس الفرقة العسكرية : عوائد جمرك دمياط مقابل ميرى قــدره	١٦٢ر٣١٨ر٢
الى الباشا : عوائد جمرك السويس مقابل ميرى قدره	٠٥٦ر٠٧١ر٦
الاجمـــــالى	٤٨٦ر٤٤٥ر١٩

وهو مبلغ يمـــادل	١٠د	١٢س	٤٨١ر٦٩٤ جـ ت
وبالفرنـــكات		٨١س	٩٠٧ر٦٨٥ ف

وحيث أن روح الاســـلام تستهجن وتحرم كافـــة ضروب الربح التى تتحقق عن غير طريق العمل والاحتراف ، وحيث أن الأرباح التى تأتى عن طريق الجمــارك بعيــدة عن هذه النشأة ، فقــد كان يعهد بتحصيل هذه الضريبة فى العـــادة الى مسيحيين أو الى يهود أصبحوا هم ملتزميها .

ويدل الموقع الجغرافى للجهات التى انشئت بها مكاتب الجمارك على البلدان التى كانت ترد منها الواردات أو تلك التى ترسل اليها الصادرات، اذ كانت تجارة ســـنار وممالك دارفور وفزان الخ تتم بواسطة قوافل تصل الى مصر القديمة ، أما تجـــارة تركيا وأوربا وآســـيا فــكانت قسمة بين ثغرى الاسكندرية ودميـــاط ، وكانت الاسكنـــدرية تقوم بصـــفة أساسية بتجـــارة أوربا وبلاد البربر (المغرب) ، أما السويس فكانت تتولى تجارة الجزيرة العربية والهند .

---

(١) لم يكن البكوات الذين استأثروا لأنفسهم بكل الجمـــارك يدفعون فى الســـنوات الأخيرة كضريبـــة ميرى على جمرك الاسكنـــدرية ســـوى ١٤٧ر١٣٤ر٥ مدينى ، لأن الباشا ، ونتيجة لمطالبـــات مستمرة من أوجاق الانكشارية ، كان يسدد بدلا من هذا الأوجاق (عنـــدما كان يدير الجمارك لحسابه) حصة قدرها ٢٤٩ر٣٣١ر١ مدينى .

وبقدر ما توضح لنا التعريفة الآتية المنتجات التى تزود بها هذه البلدان مصر، وتلك التى تستوردها منها ، فستدلنا كذلك على قيمة الرسوم الجمركية التى كان ينبغى عليها ان تدفعها وفقا للوائح السلطان سليمان .

الواردات — تجارة سنار ودارفور وفزان الخ

السلعة	الرسوم التى تخضع لها عند وصولها لجمرك مصر العتيقة
الششم (عقار طبى) (وهو حبوب سوداء تشبه حبة العدس الجافة)	١٠ مدينى للجوال الصغير ٩٠ مدينى للجوال الكبير
السكرابيج (سياط من الجلد)	١٠٪ من السلعة عينا
سن الفيل	٧ مدينى* عن كل حمولة جمل
العبيد :	
الذكور	١٢٠ مدينى عن الواحد
الاناث	١١٠ مدينى عن الواحدة
الطواشى	٢٤٦ مدينى عن الواحد
الصمغ العربى	٨ مدينى عن كل حمولة جمل
الدرة (انثى الببغاء)	١٥ مدينى عن كل قفص + درة واحدة ضريبة عينية
ريش النعام	١٠٪ من السلعة عينا
تراب الذهب	لاشىء
التمر هندى	٤٠ مدينى للقنطار و٨ مدينى عن حمولة الجمل

تجارة أوربا وآسيا ودول البربر

أسماء السلع	الرسوم الجمركية في الاسكندرية(١) من بلاد السلطان	من بلاد البربر	من مارسيليا	من البندقية	من ليفورنيو وتريستا	من انجلترا	من أوربا عن طريق أزمير
	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪
مشمش	١١	—	—	—	—	—	—
صلب	٥	—	٣ — ٥	٣ — ٥	٣ — ٥	٣ — ٥	٥
إبر	٥	—	٣ — ٥	٣ — ٥	٣ — ٥	٣ — ٥	٥
ثوم	—	—	—	—	—	—	—
شبة	٥	—	٣ — ٥	٣ — ٥	٣ — ٥	—	٥
صوفان (اسفنج طبى)	١١	—	—	—	—	—	—
لوز	١١	—	٣ — ٥	—	٣ — ٥	—	—
عنبر أصفر	—	—	—	—	٣ — ٥	—	٥
هلب للمراكب	—	—	—	—	—	—	—

(١) فى معظم الأحيان ، كانت السلع الواردة من بلاد السلطان وكذلك الواردة من بلاد البربر تسدد عينا تلك الرسوم التى كانت تخضع لها فى جمرك الاسكندرية ، أما تحصيل الرسوم التى كانت مفروضة على الواردات الآتية من مارسيليا والبندقية وليفورنيو وتريستا وانجلترا . ثم من كل هذه البلاد عن طريق أزمير ، فكان يتم نقدا ، وفقا لتعريفة نسبتها أدنى على الدوام من النسبة الى الثمن الحقيقى للسلع المستوردة .

(٢) لم تكن الرسوم فى جمرك دمياط تتغير مطلقا تبعا للأمة التى تأتى منها السلع كما هو الشأن فى الاسكندرية ، وكانت الرسوم التى

التى كانت تخضع لها					
فى دمياط(٢)	فى بولاق(٣)				
من أوربا وآسيا وبلاد البربر	من بلاد السلطان وبلاد البربر		من بلاد النصارى		اشتراها تجار مصريون فى الاسكندرية
	إلى تجار مصريين	إلى تجار أوربيين	إلى تجار مصريين	إلى تجار من غير المصريين	
٪	٪	٪	٪	٪	مدينى
طازج ١٠ جاف ١٢ معجين ١ مدينى لكل اقه	١٠	—	—	—	٦ لكل قنطار
١٠ ٪	٤	٢	١	٣	٣٨ للصندوق
١٠ ٪	٤	٢	١	٣	٦٠ للبرميل
١٢	١٠	—	—	—	
—	١٠	٢	١	٣	٣٠ للصندوق
١٢	٤	—	—	—	١٨ للقطعة
١٢	١٠	—	١	٣	٦ للقنطار
١٢	٤	٢	١	٣	٦٠ للصندوق
١٢	١٠	—	—	—	

يحصلها هذا الجمرك والتى تفرض بشكل متساو على سلع أوربا وآسيا وبلاد البربر تسدد فى جزء منها نقدا وفى الجزء الآخر عينا ، كما كانت الرسوم النقدية تتحدد وفق تقييم خاص وقريب من الواقع بالنسبة لقيمة السلع ، وكان يتم ذلك بمجرد اتمام عملية الانزال .

(٣) كانت السلع القادمة من الخارج والتى تصل الى القاهرة تخضع لرسوم مقررة فى جمرك بولاق بخلاف تلك التى سبق لها أن سددتها فى ثغرى الاسكندرية ودمياط .

أسماء السلع	الرسوم الجمركية في الاسكندرية من بلاد السلطان	من بلاد العرب	من مارسيليا	من البندقية	من ليفورنو وتريستا	من انجلترا	من أوروبا عن طريق أزمير
	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪
فضة خام فى شكل سبائك	—	—	—	—	—	—	—
زئبق	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
أسلحة	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
سلفور الرصاص	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
زرنيخ	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
زهور الخزامى	—	—	٣—٥	—	٣—٥	—	٥
برادق فخارية	—	١٠	—	—	—	—	—
برنس (معاطف صوف)	—	١٠	—	—	—	—	—
جوارب	٥	—	—	—	—	—	—
سمن	—	١١	—	—	—	—	—
مجوهرات	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
اسبيداج أبيض	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
عجول	—	—	—	—	—	—	—
خشب للوقود	١٠	—	—	—	—	—	—
خشب للبناء	٧-١٤	—	—	—	١١	—	—
خشب فرنامبوك	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
قلنسوات حمراء	—	١٠	٣—٥	٣—٥	٣—٥	—	٥
شمع	—	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
وبر لباد من بروصة	٤	—	—	—	—	—	—
حرير ووبر الحرير والقطن	١٠	—	—		—	—	

التى كانت تخضع لها

فى دمياط	فى بولاق				
من أوربا وآسيا وبلاد البربر	من بلاد السلطان وبلاد البربر		من بلاد النصارى		اشتراها تجار مصريون فى الاسكندرية
	إلى تجار مصريين	إلى تجار أوربيين	إلى تجار مصريين	إلى تجار من غير المصريين	
٪	٪	٪	٪	٪	مدينى
١٠	—	—	—	—	
١٢	٤	٢	١	٣	٨٩ لكل ٧٥ رطلا
١٠	٤	٢	١	٣	١٢ للقطعة
١٢	٤	٢	١	٣	١٠ لكل ١٢٠ رطلا
—	٤	٢	١	٣	٥١ للبرميل
—	٤	٢	١	٣	٥١ للبالة
١٠	٤	—	—	—	٦ للواحد
١٠	٤	٢	—	—	٥ للواحد
—	٤	—	—	—	٢ لكل ١٠
١٢	١٠	—	—	—	٦ إلى ٣٠ للجرة
١٠	١٠	٢	١	٣	٨٠ للصندوق
١٢	٤	٢	١	٣	١٢ لكل ٧٥ رطلا
١٨٠ مدينى للواحد	—	—	—	—	
١٢	٤	—	—	—	
١٣½ ومن ١١ إلى ٣١ مدينى لكل ١٠٠ قطعة	١٠	—	—	—	٨-٥٠ مدينى لكل ١٠٠ قطعة
١٢ ٪	٧	٢	١	٣	٦٠ للقنطار
١٠ ٪	٤	٢	١	٣	١ للزوج
١٢	٤	٢	١	٣	٣٠ للصندوق
—	٤	—	—	—	١٠ - ٣٠ للواحد
٦٠ مدينى للقطعة	٤	—	—	—	٣ - ٣٠ للقطعة

أسماء السلع	الرسوم الجمركية في الاسكندرية من بلاد السلطان	من بلاد البربر	من مارسيليا	من البندقية	من ليفورنيو ومارسيليا	من انجلترا	من أوربا عن طريق أزمير
	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪
قطران	١٤	—	—	—	—	—	—
منسوجات خشنة لصنع الملابس	—	—	—	—	—	—	—
بن	—	—	—	—	—	—	—
كراوية	—	١١	—	—	—	—	—
خروب	١١	—	—	—	—	—	—
أطواق وإطارات	—	—	—	—	—	—	—
جلود خرفان وماعز	—	—	—	—	—	—	—
لحم مملح	١١	—	—	—	—	—	—
شيلان	١٠	—	—	—	—	—	—
شيلان صوف	—	١٠	—	—	—	—	—
خمارات	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
شال أنقرة	٥	—	—	—	—	—	—
شموع	—	—	—	—	—	—	—
فحم	—	—	—	—	—	—	—
كستناء	—	—	—	—	٣—٥	—	٥
خيول	—	—	—	—	—	—	—
صنوبر	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	—	٥
ورنيش خام	١٠	١١	—	—	—	—	—
مسامير	—	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
قرمزية (للصبغة الحمراء)	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥

التى كانت تخضع لها

في دمياط	في بولاق				
من أوربا وآسيا وبلاد البربر	من بلاد السلطان وبلاد البربر		من بلاد النصارى		اشتراها تجار مصريون في الاسكندرية
	إلى تجار مصريين	إلى تجار أوربيين	إلى تجار مصريين	إلى تجار من غير المصريين	
٪	٪	٪	٪	٪	مدينى
١٠ — ١٣½ ٪	١٠	—	—	—	٢٣ للجرة
١٠	—	—	—	—	٨ للبالة
٥	—	—	—	—	
—	١٠	—	—	—	٥٠ للبالة
١١	١٠	—	—	—	٧ للقنطار
٢٠ مدينى لكل ١٠٠ إطار	٤	—	—	—	١ لكل ١٠٠ طوق
١٠	١٠	—	—	—	٨ للبالة
١٢	١٠	—	—	—	١٢ للبرميل
١٠	٧	—	—	—	٥ للواحد
١٠	٤	٢	—	—	٢ للواحد
١٠	٤	٢	١	٣	١٠ للقطعة
١٠	١٠	—	—	—	١٥ للقطعة
١٢	٤	—	—	—	٢٥ للصندوق
١٠ مدينى لكل قفتين	—	—	—	٣	
—	٤	٢	١	٣	٦٠ للقنطار
١٨٠ مدينى للحصان	—	—	—	—	
—	٤	٢	١	٣	٩٣ لكل ٧٥ رطلا
—	٧	—	—	—	١٨ للقنطار
١٠	١٠	٢	١	٣	٢٠ للبرميل
١٠	٥	٢	١	٣	١ للأقة

أسماء السلع	الرسوم الجمركية						
	في الاسكندرية						
	من بلاد السلطان	من بلاد البربر	من مارسيليا	من البندقية	من ليفورنيو ومارسيليا	من انجلترا	من أوربا عن طريق أزمير
٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪
ثمار جوز الهند	—	—	—	—	—	—	—
قلفونية	—	—	—	—	—	—	—
حلويات	١٠	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	—	٥
	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
	—	١١	—	—	—	—	—
مرجان	—	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
مرجان فالصو	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
حبال	١١	—	—	—	—	—	—
زغب القطن	١١	—	—	—	—	—	—
زرد	—	—	—	—	—	—	—
سكاكين خشنة	—	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
ملاعق خشبية	١٠	—	—	—	—	—	—
جلود ثيران	—	—	—	—	—	—	—
جلود فاسى	—	١٠	—	—	—	—	—
نحاس جديد مصنوع	٤—٥	—	—	—	—	—	—
نحاس خام	٥	—	—	—	—	—	—
نحاس قديم	٥	—	—	—	—	—	—
سن الفيل	—	—	—	—	—	—	—
أوراق مذهبة	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
جوخ	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
عقاقير طبية	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥

التى كانت تخضع لها

في دمياط	في بولاق				
من أوروبا وآسيا وبلاد البربر	من بلاد السلطان وبلاد البربر		من بلاد النصارى		اشتراها تجار مصريون في الاسكندرية
	إلى تجار مصريين	إلى تجار أوربيين	إلى تجار مصريين	إلى تجار من غير المصريين	
٪	٪	٪	٪	٪	مديني
١٠	١٠				
١٢	١٠	—	—	—	٥٠ للبرميل
١٢	١٠	٢	١	٣	٢٥ للصندوق
١٠	٤	٢	١	٣	٩٠ للبرميل الكبير
—	١٠	—	—	—	٥٠ للبالة
١٠	٤	٢	١	٣	٦٠ للصندوق
١٠	٤	٢	١	٣	٢٥ »
١٢	٤	—	—	—	١٠ لكل ١٢٠ رطلا
١٢	٤	٢	—	—	٢٣ للقنطار
١٢	١٠				
—	٤	٢	١	٣	٥٠ للبرميل الكبير
١٢	١٠	—	—	—	٨ للبالة
١٠					
١٠	٤	٢	—	—	٤ للواحد
١٠—١٢	١٠	—	—	—	٦٠ للقنطار
١٢	١٠	—	—	—	٥٣ للقنطار
١٢	١٠	—	—	—	٦٠ للقنطار
١٠					
١٠	٤	٢	١	٣	٩٠ للصندوق
٥	٤	٢	١	٣	٢٥ للقطعة
١٢	١٠	٢	١	٣	٥٠ للبالة

أسماء السلع	الرسوم الجمركية في الاسكندرية: من بلاد السلطان	من بلاد البربر	من مارسيليا	من البندقية	من ليفورنو ومارسيليا	من انجلترا	من أوروبا عن طريق ازمير
	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪
ماء القرنفل	—	—	—	—	—	—	—
مشروبات روحية	—	—	—	—	—	—	—
اسفنج	—	—	—	—	—	—	—
عبيد	—	—	—	—	—	—	—
قصدير	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
أقمشة	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
« من حلب	—	—	—	—	—	—	—
« من الأموى	—	—	—	—	—	—	—
« من تركيا	٤	—	—	—	—	—	—
خزف	—	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣ ٥	٥
فاصور (عقار طبي)	—	١١	—	—	—	—	—
حديد	١١	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
زنك	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
كتل من الحديد	٥½	—	—	—	—	—	—
سنابك الخيل	٥½	—	—	—	—	—	—
دوبارة	—	—	—	—	—	—	—
أسلاك	—	—	—	—	—	—	—
أسلاك من الحديد والنحاس الأصفر	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
فناجين	١٠	—	—	—	—	—	—
فانلات مصبوغة	—	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥

التى كانت تخضع لها

فى دمياط	فى بولاق				
من أوربا وآسيا وبلاد البربر	من بلاد السلطان وبلاد البربر		من بلاد النصارى		اشتراها تجار مصريون فى الاسكندرية
	الى تجار مصريين	الى تجار أوربيين	الى تجار مصريين	الى تجار غير مصريين	
٪	٪	٪	٪	٪	مديني
١٠	١٠				
١٠					
١٠	٤	--	--	--	١٥ للبالة
١٤٦ مدينى لكل أربعة					
١٢٪	٤	٢	--	٣	١٣١ للبرميل
١٠	٤	٢	١	٣	١٥ - ٦٠ للقطعة
٣٠ مدينى للقطعة	٥	--	--	--	٥ ٪
٤٠ » »	٥	--	--	--	٥ ٪
١٠ ٪	٤	--	--	--	٨ - ٥٠ للقطعة
١٠	١٠	٢	١	٣	٢٥ للصندوق
--	١٠	--	--	--	٥٠ للبالة
١٠-- ١٢	٤	٢	١	٣	١٧٨ لكل ١٠٠ قضيب
١٠	٤	٢	١	٣	٣٥ للبرميل
--	١٠	--	--	--	٤٠ للقنطار
--	١٠	--	--	--	٤٠ للقنطار
١٢	٤	-	--	--	٨ للقنطار
½٦٢ مدينى لكل ١٠٠ رطل	٤	--	--	--	١٥ للقنطار
--	٤	٢	١	٣	١٢ للقنطار
١٠٪	١٠	--	--	--	٨ للصندوق
--	٤	٢	١	٣	٨ للقطعة

أسماء السلع	الرسوم الجمركية						
	في الاسكندرية						
	من بلاد السلطان	من بلاد البربر	من مارسيليا	من البندقية	من ليفورنيو ومارسيليا	من انجلترا	من أوربا عن طريق أزمير
	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪
فوة (عقار طبي)	١١	—	—	—	—	—	—
جبن	١١	—	—	—	—	—	—
فواكه جافة	١١	—	—	—	—	—	—
عفصة	١١	—	—	—	—	—	—
جداري (للصباغة)	—	١١	—	—	—	—	—
جيا قلو «	—	١١	—	—	—	—	—
قرنفل	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
صمغ من سوريا	—	—	—	—	—	—	—
قطران	٥	—	—	—	—	—	—
بذور الخيار	—	—	—	—	—	—	—
بذور النيلة	—	—	—	—	—	—	—
بذور البطيخ	—	—	—	—	—	—	—
رمان	—	—	—	—	—	—	—
حشيش[1]	—	—	—	—	—	—	—
حشيش مفرط	—	—	—	—	—	—	—
فاصوليا	—	—	—	—	—	—	—
أحرمة (حرام) من كل نوع	—	١٠	—	—	—	—	—
حرام حرير	—	١٠	—	—	—	—	—
قطع غيار الساعات	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥

(١) وهو نبات القنب الذى يستخدم فى اعداد عقارات مسكرة او يدخن مخلوطا بالتبغ .

التى كانت تخضع لها

في دمياط	في بولاق				
من أوربا وآسيا وبلاد البربر	من بلاد السلطان وبلاد البربر		من بلاد النصارى		اشتراها تجار مصريون في الاسكندرية
	الى تجار مصريين	الى تجار أوربيين	الى تجار مصريين	الى تجار من غير المصريين	
٪	٪	٪	٪	٪	مديني
—	١٠	—	—	—	٥٠ للبالة
١٠—١٢	١٠	—	—	—	٦ للقنطار
١٢	١٠	—	—	—	٥ — ٩ للسلة
١٢	١٠	—	—	—	١٨ للقنطار
—	١٠	—	—	—	٥٠ للبالة
—	١٠	—	—	—	٥٠ للبالة
١٠	٤	٢	١	٣	٤٥ للقنطار
١٠					
١٢	٤	—	—	—	٧½ للقفة
٧ مديني للربع					
٨ مديني للجوال	٤	—	—	—	٨٠ للجوال
١½ مديني للربع	٤	—	—	—	٦٠ للجوال
١٢	٤	—	—	—	١٤ للبالة
٣ مديني للأفة	٤	—	—	—	١٤ للبالة
١٢ ٪	٤				١٤ للبالة
١٢	١٠				
١٠	٤	٢	—	—	٤٠ للواحد
—	٤	—	—	—	٥٠ للواحد
—	٤	٢	١	٣	١٠ للصندوق

أسماء السلع	من بلاد السلطان	من بلاد البربر	الرسوم الجمركية في الاسكندرية: من مارسيليا	من البندقية	من ليفورنير ومارسيليا	من انجلترا	من أوربا عن طريق أزمير
	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪
زيت	٧	٢ - ٣م للجرة	—	—	—	—	—
زيت للصباغة	٥	—	—	—	—	—	—
النيلة	—	—	—	—	—	—	—
جرار مليئة بالسماد	—	٤ م للواحدة	—	—	—	—	—
العرقسوس	—	—	—	—	—	—	—
كلكاب أو قبقاب للسيدات	١٠	—	—	—	—	—	—
صوف	١١	١١	—	—	—	—	—
نحاس أصفر	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	—	٥
رقائق فضية وفالصو	٥	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
مصابيح زجاجية	—	—	—	—	—	—	—
مشروبات روحية	—	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
محلب (نوى الكريز)	٥	—	—	—	—	—	—
رخام فى شكل كتل وأعمدة وبلاط وموائد	—	—	—	—	٣—٥	—	٥
سلع من الهند	—	—	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠
صمغ المصطكاء	٥	—	—	—	—	—	—
خردوات	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
رحى طواحين	—	—	—	—	—	—	—
عسل	١١	١١	—	—	—	—	—
زنجفر (أكسيد الرصاص الأحمر)	—	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥

التى كانت تخضع لها

فى دمياط	فى بولاق				
من أوربا وآسيا وبلاد البربر	من بلاد السلطان وبلاد البربر		من بلاد النصارى		اشتراها تجار مصريون فى الإسكندرية
	الى تجار مصريين	الى تجار أوربيين	الى تجار مصريين	الى تجار من غير المصريين	
٪	٪	٪	٪	٪	مادينى
١٢	٧—١٠	—	—	—	١٢ للجرة
١٢	٧	—	—	—	٣ للجرة
١٢	١٠				
—	—	—	—	—	٢ للواحدة
١٠	١٠	—	—	—	٦٠ للصندوق
١٠	١٠	—	—	—	٨ للبالة
١٢	٥	—	—	—	١٢ للبالة
١٢	٤	٢	١	٣	٤٥ للبرميل
١٠	٤	٢	١	٣	٣٠ للصندوق
٨٠ مدينى للقفص	—	—	—	—	٢٤ - ٤٤ للبالة
١٠ ٪	٤	٢	١	٣	٢٥ للصندوق
—	١٠	—	—	—	١٤ للبالة
—	—	—	١	٣	٢ ١/٤ للقطعة
١٠	١٠	١٠	—	—	١٠ ٪
—	١٠	٢	—	—	٢٠ للصندوق
١٠	٤	٢	١	٣	٣٠ »
٨٦ مدينى للواحدة	٢٧م للواحدة	—	—	—	٢٧ مدينى للواحدة
١٢ ٪	١٠٪	—	—	—	٦ - ٦٠ للجرة
—	٤	٢	١	٣	٧٦ للبرميل

أسماء السلع	الرسوم الجمركية في الاسكندرية						
	من بلاد السلطان	من بلاد الجزائر	من مارسيليا	من البندقية	من ليفورنو ومارسيليا	من انجلترا	من أوربا عن طريق أزمير
	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪
مرايا	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
هاونات	—	—	—	—	—	—	—
مناديل سيدات	—	١٠	—	—	—	—	—
موسلين	١٠	—	—	—	—	—	—
موسلين مطبوع	٤	—	—	—	—	—	—
خراف	—	١١					
اماء سوداوات	—	—	—	—	—	—	—
بندق	٧	—	—	—	—	—	—
جوز	٥½-١١	—	—	—	—	—	—
جوز لصنع النارجيلات	١٠	—	—	—	—	—	—
بيض السمك المسمى كافيار	١٠	—	—	—	—	—	—
بصل	—	—	—	—	—	—	—
زيتون	١١	١١	—	—	—	—	—
ذهب للبيع	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
كافورية	—	١١	—	—	—	—	—
قرب	—	—	—	—	—	—	—
ورق	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
بطيخ من يافا	١٠	—	—	—	—	—	—
جلود ماعز	—	—	—	—	—	—	—
أمشاط خشبية	١٠	—	—	—	—	—	—
جلود وفراء	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	—	٥

التى كانت تخضع لها

في دمياط	في بولاق				
من أوربا وآسيا وبلاد البربر	من بلاد السلطان وبلاد البربر		من بلاد النصارى		اشتراها تجار مصريون فى الاسكندرية
	الى تجار مصريين	الى تجار أوربيين	الى تجار مصريين	الى تجار غير مصريين	
٪	٪	٪	٪	٪	مدينى
—	١٠	٢	١	٣	٦٠ للصندوق
١٢	١٠	—	—	—	٢ للواحد
—	٤	٢	—	—	٥ — ١٠ للواحد
١٠	١٠	—	—	—	٣ — ٤٠ للقطعة
١٢	٥	—	—	—	٣ — ٤٠ »
—	—				
١٨ مدينى للواحدة	—				
٪١٢	١٠	—	—	—	٦ للقنطار
١٢	١٠	—	—	—	٦ »
١٠	١٠	—	—	—	٨ للصندوق
١٢	١٠	—	—	—	٣٠ للبرميل
١٥ مدينى للقفة					
١٢ ٪	١٠	—	—	—	١٢ للجرة
١٠	٤	٢	١	٣	١٢ للعلبة
—	١٠	—	—	—	٥٠ للبالة
٣ مدينى للواحدة	١ م للواحدة	—	—	—	١ للواحدة
٢ - ٣ مدينى للرطل	٤ ٪	٢	١	٣	٣٩ — ٧٦ للبالة
١٠ ٪	١٠	—	—	—	١ للواحدة
١ مدينى للجلد الواحد	٤	—	—	—	١ — ٣ للجلد
١٢ ٪	١٠	—	—	—	٨ للبالة
—	٤	٢	١	٣	١٧ — ٣٣٠ للقطعة

أسماء السلع	الرسوم الجمركية						
	فى الاسكندرية						
	من بلاد السلطان	من بلاد البربر	من مارسيليا	من البندقية	من ليفورنيو ومارسيليا	من انجلترا	من أوربا عن طريق أزمير
	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪
صوانات البندقية	—	١١	٣—٥	—	٣—٥	—	٥
ألواح وعوارض خشبية	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
رصاص	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
شعر ماعز	١٠	—	—	—	—	—	—
كثرى من عربان الطور	—	—	—	—	—	—	—
سمك مجفف وملح	—	١١	—	—	—	—	—
فلفل بالقرنفل	—	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
تفاح	—	—	—	—	—	—	—
خزف	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
رصاص بنادق	—	—	—	—	—	—	—
بودرة رصراص (للصق)	—	—	—	—	—	—	—
برقوق	٥½	—	—	—	—	—	—
قتيب (عقار طبى)	—	١١	—	—	—	—	—
ذيول الخيل	١٠	—	—	—	—	—	—
خردة وحدايد من كل صنف	٥	—	٣—٥	٢—٥	٣—٥	٣—٥	٥
عنب فى صناديق	—	—	—	—	—	—	—
عنب طازج	١٠	—	—	—	—	—	—
عنب جاف	١١	—	—	—	—	—	—
مواقد طينية	—	—	—	—	—	—	—
عرقسوس	١١	—	—	—	—	—	—

التى كانت تخضع لها

فى دمياط	فى بولاق				
من أوربا وآسيا وبلاد البربر	من بلاد السلطان وبلاد البربر		من بلاد النصارى		اشتراها تجار مصريون فى الاسكندرية
	إلى تجار مصريين	إلى تجار أوربيين	إلى تجار مصريين	إلى تجار غير مصريين	
٪	٪	٪	٪	٪	مدينى
—	٤	٢	١	٣	٣٠ للبرميل الكبير
٢٩ مدينى لكل ١٠ ألواح	٤	٢	١	٣	١ — ١٥ للواحد
١٢ ٪	٤	٢	١	٣	٧ للكنتلة
١٢	٤	—	—	—	٥٠ للبالة
—	١٠	—	—	—	
—	١٠	—	—	—	٦ للقنطار
—	٤	٢	١	٣	٦٠ للبرميل
٣٠ مدينى للصندوق	١٠	—	—	—	١ للواحدة
١٠ ٪	١٠	٢	١	٣	٦٠ للصندوق
١٢	—	—	—	—	——
١٢	٧	—	—	—	١٨ للبالة
١٢	١٠	—	—	—	٥ — ٩ للسلة
—	١٠	—	—	—	٥٠ للبالة
—	١٠	—	—	—	٨ »
١٠	١٠	١	١	٣	٣٨ للصندوق
٣٦ مدينى للصندوق	١٠	—	—	—	١٥ »
١٠ ٪	١٠	—	—	—	١٠ للسلة
١٢	١٠	—	—	—	٥ — ٩ للسلة
١٠	١٠	—	—	—	١ لكل موقد
١٢	١٠	—	—	—	١٣ للبالة

أسماء السلع	الرسوم الجمركية في الاسكندرية						
	من بلاد السلطان	من بلاد البربر	من مارسيليا	من البندقية	من ليفورنيو ومارسيليا	من انجلترا	من أوربا عن طريق أزمير
	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪
زيت	—	٥	—	—	—	—	—
صلب	—	—	—	—	—	—	—
صابون عجين	١٠	١١	—	—	—	—	—
صابون سائل	—	١١	—	-	—	—	—
فرشاة للصباغة	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
مناشير	—	—	—	—	—	—	—
ملح البارود	—	—	—	—	—	—	—
سروج للركاب، إلخ	١٠	—	—	—	—	—	—
مناشف (فوط)	٥	—	—	—	—	—	—
شراب السكر (شربات)	—	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
حرير	٥	—	—	—	—	—	—
حرير وارد بروصة	٤	—	—	—	—	—	—
حرير مطبوع وقيطان حرير	—	—	—	—	—	—	—
حراير	٥	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
منفاخ	١٠	—	—	—	—	—	—
كبريت	—	١١	٣—٥	٣—٥	٣—٥	—	٥
أحذية	٥	١٠	—	—	—	—	—
لاوندة	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
سليمانى	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
سكر	—	—	—	—	—	—	—
ودك (شحم الأمعاء)	—	—	—	—	—	—	—

التى كانت تخضع لها

فى دمياط	فى بولاق				
من أوربا وآسيا وبلاد البربر	من بلاد السلطان وبلاد البربر		من بلاد النصارى		اشترها تجار مصريون فى الاسكندرية
	إلى تجار مصريين	إلى تجار أوربيين	إلى تجار مصريين	الى تجار غير مصريين	
٪	٪	٪	٪	٪	مديني
—	١٠	٢	—	—	٥½ للرطل
١٢	٤	—	—	—	١٨ للصندوق
القادم من سوريا ٣٠٪ للبالة الصغيرة ومن دمشق ١٠٪	٤	٢	—	—	٣ – ٣٠ »
	٤	٢	—	—	٣ – ٣٠ »
٥٪	٤	٢	١	٣	٢٥ للقطعة
١٠	١٠	٢	—	—	٤٠ للصندوق
١٠	—	—	—	—	
١٠	١٠	—	—	—	٨ للبالة
—	١٠	—	—	—	١ – ٣ للواحدة
—	٤	٢	١	٣	٢٥ للصندوق
١١ – ٢٠ مديني للرطل	٤	—	—	—	٢ – ٧ للرطل
—	٤	—	—	—	٢ – ٧ »
١٢٪	١٠	—	—	—	٥ للعلبة
١٠	٤	٢	١	٣	١٥ – ٦٠ للقطعة
١٠	١٠	—	—	—	٨ للبالة
—	٤	٢	١	٣	٦ لكل ١٦٥ رطلا
١٢	٤	—	—	—	٢ لكل زوج
—	١٠	٢	١	٣	٩٨ البرميل الكبير
—	٤	٢	١	—	٨٠ لكل ٧٥ رطلا
١٢					
١٢	١٠	—	—	—	٦٠ للقنطار

أسماء السلع	الرسوم الجمركية فى الاسكندرية من بلاد السلطان	من بلاد البربر	من مارسيليا	من البندقية	من ليفورنيو ومارسيليا	من انجلترا	من أوربا عن طريق أزمير
	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪
أحزمة سرج صوفية	—	—	—	—	—	—	—
تبغ	١١	—	—	—	—	٣—٥	—
سجاجيد للأرائك	٥	—	—	—	—	—	—
« من كل نوع	—	١٠	—	—	—	—	—
دردى	—	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
لوازم النسج	٥	—	—	—	—	—	—
أقمشة من بيروت وغيرها	—	—	—	—	—	—	—
Taiole	٥	—	—	—	—	—	—
أقمشة من الضهور وبغداد وغيرها	—	—	—	—	—	—	—
أقمشة من الهند	١٠	—	—	—	—	—	—
« حريرية	٥	—	—	—	—	—	—
« منقوشة	—	—	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٣—٥	٥
تنباك (نوع من التبغ)	—	—	—	—	—	—	—
خراطيم النارجيلة	٥½ - ١٠	—	—	—	—	—	—
مصنوعات زجاجية	١٠	—	—	—	—	—	—
« « وكريستال	—	—	—	٣—٥	٣—٥	—	٥
نبيذ	—	—	—	—	—	—	—
خل	—	—	—	—	—	—	—
أملاح معدنية	—	—	—	٢ ٥	٣ - ٥	—	٥
أحذية قديمة	١٠	—	—	—	—	—	—

التى كانت تخضع لها

فى دمياط	فى بولاق				
من أوربا وآسيا وبلاد البربر	إلى بلاد السلطان وبلاد البربر		من بلاد النصارى		اشتراها تجار مصريون فى الاسكندرية
	من تجار مصريين	إلى تجار أوربيين	إلى تجار مصريين	إلى تجار غير مصريين	
٪	٪	٪	٪	٪	مدينى
١½ — ٢½ مدينى للسرج	٤	—	—	—	٣ - ١٢ للواحد
من تركيا ١٪ ، من سوريا ٢ - ٤ للأقة؛ للسعوط ١٢٪	٤	٤	١	—	٢٧ للبالة
١٠	٤	—	—	—	٢ - ٥ للواحدة
١٠	٤	٢	—	—	٥ - ١٢ »
—	٤	٢	١	٣	٩٠ للبرميل
١٠	٥	—	—	—	٣-١٥ للقطعة
٥	٤	—	—	—	١ - ٥ للقطعة
١٠٪	٤	٢	—	—	١ لكل أربعة
١٠	٤	—	—	—	١ - ٥ للقطعة
١٠	١٠	—	—	—	٣ - ٤٠ »
١٠	٤	٢	—	—	١ - ١٢ »
١٠	٥	٢	١	٣	٤ - ٢٠ »
١٢	١٠	—	—	—	٢٨ للبالة
١٠	١٠	—	—	—	٨ »
١٠	١٠	—	—	—	٨ »
١٠	٤	٢	١	٣	٧ للقنطار
١٠	—	—	—	—	—
٥٠ مدينى للبرميل	—	—	—	—	—
—	٤	٢	١	٣	٧٥ للبرميل الكبير
١٠٪	٤	—	—	—	٢ للزوج

تجـــارة الجزيرة العربيـــة والهنـــد

اسم السلعة	الرسوم التى تخضع لها فى جمرك السويس مقر وصولها
ألوة (صبر)	١٦٥ مدينى للقنطار
عنزروت	١٦٥ « «
حتليت	٩٩ « «
مرهم من مكة	١٦٥ « «
صمغ جاوة (لبان جاوة)	١٦٥ « «
خشب هندى	٩٩ « «
خشب عطرى	لا يسدد أى رسوم
خشب الصندل	١٦٥ مدينى للقنطار
خشب فرنامبوك	٦٦ « «
بن من موخا	٤٠٠ مدينى للفرد
بن بقشره	٨٢ « «
قرفة	١٦٥ « «
قاقلة (بذور تنتج زيوت عطرية)	٣٤٠ مدينى للقنطار
أحزمة	قطعة عينا عن كل ١٠ قطع
شيلان	شرحه
ششم	٦٦ مدينى للقنطار
جوز الهند	٢٥ « «
حلويات	لا تسدد أى رسوم
كوبال (صمغ للطلاء)	١٦٥ مدينى للقنطار
البوصير (ثمرة سم السمك)	٦٦ « «
غزل قطن هندى	لا يسدد أى رسوم
—	٩٩ مدينى للقنطار
سن السمك	٢٦ « للأردب
—	لا يسدد أى رسوم
—	شرحه

اسم السلعة	الرسوم التى تخضع لها فى جمرك السويس مقر وصولها
بخور	٢٣ مدينى للقنطار
أقمشة	قطعة عينا عن كل ١٠ قطع
—	١٦٥ مدينى للقنطار
أقمشة قطنية	قطعة عينا عن كل ١٠ قطع
تنباك (نوع من التبغ)	لا يسدد أى رسوم
زنجبيل	٦٦ مدينى للقنطار
صمغ	لا يسدد أى رسوم
صمغ	١٦٥ مدينى للقنطار
صمغ لك(عصارة راتنج لصبغ الجلود)	٣٢ « «
بذور سوداء	لا تسدد أى رسوم
حب الملوك (بذور مسهلة)	٢٩٦ مدينى للقنطار
أصابع هرمس	٦٦ « «
نيلة وارد الهند	١٩٨ « «
خولان (عقار طبى)	١١٠ « «
كركم	٦٦ « «
—	٦٦ « «
ليف	لا يسدد أى رسوم
موسلين	قطعة عينا عن كل ١٠ قطع
إهليلج	٦٦ مدينى للقنطار
مر (أو صبر)	١٦٥ « «
جوز ضد القيىء	٣٢ « «
جلود ماعز وخراف	لا يسدد أى رسوم
جمالونات وارد الهند	٦٦ مدينى للقنطار
فلفل	١٣٢ « «
فلفل بالقرنفل	٩٩ « «
خزف	قطعة عينا عن كل ٢٠ قطعة

اسم السلعة	الرسوم التى تخضع لها فى جمرك السويس مقر وصولها
جذور (نبات) لتنظيف الاسنان	لا تسدد أى رسوم
راوند	٩٩ مدينى للقنطار
ريتة (ثمرة شجر الصابون)	٣٢ » »
زرنيخ أحمر	١٦٥ » »
قاتل الدود (دواء)	٩٩ » »
سنامكى	لا يسدد أى رسوم
لاوندة هندى	٦٦ مدينى للقنطار
تربد (جذور عشب مسهلة)	٩٩ » »
جذور الزعفران	٦٦ » »

الصـــــادرات

تجـــارة ســـنار ودارفور وفـــزان

السلع	الرسوم التى تخضع لها عند خروجها من جمرك مصر العتيقة	السلع	الرسوم التى تخضع لها عند خروجها من جمرك مصر العتيقة
عنبر مرجان سن السمك مذهبات أجواخ أقمشة حريرية قرنفل	١٢ مدينى لحمولة الأتان و ٢٤ مدينى لحمولة الجمل	نصال سيوف محلب مرايا ذهب لميع خردةوحدايد لاوندة أقمشة قطنية	١٢ مدينى لحمولة الأتان و ٢٤ مدينى لحمولة الجمل

تجـــارة أوربا وآســـيا وبلاد البربر

السلع	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية(١)			فى دمياط(١)
	إلى ولايات السلطان	إلى بلاد البربر	إلى بلاد النصارى	إلى بلاد السلطان والبربر وأوربا
	٪	٪	٪	٪
الصلب	—	—	—	١٠
ألوة (صبر)	٥	٢٢ مدينى للقنطار	٣	١٠
ينسون	—	—	—	١٠
حلتيت	٥	٣٣٠ مدينى للقنطار	٣	١٠
أطباق من الخزف	—	—	—	١٠
مرهم من الهند	١٠	—	—	—
قمح	—	—	—	—
خشب الألوة	١٠	—	—	
خشب هندى	—	—	—	١٠

(١)(١) كانت الرسوم التى تحصل فى الاسكندرية ودمياط تفرض دون تمييز على التجار من كل الجنسيات وكانت تتم جبـايتها طبقـا لتقدير السلع المصـدرة أدنى من قيمتهـا الأصلية .

السلع	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: إلى ولايات السلطان	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: إلى بلاد البربر	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: إلى بلاد النصارى	. . . فى دمياط: إلى بلاد السلطان والبربر وأوربا
	٪	٪	٪	٪
خشب عطرى وخشب للصباغة	—	—	—	١٠
خيوط وبر	—	٢ مدينى للقطعة	—	—
مشاقة (وبر) حرير	—	٣٠ « «	٣ ٪	—
وبر صنع القاهرة	—	١٥ « «	٣	—
وبر عادى	—	٢٥ « «	٣	—
وبر أحمر	—	٣ « «	—	—
بن	٣٠ مدينى للقنطار	١٦ ½ مدينى للقنطار	٣	٣ مدينى للقنطار
قاقلة	٥ ٪	٣٣٠ مدينى للقنطار	—	١٠ ٪
رماد الصودا	٢ مدينى للقفة	—	٤٠ مدينى للقفة	—
أطواق (إطارات)	—	—	—	٢٠ مدينى لكل ١٠٠ إطار
شيلان صوف من الفيوم	٣ مدينى للواحد	—	—	٣ مدينى للواحد

السلع	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: الى ولايات السلطان	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: الى بلاد البربر	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: الى بلاد النصارى	. . . فى دمياط: الى بلاد السلطان والبربر وأوربا
	٪	٪	٪	٪
شيلان وأقمشة من الهند	١٠	—	—	١٠
خارات (خمار)	—	—	—	١٠
ششم	٥	٣٣ مدينى للقنطار	—	٦٠ مدينى للقنطار
مسامير (حجم كبير)	—	—	—	١٢ ٪
القرمزية	—	—	—	١٠
ثمار جوز الهند	٥	—	—	١٠
. . . .	—	٣٣ مدينى للبالة	—	—
كوبال (صمغ للطلاء)	٥	٨٦ ٪	٣	١٠
ثمرة البوصير (سم السمك)	٥	١٢٠ مدينى للقنطار	٣	١٠
قرون الثيران والماعز	—	—	—	١٠
قطن على هيئة لوزات	—	—	—	١٠

السلع	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: الى ولايات السلطان	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: الى بلاد البربر	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: الى بلاد النصارى	. . . فى دمياط: الى بلاد السلطان والبربر وأوربا
	٪	٪	٪	٪
قطن فى شكل رزم	—	٢٧ ½ مدينى للقنطار	٣	١٠
غزل قطن من الهند	١٠	—	٣	—
غزل قطن أحمر	—	٣٠٠ مدينى للقنطار	—	—
غزل قطن أزرق	—	٢٠٠ » »	—	—
غزل قطن أبيض	—	٥٥ » »	—	—
أغطية حمراء	٤ مدينى للغطاء الواحد	—	٣	—
أغطية وسجاجيد من الهند	—	٢٠ مدينى للقطعة	—	—
أغطية من سوريا	—	٦ » »	—	—
شعر عرفة الخيول	—	—	—	—
جلود جاموس	٤ مدينى للجلد	٦ مدينى للجلد	—	١٠
جلود بقر وجمال وثيران	٢ » »	٦ » »	٣	٣ مدينى للواحد
عجوة	٣ مدينى للقفة	١٣ مدينى للقنطار	٣	٣ مدينى للواحد
			٣	٢ مدينى للقفة

السلع	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية			... فى دمياط
	إلى ولايات السلطان	إلى بلاد البربر	إلى بلاد النصارى	إلى بلاد السلطان والبربر وأوربا
	٪	٪	٪	٪
بلح مجفف (تمر)	١٢—١٣ مدينى للقنطار	١٣ مدينى للقنطار	٣	٤٥ مدينى للقفة
سن سمك	٥ ٪	٣٣٠ مدينى للقنطار	٣	—
ديميتى منقوش وهو أقمشة قطنية تسمى نانكين أو بازان ويسميها الإنجليز ديميتى	—	٢ مدينى للقطعة	٣	—
ماء الزهر	—	—	—	١٠ ٪
بخور	٥	٣٠ مدينى للقنطار	٣	١٠
عبيد سود	٢٥ مدينى للواحد	—	—	—
عقاقير طبية من كل نوع	٥	٦ مدينى للقنطار	٣	١٠
قصدير	—	—	—	١٠
أقمشة صوفية تسمى زعبوط		—	—	٥ مدينى للقطعة
أقمشة حريرية من الاسكندرية والمحلة الكبرى	—	—	—	١٠

السلع		الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: الى ولايات السلطان	الى بلاد البربر	الى بلاد النصارى	... فى دمياط: الى بلاد السلطان والبربر وأوربا
		٪	٪	٪	٪
زنك		—	—	—	١٠
حديد على هيئة قضبان		—	—	—	١٠
زنجبيل		٥ ٪	٨٦ مدينى للقنطار	—	٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل
صمغ		٥	٢٦ مدينى للقنطار	٣	—
صمغ الك		—	٣٣٠ مدينى للقنطار	—	١٠ ٪
بذور كمون		—	—	—	١٥ مدينى للأردب
كتان خشن		—	—	—	٢ مدينى لكل حمولة
حناء (لصبغ أظافر وشعر النساء)		٤ـ١٦ مدينى للجوال تبعاً لحجمه	٦½ مدينى للبالة	—	٨ مدينى للبالة الصغيرة
أصابع هرمس		—	٣٣٠ مدينى للقنطار	٣	١٠ ٪
النيلة	درجة أولى	—	—	—	٨٠ مدينى للقنطار
	درجة ثانية	—	—	—	٦٠ مدينى للقنطار
	درجة ثالثة	—	—	—	٤٠ مدينى للقنطار
عاج		٥ ٪	١٢٥ مدينى للقنطار	٣	١٠ ٪

السلع	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: الى ولايات السلطان	الى بلاد البربر	الى بلاد النصارى	... فى دمياط: الى بلاد السلطان والبربر وأوربا
	٪		٪	٪
كلخ	—	١١٠ مدينى للقنطار	—	١٠
خولان (عقار طبى)	—	١١٠ » »	—	١٠
كركم	٥	٨٦ » »	٣	١٠
صوف	—	٢٧ » »	٣	١٠
خضروات وحبوب وعلف	—	١٦ مدينى للإردب	١٦ مدينى للإردب	١٠٠ مدينى للإردب
كتان	٥	٤ مدينى للبالة	٣	١٨ مدينى لكل ١٠٠ رطل
كتان مغزول	—	٦ مدينى للبالة الصغيرة	٣	٢٦½ » » » »
حواشى جوخ	—	—	—	١٠ ٪
قدور فخارية	—	—	—	١٠
موسلين من الهند	١٠	—	—	١٠
اهليلج	٥	٨٦ مدينى للقنطار	٣	٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل
مر	٥	٨٦ مدينى للقنطار	٣	١٠ ٪

السلع	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية			. . . فى دمياط
	الى ولايات السلطان	الى بلاد البربر	الى بلاد النصارى	الى بلاد السلطان والبربر وأوربا
صدف لؤلؤ	—	٦٦ مدينى للبالة	٣ ٪	—
ملح النطرون	—	٣٣ مدينى للبالة	٤٠ مدينى للقفة	—
حصر	—	—	—	٢ مدينى للواحدة
بندق	—	—	—	١٠ ٪
بندق من الهند	١٠	٨٦ مدينى للقنطار	—	٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل
جوزة القيء	٥	٨٦ « «	٣	١٠ ٪
جلود	١ مدينى لكل جلد	—	—	١ مدينى لكل جلد
جلود رقيقة	٨ « « «	—		٣ مدينى لكل جلد
ريش النعام	٥ ٪	—	٣	١٠ ٪
حمص	—	—	—	٩ مدينى للإردب
سمك مملح	٤١ مدينى للبرميل الكبير	—	—	—
سمك مجفف	٨ مدينى للبرميل	—	—	—

السلع	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: الى ولايات السلطان	الى بلاد البربر	الى بلاد النصارى	. . . فى دمياط: الى بلاد السلطان والبربر وأوربا
	٪	٪	٪	٪
فلفل	٥	٨٦ مدينى للقنطار	٣	٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل
خزف	١٠	—	—	—
رصاص بنادق	—	—	—	١٠ ٪
مسحوق لصباغة الخيول	—	—	—	٣٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل
أرز	—	٤ مدينى للأردب	١٣٣ مدينى للأردب	٧٠ مدينى للأردب
عباءات صوفية للفلاحين	٢ مدينى للواحدة	—	—	٣ مدينى للقطعة
زهور جافة	—	٢٧½ مدينى للقنطار	—	—
زعفران	—	—	—	٦ مدينى لكل ١٠٠ رطل
كذ —	٥	١٣ مدينى للبالة	٣	١٠ ٪
ملح	—	—	—	٢٥ مدينى لكل ١٠ أرادب
ملح النوشادر	٥	٣٠ مدينى للقنطار	٣	١ مدينى للرطل
ملح البارود	—	—	٣	١٠ ٪
بذور اليسر	—	٢٦ مدينى للقنطار	٣	—

السلع	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية			... فى دمياط
	الى ولايات السلطان	الى بلاد البربر	الى بلاد النصارى	الى بلاد السلطان والبربر وأوربا
	٪	٪	٪	٪
سنامكى	٥	—	٣	١٠
خيش	—	١ مدينى للقطعة	—	—
مناشف (فوط) صنع دمشق	—	٦ ـ ١٢ مدينى للقطعة	—	—
مناشف (فوط) صنع القاهرة	—	٦ مدينى للقطعة	—	—
كبريت	—	—	—	١٠
سكر	٥	٢٠½ مدينى للقنطار	٣	١٠
سكر مكرر	٥	٤١ مدينى للقنطار	—	١٠
تبغ	١٠	—	—	١٠
بودرة تبغ (سعوط)	—	—	—	١٠
تفتاز	—	—	—	١٠
تمر هندى	٥	٤٥ مدينى للقنطار	٣	١٠
مناخل (منخل) ناعمة	—	—	—	١٠
فناجين من الخزف	—	—	—	١٠

السلع	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: إلى ولايات السلطان	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: إلى بلاد البربر	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: إلى بلاد النصارى	... فى دمياط: إلى بلاد السلطان والبربر وأوربا
	٪	٪	٪	٪
لوازم النسج	—	٣٧ ½ مدينى للقنطار	٣	—
أقمشة همايونى	—	٤٠ مدينى للقطعة	—	—
صلصال لصنع النارجيلات	—	—	—	٥
أقمشة عاتكى	—	١٥ مدينى للقطعة	—	—
« زرقاء	—	٣ « «	٣	—
« ضابولى من القسطنطينية	—	٢٠ « «	—	—
« « من مصر	—	٥ « «	—	—
« « عادية	—	١٠ « «	—	—
« من القطن	—	—	٣	٣٠٠ مدينى للبالة
« « الكتان	—	—	٣	—
« « « للقمصان	٢ مدينى للقطعة	—	—	—
« من الهند	—	—	٣	١٠

السلع	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: الى ولايات السلطان	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: الى بلاد البربر	الرسوم التى تسددها فى الاسكندرية: الى بلاد النصارى	. . . فى دمياط: الى بلا السلطان والبربر وأوربا
	٪	٪	٪	٪
أقمشة ملونة	—	٦ مدينى للقطعة	٣	—
« فيتللى } درجة أولى	—	٤٠ « «	—	—
« فيتللى } عادية	—	٣٠ « «	—	—
« فيتللى } شعبية	—	٢٠ « «	—	—
« حبشى	—	٣ « «	—	—
« للأرائك	—	٤ « للبالة	٣	—
« للقلاع	—	—	—	١ مدينى للقطعة
« سهن	—	٣ مدينى للقطعة	—	—
عمائم	—	٣٠ « «	—	—
خراطيم نارجيلات على شكل أعواد	—	—	—	١٠
جذور الزعفران	٥	٢٦ مدينى للقنطار	٣	١٠

تجارة الجزيرة العربية والهند

السلع	الرسوم التى تسددها فى جمرك السويس	السلع	الرسوم التى تسددها فى جمرك السويس
صلب	لم يكن تصديرها يخضع لأى رسوم	أسلاك نحاس أصفر	لم يكن تصديرها يخضع لأى رسوم
ابر		نصال سيوف	
عنبر أصفر		عدس	
سلفور الرصاص		مرايا	
زرنيخ		ذهب لميع	
قمح		ورق ناعم مصقول	
مواسير بنادق		قروش أسبانية	
قرمزية		رصاص	
ومصنوعات زجاجية من كل نوع		أرز	
أجواخ شعبية		جنيهات ذهبية من البندقية	
حديد		كبريت	
فول		تالارى (ريال) امبراطورى	
أسلاك حديد		نحاس قديم	
		أملاح معدنية	

وكانت الواردات القادمة من ممالك سنار ودارفور وفزان تبلغ النيل عادة عند أسوان أو سيوط . وقد لا يكون بوسعنا أن نضفى أية صبغة من الشرعية على الرسوم التى قررت العادة سدادها فى الولايات التى تعبرها هذه الواردات قبل أن تصل الى القاهرة ، ولقد أدى سلوك الحكام الذين فرضوا هذه الرسوم بشكل استبدادى الى نشأة مبدأ خلاصته ان من المستحيل ان يدع واحد من البكوات قافلة تمر بولايته دون أن يخضعها لأداء ضريبة له . ولقد تحولت هذه المطالب التى كانت تعسفية فى الأصل ، بسبب تقادمها وبسبب مراعاة أولئك الذين قرروها لعدم المبالغة فى مقدارها حرصا على مصالحهم ، وحتى لا تؤدى الى توقف التجارة التى تتحملها — تحولت فى السنوات الأخيرة الى أتاوات مستقرة ومعترف بها . ومن المعروف ، أنه بخلاف الرسوم التى كانت تسدد فى جمرك مصر العتيقة :

كان يدفع عن أي عبد أو أمة	٤٨٠	مدينى
والجمل المحمل بالصمغ	٩٠٠	«
« « بريش النعام	١٫٩٨٠	«
« الذى لا يحمل شيئا	٢٤٠	«

ومنذ أصبحت مصر فريسة للانقسامات الداخلية ، ومنذ أصبح الصعيد هو مأوى الحزب الذى تدور عليه الدوائر ، وجرجا هى المقر المعتاد للبك الموكل بأمر احتواء هذا الحزب ، بدأت القوافل التى كانت تصل الى أسوان لتعبر على التوالى الولايات التى يحتلها كلا الحزبين المتنافسين تتعرض لسداد ضعف الرسوم المعتادة .

وبخلاف هذه القوافل ، كانت هناك قوافل أخرى تصل الى بولاق ، قادمة من الطور ومن وسط أفريقيا ومن سوريا .

وكانت الأولى ، وهى تتألف من عربان يقطنون جبل سيناء ، تنقل الى القاهرة والى كل مصر السفلى الصمغ والفحم والكمثرى ، وكانت هذه السلع تخضع لرسوم دخول مقررة فى جمرك بولاق (١) .

---

(١) لم يكن الفحم يدفع اى رسوم .

أما الغرض الرئيسى للقـــافلة فكان هو الحج الى مكة ، وكانت تبدأ من أقاصى امبراطورية مراكش متخذة طريقها الى القاهرة ، ضامة اليها فى طريقها حجاج الجزائر وتونس وطرابلس ثم تكمل رحلتها مع قافلة مصر سابقة اياها أو متخلفة عنها بمسافة مسيرة يوم واحد .

وكانت هذه القافلة تضم بعض التجار يحملون الى الجزيرة العربية سلعا صـــغيرة الحجم مثل الأجواخ والقرمزية الخ ، ويجلبـــون منها البن المشهود له بأنه أجود أصـــناف البن ، وذلك بسبب عدم مروره بالبحر ، كما يجلبون كذلك الشيلان والبخور ، وبصفة عامـــة كل ماخف حمله وغلا ثمنه . ولم يكن هؤلاء التجار يسددون أى رســـوم جمركية ، ذلك أن كل السلع التى تصـــدر أو ترد مع قافلة الحج ، كانت معفاة من كل الرسوم .

وعندما تكون الملاحة خطرة ، كانت تصل من سوريا بعض القوافل ، حاملة نفس السلع التى تمد بها هذه البـــلاد مصر عن طريق دميـــاط ، وفى هـــذه الحالة كانت صـــادرات مصر الى سوريا تصل اليها عن نفس الطريق ، وكانت رســـوم الدخول والخروج تقتصر على تلك التى تحصل فى جمرك بولاق .

وكانت التجارة مع أوربا تنهض مستقرة على أسس اتفاقيات تحـــدد الرسوم التى ينبغى عليها أن تسددها،وتعود أقدم هذه الاتفاقيات طرا ، وهى تلك التى عقدت مع الفرنسيين والبنادقة ، الى فترة قريبة من وقت فتح مصر على يد السلطان سليم ، وبعد ذلك تمتع بنفس هذه الامتيـــازات كل من الألمـــان والانجليز ، ثم على التوالى كل الأمم الأوربية التى تحالفت مع العثمانيين ، ويكفى أن نقـــارن الرســـوم التى كان رعايا السلطـــان يدفعونها ، بتلك الرسوم بالغة الاعتدال والتى تحصل من الأوربيين ، كى نتبين المزايا التى كان الأخيرون يتمتعون بها ، ولم تكن ثمة ســـوى حالة واحدة يحظى فيها المصريون أو الأتراك بمعاملةأفضل من معاملةالأوربيين، هى حالة شرائهم السلع من الاسكندرية بقصـــد ارسالها الى القـــاهرة ، فقد كانوا عندئذ يخضعون لسداد رسم ثابت بسيط عن كل بالة أو قطعـــة ، يؤدونه فى بولاق ، فى حين كان الأجنبى الذى يفعل نفس الشىء يدفع رسما قدره ١ أو ٢٪ ، وهو نفس الرسم الذى يخضع هو له حين تصـــله نفس هذه السلع من أوربا أو تركيا .

لكن ذلك لا يحول بيننا وبين ان نبين الى اى حد كانت التجارة الاوربية تحت السيطرة الاستبدادية للماليك ، تتعرض للابتزازات وللمعاملات السيئة ، وقد يكون تقدير السلع لايزال حتى اليوم ادنى من قيمتها الفعلية ((عند تقدير الرسوم) ، ومع ذلك فان مطالب التجار التى تنهض على اسس اتفاقيات تسليم تتعارض مع كل تغيير فى السلع لم تكن لتحول دون تقييم هذه السلع بشكل يتناسب مع قيمتها المالية ، ولقد كان من المتفق عليه بجلاء ان السفينة الافرنكية ((الأجنبية) التى تسدد الرسوم فى احد ثغور الامبراطورية (العثمانية) تتمتع باعفاء كامل فى بقية الثغور بمجرد ابرازها التذكرة ((تذكرت) التى حصلت عليها من الجمرك هناك ، ومع ذلك فلم يكن هناك من يعترف بهذا البند فى الاتفاقيات ، فكانت المراكب الأوربية القادمة من ولايات السلطان تعامل وكأنها حملت فى الموانى التى قدمت منها ، سواء ابرزت او لم تبرز ((تذكرت)) الجمارك .

وكان محظورا تصدير الغلال والأرز والبن على السفن الأوربية وكذلك على السفن اليونانية برغم انها من رعايا السلطان ، وان ظل التدليس يهيىء على الدوام لهذه السلع ان تدخل ضمن حمولات هذه السفن مقابل بعض الهدايا ، لكن تصدير القمح والأرز كان اكثر من ذلك صعوبة ، وكان الأمر يتطلب خرقا اكبر للوائح التى تمنع تمام ذلك عن طريق سفن مسيحية حتى ولو كانت هذه الحبوب متجهة الى احدى ولايات الامبراطورية ((العثمانية) ، ومع ذلك فحيث امكن استصدار فرمان خول لنا حتى نقلها بحرا فى حالة انعدام وجود سفن مسلمة ، فقد توصلنا عن طريق هذه الحيلة الى نقل هذه الغلال الى اوربا بعد ان كانت سفننا تقوم بجولة لواحد من الثغور التركية ، وهكذا امكن لفرنسا خلال عام ١٧٩٣ والأعوام التالية ان تستورد الكثير من السلع الغذائية من مصر . وكانت كل حمولة من هذا النوع تدفع من ١٣ الى ١٥ الف مدينى رسوما جمركية ، وبالمثل فقد ادخلت العادة رسم تخليص على الحمولات التى تتكون من سلع اخرى كان تقديرها يتم بالاتفاق بين رجال الجمارك وقبطان السفينة . وكانت سفن راجوزة تخضع بالاضافة الى ذلك لرسم قدره ٢ ٪ لصالح حكومتها ، التى كانت تترك ١/٢ هذا الرسم للجمرك حتى تكفل لرعاياها وسائل شحن سهلة . ومع ذلك فان هذه البدع التى كان الافرنج يخضعون لها حتى يحصلوا على عمليات تجارية مربحة أو يقوموا بجولات كانت محظورة عليهم

لم تكن مجحفة او ضــارة بالتجارة الا فى انها كانت الأساس الذى هيـأ لنشأة اتاوات اخرى باهظة بشكل حقيقى .

وفى عهد حكومة على بك قام حنا فخر ، المسيحى السورى ، والذى كان قـد حصل على التزام جمرك دميـاط بكثير من المـكائد والدسائس حتى أمكنه الحاق الدمار باليهود،ففقدوا التزام الجمارك الذى كانوا يديرونه منذ زمان لاتعيه الذاكرة .

وقـد سبق لنـا القول بأن الرســوم التى تحصـل عن السلع فى الاسكندرية أو دمياط لم تكن لتعفيها من ان تسدد رسوما جمركية اخرى فى بولاق عندما تصل الى القاهرة ، ولما كان ملتزمو الجمركين الأولين متوحدى المصالح مع ملتزمى جمرك بولاق فقد كانوا يزودون التجار بوسائل تمكنهم من التخلص من جزء من الرسوم واجبة الأداء فى الجمرك الأخير ، ولـكن حين أصبح حنـا فخر ملتزما عموميا فقد ابطل أمور التدليس هذه وذلك بأن وضع تحت أمرته عوائد جمارك الاسكندرية ودميـاط وبولاق(١) ، ومـع ذلك فان عدم حرصه على أن يحتفظ لـكل جمرك باختصاصاته المتميزة ، بالاضـافة الى لا مبالاته التى كان يرى معها أنه سيحصل ولابد فى بولاق على ما كان ينبغى ان يحصل عليه فى الاسكندرية أو دمياط — كل ذلك قد القى بالشكوك حول العـائد الخاص الذى يحققه كل جمـرك ، وفى نفس الوقت فان اضطراب هذه العوائد ، وهـو الأمر الذى جر معـه اضطرابا فى الرســوم الجمركية نفسها ، قـد ادى بالضرورة الى انعدام التوافق أو التلاؤم الذى كان ينتظر حدوثه من وراء ادخالها (الجمارك) ضمن التزام شخص واحد . ولقد فرضت تحت ادارته ، وتحت ادارة الذين اعقبوه ، رسوم باهظة على كل الرحلات الى ليفورينو وتريستا ، كمـا خضعت السفن التركية والافرنجية التى كانت تشحن فى دمياط ، بالاضافة الى ذلك ، لأداء اتاوة قـدرها ٢٠٠ بوطاقة ، ظلت تتضاعف خلال السنوات الأخيرة حتى بلغت نصف رسوم شـحن ، وحيث لا تقدم اية ذرائع لتبـرير مثل هذه المظالم الاستبدادية ، فقد كان بمقدور التجار أن يجـدوا دوافع

---

(١) لم يكن جمرك بولاق مستقلا عن جمرك مصر العتيقة فيما يختص بتسديد الميرى ، ومع ذلك فقد ضمن الأول فى عقد مدير عموم الجمارك فى حين ظل الجمرك الثانى فى عهدة وكيل خاص .

حقيقية لالقاء اللوم على وكلاء الأمم الأوربية فى تساهلهم فى هـذه الأمور لولا أنهم يدركون كيف أنه من العسير على هؤلاء أن يصارعوا بنجاح ضد رجال الجمـارك فى مصر . ولقـد كانت المـكاسب التى يهيئها رجال الجمارك لهؤلاء البكوات تضمن لهم سطوة تجعل كل شىء رهن مشيئتهم فى المواقع والثغور التى يتم فيها تحصـيل الرسـوم ، وكان السردارات والأغوات والضـباط العسكريون الآخرون الذين يتولون القيـادة هنـاك يجـازفون بمناصبهم أو بتعريض انفسهم للعقـاب اذا هم سـاروا على غير هـوى هؤلاء . وكانت الوسائل العديدة التى فى حوزتهم والتي يستطيعون بهـا تسهيل أو تعويق او حتى منع عمليات الشحن تخضع التجار والأمر كذلك لسطوتهم (١) .

اما فى جمرك السويس فلم ترتفع الا الرسـوم المقررة على البن ، فمنذ نحو سبعين عاما أمر البـاب العالى نفسه بأن تزيد هذه الرسـوم لتبلغ ١٤٦ مدينى عن كل فرد لصـالح أمير الحج ، كما فـرض الكخياوان ابراهيم ورضوان لحسابهما خمس بوطاقات اخرى عن كل فرد ، اما على بك الذى تلاهما فى الحكم فقـد غالى فى هذه البـدعة ، واخيراً وصل بها مراد وابراهيم الى ١٨ بوطاقـة (عن كل فرد) حين توقف صـندوق الجمرك عن ايراد أية حصيلة .

ونقدم هنـا بعض لمحـات عن الأسـباب التى ادت به الى هـذه الحالة من الافلاس . فعنـدما حصـل البكوات على نصـيب من دخول الجمارك لم يتغير شىء فى الأسلوب المتبع فى تحصيل الرسوم . فبمجرد أن تلامس السفن المحملة بسلع الجزيرة العربية والهند شاطىء السويس كان أفندى الادارة فى الجمرك — وهو يحمل اسم قاضى البحار — يرسل الى المرفأ كاتبـا موكلا بتقـدير واردات البن ، وبأن يحرر بيـانا بأسماء التجار الذين وردت هـذه السلع لهم : ويرسل هـذا البيـان الى قاضى البحار ليتخذ منه أساسا لتقدير وتوزيع الرسوم واجبـة السـداد والتى قررها الباشا والبكوات . وكان تسليم البن يتم فور تمام هـذا الاجـراء

(١) فر أحدهم وهو أنطون قسيس فـرعون من مصر ليسـتقر فى تريستا بعد أن كدس ثروة طائلة تتكون من عدة ملايين من حصـيلة التزام الجمـارك .

ويقوم النجار الذين أصبحوا ملاكا لهذا البن بسداد الرســوم التى قدرت عليه ، وقــد استفاد قادة الحكومة من نظام للامور جعلهم فى علاقة منفعة مع التجار فحصلوا لأنفسهم منهم على قروض ، وأدت التســهيلات التى قدمت لهؤلاء لاستيفاء ديونهم عن طرق خصــومات تتم على مقدار الرسوم التى كان عليهم أن يسددوها طبقــا لارساليات البن التى جاءتهم ، بالاضافة الى ربح (القروض) البــالغ ٢٠٪ الذى وعدوا به والذى كان يضــمن الحساب بالفعل — أدت بهؤلاء الى أن يصبحوا المساهمين والملتزمين لهــذا الجمرك . ولم تلبث كل دخولهم أن أصبحت تعتمد اعتمادا تاما على هذه المنشأة . وهكذا كفت واردات البن عن أن نصبح وفيرة ، وتناقصت تبعا لنسبة الرســوم التى حملت بها ، وكف التجار الأجانب عن ادارة الجمرك (أى الذين لا يتعاملون معها بالقروض) عن المضاربة على هذه السلعــة الغذائية ، وحين رأى الأوربيون أنهم سيحصــلون على فــوائد أكبر اذا ماجلبوا هذه السلعة عن طريق رأس الرجاء الصــالح فقد أخرجوها من طريقها المعتاد ، بل ان الشرقيين انفسهم اخذوا يفضــلون استجلابها الى أزمير عن طرق Tokat والخليج الفــارسى عن مواصلة التزود بها عن طريق السويس (١) ، وحين لم تعد رسوم البن تهيىء وسيلة أكيدة لتغطية القروض التى لم يكن البكوات يكفون عن أن يجعلوا منها مصدرهم الثابت للدخل أصبح خراب المساهمين أمرا يستحيل تجنبه ، وبعد بضع سنوات شعر البكوات خلالها بمدى الخسارة الهائلة التى لحقت بهم، إذ كانت الأرصدة التى تهيئها الجمارك قــد ضاعت ، وظل سداد القروض معلقا .

وعندما طرد القبطان باشا حسن البكوين ابراهيم ومراد من القاهرة، وولى مكانهما اسماعيل بك ، فقد أراد الأخير اعادة قيــام تجارة البن فثبت رسوم الجمــارك بــ ٢٢ بوطــاقة عن الفرد (*) وفى نفس الوقت فقد ضمن هذا الرسم الــ ٥٤٦ مدينى المخصصة للبــاشا وأمير الحج وكذلك الــ ٩٠٠ مدينى اللازمة للوفاء بالديون المستحقة للتجار (على البكوات) وقد أدت هــذه اللائحة الى احيــاء الثقة ، وجدد التجــار المصريون (٢)

---

(١) وهذا برهان جديد على أن التجارة تستطيع فى النهاية أن تشق لنفسها طريقا آخر كى تتملص من المظالم الخرقاء .

(*) كما سبق القول فان الفرد هو بالة تزن ١٨٥ ك.ج (المترجم) .

(٢) لم يكن التجار الأجانب المقيمون بمصر يتلقون أية ارسالية بن من الجزيرة العربيــة ، بل كانوا يشــترون من التجــار المصريين البن الذى يصدرونه الى أوربا .

معاملاتهم ، واوشكت الواردات أن تماثل فى حجمها الكبير ماكانت عليه فى الماضى ، ومع ذلك ولسوء الحظ فقد مضت التجربة دون أن يستخلص منها الاستبداد الجشع والنهم الدرس الواجب استخلاصه ، فما أن استقر ابراهيم ومراد بالقاهرة مرة اخرى حتى بدءا ابتزازاتهما من جديد ، واعادا الأمور قريبا من الحالة التى وجدها عليها اسماعيل ، ولم يتغير عائد الجمرك (اى لم تزد حصيلته) بسبب الرسوم الباهظة التى فرضاها ، لكن الواردات هى التى اصبحت بالغة الضآلة .

ولم تكن السلع الأخرى التى تصل عن طريق السويس تدفع شيئا آخر بخلاف الرسوم التى انشاها السلطان سليمان ، ولسنا نجد سببا يفسر هذا الاعتدال الذى يتناقض كثيرا مع الاساليب المعتادة فى الادارة المصرية .

وبخلاف ذلك كانت تجبى فى كل مكاتب تحصيل مصروفات جمركية بلغت حدا من الكثرة انها كانت تشكل عائدا ضخما للملتزمين وتغطى مصروفات المكاتب ورواتب الكتبة ، فقد كانت كل السلع تخضع لهذه الرسوم حتى تلك السلع التى كانت تجارتها حرة . وكانت هذه المصروفات أقل جسامة بالنسبة للاوربيين عنها بالنسبة لابناء البلاد .

وكان رجال جمارك بولاق ومصر العتيقة والاسكندرية والسويس قد اكتسبوا ميزات وظائفهم بحصولهم من الباشا على الفرمان الذى انشأ أو اعترف لهم بالمراكز التى يشغلونها والذى اخضعهم لدفع الميرى :

فكان جمركا مصر العتيقة وبولاق .

يدفع . . . . ٢٫٠٨٠ مدينى

وكان جمركا الاسكندرية يدفع . . ٢٧٫٠٤٠

وكان رجال الجمارك بالسويس يدفعون :

بالنسبة للشخص المقيم منهم بالقاهرة ١٦٣٫٤٣٣

بالنسبة للشخص المقيم منهم بالسويس ٤١٠

عن الوزان ٥١٠

الاجمالى . . . . ١٩٣٫٤٧٣ مدينى

تعادل ١٥ س ٦٫٩٠٩ جنيها توريا ، وتعادل بالفرنكات ، ٤٦ س ٦٫٨٢٤ فرنكا فرنسيا .

وحيث شغل المدير العمومى للجمارك المعين فى عهد على بك كل هذه المراكز فيما عدا مركزى مصر العتيقة والسويس فقد سدد الميرى المقرر عليها ، ولا نعرف لماذا لم يسلك الباشا نفس السلوك تجاه مدير جمرك السويس ، خصوصا منذ اصبح هذا الجمرك مضمنا عقد الملتزم العمومى .

وقد انشأ البكوات المماليك جمركين آخرين فى القصير ورشيد .

وقد حال الاتجاه الذى سارت فيه حكومة القاهرة لجذب تجارة الجزيرة العربية الى السويس ، دون أن يكون حجم انزال السلع فى القصير كبيرا ، وكانت الرسوم الجمركية تحصل هناك (فى القصير) لصالح كاشف قنا لعادة قررها هو نفسه أو ورثها عن أسلافه .

ولم يكن الغرض من انشاء جمرك رشيد تقرير رسوم جديدة ، بقدر ما كان الهدف منه هو التحقق مما اذا كانت لم ترتكب أية عمليات خداع أو تدليس فى جمركى بولاق والاسكندرية ، وهناك ، كان يتم التحقق من أن كمية ونوع السلع قد جاءتا مطابقتين للمخالصات الجمركية التى كان لابد من ابرازها وذلك بجعل حمولات السفن القادمة الى هذا الموقع تنتقل (من مراكبها) الى مراكب أخرى . وقد توصل رجال الجمارك — قبل مجىء الفرنسيين بسنوات قليلة — لأن يلحقوا بعمليات المراجعة والفحص هذه فرض رسم على كل كميات السلع ، وان كان الأوربيون قد تمسكوا بامتيازاتهم ولم يخضعوا مطلقا لهذه الرسوم ، وفى نفس هذا الوقت، سمح مراد بك ، بعد أن اغرته المكاسب الهائلة التى سوف تعود عليه من تصدير الحبوب الى العالم المسيحى ، بتصدير هذه الحبوب مقابل تحصيل رسم قدره زر محبوب واحد (عملة ذهبية) لكل أردب ، وادت عمليات الشحن البحرى التى كانت تتم فى رشيد الى نشأة جمرك ، جنى منه مراد ، وهو الذى كان يديره لحسابه الخاص ، أموالا طائلة .

وحيث لم يكن يدفع اى مال ميرى الى الخزينة عن جمركى القصير ورشيد فان من الضرورى أن نشير اليهما باعتبارهما عبئا مضاعفا على حركة التجارة ، وليسا باعتبارهما يشكلان جزءا من عوائد السلطان .

ولابد أن نضع فى نفس هذه المرتبة تلك الرســـوم التى كانت تفرض على التجارة الداخليـــة ، والتى كانت تعرف فى بولاق والاسكندرية ورشيد ودمياط والسويس باسم جمارك صغرى ادت الى نشأة ضرائب أو مكوس على الاستهلاكات (التجارة) ، وكان إلتزام هـــذه المـــكوس يعطى عادة لرجال الجمارك الذين كانت لديهم المعرفة التامة بطبيعتها وتنوعاتها المعقدة .

ونقدم فيما يلى جدولا بهذه الرسوم ، حصلنا عليه عن طريق هـــؤلاء الـــكتبة أو الموظفين الذين استبقيناهم فى وظائفهم بعد وصولنا .

تعريفة الرسوم التى تحصل باسم جمارك صغرى فى مصر

على السلع القادمة من الخارج

وعلى السلع القـــــادمة من داخل مصر

١ — سلع قادمة من الخارج

السلع	عندما تكون السلع قادمة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فإنها تخضع للرسوم المبينة فيما يلي						عندما تخرج السلع من المدن الموضحة وتكون مخصصة للاستهلاك داخل مصر فإنها تخضع للرسوم التالية					
	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس
				مليمى						مليمى		
أبا قدار (نوع من البذور)	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
عجين المشمش (قمر الدين)	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
صلب	—	—	—	٤٥ للصندوق	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
إبر	—	—	—	شرحه	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
ألوة (الصبار)	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
صبر	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٦٠ للبالة	—	—
صوفان	—	—	—	١٥ للبالة	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
لوز	—	—	—	٢٠ للقفة	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
عنبر	—	—	—	٩٠ للصندوق	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
هلب مراكب	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
فضة سبائك	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
أسلحة	—	—	—	—	—	—	٩-٢٤ مليمى للحمولة	—	—	—	—	١٠

سلفور الرصاص	—	—	—	٣٠ للبرميل	—	—	—	—	—	—	—	—
حتليت	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٦٠ للبالة	—	—
طباشير	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
خشب للوقود	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
خشب للصباغة	—	—	—	٢٠ للقنطار	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
قلنسوات حمراء	—	—	—	٤٥ للصندوق	١٦م للعلبة	—	—	—	—	—	—	—
شمـــوع	—	—	—	٩٠ للصندوق	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
أساور زجاجية	—	—	—	٢٠ للبالة	شرحه	—	—	—	—	—		—
زفت	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
بن	٥٠م للبالة	—	—	—	٣٠م للقنطار إذا لم يدفع فى بولاق	—	٣٠ مدينى للقنطار	—	٢٢ إلى ٩٠ مدينى للبالة	—	—	—
خروب	—	—	—	١٠ للقفة	—	—	—	—	—	—	—	—
أحزمة مطرزة	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
خمارات (خمار)	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
شال صنع أنقرة	—	—	—	٩٠ للبالة الصغيرة	—	—	—	—	—	—	—	—
فحم	١م الجوال	٦م للقفة	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
كتان	—	—	—	٣٠ للبرميل الكبير	—	—	—	—	—	—	—	—

السلع	عندما تكون السلع قادمة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فإنها تخضع للرسوم المبينة فيما يلي						عندما تخرج السلع من المدن الموضحة وتكون مخصصة للاستهلاك داخل مصر فإنها تخضع للرسوم التالية					
	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس
				مـدنى								
مقصات	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
مسامير	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
مسبحات خشب	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
قرمزية	—	—	—	٩٠ للبرميل	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
جوز الهند	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
حلويات	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
من البندقية	—	—	—	٤٥ للبرميل	—	—	—	—	—	—	—	—
بوصيرى	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٦٠ للبرميل	—	—
مرجان	—	—	—	٩٠ للصندوق	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
حبال	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
سكاكين شمعية	—	—	—	٤٥ للبرميل	—	—	—	—	—	—	—	—
بوتقات للصاغة	—	—	—	٢٠ للبرميل	—	—	—	—	—	—	—	—
حلي من الزجاج والكريستال	—	—	—	٩٠ للصندوق	—	—	—	—	—	—	—	—

نحاس	—	—	—	٤٥ للبالة	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
مطهر للأذن	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
سن الفيل	٧ م للحمولة	—	—	٦٠ للبالة	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
سن السمك	—	—	—	٤٥ للجوال	—	—	—	—	—	—	—	—
أجواخ	—	—	—	٩٠ للبالة الصغيرة	شرحه	—	٩ - ٢٤ م للحمولة	—	—	—	—	—
ماء قرنفل	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
بخور	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٣٠ـ٦٠ للبالة	—	—
دبابيس	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
اسفنج	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
قصدير	—	—	—	٩٠ للبرميل	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
أقمشة صوفية من بلاد البربر	—	—	—	٤٥ للبالة الصغيرة	—	—	—	—	—	—	—	—
فوانيس زجاجية من البندقية	—	—	—	٥ للسلة	—	—	—	—	—	—	—	—
زنك	—	—	—	٤٥ للبرميل	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
حديد فى شكل قضبان	—	—	—	٢ للقضيب	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
تبين	—	—	—	—	شرحه	—	٢ م للقفص	—	—	—	—	—
ورود اللاوندة	—	—	—	٣٠ للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—

السلع	عندما تكون السلع قادمة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فإنها تخضع للرسوم المبينة فيما يلى						عندما تخرج السلع من المدن الموضحة وتكون مخصصة للاستهلاك داخل مصر فإنها تخضع للرسوم التالية					
	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس
				مديني						مديني		
فواكه جافة	—	—	—	—	—	—	٩ - ٢٤ م للحمولة	—	—	—	—	—
بنادق	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
زنجبيل	—	—	—	٦٠ للقفص	—	—	—	—	—	—	—	—
قرنفل	—	—	—	٩٠ للبرميل	—	—	—	—	—	—	—	—
صمغ الكثيراء	—	—	—	٢٠ للجوال	—	—	—	—	—	—	—	—
صمغ عربى	—	—	—	٦٠ للقفص	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
صمغ للطلاء	—	—	—	٩٠ للقفص	—	—	—	—	—	—	—	—
قطران	—	—	—	—	شرحة	—	—	—	—	—	—	—
زيت زيتون	—	—	—	١٠ للجرة و ٣٠ للصندوق	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
خلاصة العرقسوس	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—

مصابيح زجاجية	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
مشروبات روحية	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
محالب	—	—	—	٣٠ للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—
رخام	—	—	—	٢٠ للصندوق	—	—	—	—	—	—	—	—
مربعات رخام	—	—	—	١ م للمربع	—	—	—	—	—	—	—	—
سلع فى صناديق	—	—	—	٩٠ للصندوق	—	—	—	—	—	—	—	—
جلد فاسى أحمر وأصفر	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
مستكة	—	—	—	٤٥ للصندوق	—	—	—	—	—	—	—	—
زئبق	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
رحى طاحون	—	١٤ م لكل ٢	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
مرايا	—	—	—	٩٠ للصندوق	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
هاونات	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
موسلين	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
مر	—	—	—	٦٠ للقفص	—	—	—	—	—	—	—	—
صدف لؤلؤ	—	—	—	٤٥ للصندوق	—	—	—	—	—	—	—	—
بندق	—	—	—	١٥ للجوال	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
عفصة	—	—	—	٢٠ »	—	—	—	—	—	—	—	—
جوز	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
زيتون	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—

السلع	عندما تكون السلع قادمة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فإنها تخضع للرسوم المبينة فيما يلى						عندما تخرج السلع من المدن الموضحة وتكون مخصصة للاستهلاك داخل مصر فإنها تخضع للرسوم التالية					
	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس
				مدينى						مدينى		
ذهب خام	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
ذهب براق	—	—	—	٩٠ للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—
قرب للمياه	—	—	—	٤٥ للصندوق	—	—	—	—	—	—	—	—
شباشب وارد القسطنطينية	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
ورق وارد جنوة	—	—	—	٢٢-٤٥ م للبالة	١½ م للرزمة	—	٩ - ٢٤ م للحمولة	—	—	—	—	—
« « البندقية	—	—	—	شرحه	٦ م للرزمة	—	شرحه	—	—	—	—	—
جلود مصبوغة	—	—	—	٢٠ م للكوم	—	—	—	—	—	—	—	—
قداحات للبنادق	—	—	—	٢٠ للبرميل الكبير	—	—	—	—	—	—	—	—
فستق	—	—	—	٤٥ للصندوق	—	—	—	—	—	—	—	—
رصاص	—	—	—	٥ للسبيكة	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
ريش النعام	—	—	—	٩٠ للصندوق	شرحه	—	—	—	—	—	—	—

فلفل	—	—	—	٩٠ للصندوق	٤٠ م لكل ١٠٠ رطل	—	—	٣٠ م للقنطار	—	—	—	—
خزف	—	—	—	٩٠ للبالة	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
رصاص للبنادق	—	—	—	—	١٥ م للجرة	—	—	—	—	—	—	—
حدايد وخردة	—	—	—	—	—	—	٩ - ٢٤ م للحمولة	—	—	—	—	—
جذور نبات الفوة	—	—	—	٢٠ للجوال	—	—	—	—	—	—	—	—
جذور السحلب	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—	—
عنب جاف	—	—	—	٢٠ للصندوق أو ١٠ للعلبة	—	—	—	—	—	—	—	
« « لصنع الخمور	—	—	—	٣٠ للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—
راتنج	—	—	—	١٣م لكل ١٠ اقراص	٣٠ للبرميل	—	—	—	—	—	—	—
زعفران	—	—	—	—	٩٠ للجوال	—	—	—	—	—	—	—
سحلب	—	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—
فشاغ	—	—	—	—	٩٠ للبالة	—	—	—	—	—	—	—
صابون	—	—	—	—	٢٠ للصندوق أو الجوال	شرحه	—	—	—	—	—	—
حرير	—	—	—	—	٩٠ للبالة	—	—	—	—	—	—	—

السلع	عندما تكون السلع قادمة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فإنها تخضع للرسوم المبينة فيما يلى						عندماتخرج السلع من المدن الموضحة وتكون مخصصة للاستهلاك داخل مصر فإنها تخضع للرسوم التالية					
	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس
				مدينى						مدينى		
حرایر	—	—	—	—	٩٠ للصندوق	—	—	—	—	—	—	—
منافيخ	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
كبريت	—	—	—	٣٠ للبرميل الكبير	١٨م لكل ١٠٠رطل	—	—	—	—	—	—	—
أحذية	—	—	—	٤٥ للبالة	١½ م للزوج	—	—	—	—	—	—	—
تبغ وارد سوريا	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
« « تركيا	—	—	—	٤٣-٨٠ للبالة	٤٨ م للقفة	—	—	—	—	—	—	—
أكياس نشوق	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
تفتاز	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
تمر هندى	—	—	—	—	٤٠م لكل ١٠٨رطل	—	—	—	—	—	—	—

سجاجيد للصلاة	—	—	—	٩٠ للبالة	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
سجاجيد بوبرة ومساحات قدم	—	—	—	٤٥ للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—
دردى	—	—	—	٩٠ للبرميل	—	—	—	—	—	—	—	—
تنباك	—	—	—	٤٥ للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—
خراطيم للنارجيلة	—	—	—	١٠ للكوم	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
أكواب	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
نبيذ				٤٥ للبرميل الكبير	—	—	—	—	—	—	—	—
زجاج نوافذ	—	—	—	٣٠ للصندوق	—	—	—	—	—	—	—	—
أملاح معدنية	—	—	—	٣٠ للبرميل	—	—	—	—	—	—	—	—

٢ — سلع قادمة من داخل مصر

أبسنت جاف	—	—	—	١٠ للجوال	—	—	—	—	—	—	—	—
ثوم	١٣ م للجوال	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
شبة	٥م للقنطار	—	—	٩٠ للبرميل الكبير	—	—	—	٣٠ للجوال	—	—	—	—
ينسون	٨ م للأردب	—	—	٣٠ للجوال	—	—	—	—	—	—	—	—
أطباق	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—

السلع	عندما تكون السلع قادمة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فإنها تخضع للرسوم المبينة فيما يلى						عندما تخرج السلع من المدن الموضحة وتكون مخصصة للاستهلاك داخل مصر فإنها تخضع للرسوم التالية					
	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس
				مدينى						مدينى		
مراكب محملة بالمأكولات أو حطب الوقود	من ٤ - ٤٥ عن المركب الواحد	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
سمن	٥ — ٤٠ م للجرة	٥ للجرة	—	٢٠ للجرة	—	—	—	—	—	—	—	—
قمح	٧ م للأردب	—	—	—	—	$\frac{1}{24}$ عيناو ٢ م للأردب	١ م للأردب	—	—	—	—	—
أبقار	١٢ مدينى للواحدة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
خشب من الصعيد	٣٠ م للحمولة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
طواقى بيضاء	واحدة من كل عشرة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—

ثيران	—	—	—	—	—	٩٠م للثور	—	—	—	—	—	—
قصب السكر	٢٨٠ للمركب الكبير و ٢٥ م لكل ١٠٠ حولة صغير.	٣٠ مدينى للحمولة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
كزبرة	٤م للاردب	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
شيلان سوداء	—	٣م للواحد	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
شيلان من الفيوم	١٩ ـ ٦٢. لكل ١٠٠ شال	—	—	—	—	—	—	—	—	٤٥ للبالة	—	—
شمع من صنع البلاد	—	١٠٠ م للقنطار	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
حبال من لحاء الشجر	١٠ م للحمولة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
قرون أبقار	—	١٦م للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
قرون ثيران	—	—	—	—	—	—	—	١٠ مدينى للحزمة	—	—	—	—
قطن على شكل لوزات	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
قطن على شكل وبر	—	—	—	٤٥ للبالة	شرحه	—	٩ — ٢٤ م للحمولة	—	—	٤٥ للبالة	—	—
قطن مغزول	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	٩٠ للبالة	—	—

السلع	عندما تكون السلع قادمة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فإنها تخضع للرسوم المبينة فيما يلى						عندما تخرج السلع من المدن الموضحة وتكون مخصصة للاستهلاك داخل مصر فإنها تخضع للرسوم التالية					
	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد (مدينى)	دمياط	السويس	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس
أغطية صوفية	١٢م لكل ١٠٠ قطعة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
» قطنية	١٠٣½م لكل ١٠٠ قطعة	١٠–٢٥م للواحد	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
» للخيول	١م للغطاء	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
جرار كبيرة (بلاص)	—	—	—	—	٤٦م لكل ٤ بلاليص	—	—	—	—	—	—	—
جلود أبقار وجاموس	١٣٧½ لكل ١٠٠	—	—	—	٢م للواحد	—	—	١م للواحد	—	٣م للواحد	—	—
جلود من دمنهور	—	—	—	—	٢م للواحد	—	—	—	—	٣م للواحد	—	—
نحاس قديم	٣ — ٥٠م للقطعة	٢٤م للقنطار	—	٣٠م للبالة	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
كمون	٦م للأردب	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—

بلح عجين (عجوة)	١٢- ٦٢م للقفة	—	—	١٠م للقفة	—	—	—	—	—	—	—	—
بلح جاف (تمر)		—	—	٢٢-٤٥ م للصندوق	١٠ م للقفص	٢٤ م للقفص	—	٣٠ م للجوال	—	٤ للقطعة	—	—
ديمتي منقوش (أقمشة)	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
أغطية فراش مطرزة من دمياط	—	٢٠م للواحد	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
» » » »	—	١٠م للواحد	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
عقاقير طبية	—	—	—	٦٠ للبالة	٦ ٪	—	٩ — ٢٤م للحمولة	—	—	—	—	—
ليف النخل	٥ م للقنطار	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
قشر الرمان	—	١٦م للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
أقمشة	—	—	—			—	٩ — ٢٤م للحمولة	—	—	—	—	—
أقمشة من دمياط والمحلة الكبيرة	—	١ ٣/٥ م للقطعة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
أقمشة عنبرى شغل الاسكندرية ودمياط	—	٢ ١/٤ م للقطعة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
أقمشة صوفية	١٢٠ م لكل ١٠٠ قطعة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
أقمشة صوفية سوداء	٤٧ ١/٢ م لكل ١٠٠ قطعة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—

السلع	عندما تكون السلع قادمة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فإنها تخضع للرسوم المبينة فيما يلى						عندما تخرج السلع من المدن الموضحة وتكون مخصصة للاستهلاك داخل مصر فإنها تخضع للرسوم التالية					
	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس
				مدينى						مدينى		
أقمشة للحبرة من صنع المحلة	—	٢¼ م للقطعة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
دقيق	٦ م للاردب	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
فول	٧ م للاردب	—	—	١٠ للأردب	—	—	—	—	—	—	—	—
فراء من الجلد	٩٠ إلى ٣٦٠ م للواحد	—	—	٩٠ للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—
فوط وارد دمياط	—	١¼ — ٥ للواحدة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
جبن	٦ م للجرة	٢ - ٤٠ م للطرد	—	٢٠ للطرد	—	٢٤ م للحمولة	—	—	—	—	—	—
حنطه نابتة	٦ م للأردب	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
فواكه من الفيوم	٣ م للحمولة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—

صمغ إنتاج محلى	٢٧٠ للقفة الكبيرة و١٠ للصغيرة	٨٠ م للقنطار	—	—	—	—	—	٣٠ م للحصيرة	—	—	—	—
بذور القطن	—	—	—	—	—	—	٨ م للاردب	—	—	—	—	—
« اللفت	١٢م للاردب	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
« زُرعة	١ م للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
« النيلة	٢٠ م البالة	—	—	—	—	—	٣٦٠ م للاردب	—	—	—	—	—
« الكتان	½م للاردب	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
الرمان	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
علف من أصناف مختلفة	¾ إلى ١٥ م للاردب	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
حب العزيز[1]	—	٩ م لكل ١٠٠ رطل	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
حناء	—	—	—	—	—	—	—	—	—	١٠ لكل جوالين	—	—
زيت الكتان	٥٠–٣م الجرة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
زيت اللفت	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
زيت السمسم	٥ — ٤٠ م الجرة	٣ـ ١٦م الجرة	—	١٥ الجرة	—	—	—	—	—	—	—	—

(١) درنات صغيرة تزرع فى مصر السفلى وتقترب فى مذاقها من الكستناء .

السلع	عندما تكون السلع قادمة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فإنها تخضع للرسوم المبينة فيما يلى						عندما تخرج السلع من المدن الموضحة وتكون مخصصة للاستهلاك داخل مصر فإنها تخضع للرسوم التالية					
	مصر العتيقة	بولاق	الإسكندرية	رشيد	دمياط	السويس	مصر العتيقة	بولاق	الإسكندرية	رشيد	دمياط	السويس
				مدينى						مدينى		
حبوب النيلة وارد الصعيد	٢٦ م القنطار	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
« « « القاهرة	—	—	—	—	—	—	٥ م القفة	—	—	—	—	—
سمار لصنع الحصر	١١ م الحمولة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
صوف	—	—	—	٢ الكل قفتين	—	—	٩ - ٤٤ م الحمولة	—	—	—	—	—
عدس مجروش	—	—	—	—	—	—	٦ م الأردب	—	—	—	—	—
كتان	٢ م للبالة	—	—	٣٠ للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—
خشن	—	—	—	—	٢٥ م القنطار	—	—	—	—	—	—	—
كتان مغزول	٥ م الحمولة	—	—	٢٠ للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—
كتان على شكل رزم	١٠٠ الكل ٢٠٠ حزمة	—	—	١٠ للحزمة	—	—	—	—	—	—	—	—
كتان معبأ فى أجولة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٨ - ١٥ م للجوال	—	—
مكرونة وشعرية	—	—	—	—	—	—	٥ - ٢٤ م للحمولة	—	—	—	—	—

سلع من كل نوع مصدرة إلى مصر العليا	—	—	—	—	—	—	٩-٢٤م للحمولة	—	—	—	—	—
قدور من الفخار	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
عسل اسود	٥-٣٦م الجرة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
شمام	٦٠ - ١٢٠ م للبرميل الكبير	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
عسل نحل	٥ - ٤٠ م الجرة	٢ - ٢٥ م الجرة	--	٢٠م الجرة	—	—	—	—	—	—	—	—
مناديل حرير « للسيدات	— —	٥م الواحد ٢٥ لكل ١٠٠	— —	— —	— —	— —	— —	— —	— —	— —	— —	— —
خراف	—	—	—	—	—	كيلو لحم عن كل واحد	—	—	—	—	—	—
حصر من الفيوم	٢م الحمولة	—	—	—	—	—	٢٥ م لكل ١٠٠ حزمة	—	—	—	—	—
بيض	بيضة ومديني لكل ١٠٠	٥م للسلة	—	—	—	٢٤ م الحمولة و ٥٠ بيضة لكل قفصين	—	—	—	—	—	—
بيض وارد جرجا	١٤٦م للقفص	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—

السلع	عندما تكون السلع قادمة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فإنها تخضع للرسوم المبينة فيما يلى						عندما تخرج السلع من المدن الموضحة وتكون مخصصة للاستهلاك داخل مصر فإنها تخضع للرسوم التالية					
	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس
				مدينى						مدينى		
بصل	٢ مدينى الجوال	—	—	—	—	٢٤ م الحمولة	—	—	—	—	—	—
برتقال	—	—	—	—	٤٠ م الصندوق	—	—	—	—	—	—	—
شعير	٧ م الاردب	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
بطيخ	٥ م الحمولة	—	—	—	—	٢٤ م الحمولة	—	—	—	—	—	—
جلود ماعز	٩ م البالة	٨ م للبالة	—	٣٠ الحزمة	—	—	—	—	—	—	—	—
جلود خراف	٩ م البالة	٨ م للبالة	—	—	٣ مدينى لكل ١٠٠ جلد	—	—	—	—	—	—	—
جلود رقيقة	—	١ م لكل ٢	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
جلود طازجة	—	١/٨ م للواحد	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
حجر كدان (حجرهش)	٢٠ قرشا للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—

سمك مملح	—	—	—	—	—	—	٩- ٢٤م للحمولة	—	—	—	—	—
سمك جاف	١٠ ٪	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
دجاج	—	٢م للقفص	—	—	—	دجاجة لكل قفص	—	—	—	—	—	—
عنب	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
مواقد فخارية	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
عرقسوس	٣٠-١٢٦م م للبالة	—	—	١٠ للقفة	شرحه	—	—	—	—	—	--	—
أرز	—	٢½ - ٥ مدينى للجوال	—	—	—	—	٦٠م الأردب	—	—	١¼ إلى ٢٠ م للجوال	—	—
زعفران	١ رطل للقنطار ١ مدينى للبالة	—	—	—	—	—	—	—	—	٩٠ للبالة	—	—
ملح البارود	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—			
ملح	—	—	—	—	٢ م الأردب	—	٩ إلى ٢٤ م الحمولة	—	—	—	—	—
ملح النوشادر	—	١ ٣/٢ م للقالب	—	—		—	—	—	—	٦٠ البالة	—	—

السلع	عندما تكون السلع قادمة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فانها تخضع للرسوم المبينة فيما يلى						عندما تخرج السلع من المدن الموضحة وتكون مخصصة للاستهلاك داخل مصر فانها تخضع للرسوم التاليـــة					
	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس	مصر العتيقة	بولاق	الاسكندرية	رشيد	دمياط	السويس
				مدينى						مدينى		
ملح الشبة	٥ م القنطار	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
ملح البارود	—	—	—	—	٦ ٪	—	—	—	—	—	—	—
ملح النطرون	٤٠ م الحمولة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
سنامكى	١٢م الحصيرة	—	—	—	—	—	—	—	—	٩٠ البالة	—	—
خيش	—	—	—	٢٠ البالة	—	—	—	—	—	٢ اللفة	—	—
سمسم	١٥ م الأردب	١٠ م الأردب	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
سكر	٣½ إلى ٢٢م القنطار	—	—	—	—	—	—	—	—	٤٥ البالة	—	—
أحزمة سرج صوفية	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
تبغ إنتاج محلى	٢٠ إلى ٢٧٠ م البالة	١٠ - ٣٠ م البالة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
قشر بلوط لتجهيز الجلود	٤ م الأردب	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
فناجين من الخزف	—	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
لوازم الخياطة	—	—	—	—	٤٥م البالة	—	—	—	—	—	—	—
أقمشة بيضاء	—	—	—	—	—	—	—	—	—	١ للقطعة	—	—

نشة زرقاء	—	—	—	--	—	—	—	—	—	١ للقطعة	—	—
« قطنية	—	١$\frac{1}{2}$ — ٤ م القطعة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
« كتانية	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
« ناعمة	٤ — ١٤ م لكل ١٠ قطع	—	—	—	شرحه	—	—	—	—	—	—	—
نارات للسيدات (خمار)	—	٢$\frac{1}{4}$ م للواحد	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—

ولكى تصبح الفكرة التى نقدمها عن تجارة مصر تامة ، كان لزاما علينا ان نقدم فى جدول اخير الارقام الدقيقة لعوائد الجمارك ، بالاضافة الى قيمة وحجم وطبيعة الواردات والصادرات التى تمت هناك خلال الاثنى عشر عاما التى سبقت وصولنا الى هذه البلاد ، وان كان المديرون الفرنسيون الذين عيناهم فى كل ديوان عقب وصولنا ، لم يقدموا لنا بشكل يبعث على الرضـــا ، ما طالبناهم به من بيـــانات مستخلصة من السجلات التى كانت توضـــــح دخول وخروج السلع خلال هذه الحقبة من الزمن . وقد أخبرنا المدير الفرنسى لجمرك الاسكندرية ان مراقبى الصحة قد احرقوا أوراق سلفه واوراق الجمرك كله لان سلفه هذا قد مات اثر اصابته بالطاعون . اما مديرا جمركى دمياط والسويس فقد سلما الينا بيانين لا يشيران مطلقا الى قيمة او طبيعـــة او حجم السلع الموردة او المصدرة ، وان كنا نستطيع استنادا اليهما ان نتعرف فقط على حصيلة الرسوم التى حققها هذان الجمركان منذ العام ١٢٠١ وحتى العـــام ١٢١٢ من الهجرة أى العام السادس من قيام الجمهورية الفرنسية (١٧٩٧) ، وبيان هذه الحصيلة كما يلى :

السنة الهجرية	دمياط			السويس	
	واردات	صادرات	إجمالى	واردات	صادرات
	مدينى	مدينى	مدينى	مدينى	
١٢٠١	٨,٤٢٧,٩٠٧	٥٣٢,٠٠٣	٨,٩٥٩,٩١٠	٤١,٦٥٧,٥٢٧	لم تكن
١٢٠٢	٨,٩٠٧,٥٤٠	٨٤٥,٢٤٤	٩,٧٥٢,٧٨٤	٤٣,٣٧٥,٩٤٣	الصادرات
١٢٠٣	٨,٠٠٦,٩٢٠	٦٨٨,٧٢١	٨,٦٩٥,٦٤١	٥٠,٠٩٦,٦٨٢	تخضع لأى
١٢٠٤	٧,٣٨٣,٠٨٥	١,٣٠٩,١١٣	٨,٦٩٢,١٩٨	٢٨,٤٨٤,٣٥٨	رســـوم
١٢٠٥	—	—	—	٣٥,١٧٦,٨٩٩	
١٢٠٦	١٠,٧٥٨,٩٨٤	٣,٠٢٤,١٠١	١٣,٧٨٣,٠٨٥	٣٩,٥٢٦,٤٩٢	
١٢٠٧	١٢,٠٢٨,١٧٧	٤٦٦,٣٠٢	١٢,٤٩٤,٤٧٩	٤٣,٧٨٣,٢٩٢	
١٢٠٨	٩,٦٣٥,٤٠٥	٣١٢,٨٨٢	٩,٩٤٨,٢٨٧	٢٧,٣٥٧,٢٨٦	
١٢٠٩	١١,٨٩٥,١٠٨	٨٣,٦٨٨	١١,٩٧٨,٧٩٦	١٧,٢٥٤,٩٨٥	
١٢١٠	١٣,٨٠٢,٧٤٥	٨٧٣,٣١٧	١٤,٦٧٦,٠٦٢	٤٤,٣١٠,٨٥٨	
١٢١١	١٤,٦٣٣,٧٢٨	٢,٠٣١,٤٥٦	١٦,٦٦٥,١٨٤	٣٦,٥٩٤,٦١٢	
١٢١٢	١٠,٧٣٧,٤٨٨	٦٤٥,٢٣٢	١١,٣٨٢,٧٢٠	٣٤,٤٩٥,٥٧٥	
	١١٦,٢١٧,٠٨٧	١٠,٨١٢,٠٥٩	١٢٧,٠٢٩,١٤٦	٤٤٢,١١٤,٥٠٩	
المتوسط السنوى	١٠,٥٦٥,١٩٠	٩٨٢,٩١٤	١١,٥٤٨,١٠٤	٣٦,٨٤٢,٨٧٦	

ملاحظـــات :

(١) لم تحقق السنة القمرية ١٢٠٥ من الهجرة أى عائد فى دمياط لأنها واحده من السنوات التى اكتشف المحاسبون المصريون انهم يفقدونها كل ٣٣ سنة لأنهم لا يقدرون الضرائب الا بحساب السنوات الشمسية . ومع ذلك فلم تكن أى من هذه السنوات القمريه الاثنتى عشرة فيما يختص بجمـــرك السويس هى تلك التى تفقدها الادارة التركيه للجمرك كل ٣٣ عاما بالمثل .

(٢) اذا كان المماليك يجنون فى السنوات الاخيرة ستة ملايين من التزام الجمارك ، كما أكد لنا البعض ذلك ، فلابد أن رجال الجمارك كانوا يرتكبون الكثير من المظالم ، اذ أن حصيلة الرســوم المسجلة ، وفقا لمـا لدينا من بيانات ، لم تتجاوز أكثر من ثلاثة ملايين .

وتساوى معا ٤٨ر٣٩٠ر٩٨٠ مدينى	٤٨ر٣٩٠ر٩٨٠
ويزعم تجار القاهرة أن حصيلة جمرك الاسكندرية هى نفسها تقريبا نفس حصيلة جمرك دمياط ، واذا تبنينا هذا الرأى نجد لدينا	١١ر٥٤٨ر١٠٤
الرسوم المحصلة فى الجمارك بما فيها عوائد جمركى بولاق ومصر العتيقة والتى يقال انها تصل الى نحو	١٥ر٠٠٠ر٠٠٠
فلا تنتج سنويا سوى	٧٤ر٩٣٩ر٠٨٤
تعادل بالجنيهات الطورية	١٨ ر٣٥٣ر٦٤٣ر٢(١)
وبالفرنكات	٩٠ ر٧١٩ر٦١٠ر٢

ثانيا — رسوم متفرقة

أما الرسوم الأخرى التى انشأها السلطان سليمان ، نهى تلك التى نوضحها فى الجدول التالى :

البحرين : وهو خاص بأوجاق العزبان والذى يدفع عنه لخزينة السلطان ميرى قدره . . . ٩٩٢ر٩٦٤(٢)

الخردة : وهو خاص بنفس الأوجاق الذى يسدد عنه ميرى قدره ١٧٤ر٩٠٨

رسوم على لبسط العنبر والسنامكى وهى

(١) كان المماليك فى المدة الأخير يحصلون ضرائب من الجمارك تصل إلى ستة ملايين – كما ضمنا نحن ذلك لأنفسنا -. وطبقنا لرؤيتنا الخاصة ، فقد كانت الرسوم المدونة لا تصل إلى ثلاثة ملايين ، وعلى ذلك فقد استخدم موظفى الجمارك نوعا من الابتزاز والضغط

(٢) لكن هذا الاوجاق لم يكن يدفع عن هذا الرسم من مال ميرى سوى ٩٩٢ر٨٠٤ مدينى ، لأن الباشا قد استجاب لطلبات هذا الأوجاق وأعفاه من مبلغ ١٦٠ر٠٠٠ مدينى .

(وكانت هذه ملاحظة وضعت بجوار الارقام ، وقد حولتها الى هامش زيادة فى التبسيط . المترجم)

خاصة بأوجاق الانكشارية الذى يدفع عنها مال ميرى
قــــدره . . . . ٦٦٦ر٩٠،١
رسوم على الجزارين فى الاسكندرية وتخص
أوجاق الجاويشية الذى يدفع عنها ميرى قــــدره ٢٥٦ر٤٣

اجمالى المال الميرى المقرر على هذه الرسوم ٥٨٨ر٨١٨ر٢ مدينى

	د	س	
تعــادل	٢	١٧	٦٦٣ر١٠٠ جنيها توريا
وبالفرنكات		١٤	٤٢١ر٩٩ فرنكا فرنسيا

ومن المفترض ان رسوم البحرين قد وصلت الى القيمة التى وجدناها عليها عند وصولنا الى مصر ، عن طريق زيادات متتابعة . وقد وجــدناها تنقسم الى خمسة فروع : الأول والثانى والثالث وتشتمل على رســـــوم الغــلال التى تصل الى بولاق ومصر العتيقة ، أما الرابع والخــــامس فيشتملان على رسوم على كل المراكب التى تعمل على النيل وفى الثغــور والبحــيرات .

وكانت الخردة تحصـــــل على عروض اللهو العمــومية والمهرجين والمشعوذين والعوالم والطبالين وكذلك على الاضرحة وعلى كل الصــناع والتجار فى مدن كثيرة . وهذه الرسوم المضمنة داخل هذا البند والتى كانت تتضاعف دونما حد فى عهد البكوات لم تكن معروفة على ســـبيل الحصر بالنسبة للادارة الفرنسية ذلك انه عندما انشىء التزام لهذه الأنشطة لم يوضح ما كان يحصل منها لسداد الميرى المستحق عنها .

أما الرسوم المقررة على لب السنط والسنامكى فتعطى (لدافعهــا) الحق المطلق فى حصد هذين المحصولين وبيعهما . وينمو السنامكى تلقائيا عند مداخل الصحراء الممتدة الى جنوب اسوان . وكان يعهد بحق جمعــه عادة الى اشخاص يقومون بتداوله كسلعة تجــــارية . وكانت المراكب المستخدمة فى نقل هذا العقار الطبى تتمتــع ببعض الاعفــــاءات . وفى السنوات الأخيرة ، كان ثمة عائلة واحدة مناسنا تتعامل مع ملتزم الحكومة بخصوص جمع لب السنط ونقله الى القاهرة . وسواء يعود الأمر الى نقص فى الانتاج أو تم بسبب مضاربات كانت تستهدف رفع سعره فقد أصبحت

شحناته أقل حجما ، ذلك أن مصر كانت تهيىء لاوربا فيما مضى أكثر من الف وخمسمائة قنطار من السناكى فى حين تقلصت صادراتها الحالية منه الى ٨٠٠ أو ١٠٠٠ قنطار فقط . وكان لب السنط يخضع لنفس الاحتكار ، وكان ملاك الأشجار التى تنتجه مضطرين لبيعه للملتزم الذى حصل على حق التزامه من البكوات . وقلما كان يصدر الى العالم المسيحى لب السنط الذى تنتجه مصر ، اذ هو اقل جودة بكثير من ذلك الذى يصلنا من المستعمرات لأنهم فى مصر يجمعونه قبل تمام نضجه ، وتكاد تركيا تستهلك كل انتاجه .

وتتكون الرسوم المفروضة على جزارى الاسكندرية والقاهرة من أطراف وجلود ورءوس .. الخ الحيوانات التى تذبح هناك .

وقد أصبحت الحصيلة الموضحة فى الجدول الآتى بيانه مادة لالتـــزام مشابه للالتزام الذى انشىء للرسوم التى انتهينا من الحديث عنها بمجرد أن اقرها السلطان ، عندما اقر أولئك الذين استحدثوها على دفع ميرى عنها .

وسندخل فى بعض التفاصيل حول هذه الرسوم لأن البيانات الواردة بالجدول قد لا تكون كافية للتعريف بها .

	الميرى المقرر على الملتزمين	أماكن تحصيله
على دمغ الذهب والفضة . .	١٠ر٤٠٠	فى القاهرة
على مبيعات العبيد السود . .	١ر٦٢٢	«
على الحمامات التركية الخاصة .	١٢ر٦٨٥	«
على صنع ملح النوشادر . .	١ر٥٠٠	فى بولاق
على وكالة الزعفران . .	٥ر٠٠٠	«
على سبعة محلات جزارة لبيع الضأن	٥٠٠	«
على وكالة السمك المملح (السردين والفسيخ)	٣١٢	«
على الصيد فى البحيرة . .	٤٤ر٧٨٣	فى دمياط
على شيخ الدلالين . . .	١٥ر١٤٣	فى رشيد
على وكالة الباشا . . .	١ر٠٨٢	فى رشيد
على وكالة البهار . . .	٦٣ر٠٠٥	فى السويس
على الموقع الذى تصل إليه مراكب النيل	١٠٠	المحلة الكبيرة

	الميرى المقرر على الملتزمين	أماكن تحصيله
على وكالات القطن :		
. . .	١٣ر٢٣٦	فى بولاق
. . .	٥٠٠	فى دمياط
. . .	١ر٠٨٢	فى رشيد
على وكالات الأرز :		
. . .	١٨٢ر٢٢٥	فى دمياط
. . .	١ر٠٨٢	فى رشيد
الإجمالى . . .	٣٥٤ر٢٥٨	د س جت ويعادل ٥ ١ ١٢و٦٥٢ س ف وبالفرنكات ٩٠ ١٢,٤٩٥

وكان الرسم المقرر على دمغ الذهب والفضة يذهب الى ملتزم يحصل على أتاوة تفرض على تصنيع هذين المعدنين ، وكان هذا الملتزم يرسل قطع الذهب والفضة-بعد أن يستوثق من انهما بالعيار المطلوب - الى دار سك النقود حيث يختمها الاغا بخاتم الدمغة الذى فى حوزته . وكان الملتزم يجرى اختبارا للعمال الذين يريدون احتراف مهنة الصاغة ، ويفرض رسما على من يقبلهم داخل هذه الحرفة . وكانت عوائد هذا الرسم فى مدن الاسكندرية ورشيد ودمياط والمنصورة وبلبيس والسويس تدخل فى دائرة التزامه ، وكان يحصل هذه العوائد بنفسه فى القاهرة حيث كان كل الصاغة فيما مضى يلزمون بالعمل هناك تحت رقابته فى وكالة واحدة .

وقد بدأ الصاغة محاولتهم التملص من هذه العادة التى تهدف الى منعهم من تزييف أو تحريف صنف المجوهرات والمصنوعات الذهبية التى يتداولها الناس حين حصلوا على اذن يسمح لهم بالعمل فى بيوتهم ، وبعد ذلك بدىء فى التغاضى عن تلك الضرورة التى كانت توجب عليهم أن يخضعوا مصنوعاتهم لدار سك النقود ، ومع ذلك فحين أخذ سكان الريف ينفرون من شراء أشياء ذهبية أو فضية غير مضمونة ، فقد التمس الملتزم الاذن له بحمل خاتم دمغة خاص به ، وحين تحقق له ذلك بدأ القوم يقبلون

بكل ثقة — وقد خدعهم التشابه بين هذه الدمغة وبين الدمغة القديمة — على شراء مجوهرات وحليا طبعت عليها هذه الدمغة ، وهكذا بدأت اشياء تباع باعتبارها ذهبا أو فضة خالصين فى حين أن تسعة أعشار سبيكتها مزيف ، وهكذا ايضاً بدأنا نرى الملتزم متواطئا مع الصاغة ليثرى بفعل هذه الخيانة الصارخة .

وبالمثل فقد كان الرسم المقرر على بيع العبيد حكرا على أحد الملتزمين، فلم يكن بالامكان بيعهم الا فى وكالة بعينها ، حيث كان وكيل هذا الملتزم يحصل على الرسم مقابل تسليم الحجة اللازمة لتسجيل البيع . وكان من الضرورى ان يوقع الملتزم هذه الحجة التى تبين جنس واسم العبد ، ومكان واسم البائع والمشترى ، وكانت تنتقل الى ايدى من يتناولون شراءه بعد ذلك، ثم تسلم الى العبد نفسه عندما يمنح حريته . وكان يكفى اعلان بعتقه يتم فى حضرة شهود ، كى يجعله متمتعا بكافة الحقوق الممنوحة لكل رعايا السلطان، ولم يكن هناك سوق ولا رسوم بالنسبة للعبيد البيض لأن المماليك الذين لا يتكاثرون الا عن طريق الشراء (*) كانوا يجدون من مصلحتهم أن يسهلوا عملية البيع .

أما رسم حمام الخاصة فيستمد اسمه أصلا من تلك الكراهية التى سيطرت طيلة الأزمان بين الأتراك وابناء القاهرة ، لذلك فقد أمر أحد البكوات بانشاء حمام عند سفح القلعة كى يتفادى المشاجرات التى كانت تنشب بين رجاله وبين المصريين فى الحمامات حيث كان الوضوء الذى حتمه القرآن يجذب الى هناك هؤلاء وأولئك . وقد عهد بملكية هذا الحمام الذى بنى لتفادى هذه اللقاءات الى أحد الملتزمين شريطة أن يجعل استخدامه مقصورا على الأتراك . لكن صيانة هذا الحمام لم تكن تقع على عاتقه.

وكانت ١٫٥٠٠ مدينى يدفعها للخزينة ملتزم ملح النوشادر تكفى لمنحه امتيازا تاما بصنع هذه المادة وبيعها ، وفيما مضى كانت توجد عدة مصانع مشابهة فى مصر السفلى ، لكن الامتياز الذى منح لمصنع بولاق قد الغى وجودها .

(*) تذكر بعض دراسات فى وصف مصر أن جو مصر لم يكن مناسبا لهؤلاء ، مما كان يترتب عليه أنهم لا ينجبون أو أن تموت الغالبية العظمى من ذريتهم . انظر المجلد الاول من الترجمة العربية ، الفصل الخاص بالمماليك . (المترجم)

أما زعفران مصر العليا القادم الى القاهرة ، فلم يكن بالمستطاع أيداعه الا فى وكالة تسمى وكالة الزعفران ، وتقع فى بولاق ، وكان يباع هناك بعد أن يجبى مالكها الرسوم المقررة عليه والتى كانت تجعل من حقه تلك الالاف الخمسة من المدينى ، التى كان يسددها للخزينة .

وكان الميرى المقرر على محلات الجزارة السبع ، لبيع الضأن يمنح أصحابها الحق فى بيع هذه السلعة الغذائية ببولاق بدون منافسة .

وتصل الى بولاق كمية هائلة من السمك المملح القادم من دمياط . ويتمتع صاحب الوكالة التى ينبغى أن يباع فيها ، بعد دفعـــــه ميرى يبلغ متوسطه ٣١٢ مدينى يسدده للخزينة بحق تحصيل بعض رسوم بســـيطة يدفعها اليه تجار السمك .

أما الصيد فى بحيرة دمياط (المنزلة) ، فهو احتكار كامل ، يدفـــع الملتزم عنه لخزانة السلطان ميرى قدره ٤٤٫٧٨٣ مدينى .

وقد استحدثت فى رشيد ،تقليدا لما هو حادث فى القـــاهره ، وظيفة شيخ الدلالين ، ويقوم هذا الرجل بتحصيل رسم على كل السماسرة الذين يقومون ببيع الملابس والبياضات والهلاهيل فى الأسواق العامة .

وكانت السلع التى تصل الى رشـــيد ، والتى كانت تودع فى وكالة الباشا ، تخضع لدفع رسم يسمى رسم اقامة لصالح ملتزم هذه المنشأة .

اما السلع التى كانت تصل الى السويس فلم يكن بالمستطاع تخزينها الا فى وكالة البحار حتىتقوم القوافل بنقلها الى القاهرة ، ومقابل هذا التخزين، كان يتم تحصيل رسم لحساب الباشا ، على يد كاتب يرسله الى السويس للتعرف على أحجام الواردات ، وهـــذا الرسم مســتـــقل عن المصروفات الجمركيـــة .

وتخضع المراكب التى تقوم بالملاحة النيلية والتى تصل الى المحلة الكبيرة لدفع رسم بسيط لصالح الملتزم الذى يدفع عنذلك مبلغ الـــ ١٠٠ مدينىالمقرر كمال ميرى مقرر (على حصيلة هذا الرسم) .

وينطبق ما قلناه عن وكالة الزعفران ببولاق على وكالات القطن والارز الواقعة ببولاق ودمياط ورشيد . ولم يكن بمقدور هذه السلع أن تودع وأن تباع الا فى هذه المخازن حيث كان الملتزمون الذين يقومون بدفع الميرى المقرر والمبين (بالجدول) يحصلون على رسوم ايجار أو اقامة أنشـــئت لصـــالحهم .

وعادة ما كانت الجمارك (الصغرى) والرسوم المتفرقة الاخرى التى انتهينا من تناولها والتى انشأها السلطان سليمان ، أو تلك التى أدخلها خلفاؤه توكل الى أفراد كانوا هم ملتزميها . وحيث أن الباشا والاوجاقات الذين كانت هذه الرسوم قد فرضت فى الأصل لصالحهم قد بدأوا يفقدونها على التوالى ، رسما بعد آخر ، بسبب تزايد سطوه البكوات ، فقد باتت هذه الرسوم غنيمة للمماليك الذين كانت لهم القوة والنفوذ والاعتبار ، ومع ذلك فان هؤلاء المماليك ، على ما يبدو ، لم يغيروا من اغراض تلك الرسوم أو اهدافها ، لأن هؤلاء حين شغلوا الرتب العليا فى كل أوجاق لم يخصوا أنفسهم بتلك العوائد التى آلت اليهم الا باعتبارهم قد خلفوا الذين كانوا يشغلونها قبلهم ، وبخضوعهم كذلك لدفع الميرى (المقدر على حصيلة هذه الرسوم) .

وكانت توجد بالاضافة الى هذه الرسوم ، رسوم اخرى لم تكن تخضع لدفع الميرى ، وليست لها أية صلة بخزانة السلطان ، ومع ذلك فحيث كانت تشكل فيما يبدو جزءا من رواتب البكوات وآخرين من قادة المناطق ، وهم الذين انشأوها ، وحيث اعتاد الناس على سدادها ، فقد وضعها الفرنسيون فى مرتبة الرسوم التى أنشأها أو أقرها السلطان ، وواصلوا تحصيلها ، وسنوضحها فى الجدول التالى : ولقد كانت لهذه الرسوم نفس طبيعة الرسوم التى تخضع لدفع الميرى . ولم يكن هناك فرق بين هذه وتلك الا فى أن الأخيرة كان قد أقرها السلطان ، فى حين لم تكن تنقص الأخرى سوى موافقته .

وسنقدم بعض التفاصيل حول الرسوم التى لا تتيسر معرفتها على النحو الكافى فى البيانات الموضحة بالجدول .

بيان الرسوم	الأماكن التى تحصل فيها
رسم قاصر على بيع الملح ، . . .	فى بولاق
رسوم تسمى رسوم الاسكالبات وتفرض على السلع التى تصل فى مراكب قادمة من القرى الواقعة على شواطئ الفرع الشرقى للنيل فى مصر السفلى	»
رسوم سبك الفضة :	فى القاهرة
» على سوق الأغنام ودواب الحمل .	»
» على دباغة الجلود وتبيض الأقمشة .	»
» على نقش الأقمشة البلدية . .	»

بيان الرسوم	الأماكن التى تحصل فيها
رسوم على احتكار يقتصر على النطرون .	فى الطرانة بولاية البحيرة
« على الصيد :	
فى النيـــل . . .	فى القاهرة وبولاق ومصر العتيقة
فى بحـيرة المنـــزلة .	فى الإسكندرية
فى البـــوغاز . . .	فى رشيد
« على صنع وبيع المشروبات الروحية .	فى القاهرة والاسكندرية ودمياط والمحلة الكبيرة
« تسمى السردارية والجاويشية أو رسوم الحاكم	فى دمياط ورشيد
« الحملة أو رسوم على الأسواق . .	فى رشيد ودمياط والمحلة الكبيرة وسمنود والمنصورة
« احتساب أو رسوم على السلع الغذائيـة الداخلة إلى	الإسكندرية ، رشيد ، المحلة الكبيرة
« على الحبوب التى تدخل إلى الى المدن الموضحة لكى تباع هناك . .	باب الشعرية، وهى سوق القاهرة، الإسكندرية ، ودمياط ، رشيد
« تسمى إيجار أو إقامة وتقرر على السلع الموضحة وتحصل فى الوكالات المسماة :	
الصابون وبذور النيلة .	فى القاهرة
السكر	فى بولاق
الأرز	«
النيـلة. . . .	«
بذور البرسيم والكتان والزعفـران . .	«
تقاوى هذه المحاصيل .	«
زيت الكتان .	فى دمياط
البلح الجاف (التمر) .	«
« تحصل عند دخول القطن . .	فى بولاق ودمياط والمنصورة
« على خروج الأقمشـة المصنوعة .	فى المحلة الكبيرة
« على الحبوب والكتاكيت التى أفرخت فى المعـامـل	

ولا يصنع الملح الا على سواحل مصر السفلى وبخاصة فى رشيد. وكان الفلاحون الذين يلتقطونه الملتزمون بتسليمه بسعر محدد الى ملتزم عينته الحكومة ، كان هو — صاحب الامتياز الوحيد في توزيعه فىبولاق بسعر اعلى ، لكنه محدد بالمثل . وقد الحقت بهذا الامتياز رسوم لم يكن هناك حد لزيادتها على المأكولات والاعلاف والمواشي والفواكه .. الخ التى تباع فى اسواق عدد كبير من القرى . وليس لدينا ما يفسر هذا الخلط والتعقيد فى سياسة فرض الرسوم ، و يعتقد البعض ان احتكار الملح كان يدخل فيما مضى ضمن الخردة ، وان الزيادات المستجدة التى الحقت بهذا الرسم (الخردة) هى التى جعلته هائلا لهذا الحد ، وعندما تم تقسيم هذا الرسم بين اثنين من المماليك الأقوياء فان الذى جاء احتكار الملح منهما ضمن نصيبه ، لم يعد ملزما بدفع الميرى .

وكان يتم تجهيز الذهب والفضة المخصصين لاعمال التطريز وغيرها من الأشغال ، فى مكان يتوفر به كل ما هو ضرورى لذلك ، ويدفع الصانع الذى يشتغل فيهما للملتزم رسما يعرف باسم كحل الفضة . أما الرسوم التى تفرض على سن الفيل واصداف الحلى وقرون الكركدن الخ فكانت تحمل نفس هذا الاسم دون أن ندرك ما الذى يجمع بين اشياء كهذه لا تربطها فيما بينها اية رابطة .

ويؤخذ النطرون من البحيرات التابعة لقرية الطرانة ، ويدفع الفلاحون الضرائب المقررة عليهم (عينا) من هذا الملح ، وهم بذلك يزودون الملتزم بدخل اكيد ، اذ ان كل قرى مصر السفلى كانت ملزمة بشراء كمية محددة منه سنويا وبسعر محدد . ومنذ بضع سنوات ، حين أصبحت فرنسا وايطاليا وانجلترا تتزود بالنطرون من مصر ، أعطى البك الملتزم التزام تحصيل رسم النطرون الى المسيو روزتى Rosetti التاجر البندقى الذى توسع فى استغلال النطرون بدرجة هائلة ، والذى كان يبيعه فى أسواق التجارة الخارجية بسعر أدنى من السعر الذى يفرضه على أبناء البلاد وينظر الى النطرون فى مصر ، باعتباره مادة ذات ضرورة أولية ، بسبب استخدامه فى تبييض الكتان والأقمشة .

ولم تكن المشروبات الروحية والمسكرة عموما تصنع الا فى بيوت الأقباط واليهود ، ولم يكن بوسع الحكومة أن تبيح تداولها اذ يحرم القرآن

تناولها على المسلمين ، لكن اغا الانكشارية ، بعد ان حصل على اتاوات هائلة ، لم يكن ليخشى على الاطلاق أن ينتهك شريعة النبى ، وبدأ يتغاضى عن بيعها داخل حانات غير ظاهرة .

وقد يستحيل علينا أن نجد ضربا من ضروب الصناعة او التجارة يعفى من رسوم مشابهة أو مماثلة لتلك التى انتهينا من التعريف بها . وكان الملتزمون والبكوات والسردارات والاغوات حكام المواقع يضاعفون من هذه الرسوم فى المناطق التى تخضع لسلطتهم ما ان يجدوا الفرصة سانحة لذلك . من هنا كان هذا التعقيد المحير والذى لا يدع لنا الوسيلة الواضحة لتبين الاعباء التى اثقل بها هؤلاء وأولئك كاهل المصريين . وكانت الرسوم التى يفرضها الملتزمون على مواد الاستهلاك فى قراهم ضئيلة الأهمية، وتعرف باسم حملة. وعلى العموم فلقد كانت تكبل التاجر والزارع فى كل خطوة يخطوها اتاوات وضرائب باهظة . لكن الفرنسين لم يجبوا الا تلك الضرائب التى انتهينا من بيانها ، فلقد أهملوا تحصيل العدد الاكبر من الرسوم اما لانها لم تكن معروفة لنا على الاطلاق ، واما لاننا وجدناها استبدادية تجاوزت كل حد مفترض ، وبالمثل فقد عدلوا عن تحصيل رسم الحملة فى كل القرى التى اصبح الفرنسيون ملتزمين بها .

الفصـــل الرابـــع

الضرائب على الأشـــخاص

يخضع رعايا السلطان من غير المسلمين لضريبة شخصية تســـمى الخراج (الجزية) طبقا لنص وارد فى القرآن ، يخضع لهذه الضريبة سكان البلاد التى تخضع لاتباع محمد ، حين لا يعتنق هؤلاء الدين الاســـلامى . وهناك تقدير بأن ضريبة الخراج كانت مفروضة على ٩٠٫٠٠٠ (تسعين الف) نفس ، ويقوم بجبايتها أغا ترسله القسطنطينية كل عام . وكان يصل الى مصر ومعه عدد مماثل من الحوالات أو صكوك السداد ، مؤشرا عليها بالأحرف الأولى ومسجلة ومدموغة فى وزارة المالية ، وعليها ختمه وختم اثنين من الشهود يصحبانه كمساعدين له . وكانت هذه الصكوك تجدد كل عام ، وتكون الوانها على التعاقب حمراء ، أو بيضاء ، أو صفراء ، وقد صممت هذه البطاقات بحيث تكون :

٩٫٠٠٠ بو طاقة منها مخصصة للطبقة الغنية .

و ١٨٫٠٠٠بو طاقة منها لمحدودى الدخل ؛

و ٦٣٫٠٠٠بو طاقة منها للمعـــوزين .

ويقوم الاغا بتسلم هذه الصكوك الى المولين بعد ان يسجل اسماءهم وبياناتهم ، محصلا ٥٥٣ مدينى عن كل واحد من الطبقة الأولى ، و٢٨٣مدينى عن الواحد من الطبقة الثانية ، و١٤٣ عن الفرد الواحد من الطبقة الاخيرة. لكن اللوائح لم تكن تلزمه أن يسدد من هذه الضريبة ، طبقا لعادة روعيت فيها مصالحه ، وتبعا لهذا المعدل ، سوى : ٤٤٠ مدينى ، ٢٢٠مدينى، و١١٠ مدينى (على التوالى) .

وكانت صكوك السدادتبقى بأيدى المولين من الاقباط واليهود ، وكانت تشكل بالنسبة لهم وعلى نحو ما نوعا من الحماية ، فلم يكن لهمأى حق فى حماية السلطان اذا ما اهملوا الاحتفاظ بها .

وعندما كان يتم تحصيلها ، كان الاغا يتولى تنظيم حســــــاباته مـــع الروزنامجى . وكانت الـــ ٩٠٫٠٠٠ حوالة أو صك تحسب طبقا للمبـــالغ التى كان من المقرر أن تعود بها بحسب معدلاتها المبدئية(١) . ركان يستنزل من هذه الحوالات :

١ ــ الحوالات التى لم يتم استخدامها .

٢ ــ مصروفات وراتب افندى الجوالى المكلف بالتحصيل .

٣ ــ المعاشات التى يحددها السلطان خصما من حصيلة الخـــراج وتبلغ ١٦ كيسا مصريا أو ٤٠٠٫٠٠٠ مدينى .

وبعد ذلك يسدد الاغا الميرى المقرر على وظيفته وقدره ٢٫٥٠٩٫٠٨١ مدينى تساوى ٩ د ٨٩٫٦١٠ جنيها توريا أو ٧٥ س ٨٨٫٥٠٣ فرنكا .

---

(١)	٩٫٠٠٠	بواقع ٤٤٠ مدينى	. . . .	٣٫٩٦٠٫٠٠٠	مدينى
	١٨٫٠٠٠	بواقع ٢٢٠ مدينى	. . . .	٣٫٩٦٠٫٠٠٠	مدينى
	٦٣٫٠٠٠	بواقع ١١٠ مدينى	. . . .	٦٫٩٣٠٫٠٠٠	مدينى
		الاجمالى	. . . .	١٤٫٨٥٠٫٠٠٠	مدينى

وقد يدفع هذا الميرى على الاعتقاد بأنه كان يستقى الفائض لصالحه اذا ما بلغت الحصيلة لحد أعلى من المقرر لها ، ومع ذلك فمن الثابت أنه لم تكن له أى مكاسب الا رسم العادة الذى قدمنا تفاصيله من قبل ، كما أن المبالغ التى كانت تتجاوز الأرصدة التى تمنحها مصروفات التحصيل وكذا المعاشات والميرى ، كانت تضاف الى الخزنة التى ترسل الى السلطان.

وعادة ما كان الاغا يعطى التزام تحصيل الخراج المقرر على أقباط ويهود مصر العليا الى البك حاكم جرجا ، دون أن يسلمه الحصة المحددة من الحوالات التى كان يحملها، لكن أقباط ويهود هذه المنطقة كانوا يحصلون من هذا البك على حوالات خاصة لها نفس الثمن ونفس الفاعلية اللتين كانتا لتلك التى يوزعها الاغا . وكان الأخير ، حين يحتسب قيمه هذه الحوالات التى احتفظ بها لنفسه ، عند تقديمه الحساب الى الروزنامجى ، يتمكن من زيادة دخوله بشكل هائل عن طريق عملية التدليس هذه .

وكان عدد الحوالات التى ترد عن الباب العالى يتخذ أساسا لتقدير عدد الشعب القبطى على نحو تقريبى(١) دون أن يدخل فى ذلك ما انتهينا من قوله عن مصر العليا وعن الاعفاءات التى كانت تمنح بسهولة بالغة لأى واحد من الأقباط او اليهود التحق بخدمة المسلمين وقناصل الدول الاوربية. ومن الضرورى بخلاف ذلك أن نلاحظ أن النساء والأطفال ، الذين تقدر اعمارهم بأقل من١٢ عاما ، لم يكونوا خاضعين لهذه الضريبة . وكانت غيبة سجلات خاصة بالمواليد تؤدى لأن يتم تقدير أعمارهم عن طريق قياس قامتهم(٢) .

ولم ندخل فى عداد الضرائب التى تجبى لصالح السلطان رسما يسمى بيت المال ، كان يتشكل من اجمالى تركات رعايا السلطان ، اقباطا كانوا أم يهودا أو مسلمين ، حين يموتون دون أن يتركوا ورثة ، ذلك لأن هذا الرسم لم يكن يفسح مكانا لأى ميرى ، وفيما مضى ، كانت حصيلة هذا الرسم ترسل

---

(١) لن نتحدث عن يهود أو أروام سوريا والارخبيل بسبب ضآلة عددهم ، كذلك لن نتناول الافرنج لأنهم لم يكونوا خاضعين لهذه الضريبة .

(٢) كان مع المحصل حبل صغير بطول قامة طفل اقل من ١٢ سنة. وكان كل و أولئك الأطفال الذين تتجاوز رءوسهم طول هذا الحبل يدخلون فى عداد المولين .

الى القسطنطينية حيث لا يستطيع السلطان ان يستخدمها الا فى أغراض الدفاع عن الاسلام . وقد نص القرآن على تحصيل هذا الرسم وبين طريقة استخدامه . اما فى الأزمنة الأخيرة ، فكان البكوات يأمرون بجبايتها دون مبالاة بالباب العالى ، فما أن كان يموت أحد السكان الموسرين بعض الشىء حتى يسارعوا بوضع مسمار ضخم على باب بيت المتوفى بغض النظر عما ان كان له أو ليس له ورثة ، وفى الحالة الثانية كانت تؤول اليهم كل تركته ، اما فى الحالة الأولى فكانوا يفرضون مبلغا كبيرا من المال مقابل رفع هذه الحراسة (القضائية) .

الفصل الخامس

موجز بدخول السلطان

لم تكن مبادىء الادارة العثمانية ، التى هى مختلفة عما لدينا ، والتى كانت تجلب لصناديق الخزانة العامة اجمالى دخول الدولة ، لتسوق الى هذه الخزانة الا الاموال التى تخصص اما لانفاقات بعينها ، واما للتوفير ، ويبدو ان عملية الجباية ، وهى التى كانت تترك لوكلاء السلطة واصحاب الاقطاعيات (الملتزمين) ، لم تكن لتشغل الحاكم الا بخصوص ما يطلبه هو من هؤلاء التابعين له ، أما ما يتبقى معهم بعد الوفاء بمال السلطان وبعد تغطية الانفاقات التى كان يضعها على عاتقهم ، فكان يترك كله لصالحهم الخاص . وعلى هذا ، فاننا عند قيامنا باجراء مطابقة لمختلف الجداول التى قدمناها لكى نتبين اجمالى حصيلة الضرائب التى تجبى من مصر ، تبين لنا ان دخول السلطان لم تكن تشتمل الا على عوائد الميرى ، ويتكون على النحو التالى :

		بالمدينى	بالجنيه التورى	بالفرنك
عن الميرى المقرر على الأطيان :				
القرى	٨٠٫٠١٧٫٨٩٠			
الأوقاف	٤٤٢٫١٧٨			
			د س	س
عن الميرى المقرر على الوظائف		٨٠٫٤٦٠٫٠٦٨	١ ١٧ ٢٫٨٧٣٫٥٧٣	٦٣ ٢٫٨٣٨٫٠٩٧
عن الميرى المقرر على الصناعة والتجارة		١٠٫٨٧٠٫٧٧٣	١٠ ١٧ ٣٨٨٫٢٤١	٧٩ ٣٨٣٫٤٤٨
:				
من الجمارك . . ١٩٫٤٤٥٫٤٨٦ / ١٩٣٫٤٧٣	١٩٫٦٣٨٫٩٥٩			
من رسوم أنشأها السلطان . .	٢٫٨١٨٫٥٨٨			
من رسوم لم ينشئها ولكنه أقرها .	٣٥٤٫٢٥٨			
. . . . . .		٢٢٫٨١١٫٨٠٥	٥ ٦ ٨١٤٫٧٠٧	٣١ ٨٠٤٫٦٤٩
عن الميرى المقرر على الأشخاص		٢٫٥٠٩٫٠٨١	٩ — ٨٩٫٦١٠	٧٤ ٨٨٫٥٠٣
الإجمالى		١١٦٫٦٥١٫٧٢٧	١ ٢ ٤٫١٦٦٫١٣٣	٤٧ ٤٫١١٤٫٦٩٩

ومهما يكن شأن فائض الضرائب العامة ، فحيث كان يتم تحصيلها لحساب البكوات والشخصيات الأخرى ، الذين يفترض ان السلطان قد خصصها لهم ، فان هذه الحصيلة لم تكن لتنشىء الا ادارات و تنظيمات خصوصية .

ويقودنا هذا التوضيح ، الذى يفصل بطريقة محددة بين دخول السلطان ، وعوائد الملاك وحكام المناطق ، الذين يعهدون بجبايتها وادارتها الى مباشرين اقباط ، والذى بدونه ، لن نجد فى حوزتنا سوى خليط مضطرب ومشوش عن الادارة المصرية ، يقودنا الى بعض التفاصيل حول وظائف الروزنامجى ، وهو الجابى العمومى لأموال السلطان ، وكذلك حول وظائف الافندية الموكلين بالجباية .

كان الروزنامجى يعين من قبل الباشا بترشيح من الديوان ، وكان يختار من بين الروزنامة ، أى هيئة الافندية التى أدخلها فى مصر السلطان سليمان لادارة مالية الباب (العالى) . وكان يصب فى صندوقه المال الميرى المقرر على الاراضى وعلى الوظائف وعلى الصناعة والتجارة عن طريق الابداعات التى كان يضعها الملتزمون وحكام المواقع بين يديه ، أما الضرائب على الأشخاص فكانت تصل حصيلتها الى خزينته عن طريق الاغا الموكل بجباية هذه الضريبة بصفة خاصة . وكانت عمليات الروزنامجى تدار بمقتضى لوائح توزع مختلف فروع اختصاصه على أفندية تابعين له .

وقد سبق لنا أن سمينا وظائف اهم هؤلاء ، مثل أفندى الشرقية ، وأفندى الغربية ، وافندى الشهر وافندى الغلال الخ كما سبق أن بينا بالتفصيل مختلف الوظائف ومختلف الرسوم التى كانت تخضع لدفع المال الميرى والتى دونت فى سجل يمسكه أفندى يسمى حلفا . ولم يكن الملتزمون الجدد ، عند كل عملية نقل حيازة (بالشراء أو الارث) يحصلون على حق التمتعبالرسوم والعادات التى كان يتمتع بها أسلافهم الا بعد حصولهم من الباشا على حجة تسمى تذاكر التمكنات ، كان لابد أن يسجلها هذا الموظف ، وكان هؤلاء الأفندية يخطرون المولين بما عليهم أن يسددوه ، لكنهم لم يكونوا يحصلون شيئا بأنفسهم ، وكان عملهم يقتصر على تسليم مخالصة للممولين توضح أنهم قد دفعوا للروزنامجى الميرى المقرر عليهم . وكانت اخطارات الدفع الموجهة الى الملتزمين تبين اجمالى الضرائب المقررة عليهم ، لكن الروزنامجى لم يكن

أيقر هذه الاخطارات الا بعد أن يقوم بمطابقتها ، اذ كان من الضرورى أن تنطبق بيانات هذه الاخطارات مع السجل العام للملكيات والرسوم الخاضعه للميرى ، وهو السجل الذى يمسكه الباش حلفا ، أى الموظف الاول لدى الروزنامجى ، اذ أن الدفاتر التى كان يستخدمها الأفندية أساسا لتوزيع الضرائب لم تكن سوى أجزاء منسوخة من هذا السجل .

وحيث قد أوضحنا حصيلة الضرائب العمومية التى تؤول الى كل من السلطان والباشا والبكوات والكشاف حكام الولايات والموظفين الآخرين فى الدولة فانه يدخل فى موضوعنا هنا أن نعرف بالانفاقات العامة التى تقع على عاتق هؤلاء وسنعرض لذلك فى الباب التالى .

الباب الثانى

الإنفاقات العامة

الفصل الأول

انفاقات تقع على عاتق السلطان وتدفع خصما من الميرى

سوف نطابق الحصيلات من كل نوع ، والتى بيناها فى الموجز الذى قدمناه عن دخول السلطان ، مع الانفاقات المطلوبة .

وسوف نقدم حسبما تسمح لنا المعلومات التى بين أيدينا تفسيرات موجزة او مستفيضة عن اصل وغرض وبنود الانفاقات التى قد لا يتيسر لنا الالمام الكافى بها من مجرد تعدادها .

أولا : رواتب قررها السلطان لموظفين مختلفين ، بالاضافة الى الامتيازات من كل نوع ، والتى كانوا يتمتعون بها :

الى الباشا :

تقاوى البرسيم اللازم لعلف خيوله		
فى كوم الأحمر	١٧٠ر١ مدينى	
لحم ضأن	٨٣٠ر١٢٦	
خشب	٨٥٤ر٥	
ملح	٥٥٩ر٣	
ارجل ورءوس الخ الثيران والابقار		
التى تذبح للجزارة	٨٣٥ر٩	١٦٧٤٤٧
صابون	٧٩٣ر٣	
جرار (جرة)	٠١٠ر١	
لوكيل خراجه (مدبر اقامته) . .	٣٩٦ر١٥	

إلى الباشا :

أطلاق ولاية الجيزة ١٦٫٦٦٦

حبوب يحصل على ثمنها نقدا بشكل منتظم من ببنها ٤٣٫٢٠٠ مدينى تؤخذ من الخـــزنة . . . . . ٧٢٣٫٨٧٥

اجمالى ما يدفع للباشا . . . . ٩٠٧٫٩٨٨

الى البكوات :

تقاوى برسيم لعلف الخيول فى الاراضى التى جنبت لهم لهذا الفرض . . . . ١٦٫٢٩٤

الى أوجاق المتفرقة :

فى ولاية البحيرة . . . . ١٠٤٫٨٥٧

فى قرية سرنبـــاى خصما على الخزينـــة ٤٨٤

الاجمـــالى . . . . ١٠٥٫٣٤١

الى أوجاق الجاويشـــية . . . . ٩٨٦٫٤٤٤

الى الوالى أغا الشرطة بالقـــاهرة . . . . . ٣٠٩٫٠٠٠

الى أمين الاحتساب . . . . ١٩٫٤٩٧

الى الروزنامة أو هيئة الأفندية :

الى الروزنامجى والأفنـــدى المحتسب خصما من مشتريات الكتان . . ٢٨٫٠٠

الى الكتبة فى مكتب الروزنامجى . ٧٤٫٨٢٥

كجراية من الحنطة والشعير :

للروزنامجى	٢٧٫٦٥٠
للكتبـــة	٢٥٤٫١٠٤
للباش حلفـــا	٦١٫١٧٢
لأفندى الشرقية	١١٫١٢١
لأفندى الغربية	٣٣٫٣٦٧

لافندى الشـــهر ٤٥٤ر٦٤
لافندى الغلال ٩٩٠ر٣٩
اجمالى الجراية ٨٥٨ر٤٩١
اجمالى ما يدفع للروزنامة ٦٨٣ر٥٩٤

الاجمالى العام للنفقات التى تقع على عاتق السلطان ٢٤٧ر٩٣٩ر٢

د س

وهى تعادل ٢ . ٢ ٩٧٣ر١٠٤ جنيها توريا
وبالفرنكات ١٤ ٦٧٧ر١٠٣ فرنكا

وعلى الرغم من أن الراتب المخصص للباشا فى مقابل الاستهلاكات المتنوعة التى أوضحناها بالجدول جاء مقدرا بالمدينى ، فان السلطان كان قد قرر أن تسدد عينا . وكان مدير جمرك بولاق ، وأمين الاحتســـــاب ، وملتزم دمياط ، وهم الموكلون بتوفير السلع التى يتكون منها هذا الراتب ، يحصلون فى مقابلها على المبالغ المذكورة ، وعندما كانت قيمة هذه الاشياء تتجاوز المبلغ المعتمد لهذا الغرض كان على الباشا ان يحيطهم علما بذلك ، وكان على بقية الموظفين الذين يحصلون على جراية من الغلال أن يسلكوا نفس هذا السلوك .

وقد سبق لنا القول أن الاطلاق (أو الاطلاق) هى الاراضى المعفاة من كافة الضرائب ، وانها كانت تخصص لتوفير العليق لخيل الباشا والبكوات. وحيث طلب الملتزمون الذين تدخل أراضى الاطلاق هذه ضمن زمام قراهم أن يضموا هذه الاراضى الى أراضى الوسايا فقد خولوا ذلك مقابل مبلغ سنوى قدره ٦٦٦ر١٦ مدينى أوردناها بالجدول ،وقد أدخل هذا المبلغ ضمن المال الميرى المقرر على ولاية الجيزة .

وفى العام ١١٧٩ من الهجرة منح السلطان مصطفى للباشا راتبـــا اضافيا على نفقة الخزينة ، ويبلغ ٧٢٨ر١ أردبا من الحبوب تقدر قيمتهـــا بواقع سعر الاردب الواحد ٢٥ مدينى بـــ . . . ٢٠٠ر٤٣ مدينى

واذ كان هـــذا المبلغ يشـــكل زيادة على الـــ . ٦٧٥ر٦٨٠

وهى حصته من الميرى العينى المقرر على مصر
العليا والذى يقدر بـ ٢٧ر٢٢٧ اردبا بواقع سعر
للاردب يعادل نفس السعر السابق ، فان هذا
المبلغ يصل باجمالى الدخل الذى كان يتمتع به الباشا
الى . . . . ٧٢٣ر٨٧٥ مدينى
وهو المبلغ الموضح بالجدول .

وحيث قد أمر هذا السلطان نفسه ، فى نفس العام ، الا يدفع ثمن مشاقة الكتان التى ترسل كل عام الى القسطنطينية خصما على أرصدة الخزنة ، فقد أضيف ثمن هذه السلعة المشتراة الى مصروفات الميرى فى مقابل ٧٠٥ر٣٥٠ مدينى . وفى عام ١٢٠٠ من الهجرة ، عندما لاحظ القيطان باشا الذى استحوذ على السلطة المطلقة فى مصر ، ان هذا المبلغ غير كاف ، وان الباشوات كانوا قد ادخلوا عادة أن يستكملوا ثمن هذه السلعة خصما من الخزنة ، فقد اعاد من جديد النظام الذى كان متبعا قبل السلطان مصطفى . اى انه امر بأن يخصم ثمن مشاقة الكتان التى قد يطلبها السلطان من الخزنة اى من الاموال التى ترسل اليه . ولم يدع متبقيا على عاتق المال الميرى سوى الـ ٢٨ر٠٠٠ مدينى التى خصصها السلطان للروزنامجى والافندى المحتسب كخصم « تنزيل » يتم لحسابهم من المبالغ التى كانوا يستخدمونها فى القيام بمشتريات من نفس النوع .

ثانيا — مصروفات الجيش

روانب :

البكوات	٦٦٦ر٢٤٨	
الفرق الظافرة أو الاوجاقات . .	٢٦ر٢٥٨ر٠٢٦	
حاميات القلاع والطوابى . .	٢ر٧١٩ر٤٨٧	
حاميات قلاع الواحات بالقرب من أسوان	١١٣ر٧٣٠	
اجمالى الرواتب		٢٩ر٧٥٧ر٤٩١

المؤن :

البارود	١٠٩ر٧٤٦
الخشب كوقود لافران الخبز . .	٤ر٤٢٠

الاضــــاءة	٠٠٠ر١	
اجمالى نفقـــات المـــؤن		١٦٦ر١١٥
وبذا يبلغ اجمالى مصروفات الجيش		٦٥٧ر٨٧٢ر٢٩

	د	س	
وهى تعادل	١	١٢	٨٨٠ر٦٦ر١ جنيها نوريا
وبالفرنكات		٣١	٧٠٩ر٠٥٣ر١ فرنكا

وكانت اعتمادات الجيش توزع بطريقة يبلغ معها راتب كل جندى فى العام الواحد ١٨٢ ١/٢ مدينى ، فى حين كانت رواتب الضباط تتناسب مع رتبهم ، فكانوا يحصلون على ضعف أو ثلاثة أمثال هذا المبلغ بأقساط قيمة الواحد منها ١٨٢ ١/٢ مدينى تستحق الدفع بتفويضات على الخزينة العامة تسمى اوراق الجامكية (اى اوراق مرتبات) . وكان كل واحد من البكوات يحصل على ٦٦٦ر١ مدينى من هذه الاقساط بحيث تبلغ المعاشـــات التى كانوا يحصلون عليها فى الأصل : ٠٨٠ر٢٩٧ر٧ مدينى . ويؤكد البعض أن مرتبات (جامكية) الاوجاقات كانت تبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٠ مدينى . وكان البكوات والاوجاقات ينظرون الى هذه الجامكية باعتبارها ملكية خاصـــة وليست رواتب مستحقة لوظائفهم ، وحين قام هؤلاء ببيع او بالتنازل عن الجزء الاكبر منها فقد انتهى بها الامر أن تحولت الى سندات مستحقة لكل الحائزين لها فى حين اصبح من بين ملاكها أطفال ونساء . وان المرء ليجهل لماذا كانت الحكومة والباشا يتسامحون فى مثل هذه المبيعات ، وان كان لا يخامرنا شك فى أن المثال الذى قدمه كل من سليم وسليمان حينما خصصا أوراق مرتبات (أوجامكية) لصالح المساجد و المنشآت الخيرية ، قد برر فيما يبدو للاخرين أن يسلكوا سلوكا مشابها . ومهما يكن الأمر فان أوراق الجامكية الخاصة بالبكوات والاوجاقات ، والتى كانت لا تزال تبـــاع وقت مجىء الفرنسيين لم تكن تتجاوز المبالغ التى بيناها . ومن جهة أخرى فاننا لم نفصل عن هذه رواتب حاميات القلاع والطوابى الا لأن السلطان قـــد خصص مبلغا معينا ينفق خصيصا فى هذا الغرض . وتتشكل هذه الحاميات جزءا من أوجاق المتفرقة ، لكن هذا الاوجاق لم يكن هو الذى يكون حاميات قلاع الواحات ، وكان القائد يجند لهذه الخدمة اتراكا وبربرا ومغاربة ، كان يدفع رواتبهم من المبالغ الناتجة عن أوراق الجامكية التى كانت تعطى له .

وتوضح ضآلة المبالغ المخصصة لنفقات المؤن والتموين أن السلطان كان قد وضع الجزء الأكبر من المصروفات المطلوبة على عاتق حكام المواقع . ويمكن لنا أن نحدس كذلك أن الكثير من المصروفات المماثلة قد أبطلت بعد زوال المؤسسات أو الأنظمة التى أوجبتها .

ثالثا — مصروفات متنوعة

المقياس :		
للصيانة	٩٧٦ مدينى	
للستائر	٤٣٩	
لشيخ المقياس	١ر٠٧٤	
اجمالى نفقات المقياس		٢ر٤٨٩
مجرى العيون والآبار التى اقيمت عليها سواقى فى مصر العتيقة :		
اجور العمال المستخدمين فى الآبار بما فى ذلك ٤ر٠٠٠ مدينى تؤخذ خصما من الخزينة . .	٤٤ر٤٣٦	
تبن للثيران المستخدمة فى الآبار بالاضافة الى مصروفات صيانتها	٦٨ر١٢٠	
اجمالى مصروفات الآبار		١١٢ر٥٥٦
جسور لترع بحيرة تنيس والنوارة		٣٦ر٦٢٣
ازالة الطين المتراكم تحت القناطر		٨٦٠ر٧٩٨
مشاعل مقامة على شواطىء الترع لمنع تحويل مجراها		١ر٧٥٩
محطة ابدال مقامة فى العريش لبريد السلطان (*)		٧ر٨٠٠
قفاطين يوزعها الباشا على من يتولون المناصب		٧٤٢ر٠٠٠
صيانة الحمام التركى الموجود أسفل القلعة (حمام الخاصة)		٩ر٦٦٧
جرار للمياه يستخدمها الديوان		١٥٠

(*) حيث يتم ابدال الخيول أو الدواب المستخدمة فى نقل البريد .
(المترجم)

تغليف (تجليد) سجل الميرى العام . . .	٢٨٢ر٢
للسقايين بالسويس	٦٦٠ر٢١
لكاشف ولاية البحيرة مقابل صيانة الترعة	
التى تنقل مياه النيل الى صهاريج الاسكندرية	٠٠٠ر١٦
سبيل حسن باشا بقلعة القاهرة	٠٠٠ر١١
بئر يوسف افندى بالقلعة خصما على نفقة الخزنة	١٠٠ر٣
سبيل ابراهيم الكخيا	٠٠٠ر٥

مشتريات للباب العالى :

شربات يدفع من ثمنه ١٢٤ر٧١		
مدينى خصما على الخزنة . .	٦٩٠ر١٠٦	
أرز وعدس خصما على الخزنة	٩٦٩ر٧٠٢	
. . . .		٦٥٩ر٨٠٩

الاجمالى العام ٥٨٥ر٦٥٣ر٢ مدينى

	د	س	
ويعادل هذا المبلغ	١٠	١٧	٧٧٠ر٩٤ جنيها توريا .
وبالفرنكات		٩٠	٦٠٠ر٩٣ فرنكا .

ومن المعروف أن مقياس النيل كان يقام داخل سور يسهل اتصاله بالنيل ، أقيم عند الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة . وكانت حراسة وصيانة هذه المنشأة امتيازا وراثيا لشيخ من نسل ذلك الشيخ الذى سبق أن وكله بذلك السلطان سليم . ويقوم هذا الشيخ ، عندما تنخفض مياه النيل ، بازالة الطمى الذى يتراكم على سفل المنشأة . أما المر الداخلى الذى يسيطر على حاشيته فكانت تحميه فيما مضى ستائر ظل دفع الاعتماد المخصص لتجديدها مستمرا حتى عندما زالت هذه الستائر .

وبمجرد أن يبدأ النيل فى الارتفاع(١) ، يأخذ الشيخ فى الاعلان عن المقياس الذى بلغه ارتفاع المياه يوميا عن طريق منادين يجوبون الشوارع ، ويقفون بكل البيوت . وكان السكان يجدون سعادتهم فى تقديم الخبز والنقود الى هؤلاء المنادين .

(١) عند نحو بداية انقلاب الصيف .

وكان هؤلاء يتجمعون عند ظهيرة كل يوم فى مسجد يقع الى القـــرب من مصر العتيقة لكى يعلن لهم شيخ المقياس مقدار الفيض الذى بلغـــه النيل منذ العشية(١) .

اما الخليج فكان يفتح الى الشمال من مصر العتيقة على فرع النيل الصغير الذى تصنعه جزيرة الروضة ، وهو يعبر القاهرة ويمضى ليروى ولايتى القليوبية والشرقية(٢) . وكان البك مكلفا بأن يصنع فى داخل هـــذا الخليج جسرا يمتد لمسافة خمسين قدما لكى يمنع مياه النهر من أن تتوغل فيه وبذلك تصبح مياهه أعلى مما كان ينبغى ، كما كان مكلفا بالعمل على ازالة الطين المترسب فى المساحة القائمة بين هذا الجسر وبين مجـــرى النيل ، فى مقابل حصوله على الـــ ١١ر٠٤٢ مدينى المرصودة لهذا الغرض. ويتم قطع سدة الخليج فى الخامس عشر أو الثلاثين من اغسطس ، ويصبح الموعد أكثر اقترابا من التاريخ الأخير عندما تكون هناك خشية من حدوث فيضان مدمر . وفى عشية هذا اليوم يرحل أمين البحرين(٣) من بولاق فى قارب تزينه البيارق والاعلام ، ومجهز بأربعة مدافع تطلق نيرانا مستمرة ، يمضى ليأخذ مكانه عند فتحة الترعة ، وما أن يحل الليل حتى تطلق الالعاب النارية على ضـــفافه ، وفى هذه الليـــلة تكف الشرطة عن ممارســة قساوانها المعهودة ، فلا تعتقل أو تضايق احدا ، ويبدى الناس وهم يتدفقون فى الاحياء المجاورة فرحة طاغية بعيد يضمن لهم ما يعود عليهم به النهر ، صانع حياتهم ، من فوائد ومباهج ، وتنتشر الفرحة والبهجة على ســطح المياه مع ما يسبح فوقها من قوارب عديدة تغطيها ، بل أن النسوة أنفسهن ،

---

(١) اليكم مقياس فيضانات النيل أثناء مدة اقامة الفرنســيين بمصر ابتداء من أقصى انخفاض له :

العام السابع (من قيام الجمهورية الفرنسية ــ ١٧٩٨) ٢٢ قدما و٦ بوصات ــ جيد .

العام الثامن ٢١ قدما وبوصتان ــ متوسط .

العام التاسع ٢٤ قدما و٨ بوصات ــ جيد جدا .

وطبقا لما يقوله المسيو لوبير فان النيل لا يهبط مطلقا لأدنى من ٥ اقدام .

(٢) تستخدم هذه الترعة فى ملء اسبلة المدينة ، كما انها تحول الى برك صالحة للملاحة الميادين المسماة الازبكية وبركة الفيل الخ ، حيث يحلو للمواطنين ان يتنزهوا بالقوارب .

(٣) اى ملتزم الرسوم التى تحمل هذا الاسم .

وهن اللاتى يقضين طيلة العام قابعات خلف أسوار حريم ، يشـــاركن فى هذه البهجة العامة ، فيندفعن منفصلات عن الرجال فى زوارق ينيـــح لهن الغناء والموسيقى التى تعزف فيها لحظة من السعاده . وعند نهاية النهار يقلل الوالى من سمك السد ، ويتوجه كثير من الشيوخ الى المقياس ليمضوا الليل فى تلاوة القرآن واقامة الصلوات كى يبارك الله فيضان النيـــــل ، وينجه البكوات وكل الموظفين الى شاطىء الخليج ، وهناك يعسكرون مع كل بيوتهم ، وعند انبلاج نهار اليوم التالى يتخذ الباشا مكانه ، تحيط به حاشيته ، فى سرادق مقام على شاطىء مدخل الخليج . حيث يلحـــق به القاضى وكل أصحاب المناصب ، ويعلن شيخ المقياس فى حضرة ممثـــــل السلطان ، يحيط به الديوان المهيب ، أن ارتفاع النيل قد بلغ الـــ ١٥ ذراعا المطلوبة (٢٥ قدما)(١) ، ويحرر القاضى حجة تشهد فى الوقت نفسه أن المياه قد بلغت الارتفاع اللازم لفتح سدة الخليج ولجباية المال الدر ، ثم يوقع هذه الحجة بعد أن يسجل أن الباشا وكبار ضباط الولاية قد شهدوا تحريرها ، ويتم الاسراع بقطع السد ، ويعاون عمل النهر عمل العمـــــال فيختفى السد ، ويتهادى أول ما يتهادى قارب والى مصر السنبقة فوق المياه التى تندفع مدومة فى الخليج ، فاذا ما حدث أن انقلب قاربه بفعل اندفاع المياه فان القهقهات الصاخبة تعلو من جمهور الناظرين ،ويملأ كل سكان القاهرة البيوت المجاورة للخليج أو ينتشرون على شاطئيه ، ويهـــرع الى هناك الجميع ، رجالا ونساء وأطفالا ، مع اندفاع المياه التى تستحوذ على مشاعرهم ، وينسب الناس جميعا الى هذا المجرى ، وقد اصبح صاخبا ، الكثير من المعجزات ، فتلقى به النسوة خصلات من شعرهن أو بقطع من مزق ملابسهن وهن يأملن فى الحمل والانجاب أو أية مطالب نافعة ينتظرن تحقيقها من وراء هذه القرابين . ويلقى الباشا ومعيته بقطـــع من الذهب والفضة وبحفنات من المدينى الى العمال الذين ساهموا فى قطع الســـدة ويراقبون حركة المياه ، ويحصل هؤلاء ، من عدد كبير من النظارة على هبات

---

(١) لم يكن الفيضان الفعلى يبلغ فى ذلك الوقت وفقا لمـــا يقـــوله المسيو لوبير سوى ١٢ ذراعا (٢٠ قدما) ، ولم يكن هذا الفيضان ليصبح كافيا لرى المساحة العظمى من الأرض لو أنه قد ظل عند هذه النقطة ، فلقد كان الفيضان فى العام الثامن من الجمهورية (١٨٠٠) ضعيفا برغم بلوغه ٢١ قدما وبوصتين .

مماثلة ، يتسابقون للحصول عليها مع من يزاحمونهم من الجمهور ، وكان هؤلاء يختارون على التعاقب من بين الاتراك واليهود ، وينتهى الحفل بتوزيع القفاطين التى يخلعها الباشا على ولاة القاهرة ومصر العتيقة وبولاق ، وكذلك على كبار ضباط الاوجاقات الذين يحضرون الحفل(١) .

ونادرا ما تكون البيانات المعلنة والتى تسبق دخول المياه الى الخليج مطابقة للحقيقة ، وان كانت تلك التى تعلن بعد ذلك هى التى توضح بدقة اجمالى الفيضان والحالة اليومية لارتفاع مياه النهر ، ويتوقف اعلان هذه البيانات بدءا من أوائل أكتوبر ، وهو المدى المعتاد الذى يتوقف عنده تزايد المياه(٢) .

وتصل مياه النيل الى سفح قلعة القاهرة عن طريق مجرى يأخذ مياهه من جنب فم الخليج ، بفعل ثلاثة آبار تعمل عليها سواق ترفع المياه الى المستوى اللازم لبلوغها هذا المجرى ، أما الآبار (أو الاسبلة) التى تنتهى اليها فتؤمن استهلاك السكان وحاميات القلعة . وهناك افندى موكل بصيانة الحبال والدواب وتقديم الاجور الى العمال الملحقين بهذه المنشأة ، اما أمين الشون (شونة) فيوفر التبن اللازم لطعام الثيران . وفى عهد السلطان مصطفى ، زيدت الأموال المخصصة لهذا الضرب من ضروب الانفاق ، على نفقة الخزينة ، بمبلغ ٤٠٠٠ر مدينى ، ضمناها فى المبالغ الموضحة .

---

(١) عندما يتم تنظيف فم الخليج ، يترك فى الوسط عمود من الطين يسمى العروسة ، أى الفتاة المقبلة على الزواج ، ويشعر الناس بالبهجة الغامرة اذا ما حملت المياه بغتة هذه الكتلة من الطين، أما اذا قاومت هذه الكتلة فعل المياه لوقت طويل ،فان الناس يشعرون بالغم والكدر كما لو أن الأمر نذير بأن الفيض لن يكون سعيدا . وتحمل هذه العادة ذكرى خرافة بشعة عن المصريين الوثنيين حين كانوا يضحون بشابة صغيرة كانوا يقدمونها للنهر على أنها زوجة له .

(٢) يشكل العيد الذى يحتفل به الاقباط على شرف الصليب ، والذى يتم فى نفس هذه الفترة على وجه التقريب حفلة حلت فيما يبدو محل خرافة قديمة من خرافات المصريين القدماء ، فيبدأ البطريرك ، يتبعه رجال الدين وبقية شعبه ، المسيرة من دير يقع الى جنوب مصر العتيقة ، وبعد ادعيات طويلة ، يذهب البطريرك ليلقى فى النيل بصليب صغير من خشب ، ويحذو حذوه كل تابعيه ، ويسر المسلمون كثيرا بهذا العيد ، ولابد أنهم سيأسفون كثيرا لو حدث أن توقف .

وتقام فى كل عام سدود لفتحات ترع بحيرة تنيس والنوارة التى تصب مياهها فى السهول الرملية المتاخمة لدمياط ولطابية العزبة حتى لا تتوغل فى مجارى هذه الترع مياه البحر . وكان اغا الطابية أو الحصن يحصل على ٣٦٫٦٢٣ مدينى فى مقابل بناء هذه السدود .

ويجد المرء فى كل انحاء مصر قناطر مبنية بالحجارة مقامة فوق ترع الرى ، ويمكن للطمى الذى يتراكم حول اقواس هذه الترع أن يعوق مجرى المياه . وكان حكام الولايات ملزمين بالعمل على ازالته (أو تجريفه) ، وهم يقتسمون الأموال المرصودة لهذا العمل طبقا للتوزيع الآتى :

سيوط	٧٥٫٠٠٠ مدينى
منفلوط	١٤٫١٦٤
بنى سويف	٣٧٫٥٠٠
الفيوم	٢٩٫١٣٢
الجيزة	١٢٥٫٠٠٠
القليوبية	٤٠٫٤١٠
الشرقية	٦٧٫٦٧٥
البحيرة	١٢٥٫٠٠٠
المنصورة	٧٣٫٩٨٥
الغربية	٢٥٠٫٠٠٠
المنوفية	٢٢٫٩٣٢
اجمالى مطابق	٨٦٠٫٧٩٨

وكان محرما انشاء قنوات أو مساق (مسقى) ترفد عن النيل أو الترع التى تتفرع عنه أثناء الفيضان ، ويسهر على ذلك ليلا ونهارا حراس يختارون من أوجاق الشراكسة ، ويحصل هؤلاء على المبلغ الموضح لكى يقيموا على الشواطىء مشاعل تسهل عملية الرقابة التى يمارسونها .

ولا تصل مياه النيل الى السويس ، فكل المياه التى تستهلك هناك تغترف من عيون موسى ، وتمضى الى داخل صهريج واسع للمياه حيث تخزن مئونة المياه اللازمة للمدينة طيلة العام . وقد خصص السلطان سليم للسقائين المستخدمين فى نقل هذه المياه ، المبلغ الذى أوضحناه .

وقد قام أحد الباشوات واسمه حسن ببناء خزان مياه عمومى (سبيل)

بقلعة القاهرة ، لا يزال حتى اليوم يحمل اسمه ، وينفق لملء هذا الخــزان كل عام من الأموال التى رصدها لخدمة هذا المرفق .

ويحدث الشيء نفسه لبئر يوسف افندى ، الذى خصص الســـلطان مصطفى لصيانته ٣٫١٠٠ مدينى ، تؤخذ خصما على نفقة الخزنة .

وقد فرض اسماعيل بك ميرى قدره ٥٫٠٠٠ مدينى على وكالة الزعفران ببولاق ، وخصصت لصيانة سبيل ابراهيم الكخيا فى القلعة ، وهذا السبيل واسع لحد أن الجيش الفرنسى قد استخدمه لتخزين مؤنه (من المياه) أثنـــاء الحصــــار .

ويرسل الباب العالى سنويا الى القاهرة شوربة جى (شوربجى) باشى الموكل بصنع صنوف من الشربات للسلطان ، فيشترى المواد اللازمة ، ويصنع بنفسه هذه المشروبات الحلوة ، وكان يعطى له طبقا للوائح سليمان مبلغا قدره ٣٥٫٥٦٦ مدينى مقابل نفقاته ، وفى عام ١١٧٩ من الهجـــرة أمر السلطان مصطفى برفع هذه النفقات الى ١٠٦٫٦٩٠ مدينى(١) ، ويعطيـــه الباشا بخلاف ذلك مبلغ ١٠٫٢٠٠ مدينى لينفقها فى شراء مواد عطرية تعطى لهذه المشروبات رائحة مستحبة ومذاقا أفضل . وتقضى العادة كذلك أن يقدم له الباشا هدية تبلغ ٤٫٠٠٠ مدينى ، كما شاء السلطان مصطفى أن يخصص مبلغ ٨٧٥٫٩٧٢ مدينى لمصروفات شراء وارسال السكر الى الباب العالى ، ولم نشر نحن الى ذلك مطلقا لأن القبطان باشا قد حذف هذا المبلغ فى عام ١٢٠٠ من الهجرة من الانفاقات التى تقع على عاتق الميرى ، وأمر بأن يؤخذ هذا المبلغ خصما من الخزنة اذا ما ارسل السلطان فى طلب السكر ، وان كان فى نفس الوقـــت قد أبقى على تصرف السلطان مصـــطفى الذى قضى باعتماد مبالغ تؤخذ من أرصدة الخزنة ، وتخصص للاغراض التى نوردها فيما يلى :

٢٫٠٠٠ أردب من الارز من انتاج قرية فارسكور
والقرى المجاورة . . . . ٣٢٠٫٠٠٠ مدينى
١٫٠٠٠ أردب من أرز دميـــاط . . . . . ١٦٠٫٠٠٠

---

(١) أخذ منها اذن مبلغ ٧١٫١٢٤ خصما على نفقة الخزنة .

١٫٠٠٠ أردب من عدس القـــاهرة	١٥٫٠٠٠
مصروفات شحن الارز والعدس	١٨٢٫٣٠٦
خصم (أو تنزيل) يتم لصالح الروزنامجى والكتبة	٢٥٫٦٦٣
اجمالى مطابق للمبلغ الوارد بالجدول	٧٠٢٫٩٦٩ مدينى

وكان الروزنامجى يشترى هذه السلع الغذائية من ملتزمى الجهـات التى ينبغى عليها توفيرها ، ويسدد اثمانها بالأسعار التى اوردناها . وحين أصبح مراد ملتزما لدمياط وعثمان ملتزما لفارسكور ، توقفت هذه التوريدات كما ترقفت توريدات عدس القاهرة ، ومع ذلك فقد ظلت هذه تدخل ضـمن انفاقات الميرى لأن مراد وابراهيم طلبا الى الروزنامجى أن يضـمها الى الدخول المخصصة لهما .

رابعا : المعاشات والمرتبات

اجرى سليم وسليمان معاشـات أو رواتب متنوعه لرجـال الديانة الاسلامية والارامل والايتام . ولاشـخاص منفرقين ، وحذا حـذوهما خلفاؤهما بل ، وكذلك ، الباشوات والبكوات ورجال الاوجاقلو (العسـكر) العاديون ، الذين انتهى بهم الأمر ، حتى يضمنوا وصول هذه الرواتب الى الاغراض المخصصة لها ، الى تكليف الروزنامجى باستلام الأمـوال التى نزلوا عنها وان يتصرف فيها طبقا للنوايا التى أبدوها .

واليكم جدولا بالمصروفات التى كانت قائمة عند وصول الجيش الفرنسى الى مصر :

الى المشـايخ والعلماء		١٫٢٩٥٫٥٣٤ مدينى
للايتـام		٢٫٨٢٤٫٦٦٢
للارامـل		٣٫٢٨٦٫٣٤٨
للشـيوخ :		
عطاء الله السكندرى	٤٠	
ابو السـعود	٩٨	
بهى الدين المجدود	٩٨	
محمـد الجـاكى	٩٨	
محمد ابو طرطور	٣٩١	
المجموع		٧٢٥

الى عائلة سليمان افنــدى	٢٧ر٠٠٠
الى أشخاص متفرقين كمعاشات تسمى رزق نقـــدية :	
فى ولاية القليوبية ٣٥٤ر٥٨٠	
فى ولاية الجيزة ٦٥٠ر١٤٥	
المجمـــوع	١ر٠٠٤ر٧٢٥
الاجمـــالى	٨ر٤٣٨ر٩٩٤

	د	س	
وتعـــــادل	١٠	١٢	٣٠١ر٣٩٢ جنيها توريا
وبالفرنكات		٧٧	٢٩٧ر٦٧١ فرنكا

وكانت المعاشات أو الرواتب التى أجريت للمشايـــخ والعلماء تعطى لهم فى شكل أوراق مرتبات . ويبدو أن هذه المعاشات لم تكن تشكل فى عهد سليمان مثل هذا الحجم الكبير ، لكن الوازع الدينى قد دفع بالمـــلاك الى تخصيص ارصدة من نفس النوع اضيفت لتلك العطاءات التى خصـــصها السلاطين ، وهو الذى بلغ بها الحجم الذى بيناه .

و يمكن أن نقول نفس الشىء فيما يختص برواتب الايتام ، أما معاشات الأرامل التى أصبحت من نصيب نساء الاتراك الذين لاقوا حتفهم عنـــد فتح مصر ، فلم تتناولها اية زيادة ، وان كانت هذه وتلك قد عانت من اهتزاز الثقة فى أوراق المرتبات (الجامكية) التى كانت تتشكل منها ، فى الوقت نفسه الذى ظلت قيمتها فى بنود الانفاق الواقعة على عاتق الميـــرى على حالتها نفسها ، ذلك أن البكوات المماليك الذين حصلوا عليها بأبخس الاثمان ، قد انتحلوا لأنفسهم حق الحصول على قيمتها من صندوق الروزنامجى .

ويحكى أن السلطان سليم ، بعد أن استعطفت مراحمه جماعة من الشحاذين الشيوخ ، قد خصص لهؤلاء تلك المبالغ الزهيدة الواردة بالجدول ، ثم جاءت ذريتهم ، مستندة الى عادة الزامية معظم العطايا الاختيارية ، لتطالب بها ، ولا يزال هؤلاء يتمتعون بها حتى اليوم .

وكانت الوظـــائف المتميزة التى شغلها سليمان ، الافنـــدى الســـابق

لاوجاق المتفرقة ، قد جعلته مستحقا لراتب قدره ٠٠٠ر٢٧ مدينى خصصها له الباشا خليل ، وظل هذا الراتب يصرف لاحفاده .

أما الرزق (النقدية) التى فرضها السلطان سليمان على الكثيرين من ملتزمى الجيزة والقليوبية ، فقد خصصها لأشخاص بعينهم أراد — هو — أن يكافئهم . وحيث أن هذه الرزق وراثية وقابلة للتحويل ، فانها لا تختلف عن الملكيات الخاصة الا فى أن الروزنامجى هو الذى كان يحصلها ، ويتصرف فى عائدها الذى كان يدخل ضمن الميرى المقدر على هاتين الولايتين .

خامسا : الأعمال والمنشآت الخيرية

صيانة المقابر :

جورماز الاتابكى	٥٠٠ر٢
الشيخ الدمناوى	٠٠٠ر٤
زاوية برقوق	٠٠٠ر٣
حصرون باشا	٠٠٠ر٣
الشيخ أحمد الطحاوى . .	٥٣٨ر٥
الشيخ تاج الدين . . .	٨٠٠
الشيخ أحمد النجار . . .	٠٠٠ر١
الشيخ الشهيد	٣٠٠
الشيخ سعد الدين الجمبوى	٢٠٠
الشيخ يوسف العباسى .	٨٠٠
سيدى ابراهيم الدسوقى .	٥٥٠
عطوان الصيفى . . .	٠٠٠ر٢
الشيخ سويدان . . .	٦٨٣
الشيخ السادات . . .	٠٥٢ر٣
الشيخ أحمد المنير . .	٣٠٠
الشيخ عمر الدنبينى . .	٣٩١
الشيخ على أبو النور .	١٩٥
زاوية سنقر . . .	١٩٥
الشيخ عبد الله الجبوشى .	٥٠
الشيخ سويدان . . .	٢٠٥

زاوية المشايخ (عدة أضرحة) ١٢٤ر٦٨
القاضى زين العابدين
(على نفقة الخزنة) . . ٣٠٠
الشيخ محمد كريم الدين
الخلوتى (على نفقة الخزنة) ٢٫٠٠٠
المجموع ١٨٣ر٩٩
مساجد ، أديرة ، دراويش ، شحاذون ، عجزة . ١٠٩٫٣٥٨ر١٣
الجامع الازهر :
العلماء ، الشيخ والمدرسون
الاساتذة . . . . . . ٥٧٦٫٠٣٠
شموع لقارىء
القرآن والخطيب٧٧٧ر١
أرز وعسل يوزعان
سنويا على الفقراء ٢٠٫٤٨٩
٢٢ر٢٦٦
المجموع ٥٩٨ر٢٩٦
عمائم تعطى لمن يعتنقون الاسلام ٥ر٨٤٤
مياه عذبة توزع على الذاهبين لتشييع الجنازات ٧ر٨٠٠
للشيخ البكرى مقابل ما ينفقه فى الاحتفال
بمولد النبى ٢ر٥٣٨
مولد السيد أحمد البدوى فى طنطا :
للفقراء { جبن وبصل ١ر٤٦٨
صدقات ٢ر١٧٥
للشيخ العشرة ١٥٠
لعائلة الشناوى
(على نفقة الخزنة) ١ر٠٠٠
المجموع ٤ر٧٩٣
ارساليات الى اورشليم (القدس) :
مصروفات نقل العدس . . ١ر٠٠٠
الصرة أو المعاشات . . ٣٥ر٣٢٠
حصر (حصيرة) للمسجد . ٩ر٩٥٧
المجموع ٤٦ر٢٧٧

انارة محراب سيدنا يوسف	٢ر٨٩٥
معونات لايتام المارستان	٢٥٠
صيانة خلوات الدراويش ، ناظم الدين صفهانى	١٢ر٠٠٠
للشيخ الذى يتلو القرآن ليلة فتح الخليج . .	٣٤٢

تيران تستخدم فى ادارة سواقى الآبار التى توجد بمساجد :

الامام الشافعى . . .	٣٧١	
الشيخ عمر بن الفارض .	٤١٥	
الفورية	٤١٥	
سارية الجبل . . .	١ر٢٣٠	
المجموع		٢ر٤٣١

ترب مياه تعطى لـ :

جامع الشيخ عمر بن الفارض	٤٤	
أوجاق الجاويشية . .	٤٤	
أوجاق مستحفظان . .	٤٤	
المجموع		١٣٢

الاجمالى . . . . ١٣ر٨٩٢ر١٣٩ مدينى

	د	س	
تعادل	٥	١٦	٤٩٦ر١٤٧ جنيها توريا
وبالفرنكات		٥٤	٤٩٠ر٠٢٢ فرنكا

ويولى المسلمون عظيم احترامهم للموتى ، ويتوجهون كل جمعة ، وهو يوم الصلوات (كذا) لزيارة مقابر ذويهم ، أو أضرحة أولئك الذين ماتوا تحيط بهم هالة القداسة ، وقد أدت العناية بمقابر هؤلاء وكذلك المصابيح التى تضىء هذه الاضرحة الى انشاء بنود انفاق وردت بالجدول .

أما الأموال التى رصدها سليمان لصالح المساجد والأضرحة والدراويش والشحاذين والعجزة فهى عبارة عن أوراق مرتبات (جامكية) ، ولقد تزايدت هذه الاوراق وتدهورت قيمتها وقلت الثقة فيها على نفس النحو الذى سبق لنا أن لاحظناه فيما يختص ببقية الرواتب التى أجريت على الشيوخ والايتام الخ ، كذلك فان نفس الدوافع (التى سبق لنا بيانها)

هى التى أدت الى استمرار سداد قيمتها للبكوات المماليك ، الذين آلت — هى — اليهم .

والجامع الازهر هو اشهر المدارس التى تدرس بها النظريات الدينية الاسلامية ، وهى المدرسة الوحيدة بالقاهرة ، ومصر كلها ، التى يحصل منها الدارسون على شهادة عليا ، أو شهادة العالمية ، وقد اختصه سليمان — بشكل جزئى — بأوراق مرتبات ، وبرسوم (أو عادات) على نطرون الطرانة ، وبالاضافة الى ذلك كان الازهر يتمتع بعوائد عدد كبير من القرى ، ولذلك فان تدهور قيمة أوراق المرتبات لم تحرمه من الاحتفاظ بدخل هائل . وفى خلال شهرى شعبان ورمضان ، يضاء لخطيب الجامع ، وهو العالم الذى يتلو ويفسر القرآن ، اثنان من الشمعدانات الضخمة ، يضم كل منهما خمسا وعشرين شمعة ، وأوصى سليمان بأن يشترى كل ذلك على نفقة الميرى ، وكان الفقراء والعميان ، المترددون على الجامع ، يحصلون خلال شهر رمضان ، عقب غروب الشمس على جرايات من الارز والعسل ، رصدها لهم عبد الرحمن الكخيا .

أما المبالغ المخصصة لشراء العمامات التى تقدم لمن يعتنقون الاسلام ، فكانت تودع مع خازن الباشا ، الذى كان يستبقيها لحسابه عندما لا تتم مثل هذه الاعتناقات .

ويتسلم وكيل الخراج ، ويتصرف كذلك فى المبلغ المرصود لدفع أجور السقائين الذين يحملون الماء الذى يوزع فى المقابر على الأشخاص الذاهبين لتشييع جنازات الموتى والصلاة على أرواحهم .

ويحتفل أهل القاهرة بمولد النبى بكثير من الابهة ، فتضاء المساجد والبيوت طيلة ثمانية ايام متصلة ، ويحصل الشيخ البكرى ، زعيم سلالة أبى بكر صهر محمد ، على مبلغ لا يتناسب فى كثير مع الانفاقات التى اعتاد القيام بها . ويزوره فى هذه الايام المسلمون ، وبخاصة الاولياء منهم ،

ليؤدوا الصلاة معه ، وتكلفه هدايا البن والحلوى التى يقيمها لضيوفه ، وكذا الأنوار التى تزين مداخل مقره والمناطق المحيطة به أكثــر من ١٠٠ر٠٠٠ مدينى(١) .

ويتسبب أولياء عديدون فى نشأة موالد أو أعياد أقل أهمية ، وأهم هذه الموالد هو المولد الذى يحتفل به فى طنطا على شرف السيد أحمــد البدوى . وكان هذا الحفل يقام بالفعل فى زمن السلطان سليم ، الذى أمر بأن توزع هناك صدقات وأطعمة على من يوجد بالمولد من الفقــراء ، كما خصص ١٥٠ مدينى لشيخ العشرة لكى يتوجه الى طنطا ويتكفل بالاضاءات المعتادة . وكان سليم يرنو من وراء هذه العطايا المختلفة الى تســـهيل سبل التجارة التى يمكن أن تنهض فى سوق تقيمها (تلقائيا) هذه الافواج من الحجاج (الزوار) . وحيث كانت عائلة الشناوى تتميز بالحماسة التى تبديها فى زيارة ضريح هذا الشيخ ، وفى الاسهام فى نفقات هذا الاحتفال فقد أمن لها معاشا قدره ١٠٠٠ر١ مدينى على نفقة الخزنة .

ويعد الحج الى القدس عملا بالغ الجدارة من جانب المســـلمين ، وبخاصة من جانب العرب منهم ، الذين برون فى هذه الزيارة ، وهم الذين ينسبون أنفســـهم الى اسماعيل ، عملا يقصد من ورائه تبجيـــل ابراهيم واسحاق ويعقوب المدفونين طبقا لمعتقداتهم فى مسجد الرحمن . وكما هو

---

(١) فى ترميدور من العام السابع ، تلقى القائد العام دعوة من الشيخ البكرى لحضور هذا الحفل ، وقد صحبنه الى هناك هيئـــة أركان حربه ، وكنت بالمنل فى معيته . وقد لاحظنا أن العبادات كانت تقتصر على ترتبـــل رتيب لبعض آيات من القرآن ، وتلاوة نسب الشيخ البكرى ، الذى يدل على أنه من أصلاب سلالة أبى بكر ، وبعد ذلك حصلنا على نصـــيبنا من عطاءات البن والحلوى . كنا نسلك سلوك المسلمين ، وقد تعشـــينا مع الشيخ ، ومع أولئك الذين شاركوا فى الوليمة التى أولمت لنـــا ، وقدمت الاطباق على صوانى واسعة من النحاس ، وأكلنا على طريقة الشرقيين ، لكن النبى حرمنا من نبيذ العشاء (أى لم يقدم لنا بسبب ما تقضى به الديانة الاسلامية) ودارت علينا المياه فشربنا كلنا من نفس البردق . وقد قســـم المدعوون الى عدة مجموعات ، وكان بجلس مع الشيخ القائد العام والجنرال برتييه Berthier (فى مجموعة مستقلة) ، وكانت لكل مجموعة صينية خاصة بها ، وتختلف هذه الطريقة فى تقديم الطعام قليلا مع الاســـاليب المعتادة عند المصريين ، اذ تمر المائدة نفسها — فى العادة — على التوالى لتنتقل من السادة الى أهل البيت ، وهكذا حتى تصل الى الخدم .

معروف ، فان محمدا نفسه قد قام برحلة الحج هذه ، ولذا فان الورعين من أتباعه يجدون واجبا عليهم أن يحذوا حذوه . وكان مدير هذا المسجد ، يتصل بنائب أو وكيل عنه ، كلف بالقيام بمشتريات العدس اللازمة لاطعام خدم المسجد ومن يلوذ به من الفقراء ، وأخذ سليم على عاتقه سداد نفقات نقل هذه الاطعمة ، كما خصص لنفس المسجد صرة أو معاشا سنويا ، بالاضافة الى اعتماد رصد لشراء الحصر التى تغطى أرضه .

ويقع محراب سيدنا يوسف داخل أرض أورشليم ، وقد بنى على بئر يظن أنها البئر الذى سجن فيه على يد اخوته ليبيعوه بعد ذلك الى تجار اسماعيليين . وقد خصص سليم ، على نفقة ميرى مصر ، ما يكفى لتوفير اضاءة وصيانة لهذا المكان المقدس .

وتدعو ضآلة المبلغ المخصص لليتامى المقبولين فى مستشفى المارستان الى الاعتقاد بأن السلطان لم يدر بخلده أن يقدم لهم عونا حقيقيا بقدر ما شاء أن يقدم لهم بعض صدقة . وكانت لهذه المنشأة دخول تتناسب مع الانفاقات التى تقوم بها .

وحيث تقع مساجد الامام الشافعى والشيخ عمر بن الفارض والغورية قريبا من المقابر التى يدفن فيها الكبار (طبقة الحكام) ، فقد كان يتوجه للصلاة فيها حلق كثيرون. وقد خصص السلطان سليمان اعتمادات لشراء وايواء الثيران التى تستخدم فى نزح مياه الابار الموجودة بالقرب من دور العبادة هذه . أما جامع سارية الجبل الموجود بقلعة القاهرة فكان بالمثل يحصل على تسهيلات واعانات . ويجعل الوضوء ، الذى يسبق عادة صلوات المسلمين ، من الاقتراب من بعض الابار أمرا ضروريا ، لكننا نجهل السبب فى اعطاء ثلاث من القرب الى كل من جامع الشيخ عمر بن الفارض، وأوجاقى الجاويشية ومستحفظان ، وهو الأمر الذى قرره السلطان سليم.

سادسا : محمل مكة

كسوة للكعبة فى مكة ، منها ٢٦٤ر٨٠٧ مدينى على
نفقة الخزنة ٧٩٠ر٨٠٧
الصرة (رواتب أو معاشات) :
نقدا ، لمكة والمدينة منها ١٤٣ر١٤٥
مدينى على نفقة الخزنة . ٢٢٠ر٩٨٥ر١٥

مصروفات لشراء صناديق وزكائب
وتبن ...... السخ . . . ٤٨٦ر٤
مجموع الصرة ١٥ر٩٨٥ر٧٠٦

لأمير الحج :

للآلاى ، أى لذهاب المحمل . ٣٤٩ر٠٣٣
مصاريف مطبخ ٩١٩ر٩٢٤
. . . . ١ر٢٦٨ر٩٥٧
اضافى منحه اياه خلفاء سليم منه ١٢ر٥٨٧ر١٠٧
مدينى على نفقة الخزنة ٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠
للعربات التى تقل حاملى المدافع ١٢ر٠٦٩
شعلات للمذكورين ١ر٢٧٩
لحراس خيمة أمير الحج ٢١٥
للسياس (سايس) ٤ر٧٠٧
لشراء الزيت والكبريت اللازمين لدهن الجمال ١ر٤٠٤

للسردارات :

للسردارات انفسهم . . ٣٦٦ر٨١٤
اضافى قرره لهم السلطان
مصطفى على نفقة الخزنة ٥٦٣ر٧٢٧
. . . . ٩٣٠ر٥٤١
لبغال السردارات . . ٤ر٨٧٩
للجبن والبصل الذى يقدم لهم ١٦ر٦٦٧
المجموع ٢١ر٥٤٦
تعويضات للجنود الذين يكونون حامية قلعة
المويلح ، على نفقة الخزنة ١٨٠ر٤٤٠
مصروفات متناثرة تتم عند رحيل المحمل :
لادلاء (مرشدى) القافلة . ١ر٢٥٦
بريد جوال للقافلة . . ٥ر٥٥٩
بريد من راكبى الجمال للقافلة ٢ر٧٣٠
المجموع ٩ر٥٤٥

لشراء مكاييل خشبية لكيل شعير خيول وجمال أمير الحج ومعيته في القافلة	٧٩١	
صدقات توزع خلال السفر	١٫٣٦٧	
لتطهير الآبار الواقعة على الطريق . . . . :	٢٣٫٥٦٢	
خيمة لتغطية الحوض الذي تؤخذ منه المياه	١٣٫٦٥٩	
تبن للثيران المستخدمة في الآبار ، وبخاصة بئرا النخل والعجرود	١٠٫٩٢٨	
التزود بالتبن في بعض القرى التي يمر بها المحمل . .	٦٫٨٨٠	
المجموع		٥٧٫١٨٧
جمل للمبلغ في جبل عرفات		٢٫٠٠٠

مصروفات تتم أثناء عودة المحمل :

ترفيهات للمحمل يقدمها أظلم باشي وعقبة باشي .	١٩٣٫٢٧٨	
موسيقى يقدمها أظلم باشي .	٨٫٥١٨	
فطائر وحلويات يقدمها اظلم باشي الى أمير الحج . .	١٧٫١٦٤	
المجموع		٢١٨٫٩٦٠

ارساليات تصل الى مكة عن غير طريق المحمل :

نقود فضية وارز لشريف مكة منها	١٫٢٠٠٫٠٠٠	
مديني على نفقة الخزنة		١٫٧١٠٫٩١٧
نقود فضية الى الشريفة أورخانة	٣٦٫٠٠٠	
نقود فضية للشريفين حمزة وحسين بركة	١٩٧٫٠٠٠	
المجموع		٢٣٣٫٠٠٠

نقود فضية للأمير حاكم ينبع خصما على	
نفقة الخزنة	١٨٠٫٠٠٠
ودائع لدى الروزنامجي من الأرصدة التى	
خصصت فى الماضى لتوزيع المراكب التى كانت	
تنقل الحبوب الى مكة والمدينة	١٢٠٫٢٢٣
مصروفات نقل الحبوب الى قضاة مكة والمدينة	٢٣٫٥٨١
حصر وزكائب تعبأ فيها الحبوب	٥٢٫٦٨٣
لشراء زيت القناديل لمسجدى	
مكة والمدينة . . . . ١٠١٫٦٩٨	
مصروفات نقل الزيت ومنها	
٨٫١٥٠ مدينى على نفقة	
الخزنة . . . . . ١٦٫٩٠٤	
اثمان الصناديق التى يوضع	
بها ومصروفات نقل هذه	
الصناديق . . . . . . ١٥٫٣٣٤	
. . . .	١٣٣٫٩٣٦
ثمن شمعدانات وصناديق لاحتوائها ، منه ٦٠٫٦٢٣	
مدينى على نفقة الخزنة	١٢٣٫٨١٣
حصر من الفيوم مع مصروفات شحنها . . .	٨٫١٣٨
الاجمالى	٤٢٫٠٧١٫٦٥٤ مدينى

	د	س	
تعادل	٥	١	١٫٥٠٢٫٥٥٩ جنيها توريا
وبالفرنكات		٨	١٫٤٨٤٫٠٠٩ فرنكا

والكسوة هى الاسم الذى يطلق على الطنافس والبسط التى تسلم لأمير الحج كى يكسو بها الكعبة ويزين قبر فاطمة بالمدينة ، وكانت هذه تصنع فى قلعة القاهرة . وقد رصد السلطان سليمان مبلغ ٥٢٦٫٠٠٠ مدينى لنفقات صنعها ، وارتفع السلطان مصطفى بهذا الرصيد ، لكى يجعله كافيا ، الى ٧٩٠٫٨٠٧ مدينى وهو المبلغ الذى أوردناه بالجدول . ويدير ناظر الكسوة عملية صنع وتطريز الاقمشة ، لكنه لا يحيط سوى الباشا علما بكيفية انفاق المبالغ التى حصل عليها لهذا الغرض .

وطبقا للوائح سليمان ، فلم يكن يرسل مبدئيا الى مكة والمدينة ، بمثابة اعتمادات للصرة سوى ١٠٩ر٢٣٠ر٥ مدينى كانت توزع على مساجد عدة ، وعلى شيوخ وسكان كثيرين فى هاتين المدينتين . ومنذ العـــام ١١٣٨ من الهجرة ارتفع هذا الاعتماد بشكل هائل فى هيئة أوراق مرتبات (جامكية)، خصصت ، بموافقة باشا القاهرة ، للانفاق على مؤسسات مماثلة لتلك التى عناها السلطان سليمان ، وعندما نبين للكثيرين أن مخصصات الصرة كانت تسدد بدقة فى حين أن حصيلة أوراق المرتبات تبدو فى حكم العدم ، فقـــد التمسوا أن يدخلوا فى عداد أصحاب المعاشات المستفيدين من الصرة ، وأن يحصلوا ، بهذه الصفة ، على عوائد أوراق النقد التى كانت فى حوزتهم . وقد ادى السماح بذلك من جانب الادارة الى اضافة المبالغ الآتية الى رصيد الصرة ، وهى المبالغ التى لا تزال تسدد الى اليوم الى الاشـــخاص الذين سنشير اليهم :

فى القـــاهرة :

الى أسرة الشيخ الجوهرى	٥٧٢ر٠٤٤
الى الشيخ البكرى	٢٦٠ر٩٠٠
الى الشيخ الســـادات	١٤٨ر٦٣٥
لاوقاف عبد الرحمن الكخيا	٢٠٩ر٥٠٣
الى نقيب الاشراف	١٦٥ر٢٩١
الى الشيخ محمد المهدى	٢٢٥ر٠٦٤
الى السيد احمد المحروقى (تاجر) . . .	١٩٦ر١٧٤
الى ابراهيم أفندى الروزنامجى	٤٠٠ر٠٠٠
الى الشيخ عبد الله الشرقاوى	١٩ر٧٨٠
الى يوسف افندى	٤٩ر٥٥٤
الى خليل افنـــدى	١٣٧ر٥٠٠
الى حسين افندى	٧١ر٢٠٠
الى عدد لا حصر له من الاسماء رجالا ونساء	٥ر٤٦٩ر٣٩٩
	٧ر٩٢٥ر٠٤٤

فى مكة والمدينــة :

الى كثيرين من الشيوخ والمساجد والسكان، ويدخل فى هذا المبـــلغ ١٤٣ر١٤٥ مدينى خصصها السلطان مصطفى خصــــما على الخــزنة ٢ر٨٢٦ر٠٦٧

الاجمـــــالى ١١١ر٧٥١ر١٠ مدينى

ونتيجة لذلك فان الصرة الحالية، عندما يضيف اليهـا مبــلغ ١٠٩ر٢٣٠ر٥

الذى اعتمده سليمان ، تصل فى مجموعها الى ٢٢٠ر٩٨١ر١٥ مدينى

يرسل منها الى مكة والمدينة ١٧٦ر٠٥٦ر٨ مدينى ، اما الباقى وقدره ٠٤٤ر٩٢٥ر٧ فيعطى لمستحقيه فى القاهرة .

وهناك امر يدو وكانه هو الذى قد سهل عملية ادماج أوراق المرتبات فى اعتمادات الصرة ، وهو ان السلطان سليمان قد انشأ هذه الاوراق ، شأنها فى ذلك شأن الرواتب التى اجراها على المساجد والارامل والايتام بفئة موحدة قدرها ٥ر١٨٢ مدينى ، وعلى نفس النسق الذى يتبع عند دفع أوراق المرتبات المخصصة للجيش . وقد كان بمقدور الأشخاص والمنشـــئات الذين خصصت لهم هذه الأوراق ، أو الذين آلت اليهم منذ عهده ، أن يبيعوها او يتصرفوا فيها . وعندما قامت ادارة مراد بك وابراهيم بك ، توقف دفع المعاشات أو الرواتب التى كان يحصل عليها ابناء القاهرة والتى أدخلت ضمن الصرة . وعندما كان المحمل يخرج من هذه المدينة كان الروزنامجى يتوجه الى بركة الحج — وهى الملتقى العمومى للمسافرين (الحجاج) لكى يعــــطى للخطيب ، ولصراف الصرة الجـــزء من المعاشات أو الرواتب التى تدخــل تحت هذا التحديد والتى ينبغى أن توزع طبقا له . وتعد النقود فى حضرة كل من الكخيا والباشا وامير الحج ومفوض او مندوب من قبل قاضى القاهرة، ثم توضع فى صناديق تسلم مفاتيحها الخطيب والصراف ، وبعد ذلك يعهد بالصناديق الى أمير الحج ليضعها فيما بعد تحت تصرف هذين الموظفين فى

مكة والمدينة لكي ينفقا الاموال التى تضمها هذه الصناديق فى الاغراض التى خصصت لها . ولم يكن لشريف مكة أى حق فى اى دخل بالمعنى المفهوم ، اللهم الا اذا كان حائزا على أوراق مرتبات (جامكية) يحصل على مستحقاته طبقا لهـــا .

اما المبلغ المخصص لانفاقات الآلاى ، اى ذهاب المحمل ، فيسلم الى امير الحج الذى يتصرف فيه حسبما يتراءى له ، كما يحصل على ذلك المبلغ الذى خصصه له السلطان سليمان باعتباره مصروفات مطبخ .

وقبل عهد هذا الحاكم كان العربان يحترمون قافلة الحج ، التى كانت تنال ما تحتاجه من الحماية لمواجهة المخاطر المعتادة على يد السردارات الذين كانوا يتقدمونها ، فكان يراسها مجرد واحد من تجار القاهرة ، يتولى تدبير أمر الانفاقات التى تفرضها الظروف من المبالغ التى بيناها ، ولكن حين بات من الضرورى التصدى لسطو البدو ، فقد أدت ضرورة احتواء وقاحتهم واطماعهم النهمة الى انتقال منصب أمير الحج الى البكوات ، وبدأ الباشا وكبار ابناء القاهرة يدفعون بأنفسهم رواتب المماليك والمغـــــــاربة الذين يستخدمون فى هذا الغرض . وحيث لم يكن لمثل هذا الاحتياط ان يحـــول بشكل تام دون أن يسلب المحمل فى العام ١٠٧٨ من الهجرة فقد استوجب الأمر استجداء مراحم السلطان كى يدبر الوسائل الكفيلة باكتراء حرس قوى له مهابته . وقد أمر السلطان احمد بالحاق زيادة اضافية الى الميرى قدرها ١٦٢ر٨٩٣ر١ مدينى تخصص للانفاق على المحمل ، لكن هذا المبلغ كان اقل من أن يواجه متطلبات المحمل، لذا فقد اشترى أمان الطريق، بعد ذلك بوقت قصير ، مقابل اتاوة قدرها ٥٠٠ر٠٠٠ر٢ مدينى كانت تعطى للعربان الذين يشغلون الصحراوات التى كان على قافلة الحجاج أن تجتازها . وفى العام ١١١٥ من الهجرة ، رصد السلطان محمد اعانة مالية جديـــــــدة قدرها ٥٠٠ر٠٠٠ر٢ مدينى . واضاف السلطان مصطفى فى العـــام ١١٧٤ الى الاعطيات التى قدمها اسلافه ٧٥٠ر٠٠٠ر٣ مدينى ، وحيث سلك هـــذان السلطانان (محمد ومصطفى) ، كى يحصلا على الارصدة المطلوبة ، نفس الطريق التى سلكها السلطان احمد ، فان مبلغ الـ ٤١٢ر٨٩٣ر٧ مدينى الناتجة عن المنح التى قدموها مجتمعين ، يشكل زيادة فى المال المـــيرى

وزعت على كل قرى مصر ، وجبيت منها فى الوقت نفسه باعتبارها ضريبه(١) . ومع ذلك فقد ظلت نفقات المحمل تتزايد بصفة دائمة ، ذلك أن الاتاوات المالية التى تدفع الى بعض القبائل العربية لم تكن تعفى أمير الحج من اكتراء حراس يزيد عددهم مرة بعد أخرى بسبب الخيانات التى يرتكبها نفس البدو الذين تم الاتفاق معهم ، وكذلك بسبب اعتداءات لم تكن متوقعة من جانب بدو آخرين لم يحصلوا على نصيبهم (من الاتاوة) من القبيلة ، وبعد خمس سنوات من الاعانة التى رصدها السلطان مصطفى ، حصل باشا القاهرة من نفس السلطان على زيادة قدرها ١٠٧ر٥٨٧ر٢ مدينى ، واضاف السلطان عبد المجيد فى عام ١١٨٧ الى كل ذلك مبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر٥ مدينى ، بحيث بلغ اجمالى الزيادات التى الحقت بنفقات المحمل ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠ مدينى ، أما مبلغ الـ ١٠٧ر٥٨٧ر١٢ مدينى التى تشكل الاعانات الثلاث الأخيرة فكانت تدفع خصما على نفقة الخزنة دون أن تتسبب فى تقرير اية زيادات على المال الميرى . وعلى الرغم من أن المبالغ التى يحصل عليها أمير الحج من مصادر مختلفة أصبحت أعلى بكثير من تلك التى خصصت له فى البداية ، وبرغم انه كذلك كان يرث كل متعلقات من يموتون من الحجاج أثناء الطريق ، فقد كانت مهمته هذه لا تعود عليه بنفع كبير ، اذ كان يلزمه أن يكترى المماليك والمغاربة الذين يشاركون فى الحرس ، كما كانت هناك الاتاوات التى يقدمها للقبائل العربية بالاضافة الى مصروفات توفير المؤن وتدبير وسائل النقل الواجب توفيرها لكل من الحق بالخدمة العامة بالمحمل ، ولم يكن هؤلاء يؤجرون على نفقة خزينة السلطان ، أو كانوا يؤجرون ولكن على نحو غير كامل ، كان كل ذلك بالمثل يقع على عاتقه هو ، حتى أن وجوه الانفاق هذه كانت تمتص الاعتمادات التى ينفق منها بشكل تام(٢) .

---

(١) تدخل هذه الزيادة كما سبق لنا القول ضمن بيان الميرى المفروض على كل ولايات مصر .

(٢) تميز كثير من البكوات بالذود عن قوافل الحج ، وكانت هذه القوافل لا تهاجم عادة الا عند العودة ، اذ أن العربان الذين يقدسون بدورهم حج الكعبة لا يريدون أن توجه اليهم تهمة منعه . وبرغم أن حسين بك كشكش قد رفض باصرار أن يعطيهم الاتاوة المعتادة فانهم لم يستطيعوا مطلقا أن يسلبوه جملا واحدا ، فكان يعد رجاله عند منافذ الطرق التى كان العربان يختارونها عادة لممارسة انتهاباتهم ، و يقتسم معهم الاتاوة المالية =

ويحصل شيخ نجارى العربات فى القاهرة على المبلغ الذى رصده له سليمان مقابل قيامه بصيانة عربات المحمل ، مع قيامه ، بالاضافة لذلك ، بتوفير العمال اللازمين لأداء هذا العمل .

وبحرس خيمة أمير الحج أثناء الليل خمسة مراقبين ، يتصايحون من وقت لآخر ، منادين بعضهم البعض ، كى يطردوا النوم عن جفونهم ، بعبارات : وحد الله ، صل على النبى ، وبخلاف الراتب الذى بجريه لهم أمير الحج يحصل كل واحد منهم على حصته من الـ ٢١٥ مدينى ، وهو الاعتماد المخصص لتدبير هذه الحراسة .

وقد أمر السلطان سليمان أن يتبع المحمل أربعة عشر سردارا يؤخذون من الاوجاقات ومعهم سرايا من فرقهم العسكرية ، ويتولى سبعة من هؤلاء الضباط قيادة فرقة الحرس (حرس المحمل) ، أما الاخرون فيتوجهون الى جدة كى يتولوا قيادة الطابية ، وليحلوا محل زملائهم الذين عملوا هناك طوال العام السابق . ومنذ على بك ، توقف تعيين السردارات الذين عليهم البقاء فى طابية جدة . وكان السلطان سليمان قد رصد لهؤلاء ولاولئك ، على حد سواء ، راتبا سنويا قدره ٣٦٦٫٨١٤ مدينى ، تعطى لهم فى شكل أوراق مرتبات غير قابلة للتحويل (بالبيع أو التنازل) ، لأنها تعد من ملحقات مناصبهم وليست ملكيات خاصة ، وقد حال ذلك دون تدهور قيمتها ، كما كان سببا فى أن السردارات السبعة الذين اقتصر على تعيينهم منذ التجديدات التى ادخلها على بك قد حصلوا على اجمالى هذا المبلغ ، وكان هؤلاء مثقلين بكثير من النفقات ، لحد أصبحت معه هذه المهمة عبئا عليهم ، برغم أن السلطان

=
التى يطلبها أولئك اذا ما قاوموا المعتدين ، وقد نجحت هذه الوسيلة ، وانتهى الامر بانتفاء كافة الاخطار ، لكن العربان لم يستمروا على هذه الحال السيئة مع خلفائه ، بل انهم لم يصلوا فقط الى تأكيد حصولهم على الاتاوة مرة أخرى ، بل لقد استعادوا متأخراتهم ، أى ما كان كشكش بك قد رفض أن يسدده لهم ، وفى عام ١٢٠٠ من الهجرة نهب بشكل تام المحمل الذى كان يقوده محمد بك المبدول ، وبعد ذلك بسنوات ست تعرض المحمل مرة ثانية لنفس الكارثة ، وان كان صحيحا ما يؤكده البعض من أن مراد وابراهيم قد ظاهرا العربان على ارتكاب عملية السطو هذه ، كى يتخذا منها ذريعة لابعاد عثمان بك طوبال ، قائد المحمل فى هذه السنة ، عن المناصب التى كان يشغلها .

قد رصد لهم على نفقة الخزنة اعتمادا اضافيا قدره ٧٢٧ر٥٦٣ مدينى . ومع ذلك ، فنادرا ما كانت ترفض هذه المناصب . فقد كان من الضرورى شغلها حتى يمكن الترقى الى وظائف اعلى .

وكان السردارات الذين يختارون من أوجاقات جامولیان ، وتفكجيان وعزبان ، ومتفرقة ، يحصلون على ٨٧٩ر٤ مدينى مقابل شراء البغلات اللاتى يمتطونها خلال رحلتهم ، ويصرفون خلاف ذلك اعتمادا قدره ٦٦٧ر١٦ مدينى مقتسمين اياه مع السردارات الثلاثة الاخرين وذلك للتزود بالمؤن من بصل وجبن .

وكان أوجاق المتفرقة يوفر الحامية التى تشغل قلعة المويلح الواقعة فى الصحراء ، فى ثلث الطريق بين مكة والقاهرة . ويحصل الاغا ، قائد هذه الحامية ،من الروزنامجى على مبلغ ٤٤٠ر١٨٠ مدينى ، سبق أن رصدها السلطان مصطفى خصما على نفقة الخزنة ، وذلك قبل رحيل المحمل بشهرين أو ثلاثة أشهر ، حيث كان يرحل فى ذلك الوقت المبكر ، كى يحل محل الحامية التى كانت تعمل هناكخلال السنة السابقة . ويوزع هذا المبلغ على الجنود كتعويض ، لكنه لم يكن ليحول دون حصولهم على رواتبهم المعتادة .

وعند عودة المحمل الى القاهرة ، يرسل أمير الحج عند وصوله الى طابيتى العقبة ونخل مشاة يبلغون الباشا والبكوات بوصوله . وفى الأحوال الأخرى ، كان يبعث بطلباته ورسائله عن طريق أربعة أشخاص من راكبى الجمال . ويحصل هؤلاء وأولئك من الروزنامجى على المبالغ المبينة بالجدول .

وعلى بعد مسيرة سبعة أيام من القاهرة ، يجد الناس فى قلعة نخل، وكذلك فى قلعة العجرود ، وفى بعض أماكن اخرى آبارا تستخدم لسقاية المحمل ولتجديد مئونته من المياه ، وقد رصد السلطان سليمان اعتمادات مالية لتطهير هذه الآبار وكذلك لتطهير احواضها التى تستقبل المياه التى تنزح منها . كما حرص على رصد أموال لشراء التبن الذى تتغذى عليه الثيران المستخدمة فى نزح المياه . ويسبق المحمل ، السقاءون العاملون فى خدمة أمير الحج ، لملء الأحواض ، ولاقامة خيمة يقومون فى حمايتها بتوزيع المياه على الحجاج .

أما المبلغ (بضم الميم وبكسر اللام مشددة) فيعلن للمؤمنين أوقات

الصلاة ، ويكرر ما يلفظ به الامام . ويقوم بنفس هذا العمل فوق جبـــل عرفات ، وطبقا لترتيب استنه سليمان ، كان لابد أن يتم تدبير الجمل الذى يركبه هذا الرجل ، بصفة عاجلة ، مقابل ٢ر٠٠٠ مدينى ،يتم التصرف فيها على يد الشخص الذى يقوم بجباية رسم الخردة ، فحيث كان لهذا الاخير حق التفتيش على أسواق دواب الجمل ، فقد كان بستطيع ، بسهولة اكبر مما يستطيع بها أى شخص آخر ، أن يقوم بهذه الخدمة .

ويعين الاظلم باشى (*)، وهو الموظف الذى عليه أن يسير أمام ركب المحمل ومعه المرطبات للامير وللحجاج ، من قبل الباشا وبترشـــيح من البكوات ، ويصل هذا الموظف الى منطقة أظلم عادة قبل وصول المحمل الى هذا المأوى أو المبيت بيومين ، وفيما مضى كان المحمل يصل الى طابية العقبة موظف آخر ومعه مؤن أخرى ، وعندما الغى على بك اعتماد هذا الأخير ، وجمع منصبى وراتبى هذين المبعوثين ، لم يعد الحجاج يجدون المرطبـات التى حرص سليمان على توفيرها لهم الا فى أظلم . ويتولى الأظلم باشى شراء ونقل المأكولات التى يجلبها مقابل المبالغ الآتية :

على نفقة الميرى :

باعتباره يشغل وظيفة أظلم باشى .	١٣٤ر٣٥٨	
باعتباره يشغل وظيفة عقبة باشى .	٥٨ر٩٢٠	
. . . .		١٩٣ر٢٧٨

على نفقة مال الجهات الذى يشكل جزءا من الكشوفية القديمة :

من حاكم ولاية الجيزة .	٩٤ر٠٠٠	
من حاكم ولاية البحيرة .	٣٠٠ر٠٠٠	
من حاكم ولاية الغربية .	٢٠٠ر٠٠٠	
المجموع		٥٩٤ر٠٠٠

وعندما أراد محمد بك أن يجعل الاظـلم باشى فى وضع يكون معه قادرا على الوفاء بالنفقات التى تقع على عاتقه والتى أصبحت بمرور الوقت أكثر تكلفة ، فقد كلف حكام الولايات المشار اليها فيما بعد أن تدفع له

(*) اظلم أو أزلم باشى ، نسبة الى قلعة الأزلم التى تقع الى جنوب العقبـة . (المترجم)

المبالغ الآتية ، كمصـــــاف الى ضريبة
اســـلامية :

على نفقة مال الجهات :

من حـــاكم ولاية الشرقية	٢٥٠ر٠٠٠
من حاكم ولاية القليوبيـــة	٢٠٦ر٥٥٠
من حاكم ولاية المنصورة	٣٠٠ر٠٠٠
من حاكم ولاية الغربيـــة	٤٠٠ر٠٠٠
من حاكم ولاية المنوفيـــة	٥٢٥ر٠٠٠
المجموع	١ر٦٨١ر٥٥٠

اجمالى ما يدفع على نفقة مال الجهات : ٢ر٢٧٥ر٥٥٠

وفى الأزمنة الاخيرة ، اعطى أمير الحجالى الأظلم باشى من حصيلة الاعتمادات غير الاعتبادية التى كانت ترصد له على التوالى مقابل مصروفات المحمل ، مبلغ . . . ٧٥٠ر٠٠٠

الاجمالى العام لما يحصل عليه أظلم باشى . ٣ر٢١٨ر٨٢٨

وقد اخذ اظلم باشى على عاتقه أن يقدم كافة انواع المعـــونات أو المساعدات التى كان يرغب اهل الحجاج فى ارسالها اليهم . وكان يحمى موكبه حرس يتكون من ستين مماوكا ، ومن ثلاث قطع من المدفعية ، ويصحب فى موكبه فرقة موسيقية يحملها اثنا عشر جملا ، وتشتمل على عدة طبول أو صناديق من أحجام مختلفة ، وبوقين أو نفيرين ، ودفين ، ومزمارين ، وتطلق هذه الفرقة انغاما كثيرة عندما يصل المحمل الى الأزلم أو الى العقبة ، وقد رصد اعتمادا قدره ١٧ر١٦٤ مدينى لشراء وتقديم الحلوى الى امـــير الحج . والأظلم باشى هو على الدوام كاشف مملوك ، له حظوة لدى واحد من البكوات ذوى النفوذ . وفى الأزمنة الاخيرة ، كان يحصل عقب رجوعه من رحلته ، على حكم ولاية الشرقية ، باعتبار ذلك حقا قانونيا له .

ولم يكن المحمل المتجه الى مكة والمدينة هو كل ما كانت ترسله الى هاتين المدينتين اريحية السلاطين الخيرة ، فالنقود والحبـــــوب والزيوت والشمعدانات والحصر التى تفرش فى دور العبادة أو تخصص لاستخدام شريف مكة وعدد من السكان ، كان كل ذلك يصل الى هناك فى ارساليات متباعدة :

أما المعاش المخصص لشريف مكة فكان يبلغ فيما مضى	٣٤٠,٠٠٠ مدينى
ويقدر الارز الذى كان يرسل له عينا بـ .	١٧٠,٩١٧ مدينى
وعندما أضاف الى ذلك السلطان مصطفى على نفقة الخزينة مبلغ	١,٢٠٠,٠٠٠
فقد بلغ اجمالى المعاش المخصص له	١,٧١٠,٩١٧

أما المعاشات التى كانت من حق الشريفة أورخانة والشريفين حمزة وحسين بركة فقد احتفظت بنفس قيمتها المبدئية ، ومع ذلك ، فبدلا من أن يرسل لهؤلاء مبلغ ١٦٩,٠٠٠ مدينى نقدا و ٢٨,٠٠٠ مدينى عينا فى شكل أرز ، كما كان يحدث من قبل ، بات يعطى لهم ١٩٧,٠٠٠ مدينى فى شكل مسكوكات (قطع نقدية) .

ويمر المحمل بينبع ، وهى مدينة وثغر تقع على البحر الأحمر فى منتصف المسافة بين مكة والقاهرة . وقد حصل حاكمها ، وهو دوما من أقارب شريف مكة ، من السلطان مصطفى على راتب سنوى قدره ١٨٠,٠٠٠ مدينى ، على نفقة الخزنة ، دون أن يكون ملزما بأية انفاقات لخدمة المحمل .

أما الحبوب التى ترسل الى مكة والمدينة فكانت توفرها المخازن العمومية ، وطبقا للجدول الذى سبق أن قدمناه عن استخدامات الميرى العينى (أى الذى يسدد فى شكل حبوب ومواد غذائية) فقد كانت الحبوب المرسلة الى هناك تبلغ ٦٤,٠٥٣ أردبا من الشعير تعادل عند تحويلها الى قمح ٤٢,٧٠٢ أردبا، وكان افندى المتفرقة يحصل على ٧٦٢,٣٦٩ مدينى مقابل نقلها من القاهرة الى السويس ، أما قبطان بك ، حاكم هذه المدينة، فيحصل على ٩٧٥,٠٠٠ مدينى كى يرسلها الى جدة بالاضافة الى راتب قدره ١٠٠,٠٠٠ مدينى ، وكانت تقوم بنقلها الى الميناء الاخير خمسة عشر صندلا يلتزم الباب العالى بتجديدها عندما لا تعود صالحة للعمل ، وتقع نفقات صيانة هذه العمائر وكذلك أجور بحارتها على عاتق حاكم السويس، وقد سبق لنا القول بأن هذا الضابط لم يكن خاضعا لاوامر حكومة القاهرة ، كذلك فانه لم يكن يحيط بتحركاته علما الا للسلطان ، وحين بذل على بك محاولاته لنيل الاستقلال لاذ القبطان بك بالفرار ، وبدلا من أن يقوم على (بك) بارسال حبوب الى السويس ، كتب الى شريف مكة كى يستعى

لتسلمها بالقاهرة ، وحين اقر التبطان باشا ذلك الترتيب الذى أعفى الادارة المصرية من نقل هذه الحبوب الى السويس ثم الى جدة ، ظل شريف مكة يعمل على تسلمها على نفقته ، وهكذا انخفضت المصروفات التى تتصل بهذا الأمر الى مبلغ الـ ٢٢٥ر١٢٠ مدينى التى أوردناها بالجدول باعتبارها خصما او تنازلا تم لحساب الروزنامجى مقابل الأجور التى كان بدفعها فيما مضى الى قائد السـويس وأفندى المتفرقة . أما مبالغ الـ ٣٦٩ر٧٦٢ والـ ٠٠٠ر٩٧٥ والـ ٠٠٠ر١٠٠ التى كانا يحصلان عليها فقد بقيت فى الخزنة مما زاد من حجمها بنفس هذا القدر ، منذ أن توقف استخدامها .

أما قاضيا مكة والمدينـة فقد كانا ملزمين باستجلاب الحبـوب المرصودة لهما من القاهرة ، ويحصلان فى مقابل مصروفات نقلها على مبلغ الـ ٥٨١ر٢٣ مدينى (التى وردت بالجدول) .

وحيث قد زادت أسعار الزيت منذ عهد السلطان سليمان ، فى حين لم تزد الأموال المرصودة (لشرائها) فان الكمية التىترسل منه اليوم هى ادنى بكثير مما كان يشتريه من قبل المبلغ المرصود لذلك ، وفيما مضى كان يمنح كمصروفات لشحن هذه المادة من القاهرة الى السويسمبلغ ٧٥٤ر٨ مدينى . ثم خصص السلطان مصطفى لذلك اعتمادا اضافيا قدره ١٥٠ر٨ مدينى على نفقة الخزنة .

ويبلغ عدد الشمعدانات المخصصة لمسجد المدينة اثنين ،ولابد أن يزن كل واحد منهما نحو ٥٠٠ رطل ، وكانا يوضعان بجوار قبر النبى، ولم تكن نفقات صنعهما وشحنهما لتتجاوز فيما مضى ١٩٠ر٦٣ مدينى ، وان كان هذا الضرب من الانفاق قد ارتفع الى الـ ٨١٣ر١٢٣ مدينى الواردة بالجدول ، وذلك عندما خصص السلطان مصطفى لهذا الغرض اعتمادا اضافيا قدره ٦٢٣ر٦٠ مدينى على نفقة الخزنة .

أما الحصر ، فكان يقوم بتوفيرها كاشف ولاية الفيوم، فى حدود المبلغ المرصود لها ، والذى كانت تخصم منه نفقات النقل ، وتخصص هذه الحصر لتغطية أرض المساجد الكائنة بمكة والمدينة .

الفصـــل الثـــانى

الانفاقات التى تقع على عاتق أصحاب المناصب

سبق لنا القول بأن رواتب اصحاب المناصب تتكون من ضرائب غير مباشرة يمارسون جبايتها ، ومن الامتياز الذى منح لهم فى شكل قطعة من الأرض . واذا كان هذا النظام الادارى يقلص من جهة حصيلة العوائد التى خص بها السلطان نفسه ، فانه من جهة أخرى قد اعفاه من تحمل بعض الانفاقات العامة .

وسنوضح تلك الانفاقات التى كان على الباشا والبكوات أن يسهموا بها ، لكننا لن نشير على الاطلاق الى بقية الانفاقات التى كانت تقع على عاتق الوظائف الأدنى ، بسبب ضآلة اهميتها .

أولا — الانفاقات التى تقع على عاتق الباشا :

يقتضى الأمر منا ، بسبب ذلك التفويض الذى حصـل عليه الباشـا والبكوات ، باحداث تغيير فى الدخول وفى الانفاقات التى تتم لحسـاب السلطان ، شريطة ان يعوضوا من مالهم الخاص اى تخفيض فى الضرائب أو مستحقات يريدون ان يرفعوها عن كاهل احد المولين ، وان يضمنوا للخزينة ، فى حالة زيادة أو خلق انفاق جديد ، المال اللازم لتسديدها — يقتضى منا كل ذلك أن نورد هنا — وفى داخل هذا الاطار — الحصـة التى كان يسهم بها الباشا فى تسديد الميرى المقرر على الفرق العسكرية أو على الافراد ، على النحو الآتى :

عن الأوقاف الأهلية الثمانية الخاضعة للميـرى	١٧٨ر١٢٠	مدينى
عن الكخياوات الثـلاثة لاوجاقات جاموليـان وتفكجيان وشراكسة	٦ر٠٠٠	
عن أمين الاحتسـاب	١٧٤ر٥١٩	
عن الولاة الثلاثة للقاهرة ومصر العتيقة وبولاق	٤٦ر٣٩٢	
عن أوجاق الانكشارية كجزء من الميرى المقرر على جمرك الاسـكندرية	١ر٣٣١ر٢٤٩	
عن اوجاق العزبان عن الرسوم المسماة بحرين	١٦٠ر٠٠٠	
الاجمـــالى	١ر٨٣٨ر٣٣٨	

ولم يبين السلطان سليمان مطلقا ، بشكل رسمى مدى وحجم ذلك العدد الكبير من الانفاقات التى وضع على عاتق الباشا مهمة الوفاء بها ، فيما عدا الميرى المقرر على منصبه وكذا الميرى المفروض على العوائد والدخول التى اجراها عليه ، ولكن العادة ، وهى هنا تقوم مقام الرغبة الصريحة ، قـد حددت الرواتب أو المعاشات التى كان عليه ان يعطيها لكل من يعملون فى قصره ، وللروزنامجى ، ولبقية الافندية بالاضافة الى ما عليه أن يقدمه من هدايا وخلعات وقفاطين كان يتلقاها رؤساء الفرق العسكرية أو الرؤساء الذين يلتحقون بخدمة الحكومة أو بالادارة والتى تقدم اليهم فى احتفالات عامة تقام احتفالا بتوليتهم هذه المناصب .

ثانيا — الانفاقات التى تقع على عاتق البكوات أو الكشـاف حـكام الولايات :

تقررت الانفاقات التى يقوم باعبائها البكوات أو الكشـاف حـكام الولايات ، طبقا للوائح السلطان وحكومة القاهرة ، مستقلة عن الميرى المفروض على مناصبهم ، وتدفع هذه الانفاقات عن ذلك الجزء من عوائد الارض ، والمسمى كشوفية ، وهو ما كان هؤلاء الحكام يجبونه من الملتزمين .

ويوضح الجدول الاتى ، حجم وموضوعات هذه الانفاقات .

	إلى أظلم باشى الضابط الذى يسير فى مقدمة المحمل	إلى الشوربجى والضباط وجنود الفرق المنتشرين فى الولايات	رواتب الموظفين وغيرهم من التابعين للحكام ونفقات أخرى تقع على عاتقهم	الرسوم التى ينبغى على الحكام أن يدفعوها للباشا	الإجمالى
	مدينى	مدينى	مدينى	مدينى	مدينى
حاكم ولايات قنا وإسنا وجرجا وسيوط	—	—	٦٥٩,٩٣٧	٢٢٧,٤٢٥	٨٨٧,٣٦٢
« منفلوط	—	—	٤٢٠,٢٤١	٢٠٠,٠٠٠	٦٢٠,٢٤١
« المنية	—	—	٨٥٣,٣٩٦	—	٨٥٣,٣٩٦
« بنى سويف	—	٥٢٧,٣١٦	١,١٩٧,١٩٠	١٦٧,٠٨٥	١,٨٩١,٥٩١
« الفيوم	—	—	٤٤,٧٢٥	٥٠٠,٠٠٠	٥٤٤,٧٢٥
ليست هناك أية انفاقات مقررة على ولاية اطفيح	—	—	—	—	—
حاكم الجيزة	٩٤,٠٠٠	—	٨٤٦,٩٩٦	٢٥,٠٠٠	٩٦٥,٩٩٦
« القليوبية	٢٠٦,٥٥٠	٢٤٣,٥٠٤	٦١٣,٢١٧	—	١,٠٦٣,٢٧١
« الشرقية	٢٥٠,٠٠٠	٦٠٨,٥٥٠	١,١٦٠,٠٣٣	٣٥,٤٨٥	٢,٠٥٤,٠٦٨
« البحيرة	٣٠٠,٠٠٠	٥٥١,٩٤٦	١,١٠٧,٥١٨	٢٤٧,٢٣٨	٢,٢٠٦,٧٠٢
« المنصورة	٣٠٠,٠٠٠	٦٦٩,٧٧٨	١,٣٩٩,٨٤٣	١٥٢,٤٢٧	٢,٥٢٢,٠٤٨
« الغربية	٦٠٠,٠٠٠	٨٩٩,٧٤٣	١,٩٨٠,٦٧٤	٦٥٩,٩١٥	٤,١٤٠,٣٣٢
« المنوفية	٥٢٥,٠٠٠	٨٩٥,٤٧٦	٩٥٧,٦٧٠	٢٠٧,٦٤٠	٢,٥٨٥,٧٨٦
الاجمالى	٢,٢٧٥,٥٥٠	٤,٣٩٦,٣١٣	١١,٢٤١,٤٤٠	٢,٤٢٢,٢١٥	٢٠,٣٣٥,٥١٨

ويعادل الاجمالى العام ١٠ س ٧٢٦,٢٦٨ ل ت

وبالفرنكات ٢٢ س ٧١٧,٣٠١

وكنا عند حديثنا عن اظلم باشى قد عرفنا بوجوه انفاق الاعتمادات التى كان يحصل عليها من البكوات باسم : اسلامية من عوائد مال الجهات(١) .

ويشتمل العمود الثانى (فى الجدول السابق) على الأجور أو الرواتب التى كان على اصحاب المناصب أن يسددوها للشوربجى ، ولفرسان اوجاقات تفكجيان وجامولبان وشراكسة وبصفة عامة الى كل رجال الاوجاقلو العاملين فى دوائرهم ، لكن هذا الضرب من الانفاق لم يكن ليبقى اى نفع للبكوات اذ يبلغ حجمه نفس عائد الضريبة التى انشأها سليمان لتوفير هذه الاعتمادات(٢) .

أما العمود الثالث فيتكون من الانفاقات التى أدت الى نشأة رسوم الكلفة .

وتوضح البيانات التالية وجوه انفاقها :

رواتب متنوعة تدفع الى موظفين وغيرهم من التابعين لاصحاب المناصب .

صيانة الجسور والترع السلطانية .

عادات قاضى الولاية .

عادات دجانجى باشى .

عادات الجيبجى باشى .

عادات مفتش الموازين .

البهائم التى تذبح لتوزيع لحومها على الفقراء أثناء بعض الاعياد .

عادات معتادة لبعض المشايخ ولاضرحة الاولياء .

عادات للمساجد .

اتاوات تدفع للعربان .

أجر العامل المكلف بعمل القهوة للفرقة .

عادات للاغا على الحبوب .

صيانة الآبار العامة .

---

(١) انظر ص ٢٢٩ .

(٢) انظر فى جدول الكشوفية ص ٥٩ خدم العسكر .
وهنا ، كما فى كل اقسام هذا المؤلف ، تبدو الأقوال التى تتكرر فى معظم الاحيان ، عن تفكك أو تحلل الاوجاقات متعارضة مع ذلك الحرص=

الوليمة التى يلتزم باقامتها الحاكم للشوربجية عند مغادرتهم للولاية اكراميات للمذكورين .

وعندما كان البكوات أو الكشاف يبداون فى تملك زمام الولايات التى آل اليهم حكمها ، كان الباشا ورجال قصره يجبون منهم رسم تنصيب يتضمن المبالغ التى تكون العمود الرابع .

ومع ذلك فلا ينبغى أن نضم هذه الانفاقات الى تلك المصروفات الناتجة من استخدام الميرى والتى تنفق فى وجوه انفاق مماثلة . وقد سبق أن لاحظنا أن مبلغ الـ ٢٧٨ر١٩٣ مدينى التى تفرض على الميرى لتشكل اعتمادا يمنح لاظلم باشى ، كانت تسدد مستقلة عن الـ ٥٥٠ر٢٧٥ر٢ مدينى التى يحصل عليها هذا الضابط مباشرة من حكام الولايات . ونلاحظ نفس الشىء فيما يختص بخدمة العسكر التى يدفعها هؤلاء الحكام للجنود المنتشرين فى الولايات ، فهى تتطابق فى غرضها مع تذاكر الجاويشية التى كان هذا الاوجاق يحصل عليها من الروزنامجى .

وكان البكوات يحرصون على دعم مماليكهم وذلك بأن يوزعوا عليهم مناصب الدولة او قرى مصر(١) . وكانت دخولهم ، بوصفهم ملتزمين ، توفر لهم الوسائل التى تكفل لهم دفع رواتب لاولئك الذين ليست لهم مناصب أو الذين لا يجرى لهم راتب من أى نوع ، مع العناية بأمورهم .

= الواضح على بقاء الانفاقات التى انشئت لصالحها ، وحيث لم تصل روح الاستقلال التى تميز بها البكوات مطلقا الى تخريب او قلب فعلى لقوانين السلطان ،وحيث احتفظت الاوجاقات لنفسها بوجود شكلى عن طريق عدد ضئيل من الاتراك يشغلون فيها بعض الرتب قليلة الاهمية أو التى نزعت عنها اختصاصاتها القديمة . فقد ظل هؤلاء الضباط ينظرون لانفسهم باعتبارهم خلفاء للاوجاقلو القدماء ، وفى نفس الوقت فان المماليك الذين اغتصبوا — ربما — كل الوظائف العليا التى كان رجال الاوجاقلو يشغلونها ، قد أبقوا على هذا النظام العسكرى بأن كانوا يخلعون على أنفسهم نفس الالقاب التى كان يتصف بها رجال الفرق العسكرية .

(١) عندما وصل الجيش الفرنسى الى مصر ، كان البكوات ومماليكهم ملتزمين لاكثر من ثلثى القرى ، وكانوا ، بالاضافة الى ذلك ، وكما سبق لنا أن لاحظنا ، يتمتعون باكبر قدر من الرسوم غير المباشرة .

ويتمم بيان هذه المصروفات ، التى كان يتم انفاقها على جماعة كانت تكون فى الأزمنة الاخيرة الوضع العسكرى لمصر ، تلك الانفاقات التى كان على أصحاب المناصب ان يوفوا بها .

الفصـــل الثـــالث

موجز بالانفاقات التى تقع على عاتق السلطان

بينا من قبل تلك الانفاقات التى كان يقع على السلطان عبء تدبيرها من الميرى الذى يستبقيه لنفسه ، ولما كانت تلك الانفاقات التى ذكرناها فى الفصل الاسبق مستقلة عن تلك التى نشير اليها ، برغم اتصالها بأعمـــال المصالح العام . ولانها لم تكن لتدخل مطلقا مثل الاخريات فى الحساب العام، ولأن السلطان لم يكن يأخذ بها علما الا ليتأكد من أنها قد انفقت ، فاننا لن نتناولها فى بقية هذا المؤلف .

واليكم موجزا للجداول التى قدمناها عند حديثنا عن الانفاقات التى يقع عبئها على عاتق السلطان .

	بالمدينى	بالجنيه التورى			بالفرنكات	
		د	س	ل	س	ف
رواتب مخصصة لموظفين متفرقين	٢,٩٣٩,٢٤٧	٢	٢	١٠٤,٩٧٣	١٤	١٠٣,٦٧٧
مصروفات الجيش	٢٩,٨٧٢,٦٥٧	١	١٢	١,٠٦٦,٨٨٠	٣١	١,٠٥٣,٧٠٩
« مختلفة	٢,٦٥٣,٥٨٥	١٠	١٧	٩٤,٧٧٠	٩٠	٩٣,٦٠٠
معاشات	٨,٤٣٨,٩٩٤	١٠	١٢	٣٠١,٣٩٢	٧٧	٢٩٧,٦٧١
أعمال ومؤسسات خيرية	١٣,٨٩٢,١٣٩	٥	١٦	٤٩٦,١٤٧	٥٤	٤٩٠,٠٢٣
محمل مكة	٤٢,٠٧١,٦٥٤	٥	١	١,٥٠٢,٥٥٩	٨	١,٤٨٤,٠٠٩
الاجمالى	٩٩,٨٦٨,٢٧٦	٩	٢	٣,٥٦٦,٧٢٤	٧٤	٣,٥٢٢,٦٩٠

ولقد سبق لنا أن عرضنا عند تقديمنا موجزا بدخول السلطان لوظائف الأفندية الموكلين بأمور الجباية ، ولذا فان من المناسب ان نبين هنا اختصاصات أولئك الذين يديرون عمليات الانفاق .

يختص افندى المقابلة بسجلات رواتب الموظفين ومصروفات الجيش ، والانفاقات المتنوعة والمعاشات ، والأعمال والمؤسسات الخيرية التى رصد لها السلطان اعتمادات نقدية ، ويلتزم هذا الافندى بأن يدون فى سجلاته التغيرات التى تطرأ على أولئك الذين يفيدون منها . ويمسك افندى الكسوة بسجل يوضح كل النفقات التى تنتمى لنفس هذا النوع . وهو يحتفظ بسجل المعاشات التى تكون الصرة ومصروفات المحمل . وهناك افندى ثالث يختص بكل النفقات التى تنجم عن أوراق المرتبات (الجامكية) ، فينظم عمليات صرفها مع أفندية الاوجاقات ، وبشكل عام مع كل من يمكنه الحصول على أوراق مالية من هذا النوع . أما افندى المحاسبة فيمسك بحساب كل ما يرسل الى الباب العالى نقدا او فى شكل مواد غذائية ، وكذلك بحساب أية مصروفات تتم على نفقة الخزنة . وينصرف نشاط افندى اليومية الى حصيلة أوقاف الحرمين ، التى تصب حصيلتها كما سبق لنا القول بين يدى الروزنامجى . ولم يكن هؤلاء الافندية يسددون اى شىء بأنفسهم ، وانما كانوا يسحبون المخالصات وغيرها من المستندات من الاطراف المستفيدة ، ليبدلوها بحوالات قابلة للدفع من صندوق الروزنامجى . ولم يكن الصراف الموكل بالدفع يسدد قيمة الحوالات التى سلمها هؤلاء الافندية ، الا بعد أن يؤشر عليها بختمه باش حلفا المصروفات وذلك بعد أن بطابقتها على بيانات السجل العام الذى يمسكه لكل الانفاقات التى تقع على عاتق الخزينة ، وبعد أن يتأكد من بنود ودوافع الانفاق . ويقدم الافندية حسابات سنوية بحصيلة اوراق أو مستندات الانفاق التى حصلوا عليها من المستفيدين منها . ويتسلم الروزنامجى هذه المستندات ، فهو المركز الوحيد الذى تتجمع لديه كل التحصيلات وكل الانفاقات. وكل الافندية والحلفا هم مرءوسون للروزنامجى وان لم يكن بمقدوره ان يغير من النظام الذى يحدد اختصصات وظائفهم ، ويخضع له كذلك افندية الفرق العسكريةبرغم أنهم يعينون بمعرفةأوجاقاتهم،

وهو يحاسبهم على الأموال التى أودعت اديهم ، كما كان يسـلمهم كل عام الاعتمادات التى رصدت لكل أوجاق ، ليقوموا بتوزيعها طبقا لتعليماته.

وحيث يتملك هؤلاء الأفندية ، سواء منهم من يعمل بالتحصيل أو من يوكـل بشئون الانفاق ، وظائفهم ، وحيث كان لهم حق بيعها أو توريثها ، فلم يكن بالمستطاع انتزاع هذه الوظائف عنهم بشكل تعسـفى ، ولم يكن الروزنامجى يتفحصهم الا لكى يتأكد من أن الكفاءة اللازمة لممارسة عماهم متوفرةلديهم ، ومع ذلك فقد كان هؤلاء يرغمون على بيع وظائفهم حين لا يجد الروزنامجى لديهم المعرفة الكافية ، أو عندما يخل هؤلاء بواجباتهم عنـد ممارستهم لوظائفهم . ويحصل الروزنامجى ، باعتباره ابنا للديوان ، على مشورة هذا الديوان بالنسبة لكل ما يتصل باختصاصاته . ووظيفته غـير قابلة للنقل (أو أنه هو غير قابل للعزل) ، وكان محرما عليه ، وعلى كل مرعوسيه كذلك ، تقديم أقل أو أوهى معلومة الى اى مخلوق ، كائنا من كان، عن موارد ومصروفات وادارة مصر الا بعد حصوله على اذن محدد وصريح من السلطان أو من الباشا . وهذه الأسرار التى اتبعت باخلاص وأمانة ، هى التى اضفت الكثير من الاعتبار والاهمية على هؤلاء الأفندية . وكانوا ـ هم ـ غيورين على ذلك لدرجة أنهم استخدموا فى مسك دفاترهم حروفا غير معروفة (*) . ويتباهى الشرقيون بعلم هؤلاء الافندية ورقتهم ودماثتهم، وتيسر لهم هذه الميزات مداخل سهلة لدى الكبار . وكان هؤلاء يجبون ، بخلاف العـطايا التى يحصلون عليها من الخزنة ، رسما بسيطا على من يقدر عليه إن يتعامل معهم من الاشخاص . وقد جعلتهم هذه الميزات المختلفة يحصلون على ثروات ضخمة ، وكانت الغالبية العظمى من الأفندية مماليك ، وكان لهم خلفاء ، هم أولاد لهم بالتبنى ، شابهوهم فى نفس بدايتهم، وبدلا من أن يجعلوا منهم جنودا على غرار ما يفعل البـكوات والكشـاف كانوا يلقنونهم أصول مهنتهم كى يجعلوهم أكفاء فى شغل وظائفهم هم لكنا تجهل لماذا لم تكن وظائف كبار الافندية

(*) وهى ما يسمى بخط القرمة . (المترجم)

العاملين فى شئون الانفـــــاقات والمصروفات خاضعة لدفع الميرى ، مثلها فى ذلك مثل وظائف الافندية العاملين فى حقل الجباية والتحصيل . وكان هناك ، فوق ذلك كله ، افندية يديرون المدارس ، ينسخون أو يضعون الكتب ، وكان من النادر أن يهجر هـــؤلاء أو أولئك مهنتهم كى ينخرطوا فى سلك مختلف .

الباب الثالث

محصلة موارد وانفاقات السلطان

الخزنة أى الأموال التى ترسل اليه فى القسطنطينية

لمسنا من قبل أن الموارد التى تجبى لحساب السلطان ، والنفقات التى تقع على عاتقه تبلغ ما يلى :

المــوارد	١١٦ر٦٥١ر٧٢٧ مدينى
الانفاقات	٩٩ر٨٦٨ر٢٧٦
المحصــلة (ما كان يبقى للخــزنة)	١٦ر٧٨٣ر٤٥١ مدينى

تعادل بالجنيهات التورية :

د	س	
١	٢	١٣٣ر١٦٦ر٤
٩	٢	٧٢٤ر٥٦٦ر٣
٤	١٩	٤٠٨ر٥٩٩

وبالفرنــكات :

س	
٤٧	٦٩٩ر١١٤ر٤
٧٤	٦٩٠ر٥٢٢ر٣
٧٣	٠٠٨ر٥٩٢

وكانت لائحة السلطان سليمان قد وصــلت

بهذا الفائض الى	٣٠ر٨٨٣ر٨٧٦ مدينى

وحيث حصل هذا الفائض فى عهد خلفــائه

عــلى زيادة قــدرها	١ر٩١٧ر٧٤٩
وعلى نقص قدره	١٦ر٠١٨ر١٧٤
فقد تلقص هذا الفائض (الخزنة) الى . .	١٦ر٧٨٥ر٤٥١

وهذا المبلغ هو الذى يطلق عليه اسم خزنة ، وهو نصيب السلطان الذ ى خص به نفسه من الضريبة ، وظل يرسل اليه بانتظام حتى عهد على بك الذى تجاسر على رفض ارساله اليه . ثم عاد محمد (ابو الذهب) خليفته الى الالتزام بدفعه ، بل لقد بادر بارسال الضريبة المستحقة عن السنوات الاربع التى رفض على بك ارسالها طوالها . وقد واصل ارسالها مراد وابراهيم ، ومع ذلك ، فلما كان من سلطة الباشا أن يخصم من هذه الضريبة الأموال اللازمة للانفاقات الملحة وغير المتوقعة ، والتى يقرر انها تقع على عاتق السلطان ، فقد أساء هذان البكوان استخدام هيمنتهما فى ابتزاز الفرمانات التى تخول هذه الانفاقات الخرافية والتى كانا يخصان نفسيهما بقيمتها .

وقد شاء القبطان باشا حسن أن يزيد من حجم الخزنة بمقدار ٦٫٨٠٠٫٠٠٠ مدينى وزعها على النحو التالى :

---

(١) أدى توقف دفع مصروفات نقل الحبوب من القاهرة الى جدة ، وهى المصروفات التى أنشأها سليمان ، منذ اللحظة التى اقر فيها القبطان باشا هذا الاجراء الذى اتخذه على بك فى هذا الخصوص الى زيادة حجم الخزنة بنفس قيمة هذه الانفاقات التى توقف دفعها على النحو التالى :

٧٦٢٫٣٦٩	
٩٧٥٫٠٠٠	. . . . . . ١٫٨٣٧٫٣٦٩ مدينى
١٠٠٫٠٠٠	

وهناك بالاضافة لذلك راتب سبق أن تناولناه وقدره ٨٠٫٣٨٠

كان سليمان قد خصصه للبك قائد جدة ، توقف دفعه بالمثل وبقى فى الخزينة ، عندما أرسلت حكومة مصر هذا البك الى جرجا بدلا من أن تقلده منصب القيادة ، وحصلت من السلطان على قرار بأن الباشا الذى يرسله الى هذه المدينة ، سيتخذ مقرا له فى جدة . (وبذلك نجد لدينا من حصيلة هذين الوفرين المبلغ المطابق للزيادة الواردة بالجدول السابق وهو (*) : ١٫٩١٧٫٧٤٩ مدينى

(٢) من المناسب أن نجمع فى داخل هذا المنظور الاعتمادات الاضافية الناجمة عن استخدامات هذا المبلغ والتى منحت على نفقة الخزنة بعد سليمان :

على يد السلطان مصطفى : =

(*) ما بين القوسين هو زيادة فى الايضاح من جانب المترجم .

لزيادة حجم الميرى :

على جمرك الاسكندرية	٦ر٠٠٠ر٠٠٠ مدينى
على البوصير والسـنامكى	٤٠٠ر٠٠٠

اعتماد اضافى لراتب الباشا خاص بتموينات

الحبـوب	٤٣ر٢٠٠ مدينى
موارد أوجاق المتفرقة من قرية سرنبـاى .	٤٨٤
لمجرى عيون مصر العتيقة	٤ر٠٠٠
لبئر يوسف افندى	٣ر١٠٠
للشربات (المشروبات الحلوة)	٧١ر١٢٤
للعـدس والارز	٧٠٢ر٩٦٩
لصيانة مقبرة القاضى زين العابدين . . .	٣٠٠
لصيانة مقبرة الشيخ محمد كريم الدين . .	٢ر٠٠٠

على يد القبطان باشا حسن :

معاش لعائلة الشناوى	١ر٠٠٠

على يد السـلطان مصطفى :

الكسـوة	٢٦٤ر٨٠٧
اعتماد اضافى للصرة	١٤٥ر١٤٣

لأمير الحـج :

على يد السلطان مصطفى .	٢ر٥٨٧ر١٠٧
على يد السلطان عبد الحميد	٥ر٠٠٠ر٠٠٠
على يد السطان سـليم .	٥ر٠٠٠ر٠٠٠
المجمـوع	١٢ر٥٨٧ر١٠٧

على يد السلطان مصطفى :

للسردارات	٥٦٣ر٧٢٧
لحامية قلعـة المويلح	١٨٠ر٤٤٠
لشريف مـكة	١ر٢٠٠ر٠٠٠
للامير حاكم ينبـع	١٨٠ر٠٠٠
لنقل الزيت	٨ر١٥٠
شـمعدانات	٦٠ر٦٢٣
مبـلغ مطـابق	١٦ر٠١٨ر١٧٤

وكما قلنا فان القبطان باشا قد استبعد من نفقات الميرى مبـلغ الـ ٧٠٥ر٣٥٠ مدينى الذى كان يستخدم فيما مضى فى مشتريات مشاقة الكتان ومبلغ الـ ٨٧٥ر٩٧٢ المخصص لشراء سكر الذى يرسل الى القسطنطينية، وأمر بخصم هذه المبالغ من الخزنة اذا ما طلبها السلطان .

على قرية المطـــرية ٠٠٠ر٢٠٠
على محلات الجـــزارة بالقـــاهرة . . . ٠٠٠ر٢٠٠
المبلغ المطابق . . . . ٠٠٠ر٨٠٠ر٦ مدينى

وفى عام ١٢٠٥ من الهجرة ، عندما أعقب موت اسماعيل بك عودة عهد البكوين مراد وابراهيم ، حصل هذان الأميران من السلطان على خفض (فى قيمة الخزنة) يعادل مبلغ الـ ٠٠٠ر٨٠٠ر٦ مما عاد بالخـــزنة الى حجمها السابق ، وان كان هذا الخفــض لم يمنعهما من اتيان كل ضروب الخيانة (وفساد الذمة) التى كانا يتهمان بها أثناء ادارتهما الأولى ، فأدخلا ضمن الأموال المرسلة للسلطان كل السندات والأوراق والمخالصات التى تبين الانفاقات ، صحيحة كانت أم زائفة ، والتى يريان أنه ينبـــغى أن تتحملها الخزنة . ولم تعد الضريبة السنوية التى يسمحان لها بالوصـــول الى الباب العالى تتجاوز مبلغ ٠٠٠ر٥٠٠ر٧ مدينى .

ويقدم الجدول الآتى مثالا على الادعاءات التى كانا يتذرعان بها عادة لانقاص الخزنة :

كانت الخزنة التى ينبغى ارسالها للسلطان تبلغ ٤٥١ر٧٨٣ر١٦ مدينى
وكانا يخصمان منها :
لشراء مشـــاقة الكتان(١) ٠٠٠ر٠٠٠ر١
لشراء السكر(١) . . ٠٠٠ر٠٠٠ر١
لتـــوزيع اســـتحكامات
القـــاهرة(٢) . . ٠٠٠ر٠٠٠ر٣
لنفس الغرض فى منـــاطق
أخـــرى (٢) فى مصر . ٠٠٠ر٥٠٠ر١
انفاقات متفرقة بأمر شـــيخ
البلـــد(٣) ٤٥١ر٧٨٣ر٢

(١) تختلف قيمة هذه الانفاقات تبعا لحجم طلبات حكومة القسطنطينية.
(٢) وقد ثبت أن البكوين لم ينفقا شيئا على هذه الاستعدادات .
(٣) كان شيخ البلد عادة يأمر بهذه الانفاقات لمنفعته الخاصة ، وقد أصبحت هذه الانفاقات مشروعة أو قانونية شأنها فى ذلك شأن الانفـــاقات الســـابقة وذلك بعد أن تم ابتـــزاز فرمانات من السلطان تخول هـــذه المصروفات .

مجموع ما يخصم . . . . . . ٩٫٢٨٣٫٤٥١

وبذلك لم تعد الخزنة تبلغ ســـوى ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ مدينى

	د	س	
تعـــادل	١٠	٢	٢٦٧٫٨٥٧ جنيها توريا
وبالفرنكات		٢٦	٢٦٤٫٥٥٠ فرنكا

وكان سليمان قد قرر أن واحدا من بين الأربعة والعشرين بك ، يحمل لقب أمير الخزنة ، سوف يحمل كل عام خراج مصر الى الســـلطان ، وأن يعمل تحت أمرته ، لتأمين هذا الموكب ، سردار وسربة يتكون افرادها من الاوجاقات العسكرية السبعة كلها. فما أن كانت تتم جباية الضريبة ، حتى يتوجه الروزنامجى الى الباشا ومعه قيمة الخزنة ، وفى اليوم الذى يتقرر تسليم الخزنة فيه ، يجتمع بالقلعة ، كل من رؤساء الاوجاقات والبـــكوات والقاضى وكل أعضاء الحكومة : ويراجع عدد المسكوكات النقدية وتفحص على يد الصراف كاتب الخزنة ، والذى ينبغى أن يكون يهوديا حتى يشغل هذه الوظيفة . وبعد ان يوقع الباشا والروزنامجى البيان المفصل بحساب وقيمة الخزنة ومستنداتها تودع الخزنة فى صناديق مغطاة بالجلد ، ويعهد بها الباشا الى امير الخزنة الذى يعطى ايصالا باستلامه لها . وأثناء تحميـــل الصناديق على الجمال المخصصة لنقلها ، يخلع الباشا على الأمير عبـــاءة سوداء فاخرة ، ويعطى الروزنامجى بعباءة أخرى أقل فخامة ، لكنها من نفس اللون ، ثم يوزع قفاطين على السردارات قادة الحرس . ويحضر البكوات ورجال الاوجاقات رحيل امير الخزنة ، ويحيطون به فى موكب مهيب عند اجتيازه القاهرة وحتى العدلية ، وهو مكان يقع بين العقبة وبركة الحج . ويعلن عن هذا الحفل منذ العشية عن طريق ألعاب نارية تتم فى العدلية ، بفعل طلقات مدفعية تظل تتكرر حتى لحظة الرحيل . ويتخذ امير الخـــزنة طريقه الى القسطنطينية مرورا بدمشق . وكان السلطان سليمان هو الذى حدد بنفسه تفصيلات هذه الرحلة ، كما حدد المبالغ التى ينبغى أن تتحملها الخزنة لمصروفات النقل ،وشراء الصناديق والحقائب والجلود والسجاجيد التى تستخدم لغطائها . وقد خصص :

لنقل الخزنة . . . . . ٥٠٫٠٠٠ مدينى

للجـــلود . . . . . . ٩٫٧٥٧

للســـجاجيد ١٣٤ر٥
للصـــناديق ٤٢٣ر١١

ولم تكن تبسط السجاجيد الا حين يدخل الأمير المناطق الآهلة كى يضفى بعض الابهة على موكب يتجه الى مقر سلطان .

وقد كف الكخياوان ابراهيم ورضوان عن ارسال هذه الخزنة مع هذه الرسميات الاحتفالية التى أوردنا تفاصيلها . وحذا خلفاؤهما حذوهما. وقبل مجىء الفرنسيين الى مصر لم يكن الباب يحصل على شىء ، الا اذا أوفد — هو — الى القاهرة اغا موكل بصفة خاصة بالحصول على الاتاوة (الخراج) المقررة ، بل ان مثل هذه الارساليات لم تعد تتم فى العادة الا مرة واحــدة كل ثلاث سنوات ، وفى كل مرة، كان يتم تحصيل قيمة الخراجات التىتراكمت فى هذه المدة ، ولم يكن يصحب قدوم أو رحيل الاغا أى ضجيج ، اذ كان الباشا يســـلم اليه ببســـاطة شديدة ، وفى حضرة القـــاضى المسكوكات ومستندات المخالصة التى تكون الخزنة ، وكان على الاغا نفسه أن يتخــذ الوسائل التى تناسبه لتأمين عودته الى القسطنطينية ، وهكذا لم يعد ثمــة ما يسوغ تلك المبالغ التى سبق أن اعتمدها سليمان لنقل الخزنة كما أن ذلك لم يؤد الى أى خفض فى الـــ ٤٥١ر٧٨٣ر١٦ مدينى (وهى قيمة الخزنة) التى بيناها ، ذلك أن المبالغ المشار اليها لا تدخل فى أى جدول من جداولنا.

الكتاب الثالث

دراسات قصيرة

(١)

معامل التفريخ

روزبير - روبييه

((العنوان الأصلى للدراسة هو : دراسة موجزة حول عملية افراخ الكتاكيت فى مصر باللجوء الى استعمال الافــران أو المواقد ، تأليف السيدين روزبير مهنــدس المناجم وروبيــه الصــيدلى)) .

« وكان البيض يوضــع فوق القش فى قبــو كانت حرارته تظل مستمرة عن طريق نار معتدلة ، حتى اللحظــة التى تفرخ فيهـا الكتاكيت ، وطيلة هذا الوقت يظـل ثمة عامل مهمته تقليب البيض ، ليلا ونهارا » .

بلين

التاريخ الطبيعى ، الكتاب العاشر ، الفصل ٥٥

— ١ —

نبذة تاريخية عن طريقة التفريخ الاصطناعية

لعل قليلين من الأشــخاص فقط هم الذين لم يسمعوا بعـد عن فن استفراخ الالــوف من الكتاكيت فى وقت معا ، دون اللجــوء الى طريقة الحضانة الطبيعيه وذلك بابدال حراره الدجاجات بحرارة مشابهة على نحو تقريبى يتم الحصول عليها بشكل اصــطناعى فى أنواع من الافــران أو المكامير ، فهذه واحده من اكثر الممارسات الفريدة التى وجدناها لدى الناس فى العصور القديمة ، ولقد كانت هذه بالمثل فنا هاما عند قدماء المصريين ، كما لا تزال حتى اليوم عند محدثيهم هى الاسلوب الأوحد الذى يستخدمونه لتوفير الكتاكيت . وبالاضافة الى التيسيرات التى قد يقدمها الطقس لانجاح طريقة الحضانه الاصطناعية فان من الأرجح أن يكون الذى وجه بحــوث المصريين نحو هذه العمليه هو ضآلة نجاحهم فيما يبذلونه لحمل الطيــور المنزلية عندهم على حضانة بيضها ونستنتج من ذلك أيضا تلك الاســباب التى دفعت المصريين قبل غيرهم الى التفكير فيها حين نتذكر كم كانت معاهد الكهان القدامى تعنى بدراسة كل ما له بعض علاقة بضرورات الحياة ، وكم كانوا يعلقون من أهمية على توفيــر المأكولات التى وجــدوها أكثر ملاءمة للصحة . ومع ذلك فلابد أن نلاحظ أن هذه الوسيلة لم تكن فى ممارستها قاصرة على مصر بشكل تام ، فقد كان الصينيون ، الذين يحلو للبعض القول بأنهم قد تعلموا على يد مستعمرة من المصريين ، يمارسونها بالفعل منذ زمان لا يمكن لنا تحديد بدايته ، وان كانت أفرانهم وطرقهم بالغة الاختلاف .

ولقد اكتشف الرومان كذلك فكرة الحضانة الاصــطناعية ، ومع ذلك فثمة شك كبير فى أنهم استطاعوا أن يمارســوا ذلك على نطاق واســع

وبشكل مطلق . ويخبرنا بلين Pline ان نسوة رومانيات كن يتحلين فى بعض الأحيان بصبر يدفعهن الى محاولة افراخ بيضة ما بحملها على الدوام بين النهدين ، وإنهن قد كن يستطعن أن يحدسن من ذلك نوع جنس الأجنة اللاتى كن — هن — حبليات بها ، وفضلا عن ذلك ، فانه يصف بايجازه المعهود ، اسلوب أو طريقة الافران دون أن يفصح عن البلد الذى كانت تمارس فيه ، وانه لامر شاذ فى الحقيقة أن يكون من الممكن لكاتب كهذا ، شديد المعرفة فضلا عن ذلك بعادات مصر ، أن يجهل أصل ومنشأ هذه الطريقة .

ويشير ديودور الصقلى ، الذى كان دائم التجوال فى هذه المنطقة ، فى عهد أواخر البطالمة ، الى طريقة الحضانة الاصطناعية ، كما لو كانت فنا يمارس منذ زمان طويل ، ويمكن المرء ، بالطريقة التى يتحدث بها عنها ديودور ، أن يحكم بأن المصريين ، فى ذلك الوقت ، كانوا يحيطون هذه الممارسة بكثير من الغموض ، ومع ذلك فان النص الوارد عند ديودور لم يفهم على الاطلاق (الفهم الصحيح) من قبل مترجميه ، اذ يجعله الاب تيراسون Terrasson يقول(١) : « وبدلا من تركهم البيض فى حضانة الطيور نفسها التى باضته ، فان لديهم الصبر على أن يجعلوه يفقس بتدفئته فى أيديهم » . ويشكل هذا التفسير (لنص ديودور) معنى لا يمكن أن يتصف بالمعقولية على الاطلاق ، بل انه لم يرد قط بالنص (المشار اليه)(٢) ، فالتعبير الذى استخدمه ديودور لا يعنى مطلقا أنهم كانوا يدفئون البيض فى أيديهم وانما يقدم معنى مماثلا لتعبير بالغ الدقة استخدمه بلين عن نفس الشىء . ويبدو أن المقصود تبعا لفقرات وردت عند ديودور ومؤلفين آخرين ، لم يكن هو ، فى الأزمنة الاخيرة ، بيض الدجاج بصفة خاصة مطلقا وانما هو بيض الأوز الذى كان يمر بهذه الوسائل ، ولقد كان لحم هذه الطيور واحدا من اللحوم التى كان يفضلها الكهنة خلال الأزمنة التى لا ينتشر بها مرض وبائى ، وهذا هو السبب فى أن القوم كانوا يجدون كثيرا فى مضاعفة أعدادها . وتأتى المبانى الاثرية لتتطابق مع هذه الشهادات حيث نرى هذه الطيور مرسومة فى الوف الاماكن ، وبصفة خاصة فى تلك الرسوم البارزة التى تمثل الاضحيات المقدمة الى الالهة .

---

(١) الكتاب الأول ، ص ١٦٠ .

ومع ذلك ، فهل يكون علينا — اذا ما تقبلنا فكرة قدم الحضـــــانة الاصطناعية-ان نصدق أن الوسائل التى نجدها هناك اليوم هى نفســها تلك الوسائل التى كانت تتبع فى الماضى ؟

ان سؤالا كهذا جدير بالاهتمام من نواحى عدة ، ويظل يحتاج على الدوام الى اجابة تحسمه .

« يقال إن الكهنة ، وقد تشبثوا بعناد أكبر مما ينبغى بالملاحظـــات القديمة المتجمعة حول الطريقة التى تنتهى بافراخ بيض النعام والتماسيح والذى يودع فى الرمال ، لم يكلفوا انفسهم حتى عناء القيام بأية بحـــوث لاحقة »(١) ويعتقد المرء أنهم قداكتفوا بتخيل طريقة مماثلة . ولقد استقر بصفة عامة بين أولئك الذين درســوا عادات مصر القديمة ، أن هــؤلاء الكهنة ، بدلا من استخدام الافران التى تدفئها النيران ، كانوا يحيطون البيض ببراز الحيوانات والذى كانت حرارته الطبيعية تكفى لافراخه ، ومع ذلك ، فلسوف تكون هذه الواقعة بافتراض صحتها،بالغة الغرابة لان أبخرة هذه الفضلات الحيوانية قاتلة لأجنة البيضات ، كما أن الحضانة التى تتم على هذا النحو ، وفضلا عن كونها اختراعا بالغ البساطة ، تقتضى اتخـــاذ احتياطات ليس من الطبيعى تخيلها للوهلة الأولى . واننا لنعرف بالقـــدر الكافى ، كيف ساقت مثل هذه الفكرة الشاذة ريومور **Reaumur** الى الوف المحاولات ، حين أصر بعناد على تحقيق رغبته فى تفريخ الكتاكيت فى روث الماشية على غرار ما كان يفعل الكهنة المصريون . ولقد خصص هذا الفيزيائى الحاذق واليقظ مجلدا بأكمله لوصف التجارب غير المثمرة التى قام بها فى البداية ، كما انه لم يحرز بعض نجاح الا بعد أن توصل بشكل حاسم الى الحيلولة دون حدوث اى اتصال بين البيض وبين الأبخرة التى تتصاعد من هذه الفضلات الحيوانية .

ومع أن المسيو دى بو dePauw قد كشف بكثير من التجرد والنزاهة عن وجود أفكار خاطئة كثيرة حول عادات مصر القديمة ، فانه — برغم ذلك — قد تبنى هذا الرأى نفسه ، وآراؤه فى ذلك تستحق التمحيص ، ولسوف

---

(١) **M. de** Pauw, **Recherches Philosophiques sur les Egyptiens,** t. Ier, **Pag. 204.**

نعرف عن طريق ذلك الى أى حد تشبث بفكرته حول هذا الموضوع . يقول هذا الباحث : « لابد أن تعترينا الدهشة حقا لأن كهنة مصر .. وهم الذين كانوا يعرفون معلومات ومعارف واسعة بالقدر الكافى عن امور لا حصر لها ، قد كانت تنقصهم النظرة الناقبة فى نقطة رئيســـــية : ذلك أنهم لم يكتشفوا طريقة الافران ، بل لقد كانوا يرتابون فى امكانية انشائها ، وهذا أمر تسهل البرهنة عليه . فأرسطو —ولعله أقدم مؤلف تناول طريقة تفريخ البيض فى مصر-يذكر أن القوم لم يكونوا يستخدمون سوى الحرارة المنبعثة من الفضلات الحيوانية . أما انتيجون الذى عاش بعد أرسطو بقرون طويلة فيذكر الشىء نفسه ، كذلك فعل بلين الذى وضع مؤلفه بعد أنتيجون ، كما ترجم ما ذكره أرسطو كلمة بكلمة ، وأخيرا فان الامبراطور أرديان الذى جاس فى كل أنحاء مصر ووقف باهتمام على غرائبها قد عبر عن مشاعره فى رســــالة منه وجهها الى سرفيـــان Servien يتحدث فيهـــا عن المصريين « أنهم يفرخون كتاكيتهم بطريقة أخجل من أن أقصها عليك » .

« وتبرهن كل هذه الشهادات مجتمعة أن طريقة الأفران كانت مجهولة فى هذه البلاد حتى عام ١٣٣ من الميلاد ، وربما لما بعد ذلك بوقت طويل ، ذلك اننى أجهل متى وكيف أمكن الناس هناك أن يتوصلوا اليها » .

ان شهادة ارديان هذه ، هى كما رأينا بالغـــة الدلالة ؛ وان كانت الشهادات الباقية تبدو أكثر موضوعية ، ولكننا عندما نفحص فقرة من بلين أهملها المسيو دى بو سوف نرى أن هذا المؤلف يقـــــول على وجه الدقة عكس ما أسنناه هنا على مسئوليته (انظر التـــاريخ الطبيعى ، الكتاب العاشر ، الفصل ٥٥) : « وكان البيض يوضع فوق القش فى قبو كانت حرارته تظل مستمرة عن طريق نار معتدلة حتى اللحظة التى تفرخ فيهـــا الكتاكيت ، وطيلة هذا الوقت يظل ثمة عامل مهمته تقليب البيض ليـــــــلا ونهارا » . هذا ما قاله بلين بالحرف ، ومنها جاء التصدير الذى بدأت به هذه الدراسة . وهذا هو أفضل تعريف يمكن لنا أن نقدمه ، فى مثل هـــذه الكلمات القليلة ، عن الاسلوب الذى لا يزال متبعا حتى اليوم ، أما التعبير igne medico أى نار معتدلة فلا يترك أى لبس ، كما أن الاشارة الى عامل يعمل ليل نهار فى تقليب البيض انما ترسم بدقة ملمح العمل المتبع فى طريقة الافران ، وكذلك، فعلى الرغم من أن بلين لم يوضح مطلقا المصـــدر الذى استقى منه معلوماته ، فان من المستحيل الاعتقاد بأننا بصدد وصف شىء آخر

غير ما كان يجرى فى مصر ، حيث كان المصريون من بين كل الشعوب التى عرفها الرومان ، وباعتراف المسيو دى بو نفسه ، هم الوحيدين الذين كانوا يقومون بعملية التفريخ الاصطناعية .

وفى نفس الوقت ، فان أرسطو(١) ، مع اختلافات كبيرة ، لم يعبر عن الامر بطريقة تماثل فى دقتها طريقة بلين ، ولست واحدا ممن يقتنعون بأن هذا الفيلسوف قد صدق حقيقة ، شأنه فى هذا شأن منتحلبه ، ان الأسلوب (المتبع) كان هو العمل على افراخ البيض بفعل الحرارة التى تنبعث بشكل طبيعى من الفضلات الحيوانية ، وسوف يسهل علينا أن نتبين سبب ازدرائه للامر اذا ما وقفنا على تفاصيل العملية ، حيث لا يقتصر الأمر على وضع البيض داخل المكمرة على طبقة من القش أو روث الماشية ، بل أن الوقود المستخدم للاحتفاظ بدرجة الحرارة التى لا بد من توفيرها لن يكون هو نفسه الا من هذه الفضلات نفسها ، أى انه مصنوع من روث الحيوانات مختلطا بقليل من القش المهروس . وحيث أن مصر بلد عار من الغابات ، فقد استخدم الناس فيها ، فى كل العصور ، هذا الوقود الذى يعطى حرارة بالغة الاعتدال ويسهل التدرج بها ، فضلا عن انه يتناسب تماما مع العملية التى نحن بصددها . ولذا ، فاننا لن نتردد مطلقا ، باعتبار ذلك واقعة مستمرة ودائمة ، فى النظر الى طريقة الحضانة الاصطناعية التى تمارس اليوم على أنها هى نفس ما كانت تستخدمه مصر منذ عصورها القديمة . وقد أخبرنا شيوخ القاهرة ، وكذلك اكثر ابنائها تبحرا فى العلم ، وهم فى هذا يتفقون مع المؤلفين العرب فى مختلف العصور ، بأن هذه الوسيلة لم يتوقف قط استخدامها سواء فى مصر العليا أو فى مصر السفلى ، فاذا كانت احدى المخطوطات التى ترجع الى زمن الخلفاء تقصر استخدامها على قرية برما(٢) Behermes فى الدلتا فان الامر يعود الى ازدراء يسهل تفسيره .

---

(١) Historia animalium, lib vi cap 2.

(٢) Behermes هى اليوم برنبال (كذا) وتقع بالقرب من فوه . ونقرأ فى احدى المخطوطات العربية وصلت الينا عن طريق الشيخ ابراهيم قارىء الجامع الكبير (الازهر) بالقاهرة ان ابناء هذه القرية قد ورثوا عن الملحدين (المصريين القدماء) هذا العلم وهم ، مثلهم ، يعرفون طريقة افراخ بيض الدجاج وبيض كثير من الطيور الأخرى .

ولا يزال البرماويون حتى اليوم مشهورين بادارة معامل التفريخ، ويستدعون لهذا العمل فى ولايات عديدة (من مصر)(١) ، ومع ذلك فمن الأرجح أن كانت هذه الحرفةوراثية عندهم ، فقد كانت الأفران علىالدوام كثيرة الانتشار فى كل مكان من البلاد ، وان كان عدم الدقة الذى اتسم به المؤلفون العرب حول مثل هذا النوع من الوقائع يبلغ قدرا لا يمكن للمرء معه سوى أن يرتاب فى انهم قدخلطوا بين هذين الأمرين .

— ٢ —

وصف معامل التفــريخ

تحمل كل واحدة من المنشــات المخصصة لافراخ الكتاكيت اسم معمل الفروج . وتتكون هذه من عدد من الأفران يتراوح بين اربعة أفران وثلاثين فرنا . لكن هذه الافران تصطف على الدوام فى صفين متوازيين ، ويفصل بين الصفين دهليز ضيق . وهذا المعمل ، وهو مبنى من القرميد أو من الطوب النيىء المجفف فى الشمس ، محكم الاغلاق بشكل دائم ، أما نوافذه فعبارة عن عدد كبير من الفتحات الدائرية الصغيرة ثقبت فى قبة الدهليز ، اما الباب ، فنافذة تسبقها عدة حجرات صغيرة جد متلاصقة . هذا هو الوضع العام لهذه المعامل . وليس ثمة ما هو أبسط من تصميم بناء هـــذه المعامل ، اذ يتكون الواحد منها من عدد من الخلايا الصغيرة ، يصل ارتفاع الخلية منها لثلاثة امتار (٩ — ١٠ أقدام) ويبلغ طولها نفس الشىء تقريبا، فى حين يبلغ عرضها المترين ونصف المتر . وتنقسم الخلايا الى طابقين اذ يقطعها عند منتصف ارتفاعها ، وأحيانا عند ثلث هذا الارتفاع ، لوح خشبى يكسوه الآجر ، ويخترقه عند منتصفه (فى كل خلية) ثقب يكفى اتســـاعه

---

(١) فى الصعيد ، حيث يوجد عدد من معامل التفريخ اقل منه فى مصر السفلى ، يحتكر اقباط ببلاو ادارة هذه المعامل ، ومنذ ثلاثين او اربعين عاما كانت هذه القرية التى تقـــع على بعد بضـــعة فراسخ الى شــــــمال منفلوط ، وهى اليوم تكاد تكون خربة ، كانت ما تزال ضيعة هائلة تضـــم عددا كبيرا من المعامل ، ومنذ ذلك الوقت تفرق « معلمو » المعـــامل فى مختلف انحاء مصر العليا واستقروا فى مدن جرجا وفرشوط وبهجورة واسنا وفى كل البلدان تقريبا ، أما حصيلة ما رصدته من أرض الواقع فهو انه ليس من المحتمل أن يكون مسيحيو ببلاو قد تعلموا اساليبهم من ابناء برما .

« هامش من وضع المسيو جومار »

لتمكين رجل من أن يمر من طابق الى الطابق الاخر . ولكل واحدة من هذه الحجرات (أو الخلايا) الصغيرة بابها المطل على الدهليز ، يكاد يماثل فى حجمه نفس أطوال الثقب المعمول فى اللوح الخشبى ، ويستخدم كذلك استخداما مشابها . وهناك فتحات أخرى فى الحواجز أو الفواصل الجانبية تؤدى لحدوث اتصال بين كل الأفران الواقعة على الجانب نفسه من جانبى الدهليز ، وأخيرا ، يخترق القبة التى تغطى كل فرن ، فتحة ضيقة تساعد على تصريف الدخان. وحيث تخصص الحجرات السفلية لوضع البيض ، فان النار توضع فوق أرض الحجرات العلوية ، والتى أحدثت فيها ، بقصد استقبال هذه النار ، حفرتان قليلتا العمق ، وان كان عدد هذه الحفر يبلغ الأربعة فى بعض الأحيان ، تقع بالقرب من الجدران الفاصلة أو الحاجزة . وتحيط بثقب أو فتحة اللوح الخشبى حافة ناتئة يبلغ طول نتوئها بوصتين ، ويحمى هذا النتوء البيض من سقوط رماد المواد الملتهبة عليه(١) .

وتستخدم احدى الحجرات الواقعة عند مدخل المعمل مقرا لسكنى العامل الرئيسى (المعلم) ومساعده ، وهذان لا يبتعدان أبداً عن المعمل طيلة الوقت الذى تستغرقه عملية التفريخ ، وتستخدم حجرة اخرى لاشعال الوقود الذى يراعى الا يحمل الى الافران الا بعد أن يكون قد احترق نصف احتراق كى لا يمكن هذا الوقود أن ينتج أبخرة ضارة ، ويتكون هذا الوقود المسمى « جلة »(*) من بعرات الجمال والقش المهروس ، معجونة على هيئة أقراص ، ويعطى هذا الوقود كما سبق لنا أن أشرنا ، حرارة بالغة اللطف، تسهل زيادة درجتها عند الحاجة .

— ٣ —

سير عملية التفريخ

توافق الفترة التى تفتح فيها المعامل فى مصر العليا أبوابها الأيام الأولى من شهر فبراير ، لكنها دوما تبدأ بعد ذلك بفترة فى مصر السفلى اذ الطقس

(١) انظر اللوحة الأولى ، الاشكال ١١ ، ١٢ ، ١٣ من مجموعة الفنون والحرف ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، وكذا اللوحة الثانية ، الأشكال ١ ، ٢ ، ٣ .

(*) هذا اللفظ هو نفسه ما ورد بالنص الفرنسى (المترجم)

هناك اقل حرارة .وحيث تبلغ مدة الحضانة واحدا وعشرين يوما فان الكتاكيت لا تفرخ الا عند نحو بداية شهر مارس . وقد دلت التجربة على أن الحرارة، فى هذه الفترة وحدها ، تكون مناسبة بالقدر الكافى للكتاكيت الوليدة وبذا تظل حية دون رعاية خاصة ، غير أن حرارة الصيف المتزايدة ضارة بالبيض . وعلى هذا فلا تتم فى العادة سوى ثلاث عمليات تفريخ متتالية ، أو أربع على الأكثر فى بعض المعامل .

وقد وصف عديد من الرحالة المحدثين طرق هذه الحضانة الاصطناعية وان كان الغالبية منهم قد ناقضوا بعضهم بعضا ، ذلك أنهم اعتبروا قواعد ثابتة كل ممارسةأو خطوةوقفوا عليها ولو كانت خاصة بالمعمل الذى زاروه دون أن يقفوا على العلاقة التى قد تربط ايا من هذه الممارسات بظـروف معينة هى على الدوام عرضة للاختلاف والتنوع .

ويستخدم كل معمل (فى الحضنة الواحدة) لتفـريخ ٣ ــ ٤ آلاف بيضة . وعند بداية هذه العملية تختلف طريقة توزيع البيض بعض الشىء ، فبدلا من توزيعها على كل الأفران دون تفرقة ، تترك خالية تماما فى بعض الأحيان افران بعينها ، ومن نافلة القول أن نضيف أنهم يجنبون بكل دقة كل البيضات التى لم تكن قد اخصبت او تلك التى لحق بها التلف ، وهذه تضر كثيرا بعملية التفريخ . اما البيضات التى توضع فىالأفران فتكون قد فحصت بعناية من قبل على يد العامل (المختص) ، ثم تم تسجيلها بمعرفة الكاتب الموكل بادارة المنشأة ، التى تلتزم بأن ترد عند نهاية العملية الى كل شخص عددا من الكتاكيت يتناسب مع عدد البيض الذى كان هذا الشـخص قد سـلمه للمعمل .

ويصف هذا البيض فى كل فرن على شكل طبقات عدة بعضـها فوق الاخر ، وترقد آخرتهن على حصيرة أو على مشاقة الكتان أو القش الجاف . ذلك أن الأبخرة التى قد تنبعث من زبالة رطبة قد تضر كثيرا بنجاح العملية .

ولا توقد النار فى البداية الا فى نحو ثلث عدد الأفران ، تختار على مسافات شبه متساوية ، وبعد ذلك بأربعة ايام او خمسة توقد فى بعض الأفران المتبقية ، وبعد عدة أيام أخرى توقـد الأفران الباقية مع مراعاة انه بمجرد أن توقد النار فى أفران جديدة تترك نار الأفران التى أوقدت فى

البداية لتخبو . وسنشرح فيما بعد دوافع هذا الاجراء . وتتجدد النيران ثلاث مرات وفى بعض الاحيان أربع مرات فى اليوم الواحد ، وتزاد النـــار قليلا فى الليل ، ويدخل العامل المختص الى الحجرات السفلية مرتين أو ثلاث مرات فى اليوم لتقليب البيض ولتغيير أماكنه ، ولابعاده ، كل بدوره ، عن المناطق الأشد حرارة . وهذا هو عمله الرئيسى .

وبدءا من اليوم الثامن يفحص البيض جميعه على ضوء مصـــباح ، وتستبعد تلك البيضات التى لم تخصب ، وجدير بالذكر أنه عنـــد ترتيب البيض ، كان قد ترك فراغ فى وسط الحجرة ليستقر فيه العامل عند نزوله من الأرضية الخشبية للحجرة العلوية .

وقد تبينا وجود الكثير من الاختلافات بالنسبة للكثير من خطــوات هذه العملية ، وبعض هذه الاختلافات محض تحكمية وقد يكون من الاملال أن نتوقف عندها ، وبعضها الاخر يعود الى التوقيت الذى تتم فيه هذه العملية والى التباين فى درجات الحرارة وأحيانا الى المقر الخاص بالمعمل والى عدد الأفران التى يتكون منها بصفة خاصة . ويكفى أن نقدم الأشياء بشكل نستطيع معه أن نحكم على تأثير هذه الظروف المختلفة ، مع قصر اهتمامنا على الظروف الأساسية اللازمة لانجاح عملية التفريخ :

الظرف الأول : تأكد عن طريق ملاحظات تمت باستخدام الترمومتر أن الحرارة المعتادة للحجرات التى يوضع بها البيض هى، مع اختلافات طفيفة، ٣٢° حسب ترمومتر ريومور Réaumur . وهذه على وجه التحديد هى درجة حرارة الحضانة الطبيعية ، ولا تتراوح الاختلافات الا فيما بين ٣١° ، ٣٣° ، وان كانت هذه الاختلافات تكون أكبر بكثير فى الدهليز وفى الحجرات العلوية ، فتظل دوما ادنى من ٣٢° فى المكان الأول وأعلى بكثير من ذلك فى المكان الثانى ، على الأقل ، طيلة الوقت الذى تكون النيران فيه لا تــزال موقدة ، وكذا لبضعة أيام فقط بعد أن تخبو .

ولا يعرف المصريون الترمومتر . ويســـتبدل به العامل حساســـية يجعلها التعود الشديد بالغة الفعالية ، ولهذا السبب فليس من الممكن أن يحل محل مديرى المعامل الذين لا يتخذون لأنفسهم قط من معاونين سوى أولادهم أو أقاربهم ، غيرهم من المصريين فى هذا الضرب من ضـــروب الصناعة، ولهذا بقى سراً فى أيدى أعداد معينة من الأسر .ولابد من ممارسة

طويلة حتى يكون بالمستطاع ادارة معمل ، ولكن لو استخدم الترمومتر ستصبح هذه المعضلة الرئيسية فى حكم العدم .

الظرف الثانى : وثمة شرط ثان ينظر اليه باعتباره شرطا هاما ، وهو ترك النار تخبو قبل انتهاء العملية بوقت قصير ، اما لخشية العاملين على الكتاكيت من انبعاث بعض الروائح من الوقود ، وبخاصة ثانى اكسيد الكربون الذى يملأ الحجرات السفلية ، واما لأنه ليس لدى هؤلاء من هدف سوى بسط البيض ، الذى يوزع جزء منه بالحجرات العلوية لفترة اطول . وينتج عن ذلك أن من الضرورى تدفئة مبنى الافران بالقدر الكافى فى الجزء الأول من عملية التفريخ حتى تستطيع جدرانها الجانبية وحدها ان تحفظ البيض طيلة الجزء الباقى من الوقت فى درجة حرارة ٣٢ .

ولكى يتم توافق هذا الشرط مع الشرط السابق يترك العامل فى بعض الأحيان أفرانا بعينها فارغة حتى يستطيع تدفئتها حسب رغبته عند بدء عملية التفريخ ، وهو الأمر نفسه الذى يقتضى منه عدم اشعال كل الأفران فى وقت معا ولتوزيع الأفران التى يوقدها بطريقة متناسقة ، ولتقليل عددها اكثر فاكثر وكذا لتخفيف كثافة وتقصير مدة النار فى الأفران التى يوقدها فى النهاية كى تظل الحرارة على وجه التقريب متساوية فى الأفران جميعها عقب اطفاء النار فجأة . فاذا ما اطفئت النار فانهم لا يسارعون مطلقا بنقل البيض الى الحجرات العلوية وانما ينتظرون لعدة أيام . ويحدد بعض الرحالة هذه الفترة بأربعة أيام ، ويحددها آخرون بستة ، ويحددها فريق ثالث منهم بثمانية ، والحقيقة ان ليس ثمة شىء عام فى ذلك اللهم سوى انتظار برود هذه الحجرات ، وبخاصة ارضيتها الخشبية وعلى نحو كاف ، وبعد ذلك تقفل الفتحات الخارجية للافران اقفالا غير كامل فى البداية ، بل يتم ذلك شيئا فشيئا كلما بردت كتلة المبنى ، وكلما يكون من الضرورى تركيز الحرارة هناك بدرجة اكبر الحصول على درجة ٣٢ .

وفى بعض الأحيان لا يكتمل عدد البيض الذى يمكن لمعمل ان يحويها الا مرتين أو ثلاث مرات فى العام ، عندئذ تتم عدة خطوات متميزة تتخذ فى وقت معا ، وتستمر الأمور على هذا النحو حتى نهاية الفصل مما يدخل على الأساليب المتبعة تعديلات طفيفة .

وما ان يفتح معمل ما حتى يحمل اليه كل سكان المناطق المجاورة كل

ما لديهم من بيض فى ذلك الوقت ، وبعد انتهاء عملية التفريخ ، يرد اليهم نحو خمسين كتكوتا فى مقابل كل ١٠٠ بيضة (قدموها) ، ويؤول الباقى (من الكتاكيت) الى صاحب المعمل(١) وعادة ما يقدر عدد البيض غير المخصب بـ ١/٥ العدد الاجمالى ، وفى بعض الأحيان لا يبلغ العدد الفعلى سوى السدس ، ونادرا ما يتجاوز الثلث الا اذا كان الأمر يعود الى خطأ من جانب العامل ، ولذلك فانه ملزم عادة باعادة عدد من الكتاكيت يعادل ثلثى عدد البيض الذى تسلمه على الأقل .

وليس من النادر أن يفرخ بعض البيض بدءا من اليوم العشرين أى أبكر يوما عن مدة الحضانة الطبيعية ، وخلال أربع وعشرين ساعة نجد أمامنا ما يربو على ٦٠ ألف كتكوت فى منشأة واحده .ويلقى لها ، كغذاء ، قليل من الدقيق المختلط بخبز مفتت .

وتورد بعض المؤلفات أنه بسبب هذه الكميات الهائلة التى تقدمها هذه المعامل ، فقد كان الناس يلجئون لبيعها فى صاع أو ربع وهو ما يعنى ١/٤ مكيال بعينه . وقد ذكر هذا الاسلوب الشاذ أشخاص كثيرون ، وأكدوا لى انهم رأوا ذلك بأعينهم ، ويوجد بكل مكيال على الدوام عدد من الكتاكيت الميتة ، وهذه الطريقة ، وان كانت تتفق مع تكاسل المصريين وتراخيهم ، حيث هى تعفيهم من تحديد أسعار مختلفة للكتاكيت (تبعا لاعمارها) ذلك أن البيع بالكيل سيجعل عددالكتاكيت التى تناولت طعاما أقل من تلك التى لم تطعم بعد فى المكيال الواحد ، الا أن الشيء الذى يمكننى ، فى هذا الصدد ،أن أقدمه كأمر مؤكد هو أن هذه الطريقة ليست هى الشائعة على الاطلاق ، ففى كل المنشآت التى زرتها كانوا يعدون الكتاكيت ولا يكيلونها

---

(١) لا تدفع أجور أصحاب المعامل على الدوام عينا ، ففى ديروط الشريف ،وهى قرية تقع عند فتحة بحر يوسف . قمت بزيارة واحدة من هذه المنشآت حيث علمت أن الفلاحين يدفعون مدينى واحدا عن كل ٢٠—٣٠ بيضة تبعا للظروف . وعلى الرغم من أن هذا المكسب أدنى بكثير من المكسب الناتج عن الحصول على ١/٣ البيض فانه مع ذلك بالغ الضخامة ، فهذه الأنواع من المصانع هى بالتأكيد أكثر من كل مثيلاتها ربحا فى مصر . وعندما اذكر هذه الملاحظة التى أدين بها للمسيو جومار فلابد لى أن أوضح أن هذا الاسلوب فى دفع الاجر لا يمكن أن يتناسب الا مع المنشآت كبيرة الحجم ، اذ هو فى معمل لايشتمل الا على ٨—١٠ أفران سوف يعطى عائدا أدنى من المصروفات الجارية .

البته ، وتباع مائة الكتكوت افرخت حديثا بـــ ٨٠ مدينى فى المتوسط (أى ادنى قليلا من ٣ فرنكات من عملتنا) .

ويقدر عدد معامل التفريخ فى مصر بمائتين ، ويصل به الأب سيكار الى ست وثمانين وثلاثمائة (٣٨٦) طبقا لما اخبره به الاغا أو شيخ بلد برما ، لكن هذا الرقم مبالغ فيه كثيرا ، وقد قدر ريومور الكمية السنوية للكتاكيت التى تفرخها معامل مصر بأكثر من ٩٢ مليونا . وهناك أخطاء كبيرة فى هذا التقدير ، اذ لا ينبغى ان نحصى فى المتوسط سوى ١٠ أفران فى كل معمل ، ولا يمكن ان يبلغ عدد مرات الافراخ للفرن الواحد اكثر من اربع مرات كل عام ، مما ينتج ٤٠ × ٣٠٠٠ بيضة لكل معمل أى ١٢٠ الفا ، وبافتراض أن المائتى معمل تعمل جميعا بكل كفاءتها فان الرقم الاجمالى لا يمكن أن يبلغ سوى ٢٤ مليونا من الكتاكيت .

ملاحظة :

خصصت الملاحظات العامة المذكورة آنفا بصفة خاصة لتفهم عقلية وأساليب المصريين ، أما فى الملاحظات التى ستعقب هذا الهامش فسنجد تفاصيل معملية استمدت من عماية مراقبة تمت فى معامل القاهرة ، من شـــأنها أن توضح بعض صـــعوبات الممارسة . وقد تركنا بعض التكرار على حاله اما لان الأشـــياء نفسها قد عولجت فى ظل علاقات مختلفة ، واما لأنها لازمة لتفهم التفاصيل الأخرى .

وصف خاص لعدد من معامل التفريخ تابعناها فى القاهرة ، وللأساليب المتبعة هناك

يطلق المصريون اسم معمل الكتاكيت او معمل الفروج على المحل الذى يضم الأفران والحجرات الخاصة التى يتم فيها تفريخ البيـــض . والمبنى الرئيسى(١) عبارة عن مربع يتفاوت طول ضلعه ، يقطعه من الداخل بكل

---

(١) تقوم هذه المبانى بصفة شبه دائمة داخل مساكن متداعية ، ويتكىء ظهرها عادة الى اكوام من الرمال والانقاض ، مما حمل بعض الرحالة على القول بأنها مدفونة .

طوله دهليز يفصل صفين من الحجرات الصغيرة ، يتراوح عددها من ٢ الى ١٢ فى كل جانب ، وتتكون كل حجرة من طابق مزدوج (طابقين) ، ويبلغ طول الحجرة السفلية التى يمكن أن نسميها المفرخ (بفتح الميم وسكون الفاء وفتح الراء) ، لأنها تضم البيض خلال فترة الحضانة ، نحو ثمانية أقدام بعرض يبلغ ستة أقدام . وليس لها سوى باب صغير يطل على الدهليز . أما الحجرة العلوية ، التى سأسميها الفرن والتى يضعون فيها النار ، فلها على وجه التقريب المساحة نفسها التى للحجرة التى تحتها ، ولها كذلك باب يطل على دهليز، وفوق ذلك فاننا نلحظ وجود فتحة فى قبتها تغلق وتفتح حسب الحاجة، ولها كذلك نافذتان جانبيتان مفتوحتان على الدوام ، وتتصلان بالافران المجاورة ، وفى النهاية فان فى أرضيتها الخشبية فتحة كبيرة نحوا ما ، وهى دائرية الشكل ، صنعت من حولها حفرة واسعة توضع فيها الجمرات المتقدة التى تنتشر حرارتها من خلال هذه الفتحة العلوية الى الحجرة السفلية .

وقبل أن نصل الى داخل المعمل نجد ثلاث او اربع حجرات خاصة ، تستخدم أولاهن مقرا لسكنى الأشخاص الموكلين بخدمة الأفران ، وفى الثانية تتحول اقراص « الجلة » واصناف الوقود الأخرى التى لابد لها أن تستخدم فى تدفئة الأفران ، الى جمرات ملتهبة ، اما الثالثة فمخصصة لاستقبال الكتاكيت بعد افراخها بعدة ساعات .

ولا تعمل معامل الكتاكيت فى مصر الا لمدة شهرين أو ثلاثة اشهر من العام ، وتفتح هذه المعامل فى الصعيد عادة عند نحو نهاية شهر يناير ، أما فى القاهرة فلا يبدأ العمل بها الا فى الأيام الاولى من شهر مارس .

وفى هذه الفترة يدخل صاحب كل واحدة من هذه المنشآت فى خدمته اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الرجال الملمين جيدا بكيفية الاشراف على عملية الفقس . وفى حين ينشغل بعض هؤلاء العمال باعداد المبنى الذى سيمارسون فيه عملهم ، يتسلم آخرون البيض الذى يجلبه الناس لهم من القرى المجاورة ،ويسجلون كميات البيض المتسلمة وكذلك أسماء من أودعوهم اياها ، مقرين بذلك ضرورة أن يردوا عددا محددا من الكتاكيت(١) .

---

(١) ويبلغ ذلك عادة ثلثى عدد البيض المودع ، أما الباقى فيؤول الى أصحاب المعامل .

وعندما يتم جمع عدد مناسب من البيض لبدء تفريخ « الرقدة » الأولى يتم العمل على النحو التالى : لا تستخدم مطلقا كل المفارخ للرقدة الواحدة نفسها وانما يستخدم نصف عددها فقط ، فاذا كان المبنى يضم ستة مفارخ فى كل جانب ، فلا يوضع البيض فى بداية العملية الا فى المفرخ الأول ، فالثالث ،فالخامس ، فالسابع فالتاسع ثم الحادى عشر ، ويوضع البيض فوق طبقة من الرماد والقش المهروس (التبن) ، ويوضعما يصل الى ثلاث طبقات من البيض كل منها فوق الأخرى ، ويمكن كل واحد من المفارخ أن يضم من أربعة الى خمسة آلاف بيضة عندما تمتلىء هذه بشكل تام . وبعد ذلك يسجل على كل واحد من المفارخ اليوم الذى بدأت فيه عملية التفريخ ثم تجلب الى حفرات الافران الستة الواقعة الى أعلى الجمرات المتقدة والناتجة عن احتراق مواد وقود مختلفة تحولت الى جمرات لهذا الغرض ، فى واحدة من الحجرات سبق أن تحدثنا عنها . وبعد لحظات تقفل فتحات القباب ثم ابواب الأفران والمفارخ ، وتترك هذه الجمرات على هذا النحو تتآكل ببطء ، وتتجدد هذه العملية مرتين فى النهار ومثلهما بالليل، ويتكرر ذلك كله طيلة عشرة أيام متعاقبة ، وفى كل مرة يراعى أن تفتح للحظة ، فتحات القباب وأبواب المفارخ اما لتجديد الهواء فى داخل المبنى واما لتقليل اثر الحرارة الأولى والتى قد تسبب فى ايذاء البيض . أما فى الفترات التى تتخلل عمليات التدفئة فيمر العمال بالبيض الموجود بالمفارخ ويقلبونه ، وينقلون الى الطبقة الثانية أو الثالثة البيض الذى كان مصفوفا بالطبقة الأولى . وهكذا يقتصر العمل خلال الأيام العشرة الأولى على تجديد النار من أربع الى خمس مرات كل أربع وعشرين ساعة وعلى المرور بالبيض وتقليبه مرة فى اليوم أو مرتين .

وفى اليوم الحادى عشر يتضاعف العمل ، فتعد رقدة ثانية من البيض الذى تم جمعه ،ويوضع هذا البيض ، مع اتخاذ الاحتياطات التى سبق بيانها بالنسبة للفقسة السابقة ، فى المفارخ الستة الأخرى والواقعة بين مفارخ الفقسة الأولى ولابد أن يتم هذا العمل فى أقل من ثلاث ساعات . وحين تصبح الفقسة الثانية جاهزة بالقدر الكافى ، تجلب على الفور الجمرات المتقدة لتوضع فى حفرات الأفران العلوية ، ويستمر اشعال النار لمدة عشرة أيام متتالية بالطريقة نفسها التى اتبعت مع الفقسة الأولى ، على أن نحرص فى كل مرة على فتح منافذ القباب وأبواب المفارخ لفترة ، وخلال

هذه الفترة يبذل للبيض من العنـــاية نفس ما بذل من قبل لبيــض الرقدة الأولى .

وبدءا من اللحظة التى توضع فيها النيران فى أفران الفقسة الثانية ، يتوقف العمال عن وضع النار فى أفران الرقدة الأولى ، اذ يحصل بيــض هذه على القدر الكافى من الدفء ، من الحرارة المنبعثة من الأفـــران المجاورة ، وان كانوا لا يتوقفون من أجل هذا عن الاهتمام ببيض هـــذه الرقدة اذ هو يتطلب قدرا أكبر من العنـــاية كلما اقتربت لحظـــة خـــروج الكتاكيت . وينقل جزء من هذا البيض على الأرضية الخشبية للافـــران بعد مضى يوم من خمود النار ، وحيث تكون بيضات هذه الفقسة أقل تكوما فان تقليبها يتم بشكل أكثر يسرا ، ويتم المرور عليها عدة مرات فى اليـــوم الواحد لاستبعاد ما يعتقد أنه قد تلف من بينها .

وفى اليوم العشرين نبدأ فعلا فى العثور على عدة كتاكيت ، وفى اليوم الحادي والعشرين يكون قد أفرخ من البيض عدد كبير للغاية ، ويقوم العمال فى بعض الأحيان بتسهيل عملية خروج الكتاكيت التى لم تستطع أن تحطم قشر بيضها بشكل تام ، ويظل يحتفظ ببقية البيض الذى يمكنـــه أن يعطى كتاكيت متأخرة وذلك لمدة يوم أو يومين . وتوضع الكتاكيت الهزيلة أو الضعيفة فى الدهليز الذى يفصل بين المفارخ ، وتحمل الكتاكيت الأخرى الى الحجرة المخصصة لاستقبالها حيث لا تبقى الا لنحو يوم واحد ، وهى تحمل الى هناك ليتم اعطاؤها لاولئك الذين جلبوا البيض (الى المعمل) او لبيعهـــا .

وبمجرد انتهاء الفقسة الأولى ، ينشغل العمال بالتحضير للفقســـــة الثالثة . وعندئذ يوضع البيض فى المفارخ الستة التى اصبحت فارغة ، ويتكرر بالنسبة لهذه الفقسة الثالثة ما سبق حدوثه بالنسبة للفقستين الاولى والثانية خلال ايام العمل العشرة الأول . اما خلال الأيام العشرة الثانيـــة فيتم كذلك بالنسبة للفقسة الثانية ما سبق أن تم تنفيذه للفقسة التى خرجت كتاكيتها من المفارخ ، وهكذا دواليك .

وتستمر هذه العملية لكل الفقسات التى تتعاقب بين عشرة أيام لعشرة أيام أخرى مع اتباع نفس تفاصيل العمل التى انتهينا من بيانها طيلة ثلاثة

اشهر وهو الوقت المعتاد لاتمام عمليات التفريخ ، وهكذا نرى كل ١٠ الى ١٢ يوما ، فى كل واحدة من هذه المنشآت العاملة ، ظهور فقسة تتكون من عدة الوف من الكتاكيت . اما كمية ما يتلف من البيض خلال عملية الفقس فضئيلة الاهمية ، وقلما تصل كمية التالف لابعد من السدس . ولم يحدث قط أن تلفت فقسة بأكملها .

وهذا النوع من المنشآت كثير للغاية فى مصر ، اذ توجد واحدة منها فى كل ١٢–١٥ قرية ، وغالبا ما يوجد أكثر من منشأة واحدة فى المدينة نفسها ، ويحصى الأب سيكار ما يقرب من أربعمائة منشأة تفرخ كل واحدة منها ،طبقا لما يذكره ، مائتين واربعين الف كتكوت ، مما ينتج نحو ١٠٠ مليون كتكوت هى مجموع ما تفرخه هذه المنشآت فى مصر كل عام ، فى عصره . ويمكن لنا باستخدام منطقنا أن نقلص هذا الرقم الى اقل من الثلث . ولا يزال يوجد هناك نحو مائتى معمل فروج تعمل فى كافة أنحاء مصر ، يفرخ كل منها بشكل تقريبى نحو ١٤٠ الف كتكوت . وبالاضافة الى ذلك ، فهناك فى بعض القرى النائية ، وبشكل خاص عند القبائل العربية ، يتم تفريخ بعض البيض ، برغم ان هذه الوسيلة الاخيرة ، كما ينبغى أن نلاحظ، ليست مضمونة ، كما أنها غير مجزية فى مصر(١) . ولا يرجع النجاح

(١) يعتقد البعض انهم قد عثروا على منشأ فكرة التفريخ الاصطناعى فى نموذج بيض النعام وبيض التمساح ، الذى يترك فى الصحراء وعلى ضفاف النيل ، وان حرارة الرمل وحدها هى التى تؤدى بها لان تفرخ ، ومع ذلك فاذا ما استرعينا النظر الى أن حضانة الدجاج (البيضة) نادرا ما تنجح فى مصر ، وأن هذه الدجاجات ، عند حلول الفصل الحار الذى تبدأ فيه حضانة البيض ، سرعان ما تهجر بيضها لتنهمك من جديد فى ممارسة الحب ، فان المرء سيجد نفسه مدفوعا إلى الاعتقاد بأن كهنة مصر القديمة ، وقد كانت لديهم المعرفة الكافية بكافة ضروب الصناعة والفنون ، قد استطاعوا العثور على سبل علاج هذا العيب فى أساليب تكاثر (هذه الدواجن) ، وأنهم قد لجئوا الى الحضانة الاصطناعية لتفريخ بيض الدجاج بوفرة ، وللحصول على كمية كبيرة من الكتاكيت كانوا يجدون فيها طعاما لذيذا ومريحا ، وحين أراد هؤلاء الكهان انفسهم بعد ذلك أن يفيدوا من هذا الكشف ، كى يثبتوا أن كل شىء يزدهر فى أيديهم ، جعلوا من ذلك علما غامضا ، ولم يتناقلوه من جيل لآخر الا باعتباره سرا لا يزال حتى اليوم غير معروف بشكل جيد فى مصر ، الا لبعض الافراد .

المستمر لعمليات التفريخ هـذه الى اعتدال طقس مصر ، كما يزعم ذلك هؤلاء الذين ينتقصون من أساليب المصريين ، اذ يساهم فى ذلك ، هـذا الحذق الخاص بأولئك الذن يدبرون أمور هذه الفقسات ، فقد جعلتهم الخبرة الطويلة يدركون بمجرد دخولهم الى الافران ما ان كان يلزم تجديد النار أو الانتظار للحظات أخرى ، كما أنهم يعرفون بالمثل كيف يحصلون على الحرارة التى تناسب مختلف مراحل هذه الحضانة الاصطناعية ، فهم ينتجون ، باتباع أساليب خاصة بهم ، فى نفس الوقت ، وبنفس الوسائل ، درجات متباينة من الحرارة فى مناطق متعددة من المبنى الذى توجد به المفارخ والافران . وخلال مدة الفقسات كنت أجد بشكل دائم فى معامل الفروج العديدة بالقاهرة درجة حرارة تكاد تكون على الدوام متساوية ، لا تتفاوت قط لاكثر من درجتين برغم تباينها فى كل نوع من الحجرات ، فعلى سبيل المثال ، بلغت الحرارة خلال الأيام العشرة الأولى من الحضانة ، وطبقا لترمومتر ريومور من ٣٢ الى ٣٣° فوق الصفر ، وبلغت خلال الايام العشرة الاخيرة ما بين ٢٨ ، ٢٩ ، ٢٩ ١/٢° ، كما بلغت فى الأفران لحظة وضع النار نحو ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩° وانخفضت بعد أربع ساعات الى ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٣ ١/٢° . انظر الجدولين التاليين .

جدول بدرجات الحرارة كما لوحظت فى معامل الكتاكيت بمصر
١ — طبقا لتجربة أجريناها فى القاهرة فى معمل
يقـــع بحى ستى زينب

ترمومتر ريومور — درجات فوق الصفر

التاريخ	درجة الحرارة فى الخارج	درجة الحرارة فى الحجرات الأمامية	درجة الحرارة فى المعمل	درجة الحرارة فى المفارخ: خلال الأيام العشرة الأول	درجة الحرارة فى المفارخ: خلال الأيام العشرة الثانية	درجة الحرارة فى الأفران: لحظة وضع النار	درجة الحرارة فى الأفران: بعد ذلك بأربع ساعات	درجة الحرارة فى الأفران: فى الأيام العشرة الثانية بعد أن يتوقف وضع النار
٢٥ جرمينال*	١٩	٢١	٢٦	٣٣	٢٩ ½	٣٦	٣٤	٣٠
٢٦	٢١ ½	٢٢	٢٦	٣٣	٣٠	٣٧	٣٤ ½	٣٢ ½
٢٧	٢٠	٢١ ½	٢٥ ½	٣٢ ½	٣٠	٣٦ ½	٣٤	٣٢
٢٨	١٩ ½	٢١	٢٥ ½	٣٢	٢٩	٣٧ ½	٣٣ ½	٣٢
٢٩	٢٢	٢٢	٢٦	٣٣	٣٠	٣٨	٣٣	٣١ ½
٣٠	٢٥	٢٣	٢٥	٣١ ½	٢٩ ½	٣٧	٣٢	٣١
١ فلوريال*	٢١ ½	٢٢	٢٦ ½	٣٢ ½	٢٩	٣٦ ½	٣٤	٣٢
٢	٢٣	٢٣ ½	٢٦	٣٣	٢٩	٣٧ ½	٣٤	٣٢ ½
٣	٢٥	٢٣	٢٥	٣٣	٢٩ ½	٣٧	٣٢ ½	٣٢
٤	٢٢ ½	٢٢	٢٥ ½	٣٢	٣٠	٣٦	٣٣	٣١ ½

(*) من العام الثامن .

ملاحظات : بينما يتبقى بيض فى الأفران فى خلال الأيام العشرة الاخيرة من الحضانة ، يواصل العمال دوما وضع النار فى الأفران المجاورة ، برغم عدم وجود بيض فى المفارخ السفلية .

٢ ـــ طبقا لتجربة أجريت فى القاهرة
فى معمل فروج يقـــع فى حى باب النصر

التاريخ	درجة الحرارة فى الخارج	درجة الحرارة فى الحجرات الأمامية	درجة الحرارة فى الدهاليز	درجة الحرارة فى المفارخ: خلال الأيام العشرة الأولى من الحضانة	درجة الحرارة فى المفارخ: خلال الأيام العشرة الأخيرة من الحضانة	درجة الحرارة فى الأفران: عند وضع النار	درجة الحرارة فى الأفران: خلال الأيام العشرة الأخيرة بعد توقف وضع النار
٦	٢٢	٢٣	٢٦	٣٢ ½	٣٠	٣٧	٣٠
٧	٢٥	٢٤	٢٧	٣٣	٢٩ ½	٣٧ ½	٣٢
٨	٢٣	٢٤ ½	٢٥ ½	٣٢	٢٩	٣٦ ½	٣١
٩	١٩	٢٠	٢٥ ½	٣٢	٣٠	٣٧	٢٩ ½
١٠	٢٠ ½	٢٢	٢٧	٣٣ ½	٢٩	٣٨	٣٠
١١	٢٣	٢٤	٢٦	٣٢	٢٩	٣٦ ½	٣١
١٢	٢٥	٢٤	٢٥ ½	٣٢	٢٨ ½	٣٧	٣٠
١٣	٢٦	٢٤ ½	٢٥	٣١ ½	٢٩	٣٧	٣٠
١٤	٢٦ ½	٢٥	٢٦	٣٢	٣٠	٣٦	٣١
١٥*	٢٦	٢٤	٢٥ ½	٣١	٢٩	٣٧ ½	٣١ ½

(*) من شهر بريريال من العام التاسع (١٨٠١) .

ولا يبرع المصريون فقط فى فن تفريخ البيض، بل انهم يعرفون كذلك كيف يربون الكتاكيت دونما حاجة لوجود الدجاج، وان كانت مثل هذه الرعاية ليست من اختصاص أولئك الذين يدبرون أمور الحضانة الاصطناعية ، بل يعهد بها لبعض النسوة فى بيوت الخاصة ، وان كانت الواحدة منهن لا تربى من هذه الكتاكيت ، فى المرة الواحدة ، عددا يتجاوز ٣٠٠ أو ٤٠٠ كتكوت ، بل ان العدد فى معظم الأحيان يقل عن ذلك بكثير ، ولا يحدث أن تذهب هؤلاء النسوة للحصول على كمية جديدة من الكتاكيت من المعامل الا بعد مرور خمسة وعشرين يوما ، وهو الوقت الذى يمكن الكتاكيت فيه أن تتخطى حاجتها لتلك الرعاية الأولية .

وخلال النهار ، تترك هذه الكتاكيت فوق أرض جافة ، معرضة للشمس وتغطيها الانقاض او الحصى ، ويقدم اليها كغذاء القمح والارز والذرة البيضاء المجروشة والماء باعتباره المشروب الأوحد ، وحين يقترب الليل تستعاد هذه الكتاكيت الى داخل البيت حيث تبقى حبيسة داخل أحد الأفران المصنوعة من الطين ، حتى تصبح فى منأى عن برودة الليل ، وحتى تكون فى مأمن من مطاردة الحيوانات المختلفة التى قد تدهسها ، وتحتاج الكتاكيت الى هذه الضروب من الرعاية الخاصة لمدة تقترب من الشهر ، وبعد هذا الوقت تترك لتجرى وسط الدجاج .

وعلى الرغم مما أبداه الكثير من الرحالة من رأى مناقض ، فان لحم الدجاج والفراريج التى ربيت بهذه الطريقة ، غض وشهى . ويلذ للمصريين اكله ، ولا يفضلون عليه أبدا لحوم الفراريج التى جاءت عن طريق حضانة الامهات . وفى حقيقة الأمر ، فان من النادر أن تكون الفراريج سمينة(١) . والدجاجات هناك صغيرة الحجم ، كما أن بيضها أقل حجما من بيض معظم دجاجات أوربا وان كان ذلك يعود الى اختلاف فى سلالة الدجاج فى مصر ، بأكثر مما يعود الى الأساليب المستخدمة فى استفراخها .

وحين نتفحص كل المكاسب التى يجنيها المصريون من معامل الفروج لديهم فاننا لنأسف لاننا لا نجد هذا الفن مستقرا فى أوربا ، وفى فرنسا على

---

(١) لا تسمن الفراريج أبدا فى مصر ، كما لا تخصى على الاطلاق صغار الديوك ، وهناك تؤكل كل أنواع الطيور بحالتها الطبيعية (أى دون تسمين).

وجه الخصوص ، حيث يمكن هذا الفن ان يمارس بنفس الدرجـة (من البراعة) التى يمارس بها فى مصر (١) .

---

(١) لا يشك الرحالة الذين زاروا معامل الكتاكيت ، والذين شاهدوا خروج فقسات كثيرة ، فى امكانية نجاح هذه الطريقة بالمثل فى بلادنا . وان كان لم يأخذ أحد منهم على عاتقه مهمة فحص مثل هذه المنشآت وتجميـع الأساليب المستخدمة فيها . فكل واحد من هؤلاء الرحالة لم يشاهد هـذه المعامل سوى مرة واحدة ، وفى معظم الأحيان فى وقت لا تعمل فيه هـذه المعامل ، ولهذا فان معظمهم لم يجمع سوى معلومات غير دقيقة ، وغير كافية ، وقد حصلوا عليها كيفما اتفق .

وقد وصف بعض الرحالة أمثال ويسلنج **Wesling** ونيبور Niebuhr ونوردان **Norden** ، على نحو لا بأس به الأفران المستخدمه فى تفريخ البيض ، ويورد هؤلاء المؤلفون الثلاثة ، الذين نستطيع ان نلحق بهم تيفنو **Thevenot** والاب سيكار Sicard ، وبطريقة تتفق مع الواقع ، الأساليب المستخدمة (فى عملية التفريخ) بشكل اجمالى ، ومع ذلك فعنـد الدخول فى تفاصيل ما تتطلبه العناية بالافران خلال مدة الحضانة ، فقـد ارتكبوا عددا من الأخطاء كانت عامة لديهم جميعا ولدى الكثيرين من الرحالة. وقد يكون مسموحا لنا ان ننسب اليوم الى معظم هؤلاء هذا الحظ الضئيل من النجاح الذى صادفته كل المحاولات التى بذلت فى أوربا لكى تمكن ممارسة هذا الفن هناك ،وبخاصة ذلك الاحباط الذى لقيه ، فى أوقات متفـرقة ، أولئك الذين بذلوا اكبر الجهود فى محاولة توطينه فى فرنسا ، وقـد كان ريومور واحدا من أولئك الذين كانوا يقومون اكثر من غيرهم بتجميع أساليب النجاح فى هذا الفن . وكانت تجاربه تتصف بالدأب حتى أن المنهاج الذى وضعه فى مؤلفه كان منهاجا علميا (انظر فن تفريخ البيض ، تأليف ريومور) . ومع ذلك فان الذين أطلعوه على تجارب المصريين وعلمهم قد تعمـدوا أن يتركوه جاهلا للكثير من التفاصيل التى كان من المستطاع أن تكون ذات نفع لبحوثه وأن تضمن له الوصول الى نتائج اكثر تقدما .

ولكى نقف جيدا على هذا الفن كان الأمر يقتضى ليس فقط أن نتفحص هيكل أو تصميم المبنى الرئيسى وتوزيع المفارخ والأفران ، وانما كذلك التأكد من الفصل الذى لا بد ان تبدأ فيه عملية التفريخ ، وأن نشاهد العمل اليومى لأولئك الذين أوكلت اليهم ادارة الأفران . وأن نعرف بمعونةالترمومتر درجة الحرارة التى يحرصون على استمرارها أثناء الحضانة ، كما كان الأمـر يتطلب منا أن نتتبع فى أوقات مختلفة ، وداخل معامل مختلفة ، عمليـة حضانة ثانية وثالثة . وعن طريق هذه الخطة للمتابعة والملاحظة توصلت الى تجميع مادونته عن معامل الفروج فى مصر .

ولسوف يكون سهلا على الدوام ، مع بذل بعض ضروب العناية ، تفريخ البيض بواسطة الحضانة الاصطناعية ، كما أن تربية الكتاكيت تلقى الكثير أو القليل من الصعوبات تبعا لحالة الطقس ولطبيعة الفصل (الذى تتم فيه) من فصول العام . ومع ذلك ألم تتغلب براعة الأوربيين دوما على عقبات مشابهة عندما استجلبنا الى اجوائنا نباتات استنبتناها وحيـوانات ربيناها ، كانت غريبة عليها ؟

ولسوف يكون من الضرورى بالنسبة لنا ، كى نتوصل الى تفـريخ البيض عن طريق الحضانة الاصطناعية ، والى تربية الكتاكيت دون حاجة الى معونة من الدجاجات ، أن نتمثل ذلك الأسلوب البسيط والعملى الذى لدى المصريين ، وقد يتحتم علينا بصفة خاصة أن نعدل عن هذه المنشـآت الضخام التى نحلم بأن نفرخ فيها ، وأن نربى فى الوقت نفسه ألوفا عدة من الكتاكيت .

روييـــه

(٣)

صناعة ملح النوشادر

كولليه ديكوتيل

العنوان الأصلى للدراسة : وصف طريقة صنع ملح النوشادر .

نبــذة تاريخيــــة

لن نأخذ على عاتقنا هنا أن نبحث فيما ان كانت المادة التى نطلق عليها الآن اسم ملح النوشادر قد عرفت من قبل قدماء المصريين ، وان كنا نعتقد أن علينا أن نسترعى الانتباه الى انها تختلف كثيرا عن تلك التى أطلق عايها كل من بلين Plıne وديوسكوريد Dioscoride الاسم نفسه(١) . أن هذا التمـــاثل فى التسمية لم يكن قط قائما فيما مضى ، كما أنه لم يتم الا بسبب اصرار بحاثة القرون الأخيرة على تطبيـــق ما قاله بلين عن ملح قيرينيا(*) La Cyrenaique على ملح النوشادر الحديث . وتخبرنا مؤلفاتهم نفسها أن الملح الاخير كان يحمل اسم ملح أرمينيا Sal Armeniacos . وهذه التسمية التى لابد أن نرجع اليها أصل كلمة armoniac ، ومنها ammoniac (اى ملح النشادر) ، والتى كانت لا تزال تطلق عاى هذه المادة فى بعض مؤلفات القرن الماضى تقابلنا مرة أخرى فى فارس حيث تستخدم كلمتا نوشادر وملح ارمينيا دون تفرقة للاشارة الى ما نسميه نحن ammoniac (٢) ، وبلا جدال ، فقد اطلقت هذه التسمية على هذه المادة لأن هذا الملح كان يشكل جزءا من تجارة الأرمن ، مما دفع البعض على الاعتقاد بانه يأتى من بلادهم ، كما افترض آخرون ــ لوقت طويل ــ أنه يصنع فى البندقية ، لأن البنادقة كانوا يجلبونه الى الشرق ، بعد أن يكونوا قد اشتروا ــ ربمـــا ــ من الأرمن .

---

(١) كان ملح منجم ، ولعله كان ذامكسر ليفى كما يمكننا أن نستنتج من نصوص وردت عند هذين المؤلفين ، انظر بلين ، الكتاب ٣١ ، الفصـــــل السابع ، المجلد العاشر ، ص ٣٥٤ وما بعدها ، طبعة باريس ١٧٧٨ ، فى ١٢ مجلدا ، وكذلك ديو سكوريد ، الكتاب الخامس ، الفصل ١١٧ ، ص ٣٢٦ ، طبعة ١٥٢٩ .

(٢) اذا رجعنا الى قاموس اللغة الفارسية سنجد أن ما يطلق عليـــه الايطاليون اسم Sale armeniaco وبالفرنسية Sel ammoniac هو نفســـه ما يسمى بالفارسية نوشادر أو ملح أرمينيا ، اى الملح الأرمينى .

(*) يطلق الاسم اللاتينى حاليا على اقليم برقة بأكمله .. (المترجم)

ويطلق على هذه المادة فى مصر اسم نشادر (بفتح النون) ، وهى كلمة قريبة الشبه بكلمة نوشادر التى تستخدم فى الهند ، طبقا لبعض بحوث نشاء المسيو لانجلبه Langles أن يقوم بها عن طيب خاطر استجابة لرجاء منى ، بنفس المفهوم ، حيث من المعروف أن ملح النوشادر يصنع فى الهند ، وبنفس الأساليب المتبعة فى صنعه فى مصر . وهذا التشابه فى الاسم ، بالاضافة الى رأى بعض المستشرقين الذين لا يعتقدون أن لكلمة نشادر أصلا عربيا ، يحمل على الظن ، كأمر طبيعى ، بأن فن صناعة هذا الملح قد كان يمارس فى الهند من قبل أن تمارسه مصر ، وأنه لم يدخل البلد الأخير الا بعد أن فتحه العرب ، وان كان مثل هذا الزعم يتطلب تمحيصا متأنيا حتى يصبح بالامكان تبنيه بشكل حاسم .

ويبدو أن العرب هم أول من كتبوا عن ملح النوشادر عند المحدثين ، اذ نجد فى مؤلفاتهم بعض اشارات غير واضحة عن صناعته ، تختلط فيما يبدو بأفكار مأخوذة عن بلين ، كما أنها أبعد عن أن تكون كافية للتعريف بحقيقة أصله(١) .

وقد تصور البعض فى أوربا ، وان كنا لا نعرف فى أية حقبة، أن هذه المادة تنتج عن بول الجمال الذى تتشربه رمال الصحراء، ويبدو أن هذه الفكرة ، التى رآها الآخرون مضحكة ، كانت تهدف الى التوفيق بين ما كتبه بلين وبين ما كان معروفا عندئذ عن وسائل استخلاص الملح ، وذلك أن الكيميائيين، من قبل أن يبدأ القرن الأخير بسنوات طوال ، وبدون معرفة تامة بمكونات ملح النوشادر ، وهو الأمر الذى لم يصل فيه دوهاميل Duhamel لرأى قاطع الا فى عام ١٧٣٥ ، كانوا يحضرونه فى معاملهم بأن يقطروا خليطا من الملح البحرى وسناج الخشب(٢) . وحتى عام ١٧١٦ كان الناس لا يزالون يجهلون الأصل الحقيقى لذلك الشىء الذى يدخل فى صناعاتنا ، كانوا فقط يعرفون أنه يأتى من الشرق .

---

(١) انظر ابن سينا فى كتابه عن مبادىء الكيمياء عند جابر بن حيان .

(٢) استبعد ليميرى الأب وهومبرج Homberg السناج Hist. de l'Acad. 1716. ، أما هذه الوسيلة التى ينقلها جانكير Junker عن لانجيوس Langius (انظر ترجمة Demachy المجلد الخامس ، ص ٣٥٦) على اعتبار أن البنادقة قد مارسوها ، فانها هى الوسيلة نفسها — مع اختلافات طفيفة — التى يقدمها جابر بن حيان . انظر المرجع السابق .

وفى هذه الفترة ، فى ٢٢ ابريل ١٧١٦ ، قرأ جوفروى الاصـــغر Geoffroy Le Cadet فى أكاديمية العلوم ، دراسة موجزة تهدف للبرهنة على أن هذا الملح يستخلص ولابد عن طريق التصعيد،وان من المستطاع ،

باللجوء الى العملية نفسها أن نصنعه فى فرنسا عن طريق صنع خليط من الملح البحرى والطين الأصفر وبول الحيوانات أو آية مادة حيوانية اخرى ، وحيث تصدى ليميرى الابن Lemery fils لنقض ما جاء بهذه الدراسة فانها لم تنشر فى المجلد العام (للاكاديمية) ، وأخذ المسيو دى ريومور على عاتقه أن يطلب باسم الاكاديمية معلومات حول هذا الموضوع من قنصل فرنســا بمصر ، وكان ليميرى يعتقد أن ملح النوشادر يستخلص عن طريق التصعيد والتجميد (التكليس) . كما يحدث فى مناطق عديدة لانتاج موريات الصوداء. وقد بنى هذا الكيميائى طريقته هذه فى التفكير من ملاحظة شكل قوالب ملح النوشادر التى تصل من الشرق ، كما كان شكل هذه القوالب نفسه هــو الذى أوحى لجوفروى بأنهم يستخدمون أسلوب التصعيد (فى صـــناعة ملح النوشادر) .

ومع ذلك فان رسالة من الأب سيكار ، مؤرخة فى الأول من يونيــة ١٧١٦ ونشرت فى المجلد الثانى من دراسات مبشرى صحبة يســوع فى الشرق

Memoires des missionnaires de la Compagnie de Jesus dans le Levant.

ورسالة اخرى من لومير Lemaire قنصل فرنسا فى القــاهرة ، مدونة بتاريخ الرابع والعشرين من يونية ١٧١٩ ردا على أسئلة الاكاديمية قد جاءتا شبه متطابقتين مع كل الاراء التى بشر بها جوفروى ، وعندئذ أصبح لهــذا الكيميائى مطلق الحرية فى نشر دراسته فى مجلد (الاكاديمية) لعام ١٧٢٠، وارفق بها ، عند نشرها ، الرسالتين اللتين أشرنا للتو اليهما .

كانت المعلومات التى تضمنتها الرسالتان متطابقة فيما بينهــا ، وقد أوضحت ان ملح النوشادر يصـــنع فى مصر وانه يســتخلص عن طريق التصعيد ، من سناج ينتج أساسا عن طريق احراق براز الحيوانات ، لكن

الرسالتين اختلفتا فى نقطة هامة كانت موضوعا لجدل طويل بين الكيميائيين، كما كانت بالنسبة للرحالة اللاحقين موضوعا لاستقصاء مدقق. فقد كانت المادة التى يستخلص منها النوشادر طبقا لمعلومات لومير **Lemaire** هى السناج الخالص وحده ، لكن الأب سيكار يرى أنهم يضيفون الى السناج القليل من الملح البحرى وبول الحيوانات . وقد عنى جوفروى عناية بالغة بأن يسترعى الانظار الى هذا القول الأخير ، فقد كان يعتقد أن اضافة الملح البحرى أمر لابد منه لدعم افتراضاته الأولى .

لكن معلومات جديدة جاءت من الأب سيكار نفسه ردا على أسئلة الأكاديمية ونشرت فى عام ١٧٢٩ فى المجلد السابع من دراسات مبشرى صحبة يسوع فى الشرق التى سبقت الاشارة اليها . جاءت لتتطابق تمام التطابق ، فى هذا الخصوص مع المعلومات التى قدمها لومير **Lemaire** . ولم يعد الرحالة الذين كانوا يجوبون مصر ، منذ ذلك الوقت ، والذين يولون اهتماما خاصا بهذه الصناعة ، يقولون أن المصريين يستخدمون (فى صنع النوشادر) الملح او البول .

واكد جرانجيه **Granger** بطريقة موضوعية ، وهو الذى أولى اهتماما خاصا للتأكد مما ان كان المصريون يستخدمون هذه المواد ، انهم يقتصرون فى صنع النوشادر على السناج(١) .

ودعم هاسلكست **Hasselquist** الذى قام برحلته بعد جرانجيه والذى قدم فى « دراسات ستوكهلم »(٢) تفاصيل هامة حول هذا الضرب من ضروب الصناعة ، فكرة الاقتصار على استخدام السناج الحيوانى (أى الناتج عن احتراق بقايا حيوانية) ، وان كان قد الح كثيرا على الكمية الهائلة لموريات الصودا التى تحتوى عليها النباتات المستخدمة طعاما للحيوانات ، والتى يكاد يكون برازها الوقود الوحيد الذى تستخدمه مصر . وهو يشير اليه باعتباره مصدرا كبيرا لحمض الموريات اللازم لانتاج ملح النوشادر ، ثم قدم لبيل

---

(١) انظر تقارير هذا الرحالة وهى الدراسة التى أمر بطبعها دوهاميل فى مجلد الاكاديمية للعام ١٧٣٥ ، ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) مجموعة دراسات بالغة الأهمية عن الكيمياء والتاريخ الطبيعى تضم أعمال أكاديمية أوبسال **Upsal** ودراسات أكاديمية ستوكهلم ، الجزء الأول ، ص ٢٢٧ .

Leyel هذا الرأى نفسه ، بعد ذلك ، مع كثير من التطوير ، واذا كان قد امكن جوفروى أن يرتاب فى صحة ذلك ، فقد بات دون جدال أكثر استعدادا لتقبل فكرة امكانية صنع ملح النوشادر فى مصر من السناج ، وبدون أن يضاف اليه الملح البحـــرى .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد تحدث رحالة آخرون عن هذه الصـــناعة ، وان كان الأمر قد تم بطريقة مبالغ فيها لحد لا يجعلنا نشير اليها هنا ، اما أولئك الذين استطاعوا حسب معلوماتنا أن يقدموا افكارا نافعة فهم هؤلاء الذين أشرنا اليهم ، ولكن البيانات والأوصاف التى تركوها لنا قد جاءت ، كلها لسوء الحظ ، غير كاملة ، بل اننا نجدها فى بعض الاحيان تتناقض بعضها مع بعض ، بحيث سيكون من المستحيل علينا عند مقارنة كل ما كتبوه أن نكون فكرة دقيقة عن الأسلوب المتبع فى صنع ملح النوشادر ، ولهـــذا السبب فقد عزمنا أن نقدم عنه هنا كل التفاصيل ، وبالطريقة التى تابعهـــا كثيرون من رجال الحملة أثناء التنفيذ ، ولقد تحرر الوصف الذى سنشرع فى قراءته طبقا لمعلومات جمعها هؤلاء الرجال ، وبصفة خاصة تبعا لما قدمه لنا من معلومات ، المرحوم المسيو لوروج Lerouge الذى كان قد تابع كل المراحل بكثير من الانتباه والمثابرة ، بل أنه قد شرع بالفعل فى القيام ببعض البحوث لتأسيس نظرية عن تكوين وتركيب ملح النوشادر لكن المنية قـــد عاجلته فى جائحة عام ١٨٠١ قبل أن يتمكن من اتمامها ، فلم يستطع أحد الاستفادة بمعلومات ذات شأن كبير من التجارب التى أجراها .

وينتج من العرض الذى انتهينا من تقديمه أن الرحالة المتأخرين الذين ذكرناهم قد برهنـــوا بدرجة كافية على صحة افتراضات لومير المتعلقـــة باستخدام السناج دون اختلاطه بأى عنصر آخر ، وقد يكون من التزيد أن ندعم ذلك مرة أخرى بشهادتنا نحن الخاصة ، ولابد لنا أن نستنتج من هذه الممارسة أن السناج يحوى ملح النوشادر كامـــلا وان المصريين لا يفعلون سوى أن يستخلصوه عن طريق التصعيد ، وقد أدت التجارب المختلفة التى اجريت على هذا الموضوع الى نفس النتائج ، وترتبط هذه الخاصية التى للسناج ، كما لاحظ بحق كل من لومير والأب سيكار ، بطبيعة المواد المحترقة التى أنتجته ، وعلى هذا ، فان علينا أن نبدأ بحثنا بدراسة الوقود .

عن مواد الوقود المستخدمة فى مصر

يكاد يقتصر المصريون فى اشعال مواقدهم على روث الماشية ، وقد ارغمتهم على ذلك بلا شك ، ومنذ زمان طويل ، ندرة الاخشاب ، والغيبة المطلقة لأى وقود معدنى ،بالاضافة الى أن لجوءهم لهذا النوع من الوقود لن تترتب عليه هنـــاك نفس المساوىء التى يمكن أن تنجم عنه فى بلد اقل خصوبة ، اذ قلما يشعر الناس هناك بالحاجة لاستخدام الاسمدة ، وفضلا عن ذلك فان الاسمدة الوحيدة التى قد يستخدمونها هناك ، وهى الأتربة ، بعد غربلتها من الانقاض ، وكذلك زبل الحمام . وفيرة للغاية لحد لا يكون معه ثمة محل للاسف على السماد الذى كان بمقدور الماشية أن تهيئه (لو لم يستعمل وقودا) ، ويلقى روث الماشية هناك كل الاهتمام ، كما يقتصر استخدامه على توفير الوقود .

ولكى يصبح هذا الروث صالحا للاستعمال ، فانه يهرس فى البداية ويعجن لاعطائه قوام عجينة رخوة . فاذا كانت حالة الروث شديدة الصلابة، فانها ترطب بشىء من الماء ، اما اذا كانت بالغة السيولة فيضاف اليها القش المهروس (التبن). وحيث تتم هذه العملية على الأرض فان هذا الوقـــود يختلط ببعض الأتربة ، وبعد ذلك تشكل منه كتل (اقراص) تلصق بحائط مبنى باللبن عادة ومعرض لأشعة الشمس . وهناك تلتصق الاقراص وتكتسب شكلا مسطحا آخذة هيئة رغيف يتراوح اتساع سطحه تبعا لكمية مادة الروث المستخدمة فى صنعه ، وحين تجف هذه الاقراص تنتزع لتوضع فى مخزن ، وتحمل هذه السلعة التى يعهد باعدادها الى النسوة والاطفـــال اسم « الجلة » ، وثمنها بالغ الانخفاض ، اذ تساوى مائة القرص منها ، فى سمك واتساع كف اليد ، ثلاثة مدينى على أكثر تقدير ، أى ١/١٠ الفرنك، ومع ذلك فهى تعد غالية لحد لا تقدر معه على استخدامها كل طبقـــات السكان ، ولذلك يسعون لتخفيض ثمنها بأن يضيفوا اليها عند اعدادها كمية كبيرة من الأتربة والطين ، وتتشكل من هذا الخليط أقراص فى ســـمك القبضتين ، يجففونها فى الشمس ، وتحتـــرق هذه على نحو طيب ، على طريقة الخث(*) ، مع تاكلها شيئا فشيئا منتجة حرارة متساوية للغاية ، ويطلق على هذه اسم قرص (أقراص) .

(*) الخث أو الترب (بتشديد وضم التاء) تراب عضـــوى قابل للاشتعال ،يتكون من التحال البطىء لبعض النباتات الطحلبية .
(المترجم)

وبالاضافة الى هذين النوعين من الوقود ، وهما مكلفان لحد يفوق قدرة بعض المنشآت (أو المصانع) ، يستخدم وقودا كذلك كناسة الشوارع ، والقش ، والعظام ، والريش ، والبراز من كل نوع، بعد أن تجففه حرارة الشمس . وهو يوجد فوق أكوام الزبالة والانقاض التى تحيط بالمدن ويفصله الناس عن التراب بواسطة الغربال ، وعن طريق هذه المواد ، بصفة خاصة ، وهى التى تظل محتفظة بقدر كبير من الطين ، كما انها مشبعة بالملح البحرى(١) ، تتم تدفئة الحمامات العمومية .

أما الوقود النباتى الذى لا ينتج عن احتراقه السناج فيقتصر استخدامه على بعض المصانع ، مثل القمائن وأفران الفخار وافران الزجاج ، حيث لا يحترق سوى قش وسيقان الذرة وغاب البوص ، وكذلك تستخدم «الجلة» فى المخابز .

ولابد لأصناف الوقود الثلاثة الأول التى اشرنا اليها فى البداية أن تنتج بالضرورة الكثير من النوشادر أثناء احتراقها ، اذ هى تحتوى على كمية كبيرة من المادة الحيوانية ، كذلك لابد لهذا العنصر ، لكى يكون ملح النوشادر ، أن يتحد بحمض الموريات ، ولا يستطيع المرء أن يعتقد أن لهذا الحمض من اصل سوى موريات الصودا الموجودة فى المواد التى يتم احراقها . وتحوى مواد الوقود هذه ، التى التقطت من الشوارع ومن اكوام الأنقاض كمية كبيرة منها ، كما أن وجودها داخل براز الماشية فى مصر هو واحدة من الوقائع الملموسة بشكل مؤكد ، بينته بجلاء تجارب المسيو لوروج ، الذى وجد بها كذلك السلفات والأملاح المرة وان كان هو لم يحدد لنا طبيعة هذه الأملاح الأخيرة .

ومن السهل تفسير انبعاث موريات الصودا فى الافران التى تحترق فيها الأقراص (روث الماشية المختلط بالطين) أو زبالة المدن ، فحيث تحتوى هذه الأنواع من الوقود على كثير من الطين المختلط بالملح البحرى (ملح الطعام) ، فان كل الشروط اللازمة لتكوين هذه المادة الأخيرة توجد مجتمعة ، ولكن عندما يقتصر الاستعمال على « الجلة » ، فان كمية

---

(١) تحتوى اتربة الشوارع على نسبة مئوية كبيرة من حجمها من الملح البحرى .

الطين الموجودة بها تبدو فى حجم لايكون بمقدورها معه أن تتعامل بطريقة فعالة مع موريات الصودا ، أما هذا العنصر الأخير فلابد له من انيتحلل عن طريق الأملاح الأخرى التى يوجد مختلطا بها فى المواد البرازية ، ويمكن المرء أن يرى كذلك أن موريات طينية تتكون فى أثناء عملية الهضم وأنها تتحلل بعد ذلك بفعل حرارة الاحتراق ، بل ان كمية ضئيلة من موريات النوشادر توجد متكونة بالفعل فى البراز ، لكن تأثير هذين السببين الأخيرين بالغ الضعف بشكل مؤكد ، بالمقارنة بالتأثير الذى يمكن أن يحدثه السبب الأول الذى اشرنا اليه .

وزيادة على ذلك ، فمهما تكن مدة وسبب تحلل الملح البحرى، فان ملاحظة من المسيو شبتال Chaptal تبعد كل شك فى ان السناج الناتج عن احتراق براز الحيوانات يدين بخاصيته تلك الى وجود هذه المادة الملحية فى طعامها، لاحتواء هذا الطعام على موريات النوشادر ، فقد أوضح هذا الكيميائى الشهير فى كيميائه التى طبقها فى مجال الصناعة (الجزء الرابع ، ص ١٣٧) « أنه قد استخلص ملح النوشادر من السناج الناتج عن احتراق روث العجول والخيول البرية التى تعيش فى سهول لا كامارج ولاكرو (*) الشاسعة ، وعلى حواف العديد من برك ومستنقعات البحر الأبيض المتوسط، ومع ذلك ، فحيث تفضل هذه الحيوانات النباتات حلوة المذاق على الأعشاب الملحية ، وحيث هى لاتتغذى على الأخيرة الا خلال الشتاء ، فان برازها لايعطى ملح النشادر الا أثناء هذا الفصل »

وتعطى هذه الواقعة قيمة كبيرة لراى هاسلكيست Hasselquist الذى لم يؤسسه الا على وجود مذاق ملحى فى انواع عديدة من النباتات التى يغذى بها المصريون مواشيهم، وتتطلب منا ملاحظته تلك، والتى تبدو متنافرة مع حدوث الفيضانات السنوية لنهر النيل، ان ندخل فى بعض التفاصيل كى نتبين كيف أن النسبة الغالبة من خضروات مصر لابد لها فى الواقع ان تحوى من الملح البحرى أكثر مما يمكن ان تحويه الخضروات التى تنمو فى أجوائنا: فحيث أن الأرض فى المناطق المطيرة فى أوربا تغسلها على الدوام مياه

(*) لاكامارج ، جزيرة تكونها دلتا نهر الرون ، وهى مراع للخيول والعجول البرية ، أما لاكرو فسهل رملى قاحل من سهول الرون ، ويغص بالحصى . (المترجم)

الأمطار النقية فانها لاتستطيع أن تحوى من المواد الملحية الا ماتجلبها اليها الأسمدة ، لذلك فلا يمكن أن تكون نسبة هذه الأملاح (بأراضينا) كبيرة ، وعلى العكس من ذلك مايحدث فى مصر ، التى لاتكاد تسقط عليها مطلقا أمطار السماء ، وحيث أن التربة (المصرية) تنحصر داخل صخرة من الحجر الجيرى ، فانها تحوى فى طياتها الكثير من موريات الصودا ، وتظل مشبعة بالملح حتى انه يكفى الا يروى حقل ما لعدة سنوات ، ليصبح غير قادر على استنبات المحاصيل المفيدة مالم تغسل مياه النيل تربته — بمعنى كلمة يغسل — قبل زراعته ، أما الأراضى التى تمكث بها مياه النيل لمدة طويلة ، فهى الوحيدة التى قد تكون خالية من الأملاح ، ومع هذا فجزء ضئيل فقط من سطح مصر هو الذى تنطبق عليه هذه الحال ، ذلك ان المساحة الأكبر (من أرض مصر) لاتحصل على حاجتها من الماء الا عن طريق الرى (الصناعى) ، والذى يتم بالنسبة لمعظمها عن طريق مياه الآبار ، التى تحفر فى الأرياف لهذا الغرض ، ولا تعطى هذه الآبار سوى مياه تتفاوت درجة ملوحتها تبعا لمدى بعدها عن النهر الذى تحصل منه على مياهها من خلال مسام الأرض الخضراء ، وحين تتشرب النباتات كميات من هذه المياه فانها تتشرب معها نتيجة لذلك كمية لابأس بها من الملح البحرى. اما النباتات التى تنمو على شواطىء البحر ، او فى المناطق التى لاتغمرها مياه النيل ، فتحتوى بالضرورة على كمية اكبر من الملح ، ولابد أن هاسلكيست قد وجد المذاق الملحى (الذى لاحظه) فى هذه النباتات بصفة خاصة ، اذ أننا نلاحظ ان الخضروات التى تغطى الحقول لها مذاق من نوع خاص .

وبالاضافة الى ذلك ، فلابد للمرء أن يلاحظ انه ليس من الضرورى أن تحتوى النباتات على الكثير من موريات الصودا حتى يصبح بالاماكن تفسير تكون ملح النوشادر ، ذلك ان كمية السناج (الناتج عن الاحتراق) تعد ضئيلة للغاية بالنسبة الى كمية الأطعمة التى تغذت عليها الماشية ، بحيث يكفى أن تحوى هذه الأطعمة نسبة جد ضئيلة من الملح حتى يكون بمقدورها ان تهيىء حمض الموريات اللازم لتكوين ملح النوشادر ، وهو الملح الذى تنتجه مصر بوفرة ، حيث يمكن القول بأن هذا الاقليم الفسيح ، ليس سوى معمل واحد (لانتاج هذا الملح) ، تتم العمليات التحضيرية لتكوينه داخل كل البيوت الخاصة .

ونستنتج مما سبق القول كيف يمكن اختلاف طعام الماشية أن يعطى فروقا فى قيمة السناج النـــاتج عن برازها ، ولهذا السبب دون شك فان براز بعض الحيوانات يمضى ليعطى سناجا اكثر غنى (بملح النوشادر) ، وهكذا ، وطبقا لمعلومات قام بجمعها المسيو لورروج ، واستقاها من صناع ملح النوشادر ، فلابد — فى هذا الصدد — أن نضع براز الجاموس فى المقام الأول ، تليه بعرات الخراف والماعز ثم براز الانسان ، وبعد ذلك تأتى بعرات الجمل ، وتأتى فى المقام الأخير بعرات الخيل والحمير ، وأن كان الأرجح الا يكون هـــذا الترتيب قـــد تم على أساس اية تجربة موضوعية ، كما انه سيتغير ولابد تبعا لنوع الأطعمة ، ولهذا فاننا لانورده هنا الا لكى لانكون قـــد استبعدنا شيئا مما يتصل بالصناعة التى عنينا بها .

عن الســـناج (١)

تكاد تكون كل مساكن الفلاحين عبارة عن بيوت مبنيـــة من الطين ، قليلة الارتفاع وليس لها من منفذ لتسريب الدخان سوى الباب ، ولذلك يثبت فوق كل الأوجه الداخلية لجدران المساكن ، ومع ذلك ، فحيث أن ملح النوشادر أقل قابلية للتبخر (للتبدد فى الهواء) عن الأجزاء الداكنة ، فان من الطبيعى أن نجد أن السناج الأقرب (الأدنى) هو اكثرها ثراء (بملح النوشادر) .

ويجمع السناج عادة مرة واحدة كل ثلاث سنوات من مساكن الأفراد ، اما فى الأماكن التى توقد فيها النـــار بشـــكل اعتيـــادى ، مثل المخـــابز والحمامات العمومية ، فتجمع هذه المادة من هنـــاك مرة كل عام ، ويجوب رجال يرسلون من قبل ملاك مصانع التصعيد قرى مصر ليشتروا من الفلاحين حق السماح لهم بجمع السناج من مساكنهم ، وهم لايأخذونه مطلقا بالوزن ، ولـــكنهم يحكمون بنظرة خاطفـــة مقـــدار كميـــة الســـناج التى يمكنهم أن يستخلصوها ، فاذا كان السناج ذا قيمـــة ضـــئيلة ، كما فى مصر العليا ، فانهم يقدمون فى مقابله الصابون والابر واشياء أخرى مماثلة ، اما فى مصر السفلى (حيث السناج اكثر قيمة) فيدفعون ثمنه نقدا .

---

(١) الهباب (والكلمة الموضحة هنـــا وردت بحروفها العربية واللاتينية فى الأصل الفرنسى — المترجم) .

ويستخدم هؤلاء لجمع السناج من القبــاب الوطيئــة ، أو من فوق الجدران ، مكاشط حديدية صغيرة ، لها اياد طويلة ، يجرفونه بواسطتها لــكى يفصلوا الوسف (القشرة) الذى يلتحم به بقوة ، ممــا يؤدى الى تجريف كثير من الطين ، اما فى مصر العليا ، حيث لايصنع السناج لنفسه وسفا ، فيكتفون بازالته بواسطة مقشة ويجمعونه فى قطعــة قماش تبسط فوق الأرض .

وتختلف صنوف السناج فيما بينهــا ســواء فى اللون أو الوزن أو المــذاق ، بقدر ماتختلف فى درجة الجودة اى فى حجم كمية ملح النوشادر التى تحويها ، فبعض أنواع هــذا السناج تدخل فى عداد مالا يحوى ملح النوشادر البتة ،رغم صــدوره عن مواد حيوانيــة ، وهذه الأنواع فيما يؤكد البعض كبيرة للغــاية ، أما افضــل أنواع الســناج فهو ما يأتى من مصر السفلى وبخاصــة من منوف وضــواحيها الواقعة على فرع رشيد وكذلك من المنصــورة والأماكن المحيطة بها على فرع دميــاط . وهذه الأنواع من السناج تضرب الى الصهبة كما أنها ثقيلة الوزن وتحتوى على كمية ضئيلة من الطين ، وهى اقرب شبها بالطين الدخن منها بسناج حقيقى ، ومذاقهــا لاذع للغــاية ، ويلمح المرء فيهــا بسهولة ، وبخاصــة فى الفتافيت منها خيوطا صغيرة من ملح النوشادر ، وتوفر هذه الأنواع كمية كبيرة من هذا الملح من صــنف بالغ الجودة اذا ما اديرت عملية التصعيد على نحو طيب.

عن عمليــة التصــعيد

يتم تصعيد ملح النوشادر فى قنينــات زجاجية ملطخــة بالطين حتى بضع سنتيمترات من فتحتها ، وحيث ان المساحة (من جسم القنينة) التى تركت للملاحظة يبردها الهواء بصــفة دائمة فانها تبطن من الداخــل بملح النوشادر ما ان يتم تصــاعد الأخير بفعل الحرارة ، من السناج الذى يملأ اتساع القنينــة ، وسنعرض تبــاعا لــكل تفاصيل هذا العمل فى الفقرات التاليـــة :

عن القنينـــات وكيفـية صنعها

تصنع القنينـــات التى تستخدم (فى صناعتنا هذه) من زجاج أسود اللون، بالغ الرداءة، وان كان كافيا للاستعمال المخصصة هى من أجله .

ومنذ البداية، ادى انخفاض ثمن النطرون، بالاضــافة الى وفرته، الى تفضـــيل الزجاج على أية مادة أخرى فى صنع آنيـــة التصعيد، وقد حالت هذه الأسباب، مع ندرة الوقود، دون أن يحصـــل فـــن صـــناعة الزجاجات على تحسينات كبيرة، ولهذا فان منتجاته، حتى تلك المخصصة منها لاستعمالات الحياة العادية، هى من نوع بالغ الرداءة، بل ان القنينات المستخدمة فى المصـــانع التى تعنينا هنـــا، أدنى من هذه بكثير، كما أن هشاشـة هـــذه الآنية قـــد تجعل من نقلها عملية بالغة الصعوبة ان لم نقل مستحيلة، ولهذا السبب يضطر أصحاب مصـــانع ملح النوشادر لتصنيعها فى مصانعهم الخاصة، وان كان هـــذا الأمر لا يتسبب لا فى انفاقات كبيرة ولا فى حدوث الـــكثير من المضايقات . وتكفى مساحة مربعة الشـــكل، يبلغ طول ضلعها نحو المترين كمكان لاقامة فرن الزجاجات (١) . وتحيط به أربعة جدران رئيسية سمك كل منها ثلاثة ديسمترات، ويبلغ ارتفاعها نحو المترين، وتتلاقى عنـــد نهاياتها بقبـــة تقفل فرن الانصـــهار واتون التحمية أو الانضاج .

ويشغل فرن الانصهار نحو ثلثى الارتفاع الـــكلى للمبنى، أما الثلث البـــاقى فيضم فرن التحمية أو الانضاج، ويشتمل الأول على موقد وحوض توضع فيـــه مباشرة المواد المراد صهرها، وينفصـــل الموقد الذى يمتـــد بطول الفرن كله فى اتجاه، وبطول ثلثه فى الاتجاه الآخر، عن الحوض عن طريق حائط طوله متر ولا يعلو فوق سطح أرض الحوض الا ببضـــعة سنتيمترات، فى حين يقوم الحوض فوق مصطبة مبنية تعلو فوق ســـطح ارضية المصنع بنحو ٨ الى ٩ سنتيمترات .

وتغطى فرن الانصهار قبـــة تستخدم فى الوقت نفسه أرضـــية لفرن التحمية، وتعكس هذه القبة (أو تشع) الى الحوض لهيب الوقود، الذى

---

(١) أنظر الأشكال ١٧، ١٨، ١٩ من اللوحـــة الثانيـــة من الفنون والحرف، وكذلك شرح هذه اللوحة .

يتكون عادة من سيقان الذرة وغاب البوص ، وتدخل نسبة من اللهب كذلك الى فرن التحمية عن طريق فتحة عملت فى منتصف القبـــة التى انتهينا من الحديث عنها .

أما المـــادة التى تصنع منها القنينـــات ، فهى خليط من النطرون مع مسحوق رملى تم اعداده تماما من قبل ، ويحصل عليه من مصـــانع الزجاج العـــادية . ويوضع هـــذا المســـحوق الرملى على هيئـــة طبقـــات قليلة السمك داخل الحوض ، وتضاف اليها بعد ذلك كمية كبيرة من النطرون ، وذلك للاسراع بانصهارها .

ولكى يتم صنع قنينـــة ، يقوم العـــامل بانتزاع المـــادة اللازمة لهذا الغرض بواسطة عصـــاه ، وبعد أن يصل بهذه القطعـــة المنتزعة الى قطر يبلغ نحو ٢٤ الى ٢٧ سم فى الوقت الذى يظل هو يحتفظ بها داخل فـــرن الانصهار ، ينتهى بها الى فرن التحميـــة أو الانضاج لتظل وســـط النيران التى تتوغل الى داخل الفرن الأخير عن طريق الفتحة التى تم احداثها فى منتصف القبـــة السفلية ، وعنـــدما تبلغ القنينـــة قطرا يبلغ ٤٠ الى ٤٥ سم يضعها العامل فوق الرمل الذى يغطى أرضية فرن أو أتون التحمية، ثم يطرى العامل رقبة القنينة وبعد ذلك ، وبطرقة خفيفة فوق عصاه ، يفصل القنينة (عن العصا) ، ويحرص العامل دوما على ان يبلغ طول رقبة القنينة من ٤ الى ٥ سم وقطرها من ٤ الى ٧ . وتستغرق هذه العملية بكل مراحلها نحو خمس الى ست دقائق .

وحيث لايستطيع فرن التحمية أن يضم سوى اثنتين أو ثلاث قنينات ، فان الواحدة من هـــذه الآنية لا يمكنها أن تمكث فى هذا الفرن لأكثر من ١٠ ١٥ دقيقـــة ، تجر بعدها بواسطة محجن حديدى الى خارج الفرن ، عن طريق فتحة تتسع للحذ الـــكافى عملت فى أحد جوانبه ، ولا يتم ابعاد هذه الآنيـــة عن النـــار الا بشكل تدريجى مع تمريرها فوق حاجز يقع قريبـــا من النار ، لـــكنه لا يتلقى الحرارة الا عن طريق الفتحة المطـــلة على ممر القنينـــات .

وتمكث كل طريحة أربعـــا وعشرين ساعـــة ، أى أن المـــادة لـــكى

تنصهر تستغرق اثنتى عشرة ساعة ، ثم تستغرق عملية نفخها بعد ذلك نفس المدة .

وناتج هذا العمل هو ماينبغى أن نتوقعه من عمل يتم انتاجه بأدوات غير متطورة ، وعلى يد عمال قليلى المهارة ، ويأتى سمك القنينات غير متساو بدرجة كبيرة ، وهى كلها على وجه التقريب مشروخة بسبب تبريدها الذىيتم بشكلشبه فجائى ، وليس منالنادر أن نرى قنيناتبأكملها تسقط منتلقاء نفسها مفتتة، بلقد يتم ذلك وهىماتزال بعد فوق الحاجز ، ويقدر عدد مايتحطم منها بنحو العشر ، سواء اثناء عملية الصنع أو فى اثناء نقلها الى خارج المصنع أو كذلك عند دهكها بالطين ، وتجمع بعناية كل هذه الشقفات . لتضاف الى شقفات القنينات التى تم استعمالها ويلقى الجميع فى فرن الانصهار .

ولا تعود هذه القنينات على الصانع بعد دهكها بالطين بشكل تام الا بـ ١٠ الى ١٥ مدينى اى بنحو ٣٥ أو ٥٠ سنتيما ، اذ تساوى كل ٥ فرنكات ١٤٢ مدينى .

عن تلطيخ القنينات بالطين

لكى يتم استخدام هذه القنينات ، لابد أن تلطخ بطبقة سميكة من الطين ، ويؤخذ هذا الطين من أرض مزروعة ، ويعجن فى حفرة ثم تضاف اليه كمية كبيرة من سيقان الكتان المهروسة بعد تخليصها من الجزء الأكبر من مشاقة الكتان التى تظل عالقة بها والتى تكون بمثابة عائق فى العملية التى نحن بصددها .

ويتم هذا الطلاء اربع مرات ، ولكى يتم حدوثه ، يؤتى بالقنينة أولا الى حافة الحفرة ، وتوضع بحيثتكون فتحتها الى أسفل وفوق طبقة من الرماد المحمى ، عملت فى وسطه فجوة تكفى لاستقبال رقبة القنينة ، ويمر العامل فى البداية بقاع القنينة الذى يكون هو الأعلى ، بالاضافة الى أنه اقل أجزاء القنينة سمكا ، ليضع فوقه طبقة من الطين يصل سمكها الى نحو ١١ الى ١٢ مم ، ويتم ذلك دون تناسق ، وبعد هذا ترفع القنينة وتوضع فوق الأرض فى نفس الموقع حتى تجف فى

الشمس ، وعندما يصبح الطين جافا بشكل جيد ، تحمل القنينة مرة اخرى لتكون قريبـــة من حفرة الطين وذلك لطلاء الجزء العلوى ، وتوضع فى هذه الحالة فوق قاعها وبذلك تكون رقبتها الى أعلى ، ويغطى بالطين كل الجزء الذى يبقى مكشوفا بعد العملية الأولى فيما عدا راس كرة يبلغ طول قطرها ١٩ الى ٢٠ سم ، بحيث تكون الرقبة هى المركز ، ولابد أن يظل راس الكرة هذا عاريا (أي غير ملطخ بالطين) ، ، وعندما يجف هذا الجزء الجديد من الطلاء الطينى ، تؤخذ القنينـــة مرة ثالثة ثم رابعة لتحصل على طبقة ثانية من الطين ، تثبت بها بالطريقـــة السابقة نفسها ، وتستغرق كل خطوة نحو دقيقتين الى ثلاث دقائق .

وعندما يتم طلاء القنينـــات ، فانها تصبح متينـــة ، ويمكن الاحتفـــاظ بها فى المخزن لوقت طويل على هيئـــة أكوام ، تتكون كل كومة منها من ثلاثة صفوف ، واذا ماحدث حادث طفيف ، كأن تثقب أو تتحطم رقبتهـــا ، فان القنينـــة لاتعد تالفة لهذا السبب ، بل يعـــالج الأمر بأن توضع على الثقب قطعة من الزجاج تغطى بالطين ، فاذا حدث هذا الثقب فى راس الـــكرة (غير المطلى) فيكتفى بلصق شقفة من الزجاج اكبر قليلا من الثقب المشار اليه عنـــدما توضع القنينة فى الفرن ، وحين تتكاثف الأجزاء الأولى من ملح النوشادر ، فسرعان ماتثبت هذه الشقفة على النحو المطلوب .

ملء القنينـــات

لا يتطلب ملء القنينـــات اتخـــاذ أى احتياطـــات خاصـــة ، وانما يكتفى بتنظيف نصف الـــكرة العلوى بعناية ثم ندخل السناج الى القنينـــة بعد ذلك ، ولا يترك بها من فراغ الا مايكفى لتكون لب الملح الذى لابد أن يملأ القنينة حتى أسفل الرقبـــة بنحو اربعة سنتيمترات عندما يستخدم السناج الغنى بالملح ، ولأقل من ذلك قليلا عندما يكون السناج أقل ثراء به ، وفى الحالة الأخيرة يقل كذلك اتساع نصف الـــكرة الذى لايطلى بالطين .

ويهز العـــامل القنينة عند ملئها بحرص وذلك لضغط السناج ، ولكى يتكون له فى جزئه العلوى سطح أفقى مستو .

وبعد أن تملأ القنينات على هذا النحو ، توضع بعد ذلك فى الفرن ، الذى نقدم فيما يلى وصفا له :

عن فرن التصـــميد

يتكون هذا الفرن من أربعة جدران رئيسية يبلغ سمك الواحد منهـــا ستة ديسيمترات ، تترك بينها فراغا مربع الشكل يبلغ طول ضلعـــه نحو المترين . ويبلغ ارتفـــاع هذه الجدران نحو ١٣ ديسيمترا فـــوق أرضـــية المصنع ،ومع ذلك فحيث أنها تبنى حول حفرة يبلغ عمقها سبعة ديسيمترات فان ارتفاعها الفعلى يبلغ فى جمله المترين على وجه التقريب . وهنـــاك باب يقع عند الواجهة الأمامية ، ويستخدم لادخال الهواء والوقود ولاخراج الرماد .

وفى العـــادة ، فان جدارى الجانبين لايحتفظان بكل سمكهما ، بل همـــا يرقان بشكل تدريجى مع ارتفاعهما ، فىحين تظل الواجهات الخارجية على نفس حالها ، فى وضعها الرأسى بطريقة يصـــبح معها الفـــرن ، من داخله ، وفى جزئه العلوى ، فى شكل متوازى اضـــلاع يبلغ طوله (فى اتجاه) من ٢٨ الى ٢٩ سم ، ويبلغ عرضه (فى الاتجاه الآخر) ٢٠ سم .

وتتكىء على الجدارين الجانبين ثلاث تقويسات ترتفع فى شكل عقـــد كامل ، ويبلغ سمك الواحدة منها نحو ٢٢ سم ، وتبنى موازية للجـــدران الأمامية والخلفية ، وهى تقسم نصف الفرن الى أربعـــة مقاطع متساوية تظل فارغة ، ويحمل ظاهر هذه التقويسات جدارا صـــغيرا ، له السمك نفسه ، ويمتد بشكل أفقى الى نحو أربعة ديسيمترات تحت القبـــة العليا للجدران الأساســـية ، ويشكل الجداران الأمامى والخلفى ، ولهمـــا نفس الارتفاع ، تراجعا الى داخل الفرن ، وتخصص هذه التقويسات مع جدارى التراجع دعائم للقنينـــات عند المقـــاطع الفارغة والتى تحصل عن طريق هذه المقاطع الفارغة نفسها على تأثير حرارة النيران ، أما البروز الـــذى يتجاوز الأربعة ديسيمترات فى ارتفـــاع الجدران الرئيسية فوق التقويسات فيشكل سورا يحيط بكل القنينات الموضوعة فوق الفرن (١) .

ويصنع كل هذا المبنى من طوب يلتصق ببعضه البعض بفعل طين عادى ، معجون بالماء ، ومخلط بنسبة تقرب نحو الربع من حجمه ، بالملح البحرى (٢) .

---

(١) انظر الأشكال ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ من اللوحة الثانية من الفنون والحرف ، مع شرحها .

(٢) تعد اضافة الملح البحرى الى « المونة » ممارسة شائعة فى مصر وهو أمر لم نستطع الوقوف على تقدير فوائده .

ولكل مصنع فى العادة بضعة أفران من هذا النوع ، وهى تبنى فى صف واحد أو فى صفين ، حسبما يسمح بذلك المحل ، وتضم هذه الأفران فواصل مشتركة ، لتتفل المبنى كله بعد ذلك سقيفة كبيرة ، تغطيها فى معظم الأحيان سعف النخيل.

صف القنينات فوق الفرن

توضع فوق كل فرن ، بصفة عامة ، أربع وعشرون **قنينة** ، بحيث يتكون كل صف من ست قنينات ، وتوضع هذه متقاربة مع بعضها البعض تقاربا شديدا ، ولكن دون أن تتلامس ، ويحرص العامل كذلك على ابتعادها عن الجدران ، وعن التقويسات التى تسندها ، وذلك بوضع قطع من الرماد المتماسك فيما بينها .

وبعد أن توضع القنينات ، تملأ الفراغات التى تتركها فيما بينها ، أنصافها العلوية ، بقطع كبيرة من الرماد ، تغطى بقطع أقل حجما ، لينتهى الأمر بوضع طبقة من الرماد الناعم تعلو لتبلغ قاعدة رقبة القنينة ، كذلك يراعى احداث فتحة يبلغ قطرها نحو الديسيمتر ، فى كل واحدة من الزوايا الأربع للفرن ، تستخدم كمدخنة .

وتستغرق كل هذه العملية ، بدءا من ملء القنينات ، حتى اشعال النيران ، نهارا بأكمله .

تشغيل النيران

عندما يتم اعداد كل شىء ، على النحو الذى انتهينا من بيانه ، تلقى فى الفرن — وهو لا يضم أسياخا ولا مرمدة (مكان لاختزان الرماد) — كمية من الأقراص تكفى لملء مايقرب من نصف سعته ، وبعد ذلك توقد النار فى الجزء المجاور للباب ، ويمتد الاشتعال ببطء ليشمل كل المساحة ، ثم يتوغل تدريجيا حتى يبلغ القاع ، وعندما تشتعل كل الكتلة، يقفل الباب بشكل يكاد يكون تاما ، ويلاحظ أنه قد بدء فى سده بالطين قبل أن يدخلوا اليه الوقود ، وبهذه الطريقة لاتنتج سوى نار ضعيفة للغاية ،تتوغل فى بطء فى الآنية التى يتم تصعيد (مابها من سنباج) ، ولا

ينزع هذا السد الطيبى لباب الفرن الا عندما تصبح من الضرورى زيادة النيران ، وحينئذ يضيفون حسب الحاجة وقودا جديدا .

ولا توقد النار فى الفرن الا عند بداية الليل ، وحيث تستغرق عملية التصعيد ستين ساعة فانها لا تبلغ نهايتها ، على هذا النحو ، الا قرب صباح اليوم الثالث ، وعندئذ يتم استخداج لباب الملح فى النهار ،وهذا انسب عما لو اضطروا لفعل ذلك خلال الليل .

ولا تبدأ الحرارة فى الارتفاع قليلا الا قرب نهاية الليلة الأولى ، وفى هذه الفترة تصاعد من القنينات كمية هائلة من الأبخرة الرطبة والقاتمة ، مختلطة بكربونات النوشادر ، ولا يستطيع أى امرىء أن يظل للحظات فوق الفرن الا بشق الأنفس ، وبرغم ذلك نجد عاملا عليه أن يصعد كى يحطم قشرة ملح البارود ، التى تتكون على السطح العلوى للسناج ،واحيانا قريبا من منشأ رقبة القنينة ، اذ قد تؤدى هذه القشرة ، باغلاقها كل المنافذ على الأبخرة ، الى اغلاق كل المسارب ، مالم يحطمها العامل بمسبار حديدى ، عندما تزيد صلابتها لأكثر مما ينبغى .

وعند نحو منتصف نهار اليوم الأول ، يصبح دخان القنينات أبيض اللون ، كما يقل هذا الدخان بشكل محسوس ، برغم أن النيران تكون قد بلغت عندئذ أقصى درجة تتطلبها العملية ، وهنا يكون السناج قد تخلص من الرطوبة ومن الأجزاء الدهنية التى يحتوى عليها وتكشف أجزاء القنينات التى لم تطل بالطين والتى كان يغطيها الرماد حتى ذلك الوقت . وتؤدى البرودة التى تلامس انصاف السكرات الى تكون جزء من الملح المتصاعد والى أن يتكثف ، وان كان جزء كبير منه يظل هائما فى الجو على شكل بخار أبيض ، وفى الحقيقة فان لباب الملح لا يبدأ فى التكوين الا بدءا من هذه اللحظة بعد أن تكون قشرة السناج قد تبخرت فى جزء كبير منها بفعل الحرارة بمجرد أن تكون هذه الحرارة قد اخترقت كتلتها .

وفى اليوم التالى ، عند الصباح ، يتحسس رئيس المصنع ما ان الملح قد اكتسب صلابته المطلوبة ، وذلك بأن يطرق فوق أنصاف السكرات بضربات خفيفة ، وفى حالة تماسك الملح تكسر رقاب القنينات ولكن بدون انتزاعها .

وعند مساء اليوم نفسه ، تفحص مرة أخرى حالة لبـاب الملح ،فاذا وجده جيـد التماسك ، فانه يكسر القنينـات دون أن ينتزع قطع الزجاج كذلك ، فاذا ما صـدر عن القنينة صـوت يفيد بأنها جوفاء ، ينتظر العامل لبعض الوقت حتى يصدع الزجاج. وعلى الرغم من هذه الاحتياطات، فكثيرا مايحدث أن تؤدى الأبخرة التى تتكون فى منتصف كتلة السناج الى انحباس مسارب الأبخرة تحت لباب الملح .

وقـد لاحظ المسيو لوروج أن رائحة لحمض الـكبريتيك تنبعث قوية عندما تكسر القنينات .

وتنتهى عملية التصعيد عادة عند نحو صـباح اليوم الثـالث ، ومع ذلك فاذا لوحظ — بعد أن يتم اخراج عدة لبـابات — أنها ليست بالقـدر الـكافى (من التماسك) فان العمـال يبـدأون عمليـة تسخين أخرى لبضع ساعات ، مع اضافة الوقود .

وعندما يتبين أن العملية قـد اكتملت بشكل تام ، يبدأ العمـال فى انتزاع ملح النوشادر ، ولـكى يتم ذلك تحطم القنينـة أسفل كتلة الملح المصعدة مبـاشرة ، وتنتزع أنصـاف الـكرات بـدون مسـاس بالجزء البـاقى ، ثم تلقى كمية من المـاء البـارد على أجزاء الزجاج التى تبقى ملتصقة بلباب الملح لتتحول الى شظايا ثم تنتزع هذه بسهولة، ولكى تستبعد المواد السوداء التى تكون بمثابة وساخات عالقة بسطح الملح الأبيض يضطر العمال أحيـانا لاستخدام بلطة صـغيرة ، معقوفة وحادة ، أما اذا كانت درجة التصاقها قليلة ، فيكتفى بمسحها ، أما اذا كانت تشـوب الملح بقع صفراء أو سـوداء فان العـامل يزيلها بقليل من المـاء أو اللعاب ، واذا حدث أن ظهرت بلبـاب الملح أجزاء أقل تماسكا ، فانها تضغط قبـل أن تبرد بضربات مطرقة .

ويزن لبـاب الملح الذى يستخرج من كل قنينـة ، فى العـادة ، اربعة أو خمسة أرطال .

ويعتمد بهاء ملح النوشادر ، كما تبينا نحن ذلك جيدا ، على صنف السناج وطريقـة تشغيل النيران ، وهم يصنفون الملح ، تبعـا لدرجـة بياضه الى ثلاث درجات ، وان كان الفرق بين هذه الدرجات الثلاث ليس قاطعا .

لحد يحول دون وجود تقديرات تعسفية ، وأكثر هذه الدرجات نصاعة ، وهو مايسمونه المكرر ، يستخرج من المواد التى تظل فى وسط القنينات عندما لا يكون التصعيد قد تم بشكل مطلق ، وهو مايحدث كثيرا . أما المواد التى يطلقون عليها اسم هدارى — أو حدارى — أو تلك التى يسمونها أولاد ، تبعا لما يذكر المسيو لوروج ، فهى كرات بالغةالتماسك تتكون وسط الرواسب السوداء والقابلة للتفتت التى تملأ القنينات، وهم يحرصون على انتزاعها مباشرة بعد استخراج الملح ، وتصب فوقها على الفور كمية ضئيلة من الماء البارد لايقاف الأبخرة الوفيرة لموريات النوشادر التى تصدر عنها ، ونادرا ماتستخلص هذه المادة نقية ، اذ هم يخلطونها فى المادة بنسبة الثلث مع سناج جديد ، ويعتقد العمال أن هذا الخليط يعطى كمية اكبر من الملح عما لو صعد هذين العنصرين منفصلين . وباذابة الموادالملحية التىيحويها هذا الهدارى — أو الحدارى؟ — نحصل على سائل به نسبة عالية من الحديد ، ومن الممكن ان يؤدى خلط هذه الكرات بسناج جديد يحتوى على كربونات النوشادر الى تولد كمية أكبر من موريات النوشادر . ومع ذلك فمن غير المحتمل أن تكون هذه الزيادة محسوسة جيدا .

وتشتعل الرواسب القابلة للتفتت بمجرد ملامستها للهواء ، وهى تفقد لونها الاسود بفعل احتراق الكربون ، متخذة اللون الرمادى أو النحاسى الفاتح ، وترمى هذه المواد ولا يحتفظ الا بفتات الزجاج التى يمكن صهرها مرة أخرى ، وترمى معه الأجزاء التى تحملت أقصى درجات الحراره لأنها تكون قد ذابت والتحمت بالطين .

ويعطى السناج فى المتوسط نحو ١/١٠ وزنه من ملح النوشادر ، أما اذا أخذنا فى الاعتبار تلك الكمية الهائلة التى تذهب بددا فى الهواء خلال عملية التصعيد ، وهى كمية كبيرة لحد أنها تظل تملأ أجواء المصنع على الدوام خلال هذه العملية ، بدخان بالغ الكثافة يكفى لتحريك سعف النخيل الذى يشكل السقيفة ، وكذلك لتغطية الملابس برماد وفير من موريات النوشادر ، فلسوف نلمس بوضوح أنهم لا يحصلون الا على نسبة ضئيلة من الملح الذى يحويه السناج بالفعل . وبغسل السناج ، وتصعيد الرواسب التى تنتج عن تبخر هذا الغسول ، حصل المسيو لوروج ، فى تجربة قام

بها — للحقيقة — على نطاق ضيق ، على كمية من الملح تساوى نصف وزن السناج المغسول . ومن المحتمل نتيجة لذلك ، أن يصبح بالامكان احـــداث تغييرات مفيدة على الاساليب المتبعة فى مصر .

وتقع أهم مصانع الملح فى المنصورة وبولاق ، وقد تابعنا تفاصيل هذا العمل فى هذا الموقع الأخير .

وينتج مصنع المنصورة سنويا ، وبه ستة أفران ، نحو ٦٠ الى ٧٠ قنطارا ، وقبل الحرب كان يباع كل مائتى رطل — أى كل قنطار — فى مقابل ١٠٠ بوطاقة من ذوات التسعين مدينى .

ويبلغ عدد العمال الذين يحصلون على أجور طيلة العام ستة عمال، ويستخدم بالاضافة اليهم ، تبعا للحاجة من ١٥ الى ٢٠ عاملا يجوبون القرى لشراء وجمع السناج (*) .

(*) انظر الباب الثانى ، الفصل الثـــامن ، ص ٢٢٧ ، الزراعة والصناعات والحرف والتجارة من تأليف المسيو جيرار ، وهو المجلد الرابع من الترجمة العربية الكاملة لوصف مصر . (المترجم)

(٣)

صناعة دبغ الجلود

بوديه ،

« العنوان الأصلى للدراسة هو : دراسة موجزة عن تجهيز الجلود فى مصر ، تأليف بوديه ، كبير صيادلة جيش مصر ، وعضو المجمع المصرى ، والحائز على وسام الشرف » .

من المعروف أن فن تجهيز الجلود يعود ألى عصور ضاربة فى القدم، وأن النـــاس فى كل مكان ، وحتى من قبل أن تخطر ببالهم فكرة غزل الكتان أو القطن أو القنبأو زغب الحيواناتلصنع المنسوجات منها ، قد استخدموا الجلود كأردية لهم وفى عدد لاحصر له من الاستخدامات الأخرى .

كـــذلك ، فنحن نعـــرف ان النـــاس منذ عصر موسى كانوا بالفعل يصبغون الجلود باللونين الأحمر والبنفسجى، كما نعرفان مكتبة برجام (*) فى عهد آل أومينوس (**) **Eumènes** كانت تغص بالكتب المؤلفة عن جلود الرقوق ، ولابد أن نستنتج من ذلك أن الفن الذىيهتم باعداد الجلود، كان فى ذلك العصر متقدما لدرجة بدأ البحث معها عن النافع والمناسب منه .

ومع ذلك فمنذ آلت مصر الى أيدى المسلمين ، نكص هذا الفن الى طور الطفولة ، حيث تضاءل فى هذه الأيام الى مجرد أساليب بدائيـــة ظلت على قيد الحياة بفعل التقليد ، باعتبارها تراثا موروثا ، تنفذ بشكل ردىء بالغ الخشونة ، وان كانت هذه الصناعة مع ذلك تنهض على أسس نفس المبادىء والتى نعمل نحن على أساسها ، والتى طورتها أوربا ، وبالامكان أن نتعرف على ذلك اذا القينا نظرة عابرة على أساليب المصريين وكـــذلك على أساليبنا (١) .

(*) مدينة ايطالية تقع فى سهل لباردى (المترجم) .

(**) وهـــم ملوك برجام وقـــد حكم اومينوس الأول من ٢٦٣ الى ٢٤١ ق.م. والثانى من ١٩٧ الى ١٥٩ ق.م. وكان متحالفـــا مع الرومان (المترجم) .

(١) قد يكون بمقدورنا أن نظن أن هؤلاء الذين اخترعوا فى الأصـــل أساليب فن الدباغة كانوا يعرفون ، قدر مانعرف ، طبيعة جلد الحيوانات، كما كانوا يعرفون كذلك مثلما نعرف ، أن العصـــارة اللمفـــاوية التى يكون الجلد متشربا بها ، بخلافالدم، تتكون من مادتين متميزتين لابد أننستخلص (أو نستبعد) احداهمـــا ، وهى جيلاتينيـــة صرف،أما الأخرى ، وهىنسيج ليفى غير قابل للذوبان فى الميـــاه ، فلابد لها ، فى نفس الوقت أن تحصل فى جزء كبير منها على تغيير لتصـــبح كمـــا نقول نحن شـــائطة ومنكمشة ومتهيجة ، لتتحد بعد ذلك بالمادة الدابغة .

فــن الدباغة

يعني دبغ الجلود عند المصريين ، كما يعني عندنا ، أن نشبعها بعنصر يسمى tannin (*) ، وتوجد هذه فى النباتات الخضراء (وتسمى القابضة ، اى التى تجعل انسجة الجلد تنقبض ، فيقل الافراز او النزف) وباتحاد هذا العنصر مع الأليافالتى تشكل نسيج الجلود، فانه يجعلها تتخذ حالة نصف جيلاتينية ، بحيث ينتج عن ذلك جسم جديد اشد صلابة ،واكثر مرونة (غير قابل للـكسر) واقل قابلية لنفاذ المياه منه ، كما يكاد يكون غير قابل للتلف .

وقبل ان ندبغ الجلود يقتضى الأمر أن نغسلها أولا ، ثم نكشطها ،أما لكى ننتج مانطلق عليه فى أوربا اسم الجلود الـكثيفة أو السميكة ، فلابد أن نقوم بنفخها .

وفى مصر ، كما فى كل البلاد ، تعنى العملية الأولى (وهى الغسيل) أن نغمر الجلود وأن ننقعها وأن ندوسها وهى فى مياه جارية ، وأن نجعلها ترشح وأن نبسطها فوق حامل ثم نغسلها مرة أخيرة حتى نتخلص تماما من وشلها (أو نضحها) ومن دمائها ، ومن الوساخات التى تراكمت عليها فى الزرائب أو فى المذبح حتى تصبح متشبعة بالماء .

أما العملية الثانية ، وهى الـكشط ، فتقتصر فى مصر على واحـدة من خطوات عدة تلجأ اليها أوربا ، ويتم بمقتضاها وضع الجلود فى محلول الجير حتى يمكن انتزاع زغبها (أو شعرها) بسهولة ، وحتى يمكن للعامل ان يزيله ، بينما تكون الجلود معلقة على الحامل ، بواسطة سكين دائرية الشكل ، لـكنها غير قاطعة .

وتكتفى أوربا بطريقة الكشط بالجير بالنسبة لجلود البقر والعجول ، وهى الجلود التى تخصص لتصبح جلودا خشنة ، ويكتفى بهـا فى مصر كذلك بالنسبة لجلود الجاموس والثيران ، ذلك أن المصريين كما هو معروف لايسعون أبدا لكىيصنعوا منجلود هذهالحيوانات جلودا سميكة أو كثيفة . اما فى أوربا ، حيث يرغب الناس فى مثل هذه الجلود ، وفى أحسن شكل

(*) وهى مادة قابضة تؤخـذ من قشر البلوط أو العفصـه أو غيرهما ومنها جاءت كلمـات tanner و tanneur و tannée بمعنى يدبغ ودابغ ونثل المادة الدابغة الخ (المترجم) .

ممكن ، فانهم يفضلون ، للوصـــول بالجلود الى هذه الدرجة من الجودة ، كشط جلود الحيوانات الكبيرة وذلك بعد أن يغمروها فى سوائل لاذعة مثل منقوع الشعير أو مصل اللبن أو عصير الدباغة أو فى الناتج المائى والحمضى لتقطير الفحــم الحجرى والترب (*) أو فى ماء أذيب به بعض من حمض الـــكبريتيك ، أو بعد تعريضها لدرجة معينة من التخمر ، ويتم ذلك بطيهـــا وقـــد رشت بالملح أو بدفنهـــا فى الزبالة والفضــلات الحيوانية أو بحبسها فى قبو ، تتعرض وهى فى داخله لنـــار ناتجة عن احتراق ثفل الدباغـــة تكون نصـــف جافة ونصف رطبة ، وتنتج درجـــة حرارة تتراوح بين ٢٥ و ٣٠° وتحدث دخانا مشبعا بالبخار يخترق مسام الجلود ، ويتخللها ويجعل شعرها أقل التحاما بها ، وذلك بدون أن يتلفها أو يؤثر فيها هى لأكثر مما ينبغى .

وعندما تتم عملية السمط (ازالة الشعر) بواحدة من هذه الطرق ، تغسل الجلود وتكشط (أى تزال اللحوم العـــالقة بها) ، وعندئذ ، وهذا هو مايحدث فى مصر ، تصبح الجلود ، بكل أنواعها ، معدة للدبغ ، فى حين نظل الجلود ، التى تخصصها أوربا لانتاج مايسمى بالجلود الكثيفة أو السميكة ، فى حاجة لأن تمر بعملية ثالثة تسمى بعملية النفخ ، وتحدث هذه اما بواسطة الجير ، اذا كان الـــكشط قـــد تم بهذه الوسيلة (أى باســـتخدام محلول الجير) ، واما بأية وسيلة من تلك التى اتبعت لتنفيذ عملية الـــكشط ، اذ يمتلك الدباغون فى هذه البلاد ، لهذا الغرض حفرات جير يسمونها الممتلئة Pleins أو أحواضا توضع بها المحاليل اللاذعة أو الحمضية ، تتنوع درجات قوتها (أو مفعولها) ، يمررون فيها على التوالى تلك الجلود الى ان تكتسب درجة الانبساط أو التمدد المناسبة .

وتوجد لدى الأوربيين ثلاث طرق رئيسية يلجئـــون اليها فى علميـــة الدباغة ، فاما أن يبسطوا الجلود « على الناشف » داخل حفرات ، فوق طبقـــة من لحاء البلوط تحولت الى مسحوق بواسطة الرحى ، وأن يجددوا ذلك ثلاث مرات خلال ١٥ الى ١٨ شهرا ، مختصرين مع ذلك ، وفى بعض الأحيـــان هذه العملية ، فيعمد بعضهم الى تسريب قليل من المـــاء شـــيئا

(*) وهو تراب عضوى قابل للاشتعال ، يتـــكون من التحلل البطىء لبعض النباتات الطحلبية .

فشيئا داخل هذه الحفرات ، فى حين يعمد آخرون ، يريدون أن يوفروا على انفسهم فى الوقت نفسه مشقة اتلاف الحفرات حين يستبدلون بالماء محاولات من الدبغة بالكمية التى كان من الممكن أن يستخدموها ، الى تقديم (استخدام) القشرةالثانية والثالثة من ((لحاءالباوط) بشكلها الطبيعى (بدون تحويلها الى مسحوق) .

واما انهم يخيطون الجلود بشكل تتحول معه الى اجولة يملؤونها بالماء والمادة الدابغة ، ثم يغمسونها فى احواض تحتوى كذلك على كمية من المادة الدابغة المذابة ، وتستغرق هذه الطريقة ، والتى يسمونها Chippage (*) مدة شهرين .

واما انهم — اخيرا — يدبغون جلود الأبقار فى خلال بضعة أيام ، وجلود الضأن فى خلال بضع ساعات وذلك بأن يغمسوها منعزلة (أى كل جلد بمفرده) فى حوض يحوى محلولا قويا من المادة الدابغة .

لكن المصريين ليست لديهم سوى وسيلة وحيدة لدبغ جلود الثيران والأبقار والجمال والجاموس والماعز الخ ، يبدأونها بتغطية الجلود وهى لينة ، ممطوطة ومكشوطة ، بخليط من الملح ومسحوق حبات الخردل والسنط ، ثم بعد ذلك توضع ، وتنفض ، وتداس أو تهرس لعدد من الأيام تزيد أو تنقص تبعا لحجم الجلود وسمكها ، ويتم ذلك كله فى ماء اذيبت فيه كمية مناسبة من نفس هذه المساحيق الملحية والقابضة .

وعندما تخرج الجلود من احواض النقع هذه ، تبسط وتجفف ، ويدخل بعضها وهو مايزال على هذه الحالة فى طور الاستعمال ، فى حين يمر بعضها الآخر بعملية التطرية او التليين .

(*) الفعل Chiper فى اللغة الفرنسية يعنى خطف أو دبغ ، لذلك فقد يعنى هذا اللفظ الدباغة الخاطفة . (المترجم)

فـــن تطرية او تليين الجلود

وتعنى هذه الخطوة اعطاء المرونة للجلود التى جملتها عملية الدباغة يابسة ، وتمر كل الجلود التى تخضع لهذه العملية بين يدى « المطرى » ، وهو يعدها لهذا الأمر عن طريق تجهيزات مختلفة تتنـــاسب مع الأغراض التى ستستخدم فيها هذه الجلود .

ولنأخذ جلود البقر على سبيل المثال ، ان العـــامل يعيد لهذه الجلود رخاوتها عن طريق مياه يسعى لأن تتشربها مع وطئـــه الجلود وعركهـــا بالأقدام ، ثم يعلقها فوق حمـــالة ويكشطها ويسوى حوافيها ، ثم يجففها ويبسطها على نضد ، ويصب فوقها من ناحية الباطن (أو اللحم) زيتـــا يدلـــكه بيده ، ويفعل نفس الشيء من ناحية الوجه (أو الشعر) وان كان مايضعه هنـــا من زيت أقل كثيرا مما وضعه فى الناحية الاخرى ، ثميعلق هذه الجلود حتى تتشرب هذا الزيت وبعد ذلك يدهسه ثم يغمره بالزيت من جديدثم يدهسه او يطؤه مرة اخرى ، ثم يزيل هذه الشحوم بواسطة محلول خفيف (غير مركز) من النطرون ، يضعها على وجه الجلد (أى الجهة التى بها الشعر) ، وذلك بقصد اعداده لـــكى يأخذ اللون الأسود ، الذى يمنحه اياه على مرتين، بواسطة محلول يتكون من اتربة حمض الكبريتيك ومسحوق ثمار السنط ، داهسا الجلد فى كل مرة ، وبعد ذلك يعالج عيوبه ثم يضع طبقة من الزيت على وجهه .

أما الجلود المستعملة فى سن أمواس الحلاق المصرى فتصـــنع من سيور من جلود الثيران او الجاموس ، المدبوغة والتى تلين بعد ذلك فى الزيت ، وتنقع هذه السيور لمدة ثمانية أيام فى زيت الـــكتان ، ثم لمـــدة ثمانية أيام أخرى فى زيت الزيتون ، ثم تداس بالأقـــدام ، وتلف حول نضد كى تكتسب المرونة المطلوبة ولكى تتشبع بالزيت .

لكننا نجهل ما ان كان هذا الصانع يستخدم فى بعض الأحيان ، بدلا من الزيت ، الودك (شحم الأمعاء) أو الشمع ، اذا ما أراد اعداد الجلود الناعمة أو المصقولة التى يحتفظ لها بلونها الأصهب — ان كان حقا يعرف ذلك ، وما ان كان يعطى لجلود الأبقار والعجول ، مثلما يفعل دباغونا ، اللون الأحمر ، مقتربا من نفس أساليبنا وخطواتنـــا ، وذلك بأن يعـــالج

هذه الجلود بالشبة ، فى الحالة التى تكون عليها عند صباغتها باللون الاسود ، ثم بأن يدوسها وهى فوق طبقة الشبة ثم بأن يصبغها بخلاصة خشب البرازيل أو خشب الفرنامبوك موضوعة فى مياه الجير ، ثم بأن يجففها وأن يصقلها قبل وبعد غمرها بالزيت ، وبعد ذلك بأن يضع على المصفاة تلك الجلود التى يريد أن يكون الحبوب على وجهها (يجعلها محببة) ، ومع ذلك فليس العامل المصرى هو الذى يجهز الجلود التى نصنع منها ، فى مصر ، القرب التى تستخدم هناك اما لحمل مياه النيل الى بيوت الأهلين ، واما لنقلها خلال الأسفار على ظهور الجمال ، واما لاحتواء العسل الأسود القادم من الصعيد ، وكذلك الزبد وزيت الزيتون والعسل الأبيض ، اى هذه السلع القادمة من تونس ومن مدن أخرى فى بلاد البربر ، اذ تصنع هذه الجلود فى مكة وجدة ، ولا يفعل المصريون سوى ان يخيطوها ليصنعوا منها قربهم ، أما القرب بالغة الضخامة ، والتى لابد من حملها فوق ظهور الجمال ، فتصنع من جلود الثيران ، وتستخدم فى صنع القرب الأقل حجما جلود الماعز والتبوس ،وتحتاج هذه وتلك ، كى تعمرا طويلا لأن تمرا كل عام مرتين على الأقل ، بالعملية الآتية :

عندما يلاحظ احد السقائين أن قربته قد اعتراها الانهاك ، فانه يعلقها مع ابقاء فمها مفتوحا ، فتجف ، وعندئذ يدخل فيها خليطا من القطران وزيت الزيتون ، يبسطه بعناية بيده فوق نصف سطحها ، من داخلها ، ثم يقارب بين نصفيها ويدوسهما معا كى يتخللهما هذا الخليط، ثم تترك هذه القربة فى النهاية معرضة للشمس والهواء حتى تتشرب كل القطران الذى اعطى لها ولدرجة لاتتلوث معها الأصابع بالقطران عند لمسها .

وتعمر قربة ما ، بهذه الوسيلة ، نحو خمس الى ست سنوات ، مع استعمالها يوميا .

وتوجد لدى المصريين كذلك ، بقصد اختزان الماء ، آنية صنعت بدرجة لا بأس بها من الحذق ، حتى أننا ظنناها ، دون أن نستطيع التأكد من ذلك ، مماثلة لآنية صناع الأعمدة لدينا ، وتصنع هذه الانية من جلد مغلى فى الشمع ، وان كان ذلك يتم بقدر أقل من العناية ، برغم هذا .

ولدى المصريين كذلك جرار تكاد تكون من نفس الجلد ، لكنها صنعت على نحو خشن بعض الشىء ، ويستخدمها تجار الزيوت لاحتواء الزيت الذى يبيعونه بالقطاعى .

فن صناعة جلود السختيان (*)

يصنع المصريون الجلود التى يخصصونها لصنع مايسميه الناس « بالمركوب » بأكبر قدر من العناية والحذق ، وهذه هى جلود التيوس والخراف والماعز .

وتمر هذه الجلود على التوالى ، بعد معالجتها بالجير ، وبعد أن تكشط وتشذب بأحواض مليئة بالمياه كى تغمس فيها ثم تغسل وتداس بالأقدام ، وبعد ذلك تكشط وتغسل ، ثم يكشط وجهها بشكل عكسى ، وتداس بالأقدام ، ويسوى وجهها باتقان ثم تعلق كى يتساقط ما بها من ماء .

وبعد ذلك ، ولكى تتم تطرية الجلد ومطه بعد أن ايبسه الجير بعض الشىء ، يوضع فى نقيع مغلى من زبل الحمام حيث يدلك به بقوة ،وحيث يترك لعدة ساعات ، ومن ثم يغمس ، الواحد بعد الآخر فى محلول من نقيع العفصة ومسحوق ثمار السنط ، وبعد أن يترك منقوعا فى هذا المحلول لمدة تتراوح بين ٢٥ و٣٠ ساعة ، يداس بالأقدام لمدة ساعتين .

جلد السختيان الأحمر

عند اخراج الجلود التى يراد اعطاؤها اللون الأحمر من النقيع الذى استخدم فى دباغتها ، توضع لمدة يومين فى عقد من النخالة ، وبعد غسيلها، تمر بنقيع التين حيث تترك لتعطن وتظل منقوعة لمدة اربع وعشرين ساعة، وفى نهاية هذه المدة ، يغسل كل جلد ثم يرش بالملح ، ثم يكدسونها لعدة أيام ، فاذا ما استشعرت اية بادرة تخمر فانهم يوقفونها بالقاء الجلود فى الماء ثم يغسلونها لسبع أو ثمانى مرات مختلفة ، وفى كل مرة تستخدم

(*) وهى جلود الماعز مدبوغة وملونة (المترجم) .

مياه جديدة ، ثم تبرم الجلود (تصنع منها لفافة) وتبسط ، ثم تدهن ثلاث مرات بواسطة قطعـــة من الاسفنج أو كرة من القطن ، على وجهها باللون الأحمر المعـــد من القرمزية والشبة .

وبعد أن تصبغ الجلود على هذا النحو ، تغسل ، وتبرم ، ثم توضع فى نقيع قابض ، مكوناته هى مكونات النقيع الذى استخدم عند بدء عملية الدبغ ، وبعد أن تمكث الجلود بهذا النقيع وقتا كافيا (١) ، يغسلونها ثم يبسطونها ، وبعد ذلك يدلكون مسطحها (من ناحية الشعر) بيد منداة بزيت السمسم ، حتى تصبح لامعة ومصقولة .

جلد السختيان الأصـــفر

لا تمر الجلود المخصصة لكى تصبغ باللون الأصفر قط بنقيع النخالة والتين والملح ، ولـــكنها توضع مباشرة ، بعد عملية الدباغة الأولى ، فى نقيع ثان ، ومن هنـــاك ، وبعد أن تغسل وتداس وتبرم أو تلف وتجفف بشكل جزئى ، تبسط لتحصل على طبقتين من صباغة صفراء تصـــنع من سائل هوخليط من حبوب Avignon والشبة المصحونة ، ولابد ان يحرص العامل عند طبقة من الصبغة أن يطوى الجلد وجها لوجه وان تصف الجلود على هيئـــة اكوام حتى يتوغل فيها اللون ، وبعد ذلك تجفف الجلود وتسوى من الداخل (من جهة اللحم) ، ثم تصقل من ناحية الوجه بواسطة العصا .

السختيان الأخضر

يحرص صـــانع جلود السختيان المصرية على اخفـــاء سر اعـــداد اللون الأخضر ، لـــكننا نظن أن هذا اللون (أو هـــذه الصـــبغة) ليست سوى محلول الجنزار (صـــدأ النحاس) مذاب فى ميـــاه حمضية بسبب مابها من درديات حمض البوتاسيوم ، وربمـــا أضـــيف الى ذاك قليل من صبغة النيـــلة .

---

(١) يكتسب جلد السختيان ، فى هذه النقعة الثانيـــة الحبوب التى تصنع جماله الخاص والتى ليست سوى أثر من فعل (الـــكرمشة) التى تعترى بشرة أو أدمة هذا الجلد .

السختيان الأسود

يصبغ السختيان باللون الأسود بعد أن يمر بعملية النقع الأولى ، وذلك بخليط من اتربة أملاح حمضية (سلفات الحديد والنحاس وحامض الكبريتيك) ، يطلق عليها بلغة أهل البلاد اسم جاز ، بالاضافة الى العفصة أو ثمرات السنط على شكل مسحوق ، وتكفى طبقة واحدة ، لذلك فلابد أن يغسل الجلد على الفور خشية أن يحترق بالصبغة ، وعندما يصبح الجلد جافا ، يدلك وجهه بزيت الكتان (١) .

فن تجهيز الجلود على الطريقة الهنجارية (المجرية)

يقوم الصانع هنا بصنع جلد متين دون أن يلجأ فى اعداده لا الى ماء الجير ولا الى المحلولات أو السوائل اللاذعة او الحمضية ، ولا الى المادة القابضة (العفصة أو لحاء البلوط) ، وقد يحل الشبة والملح محل المادة الأخيرة ، ويمزج بهذا الجلد كمية هائلة من الودك أى شحم الأمعاء.

أما الأساليب التى تتبع فى هذا الفن فمجهولة تماما فى مصر ، اللهم الا اذا كانت الطريقة التالية تقدم لنا شيئا من التماثل مع هذه الأساليب .

يؤخذ جلد عجل وهو طازج ، ويبسط بحيث يكون الشعر الى أسفل، ويوضع فوق ارض متربة لأحد الأفنية أو أحد الشوارع (٢) ، ويغطى الجلد بمزيج يتكون من نسب متساوية من الرماد ومورياتت الصودا منفصلة عن ملح البارود ، ولتأكيد وتسهيل ذوبان أملاح هذا المزيج واختراقه للجلد ، ولكى يكتسب الجلد فى الوقت نفسه نوعا من المرونة ، توطأ الجلود بالأقدام فى البداية ، ثم تترك معرضة للشمس ، ولضغط أقدام المارة وهم يعبرون .

وعندما ينفد المزيج الذى يغطى الجلود أو يتبعثر ، فانهم يجددونه ،

---

(١) يقال انهم فى الشرق يستخدمون نبات الرلول ذا الأوراق آسية الشكل (وهو الريحان الشامى) Coriaria فى دبغ الجلود وصبغها باللون الأسود ، كما يقال بأن الجلود تدين لهذا النبات بخاصية تفوقها، وان كنا لم نعرف قط ان هذا النبات ينتشر استعماله فى مصر .

(٢) ليست الأرصفة ولا الأفنية مرصوفة فى مصر (أى أنها كلها متربة)

وحين يصبح الجلد بالغ الجفاف ، يستخدم ، وهو محتفظ بشعره ، كدواسات فى المدارس او المساجد (١) .

فن صناعة الرقوق

تنحصر الوسيلة المتبعة عادة فى صنع الرقوق فى وضع سائل كثيف من الجير المغلى عشية القيام بهذه العملية ، على الجلد وهو منبسط ، ثم يتم انتزاع الشعر منه بعد ساعتين من استمرار وجود الجير عليه ،وبعد ذلك يقلب لمدة ساعتين فى ماء الجير ، ويغسل جيدا ثم يبسط فوق سقيفة ، وبعد ذلك كله يكشط (لانتزاع اللحم والعروق) بعد رشه بجير مصبوغ ، ثم يغسل وهو فى مكانه بواسطة قطعة من الاسفنج ، ثم يجفف على الفور ، وبسرعة ، ثم يؤخذ كل جلد بمفرده لكى ينتزع لحاؤه أو سطحه الخارجى بواسطة حديدة قاطعة ، وفى النهاية يصقل وتحدد علامات يتم القطع عندها ، وبعد ذلك يتم تفسيخه لتصنع منه الأوراق .

ويحتمل الا يكون المصريون يتبعون هذا الأسلوب بتمامه ، وبطريقة تمكنهم من التزود بالرقوق الجميلة التى يستخدمونها فى الكتابة ، بل يحتمل انهم لا يصنعون الرقوق التى يستخدمونها فى هذا الغرض وان كان من المؤكد انهم يصنعون الرقوق الشائعة ، وتستخدم انواع كثيرة من الجلود ، مثل جلود الخيل والحمير من اجل صنع الطبول الضخمة التى تحمل على ظهور الجمال . كما تستخدم جلودالماعز والأيائل السمراء لصنع الطبول الصغيرة ، وقد رايناهم يصنعون اغطية غمد سيوفهم وخناجرهم على شكل رق وليس فى هيئة جلود محببة (٢) ، ويصنعون ذلك من جلود ارداف الحمير، وهم يصبغونها بعد تحبيبها بواسطة

---

(١) لهذا الاعداد المتبع فى مصر بالنسبة لجلود الثيران بعض شبه بالإعداد الذى يتم عندنا بالنسبة لجلود العجول المستخدمة فى صنع حقائب الظهر او حقائب الشغل والتى نسميها العجول ذات الشعر **Veaux à Poils** اذ تصفى دماء هذه الجلود ثم تكشط ، وتداس فى الشبة والملح البحرى مرتين مختلفتين ، وبعد ذلك توضع فوق حامل لتفتح وهى نصف جافة بواسطة السكين المستديرة .

(٢) الجلود المحببة هى نفسها الجلود المرشوشة بمسحوق حبوب الخردل بشكل خفيف .

مثقاب ينتهى طرفه بنقرة صــغيرة ، كما أن غرابيلهم (١) تصنع من سيور رق مصنوع من جلود الجمـال والبغـال ، كذلك شاهدناهم فى النهـاية يستخدمون فى أغراض عدة نوعا من الرقوق يعـرفون كيف يعطونه لونا أخضر بالغ الجمال وبالغ الثبات فى الوقت نفسه .

فن دباغـة الجلود الرقيقة

لا يقـدم هـذا الفن ، بالطريقة التى يتم بها فى مصر أى فرق (عن الدباغة كما وصفناها) اللهم فى أنه أكثر تطورا ، وهم هنـاك يعـدون الجلود للـكشط ، على نحو قريب مما نفعل نحن فى أوربا ، ثم يمطونه ويطرونه بواسطة معجون النخـالة ، وبعد ذلك يمررونه فى محلول الشبة، ويبيضونه عن طريق وضعه فى سائل مغلى يتكون من دقيق الحنطة وصفار البيض وجزء من محلول الشـبة الـذى لم يتشربه الجلد ، ثم يجففـونه ويشدونه .

أما الجلود التى يراد لها أن تظل بوبرها أو صوفها فتغسل ،وتسوى حوافهـا ، وتكشط ، وتوضـع فى عجينـة النخـالة ، ثم تلطخ بالطين وتشبب ، وتغطى من ناحية اللحم بعجينـة من الدقيق والشبة وصـفار البيض ، وتغسل ، وتبسط ، وتجفف ، ثم تبلل ، وبعد ذلك تطوى طيـة واحدة ، وترص بعضـها فوق بعض ، وتحمل بالأحجار (كثقـالات) ثم تفتح لتوضع فوق حمالة، وتسوى مرة أخرى ،وتجفف بحيث يكون الصوف هو المعرض للهواء ، وأخيرا تشذب .

ويمكن أن نعـد جلود الـكلاب من بين تلك التى يعـدها المصريون بشعرها ، وهم هنـا يسلخون الحيوان ، مع الاحتفـاظ بالجلد كاملا ، كما نفعل نحن بجلود الأرانب ، ومع ذلك فحيث أننـا لم نر هـذا الجلد قط وهو يجهز ، وحيث أننا نعرف أنه يتخذ شكل الحقيبة، وأنهم يستخدمونه، فى شكله هـذا ، فى احتواء الزئبق ، فإننـا نرجح أنهم ، بعد أن يشببوه

---

(١) وهى ليست مثقوبة مثل الغرابيل لدينـا بواسطة مجوب (كسرة فسكون ففتحة) ، وهو أداة لانتزاع قطع (صغيرة) من المعـادن والجلود .. الخ .

(أى يعالجونه بالشبة) على طريقـــة المرط (*) ، يرطبونه بالزيت بنفس الأسلوب المستخدم فى صنع الجلود الشموازيه .

ملخص

يتضح مما قلناه عن مختلف تجهيزات الجلود فى مصر :

١ — أن المصريين يستخدمون المـــاء ، ليس فقط لغسل الجلود ،وانما كذلك للتخلص من الألـيـــاف التى تدخل فى تكوينها ، وكذلك لكى يخلصوا هذه الجلود من السوائل الحيوانية القابلة للتعفن ، والتى هى مترعة بها .

٢ — وانهم يجعلون هذا المـــاء اكثر فاعلـــية واشد نفاذا عن طريق اضـــافة الجير الذى يعرفون ماله من خاصية فى منع تعفن الجزء الليفى ، وفى اكساب المـــاء صـــفات ننسبها الى مايؤدى اليه الجير من فقـــد الماء لمـــا به من أوكسجين .

٣ — وأنهم بعد أن يغسلوا ويمطوا ويكشطوا الجلود ، يعرفون على نحو قريب مما نعرف كيف يجعلونها يابسة اما بواسطة المـــادة الدابغة أو عن طريق الشبة والملح بل كذلك بمجرد عملية تجفيف بسيطة ، وأنهم يعرفون كيف يكسبونها المرونة إما باتباع اسلوب الدوس واما بأن يدمجـــوا بهـــا الشحوم ، كما أنهم فى النهاية يعرفون كيف يصبغونها .

(*) أى دبغ الجلود بالأملاح المعدنية (المترجم) .

كتب أخرى للمترجم

أولاً : فى مجال الأدب :

١- المطاردون (مجموعة قصص قصيرة) .

٢ - حكايات من عالم الحيوان .

٣ - المصيدة (مجموعة قصص قصيرة) .

٤ - موتى بلا قبور (مسرحية تأليف چان بول سارتر) .

٥ - السماء تمطر ماء جافا . .

(رواية تسجيلية تتناول وقائع الوحدة المصرية السورية وانفصالها) .

ثانيا : فى مجال التاريخ :

١ - تطور مصر من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٠ . تأليف مارسيل كولب .

٢ - فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية . تأليف أندريه ريمون .

ثالثا : الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر
تأليف علماء الحملة الفرنسية .

١ - المصريون المحدثون .

٢ - العرب فى ريف مصر وصحراواتها .

٣ - دراسات عن المدن والأقاليم المصرية .

٤ - الزراعة ، الصناعات والحرف ، التجارة .

٥ - النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية .

٦ – الموازين والنقود .

٧ – الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين .

٨ – الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين .

٩ – الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين .

١٠ – مدينة القاهرة – الخطوط العربية على عمائر القاهرة .

رابعاً : لوحات موسوعة وصف مصر :

١ – المجلد الأول والثانى للوحات الدولة الحديثة .

٢ – المجلد الأول من لوحات الدولة القديمة .

خامسا : من موسوعة وصف مصر :

(دراسات مختارة من الموسوعة فى كتيبات)

١ – كيف خرج اليهود من مصر القديمة .

٢ – مدينة الأسكندرية .

٣ – مدينة رشيد .

تحت الطبع

– مقياس الروضة .

– القاهرة المملوكية .

– بقية مجلدات لوحات موسوعة وصف مصر .

– بقية الدراسات المختارة من موسوعة وصف مصر .



٦

وصف مصر

الترجمة الكاملة

الحياة الاقتصادية فى مصر

فى القرن الثامن عشر

الجزء الثالث

الموازين والنقود

تاليف

صامويل برنار

ترجمة

زهير الشايب

دار الشايب للنشر

١٠ ش سليمان الحلبى - التوفيقية

ت: ٥٧٤١٣٧١ - ٥٧٢٦٨٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

بصدور هذا الجزء ، يكون ما اسميناه بموسوعة الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر قد اكتمل ، فقد سبق ان صدر المجلد الرابع ويتناول الزراعة والصناعة والتجارة فى مصر ، ثم المجلد الخامس ويتناول النظام المالى والادارى ، وهذا هو المجلد السادس الذى يتناول الموازين او بالأحرى الأوزان والنقود المستعملة فى ذلك العصر ، وبهذا تكون الترجمة العربية قد قطعت شوطا لا بأس به فى تقديم موسوعة وصف مصر ، مع اعادة تبويبه بشكل اقرب الى المنهجية ، اى ان الترجمة تلتزم بتقديم النص كاملا لكنها تعيد تبويب الدراسات الواردة بالكتاب الأصلى طبقا لموضوعاتها .

ولهذا المنهج فى الترجمة ضرورته القصوى على نحو ما فسرت فى مقدمات سابقة ، ولكن له بعضا من عيوب لا مفر منها ، ابرزها تكرار بعض المعلومات التى توردها اكثر من دراسة واحدة ، تدور حول موضوع واحد، او حول موضوعين متقاربين ، كتبهما عالمان من علماء الحملة ، ومع ذلك فاذا كان عيب كهذا بالغ الوضوح فى المجلد الثانى ، وان يكن الأمر الذى نحن بصدده يتصل بأمور ثانوية او تفصيلات غير جوهرية ، فانه غير واضح فى هذه الموسوعة الاقتصادية ، بل اننا نستطيع القول بأن ما قد نعده عيبا ، قد يكون من جهة اخرى ميزة ، فمثل هذا التكرار قد يكون توثيقا او تأكيدا لصحة معلومة ما ، باعتباره اجماعا على حدوثها او وجودها .

ولقد اختارت الترجمة العربية ان تبدأ بتقديم دراسة شابرول فى المجلد الأول منها ويدور حول عادات المصريين وتقاليدهم ، ثم تتابعت المجلدات مقسمة بالمنهج الذى اشير اليه ، ومع ذلك فينبغى القول بأن العديد من الدراسات والمجلدات التى صدرت، مع تقسيمها حول موضوعاتها، لم تخل كلها من اعطاء لمسات عن عادات وتقاليد وطباع المصريين ونظامهم السياسى وحياتهم الاجتماعية ، ذلك انها مع حرصها فى التصدى لموضوعها الأصلى ، كانت تدرك ، أو بالأحرى كان يدرك مؤلفوها ، أنهم يقدمون

« لوحة » امينة عن حياة مصر فى ذلك العصر ، الذى جاءت فيــه حملة بونابرت .

لـــكن الشىء الذى ينبغى على أن أوضحه هنـــا ، بعد أن تنـــاولت المنهج الأساسى المتبع فى الترجمة هو المنهج المتبع فى تفصيلات العمل .

ان الهوامش المرقمة هى بالضرورة من وضع المؤلف الأصلى ، أما النجوم فهى من وضع الترجمة العربية ، كذلك فان العبارات التى توضع بين قوسين فى سياق الترجمة هى فى غالبيتهـــا العظمى من عنـــديات المترجم ، وفى القليل منها من وضع المؤلف ولقد فاتنى ، واعترف بذلك ، ان اضع حدا فاصـــلا بين الأمرين ، باصطناع اقواس مختلفة فى الحالتين كأن تكون اقواس المؤلف مثلا فى شكل : [ ] وأن تكون اقواس الترجمة على هيئة ( ) وهذا ماينبغى تداركه فى الطبعات القادمة والأجزاء القادمة باذن الله . وبصفة عامة فان البيانات الاضـــافية التى تقدمها الترجمـــة اثناء السياق هى استدراكات سعيا للوصول الى روح النص حين يتضح ان الترجمة الـــكاملة لن تحقق الوضوح الـــكامل او اعادة للمعنى بالفاظ اخرى ، او اضافة لمعنى جديد ، ليس كل الجدة ، حين يكون اللفظ الفرنسى قابلا للتعبيـــير عن اكثر من معنى ، مع الحرص دوما ، وبالضرورة ، على انسجام المعنى .

ولقد تخفف هذا الـــكتاب من بعض الهوامش التى اوردها المؤلف، وذلك حين كانت هذه الهوامش تكتفى بالاحالة الى فقرة سابقة وبصـــفة خاصة اذا كانت هذه الفقرة قد ذكرت قبل هذا الهامش بقليل ، لكننى لم استبعد قط هامشا واحدا يحمل اضـــافة او تفسيرا من أى نوع . كما حذفت بالطبع الهوامش التى كانت كل مهمتها ابراد اسم ما باللغة العربية فى حين جاء الاسم فى المتن بالحروف اللاتينية .

كما اقتضى الأمر التصرف فى ترجمة بعض الهوامش لضرورة اقتضاها نقل النص الى اللغة العربية ، كما حتمت ظروف فنية تأجيل نشر جداول العملات الملحقة بالأصل الفرنسى اذ كان الجدول يضـــم خمسة وعشرين عمودا وهو أمر لايتسع له الحجم الذى يصدر به الـــكتاب فى اللغة العربية علما بأن هذه الجداول كانت تحصيل حاصل لـــكل ماورد بالنص كما انها تشير الى عملات لم يرد تفصيل عنها ، وفضـــلا من ذلك ليست فى حوزة احد ، ولا ينبع الاصرار على نشرها الا من اعتبارات الأمانة واحترام النص المنقول فقط .

واذا كنت قد تجنبت الخوض فى المقـدمات السابقة عن الصعوبات التى اواجهها فى الترجمة ، الا فيما يختص بأمور قد يكون من المفيد الاشارة اليها ، باعتبار ان الباقى امور تتصل بشخص المترجم لا داعى لاقحـام القارىء فيها ، الا اننى لم اكن أتصور مطلقـا ان يتسبب اصرارى على تقديم هذا العمل على فصلى من عملى بصفة نهائية ، ذلك ان الجهة التى قامت بهذا العمل ، وهى للأسف مؤسسة صحفية ، ودار نشر ذات تراث عريق فى خدمة الثقافة ، قد اعتبرت ، او اعتبرت ادارتها الحالية انقبولى لمنحة تفرغ من وزارة الثقافة لمدة عام كامل لاتمام هذا العمل ، رغم علمها بكل التطورات وبكل ابعاد الموقف « تغيبا بدون اذن مشروع لمدة تزيد على عشرة ايام » فهذه هى رؤيتها للأمور واصدرت قرارها بفصـلى بصـفة نهائية ولقد تعلمت من ذلك درسـا جديدا : ان كل انسان يريد فعل شىء مهما تكن بشاعته لن يعدم وجود المبرر على الاطلاق .

لقد كانت محنة قاسية ومؤلمة ، لم أشعر ببشاعتها الا عندما انطوت صفحتها الـكئيبة ، حين اراد الله لهذه الأزمة ان تنتهى لألحق بعمل جديد وان كنت اخشى ان اظل على الدوام « أتحايل » بمعنى الـكلمة للحصول على وقت أتمم فيه عملى ، وان أتفنن فىطريقة « اختلس » بها وقتا مادامت كل قيادات العمل تصر ، وبالنسبة لى وحدى ، على التضييق فى مسائل الحضور والانصراف ، ولا تستيقظ اللوائح النائمة الهامدة الا فيما يتصل بى ، فى وقت لاتتسـع الصـفحات عنـدها لنشر كل عملى وهـو مالم اقصر فيه قط هنا وهناك ذلك اننى لم اتخذ وصف مصر ذريعة للتراخى فيه . اننى لا اطلب من هؤلاء عونا قط ولـكننى ارجو فقط ان احصل على الفرصة التى تعطى بلا حساب للقاعدين عندهم والعاطلين .

اننى لم اتعود قط على بث الشكوى ، ويؤلمنى ، بعد كل ماتعرضت له من ملاحقة شرسة وظالمة ، ان اقرر اننى اعمل وسط ظروف انسانية وشخصية بالغة القسوة ، وتنتقصنى ضرورات ضروريات ، ظروف لاتدفع مطلقا لعمل طيب ، بل تكاد تحبط ، وحدها ودون ملاحقات عبقرية منأحد، كل طموح وكل همة ، ويعلم بذلك كل القريبين منى ، ومع ذلك فاننى لم احاول السعى لنيل حق واحد من حقوق يتمتع الوف ومئات الوف ، خشية ان يعد ذلك منى سعيا لمغنم شخصى او اتجارا بعمل لا اقصد به الا وجه الله ووجه الوطن لـكن هناك من يصرون على وضع العراقيل التى لااحتاج منها الى مزيد لو كانوا يعلمون .

ومع ذلك فاننى اخشى ، فالشكوى لذيذة والبوح سار بعد طول الم وكتمان ، ان انسى ان اسدى الشكر لكل هذه النفوس الـكريمة والعظيمة

التى وقفت الى جانبى فى محنتى ، تشد أزرى ، وتأخـذ بيدى ، وتسعى جاهـدة لانقـاذى من مصـير يدفعنى اليـه بعض من طاوعتهم ضمائرهم على فعـل ما فعـلوه ، ولقـد كان النبـل الذى بدا من كل من تعاطفوا معى ، واكثرهم لا تربطنى بهم حتى مجـرد المعـرفة العـابرة ، اللهم الا زمالة القـلم ، أو هـذا الشىء المشـترك العظيم الذى يسمى بالأخلاق والشرف .. وامنا مصر ، اعظم واجـل من كل اذى لحق بى ، حتى لقد كان هذا الطوفان من النبل كفيلا بأن يغرق كل الأحزان والآلام .

لكننى أخشى ان أحاول ذكر كل هذه الأسـماء التى تكاد تشمل كل العاملين فى حقل الفكر والأدب والصحافة ، اما لأن المقام لن يتسع ، واما لأننى أخشى أن انسى اسما عزيزا على ، او اهمل دورا لشخصـية نبيلة لعبته دون أن ادرى من وراء الكواليس .

وسـوف تظل مجلة الثقافـة والأخ الـكبير الدكتـور عبد العزيز الدسوقى ، اصحاب فضل لدرجة لايعدون معها فقط شركاء فى العمل ،بل اصحاب فضل عليه وعلى صاحبه .

ولابد ان أوجه شكرى حقا للسيدة زوجتى التى تحملت معى كل هذه الظروف القاسـية ، ولم تحـاول قط ان تثبط من همتى أو تحثنى على الرضوح لهذه الملاحقات الظالمة برغم ما ننوء به معا من احمال ثقال .

ان هناك على الدوام كثيرين لهم فضل وافضال ، بحيث تتـأكد على الدوام خرافة القول بأن عملا ما يعد عملا فرديا لمجرد أن شخصا واحـدا يقوم به .. ذلك ان عمل هذا الفـرد لم يكن ليتحقق لولا مسـاندة ودعم ومساعدة وتشجيع آخرين وارجو الا يبخل احد بنصيحة أو حتى بنقد مفيد .

وفقنا الله جميعا لمـا فيه الخير وجنبنـا المزالق والشرور ، وهدانا لمـا فيه خير مصر والمصريين .

يناير ١٩٨٠ — زهير الشايب

الكتاب الاول

الموازين العربية

صاموئيل برنار

العنوان الاصلي للدراسة هو : « دراسة موجزة عن الأوزان العربية في الماضي والحاضر » .

حين نعنى بدراسة الاقتصاد السياسى لأمة من الأمم ، تصبح المعرفة الدقيقة بقيمة الموازين والمكاييل والنقود التى تستخدمها هذه الأمة امرا لا مفر منه بالنسبة لنا ، وبصفة خاصة فى غالبية المسائل التى تقابلنا عند تصدينا للأمور المتصلة بالعلوم والتجارة .

وبالاضافة الى كل ذلك ، فلا بد ان تكون لمعرفة الموازين والمكاييل العربية ، عند الاوربيين ، اهمية خاصة ، اذ ان نظام الترقيم عند هؤلاء هو نفسه عند اولئك ، كما أن الحال هو نفسه فيما يتصل بغالبية اقسام وتسميات المقاييس . وطبقا لذلك ، فقد راينا ان من الانسب أن نسبق دراستنا عن النقود . بدراسة موجزة عن الأوزان(*) العربية ، قديمها وحديثها ، بدلا من تقديم مجرد جدول بالاوزان المصرية ، مقيمة بمثيلاتها فى فرنسا ، اما المقاييس والمكاييل فانها ابعد صلة عن موضوعنا بنحو كبير، لذلك فقد تركنا لاولئك الذين يهتمون بها ، على نحو اكثر خصوصية ، مهمة التعريف بها .

الاوزان القديمة

يكاد لا يكون ثمة فرع من فروع العلم والأدب الا وقد كتب فيه العرب بقدر يتفاوت حظه من النجاح . ولقد اهتم كثيرون من مؤلفيهم بالموازين والمكاييل ، وتكاد تكون المعالجة الاقرب الى الكمال والتى وصلت الى علمنا حول هذا الموضوع هى مقالة المقريزى(١) ، التى قام بترجمتها (الى الفرنسية) سلفستر دى ساسى ، واضاف اليها هوامش بالغة الاهمية والطرافة .

(*) تستخدم فى الترجمة كلمة الأوزان للاشارة الى الجرم المستخدم فى الوزن كالرطل والاوقية والدرهم .. الخ وهى تقابل كلمة poids الفرنسية ، اما كلمة ميزان وموازين فنستخدمها للاشارة الى الاداة المستخدمة فى الوزن (المترجم) .

(١) وهو الشيخ تقى الدين ابو محمد ابو العباس احمد المقريزى (ترجمة المسيو دى ساسى) ، وبخصوص الأساليب الاملائية التى اتبعت فى كتابتها وهوامشها ، انظر الملاحظة الموجودة فى آخر الدراسة .

وقد كتب المقريزى مقالته فى نحو العام ٨٤١ من الهجرة (١٤٣٧ من تقويمنـــا) .

ويورد المقريزى فى البداية ، ويعلق طويلا على الحديث الذى رواه النسبـــائى(٢) عن ابن عمـــر ، الذى رواه بدوره مبـــاشرة عن النبى ، (ومعناه) أن الكيل هو الكيل الذى يستخدمه اهل المدينة ، اما الوزن فهو الوزن الذى يتم عند اهل مكة .

وقد اخذ المؤلف الذى ذكرناه على عاتقه ، تبعا لذلك ، ان يبحث فى قيم هذه المقاييس ، وأن يعرف باسمائها ، وأن يوضح العلاقة فيما بينها .

اما اسماء الأوزان العربية التى يقدمها المقريزى باعتبارها مستخدمة فى مكة فى عهد الرسول ، فقد أوردها على النحو التالى ، برغم انالترتيب الذى قدمه لها لا يعكس تدرج قيمها :

الدرهم ، الدينار ، المثقال ، الدانق ، القيراط ، الاوقية ، النصف ، النواة ، الرطل ، القنطـــار .

وفى هذا النظام الوزنى ، نجد الدرهم أو الدراخمة هو وحدة القياس، بمعنى أن الأوزان الأخرى كانت تقدر على أساس الدرهم(٣) .

اما الفرع الأوحد الذى كان يتفرع أو ينقسم عن الدرهم ، والذى كان له اسم خاص فهو الدانق . وكانت كل ستة دوانق تساوى درهما واحدا.

---

(٢) اسم هذا الفقيه هو ابو عبد الرحمن احمد بن شـــهاب ، وكنى بالنسائى لأنه ينتمى الى مدينة نساء ، احدى مدن خوراسان ؛ اما مؤلفه فعنوانه « كتاب السنن الكبير » اى الجامع لشرائع السنة . وقد توفى هذا المؤلف فى العام ٣٠٣ من الهجرة (٩١٥ من تقويمنا) . مســـتخلص من الهامش رقم ٢ من ترجمة المسيو دى ساسى لمقالة المقريزى عن الموازين والمكاييـــل .

(٣) درهم ، والجمع دراهم، كلمة فارسية انتقلت الى العربية وتقابلها عند الاغريق واللاتين كلمة دراخما drachma ، ولكلمة drachme عنـــد الفرنسيين صلة كبيرة بالكلمة الفارسية ، ويحتمل انها هى الكلمة نفسها . وسنفصل فى مقالتنا هذه استخدام كلمة drachme باعتبارها مقـــابلة لكلمة درهم .

لكن الدانق لم يكن مستخدما فى مصر ، ومع ذلك فان الدرهم ينقسم عادة الى ١/٢ و١/٦ درهم دون ان تطلق تسميات محددة لهذا الفئـات من الاوزان .

اما النواة(٤) فتساوى خمسة دراهم .

واسم هذا الجرم غير معروف فى الوقت الحالى ، او انه غير مستخدم فى مصر برغم انهم يستخدمون هناك فى معظم الاحيان وحدة من خمسـة دراهـم .

والامر نفسه هو ما كان يحدث بالنسبة للنش (اى النصف) والذى كان يساوى ٢٠ درهما(٥) .

ويبدو ان الاوقية كانت نوعين : الاول وتزن عشرة دراهم . وفى راى البعض ١٠ ٢/٣ دراهم ، اما الاخرى فتزن ٤٠ درهما . ومع ذلك فلا يفرق المقريزى بينهما فى التسمية .

ولا تزال كلمة اوقية تستخدم حتى اليوم ، وان كانت تعنى حاليا جرما مختلفا زنته ١٢ درهما .

ويورد المؤلف نفسه ثلاث قيم مختلفة للرطل(٦) هى بالترتيب : ١١٥ ٥/٩ درهما ، ١٢٨ درهما ، ١٣٠ درهما .

ويشتمل الرطل زنة ١٢٨ درهما اما على ١٢ ٤/٥ اوقية زنة الاوقيـة منها ١٠ دراهم ، واما على ١٢ اوقية وحسب ، تزن الواحدة منها ١٠ ٢/٣ من الدراهم .

وقد ظلت كلمة رطل مستخدمة حتى اليوم ، وهى تطلق على جـرم

---

(٤) نفاة او نواة ، وهى فيما يرى البعض قطعة من الذهب لها الحجم نفسه الذى لنواة البلح ويساوى وزنها زنة خمسة دراهم (المقريزى ، مقالة عن الموازين والمكاييل ، ترجمة المسيو دى ساسى ، ص ٣٨) .

(٥) كلمـة نش تحريف لكلمة نصف ابدلت فيها الصاد شينا (المقريزى ، المرجع السابق ص ٨ ، ط ١٧٩٧) .

(٦) رطل ونكتبها بالفرنسية rotl او rothl

يشتمل على ١٢ أوقية ، تزن الواحدة من هذه الأوقيات كما سبق لنا القول ١٢٫٠ درهما(٧) : .

ويقدر القنطار(٨) بـ ١٠٨٠ دينارا ، وهو ما يصل بوزنه الى ٦/٧ ١٥٤٢ درهما ، وطبقا لقول آخرين الى ٤٠ اوقية (ولابد اننا هنا بصدد الاوقية زنة ٤٠ درهما) مما يصل به الى ١٦٠٠ درهم ، ويقول آخرون ان القنطار يزن ١١٠٠ دينار اى انه بلغ ١٥٧١ درهما وثلاثة اسباع الدرهم ، وان كان يقدر فى مؤلف ابن سعيد(٩) المسمى المحكم بـ ١٠٠ رطل . وفى النهاية نجد ان روايات كثيرة قد تواترت عن ان النبى قد قدر القنطار بـ ١٫٢٠٠ اوقية ، ولابد أنه يقصد دون جدال الاوقية زنة ٢/٣ ١٠٢ دراهم .

ولا تزال هذه التسمية مستخدمة الى اليوم ، ويساوى القنطار فى الواقع ١٠٠ رطل من زنة ١٢ اوقية او ١٫٢٠٠ اوقية ، ومن هنا نرى ان تقسيم القنطار الى ١٠٠ رطل وتقسيم الرطل الى ١٢ أوقية امر يعود الى زمان ضارب فى القدم ، وان كان من المحتمل وجود الكثير من الخلط ومن الاخطاء فى الاقوال المختلفة التى اوردها المقريزى .

ويمكن لنا أن نشك أن الرواة لم ينقلوا حديث الرسول عن عدد الدراهم التى تكون الرطل على نحو صحيح ، لأن هذا الرقم لا يتفق لا مع التقسيم العشرى ولا مع التقسيم الاثنا عشرى .

واذا كنا قد لزمنا الصمت حتى الآن عن الدينار والمثقال والقيراط ، فلأنه يبدو من الواضح أن هذه الأوزان ، فى الفترة التى كان يتناولها

---

(٧) يتحدث المقريزى فى نص سبق ان اشرنا اليه عن رطل كان يستخدم فى الماضى فى مكة ، يشتمل على ١٢ اوقية تزن الواحدة منها ٤٠ درهما ، مما يصل بوزن هذا الرطل الى ٤٨٠ درهما ، ومع ذلك فليس لهذا الرطل على الاطلاق صلة بالرطل الوارد فى مقالته عن الموازين والمكاييل ، وان كنا سنضمنه الجدول الخاص بالاوزان العربية القديمة .

(٨) كانت كلمة قنطار فى العربية تعنى فى الأصل الكمية الهائلة من النقود (أو الفضة) ، المقريزى ، المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٩) هو أبو الحسن على بن اسماعيل ، وكنيته ابن سعيد ، توفى فى العام ٤٥٨ من الهجرة ، (مقتبس عن الهامش رقم ١٫٥ من ترجمة المسيو دي ساسي لمقالة المقريزى سالفة الذكر) .

المقريزى ، كما هو الحال فى هذه الايام ، كانت تشكل نظاما منفصلا ومتميزا ، لم يكن يشكل جزءا من النظام الوزنى العام الذى تناولناه . ويمكن مقارنة هذا النظام بأوزان المعيار عندنا ، أو بالاوزان الطبيـة التى لها اسـماء وفروع واستخدامات خاصة بها .

اما الدينار فكلمة فارسية انتقلت الى العربية ، وهو الاسم الذى كان يطلق على النقود الذهبية ، تماما كما كان يطلق اسم الدرهم على النقـود الفضية . وهو يقابل كلمة ديناريوس Denarius عند اللاتين وكلمة deniers عند الفرنسيين ، وان كانت لهذه الكلمات عند مختلف الشعوب معنى بالغ التباين ، ولقد اطلقت هذه الاسماء على نقود ذهبية وفضية بل ونحاسية ، كما أطلقت فى بعض الاحيـان اوزان بعينها مثـل الـ demi-gros (*) والاوزان المعيارية للفضة عندنا .

ويزن الدينار مثقالا ، ويطلق الناس دون تفرقة كلمتى دينار ومثقال للاشارة الى الوزن نفسه(١٠) .

وكانت كلمة مثقال تعنى قديما (او فى الاصل) وزنا (اى ثقـلا) من اى مقدار ، ولكن الأمر قد انتهى بها لأن تطلق بصفة خاصة على وزن صغير كان هو الوزن نفسه الذى للدينار ، وبمرور الايام تغير نظام النقود الذهبية او ان اوزانها هى التى تناقصت ، فتوقف استخدام كلمة دينار فى مصر للتعبير عن الوزن ، وأن ظل يستخدم على الدوام الوزن المعبر عنه بكلمة مثقال ، وتفريعاتها ، عند تقييم وزن الذهب والأحجار الكريمة .

وتنقل الينا احدى الروايات ان الرسول قد قال بأن الدينار يسـاوى ٢٤ قيراطا .

---

(١٠) نجد عند العديد من الشعوب تلك العادة المتبعة فى جعـل النقود مساوية لوزن محدد وفى الاشارة الى اى من الوزن أو النقد بالكلمة نفسها ، فعلى سبيل المثال فان كلمة livre تعنى عندنا فى الوقت نفسه كمية محددة من النقود ووزنا بعينه ، كما كانت كلمـة deniers تطلق على وزن ونقد معينين ، وان كان من النادر ان تظل الرابطة المبدئية بين الوزن والنقد قائمة لوقت طويل .

(*) يعادل الجرو gros ١/٨ اوقية وبذلك يكون نصف الجرو هـذا مساويا لـ ١/١٦ من الأوقية . (المترجم)

ويضيف أبو الوليد ابن رشد(١١) فى كتابه المسمى الكبير الى هـذه الرواية بان القيراط يساوى ثلاث حبات شعير ، فالدينار اذن يعادل ٧٢ حبة شعير متوسط الحجم .

وهنا نلمس كيف ان العرب قد ادركوا ضرورة ايضاح علاقة الوحدات القياسية المتخذة من مواد انتجتها الطبيعة ، او ان يقيمـوا اطرافا للمقارنة تتصف بالثبات أو ان يكون هذا الطرف (المتخذ اساسا للمقارنة) هو اقل ما يمكن العثور عليه عرضة للتغير كى يصلوا الى الوحدات القياسـية المناسـبة .

وعلى سبيل المثال : فقد كانت الفكرة الطبيعية اكثر من غيرها ، والتى كان لابد لها من ان تخطر ببال كل البشر على وجه التقريب ، هى ان يقارنوا مقاييس الطول باطوال اجسادهم نفسها ، مثـل طول الاصـابع والأذرع والاقدام او باتساع الاقدام او الأذرع مبسوطة ، ومن هنا جاءت التسميات: اصبع ، عقلة ، ذراع ، قدم ، خطوة .

وبعيدا عن هذه الافكار البدائية بدات الافكار تتجه للبحث عن وحدة اكثر ثباتا للطول ، سعى الانسان الى استخلاصها عن طريق قياس دقيق لخط طول بعينه او فى خط زوال ارضى ، كمعطى مبدئى ، ثم من وزن المـاء النقى الذى يحتفظ دوما ، فى درجة الحرارة نفسها بمقاييس الوزن والسعة ذاتها ، اذن فلقد تصور الانسان انه سوف يجد فى الطبيعـة علاقات او اطرافا اخرى للمقارنة فيما يتصل بالاحجام والاوزان ، وحيث قد لوحظ ان بذور الثمار تحتفظ لنفسها بصفة شبه دائمة بالشكل عينه ، بل وعلى وجه التقريب بالحجم والوزن نفسيهما . فقد اتّخذ الانسان من بذور النبـاتات المختلفة وحدة للوزن . هكذا كان منشا او اصل تسمية الحبة التى نجدها

---

(١١) وهو من نعرفه باسم Averroès ، وقد توفى فى العام ٥٩٥ من الهجرة (١١٩٨ م) ، ويبدو ان المؤلف الوارد ذكره هنـا كان بحثا فى الفقه . (مقتبس عن الهامش رقم ٧٢ ، من ترجمة المسيو دى ساسى ، المرجع السـابق) .

عند عدد كبير من الشعوب(١٢) .

وعلى اساس وزن حبة الشعير ، قدر العرب وزن المثقال وكذلك وزن القيراط الذى يعد فرعا او قسما منه ، وقد وجدوا ان القيراط يساوى ٣ حبات شعير ، وان المثقال يعادل وزن ٧٢ حبة .

ومهما يكن حظ هذه المعطيات من عدم الدقة او من النقص ، فاننا نجد فيها على الاقل اثرا لمنهج اتبع بشكل شبه منتظم ، وانه لامر اكبر من محتمل ان الاوزان الأعلى كانت ، قبل ان يتم تقييمها بالدراهم ، مضاعفات محددة ودقيقة للمثقال ، ولقد راينا من قبل كيف كان القنطار يقدر قديما على اساس الدينار او المثقال .

ويذكر ابو عبيد فى كتابه المسمى كتاب الانفال(١٣) ان المثقال كان على الدوام ، ومنذ عصور ضاربة فى القدم ، وحدة قياس ثابتة ومحددة .

---

(١٢) كلمة حبة بالعربية هى المقابل لكلمة grain الفرنسية . ويستخدم العرب فى غالب الأحيان هذه الكلمة وحدها كما نستخدم نحن كلمة grain حين يتصل الأمر بالأوزان بدون تحديد نوع الحبوب المستخدمة . ويذكر المقريزى فى مقالته عن النقود (ترجمة المسيو دى ساسى ، ص١٠) ان اول من اخترع استعمال الاوزان والموازين فى العصور الأولى طبقا لما ورد فى الأثر قد بدا بتحديد المثقال الذى قدره بـ ٦٠ حبة ، وحيث تساوى الحبة مائة من حبوب الخردل البرى متوسطة الحجم . فانه قد صنع فى البداية جرما يساوى وزن هذه المائة من حبوب الخردل (فى الوزن) ثم صنع على التوالى جرما آخر للوزن تساوى ٥ حبات اى ١/١٢ من المثقال ، ثم أجراما اخرى تساوى ١/٣ و١/٢ المثقال ، ومثقالا واحدا ، وخمسة مثقالات ، وعشرة مثقالات ، واكثر من ذلك الخ . وبهذه الطريقة نجد أن وزن المثقال يعادل وزن ستة آلاف حبة من الخردل . ولم يذكر المقريزى بأى نوع من الحبوب يتصل الأمر هنا . ومع ذلك فحيث انه يذكر ان المثقال لم تتناوله اية تغييرات فلابد اننا هنا بصدد حبة اثقل وزنا من حبة الشعير . وفى الوقت الحالى لايزال الصراف يقارن الحبة بزنة عدد محدد من بذور السلجم او اللفت .

(١٣) يرى المسيو دى ساسى انه بدلا من هذا العنوان : كتاب الانفال، ينبغى ان نقرا فى المخطوطة : كتاب الأمثال ، لأن المؤلف فى الحقيقة قد وضع مجموعة من الأمثال فى حين لا يعرف عنه قط ان له كتابا بعنوان كتاب الانفال (مقتبس من الهامش ١١٣ من ترجمة المسيو دى ساسى للمقريزى ، مقالة عن النقود) . انظر الملاحظة رقم ١٦ فى نهاية هذه الدراسة .

اما الدرهم فقد ادخل فيما بعد ، لكن المؤلفين العرب لا يتفقون فيما بينهم على اصل الدرهم ، فيذهب البعض الى انه جرم (وزن) معروف ، كان يستخدم قبل الرسول بوقت طويل ، ويؤكد آخرون انه اسم لنقد فضى كانت توجد منه انواع كثيرة متداولة فى التجارة ، وانه لم يضرب (اى : يسك) على يد المسلمين(١٤) ، وان عبد الملك بن مروان قد امر بوزن واحد من اثقل هذه الدراهم وواحد من اخفها وزنا ، معا ، ثم امر بضرب قطع من النقد تساوى نصف وزن هذين الدرهمين اى ان تكون مساوية لمتوسط وزن الدراهم القديمة . واصبح الدرهم ، فى رايهم ، منذ ذلك الوقت ، وفى الوقت نفسه ، عملة نقدية ووزنا معتادا يستخدم معيارا لتقدير الاوزان الاخرى .

فاذا افترضنا ، تبعا لذلك ، انه كان يوجد فيما مضى وزن يسمى درهما فمن المؤكد ان هذا الوزن قد تغير ، فى حين ظل المثقال على حاله ، وكانت تلزم عشرة من الدراهم الجديدة فى مقابل مثاقيل سبعة .

واخيرا ، فمن المرجح ان كانت النقود الفضية والنقود الذهبية فى الاصل من نفس الوزن(١٥) ، وحينئذ كان الدرهم مساويا للدينار (فى الوزن) ، وكان كل منهما يزن مثقالا واحدا ، وحيث قد تقلص وزن الدرهم ، فقد ظل اسم المثقال يطلق على الوزن القديم للدينار . اما اسم الدرهم ، فقد بدا يطلق على الوزن الجديد الذى تقلصت اليه هذه العملة وهو ستة دوانق .

ويستنتج من هذه التغييرات ان الدرهم لم يعد مضاعفا دقيقا لا للقيراط المتفرع عن المثقال ، ولا للحبة . وهى وحدة الوزن الطبيعية التى قدر على اساسها المثقال .

---

(١٤) كان هناك نوعان من الدراهم ، فبعضها كان يحمل نقشا فارسيا وهذا هو الدرهم البغلى او الاسود ، ويزن ٨ دوانق ، اما بعضها الاخر فيحمل نقشا يونانيا ، وهو الدرهم الطبرى . وكان يسمى فيما مضى بنفس الاسم ، وهو يزن ٤ دوانق ، ويزن الدرهمان معا ١٢ دانقا هى التى اخذ ابن مرفان متوسطها ، وثبت وزن الدرهم بهذه الطريقة على ٦ دوانق ، كذلك كان يوجد درهم ثالث يسمى جفارقى يزن ٢/١ ٤ من الدوانق (مقتبس من المقريزى ، مقالة عن النقود ، ترجمة المسيو دى ساسى) .

(١٥) نجد عند المقريزى نصوصا عدة تحول هذا الافتراض الى تاكيد اذ هو يذكر فى مقالته عن النقود ، ترجمة المسيو دى ساسى ، ص ٦ ان وزن دراهم فارس التى كانت متداولة قبل الاسلام كان مساويا لوزن المثقال الذهب فى حين تلزم اليوم ثلاثة مثاقيل فى مقابل كل ١٠ دراهم .

وقد اختلف راى المؤلفين العرب حول قيمة الدرهم ، فيساوى فى راى بعضهم ٥٠ حبة وثلثى الحبة ، فى حين يجعله بعض آخر متساويا للدينار او المثقال اى ٧٢ حبة .

وطبقا لراى ابو محمد ابن عطية(١٦) فان الحبة التى يقدر على اساسها الدرهم هى حبة الشعير متوسطة الحجم ، وماخوذة وهى على حالتها الطبيعية من الخشونة ، ولم تنزع منها قط قشرتها ، وان كان قد فصل منها ، عند طرفيها الزوائد التى تتجاوزا جسمها .

وهناك آخرون يقدرون الدرهم بـ ٦/١٠ ٥٧ وواحد من عشرة من واحد من عشرة (اى : ٥٧٫٦١ حبة) ، الامر الذى يصل بوزن المثقال او الدينار الى ٣/١٠ ٨٢ حبة .

ويظن المقريزى بانه قد وفق بين الرايين حين قال بأن من الممكن ان تساوى ٥٧٫٦١ حبة تؤخذ بشكل الوزن نفسه لـ ٢/٣ ٥٠ حبة اختيرت من حجم متوسط .

وهكذا نرى كم تبتعد كل هذه المعطيات من اليقين والتحديد الصارم، المطلوب فى عمليات القياس .

وعندما تحددت قيمة الدرهم ، على النحو الذى انتهينا الى بيانه ، فقد اصبح قاعدة لنظام قياسى جديد ، اى انهم اخذوا يقيمون الاوزان التى كانت مستخدمة بالفعل بالدرهم والحبة ، وحيث قد نتج من هذا الامر ان هذه الاوزان لم تكن تضعيفات دقيقة لا للدراهم ولا للحبوب ، فاما انهم صيغوا تضعيفات جديدة ودقيقة للدرهم ، اطلقت عليها اسماء جديدة ، واما انهم قد احتفظوا لهذه التضعيفات بالأسماء القديمة التى لم تعد تنطبق على حقيقة قيمتها .

ونقدم فيما يلى بالدراهم والحبة جدولا بالاوزان المختلفة التى تناولتها مقالة المقريزى .

ملاحظة : فى هذا الجدول حولنا الى كسور عشرية تلك الاجزاء التى كان من المستطاع ان تعطى ارقاما اكثر مما ينبغى ، او تلك التى كانت ستقدم لنا سلسلة غير قابلة للانتهاء ، وتكون بالتالى اقل دقة من الأجزاء نفسها .

---

(١٦) هو عبد حق بن عطية ، وهو احد واضعى تفاسير القرآن (مقتبس من الهامش رقم ٥٧ من ترجمة المسيو دى ساسى لمقالة المقريزى عن الموازين والمكاييل) .

جـــدول باقسام او فروع

قنطار				رطل					
يشتمل على ١٠٠ رطل زنة ١٢٨ درهما أو ١٢٠٠ أوقية زنة ١٠ ٢/٣ دراهم	يشتمل على ٤٠ أوقية زنة ٤٠ درهما	يشتمل على ١١٠ دينار أو مثقال زنة ١ ٣/٧ درهم	يشتمل على ١٠٨٠ دينار أو مثقال زنة ١ ٣/٧ درهم	يشتمل على ١٢ أوقية زنة ٤٠ درهما	يشتمل على ١٣٠ درهما	يشتمل على ١٢٨ درهما	يشتمل على ١١٥ ١/٢ درهما	أوقية زنة ٤٠ درهما	نش (نصف) زنة ٢٠ درهما
١	٨	٨ ٨/٢٢	٨ ٦/٣٥	٢٦ ٢/٣	٩٨ ٤/١٣	١٠٠	١١٠ ١٠/٢٣	٣٢٠	٦٤٠
	١	١ ١/٢٢	١ ١/٣٥	٣ ٢/٣	١٢ ٤/١٣	١٢,٥	١٣ ١١/٢٣	٤٠	٨٠
		١	١ ١/٢٢	٣ ٢/٢ ٣/٤	١٢ ٨/٣٣	١٢ ٣١/٢٢٢	١٣ ١٠٩/٢٨٢	٣٩ ٢/٧	٧٨ ٤/٧
			١	٣ ٣/٢٤	١١ ٧٩/٩١	١٢ ٣/٥٦	١٣ ٣١/٩٢	٣٨ ٤/٧	٧٧ ١/٧
				١	٣ ٩/١٣	٣ ٣/٤	٤ ٢/٢٣	١٢	٢٤
					١	١ ١/٦٤	١ ١/٢	٣ ١/٤	٦ ١/٢
						١	١ ٧/٦٥	٣,٢	٦,٤
							١	٢ ١/٢	٥ ١/٢
								١	٢
									١

الأوزان العربية القديمة

أوقية		نواة	مثقال	درهم	دانق	قيراط	حبة أو حبة شعير	
زنة ١٠ ٢/٣ دراهم	زنة ١٠ دراهم	نواة زنة ٥ دراهم	مثقال أو دينار زنة ١ ٣/٧ درهم	درهم	دانق زنة ١/٦ درهم	قيراط نسبته إلى الدرهم ١/١٦,٨	نسبتها إلى الدرهم ١/٥٠,٤	نسبتها إلى الدرهم ١/٥٧,٦١
١,٢٠٠	١,٢٨٠	٢,٥٦٠	٨,٩٦٠	١٢,٨٠٠	٧٦,٨٠٠	٢١٥,٠٤٠	٦٤٥,١٢٠	٧٣٧٤٠٨
١٥٠	١٦٠	٣٢٠	١,١٢٠	١,٦٠٠	٩,٦٠٠	٢٦,٨٨٠	٨٠,٦٤٠	٩٢١٧٦
١٤٧ ٩/٢٨	١٥٧ ١/٧	٣١٤ ٢/٧	١,١٠٠	١٥٧١ ٣/٧	٩٤٢٨ ٤/٧	٢٦,٤٠٠	٧٩,٢٠٠	٩٠٥٣٠
١٤٤ ٩/١٤	١٥٤ ٢/٧	٣٠٨ ٤/٧	١,٨٠٠	١٥٤٢ ٦/٧	٩٢٥٧ ١/٧	٢٥,٩٢٠	٧٧,٧٦٠	٨٨٨٨٤
٤٥	٤٨	٩٦	٣٣٦	٤٨٠	٢,٨٨٠	٨٠٦٤	٢٤١٩٢	٢٧٦٥٢,٨
١٢ ٣/١٦	١٣	٢٦	٩١	١٣٠	٧٨٠	٢١٨٤	٦٥٥٢	٧٤٨٩,٣
١٢	١٢,٨	٢٥,٦	٨٩,٦	١٢٨	٧٦٨	٢١٥٠,٤	٦٤٥١,٢	٧٣٧٤,٠٨
١٠ ١/٢	١١ ١/٢	٢٣ ١/٢	٨٠ ١/٢	١١٥ ١/٢	٦٩٣ ١/٢	١٩٤١ ١/٢	٥٨٢٤	٦٦٥٧ ٧/٤٥
٣,٧٥	٤	٨	٢٨	٤٠	٢٤٠	٦٧٢	٢٠١٦	٢٣٠٤,٤
١,٨٧٥	٢	٤	١٤	٢٠	١٢٠	٣٣٦	١٠٠٨	١١٥٢,٢
١	١ ١/١٥	٢ ٢/١٥	٧ ٧/١٥	١٠ ٢/٣	٦٤	١٧٩,٢	٥٣٧,٦	٦١٤ ٣٢/٧٥
	١	٢	٧	١٠	٦٠	١٦٨	٥٠٤	٥٧٦,١
		١	٣,٥	٥	٣٠	٨٤	٢٥٢	٢٨٨,٠٥
			١	١ ٣/٧	٨ ٤/٧	٢٤	٧٢	٨٢,٣
				١	٦	١٦,٨	٥٠,٤	٥٧,٦١
					١	٢,٨	٨,٤	٩ ٣٦١/٦٠٠
						١	٣	٣ ١٠٣/٢٤٠
							١	١ ١٠٣/٧٢٠

وقد سبق لنا القول بأن لدى الاوربيين ما هو مشترك فى هذا الصدد مع العرب ، حتى ان جزءا كبيرا من التسميات والتفريعات لأوزان هؤلاء هى نفسها عند أولئك ، برغم انه لا توجد بين قيم هذه الأوزان التى تحمل اسماء متشابهة سوى علاقة متباعدة ، وفى أغلب الأحيان بالغة التباعد .

فالقنطار عندنا Quintal (١٧) يتكون مثل قنطارهم من مائة رطل livres

كما ان الرطل المستخدم فى الاغراض الطبية عندنا به ١٢ أوقية(١٨) onices مثل رطلهم ، اما الاوقية الطبية فتشتمل على ثلاثة دنانير(١٩) deniers ، كما تنقسم الأوقية ذات العشرة دراهم الى سبعة دنانير او مثاقيل .

أما الدينار الطبى ، وهو اثقل وزنا على نحو طفيف من الدينار الذى يستخدمه الصاغة فيزن نحو ٨٢٢/٢ حبة ، كما يزن الدينار ٨٢٣/١٠ حبة ، ولا يبلغ الفرق بينهما الا بنحو ١/٧ على الاكثر .

وقد خلط الرومان بين الدينار وبين الدرهم ، حيث كان هذان النوعان من الاوزان متماثلين او متلازمين ولا يختلفان الا فى النذر اليسير . وقد نتج عن ذلك ان الدرهم قد انقسم الى ٧٢ حبة وانه قد قورن بالجرو gros عندنا(*) . وان كان المثقال او الدينار العربى هو الأوثق صلة بهذا الجرو . فالأوقية أو الاونسة once العربية ذات العشرة دراهم وثلث الدرهم كانت تحتوى قديما على ما يقرب من ٨ مثاقيل أو ٨ جرو ، يزن كل منها ١/٢ ١ درهم ، كما كان المثقال او الدينار ينقسم كذلك ، شأنه فى ذلك شأن الجرو لدينا ، الى ٧٢ حبة ، كما اننا فى نظامنا الوزنى المسمى

---

(١٧) تتماثل كلمة Quintal عندنا مع الكلمة العربية قنطار التى لا تختلف فى نطقها الشائع عن الكلمة الفرنسية الا فى ان حرف الراء هناك يتحول الى l (ل) هنا .

(١٨) الكلمة العربية اوقية (او : وقية) هى نفسها كلمة يونانية ، وهى تماثل كذلك الكلمة اللاتينية أونكيا uncia والفرنسية اونسة once .

(١٩) اما كلمة denier عندنا فهى دون جدال نفس الكلمة العربية : دينار .

(*) وزن يعادل ١/٨ أوقية .　　　　(المترجم)

مارك Marc نطلق اسم دينــار denier على ٣/١ الجرو الذى يتساوى مع الاسكروبول(**) المستخدم فى مجال الطب .

ويتشابه كل من الدينييه (الدينــار) والاسكروبول ، اللذان ينقسمان الى ٢٤ حبة مع ثلث الدينار او المثقال عند العرب او مع نصــف الدرهم الحالى ، حيث يساوى المثقال درهما واحدا ونصف الدرهم .

واخيرا فان لدى الاوربيين ، مثل الشرقيين النظام الوزنى نفســه ، بل والاسم نفسه ، الذى نستخدمه فى فرنسا عند سبك الذهب لتقــدير عياره وكذلك عند وزن الاحجار الكريمة ، اى القيراط Karat .

الأوزان الحالية المستخدمة فى التجــارة

الدرهم هو وحدة الوزن المستخدمة حاليا فى مجال التجارة، وسنوضح قيمته فيما بعد ، ويطلق العرب ، كما تفعل ذلك الشعوب الاخرى ، بقصد مساعدة الذاكرة (على استيعاب الارقام) وهى التى يصعب عليها ان تحتفظ بعدد يتكون من ارقام ازيد مما ينبغى ، وكذلك لكى يدونوا فى سجلاتهم اقل عدد من الارقام التى لابد من تدوينها ، اسماء خاصة على بعض تضعيفات الوحدة القياسية .

ولما كان نظام الترقيم عند العرب هو النظام العشرى ، فقد كان طبيعيا اكثر من غيره الا تطلق اسماء خاصـــة الا لمضـــاعفات العشرة ، ومع ذلك فها نحن اولا نجد ان نظام القياس عندهم ، وهو الامر الذى نجده فى بلدان كثيرة حيث دلت التجارب على ان التقسيم الاثنا عشرى سهل وملائم اذ تمكن قسمته مع مضاعفاته على عوامل قسمة كثيرة دون ان يتبقى سوى اقل عدد من الكسور ، قد جاء خليطا من التضعيفات والتفريعات العشرية والاثنا عشرية فى وقت واحد :

فالقنطــار يساوى	. .	١٠٠	رطــل
والرطـــل يساوى	. .	١٢	اوقيــة
والاوقيــة تساوى	. .	١٢	درهمــا

(**) يعادل الاسكروبول Scrupule نحو $\frac{١٢٩٥}{١٠٠٠}$ جرام .

ويتداول فى التجارة رطل آخر يسمى الرطل الزياتى او الرطل الكبير، وهو يتكون من ١٤ أوقية ، وان كنا نراه لا يشكل جزءا من نظام التقسيم الطبيعى او المعتاد للأوزان . وحين يراد تمييز الرطل العادى عن الرطل الزياتى ، يطلق على الاول اسم الرطل القبانى (رطل قبانى) اى رطل الوزانين .

وينقسم الدرهم عادة الى ١/٢ و١/٤ و١/٨ و١/١٦ وليست لهذه التفريعات قط تسميات خاصة اللهم الا اذا قيمت بالقراريط التى هى اقسام من المثقال . وفى هذه الحال ، وحيث يساوى المثقال درهما ونصف الدرهم اى ٢٤ قيراطا ، فمن الممكن ان ينقسم الدرهم الى ١٦ قيراطا ، والقيراط الى اربع حبات قمح مما يجعل الدرهم الواحد مساويا لـ ٦٤ حبة . وسوف نعود الى هذا التقسيم عند حديثنا عن المثقال .

وكما سبق لنا القول فان المثقال لا يزال مستخدما فى التجارة حتى اليوم ، وذلك لتقييم وزن الذهب والأحجار الكريمة والسلع والعقاقير الثمينة التى تباع باوزان بالغة الصغر .

وقديما كانت كل سبعة مثاقيل تعادل عشرة دراهم وبتعبير آخر كان كل مثقال يعادل درهما واحدا وثلاثة اسباع الدرهم ، وحيث قد بان للناس أن العلاقة بين الدرهم والمثقال عند اجراء الحسابات تسبب شيئا من الارتباك وان درهما وثلاثة اسباع الدرهم تقترب من الدرهم ونصف الدرهم بنحو ١/١٤ من الدرهم فقد غدوا يحسبون المثقال الذى يستخدمونه فى التجارة عادة بواقع درهم ونصف الدرهم .

وينقسم المثقال الحالى ، كشأنه فيما مضى ، الى ٢٤ قيراطا(٢٠) ،

---

(٢٠) توضح مخطوطة ليد Leyde التى رجع اليها المسيو دى ساسى عند ترجمته لمقالة المقريزى عن الموازين والمكاييل أن اصل كلمة قيراط هو قرط (بشدة وفتحة على الراء) الماخوذة من التعبير قرط عليه اى انه اعطاه من الشيء النذر اليسير . انظر الملاحظات الموجودة فى نهاية هذه الدراسة .

ويضاهى القيراط حبة الخروب(٢١) التى تبين انها تساويه ، وهكذا فكل ٢٤ حبة خروب تعطينا مثقالا واحدا . كما تعطينا كل ١٦ حبة منه درهمـــا واحدا . وهكذا ايضا وجد العرب فى هذا النوع من الحبوب طرفا جديدا وطبيعيا للمقارنة ، وان كانت تظل لها على الدوام نفس السوءة التى نجدها عندما تستخدم حبة الشعير طرفا للمقارنة(٢٢) .

وحيث تتفاوت الحبوب الأخيرة عند وزنها ، فقـــد صار لزاما عنـــد مضاهاتها بالمثقال الجديد ان يتم اختيار الحبات الاكبر حجما على نحو طفيف، واصبح المثقال معادلا لـــ ٧٢ حبة شعير .

وفى نفس الوقت ، فاذا كان صحيحا ان الناس قد اقتنعوا بان عليهم ان يبحثوا عن طرف آخر للمضاهاة حين تغيرت ملاقة الدرهم بالمثقـــال ، واذا كان صحيحا كذلك ان حبة القمح قد بدت اكثر ملاءمة من حبة الشعير اذ كان من الضرورى انتزاع الاجزاء الزائدة عن الحبة الاخيرة ، وانهم كذلك قد وجدوا اكثر سهولة واكثر تماثلا ان يقسموا القيراط الى اربعة ارباع كما قد فعلوا بالنسبة للدرهم ، فلقد وجدوا فى حبوب القمح التى تعادل اربعة منها اختيرت من حجم متوسط حبة خروب ، طرفا جديدا للمضاهاة شـــاع استعماله(٢٣) .

---

(٢١) تسمى حبة الخروب باللغة العربية خروبة . اما شجرة الخروب، وهى باللغة الشهرة ، فمتوطنة فى كل بلدان الشرق كما انها معروفة للغاية فى مالطة ، واوراقها تشبه الاجنحة وتحمل من ٢ الى ٥ ازواج من الوريقات المتموجة وشبه الدائرية ، وثمارها عبارة عن قرون مسطحة ، ومن ثمار الخروب يصنع شراب الخروب الذى يباع فى القاهرة فى الشـــــوارع والميادين العامة (هامش من وضع المسيو ديليل Dèlile) .

(٢٢) ويستخدم الصراف كذلك بذور السنط والخيار والشنبر ، وشجرة السنط شجرة جميلة تزرع فى مصر ، وتثمر قرونا اسطوانية الشكل يستخرج منها لباب السنط ، وهى ثمار مسهلة وملينة ومعروفة فى مجالات الصيدلة . (هامش من وضع المسيو ديليل) .

(٢٣) ينقسم مثقال سوريا فيما يبدو الى ٢٤ قيراطا يساوى القيراط منها ٤ حبات (انظر الهامش رقم ٣٤ وص ١٧ من مقالة الموازين والمكاييل المقـــريزى) .

وطبقا لذلك فان المثقال يساوى ٩٦ حبة قمح فى حين يساوى الدرهم ٦١ حبـــة(٢٤) .

ولقد كنا شغوفين بمعرفة ما يمكن أن تصل اليه حدود الدقة فى علاقة كهذه تبدو مؤسسة على معطيات تنقصها الدقة على هذا النحو . ولقـــد حصلنا على النتائج الآتيـــة :

١٦ قيراطا او ١٦ حبة خروب اخــــذت بشـــكل عشـــوائى ، وكان ينبغى لها أن تعادل درهما ، ومع ذلك فقد بلغ وزنها حســـب ميزان مارك :	
فى المرة الأولى (الـــ ١٦ حبة خروب الاولى)	٥٣٫٧٥٠ حبة
فى المرة الثانية (الـــ ١٦ حبة خروب الثانية)	٥٤٫٦٢٥ حبة
وقد وزنت ١٦ حبة خروب اخذت من بين اكثرها سلامة وافضلها شكلا ، وقام باختيارها صراف يهودى مشهود له بالكفاءة والمهارة فى وظيفته	٥٩٫٨٧٥ حبة
ووزنت ١٦ حبة خروب اخرى اختيرت من بين تلك التى بدت لنا اكثرها استواءا وافضـــلها شـــــكلا	٥٩٫٧٥٠ حبة
المجمـــــوع	٢٢٨٫٠٠٠ حبة

(٢٤) يذكر جلال الدين ابو الفضل السيوطى فى مقالته عن مصر أن ابن فضل الله ، فى كتابه المسمى المسالك يقول ما يلى عند حديثه عن تجارة مصر : ويزن الدرهم نحو ١٨ حبة خروب أو ١٨ خروبة ، وتزن حبة الخروب ٣ حبات قمح ، ويزن المثقال ٢٤ خروبة » (مقتبس من مقالة عن النقـــود للمقريزى) أو يبدو لنا هذا الزعم خاطئا ، فاذا كان الأمر يتعلق بالمثقـــال الذى تساوى كل سبعة منه عشرة دراهم ، وكل درهم لا يتجاوز ١٦ خروبة و ٨/١٠ من الخروبة ، واذا كان المثقال يساوى درهما ونصف الدرهم فان الدرهم لن يساوى الا ١٦ خروبة . ويلزم كى يساوى الدرهم ١٨ خروبة حين يكون المثقال مساويا لـــ ٢٤ حبة أن يساوى هذا المثقال درهما وثلث الدرهم . وهو امر يبدو انه لم يحدث قط . وباختصار ، فمن المحتمل أن يكون المؤلف الذى اشرنا اليه آنفا يريد ، متسقا فى ذلك مع كل الموروثات ، أن يضاهى بحبة الشعير ، ولبس بحبة القمح ،

الحد الاوسط	٥٧٫٠٠ حبة

كما بلغ وزن ٦٤ حبة قمح ينبغى لها ان تعادل درهما واحدا :

فى المرة الاولى (شرحه)	٥٤٫٥٠٠ حبة
فى المرة الثانيـــة	٥٤٫٨٧٥ حبة
فى المرة الثالثـــة	٥٥٫٠٠٠ حبة
كما وزنت ٦٤ حبة اختارها الصراف اليهودى ممتلئة وبدون اعطـــاب	٦١٫٧٥٠ حبة
وبلغ وزن ٦٤ حبة اخرى قمنا نحن باختيارها	٦٠٫٥٠٠ حبة
وبلغ وزن ٦٤ حبة ثالثة انتقيت من حجم متوسط	٥٧٫٨٧٥ حبة
المجمـــــوع	٣٤٤٫٥٠٠ حبة
الحد الاوسط	٥٧٫٤١٧
متوسط النتيجتين	٥٧٫٢٠٨

وبرغم ان المثقال بتفريعاته المختلفة ، يشكل على نحو ما نظـــاما وزنيا منفصلا ، فسوف نضمنه داخل الجدول الذى سنقدمه عن اقســـام الأوزان المستخدمة فى مجال التجارة رغبة منا فى الا نزيد لحد غير مرغوب . فيه من عدد الجداول ، ولكى يستطيع القارىء بسهولة ، وبمجرد ان يلقى نظرة سريعة ان يلم بالعلاقة القائمة بين كل الأوزان المستعملة ، وسنفعل نفس الشيء بالنسبة للرطل الزياتى .

جـــــدول
بالاوزان التجارية وتفريعاتها المتنوعة

قنطار	رطل زياتي (1)	رطل قباني	أوقية	مثقال (1)	درهم	قيراط	حبة شعير (1)	حبة قمح
١	٨٥ ½	١٠٠	١,٢٠٠	٩,٦٠٠	١٤,٤٠٠	٢٣٠,٤٠٠	٦٩١,٢٠٠	٩٢١,٦٠٠
	١	٣ ½	١٤	١١٢	١٦٨	٢,٦٨٨	٨,٠٦٤	١٠,٧٥٢
		١	١٢	٩٦	١٤٤	٢,٣٠٤	٦,٩١٢	٩,٢١٦
			١	٨	١٢	١٩٢	٥٧٦	٧٦٨
				١	١ ½	٢٤	٧٢	٩٦
					١	١٦	٤٨	٦٤
						١	٣	٤

(١) لا تشكل هذه الاوزان جزءا من النظام الوزني المستخدم في مجال التجـارة .

اما شكل الاوزان التجارية فيتنوع كثيرا ، فهى اسطوانية الشكل فى بعض الاحيان ، وهى فى احيان اخرى مكعبة ، او هى فى معظم الاحيان جرم متعدد الوجوه نتجت هيئته عن مكعب تهشمت زواياه ، ومع ذلك فقد جرت العادة بان يكون للرطل وللرطلين ولنصف الرطل وللأوقية شكل حلقة تحاكى هلالا ، وان كانت هذه الحلقة لا تقفل بشكل تام بحيث يمكن ان تسلك فى حبل دائرى مع المباعدة فيما بين طرفى الهلال او بالأحرى عن طريق ضغط الحبل فيما بين هذه الطرفين او القمتين .

وتصنع هذه الأوزان بصفة عامة من النحاس ، وهو معدن مفضل عن الحديد اذ يتاكسد الاخير ويعلوه الصدا بسهولة ، ولان العمال من اهل البلاد لم يعتادوا بعد على صهره وتشكيله . ويستخدم فى صنعها النحاس الاصفر او الأحمر المخلوط بالبزموت(*) وهو ارخص من النحاس الاحمر ولا يشتد الطلب عليه .

اما صغار باعة التجزئة وتجار السلع المختلفة ، الذين يجدون شراء الأوزان النحاسية مكلفا او باهظ الثمن بالنسبة لهم فيستخدمون فى معظم الاحوال مجرد قطعة من الحديد غير مستوية الشكل او مجرد « زلطة » تزن الوزن المطلوب .

وعند شعب قليل التنور لهذا الحد ، تقوم على شئونه حكومة اقل تطورا على هذا النحو ، فاننا نجد الناس هناك لم يثبتوا ، كما هو الحال فى اوربا ، على عادة تحتم ان تكون للاوزان الواحدة الشكل نفسه تشتهر به ، ولا يمكن احد ان يغش فى قيمتها ، او عادة ان يوثقوا وان يدمغوا هذه الاوزان ، وان يحرموا استخدام كل الاوزان غير المدموغة على هذا النحو ، وكل هذه امور من شانها اذا تحققت ان تسهم فى جعل التدليس او الغش اقل يسر واكثر ندرة .

ويستعاض عن هذه الاحتياطات برقابة يومية وبعقوبات بالغة

(*) عنصر فلزى يستعمل ممزوجا بمعادن اخرى . (المترجم)

الصرامة تطبق على من يستخدمون موازين او أوزان زائفة(٥٢) .

وفي بعض الأحيان يعاقب اقل عجز في الوزن بقسوة بالغة كما لو كانت غشا فاضحا . لذلك يفضل غالبية الباعة ، خوفا من ذلك ، الحصول على موازين وافية لها دقة القسطاس او ميزان الذهب .

---

(٢٥) كان اغا الشرطة يتجول في المدينة على ظهر حصان يسبقه احد العبيد حاملا امامه أوزان وميزان كبير الحجم ، ويتبعه جلادوه ، ويزفه عدد كبير من العبيد او الخدم المسلحين بعصى غليظة .

ويذهب الاغا الى الأسواق والميادين العامة والاسواق العمومية وكل الاماكن التى يوجد بها تجار او باعة تجزئة ويطلب ابراز الأوزان والموازين من واحد او اكثر من الباعة ينتقون بشكل عشوائى او تباعا لمزاجه الخاص.

وفى بعض الاحيان يسأل الخدم الذى قدموا لشراء بعض المـــواد الغذائية ويستعلم عن الثمن الذى ابتاعوها به وعن الوزن الذى سلمت اليهم على أساسه ، وعن التاجر الذى باعهم اياها ، ويأمر بأن توزن امامه هـــذه السلع ، فاذا تبين غشا فى الوزن او فى تقدير الثمن . فانه يستدعى التاجر ويأمر بعقابه فى نفس مكان الحادث .

اما هذه العقوبة فعبارة عن ضربات بالكرباج على اخمص القدمين .

ويمسك العبيد او خدم الاغا بالمذنب ، ويطرحونه ارضا على وجهـــه ويمسكون بساقيه بواسطة نوع من النير الخشبى (الفلقة) ، وينهال عليه بمائتى الى ثلاثمائة ضربة فوق اخمص القدمين ، ويطلب المسكين العفو ، ويتضرع الى الاغا متوسلا بالنبى وبالله مرددا اسماء الله المائة المقدسة .

ولا يستطيع التاجر البائس ، وقد اصبح كسيحا او تمزقت قدماه ، ان يعود ادراجه الى بيته الا اذا حمله احد اصدقائه او احد النظارة ، ساندا اياه من تحت ابطيـــه .

وحين يضبط فى بعض الاحيان نفر من باعة القطاعى متلبسين بالغش او يتاكد انهم عملوا على رفع الاسعار بشكل جعل الناس يجارون بالشكوى، فان الأغا ، لكى يقدم امثولة اكثر فظاعة ، يأمر بأن تجز راس واحد من بينهم .

ويمكن القول بصفة عامة بان من علامات تدهور وانحطاط اخلاق هذا الشعب انه يشهد لصالح المذنب وانه يعتريه الحزن والكدر حين يلقى المذنب جزاءه ، ومع ذلك فان العقوبة بالغة الفظاعة ، وتطبق فى كثير من الاحيان ظلما ، حتى لتقل دهشة المرء حين يرى الدهماء تبدى شفقتها على المذنب وتمتدحه وتواسيه ، وليس من النادر ان يسيء الاغوات استخدام سلطاتهم الاستبدادية لكى تبتزوا النقود والهدايا من التجـــار ، كما انهم فى معظم الاحيان من له موازين واوزان مضبوطة الا لانه لم يؤت من الكياسة ما يجعله يقدم اليهم الإتاوة المبتغاة .

اما هذه الموازين المستخدمة فى مصر فتشبه الموازين المستخدمة لدينا، وقد استوردت غالبيتها قديما من اوربا .

اما الموازين الصغيرة التى تصنع فى البلاد فيعيبها فى معظم الاحيان انها صماء لا تستجيب ، اى ان رافعتها مقوسة ، ونقطة ارتكازها تقع اعلى من نقطتى تماس كفتى الميزان ، مما يجعل الميزان اقل حساسية او ان يكون ترجيحه عسـيرا .

وينتشر فى مجـال التجارة ، وبخاصـة فى الأوزان التى لا يتحتم رجحانها ، استخدام الميزان الذى نعرفه باسم الميزان الرومانى (القبانى) . وهو ينقسم هناك طبقا لنظام الوزن المتبع فى مصر .

الاوزان المستخدمة فى النقود

تصنع الأوزان التى توزن بها النقود عادة من النحاس الاصفر ، على شكل جرم متعدد الوجوه ، مثمن الاضلاع ، ويتم الوصول الى هذا الشكل عن طريق كسر زوايا المكعب ، ولهذا الجرم ، فى هيئة المكعب التى هو عليها ميزة تهيئة زوايا قوية وغير حادة فى الوقت نفسه ، كما انها اقل عرضة لان تتلف بغتة ، بالاضافة الى ان سقوطها لن تتسبب عنه الا اضرار بسيطة سواء فيما يتصل باتلافها هى او فيما يتصل باحتمال ان تجـرح ايدى واقدام العاملين .

وتزود الأوزان — المعايير هذه عادة ، عنـد جزئها العلوى بعروة أو مقبض يتحرك لاعلا او لاسفل ، ويحفر عدد الدراهم التى تزنها على واحد من اوجهها بواسطة مخصف .

ومما لا شك فيه ان الأمر الجدير بالملاحظة هو ان الناس ، فى بلد نجد ضروب المعرفة بها ادنى بكثير عنها فى اوربا ، قد تبنوا منذ زمان طويل عند صناعتهم للنقود فكرة التقسيم العشرى للأوزان ، برغم ان هذا التقسيم ليس هو نفسه الخاص باوزان البلاد (فى المجالات الاخرى) ولابد ان هذه العادة قد جاءتهم ، بلا جدال ، نتيجة خبرة طويلة اوضحت لصـناع النقود ان هذا التقسيم العشرى ، الذى يتسق مع النظام العددى نفسه ،

هو أكثر ملاءمة في مجال الحسابات لغير ما حد(٢٦) .

هكذا كانت أوزان النقود تقسم من ١ الى ١٠ دراهم مع مضاعفات او تفريعات العشرة، واكثر هذه الأوزان استعمالا كانت الاجرام ذوات الالفى والالف درهم ، وذوات الـ ٥٠٠ والـ ٢٠٠ والـ ١٠٠ درهم ، وذوات الـ ٥٠ والـ ٢٥ درهما ، وذوات العشرة ، والخمسة والاربعة والثلاثة دراهم ، وذوات الدرهمين والدرهم الواحد ، ولم تكن لهذه التضعيفات او التقسيمات اسماء محددة خاصة ، بحيث لم يكن يستخدم سوى اسم وحدة الوزن وهى الدرهم . وكانت كل العمليات الحسابية تتم على اســاس الدراهم .

والدرهم المستخدم هنا هو نفسه الذى يستخدم فى المبادلات التجارية، ويمكن ان تنطبق عليه كل ما سبق لنا ان قلناه (بخصوص الدرهم فى مجال التجارة) ، وان كان قد احتفظ له بمعاييره داخل سلسلة الأوزان المتبعة فى صنع العملات والتى لا تستخدم الا اخيرة تضبط على اســاسها الموازين الاخرى ، بدلا من التماس تحديد اوزانها عن طريق حبوب القمـــح او الخـروب .

وفى حين تبنى المصريون المحدثون النظام العشرى فى أوزان النقود ، فانهم لم يعرفوا كيف يحتفظون ، بالمثل ، بالتقسيم نفسه بالنسبة لكسور الدرهم واجزائه ، عندما قسموه ، كدابهم فى مجال التجارة ، الى ١/٢ و١/٤ و١/٨ و١/١٦ او الى ١/٣ ، ١/٦ ، ١/١٢ كما قلنا من قبل .

اما المثقال ، على النحو الذى رايناه به من قبل ، فقل ان كان يستخدم فى مجال النقود الا لضبط عيار الذهب .

وكان يتم ذلك على اساس المثقال ونصف المثقال .

---

(٢٦) كانت الموازين المستخدمة فى مجال التجارة تستعمل لوزن كل السلع المختلفة فيما عدا الذهب والفضة اللذين يستخدمان فى مجال صنع النقود ، ومع ذلك فقد كانت كل الحسابات وكل العمليات الحســابية تتم طبقا لنظام التقسيم العشرى .

وينقسم المثقال الى ٢٤ قيراطا ، والقيراط الى أربع حبات ، ثم تنقسم الحبة نفسها الى ١/٢ ، ١/٤ ، ١/٨ وهو الامر الذى يماثل تقسيمنا نحن للقيراط الى ٣٢ جزءا .

ولا بد اننا واجدون اكبر قدر من الدقة فى الأوزان فى دور سك النقود بصفة خاصة ، حيث تمارس الحكومة رقابة دائمة ، وحيث تتطلب اساليب (الصنع) دقة بالغة .

ولقد ضاهينا الأوزان المستخدمة عادة فى مجال النقد وتلك المتبعة فى مجال التجارة بتلك الموازين التى تم الاحتفاظ بها باعتبارها عيارات ، واستبعدنا كل ما بدا لعياننا معيبا او تالفا ، ثم وزنا بعد ذلك الأوزان المستخدمة عيارات ، منفصلة ومجتمعة ، على اوزان مارك بعد أن ضبطناها بدقة بالغة ، فتبينا ان الأوزان الدنيا كانت ، على نحو دقيق قدر الامكان ، مساوية لاوزان ٢٠٠٠ و ١٠٠٠ درهم التى كانت هذه الاوزان الدنيا تفريعات منها ، وان كانت كل واحدة من هذه التفريعات قد اعترتها ، سواء بالزيادة او بالنقصان اخطاء طفيفة للغاية ، كانت بتبادلها التعويض فيما بينها على وجه التقريب (اى بتعويض الوزن الزائد فيها الوزن الناقص) تصبح من باب اولى محسوسة بدرجة اكبر عندما نستبعد منها قيم الأوزان الاكبر حجما ، فقد كان وزن الكسور اصغر من المطلوب ، وهو امر لابد انه يدل، ولابد انه قد حدث فى الواقع ، على ان علاقة اوزان هذه البلاد بالاوزان المستخدمة فى فرنسا ، ينبغى ان تحسب على اساس معيارات الأوزان الاكبر ، او على اساس اجمالى الاوزان الصغرى وليس على اساس بعض الاوزان ضئيلة القيمة ، اختيرت بذاتها .

وقد اعطتنا الأوزان ذات الـ ١٠٠٠ والـ ٢٠٠٠ درهم النتائج الآتيـــة :

جدول بمقارنة الأوزان المستخدمة فى مجال النقد بمثيلاتها فى فرنسا

الأوزان وضع المقارنة		قيمتها بالدراهم	قيمتها بالأوزان من نظام مارك الفرنسى: كسور	حبة	جرو	أوقية	رطل	الإجمالى: كسر	حبة	جزو	أوقية	رطل
الموازين المعيار	أولا :	٢٠٠٠ر٢	٠	١٣	٢	٩	١٢	٠	١٣	٣	٩	١٢
	ثانيا :	١٠٠٠ر١	٥	٦	٥	٤	٦	٥	١٣	٢	٩	١٢
		١٠٠٠ر١	٠	٧	٥	٤	٦					
الموازين المستخدمة والتى احتفظت بحالة طيبة	ثالثا :	٢٠٠٠ر٢	٠	١٦	٢	٩	١٢	٠	١٦	٢	٩	١٢
	رابعا :	٢٠٠٠ر٢	٥	١٤	٢	٩	١٢	٥	١٤	٢	٩	١٢
	خامسا :	١٠٠٠ر١	٥	٧	٥	٤	٦	٥	١٣	٢	٩	١٢
		١٠٠٠ر١	٠	٦	٥	٤	٦					
	سادسا	١٠٠٠ر١	٠	٨	٥	٤	٦	٠	١٥	٢	٩	١٢
		١٠٠٠ر١	٠	٧	٥	٤	٦					
	الإجمالى	١٢٠٠٠ر١٢	وقد بلغ وزنه					٥	١٣	٥	٧	٧٥
مما يصل بوزن كل . . .		١٠٠٠ر١ (درهم)	. . . . .					١٢٥	٧	٥	٤	٦
وبذلك يكون وزن كل . .		١ (درهم)	كمتوسط وزن					٩٦٧١٢٥	٥٧			

وقد ظننا انه حرى بنا ان نهمل الكسر ١٢٥٠٠ر. من الحبة الذى يقل به الوزن المعيارى كما راينا عن الاوزان الاخرى ، وينتـــج ذلك من انهم هناك يحرصون على ان يكون الوزن المتداول اكبر بنحو طفيف من الوزن المعيارى ، ذلك ان هذه الازوان المتداولة يتناقص وزنها على نحو مفـــاجىء بفعل اللمس والتداول . ولكى تعود هذه الى تعويض ما فقدته ، تشرب بقليل من الرصاص فى ثقوب صغيرة تنفذ فى احد اوجهها .

ولقد وجدنا ، عن طريق تجارب اخرى تم اجراؤها ، باتخاذ الحـــد الأوسط للأوزان الكبيرة فى مجالى التجارة والنقود ان نسبة الدرهم الى الحبة (او ان الدرهم يساوى من الحبوب) من اوزاننا نظام مارك
٥٨ر١٨٨ حبة

وذلك بدلا من النســـبة التى ذكرناها آنفا وهى ٥٧ر٩٦٧ حبة
بفـــارق زيادة قـــدره ٢٢١ر. حبة

او ٣٨١٠٠ر. من الدرهم ، وان كنا نرى ان الرقم ٥٨ر١٨٨ هو اكثر مما ينبغى دقة وان علينا ان نتبنى الرقم ٥٧ر٩٦٧ ، فلقد تبينـــا ان اوزان التجارة فى واقع الأمر ، هى اكثر دقة لاسباب اوضحناها فيما ســـبق ، وانها تتفاوت فيما بينها باقدار اكبر بكثير من تلك التى تتفاوت بها فيما بينها اوزان النقـــود .

ومع ذلك فان عددا كبيرا لحد كاف من مختلف الاوزان الكسور(*) فى مجالى النقد والتجارة قد بدت لنا جديرة باكبر قدر من الثقة اما لجودة صنعها ، واما للحالة المرضية التى حفظت عليها ، واما للثقة التى يستحقها الصيارفة الذين كانوا يستخدمونها . وقد بينت لنا هذه ، سواء عند وزنها معا او على نحو منفصل ، وبعد تقريبها الى أصغر كسر ممكن ، ان الحـــد الاوسط لقيمة الدرهم مستخلصا من هذه الأوزان ، يبلغ ٥٧ر٩٧٠ حبـــة ، الامر الذى لا يختلف عن النتيجة الأولى الا بثلاث حبات فى كل ١٠٠٠ درهم .

(*) اى اوزان الـــ ١/٢ والـــ ١/٤ والـــ ١/٨ .. (المترجم)

	كسر	حبة	جرو	اوقية	رطل (***)
واعطتنا ٦٠٠ سكين(**) ذهبى صنع القاهرة ، ومن اضبط هذه العملات وزنا ٥٠٥ دراهم و ١/١٤ من الدرهم ، لكنها اعطتنا بميزان اكثر حساسية صنعه المسيو كونتيه	—	٥٤	٦	٢	٣
وكان ينبغى لها ان تزن طبقا للنسبة التى سبق ان تبيناها بين الدرهم والحبة	٨٣	٥٥	٦	٢	٣
وكانت تزن ١٠٠ تالارى عادة بميزان النقود ، بنحو قريب من الدقة حيث لم يكن اى تلف قد اعترى هذه النقود ٩١٠دراهم، مما يعطى طبقا لهذه القيمة لوزن التالارى الواحد	٥٠	٢٣	٧	٠	٠
ولكن مؤلف المسيو بونفيل يصل بالوزن القانونى للتالارى الى	٠٠	٢٤	٧	٠	٠
وكانت ١٠٠ قرش تزن عادة بميزان النقود ٨٧٥ درهما مما يجعل وزن القرش الواحد طبقا للنسبة التى اخذنا بها	٢١	٤	٧	٠	٠
لكننا نجد ان وزن القطعة من هذه القروش فى مؤلف المسيو بونفيل يبلغ	٠٠	٤	٧	٠	٠

(**) Sequin وهى عملة ذهبية قديمة لمختلف الولايات الايطالية كما كانت تتداول فى الشرق وترد هنا عند الحديث عن العملات الذهبية مثل الفندقلى والزر محبوب . (المترجم)

(***) الاوزان الفرنسية المستخدمة على التوالى من الشمال الى اليمن livre once, gros, grain, fraction. (المترجم) .

لكن كسور (أو تفريعات) هذهالعملة
اقل تماما أو دقة من كســــور (أو
تفريعات) التلارى ، وحيث كانت هذه
العملة (القروش) اكثر تداولا ، فقد
كانت تفقد باستمرار قــدرا طفيفا من
وزنها بسبب تآكل النقود من كثـــرة
تداولها . ويقــدر المسيو بونفيــــل
متوسط وزن للقرش يبلغ ٨٣ ٢ ٧ ،١ ،
او ٩٢٠ ر٢٦ جــراما .

ونلحق بهذه الدراسة هنا لوحه بينا بها علاقة الأوزان المصرية بالاوزان من نظام مارك ونظام الوزن العشرى المتبع فى فرنسا ، وقد ضنــمناها الأعشار ووحدات الدرهم ، وبعد ذلك الكسور العشرية للأوزان ثم الكسور المئوية حتى الكسر من الف . وفى النهاية قد سربنا الى هذه اللوحة قيمة أى من هذه الأوزان التى لها تسميات خاصة والتى يشيع استعمالها .

لوحة بتحويل الاوزان المصرية الى الاوزان من نظام مارك والى الأوزان من النظام العشرى المستخدمين فى فرنسا

أسماء الأوزان المصرية	بالدراهم المصرية: تساوى	كسور	درهم	قيمتها بالاوزان فى نظام مارك الفرنسى: كسور	حبة	جرو	أوقية	مارك	رطل	قيمتها بالاوزان العشرية: كسور	ملليجرام	جرام	ديكاجرام	هكتوجرام	كيلوجرام	ميرياجرام
١ حبة قمح	$\frac{١}{٦٤}$ أو	١٥٦٢٥	٠ر٠	٩٠٥٧	—	—	—	—	—	١٠٧٩	٠٤٨	—	—	—	—	—
١ حبة (أى حبة شعير)	$\frac{١}{٤٨}$ أو	٢٠٨٣٣	٠ر٠	٢٠٧٦	١	—	—	—	—	١٤٣٩	٠٦٤	—	—	—	—	—
١ قيراط أو حبة خروب	$\frac{١}{١٦}$	٦٢٥٠٠	٠ر٠	٦٢٢٩	٣	—	—	—	—	٤٣١٥	١٩٢	—	—	—	—	—
			٠ر١	٧٩٦٧	٥	—	—	—	—	٨٩٠٤	٣٠٧	—	—	—	—	—
			٠ر٢	٥٩٣٤	١١	—	—	—	—	٧٨٠٨	٦١٥	—	—	—	—	—
			٠ر٣	٣٩٠١	١٧	—	—	—	—	٦٧١٢	٩٢٣	—	—	—	—	—
			٠ر٤	١٨٦٨	٢٣	—	—	—	—	٥٦١٦	٢٣١	١	—	—	—	—
			٠ر٥	٩٨٣٥	٢٨	—	—	—	—	٤٥٢٠	٥٣٩	١	—	—	—	—
			٠ر٦	٧٨٠٢	٣٤	—	—	—	—	٣٤٢٤	٨٤٧	١	—	—	—	—
			٠ر٧	٥٧٨٩	٤٠	—	—	—	—	٢٣٢٨	١٥٥	٢	—	—	—	—
			٠ر٨	٣٧٣٦	٤٦	—	—	—	—	١٢٣٢	٤٦٣	٢	—	—	—	—
			٠ر٩	١٧٠٣	٥٢	—	—	—	—	٠١٣٦	٧٧١	٢	—	—	—	—
١ درهم			١ر٠	٩٦٧٠	٥٧	—	—	—	—	٩٠٤٠	٠٧٨	٣	—	—	—	—
١ مثقال			١ر٥	٩٥٠٥	١٤	١	—	—	—	٣٥٦٠	٦١٨	٤	—	—	—	—

أوقية

٢ر	٩٣٤٠	٤٣	١	—	—	—	٨٠٨٠	١٣٧	٦	—	—	—	—
٣ر	٩٠١٠	٢٩	٢	—	—	—	٧١٢٠	٢٣٦	٩	—	—	—	—
٤ر	٨٦٨٠	١٥	٣	—	—	—	٦١٦٠	٣١٥	٢	١	—	—	—
٥ر	٨٣٥٠	١	٤	—	—	—	٥٢٠٠	٣٩٤	٥	١	—	—	—
٦ر	٨٠٢٠	٥٩	٤	—	—	—	٤٢٤٠	٤٧٣	٨	١	—	—	—
٧ر	٧٦٩٠	٤٥	٥	—	—	—	٣٢٨٠	٥٥٢	١	٢	—	—	—
٨ر	٧٣٦٠	٣١	٦	—	—	—	٢٣٢٠	٦٣١	٤	٢	—	—	—
٩ر	٧٠٣٠	١٧	٧	—	—	—	١٣٦٠	٧١٠	٧	٢	—	—	—
١٠ر	٦٧٠٠	٣	—	١	—	—	٠٤٠٠	٧٨٩	٠	٣	—	—	—
١٢ر	٦٠٤٠	٤٧	١	١	—	—	٨٤٨٠	٩٤٦	٦	٣	—	—	—
٢٠ر	٢٤٠٠	٧	—	٢	—	—	٠٨٠٠	٥٧٨	١	٦	—	—	—
٣٠ر	٠١٠٠	١١	—	٣	—	—	١٢٠٠	٣٦٧	٢	٩	—	—	—
٤٠ر	٦٨٠٠	١٤	—	٤	—	—	١٦٠٠	١٥٦	٣	٢	١	—	—
٥٠ر	٣٥٠٠	١٨	—	٥	—	—	٢٠٠٠	٩٤٥	٣	٥	١	—	—
٦٠ر	٠٢٠٠	٢٢	—	٦	—	—	٢٤٠٠	٧٣٤	٤	٨	١	—	—
٧٠ر	٦٩٠٠	٢٥	—	٧	—	—	٢٨٠٠	٥٢٣	٥	١	٢	—	—
٨٠ر	٣٦٠٠	٢٩	—	—	١	—	٣٢٠٠	٣١٢	٦	٤	٢	—	—
٩٠ر	٠٣٠٠	٣٣	—	١	١	—	٣٦٠٠	١٠١	٧	٧	٢	—	—
١٠٠ر	٧٠٠٠	٣٦	—	٢	١	—	٤٠٠٠	٨٩٠	٧	٠	٣	—	—

(*) يعادل المرياجـــرام ١٠ كيلوجرامات ، ان تعنى ميريا عشرة آلاف . (المترجم) .

أسماء الأوزان المصرية	قيمتها بالدراهم المصرية: تساوى كسور دراهم	بالاوزان فى نظام مارك فرنسى: كسور	حبة	جرو	أوقية	مارك	رطل	بالاوزان العشرية: كسور	ملليجرام	جرام	دكاجرام	هكتوجرام	كيلوجرام	ميرياجرام
١ رطل قبانى	١٤٤ر	٢٤٨٠	٦٧	٣	٦	١	—	١٧٦٠	٣٦٢	٣	٤	٤	—	—
١ رطل زياتى	١٦٨ر	٤٥٦٠	١٨	٧	—	—	١	٨٧٢٠	٢٥٥	٧	١	٥	—	—
	٢٠٠ر	٤٠٠٠	١	١	٤	—	١	٨٠٠٠	٧٨٠	٥	١	٦	—	—
	٣٠٠ر	١٠٠٠	٣٨	١	٦	١	١	٢٠٠٠	٦٧١	٣	٢	٩	—	—
	٤٠٠ر	٨٠٠٠	٢	٢	—	١	٢	٦٠٠٠	٥٦١	٠	٣	٢	١	—
	٥٠٠ر	٥٠٠٠	٣٩	٢	٢	—	٣	—	٤٥٢	٩	٣	٥	١	—
	٦٠٠ر	٢٠٠٠	٤	٣	٤	١	٣	٤٠٠٠	٣٤٢	٧	٤	٨	١	—
	٧٠٠ر	٩٠٠٠	٤٠	٣	٦	—	٤	٨٠٠٠	٢٣٣	٥	٥	١	٢	—
	٨٠٠ر	٦٠٠٠	٥	٤	—	—	٥	٢٠٠٠	١٢٣	٣	٦	٤	٢	—
	٩٠٠ر	٣٠٠٠	٤٢	٤	٢	١	٥	٦٠٠٠	٠١٣	١	٧	٧	٢	—
	١٠٠٠ر	—	٧	٥	٤	—	٦	—	٩٠٤	٨	٧	—	٣	—
	٢٠٠٠ر	—	١٤	٢	١	١	١٢	—	٨٠٨	٧	٥	١	٦	—
١ قنطار	١٤ر٤٠٠	٨٠٠٠	٢٨	١	١	١	٩٠	٦٠٠٠	٢١٧	٦	٣	٣	٤	٤

ملاحظـــــات :

١ — ص ١١ الفقرة ٢ : **اذ أن نظام الترقيم عند هؤلاء** (اى العرب) **هو نفسه عند أولئك** (اى الاوربيين) .

فالأرقام التى نستخدمها قد جاءتنا فى الواقع من الشرق (ذلك ان نظام الأرقام عند الاغريق ومثيله عند الرومان كانا متباينين وغير وافيين) ، وان كان العرب انفسهم قد نقلوه عن الهند ، بل ان الطريقة التى تكتب وتقرا بها الأرقام تدل وحدها على أن الأعداد والاشارات الحسابية ليست من اصل عربى ، وفى واقع الأمر فان العرب يقرأون ويكتبون من اليمين الى اليسار ولكنهم يقرأون الاعداد من اليسار الى اليمين كما نفعل نحن .

٢ — شرحه ، فيما يتصل **بغالبية أقسام وتسميات المقاييس** .

انظر فيما بعد الملاحظة رقم ٢٠

٣ — ص ١٢ ، الفقرة ١ : **فى نحو العام ٨٤١ من الهجرة** (١٤٣٧ — ١٤٣٨ من تقويمنا) .

لابد لنا ، حتى نستطيع ، بشكل تقريبى ، تحويل السنوات الهجرية الى السنوات المقابلة لها فى تقويمنا ، أن نلاحظ :

١ — أن تقويمنا قد بدا قبل الهجرة بـ ٦٢١ سنة . ٢ — وحيث أن السنة العربية (الهجرية) ، وهى السنة القمرية ، تشتمل على ٣٤٥ يوما ، فى حين تبلغ السنة الشمسية ٣٦٥ يوما ، فانه تلزم ١٣٥ سنة هجرية مقابل كل ١٣١ سنة من التقويم المسيحى ، فلو ان البداية كانت هى نفسها لكان يكفى ان نضرب العدد المعبر عن السنة الهجرية فى ١٣١ وان نقسم الناتج على ١٣٥ ، ومع ذلك فحيث أن التقويم الميلادى قد بلغ ٦٢١ عاما قبل بداية التقويم الهجرى فلابد ان نضيف الى الناتج (خارج القسمة) الرقم ٦٢١ لكى نجد السنة الميلادية الموافقة . وبالتبادل، فلكى نحول السنوات من التقويم الميلادى الى سنوات من التقويم العربى فلابد فى البداية ان نستبعد ٦٢١ من الرقم المعبر عن السنة من التقويم المسيحى ، وان نضرب الرقم الباقى فى ١٣٥ ثم نقسم الناتج على ١٣١ ، فيكون خارج القسمة هو نفسه السنة العربية . وفى هذه الحالة او تلك ، لابد أن نزيد واحدا الى خارج القسمة اذا كان باقى القسمة يزيد عن نصف .

٤ — ص ١٢ : الهامش رقم ٢ : **كتاب السنن الكبير** .

بالعربية سنة والجمع سنن ، وهو الكتاب الكبير الجـــامع لشرائع السنة اى القواعد ، أو الأحاديث .

٥ — ص ١٢ ، الفقرة ٥ : **درهم** . انظر الهامش رقم ٣ .

وتشير هذه الكلمة العربية أحيانا الى وزن ، وتشير احيانا أخرى الى عملة نقدية ، وهى من أصـــل يونانى ، وتقابل الكلمة الفرنسية دراخمة **dragma** أو دراخمـــة drachme .

٦ — شرحه : **دينار** . انظر ص ٢٣ الهامش رقم ١٩ .

وتعنى هذه الكلمة عادة نقدا أو قطعة ذهبية ، وقد جاءت دون شك من اللاتينية ديناريوس denarius ، وقد سمى باللاتينية denarius nummus لأنه كان يساوى عشرة آس (وهى وحدة نقدية وقياســية قديمة) .وقد تدوولت النقود الذهبية الرومانية لوقت طويل فى فارس ومصر . ولا نزال نجد بعضا منها وسط قطع النقود الذهبية التى تزين بها النسوة اغطية شعورهن .

٧ — شرحه : **مثقال** .

وتعنى هذه الـكلمة الوزن (الثقل) بصفة عامة ، وقـــد كان فيما مضى هو وحدة الوزن القياسية ، كما هو الحال اليوم بالنسبة للدرهم . والأصل العربى هو ثقل (فتحة فضمة) بمعنى وزن .

٨ — شرحه : **دانق** . انظر ١٨ ، الهامش رقم ١٤ .

واصله هو الـكلمة الفارسية دانه او دانك ويعنى حبـــة او بذرة النبـــات .

٩ — شرحه : **قيراط** ، انظر ٢٤ ، الهامش رقم ٢٠ .

ولهذه الكلمة اصل يونانى ، وهى بالفرنسية Karat أو Carat أنظر الملاحظة رقم ٢٣ .

١٠ — شرحه ، نفس الفقرة ٤ ، **وقيــة** (أوقية) أنظر ص ٢٢ ، الهــامش رقم ١٨ .

وتعنى هذه الــكلمة فى اليونانيــة وزن (بتسكين الزاى) ، وهى باللاتينية اونيكا Unica ، وهى تشبه كثيرا الــكلمة اليونانية .

١١ — شرحه : **نش** (نصف) . انظر الهامش رقم ٥ ص ١٣ .

وهى كلمة عربية محرفة من كلمة نصــف او نص (بفتح النون أو ضمها) مع حذف حرف الفاء ، وعند كتابتها فى اللغة الشائعة او الدارجة تكاد تحذف كل النقط او العلامات التى تقوم مقام الحروف المتحركة (فى الفرنسية) ، ولهذا لا يصبح النطق بعد محددا الا عن طريق الاستعمال أو التعود ، مما يكون سببا فى تحور او تغير النطق فى معظم الأحيــان ، والى تفاوته من بلد لآخر ، وتلفظ هــذه الكلمة فى مصر عادة نص (بضم النون) وتعنى نصف أو منتصف ، وهى نصف عملة نقدية صغيرة ، وحيث ان المدينى او البارة حاليا هو اصغر عملة نقدية متداولة فان كلمة نص تعنى لدى العامة مدينى . يقول المعوزون (او الشحاذون) هات نص ، أو اعط نص اى اعطنى مدينى واحدا ، ويقال أيضا : كم دى ؟ نص ؟ بمعنى بكم أو كم يساوى هذا ؟ هل هو يساوى نصفا ؟ (اى مدينى واحدا) .

١٢ — شرحه : **رطل** ، انظر الهامش رقم ٦ ص ١٣ .

والاصل رطل (بفتح الراء او ضمها) ، بمعنى يزن باستخدام يده .

١٣ — شرحه : **قنطار** ، انظر ص٢٢ ، هامش١٧ ، وهى بالفرنسية Quintal ، ويبدو ان الكلمة تحريف للكلمة اللاتينية كنتناريوس Centarius او كنتناريوم Centarium ، ولعل الاوربيين قــد نقلوا عن العرب بعض الالفاظ الدالة على الأوزان مثل قيراط وقنطار ، وان كان العرب أنفسهم قد نقلوها قبل ذلك بوقت قصير عن الاغريق والرومان الذين حكموا العرب لوقت طويل .

انظر كذلك الملاحظة رقم ٢٠ .

١٤ — ص ١٤ : السطر رقم٧ : **فى مؤلف ابن سعيد المسمى المحكم** ، والمحكم بالعربيــــة معنــاها الواضــح او الدقيــق والمتفق عليه على نحو تام .

١٥ — ص ١٦ ، الفقرة الأولى : **فى كتابه المسمى الكبير** . والكبير فى العربية تقابل كلمة grand عندنا ، بمعنى الكتاب الكبير او البحث الكبير ، وهذا مفهوم ضمنا ، وموضوع هذا البحث غير موضح ، وقد يكون بحثا فى الفقه على سبيل المثال .

١٦ — ص ١٧ ، الهامش رقم ١٣ : **يرى المسيو دى ساسى أنه بدلا من هذا العنوان ينبغى أن نقرأ فى المخطوطة ١ كتاب الأمثال .**

ويلاحظ هذا العالم نفسه فى الهامش رقم ٦٦ من ترجمته لمقالة الموازين والمكاييل للمقريزى أنها تقرأ بوضوح فى مخطوطة ليد Leyde كتاب **الأنفال** ، وان من الواجب ان نتشبث بهذا التفسير .

١٧ — ص ١٨ ، الهامش رقم ١٤ : **درهم بغلى .**

قل أن يستطيع المرء بيان منشأ او معنى هذه التسمية ، وان كان الرحالة المسلمون الذين سافروا الى الصين قد تحدثوا أيضا عن الدرهم البغلى ؛ ويطلق على هذا الدرهم كذلك اسم الدرهم الوافى (فى الوزن) ويبدو أن صفة الأسود قد اعطيت لهذا الدرهم لأن الفضة تكتسب بمرور الزمن أو بفعل النار اللون الأسود اذا لم ينظف سطحه بوسيلة بانيدعك .

١٨ — شرحه : **درهم طبرى** ، ويحتمل انه يعنى درهم طبرستان فى فارس ، ويطلق على هذا الدرهم كذلك اسم الدرهم القديم .

١٩ — شرحه : **درهم جفارقى** وبالعربية **درهم جوارقى .**

ونحن نجهل معنى او اشتقاق هاتين الكلمتين .

٢٠ — ص ٢٢ ، الفقرة الأولى : **وقد سبق لنا القول بان لدى الأوربيين ماهو مشترك فى هذا الصدد مع العرب ، حتى أن جزءا كبيرا من التسميات والتفريعات لأوزان هؤلاء هى نفسها عند أولئك .**

فسواء كان القدماء المصريون انفسهم هم المخترعين لغالبية العلوم والفنون ، او سواء كانوا قد استقوها من الهند او من فارس ، فلقد نقل الاغريق والرومان عنهم جزءا من معارفهم ، ومن جهة اخرى ، فحيث خضعت مصر بعد ذلك لكل من الاغريق والرومان على التوالى ، فقد حمل

هؤلاء واولئك اليها الكثير من عاداتهم ومن الفاظ لغتهم، ولقد راح الاوربيون، خلال الحروب الصليبية ينهلون من معارف الشرق حيث كانت العلوم مزدهرة فى ذلك الوقت ، افكارا واسماء وعادات كان البعض منها قد نقل من قبل عن الاغريق والرومان ، وموجز القول انه امكن التجارة والعلاقات مع الغرب ان تدخل الى اللغة العربية الفاظا اوربية لكى تشغل مكان الفاظ ومصطلحات اكثر قدما ، فى مجالى العلوم والفنون ، لتعبر عن افكار او معانى مماثلة .

وهكذا فمن العسير فى غالبية الاحوال ، فى علاقات معقدة على هذا النحو ان نتمكن من تحديد الأصل او المنشأ الحقيقى لبعض الافكار والممارسات ومصطلحات مختلف الفنون والعلوم ، لكن الترجيح ، بصفة عامة ، وحين لايكون مصدر الاشتقاق معروفا على نحو جيد ، يصبح فى جانب اللغة الاقدم ، مالم تكن الكلمة مناقضة لسياق او مقتضيات هذه اللغة ، فاذا لم يكن لهذه الكلمة من اصل قط فى اللغة الاقدم ، فى حين نجد لها فى الوقت نفسه اصلا فى اللغة الأحدث ، فلن يكون ثمة شك فى انها قد جاءت عن هذه اللغة الاخيرة .

٢١ — ص ٢٤ ، الفقرة الاولى **رطل زياتى** .

ولعل فى هذا تحريفا لكلمة **زيادتى** ومعناها **الذى زيد عن طريق الاضافة** ، والرطل الزياتى هو الرطل المزيد او الاكبر ثقلا ، وتتم كل عمليات الوزن الكبيرة بعض الشيء ، كما يتم وزن الاشياء كبيرة الحجم ، وبصفة خاصة البضائع التى تكون عرضة لما يسمى فرق الوزن (او طبة الميزان) ، بالاوزان الرومانية ، حيث يساوى الرطل ١٦٨ درهما ولا يحتسب فى الوقت ذاته الا على انه ١٤٤ درهم ، وتعتبر الى ٢٤ درهما الزائدة فى العادة فرق وزن (او طبة ميزان) او وزن الاجولة والآنية والاغلفة .. ولتعويض عدم الدقة فى عمليات الوزن ، وهو الأمر الناتج عن طريقة تصميم او بناء الميزان الرومانى الذى يكون من العسير ان نقدر عن طريقه الفروق فى الاوزان الضئيلة ، عما لو كنا قد فعلنا ذلك بواسطة الميزان العادى الذى يطلق عليه اسم **ميزان** .

٢٢ ـــ شرحه : **رطل قباني** .

وكلمة قباني معناها وزان ، وبصفة خاصة الشخص الذي يستخدم الميزان الذي نسميه **روماني** romain وباللتينية statera والرطل القباني، أو رطل الوزانين ، هو الرطل الذي يزن ١٤٤ درهمـــا ، وهو يستخدم بصفة خاصة كي توزن به في ميزان ذي كفتين كل السلع قليـــلة الوزن وصغيرة الحجم ، وليس لدى القوم هنـــاك ســـوى موازين صـــغيرة ، يمسكونها باليد او يعلقونها بحبل ، لـــكنهم لايستخدمون قط الموازين ذات الأذرع الطويلة والكفات التي تتسع لاحتواء الوزنات الضخام .

٢٣ ـــ ص ٢٥ السطر الاول : **ويضاهي القيراط حبة الخروب** ،انظر الهامش رقم ٢٠ ص ٢٤ .

قرط عليه وباللاتينية parum dedit illi ، ولهذا الفعل وليس للوصـــف اصل في العربيـــة ، ومع ذلك فان هـــذا الاشـــتقاق خاطىء ومعتسف بشكل واضـــح مثل عـــدد كبير من الاشـــتقاقات التي يقـــدمها النحويون العرب المجبولون على البحث وعلى تعقب الأمور باللغة الرهافة. فمن الواضح ان كلمة **قيراط** وتقابلها عندنا كلمة karat او kirat قد اشتقت من كلمة اغريقية معناها حبة الخروب ، ومنها اشتق العرب كلمة قيراط التي لها نفس المعنى ، فالفعل **قرط** (بتشديد الراء) ، والذي يعني اعط الشيء التليل ، بفعل استعارة مأخوذة مما نعنيـــه كلمة حبـــة خروب وما تعبر عنـــه من ضـــآلة القيمـــة ، قريب مما نقوله نحـــن في لغتنا الدارجة : Je n'en donnerais pas un zeste

اي : لا اعطي مقابله شروى نقير (وكلمة zeste بالفرنسية تعني الباف اللحاء العالقة بفصوص البرتقالة بعد تقشيرها) .

٢٤ ـــ **خروبة** .

٢٥ ـــ **حبة او حب** (*)

٢٦ ـــ ص ٢٦ ، السطر ١٣ : **صراف** والاصل **صرف** بمعنى **غير** .

ويقوم الصرافون (أو الصيارف) بتقييم وتبديل النقود ، ويلجا هؤلاء

(*) تكتفي الملاحظتان ٢٤ و٢٥ باعطاء المقابل العربي وبحروف عربية كذلك لهاتين الكلمتين العربيتين واللتين يوردهما المتن بحروف لاتينية . (المترجم)

بصفة خاصة لاجراء الحسابات (اللازمة لهذه العملية) اذ يلزم جهد وعناية ووقت رجل او اكثر متمرسين لحساب مبلغ ولو كان ضئيل الأهمية ،بسبب كثرة انقسام وتفريعات النقود .

٢٧ — ص ٢٦ ، الهامش رقم ٢٤ : **فى كتابه المسمى المسالك .**

والمسالك بالعربية تعنى الطرق ، وهذا العنوان شائع ومشترك فى كثير من الأوصاف (أو المؤلفات) الجغرافية .

٢٨ — ص ٣٠ ، الهامش رقم ٢٥ : **اغا الشرطة .**

ويطلقون عليه فى العربية اسم **المحتسب** من الأصل حسب اى عد او اجرى الحساب (انظر الهامش رقم ٩٧ من ترجمة المسيو دى ساسى لمقالة النقود للمقريزى) ، واغا كلمة تركية تعنى الضابط الآمر (القومندان)

٢٩ — شرحه ، الفقرة ٢ : **ويذهب الاغا الى الأسواق والميادين العامة والأسواق العمومية (بازار) .**

وكلمة بازار كلمة فارسية ، وهذه الأسواق العمومية المسماة بازار مسقوفة ومتنقولة على نحو قريب الشبه بمثيلاتها فى فرنسا والتى تقام داخل ابنية او اسوار وتحيط بها اماكن العرض المغطاة والمحال .

٣٠ — شرحه ، الفقرة ٤ : **أما هذه العقوبة فلعبارة عن ضربات بالكرباج .**

وتعنى هذه الكلمة (كرباج) الشىءالمبرم (بتشديدالراء) او المفتول، اذ تصنع الكرابيج عادة من جلد الثيران المفتول ، ومن شىء يشبه التضبيب او العصا يماثل سوط السايس عندنا ، او بتعبير اكثر دقة ، يماثل مانسميه نحن عصب العجل ، وتجلب القوافل بعضا منه يصنع من سيور من جلد الفيل او الكركدن ، ويسميه اهل البلاد عصب او تضبيبالفيل ، وهو تعبير قريب من التعبير الذى نستخدمه نحن .

٣١ — شرحه ، الفقرة ٥ : **ويمسكون بساقيه بواسطة نوع من النير الخشبى (الفلقة) .**

فحيث ان كل الوسائل التى يستخدمها العرب لايقاع العقاب (بالمذنبين) بالغة البساطة ، فانهم يستخدمون للامساك بقدمى الشخص

المعـــاقب ((بفتح القاف) بضربات الكرباج ، مايشبه قوسا مصنوعا من الحبال ، وفرعا من فروع نخلة (جريدة) ثقب من عند طرفيه ، ويضمون اسفل الساقين بالحبال ، ويقوم اثنـــان من الرجال برفع قدمى المـــذنب سامين كل منهما الى الاخرى ، ممسكين ، كل منهما ، بأحد طرفى القوس.

٣٢ ــ ص ٣٦ ، السطر ٨ : **تالارى (أو : تالر) .**

بخصوص هذه العملة النقدية ، انظر دراستنا عن النقود فى مصر (الدراسة الثانية فى هذا المجلد) .

ملاحظة : عند رسم الكلمات العربية بحروف فرنسية اتبعنا فى المتن وفى غالبية الهوامش والملاحظـــات والتعليمات التى أشارت بها وتبنتها شعبة العلوم والفنون فى مصر ، أما فى الهوامش التى ليست سوى استشهادات (منقولة) ، فقد كان علينا أن نحتفظ بنمطها الاملائى نفسه التى استخدمه المسيو سلفستر دى ساسى .

الكتاب الثانى

النقود العربية

تأليف : صاموييل برنارد

« العنوان الاصلى للدراسة : « بحث حول النقود المتداولة فى مصر » وقد جاء بالهامش انها قد نشرت عام ١٨٢١ » .

المقــدمة

هدف وجدوى البحث فى موضوع النقود العربية

على الرغم من انه ينظر الى النقود عادة باعتبارها مجرد عملات متداولة ، فانها تعد فى حقيقة الأمر مؤسسات تاريخية ، تقوم بتعريفنا، بشكل تتفاوت درجات دقته ، وبالتاريخ للوقائع والأحداث ، وبعهود الحكام واسمائهم والقابهم ، وكذلك بمدى التقدم او التدهور المتتابعين فى ميدان الفنون والصناعات . ومن الواضح ان هذا النوع من المؤسسات ، عند العرب ، يحتم علينا القيام بدراسة مثابرة ومتعمقة بنفس القدر الذى تقل به معرفتنا بتاريخهم ، برغم الاهمية التى يستحقونها بسبب طول سطوتهم، وبقدر ماتكشف مثل هذه المنشئات عن الكثير من تطورات الأحداث ، بقدر مانجدهم محرومين كلية أو بشكل جزئى من المصادر نفسها التى تقدم للأوربيين كى تتصل وتستمر ذكريات العصور الغابرة ، فنون النحت والرسم والجماعات العلمية ، والوثائق (الأرشيف) وبصفة خاصة ، المطبعة والمكتبات .

اما اذا نظرنا للأمر فى اطار النظم المالية والتجارية ، فان من الأمور الاساسية فى الوقوف على تعداد اى شعب ، الالمام بنظام النقود السائد منده ، والالمام كذلك بالقيمة الحقيقية والاسمية لهذه النقود ، وعلاقة كل ذلك بقيم النقود لدى الأمم الاخرى ، وكذلك الالمام بكمية النقود المطروحة للتداول عند هذا الشعب الخ . وكلما زادت التغيرات التى تتناول النقود، كلما زادت ضرورة الحصول عليها وفحصها ، حتى يمكن الوقوف علىالاثار (المؤلفات) والكتابات التى اتخذت من النقود موضوعا لها ، ولكى نتمكن بقدر الامكان من الحصول على افكار دقيقة عن القيم المختلفة التى تشير اليها التسميات نفسها التى تطلق عليها ، او التسميات المتنوعة التىيمكن ان تتجاوب او ترتبط بنفس هذه القيم .

ان الفنون والاساليب المتبعة عند شعب ، تتعارض لهذه الدرجة تقاليده وعاداته وافكاره مع عاداتنا وافكارنا لن يفوتها بالقطع ان تثير فضولنا ، ولقد لمس هذه الحقيقة على نحو جاد واحد من رجالنا بالغ الثقافة واسع المعرفة ، كان يعد من بين المتبحرين فى كل الفنون والذى قدم لكل ضرورة الفن خدمات جليلة ، وان كان موت ميتسر ارعن قد

انتزعه منا (١) ، حين كان موكلا بالاشراف على تنفيذ الرسـوم والبيانات الخاصة برحلتنا (حملتنا) الى مصر ، ولقد بلغ اهتمامه بهذا الأمر حد انه سجل فى سلسلة من اللوحات النابضة بالحياة جزءا من الفنون والصناعات عند المصريين ، ومع ذلك ، فقليل من الفنون لها الأهمية نفسها التى لفن النقود ، تتطلب اهتماما مماثلا بالاهتمام الذى استحوذت عليه فنون اخرى ، ويمكنها أن تقدم فكرة اكثر دقة عن مدى التطور الصناعى والحضارى الذى بلغته أمة من الأمم .

موضـوع واقسام هذه الدراسة

كنا قد انتوينا منذ البداية أن نعرف بكل النقود العربيـة التى قـد نتعرف عليها باعتبارها قد ضربت فى مصر منذ بسط الخلفاء (المسلمون) سيطرتهم عليها وحتى اليوم ، ومع ذلك ، فحيث قد انشغل المسيو مارسيل Marcel بصفة خاصة بموضوع المنشئات والنقوش الكوفية والمسكوكات العربية ، وحيث قد أمكنه ان يجمع عددا كبيرا من هـذه المسكوكات التى تتفاوت فى درجة اثارتها للاهتمام ، فقد وجدت أن من دواعى سرورى أن اعطيه تلك التى امكننى ان احوزه منها ، تاركا له مهمة ان يعالج كل ما له صلة بالمسكوكات التى قد تعد ، بصفة عامة ، تاريخية ، كى اتفرغ بشكل اكثر خصوصية للتصدى لكل ما يتصل بفن صناعة النقود .

وسنتناول فى الباب الأول النقود العربية والاجنبية ، التى صنعت أو التى يجرى تداولها فى مصر ، كما سنتناول كل ما له صلة بشكل ونمط وقيمة نقود هذه البلاد ، وكذلك التغييرات التى اصـابتها بدءا من عصر الخلفاء حتى أيامنا هذه .

اما فى الباب الثـانى ، فسنتصـدى للنظام النقدى الحالى عنـد المصريين كما وجده الفرنسيين مستقرا فى مصر ، وكما سـيظل مستمرا بالتأكيد مع تعديلات طفيفـة فى ظل حكومة البكوات والبـاشوات ، كما

---

(١) توفى المسيو كونتيه Conté رئيس زمرة قادة المناطيد وعضو المجمع العلمى المصرى ، ومدير اكاديمية الفنون والصناعات فى باريس فى السابع من ديسمبر عام ١٨٠٥ .

سنشير الى كل مايتصل بسعر الذهب والفضة ونفقات صنع النقود،وكذا الاساليب المتبعة فى القاهرة لهذا الغرض ؛ واخيرا اى فى الباب الثالث سنتعرض لما له صلة بادارة النقود .

واذا كانت التفاصيل التى سيضمها هذان البابان الاخيران تسترعيان قدرا اقل من الانتباه عما لو كانت ستفعله لو كان الأمر يتصل بشعوب قديمة ، فان هذه التفاصيل ، مع ذلك ، لاتبدو فى نظرنا اقل نفعا فى تجميعها . وتبعا لذلك . فاننا بتلمسنا الحالة الراهنة للعملات المصرية ، نتفادى أو ندحض الكثير من الأخطاء والكثير من المعلومات غير الدقيقة . واذا حدث ان كان البعض قد دونوا فيما مضى ، فى بعض المؤلفات او المخطوطات ، مختلف الأنظمة النقدية التى ادخلت الى الشرق عصرا فى اثر عصر ، كما تناولوا معطيات مفصلة على هذا النحو واكيدة الى هذا الحد، فقد لايكون قد بقى بعد ذلك ، فيما يتصل بعلم المسكوكات العربية ، اى اثر من غموض .

وبرغم ان اهتمامنا قد اقتصر على النقود المصرية ، فان جزءا مما تلناه يمكنه أن ينطبق بشكل عام على كل العملات الاسلامية ، كما انه يلقى الضوء على فن سك النقود فى الامبراطورية العثمانية (١) ، وكذلك عند الشعوب الشرقية على وجه العموم ، مما قد يعطى لهذا الموضوع بعض اهمية لو ان قد أتيح له ان يعالج بيد اكثر دربة .

وفى الوقت نفسه فانه لم يفتنا ان نعرف بالعادات الخاصة بأهل البلاد ، عندما نجد لهذه بعض صلة بموضوعنا ، وان كنا لم نفعل ذلك كى نجعل من دراستنا هذه اقل جفافا ، بقدر ما كنا نفعله كى نحقق واحدة من الغايات الرئيسية التى نذر أنفسهم لها اعضاء شعبة العلوم والفنون فى مصر ، وهى تقديم فكرة دقيقة عن تقاليد وعادات المصريين .

---

(١) اتخذت هذه الامبراطورية اسمها من الأمير عثمان مؤسسها ، والذى يعود عهده الى العام ٧٠٠ من الهجرة (١٣٠١ من تقويمنا) ومن هنا ايضا جاءت كلمة العثمانلى التى يشار بها الى رعايا السلطان او الى الباب العالى .

مؤلفون آخرون ممن كتبوا

عن النقود العربيـــة

لعب العرب فى عصر الخلفاء دورا بارزا وساطعا فى التاريخ ، فقد اخضعوا بسلاحهم جزءا كبيرا من العالم ، كما نجحوا فى استزراع الفنون والعلوم ، ولا يزال كثير من مؤلفيهم يحتفظون بيننا بشهرة كبيرة ، وقليلة هى مسائل وقضايا التشريع والاخلاق والسياسة ، التى لم يعالجوها ، ولقد اورثوا هذا التذوق للعلوم الى حفدتهم ، وبشكل خاص الى كتـــاب مصر ، ومع ذلك فحيث بدا التعليم والحضارة منذ الوقت يسقط فى هوة التـــدهور ، فان نتـــاج مؤلفيهم المحدثين لم يعد فى غالبيته سوى مجرد انتحالات او اقتباسات أو تعليقات أو شروح على المؤلفات القديمة .

وللعرب بخصوص النقود والموازين والمكاييل مؤلفات قديمة وحديثة ، واشهر هذه المؤلفات مؤلف المقريزى (١) ، وهو كاتب يحظى بالاحترام ، الف فى موضوعات عديدة تتصل بالادارة والحكومة والتاريخ ، وقـــد قدم ترجمة لها المسيو سيلفستر دىساسى Silvestre de Sacy ، وهو الشهير بتبحره فى اللغات الشرقية (٢) .

ويبدأ هذا المؤلف ، كما تبدأ كل المؤلفات العربية بالابتهـــال « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وهذه الصيغة المقدسة تجنب المؤلف مشقة العثور على نقطة بدء ، فبها تبدأ مؤلفـــات العـــرب فى العلوم والآداب ، وكذلك مؤلفاتهم فى الأخلاق والدين ، كما يضعونها فى بداية الـــكتب التى تتناول الفكر المجرد بل يضعونها كذلك فى صدارة كتابات بالغة التفاهة أو بادية البطلان ، واحيانا شديدة الفجور والبذاءة .

---

(١) بخصوص اسم ومؤلفات هـــذا المؤلف انظر المسيو مارسيل عن مقياس جزيرة الروضة ، اما فيما يتصل بهجاء الأسماء العربية ، فانظر الهامش الموجود فى نهاية دراستنا الموجزة عن الموازين العربية (الدراسة السابقة من هذا الـــكتاب) (*)

(٢) Traité des Monnaies Musulmanes, traduit de l'arabe, de Makrizi par A. I. Silvestre de Sacy (à Paris, Chez Fuchs, rue des Mathurins, 1797).

بعد ذلك تقابلنا فقرة من القرآن (١) ، تتصل بموضوع الكتاب مباشره أو بشكل بعيد ، وغالبا ماتكون بعيدة عن موضوع الكتاب : وبعد هذا، لايفوت المؤلف أن يعود بالعلم الذى يؤلف فيه حتى عهد آدم (٢) .

ويشغف العرب على الدوام بالاشتقاقات اللفظية ، وبالأقوال المأثورة والحكايات .

وبالرغم من كون مقالة المقريزى لا يمكن أن تتسم بالكمال ، وبرغم قلة العناية التى بذلها المؤلف عند تمييز النقود والموازين فى مختلف البلدان التى خضعت للمسلمين ، وهو أمر يضفى على دراسته بعض من غموض، فان دراسته هذه ، تضم مع ذلك ، وقائع مهمة كثيرة ، ذات صلة بفن صنع النقود عند العرب .

وقد رجعنا — فى دراستنا هذه — كذلك الى مؤلف المسيو تيخسين Tychsen عن فن النقود الاسلامية ، وهو مؤلف سيجنى منه كل اولئك الذين يرغبون فى التعمق فى دراسة النقود العربية فوائد مثمرة ، فقد قدم جدولا بالمؤلفين الذين كتبوا عن النقود الكوفية والعربية ، بالاضافة الى تقديمه لمجموعات اساسية للمسكوكات العربية التى تعرف عليها فى أوربا .

وكمقدمة لدراستنا هذه عن النقود ، جاءت دراستنا الموجزة عن الأوزان العربية فى الماضى والحاضر ، كما سنقدم هنا لوحة تشتمل على عملات القاهرة التى اشرنا برسمها والتى ورد ذكرها فى ثنايا هذه الدراسة، مع جدول يوضح علاقة أو نسبة قيمة هذه النقود الى قيمة نقود اخرى كثيرة تتداول فى مصر والقسطنطينية ، كما يشير هذا الجدول الى التغييرات التى طرات على هذه النقود وتناولت وزنها وتسميتها وعيارها وكذلك قيمتها الأسمية والحقيقية الخ .

---

(١) القرآن ومعناه القراءة ، وهو اشتقاق من الفعل قرأ .

(٢) يقرر ابو بكر بن ابى شيبه فى مؤلفه « المصنف » ان اصل النقود يعود الى آدم الذى ضرب دنانير ودراهما ، وانه بدون هذين النوعين من العملات لا يمكن للمرء ان يتمتع بالتوافق مع الحياة (أنظر مقالة المقريزى عن النقود ، ترجمة سيلفستر دى ساسى) .

الباب الأول

عن النقود العربية والأجنبية المتداولة أو المصنوعة فى مصر

ابتداء من عصر الخلفاء حتى اليوم

الفصل الاول

اسماء وانواع العمــلات المختلفة

اولا : النقود الذهبيـــة

ينظر الى الذهب عادة باعتباره معدنا نفيسا (*) اما الذهب الذى تحول الى نقد ، او العملة المصنوعة من الذهب ، فتسمى ، دون انيوضع فى الاعتبار حالتها هذه ، عينا (عين) (١) ، اما النقود الذهبية المسكوكة او قطع الذهب « المنقودة » سواء صنعت فى داخل البلاد او كانت قادمة من الخارج ، فكانت تسمى فى الماضى دينارا (٢) .

ويورد المقريزى فى مقالته عن النقود قولا مأثورا قرر الرسول (ص) بموجبه انه قد ترك لكل بلد مكاييله ونقوده وانه قد ترك لمصر اردبها (٣) ودينـــارها .

وفى العام العشرين من الهجرة (٦٤١ من تقويمنا) ، فرض عمرو ابن العاص الموفد من قبل عمر (بن الخطاب) ، بعد ان اتم فتح مصر ، على الأقباط ان يسددوا الجزية بالدنانير .

ومنذ عهود الوثنية ، حتى استقرار الاسلام (٥) ، حتى غزو التركمان

(*) هنا تصرف طفيف فى الترجمة املته ضرورة النص (المترجم) .

(١) تعنى هذه الكلمة : عين ، النقود الذهبية وكذلك النقود الفضية .

(٢) انظر اسم وقيمة الدينار المستخدم كمثقال فىدراستنا عنالأوزان العربية (الــكتاب الاول من هذا المجلد) .

(٣) الأردب مكيال سعة يستخدم فى كيل الحبــوب اساسا ، ولا يزال اسمه واستعماله شائعين فى مصر ، والأردب كلمة مصرية ، انظر عبد اللطيف ، ص ١٥٠ .

(٤) دخل عمرو بن العاص مصر فى العـــام التاسع عشر من الهجرة (٦٤٠ من تقويمنا) .

(٥) الاسلام هو دين محمد ، وهو مشتق من الكلمة العربية ســـلام واصلها السلام .

بقيادة صلاح الدين ، كانت العملات الوحيدة المتداولة بصفة مشروعة أو قانونية ، طبقا لقول المقريزى ، هى العملات الذهبية ، فكانت هى وحدها التى تستخدم فى تقدير أجور الايدى العاملة واثمـان السلع ، وحساب عوائد الدولة والضرائب .

ولسوف يتبدى لنـا هذا الزعم اقل غـرابة واكثر احتمالا ، برغم ماهو باد من تعارض استخدام الذهب مع استخدام اكثر شـيوعا عنـد مختلف امم الأرض ، اذ يتم تقييم كل شيء عن طريق الفضة ، حين نسترعى الانتباه الى ان النقود الذهبية قد كانت ، منذ البداية ، ضئيلة الوزن ، وفوق ذلك ، منخفضة العيار ، والى أن تفريعاتها كانت بالغة الصغر حتى تكاد تقترب فى قيمتها من النقود الفضية التى تستخدمها الامم الأخرى ، كما سوف نرى عند تعرضنا لمسألة الوزن .

ويبدو مؤكدا ، حتى قبل استقرار الاسلام بمصر بوقت طويل ، ان كانت تصنع بها دنانير ، أو على الاقل ، ان كثيرا من النقود الذهبية كانت تتداول فيها ، وهو أمر كان شائع الحدوث فى الجزء الأكبر من الشرق .

كانت ترد الى مصر تلك الدنانير او النقود الذهبية التى كان يضربها الأروام ، وينبغى أن نفهم من هذا اللفظ ، على النحو الذى يشير اليهم به المقـريزى ، الامبراطورية الرومانيـة (الشرقيـة) التى تحـولت الى القسطنطينية (٦) ، والتى نطلق عليها نحن اسم الامبراطورية الواطئـة

---

(٦) هى بيزنطة القديمة ، تسمت باسم القسطنطينية **Constantinople** أى مدينة قسطنطين ، وهو اسم امبراطور كان يحمل هذا الاسم ، هـو الذى جعل منها عاصمة للامبراطورية الشرقية ، ويطلق عليها العـرب كذلك اسم القسطنطينية أو قسطنطينة ، ويشار اليها فوق العملات النقدية فى بعض الأحيان بهذا الاسم ، وفى احيان أخرى باسم اسـلام بول اى مدينة الاسلام ، فالمقطع الأخير **boul** أو **poul** يعنى فى اللغـة اليونانيـة مدينـة ، ولـكن النطق الشـائع لها هـو استامبول وهو ما اخذنا به **Stamboul** ، ومع ذلك ، فاذا شئنا تنميق الكلمات ، أو اللعب بالالفاظ او قصدنا أسلوبا متكلفا ، فبامكاننا تحريف معنى اسمها الى مدينة السلام ، اذا ما اردنا ان نشتق المقطع الاخير من اسمها ، بول ، من اللغة التركية ، وهذا امر اكثر طبيعية ، وهو يعنى الامتلاء او الوفرة ، بدلا من اشـتقاق المقطع ذاته من كلمة بوليس **Pols** اليونانية .

le Bas-Empire ، ولا يزال اهل مصر حتى يومنا هذا يطلقون على ابناء هذه المنطقة اسم الأروام اى الرومان . وطبقا لشهادة عديد من المؤلفين العرب ، فقد كانت النقود الذهبية القديمة ، الآتية من القسطنطينية تسمى هرقلة ، وهو اسم تسرب اليهم من اسم الامبراطور هرقل Heraclius (٧) .

اما النقود الذهبية لمختلف الشعوب التى كانت تمارس التجارة مع مصر ، فكانت تتداول فى هذه البلاد على نطاق يتفاوت ضيقا أو اتساعا ، تبعا لدرجة نشاط تجارة هذه الشعوب معها ، وكذلك ، وبشكل خاص ، طبقا لما ان كانت نقود هذه الأمم ذات عيار اكثر (او اقل) ارتفاعا .

اما العلاقات التى كانت يمكنها أن تقوم بين مصر وبين المدينةالمركزية او مقر الحكومة ، وهى القسطنطينية (او استامبول) اليوم . فلابد انها كانت تؤدى الى ان تصب فى مصر بعض نقود هذه العاصمة والعواصم الاخرى .

وحيث ظلت جنوة والبندقية تستحوزان لفترة طويلة على تجارةبالغة الاتساع مع امم الشرق ، فقد تدوولت فى مصر منذ فترة بالغة القدم سكينات (سكين Séquin) جنوة ، وسكينات البندقية بشكل خاص ، وهذه وتلك مصنوعة من ذهب بالغ النقاء ، ولا يزال الطلب يشتد علىهذه النقود حتى اليوم ، وقبل وصول الفرنسيين ، كانت هذه العملات الذهبية تبتاع بسعر غال ، وكان كل المماليك ، الذين يجردهم جنودنا (من ملابسهم بعد مصرعهم) فى ميدان المعارك ، يحملون معهم جميعا منها كميات كبيرة يتفاوت حجم ضخامتها (من مملوك لآخر) .

وكانت نقود اوربا الذهبية تسمى فى مصر افرنتى (٨) ، وهذه الكلمة

(٧) ارتقى هرقل العرش فى العام ٦١٠ من التقويم الميلادى (العام الحادى عشر قبل الهجرة) ومات فى العام ٦٤١م (وهو العام الحادى والعشرين من التقويم الهجرى) ، وفى نهاية عهده انتزعت منه مصر على يد عمر (اى عمرو ، الا اذا كان يقصد أن ذلك قد تم فى عهد الخليفة عمر رضى الله عنه) .

(٨) الفرنتى (بفتحة على كل من الالف واللام) ، وانكانت كلمة Francs اليوم تلفظ فى مصر افرنجى (بالجيم غير المعطشة) [والترجمة بتصرف يتفق مع مقتضيات النص العربى] .

مشتقة من فرانك Franc (او افرنج) وهو الاسم الذي يخلعه اهالى البلاد عادة على الاوربيين .

وتعود كلمة افرنج Franc هذه الى زمن الحروب الصليبية ، ذلك ان الفرنسيين هم الذين لعبوا الدور الرئيسى فى هذه الحروب الدينية ، ولأن مليكهم لويس قـد هاجم مصر ، وتلك هى جهالة المصريين المحدثين بالجغرافيا ، تلك التى تحدو بهم لان يظنوا كل مسيحيى اوربا ، — فى عرفهم — فرنجة (اى فرنسيين) ، والتى تجعلهم لايعرفون من فرنسا الا مدينة مارسيليا .

اما قطع النقود الذهبية ، وكذلك الفضية ، والتى تعـود الى زمن اكثر قدما ، والتى صنعت فى شكل جميل ، ومن معدن اكثر نقاء ، والتى ليست بالوفرة الكافية لحد يبيح تداولها كعملات ، فيجد الطلب عليها لكى تستخدم حلية للاطفال والنسوة ، فليست زينة الرءوس فى معظم الاحيان شيئا آخر سوى قطع من النقود يتفاوت قدمها، زودت بحلقة صغيرة تعلق عن طريقهـا ، او كانت ببسـاطة تثقب ثقبـا او ثقبين (٩) لكى يمكنها ان تعلق بعمامة الراس (١٠) .

ومن عادة كل النسوة أن يفرقن شعورهن فى عدد كبير من الضفائر الصـغيرة تجـدل مع شرائط من الحرير من اللـون نفسـه ، وبالطريقة نفسها التى جدل بها الشعر ، وفى هذه الجدائل التى تتدلى من الراس حتى الحزام ، تضفر الماسات والمجوهرات والحلى الذهبية او الفضية فى بعض الاحيان ، ونجد من بينها بصفة خاصة قطع النقود الذهبية التى ترجع الى تواريخ متفاوتة القدم، كما يتفاوت عياراتها العالية دوما، بشكل تكون معه هذه الحلى النسائية بمثابة خزائن لمسكوكات حقيقية ، حتى انه يصبح

---

(٩) انظر القطع المرسومة فى اللوحة الملحقة بهذه الدراسـة والتى تحمل الأرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١٢ .

(١٠) تكتفى النساء الفقيرات بنوع من المسبحة او الشريط المزخرف يعقد اسفل العمامة ، تعلق به قطع المدينى ، وتسمى عمامة المراة بالعربية طربوش ، وهى كلمة يحتمل انها جاءت من الكلمة العربية طرة (بشدة على الراء المفتوحة) وتعنى خصلة او ناصية ، ثم من الفارسـية بوش وتعنى ملبس ، اى ان الطربوش هو العمامة التى تغطى قمة الراس .

بامكان هواة التحف والآثار القديمة ان يعثروا داخل معـــاقل الحريم (١١) والسرايات (١٢) على عملات نقدية بالغة الاثارة والندرة .

وقد واصل الأمراء الأول (١٣) الذين وكل اليهم الخلفـــاء حكم مصر وكذلك الخلفاء انفسهم الذين قدموا اليها ليتخذوا منها مقرا لخلافتهم ، أو اولئك الذين استطاعوا الاستيلاء على الحكم ، واصـــل كل هؤلاء ضرب العملات النقدية المستخدمة فى البلاد بالأوزان نفسها والعيار ذاته ، وكذلك على النمط الذى كان معتادا ، ثم بعد ذلك ، قللوا من ثم فى عيارها أو ادخلوا على انماطها تغييرات مختلفة .

وعندما كانت تبلغ هذه التغييرات حدا يمكن معه اعتبار هذه النقود اصدارا جديدا او عملات من نوع مخالف ، كان يشار اليها عادة — حتى يمكن تمييزها عن ضروب النقـــد التى سـبقتها — باســـم الأمير او من ينوب عنه .

وهكذا ، ففى العام ٢٥٤ من الهجرة (٨٦٨ من تقويمنـــا) ، أمر الأمير ابو العباس احمد بن طولون ، الذى كان قد عين حاكما على مصر من قبل الخليفة المتوكل على الله ، والذى استقل بعد ذلك بمصر وتلقب بلقب السلطان — امر عندئذ بضرب دنانير سميت بالدينار الأحمدى ، أى سميت باسمه .

وفى نحو العام ٣٨٥ من الهجرة (٩٦٩ من التقويم الميلادى) امر القائد ابو الحسن جوهر (١٤) بصنع دنانير سميت بالدينار المعزى ، على اسم الخليفة المعز (١٥) (لدين الله الفاطمى) .

وفى عهد الناصر فرج (١٦) (ابن السلطان برقوق) أول المماليـــك

---

(١١) تعنى كلمة حريم فى العربية المكان المحرم ، اى الممنوع ، والاصل حرم اى منع .

(١٢) السراية كلمة محرفة عن التركية سراى ومعناها القصر (والترجمة بتصرف طفيف املته مقتضيات النقل الى العربية) .

(١٣) تعنى كلمة الأمير فى العربية الأمير او الحاكم .

(١٤) واسمه بالكامل ابو الحسن جوهر الخطيب الصقلى .

(١٥) وهى الـــكنية التى كنى بها الخليفة ابو تميم معد .

(١٦) وقد بدأ عهده فى العام ٨٠١ من الهجرة (١٣٩٩ من التقـــويم المسيحى) .

الشراكسة (أو الشركسية) والذى ارتقى العرش من جديد فى عام ٨٠٨ من الهجرة (١٤٠٥ ميلادية) تم تحريف عيار الدنانير وتطرق الى صنعها اهمال بالغ ، وكانت هذه الدنانير تسمى بالناصرى باسم كنيته الناصر ، وهى كلمة تعنى المنتصر .

وهناك احتمال كبير ان كانت تصنع فيما سلف انصاف دنانير وأرباع دنانير برغم ان المؤلفين الذين رجعنا اليهم لم يشيروا الى ذلك ، فلم يتحدث المقريزى مثلا عن صنع ارباع الدنانير الا عند تناوله لقطع النقد الذهبية التذكارية اى التى كانت تسك فى المناسبات .

اما احدث العملات النقدية الذهبية ، اى تلك التى حلت مع الأيام محل الدنانير فهى الفندقلى او السكين Séquins ، وان كنا لم نتأكد أن قطع الفندقلى (١٧) هذه هى التى امر بسكها قبل غيرها فى مصر . ومع ذلك فقد توقف صنعها منذ نهاية عهد عبد الحميد .

وحيث كانت هذه القطع النقدية تتداول فى القسطنطينية ، فان من المحتمل أن تعود نشأته الى هذه العاصمة ، ويحتمل كذلك ان يكون الهدف من اصدارها ، مع تقريبه من عيار الدينار القديم (١٨) ، هو ان توضع فى التداول قطع من النقود ذات قيمة اعلى من السكين البندقى الذى كان بمرور الزمن قد حل محل الدنانير ، ومع ذلك فمنذ ذلك الوقت بدا ينقص وزنه وعياره .

كذلك كانت تصنع فى مصر انصاف دنانير تشبه الفندقلى فى كل شىء ، عدا أن سطحها كان اقل اتساعا ، وان حروف نقوشها كانت ارفع ، وعدا أن وزنها كان يبلغ اقل من نصف وزن الفندقلى .

ولسنا نجزم بانه كانت تصنع بشكل معتاد ارباع الفندقلى ، اللهم الا اذا كانت مجرد قطع الزينة او كانت تسك بقصد تقديمها كهدايا او

---

(١٧) بالعربية فندقى (بندقى) وفيما مضى كانت عملات البندقية الذهبية Séquins ، ولا يزال الامر كذلك حتى اليوم ، تسمى بندوقى او بندقى ، وهى كلمة وافدة من اللغة الاجنبية . اما كلمة فندقلى ، فهى كلمة محرفة عن الكلمة التركية وندیكلى (فندیقلى) بمعنى فندقى (نسبة الى البندقية) ، ويشار اليوم الى البندقية فى مصر باسم بندق .

(١٨) او بالاحرى شكل وعيار السكين Séequin البندقى .

باعتبارها عملة تذكارية (او استهلالية اى تضرب فى غرة الاعوام الهجرية) .

ولا تستخدم كلمة سكين Séquin ، وهى بالايطالية زتشينو Zecchino ، للاشارة الى النقود الذهبية التى تطلق عليها ، الا بواسطة التجار الاوربيين وتراجمة البلاد ، هؤلاء الذين يستخدمون لهجة ماخوذة عن الايطالية والفرنسية محرفتين ، تعرف باللغة الافرنجية (او الافرنكية) .

اما العملة الذهبية المحلية فيطلق عليها اسم زر محبوب (٢٠) ، ويقتصر عادة عند الاشارة اليها على كلمة : محبوب .

وهذا السكين او الزرمحبوب هو عملة ذهبية يختلف وزنها وعيارها وقيمتها وقطعها عن الفندقلى الذى اشرنا للتو اليه ، وتوجد هاتان العملتان كذلك معا متنافستين فى القسطنطينية .

ولسنا نعرف — كذلك — على وجه الدقة من هو اول حاكم امر بضرب هذه العملة ، وفى نفس الوقت فاننا نعتقد ان هذه العملة سابقة على الفندقلى ، وانها تدوير او تحريف للدينار القديم .

كذلك ، يجرى تداول نوعين من العملات الذهبية ، يكادان لايختلفان الا فى القطع (بفتحة على القاف وتسكين الطاء) ، اما اولهما فلهوجهان تغطيهما نقوش متشابهة مرتبة على وجه التقريب فى العدد نفسه من السطور ، وعلى الوجه ا نجد اسم السلطان بكامل حروفه فى حين يحمل النوع الثانى على الوجه نفسه تاشير او طغراء السلطان ، أما الوجه ب فهو نفسه فى كلا الضربين من العملة .

---

(١٩) تقترب الكلمتان Sequin و Zecchino كثيرا من الكلمتين العربيتين سكه (بكسرة فشدة مفتوحة) وسكة (بفتحة اولا) من الاصل سك (اى ضرب النقود) وتعنى الكلمة الثانية مسمار اما الاولى فتعنى « الكليشية » التى تضرب او تدمغ به النقود وان كان يشار بها كذلك الى عملية الدمغ او السك ذاتها .

(٢٠) ومعناها ذهب (او الذهب) المحبوب ، من الكلمة الفارسية زر ومعناها الذهب (وليس كما تقول بعض الاشتقاقات من زهر وتصغيرها زهير ومعناها الورود) ثم من كلمة محبوب بالعربية ومعناها العزيز او المعشوق .

وكانت تصنع فى مصر كذلك انصاف سكين (اى انصاف زرمحبوب) كان يطلق عليها على سبيل الاختصار اسم نصفية ومعناه النصف ، وايضا ارباع سكين تسمى ربعية بمعنى الربع ، وكان نمط هـذه القطع الأخيرة يتفاوت كما سنرى لأن حجمها كان اصغر من ان يحوى قدرا من النقوش يماثل مانجده على القطع الكاملة « الزرمحبوب) (٢١) .

لكننا لم نر مطلقا اية ربعية من النوع الأول من النوعين اللذين تحدثنا عنهما من قبل ، اى تلك التى لاتوجد بها تاشيرة او طغراء ، وأن كان ذلك لا ينفى امكانية وجودها بالفعل .

ثانيا : النقود الفضية والبرونزية

تقابل كلمة فضة بالعربية كلمة argent بالفرنسية .

وتطلق الكلمة فى العربية ، كما هو الحال فى الفرنسية ، على المعدن وعلى النقود التى تصنع من هذا المعدن .

ويشار الى هذه النقود نفسها بكلمة فلس (للمفرد) والى الجمع بكلمة فلوس (٢٢) ، وتعنى هذه الكلمة قشور السمك،وتستعمل على نحو مجازى للدلالة على الشيء المستدير بالغ الرقة (ضئيل السمك) ، وكان يشار بها فيما مضى الى النقود النحاسية ، ثم اصبحت تطلق على النقود الفضية وحدها ، اى على قطع المدينى .

وكانت القطع الفضية التى سكت فى شكل نقود تسمى فيما مضى درهم والجمع دراهم ، وهو اسم كان يطلق كذلك على واحد من الأوزان كانت تساويه (او تعادله) قطعة النقود هذه (٢٣) .

وحتى منتصف القرن الخامس الهجرى (القرن الحادى عشر من

---

(٢١) انظر اللوحات الملحقة بهذه الدراسة ، القطعتان الذهبيتان رقما ٨ ، ١٠ .

(٢٢) لم تعد تستخدم هذه الكلمة الا فى صيغة الجمع .

(٢٣) انظر دراستنا عن الأوزان العربية .

التقويم الميلادى) كانت النقود الذهبية ، كما سبق لنا القول ، هى العملة الوحيدة المشروعة او القانونية فى مصر ، ومنذ غزاها الغز او التركمان تحت قيادة صلاح الدين (٢٤) فى نحو العام ٥٦٧ من الهجرة (١١٧١ م) بدا يسمع فى مصر لاول مرة اسم درهم ، بمعنى انه منذ ذلك الوقت فى تقييم السلع وتقدير الضرائب .. الخ بالدراهم ، ذلك انه حتى من قبل مجىء الاسلام ، لم يكن يتداول الناس فى مصر دراهم اجنبية وحسب ، بل كذلك دراهم من صنع محلى ، وهى التى استمرت تضرب فى عهد اوائل أمرائها (من العرب) دون أن يتناولها أى تغيير فى البداية ، ثم بعد ذلك ، فى عهد خلفائها (الذين استقلوا بها) بقطع وأوزان وعيارات تختلف عن الدراهم القديمة .

وقد اتبعت اوربا فى بعض الأحيان عادة اطلاق اسم الحـــاكم على النقود المضروبة فى عهده ، فاطلقت اسماء كارلوس وفيليب ولوبس الخ ، على عملات نقدية ضربت بأمر من هؤلاء الحكام على اختلافهم .

وكانت الدراهم فى مصر — كما ســبق لنـــا أن لاحظنـــا بالنسبة للدنانير — تاخذ فى غالبية الاحيان اسم الأمير او الحاكم الذى أمر بضربها ، مثال ذلك الدرهم النـــاصرى المضروب فى نحو العام ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) والتى استمدت اسمها من اسم الناصر وهو الكنية التى كان يكنى بهـــا السلطان صـــلاح الدين ، ثم الدرهم الكاملى الذى ضرب فى نحو العام ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) فى عهد الملك الكامل ناصر الدين ، والدرهم الظاهرى الذى تم ضربه فى نحو العام ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) فى عهد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (٢٥) ، ثم الدرهم المحمودى المضروب فى نحو العـــام ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) باسم الأمير محمود بن على ، واخيرا الدرهم المؤيدى المضروب فى نحو العام ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) بأمر السلطـــان الملك المؤيد ابو نصر الشيخ المحمودى .

وكانت العملات الأجنبية الأكثر تداولا فى مصر عنـــد بداية الهجرة

---

(٢٤) ولد صلاح الدين فى العام ٥٣٢ من الهجرة (١١٣٨ م) وتوفى فى العام ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) .

(٢٥) وكان يكنى بالبندقدارى .

تنقسم ألى نوعين من المسكوكات طبقا لمـا يورده المقريزى ، وكان النوع الأول يعرف باسم الدراهم السوداء وهـذه ثقيلة الوزن ، وكانت تسمى كذلك البغلى (٢٦) ، أما النوع الثانى فكان يعرف باسم الدرهم الطبرى ، ولا يزيد وزن هذا الدرهم عن نصف وزن الدرهم عن نصف وزن الدرهم من النوع الأول .

وكانت الدراهم البغلى ترد من فارس ، ويذكر هايد Hyde فى تاريخه عن ديانة الفرس القدماء (٢٧) ان مدينتى اورمياه وشيراز قد بنيتا على يد رجل ثرى اسمه راس مجوس (٢٨) ، وقد اطلق عليه العامة الكنية راس البغل ومنها جاء اسم هذا النوع من العملات النقدية التى تسمى الدرهم البغلى ، وان كان المسيو دى ساسى لا يرى أن هذا الاشتقاق يقوم على اساس صحيح .

اما صفة اسود ، التى الصقت بالدراهم القديمة فقد جاءت دون شك من التعارض القائم بين اللون الذى اكتسبته هذه الدراهم مع مرور الزمن وبين المظهر اللامع او البراق للدراهم التى ضربت حديثا والتى كانت تتميز باسم الدراهم البيضاء . وليس هنـاك مجال للافتراض بأنه كانت هناك قط عادة عدم جلو النقود قبل سكها ، وان كانت ثمة ظروف كثيرة يمكنها أن تعطى لقاع النقود الفضية (*) هذا اللون الأسود (او المائل للسواد) مثل دفنهـا بالأرض او مثـل تاثير النـار والرطوبة وبصـفة خاصـة بخـار المـاء (٢٩) .

وتستعيد الحروف والنقاط البارزة ، عن طريق دعك خفيف ، رونقها

---

(٢٦) انظر دراستنا عن الأوزان العربية (الـكتاب الأول من هذا المجـلد) .

(٢٧) ص ١٠٤ ، ط ١٧٠٠ .

(٢٨) كلمة مجوس تعنى : عبدة النار .

(٢٩) وبشكل خاص الابخرة التى تحتوى على الهيدرو سلفور او حمض الهيدروسلفور .

(*) المقصود بالقاع هنـاك الجزء غير البـارز من السطح (اى الأرضية) فى حين ان النقوش والصورة او الطغراء الخ هى الجزء البارز (المترجم) .

المدنى مما يجعلها تتمايز بقوة ، حتى لتكاد تظنها منفصلة عن قاع العملة الذى يظل على سواده . .

ويرى المسيو تيخسين Tychsen أن الدراهم الطبرية تستمد اسمها من اسم مدينة طبرية (٣٠) ، أما لأن هذه العملات قد ضربت بالفعل فيها، واما لأن العرب كانوا يترددون كثيرا على هذه المدينة بسبب تجارتهم مع الرومان ، ومن هناك كانوا يحصلون على العملات التى ضربت على يد الأباطرة .

ويذكر المقريزى كذلك الدراهم المغربية والدراهم اليمنية (٣١) باعتبارها سائمة ومتداولة فى التجارة ، وكلمة المغرب تعنى الغروب ، وقد اطلقها العرب على كل بلدان أفريقيا التى نسميها نحن بلاد البربر ، وقد اطلقها على طرابلس وتونس والجزائر وفاس ومراكش .. الخ ، وان كان العرب يمتدون بها لتشمل فى الوقت نفسه اسبانيا وبقية البلدان التى فتحوها فى اوربا ، اما اليمن فقد أطلق على البلاد التى عرفت قديما باسم العربية السعيدة ، واما قطع النقود المعنية هنا فكانت تأتى فى الأساس من المدينة ومكة .. الخ .

وحين انتقل السلطان المؤيد من دمشق الى مصر ، حمل جيشه وكذلك كل من صحبوه كمية هائلة من الدراهم البندقية ، التى سميت بهذا الاسم لأنها كانت تأتى عن طريق التجارة مع البنادقة . وكذلك كمية كبيرة من الدراهم النوروزية التى سميت هكذا ، بلا جدال ، باسم الأمير نوروز الحافظى(٣٢) ، وقد تدوولت هذه العملات فى مجالات التجارة : واستقبلت

---

(٣٠) مدينة فى الجودية بناها هيرودوس اجريبا على شرف تيبيروس [أما تيبيروس فهو ثانى أباطرة الرومان وهو ابن ليفى وابن اغسطس بالتبنى ، وكان حاكما حذرا ومستنيرا ، ولكن طبيعته الشكاكة جعلته يرتكب أبشع ضروب القسوة . وقد ولد فى العام ٤٢ ق.م ومات فى العام ٣٧ بعد الميلاد — المترجم] .

(٣١) اذا كانت المغرب تعنى الغروب فان كلمة اليمن بدورها قد اشتقت من اليمين .

(٣٢) بدأ هذا الأمير يحكم دمشق عندما انتقل الملك المؤيد الى مصر ، ويطلق على الهدايا التى تقدم فى الأول من العام اسم هدايا نوروزية نسبة الى نوروز ، وهو اسم يعنى بالفارسية اليوم الجديد او اول أيام السنة، ويبدو ان النعت المصاحب للدراهم « دراهم نوروزى » قد اشتق من هذا المعنى ، فاذا صح ذلك فاننا نكون بصدد دراهم (أو عملات) تذكارية .

هذه النقود بترحاب كبير ، فقد مضى وقت طويل لم تصنع خلاله الدراهم فى مصر ، لدرجة لم تعد ترى معها سوى النقود النحاسية .

أما القرش الأسبانى ، فقد كان ، من بين كل العملات الحديثة القادمة من الخارج ، هو اكثر هذه العملات شيوعا واكثرها استخداما حتى مجىء الجيش الفرنسى الى مصر .

وكانت عملية تغيير أو تحويل هذه العملة ، وهى اكثر وفرة من كل العملات — وقد ترتب على هذه الميزة ، بالاضافة الى وفرتها فى سوق العالم أنهم يكادون يحولون الى قروش كل الفضة التى يستخرجونها من هذه المناجم — تعود بربح وكسب يفوق مايحققه تحويل أو استبدال بقية العملات ، وقد ترتب على هذه الميزة ، بالاضافة الى وفرتها فى سوق التداول انها كانت اوسع العملات انتشارا فى كل تجارة العالم ، وانها اصبحت على نحو ما عملة تعاقد (اى تتم العقود على اساسها) ، فتستخدم من جهة ، وسيلة للتبادل مع غالبية الدول . وتغذى من جهة اخرى ليس فقط كل عملات الدول المختلفة على وجه التقريب وانما جزءا من حليها كذلك ، ولم يكن استخدامها فى مجال التجارة يقتصر على تسديد اثمان السلع ، بل كانت تشكل فى حد ذاتها تجارة هائلة غير مشروعة ، تشكل فى اغلب الأحيان جزءا من حمولات السفن والقوافل .

اما التالارى او التالر (٣٣) فهو عملة المانية يشار اليها باسم الرسدال risdale او الريال التعاقدى (الذى تعقد على اساسه الاتفاقيات) écu de convention ، وكانت تصنعه دول متعددة لتستخدمه وسيلة للتبادل التجارى مع مختلف الأمم ، وينطبق هذا بصفة خاصة على الرسدال النمساوى ، وكان التالر ، شانه شان القرش الاسبانى ، بالغ الانتشار فى مصر ، وقد بلغت القطعة النقدية ، فى التعريفة التى وضعتها لجنة

---

(٣٣) كلمة تالر أو تالرى Thalari مشتقة من الالمانية Reischsthaler والتى اخذنا عنها كلمة رسدال risdale ، أو بمعنى آخر كلمة تالر Thaler التى اضيف اليها فى اللغة الافرنكية المقطع الايطالى (وهو المد بالكسرة) وتشير هذه الكلمة Thaler فى بعض بلدان المانيا وبخاصة فى سكسونيا وهانوفر وبروسيا الى النقد الحسابى ، وتماثل كلمة écu أو ريال عندنا .

من الفرنسيين والتجار الوطنيين ، سعر القرش نفســـه ، بل لقد كانت عمليات التحويل تتم لصـــالح التالر ، برغم أن القيمة الجوهرية أو الفعلية للقرش تزيد تشكل طفيف عنــها فى التـــالر بسبب ارتفاع العيـــار فى القروش ، ولعل هذه الميزة لا تعود فقط الى طبيعـــة العلاقات التجارية، وانما تعود كذلك الى حقيقة ان وزن التالر كان اكبر (من وزن القرش) وربما ايضا الى حقيقة انه كان أكثر دقة فى صنعه .

ويطلق العرب على كل من القرش الاســـبانى والتالر الالمانى اسم انريال (ريال) ، ويميزون القرش الاســـبانى بتسمية خاصـــة به هى ابو مدفع ، بسبب صورة الملك الموجودة على احد وجهيه وصورةالعمودين الموجودين على الوجه الآخر ، اذ اخذ (٣٤) القوم اعمدة هيرقل هذه على انها مدافع ، أما التالر او التـــالرى فيشيرون اليه باسم ابو طـــاقة (أبو بوطاقة) وهى كلمة تعنى صاحب النافذة (٣٥) ، وجاءت هـــذه التسمية بسبب الصورة التى ترى على احد الوجهين ، وصورة الأسلحة المدلاة من عقاب مقسوم الى اربعة اقسام ، والموجودة على الوجه الاخر ، اذ يشبه هذا الشعار الموجود بوسط وجه القطعـــة النقـــدية بعض الشىء تلك النوافذ ذوات القضـــبان الحديدية الشائع استخدامها بالبلاد ، ومن كلمة بوطاقة هذه جاءت على سبيل التحريف كلمة pataque فى اللغة الافرنجية ثم انتقلت بدورهاالى اللغة العربية الدارجة « بطاقة » .

وقد بات قبول النقود الفضـــية كبيرة الوزن ، والتى انتهينـــا من الحديث عنها للتو ضرورة ملحة فى تجارة الجملة خصوصا بعد ان اصبح يصنع فى مصر قليل من العملات الذهبية . وكذلك حين لم تعد توجدهناك

---

(٣٤) ويحذف الالف احيانا لانها اخذت على انها اداة ، ولفظت الكلمة بوطاقة putaque او بطاقة pataque مع تحويل الباء الثقيلة P فى بعض الاحيان الى باء خفيفة B كما يحدث مع كلمة باشا pacha و Bâcha

(٣٥) لكى ندرك ما ادى اليه هذا التشابه الغريب لابد ان نعرف ان نوافذ البيوت فى مصر مزودة بنوع من القضبان (او المشربيات) علىهيئة شبكة مكونة من اجزاء بالغة الضآلة من الخشب المستدير ، مجمع بعضه الى بعض مما يشكل اشكالا متنوعة منها ، لها صلة برســـوم الدانتيل او بالاوراق المثقوبة اربعة ثقوب مسننة عندنا .

فط لا عملات فضـــية تقترب فى قيمتها من النقود الذهبية ، ولا تلك العملات التى تكون واسطة بين النقود الذهبية والعملات الصغيرة .

وفى القسطنطينية ، حيث خامات الفضـــة اكثر وفرة بدون جدال ، وحيث التجارة اكثر نشاطا ، وحيث اساليب العمل فى دور سك النقود اكثر نضجا وتطورا ، تصنع قطع فضـــية منخفضـــة العيـــار من ذوات الـ ١٠٠ ، ٨٠ ، ٦٠ ، ٤٠ ، ٢٠ ، ١٠ بارات بل تصنع هناك كذلك قطع نقدية من ذوات الخمس بارات .

لـــكن مصر لم تأخذ على نحو معتـــاد بهذه السلسلة من العملات التى تشكل نظاما نقديا كاملا من النقود الفضية او البرونزية والتى تنهض على تقسيمات السلم العشرى ، الذى تكون فيـــه البـــارة واحدة هى ادنى درجاته .

ويبدو أن المملوك على بك (٣٦) ، المكنى بالكبير ، والذى صنع لنفسه بشجاعته وجرءة مشروعاته اسما مدويا فى الشرق، بل وامكنه أن يسترعى انظـــار اوربا حينـــا من الدهر ، يبـــدو انه الوحيد الذى امر بضرب قطع نقـدية من ذوات الاربعين والعشرين مدينى على غرار تلك التى تصنعها القسطنطينية ، بل يؤكد بعض كذلك انه قـــد امر بضرب قطع من ذوات الثمانين ومن ذوات المائة مدينى ، وان كنا لم نستطع الحصول على شىء منها ، ويمكن الافتراض على الاقل أن عددا قليلا من هـــذه العملات قـــد جرى تداوله .

وكان يطلق على هذه القطع اسم غروش (٣٧)، وكانت هذه مضروبة بسكة (بكسر السين وشدة مفتوحة على الكاف ومعنـــاها اداة السك) السلطان الحاكم او على الاقل كانت تحمل تأشيرة أو طغراء هذا السلطان، وقـــد امرنا بتصـــوير قطعـــة من ذوات الأربعين مدينى ، ونجـــدها فى

---

(٣٦) تعنى كلمة Bey او Beyk بالتركية السيد او الشريف .

(٣٧) يظن المسيو دى ساسى ان هذه الكلمة قد جاءت من الالمـــانية ومعناها (اسم احد اجرام الوزن) ، وتحمل بقطع قطع النقد الالمانية على سبيل الاختصار اسم Groschen بحروف كبيرة .

اللوحة المرفقـــة برقم ١٦ ، واخرى من ذوات العشرين مديني ونجدها في نفس اللوحة برقم ١٨ . وعندما سنتناول بالحـــديث العملات النمطية او المعيـــارية وارقام او نقوش المسكوكات فسوف نشير الى الخصوصيات التى تميز نقود على بك .

وحيث اصـــبحت خامات الفضـــة بعد موت هـــذا المملوك نادرة ، وحيث كان صنع القروش يعود بنفع اقل مما يعود به صنع المدينى ، فقد توقف صنع القطع من ذوات الأربعين والعشرين مدينى ، ويبدو انه كان كافيا ان تحيق الهزيمة بعلى بك ، لكى تفقد النقود التى سكها كل ثقة وان تسحب من التداول او تلغى كنقود ، كما لو كان الأمر ضربا من التجديد .

ويذكر فولنى Volney فى تاريخه لعلى‌بك (٣٨) ان نقود هذا المملوك قـــد فقدت ٢٠٪ من قيمتها اذ سرى زعم بانها كانت محملة لاكثر ممـــا ينبغى بمعادن خليطة ، ويذكر كذلك ان واحدا من التجار قـــد سرب منها الى مارسيليا عشرة آلاف قطعة فســادت عند صـــهرها بربح كبير للحد الـــكافى ، ولو لم تكن هذه العملات قـــد فقدت اكثر من ٢٠٪ من قيمتها الاسمية لكان من المستحيل ان تحقق هذا الربح عند نقلها الى الخارج، وان بعض النـــاس قـــد يرى فى المعلومات التى قدمها المسيو فولنى للتو عن عملات على بك ، ان الأمر هنـــا يختص بالعمـــلات الفضـــية وليس بالعملات الذهبيـــة ، فهـــذه هى التى ينطبق عليها بصـــفة تامة ما جاء فى هذه الفقرة السابقة .

وعقب ذلك اعدمت الماكينات التى كانت تستخدم فى صـــنع قروش على بك ولم نعثر لها على اثر فى دور سك النقود القاهرة .

وقرب نهاية العام ١٧٩٨ (١٢١٣ من الهجرة) امر القائد العـــام ان يعاد اصـــدار القطع النقدية ذوات الأربعين والعشرين مدينى ، وكلفنـــا بالعمل على اعادة بنـــاء المصـــانع والآلات اللازمة ، وقد استقبلت هذه القطع النقدية استقبالا طيبـــا للغاية فى مجال التجارة ، كما ان صنعها سيظل امرا لا ينسى فى مصر ، مثلما كانت قروش على بك .

---

(٣٨) Voyage en Syrie et en Egypte, tom Ier, Chap 8
Précis de l'histoire d'Ali bek, Pag 110, note 1ère, édit de 1787.

اما الدراهم ، وكان وزنها منذ البداية ضـئيلا ، فقد تناءلتها بصفة متتالية بعض تغييرات (نحو الادنى) فى وزنها وفى عيارها ، بفعل جشع أولئك الذين كانوا يحكمون مصر ، ومع ذلك فان بعضا من هؤلاء الحكام، اكثر بعدا عن الهوى والمصلحة ، او ممن كانوا يسترشدون فى ادارتهم بافـكار اكثر ورعا واكثر عدالة ، قد رفعوا من جديد وزن وعيار هـذه العمـلات .

ويذكر المقريزى ان السلطان صـلاح الدين ، بعـد ان الغى تداول الدراهم السوداء ، تلك التى كانت بالغـة الثقل وذات عيـار عال ، امر بضرب دراهم تمتزج فيها الفضـة والنحـاس بنسبتين متساويتين ،ولعل عيـار ووزن هذه العملة قـد ظلا منخفضين حتى الوقت الذى اصـدر فيـه الملك الـكامل امرا بابطال كل الدراهم التى كانت تعرف عنـدئذ بالقاهرة والاسكندرية باسم **أوراق** ، وامر باصـدار دراهم جـديدة كانت تقترب سـواء فى عيارها او وزنها من الدراهم القديمة اى العملات ذات المزيج الجيد .

وقد يكون بمقدورنا ان نلمح فى هذه القطع النقدية المسماة اوراق، ومفردها ورق ، منشأ قطع المدينى التى تصنع اليوم من صفائح من البرونز مسطحة او مصقولة بفعل دقات مطرقة ، بل لعل المدينى لم يكن سـوى فرع (او قسم) من هذه العملة التى كانت تستخدم حاملة اسم اوراق .

ويقدم لنـا الشيخان اسماعيل وعبد الرحمن ، وهمـا اللذان ينظر اليهما فى القاهرة باعتبارهما يتميزان بغزارة معلوماتهما ، المعلومات الآتية حول الاشتقاق اللغوى لكلمة مدينى التى تعنى فى اللغة العربية الميدى :

عندما اصبح الملوك الشيخ خليفة ، واتخذ لنفسـه القاب السلطان الملك المؤيد ابو نصر الشيخ (وهى اسماء والقاب تعنى الامبراطور الملك، الذى تؤيده العناية الالهية ، صاحب النصر ، الشريف) ، امر بأن تضرب انصـاف دراهم سميت باسمه : **المؤيدى** او **الميدى** على سبيل الاختصار، وكان يطلق عليها كذلك اسم **نص** وهى كلمة لاتزال تسـتخدم حتى اليوم للاشارة الى المدينى او البارة .

وسواء كان القوم قـد اعتبروا المـدينى بمثـابة تحوير او تحريف للدرهم القديم ، او كانوا قد نظروا اليه باعتبـاره عملة جـديدة ادخلت

صناعتها الى مصر كما ادخلت الى القسطنطينية حيث تضرب هناك عملة مشابهة تعرف بالبارة Parah (٣٩)، فلن يكون اقل من ذلك صحة ان هذه العملة العجيبة ، الاكثر رقة من ورقة ، والتى تكفى اقل نفخة لبعثرتها والتى يوضع الالف منها فى قاع قمع ورقى « قرطاس » ضئيل الحجم ، قد اصبحت هى النقد الرئيسى فى مصر ، اى تلك تتخذ اساسا فى ابرام الصفقات الكبيرة وكذلك فى عمليات البيع بالتجزئة وكذلك التى تتم بها كل الحسابات وتحصل الضرائب .

اما بخصوص نسبة النحاس التى تمزج بها الفضة التى تستخدم فى صنع النقود ، فانه لاتستخدم قط فى مصر كلمة بعينها للاشارة اليها ، وليست هناك كلمة تقابل كلمة نقد برونزى التى نستخدمها نحن . واذا ما طبقنا هذا الاسم ، نقد برونزى على كل النقود التى يشكل النحاس النسبة الغالبة فى سبيكتها ، فان القطع ذوات الاربعين والعشرين مدينى ، وكذلك قطع المدينى التى تحدثنا عنها تعد فى واقع الامر نقودا برونزية (وليست فضية) ، فمنذ زمان طويل للغاية لم تصنع فى مصر نقود فضية بمعنى الكلمة ، ونحن من جانبنا لم ندخل تحت هذه التسمية (اى النقود الفضية) قطع المدينى والقطع ذوات الاربعين والعشرين مدينى ، الا لان هذه القطع قد حلت محل العملات الفضية التى جاءت النقود التى تحدثنا عنها لتقوم مقامها .

ثالثا — النقود النحاسية

تطلق كلمة نحاس فى العربية على المعدن الذى نسميه نحن Cuivre وفيما مضى كانت النقود النحاسية تسمى فلس والجمع فلوس .

وكانت هذه النقود النحاسية عبارة عن قطع من هذا المعدن ، قطعت باوزان تكاد تكون متساوية ، ولم يعد يتداول من هذه النقود اليوم الا كمية ضئيلة ، ولم يكن الناس يضعون النحاس فى مرتبة النقود ،ولم يكونوا يستخدمونه عندئذ الا فى شراء السلع ضئيلة الثمن او فى المطالب المنزلية البسيطة . وقد كانت السلع الغذائية الضرورية منخفضة السعر

(٣٩) فى التركية بالباء الثقيلة P ، وفى العربية بالباء الخفيفة B

حتى ان ابنـاء الشعب قلما كانوا ينفقون فى اليوم الواحـد مايزيد عن بضعة قطع من العملات النحاسية لشراء اقواتهم .

واستمرت هذه الحال حتى نحو العـام ٨٠٠ من الهجرة (١٣٩٨ من التقويم المسيحى) وحيث بدأت النقود الذهبية والفضـية بمرور الزمن تصبح بالغة الندرة ، وبشكل خاص بسبب الـكوارث التى كانت تحدثهـا القلاقل والاضطرابات والثورات التى حدثت فى مصر منذ العـام ٨٠٦ من الهجرة (١٤٠٤ م) ، فقد اصبحت العملة النحاسية اكثر ضرورة ، واشتد الطلب عليها لهذا السبب وارتفعت قيمتها كثيرا فى عمليـات الاتجار غير المشروع حتى تجاوزت قيمتها الحقيقية كثيرا .

وبدات هذه العملة تتسرب الى مجال التجـارة متنافسة مع النقود الفضية منذ الوقت الذى اصبح الظاهر برقوق فيـه اميرا ، اى فى نحو العام ٧٨١ من الهجرة (١٣٧٩ من التقويم المسيحى

وحين اصبح برقوق سلطانا ، أمر محمود بن على ، الذى ولاه وظيفة استادار (٤٠) بأن يضرب فى القاهرة كمية كبيرة من الفلوس اى من النقود النحاسية بسبب الربح الذى كان يعود به مثل هذا الصنع وامر بايقـاف سك الدراهم التى اصبحت بالغة الندرة ، وقد صهر الصـاغة الـكثير من هذه الدراهم ، كما صـدروا الى الخـارج كمية ضخمة منها ، ومما لاشك فيه انه قد ضربت نقود نحاسية ذات قيم مختلفة ، كما كان لـكل واحدة من هذه العملات اقسامها او تفريعاتها .

وقد استمر سك العملات النحاسية لسنوات طويلة فى عهد برقوق وفى عهد ولده النـاصر فرج ، وفى هـذه الاثنـاء جلب الفرنجة كميات هائلة من النحاس الاحمر الى مصر .

وكان سعر التداول الاجبارى الذى تقرر للفلوس او القيمة الاسمية التى تحددت لها وهى اعلا بكثير من قيمتها الحقيقيـة ، هى السبب فى

---

(٤٠) تتكون هذه الكلمة من كلمتين فارسيتين : استا (او اسطى) بمعنى مدبر أو مدير ، ودار ومعنـاها قصر ، وهى تماثـل عندنا كلمة majordome اى مدير القصر او المتصرف فى شئونه .

ادخال كميات كبيرة من النقد المزيف ضمن هذه العملات خلال تلك الفترة.

ومنذ البداية ، وحتى عام ٨٠٦ من الهجرة كانت النقود النحاسية تتداول على اساس العد ، ومنذ هذا التاريخ صدر الأمر بتداولها على اساس الوزن اما لانه تبين ان عددا كبيرا منها لم يكن مستوفى الوزن ، واما لانه كان يلزم وقتا بالغ الطول في عدها مما كان يتسبب في حدوث ارتباكات شديدة ، ثم انتهى الأمر بالنقود النحاسية ان اضحت هي العملات الوحيدة المستعملة ، واصبحت كل السلع ، بما في ذلك الذهب نفسه، تقدر بالفلوس .

وبمرارة شديدة ، يشكو المقريزي ، وهو الذي كتب مقالاته (عن النقود) بين عامي ٨١٨ و ٨٢٢ من هذا الاجراء الذى لا يمكن احد ان يعقله ، والذي يشعر المرء بالعار من مجرد تدوينه ، ويضيف ان النحاس لم يكن قط ، في اي بلد من بلدان العالم ، لا في قديم الازمان ولا في حديثها ، عملة رئيسية ، ولم يحل عليه الدور في ان يتداول كعملة الا في عهد اكثر الحكام جدارة بالمقت والكراهية ، وهو الناصر فرج ، فالفضة ، بصفة خاصة ، هي العملة المشروعة ، التي لم يكف تداولها على الاطلاق في انحاء العالم ، ويؤكد المقريزي انها ، هي ، هذه العملة النحاسية التي ضربت في مصر .

واقترح المؤلف على السلطان الذى كان يتولى مقادير مصر في ذلك الوقت ، وهو الملك المؤيد ، الذى كان قد اعاد صنع واصدار الدراهم :

اولا : الا تدون اى مبالغ في كل العقود العامة والخاصة ، وفي كل السجلات المالية ، وكذلك في كل المعاملات والصفقات الا بالدراهم المؤيدية .''

وثانيا : ابطال تداول الفلوس القديمة ، على ان تقوم مقامها فلوس جديدة مؤيدية تنشأ على الاسس التالية : تضاف الى ثمن قنطار النحاس المستورد من بلاد الفرنجة كل النفقات التى تتحملها دور سك النقود لتحويله الى فلوس ، ويقدر على اساس ذلك كم عدد الفلوس التى تكون مساوية للدينار وكم منها يكون مساويا للدرهم المؤيدى ، وحاول هذا

المؤرخ التدليل على جدوى هذه العملية ، ومع ذلك فقد كان من المؤكد ان عملية كهذه سوف تلحق ضررا كبيرا بعامة الناس وبصفة خاصة ابناء الطبقة الدنيا منهم ، والذين تنتشر بينهم العملات الصغيرة ، والذين كانت مصادر دخولهم المتواضعة ستتعرض لهزة عنيفة لتنقص دفعة واحدة .

ولعل الاجراء العادل والشريف الذى كان يمكن اتباعه كان أن نستبدل فى دور سك النقود بتلك الفلوس الملغاة تبعا للقيمة التى كانت لها عند تداولها فى مجال التجارة وقبل ابطالها ، دنانير ودراهم ، ومن المستطاع تقدير هذه القيمة اذا اخذنا كحد وسط اثمان السلع الضرورية (كالقمح على سبيل المثال) مقدرة بالدنانير والدراهم الجديدة ، ومعذلك فقد يحدث ، دون ريب ، أن نجد فى مجال التداول كمية من الفلوس اكبر بكثير من تلك التى ابطلتها الحكومة ، وتصبح العملية على هذا النحو مدمرة ومستحيلة التنفيذ ، ذلك ان الحكومة حين امرت متجاوزة بذلك كل حد ممكن بصنع كمية بالغة الضخامة من النقود ، ذات قيمة اعتبارية او صورية وسعر تداول الزامى ، قد وجدت نفسها ، حين اصبح الأمر ملحا عليها بان تعالج السوءات التى نجمت عن ذلك على مفترق طريق : فاما ان تثقل كاهل نفسها بالديون اذا شاءت ان تسحب هذه النقود طبقا لقيمتها الاسمية ، واما ان تسبب فى خراب او افلاس الناس ، اذا هى لم تسترد النقود الملغاة الا حسب قيمتها الحقيقية أو الجوهرية .

وعندما عاد صنع العملات الفضية ليستقر من جديد ، وعندما ضاعفت هذه النقود وتزايدت كذلك تفريعاتها ، وعندما اخذ وزنها وعيارها يتناقصان بشكل مستمر ، ونقصت نتيجة لذلك قيمتها ، اصبح من المستطاع استخدامها فى شراء السلع الرخيصة . وحلت بذلك محل العملات الصغيرة « الفكة » ، وبذلك سهل التخلص من النقود النحاسية ، تلك التى كانت اكثر من غيرها عرضة للتلف ، والتى كانت تبعث برائحة غير مستحبة ، والتى كانت من جهة اخرى قد ساءت سمعتها او قلت الثقة بها بسبب الكميات الهائلة منها ، التى فاقت كل حد متصور ، والتى طرحت للتداول — كما كانت تسبب الكثير من الضيق والارتباك بفعل حجمها ، والتى تطلبت بسبب ذلك نفسه القيام بعمليات اصدار اكبر ضخامة

(وتكلفة) مما كان يعود بذلك على الحكومة بنفع اقل . ولقد انقضى بل أوقف كلية اصـدار النقود النحاسية ، واصبحت كلمـة الفلوس ، وهى التى كانت تعنى منذ البداية ، وبصفة خاصـة ، النقود المصـنوعة من النحاس ، تشير بعد ذلك الى العملات الفضية ، واصبحت كلمة نوعية (تدل على النوع) تقابل اللفظ الفرنسى : نقود او فضة monnciue ou argent (٤١).

أما العملات النحاسية التى صنعت اما فى عهـد المؤيد كما تستخدم بمثابة نقود معاونة أن متممـة للدراهم التى زاد عيارها ، واما فى عهود اخرى كى تواجه ندرة العملات الفضية فقد اتخذت اسم جـديد (٤٢) اى ما صنع حديثا او النقود التى صنعت مؤخرا .

وقد أوردنا تحت رقمى ٢٥ ، ٢٦ اثنين من هذه الأجداد (وهو جمع جديد) النحاسية ، ينتمى كل منهما الى عهدين مختلفين ، كما أنهما قـد صنعا من نوعين مختلفين من النحاس ، وبقطعين مختلفين .

وباختصار ، فحيث ظلت قيمة السلع الغذائية تواصـل ارتفاعها ، فى حين استمرت قيمة المدينى تواصل انخفاضها ، لدرجة لم يعد الأمـر يستوجب معها اللجوء الى النقود الأدنى قيمة ، فقد توقف صنع الأجداد منذ وقت طـويل ، وان كان فقـراء النـاس لا يزالون يستخدمون فى معـاملاتهم اما هذه الأجـداد نفسها بأنواعها المختلفة ، واما قطعـا من النحاس غير مسكوكة ضربت بشكل خشن ، يحصلون عليها من عند تجار النحاس كى يستطيعوا شراء السلع ضئيلة القيمة مثل الحشائش (علف

---

(٤١) يقول المصريون : هات فلوس ، مقابل قولنا donne de l' argent او donn e de la monnaie اذا كان الأمر يتصل بعملات ذهبية أو بالقروش (الريالات) ويقولون كثير فلوس مقابل قولنا Beaucoup d'argent (والترجمة هنا بتصرف يقتضيه النص العربى) .

(٤٢) ويلفظونها فى القاهرة جديد بدون تعطيش للجيم . وتلفظ فى بلاد اخرى مع تعطيش الجيم . وقد استقر رأينا عند نشر وصف مصر على ان نقدم الجيم العربية سواء كان يعقبها حرف الـ e أو الـ i] وهما حالتان تلفظ فيهما الـ g مثل الـ j [كما تلفظ اذا اعقبتها اى حروف متحركة اخرى] اى على كتابة الجيم المعطشة بالطريقة نفسها التى يكتبون بها الجيم غير المعطشة ــ المترجم] .

الحيوانات) وبالنسبة للـكميات التى يقل ثمنها عن المـدينى الواحد او البارة، وكانتتلزم عشرة من هذه القطع لكىتساوى مدينى واحدا ، بحيث يمكننا تمثلها على النحو الذى كانت عليه الدراهم deniers عندنا .

رابعا : المسكوكات أو العملات التذكارية

لم يعرف الشرق مطلقا ، او على الاقل ، لم تستقر فيه - على شكل نظام متبع ، كما هو الحال عند الأوربيين ، عادة سك العملات التذكارية المختلفة ، التى يكون القصد من اصـدارها اما تـكريس او تخليد لذكرى احداث بارزة تمت فى عهد من العهود بواسطة استخدام الرموز او نقش التواريخ او النقوش .

ومع ذلك فقد جرت هنـاك عادة او تقليد بالغ القدم لايزال متبعـا حتى ايامنا هذه ، وهو تقليد يقضى بان تسك فى فترات بعينها احتفـالا باستهلال او غرة الاعوام (الهجرية) أو لتقديمها كعطايا أو اكراميات ، نقود ذهبية لم تكن تختلف عادة عن النقود الأخرى الا فى ان سطحها اكبر اتساعا بكثير ، والا فى أن الضمار كان يعطى لـكتابتها فى بعض الأحيان قدرا اكبر من الأناقة ومن « التحسين » مع بذخ فى زخرفات الاطار ،او كان فى بعض الأحيان يخط اطارين مركزيين من الحبيبات ، احدهما يدور باستدارة القطعـة النقدية والاخر فوق حافتها ، أو كان يضع بين هذين الاطارين ، زخرفا على هيئة عقد من الورود أو على هيئة ضفائر أو كتابات مضفرة أو ضروب اخرى من الزينة ، وان كانت النقوش والعيار والوزن (لهذه العملات التذكارية) هى نفسـها فى النقود الأخرى ، أو كان يضاعف الوزن لكى تصنع قطعـة ذات اثنين من الفندقى أو تسـاوى اثنين من العملات الذهبية الأخرى ، او كان الوزن يزاد فقط بمقدار النصف لتساوى القطعة فى الحالة الأخيرة ١/٢ ١ فندقلى او سكينا واحدا ونصـف سكين وهذه هى القطع التى اوردناها فى اللوحة المرفقـة بهـذه الدراسة تحت رقمى ١ ، ٣ (٤٣) .

---

(٤٣) يمثل الشكل الاول قطعة من ذوات ٢ فندقى ، ويمثل الشـكل الثانى قطعة فندقى عادية ، انظر اللوحة الملحقة بهذه الدراسة (وقـد قسمت فى الطبعة العربية الى اربع لوحات متعاقبة، معمراعاة ان يتوافق تسلسل وارقام الاشـكال فى اللوحات مع ما جاء فى النص العربى — المترجم) .

ومع ذلك فقد كانوا يغيرون فى بعض الاحيان من النقوش ، ويسهبون فى بيان القاب الحاكم اما لتمييز هذه القطع عن العملات الاعتيادية واما لامتداح الامير ، وتقدم القطعة الذهبية التى اوردنا رسما لها برقم ٦ من اللوحة الاولى (رقم ١٢ من اللوحة الاصلية) مثالا على ذلك ، وهى اكبر حجما من الأخريات ، كما أنها فيما هو واضح احدى عملات الزينة او واحدة من العملات التذكارية ، وهى كذلك تختلف عن القطعة الذهبية المرسومة برقم ٥ من اللوحة الاولى (١١ من اللوحة الاصلية) ، برغم انهما قد سكتا ، كلاهما ، بالقاهرة وفى عهد مصطفى بن احمد نفسه، وهو الذى ارتقى عرش القسطنطينية فى العام ١١٧١ من الهجرة (١٧٥٧ من التقويم الميلادى) .

وبرغم ان قطع النقد الترفيهية (قطع الزينة) هذه اقرب كثيرا شبها بالعملات منها بالمسكوكات ، فقد كانت محدودة التداول ، وكان يحتفظ بها مثلما نحتفظ نحن بقطع الائتمان او قطع الزواج او الاحتفالات وكانت تحمل بمثابة زينة او تعطى فى شكل اكراميات ، وفى بعض الاحيان كانت تباع الى اليهود الذين كانوا يقومون باعادة صهرها .

تقليد كهذا كان موجودا عند الفرس ، فقد كانت تصنع فى فارس تبعا لرواية شردان (٤٤) Chardin قطع نقدية لم يكن لها نفس الرواج الذى للعملات وانما كانت توزع عند حلول راس السنة .

اما العملات الذهبية المستخدمة فى القسطنطينية والتى نشرها المسيو بونفيل Bonnville بأرقام ٦، ٧، ٨ ، ١٠ ، ١١، ٢٠ باللوحات ١، ٢، ٣ عن النقود التركية ، وكذلك عن نقود القاهرة بأرقام ٤، ٥، ١٥، ٢١ من اللوحات نفسها(٤٥)، فلم تكن هى على وجه الدقة هى النقود المتداولة، وانما كانت نقودا استهلالية او تذكارية اى نقود صدرت لمناسبة بعينها ، وكانت القطع الأولى من نوع الفندقى ، أما الثانية فكانت من نوع الزرمحبوب .

---

(٤٤) Voyage de Chardin en Perse, tom IV p. 279, édit 1711.

(٤٥) دراسة عن النقود الذهبية والفضية المتداولة عند مختلف الشعوب .. الخ ، باريس ، ١٨٠٦ ص ٢٠٥ وما بعدها .

ويذكر المقريزى فى خططه عند وصفه لاحتفالات راس السنة ان الخليفة كان يعطى عند انتهاء العام امرا بأن تصنع فى دار سك النقود، فى التاريخ نفسه المحدد لسك نقود السنة الجديدة ، عدد محدد من الدنانير ومن الربعيات (٤٦) والقراريط والدراهم المستديرة ، وكان يبعث بها كاستبشار الى الوزير والى اقاربه والى كل العسكر من حملة السيف او حملة القلم (الجنود والكتبة) ، كما كانت ترسل قطع الدنانير وحدها هدايا الى الضباط واصحاب الرواتب فى عيد الفطر (*)، الذى يستغرق ثلاثة ايام ، والذى ينهى شهر رمضان الذى يشكل عند المسلمين وعلى نحو ما يمثله الصوم الكبير عندنا .

ويورد المقريزى فى فقرة اخرى انه كانت تضرب فى زمن الفاطميين(٤٧) فى دار سك النقود القديمة ، وهى اول دار انشئت فى مصر ، الدنانير او بالاحرى الخردبات الخاصة بغرة العام (الهجرى) او بخميس العدس ، وهو الخميس المقدس عند الاقباط ، وقد اطلق عليه هذا الاسم لان الاقباط يطبخون فيه العدس ، كما كان هذا اليوم ، فى زمن المقريزى كذلك ، يوافق الاحتفال بأحد الموالد ذائعة الصيت فى القاهرة ، وكل ولايات مصر ، وكان المقريزى يسميه ايضا خميس العهد .

ولا يتعلق الامر ، فى الفقرة الاولى التى اقتبسناها للتو من المقريزى، بالقيراط وانما بالربعية فقط وكذلك بالدراهم المستديرة التى يشير اليها باسم مقشقلة ، وهى صفة كان اسبو دى ساسى يجهل ماتعنيه ، كذلك فان المقريزى عند حديثه عن قطع الاستبشار او القطع الاستهلالية التى تسك بمناسبة بدء العام الهجرى لم يعد يشير الى الدراهم المستديرة وانما الى القراريط ، وفى مكان آخر ، الى الخردبة (٤٨) . ويستنتج دى ساسى أن الدراهم موضوع الحديث هى نفسها ما عاد المؤلف يسميها بعد

---

(٤٦) اى ارباع الدنانير

(*) فى الأصل : عيد الأضحى .

(٤٧) الفاطمية او الفاطميون ، نسبة الى فاطمة ابنة النبى وزوجة على ، والتى يدعى هؤلاء انهم من نسلها ، وقد استقروا فى بدايتهم فى افريقيا ثم استولوا بعد ذلك على مصر .

(٤٨) انظر دراستنا عن الاوزان العربية (الكتاب الاول من هذا المجلد).

ذلك بالقراريط ، ويبدو لنــا ان الاكثر احتمالا من ذلك هــو ان القيراط والخردبة كانا يشيرا الى قطعــة نقد ذهبية واحدة ، وكان المثقال ، وهو نفسه وزن الدينــار ، ينقسم الى أربعة وعشرين قيراطا ، ومن المعروف ان القيراط يساوى وزن الخردبة أو حبة الخروب . وبلا جدال فان هناك بترا قــد تم فى الجزء الأول من نص المقريزى ، اذ كان ينبغى عليــه ان يذكر القراريط بعد ذكره للربعيات . اما عند حــديثه عن الاكراميات التى كانت تقدم الى الوزير والى اقاربه والى عسكر السيف وعسكر القلم فان الحديث هنــا لم يعد يتصل الا بالنقود الذهبيــة ، والقيراط هو اصــغر قطعــة من العملات المصنوعة من هذا المعدن . وسوف يتحدث عنه مؤلفنا بعد ذلك تحت اسم خردبة . واخيرا فان الدراهم المستديرة كانت عمــلات فضــية ، ولم تكن توزع الا على رجال او اتبــاع الوزير ورجال كبــار الشخصيات المهمة وعمال سك النقود .

اما فى خميس العهد فلم تكن تضرب الا الخردبة ، ويتراوح عــدد هــذا الاصــدار النقدى مائتين ١٠ آلاف وعشرين الفا من هذه المسكوكات ، ويستخدم فى ذلك من ٥٠٠ الى الف دينار ، والى جانب ان وزن الدينــار يمكن بسبب تآكل النقود بفعل الاستعمال أو بسبب غش فى وزن النقود الذهبية ، ان يكون ادنى من مثقال واحد ، اى اقل من ٢٤ قيراطا ، فقــد كانت الدنانير الزائدة تستخدم فى سداد فروق الوزن وفى الانفاقات اللازمة لسك هذه النقود ، وكمنح للعاملين فى الضربخانة .

ونستنتج مما قلناه للتو ان قطع النقد المســماة قراريط أو خردبات كانت بالغة الضآلة وذات قيمة متواضعة ، اذن فقد كانت بالنسبة للنقود الذهبية ما كانه المدينى او البارة بالنسبة للعملات الفضية .

وحتى اليوم لايزال القوم يحتفظون بعادة سك النقود الذهبية احتفالا بغرة الاعوام ، او لكى تقدم اكراميات ، او تعطى لأشخاص متميزين كانوا يطلبونها بانفسهم ، او كانوا يرسلون الذهب من عندهم لتحويله الى قطع نقدية والى نصفيات وربعيات (من هذه القطع) ، ولم يكن هذا كله يختلف فى شىء عن العملات المماثلة الا فى أنها ذات سطح اكبر اتساعا والا فى العناية التى يبذلها الحفار فى كتابة وحفر النقوش .

وتسمى الهدايا او الاكراميات بخشيش (٤٩) . وفى بلاد ترزح تحت نير الاستبداد ، وبصفة خاصة ، فى تلك البلاد تعقد فيها السلطة للأقوى والاكثر جسارة ، تكون الوسيلة الفعالة ، والمعتادة للغاية ، لاصطناع الاتباع هى الأعطيات والاكراميات ، اذ قل أن تكون هنـاك حقوق مؤكدة ثابتة ، أو عدالة فى التوزيع ، وانما كل شيء هو منحة وعطاء ، ففى هذه البلدان يعطى النذر اليسير دوما فى شكل رواتب ثابتة ، ويوهب الكثير احيانا فى شكل منح واعطيات .

فى هذه البلاد يجهل الناس ما التحفظ ، او هذا النوع من الرصانة والحيـاء اللائق بشخص من يعطى بقدر ماهو جدير بشخص من يأخذ . وفى الأعياد الخاصة التى تحييها على سبيل الترفيه العالمات اى الراقصات من أهل البلاد ، والموسيقيون ، فان المدعوين ، اذا اخذتهم النشـوة من مهارة العازفين ، يقدمون لهؤلاء العوالم اعطيـات فضية (نقوط) فتعلن العالمة بصوت عال اسم من أعطى وقيمة عطائه ، هنـا تختلط مشـاعر الكبرياء بأحاسيس المكابرة ، فتدفع العجرفة المهينة احد المشايخ او واحدا من البكوات (عندما يرى غيره قد قدم اكثر منه) أن يعطى «نقوطا» يبلغ ١٠٠ دينار الى واحد من هؤلاء « الآلاتية » المنفرين .

ولدى كبـار القوم ارتال من الخـدم ، يتبعونهم فى كل مكان ، ولا يحصلون من سادتهم قط على مكافئات او اجور ، ويقتصر مايحصلون عليه منهم على اعطيات من الملابس وبعض قطع صغيرة من الذهب فى اعيـاد بعينها ، وان كان هؤلاء السادة يتركون لهم الحق فى أن يدخلوا فى خدمتهم كل من يحتاج الى سيد ، وقلما يكون بمقدور احد أن يدنو من هذا السيد دون أن يوزع البخشيش على الخدم والاتبـاع ، وهؤلاء يطالبونك به اذا نسيت أن تقدمه اليهم ، وفى بعض الاحيان يفرضونه فرضا ، ومن جهة اخرى ولا تزال ثمة عادة مماثلة فى بعض بلدان اوربا حيث ينتذلك خـدم البيت ، حتى الخدم فى قصر الأمير نفسه ، والذين يسمون la famiglia وانت فى طريقك الى سيدهم ليلحوا فى طلب الـ bouna mano

---

(٤٩) وهى كلمة فارسية تعنى هبة أو هدية ، وهى مشتقة من الفعل بخشيدن بمعنى يعطى او يهب .

والدراهم الفضية المستديرة الفضية هى المسكوكات الوحيدة التى امكننا ان نسمع بها والتى تسك عند بداية ((غرة)) الأعوام . وحيث أصبح المدينى ، فى الوقت الحاضر ، هو العملة الفضية الوحيدة المستخدمة فى مصر ، فانه يوزع ، دون تغيير شىء فى نمط صنعه على موظفى وعمال دور سك النقود عند استهلال الأعوام وفى نهاية شهر رمضان .

خامساً : النقود الزائفة

كلما زاد الفرق بين القيمة الأسمية والقيمة الحقيقية و الجوهرية للنقود كانت الحكومة عرضة لأن تجد من يزيفون نقودها ، سواء فى الداخل ((على يد رعاياها) او فى الخارج على يد اجانب .

ولعل هذا هو السبب فى تلك المكاسب الهائلة التى كانت تحققها بالضرورة صناعة النقود النحاسية . حين اصبحت هذه النقود هى العملات الاساسية او الوحيدة التى تتداول فى مصر ، كما ان علينا أن نعزى ، بالضرورة كذلك ، هذه الكميات الضخمة من العملات النحاسية التى وجدت فى مصر الى تساهل مصر وسماحها بتداول نقود البلدان المجاورة فيها ، وقد صنعت هذه وتلك بشكل ردىء ، وقلدت على وجهيها ، وبطريقة منفرة الانماط القديمة والأطر القديمة . بل كذلك اسماء وصور الحكام المسيحيين والأمراء المسلمين .

وقد امكن الطبقات الدنيا من عربان (٥٠) وفلاحين ، وهى اليوم كما كانت بالأمس بالغة الجهالة . ان تدخل الى اعماق البلاد نقودا متنوعة ، دون ان يدرك هؤلاء ما ان كانت هذه النقود زائفة او اجنبية ، ولقد قابلنا فى مصر ، مثالا فريدا على هذه الجهالة ، فحين وصل جيشنا كان الفلاحون المساكين لايحسنون التفرقة بين العملات وبين القطع المعدنية حتى انهم كانوا يترددون فى اخذ نقودنا الفرنسية لانهم لم يكونوا معتادين على رؤية عملات نقدية بهذا السمك والوزن ، وكانوا — من جهة اخرى — يتبادلون مع جنودنا ، الذين كانوا دهشين بقدر ما كانوا سعداء بنجاح ما كانوا

---

(٥٠) نقصد بالعربان اولئك المقيمين منهم على تخوم مصر واولئك المستقرين فيهما .

يسمونه خدعة الحرب ، كل صنوف المأكولات مقابل أزرارهم النحاسية أو المصنوعة من القصدير أو من خليط منهما ، شريطة أن تكون هذه مسطحة وأن تكون قد نزعت عنها الحلقات التي تستخدم في شبكها . لقد كان الفلاحون يأخذونها على أنها نقود ، لأنها كانت أقرب كثيرا الى شكل ومظهر النقود ذات العيار المنخفض ، والذين كانت لديهم عنها فكرة منقوصة ، ونتج عن ذلك أن ملابس العدد الأكبر من جنودنا ، عند وصولهم الى القاهرة ، وجدت خالية من الأزرار .

ونستطيع أن نضيف أن التدليس في عيار النقود يكون أكثر سهولة عند أمة أقل تنورا ، لاسيما أن فن التمحيص يكون سرا قل أن يعرف أو يمارس الا في مجال النقود ؛ ان فنون الصناعات متدهورة ومتخلفة لدرجة تتجاوز الحدود في مصر ، كما أن العمال ، لدرجة تتجاوز الحد أيضا ، عارون عن تلك القدرة على التنفيذ ، وعارون من المعارف والمهارة ، ويتعرضون لوشايات ورقابة شرطة قاسية ، جهمة وصارمة ، لدرجة لايمكن معها قط أن ينشأ أو يستتر هنالك ، وبقدر كبير بعض الشيء ، صنع نقود زائفة ، وقد استطاع بعض العمال ، في عهود مختلفة ، أن يصنعوا بعض عملات مزيفة عن طريق وسائل سهلة قليلة التعقيد لاتتطلب سوى الصبر ومهارة اليد ، ولعل الأمر كان يتم بالمطرقة وقوالب السك ، وان يكن الأمر الأقرب الى الترجيح هو أن يكون ادخال النقود المزيفة الى مصر ناتجا عن منافسة وموجدة وجشع الأمم أو الشعوب الصغيرة المجاورة لها . كذلك ، فكل شيء يدفع على الاعتقاد بأن الذين كانوا يستولون على السلطة في عهود الفوضى أو الاستبداد ، كانوا يدفعون بأنفسهم، في بعض الأحيان ، والى درجة بعيدة الى مساوىء المضاربة بالنقود لحد جعلتهم يصنعون نقودا زائفة .

ويذكر المقريزى أن عبيد الله بن زياد (٥١) ، كان أول من حور في شكل الدرهم ، فأمر بضرب دراهم زائفة ، وذلك عندما هرب من البصرة في العام ٦٤ من الهجرة (٦٨٤ من التقويم المسيحى) ، وتضاعفت أعداد الدراهم الرديئة وانتشرت في كل الولايات في عهد الأسر الفارسية من آل بويه وفي عهد السلاجقة .

---

(٥١) كان ابن زياد حاكما على البصرة من قبل الخليفة معاوية بن يزيد

ويورد المسيو تيخسين Tychsen امثلة لعملات عربية من النحاس تحمل على حافتها : « هذا الدينار — او هذا الدرهم — ضرب فى .. الخ » وحيث كانت الدنانير عملات ذهبية والدراهم قطع نقود فضية ، فيبدو بوضوح ان كانت هذه نقودا مزيفة قد طليت بالذهب عند اصدارها ، اللهم الا اذا كان (اولو الأمر) ، كى يتجنبوا اى انفاق فى صنع قوالب جديدة ، كانوا يستخدمون فى سك هذه النقود النحاسية ، تلك القوالب التى كانت تستخدم فى ضرب الدنانير .

وهناك من يرتاب فى امر المماليك عندما استولوا على صناعة النقود بالقاهرة ويتهمهم بانهم فى فترات القحط او الأزمات كانوا «يلعبون» فى اوزان النقود وبانهم بصفة خاصة كانوا يامرون بسك عملات ذهبية زائفة . وقد راينا فى القاهرة كثيرا من قطع الفندقلى يمكنها ان تعد زائفة . وقد اوردنا رسما لها يحمل رقم ٩ من اللوحة الثانية (٥ فى اللوحة الأصلية) ، وتحمل على الوجه ا تأشيرة السلطان عبد الحميد بن احمد وعلى الوجه ب : سنة ١١٨٧ هـ (١٧٧٤ من تقويمنا) ، وهى السنة التى تولى فيها هذا السلطان مقاليد الامور ، وفى اعلا القطعة نجدالرقم ٩ الدال على ان هذه القطعة قد صنعت فى العام ١١٨٩ هـ (١٧٧٥م) وهو التاريخ الذى يوافق الوقت الذى يستعد فيه المملوك محمد بك ، المسمى ابا الذهب ، بسبب بذخه ، وبعد ان اعقب على بك ، سيده الذى خانه وسعى لهلاكه ، لان ينقل الحرب الى سوريا ضد الشيخ ظاهر العمر ، الحليف القديم لعلى بك ، ومع ذلك ، فقد لاتبرهن هذه الأرقام التى تحملها قطع الفندقى. هذه على انها قد صنعت بشكل محدد فى الفترة التى تشير اليها ، اذ من المحتمل كثيرا ، حين يتصل الأمر بنقود مزيفة ، ان يكون التاريخ (المدون عليها) نفسه غير صحيح .

وقد وجدنا بين قطع المدينى التى تتداولها التجارة ، بعضا منها من النحاس الاصفر تم جلوها او تبييضها .

سادسا : النقود الحسابيـة

نطلق اسم نقود حسابية على وحدات النقد الاعتبارية ، التىتستخدم فى حساب القيم المختلفة وفى تقديرها ، وذلك تمييزا لهـا عن النقـود الحقيقية ، كما هو الحال بالنسبة لجنيهنا التورى الذى نتخذه اليوم عملة حسابية ، اذ نعبر عن المبـالغ الاجمـالية بهذا الجنيه برغم ان هـذا الجنيه لم يعد اليوم قط عملة حقيقية .

وقد راينـا المصريين فى البداية يقدرون حسـاباتهم على اسـاس الدنانير ، ثم بالدراهم ، وكذلك بالفلوس او العملات النحاسية ، وهماليوم يقدرونها على اساس المدينى ، بيد ان الضرائب ظلت تقدر منذ ماض بعيد بعض الشىء على اساس عملة اعتبارية تسمى بوطاقة (*)، فبعد ان كانت الضرائب تتم فى الأصل بالدينـار ، ثم بعد ذلك بالعملة الذهبية التىحلت محل الدينـار ، يبدو انه بدأ يقبل سدادها بواسطة هذه النقود الذهبية ، وقد أصبحت بالغة الندرة لحد لايمكن معه تسديد الضرائب عن طريقها ، والى جانبها عملات القروشوالتالرى او الريال، التى كانت وفيرة فىمجال التجارة ، والتى اصبحت لها على وجه التقريب القيمة نفسها التى كانت العملات الذهبية ، وذلك فى مجال التداول النقدى على النحو الذى يمكن ان تكون عليه الدراهم والفلوس وقطع المدينى .

اما البوطاقة ، هـذه العملة الاعتبـارية فقـد قدرت عند مجىء الفرنسيين الى مصر بـ ٩٠ مدينى ، وهو السعر نفسه الذى ثبت عليه علىٰ بك فى نحو العام ١٧٧٣ من تقويمنا قيمة التـالار ، وعنـدئذ كانت البوطاقة سواء باعتبارها عملة حسابية تقدر وتجبى علىاساسها الضرائب او باعتبارها عملة حقيقية متداولة او التـالر — كانا كلاهمـا معاً ولبعض الوقت يقدران بـ ٩٠ مدينى ، ومع ذلك ، فعلى حين ظلت البوطاقة فى مجال الضرائب تساوى ٩٠ مدينى ، اخـذت قيمة التـالر (او البوطاقة النقدية) تمضى فى ارتفاعها بسبب تدهور المـدينى حتى اصبحتتساوى عند مجيئنا مايبلغ ١٥٠ مدينى ، وحيث كان الزرمحبوب فى هـذه الفترة

(*) انظر ص ٧٣ الفقرة الثانية وكذلك الهامش رقم ٣٤ من الصفحة نفسها . (المترجم) .

نفسها يساوى ١٨٠ مدينى ، فقد كانت القطعة الواحدة من انصافهتساوى ٩٠ مدينى اى بوطاقة كاملة كعملة حسابية .

واذا عدنا الى الزمن الذى تقرر فيــه تقــدير الضريبة بالبوطاقات فسوف نجد ان هذه العملة الحســابية ، او تلك التى حلت هى محلها ، كانت تعادل اقل من ٩٠ مدينى . وكان الصيارفة (٥٢) والاقبــاط (٥٣) ، أولئك الذين وكلت اليهم جبــاية الضرائب ، والذين كانوا قرب غزو مصر على يد الفرنسيين ، يحصلون فى العادم ٩٠ مدينى من كل بطاقة (حسابية) لــكنهم لايقدمون حسابها للملتزم الا بواقع ٨٠ أو ٨٥ مدينى ، ويحتفظون لانفسهم بالفرق اما باعتبــاره ربحا تعسفيا او باعتباره جعلاً متعــارفا عليه ، اما اذا قام احد المولين مصــادفة بسداد الضريبة بواسطةانصاف الزرمحبوب فان هؤلاء الصيارفة لم يكونوا يحتسبون هذه القطع الا على اساس انها بوطاقة (حسابية) تساوى ٨٥ مدينى ، لــكنهم يقدمونها فى حساب الملتزم باعتبارها مساوية لــ ٩٠ مدينى .

وحيث ظلت قطع المدينى تفقد بصــفة مستمرة جزءا من قيمتها ، فى حين كانت غلة الاراضى ، ســواء اكانت فى شكل ضرائب او فى شكل اتاوات او عادات (هــدايا) للملتزم ، مثبتة بموجب بوطاقات حسابية ، فقد كان على الحكومة والملتزمين ، حتى لا يجدوا دخولهم عرضة للتناقص بشــكل مستمر ، ان يســلكوا احد سبيلين ، فاما ان يقــدروا البوطاقة (الحسابية) بعدد اكبر من المدينى يتفق او يعوض القدر الذى تدهورت به قيمة العملة الاخيرة ، واما ان يفرضوا ضرائب جديدة .

ويكاد يكون من المؤكد انه لم يتم اللجوء قط الى الوسيلة الأولى ، وان كان اولو الامر جدوا فى استخدام الوسيلة الثانية ، فاستحدثوا حشدا

---

(٥٢) او المبدلون العموميون ، انظر دراستنا عن الأوزان العربية .

(٥٣) انظر فيما يختص بالوظائف التى كان يشغلها الاقباط والصيارفة فى مجال جباية الضرائب ، دراسة المسيو لانكريه عن النظام المالى والادارى لمصر العثمانيــة ، تأليف المسيو استيف . (الــكتاب الاول من المجــلد الخامس من الترجمة العربية) .

من الضرائب الاضافية انتهى بها الأمر ان تجاوزت فى مجمل حصيلتها ماتدره الضرائب المبدئية (٥٤) .

وبرغم ان هذا السلوك هو على وجه التقريب سلوك غالبية الحكومات التى ترفع من حصيلة ضرائبها بقدر احتياجات الدولة ، فتقوم بفرض سنتيمات اضافية أو ضرائب متفرقة بدلا من ان تلجأ الى زيادة الضريبة العقارية أو الضريبة الأساسية بشكل مباشر ، فقد كانت لحكام مصر فيما يبدو لنا مصلحة خاصة فى عدم رفع قيمة البوطاقة (الحسابية) فى نظام جباية الضرائب .

فحيث كان الميرى ، وهو الضريبة العقارية التى انشأها سليم ، أو بالأحرى خليفته سليمان الأول ، لكى تصب فى خزينة سلطان القسطنطينية ، يجبى على اساس البوطاقات الحسابية ، التى تظل قيمتها هى هى ، فلم يكن يسدد للسلطان ، عن هذا المال الميرى الا المبلغ نفسه من المدينى نقدا ، أما كل الاستقطاعات او الاتاوات الاضافية التى استحدثها المماليك أو الحكام ، بل وكذلك الملتزمون (٥٥) ، فكانت حصيلتها تعود عليهم وحدهم .

وتقدر المبالغ الكبيرة بالاكياس ، وكل كيس تقدره ٢٥ الف مدينى .فى حين لا يقدر الكيس فى القسطنطينية الا بـ ٢٠ الف بارة فقط .

---

(٥٤) المرجع السابق .

(٥٥) الملتزم هو مالك او سيد الأراضى التى لم يكن الفلاح أو المزارع سوى مستأجر لها . انظر دراستى لانكريه واستيف اللتين سبقت الاشارة اليهما (الكتابان الأول والثانى من المجلد الخامس ، من الترجمة العربية).

الفصل الثانى

شكل العملات وقطرها

— ١ —

الشكل

اذا ما صدقنا مايذكره المقريزى ، فقد كان العرب قبل الاسلام لايستخدمون سوى قطع من الذهب والفضة ، غير مصنعة ، تتفق تقسيماتها مع اوزان ذلك العصر وتحمل نفس اسمائها ، وكانت لدى بعض الشعوب عملات نقدية مربعة الشكل ، ولا تزال تصنع حتى اليوم — او كانت تصنع منذ سنوات قلائل — فى بلاد البربر ، نقود من الفضة ذات شكل بيضاوى (١)، او على هيئة متوازى اضلاع ، اسطحه محدبة بعض الشىء (٢) ، وان كان الشكل الغالب على الدوام هو الشكل الدائرى ، اذ ان هذا الشكل فى مجال العملات النقدية هو اكثر الاشكال ملاءمة ، واقلها عرضة للتلف بفعل الملامسة عند تداولها .

وقد كان امير المؤمنين عبد الله بن الزبير ، الذى اعلن نفسه خليفة فى مكة فى العام ٦٤ من الهجرة ، هو اول من امر بتدوير النقود الفضية،

---

(١) لدينا واحدة من هذه العملات بيضاوية الشكل ، ولهذه اطار او برواز على حافتها ، وهى تزن ٣٥/١٠٠ ٢٧ جراما ، مما يجعلها فيما يبدو ذات مزيج جيد (او سبك جيد) ، وتحمل على احد وجهيها « ضرب فى رباط الفتح » وعلى الوجه الآخر، وفى ثلاثة سطور « احد ، احد، 1191» اى الله واحد وحيد ، ويوافق العام ١١٩١ من الهجرة العام ١٧٧٧ من تقويمنا . اما الأرقام فقد كتبت بالشكل الاوربى وليس بالشكل العربى .

(٢) ليس للعملة الاخرى اى اطار او برواز ، وتبدو مصبوبة ، وهى باختصار تشبه العملة السابقة فيما يتعلق بالنقوش التى غلبها فيما عدا ان سنة الاصدار هى ١١٨٨ هـ (١٧٧٤ من تقويمنا) ، وتزن هذه القطعة ١٨/١٠٠ ٢٨ جراما .

فى حين كانت العملات التى صنعت من قبله مسطحة (اى مطروقة) خشنة رديئـــة التنفيذ ، ومع ذلك فيمكن الافتراض بأن الشـــكل الدائرى الذى أعطى للنقود لم يكن بالغ التمام ، وبان العمال كانوا يسطحون (او يطرقون) المعـــدن بواسطة المطرقة ، وانهم كانوا يسكونه بالمخصـــف ، وانهم لم يكونوا قط يعرفون آلة الصقل او المخرطة ، او الرقاص ، وهذا هو نفس ما كان متبعا فى الأزمان الماضـــية عند الاغريق والرومان ، ثم بعد ذلك فى اوربا ، اما فى فرنسا فلم تســـتخدم آلة الصـــقل الا فى عهد هنرى الثانى ، ولم يحدث ان استخدمت المخرطة مع الرقاص فى صنع النقود الا فى نهاية عهد لويس الثالث عشر (٣) .

وفى العام ٦٢٢ من الهجرة (١٢٢٥ من تقويمنا) ، امر الملك الكامل ، وهو الذى الغى كما سبق ان قلنا المسكوكات التى كانت تتداول فى مصر ، بأن تضرب دراهم دائرية الشكل . ونحن اليوم نجهـــل متى يحين الوقت الذى تتبنى فيـــه مصر استخدام المخرطة ، ومع ذلك فقد لايكون مستحيلا انها استعملت هناك فى زمن سابق على الزمن الذى استخدمناها فيه ، فى اوربا ، فمن المعروف انه عندما كانت الفنون والعلوم تزدهـــر عنـــد العرب ، كانت اوربا لا تزال فى حالة قريبة من الهمجية .

لـــكن النـــاس اليوم فى مصر لا يخرطـــون العملات الذهبيـــة قط بواسطة المخرطة .

وينتج عن الطريقة التى يستخدمها القوم هنـــاك لتـــدوير النقود ، وعن ضربها بالسكة (بتشديد وكسر السين) ان يكون القطر فى مختلف القطع النقلـــدية ليس هو نفســـه على نحو دقيق او صارم ، وأنها نادرا ماتكون كاملة الاستدارة او ذات سمك مستو ، وانها تتآكل فى بعض الأحيان

---

(٣) انظر : « اعتبارات عامة حول النقود » ، تاليف مونجيه Mongez ، وقد قرئت هذه الدراسة فى الحجرة الثانية من المجمع فى السابع عشر من جرمينال من العام الرابع (٦ ابريل ١٧٩٦) والتى نشرها فى العـــام نفسه Agasse وهو الناشر المقيم بشارع Poitevins وهذا المؤلف الرائع هو واحد من تلك المؤلفات التى اسهمت اكثر من غيرها فى أن تضـــع فى متناول الجميع افكارا واضحة ، بقـــدر ماهى دقيقـــة ، حول فن صـــنع النقود ، التى ظل يستحوذ عليها لوقت طويل نوع من العـــلم السرى او الغامض ، كانت له لغة خاصة ، همجية ، وتكاد تستعصى على الأفهام .

عند حوافها ، وان نقش احد الوجهين لا يظهر كلية اذا كانت قطعة العملة بالغــة الصغر اذا ما اساء العــامل وضــعها تحت الرقاص ، واذا لم تضبط المسكوكات بشكل جيد ، واخيرا ان يضيع جزء من النقوش او سنة الضرب ، أو أن يجد المرء مشقة بالغة فى فك حروفها .

وحيث كانت العملات الفضية او الغروش التى صنعت فى عهد على بك ، وتلك التى صنعت خلال وجود الفرنســيين فى مصر ، قــد قطعت بواسطة المخرطة ، فقد كانت ، كما هو حال قطع المدينى ، ذات قطر اكثر تماثلا ، كما كانت افضل استدارة فيما عدا العملات التى تشوهت ، لانها ضربت بسكة حرة ، وهذا هو الحال بالنسبة لقطعة النقود الصادرة فى عهــد على بك والتى نجدها فى لوحاتنـــا برقم ٢٢ من اللوحة الرابعة (١٨ فى اللوحة الأصلية) ، وبالنسبة لقطعتى المدينى رقمى ١٨ ، ١٩ من اللوحة الثالثة (٢٠ ، ٢١ من اللوحة الأصلية) (٤) ، وان كان الأمر الذى ساهم اكثر من غيره فى جعل القطع النقدية ذوات الأربعين والعشرين مدينى اقل تماما فى استدارتها هو انه كانت لدى القوم تلك العــادة السيئة ، عادة طرقها فوق حافتها ، بدلا من طرقها على الوجه كما يحدث فى فرنسا ، او بان يزيلوا ، وهو امر افضل ، طبقا للاسلوب المستخدم فى باريس ، وفى بعض دوائر أخرى فى صناعة النقود ، طبقة خفيفة من هذا الوجــه او ذاك بواسطة اداة التنعيم فى آلة المعايرة (او التعيير ، وهى الآلة التى تجعل العيار مضبوطا) .

اما النقود النحاسية فهى التى تبدى بصفة عامة اكبر مظاهر التشوه وعدم الاستواء فى اشكالها وعدم الدقة فى صنعها ، اما لان العاملين فى دور سك النقود كانوا يتوقعون ولابد أن يحصلوا على ادنى اجر حتى ولو اجادوا صنعها بسبب قيمتها الدنيــا ، او لان هؤلاء العمــال قــد ابدوا الــكثير من التعجل والقصور فى صنعها ، عندما ضربت كميات كبيرة منها فى اوقات الأزمات (التى ضربت فيها) والتى لابد ان تكون النقود فيهــا بالضرورة قد صنعت فى اكثر الأشكال رداءة .

---

(٤) انظر اللوحة الملحقة ، وقد اخذت هذه القطع كيفما اتفق ، من بين تلك التى تعانى من عدم الانتظام او الاستواء ، ولعل الحفار قد بالغ بعض الشىء فى العيوب التى بها .

(*) اداة فولاذية تسك بها النقود المعدنية والشارات (المترجم) .

ثانيــا : القطر

كان لابد لقطر النقود الذهبية ، تبعا لمــا انتهينا من قوله ، ان يتغير كثيرا (من قطعة لأخرى) ، ومع ذلك فان هذا القطر لم يكن قط كبيرا لحد مبالغ فيــه لان وزن اية قطعة من النقود الذهبية لم يتجاوز قط فيما يبدو مثقالا واحدا ، او اكثر بنحو طفيف من جروgros واحد ، فيما عدا العملات التذكارية او القطع التى تصــدر عند غرة الأعوام والتى تناولناها بالحديث من قبل ، والتى كانت فى معظم الاحيان ذات وزن اكبر ، والتى يتحقق لها على الدوام مظهر افضل وقطر اكبر بكثير .

وكان قطر اكبر عملة شاهدناها فى القــاهرة من هــذا النوع يبلغ ٣٤ مم ، على هذه الشاكلة كانت القطعة ذات الــ ٢ فندقى ، وهى التى رسمناها برقم ١ (٥) ، اما القطعة رقم ٧ من اللوحة الثانية (٣ فى اللوحة الأصلية) وهى ليست سوى فندقى صــدر فى غرة العام ، فيبلغ قطرها ٢٥ مم فى حين لا يبلغ قطر الفنــدقلى العــادى سوى ١٩ مم فى الظروف الاعتيادية (٦) .

ويماثل هذا القطر ، بطريقة شبه مؤكدة ، قطر الدنانير القــديمة ، وقد شاهدنا الكثير منها ، ولدينا واحد منها محفوظ فى حالة جيدة وسط آخرين ، وقد ضرب فى العام ٩٧ من الهجرة (٧١٦ م) ، ويبلغ قطره هو الآخر ١٩ مم ، وهو على وجه التقريب القطر نفسه الذى كان للعمــلات الذهبية ومسكوكات النذور التى كانت تستخدمها الامبراطورية الرومانية الشرقيــة (٧) ، والذى نجده كذلك فى سكين البندقيــة وروما ودوكات هولاندا ، الخ ، لذلك فلن يكون تعسفا من جانبنا أن ننسب هذا التقارب

---

(٥) انظر اللوحات الملحقة بهذه الدراسة، اما قطعة النقود الذهبية الصادرة فى القسطنطينية ، والتى نشرها المسيو بونفيل برقم ٦ (اللوحة الأولى من النقود الذهبية التركية) والتى تساوى فندقى فيبلغ طول قطرها ٤٦ مم ، اما القطع المرسومة برقم ٧ والتى تساوى القطعة منها ٣ فندقى فيبلغ طول قطرها ٣٦ مم .

(٦) انظر القطع اشكال ٢ ، ٨ ، ٩ (حسب ورودها فى الطبعــة العربيــة) .

(٧) مثال ذلك نذر ايليوس كونستانيوس قطعا من النقود الذهبيــة للامبراطور فالان ، وقد جلبنا ذلك كله معنا من مصر .

فى القطر والوزن (٨) الى عامل التقليد والى تأثير العلاقات التجارية ، وان ننسب اليه كذلك هذا التقارب من العيار الذى كان فيما مضى للنقود الذهبية عند شعوب شديدة التباين لهذا الحد .

ويبلغ قطر نصف الفندقى عادة نحو ١٤ مم .

وبرغم ان وزن الزرمحبوب اقل من وزن الفندقلى فقد كان قطر الاول اكبر من قطر الاخير بنحو طفيف ، ويصل طوله عادة الى ٢١ مم .

اما العملات الذهبية التى تصدر بمناسبة غرة الأعوام ، فلها وجه اكبر اتساعا بكثير ، اذ يصل قطر القطعة المرسومة برقم ٦ من اللوحة الاولى (١٢ من اللوحة الاصلية) الى ٢٧ مم فى حين قلما يزيد قطر القطعة العادية ، الصادرة فى العهد نفسه والمرسومة برقم ٥ من اللوحة الأولى والذى له الوزن نفسه ، عن ١٩ مم .

وفى معظم الاحيان يحتفظ قطر قطعة النصفية الذهبية والذى يبلغ نحو ١٨ مم ، بالعلاقة نفسها القائمة بين قطر القطعة الذهبية (الكاملة) ووزنها ، بل يحدث فى بعض الاحيان ان تتساوى هذه النصفيات ، وبصفة خاصة عندما تكون معدة للاصدار بمناسبة غرة العام او لتقديمها كعطايا او اكراميات ، فى مساحة وجهها مع وجه القطعة (الكاملة) ، كما يمكننا ان نرى ذلك فى قطعة النصفية المرسومة برقم١٤ ، لذلك فقد نخلط بينهما للوهلة الأولى ، وان كان التمييز بينهما ميسورا للغاية عن طريق السمك .

ونستطيع ان نقول شيئا قريبا من ذلك ، فيما يتعلق بالربعيات (ربعية) التى يقترب اتساع وجهها فى بعض الاحيان من الاتساع الذى ينبغى ان يكون عليه اتساع وجه النصفيات ، ويبلغ متوسط طول قطر هذه الربعيات ١٦ مم .

ولابد ان القيراط والخردبة ، كليهما ، كانا عملتين ذهبيتين ، قطرهما بالغ الصغر حيث يمثل كل منهما جزءا واحدا من اربعة وعشرين جزءا من الدينار او المثقال ، برغم ان من بيدهم الامر قد حرصوا بتقليلهم لسمكها

(٨) كان وزن قطع الفندقى القديمة ، وبخاصة القطع من اصدار القسطنطينية هو الوزن نفسه الذى نجده فى سكين Séquin البندقية .

على زيادة اتساع وجهها ، وان كنا لم نستطع الحصول على أى من هذه القطع الذهبية الصغيرة .

ويختلف القطر فى الدراهم بشكل محسوس كما هو الحال بالنسبة للدنانير ، واذا اخذنا فى اعتبارنا ان النقود الفضية كانت تتساوى فى الاصل مع الدينار ، فمن المحتمل أن تكون قطع النقود الفضية ذات قطر اكبر من قطر الدينار لأن الوزن النوعى للفضة اقل منه للذهب ، وان كان قطر هذه النقود الفضية قد قل بدوره عندما نقص وزن الدراهم ليصبح وزن كل عشرة منها مقابلا لوزن كل سبعة دنانير ، ويبرهن لنا هذا ، فيما يبدو ، على صحة فقرة بالغة الطرافة عند المقريزى يذكر فيها ان احد الاسباب التى دفعت عبد الملك بن مروان أن يقدر لكل ١٠ دراهم وزن سبعة مثقالات او دنانير هو أن الوزن النوعى للذهب اكبر منه للفضة وانه قد استوثق ان النسبة بين الوزنين النوعيين لكلا المعدنين تبلغ ١٠ ، ٧ (٩)، ولكن لماذا يلوون كل هذا الاعتبار لهذا الوزن النوعى اذا كان جل همهم هو أن يجعلوا الدراهم مساوية فى مساحتها وسمكها الدنانير !

وقد حصلنا على درهم ، نقلناه معنا من مصر ، ضرب فى عهد الظاهر ركن الدين بيبرس ، يكاد يبلغ طول قطر الطول نفسه للدنانير القديمة .

واذا كان على بك قد امر بأن تضرب فى القاهرة قطع من ذوات المائة وذوات الثمانين مدينى ، شبيهة بتلك التى كانت تضرب فى القسطنطينية، فقد كان من الضرورى ان يبلغ قطر هذه العملات ، كما هو الحال فى العملات الاخيرة ، نحو ٤٣ او ٤٥ مم .

اما المدينى ، وهو اصغر قطعة نقد مصرية على الاطلاق ، والذى يمكننا ان نقارنه ، من حيث حجم سطحه ، بقطعنا ذوات الـ ٢٥ سنتيما، وان كانت هذه القطع اكبر منه سمكا ، فيبلغ قطره ١٥ مم ، ولسنا نعرف ما ان كانت فى القاهرة فى الماضى قطع تساوى اجزاء من المدينى كما حدث

---

(٩) يبلغ الوزن النوعى للذهب النقى المصهور وغير المزيف ١٩٢٥٨١ ويبلغ الوزن النوعى للفضة النقية ١٠٤٧٤٣ طبقا لما يراه بريسون Brisson مما يجعل النسبة بين الوزن النوعى لكل من هذين المعدنين تصل الى ١٠ مقابل ٥٤٣٩/١٠٠٠ ، وهو امر يبتعد كثيرا عن النسبة التى يقررها المقريزي .

فى القسطنطينية ، وقــد نقلنا معنا من مصر قطعا بانصاف ، وثلاثة ارباع البارة ، ضربت فى استانبول ، ولا يبلغ قطر هذه سوى ١٢ مم .

وتختلف اقطار العملات النحاسية ، فيما بينها ، اختــلافا كبيرا ، حيث نجد فى العملات النحاسية ، بشكل خاص ، قطعا نقدية مختلفةالعيار والحجم ، ويمكن ان يقارن قطر اكبر القطع التى رأينــاها حجما بقطر قطع عملاتنا النحاسية ذات الـ ٢ سو (*) او الـ ١٠ سنتيمات ، وتلكهىالقطع التى رسمناها برقمى ٢٥ ، ٢٦ من اللوحـــة الرابعة :(نفس الرقمين فى اللوحة الاصلية) والتى يبلغ قطرها نحو ١٨ مم .

ولم يتحدد طول القطع النقدية فى فرنسا بشكل حاســم ودقيق الا منذ ان ضربت فى شكل حلقة بارزة ، وقد نتج عن ذلك ان ســـمكها كان يتفاوت بشكل طفيف للغاية تبعا لمــا ان كان المعدن اكثر او اقل انضغاطا بفعل طرقات الرقاص (بالمخرطة) ، وعلى العكس من ذلك كان من المحتم ان يختلف هذا السمك اكثر من ذلك ، عندما تضرب هذه العملات بالسكة الحرة او اليدوية وعندما يصبح من السهل على الحفار ، حتى عندما تحتفظ قطع النقد بالوزن نفسه فى كل مرة يتم فيه اصدار نقدى ، ان يصغر او ان يزيد السمك على نحو متفاوت طبقا لمــا يعلق عليه الحفار من اهمية وتبعا لذوقه الخاص او كفاءته الخاصة التى تملى عليه ان يكتبها بحروف رفيعة او بحروف اعرض او اكثر امتلاء ، وعما اذا كان يروقــه ان يعطى القطعة النقدية قــدرا اكبر من الدقة والرقة او قــدرا اكبر من الاتساع وحسن المظهر ، وحين تنتهى القطعة النقدية الى ما اصبحت عليـــه من حيث طول القطر والوزن ، فان سمكها يتحدد بطريقة تتناسب مع ذلك ، لكننا لسنا بصدد قضية عامة عندما نتصدى لموضوع النقود والمسكوكات ، فلسنا نسوق هنـــا اية كلمة الا لكى نعطى فــكرة اكثر دقــة عن مظهر العملات فى مصر .

ويمكن ان يقارن سمك الفندقى بسمك عملاتنـــا القديمة ذوات الـ٢٤ سو ، لــكن سمك قطع السكين Séquin اقل من ذلك لان لها سطحا اكبر اتساعا ووزنا اقل .

(*) كان السو Sou يساوى ١/٢٠ من الفرنك (المترجم) .

ومن جهة اخرى ، فيمكن مقارنة القطع ذوات الاربعين مدينى ،وهى ذات سمك اكثر توحدا (اى ان سمكها يكاد يكون هو نفسه فى كل القطع النقدية ، لانهما مرت بآلة الصقل وتم قطعها بالمخرطة ، بعملاتنا من ذوات الفرنكين ، اما بخصوص قطع المدينى ، فحيث تكتسب الكثير من الأوراق او الصفائح بالغة الرقة) التى تستخدم فى صنعها ، شكلها المسطح فى وقت واحد معا ، بفعل طرقات مطرقة ، فاننا نجد سمك هذه القطع بالغ التنوع ، ويوجد بعض منها بالغ الرقة ، وفى النهاية فان سمك النقود النحاسية يتنوع فيما بينها بقدر ما تختلف اقطارها من قطعة لاخرى ، اذ يبلغ سمك قطعة الجديد التى اوردنا رسما لها برقم ٢٥ اكثر من ملليمترين (١٠) فى حين لم يتجاوز سمك القطعة من نفس النوع والتى رسمناها برقم ٢٦ سوى ٣/٤ مم .

ويبدى المسيو تيخسين Tychsen دهشته من الكمية الهائلة من النقود العربية التى نجدها مبتورة وتساءل عن السبب فى ذلك ، وقد يعود ذلك الى السلوك الغريب ، بالغ التقدم ، الذى كان يسلكه الكثير من الأمراء والحكام والقادة العرب الخ ، عندما كانوا يطلبون الى القوافل والتجار والمسافرين المارين بأرضهم ان يقتطعوا جزءا من كل قطعة من نقود البلدان المختلفة التى يحملونها معهم ، اما لانهم كانوا يخشون ان تكون ثمة خدعة فى قيمة هذه العملات ، واما لان التاجر او الحاج كان يستطيع بهذه الطريقة تسجيل او اثبات حجم ضريبة الطريق التى جبيت فى شكل حصة من نقوده .

---

(١٠) يبدو ان هذه القطعة قد صنعت بواسطة قطعة اسطوانية صغيرة من النحاس ، مسطحة الشكل ، وبفعل ضربة رقاص ، كما هو الحال بالنسبة لقطع الزر محبوب .

الفصل الثالث

الأنماط أو القوالب

أولا : صور البشر والحيوانات

من المعروف بصفة عامة ان كل الشعوب التى تدين بالاسلام ، قد اتفقت فيما بينها على النظر الى تمثل صور البشر والحيوانات على أنها ممارسة آثمة تفوح منها رائحة الوثنية ولا يفعلها سوى الكفار ، ومع ذلك فهناك اعداد كبيرة من العملات والمسكوكات تحمل نقوشا وحواشى عربية بالاضافة الى اسم الله والنبى او بعض آيات من القرآن نرى فوقها صورة امير ورد اسمه عادة فى الحاشية او نرى صورا متنوعة لبعض الحيوانات .

ولتفسير ممارسة كهذه تبدو بالغة التناقض مع تقاليد ومعتقدات المسلمين ، قدمت افتراضات مختلفة .

فيرى المسيو تيخسين Tychsen ان هذه النقود او الأوسمة قد ضربت بواسطة شعوب مسيحية اما لأنهم كانوا رعايا او تابعين ، دافعى جزية لاتباع محمد ، ارغموا عنوة على ان ينقشوا فوق عملاتهم اسم الامير المنتصر او الحاكم المسلموكذا الشعار الذى يتخذه ، وان كانوا قد احتفظوا مع ذلك بعادتهم القديمة بأن يضعوا على هذه العملات صورة أو اسلحة امتهم او مدينتهم ، واما لأنهم كانوا هم انفسهم المنتصرين او كانوا متحالفين مع المسلمين او تجارا اساسيين معهم ، لكنهم سجلوا اسم الامير الاجنبى (اى العربى) او بعضا من آيات القرآن سواء كان ذلك بدافع سياسى ان بدافع من مصلحة تدفعهم لتملق جار قوى او لكى تروج عملاتهم فى البلدان التى تخضع لحكم المسلمين وكى يسمح لها بأن تتداول فى التجارة .

ومما يؤكد الراى القائل بأن هذه العملات لم تضرب بواسطة الامراء المسلمين هو ان الصور قد مثلت على هذه العملات فى معظم الاحيان فى اوضاع ، ومع رايات ، وتيجان ، وصولجانات وملابس واشكال لشعر الراس (تسريحات) .. من الواضح ان ليست لهبا اية صلة بالتقاليد الاسلامية (١) .

ونرى فوق بعض من هذه القطع النقدية ، قنطورس أو سنقور (*) او احد رماة النبال او السهام ، ولا يمكن هذا كله الا ان يكون اغريقيا ويستحيل ان يعود الى العرب ، واخيرا فهناك بعض العملات التى تحمل إضافات واشكالا لأمراء مسيحيين مع حواشى وعبارات عربية ، بل يحمل كذلك اسم النبى محمد (ص) .

ويشير المسيو تيخسين فى مقدمته الى فن المسكوكات عند المسلمين الى مرسوم صادر من البابا انوسان الرابع Innocent IV يحرم فيه على المسيحيين ، مهددا اياهم بالحرمان او الطرد من الكنيسة اذا ماخالفوا مرسومه هذا ، أن يضربوا نقودا شبيهة بذلك .

وطبقا لما يقول بارتيليمى Barthélemy ، الذى نشر حول هذا النوع من النقود دراسة بالغة الاثارة (٢) ، فقد ظن ادلر Adler انالسلاجقة والتركمان وهم شعب همجى يتكون فى معظمه من عربان رعاه ، ولصوص قطاع طريق ، عندما انتشروا فى البلدان المختلفة التى فتحت لهم لم يتمثلوا قط العادات الاجنبية او ديانة المسلمين الا بدافع سياسى حتى يقللوا حجم المقاومة التى قد يلقونها ضد اغتصاباتهم وتعدياتهم ، ولكى يحتفظوا

(*) كائن خرافى نصفه نصف رجل ونصفهالآخر نصف فرس ،وكان يعيش فىتساليا حسبالاسطورة وقد يكون المقصود ان الصورة المرسومة على العملة تمثل بشخص راسه راس انسان وجسمه جسمفرس (المترجم)

(١) ترسم فوق النقود الذهبية لامبراطورية المغول صورا مختلفة للبروج . انظر مؤلف المسيو بونفيل عن النقود الشرقية ، اللوحة الثانية، اما القطع المرسومة برقمى ٩ ، ١٠ (فى مؤلف بونفيل) فتمثل شكلا لأحد رماة النبال .

(٢) Dissertation sur les médailles Arabes, par A. Barthélemy, Mémoitco de l'Académie, Tom. XXVI, pag. 557.

بالأوضـــاع الجديدة بطريقة اكثر يسرا وسهولة ، وان كانوا قد ادخلوا على تقاليد وعادات المهزومين جزءا من العـــادات والتقاليد التى اعتادوها او تمثلوها من البلدان الاخرى التى جاءوا منها ، وطبقـــا لذلك فقد يبدو اقل مدعاة للدهشة ان نراهم يظنون أن بمقدورهم ان يزينوا العملات بالصور المختلفة تقليدا للشعوب الأخرى ، أو ان النفور او المقت الشديد للصور والرسوم هو بالأحرى راى خاص او هو مبدا استنه المشرعون والفقهـــاء اكثر منه قانونا أو مرسوما ملزما ، ولا نزال نرى حتى اليوم ، عند شعوب مختلفة تعتنق الاسلام صورا ولوحات تمثل بشرا ، وحيوانات .

وحيث كان المسيحيون فى الشرق ، فى هذه الفترة ، اكثر عددا مما هم عليه اليوم هناك ، وحيث كان كل الموكلين بشئون النقود والضرائب ، فى غالبيتهم العظمى ، من اليهود أو المسيحيين ، فيمكننا القول بأن هـــذه الظروف قد استطاعت أن تسهم فى استحسان « موضة » رسم الصور على النقود ، وبصفة خاصة ، عندما لايعترض من بيده الامر من الحكام على ذلك اما بسبب من لا مبالاة ، واما لأن سلوكا كهذا لايبـــدو فى رايه الخاص منفرا او بغيضا .

وفى النهاية ، اليس بامكاننا ان نحدس أن العرب قـــد عمدوا فى بعض الأحيان الى ضرب نقود يقلدون عليها بشكل تتفاوت درجة خشونته صورا تستخدمها الشعوب المسيحية لكى يتجروا معهم ، او لـــكى يحققوا مكاسب طائلة عندما يدسون عليهم نقودا زائفة .

اما عن التناقضات التى تمثلها هـــذه الأشكال او الوجوه مع عادات المسلمين فقد نتجت من ان الفنون قد كانت ضئيلة الازدهار فى هذا العهد ، وان الغزاة (الفاتحين) أو الحكام ، الذين لم تكن لديهم اية معرفـــة ولو سطحية بشئون النقود قد تركوا مهمة صنع النقود الى رجال جهـــلاء ، اكتفوا ، حيث هم لا يملكون درجة من المهارة تكفى لانشاء لوحـــة ، بأن يقلدوا على نحو غير دقيق الاشكال او الرسوم التى كانت للنقود القديمة ، الاغريقية او الرومانية أو حتى لعمـــلات شـــعوب اخرى ، والتى كانوا يستطيعون التزود بها أو التى يجدونها هى الأقرب الى اذواقهم ، وكانوا ينقشون من حولها ، أو على الوجه الآخر من العملة ، بحروف عربيـــة ، اسم امير او حاكم البلاد .

وحين اصبح هؤلاء اكثر تمرسا ، وحين استشعروا الضرر الذى ينجم من عملية تقليد غريبة لهذا الحد ، فقد سموا الى رسم الملامح والملابس الخاصة بأمرائهم ، ومع ذلك ، فحيث لم يكن لهم بعد من هاد يحذون حذوه ، وحيث لم يكونوا بعد مهرة فى فن الرسم لحد يكفى لصنع تكوين ، فقد جاءت رسومهم اكثر مدعاة للسخرية واكثر سوءا عند التنفيذ ، مثال ذلك تلك الصور او الأشكال التى يرسمون فيها الأمير جالسا فوق أريكة او ديوان (٣) وساقاه متشابكتان على طريقة الاتراك ، ممسكا بيده سيف ، وبالأخرى راسا مقطوعة .

واذا كان المرء لايقابل الا نادرا ، فى مجال التجارة والمسكوكات فى اوربا سوى عملات نحاسية تحمل هذه الرسوم التى تحدثنا عنها ، فقد يكون بمقدورنا أن نقدم سببا لذلك ان العملات الذهبية والفضية يشتدعليها الطلب من جانب لتتخذ منها النساء زينة ، فلا تخرج الا فيما ندر من أيدى الحريم ، وأن قيمتها الحقيقية — من جهة اخرى — قد حددت فى مختلف الظروف اولئك الذين يقتنونها بقصد اعادة بيعها ولكى يتم صهرها ، الى الصرافين والصاغة واليهود الذين يمونون (بهذين المعدنين) دور سك النقود فى تركيا ، بحيث اصبحت هذه العملات نادرة ، او لعلها قداختفت بشكل تام . وفضلا عن ذلك كله فان النقود النحاسية قد ضربت بكميات بكميات هائلة للغاية ، وبصفة خاصة فى اوقات الاضطرابات والمحن ، حين يكاد يصبح النحاس هو العملة الوحيدة المتداولة .

ومع انه من المحتمل ان يكون الكثير من هذه المسكوكات قد ضرب بواسطة شعوب مسيحية ، طبقا لراى المسيو تيخسين ، وبرغم ان لدينا ما يحملنا على الظن بصفة خاصة بوجود عدد كبير من النقود الزائفة بين هذه العملات ، صنعت داخل البلاد ، او تسربت اليها من بلدان مجاورة، فمن المؤكد ، مع ذلك ، ان المسلمين انفسهم قد سكوا بعضا من هذه النقود ، فى عصور الاسلام الأولى على الاقل .

---

(٣) كلمة جاءت من الفارسية ، تعنى فى الأصل اريكة او نوعا من المقاعد بالغة الانخفاض تزينها مربعات يجلس فوقها الشرقيون ، وتعنى بصفة عامة جماعة او تجمعا من اشخاص جالسين ، ومن هنا جاءت الكلمة الفرنسية douane اى الجمارك او المكوس او ديوان (قصر) الجمارك.

ولما كانت عادة رسم صور الأمراء او رسم اشكال مختلفة تتخذ من البشر والحيوانات رموزا ، شائعة عند مختلف الشعوب عندما استقر الاسلام ، فقد اتبع العرب هذه العادة او قلدوها ، حين لم تكن كراهيتهم للصور بعد قد اصبحت عامة ، ويمكن القول بأن هذه الكراهية قد تطورت تدريجيا بعد ذلك الى أن دخلت — كما يمكننا القول — فى مجال القانون .

وفيما يذكر مؤلفون متفرقون ، فان النبى (ص) نفسه قد استخدم نقودا كانت متداولة فى عصور الوثنية ، لكنه تركها على حالتها نفسها التى كانت عليها قبل نشاة الدين الجديد، ولقد فعل ابوبكر الذى خلف النبى محمدا الشىء نفسه ، كما ترك امير المؤمنين ابو حفص عمر بن الخطاب ، الذى فتح مصر وسوريا والعراق ، النقود على طرزها القديمة نفسها حتى العام الثامن عشرة من الهجرة (٦٣٩ من تقويمنا) عندما امر ، طبقا لما يورده المقريزى ، بأن تضرب دراهم على الشكل نفسه ، وبالنقوش نفسها التى كانت تستخدم فى زمن كسرى (٤) ، واكتفى بأن اضاف على بعض منها عبارة « الحمد لله » ، وعلى بعض آخر عبارة « محمد رسول الله » ، وعلى بعض ثالث « لا اله الا الله » . وعلى البعض الرابع فى النهاية كلمة « عمر » ، وقد نستنتج من هذا النص ان الدراهم التى أمر عمر بضربها تقليدا لدراهم ملوك فارس كانت تحمل صورا ، وان الحواشى كانت مكتوبة بالفارسية .

وفى نحو العام السادس والأربعين من الهجرة (٦٩٦ أو ٦٩٧ من تقويمنا) امر عبد الملك بن مروان بأن تضرب دنانير ودراهم فى كل من مصر والعراق ، وعندما وصلت مسكوكاته هذه الى المدينة ، حيث لم يزل بها بعض من صحابة الرسول فان هؤلاء لم يستهجنوا فيها الا طريقة دمغ نقوشها ، وحيث كانت هذه النقود تحمل صورة فقد اضاف المقريزى بأن سعيدا بن مصعب قد استخدمها دون ان يجد فيها ماينتقده .

ويبدو ان رسم صور الحيوانات اقل تنفيرا للمسلمين ، وبصفة خاصة صورة الاسد ، ونرى هذه الصورة بصفة عامة فى اعمال النقش والحفر

---

(٤) كسرو ، هو اسم فارسى محض (خسرو) ، ويلفظه العرب كسرى ، وهو الاسم الذى يطلقونه بصفة عامة على ملوك فارس .

وفى الرسوم التى تستخدم زينة فى بيوتهم واثاثهم ، وتحمل كل سفنهم على مقدمتها صورة محفورة او مرسومة لأسد .

وقد أمر الظاهر ركن الدين بيبرس ، الذى ارتقى العرش فى العام ٦٥٨ من الهجرة (١٢٦٠ من تقويمنا) بضرب دراهم سميت بالدرهم الظاهرى ، وأمر بأن يرسم عليها شماره وهو صورة الاسد ، ولدينا واحدة من هذه القطع الفضية التى تحمل تحت الحواشى المكتوبة بالعربية صورة اسد يجرى فاغرا فاه (٥) .

ويذكر ابو الفرج فى كتابه عن تاريخ مصر ان السلطان غياث الدين ابن كيقباد ، من الأسرة السلجوقية ، أراد بدافع من حبه لزوجته ، التى كانت ابنة لأحد أمراء جورجيا ان يضع صورتها فوق العملات التى امر بسكها ، وانه قد تلقى النصيحة بأن يضع عليها طالعه ، والذى كان عبارة عن شمس فى صورة اسد .

وقد نشر أدلر فى مؤلفه Musée Borgien قطعة نقد عربية نجد عليها صورة شمس تحت صورة اسد ، وعلى وجهيها كليهما صورة نجمة ، وتحمل هذه تاريخ العام ٦٣٧ من الهجرة (١٢٣٩ او ١٢٤٠ من التقويم الميلادى) .

ويحوز المسيو مارسيل Marcel (*) قطعة نقود تحمل النقش نفسه .

ثانيا : النقوش الدينية أو المقتبسة من القرآن

استقرت العادة التى تقضى بالا توضع على النقود سوى حواشى بسيطة منذ وقت مبكر ، وهذا واحد من اقوى الأسباب التى تدفعنا الى الظن بأن القطع النحاسية التى تحدثنا عنها هى عملات زائفة او انها لم تضرب بين المسلمين ، حيث تكاد تعود فى غالبيتها الى القرن السادس او

---

(٥) انظر جدول العملات الملحق بهذه الدراسة ، وتحمل هذه العملة الرقم ٥٤ .

(*) احد مؤلفى وصف مصر وله دراسة عن النقوش الكوفية على المبانى الأثرية المصرية وله دراسة أخرى عن مقياس الروضة فى مصر .

السابع من الهجرة (الثالث او الرابع عشر من تقويمنا) ، وترتبط بالأسرة السلجوقية ، فى الوقت الذى توجد فيه نقود ذهبية وفضية ونحاسية قد ضربت منذ القرن الاول من الهجرة (السابع الميلادى) لا تحمل صورا وانما مجرد حواش ، ونجد مثيلات لها ضربت بيد السلاجقة انفسهم .

وينسب الى عبد الملك بن مروان ، الذى بدا حكمه فى العام الخامس والستون من الهجرة (٦٨٥ ميلادية) انشاء نمط جديد اسلامى (فى مجال المسكوكات) يشتمل فقط على حواش بغير صور .

ويقال انه قد تبنى هذا الاجراء تبعا لنصيحة يزيد بن خالد بن يزيد الذى اخبره بأن احبار الشعوب التى تقتنى (او نزلت عليهما) الكتب القديمة المقدسة يزعمون ان الحكام الذين طال بهم العمر هم اولئك الذين قدسوا اسم الله فوق عملاتهم .

وطبقا لرواية اخرى فان ابن مروان بعد ان ذكر اسم النبى (ص)على رأس واحد من كتبه الى امبراطور الروم . تلقى من هذا الاخير ، الذى لم يقع فى نفسه سلوك ابن مروان موقعا حسنا ، ردا يقول فيه « اذا لم تعدل عن هذا الاسلوب فى السلوك ، فسنذكر اسم نبيكم فوق دنانيرنا بالفاظ لن تكون مرضية لكم » ، وصدمت هذه الكلمات ابن مروان ، ونصحه خالد بن يزيد حين استشاره بأن ينشىء نمطا اسلاميا (فى مجال النقود) وان يكف عن استخدام الدنانير الرومية ، وهو ما فعل .

ونقرا فى مرآة الزمان ان عبد الملك بن مروان ، فى العام الخامس والسبعين من الهجرة (٦٩٥ او ٦٩٦ من تقويمنا) حين وجد دراهم ودنانير تحمل تاريخا سابقا على الاسلام باربعمائة عام ، وعليها نقش يقول: باسم الأب والابن والروح القدس ، قد امر بصهرها ، وبأن توضع فوق العملات التى استخدمت هذه النقود المصهورة فى صنعها : اسم الله ورسوله وبعض آيات من القرآن .

ومنذ ذلك الوقت اصبحت الحواشى المختلفة عبارات دينية اختارها الحاكم او هى من اقواله هو او من اختيار الشخص الذى وكل اليه امر صنع النقود ، او صارت آيات او نصوصا اقتبست حرفيا من القرآن .

ولكى نعطى فكرة عن هذه النقوش او الحواشى ، سنذكر تلك التى كتبت بخط كوفى والتى يحملها دينار نقلناه معنا من مصر :

على الوجه أ ، وفى ثلاثة سطور ، نجد الشعار الاسلامى :

لا اله الا
الله وحده
لا شريك له

وفى الحاشية ، فى سطر دائرى، نجد هذا النص المقتبس من احدى آيات القرآن : **محمد رسـول الله ، ارسله بالهـدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .**

ونجد على الوجه ب ، وفى ثلاثة سطور . هذا النص المـاخوذ من السورة ١١٢ من القرآن :

الله أحد الله
الصمد لم يلد
ولم يولد

ونجد فى الحاشية ، فى سطر دائرى :

باسم الله ضرب هذا الدينار سنةسبع وتسعين [٧١٦ منتقويمنا] .

وقد اورد المسيو تيخسين رسما لدينار ،مماثل (اللوحةالاولى رقم١) عقب مقدمته عن فن النقود عند المسلمين .

وكما نرى ، فانه لم يوضح على هذه الدنانير لا المكان الذى صنعت فيه ولا اسم الأمير الحاكم ، ومن المعروف أن هذه الدنانير قد ضربت فى دمشق . وتحمل دراهم تنتمى الى العهد نفسه ، بالاضـافة الى حواشى مماثلة ، اسم مدينة دمشق ، وقد كانت مصر على الدوام ، منذ فتحها وحتى بداية القرن الثالث الهجرى ، مقرا لأحد الأمراء ، وكانت عملتها النقدية هى العملة نفسها التى يصـدرها الخلفاء . وتقدم الدراهم المعزية التى ضربت فى القاهرة فى العام ٣٥٨ من الهجرة (٩٦٩ من تقويمنا) ، وطبقا لما يورده المقريزى ، النصوص نفسها من القرآن .

وكانت هذه النقوش تزيد أو تنقص تبعا لاتساع او ضيق سطح القطعة النقدية او تبعا لما ان كانت تستبدل بهذه النقوش اسماء او القاب الخليفة أو نوابه وولاته واسم المدينة . وان كانت الكلمات التى نراها فى اغلب الاحيان والتى استمرت باقية لاطول وقت على مختلف القطع النقدية هى تلك التى تدل على شعار الايمان بالعقيدة الاسلامية (الشهادة) : **لا اله الا الله محمد رسول الله** وقد وجدناها على نقود القرن السابع الهجرى [الثالث عشر من تقويمنا] (٦) .

ولكى نلم بهذه النصوص المختلفة يمكننا أن نرجع الى مقالة المقريزى والى المؤلفات المختلفة التى نشرت عن النقود الاسلامية ، وبصفة خاصة، المتحف السكوفى Museum cuficum لأدلر ، وكذلك مؤلف المسيو تيخسين ، والى مقالة المسيو مارسيل عن المسكوكات العربية والسكوفية فى كتاب وصف مصر .

وقد استهجن بعض الناس عادة تدوين عبارات دينية فوق النقود ، فى ذلك الوقت ، واستهجنها بصفة خاصة قارئى القرآن الذين استشاطوا غضبا أو وجدوها بمثابة اهانة أن يروا اسم الله والرسول وآيات القرآن تساق فى لغة دارجة او سوقية (٧) . فوق نقود هى عرضة لأن يحملها اليهود والنصارى والكفار والرجال على غير طهارة والنساء وقت الحيض او غير متطهرات (*) ، بل ان بعض الفقهاء المسلمين قد حرم استخدامها على الناس عندما لا يكونون فى حالة الطهارة التى يوجبها الشرع .

ومع ذلك فان فقهاء آخرين لم يكونوا من الراى نفسه ، وقد اجاب امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز هذه الاجابة التى تسترعى الانتباه ، حين اقترح عليه احدهم ان يحذف هذه العبارات الدينية ، **اتريدون ان تظن الامم اننا غيرنا عقيدتنا فى اله واحد وفى نبينا !!**

---

(٦) وبصفة خاصة نقود بيبرس التى سبقت الاشارة اليها ، القطعة رقم ٥٤ (بالجدول) .

(٧) استخدم الخط الفارسى فى البداية .

(*) الترجمة هنا ترجمة للمعنى . (المترجم)

وبرغم ذلك ، فبعد هذا بوقت طويل فقـد انتهى الأمر بذلك الراى الذى كان ينظر الى هذه العادة باعتبارها رجسا ان انتصر وظهر على غيره من الآراء ،ولم يعد يوضع فوق العملات الا اسم الحاكم والقابه وتاريخ ارتقائه وتاريخ سك العملة والمكان الذى سكت فيه .

ثالثـا : اسماء والقاب الأمراء

وبالاضافة الى هذه العبارات الدينية ، كانت النقود تحمل فى بعض الأحيان اسم الخليفة أو الأمير الحاكم .

ويبدو أن ابا جعفر المنصـور ، الذى بدأ حكمه فى العام ١٣٦ من الهجرة (٧٥٤ من تقويمنا) هو اول خليفة عباسى يأمر بوضع اسمه على النقود ، وان يكن من الملاحظ ان ذلك لم يحدث الا منذ العام ١٥٣ (٧٧٠ من تقويمنا) ،اما النقود التى تعود الى السنوات السابقة على ذلك فلم تكن تحمل سوى نصوص من القرآن .

وحين اصبح الأمير ابو العباس احمد بن طولون مطلق السلطة فى مصر (اى حين استقل تماما بحكم مصر) ، كما سبق لنا القول ، امر بأن تضرب دنانير لعله قد أمر بأن ينقش عليها اسمه .

ونتيجة لذلك ، فلسنا نعرف متى توقف تدوين أو نقش العبـارات الدينية فوق النقود المصرية بحيث لم تعد تحمل سوى أسماء والقاب الأمير الحاكم ، ولابد ان هذه العادة الأخيرة تعود الى سـلاطين آل عثمان ، ونعتقـد أنها قد بدأت فى عهد مراد بن اورخان الذى ارتقى العرش فى العام ٧٦١ من الهجرة (١٣٦٠ من التقويم الميلادى) .

وكان اسم الأمير ينقش كاملا ، بالأحرف كاملة ، وليس فى شـكل توقيع او تأشير (طغراء) ، ويليه اسم والده ، جريا وراء العـادة التى نقلوها عن العرب .

وهكذا نستطيع ، عن طريق هذا التوسع فى نقش اسم والد الحاكم ، أن نميز السلاطين الذين يحملون الاسم نفسه ، فلم تكن لدى العرب عادة التمييز بين هؤلاء عن طريق اسماء رقمية كما نفعل نحن بالنسبة للوكنا ;

فرانسوا الاول ، هنرى الرابع ، لويس الثالث عشر ، وحين نطلق اسماء مراد (٨) الثانى ومراد الثالث ومحمد الثانى ومصطفى الثالث ، فانما نفعل ذلك استجابة لعادة نتبعها نحن فى اوربا .

لذلك فنحن نقرا على العملات التركية اسماء :

مراد بن محمد

مراد بن سليم

محمد بن مراد

مصطفى بن احمد

سليم بن مصطفى

وتتميز الطريقة التى يتبعها الاوربيون فى الاشارة الى ملوكهم انها تدلنا على الترتيب الذى جاء عليه الامراء الذين يحملون الاسم نفسه ، فى حين ان الطريقة العربية ، لاتدلنا بشكل موضوعى بذلك فحسب ، بل انها تلقى مزيدا من الشكوك وعدم الدقة عندما يحدث ان يتكرر كل من اسم الاب والابن كما نجد ذلك عند كثير من السلاطين ، وهكذا نجد لدينا اثنين من السلاطين باسم محمد بن مراد ، او (طبقا لما اتبعناه فى الاشارة اليهما) محمد الثانى ومحمد الثالث ، واثنين آخرين باسم احمد بن محمد وهما احمد A hmed الاول واحمد الثالث ، واثنين ثالثين باسم مصطفى بن محمد ، وهما مصطفى الاول ومصطفى الثانى .

وهناك عملات ذهبية من الزرمحبوب كتبت عليها الاسماء هكذا بالحروف كاملة (٩) ، وهى تلك التى استمر ضربها حتى الوقت الذى شاع فيه بصفة تكاد تكون عامة تمثيل اسم السلطان على شكل نوع من التوقيع او التاشير ، وقد جاءت هذه العادة من القسطنطينية ، ويطلق اسم

---

(٨) مراد هو ما نطلق عليه اسم امورات Amurath.

(٩) انظر لوحات النقود ، الاشكال ١٠ ، ١١ ، ١٤ ، وهى التى رتبت فى جدول النقود الذهبية بالارقام من ٢٧ الى ٣١ ، ٣٩ ، ومن ٤١ الى ٤٤ .

طغراء (١٠) على الحروف أو التوقيع المختصر للسلطان .

اما قطع المندقلى ، وكذلك القطع ذوات الاربعين والعشرين مدينى، وكذلك الربعيات وقطع المدينى ، بل واحيانا قطع الجديد ، فلم تكن تحمل على الوجه ا سوى هذه الطغراء ، التى تشغل كل وجه القطعة ، اما وحدها ، واما بصحبة بعض الزخارف المنقوشة على هيئة ورود صغيرة والتى تستخدم بمثابة زينة .

واما فى العملات الذهبية التى يكتب فيها اسم الأمير على شكل توقيع او تأشير فتشغل الطغراء الجزء الأعلى من الوجه ا ، كما يمكننا ان نرى ذلك فوق القطع الذهبية التى رسمناها فى الأشكال أرقام ١٢ ، ١٣ (من اللوحة الثانية) و ٥ (من اللوحة الأولى) [١٠ ، ١٢ ، ١١ من اللوحة الأصلية بهذا الترتيب] . وهذا الرمز أو التوقيع ، طبقا لما يورده المسيو تيخسين لا يمثل فقط اسم السلطان مجدولا ومتشابكا فى خطوط ، بل انه يصور كذلك ، اذا مانظرنا اليه من الجانب ، فارسا يجرى وقد اطلق لحصانه العنان ، وهو أمر يبدو بالنسبة للمسلمين اختراعا حاذقا ، يتناسب بصفة عامة مع الروح القتالية عند الأتراك وهم الذين كانوا يفضلون القتال على ظهور الخيل فيما مضى .

ومن جهة اخرى ، فصحيح ان العرب ، شأنهم فى ذلك شأن الافريق فيما مضى ، فى أوقات انحدار الذوق السليم ، وكما هو الحال عند كتابنا ممن يتمتعون بمهارة يدوية تفوق مهارتهم فى التعبير ، يولون اهمية كبرى لهذه اللعبة الصبيانية التى يصورون فيها عند كتابتهم ، وبواسطة الحروف وخطوط الريشة الطيور والحيوانات المختلفة الخ ومع ذلك فان فكرة محاولة تشبيه تأشير السلطان برجل يمتطى جواده قد جاءت فيما يبدو من بعيد ، بل تبدو ايضا متكلفة ومصطنعة باكثر مما نجد عليه غالبية انتحالاتهم .

اما الأمر المؤكد فهو اننا نستطيع أن نميز فى هذه الرموز ، بالاضافة الى الخطوط المختلفة ، التى لا تستخدم فى العادة الا على سبيل الزخرفة ،

---

(١٠) طغرا (او طغراء) ، وهى كلمة تركية ، تختلف عن كلمة طغراى التى تعنى الحقيقة والتى يقدمها المسيو تيخسين باعتبارها اشتقاقا من هذه الكلمة الدالة على توقيع او تأشير السلطان .

حروفا من اسم السلطان مجدولة ومتداخلة على نحو قريب الشبه من شكل الطغراء او التأشير . ونلاحظ فى بعض الأحيان كذلك اسم والد السلطان، كما نلاحظ بصفة دائمة وجود لقب خان (١١) ومعناه الامبراطور .

ويقدم المسيو تيخسين فى مقدمته لمؤلفه عن النقود عند المسلمين ، ص ١٩ وما بعدها ، سلسلة الخلفاء الاول ، وخلفاء الأمويين ، وخلفاء العباسيين الذين ظلت مصر تابعة لامبراطوريتهم لوقت طويل ، ويقدم فى ص ١١٤ سلسلة الخلفاء الفاطميين الذين سيطر بعض منهم على مصر ، وفى ص ٢٣ سلسلة الخلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة التى خلقها سلاطين مصر بعد موت المستعصم بالله ، وفى ص ٢٨ سلسلة الايوبيين الذين اتخذوا فى مصر لقب ملك ، اما بالنسبة لقائمة المماليك فقد احال الى قوائم المسيو دى جنى M. de Guignes ، ويقدم فى النهاية فى ص ١٧٣ قائمة بسلاطين القسطنطينية ، والتى ينبغى ان نضيف اليها اليوم اسماء مصطفى بن عبد الحميد او مصطفى الرابع الذى ارتقى العرش فى العام الهجرى ١٢٢٢ (٢٧ فبراير ١٨٠٨) ومحمود بن عبد الحميد او محمود الثانى او محمد السادس الذى ارتقى العرش فى ١٢٢٣ من الهجرة (١١ اغسطس ١٨٠٨) .

وكان الحكام او الأمراء يضيفون بصفة عامة كنيات والقابا مختلفة الى اسمائهم .

وكانت هذه الالقاب فى العادة القابا دينية مثل عبد الله اى خادم الرب ، والظاهر بأمر الله الذى سما او انتصر بمشيئة الله ، والناصر لدين الله اى الذى يعمل على نصرة الدين ، والمنصور بالله والمستنصر بالله اى الذى ينصره الله او يستمد من الله النصر . وهذه الاضافة « بالله » قد استخدمها على التوالى كافة الأمراء العباسيين على وجه التقريب والحقوها هم بكنياتهم بدءا من المعتصم بالله بن هارون الرشيد الذى بدا حكمه فى العام ٢١٨ من الهجرة (٨٣٣ من تقويمنا) وحتى المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين المقيمين ببغداد والذى لقى حتفه

---

(١١) يقال على الدوام الخان الاكبر للتتار .

فى العــام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) حين استولت على هــذه المـدينة قوات امبراطور المغول منكوخان بقيادة هولاكو .

اما الخلفاء من سلالة العباسيين الذين نصبهم ســلاطين مصر او اعترفوا بهم عقب موت المستعصم بالله تاركين لهم ظلا من السلطــة او بمعنى اصح لقبــا لا فاعلية له وشرف تدوين اسمهم على العملات النقدية فقد ظلوا فى غالبيتهم ، يضيفون الى القابهم كلمة « الله » بدءا من المستنصر بالله فى العام ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ من تقويمنا) حتى المتوكل على الله آخر الخلفــاء العباسيين الذى اصــطحبه السلطان سليم الاول معــه الى القسطنطينية بعد ان تم له غزو مصر (١٢) .

وقــد اتخذ الخلفــاء الفــاطميون القــادمون من افريقيا واسبانيا كنيات مشابهة .

وتتشابه هذه العبارات الدينية الملحقــة باسماء الخلفــاء مع تعبير Dei gratiâ اى بفضل الله والتى دونت لوقت طويل ، اما كاملة وإما مختصرة فوق عملات كثير من الأمراء المسيحيين ، وبصفة خاصة فوق النقود الفرنسية .

اما الالقاب التى اتخذتها الاسرة الايوبية التى بدا حكمهــا لمصر فى العام ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) ، والتى تسمت على هذا النحو باسم ايوب والد صلاح الدين فقد كانت تنتهى بكلمة الدين (١٣) اى عقيدة الاسلام بدلا من ان تنتهى بكلمة الله اى الرب ، مثل صلاح الدين اى اصلاح او امن الدين ، ونصر الدين بمعنى دعم ومساندة الدين ، وسيف الدين ونجم الدين وغياث الدين اى حاميه ، وهذه الكنية الاخيرة كانت الكنية التى اتخذها المعظم (١٤) الذى بدا حكمه فى العام ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) والذى انتهت بنهاية حكمه

---

(١٢) فى العام ٩٢٢ هـ (١٥١٦م) امر سليم كذلك بان يشنق على احد ابواب القاهرة (باب زويلة) طومان باى اخر سلاطين مصر ، وقد تم ذلك فى العام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ من تقويمنا) .

(١٣) عندما تأتى اداة التعريف ال امام كلمة تبدا بحرف من الحروف التى يسميها العرب الحروف الشمسية ، يحل اول حرف فى الكلمة عند النطق محل اللام فبدلا من ان تقول تقى الدين (بتسكين اللام وكسر الدال) تقول ادين (بحذف اللام وتشديد وكسر الدال) .

(١٤) ولكنه اشتهر باسم توران شاه .

الاسرة الأيوبية . وفى بعض الأحيان كانت هذه الالقــاب تاتى للتفخيم او للتعظيم مثل الملك العادل ، والسلطان الأعظم اى بالغ القوة والنفوذ ، والناصر ، وتميز هذه الــكنية او اللقب بشــكل خاص ســلالة المماليك الشراكسة الذين استولوا على حكم مصر .

وكان الأيوبيون فى مصر ، بدءا من صلاح الدين فى العام ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) حتى المعظم غياث الدين ، يسبقون اسمهم بلقب الملك ، وسار على نهجهم كل من المماليك البحرية والمماليك الشراكسة .

اما لقب سلطان فقد اتخذه امراء متفرقون منذ زمان ضــارب فى القدم ، وتبناه بشكل دائم الاباطرة الاتراك فى القسطنطينية وجعلوه على الدوام يسبق اسماءهم .

وكانوا يضيفون بعد اسمهم واسم آبائهم ، سواء كانت النقود تحمل الاسم كاملا او فى شكل تاشير او طغراء ، كلمة خان ، وكنــا نقرا على الوجه الثانى (ب) من العملة هذه الكلمات مرتبة فى اربعة سطور :

سلطان البرين

وخاقان البحرين

السلطان بن

السلطان (١٥)

ولم تختلف هذه الالقاب قط فوق العملات الذهبية من الزرمحبوب منذ زمان طويل ، وتنتسب اقدم قطعة راينا عليها هذه الالقاب لمراد بن سليم الذى ارتقى العرش فى العام ٩٨٢ هـ (١٥٧٤ من تقويمنا) ، ولعلهاكانت تنتمى لفترة سابقة ، بيد اننــا نجد انفسنا نعود فى غالبية الأحيان ، فوق النقود الذهبية التذكارية ، الى حواشى قديمة ، فبدلا من ان يوضع اسم السلطان فى شكل تاشير او طغرا ، نجدهم يعودون فى بعض الأحيــان الى عادة كتابة اسم السلطان بكل حروفه ، وبدلا من القاب الحاكم التى

---

(١٥) البرين : اى الارضين اى اوربا وآسيا ، والبحرين : اى البحر الاسود والبحر الابيض المتوسط ، اما كلمة خاقان فتعنى عنــد التتــار كلمة : ملك .

انتهينا من ذكرها ، نراهم يعاودون استخدام القاب اخرى كانت مستعملة فى ازمنة اسبق ، وهكذا نقطع على القطعة الذهبية التذكارية المرسومة فى الشكل رقم ٦ من اللوحة الاولى والتى لا تحمل قط تاشيراً او طغراء ، وعلى الوجه ا منها :

سلطان مصطفى
بن احمد خان
عز نصره ضرب
فى مصر سنة
١١٧١ [اى فى العام ١٧٥٧ من تقويمنا]

وعلى الوجــــه ب :
ضارب النضر
صاحب العز والنصر
فى
البر والبحر
٨٧ [اى فى العام ٨٧—١١ هـ ويوافق ١٧٧٤ م]

وهى السنة التى ضربت فيها هذه العملة التى لابد أن ننسبها الى المملوك محمد بك (ابى الذهب) الذى خلف فى هذا العام على بك الشهير والذى جمع الى سلطة شيخ البلد التى اغتصبها من سيده وولى نعمته على (بك) ، لقب باشا الذى انعم عليه به السلطان مصطفى .

وهذه الصيغة هى على وجه الدقة الصيغة نفسها التى نجدهافوق العملات الذهبية التى يذكرها المسيو تبخسين والتى تنتمى لعهود عديدة كما تدل على ذلك ســنوات التنصيب أو التتويج ٩٧٤ هـ (١٥٦٦ م) ، ٩٨٢ هـ (١٥٧٤م) ، ١٠٠٣ هـ (١٥٩٥م) ، ١١٤٣ هـ (١٧٣٠م) والتى ضربت فى القسطنطينيــة والقــاهرة والجزائر المدينــة وتونس المدينــة وطرابلس (١٦) ، وهى الصيغة نفسها كذلك التى نجدها على نقود ذهبية ذات قطر اقل والتى نشرها المسيو بونفيل Bonaville برقم ١٦ عن النقود الذهبية التركية التى ضربت فى عهد على بك ، كما سنوضح فيما بعد ،

---

(١٦) ص ١٨٠ من مقدمة كتاب فن النقود والمسكوكات عند المسلمين.

اما السنة التى صنعت فيها وهى ١١٨٣ هـ (١٧٦٩ او ١٧٧٠ م) ، فهى سابقة باربع سنوات على تلك السنة التى ضربت فيها القطعة الذهبية التى ورد ذكرها من قبل .

رابعا : الاسماء والالقاب والحروف المميزة لنواب السلطان والحكام فى مصر الخ

فى بعض الاحيان كانت النقود تحمل ، بالاضافة الى اسماء الملوك او السلاطين الذين كانت مصر تابعة لهم ، اسماء النواب او اسم ابن الخليفة المرشح ليكون خليفته (ولى العهد) واسم حاكم مصر الخ مع اضافة كلمة « مما امر به الخليفة » (١٧) فى بعض الاحيان او « مما امر به » (١٨) احيانا اخرى ، او بدون هذه العبارة فى غالبية الاحيان ، وكما نرى على سبيل المثال ، فوق دينار حصلنا عليه واوردنا هنا حواشيه ، التى بدت لنا بالغة الاهمية اذ بينت عليه سنة ومكان الصنع .

ويحمل الوجه ا النصوص القرآنية نفسها التى نجدها على الدينار الذى تناولناه فى ص ٣٥٣ من هذه الدراسة ، فيما عدا اننا نجد فى منتصف القطعة ، اعلا الرمز ، اسم المامون ، وهو الخليفة المسلم السادس والعشرون ، والسابع من خلفاء العباسيين ، والابن الثانى لهارون الرشيد والذى بدا الحكم فى العام ١٩٨ هـ (٨١٣ من تقويمنا) .

وعلى الوجه ب ، فى منتصف القطعة ، وفوق صيغة : محمد رسول الله ، نقرأ اسم : « طاهر » ، وعند اسفل هذه الصيغة نجد اسم : السرى . اما طاهر ، فكان الوزير ، وكان يتمتع بكل ثقة ومحبة المامون الذى منحه بعد ذلك بوقت قصير حكم اقليم خوراسان وكل الشرق حيث استقل بالامر هناك ، اما السرى فكان حاكما لمصر ، والذى توفى بها فى العام ٢٠٥ من الهجرة (٨٢٠ من تقويمنا) .

---

(١٧) حول هذه الصيغة ، انظر المرجع السابق ، تاليف تيخسن ، ص ٦٦ وما بعدها .

(١٨) مع بنــاء الفعل للمجهول .

أما على حواف القطعة ، وبدائرها فنقرا :

بسم الله ضرب هــذا الدينـــار بمصر ســـنة ثلث (ثلاث) ومايتين
(اى ٨١٨ — ٨١٩ م) .

وهذا التاريخ يثير الفضول حيث كان ابراهيم بن المهدى قد حل فى الخلافة محل المامون فى العام ٢٠٢ من الهجرة (٨١٧ أو ٨١٨ م) وان كان قد عزل فى العام ٢٠٣ من الهجرة (٨١٨ أو ٨١٩ م) ، وتبرهن هذه المسكوكة التى نتعرض لها هنا أن السلطة قد اعيدت الى المامون فى العام ٢٠٢ من الهجرة ، أو تدل على الاقل ، ان النقود حتى هذه السنة كانت لاتزال تضرب باسمه .

ولم يكن يدون فوق العملات المختلفة — فيما نرى — ســـوى اسم الوزير او نائب الخليفة ، برغم ان هذا الوزير لم يعلن نفسه قط مستقلا ، فى حين راينا ان هؤلاء الذين استولوا على السلطة ، فى ازمنة اخرى ، واعلنوا من انفسهم ملوكا او سلاطين ، قد ظلوا يحتفظون ، على النقود التى امروا بأن توضع عليها اسماءهم والقابهم ، بأسماء الخلفاء الذين لم يعودوا يعترفون لهم بسلطة على الاطلاق ، وذلك اما لكى يقدموا لهــؤلاء ولاء لن يترتب عليه اى التزام ، واما لكى لا يدخلوا الشكوك على مسكوكاتهم الجديدة التى امروا بصنعها .

وفى عصور اكثر حداثة ، اضاف شيخ البلد (حاكمها أو سيدها)(١٩) والباشوات والبكوات الذين كانت تتبعهم دور سك النقود (الضربخانة) الحرف الأول او الحرفين الاولين من اسمائهم على قطع النقود ، فى عهود مختلفة ، كعلامات مميزة ، وكانت هذه الحروف توجد فى اماكن متفرقة ، فنجدها على الفندقلى نحو اسفل القطعة ، على الوجه ب قبل أو بعــد تاريخ التنصيب او التتويج والمعبر عنه بالأرقام ، كما يمكننا أن نرى ذلك على قطعة الفندقلى المرسومة فى الشكل رقم ٨ من اللوحة الثانية (٤ من اللوحة الأصلية) وعلى النصفية (نصف فندقلى) المرسومة فى الشكل

(١٩) لقب او منصب لايرجع انشاؤه الى ماقبل العــام ١١٦٧ من الهجرة [١٧٥٣ م] .

رقم ٤ من اللوحة الأولى (٧ من اللوحة الاصلية) (٢٠) حيث نجـد الرقم ١١٤٣ وهو سنة تنصيب او تتويج محمد بن مصطفى (١٧٣٠ من تقويمنا) مسبوقا بالحرف س (٢١) . وتوجد قطع اخرى من الفندقلى تعود للعهـد نفسه ، نرى عليها سنة التنصيب نفسها متبوعة بحرف ن .

ونلاحظ كذلك ، على قطع فندقى القسطنطينية ، وبشكل خاص فوق القطع التذكارية (أو الاسـتهلالية اى التى تضرب عند مستهل العـام الهجرى الجديد) منها حروفا مميزة على الوجه ب نحو اعلا القطعة . وفوق حرف البـاء من كلمة ضرب (*) ، وتلك هى قطع الفندقلى التى نشرها المسيو بونفيل بأرقام ٦ ، ٧ ، ٨ عن النقود الذهبية فى تركيا .

ونجد هذه الحروف الأولى فوق العملات الذهبية ، وعادة علىالوجه ب عند نهاية السطر الثالث من الحاشية ، فوق الحرف الاخير من كلمـة ابن وهو النون (٢٢) ، فى مكان الزخرف المرسوم على شكل ورود صغيرة او فى مكان الطغرا التى نلاحظ وجودها على قطع نقود ذهبية أخرىوفوق الحرف نفسه .

اما العملات الذهبية التى لا تحمل حـروفا أولى او طغرا ، والتى ضربت فى عهد مراد بن أحمـد (٢٣) ، الذى اعتلى العرش عام ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣ م) والتى رسـمناها فى الشـكل رقم ١١ من اللوحـة فتحمل « لام الف » (لا) .

ونلاحظ على الوجه ا للقطعة الذهبية التى نشرها المسيو بونفيـل تحـ ترقم ١٦ ، اللوحة الثانية ، عن النقود الذهبية التركية ، والتى نجد

---

(٢٠) انظر اللوحات الملحقة بهذه الدراسة ، وانظر ايضا عقب هذه الدراسة قطع الفندقى المذكور بجدول النقود بأرقام ١١ ، ١٣ ، ١٤ .

(٢١) انظر الجدول ، القطع من ١٠ الى ١٤ .

* تبدو هذهالحروف فى رقم ٦ ا ل وتقابل ـ او ح ، وفى الارقام ٧ ، ٨ عين (عـ ـــ ع) أو عـ ب ولعلها الحروف الأولى لكلمتى عبد الله

(٢٢) بن أو ابن ، واحيانا تقرا هذه واحيانا تقرا تلك فوق قطعالنقود، وان كنا نقرا الأخيرة فى اغلب الاحيان .

(٢٣) Amurath IV.

حواشيها وأطرها هى الأطر والحواشى نفسها التى للمسكوكات الذهبية التذكارية التى عملنا على رسمها فى الشكل رقم ٦ من اللوحة الأولى (١٢ من اللوحة الاصلية) عند اعلى القطعة ، وفى مكان الاطار الوردى الذى تحمله العملة المشار اليها (رقم ٦ من اللوحة الاولى فى هذه الدراسة) وجود حرفى العين واللام ، وهما الحرفان الأولان من اسم على بك ، موضوعين بعد كلمة سلطان وفوق كلمة مصطفى ، اما على الوجه فنجد الرقم ٨٣ الدال على ان هذه القطعة قد ضربت فى العام ١١٨٣ من الهجرة (١٧٦٩ او ١٧٧٠ من تقويمنا) وهى الفترة التى استقل فيها على بك ، وعلى هذا فان على بك لم يأمر قط بضرب النقود بسكته الخاصة (اى باسمه) كما يذكر المؤرخون (٢٤) ، وانما ضربها بسكة السلطان الحاكم مصطفى بن احمد ، فهو اذن لم يفعل سوى أن انتهج نهج شيخ البلد عندما امر بنقش الحروف الأولى من اسمه فوق قطع النقود .

اما القطعة الذهبية التى نشرها بونفيل برقم ٩ من اللوحة الأولى الذهبية التركية فتحمل حرف صاد (ص) (٢٥) ، وقد ضربت هذه القطعة فى القاهرة فى عهد السلطان عثمان بن مصطفى الذى ارتقى العرش فى العام ١١٦٨ من الهجرة (١٧٥٤ من تقويمنا) .

اما القطعة الذهبية التى رسمناها نحن فى الشكل رقم ٥ من اللوحة الأولى (١١ من اللوحة الأصلية) والتى ضربت فى القاهرة فى عهد مصطفى بن احمد الذى تولى الحكم فى العام ١١٧١ من الهجرة (١٧٥٧ من تقويمنا) فتحمل حرفى الميم والدال (٢٦) ، ويلاحظ وجود هذين الحرفين

---

(٢٤) Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, p. 110, ler Vol, édit 1787.

(٢٥) وهو يقابل حرف الـ s عندنا ، وقد اتفقنا عند اعداد وصف مصر على أن نجعل الـ s الفرنسية مقابلة للسين او الصاد اذ نحن لانستطيع فى حروفنا أن نبرز الفرق القائم بين النغمتين الصوتيتين لهذين الحرفين العربيين . ويلجأ بعض المهتمين ، حتى يفرقوا بين الحرفين ، أن يجعلوا الـ sh مقابلة للصاد . انظر التنويه الوارد عقب مقدمة وصف مصر (وقد وردت عقب مقدمة المسيو فورييه ، التى نشرناها ملحقة بالمجلد الأول من الترجمة العربية ، الطبعة الثانية — المترجم) .

(٢٦) مد ، ولعلهما اختصار لاحمد او محمد .

ننسبهما على قطعتين ذهبيتين نشرهما المسيو بونفيل ، احداهما تذكارية برقم ١٥ والاخرى عادية نشرت برقم ١٤ (اللوحة الثانية من النقود الذهبية التركية) ، وقد ضربت كلتاهما فى القاهرة فى العهد نفسه والسنة نفسها التى ضربت فيها القطعة الذهبية التى نشرناها نحن ، وان كان ذلك قد تم بسكة مغايرة ، كما نستطيع أن نرى ذلك عن طريق الاختلاف البين سواء فى حبيبات الاطار أو فى حروف الكتابة .

وتتميز كل واحدة من هذه العملات الثلاث بأنها تحمل ، الى جانب الحروف المميزة التى انتهينا من الحديث عنها ، رقما يدل على سنة الصنع ، وهو رقم لا نجده فى غالبية القطع الذهبية الأخرى اذ ان الحرف المميز يشغل مكانه (اى مكان الرقم) .

وتحمل القطع الذهبية الأخرى ، التى تدخل ضمن جدول العملات الملحق بهذه الدراسة ، بارقام مسلسلة هى ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، والتى تعود الى عهد مصطفى الذى تولى الحكم عام ١١٧١ هـ (١٧٥٧ م) ، وفى مكان التاشيرة او الطغراء المميزة الحرفين ميم طاء او ميم صاد (٢٧) .

وهناك قطع ذهبية اخرى ، وردت برقم ٢٧ (اللوحة رقم ٣ من النقود الذهبية التركية للمسيو بونفيل) ، ضربت فى القاهرة ، فى عهد سليم الذى تولى الحكم فى العام ١٢٠٣ من الهجرة (١٧٨٩ من تقويمنا) تحمل الحرفين : الف وسين (ا س) ، وهما الحرفان الاولان من اسم اسماعيل بك الذى ترك له حسن ، قائمقام باشا ، حكم مصر ، بعد حملته ضد البكوين ابراهيم ومراد ، والذى مات فى جائحة الطاعون الشهيرة بالقاهرة فى العام ١٢٠٥ من الهجرة (١٧٩١ من تقويمنا) .

واخيرا ، فهناك بين قطع النقود الذهبية والنصفيات التى ضربت (فى مصر) فى عهد الاحتلال الفرنسى عملات ضربت بمعرفتنا ، وقد احتفظنا ببعض منها ، وكان الحرف المميز الذى نقشناه عليها هو الحرف الفرنسى b ، وهو الحرف الأول من اسم القائد العام بونابرت **Bonaparte**.

---

(٢٧) مـ صد ، وقد تكون مص أو مط .

اما فيما يختص بالغروش التى امر على بك بضربها ، فان الحروف الاولى من اسمه توجد على الوجه ب عند اعلى القطعـــة ، وفوق حرف الباء من كلمة ضرب ، وفيها نجد حرف اللام متحدا بحرف الباء من كلمـــة ضرب ، عن طريق واحدة من هذه الزخارف المتكلفة الشائعة عند الكتاب العرب ، بطريقة تجعل منهما لاما وياء (لى) الأمر الذى تتكون معه كلمة على باكملها كما نستطيع ان نرى فوق القطعة ذات الاربعين مدينى التى معنا والتى رسمناها فى الشكل رقم ١٦ من اللوحة الثالثـــة (و ١٦ من اللوحة الأصلية) وفوق القطعة ذات العشرين مدينى والتى رسمناها فى الشكل رقم ٢٢ من اللوحة الرابعة (١٨ من اللوحة الاصلية) .

وتتميز قطع المدينى التى ضربت فى عهد على بـــك بنفس الحروف الأولى والتى رتبت بطريقة مشابهة ، وقد نشرنا صورة واحدة منها فى الشكل رقم ١٨ من اللوحة الثالثة (٢٠ من اللوحة الاصلية) . وفى الوقت نفسه فاننـــا نجد فى غروش على بك خاصية بالغة الاهمية ، اذ راق له ان يغير فى سنة الاصدار (او السنة التى تحملها القطعة النقدية)فجعلها سنة ١١٨٣ هـ (١٧٦٩ أو ١٧٧٠ م) بدلا من العام ١١٧١ هـ (١٧٥٧ م) وهى السنة التى تولى الحكم فيها السلطان مصطفى ، ان مادفعه لتجديد كهذا ، لم يسمح لنفسه به عند اصدار عملات اخرى هو بلا جدال رغبـــة خفية من جانبه فى تحسس الوقت الذى يمكنه فيه أن يعلن استقلاله او فقط تلمس السنة التى ينشىء فيها فى مصر صناعة هذه العمـــلات ، ولم يحتفظ على بك فيها مطلقا الا بطغراء السلطان الحاكم ، بحيث لانستطيع القول مطلقا بأن هذه العملات النقدية نفسها برغم انها من انشائة ، اى من انشاء على بك ، قد ضربت بسكته .

وحتى وقت قليل ، لم يستطع احد ان يقدم تفسيرا لمعنى او لسبب استخدام هذه الحروف التى نلاحظ وجودها فوق كثير من العملات التركية، والتى ــ اى الحروف ــ بدت فوق نطاق الحصر او بغير ذات معنى، لكننا سوف نستخدمها ، أذا ماتوصلنا الى معرفة اسماء الحكام من مشايخ البلد والباشوات او البكوات الذين تشير اليهم هذه العملات ، والى معرفة الزمن الدقيق أو المحدد (لتوليهم السلطة) فى تحديد فترة الصنع بدقة ،بالاضافة الى كل ماسبق ، لان هذه الحروف تأخذ عادة فوق القطع التى نلاحظها

عليها، مكان الأرقام التى كانت ستستخدم فى الدلالة على سنة تولى الحكم أو سنة الصنع فى حين لم تكن القطعة تحمل الا سنة تنصيب السلطان كما سنرى عند الحديث عن تاريخ الاصدار .

خامسا: الأدعيات أو الأمانى المرجوة للأمير الحاكم

وهذه صيغات مهذبة فى شكل دعوات وامنيات ، يتم التعبير عنهـا بأسلوب متميز نجده بصفة خاصة عند العرب ، بفعل عادة ضـاربة فى القدم ، وتضاف رغبة فى التكريم بعد اسماء كبار الشخصيات عندما يرد ذكرها ، مثال ذلك اسماء النبى وآل بيته والسلاطين او الحكام . واكثر الصيغات التى نقرؤها ، من هذا النوع ، فوق المسكوكات وقطع النقود هى : صلى الله عليه وسلم ، خلد الله ملكه وسلطانه ، خلد الله ملكه ، دام ملكه — وهذه الأدعية الأخيرة هى ما تحمله القروش او العملات التى لا تحمل طغراء السلاطين والمضروبة فى القسطنطينية ، والتى اورد المسيو بونفيل رسوما لها فى مؤلفه ، وتعود أولاها ، وهى المرسومة فى الشكل رقم ١ ، لعهد مصطفى ، الذى تولى الحكم فى العـام ١١٧١ الهجرى (١٧٥٧ من تقويمنا) ، أما الثانية والتى رسمت فى الشكل رقم ٤ فتعود الى عهد عبد الحميد ، الذى ارتقى العرش فى العام ١١٨٧ هـ (١٧٧٤ من تقويمنا) .

اما الصيغة التى شاعت منذ وقت طويل فهى : عز نصره ، ونجدها فى الوقت نفسه الذى نجد فيه الأدعية السابقة (دام ملكه) ، منقوشة فوق قطعة نقود تعود الى عهد بايزيد ، ثم نجدها وحدها فوق قطعة نقد ذهبية من عهد سليمان بن سليم الذى ارتقى العرش عام ٩٢٦ هـ (١٥٢٠ من تقويمنا) ، ونلاحظ أن نقوش هذه القطعة هى النقوش نفسـها التى سبق أن ذكرناها فى ص ٣٥٩ من هذه الدراسة .

وتشكل هذه الأدعية وحدها احد عناصر النمط الذى شاع استخدامه من العملات الذهبية على يد السلاطين منذ مايقرب من ثلاثة قرون ، كما يمكننا ان نرى فوق العملات الذهبية المختلفة التى رسمناها فى اللوحـة

الملحقة بهذه الدراسة (٢٨) .

ونجد هذه الصيغة نفسها على الوجه ا لقطع الزرمحبوب تالية لاسماء السلطان ، بعد كلمة خان ، بالنسبة للقطع الذهبية التى تحمل اسم السلطان مكتوبا بحروفه كاملة (٢٩) واسفل طغراء السلطان بالنسبة للقطع التى تحمل اسمه فى شكل تأشير أو طغراء (٣٠) . ثم نجد هذه الصيغة نفسها عند اعلا القطعة على الوجه ب بالنسبة لقطع الربعيات (٣١) ، وتقابل هذه الأدعيات تلك التى كانت تستخدمها فرنسا .

Domine, salvum fac Reg m.

اى **حفظ الله الملك** ، وهى التى نجدها محفورة على حواف نقودنا .

سادسا : المدن التى تسك فيها النقود

لم تكن المسكوكات القديمة تحمل اسم المدن التى ضربت فيها ، ولدينا على ذلك امثلة عديدة ، ذكرنا اثنين منها صص ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، من هذه الدراسة ، بالاضافة الى مثال آخر سيرد ذكره فى صفحة ٣٦٧ .

وقد استقرت منذ وقت طويل وبشكل مستمر عادة ذكر المدينة التى تضرب فيها النقود .

لكن المصريين المحدثين لم يستخدموا ، مثلما فعلت شعوب اخرى كثيرة ، عند الاشارة الى المدن او دور سك النقود ، رموزا او اشارات متفقا عليها او اختصارا او حرفا واحدا كما تحمل كل العملات الفرنسية

---

(٢٨) الوجه ا للاشكال ٥ ، ٦ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ والوجه ب من الشكل رقم ١٥ (من الطبعة العربية) .

(٢٩) انظر اولا : القطعتين رقمى ١٠ ، ١١ حيث تتجزأ فيهما هذه الصيغة : عز ونجدها فى نهاية السطر الثانى ، ونصره ونجدها فى بداية الثالث ، ثانيا : القطعة رقم ٦ حيث نجد الصيغة كاملة فى نهاية السطر الثانى ، ثالثا : القطعة رقم ١٤ حيث نجد الادعية نفسها فى بداية السطر الثالث .

(٣٠) انظر القطع المرسومة فى الاشكال ٥ ، ١٢ ، ١٣ .

(٣١) انظر الشكل رقم ١٥ .

حتى اليوم ، ويجدر بالذكر أن هذا الحرف ليس هو بالضرورة الحرف الاول من اسم المدينة اذ يشار الى باريس بالحرف A والى لاروشيل la Rochelle بالحرف H الخ (٣٢) .

ويخيل الينا ان النقود لا يمكنها ان تقدم ماننشده من الوضــوح فى مجال الدلالات او الرموز ، اذا نحن نظرنا اليها باعتبارها ابنية او منشآت تاريخية ، ان الاختصارات لا تكون ضرورة لا مفر منها الا حين تقتضى ذلك قلة اتساع سطحها ، ومن الأفضل الا تمس هذه الاختصــارات ســوى الــكلمات بالغة الشهرة او المالوفة للغاية ، وكذلك الكلمات الأقل اهمية والتى نستطيع ان نحدسها بسهولة . لا شىء اذن يمكنــه ان يحول دون أن نضع فوق عملاتنا اسم المدينة (التى سكت فيها) كاملا او مختصرا او على الاقل ان نشير اليها بالحرف الأول من اسمها .

اذن فقد كان المصريون ، ولا يزالون ، يكتبون اسم المدينة كاملا ، ولكى يكون الأمر بعيدا عن اى شك فانهم يكتبونه مسبوقا بكلمتى "ضرب فى" ، ونقرا اسم المدينة فوق كلمة « سنت » على الوجه ب خلف التاشير أو الطغراء وذلك فوق قطع الفندقلى ، وربعيات الفنــدقلى وكذلك فوق القطع ذوات الاربعين مدينى وذوات العشرين مدينى وفوق قطع المــدينى ايضا ، اما فوق العملات الذهبية الأخرى ونصفياتها ، سواء كانت تحمل طغراء او كانت بدونها (٣٣) فاننا نجدها على الوجه أ فوق سنة الاصــدار مباشرة ، ومتبوعة فى السـطر نفســه بكلمة « سنت » مكتوبة بحروف اصغر بكثير .

وتحمل القطعة رقم ٢٥ اسم المدينة : مصر ، موضــوعا فى اعلا القطعة ، فوق اسم السلطان محمود ، ويرجح ان كانت فوقها بعض حروف

---

(٣٢) بخصوص الحروف الدالة على المدينة او الدار التى سكت فيها النقــود ، انظر مؤلف المسيو بونفيل ص xxii ، وكان يشــار الى مدينــة بو بعلامة مميزة هى شكل بقرة ، بدلا من استخدام الحروف .

(٣٣) انظر على وجه التحديد الأشكال ١، ٢، ٣، ٤، ٧، ٨، ٩، ١٠ وكذلك الأشكال من ١٥ الى ٢٦ فيما عدا الشكل رقم ٢٥ .

لم نستطع تبينها ولم يستطع الحفار بسبب انطماسها ان يتمثلها عند حفره الشكل نفسه (رقم ٢٥) .

وفيما مضى ، كان اسم المدينة ياتى مسبوقا بحرف الجر ب (٣٤) ويقابل عندنا حرفى الجر a, par ثم استبدل به نهائيا ، ومنذ وقت طويل حرف الجر فى (٣٥) ويعنى عندنا dans او a .

اما مدن مصر ، التى كانت تضم فى الماضى دورا لضرب النقود فهى الاسكندرية ، والمنصورة ، وقوص والفسطاط او مصر العتيقة ، والقاهرة او مصر (بفتح الميم) .

والاسكندرية هى المدينة التى نطلق عليها نحن اسم Alexandrie، ودار سك النقود فى هذه المدينة البالغة القدم ، والتى تتمتع منذ اسسها الاسكندر بتجارة هائلة ، هى بالضرورة سابقة على دور ضرب النقود الاخرى ، اذا كانت لاتزال تعمل فى القرن السادس الهجرى (الثالث عشر من تقويمنا) ، ولم تكن دار سك النقود بالمنصورة قد انشئت بعد ، حتى

---

(٣٤) بدمشق ، بمصر (بفتح الميم) بالقاهرة .

(٣٥) الطريقة التى ترسم بها هذه الكلمة تسترعى النظر ، فحرف الياء يلتف ويستطيل ليقسم وجه القطعة الى قسمين ، انظر الاشكال ١،٢،٣،٤،٦،٧،٨،٩،١٠،١١ ، ومن ١٤ الى ٢٤ ثم ٢٦ ، اما فى القطع الذهبية ونصفياتها . التى تحمل طغراء او التى لا تحمل هذه الطغراء يستطيل حرف الباء من كلمة ضرب كذلك اسفل الياء من كلمة فى بطريقة يشكل معها هذان الحرفان خطين متوازيين يمضيان الى نهاية القطعة . انظر القطع ٥ ، ١٢ ، ١٣ . وفى بعض الأحيان نجد الياء غير منقوطة كما توضح ذلك اغلبية القطع المرسومة فى اللوحة الملحقة بهذه الدراسة ، وفى احيان اخرى توجد نقطتان اسفل الباء والى اليسار منها كما نجد فى القطع ارقام ٤،٧،٨،١٦،٢٢،٢٣،٢٦ وفى احيان ثالثة توضع النقطتان فوق الياء على جانبى طغرا السلطان كما نجد ذلك فى الشكل رقم ١٢ .

واخيرا نجد فى القطع الذهبية ونصفياتها ، التى تحمل تأشيرا او طغراء ، حرف الجر فى قد انتقل لياخذ مكانه اسفل الطغراء مباشرة ، ونجدها فى ترتيب الكلما تالمكتوبة الاولى من نقوش الحاشية وان كانت فى ترتيب النطق تاتى الرابعة ولابد ان تسبق كلمة مصر كما يحدث فى بقية القطع الاخرى ، وهذا التبديل فى ترتيب الكلمات أمر شائع الحدوث فى الكتابة العربية .

هذا المعهد ، وقد بنيت المنصورة ، التى كان مؤلفونا القدامى يسمونها la mans u·e ؛ بالقرب من النيل ، على فرع دمياط ، على يد المنصور بالله (٣٧) والد المعز لدين الله فى نحو العام ٣٣٨ من الهجرة (٩٤٩ من تقويمنا) ، وقد اشتهرت هذه المدينة بهزيمة الصليبيين الفرنسيين بقيادة القديس لويس ، الذى اقتيد فيها اسيرا . وكانت هذه المدينة فى بعض الاحيان مقرا للخليفة ، ونجد اسمها فوق بعض من قطع النقود وبعض المسكوكات او الأنواط الزجاجية بالاضافة الى اسم المعز لدين الله (٣٨).

اما قوص ، وهى ابوللينو بوليس بارفا فى مصر العليا ، فتقع على بعد ١٣٠٠ متر من شواطىء النيل ، وقد اختيرت ، بسبب موقعها القريب من النيل ومن مدينة القصير دون شك ، لكى تكون نقطة لقيام ووصول القوافل التى تتعهد تجارة الجزيرة العربية والهند مع مصر . واذا ماصدقنا مايذكره ابو الفداء ، فقد كانت هذه المدينة ، هى اهم مدينة فى كل البلاد بعد الفسطاط ، وقد كانت هى مرفا التجارة الكبرى التى كانت تتم عن طريق الخليج العربى (البحر الأحمر) ، وتتطابق مساحات الانقاض الواسعة التى تحيط بموقع المدينة تمام التطابق مع شهادة ابى الفداء ، لكن قوص اليوم لم تعد سوى نجع صغير ، وتحولت اعداد كبيرة من مساكنها المهجورة الى خرائب ، اما الغالبية العظمى من سكانها ، فهم من المسيحيين الاقباط (٣٩) .

وكانت مصر العتيقة ، او الفسطاط (٤٠) قديما ، تقع على النيل

---

(٣٦) او المنصورية :

(٣٧) توفى المنصور بالله فى عام ٣٤١ هـ [٩٥٣ من تقويمنا] .

(٣٨) انظر :

Adler, museum cuficum Borgianum, tom II, p 151.

(٣٩) انظر : دراسة موجزة عن خرائب قفط وقوص ، تاليف السيدين جولوا وديفيلييه ، وصف مصر ، العصور القديمة ، المجلد الثانى ، الفصل العاشر ، ص ٦٦ .

(٤٠) الفسطاط وتعنى الخيمة ، فقد بنيت هذه المدينة بامر من عمرو ابن العاص ، فى المكان نفسه الذى امر بان تضرب فيه خيمته على شاطىء النيل ، وتسمى اليوم مصر العتيقة .

مباشرة ، وتقع القـــاهرة الجديدة علي مسافة قريبة منها ، وهناك ترعة يحمل اليها مياه النيل .

وطبقا لمـــا يقول المقريزى ، فقد دخل جوهر الخطيب الصقلى مصر على رأس جيش المعز لدين الله فى العام ٣٥٨ من الهجـــرة (٩٦٩ من تقويمنا) ، وبنى فى المكان نفسه الذى كان قد عسكر فيه القاهرة (٤١)، التى أصبحت مقرا لامبراطورية الخلفاء ، وامر بأن تضرب باسم الخليفة المعز كمية هائلة من الدنانير ، كان السطر الثالث من النقوش المـــدونة عليها يحمل عبارة : ضرب فى مصر سنت ٣٥٨ .

ونادرا ما يشار فى العربية الى القاهرة باسمها هـــذا ، بل يطلقون عليها اسم مصر (بفتح الميم) فى السياق التاريخى ، ويطلق هذا الاسم كذلك على مصر كلها ، وهى الكلمة الوحيدة التى نقرؤها فوق العمـــلات منذ قرون كثيرة ، فيما عدا درهم ركن الدين بيبرس الذى سبقت الاشارة اليه ، حيث نقرا عبارة : ضرب بالقاهرة .

وقـــد اقيمت دار ســـك النقود فى البـــداية بجوار محل للتروس او الدروع ، كانت تسمى فى زمن المقريزى باسم خان مسرور الـــكبير (*).

وحين امسك صلاح الدين بمقاليد الأمور فى مصر ، امر بنقل هـــذه الدار الى مكان آخر ، فبنيت دار جديدة تسمى القشاشين ، واطلق عليها اسم الدار الآمرية باسم الخليفة الآمر بأحكام الله ، أما الدار القديمة فقد بقيت لصنع بعض المسكوكات الخاصة حيث كانت تضرب العملات التذكارية، ومسكوكات خميس العدس التى تناولناها من قبل فى ص ٣٣٩ من هذه الدراسة ، وهى اليوم فى قصر قلعة القاهرة ، وقد بنيت فوق جـــدران القصر تجاه جبل المقطم (٤٢) ، الذى يكتشف المرء عند سفحه ، حين يطل من اعلا القلعة ، مدينة المقابر ، وهى اقدم واهم جبانة فى القاهرة .

---

(٤١) القاهرة اي الظافرة ، وتبعا لمـــا يقول ابو الفداء فقـــد وضع جوهر أساسها فى العام الهجرى ٣٥٩ (٩٦٩ من التقويم الميلادى) .

(٤٢) وتعنى الـــكلمة بالعربيـــة المقطوع ، وهو الجبل الذى يحف بالشاطىء الشرقى للنيل ، فى مواجهة الهضبة الليبيـــة التى تمتد بطول الشاطىء الآخر .

(*) خان أى سوق .

ودار سك النقود فى القاهرة هى وحدها التى توجد حاليا فى مصر، يعود انشاؤها الى العام الالف من الهجرة (١٥٩١ من تقويمنا) ،وتسمى ار سك النقود بالعربية باسم دار الضرب اى الدار التى تضرب او تسك يها النقود (الضربخانة) .

سابعا : تاريخ الاصـــدار

توضح النقود العربية الضاربة فى القدم سنة الصـــنع لكنها لاتذكر سنة تنصيب أو تتويج الأمير ، ويعبر عن تلك السنة بالحـــروف كاملة . قد قدمنا لذلك من قبل مثالين : احدهما من العام ٩٧ من الهجرة (٧١٦م) ى ص ٣٥٤ من هذه الدراسة ، وثانيهما من العـــام ٢٠٣ من الهجـــرة ٨١٨ أو ٨١٩ من تقويمنا) فى ص ٣٦٠ من هذه الدراسة ، وبامكاننا ن نورد من ذلك امثلة اخرى عديدة ، لـــكننا نكتفى بان نشير ، كمثـــال الث ، الى دينار حصلنا عليه يحمل هذه العبارة : بسم الله ضرب هـــذا ادينار فى سنت ثنتين وسبعين وميه (١٧٢) ، وهو تاريخ يوافق عهد هارون الرشيد ، الذى بدا حكمه فى العـــام ١٧٠ من الهجرة (٧٨٦ من لتقويم المسيحى) . اما العبارات القرآنية المدونة عليه فهى نفسها التى كرناها فى ص ٣٦٠ ، وان كانت هذه القطعة النقدية لا تحمل لا اسماء لخليفة ولا اسماء عماله ولا اسم المدينة التى ضربت فيها .

ويحسن بنا ان نسترعى نظر اولئك الذين لم يألفوا اللغة العربيـــة لى ان الأرقام تكتب وتلفظ بدءا من الآحاد ، فهم يلفظون العدد ١٧٢ على سبيل المثال على النحو التالى : اثنان وسبعون ومائتان ٪ وهكذا ٪ فبرغم ن العرب يرتبون الأعداد التى استعاروها منا بالترتيب نفسه الذى نضعها ليه ، فانهم يقراون ويكتبون الأرقام معكوسة مثل بقية كتاباتهم اىباتجاه عاكس لاتجاهنا ، ذاهبين من اليمين الى اليسار .

ولا يزال القوم فى بعض اقطار الامبراطورية العثمانية يسجلون على العملات ، وبحروف عربية ٪ سنة صنعها ، وهو مانراه فوق القطعةالذهبية القطعتين الفضيتين ، وهى القطع الثلاث المرسومة فى مؤلف المســـيو

بونفيل ، اللوحة ٥ ، الخاصة بالعملات النقدية فى اقطار البربر ، بارقام ٢٠١٠٦ ، والمضروبة فى تونس المدينة ، الأولى فى عهد مصطفى فىالعام الهجرى ١١٨٧ (١٧٧٣ م) والثانية فى العهد ذاته فى العام ١١٨٦ من الهجرة (١١٧٢ م) أما الثالثة فتعود الى عهد سليم فى العـــام ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) .

ومع ذلك فقد رجحت منذ زمان طويل ، وفى الغالبية العظمى مندور سك النقود فى الامبراطورية العثمانية عادة ان تبين فوق النقـــود سنة التتويج بدلا من سنة السك وأن تكتب الأعداد بالحروف وليس بالأرقام ، كما نســـتطيع ان نرى على كل القطع المرســـومة فى اللوحات الملحقـــة بهذه الدراسة .

وقد قادت هذه العادة الـــكثير من المؤلفين الى الخطأ ، فقد اخذوا السنة التى تحملها القطعة باعتبـــارها سنة الصنع ، فى حين يحتمل ان تكون القطعة النقدية قد ضربت بعد ذلك بسنوات عدة .

وقد اشير الى العملات التركية الواردة فى المؤلف الرائع الذىوضعه بونفيل عن النقود الذهبية والفضية فى الدول المختلفة ، باعتبارها تنتمى لهذه السنة أو تلك وليس لهذا العهد او ذاك (اى انه اعتبر سنةالتتويج هى سنة الاصدار) .

ونعتقد أن علينا هنـــا أن نورد الأرقام العربية مقابلة بارقامنا حتى نلم بأشكالها الحالية وحتى نتعرف بعد ذلك على قيمتها فى المسكوكاتالتى رسمناها فى وصف مصر :

٠	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
0	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10

ويأخذ رقم خمســـة (٥) عنـــدهم رقم الصفر (0) عندنا ، فى حين يكتبون هم الصفر على شكل نقطة .

وتوجد سنوات التتويج ، بالنســـبة لقطع الفنـــدقلى والقطع ذوات الأربعين والعشرين مدينى والمـــدينى والعمـــلات النحاسية ، مدونة على الوجه ب عند أسفل القطعة وهو الوجه المقابل للوجه الاخر الذى يحمل

طغراء السلطان . اما فى القطع الذهبية الاخرى (الزرمحبوب) فيوجد هذا التاريخ على الوجه أ الذى يحمل اسماء السلاطين مكتوبة بالحروف كاملة أو فى صورة طغراء .

وعلى الدوام ، تسبق كلمة سنة ، وهى تعنى كذلك العام ، تاريخ الضرب المكتوب بالحروف كاملة او بالارقام على العملات المصرية القديمة والحديثة ، كما يمكننا ان نرى من الأمثلة التى ذكرناها من قبل ، وفى العملات التى رسمناها فى اللوحة الملحقة بهذه الدراسة ، فى حين اننا لا نقرأ كلمة « سنت » هذه على اى من عملات القسطنطينية ، كما يمكننا من ذلك من فحص كل القطع التى نشرها المسيو بونفيل فى مؤلفه ،وكما يدعم ذلك الراى ، تلك القطع التى حملناها معنا من مصر .

وقد سبق لنا ان لاحظنا ان المملوك الشهير على بك ، الذى امتثل هو نفسه للعادة السائدة بشكل عام فى القسطنطينية والقاهرة الخ حين امر بأن تكتب على العملات (التى اصدرها) سنة تنصيب السلطان مصطفى وهى العام ١١٧١ الهجرى (١٧٥٧ م) ، وانه قد نحى هذه القاعدة فى الوقت نفسه ، من القطع ذوات الـ ٤٠ والـ ٢٠ مدينى التى تحمل كلها « سنت » ١١٨٣ (١٧٦٩ أو ١٧٧٠ من تقويمنا) .

ونلاحظ ، بخلاف الارقام الدالة على سنة التنصيب او التتويج ، وفوق قطع نقدية عديدة من اصدار القاهرة والقسطنطينية وجود ارقام تختلف التفسيرات بشأنها ، وان كانت تتفق كلها فى النظر اليها باعتبارها جاءت خصيصا للاشارة الى زمن الصنع .

وتوضع هذه الارقام فى قطع الفندقى ، والقطع الفضية وقطع المدينى ، بل كذلك العملات النحاسية ، والتى تحمل كلها طغراء السلطان ، على الوجه ب ، عند اعلا القطعة ، فوق حرب الباء من كلمة ضرب (٤٣)، وهو الشىء نفسه الذى لاحظه المسيو تيخسين Tychsen فى مقدمته عن

---

(٤٣) انظر القطع المرسومة فى الاشكال ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٦ ، وكذلك القطع الواردة بجدول النقود او العملات بأرقام مسلسلة : ٢٥، ٥٩، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٨٣، ٨٤ .

من النقود الاسلامية بخصوص القطع التى ضربت فى القسطنطينية والتى تحمل طغراء السلطان . ومع ذلك فلا يبـدو انه قد لوحظ من قبل وجود ارقام اخرى كذلك فوق القطع الذهبية صنع القـاهرة والقسطنطينية ، وسواء كانت هذه العملات تحمل اسم السلطان كاملا أم تقتصر على طغرائه ، الغرض منها ان تشير بايجاز الى سنة الصنع او سنة التنصيب وتوجـد بالمثل على الوجه ب ، تحت السطر الثالث أو السطر قبل الأخـير على يسار القطعة فوق حرف النون من كلمة ابن (٤٤) وتعنى ولد ، او عنـد اسفل القطعة على اليسار كذلك كما نجد ذلك فى القطعـة رقم ٦ من اللوحة الأولى فى دراستنا هذه ، او على اليمين كما فى القطع المرسومة فى مؤلف المسيو بونفيل ، برقم ١٢ من اللوحة الثانية عن النقود الذهبية فى تركيا .

وقد ظن المسيو دى ساسى فى البداية ان هذه الأرقام كانت تدل على الترتيب فى عدد السنوات التى استغرقها العهد (اى ترتيبها فى مدة حكم السلطان) ، وقدم هذا التفسير الى ادارة المسكوكات والنقود فى باريس .

كذلك ظن المسيو تيخسين فى الجزء الذى اضـافه الى مقدمته لفن النقود عند المسلمين ص ٦٣ ، ان هذه الأرقام التى نلاحظ وجودها زيادة على سنة التنصيب ، والتى لم يستطع ان يعطى تفسيرا لها فى مقدمته ، تدل ببساطة على السنة التى تولى فيها السلطان ، ولاحظ ان هذه هى العادة نفسها المتبعة فى امبراطورية المغول .

وقد كان تخمين هذين العالمين صحيحا بخصوص قطع نقدية عديدة ، وعلى سبيل المثال فان الرقم ٢ الذى نلاحظ وجوده على الوجـه ب قرب السطر قبل الأخير ، فوق نصفيات القطع الذهبية التى نشرناها برقم ١٤ من اللوحة الثانية ، والمضروبة فى القاهرة فى عهد السلطان عبدالحميد بن احمد الذى اعتلى العرش فى العام ١١٨٧ من الهجرة (١٧٧٤ م) ، وعلى القطعتين الذهبيتين اللتين نشرهمـا بونفيل برقمى ١٧ ، ١٩ والمضروبين

---

(٤٤) انظر القطع المرسومة فى الاشكال ٥، ٦، ١٢، ١٣، ١٤ فى اللوحات المرفقـة وكذلك القطع الواردة بجـدول العملات بارقام مسلسلة : ٣٤ ، ومن ٤٠ الى ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٣ .

كذلك فى القاهرة فى العهد نفسه ، يدل فى الواقع وبوضوح على السنة الثانية من عهد هذا السلطان .

والأمر نفسه بخصوص رقم ٢ الذى تحمله قطع المدينى المرسومة برقم ١٩ من اللوحة الثالثة من اللوحات الملحقة بهذه الدراسة ، ونتيجة لذلك فان هذه القطع الأربعة قد ضربت فى السنة نفسها وهى السنة نفسها من عهد عبد الحميد ، اى فى العام ١١٨٨ أو ١١٨٩ من الهجرة (١٧٧٥ من تقويمنا) .

وواضح ان هذه الاشارة نفسها قد اتبعت بصفة عامة فى عهد عبد الحميد ، وبشكل خاص فى القسطنطينية بالنسبة لقطع الفندقى ، كما تمكن رؤيتها على القطع المرسومة فى مؤلف المسيو بونفيل سواء فى ذلك الفندقى الكبير المرسوم فى الشكل رقم ٢٠ من اللوحة الثالثة والقرش المرسوم فى الشكل رقم ٣ من اللوحة الرابعة ، عن النقود التركية .

وتعود هاتان القطعتان الى السنة الأولى من عهد عبد الحميد ، ويعود القرش المرسوم فى الشكل رقم ٥ الى السنة الثانية ، ومثيله المرسوم برقم ٤ الى السنة الثالثة ، اما القطعة ذات نصف الفندقى الواردة بالشكل رقم ٢٣ من اللوحة الثالثة والمضروبة فى استانبول فتعود الى العام الخامس عشر اى الى العام ١٢٠١ او ١٢٠٢ من الهجرة (١٧٨٧ او ١٧٨٨ م) واخيرا فان الفندقلى المرسوم فى الشكل ٢٢ ، المصنوع بذوره فى استانبول ، قد ضرب كما يدل رقم ١٦ الذى يحمله فى العام السادس عشر او العام الأخير من حكم عبد الحميد اى فى العام ١٢٠٢ هـ (١٧٨٨م) أو فى بداية العام ١٢٠٣ هـ وهى السنة نفسها التى توافق السنة الأولى من حكم سليم الثالث اى سنة توليته الحكم ، وهو الأمر الذى تم فى السابع من ابريل عام ١٧٨٩ م .

ومع ذلك ، فان مما يسترعى الانتباه بشدة هو أن هذه الاشارة نفسها ، لم تكن تتبع على الدوام فى عهد عبد الحميد نفسه ، وهو نفس الأمر الذى سيسترعى انتباهنا بخصوص عهد سليم كذلك .

ويبدى المسيو تيخسين فى ص ١٨٢ من مقدمته عن فن النقود والمسكوكات عند المسلمين الملاحظات التالية :

أولا : ان العملات ذات الاقطار الـكبيرة وحدها ، من بين تلك القطع التى تحمل على أحد وجهيها طغراء السلطان وحدها ، هى التى تحمل ، بالاضـافة الى سنة الاصدار ، رقمـا آخر فوق حرف البـاء من عبارة ضرب فى .

ثانيا : ان العملات ذات القطر الصغير لاتحمل قط كلمـة : ضرب عند راسها .

ثالثا : ان الأرقام ، بخـلاف تلك الدالة على سنة التنصيب أو سنة الضرب . هى خاصة على نحو ما بالنقود ذات القطر الـكبير فقط ، والتى صدرت على وجه التحديد فى عهد مصـطفى الثـالث ، والتى سكت فى القسطنطينية دون غيرها ، وانه يستبدل بها على القطع من ذوات القطر الصغير شريطا من الزهور أو النجوم .

رابعا : ان الارقام التى نلاحظها فوق القطع المذكورة آنفا من عهد مصطفى هى : ٢، ٣، ٤، ٦، ٨، ٩، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٨٧ وان كان هو نفسه يجهل ماتعنيه هذه الأرقام ، مع ملاحظة أن هذه الأرقام لايمكنها ان تشـير الى السنوات التى استمر خلالها عهد مصطفى لان حكمه لم يدم الا سبعة عشر عاما وليس ثمانين عاما وبضع سنوات .

خامسا : انه لم يلاحظ من بين النقود التى اصدرها مصطفى قطعة واحدة ، سواء كانت تحمل طغراء او لم تكن تحمل هـذه الطغراء تحمل ارقاما اخرى بخلاف الرقم ٨٠ وبضع ، اذا مااسـتثنينا تلك التى تحمل رقما واحدا بمفرده .

سادسا : انه يفترض ، عندما يكون هناك رقمان (اى عددا مكونا من رقمين) فاننا بجمعهما نصل الى تلك السنة من العهد ، التى ضربت خلالها هذه العملات ، فعلى سبيل المثال ، فان الرقم ٨٧ قد يدل على السنة الخامسة عشرة من حكم (هذا السلطان) .

ونحن بدورنا نلاحظ ما يلى :

أولا : ان الأرقام التى يشغلنا أمر العثور على معنى لهـا لايقتصر وجودها على النقود ذات الاقطار الـكبيرة ، وانما هى توجد كذلك فوق

القطع ذات القطر الصغير ، وتقوم العملة النحاسية التى اوردنا رسما لها فى الشكل رقم ٢٦ مثالا على ذلك ، وسنقدم امثلة كثيرة اخرى عن ذلك تبينها لنـا العملات الذهبية زرمحبوب الصادرةفى العهد نفسه ، وهى التى لا يمكننا ان ننظر اليها باعتبارها من ذوات القطر الـكبير .

ثانيا : من المؤكد ان اصغر قطعة من العملات الفضـية تضرب فى القسطنطينية ، وهى التى رسمها المسيو تيخسين فى لوحته الرابعة برقم ٤٧ ، والتى تقل قيمتها عن بارة ، لا تحمل كلمة : ضرب ، وقد نقلنا معنا من مصر قطعنقود صغيرة مشابهة ، ضربت فى المثل فى استانبول ، ومع ذلك ، فلابد ان صغر سطح هذه العملة هو الذى حتم على المختصين ان يضعوا عليها هذه الكلمة التى نجدها على كل النقود او العملات الاخرى سواء المضروبة فى القاهرة أو القسطنطينية حتى تلك القطع ذوات القطر الصغير ، ولدينا قطعة من ذوات نصف الفندقلى ، مضروبة فى استانبول يعود اصدارها الى سنة التتويج ، وقد اوردناها داخل جدول العمـلات الملحق بهذه الدراسة برقم مسلسل ٥ ، نقرا عليها كلمة ضرب ، شـانها شان قطع العملة ذات القطر الـكبير .

ثالثا : اما الارقام الخاصة التى نحن بصددها فيلاحظ وجودها كما سنرى فوق قطع نقود اخرى تنتمى لعهود اخرى غير عهد مصطفى ،فالقطع النقدية الصادرة فى عهد سليم تقدم لنا امثلة كثـيرة على ذلك ، وقـد أوضحنا للتو ان وجود هذه الأرقام لايقتصر فقط على العملات ذات القطر الـكبير . لذلك فلسنا نعتقد انه لم يحدث قط ان راينا الأرقام التى نحن بصددها تستبدل بها فوق القطع من ذوات القطر الصغير زخرفا علىشكل مقد من الزهور او النجوم ، وان كانت تحل محلها فى بعض الاحيانحروف مميزة بالنسبة للقطع من ذوات القطر الصغير والصادرة فى عهد مصطفى، كما تدل على ذلك قطعة المدينى التى أوردنا رسما لها فى الشكل رقم ١٨ من اللوحة الثالثة ، وكذلك بالنسبة لقطع من ذوات القطر الكبير ، ضربت فى عهود اخرى ، ويمكننا ملاحظة ذلك على قطع الفندقلى الثلاث المنشورة فى مؤلف المسيو بونفيل ، اللوحة الاولى من النقود التركية .

رابعا : واليكم الآن حقيقة ماتعنيه هذه الأرقام ، إنها الأرقام الأخيرة من سنة الضرب او اذا شئنا الدقة فهى اختصار لتاريخ الضرب .

فاذا حدث ، عندما يتولى سلطان ما ، ان كان الرقم الاخير من سنة التنصيب هو الذى يتغير ، فان قطعة العملة لا تحمل سوى رقم واحد (هو الذى يتناوله التغيير) ، وعلى هذا فان قطع النقود التى يذكرها المسيو تيخسين ، والمضروبة فى عهد مصطفى ٣ الذى بدا حكمه فى العام ١١٧١ هـ (١٧٥٧ م) تحمل الارقام ٢،٣،٤،٦،٨،٩ لانها ضربت فى الاعوام الهجرية ١١٧٢ ، ١١٧٣ أ ، ١١٧٤ ، ١١٧٦ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ .

وتحمل قطعة النقد الذهبية المسكوكة فى القاهرة والتى اوردنا لها رسما فى الشكل رقم ٥ من اللوحة الاولى ، على الوجه ب الرقم ٦ الذى يدل على ان هذه القطعة التى سكت فى عهد مصطفى قد ضربت فى العام الهجرى ١١٧٦ (٦٢ أو ١٧٦٣ م) ولسنا نشك فى ان قطعتى النقد الذهبية ، اللتين نشرهما المسيو بونفيل برقمى ١٥ ، ١٤ من لوحته الثانية من النقود التركية ، واولاهما قطعة عملة تذكارية فى حين ان الثانية قطعة نقد عادية ، وكلتاهما تنتمى للعهد نفسه — لسنا نشك فى انهما لم تضربا فى السنة نفسها التى تحملها القطعة التى فى حوزتنا ، ونرى ان الرقم الدال على سنة الصنع والذى لم يحفر بشكل جيد ليس كذلك هو الرقم ٦ .

خامسا : اذا كانت الارقام الاخيرة من سنة الضرب او الاصدار تختلف عن الارقام المقابلة فى سنة التتويج ، فان قطعة النقد فى هذه الحالة تحمل رقمين : فالاعداد ٨٣ ، ٨٥ ، ٧٦ ، ٨٧ التى يوردها المسيو تيخسين تشير بالنسبة لتحديد سنة الاصدار الى الاعوام ٨٣ — ١١ ، ٨٥—١١ ، ٨٦—١١ ، ٨٧—١١ من الهجرة (٤٥) ، وحيث ان مصطفى الثالث قد بدا حكمه فى العام ١ — ١١٧ حتى العام ٨٧—١١ من الهجرة ، فانه يكون من الواضح أن الارقام الدالة على سنة الاصدار لايمكن ان تاتى متضمنة فى الاحاد او فى الرقم ٨٠ .

سادسا : لقد رسمنا قطعة نقد ذهبية فى الشكل رقم ٦ من اللوحة الاولى ، ذات قطر كبير وتعود الى عهد مصطفى الذى تولى الحكم فى العام

---

(٤٥) وهى تقابل السنوات ٦٩ او ١٧٧٠ ، ١٧٧١ ، ١٧٧٢ ، ٧٣ أو ١٧٧٤ من التقويم المسيحى . انظر الهامش التالى .

١١٧١ هـ ، وضربت فى القاهرة ، وتحمل على الوجه ب الرقمين ٨٧ (٤٦)، مما يعنى أنها قد سكت فى العــام ١١٨٧ هـ (٧٣ او ١٧٧٤ م) ، وهى السنة السادسة عشرة من حكم مصطفى ، او بـداية السابعـة عشرة والأخيرة من حكمه فى الوقت نفسه ، فلو اننـا قمنا بجمع الرقمين ٨٧ فلن نحصل عندئذ الا على الرقم ١٥ (الذى يدل على السنة الخامسةعشرة من عهد مصطفى) .

اما قطعة العملة النحاسية ذات القطر الصـغير والتى ننشرها فى الشكل رقم ٢٦ والتى ضربت فى عهد مصطفى ، فقد صدرت فى العـام الهجرى ١١٨١ (٦٧ او ١٧٦٨ م) كما يوضـح لنـا الرقم ٨١ المنقوش عند اعلا القطعة . اما القطعة الذهبية المرسومة فى الشكل رقم ١٦ من اللوحة الثانية من النقود التركية فى مؤلف المسيو بونفيل ، والمضروبة فى القاهرة ، والتى تحمل الحروف الأولى من اسم على بك فتعود الى العام الهجرى ١١٨٣ (١٧٦٩ او ١٧٧٠ م) ، وتعود القطعة المرسومة برقم ١٢ (فى مؤلف المسيو بونفيل) والمضروبة فى اسلامبول الى العامالهجرى (٧٢ او ١٧٧٣ م) ، وباختصار ، فلن يذهب سدى ان نحاول المقارنة بين القطعة ذات الاربعين مدينى التى اصدرها على بك والمضروبة فى القاهرة والتى قمنا بنشرها وتناولناها فى ص ٣٦٨ بقطعة اخرى ذات ٤٠ مدينى كذلك ، ضربت فى القسطنطينية فى السنة نفسها كما يوضح ذلك الرقم الذى تحمله وهو ٨٣ ، وتحمل التاريخ ٧١ــ١١ وهو سنة تنصيب مصطفى (النقود الفضية فى تركيا ، القطعة رقم ٢) .

عندما تختلف سنة الصنع او الاصدار عن سنة التنصيب او التتويج فى الأرقام الثلاثة الاخيرة نلاحظ وجود ثلاثة ارقام على القطع النقدية ، فقطعة المدينى المرسومة فى الشكل رقم ٢٠ من لوحتنا الثالثة والتىتحمل الرقم ١٨٧ــ١ ، وهى سنة تنصيب عبد الحميد بن احمد تحمل فى اعلاها

(٤٦) وهى اختصار ١١٨٧ وهى السنة نفسها التى تولى فيها الحكم عبد الحميد بن احمد الذى خلف مصطفى الثالث فى ٢٣ يناير ١٧٧٤ .

الرقم ٢٠٠ (٤٧) الذى يوضح ان هذه القطعة قد ضربت فى العام الهجرى ٢٠٠ــ١ . والأمر هو نفسه بخصوص القطع الذهبية التذكارية التى نشرها المسيو بونفيل تحت رقم ٢١ ، اللوحة الثالثة من النقود التركيـــة والتى تحمل الرقم ٢٠٠ نفسه ، وهكذا نرى أن هاتين القطعتين قد ضربتـــا فى القاهرة فى السنة نفسها ، لـــكنهما مثالان لاشارتين مختلفتين كنا قـــد ذكرنا من قبل ان دور سك النقود تستخدمها فى العهد نفسه لكى تشـــير الى سنة الصنع .

ويلاحظ المسيو نيخبسين ، الملحق الذى إضافه الى مقدمته عن فن النقود عند المسلمين ان المسيو اكربلا Akerblad يزعم ــ دونما سند ــ أن الأرقام التى نلاحظها فوق نقود مصطفى هى اختصارات لسنة الضرب ــ وهكذا يتطابق تخمين او حدس المسيو اكربلا بشكل تام مع ماانتهينـــا نحن اليه .

وفى النهاية ، فان هذه الطريقة فى الاشارة الى تاريخ الاصدار ، لبست كما سبق ان راينا ، اسلوبا خاصا بعهد مصطفى ، فلقد راينـــاها للتو مستخدمة على احدى العملات من عهد عبد الحميد ، كما كانت متبعة بصفة دائمة فى القاهرة فى عهد سليم الثالث على الأقل ، وهوالسلطان الحاكم فى الفترة التى غزا الفرنسيون فيها مصر .

واذا عدنا للقطع المرسومة فى اللوحات الملحقة بهـــذه الدراسة ، ونقصد هنـــا القطعة ذات الأربعين مدينى ، شكل رقم ١٧ ، والقطعة ذات العشرين مدينى ، شكل رقم ٢٣ ، فسنجد أن « سنت » الاصدار هىنفسها سنة تتويج السلطان سليم ، أما الرقم ١٣ الموضوع عند أعلا القطعـــة فيدل على العام ١٣ــ١٢ هـ .(١٧٩٩ م) وهى سنة الصنع (أو الاصدار) وكان الفرنسيون هم الذين أمروا بضرب هذه القطع التى اعادوا اصدارها

(٤٧) انظر جدول العملات . وقد ورد فيه برقم ٦٩ ذكر مدينى آخر يحمل الأرقام ٢٠١ الدالة على سنة الصنع ٢٠١ ــ ١ هـ (٨٦ او ١٧٨٧ من تقويمنـــا) .

بعد أن ابطل تداولها منذ على بك (٤٨) ، وقد نشر المسيو بونفيل قطعة منها ذات عشرين مدينى برقم ١٠ من لوحته الرابعة عن النقود التركية .

اما الرقم ١٥ الذى نقرؤه على القطعة الذهبية المرسومة فى الشكل رقم ١٣ فى نهاية السطر الثالث فيشير الى الرقمين الاخيرين من العام الهجرى ١٥–١٢ (ويوافق العام التاسع من التقويم الذى اتبعه الفرنسيون فى ذلك الوقت فى مصر او العام ١٨٠١ من التقويم المسيحى) (٤٩) .

وبرغم ان هذه الاشارة نفسها ، فيما يبدو ، كانت متبعة بصفة عامة فى القاهرة ، بالنسبة للقطع المضروبة فى عهد سليم على الاقل ، فقد لاحظنا مع ذلك ان قطعة المدينى التى اوردنا رسما لها فى الشكل رقم ٢١ تحمل الرقم ١ الدال على السنة الاولى من عهد هذا السلطان برغم انها قد ضربت فى القاهرة ، وهو نفس مانلاحظه على قطعة نصف الفندقى المرسومة فى مؤلف المسيو بونفيل برقم ٢٥ من لوحته الثالثة عن النقود التركية ، وقطعة الفندقى برقم ٢٤ حيث نجد تاريخ التتويج محفورا عند اسفل القطعة بين زخارف حبيبات الاطار (٥٠) ، وتحمل القطعة الاولى الرقم ١ اما الثانية فتحمل الرقم ٢ وهما رقمان يشيران الى السنة الاولى ثم السنة الثانية من عهد سليم الثالث .

ومن بين هاتين الطريقتين للاشارة الى سنة الاصدار او الضرب ، يسهل علينا ان نرى ان اكثرهما دقة وتحديدا هى ان ناخذ فى اعتبارنا الارقام الاخيرة من تاريخ الضرب التى تغيرت منذ التتويج ، وفى الواقع

---

(٤٨) او بعد على بك بقليل ، وقد راينا قطعة ذات عشرين مدينى مضروبة فى القاهرة ، وتحمل طغراء عبد الحميد الذى تم تنصيبه عام ١١٨٧ هـ ، اما الرقم ٩ الذى نجده فوق كلمة ضرب فيدل على ان سنة الصنع هى ١١٨٩ الهجرية وهى فترة سيطرة محمد بك (ابو الذهب) .

(٤٩) اذا نظرنا الى الرقم ١٥ باعتباره دالا على السنة الخامسة عشرة من عهد سليم الثالث فسيكون علينا ان ننسب صنع هذه القطعة التى تم سكها تحت اعيننا الى العام ١٢١٨ من الهجرة (العام الثانى عشر من التقويم الثورى الفرنسى او العام ١٨٠٤ م) .

(٥٠) نلاحظ بخصوص هذه القطعة ان تاريخ التتويج قد حفر بشكل ردىء ، فبدلا من ١٢٠٢ كان ينبغى ان يكتب ١٢٠٣ وهى السنة التى تولى الحكم فيها السلطان سليم الثالث ، وقد ضربت هاتان القطعتان كلتاهما فى استانبول .

فان سنة التتويج تبدأ بصفة شبه دائمة عند نهاية عام هجرى وبداية عام آخر ، بحيث لانستطيع ان نعرف فى اى عام من هذين العامين سكت القطع النقدية .

وقد بدا لنا من المفيد ، حتى نعرف بالفائدة التى يمكن أن تقدمها الأرقام التى تحدثنا عنها عند التمييز بين عهود الحكم المختلفة ، أن نقابل بين قطعتين من النقود ، مضروبتين فى السنة نفسها وفى عهدين مختلفين، فى ضربخانة واحدة ، تحمل احداها سنة الصنع ، التى تدل عليها الارقام الاخيرة من تاريخ الاصدار ، وتحمل الاخرى سنة التتويج ، اما الاولى فكانت قطعة ذهبية ذات قطر كبير ، ضربت فى القاهرة فى عهد مصطفى وسكت طبقا لما اوردنا فى العام ١١٨٣ هـ (٧٣ أو ١٧٧٤ م) برغم انها تحمل تاريخا هو ١١٧١ هـ (١٧٥٧ م) وهو العام الاول من عهد مصطفى ، اما الثانية فهى عملة ذهبية نجدها مرسومة فى مؤلف المسيو بونفيل فى الشكل رقم ١٨ من لوحته الثانية عن النقود التركية ، وهى مضروبة فى القاهرة كذلكفى عهد عبد الحميد بن احمد ، خليفة مصطفى، ويشير الرقم ١ الموضوع فوق الحرف الاخير من السطر قبل الاخير الى السنة الاولى من عهد عبد الحميد .

فاذا نظرنا الى التاريخين ١١٧١ و١١٨٧ اللذين تحملهما هاتان القطعتان باعتبارهما سنتى الصنع او الاصدار لكان لنا ان نظن انهما قد ضربتا بفارق ستة عشر عاما فيما بينهما فى حين أنهما ضربتا فى عام واحد ، وفى المقابل ، فقد يمكننا الظن بأن قطعتين تحملان التاريخ نفسه قد ضربتا فى السنة نفسها فى الوقت الذى يكون هناك فارق زمنى بين اصدار كل منهما يصل الى خمسة وعشرين او ثلاثين عاما اذ تكون القطعة الاولى فى بداية عهد حاكم ما والاخرى فى نهاية عهد الحاكم نفسه ، بل قد يبلغ الفارق الزمنى لنحو نصف القرن اذا ما استمر عهد أحد الحكام لمدة خمسين عاما مثل عهد سليمان الاول على سبيل المثال (٥١) .

---

(٥١) بدأ سليمان بن سليم الحكم فى العام الهجرى ٩٢٦ (١٥٢٠ من تقويمنا) وخلفه سليم الثانى فى العام ٩٧٤ من الهجرة (١٥٦٦ م) .

اما اذا كانت قطعة العملة قد سكت فى سـنة التنصيب نفسها ، فقد يبدو غير مجد ان يشار الى سنة الصنع سـواء يتم ذلك باسـتخدام الطريقة الاولى فى الاشارة الى ذلك اى بأن يدون عليها الرقم ١ ، وهو الأمر الذى كان يحدث فى اكثر الأحيان برغم ذلك (٥٢) للاشارة الى السنة الأولى من عهد احد الحكام او بالطريقة الثانية اى بتكرار الرقم الاخير من تاريخ التنصيب (٥٣) ، ولعل هذا هو السبب فى اننا لانرى فوق قطع نقدية كثيرة اية ارقام (بخلاف تاريخ التنصيب) وان كان يحل محلها فى هـذه الحال اطار (او عقد) من الزهور او النجوم او حروف لها دلالتها مثل تلك التى سبق أن تناولناها عند الحديث عن اسماء والقاب نواب الحكام ،ومع ذلك فلسنا نظن ان كل القطع التى نجدها على هذه الحالة نفسها قد ضربت فى السنة الاولى من بدايات العهود ، مثال ذلك القطع الذهبية التى تعرضنا لها فى المجال الذى اشرنا اليه من قبل ، ولهذا فينتج عن غيبـة الأرقام المنفصلة التى يدور الحـديث عنها أن نفقد الوسيلة اللازمة للتعرف على التاريخ المحـدد الذى سكت فيـه عملة ما .

ثامنا : نمط الخط وشكل الحروف

اصبحت النقوش المستخدمة على النقود المصنوعة فى مصر ، والتى كانت تتم من قبل بحروف يونانية فى عهد خلفاء الاسكندر ، ثم باليونانيـة او الرومانية فى عهد السيطرة الرومانية ثم بالفارسية قبل مجىء الاسلام، اصبحت تكتب بعد استقرار الاسلام فى هذه الديار بالحروف الكوفية .

وفى الواقع فان المكين (٥٤) يورد فى مؤلفه عن تاريخ العرب ، نقلا

---

(٥٢) اوردنا عن ذلك امثلة عـديدة من قبل فى الفصـل الخـاص بسنة الاصـدار ، بل يمكننـا القـول بأن هـذه العـادة قـد اتبعت بشكل عام بخصوص كل السنوات الاولى لبدايات كل العهود حتى تلك التى اتبعت بشأنها الطريقة الثانية للاشارة الى السنوات الاخرى (اى السنوات بعد الأولى) من عهد ما .

(٥٣) لم نر امثلة لقطع يتكرر عليها الرقم الاخير ، او الرقمان الاخيران من السنة للدلالة على ان صنع هذه القطع قد تم فى سنة التنصيب نفسها.

(٥٤) انظر بخصوص اسماء هذا المؤلف وعنوانه مؤلفه دراسة المسيو مارسيل عن مقياس الروضة ، وصف مصر ، الدولة الحديثة ، المجـلد الثانى ص ٣٩ .

عن شهادة ابى جعفر ، ان نقوش النقود الذهبية قبل الاسلام كانت تكتب باليونانية ، اما نقوش العملات الفضية فكانت تكتب بالفارسية ، وقد امر الخليفة عمر ، فى نحو العام الثامن عشر من الهجرة (٦٣٩ من تقويمنا) تبعا لنص المقريزى الذى سبق أن اشرنا اليه (٥٥) بأن تصنع دراهم على غرار دراهم ملوك فارس ، كما امر بان تنقش عليها ، باللغة الفارسية تلك النقوش التى اوضحناها .

اما الحروف الكوفية (او الخط الكوفى) فتستمد اسمها من اسم الكوفة (٥٦) ، وهى مدينة فى بلاد مابين النهرين حيث يوجد امهر الكتبة. وقد اشتهرت هذه الحروف الكوفية واتسع ذيوعها بعد أن استخدمت فى كتابة القرآن ، ويسترعى هذا الخط النظر ، بصفة خاصة ، بغيبة كل النقط والعلامات الدالة على الحركات وعلى تضعيف الحروف غيبة تامة ، الأمر الذى يترتب عليه ان يكون للكلمة الواحدة اساليب نطق مختلفة ، ولابد ان يكون الانسان متمرسا على اللغة العربية القديمة ، ومتبحرا فيها حتى يمكنه ان يحدس عن طريق الاحساس بالكلمة وبالجملة كيف ينبغى له ان يقرا ويلفظ ويترجم ، وان كانت الكتابة الكوفية هذه لم تظل هى الكتابة المعتادة الا لحوالى القرن الثالث من الهجرة (التاسع من تقويمنا) وان استمرت تكتب بها لفترة طويلة نقوش المبانى اذ اصبحت بمثابة حروف مقتضبة عند العرب ، وظلت تستخدم فى نقوش النقود حتى القرن السابع من الهجرة (الثالث عشر من تقويمنا) . او على الأقل ظل يستخدم فى ذلك خط قريب منها او متفرع عنها ، مثل ذلك الخط المسمى خط القرمة (٥٧) .

وفى الوقت نفسه ، فان هذا الخط نفسه لم يحتفظ لنفسه بشكل بالغ الثبات غير قابل للتغير ، ونلاحظ فى المخطوطات ، كما نلاحظ فى

---

(٥٥) فى الفصل الخاص باشكال البشر والحيوانات عند الحديث عن الخليفة ابى بكر .

(٥٦) الكوفة هى احدى مدن العراق البابلى الذى يضم ارض الكلدانيين .

(٥٧) انظر دراسة المسيو مارسيل Marcel عن النقوش الكوفية، الدولة الحديثة ، المجلد الاول ، ص ٥٣٤ .

نقوش المسكوكات ، ان الخط يتغير ويتحور بشكل مضطرد ، بحيث نستطيع ان نتتبع ، حتى نقطة معينة ، الشوط الذى قطعه الخط الكوفى باضطراد حتى اصبح الخط العربى الحديث .

وتحمل غالبية المبانى العامة ، وبصفة اساسية المساجد ، نقوشا كثيرة هى فى نسبتها العظمى آيات من القرآن ، اما كل الكتابات القديمة فهى كتابات كوفية ، وهناك كتابات او خطوط اكثر حداثة تنتمى جزئيا الى هذا النوع من الكتابة او كتبت بحروف قريبة منها ، ونستطيع ان نقول الشىء نفسه بخصوص بعض النقوش التى يزدان بها على الدوام داخل المساكن وهذه مقتبسة اما من القرآن ، واما من اقوال بعض المؤلفين والشعراء العرب .

وليست للحروف العربية ، بخلاف الاشكال المتنوعة التى تعطى لها تبعا لمكان وجودها فى بداية او فى وسط او فى نهاية الكلمة ، شكل دائم ومحدد بطريقة صارمة شأن ما لحروفنا الكبيرة majuscules وحروفنا المحفورة او المطبوعة ، فالحروف العربية تتنوع بشكل محسوس شأن حروف الكتابة عندنا وطبقا لمزاج الكاتب او الحفار ، ومع ذلك ، فبرغم الفوارق او درجات الاختلاف بالغة الكثرة ، والتى يمكننا ان نلاحظها فى مختلف حروف او خطوط المخطوطات والنقوش ، فان من المستطاع مع ذلك ان نميز عددا بعينه من الخطوط او الكتابات الاساسية ، تطلق عليها اسماء خاصة وتقدم عنها امثلة تستخدم بمثابة طرز او انماط مبدئية تقارن وتصنف على اساسها الخطوط المختلفة التى تدخل ضمن النوع نفسه (٥٨) وخير ما نفعله ، لكى نعطى القارىء فكرة عن هذه الخطوط ، هو ان نحيل الى الدراسات التى نشرها المسيو مارسيل والتى تشكل جزءا من وصف مصر

---

(٥٨) يمكن ان نقارن هذا التمييز لانواع الخطوط العربية التى تعطى اسماء مختلفة بذلك التباين فى خطوطنا والذى جعلنا نخلع على انواع هذه الخطوط المتباينة اسماء مثل : المتتابع او الزاحف ، الدوار ، المستدير الخ ، فعلى هذا النحو كذلك تتنوع الكتابات العربية فى البلدان (العربية) المختلفة على نحو شبيه بالكتابات الاوربية التى تختلف فى فرنسا عنها فى ايطاليا وعنها فى انجلترا الخ .

والتى تشتمل على دراستين : واحدة عن نقوش مقياس الروضـــة (٥٩) والاخرى عن النقوش الكوفية التى جمعت من مصر .

وحيث لم يكن فن الطباعة قد انتشر فى الشرق (٦٠) ، فقـــد علقت على مهارة الـــكتاب اهمية اكبر درجة بكثير عنها فى اوربا ، فحرفة الكتابة (هناك) تشكل مصدر عيش لطائفة كبيرة العدد . لها مكانتها واعتبارها وتعيش عيشة لاتنقصها الرفاهية ، وتعطى هذه الكتابة مظهرا بالغ الفخامة للمخطوطات وبشكل خاص فى مخطوطات القرآن ، ويحتوى مؤلف رحلة فى مصر Voyage en Egygte على نماذج عدة من الخطوط فى انواع الـــكتابات المختلفة ، ولقد نقلت الى فرنسا الكثير من المخطوطات العربية التى تدعو الى الاعجاب لجمال ووضوح خطوطها .

وبرغم ان فن حفر النقوش لم يكن يمارس بهذه الدرجة من المهارة ولم يذهب لابعد مما ذهب اليه فن الـــكتابة فان المرء ، حتى ولو لم يكن قـــد اعتاد بالقدر الكافى على رؤية الخطوط العربية ، يستطيع ان يلاحظ بسهولة ، بالنظر الى جزئيات الحروف وتفاصيلها ، وطريقة وضعها وثبات الخط ووضوحه ، ان هناك فروقا محسوسة بين مهارات الحفارين الذين نفذوا هذه السكة او تلك ، ولهذا فنحن نستطيع ان نميز على القطع الذهبية الثلاث التى تحمل الأرقام ١٤،١١،٥ فى لوحاتنا ، والتى يحمل الوجه منها النقوش نفسها ، ثلاثة انماط فى الكتابة بالغة التبـــاين ، ونستطيع ان ندرك بسهولة ان الـــكتابة على القطعة الذهبية رقم ١٤ اكثر صـــحة وتالقا من تلك التى نجدها على المسكوكتين الاخرين .

وكلما كانت العبارات المنقوشة طويلة ،وبشكل خاص حين تـــكون عبارة عن فقرات من القرآن ، كلما لاحظنا ،على الدراهم والدنانير القديمة،

---

(٥٩) المقياس ، هو مقياس اقيم لتقدير ارتفـــاع مياه النيل ، انشاه المصريون المحدثون فى احدى جزر النيل المسماة جزيرة الروضـــة ، على مسافة قريبـــة من القاهرة .

(٦٠) لم يمارس فن الطبـــاعة فى الشرق الا فيمـــا ندر ، وعلى يد اوربيين ، لـــكنه لم ينتشر هنـــاك ، وكان الفرنســـيون قـــد اقاموا فى القاهرة مطبعة فرنسية واخرى عربية كان يديرهما المسيو مارسيل ،

أن الـكتابة تتم بحروف صغيرة شديدة التقارب (مزنقة) ، وان هناك ، بخلاف الحاشية ، التى تشتمل عادة على ثلاثة او اربعة سطور مستقيمة ومتوازية ، سطرا دائريا يدور حول القطعة ، واحيـانا سـطرين ، من الكتابة (٦١) ، ولدينا قطعة عملة نحاسية نقلناها معنا من مصر ، صغيرة القطر (٦٢) ، وان كانت بالغة السمك بالنسبة لمحيطها ، لانقرا على الوجه الأول منها ، وفى سطور ثلاثة مستقيمة ، وبحـروف كبيرة بعض الشىء سوى الجزء الأول من الشعار ، اما الجزء الثانى فنجـده على الوجـه الثـانى (٦٣) .

وعندما لم تعد تكتب على العملات الذهبية نصـوص من القرآن ، وضعت الـكتابة ، التى لم تعد بالغة التقارب ، فى سطور مستقيمة ، ولكن عادة تغيير مواضع عدةحروف ، واحيـانا كلمات باكملها او وضع هذه الكلمات فوق كلمات اخرى ، كانت تعطى شكل الـكتابة انتظاما لاباس به واحيانا كانت تجعل السطور ناقصة الانتظام ، ويمكننا ان نرى امثلة على كل ذلك فى الشكلين رقمى ١٠ ، ١١ من لوحتنا الثانية .

ومنذ فترة طويلة بعض الشىء ، تصور القوم ، رغبة منهم فى اعطاء مزيد من الانتظام لهذه الـكتابات ، ان يخطوا خطوطا مستقيمة ، متساوية الطول ، تقسم الوجه ب من قطعة العملة الى اربعـة اجزاء متساوية ، تستخدم بمثابة اطر لـكل سطر من سـطور الـكتابة ، وتتجمع هـذه السطور عند الطرفين بواسطة اقواس تقترب بشدة من السطر الدائرى الذى يفصل حبيبات الاطار عن بقية وجه القطعة (٦٤) .

---

(٦١) وهو الدينار الذى وضعناه فى ص ٣٥٣ ، الفقرة الأخيرة .
(٦٢) بدفع قطرها ١٤ مم وسمكها ٣ ١/٢ مم .
(٦٣) نجد النقوش على الوجه الأول مرتبة كما يلى :

لا اله
الا الله
أحده (كذا)

ونجدها على الوجه ب كما يلى :

محمد
رسول
الله

(٦٤) انظر الاشـكال ١٢ ، ١٣ ، ١٤ من اللوحـة الثانيـة من اللوحات المرفقة بهذه الدراسة .

تاسعا : الزخارف

بامكاننا أن ننظر الى الخطوط التى انتهينا من الحديث عنها باعتبارها جزءا من الزخارف التى تحملها قطع النقود ، ومع ذلك فلسنا نظن ان هذه العادة تعود الى زمن بعيد ، كما انها لاتدل كثيرا على براعـــة من جانب الحفارين ، فهؤلاء يبدون وكأنهم يحزون صفحة القطعة لمجرد توجيه سطور الـــكتابة ، وقد يكون أكثر رونقا واكثر صحة كذلك ان نحصل على سطور جيدة الترتيب (والاستقامة) دون الحاجة الى ان نلجأ لتنظيم صفحة القطعة النقدية التى ننقش عليها (بواسطة الخطوط) .

اما الزخارف الأخري ، التى نلاحظ وجودها على قطع النقود الحديثة ، وهى اكثر بساطة واقل تكلفا ، فهى :

١ ـــ الزخارف الزهرية (اى التى تاتى على هيئة زهيرات صغيرة) .

٢ ـــ حبيبـــات الاطـــار .

٣ ـــ الاطار (البارز) الذى يوضع على حافة العملات .

وبامكاننا كذلك ان ننظر الى تاشيرة السلطان او طغرائه باعتبارها زخرفا ، وقد تناولناها فى الفترة التى تعرضت لأسماء الأمراء او الحكام (من هذه الدراسـة) ، وان كنا نكتفى هنا بأن نسترعى الانتباه الى ان العملة النحاسية المضروبة فى عهد محمود الذى تولى الحكم فى عام ١١٤٣هـ (١٧٣٠ من تقويمنا) والتى رسمناها فى الشـــكل رقم ٢٥ تحمل بدلا من هـــذه الطغراء نجميـــات او زهيرات او تشبيكات زهرية (مجدولة) تشغل سطح القطعـــة كلها .

اما الزخارف الزهرية فيحملها الوجه ا فى الفراغات التى تتركهـــا طغراء السلطان . وفى اغلب الاحيان ، نجد فوق الوجه ب لقطع الفندقى زخرفا زهريا عند اعلى قطعة ، فوق حرف الباء من كلمة ضرب ، وهى تحل هنـــاك محل الرقم الدال على سنة التنصيب او على سنة الاصدار كمـــا

توضح لنـــا العملات الواردة بالأشكال ١، ٢، ٣، ٤، ٧، ٨ (٦٥) ، واخيرا فاننا نجد بعض هذه الزخارف موزعة بأعداد متفاوتة ، قلة وكثرة ، تبعا لذوق الحفار ، فوق وبين سطور الـــكتابة . وتحمل قطعة النقد الذهبيـــة التى وردت مرسومة فى مؤلف المسيو بونفيل برقم ١ من لوحته الأولى عن النقود الذهبية التركية كمية كبيرة من هذه النقوش (٦٦) .

ويتنوع شكل هذه الزخارف الزهرية . اما الشكلان اللذان يسترعيان الانتباه اكثر من غيرهما واللذان يتكرران فى اغلب الاحوال فهما :

١ ـــ الشكل الذى تحمله القطعة التى أوردنا رسما لها فى الشكل رقم ٢٣ ، الوجه أ .

٢ ـــ الشكل الذى نراه على الوجه ب من القطعة رقم ٤ .

ويظن البعض انه قد لاحظ فى الزخرف الأول وجود الحروف المكونة لـــكلمة الله أو اختصارا لها مجدولة او متداخلة مع هذا الزخرف ، وانه قد لاحظ فى الزخرف الثانى الشىء نفسه بالنسبة لكلمة محمد (٦٧) ، وان كان الاقرب الى الاحتمال ان هؤلاء يحاولون ان يعتسفوا وجود معنى فى هذه الزخارف البسيطة ، التى صنعت بقصد الزينة ، ربما لم يكن أولئك الذين اخترعوها يفكرون فيه على الاطلاق .

وربما كان اقرب الى الطبيعى ان نرى فى الزخـــرف الأول بدايات

---

(٦٥) انظر اللوحات الملحقة بهذه الدراسة . اما الزخرف الزهرى الذى تحمله القطع الثلاث ارقام ١، ٢، ٨ فهو نفس ماتحمله القطعتان رقما ٣ ، ٤ ، فيما عدا انه يعلو هذا الزخرف فى الأوليات زخرف زهرى بالغ الصغر بالشكل نفسه الذى تحمل منه القطعة رقم ٤ ، الوجـــه أ ، ثلاثة أمثلة .

(٦٦) يمكن ان نتأمل كذلك الترش المرسوم برقم ٦ فى مؤلف بونفيل ، اللوحة الرابعة .

(٦٧) هناك تشابه بين صنع زخارف بالحروف المتداخلة هناك وبين ممارسة شائعة فى فرنسا تشير الى اسم المسيح بالعلامة والى اسم مارى ـــ والى اسم لويس بحرفى L متشابكين (وهو ما نجده على الـــكثير من عملاتنـــا) .

الشعار لا اله .. الخ ، اما الشكل الذى اعطى لهذا الزخرف على القطعة الواردة فى مؤلف بونفيل برقم ٤ فهو فيما يبدو فى الواقع وبطريقة يمكن تمييزها لام الف (لا) مكررة مرتين احداهما مقلوبة او معكوسة .

وتحمل القطع الذهبية والفضية ، بل حتى النحاسية ، على كيلا وجهيها ، بحروف بارزة ، وعلى حوافها ، حبيبات مكونة اما من نقط دائرية واسعة او ضيقة يشبهها العرب بعقد من اللؤلؤ (٦٨) ، واما من نقط مستطيلة او حبوب من الشعير (٦٩) او تكون هذه الحبيبات عبارة عن عقدات صغيرة او زخارف من زهيرات صغيرة (٧٠) ، وهنـاك خط مبسط او منقوط يفصل بين هذه الحبيبات ، على اختلاف اشكالها ، وبين النقوش .

وبالنسبة لقطع الفندقلى ، والعملات الذهبية الاخرى ذات القطر الكبير ، وبالنسبة كذلك للعملات التذكارية وجود قسم دائرى او طوق خال من الزخارف (سادة) ، ونستطيع ان نرى ذلك فى الاشكال ١، ٦، ٧، ويرجع ذلك الى ان هذه القطع ، برغم كونها ذات مسطح اكبر كثيرا من قطع الفندقلى او النقود الذهبية المعتادة ، قد ضربت مع ذلك بالسكة نفسها ، فكانت هذه السكة تدمغ وسط قطع العملة ، تاركة الجزءالباقى خاليا من اى نقوش او زخارف .

اما قطع العملات التى تم صنعها بقدر اكبر من الفخامة ، وبخاصة قطع الفندقلى الكبيرة من صنع القسطنطينية ، فكانت تضرب بسكات حفرت لهذا الغرض ، وباحجام القطع النقدية نفسها ، وتزدان هذه العملات باطارين من الحبيبات ، تترك المسافة التى بينهما خالية من النقوش او كانت بورود صغيرة متنوعة او تشبيكات زهرية او زخارف على شكل غصينات ، كما يمكننا ان نرى على قطع العملات التى نشرها بونفيل .

---

(٦٨) انظر الاشكال ٥، ٦، ٩، ١٠، ١١، ١٤ من اللوحات الملحقة بهذه الدراسة .

(٦٩) انظر الشكل رقم ٢٢ من اللوحة الرابعة .

(٧٠) انظر القطع ارقام ٥، ٦، ٧، ٩، ١٠، ١١، ١٤ من اللوحات نفسها، ويكاد يكون هذا الخط هو الزخرف الوحيد الذى يلاحظ وجوده على قطع العملات القديمة .

ويعد محمد بن مصطفى ، الذى جرت العادة على ان يشار اليه خطأ باسم محمد الخامس ، والذى ارتقى العرش فى العام الهجرى ١١٤٣ (١٧٣٠ م) واحدا من سلاطين القسطنطينية التى بذلوا عناية كبيرة فى اعطاء النقود مظهرا فخيما . ونستطيع ان نتأكد من ذلك بملاحظة قطع المندقى ذات القطر الكبير ، والتى نشرها بونفيل برقمى ٦ ، ٧ ، وقد نقلنا معنا من مصر واحدة من هذه المسكوكات ، وهى ذات عيار مرتفع ، ومصنوعة بجودة بالغة .

اما فى اوربا فلم يكن الدافع من وراء حفر الرسوم او النقوش المختلفة على حواف العملات بصفة عامة ، هو حب الترف او السعى وراء مظاهر الزخرف والفخامة عند صنع النقود ، بل كان الهدف من ذلك هو الحيلولة دون ادخال الغش او التدليس على هذه العملات — وهى التى لا يمكن لأحد انقاص وزنها عن طريق انقاص قطرها دون ان يسترعى ذلك الإنتباه بمجرد النظر — وذلك باللجوء الى اتلاف او محو هذه الزخارف او النقوش .

وعندما لاتدفع القطع النقدية فوق حافة قطعها ، فلن يكون هناك ماهو اسهل من اقتطاع بعض منها دون ان تبدو تالفة ، اذ ان هذه القطع لبست فى شكل دوائر كاملة الاستدارة ، كما ان (طول) محيطها يختلف فيما بينها ، اما حين تكون حواف القطع هذه غير مرسومة الا بزخرف خفيف فان تزيينها او تقليدها سوف يصبح اكثر من ميسور ، ذلك ان الحروف او النقوش المكتوبة تستعصى على التقليد بغير حدود .

وفيما مضى ، كانت الحروف المنقوشة فوق حواف قطعات عملاتنا ناتئة او بارزة ، لكنها كانت تنمحى بغتة اما بفعل الدعك او بفعل مايحدث من نقصان الوزن من اثر (طول) الاستعمال ، أما فى ايامنا هذه فقداخذت هذه الحروف توسم على الأجوف (اى تحفر بدلا من ان تكون بارزة) . ويجعل هذا الاجراء الاحتياطى ، بالاضافة الى ان لعملاتنا الذهبية والفضية المضروبة بالـ Vriol (٧١) القطر والمحيط نفسيهما وبدقة ، من

---

(٧١) الـ Vriol هى لوحة من الصلب ، مثقوبة عند وسطها بثقب دائرى توضع به قطعة العملة لتتلقى ضربة الرقاص .

المستحيل حدوث أقل انقاص فى طول القطر (باقتطاع اجزاء من المحيط) دون ان يلاحظ المرء ذلك عند النظرة الأولى ، خصوصا اذا ماقربنا قطعة عملة من قطعة اخرى مماثلة لم يمسسها سوء .

اما زخارف الدنانير والدراهم القديمة التى اتيح لنا ان نراها ، فلم يبد لنـا قط انها قد وسمت عند حافة قطعها مع احتمال قائم هو أن يكون هذا النقش قد انمحى بسبب تآكل النقود بفعل الاستعمال ، او تمت ازالته على يد اولئك الذين يحترفون مهنة تحريف النقود (بانقاص وزنها) ، وفى الوقت نفسه ، فان من المؤكد فيما يبدو ان القوم هناك قد ظلوا لمدة طويلة يعتادون عدم وضع اية سمة او بصمة على حواف قطع العملات ، وبشكل خاص عندما كانوا يكتفون باعطائها الشكل الدائرى عند قصها .

وتحمل قطع الفندقلى ، شأن كثير من قطع النقود لدينا ، نوعا من النقوش يشبه بعض الشيء حبلا او جديلة ، ومن هنا جاء اسم الجديلة او القيطان الذى يطلق بصفة عامة على كافة انواع النقش او البصمـم التى تحملها قطع النقود على حواف قطعها ، (بفتح القاف وتسكين الطاء) .

وتحيط هذه الجدائل بقطع النقد الذهبية بالطريقة نفسها على وجه التقريب او تكون مسننة على نحو طفيف، كما سنرى ، عند تناولنا لأساليب صنع النقود .

وقد نجد أن من الممكن لكثير من العملات الفضية ذات الوزن الكبير ، بل وكذلك بالنسبة للقطع ذوات الاربعين والعشرين مدينى ، وعملات اخرى كثيرة من النحاس ، أن تحمل عند قطع حوافها جدائل او نقوشا ، لـكن صناعة النقود فى مصر ليست متقدمة لحد يمكن معه تبنى الأسلوب الذى تستخدمه أوربا فى حفر حروف على حواف قطع النقود برغم كونه اسلوبا بالغ البساطة بقدر ماهو حاذق .

الفصل الرابع

القيم المختلفة للعملات

أولا : الـــوزن

لم تضرب فى مصر ، فيما يبدو ، بصفة عامة قطع نقود ذهبية تجاوز وزنها درهما واحدا ونصف الدرهم (٦١٨/١٠٠٠ ٤ ج) * أو المثقال بوزنه الحالى (١) ، بل كذلك المثقال القـــديم الذى كان يســـاوى ٧/١٣ درهم (٣٩٨/١٠٠٠ ٤ ج) . وفى واقع الأمر ، فقد كان هـــذا هو حال وزن الدنانير التى واتتنا الفرصة لتفحصها .

ولم يحدث ـــ الا شذوذا عن هـــذه القاعدة ، وفى حالات خاصـــة ، ن ضربت فى بعض الأحيان قطع نقد ذهبية اكبر وزنا ، مثل القطع ذوات الـــ ٢ فندقى وتلك القطع التذكارية من ذوات الفندقى ونصف (الفندقى) التى تعرضنا لها من قبل فى الباب الخاص بالنقود النحاسية .

وفى نفس الوقت فان الأمراء او الحكام الذين تضرب باسمهم النقود، قد حرفوا فى فترات مختلفة اوزان هـــذه النقود ومعاييرها بقصد تحقيق اكبر ربح ، ومع ذلك فحيث أن تحريف وزن العملات امر يمكن ملاحظته على الدوام وبسهولة اكبر من القدرة على التحقق من تحريف العيار ، فقد كان التحريف فى الوزن وئيدا وحثيثا حتى يمضى دون أن يسترعى الانتباه .

ولم يكن يتجاوز وزن اقدم واحدة من قطع الفندقى ، التى ظلت على

(*) آثرت تحـــويل الكسور العشرية الى كسور اعتيـــادية حتى لا يختلط الأمر على القارىء بينها وبين العلامات التى توضع لتقسيم الأعداد الكبيرة الى وحدات رقمية تسهيلا لقراءتها . (المترجم)

(١) عن المثقال ، انظر دراستنا عن الأوزان العربية (الكتاب الأول من هـــذا المجلد) .

حال جيدة ، والتى اختبرنا زنتها ، تتجاوز درهما واحدا و ١٠٠/١٥ من الدرهم (٥٤١/١٠٠٠ ٣ ج) اما القطع ذوات نصف الفندقى (النصفية) فتزن النصف من هـــذا الوزن .

وكان ينبغى أن يكون وزن العملة الذهبية زر محبوب فى الأصل على هذا النحو ، ونستطيع ان نتـــاكد من ذلك من جدول النقود المرفق بهذه الدراسة ، وان كان قـــد نقص وزنها منذ بدء عهد مصطفى بن احمـــد ، الذى ارتقى العرش فى العام الهجرى ١١٧١ (١٧٥٧ م) ليبلغ ٨٤٣٥/١٠٠٠٠ من الدرهم (٥٩٧/١٠٠٠ ٢ ج) ثم نبت فى عهد سليم بن مصطفى الذى توفى فى العـــام ١٢٠٣ من الهجـــرة (١٧٨٩ م) على ٨٤٢/١٠٠٠ من الدرهـــم (٥٩٢/١٠٠٠ ٢ ج) ، وقد ابقاها الفرنسيون على هـــذا الوزن ، اما تفاوت الوزن المسموح به زيادة او نقصا فقد ثبت بموجب لائحة التسوية الصادرة من المدير العام ومحاسب الموارد العامة بتاريخ ٢٥ نيفوز من العام التاسع (١٥ يناير ١٨٠١) بدرهمين (*) اى ما يعادل ٠,٠٠٢٣٧٥

اما التفاوت الذى كان مسموحا به قديما فى فرنسا فيبلغ ١٥ حبة من زنة مارك اى ما يعادل ٠,٠٠٣٢٥٥

ولكنه بلغ عند صنع القطع ذوات الاربعين فرنكا وتلك من ذوات العشرين فرنكا (٢) ٠,٠٠٢٠٠٠

وعلى هـــذا فقد كان التفاوت المسموح به فى مصر (زيادة او نقصا) اقل من مثيله المسموح به فى فرنسا بالنسبة لقطع اللويس الذهبية ولكنه قريب من التفـــاوت المعمول به بخصوص القطع الذهبية ذوات الاربعين والعشرين فرنكا ، ومع ذلك ، فحيث كان الذهب (اى العملات الذهبية) اكثر انقساما (اى ان هناك نصفيات وربعيات ... الخ) بكثير فى مصر (عنه فى فرنسا) فلا بد ان التفاوت قد كان (فى الحقيقة) اكبر . هكذا كان قريبا من المستحيل أن تبلغ قطعة نقد بمفردها ، وبدقة ، الوزن المحدد . وحيث لم يكن العامل ليعوض عن اية زيادة تتم فى الوزن ، وحيث لم تكن

(*) لكل مائة قطعة كما ستيفضح من السياق . (المترجم) .

(٢) وقد احتفظ بهذا التفاوت نفسه فى المراسيم الصادرة فى ٢٣ مايو ١٧٧٤ ، و ٣٠ اكتوبر ١٧٨٥ ، و ٩ ابريل ١٧٩١ ، و ٥ فبراير ١٧٩٣ .

تقبل النقود الذهبيـــة ما لم تزن كل مائة منهـــا ، وبدقة تامة ٨٤ درهما (٢٥٨٫٦٢٨/١٠٠٠ ج) فقد كان من مصلحة العامل ان يوازن القطع النقدية بدقة كافية ، وباختصار ، فكلما زاد اتساع سطح العملة كلما اكتشفنا ان وزنها يقل فجأة بفعل التداول . وفى مصر ، كما فى غالبية بلدان العالم ، يرجد اناس يدفعهم الجشع الخسيس الى احتراف مهنة التلاعب فى وزن العملات الذهبية ، يحرص الصرافون او المبدلون على وزنها حين يبدو هذا الوزن بالغ النقصان .

واذا كانت العملات الذهبية الحالية ، قد حلت كما سبق ان افترضنا محل الدنانير القديمة التى كانت كل سبعة منها تزن فى الأصل عشرة دراهم واذا كانت كل سبعة قطع من العملات الذهبية الحاليـــة لا تزن اكثر من خمسة دراهم و ٨٩٤/١٠٠٠ من الدرهم فان الفرق فى الوزن بين هذه وتلك سيصل الى ٤١٠٦/١٠٠٠ دراهم اى ان وزن العمـــلات الذهبية قد نقص (بالنسبة للعملات القديمة) بنسبة تزيد عن ٤١٪ .

ومن جهة اخرى فلابد لانصاف العملات او النصفيات ان تزن نصف وزن القطعة الواحدة اى ٤٢ درهما على الاقل لكل مائة نصفية (حوالى درهما (نحو ٤٦½ ج)لكل مائة ربعية . اما بخصوص اوزان الخردبات القديمة ١٢٩ ١/٣ ج) وان تزن الأرباع او الربعيات ربع وزن القطع الكاملة اى فيرجى الرجوع الى ما سبق لنا ان قلناه بخصوص هـــذه العملات الذهبية الصغيرة . فى الفصل الخاص بالعملات التذكارية .

وقد سبق ان اوضحنا فى دراستنا الموجزة عن الأوزان العربية ان قطعة النقود الفضية المسماة درهما والقطعة الذهبية المسماة دينارا كانتا تزنان كلتاهما مثقالا فى الأصل ، وعلى قدم المساواة . وبمرور الأيام ادخلت فى التداول دراهم من اوزان متنوعة قادمة من بلدان مختلفـــة . وكانت الضرائب او العشور التى تفرض على الفضة التى صنعت نقودا تدفع على نصـــفين : نصف يســـدد بالدراهم ثقيلة الوزن ونصف آخر يســـدد بالدراهم خفيفة الوزن وحين أراد ابن مروان أن يقيم نظـــامـــا موحـــدا للنقـــد ، فقد خشى اذا هو اختار الدراهم كبيرة الوزن ان يثقل كاهل الناس ، او أن يقلل حجم الضريبة اذا هو اختار الدراهم الصغيرة ، لذا فقد اتخذ الحـــد الاوسط (بين هذين النوعين من الدراهم) وامر بأن تصنع دراهم تزن كل

عشرة منها سبع مثقالات . وقد استقر رايه على اتخاذ هـذه النسبة بدافع مثير للفضول تعرضنا له عند حديثنا عن قطر العملات .

وقد اصبح الدرهم الجديد هو وحدة الوزن التى احتفظت ، شـانها شأن العملات ، باسم الدرهم فى حين ان القطعة من النقود لم تعد تزن سوى ١٠/٧ من المثقال ، بل حتى بعد ان اختفت النقود التى تسمى بالدراهم .

ولكى نفرق بين الدرهم فى مجال العملات وسميه فى مجال الوزن تجنبنا عند الاشارة الى قطعة النقد الكلمة العربية درهم dirhem واستخدمنا الاشارة الى الوزن الكلمة الفرنسية دراخمة drachme التى يرتبط اصلها كما هو واضح بالكلمة السابقة (٣) .

ويبدو ان عادة جعل العملات مساوية فى وزنها لأوزان متداولة واعطائها الأسماء نفسها التىلتفريعات اواقسام هذه الأوزان هىعادةضاربة فى القدم اتبعتها شعوب كثيرة ، فقد عرفنا فى اوربا نقودا كثيرة باسماء livre (جنيه — رطل) و once (اونسة — اوقية) و gros (١/٨ من الأوقية) وهى كلها نقود ذهبية او فضية ، والى ان تبنينا الفرنكات فى نظامنا النقدى الجديد كانت كلمة livre تطلق فى وقت واحد على وحدة وزن ووحدة نقدية ، برغم انه لم تكن لدينا قط عملة تزن رطلا .

واذا كان علينا الا ننظر الى قطع المدينى الحالية باعتبارها انحرافا بالدراهم القديمة وانما باعتبارها نقودا جديدة نجهل نحن الفترة التى انشئت فيها على وجه التحديد الا أنه من المؤكد انها فى الماضى كانت اكثر ثقلا ، وكان الباب العالى يرسل اوامره ، بل ويرسل مفوضين او مفتشين خاصين من طرفه حين كان يبلغه سوء الحال التى انحدرت اليها النقود حتى يعود باوزان وعيار النقود الى القواعد نفسها التى تتبعها القسطنطينية : ففى العام ١١٧٦ من الهجرة (١٧٦٢ من تقويمنا) ، اى فى عهد السلطان

---

(٣) انظر دراستنا عن الأوزان العربية .

مصطفى ، وعندما كان الملوك رضوان ، كخيا(٤) ابراهيم ، يمسك بمقاليد الامور فى القاهرة ، ارسلت القسطنطينية احمد اغا خطيب زاده مع الباشا رحاب للتفتيش على النقود ، فثبت وزن الالف من قطع المدينى على ١٢٥ درهما (اى ٨٦٢/١٠٠٠ ٣٨٤ ج) ، اما فى بداية عهد سليم ، اى فى العام ١٢٠٣ هـ (١٧٨٩ م) فقد صدر امر الباب الذى يقضى باعادة رفع وزن قطع المدينى التى كانت قد انقصت من ١١٥ درهما (لكل ١٠٠٠ قطعة) الى ١٠٠ درهم فحسب ، ولكن الحكام تشبثوا بما معهم من تفويض لهم فى مجال النقود يخول لهم حق تخفيضها من جديد ، وهكذا نقص وزنها فى حدى عشرة اعوام بشكل متوال حتى بلغت زنتها ٧٣ درهما (لكل الف) اى ٧٦٠/١٠٠٠ ٢٢٤ ج . وعندما امتلك الفرنسيون امر النقود فانهم لم يغيروا شيئا فى النظام (النقدى) المستقر منذ زمن محدد ، قبل مجيئهم . وهكذا ايضا نجد ان وزن المدينى قد نقص على مدار الـ ٣٧ سنة الاخيرة بنسبة ٢/٣ ٤١٪ .

واذا شئنا ان نقارن الوزن الحالى لهذه العملات ، وهى الوحيدة التى تصنع الآن من الفضة او بالأحرى من البرونز عالى العيار ، والمتداولة فى مصر منذ وقت طويل بوزن تلك التى كانت تصنع فى مصر قديما تحت اسم الدرهم فسوف نتبين ان قطعة المدينى تقل فى وزنها عن وزن الدرهم ثلاث عشرة او اربع عشرة مرة .

وتجعل رقة هذه العملات وكذلك الطريقة التى تصنع بها من المستحيل ان يتكرر الوزن نفسه فى كل قطعة ، لذلك يكفى ان تزن الالف قطعة منها ٧٣ درهما لتكون رقيقة الوزن بالقدر الكافى . وكان يسمح تحت ادارتنا بتجاوز قدره درهم واحد (٧٨/١٠٠٠ ٣ ج) زيادة او نقصا (فى كل الف قطعة) اى ان التفاوت في الوزن بالنسبة للقطعة الواحدة كان يبلغ نحو ١٤/١٠٠٠ ، ومع ذلك فلابد ان تكون اعداد محددة من الوف قطع المدينى قد جاءت مساوية للوزن المطلوب .

---

(٤) كلمة كخيا او كخايا يلفظها العامة كيخى والتى يكتبها مؤلفونا كياهيا kiahya او كيايا kiaya هى تحريف لكلمة كتخدا وتعنى المؤتمن على السر او الملازم .

ولسنا نستطيع أن نقارن هـــذا التجاوز فى الوزن بالنسبة للألف من قطع النقود بالتفاوت المسموح به فى فرنسا فى وزن كل قطعة على حدة ، ومع ذلك فقد اتبع هناك كمبدأ ، انه كلما كثرت تفريعات قطعة العملة كلما كان التفاوت المسموح به فى زنتها كبيرا ، وفى حين امكننا نحن ان نثبت هـــذا التفاوت المسموح به بخصوص القطعة ذات الخمسة فرنكات عنــد ٣ ..ر فقد كان يبلغ بالنسبة للقطعة ذات الــ ٢٥ سنتيما ٣٠/١٠٠٠ وبمعنى آخر كان يقدر بـــ ١٠ جرامات فى الكيلو جرام الواحد .

ولابد ان الميزة التى تحقق من وجود عملة فضية يسهل عدها عن عد قطع المدينى ، وتقع قيمتها موقعا وسطا بين قيمة العملات الذهبية وقيمة المدينى التى ما كان ينبغى استخدامها الا كنقود صغيرة (فكة) او نقود مكملة ، هى التى دفعت على بك دون شك الى أن يامر بصنع قروش على غرار قروش استانبول .

وينتج عن المعلومات التى حصلنا عليها من القاهرة انسلسلة الغروش او القطع الفضية ذات القيمة الكبيرة التى امر على بك بصنعها او التى كان قد شرع فى اصدارها لم تكن تشتمل قط على قطع من ذوات الـــ ٦٠ ولا من ذوات الـــ ٣٠ مدينى ، وان لابد لوزن هـــذه العملات ان سيكون على النحو التالى :

القطع ذوات الـــ ١٠٠	مدينى	١١١/٤ درهما (٥) .
القطع ذوات الـــ ٨٠	مدينى	٩١/٤ دراهم .
القطع ذوات الـــ ٤٠	مدينى	٤١/٢ دراهم .
القطع ذوات الـــ ٢٠	مدينى	٢١/٤ من الدراهم .

ومع ذلك فان العملات التى ضربت فى عهد هـــذا البك والتى حصلنا فى مصر على قطع منها باعتبارها من ذوات الـ ٤٠ أو الـ ٢٠ مدينى كانت تزن ١٤٣/١٠٠٠ ٥ دراهم الى ١٧٣/١٠٠٠ ٥ اى بحد وسط قدره ١٦٣/١٠٠٠ ٥ دراهم .

أيمكن أن تكون هـــذه القطـــع هى العمـــلات من ذوات الـــ ٦٠.

---

(٥) بخصوص تقييم الدراهم بالأوزان انظر الجدول الملحق بدراستنا الموجزة عن الأوزان العربية .

و الـــ ٣٠ مدينى ؟ لا يبدو هـــذا فى راينا محتملا ، حيث اكد محدثونا انه لم تكن قد ضربت بعد قطع مسكوكات من هذا النوع . اذن فهل هـــذه هى القطع الاصلية من ذوات الـــ ٤٠ والـــ ٢٠ مدينى التى امر على بك بضربها فى حين أن القطع التى اصدرت بعد ذلك قد انقص وزنها الى ٤١/٢ و ٢١/٤

من الدراهم ؟ ان الشىء الذى قد يدعو الى الأخذ بهذا الرأى هو أن افندى النقود الذى حصلنا منه على المعلومات حول سلسلة النقود المختلفة التى تناولناها فيما سبق لم يعهد اليه باصدارها الا الى العام ١١٨٥ من الهجرة فى حين أن القطع التى حملناها معنـــا من مصر وأجرينا عليها الفحـــوص ورسمناها (٦) تحمل تاريخ اصدار هو ١١٨٣ . اذن فيتبقى علينا أن نعرف ما ان كان هذا الرقم يمكنه ان يدل قط على الســـنة التى أصـــبح فيها على بك مستقلا أو على السنة نفسها التى سكت فيها هذه النقود .

لقد تحتم أن تزن القطع ذوات الـــ ٤٠ والـــ ٢٠ مدينى التى عاود الفرنسيون ضربها نحو ٤ و٢ من الدراهم .

وطبقـــا لذلك يكون النقص الذى اعترى وزن هـــذه النقود مقارنة بمثيلاتها فى عهد على بك قد بلغ نحو درهم واحد و ١٦٣/١٠٠٠ من اجمالى زنة قدرها ٥ ١٦٣/١٠٠٠ دراهم اى ما يعادل ٢٢١/٢ ٪ اذا ما كان وزن القطعة ذات الأربعين مدينى قد بلغ ٥ ١٦٣/١٠٠٠ من الدراهم او ١١ ١٦٣/١٠٠ ٪ فقط اذا لم تكن الواحدة من هـــذه العمـــلات تزن سوى ٤١/٢ من الدراهم .

ولمـــا كانت الأهمية التى تعلق عادة على النقود النحاســـية جـــد ضئيلة ، ولمـــا كانت قد تناولتها تغييرات مستمرة ، وكانت لها على الدوام تقريبا قيمة اعتبارية او صورية ترتبط بالحاجات اليومية للناس الذين كانوا يحصلون عليها كى يستخدموها اشارة او وسيلة تبادل عنـــد شراء المواد ضئيلة القيمة ، ولمـــا كان من النادر ان يضع الناس فى اعتبارهم ، لهذه الأسباب كلها وكذلك لانخفاض ثمن المعدن الذى تصنع منه ، الوزن الذى يمكن ان يكون لكل قطعة منها فقد بدا لنـــا أن ليس ثمة أهمية كبيرة فى تلمس أوزان النقود النحاسية فى العصور المختلفـــة ، وان كنـــا نكتفى

---

(٦) انظر اللوحات الملحقة بهذه الدراسة ، الشكل ١٦ من اللوحـــة الثالثة والشكل ٢٢ من اللوحة الرابعة .

بملاحظة ان القطع النحاسية ذات القيم الاكبر والتى تم ضربها منذ عهد الخلفاء لم يتجاوز وزنها فيما بدا لنا سبعة دراهم ونصف الدرهم اى ما يزيد على ٢٣ جراما بنحو طفيف . وتزن قطعة عملة نحاسية ، تحمل كلمة اينار مكتوبة بخط كوفى ، وتنتمى الى العملات النحاسية التى تناولناها فى صفحة ٣٤٢ درهما واحدا و ١٠٠٠/٦٤٤ من الدرهم اى نحو ١٠٠٠/٦٢ ٥ جرامات ، اما تلك التى تحدثنا عنها فى صفحة ٣٧٧ فتزن درهما وحدا ١٠٠٠/٦١٤ من الدرهم اى ١٠٠/٩٦٩ ٤ جرامات .

وقد يبلغ وزن قطعة الجديد التى رسمناها فى الشكل رقم ٢٥ من اللوحة الرابعة نحو درهم واحد و ١٠٠٠/٧٥٠ من الدرهم اى ١٠٠٠/٢٨٨ ٥ جرامات ، اما قطع الأجداد (جديد) التى ترجع الى عهد مصطفى ، الذى تولى الحكم فى العام ١١٧١ الهجرى (١٧٥٧ من تقويمنا) ، والتى رسمنا واحدة منها فى اللوحات الملحقة بهذه الدراسة فى الشكل رقم ٢٦ فيتراوح وزن القطعة منها بين ٢/١ و ٥/٢ من الدرهم ، واخيرا فان الأجداد التى لا تحمل نقوشا والتى تناولناها بالحديث قبل ذلك عند نهاية الفصل الخاص بالنقود النحاسية . لم تكن تزن كل عشرة منها معا سوى ٤/٢١ الى ٢/١ من الدراهم ، بواقع زنة القطعة الواحدة ٤/١ الدرهم على اكثر تقدير .

ثانيا : العيـــار

كانت العملات الذهبية والفضية ، عند نشأة غالبيـــة النقود ، ذات عيار مرتفع للغاية لذلك فان النقود القديمة ، عند اغلب الشعوب ، هى عادة اكثرها نقاء (اى اكثرها قربا من المعدن الخالص) . وهكذا فقد تبين ان عيار الدينار الذى تناولناه فى صفحة ٣٥٣ على سبيل المثال والذى يعود الى العام ٩٧ من الهجـــرة (٧١٦ من التقويم المسيحى) ، والذى تعرض لاختبارات وفحوص بالغة الدقة فى باريس ، يبلغ ٩٨٧ من الالف اى ٢٣ قيراطا و ٣٢/٢٢ من القيراط .

وطالمـــا لم تكن للحكومات مصلحة خاصة فى تحميل سبائك النقود بالاخلاط والشوائب فسيكون الأمر الطبيعى اكثر من غيره ، بالنسبة لهـــا ، ان تمنح هـــذا الرمز الممثل لكافة القيم الاخرى اكبر قيمة ممكنة فى اقل

حجم مستطاع ، مما يجعل حمله والاحتفاظ به اكثر يسرا ، ومما يقلل كذلك من نفقات صنعه ، ومع ذلك فلا يصح لنا ان نعتقد بان من الأفضل ان نبلغ بالذهب او الفضة اعلا عيار لهما ، فقد علمتنا التجربة أن نسبة معينة من المزاج (بكسر الميم) تعطى لهذين المعدنين قدرا اكبر من الصلابة وتجعلهما أقل قابلية للتلف او التحور بفعل التآكل الناجم عن كثرة التداول .

وحيث كانت غالبية دور سك النقود ، بالاضافة الى الاعتبارات السابقة ، تحصل على احتياجاتها (من المعادن النفيسة) عن طريق المسكوكات النقدية المصنوعة على يد الأسبان والبرتغاليين ، الذين يمتلكون مناجم بالغة الوفرة والثراء ، فقد كانت الأمم الاوربية الأخرى تضطر الى مزج نقودها بالنسب نفسها، على وجه التقريب، التىتمزج بها نقود هؤلاء، وبمعنى آخر فقد كان عى هذه الامم الاوربية ان تتحمل كخسارة صافية مصروفات تمحيص او تنقية النقود الاسبانية والبرتغالية (اى فصل المعدن النفيس لاستخدامه فى صنع نقود خاصة بهذه الأمم) .

وبعيدا عن هـذه الدوافع الخاصة ، فان الدافع الوحيد الذى يمكنه ان يحدو بالحكومات المختلفة الى تحريف النقود (اى الغش فيها بانقاص عيارها) هو الرغبة فى تحقيق منفعة تتم دوما على حساب الأفراد (المواطنين) ، تنتهى — هذه المنفعة — بأن تصبح قاتلة للدولة ، وللحكومة نفسها ، اذ هى تخرب تجارتها وائتماناتها وكذلك الثقة فيها . كما انها تلقى بالأسواق المالية فى ارتباك عسير يصعب اصلاحه فى غالبية الأحيان .

ولما كان من غير الميسور ان يحوز الأفراد ، وبصفة خاصة فى البلدان التى لم تتقدم فيها الفنون والصناعات ، وسيلة اكيدة لمعرفة العيار الدقيق (لعملة ما) فيما عدا اولئك الذين يحترفون مهنة تعيير النقود ، فقد استطاع اولئك الذين تنهض عليهم صناعة النقود فى الشرق ان يحرفوا (او يغشوا) المرة بعد المرة عيار المسكوكات الذهبية والفضية دون رادع، وان يستحوذوا لانفسهم ، لمدة طويلة ، على كل الربح الذى يجنونه من وراء ذلك .

وفى بعض الاحيان كان بعض هؤلاء (الحكام) يصطنعون لانفسهم شرف اعطاء النقود درجة اعلا من النقاء (او عيارا اعلا) اغنما حققه اسلافهم

او جيرانهم ، وان كانت هذه الحكومات ، بعودتها الى مبادىء اكثر عدالة واكثر استنارة ، قد ادركت ان من صالح الافراد ، ومن صالحها الخاص كذلك ، ان تعمل على سك نقودها بعناية اكبر وبمزيج افضل كى تمنح هذه النقود قدرا اكبر من الثقة فى مجال التجارة الداخلية ولكى توفر لها ميزة التبادل مع الخارج .

ولعل احمد بن طولون كان هو الحاكم الوحيد فى مصر ، منذ استقرار الاسـلام بها ، الذى ضرب بها انقى او اخلص الدنانير ، وسميت هـذه باسمه ، ((الدينار الأحمدى ، أو الأحمدى فقط)) ، حتى اخذت هذه التسمية تطلق بعد ذلك للاشارة الى الذهب الانقى .

اما السبب الذى قاد الى هـذا الاجـراء فيبدو لنا ، بالشكل الذى يروى به ، بالغ الطرافة برغم انه يعطينـا فكرة لا باس بهـا عن الملمح الأسطورى لغالبية الحكايات التى يندفع المؤلفون العرب فى تجميعها بكثير من الثقة .

يورد المقريزى ان أحمد بن طولون قد اكتشف جـرة مليئة بالدنانير عندما امر باجراء تنقيبات فى منطقة الاهرام املا فى العثور على كنوز هناك ، وكانت سدة هـذه الجرة تحمل هـذا النقش ، بحروف قديمة : ((انا فلان ابن فلان ، انا الذى خلصت الذهب من شوائبه ، وكل من يريد ان يعرف كم كان عهدى اسمى من عهده ليس عليه الا ان ياخذ فى اعتباره كم كان مزج دنانيرى افضل من مزج دنانيره ، ذلك ان الذى يطهر ذهبه مما يشوبه ، يكون هو نفسه الذى يتطهر فى حياته وبعد مماته)) .

وقد امر أحمد بتمحيص هـذه الدنانير ، فوجد ان عيارها فى الواقع اعلا بكثير من عيار النقود التى ضربت من قبله ، فبذل اكبر قدر من العناية فى تحسين عيار عملاته الذهبية .

واذا افترضنا ان الدينار الأحمدى كان يماثل فى نقائه سكين Séquin البندقية الذى يقدر عياره العالى للغاية فى تعريفة النقود الفرنسـية (٧)

(٧) التعريفة الصـادرة فى ١٧ بريريال من العـام الحادى عشر (٦ يونيه ١٨٠٣) .

بـــ ٩٩٦ (فى الالف) ، وحيث يبلغ العيار القـــانونى لعملات القـــاهرة الذهبية اليوم ٢٤/٣٢ ١٦ قيراطا اى ٦٩٨ (فى الالف) ، فمعنى هـــذا أن تحريفا متتابعا قد اصاب عيـــار النقود الذهبيـــة بلغ ٢٨٨ على ١٠٠٠ اى نحو ٢٩٪ .

وكان عيار العملات الذهبية ، قبل تدخل الفرنســـيين فى عمـــلات القاهرة ، يبلغ فى بعض الأحيان اقل من ٢٤/٣٢ ١٦ قيراطا ، ويبدو ان العيار الأكثر انخفاضا كان هو عيار العملة الذهبية التى نشرها بونفيل فى مقالته عن النقود الذهبية والفضية التركية برقم ٢١ ، وتعود هـــذه القطعة الى عهد عبد الحميد الذى تولى الحكم فى القسطنطينية فى العام الهجرى ١١٨٧ (١٧٧٤ م) ، وقد ضربت هـــذه فى القاهرة فى العام ١٢٠٠ من الهجرة (١٧٨٥ او ١٧٨٦ من التقويم المسيحى) وقد سبكت بعيار قدره ٢٥/٣٢ ١٥ قيراطا اى ٦٤٥ (على ١٠٠٠) فى وقت كان ينبغى أن يبلغ عيارها فيـــه نحو ٢٨/٣٢ ١٦ قيراطـــا اى ٧٠٧ (على ١٠٠٠) مع تفـــاوت مسموح به (لأعلا او لادنى) قدره ٤/٣٢ من القيراط اى ٥٢/١٠٠٠ .

وقد ثبت الفرنسيون عيار الزر محبوب عند ٢٤/٣٢ ١٦ قيراطا اى ٦٩٨ من الالف بتجاوز مسموح به قدره ٣/٣٢ لأعلى أو لاقل .

اى نحو ٠ر٠٣٩

اى (مع التقريب) . ٠ر٠٤٠

فى حين يبلغ التجاوز القانونى المسموح به فى فرنسا بالنسبة لقطع اللويس ١٢/٣٢ من القيراط .

اى نحو ٠ر١٥٦

وكان يبلغ فى الوقت نفسه بخصوص القطع الذهبية ذوات الاربعين والعشرين فرنكا نحو ٠ر٠٢٠

وعلى هـــذا فقد كان التفاوت المسموح به قانونا (فى مصر) يقل بنحو ثلاث مرات عن مثيله فى فرنسا ونحو الضعف من التفاوت الذى كان مسموحا به بالنسبة للقطع ذوات الاربعين والعشرين فرنكا .

وحيث كانت اساليب التمحيص التى سنعرض لهـا عند نهاية هذه الدراسة اقل تقدما عنها فى فرنسا فقد نتج عن ذلك أن التجاوز القانونى بالنسبة لعيار العملات الذهبية لم يكن (فى الواقع) كبيرا للحد الكافى ، فقد كانت قطع الفندقى التى توقف صنعها منذ عهد عبد الحميد بن احمد ذات عيار اعلى من قطع السكين Séquins

وقد قدر عيار العملات الذهبية التركية من الزر محبوب فى تعريفة النقود الفرنسية الصادرة فى ٧ بريريال من العام الحادى عشر (٦ يونيه ١٨٠٣) بـ ٩٩٦ ، وهو عيار يبدو اعلى مما هو مطلوب عندما نكون بصدد عملات اكثر قدما واشد نقاء .

كذلك فان قطع الزر محبوب التى ضربت فى القاهرة فى عهد السلطانين احمد بن محمد ، ومحمد بن مصطفى ، اللذين توليا الحكم فى ١١١٥ و ١١٤٣ من الهجرة (٧٠٣ و ١٧٣٠ م) كانت هى الاخرى ذات سبك بالغ الجودة ، اما تلك التى تعود الى عهد عبد الحميد بن احمد الذى بدا حكمه فى العام الهجرى ١١٨٧ (١٧٧٤ من تقويمنا) والتى رسمناها فى الشكل رقم ١١ من اللوحة الثانية فقد كان عيارها بالغ الانحراف حتى ان القطع التى ظلت تتداول منها فى مجال التجارة بالقاهرة كانت تبدو وكانها مزيفة او كانها نقود فضية قد مزجت بالذهب ، كما سبق لنا ان قلنا ، برغم انها قد ثبتت فى عمليات التمحيص التى اجريت عليها فى باريس بين عيارى ٧١٠ و ٧١٥ (٨) . وهكذا ، وبصفة قاطعة ، فان هذه العملات لم تكن زائفة وان كانت حكومة البلاد قد طرحتها بقيمة مساوية لقيمة الفندقى القديم ، وعلى ذلك فقد طرحت بقيمة اعلى مما كانت لها فى حقيقة الأمر .

اما الدراهم الناصرية التى امر بضربها صلاح الدين (انظر الفصل

---

(٨) انظر جدول النقود ، القطعتين رقمى ٢٤ ، ٢٥ . وقد ثبت عيار فندقلى القسطنطينية فى عهد عبد الحميد الى ١٩١/٤ قيراطا اى ٨٠٢. (على الف) . وكان يضرب فى القاهرة دون شك بالعيار نفسه الذى كان للقطعة الذهبية زر محبوب . وكان الفندقلى بحكم وزنه وعياره . لا يساوى الا ١٦٦ ٦٦/١٠٠ مديني لكنه ثبت عند ٢٠٠ مديني .

الخاص بالنقود الفضية او البرونزية) فكانت طبقا لما يورده المقريزى مزيجا من الفضة والنحاس بنسب متساوية .

ولعل الدرهم الوحيد ، الذى يعد قديما بعض الشىء ، والذى حملناه معنا من مصر ، فهو الذى ضرب فى العام ٦٦٥ او ٦٧٥ من الهجرة (١٢٧٦ او ١٢٧٦ من التقويم المسيحى) ، فى عهد الظاهر ركن الدين بيبرس ، وقد تناولناه فى صفحة ٣٥٢ ، الفقرة الخامسة ، وقد بلغ عياره ، طبقا للتمحيص الذى اجرى عليه فى باريس ٦٧٢ (على ١٠٠٠) (٩) .

وليست لدينا معطيات دقيقة عن اعلى عيار تكون قد بلغته الدراهم القديمة ، فاذا ما افترضناه ٩٨٣ (من الف) ، وهو اعلى عيار بالنسبة للنقود الفضية ، سجلته تعريفة ١٧ بريريال من العام الحادى عشر (٦ يونيه ١٨٠٣) ، فلابد ان يكون قد حدث تناقص مستمر فى عيار هذه النقود بلغ فى النهاية نحو ٣١ ١/٢ ٪ .

وقد ثبت احمد اغا خطيب زادة المفوض او المفتش الذى ارسله الباب العالى فى العام ١١٧٦ من الهجرة (١٧٦٢ م) للتفتيش على عملات القاهرة، عيار قطع المدينى عند ٥٨٠ (من ١٠٠٠) ، اما عند قدوم الفرنسيين فقد انخفض العيار الى نحو ٣٤٨ ، الامر الذى يوضح ان تدهورا مستمرا قد بلغ فى مجمله ٣٩١/٢٪ اى نحو ٤٠٪ فى فترة زمنية تقدر بـ ٣٧ عاما .

وقد راينا انه كان يضاف ، فى الفترة الاخيرة ، الى كل درهم واحد من الفضة الخالصة مزاج قدره درهم واحد $\frac{٨٧٠٤٣٢}{١٠٠٠٠٠٠}$ من الدرهم ، فاذا لم تكن هذه النسبة تتعرض لاى تغيير عند الصنع فسوف نجد انفسنا ازاء عيار قدره ٣٤٨ بالنسبة لقطع المدينى .

وبدءا من الاول من فندميير من العام التاسع (٢٣ سبتمبر ١٨٠٠) ثبتت نسبة المزاج الذى ينبغى اضافته الى كل درهم من الفضة الخالصة عند درهمين ، ولولا ان خامة المدينى تمحص بشكل محسوس فى مختلف

---

(٩) يورد المقريزى ان سبيكة الدرهم الناصرى قد صنعت على قاعدة ٧٠٪ من الفضة الخالصة ، وهو عيار لا يبتعد كثيرا عن العيار الذى نجده فى نقود باريس .

مراحل المعالجة اليدوية التى تخضع هـذه الخامة لها لبلغ عيارها بدقة ٣٣٣ (من الف) اى الثلث من الفضة الخالصة ، لكن غالبية عمليات التنقيد (ان صح التعبير ويقصد به تحويل المعادن الى نقود) مثل الصهر والسبك والتجمية او الإنضاج وبصفة خاصة عملية الصقل تؤدى الى انفصال نسبة من النحاس تتبخر او تحترق مكونة لهبا اخضر اللون او تتأكسد او تنفصل عند السطح لتزول فى عملية الجلو او التبييض بحيث يزيد صفاء الخامة او الفضة المزوجة مع توالى هـذه العمليات بطريقة تصبح محسوسة فى النهاية لأن سطح قطع المدينى بالغ الاتساع بالنسبة لكتلتها (اى وزنها) ، وبهذه الطريقة يرتفع العيار الحقيقى لهذه العملة ٪ اما قطع المدينى التى تفحصها المسيو فوكيلان Vauquelin عضو المجمع العلمى والمعيارجى الذى يقوم بدمغ وفحص الذهب والفضة فى باريس فقد بلغ عيـارها عندئذ ٣٥٦ ، وكانت هـذه قد صنعت تحت اشرافنـا فى القـاهرة فى العام ١٢١٣ من الهجرة (٩٨ او ١٧٩٩ م) ، وان كانت عمليات تمحيص اخرى اجريت مؤخرا فى دار سك النقود بباريس على قطع مدينى من النوع نفسه وصلت بعيارها الى ٣٥٢ — ٣٥٤ بدلا من نسبة ٣٤٨ التى كان ينبغى ان تعطيها نسـبة المزاج المضاف كما سبق لنـا ان اوضحنا فى الفقرة السابقة .

وقد برهنت تجـارب بالغـة الدقة اجريت حديثا على يد المسـيو دارسيه Darcet مفتش عمليات التعيير فى دار سـك النقود بباريس بخصوص تكوين البرونز ٪ اننا اذا صهرنا معا كميات كبيرة من النحاس النقى والفضة من عيار معروف لنـا جيدا ، فان عملية التعيير التى تتم بعد ذلك تعطينا كمية من الفضة الخالصة اقل بنحو طفيف عن كمية الفضة التى اضفناها ٪ وعلى هـذا فبامكاننا كذلك ان نصل بنسبة التكرير او التمحيص (او المزج) التى تمت فى المراحل المختلفة من عمليات صنع المدينى الى درجـة اكبر قليـلا من تلك التى تبينها عمليـات التمحيص التى ذكرناها فيما سبق .

اما بالنسبة لصبغ العملات ذوات الاربعين والعشرين مدينى ، فقـد كان يضاف فيه بالمثل الى كل درهم من الفضة الخالصـة درهما واحـدا

و $\frac{٨٧٠٩٤٣٢}{١٥٠٠٠٠٠٠٠}$ من الدرهم ، وان كان من الممكن لعيـارها ، اذا ما حدثت عمليات تكرير او تصفية خلال مراحل عملية التنقيد ، ان يصل الى نحو ٣٤٨ (من الف) بل يمكنه ان يرتفع الى ٣٥٠ لأن عمليات التكرير التى تتم خلال صنع هـذه المسكوكات هى بالضرورة أقل حجما من تلك التى نتطلبها قطع المدينى (*) .

ثالثا : القيمة الاسمية

تتبنى كل الشعوب التى تعرف استخدام النقود ، وحـدة بعينها ، حقيقية أو افتراضية تجعل منها طرفا للمقارنة عند تقييم العملات الأخرى، والسلع المختلفة ، وعند حساب كل الأسعار ، على هـذا النحو كان الجنيه فى فرنسا هو وحدتها النقدية ، فيما مضى ، ومنذ وضعنا نظامنا النقدى الجديد ، اصبح الفرنك وحدتنا النقدية .

اما القيمة الاسمية لعملة ما فهى عدد هـذه الوحدات النقدية التى يرى انها مساوية لهـا . وقد استقرت غالبية الأنظمة النقدية على معدنين جنبا الى جنب هما الذهب والفضة ، وتقبل فى اغلب الأحيان كذلك معدنا ثالثا هو النحاس ، وفى بعض الأحيان تقبل نوعا رابعا من المعدن المركب هو البرونز .

وتشكل الفضة فى معظم الاحيان الوحدة النقدية لانها اكثر وفرة من الذهب فى مجال التجارة ، كما انها اطوع حين تستخدم عادة وسيلة للتبادل، فكمية بعينها من الفضة ، من حجم يسهل حمله والانتقـال به ، لن تكون بذات قيمة اكبر ممـا ينبغى (حتى يخشى عليها) ولا بذات قيمة ادنى ممـا نتطلب الامور لسد الاحتياجات العادية والاستخدامات اليومية .

اما الذهب ، والغرض الأساسى من استخدامه هو تقييم الصفقات أو المشتريات الضخمة وجعلها قابلة للنقل (او التحويل) بشكل اكثر يسرا، فنادرا ما يشكل وحدة نقدية ، ومع ذلك فقد راينا عند حديثنا عن العملات

(*) ربما بسبب النسبة بين مساحة الوجه وبين الكتلة او الوزن فى كلتا العملتين . (المترجم) .

الذهبية ، كيف كانت الحسابات ، وكذلك العقود وجباية الضرائب تتم كلها في مصر ، فيما مضى بالدنانير .

ومنذ ان استبدلت بالذهب عملات فضية اجنبية ، تدوولت هناك في شكل عملة فضية وطنية ، موحدة ، تسمى درهما ، مستمدة اسمها من الوزن الذى كانت تساويه في الاصل ، اصبح الدرهم هو الوحدة النقدية ، بمعنى ان كل شيء اصبح يقيم بالدرهم .

وعندما توقف صنع الدراهم ، اصبح المدينى ، الذى قام مقام هـــذه العملة الفضية ، هو الوحـــدة النقدية التى لا زالت تستخدم حتى اليوم ، ولعله اصغر وحـــدة نقدية من هـــذا النوع على الاطلاق تستخدمها امة من الامم لتقييم صفقات (او مشتريات ، أو خدمات . . .) ضخام .

اما النقود النحاسية فلا تستخدم عادة الا كنقود معاونة للنقود الفضية، ومع ذلك فلابد ان تنشأ في هـــذه الحالة نفسها وتستقر رابطة من قيمة تبادلية بين هذين النوعين من النقود . اما اذا لم تكن هناك نقود ذهبية ، بشكل تصبح معه النقود الفضية نفسها نادرة ، والنحاسية وفيرة ، فلسوف تتم التقديرات عندئذ بالنقود النحاسية ، بشكل اعتيادى وشائع ، بحيث ينتهى الامر بوحدة من هـــذا النوع من المسكوكات بأن ينظر اليها باعتبارها الوحدة النقدية الوحيدة ، وهذا هو ما حدث في مصر ، في نحو القرن الثامن من الهجرة (بداية القرن الخامس عشر من تقويمنا) ، عندما انتهى الأمر بكل شيء ، حتى الذهب نفسه ، ان اصبح يقـــدر بالفلوس ، اى بالعملات النحاسية .

وحين تقيم نقود مصنوعة من معدن ما ، وليكن الذهب على سبيل المثال ، بوحدات نقدية مصنوعة من معدن آخر مثل الفضة ، تنشأ بالضرورة مقارنة او علاقة (تبادلية) بين قيمتى هذين المعدنين ، وقد تتنوع هـــذه العلاقة بسبب ظروف مختلفة بحسب الحالة التى يكون عليها احد المعدنين من الندرة او الوفرة .

ولهذا السبب فان كثيرا من المؤلفين الذين يحظون بالتقدير ، لصواب ارائهم واتساع معارفهم قد اقترحوا عدم تثبيت القيمة الاسمية الا للنقود الفضية وان تدون فوق النقود الذهبية وزنها وعيارها فقط ، بدلا من تدوين

قيمتها الاسمية ، تاركين للتجارة مهمة تحديد العلاقة (التبادلية) بين الذهب والفضة .

ومع ذلك فنادرا ما يبدو اجراء كهذا قابلا للتنفيذ ، اذ سوف ينتج عنه فقدان ثقة مستمر فى القيمة الخاصة بهذين النوعين من النقود ، اذ تظل هذه العلاقة (التبادلية) برغم الجهود التى قد تبذلها الحكومة فى العمل على ذيوعها ، مجهولة من الغالبية العظمى من ابناء الشعب ، والذين سيصبح اجراء كهذا مبعثا على ضيقهم اذ سيضطرون لاجراء حسابات تقييم على الدوام ، وهذا شىء مستحيل عليهم ، لا يألفه الا الصرافون واولئك الذين يشتغلون بالعمليات التبادلية والمالية .

وتلك هى الدوافع التى حالت دون تبنى هذه الفكرة فى نظامنا النقدى الجديد والتى اسهمت فى جعل تدوين القيمة الاسمية بالفرنكات على النقود الذهبية ، كما فعلنا بالنسبة للعملات الفضية ، امرا ضروريا .

وحين كانت العملات الذهبية هى وحدها النقود القانونية فى مصر ، وحين لم يكن يتداول هناك سوى بعض نقود فضية اجنبية ، فقد كانت القيمة النسبية لهذه العملات او سعر التداول تتحدد عن طريق التجارة فحسب ، وهذا ما دعا المسيو دى ساسى الى الظن بأن القوم تحت حكم الفاطميين كانت لديهمفكرة أكثر دقةفى مجال اقتصاديات النقود عن تلك الفكرة الكامنة وراء النظام النقدى المتبع اليوم فى غالبية دول أوربا ، حين يظن بأن من المستطاع أن تقوم علاقة تناسب ثابتة وغير قابلة للتغيير بين الذهب والفضة ، ومع ذلك فهل يحتمل ان يكون ثمة ، فى تلك الفترة التى نتحدث عنها ، نظام اقتصادى يفترض حضارة على هذه الدرجة من التقدم ، ولا يمكن أن يأخذ به الا رجال المصارف والتجار — قد وضعته حكومة مصر ؟

فحيث لم يكن يتعلق الأمر الا بعملات فضية أجنبية ، ذات قيم متنوعة ، فلم يكن من الممكن ان تتخذ حيالها سوى قاعدة بالغة البساطة ، وطبيعية للغاية كذلك ، واخذت بها فضلا عن ذلك غالبية الامم الاوربية ، ونعنى بذلك عدم وضع سعر أو تعريفة للعملات والسماح بتداولها بالسعر الذى تحدده لها سوق التجارة أو حركة التبادل مع الأمم التى توفر هذه النقود ، ولكن فبمجرد

أن أصبحت لمصر عملة فضية خاصة بها ، لم يعد هنـاك مناص من ان تلتزم الحكومة (المصرية) بتثبيت العلاقة بين قيم هـذه النقود (الوافدة) وبين قيم نقودها الذهبية كما حدث فى كل بلاد العالم على وجـه التقريب ، وهو الأمر الذى تبرهن عليه كذلك فترات عديدة وردت عند المقريزى .

بل لقد كان على امراء او حكام مصر أن يبدوا غيورين على حقهم فى تثبيت القيمة الاسمية للنقود ، اذ اعتادوا جميعا ان يسعوا لتحقيق اكبر منفعة ممكنة من وراء صنعها ، فاذا كانت هـذه هى حقيقة الأحوال ، فان هـذه المنفعة المبتغاة لم يكن من المستطاع تحقيقها الا باعطاء النقود سعر تداول الزامى أو عن طريق قيمة اسمية لهـا أعلى من قيمتها الجوهرية أو الفعلية ، ولهـذا الغرض نفسه فقد اعتادوا فى حالات كثيرة ان يأمروا بابطال ، ليس فقط كل المسكوكات الأجنبية التى دخلت فى نطاق التداول فى عصور مختلفة بل بابطال العملات التى اصدرها اسلافهم وطلب تسليمها حيث لم يكن يتم قبولها على اكثر تقدير الا طبقا لقيمتها الجوهرية او الفعلية، وبعد ذلك كانت تحول الى اصدار نقدى جديد ذات مزيج ادنى .

ومع ذلك ، فحيث كان يحدث بالضرورة ، برغم جهل الناس من جهة، وبرغم سلطة الحكومة من جهة اخرى أن تحيل النسبة بين القيمة الاسمية للنقود والقيمة الجوهرية أو الحقيقية لهـا الى التوازن بطريقة متفـاوتة الايقاع ، متفاوتة الدقة كذلك ، فلم تكن هنـاك اية وسيلة قهرية يمكنها أن تحول على المدى الطويل دون ارتفاع أثمان السلع الغذائية ، وكذلك اثمان سبائك الذهب والفضة ، وبالتالى ثمن الذهب المحول الى نقود ، اذا لم يكن قد تناوله غش كبير وخصوصا عندما يصبح تحريف وزن وعيـار المسكوكات محسوسا بطريقة فاضحة ، وكذلك عندما كانت تطرح للتداول كميـة من النقود بالغة الضخامة لحد يفوق الحاجة ، ذات مزيج منخفض، وينتهى الأمر بأن تجد الحكومة نفسها مضطرة عندئذ لأن تغير بنفسها القيمة الاسمية للنقود الذهبية (١٠) ، ولكى تواصل هـذه الحكومة تحقيق الأرباح التى تجنيها من وراء صنع هـذه النقود . فقد كانت تخفض من جديد عيار العملات وتفرض تداول هذه النقود وفقـا للتحديد الجديد لقيمتها الاسمية

---

(١٠) انظر ما سبق ان قلناه عن البوطاقة الفصـل الخاص بالنقود الحسابية .

كما لو كانت هـذه العملات قد احتفظت بالقيمة الجوهرية او الفعلية نفسها التى كانت لها من قبل (*) .

واليكم الآن السبب الذى كان يحول دون أن تتوازن النسبة بين القيمة الاسمية والقيمة الحقيقية للمدينى بشكل قاطع ، فحيث لم تكن كمية هـذه العملات ، التى كانت في الوقت نفسه تستخدم فى الصفقات الكبرى والمشتريات الصغرى (الجملة والقطاعى) فى كافة انحاء مصر ، بل كذلك فى البلدان المجاورة ، وفيرة لحـد يفى باحتياجات التجارة ، فقد كانت تتحقق لهـا قيمة افتراضية (او حسابية) كبيرة بعض الشىء باعتبارها وسيلة للتبادل ، وهى قيمة كانت تحتفظ بها بصفة جزئية ، حتى برغم أن انخفاض مزيجها او سبيكتها كان حقيقة شائعة بشكل عام .

ويمكننا ان نلتمس عند المقريزى تلك التغييرات الأساسية التى تناولت القيمة الاسمية للنقود خلال القرون السبعة الاولى من الهجرة ، ونكتفى هنا بأن ننقل عنه فترة بالغة الاهمية ، تتطابق مع ما سبق لنا ان قلناه .

فى نحو العام ٣٦٣ من الهجرة (٩٧٤ من تقويمنا) كان سعر التداول للدينار المعزى يبلغ ١/٢ ١٥ درهما .

وحيث زاد عدد الدراهم لحـد كبير فى عهد امير المؤمنين الحاكم بامر الله ابو على المنصور بن العزيز فقد ارتفع سعر الدينار حتى بلغ ٣٤ درهما وتغيرت كل اسعار السلع الغذائية ، ونتج عن ذلك اضطراب كبير فى احوال الناس ، وعندئذ الغى تداول الدراهم ، ونقلت من القصر عشرون صندوقا من الدراهم الجديدة ، وقطعت رقبة كل من رفض مهنة الصيرفة .

ونشر مرسوم يحرم اتمام اية صفقة قدرت بالدراهم القديمة ، وامر كل حائزى هـذه المسكوكات بان يحملوا كل ما كان لديهم منها الى دار سك النقـود فى مدى ثلاثة ايام ، وتسبب ذلك كله فى حدوث فوضى واضطراب كبيرين ، واخذت كل اربعة من الدراهم القديمة فى مقابل درهم

(*) المقصود بالقيمة الجوهرية او الفعلية كما سنرى فيما بعد هو قيمة المعدن المستخدم فيها بالاضافة الى نفقات صنعها . (المترجم) .

واحد من الدراهم المضروبة حديثا ، ونظمت العلاقة (التبادلية) للعملات الجديدة بواقع ١٨ درهما مقابل الدينار الواحد .

ويبين جدول العملات الملحق بهـذه الدراسة القيمة الأسمية بالمدينى التى ثبت عليها الفندقلى وقطع النقد الذهبية الأخرى والقروش سـواء بمعرفة الباشوات والبكوات فى عهود مختلفة أو على يد الفرنسيين اثناء اقامتهم بمصر .

وقد تم هـذا التثبيت الأخير بموجب تعريفة أصدرتها لجنة تكونت فى الاسكندرية وتشكلت من فرنسيين ومن أناس من أهل البلاد ، ووضعت هـذه التعريفة نفسها القيمة التبادلية التى تتداول على اسـاس عملات فرنسا والبلدان المختلفة الاخرى مقدرة بالعملات المصرية ، ولهذا كله اهمية مباشرة بالنسبة لموضوعنا ، لدرجة نعتقد معها انه ينبغى لنـا أن نوردها هنـا ، وان كنا اكتفينا بان نضيف بحذاء هـذه التعريفة عمودا يضم تقييما لهذه العملات نفسها بالفرنكات ، على اساس ١٤٢ مدينى فى مقابل القطعة ذات الخمسة فرنكات .

تعريفـة النقود المصرية

تم الاتفاق بين المواطنين سوسى Sucy رئيس مندوبى الصرف ، وبرتوليه Berthollet ومونج Monge ، عضـوى المجمـع الوطنى الفرنسى ، وبوسييلج Poussielgue مراقب مصروفات الجيش واسـتيف Estève الخازن العـام ، وماجالون Magalon القنصـل العـام بالاسكندرية ، وهم المفوضون الذين عينوا من قبل القائد العام — وبين الحاج حومد ابو الريزو ، تاجر ، والحاج عبد الوهاب الحوشى ، شيخ ، وعلى مباركى الدقاق ، تاجر ، والثلاثة مقيمون بالاسكندرية . وقد استدعوا لهـذا الغرض — على أن تتداول النقود الفرنسية والتركيـة والعملات الأجنبية الاخرى طبقا للتعريفة التى ستطبع نتيجة لهـذا الاتفاق بالعربية والفرنسية ، وعلى أن تتبادل طبقا للقيم الواردة بالتعريفة المذكورة ، على النحو الآتى :

النقود الذهبية	التعريفة: بالعملة المحلية	التعريفة: بالعملات الفرنسية				تحويلها إلى فرنكات على أساس ٤٢ مدينى لكل ٥ فرنكات		
	بارة او مدينى	كسور	د	س	جنيه	كسور	سنتيم	فرنك
الخردبة الاسبانية تساوى .	٢٣٥٢	—	—	—	٨٤	٦٩	٨١	٨٢
نصف الخردبة . . .	١١٧٦	—	—	—	٤٢	٨٤	٤٠	٤١
١/٤ الخردبة	٥٨٨	—	—	—	٢١	٤٢	٧٠	٢٠
١/٨ الخردبة	٢٩٤	—	—	١٠	١٠	٢١	٣٥	١٠
١/٣٢ من الخردبة . . .	١٤٧	—	—	٥	٥	٦١	١٧	٥
القطعة الفرنسية ذات ٢ لويس	١٣٤٤	—	—	—	٤٨	٣٩	٣٢	٤٧
قطعة اللويس	٦٧٢	—	—	—	٢٤	١٩	٦٦	٢٣
سكين البندقية	٣٤٠	٢/٧	١٠	٢	١٢	١٨	٩٧	١١
الزر محبوب إصدار القاهرة	١٨٠	٦/٧	٦	٨	٦	٨٠	٣٣	٦
قطعة بنصف زر محبوب . .	٩٠	٣/٧	٣	٤	٣	٩٠	١٦	٣
عملة ذهبية إصدار القسطنطينية(١)	٢٠٠	٢/٧	١٠	٢	٧	٢٢	٤	٧
» » » هنجاريا وهولندا	٣٠٠	٣/٧	٣	١٤	١٠	٣٤	٥٦	١٠
النقود الفضية								
ريال فرنسا ذو الستة جنيهات écu	١٦٨	—	—	—	٦	٤٢	٩١	٥
» » » الخمسة » »	١٤٢	١/٧	٥	١	٥	—	—	٥
» » » الثلاثة » »	٨٤	—	—	—	٣	٧٧	٩٥	٢
القطعة ذات الثلاثين سو sous(*)	٤٢	—	—	١٠	١	٨٨	٤٧	١
» » ١٥ » »	٢١	—	—	١٥	٠	٤٩	٧٣	٠
ريال روما écu . . .	١٤٠	—	—	—	٥	٩٥	٩٢	٤
ريال مالطة	٦٧	٢/٧	١٠	٧	٢	٩١	٣٥	٢
القطعة ذات الريال و½ الريال (مالطة)	٨٤	—	—	—	٣	٧٦	٩٥	٢
» » ٢ ريال »	١٣٤	١/٧	٨	١٥	٤	٨٣	٧١	٤
» » ½ ٢ ريال »	١٦٨	—	—	—	٦	٥٥	٩١	٥
القرش الاسبانى . . .	١٥٠	٠/٧	١	٧	٥	١٧	٢٨	٥

(١) لم توضع تعريفة للفندقلى ، وكان يقدر بـ ٣٠٠ مدينى ، انظر الباب الأول ، الفصل الأول ، الفقرة اولا : الخاصة بالنقود الذهبية .

(*) sau عملة تساوى ١/٢٠ من الفرنك . (المترجم) .

	التعريفة					تحويلها إلى فرنكات		
	بالعملة المحلية	بالعملات الفرنسية				على أساس ٤٢ ١ مديني لكل ٥ فرنكات		
	ابرة ومديني	كسور	د	س	جنيه	كسور	سنتيم	فرنك
التالر (التالارى) (الألمانى)	١٥٠	٠/٧	١	٧	٥	١٧	٢٨	٥
ريال جنوة ذو الثمانية جنيهات	١٨٦	٢/٧	١٠	١٢	٦	٩٣	٥٤	٦
ريال ميلانو ذو الستة جنيهات	١٣٠	٢/٧	١٠	١٢	٤	٧٤	٥٧	٤
وتوجد أربعة أنواع من النقود التركية :								
النوع الأول ويساوى . .	١٠٠	١/٧	٥	١١	٣	١١	٥٢	٣
« الثانى « . .	٨٠	٠/٧	١	١٧	٢	٦٠	٨١	٢
« الثالث « . .	٦٠	٢/٧	١٠	٢	٢	٢٧	١١	٢
« الرابع « . .	٤٠	٦/٧	٦	٨	١	٨٤	٤٠	١
وتبعاً لهذا الحساب فإن :								
الجنيه النورى يساوى . .	٢٨	—	—	—	١	٥٩	٩٨	—
والبارة الواحدة تساوى . .	١	٤/٧	٨	—	—	٥٢	٣	—

ملاحظة : كانت موارد وانفاقات الجيش تحسب بالبارات .

صدر بالاسكندرية فى ١٧ ميسيدور من العام السادس من قيام الجمهورية الفرنسية ، وبالتقويم الهجرى فى العشرين من شهر المحرم(١) .

(توقيعات)

---

(١) من العام ١٢١٣ (٥ يولية ١٧٩٨) والمحرم هو الشهر الاول من السنة الاسلامية .

وختاما لكل ما يتصل بالقيمة الاسمية ، نتبين الدوافع التى استخدمت اسسا للتعريفة السابقة .

كانت المهمة التى كان على اللجنة ان تضطلع بهـا بخصوص تثبيت هـذه التعريفة تقف بين حدين ، فاما ان تضع تعريفـة بالفـة الصرامة للعملات المحلية طبقا لقيمتها الجوهرية او الحقيقية ، واما ان تعطى هـذه العملات اكبر قيمة ممكنة بالنقود الفرنسية .

اما الاختيار الاول ، فبالاضافة الى انه يبدو نظريا اكثر الاجـراءات مطابقة لمبادىء الادارة السليمة ، فكان يبدو مسترشـدا بمصلحة افراد الجيش الذين كان عليهم — وهـذا امر طبيعى — عند دخولهم الى مصر ان يستبدلوا بالعملات التى جلبوها معهم من اوربا أكبر كمية ممكنة من عملات البلاد فى حين ان سلوكا كهذا سيكون فى واقع الامر ، عملا مجافيا لكل الاعتبارات السياسية ، فحين نحط على هـذا النحو من قدر عمـلات البـلاد ، فلن يكون اكبر الاضرار الناجمة عن ذلك هو اننا باجراء كهـذا ، نحرم الخزانة من كل الربح الذى يمكنها ان تحققه من عملية صنع النقود ، ولا حتى اننا سنثقل كاهل الخزينة بالنفقات باهظة اذا ما وقع على عاتقها عبء صنع هذه النقود ، فحيث كانت الضرائب تحصل بالمـدينى فان من الواضح ان الخزانة التى ستظل تجبى المبالغ نفسها من المدينى ، سوف تجد نفسها وقد تناقصت مواردها بشكل هائل ، اللهم الا اذا زادت من حجم الضرائب ، وهو امر يشكل مساوىء اكبر .

اما اذا اخذنا بالاختيار الثانى (بان نجعل القرش على سبيل المثال مساويا لـ ١٠٠ مدينى والزر محبوب لـ ١٢٠) فقد كنا سنحصل على النتائج الاتيـة :

١ — حيث ان رواتب الجيش كانت مقدرة بالعملات الفرنسية ، فان مصروفات الخزينة حين تدفعها بالمدينى كانت ستقل بمقدار الثلث .

٢ — وحيث ان الضرائب تقدر وتجبى بالمدينى ، فان الحصيلة ، مع استمرار جباية المبالغ نفسها ، ستزيد بفعل ذلك بمقدار الثلث .

٣ — كذلك فان الفائدة التى يعود بها صنع هذه النقود كانت ستزيد هى الاخرى لحـد يتناسب مع هذه النسبة .

ومع ذلك ، فحيث ان القيمة الاسمية للنقود تتجه دون انقطاع نحو الاقتراب من القيمة الجوهرية او الفعلية ، وحيث انه عندما توجد فى اى مكان زيادة ملموسة فى عدد المستهلكين الذين عليهم ان يشتروا كل شىء دو ، ان يبيعوا (او ينتجوا) شـيئا ، وبصفة خاصـة حين ينفق هؤلاء بسهولة ، وحين يجلبون الى التداول كمية كبيرة بعض الشىء من المسكوكات الاجنبية ، فان سعر السلع سيرتفع بسرعة ، وسوف يكون من العسير ، بل ربما من المستحيل ، ان نعاود رفع سعر المدينى فى القاهرة او حتى ان نحتفظ له ، ولوقت طويل ، بنفس معدل سعره ، وقد يستوجب الامر ، لهذا الغرض ، ان نتخذ اجراءات صارمة وربما مجافية لاصول السياسة ". ولهذا السبب فان هـذه اللجنة قد اتخذت فى الواقع ، وحسب وجهـة نظرنا ، الاختيار الاكثر معقولية والاكثر نزاهة حين وقفت موقفا وسطا بين الحدين اللذين عرضنا لهما فيما سبق ، وبتثبيتها قيم الزر محبوب والقروش الاسبانية بقيمتها الاسمية من المـدينى التى كانت قد بلغتها فى القاهرة (عند مجيئنا) اذ كان من الطبيعى لهذه المدينة ، بفعل اهميتها ، وبحكم صفتها كعاصـمة ومركز للتجـارة والحكومة ، ان تنظم اسـعار تداول العمـلات .

رابعا : القيمة الجوهرية او الحقيقية

بين المسيو مونجيه Mongez فى مقالته الرائعة ، والتى كان عنوانها : اعتبارات عامة حول النقود (١١) ، ان القيمة الجوهرية لعملة ما (عندما لا نكون مضطرين لاعادة تكرير المعدن — اى استخلاصه من مزيج معدنى ما) تتكون من القيمة الاصلية للمعدن مضافة اليـه نفقات الضرب (او السك) ، ومع ذلك ، فلكى نقدر قيمة المعدن منفصلا او ممزوجا فقد يتطلب الامر ان نقارن هـذه القيمة بقيم السلع الغذائيـة الرئيسية فى البلاد . ثم يبقى بعد ذلك ، ولكى تتكون لدينا فكرة دقيقة عن اثمان السلع الغذائية ان نقارن هـذه الاثمان باثمانها التى بلغتها فى بلادنا ، وفى المقام

---

(١١) سبق ان اشرنا اليها فى ص ٩٤ ، الهامش رقم ٣ .

الثانى فلابد لنا ان نلاحظ إن نفقات « تنقية » هذه المعادن ليست هى نفسها فى بلادنا ، فهى فى مصر اكبر بكثير (عنها عندنا) بفعل انماط النقود وطبيعتها هى نفسها ، واكبر كذلك عما كان عليها ان تبلغه (هذه النفقات فى مصر) لو ان الفنون هناك كانت اقل تخلفا ، وهكذا فان الوسيلة الوحيدة لتقديم فكرة مبسطة ، يسهل استيعابها ، عن القيمة الجوهرية للنقود المصرية هى ان نقارنها ، فى ضوء هذه الاعتبارات بالنقود الفرنسية ، مفترضين ان نفقات السك هنا وهناك متماثلة . وهذا هو نفس ما فعلناه فى الجدول الملحق بهذه الدراسة .

خامسا : نسبة الذهب والفضة
فى سبيكة العملات المصرية

لكى ندرك هذه النسبة بصفة عامة ، علينا ان نقارن ، فى هذين النوعين من العملات ، قيمة وزن متساو من الذهب والفضة الخالصين ، أو من عيار واحد ، دون ان نحسب حساب قيمة المزاج او المعدن المضاف (١٢) .

وفى نظامنا النقدى الحالى فى فرنسا ، فحيث أن نسبتى كل من الذهب والفضة تبلغان العيار نفسه (يمزج كلاهما بمقدار العشر) ، وحيث ان تفريعات كليهما تتبع النظام العشرى ، فليس هناك ما هو اسهل من تحديد النسبة التى نحن الآن بصددها ، وفى واقع الأمر فحيث ان كيلوجراما من الفضة المحولة الى نقود يحوى ١٠ × ٢٠ فرنكا ، وكيلوجراما من الذهب المحول الى نقود يعطينا ١٥٥ قطعة من ذوات الـ ٢٠ فرنكا ، فاننا نتبين على الفور أن نسبة الذهب الى الفضة هى ١٠ الى ١٥٥ أو ١ الى ١٥١/٢ .

ويقدم المسيو موتجيه فى ملاحظاته العامة عن النقود ، تفصيلات بالغة الاهمية حول تنوع نسبة الذهب الى الفضة فى البلدان والعصور المختلفة .

---

(١٢) لا يحسب حساب المزاج فى العادة ، ولكن عندما توجد فى النقود الذهبية كمية كبيرة بعض الشىء من الفضة فيبدو ان من الواجب ان ناخذ فى الاعتبار بعضا من قيمة هذه الفضة .

ولكى يتيسر لنــا ان نلم بالنسب التى اتبعت فى مصر فلابد ان يكون المؤلفون قد نقلوا الينا فى الوقت نفسه القيمة الاسمية والوزن والعيــار المحددة للنقود الذهبية والفضية ، وهو امر لا توضحه قط مقالة المقريزى التى تقدم فى بعض الأحيان وزن عملة وفى احيان أخرى وزن غيرها ، وفى احيان ثالثة قيمتها الاسمية او سعر تداولها ، ونادرا ما توضح لنا عيــار هــذه العملات دون ان تحدثنا فى هــذه الحالة عن وزنها . ولسنا نستطيع أن ناخذ قيمة الدنانير التى اوردها المقريزي مقدرة بالدراهم فى الفترات التى اوردنا ذكرها ص١٦٩ باعتبارها ممثلة للعلاقة بين الذهب والفضة(١٣)، فلكى نتبنى وجهة النظر هــذه فلابد أن يكون الدينار عندئذ من الوزن نفسه والعيار نفسه الذى كان للدراهم ، وهو أمر لم يحدث .

وحيث ان وزن وعيار النقود الفضية فى مصر قد عانيا من التحريف او التلاعب أكثر مما حدث للنقود الذهبية فان النسبة التي نتحدث عنها كانت تتجه دوما نحو الانخفاض ، حيث كان القوم يعطون على الدوام الفضة فى دور سك النقود قيمة افتراضية اعلى بكثير من القيمة التى كانت عليهــا سبائك الفضة فى مجال التجارة وعند الامم الاخرى ، او حتى فى مجــال الفضة التي تدخل فى صناعة النقود .

وفى عهد احمد بن محمــد الذى ارتقى العرش فى العــام الهجرى ١١١٥ (٣ — ١٧٠٤ من تقويمنا) بلغت النسبة التى نحن بصددها فى قطع الفندقلى ١ الى ٤١/٢١ (١٤) ، وفى هــذه الحالة فان هــذه النسبة ، مع تقريب كبــير ، هى النسبة نفسها التى تقررت فى فرنسا على يد لويس الخامس عشر عند اعادة صهر (النقــود) فى عام ١٧٢٦ ، وهى نفسها كذلك النسبة التى وجدها روميه دى ليسل Romé de Lisle قائمة

---

(١٣) انظر ترجمة مقالة المقريزى عن النقود الاسلامية والتى قام بها المسيو دى ساسى ، ص ٤٢ .

(١٤) ١٠٠ فندقلى تزن ــر١١٤ درهما بعيار قدره ٩٦٨ وتســاوى ١٣ز٤٠٠ مدينى .

١٠٠ مدينى تزن ــر١٢٥ درهما بعيار قدره ٩٢٤ .

بين النقود الذهبية والفضية فى عهد قسطنطين (الاول) * اى قبل ذلك بنحو اربعة عشر قرنا ، وقد جاء هـذا التعادل (فى النسـبة) طبقـا لملاحظات المسيو مونجيه « مفاجاة تامة اذ كان يبدو أن اكتشاف العـالم الجديد سيقطع ولابد الصلة بين الذهب والفضة بفعل الوفرة التى تدفق بها هـذا المعدن النفيس على قارتنا نتيجة هـذا الكشف » .

اما فى مصر ، وبعد مرور نحو نصف القرن فقط من عهد احمد الثالث (اشمت Achmet) عندما استولى على بك على السلطة ، كانت النسبة فى الزر محبوب وقطع المدينى قد انخفضت بالفعل الى $\frac{٣٦}{١٠٠}$ ١١ أى اكبر بنحو طفيف من $\frac{١}{٣}$ ١١ (١٥) ، وعند وصولنا كانت هـذه النسبة قد انخفضت ، طبقا للوزن والعيار والقيمة الاسمية التى اعطيناها للعملات الذهبية والمدينى (١٦) الى $\frac{٤}{٥}$ ٧ .

وبرغم ان القطع ذات الاربعين والعشرين مدينى لم تكن قط عمـلات معتادة فى مصر فسوف نرى ، اذا ما قارناها فى عهـد على بك بالنقود الذهبية ، ان نسبة الذهب والفضة فى العمـلات الذهبيـة والقـروش (بافتراض ان العملات الأخيرة كانت بالعيار نفسه الذى للمدينى وأن المائة منها تزن ٥١٦ درهما) كانت أكبر بنحو طفيف من $\frac{١}{٣}$ ١٣ (١٧) ، وانها بلغت فى عهد الفرنسيين $\frac{٢}{٣}$ ١٠ .

(*) امبراطور روما من ٣٠٦ م الى ٣٣٧ . وقد ادى انتصاره على ماكزانسيوس تحت اسـوار روما الى اعترافه بالمسـيحية كدين رسمى للامبراطورية ، وفى العام ٣١٣ اقر بموجب مرسوم ميلانو الحرية الدينية وقد نقل عاصمته الى بيزنطة (القسطنطينية) . (المترجم) .

(١٥) ١٠٠ قطعـة ذهبيـة تزن $\frac{٢٢}{١٠٠}$ ٨٤ درهما بعيار قدره ٧٥٠ وتساوى ١٢٫٥٠٠ مدينى .
١٠٠٠ مدينى تزن ١١٥ درهما بعيار قدره ٥٠٠ .

(١٦) ١٠٠ قطعـة ذهبيـة تزن $\frac{٢٠}{١٠٠}$ ٨٤ درهما بعيار قدره ٦٩٨ وتساوى ١٨٫٠٠٠ مدينى .
١٠٠٠ مدينى تزن ٧٣ درهما بعيار قدره ٣٥٠ .

(١٧) ١٠٠ قرش تزن ٥١٦ درهما بعيـار قـدره ٥٠٠ وتسـاوى ٤٫٠٠٠ مدينى .

وتعود هــذه النســبة الاعلى الى ان القروش كان لهــا بحــكم وزنها قيمة جوهرية اكبر مما كان لقطع المدينى (١٨) .

ونستطيع ، طبقا للجدول الذى نجده عقب هذه الدراسة ، ان نحسب العلاقة بين قيمة الذهب والفضة فى النقود فى العهود المختلفة التى يقدم عنها هــذا الجدول المعطيات الضرورية . وسنلاحظ بالنسبة لتلك العملات المتضمنة فى تعريفة النقود التى ســبق ان اوردناها عند حديثنا عن القيمة الاسمية للنقود ، ان القيمة الاسمية نفسها بالمدينى قــد اعطيت لكل من الفندقلى والزرمحبوب فى مختلف العهود برغم أن قيمتها الجوهرية تختلف كثيرا ، وانها كانت تساوى عددا اقل من المدينى عما كانت تساويه وقت اصدارها .

---

(١٨) ١٠٠ قرش تزن ٤٠٠ درهم بعيــار قــدره ٣٤٨ وتســاوى ٤٫٠٠٠ مدينى .

الباب الثاني

الحاله الراهنه للعملات النقديـــه

اساليب صنعها ــ ادارتها

القسم الأول

الفصل الأول

النظام النقدى الحالى

كانت النقود الوحيدة المستخدمة فى مصر ، قبل مجىء الفرنسيين، والتى ظلت مستعملة منذ ذلك الحين هى .

أولا : النقود الذهبية

وهى :

العملة الذهبية زرمحبوب المخلوطة بالفضة بعيار قدره ١٦٣/٤ قيراطا اى اقل قليلا من ٦٩٨ ، وتزن القطعة ٨٤٢/١٠٠٠ من الدرهم اى جرامين و ٥٩٢/١٠٠٠ من الجرام ، وتساوى ١٨٠ مدينى (٦ فرنكات و ٨٠ سنتيما من النقود الفرنسية) ، وتحمل طغراء السلطان ، ونفس النقوش العربية التى نجدها على القطعة التى رسمنا شكلا لها برقم ١٣ من اللوحة الثانية .

ثم ، نصف الزرمحبوب او النصفية وقطرها اقل بقليل (من قطر الزرمحبوب) ، ويعادل وزنها نصف وزنه ، ولها نفس عياره ، وقيمتها هى نصف قيمته ، وتحمل نفس التوقيع او الطغراء وكذلك النقوش نفسها .

وبعد ذلك ربع الزرمحبوب او الربعية وقطر هذه اقل من قطر النصفية ، وتزن نصف وزنها ، ولها نصف قيمتها ، وهى من العيار ذاته ، وتحمل على احد وجهيها توقيع او طغراء السلطان ، وتحمل على الوجه الآخر جزءا من النقوش نفسها التى تحملها النصفية . انظر الربعية المرسومة فى الشكل رقم ١٥ من اللوحة الثانية من اللوحات الملحقة بهذه الدراسة .

ثانيا : النقود الفضية أو بالأحرى النقود البرونزية

وتشمل :

المدينى ، وهو قطعة نقدية بالغة الصغر ، يزن الالف منها ٧٣ درهما (أى ٧٦/١٠٠ ٢٢٤ جراما) بعيار قدره ٣٥٠ (من الف) من الفضة الخالصة، على احد وجهيه توقيع سلطان القسطنطينية او طغرائه وحدها ويحمل على الوجه الآخر عبارة ضرب فى مصر (اى القاهرة) سنت (سنة تنصيب السلطان) . انظر شكل المدينى المرسوم برقم ٢٤ من اللوحة الرابعة من اللوحات المرفقة بهذه الدراسة .

اما القطع ذوات الاربعين والعشرين مدينى او القروش ، فلم تسك منها سوى كمية ضئيلة الاهمية فى عهد الجنرال بونابرت ، ويمكن النظر الى هذه العملات باعتبارها لم تعد تشكل جزءا من النظام النقدى الحالى فى مصر ، ويمكن ان نرى شكلين لها فى الرسمين رقمى ١٧ من اللوحة الثالثة ، و ٢٣ من اللوحة الرابعة من اللوحات المرفقة .

وللالمام بكل ما يتصل بالعملات الحالية نشير الى ما قلناه فى الفصول والنبذ المختلفة التى سبقت والتى نجد موجزا لها فى نهاية هذه الدر

الفصل الثانى

مبادلة أو مقايضة خامى الذهب والفضة

اولا : الوسائل التى تتزود بها القاهرة بخامى الذهب والفضة

كان المصدر الرئيسى الذى يزود دور سك النقود بخامى الذهب والفضة ، منذ زمان لا تعيه الذاكرة . هو اخلاط من اليهود يحترفون تزويدها بهما .

وقد آثر اليهود فى مصر ، كما فعلوا فى كل مناطق العالم ، أن يعكفوا على الاتجار فى المعادن والأحجار الكريمة ، فهم يشترون المجوهرات وقطع المصوغات والعملات الذهبية والفضية من البلدان المختلفة ، وكذلك المسكوكات وتراب الذهب (التبر) من القوافل الخ .. وينبغى على عالم الأثريات أن يتوجه الى هؤلاء كى يتزود بالمسكوكات الذهبية والفضية (القديمة) ويكفيه لتحقيق غرضه من ذلك أن يعطيهم فى مقابلها سعرا اعلى بقليل من قيمتها الجوهرية .

ويتحلى اليهود بهذا الصبر ، هذا التوفر ، هذا التشبث أو العناد، هذا الحرص على عدم التفريط فى اى ربح مهما كان تواضعه .. تلك الصفات التى تميزهم والتى لا تنتمى الا اليهم ، وهم هناك ، كما هم فى كل مكان آخر يتعرضون للصد والجفاء والمهانة من كل طبقات الشعب كما يتعرضون للقهر على يد الحكومة . وانها لفكرة مسبقة ، عامة وشائعة بعض الشىء ، ان تجارة المعادن النفيسة تدر مكاسب طائلة ، لكنها فى حقيقة الأمر ضئيلة الربح ، واقل ربحا بكثير من تجارة المعادن بالغة الوفرة رخيصة الثمن ، ويدين الصاغة وصناع المجوهرات فى أوربا بأرباحهم الى « اجرة يدهم » والى الأثمان الاعتبارية او الخيالية التى تعطيها الأبهة وضروب الفنون لكل من الذهب والفضة ، لكنهم لا يكادون يحققون ربحا على الاطلاق من الخامات نفسها .

ولليهـــود الذين يحترفون توريد هذين المعدنين لدور ســـك النقود صرافون أو مبدلون كثيرون فى القاهرة ، ولهم فى المدن الأخـــرى وكلاء يشترون لحسابهم .

وفى القاهرة ، يذهب الذين لا يريدون البيع (أو الشراء) بواســـطة الصرافين الى وكالة (١) أو محل اليهود الذين يقدرون قيمة المعـــادن عن طريق الفحص اذا كان الأمر يتصل بكمية ضئيلة من خامات لها نفس السبك (او العيار) أو عن طريق المحك او المصداق ، اما بالنســـبة للعمـــلات المختلفة وقطع المجوهرات فيتم الفحص المجرد النظر .

وهم يجرون فحوصهم على الذهب والفضة فى وكالتهم عن طـــريق عيارى النقود ، ولكنهم يتفحصون بأنفسهم كل قطع الذهب التى يشترونها عن طريق المحك .

ولدى هؤلاء ابر صغيرة من الذهب ، منفصلة كل منها عن الأخريات، ولكل منها كذلك عيار مختلف ، ويدعكون على المحك ، وهو من النوع نفسه المستخدم فى أوربا ، قطعة الذهب التى يريدون فحص عيارها ، ويضاهونها المرة بعد الأخرى بهذه الابر الذهبية او بنجوم العيار (*) التى يزونها اقرب من غيرها الى عيار قطعة الذهب نفسه ، وهم يقدرون الذهب بكثير من الدقة والنزاهة ، مقارنين مظهر الشذرات التى خلفتهـــا قطعـــة الذهب المفحوصة فوق المحك (بالابرة او النجمة الذهبية المناسبة) .

اما فى فرنسا ، فانهم يمررون على الشذرات التى تتم بهذه الطريقة بمـــاء النار (الذى يعد لهذا الغرض من حمض النيتريتيك مع قليل من حمض المورياث) من درجات متفاوتة ، وبعد ذلك يمكن الحكم بشكل تقريبى على عيار الذهب عن طريق مقارنة درجة المقاومة الجزئية التى تبديها هـــذه الشذرات أو تلك لمفعول الحمض ، اما اذا اختفت الشذرات بشكل تام (أى تحللت) فمن المعروف اى عيار تكون عليه شذرات الذهب لكى تتحلل بفعل ماء النار .

---

(١) الجمع وكايل .

(*) قطعة من الذهب او الفضة على شكل نجمة ، كل ذراع منها له عيار معين وتستخدم لقياس عيار هذين المعدنين .

بعد ذلك يخلط اليهود الذهب بالنسب التى تتفق مع ما يكون عليه من عيارات مختلفة ، ويقتربون كثيرا وفى معظم الأحيان من العيار المحدد لقطع العملات الذهبية وبذلك يضعون أنفسهم داخل حدود التفاوت المسموح به (زيادة أو نقصا) وبذلك ايضا يجنبون أنفسهم مشقة اعادة صهر ذهبهم لكى يبلغ « بدقة » العيار المطلوب ، اما اذا نتج عن عملية « التعيير » التى تجرى فى دور سك النقود ان السبائك قد تجاوزت حدود التفاوت المسموح به ، بأن زادت عليه أو نقصت عنه ، فانهم يضطرون لحملها من جديد لاعادة صهرها ثم سبكها بطريقة اكثر دقة .

وعندما يلزم خفض عيار الذهب ، فانه لا يفوتهم أن يفضلوا استخدام الفضة المذهبة « لهذا الغرض » ، وهم لا يشترونها من الأسواق الا بالسعر نفسه الذى للفضة العادية ، وبهذه الوسيلة يثرون سبائكهم بالمادة الذهبية التى يحتويها هذا النوع من الفضة التى يستخدمونها كمزاج (بكسر الميم) ، وهم يحرصون كذلك على التقاط شذرات الذهب التى تتبقى فوق المحك ، باستخدام قطعة من الشمع ؛ ويلقون داخل البوتقات بهذه الكرات من الشمع الذى يساهم فى العملية كمذيب لمعدن الذهب وفى منع تأكسد سطحه .

وفى كل عام تجلب القوافل التى تمضى من المغرب قاصدة مكة (٢)، وتلك التى تأتى قادمة من دارفور وسنار كمية محددة من تراب الذهب ، وان كان كل هذا التبر لا يباع لحساب دور سك النقود لأن التجار الذين يريدون ان يستبقونه لانفسهم أو لموكليهم ، يعرضون على الدوام سعرا أعلى من الثمن الذى تدفعه دور سك النقود .

ونكاد لا نجد فى هذا الذهب ، الذى يتكون من شذرات تراكمت دون شك فى مجارى الأنهار والأخوار أو استخلصت من الرمال الحاملة

---

(٢) تجمع هذه القوافل فى طريقها حجاج الجزائر وتونس وطرابلس والقاهرة ، وتصل الى المدينة الأخيرة فى نحو منتصف أبريل ، أما قوافل دارفور وسنار فتصل الى النيل عند اسوان وسيوط فى صعيد مصر .

للذهب أيا من هـذه القطـع الكبيرة بعض الشيء ، والمتماسكة ، والتى يسميها نحن فى أوربا Pepie (*) .

ويوضع التبر داخل قطعة من قماش أبيض ناعم ، تحيط به قطعتان أو ثلاث قطع من قماش أكثر سمكا ، وتعقد قطعة القماش بخيط لتأخذ شكل صرة ، ويغلف الجميع بقطعة من جلد مخيط ومجفف فى الشمس ، ويشكل الجلد الذى يجفف على هـذا النحو ، وبعد أن ينكمش ، غلافا مضغوطا ومتينا ، وتشكل الحزمة أو مجموعة الذهب هـذه مظهر حقيبة مطلية باللون الذى نستخدمه ، أو منظر ثمرة الـ solanum المسماة بالطماطم .

وفى كل واحدة من هذه الحقائب نوجد على الدوام بعض المجوهرات او الحلى التى تم شراؤها من الافريقيين أو الزنوج ، وتكاد تكون كل هـذه الحلى عبارة عن حلقان أو خواتم او دلايات للأذن أو عقود للرقبـة ، أما العمل الوحيد الذى أدخل عليها فهو نوع من النقش أو الرسوم تمثل أناث البرغى بالغة الدقة ، وتكاد تكون كل الحلقان فى شكل ثعابين ، وقد رأينا احدى حلى الرقبة فى شكل سلحفاة ، رأسها وأقدامها ناتئة .

وتكاد تكون كل حقائب الحلى أو مجموعات الذهب من الوزن نفسه، اذ تكاد تزن جميعها نحو ٩٧ درهما أو ٦٥ مثقالا ، أما عيارها فيتراوح بين ٢١ و ٢٢ ١٦/٣٢ (قيراطا) (٣) ، وكان ذهبها فيما مضى أكثر نقاء طبقا لزعم أفندى النقود واليهود أما لأن الشذرات كانت أكثر ثراء (أى بها نسبة أعلى من الذهب الخالص) وأما لأن الحلى المضافة الى كل مجموعة كانت ذات عيـار أعلى .

وكانت هـذه الحزم ، التى كانت تباع الواحدة منها عادة مقـابل ٢٤٤ قرشا اسبانيا تمثل عمـلات حقيقية ، تستخدمها القوافل وسـيلة للتبادل ، وكانت لها قيمة ثابتة أو محددة تؤخذ بها او تعطى دون أن يضطر الناس حتى لوزنها او فتحها ، ويمكن للمرء أن يوليها ثقته التامة وأن يأخذها بنية سليمة تجعل منها الممارسة والديانة بل ومصالح التجار أنفسهم قانونا بالغ الصرامة .

(*) تعنى هـذه الكلمـة فى الأصل نوعا من الورم يصيب لسـان الطيور فيمنعها من الأكل ، لكنه لا يمنعها من الشرب . (المترجم) .

(٣) أى بدرجة نقاء قدرها ٨٧٥ الى ٩٣٨ من الألف .

ومع ذلك ، ففى دور سك النقود ، كان يتم التأكد اولا من وزن وعيار واحدة من هـذه الحزم ، تؤخذ بشكل عشوائى ، وكان اليهـود ، وهم متمرسون على الحكم على الذهب من مجرد مظهره ، يقدرون ما ان كانت قطع الذهب تقع ضمن مدى التجاوز المسموح به وهـو ١/٢ قيراط لاعلى او لادنى .

واذا كان السعر (المعروض) مناسبا للتاجر ، الذى يبيع ما معـه دوما فى حضور أو عن طريق شيخ القافلة ، كان (البـائع والمشترى) يتلامسان بالأيدى وتتم البيعة ، اذ لم يكن مباحا ، حسب مبـادىء عقيدة هؤلاء المسافرين المتدينين ، أن تباع (أو تشترى) معادن فى مقابل معادن، ولتفادى هـذا المحظور ، ذلك انه توجد فى كل الديانات أساليب للتملص او المراوغة من قواعد (المحرمات) ، لم يكن يطلق على هـذه العمليـة عملية شراء ، وانما عملية تبادل ، فكانت صرة الذهب توضع فى جانب ، وتوضع النقود المتفق عليها فى الجانب الآخر ، ويطلب البائع الى المشترى اى هاتين الكومتين ينال اعجابه اكثر ، عندئذ يأخذ المشترى صرة الذهب ، وتبقى النقود فى يد البائع .

ثانيا : أسعار الذهب والفضة فى مصر

قبل الحملة الفرنسية على مصر ، كان الذهب ، من عيار قطع النقود الذهبية ، وهو عيار ٢٤/٣٢ ١٦ قيراطا (٦٩٨ من الف) يباع ، وقد بيـع دوما للفرنسيين ، بواقع أن كل ١١٢ قطعة من هـذه النقود أو ٢٠ر١٦٠ مدينى تعـادل ١٠٠ درهم ، وحيث تحتوى هـذه الدراهم المـائة على ٦٩ ٨/١٠ درهما من الذهب الخالص ، فان المائة درهم من الذهب الخالص تعادل ٥٢١/١٠٠٠ ٢٨٨٨٢ر٢٨ مدينى اذا لم نتم وزنا للفضة التى مزجت بالذهب عند صنع السبائك (٤) .

وحيث ان كل ١٠٠ درهم من عيـار ٦٩٨ تحوى ٢ر٣٠ درهمـا من الفضـة ، يمكن الافتراض بان عيارها لا يتجاوز عيار ٩٠٠ (من الف) ممـا

---

(٤) بخصوص هذا الافتراض ، انظر المـادة الأولى من الجدول الوارد فى نهاية هذه الدراسة .

يعطينا ١٨ر٢٧ درهما من الفضة الخالصة ، تساوى ١٣٦/١٠٠٠ ٥٢٠ مدينى ، بواقع ثمن الدرهم الواحد ١٣٦/١٠٠٠ ١٩ مدينى وهو ثمن مثيله فى فرنسا .

فاننا حين نخصم من مبلغ الـ ٢٠ر٦٠ ، وهو ثمن مائة الدرهم من الذهب عيار ٦٩٨ مبلغ ١١٦/١٠٠٠ ٥٢٠ر (هو ثمن الفضة الخالصة الممزوجة بالسبيكة) ، فسيتبقى لدينا ثمنا لـ ٦٩ر٨ درهما من الذهب الخالص مبلغ ٨٨٤/١٠٠٠ ١٩ر٦٣٩ مدينى ، وعلى هذا فلن تساوى مائة الدرهم من الذهب الخالص سوى ٢٦٩/١٠٠٠ ٢٨ر١٣٧ مدينى ، ومع ذلك فنحن لا نستطيع ان ندخل فى حساب السبائك الممزوجة بالفضة قيمة كل الفضة التى تحويها هذه السبائك ، اذ ينبغى علينا ان نخصم من هذه القيمة ، نفقات عملية التكرير اللازمة لفصل الذهب عن الفضة .

وقد ثبتت هذه النفقات فى فرنسا ، بموجب مرسوم اصدرته الحكومة فى ٤ بريريال من العام الحادى عشر بـ ٣.٢ فرنكا لكل كيلوجرام واحد من الفضة الخالصة يضمه الذهب الخاضع لعملية التكرير هذه . وعلى هذا ، فان هذه العملية سوف تكلفنا فيما يتعلق بـ ٦٩ر٨ درهما من الذهب الخالص ، اى ٩٠٧/١٠٠٠ ٢١٤ جراما ستة فرنكات و ٨٧ سنتيما و ٧٠٢/١٠٠٠ من السنتيم اى ٢٠٧/١٠٠٠ ١٩٥ مدينى ، ينبغى ان نضيفها الى ثمن مائة الدرهم من الذهب عيار ٦٩٨ وهو كما سبق أن رأينا ٨٨٤/١٠٠٠ ١٩ر٦٣٩ مدينى ، وبذلك يصل الثمن المقدر لهذه الكمية الى ١٩١/١٠٠٠ ١٩ر٨٣٥ مدينى ، وعلى هذا فان ثمن مائة الدرهم من الذهب الخالص سوف يبلغ ١٧٩/١٠٠٠ ٢٨ر٤١٧ مدينى .

ويزن تراب الذهب الذى كان يشترى لصنع النقود فى العام السابع (١٧٩٩) من قافلة مراكش ، قبل صهره ، ٢٩١٩ درهما ، تعود بعد صهرها بوزن صاف قدره ٢٨٣٧ درهما تضمها سبائك من عيار ١٢/٢٢ ٢١ الى ٢٠/٢٢ ٢٢ قيراطا ، تحوى فى مجموعها ٥١/١٠٠ ٢٦٠٢ درهما من الذهب الصافى . ويدفع ثمنا لتراب الذهب هذا ٢٣٨ر٧٣٠ مدينى ، مما يجعل

ثمن مائة الدرهم من الذهب الصافى (٥) . . . . ١٠٠٠/٩٨٩ ٥٨ ٢٨٠ر٢٨ مدينى .

وينتج عن اجراء المقارنة بين هذه الاسعار وبين مثيلاتها فى فرنسا ، كما يمكننا ان نرى من الجدول الذى سيلى هذه الدراسة :

اولا : انه حتى عندما لا نحسب اى حساب لقيمة الفضة التى مزجت بها سبائك الذهب ، ان ثمن الذهب الخالص يقل فى مصر بنحو ١٣١ فرنكا و ٣٥ سنتيما فى الكيلوجرام الواحد عنه فى فرنسا اى بنسبة تقترب من ٤٪ .

ثانيا : انه عندما نحسب حساب قيمة الفضة وحدها ، وهو خصم نقوم به من مصروفات عملية التكرير ، فسوف يقل سعر الذهب الخالص فى مصر عنه فى فرنسا بواقع ١٤٨ فرنكا و ٥٧ سنتيما فى الكيلوجرام اى بنسبة تزيد عن ٢/٥١٪ .

ثالثا : ان تراب الذهب يباع هناك فى مصر بسعر اقل مما يباع به فى فرنسا بواقع ٢٢٥ فرنكا و ٢٣ سنتيما فى كل كيلوجرام من الذهب الخالص اى بانخفاض يتجاوز نسبة ٢/٦١٪ .

اما الطريقة التى كانت تشترى بها الفضة لدور سك النقود فهى تسترعى الانتباه بعض الشىء :

فى البداية كان يتم تعييرها ، فكانت تحسب الفضة الخالصة التى تحويها السبائك ثم يضاف الى الناتج ٢٪ من الوزن الاجمالى للفضة الخام ، ويدفع عن هذا الاجمالى الصافى الناتج من عملية الجمع هذه بواقع الدرهم ١٨ مدينى .

ويمكن التاكد من ان هذه الطريقة فى الحساب تؤدى لان يدفع ثمن

---

(٥) للمقارنة بين هذا السعر للذهب الخالص وبين السعر الذى حددته تعريفة النقود فى فرنسا ، انظر المادة ٤ من الجدول الملحق بهذه الدراسة .

الفضة الخالصة (٦) منفصلة بواقع — ١٨٣٦ مدينى وثمن المزاج على اساس ٣٦ مدينى فى كل ١٠٠ درهم .

وحيث لا يساوى النحاس المستخدم مزاجا للفضة عند تحويلها الى نقود سوى ٤٠ مدينى مقابل كل ١٤٤ درهما اى ٧٧٧/١٠٠٠ ٢٧ مدينى لكل مائة درهم ، فاننا ندرك لماذا كان اليهود حريصين على توفير الفضة من ادنى مزيج وكذلك على ان يضيفوا اليها بعض المزاج . فاذا كانوا قد وفروا الفضة بعيار المدينى نفسه اى بأن يكون كل درهم من الفضة الخالصة فى مقابل درهم واحد و ١٣٢/١٠٠٠٠٠٠ من المزاج فلابد ان تساوى كل مائة درهم من الفضة الخالصة ٣٣٥/١٠٠٠ ١٩٠٣ مدينى (٧) مع تحميل اجمالى الثمن على الفضة الخالصة ، اما اذا كانت مصلحة النقود ، على العكس من ذلك قد جهزت كل المزاج ، فان مائة الدرهم من الفضة الخالصة تساوى اولا :(٨) . . . ر١٨٣٦ مدينى . وعندما نضيف اليه قيمة ١٨٧ درهما و ٤٣٢/١٠٠٠٠ من الدرهم هى وزن المزاج ، بواقع ٤٠ مدينى لكل ١٤٤ درهما ، والتى ستبلغ اى هذه القيمة (على هذا الاساس) ٩٥٦/١٠٠٠ ٥١ مدينى ، فيكون الاجمالى فى هذه الحالة ٩٥٦/١٠٠٠ ١٨٨٧ مدينى ، بفرق يصل الى ٣٧٩/١٠٠٠ ٥ مدينى يكون من المناسب أن نضيفها الى ثمن مائة الدرهم من الفضة الخالصة كى نحسب بطريقة اكثر دقة كم ستكلف مائة الدرهم

---

(٦) لتكن خ هى الفضة الخالصة و م هى المزاج الذى يحويه درهم واحد من الفضة من عيار ما فستكون قيمة هذا الدرهم ممثلة فى هذه المعادلة خ + م = خ + ٢/١٠٠ (خ + م) × ١٨ مدينى = ١٨ مدينى

$$= \frac{(\text{١٠٠ خ + ٢ خ + ٢ م})}{\text{١٠٠}} = \text{١٨ مدينى} \frac{(\text{١٠٢ خ + ٢ م})}{\text{١٠٠}} =$$

$$\frac{(\text{١٨٣٦ مدينى خ + ٣٦ مدينى م})}{\text{١٠٠}}$$ ، مما يعطى كقيمة ١٠٠ (خ + م)

= ١٨٣٦ مدينى خ + ٣٦ مدينى م ، فاذا لم يكن هناك مزاج قط فعندئذ تكون م = ٠ وتكون قيمة مائة الدرهم من الفضة الخالصة هى ١٨٣٦ مدينى اما اذا حدث العكس وكانت خ = ٠ اى كانت كل الكمية من المزاج فستكون قيمة مائة الدرهم منه هى ٣٦ مدينى .

(٧) بخصوص هذا الافتراض انظر المادة الثانية من الجدول الوارد فى نهاية الدراسة .

(٨) انظر نصوص هذا الافتراض المادة الخامسة من الجدول المشار اليه .

الخالصة عادة دار سك النقود بغض النظر عن عنصر المزاج (المزاج) طبقا للعادة التى كانت متبعة بأن يدفع الى اليهود ثمن سبائك الفضة التى يقومون بتوفيرها بانفسهم (٩) . وينبغى ان نلاحظ ايضا ان عملية التعيير (تحديد العيار) بسبب من عدم دقتها كانت تعطى الفضة على الدوام درجة من النقاء ليست لها فى الواقع ، ولهذا فان الفضة الخالصة كانت تباع فى الواقع بثمن اغلى ممـــا تقدمه الحسابات فى الظاهر .

وحيث تحدد عيـــار القروش ، طبقا لاكثر عمليات التعيير دقة بواقع ٨٩٥٨٣٣/١٠٠٠ فان الالف من القروش والتى تزن فى مجموعها ٨٧٥٠ درهما ، لم تكن تحوى من الفضة الخالصـــة سوى ٥٤١/١٠٠٠ ٧٨٣٨ درهما ، وهو ما يعطينا كثمن لكل مائة درهم من الفضة الخالصة ٦٠٠/١٠٠٠ ١٩١٣ مدينى بواقع ١٥٠ مدينى قيمـــة لكل قـــرش (وذلك بدلا من ١٨٣٦ مدينى كما سبق بيانه) (١٠) .

وهـــذا هو الثمن الذى يدفع لشراء الفضة التى يوفرها اليهود ، طبقا لعمليات تحديد العيار بالغة الصرامة ، بدون أن نضيف الى الصافى الذى كانت تحويه ٢٪ من اجمالى الوزن ، وبدون أن نحاسبهم على المزاج الذى يضيفونه .

وحيث كانت عملية التنقية بالغة الصعوبة ، وباهظة النفقات لاكثر ممـــا ينبغى ، فان اليهود لم يكونوا يجدون من مصلحتهم فصل النحاس عن الفضة ، وهكذا كان كل المزاج الموجود فى السبائك يشكل ربحا لدار سك النقود ، اما عن المـــزاج الذى كان على دار ســـك النقود ان تضيفه الى السبائك لكى تبلغ بها العيار المطلوب فقد كان من الارخص لها أن توفره (بنفسها) عن أن تدفع ثمنا له بواقع ٣٦ مدينى لكل ١٠٠ درهم .

ولـــا كانت الفضة الخام قد اصبحت بمرور الوقت اكثر ندرة ، فقد بدا يدفع ثمنا لمـــائة الدرهم من الفضة الخالصة ١٩٥٠ مدينى (١١) ، ثم بلغ

---

(٩) انظر المـــادة السادسة من الجدول نفسه .

(١٠) انظر بخصوص هـــذا التقدير لثمن الفضة المـــادة التاســـعة من الجدول نفسه .

(١١) انظر المـــادة العاشرة من الجدول نفسه .

ثمنها فى النهاية ٢٠٠٠ مدينى (١٢) .

وعند المقارنة بين اثمان الفضة الصافية فى مصر والاثمان التى كانت لهـا فى فرنسا ، كما جاء بالجدول المرفق نجد ما يلى :

اولا : ان اسعار الفضة الخالصة التى كانت محددة فى مصر قبـل دخول الفرنسيين كانت فيما يبدو اقل بنحو طفيف من سعرها الذى ثبتته تعريفة النقود الصادرة فى ١٧ بريريال من العام الحادى عشر (٦ يونيه ١٨٠٣) ، ولكنها كانت فى الواقع بالقيمة نفسها، بل ربما كانت أغلى (فى مصر منها فى فرنسا) بسبب عدم دقة عمليات تحديد العيار .

ثانيا : ان سعر الفضة الذى حدده الفرنسيون فى مصر قد تأسس على قيمة العملات الفرنسية .

ثالثا : ان تزايد عمليات الشراء التى تمت فى فترتين مختلفتين ، والتى كان الدافع اليها هو ندرة خامات الفضة قد رفعت ثمن الفضة من ٢ الى نحو ٤١/٢ ٪ زيادة عن القيمة التى لها فى فرنسـا ، وان كانت المكاسب التى كان المعنيون يحققونها من تحويل الفضة والعملات الاوربية الى مدينى كانت تسوغ بسهولة زيادة عمليات الشراء .

---

(١٢) انظر المـادة ١١ من الجدول نفسه . وقد تمت هذه الزيادة بموجب مرسوم صادر فى الأول من نيفوز من العام التاسع (٢٢ ديسمبر ١٨٠٠) .

جدول لمقارنة أسعار الذهب والفضـــة الخالصين

فى مصر وفرنسا

السعار

توضيح لشروط أو ظروف الدفع	في مصر — بالمدينى — مائة درهم أو ٣٠٧ جراما و ٨٩٠٤ر٠ — قبل الغزو الفرنسى	بعد الغزو الفرنسى	٣٢٤ درهما و ٧٩٠٩ر٠ أو كيلو جرام واحد	بالـــ — بواقع ١٤٢ مدينى لكل ٥ فرانكات كيلو جرام
	مدينى	مدينى	الدفنى	كسور سنتيم فرانك
عندما لايحسب حساب الفضة الممزوجة بالذهب . . .	٢٨٨٨,٥٢١	٢٨٨٨,٥٢١	٩٣٨٠٧,٧٩٩	٣٣٠٣ ٩,١٤
عندما تخصم كل قيمة الفضة الممزوجة بواقع ١٩ مدينى و ١٣٤ر٠ للدرهم وهى القيمة التى حددتها التعريفة فى فرنسا	٢٨١٣٧,٣٦٩	٢٨١٣٧,٣٦٩	٩١٣٨٧,٦١٤	٣٢١٧ ٨٧,٣٢
عندما يقتصر على خصم قيمة الفضة دون رسوم التكرير	٢٨٤١٧,١٧٩	٢٨٤١٧,١٧٩	٩٢٢٩٦,٤١١	٣٢٤٩ ٨٧,٣٦
سعر شراء تراب الذهب من قوافل المغرب	—	٢٨٠٣٨,٩٨٩	٩١١٢٣,٠٤٣	٣٢٠٨ ٩٠,٩٩

اسعار

إذا كانت الفضة قد سلمت لدار سك النقود نقية تماما	١٨٣٦,٠٠٠	١٨٣٦,٠٠٠	٣٩٦٣,١٦١	٢٠٩ ٩٧,٠٤
إذا أدخلنا فى الاعتبار فرق ثمن المزيج بالنسبة إلى ثمن النحاس الذى كان ينبغى إضافته	١٨٥١,٣٧٩	١٨٥١,٣٧٩	٦٠١٣,١١٠	٢١١ ٧٢,٩٢
إذا كانت دار سك النقود قد جهزت بنفسها كل المزيج	١٨٨٧,٩٥٦	١٨٨٧,٩٥٦	٩١٣١,٩٠٩	٢١٥ ٩١,٥٣
إذا كانت الفضة قد قدمت وهى ممزوجة بالعيار نفسه المقرر لقطع المدينى	١٩٠٣,٢٣٥	١٩٠٣,٢٣٥	٦١٨,٧٠٥٨	٢١٧ ٦٧,١٠
إذا لم نلق بالا لعملية المزج . .	—	١٩١٣,٦٠٠	٦٢١٥,١٩٨	٢١٨ ٨٤,٥٠
شرحه	—	١٩٥٠,٠٠٠	٦٣٣٣,٤٢٢	٢٢٣ ٠٠,٧٨
شرحه	—	٢٠٠٠,٠٠٠	٦٤٩٥,٨١٨	٢٢٨ ٧٢,٥٩

الذهب

في فرنسا فرنكات: مع الاستقطاعات	في فرنسا فرنكات: بدون الاستقطاعات	الفرق بين الثمن في مصر والثمن في فرنسا: مع الاستقطاعات: لأكثر	مع الاستقطاعات: لأقل	بدون الاستقطاعات: لأكثر	بدون الاستقطاعات: لأقل
الكيلو جرام	الكيلو جرام	بالكيلو جرام	بالكيلو جرام	بالكيلو جرام	بالكيلو جرام
كسور سنتيم فرنك	كسور سنتيم فرنك	كسور سنتيم فرنك	كسور سنتيم فرنك	كسور سنتيم فرنك	كسور سنتيم فرنك
		١٣١ ٣٥ ,٣٠	—	١٤١ ٣٥ ,٣٠	—
٤٣٤٣ ٤٤ ,٤٤	٣٤٣٤ ٤٤ ,٤٤	٢١٦ ٥٧ ,١٢	—	٢٢٦ ٥٧ ,١٢	—
		١٨٤ ٣٧ ,٠٨	—	١٨٤ ٣٧ ,٠٨	—
		٢٢٥ ٥٣ ,٤٥	—	٢٣٥ ٥٣ ,٤٥	—

الفضة

في فرنسا فرنكات: مع الاستقطاعات	في فرنسا فرنكات: بدون الاستقطاعات	الفرق: مع الاستقطاعات: لأكثر	مع الاستقطاعات: لأقل	بدون الاستقطاعات: لأكثر	بدون الاستقطاعات: لأقل
		٨ ٩١ ,٨٤	—	١٢ ٢٥ ,١٨	—
		٧ ١٥ ,٩٦	—	١٠ ٤٩ ,٣٠	—
٢١٨ ٨٨ ,٨٨	٢٢٢ ٢٢ ,٢٢	٢ ٩٧ ,٦٥	—	٦ ٣٠ ,٩٩	—
		١ ٢١ ,٧٨	—	٤ ٥٥ ,١٢	—
		٠ ٠٤ ,٣٨	—	٣ ٣٧ ,٧٢	—
		—	٤ ١١ ,٩٠	—	٠ ٧٨ ,٥٦
		—	٩ ٨٣ ,٧١	—	٦ ٥٠ ,٢٧

الفصل الثالث

الأرباح التى تحققها الحكومة من عملية صنع النقود

أولا :

اجمالى الاستقطاعات التى تتم فى دار سك النقود سواء باعتبارها نفقات الصنع أو باعتبارها رسم حق السيادة المتمثلة فى اصدار النقود

كان الذهب ، من نفس عيار النقود الذهبية ، وكما رأينا فى الفقرة الخاصة بأسعار الذهب .

يباع بواقع ١١٢ قطعة ذهبية أو ١٦٠ر٢٠ مدينى لكل	٠٠٠٠ر١٠٠ درهم (مائة)
وحيث كان الوزن القانونى لقطعة العملة الذهبية هو	٨٤٢٠ر٠
وحيث كان الذهب الذى تحويه قطعة العملة الذهبية يساوى فى الواقع	٧٤٧٢ر١٦٩ مدينى
وحيث كانت قيمتها (الاسمية) قد تحددت بـ	٠٠٠٠ر١٨٠ مدينى
فقد كان اجمالى ما يتم استقطاعه لدار سك النقود (من القطعة الواحدة) هو	٢٥٢٨ر١٠ مدينى

وهـكذا كان حق السـيادة المتمثـل فى حق اصـدار النقود أو الــ monétagium ، كما كان يسمى قديما فى فرنسا ، والذى يشتمل على نفقات ضرب العملة ، وعلى المكاسب التى يمكن الحكومة ان تحققها ، يبلغ اقل من ٧ر٥٪ أو ۰۰۰۰۰۰۰۰ ٦٩٦ر٠٥٫٠ فى حين كان يبلغ حق السيادة هـذا فى فرنسا منذ نحو قرن ۰۰۰۰۰ ٧٧٠ر٠٦٫٠ على سك العملات الذهبية ، فهو على هـذا النحو اكبر من ذلك الذى استقر فى مصر ، والذى ابقى عليه الفرنسيون ، برغم أن نفقات الصنع ، فى دار سك النقود بالقاهرة ، هى بالقطع أكبر (من مثيلاتها فى فرنسا) ، فقد افترضت كل الأشياء ، فضلا عن ذلك ، متساوية بسبب الانقسام الأكبر فى الذهب (بسبب صغر حجم العملات الذهبية فى مصرعنها فى فرنسا . .) وحيث كانت قطع العملات (هناك) اصغر كثيرا ، واقل قيمة من لويساتنا (قطع العملة المسماة لويس Louis) (*)

وحيث كانت الفضة الخالصة التى تحويها القطـع ذوات الاربعين والعشرين مدينى تبلغ (بما فى ذلك المزاج الذى ينبغى ان نضيفه اليها بعد ذلك) كما بينا من قبل ١٠٠٠/٩٥٦ ١ر٨٨٧ مدينى لكل ١٠٠ درهم :

وحيث كانت القطعة الواحدة تزن	ر٤ دارهم
تحوى من الفضة الخالصة ماقدره	١ر٣٩٣٥ درهم
فقد كانت دار سك النقود تتكلف	
ثمنـا للفضة وللمزاج معـا	٢٦ر٣٠٨٦ مدينى
وحيث كانت القيمـة الاسـمية	
للقطعـة هى	٤٠ر٠٠٠٠ مدينى
فقد بلغ بذلك حق السـيادة عن	
القطعـة الواحـدة	١٣ر٦٩١٤ مدينى

اى بنسبة ١٠٠٠/٢٢٩ ٣٤ ٪ ، اى ما يزيد على ٣٤٪ بنحو طفيف(١) وهى

(١) لم يكن حق السيادة ، بخصوص الفضة ، يتجاوز فى دور سك النقود بفرنسا ، منذ وقت طويل ٩ر٥ ٪ وان كان قد وصل فى عهد شارل السابع الى ٧٥٪ ، انظر ص ١٧ من مؤلف المسـيو مونجيه Mongez الذى سبقت الاشارة اليه .

نسبة ينبغى ان نخصم من محصلتها فروق الوزن وكل نفقات سك النقود لكى نستخلص منها الربح الصافى الذى تحققه دار الضرب (الضربخانة) .

اما بخصوص قطع المدينى ، التى كان كل الف منها يزن ٧٣ درهما ، ويحوى نفس النسبة (من الفضة) مثل سابقتها .

فكان وزن المزاج يبلغ	٤٧ر٥٦٨ درهما
اما وزن الفضة الخالصة فكان يبلغ بدوره	٤٥ر٤٣٢ درهما
تساوى بالسعر نفسه الذى بيناه فى مكان آخر	١٤٥ر٤٨٠ مدينى
وبذلك تبلغ قيمة حق السيادة	٥١٩ر٨٥٥ مدينى*
اى ٥١٨٩ر٠ اى ما يقرب من ٥٢ ٪ .	
وحين يدفع ثمنا للدرهم الواحد من الفضة الخالصة ٢٠ مدينى بخلاف ثمن المزاج ، فان هذه الفضة الخالصة التى يحويها الف من المدينى تساوى .	٥٠٨ر٦٤٠ مدينى
ويساوى المزاج ، بواقع ١٠مدينى لكل ٣٦ درهما	١٣ر٢١٣ مدينى
وبذلك يكون اجمالى ثمنها او تكاليفها	٥٢٢ر٨٥٣ مدينى

وبذلك ايضا تكون رسوم السيادة عن كل الف مدينى هى ٤٧٨ر١٤٧ مدينى أو ٤٧٨١ر٠ ، اى مع التقريب ، نحو ٤٧ر٨ ٪(٢) .

(*) فى الأصل ٥١٦ر٨٥٥ وهو خطأ مطبعى واضح ، ويلاحظ كذلك ان العلامة بين الأرقام هنا تدل على الكسر العشرى . (المترجم)

(٢) انظر الهامش السابق ، ويفترض فى هذه الحسابات ان عيار المعدن لم يكن عاليا عند صنع هذه النقود ، انظر ص ٨٣ ، الفقرة الثانية وما بعدها .

ثانيـــا :

تقييم مستقل لنفقات الصنع ، وحساب التوالف والفواقد (*) واجور الايدى العاملة ، وصافى الربح

تعود علينا كل ١٠٠٠ درهم من الذهب تستخدم فى صنع العملات ، بـ ١١٨٠ قطعة عملة ذهبية تزن فى مجموعها ٩٩٣ر٥٦ درهما ، وبذلك يبلغ فرق الوزن فى كل ١٠٠٠ درهم من الذهب (يجرى سكها) نحو ٦١/٢ دراهم .

او بشكل اكثر دقة	٠٠٦٤٤ر٠
اما فى فرنسا ، فكان يسمح فيما مضى بفرق وزن قدره	٠٠١٨٧٥ر٠
فى حين لم يعد يسمح اليوم هناك باكثر من	٠٠٢٠٠ر٠

ومع ذلك فينبغى ان نلاحظ ان الذهب (فى فرنسا) اقل انقساما بكثير (عنه فى مصر **) وان اساليب صنعه اكثر تقدما عنها بكثير فى مصر .

وعلى هذا فان اجمالى فرق الوزن فى الـ ٨٤٢ درهما ، هى زنة ١٠٠٠ قطعة عملة ذهبية .

كان يبلغ	٤٦ر٥	دراهم
ثمن الدرهم الواحد منها . . .	٢٠١ر٦٠	مدينى
وبذلك يبلغ اجمالى ثمنها . . .	١١٠٠ر٧٣	مدينى
اى باستخدام الارقام الدائرية ***	١١٠٠ر١	مدينى

(*) المقصود هنا هو ما يتعرض له خام المعدن من نقص بسبب الفضالات أو النفايات التى تترسب منه (المترجم) .

(**) نفس التوضيح السابق بخصوص صغر حجم العملات الذهبية المصرية عن مثيلاتها الفرنسية وكثرة تفريعاتها (نصفية ، ربعية وهكذا) (المترجم) .

(***) اى مضاعفات العدد ٥ وهى ما تنتهى بصفر او الرقم ٥

وحيث كان العمال الذين يعملون فى صنع العملات الذهبية هم بشكل جزئى ، الذين يستخدمون فى صنع العملات الفضية انفسهم ، وحيث كانت نفقات الادارة وصيانة الادوات الخ .. عامة او مشتركة ، فلن يكون بمقدورنا ان نحسب بشكل صارم اجمالى النفقات التى كانت تجرها عملية ضرب النقود الذهبية ، وان كان من السهل علينا ان نستنتج انه كلما زادت كمية العملات المضروبة ، كلما نقصت هـذه المصروفات فيما يتصل بالأجور والنفقات الثابتة .

ومع ذلك ، فاذا اعتبرنا ان هـذه النفقات الاخيرة كانت ستحدث حتى ولو لم تصنع نقود مطلقا بسبب من نقص الخامة ، فاننا نستطيع أن نقدر مصروفات صنع النقود الذهبية بحوالى ٣٠٠ر دون ان ندخل فى ذلك اجور الأيدى العاملة ، وبذلك نجد انفسنا ازاء المصروفات التالية عند صنع الف قطعة نقد ذهبية تساوى ٠٠٠ر١٨٠ مدينى :

نفقات سك	٥٤٠ مدينى
فروق وزن كما رأينا فى موضع آخر	١٠٠ر١ مدينى
فيكون اجمالى المصروفات . . .	٦٤٠ر١ مدينى(٣)
وحيث يبلغ الفرق بين القيمة الاسمية والقيمة الجوهرية لكل الف قطعة	٢٥٢ر١٠ مدينى
فاذا خصمنا من ذلك النفقات وفروق الوزن المقدرة آنفا بـ	٦٤٠ر١ مدينى
فان ما يتبقى كربح صاف لدار سك النقود عن كل ٠٠٠ر١٨٠ مدينى . .	٦١٢ر٨ مدينى

اى ما يساوى ٤٧٨٥/١٠٠٠ اى ما يزيد قليلا عن ٤ ١/٢ ٪ .

وفى نفس الوقت ، فحيث كان الذهب ، من ناحية اخرى ، ارخص

(٣) اى ما لا يزيد عن ٠٠٩١١/١٠٠٠٠ اى اقل من ١ ٪ كمصروفات وفروق وزن .

ثمنا فى مصر عنه فى فرنسا ، بالنسبة نفسها على وجه التقريب ، فقد راينا ان العملات الذهبية زرمحبوب صنع القاهرة كانت نقود بالغة الجودة (اى مجزية) ، ولهذا فان اولئك الذين حملوا معهم بعضا من هذه العملات ، لن يكونوا قد خسروا شيئا ، اذا كانوا قد حرصوا ، على ان يصهروها فى سبائك وان يقدروا عيارها فى دور سك النقود الفرنسية وان يبيعوا هذه السبائك بالسعر الذى حددته التعريفة بدلا من تحمل ما يجره عدم الثقة فيها من خسارة .

وطبقا لما هو معتاد فى دار سك النقود ، والاتفاق المعقود مع الافندى المختص بصنع النقود فان :

ألف قرش يبلغ وزنها	٨٧٥٠ درهما
كان يضاف اليها مزاج تبلغ زنته	١٣٧٥٠ درهما
مما يعطى قبل الصهر وزنا اجماليا قدره	٢٢ر٥٠٠درهما
ينبغى أن تعود بقطع مدينى مضروبة عددها ٢٧١ر٥٠٠ مدينى تزن بواقع الألف ٧٣ درهما	١٩ر٨١٩درهما
مما يشكل فرقا (او فاقدا) فى الوزن قدره	٢ر٦٨١ درهما

اى ما يقرب من ١٢٪ ، ويعود هذا الفاقد الضخم فى الوزن بصفة اساسية الى :

اولا : التقسيم الكبير للخامة ، والذى كان سببا فى تعريض جزء كبير من سطح القطعة النقدية لاثر الحك ولفعل النار ، وفى انه كان يعود بلا انقطاع الى الصهر بكمية هائلة من الجذاذات والرقائق وقطع المدينى المهشمة والمقطعة .

ثانيا : الى عدم تقدم الأساليب المتبعة وبصفة خاصة وسائل الصقل او التنظيف او الجلو ، وهى الاساليب التى تنزع بفعل المادة المذيبة وعملية الحك قدرا لا باس به من الخامة .

وهــذا التخلف فى الاساليب والوسائل هو الذى كان قد أوحى الى المسيو روزيتى Rosetti التاجر البندقى الذى تحدث عنه فولنى Volney فى مؤلفه رحلة فى انحاء مصر Voyage en Egypte ان ينصح على بك بأن يصنع اقراص ※ المدينى فى أوربا .

وقد جالت الفكرة نفسها بخاطر القائد العــام بونابرت ، واجريت بالفعل فى دار سك النقود بباريس تجارب لصنع صفائح المدينى تبلغ فى سبيكتها الفضة نسبة الثلث ، ومن المؤكد ان اجراء كهذا لو تم سيكون اقل تكلفة بكثير بسبب تمام (تطور) الفنون فى اوربا ودقــة آلات الصــقل والتصفيح التى كانوا سيستخدمونها لتحويل الخامة الى صفائح . وبهذه الطريقة كان يمكن ان تكون الأرباح التى تجنيها الحكومة (من صنع النقود) اكبر كثيرا وبشكل ملموس ، ومع ذلك ، فلعل التحسن الكبير للغاية الذى كان سيطرا على شكل هــذه العملات كان سيصبح سببا فى فقدان الثقة بها اذ ستبدو وكأنها قد صنعت فى الخارج (برانى) .

كان لابد ان تكون نفقات صنع النقــود فى مصر بالضرورة بالغــة الضخامة بسبب تعقد العمل ، كما قد اصبحت اكبر من ذلك ضخامة بكثير بسبب عادة الشرقيين السيئة فى ان يفرضوا على كل فرع من فروع الدخول عددا كبيرا من الرواتب غير المجدية او الباهظة لحــد مبالغ فيه وكذلك عددا لا حصر له من المعاشات والاعطيات والاتاوات والانعامات ، ويمكننا ان نقدر هــذه المصروفات المتضاعفة بنحو ٢/٨١٪ ، وهكذا فان من شأن كل من فاقد الوزن ومصروفات الصنع ان تنقص الربح الصافى العائد من عملية اصدار النقود الى اكثر قليلا من ٣١٪ .

وبرغم أن فاقد الوزن ونفقات الصنع ، بالنسبة للقطع ذوات الأربعين والعشرين مدينى ، اقل حجما من ذلك بكثير ، فقد راينا قطعة من ذوات العشرين مدينى تزن . . . ــر٢ درهمين .

فى حين تزن ٢٠ قطعة من ذات المدينى الواحد ٤٢٦٠ر١ درهم ، على

(※) المقصود قطعة العملة غير مضروبة بسكة الحــاكم أى ملساء عارية عن اى نقوش او رسوم ، والكلمة الفرنسية المستخدمة هى flaon (المترجم) .

اساس ان كل الف منها تزن ٧٣ درهمـــا ، ولذلك فقد كانت للغـــروش (او القروش) قيمة جوهرية اكبر برغم كون هـــذه القيمة التى لها لاتزال ادنى من قيمتها الاسمية ، ومن ان الربح الذى تحققه قد ظل ادنى بكثير ، وهو الامر الذى جعل المسئولين يوقفون اصدار هـــذه النقود بمجرد ان باتت الخامات نادرة بعض الشيء ، لحـــد انها لم تكد تفى باحتيـــاجات الصنع اليومى لقطع المدينى .

ثالثا : كميات النقود المصنوعة

بلغت كمية العملات الذهبية المسكوكة فى مصر ، فى مجموعهـــا ٢٦١ر٧٢٧ قطعة عملة ذهبية تساوى ٨٦٠ر١١٠ر٤٧ مدينى أو ٠٣٣ر٦٥٨ر١ فرنكا و ١٠ سنتيمات خلال الشهور الثلاثة والثلاثين التى ادار الفرنسيون خلالها شئون النقد فى القاهرة ، ممـــا لا يعطى حـــدا وسطا شهريا لصنع النقود سوى ٧٥٠ قطعة عملة ذهبية اى ٤٧٥٣ فرنكا و ٥٥ سنتيما .

ويعود هذا النشاط الضئيل فى مجال صنع او اصدار النقود الذهبية، بشكل جزئى ، الى ان المماليك والتجار ، وبعد ذلك الفرنســـيين ، كانوا يتلهفون على قطع سكين البندقية وقطع الفندقى والقطع القديمة وتراب الذهب ، وسبائك الذهب ذات العيـــار المرتفع كى يحتفظـــوا بثرواتهم او ارصدتهم فى شكل اموال اقل تذبذبا من القروش واكثر حقيقة من قطع المدينى .

وقد بلغت كمية المدينى المصنوعة تحت ادارتنا ٩١٢ر٨٢٩ر١٦٠ مدينى تساوى فى مجموعها ٠٢٥ر٦٦٣ر٥ فرنكا و ٧ سنتيمات .

وقد تولينا شئون صـــنع النقود فى الثامن من ترميدور من العـــام السادس (٢٦ يونيه ١٧٩٨) وتخلينا منها فى الثامن عشر من ميسيدور من العام التاسع (٧ يوليه ١٨٠١ م) ، وبذلك بلغ اجمالى المدة التى ادرنا

فيها شئون النقود نحو ثلاثة اعوام الا عشرين يوما :

اى	١٠٧٥ يوما
وبخصم المدة التى انقضت من ٣٠ نيفوز الى ٢٤ فلوريال من العام الثامن (من ١٩ فبراير الى ١٤ مارس ١٨٠٠) التى سلمت اثناءها الضربخانة او دار سك النقود الى الباشا او التى اغلقت خلالها	٨٤ يوما
يكون صافى المدة التى اشتغلنا فيها هو . .	٩٩١ يوما

اى بواقع (متوسط انتاج) فى اليوم الواحد ١٦٢ر٢٩٠ مدينى ، اما اذا استبعدنا كذلك يوم الراحة الأسبوعية وهو جمعة المسيحيين (كذا) (٤) ، ونحو خمسة اعياد فى السنة فلن يتبقى لدينا كأيام عمل سوى ٨٣٦ يوما مما يقفز بمتوسط الانتاج اليومى فى صنع النقود الى ١٩٢ر٣٨٠ مدينى .

وقد ارتفع اجمالى عدد القطع ذوات الأربعين والعشرين مدينى التى صنعت (فى عهدنا) الى ٣٠ر٥٧٢ قطعة من ذوات الاربعين مدينى تساوى ١ر٢٢٢ر٨٨٠ مدينى او ١٥ س ٤٣ر٥٩٠ فرنكا و ٩٠ر١٧٣ قطعة من ذوات العشرين تساوى ١ر٨٠٣ر٤٦٠ مدينى أو ١١ س ٦٣ر٥٠٢ فرنكا . وبذلك يكون اجمالى قيمتها ٣ر٠٢٦ر٣٤٠ مدينى او ٢٦ س ١٠٦ر٥٦١ فرنكا .

فاذا اضفنا الى المبالغ الموضحة آنفا تلك التى فى شكل قطع مدينى او قطع نقود ذهبية فسنحصل على :

---

(٤) يوم الجمعة اى يوم التجمع ، وهو اليوم السادس من الأسبوع عند المسلمين ، ويتفق اول يوم فى الأسبوع عندهم مع يوم الأحد عند المسيحيين .

فى شكل قطع من ذوات المدينى الواحد :

س

٢١٢ر٨٢٩ر١٦٠ مدينى تساوى ٠٧ ٢٥ر٦٦٣ر٥ فرنكا

وفى شكل قطع من ذوات الـ ٤٠ و الـ ٢٠ مدينى :

س

٣٤٠ر٢٦ر٣ مدينى تساوى ٢٦ ٥٦١ر١٠٦ فرنكا

الاجمالى بالفضة :

س

٢٥٢ر٨٥٦ر١٦٣ مدينى تساوى ٣٣ ٥٨٦ر٧٦٩ر٥ فرنكا

ثم فى شكل قطع ذهبية ونصفيات وربعيات :

س

٨٦٠ر١١٠ر٤٧ مدينى تساوى ١٠ ٨٣٣ر٦٥٨ر١ فرنكا

وبذلك يبلغ الاجمالى العام :

س

١١٢ر٩٦٧ر٢١٠ مدينى تساوى ٤٣ ٤١٩ر٤٢٨ر٧ فرنكا

واذا اردنا ان نعرف فى النهاية النسبة القائمة بين كميـة الذهب وكمية الفضة التى فى صنع النقود ، فاننـا نجـدها ١ فى مقـابل اقل من ٤ ١/٢ .

الفصل الرابع

التزود بالمواد المختلفة اللازمة لضرب النقود
وأسعارها المتنوعة

كان هناك واحد من الكتبة الاقباط ، يشغل وظيفة حارس مخزن ، وقد وكل اليه حفظ واستعمال الخامات اللازمة لصنع النقود .

وبرغم ان حالة الحرب وتوقف التجارة الخارجية قد أعطى لغالبية السلع قيمة اكبر مما كان بمقدورها ان تكون عليها فى أوقات السلم، فقد يكون مفيدا لنا ان نلم بأثمان المواد المختلفة المستخدمة فى صنع النقود .

أسماء المواد	أوزانها		قيمتها			ملاحظات
	المحلية	الفرنسية	بالمديني	بالفرنك س	ف	
نحاس	رطل أو ١٤٤ درهما	٤٤٣, ك*	٤٠	٤٠	١	للمزج أى كمزاج
رصاص مكرر	«	«	٢٠	٧٠	٠	لعملية قياس العيار
حديد	قنطار	٤٤,٣٠٦ ك	١٠٠٠	٢١	٣٥	للأدوات والماكينات
صلب	رطل	٤٤٣, ك	٣٠	٠٥	١	شرحه واصنع السكات
صفائح الصلب	القطعة	—	٨٩	١٣	٣	لصنع اللوالب (أو السلاسل)
حبال (حبل)	رطل	٤٤٣, ك	٣٠	٠٥	١	شرحه وكذلك لشد الملقط أو الكماشة إلى الخنزيرة وهى آلة لرفع الأثقال
عصى (عصا)	الواحدة	—	٩	٣١	٠	شرحه ولإدارة (لف) الخنزيرة
شمع	رطل	٠,٤٤٣	٧٠	٤٦	٢	لتشحيم اللوالب أو السلسلة
نشادر	«	«	—	—		لجلو الذهب وتستخدم هذه أيضا لجلو العملات ذات الأربعين مديني ويخصص للعامل المختص بالجلو مبلغ ٤٠٠ مديني شهريا للتزود بهذه المواد .
نطرون (نترات البوتاس)	«	«	—	—		
جنزار	«	«	—	—		
بورق او بوراكس (بورات الصودا)	٤ دراهم	٠,٠١٢	٩	٣١	٠	لصهر الذهب
شبة أزمير (١)	رطل	٠,٤٤٣	٣٠	٠٥	١	لجلو قطع المديني
طرطير	«	«	٤٠	٤٠	١	دون تخليصه من الشوائب
ملح (موريات الصودا)	أردب (٢)	—	١٦٨	٩١	٥	

(١) وهى تستخدم ايضا فى اعداد ماء النار او حمض النترات .

(٢) مكيال وهو الصاع المحلى .

(*) كيلوجرام .

أسماء المواد	أوزانها: المحلية	أوزانها: الفرنسية	قيمتها: بالمديني	قيمتها: بالفرنك س	قيمتها: بالفرنك ف	ملاحظات
بوتقات محلية	الواحدة	—	٩٠	١٦	٣	مخصص لمن يقوم بعملية الصهر مبلغ ٦٠٠٠ مديني شهريا ليتزود بها بمعرفته.
فحم (خشبي) (٣)	قنطار	٤٤,٣٣٦	٣٠٠	٥٦	١٠	
حطب (٤)	حملة	—	٢٠٣	١٧	٤	من خشب مهشم ومجزأ تماما
منخل	الواحد	—	٣٠	٠٥	١	لتنظيف قطع المديني
ورق أبيض (٥)	١٠٠ ورقة	—	١٠٠	٥٢	٣	
ورق رمادي (٥)	»	—	٧٥	٦٤	٢	
قفف (قفة) (٦)	الواحدة	—	٨	٢٨	٠	لنقل قطع المديني
مياه من النهر (٧)	القربة	—	٦	٢١	٠	
مياه الآبار (٨)	القربتان	—	٥	١٧		

(٣) حيث أن مصر تكاد تكون محرومة كلية من الغابات فانها تستورد الخشب بواسطة القوافل القادمة من جبل سيناء الذى يطلق عليه بالعربية اسم جبل الطور .

(٤) ويجلب من اليونان ، ويستهلك الجزء الاكبر منه فى معامل الجلو (انظر الصفحات القسم الثانى ، الفصل الأول ، الفقرة ثامنا ،والفصل الثانى ، خامسا ، والفصل السادس الفقرة : حادى عشر، وينتقى خشب الزيتون لانضاج او تحمية صفائح البرونز المخصصة لصنع المدينى (انظر ص ٢٢٥) اما الحملة فهى حمولة الحمار .

(٥) ويستخدم الورقة بصفة خاصة فى تغليف الفضة والمزاج ، وثانيا فى تغليف قطع المدينى (كقراطيس) .

(٦) القفة هى ما يشبه سلة مصنوعة من سعف نخيل مجدول ، وينتشر استخدامها فى مصر بشكل واسع ، وحيث هى مرنة بقدر ما هى متينة ، فانهم يقربون حوافها ويخيطونها مما يشكل غلافا رائعا لعبوة البن او الارز او غالبية السلع .

(٧) كانت مياه الشرب المخصصة للعمال والتى تستخدم فى جلو او تبييض قطع المدينى تاتى من المدينة فى قرب ، وتغترف اما من الترعة اثناء فيضان النيل او من الاسبلة او الخزانات العامة التى تخزن بها مياه النيل ، بقية العام . وهذه الاسبلة ، وهى نوع من المنشئات الخيرية تدين بوجودها لاعمال خيرة يقوم بها الحكام والكبار والاثرياء والمحسنون . وهى واحدة من معالم تجميل القاهرة .

(٨) اما الميـاه التى كانت تاتى من البئر المسمى بئر يوسف ، الموجود بالقلعة ، فهى مالحة .

القسم الثاني

اساليب وطرق صنع النقود

الفصل الاول

صنع قطـع المدينى

اولا : تحديد عيار خام الفضة (١)

كان العيـار (بشدة على الياء) الذى يقوم بفحص او تعيير خامة الفضة ، بعضا من رماد العظام المتكلسة ، سبق أن اعده هو بنفسه .

وكان يفضل لهذا الغرض استخدام عظام الفراريخ (الدجاج الصغير) الذى يسهل عليه التزود به بوفرة بسبب استهلاك هـذه الفراريخ على نحو واسع فى مصر ، حيث ظل المصريون منذ زمان ضارب فى القـدم يقومون بافراخها بالالوف ، فى افران خصصت لهذا الغرض (*) .

ويكون العيار على الارض كومة دائرية من هذا الرماد ، ثم يسطحها ويغوص فيها بيده كى يمنحها شكلا بيضاويا ، وبعد ذلك يضع فوق هـذا

---

(١) نقصد بكلمة تحديد العيار او الفحص ما يطلق عليه بالعربيـة كلمة ششنى (عينة) وجمعها شيشانى ، ويظن المسيو دى ساسى ان هذه الكلمة قد جاءت من الفارسية جشن (بالجيم المعطشة) او جشنى وتعنى التذوق ، من جشدن بمعنى يذوق او يتذوق ، ويدفع عن كل عملية ششنى ٣٠ مدينى .

(*) انظر دراسة عن معامل التفريخ تاليف روزيير ورووييه ، المجلد الخامس من الطبعة العربية .

الشكل الذى يمكن إن نعده بوتقة او مصفاة قطعة الفضة التى سبق فصلها عن السبيكة (العينة) ، المطلوب تحديد عيارها بحضــور افندى النقود ورقيب أو مفوض من قبل الحكومة .

وتتم العملية على عينة تزن اربعة دراهم (اى ٣١٥/١٠٠ ١٢ جراما) ، ويضاف اليها رصاص قدر وزنها خمسة الى ثمانية مرات حسبما يفترض أن تكون عليه نسبة المزاج الذى تحويه الفضة .

وكان الرصاص المستخدم ينتقى من الاسواق ، ويراعى ان يكون انقى رصاص يمكن الحصول عليه .

ويرص العيار فوق هذا النوع من المصفاة قطع من الفحم واخرى من الخشب بالغة الجفاف حتى يغطيها ، ثم ياتى خادم ، هو الآخر ، شانه شان العيار ، يهودى من اهل البلاد لينفخ النار بقربته المزودة بخرطوم (بزبوز) من الفخار ، صممت راسه على شكل منقار طائر .

وفور ذوبان او انصهار الرصاص ، تنصهر الفضة والمــزاج الذى تحويه ، وحين يكون الخليط (الفضة والرصاص) قد ظل فى حالة انصهار لوقت طويل لحذ كاف بسبب تاثره بهذه الحرارة الشديدة ، يقوم العيــار بابعاد قطع الفحم بعض الشىء حتى لا يحول ملامسته لهذا الخليط دون تأكسد الرصاص ، ثم يضع قطع الفحم هذه بشكل تكون معه ما يشـبه قبوا فوق حمام (٢) ، وبعد ذلك يدير هواء منفاخه تحت هذا القبو مما يبقى من جهة على النار ويساهم من جهة اخرى فى اكسدة الرصاص .

ويبعد العيار بلا انقطاع ، وبطرف ملقط من الحـد الملتهب القشرة الرقيقة المتاكســدة ، التى لا تزال بعد سائلة ، والتى تغطى المغطس ، وتحتوى هــذه على الرصاص والمعادن الاخرى الموجودة بهذا الخليط ، والتى يتشربها رماد البوتقة ، فى الوقت الذى ليست له فيه خاصية تشرب الفضة (المصهورة) .

---

(٢) كان علينا ان نخشى خلال هذه العملية ان تنتزع بعض جزيئات الفضة مع اول اكسيد الرصاص وهو الأمر الذى تفاديناه باللجوء الي وسيلة اخرى ، انظر ما بعده .

وعندما يصبح انفصال الفضة (عن مزاجها وبقية الخليط) تاما ، فانها ، وهى فى هـــذه الحالة من النقاء ، وحيث أنها ليست الآن فى درجة حرارة تكفى لبقائها منصهرة ، تنتقل على الفور تقريبا من حالة السيولة الى حالة الصلابة لتصبح معدنا بالغ التوهج ، ثم تفقد على الفور كذلك هـــذا التوهج ، وفى هـــذه الاثناء يحدث نوع من وميض يسميه العيارون فى فرنسا : البرق .

وبعد ذلك تتبقى صفيحة دائرية من المعـــدن تسمى العقب (بكسر القاف) او القاع وتكون عملية الششنى ناجحة بقدر ما تكون هذه الصفيحة المعدنية اقرب الى الشكل المخروطى ، وبقدر ما يكون الجزء العلوى منـــه اكثر تألقا وبريقا ويكون الاسفل كامدا (أى غير لامع) واكثر نقاء .

فاذا التحمت بحواف او اسفل هـــذه الصفيحة بعـــد ذرات المرتك (اول اكسيد الرصاص) ، فان العيار يقوم بفصلها عنها بأن يطرقهـــا بالمطرقة بضربات خفيفة ، وبعد ذلك يوزن عقب العينة لكى نتبين عن طريق حساب الوزن الذى فقدته الدراهم الاربعة من الفضة الى معرفة كميـــة المزاج التى كانت تحويها .

كانت عملية فحص العينات واحدة من اوائل الاشياء التى لا بد لهـــا أن تتطور ، ولقد سعينا الى ادخال واستخدام المصاهر او افران الصهر ، ومع ذلك فحيث لم يكن لدينا لتنفيذها سوى عمال من اهل البلاد فقد عانينا فى ذلك من كل صنوف المتاعب ، وقد استحال علينا بشكل خاص أن نعثر ، من بين كل انواع الطين التى جربناها فى القاهرة لصنع الفخاريات ، على طينة نستطيع ان نصنع منها افران صهر جيدة .

وبرغم ذلك فقد توصلنا الى تحسين طريقة قياس عيار العينات بشكل ملموس ، فقد جعلنا العمال يعدون تحت اشرافنا رماد البوتقة ، مفضلين — من جانبنا — عظام الضأن لاحتوائها على نسبة كبيرة من الفوســفات الجيرى ، وهو عنصر له خاصية تامة فى عمليات تصفية او تنقية الذهب والفضة ، كما استخدمنا القوالب لصنع بوتقات بالغة الانتظام وبذلك انقصنا عينة الفضة الواجب تعييرها الى ١١/٢ درهم (٦١٨/١٠٠ ٤ جرامات) ، وهو امر يتطلب كمية اقل من الرصاص ، ثم اننا حين وضعنا البوتقة تحت

ذبو الفحم واججنا النار بريح صادرة عن منفاخ ذى تيار مستمر ، فى حين كان تيار منفاخ الكير او المنفاخ ذى القربة متقطعا ، فاننا قد اسرعنا بعملية التاكسد وعندما ابقينا على المعدن (الفضة) فى حالة الانصهار بالاحتفاظ له بحرارة اعلى ، فقد امكننا ان نفصل عنه ذرات الرصاص الأخيرة والمزاج الذى كان يلتحم به (بالفضة) بشكل متين .

وحيث اننا كنا قد توصلنا فى فرنسا ، وبشكل صارم الى تحديد كمية المزاج التى تحويها قطع العملات ذات الخمس فرنكات ، فقد اتخذنا منها (فى مصر) طرفا للمقارنة ، وقد تاكدنا اننا بوسيلتنا الجديدة هـــذه كنا نقترب بشدة من بلوغ العيار الدقيق ، بقدر ما كان يتاح لنـــا ان نفعل ذلك عن طريق وسائل اقل دقة ، وبشكل خاص ، عن طريق استخدام موازين اقل تماما (اقل انضباطا) عما هى عليه الموازين المستخدمة فى فرنســـا لقياس العيـــار .

ثانيا : عملية المزج

برغم ان دار سك النقود كانت تضطر لشراء النحاس اللازم لمزج (او لسبك) قطع المدينى ، فانها مع ذلك لم تكن تحاسب اليهود على كمية النحاس التى توجد ملتحمة فى السبائك التى يوردونها اليها ، ومع ذلك فحيث كانت الفضة المتوفرة فى الأسواق بشكل عام وكما سبق ان قلنا ، ذات عيار منخفض ، فقد كان من عادة هؤلاء اليهود ان يوفروها من عيار اقل بحيث كانت نسبة المزاج التى ينبغى اضافتها اقل من تلك التى تضاف الى القروش التى يتم صهرها (لتصنع منها قطع المدينى) .

اما النحاس فكان يتم توفيره على يد رجل تركى يعمل شيخا للصرافين فى دار سك النقود فكان يشترى من الأسواق النحاس الأحمر المتخلف عن الآنية القديمة ، فحيث تكاد تكون كل اوانى الطبخ والاوانى المنزلية الاخرى مصنوعة من النحاس ، فقد قامت على هـــذه الآنية التى تجلب من الخارج، والتى يفضل لها ان تكون من النحاس الاحمر تجارة كبيرة .

وفى البداية كانت هذه الاوانى (القديمة) تبسط ، وتقطع ، وتسطح، بطريقـــة تجعـــل منها بقـــدر الامكان سطحا مستويا من الناحية التى كانت تبيض بالقصدير .

وكان هـذا السطح المقصدر يتعرض لدفقة من اللهب يتم بواسطة تيار هواء يصدره منفاخ ، وعن طريق هـذه العملية يتأكسد القصدير ويسقط فى شكل قشور ، وينزع ما يمكن أن يتبقى منه عن طريق الكشط او الحك . وعندما تصبح هـذه الصفائح النحاسية نظيفة لامعة ، خالية من القشور لحـد ما فانها تطوى عدة طيات مع طرقها بواسطة بيزر (*) من الخشب أو بفعل مطرقة حتى يتقلص حجمها لتشغل اقل حيز ممكن .

وبعد ذلك يلقى بهذه القطع من النحاس فى مصاهر فخارية شبيهة بتلك البوتقات التى تستخدمها دور سك النقود ، توضع فوق مصفاة فخارية فى قاع فرن اسطوانى الشكل يملأ بالفحم .

وتغطى فوهة الفرن بصفيحة عادية من الحديد أو الفولاذ .

وفى داخل الفرن يؤجج منفاخ مضغوط ، يصدر تيارين من الهواء ، نارا شبيهة بتلك التى يصدرها كور الحداد ، وتكفى لصهر النحاس ، وكلما اخذ حجم الفحم فى التقلص والهبوط نتيجة الاستهلاك ، يعبأ الفرن من جديد (بالفحم) ، وحين يبدأ النحاس فى الانصهار تضاف من الفحم كمية كافية كى تملأ البوتقة الى نحو ثلاثة قراريط من حافتها .

ويراعى ان يترك فوق المصهرة أو البوتقة ، ولا تكون هـذه مغطاة قط ، فحم مشتعل يحول دون تأكسد الرصاص ، وينشر على السطح مسحوق البورق (او البوراكس او بورات الصودا) الذى يستخدم كمدر والذى يتولى كذلك تنقية المعدن باستبعاده للمواد الغريبة .

وعندما يصبح قوام النحاس بالغ السيولة ، تسحب البوتقة بامساك حافتها بواسطة ملقط او كماشة طويلة ، او بواسطة مشبك مسطح ، وتستبعد الشوائب المعدنية بواسطة مسوط (بكسر الميم) حديدى (أى ملعقة) ، ثم يصب النحاس المصهور من ارتفاع متر ونصف المتر ، فى شكل خيط رفيع بعض الشىء ، فى حوض ملىء بالمياه حيث يتفتت الى حبيبات .

ويباع النحاس ، معدا على هـذا النحو ، الى الضربخانة (دار سك

(*) البيزر ، مطرقة خشبية ذات راسين . (المترجم) .

النقود) بواقع ٤٠ مدينى ثمنا للرطل زنة ١٤٤ درهما ، أى بواقـــع ثمن الكيلوجرام ٣ فرنكات و ١٧ سنتيما .

اما اذا كنا بصددصهر القروش ، تكون نسبة المـــزاج التى لابد ان تضاف الى كل ١٠٠٠ منها تبلغ .. ١٣ر٧٥٠ درهما اى ٣٣٥/١٠٠٠ ٤٢ كيلوجراما فى حين تزن هـــذه القـــروش الألف .. ٨ر٧٥٠ درهمـــا اى ٩٤٠/١٠٠٠ ٢٦ كيلوجراما .

باجمالى وزن قدره ٢٢ر٥٠٠ درهما اى ٢٧٥/١٠٠٠ ٦٩ كيلوجراما .

وكان يؤخذ كل ٦٠ قرشا تزن ٥٢٥درهما اى ٦١٦/١٠٠٠ الكيلوجراما .

ليضاف اليها مزاج وزنه ٨٢٥ درهما اى ٥٤٠/١٠٠٠ ٢ كيلوجرام . وبهذا يكون الوزن الاجمالى لمـــا يوضع فى كل بوتقة ١ر٣٥٠ درهما أى ١٥٦/١٠٠٠ ٤ كيلوجرامات . وذلك بخلاف نحاتة وقراضة الفضة التى تنتج عن عملية الصهر .

اما اذا كانت الفضة المخصصة لصـــنع النقود قـــد جاءت فى شكل سبائك ، تأكد المختصون من قبل من عيارها عن طريق عملية الششنى ، فانها تقطع متساوية ، وبوزن كاف ليجعل كل واحدة منها تزن نحو ١٤٠٠ درهم أى ٣١٠/١٠٠٠ ٤ كيلوجرامات ، ثم توزن كل قطعـــة وتضـــاف اليها الـــكمية اللازمة من المزاج .

ولحساب كمية المزاج هذه ، على نحو ايسر ، كانت تستخدم جداول اعدت لهذا الغرض ، قامت على أساس تحديد نسبة المزاج المقررة عنـــد صهر القروش .

وتقدر تعريفة النقود الفرنسية عيار القرش الاسبانى بـــ ٨٩٦ ، ومع ذلك فبافتراض أن هذا التفاوت المسموح به يتجاوز حده احيانا زيادة أو نقصا ، طبقا لنتائج عينات اجريت فى فرنسا قبل وضع هذه التعريفة، فقـــد قـــدرناه نحن فى مصر بـــ ١٠ر٧٥ دراهم deniers من الفضـــة الخالصة أو بعيار قدره ٨٣٣/١٠٠٠ ٨٩٥ .

وطبقا لذلك ، فان الف قرش تبلغ زنتها	٨ر٧٥٠	درهما
لابد لها ان تحوى من الفضة الخالصة على	٧ر٨٣٨ ٥٤١/١٠٠٠	«
ومن المزاج على مازنته	٩١١ ٤٥٩/١٠٠٠	«
كان يضاف اليها مزاجا قدره	١٣ر٧٥٠	«
وبهذا يصل اجمالى وزن المزاج الى	١٤ر٦٦١ ٤٥٩/١٠٠٠	«
يضاف الى كمية من الفضة الخالصة تزن	٧ر٨٣٨ ٥٤١/١٠٠٠	«
ليتحقق اجمالى سبق بيانه هو	٢٢ر٥٠٠	«

مما يعطى فى مقابل كل درهم واحد من الفضة الخالصة درهما واحدا و $\frac{٨٧٠٤٣٢}{١٬٠٠٠٬٠٠٠}$ من المزاج (٣) .

وطبقا لهذه المعطيات تم حساب جداول المضاف او المزاج التالية ، وهى التى تستخدم فى تحديد كمية النحاس الواجبة اضافتها الى الفضة سواء بخصوص القطع ذات المدينى الواحد او ذات العشرين والأربعين مدينى، ابتداء من٢٦ يوليه١٧٩٨ (الثامن من ترميدور من العام السادس) وحتى بداية العام التاسع (٢٣ سبتمبر ١٨٠٠) وهو التاريخ الذى حددت فيه نسبة المزاج او المضاف بجزئين (من النحاس) مقابل جزء واحد من الفضة الخالصة .

(٣) ويشار اليه باسم المضاف اى الذى اضيف ،

جدول المضاف (أو المزاج)

الفضة الخالصة	وزن المضاف اليها				
١ درهم	٨٩٣	٤٣١	٨٧٠	ر١	درهم
٢ درهمين	٧٨٦	٨٦٣	٧٤٠	ر٣	دراهم
٣ دراهم	٦٧٩	٢٩٥	٦١١	ر٥	»
٤ »	٥٧٢	٧٢٧	٤٨١	ر٧	»
٥ »	٤٦٥	١٥٩	٣٥٢	ر٩	»
٦ »	٣٥٨	٥٩١	٢٢٢	ر١١	درهما
٧ »	٢٥١	٠٢٣	٠٩٣	ر١٣	»
٨ »	١٤٤	٤٥٥	٩٦٣	ر١٤	»
٩ »	٠٣٧	٨٨٧	٨٣٣	ر١٦	»

وتغلف الفضة الخالصة والمضاف او المزاج وهو فى شكل حبيبات فى ورقتين : الأولى من الورق الأبيض اما الثانية فمن ورق رصاصي اللون ، وتطوى وتفتح كلاهما بمعرفة الافندى الموكل بصنع النقود ، وبحضور المشرف الادارى او مفوض الحكومة وكذا الوزان وشيخ الصهارين .

ثالثا : مصنع الصهر أو السبك

كان هؤلاء الأشخاص انفسهم ، يشرفون على نقل الخامات الى مصنع الصهر وعلى تعبئة البوتقات ، وكذلك على صب المزيج المصهور فى شكل سبائك .

ويضاف الى كل بوتقة نسبة متساوية من الجذاذات وقراضات الفضة المتخلفة عن عملية صنع المدينى (السابقة) .

وكانت البوتقات المستخدمة قبل مجىء الحملة الفرنسية بوقت قصير

من نفس نوع البوتقات المسماة بالبوتقات الرصاصية (*) ، وكانت تجلب من أوربا ، وتستطيع الواحدة منها أن تحوى نحو ...، درهم أى مايزيد على اثنى عشر كيلوجراما من الخام ، وتســـاوى من خمسين سنتيما الى ثلاثة فرنكات .

وقد اقتضى الأمر ، حين نفدت البوتقات التى كان يمكن العثور عليها فى اسواق القاهرة ، حيث توقفت كل ضروب التجارة بشكل شبه تام مع اوربا ، صنع بوتقات من الطين المحلى .

وفى البداية ، خلطنا مع هذا الطين المحلى ، كمية كبيرة بعض الشيء من الرصاص (الجرافت) الذى تخلف عن البوتقات القديمة التى كنا قد احتفظنا ببقاياها ، وان كان الأمر قد انتهى بهذا المعين ان نضب .

اما البوتقات الفخارية التى يصنعها العمال المحليون فكانت ذات جسم اسطوانى وقاع كروى الشكل ، وكان يعيب طينتها أنها اقل مرونة ولدانة واكثر مسامية وقابلية لأن تتزجج (تتحول الى زجاج) اذا تعرضت لنيران شديدة .

وقد نتج عن العيبين الأولين انهم كانوا يضطرون هناك لصنع بوتقات بالغة السمك وبشكل خاص من ناحية القاع ، مما كان يجعل جفافها عسيرا ، وكان ينتج عن عدم استواء ســـمكها وعن مساميتها انها كانت تتشقق او تنكسر عند سحبها من الفرن ، اما اقل عيوبها النـــاتجة عن ذلك فهو انها كانت تتشرب جزءا من الخامات . اما تزجج هذه البوتقات فكان اقل هذه العيوب حدوثا وقلما كان يحدث الا فى السطح الخارجى قريبا من القاع ، حيث كانت تتركز اكبر درجات الحرارة ، وان كان ذلك فى معظم الأحيان هو السبب فى سهولة تشقق البوتقة سواء عند ملامستها للهواء او عندما كان يراد صب الخامة المنصهرة أو كذلك عند ملامسة النار حين كان يراد القيام بعملية صهر اخرى فى البوتقات التى سبق استخدامها بالأمس .

(*) الكلمة المستعملة هى Plombagine وتعنى المادة التى تصنع منها اقلام الرصاص .

وبرغم كل المحاولات التى بذلناها فى اختبار ومزج الطين فاننـــا لم نتوصل للاقتراب من خواص البوتقات الرصاصية أو حتى من خواص انواع معينة من البوتقات الفخارية التى نستخدمها فى فرنسا ، ولعل الأمر كان يتطلب منا ان نحاول البحث عن انواع اخرى من الطين (٤) او ان نجلب هذا الطين من سوريا .

وكانت عملية الصهر تتم فى ثمانى بوتقات وتوضع فى عدد مماثل من الافران ذات المنافيخ ، متساوية واسطوانية الشكل ، وليست لها مداخن ، اقيمت بطول رصيف او مصطبة تبعد بنحو المتر عن حائط المصنع ، وبنيت من الطوب الاحمر والطين الصلصالى والأسمنت .

اما فى قاع الفرن ، حيث يوجد ثقب دائرى توضع فيه البوتقة ، فوق مصفاة او حلقة او اسطوانة صغيرة من الطين ، فقد اعد بين اللبنات فراغ يكفى لاستيعاب الرماد الذى يتدفق ولكى يسمح بمرور هواء المنفاخ ، اما البوتقات فكانت تحاط وتغطى بالفحم الخشبى ، ومع ذلك ، فحيث كانت طبقة الفحم قليلة الـكثافة لحد كبير ، فقد كان هناك عامل عليه ان يقوم بصفة دائمة باعادة ملء الافران بالفحم .

وقد ثبت عند كل فرن منفاخ له جراب ، وهذا النوع من المنـــافيخ غريب الشكل ، ويميل على الفور الى طفولة الفن ، وهو عبارة عن قربة او جلد ماعز ، ربط باحد طرفيها خرطـــوم من الطين المحروق فمفتوح على شكل فتحة حقيبة مزودة بنوع من السدادة تتكون من اسطوانة مشقوقة من الخشب تبعا لمحورها ، ويستطيع رجل بمفرده ان يحرك منفاخين فى آن واحد ، اذ يمسك بمنفاخ فى كل يد ، ثم يباعد بين جزئى الاسطوانة الخشبية او السدادة ويجرهما اليه (مما يفتح ويبســط الجراب) ويدخل منهما الهواء ، وبعد ذلك يقرب ويضغط جزئى الاســطوانة ، كـــلا منهما

---

(٤) الطين فى كل وادى مصر هو من النوع نفسه ، فالأرض هناك عبارة عن تربة رسوبية نتجت عن ترسيبات بطيئـــة ومتعاقبة من النيل ، وهى تصلح فى كل مكان لصنع الطوب الاحمر المطلوب للبنـــاء ، ومع ذلك فليست لها خاصية مقاومة النيران الشديدة .

بالآخر ، ثم يدفعهما نحو القربة التى يضغط عليها ليخرج الهواء المتراكم فيها عن طريق الخرطوم .

ويظل النافخون جالسين على الارض بين المصطبة والحائط ، وهم يحتمون من الشرارات (المتطايرة) بواسطة حاجز أو متكأ صغير يسيطر من جهتهم على طول المصطبة ، وهؤلاء هم عميان بؤساء تغطيهم مزق من القماش ولا يكسبون طول اليوم اكثر من ٤ الى ٥ مدينى أى ما يعادل ١٤ الى ١٩ سنتيما .

وعندما يصبح الانصهار كاملا ، وهو مايتم التأكد منه بواسطةقضيب من الحديد يستخدم فى الوقت نفسه للتقليب والمزج ، يجذب احد العمال البوتقة ، ممسكا اياها من حافتها ، مستخدما فى ذلك ملقطا مسطحا ، ليحملها الى الصاهر أو السباك نفسه ، وهو الذى يتخذ مكانه أمامنضدة عمل بنيت من الطوب والصلصال ، ويضع السباك البوتقة فوق الرماد الساخنة ، على حافة اناء فخارى (برنية) ، اصطفت بها قوالب السبك المزودة بيد ، والمتماثلة فى الشكل والحجم ، والتى يراعى ان تدلك قبلذلك بقليل من الشمع او الزيت ، ويأخذ قالب السباكة باليد اليسرى ويمسك باليمنى الملقط او الكماشة ويميل البوتقة ، ثم يملأ على التوالى كل القوالب .

ولا يتجاوز سمك السبائك التى تنتج عن ذلك ٢ سم ولا يتجاوز طولها ٣٥ — ٤٠ سم .

وحين تتم عملية الانصهار ، يحمل رئيس المصنع (الأسطى) سبائكه ليتم وزنها ، ويترك له (كفرق وزن او تالف) مايعادل ١٦/١٠٠ مقابل الرواسب او الجذاذات ، وهى اكبر حجما بكثير من تلك التى تخلفها عندنا العملات البرونزية ، وان كان علينا ان نلاحظ ان ثلثى الخامة المعطاة الى السباك كانت فى شكل جذاذات بالغة الرهافة ، كما كان سطحها ، بعد ان تأكسد بشده ، قد تراكمت عليه مواد دهنية وكربونية بسبب من كثرة ماتداولتها الايدى ، وهى كلها ظروف تزيد بشكلمحسوس من حجمالفضلات المتخلفة من الصهر .

ولم يكن رئيس المصنع ليسلم قط ومن اول مرة الكمية المحددة من السبائك التى عليه ان يسلمها ؟ وكان الافندى يحمل هذا العجز مع باقى

العهده على حساب العامل . وبعد ذلك ينظف الأسطى مصنعه ، ويغسل الرماد والكناسات ، ويأمر بأن تهرس عن طريق عامل موكل بهـذا الأمر الجزء من البوتقات التى يظنها قد تشربت جزءا من خامة المعدن ، ويسحق العامل رواسب الغسيل الذى تم بواسطة الزئبق ، ثم يفصل الملغم (*) عن الطين والرماد بواسطة عمليات غسيل متتابعة .

بعد ذلك يدخل السباك هذا الملغم فى آنية زجاجيـة صـغيرة ، مخروطية الشـكل ، ذات رقبـة طويلة ، أو فى نوع من المطرات (**) matras, يلطخها بالطين بعناية ، ثم يصف هـذه المطرات فى نوع من المواقد أو الأفران وسط الفحم ، ويدخل فى رقبة المطرات قطعة من البوص بدلا من الانابيب الزجاجية ، لكى يستقبل فى آنيـة زجاجيـة اخرى غير ملطخة بالطين جزءا من الزئبق الذى تصاعد فى عملية التقطير ، وعنـد المساء يشعل العامل الفحم تاركا عملية البخر او التقطير تتم اثناء الليل . وفى الصباح يسحب المطرات مليئة برواسب معـدنية محببـة لها شكل الاسفنج ومظهر النحاس لـكنها تحتوى على فضة ، وعندئذ يحطم الزجاج ويفصل الرواسب كى يوزعها فى اجزاء متساوية على بوتقات ، فاذا كانت عملية الصهر الجديدة هذه ستؤدى الى اتمام الـكمية التى عليه ان يقدم الحساب عنها الى الافندى ، يعفى العامل من العجز (السابق تسجيله) اما اذا حصل من هذه العملية على مايزيد عن هذا العجز فقد كان يجنب الزيادة لحسابه ليكمل بها نقصا مقبلا ، ولـكنه ملزم ، اذا ماحصل على مايقل من تعويض هذا العجز بأن يشترى فى بداية الاسبوع التالى وان يجلب كمية الفضة التى نقصت .

وبلا شك ، فان لطريقة الصهر فى بوتقة وحيدة ، داخل فرن واحـد الكثير من المزايا ، مثال ذلك اننـا نستخدم هنـا عددا اقل من السواعد ، كما اننا ننفق وقتا ونستهلك وقودا اقل ، ونحصل بسهولة اكبر ، وبشكل اكثر وثوقا على خامة متجانسة ، وتترسب لدينا فضلات اقل عما لو كنـا

(*) الزئبق وقد امتزج بمعدن او بمعادن اخرى (المترجم) .
(**) مطيرة اى اناء زجاجى طويل العنق مما يستعمله الكيمائيون ، واصلها العربى مطرة بمعنى قربة . (المترجم) .

قد اجربنا عملية الصهر بشكل منفصل وعلى دفعات صغيرة ، كذلك فاننا لن نكون عرضة لأن يتكسر الكثير من بوتقاتنا او لان « تندلق » فضتنا فى الرماد فنضطر لاعادة عملية الصهر ، ومع ذلك فان البوتقات كبيرة الحجم تتطلب جهدا كبيرا للغاية — وحتى اذا كانت لدينا كميات كبيرة من الخامة بشكل ملموس ، ينبغى صهرها ، فانه لأمر صعب وباهظ التكاليف، حتى فى فرنسا . أن نصنع بوتقات من الحديد المطروق ، وقلما تستخدم هذه الا فى باريس ، كما أن عادة الصهر فى بوتقات رصاصية (٥) لاتزال تستخدم فى غالبية دور سك النقود فى فرنسا وربما فى أوربا كلها ، وباختصار، فانه يبدو لنا، فى الحالة الأخيرة ، أن من الافضل ان تتم عمليات الصهر فى الأفران ذات المنافيخ، وقد أبدلنا هذه فى عام ١٨١٨، فى دار سك النقود فى لاروشيل la Rochelle ، التى عهد الينا بادارتها بأفران كبيرة ذات تيار هوائية ، وحققنا بذلك وفرا كبيرا فى نفقات الانشاء ، واقتصادا طفيفا فى الوقت المطلوب لعملية الصهر بالاضافة الى توفير مايقرب من النصف فى استهلاك الفحم .

رابعا : مشاغل الحدادة أو الطرق

تسلم السبائك بعد ذلك ، بالوزن ، الى شيخ مصانع الطرق او الحدادة .

ولا تتطلب الفضة او البرونز من الصنف العالى درجة حرارة كبيرة كى يتم طرقها ، اذ تكفى حرارة بسيطة تصدر عن الفحم دون منفاخ كور او حدادة حتى تكتسب السبيكة اللون الاحمر الكرزى(*) ، ويمسكها احد العمال بملقط مسطح ليطرقها ، يعاونه فى ذلك واحد او اثنان آخران من العمال، ويقوم الجميع بطرقها بالتبادل ، بواسطة مطرقة مسطحة ، اما فوق سنديان صغير حوافه متثلمة واما فوق سنديان مسطح ، وهو نفس ماتحصل عليه اذا اقتصرنا على طرقها فوق سنديان مسطح بمطارق ذات

---

(٥) لاتتسع البوتقات الرصاصية التى نستخدمها عادة الا لـ ١٨ الى ٢٠ كيلوجراما .

(*) نسبة الى ثمرة الكرز او الكريز .

راسين ، مع الطرق عليها احيانا بالجزء المدبب من المطرقة واحيـانا بالجزء المسطح منها .

وهذا العمل بالغ البساطة ، كما أن العمال جد متمرسين عليه ،فهم يضربون ثلاثتهم (فعددهم ثلاثة) بقدر من السرعة ودقة التصويب ،وبايقاع بالغ التمييز ، حتى ان المرء عنـدما يراهم لأول مرة ، لايستطيع أن يكتم دهشته من مهارتهم وهمتهم .

اما السبيكة التى يطرقونها فى البداية على شكل مربع ، ثم فىشكل سهم دائرى مع الحرص على جعل اطرافها اقل سمكا لكى تمر بعمليـة السحب ، ويصبح شكلها اقرب الى المثلث مع المضى فى انقـاص ثخانة سمكه ،وتكتسبالسبيكة قدرا اكبر من الليونة والمرونة والقابلية السحب، فاذا لم تطرق لهذا الحد فسوف يكون سحبها مستحيلا فى هذه الحالة ، لانها ستكون عندئذ اكثر قابلية للانكسار . .

خامسا : مشغل السـحب

يضع المداد (٦) لوحة السحب بواسطة صفائح من الصلب المصهور تباع فى الأسواق ، لها شكل غير مستو بعض الشىء ، بل ان سـطحها كذلك يعانى من عدم الاستواء ، ويتنـاقص سمكها بدءا من مركزها حتى الحواف .

وهو يقوم بتحمية هذه اللوحات من الصلب ، أو يزيل سقايتها (*) لكى يثقبها على شكل زهرات باستخدام مثقاب من الصلب ، ولا يحرص العامل قط على نسق معين فى احداث ثقوبه وهو يقوم بتنفيـذها بشكل متعاقب ، مع تصغير حجمها اكثر فاكثر ، بواسطة مثاقيب متنوعة ذات اسماك مختلفة ، أو بواسطة مثقاب واحد ، يخففه او يحميه فى كل مرة (يحدث فيها ثقبا) ويواصل العامل احداث ثقوبه هنا وهناك بقدر مايمكن صفيحة الصلب ان تتسع له من ثقوب .

---

(٦) بشدة على الدال الاولى والجمع مدادين ، من الفعل مد بمعنى سحب او مط .

(*) تعبير فنى خاص بالفولاذ والصلب ، ويشـير الى عمليـة تتم بتسخين المعدن ثم تبريده فجاة مما يكسبه صلابة ومرونة . (المترجم) .

وبعد ان يتم اعداد لوحة السحب على هذا النحو يضعها باتجاه لسان مزدوج مزود عند طرفيه بقطعة من الخشب ، تغوص فى الأرض .

ويقوم احد العمال مستخدما احدى يديه بتمرير طرف السبيكة التى تحولت الآن الى قضيب معدنى رقق طرفه فى ثقب لوحة السحب، ويمسك به بواسطة ملقط او كماشة ذات فكين محززين .

ولهذا الملقط فروع او روافع بالغة القصر يمسك بها مايشبه حلقـــة حديدية ملوية من ناحية ومربوطة من الناحية الأخـــرى بحبل يلتف حول خنزيرة (آلة رفع) .

ويقوم عاملان بلف هـــذه الخنزيرة بواســـطة زوجين من الروافع المتشابكة ، تبعد كل منها عن الاخرى بمسافة تكفى لكى لاتعوق احداهن الأخرى . ويدور طرفا المحور داخل كماشة أعدت فى قمـــة قطعتين من الخشب المتين ، تغوصان فى الأرض .

ويضغط العمال على ذراعى الكماشة محدثين رجـــة هائلة ، ممـــا يجعل اسنانها تعض بشـــدة على القضـــيب المعدنى (النـــاتج عن طرق السبيكة) والذى يدفعه العمال ليمرروه قسرا ، بينما هو يستطيل (اى يسحب) من خلال ثقوب لوحة السحب .

وحيث لايتبع تضاؤل حجم هذه الثقوب نسقا منتظما ؛ وحيث تعـــانى الخنزيرة ، وهى مبنية بشكل خشن بالغ الرداءة من حركة احتكاك هائلة (مما يعنى وجود مقاومة شديدة للجهد المبذول)، وحيث ان ذراعى الرافعة قصيرتان لحد بالغ ، وحيث لايكون المزاج فى معظم الاحيان بالغ النقاء ، بشكل يظل معه المعدن فى بعض الأحيان صلبا قابلا للكسر ، فلابد من بذل جهود هائلة لسحبه ، وفى العـــادة يعمل الرجال الموكلون بادارة (بلف) الخنزيرة ـــ وهم يختارون من بين اشد الرجال قوة وامتنهم بنية ـــ وهم

شبه عراة (٧) ليقوموا بعمل بالغ المشقة يستعينون فى انجــازه بأيديهم واقدامهم ، وتتم اعمال هذه المصانع ، كما تتم اعمال غالبية المصانع الاخرى وسط ضجيج نوع من الصياح او الغناء ، يتردد بطريقة منتظمة ، على نحو قريب مما يفعله رجال بحريتنا فوق سفنهم الحربية عند اجراء مناوراتهم .

وعندما تمرر القضبان المعدنية لعدد محدد من المرات من خلال ثقوب لوحة السحب ، وهى عملية تهدف الى فصل شذرات المعــدن والتخلص منها ، فينبغى الحرص على تحمية هذه القضبان مرة اخرى لــكى يصبح المعدن اكثر مرونة واقل قابلية للــكسر .

ثم تصف القضبان على شكل طبقات تفصل بينها قطع صــغيرة من الفحم توقد عند حلول المساء ، ويقوم صبية المشغل ، وهم مزودون بمــا يشبه مراوح من الريش ، بالتهوية على الفحم ويترك ليتآكل خلال الليل .

ويحرص الصبية كذلك على ترقيق القضبان المعدنية عند اطرافها ، وعلى التقاط وجمع القطع التى تنفصل عنها من ثقوب السحب ، وعلى كنس المشغل . وهؤلاء الصبية هم فى غالبية الاحوال ابناء العمال انفسهم ، ويحصلون على جعل متواضع يستخدمه اهلوهم فى اعاشتهم ، وهم يتعلمون منذ نعومة اظفارهم ، وبشكل تدريجى ، حرفة آبائهم نفسها ، فقد ظلت حتى اليوم فى طبقة الصناع ، كما هو الحال فى معظم الحرف الاخرى ، تلك العادة القديمة عند المصريين ، عادة تنشئة الأطفال على الدوام على حرفة آبائهم .

ويتجاوز ، بخصوص كل عملية سحب وتحمية تتم فى مشغلين بنسبة فاقد يبلغ ٥ر٪ (اى ٥/١٠٠) .

(٧) لابد ان عادة الشرقيين فى ان يعيشوا فى عزلة عن النســاء ، وابقاء هؤلاء النساء محجبات وحبيسات هى السبب فى ان اصبح الرجال فيما بينهم اقل حياء واحتشاما ، وفى انهم ينظرون دونما دهشة الى نفر منهم ، فقراء او دراويش ، يمضون عراة فى الشوارع ، وفى اننــا نرى كثيرا من العمال يعملون عراة فى مصانعهم ، وهذا الاختلاف (بيننا وبينهم) فى العادات والتقاليد ، هو الذى يجعلهم ينظرون بكثير من الدهشة الى النسوة الاوربيات وهن يخرجن سافرات ، يختلطن ويتنزهن ويتحادثن مع الرجال ، وان يشغفن بشكل خاص بزيارة مصانعهم . وكانت الفكرة الاولى التى راودت هؤلاء العمال هى ان ينظروا الى هؤلاء النسوة جميعا باعتبارهن مومسات .

سادسا : مشغل الترقيق

عندما يتم انقاص قطر القضبان المعدنية ، ليبلغ نحو ٢ مم ، يعهد بها الى الرقاق(٨) ويقوم هذا الرقاق بتقطيعها الى قطع طول كل منها من ٢٥ الى ٣٠ سم ، وبعد ذلك يضعها فى فرن يحمى بالخشب الجاف حتى تلتهب .

وهذا الفرن ذو شكل دائرى ، وله خمس أو ست فوهات ، وعلى مقربة من كل فوهة يقام سنديان او كتلة من الصلب ، لها سطح دائرى ومصقول .

ويأخذ شيخ العمال واحدا من هذه الاسلاك (او القضبان) بواسطة كماشة او ملقط مسطح ، ثم يقوم بترقيق او تسطيح هذا السلك المعدنى بكل طوله بواسطة مطرقة ذات راسين مسطحين ودائريين .

وبعد ذلك يثنيه ليصنع منه فرعين ، ثم يرقق الفرعين من جديد مع طرفهما واحدا فوق الآخر ، ومع امساكهما لهذا الغرض بواسطة ملقط ، مرة من عند نقطة التقائهما ، ومرة اخرى من ناحية طرفيهما .

وعندما تكون كل الاسلاك او القضبان المعدنية قد رققت بالقدر الكافى عن طريق هذه الوسيلة ، وتكون قد اكتسبت عرضا يبلغ نحو ٢ سم، يقوم صبية المشغل بفتحها وبتشكيلها ستة ستة بطريقة تدخل معها كل الثنيات او المفاصل كل منها فى الأخرى .

وعندئذ يمسك شيخ المشغل هذه الوريقات الست مجتمعة ويرطبها بالزيت فى معظم الأحوال كى لاتتأكسد او تحترق أو تلتحم ببعضها البعض، ثم يجففها فى الفرن ، ثم يضعها على السندیان ، ويقوم هو وعامل آخر بطرقها بضربات قوية من مطرقتيهما المسطحتين ، ويحرص فى بعض الاحيان على ان يوقفها ليطرقها ، وهى على هذه الحال ، بطرقات بالغة الخفة . فوق الحافة .

---

(٨) أى الذى يرقق المعدن والجمع رقاقين .

وهذا العمل بالغ المشقة ، وكل من يؤدونه من العمال متينو البنيـــة الغاية ، ويظلون على الدوام منهمكين فى اداء اكثر الأعمال صعوبة ،حيث تنهمر جداول من العرق من اجسادهم المفتولة ، ويذكرك مشـــهد هـــذا المشغل (٩) المعتم ، الشبيه بكهف او بمغارة ، تملؤها ســـحب الدخان ، والذى يطن فيه ضجيج المطارق بايقاعها الثقيل وصداها ، مع صـــيحات الطارقين الذين يعملون على بصيص ضوء صادر عن نار افرانهم ، يذكر بشكل تام بكهف سيكلوبيس (*) .

اما الرقائق التى تنتج عن عملية الترقيق هذه ، فكثيرة العيوب ، فهى غير مستوية السمك ، وبشكل خاص عند اطرافها ، كما انها مهترئة عنـــد الحواف ، وهى فى معظم الأحيان متكسرة ومليئة بالثقوب . وهـــذا هو السبب فى انه توجد عند مرحلة القطع او القص كمية هائلة من الجذاذات او القراضات ، تعود مرة اخرى الى الصهر ، وتخرج « اقراص » النقود (او التى ستصبح قطع نقود) شديدة السواد متاكسدة ، ولابد ان يزال جزء من سطحها ليتم جلوها او تبييضها .

كان الأمر يقتضى منا ان نستخدم فى اعداد هذه الرقائق الة تصفيح تبنى بقدر كبير من الدقة ، لكن العمال من اهل البلاد ، لم يكونوا مهيئين لانجازها .

ولم تكن نسبة التالف المسموح بها فى مشاغل الترقيق تتجاوز ٢٥/١٠٠٠٠ (٢٥ر٠٪) اى الربع فى كل الف .

---

(٩) يضم المصنع كورين لـــكل منهما ستة سنديانات .

(*) سيكلوبيس جن خرافى ، له عين واحدة الى وســـط جبهته ، كان يطرق فى اتنـــا ، وهو بركان يقع الى الشمال الشرقى من صقلية ، صواعق جوبتر بأمر من فولكان Vulcain ، والأخير هو اله النار والمعادن عند الرومان ، وهو ابن جوبيتر وجونون ، زوج فينوس ، وقد ولد قبيحا نسائه الخلقه ، فالقت به امه من فوق جبال الأولب فسقط فى جزيرة ليمنوس ، وكان يعرج لهذا السبب ، وقد اقام تحت اتنا كور حدادة حيث كان يعمل مع سيكلوبيس (المترجم) .

سابعا : مشغل التقطيع او القص

بعد ان توزن الصفائح او الرقائق وتفحص ليتم التاكد من ان لهـا سمكا مناسبا ، تسلم الى شيخ مصنع القص او التقطيع (١٠) .

وتتكون آلات القص او القطع من لولب ثبت فى الطرف الادنى منـه مجوب (*) أو مكبس هو عبارة عن جزء من مخروط ، قاعـدته المسقية بالصلب رهيفة وقاطعة . ويدخل هذا المـكبس فى جزء يسمى منظار او نظارة ، احدث به ثقب دائرى يكاد يكون كامل الاستدارة ، كما ان حوافه هو الآخر رهيفة وقاطعة .

وعند الطرف الآخر من اللولب وضع بشكل ملائم الرقاص ، وهـو رافعة بذراع واحدة تستخدم فى تحريك اللولب والمكبس .

ويثبت العامل بيده اليسرى الصفيحة او الورقة المعدنية فوق المنظار ، وبيده اليمنى ينزل المـكبس الذى ينتزع الشريحة او القطعة المعدنية التى نسميها نحن فى دور سك النقود عندنا قرص flaonوالتى تسـقط من خلال مائدة مثقوبة اعدت على هذا النحو ، لهذا الغرض ، داخل سلة او قفـة معدة لاستقبالها — فى الوقت نفسه الذى يدير فيه الرافعة نصف دورة .

وتتم هذه الحركة بسرعة بالغة ، كما ان العمل هنا بالغ السهولة ، ويقوم به شبان يافعون ، ويستطيع عامل بمفرده أن يقص أو يقطع مايزيد على ٢٠ الف مدينى فى اليوم الواحد .

وتتركز عيوب آلات القص هذه فى أن اللولب مخروطى الشكل بدلا من ان يكون له شكل الاسطوانة الكاملة ، مما يؤدى لحدوث شىء من الخلل او مما يجعل الحجم الذى يقتطعه المجوب يتفـاوت بين قطع واخـرى ، وهناك عيب آخر هو ان المجوب ، بدلا من ان يدور وفق أصول وحسابات محكمة ، وبدلا من الا تكون له اية حركة غير الصعود والهبـوط ، يرتبط

---

(١٠) يطلق على من يقوم بالقص او التقطيع اسم دوغرمة ، من الكلمة التركية دوغريق او ظوغرامق ، ومعناها يقطع الى أجزاء صغيرة .

(*) المجوب اداة لانتزاع قطع المعادن او الجلد الخ (المترجم) .

باللولب ويدور معه ، وهو أمر يؤدى الى حدوث بعض الخلل او الاضطراب فى حركته ، وهناك عيب أخير هو أن قطر المنظار اكبر مما يلزم بالنسبة لقطر المجوب مما ينتج عنه فى معظم الاحيان ان تنطمس القطعة المعدنية او تحدث بها نتوءات حيث هى بالغة الرقة ، مقعرة من ناحية المجوب ومحدبة من ناحية المنظار .

وتدعك القطع التى تم اقتطاعها فى بعض من النخالة ليتم تخليصها من باحدى حافتيها ومنتهيا بالحافة الاخرى ، وهو يتفادى ان يقطع او يقص من الاجزاء بالغة الرقة لاكثر ما ينبغى او الاجزاء المزقة ، اما الجذاذات التى تتبقى فتبلغ اكثر من ثلثى الصفيحة ، وتعود هذه الى الصهر (اى تصهر من جديد لتعاود هذه الدورة) .

وتلك القطع التى تم اقتطاعها فى بعض من النخالة ليتم تخليصها من الزيت الذى علق بها من آلة القص ، كذلك تستبعد منها القطع المعيبة او غير التامة بشكل يسترعى الانتباه .

وبعد أن تنظف القطع المعدنية على هذا النحو ، وتنتقى وتوزن ، تسلم الى « الجلائين » .

ثامنا : مشغل التبييض أو الجلوة (١١)

فى البداية تغلى القطع المعدنية او الاقراص المعدنية داخل غلاية من النحاس تحتوى على بعض من الدردى والشبة والملح البحرى ، مع مراعاة تقليبها وتحريكها ، وهذه العملية الأولية تذيب الزيت وتنتزع المواد الدهنية أو الكربونية وكذلك جزءا من الاوكسيد الموجود على السطح ، وعندئذ تأخذ القطعة لونا يميل الى الاحمرار شبيه بلون البرونز .

ولم تكن هذه العملية الاولية بكافية لجلو قطع الدينى ، فكان يلقى بها فيما يشبه الحوض او المزود على هيئة دن متين من الخشب او صنعت من جذع جميز ، ثم يضاف اليها الشبة والملح البحرى والدردى وكذلك بعض

(١١) يسمى من يقوم بعملية الجلوة او التبييض بالعربية جلاء (بشدة على اللام) ، والجمع جلايين .

الرمال ، ثم يجلس عاملان متينا البنيان على كل طرف من طرفى الحوض الخشبى ، يقلبون ويمسحون ويدعكون القطع النقدية ، ويستطيعون بذلك ان يعطوها مظهرا معدنيا شبيها بمظهر نقودنا البرونزية ولما تزل بعد جديدة .

وقد سبق أن ذكرنا بأنه ينتج عن عدم كفاية (أو تطور) آلات القص ان يكون احد وجهى قطع المدينى مقعرا ، وهو الوجه الذى يجلى اكثر من الوجه الآخر ، وذلك لتعرضه لقدر اكبر من الدعك .

وبعد ذلك تغسل القطع المعدنية الصغيرة عدة غسلات ، وتجفف وتمسح بدعكها بالنخالة فوق غربال ، وفى النهاية تفرز أو تنحى القطع المهشمة او تلك التى لم يكن قد تم جلوها بشكل كاف .

ومن السهل لنا ان نستنتج كم ستكون الفضالات او الجذاذات كثيرة بقدر هائل فى مثل هذه العملية ، وبرغم ان الجزء الذى تأكسد والذى نزيله المذيبات او المحللات يكاد يكون كله من النحاس ، فلابد أن الدعك وحده مع ذلك يزيل هو ايضا نسبة من الفضة ، وكان يلقى بمياه الغسول ، ويستخلص قدر بالغ الضآلة من المعدن والرواسب الاخرى ، أما فاقد الوزن المسموح به فى هذه العملية فيبلغ ١٠٠٠/٥٥ .

وقد كانت لدينا رغبة فى تطوير وتحسين اساليب الجلو ، ولابد أن تأثير الملح والدردى ، بعد الوصول بهما الى درجة الغليان ، يكون كافيا بلا جدال ، ومع ذلك فلم يكن هناك بد فى هذه الحالة من العثور على وسيلة بسيطة وسهلة لتحريك القطع النقدية بصفة دائمة داخل الغلاية ، ومن تعريض كل من وجهى العملة فى الوقت نفسه لفعل المذيب ، فى حين كان المعتاد ، برغم العناية التى تبذل فى تقليب هذه القطع فى الغلاية بواسطة مسوط او ملعقة ، أن تتلاصق وأن تتلاحم غالبية القطع ببعضها البعض ، بحيث يظل واحد من الوجهين او جزء من كليهما يحتفظ بمظهر اسود او على الاقل بمظهر نحاسى .

ولسوء الحظ فقد خاب مسعانا فى كل مشروعاتنا التطوير بسبب استحالة تشغيل العمال الفرنسيين لمدة طويلة ، فقد كان عدد هؤلاء بالغ الضآلة ، كما كانوا يستخدمون فضلا عن ذلك فى حشد من الأعمال التى

كان على عبقرية المسيو كونتيه Conté الخلاقة ان تعيد خلق كل شيء فيهـــا بدءا من ابسط اداة حتى اعقد آلة بعد ان كان كل ما كنا قد جلبناه من فرنسا من هـــذا النوع قد سلب أو تحطم اثناء فتنة القاهرة ، وكانت نمطية وجمود العمال من اهل البلاد عقبة اخرى ، بل لعلهـــا كانت اكثر العقبات استعصاء على التذليل .

وبتفحص ما كان يتم فى عملية الجلو او التبييض ، فان لدينا ما يدعونا لتاكيد ان نسبة الحمض الطليقة التى يمكن ان يحويها الدردى والشـــبة ، تنزع وتذيب بسبب تأثيرها على سطح القطع المعدنية ، كمية كافية من النحاس المؤكسد ، كى تعطيها هـــذا المظهر من البياض الكامد (اى غير اللامع) الذى يكون للفضة بالغة النقاء بعد مرورها بحمض الكبريتيك ، وقد ادى هـــذا المظهر الذى ياخذه البرونز ، وان كان ينمحى عن طريق الدعك ، الى ظهور الخطا الشائع الذى يزعم بان هـــذه القطع النقـــدية مصنوعة من النحاس المغشى بالفضـــة ، فيقول ســـافارى Savary فى رسائله عن مصر ان قطعة المدينى هى عملة نقدية صغيرة من النحاس المغشى بالفضة تساوى ستة لياردات * .

تاسعا : مشغل السك

تسلم الاقراص المعدنية الصغيرة او الـــ Flaon التى تم اعدادها بالطريقة التى انتهينا من بيانها ، بالوزن ، الى شيخ مشغل السك .

وتتكون ادوات السك او الرقاصات ، شانها شان ادوات القص ، ولكن باحجام اكبر كثيرا ، من لولب متحرك داخل صندوق او حلزونة من النحاس .

وثبتت فى الطرف الادنى من اللولب ، وبشكل ملائم ، سكة فولاذية تغوص بسهولة داخل تجويف اعد فى قمة اللولب ، وعند الطرف الآخـــر

---

(١٢) Lettres sur L'gypte ، رسالة ٥ اكتوبر ١٧٧٧ .

(*) الليار Liard هو نقد نحاس قديم بالغ الضآلة ، كان يساوى ١/٤ سو ، اما السو Sou فهو قطعة ذات ٥ سنتات (١/٢٠ من الفرنك) اى ان الليار يساوى سنتيما وربع السنتيم (المترجم) .

وضع رقاص مزود براسين من الرصاص ، وتثبت السكة السفلية داخـل مربع من الحديد وبواسطة اركان حديدية ، ويكلف واحد من العمال ، وهو شاب فى العادة ، بأن يضع القطع على السكة السفلية ، فيأخذ من هذه القطع حفنة بيده اليمنى ، ويسربها من بين سبابته وابهامه فوق السكة ، ويفصلها بواسطة ابهام يده اليسرى ، فى حين يكون هناك عامل آخر ، يحرص الرقاص باحـدى يديه ، وهو يرقب القطـع التى وضـعت فى اسـفل .

اما العمال فهم مدربون للغاية على هـذا العمل حتى ان الشخص الذى يقوم بوضع القطع لا ينظر قط فى معظم الاحيان الى السكة العلوية، وحتى ان الشخص الذى يحرك الرقاص ينهمك فى حركته الرتيبة والمنتظمة، واثقا من نفسه ، دون أن يثبت عينيه على القطعـة التى توضـع تحت السكة ، ويكاد لم يحدث قط ان قطعة ما قد ضربت مرتين او ان الشخص الذى يقوم بوضعها قد انحشرت أصابعه بين السكتين .

وتعانى الرقاصات من العيوب نفسها التى لاحظناها فى آلات القص، اى ان اللولب هنـا مخروطى الشكل على نحـو طفيف بدلا من ان يكون اسطوانيا كاملا ، وان السكة تدور مع اللولب بدلا من أن تصعد وتهبط فى سرعات منتظمة ، وينتج عن ذلك ان السكة العلوية تهتز ولا تتطابق قط بشكل صارم مع السكة الاخرى ، بحيث انه يندر ان يتوافق النقشان كما يندر أن يكونا ، كما هو الحال فى نقودنا الفرنسية ، فى الوضع نفسـه فى كل منهما بالنسبة للآخر ، اما حركة الفتل او اللف اى الحركة الدائرية التى تتأثر بها القطعة فى اللحظة التى تنضغط فيها بين السكتين فتؤدى الى محو او امالة النقوش . ويكون عمق خط الحفر فى كلا السكتين ، وهو كبير لحـد يزيد عن المطلوب ، بالاضافة الى قلة سمك الصفيحة او الورقة المعدنية سببا فى ان تقوم الأجزاء الناتئة فى احد الوجهين بدفع المعـدن فى الأجزاء المجوفة من الوجه الآخـر ، فتبدو نقوشها وكأنها ممحـوة او متقطعة او متآكلة بشكل جزئى .

عاشرا : مشغل الصرافين

أو مرحلة عد ووزن قطع المدينى

يكون على شيخ مشغل سك النقود الوزن نفسه والذى تسلمه فى شكل اقراص معدنية ، على هيئة قطع مدينى مدموغة (اى مسكوكة) ، حيث يستحيل أن تتبقى لديه اية فضالات (اى ليس له نسبة من وزن تالف) فى اثناء هـــذه المعالجة اليدوية .

وتسلم قطع المدينى ، بعد أن توزن على هـــذا النحو الى العــداد او الصراف (١٣) .

ويخلط شيخ الصرافين بعناية قطع المدينى التى ضربت ، ثم ياخـــذ منهـــا ، كيفما اتفق ، كمية معينة ثم يعد منها بضعة الوف ، ويزنها .

فاذا تبين أن كل الالوف تزن وزنا اكبر مما هو محدد لهـــا (اى للألف منهـــا) ، أو اذا جاء وزنها اقل مما كان ينبغى ، بشكل محسوس ، يطلب الرقاق ان يجعل الصفائح اكثر رقة او اكثر سمكا بنحـــو طفيف (حسب الاحوال) ، ثم ينتظر انتـــاج (الطرحـــة) الثانية ليتم خلط نتاجهـــا مع الطرحة الأولى .

فاذا اعطى هـــذا الخليط نحـــو ٧٣ درهمـــا بالتقريب (اى نحـــو ٢٢٥ جراما) عن كل الف مدينى يبدأ العدادون فى العد .

وقبل ذلك يكون شيخ هؤلاء قد اعد اقماعا ورقية ، يصنع الواحـــد منها من نصف فرخ من ورق رصاصى اللون ، حسب بحساب وزنه منـــذ البداية ليؤخذ فى الاعتبار عندما توزن كل حفنة من هـــذه العملات ، ويعد الصرافون او العدادون قطع المدينى فوق لوحات صغيرة ، مزودة بحواف وتنتهى بمجرى للتفريغ . ويحرص هؤلاء على استبعاد القطـــع المعيبة ،

---

(١٣) من المفهوم أن الصراف هو الشخص الذى يغـــير ويراجع او يراقب النقود : اما العداد فهو مانقول نحن عنه بلغتنا Compteur
(والترجمة فى هذا الهامش تمت بتصرف اقتضاه النقل الى العربية) .

ثم يسلمون القطع بعد عدها على هذا النحو بواقع ٥٠٠ قطعة (فى الدفعة) ، فاذا لم يتجاوز وزنها ٣٦ ١/٢ درهما فانه يجمع كل اثنين من انصاف الألوف هـذه ليضعها فى قمع واحـد ، يقفله ، ويدون فوقه اسم العداد .

فاذا كانت بعض انصاف الالوف هـذه اكبر ((وزنا)) مما ينبغى بنحو طفيف ، وكانت الأنصاف الأخرى اقل (وزنا) مما ينبغى بنحو طفيف ، يقوم شيخ العدادين بخلط ٥٠٠ قطعة من النوع الأول بخمسمائة قطعة مدينى اخرى من النوع الثانى ، ويتوصل عن طريق هذه الاحتياطات او التوازنات الى تشكيل الوف من المدينى تتساوى فيما بينها فى الوزن مع اختـلافات طفيفة للغاية .

وعند نهاية اليوم تعد الاقماع ، وتوزن معا ، ويخصم من هـذا الوزن الاجمالى فرق وزن الورق لتتم معرفة ما ان كان العدادون قد ردوا بشكل دقيق الوزن نفسه الذى كان قد اعطى لهم .

وتطرح الاقمـاع ذات الألف مدينى ، وهى على هـذه الحـال ، للتـداول .

فاذا كان الشخص الذى يعطى واحدا منها من هـذه الأقماع سدادا لثمن شىء او وفاء لدين ما معروفا ، وكان اسم الصراف او العداد مدونا فوق القمع فان متلقيه لا يعـده ولا يزنه ، وان كان فى بعض الأحيـان يكتفى بوزنه .

وفيما مضى ، كانت تختار من بين قطع المدينى المعيبة ، التى يستبعدها العدادون ، تلك القطع التى تكون اقلها عيوبا ، مهما تكن اقل من الوزن المقرر بشكل ملحوظ ، او مهلهلة ، او مجلوة بشكل ردىء ، او حتى مقعرة ، شريطة ان تظهر عليها بعض من النقوش ، كى تستخدم فى سداد اجور العمال ، وقـد اعترضنا ، من جانبنا على هـذه السوءة التى تؤدى فى النهـاية الى ان تطـرح فى التـداول كميـة لا باس بهـا من نقود معيبة او بالغة الرداءة .

الفصل الثانى

صنع القطع ذوات الأربعين والعشرين مدينى

أولا : المزاج والصهر

تتم كل الخطوات التى تتصل بعملية مزج وصهر خامات القطع ذوات الأربعين والعشرين مدينى ، بنفس الأسلوب الذى تحدثنا عنـــه بخصوص هاتين العمليتين عند صنع قطع المدينى ، والفرق الوحيد هو ان الفضة هنا تصب على هيئة صفائح بدلا من ان تصب فى شكل سبائك .

وعندنا فى فرنسا ، لكى تصب الفضة أو الذهب على هيئة صفائح ، تستخدم قوالب هى عبارة عن ملقط او كلابة قوية ومتينة ، يزيد طولها عن المترين ، وتتكىء الى حمالة أو مسند من الحديد ، يقترب منهـــا طـــرف الرافعتين (ذراعى الملقط) وينضغط ، لكى يطبق الفكان باحكام كل منهما على الآخر بواسطة قوس معقوف من حديد قاطع مزود برافعة . اما الفكان فهما كتلتان مستطيلتان من الحديد الزهر ، حفر فى السطح الداخلى لواحدة منها اخدود ينبغى أن يستخدم قالبا لصفيحة الفضة التى تصب فيه ، وهذه الالات التى يصعب تنفيذها (فى مصر) ، والتى تتطلب الكثير من الدقة والمهارة ، يبلغ ثمن الواحدة منها ٥٠٠ فرنك .

ومع ذلك فان الوسيلة المتبعة فى مصر كانت بسيطة للغاية واقتصادية فى الوقت نفسه .

فقد كان لدى السباك صندوق او صناديق كثيرة ، مستطيلة ، تمتلىء برمل خاص يستخدم فى عملية القولبة (اى صب الفضـــة المصهورة فى قوالب) .

---

(١) هذه الأداة قريبة الشبه بسيف مستقيم .

ولكى يقوم العامل بتشكيل القوالب المخصصة لكى تصب فيها الصفائح ، يستخدم مسطرة من الحديد ، مزودة بمقبض من الخشب ، يغرسها لهذا الغرض فى الرمل ، ثم يخرجها منه بحذر .

وعندما يميل بوتقته ، فانه يصب المعدن مصهورا فى الفراغات التى أعدها على هذا النحو ، والتى تبعد عن بعضها البعض بمسافات محددة، ويسعى جاهدا للحيلولة دون ان يتشكل فى الجزء العلوى قمما يكون عليه أن يكسرها أو يصهرها مرة اخرى .

ويبلغ طول كل صفيحة نحو ٤٥ سم ، بعرض قدره ٤ سم للقطع ذوات الاربعين مدينى ، أما عرضها بخصوص القطع ذوات العشرين مدينى فيبلغ ٢ر٣ سم فقط .

وحيث كانت الصفائح تتأكسد بعض الشىء عند سطحها بفعل ملامستها للرمال وامتصاصها جزءا من الرطوبة التى كانت هذه الرمال مشبعة بها، وحيث كان من المحتمل أن يكون قليل من الرمل قد التحم بسطح المعدن ، وهو أمر سوف يؤدى فجأة الى اعطاب او اتلاف آلات التصفيح ، فقد كان يتم غسل الصفائح فى مياه حمضية ، ثم تجفف بعد ذلك بعناية .

ثانيا : آلات التصفيح

(عملية تحويل القوالب الى صفائح)

كانت أسطوانتا ، او لفافتا هذه الآلات ، وهى مكسوة بالصلب ، مثبتة داخل اطار من النحاس أو البرونز (٢) ، يتحكم فى حركتها . أما الجزء العلوى من المخدات أو الوسادات ، وهو ايضا من النحاس ، فكان

---

(٢) كنا قد انجزنا على يد العمال من اهل البلاد ، وهم عارون من اية تجربة ، الآلات المختلفة لصنع القطع ذوات الاربعين والعشرين مدينى، وقد صهرت — بعد ذلك — اجسام الرقاص الكبير وآلة التصفيح وآلات القص او القطع لصنع قنابل من البرونز ، وسلمناها الى المدفعية ؛

متحركا ، لكى يصبح بالامكان ان نقرب الاسطوانتين قليلا او كثيرا عن طريق ركائز ومكبس الضغط .

وكان محور الاسطوانة العلوى مزودا بمطحنة تدور بها عجلة كبيرة مسننة ، بشكل افقى .

وتتحرك هـذه العجلة بفعل رافعة تمر فى محورها الراسى ، مثبتة فى مدارها ، ومتجاوزة قطر العجلة بقـدر كاف كى تستطيع الثيران ان تدور خارج الاسطوانتين .

وبتمرير كل الصـفائح (اى القوالب التى ستتحول الى صـفائح او رقائق) بين الاسطوانتين لثلاث مرات او اربع على الاكثر ، مع التقريب بين الاسطوانتين على التتابع عددا مماثلا من المرات ، تتقلص الصـفائح الى السمك المطلوب ، وهو ما يتم التأكد منه بتمريرها فى شق او مزلق تم احداثه فى قاعدة من الصلب تسمى المعيار او القالب * ، وحيث كانت الصفائح قد سكبت بشكل قريب فى سمكه من ذلك السمك الذى ينبغى ان تكون عليـه القطع النقدية ، فلم يكن هناك ما يدعو لاعادة تحميتها ، كما يحدث فى فرنسا ، بعـد تمريرها بآلة التصـفيح الخاصـة بالتشذيب او الترقيق .

ثالثا : آلة القص او القطع

لم يكن عرض الصفيحة ليتسـع الا لقص او قطـع قطعـة نقدية واحـدة .

وقد بنيت آلات القطع على نحو تقريبى بنفس الشكل الذى لآلات قص او قطع المدينى فيما عدا ان هذه اقوى ، وفيما عـدا ان الرافعـة او الرقاص كان له راسان مزودان بالرصاص .

---

* الكلمة الفرنسية المستخدمة هى calubre وهى كلمة من اصل عربى وتعنى القالب . (المترجم) .

رابعا : عملية الضبط *

كانت قطـــع العملات توزن واحدة واحدة ، وحيث كان (المعنيون) حريصين على ابقاء هذه القطع بصفة عامة فى وزن أعلى من المطلوب بنحو طفيف ، فقد كانوا يضبطون وزن القطعة اذا ما تجاوزت اربعة دراهم ، بالنسبة للقطع ذوات الأربعين مدينى ، وذلك عن طريق بردها قليلا على سطحها او حول حافتها ، اذا ما كانت آلة القطع قد تركت هنـــاك بعض النتوءات . ولم تكن تعاد عملية تحمية القطع كما يحدث فى فرنسا ، فى بعض من دور سك النقود قبل عملية الضبط هـــذه (٣) برغم ان الخـــامة كانت ولابد اقل لدانة او قابلية للسحب من تلك التى نستخدمها فى صنع عملاتنا . وهكذا نراهم (فى مصر) يتفادون او يوفرون عمليـــة معاودة التحمية اصلا ، وكذلك عملية التحمية عند برد النتوءات ، مما كان يوفر النفقة والوقت اللازمين لعملية صنع النقود .

خامسا : عملية الجلوة او التبييض

لجلو او تبييض قطع العملات هـــذه ، كان المعنيون يقومون بغليها ، كما يحدث بالنسبة لقطع المدينى ، فى محلول من الدردى والشبة والملح البحرى ، وبعد ذلك يقومون بتحميتها فى الفرن ، ثم يقذف عليها بمسحوقى ملح البارود وملح النوشادر ، ثم تغسل وتجفف بدعكها بعناية ، وبذلك

---

* ajnstage ويسمى العامل ajusteur ، ويسمى بلغة أهل الصنعة المعاير، كان المعنى المقصود هنا هو عملية ضبط الوزن وهذا ما رأيت استخدامه هنا لكى لا يختلط المعنى بعملية قياس العيار .

(٣) لم تكن تحدث على الدوام عملية تحمية للقطع النقدية قبل ضبطها فى مختلف دور سك النقود فى فرنسا ، وان كانت هذه العملية ظلت تمارس باستمرار (فيما مضى) فى دار سك النقود فى لاروشيل ، وقـــد اقنعتنا التجربة ان بالامكان استبعادها دون حدوث اية اضرار .

يأخذ السطح مظهرا فضيا ، كما سبق أن قلنا عند حديثنا عن عملية الجلوة التى تمر بها قطع المدينى .

سادسا : عملية السك أو النقش

تسك هذه العملات بواسطة رقاصن قوى ، بنى على نفس الأسس التى نهضت عليها الرقاصات أو الروافع التى تستخدم فى صنع الذهب او قطع المدينى .

الفصل الثالث

صنع العملات الذهبية

أولا : عملية الصهر

كان الذهب الذى يتم توفيره عن طريق اليهود ، يسلم كقاعدة الى دار سك النقود محولا الى سبائك بالعيار المقرر لصنع العملات الذهبية ، اما الأفراد ، فلم يكونوا ليوفروا قدلا قداما من الذهب تستخدم فى التبادل ، وكان اليهود يشترون لحسابهم تراب الذهب الذى كانت تجلبه القوافل . وهكذا لم تكن تتم عملية صهر النقود عادة فى الضربخانة ، وكان الشخص الذى يوكل بذلك فى العادة هو معير الذهب (المعيارجى) الذى كان يصهره باستخدام منفاخ ، كور ذى تنارين داخل بوتقات من الرصاص ، ويحتفظ لنفسه (مقابل ذلك) بكمية صغيرة منه (٤) .

وكان تراب الذهب يحتوى فى العادة على بعض الاجسام الغريبة ، ويحتاج لان يصهر بعناية شديدة ، مرتين على الأقل ، وان ينقى من الشوائب لكى تصنع منه سبائك متجانسة المعدن لدنة مرنة قابلة الطرق والسحب . ويتطلب تراب الذهب كى يتم صهره بالاضافة الى كمية من البورق (البوركس او بورات الصودا) ، درجة حرارة عالية للغاية ، اعلى بكثير مما يتطلبه الذهب الذى تمت من قبل تنقيته ، وترتفع نسبة التالف أو الفاقد من المواد المتبخرة او التى تتحد بالبورق لتتحول الى رواسب" الى ٢٨/١٠٠٠ ، ولكن عندما يعاد صهره مع المزاج (بالاضافة الى المعدن الذى يمزج به) فان تالف الوزن لا يتجاوز فى هذه الحالة ٤/١٠٠٠ .

---

(٤) كانت نسبة الفقد أو التلف المسموح بها عند صهر الذهب تصل الى ٢/١٠٠٠ .

وقد اعطت تجارب تعيير عديدة أجريت فى دار سك النقود بباريس، تمت على يد السيدين شيفيو . Chévillot وشوديه Chaudet المعيرين ، وفى حضور السيدين دارسيه Darcé المفتش وبريان Bréant المراجع ، اعطت العيارات الآتية عن قطعة عملة ذهبيـــة

واحدة من اصدار القاهرة : ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ وعن قطعة اخرى ٩٣٩ ، ٩٤١ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ولا يمكن أن نرجع هـــذه الاختلافات التى لا تقدمها فى معظم الأحيان ، عمليات فحص او تعيير تجرى على قطعة نقد واحدة ، الا الى عملية الصهر غير الدقيقة أو المعيبة لتراب الذهب الذى كان قد استخدم فى صنع قطع النقود القديمة التى يتصل الأمر هنا بها .

ثانيا : عملية المزج

كان كل الذهب المشغول او الذى يحول الى نقود يمزج بالفضة ، وتكسبه عملية المزج هـــذه لونا شاحبا ، اصفر شفافا ، يضرب الى خضرة خفيفة ، ويقترب من مظهر النحاس الأصفر ، او النحاس الممزوج بالزنك .

مثل هـــذا الاسلوب (فى المزج) ظل متبعا فى فرنســـا حتى فترة لا تزيد على قرن ، ولا تزال الجنيهات فى انجلترا تمزج بالفضة .

ومع ذلك ، فقد حبذت اوربا ان تمزج الذهب بالنحاس لانه ارخص ثمنا ، ولأن المزيج الناتج عنهما معا يكون اكثر صلابة ، واكثر قابلية لان يعطى سطحا اكثر استواء واكثر بريقا ولمعانا ، فاللون الاحمر الذى يعطيه النحاس للذهب اكثر نضارة واكثر جذبا للعين عن هـــذا اللون الشاحب ، المـــائل للخضرة الذى تضفيه عليه الفضة ، ومع ذلك ، فتلك على الاقل هى قوة العادة التى تجعل اهل البلاد لا يظنون ان لويساتنا هى عمـــلات ذهبية ، او انها جيـــدة المـــزج ، بسبب من لونهـــا الأحمـــر ، وهو امر كان يكسبها نوعا من عدم الثقة (فى نظرهم) .

وفى كل بلدان الشرق ، حيث تستخدم الفضة فى عملية المزج ،نراهم يجدون فى البحث ، بأســـاليب مختلفـــة ، لاكساب المعـــدن بريقا اكبر ، واصفرارا اشد واقرب الى اللون الاحمر ، هو من خواص الذهب الخالص، وسنتناول هذه الأساليب عند حديثنا عن عملية الصقل او الجلوة .

ثالثا : عملية التعيير (قياس العيـــار)

لكى يتم التأكد مما اذا كانت السبيكة الموردة الى دار ســك النقود من العيار المطلوب ، وهو عيار ٢٢/٢٤ ١٦ (٦٩٨ من الالف) كان يؤخذ من طرفيها ووسطها(٥) درهما ونصف الدرهم (٦١٨/١٠٠٠ ٤ دراهم) من الذهب، اى مايعادل الوزن الذى يسمى : مثقال (٦) .

بعد ذلك يضاف اربعةدراهم (٣١٦/١٠٠٠ ١٢ جراما) من فضةالقروش الأسبانية فى شكل كرتين ، يبلغ عيارها من ٩٠٦ الى ٩١٠ (من الف) .

وهذه العملية ، هى تلك التى نشير اليها فى فرنسا باسم inquartation لأن الذهب يشكل هنا الربع من السبيكة : لكنهم فى مصر ، لا يحرصون، كما هو الحال فى فرنسا ، على تمرير هــذا المزيج اولا فى البوتقـــة او المصهرة ، وصهره مع الرصاص بالطريقة نفسها التى تتبع عنــد قيـــاس عيار الفضة ، وهذه عملية تجهيزية تهدف الى فصل الذهب والفضـــة عن المعادن الأخرى التى قد تكون ممتزجة بها .

وبعد ان يزن المعير ، باكبر قدر ممكن من الدقة ، كلا من الذهب ، المطلوب تعييره ، والفضة منفصلين ، ثم يزنهما معا بعد ذلك ، يضعهما فى قاع بوتقة صغيرة من الفخار يدخلها فى فرن كور دائرى الشـــكل تؤجج نيرانه بواسطة منفاخ (٧) ، ويستخدم المعير مســـحوق البورق أو بورات

---

(٥) كانوا يكتفون قبل مجيئنا بأن ياخذوا كيفما اتفق قليلا من الذهب من احد طرفى السبيكة مما قد يؤدى الى الحصول على نتائج خاطئة ، اذ يحتمل أن يكون بالسبيكة نفسها اختلافات فى العيار اذا لم تكن الخامة قدصهرت بشكل جيد او سبكت كذلك على نحو جيد .

(٦) انظر دراستنا عن الأوزان العربية (الـكتاب الأول من هــذا المجــلد) .

(٧) المنفاخ المستخدم هنا هو نوع من المنافيخ المسماه المنفــاخ ذو القربة ، ولـكنه بدلا من أن يوضع بشكل افقى ، يوضع رأسيا ، وله ولكن بحجم اصغر ، الشكل نفسه الذى لقرانيسنا المصنوعة من ورق متغضن .

الصودا كمدر ، ويعنى بتقليب الذهب والفضة بقضيب صغير من الحديد حتى يأتى المزج بالغ الدقة (٨) .

وعندما يصبح المزيج فى حالة انصهار تام ، يصبه المعير من ارتفاع معين فى كبسولة من النحاس مليئة بالمياه ، مما يؤدى الى تفتت المزيج ، وتحوله الى حبيبات معدنية .

وبعدئذ يصفى الماء وتجفف الكبسولة ، وتجمع كل الحبيبات بدقة ، ثم تسطح أو ترقق فوق ركامة من الصلب تلك القطع (من المزيج) التى بقيت فى حجم كبير ، وتقسم بواسطة مقص (من النوع الذى يستخدمه الصاغة) .

وبعد ذلك يوضع الذهب بعد ان يقص على هذا النحو فى مطرية(*) ويصب عليه فيها نحو مائتى جرام من حمض النيتريك .

وهذه المطرية التى يستخدمها المعير مصنوعة من زجاج ابيض ،ولها شكل كرة صغيرة ، ذات رقبة طويلة ، وترد فيها خمور قبرص (٩) .

ويضع المعير مطريته فوق فحم مشتعل فى برمة أو برنية صغيرة(**) ويؤجج النار بواسطة مروحة من الريش (١٠) ، ويواصل عملية الغلى حتى

---

(٨) اذ كان من الممكن ان تلتحم بعض شذرات الذهب بالقضيب الحديدى كنا نأمر بامساك البوتقة بملقط مسطح ، لتتم عملية المزج هذه بحرص تام .

(*) اناء زجاجى طويل العنق ، والجمع مطرات ، من العربية مطرة بمعنى قربة (المترجم) .

(٩) كى لا تنكسر هذه الزجاجات اثناء عملية النقل ، وهى فى حد ذاتها هشة ، يحيطونها بجدائل من سعف النخيل او الطحلب البحرى .

(**) اناء خزفى يستخدم فى طهو اللحوم .

(١٠) لا يعرف القوم فى مصر قط استخدام المنافيخ اليدوية ، وبدلا من هذه الأداة المكلفة لا يستخدمون لتاجيج النار او لاشعال الفحم الا نوعا من المراوح المصنوعة من الريش او من سعف النخيل تسمى مقشة (والكلمة الاخيرة واردة فى الاصل بلفظها العربى) ، انظر اللوحة رقم ٩ من الفنون والحرف — الدولة الحديثة .

لاتظل هناك فقاعات حول الذهب وهو الأمر الذى يتـأكد منـه ، بدحجبه للمطرية لحظة وتركه السائل قليلا ليهدأ ويبرد .

ويبقى الذهب ، بعد ان يتم انفصاله عن الفضة ، التى تكون قـد ذابت كلية بفعل حمض النيتريك ، مترسبا فى قاع المطرية على شكلذرات ذات لون أرجوانى قاتم .ويصفى المعير حمض النيتريك بعد ان يهداويصبح رائقا للغاية ، ولكى يستخلص كل مافى المطرية من ذرات (ذهب) ، ولكى يغسل ذرات الذهب (المترسبة) جيدا ، يقلب المطرية فى طبق فنجان من البورسلين ملئ بالمياه الرائقة (١١) .

اما البخار الذى كان بالمطرية ، وهى لا تزال بعد ساخنة ، والذى كان قد حل فيها محل الهواء ، فيتكثف فجاة عند احتكاكه بالهواء البـارد، ليتشكل فراغ فى داخل الاناء ، يصعد فيه الماء قدر تكثف البخار ،ويفصل المعير ، بهزه المطرية ، التى تبقى على الدوام رقبتها مغمورة فى المـاء ، ذرات الذهب ، لتنزل بعد ذلك فى الطبق ، عند رفعه للمطرية .

بعد ذلك يترك المعير الماء ليهدأ ، ثم يصب منه ذلك الجزء الذىصار بالغ النقاء ، أما ذرات الذهب ، التى وصفناها بأنها ذات لون أرجوانى قاتم فهى قليلة التاثر بالاوكسيجين حتى انه بسحقها قليلا بمدقة من العقيق او اليشب فان الجزء الاكبر منها يستعيد بريقه من جديد ويتجمع فى شكل كتلة مستديرة ، تبدو سائلة مثل بثرة من الزئبق ، وان كان لها بريق ولون الذهب ، وهذه الكرية التى قد نظنها ذهبا مذابا ، ليست سـوى ذرات من الذهب ، سوف تتفتت دون ادنى التحام اذا تبخر الماء .

أما الماء الذى يبقى ، والذى يمكن ان تظل عالقـة به بعض ذرات الذهب ، فيصب مع ذرات الذهب فى بوتقة صـغيرة من الحجر الرملى، وينزل المعير من الطبق ، فى هذه البوتقة ، ذرات الذهب عن آخرها .

وبعد ذلك يضع بوتقته فى فرن شبيه بفرن الحداد ، وعندما يتبخر الماء وتجف البوتقـة ، يضـيف (الى البوتقـة) مسحوق البورق (أو البوراكس) الذى ينبغى استخدامه كمدر .

---

(١١) كذلك فانهم لا يعرفون فى مصر المياه المقطرة .

ويشكل الذهب المصهور فى هذا المدر الذى تحول الى سائل ، بقعة أو نقطة تبرد على الفور ، بمجرد ان تسحب البوتقـــة ، وقبل أن يتحول البوراكس عن حالة السيولة التى هو الان عليها .

ويصب المعير كل هذا فى الماء ، ليتحلل البوراكس ، ويحصـــل على زرار دائرى ، نقى وكامد عند سطحه ، خابيا بعض الشىء ، ولا يضم سوى الذهب الخالص .

ومهما تكن المهارة والعناية التى يمكن أن تتم بها هذه العملياتاليدوية المختلفة ، فانه يكاد يكون مستحيـــلا الا بزيل حمض النيتريك ، والمـــاء وبورات الصودا بعضا من جزيئات الذهب ، والا يلتحم بعض منها بالمدقة، وبالآنية المستخدمة ، وكذلك بالبوتقة ، وعلى هذا فان الطريقة التى انتهينا من وضعها لا يمكنها ان تكون على نفس الدرجة من الثقة والدقـــة اللتين تقدمهما الوسيلة التى نتبعها نحن فى فرنسا .

فبعد أن ننتهى نحن من اجراء عمليتى « التفضيض » (*) inquartation والتصفية نحول المزيج من الذهب او الفضة ، الى ورقة ضيقة ورقيقة ، عن طريق تمريره بآلة التصفيح ، ثم تطوى هذه الورقة لتلف حول نفسها بشكل لا تكون الطبيـــات معه متلاصقة ، وبحيث تترك مسافة كافيـــة بين هذه الطبقات .

وتقوم مياه النار المستخدمة فى هذه العملية ، بدرجـــة من التركيز اقل مما تكون عليه فى هذه العملية فى مصر ، باذابة الفضة دون ان تهدم تلاحم جزيئات الذهب التى تظل متجمعة فى شكل ورقـــة مطوية ، تجفف وتسخن بشدة داخل بوتقة . وعندئذ تتقاربجزيئات المعدن وتزول الاكسدة التى علقت بها ، وتحتفظ ورقة الذهب التى نسميها قمعا (او قرطاسا) بقوام متماسك ويمكنها أن تبسط دون أن تكون بحاجة لكى تصهر قبلذلك .

ولو اننا كنا نستخدم مياه نار شديدة التركيز ، لـــكانت قـــد فصلت جزيئات الذهب (بمعنى انها افقدت تماسكها) ولحولتها الى ذرات متاكسدة

(*) وهى عملية تتم بان يضاف الى الذهب والنحاس ثلاثة اضعاف وزن الذهب من الفضة قبل صهر هذا المزيج (المترجم) .

بنحو طفيف ، وفى هذه الحالة لن يتيسر لنا الحصول على قمع ، ونصبح بازاء عملية فاشلة أو يكون علينا ان نمر بمراحل اخـــرى كما هو الحـــال فى مصر .

ولم تسمح لنا استحالة صنع آلة تصفيح دقيقة للحد الكافى بان نحول المعدن الى شرائح او صفائح بالغة الرقة ان ننقل الذهب من مصر فى شكل اقماع وان كنا قد ادخلنا هناك طريقة ان نضيف كمية بعينهـــا من حمض النيتريك ، اشد تركيزا ع بعد ان نكون قد صفينا مياه النـــار التى حللت الفضة والنحاس الملتحمين (او المزوجين) بالذهب ، وذلك لتخليص الذهب من آخر ذرات المزاج او المعدن المضاف .

ويقوم معير (بضمة ثم بكسرة مشدودة على الياء) دار سك النقود بنفسه باعـــداد ماء النار الـــلازمة له ، وذلك بتقطير الشـــبة (سلفات الألمنيوم) والنيترات (نترات البوتاسيوم) .

أما حمض الســـلفور المتحد بأوكســـيد الالومنيوم — ذلك أن له مع البوتاس الفة اكبر مما له مع حمض النيتريك ، بتحليل نترات البوتاسيوم ، ليشكل ملحا محايدا مع البوتاس ، اما حمض النيتريك فيتصاعد ويتبخر .

وتتم عملية التقطير فى نوع من الجرار المصنوعة من الحجر الرملى او فى آنية من الفخار مخروطية الشكل ، تشبه على وجه التقريب تلك التى نسميها فى فرنسا خمسية quine والتى نثبت عليها قمة زجاجية لها رقبة وفتحة على شكل منقار . وتلتحم هذه القمة برقة جهاز التقطير بواســـطة طين صلصالى ، اما الفتحة التى هى على شكل منقار فتؤدى الى رقبـــة زجاجية او بالونة من الزجاج الأبيض ، مغمورة فى المـــاء .

وكان هذا المعير مسيحيا ارمنيا ، وهو الوحيد فى مصر الذى كان يستحوذ وحده ، منذ سنوات طوال على فن انتقل اليه عن طريق سلسلة متعاقبة من الأجيال فى عائلته ، وكان ، هو ، ينظر الى فنه هذا باعتباره علما عميقا وفنـــا عجيبا ، ولقد اعترته دهشة بالغة حين راى الشـــبان الفرنسيين الملتحقين بادارة النقود ، والذين لم يرثوا قط عن آبائهم هـــذا التراث من الأسرار الملغزة ، والذين لم يتخذوا من ذلك قط حرفـــة لهم ، يعرفون ، برغم كل هذا طريقة اعداد ماء النار وطريقة قياس عيار الذهب،

وقد تضاعفت دهشته حين اكدنا له أن مياه النار يمكن أن تعد بطرق اخرى عديدة غير تلك التى يعرفها ، وذلك على سبيل المثـــال بأن نقطر حمض الـــكبرينيك اما مع سلفات الحديد أو مع نترات البوتاسيوم ، وقد اجرينا تجارب على ذلك امام عينيه وان كان ، هو ، لم يصدق قط اننا قد توصلنا الى النتيجة نفسها التى يحصل عليها فى العادة ، ولم يقتنع بذلك الا عندما اجرى بنفسه تجربة مقارنة مع حمض النيتريك هذا ، نجحت بقدر ماتنجح طريقته .

ولقد ادخلنا على وسائله او اساليبه من التحسينات قــدر ما كان ممكنا لنـــا ، وذلك باستبعاد الوقود ، وبتلطيخ الانابيب بدقة ، وبتكثيف حمض النيتريك فجاة ، وقــد كان من قبل يترك جــزءا منه فيتطـــاير من تلقاء نفسـه .

رابعا : الحـــدادة أو الطرق

عندما تصبح السبيكة فى عيارها المحدد ، تسلم الى الحداد ، وهو نفسه الشخص الموكل بأشغال الحديد ، فيقوم بتسخين الســـبائك حتى تكتسب لونا احمر فى لون ثمار الكريز ، ثم يطرقها ليصنع منها قضـــبانا مستديرة ، يبلغ قطر الواحد منها نحو ثمانية ملليمترات ، يرقق عند قمة طرفيه ليصبح بالامكان تمريرها من جهاز السحب .

ويسمح فى هذه العملية بتالف او فاقد قدره ٢٥/١٠٠٠٠٠ اى ربع الواحد فى كل الف .

خامسا : عملية أو مشغل السحب

بعد ذلك يتم تمرير الذهب فى جهاز السحب ، وتتم هـــذه العملية فى المشغل نفسه الذى يتم فيه مد او سحب الفضة (١٢) عند صنع قطع المدينى، وكان يكفى ان تمرر اسياخ الذهب ثلاث مرات او اربعا باداة السحب حتى تكتسب على الدوام القطر نفسه (فى كل الاسياخ) ويبلغ نحو خمســـة او ستة ملليمترات .

---

(١٢) يسمى العامل الذى يقوم بسحب أو مد الذهب : مداد .

اما نسبة الفاقد والتالف المسموح بها فى هذا المشغل فتبلغ بدورها ربع الواحد فى الألف .

سادسا : عملية أو مشغل القطع أو القص

تجزا قضبان او اسياخ الذهب التى تخرج من عملية السحب وهى على شكل اسطوانات صغيرة يبلغ طول الواحدة منها نحو خمسة الى ستة ملليمترات ، على نحو التقريب (١٣) .

ويقوم عامل بتمرير القضـــيب الذهبى فى ثقب تم احداثه فى دعامة أو ركيزة من الصلب يدعم طرفهـــا بقطعـــة من الحـــديد تستخدم كمنظم او ضابط .

ويقوم عامل آخر ، يحمل ازميلا ، «قمرة سنه » بقطع القضيب الذهبى بالطرق بمطرقة فوق راس الازميل ، وقريبـــا بقـــدر الامكان من دعامة الصلب .

وفى هـــذا النوع من العمل ، يسمح بنسبة التالف نفسها التى يسمح بها فى العمليات او المراحل الأخرى .

سابعا : عملية التسطيح أو الترصيع

تتسطح او تترصع كل اسطوانة صغيرة من الذهب تحت رقاص قوى، سكته غير مدموغة .

وهناك عامل (١٤) يضع الأسطوانة الذهبية الصغيرة ، وهى واقفة ، فوق السكة الفولاذية الدنيا ، وهناك كذلك عاملان آخران ، يحدثان حركة سريعة فوق السكة العليا بواسطة رقاص قوى مزود براسين من الرصاص، فيتم ترصيع الأسطوانة بضربة واحدة .

---

(١٣) يسمى العامل الذى يقوم بقطع او تجزئة القضبان الذهبية الى اسطوانات بالقطاع (بشدة على الطاء) اى الشخص الذى يقوم بالقطع .

(١٤) يسمى العامل الذى يسطح او يرصع : الرصاع (بشـــدة على الصـــاد) .

وهذه الضغطة القوية والسريعة ، والتى ترفع درجة حرارة القطعة الذهبية التى لا يمكن انسان أن يضمها فى كف يده على الفور دون أن تحترق أصابعه ، تحدث فى بعض الأحيان تمزقا فى حواف القطعـــة ، وان كان لا ينظر الى هـــذا العيب او الخلل باعتباره دائما لرفض العملات التى تأثرت به ليستوجب الأمر بالتالى اعادة صهرها .

ويسمح فى هـــذه العملية بنسبة فاقد أو تالف قدرها ٧٥/١٠٠٠٠ اى ثلاثة أرباع الواحد فى كل الف .

ثامنا : عملية ضبط الوزن *

يزن العامل الموكل بضبط الوزن بعد ذلك كل القطع النقدية واحـــدة فواحدة ، ثم يدورها بواسطة مقراض أو مقص ، محاولا جهده أن يعطى لكل واحدة منها ، وبأكبر قدر من استطاعته ، الوزن الذى لابد ان يكون لها ، ثم بعد ذلك يسلمها الى شيخ العمال الموكل بعمل اطار الحافة .

وتقدر نسبة التالف والفاقد المسموح بها فى هذه العملية ٥/١٠٠٠ اى نصف الواحد فى الألف .

تاسعا : عمليـــة الترقيق

لا تكون القطع حتى هـــذه المرحلة ، وبعد أن تم ترصيعها وضبط وزنها ، مرققة أو مسطحة بالقدر الكافى ، وفضلا عن ذلك فانها لم تصبح بعد ، على الاطلاق ، لا جيدة الاستدارة ولا متناسقة السمك ولا موحـــدة القطر ، فتعطى ، وهى على هـــذه الحال ، الى العمال الذين يطرقونها ويرققونها (١٥) ، وذلك بطرقها فوق قاعدة من الصلب ، وبواسطة مطرقة صغيرة ضئيلة الراس .

---

* كلمة اهل الصنعة المستخدمة هنا هى التعيير ويسمى العامل هنا المعاير لكننى آثرت ترجمتها على هـــذا النحو لأنه أكثر مطابقـــة للمعنى المقصود من جهة ولكى لا يختلط المعنى على القارىء بمعنى قياس عيـــار الذهب . (المترجم) .

(١٥) يسمى العامل الذى يقوم بعملية الترقيق : منكيس .

وعن طريق هــذه العملية ، يتوصل العمال الى اكتساب العملات سمكا متناسقا ، والى جعلها أكثر رقة واستدارة بقدر الامكان . .

وتماثل نسبة التالف او الفاقد المسموح بها فى هــذه العملية تلك النسبة المسموح بها فى العملية السابقة .

عاشرا : صنع الاطار فوق الحافة

توضع قطعة العملة (أو بالاحرى قرص العملة لانها لم تضرب بعد) التى يراد وضع اطار حافتها بين لوحتين صغيرتين ومستديرتين من الصلب، لهما قطر اصغر على نحو طفيف (من قطر قرص العملة) بحيث تتجــاوز حافة هــذا القرص المعدنى والذى سيتلقى الدمغ فيما بعد حواف اللوحتين اللتين سينحصر وينضغط القرص بينهما .

وتزود كل واحدة من هاتين اللوحتين عند منتصف سطحها الخارجى، بقمة مدببة على هيئة محور او قطب ليدخل هذان المحوران ، كلاهما فى واحدة من ذراعى ملقط مزود بزنبرك .

وعندئذ يقوم العامل بدحرجة القطعة الذهبية ، على حافتها ، داخل حز او الحدود محفور فى الصلب ، وحيث أن احتكاك قطعتى الصلب لا يتم خارجيا الا عند نقطة تلامس القضيبين اللامعين او المصقولين على نحو جيد والمشحمين بالزيت جيدا مع طرفى (او ذراعى) الملقط ، فى حين أن الاحتكاك لا يحدث داخليا ، بكل اتساعهما وسطحهما المحزز على شكل مبرد فوق الوجهين الكامدين (غير اللامعين) لقطعة الذهب (قرص القطعة) ، فان هــذه القطعة الذهبية وكذلك لوحتى الصلب تدوران معا كما لو كانت هذه الاشياء تشكل كلا واحدا بين يدى الملقط ذى الزنبرك .

وبهذه الطريقة تصبح حافة القطعة الذهبية مسننة ومنقوشة على نحو خفيف .

---

(١٦) ويسمى العامل الذى يصنع أطر القطع الذهبية بالعربية زنجرلى او زنجيرلى ، وهى كلمة تركيــة انتقلت الى العربيــة الدارجــة ، وفى القسطنطينية يطلق هــذا الاسم على بعض القطع الذهبية .

أما نسبة التالف والفاقد المسموح بها هنا فهى النسبة نفسها المسموح بها فى العملية السابقة .

حادى عشر : عملية الجلاوة

لم يعد يتبقى الآن سوى القيام بجلو القطع الذهبية (أو الاقراص الذهبية) قبل الشروع فى سكها .

ولذلك ، فهى تغلى فى محلول الشبة (سلفات الألمنيوم) والدردى (حمض رواسب البوتاس) ، بغية انتزاع طبقة خفيفة من الاوكسبد والشحوم التى تلوث وجهيها .

وبعد هـذا توضع فى مجرفة من الحديد ، ويتم تسخينها فى داخل فرن حتى تحمر .

ثم يلقى فوق هذه القطع الملتهبة خليط من حمض النوشادر (موريات محلول النوشادر) (١٧) ، وملح البارود (نترات البوتاس) والكبريتات الزرقاء (سلفات النحاس) والملح البحرى (موريات الصودا) ، وتتكرر هـذه العملية مرتين ، ويتم تقليب القطع خلالهما وذلك بهزها وارجحتها داخل المجرفة الحديدية .

وعن طـريق تحلل الأمـلاح ، يتكون حمض هو خليط من النترات والموريات ، وربمـا قليل مع حمض الموريات المؤكسد ، ويقوم هذا الخليط بجلو سطح الذهب بشكل تام ، اذ يقوم باذابة الاكسـيد المترسب على السطح .

ويحتمل كذلك ان تؤدى بعض اكسدة خفيفة للذهب الى اكسابه لونا بالغ الحيوية واعطـائه صـفارا اكثر كثافة ، واكثر قربا من لون الذهب الخالص .

---

(١٧) يستخدم فى بعض الاحيان لاعادة البريق الى الذهب ، ملح زئبقى او مصعد (بشدة على الميم) يسمى بالعربية بالسليمانى .

وحين يتم اخضاع الذهب من عيار مرتفع لفعل هــذه الأملاح ، فإنها تكتسب فى معظم الأحيان بصيصا من لون احمر ارجوانى .

وترتفع نسبة الفاقد والتالف المسموح بها فى عملية الجــلوة الى ٣٥/١٠٠٠ اى ٣ ١/٢ فى كل الف ، وهى نسبة كبيرة لحد زائد .

ثانى عشر : الدمغ او السك

بعد ذلك يتم ضرب الاقراص الذهبية بفعل رقاص قوى لا يستخدم الا عند سك القطع الذهبية ، وتتمثل فيه العيوب نفسها التى تتمثل فى الرقاصات المستخدمة فى ضرب قطع المدينى .

ويقوم شيخ العمال ، بوضع القطع تحت السكة ، ويكفى عاملان قويان لادارة او تشغيل الرقاص .

الفصل الرابع

حفر السكات

يكاد يكون مجهولا فى الشرق ، فن الحفر على المعادن : اذ ان رسم وتجسيد الأشكال من الامور التى حرمها الدين ، وهناك ، يقتصر هذا الفن على نقش قطع المجوهرات وحفر أختام من المعدن أو من الأحجار شديدة الصلابة .

وهنا ، فى كل دار لسك النقود ، يوجد عامل موكل بحفر السكات بصفة خاصة ، ولعل من العسير ان نعثر فى مكان آخر (فى مصر) على شخص غيره يمكنه ان يقوم مقامه ، ويقرر المقريزى(١) ان عبد الله المأمون ، بعد ان جمع كل امبراطورية الخلفاء تحت طاعته ، لم يجد حرفيا واحدا ليقوم بحفر سكة تسك بها الدراهم ، وتم حفرها تبعا لذلك بواسطة العجيلة ، على النحو الذى يتم به حفر الأختام .

اما فى دار سك النقود بالقاهرة ، فكان احد ابناء الافندى (المشرف على ادارة النقود) هو الموكل بحفر السكات التى تستخدم فى صنع العملات المختلفة .

وتعد السكة ، او قطعة الفولاذ المخصصة لحمل الشكل الذى ستكون عليه قطع النقود ، على يد صانع الأقفال ، الذى يطلق عليه فى العربية اسم الساعاتى .

ويقوم الحفار بازالة سقاية هذه القطعة الفولاذية ثم يحفر عليها بواسطة مخصف او ازميل الحروف والزخارف التى تقرر استخدامها فى كل نوع من المسكوكات ثم يعيد سقايتها (*) بعد ذلك .

---

(١) ص ٣٣ من مقالته عن النقود الاسلامية ، ترجمة المسيو دى ساسى .

(*) تتم سقاية الحديد او الفولاذ عن طريق تبريدهما فجاة بعد ان نبلغ بهما درجة حرارة عالية بالقدر الكافى ، ويكتسب المعدن بهذه العملية قدرا كبيرا من الصلابة والمرونة فى وقت واحد . (المترجم) .

اما فى فرنسا ، فيقوم الحفار الملحق بدار سك النقود بباريس ، وفى بعض الاحيان يقوم بذلك اشهر الحفارين الذين يتم اختيارهم فى مسابقة، بتكوين وحفر النموذج او النمط الذى ينبغى استخدامه ، ليس فقط بالنسبة لدار سك النقود بباريس وحدها ، وانما كذلك لكل دور سك النقود بالملكة، وعندما يتم اختيار واعتماد الشكل الافضل فيمابعدو، تشكل السكات — القوالب التى تستخدم فى استنساخ اعداد لا حصر لها من النمط المختار باكبر قدر من الدقة والامعان .

لكن عكس ذلك هو مايحدث فى الشرق ، ففى كل مرة نستهلك او تتلف فيها سكة ما ، يقوم الحفار بصنع سكة اخرى ، ويتم ذلك عادة فوق القطعة الفولاذية نفسها (٢) وبرغم انه يتبع على وجه التقريب الشكل او النمط المتبنى فان لكل سكة خاصيتها التى تختلف فيها مع الاخريات ويتمثل ذلك شكل الحروف وعمليات التنقيط والزخارف الخ ، مما يجعل مهمة المزيفين بالغة اليسر ، ومما يؤدى الى استحالة تمييز قطع النقد الزائفة .

وكان من المعتاد كذلك الاحتفاظ ببعض من عهود مختلفة للاسترشاد بها فى صنع نماذج على اساسها ، ومع ذلك فحيث لايوجد اى تبصر او نظام او انتظام يحكم المؤسسات العامة عند الشرقيين عادة ، فانهم لم يفكروا هناك ، كما حدث فى فرنسا ، فى تكوين سلسلة غير مقطوعة من كل السكات التى حفرت فى كل عهد ، مع ان مثل هذه السلسلة امر بالغ الاهمية ليس فقط بالنسبة لتاريخ وتطور هذا الفن ، بل كذلك بالنسبة للتاريخ التاريخى للمملكة الفرنسية ، لكننا لم نجد فى دار سك النقود بالقاهرة الا عددا بالغ الضآلة من السكات القديمة ، فقد استخدمت الاخرى (أى التى اختفت) ، عن طريق اعادة طرقها فى صنع سكات جديدة .

(٢) هناك موروث دينى يحول دون تحطيم السكة التى تحمل شعارات اسلامية والا اصيب فاعله بحالة من اليأس والقنوط ، ولابد ان ينصرف الذهن هنا الى الدراهم والدنانير ، اما الغاية من هذا الموروث او التقليد او المبدأ فهى منع تحريف او صهر نقود الأمير الحاكم ، وقد جرمت القوانين واللوائح فى البلدان المختلفة هذه الفعلة او الجريمة وقررت لها عقوبات تتفاوت فى خطورتها .

وبرغم قلة مهارة الحفارين ، فان من السهل مع ذلك أن نميز كما سبق لنا القول بعض فترات كان تطور الكتابة فيها يدل على يد اكثر مهارة وتمرسا على تشغيل الازميل ، وعلى تقدم فى مجال الفنون ، وعلى عناية اكثر خصوصية فى صنع النقود .

وكانت السلطات شانها شان النقود مستديرة الشكل ، وقد كان لها هذا الشكل منذ وقت طويل ، ومع ذلك فان كثيرا من العملات القديمة، عند العرب ، كما عند شعوب اخرى فى اوربا ، تحمل ، مع كونها مستديرة سكة مربعة الشكل او بالاحرى تحمل مربعا فى سكتها ، يتشكل عن طريق خطوط او عن طريق تنسيق وضع الكلمات ، والى هذا الشكل الذى كان للانماط القديمة يعود اسم مربع الذى كان يطلق قديما على السكة ،والذى ظل يستخدم ،حتى فى ايامنا هذه ، فى التعبيرات الخاصة بفن النقود .

وعندما كان الحفار يضع نقطة فى مركز السكة ليرتكز عليها ببرجله، فقد كانت هذه النقطة ، التى لا يكلف نفسه عناء محوها ، تظل باقية فى معظم الاحيان فوق القطعة ، كما يمكننا ان نرى فوق كثير من العملات المحفورة (٣) وفى بعض الاحيان تواتى الحفار نفسه فكرة أن يصنع من هذه النقطة نوعا من زخرف ، اما بجعلها اكثر وضوحا واما بتحويلها الى زخرف وردى او نجمية صغيرة ، ولم نكن نحن لنشير الى هذه النقطة هنا ، لو لم يكن المقريزى قد اوردها كشىء هام او متميز .

اما فيما يختص بالانماط فاننا نحيل الى ماسبق لنا أن ذكرناه فى ص ١٠١ وما بعدها .

---

(٣) انظر اللوحات الملحقة بهذه الدراسة ، الأشكال ارقام ٢ ، ٣ ، ٧ ، ٢٣ .

القسم الثالث

الادارة

اولا : الرقابة والادارة

كانت رقابة وادارة دور سك النقود ، كأمر لابد منه ، محط انظار ومثار اهتمام الأمراء والحكام ، حتى ان هذه الادارة كانت تعتبر ، بخلاف اهميتها الطبيعية فرعا هاما على الدوام من فروع الموارد العامة .

وقد مارس الخلفاء الأوائل حتى هارون الرشيد ، بأشخاصهم ، مهمة التفتيش على صنع الدنانير والدراهم ، وان كان الرشيد قد ارتأى أن الواجب يقتضى منه ان يعهد بالمسكوكات النقدية الى جعفر البرمكى، وقد كان هذا الأمر واحدا من الأسباب التى اسهمت فى ظهور اسم هذه الشخصية الشهيرة فى سماء الشرق ، اذ لم يسبق لأحد من قبله ، حسب قول المقريزى ، ان تمتع بمثل هذه الميزة .

ومنذ ان دخل المسلمون مصر ، كان اميرها الحاكم يراقب النقود المضروبة بسكة الخلفاء .

وحين اصبحت مصر مقرا لأحد الخلفاء ، فقد مارس هذه الرقابة بنفسه ، او عهد بها الى وزيره او الى واحد من ضباطه .

وقد استولى السلاطين المماليك الأوائل ، منذ استحوذوا على حكم مصر ، على عملية صنع النقود ، وان احتفظوا فى بعض الأحيان ،بسكة الخليفة كبقية من ولاء .

وحدث الشيء نفسه فى عهد سلاطين القسطنطينية ، وحين احتفظ الباشوات بكل السلطة التى خلعها عليهم الباب العالى ، فقد كانت الرقابة على دار سك النقود تتم اما بواسطتهم مباشرة واما بواسطة واحد من ضباطهم او موظفيهم او بواسطة مندوب خاص يرسله الباب العالى ، ومع ذلك فحين استطاع البكوات المماليك ان ينتزعوا السلطة من الباشا، غير تاركين له الا بعض مظاهر شرفية لا فاعلية لها ، فقد كان على هذا الباشا ان يتخلى عادة الى البك شيخ البلد عن ادارة دار سك النقود

مقابل أتاوات ثابتة . وعندما افلت المماليك كلية من قبضة الباب العالى فقد استولوا بشكل تام على ادارة دار سك النقـــود وعلى الأرباح التى كانت تدرها .

وعندما دخل الفرنسيون القاهرة وكلت الينا اللجنـــة الادارية التى شكلها القائد العام بصفة انتقالية ، والتى كانت تتكون من السادة مونج Monge وبرتوليه Berthtollet عضوى المجمع الفـــرنسى وماجاللون Magalon القنصل العام مهمة التفتيش على ادارة سك النقود ، وتركت لنا سلطة تعيين معاون .

وقـــد اقتضى مرسومها الصـــادر فى ١٧ من ترميدور من العــــام السادس (١) ان نصدر الأوامر الضرورية لكى تدار على الفور كل اعمـــال دار سك النقود على النحو الذى كانت تدار به من قبل .

وبعد ذلك تم تعيين أمين صندوى موكل فى الوقت نفسه بتبـــديل وصرف العملات طبقا للتعريفة الصادرة بشأنها (٢) .

وفيما بعد ، عين مراقب لدار سك النقود بالقاهرة ، حيث كان يوجد مراقب لـــكل واحدة من الادارات الفرنسية .

وكانت وظائفنا ، بصفة مطلقة ، هى الوظائف نفسها التى يقوم بها مفوضو الحكومة فى دور سك النقود الفرنسية ، أما الحسابات التى كانت تحرر بالعربية بمعرفة الأفندى الموكل بعملية الصنع تنظم وتفحص وتراجع ثم تسلم عن طريقنا باللغة الفرنسية الى الادارة المالية ، والى لجنة خاصة عينت لمراجعتها ومطابقتها وضبطها بشكل نهائى .

---

(١) ٢٥ يوليه ١٧٩٨ .

(٢) انظر هذه التعريفة فى صفحة ١٧١ و١٧٢ .

ثانيا : الموظفون ، شيخ المصنع ، العمال

يورد المقريزى فى وصفه التــاريخى والطبوغرافى لمصر (*) ، ان ادارة صنع النقود كانت فى الماضى (بالنسبة لعصره) من اختصاص قاضى القضاة والموظفين الذين يأتمنهم ، ولكن هذا العمل فى عصره — أى فى عصر المقريزى — لم يعد يعهد به الى مسلمين مزعومين ليسوا فى الحقيقة سوى فجار آثمين من اليهود — والكلام كله للمقريزى — كانوا تحت قناع من اعتناق ظاهرى للاسلام يحتفظون بكل ضلالهم وتضليلهم .

ولابد ان يحدث ، كأمر متكرر ، فى بلد تسيطر عليه الديانة الاسلامية ، وحيث يحوز اتباع محمد كل السلطة والامتيازات ، وحيث يضطهد ويحقر كل اتباع الملل الاخرى (كذا !) ، فقد كان الأمر ينتهى بهــذا الفريق من المقهورين ، الذين يلح عليهم طموح اكبر من مجرد ارتباطهم بملتهم ان يعتنقوا ديانة المنتصرين والحكام ، وتوجد فى مصر ، عائلات كثيرة من اهل البلاد ومن الأجانب ، من المســيحيين أو اليهــود ، قد جعــلوا من انفســـهم مسلمين (**) .

(*) أى فى خططه .

(**) لعل فى دراسات السادة جيرار ولانكربه واستيف فى وصف مصر عن النظام المالى والادارى لمصر وعن أحوال الزراعـــة والتجـــارة والصناعة (انظر المجلدين الرابع والخامس من الترجمة العربية لوصف مصر) مايدحض هذا الافتراء من اساسه ، اذ تبرهن هذه الدراسات ان هذه الوظائف الحساسة كان يعين فيها على الدوام غير المسلمين ، بل ان الفلاح كان يرتجف رعبا من سطوة المباشر والصراف ، وكان لهما حق جلده لارغامه على دفع الضرائب (انظر رحلة الى اعماق الدلتا ، تأليف دى بوا ـ أيميه ، المجلد الثالث من الترجمة العربية)— لقد كان عصرا عانى فيه كل المصريين ، والعبرة ليست بأمور شكلية أو مظهرية لــكنها تستمد من الوقائع السائدة ، واذا كان صحيحا ان نتخذ الدين او الملة اساسا لتفسير ما كان يحدث لبعض المصريين ، فكيف يمكننا ، وعلى أى اساس ، أن نفسر القهر والظلم اللذين عانى منهما الفلاحون والحرفيون ، حيث كان المصرى من هؤلاء يعيش عيشة يحسد معها العبد الرقيق الذى يباع ويشترى كما نلمس ذلك مما ذكره بهذا الخصوص شابرول ، وهو لايقل فى هذا الصدد تحاملا عن مؤلفنا هنا ، فى دراسته عن عادات وتقاليـــد المصريين ، انظر المجلد الأول من وصف مصر ، الترجمة العربية ، الطبعة الأولى والثانية .

(المترجم) .

وعند دخول الفرنسيين مصر ، كان الافندى الموكل بصنع النقود ، والذى ظل يدير هذا العمل لوقت طويل ، تارة تحت ادارة الباشوات، وتارة اخرى تحت ادارة المماليك ، يهوديا قديما جعل من نفسه مسلما .

وكان ابنه الاكبر ، الذى نشأ على الديانة الاسلامية ، هو مساعده، ويمسك حساباته .

وكانا معا ، وهما يجلسان فوق منصة عالية ، تشرف على غالبية اجزاء المشغل (او فروع العمل) ، والى جوارهما وزانان للنقود ، يمضيان كل يومهما ، جالسين فوق اريكة ، متكئين الى مخدة ، ومبسم الأرجيلة فى فمهما ، يصدران الأوامر اللازمة بنأمة من اصبع أو طرفة من عين، ويدونان ويحسبان كل ماله صلة بصنع النقود ، اما فى فترات الراحة التى تتخلل العمل فكانا يؤديان الصلاة ، او يتناولان القهوة ، ثم يولمان عند منتصف النهار وليمة بالغة التقشف ، لا تتكون عادة الا من قطعة خبز صغيرة ، انضجت تحت الرماد ، مع بضع بلحات أو بضع حبات من زيتون .

وكانت نسبة التالف والفاقد المسموح بها فى كل مشغل او مرحلة ، وما ينبغى ان تعود به الف قرش اسبانى تتحول الى قطع من المدينى ،او الى قطع من ذوات الأربعين والعشرين مدينى ، أو ماترده مائة درهم من ذهب تتحول الى قطع من عملات الزرمحبوب ، وكذلك مصروفات الصنع واجور العمال ورواتب الموظفين ، وحتى استهلاك الخامات .. كان كل ذلك ينظم بدقة وصرامة او بشكل تقريبى أو تخمينى يتم حسابه مقدما بتقديرات جزافية أو عن طريق سلع تهرب الى الافندى ، لكننا عن طريق رقابة يومية على كُل تفصيلة قد توصلنا الى اجراء وفورات كبيرة بعض الشيء فى نسب التالف والفاقد ، وفى أستخدام الخامات ، وفى الأجور والرواتب برغم ارتفاع اسعار المواد الغذائية بسبب الحرب وبرغم زيادة الاستهلاك التى تسبب فى حدوثها وجود الجيش الفرنسى وبسبب التوقف التام للتجارة الخارجية .

ولعل اهم التحسينات التى كنا نرغب بشدة فى تحقيقها كانت تخفيض نسب التالف والفاقد التى وجدناها هائلة لاكبر مما ينبغى ، ولقد حدثت عدة مرات، سواء تم ذلك بايدينا انفسنا ، او تم على يد لجنة خاصة كان

المسيو كونتيه Conté عضوا فيها سلسلة من التجارب على الفواقد والتوالف التى تتم فى كل مرحلة أو مشغل ، لكن النسبة التى حصلنـــا عليها كانت تماثل على الدوام النسبة السابقة من حيث حجمها ، بل لقد وجدناها فى بعض الأحيان أكبر بنحو طفيف مما كانت مثبتة عليه من قبل .

لقد كان الأمر يقتضى منا كما سبق القول ان نغير كل اساليب ونظام الصنع وكل الآلات وان نشكل عمالا آخرين ، لكنه كان امرا غير قابل للتنفيذ فى الظروف التى وجد الفرنسيون أنفسهم فيها عندما كانوا حديثى العهد بمصر .

اما الأتراك ، فقد كان من مبدئهم وعاداتهم — وهم فى هذا الصدد يسلكون عكس ما يفعله الأوربيون — أن يسعوا لأن يستعيضوا عن الماكينات والأدوات بأيدى البشر ، فى الوقت الذى يسعى الاوربيون فيـــه لاحلال الآلات والأدوات محل الجهد الانسانى .

لقد كانوا ابعد من ان يهدفوا الى تقليل عـــدد المستخدمين والعمال ، فلقد كانوا يعتنقون مبدءا دينيا واخلاقيا يؤدى بهم لأن يلحقوا بالعمل الواحد أكبر عدد من الرجال يقدرون عليه كى يتيحوا لهم فرصة لـــكسب العيش ، ولذلك فقد كان عدد هؤلاء الملحقين بدار سك النقود يبلغ اكثر من مائتين وثمانين عاملا ، بمن فيهم ، وهذا صحيح ، ابناء العمال ، وان كان هؤلاء الأطفال يساعدون جميعا ، وعلى نحو ما ، فى العمل ، ويحصلون فى الوقت نفسه على اجور زهيدة .

وهؤلاء هم بعض الموظفين وأصحاب الأجور على اختلاف أنواعهم ، والذين يعملون بدار سك النقود :

وزانان احدهما مسيحى والآخر تركى ، يعملان بصفة دائمة فى وزن المواد والخامات التى تسلم الى كل شيخ او رئيس مصنع ، ويزنان كذلك المواد التى يقوم هؤلاء باعادة تسليمها ،

أمين مخزن قبطى موكـــل بشراء وحفـــظ وتوزيع وحســـابات المواد الاساسية المختلفة ،

معير (بضمة ثم كسرة مشددة على العين) لخامات الذهب ،

حددادون يعملون بصفة يومية فى صنع واصلاح الأدوات والماكينات الضخام ، ويعملون فى بعض الأحيان فى طرق سبائك الذهب كما سبق إن ذكرنا ،

عامل ميكانيكى يسمونه الساعاتى (وهى كلمة تطلق بالفرنسية على صانع الساعات) ، موكل بتحسين وصيانة الماكينات والقطع الدقيقة مثل السكات او المربعات والمناظير ومكبس آلات القطع او القص ،

حفار كان عمله الوحيد ادخال تعديلات (او رتوش) او اعادة حفر السكات او الأنماط النقدية ،

بواب وحراس ليليون ،

سقاءون ، يذهبون كل يوم الى المدينة لاحضار المياه اللازمة للعمال ولمراحل العمل المختلفة فى قرب ، اذ كانت ميـاه آبار القلعة تميل بعض الشيء الى الملوحة ،

كاتب قبطى يدفع كل مساء أجور العمال ويمسك سـجلا بالمبـالغ المستحقة والمدفوعة لـكل واحد من هؤلاء ،

واخيرا امام او واعظ اسلامى ملحق بزاوية صغيرة توجد فى دار سك النقود ، وكان الموظفون الاترك يذهبون اليها للوضوء والصلاة .

ويترك العمال عند دخولهم الى مصانعهم ملابسهم التى يطوونهـا ويعلقونها بالخارج قريبا من الباب ، ويظل بعض منهم عراة فى حين لايرتدى بعض آخر سوى السراويل ، ويضيف فريق ثالث منهم الى ذلك قميصهم ، وهو بصفة خاصة من نسيج ازرق اللون .

وعند خروجهم يفتشهم شيخ المصنع جميعـا ، ويضطرون لاظهـار افواههم من الداخل ، ولأن يمدوا سيقانهم واذرعهم ويهزون ايديهم واقدامهم مباعدين مابين اصابعهم ، وبرغم ان عمالنا فى فرنسا لم يكونوا فى العادة خاضعين لمثل هذه الاحتياطات المهنية فقد كانت خيانة الأمانة بينهم بالغة

الندرة ، وهذا ابلغ دليل على ان التقدم الحضارى ، أكثر تحبيذا للاخلاق اكثر منه مضادا لها ، ذلك انه يوجد اقل القليل من الأخلاقيات فيكل مكان لايستطيع المرء فيه أن يستوثق من نزاهة البشر الا عن طريق تفتيشهم ، او من فضيلة النساء الا بامساكهن خلف ابواب احكم رتاجها .

اما العقوبات التى كانت تلحق بالعمال فتشتمل على طردهم اذا ما اتوا اعمالا خطيرة ، وعلى ضربهم بعصى من الجريد فوق الظهر او بطن القدمين ، وكان الأفندى نفسه هو الذى يقوم بانزال هذا العقاب ، اما عند الأوربيين ،وهم أكثر رقيا وأكثر دماثة فى تقاليدهم فقد كان ينظر الى أمر قيام رئيس بضرب مرءوسيه باعتباره عملا منفرا ومهينا ، أما فى الشرق ، فالناس هناك غيورون على الاتيان بكل مايتصل بممارسة السلطة والسيطرة ، معتبرين ذلك مجدا وفخارا لهم .

وكان مايقرب من نصف عدد العمال من المسيحيين الأقباط ، وهناك نوع من التسامح يجعل المسلمين يعيشون فى سلام معهم ، ومع ذلك فلن نعدم وجود امثلة على الجشع والحقد أو عدم التسامح تدفع الأتراك فى بعض الأحيان ، باعتبارهم المنتصرين والحكام والمتشيعين للديانة السائدة، ينظرون لأنفسهم باعتبارهم جنسا له امتيازه ، وتدفعهم كذلك الى الوشاية والنميمة للاستيلاء على مكان يشغله قبطى ، مثال ذلك ماقصه علينا احد المسيحيين العاملين فى دارسك النقود ، كان من قبل رئيسا لمشغل الجلوة، من أن مساعده ، وكان مسلما ، قد شغل مكانا بعد أن وشى به وأمسك به ، مستخدما شهود زور قرروا انه قد جدف فى حق الله ورسوله .

ولا ينفق العمال قط ، كما يحدث عندنا ، الساعات الطوال فىتناول وجباتهم ، فهم متقشفون للغاية ، ويأكلون فى مصانعهم ، بل وفى اثناء ادائهم لأعمالهم .

لقد كانت قوتهم وهمتهم ، فى ظروف طقس وبلد سكانه فى العادة خاملون لا مبالون لهذا الحد ، مبعث دهشة لنا فى أول الأمر ، وهم فى الواقع رجال مختلفون للغاية عن اولئك الذين يمضون يومهم جالسين القرفصاء ، يدخنون ارجيلتهم ، مستبقين انفسهم بفعل تناول القهوة والتبغ والنباتات المخدرة فى حالة دائمة من السرحان شبيهة بحالة السكر ،

وينبغى ان ننسب هذا الميل العام الى الاسترخاء والى القعود ، فى قلبله ، الى تاثير الطقس ، وأن ننسبه ، فى كثيره ، الى فعل الاستبداد وسطوة الاعتقاد فى القضاء والقدر ، تلك التى تقنع غالبية المسلمين بان لاجدوى من ان يتعب الانسان ذاته فى أن يسعى اليوم الى رفاهية لن يكون هو على ثقة من ان يستمتع بها فى الغد ، او ان يسعى للخروج من حالة يفترض ان العناية الالهية قد شاءت له ان يكون عليها ، فالصدفة (او المشيئة) هى التى اوجدتك فيها (او خلقتك عليها) (*) . وليس ثمة من شك فى ان حكومة اخرى وانظمة او مؤسسات فكرية اخرى سوف يكون بمقدورها ان تجعل من الرجال أقوياء ، اشداء ، متحمسين للعمل ونشطاء شأنهم فى ذلك شأن الناس فى كل مكان آخر من العالم ، مادام انه يكفى، أن نغير بعض الشىء من طبائعهم وعاداتهم وبعض الظروف الخاصة التى تحيط بهم ، لتكون شبيهة بتلك التى يعمل فيها امثال هؤلاء العمال الذين تناولهم ، فهؤلاء ينشأون منذ نعومة اظفارهم داخل هذه المهنة المثابرة ، ويتعلقون بها عن طريق التنشئة والقدوة والعادة والثقة فى انهم سيتمتعون دون منغصات بأجورهم الزهيدة . وفى واقع الامر ، فانهم يحصلون بانتظام ، وبصفة يومية ، على أجورهم من دار سك النقود ، ولا يتعرضون قط للاقلاق ، ولا يرغمون كذلك على اداء اعمال اضافية او اعمال سخرة، وفى الوقت نفسه ، يحصل ابناؤهم الذين يربونهم من حولهم ، على اجور متواضعة بل ان هؤلاء العمال يحصلون على اعانات عندما تجعلهم اعمالهم او عاهات قد يصابون بها ، غير صالحين للعمل .

وينبغى ان نلاحظ فى النهاية ان العمال ، الاكبر حماسة ، والاكثر توقدا ، والاشد استعصاء على التعب هم اولئك الذين يمارسون اعمالهم وهم واقفون ، وهذه عادة نادرة بعض الشىء ، حتى بين الحرفيين الذين لاتعمل الغالبية منهم الا وهم محنيون ، على نحو قريب مما هم عليه الخياطون عندنا ، لذلك ، فسوف تكون اهم اكبر نقطة انطلاق ، كى نجعل الشرقيين اكثر قوة واكبر نشاطا ، هى أن نعودهم على القيام بأعمالهم وهى واقفون كما يفعل الأوربيون .

(*) واضح كل الوضوح كيف يتعارض كل مايقال هنا عما دعا اليه الاسلام من السعى والجد واعتبر ذلك فى مرتبة الجهاد المقدس .

ومع ذلك فان واحدا من الاسباب التى تعمل اكثر من غيرها الى ايثار لحب الراحة والدعة والقعود هو هذا النوع من الخجل او الازدراء الذى تذوى او تتضاءل معه قيمة العمل عند شعب توجد به بصفة تكاد تكون دائمة طبقتان شديدتى التميز : طبقة المنتصرين او السادة الذين يقومون بالقيادة والحكم ، وطبقة المهزومين والعبيد الذين يرغمهم الاولون على ان يعملوا من اجلهم هم ، السنا نرى ، لا نزال ، آثارا بالغة الوضوح لفكرة مشابهة ، حتى عند الامم الاوربية بالغة التحضر ، حيث كانت طبقة النبلاء الاقطاعيين ، تلك التى تستمد مكانتها من حقوق الغزو ومن قوة السلاح ، تعتقد على الدوام انها ستحط من قدرها ومكانتها اذا هى عملت ؟

ولقد اجاب واحد من هؤلاء الاتراك ، المتعجرفين على نفس قدر جهالتهم ، على صانع فرنسى كان يستحثه على الاعجاب بتفوق الأوربيين على العرب فى مجال الصناعات والفنون : اننى ارى ذلك جيدا ، اما انتم ايها الكفار فقد قضى عليكم بالعمل ، فى حين اننا نحن ، اتباع محمد ، قد خلقنا للراحة وللتأمل فى عظمة القرآن (*) .

(*) ليس هناك ماهو ايسر من دحض هذه الترهات ، ايا كان شخص القائل لها ، فهى تتنافى بوضوح بالغ مع كل ما دعا اليه الاسلام من حب للعمل والسعى على المعاش ، وهذا مايستطيع ان يدلل عليه اى تلميذ صغير ، لكنه التحامل او الفكرة المسبقة او النظرة القصيرة او المغرضة .
(المترجم) .

لوحات النقود

التى ورد ذكرها فى ثنايا الدراسة

ملاحظة من المترجم

كانت هذه اللوحات الاربع فى الاصل لوحة واحـــدة (فى الطبعـــة الاولى من وصف مصر) لـــكن مقتضيات الطبعـــة العربيـــة املت علينا ضرورة تقسيمها الى لوحات أربع بيانها كما يلى :

اللوحة اولى : وتضم ستة اشكال برقم مسلسل من ١ الى ٦ وهو الرقم الذىعولنا عليه فى سياق النصالعربى ، وان كنا قد اجرينا الترتيت على اساس الطبعة الفرنسية ، اى من الشمال الى اليمين ، ويمثل كل شكل قطعة نقدية واحدة بوجهيها ا ، ب ويشار اليها فى اللوحة بـــ A B (من الشمال الى اليمين) .

وتقابل الاشكال : ٦،٥،٤،٣،٢،١ الواردة هنا الأشكال ١، ٢، ٦، ٧، ١١ ، ١٢ فى الأصل الفرنسى .

اللوحة الثانية : وتضم تسعة اشكال بأرقام مسلسلة من ٧ الى ١٥، وتقابل اشكال : ١٥،١٤،١٣،١٢،١١،١٠،٩،٨،٧ الاشكال : ٣، ٤، ٥، ٨، ٩، ١٠، ١٣، ١٤، ١٥ فى الأصل .

اللوحة الثالثة : وتضم ستةاشكال من ١٦ الى٢١ ، وتقابلالاشكال، ٢١،٢٠،١٩،١٨،١٧،١٦ الواردة بها الاشكال : ١٦، ١٧، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣ فى الأصل .

اللوحة الرابعة : وتضم خمسة اشكال : من ٢٢ الى ٢٦ ، وتقـــابل الاشكال : ٢٦،٢٥،٢٤،٢٣،٢٢ الواردة بها الاشكال : ١٨، ١٩، ٢٤، ٢٥، ٢٦ الواردة بالأصل الفرنسي .

اللوحة الأولى

من الشمال الى اليمين

الشكل ١ : ويمثل قطعة ذهبية ذات اثنين فندقلى (أو فندقى) .

الشكل ٢ : « « « « فندقلى (أو فندقى) واحد .

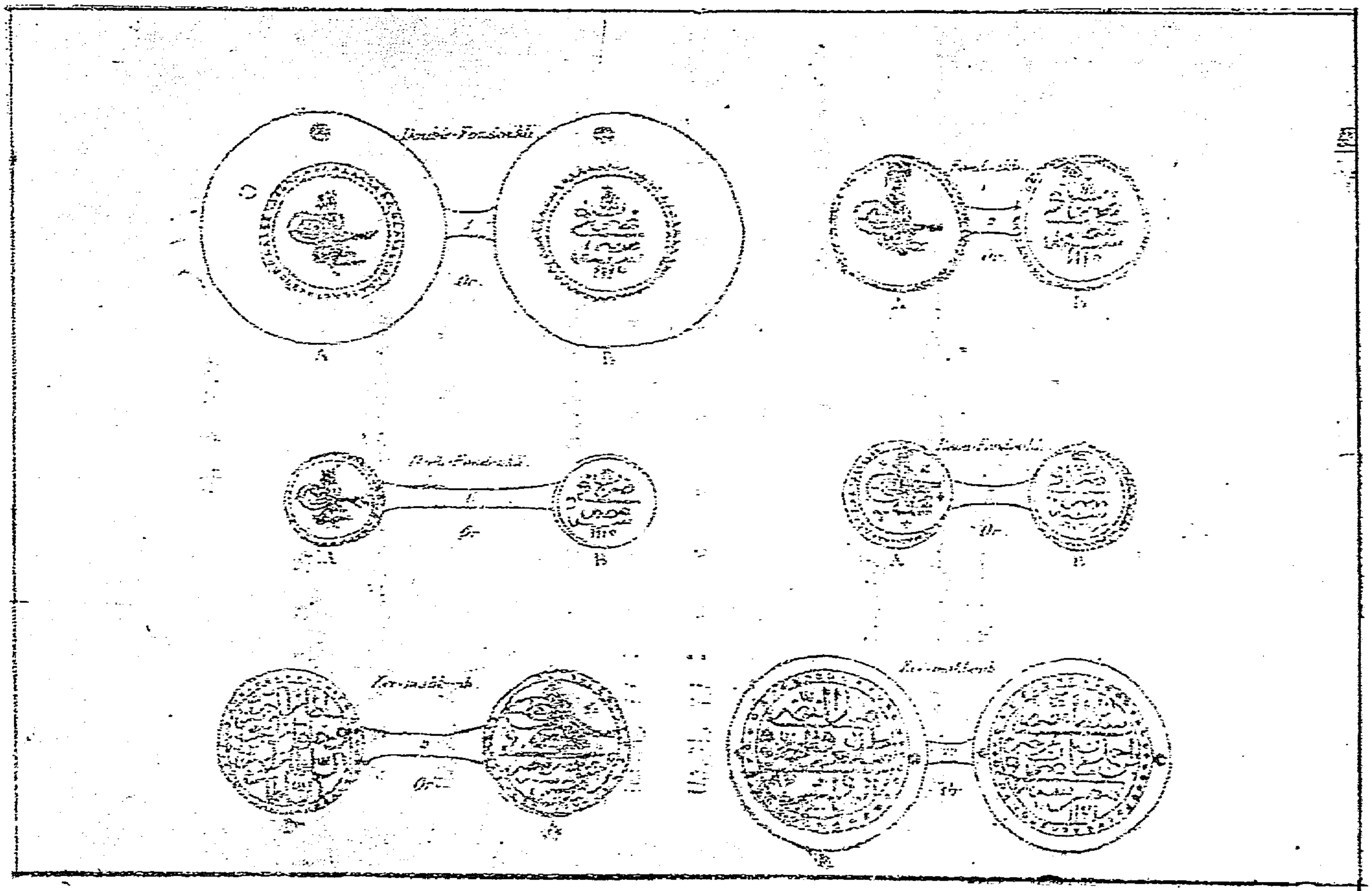
الشكل ٣ : « « « « نصف فندقى .

الشكل ٤ : « « « « نصف فندقى ايضا .

الشكل ٥ : « العملة الذهبية زرمحبوب .

الشكل ٦ : « « « زرمحبوب .

اللوحة الأولى



اللوحة الثانية

من الشمال الى اليمين :

الشكل ٧ : ويمثل قطعة ذهبية ذات فندقى واحد .

الشكل ٨ : » » » » » »

الشكل ٩ : » » » » » »

الشكل ١٠ : » قطعة من العملات الذهبية زرمحبوب ؛

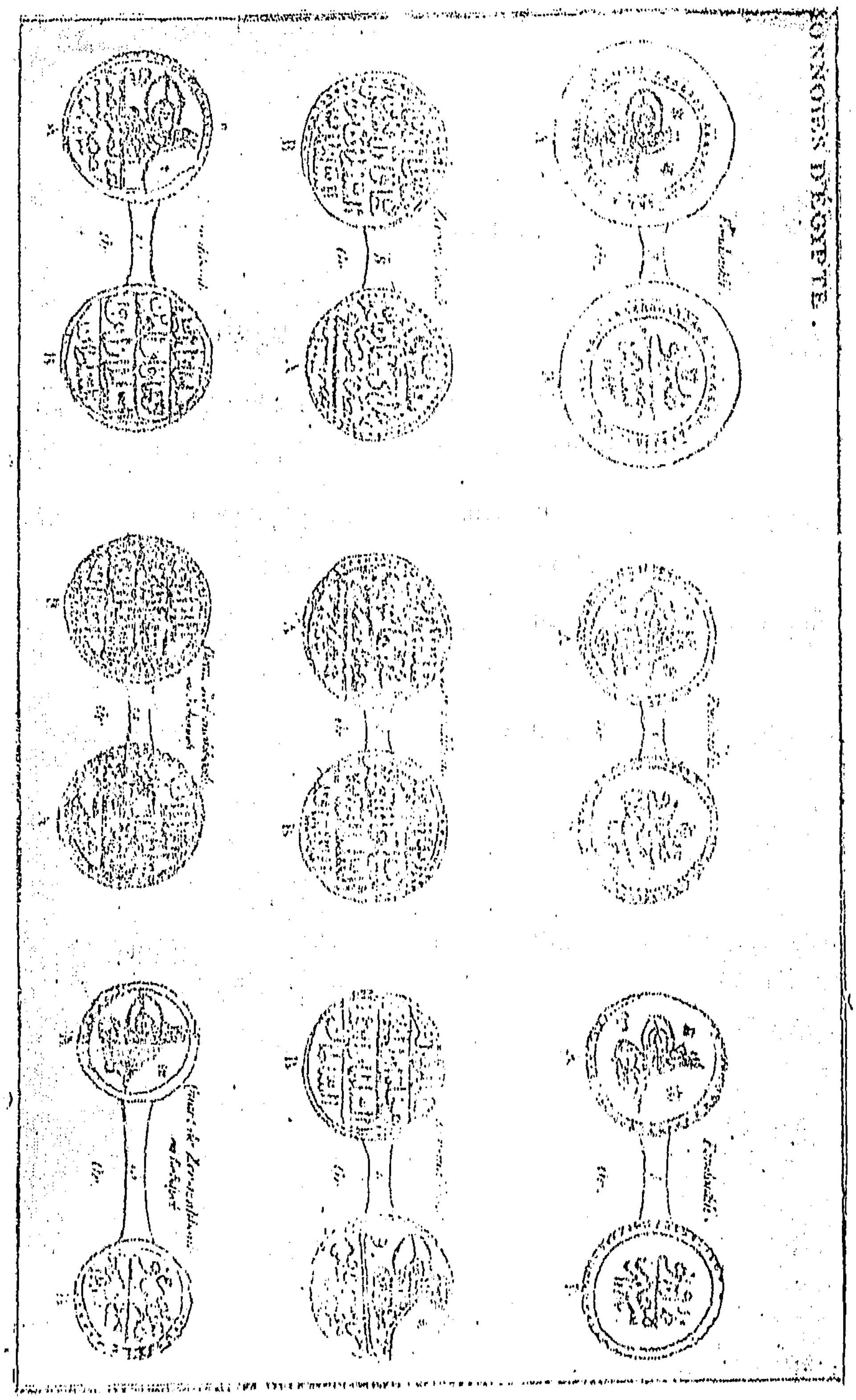
الشكل ١١ : » » » » » »

الشكل ١٢ : » » » » » »

الشكل ١٣ : » » » » » »

الشكل ١٤ : » » » » » ذات ١/٢ زرمحبوب او نصـــفية .

الشكل ١٥ : ويمثل قطعة من العملات الذهبية ذات ١/٢ زرمحبـــوب او : نصـــفية .



اللوحة الثانية

اللوحة الرابعة

من الشمال الى اليمين :

الشكل ٢٢ : ويمثل قطعة من العملات الفضية او البرونزية ذات العشرين مدينى وتسمى غرش والجمع غروش .

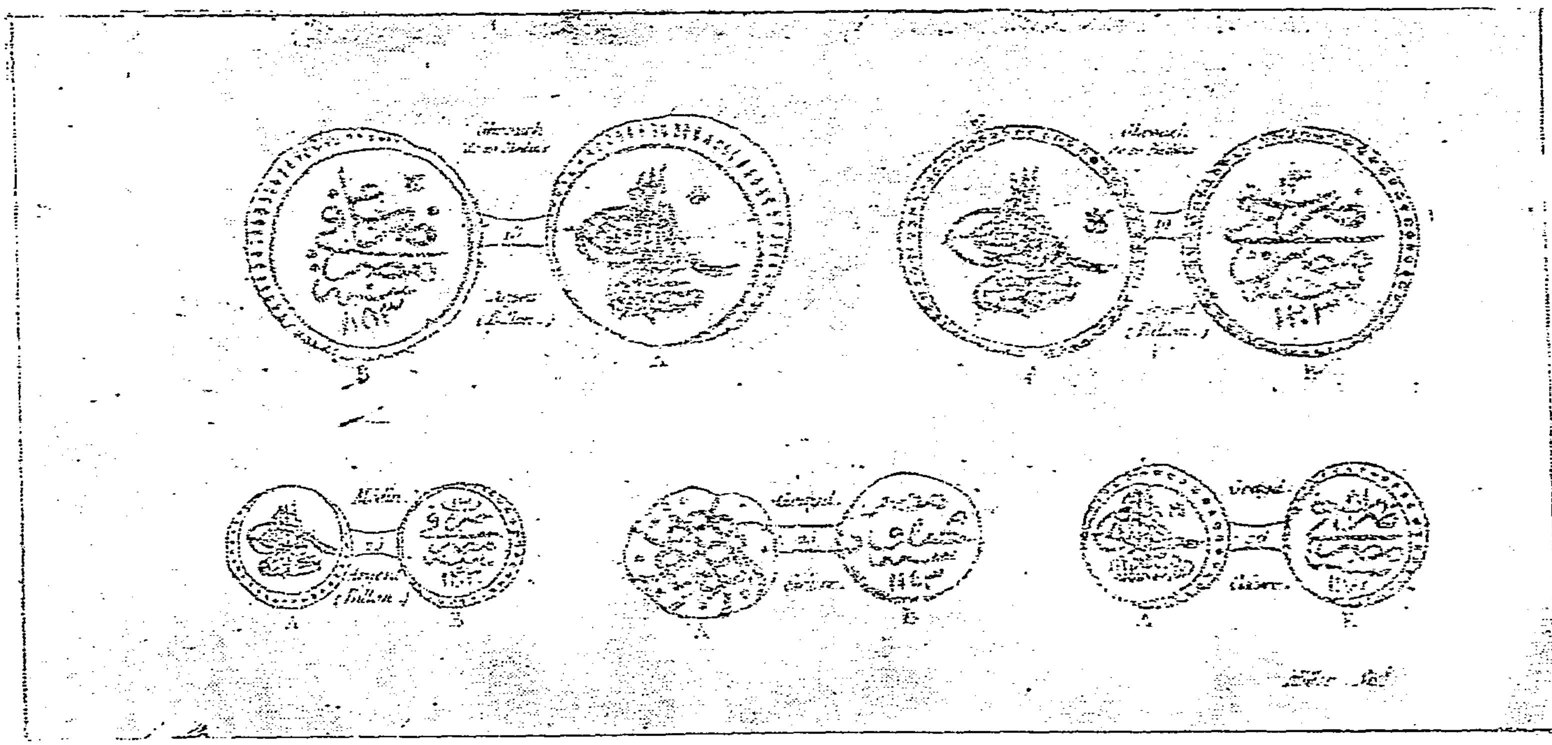
الشكل ٢٣ : ويمثل قطعة من العملات الفضية او البرونزية ذات العشرين مدينى وتسمى غرش والجمع غروش .

الشكل ٢٤ : ويمثل قطعة من العملات الفضية او البرونزية ذات المدينى الواحد .

الشكل ٢٥ : ويمثل قطعة من العملات النحاسية وتسمى جديد (والجمع اجداد) .

الشكل ٢٦ : ويمثل قطعة من العملات النحاسية وتسمى جديد (والجمع اجداد) .

اللوحة الرابعة



الفهرس

صفحة

صفحة

كتب أخرى للمترجم

أولاً : فى مجال الأدب :

١- المطاردون (مجموعة قصص قصيرة) .

٢ - حكايات من عالم الحيوان .

٣ - المصيدة (مجموعة قصص قصيرة) .

٤ - موتى بلا قبور (مسرحية تأليف چان بول سارتر) .

٥ - السماء تمطر ماء جافا . . .

(رواية تسجيلية تتناول وقائع الوحدة المصرية السورية وانفصالها) .

ثانيا : فى مجال التاريخ :

١ - تطور مصر من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٠ . تأليف مارسيل كولب .

٢ - فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية . تأليف أندريه ريمون .

ثالثا : الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية .

١ - المصريون المحدثون .

٢ - العرب فى ريف مصر وصحراواتها .

٣ - دراسات عن المدن والأقاليم المصرية .

٤ - الزراعة ، الصناعات والحرف ، التجارة .

٥ - النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية .

٦ – الموازين والنقود .

٧ – الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين .

٨ – الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين .

٩ – الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين .

١٠ – مدينة القاهرة – الخطوط العربية على عمائر القاهرة .

رابعاً : لوحات موسوعة وصف مصر :

١ – المجلد الأول والثانى للوحات الدولة الحديثة .

٢ – المجلد الأول من لوحات الدولة القديمة .

خامسا : من موسوعة وصف مصر :

(دراسات مختارة من الموسوعة فى كتيبات)

١ – كيف خرج اليهود من مصر القديمة .

٢ – مدينة الأسكندرية .

٣ – مدينة رشيد .

تحت الطبع

– مقياس الروضة .

– القاهرة المملوكية .

– بقية مجلدات لوحات موسوعة وصف مصر .

– بقية الدراسات المختارة من موسوعة وصف مصر .

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٧٤/١٩٨٠

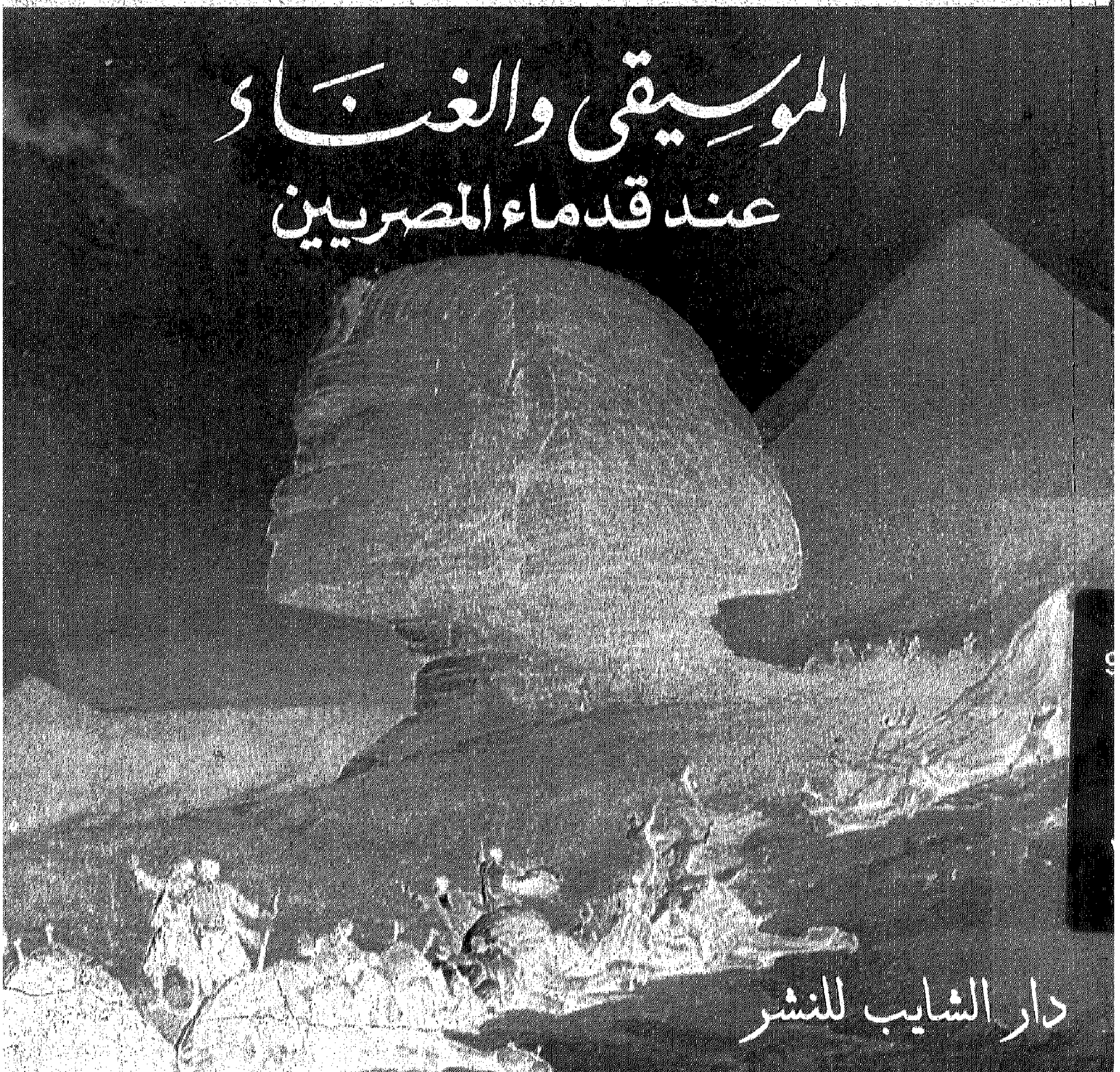
الترجمة الكاملة
(٧)

وصف مصر

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

الموسيقى والغناء
عند قدماء المصريين



دار الشايب للنشر

٧
وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

الموسيقى والغناء
عند قدماء المصريين

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

دار الشايب للنشر

١٠ ش سليمان الحلبى - التوفيقية
ت: ٥٧٤١٣٧١ - ٥٧٢٦٨٣٠

الفهرس
القسم الأول

القسم الثانى

مقدمة

على الرغم من أن الدراسة التى يتضمنها هذا الكتاب تدخل ضمن نطاق دراسات الدولة أو الحالة القديمة لمصر ، فى السفر الكبير المسمى « وصف مصر » ، فإن المنهج الذى اختطته لنفسها الترجمة العربية قد حسم ضرورة ورودها فى هذا الترتيب ؛ فهذه الدراسة التى تتناول فى ثناياها الحالة التى كان عليها فن الغناء والموسيقى فى مصر القديمة ، وهى فى حد ذاتها دراسة متكاملة تتناول موضوعا له أهميته ، إلا أنها تعد فى الوقت نفسه ، وفى الاطار الذى شاءت الترجمة العربية أن تضعها فيه ، مقدمة لا غنى عنها لموضوع المجلدين القادمين ، الثامن والتاسع ، إذ يتناول المجلد الثامن الحالة الراهنة — وقت الحملة الفرنسية — لفن الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين ، ويتناول المجلد التاسع الآلات الموسيقية التى يستخدمونها ، وهكذا نستطيع أن نطلق على مجموعة المجلدات السابع والثامن والتاسع اسم : موسوعة الموسيقى والغناء عند المصريين . وسوف يكتشف القارىء الكريم أن هذا التقسيم — فى هذه الموسوعة — لم يأت اعتباطا ، فلسوف يشار إلى الدراسة التى يتناولها الكتاب الذى بين يدينا فى مواضع عدة من الكتابين اللذين سيعقبانه : أى الثامن والتاسع .

ولسوف يكون تكراراً مملا أن نعيد إلى الأذهان خطة الترجمة العربية فى إعادة تبويب دراسات وصف مصر على أساس منهجى وموضوعى فقد تمت تغطية هذه الفكرة فى مقدمات الأجزاء الستة التى تم صدورها ، ومع ذلك فينبغى القول إن القسمين اللذين تتكون منهما هذه الدراسة ، لم يأتيا متجاورين ضمن دراسات الدولة القديمة ، بل لقد جاءا متناثرين : فالقسم الأول الذى يشتمل على فن الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين قد استغرق الصفحات من ٣٥٧ إلى ٤٢٦ ؛ فى حين جاء القسم الثانى والذى يتناول الآلات الموسيقية التى كان يستخدمها المصريون القدماء فى الصفحات من ١٨١ إلى ٢٠٦ ؛ وهكذا تجىء الترجمة العربية لتضم هذا الشتات المبعثر لتجعل منه وحدة عضوية واحدة ؛ وليس فى هذا أى ادعاء أو محاولة للتباهى ، وإنما هو مجرد تبرير يجىء لدعم صحة المنهج الذى اختطته لنفسها هذه الترجمة .

ومن جهة أخرى فإن هذه الدراسة تقدم لنا فرصة تسنح لأول مرة ، فى مسيرة هذا العمل ؛ فهنـــا نحن بصدد دراسة تتناول جانبا من الحياة فى مصر القديمة ، تمت كتابتها فى العصر الحديث ، من قبل أن يتم الكشف عن أسرار الكتابات والنقوش المصرية القديمة ؛ ولسوف يجد فيها القارىء العادى أمورا جديرة بالاهتمام ، أما القارىء المتخصص فسيجدها فرصة مواتية للمقارنة بين النتائج التى انتهى إليها علماء الحملة ، والأسس التى أقاموا عليها دعواهم أو افتراضاتهم بهذا الخصوص ، وبين ما نطقت به الرموز بعد أن فكت طلاسمها ، والشهادات التى لا تزال تدلى بها كل يوم الاكتشافات الأثرية التى تتم والمؤلفات الهامة التى تصدر داخل وخارج مصر. وقد تكون هذه الدراسة ذات إسهام كبير فيما يتصل بتاريخ العلم ، لكننى أظن ، ولست فى هذا أصدر حكما قاطعا ، وإنما هو مجرد اجتهاد ، ان الدارس هنا لم يكن بعيدا عن الصواب فى الكثير مما قال ومما انتهى إليه ، ذلك أنه لم يصدر عن فراغ مطلقا ، وإنما هو قد تقصى ــ بمعنى الكلمة ــ كل ما كتب فى مؤلفات العصور القديمة متناولا شئون مصر ، واعتمد على مؤلفين لهم شأنهم ، كثيرون منهم كانوا معاصرين للأحداث وشهود عيان عليها كفلاسفة اليونان ومؤرخيهم وشعرائهم ، وبعضهم الآخر كان قريبا من هذه الأحداث ، مشهودا له بالدقة وسعة الأفق .

ومع أننى لست من هواة استعراض المصاعب التى تواجهنى فى عملى ، إذ اعتبرها من خصوصياتى وحدى من جهة ، ولأننى أعتبر المصاعب التى تنتهى أمرا فى حكم الشيء الذى لم يكن ، أو الذى هو من طبائع الأمور ، إلا أننى لابد لى من أن أشير إلى صعوبة واحدة التمس بها العذر ألا وهى طول الجملة الفرنسية ، التى تعد من سمات مؤلف هذه الدراسة والدراستين التاليتين ، ولست أسوق ذلك إلا لكى أعتذر بدورى عن الطول المرهق للجملة العربية فى الترجمة ، التى أتوخى فيها أن تأتى مطابقة ليس فقط للمعنى وإنما لروح كاتبها كذلك ؛ وهناك صعوبة ثانية تتمثل فى تلك النصوص اللاتينية الكثيرة التى وردت فى حواشى هذه الدراسة ، وكذلك فى أسماء العشرات من المؤرخين والفلاسفة والشعراء والأبطال والآلهة ، وبعض هؤلاء جميعا لم نسمع ، ربما ، باسمهم ، والذين ترد أسماؤهم متخذة الشكل الفرنسى الذى شاء الفرنسيون أن يدونوا ويلفظوا بها هذه الأسماء بما يتفق مع لسانهم هم وليس كما هى عليه فى أصولها التى جاءت عنها ؛ وكذلك فى مئات المؤلفات التى تشير إليها هذه

الدراسة ، وغالبيتها لم يسمع بها من قبل . وكان يمكن أن يشكل ذلك ثغرة خطيرة فى هذا العمل ، لولا أن شاء الصديق الأستاذ الدكتور حمدى إبراهيم أستاذ اللغات القديمة بكلية الآداب بجامعة القاهرة أن يتولى عن طيب خاطر سد هذه الثغرة التى أشفقت منها على العمل برمته ؛ ولقد بذل فى سبيل ذلك جهدا مضنيا ومشكورا . ولم يقتصر على ترجمة النصوص المطلوبة فحسب ، بل لقد شاء أن يقدم ترجمة إلى العربية للمراجع التى يشير إليها النص الفرنسى نقلا عن اللغتين اليونانية واللاتينية . ولقد رأيت أن آخذ بها منحيا الأصل ، على اعتبار أن هذه المراجع المشار إليها ليست متيسرة للقارىء العربى ، ومن الأفضل ، كما افترضت أن يكون القارىء فى الصورة عن أن يكون فى متناوله ما لا يفيد منه ؛ كما قام الصديق الكريم برد كل الأسماء التى عرضتها عليه فى شكلها الفرنسى إلى أصولها اليونانية واللاتينية وهو ما يتفق مع منهجنا عند الترجمة إلى العربية ؛ ومع ذلك فإن اسما مثل بلوتارخوس كان يرد مرة على هذا النحو ومرة أخرى بلوتارك ، وكنت أحرص على الشكل الثانى للاسم عندما نكون بصدد عمل له عاد فيه مؤلفنا إلى الترجمة الفرنسية له وليس إلى أصله اليونانى مثل أسطورة إيزيس وأوزيريس .

وإذا كنت لا أذهب إلى بعيد حين أوجه للأستاذ الدكتور حمدى ابراهيم شكرا لا مزيد عليه ، فإننى فى نفس الوقت لا أنسى ما وجدته من عون من الصديق الأستاذ رينيه خورى ، والأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف وغيرهما ؛ وفى الوقت نفسه فلست أمل من توجيه الشكر للأستاذ الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة على ما يوليه لهذا العمل ولصاحبه من عون وتشجيع ؛ كما أوجه شكرا وافيا لمكتبة الخانجى على ما تبذله فى سبيل الارتفاع بمستوى هذا الكتاب طباعة وإخراجا ، وعلى ما تبذله بسخاء حتى يكتمل صدور العمل كله ، نصا ولوحات فى شكل جدير به .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجنبنا العثرات وأن يأخذ بيدنا ، وأن يوفقنا فى تقديم هذا العمل الذى نرجو أن يكون فيه نفع وطننا مصر ، وأخوتنا فى الوطن العربى الكبير .

ابريل ١٩٨١

زهير الشايب

المبحث الأول

الدوافع من وراء هذه الدراسة ، وبيان وسائلها وخطة توزيع العمل فيها ، أو بمعنى آخر : المقدمة التى نتفحص فى ثناياها ماهية الوقائع والشهادات ، والأدلة التى يمكن أن نستخلص منها بعض النتائج التى تفيد فى التوصل إلى معرفة الحالة التى كانت عليها موسيقى قدماء المصريين ؛ والتى نتصدى فيها فى نفس الوقت (أى فى هذه المقدمة) للشكوك التى اعتاد البعض أن يلقى بظلالها على درجة النضوج التى بلغها هذا الفن فى الأزمنة الضاربة فى القدم .

كل شيء بمصر يعود بذهن الرحالة إلى ذكريات بالغة العظمة ، وكل ما فيها يترع روحه بعاطفة بالغة العمق ، بالغة القوة لدرجة لا يستطيع معها أن يقنع – هناك – بمجرد الإعجاب السلبى والعقيم ؛ فهذه الأهرام الضخام التى يراها الناس تعلو هذا العلو السامق ، فى الصحراء عن يسار النيل ، والتى يتجمع بعضها ، بل قل يتكدس على نحو ما قريبا من الجيزة ، فى حين يتناثر بعضها الآخر فى خط يمتد من سهل سقارة حتى منطقة قريبة من أسوان ؛ وهذه المقابر الفسيحة والرائعة ، المحفورة فى جبال الهضبة الليبية والتى تزدان برسوم تحتفظ ألوانها – ما تزال – بزهوتها ؛ وهذه الألوف من الكهوف أو المغارات التى تخترق صلابة هذه الجبال فى الجزء الأكبر من امتدادها ؛ وهذه الجبانات الفسيحة والعميقة ، والتى تتراكم فيها ألوف المومياوات ؛ وهذه التماثيل العماليق ؛ وهذه المسلات التى يصل ارتفاعها لأكثر من ثمانين قدما ، والمصنوعة من قطعة واحدة من الجرانيت وبتصميم وتنفيذ بالغى الدقة ؛ وهذه المعابد ، هذه القصور ، هذه الأعمدة التى لا يمل المرء البتة من إبداء إعجابه بعمارتها المدهشة والمتناسقة ؛ وهذه الخرائب الهائلة والمهيبة التى تنتشر أو تنتثر من كل جانب وفى كل مكان والتى استنفد فيها كل من الغضب الجاهل المدمر ، وهمجية التعصب كل جهودهما التى لا تجلب إلا الكوارث عادة ؛ وباختصار فإن كل هذه المنشآت التى انحنى الزمن احتراما لها . والشواهد الخالدات على عظمة الأمة التى تنتمى إليها[١] تصدم بقوة خيال المراقب ، وتشعره بنشوة روحية حتى ليظنن نفسه معاصرا لأعظم وأشهر فلاسفة ومشرعى العصور القديمة ، وحتى ليتوهمن أنه يراهم يهرعون من كل مكان – لا يزالون – كى يتوجهوا إلى هذا البلد الشهير حتى يتلقوا هناك دروس الحكمة ، ولكى يكونوا هناك أفكارهم الراسخة عن الدين والقوانين ، ولكى يوسعوا هناك من معارفهم : ولسوف يخيل إليه أنه يقفوا فى إثر خطوات ميلامب ، موسايوس ، وأورفيوس وهوميروس ، وليكورج وطاليس وسولون وفيثاغورث وأفلاطون ويودوكسوس ... وكثيرين غيرهم من الرجال اللامعين[٢] المشهود لهم بجدارتهم فى

(١) لست أدرى لماذا تؤدى المصالح السياسية ، وهى لا تتفق كثيرا مع شئون الفنون والعلوم لأن نضحى بالكثير من هذه الصروح الرائعة وذلك بتركنا إياها بين يدى شعب همجى (كذا !) لا يكف عن هدمها وتدميرها ؟ أليس من الواجب على أوربا ، التى لابد لها أن تستشعر منذ الآن جدارتها الكاملة بهذه الصروح والآثار ، ان تتكاتف جميعا ، لتتفق على أن توكل هذه الآثار إلى أمة منظمة ومستنيرة ؟ .

(٢) = Plutarque, d'Isis et d'Osiris, pag, 320, trad. d'Amyot, Paris, 1597, in- fol.

تلقيـــهـــم على يد القدماء المصريين أسرار العلوم المقدسة التى كان لهؤلاء المجد فى أن ينقلوها – هذه العلوم –إلى معاصريهم وفى أن يجعلوا من اسمهم إسما مخلدا وباقيا ، بل إن المرء ليظن أنه يعيش فى مجتمعهم وفى أنه يحضر اجتماعاتهم (أى اجتماعات فلاسفة اليونان) مع كبار الكهان ، وأنه يكاد يسمعهم يتناقشون فى النقاط بالغة الأهمية فى الميثولوجى والسياسة والأخلاق والعلوم والفنون . إن كل ما سبق للدراسة إن علمته لهذا المراقب عن أنظمة وتقاليد القدماء المصريين فسوف يخط فى ذاكرته من جديد وهو يقف بين هذه الأسوار الصامتة التى خصصت لتأمل عجائب الطبيعة ؛ ولابد انه سيأسف لأنه لم يعد بقادر على أن يستمع كذلك لهذه الأغنيات الالهية ، هذه التراتيل ذات الأنغام بالغة النقاء والتى كانت تتردد أصداؤها فيما مضى وطبقا لما يورده أفلاطون ، بين جدران هذه المعابد العظيمة والمعتمة والتى انشئت خصيصا للاحتفال بأسرار العبادات ، وسوف يفحص هذه المناظر المختلفة ، الواحدة بعد الأخرى ، وهى المناظر المنقوشة والمرسومة والتى تزدان بها الواجهة الكلية لهذه المبانى الثمينة سواء من الداخل أو من الخارج . ولسوف يجد فيها فى واقع الأمر أفكارا أكثر دقة وأكثر وثوقا عن تلك التى كان قد اغترفها من الكتب عن العادات والممارسات الدينية والسياسية والمدنية والريفية والمنزلية وغيرها لهذا الشعب ، الذى ينظر لنظامه السياسى باعتباره نموذجا لغالبية الشعوب القديمة(١). هنا سيتاح له أن يرى مشاهد رمزية ، وحفلات دينية ، ومواكب مصفوفة يصحبها موسيقيون ، بعضهم يغنى ، وبعضهم الآخر يقوم بالعزف باستخدام آلات عزف متنوعة ويتقدم هذه المواكب ويتبعها كهان موكلون بالقرابين . يذهبون لتقديمها للآلهة : هناك ، حيث يؤدى كل ذلك فى شكل ألعاب رياضية أو فى شكل رقصات : وأبعد من ذلك بعض الشىء توجد (رسومات تصور) هجمات ومعارك نميز فيها المنتصرين والمهزومين ، الأسرى أو عبيد الحروب ؛ أما فى مكان آخر فنجد المذنبين المدانين يتلقون صنوف العقاب أو يتحملون وطأة الموت (الذى حكم به عليهم) . وفى مكان آخر كذلك نلاحظ أنظمة كاملة من الأفلاك والنجوم ، ثم نجد رسوما تصور حفلات مختلفة عن الحياة

Diodor Sic. Biblioth. hist. lib. I, Cap, 98, pag. 289, gr. et lat., Biponti, 1793, in 8 °. =
Clem. Alex. Storm., lib, I, pag. 302; lib VI, pag. 629; Luter, Paris, 1641.
Diodor Sic. Biblioth. hist. lib I, Cap, 13, 14, 15, 28, 29, 96, 97, 98, édit sup. Cit. (١)

المدنية : الزواج ، الزفاف ، حفلات التعميد ، حفلات التحنيط ، حفلات التطهير ، مواكب الجنازات ، الأعمال المتنوعة التى تشكل فى مجموعها الحياة الأسرية ، أعمال الزراعة ، والحرث ، والبذر ، والحصاد ، وجنى العنب ، والصيد ، وصيد السمك . ووسائل الحياة الرعوية : فكل عصور مصر القديمة تعود متجسدة إلى الحياة فى نظرة واحدة ، ذلك أن كل شىء هنا جديد (على المشاهد) يجذب انتباهه ، ويسترعى نظراته ، وسرعان ما يصبح موضوعا لدراسة تستحوذ عليه ، مع اهتمام يتولد دونما انقطاع : أما الفتنة التى تشع من هذه الرسوم فلها سطوتها حتى لا يستطيع المرء إلا بمشقة بالغة أن يخرج من إسارها وأن يحسم أمره كى يترك هذا الرسم ليتأمل الرسوم الأخرى ، واحدا بعد الآخر ، وكم يود المرء لو أمكنه أن يوجد فى كل مكان فى وقت واحد . أما الفضول — فضول كل من يرى ذلك ، وهو فضول نهم لا يشبع على الدوام أبدا ، فلا يخلى مكانه إلا بفعل لهفة أكثر نهما وجشعا تدفع كل من يراها كى يرى كل شىء .

على هذا الحال والمنوال ، وخلال رحلتنا إلى مصر ، قد عبرنا هذا البلد بكل امتداده : وبرغم أننى كنت لا أزال بعد فى حالة نقاهة عقب رمد طويل وقاس ، قاوم بعناد كل أفانين الطب ، وبرغم أننى كنت لم أزل بعد واهنا كذلك ، فقد تقدمنا ، يرشدنا فى مسيرتنا زملاؤنا الحاذقون المتبحرون فى العلم ، حتى بلغنا ما وراء الشلال (الجندل) الأول للنيل ، على مسافة قصيرة من المنطقة الاستوائية ، وفى قيظ الصيف ، ودون أن نعطى لأنفسنا راحة يوم واحد ، بل وبدون حتى أن نلقى بالا للتعب الشديد الذى اعترانا ، بل على العكس من ذلك فقد كنا نحس بقوتنا تتزايد ما إن يتعلق الأمر بزيارة أثر تاريخى (جديد) ، مهما يكن الطريق شاقا لبلوغ هذا الأثر ، إما لأن الأمر يقتضى منا أن نعبر سهلا فسيحا من رمال حارقة وإما لأننا نضطر للمشى فوق نتوءات سلسلة لا نهاية لها من الصخور ، وإما لأنه كان من الضرورى ان نتسلق جبالا وعرة أو أن نشق لأنفسنا طريقا فوق أكوام هائلة من الخرائب . وفى النهار كنا نسارع بتدوين مذكرات عما كنا قد شاهدناه ، وكنا نحرص بصفة خاصة على ألا نهمل أدنى شىء يتصل بموضوعنا ؛ وفى المساء ، كنا نراجع ما دونا ونعيد تبويب مذكراتنا أو نراجعها لتبلغ أقصى قدر من الدقة ، وقد كنا نحس بأننا نحصل على مقابل أكبر بكثير مما تعود به رحلة مماثلة (فى أماكن أخرى) ؛ حتى أننا لم نكن لنترك لحظة

واحدة تفلت دون أن نفيد منها . ولعلنا فى ذلك كله لم نكن مدفوعين لكل هذه لأمور بفعل الحماسة التى كانت تحفزنا أو بالرغبة فى الاقتداء بزملاء يجدر بنا أن نقتدى بهم ، بقدر ما كنا مدفوعين لذلك كيما نجعل أنفسنا جديرين بالمهمة الجليلة التى قبلنا القيام بها .

ومع كل هذا ، وها نحن أولاء نعترف بذلك ، فإن أبحاثنا بخصوص الموسيقى لم تؤت كل ، كلها ، فقد جاءت أكثر جدبا بكثير عما جاءت عليه – نسبيا – تلك الدراسات التى تناولت أى موضوع آخر ، كما كان عملنا فى هذا المجال شائكا وأكثر مشقة عما كان عليه العمل فى المجالات الأخرى ، بنفس القدر ، ذلك أنه لم تكن هناك بحوث تتناول موسيقى مصر القديمة على غرار تلك البحوث التى تتناول غالبية العلوم والفنون الأخرى . ولا يزال الاغريق – وقد كانوا تلاميذ مخلصين ومقلدين للمصريين القدماء – هم الذين تستطيع مؤلفاتهم أن تقدم لنا فكرة عن معارف أساتذتهم وعن النماذج التى قدمها هؤلاء كى يحتذوها هم فى الشعر والفلسفة والفيزياء والرياضيات والفلك والطب والعمارة والنحت : وفى الوقت نفسه فإن الصروح المذهلة والكثيرة التى أقامها المصريون فى القرون السابقة على التاريخ ، والتى لا نزال نرى بقايا منها رائعة الجمال ، تقدم هى الأخرى بدورها فى اللوحات المختلفة المحفورة على وجهات جدرانها ، سواء فى الأجزاء الداخلية أو الخارجية منها شواهد لا يكتنفها الغموض عن ممارساتهم الدينية والسياسية والحقلية والمنزلية ؛ ومع ذلك فأى عون يمكننا انتظاره من هذه الأبنية العارية من أية ذاكرة حتى نصل إلى المعرفة التامة لفن هو فى أساسه قمة فى رهافة حاسة السمع . بل والذى يبدو مستحيلا على امرىء ما أن يكون لنفسه أدنى معرفة عنه دون معونة هذه الحاسة ؛ وأى عون يمكننا توقعه عن فن لا يترك أدنى أثر يدل على وجوده ما أن تمرق اللحظة الخاطفة التى يتحقق خلالها ، وبصفة خاصة ، ولسبب بالغ القوة ، حين يتصل الأمر بزمن ضارب فى القدم ؟ .

وإذا كان هذا الفن نفسه قد تطور فى أوربا لهذه الدرجة فى أقل من ألف عام ، فى شكله ، وفى مبادئه وقواعده ، حتى أنه لم يعد يحتفظ بشىء به بعض شبه بما كان عليه فى الماضى ؛ وإذا كان كل شىء فى هذا المجال قد أوشك أن يصبح قابلا للفهم من جانب العدد الأكبر من الموسيقيين ، فأى اختلافات وأى مثالب لم يكن على هذا الفن أن يمر بها أو يكابدها منذ أربعين أو خمسين قرنا ؟ وكيف سيكون بمقدورنا أن نفهم بحوثا يمكن أن تكون مدونة فوق جدران المعابد فى مصر القديمة حتى لو

وجدناها محفورة وقدر لنا أن نقرأها هناك ؟ وإذا كانت هناك قواعد ومبادىء مختلفة أدخلت منذ بضعة وعشرين قرنا على نظرية (مبادىء) وممارسة فن الموسيقى قد أعطت لعاداتنا وذوقنا ولأسلوبنا فى التذوق والحكم على الموسيقى ميلا أو اتجاها ما حتى أننا لم نعد نستطيع بعد أن نتبنى أفكار اليونانيين القدماء حول هذا الفن ، بل ولا حتى ان نعتقد فى التأثيرات المذهلة التى قيل لنا إن هذا الفن كان يحدثها ، فكيف نستطيع أن نحكم بشكل صحيح ، وضحنى ، على ما يمكن أن تطلعنا عليه هذه الصروح المصرية القديمة من الناحية الفنية ؟

كان علينا ، وقد اضطررنا أن نلقى بأنفسنا متوغلين خلال القرون التى خلت ، وأن نخترق دياجير ظلمات أزمان ضاربة فى القدم ، وحتى نجتاز تلك الفجوة الواسعة أو الهوة السحيقة التى تفصلنا عنها ، كان علينا أن نلحق الحرص بالشجاعة حتى لا نجازف متسرعين بالوقوع فى هوة من الأخطاء قد لا يقدر لنا أن نخرج مطلقا منها ، وكان علينا أن نحرص ، مع شحذ كل انتباهنا واهتمامنا، على نقطة البدء التى حددناها وكذلك على الغاية التى كنا نستهدفها حتى نتعرف جيدا على اتجاه طريقنا وحتى نحسم أمورنا كى لا نحيد عنها . ولقد كان زيادة فى الحرص من جانبنا عند بلوغنا هذه الغاية الغامضة والمعتمة فى مقصدنا ، وقبل أن نكون قد تعودنا على (السير وسط) ظلمات الليل الكثيفة التى تكتنفنا من كل جانب ، وحتى يكون بمقدورنا أن نتبين الأمور التى لم يكن ليستطيع بصرنا فى البداية أن يفرق بينها أو حتى بيستبينها — أن نحاول الامساك ، أو أن نتلمس ، فى البداية ، كل الموضوعات التى كانت تقع تحت يدنا حتى نجعل من أنفسنا بقادرين أن نجول بنظراتنا بعد ذلك بشكل أفضل ولولا هذه الاحتياطات من جانبنا لما استطعنا أن نخطو خطوة واحدة واثقة ، وَلَكُنَّا قد وصلنا إلى طريق لا أمل فى العودة منه . أما عندما لزمنا هذه الحيطة فقد وصلنا بنجاح إلى ما هو أبعد من القصد وفوق كل ما توقعنا : لقد كفت الظلمات أن تصبح بعد ، بالنسبة لنا ، غير قابلة لأن نلج فيها ، وميزنا بوضوح ما لم نكن نعرفه من قبل إلا متحسسين : لم تعد تعوز أبحاثنا الثقة ولم يعد الشك يكاد يجعل من اكتشافاتنا بددا ، ولقد استطعنا بشكل مثمر بعض الشيء أن نستخدم المعونات التى قدمت إلينا كى نعطى لملاحظاتنا مزيدا من الدقة ومزيدا من التحديد .

لم يكن كافيا أننا قد تفحصنا باهتمام كل ما تقدمه لنا صروح مصر القديمة

خاصا بفن الموسيقى أو ما كان من شأنه فقط أن يلقى بصيصا من الضوء على ما يمكن أن يحسم حكمنا . فقد كان لزاما علينا كذلك أن نلجأ إلى المؤلفين الذين واتتهم الفرصة ليتناولوا ما كانه هذا الفن عند قدماء المصريين . وكان علينا ألا ننحى فى ازدراء أدنى هذه الشهادات مرتبة . وإنما كان علينا فقط أن نكون بالغى الحذر والتحفظ بل أن نكون متشددين فى اختيار واستخدام ما ينبغى اختياره واستخدامه من بين هذه الشهادات ، ذلك ان ما يثبط الهمم للغاية عندما نلتمس ما كتبه عن موسيقى المصريين الأول المؤلفون القدماء والشعراء والفلاسفة والمؤرخون والجغرافيون وغيرهم ، حتى أولئك الذين عاشوا فى العصور التى كان لهذا الشعب فيها علاقات اعتيادية مع الأمم المستقرة أو المنظمة فى أوربا ، هو أن نجد هذه الشهادات عارية من الوقائع الموضوعية حول هذا الفن لدرجة كدنا نتعرض معها فى البداية لغواية تنحيتها ، ناظرين إليها فى معظمها باعتبارها عاجزة عن أن تقدم لنا فائدة من نوع ما ؛ ولم نضطر للعودة إلى شهادات الأولين إلا بعد أن تفحصناها وقارناها بشهادات مماثلة عند آخرين ؛ وحين تابعنا ذلك بمزيد من الانتباه فقد قابلنا هنا وهناك عدة ملاحظات ينبغى الالتفات إليها ، ومع ذلك فإن ما كان يقوله هؤلاء عن هذا الفن قد كان يمس الامر من بعد بعيد كما لو كان الأمر قد أفلت منهم عفو الخاطر .

وبرغم هذا فإن الصعوبة الأشد لم تكن بعد هى أن نبحث عند عدد هائل من المؤلفين عن بقايا متناثرة وشبه خافية أو عسيرة على الفهم لنبذ (أفكار) عن الموسيقى حالة انتقالها عن طريق المصريين القدماء إلى الشعوب الأخرى ؛ لقد كان الأمر يعنى أننا نريد أن نشق لأنفسنا طريقا مأمونا فى موضع لم يتجاسر أحد قبلنا على السير فيه ، كان معناه أن نستبصر مواقع لأقدامنا برغم العقبات التى كانت تمثل لنا فى كل خطوة فى تلك التناقضات الظاهرية ، على الأقل ، والتى نجدها بين مختلف المؤرخين ، كل منهم بالنسبة لما يقوله الآخر ، أو التى يتناقضون فيها فى بعض الأحيان مع ما يقولونه هم أنفسهم فى مكان مغاير ؛ كان معناه أن نستطيع تمييز الصواب من الخطأ على الرغم من الأحكام المسبقة ، والخلط بين الأزمنة ، ذلك الخلط الذى يجعل المعلومات التى يقدمها لنا المؤلفون ، فى غالبية الأحيان ، مرتبكة لحد يبعث على الحيرة ، إذ يمكن القول بأنهم ، جميعا ، قد أخذوا على عاتقهم أن ينثروا الغموض من حول هذا الموضوع . فمن كان يظن ، على سبيل المثال أن ديودور الصقلى يناقض

نفسه بنفسه ، فبعد أن يقول لنا فى بداية تاريخه (١) أولا : « **إن آلهة مصر الأولين كانوا يستلذون بالموسيقى ويستصحبون معهم فى كل مكان فرقة من العازفين ، وأن واحدا من هؤلاء الآلهة قد اخترع القيثارة ثلاثية الوتر** » ثم نجده يقول فى موضع آخر (٢) ثانيا ! « **إن الكهنة كانوا يتوجهون باغنياتهم إلى هذه الآلهة نفسها** » لكنه يعود فيخبرنا بعد ذلك **أن المصريين كانوا يأنفون من الموسيقى باعتبارها فنا ليس له من خاصية سوى إضجار الروح وإتلاف الخلق** . هل هناك ظل لدليل على أن شعبنا ظل طابعه المميز على الدوام هو الارتباط بالدين والتشبث بطقوسه القديمة ومبادئه يستطيع أن يكون متقلبا لحد يلفظ معه موسيقاه الخاصة به ، تلك التى تستمد قدسيتها من كونها قد جاءت بفعل آلهته الأول ، والتى يؤمن — هو — عن يقين من أنها — أى هذه الموسيقى — كانت تشكل مسرات هؤلاء الآلهة ؟ ألن نجد فى ذلك ، من جانبه ، تعارضا منطقيا يبلغ مرتبة التجديف والزندقة ؟ وكيف سيقدر له أن يتجاسر على استجداء عون هذه الآلهة نفسها ، تلك التى سيكون ، هو ، بفعل مثل هذا الازدراء المدنس لقداستها ، قد صدها مزدريا المعونات التى تهبها إياه ، وهذه أعز عليها بكثير ؟ إننا لفى دهشة ألا يكون أحد من المؤلفين قد أدرك بعد هذا التضارب الذى يكاد يسمل العيون كما لا يمكننا أن نتصور السبب الذى يكون قد حدا ببعض الكتاب حين تبنوا النص الأخير من ديودور الصقلى ، والذى لا يحظى قط بأى ترجيح ، وإنما ينبىء عن عادات وممارسات تتعارض بشكل مطلق مع تلك العادات والممارسات التى ظلت ترددها على الدوام ، وبشكل عالمى ، كل شعوب الدنيا ، بدلا من أن يتمسكوا بمقولته الأولى ، تلك التى تبدو أقوم قيلا وأكثر جدارة بالاحترام .

ومما لا جدال فيه أن المصريين لم يكفوا قط عن ممارسة الموسيقى فى بلادهم ، فلقد استقرت هناك ونظمت بموجب قوانين دينية وسياسية فى عهد ملوك مصر ؛ وأفلاطون هو الذى يخبرنا بذلك فى « قوانينه » وفى « جمهوريته » باعتباره شاهد عيان ، ومن ناحية أخرى فإنه لا يتحدث عن هذه الموسيقى إلا بإعجاب شديد . وحين استولى الملوك الفرس على مصر فقد نقلوا إليها معهم الذوق الآسيوى فى هذا

---

(١) Bibl. hist. Lib I, cap. 15, édit, sup. cit

(٢) شرحه : Cap 81, édit. sup. Cit

المضمار فأدى ترف هذه الموسيقى الآسيوية وبذخها إلى إتلاف الطابع الصوفى والرجولى الذى كان لموسيقى المصريين ، أما البطالمة الذين أعقبوا الفرس ، فقد بسطوا حمايتهم على هذا الفن وحفلوا به كثيرا ودرسوه هم أنفسهم بشغف شديد حتى أن المصريين ، وقد تشجعوا بالمثال الذى يقدمه حكامهم ، قد أقبلوا على فن الموسيقى بأكبر قدر من الحماسة وخطوا فى هذا المجال خطوات من التقدم واسعة وسريعة حتى اشتهر عنهم أنهم خير موسيقيى العالم طبقا لما يورده جوبا Juba نقلا عن أثينايوس Atlénée[١] ؛ ولنلاحظ أن هذه الفترة هى على وجه الدقة تلك التى كان ديودور الصقلى يزور خلالها مصر والتى أورد عنها أن المصريين يلفظون الموسيقى إذ ليس من شأنها إلا إضجار الروح وإتلاف الخلق . فهل كان هذا المؤرخ الذى يكن له العالم الطبيعى بلين Pline بالغ تقديره[٢] يروم خداعنا ! إن علينا بادىء ذى بدء ألا نسىء إليه بأن نرتاب فى نواياه ، وعلينا بدلا من ذلك الاعتقاد بأنه قد جاء وقت على المصريين أبدوا فيه نفورا من نوع من الموسيقى تختلف عن موسيقاهم ، ونظروا إلى تلك ، نتيجة لذلك باعتبار أنها لا شأن لها إلا أن تحدث آثارا ضارة على الأخلاق الحميدة . وعلى ذلك فليكن صحيحا أن الكهان المصريين الذين رجع ديودور إليهم ، لم تكن لديهم سوى فكرة مشوشة ، عن السبب المحدد الذى نتج عنه هذا المقت الذى بدا من جانب المصريين تجاه الموسيقى فى عصور متأخرة ، وليكن صحيحا كذلك أنه هو نفسه لم يجل بخاطره أن يسأل هؤلاء الكهان عن ذلك الشىء الذى كان ينصب عليه النفور الذى كان المصريون يبدونه تجاه هذا الفن ، وفى أية فترة كانوا يبدون فيه مثل هذا النفور أو الصد ، ذلك أنه لم يبدد حيرتنا حول هذه أو تلك من الفكرتين المتعارضتين ، وهو أمر سوف نأخذ كذلك على عاتقنا أن نوضحه ، وهو ما سوف يتوضح كذلك من تلقاء ذاته عندما نتصدى لدراسة حالة الموسيقى فى مصر القديمة .

لكننا ، لو أننا شئنا أن نتوقف لمناقشة كل هذه الأفكار الشاذة والمتناقضة والعشوائية ، تلك التى يقدمها لنا المؤرخون عن الموضوع الذى نعالجه ، واحدة بعد

---

(١) Deipn . lib.IV.

(٢) ولدى الاغريق كف ديودوروس (ديودور الصقلى) عن المخاتلة وكتب تاريخه عن المكتبة ، جايوس بلينوس سيكونورس (بلين) ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب الأول « إهداء إلى فسباسيانوس المؤله » ، بازل ، ١٥٤٩ .

الأخرى ، البتة لا ننتهى قط . بل لسوف يكون هذا ، فضلا عن كل ما سبق ، أمرا لا جدوى منه على أقل تقدير ، ولن يؤدى إلا لمضاعفة كل دوافع الشك ، بل ربما إلى إضعاف ثقة الأشخاص الذين قد لا تكون لديهم الارادة ولا الوقت الكافى لكى يلزموا أنفسهم بنفس الدرجة ولنفس القدر من الزمن اللذين كان علينا أن نبذلهما ، وان يقارنوا كل هذه الاراء المتباينة فيما بينها كى يستوثقوا من الحقيقة ، بل ولسوف ينفر القارىء إذا ما جعلناه يستشعر مزيدا من الارهاق بدلا من أن نسارع بتقديم ثمرة أبحاثنا ودراساتنا إليه .

إن ما نعنيه أكثر من كل ذلك هو أن يعرف هنا ما كانت عليه حال الموسيقى عند واحدة من أقدم أمم العالم وأن يقف على الطابع الذى كان عليه هذا الفن وماذا كان الغرض الرئيسى منه ، وأن يلاحظ الأساليب التى كان يستخدمها فيه شعب مخلص بطبيعته لمبادئه ومثابر فى تمسكه بعاداته ، ظل لوقت بالغ الطول هادئا وهانئا[١] بفعل القوانين البسيطة ، والتى كان كل شىء فيه مع ذلك يبدو متوقعا (أى أنها قد عملت حسابا لكل شىء) . ومن المثير للاهتمام أن نعرف أية مكانة تلك التى شغلتها الموسيقى بين الفنون والعلوم التى كانت هى غرس مصر فى زمن بمثل هذا القدم وان نقدر درجة الاحترام التى حظيت بها عند شعب مشهود له بالحكمة وفى بلد كان – هو – مهد العلوم والفنون ، فيه ظهر وتشكل أشهر الشعراء والموسيقيين فى العصور القديمة ، والذى – أى هذا البلد – غدا مدرسة يهرع إليها الفلاسفة والمشرعون من أمم الأرض الأخرى ينشدون المعرفة والعلم على أرضها . ويعنى القارىء فى النهاية أن يلاحظ وأن يتابع كل التجديدات وكل التغييرات التى أدخلت على الموسيقى فى مصر ، وأن يقف بشكل خاص على الشىء الذى أسهم أكثر من سواه فى تقدم ونضوج هذا الفن ثم بعد ذلك فى إفساده وتدهوره أو لعل هذا الاعتبار الأخير هو الذى أمكنه ، أكثر من غيره ، أن يجعلنا نلمح ونحس بالرابطة الخفية التى تربط الموسيقى بالأخلاق .

ومهما تكن مقاومة المصريين على الدوام كبيرة لأى نوع من التغيير فى نظمهم وعاداتهم وأساليبهم فإن ذلك كله لم يكن ليحميهم من التقلبات وصروف

---

(١) Jerem. Cap. 42; Strabon. geogr. lil XVII pag. 24, Basileoe, 1571, in- fol.

الزمن مما تتعرض له بقية الشعوب ، ففى كل مكان تحدث فورات وثورات تقلب وتدمر وتزيل امبراطوريات قادرة ، وفى كل مكان شاهدنا دولا جديدة تنهض ودولا أخرى تتفكك وتزول .

فلا جدال فى أنه قانون يتعلق به اتساق كل الأشياء التى تستضىء بنور القمر ، أما فحوى هذا القانون فهو أن ليس ثمة شيء يعيش فوق كوكبنا يظل دوما على حاله ؛ وأن الأمم ، وكذلك الأفراد من كل نوع ومن كل جنس ، يولدون عليها ثم يهلكون ، وهذه هى الدورة ؛ وأن وجه الأرض فى مجمله يتجدد دون انقطاع . كذلك تظل اختراعات البشر وعلومهم وفنونهم ، ولابد ، خاضعة بالمثل لهذا القانون نفسه .

وبعض هذه العلوم ، وبعض هذه الفنون مما كان مجهولا فى الماضى أو مما لم يكن لدى الناس بعد عنها سوى معلومات بالغة الضآلة هى اليوم علوم تدرس بأكبر قدر من النجاح . **وعكس ذلك بعضها الآخـــــر** ، مما كانت تحظى فى القرون الخوالى بأقصى قدر من التقدير ، إذ أنها قد بلغت درجة جد عالية من النضوج ومما كان الناس يجنون بفضله أكبر قدر من المكاسب فقد فقدت فى أيامنا هذه مكانتها بل تكاد تكون مزدراة اليوم إما بفعل انحلالها أو تفسخها وإما بسبب السوءات التى تنجم عنها وإما كذلك بفعل ضآلة النفع الذى يعود على البشر اليوم من ورائها . ولقد كانت الموسيقى والشعر بلا ريب من بين علوم النوع الأخير برغم أن الناس قد لا يتفقون معنا على ذلك بسهولة .

وعبثا يشهد أكثر ما تركه الشعراء والفلاسفة القدماء مدعاة للاحترام ، بنضوج وسطوة الموسيقى فى الأزمنة القديمة ؛ وعبثا كذلك أن يستطيع اتفاق أو اتساق كثير من الوقائع الحقيقية والشهادات الأصيلة التى لا يمكن عقل مستقيم أن يردها أو يشكك فيها ، أن تبدد كل الاعتراضات ، فكل ذلك فى حد ذاته لا يكفى بعد لتبديد التحيزات والأحكام المسبقة بل والتحفظات التى تمليها كرامتنا . فلقد نرنو كى نكون على يقين تام ، إلى أشياء مستحيلة : قد نريد أن نستمع إلى بعض من هذه الأغنيات التى توقف شدوها منذ الوف السنين أو على الأقل أن نطلع على نماذج لهذه الأغانى التى لم يدونوها قط ، بل التى لم يكن مسموحا على الاطلاق بتداولها عن غير طريق الصوت الحى ، ويبدو الأمر كما لو كان علينا الا نعتقد أنه منذ أن اختلطت الموسيقى والشعر معا ، فلم يعودا يشكلان سوى الفن نفسه ، إن لم يكن لأحدهما أن

يأخذ وجهة تختلف عن وجهة الآخر ! وكما لو أنه ليس من الواضح أن أزمان أفضل الشعراء وأجمل الشعر كانت هى بالضرورة أزمان أفضل الموسيقيين وأجمل الموسيقى .

لماذا ينبغى أن نشك إذن فى روعة موسيقى القدماء ، بينما كل شىء يبرهن لنا أن هؤلاء القدماء لم يتجاوزونا ، فقط وكثيرا ، فى كل الفنون الأخرى ، كما فى الشعر والعمارة والنحت الخ تلك التى لا نزال نرى لها ، تحت أبصارنا ، نماذج تدعو للاعجاب . بل إن ما بقى من هذه كذلك حتى اليوم لايزال يستعصى علينا تقليده ؛ ولقد كان الأمر هو نفسه بالنسبة لكل من جاءوا مباشرة بعدهم ؟ لنعترف إذن بضمير مستريح أن هؤلاء الذين أقاموا مثل هذه الصروح وروائع الأعمال ، قد كان لديهم ولابد ذوق أكثر رقة ومبادىء أكثر وثوقا عما هو لدينا ؟ فإذا ما كان مثل هذا التقريظ الذى يكيله أمثال هؤلاء القضاة (المؤلفين القدماء) للموسيقى القديمة قد تجاوز فى كثير المديح الذى دبجوه لمنتجات الفنون الأخرى فليس ذلك إلا لأن الموسيقى كانت تفوق كل هذه الفنون (فى أزمانهم) بقدر كبير

ولكن كيف سنتوصل إلى حقيقة حال الموسيقى فى مصر القديمة فى حين يرفعها أفلاطون لدرجة كبيرة فوق موسيقى اليونانيين القدامى ؛ وفى حين يقترحها هو بإعتبارها الأنموذج الأفضل والأكثر اكتمالا للموسيقى سواء بسبب تدفقها وحيويتها وسمو تعبيرها أو لروعة جمال ألحانها ؟ وكيف يمكننا أن نتوصل إلى تكوين فكرة دقيقة لأنفسنا عنها بشكل يكفى كى يمكننا من دراستها ؟ وعلام سوف نؤسس ما سنقوله عنها ؟ أيكون ذلك على أساس ما تشهد به الآثار أو على أساس من شهادات المؤرخين القدامى أو على أسس مما يقدمه لنا هؤلاء وأولئك فى وقت معا ؟

سبق لنا أن استرعينا الانتباه إلى ضآلة العون الذى يمكننا انتظاره من الأولين (الآثار) والى هذا الحشد من التناقضات الصارخة التى نجدها فيما بين الآخرين (المؤرخين) ، تناقضات تقف حجز عثرة دون أن يتمكن المرء من استخدامها بنجاح إلا بعد أن تفحص وتقدم بأكبر قدر من العناية أفكار كل مؤلف ، وميوله ، وإلا بعد أن نكون ، بصفة خاصة ، قد حددنا العصر الذى لابد أنه ينتسب إليه ما يخبرنا عنه – بخصوصها – هؤلاء أو أولئك من المؤلفين .

أولا : أما بخصوص المبانى القديمة التى لا تزال قائمة حتى اليوم فى مصر ، فإن كل شىء يخبرنا بأنها أبعد ما تكون عن أن تنتمى للقرون الأولى من الحضارة فى هذا البلد ، وهى القرون التى نذرنا أنفسنا للرجوع إليها مسترشدين بأوثق وأقدم الأقوال التى وصلت إلينا عن قدماء المصريين . إن نبل عمارة هذه المبانى وثراء وفخامة الزخارف و « التشطيب » وكل هذه المشاهد الرمزية ، وكل هذه الحفلات الدينية أو المدنية المنقوشة بأكبر قدر من العناية فوق الجدران ليست بقادرة على أن توحى لنا بإمكانية أن تعود إلى شعب انتظم منذ زمان قصير ، كما أنها ليست قط نتاجا شائها أو مجهضا لفن فى طور الطفولة ومن ناحية أخرى فإننا نجد من بين هذه المبانى[١] بعضا لم يكن قد اكتمل بناؤه فى حين نجد مبانى أخرى قد شيدت بأنقاض مبانى أكثر قدما . ولا يزال المرء يلمح أحجارا جديدة (أحجار ترميم) فى الأولى فى حين يلمح فى الثانية وبشكل خاص فى منشآت بعينها فى طيبة القديمة وفى داخل بعض البوابات أحجار تشكل كسرا أو فتاتا من تماثيل وضعت باتجاه مخالف (للنسق المتبع) وبدون أية رابطة تربطها بما يحيط بها . كما يلاحظ المرء فضلا عن ذلك ، وفوق الأفاريز حروفا هيروغليفية بل كذلك كتابات يونانية حلت محل كتابات هيروغليفية أخرى لما تنمح بعد آثارها[٢] .

من هنا يمكن المرء أن يستنتج أن الآلات الموسيقية التى نقشت على هذه المبانى نفسها لم تكن هى ، بالمثل ، أول آلات موسيقية عرفتها مصر بل ليس من المستبعد أنها كانت مجهولة كلية من قبل المصريين الأول طبقا لما سوف تواتينا الفرصة لملاحظته فيما بعد ، عندما سنتصدى لتفسير طبيعة هذه الموسيقى فى حالتها البدائية .

---

(١) مهما يكن بعض هذه المبانى حديث البناء وبعضها قديما فإن نوع العمارة فى الحالتين لم يتغير قط ، فهى تخضع على الدوام للمبادىء وللقواعد نفسها ، تلك التى كانت تتبع منذ زمان لا تعيه الذاكرة ؛ ويؤكد لنا أفلاطون ذلك فى كتابه الثانى من القوانين . إذن فلا تزال هذه المبانى ثمينة للغاية من هذه الزاوية الأخيرة . وقد نجدها دون ريب أقل زخارف بكثير عما كانت عليه فى زمن كليمانس السكندرى Clément d'Alexand إذا ما حكمنا عليها على أساس الوصف الذى يقدمه لنا عنها حيث يقول إنها كانت تغص (فى زخارفها) بالأحجار الكريمة والماسات والذهب والفضة الخ : .Paedag. cap. 11, p. 216

(٢) ومع ذلك فلابد لنا أن نصدق طبقا لشهادة أفلاطون ، الذى زار مصر بعد أن تمكن المصريون =

ثانيا : فليس هناك واحد من بين المؤلفين الذين واتتهم الفرصة للحديث عن هذا البلد ، والذين عرفوا على أكمل وجه النظم والعادات المستقرة هناك — قد أشار إلى الآلات الموسيقية ، على الرغم من أن هؤلاء يتحدثون على الدوام ، بنوع من الحماسة بخصوص الترانيم والأغنيات المخصصة للتعبد للآلهة ؛ أو أنهم لم يتناولوا فى أحاديثهم المزهر أو البوق (النفير) إلا لكى يقولوا فقط إنها آلات صاخبة . أما الآخرون ، وكما استرعينا الأنظار من قبل ، فيقولون لنا ، أحيانا ، أن الموسيقى قد دُرِّسَتْ فى مصر على يد آلهة هذا البلد الذين اتخذوا من هذا الفن متعتهم ؛ أو يقولون فى أحيان أخرى ، ان هذا الفن كان محتقرا منكورا من المصريين باعتبار لا خاصية له سوى إتلاف الخلق وإملال النفوس .

إذن فقد قام فى مصر رأيان متعارضان تمام التعارض ، أحدهما مع الآخر بخصوص الموسيقى ، يفرضان علينا بالضرورة أن نستنتج ونحدد حالتين لهذا الفن بالغتى التميز وشديدتى الاختلاف لكنهما يتعارضان لحد لا يمكن معه أن يكونا قد عاشا فى عصر واحد . لذلك فنحن نلمس وجود عصرين وحالتين مختلفتين لفن الموسيقى فى مصر القديمة : أما الحالة الأولى فهى تلك التى يتحدث عنها أفلاطون فى قوانينه وديودور الصقلى فى مكتبته التاريخية — الكتاب الأول[١] ، وهى تلك التى ظلت فيها الموسيقى فى حالتها الأولية ، بعيدة عن التحريف ؛ أما المرحلة الثانية ، ويتحدث عنها كذلك ديودور الصقلى[٢] فهى التى قامت فيها ممارسة الموسيقى ضاربة عرض الحائط بالمبادىء القديمة ، وقد أدت هذه إلى انحدار هذا الفن حتى أدنى درجات التفسخ والفساد . ويحدد هذا التمييز بطبيعة الحال التقسيم الذى قمنا به فى عملنا . ولهذا السبب فإننا قد ضمنا المرحلة الأولى لموسيقى مصر القديمة كل العصر الذى انقضى منذ نشأة الحضارة المصرية ومنذ ظهور أولى ترانيمها حتى العصر الذى أحدث فيه أجانب ، دخلوا هذا البلد ، بعض تحورات أو انحرافات فى أخلاق

= من طرد قمبيز وخلفائه عن عرش مصر ، أن المبانى الأثرية المصرية لم تكن فى ذلك الوقت قد دمرت بأكملها ، إذ يورد لنا أفلاطون أن المرء وكان لايزال فى عصره يرى فى المعابد أعمالا رائعة من الرسومات والنقوش يعود تاريخها لأكثر من عشرة آلاف عام ؛ أى أنه يفترض وجودها منذ زمان لا تعيه الذاكرة .

(١) Cap. 15 et 18.

(٢) Lib. I, Cap. 81.

المصريين،فبدل هؤلاء أو غيروا من عاداتهم وتعودوا نتيجة لذلك على أغانى أخرى وآلات موسيقية أخرى ، كانت كلها اغنيات هؤلاء الأجانب وآلاتهم ، وحصرنا فى المرحلة الثانية كل الزمن الذى انقضى منذ التغيرات التى حدثت فى موسيقاهم حتى الوقت الذى تقلصت فيه مصر نفسها لتصبح مجرد إقليم من أقاليم الامبراطورية الرومانية .

المبحث الثانى

عن الموسيقى المصرية القديمة فى حالتها الأولى

عن أصل ، وعن مخترع ، وعن اختراع الموسيقى فى مصر القديمة تبعا لما ترويه الروايات الدينية فى هذا البلد – عن الفكرة السامية التى تدفعنا هذه الروايات لتصورها عن الموسيقى المصرية فى طورها الأول ، وكم تصبح هذه الفكرة بعيدة حين نقارنها بالفكرة التى تقدمها لنا ممارسة هذا الفن حاليا – عن الضرورة التى يمليها ذلك علينا لكى نستعيد بشكل موجز ما كانته الموسيقى القديمة ، وبشكل خاص ، ما كانت عليه الأغانى فى عصور وسيطة بين العصرين اللذين التزمنا بدراستهما (أى بين الموسيقى المصرية القديمة فى عهد المصريين القدماء وبين الموسيقى العربية فى مصر تحت حكم العثمانيين – المترجم) .

عند شعب فاضل وجدير بالاحترام ، على غرار ما كان عليه شعب مصر القديمة ، بفضل حكمة نظمه ومؤسساته ، الدينية والسياسية ؛ وفى بلد كانت أنماط الحياة تتباين فى أقاليمه بقدر ما كان النظام العام ، وكانت النظم الاجتماعية ، تخضع فى مجملها لنير القوانين ، وحيث ارتبطت العلوم والفنون الرفيعة والفلسفية بالمذهب المقدس الذى لم يكن بمقدور طبقة الكهان نفسها أن تحدث به أوهى تغيير دونما ضرورة ملحة تفرض ذلك فرضا ، وبدون أن يكونوا قد فوضوا فى الأمر بشكل مشروع ؛ وأخيرا ففى ظل حكومة كان قد استقر عندها أن على الفنون أن تتوقف فى اللحظة التى تكف فيها عن العطاء والإفادة[١] فإن العلم أو الفن ، الذى كان يعلم الناس ترنيم الأغنيات التى كانوا يتضرعون بها إلى الآلهة أو تلك الأغانى التى كانت تخدم أغراض التعليم العام ، لم يكن ليتأسس على مبادىء باطلة متقلبة ، أو لتحكمه وتوجهه قواعد بالغة الصرامة أو تعوزها الدقة .

لم يكن فن الموسيقى بعد قد ابتعد بالقدر الكافى عن نشأته وأصله حتى يكون قد فقد تأثير طابعه الرجولى والسامى ، هذا الطابع الذى استقاه من الطبيعة نفسها عند نشأته ؛ كذلك فإن بعد هذا الشعب عن التجديد أو الابتكار يدفعنا لأن نستنتج ، وكل الأمور هناك تأتى لتدعم رأينا هذا ، أن هذا الفن فى مصر ، قد ظل لوقت طويل ، يحتفظ هناك[٢] بطابعه الأصيل .

ومن المؤكد أن المصريين الأول قد كانت لديهم فكرة سامية عن هذا الفن ، فهاهم أولاء ينسبون ازدهار حضارتهم ، بل ازدهار حضارة الشعوب كلها ، إلى الآثار البهيجة للموسيقى وإلى البلاغة الرخيمة والشجية لمشرعهم الأول ، الذى تمكن بفعل جمال أغنياته الباعث على الاقناع ، أن يجتذبهم وأن يستبقيهم إلى جواره ، وان يعودهم على حياة المجتمع ، وأن يجعلهم يتذوقون المباهج التى تجود بها هذه الحياة الاجتماعية ، حين أخذ على عاتقه أن يعلمهم بنفسه كيف يفلحون الأرض ، وحين هيأ نفوسهم لتلقى وتقبل القوانين والشرائع ، « فمنذ أن حكم أوزيريس المصريين ، كما تذكر إحدى رواياتهم القديمة ، فإنه قد خلصهم من الفاقة ومن الحياة الوحشية ، وذلك بأن جعلهم

---

(١) أفلاطون ، القوانين ، الكتاب الثانى .

(٢) المصدر نفسه .

يعرفون مكاسب (الحياة فى) مجتمع ، فأعطاهم القوانين وعلمهم كيف يبجلون الآلهة ، وحين أخذ يجوب كل الأرض فقد بدأ يمدن أقوامها دون أن يلجأ فى حالة واحدة إلى قوة السلاح ، وإنما هو قد أخضع العامة بأحاديثه السلسة ، والرقيقة مجملا إياها بكل المفاتن الخلابة التى للشعر والموسيقى ، وهذا هو ما جعل الاغريق يعتقدون أن أوزيريس هو باخوس نفسه »[١].

ومع ذلك فمن كان أوزيريس هذا الذى علم المصريين وحضرهم عن طريق أغنياته ، والذى جاب أرجاء العالم كله ، وعلم وحضر كذلك كل الشعوب ؟ إنه فيما يعتقد المصريون هو الشمس التى لا ينظرون إليهافقط باعتبارها مبعث الحرارة والدفء والضوء ، وانما كذلك باعتبارها مصدر المياه ، والتى تنبثق عنها كل العوامل الخيرة التى تخصب الارض وتثريها بألوف المنتجات المفيدة ، وباعتبارها كذلك مبدأ الحياة ومنشأ كل خير : فهى المبدأ الذى فاضت عنه نار العبقرية خالقة الفنون ومبدعة كل ما من شأنه الاسهام فى سعادة الجنس البشرى ، وفى كلمة ، باعتبارها الأصل الذى ينبغى على البشر جميعا أن ينسبوا إليه كل المميزات التى ترتبط بالمجتمع وبالحضارة[٢].

ومع ذلك فقد كان لهذا الإله فى الوقت نفسه عدو رهيب ذو عبقرية شريرة ، كان هو مبدأ لكل شر ، ولا هم له إلا أن ينصب لغريمه المكايد والفخاخ ، وأن يحدث القلاقل ويسبب الاضطرابات وأن يدمر كل خير . لذلك فقد كان لابد من أن توجد قوة أخرى ليس لها من شاغل إلا ان تصارع هذه العبقرية الشريرة ، وأن تتصدى دائما للشرور التى تريد هذه العبقرية الشيطانية أن تصنعهاأو أن تصلح من أثر الشرور التى صنعتها بالفعل . ولقد تمثلت هذه القوة فى أخى أوزيريس (كذا) حورس إله الشعر أو النغم والذى أعطاه الاغريق اسم أبو للون (أبو للو)[٣]. وهو نفسه على هذا الأساس الذى يعطيه ديودور نفس الاسم فى الرواية المصرية الأخرى[٤]! « كان

(١) جميع أعمال بلوتارخوس الباقية ، الإغريق واللاتين ، لوتيتيا ، باريس ١٦٢٤

(٢) كل هذه الخصائص التى تنسب إلى الشمس توجد فى ترنيمات أورفيوس وفى أغانى هوميروس وكذلك عند بلوتارك فى مقالته عن ايزيس وأوزيريس (انظر الترجمة العربية للدكتور حسن صبحى بكرى ومراجعة الدكتور محمد صقر خفاجة ، سلسلة الالف كتاب ، دار القلم ، القاهرة) .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) Diod. Sic. Biblioth, histor. lib II Cap, 18 pag. 53 .

أوزيريس يحب المرح والبهجة ، والموسيقى والرقص ، وكان يستبقى حوله على الدوام فرقة من الموسيقيين ، كان من بينهم تسع عذراوات كن بارعات فى كل الفنون التى تتصل بالموسيقى ، وقد اسماهن اليونانيون ربات الفنون أو الموسات وكان يرأسهن أبو للون الذى سمى لهذا السبب Musagète [أى قائد أو رئيس ربات الفنون] . ولو لم يكن بلوتارك (بلوتارخوس) قد أخبرنا أن هذا الذى أطلق عليه الاغريق اسم أبو للون كان هو نفسه من يسمى فى مصر باسم حورس (أو هورس) ، لما كان ليشك أحد فى حقيقة أن اسم أبو للون هو اسم يونانى محض ، كما أنه اسم لإله يونانى وليس أبدا اسما مصريا ولا هو اسم إله مصرى . ومن هنا فقد نكون محقين حين نستنتج أن ديودور قد استبدل بالاسم المصرى للمعبود المصرى الاسم الذى كان الاغريق قد اعطوه له ، وان كان هذا الخلط فى الأسماء فى اللغتين المختلفتين يظل إحدى السوءات فى ترجمة مؤلف ما : فقد كان ينبغى عدم إحداث أدنى تغيير فى هذه الأسماء دونما ضرورة ملحة .

وبرغم هذا كله فإن الأمر هنا لا يتصل مطلقا حتى الآن ، باختراع الموسيقى ولا بمخترعها ، ومع ذلك فمن الواضح ان هذه الموسيقى لابد وأنها قد بدأت تتخلق بالضرورة من قبل أن توجد ؛ فمن المحتمل ، طبقا لما تستوجبه هذه الرسوم المجازية أو الرمزية أو هذه التقلبات أو الروايات المقدسة التى انتهينا للتو من ذكرها ، أن الموسيقى كانت موجودة حتى عهد ما قبل أوزيريس الذى رحب بهذا الفن وبسط عليه حمايته واستخدمه هو نفسه بنجاح كبير . أما حورس (هورس) اله الشعر والنغم ، والذى كان يشرف على تنفيذها واستخداماتها فقد يكون – فيما يبدو – هو الأكثر قربا والأشد التصاقا بفن الموسيقى .

وطبقا لما تقرره رواية مصرية قديمة فإن اكتشاف هذا الفن يعود إلى مانيروس[١] Maneros . ولقد رأينا للتو ما كانه أوزيريس الراعى المبتهج لنفنون ورأينا بالمثل ما كانه هورس ، المشرف على العذراوات التسع اللائى أسماهن الاغريق بالموسات أى ربات الفتون واللاتى برعن فى كل الفنون التى تتصل بالموسيقى . ولم يعد يبقى علينا الآن سوى أن نعرف ما كانه مانروس ، مخترع هذا الفن .

---

(١) بلوتارك – المصدر السابق .

يذكر لنا هيرودوت[1] أن المصريين كانوا يطلقون هذا الاسم على من كان الاغريق يسمونه لينوس Linus ، ويضيف أنهم كانوا ينظرون إليه باعتباره ابنا لأول ملوك هذا البلد . وقد ظن العلامة جابلونسكى Jablonski[2] فى البداية أن اسم مانيروس قد يكون مركبا من كلمتين مصريتين : مينه Meneh أو مانه Maneh وتعنى الخالد وخروتى Chroti ومعناها ابن أو حفيد ، وبذلك نكون بازاء مينه خروتى أو مانه خروتى (لأن المصريين يلفظون حرف الـ E مثلما نلفظ نحن حرف الـ a) ، مما قد يعنى الابن أو الحفيد الخالد . وفى الوقت نفسه فإن جابلونسكى يسترعى الانتباه إلى أن رواية هيرودوت بخصوص مانيروس تبدو كما لو كانت تسوقنا إلى هذا التفسير ، ثم يضيف أن هيرودوت مع ذلك لم يعلق على روايته هذه أية أهمية . ، ثم يورد لنا بعد ذلك ما قاله هيسيخيوس فى شأن كلمة مانيروس ثم فى النهاية يقدم لنا – على هذا النحو ترجمة لنص من مؤلف هيسيخيوس : « **كان مانيروس ، بعد أن تدرب وتلقن الأسرار وتعلم على يد المجوس هو أول من علم اللاهوت للمصريين** » مستبدلا بكلمة Theologêsai كلمة Homologêsais التى نقرؤها فى النص (الأصلى) **لأن هذه الكلمة لم تقدم له فيما يبدو معنى مناسبا** . ومع ذلك ، أفلا يكون بمقدورنا أن نفهم من كلمة Homologesais (التى بدلها) معنى : **الذى جمعهم فى شكل مجتمع ، الذى حضرهم والذى منحهم الشرائع والقوانين** ؟ وقد لا يكون فى هذا المعنى شيئا مجافيا للصواب فى حد ذاته ، ولا هو يتنافر مع ما يخبرنا به كل من أفلاطون وبلوتارك : الأول حين يقول لنا إن كل اغانى المصريين كانت مكرسة لخدمة القوانين وكانت تحمل اسماءها[3]، واالثانى حين يخبرنا بأن مانيروس كان ينظر إليه من قبل المصريين باعتباره الشخص الذى اخترع الموسيقى ! ذلك انه يترتب على المعنى الذى توحى به قولة أفلاطون أن مانيروس بتأسيسه لفن الموسيقى فى مصر قد أعطى – ولابد – القوانين والشرائع للمصريين . وفضلا عن ذلك فمن الممكن أن تكون الرواية نفسها التى تنسب إليه اختراع الموسيقى قد قدمته كذلك باعتباره أول من حضر المصريين

---

(١) Hist. lib II.

(٢) Jablonski, Opuscula, p. 128.

(٣) أفلاطون ، القوانين ، الكتاب الثانى .

ومن هنا بلا ريب كان الاغريق يسمون أغانيهم باسم Nomos وهى كلمة تعنى : القانون .

بأغنياته والذى منحهم الشرائع والقوانين ، فهذه فكرة نجدها ماثلة عند المصريين وعند الاغريق ، بل كذلك عند اللاتين ، ومؤداها أن كل الشعوب تدين بمباهج تحضرها وحضارتها نفسها لفن الغناء .

إن ما كان المصريون يقولونه عن أوزيريس ، والاغريق واللاتين عن أورفيوس[١] يمكن أن يقال ، ولأسباب أقوى فى هذه الحال ، عن مخترع الموسيقى ، ذلك أننا نجد هنا ، دون جدال ، ان البشر قد التزموا بتلقى الشرائع والقوانين من واحد من أشباههم ، وبأن يعترفوا به معلما ورئيسا عن طريق الاقناع وعن طريق المباهج الخلابة والطاغية التى للبلاغة ، أكثر منه عن طريق القوة أو العنف . أما هذه البلاغة أو الفصاحة المحفزة للهمة على نحو كبير والباعثة على الاقتناع الشديد ، كانت فى الواقع ، وكما سنرى للتو ، نفس ما أسسته وأقامته الموسيقى الأولى .

وحين يخبرنا المصريون أن مانيروس قد اخترع الموسيقى وأنه قد مات-وكان بعد صبيا — فزعا من نظرة إيزيس الغاضبة والتى اهتاجت من تجرئه على الاقتراب منها سرا ، ليفاجئها وهى تقبل وجه زوجها المسجى ؛ وحين يؤكد لنا هيرودوت أن لينوس الاغريق لم يكن شخصا آخر سوى مانيروس المصريين ، وأن هذا الأخير كان ابنا لأول ملوك مصر ؛ وحين يخبرنا هيسيخيوس أن مانيروس هو أول من حضر المصريين فإن ذلك كله يبدو وكأنه يبرهن لنا بوضوح كاف ، على أن الاغريق قد سعوا لتقليد هذا الرمز المجازى فى أسطورتهم عن لينوس ، حيث يقدمون لنا هذا الأخير باعتباره مخترعا لموسيقاهم ، وأنه هو الذى حضرهم بفضل أغنياته ، لكنه قتل بفعل ضربة سددها إليه هيرقل بقيثارته حين بلغ به الغضب منتهاه — أو على الأقل فإننا نجد الاغريق — على نحو قريب من هذا قد زيفوا ، أو على نحو ما ، قد حاكوا ، فى خفة ، الاستعارات والرموز الفلسفية الحاذقة التى كانت لدى المصريين .

وحيث لا يسمح لنا العقل ، أو قل لأننا لا نجد سببا معقولا ، حتى الآن ، فى

---

(١) ظن علماء كثيرون ان اسم أورفيوس Orpleus يعود لأصل مصرى ، وهو اسم يعنى ، عند قبولنا لفكرة هذا الاشتقاق ، ابن حور (هورس) Ourus الذى يكتبونه على هذا النحو Horus . انظر : — شميت ، الأعمال التى فسرت أثناء العصور القديمة وبصفة خاصة فى العصور المصرية ، الرسالة العلمية الثالثة عن أسماء أو ألقاب أورفيوس وأمنيون ، كارلسروا .

أن نرى فى الشخوص الذين تشير إليهم الحكايات المصرية القديمة شيئا آخر سوى كائنات استعارية أو رموز ، فإننا غير قادرين على أن نجد من الدوافع ما يكفى كى نستبعد التفسير الاشتقاقى لأسم مانيروس ، والذى قدمه جابلونسكى لنا بجعله : ابن الخلودأو ابن الأبدية ، برغم أن هذا التفسير نفسه لا يقدم كثيرا ولا يؤخر ، وان كان يتفق بشكل أفضل مع العقل أو الفهم الذى يمكن أن نتصور به كل الرموز المصرية الأخرى .

وكما قد أطلق على إيزيس التى نراها وسط الموسيقيين ، محبة للغناء والرقص وتجد فيهما بهجتها وسعادتها ، اسم الهة الخير أو جنية الخير ؛ وكما أن حورس رئيس الموسات أو ربات الفنون التسع قد كان ينظر إليه باعتباره إله الشعر والنغم ، فإن بمقدورنا بالمثل ، ان نعطى للعبقرية (أو الجن) الذى اخترع الموسيقى اسم ابن الخلود (أو ابن الأبدية) ؛ وبهذا الخصوص نفسه كان الاغريق يقولون عن أبو للون إنه ابن جوبيتر ، ولم يكن لدى هسيود[1] Hesiode ولا بلوتارك[2] أسباب مخالفة عندما أطلقا على ربات الفنون اسم بنات جوبيتر ؛ بل ان لدينا سببا قويا لكى نستنتج أن المصريين كانوا يعتبرون مانيروس ابن الخلودأو ابن الأبدية أكثر مما كانوا يعتبرونه شيئا آخر . إذ نجدهم يقولون ان هذا الاسم لم يكن قط اسما لرجل[3]، وإنما هو مجرد اشارة رمزية ، وكانوا يستخدمونها عادة بمناسبة بعض الأحداث السعيدة أو أن من المرجح أنهم كانوا يقولون أى ابن الخلود ، أى ابن الأبدية ، كما نفعل نحن حين نقول : يا إلهى ! يا إلهنا القادر ! أو كما يقول الايطاليون والأسبان سانتا ما دونا ! ، أى يا سيدتنا العذراء المقدسة ! أو كما يقول العرب : يا الله ! كذلك فحين يدعو المصريون مخترع الموسيقى باسم : ابن الأبدية ، وحين يدعون حورس رئيس ربات الفن باسم إله الشعر والنغم وأخ لربة أو جنية الخير ؛ وحين يصورون إيزيس محاطة بالموسيقيين ، تطرب للموسيقى ، فلقد أرادوا بذلك أن يقولوا – ولا ينبغى لنا قط أن نشك فى الأمر- إن

---

(١) Hesiode, Theog. v. 25 et 36

(٢) Plutarque, des Propos des tables, quest. XIII, pag. 436, E.G.

(٣) Plutarque, d'Isis et d'Osiris

الموسيقى[١] هبة سماوية يحكمها القانون والتناغم أو التناسق فى كل جزء فيها[٢] وأنها تنسجم مع كل ما يوجد من خير [أى أنها توجد حيثما يوجد] أو بالأحرى أن كل خير[٣] يشكل [فى حد ذاته] موسيقى ، أى شيئا كاملا ومتناسقا ، أو أى عمل [آخر] من أعمال ربات الفنون .

مع مثل هذه الأفكار حول أصل وطبيعة الموسيقى ، فإن علينا ألا ندهش حين نجد المصريين يولون لهذا الفن مثل هذا التقديس الكبير ؛ فإذا كانوا مدققين لحد الوسوسة وغير متساهلين قط فى اختيار [كلمات] أغنياتهم[٤]، واذا ما وجدناهم قد أباحوا بموجب قوانين أغنيات بعينها ، هى التى بدت لهم الأفضل ، ثم حجبوا عن قصد أغنيات أخريات ؛ واذا كانوا قد ألزموا كل امرىء ، الزاما لا فكاك منه ، بأن يقوم بدراسة الموسيقى وبأن يدرسها بدوره لوقت محدد ، واذا ما رأينا الموسيقى تشكل جانبا من مبدئهم المقدس وتصوغ كل تراتيلهم الدينية ، وكذلك اذا ما وجدناها ، حال انتقالها من المصريين إلى اليونان عن طريق مستعمرات هى — أى هذه المستعمرات — التى حضرت هذا البلد[٥]، قد أحدثت — أى الموسيقى — هناك تأثيرات مدهشة لهذا الحد ، واذا ما ظلت تثير هناك الاعجاب والتقدير طيلة الوقت

---

(١) كان القدماء يقصدون عموما بكلمة **موسيقى** كل ما هو خير وكل ما يتفق مع الصالح العام . ويستخدم أفلاطون كلمة موسيقى بهذا المعنى ، وكان شعراء الملاحم والبطولات ، وشعراء التراجيديا والكوميديا يعطونها فى أغلب الأحيان معنى مشابها .

(٢) ترتبط الموسيقى بالنظام ، حتى أننا لا نستطيع أن نضع لحنا جيدا ولا أن نقدم (هارمونى) جيدا باصطناع نغمات لا تنسجم فيما بينهما ، وليس هذا وحسب ، بل إن من المستحيل علينا أن نستخدم فى المجال الموسيقى نغمات ذات ترددات غيرمنتظمة أو غير مترادفة (أى متساوية الديمومة) . وقد أشار الاغريق إلى هذه النغمات المتسقة بكلمة enmelis التى لا نستطيع أن نوردها هنا إلا بكلمة mélodique أى نغمة لحنية إذ ليس لهذه الكلمة اليونانية مقابل دقيق فى لغتنا كما أن لغتنا لم تستوعبها بعد ، أما النغمات المخالفة لتلك (النغمات المتسقة) فكان يشار إليها بكلمة ekmelis والتى لا يمكن أن نجد لها مقابلا فى لغتنا إلا كلمة antimélodiqui (أى النغمات غير اللحنية أى النغمات النشاز) .

(٣) استخدم المؤلفون الاغريق القدامى فى بعض الأحيان كلمة موسيقى كصفة تعنى النظام الاسمى أو الأكمل وذلك عند وصف النسق الذى يقوم على أساسه شيء ما ، كما نصف على سبيل المثال النظام الأكمل الذى يلاحظ فى صفوف جيش مصطف لخوض معركة . وسوف يصبح ذلك كله أكثر وضوحا عندما سنشرح فى مبحثنا الرابع ما كانته موسيقى المصريين فى حالتها الأولى .

(٤) انظر فيما بعد المبحث الرابع .

(٥) AESChyl, suppl. init.

الذى كانت لا تزال خلاله فى براءتها الأولى ، فلن يكون اعتباطا إذن ان أفلاطون ، الذى قد كان شاهد عيان (أو شاهد سماع ان جاز التعبير) لا يتحدث عن هذه الموسيقى الرفيعة إلا بقدر كبير من الاعجاب والحماسة .

وفى الوقت نفسه فإن ما يبدو لنا اليوم ، بلا ريب ، أمرا فريدا أو غير مألوف ، ولم يكن يبدو كذلك بالتأكيد فى الماضى ، هو أن المدينة التى أقامت بها أول مستعمرة من المصريين فى اليونان كانت تتشرف بأن تحمل اسم أرجوس Argos(١) والتى كانت فى حروفها المصرية تلفظ إرجو erdjo ؛ وتعنى موسيقار أو من يشتغل بالموسيقى ؛ وانه كان يشار باسم أومولب Eumolpe والتى تعنى المغنى اللطيف أو المحبوب ، إلى البطل المصرى الذى ينازع إريختيون عرش أثينا ، والذى انشأ فى هذا البلد فصلا دراسيا كهنوتيا على غرار مدارس الكهنة المصريين ، وظل أحفاده الذين كان يشار إليهم باسم أبناء أو حفده أو مولب Eumolpides يحتفظون لأنفسهم وحدهم بحق الالتحاق به ، ولعلنا نلمس من ذلك أن ما كان يميز المصريين بصفة خاصة كانت – وعلى وجه الخصوص – هذه الدرجة العالية من الاكتمال أو النضج التى بلغوها فى الموسيقى ، لاسيما فى الأغنيات ، كما لم يكن قد عرف لديهم من لقب أكثر مدعاة للشرف من لقب موسيقار أو مغن(٢) .

وفى النهاية ، فإن الشىء الذى لابد وأن يجعلنا – بصفة حاسمة – على يقين بأن هذا الفن قد عرف مصر وانتشر بنجاح بالغ ، وبأنه قد تأسس هناك على مبادىء أكيدة هو أن أشهر الموسيقيين الشعراء فى العصور القديمة : ميلامبوس ، أورفيوس ، هوميروس ، موسايوس . تربانادر ، طاليس ، فيثاغورث هم على وجه الدقة الذين تكونوا فى مدرسة المصريين وأن لا أحد غيرهم منذ ذلك الوقت قد استحق ما ناله هؤلاء من التقدير ، ولا تمتع باعتبار يماثل ما كان لهؤلاء من كبير الاعتبار .

---

(١) Jablonski, opuscula, tom. I, pag. 36.

(٢) يبدو أن هذا اللقب (موسيقار ، أو مغن) كان فى واقع الأمر عند قدماء المصريين لقبا يعبر عن بالغ التكريم إذ كان يعطى لحامله حق الصدارة وسط كبار الكهان طبقا لما يخبرنا به كليمانس السكندرى Clément d'Abx . وقد كان الأمر على هذا النحو كذلك فى أوساط اللاويين عند بنى إسرائيل وبين الدرويد druide عند الغاليين ، كما كان الحال يسير على هذا المنوال بلا ريب فى كل مكان .

ولعل الأفكار المسبقة التى ولدتها فينا موسيقانا الحديثة قد ترتفع لاتهامنا بالمبالغة فيما نسوقه الآن ، ولكن العالم كله لا يعرف بلا جدال أن الموسيقى التى نتحدث عنها كانت بالغة الاختلاف عن تلك التى نصنعها اليوم والتى ليست فى واقع الأمر سوى اعتساف للفن يبلغ به مرحلة الفساد .

كانت الحقيقة والجمال والحيوية ودقة التعبير وعذوبته تشكل الموضوع الأساسى للموسيقى القديمة ؛ وكانت البساطة المهيبة ذات الجلال والسامية التى لا يوفرها سوى اختيار موفق تمليه المتطلبات الضرورية وحدها التى للفن — كان هذا كله هو الذى يعطى لسطوة تأثيرها على الدوام هذا النجاح المعصوم والمضمون ؛ أما الزخارف أى تلك النغمات الاضافية وكذا التعقيدات فإن بمقدورها — فيما يبدو — أن تبارك هذه المباهاة المتعجرفة والخاوية للفنان أكثر من أن تبلغ به الهدف الحقيقى للفن . العكس من ذلك هو ما يحدث فى موسيقانا الحديثة ، فإن النغمات الاضافية والتعارضات أو التعقيدات هى على نحو ما عناصر تكوين الفن ، وبدونها لا يكون الفنان فى عين العارف العامى أو المبتذل : أما الحقيقة ، أما الحركة والجمال وعذوبة التعبير ، فصفات أو ميزات ليس لذوقنا الاستعداد الكافى لاستيعابها ، أو حتى المران عليها ، حتى لم نعد نلقى لها كبير بال فى أيامنا هذه . أما فى العصور الضاربة فى القدم فقد كان كل شىء يحمل طابع الوقار والهيبة ، والعقل والحكمة فى حين يبرز كل شىء فى القرون اللاحقة ، وبصفة أساسية فى العصور الحديثة ، طابعا من النزق ، أو هو يكشف عن أبحاث من اللغو ، لا جدوى ولا طائل من ورائها ، تجهد نفسها كى لا تجسم فى النهاية سوى التفاهة .

ليست لدينا موسيقى منذ نحو ألفين إلى ثلاثة آلاف عام ؛ ومع ذلك فحتى لو أن كان لدينا اليوم شىء منها ؟.فمما لا جدال فيه أننا كنا سنلمس — لحد يدفعنا على الاعتراف بالحقيقة — أن الموسيقى الأقدم كانت هى الأكثر جمالا ونضجا ؛ وفى الوقت نفسه ، فإننا نستطيع أن نحكم على الأمر عن طريق عقد المقارنات بين منتجات الفنون الأخرى ؛ ولنأخذ البلاغة على سبيل المثال ، وهى التى كان لها أكبر قدر من الاصهار أوأواصر القربى مع هذه الموسيقى القديمة ، ولنتأمل وحسب ما يميز فصاحة الخطابة عند الموسيقيين عنها عند شيشرون ، وسنرى أن قوة الأسباب والبراهين عند الأول ، قد بزت الأشكال والصور ، فى حين تبدو هذه الأشكال

والصور عند الثانى ، وعكس ذلك ، هى التى سيطرت على الخطابة أو البلاغة حتى أنها تترك كل مقومات الفن عارية دون حماية . كذلك فإننا فى الشعر ، فى الرسم ، فى العمارة ، فى كل شىء ، سوف نجد تباينا مماثلا من نوع مخالف . وكم تبدو روائع أعمالنا فى النحت أدنى مرتبة من (تمثال) أبو للون Pythien(*) من (تمثال) لاوكون Laocon(**) .

إن كل شىء يقدم لنا شهادة لا يمكن ردها على أن الفنون تنأى كثيرا عن غاياتها الحقيقية . بينما هى تقترب من عصورنا الحديثة ، وان البشر قد أصبحوا يولون اهتمامهم باساليبها أكثر مما يعكفون على أغراضها ، ولهذا السبب نفسه ، فقد أصبحت هذه الفنون ، بالقدر نفسه ، أقل نفعا وبالتالى أقل مدعاة للتقدير والاحترام . لقد سقطت موسيقانا الحالية من أعلى مراتب الأهمية التى كانت لها فى الماضى ، ولقد تعرت من كل نفوذ لها أو سطوة كانت تمارسهما على التقاليد فى العصور القديمة ، وبصفة خاصة عند المصريين ، حين لا تقدم للناس ، فى حالة الفساد والانحلال التى تزرى بها اليوم وتشوهها ، أو عندما لم تعد تقدم سوى أقل القليل من الوشائج والتى كانت تشيع فيها فى ماضيها القديم : إن الفرق المذهل القائم بين ما هى عليه اليوم وبين ما كانته فى مصر القديمة ، وتلك المسافة الزمنية الشاسعة التى قدر علينا أن نقطعها فى قفزة واحدة لكى نبلغ زمنا يمثل هذا البعد والتى تمثل فى بعدها هذا تلك الحقبة التى نضطر للعودة إليها – إن هذا كله ، بالاضافة إلى ألوف من الأسباب الأخرى كذلك ، يجعلنا ندرك أنه لا مناص لنا عن أن نقدم هنا بعض لمحات عن موسيقى العصور الوسيطة قبل أن نتوسع أكثر من ذلك فى محاولتنا لتبين حالة هذا الفن عند المصريين القدماء : ذلك أن المرء ربما قد لا يعرف (بغير ذلك) كيف يستوعب أو يخفف من هذا التباين والتنافر الباعثين على الصدمة لهذا الحد ، واللذين يبدوان عندما نعقد مقارنة ولو عابرة بين الموسيقى الحديثة والموسيقى القديمة ! فقد يكون بمقدور هذا التناقض ، الذى لم نمل من التنبيه إليه حتى أصبح محسوسا لدرجة كافية أو تزيد

(*) انظر الهامش رقم ٣ ص ٧٦ . (المترجم)

(**) ابن بيرام وهيكوب ، وكاهن ابو للون فى طروادة . وتقول الأسطورة إن أبناءه قد قتلوه خنقا بثعبانين عملاقين . (المترجم)

عن الكفاية ، إذا لم يتم إضفاء بعض الملاءمة عليه ، أن يخنق خيال أولئك الذين تشدهم الاحكام المسبقة ، وأن يلقى بظلال من الشك على ما بقى علينا أن نقوله (فى ثنايا هذه الدراسة) حتى ليبدو أمرا أقل رجحانا .

المبحث الثالث

عرض موجز لطبيعة الموسيقى ، وبصفة خاصة فن الغناء عند الأقدمين – الغرض الرئيسى لهذا الفن عندهم ، استخدام الغناء الشفاهي التقليدى ،الذى كانت تأخذ به كل الشعوب فى العصور الضاربة فى القدم ، فكرة عن مبتكر وعن ابتكار الكتابة والحروف الهيروغليفية ، وعن النتائج التى نجمت عن ابتكار الحروف بالنسبة لكل من فنى الموسيقى والشعر ، وعن النفور الشديد الذى أبداه المصريون تجاه هذا الفن .

هذه فكرة قد لا نكون بحاجة لأن نلح فيها حتى نجتذب إليها الانظار . وهي أننا كلما رجعنا إلى الوراء باتجاه العصور القديمة ، الضاربة في القدم ، كلما اتخذت الموسيقى طابعها الوقور ، الجاد والنبيل ، وكلما اتسع مداها وزادت سطوتها ! وعلى العكس من ذلك ، فكلما اقتربنا باتجاه العصور الحديثة ، كلما بدأ هذا الفن تدريجيا يفقد من وقاره ومن صرامته ، وكلما أصبح هشا تافها ، ينطوي على نفسه ليتخبط داخل حدود ضيقة . وفيما مضى ، حين كان هذا الفن يرتبط بالشعر في مبادئه ، بل كذلك بقواعد النحو ، فإنه لم يكن يختلف في كثير عن البلاغة الحقيقية(١).

فالفعل يغني ، عند القدماء . كان معناه أننا نعطي للصوت البشري النغمات الصوتية الأكثر ملاءمة للمعنى الذي تأخذه – ولابد – كل كلمة من كلمات الخطاب(٢)، كان معناه أن نسمع النغمة الشعورية التي من شأنها ، أكثر من غيرها ، أن تحرك القلوب وأن تولد الاقناع وتؤكد الاقتناع ؛ ذلك أن كل خطاب يعد لكي يلقى في جمهور ، كان ينبغي أن يكون شعرياً ومنغما ويعد جزءا **متكاملاً** مع الموسيقى(٣). ومن هنا جاءت العبارة التي كان الشعراء يبدأون بها أشعارهم ، إنني

(١) Plat., de Legib, lib II et lib V; de Republ. lib II et lib. III, et in Protagoras
Demosth. orat, de Corona

(٢) Strab. geogr. lib I, p. 16 et 17, gr, et lat., Basilae, 1571, in- fol.

وكل هذا النوع من التنغيم ، أي التغيير في نغمة أو ايقاع الصوت كان يسمى فيما مضى غناء ، وعلى هذا النحو فإن يوريبيديس في مسرحية إيفيجينيا (البيتين ١٤٥ – ١٤٦) يسمي الشكايات التي يطلقها الاحساس بالألم اغنيات غير غنائية (أي لا سبيل لأن تغنى على أنغام القيثارة antilyrique) وذلك بالطريقة نفسها التي يسمي فيها مسرحيته الفينيقيات (البيت ٨١٣) تلك الصيحات المفزعة التي ينتزعها الألم بالأغنيات العارية عن الموسيقى . وهي الأمر الذي يعني ، في الحالة الأولى أن الأغنية لم تكن محصورة في نطاق الأغنيات التي تصحبها أو تدعمها أنغام القيثارة ، التي لم يكن ينبغي قط الابتعاد عنها عند القاء خطاب ، وهو يعني في الحالة الثانية أن الصوت كان يحدث بفعل وجود فجوات أو مسافات صوتية غير متناسقة وقعا غير مناسب للأذن تمجه الموسيقى . وقد استخدم الشاعر كذلك الفعل يغني بمعنى أعلن أو نشر أو أذاع ؛ واننا لنجد في التراجيديات الاغريقية ، بشكل خاص ، أكثر من غيرها نبذا وأفكارا رائعة وأكيدة لما كانت عليه الموسيقى القديمة .

(٣) وهو نفس ما قاله افلاطون بشكل صريح في جمهوريته ، حين أجرى على لسان سقراط هذه العبارات :

« سقراط : ان الخطابة بلا جدال هي جزء من الموسيقى .

اديمانت : نعم .

سقراط : وهناك نوعان من الخطب : بعضها صحيح وبعضها الآخر مصطنع أو مختلق » . =

أنشد ، إننى أقدم لكم ألحانى . ومن هنا كذلك جاء اسم شعر Poème *الذى* كانوا **يطلقونه** على مؤلفاتهم أو مقطوعاتهم ، **وهو** كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية Piéo وتعنى إننى أصنع ، إننى أنظم بفن (أى باتباع قواعد بعينها) وذلك للتمييز بين هذه المنظومات المدروسة وبين تلك التى تنظم دون فن أى بدون اتباع لقواعد فنية ، أو بينها وبين أحاديث العامة . وهكذا جاءت كلمة ode (وتعنى قصيدة غنائية أو أنشودة) وقد اشتقت من الكلمة اليونانية Odhi ومعناها الغناء ، وهكذا بالمثل تكونت كلمة tragédie[1] (التراجيديا أو المأساة) وهى تشتمل على كلمتين : الكلمة السابقة Othi والتى تعنى ode أى غناء ، ثم كلمة Tragos وهى تعنى التيس bouc لأن الشخص الذى كان يحوز النصر فى أعياد باخوس كان يتلقى مكافأة له جلد تيس ، أى قربة مليئة بالنبيذ ، وعلى هذا المنوال جاءت كذلك كلمات كوميديا Comedie . رابسودى rapsodie ، باليوندى Paliondie ، بسالمودى Psalmodie ، ايبوده epode ، وبارودى Parodie .. الخ[*] ، إذ تتكون هذه الكلمات جميعا من كلمة Odhi وتعنى غناء بالاضافة إلى كلمة أخرى تحدد نوع هذا الغناء ؛ وأخيرا فعلى هذا النحو كذلك

= وهو يقصد بالأولى الأشعار الملحمية وبالثانية الأساطير أو الشعر الرمزى ، وكل بقية الكتاب مخصص لدراسة كل واحد من هذين النوعين من الخطابة ثم يقول سقراط بعد ذلك فى الكتاب الثالث من جمهورية أفلاطون :

« سقراط : يبدو لى أننا قد عالجنا حتى النهاية هذا الجزء من الموسيقى الخاص بالخطابة والأساطير ، لأننا قد استقصينا موضوعات وشكل الخطابة

اديمانت : إننى أرى نفس رأيك .

سقراط : يتبقى علينا إذن أن نتحدث عن هذا الجزء الآخر من الموسيقى الذى يختص بالغناء والتطريب . الخ »

وهكذا يتبدد كل غموض ، فمن الواضح أن أفلاطون كان يعتبر أن الخطابة جزءا متكاملا مع الموسيقى أو متمما لها .

(١) طبقا لما يذكره الاب فاترى Vatri (فى خطبة القيت فى الجمعية العمومية لأكاديمية الآداب والفنون الجميلة ، ابريل ١٧٤٨) فقد تكونت التراجيديا أو المأساة من الشعر الغنائى ، وان كان أفلاطون يظن أنها قد جاءت من قصائد المديح التى كانت تغنى على شرف باخوس . انظر :

Mémoires de l'Academie des inscriptions et belles- lettres, tome. XV, p. 235 et s.

(*) ومعانى هذه الكلمات بنفس الترتيب الذى جاءت عليه هى : ملهاة ؛ قصيدة شعرية ينشدها رواة محترفون (وهى اليوم تعنى منتخبات موسيقية ؛ قصيدة تراجعية : وهى تلك التى يتراجع فيها الشاعر عن شىء قاله من قبل ؛ الترتيل أو الانشاد الرتيب ، الايودة وهى قصيدة يونانية يعقب فيها بيت قصير بيتا أطول منه ؛ محاكاة ساخرة أو تحريف على سبيل الهذر أو السخرية [المترجم]

جاءت كلمة بروزوديا Prosodhia أى Prosodie نفسها(*) وهى المكونة من كلمتين يونانيتين : pros ومعناها من أجل ، أو لغرض ، و odhia بمعنى الغناء ، لأن هذا الجزء من الأجرومية يشتمل على القواعد التى ينبغى على المرء اتباعها ، كى ينغّم خطابه على نحو جيد ، أى لكى يغنيه جيدا ؛ ذلك أن كلمة accentuer أى ينغم قد جاءت بدورها عن اللاتينية accentus وهى كلمة مركبة من كلمتين : ad بمعنى من أجل و cantus بمعنى الغناء ، وهذه كما نرى ترجمة دقيقة لكلمتى pros و odhi اللتين تعنيان بالمثل من أجل الغناء وهما الكلمتان اللتان تتكون منهما كلمة prosodie أى علم العروض .

وفى واقع الأمر فإن كلمة accentus عند اليونان ، مثلها مثل كلمة prosodia عند الاغريق ، كانت تعنى هذه الحركة التى يرتفع بموجبها الصوت أو ينخفض أثناء إلقاء الخطاب ، طبقا للقواعد التى كانت تجعل من الخطاب ضربا من الغناء ؛ ولهذا السبب أيضا فإن هؤلاء الذين كانوا يعلمون التأليف أو الخطابة ، كانوا يصطحبون معهم أحد العازفين كان ينظم لهم (إيقاع) خطابتهم ، بواسطة آلة موسيقية تسمى tonarion أى صانعة النغم ، اذ كانت هذه تعطى النغمة المبتغاة ، أو كانت تسمى phonasque أى الصوتية لأنها كانت هى التى تقود الصوت أو تهديه ؛ ولقد رأينا كذلك خطباء بالغى التميز عند الرومان(١) كانوا يجدون فى طلب ذلك ، حتى فى الخطب التى يلقونها على الجماهير ، سواء كان ذلك على منصات الخطابة أو فى ساحات المحاكم ، ومع ذلك فلم تكن هذه سوى سوءة ، فقد كانت مجرد سعى لمحض التباهى والفخفخة ، كان يعيبه شيشرون الذى كان يكتفى حسب قوله عندما يلقى خطبه بإحساسه الخاص ، وباستخدام قواعد العروض التى اعتاد الناس استخدامها . ولقد بلغ تعود الناس على هذه القواعد عند الإغريق ، وبصفة خاصة فى أثينا لدرجة أن الصدمة التى كانت تعتريهم عند سماعهم تغيرا فى مقام الصوت ، مخالفا للقواعد

(*) ومعناها علم العروض أو علم نظم الشعر ؛ وتعنى كذلك المنظومة الموسيقية ؛ كما تعنى طريقة العزف أو الغناء وتعنى أيضا المدخل الغنائى . [المترجم]

(١) Plutarque Oeuvres morales, comment il faut refrener la cholère, traduction d'Aymot.

[بلوتارك ، مؤلف فى الأخلاق ، كيف ينبغى أن نقهر الغضب]

المألوفة لم تكن لتقل عما يعترينا اليوم عند سماعنا خطأً لغويا أو نحويا ؛ وحيث لم يكن الاغريق الآخرون يلقون كبير بال لقواعد العروض هذه بنفس الدرجة من الحرص التى كان يبديها الأثينيون ، فقد كان العامة ، حتى من أدنى طبقات الشعب يتعرفون على هؤلاء دون مشقة ، وبمجرد أن يتلفظوا ، عن طريق هذا العيب .

وترجع عادة استخدام آلة موسيقية لضبط واصطحاب صوت الخطباء والشعراء[١] فى الخطب المعدة والتى « جهزت » لكى تغنى ، أى لكى تلقى فى جمهور ، إلى عهد سحيق ، فلم يكن للقيثارة فى أصلها ولزمان طويل للغاية ، من استخدام أو نفع إلا ما تقدمه التوناريون أى صانعة النغم فى عصور لاحقة . وقد يكون من غير المعقول أن نفترض أن هذه الآلة الموسيقية التى ظلت لقرون عدة لا تحمل سوى أوتار ثلاثة ، يبعد كل وتر منها عن الآخر بفاصلة رباعية واحدة (فترة تتكون من أربع درجات) ، قد أمكنها **فقط** أن تستخدم فى اصطناع أغنية من تلك التى نلحنها نحن بكثير من المهارة ، فلقد كان فن الموسيقى عندئذ بالغ الصرامة شديد الوقار لحد يستحيل معه أن يكون على أقل استعداد لاستيعاب أو تقبل هذا النوع الهش ، والعاطل من كل معنى ، والذى يضحى فيه بالحقيقة وتدفق التعبير وحيويته فى سبيل تحقيق لذة تافهة لا طائل منها ؛ لذة حسية صرف ، اصطنعت لدغدغة الحواس ورخاوة النفس ، تأباها الروح ويمجها العقل ، فهذان لا يقدران على استيعابها على الاطلاق ، فهى قادرة على تشتيت الانتباه بل تغيير مساره بشكل تام وابعاده عن غايته الرئيسية ، والتى — أى هذه الأغنيات — تتعارض كلية مع الغاية التى كانت الموسيقى القديمة تبتغيها .

وحيث لم تكن الموسيقى والشعر والبلاغة (أو الفصاحة) فى العصور بالغة القدم سوى علم واحد ، ووحيد ، يستوعب كل ما يدخل فى دائرة الصوت والكلمة فى الحديث[٢] فقد كان الموسيقيون نتيجة لذلك هم وحدهم الشعراء والخطباء والمؤرخين ؛ وكان يطلب إليهم أن يتمايزوا بخاصياتهم[٣]، وكانوا يكرمون فى معظم

---

(١) كان الشعراء فى العصور القديمة هم فى الوقت نفسه الخطباء والمؤرخين والفلاسفة .

(٢) أفلاطون ، الجمهورية ، الكتابان الثانى والثالث .

(٣) Plat. de legib II et lib VII; de Rep. lib. III; Io, vel de Furore poetico.

(محاورة إيون ، أو عن الإلهام فى الشعر) .

الأحيان بأن تطلق عليهم ألقاب القديسين والأنبياء ورسل الآلهة . وعلى هذا النحو كان أولئك المكونون لطائفة المرتلين والمنشدين والمغنين والشعراء(*) بين اللاويين عند بنى اسرائيل وبين طبقة الكهان عند المصريين ، وهؤلاء الذين كانوا يشكلون طبقة شعراء الملاحم والبطولات بين الدرويد عند الغاليين ، وهكذا كان تاميريس Tamyris وميلامبوس ، وموسايوس وأورفيوس عند أهل تراقيا ، وفيميوس Phémius وديمودوكوس Demodocus وهوميروس وهسيود وأولمب وترياندر عند الاغريق ... وكان كل هؤلاء جديرين حقا بتلك الألقاب التى توجب الاحترام إذ كانوا يقدمون أحداث الماضى(١) ، باعتبارهم أكثر علما بها من الآخرين جميعا ، فى أشعارهم كدروس مستقاة من التجربة ، يخلدون ذكراها دونما توقف ويحتفظون لها على الدوام بالذكرى الوفية ، وينقلون بقدر متماثل وبكثير من القوة والحقيقة حتى تلك الانطباعات التى كانت هذه الأحداث تأتى بها على أولئك الذين أسهموا فيها(٢)، بل لقد كانوا يجعلون الناس يستشعرون مقدما الانطباعات التى كان لابد أن تأتى بها الأحداث التى يعلنون أو يتنبئون أنها ستهدد الأجيال القادمة إذا ما أهملت نصائحهم بتحريض من لا مبالاة آثمة(٣). لقد كانوا كذلك جديرين بهذه الألقاب لأن أشعارهم زاخرة بالعظات العميقة والحكيمة والمبادىء الرائعة(٤) وتقدم طيلة الوقت دروسا للبشر كان يرجع إليها حين يتصل الأمر بتنظيم مصالح الأمم أو تدبير مصالح الأفراد(٥)، وتهذب الشعوب

= Strabon, geogr., lib I, pag. 14; et lib X, pag. 533, edit. sup. laud.

Aristid. Quint. de Musica, lib II, pag. 74, ienter Music. Auctores septem, edit, Meibom. Amstelod 1752, in 4°

(*) الكلمة الفرنسية المستخدمة فى النص الفرنسى هى Chantres وهذه تعنى كل هؤلاء . وقد أوردنا كل معانيها إذ يتفق ذلك مع السياق هنا . [المترجم]

(١) لأن كل من هو موهوب فى المعرفة لديه علم بأحداث الماضى ويمكنه التكهن بأحداث المستقبل . يعرف فنون الخطب وحلول الألغاز ، ويعرف سلفا العلامات والنذر وأحداث الأزمان ؛ كليمانس السكندرى ، ستروماتا ، الكتاب السادس ، ص ٦٦٠.

(٢) انظر فى الأوديسة ما ينقله الينا هوميروس عن تأثير أغنيات ديمودوكوس وفيميوس .

(٣) انظر فى التوارة الآثار التى كانت تحدثها النبوءات على الشعب اليهودى .

(٤) أفلاطون ، القوانين ، الكتاب الثانى والكتاب السابع .

(٥) ارسطو ، البلاغة الفصل الخامس عشر ؛ Aristid. Quint., de Musica, lib II, pag. 39-79;

وانظر كذلك ما ذكرناه حول التماثل بين الموسيقى والفنون التى تقوم على محاكاة الكلام ، الباب الرابع ، الفصل السابع ، حول عالمية الرواية الشفاهية والمغناة ، عند كل شعوب العالم القديم بدءا من البطاركة الأول .

الهمجية[١] وتجعل من طباع الشعوب المتوحشة طباعا رقيقة[٢]؛ وفضلا عن كل ذلك فلقد كانت هذه الأشعار ذات نفع كبير فى تهدئة حوادث العصيان والتمرد ، كما كانت تعمل على إيقاف الانشقاقات بين البشر وعلى تبديد خصوماتهم وعلى إعادة الوفاق والوئام فيما بينهم[٣]؛ كانت هذه الأشعار تدعم النفس وتشكلها على أساس الفضيلة[٤] ؛ وباختصار فلقد كانت كل هذه الأشعار التى تألف منها التراث الشفهى والمغنى ، ولعله هو الوحيد الذى تواتر استخدامه خلال عدد كبير من القرون لدى كل شعوب العالم ، هى الوسيلة الأكيدة والتى لا تخيب ، لكى ينتشر هذا التراث بدون عوائق تهدده ، وبشكل يجعله غير قابل للتحور ، حاملا معه المعرفة بالدين والقوانين والعلوم والفنون[٥].

وفى هذا الخصوص يؤكد لنا بلوتارك دون مواربة ، وهو رجل تعد شهاداته ذات وزن ، ومن شأنها أن تضفى بالضرورة الثقة فيما يتصل بالعصور القديمة ، أن القدماء لم يكونوا يستخدمون سوى الشعر وسيلة لتأكيد المعارف ولتثبيتها . وإليكم كيف عبر هذا المؤلف عن ذلك فى مقالته التى عنوانها : عن نبوءات العرافة بيتى Pythie[٦] « يبدو أن استخدام اللغة يتعرض للتغيير على النحو الذى يتغير عليه استخدام النقود ؛ فلكل من هذه وتلك قيم مختلفة فى الأزمنة المختلفة ؛ عندئذ لا يتقبل الانسان إلا ما هو معروف ومتداول : وعلى هذا ، فلقد جاء وقت، لا شك فى مجيئه ، كان الناس فيه يدخلون أو يلحقون كل تأريخ ، وكل علم فلسفى بل كل فعل أو مثل بسيط وباختصار كل ما يحتاج لأن يبين بفعل نغمة صوتية أكثر وقارا ، بالشعر

---

(١) أرسطو وأرستيد كنتليان ، شرحه ؛ بلوتارك ، مقالات فى الاخلاق .

(٢) بلوتارك ، نفس المرجع : فيما ينبغى على الفيلسوف أن يناقشه مع الحكام . ص ١٣٤ .

(٣) بلوتارك ، عن الموسيقى ، ص ٦٦٢ ؛ أفلاطون ، القوانين الكتابين الثانى والثالث ، بروتاجوراس .

(٤) بلوتارك ، عن الموسيقى ، ص ٦٦٤ ؛ وقد جاء على لسان سقراط فى حوارية فيدون تأليف أفلاطون بشكل صريح : إن الفلسفة ليست سوى موسيقى رائعة أو بنص عبارته « الفلسفة هى الموسيقى فى قمتها » ؛ وفى الكتاب الثالث من الجمهورية يقول أفلاطون كذلك : « الفيلسوف دون غيره هو الموسيقى » .

(٥) فى بيت من الشعر شبيه بتلك التى نتحدث عنها قال ثيوجنيد Théognide :

أنشودة الخالدين هذه ترددها الأفواه

(Théognide, Sentent, V. 18)

(٦) Plutarchi, Chaeronensis opp. moralia, Tom II, de pythioe oraculis, p 406, B,C,E, gr. et lat. G. X ylands interprete, lutetioe, 1624, in- fol.

والموسيقى إذ كان الإيقاع والغناء يعدان سمة من السمات التى رسختها الخطابة . وهكذا فإن ما لا يكاد يدركه (اليوم) سوى القليل من الناس ، كان كل الناس (فى الماضى) يفهمونه بيسر ، بل يطربون لسماعه فى شكل أغنيات ؛ فلقد كان الرعاة والفلاحون وقناصو الطيور ، كما يذكر بندار Pindar ، بفضل الدربة والسهولة اللتين توفرتا لهم فى هذا الوقت فى مجال الشعر ، يهذبون الأخلاق على صوت القيثارة وعن طريق الأغانى ، وكانوا ينصحون باللجوء إلى الحكايات الرمزية والأمثال ، بل لقد كانوا يخضعون الأدعيات التى يتضرعون بها للآلهة ، وأناشيد الحرب أو النصر ، لكل من الوزن والايقاع ، تصطنع بعضا منها عبقرية حاذقة ومرحة فى حين يأتى البعض الآخر (عفو الخاطر) وطبقا للعادة السائدة — ولهذا السبب فإن أبو للون لم يمقت الأناقة والزينة عند النبوءة ، بل لم يشأ أن يزيح عن الإثفية (وهى ركيزة ذات ثلاثة قوائم يوضع عليها القدر أو الاناء) ربة الفن التى كانت تشرفه (بحضورها) ، وإنما هو ، فضلا عن ذلك قد شجعها إذ كان محبا يسعى جاهدا إلى الطبيعة الشعرية ، بل إنه هو نفسه ، حين تعلق بها ، كان يثير همتها ويستثير قريحتها بفعل تصورات أو أفكار سامية باعتبارها شيئا جميلا وجديرا بالإعجاب . ومع ذلك فحيث طرأ تغيير فى الأخلاق مصاحب فى الوقت نفسه للتغير الذى انتاب الاقدار والأذواق ، فقد بدأت العادة تحث على استبعاد كل حشد (لا طائل منه) ، فدعت إلى الابتعاد عن الشعر المتخذ شكل الحلقان وإلى البعد عن الزينات الذهبية والمعاطف الباذخة ، لقد اجتذت خصل الشعر الطويلة وابطل الكوثرن (الخف الذى كان الممثلون يمتدونه قديما على المسرح) . وسرعان ما اعتاد الناس ، مستخدمين الحكمة والعقل ، على محاربة البذخ بسلوك طريق الاعتدال والزهد وجعلوا حليتهم أو زينتهم بسيطة متواضعة هاجرين السعى وراء صلف وعجرفة لا نفع من ورائهما . هنا وبعد أن تغير شكل الخطابة بدورها . انتقل التاريخ **بعد أن نزل عن مكانه فى مركبتها** ، من الشعر إلى النثر ، وأخذ ما هو حق يتميز عما هو خرافى بفعل هذا الأسلوب الشعبى (النثر) . وحيث تفضل الفلسفة الوضوح وحيوية التعلم على هذه الأشعار التى توحى بالفزع والتى تنظر إليها على اعتبار **أنها** قد عفا عليها الزمن ، فقد استبدلت بهذه الأشعار فى مصنفاتها أسلوبا يخلو من الوزن والايقاع »[1].

---

(١) العبارة التى كتبناها بالأسود : حدها تتكرر بنفس الطريقة على وجه التقريب عند سترابون ، كما =

ودعما لما يخبرنا به بلوتارك فى هذا النص ، قد نستطيع أن نقدم هنا عددا كبيرا من البراهين ، لكننا سنكتفى بأن نذكر الوقائع التالية :

كانت القوانين عند أبناء كريت تكتب منظومة فى أبيات من الشعر ، وكانوا يغنونها ويلقنونها لأولادهم ليغنوها كيما تحفر فى ذاكرتهم بأسهل الوسائل . أما القوانين التى منحها خاروناس Charonas لأهالى ثوريوم فى اليونان الكبرى فكانت مدونة بالمثل فى أبيات من الشعر ، وكانت معدة لكى يتم غناؤها على أنغام الموسيقى ؛ أما الأثينيون فقد كان لديهم ما هو أكثر من ذلك بكثير ، حتى أنهم اعتادوا أن يغنوا أثناء مآدبهم ، وطبقا لرواية أرسطو[١] فقد اعتاد الأجاتير Agatyras فى عصره على تداول قوانينهم عن طريق الأغانى ؛ كذلك كان التورديتان Turditans الذين كانوا يعيشون فى عصر سترابون[٢] ، والذين يعودون بالعصور القديمة لقوانينهم إلى ستة آلاف عام فلم يكونوا ينقلونها إلا عن طريق أشعار مغناة ؛ وإذ كان الهنود ، إذا كان لنا أن نصدق هذا المؤلف نفسه ، يجهلون فن الكتابة كلية فقد كانوا يثبتون معارفهم نتيجة لذلك عن طريق أغنيات يرددونها بأصواتهم ، كذلك يخبرنا سترابون مرة ثالثة أن الفرس القدماء اعتادوا ألا يحتفلوا بآلهتهم وأمجاد أبطالهم إلا عن طريق اشعار مغناة ؛ وعلى صعيد آخر لم يكن للجرمان ، طبقا لما يقوله تاسيت Tacite والغال طبقا لما يرويه سيزار من حوليات تروى تاريخهم إلا أغنيات شعراء الملاحم عندهم . وقد كان الشعراء حتى عصر هوميروس لا يزالون يكتفون بغناء أشعارهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء كتابتها ، بل لقد حرم ليكورج أن تدون قوانينه حتى لا يتم انتشارها أو انتقالها إلا عن طريق الأغانى ولكى تستوعبها الذاكرة على نحو لا سبيل لمحوها بعد ذلك ؛ ولقرون عدة لم تكن المعارف تدون إلا فى شكل أبيات من الشعر ، ليتيسر غناؤها ، ولقد حرر سولون فى أبيات شعر مماثلة مؤلفاته الكثيرة التى وضعها فى كل فروع المعرفة ، ويروى أنه كان قد أخذ على عاتقه أن يكتب بهذه الطريقة نفسها تاريخ سكان سواحل

= سنرى بعد ذلك . أما الاختلاف الوحيد الذى قد نجده بين هذين المؤلفين حول هذه النقطة فهو أن بلوتارك ، إما مجاملة منه لعصره ، واما لأنه قد ظن الأمر على هذا النحو ، يعتقد فيما يبدو أن هذا الانتقال من الأسلوب الشعرى إلى النثر كان نافعا أكثر منه ضارا ، لكن سترابون يقف من الأمر موقفا مخالفا .

(١) Arist. Problem, sect, XIX, quoest. 28

(٢) Strab. Geogr, lib III, de Boetica.

الأطلنطى، وإذا كان هو لم يتم هذا العمل ، فإن أفلاطون الذى استحوذ عليه هذا الأمر نفسه قد عالجه نثرا .

ولم يحدث إلا فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد أن بدأ كادموس Cadmus وفيريكيويس (السورى) وهيكاتيوس Hécatée فى تقطيع أوصال الوزن الشعرى ، ثم بدأوا حثيثاً يعملون على تقريب أسلوب الخطابة الذى كان منظوما وموزونا من هذا الأسلوب غير المنتظم الذى أطلق عليه اسم : النثر[١] ؛ وطبقا لما يقوله سترابون[٢] ، وهو يتفق فى ذلك مع بلوتارك ، فقد كان هؤلاء هم أوائل من عملوا على إنزال الخطابة من المكانة السامية التى كانت تشغلها قبل ليهبطوا بها إلى حالة الانحدار والمهانة التى نجدها فيها الآن .

إن الانسان لا يكاد يتصور ، بداءة ، كيف استطاع الشعر أن يوجد قبل النثر ، وكيف فضل الناس الأثر الشفهى والمغنى على الأثر المكتوب ؛ كما أن المرء ليصدم إذ يرى الشعوب القديمة تعاف أو تلفظ فنا مثل فن الكتابة الذى بات الآن عربة العلاقات الاجتماعية بالغة الأهمية ، فى حين أنهم ، فيما يتصل بفن الموسيقى الذى لم يعد الآن سوى زينة فارغة للغاية ، كانوا يولونه تقديرا يبلغ مراتب التقديس . وأنهم لم يترددوا فى أن يدخلوا فى إساره الصلوات والأدعيات التى كانوا يضرعون بها إلى

---

(١) « النثر كلام مرسل ، غير خاضع لقانون الوزن ؛ ذلك أن القدماء كانوا يقولون ان المنثور (من القول) مرسل ومباشر : ولهذا يقول فارو إنه تبعا لبلاوتوس فإن النثر الممتاز هو النثر المباشر ، ولهذا أيضا يقال إن النثر هو الكلام غير المقيد بوزن والمرسل فى (أسلوب) مباشر .

ويقول آخرون إن النثر قد سمى بذلك (الاسم) لأنه منثور متفرق أو لأنه يندفع ويتحرك بحرية أكثر رحابة ولا ينحصر فى حدود معينة (كالشعر) . وعلاوة على هذا فمن المعروف أنه كان هناك منذ وقت طويل اهتمام لدى قدامى الأغريق ، كما هو الحال لدى الرومان ، بالشعر أكثر من النثر ؛ ذلك أن كل المؤلفات قديما كانت تدون شعرا ؛ غير أن الاهتمام بالشعر صار إلى ازدهار مؤخراً . وكان أول من كتب لدى الإغريق كلاما منثورا هو فريكيويس السورى ، أما أول من مارس لدى الرومان الكتابة بالكلام المنثور فكان أبيوس كايكوس (فى خطبته) ضد بيّروس ؛ ومنذ ذلك الوقت حتى الآن ، كتب آخرون بالكلام المنثور » .

إسيدوروس هسبالينسيس ، الأصول ، الكتاب الأول ، فصل ٢٦ ، الفقرة ١٢ ، بازل ، ١٥٥٧ .

(٢) Strab on, Geogr. lib I.

الآلهة . وهو نفس ما فعلوه بالنسبة للقوانين التى أصدروها وبالنسبة لكل المعارف الإنسانية التى كانوا يرون أن من المفيد نشرها .

وإن عقولنا التى أضناها الاهتمام بكل ما ترى ، لا تستطيع أن تدرك إلا بمشقة بالغة أفكارا تتعارض كلية مع تلك الأفكار التى تعودنا عليها ؛ وإذ ينسى المرء أن الموسيقى ظلت لزمان بالغ الطول فن التعبير عن أفكار البشر ، بقدر كبير من الرقة والحيوية ، فإنه لم يعد يلمح ، بعد ، تلك الوشيجة التى كانت تربط بينها فيما مضى وبين فن الخطابة والشعر[١].

ولكم يجد الانسان نفسه مدفوعا على الدوام ، وعلى الرغم منه ، إلى النظر إلى هذه الفنون الثلاثة باعتبارها كانت على الدوام منفصلة ، وباعتبار أن من الواجب عليها أن تظل كذلك . لكن المرء لا يحكم عليها على هذا النحو إلا متأثرا بهذه الحالة من العزلة التى دفعها إليها منذ زمان طويل للغاية ، هذا المسار الخاطىء الذى اتخذه كل فن من هذه الفنون حين انفصل عن الآخرين ، وحين ظل يتباعد أكثر فأكثر ، وكل يوم ، عن الغاية المشتركة التى قضت بها الطبيعة عليهم ، ثلاثتهم ، الا وهى تعليم البشر والتخفيف من غلواء عواطفهم وتهذيب أخلاقهم ، لكنا ، ما إن نواجه هذه الفنون فى حالة نضجها أو تمامها الأول حتى نعود لا نجد فيها سوى فن واحد ووحيد ، يتشكل من اندماج حميم لكل وسائلها ، ثم ما إن نتفحص بعد ذلك تلك السوءات التى جرتها عادة الكتابة حتى تتوقف دهشتنا ، وسرعان ما يقتنع المرء بأن هذه الحالة الأخيرة للفن لم تكن أقل إجحافا وإيذاء فيما يخص تقدم العلوم والفنون ، عنها فيما يتصل بعملية الحفاظ على الأخلاق الحميدة .

إنه لأمر يخرج عن نطاق كل شك حقا فى أنه لو أن الانسان لم يستخدم فن الكتابة لاحتفظ لوقت طويل بعادة الرواية الشفهية والمغناة ولما ترك الأسلوب القديم ، الشاعرى الموزون ذا الايقاع ، ولما كانت قد وهنت عادة تناغم الايقاع فى أبيات الشعر ، وهو الأمر الذى تحافظ عليه الأغنية وترعاه على الدوام ، والذى يجعلنا نشعر بقوة المعانى بشكل أفضل فى الوقت الذى نحس فيه برقة وجمال ايقاع الأسلوب ؛ ولما

---

(١) بلوتارك ، مقالات فى الأخلاق ، أحاديث المائدة ، الكتاب السابع ، السؤال الثامن ، ص ٤١٩ ؛ الطبعة المشار إليها سابقا .

كان الناس قد فكروا قط فى أن يستبدلوا بهذا الأسلوب النبيل ، الراقى والمتناغم ، أسلوب النثر المستكين ، الهابط والسوقى ، والذى لوث ودنس العلوم على نحو ما، إذ أصبح الأمر، بسبب هذا التدهور الذى اعترى الأسلوب، فى متناول الكافة ! فلم يكن للعلماء الزائفين أو أنصاف العلماء أن يشوهوا ، بفعل ما يرتكبونه من أخطاء ، تلك المبادىء التى لم يكونوا هم (لو ظل الأسلوب على حاله من السمو) فى حالة تمكنهم من فهمها من تلقاء أنفسهم وبدون أن يتم تنويرهم على أيدى رجال حكماء ومثقفين ؛ ولما كان الناس قد شجعوا هؤلاء على أن يصدروا ما يشاءون من أحكام جسور متهورة فى أمور كان ينبغى عليهم أن يحترموا أسرارها وأن يحفظوا مكنوناتها ، ولما كان قد واتاهم ذلك الاندفاع الخالى من كل حيطة حين شاءوا أن يخضعوا الدين والقوانين لنزوات خيالهم المشوش ؛ وأخيرا لما كان المرء قد رأى الاضطرابات تنتشر فى المجتمع ، وهى التى ظل سببها منذ ذلك الوقت هو المجون والانحلال والتمرد ضد القوانين .

ومع ذلك فلنرجع البصر عن هذه الاضطرابات المحزنة ، والتى انتهينا نحن أنفسنا من استشعار تأثيراتها المفزعة ، لنطل على مساوىء ليست نتائجها بالأقل نحسا وخطورة وان كانت تمسنا عن بعد أكبر .

أليس مما لا يقبل الجدل أنه لو لم يكن استخدام الكتابة قد عمل على توقف استخدام الرواية الشفهية لما كانت الأغنية لتصبح فنا متميزا عن الشعر والخطابة ، ولما كانت لتبتعد كثيرا عن المبادىء التى كانت تربطها بمبادىء الكلمة المنطوقة . أما الشعر ، وهو يرتبط على الدوام بالأغنية ، فما كان ليفقد المزايا التى كان يستمدها من التعبير والايقاع اللذين يزيدنا الصوت احساسا بهما[1] ولظل الشعر والموسيقى يمارسان على الدوام ما لهما من سطوة خيرة على الروح ، يستمدانها من ارتباطهما الحميم ربما من طبيعة وسائلهما نفسها ، ولظلا على الدوام جديرين بنفس التقدير الذى كان الناس يولونه إياهما من قبل، وأخيرا لما كان لدينا سوى تعليم أصيل، حقيقى وأكيد ، يهيئه لنا أناس يبعثون على الاحترام بقدر ما هم يثقفون ، والذين — حيث هم خاضعون لقوانين الدولة ، وتحت رقابة القضاة أو الولاة ، بل والجمهور نفسه ـ لن يدرسوا إلا ما قد يناسب كل إنسان أن يعرفه ؛ ولن يكون علينا عندئذ أن نخشى مغبة

---

(١) أفلاطون ، الجمهورية ، الكتاب العاشر .

انتشار مبادىء ضارة وخبيثة ، بشكل سرى ، مستفيدة من سكوت المجتمع ، حيث تظل تبذر فى صمت بذور الشقاق والفتنة . وليس هناك ما يبرهن بشكل أفضل على حكمة المصريين فى هذا الصدد ، ويجعلنا نستشعر الدوافع التى كانت تحدو بهم أن ينأوا عن الكتابة سوى الأفكار التى نوردها هنا لواحد من ملوك مصر القدماء ويسمى تحام Tham(١) ، والذى قاوم وهو فى عاصمته طيبة(٢) كل السوءات التى تجرها الكتابة ، حين تحدث إلى تحوت Theuth (تحوتى) مبتكر الحروف الهجائية(٣) عندما تقدم الأخير إلى بلاط هذا الحاكم يطلب الاذن بادخال استعمال هذه الحروف فى تنظيم أحوال ملكه ، محبذا استخدامها باعتبار أن منبر الكتابة هذا أفضل الوسائل لتقوية الذاكرة ولنشر العلم(٤) ؛ فرد عليه تحام بهذه الكلمات « أى تحوتى يا شديد الولاء والاخلاص ، هناك شىء آخر حرى بأن تراعيه عند تدوين المؤلفات الفنية ، شىء لابد من أن نعرفه قبل أن نصدر حكما سليما على الفوائد أو المساوىء التى سوف يجلبها فن الكتابة لمن يستخدمونه ؛ إنك يامن هو أب لحروف الهجاء تتذرع ، طبقا لعاطفتك نحو هذه الحروف ، بأفكار هى عكس للأثر الذى لابد لها أن تحدثه ؛ ذلك أن استخدام هذه الحروف ، حين يؤدى إلى إهمال تنشيط الذاكرة الخصبة ، سوف يبذر بذور النسيان فى عقل من سيستعيرونها ؛ فلسوف يستريح هؤلاء على هذا النحو ، إلى ما ستقدمه لهم الحروف فى مبناها الخارجى ولن يستوعبوا فى عقولهم بعد الأشياء [المعرفة] فى ذاتها ، وهكذا فإنك قد ابتكرت الوسيلة التى تستدعى الذاكرة

---

(١) يقال إن هذا الملك كان يعبد منذ وقت طويل فى طيبة تحت اسم الإله آمون .

(٢) كانت هذه المدينة تسمي فى اللغة المصرية أمونو Amon- no (Jerom XLVI, 25) أو هامونو Hamon- no (Ezech, XXX, 15)أو نو آمون No- Amon (Nahum III, 8) وهو ما يعنى أملاك أو إقطاعية آمون ، وقد ظن البعض أن هذه الشخصية هى شخصية شام نفسه ، الابن الأكبر لنوح . والذى كان من نصيبه مصر وسوريا . ولعل ما دفع إلى هذا الظن هو أن سان جيروم قد كتب اسم Cham (شام) على هذا النحو : Ham وان كان جابلونسكى ليس من أنصار هذا الرأى . انظر للمؤلف الأخير : le Pantheon AEgyptiarum أى معبد كل الآلهة المصريين ، الكتاب الثانى ، الفصل الثانى ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٣) لابد ان كليمانس السكندرى (Storm. lib I, p. 303) عند حديثه عن هذا الملك الذى تقدم إليه تحوتى ، كان قد القى نظرة على نص أفلاطون الذى سبق لنا أن أشرنا إليه . ويذكر كليمانس السكندرى ، من بين رجالات مصر الذين بجلتهم بلادهم ووضعتهم فى مصاف الآلهة : هرميس الطيبى Hermes le thébain واسكولاب ممفيس ESculape de Memphis.

(٤) أفلاطون ، محاورة فايدروس أو عن الجمال .

وليست تلك التى تحفظها ، وإنك [بهذه الوسيلة] ستقدم لتلاميذك آراءنا فى العلم أكثر من أن تعطيهم المعرفة ، فهم عندما سيقرءون كل شىء ، دون أن يقودهم فى ذلك مدرس مثقف غزير المعرفة ، [لأنه بدوره معتمد على ما هو مدون وليس على ما تحتفظ به ذاكرته] فلسوف يبدون أمام العامة من الناس فى شكل من يعرفون الكثير فى حين أنهم لن يكونوا عندئذ سوى جهال ، وهكذا يصبحون أكثر تنافرا مع المجتمع لأنهم لن يكونوا قد تبحروا فى العلم ذاته بل سيكونون مخدوعين بالفكرة التى سيكونونها عن أنفسهم [عن غير حق] ».

إذن فلدوافع مشابهة ظلت كل الشعوب القديمة تحتفظ لوقت طويل بعادة الرواية **الشفهية** أو المغناة ، أى أن إبقاءهم على هذا التقليد لم يتم فقط بفعل العادة ؛ فمن الواضح على الأقل أن عادة الرواية الشفهية كانت هى الأولى [أو السابقة على الكتابة] وأن تاريخها يعود إلى منشأ المجتمعات الأولية ، وأن كل الشعوب قد استوحتها بفعل الطبيعة (دون ابتكار) ، ما دامت هى الطريقة الوحيدة التى عرفتها الشعوب ، والتى كانت ما فتئت تعرفها كل الشعوب فى العالم القديم أو الجديد على حد سواء ، والتى لم تخرج قط عن شكلها الحضارى الأول . وإذا كانت الأمور تسير على هذا النحو ، وإذ كانت هذه الرواية **الشفهية** قد غدت هى موضوع موسيقى القدماء المصريين ، ثم تطورت فيما يتصل بأسلوب الكلمة المنطوقة أو بالنسبة لتنغيم أو تلحين الأغنيات ، على يد شعب عاقل مثقف على النحو الذى كانه الشعب فى مصر القديمة[١] فقد لزم الأمر أن يكون لهذه الرواية الشفهية بالضرورة على الرواية المكتوبة أو المدونة ، نفس المزايا التى يقدمها رسم الأشياء أو الصور التى يستطيع أن يقوم بها خطيب جيد .

وإذا كانت هذه الرواية **الشفهية** قد نالت هذا الاحترام الكبير من جانب

---

(١) « الهنود جنس غنى بسكانه المزارعين ، حدوده شاسعة وموقعه بعيد عنا جهة الشرق ، على مقربة منه انثناءة المحيط ومشرق الشمس فى فلكها الأول من أقصى الأرض فوق المصريين العلماء ، واليهود المولعين بالخرافات ، والنبطيين التجار ، والأرساكيديين ذوى الأردية الفضفاضة ، والايتوريين الفقراء فى الثمرات ، والعرب الأثرياء فى العطور »

لوكيوس أبوليوس ، الأزاهير ، الكتاب الأول ، ص ٤٠٧ ، لوتيتيا ، باريس ، ١٦٠١ .

[عن اللاتينية]

الشعوب القديمة ، فذلك لأن هذه الشعوب جميعها قد تشربت نفس المبادىء ، ولأن هذه المبادىء بعد أن خرجت من منبعها [مصر] قد انتشرت فى كل بلدان أوربا وآسيا ، التى أرسل إليها المصريون البعثات ، فعلى يد هؤلاء المصريين فى الواقع تلقت غالبية الشعوب المبادىء الأولية للدين والقوانين والعلوم والفنون .

إن فن الكتابة نفسه قد اخترع فى مصر برغم أنه أقصى أو كان مكروها فى البداية ؛ ذلك أنه من الجلى أن تحوتى المصرى هو الذى ابتكر الحروف[1]؛ وعندما لم يتمكن من حمل الملك تحام على استخدامها ، قام هو نفسه بنقل معرفتها إلى الفينيقيين ، فكانوا أول من أعجبوا بها ثم نسب هؤلاء لأنفسهم فضل ابتكارها ؛ بل

---

(١) لاحظنا فوق منشآت أثرية كثيرة فى مصر العليا ، بين الأشكال المنقوشة أو المحفورة التى تزدان بها الجدران ، وجود شكل لرجل له رأس كلب ، يمسك بيده اليسرى عصا طويلة أو مقياسا مثنيا من أعلاه حيث نراه يعلق عند هذا الطرف العلوى شيئا قريب الشبه بفانوس ، ويمسك بيده اليمنى إبرة أو مخصفا أو مثقابا يضعها على هذه العصا أو هذا المقياس الذى يبدو أن به كلابات تتجه من أعلى إلى أسفل . وقد ظننا أن هذا الشكل قد يكون صورة رمزية لعطارد الذى يصفه هورا بللون Horapollon على هذا النحو (Hierogl . 14).

« ما الذى ينبغى توضيحه من يقومون برسم قرد له رأس كلب ؟ إنهم حينما يظهرون القمر أو الكرة (الأرضية) أو الحروف الأبجدية أو القربان أو الغضب أو السباحة ، فإنهم يرسمون قردا له رأس كلب . (يظهرون) القمر ... الحروف الأبجدية لأنه كانت توجد – فى اعتقاد المصريين – أمة وجنس من القردة ذوى رأس الكلب كانت تعرف الحروف الأبجدية . ومن أجل هذا فإن من كان يدخل إلى معبد مقدس للمرة الأولى كان (يرتدى ما يجعله فى صورة) قرد ذى رأس كلب ، وإذ ذاك يقدم له الكاهن لوحا كتابيا ، وفى الوقت نفسه قلما من البوص ومحبرة ؛ وهذا دون شك لكى يقدم الدليل على أنه يرسم الحروف الأبجدية أو على أنه ينتمى لذلك الجنس من القردة ذوى رأس الكلب ، الذين يفقهون الحروف الأبجدية ، وعلى ذلك فإنه يقوم برسم الحروف الأبجدية فى ذلك اللوح الكتابى . وفضلا عن ذلك فإن هذا الحيوان كان مقدسا لدى (الإله) ميركوريوس (عطارد) المشارك فى كل الحروف الأبجدية (أى فى كل صنوف المعرفة) » .

ويخبرنا كليمانس السكندرى ، الطبقات ، الكتاب السادس ، ص ٦٣٣ ، فى معرض حديثه عن هذا الموظف المنوط بالطقوس المقدسة فيقول : « وبالتالى فإن كاتب المقدسات وهو الموظف الذى يقوم بنسخ السجلات المقدسة ، لديه ريشة للكتابة على رأسه وكتاب بين يديه ومسطرة فيها محبرة للكتابة يبرز منها قلم من البوص كى يكتب به »

ملاحظة : الأوصاف التى يقدمها كليمانس السكندرى هنا عن المحبرة (أو المقلمة) التى تصنع على شكل مقياس ، والتى كان قدماء المصريين يستخدمونها والتى كانت تضم الحبر والقلم المصنوع من الغاب المخصص للكتابة ، يمكنها أن تنطبق على أدوات الكتابة التى يستخدمها المصريون المحدثون .

إن تحوتى ، وليس بمقدور أحد أن يشكك فى ذلك ، هو نفسه الشخص الذى يطلق عليه سانشونياتون ، مؤرخ هذه البلاد،اسم تاعوث Taaut ناسبا إليه اختراع الحروف والرسوم الهيروغليفية ؛ ذلك ان اسم تحوتى Theuth كان يلفظ بطرق مختلفة طبقا لاختلاف اللغات وتعدد اللهجات المحلية التى يمر الاسم من خلالها ، ومع ذلك فمن السهل التعرف عليه فى غالبية التحريفات التى تناولته . وهو على الدوام ، وفى كل الأحوال ، مخترع الحروف الهجائية بأسماء تحويت (بسكون على الياء) Thoyth ، أو تحوت Thoth ، أو تحات Thath ، أو تاعوث Taaut أو Thaauth ، أو ثوث (أو توت) Thouth أو سوت Soth ، أو سوتن Sothen ، أو سوتين Sothin ، أو تيس Tis ، أو ديس Dis الخ ؛ وإن كان كل شيء يدفع على الاعتقاد بأن هذا الاسم كان فى أصله صفة تشير إلى موهبة أو كفاءة المبتكر ، أكثر منه اسم علم يدل على شخص بعينه[1].

وقد جعل الاغريق من هذا الاسم نفسه ، فى لغتهم ، هرميس Hermes وهو كذلك صفة لمعنى من هذا النوع ؛ ويقدم لنا أفلاطون،فى مؤلفه كارتيلوس Cartylus أو **مقالة فى المعنى الحقيقى للكلمات**،الاشتقاق اللفظى لهذا الاسم الاغريقى ، فهو يعنى تبعا لما يقول : **الشخص الذى اخترع فن [كتابة] الكلمة المنطوقة ، أو الخطيب الرائع المتميز**[2]. ويبدو من ظواهر الأمور ، ان تحوتى قد سمى على هذا النحو على يد المصريين ، لأن الروايات القديمة كانت تشير إليه باعتباره **قد قام بدراسته الرئيسية فى التآلف النغمى أو الهارمونى وفى الخاصية التعبيرية التى للأنغام**[3]. وفى واقع الأمر ، فقد كان تحوتى يكرم كإله فى مصر[4] لأنه قد قام بتحليل الحركات المختلفة والمردودات المتباينة لعضو الكلام ؛ ولأنه قد ميز هذه المردودات عن بعضها البعض بأن حدد لكل منها إشارة خاصة ليكون من هذه الاشارات فن الكتابة ، ولأنه أسس

---

(١) انظر إيامبليخوس ، عن أسرار عبادات المصريين ، المقدمة ؛ وانظر كذلك جابلونسكى : معبد كل الآلهة المصريين ، الكتاب الخامس ، فصل ٥ ، فرانكفورت ، ١٧٠١ .

(٢) وقد وجد زويجا عن أصل المسلات ، Zoega (De orig. obelisc. sect IV, pag. 211, 1797 in- fol)

ان اسم هرميس مشتق من كلمتين مصريتين Er- emi وتعنى آبا العلوم Pater scientiae

(٣) Diod. sic. Bibblioth. hist. lib I. cap. 16, p. 48.

(٤) Plat. Philebus

كل هذه الاشارات على أسس ثابتة ، ويسر استخدامها بفعل قواعد لا تتزعزع يتكون منها علم القواعد أو النحو . ومن هذه الزاوية كما نرى فإن كلمة هرميس تشير بوضوح إلى كفاءة تحوتى ، أو أنه من الأرجح ان الاغريق لم يفعلوا سوى أن ترجموا إلى لغتهم اسم المصرى الذى اخترع الحروف والبيان ، كما قد فعلوا بخصوص أسماء الالهة المصرية الأخرى التى قاموا بعبادتها [مع إعطائها أسماء إغريقية] .

لكننا لنجهل ما ان كان اسم عطارد الذى كان يترجم إليه منذ ذلك الوقت اسم هرميس ، يعنى ، من ناحية الاشتقاق اللفظى ، الشىء نفسه كذلك ؛ ومع ذلك فمن المؤكد أن المؤرخين اللاتين ، وبصفة خاصة هوراس وأوفيد وبروبرس قد كرموا فى هذا الاسم [عطارد] اسم الشخص الذى اخترع الحروف الهجائية(١) والبيان والتمارين الرياضية . وهى فنون لم تكن فى الأصل تنفصل عن الموسيقى ، تلك التى كان لابد لها أن تقود وتهدى خطوها .

ومع ذلك فإن البيان والموسيقى والالعاب الرياضية قد سبقت فن الكتابة بالضرورة ؛ وعندما لا نجد شهادة ما تدعم هذا الرأى فإن إعمال الفكر وحده سوف يهدينا إلى ذلك ، فالفنون الثلاثة الأولى قد أدى إلى ابتكارها ، ما تولده احتياجاتنا نفسها من دوافع طبيعية ؛ أما الفن الأخير فيفترض وجود علاقات اجتماعية سابقة وواسعة لحد لا يمكن معه احتواؤها بما يمده لنا الصوت [الكلام المنطوق] من عون محدود .

وعبث ما قد يحاجوننا به من أن أفلاطون ، فى حواريته تيماوس ، أو بالأحرى هذا الكاهن المصرى الذى أدار فيلسوفنا الحوار على لسانه فى مقابلة مع سولون ، يؤكد أن البشر كانوا قد عرفوا الكتابة وتعودوا عليها وبأنهم حفظوا منذ عهود لا تعيها ذاكرة الانسان ، كل ما هو جدير بالحفظ أو التسجيل وأن الكهان الذين كانوا

---

(١) يعطى بلوتارك هذا الاسم أيضا إلى الشخص الذى ابتكر الحروف الهجائية فى مصر : ويحدد أو بيبان Oppien فى الأبيات الآتية عطارد على وجه التحديد باعتباره مخترع البيان :

« ان عطايا الموسيات وأبوللون هى حقا الأعبث (الأناشيد) فى حين أن ميركوريوس (عصرد) قد منح (البشر) مجامعهم ؛ والمسابقات العنيفة »

بلوتارخوس ، عن صيد الأسماك ، الكتاب الثانى ، وما بعدها

منوطين بهذا الواجب كانوا يعرفون صنوفا عدة من فنون الكتابة[1]: اثنتين منها كانوا يستخدمونهما فى أغلب الأحيان وتسمى إحداهما الكتابة المقدسة أو الهيروغليفية[2] أما الأخرى فتسمى الكتابة الشعبية.[الديموطيقية] ؛ فكل ذلك كلام لا يهدم قط الأدلة التى قدمناها عن أسبقية الرواية **الشفهية** والمغناة على الرواية المكتوبة ، وعن المقاومة التى أبديت لوقت طويل ضد ادخال الرواية المكتوبة فى مصر أو فى أى مكان آخر من العالم القديم . ومن جهة أخرى فإننا لا نستطيع أن ننظر إلى الهيروغليفية على اعتبار أنها تنتمى إلى العصور الضاربة فى القدم ، حيث أننا لا نزال نرى فى النوبة منشآت أثرية بالغة القدم من العمارة المصرية ، تخلو تماما من النقوش الهيروغليفية بل من أية نقوش من أى نوع ؛ وبالمثل فإن الأهرام تخلو بدورها من أى أثر لحرف هيروغليفى أو لنقش من أى نوع سواء فى داخلها أو فى خارجها ، كما أن التابوت الحجرى الذى تضمه الحجرة المسماة غرفة الملك فى الهرم ، هى كذلك ملساء وعارية من أى زخرف . واذا كان التابوت الذى نراه فى المسجد المسمى جامع سانت اثناز فى الاسكندرية ، يزخر ، عكس ذلك ، بالنقوش الهيروغليفية التى نفذت بشكل بالغ الاتقان فلأنه [ينتمى لزمن] لاحق لزمن تشييد الصروح الأولى التى انتهينا من الحديث عنها ، وهى فترة لم تكن الهيروغليفية قد عرفت بعد فيها قط ؛ ولسبب أقوى ، فإن الحروف الهجائية التى لابد أن تكون آخر ما تم ابتكاره ، من كل الكتابات ، لا ينبغى أن تكون قد عرفت عند المصريين الأوائل .

والآن ، فلعل هذه المناقشة تدعو إلى الظن ، لأول وهلة ، أننا قد ابتعدنا عن موضوعنا الرئيسى ، ومع ذلك فإننا عن طريقها قد أزلنا أكبر الصعوبات التى كان

---

(١) لاحظنا وجود كتابات مائلة أو سريعة وأخرى هيروغليفية من أنواع عدة فى أماكن متفرقة وبصفة خاصة فى أحد الكهوف فى جبل سيوط ، وكان مدخل هذا الكهف مرهقا وضيقا للغاية ، ودلفنا إليه بصحبة السيد البارون فورييه ، زميلنا فى شعبة العلوم والفنون بالمجمع العلمى المصرى .

(٢) إليكم ما نقرؤه فى شقفة سانشونياتون التى أشار إليها يوسيبدس فى كتابه Preparation évangiliques الكتاب الأول ، الفصل الخاص بالكهنوت الفينيقى ، ص ٣٦ ، يونانى ولاتينى — باريس ، ١٦٢٨ : « وكان لميزور Misor ابن يسمى تاعوت Taaut وهو الذى اخترع العناصر الأولية للكتابة ، والذى يسميه المصريون تحور Thor ، ويطلق عليه السكندريون اسم تحويت Thoyth ويسميه الاغريق هرميس » ثم بعد ذلك يضيف المؤلف نفسه ، « وبعد أن جسد الاله تاعوت بالفعل أورانوس Uranus ، شكل كذلك صورا لكورنوس Cornus وداجون Dagon والآلهة الأخرى ثم صنع السمات المقدسة للعناصر أى الهيروغليفية .

بمقدورها أن تعوق مسيرتنا ، وعن طريقها كذلك تلاشت كل الشكوك فيما يتصل بطبيعة وغرض الموسيقى القديمة . وعلينا الآن أن ندرك أن السبب المبدئى لانماط هذا الفن [بعد ذلك] قد كان بالضرورة هو السبب **الذى** استبعدها عن الفنون الأولى الداخلة فى نطاق الصوت ، وذلك حين حادت عن المبادىء التى تربطها أو تدمجها بالكلمة المنطوقة ؛ وهو كذلك السبب الذى أضاع عليها حق مصاحبة الرواية [أى نقل الأفكار والأخبار] وهو الذى حرمها من أجمل مجالاتها واستلب منها كل ما للفن من سطوة ، وأرغمها على البحث عن مجالات جديدة القت بها إلى الحضيض وحطت من شأنها ؛ وهو أخيرا ، حين حاد بها عن غرضها الأصلى ، قد جعلنا نتخيل تلك الفكرة الأولية عن هذا النوع من الموسيقى الاصطناعية ، التى طمح فيها الانسان لأن يحل محل الآلة الطبيعية والحية التى للصوت ، آلات أخرى تتكون من أجسام لا حياة فيها ، وعارية بالتالى من كل شعور أو تعبير ، وان كان بمقدورها أن تستجيب لما عليه خيال الفنان من نزوات بالغة التطرف ؛ أو بمعنى آخر فإن الدوافع نفسها التى حدت بقدماء المصريين أن ينفروا من استخدام الكتابة كوسيلة للرواية أقل ثقة وأكثر خطرا ، هى التى استوجبت منهم كذلك أن يلفظوا الموسيقى الآلية باعتبارها أقل قدرة على تحريك مشاعر الروح ، فليس هذا الأمر من خواصها ، وباعتبارها أقل قدرة كذلك على السمو بالنفس البشرية والايحاء إليها بالمشاعر العظمى ، ثم باعتبارها أخيرا – أى الموسيقى الآلية – لا تبغى إلا أن تحيد بالفن عن وجهة أو غاية الحقيقي ، وباعتبار ألا خاصية لها إلا إتلاف الاخلاق الفاضلة ؛ ولكى نبرهن على كل ذلك ، فإنه لم يعد ينبغى علينا الآن إذن ، إلا أن نواصل متابعة النهج الذى اختططناه لأنفسنا .

المبحث الرابع

أصل أو منشأ الموسيقى فى مصر طبقا لروايات التاريخ وللروايات الشائعة . البنية الفلسفية لهذا الفن . طابعه فى شكله الأول . مكوناته . طريقة تعلمه وممارسته . والأغراض التى كان يستخدم فيها فى العصور الأولى . الأبنية الجديرة بالاعجاب التى كانت للشعر المغنى والتى يستطيع المرء طبقا لها أن يحكم على روعة الموسيقى عند المصريين القدماء .

والآن ، إليكم كيف يفسر لنا ديودور الصقلى[١] عند حديثه عن القرون الأولى من حضارة المصريين ما كان يشتمل عليه فنا الموسيقى والشعر ، ذلك أن أحدهما لم يكن لينفصل عن الآخر فى ذلك الوقت ، أو أنهما كانا بالأحرى يكونان — كلاهما — فنا واحدا ووحيدا : « كان أوزيريس يكن تقديرا كبيرا لهرميس (عطارد) إذ تعرف فيه على بصيرة حادة فى اكتشاف الأشياء التى بمقدورها أن تسهم فى اسعاد الحياة البشرية ، ويقال ان هذا الشخص ، هرميس أو عطارد ، كان أول من حدد نطق كلمات اللغة العادية ، وأعطى أسماء لكثير من الأشياء التى لم يكن لها من قبل اسم وابتكر الحروف[٢]، وعلم عبادة الآلهة ، وتقديم الذبائح والأضحيات ، وقام بالملاحظات الأولى عن مسارات النجوم ، **وكذلك عن التناغم الصوتى أو الهارمونى الذى للنغمات وعن خاصياتها التعبيرية** ؛ واخترع الرياضة البدنية وقام بتدريس فن تقليد حركات الجسم برشاقة وإيقاع ، **ووضع ثلاثة أوتار فى القيثارة التى ابتكرها ، محاكيا فى ذلك فصول السنة الثلاثة**[٣] ، **وحصل بهذه الوسيلة على ثلاث نغمات الحادة والغليظة والوسطى ، ومثل الحادة بالصيف والغليظة بالشتاء والوسطى بالربيع**[٤] ، وهو أبو البيان عند الاغريق[٥]، ومن هنا جاء اسمه هرميس[٦]» .

---

(١) Diod. Sic. Biblioth. hist. lib I, cap. 16

(٢) يجعل تزتزيس Tzetzés من عطارد مبتكر الحروف ومعاصرا ، ليس فقط لأوزيريس ، وإنما كذلك لنوح وباخوس فى الأبيات التى نقرؤها له فى الخليادة الرابعة Chiliade IV ، الكتاب الثانى البيت ٨٢٥ وما بعده :

ميركوريوس (عطارد) هو من لقب بالمصرى المعظم ثلاثا ،
وكان معاصرا لأوزيريس ونوح وديونيسوس ،
وهو الذى أوجد العبادة لله واخترع صور الحروف .

(٣) لا تنقسم السنة فى مصر إلا لثلاثة فصول : الربيع والصيف والشتاء ، وليس بها خريف قط ؛ وليس من قبيل الحشو ان نلاحظ أن الموسيقى تتفق فى هذا التقليد الذى تتبعه مع الفلك ، إذ ستتكشف لنا بعد ذلك أدلة كافية عن هذا الاتفاق ، فى التعليم نفسه ، عند المصريين .

(٤) نجد وصفا مشابها للقيثارة التى كانت لأبو للون فى أحد أهازيج أورفيوس وعنوانه :

Apollinis Suffimentum manna

أى : المن هو بخور أبو للون

(٥) ، (٦) لن نتوقف هنا لكى نشرح ما إن كان من المحتمل أن يستطيع رجل بمفرده أن يبتكر وحده الكثير من العلوم والكثير من الفنون فى القرن الأول من الحضارة فى مصر ، ثم يقوم بعد ذلك بتعليم البيان للإغريق ، فى الوقت الذى نرى فيه أن التقدم فى معارفنا لا يكاد يحرز خطوة واحدة كل قرن . وقد أوضح العلامة جابلونسكى هذه النقطة بشكل كاف فى مؤلفه Pantheon AEgyptiorum, part. V, cap. 5 (معبد كل الآلهة المصريين) ، =

إن الأمر لا يتصل هنا ، كما رأينا ، بمولد اللغة أو نشأة الموسيقى ، فهذه وتلك تستمدان أصولهما بالتأكيد من الصيحات الناشئة عن احتياجاتنا[١] وعن عواطفنا أو انفعالاتنا[٢]؛ لكن الأمر يقتصر هنا على فن القول وفن الغناء ، أو بالأحرى فإن الفعل **يقول** يعنى أن الانسان يعبر عن أفكاره بالكلمات ، أما الفعل **يغنى** فمعناه أنه يعبر عن مشاعره بالنغمات ، ومن اتحاد هذين الفنين جاء الشعر .

ومع ذلك فمن المحتمل ألا يكون أسلوب ديودور المقتضب قد سمح له ، فى النص الذى انتهينا من إيراده ، بأن يدخل فى تفاصيل المحاولات الأولى التى بذلت قبل التوصل إلى تكوين أو تشكيل الفنون التى يشير إليها [وبالشكل الناضج الذى كانت عليه فى عهده] ، فما دونه المصريون عن هذه الأمور لم يكن مسهبا دون شك حتى يستوعب ذلك كله ؛ وفضلا عن ذلك ، فحيث كان ديودور يريد الالمام بكل تاريخ العالم [منذ نشأته] وحتى عصره ، فلم يكن بمقدوره أن يحشد عددا كبيرا للغاية من الوقائع فى حيز هو على هذا القدر من الضيق والذى حصر نفسه فيه ، أو أن يتوسع كثيرا فى الوقت ذاته حول كل شيء . أما أفلاطون فإنه فى واقع الأمر قد قدم باسهاب وتفصيل كبيرين ما يذكره هذا الشعب حول الأساليب التى اتبعها ذلك الشخص الذى اخترع فن اللغة ، ويلمس المرء من ذلك أن هذا الفن فى مبدئه كان يرتبط بوشائج مصاهرة وثيقة للغاية مع الموسيقى ، ومع ذلك فإننا نلمس هنا وجود فجوة واسعة بين المحاولات الأولية التى جازف فيها الانسان بالمحاكاة وبين الزمن الذى تكونت للفن فيه قواعد هذه المحاكاة ، ذلك أن اللغة لم تكن هى الأخرى فى منشئها إلا فنا من فنون التقليد[٣] وهى لا تزال كذلك حتى اليوم فى كثير من الحالات . وقد جاء على

= حيث نظر فى مؤلفه بأكمله إلى الإله توت أو تحوت Thoth باعتباره هرميس عند الاغريق ؛ ويكفينا ان نعرف هنا أن هذه الأشياء قد اخترعت فى مصر وأنها قد وجدت هناك قبل أن تعرف فى مكان آخر تبعا لرأى يجتمع عليه كل المؤلفين القدماء .وهكذا ، فلتكن هذه الابتكارات ثمرة أبحاث رجل واحد فى مدى حياته القصيرة ، أو لتكن ثمرة ملاحظات وتجارب عكف عليها عدد كبير من الأجيال خلال قرون عديدة ، أو حتى خلال ألوف من السنين ، فإن المتفق عليه بشكل عام أنها قد تمت فى مصر ، وليس لنا الحق فى أن ننشىء رأيا مخالفا .

بخصوص اشتقاق هذا الاسم ، انظر محاورة أفلاطون : Cartylus وما سبق لنا أن قلناه فى هذا الصدد .

(١) أفلاطون ، عن القوانين ، الكتاب الثانى ؛ لوكريتوس ، عن طبيعة الموجودات ، الكتاب الخامس ، بيت ١٠٢٢ وما يليه .

(٢) بلوتارك : أحاديث المائدة ، الكتاب الأول ، السؤال الخامس أو القضية الخامسة . ص ٣٦٥ .

(٣) أفلاطون ، محاورة كراتيلوس أو الفهم الصحيح للمسميات .

لسان سقراط فى مؤلف افلاطون الذى عنوانه فيليب : « ان الصوت لا نهاية له ، ولكن هذا الاكتشاف قد جاء عن طريق إله أو على يد رجل مقدس كما يروى الناس فى مصر عن شخص يدعى تحوتى ، كان هو أول من لاحظ فى هذه اللانهاية الحروف المتحركة (أو الحركات الصوتية) باعتبارها ليست نغمات واحدة ولكنها نغمات أو حركات متعددة ، ثم لاحظ وجود حروف أخرى لها بدورها نغمات محددة ، مع اختلاف طبيعتها عن طبيعة الحركات الصوتية ، وعرف ان لهذه الحروف بالمثل عددا محددا ، وهو الذى ميز كذلك نوعا ثالثا من الحروف التى نطلق عليها اليوم اسم الحروف الصامتة أو الخرساء ، وبعد هذه الملاحظات قام بفصل الحروف الخرساء أو العارية من أى نغم حرفا حرفا ، وبعد ذلك صنع الشىء نفسه بخصوص الحروف المتحركة (أو الحركات الصوتية) والحروف الوسيطة ثم بعد أن حصر عددها بهذه الطريقة اعطى لكل واحد منها جميعا اسم عنصر، وفوق ذلك ، فحين استبصر تحوتى أن لا أحد منا سيكون بمقدوره ان يتعلم أى حرف من هذه الحروف على حدة دون أن يعرف الحروف جميعا ، فقد تخيل الرابطة التى تربط بين هذه الحروف باعتبارها كلا واحدا ، وبعد أن تمثل ذلك كله باعتباره مجموعة وحدة واحدة ، فإنه أعطى لكل ما قام به اسم النحو أو الأجرومية معتبرا كل ذلك ، كذلك ، فنا واحدا » . ومع ذلك فإن على المرء أن يستشعر أن عملا على هذه الدرجة من التجريد ، وتحليلا بمثل هذه الدقة والرهافة والصعوبة يفترض بالضرورة وجود ملاحظات كثيرة تمت من قبل ، وسلسلة طويلة ومتعاقبة من المحاولات وتجربة ضخمة تم اكتسابها من قبل ، وهذا ما لا يستطيع أن يتصوره إلا العقل وحده .

فلنحاول إذن أن نلقى نظرة خاطفة على المحاولات الأولية التى قادت إلى الكشف الذى حققه تحوتى [أو هرميس] أو عطارد عن الهارمونى أو التناغم الصوتى وعن الخاصية التعبيرية التى للأنغام ، ولسوف تجعلنا هذه النظرة الخاطفة نتفهم بشكل أفضل تلك الدوافع التى كانت توجه المصريين عند تشكيل الفن الموسيقى ، وفى اختيار الوسائل التى اتبعوها لإحداثها ، وكذلك فى الاستعمال الذى اختصوها به .

تذكر الروايات المتواترة فى مصر[1] « ان الناس كانوا يحيون فى البداية حياة

(١) ديودور ، المكتبة التاريخية ، الكتاب الأول ، الفصل ٨ ، ص ٢٦ .

متوحشة ، وانهم كانوا يذهبون ، كل بمفرده ، ليأكلوا دونما إعداد ، الفواكه والأعشاب التى كانت تنمو تلقائيا دون جهد من جانب البشر : وفى الوقت نفسه ، فلما كانت تهاجمهم الحيوانات المفترسة فى غالبية الأحيان ، فإنهم سرعان ما استشعروا الحاجة للعون المتبادل ؛ وحين تجمعوا على هذا النحو ، بفعل الخوف فقد اعتادوا على بعضهم البعض فى مدى قصير ؛ وقبل ذلك ، لم يكن لهؤلاء سوى أصوات مختلطة غير واضحة النبرات والنغمات ، لكنهم بمجرد أن نطقوا عدة نغمات متمايزة أو واضحة ، قد تبدت لهم احتياجات مختلفة حتى توصلوا فى النهاية إلى أن يحددوا ، بهذه الطريقة ، كل شىء ؛ وحيث كان هؤلاء يصيحون وهم فى شكل عصب صغيرة ، وحيث كانت كل واحدة من هذه العصب الهائمة تلفظ الكلمات طبقا لما يطرأ على بالها [وتطلق من الأسماء على النحو الذى يخطر على عقلها] ، فقد باتت هذه العصب لا تتحدث لغة واحدة ومن هنا تعددت اللغات واللهجات ».

وليس هناك من يجادل فى أن الملاحظات الأولى للانسان [أى الأمور التى بدأت تسترعى انتباهه] ، كانت محكومة باحتياجاته ، وحيث أن العلاقات التى بدأت تربطه بأقرانه قد شكلت له بدورها حاجة لا محيص عن إشباعها ، وهى حاجته فى أن يظل على الدوام على صلة بهم وأن يفهمهم ويكون مفهوما لهم ، بافتراض أن هذا الانسان (البدائى) — ومن المعقول أن نفترض ذلك — قد كان تام التكوين منذ نشأته ، متمتعا بكل المواهب والكفاءات الطبيعية فى أعضاء جسمه وفى ذكائه ، فقد كان على هذا الانسان ان يفعل وعلى نحو أفضل بكثير ، هذا الذى ترى الناس يفعلونه كل يوم لأطفالهم ، قبل أن يكون هؤلاء قد أمكنهم بعد أن يميزوا الأشياء بوضوح وبأعضاء لا تزال غضة لم تنضج بعد ، وبأحاسيس غير متمرسة ، وذكاء لما يزل بعد محدودا للغاية ، كان عليه أن يصغى بانتباه **لأولئك الذين كانوا يكلمونه فى العادة أكثر من غيرهم** بغية أن يفهم ما كانت تعنيه التغييرات المختلفة التى تعترى أصواتهم ، ثم ليلاحظ بعد ذلك الأثر الذى كانت تحدثه فيهم صيحاته وما كانت تحدثه صيحاتهم فيه ؛ وكان من الضرورى أن تكون الخطوات الأولى فى تقدمه سريعة ، إذا ما حكمنا على ذلك من واقع الخطوات التى يتقدم بها الأطفال ، فهؤلاء ، حتى من قبل أن يستطيعوا أن يلفظوا كلمة واحدة ، يتوصلون بشكل مباغت للغاية إلى تمييز أمهم أو مربيتهم — عن طريق الصوت — من بين كل الأشخاص الآخرين المحيطين بهم ؛

وما دام هؤلاء الأطفال يتفهمون تعبيرات هذه أو تلك ، ويجعلون الغير يفهمونهم ، وما داموا كذلك يعبرون بشكل جيد عن احتياجاتهم وما داموا يتحكمون فيمن حولهم بفعل الصرخات التى يطلقونها على حسب إرادتهم بل فى كثير من الأحيان وفق نزواتهم ، وما داموا فى النهاية لا يلبثون أن يتسامروا بدرجة كافية مع هؤلاء الأشخاص ، وكم تستطيع العناية الإلهية العاقلة أن تقيم تواصلا أو تنشىء تراسلا حميما مخلصا بين قلوبنا وخلجات مشاعرنا ، كى ترغمنا ، على نحو ما ، على اقتسام المسرات والآلام بعضنا مع بعضنا الآخر ، وأن تهيئنا كى نتبادل العون فيما بيننا .

إذن فلقد كان على الناس كذلك من قبل أن يتوصلوا إلى التعبير عن أفكارهم عن طريق الكلمات ، أن يشيروا دون لبس أو غموض إلى الأشياء بأسمائها ، وأن يحشدوا انتباههم للتمييز بين ما كان يعبر ، فى صوت قرينهم ، عن الترحيب وما كان يعبر عن الموجدة ، بين ما كان يعلن عن بعض غضب وبين ما كان خاصا بنبرات السرور والترحيب الخ الخ .. هكذا إذن نراهم قد درسوا ولابد الخاصية التعبيرية التى للأصوات والنغمات وأنهم جاهدوا للوقوف عليها كى لا يسيئوا فهمها ، وكى يستخدموها فى الوقت المناسب ، وبشكل مفيد فى العلاقات التى كانت بينهم ، وأخيرا لكى ينجحوا فى نقل المشاعر التى يريدون أن يوحوا بها لأشباههم بطريقة حية .

من هذه الدراسة تكون فن التعبير عن طريق الصوت ، أى فن الغناء الذى يسبق ، ترتيبا على ذلك ، فن القول ، ولذلك فإن الفن الأول ؛ بكل ما قد كان له من الكمال وما له من حقوق على الفن الثانى ، هو الذى قاد الخطوات الأولى للغة المنطوقة حين تكوّن وصحبها معه فى خطوات تقدمه ، ثم ما لبث أن هجرها أو فارقها بمجرد أن كف الشعور عن أن يكون على وفاق مع الفكر ، وحالما أصبحت للعقل لغة تختلف عن لغة القلب والوجدان .

وإنه لشقاء كبير دون شك ، أن يمكن للمرء هكذا أن يسىء استخدام أفضل الأشياء ! لكن هذا البلاء أمر لا ينفصم عن الطبيعة البشرية ، فها هو ذا الانسان يستخدم ذكاءه لإتلاف كل شىء ولاساءة استخدام كل ما يدخل فى نطاق استخداماته ، بنفس الطريقة التى سبق له بها أن استخدمه فى البداية ، كى يصلح من كل الأمور ، وكى يطور كل شىء ؛ وهو فى هذا المجال كذلك يشبه الطفل الذى

ينتهى به الأمر ، حين يمل من التسلى بألعابه ، بأن يلقى بها بعيدا عنه ، وبأن يركلها بقدمه ، وفى أن يحطمها فى أحيان كثيرة .

وعلى هذا فإن الانسان بحاجة لمن **يقوده** حتى فى استخدامه لاكتشافاته هو ، بنفس القدر الذى يحتاج فيه لمن يقوده وهو يستخدم ملكاته الفيزيقية والعقلية[١] . ولهذا السبب فإن قدماء المصريين قد كرسوا ، بفعل قوانين خاصة[٢]، مبادىء فنى الرقص والموسيقى ، بالعناية نفسها التى أولوها فى إرساء مبادىء الحكم والدولة والمؤسسات بالغة الأهمية[٣]، وهذا ما يؤكده لنا أفلاطون بطريقة بالغة الموضوعية ، فلقد كان هذا الفيلسوف طبقا لرواية ديودور الصقلى ، وكثيرين غيره[٤]، قد أقام لوقت طويل ، ولقدر كاف ، فى مصر لكى يدرس بها الفلسفة والسياسة وكل العلوم المقدسة ، وقد تبحر فى ذلك كله فى مدرسة كهان هذه البلاد تحت إشراف أكثر أهل طبقة الكهنوت شهرة فى ذلك الوقت ، والذى كان يلقب بنبى ممفيس فى عهد سشينوفيس[٥]، وعلى نحو ما فعل فيثاغورث فى عهد أونوفيس ، وأودوكس فى عهد شوتوفيس ، وكان هذا الأخير رجلا متبحرا للغاية فى معرفة الكتابات الهيروغليفية[٦]، ولهذا السبب كان المصريون أنفسهم على يقين من أن أفلاطون قد نقل الكثير من مبادئهم وضمنها فى مواضع عدة فى قوانينه وجمهوريته[٧]، وهو الأمر الذى يعطى

---

(١) أفلاطون ، كراتيلوس أو الفهم الصحيح للمسميات ، المؤلف نفسه ، بروتا جوراس ؛ المؤلف نفسه ، نياتيتوس ؛ المؤلف نفسه ، عن القوانين ، الكتاب الأول والثانى والسابع ؛ المؤلف نفسه ، الجمهورية ، الكتاب الثالث ؛ المؤلف نفسه ، خارميديس ؛ أرسطو ، الريتوريقا ؛ المؤلف نفسه ، فن الشعر ؛ لوكيانوس ، التدريبات الريتوريقية ؛ لوكريتوس ، عن طبيعة الموجودات ، الكتاب الخامس ، أبيات ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ؛ أثينايوس ، مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الرابع عشر ، ص ٦٣١ .

(٢) أفلاطون ، عن القوانين ، الكتابان الثانى والسابع .

(٣) يرى علم الاشتقاق اللغوى بشهادة بعض القدماء دون شك أن الموسيقى لا تختلف فى شىء عن الأسرار الدينية .

(٤) ديودور الصـــقلى ، تاريخ المكتبات ، الكتاب الأول ، فصل ٩٦ ؛ بلينوس التاريخ الطبيعى ، الكتاب الخامس والعشرون ، فصل ١ : عن أصل فنون السحر ؛ لوكانوس ، الحرب الأهلية ، بيت ١٨١ وما يليه ؛ بروبرتيوس ، الاليجيات ، الكتاب الثالث ، الاليجية ٢٠ ؛ كليمنس السكندرى ، الطبقات ، الكتاب السادس ، ص ٦٢٩ ؛ أينياس جازى ، الفلاسفة الأفلوطونيون المسيحيون ، ثيوفرواستوس أو عن بعث النفوس الخالدة والأجساد ، محاورة مترجمة عن اليونانية إلى اللاتينية ، ف ٣٧٧ ، د ٣٧٣ ، مكتبة الآباء القدامى ، المجلد الثانى .

(٥) كليماس السكندرى ، ستروماتا أو الطبقات ، الكتاب الأول ، ص ٣٠٣ .

(٦) Plutarque, de l'Esprit familier de Socrate.

(٧) ديودور الصقلى ، تاريخ المكتبات ، الكتاب الأول ، فصل ٩٨ .

لشهادته وزنا كبيرا فيما ينقله إلينا عن الموسيقى فى مصر القديمة ، وهو كذلك الأمر الذى أوحى لنا بكثير من الثقة بألا نخشى من أن ننقل عنه ، وألا نتردد من أن نستعير عن هذا الفيلسوف غالبية الأفكار التى نقولها حول هذا الفن .

وطبقا لما يذكره أفلاطون[١] فقد أحس المشرعون الأول لمصر بأن الأمر لم يكن يقتضى حتى يسعد البشر فى مجتمعاتهم ، إلا ضبط مشاعر اللذة والألم عندهم ، أو كبح جماحها ، وقد أدرك هؤلاء المشرعون ألا شىء أكثر صلاحية فى هذا الصدد من ادخال الاعتدال والتنظيم على تعبيراتهم المختلفة سواء فى الصوت أو فى حركات الجسم فى مناسبات المسرات والآلام ، وبالاضافة إلى ذلك فقد عرفوا أن اللذة وثيقة الصلة بما يحدثه التناغم (الهارمونى) والايقاع من شعور ؛ وإذ كان هؤلاء على يقين بان هذا الشعور كان واحدة من النعم التى أنعم بها أبو للون وربات الفنون للبشر[٢] كطريقة سهلة وملائمة ومضمونة لتصويب ، أو توقى السوءات التى ترتبط بشكل حميـم بالانفعالات الجموح ، والضارة على الدوام بكل من التناغم الذى ينبغى أن يسود حياة الفرد والمجتمع ، ومن هنا تتولد كل الشرور ؛ واذ كانوا على يقين ، بالاضافة لكل ما سبق ، من أنها حاجة لا محيص عنها للأطفال لأن يصيحوا وألا يكفوا عن الحركة ، ومن أن الرجل حين يحس باحساسات قوية أو حين يستثار استثارة عنيفة بفعل شهواته ، فإنه لا يستطيع احتواء الحركات التى تضطرم معها أحاسيسه ، والتى تتلف فى غالبية الأحيان وجدانه إذ هى تضلل عقله ، فقد ظلوا بالتالى مثابرين على اكتشاف الأغنيات التى من شأنها أن تبرز ، بدرجة تبلغ الكمال بقدر الامكان ، أجمل تعبيرات الصوت[٣] والرقصات التى تحاكى أجمل حركات الجسم وأكثرها رشاقة .

---

(١) أفلاطون ، عن القوانين ، الكتاب الثانى .

(٢) وهذا ما يفسر معنى الحكاية الرمزية التى يوردها ديودور الصقلى والتى سبق أن ذكرناها فى المبحث الثانى من هذا الكتاب .

(٣) كانت هذه المبادىء هى نفسها مبادىء الشعراء والفلاسفة بالغى الشهرة فى العصور القديمة . انظر : هوميروس ، نشيد إلى أبوللون ، بيت ١٦٢ وما يليه ؛ أفلاطون ، عن القوانين ، الكتب الثانى والثالث والسابع ؛ المؤلف نفسه ، الجمهورية ، الكتاب الثالث ؛ المؤلف نفسه ، كرايتلوس وثياتيتوس . استرابون ، الجغرافيات ، الكتاب العاشر ، ص ٥٣٢ ؛ كليمنس السكندرى ، الطبقات ، الكتاب السادس ، ص ٦٥٩ ؛ أثينايوس ، مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الرابع عشر ، فصل ٧ ، ص ٦٣١ . وقد قدم تونوس ، الشاعر المصرى =

ولقد وجب على الدوام أن تعبر هذه الأغنيات والرقصات عن نفس الرجل العاقل ، القنوع ، الشجاع ، المعتدل وأن يتسع تأثيرها بفعل ما لها من سطوة لتغرس فى قلوب الأطفال(١) مشاعر النظام والاعتدال والشجاعة ولإبقاء ذلك حيا فى قلوبهم ؛ ولهذا فقد لفظ المصريون بصفة نهائية كثرة الايقاعات وتنوعها ، إذ لا يستطيع الانسان فى الواقع أن يصل إلى تطور حق أو نضج حق فى الفنون ، وإلى هذا السمو الباعث على الجمال البسيط والجليل الذى صنع أمجاد الفنانين فى العصور بالغة القدم ، بعكس البأس والفشل اللذين يقاسى منهما فنانو اليوم ، إلا عن طريق اختيار عاقل بقدر ما هو متنور وعن طريق بساطة الوسائل المستخدمة وليس عن طريق تعقدها . كان المصريون يريدون أن يكون التناغم والايقاع على الدوام تابعين للكلمات ، لا أن تكون الكلمات هى التى تتبعهما(٢)، ولم يكونوا أقل من ذلك تدقيقا عند اختيار الكلمات نفسها ، فلقد كان محرما — تحت وطأة عقوبات بالغة

= من القرن الخامس ، أفكار المؤلفين السابقين فى هذه الأبيات :

« فالموسيات التسع كن يحركن الأنشودة التى تحمى الحياة ،
وكانت بوليمينا راعية الرقص الكورالى تثنى يديها معا
وكانت تبين بجلاء أنها تحاكى الصوت الصامت ،
وكأنها تعيد بيديها الشكل العبقرى للصمت الحكيم »

ديونيسيوس ، الكتاب الخامس ، بيت ١٠٣ وما يليه .

ويخبرنا كاسيودوروس أيضا فى معرض حديثة عن الموسيقى بالتالى :

« ذلك أن ما يوجد فى أية مجموعة من النغم لا يعود إلى اعتدال النغم (الهارمونية) ، فنحن نفكر بقدر كاف ، ونتحدث بطلاوة ، ونتحرك بصورة مناسبة ، عن طريق هذا (الصوت) الذى يصل مرارا إلى آذاننا ، وفقا لقانون من نظامه هو ، فهو يفرض لحنه ، ويحرك المشاعر : سمع مرهف ومتعة ممزوجة بالجد » .

فارّو ، الرسائل ، الكتاب الثانى ، ف ٦٠ ب ، باريس ، ١٦٠٠

ويقول أثينايوس (Dipn. lib. XIV) إن تماثيل القدماء هى مخلفات الرقص القديم ، فلقد لوحظت الحركات وحددت من قبل إذ كان هناك سعى دائب لاكساب التماثيل أو لإعطائها حركات جميلة ونبيلة ، كان الغرض منها ان ينتج عنها تأثير نافع . وبعد ذلك تمثلت الجوقات هذه الحركات الحية وحاكتها ؛ ومن الجوقات انتقلت إلى الميادين الرياضية التى ساهمت ، حين ألحقت الموسيقى بالتدريب الجسدى المستمر ، فى جعل المنخرطين فيها على أكبر درجة من قوة الروح . » .

(١) أفلاطون ، الجمهورية ، الكتاب الثالث .

(٢) أفلاطون ، المرجع السابق .

الصرامة – على أى شاعر أن يبتعد عن كل ما أقرته الشرائع كأمر مشروع وجميل وعادل وشريف ولم يكن التعليم شيئا آخر[١] غير فن جذب وتوجيه الأطفال ، نحو كل ما أقره القانون باعتباره مطابقا لما تمليه العقلية المستقيمة ، ونحو ما اعتبره المسنون ، بالغو الحكمة والتجربة ، كذلك . اذن فبقصد ألا تأتلف روح الأطفال قط على مشاعر لذة أو ألم لم ينظر إليها القانون على أنها كذلك ، أو لم ينظر إليها على أنها كذلك بالمثل أولئك الذين تشربوا القوانين واقتنعوا بها ، أو بالأحرى فبقصد ألا تقبل روح هؤلاء الأطفال على أمور أو ألا تنفر من أمور إلا تلك التى أقبل عليها أوعافها الشيوخ ، فإنهم قد ابتكروا أغانى كانت فتنة للنفوس وسحرا[٢]، ألفت لتهيىء الناس كى يتكيفوا مع القوانين فى أفراحهم وأتراحهم على حد سواء [أى يألمون لما تجعله القوانين مؤلما ، ويفرحون لما يجعله القانون مبهجا] ؛ وبمعنى آخر فحيث لا يستطيع الأطفال أن يتحملوا صراحة الأمور الجادة ، فقد شاء المصريون ألا تقدم لأطفالهم هذه المبادىء إلا فى شكل أغنيات[٣]، فصنعوا أغانى لكل عيد[٤]، ولكل إله ، ولكل شهر ، ولكل سن ، ولكل جنس ، ولكل حالة ، ولكل وضع من أوضاع الحياة[٥]،

---

(١) أفلاطون ، القوانين ، الكتاب الثانى .

(٢) توجد فى اليونانية كلمة إيبوذة épodhé أو بالفرنسية épodes ، ولعلها كانت أغنيات من ذلك النوع الذى يستخدم نموذجا يحتذى فى الأغانى الأخرى ، وقد حرص عليها المصريون واستبقوها كأمر ثمين للغاية ، كما سنرى بعد ذلك .

(٣) أفلاطون ، القوانين ، الكتاب الثانى .

وقد كان الأمر يتم على هذا النحو فى كريت ولاكيديمونيا طبقا لملاحظات كلينياس فى هذا الحوار ، وعلى هذا فقد كانت قوانين الدولتين ، وبصفة خاصة تلك القوانين التى وضعها ليكورج فى لاكيديمونيا قد استنفدت اغراضها فى مصر باعتراف المصريين أنفسهم طبقا لرواية ديودور الصقلى فى تاريخ المكتبات ، الكتاب الأول ؛ الفصل ٩٨

(٤) أفلاطون ، القوانين ، الكتاب السابع .

(٥) لم تصلنا أسماء هذه الأنواع المختلفة من الأغنيات والرقصات التى كانت تؤدى فى مصر ، ولكى نقدم فكرة عنها فسنحيل إلى أغنيات مشابهة أداها الاغريق محاكاة لأغانى المصريين ، ويرجح أن عددا كبيرا منها ذو أصل مصرى . لقد كانت لدى الاغريق كذلك رقصات وأغنيات خاصة بكل عيد ، وبكل حالة وبكل جنس.. الخ ، وكانت لديهم أغنيات يتم أداؤها عن طريق الصوت وحده ، كما كانت لديهم أغنيات أخرى يتم أداؤها بمصاحبة الناى . يقول أثينايوس (Athénée, lib XIV cap.) : « فى القرون الأولى لم تكن الموسيقى تستخدم إلا فى أداء كل ما هو جميل وشريف ، ولم تكن تعطى لكل أغنية إلا الحواشى التى تناسبها ، كما كان لكل واحدة من هذه الأغنيات المزامير الخاصة بها ؛ ونفس الشىء فيما يتصل بالألعاب الرياضية ، فكان لكل واحدة منها كذلك عازفها الخاص =

وأقروا هذه الأغنيات كما لو كانت قوانين يؤدى أقل خرق لها إلى عقوبة مبرحة لمن

= كما كانت لها أغنيات تناسبها » . ويخبرنا يوانيس ملالا Jean Malala بالشيء نفسه (التاريخ ، الكتاب الثانى عشر ، عن عصر الامبراطور كومودوس والألعاب الأولمبية المقامة فى أنطاكية العظمى ، الموسوعة البيزنطية ، المجلد الثالث والعشرين) ونجد بالمثل ملاحظات مشابهة عند أفلاطون ، القوانين ، الكتابين السابع والثامن .

أما الأغنيات التى كانت تؤدى بواسطة الصوت وحده فكانت البيان Péans أى أناشيد الحرب والنصر وكانت تؤدى على شرف أبو للون والديتيرامبه Dithyrambes أى قصائد المديح وتؤدى هذه على شرف باخوس ديتيرامبه وأغنيات الفيليليوس Philelios وهى كلمة تتكون من كلمتين يونانيتين filin و ilios وتعنى الأولى الفعل يحب ، وتعنى الثانية الشمس أو الضياء ، وكانت هذه مخصصة لإله النور أو الشمس باسم أبوللون (انظر أثينايوس Deipn lib XIV cap 3 .) ، والأغنية أو النشيد يولوس Ioulos وهى كلمة تعنى اللحية التى نبتت حديثا من زغب ، إشارة إلى الخضرة الأولى التى تبشر بمقدم الربيع وكانت هذه الأغنية مخصصة لخيريس Cérès وبروزربين Proserpine .

وطبقا لما يقوله فوتيوس (Bibl. p. 983) فقد كانت هناك أغنيات توجه خصيصا للآلهة وأخرى كانت تخصص للبشر ، وهناك أغنيات تؤدى لهما معا . أما الأغنيات الموجهة إلى الآلهة بصفة خاصة فهى الأناشيد أو التراتيل (همنيس) ، والعروضيات (بروزوديا) ، وأناشيد الحرب والنصر (البيان) ، ثم النوموس (والجمع نوموى) وهى أغانى آلهة المقاطعات المحليين ، والأدونيون (والجمع أدوناى) أى أناشيد أدونيس [وهى نوع من الأغنيات اليونانية تتكون من دكتيلة أو تفعيلة وتتألف هذه من مقطع طويل ، ومقطعين قصيرين ، ثم من سبوندية ، وهى تفعيلة ذات مقطعين طويلين] والأيوباكيون (والجمع أيو باكايا (أى أناشيد عابدات باخوس) ، والهيبرخيما [أى الترنيم أو اللعب الذى يقوم به اثنان من المغنين ، أحدهما يغنى ثم يرقص ، وثانيهما يرقص ثم يغنى ، ثم يتناوب الاثنان بعدها الرقص والغناء] .

أما الأغنيات التى كانت توجه خصيصا إلى البشر ، فكانت :

الانكومويون (والجمع انكوميا) ، أى أناشيد المديح ؛ والايبكنيون (والجمع إيبيكينيا أى الأغانى الجماعية ؛ والسكوليون (والجمع سكوليا) أى أغانى المائدة ؛ والايروتيكون (والجمع إيروتيكا) وهى أغنيات غزل ؛ والايبيثالاميون (والجمع إيبيثالاميا) وهى أناشيد الزفاف ، والهيمينايون (والجمع هيمينايًا) أى أغنيات الزواج ، والسيلّوسْ (والجمع سلّوىْ) وهذه هجائيات ؛ ثم الثرينوس (والجمع ثرينوى) وهى بكائيات ؛ والايبيكيديون (والجمع إيبكيديا) وهى أناشيد الجناز .

أما الأغانى التي توجه لكل من الآلهة والبشر فهى :

أغانى البارثينيون (والجمع بارثينيا) أى العذريات ؛ ثم الدافنيفوريون (والجمع دافنيفوريا) ، أى أغانى الآله دافنيس إله الرعاه [أو لعلها أغانى حملة أكاليل الغار] ؛ ثم أغنيات الأوسخوفوريون (والجمع أوسخوفوريا) وهى أناشيد حملة عناقيد العنب ؛ وأغنيات اليوكتيكون (والجمع يوكتيكا) وهى بمثابة دعوات أو ابتهالات .

ويشير كذلك إلى ترتيل يسمى كستون أى الحزام أو النطاق أو كيس النقود الذى يلف حول الوسط ، وقد ألفه باريس على شرف أفروديت (فينوس) التى كان يقدسها باعتبارها أولى الربات (يوانيس ملالا ، الموسوعة البيزنطية ، المجلد الثالث والعشرين ، ص ٣٨ .

وفوق ذلك كانت هناك الأغنية Oupingi وكانت تغنى للاتى يلدن لأول مرة ، وكانت هذه الأغنية مخصصة =

يتجاسر على ارتكابها ؛ ثم ابتكروا نوعا من التمثيل الصامت ، يتوافق مع هذه الأغاني

= لديانا ، وكذلك الغناء أو البكائية المسماه أولوفيرموس Olophyrmos وهى كلمة تعنى العويل أو الأنين ، وكانت تدخر هذه الأغنيات لأيام المآسى والمحن ، أما الأغنية المسماة Iálmos يالموس أى الغناء الفاتر الواهن والحزين فكانت تؤدى أثناء الجنازات . وقد أطلق يوريبيديس فى تراجيديته المسماة الفينيقيات على صيحات الحزن التى كانت تطلقها الأمهات وبناتهن عند موت إيتوكل وبولينيكا ، اللذين قتلا كلاهما فى معركة عجيبة ! Ialemi ke materos, Ialemi ke parthenos « بالحداد الأمهات وبالحداد الفتيات » . ويضيف بأن صدى هذه الصرخات كان يرن فى البيوت ، ونحن هنا أمام تماثل شديد بين هذا العويل وبين تلك الصرخات التى لا تزال المصريات يطلقنها إلى اليوم من شرفات منازلهن أولا ثم فى داخل المساكن بعد ذلك ، فى كل مرة يموت فيها أحد أقاربهن أو أى شخص آخر عزيز عليهن ؛ وهن يكررن هذه الصرخات بشكل اعتيادى طيلة اليوم ، ويواصلنها فى بعض الأحيان لعدة أيام ، مبديات لوعتهن عن طريق عويل شبيه بذلك الذى انتهينا من ذكره فى تراجيديا يوريبيديس .

وكان هناك كذلك نوع الغناء المسمى ألينوس أو لينوس ويؤدى فى حالتى الحزن والفرح ، لأنه كان يخفف دون جدال من غلواء هذه الحالة وتلك بجلبه الهدوء إلى النفوس . ويؤكد هيرودوت أن هذه الأغنية من أصل مصرى ، وأنها هى نفسها الأغنية المصرية التى كانت تعرف باسم مانيروس ؛ وقد كانت لهذه الأغنية فى الواقع الميزة أو الخاصية التى يتحرى المصريون إعطاءها لغنائهم . أما بوزانياس Pausanias فكان يظن ، على العكس من ذلك ، أن هذه الأغنية إغريقية الأصل وأن الأغريق قد خصصوها للغناء على وفاة لينوس Linus أحد مبتكرى الموسيقى فى اليونان ؛ كذلك تذكر الأغنية شارونداس Charondas التى كانت تغنى فى الولائم ، والأغنية اليتيس Alétés التى كان يغنيها المشردون والشحاذون كما تدل على ذلك الكلمة ، والأغنية كاتابو كاليزيس Katabaucalesés وهى خاصة بالمرضعات ، ومن خاصيتها أنها تجلب النوم اللذيذ إلى عيون الأطفال ، والأغنية إبيميليوس Epimylios أو أغنية الطحانين أو أولئك الذين يديرون الطاحونة أو الرحى ، كما كان يؤديها كذلك أولئك الذين يغترفون المياه بواسطة عجلة ذات قواديس لأن أداء وحركة هؤلاء جميعا متشابهة فيما بينهم ، ومع ذلك فقد كانت هناك أغنية خاصة بنازحى المياه هى تلك التى كانوا يسمونها هيميوس Himaeos ، وهى بدون جدال الأغنية التى كان أريستوفان يسميها (Imoniostrofore (Ram. act V sect 2V41 أى أغنية مغترفى المياه . وقد احتفظ هؤلاء الذين يعبون المياه فى مصر حتى يومنا هذا بهذه العادة بل إنهم ينظمون حركاتهم على إيقاع أنغام بعض الأغنيات الخاصة بهم ، ويمكن الرجوع إلى بعض هذه الأغنيات فى دراستنا عن الحالة الراهنة لفن الموسيقى فى مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول . وكانت هناك أغنية أخرى هى يولوس Ioulos هى تلك التى يتغنى بها ندافو أو حلاجو الصوف ، وقد سبق أن ذكرنا نشيدا أو ترتيلة بهذا الاسم توجه إلى خيريس وبروزربين . وكان يشار باسم إلينوس Elinos إلى أغنية تخص النساجين ، وكانت هناك أغنية أخرى باسم Lityersés ليتييرسيس وتنسب إلى شخص يحمل نفس الاسم ، وهو ابن ميداس ؛ ومع ذلك فحين يقال انه كان يقطن كيلينيس Celénes وإنه كان يجذب المارة إلى هناك ، ويدفعهم إلى القيام بعملية الحصاد ، ثم يقطع بعد ذلك رءوسهم ويستبقى أجسادهم بين حزم القمح ، فإنه يخيل إلينا أن الأمر هنا يحمل طابع الأساطير القديمة التى تقدم ، فى شكل مرعب وخارج عن المألوف والمعقول ، رمزا فلسفيا عميقا ، وان كان المعنى الظاهرى له لم يصطنع إلا من أجل العامة الذين يحبون كل ما هو عجيب ولا يحترمون إلا ما يبعث على دهشتهم ؛ أما المعنى الخفى والعميق فكان وقفا على المثقفين . أما أغنية الذين يحولون المحصول بعد حصاده إلى حزم فكانت تحمل كذلك اسم يولوس Ioulos ، وهى كما نرى الأغنية =

والرقصات ، كانوا يقومون به فى داخل المعابد وخارجها فى أيام الأعياد وأيام الراحة ؛

= الثالثة ، أو النوع الثالث من أنواع الغناء ، الذى يحمل هذا الاسم . وكانت هذه مخصصة دون جدال لخيريس فى حين كانت الأولى توجه بصفة أكثر خصوصية إلى بروزربين ، فمن المعروف أن خيريس كانت تترأس عمليات الحصاد وأنه كان يوجه الشكر والحمد إلى بروزربين حين تنبت بدايات خضرة الربيع ، وعند ظهور بواكير الورود والثمار ؛ فضلا عن ذلك فلعل الحاصدين قد وجهوا تلك الأغنية إلى هذه الربة أحيانا ولتلك أحيانا أخرى لاستجداء معونتهما ولتقديم الشكر العميق لهما على هذا العون . أما الأغنية التى كان يغنيها رعاة الأغنام ورعاة البقر فكانت باسم بوكوليسموس Boucolismos ، كما كانت أغنية الذين يمخضون اللبن أوصنع الزبدة تسمى تيروكوبيكوس Tyrocopicos أو كروزيتيروس Krousityros . ونحن نعلم أن قد كانت هناك كذلك أغنية خاصة بالنسوة اللاتى كن يدققن أو يسحقن الثمار وأن كنا نجهل اسمها . وقد كانت هناك بلا ريب أغنيات أخرى كثيرة من هذا النوع لكنها لم تصل إلينا قط ، كما لابد أن كانت هناك بالمثل أغنيات خاصة بكل حرفة أو مهنة ولابد أن هذه الأغانى كانت كبيرة العدد ذكرت من بينها أغنية خاصة بالحمامين دون أن يشار إليها بالاسم كما لزم [المؤرخون] الصمت بخصوص الأخريات .

أما عن ضروب الغناء أو الأغنيات التى كانت تؤدى بمصاحبة الناى فقد كانت تأتى فى مناسبات الافراح أو الأحزان العامة وكذلك عند كل ضرب من ضروب التسلية والتدرب والعمل ؛ وعلى هذا النحو كانت أغنية كوموس Komos التى كانت تصاحب الرقصات المرحة والولائم والأغنية هيدوكوموس Hédycomos التى كانت تؤدى نفس غرض الأغنية الأولى على وجه التقريب ، والأغنية إيبفالوس Epiphalus ومعناها الأغنية التى تؤدى على شرف فالوس Phallus والأغنية كوريوس Choreos أو أغنية الجوقات وتؤدى فى الحفلات العامة أو الرقصات الجماعية **والأغنية** بوليميكوس Polemicos للمعارك ، والأغنية جنجراس gingras للعويل والبكاء . وهناك أغنيات تصاحب الرقصات الخليعة أو الشهوانية مثال ذلك تلك الأغنية التى أطلق عليها اسم ماثون Mathon ، وهذه الرقصات التى كانت تبغى الايحاء بالمجون وإثارة الغرائز تعود إلى زمن بالغ القدم ، وان لم تكن فى منشئها فما يرجح ترتبط بمشاعر الفسق هذه ، إذ لم تكن اللياقة ولا النظام الجيد ولا القوانين لتسمح ، عند شعب متحضر ومنظم ، أن تقبل الأمر من هذه الزاوية ، ونحن على يقين من أنها ، شأنها شأن كل الرقصات الدينية القديمة ، كانت تبغى فى البداية أن تقوم أو تمثل عن طريق أداء صامت المشاعر والأحاسيس والأوضاع التى كانت توحى بها ، أو يمكن أن ننسبها ، إلى الربة التى كانت مخصصة لها ، مع كل الالتزام الداعى للاحترام دون جدال بأن لا تنخرط إلى أداء دنس أو سوقى . ومن المرجح أن هذه الرقصات الشهوانية كانت تؤدى على شرف باخوس Bacchus وبصفة خاصة فى الأعياد التى تسمى أعياد باخوس Bacchanales ، ومن المرجح كذلك أنها بعد أن كانت فى منشئها تدعو للاحترام ، لم تعد مع مرور الزمن توحى بالقداسة وأصبحت فرصة للفجور والدعارة ، فانتقلت من المعابد ، حيث لم يعد يسمح بأدائها هناك إلى العامة ، وهذا فى رأينا ، هو أصل رقصات الجاتيدانس gatidanse والتى حفظ لنا الشعراء اللاتين أوصافها الداعرة للغاية . مثال ذلك تلك الرقصات التى مازالت تنشرها حتى اليوم الراقصات المحترفات فى مصر (العوالم) — انظر دراستنا عن الحالة الراهنة لفن الموسيقى فى مصر ، الفصل الثانى ، المبحث الخامس ، عن العوالم والغوازى أو الراقصات العموميات .. الدولة الحديثة ، المجلد الأول (المجلد الثامن من الترجمة العربية) . وعلى هذا فإن كل ضروب الغناء وكذا الرقصات التى ترتبط بها ، كانت قد نقلت ، أو على الأقل قد تمت محاكاتها ، عن الأغنيات والرقصات التى كان المصريون القدماء قد ابتكروها وخصصوها لكل إله من آلهتهم ، =

وقد أطلق أفلاطون على هذا النوع من التمثيل اسم Choreé أى الرقص(*) (بفتحة مشددة على الراء تليها فتحة على القاف) وهى مشتقة من الكلمة اليونانية Kharà وتعنى الفرح أو البهجة .

كانت هذه التدريبات مفيدة فيما يتصل بالأخلاق التى كانت هذه التدريبات تقدم عنها أكثر الصور جمالا ، وفيما يتصل بالموسيقى بفعل اللحن الرائع للأغانى التى كانت تصاحب هذه التدريبات ، والتى كانت عباراتها تختار على الدوام بروية وفطنة ثم تعد بشكل طيب ، وفيما يتصل بالرقص بفعل رشاقة الحركات وتوقيعها ، وفى النهاية بفعل التناغم الكامل واللياقة والجمال فى كل من تأليف واخراج الأغنيات والرقصات . وكانت هذه التدريبات تندمج أو تصاحب كل مراحل التعليم(١) **فعندما لا يعرف امرؤ ما قط أن يغنى ، وحين لا يعرف قط أن يرقص فمعنى ذلك أنه لم يتلق تعليما قط**(٢) ويعنى ذلك – كذلك – أن هذا الشخص لا يعرف كيف

= ولكل عيد ، ولكل فصل ، ولكل مناسبة ، ولكل حالة ، ولكل عمر ، ولكل جنس ، فهنا نلمس العناصر المكونة للفن الجماعى أو فن الجوقة والذى كان عندهم هو الغرض الرئيسى من الدرس والتعليم . ويبدو أن سوفوكليس (أوديب فى كولونا ، البيت ١٢١٨) أراد أن يشير إلى هذا النوع من التعليم حين أعطى لربة الموت(**) التى تقطع خيط أيامنا الصفتين akhros, alyros وتعنيان المحرومة من الرقص والمحرومة من الغناء .

(**)تذكر أساطير اليونان أن هناك ثلاث ربات للحياة الآخرة يتحكمن فى حياة الانسان وطول عمره فالربة كلوتو التى تتعهد الميلاد وتمسك بالغزل والربة لاخيسيس تلف المغزل أما الربة اتروبوس فتقوم بقطع الخيط ايذانا بانتهاء حياة الفرد [المترجم]

(*) ومن هذه الكلمة جاءت الاشتقاقات : كورال Choral : وهى جوقة صوتية ؛ وكوريدرام Chorédram : أى المأساة المغناة .. الخ . أما الكلمة العربية التى تقابلها ، وهى الرَّقَص فتدل على مرض عصبى يتميز باختلاجات تشنجية . [المترجم]

(١) كان الاغريق كذلك يظنون الشيء نفسه فى العصر الذى عاش فيه تيميستوكل Thémistocle إذ نظروا إليه باعتباره قد عد جاهلا لم ينل أى قسط من التعليم ولحقته بذلك كل صنوف الخزى والعار على الدوام ، حين اعترف بأنه لا يعرف كيف يغنى ولا كيف يعزف على القيثار .

(٢) أفلاطون ، القوانين ، الكتاب الثانى .

وألفتنا بهذه الأفكار قليلة للغاية وتتعارض مع الرأى الذى توحى لنا به موسيقانا ورقصاتنا الحالية ؛ ولسنا نريد أن نكرر القول كثيرا بأن الأمر هنا لا يتعلق بفنون تشابه التى نطلق عليها هذه الأسماء نفسها ، وبأن هذه الفنون [فنوننا] ليست على أحسن تقدير سوى امتدادات أو إشارات أو بالأحرى سوءات نجمت عن تفسخ الفنون الأولى وتحللها ، والتى كانت إحداها ، الرقصات ، تشمل التعبير برشاقة واحتشام ولياقة وحيوية أما الأخرى ، الموسيقى ، فكانت تلحق بالخطابة الهيئة والشكل والحركات المماثلة للمشاعر التى يتم التعبير عنها بالكلمات (أفلاطون ، القوانين ، الكتاب السابع) .

لقد كانت الموسيقى والغناء ، طبقا لرأى أفلاطون ، محاكاة للتقاليد والممارسات وصورة لها ، لذلك كانت تغرس وترسخ وتعلم بقدر كبير من العناية يماثل القدر من العناية التى تدرس بها قواعد اللغة اليوم . كذلك فإن =

يتمالك نفسه ولا كيف يعتدل لا فى أقواله ، ولا فى تعبيرات صوته ، ولا فى حركاته ولا فى أفعاله[1]، فالناس عندئذ لم يكونوا يفصلون قط الحشمة عن الرشاقة ، ولا النفع عن الصواب ولا الجمال عن الخير ، إذ لم يكن ينظر لأية واحدة من هذه المزايا على اعتبار أنها متحققة ومكتملة ، إلا بقدر ما تضم اليها المزايا الأخرى جميعاً فى الوقت ذاته .

وحتى يستطيع كل امرىء أن يكب على هذه التدريبات ، وأن يظل على الدوام يحتفظ بمبادىء التعليم السليم التى كان قد تلقاها ، ودون أن يضطر من أجل ذلك أن يهجر ما تتطلبه منه حياته العامة أو الخاصة من مشاغل معتادة ، فقد تخصص لهذا الغرض ، الوقت الذى كان يتبقى من أيام العيد بعد الانتهاء من أداء الواجبات الدينية ؛ وكانت تبذل العناية الفائقة حتى لا يؤدى فى تلك الأيام سوى الرقصات والأغنيات التى تماثل طابع العيد ومناسبته أو الغرض منه ، والتى تتوافق كذلك مع طبيعة وسن وجنس وحالة الراقصين ، فكل ما قد كان للموسيقى من سمو ، وكل ما كان من شأنه فيها أن يؤجج الحماسة والشجاعة كان يخصص للرجال ، فى حين كانت النساء يختصصن بكل ما يدعو إلى التواضع والاعتدال[2].

وكانت كل الحفلات الدينية أو العامة ، وكل الواجبات المدنية التى كانت تستهدف النظام الاجتماعى المتصل بظواهر الطبيعة ، تشكل نوعا من الدراما المتبوعة[3] حيث كان عبقرية النظام والتناغم حورس يقوم بالذود عن عبقرية (أو جن) الخير أوزيريس ، الذى كان يهاجم ويهزم دونما انقطاع من جن أو عبقرية

= ماكان يراه أفلاطون فى هذا الخصوص يطابق آراء وأحاسيس كل فلاسفة عصره ، بل كذلك آراء وأحاسيس العلماء المتميزين الذين جاءوا بعده بوقت طويل . وقد رأى كليمنس السكندرى إذ يقول (Storm, VI p. 659) :

« وعلى ذلك فإن الموسيقى ينبغى لها أن تهدف إلى التحلى بالأخلاق وتهذيبها » .

« أما الموسيقى الزائدة عن الحد فينبغى نبذها ، إذ أنها تمزق الاحساس ، وتؤثر على المشاعر بدرجات متفاوتة ، لدرجة أنها أحيانا ما تكون بحق محزنة ، وأحيانا بلا حياء ، تثير الغرائز ، وأحيانا صاخبة ، تدفع للجنون » .

(١) كل ما نقوله هنا ، وكذلك كل ما سبق أن قلناه فى أماكن سابقة [بهذا الخصوص] قد أخذناه عن أفلاطون أو عن مؤلفين آخرين من هؤلاء الذين عرفوا مصر القديمة أفضل من غيرهم والذين كانوا هم أنفسهم شهودا على كل ما نقلوه إلينا من هناك .

(٢) أفلاطون ، القوانين ، الكتاب السابع .

(٣) شرحه .

الشر طيفون (أو توفون) ؛ ولهذا السبب فإن المصريين قد ألزموا أنفسهم بواجب ديني ، هو أن يسهموا عن طريق عملهم وفضائلهم للإبقاء على السعادة الاجتماعية والازدهار العام ، مقتنعين بأنهم ، بهذه الوسيلة ، يصارعون من جانبهم ويدفعون عبقرية الشر ويصدونها ، ويجعلون الجهود التي تبذلها لالحاق الأذى جهودا لا فاعلية لها ، وهنا تكمن الغاية التي كانوا يستمدون من بعضهم البعض الشجاعة المتبادلة كي يبلغوها .

لم يكن يعترف — في مصر القديمة — بأغنيات جميلة ، إلا تلك التي كانت تتفق مع الفضيلة ، أما الأغنيات الأخرى فكانت تلفظ وتنحى وكان مؤلفوها(٢) ينالون العقوبة التي يستحقونها ؛ وهذا ما أراد أفلاطون كذلك أن يثبته في قوانينه ، محاكاة للمصريين الذين كان يتبنى دون قيد أو شرط كل مبادئهم ؛ إذ يأتي على لسان واحد من الأثينيين في الكتاب الثاني من القوانين ، وكان المتحدث يتوجه بحديثه إلى كلونياس وميجيل ، وأولهما من كريت أما الثاني فمن لاكيدمونيا:

« هل يمكن الظن أن يترك ، في دولة ما ، أية دولة ، تحكمها أو ستحكمها القوانين ، تحت رحمة الشعراء(٢) ما يخص أمور التعليم والتسلية والمرح التي تنعم علينا بها ربات الفنون ؛ وهل ندع لهم حق اختيار ما يروق لهم فيما يتصل بالايقاع واللحن والكلمات المغناة . كي يلقنوه بعد ذلك ، في الجوقات(٣) ، إلى شبان ولدوا لمواطنين صالحين ، دون أن يعبأوا ما إن كانوا بذلك ينشئونهم على الفضيلة أو على الرذيلة ؟

---

(١) بلوتارخوس (بلوتارك) ايزيس وأوزيريس . « النص الفرنسي »

(٢) يقصد أفلاطون عادة بكلمة شاعر : **الشخص الذي يصنع والذي يؤلف عملا أدبيا أو موسيقيا** أو هو بالأحرى الشاعر – الموسيقي ، وهو يعطي لهذه الكلمة معنى أو مفهوما شبيها بذلك الذي أعطيناه لكلمة **شعر** قبل ذلك ؛ ويطلق اليونان المحدثون في مؤلفاتهم الموسيقية اسم الشاعر على مؤلفي وناظمي اغنياتهم . انظر دراستنا عن الحالة الراهنة لفن الموسيقى في مصر ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة ص ٨١٣ [من الأصل الفرنسي] الهامش رقم ٦ ، وص ٨١٦ الهامش رقم ٧ . [المجلد الثامن من الترجمة العربية]

(٣) نستطيع ملاحظة أن أفلاطون كان ينظر إلى الجوقات أي إلى تجمع مختلف الفرق الجماعية باعتبارها نوعا من التعليم العام ، محتذيا في ذلك حذو المصريين .

كلينياس : كلا ، بالطبع .

الأثينى : **ومع ذلك فهذا الأمر متروك بالفعل تحت رحمتهم فى كل بلدان العالم فيما عدا مصر .**

كلينياس : إذن فكيف تسير الأمور فى مصر فى هذا المجال ؟

الأثينى : بطريقة ستكون مدعاة لدهشتك . فالناس هناك قد عرفوا منذ وقت طويل ، فيما يبدو ، حقيقة ما أقوله لك هنا ، حقيقة أن من الواجب أن ينشئوا الشباب منذ وقت مبكر على أكثر الأمور اكتمالا فى مجالى الشكل(١) **واللحن . ولهذا السبب ، فإنهم بعد أن يختاروا ويحددوا نماذجهم فإنهم يقومون بعرضها على مشهد ومسمع من الجمهور فى المعابد** ، ولم يسمح الناس فى مصر(٢) قط ، ولا يزال لا يسمح فيها حتى اليوم ، لا للرسامين ولا لغيرهم من الفنانين الذين يصوغون أشكالا أو أعمالا مشابهة ، أن يبتدعوا شيئا أو أن يتزحزحوا قيد أنملة عن شيء كانت قوانين البلاد قد نظمته(٣) . ولقد حدث هناك الشيء

---

(١) أى حركات وهيئة الجسم .

(٢) من المفيد أن نلاحظ أن الحكومة المصرية القديمة فى ذلك الوقت ، كانت قد توقفت ، لمدة تزيد عن قرن من الزمان ، وأن ثلاثة من ملوك الفرس قد شغلوا عرش مصر ، وأن المصريين بعد طردهم لهؤلاء قد استعادوا العرش من جديد ، وأنهم لم يحتفظوا به إلا لمدة ستين عاما وبضعة أعوام ، وأن أفلاطون خلال هذا الوقت ، وعلى وجه الدقة ، قد سافر إلى مصر وألف كتابه القوانين .

(٣) لابد للقوانين فى هذا الصدد أن تكون ايجابية للغاية وبالغة التحديد ؛ فطبقا لما ينقله إلينا ديودور الصقلى فى مكتبته التاريخية الكتاب الأول ، الفصل ٩٨ فقد كان « تيليكليس Télèclès وتيودور Théodor ، ابنا روكوس Roecus ، اللذان صنعا تمثال أبوللون بيتيان من ساموس ، واللذان درسا فنهما فى مدرسة المثالين المصريين ، قد توصلا إلى تنفيذ هذا التمثال على هذا النحو ، مع أن تيليكليس قد صنع نصف التمثال فى ساموس Samos فى حين أن أخاه قد صنع النصف الآخر فى إيفيزا Ephèse ومع ذلك فقد تطابق النصفان على نحو بالغ الدقة ، حتى أنه فى شكله الكلى كان يبدو وكأنه من صنع يد واحدة ، ويضيف ديودور الصقلى إلى ذلك : « ان هذا الفن ، الذى كان قليل الانتشار عند الاغريق كان يمارس بأكبر قدر من النجاح على يد المثالين المصريين » **(ولهذا ينبغى الاستنتاج تبعا لذلك أن كل الأعمال الرائعة من هذا النوع والتى أقيمت فى عصر سابق على ديودور هى ، طبقا لظنون هذا المؤلف ، من عمل المثالين المصريين ، أو على الأقل من عمل إغريق تكونوا فى مدرسة المثالين المصريين .)** « وان هؤلاء لم يكونوا يحكمون على الشكل من مجرد لمحة عين خاطفة ، شأن الأغريق ، وأنهم كانوا يقطعون بشكل منفصل وبأكبر قدر من الانضباط كل الأحجار التى ينبغى لها أن تشكل التمثال ؛ وانهم قد قسموا الجسم البشرى إلى واحد وعشرين جزءا وربع الجزء . وأنه ، عندما كان العمال يتفقون فيما بينهم على الارتفاع المطلوب فإنهم يذهبون ليصنع كل منهم فى منزله الجزء الذى أسند إليه تشكيله . وأن هذه الأجزاء كانت =

نفسه فيما يتصل بالموسيقى ، فإذا ما شئنا أن نسوق أمثلة على ذلك ، فيكفى أن نقول بأن لديهم أعمال رسم ونحت(١)، صنعت منذ عشرة آلاف عام (وحين أقول عشرة آلاف عام فلست هنا أطلق القول على عواهنه ، وإنما أقصده بمعناه الحرفى) لا هى أكثر جمالا ولا هى أقل جمالا عن أعمالهم الفنية التى يصنعونها اليوم ، فقد قامت هذه وتلك على نفس القواعد .

كلينياس : هذا أمر يدعو إلى الاعجاب حقا !

الاثينى : نعم فهذا من جلائل الأعمال فى مجالى التشريع والسياسة . ومع ذلك فإن قوانينهم الأخرى ليست خلوا من الأخطاء . **أما تلك التى تمس الموسيقى فإنها تدلنا على شيء حقيقى وجوهرى وجدير بالملاحظة ، وتشتمل فيما تشتمل على إمكانية أن نحدد على وجه الدقة ما هى ضروب الغناء الجميلة بطبيعتها وأن نعين مواصفاتها** . صحيح أن ذلك لا يدخل ضمن نفوذ إله أو شخص مقدس(٢)، ومع هذا فإن المصريين ينسبون إلى

= تنطبق فيما بينها على الدوام بطريقة كانت دوما تثير دهشة أولئك الذين لم يألفوا هذه الطريقة فى العمل ، ثم يواصل ديودور قائلا : « ولذلك فإن قطعتى أبوللون من ساموس تلتصقان بشكل متناسق بكل طول الجسم ، وبرغم أن له ذراعين مبسوطتين فى حالة حركة ، ومع **أنه** فى هيئة رجل يمشى فإنه فى كل أجزائه **متماثل**. كما جاءت أجزاؤه فى أتم حالة من الضبط والدقة ، وأخيرا فإن هذا العمل الذى صنع على غرار الفن المصرى قد تجاوز بعض الشيء آثار مصر نفسها » .

ولا يزال بمقدورنا نحن أن نحكم بأنفسنا على روعة هذا العمل عن طريق التمثال البرونزى لأبوللون بيتيان الذي يرى حاليا فوق شرفة التويلرى من ناحية نهر السين ، ذلك أن المرء لا يمكن أن يشك فى أن هذا التمثال البرونزى الذى فى حوزتنا قد تم تنفيذه طبقا لهذا الأنموذج ، أو على الأقل طبقا لنسخة رائعة من هذا العمل الفذ . وعلى زملائنا الذين لديهم معرفة أعمق بفن النحت أن يقدروا ما إن كانت الجذوع والفتات الأخرى تماثيل الجرانيت التى صادفناها فى مصر ، تستحق هذا المديح الذى يكيله ديودور الصقلى هنا للمثالين أو النحاتين المصريين .

(١) نعرف أنه كانت لا تزال توجد فى مصر ، فى زمن أفلاطون ، آثار تعود إلى عصور بالغة القدم .

(٢) يلمح أفلاطون هنا إلى تحوتى أو هرميس أو عطارد الذى أعطاه الوصف نفسه فى مؤلفه فيليب .

إيزيس[١] هذه الأشعار التى ظلوا يتداولونها منذ زمان بعيد ؛ اذن ، فلو أن شخصا ، ماهرا بالقدر الكافى ، قد أمكنه ، كما كنت أقول ، أن يستخلص من الأمور أكثرها اكتمالا فى هذا الجنس [الموسيقى] فإن عليه – دون أن يخشى شيئا ان يستوعبه كى ينشىء منه قانونا ، يأمر بوضعه موضع التنفيذ ، وليكن على يقين من أن مشاعر اللذة والألم[٢] ، تلك التى تحفز الرجال ، دونما انقطاع ، على ابتكار الأصناف الجديدة من الموسيقى ، لن تكون قط على قدر من القوة يكفى لإلغاء أو إزالة نماذج [فنية] أخذ بها الناس ذات يوم ، ادعاء بأن الزمن قد تجاوزها ، وعلى أية حال فإننا نرى فى مصر ، لا نزال ، ان العكس من هذا هو الذى يحدث[٣]، بل قد تم إلغاؤها[٤]. »

ومن الواضح من هذه الفقرة ، أن أفلاطون لم يجد شيئا قد تغير فى القوانين المصرية الخاصة بتنظيم الموسيقى ، وأنه كان يقدم هذه الموسيقى كنموذج يحتذى ، وباعتبارها مبرأة من كل عيب ، وأنه قد تتبعها فى كل تفصيلاتها فحين نجده يقول : **ويجب أن نحمل الأطفال ، بموجب قانون خاص ، على اغتراف المعارف التى يتعلمها أطفال مصر بواسطة الحروف**[٥]. فلابد لنا أن ندخل الموسيقى ضمن هذه العلوم ، **إذ أن المصريين قد أدركوا منذ وقت طويل أن من الضرورى أن نربى الناشئة منذ نعومة أظافرهم على ما هو قائم من الحان بالغة الاكتمال** ؛ ولقد كانت هذه نتيجة لازمة ، جاءت عن مبادئهم التى كانت ترنو إلى الاعتدال وتهدف إلى ضبط العواطف والانفعالات منذ الطفولة ، وغايتهم فى ذلك أن يكون الناس أكثر سعادة فى مجتمعهم .

---

(١) كان المصريون ينظرون إلى إيزيس باعتبارها أولى ربات الفن انظر بلوتارك ، مقالة ايزيس واوزيريس .

(٢) وهى ولا شك ضروب الغناء أو الإيبودات التى تناولناها بالحديث فى الهامش رقم ٥ ص ٦٩.

(٣) كان بمقدور أفلاطون الذى زار مصر فى عهد الملوك المصريين ، بعد طردهم لخلفاء قمبيز من العرش ، أن يحكم بنفسه على مدى ما أبقى عليه المصريون من ارتباط بكل هذه الأشياء وعن الحماسة التى أظهروها لإعادتها أو للابقاء عليها فى كل فاعليتها .

(٤) يريد أفلاطون دون جدال أن يتحدث عن الجهود التى قام بها الفرس عندما احتلوا مصر كى يدخلوا إلى هذا البلد مبتكرات عديدة كان لها تأثيرها على فن الموسيقى سواء فى اليونان أو فى آسيا .

(٥) أفلاطون ، القوانين ، الكتاب السابع .

وفى الوقت نفسه ، فبرغم أن الناس فى مصر كانوا يعنون منذ وقت مبكر للغاية بتعليم أطفالهم ، فإن هؤلاء الأطفال لم يكونوا يحصلون ، حتى بلوغهم السنة العاشرة من أعمارهم ، على أى تعليم آخر بخلاف ذلك الذى كان ينتقل إليهم عن طريق المحاكاة أو الإقتداء ، إذ كان يكتفى ، قبل بلوغهم هذه السن ، بأن ينشأوا على أن يغنوا المبادىء العامة والأمثلة السائرة التى تلخص الحكمة أو تحض على الفضائل التى كان يغنيها الرجال الناضجون والتى كان يعلمها الشيوخ[١]: أما عند بلوغهم سن العاشرة فكانوا يتعلمون القراءة لمدة سنوات ثلاث ؛ وعند بلوغهم الثالثة عشرة كانوا يتعودون على ممارسة الألعاب الرياضية والتوقيع على أوتار القيثارة[٢]، وكان المصريون يحتمون أن يمضى الأطفال فى ذلك ثلاث سنوات ، دون أن يكون مسموحا لوالد الطفل ، أو حتى للطفل ذاته ، سواء عن طيب خاطر من جانبه أو عن نفور ، بأن ينفقَ فى ذلك أكبر أو أقل من الوقت الذى نص عليه القانون[٣].

ولقد تربى موسى على هذا النحو فى بلاط فرعون مصر[٤]، ثم تعلم القراءة فى سن العاشرة[٥]؛ وبعد ذلك تعلم الحساب والهندسة والموسيقى بكافة أشكالها وتشتمل على الموسيقى الهارمونية والايقاعية والصوتية[٦] وموسيقى الشعر (البحور والأوزان) ، ثم درس الطب . وبعد أن تلقى كل العلوم المدنية والعسكرية[٧]، تلقى على

---

(١) أفلاطون ، القوانين ، الكتاب الثانى .

(٢) لن يكون بمقدور امرىء أن يتصور فائدة هذه الدراسة فى تربية الأطفال فى ذلك الوقت) بعد أن يكون المصريون قد علموهم القراءة إذا ما كان يجهل أو إذا كان يمكنه الشك فى أن القيثارة فى هذه الأزمان المتأخرة كان يقتصر استخدامها ، كما سبق لنا أن استرعينا الأنظار ، على مساندة وتوجيه الصوت فى غناء الأشعار .

(٣) شرحه .

(٤) أعمال الرسل ، فصل ٧ ، سطر ٢٢ ؛ فيلون ، حياة موسى ، الكتاب الأول ، ص ٤٧٠ ، كولونيا ١٦١٣ ؛ كيدرين ، موجز التاريخ ، الموسوعة البيزنطية ، المجلد السابع ، ص ٣٩ ، ٧٦ .

(٥) جورج أبو فرج ,Bar- Hebraei ، أساقفة الشرق ، قوائم التاريخ منذ تأسيس العالم حتى نهايته ، القائمة المقدسة الأولى من آدم حتى موسى ، الموسوعة البيزنطية ، المجلد السابع ، ص ١٠٧ .

(٦) فيلون اليهودى ، حياة موسى ، الكتاب الأول ، ص ٤٧٠ ف ؛ كليمنس السكندرى ، الطبقات (ستروماتا) ، الكتاب الأول ، ص ٣٤٣ .

(٧) تبحر موسى فى كل العلوم السياسية والدينية والمقدسة وكان نبيا ومشرعا ماهرا . وعالما بفن إصدار الأوامر وقيادة الجيش واعداد وخوض المعارك . وكان فى الوقت نفسه رسولا وسياسيا وفيلسوفا .
(كليمنس السكندرى الطبقات) . Clem. Alex Strom. lib I, pag. 346.

يد أكثر أساتذة مصر شهرة دراسة العلوم الفلسفية واللاهوت ، ولم تكن هذه لتدون إلا بحروف هيروغليفية[١]؛ ويزعم بعض أن أساتذة موسى كانوا اثنين من كبار رجال اللاهوت المصريين هما يانيس Iannes ويامبريس Iambres[٢]؛ وفى الوقت نفسه فإن العلمين الأخيرين اللذين درسهما موسى لم يكونا يدرسان للعامة ! فلم يكونا ليلقنا إلا لأطفال الملوك ولأولئك الذين لهم الحق فى تولى العرش[٣] مثل طبقة الكهنة التى كان الحاكم أو الأمير يختار من بين أبنائها على الدوام ؛ ولعل هذا هو السبب فى أن سترابون[٤]، وكثيرين آخرين ، قد وصفوا موسى بأنه كاهن أو نبى مصر[*].

كانت موسيقى قدماء المصريين تتغلغل فى الأشكال المتنوعة من الخطب[٥] عن طريق لحنها وتناغمها وايقاعها ، أو كانت الخطابة [أو الكلمات] ، بمعنى آخر ، هى مادة الموسيقى ، أما الأجزاء الأخرى فلم تكن لتصنع سوى الشكل . وكانت هذه الموسيقى لا تتقبل سوى نوعين من التناغم أو الهارمونى[٦]: الأول : رقيق وقور هادىء من شأنه أن يعبر عن روح عاقلة فى حالة من السراء ؛ أما الآخر فمضطرب صاخب ومن شأنه أن يوحى بروح حازمة شجاع تقابل حالة من الضراء أو المخاطر ؛ أما النوع الأول فكان ينتمى إلى موسيقى البيونيك péonique[٧] وأطلق عليها الاغريق اسم

---

(١) المؤلف نفسه ، المرجع نفسه .

(٢) المرجع السابق ذكره لجورج أبو الفرج جغرافية أبو الفرج وفى الرسالة الشعرية الثانية من سان بول إلى تيموتيه Timothé ، الفصل الثالث ، البيت ٨ ، يدور الحديث عن حَبْرَيْن مصريين هما يانيس Iannes ومامبريس Mambres ، قاوما موسى عن طريق رقياتهما وأسحارهما . ألا يكون هذان هما اللذين يتسميان هنا باسم يانيس ولامبريس ؟

(٣) كليمنس السكندرى ، الطبقات ، ص ٥٦٦ ؛ يوستنياتوس ، مسائل للأرثوذكسيين ، الاجابات على الأسئلة (٢٥) ، طبعة سيلبورج ، باريس ، ١٦١٥ ص ٤٠٥ .

(٤) سترابون ، الجغرافيات ، الكتاب السادس عشر ؛ جورج كيدرين ، موجز التاريخ ، ص ٣٩ ، طبعة بازل .

(*) انظر فى هذا الصدد : كيف خرج اليهود من مصر القديمة ، دراسة من تأليف دى بوا – ايميه ، المجلد الثانى من الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٠. [المترجم]

(٥) أفلاطون ، الجمهورية ، الكتاب الثانى .

(٦) كان القدماء يقصدون بكلمتى تناغم أوهارمونى وموسيقى نظام وترتيب الأنغام فى الرسم التخطيطى لكل مقام لحنى .

(٧) سنتصدى بالشرح لهذا الصنف من الغناء عند معالجتنا للأشعار والغناء البيونية أو الدورية وسنجد أن الكلمة péon وكذلك الأشعار والأغنيات التى تحمل هذا الاسم مستمدة من مصر .

الموسيقى الدورية(*)(١) dorienne ، أما النوع الآخر فهو موسيقى المديح أو التقريظ(٢) dithyrambique وقد عرفت منذ نشأتها باسم التناغم (الهارمونى) الفريجى phrygienne.

وكان لكل ضرب من ضروب الغناء ، كما سبق أن علمنا ، قانونه الخاص به ، فكان هناك قانون لطريقة نظم وأداء التراتيل أو الترانيم ، وهناك بالمثل قانون لأغنيات الصلوات ولأغنيات الضراعة والمديح التى كان الناس يتوجهون بها إما إلى الآلهة وإما إلى الموتى الذين تميزوا أثناء حياتهم بالفضائل والأعمال الخيرة(٣)، ذلك أنه لم يكن يباح بمديح على هذا النحو لأولئك الذين لا يزالون على قيد الحياة .

وكانت لدى القوم عادة أن يلحقوا بدراسة الموسيقى ، دراسة الرياضة البدنية(٤) وكان القصد فى ذلك أن تخفف هذه من آثار تلك ، فلقد عرف الناس وقتئذ أن هؤلاء الذين لم يتعلموا سوى الموسيقى ، والذين لم يعتادوا إلا المشاعر الرقيقة التى من شأن هذا الفن أن يخلقها ، يصبحون مخنثين ، على شيء من الرخاوة وعارين عن الشجاعة ، فى حين يحدث العكس من ذلك لهؤلاء الذين لا هم لهم سوى الرياضة البدنية ، إذ يكتسب هؤلاء ، بالإضافة إلى قوة البدن ، نوعا من الخشونة أو الضراوة النزقة والوقحة .

وكان ثمة مدرسون للرياضة البدنية وحدها ، كما كان هناك مدرسون للموسيقى وحدها ، كما كان هناك مدرسون للتعليم وآخرون للتدريب ، وكان يطلق لفظ تربية بدنية على كل صنوف الرقص التى لا تهدف إلا لإكساب الجسم قوة ، أما

(*) نسبة إلى إحدى مناطق اليونان القديمة .

(١) يقول كليمانس السكندرى فى مؤلفه الطبقات Strom الكتاب الرابع ص ٦٥٨ « غير أن ما يتناسب مع النغم الدورى بوجه خاص ، هو السلم المسمى بالهارمونى ، earmonion أى المتسق » .

(٢) سنقدم الدليل على أن المدائح قد كانت ضربا من الشعر والغناء من أصل مصرى .وأن اسمها وهو ديتيرامبه هو كلمة مصرية صرف .

(٣) يتطابق هذا بشكل يدعو إلى العجب مع ما نقرؤه عند ديودور الصقلى ذاته فى مؤلفه المكتبة التاريخية ، الكتاب الأول ، الفصل ١٣ .

(٤) ولا يزال الأمر هنا يطابق رواية ديودور الصقلى الذى يضع الرياضة البدنية والرقص ، عندما يسرد العلوم والفنون التى ابتكرها عطارد ، مباشرة بعد اختراع عطارد للهارمونى واكتشافه للخاصية التعبيرية التى للأنغام والأصوات .

الرقص الذى لم يكن يشتمل إلا على حركات أو خطوات ، فقد كانت تصحبه الموسيقى على الدوام ، وهو ما كان أفلاطون يطلق عليه اسم الجوقة Chorée، وكانت صنوف الرقص الأولى تعلم لاولئك الذين انخرطوا فى سلك الجندية أو احترفوا الحرب ، أما النوع الأخير من الرقص فكان يدخل فى تعليم الجميع .

ولسوف يكون بمقدور المرء أن يقدم دراسة بالغة الكمال عن موسيقى المصريين القدماء ، إذا ما شاء أن يتابع أفلاطون فى كل التفاصيل التى يدخل فيها حول أساليب تعليم ودراسة وأداء هذا الفن عندهم ، ذلك أننا لا نستطيع الافتراض بأن ما يقوله هذا الفيلسوف عن المبادىء والقواعد التى ينبغى اتباعها فى الموسيقى ، قد استعاره عن موسيقى الاغريق التى ينعى عليها – هو نفسه – الانحلال والتدهور ، ويحصى – هو كذلك – مثالبها المضحكة ، كما لا يمكن الزعم بأنه قد أخذ ذلك عن موسيقى الآسيويين التى يرفضها افلاطون فى كافة صورها ، إذا ما استثنينا النوع المعروف باسم التناغم الفريجى ، والذى لم يكن بدوره سوى نوع من الاطراء من أصل مصرى ، فى الوقت الذى يتحدث فيه أفلاطون على الدوام عن نضج واكتمال وتمام الموسيقى المصرية ، ومن الميسور ان نحدس أن كل ما كان يريد أن ينشئه أو يؤصله بخصوص هذا الفن ، هو ما كان قد سبق له ان تعلمه من قبل فى مصر التى ذهب إليها لينهل من علومها ولم يذهب إلى مكان آخر ، وحيث كان بمقدوره كذلك ان يصدر على موسيقاها الأحكام ، إذ كان قد سبق له أن درس الموسيقى وأن اكتسب عنها معرفة عميقة على يد مدرس عظيم قبل ذهابه إلى مصر .

كان المصريون القدماء يحرصون ، فى أسلوبهم لتعليم هذا الفن ، على نحو ما كانوا يفعلون عند تعليم كل العلوم الأخرى ، على أن يسترعوا الأنظار على الدوام نحو ظواهر الطبيعة ؛ فحيث كان علم الفلك يشكل بالمثل واحدا من علومهم الأساسية ، وحيث كان وجود هذا العلم ضروريا للغاية بالنسبة لهم لتنظيم أعمال الزراعة ، وهذه ترتبط فى مصر بفيض النيل الذى كانت مدته ، وحركة تزايده وارتفاع منسوبه ، ومدة بقائه ، يمكن الاستدلال عليها – جميعا – عن طريق ملاحظة النجوم ، فإنهم قد قرنوا الموسيقى بهذا العلم ، علم الفلك . وذلك بأن ربطوا النغمات الأساسية فى نظامهم الموسيقى ، بفصول السنة الثلاثة ، بالطريقة نفسها التى لاحظنا بها التوافق الموجود فى قيثارة عطارد [بين الأوتار وفصول السنة] ، وهناك ما يدل كذلك على أنهم ربطوا ،

بالمثل ، بالكواكب السبعة ، النغمات السبع المنتظمة القوة والتى نجدها فى النظام الدياتونى والتى كانوا يشيرون إليها باسم الحركات السبع طبقا لما يخبرنا به ديمتريوس دى فاليرا Démétrius de phalére[١] حين يقول **إن المصريين كانوا يغنون الابتهالات والترانيم على أساس الحركات السبع** ،الأمر الذى يعنى فى رأينا أن كانت لهم أناشيد وابتهالات قامت على كل واحدة من النغمات السبع ، وأنهم كانوا يترنمون بها داخل معابدهم . أما عادة ربط النغمات السبع بالكواكب السبعة[٢] فكان لها عند المصريين دافع لم نكن لنستطيع أن نجده عند الإغريق الذين تبنوه بدورهم فى الوقت نفسه ، وبذلك أصبح عند وصوله إلينا[٣] يقوم على غير أساس وعلى غير سبب ، على الاطلاق . ولعل العرب – فيما هو مرجح – حين ربطوا كذلك النغمات السبع الدياتونية بالكواكب السبعة لم يفعلوا سوى أن اتبعوا ، وخلدوا بالتالى ، ما كان قد تأسس واستقر عند المصريين ؛ ولعلهم بالمثل قد أخذوا عن هؤلاء تلك العلاقات التى كانوا قد أنشأوها بين النغمات (أو الدرجات) الأربع لكل سلم موسيقى وبين العناصر الأربعة وهى : النار والهواء والماء والتراب ، وكذلك بين الأمزجة الأربعة: الصفراوى ، الدموى ، البلغمى ، والسوداوى : فربطوا النغمة بالغة الحدة بالنار وبالمزاج الصفراوى ؛ والنغمة أو الدرجة الثانية هبوطا بالهواء وبالمزاج الدموى ، والنغمة أو الدرجة الثالثة بالماء وبالمزاج البلغمى ، ثم ربطوا اخيرا النغمة أو الدرجة الرابعة ، وهى الأكثر وقارا بالتراب وبالمزاج السوداوى . وقد نستطيع أن نقول الشىء نفسه عن الرابطة التى تخيلوها بين الاثنتى عشرة نغمة والاثنتى عشرة صورة لفلك البروج[٤] وبين النغمات السبع حين تتكرر هذه مرة بعد مرة مع انصرام ساعات الليل وساعات النهار .

---

(١) عن البيان ، ص ٦٥

(٢) انظر أفلاطون ، تيماوس ؛ وبلوتارك ، مقالة فى أخلاق النفس .

(٣) كذلك كان اللاتين والفرنسيون حتى القرن الثانى عشر يربطون النغمات فى نظامهم الموسيقى بالكواكب ، بل لقد ذهبوا بهذا الربط إلى أبعد مما ذهب إليه الآخرون ؛ فقد عمموه ليشمل كل نغمات النوتة الموسيقية وأضافوا إلى الكواكب القوى العلوية التى يعترف بها الدين المسيحى ، مثل الملائكة ورؤساء الملائكة وأرائك الملائكة ، وملائكة الصف الأول .. الخ .

(٤) كان العرب على يقين من أن كل واحدة من هذه النغمات الاثنتى عشرة لها فاعلية خاصة ؛ فالأنغام بالغة الغلظة أى الخفيضة للغاية ، هى جادة فى رأيهم وتوافق العلماء ورجال الحكم ، وتوحى بالهدوء والتأمل ، أما =

ولو كانت لدى الأب روسييه Roussier ، عند شرحه للنظام الموسيقى عند المصريين(١)، معرفة بكل هذه المقابلات لما فاته أن يستخلص منها من النفع قدر ما تقدمه قطعة البرونز القديمة (التى تنسب للرئيس الأول السيد « الخير ») والتى تقدم لنا الكواكب السبع فى داخل قارب ، لكى يدعم رأيه حول علاقة الأنغام الموسيقية بالكواكب ، وعلامات البروج وأيام الأسبوع وساعات النهار والليل بالشكل الذى توصل إليه المصريون . بل لقد ذكر دعما للتفسير الذى يقدمه عن هذه القطعة الأثرية نصا من مؤلف التاريخ الرومانى الذى وضعه ديون كاسيوس Dion Cassius(٢)، والذى يؤكد فيه هذا المؤرخ أن المصريين كانوا لا يزالون حتى عصره يربطون الكواكب السبعة بساعات النهار والليل ، بحيث أننا حين ننسب الساعة الأولى من اليوم الأول [على سبيل المثال] إلى زحل والساعة الثانية إلى المشترى والثالثة إلى المريخ والرابعة إلى الشمس والخامسة إلى الزهرة والسادسة إلى عطارد والسابعة إلى القمر ، وهكذا حتى نصل إلى الساعة الرابعة والعشرين فإننا حين نبدأ من جديد ، متبعين هذا النظام ، فسوف نجد أن الساعة الأولى من اليوم الثانى توافق كوكب الشمس ، تلك التى كانت تأتى فى الترتيب الرابع فى النظام السابق ، وبعد أن نستمر على هذا النحو لأيام أخر ، فسوف يحدث أن الكوكب الذى يوافق الساعة الأولى لكل يوم يكون بصفة ثابتة على مسافة أربع درجات صعودا أو خمس درجات هبوطا من الكوكب الذى وافق الساعة الأولى فى اليوم السابق . وهكذا فعند العمل على توافق هذا النسق المستقر بين النغمات السبع وبين الكواكب السبعة طبقا لهذه النتيجة ، بأن ننسب إلى زحل (أى إلى أول الكواكب فى النظام الذى رسمت به فوق قطعة البرونز) ، وفى الوقت نفسه إلى أول ساعات النهار ، أول درجة (أو نغمة) فى النظام الموسيقى عند الإغريق ، وهى التى تقابل النغمة Si سى عندنا فقد اكتشف الأب

= الأقل غلظة فتعبر عن السعادة وتوافق السعداء من الناس ، أما النغمات التى تليها (فى السلم الموسيقى) فتعبر عن الألم وتناسب الأشقياء والشحاذين ؛ أما الأنغام بالغة الحدة أى الجهيرة للغاية فتناسب النسوة الداعرات ورجال الملذات . وليست هناك هواجس أو أوهام لم يرددها العرب مفصلة حول فاعلية النغمات وضروب الغناء فى موسيقاهم ؛ وهذا مثال على أن الناس حين تبالغ فى أمر ما فإنها تفرط فيه فى الواقع ، وعندما تتجاوز الحد فى سرد الوقائع فإنها تجعل هذه الوقائع باعثة على السخرية وغير قابلة للتحقيق .

(١) Memoires sur la musiques des anciens, art. X et XI

(٢) الكتاب السابع والثلاثون ، ص ٧٧ ، طبقة كسيلاندر ، ليون ، ١٥٥٩

روسييه أنه بالمثل باتباع النظام الدياتونى للنغمات السبع : سى Si ، اوت Ut ، رى Ré ، مى Mi ، فا Fa ، سول Sol ، لا La ومع البدء من جديد فى كل مرة نصل فيها إلى النغمة السابعة ، وحتى نجتاز على هذا النحو ساعات النهار والليل الأربع والعشرين ، تكون النغمة التى توافق الساعة الأولى من النهار الثانى هى نغمة الـ مى Mi ، وهى التى تقابل كوكب الشمس ، والتى تشكل كذلك الرباعية صعودا والخماسية هبوطا مع النغمة سى Si ، تلك التى كانت توافق الساعة الأولى من اليوم الأول ؛ ومع مواصلة السير على هذا النحو ، رأى الأب روسييه أن الدرجة (أو النغمة) التى كانت توافق الساعة الأولى من كل يوم تكون بالمثل رباعية الترتيب صعودا وخماسية هبوطا بالنسبة لتلك النغمة التى كانت تنتمى إلى الساعة الأولى من اليوم السابق ، وبهذه الطريقة وجد أنه يحصل فى النغمات السبع ، التى وافقت كل منها الساعة الأولى لكل يوم من أيام الأسبوع السبعة على ست كوارتات (رباعيات) صاعدة ، وحيث يكون بمقدور هذه النغمات أن تعتبر مماثلة فى العدد للخماسيات الهابطة ، بفعل قلب وتماثل الأوكتافات (الأوكتاف = مجموعة من ثمانى وحدات) ، فقد حصل من ذلك على النتيجة التالية ، التى تمثل النغمات السبع الطبيعية أو الأصلية فى النسق أو النظام الذى جاءت عليه ، بفعل التوالد الهارمونى فى التعاقب أو التوالى الثلاثى ، الذى يزعم أن المصريين قد أقاموا على أساسه نظامهم الموسيقى :

[من الشمال إلى اليمين]

الزهـــرة	المشترى	عطـارد	المريخ	القمـــر	الشمس	زحـــل
الجمعـة	الخميس	الأربعـاء	الثلاثـاء	الاثـنين	الأحـــد	السبت
فا	أوت	سول	رى	لا	مى	سى

حيث نرى الكواكب تتبع على وجه الدقة النظام نفسه الذى وجدت مرتبة عليه فى قطعة البرونز التى تنتمى إلى الرئيس الأول السيد « الخير ».

لن نأخذ على عاتقنا هنا أن نتصدى لهذه البحوث العلمية التى قام بها الأب روسييه – وهى التى لا تزال باعثة على الشكوك – حول موسيقى المصريين ، والتى نستطيع أن نجدها فى مؤلفه ، لأنها تبدو لنا متعارضة مع وجهات النظر الحكيمة لمشرعيهم ، ومع المبادىء التى كانوا يسيرون عليها فى العصر الذى نحن بصدده ، ذلك أن هؤلاء قد حرموا – بموجب قوانين صدرت خصيصا لهذا الغرض – التنوع المغالى

فيه عند وضع الأنغام الموسيقية ، كما حرموا تزاحمها غير مقرين فى كل الأمور بتطور ما إلا بقدر ما يكون الأثر الناتج عنه ، يتم بأقل الجهود وبأكثر الوسائل بساطة ، بقدر الامكان .

كانت القوانين فى مصر القديمة تحتم اختيارا بالغ التنور للنغمات التى كانوا يستخدمونها فى الغناء ، وأن يتوفر لدى من يقوم بهذا الاختيار معرفة بالغة العمق فى مجال الفن ، وشعور مرهف ، وذوق بالغ الرقة ، ونفس مستقيمة ، وحكم سليم وصائب على الدوام . وفى المقابل ، فإنه لم يحدث أن تلفت الموسيقى إلا بفعل المساوىء المعتادة لكل هذه الميزات ، فالغرور والعلم الزائف هما وحدهما اللذان يستطيعان أن يضعا العسر فى محل السهولة ، والتعقيد فى موضع البساطة الجميلة ! وفى الوقت نفسه ، فإن هذه الادعاءات المجافية للعقل والباعثة على السخرية بقدر ما هى صبيانية وتافهة لا يمكنها أن تجد لنفسها مكانا قط فى الموسيقى القديمة ، تلك التى لم تكن شيئا آخر سوى البيان الفصيح ، المتأنق بالرشاقة والجمال اللذين نجدهما فى لحن يقوم على المحاكاة .

لم يحدث قط أن المصريين القدماء ، عن طريق بحوث تغرق فى التفاصيل ولا وزن لها ، قد أقاموا علاقات بين الموسيقى وعلم الفلك ، وهم فى هذا الشأن ، كما فى كل مرموزاتهم (أى رسومهم الرمزية) كانوا يسعون لإقامة مثل هذه المقابلات على أساس تماثل معقول ، بغية ألا يكون هناك شيء غير مثمر حتى بالنسبة للأشخاص الأقل تنورا ؛ فإذا حدث ولمسوا فى بعض الأحيان ضرورة أن يبرروا أنفسهم بطريقة أكثر مجازا وأشد غموضا ، فقد كان يتم الأمر بقصد أن يرسخوا أكثر ، ولوقت أطول ، معارف هؤلاء الذين كانوا يبغون تعليمهم ؛ ولكى يخفوا عن السوقة المعرفة الحقيقية للأشياء التى ليست فى متناولهم فقد استعاضوا عن ذلك بأفكار من شأنها أكثر من غيرها أن تسحر الألباب بما تسببه من دهشة للعقول ، وليس من المحتمل أن يكون هناك واحد من بين علماء مصر قد قبل كل هذا الشطط المهووس الذى يذاع هنا وهناك حول موسيقى الكواكب والأجرام السماوية .

إن اولئك الذين ينعون على فيثاغورث أنه قد اعتقد فى تلك الموسيقى المزعومة والتى توصف بأنها كوكبية [أى ترتبط بالنجوم والكواكب] قد ألحقوا إهانة بهذا الحكيم ، الجدير بالانتساب إلى المصريين لأنهم كانوا معلميه ، ولم يفهموا اللغة المجازية

التى كان يعبر بها عن أفكاره ؛ فحين يقول هذا الحكيم إن الموسيقى والفلك كانا توأمين ، وحين يصدق على قوله هذا أفلاطون الذى يكرر نفس قوله[١] فلا ينبغى أن يتبادر إلى الأذهان أن هذا العلم وذاك كانا يصدران تناغما صوتيا أو نغميا بل إن ما ينبغى فهمه هو أنهما ، الاثنين ، وبرغم أن الأمر يتم عن طريق وسائل متباينة، يثيران فينا الشعور بالتناسق ، كما يجعلانا نتصور الجمال الأخاد والجدير بالاعجاب ، الذى يصنعه النظام : فأحدهما [الفلك] يبهج العيون بانتظامه المتناغم، فى حين يشنف الآخر [الموسيقى] الآذان بها رمونيته[٢]، كما أن لكل منهما ، فى النهاية ، بعض شىء من السر أو الغموض يشرح الصدر ويسمو بالروح ، نحو هذه الحكمة الخالدة التى شيدت ، على أساس من النظام ، وجود كل ما هو خير وجميل . وباختصار فإذا كان المصريون قد أقاموا فيما بين هذين العلمين رباطا فلسفيا بهذا القدر ، وصلات واسعة إلى هذا الحد ، فلأن هذه الشعوب التى كانت تبذل دون انقطاع قصارى جهدها ، فى توجيه معارفها نحو غاية واحدة ، ووحيدة ، الا وهى سعادة المجتمع وخير المجموع ، كانت قد اكتشفت الرابطة الحميمة التى تجمع هذه المعارف معا ، وتشدها إلى بعضها البعض[٣]، ولأنهم كانوا يجدون فى السعى دوما إلى التقريب بينهما أكثر فأكثر . وهنا فقط وعلى وجه التحديد نجد الغرض من قوانيتهم ، ونجد فى الوقت نفسه السبب فى استماتتهم فى معارضة كل محاولة كانت تبغى أن تنأى بهم عن شىء مما كان قد استقر داخل مؤسساتهم أو نظمهم الدينية .

كانت الموسيقى فى مصر ، شأنها فى هذا شأن الفلك ، تدخل فى عداد العلوم المقدسة والتى كانت تقتصر دراستها ومعرفتها وتعلمها ، فى كل فروعها ، على طبقة الكهان بصفة خاصة[٤]، وكان لقب المرتل أو المنشد فى هذه الطبقة ، كما كانت بين اللاويين من العبرانيين ، يدل على مكانة ترفع الشخص الذى ارتقى إليها إلى الصفوف الأولى من رجال الكهنوت ؛ ومع ذلك فقد كان لابد للكاهن ، كى يحصل

---

(١) أفلاطون ، الجمهورية ، الكتاب السابع .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) كيرشر ، أوديب المصرى عن حياة وأخلاق وقوانين مصر ، فصل ٢ ؛ كليمنس السكندرى ، الطبقات ، الكتاب الخامس ص ٥٦٦

على هذا التشريف ، أن يتعلم وأن يحفظ عن ظهر قلب اثنين من الكتب المقدسة منسوبين إلى عطارد ، يضم أحدهما ابتهالات وضراعات ترتل على شرف الآلهة ، ويتضمن الآخر قواعد السلوك الخاص بالملوك[١]. وفى أثناء الاحتفالات المهيبة الكبرى يكون هذا المرتل أو المنشد على رأس كبار رجالات المدرسة الكهنوتية ، وكان يحمل على الدوام ، كعلامة مميزة لمكانته البارزة ، واحدا من الرموز الموسيقية .

وطبقا لما تقود إليه كل الظواهر فقد كان حق تعليم رجال البلاط[٢] قاصرا على هذا المرتل أو المنشد ، إذ كان هو الموكل وبشكل خاص بأن يدرس ويحفظ عن ظهر قلب الكتاب الذى يضم قواعد السلوك فى حضرة الملوك . وينقل لنا كليمانس السكندرى – كما نقرأ الشيء نفسه فى مكتبة التاريخ – مؤلف ديودور الصقلى – أن قد كانت من العادات المرعية أن يوجد على الدوام فى بلاط ملوك مصر ، كاهن مرتل وظيفته أن يذكر هؤلاء بواجباتهم[٣] وأن يقيم الاحتفالات تخليدا لذكرى الأعمال الجليلة التى قام بها الملوك الذين ماتوا ، أو الأبطال الذين حازوا الشرف والمجد .

ويحدثنا شعراء الاغريق القدامى كذلك عن شعراء ومنشدين كانوا يشغلون وظائف مماثلة فى بلاط ملوك الاغريق : أجا ممنون ، يوليسيس الخينوس Alcinous[٤] ،

---

(١) Clem. Alexandr. Strom. lib V, pag. 566

وكان من بين الاسرائيليين رهبان هم منشدون وشعراء فى الوقت نفسه ، وكان هؤلاء يحتلون الصف الأول من بين اللاويين ، الذين كانوا يشكلون الطبقة الأولى فى الدولة وكان الأومولبيد يتمتعون بهذه الميزة نفسها فى أثينا ؛ كذلك فقد كانت للبارد أو المنشدين ، بين الدوريد الذين كانوا يشكلون الطبقة الأولى عند الغال ، امتيازات هائلة ، اذ كان يوجد واحد منهم على الدوام فى بلاط الملوك كان يتولى قيادة الفرقة الموسيقية وكانوا يسمونه الأرشيبارد archibarde : انظر كذلك :

Strab. Geogre. lib IV pag. 213

(٢) جاسبر شوت ، جمعية عيسى للقارىء الخير ؛ عند كيرشر ، أوديب المصرى ، المقدمة .

(٣) ديودور الصقلى ، تاريخ المكتبات ، الكتاب الأول ، فصل ٧٣ ، ص ٢١٧ ؛ كليمنس السكندرى ، ستروماتا أو الطبقات ، الكتاب السادس ، ص ٦٣٣ .

(٤) هوميروس ، الأوديسة ، الكتاب الثامن ، البيت ٦٠ وما بعده ٢٥٥ و ٤٩٨ ؛ الكتاب السابع عشر ، البيت ٢٦٣ وما بعده ويقرر باوسانياس (أتيكا ، الكتاب الأول ، ص ٢٣ والكتاب الثالث ، ص ١٩٦ نفس الواقعة ، ويخبرنا اثينايوس (مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الأول ، ص ١٤) بالشيء نفسه ؛ وقد كانت هناك كذلك فرقة من الموسيقيين فى بلاط ملوك العبريين ؛ وقد سبق أن استرعينا الانتباه إلى أنه كان يوجد امثال هؤلاء فى بلاط ملوك الغال .

أما ما يذكره لنا ديودور الصقلى فى الفصل ٤٤ من الكتاب الأول من مكتبته التاريخية (ص ١٣٦ من الطبعة التى سبقت الاشارة إليها) فيجعلنا فى وضع يسمح لنا بتصور أن الكهان المنشدين فى مصر ، كانوا هم كذلك فى الوقت نفسه شعراء هذا البلد ومؤرخيه ، وهو نفس ما كان يحدث عند الاغريق الذين كان مؤرخوهم الأوائل هم فى الوقت ذاته شعراءهم وموسيقييهم الأول .

كثيرة هى تلك الامتيازات التى كانت وقفا على هؤلاء الكهان المنشدين : وكلها كذلك على هذه الدرجة من الأهمية : فلقد كان الاحترام الذى لابد أن يوحى به فن كان مبتكره مقدسا باعتباره إلها ، كما كان ينظر لابتكاره على اعتبار أنه منة من السماء ؛ وكانت طبيعة وموضوع وغرض هذا الفن ؛ وكانت المكاسب التى لا يحصيها عد والتى كانت تنتج عن تطبيق مبادئه ، والآثار الرائعة التى كان يحدثها ؛ وكان نظامه الذى كرسه للصلوات والضراعات وللشكر والثناء الذى كان يوجهه إلى الآلهة[١]، وفى تعليم الدين والقوانين ... الخ كانت كل هذه براهين كافية بأن تقنعنا بأن الموسيقى عند المصريين القدماء لم تكن لتصبح فنا فقيرا أو معاديا للأخلاق ، على النحو الذى يذكره لنا ديودور الصقلى الذى خدعته دون جدال المعلومات الغامضة ، والمتضاربة ، التى جمعها حول هذا الموضوع . وهكذا تبدأ شكوكنا تتلاشى لتنقشع كلية كما سوف نرى بعد قليل .

يذكر ديودور الصقلى حين يحدثنا عن القيثارة التى ابتكرها عطارد ، إن هذا الإله قد وضع عليها أوتارا ثلاثة وجعل نغماتها توافق فصول السنة الثلاثة[٢] ، ولكنه لم يذكر شيئا عن الغرض الذى من أجله ابتكر عطارد هذه القيثار ؛ إنه يقدمها كرمز

---

(١) هوميروس ، نشيد إلى أبوللون ، البيتان ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) لم يكن الاغريق قط على اتفاق مع المصريين حول منشيء اختراع القيثارة . ويفسر لنا أفلاطون سبب هذا الاختلاف فى الكتاب الثالث من قوانينه . فهو يلاحظ أنه ينسب إلى أمفيون اختراع القيثارة فى حين ينسب ابتكار الناى إلى اوليمب ، ليس لأن هذه الأشياء كانت مجهولة من قبلهما ، وإنما لأن الجنس البشرى قد تعرض للدمار مرات عديدة بفعل الفيضانات أو بفعل كوارث أخرى من هذا القبيل ، ولم يكن يتبقى (بعد كل كارثة) سوى عدد ضيئل من البشر ، وهؤلاء يكونون أكثر التفاتا إلى تبين وتوفير احتياجاتهم عن أن ينشدوا تخليد المعارف التى كان الجنس البشرى قد حصلها من قبل ، الأمر الذى دفع البشر مرات عديدة إلى القيام بأبحاث جديدة لابتكار أشياء سبق لهم أن اخترعوها . وطبقا لما أجراه الفيلسوف نفسه فى حواريته تيماوس على لسان الكاهن المصرى يمكن الظن بأن من المحتمل أن تكون كارثة كهذه قد دمرت مصر .

لتناغم الفصول أكثر منها كآلة مخصصة لممارسة فن الموسيقى ، ولعلها كانت كذلك الرمز الموسيقى الذى كان يحمله الكاهن المنشد فى الاحتفالات الكبرى والشارة التى تحدد الرتبة أو المكانة التى وصل إليها . ومع ذلك ، فإن الأمر سيفترض ، فى هذه الحالة أو تلك ، معرفة بتناغم هذه الآلة ونفعها فى فن الموسيقى ، وبرغم هذا ، ونحن نكرر ، فلم يكن من شأن هذه الآلة أن تصنع لحنا لأغنية ، وإنما كانت تستخدم فى تقديم النغمة أى التون المطلوب للمغنى وفى أن تسترجع هذا المغنى إلى التون المستخدم إذا ما كان قد ابتعد عنه . ولا يدعنا ديودور أو أى مؤلف آخر ، نستشف أن المصريين قد استخدموا هذا النوع من الآلات الموسيقية لمتابعة أو لمصاحبة الأغنية . وحين ينقل إلينا انه **عند موت أحد الملوك تصبح مصر كلها فى حالة حداد ، ويمزق كل انسان ملابسه ، وتغلق المعابد ، ويتوقف تقديم الأضحيات ، وتلغى الأعياد مدة اثنين وسبعين يوما ، ويقوم رجال ونساء ، يبلغ عددهم مائتين أو ثلاثمائة ، يغطى الطين رءوسهم ويلتحفون حول صدورهم بقماش أبيض ، بأداء أغان جنائزية جيدة الايقاع والتنغيم ، لمرتين فى اليوم الواحد ، وتتحدث هذه الأغنيات عن فضائل الميت ومناقبه** ؛ حين يفعل ذلك فإنه لا يذكر لنا قط إن هذا الغناء كانت تصحبه آلة موسيقية من أى نوع .

ومن المفيد أن نلاحظ هنا أن ديودور لم يلحظ فيما يورده الآن وجود تناقض ما بين ما يذكره وبين ما سبق أن ذكره فى مكان آخر(١) حول نفور المصريين الشديد من الموسيقى ، **فها** نحن نرى — [حسب قوله هو نفسه] الأغانى تستخدم فى أكثر الاحتفالات وقارا وأشدها حزنا ، اللهم إلا ان كان ما قاله عن الموسيقى لم يقصد هو به الغناء ، وبصفة خاصة الغناء الدينى ، وهذا أمر مرجح بشكل كبير ، ذلك ان هذا النوع من الغناء لم يكن قد انقرض قط فى مصر حتى عصره ، إذن فهو لم يكن يقصد بحديثه عن نفور المصريين من الموسيقى إلا الموسيقى الآلية أو كان يتحدث عن موسيقى مماثلة ، وبالغة التنوع (كثيرة النغمات) وهذا أمر يتفق فيه مع مبادىء قدماء المصريين — وهكذا يصبح التضارب ملموسا وسوف يجعل منه عرض الوقائع أمرا جليا وواضحا .

---

(١) Biblioth. hist. lib I, cap. 80

مادمنا قد افترضنا أن ما يخبرنا به ديودور الصقلى [عن نفور المصريين من الموسيقى] لا يعود إلى أزمان بالغة التأخر ، فلنختر مثالا آخر من بين صنوف الأغانى لا يشك **أبدا** فى نسبتها إلى عصور بالغة القدم ، ولنر ما ان كانت هذه الأغانى مصحوبة ، أو كان بمقدورها أن تكون مصحوبة بآلات موسيقية ، ولا يحضرنا هنا فى الحقيقة سوى مثالين من هذا النوع نستطيع طبقا لهما ، أن نحكم على الحيوية القصوى والسمو اللذين كانا لأغنيات المصريين ، كما أن الأغنيات فى الوقت نفسه تدعو للإعجاب وفوق مستوى كل ما نعرف من أكمل الشعر وأتمه طبقا لرأى العلماء والفلاسفة الشرقيين المشهورين وهما من ترانيم موسى أو تراتيله : والأول هو ما ارتجله موسى بعد عبوره البحر الأحمر والثانى هو الذى نظمه قبل وفاته بوقت قصير ، فموسى الذى تلقى فى مصر كل علوم المصريين ، بالعناية نفسها التى كان لابد من بذلها ، لو أن **الذى كان** يتلقى العلم هو ابنا لفرعون ذاته ، كان لابد له ، بالضرورة ، أن يؤلف هذه التراتيل طبقا للمبادىء التى تلقاها عن معلميه ، وبالذوق والاحساس نفسيهما اللذين اكتسبهما من الشعر الجميل والأغنيات الجميلة التى عند المصريين ، عند دراسته للنماذج التى كان عليه أن يحاكيها فى دروسه ، وكذلك عند دراسته للأشعار والأغنيات التى استحقت ، بسبب روعة جمالها ، أن تؤدى فى المعابد حيث أمكنه ان يتمعنها بنفسه .

وسنحاول هنا أن نقدم ترجمة حرفية عن العبرية ، وعلى قدر استطاعتنا ، **للأبيات** الأولى فقط من كل واحد من هذين النشيدين ، ونحن أبعد عن أن نظن أنفسنا قادرين على أن نورد العبارات فى تمام قوتها [كما هى فى الأصل] كما يكـــون قادرا على ذلك متخصص ضليع فى العبرية . ولكننا مع ذلك نتحدى أى سيمفونى مقدام أن يدلنا على آلة واحدة معروفة أو حتى متخيلة ، تستطيع نغماتها أن تبلغ درجة من التمام أو النضج لحد يكفى معه لأن تلتحم بالصوت فى حالة شبيهة ، دون أن تنال من رجولة ونبل وبساطة الأسلوب وكذلك من هيبة وجلال وعظمة الأفكار . إن النشيد الذى ترنم به موسى(١) والذى ردده الاسرائيلون وراءه بعد عبور البحر الأحمر ، هو النشيد

---

(١) يظن زوناراس (الموسوعة البيزنطية ، المجلد العاشر ، ص ٢٤) ، وكذلك المؤرخ اليهودى يوسيفوس أن هذا النشيد كان فى شكل أبيات من الشعر ذات ستة أجزاء ، ولكن أسبابا كثيرة تحملنا على الظن بأنه لم تكن قد ظهرت بعد ، حتى ذلك الوقت ، أبيات موزونة ، وأن لم يكن قد عرف وقتها سوى الايقاع . وسوف تواتينا الفرصة لتطوير هذا الرأى وللتدليل عليه فى موضع آخر .

الذى تبدو حماسته النبيلة والحادة أكثر شيء مدعاة للدهشة ؛ ففى حالة النشوة القصوى التى استشعرها موسى بعد أن نال حظ عبور هذا البحر مع الاسرائيليين سيرا على الأقدام ، فوق أرضه ، (بعد أن انحسرت المياه عن قاعه) وبعد أن سعد مثلهم بهروب ناجح من ملاحقة المصريين الذين غرقوا وابتلعهم اليم بينما كانوا يريدون أن يستعيدوا الاسرائيليين ليستبقوهم أسرى وعبيدا لديهم[1]، ترك موسى نفسه على سجيتها ، وأنشد مدفوعا بحاجة قلبه الذى حمله على أن يقدم ثناءه وشكره للإله الخالد ؛ ولما كانت النفوس متشبعة بشعور العرفان ، فقد رفع صوته قائلا : « **أرنم[2] للرب فإنه قد تعظم ؛ الفرس وراكبه طرحهما فى البحر ؛ الرب قوتى ونشيدى ؛ وقد صار خلاصى ؛ هذا إلهى فأمجده ؛ إله أبى فأرفعه ..** »(*). أما بقية هذا النشيد أو هذه الترنيمة الرائعة ، فقد صورت فى هذه الروح وبهذه القوة الرجولية ، أن موسى لم يكن بعد يرى سوى أثر يد الله بالغة القوة ، ولم يستطع أن يكتفى بدهشة أو نشوة سببتهما له معجزة خلاصه وخلاص الاسرائيليين ؛ كان هؤلاء قد اختفوا عن ناظره على نحو ما ، وظل هو يواصل غناءه ، كما قد كان يسير وحيدا ، وسرعان ما انتقلت حماسته إلى الجميع ، وعبرت النسوة برقصاتهن عن المشاعر التى استبدت بالجميع .

أما النشيد الثانى فيبدأ على هذا النحو : « **أنصتى أيتها السماوات فأتكلم ؛ ولتسمع الأرض أقوال فمى ؛ يهطل كالمطر تعليمى ، ويقطر كالندى كلامى ، كالطل على الكلأ وكالوابل على العشب ؛ إنى باسم الرب أنادى ، أعطوا عظمة لإلهنا** ... الخ »(**) ولن نمضى لأبعد من ذلك أدراكا منا لعقم الترجمة الحرفية ؛ ويكفينا أننا أوردنا الأفكار بشكل دقيق حتى نمكن القارىء من تصور جمال وروعة الأفكار ، ورقة ورشاقة الصور ، وليس جمال الأسلوب الأصلى الذى لا يستطيع امرؤ إلا أن

---

(١) كان الفرعون الذى أراد استبقاء بنى اسرائيل فى الأسر يسمى بيتيسونيوس ؛ وكان بالقرب منه الحبران يانيس ولامبريس .

(٢) هذه الكلمة Je chante (ارنم) تمت ترجمتها فى اللاتينية Cantemus وقد جاءت فى العبرية بالضمير الأول المفرد (المتكلم) لكننا هنا نلتزم النص الحرفى مقتنعين بأننا لن نفعل سوى إضعاف المعنى إذا ما ابتعدنا عن استخدام ضمير المتكلم المفرد .

(*) سفر الخروج ، الاصحاح الخامس عشر ، نصف الاية الأولى ثم الاية الثانية ؛ وجدير بالذكر أننا هنا نورد النص العربى للتوراة ، وهذا بدوره لن يوضح الايقاع الموسيقى الموجود فى اللغة الأصلية ، الذى يقصده المؤلف هنا .

(**) سفر التثنية ، الاصحاح الثانى والثلاثون ، الآيات من ١ إلى ٣ [المترجم].

يشوهه حين يعيره حلية غريبة عليه ؛ أما الصور والأفكار التى تنقلها ترجمتنا فليست بحاجة لحواش أو زخارف لتمكن الخيال من التحليق ، فهى تحمل النفس دوما على تأمل عجائب الطبيعة بأن تثير إعجابنا نحو هذه القوة القاهرة ، التى تجل عن كل وصف ، والتى تخلق هذه الأعاجيب دونما انقطاع .

هل سيسألن أحد الآن ما إن كان ينبغى على العبقرية التى أملت مثل هذا الشعر الجميل على موسى ، أن توحى إليه كذلك بغناء جميل ، غناء له تعبير يوحى بقوة الاحساس ، وقد كان موسى متبحرا على هذا النحو العميق فى كل فروع موسيقى قدماء المصريين ، وهل سيسألنا أحد ما إن كان لفن الموسيقى فى مصر القديمة على الدوام هذه الحدة وهذه الرجولة اللتين شاء المشرعون ان يمنحوهما اياها ؟ الم تراع كل القواعد التى فرضتها قوانين هذا البلد ، فى هذه الأناشيد ، فيما يتصل بالشعر على الأقل ، وبالذات تلك القواعد التى كانت تلزم الشاعر ألا يبتعد قط عما هو جميل وشريف وعادل وأن تهدهد من انفعالات اللذة والألم [الجامحة] وأن تسمو بالروح تملأها بالقوة ؟ إذن فقد كان لابد لقواعد الموسيقى أن تتبع فى هذا المجال بالمثل ما دامت الموسيقى والشعر فى ذلك الوقت لم يكونا يشكلان سوى فن واحد ووحيد ؛ فإذا حدث أن استطاعت آلات الموسيقى أن تتكيف مع لحن بمثل هذه القوة فإن موسى لم يكن ليتردد فى استخدامها فى هذا اللحن .

وقد ترك لنا هيرودوت وصفا للإحتفالات الجنائزية التى أقيمت لرجل من عامة الناس[1]؛ أما الاختلاف الوحيد الذى نجده بين الرواية هنا وبين ما يخبرنا به ديودور الصقلى خاصا بجنازة أحد الملوك ، فهو أن الحداد لم يكن عاما وأن عدد الموجودين بالحفل قد كان أقل ؛ ويخبرنا هيرودوت كذلك أن أهل الميت **كانوا يسكبون الدموع وهم يغنون** لكنه لا يورد أى ذكر لموسيقى آلية كما لم يرد ذكر لذلك فى حفلة جنائزية أخرى تحدث عنها ديودور[2] تمت فى جزيرة فيله[3] إلى ما وراء الشلال (الجندل) الأول

(١) لم يكن الاغريق ، وهم الذين أخذوا عن المصريين كل حفلاتهم الجنائزية يستخدمون الالات الموسيقية قط فى حالات مشابهة ؛ بل كانوا يقتصرون فى الأزمنة المتأخرة على أن يصحبوا الميت إلى المقبرة وهم ينشدون تراتيل تسمى thréne أى المرثيات أو nénis أى النواح انظر :
Alexander d' Alexandro, lib III, cap 7, pag, 118, Lugundi, 1615 in- 80

(٢) **Biblioth. hist. lib. I, cap. 22, pag. 63**

(٣) كانت هذه الجزيرة تسمى الحقل المقدس أو المبارك .

للنيل حيث كان كهان المنطقة يذهبون كل يوم يملئوا باللبن الجرار التى تحيط بمقبرة أوزيريس فى هذه الجزيرة والتى يبلغ عددها ثلاثمائة وستين جرة ، ثم يصطفون من حولها بعد ذلك كى يرتلوا أغنيات جنائزية ؛ ولعل البعض قد يرد بأننا هنا بإزاء سلوك قد يعد خروجا على القاعدة العامة المتبعة فى كل ضروب الغناء الأخرى(١) : أما ما يعطى مزيدا من الدعم لهذا الاعتراض فهو أنه قد كانت هناك على ما يبدو عادة مستقرة عند الاغريق القدماء هى أن يوقفوا كل أنواع التسلية وأن يوقفوا كذلك استخدام الأدوات خلال مدة معينة ، عند موت ملوكهم . وينقل لنا يوريبيديس فى تراجيديته ألكست والتى تدور فى الأزمان الأولى فى اليونان ، وهى الأزمنة التى كانت النظم الدينية المصرية هى المتبعة بدقة هناك ، وذلك فى الفصل الثانى من مسرحيته ، المشهد الأول ، ينقل لنا عادة تماثل تلك التى نحن بصددها حين يقول على لسان بطله أدميت الذى يبكى زوجته ، التى ضحت بنفسها حتى الموت من أجله :

« لن توقع أصابعى بعد على أوتار القيثارة هذه الأنغام البهيجة ، التى كانت تشنف فيما مضى أذنى ؛ ولن تختلط بصوتى بعد أنغام الناى الليبى العذبة ! ستهلك كل مباهج حياتى بموتك . أرجو معونتك فاتبعينى وغنى بالتبادل معى أنغام الجناز المحزنة(٢) على شرف إله

---

(١) الموسيقى غير المناسبة فى الحزن ، سالومون ، الشئون الكنسية ، فصل ٢٢ ، فقرة ٨

(٢) يورد النص هنا بيتين من الشعر باليونانية ، هذه ترجمة لهما عن اليونانية :

اقتربوا ، واعكفوا على ترديد أنشودة رزينة عن العالم السفلى .

للإله الذى لا ينفثىء غضبه

وهذه ترجمة لنصهما اللاتينى :

اقتربوا وغنوا معا ، كل بدوره ، أنشودة حزينة ،

عن أرواح العالم السفلى ، للإله الذى لا ينفثىء غضبه

أما الترجمة الحرفية (فى النص الفرنسى) لهذين البيتين فهى :

« أسرعوا ، ولترنَّ أصداء أناشيد النصر ، بفضل جهودكم مجتمعة حتى فى داخل المقر المعتم لإله العالم السفلى » وهكذا فالصفة : جنائزية ، والكلمتان : على شرف ، لا توجد فى اليونانية قط . وسنرى بما سنقوله عن البيون Peon ان عبارتى جنائزية وعلى شرف ليستا موفقتين ولا تتفقان هنا قط مع السياق أما البيون Péan فكانت أناشيد توجه إلى أبوللون إله النور والنظام والتناغم (الهارمونى) ، والذى ينشر الحياة والصحة ، والذى ينتقم من الشرور والخطايا التى يسببها تيفون أو طيفون ، عبقرية أو جنى الشر ، الذى كان يتسبب =

العالم الآخر الشرس العنيد . وليقاسمنى أهل تساليا ، رعاياى ، هذا

= فى حدوث كل أنواع الاضطرابات ، والذى كان يدبر كل مناسبات الموت . ومن أجل الحصول على حماية أو معونة أبوللون عند حدوث أمراض أو بروز أخطار أو نزول كوارث ، كانت توجه له هذه الصلوات أو الضراعات التى كانت تسمى بيون Péon ، أو كذلك لتقديم الشكر له على العون الذى تم الحصول عليه منه . وعلى هذا فإن الأمر هنا أمر ابتهال إلى الإله ، رجاء له على أن يعيد ألكست Alceste إلى الحياة وليس لعنة أو صلاة موجهة إلى إله النار أو العالم السفلى كما قد يشاء بعض الناس أن يفهموها ، فإذا كان المقصود اللعنة حقا فإن كلمة **على شرف** لا يمكنها أن تكون مناسبة أو متوافقة . كذلك فإن كلمة بيون Péon وجنائزى لا تتوافقان هنا قط ؛ وعلى هذا أيضا فإن هذه الأبيات تقدم لنا معنى نجتزئه نحن بهذه الطريقة حتى نزيل كل لبس : « احرصوا على أن يكون للصلوات التى ستقدمونها لإله النور والنظام والتناغم صدى يرن حتى فى المقر المعتم لإله النار (أو الموت) الشرس ، ليرغمه على أن يعيد الحياة إلى زوجتى العزيزة » .

ويتطابق هذا التفسير ، بل يجد مبرره ، بهذه الأبيات للمؤلف نفسه (الكست ، الأبيات ٢٢٠ – ٢٢٤ مسرحية الكستيس لمؤلفها يوريبيديس ، بيت ٢٢٠ وما يليه

أى مليكى أبو للو [وفى اليونانية توجد كلمة Paean لا كلمة أبوللو]
قد تجد لأدميتوس طريقة ما لتجنب الأخطار والشرور ،
وأن تغدق عليه الآن وعليها ،
ذلك أنك من قبل قد أوجدت لهذا الرجل وسيلة ضد الشرور ،
والآن أيضا تغدو محررا (له) من الموت ،
وقاهرا بلوتون (رب العالم السفلى) مسبب الوفاة

وبهذه الأبيات (نفس المسرحية ، بيت ٣٥٧ وما يليه) :

لو كان لى حقا لسان أورفيوس وشدوه ،
كى أشدو بأغنية ألاطف بها ابنة ديميتر ،
أو زوجها ، وأردك يا ألكستيس من العالم السفلى إلى زوجك ؛
لهبطت (إلى العالم السفلى) وأعدتك إلى الحياة قبل أن يعوقنى كلب الجحيم أو الملاح خارون مرشد الأرواح ، الذى يجلس إلى مجدافه .

ولكى يقتنع المرء أن يوريبيديس لم يكن يظن أن على الإنسان أن يقدم ضراعات أو ابتهالات إلى بلوتون إله العالم السفلى ، فما عليه إلا أن يسترجع الأبيات ١٧٨ وما بعده من مسرحيته إيفيجينيا بين التاوريين :

الجوقة :

إنهم يرددون لك يا مولاتى ،
أغنيات قديمة وينشدون لك
نشيدا آسيويا بلحن أجنبى ؛
غير أننى سوف أرتل لك أنشودة حزينة ،
تعسة من أجل الموت الذى سيطويك ،
يرتلها بلوتون (رب العالم السفلى) ضمن أناشيده ،
بغير ابتهاج (وفى اليونانية بايان Paean) =

الواجب المشروع للغاية .. لئلا تسمع بعد فى كل أرجاء المدينة أنغام القيثارة العذبة ، ولئلا يكتمل القمر بدرا اثنتى عشرة مرة .. ».

ونستطيع أن نسوق عددا هائلا من الأمثلة على هذه العادة أو هذا الضرب من السلوك ، عند القدماء ، ليس فقط فى المؤلفات الدنيوية ، وإنما كذلك فى الكتب أو المؤلفات المقدسة[١]، دون أن يتم حسم القضية مع ذلك ، بل اننا قد نستطيع أن نستدعى إلى الذاكرة الكثير من الظروف المشابهة التى كان الاغريق والمصريون القدماء يستخدمون فيها آلات موسيقية ، فيروى على سبيل المثال أن الموكب الجنائزى للعجل أبيس كانت تصحبه ضجة المزاهر وأنغام الناى[٢] ، وان المزاهر كانت تستخدم عند البحث عن أوزيريس فى حفل حداد حزين[٣]، وان المصريين كانوا يستخدمونها بالمثل لطرد جنية طيفون الشريرة[٤] تلك التى كانت تلحق الأذى بكل ما ينبض بالحياة ، كما كانوا يستخدمونها فى الحفلات الجنائزية التى تقام على النيل ؛ وقد يحق لنا أن نضيف ، فوق ذلك ، أنه كانت تستخدم آلات الناى والبوق أو النفير ، وأننا رأينا فى الجبانات التى تجاور الأهرامات الكبرى فى الجيزة آلات نفخ وآلات وترية مرسومة على الجدران ، وأننا قد لاحظنا فى كهوف إيلتيا (الكاب) ، سيدة على رأس موكب جنائزى توقع على أوتار الجنك (الهارب) ، وينهض أمامها شاب يعزف على ناى مزودج (ذى شعبتين) ، وكان أمامه هو بدوره شاب يضرب اثنين من العصى المصفقة أو الصافقات إحداهما بالأخرى .. الخ الخ ؛ ومع ذلك فهل نريد أن نخلص من ذلك إلى

= ثم ليستعد هذه الأبيات التى توضح بشكل رائع طابع الأغنيات التى كانت توجه إلى بلوتون ، وهذه تتعارض بشكل تام مع الضراعات والابتهالات (يوريبيديس ، ألكترا ، بيت ١٤٣ وما يليه) :

أغنى لك يا أبى مولولة ، أغنية بلوتون ،
الحزينة ، وأنت راقد هكذا تحت الثرى ،
وأكرس نفسى لرثائك دوما بهذه الطريقة كل يوم

ولعل هذه الملاحظات ، التى قد تبدو فى ظروف أخرى ، مسرفة فى الاهتمام بالتفاصيل ، تغدو هامة حين يتصل الأمر بالغناء والموسيقى فى العصور بالغة القدم ، والتى أفردنا لها دراسة خاصة .

(١) Job. cap. 30, v. 31. psalm. 30, v. 2. Machab, cap. 3, v. 45.

(٢) Claudians. de IV cons. Honor. paneg. v. 685 et seq.

(٣) أوفيديوس ، مسخ الكائنات ، الكتاب التاسع ، بيت ١٨٠ وما يليه .

(٤) بلوتارخوس (بلوتارك) إيزيس واوزيريس .

أن المصريين والإغريق والرومان قد استخدموا ، فى كافة أزمانهم ، هذه الآلات الموسيقية فى المواكب وحفلات الجناز ، وأن استعمال هذه الآلات لم يكن مجهولا منهم قط على مر الأيام ، كلا بالتأكيد ؛ ذلك أننا حين نخلط معا كل الحقب البعيدة عنا دون أن نلقى بالا لاختلاف الأزمان وتعاقبها ، ذلك الذى صحب معه بالضرورة تغييرات فى أطوار الحضارة وفى أطوار تقدم المعارف البشرية ، سواء فى مجال العلوم أو فى مجال الفنون ، والتى أثرت بالتالى ولابد فى تقاليد البشر وعاداتهم ، سيصبح من المستحيل علينا أن نتفهم أو نتجاوب قط مع معطيات الوقائع ، وسوف نجد بالمثل ، بهذه الطريقة نفسها ، شهادات تقف مع أو تنهض ضد أى من الآراء قد نعتنقه ، فوجود شيء كان يحدث بطريقة بعينها وقتا ما ، فى بلد ما ، لا يعنى أننا نستطيع أن نستخلص من ذلك أن هذا الشيء نفسه كان يحدث بهذه الطريقة نفسها فى مكان آخر أو فى البلد نفسه ، فى زمن آخر ، فلابد أن نتفحص مسبقا ما للتقاليد والعادات فى هذه الأزمان المختلفة أو فى هذه البلدان المختلفة من أمور مشتركة أو متعارضة ، أو بصفة خاصة ، دون أن يدعم المرء حكمه بأسانيد وحجج قوية تحظى بالاحترام ، أو بوقائع تتصل بالأزمان أو الأماكن التى يتحدث عنها ؛ فحين يبحث المرء عن الحقيقة المتأصلة دون تحيز أو حكم مسبق ، وحين يخشى من مغبة الخطأ فسوف لا تكون مجازفة كبيرة منه أن يعتد برأيه الخاص كما سوف يكون على يقين من أنه يقدم هذا الرأى من جانبه كمقامرة غير مضمونة . ولقد كانت هذه المبادىء هى مبادئنا نحن ، على الأقل ، ولقد طبقناها ونحن نحاول أن نؤسس كل ما نقوله الآن عن الموسيقى القديمة لمصر ، والتى انتهينا للتو من التعريف بحالتها الأولى .

ولسوف يكون لغوا لا طائل من ورائه أن نتوسع لأكثر من ذلك حول هذه النقطة ، والتى تبدو لنا قائمة على أساس متين . لقد كنا بصدد أن نشرح أصل وطبيعة وموضوع موسيقى قدماء المصريين وأسباب التغيرات التى ألمت بها ، وأن نحدد بدقة ما يعنيه نفور المصريين من الموسيقى ، وليس أن نقدم تاريخا لهذا الفن فى مصر القديمة . ولقد انتهينا الآن من إقامة النقاط الأولية ، ولهذا فلم يعد يبقى علينا إلا أن نوضح النقاط الأخيرة التى ألقينا عليها بالفعل ، من قبل ، بعض الضوء .

وإذا ما أردنا أن نلخص ما سبق أن قلناه بخصوص الحالة الأولية لفن الموسيقى فى مصر . فسوف نقول ان هذا الفن كان محاكاة للتقاليد الحميدة وتعبيرا

عنها ، يجسدها عن طريق الصوت[١]، أما الأسباب الأولية التى استوجبت ابتكاره فهى الألم واللذة ، وأما مبادئه الطبيعية فهى النظام والتناغم ، وأنه يرتكز على الجمال والرشاقة والحيوية فى التعبير ؛ وأنه كان لصيقا بالشعر أو ملتحما به ، كما كان يلتحم بكل الخطب الصحيحة أو المختلفة ، أى بتلك الخطب التى لم تكن معانيها تتخفى وراء الأقنعة (الرموز) وتلك التى كانت تستخفى معانيها وراء الرمز ، وان عناصرها المتكاملة كانت الكلمات المنطوقة واللحن والايقاع ، وان موضوعها كان هدهدة العواطف وتثقيف العقل والتسامى بالروح ؛ وأنها كانت تهدف فى النهاية إلى الايحاء بالخلق الطيب والسلوك المستقيم ، أما وسائلها لبلوغ هذا الهدف فكانت الحكمة والفضيلة والدين والقوانين ، أما كل ما كان غريبا على هذه الأمور فلم يكن ليأتلف معها قط .

---

(١) حيث لم تكن الموسيقى الآلية تنتج إلا بفعل أنغام غير حية تصدر عن أجسام لا حياة فيها ، فلم يكن بمقدورها أن تتفق مع الموسيقى المصرية القديمة ، التى كان غرضها يتعارض بشكل تام مع الغرض من الموسيقى الآلية .

المبحث الخامس

الحالة الثانية للموسيقى فى مصر

الأسباب المبدئية التى تسببت فيها - أصل ومنشأ هذا النوع من الموسيقى كانا غريبين على مصر - نشأت هذه الموسيقى فى آسيا ، واشتقت عن الموسيقى الآلية التى استعارت منها شكلها سواء فيما يتصل بتعقدها أو بالمتعة التى تحدثها - هذه الموسيقى هى التى لفظها المصريون فى البداية ، باعتبارها لا شأن لها إلا ارهاق العقل وإتلاف الخلق والتقاليد ، ثم تقبلوها فى الأزمنة الأخيرة وانتشرت على أيديهم وازدهرت بنجاح بعد أن شغفوا بها .

لكي نتصور بطريقة أفضل ، تلك الأسباب التى أدت بالضرورة إلى توجيه الضربات الأولى إلى الموسيقى ، والتى عملت على تدهور هذا الفن بعد حالة الكمال التى كان عليها ، وذلك فى الوقت الذى كانت هذه الأسباب فيه تحدث تغييراتها الكبرى فى مصر ، فإن من أوجب الأمور أن نكون لأنفسنا فكرة عن الأماكن والأزمان والأحداث والظروف التى تمت خلالها هذه الأسباب ، وبدون ذلك فإن ما قد نستطيع أن نقوله لن يكون على أكثر تقدير سوى أمور ظنية أو افتراضية ؛ وحين يتوفر ذلك فسوف ندع للقارىء مهمة عقد المقابلات بين الأحداث الأخرى السياسية ، تلك التى أسهمت بالضرورة فى حدوث التقلبات والتغيرات والابتكارات والبدع التى ناخت بكلكلها فوق مصر والتى اقتادتها نحو التدهور ، حتى لا يكون علينا بعد ذلك أن نلقى بالا إلا للمسيرة التى اتبعتها الموسيقى وحدها ، حيث لم يعد من حقنا قط بعد ، أن نطمح إلى أن نلحق بالموسيقى أمورا لم تعد لها بها اليوم أية صلة على الاطلاق .

لاتهيىء مصر ، التى تنحصر بين سلسلتين من الجبال[1] تمتدان شبه متوازيتين إحداهما مع الأخرى من الشمال إلى الجنوب ، بادئة من جهة الشرق بجبل المقطم وتحدها من جهة الغرب سلسلة الهضاب الليبية ، والتى — أى مصر — يحدها البحر من الشمال ، ويقع فى جنوبها آخر شلالات (جنادل) النيل — حيث يندفع هذا النهر مسرعا فوق قاع غير مستقر، عند اجتيازه لصخور واسعة من الجرانيت ، بحيث لا يهيىء فى هذا المكان سوى ممر وعر لا يمكن اجتيازه عن طريق الماء ، لاتهيىء مصر كما نرى منفذا سهلا للغرباء من أية جهة وبخاصة فى الأزمان الأولى ، حين لم يكن فن الملاحة ، الذى كان لا يزال عندئذ بالغ التخلف ، يسمح لأصغر قارب باجتياز هذه الذراع من الرمل الذى يرسبه النهر ، ويحركه بصفة مستمرة عند مصبه . ان هذه الصخور المتكسرة والتى كانت تبث الرعب حتى فى قلوب أبناء البلاد أنفسهم منذ زمن لا تعيه الذاكرة ، قد ظلت كذلك حتى اليوم ، ولحد أن أفضل الملاحين ليس بمقدورهم على الدوام وحتى الآن ، أن يحولوا دون أن تجنح سفنهم هناك . وفضلا عن ذلك ، فقد كان البحر ، الذى كان القدماء ينظرون إليه باعتباره مملكة طيفون[2] ،

---

(١) سترابون ، الجغرافيات ، الكتاب السابع عشر ، ص ٩٤٦ ؛ ديونيسيوس وصف الأرض .

(٢) بلوتارك ، إيزيس وأوزيريس ص ٦٤ .

مبدأ وسبب كل شر ، بل باعتباره الموت ذاته ، فهو يوحى إليهم بهلع عظيم لدرجة أنهم كانوا يشعرون بأكبر صنوف المقت التى لا يمكن التغلب عليها ، لكل ما كان ومن كان يجىء إليهم عن هذا الطريق . ولهذا السبب كذلك كانوا يمقتون الأجانب[١] ويدعون لهم مباشرة التجارة الخارجية ، كذلك لم يكونوا ليسمحوا إلا لأقل الناس من بينهم شأنا كى يسهموا فى هذه التجارة بنصيب ما . وكما كان المصريون بعيدين عن كل اتصال بالشعوب الأخرى بسبب موقع بلادهم ، فقد كانوا ينأون بأنفسهم عن هذه الشعوب كذلك بسبب مبادئهم وبسبب طباعهم ؛ وحيث لم يكن هناك ما يحفز طموحهم ، إذ كانوا قانعين بثروات أرضهم التى كانت تهىء لهم بوفرة كل ما كان ضروريا لاحتياجاتهم[٢] ، وحيث كانت تحكمهم قوانين تتصف بالحكمة وتنفر عن البذخ وعادات الأمم الأخرى ، فقد تمتعوا لوقت طويل بالسلام والسعادة[٣] ؛ ولعلهم لم يكونوا ليخرجوا عن هذه الحال ، بلا ريب ، لو أن حدودهم التى بدا أن الطبيعة قد جعلت منها قدرهم الذى لافكاك منه ، قد ظلت تحظى على الدوام بالاحترام .

ولقد كان سيزوستريس الذى تربى منذ نعومة أظفاره على امتشاق الحسام أول ملك من ملوك هذه البلاد ، يتجاسر كى يأخذ على عاتقه ، حين لم يستطع أن يكبح جماح كفاءته القتالية ، أن يبسط سطوة نفوذه إلى ما وراء الحدود التى حصر أسلافه فيها أنفسهم ، فمضى بجيوشه الظافرة إلى أثيوبيا وآسيا وأوربا[٤] ، ساعيا ،

---

(١) هيرودوت ، التاريخ ، الكتاب الثانى ؛ديودور الصقلى ، المكتبة التاريخية ، الكتاب الأول ، الفصل ٤٣ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) وعلاوة على ذلك فقد تم تأمين مصر الآن ومنذ البداية ، بقوة ، حتى أنها ، بسبب قواتها العسكرية ، التى صمدت دون مشقة ، لم تسمح للأمم الأجنبية بدخولها بسهولة .

سترابون ، الجغرافيات ، الكتاب السابع عشر ، ص ٩٤٦ .

(٣) ديودور الصقلى . المرجع أعلاه .

« ولكن سوف نتجه إلى أرض مصر حيث لا نشاهد حربا بأى حال من الأحوال ، وحيث لا نسمع صوت نفير الحروب ، وحيث لا نعانى من المجاعة ، وحيث ننعم هناك بالسكنى » جيرم ، فصل ٤٢ ؛ فقرة ٤ .

(٤) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، ديودور الصقلى . الكتاب الأول ، الفصل ٥٥ .

لتحقيق فكرة لا تتصف بالحكمة هى أن يخضع العالم كله[١] لقوانين بلاده الحكيمة ، ومع ذلك فقد فاته أنه لكى يحقق مشروعه هذا لابد أن يعيش وقتا طويلا بالقدر الكافى ، وبقوة وصحة ضروريتين لدعم شجاعته وطموحه الجسور والمتهور . وكانت نهاية المطاف أن استقبلت مصر ، فى داخلها ، أجانب هم ليسوا سوى العبيد أو الأسرى الذى كان سيزوستريس قد هزمهم ، ولم يكن هؤلاء يحظون إلا باحتقار المصريين وفزعهم منهم ، إذ لم يكن لأولئك لا ديانة ولا خلق ولا عادات المصريين .

وحيث لم يعرف خلفاء سيزوستريس أن يحملوا الغير على احترام صولجان ملكهم ، الذى انتهى إليهم ، والذى كان هذا الملك قد جعله بالغ السطوة عندما كان بين يديه فقد انصرفوا إلى التنازع عليه ، وسرعان ما انتزعه منهم خصومهم ، وهيأ هؤلاء الفرصة بفعل انشقاقاتهم لتمرد الشعوب المقهورة التى لم يتوان ابناؤها عن أن ينتشروا فى كل أنحاء مصر ، أو أن يثوا ويزيدوا فيها الاضطرابات والقلاقل ، فجعلوا من هذا البلد الجميل فريسة لأول غاز حاول الاستيلاء عليه .

وتقدم قمبيز . وكان عندئذ ملكا للفرس ، على رأس جيش هائل فقهر المصريين بدورهم[٢]، ولم تكن ديانته لتقبل معبدا للاله[٣] سوى العالم ، كما لا يستحق شىء ، فى نظر ديانته ، عبادة البشر سوى الشمس[٤] فهدم المعابد التى أقام صروحها هذا الشعب على شرف آلهته ؛ وحطم ديانته وحطم أوثانه ، وقتل العجل أبيس وشتت الكهان وألغى الأنظمة والمؤسسات الدينية والسياسية القديمة التى كانت قائمة فى هذه البلاد . لقد تغيرت وجوه كل شىء ؛ وحيث لم تعد الموسيقى تجد هاديها فى الدين والقوانين فإنها لم تستطع أن تبقى على حالتها الأولى لوقت طويل ، فكان عليها منذ ذلك الوقت أن تسهم بالضرورة فى كل التغيرات التى تحدث وأن تتأثر بها ، ولم تستطع كذلك أن تحافظ على براءتها ونقائها المبدئيين وعلى بساطتها السامية ولا أن تحتفظ بوقارها النبيل الذى قد كان لها من قبل ، فسرعان ما استبدل

---

(١) ديودر الصقلى ، المكتبة التاريخية ، الكتاب الأول ، الفصل ٥٣ ، ص ١٦١ .

(٢) هيرودوت ، الكتابان الثانى والثالث ، ديودور ، الفصل ٦٨ ، ص ٢٠٣ .

(٣) هيرودوت ، الكتاب الثانى .

(٤) Justin, lib I, cap. g.

الفرس بذلك كله الفخفخة الآسيوية ؛ وبعد أن كانت الموسيقى فى الماضى تلقى احترام المصريين باعتبارها نعمة من الآلهة بدأت منذ هذا الوقت وقد تغيرت صورتها وتغير الغرض منها] تلقى منهم الصد والازدراء ، باعتبار أنه لم يعد من شأنها إلا أن تؤدى إلى رخاوة النفوس ، وإلى أن تفت فى عضد الشجاعة وأن تتلف الاخلاق .

ومنذ هذا العصر ، وجب على المصريين فى واقع الأمر أن يكونوا فكرة سيئة عن كل موسيقى أجنبية ، لكنهم لم يستطيعوا قط أن يزدروا موسيقاهم الخاصة بهم ، وعلى النحو الذى عرفوها عليه ، فقد كانت تحكم هذه الموسيقى التى نهضت على مبادىء أصح الفلسفات ، قوانين بالغة الحكمة ولحد تظل معه باعثة على الاحترام من جانبهم ؛ وكل الظواهر تبرهن لنا على ان ما رفضوه حقيقة ، على مر الأيام ، من هذا الفن قد جاءهم من آسيا .

فلقد عرفنا أن القوانين الخاصة بالموسيقى فى مصر لم تكن تتقبل فيها[1] إلا ما كان من طبيعته أن يتسامى بالروح وأن يعودها على المشاعر النبيلة وأن ينشىء النفوس على الفضيلة ، وان هذه القوانين كانت تحظر الزيادة البالغة والتنوع الشديد فى الأنغام ، باعتبارها لا تستطيع أن تصور إلا حالة نفس الانسان العاقل والمعتدل والمتسامح والقوى والشجاع . ونحن نعرف من جهة أخرى أن النقائص النقيضة كانت على وجه الدقة هى طابع الموسيقى الآسيوية ، تلك التى كانت شديدة التنوع[2]، كثيرة الانات[3]، باعثة للشهوات والملذات[4]، رخوة متراخية ، تدعو للفسوق وتحض على الرذيلة[5]. وهذه إذن هى الموسيقى التى دخلت مصر مع مجىء الفرس عندما أصبحوا سادة لها ، وهى تلك التى رفضها المصريون .

ولكننا قد قلنا من قبل إن المثالب التى جعلت من هذا النوع من الموسيقى امرا يستحق اللوم ، تعود بالدرجة الأساسية إلى نقيصة استخدام الالات ، وهو الأمر

---

(١) نحس أننا مدفوعون ، على الرغم منا ، لأن نذكر القارىء على الدوام بأفكار حول الموسيقى القديمة فى مصر تبدو لنا متعارضة مع أفكارنا المسبقة لحد أنها تحتاج دونما انقطاع لأن تنقشع وتتبدد .

(٢) Apaul. Florid, lib. I

(٣) المؤلف نفسه ، والمرجع نفسه ؛ أفلاطون ، الجمهورية ، الكتاب الثالث .

(٤) أفلاطون ، المرجع السابق .

(٥) نفس المؤلف ، ونفس المرجع .

الذى يتبقى علينا أن ندلل عليه . ولهذا فإن من الضرورى أن نعود إلى منشأ هذه المثالب وإلى منبع التدهور الذى أصاب الفن ، وأن نضع يدينا على التوجيه الخاطىء الذى تلقاه هذا الفن فانحرف به عن الغاية التى هيئت له بفعل الطبيعة ؛ وإلا فلن يكون بمقدورنا أن نفسر علام كانت تشتمل الحالة الثانية لفن الموسيقى عند قدماء المصريين ، حيث أن هذا التوجيه الخاطىء الذى تلقاه هذا الفن فى آسيا الذى تابع مسيرته إلى مصر ، هو الذى سنواصل ملاحظة مسيرته ، وخطوات تطوره ، وهو نفسه الذى ينبغى له أن يتضح كى يدعم فكرتنا .

ومنذ البداية ، فإن من البديهى أن الصوت ، بين كل الالات الموسيقية ، هو أولها وأكثرها طبيعية ، وأن الالات الموسيقية الأخرى لم يتم ابتكارها إلا بعد وقت طويل للغاية من اكتشاف فن الغناء . ويفترض توافق هذه الالات بالضرورة ، ليس فقط وجود معرفة مسبقة بالفن الذى جاءت هذه الالات من أجله ، وانما كذلك وجود ومعرفة كل مبادىء الموسيقى ؛ فالعدد الضئيل للغاية من النغمات الصادرة عن تناغم وتوافق الالات الاولية ، وكذلك استعداد هذه النغمات ، يدللان بوضوح أنهم (المصريين) قد فكروا فى هذه الالات ، بعضها لاعطاء المقام (التون) للصوت أو للإبقاء على الصوت فى التون الذى كان المغنى قد شرع فيه من قبل ، ولكى يقود هذا المغنى إلى نقاط الارتكاز التى يستطيع أن ننقل إليها التغيرات المختلفة فى طبقات الصوت ونغماته ونبراته ، ولكى يضع الحدود التى ينبغى على المغنى أن يحصر نفسه فى داخلها ؛ أما بعضها الاخر فلكى يحدد إيقاع ووزن الشعر أو الغناء أو الرقص . إن النغمات نفسها التى كانت تكون تناغم القيثارة ذات الأوتار الثلاثة كانت كذلك هى الأنغام التى أسس عليها القدماء مبادىء وقواعد علم العروض ؛ « فتلحين الخطابة[1] – كما يقول دينيس هاليكارناس فى كتابه مقالة عن فن ترتيب الكلمات[2]

Denys d'Halicarnasse, traité de l'arrgement des mots

« يتبنى منذ البداية الفاصلة الخماسية ، فهو لا يستطيع أن يعلو نحو الحاد أو الجهير لاكثر من ثلاث تونات ونصف التون ولا أن ينخفض نحو الغليظ أو الخفيض

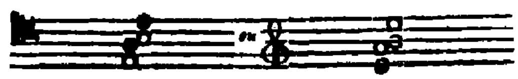
---

(١) كلمة لحن (ميلودى) مأخوذة هنا بمعناها الاشتقاقى ، فهى تعنى فى هذا السياق : إيقاع الجمل التى يتألف منها الحديث .

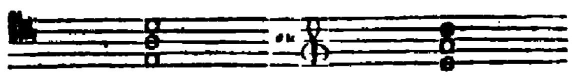
(٢) Edit, Simon. Bircou. pag. 38

لأبعد من هذه الفاصلة[1]؛ لكن المبادىء التى نهضت على نظام ائتلاف أو تناغم القيثارة ذات الأوتار الأربعة عند الاغريق كانت أوسع مدى من المبادىء التى سبق أن حددها المصريون القدماء فى تناغم أو توافق قيثارتهم ذات الأوتار الثلاثة » . كانت النغمة الوسطى تشكل فى تناغم (هارمونى) القيثارة ذات الثلاثة أوتار الفاصلة الرباعية مع النغمة الغليظة ومع النغمة الحادة، وكانت النغمتان الطرفيتان ترددان مجموعات من ثمانى وحدات (أو كتاف)[2]، وكان هذا هو أكبر امتداد ينبغى

(١) إليكم الائتلاف الخاص بالقيثارة القديمة ذات الأربعة أوتار والمستخدمة عند الإغريق ؛ وسنعرف بالصعوبات والمساوىء التى جرها التعديل الذى أدخل على القيثارة القديمة ذات الأوتار الثلاثة .



(٢) من المفيد أن نسترعى الانتباه إلى أن هذه الأنغام كانت الأنغام الأساسية فى المقام الدورى ، وهو أقدم هذه المقامات ؛ ومنذ ذلك الوقت والمقام الدورى يبدأ بنغم أكثر انخفاضا ، إذ كان يضمن فيه la Proslambanomène : [وهو اسم أكثر الأوتار غلظة (أى أشدها خفوتا) فى النظام الموسيقى عند اليونانيين ، وقد سمى بهذا الاسم لأنه أضيف لأول مرة إلى القيثارة رباعية الأوتار — المترجم] وإليكم هذا الائتلاف فى حالته الأولية :



والذى يقدم بالمثل النغمات الرئيسية للطبقة الوسطى للصوت البشرى ، سواء فى ذلك أن كان صوت رجل أو صوت امرأة ؛ وتوافق النغمة الحادة فصل الصيف ، وتقابل الوسطى فصل الربيع ، أما الغليظة فتقابل الشتاء ؛ وفى واقع الأمر فإن التأثر الانفعالى الذى ينتج هذه النغمات حين نتحدث ، له علاقة كبيرة بحرارة الجو فى الفصول المقابلة ، كل منها ، لواحدة من هذه النغمات : فحيث تنتج النغمة الأحد عن انفعال قوى وتسبب بدورها قدرا كبيرا من الحرارة فى الدماء فإنها تتفق أكثر من غيرها مع فصل الصيف ؛ وحيث كانت النغمة الوسطى تصدر عن انفعال معتدل وتسبب قدرا قليلا من الحرارة ، فهى تنتمى ولابد إلى الربيع ؛ أما النغمة الغليظة ، وهى التى لا تنتج إلا عن تردد بالغ البطء ، أو بفعل مشاعر لا تحدث سوى انفعالات واهنة لا تتسبب فى أى حرارة أو دفء ، فهى أكثر توافقا مع فصل الشتاء. ويذكر بلوتارك فى الكتاب الرابع من أحاديث المائدة ؛ السؤال الرابع عشر ، شيئا مماثلا لهذا حين يقول ما نصه : « ويقول الدلفيون (نسبة إلى معبد دلفى) ان ربات الفن لم يطلعنهم قط على أسماء الأنغام أو الأوتار ؛ ولما كان العالم فى مجموعه منقسما إلى ثلاثة أقسام رئيسية : القسم الأول وهو قسم الطبائع الهامدة ، والثانى خاص بالطبائع المتحركة ، أما الثالث فخاص بتلك الطبائع الموجودة تحت كوكب القمر ؛ وأنها جميعا تبعد عن بعضها البعض بنسب متناسقة ؛ ويصر هؤلاء على أن لكل نغمة من النغمات واحدة من ربات الفن تقوم بحراستها : فتحرس النغمة الأولى الربة المسماة هيبات Hypate ، أما النغمة الأخيرة فتحرسها الربة نيت néte ؛ لكن الربة ميز mise هى التى تقوم بحراسة النغمة الوسطى ، تلك التى تستوعب وتقود ، قدر الامكان ، الأشياء الفانية إلى الآلهة ، والأمور الأرضية إلى الأجرام السماوية على غرار ما قدمه أفلاطون بطريقة عميت على أفهامنا تحت أسماء جنيات

للصوت أن يبلغه فى الحديث العادى .

وحين ظلت الالات الموسيقية تقتصر على هذه الأنغام الثلاثة فإنها لم تكن لتستطيع أن تضر باللحن ؛ أما عندما فكر الناس فى عدد أكبر من الأوتار : وأمكن الفنان أن ينوع النغمات على هواه ، فقد تخلق نوع آخر من الموسيقى لم يعد يرتبط بشىء بمبادىء اللغة المنطوقة ؛ وحيث كان بمقدور كل امرىء أن يعدل فيها طبقا لذوقه الخاص أو تبعا لنزواته ، فإنه لم يعد يسترشد إلا بلذة الأذن ، بل بالخيلاء والميل إلى التبذل ، ساعيا للتغلب على صعوبات بالغة الضخامة دونما غاية أو غرض ودون ضرورة كذلك . لكن الجهل الذى يهلل لهذه الانحرافات الباعثة على السخرية فقد بدأ يرغم الفنان على نحو ما لأن يستسلم للأمر ، وسرعان ما نسى الناس حتى تذكر المبادىء الرئيسية لفن الموسيقى ذاته ، بفعل العادة التى اكتسبوها من هذا الفن الوليد ، وهو فن صناعة محض .

ومع ذلك فقد انقضت قرون طوال دون أن يحلم امرؤ بأن يغير شيئا فى الاغراض الأولية للالات الموسيقية ؛ فبرغم أن ابتكار هذه الآلات يرجع طبقا لكتبنا المقدسة إلى أزمان تسبق الطوفان[١]، فإنه لم يصلنا ما يشير قط إلى أن وسائل أداء الموسيقى قد زيدت فى أى بلد لأكثر من أربعة عشر قرنا بعد هذه الكارثة .

وحتى زمن سيزوستريس ، لم يكن المصريون بعد يعرفون سوى أربعة أنواع من الآلات :

١ — القيثارة ذات الأوتار الثلاثة والتى انتهينا من الحديث عنها .

= أوربات الموت والحياة مطلقا على الأولى منهن اسم اتروبوس [وهى التى تعد خامة خيط الحياة] ، وعلى الثانية اسم لاخيزيس [وهى التى تدير المغزل فيمتد خيط الحياة] ويطلق على ثالثتهن اسم كلوطو [وهى التى تقوم بقطع الخيط فتنتهى الحياة] ؛ أما عن حركات السماوات الثمانى فقد نسبوها إليهن باعتبارهن جنيات(*) ولسن ربات فنون » . انظر بخصوص هذه الأنواع من التأملات أو الأفكار : مقالة عن خلق الروح ، للمؤلف نفسه وكذلك حوارية تيماوس لأفلاطون .

(*) تعنى كلمة sirénnes المستخدمة هنا : جنيات خرافية نصفها الأعلى لامرأة والنصف الأخر لطائر أو سمكة ؛ وهن يسكن الصخور الوعرة بين جزيرة كابرى وساحل إيطاليا ، وكن يجتذبن المسافرين بفعل طلاوة وسحر غنائهن ؛ وحين لم يتأثر يوليسيس بغنائهن وصوتهن فقد ألقين بأنفسهن إلى البحر كما تقول الأسطورة . [المترجم]

(١) سفر التكوين ، الاصحاح ٤ ، الآية ٢١ .

٢ – الدف الذى يستخدم فى ضبط إيقاع الرقصات .

٣ – البوقسان أو البوق ، للإعلان عن موعد الصلوات والأضحيات والأهلة أو الأقمار الوليدة ، ولدعوة الشعب للاجتماع فى المناسبات الاعتيادية عن الحياة المدنية أو لإعطاء إشارة ما فى الجيوش .

٤ – النفير ، عندما يتصل الأمر ببعض الأمور الهامة التى تتطلب إسهام الشعب كله . ولم يكن هذا النفير سوى أنبوب مستقيم أو مخروطى الشكل أو هو على أكثر تقدير ينحنى ببساطة عند طرفه[١] على غرار البوق أو البوقسان الذى كان يصنع من قرن بقرة ؛ مع اختلاف وحيد هو أن النفير يصنع من الخشب والصلصال أو من المعدن .

وتلكم ، على الأقل ، كانت الآلات الموسيقية التى حملها العبرانيون معهم فى هذه الفترة عند هروبهم من مضر ، بعد أن أقاموا فيها لأكثر من أربعمائة عام[٢] ، وعلى هذا النحو كان استخدامهم لها فى البداية ، ولا يستطيع المرء أن يفترض أن هذه الآلات كانت خاصة بهم ، ذلك أنه لم تكن لتترك لهم ، فى حالة الاذلال التى انكمشوا إليها فى مصر لا الحرية ولا وقت الفراغ اللازم كى يستخدموها ؛ ولو قد كانت لدى المصريين آلات أخرى ، لما كان هناك أدنى شك فى أن الاسرائيليين لم يكونوا ليترددوا فى الاستيلاء عليها ، بنفس الطريقة التى استولوا بها على الآنية الذهبية والفضية المملوكة للمصريين[٣]؛ وفضلا عن ذلك فقد كان بنو إسرائيل قد اعتادوا على أخلاق وطباع المصريين وعلى ديانتهم ، حتى أنهم ظلوا لوقت طويل بعد خروجهم من مصر ، يعودون إلى هذه الديانة ، وإلى هذه الطباع ، مرات عدة ، برغم

---

(١) إن ما نظر إليه باعتباره نايا فى لوحة اسحاق Jsiague لا يبدو لنا سوى بوق من هذا النوع ، أما سبب الخلط الذى يؤدى إلى إطلاق اسم ناى فى بعض الأحيان على البوق ، والعكس حين يمنح اسم بوق أحيانا إلى الناى عند القدماء ، هو أن كليهما كانا بالمثل مصنوعين من أنبوب كما كان كلاهما يحدث صفيرا ، وفى أن الخلاف الوحيد بينهما يكمن فى الحجم اذ الناى أصغر حجما من البوق ؛ ولهذا السبب كان يشار إليهما ، كليهما ، باسم توبا Tuba باللاتينية وتعنى الأنبوب أو باسم سيرنكس Syrinx باليونانية ، وذلك قبل أن يفكر الناس فى صنع الناى من عظمة ساق الأيل ؛ ومن الاسم اللاتينى جاء الاسم تيبيا Tibia الذى أصبح اللاتين يشيرون به بعد ذلك إلى الناى .

(٢) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى عشر ، الآية ٤٠ .

(٣) شرحه ، ٣٥

الاعتراضات التى كان يبديها موسى باسم الرب ، اذ لم يستطيعوا تحت سطوة هذا الميل من جانبهم ، أن يقاوموا رغبتهم فى صنع وثن للإله أبيس وأن يعبدوه[١] ، مع الأخذ بطقوس العبادة التى تعود المصريون أن يقوموا بها لهذا الإله ، وكذلك مع أداء صنوف الغناء نفسها ، والرقصات نفسها التى كان المصريون يختصونه بها[٢] .

وتؤكد كل الشواهد ان الأنواع الأربعة من الآلات الموسيقية التى انتهينا من الحديث عنها كانت أول الآلات المعروفة . وكانت هذه أول الآلات التى استخدمها المصريون لأنها أكثر بساطة من الآلات الأخرى وأكثر منها سهولة وقابلية للاستيعاب فى وقت قصير ، ولأنها كانت أكثر مباشرة وأشد تأثيرا ؛ ولم يكن قدماء المصريين يعرفون غيرها فى زمن موسى .

لكن الأمر لم يكن يمضى على هذا النحو فى آسيا ؛ ففى هذه الفترة نفسها كان الناس مكبين بهمة فائقة على تطوير الآلات المعروفة وابتكار آلات جديدة ؛ وسيكون من السهل على كل منا ، عن طريق التأريخ لهذه الاختراعات أن يقوم بالمقابلة بين الأحداث السياسية التى وقعت فى مصر فى الوقت ذاته ، وأن يتصور متى وكيف أدخلت هذه الآلات إلى هناك ، فمن المرجح أن تكون بذورها قد انتقلت إلى هناك منذ فتوحات سيزوستريس ، أو عن طريق العبيد أو الأسرى الذين اصطحبهم هذا الغازى إلى مصر معه ، أو على يد أبناء آسيا الذين جذبتهم إلى هناك ظروف ودوافع مختلفة : لكن هذه البذور لم يكن بمقدورها أن تنبت وتنمو بنجاح إلا حين لم يستطع المصريون ، وقد أخضعهم الفرس ، أن يواجهوها بالمقاومة .

وطبقا لتأريخ باروس Paros فإن هيجانيس Hyganisالفريجى ، نسبة إلى منطقة فى آسيا الصغرى هو أول من اخترع الناى[٣] وأول من غنى على أساس المقام

---

(١) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى والثلاثين ، الآية ١٩ ؛ ولقد كان العجل مصنوعا من الذهب . ويقول فى هذا الصدد لاكتانس ، عن الحكمة الزائفة ، الكتاب التاسع ، فصل ١٠
« ان هذا العجل الذهبى كان مثلا للإله أبيس » .

(٢) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى والثلاثون ، الآيتان ١٨ ، ١٩ . ويورد فيلون اليهودى Philon فى كتابه الانتشاء ان المصريين قد كانت لديهم عادة ان يغنوا الأشعار وهم يرقصون حول الإله أبيس .

(٣) Joann. Marsham, canon chronicus, AEgypt, Hebr. Graec. ad seculum IX pag.
= 112, Londini, 1672, in- fol. Lenglet du Fresnoy, Tablettes chronologiques, ect (Deipnos. lib

الدورى،وهو فى الوقت نفسه مؤلف عديد من الأغنيات الأخرى على شرف الإلهين باخوس وبان ، وقد عاش فى نفس الوقت الذى كان أريختيون Erichton فيه يحكم أثينا ، فى نحو عام ١٤٨٧ قبل ميلاد المسيح ، وبعد أربع سنوات من خروج الاسرائيليين من مصر ، وقبل سنتين من حكم سيزوستريس . ونحن هنا نشير إلى كل ذلك حتى يتبين القارىء بشكل أفضل ، توافق كل الأحداث التى من شأنها أن تنطبق على ما نحن بصدده ، لكى ندلل عليه .

وبرغم أن هناك احتمالا ضئيلا فى أن يتمكن رجل واحد من اختراع أشياء كثيرة ، وحده ، فإن من الأرجح على الأقل أن الناس فى هذه الفترة كانوا معنيين بدرجة كبيرة بتطوير فن العزف على الناى ، وهو فن كان لا يزال حتى هذا الوقت فى مرتبة تقترب من العدم ، إذ أن أبوليوس Apulée عند حديثه عن هيجانيس هذا[١] يذكر أن الناس لم يكونوا قد فكروا بعد فى طبيعة الأنغام ، وأنهم كانوا يستخدمون الناى بالطريقة نفسها التى ينفخون بها فى البوق ، وانه لم تكن توجد أنواع كثيرة من الناى ، بل لم يكن قد وجد بعد الناى المثقوب ثقوبا عديدة ، وأن هيجانيس هو أول من حاول العزف على نايين فى الوقت نفسه ، معا[٢]، وأول من أحدث عن طريق نفخة واحدة ائتلافا بين نغمتين ، إحداهما حادة والأخرى غليظة ، بواسطة أنبوبين أحدهما على

= XIV, cap. 11, pag, 617, C) ويقول أثينايوس فى المرجع السابق إنه لما كان أحد ملوك فريجيا Phrygie (ولعله هيجانيس) يجعل الناى المقدس يحدث أنغاما رقيقة ، فقد كان هو أول من ابتكر الغناء بواسطته ، وجعله مطابقا لعبقرية اللغة الدورية (احدى لهجات اليونانية القديمة) .

(١) Florid. lib. I, pag. 405. lut. Paris, 1601 in, 16

(٢) الحديث هنا يدور حول الناى المزدوج ، وكانوا يطلقون عليه اسم الناى المنحنى حين يمتد انبوباه متباعدين أحدهما عن الآخر بدءا من النقطة التى كانا يتصلان عندها بالقرب من الفتحة ؛ وينسب بلين Pline (التاريخ الطبيعى ، الكتاب السابع ، الفصل ٥٦) ابتكاره إلى مارسياس ، وان كان يوريبيديس فى تراجيديته ريزوس Rhésus ، البيت ٩٢٢ ، يكتفى بالقول بأن مارسياس كان ماهرا فى العزف على الناى .

وينسب كاليماك Callimaque نشيد إلى ديانا البيت ٢٤٤ إلى مينرفا ابتكار الناى المصنوع من عظمة ساق أيل صغير ، أو ما يطلق عليه اللاتين اسم تيبيا وهو مثقوب بعدة ثقوب ؛ وقد قال بنفس هذه الأسطورة أوفيد التقويم ، الكتاب السادس ، سطر ٦٩٦ وما بعده ، ولكنه يضيف ان منيرفا قد لفظت هذه الآلة الموسيقية بعد أن لاحظت أن العزف عليها يجعلها تبدو مقطبة فالتقطه ستير [شخص خرافى نصفه الأعلى لبشر والنصف الأسفل لماعز] (وهو مارسياس) وتدرب عليه ، وأصبح ماهرا فى العزف به ، ثم تجاسر على تحدى ربات الفنون ، فهزمه أبوللون وعاقبه على ذلك بأن سلخه حيا .

اليمين والآخر على اليسار[١]، وأنه هو ، فى النهاية ، أول من عين ملمس هذه الآلة .

من هذه الرواية نرى أن هيجانيس لم يكن فى الحقيقة هو مخترع الناى مادامت هذه الآلة الموسيقية كانت معروفة من قبله ، وإنما هو مبتكر لنوع جديد من الناى ، هو الناى المثقوب ثقوبا عديدة ، وكذلك فن العزف على هذا الناى بتحديد أو تعيين ملامسه ، وهو أمر قد ظل مجهولا طبقا لرواية أبوليوس Apulée[٢] . وحول هذا المعنى نفسه لابد أن نستمع إلى هذا النص من بلوتارك[٣]: « كان هيجانيس هو أول من عزف على الناى ثم ابنه مارسياس من بعده ثم أوليمب »[٤] ؛ وقد كان بلوتارك بلا ريب يرى نفس رأينا لأنه يمضى ليقول لنا : « ذلك أنه لم يكن لا مارسياس ولا أوليمب ولا هيجانيس هم أول من ابتكر الناى كما يقدر بعض الناس ، بل إن ما يستطيع المرء أن يعرفه عن طريق الرقصات والأضحيات التى تقدم على أنغام المزمار والناى إلى أبوللون وكذلك إلى ألكيه[*] Alcée ، بين آلهة آخرين قد تركه [هيجانيس] مكتوبا فى بعض أناشيده . وفوق ذلك فإن صورته فى جزيرة ديلوس توضحه ممسكا فى يده اليمنى بقوسه ، ويمسك فى يده اليسرى ربات الفتنة ، حيث تمسك كل واحدة منهن بآلة موسيقية ، فإحداهن تمسك بالقيثارة ، وأخرى بالمزمار ، وثالثة ، وهى التى تقف فى الوسط ، بالناى الذى تقربه من فمها ، ولكى لا تظنى أننى قد تخيلت ذلك كله [أقول لك] إن انتيكليس وايستير قد لاحظا الأمر نفسه كذلك فى تعليقاتهم .. الخ » .

أما المؤرخ القديم جوبا Juba الذى يشير إليه أثينايوس Athenée[٥] فينسب اختراع القصبة أو المونول إلى أوزيريس ، ملك وإله مصر ، ولكن هذه الآلة لم تكن

---

(١) انظر الفصل الرابع ، من الباب الثانى من وصفنا للآلات الموسيقية عند الشرقيين ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٩٦٤ (المجلد التاسع من الترجمة العربية) .

(٢) انظر الهامش رقم ٢٧ .

(٣) De la Musique, pag 661, A.

(٤) حيث يذكر بلوتارك فيما بعد (ص ٦٦١ C) انه يوجد اثنان يتسميان باسم أوليمب ، فيبدو ان صاحبنا هنا هو أوليمب الأول ، ابن مارسياس .

(*) أول ملوك الاسرائيليين ، حكم فى القرن الحادى عشر قبل مولد المسيح ، وقد قتل نفسه فى معركة جلبوس حيث لقى الهزيمة على يد الفلسطينيين (عن التوراة — المترجم) .

(٥) مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الرابع ، الفصل ٢٣ ، ص ١٧٥ .

سوى قصبة من القش ، وليست بها ثقوب لتعيين ملمسها ، كما أخبرنا هو بذلك ، مما لا يمكن معه أعتبارها آلة موسيقية ؛ وفضلا عن ذلك فإن جابلونسكى[1] يبرهن لنا أن اسم أوزيريس لم يعرف فى مصر إلا بعد هروب العبرانيين بقيادة موسى بنحو عشرين وثلاثمائة عام ، أى فى العام ١٣٢٥[2] قبل ميلاد المسيح ؛ ونستخلص من ذلك ، ان هذا النوع من الناى ، والناى السابق عليه . كانا معروفين فى فريجيا Phyrgie[3] قبل أن يعرفا فى مصر ، بل حتى قبل أن يعرف اسم أوزيريس نفسه هناك[4].

ومهما يكن من أمر فليس ممكنا فيما يبدو لنا أن يتوصل هيجانيس إلى تطوير الناى وفن العزف عليه ، لحد من الاتقان يكفى لتقبل الناى لمصاحبة الغناء الدينى ، دون أن يلقى الأمر استنكارا ، لمجرد أن يورد ذلك فى تأريخه ماربردى باروس Marbres de Paros ، ما لم يكن الأمر قد تم بغية إضفاء نوع من القوة والرجولة على تلك الصرخات الحادة ، التى كان يطلقها الكهان فى اليونان القديمة ، بأصواتهم المخنثة ، أثناء الرقصات التى كانوا يؤدونها على شرف أم الآلهة .

ولسنا نجد قط فى الأزمنة المتأخرة ، مثالا كان الناى فيه مصحوبا بالصوت البشرى أكثر قدما من المثال الذى يقدمه لنا سفر الملوك الأول[5] حيث قيل : **ونزل الأنبياء من الجبل تصحبهم أصوات القيثارة والجيتار والناى وضجة الدفوف** ، وكان هذا فى عهد شاءول[*] فى نحو عـام ١٠٥٠ قبل مولد المسيح ؛ ومع ذلك فإننا

---

(١) معبد كل آلهة مصر ، المجلد الأول ، الكتاب الثانى ، الفصل الأول ، S ، ١٦.

(٢) لا يمكننا أبدا أن نوفق هذا الحساب مع حساب الجداول التاريخية التى وضعها جون بلير Jhon Blair .

(٣) يجمع كل الشعراء الاغريق واللاتين على أنهم يجدون فى الفريجيان (أهالى فريجيا) مخترعى الناى . وقد اتبع إسيدوروس هذه الرواية التى تعود إلى زمن ضارب فى القدم :

الأصول ، الكتاب الثالث ، فصل ٧ فن الموسيقى

(٤) ومع ذلك فإن تزتزيس Tzezés لم يتردد فى النظر إلى كل من عطارد وأوزيريس ونوح وباخوس باعتبارهم متعاصرين : الخليادة الرابعة ، الكتاب الثانى ، البيت ٨٢٥ وما بعده) .

(٥) الاصحاح العاشر ، الآية الخامسة .

وبالرجوع إلى الكتاب المقدس ، العهد القديم ، لم أجد هذا النص فى الموضع المشار إليه . [المترجم]

(*) ابن جوبيتر وانتيوبى ، شاعر وموسيقى ، وهو الذى بنى أسوار طيبة التى كانت أحجارها ، كما تقول الأسطورة تصطف من تلقاء نفسها [المترجم].

لا نزال على شكوكنا فى أن مثل هذا الحشد لآلات موسيقية من أنواع بالغة التعارض ، وفى الوقت الذى كان فن العزف عليها لا يزال حديث العهد وغير معروف إلا فى أضيق نطاق – قد استخدم فى هذه المناسبة ، لهدف آخر سوى إحداث ضجة صاخبة لا مناسبة لها ، وان كان منغما ، وذلك بقصد أن يثير أو يلقى فى قلب ومشاعر الأنبياء ، تلك الرجفة وهذا الاضطراب اللذين كان القدماء يرونهما ضروريين لتوليد حماسة النبوة ؛ وليس هناك أى سبب ظاهرى لكى نفترض أن مثل هذا الخليط المضطرب من أنغام القيثارات والجيتارات ، مضافا إليها ضجة الأبواق ، يمكنه أن يصنع مجموعا لحنيا متناغما وصالحا للغناء . وهكذا نستطيع نحن أن نؤكد ان استخدام الناى والجيتار والقيثارة الخ . لم يكن مألوفا أو متقبلا بعد لا فى طقوس العبادة ولا لمصاحبة الغناء ، ذلك أن فن العزف على هذه الآلات كان لا يزال حديث العهد ، لدرجة كبيرة ، ولدرجة كبيرة كذلك كان غير متقن .

وتبعا لذلك فلابد للمرء أن يكون على يقين من أن المصريين لم يكونوا قد قطعوا فى التقدم فى فن العزف بآلات النفخ والآلات الوترية شوطا أكبر مما فعل الاسرائيليون ، لهذه الأسباب :

أولا : كان المصريون أبعد من هؤلاء الاسرائيليين عن تلك الشعوب التى ابتكرت واتقنت هذه الآلات ، ولذلك فلم يصلهم علم بها .

ثانيا : لأن طابعهم المعادى لكل ابتكار لم يكن ليهيئهم كى يذعنوا للأخذ بذلك .

وثالثا : لأن الطبيعة المبدئية لموسيقاهم ولأنظمتهم كانت مناقضة لذلك .

ومع ذلك فحيث يحتمل أن نوعا من التنافر الغريزى فى الطباع ، ظل قائما دوما بين العبريين والمصريين ، قد أدى إلى حمل المصريين على لفظ ما يقره العبريون ، فلنأخذ ، كى نتأكد ، بشكل أفضل ، من الحالة الأولى التى كان عليها فن الموسيقى فى مصر القديمة ، وسيلة أخرى للمقارنة أكثر مباشرة وأقرب منالا ، يستطيع الإغريق أن يقدموه لنا ، أو تستطيع ذلك جاليات المصريين ، مادام هؤلاء الاغريق ظلوا يحتفظون لوقت طويل بديانة المصريين وتقاليدهم وعاداتهم .

ويعد هوميروس ، الذى وصف بقدر كبير من الدقة فى إلياذته وأوديساه تقاليد

الاغريق القدماء ، دليلا موثوقا به لا يمكن أن يضللنا . وليس هناك بالتأكيد ما يمكنه أن يجعلنا نكون أدق الأفكار عن فن الغناء من صنوف المدح والتقريظ التى كان يكيلهما هذا الشاعر للمنشدين فيميوس Phémius وديمودوكس Démodocus ، وما يقصه علينا أمير الشعراء هذا عن التأثيرات التى كان هذان المنشدان يحدثانه بفنهما . ومع ذلك ، وفى الوقت نفسه ، فقد لزم هوميروس الصمت التام والمطلق حول جدارة الموسيقي الآلية : فهو فى كل موضع من أشعاره يقدم لنا فن العزف على الآلات فى حالة متخلفة للغاية ، مما يبرهن على أن الاغريق القدماء الذين كانوا قد تلقوا عن المصريين ، موسيقى بلغت تمام النضج فيما يتصل بالغناء ، لم يكفوا عن التردد على مصر ليتعمقوا فى كل مبادىء هذا الفن التى كانت تولى أكبر اهتمامها للأناشيد المليئة بالعلم ، والمقدسة (الدينية) والتى كان قد جلبها من هذه البلاد موسايوس واورفيوس ، ولم يكونوا قد تعلقوا بعد ، وبدرجة كبيرة ، بفن العزف على الآلات ؛ ولم تكن القيثارة حتى ذلك الوقت ، وهى الآلة الموسيقية التى تم اختراعها منذ قرون عديدة على يد عطارد ، لتستخدم من جانبهم إلا لضبط الصوت ومساندته ، بل لقد كانت هذه الآلة تابعة للغناء ، حتى إن هوميروس لم يتطرق قط إلى تأثيرها الخاص ؛ ومما لا شك فيه أن هذا الشاعر ، الذى لم ينس قط أن يسجل شيئا كان جديرا بالتسجيل مهما تكن ضآلته ، لم يكن ليهمل أن يخبرنا بأمر يختص بالموسيقى الآلية .

أما أوليمب الفريجى[١] وهو أقدم من عرف بهذا الاسم لما يقرب من قرنين قبل حرب طروادة[٢] فقد علم الاغريق فن التوقيع على الآلات الوترية . إذن فهذا الفن لم يكن معروفا فى مصر بعد ، وإلا لكان موسايوس أو أورفيوس قد تبنيا استعماله بدلا من هذه الغيبة المطلقة لأى شيء يتيح لنا أن نجد بصيص ضوء يكشف لنا أنهما قد حصلا ، ولو قدرا ضئيلا من المعرفة عن هذا الفن ؛ اللهم إلا إذا كان هناك من يشاء لنا إن نخلط بين فن العزف على القيثارة وبين مهارة العازف ، حين يجعل قيثارته تصدر

---

(١) بلوتارك ، حوار حول الموسيقى القديمة ، ص ٦٦٠ .
وانظر كذلك ملاحظات بوريت Burette حول هذا الحوار :
Memoires de l'Académie des inscriptions et belles- lettres, art. XXX, pag 254, tom X, in 4.

(٢) Plut. ibid. pag. 667. Remarques de Burette. ibid

أنغاما عن هذا الوتر أو ذاك كى تعطى النغم أو التون للمغنى أو لتعيده إليه إذا ما حاد عنه .

أما عن الناى ، فإن هوميروس لم يتحدث عنه إلا عند وصفه لدرع أخيل فى الكتاب الثامن من إلياذته ، حيث نجد الناى ينضم إلى الجيتار لمصاحبة الرقصات التى تتم فى حفلات[1] العرس . ولكنه ، حين يتحدث عن الرقصات التى كانت تتم وقت جمع الكروم ، لا يشير إلا إلى الجيتار وحده ، الذى كان عندئذ يضبط ويقود صوت المغنين[2]، ثم يعود ، فى مكان آخر ليتحدث عن نوع من الناى الصغير يسميه سيرنكس[3] Syrinx ، كان يستخدمه الرعاه كى يتسلوا وهم يرعون قطعانهم : الأمر الذى يجعلنا نرى أن هذه الآلة كانت لا تزال بعد فى اليونان بالغة الخشونة ، وفى حالة من التدنى لا تسمح باستخدامها فى مناسبات أو أوساط تحظى ببعض أهمية ، فى حين كانت هذه الآلة عند العبريين منذ نحو قرنين تحظى بالفعل بمكانة نبيلة ، لدرجة بدت معها جديرة بمصاحبة غناء الأنبياء ، أو على الأقل بمصاحبة الرقصات والحركات الأخرى التى كانوا يستنهضون بها أنفسهم لاستلهام النبوءات ، وهذا ، على وجه التحديد ، ما يجعلنا ندرك أكثر من غيره ، كم كان الاغريق القدماء أكثر حذرا وتحفظا فى استخدام الآلات الموسيقية ، وهو ما لم يفعله العبريون الذين كانوا ، فضلا عن ذلك ، أكثر قربا من منبع الابتكارات أو البدع ، **لكونهم** أنهم يقطنون آسيا .

ولكى يقر فى أذهاننا أن هذه الملاحظة ليست متسرعة أو جزافية ، فيكفى أن نقارن بين ما يقوله الشاعر الإغريقى القديم عن استخدام الناى ، وبين ما يقوله هسيود Hésiode المولود فى آسيا ، والذى ربما كان يقدم لنا تقاليد بلاده بينما هو يقدم لنا الشخصيات التى قام بتصويرها فى قصيدته التى عنوانها درع أو ترس أخيل ، وسوف نرى أن الشاعر يقدم لنا الناى باعتباره يستخدم فى مصاحبة الصوت فى الجوقات ، وكذلك فى ضبط حركات الرقص لتتفق مع مقاطع الغناء . ويأتى هذا الاختلاف الملموس للغاية ، حين نلقى إليه بالنا ، بالضرورة من اختلاف الأخلاق والتقاليد

---

(١) الالياذة ، الكتاب الثامن عشر ، البيت ٤٩٥ .

(٢) شرحه ، البيت ٤٦٩ .

(٣) شرحه ، البيت ٥٢٦ .

الخاصة ببلد كل من هذين الشاعرين المتعاصرين ، ومن أن الناس فى آسيا تتوقد حماسة بحثا عن أساليب جديدة للأداء كان يثرون بها الآلات كل يوم ، فى حين كان الناس فى اليونان لا يزالون محصورين فى إطار المبادىء التى انتقلت إليهم من مصر إما على يد المصريين أنفسهم وإما على يد ميلامبوس أو أورفيوس ، وان الناس هناك كانوا لا يتسامحون إلا بصعوبة بالغة فى الابتكارات أو البدع التى تفد إليهم من مكان آخر .

إذن فلا يزال بمقدورنا أن نستخلص من ذلك أن فن العزف على الناى إذا صح ان الناى نفسه قد عرف فى مصر فى ذلك الوقت ، وإذا كان الاغريق قد استعاروا عن المصريين استعماله – وهذا أمر ضئيل الاحتمال – ما كان ينبغى أن يكون قد تقدم كثيرا عند الاغريق ، طالما كان هذا الفن حديث العهد للغاية عند الذين اخترعوه أنفسهم ؛ ذلك لأن البون شاسع بين النفخ فى ساق سنبلة مجوفة أو فى قصبة من الغاب لاحداث صوت بها ، وبين فن مصاحبة الغناء وضبط حركات الرقص بهذه الآلة ، على النحو الذى يخبرنا به هزيود ، وكذلك ، ولأسباب أقوى ، بينه وبين معرفة صياغة ألحان على الناى ، كما فعل هيجانيس[١] وابنه مارسياس[٢] أو إمكانية مصاحبة الصوت البشرى على غرار ما كان يفعله أوليمب[٣].

---

(١) يوانيس مارشام ، القانون الزمنى ، المصريون واليهود والاغريق مع تعاليمهم (٤) إلى القرن التاسع ، الناشر أعلاه ؛ بلوتارك ، حوار حول الموسيقى القديمة ، ص ٦٦ .

(٢) المؤلف نفسه والمرجع نفسه ؛ أوفيد ، مسخ الكائنات ، الكتاب السادس ، سطر ٧٠٥ وما بعده ويخبرنا يانيس Jean Malala الذى يجعل وجود أورفيوس متزامنا مع الوقت الذى كان جديون Gédéon يحكم الاسرائيليين ، أى عند نحو منتصف القرن الثامن قبل ميلاد المسيح – يخبرنا كذلك أن مارسياس كان قد شب عن الطوق فى زمن طولا Thola حفيد جديون وخليفته ، عند نحو نهاية القرن السابع ؛ ويقدم لنا هذا المؤلف مارسياس باعتباره مبتكرا للناى المصنوع من قصب البوص ؛ ويقص علينا أن هذا الشخص ، الذى انتفخت أوداجه تيها وفخرا بمواهبه قد انتحل لنفسه لقب إله . وانه فقد عقله ، وذهب ليلقى بنفسه فى نهر كان يحمل اسمه منذ مولده وقد ادعى الشعراء ، طبقا لرواية هذا المؤلف ، ان مارسياس كان قد صارح أبوللون بعد أن جدف ضده هذا الاله ، وأنه قد قتل نفسه فى نوبة جنون .

الموسوعة البيزنطية ، المجلد الثالث والعشرين ، ص ٣١ .

وانظر كذلك حول هذا الموضوع :

Cerdenus, compend, hist. pag. 69, corp. Byzant, tom VII

(٣) Lucian. ibid, plutarque, ibid. P.

فابريكوس ، المسابقات ، الكتاب الأول ، فصل ٤ .

وبالاضافة إلى ذلك فإن الشعراء اليونانيين القدامى لا يتحدثون قط عن عادة استصحاب الصوت بالناى ، عندما يتصل الأمر بالاغريق ، وهذا عكس ما يفعلونه عندما يكونون بصدد الحديث عن أمور تتصل بشعوب آسيا . بل لقد كانت هذه الآلة تلقى من قدماء الاغريق الازدراء الشديد حتى إنهم ، عندما أدخلت لأول مرة فى بلادهم ، قد تركوها للعبيد الفريجيان [١]؛ ولهذا السبب فإن أسماء أوائل العازفين على الناى ، والذين ظهروا لأول مرة عندهم ، كانت أسماء مشتقة من اللغة الفريجية ، بالإضافة إلى أنها أسماء لعبيد ، مثل أسماء : سمباس ، وأدون اللذين يتحدث عنهما ألكمان[٢] Alcman ، ومثل كيون وكودالوس وبابيس الذين يشير إليهم هيبوناكت Hipponacte[٣]. ومع ذلك فهناك مبرر كبير للاعتقاد بأن هؤلاء العازفين الأول للناى لم يكونوا يستحوذون كثيرا على اذن اليونان ، حيث ظهر هناك مثل شائع يستخدم اسمى كيون وبابيس للاشارة على أننا بصدد شخصين لا يمكنهما الاتفاق فيما بينهما ، وأنهما عند تنافسهما ، لا يستطيعان ، على أحسن تقدير ، إلا أن يصنعا السوء .

لم يكن معنى ذلك أن الاغريق ينقصهم الذوق ولا الاستعداد أو الكفاءة فى عزف الناى ، فهـا نحن نراهم بعد ذلك يقبلون عليه بقدر كبير من النجاح والاندفاع ، بل ينظرون إلى مقدرة العزف عليه باعتبارها جدارة تشرف صاحبها . يقول ارسطو[٤]: « لم يكن يقوم بالعزف على الناى فى اليونان سوى صغار الناس ، ولم يكن أمرا مشرفا لرجال طبقة الأحرار ان يعزفوا عليه ، أما بعد الانتصارات التى أحرزها الأغريق على الفرس ، فإن البذخ والوفرة فى كل شىء ، جعلاهم يبحثون عن المسرات والملذات ، فأصبح العزف على الناى شائعا بينهم لحد أصبح الجهل به يعد من قبيل العار »[٥] ، ويذكر كورنيلوس نيبوس Cornélus Népos أنه كانت تعد من الفضائل

---

(١) أثينايوس : مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الرابع عشر ، الفصل الخامس ، ص ٦٢٤ .

(٢) أبوليوس ، أثينايوس ، المراجع السابقة .

(٣) شرحه ، المرجع السابق « اخترع هيبوناكت المحاكاة الساخرة »
أثينايوس ، مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الخامس عشر ، ص ١٤ .

(٤) الجمهورية ، الكتاب الثامن ، الفصل ٦ .

(٥) ليس فى هذه الشهادة ، كما نرى ، أى لبس أو غموض ، ولهذا تصبح حاسمة فى القضية التى نحن بصددها الآن .

الكبرى لايبامينونداس أنه يتقن الرقص والعزف على الناى ، ويقول نفس المؤلف . إنه ، أى إيبامينونداس كان يؤدى كل شىء بمهارة تفوق مهارة أى شخص فى طيبة ، فقد تعلم من أوليمبيودور Olympiodore كيف يغنى على أنغام الناى ، كما تعلم من كاليفرون Calliphron كيف يرقص »(١).

وهكذا يصبح منشأ الابتكارات التى تناولت فن الموسيقى ، وبصفة خاصة ، ما يتعلق منها بالآلات الموسيقية ملموسا لنا بشكل جيد ، لدرجة أصبحنا معها نميز بشكل بالغ الوضوح ، المسيرة والاتجاه اللذين سارت فيهما هذه الابتكارات ، ولكننا فى الوقت نفسه ، لا نلمح بعد أى أثر يجعلنا نوقن أنها قد توغلت فى مصر فيما قبل حرب طروادة .

وإذا كنا قد لاحظنا بين الرسوم التى يراها المرء على الجدران الداخلية للجبانات التى تجاور أهرام الجيزة ، أشكالا لأناس يبدون فى هيئة من يعين ملمس آلات من هذا النوع ، فإنه إما أن هذه قد رسمت فيما بعد سواء على يد الفرس أو على يد الاغريق الذين أدخلوا إلى مصر عادة استخدام الناى الطويل ،وإما أن هذه الأشكال ليست فى الواقع سوى أنابيب بسيطة أو أبواق تعود إلى عهد ضارب فى القدم ، وان كان من المؤكد ان الاشخاص الذين يمسكون بهذه الآلات كانوا ينفخون فيها ، كما لو كانت هى نفسها أبواقا ؛ ويرجح أن تكون هذه الأبواق من نوع تلك الآلات التى لم يكن اهل بوزيريس وليكوبوليس وأبيدوس يستطيعون تحمل صوتها ، لأنها كانت تشبه ، ولحد مفرط ، نهيق حمار ، وهو حيوان كان يذكرهم بعبقرية طيفون الشريرة ؛ ولعل هذه الأنابيب أو القصبات الطويلة هى من نوع الآلات التى يسميها المصريون شنو— ويه Chnouê ، وهى كلمة تعنى ، طبقا لرأى جابلونسكى **النغمة التى تضرب إلى بعيد أو التى تسمع عن بعد** ، أو يحتمل أن يكون هذا الاسم قد أعطى إلى هذه الآلة بسبب طولها(٢)؛ وأخيرا لعل هذا النوع من الآلات ، الذى

---

(١) غير أنه كان متمرسا للدرجة التى لم يكن فيها أى طيبى أكثر منه (براعة) فى إنشاد أغان على الناى ، تعلمها على يد أوليمبيودوروس ، وفى الرقص على يد كاليفرون .

(٢) يدعم أوبيانوس بالمثل كل واحد من هذين الافتراضين بالبيت التالى :

« لم يحدث أن سمعنا قط » صوتا مثيرا لغريزة القتال والحرب بمثل ما يفعل هذا النفير (المزمار) الطويل عن « القنص ، ك ١ ، ف ٢٠٧ »

نضعه فى طبقة الناى[1] طبقا لرأى العلماء الذين تحدثوا عنها من قبلنا ، أن كان ، على نحو الدقة ، هو البوق الذى يستخدمه قدماء المصريين ، وهو أمر لا نسمح لأنفسنا أن نقطع فيه برأى حاسم .

ويمكن أن ينطبق كل ما قلناه على الناى على كل الآلات التى يتكون جسمها الطنان من أنبوب أو قصبة ، سواء كانت أسطوانية أو مخروطية أو كان شكلها أسطوانيا ومخروطيا فى وقت معا ، وملوية أو مثنية ، ذلك أن هذه الآلات جميعا لم تكن تشكل فى البداية إلا نوعا واحدا ووحيدا ، وان كانت أصنافها قد تنوعت لغير ما حد ؛ فكانت هناك أبواق من صنف الناى ، كما كانت هناك أبواق وبوقسانات بالغة التنوع ، على هذا النحو .

ولقد تناول هذه الأنواع المختلفة من الآلات ، وكذلك تلك الآلات المختلفة ، بعض تغييرات جاءت من آسيا أو من الجزر المجاورة فى البحر الأبيض : فهناك قد اخترعت النايات البسيطة المزدوجة[2] أو النايات الليدية[3] (نسبة إلى ليديا) والنايات الفريجية[4] (نسبة إلى فريجى) والـ elymes أو الـ scytalies[5]، والـ gingrines[6] والـ sambuques lyrophéniciennes[7] والـــــــــ nables[8] والـــــــــ

---

(١) انظر دراستنا عن الآلات الموسيقية المختلفة التى نجدها وسط النقوش التى تشكل زخارف للمبانى القديمة فى مصر وعن الأسماء التى أطلقها عليها ، فى لغتها الأصلية ، الشعوب الأولى التى سكنت هذا البلد . [القسم الثانى من هذا المجلد] .

(٢) انظر الهامش رقم ٢٨ .

(٣) Pindar. olymp. od. V, v. 44 et 45

(٤) يوريبيديس ، الباخيات ، بيت ١٢٦ وما يليه ؛ أثينايوس ، مأدبة الفلاسفة الكتاب الرابع عشر ، الفصل الثامن .

(٥) وقد اخترعها أهالى فريجيا . Athen. Deipn . lib IV, cap. 24

(٦) وقد اخترعها الفينيقيون .
Id. ibid. lib IV, cap 23.

(٧) وقد اخترعها الفينيقيون . وقد كانت نوعا من المزامير
Id. ibid.

(٨) وقد اخترعها القابا دوكيان ، طبقا لما يذكره كليمانس السكندرى
Strom. lib I, pag. 307
وإن كان أثينايوس (Deipn. lib IV, cap 23) يذكر ان الذين إخترعوها هم الفينيقيون .

والـ dichordes[١] والـ phominx[٢] والـ trigone[٣] والـ pectis[٤] والـ épigone والـ iambiques[٥] والـ magadis والـ syrigmon[٦] والـ phénice والـ scindapse والـ ennéachorde[٧] والـ barbriton[٨] .. الخ .

وأخيرا فقد كل هؤلاء الذين أدخلوا بعض الابتكارات إلى الموسيقى إما إغريقا وإما آسيويين[٩].

أما الآلة الوحيدة التى يتفق على نسب اختراعها إلى المصريين فهى الدف[١٠]؛ واذا صح أن نحكم على القدامى بما يقول المحدثون ، فلعلنا لن نجد شعبا فى العالم ، فيما عدا الصينيين، قد تملك مثل هذا العدد من الأنواع المختلفة من الدفوف ، أو قد ذهب إلى مثل هذا المدى البعيد فى فن استخدامها وتنويع نغماتها[١١]. ومع ذلك فعلينا ألا نبتعد عن العصور التى نستطيع أن نتناولها بالدراسة ، مستندين فى ذلك على بعض آثار توضح ما كانت عليه موسيقى قدماء المصريين ، وبصفة خاصة ، ما كانه فن العزف على الآلات الموسيقية ، وهو الشىء الذى يعطى طابع الحالة الثانية للفن فى مصر .

---

(١) أى القيثارة ذات الوترين وقد اخترعها الأشوريون ، كليمانس السكندرى ، المرجع السابق ، الكتاب الأول ، ص ٣٠٧ .

(٢) اخترعها الصقليون ، شرحه ، المرجع السابق .

(٣) اخترعها السريان ، أثينايوس ، المرجع السابق ، الكتاب الرابع ، الفصل ٩

(٤) اخترعها سافو (أثينايوس ، المرجع السابق ، الكتاب الرابع ، الفصل ٩) .

(٥) أو السنطور المستقيم اخترعها إيبجون من ابركيا ، أثينايوس ، الكتاب الرابع ، الفصل ٢٥ أو لا يمكن أن تكون هذه الآلة نوعا من الجنك (الهارب) ؟ ولقد كان إيبجون كذلك هو أول من مازج بين الجيتار (الآلات الوترية) وبين الناى . (أثينايوس ، الكتاب الرابع عشر ، الفصل ٩) .

(٦) وقد اخترعها كذلك إيبجون ، أثينايوس ، المرجع السابق .

(٧) أى القيثارة ذات التسعة أوتار وقد اخترعها الآشوريون ، شرحه ، المرجع السابق .

(٨) وقد اخترعهاترياندر من جزيرة لسبوس ، أثينايوس ، الكتاب الرابع عشر ، الفصل التاسع .

(٩) بلين ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب الرابع ، الفصل ٥٦ ؛ كليمانس السكندرى ، المرجع السابق ، الكتاب الأول ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(١٠) Clem. Alex. Paedag. lib II, pag. 164.

(١١) انظر وصفنا للآلات الشرقية ، الباب الثالث ؛ عن الآلات الصاخبة (أو آلات الإيقاع) ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٩٧٦ (المجلد التاسع من الترجمة العربية) .

كذلك فإن زيادة عدد الأوتار فى القيثارة لا تعود لأبعد من قرنين قبل حرب طروادة ، أى بعد بضع سنوات من وجود هيجانيس ، ولم تكن القيثارة ذات الأوتار الأربعة التى اسماها الأغريق كذلك قيثارة عطارد ، ليتبناها أورفيوس - دون جدال - إلا بعد عودته إلى اليونان قادما من مصر ، قاصدا أن يجعل منها مقابلة لفصول السنة (الأربعة) التى تنقسم إليها السنة فى هذا البلد ، على غرار القيثارة المصرية ذات الأوتار الثلاثة عند المصريين ، والتى كان قد اخترعها عطارد إشارة لفصول السنة الثلاثة فى مصر : وتلك نتيجة ضرورية لما ينقله إلينا ديودور[1] حين يقول بأن أورفيوس ، كى يحظى بإعجاب الأغريق ، قد استبدل بأسماء آلهة مصر أسماء بعض أبطال الاغريق القدماء ، وانه أدخل ، بهذا الخصوص ، تجديدات وابتكارات على طقوس الاحتفالات الدينية التى للمصريين ، إذن فلابد أنه قد فعل الشيء نفسه بخصوص القيثارة ، ولابد أنه قد أعطاها كذلك طابعا إغريقيا ، حين ركب عليها أوتارا أربعة ، وحين جعل كل واحدة من نغماتها الأربع تقابل واحدا من فصول السنة الأربعة ؛ وان كنا لا نستطيع أن نعتقد فى أنه - هو - مخترعها ، بل إننا نظن انها تستمد أصولها كذلك من آسيا .

وعندما نقرأ عند بويكا[2] Boece ، ان القيثارة لم تكن بعد قد زودت بأربعة أوتار وان كروبيه Croebe قد زودها بوتر خامس ثم زودها هيجانيس بالسادس .. الخ فإننا نجد أنفسنا أمام رواية تقدم لنا مفاجأة تاريخية تبعث على الصدمة ، حتى ليدرك المرء للوهلة الأولى أن هناك خطأ من جانب المؤلف أو بالأحرى من جانب ناسخه ، الذى قد نقل ولابد ، دون أن يدرك ذلك ، بضع كلمات من سطر لآخر ، وأحدث بذلك اضطرابا فى الأسماء والأزمان .

إن من المستحيل أن يستطيع هيجانيس الذى عاش قبل قرنين من حرب طروادة إضافة وتر سادس إلى قيثارة كروبيه الذى لم يكن قد جاء إلى الحياة إلا قبيل الفترة التى دمرت خلالها هذه المدينة ؛ إذن فمن الواجب علينا أن نعود بإضافة الوتر الرابع للقيثارة إلى القرن الذى سبق القرن الذى عاش فيه أورفيوس ، وهناك شواهد كثيرة تدل على أن هذا الابتكار قد تم على يد أوليمب نفسه ، وهو الذى علم الأغريق[3] - فيما

(١) تاريخ المكتبات (سترابون) ، الكتاب الأول ، الفصل ٢٣ .

(٢) عن الموسيقى DE MUsica ، الكتاب الأول ، الفصل ٢٠ .

(٣) انظر ما سبق ، فى المبحث نفسه .

يقال ــ فن التوقيع على الآلات ، الوترية إذ هو قد اكتسب فى ذلك صيتا ذائعا[1] ؛ فهو ، طبقا لما يقدمه مفسر أو شارح أريستوفان ، الذى وضع قوانين الجيتار والذى قام بتعليمها للإغريق ؛ وعلى هذا ، فحين نعرف ان ما كان يطلق عليه فى هذا الفن اسم « قوانين » الموسيقى القديمة لم يكن شيئا آخر سوى المبادىء والقواعد التى كان على المرء طبقا لها أن يقوم بالاداء والعزف ، فإننا سندرك بسهولة أن أوليمب حين أضاف وترا جديدا للقيثارة ، كان عليه ، فى الوقت ذاته ، أن يصطنع مبادىء جديدة وقواعد جديدة تحكم طرق استخدامها ؛ ومع دورة الزمن أمكن كروبيه[2] أن يضيف وترا آخر إلى القيثارة ؛ ومع ذلك فإذا حدث أنه لم يكن هو على قيد الحياة إلا قبيل حصار طروادة ، فسيكون من المرجح ، والحالة هذه ، أن وتر كروبيه هذا ما كان ليصبح الوتر الخامس ، الذى يحتمل أن تكون القيثارة قد حصلت عليه بالفعل فى زمن سابق .

وإذا صدقنا ما يقوله عن ذلك باوسانياس Pausanias فإن أمفيون قد أضاف ثلاثة أوتار إلى الأوتار الأربعة التى كانت للقيثارة ويعنى ذلك ، إذا كان المقصود هنا هو أمفيون الأول ، ان القيثارة ذات السبعة أوتار قد عرفت بدءا من العام ١٤١٧ قبل العصر المسيحى ، أى فى القرن نفسه الذى عاش فيه هيجانيس وكذلك فى الفترة التى يمكن أن يكون ابنه مارسياس قد عاش فيها ؛ أما حين لا ننسب هذا الابتكار إلا لأمفيون الثانى فسوف تعود أقدمية هذه القيثارة إلى العام ١٢٢٦ ق . م[3]، وهو ما يرجح أن تكون القيثارة ذات الأوتار الأربعة قد عرفت بالفعل قبل وجود أورفيوس . إذن فقد كنا نقف على أرض صلبة عندما انتابنا الشك فى أن تكون هذه القيثارة قد تم ابتكارها على يد الأخير ، وحين ظننا أنها تستمد أصولها من آسيا ، كما أننا لم نبتعد كثيرا عن الصواب حين نسبنا هذه القيثارة إلى أوليمب الذى ابتكر قوانين الجيتار .

قد لا نستطيع أن نحدد ، على وجه الدقة الصارمة ، الفترة التى أدخلت فيها القيثارة ذات الأوتار السبعة إلى اليونان ، لكننا نستطيع أن نخلص إلى أنها لم تحظ هناك بالقبول إلا بعد قرون عدة من اختراعها فى آسيا ؛ ولقد سميت هذه القيثارة كذلك

---

(١) Remarques sur le Dialogue de Plutarque touchant la musique, art. XXX Mém. de l'Acad. des inscriptions et belles- lettres, tom. X, pag. 254 et siuv.

(٢) Graeciae Descriptio, lib IX, de Boetica, pag. 550, Hanoviae, 1613, in- fol.

(٣) وفى الواقع فإن هذا النوع من القيثارات قد عرفه هوميروس الذى عاش قريبا من هذه الفترة .

بقيثارة عطارد ، ربما لأنهم قد جعلوا منها رمزا فلكيا بأن أقاموا رابطة بين كل واحدة من نعماتها السبع وبين واحدة من الكواكب السبعة . ولقد كان هوميروس هو أول ، أو على نحو أدق ، هو أقدم مؤلف عرفناه يحدثنا عن هذا النوع من القيثارات ، حين وصف هذه الآلة الموسيقية(١) وتحدث عن المغامرة التى أدت إلى نسبة اختراعها إلى عطارد ، فقد جاءت فكرة هذه القيثارة إلى الإله حين رأى سلحفاة تقبل نحوه(٢) وحين أعجب بهذه الفكرة أمسك بالحيوان على الفور ، وأفرغ صدفته من جسده وغطاها بجلد ، وثبت عليها رافعة وقنطرة لتشد الأوتار السبعة التى وضعها عليها ، وهكذا نشأت قيثارة جيدة الصنع . إن هوميروس لم يفعل ، بإعطائه لهذه الآلة أصلا مقدسا ، سوى ما كان قد فعله الشعراء الأولون من قبله ، كذلك فقد كان كل من المصريين والاغريق يكنون لقيثاراتهم من صنع عطارد تبجيلا دينيا ، وحين أراد الشعراء أن يحملوهم على تبنى آلات جديدة من هذا النوع ، فقد تحتم على هؤلاء الشعراء فى النهاية ، كى يدفعوا وساوسهم — أى وساوس المصريين والأغريق — أن يقربوها إليهم باعتبارها قيثارات من صنع عطارد : عندئذ كانوا يفسرون الأمر متخيلين أنه قد تم على هذا النحو ، وهنا فقط كان كل قلق أو تردد يتبدد ؛ ولم يكن القوم ليتخذوا مثل هذه الاحتياطات جميعها ما لم يكونوا يخشون الرأى العام ، والقوانين نفسها ، التى كانت تلفظ وتدين كل بدعة من هذا النوع .

وطبقا لظواهر الأمور فلم يكن يتسامح فى هذه الخدعة من جانب الشعراء إلا لكى لا يبدو القوم خارقين للأنظمة والمؤسسات بالغة القوة ، وإلا لكى يتم تملق ومسايرة مشاعر وأفكار الرجل العادى ، الذى لم يشأ أحد أن ينأى به عن أفكاره الدينية ، خوفا من أن ينفصل فى الوقت نفسه عن مبادىء ديانته ، وعن مبادىء الأخلاقيات العامة ، ولكن الشعراء والفلاسفة كانوا يعرفون على الدوام أين يقفون وماذا يعنى ما يقولون ؛ فترباندر Terpander كان يعرف جيدا أن هذه القيثارة ذات الأوتار

---

(١) نشيد إلى مركوريوس (عطارد) .

(٢) قدم فيلوستر اتوس بدوزه ، فى لوحاته ، وصفا لهذه الآلة التى اخترعها عطارد ، وان كان آخرون يحكون أنه حدث أن ارتطمت قدم عطارد بجسد ميت وجاف لسلحفاة تركها النيل على الشاطىء بعد انحساره ، وهو الذى جاء بها إلى هذا المكان عند فيضه ، وإذ أدى ارتطامه بها إلى حدوث رنين صادر عن أمعائها ، فقد استلهم عطارد من ذلك فكرة صنع قيثارته منها .

السبعة ليستْ أول قيثارة تخترع ، كما لم يكن يجهل ان هذه القيثارة قد حلت محل أخرى أكثر بساطة ، هى القيثارة ذات الأربعة أوتار ؛ ونقدم برهانا على ذلك هذين البيتين من شعره ، يوردهما إقليدس فى مقدمته عن الهارمونى أو التناغم[١]:

غير أننا بعد أن نبذنا الأنشودة ذات الصوت الرباعى ؛

سوف ننشد بعد ذلك أناشيد جديدة على القيثارة ذات الأوتار السبعة .

وواضح من هذين البيتين أن الاغريق كانوا قد هجروا القيثارة ذات الأوتار الأربعة ، تلك التى كانت تستخدم فى ذلك الوقت فى ضبط الغناء ، كى تحل محلها القيثارة ذات الأوتار السبعة التى أتاحت للموسيقىّ — الشاعر ، حين منحته سهولة فى تنويع طبقة الصوت وزيادة فى مدى تنغيماته لأبعد مما كان يستطيع من قبل ، دافعا قويا لتأليف أغنيات وأناشيد جديدة ؛ ومع ذلك فإن علينا أن نسترعى الانتباه إلى أن هذه القيثارة لم تكن تستخدم فى الابتهالات الدينية التى تؤدى فى أيام الأعياد ، وبصفة خاصة الاحتفال الذى يقام عند اكتمال بدر الربيع ، على شرف أبوللون الكارى[٢].

وبرغم أن القيثارة ذات الأوتار العشرة قد عرفت فى آسيا وحظيت باحترام كبير من جانب العبريين منذ القرن العاشر قبل الميلاد ، فيبدو مع ذلك أنها كانت لا تزال مجهولة لمدة بلغت ثلاثة قرون إلى ما بعد هذا التاريخ فى بلاد اليونان ؛ أى إلى الفترة التى كان يعيش فيهاترباندر ؛ ذلك أن هذا الشاعر لا يتحدث عن القيثارة ذات الأوتار السبعة إلا كنوع جديد من القيثارات حل حديثا محل القيثارة ذات الأوتار الأربعة : ومن هنا نستطيع الافتراض بأن هوميروس ، الذى وضع أسطورة اكتشاف عطارد لهذه القيثارة ، كان هو نفسه -ربما- مخترعها ، اللهم إذا لم يكن قد سبق ابتكارها من قبل على يد أمفيون ، أما بخصوص القيثارة ذات الأوتار العشرة فإن أقدم

---

(١) فى العصور القديمة ، مؤلفى الموسيقى السبعة ، المجلد الأول ، ص ١٩ .

(٢) كثير من الشعراء

يتغنون بك على القيثارة ذات الأوتار السبعة ،

وكذلك يثنون عليك ويمجدونك فى الأناشيد التى لا تعزف على القيثارة ،

عندما تعود من جديد دورة ذلك الوقت

من الشهر على اسبرطة فى مهرجان أبوللون

ويظل الاحتفال بها طول الليل ، عندما يكون القمر بدرا .

شاعر تحدث عنها هو أيون IOn الذى عاش فى نحو القرن الخامس قبل الميلاد ؛ كذلك فقد كان هذا الشاعر يونانيا من إيفيزا فى آسيا الصغرى وهو يقدم لنا القيثارة ذات الأوتار العشرة باعتبارها قد حلت محل القيثارة سباعية الأوتار ، فى هذه الأبيات من شعره :

إنك تأتين فى المرتبة العاشرة
فيما يتعلق باتفاق (انسجام) اللحن الثلاثى للهارمونية ،
فجميع الاغريق قد كانوا – قبل القيثارة ذات الأوتار الإثنى عشر ،
يغنون أناشيدهم على القيثارة ذات الأوتار السبعة ،
التى كانت نادرا ما تبهج ربة العشق .

ولا يستطيع المرء أن يشك فى أن كل هذه الابتكارات قد انتقلت إلى مصر وعرفت فيها بمجرد أن وجدت لنفسها إلى هناك سبيلا ؛ ومع ذلك فينبغى أن نكون على يقين أنها قد وصلت إلى هناك متأخرة عنها فى أى مكان آخر ، طبقا لكل الأسباب التى سقناها حتى الآن ، فالعقبات التى كانت تعترض توغلها إلى هناك كان لابد لها أن تضعف تدريجيا ثم ينتهى بها الأمر أن تنقشع كلية ، مع فقدان القوانين القديمة لهذه البلاد لقوتها وسطوتها ، ومع إفساح التقاليد القديمة مكانها لتقاليد جديدة ، وفى الواقع فإن المرء يرى آلات موسيقية من كل هذه الأنواع مرسومة ومنقوشة فوق جدران المنشآت القديمة فى مصر ، ويراها المرء بين يدى أشخاص يبدو من مظهرهم أنهم كهان مصريون ، كما نجدها بالمثل بين أيدى شخصيات أو آلهة رمزيين ، وهم فى هيئة العازف : اذن فقد كانت هذه تستخدم ليس فقط فى الاحتفالات المدنية أو السياسية ، بل كذلك فى الحفلات الدينية ، ذلك أننا لا نسعى لاستبعاد الحجج أو الأسباب التى تنهض ضد رأينا ، بل إننا نريد ، عكس ذلك ، ان نضع القارىء فى وضع من يستطيع أن يحكم بنفسه طبقا لمعطيات الوقائع .

ومع ذلك فسنظل على موقفنا من أننا لا نتصور أن يكون المصريون القدماء قد أمكنهم أن يستخدموا هذه الآلات قبل زمن اختراعها فى آسيا ، فلم يكن يدخل قط فى تقاليد وأخلاقيات هذا الشعب ، وفى مبادئه الدينية والسياسية الصارمة ، أن تتقبل هذه الأنواع من الآلات الموسيقية . وليس هناك ظل لسبب فى أن يرسموا على جدران مقابرهم مشاهد مرح ولهو عامين وتمرينات رياضية ورقصات الخ ، وان يقدموا

فى هذه الأماكن رسوما لرحلات صيد الطيور وللمواكب الجنائزية ، ولحفلات الميلاد وعمليات التحنيط وصيد السمك وأعمال الزراعة الخ بالشكل الذى نلاحظه فى كهوف إيليتيا (الكاب) ؛ وأن يهملوا فى الوقت نفسه تمثيل ذلك فوق جدران قصورهم وكذلك فى المناسبات الأخرى التى تعد مناسبات سرور وحبور ومتعة ؛ كان بالامكان ان يكون فى هذا تنافر بالغ اللامعقولية من جانبهم ، وذلك حين يجمعون فى أماكن الحداد والأحزان هذه أدوات ووسائل الرفاهية والترف من كل نوع ، إلى جانب العبيد أو المجرمين الذين تعرضوا لوطأة التعذيب أو حكم عليهم بالموت ، وان يرسموا هؤلاء وهم يعزفون على الآلات الموسيقية أمام الشخصيات الهامة ، وهو ما يراه المرء فى مقابر الملوك ؛ إن هذه اللملمة تمثل شتاتا متنافرا يبعث على الصدمة الشديدة ، ويتعارض مع فكرة أن المصريين يتخذون لأنفسهم من مقارهم الأخيرة هذه دورا للنسيان والسلام والصمت الأبدى ؛ وإنه لمن المستحيل بشكل مطلق أن نوفق بين ذلك وبين الدقة الوسواسة التى كانت تحدوا بهم أن يراعوا فى كل شىء الحشمة واللياقة ، والنظام والانسجام ، وأن يلاحظوا بشكل بالغ الصرامة التوافق والتناغم حتى فى الأشياء بالغة الصغر ، ولن يكون فى ذلك بالتأكيد سوى اللامبلاة أو الاهدار لمبادئهم ، وهو أمر يستحق الإدانة إذ يؤدى إلى تنفيذ أشياء مماثلة .

ومع ذلك مرة أخرى ، فلماذا لا يكون المصريون الذين لفظوا بقدر كبير من الازدراء استخدام الموسيقى المتنوعة وبالتالى استخدام الموسيقى الآلية ، قد استخدموها فى الحفلات الجنائزية على وجه التحديد ، وليس فى أية مناسبة أخرى أو ظرف آخر ؟ ذلك أنه يجدر بالملاحظة أن آلات الجنك (الهارب) التى يراها المرء مرسومة فى احدى مقابر الملوك ، فى حين لا يلمح المرء أى صنف آخر من الآلات الموسيقية من هذا النوع فى المقابر الأخريات ، قد زودت بعدد كبير من الأوتار . وعلى هذا ، فلماذا يقومون برسمها فوق جدران مقابرهم فى حين أنهم قد استبعدوها من كل احتفالاتهم ومناسباتهم الحزينة ومن ضروب الغناء التى كانت تؤدى فيها ؟ ولماذ لا يستخدمها الكهان المصريون لمصاحبة الأغنيات الجنائزية التى كانوا ينشدونها فوق مقبرة أوزيريس ، أو تلك التى كانوا يغنونها ، سواء عند موت ملوكهم أو عند موت أفراد من بينهم ؟ وكيف يتأتى أن ينسى كل من ديودور الصقلى وهيرودوت ، وهما يحدثاننا عن ضروب الغناء التى كانت تؤدى فى هذه المناسبات أن يشيرا ، وكأنما تم

الأمر بالتنسيق بينهما ، إلى الآلات الموسيقية التى كانت تصاحب هذه الأغنيات ؟ وأى اتفاق عجيب هذا الذى يمكن أن يقوم بين هذا العدد الكبير من المؤلفين القدماء ؟ فلقد زار مصر شعراء وفلاسفة الخ كثيرون منذ عصر هزيود ولم يشر أحد منهم ، مجرد إشارة ، إلى هذه الآلات الموسيقية ، عند المصريين ، وكيف يحدث أن يتفق كل هؤلاء الذين يتحدثون عن هذا الفن وبشكل إجماعى ، على النظر إلى هذه الابتكارات باعتبارها قد ابتكرت أصلا فى آسيا وعلى يد الآسيويين ؟ اننا لا نعرف وسيلة أخرى لحل كل هذه الصعوبات إلا تلك التى أخذنا بها : فهى توفق بين كل الوقائع وتجد لنفسها دعما تقدمه شهادات التاريخ ، كما أنها فى الوقت نفسه تتوافق مع مسار الخطوات التى خطاها فن الموسيقى نحو التقدم .

ونحن حين نستعيد كل مرة ، تلك الفترة التى حصلت فيها أنواع الآلات الموسيقية المختلفة على بعض زيادة فى وسائل صنعها ، فإننا نضع كل امرىء فى وضع يمكنه من أن يحدد بطريقة دقيقة وموضوعية الازمان التى كانت هذه الآلات فيها لا تزال مجهولة فى مصر ، وبالتالى نمكنه من تحديد الزمن الذى بدأت فيه الحالة الثانية لفن الموسيقى فى هذا البلد ، أى الفترة التى هجرت فيها – محاكاة للآسيويين – مبادىء الموسيقى التى كانت لا تشتمل إلا على الرشاقة والجمال وحيوية التعبير بالكلمات كى يكب المصريون ، أكثر ، على دراسة الموسيقى الآلية ، التى سرعان ما اندمجت ، وهى فن مصطنع محض ، بالغناء ، كما سنرى بعد قليل .

يتفق كل من فريكرات (السورى) Phérécrate[1] وأريستوفان[2]، وهما من شعراء الكوميديا ، وكذلك أفلاطون الفيلسوف[3] ، وهم الثلاثة متعاصرون ، على نسبة كل الابتكارات الموسيقية التى أدخلت إلى اليونان إلى نحو قرن أو قرنين قبل مجيئهم (وهو

---

(١) بلوتارك ، حوار حول الموسيقى القديمة ، ص ٦٦٥ .

(٢) مسرحية الحب ، الفصل ٣ ، المشهد ٣ .

ونحن من جانبنا نأسف ، من أننا لم نضع هنا تحت بصر القارىء النصوص التى نشير إليها من أفلاطون وأريستوفان ، وبلوتارك ، خشية من جانبنا أن يصيب ذلك القارىء بالارتباك ؛ وان كانت هذه النصوص بالغة الأهمية وضعها رجال شغفوا بالتعرف على حالة الموسيقى القديمة .

(٣) القوانين ، الكتاب الثالث ؛ بلوتارك ، المرجع السابق ؛ وكذلك أحاديث المائدة ، الكتاب الخامس ، السؤال الثانى (أو القضية الثانية) .

زمن يتفق مع الزمن الذى فتح فيه قمبيز مصر) ، وكذلك على نسبة الاضطرابات التى أفسدت هذا الفن إلى عدم كفاية القوانين الجديدة التى تم وضعها بعد أن تم تغيير الحكومة القديمة التى كانت تقوم على النمط المصرى ، تلك التى كانت تعيش قبلهم بنحو أربعمائة عام ، ويشكو ثلاثتهم بمرارة من أن القوم هناك لم يتحفظوا بالقوانين التى كانت تردع كل أمور الخلاعة والفسق وكل البدع وتقصيها عن فن الموسيقى ؛ إذن فها هى نفس الأسباب تؤدى هنا إلى نفس النتائج كما حدث فى مصر حين غير الفرس المشبعون بكل الابتكارات التى كانت تتلف هذا الفن ، حكومتها القديمة بعد أن فتحوها .

أما الشخص الذى أصاب الغناء ، طبقا لأقوال القدماء ، بأكثر الأضرار خطورة ومباشرة فهو ميلانيبيديس Melanippide[١] مما جعل فكريكويس[٢] فى إحدى كوميدياته ، يظهر الموسيقى فى ثوب امرأة ممزقة الجسد بفعل ما كانت تلقاه على يد الموسيقيين ، وتئن شاكية بصفة خاصة من أن ميلانيبيد قد جعل منها ، بعزفه على قيثارة ذات اثنى عشر وترا رخوة ، سقيمة ، خائرة القوى ، ومع ذلك فقد رأينا قيثارات تحمل أوتارا أكبر عددا من ذلك مرسومة فى واحدة من مقابر ملوك مصر : فهل سيقال ان القدماء المصريين كانوا أقل تشددا وأكثر تسامحا عما كان عليه الإغريق بخصوص الموسيقى ؟ لكن شهادة أفلاطون تقوض هذا الزعم . إذن فعلينا بالضرورة أن نضع كل الآلات الموسيقية من هذا النوع ، فى الحالة الثانية للموسيقى فى مصر .

وعلينا كذلك دون شك ، على غرار ما فعل أفلاطون ، أن ننسب الانحرافات التى أصابت الموسيقى إلى الشعراء[٣] ، وبخاصة هؤلاء الذين جعلوا الغناء يفقد وقاره النبيل ، حين بات جل همهم ان يدخلوا السرور على قلوب العامة بدلا من أن يتولوا مسئولية تعليمهم . وهكذا فعندما غير ثسبيس[٤] Thespis أو شخص آخر قبله[٥]

---

(١) عاش ميلانيبيديس قبل ميلاد المسيح بأربعمائة وستين عاما ، وبعد فتح مصر على يد قمبيز بأكثر من نصف قرن .

(٢) بلوتارك ، المرجع السابق .

(٣) نكر أن أفلاطون يقصد بهذه الكلمة المؤلفين على وجه الاطلاق ، الذين كانوا هم ، فى الوقت نفسه شعر . وموسيقيين

(٤) تالى سبيس فى العام ٥٣٦ ق . م .

(٥) يخبرنا أفلاطون عند قرب نهاية مقالته المعنونة مينوس Minos أن التراجيديا كانت بالغة القدم فى =

الديتيرامبه وهى الأشعار الدينية التى كانت تؤدى أصلا للاحتفالات بمولد باخوس[١] إلى هزليات شعبية ، فقد أصبح لزاما عليه أن يحل محل الأغنيات الوقورة لهذا العيد أغانى أكثر خفة ، من شأنها أن تسرى عن العامة ! وحيث لم تكن هذه الأغنيات الأخيرة سوى تحريف أو محاكاة ساخرة للاغانى الأولى ، حتى أصبحت هذه هزلية تبعث على الضحك ، فإن الموسيقيين الذين كانوا يؤدونها لم تستطيعوا إلا أن يستبيحوا لأنفسهم كل ما عن لهم من ضروب الخلاعة ؛ ومن هنا جاءت كل المساوىء التى انزلقت إلى هذا الفن . كذلك فقد وجهت التهم إلى فينيسياس Cinésias وفيرنيس Phyrnis وتيموثيه Timothée على لسان السيدة « الموسيقى » فى كوميديا فريكويس بأنهم قد أهانوها : أما الأول وهو موسيقىّ زنديق ماجن[٢] فقد زاد من الاضطراب

= أثينا ، وأنها قد نشأت منذ ما قبل عصر تسبيس وفرينيك Phrynique ؛ ويضيف بأنه إذا ما أريد اجراء بحث عن ذلك ، فسوف نجد أنها قد وجدت قبل تأسيس مدينة أثينا ، وأنها كانت نوعا من الشعر الذى يدخل البهجة كثيرا على قلوب الناس ؛ اما أرسطو فى كتابه فن الشعر أو البويطيقا فيظن أن التراجيديا قد جاءت عن نوع من الشعر يسمى الديتيرامبه أى قصائد المديح المغالى فيه ؛ وسوف نكتشف عندما نتصدى للضروب المختلفة من الغناء والأشعار عند المصريين القدماء أن قصائد المديح المبالغ فيه من أصل مصرى ، بل ان الاسم الذى يطلق عليها هو نفسه اسم مصرى .

(١) أفلاطون ، القوانين ، الكتاب الثالث .

وقد كان باخوس عند الاغريق هو نفسه الآله المصرى المعروف فى مصر باسم أوزيريس ؛ ولم يكن هذا الإله الذى نقل أورفيوس عبادته إلى اليونان ، بعد أن غير اسمه ، طبقا لما يخبرنا به ديودور الصقلى ، فى مكتبته التاريخية ، الكتاب الأول ، الفصل ٣٣ ، وكذلك لاكتانس فى كتابه عن الديانات الزائفة Falsa Religione ، الكتاب الأول ، الفصل ٢٢ – لم يكن شيئا آخر سوى إله رمزى يمثل مبدأ الخصوبة .

(٢) انظر :

Mémoires de l'Academie des inscriptions et des belles- lettres, tom. XV, in 40, p. 343

ويبدو أن أفلاطون ، هو أيضا ، لم يكن له رأى محبذ لقينيسياس ، إذ يقول على لسان سقراط فى محاورته جورجياس :

« هل تظن أن قينيسياس بن فيليس يهمه كثيرا أن تؤدى أغنياته إلى الأخذ بيد سامعيها نحو الأفضل أم أنه لا يهدف لشيء آخر سوى أن تنال أغانيه اعجاب جمهور مستمعيه ؟ »

ثم يتحدث عنه أفلاطون فى مكان آخر باعتباره رجلا سيىء الخلق .

أما أثينايوس فى مؤلفه :

Deipn, lib XXII, cap. B, pag. 551

فيصور قينيسياس على أنه رجل فاسد ومؤلف خطر .

الذى أدخله ميلانيبيديس من قبل فى فن الموسيقى ، عن طريق الزخارف والحواشى التى أثقل بها من جديد كاهل اللحن ؛ اما فيرنيس[1]، فقد كان أكثر جرءة من كل السابقين عليه ، فقد تجاسر على تخيل تكوينات جديدة من النغمات ، وتعقيدات جديدة ، وتغييرات فى طبقات الصوت شوهت من الطابع المبدئى للموسيقى ؛ ثم جاء بعد ذلك تيموثيه يزايد على سابقيه وليزيد الطين بلة فى انحدار الفن ؛ ولهذا فقد أدين فى اسبارطة بحكم يتفق بشكل مطلق مع مبادىء المصريين ، حكم كانت حيثياته **أنه قد علم الأطفال ، الذى عليه أن يعلمهم ، موسيقى مزدحمة الأنغام لحد مبالغ فيه ، مما جعلهم يفقدون الاعتدال الذى توحى به الفضيلة ، وأنه أحل النوع الكروماتيكى ، وهو رخو بطبعه ، محل التناغم (الهارمونى) البسيط الذى كان – هو – قد تعلمه .**

ولا يدع هذا الحكم الذى يصدر ضد موسيقى آسيوى[2]، كما لا تدع السخرية والتهكم اللذين جاءا فى الكوميديات التى أشرنا للتو إليها ، الفرصة لتسرب أى شكوك لا عن نوع الموسيقى التى كان المصريون يعدون استعمالها خطرا على الأخلاق ، ولا عن موطن أصلها ولا عن سبب فسادها ؛ ويستطيع المرء أن يرى بوضوح أنها كانت موسيقى مزدحمة الأنغام ، رخوة وأن فسادها صادر عن المساوىء التى كان القوم يحدثونها فى آسيا الصغرى ، بسبب ما كانوا يبذلونه من جهد هناك سعيا وراء زيادة الأنغام زيادة مضاعفة ، واثقال كاهل اللحن بالزخارف والحواشى حيث تزدحم الأنغام مما يؤدى إلى إزهاق روح الفن وجفاف ينابيعه ؛ وبمعنى آخر فإن ما حدث فى اسبارطة كان ينبغى له أيضا أن يحدث فى مصر ، كل مرة يحاول فيها الآسيويون أن ينفذوا إليها موسيقاهم من قبل أن يستولى عليها الفرس ؛ ومع ذلك ، فبمجرد أن أصبح هؤلاء الفرس سادة لها فإن شيئا لم

---

(١) ظلت طريقة فيرنيس محرمة لوقت طويل فى مدارس أثينا ، انظر :
أريستوفان ، السحب ، الفصل الثالث ، المشهد الثالث الأبيات ٩ – ١٢
ويتحدث أريستوفان هذا كثيرا عن قينيسياس فيرنيس ولكنه لا يذكرهما مرة واحدة بالخير .

(٢) تألق تيموثيه فى العام ٣٥٧ ق . م ؛ وكان ينتمى إلى مدينة ميليه Milet فى أيونيا ، وهى منطقة فى آسيا الصغرى ، حيث الأخلاق فى أكثر حالاتها انحلالا وتفسخا ، ويتحدث ديموستين Démostine باحتقار شديد عن هؤلاء الأقوام فى خطبه عن حكومة الجمهورية . ويطلق أسخيلوس على الأغانى الأيونية اسم الأغنيات الباعثة على الكآبة والمدرة للدموع ، أى الباعثة على البكاء . Philodyrtos

يحل دون أن تنتشر في أرجائها هذه الموسيقى الخطرة ، بفعل التدهور الذى اعترى الفن ، وفى واقع الأمر فإنها بمرور الأيام قد انتشرت هناك بسرعة أكبر كثيرا من تلك التى انتشرت بها فى اليونان . وبلا ريب فقد كان الناى من بين أولى الآلات الموسيقية التى أدخلت إلى مصر ، وهى الآلة التى يتحدث عنها هيرودوت فى كتابه الثانى من تاريخه عندما يقول : كانت السيدات فى أعياد باخوس يذهبن من قرية لأخرى ، ينشدن مدائح لهذا الآله ؛ أو حين يصف العيد الذى كان يقام فى بوباسطة على شرف ديانا ، والذى كان الناس يتوجهون إليه من كل صوب عن طريق النيل بالقوارب ، رجالا ونساء ، كلهم معا فالبعض يغنون ، يصفقون أو يدقون بأيديهم ، والبعض الآخر يعزفون على الناى[1]؛ أما النسوة فكن يؤرجحن الجلاجل .

ان هيرودوت هنا لا يتحدث عن أمور علم بها عن طريق النقل والرواية ، وإنما كان يتحدث عما رآه رأى العين . ولابد لنا أن نلاحظ بهذا الخصوص أنه لم يكن قد مضى بعد قرن من الزمان على دخول الفرس مصر لأول مرة ، وعلى حكمهم لها ، عندما كان هذا الرحالة يجوب هذه البلاد ؛ وبمعنى آخر ، فقد كان لابد من مرور كل هذا الوقت على الأقل حتى يتمكن المصريون من أن يحسموا أمرهم فى أن يتقبلوا استخدام الناى فى احتفالاتهم الدينية وأن يصحبوا أغنياتهم بآلة كانت بسيطة للغاية ، وبلا ثقوب لتعيين ملامسها ، مع أنها كانت من قبل معروفة لهم ، وإن كانت لها وجهة أخرى . وإذا كانت الجنك أو القيثارات المزودة بعدد كبير من الأوتار قد حظيت بالقبول من جانبهم فى ذلك الوقت ، فمما لا شك فيه أنهم لم يستخدموها لمصاحبة أغنياتهم والأعياد ، كما أن هيرودوت لم يورد عنها أية إشارة ، على النحو الذى أشار به إلى الناى الذى انتهينا من الحديث عنه ؛ وهذا دليل لنا كذلك على أن هذا النوع من الآلات الوترية التى نجدها محفورة أو منقوشة فوق جدران المنشآت القديمة فى مصر لا يمكنها أن تغدو من نتاج الحالة الأولى للموسيقى فى هذا البلد ، بل هى تنتمى ، عكس ذلك ، إلى الحالة الثانية .

---

(١) فى ذلك الوقت ، كانت تصنع نايات بالغة الفخامة من سيقان اللوتس الذى ينمو بوفرة فى ليبيا كما يخبرنا بذلك شارح أو المعلق على أعمال يوربيديس فى الكلمات livin avlon أى المزمار الليبى (ألكست ، البيتان ٣٤٦ و ٣٤٧) والتى يفسرها على هذا النحو : « وكانت النايات تصنع من سيقان اللوتس الذى ينمو فى ليبيا على شواطىء نهر تريتون Triton هناك »

ومع ذلك فقد توقف اضطراد تقدم الموسيقى الآلية فى مصر ، مع طرد الفرس ، بعد نحو ثلاثين عاما من الفترة التى عالجناها ؛ فحين استعاد المصريون بلادهم إلى حوزتهم ، فقد عادوا إلى تثبيت النظم القديمة للأمور بها ؛ وبرغم ذلك ، فحيث لم يقدر هؤلاء أن يحتفظوا بالأمر هناك لأكثر من ستين عاما وبضعة أعوام ، وحيث قد انتزعها الفرس منهم مرة ثانية لتأتى نهايتهم بعد ذلك بتسع عشرة سنة ، على يد الاسكندر ***الذى*** ترك حكم مصر للبطالمة ؛ وحيث اضطر هؤلاء البطالمة ، بعد ثلاثمائة عام إلى التخلى عنها لأغسطس ، الذى قلص مصر فى النهاية إلى إقليم رومانى ، فإن طول الزمن ، وكذا التعود على أخلاقيات جديدة ، كل ذلك قد محا كلية ، على طول المدى ، من عقل هذه الأمة الاحترام حتى لمجرد ذكرى مبادئهم القديمة ، فبدأ الناس يتذوقون تلك الموسيقى التى لفظوها فى الماضى ، وأكبوا عليها هم أنفسهم بقدر كبير من النجاح يضارعه قدر مماثل من التأجج والحماسة ، وأحرزوا فيها خطوت من التقدم حتى أنهم سرعان ما تفوقوا بمهارتهم فيها على كل الشعوب الأخرى[(١)]، وكان السكندريون على وجه الخصوص ، وبصفة عامة ، مدربين على ذلك ، حتى ان الرجل من أدنى طبقات الشعب ، ذلك الذى لا يعرف كيف يكتب اسمه ، كان يستطيع أن يضع يده على أدنى خطأ يمكن أن يأتيه أى واحد ، سواء عند التوقيع على الجنك أو عند العزف على الناى[(٢)]. ولقد بلغ فن العزف على الناى فى مدينة الاسكندرية درجة من الاتقان لحد أن بات العازفون السكندريون مطلوبين ، يستدعون إلى كل مكان ؛ وكانت السعادة تتملك الناس حين يستحوذون على واحد من هؤلاء ، ولم يكن أحد يرى فى الأجر الذى يدفع لهم أجرا غاليا ومبالغا فى غلوه لدرجة تتجاوز الحدود ، كما أن شهرتهم وأمجادهم كانت من الأمور التى احتفى بها الشعراء .

لم يكتف البطالمة بتشجيع ورعاية هذا الفن بأكثر الأساليب دويا وضجيجا ، ولكنهم طمحوا كذلك ان يبرزوا هم أنفسهم فيه ؛ ولم يكن آخر ملوكهم ليستشعر أدنى خجل من أن يظهر بين الناس بملابس تشبه ما يرتديه عازفو الناى ، كى يبرهن على ما تربطه بهؤلاء من صلة وعلى مكانته كعازف بينهم . كان هو نفسه ذلك الملك

---

(١) Athen. Deipn. lib IV, pag. 167, E.F

(٢) ID. ibid

الذى يقول عنه سترابون فى جغرافيته[١] : « وبخلاف دعارة هذا الملك وفسوقه ، فقد تعلق بصفة خاصة بالعزف على الناى ، وبلغ به الخيلاء والغرور حد أنه لم يكن يخجل من أن ينظم داخل بلاطه مباريات فى ذلك ، وأن ينافس المتبارين الآخرين على الفوز فيها » . ومن هنا جاءت كنيته فوتنجيوس أى الزمار التى أطلقها عليه المصريون ازدراء ، ومن هنا كذلك جاءت كنيته أوليتيس أى نافخ الناى التى ألصقها به الاغريق .

منذ ذلك الوقت والمصريون لا يقبلون فقط على استخدام الآلات الموسيقية ، بل إنهم كذلك يبدعون فيها ويبلغون فيها أعلى درجات النضج ، وهنا لم يعد يتحتم أن تثور فى نفوسهم الهواجس ضد استخدامها لتصاحب أغنياتهم الدينية ، وهو الأمر الذى يؤكده لنا كذلك الكثير من مؤرخى القرون الأخيرة من العصور القديمة ؛ فيلاحظ سترابون[٢] **أنهم كانوا يعبدون أوزيريس فى أبيدوس ، ومع ذلك فلم يكن مسموحا فى معبده ، لا لمغن أو منشد ولا لعازف ناى ولا لموقع على آلة وترية أن يقدم فنه عند تقديم القرابين**[٣]**، عكس ما يحدث بخصوص الآلهة الأخرى** ، أما ابوليه Apulée فيخبرنا فى الوصف الذى يقدمه عن عظمة وأبهة إيزيس[٤] **ان العازفين على الناى المخصصين للإله سيرابيس ، كانوا يكررون على آلاتهم المثنية نحو الأذن اليمنى بعض ألحان اعتادوا على عزفها بالمعابد** . ويورد كلوديان[٥] Claudian **انه عند موت العجل أبيس ، كانت شواطىء النيل تهتز بفعل ضجة المزاهر وكان الناى المصرى يضبط إيقاع الأغنيات التى يوجهها الناس إلى إيزيس فى جزيرة فاروس** . ولسوف تكون لدينا شهادات أخرى لابد من ذكرها

---

(١) **Lib. XVII, pag. 923.**

(٢) **Geogr. lib- XVII, pag. 941**

وقد كرر ألكساندر دالكساندر **Alexandre d'Alexandre**

(Genial, Deir, lib IV, cap. 17)

كلمة بكلمة ما نذكره هنا نقلا عن سترابون ، فيما عدا أنه قد أحل مدينة ممفيس محل مدينة أبيدوس . فهل ياترى هو خطأ من المؤلف ؟ أم الشىء نفسه كان يحدث بالمثل فى كل من أبيدوس وممفيس ؟

(٣) وهذا يتفق لحد كاف مع فقرة عند يوريبديس سبق أن أوردناها فى الهامش رقم ٨٢ .

(٤) **Metam. lib II.**

(٥) **De IV cons Honor. pan. V. 625 et seqq.**

لو كان الأمر يتصل بالدفوف والمزاهر والجلاجل أو الأجراس الصغيرة لكننا لا نتحدث هنا إلا عن الآلات الخاصة بالتلحين (ميلودى) ، وليس عن الآلات الصاخبة ، فقد كانت هذه هى أولى الآلات التى ابتكرت وأولى الوسائل التى استخدمت ؛ ولقد استخدمت منذ أقدم العصور لضبط حركات الرقص والتمثيل الصامت ولإرشاد حركات الايقاع فى المعابد أو الأماكن الأخرى ، أو لصد طيفون وابعاده عن مكان العبادة ، ولهذا الدافع الأخير كذلك كانت تستخدم هذه الآلات فى بعض الأحيان لمراعاة أوزان الأغنيات التى توجه إلى الآلهة .

ولعل الأوان قد آن هنا كى نضع كل ما أخبرنا به الشعراء والفلاسفة القدامى ، مما يتعلق بالحالة الثانية لفن الموسيقى فى مصر ؛ ولكننا قد توسعنا بالفعل كثيرا حول أسباب ونتائج هذه الفترة الأخيرة من حياة الفن ، ذلك أن الوقائع التى نستطيع أن نوردها الآن معروفة من كل العلماء ، ولسوف تمتد هذه المناقشة وتطول دون عائد ، وهى التى كنا نود لو نختصرها ، إذا ما بدا لنا ألا مناص من أن ندخل فى بعض التفاصيل التى ظلت حتى هذه اللحظة مهملة من جانب الذين أكبوا على بحوث تتناول الموسيقى القديمة ؛ وذلك لتبديد التعارض الظاهرى الذى قد يبدو ماثلا لبعض الأشخاص ضد الرأى الذى أفضت بنا هذه المناقشة لكى نعتنقه .

لقد كانت القضية التى علينا أن نتصدى لحلها بالغة التعقيد ؛ كان الأمر يتعلق بأن نبرهن على أن المصريين القدماء قد كانت لديهم موسيقى ، وأن هذه الموسيقى قد تأسست على مبادىء تؤكد سعادتهم ؛ وان ما نحوه من هذا الفن كان غريبا عليهم ومضادا لمبادئهم ، وأن هذه الموسيقى الآلية ، الزاخرة بالأنغام قد نشأت وترعرعت فى آسيا ، وأنها لم تستطع أن تنفذ إلى مصر بسهولة قبل أن تفتح هذه البلاد على يد قمبيز ، وان خطوات تقدمها منذ ذلك الوقت قد تعثرت أو توقفت ، لتتطور فجأة بعد ذلك وبسرعة مذهلة . وفى غيبة البراهين المباشرة التى تؤكد أن الموسيقى الآلية كانت مجهولة من المصريين ، فإننا قد أقمنا أحكامنا على صمت كل المؤلفين القدامى عن ذكر الآلات الموسيقية عندما كانت تواتيهم الفرصة للحديث عن موسيقى هذا الشعب ، وعن الحالة التى كان عليها هذا الفن لدى العبريين عند خروجهم من مصر ، وحتى نكون لأنفسنا فكرة عن العقبات التى حالت لوقت طويل دون نفاذ أى نوع من الابتكارات المتعلقة بالآلات الموسيقية ، فقد اتخذنا ، كوسيلة

للمقارنة ، تلك المقاومة الحادة والعنيفة التى جابهها بها الاغريق الأقدمون ، الذين كانت تتطابق مؤسساتهم الدينية وأنظمتهم السياسية ، وكذلك أخلاقياتهم لدرجة كبيرة ، مع نظائرها عند المصريين ؛ ولقد بتنا على يقين من أن هذه الابتكارات قد جوبهت فى اليونان بأقصى قدر من التشدد الصارم ، فعوقب المبتكرون ، ثم تأكد لنا بعد ذلك ، بفعل حقائق ملموسة ، أن الموسيقى الآلية قد مضت من آسيا إلى اليونان ثم إلى مصر ، وأنها هناك ، قد شوهت الطابع الأول للفن .

إننا لم ننظر لعملنا باعتباره عملا من أعمال الفضول ، فلقد جهدنا لكى نستخلص منه كل النتائج التى تحوز - فيما بدا لنا - بعض أهمية ، سواء فيما يتصل بمسيرة الفن أو فيما يمس مصالح المجتمع ، ولسوف نكون قد بلغنا غايتنا المنشودة لو أننا قد نجحنا فى أن ندلل وأن نقنع أنه بقدر ما تستقر الموسيقى فى الاتجاه الأول الذى تحدد لها بفعل الطبيعة ، بقدر ما تقترب - هى - من مبادىء اللغة ، وبقدر ما تتجه نحو نضج حقيقى وتحدث أثارا سعيدة ، وهو شأنها فى الأزمان القديمة ؛ وأنها ، على العكس ، حين تتخذ مسارا معاكسا ، لن يكون بمقدورها إلا أن تتحلل ، وان تصبح فوق ذلك ، ضارة مؤذية ؛ وهكذا تظل الموسيقى على احترامها طالما تظل تحتفظ بطابعها الأول ، أى بالتعبير الحى والحقيقى الذى لألحانها البليغة ، تلك التى تتغلغل حتى مكمن الروح ، وطالما ظلت تمارس على القلب والوجدان سطوتها : هكذا كانت فى الواقع ، وكما رأينا ، موسيقى كل الشعوب القديمة فى حالتهم الأولى ، ولعلها هى كذلك أكمل أطوارهم الحضارية ، وهى تلك الحالة التى اكتفوا فيها بالرواية الشفهية المغناة ؛ ولكن حين اكتفى فن الموسيقى بأن يتملق مشاعر حسية خالصة تصدر عن لذة غامضة ومصطنعة ، وحين أصبحت الموسيقى مشاعا مباحا لكل نزوة يأتى بها ذوق منحل ، فقد غدت شبيهة بتلك النسوة العاهرات التى لا تحظى بإعجاب غير المنحلين فى الوقت الذى يوحين فيه بأعمق قدر من الاحتقار من جانب الشرفاء : لم تعد الموسيقى تلقى التقدير إلا من جانب أمراء الشعوب الفاسدين ؛ على هذا النحو كان أواخر البطالمة وبصفة خاصة ذلك الذى أطلق عليه هزؤا وسخرية اسم فونتنجيوس و أوليتيس أى : الزمار . وعلى النحو نفسه كان السكندريون ؛ ثم جاء على هذا المنوال بعض القياصرة الرومان وبصفة خاصة نيرون ، وهو قد جاء على شاكلة

رومان عصره : ومع ذلك فقد ظلت هذه الموسيقى عرضة للتهكم والرفض من جانب الفلاسفة والشعوب الخاضعة لقوانين حكيمة .

كان هذا النوع الأخير من الموسيقى ، على الدوام ، نذيرا بانحلال الامبراطوريات أو كان هو مقدمة لهذا الانحلال . ولقد نشأت هذه الموسيقى فى آسيا الصغرى ، وكانت ممالك هذه البلاد فى أدنى درجات الاستقرار أو كانت بالأحرى مهترئة ؛ وبعد مرور وقت قصير من انتقال هذه الموسيقى إلى اليونان تغيرت الحكومة القديمة للبلاد ، واهتزت البلاد بفعل الحروب الداخلية وهاجمها اعداء خارجيون ثم غزاها الغزاة وفتحتها شعوب أجنبية ؛ وحدث الشىء نفسه فى عهد أواخر البطالمة (فى مصر) ؛ وبمجرد أن فتح الرومان اليونان وآسيا ومصر . وبمجرد أن نفذ إلى إيطاليا ترف هذه الموسيقى الذى كان قد استشرى من قبل فى اليونان وفى آسيا ، وجدنا هذه الامبراطورية الشاسعة تهتز وتهددها القلاقل من كل جانب ، لتهدد العالم كله بانهيارها ، ثم ينتهى بها الأمر ان تتهاوى أنقاضا عند أول ضربات توجهها إليها عشائر بربرية ؛ ومن جهة أخرى ، فقد كانت الشعوب التى احتفظت لأطول وقت بالموسيقى فى حالتها الأولى من النضج ، هى تلك التى ظلت تحتفظ بسلامها ؛ وهكذا كان أفلاطون على حق حين يقـول بألا يمكن المساس بمبادىء الموسيقى دون أن يصاب نظام الحكم القائم فى دولة ما بخطر جسيم . وقبل ذلك فيبدو أن واحدا من ملوك ليديا ، هو كريسوس Crésuis قد مر بهذه التجربة المريرة ، وكان لذلك على اقتناع تام بهذه الحقيقة الكبرى حتى أنه رد على قورش الذى كان يشكو من أن الليديين كانوا يتمردون ويثورون دون انقطاع ضد سلطته : **اطلب إليهم أن يرتدوا المعاطف فوق ملابسهم ، وان ينتعلوا أحذية ثقيلة ، ومرهم بأن يعلموا أولادهم العزف على الآلات الموسيقية وبأن يغنوا وأن يشربوا ، وسوف تجد فى أقرب وقت رجالهم وقد انقلبوا إلى نساء[١]، ولن يكون هناك بعد ما تخشاه من جانبهم** . ولربما كان لنفس السبب أن الصينيين القدماء ، فى فنهم العسكرى ، كانوا يأمرون ، كمناورة أو مكيدة عسكرية ، **باسماع أعدائهم بعض الألحان الخليعة والشهوانية كى يجعلوا قلوبهم رقيقة رخوة ، وكانوا يرسلون إليهم النساء ليكتمل فسادهم[٢]**.

---

(١) هيرودوت ، التاريخ ، الكتاب الأول .

(٢) Mém, concervant l'historie,les sciences ect des chinois =

واذا كان صحيحا أن كل ما يمكنه أن يسهم فى تفسخ الأخلاق ، وإزهاق الشجاعة ، وخنق الاحساس بالفضائل الكبرى ، التى هى الضمان الوحيد للهدوء والسلم العامين ، والتى تبنى قوة الامبراطوريات ، فإننا نخلص من ذلك إلى أن موسيقى قدماء المصريين فى حالتها الأولى ، والتى كانت تهدف إلى اعتدال وضبط العواطف والانفعالات ، كانت بالضرورة مناسبة للغاية ونافعة ، تحقق سعادة لهذه الشعوب ، وأنها على العكس من ذلك فى حالتها الثانية قد جاءت بالضرورة كارثة مدمرة .

= أى دراسات تتعلق بتاريخ وعلوم .. الخ الصينيين .

tome VII, page 104, paris, 1782, in- 40

الآلات الموسيقية القديمة

العنوان الاصلي للدراسة هو :

بحث حول أنواع الآلات الموسيقية المختلفة التي يراها المرء بين أعمال الحفر التى تشكل زخارف المبانى القديمة فى مصر ؛ وحول الأسماء التى اطلقتها عليها الاقوام الأول التى سكنت هذا البلد ، تأليف المسيو فيوتو الموسيقى المعنى بالأدب ».

الفصل الأول

عن الآلات الوترية

ملاحظات تمهيدية

حيث أن الآلات الموسيقية التى يجدها المرء منقوشة أو محفورة على المبانى القديمة فى مصر ، قد تم رسمها على نحو بالغ الدقة والكمال على يد زملائنا [من علماء وفنانى الحملة] أو يجدها المرء مرسومة فى [لوحات] هذا المؤلف ؛ فإنه يصبح من قبيل اللغو أن نورد وصفا لها ؛ ولذلك فسنكتفى بالبحث فى النوع الذى يمكن أن تنتمى هذه الآلات إليه ، وفى الاسم الذى عرفت به هذه الآلات عند القدماء ، وبصفة خاصة عند قدماء المصريين .

ولكم قلنا لأنفسنا ألا يمكن أن يكون للمصادفة التى تسببت فى الكثير من الكشوف والاختراعات المختلفة نصيب ما فى اختراع الجنك (الهارْب) ؟ ألا يمكن أن يكون التطابق القائم بين شكل هذا النوع من القيثارات الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وبين شكل الأقواس التى يمسكها الأبطال بأيديهم وهم على رأس الجيوش فى المعارك التى نجدها مرسومة فوق جدران كثير من المبانى القديمة فى مصر العليا قد شكل اثرا من المصاهرة أو القربى التى قامت فى الأصل بين هاتين الآلتين الموسيقيتين ؟ ألن يصبح بمقدورنا أن نستنتج أن الصدفة التى جعلتنا فى البداية نلاحظ النغمة التى يرددها وتر قوس عن طريق ترديده بمجرد أن تؤدى لمسة ما إلى اهتزازه ، قد أدت بالتالى إلى استخدام هذا القوس بمثابة قيثارة وحيدة الوتر ؟ هناك فى الحقيقة ما يمكنه على نحو طيب أن يعطى بعض ترجيح لهذا الافتراض ، وهو القيثارة وحيدة الوتر والتى تتخذ شكل قوس ، والتى حصلنا على رسم لها من مقبرة قديمة ، والتى يذكرها بيانشينى Bianchini والتى نقلها عنه لابورد Laborde فى كتابه : مقالة حول الموسيقى[1] Essai sur la Musique .وإذ يستطيع هذا النوع من

---

(١) المجلد الأول ، ص ٢٢٤ ، الأرقام ٦ ، ٧ .

القيثارات وحيدة الوتر ، أن يعطى نغمة تتفاوت غلظتها وحدتها تبعا لتفاوت سمك الوتر وتبعا كذلك لتفاوت طوله أو قصره ، فإننا نخلص من ذلك أن هؤلاء القوم قد كانت لديهم إذن قيثارات وحيدة الوتر تصدر كل منها تونا أو نغما مختلفا ، وانه قد أمكن استخدامها كخلفية للصوت وأداة لضبط الغناء ، ومن جهة أخرى ، فإن الممارسة التى لم تلبث – بالتأكيد – أن خلقت إحساسا بالضيق وعدم التوافق ، ناتجين عن التغيير المستمر والمتعاقب والذى كان الناس مضطرين لإحداثه بهذه الأقواس أو القيثارات وحيدة الوتر ، كان عليها بالضرورة أن تدفع إلى السعى إلى وسيلة لتبسيط سبل استخدامها ؛ وحينئذ تقبل الناس ، بلا جدال ، فكرة تجميعها [أى تجميع الأوتار الطويلة والقصيرة والسميكة والرفيعة] فى قيثارة واحدة ، وذلك بوضع أوتار عديدة فوق القوس الواحد تتباعد فيما بينها بمسافات متناسبة ، وهكذا ستنشأ القيثارة ذات الوترين والقيثارة ذات الأوتار الثلاثة وذات الأوتار الأربعة ، والقيثارات خماسية الأوتار ، وسداسيتها ، وسباعيتها ... الخ ، وبهذه الوسيلة فإن المميزات التى كانت تتوزع مبدئيا بين عدد كبير من الأقواس وحيدة الوتر سوف توجد موحدة فى قوس واحد متعدد الأوتار ، على النحو الذى نراه فى الجنك المصرى .

وعلى كل حال فإننا بعد ، لا نقدم هذه الفكرة إلا فى شكل افتراضى ؛ وليست لدينا أى مزاعم تعطى هذه الفكرة الآن أهمية أكبر من ذلك ، ولهذا السبب فإننا لن نتوقف عندها لوقت طويل .

المبحث الأول

عن الطيبونى أو ذلك الاسم النوعى الذى أطلقه قدماء المصريين على الآلات الوترية طبقا لما يقوله جابلونسكى

عندما يتعلق الأمر بتفسير ما يتصل بعادات الأقدمين وفنونهم ، فلن يكون بمقدورنا أن نورد رواية ما ، إلا بعد كثير من التحوطات ؛ فمثل هذه الأمور ، تخضع عادة لكثير من الاختلافات وكثير من التباين ، وتتمثل للذهن فى البداية بطريقة غامضة غير موثوق بها لحد كبير ، وذلك بفعل الروايات المتنوعة التى يوردها عنها المؤلفون ، الذين يختلفون فى غالبيتهم العظمى فيما بينهم ، إما بسبب اللغة التى كتبوا بها ، وإما بسبب تباعد الأزمان التى عاشوا فيها ، لحد لا يستطيع المرء معه أن يقيم شيئا إيجابيا قبل أن يقارن بين رواياتهم ، وهذا هو بالتأكيد ما فعلناه .

لقد أخذنا من جابلونسكى مرشدا ؛ وحين نستمد العون من أمثال هذا العالم فإننا نظن أن بمقدورنا أن نكب بثقة على الأبحاث التى يمليها الموضوع الذى أخذنا على عاتقنا أن نعالجه هنا .

يخبرنا هذا المؤلف[1] أن مسيحيا قديما يدعى جوزيب أو جوزيف ، يتحدث فى مؤلف له عنوانه Mémorial sacré[2] يوجد ضمن مخطوطات جامعة كامبردج ، عن آلة موسيقية مصرية تسمى بونى buni،وإن كان توماس جالا Tomas gala[3] ، وهو أول من عرف بهذا المؤلف ، فى هوامشه حول كتاب ألفه Jamblique يدور موضوعه حول الطقوس الدينية أو الأسرار الدينية قد أبدى ملاحظة هامة للغاية ، كما يقول العلامة جابلونسكى ، وهي أن ما كتبه جوزيف فى هذا الموضع إنما هو مستمد من رسالة بروفير Prophyre إلى المصرى انيبون Anebon[4]، وانه بدلا من كلمة توبونى

(١) الأعمال ، المجلد الأول ، الأصوات المصرية عند الكتاب القدامى ، تحت كلمة تيبونى ، ص ٣٤٤ .

(٢) فى المذكرات أو كتاب الذكرى المقدسة ، الكتاب الخامس ، فصل ١٤٤ .

(٣) فى ملاحظاته إلى إياميليخوس ، عن الأسرار ، ص ٢١٥ .

(٤) قد نكون مدفوعين إلى الاعتقاد بأن هجاء هذا الاسم قد تعرض للخطأ على يد النساخ ، وأن من الواجب أن نقرأه أمبون Ambon وبذلك يصبح هذا الاسم اسم أسرة مصرية حقيقية ، إن كان هو اسما للربة =

to bouni التى نقرؤها فى مخطوطة جوزيف ، لابد لنا أن نقرأها على أنها te bouni تى بونى .

ومع ذلك فإن فابريكيوس Fabricius ، وهو أول من نشر مخطوطة جوزيف ، وأول من أشار إليها فى المجلد الثانى من مؤلفه :
Codex. pseudepigraphus vetris Testamenti أى : المخطوط المنحول للعهد القديم حين يقدم اقتباسا[١] من هذه المخطوطة يكتب to boni فى النص ثم يكتب الكلمة نفسها to buni فى الترجمة اللاتينية ، وان كان العلامة جابلونسكى لا يشك قط فى أنه من الضرورى أن نقرأ الاسم كلمة واحدة،وهو يرى أننا نستطيع أن نجد لهذا الاسم ، الذى هو اسم لآلة مصرية ، تفسيرا فى اللغة المصرية . وقد بدا له أن هذه الآلة الموسيقية هى نوع من التريجونة أو القيثارة ثلاثية الزوايا والباندورة pandores والسامبوقة sambuques، ولكى يدعم ما يذهب إليه فإنه يعيد إلى الأذهان أن أثينايوس[٢]

= المصرية امبو التى يتحدث عنها إبيفان :

Epiphane, advers, Haeres. lib III, p. 1093

وقد أطلق الأغريق على هذه الربة اسم بريتنو Britno ويلاحظ أن المصريين ، وكذلك الكثير من مسيحيى هذه البلاد بصفة أخص ، وأكثر منهم فى أى مكان آخر ، يتسمون عادة باسم واحدة من آلهتهم .

(Vide, origenis commentaria, lib I, origenianorum, pag. e-3)

بل لقد تسمى كذلك كثير من الرهبان المسيحين فى مصر بأسماء : بى أمبو Pi- ambo ، وبامبو pambo أو بامبون Pambon.

وفضلا عن ذلك فإن هذه العادة ، التى تنتشر فى كل مكان من العالم ، تظل شائعة عند الكثير من الشعوب الحديثة فيتخذ المسيحيون أسماء لابنائهم من أسماء القديسين أو القديسات أو أسماء الأعياد ، ويتخذ اليهود أسماء البطاركة مثل آدم وإسحاق وداود . أما المسلمون والعرب فيتخذون كذلك من أسماء أبرز رجالات الدين الاسلامى ، الذين يبجلونهم وينظرون إليهم كقديسين ، أسماء لهم مثل : محمد ، على ، عمر ، حسين ، شافعى الخ .

(١) p. 330

(٢) Athen. Deipn. lib IV, p. 157 et 182; lib XIV, pag. 636.

وقد كان بمقدور جابلونسكى أن يضيف إلى هذه الشهادات ما كتبه أثينايوس : الكتاب الرابع ، الفصل ٢٥ ، ص ١٨٣ ، E ؛ والكتاب الرابع عشر ، الفصل ٩ ص ٦٣٥ و ٦٣٨ ؛ والكتاب الخامس عشر الفصل الأول ؛ ص ٦٦٥ ، D ؛ وكذلك ما نقرؤه فى كتاب :

le Manuel harmonique, Nicomarque, lib I, pag. 8, edition de Meibomius, Amstelodami, in-4°.

ومعجمى سويداس[١] Suidas وهيزيخيوس Hésychius[٢] وكذلك مارتيانوس كابيلا Martianus capella[٣] وريتشارد بوكوك[٤] Richard pocoke ومونفوكون[٥] Montfaucon قد كتبوا حول هذه الآلات المختلفة . وأخيرا فإنه يخلص من كل ذلك إلى أن الطيبونى هو قيثارة ثلاثية لا تختلف كثيرا عن القيثارة أو الكيتار الذى نطلق عليه اسم الجنك أو الهارب ، وذلك فى أن أوتارها كانت توقع بالمثل بواسطة ريشة العزف .

وقد بدا لهذا العلامة أن من المرجح كثيرا طبقا لرواية بورفير وجوزيف أن الاسم To boni يستمد أصوله من اللغة المصرية القديمة ، واليكم على أى شيء أسس رأيه : فى الترجمة القبطية للتوراة[٦] تحولت كلمة جيتارا الواردة فى الترجمة السبعينية إلى ouoi ni أى : أو – أوى – نى ؛ ونجد هذه الكلمة (جيتارا) فى الآية ٢٧ من الاصحاح الحادى والثلاثين من سفر الخروج ؛ وفى الآية الثانية من الاصحاح الرابع عشر من سفر الرؤيا أشير إلى نوع من القيثارات باسم (resper ouoini) ، ومن جهة أخرى فإن هذه الكلمة الأخيرة حين تسبقها أداة التأنيث te التى تلحق عادة بالكلمات القبطية (لتأنيث الكلمات) ، على نحو ما تلحق نحن أدوات التأنيث بالكلمات الفرنسية ، فسوف تشكل لنا ، طبقا لما يرى ، الكلمة teouoini وهى التى أصبحت ، بفعل تحوير أو تحريف يحدث عادة للكلمات ولاسيما عند انتقالها من لغة لأخرى ، تكتب عند الاغريق tebouni بعد تحريف الـ u أو الـ ou إلى B .

---

(١) تحت كلمة Sambykai .

(٢) تحت كلمة Trignon .

(٣) زواج الأدباء ، الكتاب التاسع ، ص ٣١٣ ، طبعة جروت .

(٤) وصف الشرق ، المجلد الأول ، اللوحة ٦١ .

(٥) Antiquité expliquée, 11, 116, 140 ect.

(٦) القبطية هى لغة المصريين الأصلية ، ولكنها تعرضت لتحويرات كثيرة بفعل احتضانها لعدد هائل من الكلمات اليونانية التى دخلت إليها فى عهد البطالمة ؛ وقد أدت هذه الكلمات نفسها إلى إهمال أو نسيان الكلمات المصرية ، التى استخدمت – هى – بدلا منها ، بحيث لم يعد يتبقى فى الكتب المدونة بالقبطية سوى الربع من الكلمات المصرية الصرف . ومع ذلك فإن كلمة تى – بونى لم ترد قط فى اللغة اليونانية ، ويحتمل كثيرا أنها تنتمى حقيقة إلى اللغة المصرية .

ويقدم سان جيروم مثالا لهذا التحريف عندما يكتب ريموبوت Remoboth[(١)] على أنها هى نفسها الكلمة التى يكتبها المصريون ريموءوت Remouot . ويستشهد جابلونسكى دعما لرأيه بمونفوكون الذى وافقه على هذا الرأى حين أطلعه على عمله فى هذا الموضوع ؛ كما يتحدث عن الرسائل التى كتبها له لاكروتشة فى عام ١٧٣٥ والتى أوضح فيها الأخير أنه يناصره كلية فى رأيه ؛ وان كانت براهين مؤلفنا ، بخصوص كلمة طيبونى تبدو لنا قائمة على أساس متين بقدرٍ كاف ، حتى إن شهادتى هذين العالمين اللذين يرجع اليهما ، لم تضيفا إلا القليل إلى اقتناعنا .

---

(١) جابلونسكى ، الأعمال ، المجلد الأول ، الأصوات المصرية عند القدامى ، تحت كلمة « ريموبوت » . REMOBOTH.

المبحث الثانى

هل كان الطيبونى يوقع أو يلمس بواسطة ريشة العازف ، وما هو الغرض الرئيسى من استخدامه

تقابل كلمة تى – بونى ، طبقا لما يظنه جابلونسكى ومونفوكون وكروتشة الكلمة اليونانية كيتارا Citara ، **فهى تشير إلى آلة ثلاثية الزوايا تختلف اختلافا طفيفا عن القيثارة أو الكيتارة ؛ وهى توقع بواسطة ريشة عزف ، وهى من نفس النوع الذى يعرف باسم الجنك أو الهارب .**

وفى الحقيقة فقد كانت الآلة الموسيقية العبرية المسماة كنور Kinnor التى تشير إليها الترجمة السبعينيه باسم كيتارا ، تمثل فى شكل جنك ، ويشير إليها الأقباط باسم تى – أوى – نى ، وبفعل التحريف تيبونى ؛ ومع ذلك فنحن لم نتبين على أى أساس أمكن جابلونسكى أن يجزم بأن هذه الآلة الموسيقية ينبغى أن تلمس أو توقع بواسطة الريشة شأنها شأن القيثارة أو الكيتار ، فلو أنه قد أتيح له ، مثلنا ، أن يتفحص هذه الآلات المحفورة أو المنقوشة على معابد مصر القديمة ، وكذا الأشخاص الذين رسموا وهم فى حالة عزف عليها ، لبات على يقين من أن شيئا لا يمكنه أن يؤدى ، بأية حالة ممكنة ، لوجود عادة مماثلة ، أى للعزف على الطيبونى أو الكيتار باستخدام الريشة أو قوس العزف ، وأن كل شيء هناك يشهد بذلك .

لقد كانت هذه الآلة ، على الأرجح ، مخصصة لمصاحبة الصوت البشرى عند الغناء الدينى ؛ فقد بدا لنا أنها كانت تستخدم على الأقل على هذا النحو ، فى الاحتفال المنقوش على إفريز واجهة المعبد الكبير الموجود فى دندرة . ولهذا السبب فقد أطلق فى غالبية الأحيان على الجنك (الهارب) اسم بسالتريون Psalterium ، وهى كلمة تعنى الآلة التى من شأنها أن تصاحب الغناء .

ولاريب فى أن القديس كليمانس السكندرى قد رأى العين هذه الواقعة حين يقول[1] : « إن تناغم البسالتريون الهمجى حين يجعل من وقار المقامات اللحنية

(١) الطبقات ، الكتاب السادس ، ص ٦٥٨ .

أمرا محسوسا ، كان هو النموذج الذى احتذاه ترباندر عندما صاغ هذه الضراعة على النسق الدورى :

« أى جوبيتر ؛
يا مبدأ كل الأشياء ؛
ويامن تدبر كل أمر ،
إليك أتوجه بأول نشيد أصوغه »

ولابد لنا أن نفهم من كلمة البسالتريون الهمجى أداة موسيقية مصرية من خاصيتها أن تصاحب صوت المغنى ، إذ كان اليونانيون يطلقون اسم الهمج أو البرابرة على الشعوب الأخرى جميعا ، كما أنهم لم يكونوا يعرفون فى الزمن الذى عاش فيه ثرباندر سوى الموسيقى التى تعلموها من المستعمرات أو الجاليات المصرية الأولى التى حكمتهم أو من فلاسفة تراقيا أمثال ميلامبوس وأورفيوس الخ ، والذين نقلوا إليهم المعارف التى اغترفوها من مصر التى تلقوا علومهم فيها ؛ وبمعنى آخر فحيث كان الجنك أو الطيبونى هو الآلة الوترية الوحيدة ، أو الأساسية التى يجدها المرء منقوشة فوق جدران المعابد المصرية ، وحيث كان هو الآلة التى يستطيع تناغمها أن يجلب الوقار ، فيكون من المرجح اذن أن القديس كليمانس كان يريد بحديثه هذا الجنك ؛ وهناك شواهد قليلة على أنه قد استخدمت **فقط** ريشة أو قوس للعزف على هذا النوع من الآلات .

المبحث الثالث

عما كان يشترك فيه الطيبونى بالضرورة مع الآلات الموسيقية الأخرى ، وكذلك عن ضرورة وجود أنواع عديدة منه .

لاحظ أوفوريون ، الذى يذكره أثينايوس(١) ، أن أسماء الآلات القديمة ذات الأوتار الكثيرة تختلط فى معظم الأحيان ؛ وأن هذه الآلات قلما تختلف فيما بينها ، وأن التغييرات المختلفة التى أدخلت عليها هى التى أدت إلى ظهور تسميات جديدة ، برغم أن هذه الآلات ، فى حقيقة الأمر ، لم تكن تختلف كثيرا فيما بينها . وهذا على وجه الدقة هو ما يظنه دون كالمت Don calmet(٢) الذى يعبر عن رأيه على النحو الآتى : « فعندما يرى المرء أن البعض يزودون هذه الآلات الوترية بثلاثة أوتار ، فى حين يزودها آخرون بأربعة ، ويزودها فريق ثالث بسبعة ، وغيرهم بعشرة ثم باثنى عشر ، وبعـــد ذلك يزودها آخرون كذلك بأربعة وعشرين وترا ، وأن هؤلاء يقولون أنها كانت تنقر بالأصابع وأن أولئك يرون أن الأمر كان يتم بواسطة القوس ، وأن فريقا قد صنعوا أوتارهم مشدودة من أعلى إلى أسفل وان فريقا آخر قد وضعها على سطح الآلة [أى دون شدها بقنطرة] فليس على المرء ، من أجل ذلك ، أن يزعم من فوره أنه بصدد آلات موسيقية متباينة أو يظن أن أشياء تختلف فيما بينها على هذا النحو لا يمكنها أن تحمل الاسم نفسه ، ذلك أن من الأمور الاعتيادية أن نجمع كل هذه الانواع من الأشياء وأن نضمهـا جميعا تحت اسم نوعى واحد ، أو أن نعبر فى بعض الأحيان عن كل منها باسم خاص ، فلنتفحص المبانى القديمة : بكم من الطرق أو الأساليب سنرى قيثارة الأقدمين مرسومة ؟ وكم من الأسماء أطلقت عليها ؟ إننا نعرف أن الترجمة السبعينية للتوراة قد جعلت من الكلمة العبرية كنور : كينيرا أى القيثارة الحزينة وكيتارا وفورمنكس وهى آلات سباعية الأوتار ؛ وكانت هذه الآلات نفسها تحمل عند الاغريق اسماء كينيارا ، ليرا ، فورمنكس ، كيتارا ، خيليس Chelys وهى مصنوعة من

---

(١) مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الرابع عشر ، فصل ٤

(٢) Dissertation sur les instruments des Hébieux, p. 81. أى بحث فى الآلات الموسيقية عند العبريين .

در ع السلحفاة ، بقتيس Pectis وهى قيثارة على هيئة مشط ، باربيتون أى المتعددة الأوتار ؛ ولقد استخدم الرومان هذه الأسماء نفسها ثم أضافوا إليها اسم تستودو Testudo أى القيثارة السباعية . ونحن نشير إلى كل ذلك عادة بهاتين الكلمتين : « **القيثارة القديمة** » .

ومع ذلك فيبدو من المرجح ، بقدر كاف ، أن هذه التسميات المختلفة لم تكن لتطلق على نوع واحد من الآلات الموسيقية ، سواء على أزمان متفرقة أو فى أماكن مختلفة لو لم تكن قد تناولت هذا النوع من الآلات سوى تغييرات طفيفة ، أو لو لم يكن من شأن هذه التغييرات الطفيفة أن تحدث بالضرورة تمييزا بين بعض هذه الآلات وبين بعضها الآخر ، فى أحوال مختلفة . ولدينا أمثلة كثيرة للغاية لأسماء مختلفة أعطيت للنوع نفسه من الآلات تبعا لكبر أو صغر أحجامها ، أو لأن شكلها أكثر أو أقل تسطيحا أو ارتفاعا ، دائريا كان أو متعدد الزوايا ، أو لأن تركيبها أكثر أو أبسط تعقيدا . فعلى هذه الشاكلة نجد لدينا هذه الأنواع المختلفة من الكمان التى نطلق عليها :

كمان الجيب أو الكمان الصغير ؛ pochette violon ،
الكمان الخماسى أو الكمان الأوسط ؛ alto أو quinte
الكمان الأوسط أو الكمان العاشق ؛ viole d'amour
الكمان الزاعق أو الرنان ؛ dessus de viole
الكمان الخفيض (العميق والخفيض) ؛ basse de viole
الفيولونسيل ؛ violoncelle ،
أو الـ basse الباص (الكمان غليظ الأوتار) ؛
الكونترباص (الكمان الكبير) ؛

ومثال ذلك أنواع الناى التى نعرفها باسم :

الناى الناعم أو الرقيق ؛ flute douce ،
الناى المستعرض [لامساكه بالعرض عند الشفتين] ؛ f. traversière ،
المزمار الصغير ؛ octavin ؛
المزمار ؛ fifre ؛
الصفارة (مزمار بستة ثقوب) flageolet .. الخ .

كذلك الحال بالنسبة لنوع الآلات التى ينتمى إليها الجيتار والقيثارة والعود الألمانى ، والعود ، والأعواد ذات الأقواس والماندولين الخ الخ .

ولقد كان الشىء نفسه ولا ريب يحدث عند الأقدمين ، فالأسماء المختلفة التى منحوها سواء للجنك أو للطيبونى أو للقيثارة لم تكن تستخدم إلا للإشارة إلى بعض تغييرات طفيفة فى شكلها أو فى تركيبها ، أو فى تناسب أجزائها وأحجامها .

وهكذا كانت لدى المصريين آلات طيبونى من أنواع مختلفة وأشكال مختلفة ، فكان لديهم ما هو على شكل جنك (هارب) وما هو على شكل قيثارة وما هو على شكل جيتار ؛ وحين نتفحص آلات الجنك التى نراها منقوشة أو مرسومة فوق المبانى الأثرية فى مصر ، فإننا نلاحظ تفاوت أحجامها ، وكذلك تفاوت عدد أوتارها بين القلة والكثرة[١]. ودون أن نتوقف طويلا للحديث عن غاية كل منها ومناسبات استخدامها ، وهى أمور لا نستطيع أن نقدم تفسيرا لها إلا بشكل افتراضى ، فسوف نقتصر على ملاحظة أن آلات الجنك ذات الأوتار العشرة التى نراها فوق إفريز واجهة المعبد الكبير فى دندرة ، وكذلك فى كهوف إيلثيا[*] (الكاب) وفى المعبد الصغير المقام فى مدينة أبو (جزيرة فيله) كانت مخصصة على ما يبدو لمصاحبة ضروب الغناء الدينى فى الاحتفالات المهيبة الكبرى ، على نحو ما كانت عليه ، عند العبريين ، آلة الكنور أسور أى آلة الجنك أو الصنج ذات العشرة أوتار . ولقد كان هذا النوع من الآلات ، يلقى بالمثل ، ودون جدال ، تقديرا بالغا من الاغريق ، إذ نجد الشاعر أيون Ion يحتفى به فى شعره[٢].

ونادرا ما ترسم آلات الطيبونى التى تتخذ شكل القيثارة على المبانى المصرية ،

---

(١) انظرا لقيثارات المرسومة فى واحدة من الجبانات المجاورة للأهرام الكبرى بالجيزة ، وتلك المرسومة فى كهوف إيليثيا (الكاب) ، اللوحة ٧٠ ، الشكل ٢ ؛ وكذلك تلك الخاصة بمقابر الملوك ، وتلك الموجودة فى طيبة والموجودة بالمعبد الصغير فى مدينة أبو (جزيرة فيله) .

(*) نسبة إلى القابلة إيليثيا ربة الولادة مساعدة الربة هيرا . (المترجم)

(٢) نعزف لك على القيثارة نشيدا من عشر طبقات منغمة ،
يتميز باتساق الأنغام المعزوفة على القيثارة الثلاثية ،
فقديما كان جميع الاغريق ينشدون لك نشيدا من أربع طبقات ،
على القيثارة السباعية متوجهين به إلى ربة نادرة من راعيات الفنون .

فنحن لم نلحظ وجود آلات من هذا النوع إلا فى مكانين :

١ – فوق جدران سلم يوجد فى قاع الحجرة الخامسة من المعبد الكبير فى دندرة ؛ وقد زودت القيثارة التى يراها المرء فى هذا المكان بأربعة أوتار ؛ ويبدو أنها كانت تستخدم هناك لمصاحبة الأغانى التى تقدم فى عيد من أعياد النصر .

٢ – فوق خريطة للعالم محفورة فى سقف معبد صغير يقع فى أعلى المعبد الكبير فى دندرة ؛ وهى قيثارة ذات ثلاثة أوتار وتمثل النخبة التى تحمل هذا الاسم . وهذه القيثارة ، على الأرجح ، هى من نفس نوع تلك التى يتحدث عنها ديودور الصقلى فى تاريخه للعالم ، الكتاب الأول ، والتى ذكر أن كل وتر من أوتارها يوافق فصلا من فصول السنة .

ولا تزال القيثارة تستخدم حتى اليوم ، ولا يزال يدور ذلك فى بعض أحياء القاهرة ؛ ويتعرف عليها المرء بسهولة فى الآلة المسماة كسر (كسرة مشددة على السين) فى أعماق أفريقيا ، ويجلبها معهم عادة سكان السودان والبرابرة أو البربر حين يأتون لقضاء بعض مصالحهم فى القاهرة ؛ فهذه الآلة إنما هى فى الحقيقة قيثارة حقيقية ؛ وبرغم أنها قد صنعت بخشونة وبدائية فإنها تضم كل الأجزاء التى قدم هوميروس وصفا لها فى أنشودته إلى عطارد . وسوف نتحدث عنها بتفصيل أكبر عندما نتصدى بالحديث عن الحالة الراهنة للموسيقى فى مصر .

أما بخصوص آلات الطيبونى التى صنعت على شكل جيتار ، فإننا لم نلحظ وجودها إلا فى مكان واحد ، مما قد يدفع إلى الظن بأن هذا النوع من الآلات كان أقل أهمية ، من ناحية الاستعمال ، من النوعين السابقين .

وعلى هذا فقد وجدت عدة أنواع من الطيبونى على نحو يماثل تنوع الآلات الوترية واختلافها فيما بينها . ولابد أن اسم طيبونى أو تيبونى ، وقد كان اسما نوعيا ، كان يطلق بصفة خاصة على الآلة الموسيقية التى نتخذ منها نمطا ونموذجا للأخريات ؛ ولقد كانت هذه ، فى مصر ، تسمى بالطيبونى ، كما كانت تسمى عند العبريين بآلة الكنور ؛ وكانت هى القيثارة عند اليونانيين ؛ كذلك فقد كان هذا الاسم النوعى ، فى هذه وتلك من اللغات الثلاث ، فيما يبدو ، اسما مشتركا لكل الآلات الموسيقية الوترية .

المبحث الرابع ،

اسم بسالتريون (السنطور) هو الأقدم شهرة والأوسع انتشارا ، وهو اسم لآلة مصرية . من أين جاء هذا الاسم الذى كان يستخدم صفة للطيبونى ؟

ليس هناك ، بين كل الأسماء التى أطلقت على الآلات التى تحمل هذا الاسم النوعى طيبونى ، اسم أوسع انتشارا وشهرة بين كل الشعوب القديمة والمحدثة من اسم بسالتريون . ولا يشير هذا الاسم لآلة موسيقية بعينها بقدر ما يقدم لنا فكرة عن الممارسات التى من شأن الآلات الوترية أن تؤديها ، أى مصاحبة الصوت ، على النحو الذى سبق أن استرعينا إليه الأنظار .

ويشير القديس كليمانس السكندرى[1] فى مؤلفه les stormates أى الطبقات إلى البسالتريون باعتباره آلة موسيقية تستخدم عند أداء طقوس العبادة عند المصريين . ومع ذلك ، فمن المحتمل أن نجد هذا الكاتب يتكلم بشكل أفضل عما كان يدور فى عصره عنه عما كان يحدث فى زمن متأخر ؛ ولكنه برغم ذلك يستخدم اسم بسالتريون Psalterion باعتباره اسما نوعيا ، يمكن إطلاقه على كل الآلات الوترية التى يستخدمها المصريون ، ذلك أنه لا يستخدم هذا الاسم إلا فى صيغة الجمع ، ليس هذا وحسب ، بل إنه لا يتحدث عن آلة وترية أخرى غيرها ، بل إنه كذلك ، لا يشير فى هذا المجال إلى الآلات الموسيقية الأخرى ، المختلفة ، إلا بأسمائها النوعية .

ويستمد الاسم بسالتريون ، على وجه الترجيح ، أصله من كلمة قديمة يلفظها العرب : سنطير (فتحة فسكون) ويشار بها اليوم إلى آلة موسيقية لها شكل الجنك أو الصنج (الهارب) ، متخذة وضعا معكوسا ، وموضوعة فوق جسم رنان : وهى

---

(١) « ولكن إذا ما توجهوا بكل اهتمامهم إلى الناى والقيثارة والانشاد والرقص والتصفيق ، كما يفعل المصريون ، وكذلك إلى إرجاء وقت فراغهم بهذه الطريقة ، فإنهم سيكونون بذلك ميالين للمغالاة ، وقحين متنصلين من النظام والطريق القويم إلى أقصى حد ؛ ذلك أن أصوات الصناج (الصاجات) والدفوف (الطبول) تتردد عالية على مسامعهم ، وتدوى الآلات الموسيقية خادعة لهم » – الكتاب الثانى ، فصل ٤ ص ١٦٣ .

الآلة نفسها التى نطلق نحن عليها اسم تمبانون Tympanon[١]. أما المصريون القدماء الذين كانوا يلحقون عادة أدوات التعريف والتنكير والتأنيث.. الخ إلى أسمائهم ، على نحو ما نفعل نحن فى اللغة الفرنسية ، فقد كان عليهم لذلك أن يضيفوا إلى كلمة سنطير أداة التذكير بى pi ، وهكذا كانوا يلفظونها بيسنطير .

أما الآشوريون ، الذين كانت تعرف عندهم هذه الآلة بالاسم نفسه ، فقد ألحقوا بها النهاية الخاصة بالاصطلاحات التعبيرية فى لغتهم وأسموها بيسنطيران أو فيسنطيران . وقد كان النبى دانيال هو أول من أشار إليها فى التوراة بهذا الاسم الأخير باعتبارها آلة موسيقية خاصة بالأشوريين ، ويلمس المرء بوضوح أنه لا يمكن نسبة هذه الآلة إلى اللغة العبرية ، ولا إلى اللغة الكلدانية ، حيث ان كل كلمة فى هاتين اللغتين لا ينبغى لها أن تضم سوى ثلاثة حروف أو مقاطع جذرية ، فى حين توجد هنا أربعة حروف تشكل مقاطع صوتية فى هذه الكلمة .

وحيث قد نقلت هذه الآلة بعد ذلك إلى الاغريق باسمها الأخير ، فقد جعلوا اسمها فى البداية ولا ريب بيسانتريون ؛ ومع ذلك فحيث أن المقطع الصوتى الثانى يحدث نغمة أنفية لابد لها أن تثير نفور آذانهم المرهفة ، فإنهم بفعل تحوير يحدث فى الغالب فى كل اللغات قد غيروها إلى بيسالتريون Pisaltérion ، ثم أصبحت بفعل **الادغام** إلى بسالتريون[٢] Psaltérion .

وأخيرا فإن الأقباط الذين عادت إليهم كلمة سنطير بعد أن حرفت على هذا النحو ، فجاءت منكرة على نحو ما ، قد أضافوا إليها **من جديد** أداة التذكير pi ، وجعلوا منها بيبسالتريون[٣] Pipsaltérion . وهو اسم لا يزالون يشيرون به إلى الة موسيقية مخصصة لمصاحبة الصوت .

ومع ذلك ، فبرغم أن كلمة بيسنطير قد تناولتها الكثير من التغييرات

---

(١) زودت هذه الآلة بأوتار من النحاس الأصفر ، وكانت تنقر بريشة صغيرة من الخشب .

(٢) يخبرنا فوسيوس Vossius أن الكلدانيين قد اعتادوا على أن يستبدلوا حرف اللام بحرف النون ، وبخاصة فى الكلمات الدخيلة على لغتهم ، وأن العبرانيين قد تطبعوا بهذه العادة أثناء الاسر البابلى .

(٣) Kircher, lingua AEgypt. restituta : (كيرشر ، اللغة المصرية المصوبة) .

والتحويرات فإن المرء يرى بوضوح أنها ظلت على الدوام تستعمل من جانب الشعوب الشرقية القديمة ، باعتبارها صفة لآلات الطيبونى ، أى للآلات الوترية التى من شأنها مصاحبة الصوت ، وليس باعتبارها اسما يطلق على آلة موسيقية بعينها .

الفصل الثانى

عن آلات النفخ المختلفة عند قدماء المصريين ، وعن أصلها ، وعن استخداماتها وأسمائها .

المبحث الأول

عن اختراع وأصل الناى بصفة عامة

لعل حادثا قريب الشبه بذلك الذى أدى إلى ابتكار الآلات الوترية مثل آلات القيثارة التى تحدثنا عنها فى بداية الباب السابق ، هو الذى أدى بالمثل إلى تخيل آلة الناى ؛ فالصوت الذى تحدثه الريح عند مرورها بجسم أجوف يمكن أن يؤدى فى البداية إلى الايحاء بفكرة النفخ فى قصبة بسيطة[1] ، لنحصل من جراء ذلك على صوت ؛ وحيث ان كل قصبة غاب من طول مختلف تحدث بالضرورة صوتا مخالفا لما تحدثه قصبة من طول آخر ، فإن من المرجح أن يكون قد تم تقريب كل هذه القصبات تبعا لأطوالها الخاصة ، بقصد ألا تصنع فى النهاية سوى آلة ناى واحدة تستطيع كل النغمات أن توجد وأن تنتظم بها ، وهو ما أدى إلى صنع الناى ذى القصبات السبع الذى أطلق عليه اسم ناى الإله بان[*] ، أى **الناى الذى يصدر كل الأنغام** ، لأنه فى واقع الأمر يعطى كل النغمات الدياتونية المختلفة ؛ وفى النهاية ، ومع دورة الزمن ، فلابد أن الناس ، كما هو مرجح ، قد ارتأوا أن يثبتوا فى قصبة واحدة ووحيدة وبالترتيب ، الأبعاد المختلفة لأطوال القصبات السبع السابقة بأن يثقبوا ثقبا فى المكان الذى ينتهى عنده طول كل منها ، وهكذا تكون الناى ذو القصبة الواحدة[2].

---

(١) كوكريتيوس ، عن طبائع الموجودات ، الكتاب الخامس ، بيت ١٣٨١ وما بعده .

(*) بان ، هو إله المراعى والقطعان ؛ وكان يجوب الجبال والوديان مشتتا أو منظما لرقصات حوريات الغاب ، مصطحبا معه الناى الرعوى الذى اخترعه ، وكانت له أقدام وقرون ماعز ، وكان ظهوره يوحى بالفزع والرعب . [المترجم]

(٢) يبدو أن الناى ذا القصبة الوحيدة ، والمثقوب ثقوبا عدة ، لم يكن له فى البداية من منفذ سوى فتحة =

وفى الوقت نفسه ، فإن هناك نوعا ثانيا من النايات يسمى المونول أى وحيد القصبة ، جاء على غرار النوع الأول (قبل تطويره) ، ولم يكن سوى قصبة بسيطة من البوص ، الأمر الذى أدى إلى حدوث بعض الخلط ، وولد نفور المؤلفين أو شكوكهم بخصوص أصل ، ومنشأ النايات وحيدة القصبة ، على النحو الذى ستواتينا الفرصة قريبا ان نتبينه .

=الفوهة العليا ؛ وعلى الأقل ، فلا تزال هى حتى اليوم الفتحة الوحيدة للناى أو « الفلاوت » المصرى ، المعروف باسم ناى الدراويش ؛ ونعتقد نحن أن له أصلا بالغ القدم .

المبحث الثانى

عن اختراع وعن أصل آلة الناى المصرى

من المؤكد أن الناس قديما فى مصر كانوا يستخدمون أنواعا كثيرة ومختلفة من آلة الناى ، نرى رسوما لها داخل جبانات الجيزة ، وفى كهوف الجبل الواقع فى مدينة إيليتيا القديمة (الكاب حاليا) .

وقد نسب أوفريون فى كتابه الشعراء الغنائيون[1] إلى عطارد اختراع الناى البسيط ذى القصبة الواحدة (المونول) ، وان كان آخرون ينسبون شرف صنعه إلى سيوث Seuth وروناكس ميديس Ronax Médes ؛ وقد يكون اسم سيوت هو نفسه اسم تحوتى الذى يطلقه أفلاطون على عطارد ، أو لعل الاسم لم يكن سوى صفة يشار بها إلى أول رجل عبقرى ابتكر استخدام الناى أو فن العزف عليه . كما يشار بهذه الصفة نفسها إلى أول من اسس فن اللغة وفن الكتابة .

ويخبرنا جوبا Juba[2] فى كتابه الرابع من مؤلفه التاريخ المسرحى Histoire Théatrale ان المونول أو الناى وحيد القصبة قد تم اختراعه على يد أوزيريس ، وهو نفس ما يقال بالنسبة للناى الذى أطلق عليه اسم فوتنكس Photinx[3]. ومع ذلك ، فبالإضافة إلى أنه لا يرجح كثيرا ان يقدر رجل واحد بمفرده أن يكون مخترعا لنوعين من الناى مختلفين لهذا الحد ، بسبب من طول الخبرة والفن والاتقان فى الصنع الذى يفترضه النوع الثانى ، فإن كل شيء يبعث على الاعتقاد بأن الناى البسيط نفسه كان سابقا بوقت طويل على وجود أوزيريس ؛ وفضلا عن ذلك فقد تفرقت الأراء بخصوص نوع هذا الناى الذى اخترعه هذا الملك من ملوك مصر ، ويقول بوللوكس[4] Pollux ان الناى الذى ابتكره أوزيريس كان من قش الشعير ،

---

(١) أثينايوس ، مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الرابع ، الفصل ٢٥ ، ص ٨٤ .

(٢) المؤلف نفسه ، المرجع نفسه الفصل ٢٣ ، ص ١٧٥ ؛ يوستاثيوس ، عن الالياذة ، الكتاب الثامن عشر ، البيت ٥٢٦ ، ص ١١٥٧ .

(٣) يورد جروتر Gruter هذين النوعين من النايات فى اللوحة رقم ٢٧ .

(٤) المعجم ، الكتاب الرابع ، الفصل العاشر ، عن أصل الأنواع .

ويتحدث سولان Solin عن ناى مصرى مصنوع من قصب البوص ينسب يوستاث Euthtathe اختراعه إلى نفس أوزيريس .

وبلا ريب فقد كان كل من أوفوريون وجوبا يريد أن يشير بكلمة مونول أو الناى البسيط ذى القصبة الواحدة إلى الناى الخالى من الثقوب التى تحدد ملمسه ، أى إلى ذلك الناى الذى كان استخدامه يقتصر على اصدار أصوات التحذير أو النداء ، على النحو الذى صنع عليه أول الأمر ، طبقا لما يخبرنا به أبوليوس Apulée[١] .

وفى الوقت نفسه فقد يبدو أن هوميروس[٢] يريد لنا أن نفهم أن عطارد قد اخترع كذلك فن العزف على الناى ، وان كان من المحتمل أنه لم يشأ أن يتحدث إلا عن التفنن فى إحداث صوت مناسب بهذه الآلة ، صوت أو نغمة يستطيع الناس أن يسمعوها عن بعد ؛ بل إن ذلك هو المعنى الوحيد الذى نستطيع أن نعطيه للأبيات التى يشير فيها هذا الشاعر إلى الناى الذى اخترعه عطارد - وقد كان هذا الناى البسيط ، ذو القصبة الواحدة ، على الأرجح ، هو ما كان يسميه **بالناى اللوتس** : lotos أو lotus[٣]، نسبة إلى شجيرة كان هذا الناى يصنع منها ، كما كان يطلق عليه اسم **الناى الليبى**[٤]

وطبقا لدوريس Duris ، فى مؤلفه عن تاريخ أعمال أجاتوكل[٥] Histoire des action d'Agthocle ، فإن شخصا يدعى سيريتيس Seirites وهو راع ليبى ، هو الذى اخترع هذا الناى ، كما كان هو أول من صاحب بهذه الآلة ترتيلا موجها إلى خيريس Cérés وكان هذا الرجل ينتمى إلى أمة السيرت Syrtes فى برقة ، وهو بلد كانت تنمو فيه أجمل شجيرات اللوتس ، وكان بالتالى أفضل مكان تصنع فيه آلات الناى ، فقد كانت بلاد برقة تنتج نبات اللوتس بوفرة شديدة ، وجودة عالية ، حتى

---

(١) أبو ليوس ، المنتخب ، الكتاب الأول .

(٢) نشيد إلى هرميس ، بيت ٥٨٨ وما بعده .

(٣) يوربيديس ، عابدات باكخوس ، بيت ١٣٥ ، ١٦٠ وما بعده ؛ نفس المؤلف ، أبناء هيراكليس ، بيت ٨٩٢ ؛ بلينيوس الأكبر ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب ١٣ . فصل ١٧ ؛ يوستاتيوس ، فى تعليقه على الالياذة ، النشيد ١٨ ، بيت ٥٢٦ .

(٤) يوربيديس ، ايفيجينيا فى أوليس ، بيت ١٠٣٦ ؛ الطروواديات ، بيت ٥٤٣ وما بعده .

(٥) أثينايوس ، مأدبة الفلاسفة ، الكتاب ١٤ ، فصل ٣ ، ص ٦١٨ .

كاد السكان أن يتخذوا من هذه الشجيرات طعامهم الأوحد ، الأمر الذى جعل الاغريق يطلقون عليهم اسم : أكلة اللوتس[١]

وبمضى الأيام صنعت نايات مقوسة أو مثنية من خشب اللوتس طبقا لما يخبرنا به أوفيد[٢] . ومع ذلك فليس من المرجح فيما يبدو لنا أن تكون هذه النايات قد صنعت كلية من الخشب الذى لابد له أن ينثنى أو يلتوى بصعوبة حين يكون جافا . وبلا جدال ، فقد كان هذا الجزء المقوس من الناى يصنع من قرن بقرة على النحو الذى كان عليه الجزء المقوس للنايات الأخرى المصنوعة من الخشب والتى لها نفس الشكل ؛ ولهذا السبب فإن الشعراء كانوا يشيرون إليه عادة بالصفة adunco cornu أى القرن المعقوف[٣]

كذلك قد صنعت نايات من اللوتس ذات قصبتين ، كان يطلق عليها فى مصر اسم الفوتنكس Photinx ، أما اليونان فكانوا يشيرون إليه باسم بلاجيولوس Plagiaulos وأما اللاتين فكانوا يشيرون إليه باسم أوبليكا Obliqua أى الناى المائل أو المنحرف .

ومع ذلك فلم تكن كل أنواع الفوتنكس أو الناى ذى القصبتين مائلة أو منحرفة ، فقد كانت توجد منها نايات ذات قصبتين تلتصق كل منهما إلى الأخرى ، على غرار تلك التى لا تزال تستخدم فى مصر حتى اليوم ، والتى تعرف باسم أرغول .

وفيما مضى ، شاع استخدام الناى ذى القصبتين بين السكندريين الذى حازوا شهرة واسعة فى فن العزف عليها ؛ وفى بعض الأحيان كان يجمع بين الناى وحيد

---

(١) سترابون ، الجغرافيات ، الكتاب ١٧ ، ص ٩٦٩ ؛ بلينيوس الأكبر ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب الخامس ، فصل ٣ ، ص ٦٧ ؛ هيرودوت ، التاريخ ، الكتاب الثانى ؛ ديودور الصقلى ، مكتبة التاريخ ، الكتاب الأول ، فصل ٣٤ ص ٩٩ ؛ المؤلف نفسه ، فصل ٤٣ ، ص ١٣٤ .

وكان ينمو فى مصر كذلك نبات يحمل هذا الاسم ، كان المصريون يصنعون منه ، الخبز الذى يأكلونه ؛ وكانوا ينسبون ابتكار هذا الطعام إلى إيزيس .

(٢) أوفيديوس ، التقويم ، الكتاب الرابع ، بيت ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٣) المؤلف نفسه ، المرجع نفسه ، بيت ١٨١ ، ١٨٩ ؛ المؤلف نفسه ، رسائل من يونتوس ، الكتاب الأول ، الرسالة الأولى ، بيت ٣٩ ؛ ستاتيوس ، مآثر طيبة ، الكتاب السادس ، بيت ١٣١ .

القصبة والناى ذى القصبتين فى المآدب ؛ وكانت الآلة الأولى لا تزال تستخدم لمصاحبة الرقص وضروب المباهج الأخرى . ومع ذلك فليس هنا مجال الحديث عن كل الأغراض المختلفة التى كانت تستخدم فيها هذه الآلات الموسيقية . ويكفينا هنا أن نعرف أن كان هناك نوعان من الناى المصرى يصنعان من خشب اللوتس ؛ أولهما ، وهو بلا ريب أقدمهما وهو الذى أسماه الاغريق lotos monaulos أى الناى وحيد القصبة المصنوع من خشب اللوتس ، وهو يشتمل على قصبة واحدة مستقيمة ؛ وثانيهما وكان يعرف باسم لوتس فوتنكس أى الناى المزدوج المصنوع من اللوتس وكان مثنيا ؛ وقد كان هذا الأخير ، فيما يرجح ، هو الذى وصفه أبوليوس Apulée باعتباره آلة موسيقية مصرية ، خاصة بكهان سيباريس[١].

(١) أبوليوس ، المسخ ، الكتاب الحادى عشر

المبحث الثالث

عن اسم الناى المستقيم فى اللغة المصرية وعن تأثيره واستعماله

يتحدث أوستاتيوس[1] عن آلة نفخ تسمى باللغة المصرية خنو – وى Chnoué ، ويشير إليها باعتبارها بوقا مثنيا ، وينسب اختراعها إلى أوزيريس[2]. أما الوصف الذى يعطيه لهذه الآلة فيتماثل مع الناى المقوس الذى كان يستخدمه كهنة سيباريس ، والذى يتحدث عنه أبوليوس[3] ومع الناى الذى يسميه أثينايوس[4] فوتنكس (أى الناى ذى القصبتين) ، والذى ينسب جوبا اختراعه إلى أوزيريس ، والذى ظن جابلونسكى أن من المحتمل أن يكون هو النوع نفسه من الآلات التى كانت تستخدم لدعوة المصريين إلى الاحتفالات الدينية ، والذى يطلق عليه أحيانا اسم بوق وأحيانا أخرى اسم ناى .

ومع ذلك ، فإن من غير المحتمل أن يكون ممكنا على الاطلاق أن يتم الخلط على هذا النحو بين آلتين يختلف صوتاهما لهذا الحد ؛ وفضلا عن ذلك فقد كان للبوق المصرى صوت قوى ومنفر ، إذ يقرر بلوتارك أن صوت هذه الآلة كان يشبه نهيق الحمار[5]، وأنه لهذا السبب نفسه لم يشأ أهالى بوزيريس وليكوبوليس وأبيدوس ، الذين يفزعون من صوت الحمار ، باعتباره فى رأيهم ممثلا لعبقرية الشر طيفون ، أن يسمع عندهم صوت هذه الآلة ، فى حين كان ينبغى ، على العكس من ذلك ، أن يأتى الناى المصرى بالغ الدقة بالغ التطريب ، وبالإضافة إلى ذلك أخيرا ، فإن ديمتريوس دى فاليرا[6] حين يورد أن الكهان المصريين كانوا يوجهون إلى آلهتهم تراتيل على

---

(١) فى تعليقه على الالياذة ، النشيد الثامن عشر ، البيت ٤٩٥ ، ص ١١٣٩ .

(٢) المؤلف نفسه ، التعليق على البيت ٥٢٦ من نفس النشيد ، ص ١١٥٧ .

(٣) المسخ ، الكتاب الثانى ، ص ١٣٧١ .

(٤) مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الرابع ، فصل ٢٣ ، ص ١٧٥ .

(٥) بلوتارك ، إيزيس وأوزيريس ، ترجمة (إلى الفرنسية) أميون ، ص ٣٢٤ ؛ إيليانوس ، عن الحيوان ، الكتاب العاشر ، فصل ٢٧ .

(٦) ديمتريوس إلفاليرى ، عن البيان ، ص ٦٥ .

الحركات السبع ، التى كانت بفعل رقة جرسها تحل محل مقامات الناى والكيتار ، فإنه قد خول لنا لدرجة كبيرة أن نوقن أن رنين الناى كان لطيفا ورقيقا ، ويختلف بالتالى أشد الاختلاف عن صوت البوق .

ان اسم شنو — وى chnouê الذى يغطيه أوستاثيوس للبوق المصرى ، ينبغى فى رأى جابلونسكى أن يكتب شو — نو — وى Chonoué وطبقا لما يراه الأخير فإننا لسنا بصدد اسم للبوق المقوس ولا الناى ذى القصبتين الخاص بالمصريين ، ولابد أن يكون هذا الاسم متصلا بالناى المستقيم والبسيط ، المسمى بالناى وحيد القصبة أو المونول . ويبنى جابلونسكى رأيه على أن كلمة أولوس aulos فى كتب الأقباط ، والتى تعنى الناى المستقيم ، كانت تتحول على الدوام إلى الكلمة دجو djo أو خبى اندجو Cébi andjo على النحو الذى نجدها عليه فى الرسالة الأولى إلى أهل كورنتوس ، الاصحاح الرابع عشر ، الآية ٧ ، كما يبنيه على أن كلمة إردجو erdjo فى القبطية تعنى : يعزف على الناى ، وعلى أننا نجد كلمة ربسدجو repsdjo فى إنجيل متى ، الاصحاح التاسع ، الآية ٢٣ ، وكذلك فى سفر الرؤيا ، الاصحاح الثامن عشر بمعنى عازف الناى .

أما بخصوص المقطع الصوتى الأخير من كلمة شو — نو — وى فيظن جابلونسكى أنه هو نفس الكلمة التى يستخدمها هورابللو Horapollo[١] والتى يكتبها بالقبطية ουαιε . وبمعنى آخر ، وكما قد استشعر ذلك مؤلفنا فى مكان آخر[٢]،

---

(١) الهيروغليفية ، الكتاب الأول ، فصل ٢٩ .

(٢) يشعر المرء براحة تامة حين يجد هذا المبحث فى مكان آخر ، وعنوانه أواه (أواى) . صيحة تسمع عن بعد لدى المصريين : « وىْ » ، وعلى هذا النحو يفسر الأمر كذلك هوارابللو (المرجع السابق ، الكتاب الأول ، الفصل التاسع والعشرين) .

أما بوشار فى : Hierozoico, part. I, p. 866 فقد حاول حقيقة أن يجد لهذه الكلمة تفسيرا فى اللغة العربية ؛ وان كان ويلكنز Wilkins : فى مؤلفه عن اللغة القبطية : de lingua coptica, pag. 16

يظن أن كلمة phonê (فونى) تؤخذ على أنها الصوت المنتحب أو الباكى ، على غرار الـ ouai أواى عند الاغريق ، والتى اعتاد الأقباط أن يحولوها فى كتبهم إلى وى . ومع ذلك فإن كلمات هوارابللو تعنى شيئا مغايرا ، إذ يخبرنا هذا الأخير أنها لا تعنى الصوت المنتحب ، ولا صوتا من أى نوع وإنما تعنى الصوت الذى يسمع عن بعد ، والذى كان المصريون يسمونه ومنذ ما يزيد على أربعين عاما أوايْ ouaie ، وقد كان صديقى الطبيب المحترم =

فإن هذه الكلمات ouê أو – ويه ، و ouei أو – وى ، و oueou أوى – يو التى تعنى فى اللغة المصرية : طويل أو متباعد ، وحيث تعنى الكلمة القبطية التى يوردها هواربللو الصوت أو النغمة التى تسمع عن بعد ، فإنه ينتج عن ذلك أن الكلمة القبطية djonouei دجونووى أو djonoué دجونوويه[1] هى اسم لهذا الناى الذى يسمع عن بعد . ونجد الدليل على ذلك عند جوليوس بوللوكس عندما يطلق على الناى المصرى اسم بوليفثونجوس سونورا[2] Polyphthongos sonora أى الذى يمكن سماعه عن بعد ، وهو يظن أن هذه النايات كانت تستعمل فى دعوة المصريين إلى الحفلات الدينية[3]، ويعيد إلى الأذهـان ، بهذه المناسبة ، شهـادة سينسيـوس Synesius[4] وكلوديان Claudien[5]، اللذين يتحدثان عن النايات المقوسة عنـد المصريين[6] ؛ وأخيرا فإنـه يبرهـن ، عن طريـق اقتبـاسات كثيرة من ماريـوس

= كروتشه Croze قد لفت نظرى جيدا إلى أن كلمة أواى ouaie عند هواربللو هى نفس هذه الكلمة عند الأقباط ، والتى نقرؤها فى غالبية الأحيان فى كتبهم ، وأنها تعنى ميكروفن mekroffen على النحو الذى يقول به المؤلف نفسه (هواربللو) انظر :

XXII V. 19; psx, v, 1; Eph. II, v. 17

ومواضع أخرى كثيرة .

إذن فكلمة أواى ouaie ، أو بالأحرى الكلمة القبطية التى لها نفس النطق ، هى حرفيا الكلمة مكروفن mekroffen ، أى الشىء الذى يمكن أن يرتبط بأشياء كثيرة ؛ وان كان يجب أن نفهم ضمنا منها هنا phone أى الصوت

جابلونسكى ، الأصوات المصرية عند الكتاب القدامى ، ص ١٩٠ ، تحت كلمة ouaie (أواىْ) .

(١) وهى الكلمة نفسها التى يكتبها الاغريق Chonoué شو نو – ويه ، أو Chnoué شنو – ويه .

(٢) يوليوس بوللوكس ، المعجم ، الكتاب الرابع ، فصل ٩ ، ص ١٨٨ ، عن آلات النفخ .

(٣) يتفق يوريبيديس فى تراجيديته عابدات باخوس مع هذا الرأى فى البيت ١٦٠ وما بعده :

« عندما يردد المزمار المقوس أنغامه الحلوة

فإنه يتغنى بالمسابقات المقدسة »

وهذا الناى الذى يشير إليه يوريبيديس باسم لوتس Lotus هو بوضوح ناى مصرى ، من نوع الناى الذى نحن بصدده .

(٤) عن العناية الإلهية ، الكتاب الأول ، ص ٦٦ .

(٥) عن القنصلية الشرفية ، البيتين : ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

(٦) يتحدث عنه يوريبيدس كذلك فى تراجيديه الضارعات .

فكتورينوس Marius Victorinus[(١)] ومن كسيفيلين Xiphilin أن هذا النوع من النايات كان ينبغى له أن يكون طويلا ومستقيما ، وليس معقوفا أو مقوسا على النحو الذى زعمه أوستاتيوس ، وان يكون بالتالى مختلفا عن ناى آخر من النوع نفسه وان كان أكثر قصرا ، وكان يطلق عليه اسم جنجلاروس Ginglaros. كذلك يقول جوليوس بوللوكس ، الذى يتحدث عن هذا الناى الأخير ، والذى ينظر إليه باعتباره نايا مصريا ، إنه لم يكن من شأن هذا الناى إلا أداء الألحان البسيطة .

هكذا إذن قد كان لدى المصريين نوعان من النايات المستقيمة : نوع طويل يسمى دجو – نو – إى ، هو ذلك الذى نراه مرسوما على جدران جبانات الجيزة ، وآخر أقصر ويسمى جنجلاروس ، شبيهة بتلك التى نراها مرسومة فى بنى حسن[(٢)].

---

(١) الكتاب الأول ، فن النحو ، ص ٢٤٨٧ ، طبعة بوتشى .

(٢) انظر لوحات النقوش البارزة الموجودة على جدران كهوف بنى حسن فى مصر الوسطى .

المبحث الرابع

عن اسم البوق واسم الناى المقوس في اللغة المصرية

عندما نقابل بين شهادات كل من هيرودوت ، وديمتريوس ، وسترابون ، وبلوتارك ، وإليـان Elien ، وأبوليـوس ، وسولان ، وأثينايـوس ، وفوللـوكس ، وأوستراتوس – فإن من السهل كما يقول جابلونسكى أن يتبين المرء أن المصريين لم تكن لديهم كلمة خاصة يعبرون بها عن البوق ؛ وفى واقع الأمر ، كما يلاحظ – هو – مرة أخرى ، ففى كلمة تستخدم فيها الترجمة السبعينية للعهد الجديد كلمة Salpinx سالبنكس بمعنى بوق ، فإن الأقباط يوردونها على الدوام بالاسم نفسه دون أن يحلوا محلها قط كلمة من لغتهم .

وهكذا ففى حين تجىء الترجمة السبعينية لعبارة : لا تدع البوق يصدح أمامك عندما تقدم صدقة ، الواردة فى انجيل متى على هذا النحو :

mê salpiseŝ emprosthen sou

فإننا نقرؤها فى الترجمة القبطية على هذا النحو التالى :

amper astap chdjôk

وبمعنى آخر فحيث نجد أن عبارة astap القبطية تأتى بمعنى ينفخ البوق ، فقد خلص جابلونسكى من ذلك إلى أن كلمة tap (تاب) هى اسم لآلة موسيقية مصرية ، وان هذه الآلة ، على وجه التحديد ، هى تلك التى أشار إليها أوساتيوس باسم chnouê ، أى الناى المقوس .

ومع ذلك ، فإننا نظن أننا نقف على أرضية ثابتة حين نعتقد أن كلمة « تاب » لم تكن تعنى قط الناى المقوس ، وإنما هى تعنى بالأحرى البوق المصنوع

من القرون ، أى البوقسان ، فهنا على الأقل ، يوجد المعنى الحقيقى الذى يقدمه الأقباط فى ترجمتهم للعهد القديم كما يمكننا أن نراه فى الآية الخامسة ، من المزمور الثامن والتسعين(*) حيث استبدلوا الكلمة القبطية « تاب » بالكلمة العبرية شوفار(**) **ومعناها البوقسان أو الأبواق المصنوعة من القرون .**

من هنا ينتج أننا حين نقر مع جابلونسكى بأن كلمة شونو – ويه أو شنو – ويه إنما تشير إلى الناى المستقيم أو الطويل وليس إلى الناى المقوس أو المعقوف ، فإننا مضطرون إلى الاعتراف بان اسم هذا الناى الأخير ، فى اللغة المصرية القديمة ، مجهول لنا تماما ولو لم يكن أبوليوس فى تحولاته أو مسخه « ميتامور فيزوس » ، قد قدم لنا هذه الآلة باعتبارها آلة موسيقية كانت تستخدم فى حفلات العبادة فى مدينة سيرابيس ، لكنا مدفوعين إلى الاعتقاد بأن هذه الآلة لا تنتمى قط إلى المصريين . حيث لا نلمح لها أثرا ، فى أى مكان ، فوق جدران المبانى الأثرية الباقية من مصر القديمة .

(*) ونصها : « رنموا للرب بعود ، بعود وصوت نشيد » ولعله إذن يقصد الآية السادسة ونصها : « بالأبواق وصوت الصور اهتفوا قدام الملك الرب » . [المترجم]

(**) أو الشيور وهى بوق اليهود وهو البوق الذى يستخدم فى الأعياد الكبرى كرأس السنة ، والعيد الأكبر ، عيد الصيام . انظر الموسيقى والغناء عند العرب ، لأحمد تيمور باشا ، ص ١١٩ . [المترجم]

الفصل الثالث

عن الآلات الصاخبة أو الجرسية عند المصريين

المبحث الأول

عن رأى بعض العلماء حول شكل واسم المزهر أو الجلجل

يعتقد بعض العلماء أن المصريين القدماء قد أشاروا بكلمة واحدة إلى الآلات الجرسية ، أى الآلات الصاخبة ذات الايقاع ، والتى ينقر عليها ؛ ومع ذلك فليست لدينا الآن ، بخصوص هذه النقطة ، سوى أفكار غير مؤكدة .

ويقتضى الأمر من المرء أن يكون قد مر بمواقع الأحداث ، أو أن يكون قد شاهد المزهر كما هو منقوش فوق جدران المبانى القديمة فى مصر ، حتى يكون لنفسه فكرة دقيقة عن هذه الآلة الموسيقية . ونحن نجد مزاهر ذات أشكال مختلفة فى النقوش التى رسمت بينها هذه الآلة فى غالبية المؤلفات التى عالجت آثار مصر القديمة . ولقد جازف كثيرون بتقديم عدد كبير من التخمينات حول الشكل الذى منحه المصريون لهذه الآلات ، حتى لم يعد المرء بمستطيع ، وسط هذه التخمينات المتعارضة والكثيرة ، أن يعرف أى هذه التخمينات يمكن أن يوليه ثقته الكاملة .

فقد كان برتران أوتون داجان Bertrand Autonne d' Agen فى مؤلفه Commentaires sur Juvénal[1] يظن أن المزهر أو الجلجل نوع من البوق المصرى أو أنه آلة موسيقية من نوع ما ؛ اما برتيانيكوس Britannicus فكان قد أشاع هذا الرأى

(١) « فلتقرر إيزيس أى أمر ترغب فيه فيما يخص بدننا ، ولتصفع أبصارنا بجلجلها الغاضب » .
(بوفيناليس ، الهجائيات ، ك ١٣ ، البيتين ٩٣ ، ٩٤)

نفسه عند بيانه لنفس الآلة الموسيقية التى تحدث عنها أوفيد(١)، وافترض آخرون أنها نوع من الصور أو البوق أو أنها نوع من أنواع آلة الناى ، مؤسسين رأيهم فى ذلك على ما قاله مارشيال Martial(٢)، وزعم فريق آخر أن هذه الآلة لابد ان تكون دفا ، وزعم آخرون بأنها الصناج . وأخيرا فقد كان الناس فى أوربا عامة منذ أقل من مائتى عام ، لا يزالون يجهلون ما كانته هذه الآلة الموسيقية عند المصريين والتى أطلق عليها اسم مزهر Sistre .

أما اليوم ، فقد بات كل العلماء على اتفاق بأن المزهر أو الجلجل هو نوع من آلات الايقاع أو من آلات الصخب ، ولم يعودوا ينخدعون فى شكله . وسوف توضح الرسوم التى عملت لهـذه الآلة ، نقلا عن المبانى القديمة فى مصر ، الفرق بين المزاهر أو الجلاجل المصرية وبين مزاهر الاغريق والرومان إذ يختلف شكل هذه عن شكل تلك على الدوام .

ويظن غالبية المؤلفين الذين قاموا بأبحاث حول المزاهر(٣) أن اسم مزهر Sistre ، ينتمى إلى اللغة اليونانية وليس إلى اللغة المصرية ، وأنه قد جاء من الفعل اليونانى seiein بمعنى يهز أو يرج أو يقلقل ، ويؤسسون هذا الرأى على التعريف ، أو بالأحرى

---

(١) « أين هو (الشخص) الذى بلغ من الجسارة حدا يرغم المترنح ،
على الرحيل من بوابة فاروس وهو يمسك فى يده بالجلجل ذى الصليل » .
(أوفيدوس ، ك ١ رسالة ١ ، البيتين ٣٧ ، ٣٨) .

(٢) « إن يتدلّ أمام بصرك عبد صغير باك من عنقه
فهو يهز بيده الرقيقة هذا الجلجل ذا الصليل »
(مارتياليس ، الابجرامات ، ك ١٤ ، ابجرامة ٥٤) .

(٣) ادريان . تورنيبوس ، Advers ، الكتاب الثامن والعشرين ، الفصل ٣٣ ؛ هارديانوس يوانيس ، الفصل الخاص بالآلات الموسيقية ، رقم ٢٤٥ ؛ ديمستريوس ، العصور القديمة ، الكتاب الثانى ؛ بولنجر ، عن المسرح ؛ المعجم العالمى ، تحت كلمة Sistrum (المزهر أو الجلجل) ؛ هينسيوس ، الكتاب الأول ، البيت ٤٩٩ ؛ كاساليوس ، عن العادات المصرية ، فصل ٢٤ ؛ فابريكيوس ، معجم الكنز ، تحت كلمة Sistrum (سسترون) ، بيجيروس فى معجم الكنز ، المجلد الثالث ، ص ٣٩٩ ؛ بارتيليميوس ميرولا ، تعليقات على الكتاب الثالث من فن الهوى لأوفيدوس ، بيت ٦٣٥ ؛ كيينج ، العصور الرومانية القديمة ، مجلد ١،جزء ١ ، فصل ٥ ، رقم ٢ ؛ بوكارت فى كتابه Phaleg ، ك ٤ ، فصل ٢ ؛ هيروتيموس بوسى (سان جيروم) ، الايزيسى اسباكوس أو عن الجلجل ، فى المعجم الجديد (الكنز) للعصور الرومانية القديمة من ألبرتو سالنجر ، in- fol ، هاجاى كوميتام ، ١٧١٨ ؛ د : بينيديكتوس باكينوس ، عن صور الجلجل واختلافاته ، بونونيا ، ١٦٩١ .

على التفسير الذى قدمه بلوتارك[١] عن المزهر ، فقد اعتقدوا ان هذا التفسير يتضمن اشتقاق اسم هذه الآلة . ويبدو أن جابلونسكى كان من أنصار هذا الرأى[٢]، منحيا بذلك تفسير إيزيدور دى سيفيل Isidore de Séville الذى يقول[٣] ان اسم المزهر مشتق من اسم ايزيس التى كانت هذه الآلة موجهة إليها بصفة خاصة[٤].

أما بالنسبة لنا ، فإننا نجهل حقيقة الدوافع التى أدت إلى تفضيل الاشتقاق الأول على الاشتقاق الذى يقدمه ايزيدور ، ذلك أن الروابط فيما بين كلمة seiein (الفعل) و seistron (المزهر) ، لا تعطى الاحساس بأنها أكبر من تلك الروابط القائمة بين اسم ايزيس Isis والمزهر Sistre .

صحيح أن كلمة seiein (سى — يين) تعنى فى اليونانية يهز أو يرج وأن المزهر أو السستر آلة لا نستطيع أن نجعلها تصل أو تئز إلا بهزها أو رجها ؛ ومع ذلك ، فإذا ما أخذنا فى الاعتبار المعنى الرمزى الذى تقدمه هذه الآلة ، وهو الذى يحسم كل ما هو فى مجال الترجيح والاحتمال فيما يختص باسم المزهر ، واذا ما تأملنا المعنى المجازى كذلك لاسم ايزيس فسوف ندرك أن هناك من هذا القبيل ، الكثير من التماثل بين السستر (المزهر) وبين ايزيس أكثر من ذلك الذى يقوم بين اسم هذه الآلة الموسيقية والفعل اليونانى سى — يين Seiein ؛ وفى الواقع ، كما يخبرنا بذلك بلوتارك[٥] فإن السستر (المزهر) كان رمزا لحركة منتظمة ومرتبة تشكل وتمنح الوجود والحياة ، وطبقا لرأى المؤلف نفسه فإن اسم ايزيس مشتق من كلمة يستاى iesthai ومعناه يتحرك

---

(١) أسطورة إيزيس وأوزيريس ، بلوتارك .

(٢) الأعمال ، المجلد الأول ، الأصوات المصرية عند الكتاب القدامى ، ص ٣٠٩ .

(٣) إسيدوروس هسبالينسيس إيسكوبوس ، الأصول ، ك ٣ ؛ عن الموسيقى ، فصل ٨ ، ص ٧٦ .

(٤) لم يكن جابلونسكى هو وحده الذى لم يرق له هذا الاشتقاق ، كذلك لم يكن هو أول من فعل ذلك . فالعالم الدعى الذى وجه فى عام ١٧٢٦ إلى المسيو لوكليرك ، مؤلف المكتبة المختارة Bibbiothéque choisie كتابا يتصل بالمزهر ، قد سخر بالمثل من هذا الاشتقاق ، بل لقد بدا هذا الاشتقاق لاثرى متبحر سابق على العالم الذى أشرنا إليه ، بالغ الاعتساف انظر : هيرونيموس بوس (سان جيروم ، الايزيسى أو عن الجلجل أو المزهر) ؛ ومع ذلك فكل هذه الحجج ليست قط من الأمور التى تفرض نفسها ، إذ لم تؤسس على أى أسباب مقنعة .

(٥) أيزيس وأوزيريس ، ص ٣٣١ .

عن علم وعن قصد وسبب : فإيزيس اذن ، وهى الحركة العاقلة الممتلئة حيوية ، هى فى الوقت نفسه ربة العلم والحركة .

وهذه المقابلة تجعلنا نتفهم بوضوح السبب الذى جعل المصريين يختصون بالمزهر إيزيس . وعلينا أن ندرك ، طبقا لمعتقداتهم أن إيزيس هى الصورة الرمزية للسبب الخفى المؤدى للحركة الرتيبة والمنظمة التى تهب الحياة ، وان المزهر هو الرمز لهذه الحركة ، ذلك أنه لم يكن هناك ما يدعو المصريين ، الذين كانت لغتهم المقدسة رمزية صرف ، أن يعطوا للمزهر اسما لم يكن من شأنه إلا أن يستبعد عن الذهن تلك الفكرة التى **يلحقونها** بهذه الآلة المقدسة ؛ وحيث كانت هذه الفكرة ترتبط برباط وثيق مع تلك الفكرة التى يوحى بها اسم إيزيس ، فقد كان عليهم أن يعبروا عن ذلك باسم يماثل هذا الاسم نفسه .

وهكذا لا يستطيع الاسم سستر (جلجل أو مزهر) ان يستمد أصوله من الفعل اليونانى سى — يين Seiein بمعنى يهز أو يرج ، حيث أن معنى هاتين الكلمتين (يهز ويرج) لا يستدعى إلى الذهن قط فكرة الحركة المنظمة والرتيبة ، بل إنه يقدم ، عكس ذلك ، **فكرة دفع أو جذب شىء ما بعيدا عن توازنه الطبيعى ، وإعطائه دفعة وقتية وهزة غير طبيعية على الاطلاق** ؛ وهو معنى يتعارض بوضوح مع الفكرة التى يلحقها المصريون بالاسم سستر أى المزهر : وفضلا عن ذلك ، فسوف يكون من المدهش ، لحد كاف ، ألا نجد لدى المصريين ، فى لغتهم ، كلمة تدل على هذه الآلة ، وأنهم بسبب ذلك ، كانوا مضطرين للجوء إلى اللغة اليونانية ، تلك التى لم تتكون إلا بعد قرون كثيرة من إقامة هذا الشعب (المصرى) لمؤسساته الدينية والسياسية .

ان الأمر الأكثر احتمالا من ذلك بكثير هو أن يكون الاغريق ، حين تبنوا ديانة المصريين ، قد احتفظوا للمزهر باسمه المصرى ، وذلك للسبب نفسه ، والذى من أجله احتفظوا لإيزيس باسمها ، مادامت آلة السستر (المزهر أو الجلجل) هى المُسنَدُ الرئيسى إلى هذه الربة .

وهكذا فنحن نذهب فى ظنوننا إلى خلاف ما ذهب إليه العلماء الذين عابوا أو نحوا الاشتقاق الذى قدمه إيزيدور لكلمة سستر ، وسنحاول ، فيما يلى ، أن نبرهن أن هذه الكلمة تستمد أصلها فى الواقع من اللغة المصرية ، وليس من اللغة اليونانية .

المبحث الثانى

عن اسم المزهر فى اللغة المصرية
وعن اشتقاق هذه الكلمة

يظن لاكروتشنه[1] أن السستر (أى المزهر أو الجلجل) ينبغى أن يسمى فى اللغة المصرية كمكم Kemkem ، وهى كلمة تعنى فى هذه اللغة آلة صاخبة أو آلة موسيقية تطن عندما تضرب أو تهز أو ترج . وقد بدت له هذه الكلمة مشتقة من Kim (كم) بمعنى يحرك أو يهز ؛ لكن كلمة كمكم هى فى الواقع الاسم الذى يخلعه الأقباط على الدف الذى نسميه نحن : دف الباسك ؛ فهم يقولون كمكم بمعنى دف ، وربس كمكم Repskemkem للإشارة إلى الرجل أو المرأة التى تضرب على هذا الدف .

لكن جابلونسكى يقترح كلمة أخرى تبدو لناظره أنها الاسم الحقيقى للمزهر فى اللغة المصرية . وقد عثر على هذه الكلمة فى الترجمة القبطية للرسالة الأولى إلى الكورنثيين ، الاصحاح الثامن ، الآية الأولى حيث حولوا النص اليونانى شاكلوس إيشون Chalcos echon إلى النص القبطى : أنوهومت إبسكنكن anouhomt epscencen بمعنى النحاس الأصفر فى حالة رنين ؛ ومن هنا نستنتج أن الكلمة القبطية كنكن لابد أن تفهم على أنها رنين النحاس الأصفر ، وبالتالى رنين المزهر أو الجلجل ، وهو الذى كان يصنع من النحاس الأصفر، وعلى هذا يتفق أن تستخدم هذه الكلمة بالمثل للإشارة إلى صوت البوق (سفر الخروج ، الاصحاح التاسع عشر ، الآية ١٦) . وهذا ما يحول جابلونسكى دون أن يولى رأيه ثقة كاملة ؛ بل إن ناشره وشارحه فى الوقت نفسه ، المستر ووتر Water ينظر إلى رأيه ، أى رأى جابلونسكى باعتباره محوطا بالشكوك ، إذ تعنى هذه الكلمة ، حسبما بدا له ، رنين أو صوت آلة موسيقية من نوع ما .

---

(١) جابلونسكى ، الأعمال ، المجلد الأول ، الأصوات المصرية عند الأقدمين ، ص ٣١٠ .

ولكى يدلل على رأيه يورد الترجمة القبطية لهذا النص اليونانى : Salpingos Echo (سالبنجوس إيكو) ، الوارد فى الرسالة إلى العبرانيين ، الاصحاح الثانى عشر ، الآية ١٩ ؛ تقول هذه الترجمة القبطية : بى – كنكن أنيتو سالبنجوس أو كما تقول اللهجة الصعيدية أوهرو – أو آن سالبنكس ، بمعنى صوت أو رنين البوق[١] وفضلا عن ذلك ، فإنه لا يرى تماثلا من أى نوع بين الكلمة القبطية كنكن Cencen وكلمة سستر أى المزهر أو الجلجل .

ومع ذلك فلا يمكن أن نستنتج بالضرورة من وجود كلمة Cencen ملحقة فى بعض الأحيان بكلمة البوق ، أن هذه الكلمة لا علاقة لها أبدا بكلمة سستر (أى المزهر) على وجه الخصوص ؛ فما دامت هذه الكلمة تعنى فى اللغة القبطية رنين أو طنين النحاس الأصفر ، فلا يمكن أن ننظر إليها باعتبارها تشير إلى رنين كل آلة موسيقية أياما تكون ؛ ذلك أن هناك عددا كبيرا من هذه الآلات لا يدخل فى تكوينها أبدا النحاس الأصفر .

وبرغم ذلك فقد كان يكفى أن تعنى كلمة كنكن Cencen الرنين أو الضجة الطنانة أو الرنانة التى يحدثها النحاس الأصفر ، لكى تصبح اسما للسستر أو المزهر أو الجلجل ، وأن تشير فى الوقت نفسه إلى الضجة الرنانة التى يحدثها البوق . كذلك ، فإن هناك احتمالا كبيرا فى أن يكون المصريون قد استخدموا بالمثل هذه الكلمة ، التى يستخدمها اللاتين بهذا المعنى نفسه ، حين ترجموا اسم المزهر بكلمة كريبيتاكولوم Crepitaculum وهى كلمة تعنى : **آلة موسيقية صاخبة تحدث صوتا رنانا** ؛ وذلك على نحو ما فعل الأقباط تعبيرا عن الصوت الرنان الذى يحدثه بوق مصنوع من النحاس الأصفر ، وهو الأمر الذى يمكن ملاحظته من هذين البيتين لفرجيل :

الانيادة – الكتاب السابع

عندئذ دوت طبول الحرب برنينها النحاس ،
وهى تصدر دويا مفزعا   البيتان ٥٠٣ ، ٥٠٤

بل إننا قد نضيف بأن أفضل المترجمين اللاتين ، حين ترجموا اسم المزهر ، فإنهم قد جعلوه – وهذا أمر لا يحوطه أى شك – مشتقا ليس من الفعل Seiein

(١) انظر نهاية المبحث الثالث التى توافق بين رأى جابلونسكى وبين رأى ووتر Water

بمعنى يهز أو يرج ، وإنما من الفعل يحدث صدى résonner أو يرن retentir ، وأنهم ألحقوا بكلمة سسترون Sistron المعنى نفسه الذى يعطيه الأقباط لكلمة كنكين : وبمعنى آخر ، فإن من المرجح لحد كبير أن يكون اشتقاق آخر ، يتأسس على فكرة أخرى ، مغايرة لتلك التى تلحق على الدوام بالتفسير الخاص بكلمة ما ، كما هو الحال فى الأشتقاق الذى تم عن طريق استخلاص كلمة سسترون من سي-يين ، اشتقاقا حاذقا ، لكنه لا يقوم على أى أساس ، بل هو موغل فى الخطا .

هناك مبدأ طبيعى عند كل شعوب العالم ، يقودها عند تكوين واشتقاق الكلمات التى تشكلها أو تتبناها ، سواء تلك التى تشتقها من لغتها الخاصة أو تلك التى تستعيرها عن لغة غريبة ، ذلك هو مبدأ التماثل ؛ فعندما تقابلهم حروف — وبصفة خاصة الحروف الجامدة — لا يكون نطقها مألوفا لهم ، أو لا يكون متفقا مع الذوق والعادات التى يأخذون بها ، فإنهم يستبدلون بها حروفا أخرى لها نفس اللفظ أو من مخرج صوتى مماثل ؛ مثال ذلك احلال حرف سنى (بكسر السين وتشديد النون) ساكن ، أكثر قوة أو أكثر رقة ، محل حرف ساكن سنى آخر ، أو حرف ساكن شفوى محل حرف شفوى آخر . أو حرف لسانى محل لسانى آخر ، أو حرف مائع بحرف آخر من النوع نفسه[1].

---

(١) وهذا هو ما فعلناه نحن (الفرنسيين) أنفسنا عند تشكيل وتكوين الكثير من كلماتنا ؛ مثال ذلك كلمة taper (ضرب — نقر) التى اشتققنا منها كلمة Tambour أى الدف ، وكلمة flamber بمعنى يشعل أو يوقد التى اشتققنا منها كلمة flambeau بمعنى الشعلة أو اللهيب ؛ وكلمة approuver بمعنى يؤمن (بشده مكسورة على الميم) أو يوافق التى أخذنا منها كلمة approbation بمعنى موافقة وكذلك الكلمات التى أخذناها عن الاغريق واللاتين مثل boê بمعنى صيحة vox التى جعلنا منها voix (صوت) ؛ وكلمة ، rhoden ، rosa التى جعلنا منها rose (ورد) ؛ وكلمة kyklus ، Circulus التى جعلنا منها Cercle بمعنى دائرة ؛ وكلمة kapanê التى جعلناها cabane أى الكوخ ؛ وكلمة kaballes التى حولناها إلى cheval أى الحصان ؛ وكلمة titlus ، titulus التى تحولت إلى titre أى العنوان أو اللقب إلى غيرها من المعانى ؛ وكلمة apostolus ، apostolus التى جعلناها apotre أى الرسول أو المبشر ، وكلمة episkopos ، épiscopus التى تحولت فى الألمانية إلى bischoff وفى الإيطالية vescovo وبالفرنسية éveque أى المطران . ولكن التحريفات أو التحويرات تصبح أكبر بالنسبة لكلمات اللغات الشرقية التى نقلت إلى اليونانية وكتبت بحروف يونانية ثم انتقلت إلينا عن هذا السبيل ؛ فالإغريق ، الذين كانوا يضحون بكل شىء فى سبيل رهافة آذانهم ، دون حرص منهم على الاطلاق على الاقتراب من النطق الصحيح للكلمات إذا ما بدت لهم جافة ، لم يكونوا ليوقفهم أى هاجس حين يقتطعوا منها الحروف التى يضايقهم لفظها أو .. يستبدلوا بها حروفا أخرى ، بالغة الاختلاف فى معظم الأحيان .

وهكذا يصبح بالامكان ، أن تكون كلمة سسترون ، مشتقة من كلمة كنكن المصرية ، برغم الاختلاف الظاهرى الشديد بينهما .

ولكي تحسم هذه المشكلة بشكل أكثر وضوحا ، فلن يكون تزيدا لا طائل من ورائه ، أن نتأكد مما إن كانت كلمة كنكن لن تقابلنا فى لغات أخرى - مع تغييرات طفيفة باعتبارها اسما للآلة الموسيقية التى نسميها نحن الجلجل أو المزهر (سستر) .

فنحن أولا ، نتعرف على هذه الكلمة دون مشقة فى الكلمة الأمهرية تزيناكل Tzenacel أو كيناكل Cenacel[1] التى تعنى فى هذه اللغة سستر أو مزهر ؛ فمن الواضح أن هذه الكلمة لا تفترق كثيرا عن الكلمة المصرية كنكن Cencen إلا فى تحويل الحروف القوية إلى حروف رهيفة ، وفى أنهم قد أحلوا الحرف اللسانى الساكن l (اللام) الذى ينهى هذه الكلمة ، محل الحرف اللسانى الساكن n الذى يتمم كلمة كنكن . أما بخصوص الحرف المتحرك a (وهو يقابل الفتحة فى اللغة العربية) ، الذى نجده فى الكلمة الأمهرية والذى لم يوجد قط فى الكلمة المصرية ، فنحن نعرف أنه لا توجد أبدا فى اللغات الشرقية سوى الحروف الساكنة أو الجامدة التى ينظر إليها باعتبارها الأجزاء الرئيسية للكلمات ، وأن الحروف المتحركة (وتقابلها حركات الفتح والكسر والضم فى العربية) لا تغير قط من طبيعتها ومن معانيها أو تفسيراتها . (كذا) . وللسبب نفسه فقد استطاع الأثيوبيون أن يحلوا الحرف الجامد اللسانى l أى اللام محل الحرف الجامد اللسانى ، الـ n أو النون ، ولسوف يكون بمقدور آخرين أن يستبدلوا بحرفى النون فى الكلمة المصرية كنكن حرفى لام لتصبح الكلمة بدورها كِلْ كِلْ (كسر فسكون وهكذا) وهو ما فعله العبرانيون أو بالأحرى الكلدانيون ، مع إضافتهم إلى هذه الكلمة ، النهاية الخاصة بالاصطلاح التعبيرى فى لغتهم ، مع تغيير الحروف القوية أو الغليظة إلى حروف رقيقة . وهكذا فبدلا من كنكن أصبح لدى هؤلاء فى البداية كلمة كلكل Celcel ؛ ومع تلطيف الحرفين الأول والرابع (الكافين) تكونت

---

(١) لقد كتبنا الكلمات الأثيوبية (الأمهرية) على الدوام طبقا لنطق القساوسة الأحباش ، وليس طبقا للمعاجم الأوربية .

كلمة تزلتزيلى Tzltzeilei أو تزيلتزيلى tzilttzelei. إذن ، فلم يتحتم لاحداث تغيير بهذا الحجم فى الكلمة المصرية ، سوى إحلال حرف جامد لسانى محل حرف جامد لسانى آخر ، وابدال حرف قوى بآخر ضعيف أو رقيق .

ونحن ننسب إلى الكلدانيين ابدال النون باللام ، طبقا لما يخبرنا به سكاليجر Scaliger ، الذى يلاحظ فى كتابه : « عن إصلاح الأزمان » :

De emendatione temporum

ان الكلدانيين كان من عادتهم أن يستبدلوا بحرف اللام حرف النون(١) فى كل كلمة يقابلهم فيها الحرف الأخير ، فكانوا يلفظون لابوخذنصر بدلا من نبوخذنصر ، ولابونيداس بدلا من نابونيداس ؛ ومن جهة أخرى ، فحيث أن العبريين قد أوشكوا على أن يفقدوا كلية صلتهم بلغتهم الأصلية ، بفعل تعودهم الاستخدام الدائم للغة الكلدانية أثناء أسرهم البابلى ، وحيث تعودوا أن يلفظوا الكلمات على غرار ما يفعل الكلدانيون ، فإن هناك كبير احتمال لأن يتطابق هؤلاء مع أولئك فى طريقة لفظ كلمة كنكن Cencen .

ولسوف يستطيع الاغريق ، وهم الذين استعاروا كل آلاتهم الموسيقية على وجه التقريب من الآسيويين ، أن يحصلوا كذلك على هذه الآلة أو على أقل تقدير على اسمها ، ولسوف يقومون طبقا لعاداتهم بأن يستبعدوا من كلمة تزلتزيلى Tzeltzelei كل ما يجعل نطقها عسيرا عليهم أو يسبب لهم فى ذلك بعض الضيق ، ولسوف يضيفون إليها كذلك النهاية التى تتفق مع التعبيرات الخاصة بلغتهم ؛ وهكذا فبدلا من تزلتزيلون Tzeltzelon التى كان عليهم أن يلفظوها ، أصبحوا يقولون فى البداية سستيلون Sistelon ثم ، بعد ذلك ، تحولت اللام إلى راء لكى يصبح النطق أكثر رقة وأصبحت تلفظ سستيرون Sisteron التى تحولت بفعل الدمغ أو الدمج إلى سسترون Sistron ، محتفظين على الدوام ، وعلى نحو ما كان الكلدانيون والعبرانيون قد فعلوه ، بالحرفين الصافرين اللذين يبدوان على أنهما الحرفان المصوران فى الكلمة المصرية كنكن Cencen .

---

(١) أى الحرف l فى مكان حرف الـ n (اللام فى مكان النون) .

ان التشويه أو التحريف الذى ألحقه الاغريق بهذه الكلمة كنكن Cencen ، التى تلقوها بالفعل محرفة فى شكل الكلمة Tziltzelei تزيلتزيلى لن يبدو مدهشا حين نقارنه بالتحريف الذى تناول الكلمة العبرية يكزكل Iechezchel والذى جعل منها إيزكييل Ezechiel (حزقيال ؟) ؛ أو كذلك بالتحريف فى الاسم شاجاى Chaggai والذى جعل منها Aggée وأخيرا بالتحريف الذى تناول الاسم Chizchiiale حين جعل منها Ezechias[1] الخ الخ .

---

(١) ليس هناك اختلاف فى التغييرات التى تناولت كل هذه الأسماء أكبر من ذلك التغيير الذى أصاب اسم مدينة رشيد والذى تحول فى لغتنا إلى روزيت Rosette .

المبحث الثالث

عن النوع الثانى من الآلات الجرسية
وعن اسمها فى لغة هؤلاء الأقوام

بخلاف المزاهر أو الجلاجل التى تتكرر رسومها كثيرا فوق جدران المبانى القديمة فى مصر ، هناك نوع آخر من الآلات الجرسية ، أو ذات الصليل ، أى الآلات الصاخبة ، نلحظ وجوده فى أماكن عدة . وقد بدت لنا هذه الآلات ، التى لها شكل القرص – نوعا من الصناج (الصاجات) . ونراها (فى الرسوم) عادة بين أيدى شخوص ، يبدو أنهم نساء ، يقمن بحركة رقص دائرية .

وفى واقع الأمر ، فإن ميناندر Ménandre ، الذى يشير إليه سترابون[1] ، يخبرنا بأنه فى مناسبة الأضحيات التى كانت تقدم خمس مرات فى اليوم الواحد ، كانت هناك نسوة يبلغ عددهن سبع سيدات ، يكون دائرة ، ويضربن بالصناج[2] ، فى حين كانت هناك أخريات يطلقن صرخات نافذة للغاية . ويبدو أن أوفيد ، بدوره ، قد رأى هؤلاء النسوة رأى العين ، حين تحدث فى الكتاب الثالث من تقاويمه « Fastes » ، البيت ٧٤٠ عن البحيات فى إثر باخوس[3] . كذلك يتحدث عنهن بلوتارك فى الكتاب الرابع من مؤلفه : أحاديث المائدة حين يقول : ليس هناك أكثر ولا أقل من وجود نسوة فى بلادنا ، يصنعن ضجة كبيرة فى الأضحيات الليلية التى كانت تقدم إلى باخوس والتى تسمى نيقتليا Nyctelia أى الأعياد الليلية ، واللاتى تطلق عليهن

---

(١) سترابون ، الجغرافيات ، الكتاب السابع ، ص ٣٥٧ .

(٢) « فى احتفال يقام خمس مرات فى اليوم ،
وسبع خادمات كن يقرعن الصناج خلال الدائرة ؛
وأخريات كن يولولن ما فى ذلك جدال » .
(ماناندروس فى مسرحيته : كاره النساء) .

كذلك كان عدد النسوة اللاتى نراهن مرسومات على جدران المعبد الصغير فى إدفو حول مهد أوزيريس ، يضربن بالصناج ، يبلغ سبع سيدات .

(٣) جماعات من التابعات يمسكن بأيديهن صناجا يصدرن به صليلا .

على وجه الخصوص الكنيـة : وصيفـلت باخـسوس أى Chalcodristas (شالكودريستاس) وهى كلمة تكاد تعنى : الحك على النحاس[١] .

أما بخصوص الاسم الذى يخلعه المصريون على هذا الصنف من الصناج ، (أو الصاجات) فإننا نعتقد أن ليس هناك من شغله هذا الأمر ، كما نشك أن هذا الاسم قد عرف على الاطلاق .

ومع ذلك فإننا نجد فى الترجمة القبطية للمزمور المائة والخمسين ، الآية ٥ ، اسم هذا النوع من الآلات الموسيقية وقد تحول إلى كيمبالون Kymbalon ، وإن كانت هذه الكلمة فى الواقع هى نفسها الكلمة الاغريقية التى تعنى الصناج أو الصاجات ، والتى نجدها فى الترجمة السبعينية ، والتى أخذ عنها الأقباط كلمتهم فى ترجمتهم للعهد القديم ؛ كما أننا لا نشك فى أن هذه الكلمة لا تنتمى قط إلى اللغة المصرية .

وإذا أردنا أن نحكم على الأمر عن طريق النص العبرى (للتوراة) أو عن طريق الترجمة الحبشية (الأمهرية) وهما يتطابقان تمام التطابق ، فسوف نجد أن اسم الصنج واسم المزهر أو الجلجل لا يختلفان فيما بينهما قط إلا عن طريق الصفة التى كانت تلحق بهما ، كليهما ؛ فقد كانت الصناج تسمى جرسيات رنانة[٢]، أما المزاهر فكانت تسمى جرسيات صاخبة[٣]. وفى كلتا الحالتين كانت العبرية تستخدم كلمة tziltzelei، أما الأمهرية فكانت تستخدم إيزيناكيل Izanacel،وهما تماثلان ، كما سبق أن استرعينا الانتباه ، الكلمة المصرية كنكن Cencen ؛ ومن هنا فإننا نخلص إلى أن كلمة كنكن كانت تعنى بصفة عامة النغمات أو الأصوات الرنانة التى تحدثها كل الآلات الموسيقية المعدنية ، وان أسماء الآلات المختلفة من هذا النوع ، لم تكن تتميز إلا بالصفة التى كانت تحدد إما شكل كل منها ، وإما نوع الرنين الذى كانت تحدثه .

---

(١) ترجمة أميو Amyot .

(٢) بالعبرية : بى ترلترلى شينا ، وبالأمهرية : بى تزيناكيل زيكتيه قالو .

(٣) بالعبرية : بى تزيلتزيلى ثيرواه ، وبالأمهرية : بى تزيناكيل أوافا باق .

الفصل الرابع

عن آلات الايقاع المستخدمة فى موسيقى المصريين القدماء

المبحث الأول

ملاحظات تمهيدية

حيث قد واتتنا الفرصة فيما سبق للحديث عن استعمال الآلات الموسيقية أثناء بحثنا عن حالة الموسيقى القديمة فى مصر ، وعن أنواع الغناء وضروب الشعر المختلفة عند قدماء المصريين ، وعن دافع وغرض الأعياد السنوية ، وعن الاحتفالات وطابع صنوف الغناء التى كانت تصاحبها ، فإننا لا نستطيع أن ندخل فى بعض التفاصيل حول آلات الايقاع[1] دون أن نكرر أنفسنا . ولهذا السبب فإننا لن نسترجع قط ما سبق لنا أن لاحظناه فى مواضع عدة ، بخصوص هذا النوع من الآلات ؛ وسنكتفى هنا بأن نصف شكلها واستخدامها ، وأن نعرف بالاسم الذى كانت تعرف به قديما ، أو الذى تعرف به فى الوقت الراهن .

(١) كانت توجد هذه التفاصيل فى البحث الذى نتحدث عنه ، والذى كان ينبغى له أن يسبق هذا البحث ، لكنه تأخر حتى الملزمة التالية .

المبحث الثانى

عن آلة إيقاع معينة من آلات الموسيقى عند قدماء المصريين ؛ عن شكلها واستخدامها ؛ عن صلتها الوثيقة البادية بآلة موسيقية من النوع الذى يستخدم فى بعض الكنائس المسيحية فى الشرق

من بين صور الشخصيات التى نجدها مرسومة فى موكب عرس ، نراه منقوشا على جدران أحد الكهوف الواقعة بالجبل الموجود بالقرب من إيليتيا (الكاب)[1] ، نلاحظ وجود بعض موسيقيين يقوم أحدهم بالنقر على القيثار (الهارب أو الجنك) ، ويقوم الآخر بالعزف على ناى ذى قصبتين ، وهناك ثالث يمسك بعصوين كبيرتين (واحدة بكل يد) يضربهما فيما يبدو ، الواحدة بالأخرى .

وقد كانت هذه الآلة – العصى المصفقة – تستخدم فيما يبدو فى تحديد وضبط ايقاع الألحان التى كان الموسيقيون الآخرون يعزفونها . وتدفعنا بساطة شكلها لأن نستخلص أن استخدامها يعود إلى عدة قرون بالغة القدم ، وأنها قد سبقت ولابد حتى ابتكار المزهر والدف والصناج وكل آلات الإيقاع الأخرى ، وهى الآلة التى سمحت ببقائها الأخلاق الصارمة التى كان عليها زهاد اليهود القدامى فى مصر ، ومن المعروف أن ديانة هؤلاء لم تكن شيئا آخر سوى الذيانة المصرية القديمة ، بعد إصلاحها وتبسيطها وتخليصها من كل ما كان يشوبها من الوثنية مع خلطها بشىء من اليهودية والمسيحية .

وحيث لم يكن العبريون قط قد استخدموا آلة مشابهة لتلك التى نعنيها ، فإن كتب الأقباط التى لا تضم سوى العهدين القديم والجديد ، لم يكن بمقدورها فى

(١) انظر اللوحة رقم ٧٠ ، الشكل رقم ٢ .

الحقيقة أن تقدم لنا عونا من أى نوع ، حتى نستطيع أن نكشف عن اسمها فى اللغة المصرية القديمة .

ومع ذلك فقد وجدنا آلة من النوع نفسه تستخدم فى الكنائس الشرقية المنشقة فى الشرق (كذا) ؛ هى تلك التى يطلق عليها فى العربية اسم ناقوس ، وفى الأمهرية اسم تكفا Takqa ؛ ويوجد من هذه صنفان : ناقوس خشب ، أى الناقوس المصنوع من الخشب(١) أما الآخر فيطلق عليه اسم ناقوس حديد ، أى الناقوس المصنوع من الحديد .

وينقسم النوع الأول بدوره إلى قسمين : فهناك نواقيس يبلغ عرضها نحو قدم واحد ، فى حين يصل طولها إلى نحو ستة أقدام ؛ وهذه تعلق بواسطة حبال فى سقوف الكنائس ، وتستخدم فى حث المؤمنين على أداء الخدمة المقدسة ؛ وهم يضربونها بمطرقة خشبية صغيرة الحجم . وهناك صنف آخر أصغر من ذلك حجما بكثير يمسك باليد ويضرب بالمثل بمطرقة صغيرة من الخشب .

أما الثانى ، أى الناقوس الحديد ، فهو عادة أقل حجما من النواقيس الخشبية ، وهو يستخدم بصفة أكثر خصوصية فى كنائس الأروام فى الامبراطورية العثمانية ، أكثر مما يستخدم فى الكنائس الأخرى ؛ ويطلق عليه بعض المؤلفين اسم سيمنتيرى ؛ ولعل هذا هو اسمه فى اللغة ***الدارجة*** ، وان كان الاسم الحقيقى الذى يعطيه له الأروام أو اليونانيون هو هاجيوزيدير h agiosidêre ، وهى كلمة يونانية تتكون من مقطعين : hagios هاجيوس بمعنى مقدس ، وسيدروس sidéros بمعنى حديد (أى الحديد المقدس) .

ونتوقف ببحثنا حول هذا النوع الأخير عند هذا الحد ، محتفظين لأنفسنا بحق الحديث عنها بشكل أكثر إيجابية وأكثر تفصيلا ، حين نتصدى لمعالجة الحالة الراهنة لفن الموسيقى فى مصر . أما الآن ، فهذا هو ما نستطيع أن نقوله ، كيما نعطى بعض فكرة عن هذا النوع من آلات الايقاع ، التى يراها المرء بين رسوم كهوف إيليتيا (الكاب) .

---

(١) وتعنى هذه الكلمة بصفة عامة كل آلة من آلات الايقاع

المبحث الثالث

عن الدف القديم فى مصر

ليس من اليسير أن يكون المرء لنفسه فكرة دقيقة عن شكل الدفوف المصرية القديمة ، نقلا عن تلك الدفوف المنقوشة فوق المبانى القديمة لهذا البلد ؛ ومن العسير كذلك علينا أن نجدها فى شكل الصنوج مالم نكن قد قمنا بدراسة خاصة بهذا النوع من الآلات وبالاستعمالات التى خصصت من أجلها . وحيث لم يسمح جهل القدماء فيما يتعلق بالمنظور ، لكل من الحفارين أو صانعى التماثيل أن يبرزوا الأشياء إلا من منظور جانبى ، فلم يكن بمقدور المرء أن يقدر سمكها . ولم يكن من شأن الرسوم بالغة الأمانة والدقة والتى رسمت لها ، أن توقفنا على هذا السمك بحيث بدت هذه الدفوف شبيهة بالأقراص ، تمسك بها الشخوص كما لو كانت تلتصق بأيديها . إننا لم نكن بمستطيعين على الاطلاق أن نتعرف على هذا النوع من الآلات الموسيقية لو لم يكن الشعراء قد علمونا كيف نميز الدفوف القديمة ، فهم يطلعوننا على طريقة الإمساك بها والعزف عليها[1] وكذلك على اغراض استخدامها فى حفلات العبادة ، سواء فى ذلك عبادة باخوس[2] أى أوزيريس ، أو فى عبادة رع ، أو فى عبادة قيبال Cybele التى هى ايزيس[3] .

---

(١) أوفيدوس ، مسخ الكائنات ، كتاب ٣ ، بيت ٤٠٨ ، وكتاب ٤ ، بيت ٢٩ ؛ المؤلف نفسه ، التقويم ، كتاب ٤ بيت ٣٤٢ ؛ بروبرتيوس ، ك ٣ ، إليجية ١٧ ، بيت ٣٣ .

(٢) يوربيديس ، عابدات باكخوس ، أبيات ١٤٧ ، ١٤٨ ؛ المؤلف نفسه ، الكيكلوبس ، أبيات ٦٥ ، ٦٦ ؛ أوفيدوس ، أنظر أعلاه ؛ فايدرا لهيبوليتوس ، أبيات ٤٧ ، ٤٨ ؛ بروبرتيوس ، انظر أعلاه ؛ نونوس من مدينة بانوبوليس (اخميم حاليا) ؛ ديونيسوس ، ك ١٧ ، بيت ٢٢٩ .

(٣) أورفيوس ، بخور أم الأرباب ، فى مواضيع متفرقة ، بخور ريا ، عطور ، بيت ١ وما يليه ؛ يوربيديس ، عابدات باكخوس ، بيت ١٢٤ ؛ أريستوفانيس ، الزنابير ، فصل ٥ ، مشهد يجمع بين بديليكليون وكسانثياس وسوسيا وفيلوكيون ، بيت ١١٨ .

ومع ذلك فمن المحتمل ألا تكون هذه الدفوف غير مسطحة (أى ذات عمق) أو أسطوانية الشكل مثل دفوفنا العسكرية ، ونحن من جانبنا نظن أنها لم تكن لتختلف قط ، بالضرورة ، عن الدفوف القديمة الأخرى ، التى كانت تشبه دفوفنا : تلك التى نطلق عليها دفوف الباسك .

أما الأشخاص الذين رأينا بين أيديهم هذه الآلات فقد بدوا لنا نساء ؛ وفى الواقع فقد كان الدف ، عند الاغريق وعند العبريين ، وعند الغالبية العظمى من شعوب الشرق القديم ، آلة تختص بها النسوة أو على الأكثر تدخر لرجال تجردوا من رجولتهم أمثال كهان اليونان القديمة . ولا يزال المرء يراه حتى اليوم فى مصر بشكل اعتيادى فى أيدى النسوة أكثر مما يراه فى أيدى الرجال . وهنا يكمن السبب الذى من أجله ، دون جدال ، جاءت هذه الآلات خفيفة ، سهلة الاستعمال .

ولهذا السبب فإننا نظن أنه عن طريق الأشخاص الذين نقشوا أو رسموا فوق المبانى المصرية القديمة ، ممسكين فى أيديهم بقرص كبير ، وهم يرقصون ، قد أريد رسم كاهنات باخيات ، يضربن على طبولهن أو دفوفهن الشبيهة بدفوف الباسك لدينا .

ومن المؤكد أن عادة الحفر أو الرسم فوق المبانى الأثرية ، بل حتى فوق الآنية لراقصات باخيات ، وهن ينقرن على دف الباسك ، كان أمرا بالغ الانتشار بين اليونانيين ، وهم ، كما هو معروف ، قد استعاروا غالبية أنظمتهم الدينية والمدنية وكذلك فنونهم من المصريين ؛ ويخبرنا بلوتارك أنه كانت ترى كذلك بعض هذه الآلات مرسومة أو محفورة فوق معابد اليهود(١) .

---

(١) يقول بلوتارك فى أحاديث المائدة ، الكتاب الرابع ، القضية الخامسة :

Plutarque, propos de table, liv IV, quest. 5

« واذا كان اليهود ، سواء بدافع دينى ، أو بسبب الكراهية قد امتنعوا عن أكل لحم الخنزير فإن مزراق باخوس(*) وكذلك الحربة والطبلة(**) التى يراها المرء مرسومة فوق تلبيسة حواجز أو جدران معابدهم ، لا يمكنها أن تناسب ، بشكلها الاحتفالى هذا ، إلها آخر سوى باخوس » .

(*) صولجان أو رمح يتوج بحلية على شكل كوز صنوبر يلف أحيانا بأعواد الكرمة ، وكان يحمله باخوس وأعوانه . [المترجم] .

(**) الكلمة المستخدمة هنالك tambourin ومعناها الطبلة طويلة العنق ، والتى ينقر عليها بعصا واحدة . [المترجم] .

إذن فنحن بصدد عادة أو استعمال انتشر بين جزء كبير من شعوب الشرق الأقدمين ؛ وبمعنى آخر ، فليس من المحتمل أن يكون المصريون ، وهم كانوا يعرفون هذه الآلة ، وكانوا يستخدمونها فى معابدهم وحروبهم[١] ، بل كانوا هم مخترعيها[٢] ، هم الوحيدين الذين يستطيعون أن يهملوا زخرفة معابدهم ، بصور من هذا النوع .

ولهذا السبب ، فإن ماأحدسناه منذ البداية ، وكذلك ما تحملنا على الاعتقاد فى صحته شهادة الشعراء ، قد وجدناه مجسدا فى عادات شعوب الشرق .

---

(١) كليمانس السكندرى ، المربى ، الكتاب الثانى ، فصل ٤ ، ص ١٦٤ د .
(٢) نفس المؤلف ونفس المرجع .

المبحث الرابع

عن اسم الدف القديم فى اللغة المصرية
والذى يعرف فى لغتنا الدارجة باسم
دف الباسك

يستحيل أن يكون فى اسم هذه الآلة مبعث لأى شك ، فقد احتفظت لنا به اللغة القبطية ، وهو الاسم كمكم kemkem الذى ظن لاكروتشه أنه اسم المزهر أو الجلجل ، إذ جعله مشتقا من الكلمة اليونانية seiein بمعنى يهز أو يرج ، ولأن المرء يجده مستخدما بهذا المعنى فى الترجمة القبطية للمزمور الحادى والعشرين ، الآية ٧ ، والاصحاح السابع ، الآية ٧ .

ولكننا قد سبق أن برهنا على أن اسم سستر أى مزهر أو جلجل يعنى الآلة الموسيقية ذات الصليل أو الرنانة ، وأنه لا يمكنه بأية حال أن يعطى عند المصريين معنى مماثلا للفعلين يرج أو يهز ، وفى واقع الأمر فإننا لا نجد مثالا واحدا أخذت فيه كلمة كمكم على أنها تعنى المزهر . بل إن الشراح الأقباط قد حولوا كلمة كمكم kemkem إلى تف toph وهى تعنى فى العبرية دفا من نوع الدفوف التى تحدثنا للتو عنها أى الدف الذى تستخدمه النسوة ، وهو شبيه بالدف الذى نطلق نحن عليه اسم دف الباسك .

ولهذا السبب نقرأ فى النص العبرى للمزمور ١٥٠ ، الآية الرابعة : « هاليلا أوهو بى توف أو ماشول » أى « سبحوه بدف ورقص ، سبحوه بأوتار ومزمار » ثم نجد هذا النص نفسه فى اللغة القبطية : « سمو إرق هن تان كمكم نِم طاسى كورس وهكذا تقابل الكلمة القبطية كمكم الكلمة العبرية تف – أى دف – والذى يعنى (عندنا) دف الباسك . ومن الصحيح أن الأقباط قد قصدوا بمعنى كمكم دفا من نوع هذه التى نتحدث عنها ، وأن هذه الكلمة قد تحولت فى الترجمة الهامشية من

القبطية إلى العربية[١] إلى كلمة دفوف ، جمع دف[٢] ، كما أننا نجد فى الترجمة القبطية للمزمور ١١٨ ، الآية ٥ ، كلمة rep- kemkem ربـكمكم لكى تشير إلى ضاربات الدف .

ولو أننا مضينا لنقدم بعد براهين على هذه الدرجة من الوضوح ، براهين أخرى ، لكان محقا ذلك القارىء الذى يوجه إلينا الاتهام بأننا نسعى وزاء استعراض للمعرفة لا جدوى منه ؛ ومع ذلك فإننا على يقين بأن العمل الذى نقدمه هنا الآن ، أقل جاذبية فى حد ذاته ، حتى أننا قد اختصرناه إلى أقصى قدر ممكن (من الاختصار) بالنسبة لنا ؛ بل لكم كنا نود لو استطعنا أن نستبعد منه كل ما ليس له ضرورة مطلقة ؛ ومع ذلك ، فحيث ان هذه المادة لا يعرفها سوى القليلين ، فقد ظننا أن من المناسب أن نضيف بعض الأفكار ، إلى الكثير من النقاط التى كانت تحتاج إلى توضيح .

---

(١) كتبت هذه الترجمة على هذا النحو للتسهيل على أقباط اليوم الذين لم يعودوا يفهمون لغتهم الخاصة .

(٢) وهو اسم نوع من دفوف الباسك ، لا يزال المصريون يستخدمونه حتى اليوم ، وبمعنى آخر ، فإنه مما لا شك فيه أن الكلمة العربية : دف ليس لها قط أصل يختلف عن أصل الكلمة العبرية : تف toph ، بل إنها ليست شيئا آخر غير هذه الكلمة الأخيرة ، وان كانت تلفظ بطريقة أكثر رقة .

كتب أخرى للمترجم

أولاً : فى مجال الأدب :

١- المطاردون (مجموعة قصص قصيرة) .

٢ – حكايات من عالم الحيوان .

٣ – المصيدة (مجموعة قصص قصيرة) .

٤ – موتى بلا قبور (مسرحية تأليف چان بول سارتر) .

٥ – السماء تمطر ماء جافا . .

(رواية تسجيلية تتناول وقائع الوحدة المصرية السورية وانفصالها) .

ثانيا : فى مجال التاريخ :

١ – تطور مصر من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٠ . تأليف مارسيل كولمب .

٢ – فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية . تأليف أندريه ريمون .

ثالثا : الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية .

١ – المصريون المحدثون .

٢ – العرب فى ريف مصر وصحراواتها .

٣ – دراسات عن المدن والأقاليم المصرية .

٤ – الزراعة ، الصناعات والحرف ، التجارة .

٥ – النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية .

٦ – الموازين والنقود .

٧ – الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين .

٨ – الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين .

٩ – الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين .

١٠ – مدينة القاهرة – الخطوط العربية على عمائر القاهرة .

رابعاً : لوحات موسوعة وصف مصر :

١ – المجلد الأول والثانى للوحات الدولة الحديثة .

٢ – المجلد الأول من لوحات الدولة القديمة .

خامسا : من موسوعة وصف مصر :

(دراسات مختارة من الموسوعة فى كتيبات)

١ – كيف خرج اليهود من مصر القديمة .

٢ – مدينة الأسكندرية .

٣ – مدينة رشيد .

تحت الطبع

– مقياس الروضة .

– القاهرة المملوكية .

– بقية مجلدات لوحات موسوعة وصف مصر .

– بقية الدراسات المختارة من موسوعة وصف مصر .

مطابع
ت : ٩٣٢٧٠٦

الترجمة الكاملة
(٨)

وصف مصر

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

الموسيقى والغناء
عند المصريين المحدثين



٨

الترجمة الكاملة

وصف مصر

الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين

تأليف

فيوتو

ترجمة

زهير الشايب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

فكثيرة هى الصعوبات المنهجية التى اكتنفت ، وواكبت ، ترجمة هذا الجزء من موسوعة وصف مصر ؛ أما السبب الرئيسى فى ظهور مثل هذه الصعوبات فهو المبدأ الذى أصرت هذه الترجمة أن تقوم على أساسه ، وأن تضعه نصب عينها دوما ، مبدأ أن يقدم العمل بأمانة تامة ، بحيث يكون النص العربى مقابلا ومطابقا للأصل الفرنسى ، نصا وروحا .

كانت هناك أمور كثيرة سوف يلمسها قارىء هذا الجزء تدعو إلى التردد فى تقديمها ، إما لأنها لا تنتمى إلى « العلم » فى حد ذاته ، وإنما تدخل فيما يعد تاريخا للعلم ، وإما لأن الاصرار على تقديم الأشكال والنماذج والإشارات والسلالم الموسيقية .. الخ ، والحرص على أن تأتى ، فى كل تفصيلاتها ، مماثلة لأصلها الفرنسى ، أمر يبعث على إملال احتاج إلى مجاهدة شديدة ومعاناة أشد ، وإما لأن جزءا لا بأس به من مادة هذا الكتاب تتناول موسيقى الجاليات الأجنبية التى كانت تقطن مصر من أفارقة وأروام وفرس .. الخ ، ناهيك عن أن كثيرا من المباحث التى توقفت عندها الدراسة بأناة لابد أن نحمدها للمؤلف ، فالأناة والدقة ، فى حد ذاتهما ، مطلب علمى وأكاديمى تشد إليه الرِّحال ، قد تغير الآن ، فالناس فى كل مكان يستخدمون السلم الموسيقى والإشارات الموسيقية الغربية ، بحيث لم تعد هذه ذات موضوع اليوم ، وهذا ما أدى إلى القول بأنها تعد تاريخا للعلم ، بل تكاد تكون تأريخا للتاريخ ذاته .

وإذا كان الأمر قد انتهى ، لاعتبارات كثيرة ، إلى تأكيد المبدأ الذى قامت الترجمة عليه ، مبدأ تقديم العمل بتمامه وكماله ، بنصه وروحه ، فأرجو ألا يعد هذا من قبيل تفسير الماء بعد الجهد بالماء ، إذا ما وقفنا أمام المعنى السطحى لهذا المثل ، ذلك أن تحليل شيء ، والوقوف على كافة العناصر المكونة له ، والتى يؤدى تركيبها بعد ذلك إلى الشيء نفسه قبل تصدينا له بالتحليل لا يمكن أن ينظر إليه قط كأمر عابث أو كعمل يدعو للسخرية والاستخفاف .

ولبعض من الاعتبارات السابقة ، وغيرها ، ألحت كثيرا فكرة التلخيص أو الاختصار ، لكنها نحيت على الدوام ، وفى كل مرة ألحت فيها ، لأسباب عديدة ؛ فمثل هذا التصرف قد يعد تجاسرا على نص يحظى بهالة من القداسة لدى الجميع ، مما سيعد ثغرة فى مجهودنا ، لماذا نتبرع بايجادها ؟ ونحن لا نريد أن نكون ممن يحرثون فى البحر أو يهيلون بأنفسهم التراب على أثر نقبوا عنه وما كادوا يظهرونه للعيان ؛ كذلك فمن يدرى أن تكون مثل هذا المادة التى قد نرى فيها اليوم تزيدا لا طائل منه أو حشوا ، هى ذات نفع عظيم لآخرين ، ولست بمتخصص ، ولست أدعى العلم بكل شيء ؛ وأكثر من ذلك : أو ليس كل هؤلاء الأقوام قد اندمجوا اليوم فى شعب مصر وأصبحوا جزءا منه ؟ ألا يعنى هذا أن ثقافتهم بدورها أصبحت رافدا ظل يرفد فى ثقافتنا حتى صار اليوم جزءا أصيلا منها ؟ وبالتالى ألا يمكن أن يكون فى دراسة ذلك كله سعيا للوقوف على كل الروافد والجذور ؟

ومع ذلك فكثير من جلائل الأعمال والمؤلفات قد تعرضت لتلخيص أو لتبسيط ، وقد راجت بفعل ذلك ، لكن الرد على ذلك كان واضحا وبسيطا : إن أى تلخيص لا غنى له عن الأصل ، فهذا الأصل ، حتى ولو لم يرجع إليه الكثيرون ، ولا نقول لو لم يرجع إليه أحد ، هو بمثابة الغطاء الذهبى لعملات النقد الورقية ، فهو فى الحقيقة غطاء ثقة علمى لعملية التلخيص ، إن كانت قط واردة .

ولقد سبق هذا المجلد (وهو الثامن) ، المجلد أو الجزء السابع الذى يتناول موسيقى وغناء المصريين القدماء ، وسيتلوه بإذن الله المجلد التاسع الذى يتناول الآلات الموسيقية التى كان يستخدمها المصريون المحدثون ، والجاليات التى كانت تقيم بينهم ، فى ذلك الوقت . وكل هذه الدراسات من وضع رجل واحد ، يجمل بنا أن نقول شيئا عنه .

تذكر عنه مصادر المعرفة الفرنسية :

ما يلى :

جيوم أندريه فيوتو Guillaume- André Villoteau مؤلف موسيقى ولد فى

Orne (Bellême) فى عام ١٧٥٩ ، وتوفى عام ١٨٣٩ . أتم دراسته فى كوليج دى مانس Collège de Mans ؛ وكانت أسرته تريد له أن يكون قسيسا ، على الرغم منه ، فترك مدينته وعمل موسيقيا جوالا ، ثم عاد إلى بلدته ، ثم تركها إلى لاروشيل ، ومن هناك ذهب إلى باريس ؛ ولكى يكسب قوته ، كان عليه أن يذعن ويدخل فى سلك الكهنوت ؛ وحيث لم يكف عن الاهتمام بالموسيقى فقد التحق بجوقة نوتر دام ؛ وعند بداية الثورة ' ـسية سارع بخلع رداء الكهنوت والتحق مغنيا فى فرقة الأوبرا لبعض الوقت . وقد أهلته معارفه الموسيقية ليصبح واحدا من البعثة العلمية التى رافقت حملة بونابرت إلى مصر ، فدرس بعمق فن الموسيقى لهذا الشعب .

وبعد عودته إلى فرنسا ، كتب بحوثا هامة حول هذا الموضوع ، ظهرت فى موسوعة « وصف مصر » . وحيث لم يوفق فى الحصول على مركز أو وظيفة فى باريس ، فقد انسحب إلى تور ، حيث قضى بقية حياته .

وتدين له المكتبة الفرنسية بالمؤلفات التالية :

Memoires sur la possibilité et l' utilité d' une théorie exacte des principes généraux de la musique (1807) .

أى :

مذكرات حول امكانية وضرورة قيام نظرية دقيقة حول المبادىء العامة للموسيقى (١٨٠٧) .

Recherches sur l'analogie de la musique avec les arts qui ont pour objet l' imitation de la langue (2 Vol) .

أى :

بحوث حول التماثل القائم بين الموسيقى وبين الفنون التى تنهض على أساس المحاكاة اللغوية (فى مجلدين) .

وتضيف هذه المصادر بأن هذا المؤلف الأخير كان عملا بالغ التجريد ، فلم يحز قط النجاح الذى كان مؤلفه يطمح إليه .

وقد لا يكون لدينا المزيد لنقوله عن الرجل ، لكن منهجه وسعة اطلاعه ، وسعة أفقه ، ودأبه وأمانته ، كل هذه ، وغيرها ، خصال وميزات ينطق بها كل سطر في دراساته .

ولابد فى النهاية أن أوجه شكرا وتقديرا لاحد لهما للصديق الدكتور محمد حمدى ابراهيم أستاذ اللغات القديمة بآداب القاهرة على ما قدمه من عون فى ترجمة النصوص والعبارات اليونانية القديمة واللاتينية ، فى إخلاص وتجرد مع دماثة خلق لا تتحقق إلا عند عالم حق ؛ كما أوجه شكرى للصديق والأديب الكبير الدكتور نعيم عطية لما بذله من جهد فى إيضاح لفظ ومعانى النصوص اليونانية الحديثة ، كما أشكر الصديق رينيه خورى على ما يقدمه دوما من عون ؛ وسيظل هذا العمل كذلك مدينا لمجلة الثقافة ، ولشخص رئيس تحريرها الأديب الكبير الدكتور عبد العزيز الدسوقى لاحتضانه هذا العمل منذ كان وليدا يحبو وتشجيعه إياه ، بإفساح المجال له للنشر ، والتنويه به فى عبارات مشجعة تفيض نبلا ورقة ؛ كما أتوجه بالشكر لكل من يبادر بالنصح لاستدراك شيء فاتنى ، أو لتصويب خطأ إنزلقت إليه ، سهوا أو عن غير علم ، « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ؛ وأكرر شكرى لمكتبة الخانجى ومطبعتها سواء فى عهد الراحل العزيز الحاج نجيب الخانجى أو حاليا فى عهد ولده الأستاذ محمد أمين الخانجى ؛ على ما تبذله فى سبيل نشر وتطوير هذا العمل ، ليبدو ، ككتاب ، فى صورة لائقة مشرفة ، وجديرة به ، كما تستحق السيدة زوجتى شكرا كبيرا لا أمل من الاشارة إليه .

والله أسأل أن يجنبنا العثرات ويهدينا سواء السبيل وأن يكون فى هذا العمل نفع لوطنى مصر خاصة ، ولقراء العربية عامة ، فإن تحقق هذا فسوف يكون أعظم الجزاء .

أعسطس ١٩٨١ م

زهير الشايب

الباب الأول

عن الأنواع المختلفة للموسيقى الأفريقية المستعملة فى مصر ،

وفى القاهرة بشكل خاص

الفصل الأول
عن الموسيقى العربية

المبحث الأول

عن مشروع الدراسة كما كنا قد أعددناه عند بدئنا العمل ؛ وعن الأساليب والوسائل التى كانت فى حوزتنا كى نضعه موضوع التنفيذ ، وعن الدوافع التى حدت بنا لاتباع المنهج الذى تبنيناه فى النهاية

كنا على يقين منذ البداية ، وظل الأمر كذلك لبعض الوقت ، أن من المناسب ، حتى نضع القارىء فى وضع يمكنه من الوقوف بنفسه على الحالة الراهنة للموسيقى العربية فى مصر ، ومن تبين صدق ملاحظاتنا عنها ، أن نلحق بأوصافنا لها كلا من النص العربى والترجمة الفرنسية للبحوث المختلفة التى تناولت نظرية الموسيقى العربية وتطبيقاتها ، تلك التى حملناها معنا من هذا البلد . وكنا قد انتوينا أن نلحق بكل ذلك ، فى شكل تعليقات أو تعقيبات ، نتائج الفحص المقارن الذى قمنا به ، كيما نضىء النقاط الغامضة والعسيرة فى النص ، وذلك عن طريق أفكار أو معلومات اكتسبناها عن هذا الفن خلال سنوات ثلاث ونصف السنة ، لم نكف خلالها عن الاستماع إلى هذه الموسيقى ، وعن (رؤيتها) وهى تؤدى ، أو عن التخاطب مع أولئك الذين يمارسونها .

ومن هذه الوجهة ، فما أن عدنا إلى فرنسا ، وتوجهنا إلى باريس ، حتى أخذنا نلتمس العون من علماء اللغة العربية فى ترجمة مخطوطاتنا إلى الفرنسية [1] ، بل إن

---

(١) شاء المستشرق الشهير ، المسيو سلفستر دى ساسى ، عن طيب خاطر ليس فقط أن يترجم لنا واحدة منها بنفسه ؛ وأن يصحح الأخطاء والمعانى المتعارضة ، وتغيير مواضع بعض السطور وحذف الثرثرات أو اللغو الذى لا طائل من ورائه ، والتى تمتلىء بها النصوص بفعل جهالة أو غفلة الناسخ العربى ، وأخيرا أن يجلو النصوص العسيرة أو الغامضة أو تلك التى =

واحدا منهم قد مكننا من أن نلم بكل ما كان يوجد فى المكتبة الملكية من دراسات

= كانت معانيها تبعث على الشك ، بل إن كرمه قد مضى لأبعد من ذلك إلى حد أنه دعا المسيو سيديو Sédillot[ا] ، أحد تلاميذه المجدين والمتفوقين فى اللغة العربية لأن يتفحص معنا مخطوطتين أخريين .

أما المسيو هربان Herbin[ب] . وهو بالمثل تلميذ للمسيو دى ساسى ، فقد ترجم لنا كذلك واحدة من مخطوطاتنا ، وقد فعل ذلك بقدر بالغ من الترحيب ، وبقدر كبير من النجاح . فبقدر ما كان موسيقيا بارعا ، بقدر ما كان قد ترجم غالبية المخطوطات العربية والفارسية والتركية التى تعالج هذا الفن ، والتى أمكنه اكتشافها فى المكتبة الملكية ، حين كان يقوم لسنوات طويلة بإجراء بحوث حول الموسيقى الشرقية ، وقد مكننا من الاطلاع عليها فى مقابل تمكيننا إياه من المخطوطات التى تتناول الموضوع نفسه ، والتى قد حملناها معنا من مصر ، ومن المذكرات العديدة التى عملناها هناك حول الممارسة الاعتيادية لفن الموسيقى عند الشرقيين .

وكنا قد انتوينا أن نقدم بعد ذلك ، على المدى الطويل ، من كل هذه المواد مجملا تحليليا ومنهجيا فى الوقت نفسه ، كنا سنورد فيه كل الآراء المختلفة التى وضعها المؤلفون الشرقيون حول الموسيقى ، ونقدم فيه بطريقة مقارنة النظم المتباينة المعروفة عن هذا الفن والتى كانت تستخدم ، أو التى لاتزال تستخدم حتى اليوم ، فى الشرق ، وكنا كذلك قد جمعنا مفردات بالغة الكثرة حول كل المصطلحات الفنية فى الموسيقى العربية والتركية والفارسية والهندية[ج]، ولم يكن الموت قد =

(ا) يعمل المسيو سيديو حاليا سكرتيرا للمدرسة الخاصة باللغات الشرقية فى المكتبة الملكية ، ومدرسا لهذه اللغات نفسها .

(ب) المسيو هربان هو مؤلف قواعد اللغة الدارجة وهو الذى نشر مؤلفات كثيرة هامة ، من بين عدد كبير من ترجماته للمخطوطات الشرقية الثمينة للغاية والموجودة فى المكتبة الملكية ، والتى كان بالمستطاع أن نجدها منشورة اليوم ، لو لم يكن الموت قد أوقفه فى اللحظة نفسها التى كان يوشك فيها أن يجنى بعض ثمار بعض الأعمال التى أكب عليها ، دون مجاملة أو حرج من نوع ما ، وهى أمور تجعله دون جدال ، قمينا بأن يشغل مكانة متميزة بين العلماء الذين يتشرف بهم عصرنا .

(ج) كنا قد شرعنا بالفعل فى عمل قاموس متعدد اللغات ، من هذا النوع يتضمن =

عن الموسيقى ، مؤلفة باللغات العربية والتركية والفارسية ، حتى إن وفرة الوسائل التى كانت لدينا لتنفيذ هذا العمل ، والتى فاقت كل حد حتى بلغت مرتبة الخلط أو الارتباك ، كانت هى الشيء الوحيد الذى أمكنه أن يوقع بنا فى الحيرة .

لقد كانت المواد التى جمعناها للعمل الذى نقدمه هنا كثيرة لحد بالغ حتى بات فى غير مقدورنا أن نستخدمها جميعا . فنحن فى الواقع لم نستخدم سوى المواد التى تدخل مباشرة فى مجال بحثنا ، والتى يمكنها أن تسد وحدها ـــ كذلك ـــ فراغا فى أمور متباينة ، بل بالغة التباين لمدى بعيد ، بالمقارنة مع المدى الذى وصلت إليه أمور أكثر أهمية بكثير من موضوعنا .

وفضلا عن ذلك ، وكما استرعى البعض أنظارنا ، وكما لمسنا الأمر كذلك جيدا بأنفسنا ، فإن خطة هذا البحث ، لم تكن لتسمح بأن نضمنه تاريخ الموسيقى العربية . وعرضا منهجيا لمبادىء نظرية هذا الفن مع كل تطوراتها مع قواعد ممارسته ، ولم يكن يتحتم عليها ألا تضم سوى حكايات الرحالة المخلصين ، الذين قدموا عرضا بالبحوث والملاحظات والكشوف التى قاموا بها فى هذا البلد الذى زاروه (مصر) .

لكننا لم نسمح لأنفسنا ، خشية أن نتجاوز الحدود المقبولة ، إلا بعرض الأفكار ـــ التى بدت لنا ـــ وحدها ـــ ضرورية لا غنى عنها ، لكى نجعل من أفكارنا

= اختطف منا ، منذ عدة سنوات هذا الصديق العالم الذى يحظى بكل الاحترام والتقدير ، وهو بعد فى ربيع عمره ، لكانت سعادتنا بالغة فى أن نكب معه على هذا العمل الذى بات من العسير علينا أن ننجزه فى غيبته ، إذا ما توفرت لدينا ـــ برغم ذلك ـــ الوسائل الضرورية ، ناهيك عن الوقت لإتمامه .

= بخلاف المصطلحات الفنية ، وأسماء الآلات الموسيقية فى اللغات العربية والتركية والفارسية والهندية ، كل هذه المصطلحات نفسها فى اللغات العبرية والأثيوبية والقبطية والسريانية واليونانية والكلتية ، واللاتينية ، واللغات الحية فى أوربا .

أمورا محسوسة بالقدر الأكبر ، عندما يتيسر لنا أن نرسمها على هذا النحو عن طريق مجرد عرض الوقائع .

ولما كان الغرض الرئيسى لأبحاثنا هو الفن منظورا إليه فى حد ذاته ، أكثر مما كنا نهدف إلى تناول موسيقى هذا أو ذاك من الشعوب ، فإننا لم نتوقف قط عند مجرد تفحص الحالة التى أصبح عليها هذا الفن بين المصريين المحدثين ، وإنما ظننا أن من الواجب علينا أن نهتم بكل ما يشكل الحالة الراهنة لهذا الفن فى مصر .

هكذا إذن قد كان علينا – ليس فقط أن نولى أهمية لماهية الموسيقى العربية بالنسبة للمصريين ، الذين تبنوها – وإنما كذلك بكل الأنواع الأخرى من الموسيقات المختلفة ، التى تمارس بصفة اعتيادية فى مصر ، سواء على يد أهل البلاد ، أو على يد الأجانب الذين إستقروا فيها ، على شكل جاليات شديدة التميز ، وبصفة خاصة فى مدينة القاهرة ، حيث يتجمع هؤلاء الأجانب ، كل مع مواطنيه ، فى أحياء أوقفت عليهم بشكل خاص .

ولذلك فإننا سنتناول على التوالى : الموسيقى العربية ، والموسيقى الأفريقية ، والموسيقى الأثيوبية ، والقبطية ، والسيريانية ، والأرمينية ، واليونانية الحديثة ، وموسيقى اليهود فى مصر .

وبرغم أننا لن نتحدث إلا عما هو معروف ومتداول فى القاهرة فإننا سنقدم مع ذلك ، تفاصيل عن هذه الأنواع المختلفة من الموسيقى ، حصلنا عليها من تقارير الرحالة الذين زاروا هؤلاء الأقوام فى عقر دارهم ، وأن كان هؤلاء الرحالة لم يعقدوا قدرا مماثلا من الأهمية على ما يخص الموسيقى مثلما فعلنا ، نحن الذين درسنا منذ نيف وأربعين عاما هذا الفن ، كما أنهم — من جهة أخرى — لم يكونوا فى ظروف مواتية مثل تلك التى كنا فيها حين قمنا بملاحظاتنا هذه .

المبحث الثانى

فكرة موجزة عن حالة العلوم والفنون والحضارة عند المصريين المحدثين

لم تكد تتبقى لدى المصريين المحدثين سوى ظلال آثار باهته ، بل يشك فى صحتها كثيرا ، عن المؤسسات والأنظمة التى كانت تنتمى قديما لبلادهم ، فالدين والقوانين واللغة والموسيقى ، وفى كلمة ، العلوم والفنون التى يمارسونها .. كل هذا قد أخذوه عن العرب ، إذ تلقوه عن هؤلاء حين كانوا يحكمونهم . وبعيدا عن أن يكون المصريون قد توسعوا أو طوروا هذه المعارف . إذا ما إستثنينا علوم الدين الاسلامى ، فإنهم قد تركوا هذه المعارف تسقط فى هوة الاهمال والنسيان ، أو قل إنهم شوهوها كثيرا منذ خضعوا لنير العثمانيين ، حتى باتوا وقد كادوا ألا يحتفظوا بشىء مما يميز الأمم المتحضرة ، فى هذا المجال ، عن العصب الهمجية ، بل أنهم أكثر من هذه العصب البربرية تعاسة . إذ هم لا يتمتعون بحرية أن يقاوموا صنوف القهر ، أما حالتهم الاجتماعية فليست سوى عبودية قاسية تبعث على الشعور بالخزى ، تضاءلوا هم إليها بفعل ضعف حكامهم ، الذين تركوهم بنذالة شديدة نهبا للمظالم المقيته ، التى يجرها الطغيان الوقح والقاسى ، الذى يمارسه البكوات المماليك ، أولئك الذين يقدمون اليوم بعد اليوم ، ضحية جديدة على مذبح نهمهم الذى لا يشبع ، وتجاسرهم البغيض .

وحيث قد أصبح المصريون فريسة لكل الأفكار المسبقة التى تمليها الجهالة والخطأ اللذان استقرا بينهم ، فإنهم لم يعودوا يتطلعون حتى إلى البحث عن سبب آلامهم وبالتالى أن يضعوا لها حدا . فهم ينسبون كل أمر إلى أحكام القدر التى لاراد ولا دافع لها ، ويكتفون بأن يرددوا فى كل لحظة : **الله أكبر ، الله رحمن رحيم . الحمد لله** ..الخ وبأن يكرروا هذه الكلمات دفعا لكل دعوة عاقلة تحثهم على التفكير فى قدرهم التعس وردا على الآراء التى كنا نقترحها عليهم للتخفيف من قساوة هذا القدر ، أما التعصب الذى يشوه كل المبادىء ويتلف كل الفضائل فيفرض على

عقولهم الصمت التام ، ويرين ببرودة الثلج على قلوبهم ، ويحطم طاقتهم وحيويتهم . إنهم يعيشون فى حالة من اللامبالاة البليدة والبائسة ، وحيث لم يعد هؤلاء يستجيبون للمباهج الرقيقة التى ترفع الانسان فوق مصاف البهائم . فإنهم لا يبدون أدنى إهتمام لكل ما تجود به القرائح ، ولا يكنون سوى الازدراء التام لكل شىء لم يأمر به القرآن .

المبحث الثالث

حول قلة الأهمية التى يعقدها المصريون على دراسة وممارسة فن الموسيقى وحول قلة ما يعرفونه عن هذا الفن

لم يعد ينظر فى مصر إلى فن الموسيقى ، وهو الذى قد كان يدرس هناك بنجاح منذ زمان بعيد ، والذى ازدهر هناك ازدهارا رائعا فى عهد البطالمة ، وفى عهد الرومان ، ثم فى عهد الخلفاء المسلمين ولا سيما فى عهد الأيوبيين الذى احتفوا به وأولوه رعايتهم ، وبسطوا عليه حمايتهم بطريقة تسترعى الانتباه ـــ لم يعد ينظر فى هذه البلاد إلى هذا الفن المحبوب للغاية ، والباعث على السلوى ، إلا بإعتباره أمرا هزيلا ، لا يليق بأن يشغل فراغ أى مسلم صالح ، وحيث قد أصبح من يمارسون هذا الفن محقرين مهانين من جانب الرأى العام ، فقد لفظوا ليشكلوا جزءا من هذه الفئة المهينة ، فئة المهرجين والمضحكين ، ولذلك لم يعد يوجد من بين المصريين من يحترفون المهن الموسيقية ، سوى أناس عارين كلية من أيه موهبة ، لم يتلقوا أى قسط من التعليم وليس لديهم أوهى أمل فى أن يحصلوا من قبل المجتمع على أدنى إعتبار . أما معرفة هؤلاء بالموسيقى فلا تمتد إلى ما وراء دائرة الروتين الخاص بالممارسة المعتادة ، وليس لديهم لا إرادة ولا وسائل تطويرها أو إجادتها . وحيث يعرف هؤلاء أن يقرأوا أو يكتبوا فإنهم غير قادرين على دراسة المخطوطات التى تدور أبحاثها حول نظرية فنهم .

وهذه البحوث بالغة الندرة ، والتى لا يفهمها.اليوم أحد فى مصر [1] لم يعد بمقدور المرء أن يصادفها إلا فى مكتبات عدد ضئيل للغاية من العلماء الذين

---

(١) كذلك فليس بمقدور الناس فى أوربا أن يفهموها على نحو أفضل ؛ فحيث أن اللغة الفنية التى صيغت بها بحوث الموسيقى عند العرب تكاد تكون كلية ، لغة مجازية ، فليس هناك من يمكنهم أن يجعلوا من فهم هذه البحوث شيئا ميسورا سوى الأساتذة العلماء ، واسعى المعرفة ، ومثل هؤلاء لا يستطيع المرء أن يجدهم فى كل مكان .

يحتفظون بها بدافع من الفضول المحض . كذلك يستطيع المرء أن يجدها فى عمليات البيع والشراء العشوائية عند (الكتبية) حيث نجدها بمحض الصدفة قد جاءت مختلطة مع مخطوطات أخرى لا تحظى بأية قيمة على الاطلاق ، بل إننا لنجدها فى بعض الأحيان ، دون علم منهم ، ملقاة تحت أكداس من الأضابير والأوراق عديمة القيمة والنفايات ، التى يتركونها لتعلوها الأتربة أو نهبا للديدان والفئران .

ليس هناك سوى هذه المؤلفات ، ما يمكنها أن تقدم بنفسها معلومات كافية عن مبادىء الموسيقى العربية لأولئك الذين قد لا تتوفر لهم وسائل أخرى لمعرفتها ، أو مع ذلك ، ففيما عدا أن كل واحدة من هذه المخطوطات لا تعالج سوى جزئية من هذا الفن ، فإن غالبيتها ليست فى واقع الأمر سوى منسوخات غير دقيقة بالمرة ، وتعج بالأخطاء وضعها موسيقيون جهلاء أو انتحلها كتاب محترفون لم يستطيعوا ، حيث هم لا يفهمون ماكانوا يكتبون ، أن يتبينوا الأخطاء المتضاعفة التى أفلتت منهم أو التى كانت توجد فى النسخ الأصلية التى نقلوا عنها . ونستطيع أن نعرف ذلك بسهولة بفعل اضطراب المواد ، والتكرار الذى لا جدوى منه والاستخدام المزدوج للشىء الواحد ، بل والتناقضات فى الأفكار ، وبصفة عامة ، بفعل قلة الاتفاق ،وهو ما يبدو واضحا بين المؤلفين .

وبرغم ذلك فلا بد أن المؤلفات الأصلية ــ وهذا واضح – قد وضعت على يد علماء موسيقيين هم شعراء وفلاسفة فى وقت معا ، بل إن من المرجح أن تعود هذه المؤلفات إلى عصر الخلفاء ، الأمر الذى يدفعنا إلى الاعتقاد بأنها قد كتبت فى غالبيتها نثرا وبأسلوب راق ملىء بالحكمة ، وبأن بعضها قد ألف شعرا ، وأنها فى معظمها مليئة بأفكار عميقة وتعلن عن معارف واسعة متنوعة ؛ ومن الواضح أن مؤلفيها كانوا وثيقى الصلة ببحوث الفلاسفة والموسيقيين اليونانيين الذين يحلو لهم أن يشيروا إليهم .

إنه لشىء مفزع دون شك ، أن تهمل هذه البحوث الرائعة ، وأن يتلفها أولئك الذين شاءوا ، هم أنفسهم ،الاحتفاظ بها وتوصيل ما فيها ،

ومع ذلك ، فمهما تكن التشويهات التى تعيب هذه النسخ التى احتفظت بهذه البحوث لنا ، فإننا لانستطيع أن ننكر أنها كانت بالنسبة لنا ذات عون بالغ ، وأنه لولاها لما أمكننا أن نفسر الكثير من الأمور التى كانت ستصبح باعثة على شكوكنا ، لأنها بالغة البعد عن مبادئنا الموسيقية ، ولو لم يكن فى حوزتنا كضمانة على دقة هذه الأمور ، سوى ما تستطيع أن تقدمه لنا الممارسة الروتينية للموسيقيين المصريين .

المبحث الرابع

عن أصل وطبيعة الموسيقى العربية

على الرغم من أنه من المرجح أن تكون العلوم والفنون قد درست فى بلاد العرب ، وبصفة خاصة فى العربية السعيدة (اليمن) منذ أقدم العصور ، فليس من الضرورى مع ذلك أن نعود إلى عصور بمثل هذا القدم ، كى نكتشف أصل الموسيقى العربية المتداولة اليوم .

كذلك فإن أى أمرىء سيقوم مثلنا ، بدراسة تالية عن الفن الموسيقى ، سواء عند الشعوب القديمة أو عند الشعوب الحديثة ، وسيكون بالتالى ملتزما بأن يتفحص الموسيقى العربية بعناية فى مبادئها وفى قواعدها ، وباختصار ، فى كل نظامها ، سوف يتعرف كذلك على الفور ، معنا ، على الأصل الحقيقى لهذه الموسيقى ، وإذا لم يحملنا العقل وحده على الاعتقاد بأن العرب ، حين تطلعوا إلى العلوم والمعارف ، لم يستطيعوا أن ينهلوا معارفهم من مصدر آخر سوى تلك الشعوب التى كانت واسعة العلم عندئذ ؛ وحين يحدث ألا يخبرنا العلم أن هذه الشعوب هم الأغريق الذين يلاصقون آسيا والفرس الذين يتاخمون بلاد العرب ـــ فإن كل الأمور تدفعنا لأن نحسم اعتقادنا بأن هناك من عند هذه الشعوب ، استقت الموسيقى العربية أصولها ؛ بل إن الشكل والطابع اللذين لهذا الفن عندهم يشيان كذلك بالزمن الذى نقلوا عنه هذا الفن ـــ حتى ليستطيع المرء أن يحدده عند نقطة بعينها .

إن إنقسام فروع ، وفروع فروع المقامات العربية إلى فواصل بالغة الصغر ، مجافية للطبيعة حتى لا يستطيع السمع أن يمسك بها بتحديد بالغ الدقة ، وبحيث لا يستطيع الصوت البشرى أن يتغنى بها بدقة صارمة ، كذلك فإن الكثرة الهائلة فى المقامات والانتقالات والدورات أو السلالم النغمية المختلفة والمتباينة والناتجة عن نشأة هذه الأنواع من الفواصل [1] : كل هذا ينبىء أن هذا النوع من الموسيقى ، قد

---

(١) يعود زمن انحلال الموسيقى الاغريقية القديمة إلى ماض بعيد للغاية ، فقد شكا =

نشأ عن فساد وتحلل الموسقى اليونانية القديمة ، وكذا الموسيقى الآسيوية القديمة .

وقد يتجاسر المرء على القول بأن الحكمة والجنون قد ساهما ، متنافسين ، فى تأليف نظرية هذا الفن عند العرب ، فهو واجد فيها قدرا كبيرا من الشطحات المجافية للعقل حول أصل وقوة وتأثير الموسيقى ، وقدزا مماثلا كذلك من البحوث الصبيانية والباعثة على الضحك حول قواعد الممارسة ، بقدر ماهو واجد فيها من أفكار مؤكدة ومبادىء رائعة تتناول الجزء الفلسفى من الفن ، وليس بمقدور المرء أن ينكر أنه يتعرف فيها على المبادىء التى قام عليها هذا الفن فى الماضى ، ولكنه لا يستطيع كذلك أن ينسى أن كل شىء فيها يشعرك بالمساوىء التى يقترفها على الدوام هذا الصنف من الموسيقيين ، الذين لا يمتلكون سوى الزهو والخيلاء اللذين يدعوانهم إلى الزعم بأنهم علماء ، دون أن تكون لديهم قط أدنى رغبة فى العمل الجاد لكى يصبحوا كذلك ،

= أفلاطون من التنميق والتزويق الشديدين فى الحساب اللذين كانا قد أدخلا على الموسيقى بالفعل قبيل عصره ، واللذين كانا يتلفان طربها ، وإن كانت هذه العيوب أكثر من ذلك قدما بكثير ، حيث أن فيريكراتوس Phérécrate فقد جعل من الأمر ، فى إحدى كوميدياته ، موضوعا لشكاوى تجأر بها « السيدة موسيقى » ضد ميلانيبيد وقينسياس وفيرينيس وتيموثيه . ومع ذلك فإن هذا لم يمنع من استمرار المزايدة والرهان على هذا التدقيق فى الحسابات ، وأن يأتى فيما بعذ موسيقيون فلاسفة ، من أمثال أريستوكسينيس Aristoxéne وإقليدس ، ليقيموا الموسيقى على الأرقام والحسابات فى شكل مبادىء فى بحوثهم حول هذا الفن ، وذلك بأن يدرسوا ... الأثلاث والأرباع والأسداس وأنصاف الأرباع بل والإثنى عشريات فى الأنغام او المقامات وكذلك فى المقامات الدياتونية والكروماتية والتجانسية المختلفة ، ومن هذه الزاوية نفسها ، حدث أن ألف بطليموس ، على غرار أريستوكسينيس بحثه عن التناغم أو الهارمونى الموسيقى ، وحيث كان مسقط رأس هذا الأخير هو بيلوز(*) فى مصر ، وهى بلدة تتاخم بلاد العرب ، فلابد أن تكون مؤلفاته قد عرفت بالضرورة من جانب العرب ، وأنهم قد اتخذوها نموذجا للبحوث التى ألفوها هم عن الموسيقى . وهكذا نرى أن نظامه الموسيقى هو النمط الذى احتذاه العرب وأخذوا به ، وصلة القربى ، بل المصاهرة ، القائمة بين هذا النظام الموسيقى وذاك ، تبدو أبعد من ظل لشك .

(*) تل الفرما أو بالوظة حاليا (المترجم) .

والذين يسعون إلى الإدهاش فى فنهم أكثر مما يجدون لاحداث تأثير نافع ؛ لأنهم يفضلون شهرة مدوية على التقدير المتأنى الذى تدعو إليه الجدارة الحقيقية . لقد كانت هذه ـــ عند قرب إنهيار الامبراطورية الرومانية ـــ هى آفات الموسيقى ومثالب الموسيقيين ، ولا يكف شعراء هذا العصر ، سواء كانوا مسحيين أو وثنيين عن الشكاية من كل ذلك بمرارة ، وبمعنى آخر فمن المعروف أن الناس فى مصر ، وفى الجزيرة العربية وفى أوربا ، لم يكونوا يعرفون سوى الموسيقى اليونانية القديمة مع تحفظ هام هو أنهم لم يعرفوا هذه الموسيقى إلا فى حالة تدهورها وانحلالها . هنا إذن نضع يدنا على أحد الينابيع التى اغترف العرب منها موسيقاهم ، بعد أن أصبحوا غزاة بفعل التعصب (كذا !) وبعد أن جعلوا من أنفسهم سادة وحكاما لأجزاء من أفريقيا وآسيا وأوربا ، وبعد أن تفهموا ضرورة العلوم والفنون لازدهار مجد الأمبراطورية الجديدة التى انتهوا من تأسيسها .

أما بخصوص ما يكشف المصاهرة التى قامت بين الموسيقى الآسيوية وموسيقى العرب فأمر أوضح من ألا يدركه العالم أجمع . ويكفى المرء أن يستمع مرة واحدة إلى الموسيقيين المصريين وهم يغنون أغنيات عربية حتى يلاحظ الحواشى التى يثقلون بها كاهل اللحن ، وحتى تستفزه النغمات الخادشة للحياء التى يعبر بها هؤلاء عن أفكارهم الشهوانية ، وتستثيره الكلمات الفاحشة التى تزخر بها هذه الأغنيات عادة ، ولكى يتعرف المرء فى النهاية ، على كل العيوب التى كان الشعراء اللاتين ومن أعقبوهم من المؤلفين ، يلومون عليها ، بشكل إجماعى ، الموسيقى الآسيوية ، حين يرسمونها لنا باعتبارها مزدحمة النغمات عند مدخلها ، وأنها لا تصلح إلا للايحاء بالرخاوة والشهوات الحسية ، أو للتعبير عن اضطرام الأحاسيس التى تثيرها الدعارة والفسوق .

وقد يكون بإمكاننا أن نضيف إلى كل هذه المعالم عن أصل الموسيقى العربية ، الكثير من المعالم والاثار التى تقدمها لنا المصطلحات الفنية ، وأسماء المقامات والنغمات والآلات ، التى تكاد أن تكون كلها فارسية أو مشتقة عن اليونانية [١] .

---

(١) وقد وجدنا فى بحث عن الموسيقى حملناه معنا من مصر ، أن المقامات الرئيسية =

أما إذا كانت لاتزال هناك بعض شكوك ضئيلة باقية ، فلسوف تتبدد هذه بسهولة دون جدال ، عن طريق اعتراف كل مؤلفى بحوث الموسيقى العربية أنفسهم ، بأن نظامهم الموسيقى ، وكل مصطلحاتهم الفنية وأسماء آلاتهم قد جاءهم عن الأغريق والفرس (١) والهنود .

وهكذا يكون علي المرء أن يرى كحقيقة مؤكدة ولا جدال فيها ، أن الموسيقى العربية هذه الأيام قد تشكلت فى زمن الخلفاء من بقايا الموسيقى الأغريقية القديمة والموسيقى الآسيوية القديمة ، واللتين لم تكونا تختلفان فيما بينهما ، سواء فى مبادئهما ، أو فى نوع التطريب الذى كانتا تحدثانه .

= للموسيقى العربية هى نفسها مقامات الموسيقى عند الاغريق ، وإن كانت قد أعطيت أسماء أخرى ، كما أن المصطلحات الفنية الفارسية ، المستخدمة فى الموسيقى العربية ، أكثر بدرجة كبيرة عن تلك المشتقة من اللغة اليونانية ، ومن بين الكلمات المشتقة عن اليونانية نلاحظ بصفة خاصة هذه الكلمات التى نراها تتردد فى كثير من بحوثهم : موسيقى ، موسيقا ، موسيقة ، وهى كلمات جاءت من الكلمة اليونانية mousikê وتقابل بالفرنسية كلمة musique ، وكذلك كلمات موسيقار وتقابلها عندنا كلمة musicien وموسيقارى أو موسيقال وتقابلها كلمة musical ، ثم كلمة موسيقان وتشير إلى ناى بان وهى آلة موسيقية ، ثم كلمة ليرة وهى مشتقة من الاغريقيه lyre وكلمات كويطرة ، قيطارة ، قيثارة وتجىء من الكلمة اليونانية khitara و cithare ؛ وكلمة قانون وهى من اليونانية canon الخ الخ .

(١) يقول جمال الدين فى مقدمة بحثه عن الموسيقى العربية ، بشكل صريح :

وإننى أذكر أسماء النغم
مختلفـــا على قوانين
العجـــــــم

أى أنه يستعيد أسماء كل الأنغام طبقا للنظام الموسيقى الفارسى .

المبحث الخامس

عن نظام الموسيقى العربية وعن نظرية هذه الموسيقى

يبدو أن نظام الموسيقى العربية لم يحتفظ لنفسه بشكل ثابت ، وأن المؤلفين لم يتفقوا على الدوام حول طريقة تأليفه ، فالبعض يقسم المجموعة الثمانية (الأوكتاف) إلى تونات وأنصاف تونات وأرباع تونات ، ليبلغ بذلك عدد النغمات فى السلم الموسيقى أربعا وعشرين نغمة مختلفة ، وأوزان يقسمونها إلى تونات وأثلاث تونات ليصبح السلم الموسيقى مكونا من ثمانى عشرة نغمة ، وهناك فريق أخير يزعم أن الخط البيانى العام للنغمات يشتمل على أربعين نغمة ، وحيث يحظى التقسيم إلى أثلاث التونات بالقبول العام ، فإنه يترتب على ذلك أن تشتمل هذه الأربعون نغمة على مجموعتين ثمانيتين وثلث ، باتساع أو مدى هذا النظام كله ، وهو الأمر الذى يتفق فى الواقع مع الخط البيانى العام للانغام التى وجدناها موضحة فى العربية ، وهو الخط الذى سنعرف به فى موضعه من البحث .

إن النغمات الطبيعية ، أى تلك التى تتتابع فى النسق الدياتونى تأتى مرتبة فى النظام الموسيقى عند العرب ، على نفس النحو الذى نجدها مرتبة عليه فى النظام الموسيقى عند اليونان ، أى على شكل رباعيات ، أى سلسلة من أربع نغمات متعاقبة تسمى : **بحر** (جنس أو عقد) .

وتؤدى الفواصل الثلاثة التى يضمها **البحر الأول** ، أو الرباعية الأولى ، إلى نشأة ثلاثة مقامات رئيسية ، هى نمط لكل المقامات الأخرى . ولقد كان هذا هو الشيء نفسه فى النسق الموسيقى عند الاغريق . كذلك فإن الفواصل الثلاثة فى الرباعية الأولى ، تؤدى بالمثل إلى نشأة ثلاث رباعيات أخرى تحدد المقامات الرئيسية ، إذ أننا لن نحصل ، على أية طريقة نشكل عليها فواصل السلم الدياتونى ، إلا على ثلاث رباعيات مختلفة : فإما أن يشكل نصف التون الفاصلة الأولى ونحصل بذلك على البحر : سى ، أوت (دو) ، رى ، مى si, ut, ré, mi ، وأما أن يكون نصف التون هو الفاصلة

الثانية ونحصل بذلك على الرباعية التالية : رى ، مى فا ، صول ، ré, mi, fa, sol ، أو أخيرا أن يوجد نصف التون فى الفاصلة الثالثة ، وهو الأمر الذى سيشكل الرباعية التالية : أوت (دو) ، رى ، مى ، فا ut, ré,mi, fa : وهكذا ، فمن أية درجة من درجات السلم الدياتونى نريد أن نبدأ ، فإننا لن نجد النغمات تنتظم قط الا على واحدة من هذه الطرق الثلاث .

وإليكم الآن علام يقوم مبدأ البحر فى النظام الموسيقى العربى

المبحث السادس

بيان بالنظام الموسيقى عند العرب

يفسر المؤلف المجهول للبحوث التى حصلنا عليها ، والتى تحمل عنوان : الشجرة المغطاة بالورود التى تضم كؤوسها مبادىء فن الموسيقى ــ يفسر على هذا النحو تكوين هذا الفن :

تتألف قاعدة الغناء الطبيعى من ثمانى نغمات لحنية تخرج من الحنجرة بشكل طبيعى ، تتصل أولاها بالأخيرة بصلة مباشرة . ولايمكن أن تنتج نغمة أخرى بخلاف هذه النغمات ، وبشكل طبيعى ، عن طريق الصوت ، ويطلق على هذه اسم **الدورة الخاصة بالرست** . وقد سميت على هذا النحو لأن كلمة رست بالفارسية تعنى مستقيم . ويطلق عليها كذلك اسم **دورة الدرجات أو الانتقالات** أو **دورة الفواصل أو الأبعاد المتعاقبة** (١) وحين نبلغ النغمة الثامنة تتم الدورة ، وتسمى هذه بالفاصلة الكاملة ، لتبدأ عندئذ دورة أخرى ...

وحتى نزيد هذا البيان وضوحا فإننا نضيف هنا أمثلة مدونة بنوتات الموسيقى الأوربية : ونحن ننوه سلفا بأننا نستخدم هنا السلم الموسيقى المنقسم إلى أثلاث تونات لأنه يحظى بقبول أكبر من غيره من قبل المؤلفين العرب ، ولأنه أكثر توافقا مع الجدول الموسيقى فى آلاتهم . وطبقا لهذا السلم فإن الفاصلة التى نسميها نحن بنصف التون الدياتونى ليست (فى سلمنا) سوى ثلث تون . وحيث لا توجد قط فى سلم الرست ، فواصل أقل من الفاصلة ذات ثلثى التون ، فقد لجأنا إلى إستخدام العلامة × للاشارة إلى فاصلة تزيد على ثلث التون ، وأضفناها إلى النوته فا fa ، ولولا ذلك ، وكما سبق أن لاحظنا ، لكانت تساوى فى السلم العربى فقط ثلث التون مى mi ، إذ أن هاتين

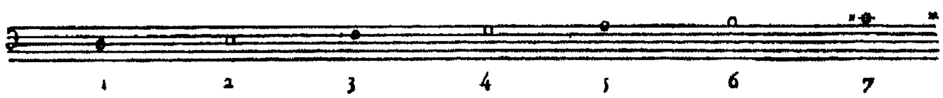
---

(١) كلمة متعاقبة أو متوالية فى هذه الحالة تعنى الشىء نفسه الذى تعنيه كلمة دياتونية فى النظام الموسيقى عند الاغريق ، وعندنا نحن كذلك .

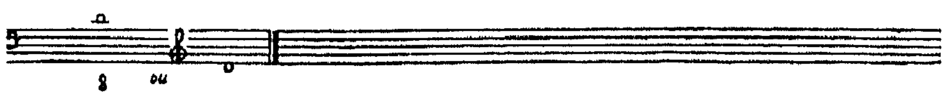
النغمتين فى نظامنا الموسيقى ، تقدمان فاصلة من نصف تون دياتونى ، بينما تقدم هذه فاصلة من ثلث تون فقط فى النظام العربى ، وقد فعلنا الشيء ذاته ، وللسبب نفسه مع النغمة أوت (دو) ut.

مثال لدورة من درجات (أو إنتقالات)متعاقبة
أو دياتونية مع فاصلة كاملة .

الدورة الأولى



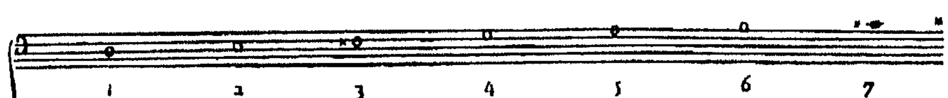
بداية الدورة الثانية



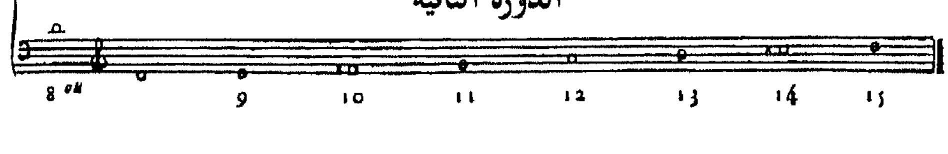
ثم يتابع المؤلف العربى حديثه قائلا:«وعندما نبدأ من هناك ــ يقصد من النغم الثامن أو التون الثامن ــ ونواصل تقدمنا حتى التون الخامس عشر ، فإننا نبلغ الدرجة الأخيرة من النظام . وهو ما نطلق عليه إسم **دورة كاملة مضاعفة أو نظام كامل** ».

مثال للدورتين اللتين تشتمل عليهما الخمسة عشر درجة (أو انتقال) المتعاقبة ، أى مثال لدورة كاملة مضاعفة أو لنظام كامل

الدورة الأولى



الدورة الثانية



«وأخيرا فإن الأسماء التى يخلعها الفلاسفة القدماء والفرس على هذه التونات (النوتات) أو الانغام ، نجدها اليوم متضمنة فى أسماء : هنوك [١] وأبعاد[٢] ، وانتقالات[٣] وأخيرا برداه[٤] ، وهى كلها كلمات فارسية».

أما عن الأسماء الخاصة التى أطلقت على التونات أو الأنغام ، فقد أعطيت لها طبقا لترتيب انتقالاتها أو درجاتها .

فتسمى البرداة (أو التونة) الأولى جذر الرست أو اليكاه[٥] : وتسمى الثانية جذر الدوكاه[٦] : والثالثة جذر السيكاه (أو السهكاه)[٧] والرابعة جذر الجاركاه[٨] والخامسة جذر البنجكاه[٩] والسادسة جذر البرداه الحسينى[١٠]،

(١) مجموعات أو سلاسل .

(٢) فواصل .

(٣) درجات .

(٤) تون أو نغم .

(٥) هذه الكلمة فارسية ، وتعنى أول درجة أو الدرجة الأولى ، وهى تتكون من يك التى تعنى فى الفارسية واحد أو أول ، وكاه وتعنى موضع أو مكان .

(٦) وتعنى هذه الكلمة الدرجة الثانية وتتكون من كلمة دو بمعنى اثنين (أو الثانى) وكاه بالمعنى السابق .

(٧) سه (أو : سى) بمعنى ثلاثة (أو الثالث) .

(٨) جهار (بتعطيش الجيم) أو جار (مع عدم تعطيشها) ومعناها أربعة (أو الرابع) .

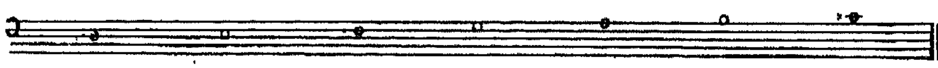
(٩) بنج ومعناها خمسة (أو الخامس) .

(١٠) الحسين هو اسم شهيد مسلم تألفت على شرفه كثير من الابتهالات والأناشيد والقصائد الغنائية ، ولعل السبب الذى أدى إلى إطلاق اسم الحسينى على هذه الدرجة ، هو أن كل هذه الأغنيات قد ألفت على المقام الذى كان يتخذ من هذه الدرجة (أو الانتقالة) أساسا له ، أى أنها كانت بالنسبة له بمثابة القرار أو النغمة الأساسية .

أو الششكاه[١] والسابعة المقلوب[٢] أو الهفتكاه[٣] . وتلكم هى الجذور السبعة على النحو الذى أوردناه .

مثال للجذور السبعة

Exemple des sept Racines.



الهفتكاه	الششكاه	البنجكاه	التشاركاه	السيكاه	الدوكاه	الرست
أو المقلوب	أو الحسينى					أو البكاه
البرداه السابعة	البرداه السادسة	البرداه الخامسة	البرداه الرابعة	البرداه الثالثة	البرداه الثانية	البرداه الأولى

« فإذا صعدنا حتى النغمة الثامنة فيسمى هذا فوق أو أعلى الرست ، وهو الجواب على جذر الرست ، ويشكل كما سبق القول **فاصلة كاملة** ، أما إذا صعدنا حتى التاسعة ، فإنه يسمى أعلى جذر الدوكاه ، ويشكل جوابا له كذلك .. وهكذا دواليك حتى النغمة الرابعة عشر ، التى هى أعلى أو فوق المقلوب وجوابه . وأخيرا فإذا ما صعدنا حتى النغمة الخامسة عشر ، فإنها تصبح جوابا لجواب الرست . وبطريقة أخرى ، وكما قلنا فإنه يسمى كذلك **الفاصلة المزدوجة الكاملة** .

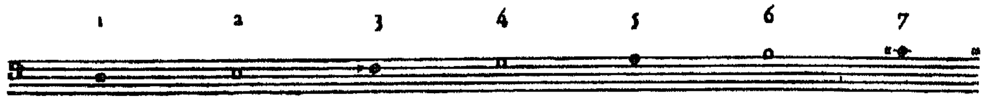
---

(١) شش ومعناه ست أو ستة (أو السادس) .

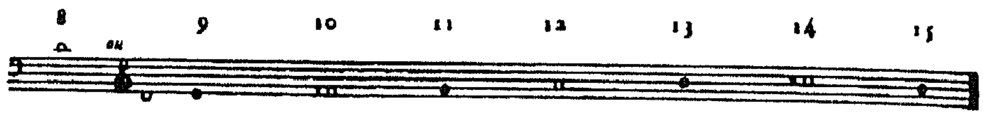
(٢) مقلوب ، وقد أطلق عليها ، على وجه الترجيح ، هذا الاسم لأنها تعلن عودة السلم النغمى ، أو النسق النّغمى ، عندما يعود العازف أدراجه ، بعد أن يكون قد بلغ النغمة الثامنة على النحو الذى سنعرض له عمّا قليل .

(٣) هفت ومعناها سبع أو سبعة (أو السابع) .

Exemple des Racines et de leur Réplique.



1	2	3	4	5	6	7
جذر	جذر	جذر	جذر	جذر	جذر	جذر
الرست	الدوكاه	السيكاه	التشاركاه	البنجكاه	الشكشاه	الهفتكاه
أو البكاه					أو الحسيني	أو المقلوب
البرداه الأولى	البرداه الثانية	البرداه الثالثة	البرداه الرابعة	البرداه الخامسة	البرداه السادسة	البرداه السابعة



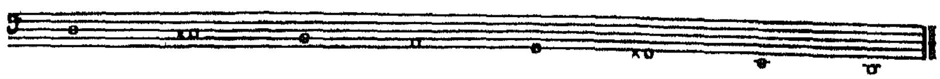
8	9	10	11	12	13	14	15
جواب	جواب	جواب	جواب	جواب	جواب	جواب	جواب
جذر	جذر	جذر	جذر	جذر	جذر	جذر	جذر
الرست	الدوكاه	السيكاه	التشاركاه	البنجكاه	الشكشاه	الهفتكاه	الرست
البرداه الثامنة	البرداه التاسعة	البرداه العاشرة	البرداه الحادية عشرة	البرداه الثانية عشرة	البرداه الثالثة عشر	البرداه الرابعة عشر	البرداه الخامسة عشر

(ملحوظة : البكاه هي جواب الدرجة [الراست] وبذلك يكون لفظ أو كتاف بمعنى ثمانية فتصبح الياكاه رقم ٨)

والحال على نفس المنوال عند الهبوط ، فحين نهبط أو ننزل إلى ماتحت أو ما أسفل الرست ، فإننا نكون بصدد نغمه من أسفل المقلوب ، فإذا نزلت مرة أخرى عن البرداه ، فسيكون هذا هو أسفل الحسيني ، وهكذا دواليك حتى برداه أسفل الرست ، وهذه الفاصلة الثلاثية الكاملة أو التامة تحتوى على كل نغمات البرداهات .

مثال لهذا البيان مع تطوراته أو امتداداته
برداه تحت الجذور

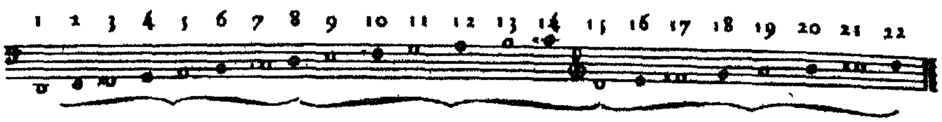
Bordâh du dessous des Racines.



أسفل	أسفل	أسفل	أسفل	أسفل	أسفل	أسفل	جذر
الرست	الدوكاه	السيكاه	الشاركاه	البنجكاه	الشتكاه أو الحسيني	المقلوب	الرست
برداه	برداه	برداه	برداه	برداه	برداه	برداه	برداه

مثال لفاصلة ثلاثية كاملة أو تامة

Exemple du triple Intervalle complet.



أعلى الجذور أو الأجوبة	الجذور	أسفل الجذور

«ولا تستخدم الكلمات : جذر وأعلى وأسفل من الناحية العملية أو عند الممارسة ، ولكننا بعد أن أعيانا البحث للوصول إلى تعبيرات أو إصطلاحات تشير إلى هذه الأنغام ، لم نجد اصطلاحات مناسبة أكثر من هذه .»

«وفى الواقع ، فإنك إذا أخذت آلة نفخ مثل الناى (١) أو الزمارة(٢)

---

(١) وهو يقارب لما نطلق عليه نحن اسم الفلاوت flûte ، وهو هنا ما يسمى عادة بناى الدراويش ، وهم نوع من « الرهبان » المسلمين ، يستخدمون عادة هذه الآلة الموسيقية .

(٢) وتسمى هذه الآلة أيضا فى القاهرة زامر أو زمر ، وهى نوع من الأرغول .

أو الموصول [١] أو آلات أخرى شبيهة ، وإذا لمست ثقوبها السبعة وأنت تنفخ فيها ، فإنك ستحصل على هذه النتائج » .

« وسننهى هذا الفصل ، وهو الفصل الأخير من الباب ، بملاحظة ، هى أنك ستكون بحاجة فيما بعد ، حين يتصل الأمر باستخراج الالحان الموسيقية من الشجرة[٢] إلى نصف برداه ، وتقع هذه بين براده ما والبرداه التالية . وتسمى البرداه ، بالتحديد الذى وضعناه لها : البرداه المقيدة[٣] ، أما أية برداه أخرى فتسمى مطلقة[٤] » .

« وإليكم العلامات التى نتعرف بها على البرداهات ، المقيدة والمطلقة ، سواء فى جذور الشجرة أو فى فروعها[٥] ، فالمطلقة خط يمر بمركز عيون الشجرة وينتهى بمحيط الدائرة ، فى حين أن البرداه المقيدة توجد عند طرف كل برداهات التون التى هى جزء منه[٦] ، سواء من ناحية هذا الطرف أو ذاك ؛ ومع ذلك فإذا وجدت المقيدة بين برداهات هذا التون ، فذلك لأن ليست لها به علاقة خاصة . ويتعرف عليها المرء بسهولة عند تكوين لحن . وانتبه لهذا جيدا ، فهذه نقطة دقيقة » .

« وفى الواقع ، فعندما يؤلف دارس لحنا ينبغى أن توجد به أنصاف برداه كما فى مقامات الرمل ، والرهاوى ، والركبى ، والحجاز[٧] والعشاق [٨] ، ومقامات أخرى

---

(١) الموصول آلة موسيقية فارسية مجهولة لنا .

(٢) الأنغام .

(٣) مقيدة أى مربوطة .

(٤) مطلقة بمعنى حرة .

(٥) يطلق اسم فروع الشجرة على الأنغام المتفرعة بشكل منهجى عن الجذور ، والفروع هى النغمات التى تكون الفاصلة الثلاثية الغالبة فوق وتحت النغمة الجذرية .

(٦) يتعلق الأمر هنا بالفرق الذى يميز أنصاف التون الطبيعية عن أنصاف التون العارضة .

(٧) حجاز ، وتعنى هذه الكلمة الآتى من بلاد الحجاز ، ويلفظونها فى العربية حجاز .

(٨) عُشاق ، وهى تعنى العاشق الولهان ، ولعله قد سمى بهذا الاسم لأن نغمته توحى بالحب ، ومع ذلك فيزعم بعض المؤلفين أنه يوحى بالشجاعة والفضيلة ..

شبيهة ، وهى كثيرة العدد ، تبعا لترتيب درجاتها أو انتقالاتها الطبيعية ، وإذا ما عرف ما ينبغى عليه أن يأخذ نفسه به لكى يصعد أو يهبط إلى أنصاف البرداه ، فإنه سيتمكن من تكوين عدد كبير من الألحان بإذن الله »

« واعلم كذلك أن نصف البرداه الذى انتهينا من الحديث عنه هو نصف تون ، وأنه يوجد تون كامل[١] من نصف برداه لنصف برداه آخر ، وأنه يوجد تون ثان بين النصف تون الثانى والنصف تون الثالث ، وهكذا دواليك حتى التون الذى ينتج التساوق النغمى مع التون الأول[٢] ، وهذا مما يصعب تنفيذه بالصوت البشرى . ومع ذلك فسوف يتعرف المرء على صحة ماذهبنا إليه ، إذا ما لجأ إلى آلته الموسيقية ، ذلك أن الانسان يستطيع ، على هذه الآلة ، وبين نغمتين دياتونتين ، أن يحصل على نغمتين أو ثلاث نغمات أخرى ، مختلفة لكنها متنافرة . فتفهم ذلك جيدا تكن على الطريق الصحيح » .

وبعد أن يتحدث على هذا النحو عن طبيعة الأنغام ، وعن الانتقالات (الدرجات) ، والأبعاد (الفواصل) ، وبعد أن يعرفنا ماهية النغمات الجذرية والنغمات المشتقة ، وأنصاف التونات الطبيعية ، وأنصاف التونات العارضة وأخيرا ، بعد أن يبين إستخدام كل هذه الأشياء ، ينتقل المؤلف إلى الفصل الثالث ، الذى يعالج فيه أسماء الجذور الأربعة الأولية ، والطريقة التى تتحول بها أو تندمج بها ، أحدها فى الآخر . وعن تكوين واشتقاقات المقامات [٣] والشعب [٤]

---

(١) عندما يرد التعبير على هذا النحو فإن المعنى لا يبدو واضحا . ولعل من الواجب أن يقال : إن نصف برداة حين يضاف إلى نصف البرداة التالية فإنهما يكونان معا نغمة كاملة ثم إن النصف الثانى حين يضاف إلى نصف البرداه الثالث فإنهما معا كذلك يكونان نغمة كاملة أخرى .

(٢) النص فى العربية هو : إلى جوابها ؛ ولكن الأقل من ذلك غموضا فى لغتنا الموسيقية هو أن نقول حتى النغمة التى تحدث تساوقا نغميا مع النغمة الأولى .

(٣) مقامات والمفرد مقام ومعناه الموضع أو المكان أو الدرجة .

(٤) شعب والمفرد شعبة بمعنى غصن ؛ وعلى هذا النحو تسمى النغمات المشتقة عن الفروع أو الاشتقاقات الأولى ، فى النظام الموسيقى العربى ؛ وهكذا تشتق الشعب عن الفروع ، كما تشتق الفروع عن الجذور .

والأوازات[١] ، وعن علاقاتها بعلامات البروج الاثنتى عشرة ، وبالعناصر الأربعة ، والأمزجة الأربعة ، وأخيرا بتكوين الشجرة الموسيقية . وهذا الفصل يتكون من جزئين ويستحق بدوره أن نعرضه .

القسم الأول ــ عن الجذور الأربعة وعن اشتقاقات كل منها ، وعن علاقاتها بعلامات البروج وبالعناصر وبالأمزجة

« تأتى الجذور الأربعة مكونة بطريقة تماثل تكوين العناصر الأربعة ، أصل أو مبدأ كل شىء ، وأول هذه العناصر وهو النار ساخن وجاف : وهو ينتقل من هذه الحالة إلى حالة الهواء وهو حار رطب ، وينتقل هذا بدوره إلى حالة الماء مبدأ البرودة والرطوبة ، ويتحول هذا أخيرا إلى حالة التراب[٢] مبدأ البرودة والجفاف .

« تلكم هى تحولات العناصر الأربعة . أما تحولات الجذور فهى على النحو بشكل مطلق . أما أولها وهو الذى لم يشتق عن غيره فهو الرست ، ومنه يتفرع العراق[٣] ، وعنه يتفرع الزير فكند[٤] ، ومن الأخير يتفرع الأصفهان [٥] » .

وهذه النغمات الأربع[٦] هى جذور أو قواعد الأنغام أو المقامات جميعا ، وعن هذه الجذور تولد الفروع الثانية : فرعان عن كل جذر أو قاعدة ؛ وقد نتج هذا العدد الكبير من المقامات ، واشتقاقاتها بعضها عن البعض الآخر ، مع تنوع

---

(١) أوازات والمفرد أواز بمعنى نغمة أو تون .

(٢) الكلمة العربية تراب وهى تدل على تربة غير متماسكة ، أو غبار .

(٣) وقد أطلق هذا الاسم على هذا المقام لأنه ابتكر فيما يقال فى بلاد العراق .

(٤) زيرفكند ، كلمة فارسية .

(٥) أصفهان ، ويلفظها المصريون وإصفهان ، أما الأوربيون فيلفظونها إسبهان ، وهو اسم عاصمة فارس ، كما أنه هو المكان الذى يزعم أنه قد اخترع فيه هذا المقام . وفى بعض المخطوطات نجد أن نغمة الأصفهان تسبق نغمة الزيرفكند ، فهل كان هذا الاختلاف قائما فى أذهان المؤلفين أم أنه خطأ من جانب النساخ ؛ لكن هذا أمر لم يتيسر لنا بعد أن نكتشفه .

(٦) كلمة ton (نغمة) هنا مستخدمة بمعنى نغمة الأساس ، كما نفعل أحيانا .

أصنافها ، من تطور أو امتداد الفواصل التى تحدثنا من قبل عنها ، ومن قابلية بعضها أن يندمج مع غيره ، إذ ينتج بالضرورة عن كل ذلك عدد كبير من النغمات ، ومع ذلك فهناك نغمات من بينها تعد ناشزا ، وأخرى هى نغمات متوافقة ؛ وانتبه لهذا ، ذلك أن الأمر يتعلق بالطريقة التى تشتق بها **المقامات** من الجذور : فمن الرست يشتق الزنكلا والعشاق[١] ، ومن العراق : الحجاز وأبو سليك ، ومن الزيرفكند الرهاوى والبزرك[٢] ، ومن الاصفهان : الحسينى والنوى[٣] .

« وعلى هذا الأساس ، وبحكم هذه القاعدة ، نجد لدينا اثنى عشر نغما أو تونا نسميها مقامات ، هى بدورها جذور لمقامات أخرى . ومع ذلك فلهذه المقامات الاثنى عشر الأولية ، بحكم أصلها ، علاقة أكيدة بعلامات البروج الاثنتى عشرة ».

« فالرست والزنكلاه والعشاق ذات مزاج حار وجاف ، فهى تتجاوب مع عنصر النار ومع المزاج الصفراوى ، وبصفة خاصة فإن الرست يتفق مع برج الحمل والزنكلاه مع برج الأسد والعشاق مع برج القوس . أما العراق والحجاز والبوسليك فلهم مزاج حار ورطب ، فهى تتجاوب مع عنصر الهواء ومع المزاج الدموى ، ويتفق العراق مع برج الجوزاء والحجاز مع الميزان ، والأبوسيليك مع الدلو ؛ أما الزيرفكند والرهاوى والبزرك فلهم مزاج بارد ورطب ، فهى تتفق مع عنصر الماء ومع المزاج البلغمى ، ويتجاوب الزيرفكند مع برج السرطان ، والرهاوى مع برج العقرب ، والبزرك مع برج الحوت أما الاصفهان والحسينى والنوى فلهم مزاج بارد وجاف ، فهى إذن تتفق مع عنصر التراب ، ومزاجها سوداوى ، ويتجاوب الاصفهان مع برج الثور والحسينى مع برج العذراء والنوى مع برج الجدى »

---

(١) سبق لنا أن لاحظنا أن كلمة عُشاق تعنى المحب الولهان ، وأن هذا المقام فى رأى بعض المؤلفين يوحى بالشجاعة والفضيلة . أما الزنكلا الذى يتفرع فى الوقت نفسه عن نفس الجذر فله فى رأى هؤلاء المؤلفين أنفسهم طابع شديد التعارض ، فهو يوحى — عندهم — بالحزن والأسى والشجن . فكيف يمكن أن تخرج من جذر واحد أشياء من طبيعة مختلفة ؟ أما كلمة زنكلا نفسها فتعنى الرنة أو الرنين .

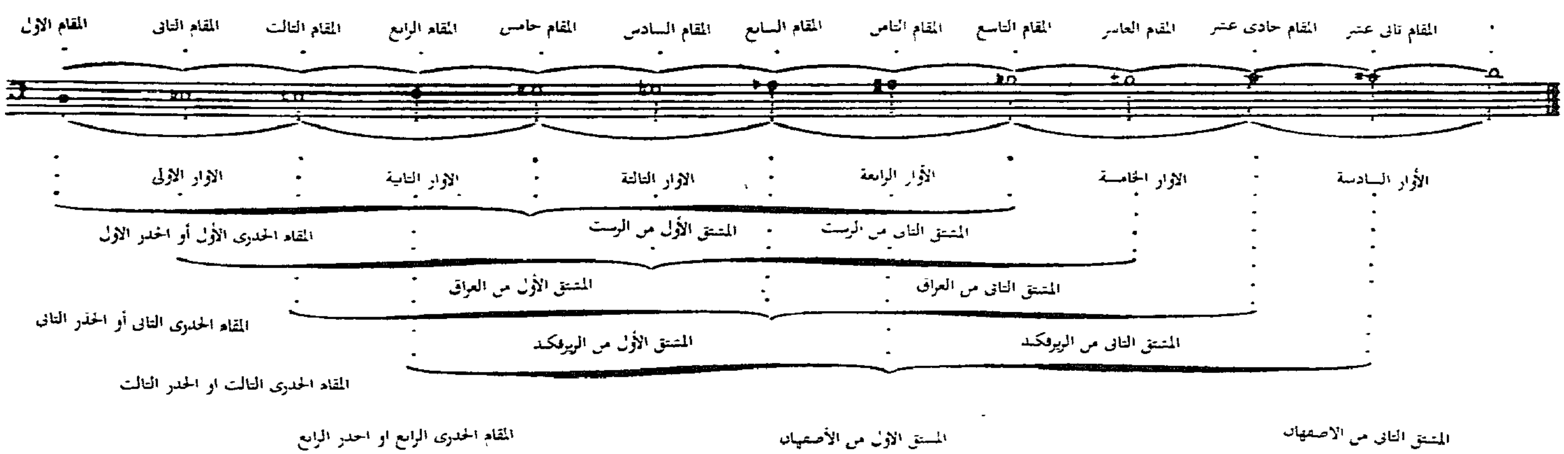
(٢) بزرك ومعناها كبير ، وهى كلمة فارسية .

(٣) نوى ومعناها جديد ، وهى كذلك كلمة فارسية .

ومن الواضح أنه توجد هنا أخطاء كثيرة وفاحشة ارتكبت بفعل إهمال أو جهل الناسخ العربى ، ذلك أن المقامات هنا لاتتبع ، كما كان ينبغى لها أن تفعل ، ترتيب علامات البروج ، ومع ذلك ، فحتى نجنب القارىء مشقة تقويم هذه الأخطاء بنفسه ، وهو الأمر الذى يمكن أن يتم برغم دلك عقليا ، فإننا سنقدم لوحة صغيرة للحدول مقسما إلى إثنى عشر نصف تون مع اشتقاقها عن الاثنى عشر مقاما الرئيسية ، ومع ارتباطها بالعناصر الأربعة وبالبروج .. الخ . وكذلك الأوازات الست التى تتكون من كل زوج من أنصاف التونات هذه ، متطابقين فى ذلك مع منهج ونظام المؤلف . ونحن فى هذا لم نهمل سوى التماثلات الأخرى ، التى تتناول التفاصيل الرهيفة (والتى لاضرورة لها) أو العلاقات الخرافية والمتوهمة ، التى أقامها المؤلف بين الأنغام (المقامات) والكواكب وأيام الأسبوع ولياليه .

Exemple des douze Maqâmât *et des six* Aouâz, *de leurs Dérivations et de leurs Rapports.*

BELIER.	TAUREAU.	GÉMEAUX.	ÉCREVISSE.	LION.	VIERGE.	BALANCE.	SCORPION.	SAGITTAIRE.	CAPRICORNE.	VERSEAU.	POISSONS.	
Bile.	Sang.	Flegme.	Humeurnoire.	Bile.	Sang.	Flegme.	Humeurnoire.	Bile.	Sang.	Flegme.	Humeurnoire.	
Feu.	*Air.*	*Eau.*	*Terre.*	*Feu.*	*Air.*	*Eau.*	*Terre.*	*Feu.*	*Air.*	*Eau.*	*Terre.*	
Chaud et sec.	Chaud et humide.	Humide et froid.	Froid et sec.	Chaud et sec.	Chaud et humide.	Humide et froid.	Froid et sec.	Chaud et humide.	Chaud et humide.	Humide et froid.	Froid et sec.	Réplique du
RAST.	*E'RÂQ.*	*ZYRAFKEND.*	*ISFAHÂN.*	*ZENKLÂ.*	*HOGÂZ.*	*RAHÂOUY.*	*HOSSEYNY.*	*O'CHÂQ.*	*ABOUSELYK*	*BOUZOURK.*	*NADUA.*	*Rast.*



مثال عن المقامات الاثنى عشر ، ومن الأوزات الست ، وعن اشتقاقاتها ، وعن علاقاتها

	الحوت	الدلو	الجدي	القوس	العقرب	الميزان	العذراء	الأسد	السرطان	الجوزاء	الثور	الحمل
	سوداوى	بلغمى	دموى	صفراوى	سوداوى	بلغمى	دموى	صفراوى	سوداوى	بلغمى	دموى	صفراوى
	التراب	الماء	الهواء	النار	التراب	الماء	الهواء	النار	التراب	الماء	الهواء	النار
	بارد	رطب	حار	حار	بارد	رطب	حار	حار	بارد	رطب	حار	حار
حواب	وحاف	وبارد	ورطب	وحاف	وحاف	وبارد	ورطب	وجاف	وجاف	وبارد	ورطب	وحاف
الرست	نوى	بزرك	أبو سليك	عشاق	حسينى	رهاوى	حجاز	زنكلا	إصفهان	زيرفكند	عراق	رست

«وحين نقول إن طابع الرست حار وجاف فإننا لانزعم أن الصفات الأخرى لا توجد فيه كلية ؛ ولكننا نريد أن يفهم من قولنا هذا ، أن ماهو فيه أوضح من غيره . سواء فى جوهره أو فى تأثيره ، هو الحرارة والجفاف »

« وينبغى قول الشيء نفسه بخصوص الأمزجة الأربعة ، فهناك من بينها ما يتفق مع عنصرين ، ومن بينها أمزجة تتفق مع عناصر ثلاثة ، وأخرى فى النهاية توحد فيما بين هذه العناصر الأربعة . وهذا أمر بالغ الاتساع ويشتمل على علم عميق » .

«ولكى نعود إلى الموضوع الذى نعالجه فإننا نقول إنه من بداية كل واحد من الاثنى عشر مقاما ، ومن نهايته ، تتكون نغمتان أخريان ليستا ، لا هذه ولا تلك ، هى المقام الأول (الأصلى) ، وهو الأمر الذى يتم لأن أنغام الفواصل تتصل وتختلط ، بعضها مع بعضها الآخر ، كما ألمحنا إلى ذلك من طرف خفى من قبل ، فقد قارنا المقامات أو الأنغام بالشعبتين اللتين تتفرعان عن غصن شجرة ما ، ورأينا كيف تتكون ، بهذه الطريقة ، من خليط هذه المقامات ، ست درجات أخرى تسمى أوازات ، ومن خليط كل زوج من المقامات تشتق أو تتفرع أواز واحدة[١] »

« فإذا ما أبدى امرؤ أعتراضا ، وإذا ما سأل لماذا توجد أوازات ست وليس اثنتى عشرة ، أو لماذا لا يكون العدد الذى ينتج عن ذلك سبعا ، فلأولئك الذين يجعلون الأمر على هذا النحو ، سوف نجيب على ذلك ، بأننا بعد أتممنا حديثنا عن تكون الاثنى عشر مقاما ، قد قلنا من قبل إنه تتفرع كذلك شعبتان عن كل مقام على النحو الذى عرضناه ، وكل هذا يقلل من كثافة الدرجات أو الانتقالات ، بحيث لم يعد فى مقدورها أن تنتج أكثر من ست أوازات عن المقامين ، كما يعترف بذلك كل أساتذة الفن الذين يستطيع المرء أن يعتمد على رأيهم »

الفصل الثانى : عن الشعب وعن الأوازات المتفرعة عن المقامات ، وعن أسمائها ، طبقا للبحث فى وضع الشجرة التى تشكل موضوع هذا الكتاب

« قد منا من قبل أسماء الجذور الأربعة ، ووضحنا الطريقة التى يتكون بها هذا وذاك من الجذور ، وعلاقاتها بعلاقات البروج ، وبالعناصر الأربعة ، وبالأمزجة الأربعة ،

---

(١) انظر الجدول السابق .

وبالأيام ، والليالى ..الخ وحددنا الفروع التى تخرج من كل جذر ، وأسماءها ، وقلنا كذلك إنه يصدر عن كل مقام شعبتان واحدة عند بدايته وأخرى عند نهايته ، وأنه تنشأ بين كل زوج من المقامات إواز واحدة . وطبقا لهذه القاعدة توجد أربع وعشرون شعبة وست أوازات ، أقوم الآن بعرضها عليك واحدة بعد واحدة طبقا لترتيبها . وسأبدأ بالرست ، أول المقامات ، وشعبتاه هما : المبرقع والبنجكاه ؛ ثم نأتى إلى الزنكلا وشعبتاه الجاركاه و العزل ؛ أما العشاق فشعبتاه هما الزوالى والأواج ؛ كما أن شعبتى العراق هما القلوب والروى ؛ وشعبتا الحجاز السيكاه والحُصاد ؛ وللأبوسيليك العشيران ونوروز الصدى ؛ وللزيرفكند الركبى والرمل ؛ وللرهاوى نوروز العرب ونوروز العجم ؛ وللبزرك النهفت والهمايون ؛ وللأصفهان النوروز والتشاورك ؛ وللنوى النوروز الناطق والماهور ؛ وأخيرا فشعبتا الحسينى هما الدوكاه والمحير ، مما يشكل طبقا لقاعدة البيعى[١] أربعا وعشرين درجة (أو انتقالة) تتفرع عن المقامات .

« أما الأوازات الست المشتقة من المقامات فهى الكردانية والسلمك والماياه و الكوشت والنوروز والشهناز » ، وهى تتفرع كما يلى :

أولا : الكردانية عن الرست والعشاق ؛

ثانيا : والسلمك عن الزنكلا والاصفهان ؛

ثالثا : والماياه عن العراق والزيرفكند ؛

رابعا : والكوشت عن الحجاز والنوى ؛

خامسا : والنوروز عن الحسينى والبوسليك ؛

سادسا : والشهناز عن الرهاوى والبزرك .

---

(١) هكذا يسمون قاعدة الاشتقاقات .

وقد اشتقت هذه الأوازات على هذا النحو ، طبقا للمبادىء والأسس ؛ وكل مالم يرِدْ هنا يمكن النظر إليه على أنه غير صحيح .

« لتعلم إذن أن الشجرة تضم كل هذه المقامات والشعب التى أطلعناك عليها ، ولكن الأمر ليس كذلك بخصوص الأوازات . ولهذا السبب فقد تناولنا تكوينها بشكل منفصل بقصد أن نيسر دراستها ، وأن نجعل فهمها أكثر يسرا ، أو لكى نصل بالأحرى إلى غايتنا . لذلك فقد وضعنا نظام الشجرة تبعا للمنهج الطبيعى ، الذى للتأليف الهندى ، طبقا لما سبق أن ذكرناه ماسا بتكوين التونات أو المقامات » .

« ولقد جعلنا من الجذور الأربعة جذرا واحدا تصدر عنه كل الفروع ، ويستحق هذا الجذر أن يكون فى وضع رأسى[1] ، وبعد ذلك قسمناه إلى أربعة أقسام عينت كل منها بصفة خاصة فى التكوين المبدئى للجذور الأربعة ، بواسطة دائرة كبيرة بالنسبة لدائرة هذا الجذر ، كما سبق أن علمناك » .

« وقد وضعنا أحدهما على يمين الجذر وهو الزنكلا ، والأخر على اليسار وهو العشاق ، وينشأ كل منهما من الموضع نفسه الذى تخرج منه برداه جذر الرست ، وبعد ذلك وزعنا بقية الفروع الأربعة التى عرضناها من قبل غير هذه الجذور الأربعة » .

« وقد ولّدنا شعبتى الرست وهما المبرقع والبنجكاه ؛ أما المبرقع فتتجه شعبته إلى أسفل فى حين تتجه شعبة البنجكاه إلى أعلا ؛ أما الزنكلا فإن الجاركاه هو جذره (شعبته) السفلى ، أما شعبته العلوية فهى العزل . وقد هيأنا الشعبة العلوية بحيث تبدأ من نفس جذع الفرع الذى نشأت هى عنه ، والذى يتجه إلى أسفل . وقد لاحظنا الوضع نفسه بخصوص كل مقام فيما عدا وضع الجذور الأربعة ، ذلك أن شعبتى كل جذر من هذه الجذور تتجهان ، متشعبتين ومتباعدتين ، نحو الأسفل ، كما أن كلا منها تواجه الأخرى ، ذلك أن ترتيب النظام الهندى وهيئته تفرضان عليه هذا الوضع » .

---

(١) لم نجد هذا الشكل قط مرسوما فى البحث العربى لأن المخطوطة لم تكن تامة ، ولأن نهايتها كانت ناقصة ، وإن يكن من المحتمل أن هذا الشكل كان ينبغى أن يوضع فى هذا الجزء الأخير ؛ وزيادة على ذلك فليس من العسير أن نتمثله طبقا للوصف الذى يقدمه عنه المؤلف .

« ومع ذلك فسوف نتعرف من الشعبتين اللتين تبدءان من الجذور على الشعبة الدنيا ، فهى التى توجد على يمين الجذر ، فى حين تكون الشعبة العليا عن يساره . فافهم ذلك جيدا » .

« وزيادة على ذلك فإن أى إنسان صاحب ذوق ، ليس فى حاجة كى نعلمه كيف يميز الشعبة العلوية عن الشعبة السفلية ، ومع ذلك فقد وضعنا إشارة لتمييزها فى الفرع ذاته ، قاصدين أن نسهل الأمور على المبتدىء ؛ فقد وضعنا عند طرف كل واحد من فروع الشجرة دائرة كبيرة ، بالمقارنة مع صغر عيون (دوائر) هذه الفروع ، وفى هذه الدوائر كتبنا اسم الشعبة العليا والشعبة السفلى ، وقد فعلنا الشيء نفسه بالنسبة للجذور كما سبق لنا القول » .

وقد لا نستطيع أن نتوسع أكثر من ذلك فى تقديم هذا البيان ، دون أن نغوص فى تفاصيل غامضة عن نظرية الموسيقى عند العرب ، وهى تفاصيل قد تتطلب تعليقات طويلة مثقلة بأدق التفاصيل حتى تبين . وهو أمر غير مناسب قط هنا .

وأخيرا فإن ما إنتهينا من نقله إنما هو أكثر من كاف كى نتبين شكل النظام الموسيقى عند العرب .

المبحث السابع

عن مبادىء وقواعد التلحين أو التطريب في الموسيقى العربية

جعل العرب من طربهم مسألة أكثر صعوبة بكثير مما جاء عليه هذا الجانب من فن الموسيقى عند أى شعب من الشعوب على الاطلاق ، فمبادىء التطريب وقواعده معقدة ، حتى أنه لا يوجد قط متبحر يتجاسر على التباهى بأنه قد امتلكها بشكل تام .

وإذا ما صدقنا تاريخ هذه الشعوب ، فقد كان فن التلحين أو التطريب فيما مضى مصدرا لكثير من الأساليب أو الحيل للموسيقيين الذين برعوا فيه ، حتى أنهم كانوا يستطيعون ، كيفما يحلو لهم ، التعبير عن كل المشاعر وكل العواطف وأن يوحوا بها بالتالى إلى كل من كانوا يستمعون إليهم ؛ بل أن التاريخ يذكر عددا كبيرا من الأمثلة على التأثير الرائع الذى كان يحدثه أولئك الموسيقيون ، الذين كانوا يعيشون فى العصور التى ازدهرت فيها الموسيقى فى بلاد العرب وفارس ؛ ولهذا السبب ، كان ينظر إلى هؤلاء الموسيقيين باعتبارهم علماء من الطبقة الأولى يستحقون عظيم التقدير .

أما المنهج الذى يتبعه العرب فى تعليم فن التلحين أو التطريب فليس بأفضل من المنهج الذى تبنوه فى شرحهم لنظامهم الموسيقى : فأسلوب لغتهم المعبر عن أمور هذا الفن ، والمجازى فى جزء منه ، البسيط فى الجزء الآخر يعوق كثيرا فى جلو الأفكار التى تغرق عادة ، فضلا عن ذلك ، فى خضم محيط من كلمات لا تضيف أى معنى ، ولا تتيح على الدوام فرصة لاختيار الأفكار التى يسعى المرء لاقتباسها أو استخلاصها .

وهنا ، فإننا سنظير الحديث ، مرة أخرى ، على لسان ذلك المؤلف المجهول الذى أشرنا إليه فى المبحث السابق ، وإليكم كيف يشرح لنا أفكاره فى بحثه عن الموسيقى ، الفصل الرابع ، وعنوانه : طريقة استخراج الجذور الأربعة من مخارج

البرداهات ؛ عن جذور الشجرة عند الممارسة وعن فروع هذه الجذور وعن المبدلات(*)

وينقسم هذا الفصل إلى قسمين يحتويان على الاختبارات أو التجارب .

« وبهذه المناسبة نقول للدارسين إن عليهم أن يعرفوا أننا عرضنا فيما سبق كل ما يتصل بعلم الأنغام » .

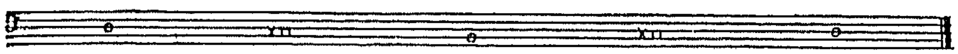
القسم الأول ــ طريقة إستخراج الجذور الأربعة من مخارج البرداهات ومن عيون جذر الشجرة عند الممارسة .

« سنقوم فى البداية بمعالجة مقام الرست وتكوينه »

« فهو يبدأ ببرداه جذر الرست[١] وينزل إلى برداه أسفل المقلوب[٢] وبعد ذلك إلى برداه أسفل الحسينى[٣] ثم يصعد إلى أسفل المقلوب[٤] وبعد ذلك إلى برداه جذر الرست[٥] حيث يتوقف » .

مثال على تكوين مقام الرست

بورداه من حذر الرست	بورداه من أسفل المقلوب	بورداه من أسفل الحسينى	بورداه من أسفل المقلوب	بورداه من جذر الرست



1	2	3	2	1
برداه مطلقه	برداه مطلقه	برداه مطلقه	برداه مطلقه	برداه مطلقه

[هذا التدوين وإعتبار الراست يعادل (صول) كان يعمل به حتى انعقاد مؤتمر الموسيقى العربية الدولى الأول عام ١٩٣٢ م . بالقاهرة . ثم أصبح الراست يعادل (دو)]

(*) المبدلات ، علامة موسيقية تستخدم للدلالة على تغيير فى النغمة .

(١) انظر ما سبق ، مثال على الجذور السبعة ، برداه الرست أو البرداه الأولى .

(٢) انظر ما سبق ، مثال للجذور التحتية (أسفل الجذر) ، البرداه أسفل المقلوب .

(٣) انظر فى المثال السابق نفسه ، البرداه أسفل الحسينى .

(٤) المثال السابق نفسه .

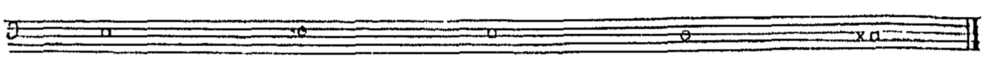
(٥) انظر مثال الجذور السبعة السابق الإشارة إليه .

«وطبقا لهذه القاعدة فإن نغمة الرست[١] تتكون من ثلاث بورداهات مطلقة دون وجود لبرداه مقيده[٢] ، فهو إذن يتكون من خمس نغمات[٣] »

أما عن مقام العراق فإليكم ما يتصل بأمر تكوينه : فهو يبدأ ببرداه من جذر الدوكاه[٤] ويصعد إلى برداه من السيكاه[٥] ، ثم ينزل مرة أخرى إلى بورداه من الدوكاه[٦] لينزل أكثر من ذلك إلى برداه من الرست[٧] وبعد ذلك يواصل نزوله إلى برداه أسفل المقلوب[٨] ، حيث يتوقف .

مثال على تكوين مقام العراق

بورداه من جذر المقلوب	بورداه من جذر الرست	بورداه من جذر الدوكاه	بورداه من جذر السيكاه	بورداه من جذر الدوكاه



4	3	1	2	1
بورداه مطلقة	بورداه مطلقة	بورداه مطلقة	بورداه مطلقة	بورداه مطلقة

---

(١) كلمة نغمة تعنى عموما كل رنة لحنية ؛ وهى مستخدمة هنا بمعنى التطريب أو اللحن ؛ وهكذا فإن عبارة نغمة الرست هى الشيء نفسه الذى تعنيه عبارة لحن أو مقام الرست .

(٢) انظر مثال الجذور السفلية (أسفل أو تحت الجذور) .

(٣) ينبغى مما قيل هنا أن نرى أن كلمة نغمة قد جاءت مرادفة لكلمة تون أى مقام :
أولا : تعنى المقام أو اللحن وقد استخدمناها من قبل بهذا المعنى .
ثانيا : تعنى نغمة لحنية وهنا نجد المعنى أو التفسير الذى ينبغى أن يكون لها الآن .

(٤) انظر مثال الجذور السبعة ، جذر الدوكاه .

(٥) انظر المثال السابق نفسه .

(٦) انظر المثال السابق نفسه .

(٧) انظر المثال السابق نفسه .

(٨) انظر مثال الجذور السفلية ، البرداهات أسفل الجذور .

وهكذا يتكون مقام العراق من أربع بورداهات مطلقة وخمس نغمات.

ويبدأ الزيرفكند ببرداه من جذر الدوكاه[١] ،ويصعد قفزة واحدة إلى برداه من جذر الحسينى[٢] ثم يتحطى كل البرداهات الوسيطة فى هذه الفاصلة ليهبط إلى جذر البنجكاه[٣] ، ويصعد بعد ذلك إلى نصف برداه من الحسينى[٤] ، ومنه يهبط إلى برداه من الجاركاه[٥] ، ثم من ذلك أخيرا إلى السيكاه[٦] حيث يتوقف .

مثال لتكوين من مقام الزيرفكند



---

(١) انظر مثال الجذور السبعة .

(٢) انظر المثال السابق .

(٣) انظر المثال السابق .

(٤) نصف البرداه هى ، كما سبق أن شرحنا من قبل ، التى تقع بين براده ما والتى تليها ، أى هى النغمة الوسيطة بين هاتين النغمتين ؛ وبمعنى آخر ، فحيث أن الحسينى هو الـ سى الطبيعية وأن النغمة التالية هى : أوت × فإن من الواضح أن يكون نصف الحسينى هو الأوت ut الطبيعية .

(٥) انظر مثال الحدور السبعة .

(٦) انظر مثال الجذور السبعة .

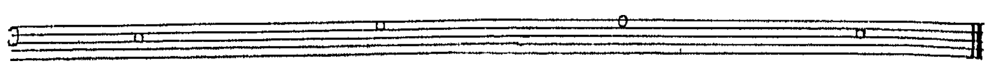
وطبقا لهذه القاعدة فإنه يتكون إذن من خمس بورداهات مطلقة ، ونصف برداه مقيدة » .

« أما عن مقام الإصفهان . فالله سبحانه وتعالى أعلم » .

هكذا ينهى المؤلف بحثه فجأة ، أو على الأقل فهنا ينتهى كل ما فى حوزتنا من هذا البحث ، وثمة شواهد كثيرة على أنه كان يجهل مقام الإصفهان ، وإن كنا سنستعيض عن ذلك بما يخبرنا به مؤلف آخر ، بسبب الأفكار العويصة التى يزخر بها مؤلفه . وإليكم بعض ما يقول بمناسبة حديثه عن مقام الأصفهان :

« وإذا أردت المبدأ الرابع : فاحمل البيت الثانى[١] إلى البيت الرابع[٢] ثم ارتفع بمقدار درجة ، فيسمى ذلك بالبيت الخامس[٣] ، ثم ابدأ من البيت الخامس إلى البيت الثانى ، واعمل ذلك ، تحصل على مقام الأصفهان » .

مثال لتكوين من مقام الإصفهان



البيت الثانى أو الدوكاه   البيت الخامس أو النجكاه   البيت الرابع أو الجهاركاه   البيت الثانى أو الدوكاه

ولا يتخيلن أحد بطبيعة الحال أن الأغانى المؤلفة أو الملحنة على هذا المقام

---

(١) بيت أى منزل ؛ وهذه الكلمة مرادفة لكلمة مقام بمعنى مقر ، مكان ، درجة ، نغمة ، وهنا فإن نغمة الدوكاه هى البيت الثانى . انظر مثال الجذور السبعة ، ما جاء عن جذر الدوكاه ، وكذلك البيان الذى يسبق هذا المثال .

(٢) وهو الشيء نفسه الذى نراه بخصوص جذر الجاركاه . انظر مثال الجذور السبعة .

(٣) وهو الشيء نفسه الذى نراه بخصوص جذر البنجكاه ، انظر البيان ؛ ومثال الجذور السبعة .

أو ذاك ، تقتصر على مثل هذا العدد الصغير من الأنغام الذى سقناه فى هذه الأمثلة ، إذ لا يمكن أن يحدث هذا فى الواقع ، فهذه الأنغام – الأمثلة تشكل فقط النوتات المقامية ، أى تلك التى تشكل طابع المقام أكثر من غيرها . فحتى نحن ، فى تراتيلنا الكنسية ، التى ترتبط قواعد التطريب فيها على نحو ما بقواعد الطرب العربى ، فإننا نتعرف بالمثل على كل مقام ، عن طريق نوع من التشكيلة الغنائية ، المؤلفة من نوتات (نغمات) متميزة ، تحمل طابع هذا المقام .

ويحصى العرب فى موسيقاهم نحو مائة نغم أو مقام مختلف ، قد يكون بالامكان أن نقدم بيانا عنها على نحو ما قدمناه عن المقامات السابقة ، ومع ذلك فحيث أننا مضطرون لضغط مادتنا ، قاصدين أن نهيىء مكانا للموضوعات الأخرى من بحوثنا حول الموسيقى الشرقية ، فقد تحتم علينا أن نختار بين المقامات التى علينا أن نلزم الصمت عنها ، وبين تلك التى كان علينا أن نتناولها بالحديث . ولقد فضلنا ، كما كان علينا أن نفعل ، أن نقدم الأنغام الأربعة المبدئية والجذرية التى تعرضنا لها للتو .

ومع ذلك ، وحتى لا ندع الكثير للتمنى حول هذه النقطة ، وحتى نلقى نظرة سريعة على كل الينابيع ، وكذلك فى نفس الوقت على كل صعوبات قواعد التطريب العربى ، فإننا سنقدم الدورات الرئيسية أو السلم النغمى لهذا الإطراب ، ثم سنعطى أمثلة على التتابع المتماثل لهذه الدورات ولتطورها المنهجى والهارمونى ، فى تسلسل عملية التلحين ؛ وحيث أننا نسعى لمزيد من الإختصار ، فسوف نقدم نوته موسيقية لكل هذه الأشياء ؛ وحيث أننا كذلك سنستخدم علامات معينة خاصة ، غير مستخدمة قط ، للاشارة إلى فواصل فى الموسيقى العربية ليست موجودة فى موسيقانا ، فإننا سنتحدث فى البداية عن أصل وابتكار واستخدام الاشارات التى يستخدمها الشرقيون لتدوين موسيقاهم ، وكذلك عن هذه الاشارات التى توضح عن طريقها الفواصل التى يستخدمونها فى موسيقاهم ، والتى لم تدخل قط فى ممارستنا الموسيقية .

المبحث الثامن

عن العلامات أو الاشارات أو نوتات الموسيقى المستخدمةعند العرب ، والشرقيين بصفة عامة ، وعن الوسائل التى استخدمناها للتعبير عن هذه الاشارات بالنوتات التى تستخدمها موسيقانا الأوربية

لم يكن الشرقيون منذ مائتى عام يعرفون قط الاشارات أو العلامات لتدوين موسيقاهم أو فى تدوين الموسيقى العربية . وقد كان ديمتريوس كانتيمير[1] Démétrius Cantemir هو الذى اخترع منذ مائة عام ونيف ، النوتات التى يستخدمونها اليوم فى بعض مناطق الشرق ، وبصفة خاصة فى تركيا .

ومع ذلك فقد أكد منيسكى Meniski وكتاب آخرون ، على غير أساس على الاطلاق ، أن العرب قد تبنوا ، من قبل ، استخدام هذه العلامات فى ممارسة موسيقاهم ، ولكنهم فى الحقيقة لم يستخدموها قط ، ولقد أقنعنا أكثر رجالهم تبحرا فى العلم بأنهم لم يسمعوا بها على الاطلاق ، وفى واقع الأمر فإن بحوث الموسيقى التى وضعها العرب لم تشر إليها ، فى أية فترة ، على الاطلاق .

---

(١) ينتمى ديمتريوس كانتيمير إلى أسرة مرموقة من بلاد التتار ؛ وقد ولد فى عام ١٦٧٣ ، وكان أبوه حاكما لمقاطعات ثلاث فى مولدافيا ، وقد أرسل الأخير ابنه الأكبر إلى القسطنطينية ليتعلم هناك . وقد بقى ديمتريوس كانتيمير فى هذه المدينة نحو عشرين عاما . وهناك عكف على دراسة اللغة التركية والموسيقى ، وأحرز فى ذلك تقدما سريعا . وخلال هذه المدة ابتكر النوتة الموسيقية التى أصبحت تستخدم منذ هذا الوقت فى هذه البلاد وفى بلاد أخرى كثيرة فى الشرق . وليست هذه العلامات شيئا آخر سوى حروف الهجاء التركية ، وهى على وجه التقريب نفس حروف الهجاء العربية . ولقد كانت القيمة العددية للأرقام هى القاعدة التى اتبعها لايضاح الترتيب التعاقبى للنغمات ، فى السلم الموسيقى ، مع الصعود فى درجات تبعد كل منها عن الأخرى لمسافة ثلث تون .

ومن بين المؤلفات المختلفة التى ألفها ديمتريوس كانتيمير نذكر كتابه عن الألحان طبقا لقواعد الموسيقى التركية فى مجلد واحد ، ومدخل إلى الموسيقى التركية .

ويرجح أن يكون السبب الذى أدى إلى حدوث هذا الخطأ وإلى أن يعطى لهذا الخطأ بعض مظهر من الحقيقة ، هو أن العلامات الموسيقية التى ابتكرها ديمتريوس كانتمير ، كانت تتكون من حروف الهجاء العربية ، ومع ذلك فمن المعروف أن الحروف العربية كانت قد تُقبلت ، منذ قرون عدة ، فى كل لغات شعوب الشرق الذين خضعوا للعرب واعتنقوا الاسلام . أما ديمتريوس كانتمير ، الذى تلقى علومه فى القسطنطينية والذى أتم فى هذه المدينة كل خطوات تقدمه وكل اكتشافاته فى الموسيقى ، فلم يفضل حروف الهجاء العربية فى تدوين الموسيقى إلا لأنها – هى كذلك – نفس حروف هجاء لغة البلد الذى كان يقيم فبه ، والذى وضع فيه مؤلفاته الموسيقية ، وهو بالتأكيد لم يشتط فى طموحه فيحلم بأن يتقبل العزب إشاراته أو نوتته الموسيقية ، بله أن يتقبلها المصريون ، وهم أقل الشعوب جنوحا نحو التجديد ، والذين – من جهة أخرى – ينظرون إلى الموسيقى ، تلك التى يحرمها الدين ، باعتبارها فنا جديرا بالاحتقار .

ولهذا السبب فلن نتحدث هنا عن هذه العلامات أو الاشارات ، باعتبار أنها تنتمى إلى الموسيقى العربية ، وإنما لأنها – فقط – كانت ذات نفع لنا فى تحديد درجات السلم الموسيقى العربى بدقة ، وكذا الجدول الموسيقى لآلاتها ، ولأنها تؤكد صدق ما دلتنا عليه الملاحظة والتجربة حول هذا الموضوع .

إن كل إشارة تتكون من هذه الحروف تشير إلى درجة من السلم الموسيقى ، مقسمة إلى ثلاثة أنغام (نوتات) ، وحيث أن المجموعة الثمانية (الأوكتاف) تتكون من شيء أقل من ست نوتات ، وأن العرب لا يحسبون مقابل ثلث التون إلا واحدة من نصفى التون الدياتونى ، فإن المجموعة الثمانية (الأوكتاف) توجد عندهم منقسمة إلى سبعة عشر ثلث تون ، محصورة بين ثمانى عشرة درجة مختلفة ، تشير إلى كل واحدة منهن إشارة خاصة .

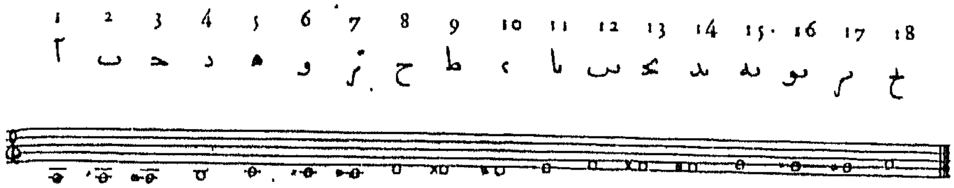
ولقد أرغمتنا غيبة الاشارات الدالة فى موسيقانا على فواصل مشابهة ، على استخدام إشارات جديدة ، وعلى أن نعطى للأشارات التى كانت معروفة قيمة مختلفة عن تلك التى لها فى الاستخدام العادى ، لذلك فقد استخدمنا العلامة × أو نصف رافعة لأثلاث التونات الصاعدة ، والعلامة  أو نصف الخافضة ، لأثلاث

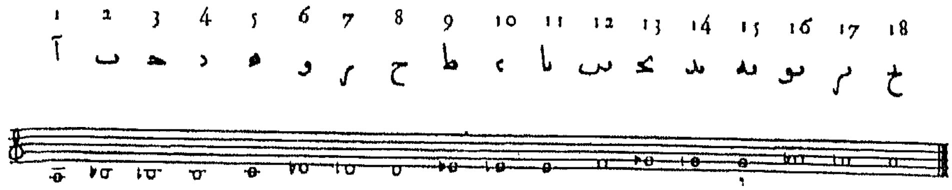
التونات الهابطة والعلامة لفاصلة متوسطة بين ثلث وثلثى التون فى النغم (أو التون) الصاعد ، والرافعة لثلثى التون الصاعدين ، والخافضة b لثلثى التون الهابطين .

وقد أمكننا بهذه الوسيلة أن نتمثل بواسطة نوتاتنا ، وبقدر من الدقة يماثل ما حصل عليه ديمتريوس كانتيمير عن طريق الحروف ، كل درجات السلم الموسيقى (العربى) منقسما إلى أثلاث تونات . وقد حصلنا – زيادة على ذلك ، على ميزة أن ندون النغمات نفسها بطريقتين ، وأن نتمكن على الدوام ، ودون أن يتحقق من جراء ذلك ضرر واحد ، من أن نحل طريقة محل الأخرى حين يكون ذلك مفيدا ، وإليكم كيف تحقق ذلك .

إذا افترضنا وجود نغمتين يفصل بينهما نغم فاصل أو مقام فاصل ، فإننا إذا رفعنا النغمة الدنيا بمقدار ثلث التون ، أو إذا خفضنا النغمة العليا بمقدار ثلثى التون ، فمن الواضح أن هذا سوف يعطينا الدرجة أو الانتقالة نفسها ، وعلى العكس من ذلك ، فإذا نحن خفضنا النغمة العليا بمقدار ثلث التون ، أو إذا رفعنا النغمة الدنيا بمقدار ثلثى التون ، فإن من الواضح كذلك أننا بذلك نحصل على الانتقالة أو الدرجة نفسها ، وبالتالى فإذا نحن رسمنا النغمة الدنيا بالعلامة × التى تشير إلى ثلث التون الصاعد ، فسيكون الأمر مساويا لما نفعل إذا قد رسمنا النغمة العلوية بالعلامة (b) التى نعبر بها عن ثلثى التون الهابطين ، وبالمثل فإذا نحن دونا النغمة العلوية بالعلامة ( ) التى تشير عندنا إلى ثلثى تون صاعدين ، فإنه ينتج الشىء نفسه لو أننا أشرنا إلى هذه النغمة العلوية بالاشارة ( ) التى تشير إلى ثلث التون الهابط . وسوف تعفينا هذه الحيلة ، كما سنرى بعد ذلك ، من مضاعفة الاشارات ، مما يجعل طريقتنا فى التدوين أكثر بساطة بكثير عما كانت ستغدو عليه بغير ذلك . وزيادة على ذلك فسيصبح هذا أكثر وضوحا عند التطبيق ، وحتى نتمكن من الحكم مقدما على ذلك فسنقدم السلم العربى مدونا بهاتين الطريقتين ، مقابلين النغمات المدونة بالاشارات المختلفة ، المعبرة عن الدرجة أو الانتقالة نفسها ، بعضها مع البعض الآخر كاتبين فوق كل نغمة ، الحرف العربى الذى يشير إلى النغمة نفسها ، بالاضافة إلى الرقم العددى الذى يرتبط بها .

الاشارات أو العلامات ، مدونة بالحروف العربية ، وهى التى تمثل الثمانى عشرة نغمة مختلفة من السلم الموسيقى ، المقسم إلى أثلاث تونات ، وكذلك الاشارات والعلامات المقابلة بطرق مختلفة ، فى الموسيقى الأوربية ، لنفس الحروف ، ولنفس النغمات العربية

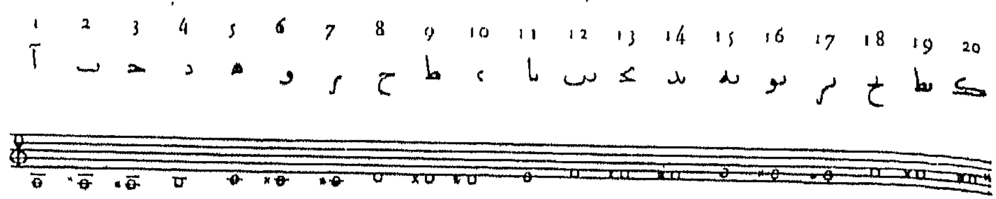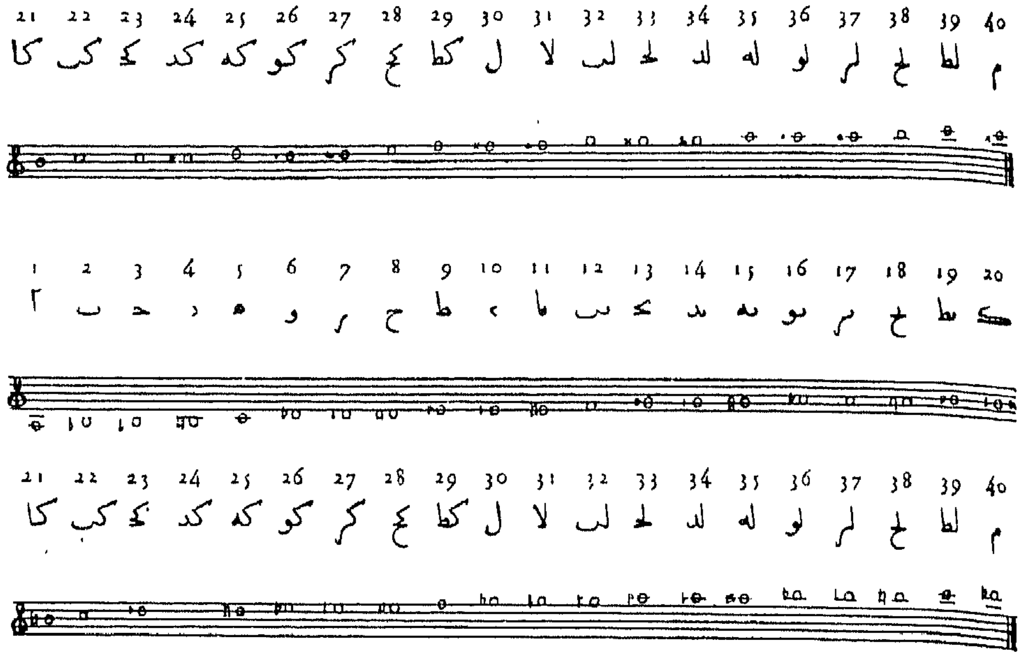




تلكم هى الطريقة التى دونت بها الثمانى عشرة درجة من السلم الموسيقى العربى ، المنقسم إلى أثلاث تونات ، ولقد دونت على هذا النحو كل نغمات السلم العام مع الاشارة إلى كل نغمة – كما فى المبحث السابق – بإشارة خاصة ، ويشتمل هذا الجدول على أربعين نغمة تنفصل كل منهما عن الأخرى بفاصلة من ثلث تون ، وسوف نقدمه بالشكل نفسه الذى قدمنا به السلم الموسيقى ، مع تدوينه كذلك باتباع طريقتين مختلفتين ، بنوتات أو إشارات موسيقانا الأوربية . وبمقدور القارىء أن يلجأ إليها بعد ذلك إذا ما قابله شيء يريد التحقق منه ، حيث أننا لن نشير ، فى الأمثلة التى سنقدمها ، إلى الاشارات العربية ، إلا عن طريق رقم يحدد ترتيبها فى هذا الجدول .

تخطيط أو جدول عام بنغمات السلم الموسيقى العربى

مدونه بواسطة حروفهم ومترجمة إلى نوتات الموسيقى الأوربية




21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40
كا كب كج كد كه كو كز كح كط ل لا لب لج لد له لو لز لح لط م
1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20
ا ب ج د ه و ز ح ط ى يا يب يج يد يه يو يز يح يط ك
21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40
كا كب كج كد كه كو كز كح كط ل لا لب لج لد له لو لز لح لط م
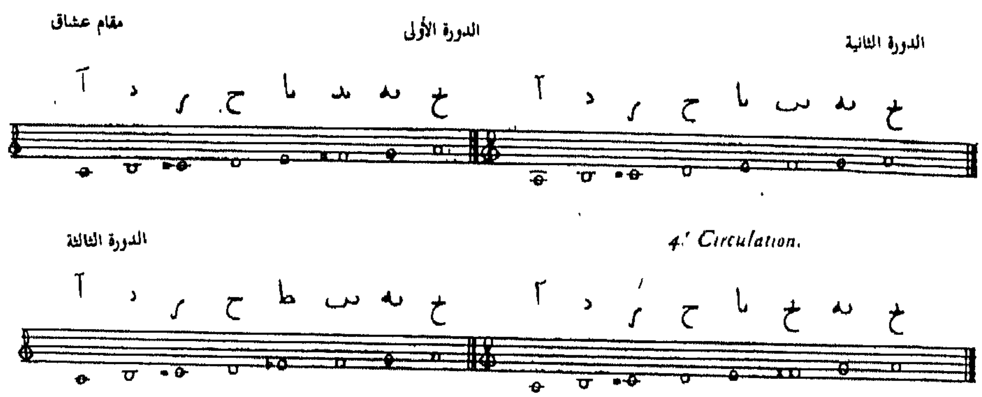
المبحث التاسع

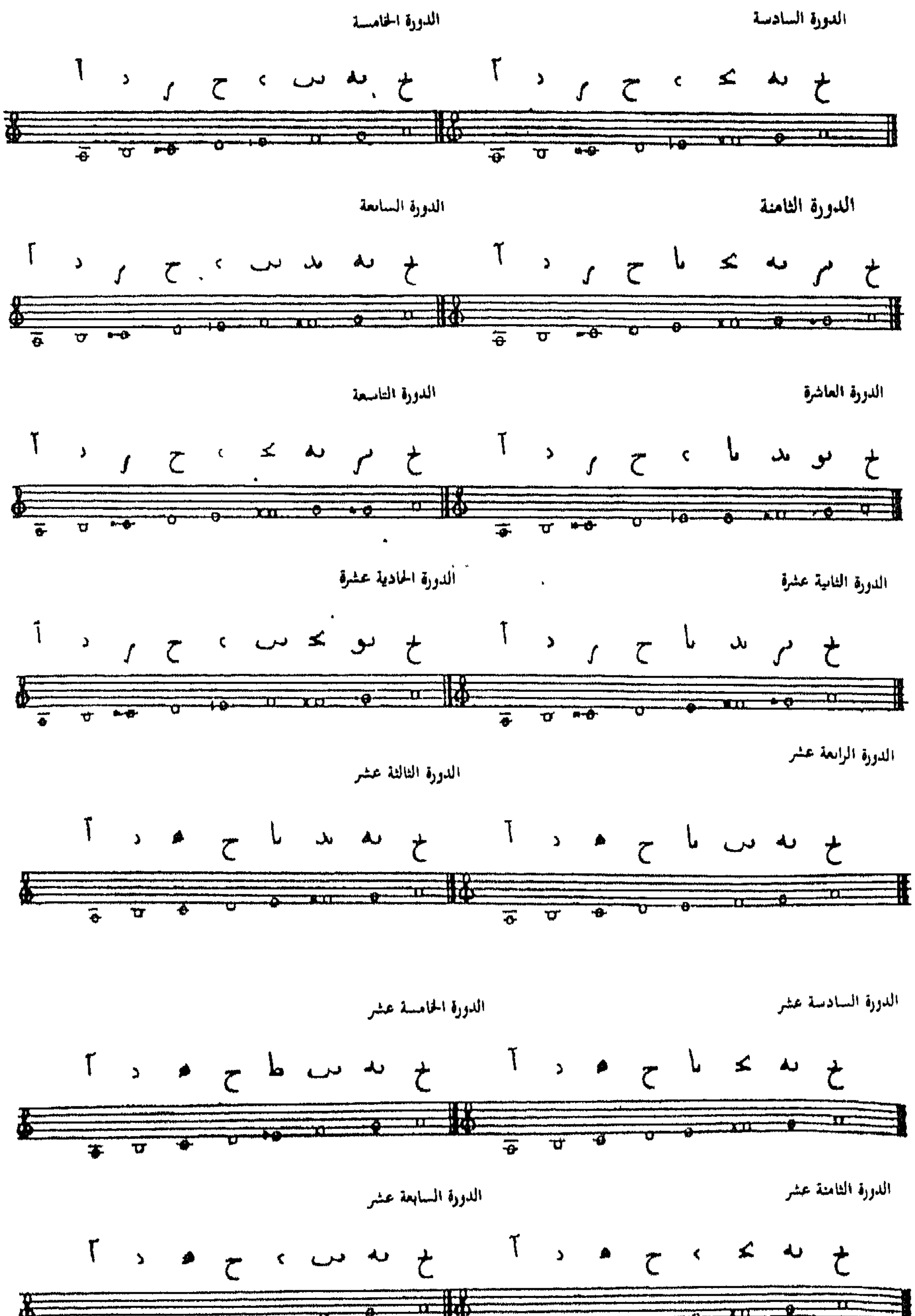
عن الدورات ، عن سلالم الأنغام أو المقامات في الموسيقى العربية

ليست أعلى أو أدنى انتقالة أو درجة ، من درجات الصعود أو درجات الهبوط لأول نغمة فى السلم النغمى أو فى قرار مقام ما ، وبصفة عامة ، هى التى تحدد الفروق بين المقامات النغمية عند العرب ، ولكنه الترتيب أو النظام الذى تتبعه الفواصل فيما بينها ، هو الذى يحقق بصفة أساسية هذا الغرض . وهكذا ، فمهما يكن حظ المقام الموسيقى الذى نؤديه من الارتفاع أو الانخفاض ، فمن المفترض أنه يظل فى الحالين نفس المقام ، ما لم يحدث تغيير فى ترتيب الفواصل الواقعة بين النغمات .

وفى الوقت نفسه ، فإن المقامات تتنوع لتشكل عددا هائلا ، فبخلاف هذه المقامات المتداخلة ، فإن بالامكان كذلك تكوين عدد كبير من مقامات أخر ، وذلك عن طريق تكوين الفواصل المختلفة فى السلم النغمى بشكل مختلف ، أو حتى بالاكتفاء بإضافة نغمه وسيطة إلى هذه النغمات من سلم آخر .

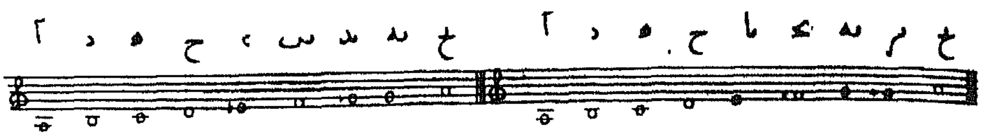
ولسوف تجعلنا الأمثلة الآتية ، ندرك بشكل أفضل ، عن أى شيء كنا سنقوله شرحا لذلك .




الدورة السادسة
الدورة الخامسة
الدورة الثامنة
الدورة السابعة
الدورة العاشرة
الدورة التاسعة
الدورة الثانية عشرة
الدورة الحادية عشرة
الدورة الرابعة عشر
الدورة الثالثة عشر
الدورة السادسة عشر
الدورة الخامسة عشر
الدورة الثامنة عشر
الدورة السابعة عشر

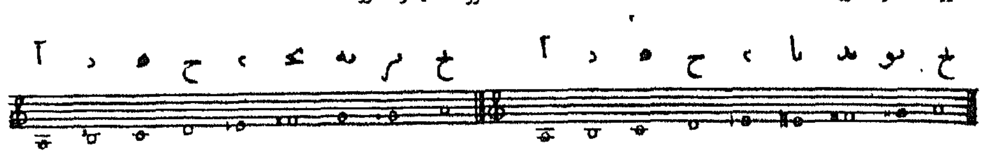
الدورة العشرون

الدورة التاسعة عشر



الدورة الثانية والعشرون

الدورة الحادية والعشرون



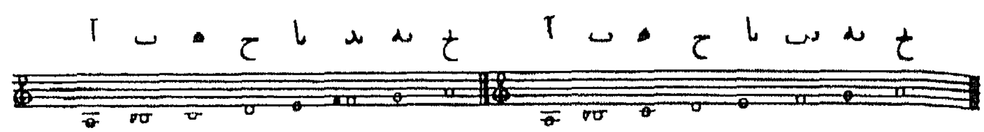
الدورة الرابعة والعشرون

الدورة الثالثة والعشرون



الدورة السادسة والعشرون

الدورة الخامسة والعشرون



الدورة الثامنة والعشرون
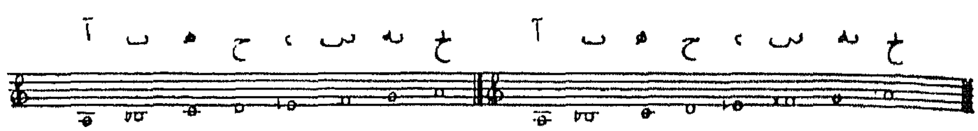
الدورة السابعة والعشرون

مقام أبو سيليك



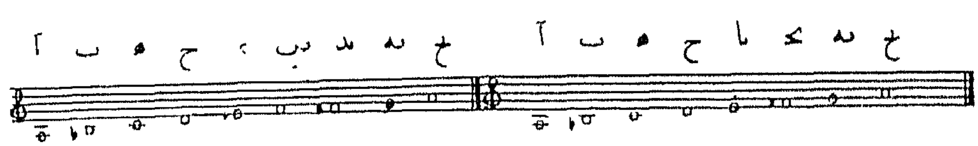
الدورة الثلاثون

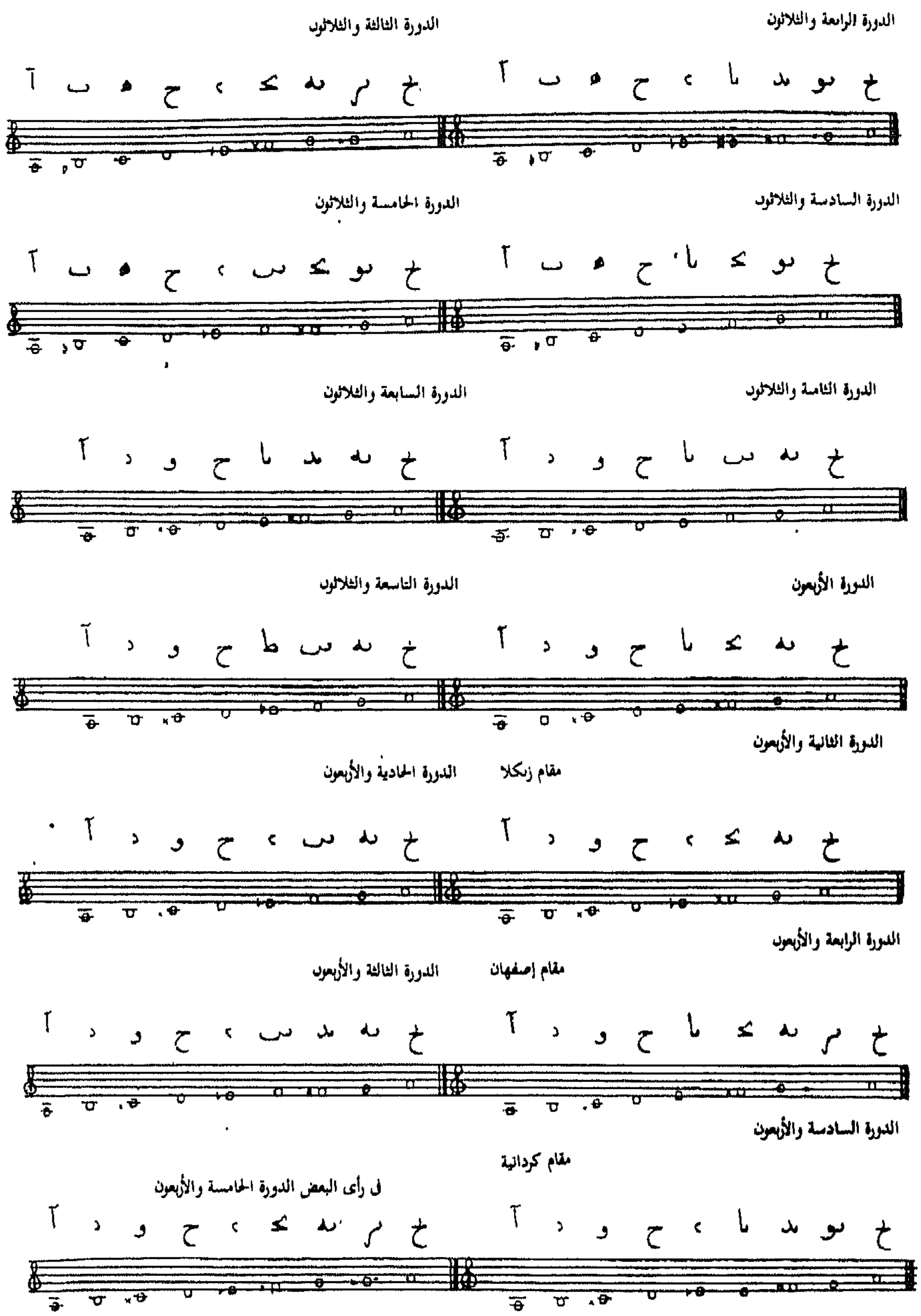
الدورة التاسعة والعشرون



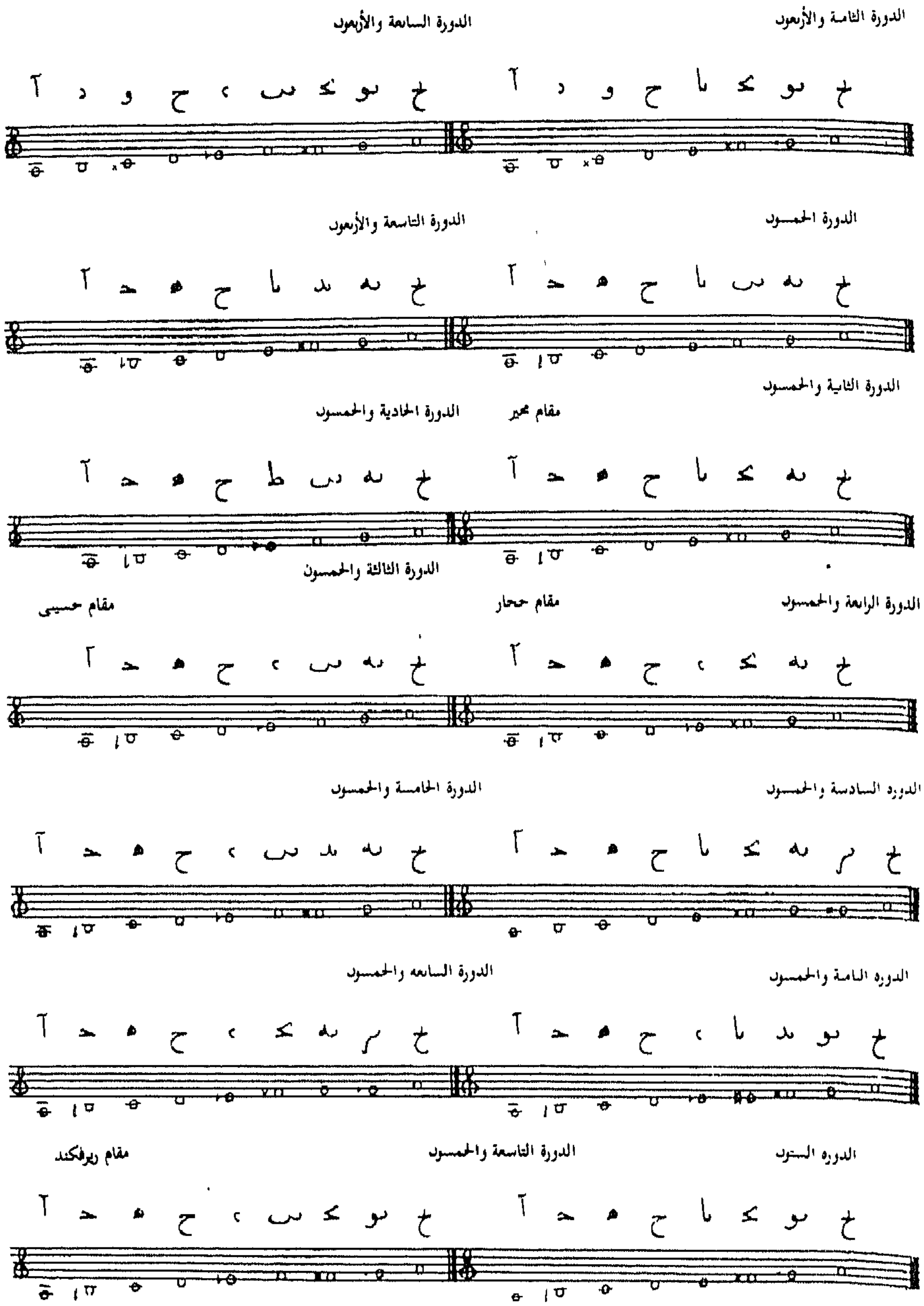
الدورة الثانية والثلاثون

الدورة الحادية والثلاثون
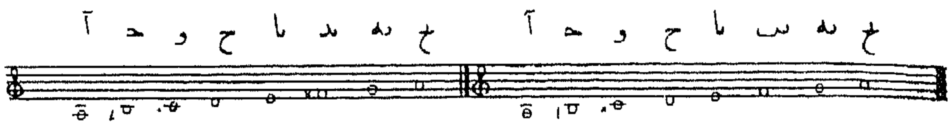



الدورة الرابعة والثلاثون
الدورة الثالثة والثلاثون
الدورة السادسة والثلاثون
الدورة الخامسة والثلاثون
الدورة الثامنة والثلاثون
الدورة السابعة والثلاثون
الدورة الأربعون
الدورة التاسعة والثلاثون
الدورة الثانية والأربعون
مقام زنكلا
الدورة الحادية والأربعون
الدورة الرابعة والأربعون
مقام إصفهان
الدورة الثالثة والأربعون
الدورة السادسة والأربعون
مقام كردانية
فى رأى البعض الدورة الخامسة والأربعون

E. M. Oooo


الدورة الثامنة والأربعون
الدورة السابعة والأربعون
الدورة الخمسون
الدورة التاسعة والأربعون
الدورة الثانية والخمسون
مقام محير
الدورة الحادية والخمسون
الدورة الثالثة والخمسون
الدورة الرابعة والخمسون
مقام حجاز
مقام حسيني
الدورة السادسة والخمسون
الدورة الخامسة والخمسون
الدورة الثامنة والخمسون
الدورة السابعة والخمسون
الدورة الستون
الدورة التاسعة والخمسون
مقام زيرافكند

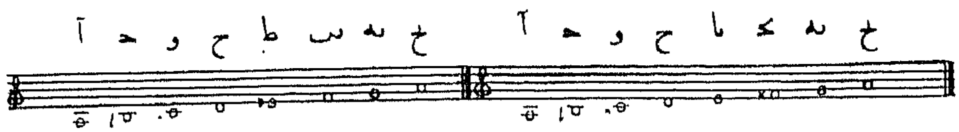
الدورة الثانية والستون

الدورة الحادية والستون
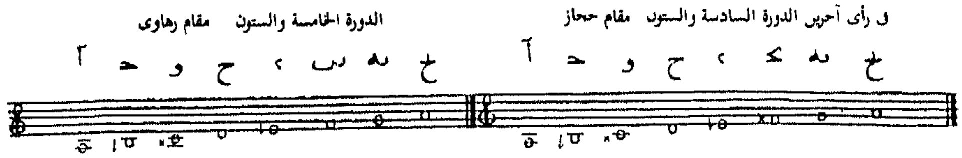


في رأى البعض الدورة الرابعة والستون مقام حجاز

الدورة الثالثة والستون



في رأى آخرين الدورة السادسة والستون مقام حجاز

الدورة الخامسة والستون مقام رهاوى



الدورة السابعة والستون
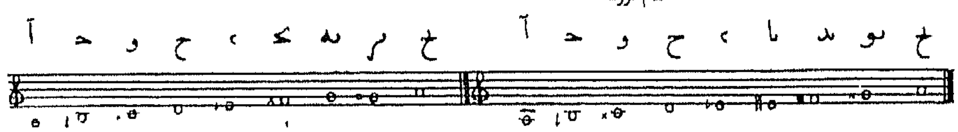


الدورة السبعون

مقام بُزرك

الدورة التاسعة والستون

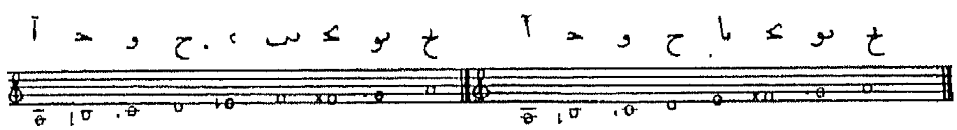
مقام عراق

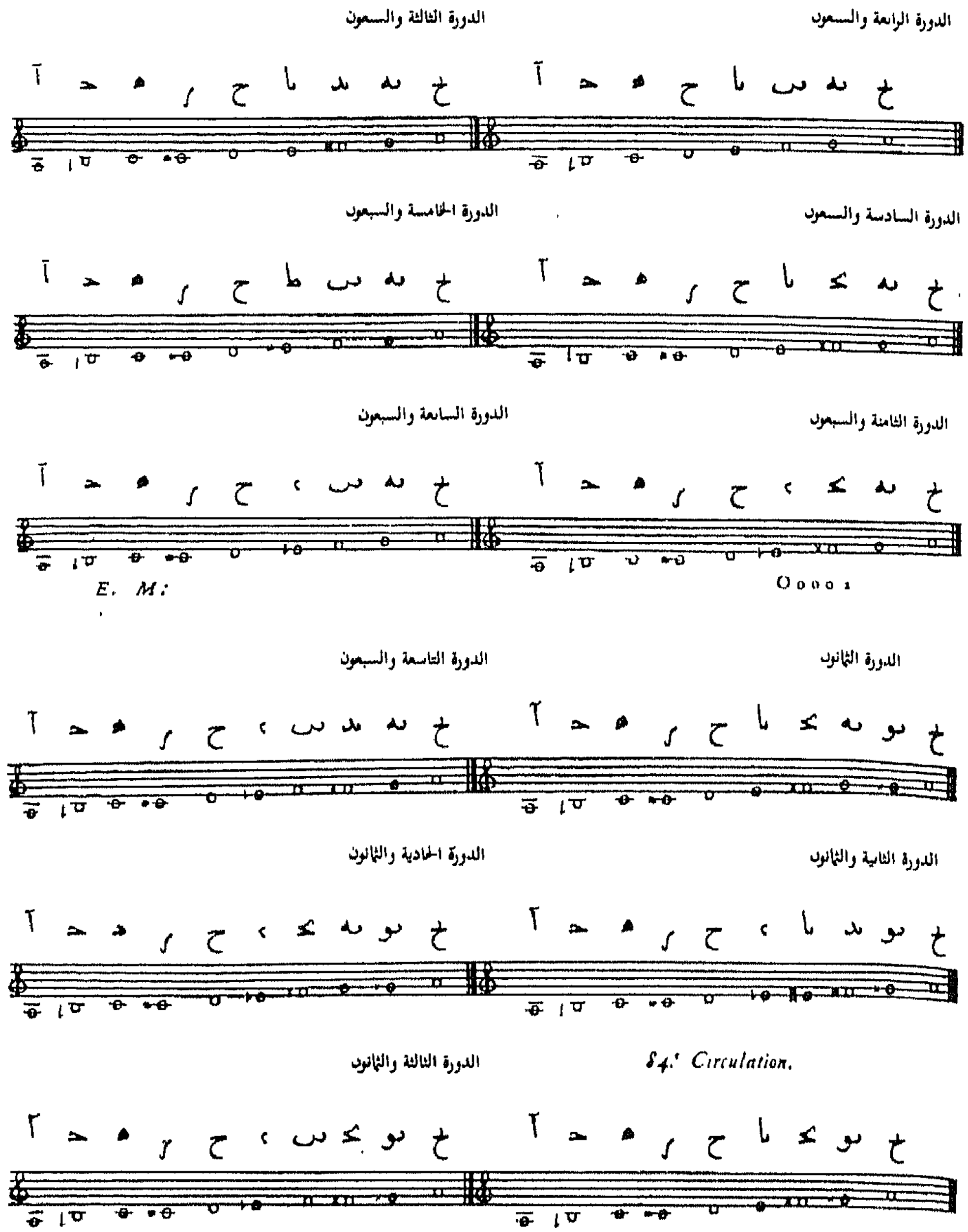


الدورة الثانية والسبعون

الدورة الحادية والسبعون

مقام كوشت




الدورة الرابعة والسبعون
الدورة الثالثة والسبعون
الدورة السادسة والسبعون
الدورة الخامسة والسبعون
الدورة الثامنة والسبعون
الدورة السابعة والسبعون
E. M:
الدورة الثمانون
الدورة التاسعة والسبعون
الدورة الثانية والثمانون
الدورة الحادية والثمانون
84.e Circulation.
الدورة الثالثة والثمانون

ونلاحظ فى هذه الدورات أن كثيرا من السلالم الموسيقية لا تتطابق بشكل تام ، مع دورات سنقدمها فيما بعد ، من المقامات نفسها التى تنتسب إليها هذه الدورات . وهذا يؤكد ما سبق أن لاحظناه حين قلنا إن النظام أو النسق العربى لا يحتفظ على الدوام بالشكل نفسه ، وإن المؤلفين ليسوا على اتفاق فيما بينهم بهذا الخصوص ، ومن الواضح ، حتى عن طريق ما هو مدون بالمخطوطة التى استخلصنا منها هذه السلالم الموسيقية أن سلما ما قد ينتمى فى رأى بعض المؤلفين إلى مقام وينتمى فى رأى مؤلفين آخرين إلى مقام مختلف .

ويلاحظ المرء من جهة أخرى ، أن هناك نغمة ثابته لاتتغير ، تنتهج كل هذه السلالم ، وهى تلك النغمة التى تُكوِّن الفاصلة الرباعية فوق النغمة الغليظة ، والفاصلة الخماسية تحت النغمة الأخيرة الحادة . وهكذا نضع أيدينا على علاقة مصاهرة أخرى بين النسق الموسيقى عند العزب ، وبين مثيله عند الاغريق ، الذى كانت الفاصلة الرباعية فيه تشكل نغمة ثابته ، ليس فقط فى الموسيقى من النوع الدياتونى ، وإنما كذلك فى الموسيقى الكروماتيكية(*) والموسيقى المتجانسة .

إذن فقد نظر العرب ، شأنهم فى ذلك شأن الأغريق ، وشأننا نحن كذلك ، إلى النغمة الرابعة الدياتونية من المقام ، باعتبارها نغمة أساسية ، وعلى هذا فقد تقبلوا هم كذلك تقسيم السلم الرباعى لكل مقام ، إلى رباعيات ، أى إلى وحدات صغيرة ذات نغمات أربع . ومع ذلك فإننا ، خشية أن يظن بنا أننا نعير العرب بشكل مجانى ، وعن غير جدارة من جانبهم ، أفكارنا الخاصة ، سنجعل المؤلف الذى استقينا منه الدورات السابقة يتحدث بنفسه :

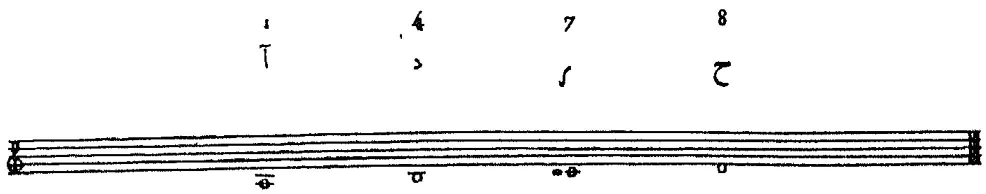
يقول المؤلف : « تلك هى الدورات المعروفة ، أما النغمات الجذرية فهى تقسيمات يطلق على كل منها اسم بحر[١]، ويتكون البحر الأول من الدورة

(*) تطلق على سلسلة من النغمات المكونة من أنصاف التونات ، سواء كانت نغمات صاعدة أو نغمات هابطة .

(١) انظر ما سبق أن قيل حول هذا الموضوع فى المبحث الخامس .

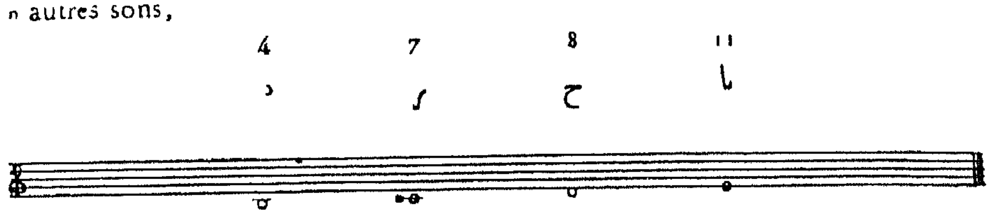
الرابعة [١] من أربع نغمات .

«البحر الأول ويتكون من أربع نغمات ؛



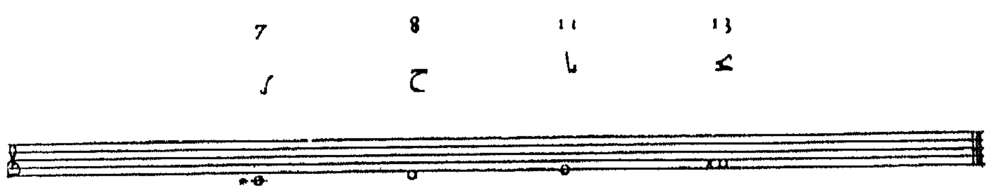
البحر الثانى ويتكون من أربع نغمات ؛

» La seconde MER, qui est la seconde division, est composée des quatre » autres sons,



البحر الثالث ويتكون من أربع نغمات ؛

» La troisième MER est formée des quatre autres sons suivans,

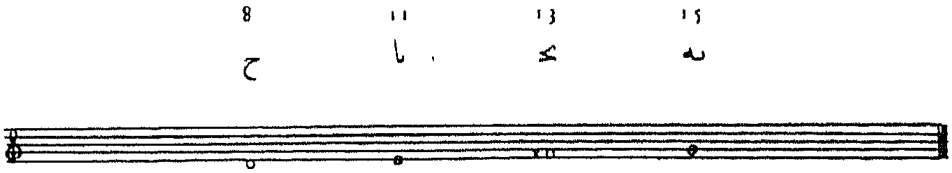


---

(١) انظر ما سبق ، الدورة الرابعة .

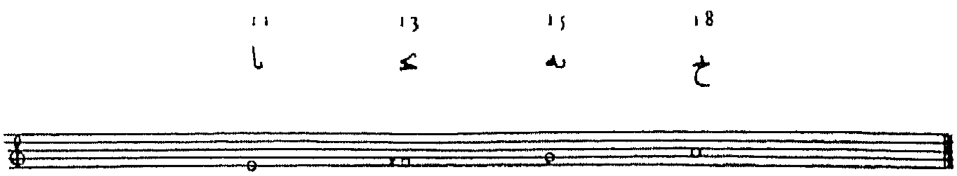
البحر الرابع ويتكون بالمثل من أربع نغمات ؛

« La quatrième MER est composée de ces quatre autres sons,



وأخيرا البحر الخامس ويتكون بدوره من أربع نغمات ؛

« La cinquieme MER enfin est formée des quatre dernières notes,



« وبمعنى آخر فأنت تعلم أن هذا ليس شيئا آخر سوى الجذور نفسها »

« فالبحر الثانى هو التقسيم الخامس من التقاسيم التى ذكرت من قبل »

« والبحر الثالث هو التقسيم السادس »

« والبحر الرابع هو التقسيم الرابع »

« والبحر الخامس هو التقسيم الخامس »

وهكذا إذن ، وبوضوح شديد ، يستقر تقسيم الدورة الرابعة إلى رباعيات أو وحدات تتكون من أربع نغمات . ويقدم المؤلف تقسيما لهذه الدورة كمثال على التقاسيم التى يمكن أن تنقسم إليها الدورات الأخرى .

ومع ذلك فإن النص هنا ، ونحن نوافق على ذلك ، غير قابل للفهم على الاطلاق عندما نقدمه كما هو ؛ فمما لاشك فيه أنه إما أن الناسخ العربى لم يكن يفهم

شيئا مما كان يكتبه ، وإما أنه قد حذف أو حرف بعض الكلمات ، وهو أمر قد شوه المعنى الذى يقصد المؤلف إليه ، والذى ليس من العسير أن نحدسه .

وينبغى أن نعرف منذ البداية أن الموسيقيين العرب يُعِدّون كل درجة من درجات السلم بمثابة جزء أو قسم من هذا السلم نفسه ، ولعل ذلك قد نتج من أن الناس فيما مضى كانوا يستخدمون قيثاره وحيدة الوتر ، وأنهم كانوا يقسمونها إلى قواسمها المختلفة ، حتى يعرفوا ويثبتوا العلاقات الدقيقة التى للنغمات الموسيقية فيما بينها ، ومن أنهم حين كانوا يرتبون سلسلة هذه الأنغام قد أطلقوا على النغمة الأولى اسم التقسيم الأول ، وعلى النغمة الثانية اسم التقسيم الثانى وعلى الثالثة إسم التقسيم الثالث ، وعلى الرابعة التقسيم الرابع إلى آخر هذه السلسلة من النغمات (والتقاسيم)

أما وقد استقر ذلك . فإليكم ما كان ينبغى أن يكون عليه نص المؤلف (وينتهى البحر الثانى عند التقسيم الخامس أى عند النغمة الخامسة أو الدرجة الخامسة من السلم الموسيقى ، وينتهى البحر الثالث عند التقسيم السادس أى عند النغمة السادسة أو الدرجة السادسة من السلم ؛ ويبدأ البحر الرابع عند التقسيم الرابع ، أى عند النغمة الرابعة أو الدرجة الرابعة من السلم الموسيقى)

أو أن بإمكاننا أن نبقى النص على ماهو عليه شريطة أن نفسره على المعنى الذى أعطيناه له .

ثم يضيف المؤلف نفسه ، أو بالأحرى ناسخة وشارحه العربى : « وبمعنى آخر ، فحيث أن التقاسيم تعنى بشكل مطلق الشيء نفسه الذى تعنيه البحور ، فإن المرء لا يستطيع القول بأن الدورة الرابعة تتكون من خمسة بحور ، وإنما هى تتكون من ثلاثة بحور فقط ، فالبحر الأول هو نفسه البحر الرابع ، والبحر الثانى هو نفس البحر الخامس » .

« إذن فلن يكون ثمة أى فرق فيما بينها إذا لم يحدث سوى أن إحداها لم تأت قط فى نفس درجة الأخرى »

وطبقا لما يقوله المؤلف هنا فإن الدرجات الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة التى تكون البحر الرابع : رى ، مى ، فا ، صول ، من هذه الدورة ، ينبغى أن تأتى مرتبة على غرار الدرجات الأولى والثانية والثالثة والرابعة التى تكون البحر الأول : لا ، سى ،

أوت ♭ ، رى ، من الدورة نفسها ، ويتطابق هذا المبدأ مع النظرية الموسيقية عند الاغريق ، التى استقر على أساسها أن النغمات فى كل المقامات وكل المصنفات ، ينبغى أن توجد على الدوام منتظمة ، بشكل متماثل ، من أربع نغمات لأربع نغمات . إذن فهناك خطأ بالضرورة فى الطريقة التى وضعت بها هذه الدورة فى العربية ؛ ذلك أن النغمات رى ، مى ، فا 𝄪 صول من البحر الرابع ، لاترتبطها فيما بينها قط نفس الروابط القائمة بين النغمات : لا ، سى ل ، أوت ♭ ، رى ، التى للبحر الأول ، حيث أن النغمة فا 𝄪 من البحر الرابع لا تبعد عن النغمة مى التى تسبقها إلا بمسافة ثلثى تون ، فى حين أن النغمة الثالثة أوت ♭ من البحر الأول ، توجد على مسافة ثلاثة أثلاث تون ، أى على مسافة تون كامل ، من النغمة سى التى تسبقها ، وهكذا كان ينبغى طبقا لمبادىء المؤلف نفسه إما أن نحل النغمة أوت (دو) 𝄪 محل النغمة أوت ♭ أو أن نأتى بالنغمة فا 𝄪 فى نفس موضع النغمة فا 𝄪 ، وحين يتم هذا التغيير فسنجد البحر الرابع مشابها كما قيل هنا للبحر الأول ، والبحر الخامس مشابها للثانى ؛ وبهذه الطريقة ، لن يوجد فى واقع الأمر سوى ثلاثة بحور مختلفة فى هذه الوحدة ، هى التى ستكون البحور الأول والثانى والثالث كما لم يكن فى سلم الأغريق سوى ثلاثة diatessarons مختلفة ، وكما لن يوجد بعد ذلك سوى ثلاث وحدات رباعية فى سلمنا الحديث ما لم يكن هذا السلم معيبا(١) .

---

(١) توجد فى سلمنا الموسيقى ثلاثة كوارتات (رباعيات) مختلفة للغاية مع رباعية زائدة ومتنافرة تسمى triton أى ثلاثية النغم لأنها تتكون من ثلاث نغمات ؛ وهكذا تتكون لدينا الرباعيات أو الكوارتات الآتية : أوت (دو) ، رى ، مى ، فا ؛ رى ، مى ، فا ، صول ؛ مى ، فا ، صول ، لا ؛ فا ، صول ، لا ، سى ؛ صول ، لا ، سى ، أوت (دو) . والأولى والخامسة من هذه الوحدات الرباعية متشابهة ، حيث يتكون كلتاهما من تون ، وتون ، ونصف تون ؛ وتتكون الثانية من تون ونصف تون وتون ؛ وتتكون الثالثة من نصف تون ، وتون ، وتون . وكل هذه الوحدات الرباعية لا تختلف فيما بينها إلا فى أن نصف التون لا يشغل فيها جميعا المكان نفسه (إذ يختلف موضعه من وحدة لأخرى) ؛ وإن كانت الوحدة الرباعية المكونة من ثلاث نغمات تعد خطأ ونشازا ، وتشكل سوءة فى نظامنا الموسيقى .

ثم يمضي المؤلف قائلا : «ومع ذلك فإن البحر يعنى الشيء نفسه الذى يعنيه التقسيم ، برغم أنه يوجد ، وعلى درجة متفاوته ، داخل بحر آخر » وأقل ما يقال عن ذلك أنه قول بالغ الغموض والاضطراب ، ويؤدى لأن يوقع فى الخطأ أى أمرىء لم يقم بدراسة خاصة للموسيقى ، أو ليست لديه سوى أفكار سطحية عن موسيقى العرب ، وهو قول يماثل على وجه التقريب أن نقول إن النغمات التى تكون الوحدات الرباعية هى بدورها وحدات رباعية ، وهى الشيء نفسه بشكل مطلق . ومع ذلك فنحن فى الحقيقة نطلق على النغمة الرابعة ، صاعدة كانت أو هابطة ، وعند قياسها بدءا من أية درجة ، وحدة رباعية ، وإن كنا نفعل ذلك لأننا ننظر إليها عندئذ بشكل غير منفصل ، وإنما فى علاقتها مع النغمة من نقطة البدء ، وبخلاف ذلك ، فقد لا يكون بمقدورنا أن نطلق عليها هذا الاسم ، بالقدر الذى لا نستطيع معه أن نطلقه على النغمات الوسيطة .

والأمر هو نفس الأمر بخصوص التقاسيم أو الدرجات فى السلم العربى ؛ فمع أن أربعة من هذه التقاسيم ، متقاربة ، تكون بحرا ، وبرغم أننا نطلق كذلك اسم بحر على أول وآخر قسم من هذه التقاسيم أو النغمات أو الدرجات الأربع ، فإن المرء لا يستطيع القول بأن هذه التقاسيم هى والبحور شيء واحد ، ما لم نكن نفهم من كلمة تقسيم كل واحدة من الوحدات الرباعية التى يتكون منها البحر . ومع ذلك فقد يظل الامر غامضا ، مادامت كل نغمة أو درجة فى السلم الموسيقى ، وطبقا للنظرية العربية تسمى كذلك تقسيما .

كم كنا نود أن نتجنب التعليق ، لكننا قد فعلنا ذلك للتو ، وقد يكون كل ما نذكره بحاجة لأن يتضح أو أن يبقى ، دون ذلك ، غامضا . إن حيرتنا لبالغة ، كما أن عملنا هنا هو من أكثر الأعمال عرضه للنكران ، فعلينا أن نقدم بيانات توضيحية لنوع من الموسيقى ، قد يكون أكثر الفنون التى عرفها الانسان تعقيدا على الاطلاق ، كما تكاد تكون كل مبادئه قد تعرضت للتشويه بشكل تام ، وكما أن أشكاله المنهجية تختلف تمام الاختلاف كذلك عن الأشكال المنهجية لموسيقانا ، وأخيرا فإن مفرداته الفنية ليس لها ما يقابلها قط فى لغتنا ، وتستخدم فى غالبيتها العظمى بمعانيها المجازية ، وفى الوقت نفسه ، فإننا نشعر أنه لا ينبغى علينا أن نقدم شيئا لا يستند إلى أدلة ،

وبالتالى فإننا نجد أنفسنا فى حاجة لأن ندير الحديث ، فى غالبية الأحيان ، على لسان المؤلفين العرب أنفسهم ؛ ومع ذلك فمهما تكن الدقة التى نتوخاها فى اختيار اقتباساتنا عنهم ، فإنه يستحيل علينا أن نقدمها بطريقة لا تعوقنا فيها ، إما أخطاء من قبل النساخ وإما تعبيرات غريبة أو ألفاظ لم يسمح بقبولها قط فى لغتنا ، ولقد ضاعفنا الأمثلة بقدر ما نستطيع ، حتى نجعل الأشياء أقرب إلى التصور ، وحتى تعفينا فى كثير من الأحيان عن تقديم الايضاحات المسهبة . ومع ذلك فليس من طبيعة كل أمر أن يتضح على هذا النحو .

سبق أن قلنا إن عدد المقامات أو دوائر الموسيقى العربية بالغ الكثرة ، وفى نفس الوقت ، فإن عدد المقامات التى شاع استعمالها من بينها ، والتى لا تزال تستخدم حتى اليوم ، يقتصر على اثنى عشر مقاما .

يقول المؤلف الأخير الذى أشرنا إليه : « يحصى الناس اثنتى عشرة دورة(مقاما) هى : عشاق ، نوى ، بوسيليك ، رست ، عراق ، إصفهان ، زيرفكند بزرك ، زنكلاه ، رهاوى ، حسينى ، حجاز » .

« أما الدورات الأخرى فكثيرة ، ومنها مالا يستخدم قط بسبب الفوارق الدقيقة للغاية التى تفرق بينها ، ومع ذلك فإن الناس يستخدمون بعضا من نغماتها فى تأليف دورات أخرى ، ويكون أثر هذه لطيفا (١) » .

« وبعض من هذه الدورات أو المقامات الأخرى هى نفس المقامات المستخدمة ، والتى تحدثنا عنها ، وإن كانت درجاتها قد تغيرت »

وقد يكون لدينا كذلك ما نقوله حول دورات (مقامات) الأوازات ، وعن الدورات المختلطة الأخرى والمركبة . وكذلك عن تنوع الآراء حول تكوين هذه الدورات ، وحول استعمالها ، وحول تأثيرها ، وحول أسمائها ، لكن هذا كله ليس من

---

(١) وهو ما رأيناه يحدث على يد الموسيقيين المصريين ، وهو أمر تتنسترعى إليه الأنظار عندما نتصدى لممارستهم لهذا الفن .

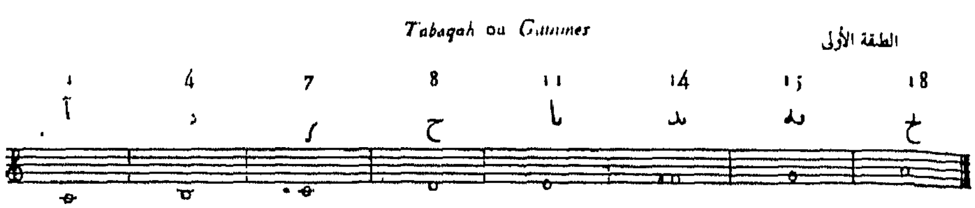
شأنه إلا أن يحدث مزيدا من الخلط وعدم الدقة فى الأفكار التى قد نقدمها عنها ، دون أن نضيف جديدا عما أوردناه عنها من قبل ، ولذلك فإننا نمضى قدما ، كى نقدم أمثلة على التطور المنهجى والقياسى للاثنتى عشرة دورة (مقاما) التى سبق أن أشرنا إليها ؛ وهذا النوع من البارادجمية * الموسيقية الذى يعلم كيف ننقل بطريقة واحدة ، بالغة البساطة ، مقاما ما ، إلى كل تون من السبعة عشر تونا المختلفة فى السلم الموسيقى ، المنقسم إلى أثلاث تونات ، يقدم أكبر الفوائد فيما يتصل بالفن .

فإذا ما دهش المرء من العدد الهائل من التغييرات التى يمكن أن تتناول المقام الواحد . فإنه سيكون أكثر دهشة بكثير ، حين يعلم أن الموسيقى العربية تضم نحو المائة من المقامات المختلفة ، وسيتصور عندئذ كيف ينبغى أن تكون مبادىء وقواعد هذه الموسيقى بالغة الاتساع ، وكيف يمكن أن تكون ممارسة فنونها بالغة التعقيد والعسر ، وبالتالى سيكتشف واحدا من الأسباب التى أدت إلى سقوط هذا الفن فى هوّة النسيان فى الشرق منذ الوقت الذى لم يعد فيه تذوق العلوم ومحبتها محبذين هناك .

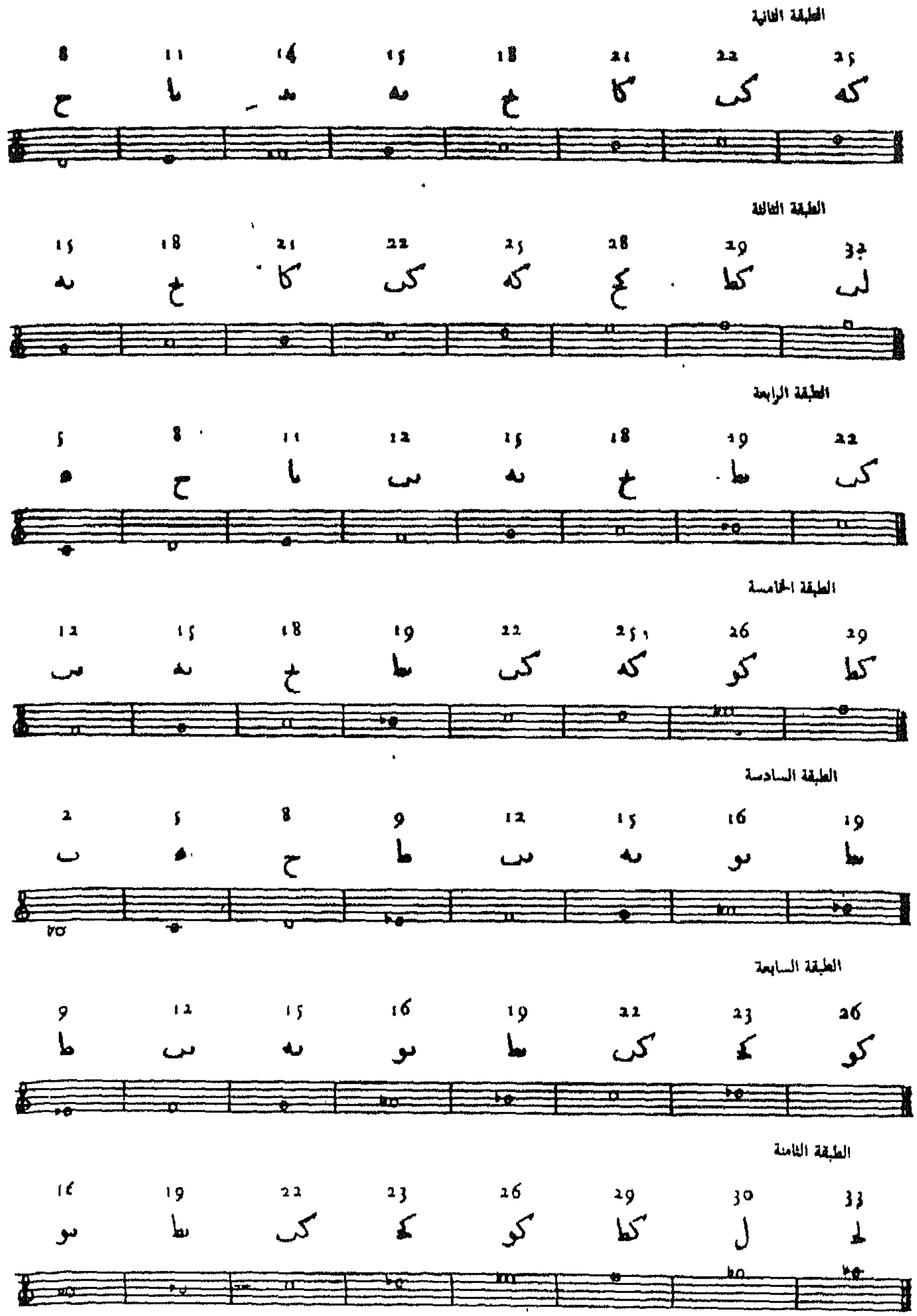
أمثلة على التطور المنهجى والقياسى للاثنتى عشرة دورة (مقاما) الرئيسية فى الموسيقى العربية

مقام عُشاق ـــ الدورة الأولى (أو المقام الأول) الطبقة أو السلم الموسيقى

MODE O'CHÀQ. *Premiere Circulation.*



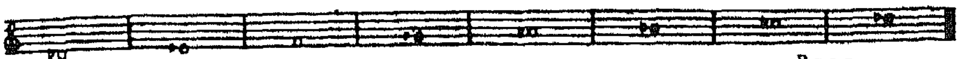
(*) الكلمة الفرنسية هى Paradigme وهى تعنى مجموع الصيغات التصريفية لجذر معين . (المترجم) .



الطبقة الثانية
25 22 21 18 15 14 11 8
كه كب كا يح يه يد يا ح
الطبقة الثالثة
32 29 28 25 22 21 18 15
لب كط كح كه كب كا يح يه
الطبقة الرابعة
22 19 18 15 12 11 8 5
كب يط يح يه يب يا ح ه
الطبقة الخامسة
29 26 25 22 19 18 15 12
كط كو كه كب يط يح يه يب
الطبقة السادسة
19 16 15 12 9 8 5 2
يط يو يه يب ط ح ه ب
الطبقة السابعة
26 23 22 19 16 15 12 9
كو كج كب يط يو يه يب ط
الطبقة الثامنة
33 30 29 26 23 22 19 16
لج ل كط كو كج كب يط يو

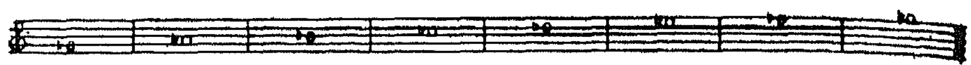
الطبقة التاسعة

6	9	12	13	16	19	20	23
و	ط	يب	يج	يو	يط	ك	كج



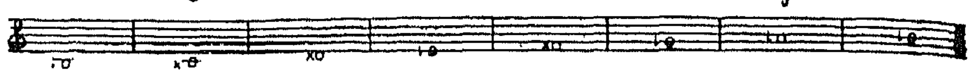
الطبقة العاشرة

13	16	19	20	23	26	27	30
يج	يو	يط	ك	كج	كو	كز	ل



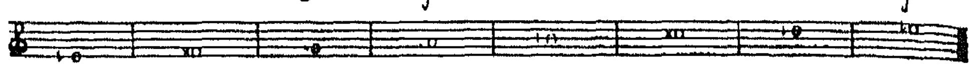
الطبقة الحادية عشرة

3	6	9	10	13	16	17	20
ج	و	ط	ى	يج	يو	يز	ك



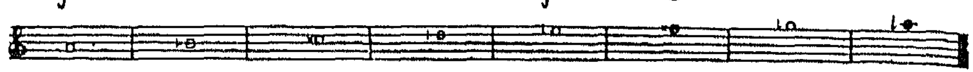
الطبقة الثانية عشرة

10	13	16	17	20	23	24	27
ى	يج	يو	يز	ك	كج	كد	كز



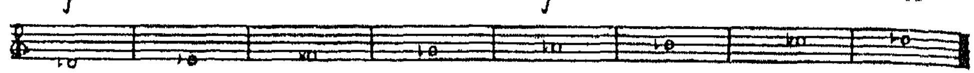
الطبقة الثالثة عشر

17	20	23	24	27	30	31	34
يز	ك	كج	كد	كز	ل	لا	لد



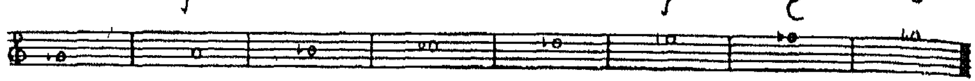
الطبقة الرابعة عشر

7	10	13	14	17	20	21	24
ز	ى	يج	يد	يز	ك	كا	كد



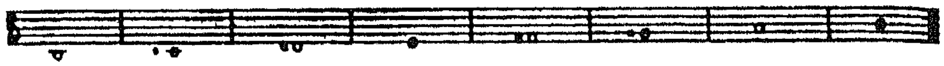
الطبقة الخامسة عشر

14	17	20	21	24	27	28	31
يد	يز	ك	كا	كد	كز	كح	لا



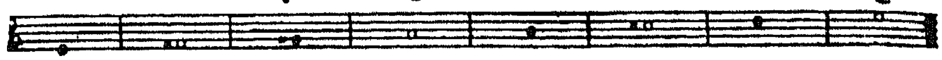
الطبقة السادسة عشر

4	7	10	11	14	17	18	21
د	ز	ى	يا	يد	يز	يح	كا



الطبقة السابعة عشر

11	14	17	18	21	24	25	28
يا	يد	يز	يح	كا	كد	كه	كح



MODE ABOUSEYLYK. مقام أبو سيليك

2.e Circulation.

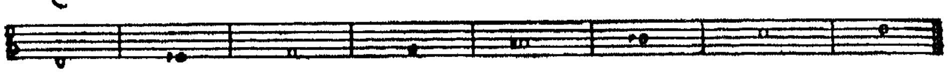
الطبقة الأولى

1	2	5	8	9	12	15	18
آ	ب	ه	ح	ط	يب	يه	يح



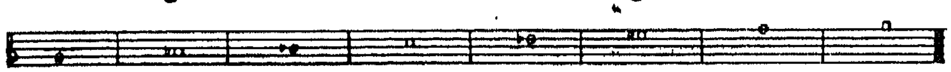
الطبقة الثانية

8	9	12	15	16	19	22	25
ح	ط	يب	يه	يو	يط	كب	كه



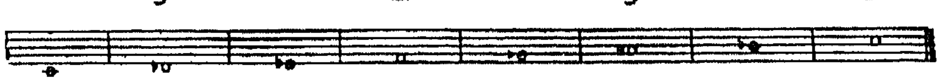
الطبقة الثالثة

15	16	19	22	23	26	29	32
يه	يو	يط	كب	كج	كو	كط	لب



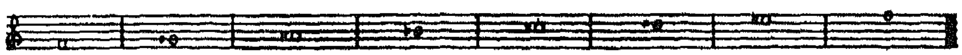
الطبقة الرابعة

5	6	9	12	13	16	19	22
ه	و	ط	يب	يج	يو	يط	كب



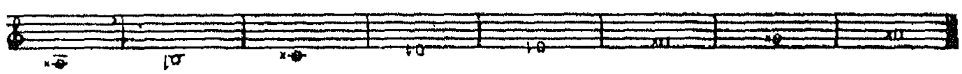
الطبقة الخامسة

12	13	16	19	20	23	26	29
يب	يج	يو	يط	ك	كج	كو	كط



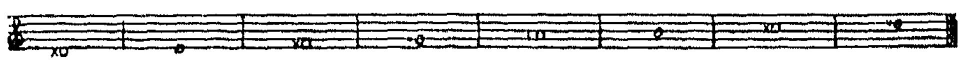
الطبقة السادسة

2	3	6	9	10	13	16	19
ب	ج	و	ط	ي	يج	يو	يط



الطبقة السابعة

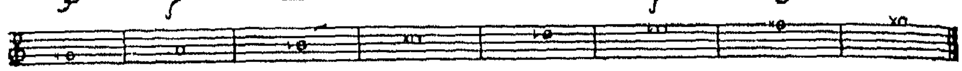
9	10	13	16	17	20	23	26
ط	ي	يج	يو	يز	ك	كج	كو



E. M. Pppp

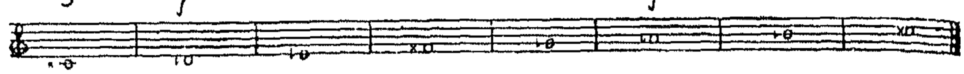
الطبقة الثامنة

16	17	20	23	24	27	30	33
يو	يز	ك	كج	كد	كز	ل	لج



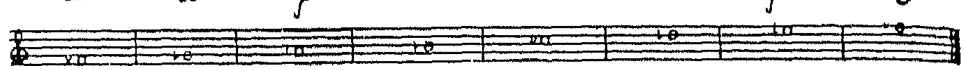
الطبقة التاسعة

6	7	10	13	14	17	20	23
و	ز	ي	يج	يد	يز	ك	كج



الطبقة العاشرة

13	14	17	20	21	24	27	30
يج	يد	يز	ك	كا	كد	كز	ل



الطبقة الحادية عشرة

3	4	7	10	11	14	17	20
ج	د	ز	ي	يا	يد	يز	ك



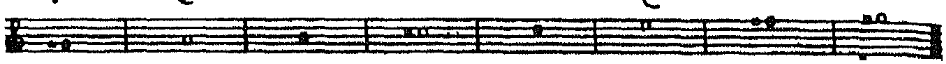
الطبقة الثانية عشرة

10	11	14	17	18	21	24	27
ي	يا	يد	يز	يح	كا	كد	كز



الطبقة الثالثة عشر

17	18	21	24	25	28	31	34
يز	يح	كا	كد	كه	كح	لا	لد



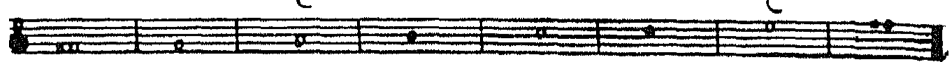
الطبقة الرابعة عشر

7	8	11	14	15	18	21	24
ز	ح	يا	يد	يه	يح	كا	كد



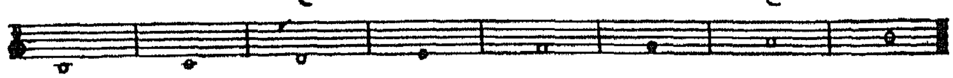
الطبقة الخامسة عشر

14	15	18	21	22	25	28	31
يد	يه	يح	كا	كب	كه	كح	لا



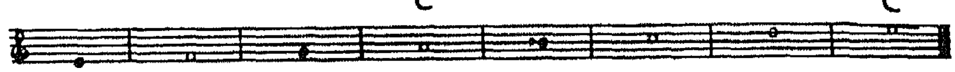
الطبقة السادسة عشر

4	5	8	11	12	15	18	21
د	ه	ح	يا	يب	يه	يح	كا



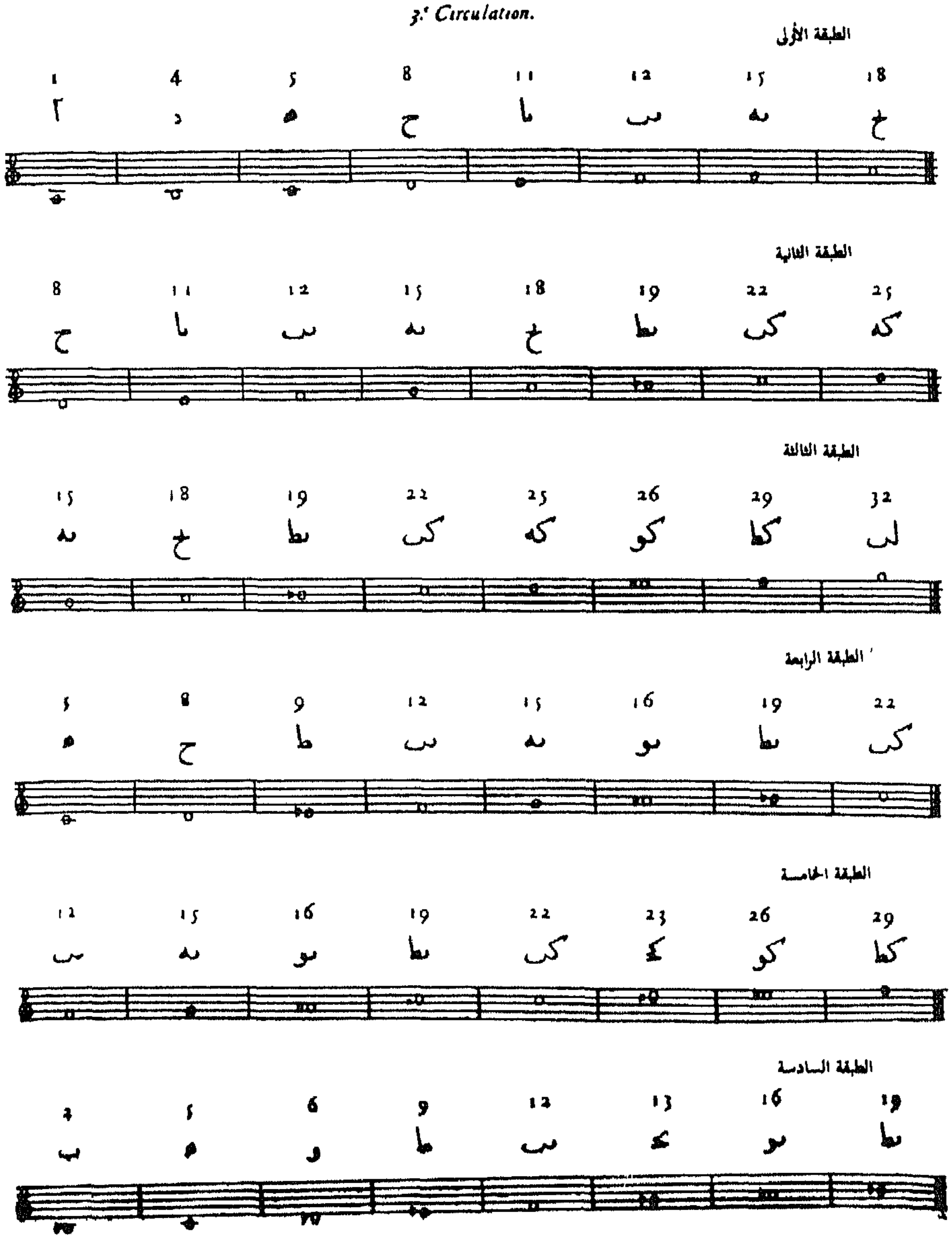
الطبقة السابعة عشر

11	12	15	18	19	22	25	28
يا	يب	يه	يح	يط	كب	كه	كح



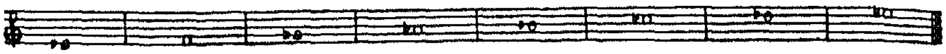
MODE NAOUA.

3.e Circulation.



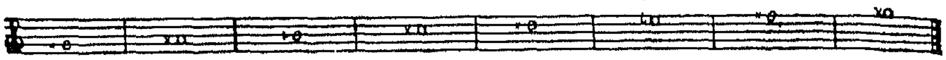
الطبقة السابعة

9	12	13	16	19	20	23	26
ط	يب	يج	يو	يط	ك	كج	كو



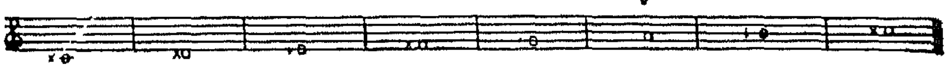
الطبقة الثامنة

16	19	20	23	26	27	30	33
يو	يط	ك	كج	كو	كز	ل	لج



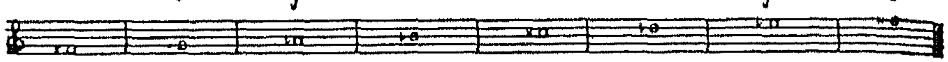
الطبقة التاسعة

6	9	10	13	16	17	20	23
و	ط	ي	يج	يو	يز	ك	كج



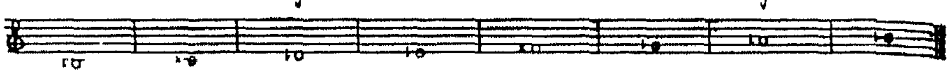
الطبقة العاشرة

13	16	17	20	23	24	27	30
يج	يو	يز	ك	كج	كد	كز	ل



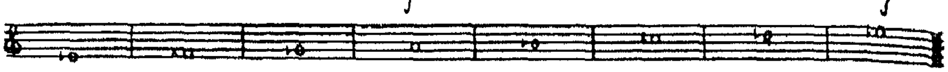
الطبقة الحادية عشرة

3	6	7	10	13	14	17	20
ج	و	ز	ي	يج	يد	يز	ك



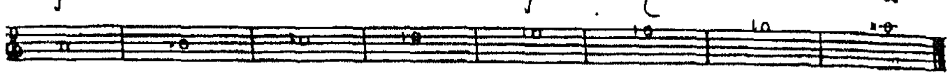
الطبقة الثانية عشرة

10	13	14	17	20	21	24	27
ي	يج	يد	يز	ك	كا	كد	كز

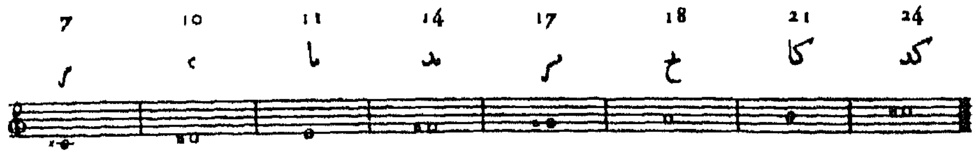


الطبقة الثالثة عشر

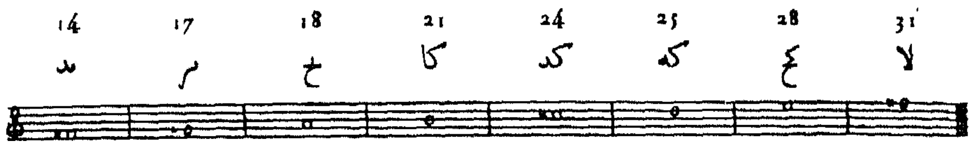
17	20	21	24	27	28	31	34
يز	ك	كا	كد	كز	كح	لا	لد
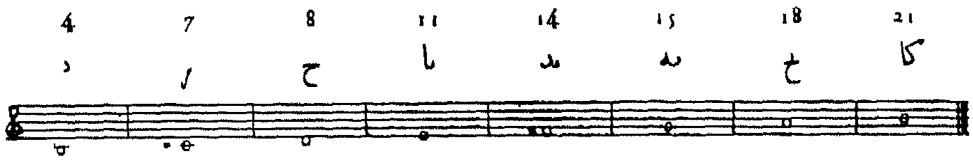


الطبقة الرابعة عشر



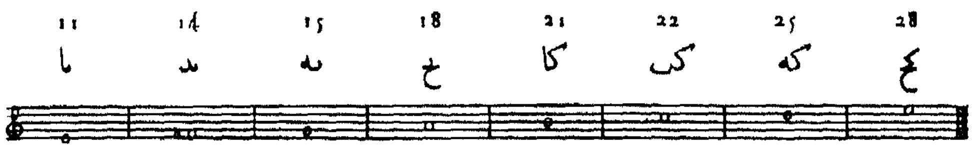
الطبقة الخامسة عشر



الطبقة السادسة عشر



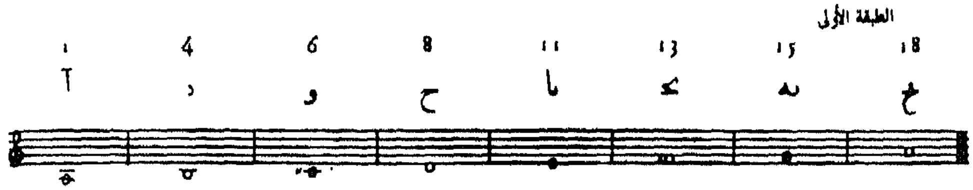
الطبقة السابعة عشر



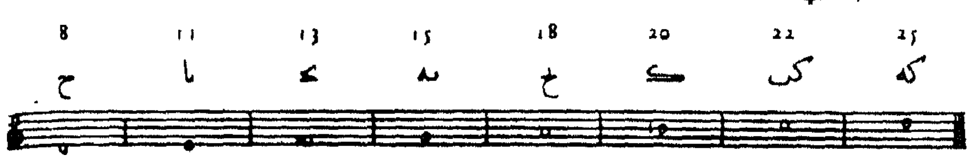
MODE RAST. مقام رست

4.' Circulation.

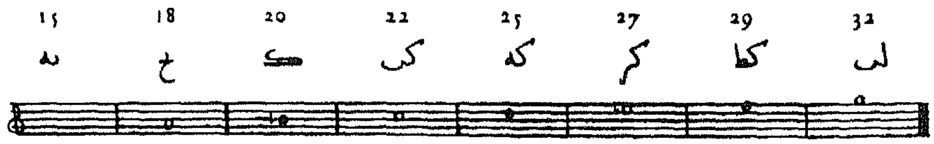
الطبقة الأولى
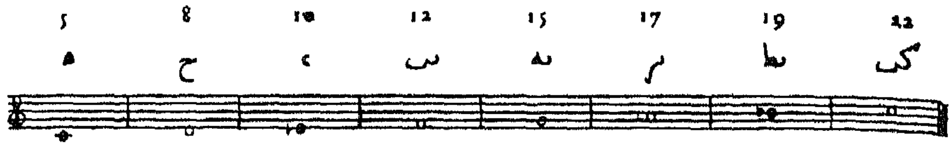


الطبقة الثانية



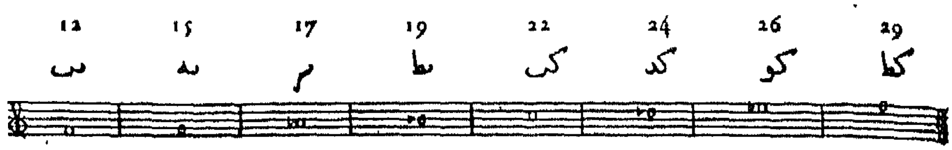
الطبقة الثالثة



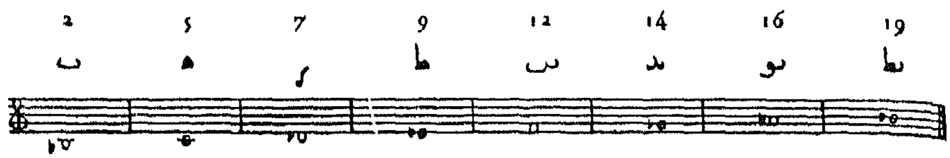
الطبقة الرابعة



الطبقة الخامسة



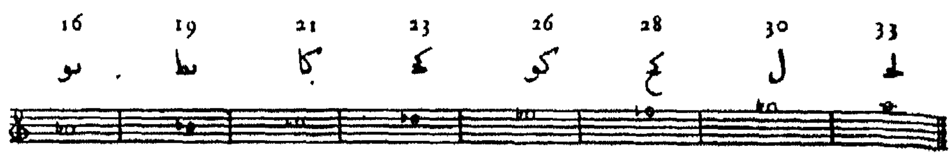
الطبقة السادسة



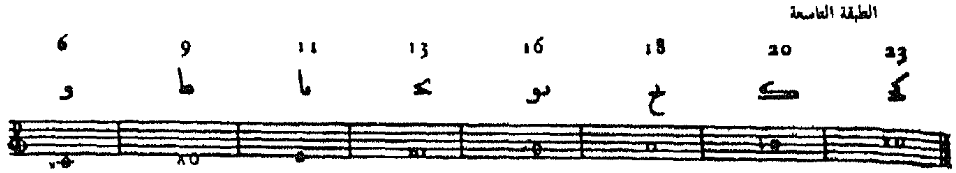
الطبقة السابعة



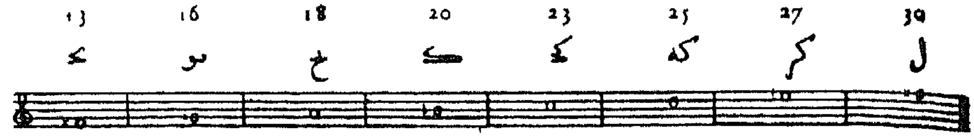
الطبقة الثامنة



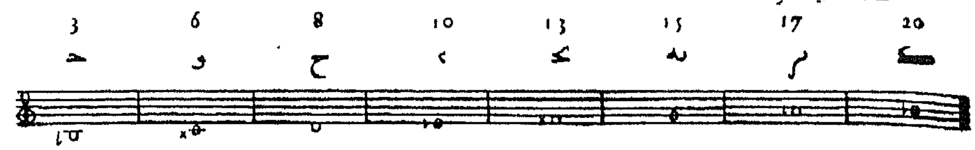
الطبقة التاسعة
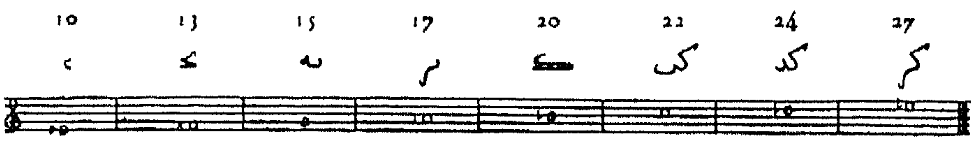


الطبقة العاشرة



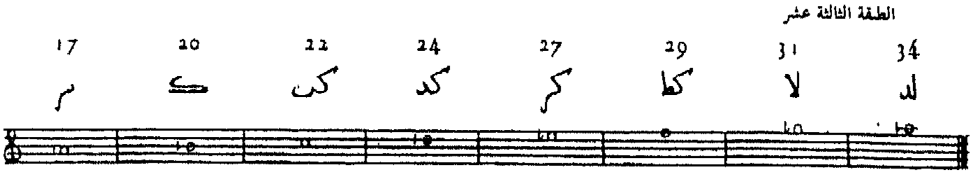
الطبقة الحادية عشرة
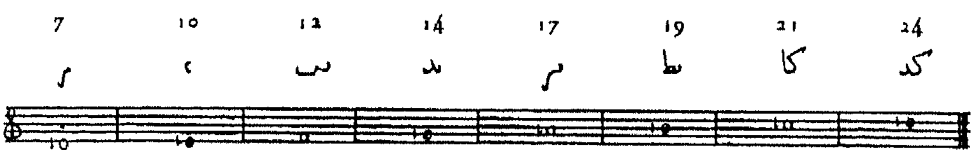


الطبقة الثانية عشرة



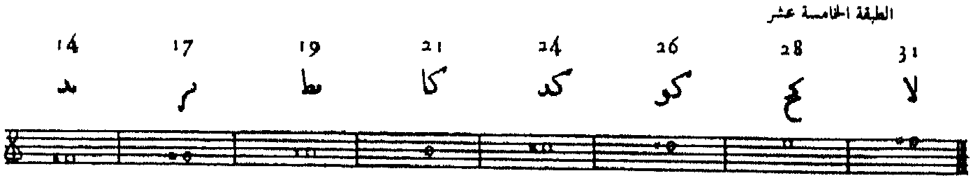
الطبقة الثالثة عشر



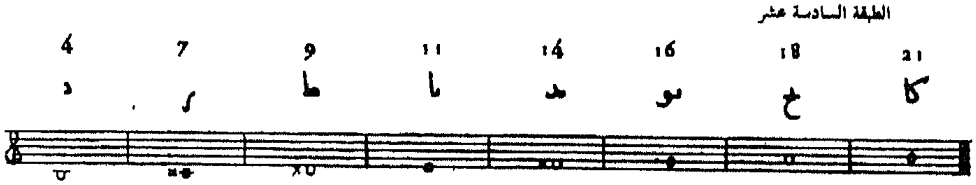
الطبقة الرابعة عشر



الطبقة الخامسة عشر

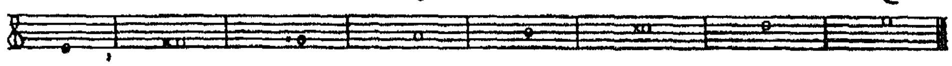


الطبقة السادسة عشر



الطبقة السابعة عشر

11	14	16	18	21	23	25	28
يا	يد	يو	يح	كا	كج	كه	كح

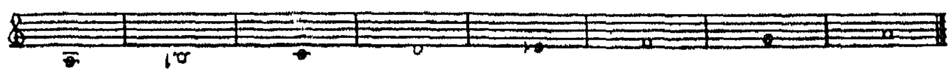


MODE HOSSEYNY. مقام حسيني

5.e Circulation.

الطبقة الأولى

1	3	5	8	10	12	15	18
ا	ج	ه	ح	ي	يب	يه	يح



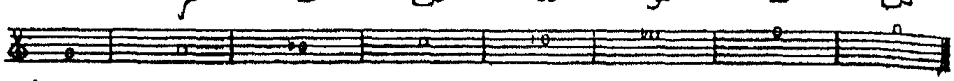
الطبقة الثانية

8	10	12	15	17	19	22	25
ح	ي	يب	يه	يز	يط	كب	كه



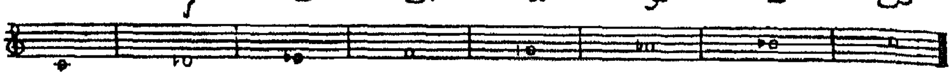
الطبقة الثالثة

15	17	19	22	24	26	29	32
يه	يز	يط	كب	كد	كو	كط	لب



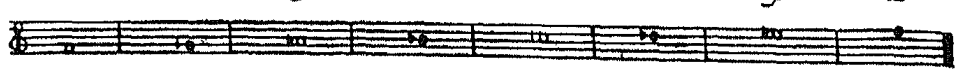
الطبقة الرابعة

5	7	9	12	14	16	19	22
ه	ز	ط	يب	يد	يو	يط	كب



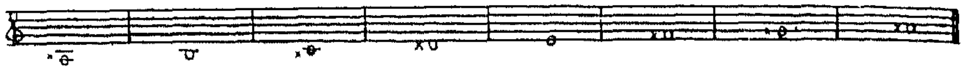
الطبقة الخامسة

12	14	16	19	21	23	26	29
يب	يد	يو	يط	كا	كج	كو	كط



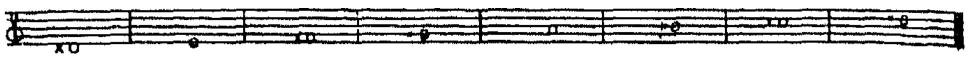
الطبقة السادسة

2	4	6	9	11	13	16	19
ب	د	و	ط	يا	يج	يو	يط



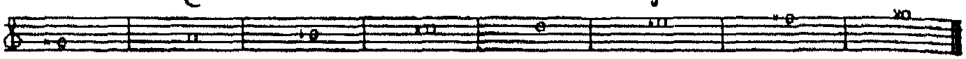
الطبقة السابعة

9	11	13	16	18	20	23	26
ط	يا	يج	يو	يح	ك	كج	كو



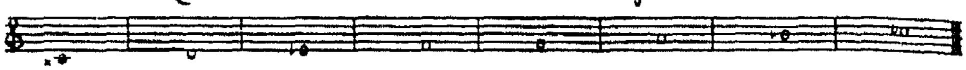
الطبقة الثامنة

16	18	20	23	25	27	30	32
يو	يح	ك	كج	كه	كز	ل	لب



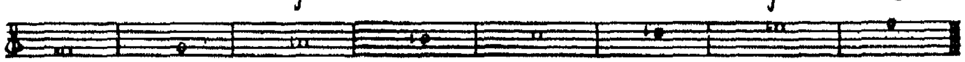
الطبقة التاسعة

6	8	10	13	15	17	20	23
و	ح	ي	يج	يه	يز	ك	كج



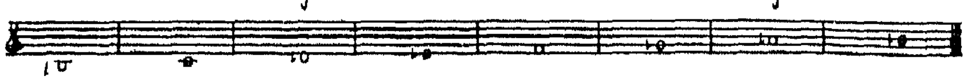
الطبقة العاشرة

13	15	17	20	22	24	27	30
يج	يه	يز	ك	كب	كد	كز	ل



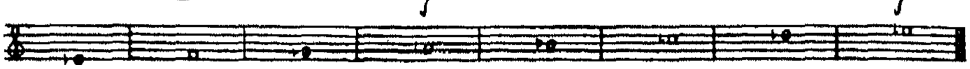
الطبقة الحادية عشرة

3	5	7	10	12	14	17	20
ج	ه	ز	ي	يب	يد	يز	ك



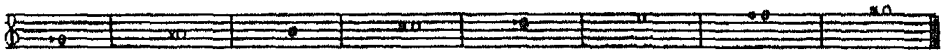
الطبقة الثانية عشرة

10	12	14	17	19	21	24	27
ي	يب	يد	يز	يط	كا	كد	كز



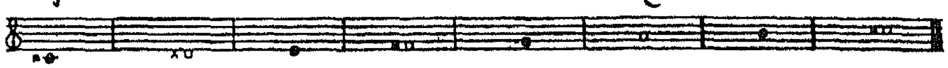
الطبقة الثالثة عشر

17	19	21	24	26	28	31	34
يز	يط	كا	كد	كو	كح	لا	لد



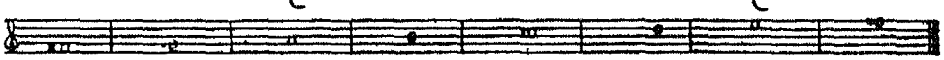
الطبقة الرابعة عشر

7	9	11	14	16	18	21	24
ز	ط	يا	يد	يو	يح	كا	كد



الطبقة الخامسة عشر

14	16	18	21	23	25	28	31
يد	يو	يح	كا	كج	كه	كح	لا



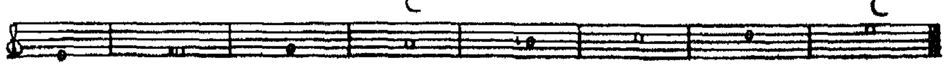
الطبقة السادسة عشر

4	6	8	11	13	15	18	21
د	و	ح	يا	يج	يه	يح	كا



الطبقة السابعة عشر

11	13	15	18	20	22	25	28
يا	يج	يه	يح	ك	كب	كه	كح



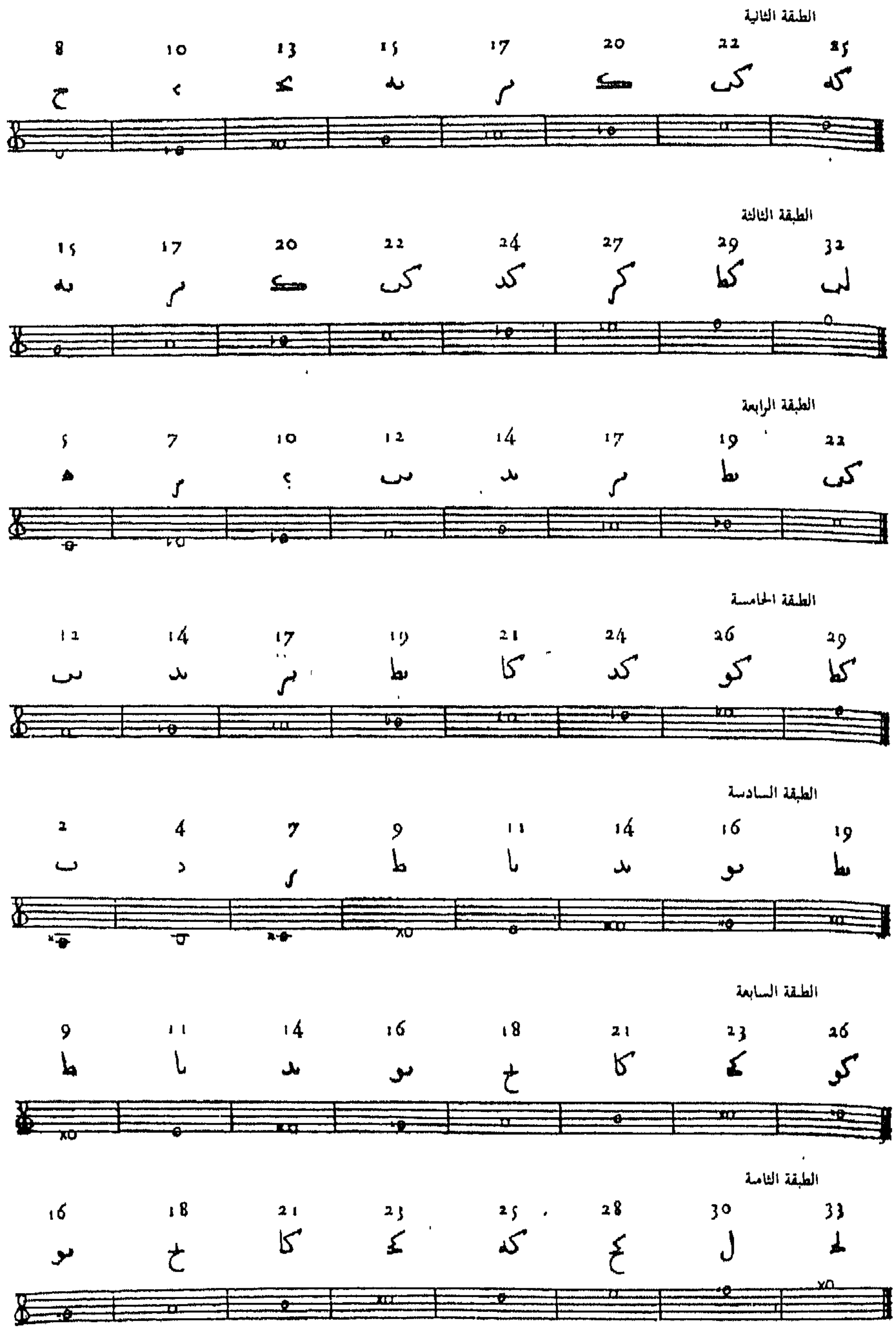
MODE HOGÂZ. مقام حجاز

6.e Circulation.

الطبقة الأولى

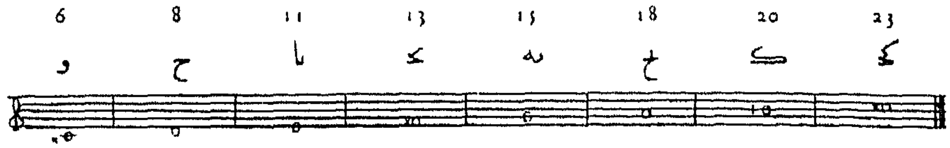
1	3	6	8	10	13	15	18
آ	ج	و	ح	ي	يج	يه	يح
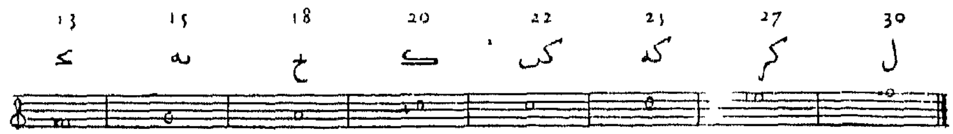




الطبقة الثانية
8 10 13 15 17 20 22 25
الطبقة الثالثة
15 17 20 22 24 27 29 32
الطبقة الرابعة
5 7 10 12 14 17 19 22
الطبقة الخامسة
12 14 17 19 21 24 26 29
الطبقة السادسة
2 4 7 9 11 14 16 19
الطبقة السابعة
9 11 14 16 18 21 23 26
الطبقة الثامنة
16 18 21 23 25 28 30 33

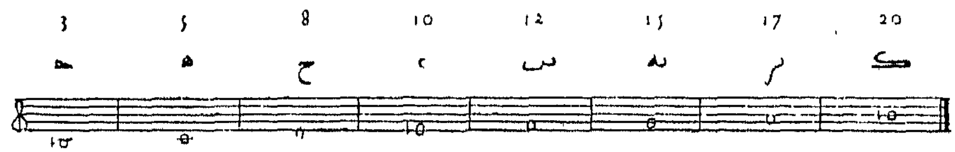
الطبقة التاسعة



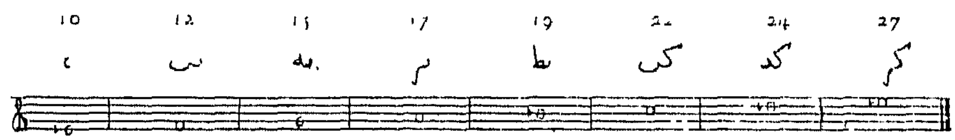
الطبقة العاشرة



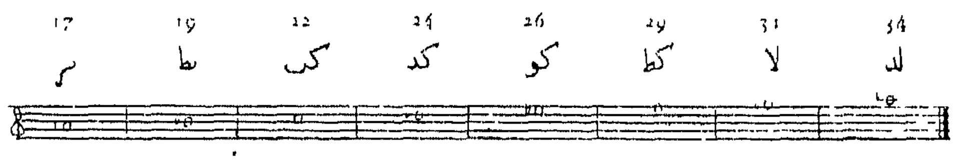
الطبقة الحادية عشرة

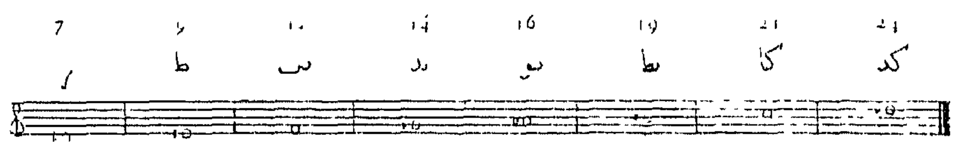


الطبقة الثانية عشرة

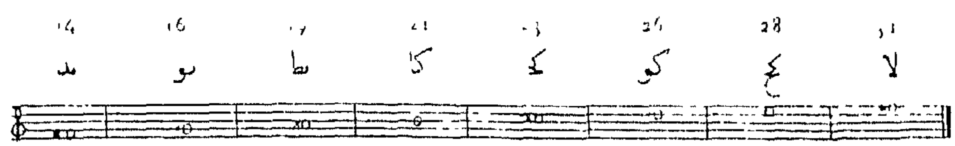


الطبقة الثالثة عشر



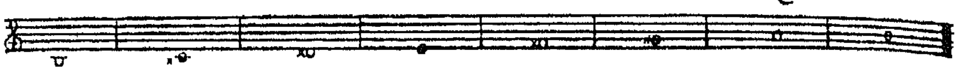


الطبقة الخامسة عشر



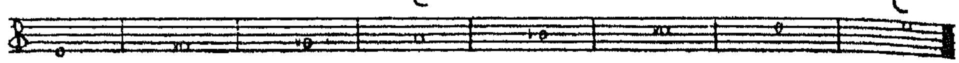
الطبقة السادسة عشر

4	6	9	11	13	16	18	21
د	و	ط	يا	يج	يو	يح	كا



الطبقة السابعة عشر

11	13	16	18	20	23	25	28
يا	يج	يو	يح	ك	كج	كه	كح

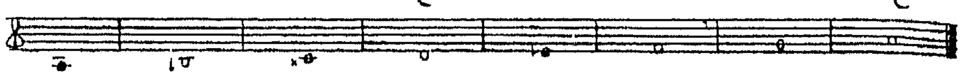


MODE RAHÂOUY. مقام رهاوى

7.e Circulation.

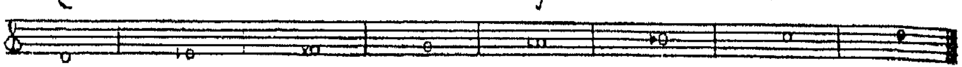
الطبقة الأولى

1	3	6	8	10	12	15	18
ا	ج	و	ح	ي	يب	يه	يح



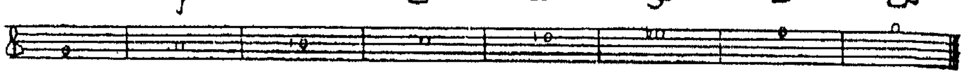
الطبقة الثانية

8	10	13	15	17	19	22	25
ح	ي	يج	يه	يز	يط	كب	كه



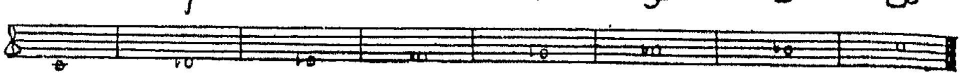
الطبقة الثالثة

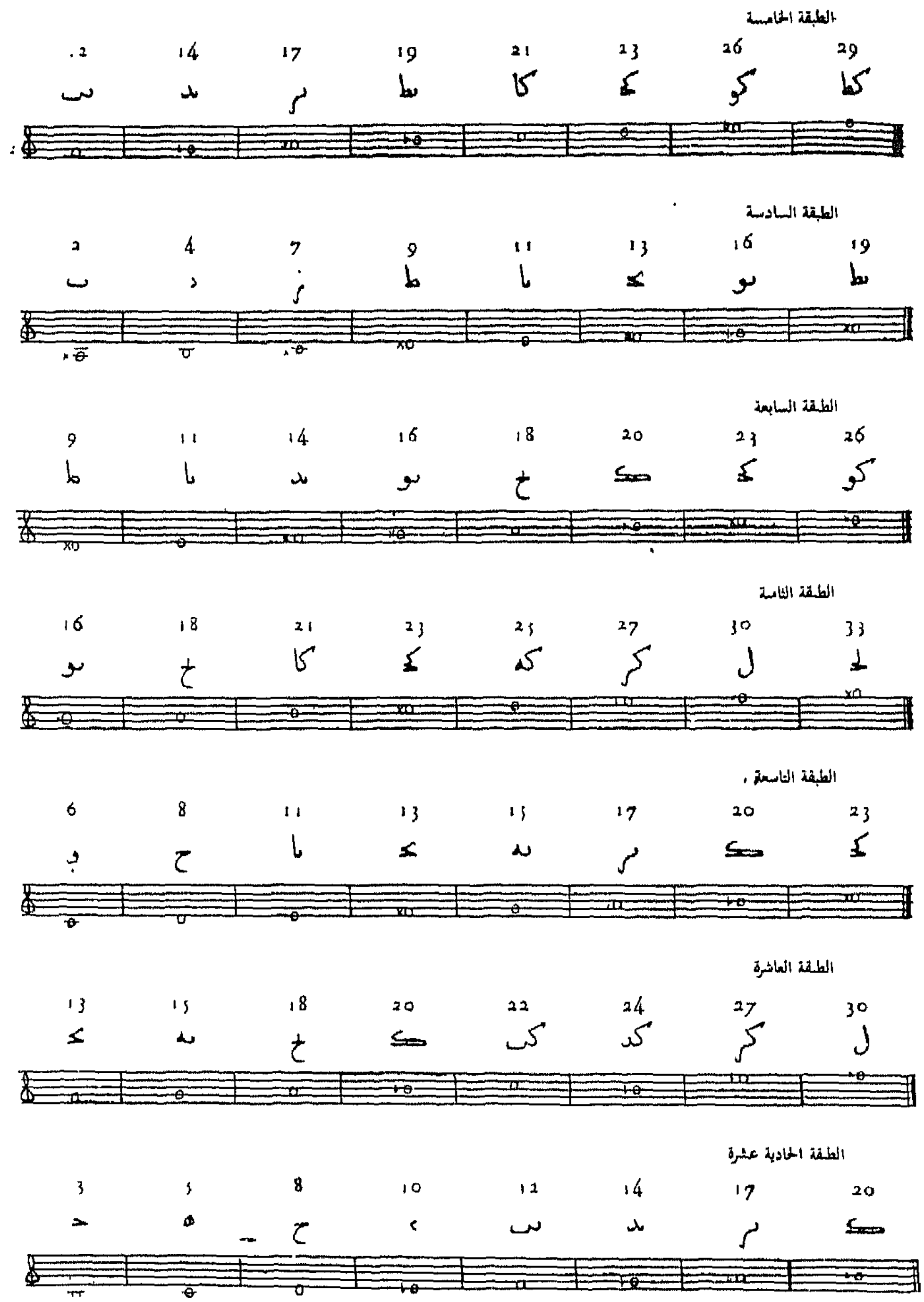
15	17	20	22	24	26	29	32
يه	يز	ك	كب	كد	كو	كط	لب



الطبقة الرابعة

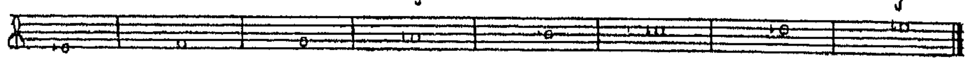
5	7	10	13	14	16	19	22
ه	ز	ي	يج	يد	يو	يط	كب




الطبقة الخامسة
12 14 17 19 21 23 26 29
يب يد يز يط كا كج كو كط
الطبقة السادسة
2 4 7 9 11 13 16 19
ب د ز ط يا يج يو يط
الطبقة السابعة
9 11 14 16 18 20 23 26
ط يا يد يو يح ك كج كو
الطبقة الثامنة
16 18 21 23 25 27 30 33
يو يح كا كج كه كز ل لج
الطبقة التاسعة
6 8 11 13 15 17 20 23
و ح يا يج يه يز ك كج
الطبقة العاشرة
13 15 18 20 22 24 27 30
يج يه يح ك كب كد كز ل
الطبقة الحادية عشرة
3 5 8 10 12 14 17 20
ج ه ح ي يب يد يز ك

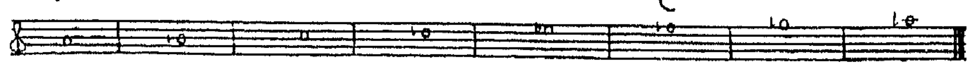
الطبقة الثانية عشرة

10	12	15	17	19	21	24	27
ي	يب	يه	يز	يط	كا	كد	كز



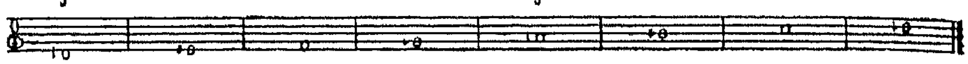
الطبقة الثالثة عشر

17	19	22	24	26	28	31	34
يز	يط	كب	كد	كو	كح	لا	لد



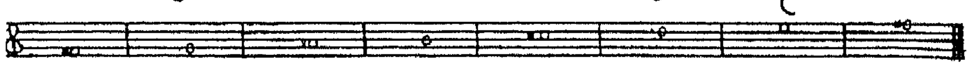
الطبقة الرابعة عشر

7	9	12	14	17	19	21	24
ز	ط	يب	يد	يز	يط	كا	كد



الطبقة الخامسة عشر

14	16	19	21	24	26	28	31
يد	يو	يط	كا	كد	كو	كح	لا



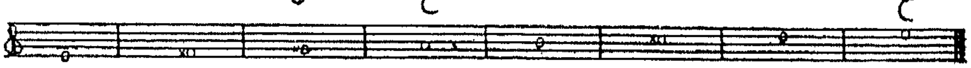
الطبقة السادسة عشر

4	6	9	11	14	16	18	21
د	و	ط	يا	يد	يو	يح	كا
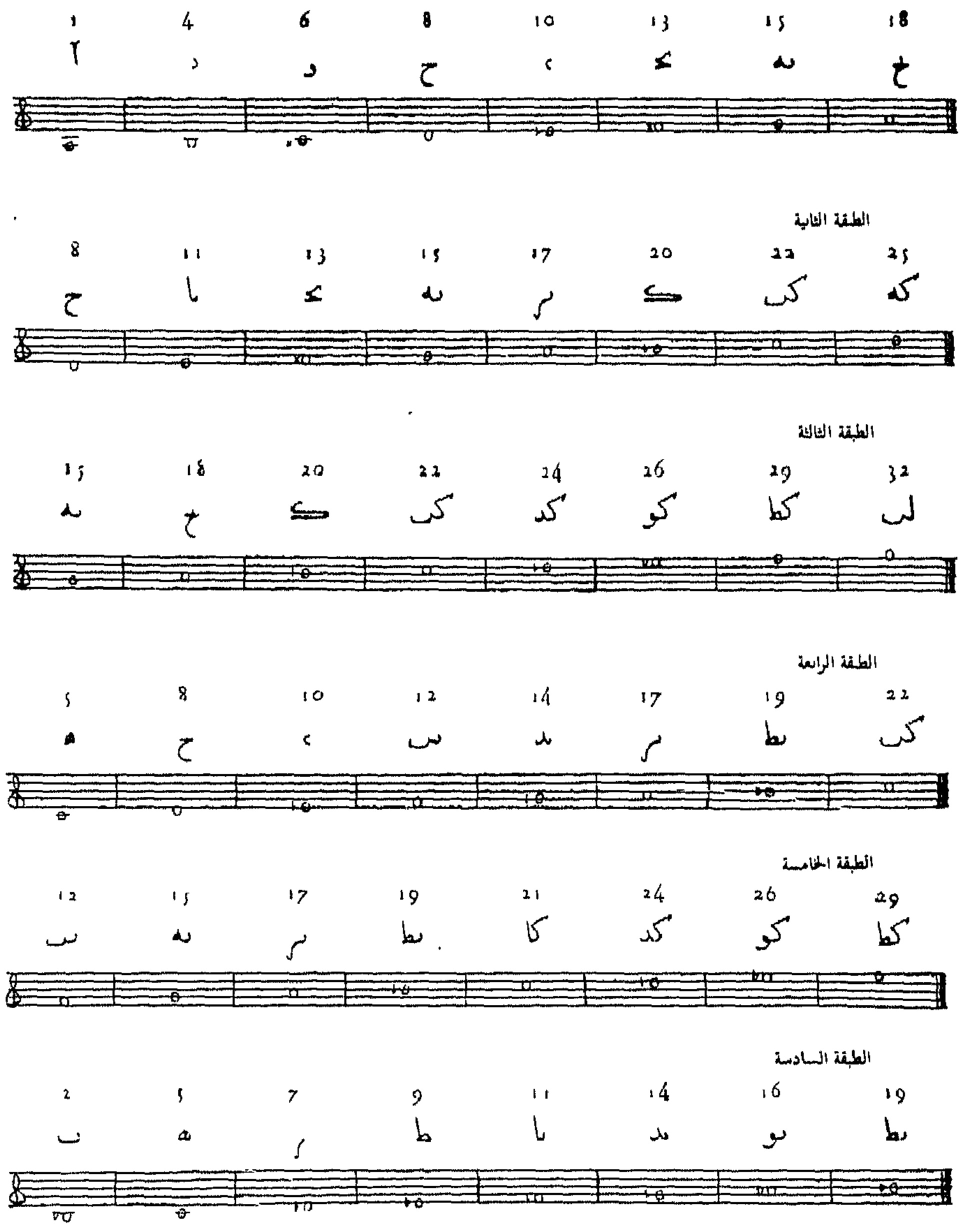


الطبقة السابعة عشر

11	13	16	18	21	23	25	28
يا	يج	يو	يح	كا	كج	كه	كح



MODE ZENKLÁ. مقام زنكلا

8.e Circulation.



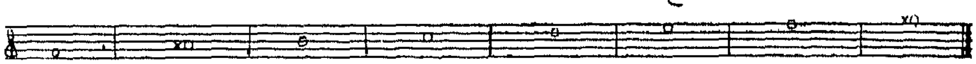
الطبقة السابعة

9	12	14	16	18	21	23	26
ط	يب	يد	يو	يح	كا	كج	كو



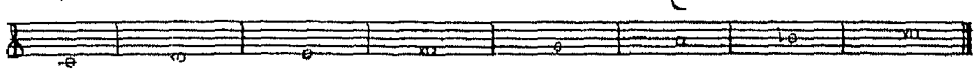
الطبقة الثامنة

10	19	21	23	25	28	30	33
ي	يط	كا	كج	كه	كح	ل	لج



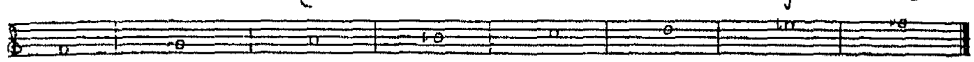
الطبقة التاسعة

6	9	11	13	15	18	20	23
و	ط	يا	يج	يه	يح	ك	كج



الطبقة العاشرة

13	16	18	20	22	25	27	30
يج	يو	يح	ك	كب	كه	كز	ل



الطبقة الحادية عشرة

3	6	8	10	12	15	17	20
ج	و	ح	ي	يب	يه	يز	ك



E M. Rrr

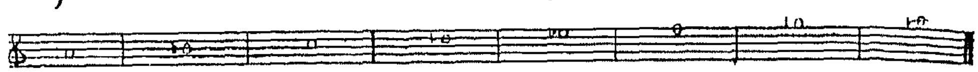
الطبقة الثانية عشرة

10	13	15	17	19	22	24	27
ي	يج	يه	يز	يط	كب	كد	كز



الطبقة الثالثة عشر

17	20	22	24	26	29	31	34
يز	ك	كب	كد	كو	كط	لا	لد



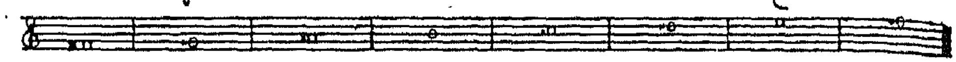
الطبقة الرابعة عشر

7	10	12	14	16	19	21	24
ز	ى	يب	يد	يو	يط	كا	كد



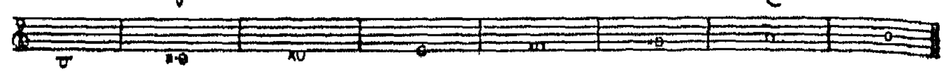
الطبقة الخامسة عشر

14	17	19	21	23	26	28	31
يد	يز	يط	كا	كج	كو	كح	لا



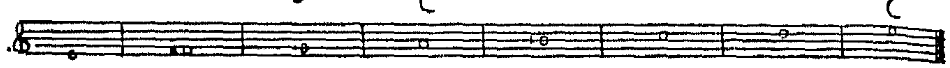
الطبقة السادسة عشر

4	7	9	11	13	16	18	21
د	ز	ط	يا	يج	يو	يح	كا



الطبقة السابعة عشر

11	14	16	18	20	23	25	28
يا	يد	يو	يح	ك	كج	كه	كح

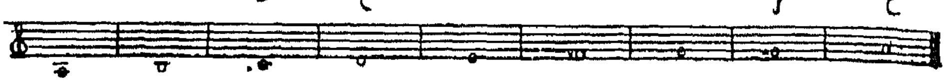


MODE ISFAHÂN. مقام إصفهان

9.e Circulation.

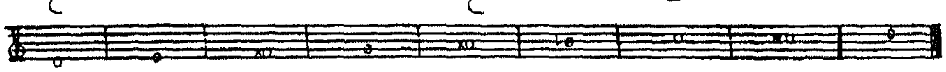
الطبقة الأولى

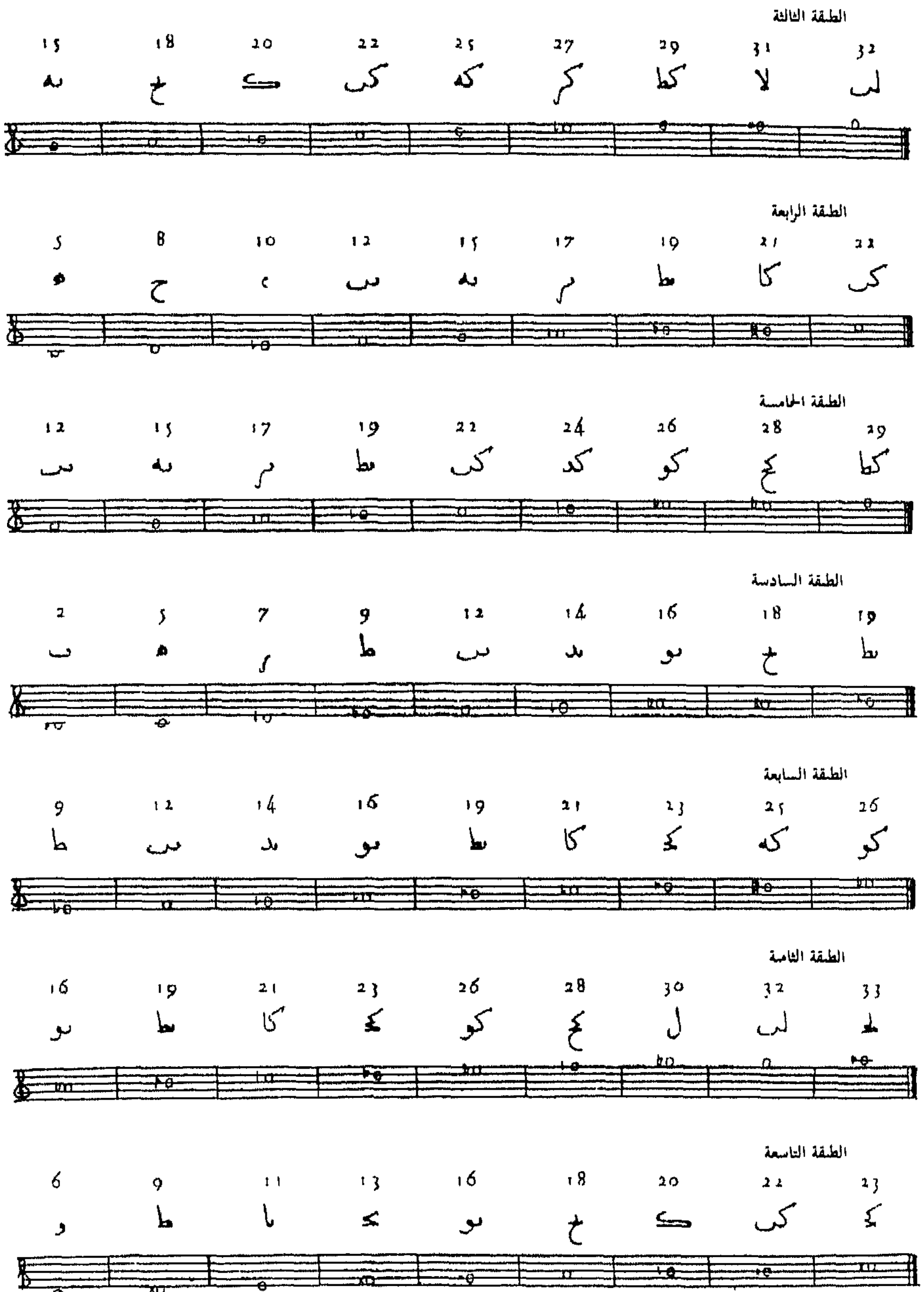
1	4	6	8	11	13	15	17	18
آ	د	و	ح	يا	يج	يه	يز	يح



الطبقة الثانية

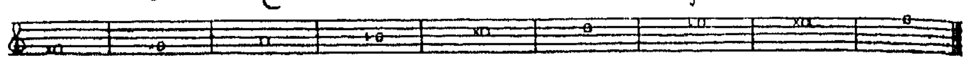
8	11	13	15	18	20	22	24	25
ح	يا	يج	يه	يح	ك	كب	كد	كه




الطبقة الثالثة
15 18 20 22 25 27 29 31 32
لب لا كط كز كه كب ك يح يه
الطبقة الرابعة
5 8 10 12 15 17 19 21 22
كب كا يط يز يه يب ي ح ه
الطبقة الخامسة
12 15 17 19 22 24 26 28 29
كط كح كو كد كب يط يز يه يب
الطبقة السادسة
2 5 7 9 12 14 16 18 19
يط يح يو يد يب ط ز ه ب
الطبقة السابعة
9 12 14 16 19 21 23 25 26
كو كه كج كا يط يو يد يب ط
الطبقة الثامنة
16 19 21 23 26 28 30 32 33
لج لب ل كح كو كج كا يط يو
الطبقة التاسعة
6 9 11 13 16 18 20 22 23
كج كب ك يح يو يج يا ط و

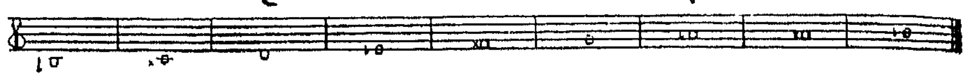
الطبقة العاشرة

13	16	18	20	23	25	27	29	30
يج	يو	يح	ك	كج	كه	كز	كط	ل



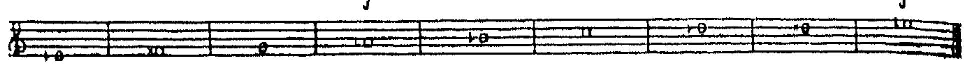
الطبقة الحادية عشرة

3	6	8	10	13	15	17	19	20
ج	و	ح	ي	يج	يه	يز	يط	ك



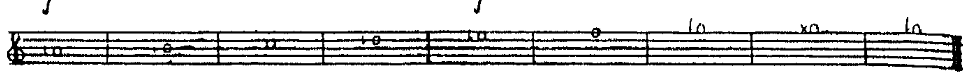
الطبقة الثانية عشرة

10	13	15	17	20	22	24	26	27
ي	يج	يه	يز	ك	كب	كد	كو	كز



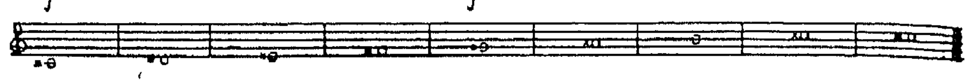
الطبقة الثالثة عشر

17	20	22	24	27	29	31	33	34
يز	ك	كب	كد	كز	كط	لا	لج	لد



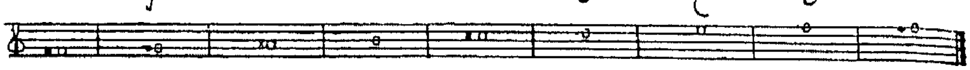
الطبقة الرابعة عشر

7	10	12	14	17	19	21	23	24
ز	ي	يب	يد	يز	يط	كا	كج	كد



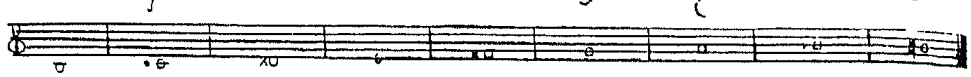
الطبقة الخامسة عشر

14	17	19	21	24	26	28	30	31
يد	يز	يط	كا	كد	كو	كح	ل	لا



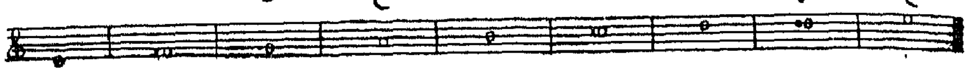
الطبقة السادسة عشر

4	7	9	11	14	16	18	20	21
د	ز	ط	يا	يد	يو	يح	ك	كا



الطبقة السابعة عشر

11	14	16	18	21	23	25	27	28
يا	يد	يو	يح	كا	كج	كه	كز	كح

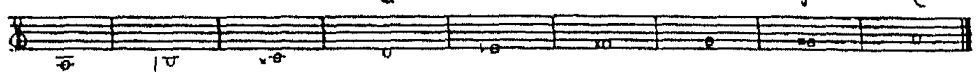


MODE E'RÂQ. مقام عراق

10.e Circulation.

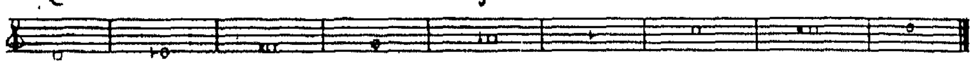
الطبقة الأولى

1	3	6	8	10	13	15	17	18
آ	ج	و	ح	ي	يج	يه	يز	يح



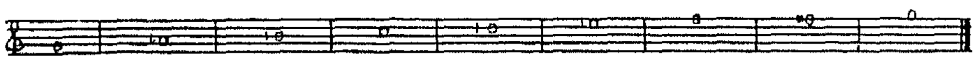
الطبقة الثانية

8	10	13	15	17	20	22	24	25
ح	ي	يج	يه	يز	ك	كب	كد	كه



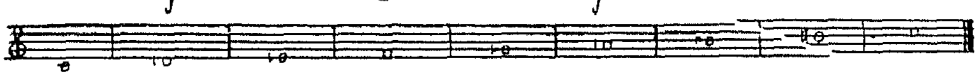
الطبقة الثالثة

15	17	20	22	24	27	29	31	32
يه	يز	ك	كب	كد	كز	كط	لا	لب



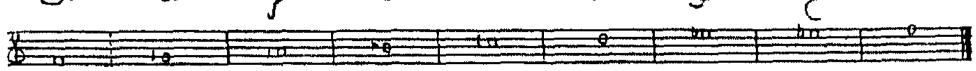
الطبقة الرابعة

5	7	10	12	14	17	19	21	22
ه	ز	ي	يب	يد	يز	يط	كا	كب



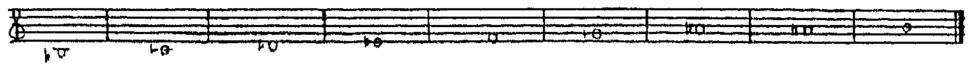
الطبقة الخامسة

12	14	17	19	21	24	26	28	29
يب	يد	يز	يط	كا	كد	كو	كح	كط



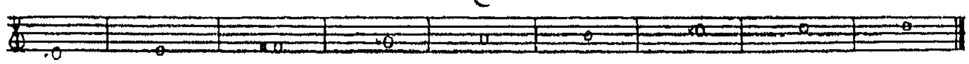
الطبقة السادسة

2	4	7	9	11	14	16	18	19
ب	د	ر	ط	يا	يد	يو	يح	يط



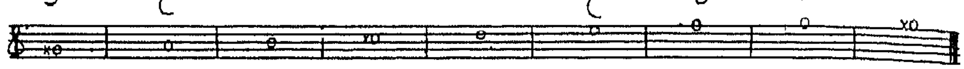
الطبقة السابعة

9	11	14	16	18	21	23	25	26
ط	يا	يد	يو	يح	كا	كج	كه	كو



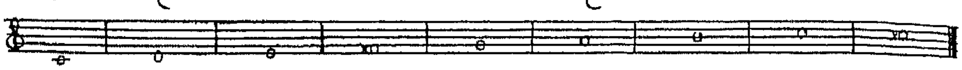
الطبقة الثامنة

16	18	21	23	25	28	30	32	33
يو	يح	كا	كج	كه	كح	ل	لب	لج



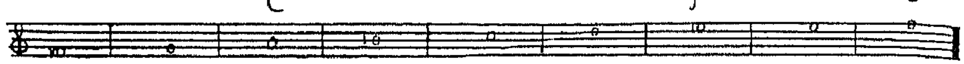
الطبقة التاسعة

6	8	11	13	15	18	20	22	23
و	ح	يا	يج	يه	يح	ك	كب	كج



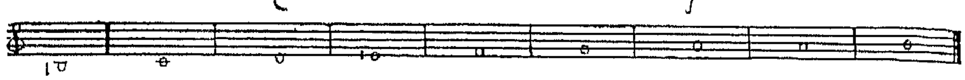
الطبقة العاشرة

13	15	18	20	22	25	27	29	30
يج	يه	يح	ك	كب	كه	كز	كط	ل



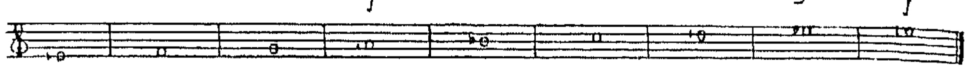
الطبقة الحادية عشرة

3	5	8	10	12	15	17	19	20
ج	ه	ح	ي	يب	يه	يز	يط	ك

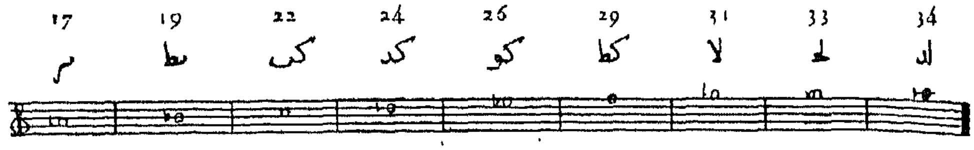


الطبقة الثانية عشرة

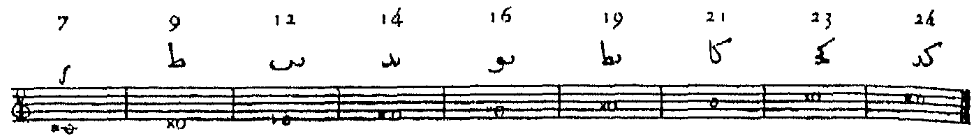
10	12	15	17	19	22	24	26	27
ي	يب	يه	يز	يط	كب	كد	كو	كز



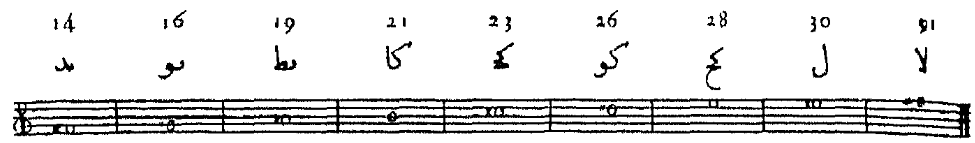
الطبقة الثالثة عشر



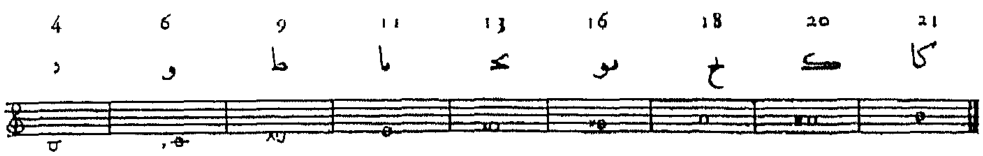
الطبقة الرابعة عشر



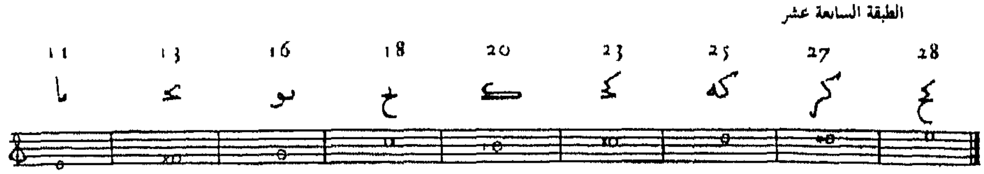
الطبقة الخامسة عشر



الطبقة السادسة عشر



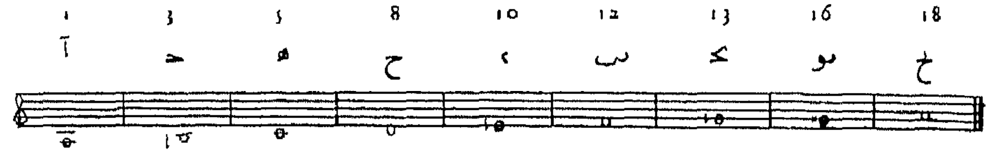
الطبقة السابعة عشر



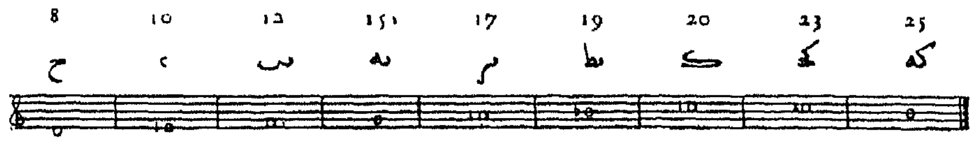
MODE ZYRAFKEND. مقام زيرفكند

11.e Circulation.

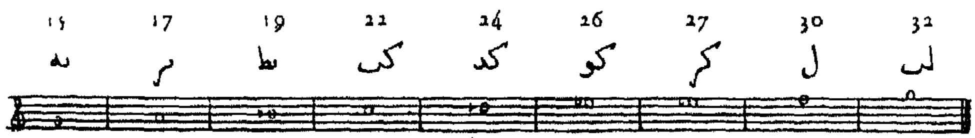
الطبقة الأولى



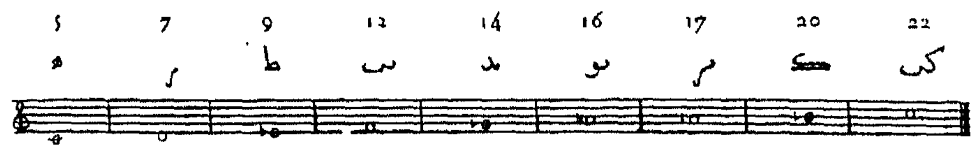
الطبقة الثانية



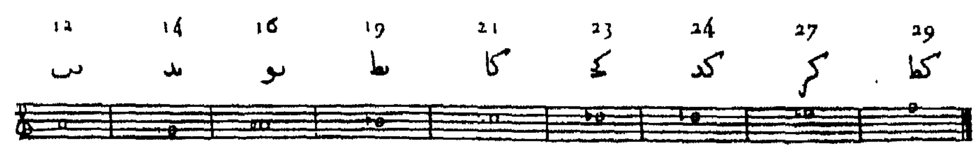
الطبقة الثالثة



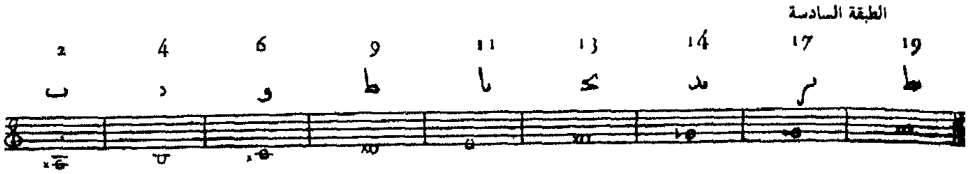
الطبقة الرابعة



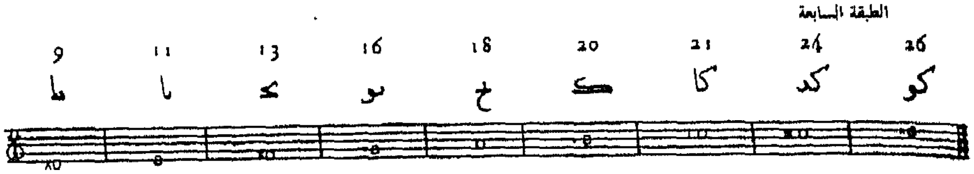
الطبقة الخامسة



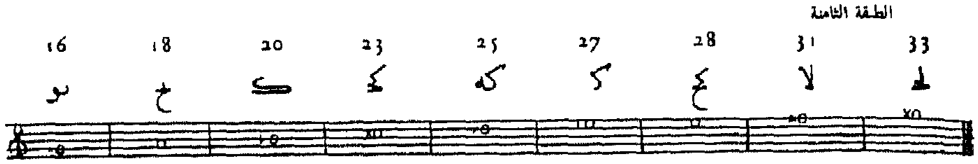
الطبقة السادسة



الطبقة السابعة

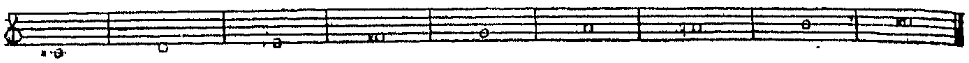


الطبقة الثامنة



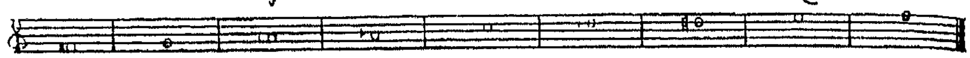
الطبقة التاسعة

6	8	10	13	15	17	18	21	23
و	ح	ي	يج	يه	يز	يح	كا	كج



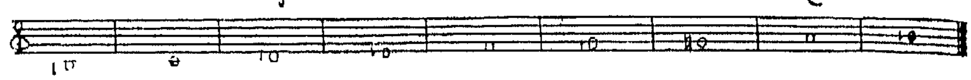
الطبقة العاشرة

13	15	17	20	22	24	25	28	30
يج	يه	يز	ك	كب	كد	كه	كح	ل



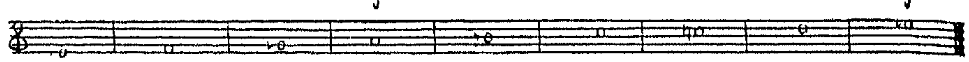
الطبقة الحادية عشرة

3	5	7	10	12	14	15	18	20
ج	ه	ز	ي	يب	يد	يه	يح	ك



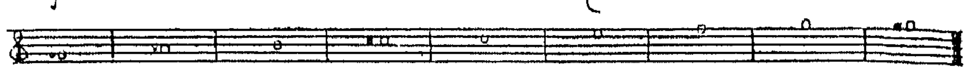
الطبقة الثانية عشرة

10	12	14	17	19	21	22	25	27
ي	يب	يد	يز	يط	كا	كب	كه	كز



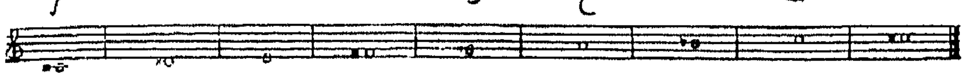
الطبقة الثالثة عشر

17	19	21	24	26	28	29	32	34
يز	يط	كا	كد	كو	كح	كط	لب	لد



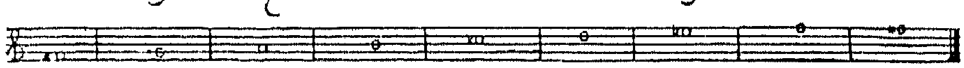
الطبقة الرابعة عشر

7	9	11	14	16	18	19	22	24
ز	ط	يا	يد	يو	يح	يط	كب	كد



الطبقة الخامسة عشر

14	16	18	21	23	25	26	29	31
يد	يو	يح	كا	كج	كه	كو	كط	لا



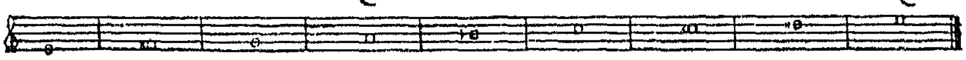
الطبقة السادسة عشر

4	6	8	11	13	15	16	19	21
د	و	ح	يا	يج	يه	يو	يط	كا



الطبقة السابعة عشر

11	13	15	18	20	22	23	26	28
يا	يج	يه	يح	ك	كب	كج	كو	كح

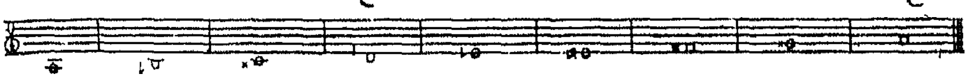


MODE BOUZOURK. مقام بُزُرك

12.e Circulation.

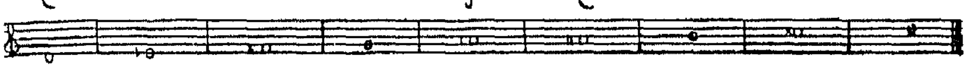
الطبقة الأولى

1	3	6	8	10	11	14	16	18
آ	ج	و	ح	ي	يا	يد	يو	يح



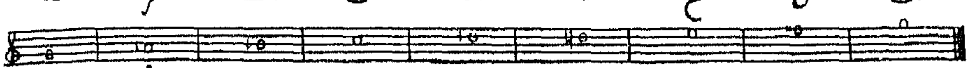
الطبقة الثانية

8	10	13	15	17	18	21	23	25
ح	ي	يج	يه	يز	يح	كا	كج	كه



الطبقة الثالثة
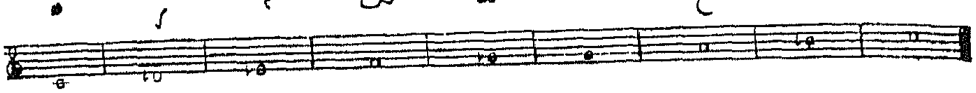
15	17	20	22	24	25	28	30	32
يه	يز	ك	كب	كد	كه	كح	ل	لب
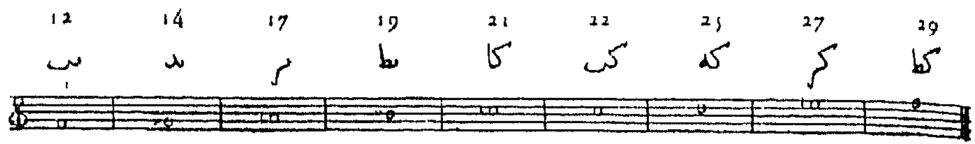


E. M. Ssss

الطبقة الرابعة

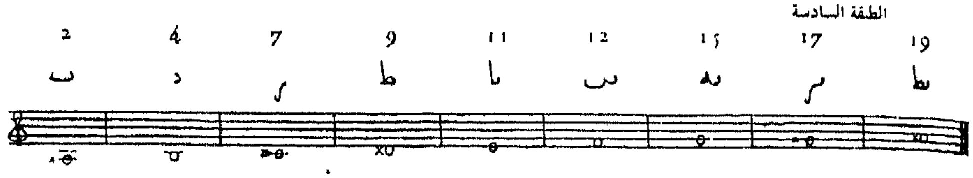
5	7	10	12	14	15	18	20	22
ه	ز	ي	يب	يد	يه	يح	ك	كب



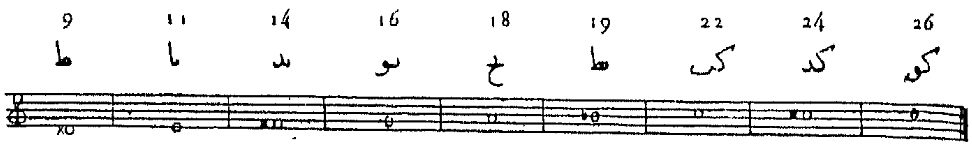
الطبقة الخامسة



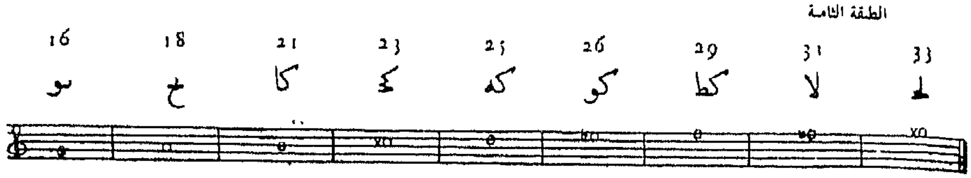
الطبقة السادسة



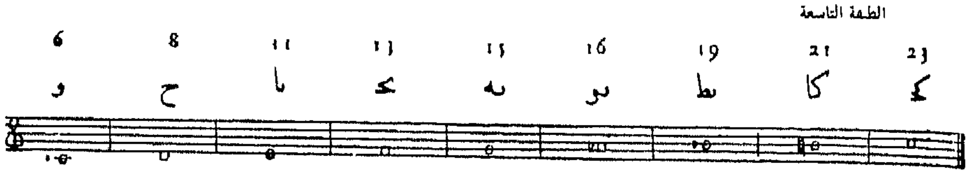
الطبقة السابعة
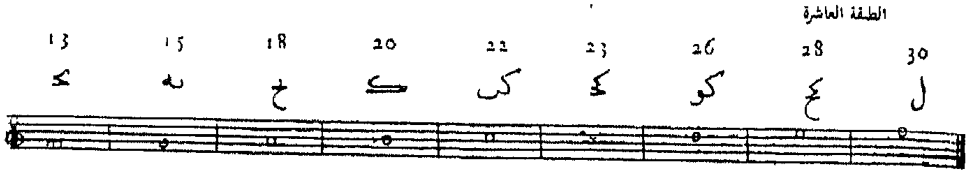


الطبقة الثامنة



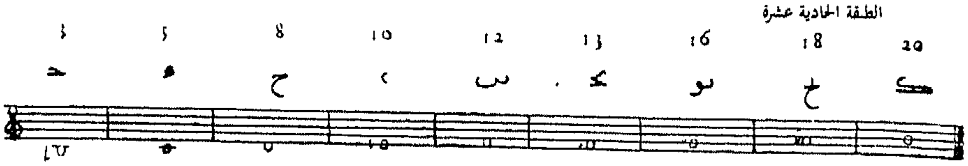
الطبقة التاسعة
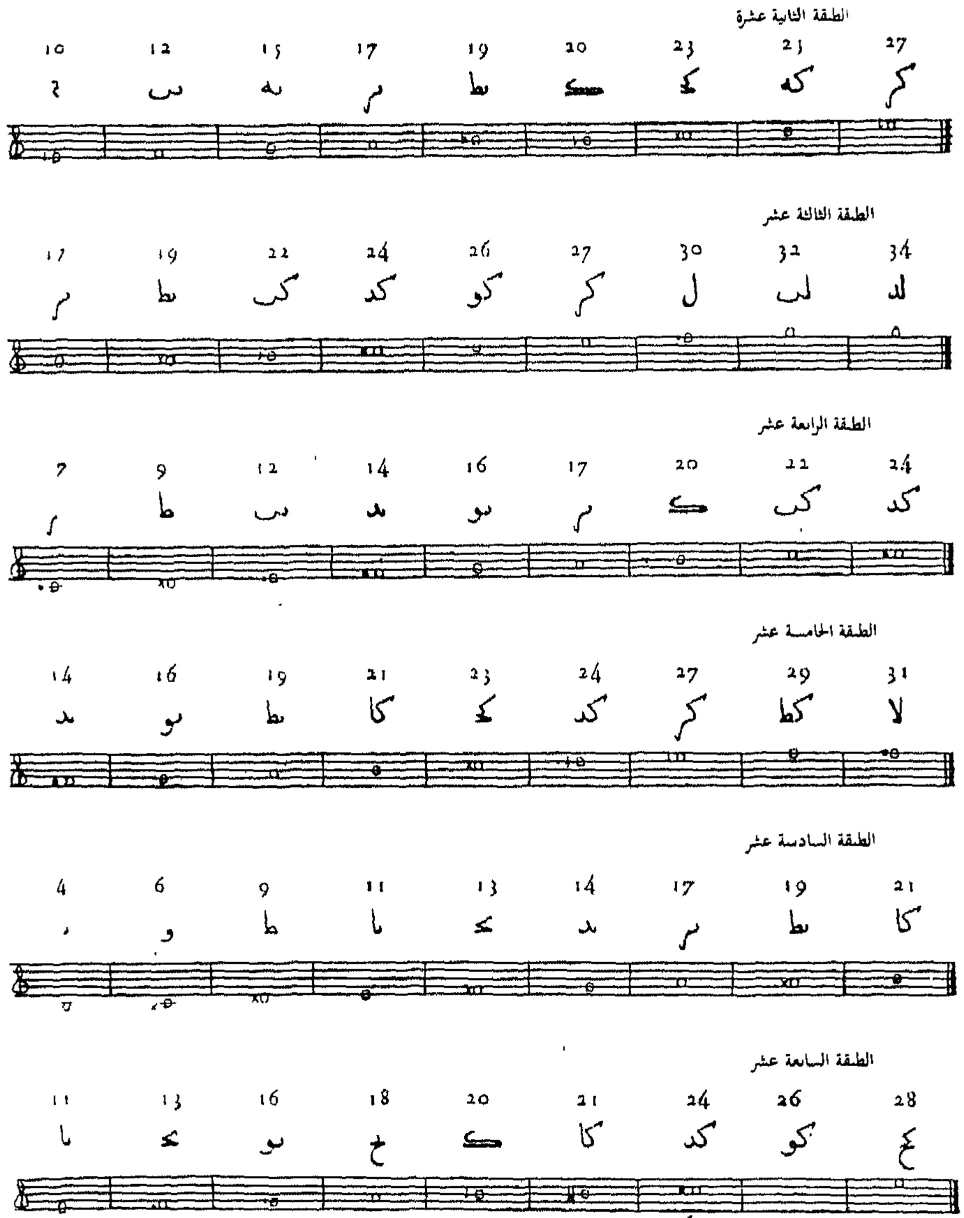


الطبقة العاشرة



الطبقة الحادية عشرة





وهكذا نرى أن كل السلالم الموسيقية ، وهى التى تسمى فى العربية طبقات[١] ، بل حتى كل النغمات التى تكونها ، تنتظم على الدوام فى شكل

---

(١) انظر هامش ص ٣٤

تنتظم فى نسبة ٩ : ١٠ ، ولهذا السبب نطلق عليها اسم الصغرى ، بحيث تتجاوز بعض الفواصل التى نسميها أنصاف تونات ، نصف التون ، فى حين لا يبلغ بعضها الآخر نصف التون ، أى أن مساحة الأوليات تبلغ ٥ : ٩ فى حين تبلغ مساحة الأخريات ٤ : ٩[١] . وينتج عن ذلك بالضرورة أن نقر بأن نظام الموسيقى العربية أكثر انتظاما وتماثلا عن نظامنا الموسيقى . وقد يبدو إستنتاج كهذا زعما لا معقولا ، يبعث على الصدمة ، وقد نسارع برفضه بازدراء قبل أن نعقله ، ولكننا اليوم مرغمون

---

(١) من المعروف أنهم يجعلون ، بموجب افتراضات حسابية تجديدية ، من نصف التون الكبير من ١٥ إلى ١٦ ، ومن نصف التون الصغير من ٢٤ ، ٢٥ ؛ وميزة هذا الحساب أنه يمكننا من أن نتقبل ما هو افتراضى ومحتمل باعتباره أمرا واقعيا ، لكن التجربة لا يمكنها أن تمتد إلى ما وراء ما هو كائن بالفعل ؛ وفضلا عن ذلك ، فسيوجد ، فى هده الحالة كما فى تلك . نوعان من أنصاف التونات على الدوام ، أحدهما أكبر من نصف التون وثانيهما أصغر منه . أما حين نقصر حديثنا على نصفُ التون الدياتونى ، وهو الوحيد الذى يمكنه أن يدخل فى تكوين ما نسميه نحن بالكوارتة أو الرباعية الصحيحة ، فإننا حين نكونه من بهذين النوعين من أنصاف التونات ، التون الكبير والتون الصغير ، فإنه ينتج عن ذلك ستة أنواع من الكوارتات أو الرباعيات ، تختلف كل منها عن الأخرى فى تركيبها : فتتكون الأولى من نصف تون ، وتون كبير ، وتون صغير ؛ وتون كبير ، وتون صغير ؛ والثانية من نصف تون ، وتون صغير وتون كبير ؛ والثالثة من تون كبير ، وتون صغير ، ونصف تون ، أما الرابعة فتتكون من تون كبير ومن نصف تون وتون صغير ، والخامسة من تون صغير وتون كبير ونصف تون (والسادسة من تون صغير ونصف تون وتون كبير)(*) . وبمعنى آخر فليس بإمكاننا أن نحصل على الدوام ، وعن طريق هذه الفواصل التى رتبت بطرق مختلفة أن نحصل على نفس النسب أو العلامات ولحسن الحظ فإننا لم نضع قواعد ثابتة تحدد استخدام كل واحدة من هذه الرباعيات الصحيحة المختلفة سواء فى الألحان . ميلودى ، أو فى التناغم ، هارمونى . ونحن ننظر إليهن جميعا ، عند الممارسة ، باعتبارهن ينتمين إلى النوع نفسه ، وإلا فإننا سنواجه هؤلاء الذين يمارسونها بصعوبات جمة للغاية ، كما سيصبح الفن منفرا لأولئك الذين لا يدرسونه إلا لمتعتهم الخاصة .

(*) لم توجد فى الأصل ولكن السياق يقتضيها (المترجم) .

العربية أكثر انتظاما وتماثلا عن نظامنا الموسيقى . وقد يبدو إستنتاج كهذا زعما لا معقولا ، يبعث على الصدمة ، وقد نسارع برفضه بازدراء قبل أن نعقله ، ولكننا اليوم مرغمون على تقبله ، ومهما يكن هذا الاعتراف قاسيا ماسا بكرامتنا ، فإن الحقيقة هى التى تمليه ، ولا نستطيع نحن أن نكتمه ؛ فهل يكون بمقدور ذلك فى عصرنا العامر بالأعاجيب ، أن يدفع رجلا يتحلى بعبقرية شجاعة أن يأخذ على عاتقه أن يخلو عن فن الموسيقى عندنا ، صدأ المبادىء الخاطئة ، والأحكام المسبقة ، وهى بغيضة لأكثر مما نطيق ، تخلفت عن جهالة وبربرية القرون التى تكونت فيها ؛ أيمكن لمثل هذا الرجل حقا أن يعيد إلى الحياة ، حماسة كل الموسيقيين الماهرين حتى يعملوا على إخراج هذا الفن من حيز الدائرة الضيقة التى حصره فى داخلها الروتين ، بشكل عار عن أية مهارة ، وحيث تلاحقه الاهانات من الأذواق الفجة ، وحيث تعذبه النزوات العجيبة التى تمليها (موضة) هوائية ومتقلبة .

الفصل الثانى

عن ممارسة المصريين المحدثين لفن الموسيقى

المبحث الأول

عن قلة اعتياد المصريين المحدثين على التفكير والتأمل فى هذا الفن ، وعن نجاح محاولاتنا الأولى للحصول منهم على بعض أفكار حول قواعد الممارسة ، وعن الانطباعات الأولى التى أحدثتها فينا الموسيقى العربية

لم يحدث إلا بعد جهد جهيد ، وبعد أن امتلأنا ضيقا وتقززا ، أن استطعنا النجاح فى اكتشاف ما تنطوى عليه المعارف الموسيقية عند المصريين : فالأسلوب اللفظى ، والهذر لحد يفوق كل تصور ، عند أبناء هذه الأمة ، والاستطردات التى لا نهاية لها التى تحتشد بها أحاديثهم ، وخروجهم الدائم عن موضوع الحديث — قد أرغمنا — كل هذا — على الجلوس إليهم لساعات طوال ، وفى بعض الأحيان لأيام متعاقبة ، كى نستجوبهم حول الموضوع نفسه ، دون أن نتلقى عنهم إجابة موضوعية واضحة .

وقبل أن نتزود ببعض المخطوطات حول الموسيقى العربية ، وقبل أن يتيسر لنا الوقت الكافى لدراستها ، لحد نستطيع معه أن نفهم بعض شىء منها ، كنا نظن أن الاجابات المراوغة التى يرد بها الموسيقيون المصريون على الأمثلة التى كنا نطرحها عليهم ، حول فنهم ، والحكايات التى كانوا يجدون الفرصة ، على الدوام ، لإلحاقها بهذه الاجابات ، كانت ، من جانبهم ، التفافا ماهرا يستخدمونه بشرف ، حتى لا يجدون أنفسهم ملزمين على القول بأنهم لا يفهموننا ، وبأننا لانستخدم من المصطلحات الفنية ما يكفى لكى ننقل إليهم بدقة أفكارنا . ومع ذلك ، وبعد مضى وقت طويل ، فحين أمكننا أن نعبر عن أنفسنا بلغه الفن (السائدة عندهم) قد تيقنا أن السبب لا يكمن فى ذلك على الاطلاق . فلقد أدركنا أن هذا الأسلوب من جانبهم كان طبيعيا بالنسبة لهم ، كما الهواء الذى يتنفسونه ، وأنهم حين كانوا يتأخرون فى الرد على أسئلتنا فقد كان الأمر ناتجا ، كسبب أوحد ، عن الحيرة التى

يجدون فيها أنفسهم عندما كنا نسألهم ؛ ذلك أنهم ، طبقا لكل الشواهد ، لم يكونوا يتخيلون قط ، أن يتبينوا أسباب ما يفعلون ، أو أنهم سيسألون يوما أن يقدموا تفسيرات له .

وفى الوقت نفسه ، فإننا كى لاندعهم يدركون أننا قد لمسنا جهلهم ، وهو أمر يمكنه أن يقلل من ثقتهم وأن يثبط من عزيمتهم ، بل ربما قد يتسبب فى ابتعادهم عنا ، قد لجأنا إلى التجربة ؛ لكن هذه الوسيلة أصبحت أشد تنفيرا لنا وأكثر استهجانا من جانبنا ، بل لقد كادت تصبح أكثر جدبا من الوسيلة الأولى .

لقد كان يلزمنا ، نحن الذين تعودنا منذ نعومة أظفارنا على لذة الاستماع وتذوق روائع أعمال كبار أساتذة الموسيقى عندنا ــ أن نتحمل كل يوم ، مع الموسيقيين المصريين ، ومن الصباح حتى المساء ، هذا التأثير المثير للحنق لموسيقى كانت تخرق منا الآذان ، ولألحان متكلفة وجافة وباروكية(*) وحواشى ذات مزاج مسرف وهمجى ، تؤديها أصوات منكورة ، أنفية ، تخلو من كل ثقة ، وتصحبها آلات موسيقية ، نغماتها إما هزيلة ضامرة وصماء ، أو حادة خارقة للأذن ــ على هذا النحو كانت الانطباعات الأولية التى أحدثتها فينا موسيقى المصريين . وإذا كان التعود قد جعل منها بمرور الوقت أمرا يمكن التسامح فيه ، فإنه لم يستطع قط ، مع ذلك ، أن يجعلها مقبولة من جانبنا طيلة الوقت الذى مكثناه فى مصر .

ومع ذلك ، فكما تصبح بعض المشروبات التى لا نسيغ مذاقها حين نشربها لأول مرة ، أقل تنفيرا مع دوام استعمالنا لها ، بل قد ينتهى بها الأمر فى بعض الأحيان بأن يغدو مذاقها بالنسبة لنا لذيذا ، حين نعتادها بشكل تام ، فإن تعودنا على الاستماع إلى الموسيقى العربية ، وبشكل يتجاوز اعتيادنا لأى شراب لا نسيغه ، كان بمقدوره أن يزيل ، كلية ، النفور الذى كان يعترينا عند سماع ألحان هذه الموسيقى ؛ وقد لاتواتينا هنا الجرأة على التأكيد بأننا واجدون ، ذات يوم ، طربا وجمالا فى شىء كان هو أكثر الأمور تنفيرا لنا ، ومع ذلك فكم من الأحاسيس التى ننظر إليها على أنها

(*) نسبة إلى أسلوب فنى ساد القرن السابع عشر ويتميز بكثرة الزخارف والحركة والحرية فى التشكيل . (المترجم) .

أحاسيس طبيعية ، هى أبعد من أن تكون كذلك ! فالمصريون بدورهم لا يسيغون قط موسيقانا ويرون موسيقاهم جميلة ولذيذة ؛ وهكذا يعتقد كل فريق من جانبه أنه المحق ويدهشه أن يرى أن هناك من يتأثر بطريقة تخالف طريقته . ومع ذلك فمن يدرى أى الفريقين يقف على أرض أكثر صلابة من تلك التى يقف عليها غيره ؛ أما بالنسبة لنا ، فنحن نظن أن الموسيقى الاكثر تعبيرا والأسلس سبيلا ، لا بدلها أن تنال الاعجاب بصفة عامة ، وأن تلك التى لا تستند إلا على جماليات مصطنعة ، وتنهض على مفاهيم لا تعبر عن مشاعر من أى نوع لاتستطيع أن تحوز إعجابا إلا فى البلدان التى اعتاد فيها الناس على الاستماع إليها . ولقد عرفنا فى مصر أوربيين يمتلئون حسا وذوقا وتفكيرا ، قد أكدوا لنا ، بعد أن اعترفوا بأن الموسيقى العربية فى السنوات الأولى من إقامتهم فى هذا البلد كانت تسبب لهم الكثير من الضجر ، أنهم بعد أن أقاموا فى هذه البلاد ثمانية عشر أو عشرين عاما ، قد اعتادوا على هذه الموسيقى ، لدرجة أنهم يغبطون أنفسهم عليها ، ولدرجة أنهم اكتشفوا فيها جماليات كانوا ، هم ، من قبل — أبعد ما يكونون عن أن يظنوا وجودها فيها : وهكذا فليست هذه الموسيقى إذن باروكية أو همجية بالقدر الذى بدت لنا عليه عند البداية .

وفضلا عن ذلك فلا ينبغى أن ينظر قط إلى ما نقوله هنا عن التأثير الذى أحدثته فينا الموسيقى العربية ، وإلى ما سنقوله عنها فيما بعد ، باعتباره حكما نهائيا نصدره على هذه الموسيقى ؛ فلعل الجهل ، وقلة التمرس ، وتخلف الذوق ، وعجز أصوات المغنين ، بالإضافة إلى رداءة حال الانغام التى تصدر عن الآلات الموسيقية المستخدمة هناك ... لعل كل ذلك قد أسهم أكثر من غيره فى خلق الإحساس الذى شعرنا به . وإن كانت هذه أمور لاتحتاج إلى التأكيد بأنها ، بالأحرى ، هى كل ما يناقض الفن .

ولقد كنا نستدعى الموسيقيين المصريين إلينا كل يوم للاستماع ولملاحظة موسيقاهم ، لكن ما صدمنا بصفة خاصة ، أكثر من غيره ، هو أننا لم نستطع قط فى البداية ، أن نستخلص النغمات اللحنية — أى النغمات الأساسية للحن — من بين هذا الحشد المختلط من التنغيمات والزخارف المتضاعفة . لحد لايمكن تصوره من الغرابة والشذوذ ، والتى كانوا يثقلون بها كاهل غنائهم ؛ ولن نخفى أننا أوشكنا أكثر من مرة أن

نستجيب لغواية العدول عن المشروع الذى اختطناه لمعرفة الموسيقى العربية ؛ بل لقد دنا أن نفعل ذلك لو لم تأت الصدفة ، كما يحدث فى غالبية الأمور فى حالات مشابهة ، لنجدتنا ولتكلّل محاولاتنا بالنجاح فى أقل أوقاتنا توقعا لحدوثها . وإليكم كيف أمكننا أن نكتشف ذلك : لقد اعتقدنا فجأة ، حين غنى لنا أحد الموسيقيين أغنية كان زميل له قد غنانا إياها من قبل ، أننا قد تعرفنا على اللحن ؛ وكان هو فى واقع الأمر اللحن نفسه ، ولكى نستوثق من ذلك فقد جعلناه يكرر لأكثر من مرة ، المقطع (الكوبليه) الأول جملة جملة ، حتى يسهل علينا تدوين النوته الموسيقية ، وحتى نستطيع بعد ذلك أن نقارن لحن غنائه هذا مع اللحن الذى اعتقدنا أننا قد تعرفنا عليه ، وذلك عندما ستواتينا الفرصة للالتقاء بالمغنى الأول لنطلب إليه أن يغنينا الأغنية نفسها ، وسعينا من هذه الزاوية لتدوين كل ما سمعناه بدقة تعادل دقة موسوس متشكك .

وحين انتهينا كررنا اللحن مع دهشة بالغة من جانب الرجل الذى كان قد أملاه علينا ، ذلك أنه قد تجشم كل صعاب العالم كى يحسم رأيه فيصدق ، وقد كان يرى ذلك ضربا من المستحيل ، أن الأنغام تكتب ، وأن بالمستطاع أن نتعلم فى ربع الساعة شيئا يتطلب ، كما أخبرنا ، دراسة تتصل لسنوات عديدة ، ولقد وجد اللحن صحيحا وإن كنا حقا لم نردده بنفس الأداء ، وبنفس التذوق ، وبنفس التعبير الذى أداه هو به ، وهو أمر كان ينظر إليه على أنه شىء هام ، ولكنه ظل يردد دهشة من نجاحنا وإعجابا به : عجايب ! عجايب ![1] أى يالها من أعجوبة . فلم يكن الرجل يستطيع أن يتصور أيه أشكال أمكننا أن نعطيها للنغمات المختلفة من صوته كى نتعرف من بعد عليها ، حتى نستعيد علوها وانخفاضها ، ومدة دوامها أو درجة سرعتها ؛ وكم كان بمقدورنا أن نفسر له كل هذا على الفور ، ولكننا رغبة منا فى إثارة فضوله ، ولكى يظل شغوفا بالبحوث التى كنا نقوم بها ، وحتى نلزمه ألا يهمل فى تقديم شىء من شأنه أن يعاون فى أغراضنا ، وعدناه أننا سوف نجعله ، حالما نصبح أكثر علما بالموسيقى العربية ، قادرا على أن يتعرف وحده إشاراتنا الموسيقية ، ومع ذلك فقد ظل على ظنه ، فيما يبدو ، بأننا قد استخدمنا شيئا آخر بخلاف الوسائل

---

(١) أى عجيب ! وهى تلفظ على هذا النحو طبقا لنطق المصريين المعيب .

البسيطة والطبيعية ، ولم نشأ وقتها أن نضيع وقتنا حتى نبرهن له عكس ظنونه .

ولقد أشاع الرجل هذه الواقعة ، وبقدر من المبالغة ربما ، حتى أن العامة قد تخيلوا أن فى الأمر ضربا من السحر ، وحتى أن الشخصيات الأكثر علما قد تاهوا فى خضم فروض وتخمينات بالغة الغرابة ، وكلها ، أكثر من بعضها البعض إثارة للسخرية ، حتى أن المشايخ أنفسهم ظلوا يسألون الكثيرين من زملائنا حول إمكانية حدوث هذا الأمر ، وحتى أنهم لم يقتنعوا أو يقنعوا إلا عندما علموا منا أنفسنا علام تشتمل وسائلنا ، حتى نعبر بإشارة أو خط واحد نخطه على الورقة ، عن نغمة ما ، مع التغيرات المختلفة التى تكون عرضه لها .

وفى الوقت نفسه ، دفعتنا مغامرة مباغته وخارجة عن المألوف ، صدرت عن واقعة بدت لنا حتى ذلك الوقت بعيدة عن أن تبعث فى حد ذاتها على أية دهشة ، والتى ظنناها معروفة من كل الشعوب التى تتبع نسقا موسيقيا ونظاما يشتمل على المبادىء والقواعد التى تحدد أساليب ممارسة هذا الفن ، دفعتنا هذه المغامرة لان نطلب إلى المشايخ ما إن كانوا قد سمعوا على الاطلاق بوجود علامات أو إشارات تشير إلى النغمات أو لتدوين (نوتة) الموسيقى العربية ؛ ولقد أكدوا لنا جميعا ، مجمعين على ذلك ، أن لا . ومنذ ذلك الوقت تملكتنا الرغبة فى أن نستعلم عن الشيء نفسه من كل العلماء المصريين والعرب الذين أجابوا بالرد نفسه الذى رد به الشيوخ ، بل لقد ذهبنا إلى حد أن طلبنا إلى تجار أتراك من مواطنى القسطنطينية وممن يقطنون القاهرة ، بعض معلومات حول استخدام النوتات الموسيقية فى ممارسة هذا الفن ، فأكدوا لنا أن مثل هذه النوتات لا تستخدم قط فى الممارسة الاعتيادية لهذا الفن فى بلادهم ، بل إنهم يشكّون أن تكون هذه قد استخدمت قط بصفة شائعة ، وبشكل عام فى تركيا ، لكننا لم نستطع أن نعرف أية درجة من الثقة يمكن أن تستحقها هذه الاجابة الأخيرة ، ومع ذلك فقد كان من السهل على الفرنسيين من قاطنى القسطنطينية أن يبددوا ، حول هذه النقطة ، كل شكوكنا .

وحيث قد عكفنا بصفة دائمة ، ونحن فى القاهرة على بحوثنا حول الموسيقى ، وحيث قد باتت لنا صلات معتادة مع الموسيقيين المصريين ؛ فإننا لم نتردد فى أن نستدعى من بينهم ، مرة أخرى ، الشخص الذى كان أول من أسمعنا الأغنية التى

تحدثنا عنها للتو ، واستعدناه إياها ، ودوناها للمرة الثانية ؛ وبمقارنتنا هذه النسخة بسابقتها ، وجدنا فيما بينهما احتلافات بينة ، ثم استعدنا الأغنية نفسها من كل المغنيين الآخرين .. ودونا فى كل مرة ، وبدقة متناهية نوته عماء كل واحد منهم ، فلم تبد من بين كل هذه النسخ نسختان متطابقتين تمام التطابق فيما بينهما ؛ ونتيجة لذلك فقد حاولنا أن ندون على حدة مقدمة كل هذه النسخ ، كشيء ثابت لا يتغير ، حتى نرى ما إذا كنا سنكتشف بهذه الوسيلة الشكل الحقيقى للحن ، متصورين جيدا أن كل التنويعات التى نجدها عليها إنما تنتمى إلى تذوق كل موسيقى ، وسرعان ما تبينا أننا فى ذلك لم نجانب الصواب . ذلك أننا بعد أن بسّطناها ، بأن جردناها على هذا النحو من الاضافات والحواشى ، وبعد أن أسمعناها على التوالى لكل أولئك الذين غنونا إياها فإنهم قد تعرفوا علبها جمبعا دون لبس ، وإن كانوا جميعا قد لامونا على أننا حرمنا اللحن من الزخارف التى كانت تجمله ، ولكنا استرعينا انتباههم إلى أن اللحن البسيط ـــ خلوا من الزخارف والحواشى ـــ هو شخص الغناء نفسه ، وأن هذه الزخارف والحواشى ليست سوى ملاسه وأننا بالتالى ، ورغبة منافى التعريف بالشخص بطريقة أكثر حميمية ، لم نكن لنستطيع أن نعفى أنفسنا من أن ننحى جانبا كل ما يخفى عن نظراتنا أكثر ملامحة جذبا للانتباه وأكثرها أهمية بالنسبة لنا ، فأقرونا جميعا على هذا الرأى ؛ واتفقنا فيما بيننا على أنهم فى كل مرة يؤدون الموسيقى أمامنا منذ الآن ، لابد لهم أن يسمعونا إياها دون زخارف أولا ، ثم يكون بمقدورهم بعد ذلك أن يزخرفوها بقدر ما يحلو لهم ، شريطة ألا يحول ذلك دوننا ودون التعرف على « شخص » اللحن نفسه .

ومع ذلك فإننا لم نحصل بشكل صارم على ماطلبناه إليهم ؛ فالعادة التى اعتادوها ، وأصبحت جزءا من تكوينهم ، قد جعلت ، بالعكس ، هذه البساطة عليهم مستحيلة ، ولكنهم فى النهاية بذلوا قصارى جهودهم فى أن يعملوا وفق اتفاقنا معهم ؛ وهكذا أصبحت ألحانهم أقل ازدحاما واختلاطا ، وتبيناها ، بدورنا ، بشكل أفضل .

وعن طريق هذه الوسيلة وبمعونة من آلاتهم الموسيقية التى استخدمناها ، أمكننا أن نجعلهم يتفهون على نحو أفضل ماكنا نريد قوله لهم ؛ ولقد كانت لدينا القدرة على أن نأخذ بيدهم حتى يفسروا لنا ماكنا نريد أن نعرفه ؛ ومنذ هذه اللحظة

أصبحت جلساتنا أقل لغوا ومشقة ، وأكثر مجلبة للنفع ، وليس هناك ما يحول بيننا وبين أن نقول أنه إن لم يكن لم يكن لدينا الكثير مما ينبغى قوله عن ممارسة الموسيقى العربية فى مصر ، فذلك لأن الموسيقيين المصريين لم يكونوا يعرفون عن الأمر أكثر مما قلناه .

وحيث لم يكن هؤلاء الموسيقيون يسترشدون فى فنهم بمبادىء أخرى غير المبادىء التى نقلتها العادة والممارسة إليهم ، فقد كان علينا أن نحدس بأن تقليدا كهذا من شأنه أن يتعرض للسوءات ، بفعل الجهل أوالاهمال ، من جانب الذين قد كانوا لسان حاله والمعبرين عنه منذ قرنين أو ثلاثة قرون ، لدرجة لا يمكن معها أن يستقيم خلال هذه المدة الطويلة دون أن يتناوله تحريف أو انحراف من نوع ما ؛ ومع ذلك فإننا لم نتوقف عند ذلك طويلا مستسلمين « فى ثقة » ! فقد كان علينا أن نوقن بأن أشياء قد كرستها العادة أو الممارسة ، وليس لدى القوم مطلقا النية بأن يضيفوا إليها بعضا من ابتكار ، لم يكن من شأنها مع ذلك أن تتعرض للتشوية لدرجة لا يبقى معها منها شىء . ولهذا السبب ، لم يكن علينا أن نهمل أية وسيلة من الوسائل يبدو لنا أن من شأنها أن تعيننا على التعرف عليها .

ومهما تكن رتابة أداء الموسيقيين المصريين ، فإن ذلك لم يكن قط مدعاة لازدراء من جانبنا ، بل لقد كان فى وسع ذلك أن يلقى المزيد من الضوء ، أو أن يؤكد أو يطابق ما كانت تعترينا من شكوك ، تجعلنا نتحفظ إزاء بعض ما تقدمه لنا البحوث المخطوطة حول الموسيقى العربية . وفى واقع الأمر ، فلولا هذا الأداء من جانب الموسيقيين المصريين ، ماكنا لنحصل على الأفكار التى اكتسبناها حول ممارسة هذه الموسيقى ، ولما كنا لنستطيع أن نقدّر مطلقا أو أن نحسم معيار درجات أنغام السلم الموسيقى الذى كانوا يستخدمونه ، كما لم نكن لنحصل إلا على أفكار مشوّشة حول المقامات وحول الأنغام المستخدمة منها ، ولم نكن لنتمكن من معرفة الاستثناءات أو الاضافات التى استقرت فى قواعد الممارسة ، سواء عن طريق التذوق ، أو بفعل أى دوافع أخرى ، وأخيرا ، فكم كان سيصبح مستحيلا علينا أن نقدم كما نفعل الآن ، أمثلة معروفة جعلت ماكنا نرغب فى التعريف به ، أمرا ملموسا وواقعا .

المبحث الثانى

حول مدى معرفة الموسيقين المصريين فى الوقت الحاضر بنظام الموسيقى العربية

لعل أحد الأسباب الرئيسية التى أدت بالموسيقيين المصريين ألا يفقدوا ، بصفة تامة ، المعرفة بالنظام الموسيقى العربى ، هو أن الجدول الموسيقى لآلاتهم الموسيقية ولكل الآلات الموسيقية الشرقية ، يتكون طبقا لهذا النظام ، ومع ذلك فإن ما يفهمونه منه ، يقتصر على أقل القليل .

وبرغم ذلك فإنهم فى الحقيقة يميزون الدرجات المختلفة للسلم الدياتونى للنغمات ، بأسمائها ، بل يعرفون كذلك أن هناك نغمات وسيطة للنغمات الأولية ، ناهيك عن أنهم كثيرا ما يستخدمونها ، وإن كانوا لا يستطيعون أن يقولوا بشكل صحيح ، ماهى طبيعة ومدى الفواصل أو الأبعاد التى تفصل هذه الدرجات أو الانتقالات بعضها عن البعض الآخر ، ويقتصرون على الاشارة بكلمتى عفق[1] وبقة[2] ، إلى تلك الفواصل الأقل مدى من الفواصل الدياتونية . وفى الوقت ذاته فإنهم يجهلون أن سلمهم الموسيقى ينقسم إلى ثمانى عشر درجة تضم سبع عشرة فاصلة ، كل منها تتكون من ثلث تون وهم يدوزنون أو يضبطون آلاتهم الموسيقية بالوحدات الرباعية والخماسية والثمانية ، لكنهم لا يتفهمون الأهمية الكاملة لهذه الفواصل فى تشكيل نظامهم الموسيقى ، ولا يعرفون أن أربع نغمات دياتونية متعاقبة تحمل اسم بحر فى اللغة الفنية التى تعبرّ بها عن نفسها النظرية العربية للموسيقى ؛ وباختصار فإن مالديهم من أفكار ضئيلة عن فنّهم ، ليست هى بالمنهجية ولا بالمتعقلة ، فهى ليست كما سبق أن لاحظنا سوى نتيجة لممارسة نمطية ولتجربة عمياء .

---

(١) عفق ، كلمة يطلقونها فى الموسيقى بمعنى قطع أو حذف جزء من الفاصلة ، وهى بذلك تقابل الأبتوما aptome عند الاغريق ؛ وعلى هذا يكون لابورد Laborde قد أساء المعنى عندما كتب فى دراسته عن الموسيقى أن هذه الكلمة تشير إلى الايقاع السريع فى الغناء .

(٢) بقة بمعنى بقية ، وهى تقابل الفاصلة المسماة ليما leimma عند الاغريق .

المبحث الثالث

عن المقامات الموسيقية وضروب الألحان التى يستخدمها المصريون المحدثون عند ممارستهم لفن الموسيقى

كان ينبغى ، كأمر لابد منه ، أن يعرف الموسيقيون المصريون ، وأن يستخدموا كل مقامات الموسيقى العربية ، وكل الطبقات التى يمكن كل مقام أن يشتمل عليها [١] .

ومع ذلك ، ففيما عدا الاثنى عشر مقاما رئيسيا ، وبعض المقامات التى تشتق عنها ، والتى يستطيعون بشأنها جميعا ، أن يؤدوها على طبقة أو على طبقتين فقط ، فهم يكادون لا يعرفون حتى أسماء المقامات الأخرى كما أنهم يشكلون مقام الرست ، الذى يعد بمثابة النمط المحتذى فى النظام الموسيقى ، بالطريقة نفسها التى دوناها فى الأمثلة على تكوين هذه الأنظمة . وهم يشيرون إلى الدرجات الأربع الأولية وإلى الدرجة السادسة بالطريقة نفسها التى تسمى بها هذه الدرجات فى نظرية الموسيقى[٢] ، وإن كانوا يطلقون على الدرجات الأخريات اسم المقام التى تشكل هى قراره أو نغمته الأساسية[٣] . ولتمييز نغمات الوحدات الثمانى (الأوكتاف) الغليظة ، والتى تسميها نظرية الموسيقى باسم أسفل الجذور[٤] عن نغمات الوحدات الثمانى الوسيطة التى تسمى الجذور[٥] فإنهم يضيفون إلى اسم كل

---

(١) انظر الأمثلة التى وردت بالمبحث الأخير من الفصل السابق .

(٢) انظر الأمثلة التى قدمناها عن مكونات النظام الموسيقى .

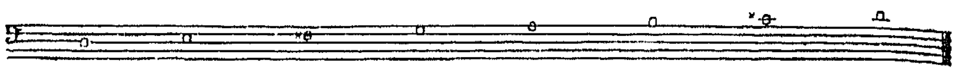
(٣) تلفظ هذه الأسماء على هذا النحو فى اللغة الدارجة فى القاهرة : رست ، دوكا ، سيكا ، جركاه ، نوى ، حسينى ، عراق ، كردان .

(٤) انظر المثالين الواردين فى ص ٣١ ، الفصل السابق ، المبحث السادس .

(٥) انظر المثالين الأول والثانى من ص ٣٢ .

واحدة من هذه النغمات الصفة قب[١] ، ثم يحددون بالصفة جواب[٢] نغمات الوحدات الثمانى العلوية .

مثال



كردان عراق حسينى نوى جيركاه سيكاه دوكاه رست

وبرغم أن المرء يستطيع أن يؤدى لحنا ما على كل درجات السلم الموسيقى ، لأنغام الطبقات التى تتكون منها دورة كل مقام ، فإن هناك اختيارا كرسته العادة على الأقل ، ما لم تكن المبادىء الموسيقية هى التى تكرسه ، إذ يتحدد هذا الاختيار بفعل الدرجة التى تشغلها فى السلم الموسيقى ، النغمة القرارية التامة ، أى نغمه الأساس الخاصة بكل مقام .

وعندما ينقل السلم الموسيقى لمقام ما على درجة أخرى ، غير تلك التى هى محدودة له فى السلم الموسيقى ، فإنهم يميزون ذلك عندئذ بأن يلحقوا به اسم الدرجة التى استقرت عندها نغمته المقامية ؛ فعلى سبيل المثال ، عندما ينتقل السلم الموسيقى لمقام الرست ، وهو مقام أول درجة ، إلى الثالثة المسماه سيكاه ، فإنهم يطلقون عليه فى هذه الحالة اسم رست سيكاه ؛ وعندما ينتقل سلم النوى على الدرجة الرابعة يسمونه نوى الجركاه .

---

(١) قب ومعناها رئيس أو أمير ، وهى تقابل الكلمة اليونانية « أساس الأساسيات » التى يطلقها الاغريق كذلك على النغمات الأشد غلظة فى نظامهم الموسيقى .

(٢) جواب بمعنى إجابة أو رد . وقد استخدمنا كذلك كلمة جواب لتمييز الوحدات العليا ؛ وكان الأمر يقتضى أن نلفظها بالجيم المعطشة ولكننا نسترعى الانتباه مرة أخرى بألا لا نعبر هنا إلا طبقا لنطق المصريين من أهل القاهرة ، ولذلك فمن واجبنا أن نبقى على الأمور التى نقدمها هنا طابعها المحلى .

وقد يمكن هذه التسميات أن تكون نفس مسمياتنا ، على وجه التقريب ، لو أننا قلنا بدلا من مقام رى كبير ، أو مقام فا كبير ، أو مقام صول صغير ، أو مقام سى صغير الخ ، المقام الكبير للنغمة رى ، والمقام الكبير للنغمة فا ، والمقام الصغير للنغمة صول ، والمقام الصغير للنغمة سى .. الخ ، مما قد يؤدى بشكل مطلق إلى الشيء نفسه ، بل لعله يكون أكثر دقة .

وطبقا لما لاحظناه فى التطبيق ، أى عند الممارسة ، فإن كل مقام يمكنه أن يستقبل ، عرضا ، بعض نغمات خاصة بمقامات أخرى ، وفى هذه الحالة تسمى هذه النغمات بالمركبات[1] ؛ وإضافة هذه النغمات إلى مقام ما أمر تبيحه المبادىء كما أسلفنا[2] ؛ وينتج هذا على نحو ما إثر تنغيم مصطنع ؛ وهى رخصة تتطلب عادة الكثير من المهارة الفنية من جانب الشخص الذى يستبيحها لنفسه ، وإلا فإنه قد يجازف بأن يغير من الطبقة بالرغم منه ، وبأن يفسد المقام ، مما قد يبعث على الصدمة ، إذ سيأتى الانتقال مفاجئا ومباغتا .

وتوجد فى الموسيقى العربية ، كما توجد فى موسيقانا ، قواعد للانتقال من مقام إلى مقام آخر ، أهمها هى التنبيه على الدوام ببعض نغمات تمهيدية ، تهيىء الأذن للتغيير الذى يزمعون إحداثه فى المقام . وهذا الاعداد يتشكل بصفة خاصة من ربط نغمات البحر الذى تقع فيه الدرجة التى يراد أن ينقل إليها السلم ، بنغمات البحر المماثل والمقابل للمقام الذى يراد الدخول فيه ، وبهذه الطريقة يمكن أن نتنقل على التوالى بين كل المقامات ، ثم نعود إلى المقام الذى خرجنا منه ، دون خدش للأذن .

---

(١) مركبات والمفرد مركَّبة بمعنى مضافة ، مدخلة ، مكونة من أجزاء . ولهذا السبب فإنه إذا أريد التنبيه على عازف ما بأن يضيف نغمة ما ، ولتكن الرست على سبيل المثال ، إلى مقام آخر خلافه ، فإنه يقال له ، كما حدث معنا : اركب الرست .

(٢) انظر المبحث التاسع من الفصل السابق حيث قيل : « ومع ذلك فإن الناس يستخدمون بعضا من نغماتها فى تأليف دورات أخرى ، ويكون أثر هذه لطيفا » . وسوف تواتينا الفرصة دون شك لكى نسترعى الانتباه إلى تطبيق هذا المبدأ على بعض الأغنيات العربية التى سنقدمها عما قريب .

هذا هو كل ما استطعنا أن نعرفه حول هذه النقطة ، أو بالأحرى هو كل مابدا لنا أنه جدير بأن نوليه أكبر قدر من الثقة ، فى كل ما قاله لنا الموسيقيون المصريون ، وفيما أسمعونا إياه من الموسيقى .

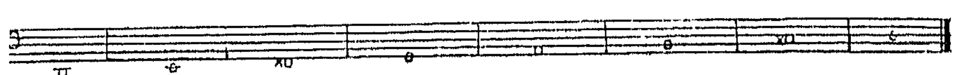
وسنقدم الآن بعض أمثلة لسلم كل من المقامات ، التى بدا لنا أن هؤلاء الموسيقيين يعرفونها بشكل أفضل من غيرها ؛ وقد دوناها بينما كان هؤلاء يؤدونها بآلاتهم الموسيقية ، وسنميز فى ذلك النغمات الرئيسية من النغمات العارضة ، إذ ستكون الأوليات مميزة بدوائر فى حين سنميز الأخريات بكرات سوداء .

أمثلة لطبقة كل واحد من المقامات المعروفة التى يمارسها الموسيقيون المصريون
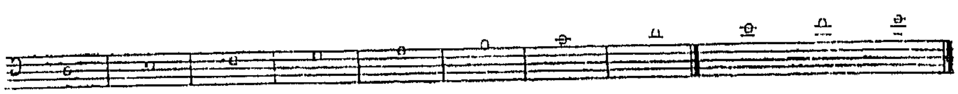
الرست وبقية المقامات

رست

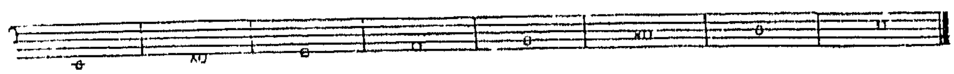
قلب الرست   قب العراق   قب العشيران   قب النوى   قب الجركاه   قب إلسيكاه   قب الدوكاه   قب الرست



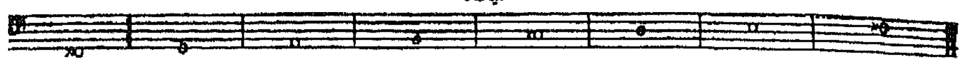
النغمات التى يمكن أن يرتفع إليها الرست   كردان   عراق   حسينى   نوى   جيركاه   سيكاه   دوكاه   رست



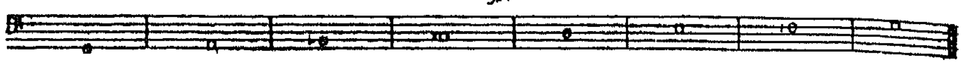
دركاه   ويطلق عليه كذلك اسم المير ، حيث يعليه بمقدار فاصلة ثمانية



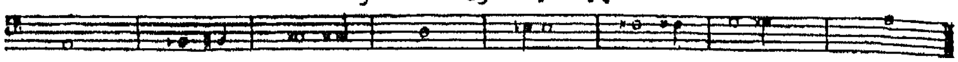
سيكاه



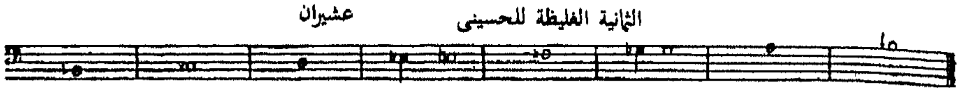
جيركاه



نواف   الثانية الغليظة للنوى



عشيران   الثانية الغليظة للحسينى



عراق



النغمات التى يمكن إضافتها إليه

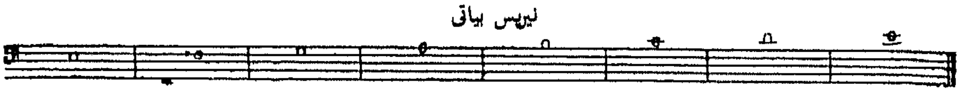
نيريس



زنكلا



نيريس بياق



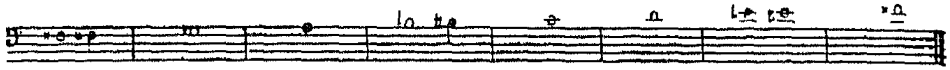
إصفهان



زيرفكند



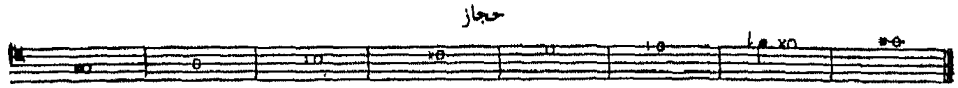
عشاق أو بوسليك



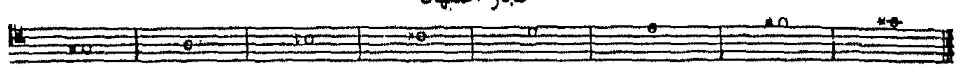
رهاوى



حجاز



حجاز أصفهان



رمل



المبحث الرابع

عن الأغنيات الملحنة
التى يؤديها الآلاتية ، أى الموسيقيون المحترفون ،
باللغة العربية الدارجة

سبق أن عرفنا من قبل فى فرنسا وانجلترا الكثير من الأغنيات العربية فى لغتها الفصيحة ، ولكننا لانظن أنه قد نقلت قط إلى أوربا ، من قبل ، أغنيات بالعربية الدارجة ، مدونه مع لحنها الموسيقى ، لذلك فإن تلك الأغنيات التى سنقدمها هنا ، من بعد ، سيتحقق لها جدارة السبق بالاضافة إلى مالها من جدارة الأصالة . ومع ذلك فإن ما يمنحها قيمة لا تقدر ، هو أننا نوردها هنا مصحوبة بترجمة فرنسية شاء أن يقدمها لها عن طيب خاطر ، وبرجاء منا ، المستشرق الشهير المسيو سلفستر دى ساسى ، مع إثرائه لها بملاحظات نقدية ، سواء حول اللغة أو حول أسلوب وعادات المصريين ، فى كل مرة تهيأت له المناسبة كى يفعل ذلك(*) .

ولقد سبق لنا أن قلنا كيف تبدو ألحان هذه الأغنيات معقدة ومضطربة حين يغنيها الموسيقيون المصريون ، وكم هو عسير أن نستخلص نغمات اللحن وسط ركام الزخارف الغريبة والمتضاعفة لأقصى حد ، والتى يثقل بها هؤلاء كاهل اللحن ؛ ولقد

(*) وزيادة فى الحيطة فقد قمنا بدورنا بترجمة هذه الترجمة الفرنسية نفسها إلى العربية برغم أنها فى الأصل ترجمة لنص عربى ماثل أمامنا . وقد رأينا أن نفعل ذلك بعد تردد طال ، لعدة أسباب ، من بينها ، أننا هنا نقدم رؤية الفرنسيين وفهمهم لنا ، ولأن هذه الترجمة قد تكون عونا لبعض القراء العرب من غير المصريين حيث جاءت هذه الأغنيات باللغة الدارجة لأهل القاهرة فى ذلك الوقت ؛ بالإضافة إلى أن ذلك كان أمرا ضروريا إذا شئنا أن نلم بالتعليقات والشروح التى أوردها لهذه النصوص المسيو سلفستر دى ساسى .

كذلك تعرضت الهوامش المشار إليها والتى جاءت فى الأصل الفرنسى لتغييرات طفيفة تقتضيها عملية النقل إلى العربية لنص فرنسى ، هو بدوره شرح وإيضاح لنص كان فى الأصل عربيا . وسنتبين ذلك كله عند تقديم نص الأغنيات المشار إليها ، فيما بعد . (المترجم)

عرفنا كذلك بالوسائل التى استخدمناها لاكتشاف وتدوين النغم البسيط والحقيقى لهذه الأغنيات ، وقدمنا كذلك بيانا بالاحتياطات التى اتخذناها كى نستوثق من دقة نسخنا ، ولهذا السبب فقد كان من السهل علينا أن نقدم هذه الألحان مدونة بهذه الطريقة أو بتلك ، وإذا كنا قد فضلنا الطريقة الأسهل ، فلأنها تبدو فى الوقت نفسه هى الطريقة الأكثر وضوحا ، بالإضافة إلى أن تأثير الطريقة الأخرى لن يكون أقل تنفيرا للعين ، كما هو عليه اللحن نفسه بالنسبة للأذن ، وبالإضافة لذلك ، فلكى يتصور المرء ما هية الزخارف التى وجدنا أن الواجب يقتضى منا أن نحذفها ، فيكفى أن نقول إنها تتمثل فى تحميل الصوت ، بنقله من نغمة لأخرى ، مرورا بكل النغمات الوسيطة أو بتقديم نغمات سريعة متعاقبة ، ومرتعشة ، فى مقطع واحد مع عبور هذه الدرجات أو الانتقالات نفسها ، ثم بعد أن يصل بنا المغنى إلى نقطة الارتكاز فى اللحن ، فإنه يعود يترنم من جديد بصوت مرتعش بزغردات(*) أو توقيعات ، أو يعمد فى أغلب الأحيان لأن يقدم حواشى أخرى ، أو زخارف غير قابلة للتحديد بسبب غرابتها أو شذوذها المسرفين ، وبخلاف ذلك يقوم المغنون بإضافة بعض السوابق أو اللواحق(**) من عندياتهم ، عند نهاية فقرات الغناء (الكوبليهات) ، مضيفين بذلك إلى اللحن كلمات من تأليفهم ، حسبما يتراءى لمزاجهم مثل ياعين ياليل . يالالى .. الخ . مكررين هذه الكلمات عدة مرات بقدر ما يحلو لهم ، لكى يطيلوا من سوابقهم أو من لواحقهم ، وقد وجدنا أن علينا أن نستبعد كل هذه الأشياء التى لا تتصل قط بالفن ، منظورا إليه فى حد ذاته ، ولولا ذلك لتغيرت الأوضاع ، ولوجدنا أنفسنا مضطرين لأن ننسخ هنا كل لحن بالطريقتين اللتين نسخناه بهما فى البداية لأنفسنا ، وقد لا يحمد لنا القراء كثيرا أن أضعنا عليهم وقتا وحيزا مضاعفين ، بسبب عدم استطاعتنا الاقتصاد فيهما ؛ مع أن هذا الاقتصاد فى الوقت والحيز ، أمر لابد منه حتى لا نضطر للتضحية بأشياء أكثر إثارة للاهتمام ، لا يزال علينا أن نتناولها .

(*) الزغردة هى تكرار لحنين بسرعة . (المترجم) . [الاصطلاح الشائع فَرْدَشَةْ (المراجع)]

(**) وهى جمل أو لوازم موسيقية تسبق الغناء أو تعقبه . (المترجم) .

ولم نستطع أن نعفى أنفسنا ، عند نسخنا الأغنيات التالية ، من أن نستخدم الاشارات التى استخدمناها من قبل ، للإشارة إلى أثلاث التونات الصاعدة وأثلاث التونات الهابطة ولولا ذلك لكان مستحيلا علينا أن نقدم لحن هذه الأغنيات بمثل هذه الدقة الصارمة التى تحقق بها الأمر ؛ بل إن هذه الألحان كانت ستصبح شيئا آخر ، بحيث يستحيل التعرف عليها ، لو لم نكن قد بذلنا أكبر قدر من العناية ، فى ألا نهمل هذه التحوطات التى لا غنى عنها ، أو لو أننا كنا قد استخدمنا مكان أثلاث التونات نصف التون الصغير المستخدم عندنا ، وفى مكان ثلثى التون نصف التون الكبير الذى نستخدمه ، فمهما يكن تأثير ذلك ضعيفا فإنه محسوس بدرجة كافية عند الأداء ، حتى أنه لا ينبغى علينا مطلقا أن نخلط بين ثلث التون (عند العرب) ونصف التون الصغير (عندنا) ، والذى له فاصلة أكبر قوة ، ولا بين ثلثى التون (عند العرب) ونصف التون الكبير (عندنا) ، والذى له فاصلة أقل قوة(١) .
ولقد اكتسبنا ، بخبرتنا الخاصة ، اليقين بأن الميلودى (اللحن) ، يتغير فى

---

(١) يقسم العرب التون مثلما نفعل إلى تسعة أجزاء ، نطلق عليها ، تقليدا للإغريق اسم فاصلات (فاصلة : Comma) ؛ وكل ثلاث فاصلات يشكلن ثلث تون ، إذن فثلث التون أضعف من نصف التون الصغير عندنا إذ يتكون الأخير من أربع فاصلات ؛ كما أن كل ست فاصلات يشكلن ثلثى تون ، وهو أقوى من نصف التون الكبير عندنا ، ذلك الذى لا يشتمل إلا على خمس فاصلات ، وحين نقابل تقسيماتنا للتون بتقسيم العرب له ، معبرين عن الأمر بالفاصلات فسنجد لدينا هذه العلاقة :

التون الواحد : ٩ فاصلات .

$\frac{٢}{٣}$ التون : ٦ فاصلات .

$\frac{١}{٢}$ التون الكبير : ٥ فاصلات .

$\frac{١}{٢}$ التون الصغير : ٤ فاصلات .

$\frac{١}{٣}$ التون : ٣ فاصلات .

وهكذا نرى بوضوح أن نصف التون الكبير أقل قوة بمقدار فاصلة واحدة عن ثلثى التون ، وأن ثلث التون أقل قوة كذلك بمقدار فاصلة عن نصف التون الصغير .

طابعه ، بشكل مطلق ، بمجرد أن نحل واحدة من تقسيماتنا للتون ، فى محل تقسيم للتون ارتضاه العرب .

وقد كنا نظن ، قبل أن نستوثق من أنه توجد فى الواقع ، فى السلم الموسيقى عند هذه الشعوب ، فواصل مشابهة لتلك التى انتهينا من الحديث عنها ، أن التأثير المزعج الذى كان يحدثه .فينا غناء الموسيقيين المصريين أو الآلاتية[١] يعود إلى قلة مهارة هؤلاء ، أو إلى رداءة صوتهم ، الذى لم يكن لا بالواضح ولا بالواثق من نفسه ، أو أنه يعود إلى عيب خِلْقى ، جعل أصواتهم وآذانهم خاطئة .

وهكذا ، فعندما كان يتم الأداء بواسطة ثلث التون الصاعدة مع زيادة رافعة ، كنا ندون اللحن بالمقام الكبير ، وعندما كنا نؤديه على هذا النحو أمام صديقنا المغنى كان يرى أننا نغنيه خطأ ، وقد تبينا بأنفسنا أن اللحن الذى نؤديه ذو طابع بالغ الاختلاف عن اللحن الذى يقدمه الآلاتى ، وعندما كنا نستبعد الرافعة يصبح اللحن من المقام الصغير ويقول لنا الآلاتى إننا لم (نمسك) اللحن جيدا ، وكنا فى واقع الأمر نحس بأن اللحن لم يعد له نفس الطابع ، أو نفس اللون ، الذى يعطيه له الآلاتى المصرى عندما يغنيه ، ومهما يكن قد بدا هذا الاختلاف لنا غريباً فقد استوجب الأمر أن نعترف بضرورته ، لكننا لم نكن نعرف كيف نعبر عنه .

وقد أمكننا فقط عن طريق تفحص الجدول الموسيقى للآلات الموسيقية فى مصر ، وبخاصة تلك الآلات التى ينقسم بعضها إلى ملامس ثابته ، أن نتبين أن النغمات لم تكن تتتابع ، مثلما تتتابع نغماتنا ، على شكل تونات وأنصاف

---

(١) آلاتية ، والمفرد : آلاتى ، وترجمتها الحرفية : العارف على الآلات الموسيقية ؛ إذ تأتى هذا الاسم من كلمة آلات والمفرد آلة . ويسمى الموسيقيون بهذا الاسم لأنهم لا يغنون مطلقا دون أن تصحبهم آلة موسيقية ، ولأن مهنتهم ، فصلا عن ذلك ، هى العزف على الآلات الموسيقية .

تونات ، وحينئذ أدركنا أن التون يشتمل على أربع درجات ، وثلاث فواصل ، يساوى مدى كل واحدة منها ثلث التون ، واقتنعنا فى النهاية أن هذه الفاصلة التى لم نكن قد استطعنا تقديرها حق قدرها فى غناء صديقنا الآلاتى ، والتى هى أصغر من نصف توننا الصغير إنما هى ثلث التون ، وبعد ذلك أخذت المخطوطات التى تدور حول نظرية الموسيقى العربية تؤكد لنا هذا الاعتقاد ، ولم نتردد فى استخدام علامات جديدة للاشارة إلى الفواصل التى هى أصغر من تلك التى يتكون منها السلم العام لنظامنا الموسيقى ، وفى أن نعطى قيمة أخرى للرافعة وللخافضة اللتين استبعدناهما ، بأن مثلنا بالأولى ثلثى التون الصاعدين ، وبالأخرى ثلثى التون الهابطين ؛ بهذه الطريقة أمكننا أن ندون بدقة كل الألحان التى سمعناها ، ولهذا السبب فإننا نتجاسر على التأكيد بأن ألحان الأغنيات ، التى نقدمها هنا ، تتطابق كل التطابق ليس مع هذا الغناء الخارج عن المعقولية لهؤلاء الذين قد أسمعونا إياها ، وإنما مع اللحن البسيط (الميلودى) الذى يكوّنها ، لكن ما كنا نرغب فى تدوينه ، زيادة على ذلك – لو أن ذلك كان ممكنا – إنما هو نبرة العفوية والرخاوة التى يعبر بها هؤلاء المغنون عن الشهوة الحسية الشائعة فى غالبية هذه الأغنيات ، ومع ذلك فإننا سنتحاشى أن نقدم الشهوانية غير العفيفة ، والتى يحلو لهم أن يضيفوها إلى كلمات فظة ونابية ، والتى لا تنفث إلا حبا فاحشا فظا لا حشمة فيه ، بل هو فى غالب الأحيان أمر تعافه النفس (١) .

أغنيات الآلاتية

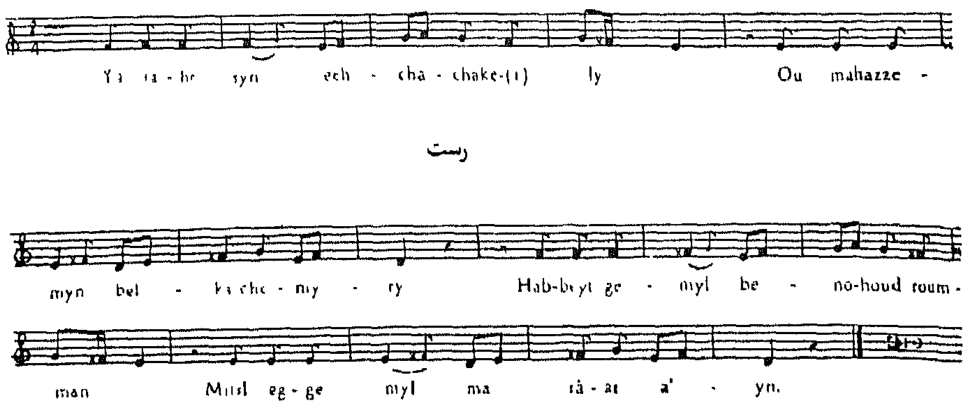
مقام الرست ، إيقاع المصمودى

« يبدأ هذا اللحن على الدرجة الثالثة المسماه سيكاه »

---

(١) هنا ، كما فى مواضع أخرى من الأغنيات ، يلاحظ وجود مقطع صوتى أضافه المغنى من عندياته إلى الكلمة وذلك حتى يجعل الكلمات متوافقة مع اللحن ؛ وفى بعض الأحيان كذلك ، وللدافع نفسه ، تحذف مقاطع صوتية ، كما يمكننا أن نلاحظ فى الكلمة الأخيرة من هذا الكوبليه .   (فيوتو) .

حركة معتدلة



(١)

يا لابسين الشيشيكلى[١] ،

ومحزمين بالكشميرى ،

حبيت جميل بنهودرمّان ؛

مثل الجميل ما رأت عينى .

الترجمة « الفرنسية » : (أنتم يا من تلبسون أقمشة محلاة بالورود ، ويامن تلبسون حزاما من الكشمير : لقد أحببت جميلا له صدر يشبه الرمان ، لم تر عيناى ، طيلة حياتى ، مثل جماله)

(٢)

يا أبيض ويا لون الياسمين ،

يالّلى[٢] على الصب لاحظ ؛

---

(١) شيشِكْلى ، تحريف للكلمة التركية جِجكلو ، أى المزدان بالورود . (سلفستر دى ساسى) .

(٢) اللى ، كلمة دارجة تقابل كلمة : الذى . (ساسى) .

وحياة عيونك والوجنات ،
أنا أسير اللواحظ .

الترجمة « الفرنسية » : « أنت أيتها البيضاء ، يا من تضارعين لون الياسمين ، أنت يامن تعرفين الحب الذى أكنه ، أقسم بحياة عينيك وخدودك ، أننى عبد لنظراتك » .

(٣)

الخمر[١] والورد الأحمر ،
بيتغزّلوا[٢] فى خدودك ؛
ناديت من عظم وجدى ،
ياشبكتى من عيونك .

الترجمة « الفرنسية » : « الخمر والورد الأحمر يبدوان وكأنهما يتحدثان عن خدودك ؛ وفى ذروة فرحتى النشوانة صحت : آه كم أن عينيك بالنسبة لى شباك لا يمكن تجنبها » .

(٤)

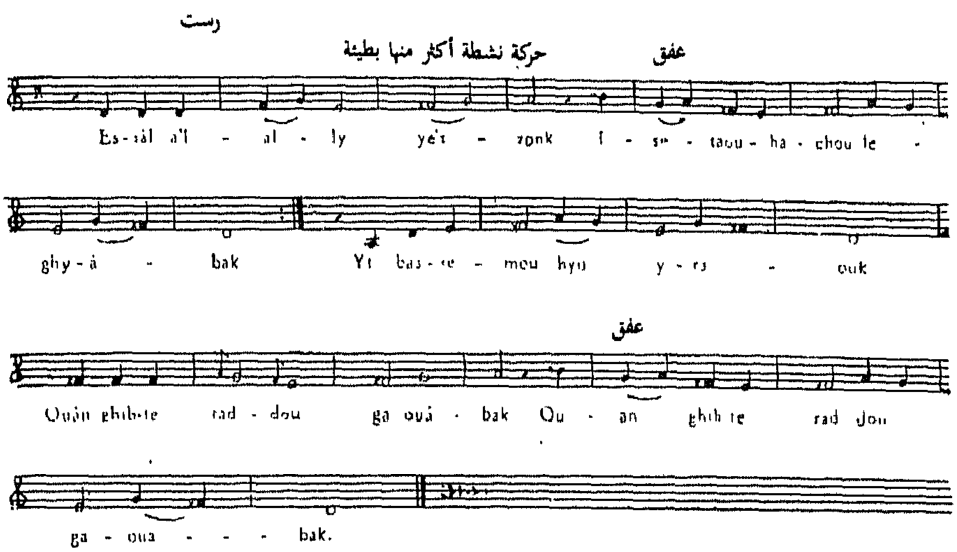
قال لى غزالى أدين جيت ،
وافعل كما تختار فى ؛
وأركبك صدر برمان ،
وتحل دكة ألفيّة .

---

(١) كلمة الخمر هنا محمولة على معناها المجازى ، وهى تعنى نشوة الحب ، ونار الشهوة التى يتوهج معها لون الوجه . وهذا هو المعنى الذى قدمه لنا المصريون تفسيرا لهذه الكلمة . (فيوتو) .

(٢) يغزلوا بمعنى يتحدثون كما تشقشق العصافير ، أى يقولون غزليات . ويظن السيد ميشيل صباغ أن من الواجب أن تقرأ الكلمة على أنها يغرزوا بمعنى يغرسون ، ولكننى لم أتقبل قط هذا التفسير الذى لا يتناسب مع فكرة الخمر .

الترجمة « الفرنسية » : «فقالت لى غزالتى ، هأنذى[١] : لقد جئت ساعية إليك ، فتصرف معى كما يحلو لك ، سأضعك فوق هذا الصدر الذى يزدان برمانتين ، وستحل حزاما مطرزا وملونا بألف لون[٢]»



---

(١) أدين أو أدينى بمعنى هأنذا (أو هأنذى) ؛ ولا يستخدم هذا التعبير إلا فى مصر . (ساسى)

(٢) دكة أو بالأصح تكة ، كلمة من أصل فارسى ، وتعنى حرفيا القيطان الذى يمر داخل مجرى والذى يستخدم فى ضم أعلى السروال وعقده . أما بخصوص كلمة ألفى والتى ينبغى أن تكتب ألفية فتعنى حرفيا : التى يوجد بها ألف ؛ أى المطرزة بألف لون ؛ ولعلها تعنى كذلك : التى يبلغ ثمنها ألف قرش أسبانى (أى ألف ريال) (سلفستر دى ساسى) .

ملاحظة : أما الدكة أو الديكة كما يلفظها أهل القاهرة فهى عند فقراء الناس تتكون من عصابة من قماش تتفاوت درجة سمكها ، وتمر من مجرى ينتهى به سروال واسع بالغ الطول ترتديه النسوة تحت قميصهن ؛ وهو مفتوح من الأمام ، ويضم بواسطة هذه الدكة التى يعقدونها بصنع حلقتين متقابلتين نترك أطرافهما مدلاة ؛ أما هذه التكة نفسها عند النساء الثريات فتتكون من شريط طويل وعريض مصنوع من موسيلين بالغ النعومة ، مطرز فى العادة بحرير ذى ألوان متنوعة بترتر من الذهب والفضة . وترتدى النسوة الثريات كذلك فوق التكة بنطالا بالغ الطول من الحرير يسمى الشنتيان . (فيوتو) .

(١)
اسأل على اللى يعزوك[١] ،
استوحشوا لغيابك ؛
يتبسموا حين يروك ؛
وان غبت ردوا جوابك

الترجمة « الفرنسية » : « انشد أخبار من يقدرونك ، ومن يؤسيهم غيابك وتفعمهم رؤيتك بالفرح ، ويستجيبون لطلبك مهما تكن بعيدا عنهم »

(٢)
يابدر ياسهم اللواحظ ،
صابوا الشجى فى فؤاده ؛
جُدْ له بقبلة من فمك ،
يشفى ويبلغ مراده

الترجمة « الفرنسية » : أيها (الجمال الشبيه بـ) القمر فى تمامه ، إن سهام عينيك قد أصابت الشقى وأدمت قلبه ، فاسمح له بقبلة من فيك ، وبذلك يشفى وتتحقق أمانيه»

(٣)
أهيف طاف بالكؤس ،
وجهه أخجل الشموس ؛
ثغرة باسم النفوس ،
جمع الشهد والمدام .

الترجمة « الفرنسية » : « جميل رشيق القوام ، حمل الكئوس وطاف بها ، وقد جعل وجهه (الجميل) الشمس تحمر خجلا ، إن فمه

---

(١) اللى ، كلمة دارجة تقابل هنا كلمة : الذين (ساسى) .

يأسر النفوس ، فهو يجمع بين حلاوة العسل وطلاوة الخمر » [1] .

(٤)
عَلّنى ببنت الكروم ،
شَادن من بنى الكرام ؛
خمرة تذهب الهموم ،
كم فتى حبها وهام .

الترجمة « الفرنسية » : « إن شادنا (نوع من الأيائل) ينحدر من سلالة كريمة ، قد قدّم إلى[2] عصير العنب ، هى الخمرة التى تبدد الهموم ، آه . كم أحب هذه الخمر آخرون ، وكم أصابهم بسبب حبها الجنون » .

أغنية من الملبروك

« اتخذت شكل الغناء العربى على يد المصريين » [3]
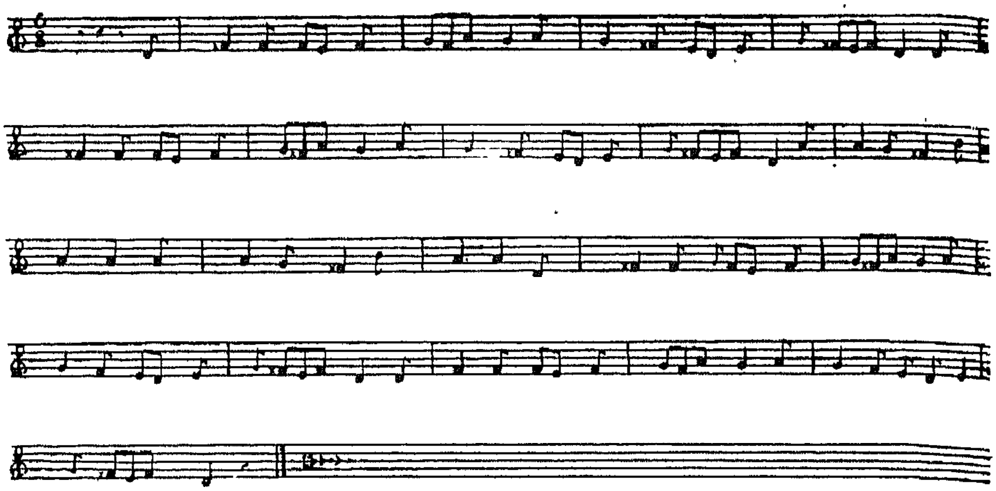
---

(١) يكاد الأمر يقتضى منا على الدوام أن نحمل على المعنى المجازى ، كل التلميحات التى تتصل بالخمر أو الكروم ، ذلك أن الشعراء العرب لا يكفون ؛ برغم تحريم الدين الاسلامى لشرب الخمر ، عن استخدام هذه التعبيرات فى غالبية الأحيان للإشارة إلى اللذة الحسية أو إلى الشىء الذى يتسبب فيها أو يوحى بها ، وعلى هذا النحو ، ينبغى كذلك أن نفهم كلمات : الخمر ، بنت الكروم ... الخ . (فيوتو) .

(٢) من الجدير بالذكر أن نلاحظ هنا ، وبصفة عامة ، فى هذه الأغنية ، وفى الأغنيات التى تليها أن الأمر يتصل بمعشوقة أو حبيبة برغم مجىء الكلمات التى تتصل بشخص المحبوب ، فى صيغة المذكر ؛ ذلك أن الشرقيين طبقا للعادة التى اعتادوها بأن لا يتحدثون قط عن نسائهم ، يحلون المذكر فى محل المؤنث عند الحديث . (سلفستر دى ساسى)

(٣) ألفت هذه الأغنية أثناء إقامتنا بمصر ، ولكن لحنها كان شائعا من قبل ، وكان يؤدى مع كلمات أخرى . وقد نقل هذا اللحن إلى مصر ، طبقا لما قيل لنا ، عن طريق تجار يونانيين . ويحتمل أن يكون التحريف قد نال منه قبل انتقاله إلى مصر ؛ ذلك أن العبارات التى يلاحظها المرء فيه لا تنتمى قط إلى أذواق المصريين ولا تتفق مع أساليبهم الموسيقية .

مقام رست



(١)

ياعاذلى خلينى (تكرر) ،
حب الجميل كاوينى (تكرر) ؛
ع * الجمر لو يسلينى ،
بالروح أنا ما أسلاه ؛
يا تمر تمرتين
يا كويستو يا بونو[1] .

الترجمة « الفرنسية » : « أيها الرقيب المتعنت ، إليك عنى ؛ فحب

---

(١) تتفق عبارة : يا تمر تمرتين مع النغمات :
ميرون تون – تون – تون – ميرونتين .
ولهذا فإننى استنتج أن من الواجب أن نكتب عبارة باكويستو يابونو على النحو التالى (والترجمة هنا بتصرف يقتضيه الحال) :

Ya Koueys Sitoya Bono

بمعنى : أوه ! كم هو لطيف هذا المواطن (ستوايان ، Citoyen) بونو ، فكلمة ستوايا Sitoya هى فى رأيى تحريف لكلمة Citoyen (ستوايان) وأن بونو Bono هو اختصار أو تحريف لاسم القائد العام بونابرت .   (سلفستر دى ساسى) .

مقام الرست

هذا الجميل قد أهلكني ؛ فلو أن شاء أن يذيبني فوق جمرات الفحم الملتهبة ؛ كلاّ فحتى لو ذهبت فى ذلك حياتى ، فلن أكف عن التعلق به ... يا تمر » .

(٢)

وجه الجميل بينور [١] (تكرر) ،
جل الذى قد صور (تكرر) ؛
وأنا عليه بدور ،
شرع الهوى وياه[٢]
يا تمر

الترجمة « الفرنسية » : «وجه هذا الجميل ينشر ضوء النهار ، المجد لخالقه ، سألجأ معه لكل قوانين الحب حتى أحصل على الأنصاف من قسوته .. يا تمر »

(٣)

الساق مثل اللولى[٣] (تكرر) ،
والشنتيان دابولى (تكرر) ؛
لما سكر[٤] حله لى .

---

(١) بينور : الباء التى تبدأ الكلمة هى نوع من أداة تسبق الجزء الثابت من الكلمة ؛ وتوضع فى الاستعمال الدارج قبل أشخاص أفعال الماضى المبهم لكى تعطيه دلالة الحاضر ؛ ونفس الحال مع كلمة بدور وأصلها بأدور التى تقوم مقام أدور (بمعنى أبحث) .
(سلفستر دى ساسى) .

(٢) وياه والمقصود هنا : معه . انظر مؤلفنا Chrestomathie arabe ، الجزء الثالث ، ص ٣٤٤ . (ساسى)

(٣) لولى ، فى موضع : لؤلؤ أو لؤلؤة . (ساسى)

(٤) سكر (بكسر السين فالكاف) ، وتعنى هنا خصوصا الانتشاء من الخمر ؛ ولابد أن نفهم الأمر هنا على أنه نشوة الحب . وهذا التعبير نتيجة طبيعية للملاحظة التى سبق أن سقناها عن كلمتى خمر وكروم الخ ، والتى أوردناها فى هوامش الأغنية السابقة (الهامش رقم ١ ، ص ١٣١) (فيوتو)

ولعبت أنا وياه .
ياتمر .

الترجمة « الفرنسية » : «فخذها مثل لؤلؤة (أى له بياض اللؤلؤة) ؛ أما بنطلونها فمن الدابولى [1] وعندما بلغت حالة النشوة ، فكت حزامها وتسريت معها ...يا تمر »

(٤)
قوام حبيبى مايس (تكرر) ،
وجفن عينه ناعس (تكرر) ؛
ما احلاه فى الملابس ،
والله جميل تياه[2] .
ياتمر .

الترجمة « الفرنسيية » : «محبوبتى دقيقة القوام ، ورموش عينيها تطبقان فى نعاس : كم تجملها المفاتن حين ترتدى ملابسها ؛ بحق الله . يا لمحبوبى من جميل فخور ولطيف . يا تمر »

(٥)
ياالابس الليمونى (تكرر) ،
عُذَالى فيك لامونى (تكرر) ؛
نانا جفا يا عيونى[3] ،

---

(١) هو نوع من قماش خفيف من الحرير والقطن ، مخطط بألوان عدة ، ويصنع فى دمشق . (ساسى) ؛ والحديث هنا يدور حول الشنتيان الذى سبقت الاشارة إليه فى الهامش رقم ٢ ، ص ١٣٠ .
(فيوتو)

(٢) كلمة تياه تعنى فى وقت معا : شيء من الفخار والتباهى ، ومن الرقة والدلال.
(سلفستر دى ساسى)

(٣) نانا أو نانه ، كلمة من اللغة الدارجة فى مصر ، تعبر عما تعنيه كلمة :كفى بالعربية الفصحى .
(ساسى)

لك ثغر ما أحلاه .

يا تمر

الترجمة « الفرنسية » :« أنتِ يامن ترتدين ملابس من قماش برتقالى اللون ، لقد لامنى الغرماء على حبى لك ، آه يا عينى ، كفى إبداء للقسوة معى ، كم أن لفمك مفاتن تعز على الوصف . يا تمر .»

(٦)

الحب قاسى وله ناس (تكرر) ،

أعيا الطبيب المداوى (تكرر) ؛

يا مُدّعى الحب قل حاس(١) ،

هِياً (٢) المحبة دعاوى ؟

يا تمر

الترجمة « الفرنسية » : « الحب قاس ، وهناك من بين من جرحهم الحب أناس لم تُجْدِ معهم عناية وعلاج الطبيب المعالج ، وأنت يامن تتظاهر بحب لا تشعر به : كفى ، فالحب ليس موضوعا للتبجح ولمزاعم لا جدوى منها . يا تمر »

(٧)

يا من يجى يتفرج (تكرر) .

---

(١) حاس ، كلمة من اللغة العامية وتعنى : ابتعد ، انسحب . فمثلا إذا ما وقع رجل فى أيدى أناس يسيئون معاملته وصرخ ينادى من ينجده ، فإن من يأتى لنجدته سيصبح فيمن يسيئون معاملته : حاس عن فلان .
(ساسى)

وهذه الكلمة التى يلفظونها حوش فى اللغة الدارجة لأهل القاهرة تستخدم فى غالبية الأحيان بمعنى : ارجع ، ابتعد أكثر مما تستخدم لمعنى آخر . وقد بدا لنا أنهم عادة لا يستخدمون هذا التعبير إلا بدافع من الازدراء ، أو على الأقل بفعل الفة بالغة .
(فيدتو)

(٢) أحللت كلمة ليس محل كلمة هيا التى نقرؤها فى النص الأصلى إذ بدت لنا عديمة المعنى ؛ ولعله قد أريد أن تكتب كلمة هل ؛ أى : هل الحب مجرد مزاعم أو ادعاءات (والترجمة بتصرف يقتضيه السياق كما أننا أبقينا على كلمة هيّا لوضوح معناها بالنسبة لنا ولمطابقتها للحال أكثر من كلمة ليس .
(المترجم)

على نهود بمدرج[١] (تكرر) ؛
سيدى الحليوه حِرج ،
ما حدشي يعلاه [٢] .
يا تمر

الترجمة « الفرنسية » : « أنت يامن تجول بعينيك فوق هذا الصدر وهذا الشعر المتموج : إن معشوقتى ، موضع حبى ، قد رفضت أن يتجاسر كائن من يكون على أن يلمسها ، يا تمر »

(٨)
محبوب قلبى جانى (تكرر) ،
بورد خده جانى (تكرر) ،
ولحبه ألجانى ،
والله جميل تياه .
يا تمر .
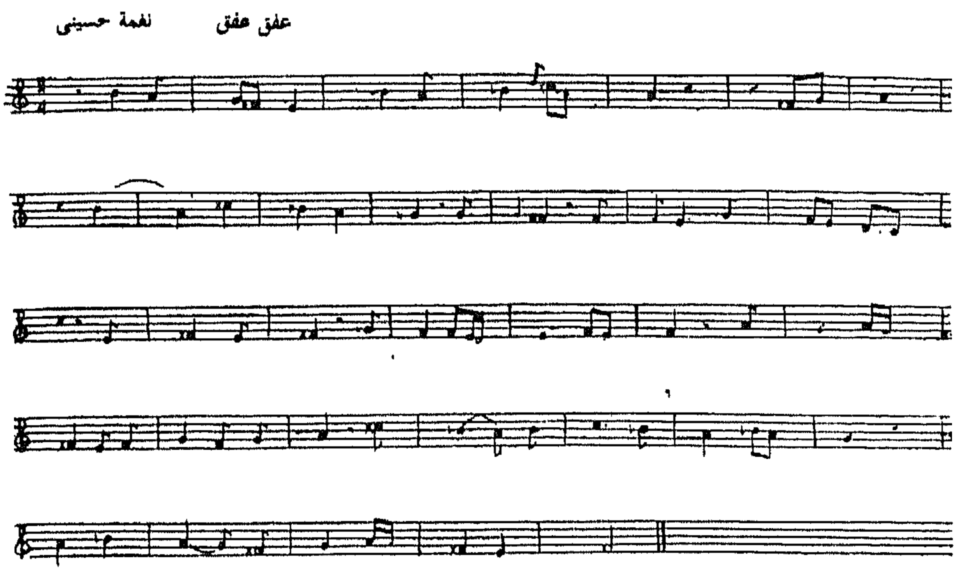
---

(١) يرى السيد مشيل صباغ أنه ينبغى القول ! على جبين بمدرج ، أى فوق جبهة صفف الشعر عليها بعناية . وقد وجدت فى نبذة من ترجمة ايطالية أن المعنى هو : بنهود وبشعر مصفف ؛ وهو ما يجمع بين هذين المعنيين . وقد أخذت بهذه الترجمة . (ساسى)

(٢) ما حدش بمعنى لا أحد ، بإضافة حرف الشين ، وهو يأتى من شى بمعنى شىء ، وذلك فى غالبية الأحيان ، فى اللغة الدارجة ، عند تكوين الجمل الاستفهامية والمنفية . (سلفستر دى ساسى) . وهذا التعبير فى اللغة الدارجة يعنى نفس ما تعنيه كلمة nemo فى اللاتينية وكلمة personne بالفرنسية بمعنى لا أحد ؛ وأخيرا فإنها تعنى باللغة الدارجة : كائنا ما كان ، أو كائنا من يكون طبقا لمقتضى الحال . وقد استوثقنا من صحة ذلك من الاجابة التى قدمها لنا واحد من أمهر النحاة فى القاهرة حين سألناه عما تعنيه الشين أو كلمة شى التى تضاف عادة فى اللغة الدارجة عند نهاية الكلمات العربية فأجاب « بأن الشين هى اختصار لكلمة شىء فى حالة تشبه للمعنى : كائنا من يكون » ومن جهة أخرى فإن هذا التفسير يتطابق مع المعنى الذى يقدمه المسيو سيلفستر دى ساسى لكلمة ماحدش . ويستطيع المرء فى الواقع ، وبدون أن يحرف المعنى العربى أن يترجم كلمة شى أو الشين فقط إلى المعنى كائنا من كان أو كائنا من يكون ، فى كل مرة تضاف فيها هذه الكلمة ، فى اللغة الدارجة ، إلى نهاية الكلمات . (فيوتو) .

الترجمة « الفرنسية » : « قد جاء يرانى من يهواه قلبى ، بورود خديه ، فأرغمنى أن أوقف عليه حبى ؛ بحق الله كم هو جميل فخور ورقيق ذو دلال . يا تمر »

مقام عشاق



(١)

شجنى يفوق على الشجون ،
يا مايسا فضح الغصون ،
وصل الحبيب متى يكون ،
لمتيم(*) قلق الجفون(١) .

(*) فى الأصل لتتميم .. الخ ، ولعله خطأ فى النقل لأن الكسر فى الوزن والاضطراب فى المعنى بالغا الوضوح كما كانت يا مايسا فى الأصل يا مايس والخطأ النحوى واضح كذلك . (المترجم)

(١) يبدو أن الآلاتى قد أضاف بعد البيت الأول كلمات : يا عينى على الشجون . (فيوتو)

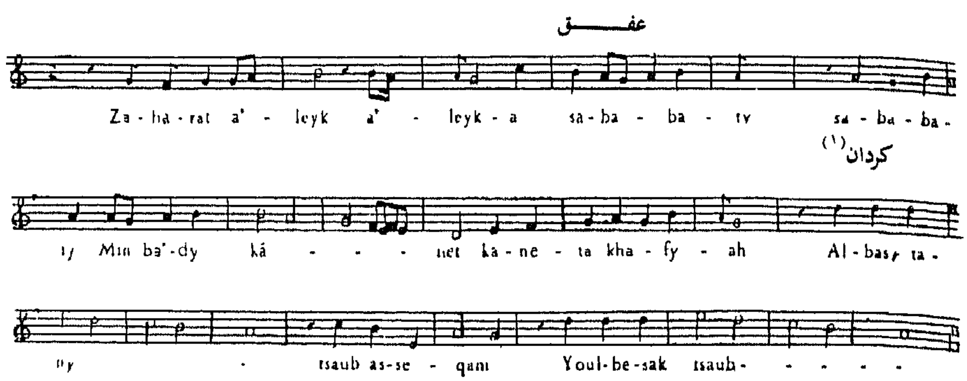
الترجمة « الفرنسية » : « لقد تجاوز ضيقى كل حد ، أنت يا رهيف ، يامن تميل بفعل حركاته الرشيقة الأغصان الحنون ، متى يتم وصالى بمعشوقتى ، حتى أضع نهاية للعذابات التى سلبت الراحة من جفنى »

(٢)

قسما به وحياته ،
وبما حواه من الفنون ،
إن زارنى متسترا ،
قرت بزورته العيون ،

الترجمة « الفرنسية » : « أقسم بالمحبوب الغالى وبحياته ، وبكل ماله من مواهب : أنه إذا مازارنى خفية فستبهج رؤيته عينى وستفعمهما بالسرور »

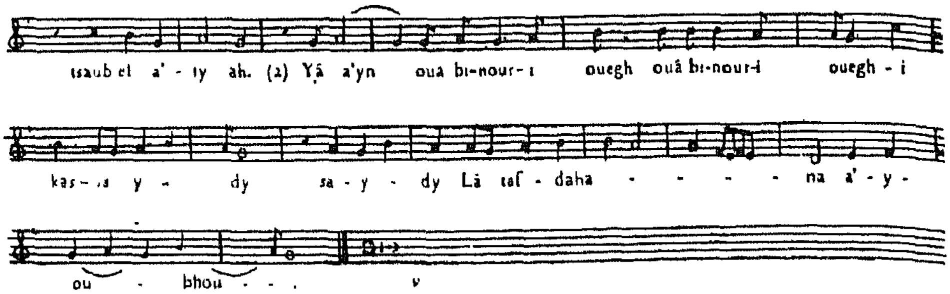
مقام نيروز جركاه



---

(١) يدخل اللحن هنا فى مقام الكردان ، وهو مقام ذو وحدة ثمانية حادة من مقام الرست . وإذ خشى الآلاتى الذى أملانا هذه الأغنية ، والتى كررناها عليه بعد أن نسخناها أن نتمكن من تدوين نوتة هذا الفاصل بدقة ، فقد صاح بنا ، كأنما رغما عنه ، فى اللحظة التى بلغنا فيها هذا الموضع : اربط الكردان ؛ ولدهشته الشديدة لم يكن قد فاتنا أن نربط الكردان .

(فيوتو)



(١)

ظهرت عليك صبابتى ،
من بعدِ كانت خافية ،
ألبستى ثوب السقام ،
يلبسك ثوب العافية .

الترجمة « الفرنسية » : « إن حبى الذى احتفظت لك به خافيا لوقت طويل ، قد بان فى النهاية لعينيك . لقد غطيتنى بثوب كئابة قاتل ، فهل لك أن تتدثر بثياب الصحة التامة »

(٢)

ولقد أتى لك عاشقا
يرجو وصالك شافيه
فبنور وجهك سيدى
لا تفضحنّ عيوبه

الترجمة الفرنسية : « ولقد سعى حبيبك إليك ، يدفعه الأمل فى أن يجد شفاءه فى بهجة ما يحب ؛ فيا معشوقة قلبه ، إنه يستحلفك بضياء وجهك ألا تفضحى نقاط ضعفه » .

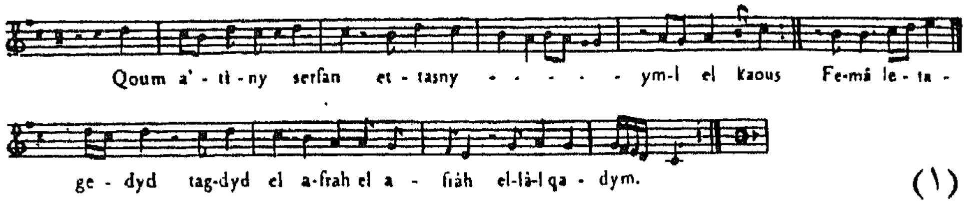
---

(١) الجزء الباق ، بدءا من كلمة يا عين التى أضافها على نحو ما يحدث فى غالبية الأحيان ، مستعار من الكوبليه الثانى ؛ لكن يكاد يصبح من الصعب أن نتعرف على البيتين الأخيرين ، بفعل الطريقة التى قيلا بها ، وقد نقلناهما إملائيا بأمانة تامة .

(فيوتو)

مقام عراق

TON D'E'RÂQ.



(١)

قم عاطنى صرف التسنيم
ملا الكؤس
فما لتجديد الأفراح
إلا القديم
واسْعَ بها ياصنو الريم
سعى العروس
ومُرَّ فينا بالأقداح
مرّ النسيم

الترجمة الفرنسية : « انهض وأعطنى خمر نجوم الذُّرى ، واملأ بها كأسى ؛ فليس بمقدور شيء أن يؤجج مسراتى من جديد إلا خمر معتقة . فيا ابنة غزالة حنون قدمى ، لنا هذا الرحيق على نحو ما تفعل كاعب تزوجت حديثا ؛ مرّرى الكأس بيننا ، وليكن مرورها فى رقة الأنسام » .

(٢)

راح بها عهد التكليم
ضمن الطروس
مشحونة منها الألواح
قبل الكليم
تعيد فى الأكباد الهيم
وفى النفوس
من قبل نشأت الأوراح

روح النعيم[1]

الترجمة الفرنسية : « تذكرنا الخمر بلقاءات الرب بموسى ، وتوحى بكلمات جديرة بأن تدون فى الكتب (المقدسة) ، فقبل مجىء هذا النبى كانت الألواح زاخرة بالفعل بالخطابات التى أوحى بها هذا الرحيق الثمين ؛ فهو يعيد الحياة إلى القلوب وإلى العشاق المساكين بأن ينفخ فى الأرواح بعضا من الفرح ؛ وهذه السطوة المقدسة قد أخذ هذا الرحيق يمارسها حتى من قبل أن تبعث نفخة الخالق ذواتنا الفانية » .

(٣)

باكر إلى الروض الممطور
وقت الصباح
فقد أتانا بالنوار
فصل الربيع
والطل كالدر المنثور
بالمسك فاح
والغيث قد عمّ الأقطار
غيث مريع

الترجمة الفرنسية : « بادر بالتوجه فى الصباح الباكر إلى هذه الحديقة التى ترويها مياه السماء ، فقد جاء الربيع يصحبنا بالورود ؛ أما قطرات الندى ، الشبيهة بلآلىء منتثرة ، فتفوح منها رائحة المسك ، وتحيل كل الأرض إلى مرعى تكسوه خضرة يانعة » .

---

(١) هذا المقطع بالغ الغموض ، وقد اضطررت لاجتزائه كى أقدم التلميحات التى تعبر عنها كلمات : التكليم ، الألواح ، الكليم ، وهى تتصل جميعا بأحاديث موسى مع الرب وبألواح الشريعة . أما الجزء الثانى من المقطع نفسه فيشير إلى خلق الانسان ، الذى دبت الحياة فى جسده بفعل نفخة من الله ؛ وهو يتضمن مبالغة ، أو تطرفا فى التعبير ، مبالغا فيه للغاية ، من ذلك النوع الذى يسميه العرب : غلو وإغراق .

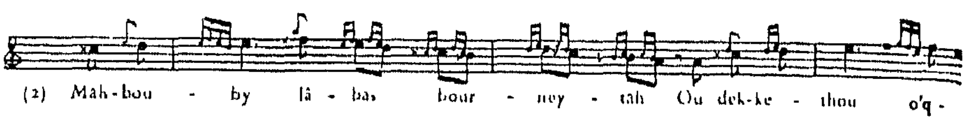
(سلفستر دى ساسى)

(٤)
والورود كالكم المزرور
يحكى الأقاح[١]
وأنشدت عجم الأطيار
فى البديع
والبان من أجل التسليم
محنى الرءوس
وشم وجنات التفاح
تحيى الرميم

الترجمة « الفرنسية » : « أما الورد الشبيه بكم أقفلت أزراره فيحاكى زهور الاقحوان ، أما الطيور بلغاتها العجيبة فتتنافس فى الفصاحة ، أما أغصان البان فتحنى الرأس تحيه لنا ، فى حين تبعث الرائحة التى تفوح من خدود التفاح المعطر ، الحياة فى رماد الموتى »

مقام النوى

ايقاع دريك

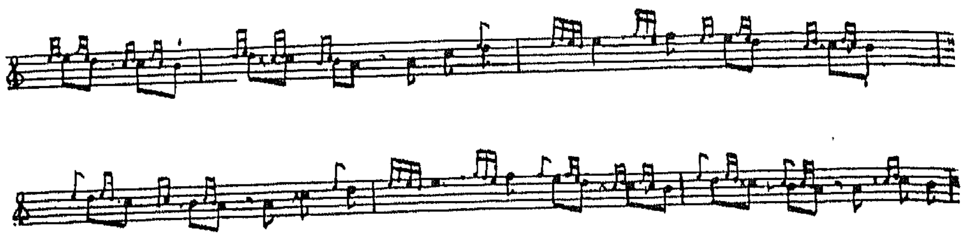


(٢)
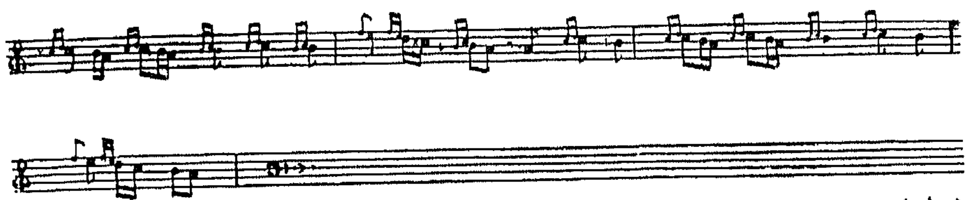
---

(١) أقاح جمع كلمة أقحوان ؛ وقد احتذيت التفسير الشائع عندما ترجمت هذه الكلمة بكلمة Camomille ؛ وإن كنت أجهل ما إن كانت هذه الترجمة صحيحة . ويشير الشعراء فى غالبية الأحيان إلى هذه الزهرة . (ساسى)

(٢) حيث كان هذا اللحن ، الذى يؤديه عادة الموسيقيون وغيرهم من أبناء البلاد ، أقل زخرفية وباروكية وغرابة عما نجد عليها زخارف الأغنيات العربية الأخرى ، فقد أخذنا على عاتقنا أن ندون هذه الزخارف ؛ وبرغم أنها لا تشوه اللحن الأساسى (الميلودى) بقدر ما تفعل الزخارف الأخرى ، فإن كل النغمات مثقلة بالحواشى حتى لتشكل كل جملة موسيقية رولادا كاملا (تعاقب سريع للنغمات فى وقت واحد) ، وحتى أن اللحن البسيط يوجد مغلفا بشدة ولدرجة لا يستطيع معها أن يبين . (فيوتو)



(١) (٢) هذه الأرقام توضع على السلالم الموسيقية



(١)

محبوبى لابس برنيطة
ودكته عقد وشنيطة
طلبت وصلة قاللى أسبيطه
ما أحلى كلامه بالطليانى
ياسلام من عيونه
عيون الغزلان
واصلنى يا حلو الكلام
يا سلام

الترجمة الفرنسية : : «محبوبى تغطى رأسه قبعة ؛ والعقدة والورود تزين سرواله[٣] (الشنتيان) ، أردت أن أقبله فقال بالايطالية

---

(١) هذه الكلمة : إسبيطة ، تحل هنا محل كلمة اسبيتيتا espeteta وهى نفسها الكلمة الايطالية أسبتا aspetta بعد تحريفها . (فيوتو)

(٢) لا يوجد سوى هذين النوعين من اللازمات (اللازمة) أما ما يزيد على ذلك فقد أضافه النساخ العرب . (فيوتو)

(٣) المعنى الحرفى : حزامه ؛ انظر ما سبق ، الهامش رقم ٩ من أغنية يا لابسين الشيشكلى . (ساسى)

انتظر[١] آه كم هى حلوة لغته الايطالية ، ليحمِ الله هذا الشخص الذى له عيون الغزال ، ولتقبلنى ياصاحب هذه اللهجة العذبة . ياسلام»

(٢)

ما أحسنك يا فرط الرمان
لما تنادىٰ بالأمان
وفى يدك ماسك الفرمان
تبقى الرعية قلبها فرحان
يا سلام

الترجمة « الفرنسية » : « كم تكون جميل المنظر يا فرط الرمان[٢] عندما تعلن حالة الأمان والعفو العام ، ممسكا الفرمان بيدك ! إنك (بذلك) تعيد الفرحة إلى قلوب الرعايا ... ياسلام !»

(٣)

أوحشتنا [٣] ياسارى عسكر
تشرب القهوة بالسكر
وعسكرك داير يسكر

---

(١) هذه الكلمة : انتظر ، كان يعبر عنها فى الأصل باللغة الايطالية aspetta .
(ساسى)

(٢) فرط الرمان تحريف لاسم بارتولومى أو بارتيليمى Barthélemi الذى كان القائد العام لجيش الشرق قد أوكل إليه شرطة القاهرة . وحين وجد المصريون هذا الاسم عسير النطق فقد حرفوه إلى فرط الرمان (ساسى)

وتعنى هذه الكلمة فى اللغة الدارجة قشر (كذا) الرمان (فيوتو)

(٣) تعنى العبارة الأصلية لقد آلمنا غيابك وتسبب فى أسانا ؛ وهى كلمة تقال لمسافر ، للتعبير عن الأسى الذى يحس به ذووه عند رؤيته وهو يرحل . (ساسى)

ملاحظة : وهى كذلك صيغة تكريم ، ويستخدمونها عادة مثل كلمة صباح الخير ، كما يستعملونها فى العادة أيضا كى يعبروا لشخص ما عن الرغبة القوية التى كانت لديهم لرؤيته ، وكم تأخر تحقيقها إلى أن جاءت هذه اللحظة فى النهاية . (فيوتو)

وفى البلد حبوا النسوان

يا سلام

الترجمة الفرنسية : « لقد تنهدنا شوقا إليك فى غيابك أيها القائد العام ، يامن يشرب البن محلى بالسكر ، ويجوب جنوده المدينة بحثا عن النساء .. ياسلام »

(٤)

أوحشتنا يا جننار[١]
يا جميل يا راخى العذار
وسيفك فى مصر دار
ع الغزو والعربان
يا سلام

الترجمة الفرنسية : « لقد تنهدنا شوقا لك فى غيابك أيها الجنرال الجذاب ، يا صاحب الوجنتين اللطيفتين ، يامن تضرب بسيفك فى عاصمة مصر الغز(المماليك) والعربان . ياسلام »

(٥)

أوحشتنا يا جمهور
يا جميل ياراخى الشعور
من يوم جيت مصر فيها نور
زى[٢] قنديل من بللور
يا سلام

الترجمة الفرنسية : « لقد تنهدنا شوقا لك فى غيابك يا(ممثل) الجمهورية ياصاحب الشعر بالغ الجمال ؛ فمنذ اليوم الذى دخلت

---

(١) كلمة جننار هو تحريف لكلمة جنرال .

(٢) كلمة زى فى اللهجة الشعبية لأهل القاهرة ترادف كلمة : مثل . (ساسى)

فيه القاهرة ، والمدينة تتلألأ بأضواء تشبه ضوء مصباح من بللور » .

(٦)

ياجمهور عسكرك داير فرحان(١)
فى قطع (دابر) الغز والعربان
يا سلام بونابرته
يا سلام ملك السلام(٢)
يا سلام

: « ياممثل الجمهورية أن عساكرك الممتلئين بهجة يجوبون كل الانحاء كى يضربوا الترك والعربان ؛ سلام عليك يابونابرت ! سلام عليك ياملك السلام . ياسلام »

(٧)

يارسول الغرام قوم(*)
هات لى أهيف القوام
الذى إن نهض يقوم

---

(١) يبدو البيت الأول من هذا الكوبليه طويلا ، وأظن أن علينا إما أن نحذف كلمة فرحان أو بالأحرى كلمة : داير (ساسى)

(٢) نقرأ فى الأصل ، فى البيت الرابع من هذا الكوبليه عبارة ملك السلام ؛ وقد أضفت قبلها كلمة يا سلام ؛ ولست أدرى ما إن كنت قد أحسنت صنعا (ساسى) . وفى نسخة أخرى من هذه الأغنية العربية نقرأ : ياسلام ، بونابرته ملك الاسلام ؛ أى ! سلام عليك يا بونابرته يا ملك الاسلام ؛ ومع ذلك ، فإن البيت الرابع بالغ القصر لحد يصعب معه غناؤه ، وهو أمر يبرهن على وجود خطأ ما ؛ ويؤدى التصحيح الذى أدخله المسيو دى ساسى إلى اختفاء هذا الخطأ ، ويعطى لهذا البيت الوزن والايقاع اللذين تحتمهما هذه الأغنية . (فيوتو)

(*) فى الأصل قم وهى وإن كانت أصح من ناحية النحو إلا أن كتابتها بهذه الطريقة تؤدى إلى كسر الوزن والقافية ولذا فضلت كتابتها بالشكل الدارج . (المترجم)

يمنعه ردفه القيام(١)

يا سلام

---

(١) حيث تعد ضخامة الأرداف جمالا فى نظر الشرقيين فأظننى قد أحسنت تقديم نهاية الكوبليه . وقد وجدت ترجمة تخالف ذلك فى مسودات المسيو فيوتو : « يا رسول الحب أسرع وأحضر لى معشوقة رشيقة وسريعة ، ذلك أن معشوقتى بمنكبيها العريضين لا تستطيع الحركة » ؛ لكن النص العربى لا يحتمل قط هذا المعنى . ونقرأ فى الترجمة الايطالية :

il quale volendo levarsi per alzarsi, impedisce di replicare l'alzarta

ويبدو أن صاحب هذه الترجمة لم يفهم المراد من كلمة ردفه . (سلفستر دى ساسى)

ملاحظة : أرغمتنا هذه الصعوبات التى ما كنا نظن أن من شأنها أن تبعث على حيرة مستشرق مثل سلفستر دى ساسى على أن نبتعد عن محاولة تبصر المعانى الحرفية للنص :

١ – فنحن لم نتخيل أن المصريين فى أغانيهم ، وعند حديثهم عن محبوباتهم ، كانوا معتادين على ألا يشيروا إليهن فى صيغة المؤنث ؛ وهو الأمر الذى لاحظه بحق المسيو سلفستر دى ساسى .

٢ – وحيث أن كلمة أهيف التى تعنى قامة نحيفة ، ممشوقة (أو مشيقة) يمكنها أن تعنى كذلك : سريع ، يقظ ، شجاع ، فقد فضلنا المعنى الأخير لأنه يناسب أفضل ما يناسب رجلا ، وقد استبعدنا المعنى الأول لأن القامة الخفيفة أو النحيلة ، وهى أبعد من أن يجد أحد طلبها فى مصر ، لا توحى إلا بالشفقة والازدراء باعتبارها أثرا من آثار الفاقة والحرمان اللذين يتعرض لهما امرؤ ما .

٣ – وبرغم أننا كنا نتبين جيدا معنى كلمة ردف ، فإننا لم نكن قد تمكنا من أن نمسك بالكلمة المعادلة فى اللغة الفرنسية ؛ لكن هذه لم تكن لتفوت المسيو دى ساسى ، وتلك هى الأسباب التى حملتنا على الظن بأن الأمر هنا لا يخص إلا رجلا يمنعه ثقل جسمه من أن يتحرك أو أن ينهض .

وفضلا عن ذلك فإن المسيو دى ساسى عندما يزودنا بملاحظاته النقدية فإنه لا يفعل سوى أن يستخدم حقا هو جدير به منذ زمان طويل ، ونحن من جانبنا نكن له أكبر قدر من العرفان . (فيوتو)

الترجمة « الفرنسية » : « يارسول الحب انهض وأحضر لى هذه الجميلة ، ذات القامة الهيفاء والتى يمنعها ثقل ردفها من أن تنهض ، عندما تريد النهوض لتقف »

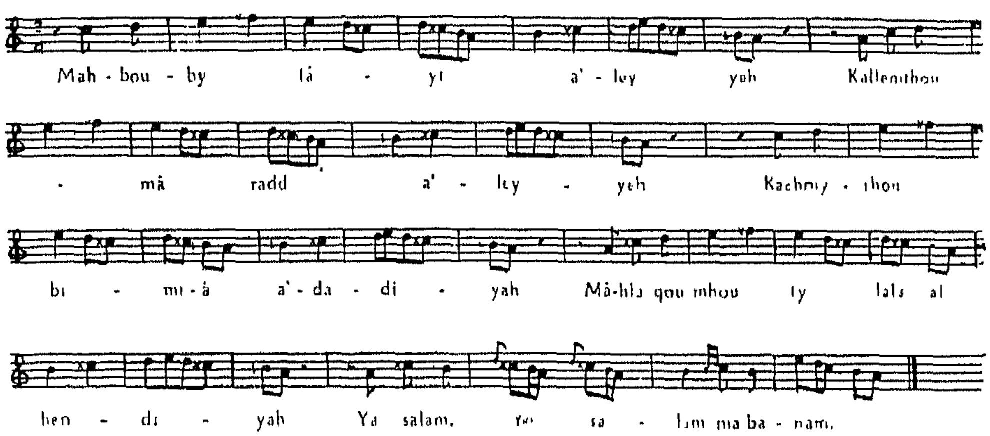
(٨)

قم بنا ياسيدى نسكر
تحت ظل الياسمين
نقطف الخوخ من على أمه
والعواذل شايفين
يا سلام

الترجمة « الفرنسية » : هيا بنا ياسيدى ننتش تحت ظل الياسمين ، سنقطف الخوخ من شجرته ، على مرأى من الحاسدين . يا سلام »
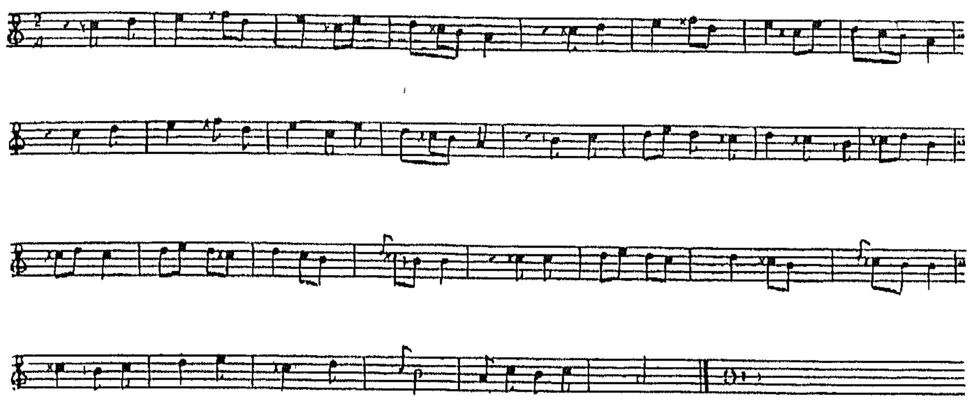
أغنية أخرى على نفس اللحن[١]

(أى مقام النوى إيقاع الدويك)



(١) يبدو أن ألحان الموسيقى العربية تعتريها بعض الاختلافات طبقا لتفاوت أوزان الكلمات التى تنطبق عليها . (فيوتو)

الأغنية نفسها ، مقام النوى



(١)

محبوبى فايت على
كلمته مارد على
كشميره بماية عددية
ما احلا قوامه فى لبس الهندية(١)
يانا يانا آه ياحالى
ليلى ليلى يا لَللِّى

الترجمة « الفرنسية » : « مرت معشوقتى بالقرب منى ، توجهت إليها بالحديث ، ولكنها ماردّت قط ؛ كشميرها يساوى مائة قرش عدا ونقدا ، كما أن قامتها جميلة تحت هذه الملابس المصنوعة من أقمشة الهند ، وا أسفاه وا أسفاه أيها الليل ! أيها الليل ! أية ليلة تلك التى قضيتها !

---

(١) أى من الموسلين أو من قماش القطن .

(٢)

محبوبى له خال فوق خده
والألحاظ تجرح مع قده
أهيف مافى الغزلان نده
زاد بى فرحى لما جانى
يانا يانا [١]

الترجمة « الفرنسية » : « لمحبوبتى خال فوق خدها ، عيونها وقوامها تجرح القلب ، أما رشاقتها فتفوق رشاقة كل الغزلان ، وحين جاءت تزورنى أفعمتنى بالفرح وا أسفاه ! وا أسفاه »

(٣)

محبوبى لابس متنانة
ونهوده البيض عريانه
كلمته قالى رح نانه [٢]
يضربوك تصعب على
يانا يانا

الترجمة « الفرنسية » : « ترتدى محبوبتى معطفا فاخرا ، أما نهداها فأبيضا اللون عاريان ، وجهت الحديث إليها فقالت اذهب ، كفى ، قد يضربونك فيمضنى الألم لذلك وا أسفاه ! وا أسفاه !»

(٤)

جل الخالق فى وجناته
يفتن صبه من لفتاته

---

(١) يانا ، يانا : كلمات لا تعنى شيئا مثلما تقول نحن :
oh, lon, lan, la (ساسى)

(٢) نانه تعبير فى اللغة الدارجة فى مصر ، وهو يدل على المعنى نفسه الذى تعبر عنه كلمة كفى . انظر ما سبق ، الهامش رقم ١ من ص ١٣٥ . وفى هذا الكوبليه نجد كلمة متنانة ، وهى كلمة دارجة اشتقت بلا جدال من الايطالية . (ساسى)

ياروحى على حركاته(١)
كيف الحيلة الصبر اعيانى
يانا يانا
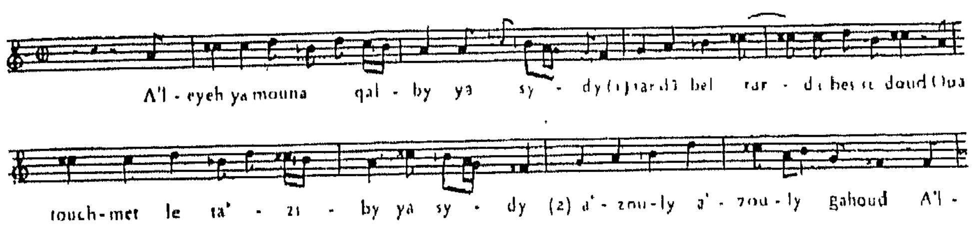
الترجمة « الفرنسية » : « أمجد الخالق الذى صور خديها ، وحين تدير رأسها تؤجج عواطف المحبين . آه كم كل حركاتها مبهجه . ما حيلتى ؟ لم أعد بقادر على التحكم فى نفسى بخصوص هذا الأمر ، وا أسفاه ! وا أسفاه ! »

موشح من مقام السيكاه

ايقاع مدور

MOUCHAH DANS LE MODE SYKRH.

غُراق عفق



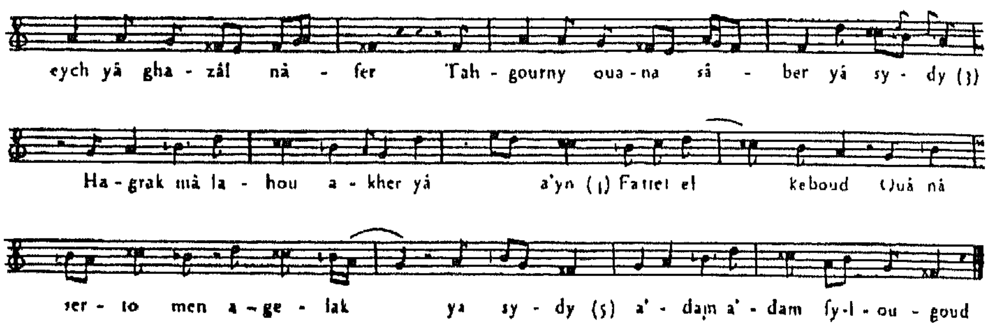
---

(١) يستخدم الناس فى مصر صيغات مختلفة للتعبير عن الدهشة والاعجاب ؛ فالمسلم يصيح : ما شاء الله ، والمسيحى : سبحان الخالق . أما المرأة المسلمة أو المسيحية فتقولان ، دون اختلاف ، حين تعجب من كلمات رجل : يا عينى على كلامه ؛ وفى حالات أخرى تقول : يا قلبى على أوصافه ؛ يا روحى على جماله ؛ يا روحى عليه .

(سلفستر دى ساسى)

(٢) تسترعى هذه الأغنية الانتباه بسبب التجاوزات التى أباحها لنفسه واضع الموسيقى ، فإنه لم يستبح لنفسه فقط أن يكرر كلمات بعينها مثل : ترضى بالصـ .. ترضى بالصدود ، لتدوير الجمل فى غنائه ، وإنما هو قد أضاف كذلك كلمات مثل : يا سيدى ، التى سنشير إليها فى كل مرة نجد فيها هذه الكلمات فى الجزء الباقى من الأغنية ، وهى لا تشكل قط جزءا من البيت الشعرى .

(٣) أضيفت كلمة يا سيدى هنا أيضا عن طريق الآلاتى .



(١)

على إيش يامنى قلبى ترضى بالصدور
وتشمّت لتعذيبى عذولى جحود
على إيش يا غزال نافر
تهجرنى وانا صابر
هجرك ماله آخر
فتتت الكبود
وانا صرت من أجلك عدم فى الوجود

الترجمة « الفرنسية » : « لماذا يا منية القلب ترضين بهجرانى ؟ لماذا أيتها الجاحدة تحلو لك الآلام التى يسببها لى حسادى ! لماذا أيتها الغزالة النافرة تهربين منى ، أنا الذى يتحمل كل نزواتك ؟ أليس لغيبتك قط من نهاية ؟ لقد حطمت قلبى بسبب قسوتك وتقلص وجودى بين الكائنات إلى عدم »

(٢)

محبوبى الذى أهواه بديع الجمال
كويس رشيق القد وريقه زلال

---

(١) كلمة يا عين التى تقال هنا فى مقام كلمة يا عينى ، هى بدورها كلمة مضافة .
(٢) كلمة يا سيدى مضافة هنا أيضا (فيوتو) .
(٣) كلمات يا سيدى مضافة كذلك كما فى الحالات السابقة .

مليح كامل الأحداق
سبا ساير العشاق
قلبى له مشتاق
وهوه لى جحود
من يحسد العشاق عمره لا يسود(*)

الترجمة « الفرنسية » : « معشوقتى ، موضوع هواى ، ذات جمال نادر ، وهى لطيفة ذات قوام خفيف ، رضابها كالشهد ، وهى جميلة جمالا لا مزيد عليه لمستزيد ، كبلت بجمالها كل المحبين ، قلبى يتحرق شوقا إليها ، ومع ذلك فهى جاحدة لا تبالى بلهيبى ، يامن تكن الحسد للعشاق ، ليكن نصيبك ألا تنال قط مباهج السعادة .

(٣)
نصبت شرك صيدى لهذا الغزال
بقيت فى الشرك وحدى شبيه الخيال
جايز ما التفت صوبى
وما درى مكتوبى
يا مهجتى دوبى
غزالى شرود
مادى إلا غزال نافر يصيد الأسود

الترجمة « الفرنسية » : نصبت شباكى كى أصيد هذه الغزالة فبقيت وحيدا فى الشباك ، شبيهة هى بالشبح ، ولقد مرت دون أن تتنازل بالالتفات نحوى ، كم أجهل القدر الذى رسمته لى السماء . آه ياروحى ، ذوبى دمعا ، فغزالتى تصر على النأى ، وماهى إلا غزالة تقوم بصيد الأسود »

(*) فى الأصل : الذى ، ورأيت تغييرها بمن حفاظا على الوزن (المترجم)

المبحث الخامس
عن العوالم ، وعن الغوازى ، أو الراقصات العموميات ، وعن الأنواع المختلفة من عازفى الكمان ، وعن المتشردين وعن البهلوانات ، وعن المضحكين .. الخ الذين يستخدمون بعض الآلات الموسيقية

العوالم ، مغنيات وراقصات محترفات ؛ وهناك فيما يبدو صنفان منهن : الأول ، ويتكون من هؤلاء اللاتى يسلكن سلوكا يتسم بالحشمة ، ويحظين بتقدير أفاضل الناس ، أما الثانى فيشمل أولئك اللائى يركلن بالأقدام كل لياقة ، ولا يتسم سلوكهن بأى نوع من الاحتشام ، ولا يوحين إلا بالازدراء ، ويمتدح القوم كثيرا أغانى الأوليات ، والأسلوب الفنى الذى تؤدى به ، وان كنا لم نستطع لا أن نراهن ولا أن نسمعهن . فقد هجرن القاهرة ، كما قيل لنا ، بمجرد أن سيطر عليها الفرنسيون ، ولم يعدن إلى هذه العاصمة إلا فى الأيام الأخيرة من إقامتنا بمصر . كذلك فقد بقين مختبئات عن أنظارنا ، ولم يكن بالمستطاع أن نجاهد نفورهن من الغناء أمام الرجال ، وبشكل خاص أمام الفرنسيين . وفى العادة فإنهن عندما يدعين للغناء فى بيت واحد من السراة ، بمناسبة بعض الأعياد ، أو فى بعض المناسبات العائلية السعيدة ، تقوم بعض النسوة بقيادتهن إلى مقر الحريم[1] ؛ وهناك يقمن بالغناء بمصاحبة نوع من الدفوف تسمى بالعربية : طار ، أو بدف من نوع آخر يسمى دربكة [2]،

---

(١) حريم ، وتعنى هذه الكلمة الشيء المقدس ، الممنوع ، أو المكان المحرم الذى لا ينبغى لأحد أن يهتك ستره ؛ وهو اسم الجناح (المسكن) الذى تقيم فيه السيدات فى بيوت مصر ، وكذلك فى الشرق كله . وهذا المقر ، على الدوام ، هو أكثر الأماكن انعزالا ، وأكثرها ارتفاعا فى البيت كله .

(٢) ضرابكة أو دربكة ، وتشبه هذه الطبلة على نحو التقريب قمعا مصنوعا من الخشب ، يغلفه جلد . وسنتناولها بالتفصيل فى دراستنا عن الآلات الموسيقية عند الشرقيين (المجلد التاسع فى الترجمة العربية) ، الباب الثالث ، الفصل الرابع .

ولا يكون لرب البيت ، طيلة الوقت الذى يقضينه فى الحريم ، حرية أن يدخل [illegible] مهما تكن الذرائع بل يكون من المعتاد عكس ذلك ، أن ينزل رب البيت مع أصدقائه إلى فناء البيت ، أو إلى الشارع ، كى يستمتعوا بلذة الاستماع إليهن .

أما الصنف الأخر من العوالم ، كما أشرنا من قبل ، فيضم راقصات عموميات لا تقاليد ولا عفة لهن ، ويطلق القوم على هذا الصنف من العوالم اسم الغوازى ، وهؤلاء يظهرن فى الأماكن المطروقة بكثرة ، وكذلك فى الميادين العامة ، وفى البيوت التى يدعين إليها ، كى يكسبن بعض قطع المدينى التى يجمعنها هن ، أو التى يجمعها نيابة عنهن النساء والرجال الذين يصحبونهن ، عازفين على بعض الآلات الموسيقية ، وعندما ترقص هؤلاء الغوازى فى الشوارع ، فإنهن يكن على ثقة بأن حصيلتهن ستكون وفيرة مجزية ، ذلك أن النساء شغوفات للغاية برؤيتهن وسماعهن ، ولا يفوتهن قط تشجيعهن وحثهن ، بأن يلقين إلى هؤلاء بعض قطع النقود من خلال المشربيات الخشبية التى تحجب نوافذ الحريم ، ومع ذلك فإن ضروب الغناء ، وهذا الصوت الأجش النابح والصارخ لهؤلاء الراقصات لا يشكل طربا حلوا أو لحنا طيبا ، كما أن رقصاتهن لا تقدم سوى مشهد مثير للغاية ، ولعله لا يستطيع أن يسرى إلا عن المصريات ، بسبب تلك الرتابة الكئيبة التى تبعث على إملالهن وهن أسيرات الحريم .

ومن العسير أن نصف هذا النوع من الرقص فى لغتنا بدقة ، إذ يأتى على نحو لايستطيع أحد أن يتخيل معه شيئا يفوق فحش حركاته [1] ؛ ويعبر هذا الرقص الذى لا تكاد تسهم فيه سوى القدمين وأعلى الجسم ، بأكبر التبذلات جسارة ، عن الانفعالات الجامحة التى يمكن أن تحدثها الشهوة فى النفس ، والأفعال التى يمكن أن تؤدى إلى تصاعد عاطفة شبقة ، ودغدغة بالغة القوة لرغبة حسية ملحة ، وفى البداية لا يبدو أن لحركات الراقصة ، بالغة الوهن ، لحد لا يمكن أن تفصح معه عن حقيقتها ،

---

(١) كان هذا الرقص معروفا عند الإغريق ، وكان يستخدم فى أعياد باخوس واكتسب الجارديتان garditanes ، فى زمن الرومان ، شهرة واسعة فيه ؛ وقد وضعه الشعراء الاغريق وقدموا عنه فى أشعارهم لوحات حية ، قد تمجها رقة ورهافة تقاليدنا ، تلك التى قد تنفر من خلاعتها وعدم حشمتها بحيث لا تقر ورودها فى لغتنا . وهناك على ذلك أمثلة عديدة .

من غرض سوى التسلية البريئة ، ولكن حين تصبح هذه الحركات محسوسة شيئا فشيئا ، فإن المرء لا يلبث أن يتعرف على صورة متوثبة لكل ما للخلاعة من عهر ، فتعبيرات وجه الراقصة ، وهيئة جسدها تعبر أكثر فأكثر عن ظهور الشهوة التى تنم عنها ، وتجسدها حركات الجسم الخليعة ، ويرى المرء تولد التوتر والشجن ، فتتعاقب الاضطرابات وخفقات القلب ، وسرعان ما تعلن الرجفة التى تسرى فى الجسد كله ، عن الرغبة الجامحة والملحة فى المتعة والانتشاء ، بل تكاد تحاكى تشنجات الوصال ، ويظن المشاهد أن الرغبة قد أشبعت ، وسرعان ما ينقلب الأمر إلى وهن مصحوب بالخجل ، لكن هذا الشعور الوافد يأخذ فى التلاشى ، شيئا فشيئا ، كيما تتولد الثقة من جديد ، وتعود الشهوة أكثر جموحا عما كانته فى المرة الأولى ـــ وهكذا يستمر هذا التمثيل الصامت ، الخليع ، حتى يزهد فى الأمر المتفرجون فينسحبون ، أو حتى تسأم الراقصة نفسها فتكف .

أما الأمر الذى يعز على التصديق ، فهو تلك الهمة التى يخلعها على تعبيرات هذا الرقص إيقاع صوت آلات الايقاع أو النقر ، فهذا الايقاع يجسم كل الحركات بطريقة لا تدع فى الأمر شبهة شك ، فلا شىء أكثر شهوانية من رنات الأجراس الفضية ، وأجرؤ على القول من تلك الرنات المتراخية (لصاجات) النحاس الأصفر التى تمسك بهن الراقصات بين أيديهن ؛ ولهذه الآلات شكل صناج بالغة الصفرة ، يبلغ قطر الواحدة منها ٤٨ مم[1] ويبلغ سمك الحافة نحو ملليمتر واحد ، وبها حلقة صغيرة من خيط الذهب أو الفضة ، تمر من خلال ثقب موجود فى مركز الجزء المقبب من هذه الآلة الموسيقية ، حيث تثبت هناك بفعل عقدة ، وعن طريق هذه الحلقة تمسك الراقصات بهذه الصناج فى أصابعهن دون أن يعوق حركة الأصابع عائق فتكون طيعة : وتمسك الراقصة بزوج من هذه الصناج فى كل يد من يديها ، أى أنها تحمل صنجة بالابهام وأخرى بالوسطى سواء كان ذلك فى اليد اليسرى أو اليد اليمنى ؛ وبهذه الطريقة تضربهما الراقصة واحدة بالأخرى ، كل زوج مرة بالتوالى ، وأحيانا تضرب كلا الزوجين معا ، تبعا للتأثير الذى تريد الراقصة أن تحدثه ، وتكون رنة

---

(١) نحو البوصة وثمانى شرطات .

الصناج أشد إذا ما ضربتها على التوالى الواحدة فوق حافة الأخرى ، وتكون الرنة أقل إذا ما واصلت ضربهن كلا منهما فوق الأخرى ، ويكاد يكون الصوت مكتوما ، دون رنين إذا تم الضرب على مركز الصناج بحيث تغطى كل واحدة منهما بالأخرى بشكل تام ، وعن طريق التدريب والممارسة تعرف الراقصة كيف تحدث ، طبقا للأحوال ، هذه التغييرات فى نغم صاجاتها ، وتبعا للإيقاع الذى يأخذن به فى الموقف الذى يرون رسمه ، ذلك أنهن يميزن بدقة ، وبطريقة مدهشة للغاية ،أثر الاحساس الذى يرون الوصول إليه فى تمثيلهن الصامت ، وبينما هن يحدثن هذا الصليل اللطيف ، يقمن ببسط أو رفع أذرعهن برخاوة راسمات دوائر بها فى الهواء ، كما لو كن يلتمسن أو يتهيأن للاحتضان ، ثم يقاربن أذرعهن من وجوههن ، ويكاد يتم ذلك فوق عيونهن ، اللاتى يغضضن منها خفرا وحياء ، وكما لو كن يتخفين عن النظرات .

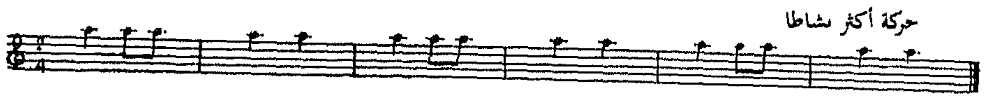
وباختصار ، فإن كل حركات هذه الراقصة ، ترمى إلى التعبير عن مجاهدة العفة للشهوة ، وعن انتصار الأخيرة وهزيمة الأولى . ويحس المرء ما إن كانت المعركة أكثر أو أقل تكافؤا ، أو ما إن كان الأكبر قوة هو الذى ينتصر ويجنى ثمار فوزه ، وأن لا مفر للأضعف من أن يستسلم ويخضع لمشيئة المنتصر ، تبعا لما إن كانت حركات الراقصة ورنين الصاجات أكثر أو أقل اعتدالا ، أكبر انتظاما وأكبر رقة ، وأكثر وضوحا وأكبر حيوية أو إن كانت أكثر تهدجا وأقل رنينا أو أكبر إختناقا أو أشد خفوتا .

وإليكم الايقاعات المختلفة للصناج التى تعبر عن مدى تنامى الصراع بالتبادل ، وقد كان بمقدورنا أن نضيف إلى ذلك إيقاعات كثيرة أخرى ، لكن هذه لن تكون سوى درجات أو تنويعات على هذه التى نقدمها هنا :

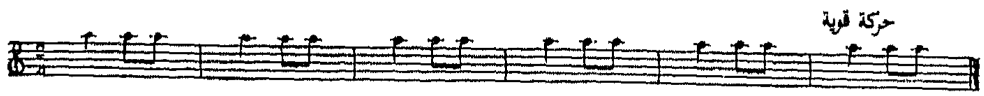
١ ــ باليدين معا ، حركة الصاجات ضعيفة إحداهما تتقدم على الأخرى ، والنغمة أقل رنينا .



٢ ـــ باليدين بالتبادل ، والحركة أكبر قوة بقليل ؛ الصاجات أقل تقدما أى أقرب إلى التطابق إحداهما فوق الأخرى ، النغمة أكثر رنينا .



٣ ـــ باليدين بالتبادل ، الحركة أقوى من ذى قبل ؛ الصاجات متقدمة لقرب الحواف ، والنغمة كذلك أقوى رنينا عما سبق .



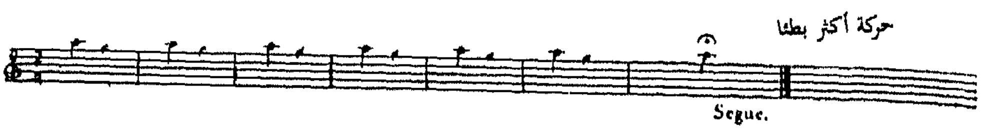
٤ ـــ باليدين بالتبادل ، بقوة شديدة ، الصاجات تضرب كل منها بشدة على حافة الأخرى ، النغمة عاليه الرنين .



٥ – باليدين ، بالتبادل ، الصاجات مقدمة (غير متطابقة) إحداهما فوق الأخرى ، والنغمة أقل رنينا .
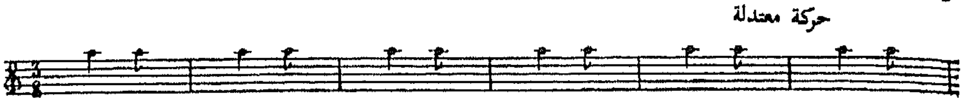


٦ – باليدين معا ، الصاجات تتقابل عند المركز ، النغمة مكتومة .



(★) كلمة segue التى ستقابلنا كثيرا فيما بعد تحت السلالم الموسيقية تدل على أن بقية اللحن سوف يمضى على نفس الوتيرة ، إلى أن تشير النوتة الموسيقية إلى تغيير جديد .
(المترجم)

٧ ـــ باليدين بالتبادل ، الصاجات أقل تقدما (أى أقرب إلى التطابق) النغمة ذات رنين .

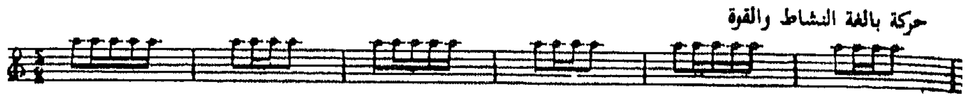


وفى الايقاعات يتبع نفس التطور ، فيتصاعد فى البداية ثم يتراجع ، وإن كان أكثر وضوحا نسبيا ، عما هو فى الأمثلة السابقة .
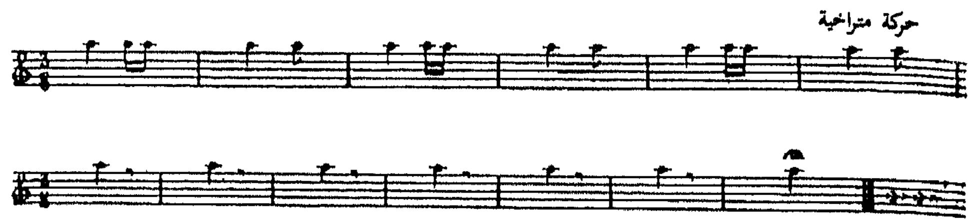
ا —



ب —



جـ —



ومهما تكن ، فيما قد يبدو ، نتائج المتعة التى يحصل عليها المصريون من أمثال هذه الرقصات ، خطيرة ، فإننا لم نلاحظ مع ذلك أن هؤلاء يهدفون لغرض آخر من وراء مشاهدتها ، سوى ما نستهدفه نحن من وراء عروضنا ، حيث تمثل كذلك العواطف الجموح وبالغة الغرابة والشذوذ ، وكذلك الجرائم الشنعاء فى أشكال مغرية أحيانا ، ومنفرة أحيانا أخرى ؛ ولقد كانت هذه العروض بالنسبة لنا لوحات من التاريخ وضعت فى هيئة حركة ، وحيث نعرف أن كل شيء فيها مصطنع وظاهرى ، فقد بات اهتمامنا ينصب ، ويكاد يكون ذلك بشكل تام ، حول جدارة التماثل بين النسخة وبين الانموذج

أو المثال الذى نصبنا من أنفسنا قضاة عليه ؛ وكلما زاد انشغال روحنا بالفن ، كلما قل تفكيرنا فيماهى عليه الحركة التى تشكل موضوعا له فى حد ذاتها ، وفى النتائج التى يمكن أن تكون لها فى المجتمع . ولعل الأطفال وأبناء الطبقة الدنيا من الشعب ، هم وحدهم الذين يصبح بمقدور الوهم أن يكون ذا سطوة عليهم ، وأن يؤثر فيهم تأثيرا مدمرا ، بفعل التشوهات الدائمة والعميقة التى يحفرها فى نفوسهم .

وحيث أن تقاليد المصريين التى ليست ، مع كثير من التقريب ، فى مثل رهافة تقاليدنا ، قلما تجعلهم يلمحون الفحش خارج ماهو غير مشروع (محرم) فإن لديهم أفكارا بالغة الاختلاف عن أفكارنا حول هذه النقطة ؛ إذ يبدو لهم أمرا طبيعيا للغاية أن يسمّوا وأن يكشفوا ، حتى أمام الأطفال ، عن أشياء يجعلنا مجرد تخيلها نحمر خجلا[١] ، وفى الوقت نفسه ، ومع ذلك ، فليس مسموحا لامرأة أن تكشف عن وجهها لرجل آخر غير زوجها ، ولو أن هذه المرأة فوجئت ، بالصدفة ، وهى دون خمار ، فإنها لن تتردد فى أن تكشف عن أى جزء آخر من جسمها حتى تخفى وجهها ، ولهذا السبب ، فإن الغوازى اللاتى يرقصن ووجوهن مكشوفة فى غالبية الأحيان ، ينظر إليهن من قبل الناس فى مصر باعتبارهن بغايا .

ولكل هذا فمن المرجح ألا ينظر المصريون إلى رقصهم ، مع مثل هذه الأفكار المسبقة ، بنفس العين التى ننظر بها نحن إليه ؛ ومع ذلك فإن الراقين منهم لا يقرون شيئا يبهج السوقة كثيرا ، وهو أن تخلع الراقصة نقابها ، وأن يقوم مهرج يشار إليه بإسم حلبوص ، بأوضاع بالغة الفحش ، وبحركات وقحة ، تواكب الحركات المختلفة لهذه الراقصة .

وتستصحب الغوازى فى غالبية الأحيان عازفى كان يسمى الواحد منهم غزواتى ، يعزفون على الربابة[٢] أو الكمنجة العجوز[٣] أو الكمنجة الفرخ[٤] ،

---

(١) يشبه المصريون كثيرا من هذه الناحية قدماء الإغريق ، فكوميديات أريستوفان و plaute تنهض دليلا على أن تقاليد القدماء لم تكن أكثر عفة من تقاليدنا ، فلقد كان حظهم من الوقار والرزانة والحياء قليلا ، فهل تقوم العفة والحياء على مبادىء مختلفة ؟

(٢) انظر وصف الآلات الموسيقية عند الشرقيين (المجلد التاسع من الترجمة العربية) . الباب الأول ، الفصل الثانى عشر .

وعلى المزمار المصرى المسمى زمير[١] ، وفى غالبية الأحيان يصحب رقصاتهن دف الباسك[٢] ، الذى تضرب عليه فى الغالب راقصات مسنات ، أفقدهن تقدم السن الخفة والمرونة اللازمتين لمواصلة حرفتهن الأولى ؛ ومع ذلك فنادرا ما ترقص الغوازى دون أن تصبحهن الدربكة [٣] التى ينقر عليها الغزواتية ؛ وبرغم أن إيقاع الدفوف يختلف قليلا عن إيقاع الصاجات ، فإنه مع ذلك يعلن عن كل التغييرات ، ويحصل المرء منه كذلك على نغمات ذات صفات عديدة تبعا لما إن كنا نضرب عليه قريبا أو بعيدا عن مركز دائرة سطحه ، وتنتج النغمات الأشد حدة عن طريق أصابع اليد اليسرى التى تمسك به ، وتنتج الأنغام الأكثر غلظة بفعل ضربات تتم بكل أصابع اليد اليمنى ، مبسوطة فوق منتصف الجلد المشدود ، الذى يغطى هذه الآلة الموسيقية[٤] .

وسنقدم هنا ، كى نعطى فكرة عن إيقاع ونغمات هذا النوع من الآلات ، مثالين أو ثلاثة أمثلة فقط ؛ وسوف نشير إلى النغمات الغليظة أو الخفيضة التى نحصل عليها من أصابع اليد اليمنى ، بإشارة موسيقية ذات ذيل مزدوج . أما النغمات الحادة ، التى تحدثها أصابع اليد اليسرى ، فنشير إليها بالعلامات النغمية الأخرى .

---

(٣) قدمنا هنا هذه الكلمة بالشكل الاملائى الذى يتفق مع نطقها المحرف والمعيب عند المصريين فى مدينة القاهرة ؛ ففى اللغة العربية السليمة ينبغى لهذه الكلمة أن تقرأ الكمنجة العجوز (بتعطيش الجيم) . انظر وصف الآلات الموسيقية المشار إليه ، الباب الأول ، الفصل التاسع .

(٤) نفس المرجع ، الباب الأول ، الفصل الحادى عشر .

(١) نفس المرجع ، الباب الثانى ، الفصل الأول .

(٢) توجد فى مصر أنواع كثيرة من دفوف الباسك مثل الطار ، والبدير ، والدف ، والرق ، والمزهر (الجلاجل) . انظر المرجع السابق ، الباب الثالث ، الفصل الثانى ، المبحث الخامس .

(٣) المرجع نفسه ، الباب الثالث ، الفصل الرابع .

(٤) لا تلقى نغمات هذا النوع من الآلات الموسيقية تقديرا يكفى كى يمكننا من تحديدها بدقة ؛ أما تلك التى دوناها هنا فلا تشكل سوى النغمات التى اعتقدنا أننا ميزنا فيما بينها النغمات الحادة أو الجهيرة والنغمات الغليظة أو الخفيضة .
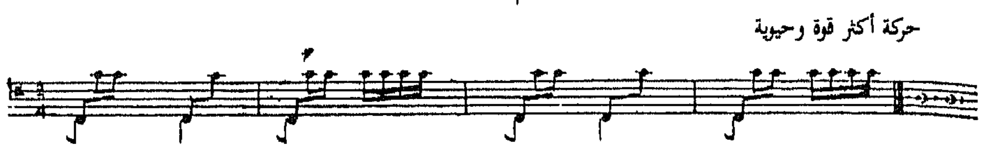
١ -



٢ -



٣ -



وهناك بالمثل عازفون أو منشدون من مرتبة أدنى من الغزوانية ، ويسمون الطرّاقة ، ويستخدم هؤلاء الفلاوت المسمى بالناى ، وكذلك الرباب والدربكة ، وهم يغنون أحيانا ، ولكن بدون فن على الاطلاق ، أغنيات أكثر فجاجة ، ويلقاهم المرء فى إثر القرداتية ، أى أولئك الذين يُرقّصون القرود والكلاب والماعز والدببة ... الخ . أو فى مصاحبة مشعوذين يسمون هواك أو أولئك الذين يقدمون أشياء مثيرة للفضول [١] . كما نقابل هؤلاء الذين يقدمون الخيالات الصينية[٢] ، ويغنى هؤلاء بمصاحبة رق .

وقد كان بمقدورنا أن نذكر بعض الحرف التى تستخدم فى ممارستها بعض آلات موسيقية مثل :

---

(١) نحن نجهل ما إن كان لهذه الحرفة اسم خاص ، فالمعلومات التى حصلنا عليها ماسة بها لم تخبرنا بأكثر مما رأيناه بأنفسنا ، وإليكم التحديد الذى أعطاه لنا القوم عنها : « هواك ، شىء يقال له تصاوير فى صناديق » أى « شىء عجيب يُراه المرء مصورا فى صناديق » .

(٢) ولم نستطع بالمثل أن نعرف ما إن كان لهذه الفئة الأخيرة اسم خاص ؛ وقد عرفه القوم لنا على النحو التالى : « طايفة يلعبوا خيال الظل ويلعبوا بالرق والعرقية » أى طائفة من الناس يلعبون بالظل ويغنون على أنغام الرق والعرقية (بفتح العين أو بكسرها) .

١ ــ البهلوين (البهلوان) وهم أصناف من المهرجين يرقصون على الحبل فى بعض الأحيان ، أو يقفون أحيانا أخرى فوق عكازين ، ويتبعون مواكب الأعياد العامة والأفراح ، مستصحبين الطار أو الكمان المسمى كمنجة .

٢ ــ مهنة الجنك[1] وهن نسوة يهوديات يقمن بتعليم الرقص ، ويركبن فى بعض الأحيان فوق ظهور الحمير ، ويتبعن مواكب الأفراح ، ضاربات على الدف (الطار) أو الرباب .

لكننا سنتوقف عند هذا الحد ، إذ قد نبعد بذلك ، دون أن ندرى ، عن موضوعنا ، لكى ندخل فى تفاصيل يكاد لا يكون للموسيقى أى نصيب فيها .

---

(١) فى العربية الصحيحة تلفظ الجيم معطشة .

المبحث السادس

عن الموسيقى العسكرية

برغم أن المرء لا يشك قط فى أن المصريين يمتلكون على الدوام القدرة على الثبات ورباطة الجأش ، إبان المحن العظمى والكوارث والأخطار الشديدة ، بل كذلك حيال أجهزة التعذيب والنكال بالغة الفظاعة [1] ، فإننا لا نلمس فيهم مزاجا حربيا قط ، فلو كان لديهم مثل هذا المزاج (أو الطابع) لما تركوا لأجانب ، منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام وحتى يومنا الحاضر ، أن يتملكوا بلادهم وأن يقوموا بحراستها والدفاع عنها ، لذلك فليس من المدهش ألا نجد عندهم قط ، وبمعنى الكلمة ، موسيقى حربية أو عسكرية .

ومع ذلك فإن لديهم ألحانا لمارشات ، وإن لم تكن هذه مارشات عسكرية صرف شأن مارشاتنا ؛ وهذه الألحان ، عندهم ، هى تلك التى تؤدى فى بعض المناسبات الاحتفالية مثل مواكب رمضان ، وطواف المحمل وقوافل الحج ، أى التى تتكون من أولئك الذين يتهيأون للقيام برحلة الحج إلى مكة ، أو كذلك عندما تذهب السلطات المدنية والعسكرية فى القاهرة لاستقبال الباشا الذى يرسله الباب العالى حاكما على مصر ، ولقد حسمنا رأينا على أن نضعها فى نطاق هذه الدراسة ، بسبب ذلك التطابق التام القائم بين هذه المارشات وبين ألحان موسيقانا العسكرية ، سواء فى اختيار الآلات الموسيقية المستخدمة لأدائها ، أو فى إيقاعها بالغ الوضوح الذى يميزها ؛ وفى واقع الأمر ، وكما هو الحال فى موسيقانا العسكرية ، فإنه لا يستخدم فيها سوى الآلات الصاخبة مثل المزمار ، والنفير والصنوج والدفوف أو الطبول ، ولا تقبل فيها قط الآلات الوترية ولا آلات الناى ، أما آلة الكلارينيت فلا تستخدم فى مصر قط .

---

(١) يقدم التاريخ فى هذا الصدد شهادات لا لبس فيها ، ويذكر أكسانوفون فى مؤلفه cyropédie ، الكتاب السابع واقعة تسترعى الانتباه بهذا الخصوص ؛ وقد عرفنا كذلك مزيدا من الوقائع تأتى مطابقة لهذه الشهادات .

لكن عدد الطبول والدفوف[١] المستخدمة ، من مختلف الاحجام ، هائل للغاية ، وتنتج عنه ضجة جد هائلة ، أما صوت الصنوج (النحاسية) فيكاد يؤدى إلى الصمم ، كما أن النغمة الحادة والثاقبة (التى تكاد تثقب أذن سامعيها) للمزامير المسماة زمير[٢] ترج الأرض بقوة بالغة ، فى حين تمزق الأذن أصوات الأبواق والنفير ، حتى أن أشد حالات الجلبة والضوضاء الصادرة عن العراك ، لا يمكنها أن تعطى إلا فكرة مبسطة وضئيلة للغاية ، عن الأثر العام الذى ينتج عن هذا الحشد من الآلات الموسيقية .

وقد كان أحد هذه الألحان ، وهو الذى بدا لنا أكثر من غيره جذبا للانتباه ، بسبب أصالة لحنه ، وبصفة خاصة بسبب المناسبة الخالدة التى يذكرنا بها ، هو اللحن الذى تم عزفه عندما ذهب المشايخ والسلطات العسكرية والمدنية فى القاهرة ، وكذلك الفرنسيون المقيمون فى هذه المدينة ، يتبعهم حشد هائل من المصريين ، على مبعدة ربع الفرسخ إلى خارج هذه المدينة ، لاستقبال القائد العام بونابرت ، الذى عاد مصطحبا جيشه بعد حملته على سوريا ، فلم يحدث أن استقبل قط ، فى ولاياته ، حاكم أو ملك يعتز به رعاياه ، بأمارات صَخّابة أكثر جلبة ، من تلك البهجة العامة والفرح الطاغى الذى نتج فى ذلك الوقت عن ظهور وعودة القائد العام ، وأبدا لم يحدث أن أبدى إخوة متحابون ، افترقوا عن بعضهم البعض لوقت طويل ، مثل هذه

(١) لابد أن نستثنى من هذا العدد الطار والبنديرِ والرق والدف والمزهر (الجلجل) والدربكة ؛ والأخيرة وعاء كبير له رقبة طويلة أسطوانية الشكل ، ومجوفة ؛ وأن نستبعد كذلك كل الآلات الأخرى من هذا النوع ؛ إذ لا تستخدم هذه قط فى حالات مماثلة (أى فى الموسيقات العسكرية) إما لأن استخدامها يقتصر على مناسبات المسرات الشعبية ، وإما لأنها لا تصاحب سوى رقصات الغوازى ورقصات القرود والكلاب والماعز والدببة الخ وكذلك هزليات المهرجين من كل صنف ، ولأنها – لهذه الأسباب – سوف تستدعى إلى الذهن أفكارا لا تتفق كثيرا مع الاحترام الواجب فى أمثال هذه الاحتفالات المهيبة ؛ وإما لأن هذه الآلات الموسيقية – أخيرا – لا تحدث الضجة الكافية ؛ وإن كان السبب الأول هو الأقرب احتمالا فيما يلوح لنا .
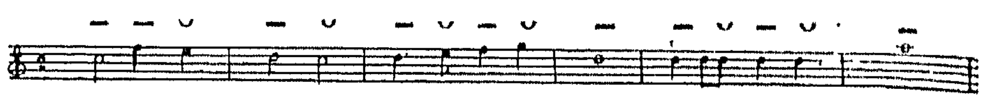
(٢) زمير أو زمر فى المفرد ، ورمارة فى الجمع (كذا) .

العواطف الجياشة والمؤثرة ، كما فعل عندئذ الفرنسيون الذين كانوا فى القاهرة ، وأولئك الذين كانوا عائدين من سوريا .
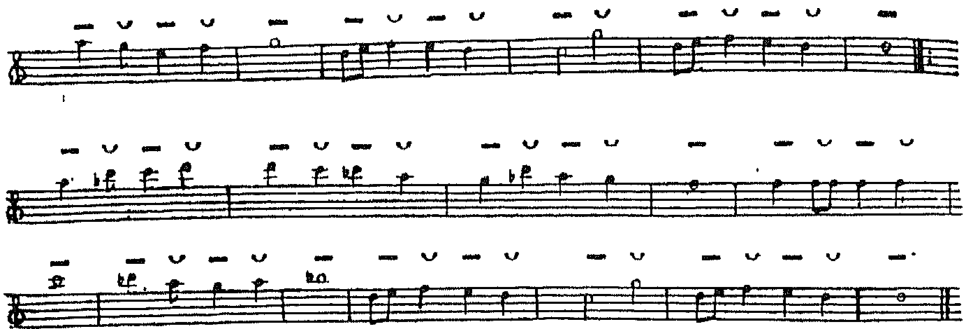
وربما لم يكن بمقدور أجمل موسيقى أوربية أن تعبر عن أدق خلجاتنا ، إعجابا بمشهد له مثل هذه الأهمية ، لكن اللحن الهمجى لهذه الموسيقى التى سمعناها ، إذ كانت تذكرنا بأننا على مبعدة ستمائة من وطننا ، وفى جزء آخر من العالم قد كان له علينا تأثير بالغ القوة ، ومنح لمشاعرنا التى كنا نحس بها حيوية بالغة حتى أننا لا نجد من الكلمات ما يسعفنا لوصفها ، ولم يكن مارش الاسكيت Scythes فى أوبرا إيفيجنيا فى توريد لجلوك Jluck على مافيه من سمو ، بل ربما بسبب هذا السمو نفسه ، ليهزنا بمثل هذه القوة ، وعلى النحو الذى أحدثه فينا هذا الأسلوب البدائى للمارش الآتى الذى كان يعزفه الموسيقيون المصريون ، والذى كان يصحبه ما سبق أن أوضحنا ؛ فلحن مارش جلوك يستدعى إلى الذاكرة ذلك الطابع الوحشى ، بالغ القسوة للاسكيت من أبناء توريد Tautrdeبالاضافة إلى حيوية التعبير التى لا يسمح بلوغها إلا فى الفن بالغ الكمال ، الذى تقوده المشاعر بالغة الرهافة والذوق الرفيع : وهذا الكمال التام فى الفن ، على وجه الدقة ، وهذه الرهافة فى الذوق ، تقويان فينا الثقة التى تمنحنا إياها فكرة مواسية تهمس فى أذننا بأننا بعيدين عن الأخطار وفى حمى من كل ضروب الفزع ، فى بلد يسوسها العقل وتدار أمورها بالحكمة الواجبة ؛ أما اللحن المصرى فكان هو التأثير المباشر والحقيقى للغاية ، والمحسوس لأقصى حد ، لبربرية هذه الشعوب الفظة التى كنا نعيش بينها ، وإليكم هذا اللحن .

لحن مارش مصرى

إيقاع مخمس(١)



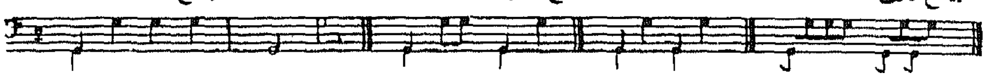
(١) هذا الايقاع نفسه يسمى الدويك بالتركية ؛ وهو نفس الايقاع (أو المقام) الذى عرفه الاغريق بالايقاع المتساوى أو المتعادل أو الايقاع التفعيلى أو الدكتيلى =



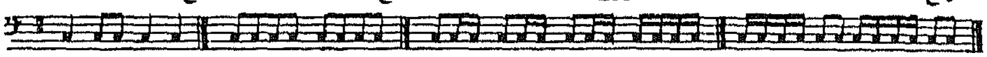
أما الشيء الذى يسهم أكثر من غيره فى إحداث ارتباك كبير فى تأثير هذا النوع من المارشات فهو اختلاف توقيت الايقاع الواحد الذى يصدر عن الصنوج والدفوف والطبول ، ونقدم هنا بعضا من الألحان العسكرية التى دوناها ، ونحن نوضح مرة أخرى أننا قد حددنا بإشارات موسيقية (نوتات) مزدوجة الذيل ، تلك الضربات القوية والنغمات الخفيضة أو الغليظة التى تدقها اليد اليمنى ، أما الضربات الضعيفة وكذلك النغمات الجهيرة أو الحادة التى تحدثها اليد اليسرى ، فقد أشرنا إليها بإشارات من النوع المخالف .

طبول ضخام : يد مزودة بعصا لتضرب من ناحية ؛
أما اليد الأخرى فتمسك بقضيب لتضرب من الناحية الأخرى

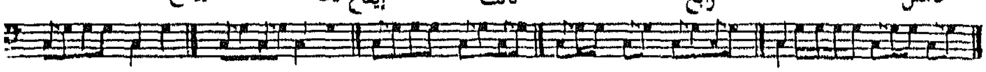
= (والدكتيلة تفعيلة يونانية أو لاتينية مكونة من مقطع طويل ومقطعين قصيرين) . أما الأزمان (الزمن هو جزء وزن اللحن) المشار إليها بإشارة (أو نوتة) طويلة تسمى دوم ، وتلك المشار إليها بإشارة مقتضبة فوق آلات الايقاع فتسمى تك . وفى مجال الغناء يسمى الزمن طا ، وبدلا من تسمية الزمن الآخر تك فإنهم يسمونه دح . والدوم ، مثله فى ذلك مثل الطا ، هو الزمن القوى ؛ وتتميز الدوم ، عندما توضع فوق آلات الايقاع فى أنها تضرب باليد اليمنى فوق منتصف الآلة ، وأنها تحدث نغمة أكثر خفوتا (غلظة) وأكثر قوة ؛ أما التك فإنها ، عكس ذلك ، تضرب باليد اليسرى ، قريبا من حافة الآلة الموسيقية بحيث تعطى نغمة أكثر جهارة (جهيرة) وأقل قوة ؛ وتُستدعى الطا (يطلب عزفها) بضربة من اليد فوق الركبة أو كذلك بإبهام اليد نفسها ؛ وهكذا يكون من الجلى أن المصريين يقومون – فيما يتصل بالأزمان الايقاعية – بنفس التمييز الذى نقوم به نحن .

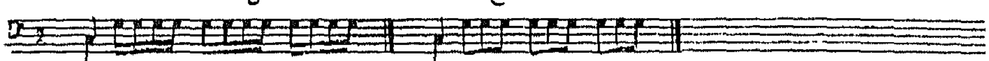


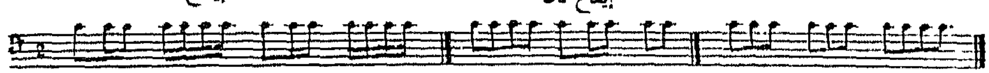
طبول عادية



طبول تسمى نقارية ، ويوجد منها على الدوام اثنتان :
واحدة بالغة الضخامة ، أما الأخرى فمتوسطة الحجم
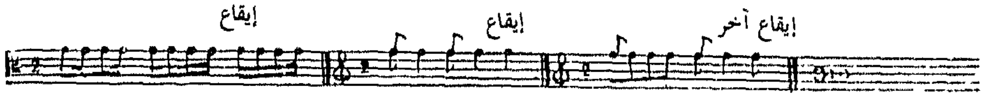






صنوج تضرب عند وسطها

طبول صغيرة للغاية

طبول صغيرة تسمى نقرزان



المبحث السابع

عن الموسيقى الدينية أو الإنشاد الدينى بصفة عامة ، وعن الإنشاد المسمى آذان ، بصفة خاصة

حرم محمد على المسلمين استخدام الموسيقى والآلات الموسيقية ، ومع ذلك فإنهم يرتلون أو يكادون يغنون ، فى كل صلواتهم ، بل إنهم فى بعض الأحيان يصحبون هذه الصلوات (أى الأدعيات) بصوت آلات الموسيقى ، كما أن لديهم تراتيل يؤدونها على شرف النبى وشرف أوليائهم .

ولن نأخذ على عاتقنا أن نورد هنا كل هذه الأغانى ، وإن كنا سنُعَرِّف ببعض منها ، من كل نوع ، حتى يصبح بالإمكان الحكم عليها ؛ أما الأخريات فسوف نكتفى بإيراد وصف لها .

وسيكون النشيد الذى سنبدأ به ذلك الذى اسمعنا إياه المؤذنون (١) من فوق المآذن(٢) للإعلان عن حلول وقت الصلاة .

وإليكم أصل وسبب هذا النوع من الاعلان أو المناداة حسبما تروى الروايات(٣) :

---

(١) مودن وبالعربية الفصحى مؤذن .

(٢) المئذنة هى نوع من برج دائرى بالغ الارتفاع ، يوجد عند نحو منتصفها ممر يدور حولها من الخارج ، يقف عليه المؤذن ليؤدى نداءه . ويدور المؤذن فوق هذا الممر (حول المئذنة) ليتوقف عند كل واحدة من الجهات الأصلية أى تجاه الشرق والجنوب والغرب والشمال . وعادة ما يختار عميان لأداء هذه المهمة مخافة أن يلمح المؤذن – حالة كونه مبصرا – النسوة فى شرفات بيوتهن عند قيامهن بأداء بعض الأمور المنزلية . ويسمى هذا البرج فى مصر أيضا (مدنة) وتكتب الكلمة بالعربية الفصحى مئذنة .

(٣) انظر :

Tableau général de l'Empire Ottoman, par M. Obisson, Paris, 1788, t.II, Code réligieux, P. 108.

« حيث لم يكن نبى المسلمين ، عند هجرته إلى المدينة يقوم بأداء الصلوات الخمس فى التوقيت نفسه ، والساعة نفسها ، فقد تجمع تلاميذه (صحابته) الذين كان يفوتهم فى غالبية الأوقات أن يؤدوا النَّماز[1] معه ، ذات مرة ، كى يبحثوا عن وسيلة لإعلان العامة بحلول الأوقات ، من النهار أو الليل ، التى لابد أن تؤدى فيه الفريضة الأولى التى فرضها دينهم ؛ وقد رُفِضَ على التعاقب : استخدام البيارق ، والأجراس ، والأبواق ، والنار ، حين اقترحت كل واحدة مما سبق كعلامة يتفق عليها لهذا الغرض . فقد لفظت البيارق أو الرايات باعتبارها لا تتفق قط مع قداسة الأمر ، ونحيت الأجراس حتى لا يكون فى ذلك تقليد للمسحيين[2] ؛ أما الأبواق فرفضت لأنها خاصة باليهود ، كما رفضت النار لأن فى استخدامها تشبّهاً بديانة المجوس ، عبدة النار » .

« وإزاء تعارض الآراء ، فقد تفرق الصحابة دون أن يتوصلوا إلى شىء ؛ وفى الليل رأى أحدهم فى المنام ، وهو عبد الله بن زيد ، ملاكا يرتدى ملابس خضراء ، ففاتحه عبد الله فى الأمر الذى شغل صحابة الرسول ، فقال له هذا الملاك سأدلك على وسيلة توضح لك كيف ينبغى القيام بهذه الفريضة المقدسة : وهنا صعد فوق سطح منزل وأدى الآذان[3] بصوت عال ، وبالعبارات نفسها التى أخذ الناس يستخدمونها منذ ذلك الوقت لإعلان مواقيت الصلوات المفروضة » .

« وإذ قام عبد الله من نومه ، فقد هرع ليعلن رؤياه على النبى ، فأقرها وباركها ، وفوض على الفور بلالا الحبشى ، وهو واحد من الصحابة ، ليؤدى من فوق سطح منزل ، هذه المهمة الجليلة باعتباره مؤذن (الرسول) » .

---

(١) نماز كلمة فارسية ، وهى الكلمة التى تطلق على كل واحدة من الصلوات الخمس المفروضة .

(٢) هناك حالة أخرى رفض فيهاالمسلمون استخدام الأجراس التى يستخدمها المسيحيون ، وسنشير إلى ذلك فى مبحثنا عن المقرئين أو المنشدين عندما يتصل الأمر بالمُسحِّر (المسحراتى) .
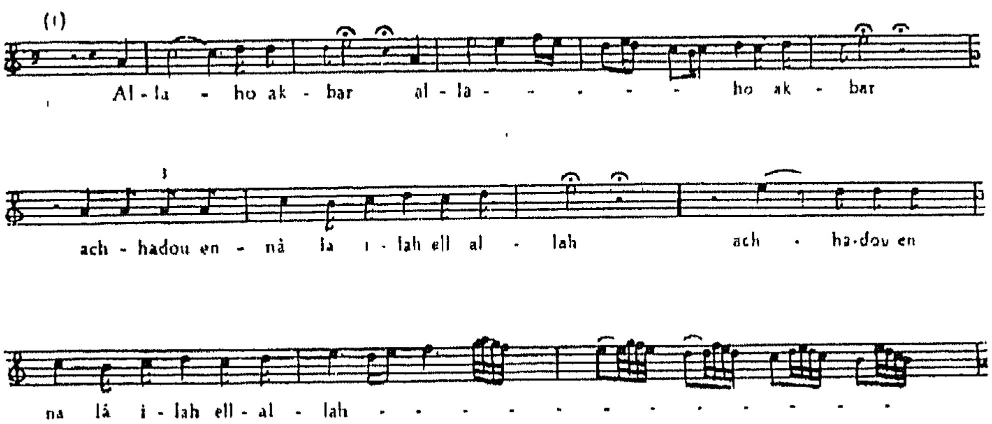
(٣) تعنى كلمة أذان بالعربية الدعوة إلى الصلاة .

وسنقوم هنا بتدوين هذه الصيغة من الدعوة إلى الصلاة ، طبقا للأداء المنغم الذى سمعناه ، وفى أكثر مراته وضوحا ، ومع ذلك فهذا (الانشاد) قابل لبعض تغيرات أو اختلافات طبقا لمزاج ، أو تبعا لمدى قوة صوت المؤذن .

وأناشيد نداءات الصلوات المختلفة ، والتى تتم من فوق المآذن ، هى من أنواع عدة ، ولها فى مجملها طابع أصيل يختلف عن الطابع الذى تأخذه ضروب الإنشاد الأخرى ، إذ ينبغى لها أن تُنغَّم على الدوام بأكبر قدر من القوة ، وفى أكثر طبقات الصوت جهارة حتى تسمع عند أقصى بعد مستطاع ، مما يجعلها تأخذ مكانا وسطا بين الصيحات وبين الغناء كثير الحواشى أو الزخارف ، ويمكننا أن ندعى فى جرأة أننا قد نقلنا هذا الأذان على وجه الدقة ، لدرجة يصبح من السهل معها على هؤلاء الذين تسنى لهم أن يسمعوها فى مصر ، أن يتعرفوا عليها ، وفى الوقت نفسه فإنه من العسير على شخص لم يكن قد جاء بنفسه إلى هذه البلاد ، أن يقدر كل الصعوبات التى كان علينا أن نذللها ، حتى ننجح فى الأمر بشكل تام ، برغم استعادتنا (لهذا الآذان) مرات كثيرة عندما جئنا بمن يؤديه عندنا .

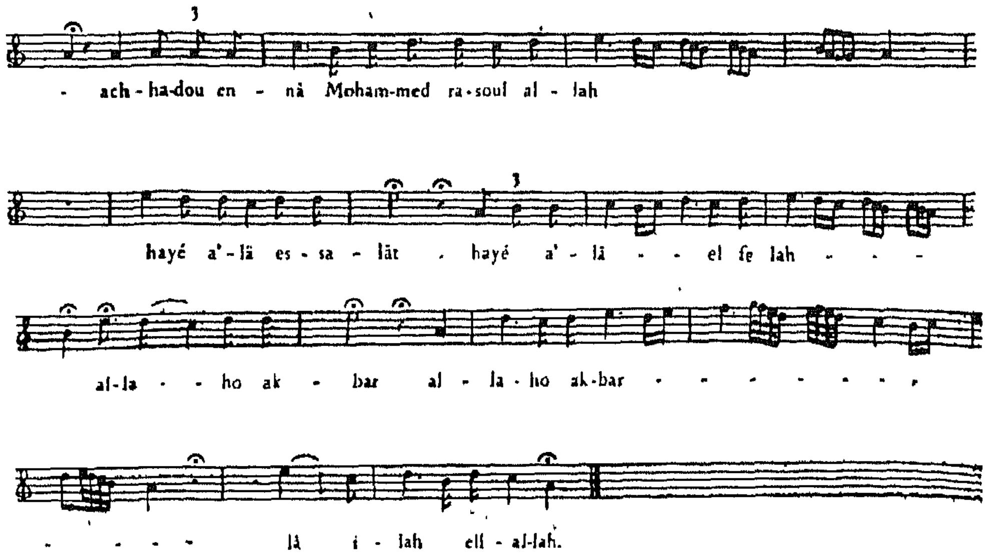
تنغيمات الأذان

«أو : النوته الموسيقية لإنشاد الدعوة إلى الصلاة »(١)
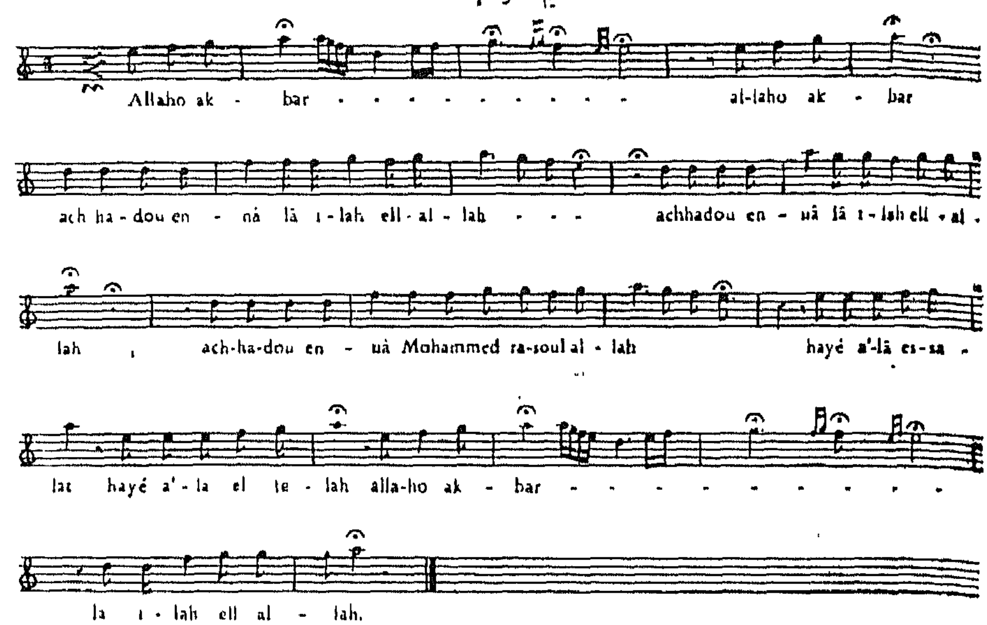


---

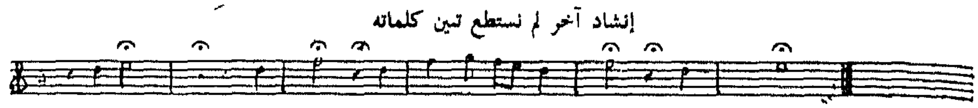
(١) دونا نغمات الغناء (الآذان) فى نغمة الصول (سول) وعلى النحو الذى عرفت به بشكل عام ؛ ومع ذلك فمن السهل أن نفترض وجود هذا الغناء فى طبقات الأصوات البشرية .
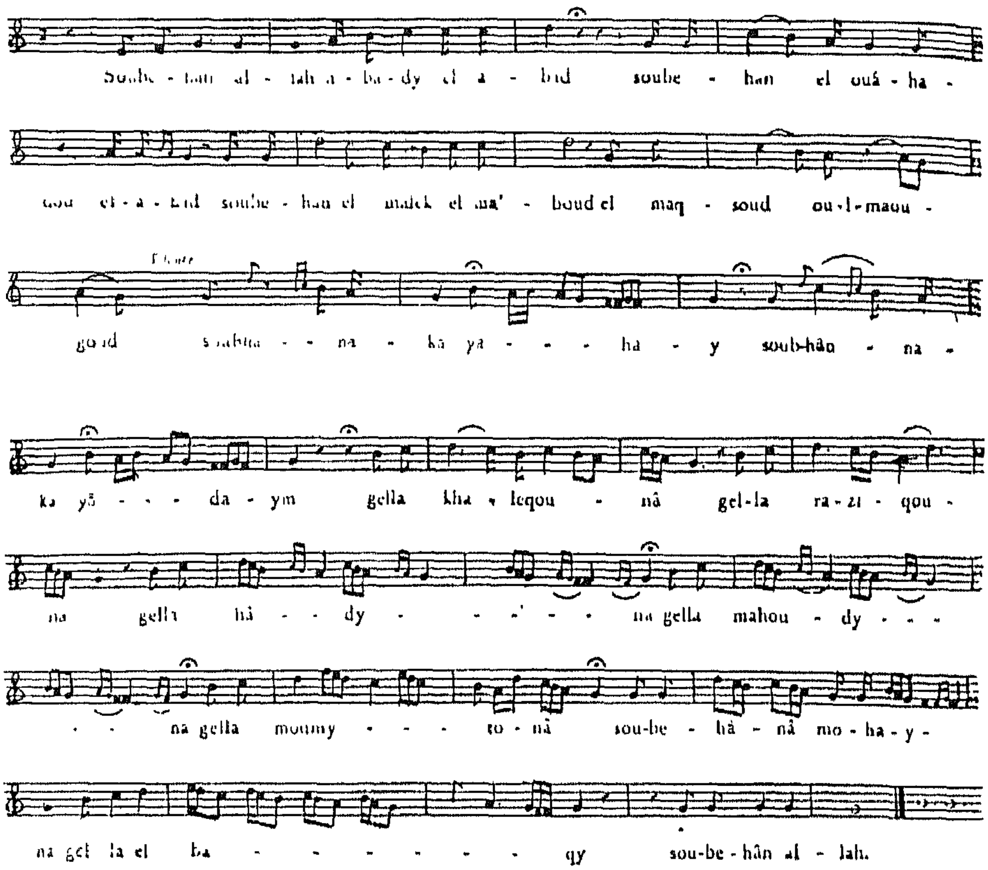


تنغيم آخر للإنشاد نفسه



إنشاد آخر لم نستطع تبين كلماته



إنشاد المؤذن قبل صلاة الفجر



« سبحان الله (هادى) العباد ، سبحان الواحد الأحد ، سبحان الملك المعبود ، المقصود والموجود ، سبحانك ياحى ، سبحانك يادايم ، جل خالقنا ، جل رازقنا ، جل هادينا ، جل مهدينا ، جل مميتنا ، سبحان محيينا جل الباقى سبحان الله »

المبحث الثامن

عن حفلات (زفة) المولد وأغانيه

لا يقيم المصريون قط حفلات سنوية لذكرى وفاة راحليهم ، وإنما يحتفلون بالذكرى السنوية لمولدهم ، ويتم هذا الاحتفال ، الذى يطلق عليه اسم المولد ، بقدر متفاوت من البذخ والأبهة ، يتناسب مع درجة القداسة أو التبجيل التئ يوحى بها الشخص موضوع التكريم ، فإذا كان هذا المولد يقام احتفالا بذكرى ولى أو شيخة ، فإن الناس يتجمعون فى الجامع الرئيسى بالحى الذى يقع فيه ضريح أو مقام هذا الولى ؛ ومن هناك يتوجهون فى شكل موكب (زفة) إلى المكان المحدد للاحتفال بهذا الولى بصفة خاصة .

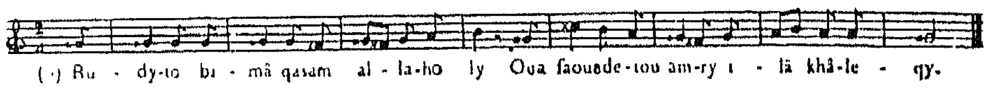
ولعل الوصف الذى سنقدمه هنا عن مولد **ستى زينب** [1] وهى واحدة من أكثر شيخات (أولياء) المسلين قداسة ، وكذا الأغنيات (التراتيل أو الأناشيد) التى سنلحقها بهذا الوصف ، سيكون كافيا كى يعطى القارىء فكرة توشك أن تكون دقيقة ، عن الاحتفالات الأخرى من هذا النوع .

عندما تبدأ الزفة مسيرتها من جامع **ستى زينب** فإنها تبدأ بترتيل هذا النشيد (الموشح) :

نشيد (أو موشح) مولد ستى زينب

مقام حجاز ، إيقاع صوفيان

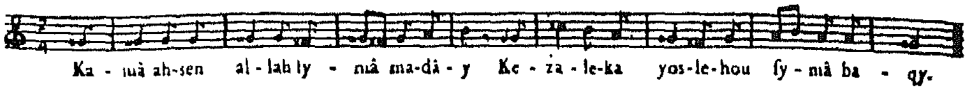
الدور الأول
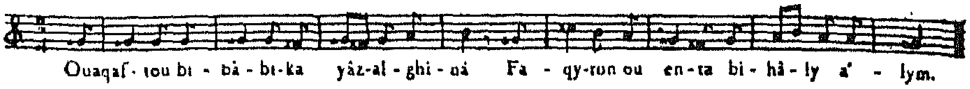


---

(١) زينب هى كبرى البنات اللاتى أنجبهن محمد ﷺ من (السيدة) خديجة ، زوجته . (والحقيقة أنها ابنة الامام على كرم الله وجهه) أما الحى المعروف باسم ستى زينب فى القاهرة فيجاور حى قاسم بك الذى كنا نقطنه ؛ وأما الجامع الذى وضع تحت كنف السيدة زينب فيوجد فى الحى الذى يحمل هذا الاسم ، والذى يقع بين حى وجامع طولون وحى قاسم بك .

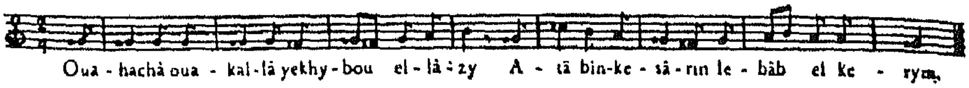
الدور الثانى (١)



الدور الثالث



الدور الرابع



النص العربى

رضيت بما قسم الله لى ،
وفوضت أمرى إلى خالقى ،
كما أحسن الله فيما مضى ،
كذلك يصلح فيما بقى .
وقفت ببابك يا ذا الغنى ،
فقير وأنت بحالى عليم ،
وحاشا وكلا يخيب الذى أتى
بانكسار لباب الكريم (١)

---

(١) بمقارنة الشكل الإملائى للكلمات المكتوبة تحت النشيد ، بشكلها الاملائى فى النطق العادى لهذه الكلمات نفسها ، شعرا ، وهو ما اتبعناه فى العمود الأوسط (وهو العمود الذى كان ينقل النشيد العربى بلفظه العربى ولكن بحروف لاتينية ، كى يتمكن القارىء الفرنسى من قراءته ، وقد حذفناه لعدم ضرورته هنا) نلاحظ اختلافا محسوسا ع ناتجا عن بعض جوازات أو تصرفات مسموح بها عند الغناء حتى يمكن تطويع الكلمات ، بشكل أفضل ، وبطريقة أكثر مناسبة ، مع الأزمنة الايقاعية .

(٢) على هذا الشكل الهجائى ، يكتب المسيو سلفستر دى ساسى ، وهو الذى يعد =

(ترجمة) المسو سلفستر دى ساسى

« إننى راض بما أعطاه الله نصيبا لى ،
وأدع لخالقى مهمة رعاية كل أحوالى ؛
وإذ غمرنى الله بآلائه فى الماضى ، فإنه
بالمثل سيقضى بكل شىء ، فى
المستقبل ، على النحو الذى يحقق
مصالحى . لقد التمست بابك يا واسع
الغنى ، إننى فقير وأنت تعلم حالتى .
كلا ، إنَّ الله لن يرضى بذلك ، فلن
يخيب قط ، رجاء ذلك الذى يأتى
بقلب مفعم بالعشم ، يلتمس باب
الرب السخى المعطاء » .

وبينما ينشد الناس هذا الموشح ، يواصل الموكب مسيرته صوب المكان المحدد له .

وتكون هذه الزفة فى العادة كبيرة العدد ، وتتم على ضوء المشاعل ، وتضم فى صفوفها :

١ – « الفقها » الذين ينشدون التواشيح والقصائد ، مثال ذلك القصيدة التى قدمناها للتو .

٢ – حشدا هائلا من الطرق الصوفية المكونة من « الفقرا » الذين لهم تواشيحهم وموسيقاهم وبيارقهم الخاصة بهم . وتكون بيارق كل طريقة صوفية على الدوام من نفس لون عمائمهم ، طبقا للعادات أو الممارسات التى تحددها لوائح وتعليمات هذه الطرق ، ولهذا السبب فإن لبعضها بيارق بيضاء اللون مثل القادرية

= رأيه نافذا فيما يتصل بنطق اللغة الفصيحة ، نص هذا النشيد ، الذى شاء عن طيب خاطر ، وبرجاء منا ، أن يترجمه إلى الفرنسية .

والطيابة والعلوانية الخ ، كما أن لبعضها بيارق سوداء اللون مثل الرفاعية الخ[١] ، وتكون بيارق فريق ثالث حمراء اللون مثل الشناوية والعيسوية والنقشبندية والقاسمية الخ ، فى حين تحمل طرق أخرى بيارق خضراء اللون مثل الملاوية والبرهامية الخ ؛ كما يحمل فريق خامس بيارق صفراء مثل العفية الخ ، وتستضىء كل طريقة بعدد متفاوت من المنارات (منارة)[٢] والمشاعل (مشعل)[٣] تنشر ضوءا بالغ الإبهار ، ويهرع ألوف المسلمين الذين يؤججهم الورع ، من كل صوب نحو هذه المواكب ، فى شكل جموع غفيرة ، تتخذ مكانها خلف المسيرة .

---

(١) قلة من المسلمين فقط هم الذين لا يتبعون أيا من هذه الطرق الصوفية ؛ ويوشك أن يكون هناك عدد من هذه الطرق المختلفة يماثل عدد المشايخ أو الأولياء المسلمين ؛ وحيث أن لكل امرىء الحرية فى الانضمام إلى أى من هذه الطرق كما يتراءى له ، فإن هناك من بين المسلمين من ينتمى إلى هذه الطريقة التى نشأت فى بلدة ما حاملة اسم أحد الأولياء ؛ وهناك كذلك آخرون ينضمون إلى طريقة نشأت وهى تحمل اسم هذا الولى نفسه ولكن فى بلدة أخرى ، أو فى بلدة هؤلاء « المريدين » أنفسهم ؛ وهكذا توجد فى كل مكان عدة طرق تحمل الاسم نفسه ، وتتميز عن مثيلاتها باسم البلدة التى نشأت بها ، أو التى تتبع هى عادات أهلها وممارساتهم .

(٢) المنارات (والمفرد : منارة) تشبه مشكاة مخروطية الشكل ، هائلة الحجم ، وهى تتكون من ثلاثة أو أربعة أرفف من الخشب ، يشكل كل واحد منها دائرة مسطحة الشكل ؛ أما الرف أو القرص الأول فقطره أكبر من قطر القرص الثانى ؛ وقطر هذا الدف الثانى أكبر من قطر الدف الثالث ، وهكذا ، بحيث يبز الدف أو القرص السفلى ، إلى الخارج ، القرص الذى يعلوه مباشرة ، وتخترق محيط كل قرص ثقوب توضع بها الشموع أو الشمعدانات ؛ وتمسك هذه المنارة من أعلا بعصا طويلة .

(٣) أما المشاعل فهى صنف من المواقد المقفلة من أسفلها عن طريق لوحة دائرية من الحديد ؛ وتقتسمها من أعلا اثنتان أو ثلاث من الدوائر أو الشرائط المستديرة من المعدن نفسه ، تدعمها دعامتان من الحديد كذلك . وتحمل هذه المشاعل من أعلا بواسطة عصا طويلة ؛ وتشتعل فى داخلها قطع صغيرة من خشب الراتنج أو الصمغ .

ويسير الفقها على رأس هذه المواكب ، ويفصل بين هؤلاء وبين أول جماعة صوفية من جماعات الفقرا ، نفر من الموسيقيين يعزفون على آلاتهم ألحانا موسيقية ، ويعقب كل جماعة من جماعات الفقرا هذه فريق من الموسيقيين يعزفون على نوع من الناى يسمى مزمار ، وعلى صنوج ، وعلى طبول يسمونها نقرزان ، وعلى طبول بالغة الصغر تسمى باز ، وعلى الدفوف ، وعلى دف الباسك المسمى البندير ؛ أما أثر كل ذلك ، وهو الأمر الذى يسترعى الأنظار بشدة ، فهو ضجة صخابة ، ومع ذلك ، فكل هذه الأنغام موزعة بطريقة لا يحدث معها خلط أو اضطراب ، وبحيث لا تحول الضجة الصادرة عن فريق ، دون سماع الغناء (الانشاد) الصادر عن الفرقاء الآخرين .

وعندما يصل موكب التطواف (الزفة) إلى الضريح الذى أودعت إياه ، حسب الاعتقاد الشائع ، رفات القديسة (الولية) المسلمة ، يذهب كل امرىء إلى هناك ليؤدى صلواته ويقدم قرابينه (نذوره) ، إذ يولى المسلمون ثقة تامة لمعجزات مشايخهم أو أوليائهم ، وبصفة خاصة لمعجزات أولئك الذين ينحدرون من سلالة محمد أو ينتمون إلى عائلته . ولكى يستطيعوا أن يحوزوا مثل هذا الشرف ، فإنهم يلقون ببعض قطع المدينى فى حوض صغير يوجد فوق ضريح الولى بعد أن يفارقوا مزاره ، أو يوقدون هناك شمعة ، فإذا كانوا هم مرضى أو كانوا يصطحبون معهم أقارب مرضى يرجون شفاءهم ، فإنهم يمسحون بملابسهم هذا الضريح ، وقد جرت العادة كذلك بأن يلقوا بأغصان الريحان فوق الضريح أثناء آدائهم لصلواتهم ، ثم يستعيدونها بعد ذلك ، لكى تعلو هذه الأغصان بعد ذلك فراشهم ، أو يعلقونها فى المكان الذى يسكنونه ، ويقوم البؤساء بملامسة هذا الضريح بحزم كبيرة من فروع الريحان ، ثم يسارعون بعد ذلك بتوزيعها على المارة فى الشوارع ، ولاسيما هؤلاء الذين يتوسمون أنهم سيحصلون منهم على مكافأة أكبر ، ولهذا لم يكن يفوت هؤلاء قط أن يقدموا بعضا منهم إلى كل فرنسى كانوا يلقونه ، طيلة الوقت الذي كنا نحتل فيه مصر ، دون أن يوحى اختلاف الدين لهؤلاء البؤساء بأى هاجس .
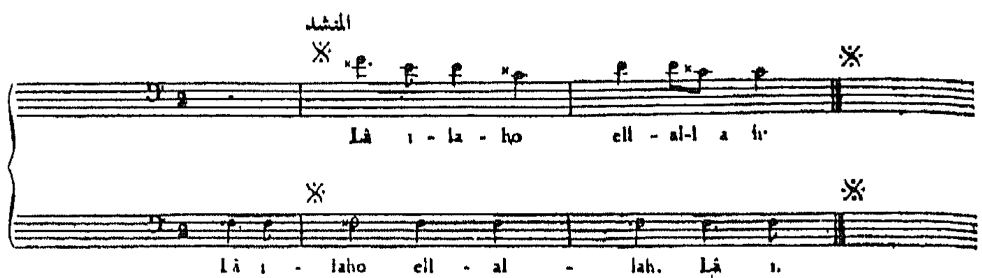
وفى الوقت الذى يذهب فيه كل مسلم ورع ليلتمس بركة ورضاء وليه المقدس ، يمضى الفقها ليجلسوا خارج الضريح ، وهناك يرتلون معا إحدى سور

القرآن ، التى يقسمونها إلى أربعة أجزاء ، يوزعونها فيما بينهم ، بحيث لا يرتل أى منهم سوى الربع من هذه السورة ، وبعد ذلك يأتى دور إنشاد الموشحات والقصائد .

وتتخذ كل واحدة من الطرق الصوفية للفقرا ، من ناحيتها ، مكانها داخل سور الضريح ، أو فى الميدان السابق على هذا الضريح ، وهناك ترفع بيارقها وتعزف موسيقاها ، وتؤدى « رقصات » (الذِّكر) المتصل بممارساتها الخاصة ، ثم تترنم باللحن الآتى على طبقتين ، تؤدى خفيضتهما بشكل جماعى ، أما الجهيرة فيقوم بأدائها المنشد ، أى ذلك الشخص الذى يدير حركة الغناء ، وكذلك حركة « الرقص » (الذكر) وذلك بتحديده للايقاع ، الذى يصبح فضلا عن ذلك محسوسا ، بفعل ضجة الصنوج وتوقيعات الدفوف .

غناء الرقص الدينى للفقرا

(أى الانشاد الذى يتم أثناء أداء الذكر)



لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله

أما رقص هؤلاء فيشتمل على تكوينهم لدائرة ، ثم الدوران حولها ، كلهم معا فى وقت واحد بإيقاع معين ، وكل منهم ممسك بيدى جاره ، ملقين بالرأس مرة إلى اليمين ومرة أخرى إلى اليسار ، ومع كل نوبة من نوبات الإيقاع ، وفى البداية ، تكون حركة الرأس بطيئة ، وكذلك تكون حركة الغناء ، ثم يسرع بها المنشد ، على درجات ، أثناء إنشاده ، وبالتالى تصبح حركة الرأس أكثر سرعة وأكبر عنفا ، وأخيرا ينتهى الأمر بهذه الحركات ، التى تتزايد سرعتها درجة درجة ، بأن تصبح بالغة السرعة

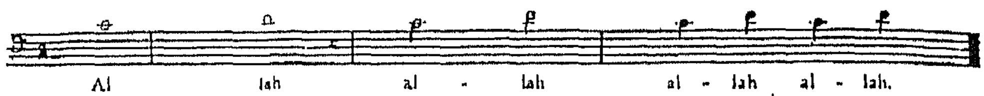
حتى أن الكثيرين من الفقرا ، بفعل من غيبة الوعى بقدر ماهو بفعل التعب ، يترنحون ثم يسقطون على الأرض ، وهم فى حالة من الانتشاء والانفعال ، تدفع بهم إلى الارتماء على هؤلاء المحيطين بهم ، بل وأحيانا إلى عضهم ، وإن كان الناس فى العادة يهرعون إلى مساعدتهم ، والتهدئة من روعهم بكل وسيلة يرونها أكثر ملاءمة من غيرها ، وعندما يستعيد هؤلاء وعيهم ، يبجلهم الناس كما لو كانوا أولياء ، ويعرضون ، هم بدورهم ، أيديهم ليقبلها هؤلاء الذين يمثلون أمامهم أو يباركون بأيديهم رءوس من حولهم .

وفى بعض الأحيان يذهب إلى مثل هذه الأعياد ، شعراء ينشدون قصائدهم فى مدح الولى .

وحين تنتهى الصلوات (الأدعيات أو الابتهالات) يعود الفقرا من هناك مع العامة ، إلى المسجد منشدين مايلى :

نشيد العودة من موكب التطواف (الزفة)

فى المولد إلى المسجد



الله ، الله

وهذا الانشاد ، كما نرى ، لا يتكون إلا من نغمتين ، وهو يبدأ فى بطء شديد ، بحيث تستطيل كل نغمة لحد تتقطع معه الانفاس ، وهو ما أشرنا إليه بالدوائر ، ثم يأخذ بعد ذلك فى الاسراع ، درجة فدرجة ، ليصبح أقل بطئا ، وقد أشرنا إلى ذلك بالدوائر البيضاء ، ثم يصبح الايقاع أكثر قوة ، وهو ما أشرنا إليه بالدوائر السواء ، وكلما زاد اقتراب القوم من الجامع ، كلما يصبح اللحن سريعا وقويا ، وعندما يصبح هؤلاء فى النهاية على وشك الدخول إلى الجامع ، يصبح الانشاد سريعا لدرجة لا يستطيع المرء معها أن يتابعه ، ثم يدخل الناس إلى المسجد فى صمت ، وتنتهى (زفة) المولد .

المبحث التاسع

عن أناشيد وعن رقصات الذكر[1] عند الفقرا

يؤدى الفقرا كذلك أناشيد ورقصات توشك أن تشبه سابقاتها ، فى بعض المناسبات الدينية ، مثل احتفالات الذكر ؛ وفى هذه المناسبة يتجمع الفقرا ، من الذين ينتمون إلى الطريقة الصوفية نفسها ، سواء فى المساجد التى أسسها شيخهم ، أو فى أى جامع آخر ، إذ أن لهم منشئات خاصة بهم أقامها شيخهم أو أقامها ، تقربا إليه ، بعض المتحمسين من أتباعه ، يتوجه إليها هؤلاء فى أيام بعينها من الأسبوع أو الشهر ، حددوها هم .

ولعلنا هنا نضع أيدينا على مبحث بالغ الأهمية ، ومثير للغاية ، حول هذه الأنواع من الطرق الصوفية ، وحول نشأتها وأصلها وممارساتها ورقصاتها وملابسها ، وشاراتها المميزة التى تسهل التعرف عليها ، ذلك أن كل واحدة منهن تختلف عن الأخريات فى بعض من هذه الأمور ، لكننا نأسف ألا تستطيع المعلومات التى دوناها حول هذا الموضوع ، أن تجد لنفسها مكانا هنا ، حيث تقتصر مهمتنا على دراسة الموسيقى . وفى واقع الأمر فإن هذه المعلومات لا تناسب سوى دراسة تهدف إلى التعرف على تقاليد وعادات المصريين .

ومع ذلك ، فسيكون بمقدورنا ، دون أن يغيب عن ناظرنا موضوعنا الرئيسى ، أن نقول بعض شىء عن الذكر الذى يمارسه فقرا طريقة السمانية ، وهو الذكر الذى سمح لنا أن نحضره فى التاسع والعشرين من بريريال من العام التاسع لقيام الجمهورية (١٨ يونية ١٨٠١) ، وقد تأسست هذه الطريقة على يد محمد السمان . وليس لهؤلاء الذين انضووا تحت لوائها شارات مميزة ، بالغة الوضوح ، فى ملابسهم ، فهم يرتدون

---

(١) ذكر ، وتعنى هذه الكلمة حرفيا ذكر ولى ما فى الصلوات (أو فى الابتهال والضراعة) . وعلى هذا النحو تسمى الأدعيات والأناشيد والرقصات التى يؤديها الفقرا فى ذكرى الأولياء الذين يجلونهم أكثر من غيرهم ، وبصفة خاصة فى ذكرى موالد شيوخهم المؤسسين .

العمامة البيضاء ، ونظامهم هو واحد من أكثر الأنظمة صرامة وتقشفا ، ولهم ، شأنهم في ذلك شأن الآخرين من الفقرا ، رقصة خاصة بهم ، فعلى حين كان فقرا مولد ستى زينب تتشابك أيديهم فى حركة دائرية ، وتصحبهم ضجة الصنوج القديمة المسماة **كاس** باللغة العربية ، وبأنواع أخرى كثيرة من الآلات الموسيقية ، فإن هؤلاء (السمانية) يشكلون فى بعض الأحيان ، كذلك ، دائرة دون أن يتشابكوا مع ذلك بالأيدى ، تاركين أذرعهم مدلاة بطول أجسامهم ؛ وبدلا من أن يستديروا كالسابقين يمينا ويسارا ، فإنهم لا يفعلون سوى أن يثبوا فوق أطراف أقدامهم ، ويتقافزون دون أن تفارق الأرض أقدامهم ، وبدون أن يتزحزحوا عن أماكنهم ، وينهض المنشد وسط دائرتهم ، ويدير حركة الغناء (الانشاد) الذى يؤدونه فى شكل هذه الكلمات : لا إله إلا الله ، أو بقولهم فقط : الله الله : أو قيوم ، قيوم .

أما ذكرهم الأكثر أبهة ومهابة فهو الذكر الذى يؤدونه بالقرب من ضريح الشيخ (الامام) الشافعى[1] ، فى ميدان البيومية ، خلف قلعة القاهرة ، ويستمر هذا الذكر أربعة أيام ، بدءا من الثامن من شهر المحرم حتى الثانى عشر من الشهر نفسه ، لكننا لم نكن شهودا على هذا الذكر ، وإن كنا قد شهدنا ذكرا آخر ، للطريقة نفسها ، فى مسجد صغير يقع بحى الخراطين ، وبمجرد أن تجمع الفقرا فى هذا المسجد ، اصطفوا هناك فى صفين متوازيين ، جلسوا على أعقابهم ، وبدأوا بأن قرأوا ، أو بالأحرى ، رتلوا بعض سور من القرآن ، بقيادة اثنين من المنشدين[2] ، كانا

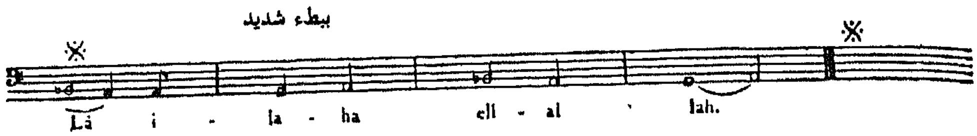
---

(١) وهو اسم شيخ واحد من المذاهب الأربعة السنية فى الدين الاسلامى .

(٢) المنشد ، ومعناها فى العربية المغنى – الشاعر أكثر مما تعنى المغنى – الموسيقى ؛ والمعنى الحقيقى لهذه الكلمة يماثل ما تعنيه عندنا كلمة Chantre ، حين نستخدمها للحديث عن الشعراء القدامى الذين كانوا يغنون أشعارهم ؛ وبدون هذا التحديد سوف نخلط بين العرب السابقين والمحدِّثين ، الذين سنتناولهم عما قريب ، وهؤلاء الأخيرون ليسوا سوى رواة أو حافظين ، يقصون ، ليس أشعارهم الخاصة بهم ، وإنما أشعار الغير ، وهو ما يجعل بمقدورنا أن ننظر إليهم ، دون أن يعوزنا السبب ، باعتبارهم نوعا من رواة الملاحم .

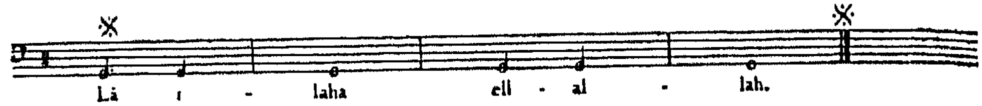
انظر بخصوص كلمة منشد الفعل نشد ، وبخصوص كلمة المحدِّثين الفعل حدّث ، فى القاموس ذى اللهجات السبع الذى وضعه كاستل Castelle

يقودانهم أثناء الإنشاد ، وبعد هذه التراتيل أدوا الأغنية الآتية ، فى نغم شجى رتيب :



لا إله إلا الله

وكانت حركة الغناء فى البداية بالغة البطء ، وكان الذاكرون يؤرجحون أجسادهم بعض الشيء ، مائلين بها إلى الأمام ، ملتفتين مرة إلى جهة ومرة إلى الجهة الأخرى ، مع إتباع نفس الايقاع المنظم الذى يتخذه الانشاد على الدوام ، وبعد ذلك زيد من سرعة ومن وقع الغناء درجة بعد أخرى ، وكذلك من سرعة حركاتهم ، ومع كل مرة يستعاد فيها الانشاد (يعود على بدء) ، يزيد هؤلاء أكثر فأكثر من إيقاعها ، حتى لم يعد ممكنا بالنسبة لهم ، فى النهاية ، أن يتابعوا هذا الايقاع ، بسبب سرعته الشديدة ؛ وحينئذ بدأوا يترنمون بهذه الأغنية ، بشكل أكثر شجنا من سابقتها :



لا إله إلا الله

وبالمثل ، فقد أدوها فى البداية بكثير من البطء ، ثم أخذوا يزيدون على درجات من وقع حركتهم حتى لم يعد يمكنهم أن يتابعوها .

وطيلة هذه الأغنية (الانشاد) وكذلك طيلة الأغنية السابقة ، غنى المنشدون القصائد على الإيقاع أو النغم الذى كان يحدده شيخ الفقرا ، بضربة من يده فوق ركبته ، وهكذا انتهى الذكر الذى استغرق ثلاثة أرباع الساعة .

المبحث العاشر

السهرات(*) الدينية

لا تسمح السهرات الدينية قط بوجود آلات موسيقية ، وهى تؤدى عادة فى الليل ، فى بيوت الموسرين ، وبمناسبة عيد رب الأسرة أو بمناسبة الذكرى السنوية لمولده ، أو ابتهاجا ببعض المناسبات التى حدثت عنده .

وقد كنا ، لعدة مرات ، شهودا على هذه الأنواع المختلفة من الحفلات الموسيقية (السهرات) : وهى تتضمن ثلاثة أجزاء تسمى أثلاث ، يستغرق كل منها ثلث الليل ، يبدأ (الثلث) الأول بسورة من القرآن ، يتلوها الفقهاء فى شكل نوع من الانشاد ، ثم بعد ذلك ينشدون الموشحات(١) وبعد ذلك تأتى القصائد(٢) ثم الأدوار (٣) فى النهاية .

أما أجمل حفلة سمعناها من هذا النوع ، فقد تمت فى ليلة ٤ ـــ ٥ من شهر المحرم من العام ١٢١٥ من الهجرة(٤) فى بيت عثمان أغا ، أقامها هو ، شكرا لله على إبلاله من رمد عانى منه كثيرا ، لمدة ثلاثة عشر يوما ، وقد قادنا إلى هناك الشيخ الفيومى ، وكان مدعوا إلى هناك ، وقد بدأ الجزء الأول من السهرة بالسورة الثانية من القرآن(٥) ، رتلها اثنا عشر من الفقهاء ، بطريقة لا تختلف كثيرا عن الغناء ، وبعد ذلك أنشد معها آخرون موشحات ، ثم قصائد ، أتبعوها بالأدوار أى بتلك المقاطع (الكوبليهات) التى يؤديها هؤلاء المنشدون كل بدوره .

(*) استخدم المؤلف فى الأصل كلمة كونسير Concert

(١) الموشحات ، أشعار وضعت فى شكل غنائى ، وتخضع لايقاع موسيقى .

(٢) القصائد فهى أشعار لا يخضع بناؤها إلا للوزن الشعرى .

(٣) الأدوار ، والمفرد دور ، هى الكوبليهات .

(٤) توافق هذه الليلة ليلة ٢٧ – ٢٨ من فلوريال من العام التاسع لقيام الجمهورية أى ليلة ١٧ – ١٨ من مايو ١٨٠١

(٥) وهى سورة البقرة التى جزؤها الفقهاء إلى أربعة أجزاء (أرباع) يقتسمونها فيما بينهم

وقد بدأ الجزء الثانى من السهرة بقصائد تنقسم كل منها إلى مقاطع صغيرة ، يتألف الواحد منها من بيتين أو ثلاثة أبيات ، ينشدها على التوالى كل واحد من الفقهاء وينتهى الأمر بإنشاد كل الجوقة (البطانة) أى بإنشاد يتم باشتراك كل الفقهاء .

ثم بدأ الجزء الثالث (من السهرة) بالموالات [1] ، وكانت الأبيات الأربعة الأولى (من الموال) ترتل بواسطة أحد الفقهاء ، أما البيت الخامس فكان يغنى فى شكل جوقة ، باشتراك الفقهاء الآخرين جميعا ، على هيئة لازمة أو قرار ؛ وبعد ذلك أدت الجوقة كلها تسابيح ، وهى ألحان أكثر بهجة ، ويبلغ مقاس إيقاعها ثلاثة أزمان أكثر حيوية ، وبعد ذلك أنشد **الدارج** ، وهذه ليست شيئا آخر سوى الموشح بإيقاع سريع ، وأخيرا انتهت السهرة بنوع من **اللحن الكبير** ، مصحوب بمد نغمى على شكل لحن أرغن رتيب ، وعندما تم أداء هذا اللحن ، وجهت التهانى إلى كل شخص فى الجوقة باسمه .

وقد لاحظنا فى هذه السهرة ، كما لاحظنا فى كل السهرات الأخريات ، أن الفقهاء كانوا يسيئون استخدام الزخارف والحواشى ، وأنهم كانوا يطيلون كثيرا من المقاطع ، وعلى نحو يتجاوز ما يفعله بعض المغنين الأوربيين ؛ كذلك قد لاحظنا أنه كان يطلب إليهم إعادة النصوص ، التى تحظى بإعجاب المستمعين[2] ، لعشرة أو اثنتى عشرة مرة ، وأن هؤلاء المستمعين ، عند كل إعادة ، كانوا يصفقون من فرط الحماسة ، ويصيحون إعجابا وسرورا ، ولا يليق بنا أن نعيب أو نلمز ، على نحو مطلق

---

(١) المفرد موال ، والموال ليس سوى دور مكون من خمسة أبيات ، تنتهى أربعة منها بقواف متشابهة ، فى حين تختلف عن ذلك قافية البيت الخامس .

(٢) وإننا لنجهل ما إن كان الشرقيون ، عندما يحضرون إلى حفلاتنا الموسيقية أو إلى عروضنا ، وحين يسمعون تناءنا ونحن نطلب إلى أمهر عازفينا أن يؤدوا من جديد اللحن الذى انتهى من أدائه ، سوف يستشعرون نفس المشاعر التى كانت تنتابنا ونحن نراهم يصفقون حماسة وإعجابا ، ونسمعهم يطلبون ويستعيدون ويصفقون لبعض فقرات من إنشاد الفقهاء ، ومع ذلك فلو أن هذا قد حدث من جانبهم ، فلا ينبغى علينا أن نتطلب منهم أن يروا بالضرورة رأيا مجندا ، لأكثر مما ينبغى أن يفعلوا ، لأمزجتنا وعقلياتنا .

مزاج أمه بأسرها ؛ وإن كنا سنظل على الدوام نتذكر نوبات الإملال التى تعز على الاحتمال ، والتى اضطررنا لتجشمها فى هذه المناسبة ، حتى لا نبدى كم كان مزاجنا الذى تكون على مذاق الموسيقى الأوربية ، يجعلنا نجد فى الأغنيات التى نسمعها أمورا خرقاء بالغة الاسراف ، فى الوقت الذى كنا نجد فيه التصفيق التى يتفجر تشجيعا لهذه الأغنيات ذاتها ، أكثر من هذه مجافاة للعقل وأكثر إسرافا .

المبحث الحادى عشر

الأناشيد ، والطقوس ، والعادات ، والأفكار المسبقة التى تتصل بعمليات دفن الموتى بين المصريين

فى مصر أناس يحترفون ، بشكل أساسى ، الغناء أو الانشاد أمام أجساد من يتم دفنهم ، ويسمى هؤلاء بالمقرئين (مقرىء) . ويحصل هؤلاء ممن يستخدمونهم على إكراميات تبلغ ١٠ ــ ١٥ بارة ، ولم يبد لنا أى لحن من أغنياتهم قط حزينا ، مماثلا للمشاعر التى يوحى بها الحدث الذى كرست هذه الأغانى من أجله ، فلحنها أقرب إلى الحيوية أو السرعة منه إلى البطء ، أما الطريقة النشطة أو المستخِفّة ، وكذلك نبرة الحيدة أو اللامبالاة التى كانت تؤدى بها هذه الأغنيات ، كل ذلك قد جعلنا نحدس ، من قبل أن يقال لنا ذلك ، إنها أغنيات مدفوعة الأجر ، وأن أولئك الذين كانوا يؤدونها يسعون إلى كسب قوتهم (عن هذا الطريق) ، ومع ذلك فمن المحتمل أن هؤلاء المقرئين يدخرون الأغانى التى تحظى بتقدير من جانبهم ، أكبر مما تحظى به تلك ، لأولئك الذين يدفعون لهم أكراميات أكبر أو يكافئونهم بشكل أكثر سخاء ، وإذا كان هذا صحيحا ، وهو أمر نظن أننا قد لاحظناه ، فإن مزاجهم لا يبدى زرايته فى اختيار الأناشيد التى يؤدونها ، بقدر ما يبدو فى الطابع الذى يمنحونه لهذه الأناشيد . ونقدم هنا ، كأمثلة على مانقول ، الأغنيات الثلاث الآتية (والمقصود هو اللحن أو الايقاع) التى يستخدمها هؤلاء عند دفن ثلاثة أفراد ، ينتمى كل واحد منهم لواحدة من الطبقات المختلفة الثلاث التى يتكون منها المجتمع) [(١)]

الأغنية عندما تؤدى أمام جثمان شخص مرموق



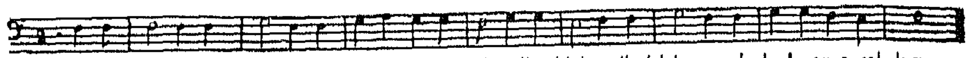
(١) قد كان بمقدورنا أن نضاعف من الأمثلة هنا . ذلك أننا ظللنا نسمع أناشيد أخرى من هذا النوع ، لكنها جميعا لا تحمل طابعا مميزا ، وتتشابه فيما بينها على نحو ما .

(لا إله إلا الله محمد رسول الله وعليه السلام)

. الأغنية نفسها عندما تؤدى أمام جثمان شخص أقل يسرا



الأغنية نفسها كذلك عند دفن واحد من العامة أو من الفلاحين



وتتكرر هذه الأغنية بشكل دائم منذ أن ينترع المتوفى من بيته حتى ، يبلغ جثمانه المكان المخصص لدفنه .

وينظر المسلمون إلى عملية حمل جثمان الميت إلى مثواه الأخير ، باعتبارها عملا بالغ الجدارة ، وهم يسارعون إلى أن يحل بعضهم محل الآخرين بين مسافة وأخرى فى هذا العمل (أى فى حمل النعش) : ويحمل الجثمان داخل نعش ، فوق الأكتاف ، بواسطة أربعة رجال ، اثنين منهم عند كل طرف من طرفى النعش ، وتكون هذه (أى الجثة) فى اتجاه معاكس لاتجاه مسيرة الموكب الذى يرافقه ، وعند هذا الطرف توجد رافعة تتكون من لوح صغير ضيق من الخشب ، وتغطى هذه الرافعة بشال إن كان المتوفى ثريا ، أو يكتفى بملاية (وهى غطاء مصنوع من القطن ، زرقاء اللون) إن يكن المتوفى فقيرا ، ويوضع فوق هذه الرافعة غطاء الرأس الذى كان يرتديه أو كانت ترتديه المتوفى أو المتوفاه أثناء حياتهما ، وهو بالنسبة للرجل الطربوش[١] الذى كانت تلتف حوله العمامة[٢] : أما إذا كان المتوفى سيدة ، أو طفلا فيضاف إلى ذلك الحلى التى كان من المعتاد أن تتزين بها السيدة ، وكذلك جدائل الحرير الداكن أو الأسود التى

---

(١) قلنسوة أو طاقية كبيرة من التيل ، أحمر اللون .

(٢) العمامة ، شال كبير من الموسلين أو الكشمير أبيض اللون أو أحمر ، أو أخضر ؛ ويبلغ طوله نحو ٦ إلى ٧ أذرع ، وبعرض يبلغ نحو ذراعين ، ويدور حول الطربوش .

تحاكى الشعر ، وهذه الجدائل التى تتزين بها كل النسوة تتدلى حتى أسفل خصورهن ، وتكون مجملة بكل طولها بصفائح صغيرة من الذهب ، أو بقطع نقدية صغيرة من المعدن نفسه أو من الفضة ، إذا لم تكن المتوفاه ، ثرية وأحيانا تكون هذه من النحاس إذا لم تكن هذه السيدة ميسورة ، أو تكون هذه الجدائل فى النهاية عارية عن أية زينة ، إذا كانت المتوفاة بالغة البؤس ، وحين تكون المتوفاه فتاة ، يضاف إلى ذلك عقودها وبقية الحلى التى كانت تستخدمها .

وعند دفن سراة القوم ، تسير فى مقدمة النعش كوكبة من الأطفال ، يحمل واحد منهم ، هو أوسطهم ، نسخة من القرآن فوق طوية صغيرة ، ويغنى (ينشد) هؤلاء الأطفال معا أدعيات ، بنغمة مرحة وبنبرة مستخفة ، ويحصلون فى مقابل ذلك على بارتين (لكل منهم) أو قطعتين من المدينى [1] ، ويسبق هؤلاء عدد محدود من المنشدين ، يسمون المقرئين ، وهم الذين سبق لنا أن تناولناهم بالحديث ، وينشد هؤلاء بنغمة أقل سرعة وأقل خفة عن سابقيهم من الأطفال . وفى مقدمة المنشدين كذلك توجد جوقة أخرى من المقرئين ينشدون كذلك أغنيات مختلفة ، وفى نغمة أخرى ، ومن لحن مختلف ، وأمام هؤلاء كذلك توجد فرقة أخرى ، ويمكن القول فى النهاية إنه يوجد من فرق المنشدين والمقرئين هذه نحو عشرة أو اثنتا عشرة فرقة ، أما خلف النعش فتوجد النائحات المأجورات أو النادبات ، وتكون رؤوس هؤلاء معصوبة بنوع من الخمار الداكن أو الأسود ، ملفوف ، ومعقود عقدة واحدة عند الخلف ، أو أنهن يمسكن بأيديهن هذه العصابة ، يلوحن بها فى الهواء وهن يطلقن دون نظام صيحات الألم ، وإن كان أكبر عدد منهن يبدون وكأنهن يقلدن الألم ، كالقرود ، بشكل يبعث على الضحك أكثر مما يتمثلنه حقيقة ، أما صيحاتهن ، فبرغم كونها حادة للغاية وخارقة للآذان ، فإن لها نغمة واثقة ومطمئنة ، لحد لا يمكنها معها أن تعبر عن اللوعة أو الألم ؛ كذلك فإن حركاتهن إرادية وطليقة لحد لا تستطيع معه أن تعلن الاضطراب والحزن . وباختصار فإن لهن هيئة من يسخر بالميت ويستخف بمن يؤجرونهن ، أكثر مما لهن من مظهر الباكيات المنتحبات ، ومع ذلك فإنهن لا يكففن

---

(١) البارة أو المدينى شىء واحد ؛ فعلى هذا النحو تسمى فى مصر قطع النقد الصغيرة ، وهى تساوى تسعة دراهم من عملتنا .

عن مناجاة الميت بأرق الأسماء ، وعن امتداح فضائله الخلقية العالية ، بل كذلك عن إطراء ميزاته الجسدية ،فإن كان رجلا فإنهن يصرخن : ياخوى ياخى ياحبيبى الخ أى يا أخى يا محبوبى ياصديقى ، وإذا كان متزوجا يصحن : يا عريس ، حتروح وماترجعش ، أى يازوجى إنك ذاهب ولن تعود قط ، إما إن كانت سيدة فإنهن يقلن : ياأختى ياحبيبتى ياستى أى ياسيدتى ، وإذا كانت هذه متزوجة (حديثا) يصرخن : ياعروستى ، وإذا كان طفلا : يا ولدى أى ياطفلى العزيز ، وإذا كانت طفلة يا بنتى أى يا ابنتى : مع إضافة ألوف التعبيرات الأخرى ، الدالة على اللوعة والاسى ، والتى تهز القلوب [١] ، وإن يكن الأمر يتم بنغمة متكلفة وباردة ، حتى لينظر إليه

---

(١) فى بعض الأحيان ، وأكثر كثيرا مما قد يتخيل الناس فى أوربا دون جدال ، يتوقف الموكب (الجنازة) لأن حاملى النعش ، بدلا من أن يمضوا إلى الأمام ، لا يفعلون إلا أن يستديروا ، إذ لا يصبح بمقدورهم ، كما يزعمون ، أن يتحملوا ثقل النعش الذى يضم جثمان المتوفى ، الذى يوشك أن يطير .

ويكاد يحدث ذلك فى كل مرة ينظر فيها إلى المتوفى باعتباره وليا . أما أولئك الذين ينظر إليهم فى مصر ، على اعتبار أن لهم حقوقا لا تنازع فى هذا اللقب فهم أولئك الذين ظهروا ، فى حياتهم ، كأكثر الناس بلاهة وأكثرهم تطرفا بل أكثرهم حمقا وعنفا ؛ إنهم أولئك الذين يهيمون عادة ليلا ونهارا ، عراة كما ولدتهم أمهاتهم (وقد رأينا كذلك نسوة على هذه الحالة يهمن على وجوههن على هذا النحو) ، أو يمضون ردحا من النهار يأتون بألوف الحركات البهلوانية أو التشنجات العصبية المقيتة ، أو فى لطم وجوههم (أو وجوههن) بقبضات الأيدى بقسوة أو فى خدش أو تمزيق أجسادهم ؛ وهؤلاء يتركون لحال سبيلهم ، دون تقويم (من جانب المجتمع) لكل الأفعال التى يأتى بها هؤلاء ، مجافية للشرف والعفة والسلوك القديم ، بل النزاهة ، فهم يغتصبون النساء فى بيوتهن أو على ملأ الأشهاد ، ولعل كلمة يغتصبون هنا لا تؤدى المعنى المقصود بدقة ، ذلك أنه ، برغم النفور الذى لابد أن يوحى به هؤلاء التعساء ، فإن القوم يحملون لهم من القداسة مالا تجرؤ النساء معه على إبداء أدنى مقاومة لهم ، ولدرجة أن يتمن لهم أن يقتحموا عليهن معقل الحريم ، ظانات أنهن بهذ يأتين بفعل خير يستحق المثوبة ، بإشباعهن نزوات هؤلاء الشياطين فى هيئة البشر .

ولقد مات واحد من هذه الكائنات ، يعرفه دون جدال كل الفرنسيين الذين سكنوا القاهرة ، والذين سيتعرفون عليه بالتأكيد من اللوحة التى قدمناها للتو عنه ، مات فى هذه =

شخص واع سليم الإدراك ، إذا ما وجهت إليه وهو بعد حى ، مثل هذه الكلمات ، باعتباره أشد ضروب الخداع وقاحة .

ومع ذلك فإن أهل الميت الآخرين الذين يمضهم ألم حقيقى : زوجته ، أمه ، أخته ، ابنته .. الخ يبقون فى البيت يبكينه بمرارة ، وهن جالسات على فراشهن ،

= المدينة ، فى الثانى والعشرين من فلوريال من العام التاسع من تأسيس الجمهورية (١٢ مايو ١٨٠١) . ودفن فى اليوم التالى (وقد كنا حتى ذلك الوقت لا نزال نقيم فى عاصمة مصر) ؛ وقد كان شابا يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما ؛ وعندما حمل جثمانه ليدفن أبدى كل أمارات « المشيخة » التى انتهينا من الحديث عنها ؛ فقد وجد حاملو النعش أنفسهم يتوقفون بغتة فى منتصف الطريق ، ولم يستطيعوا أن يحولوا بينهم وبين أنفسهم من أن يدوروا ويلفوا لوقت طويل قبل أن يتمكنوا من مواصلة طريقهم ، وفى الوقت نفسه ، قدم إلينا شيخ كنا نكلفه بأن يزودنا يوميا بالمعلومات ، بقصد أن يوجهنا بشكل أكثر دقة ، فى بحوثنا ، حول النظم والتقاليد والعادات الخاصة بسكان مصر ، وقد جاء إلينا مهرولا على غير عادة ، ليخبرنا بالمعجزة التى كان – هو – شاهدا للتو عليها إذ كان يشارك بنفسه فى الجنازة ، لكننا فى البداية لم نبد سوى الدهشة ، ثم جاهدناه بالتدريج كى يتفكر فى الحادث الذى جاء يقصه علينا ؛ وأخيرا ، وبعد أن أقنعناه أن الله ، بالغ القدرة ، والعظيم على الدوام فى كل شىء ، لا يظهر قط مشيئته إلا بطريقة هى جديرة بها ، وأننا نسىء إلى الله حين ننسب إليه هذه الألاعيب الباعثة على الضحك ، والتى يحمر خجلا منها كل امرىء متملك لمداركه وإحساسه ؛ ثم سألناه ما إن كان يظن أن من المستحيل أن تنطوى مثل هذه المعجزات على خدعة من نوع ما ، سواء بأن تتم رشوة حاملى النعش حتى يتوقفوا ويلفوا على هذا النحو ؛ أو لأن لحملة النعش هؤلاء مصلحة خاصة أو مستترة كى يتصرفوا مثل هذا التصرف ؛ وقد وافق شيخنا على أن هذا كله ليس ممكنا فحسب بل هو مرجح بدرجة كافية ، وأن هذه العلامة على القداسة التى كان – هو – شاهدا عليها قد باتت بالنسبة له أمرا تكتنفه الشكوك . وأنه يتذكر أن القوم ، فى الواقع ، اكتشفوا أكثر من مرة أن الأمر ليس سوى خدعة . وقد كنا نتهيأ لأن نتعمق معه فى مثل هذا النقاش ، حين واصل – هو – تأملاته قائلا : إن الأدلة البالغة الوثوق على القداسة تتحقق عندما يطير الميت من نعشه ، أو يندفع كما لو كان يريد أن يطير ، أو عندما يرغم حاملى النعش على الجرى بأقصى سرعتهم . أو عندما يتلفظ بهذه الكلمات : **بسم الله توكلت على الله** ؛ عندئذ لم نجد فى أنفسنا شجاعة تكفينا كى ندحض كل هذه الخزعبلات ؛ وظللنا على يقيننا من أن هذه الأخطاء تعود ربما إلى ضعف فى قدرته على الفهم ، بقدر ما تعود إلى ما تمارسه الخرافات والأفكار المسبقة من سطوة على البشر .

أو مفترشات الأرض . ومنذ اللحظة التى تداهمهن فيها المنية ، يتجهن إلى الشرفات اللاتى تعلو بيتهن صارخات : يا هجمتى أى يا للألم : ثم يعبرن عن دواعى أسفهن بأكثر الأساليب تمزيقا للقلوب ، أما الأهل الآخرون الذين لا يمتون بصلة قربى وثيقة بالمتوفى ، فإنهن يبكين مع هؤلاء ويواسينهن و يمضين ليجلسن لا على الأرض ، وإنما على الوسائد ، وفى بعض الأحيان تستدعى إلى البيت نادبات كى ينشدن أناشيد جنائزية ، تصحبهن الدربكة والطار ، والبندير والرق ، والدف والمزهر ، ويدوم الحداد أحد عشر يوما ، وفى خلال الأيام الثمانية الأول لا يخرج الأهل الأقربون قط من بيوتهم .

المبحث الثانى عشر

عن الغناء والرقص الجنائزيين

كان ينبغي أن يأتى هذا المبحث قبل المبحث السابق ، إذا ما وضعنا فى الاعتبار ترتيب الأحداث والوقائع ، ولكن ، فنظرا لقلة أهميته بخصوص الفن الذى يشغلنا أمره ، وكذلك بخصوص تقاليد المصريين ، فإننا لم نجد الأمر يحتم علينا أن نأتى به قبل موضعه الحالى .

ويتصل هذا المبحث فى حقيقة الأمر بالرقص والغناء اللذين يؤديان قريبا من جثمان الميت ، قبل أن يجتث من البيت ، وقد سبق لنا أن وصفنا كل الحفلات والطقوس الجنائزية ، وإن كنا لم نظن أن علينا وقتها أن نخلط بين الغناء والرقص اللذين سنتناولهما هنا بالحديث ، وبين الحفلات والأغنيات التى يستخدمها المصريون عادة فى حالة مشابهة ، ذلك أننا لم نلاحظ حدوث ذلك إلا بين عدد ضئيل من الفلاحين ، فى أقاليم بعينها من أقاليم مصر .

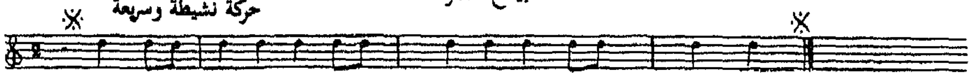
وإليكم الآن كيف يكرم هؤلاء الفلاحون أهليهم الموتى ، قبل أن يحملوهم إلى المثوى الأخير .

بعد أن يكفن الجثمان ، وبعد أن يوضع فى النعش ، يقوم القوم بإنزال النعش ثم وضعه وسط الفناء ، وتقوم الجارات اللاتى سبق أن جئن إلى البيت لمواساة الأسرة والانضمام إلى نسائها لتقديم آخر الواجبات إلى المرحوم ، يقمن بقيادة نسوة البيت قريبا من النعش الذى يضم الجسد ، وتمسك واحدة منهن بدف من دفوف الباسك يسمى بالعربية طار ، وتضرب عليه الايقاع الآتى ، وعندئذ تشكل الأخريات مع قريبات المتوفى ، دائرة حول النعش ثم يبدأن فى الغناء آبا ، آبا الخ (أى ، أبى ! أبى !) وتتقافزن ويضربن بالأيدى فى وقع منغم ، ويواصلن على هذا النحو لمدة تبلغ نحو ثلث الساعة .
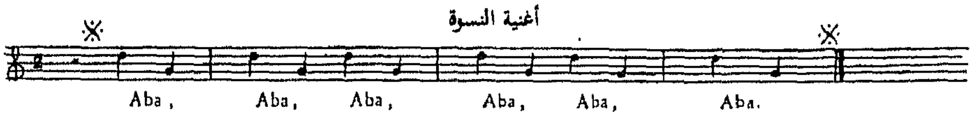
الأغنية والرقص الجنائزيان عند الفلاحين

إيقاع الطار

حركة نشيطة وسريعة



أغنية النسوة

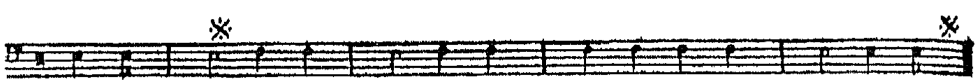


المبحث الثالث عشر

الأدعيات والتسابيح (١)

يتجمع المسلمون من أقارب وأصدقاء المتوفى فى بيته لأيام عدة متعاقبة ، لا تزيد على التسعة أيام المتوالية التى تعقب دفن الراحل ، ليقوموا هناك بأداء أدعيات الترحم عليه ، وهم فى هذا الصدد ينشدون تراتيل قريبة الشبه بأناشيد الذكر ؛ وهذه الأدعيات تسمى التسابيح ، لأنه بينما يقرأ بعض هؤلاء سورا من القرآن ، يقوم الآخرون بإنشاد التسبيح الإسلامى المسمى : سبح . وهذه السبحات التى لا تختلف فى كثير عن سبحاتنا ، اللهم إلا فى اختفاء الصلبان بشكل مطلق ، تضم مائة حبة متساويات ، يلفظ على كل واحدة منهن على التعاقب ، اسم الله لا إله إلا هو الحى القيوم .. وحتى يتم المرء منهم على هذا النحو كل حبات المسبحة ، ويتكرر الأمر نفسه بعد ذلك ولمدة عشرة أو اثنتى عشرة أو عشرين أو خمسين أو مائة أو مائتى مرة ، أو أكثر من ذلك طبقا لقوة عقيدة كل واحد من هؤلاء الذين يؤدون هذه التسابيح ، وفى أثناء هذا الوقت ، يقوم آخرون بإنشاد مايلى ، وفى كل يوم يتكرر الشىء نفسه :

لا إله إلا الله ، محمد رسول الله



(١) السبحة ، صلاة إلى مجد الله .

المبحث الرابع عشر

عن ثلاثة أنواع من الغناء عرفها القدماء ، ولانزال نجدها حتى اليوم عند المصريين المحدثين ؛ النوع الأول موسيقى صرف ، والنوع الثانى خاص بالإلقاء الشعرى ، أما الثالث فيتصل بلهجة الخطابة .

كان قدماء الأغريق يميزون ثلاثة أنواع من الغناء : أولها موسيقى خالص ، كانوا يسمونه إمليس emelês أى المترنّم أو المنغّم ، لأن النغمات فيه ، كما كانوا يقولون ، كانت تتباعد عن بعضها ، أو تنفصل عن بعضها بفعل فاصلات محددة[١] ؛ وأما الثانى ، وهو الخاص بالخطابة أو الحديث ، فكانوا يطلقون عليه إسم إكميليس ekmelês أى غير المنغّم لأن نغماته لم تكن تتباعد أو تنفصل عن بعضها بفعل فاصلات شبيهة بالفاصلات السابقة ، أو لأنها كانت عكس ذلك نغمات مستمرة أو متصلة[٢] : أما النوع الثالث ، الذى كان مزيجا من النوعين السابقين فكان يتصل بفن الإلقاء الشعرى[٣] .

---

(١) Aristox. Harm. Element. lib I, pag. 4, 9, 18; Aristid. Quintil. de Musica, lib I, p. 7, apud Antiquae Musicae Auctores septem, Graec et lat. edente Marco Meibomio, Amestol. 1652, vol I et II.

(٢) المرجع السابق .

(٣) لم نضع إنشاد الدعوة إلى الصلاة الذى ذكرناه فيما سبق (الآذان) فى طبقة الإنشاد الشعرى ، برغم أننا على يقين تام بأنه ينتمى إليها أصلا ؛ فالإنشاد الشعرى ، فى صورته الشائعة التى يبدو عليها اليوم . لن يقدم ، فى حالته هذه ، فكرة دقيقة عن شكل الإنشاد أو الغناء الشعرى ، لأولئك الذين ليس بمقدورهم أن يتخيلوه ؛ وفضلا عن ذلك فمن المؤكد أن يكون إنشاد الدعوة إلى الصلاة ، من نوع وسط بين الإنشاد الشعرى والغناء الموسيقى ؛ فمن المعروف أن لدى العرب عددا كبيرا من عروضيات مختلفة انتقى المسلمون من بينها ، أربع عشرة عروضية للغناء أو الإنشاء الروحى ، ثم نحيت بعد ذلك سبعٌ منها باعتبارها تنتمى إلى عرض الدنيا الزائل ، فى حين تبنى رجال الدين السبع الأخريات ، وكانت أوسعهن انتشارا هى طريقة (عروض) عاصم ، وهى التى خصصت للصلاة (قراءة القرآن ؟) ؛ ومع ذلك لم يحتفظوا باسم عروض =

ولا تزال هذه الضروب الثلاثة من الغناء تعيش اليوم فى مصر ، مع بعض تحويرات ، أدى بها الجهل وسوء الذوق إلى التلف ، وإن لم يؤد ذلك قط إلى طمس معالمها ، لدرجة لا يستطيع المرء معها أن يميزها ، بدقة شديدة ، بعضها عن البعض الآخر .

وعلى قدر ما نحرص اليوم على ألا نغنى خلال حديثنا ، كان الأقدمون يبذلون قصارى جهودهم فى إتيان ذلك ، فمعنى أن يغنى المرء فى مفهومهم ، أنه ينغّم بدقة ، وبتنفيذ مجسم وصحيح ، تزخرفه كل الحليات التى قادت التجربة والملاحظة الفن إليها ، حتى تجعلا من تأثيره أكبر قوة وأشد إقناعا . ولقد كان هذا الفن هو الذى كون بلاغة أو فصاحة تلاميذ كل من سقراط ، وأفلاطون وليزياس وإيزيوس ، وإيزوكراتوس ، وديموستين ، وإسخينوس .

وفى هذه الأزمنة المتأخرة كانت تدرس الموسيقى مقترنة بالنحو ، أو لأن النحو والعروض والمنطق لم يكونوا ، بصفة عامة ، سوى أفرع أو أجزاء من الموسيقى ، تلك التى كانت تقوم بصفة أساسية على التعبير الحق والرقيق عن المشاعر التى تبثها فينا كل أفكارنا ، كما يعلمنا أفلاطون وأرسطو وكل الفلاسفة الأقدمين ، ولهذا السبب فقد كان أى إمرىء من الاغريق ، كائنا من كان ، تفلت منه نبرة خاطئة ، أو يأتى ولو دون قصد بتغيير خاطىء فى مقام الصوت ، أو بنعمة واحدة خلوا من التعبير ، أو يكون تعبيرها مثار شك ، مثل هذا الشخص كان يعطى عن نفسه انطباعا غير مستحب ، مثلما يعطيه عن نفسه رجل من بيننا يلحن فى حديثه ، أو تأتى على لسانه كلمات عجماوات لاتبين .

= لإنشاد الدعوة إلى الصلاة ، والتى تؤدى على المآذن ؛ الأمر الذى يبرهن على أنهم لم يشغلوا أنفسهم كثيرا كذلك ، بأن يحفظوا لهذا الإنشاد تقليده المضبوط ، وإن معرفتهم اليوم بقواعده ليست بأحسن حالا من معرفتهم باسمه ؛ وحيث أننا لا نستند إلى أسس أفضل ، وحيث أننا لا نستطيع أن ندعم رأينا بالقدر الكافى ، فقد آثرنا أن نحتفظ به لأنفسنا ، بدلا من أن نلقى به كأمر مقرر ، بينما هو لا يزال يلتمس لنفسه الضمانة والدعم .

ومن المسلم به اليوم أن من العار أن يبدو المرء عندنا جاهلا بما كان يحدث عند الاغريق الأقدمين ، فى حين كان أكثر من ذلك مدعاة للخجل عند هؤلاء ، أن يفصح امرؤ عن ذوق سقيم أو مزاج لا يتسم بقدر كبير من الرقة والحساسية ، وهو أمر لانكاد اليوم نلقى له بالا على الاطلاق ، لقد كان كل شخص حسن التربية عندهم يمتلك ناصية فن تنغيم الصوت ، مستخدما التعبيرات الحية والحقيقية(١) . لكن مبادىء هذا الفن اليوم قد ضاعت بددا ، وباتت مجهولة من أفضل الخطباء وأعظم الممثلين ، ولم يعد بإمكان هؤلاء أن يكتسبوا مثل هذه المبادىء إلا متلمسين ، أى عن طريق التجربة والخطأ ، وما نقوله هنا أمر بالغ الوضوح ، إذ لا يستطيع واحد من بين كل هؤلاء أن يدلك بشكل منهجى على مبادىء الخطابة ، كما أن الناس اليوم ، من جهة أخرى ، يرون ، بصفة عامة ، أن من المستحيل أن توضع حول هذه الفكرة أسس ثابته و عامة ، ولكل الناس على اختلاف مشاربهم .

وحيث أننا بعيدون لأكثر مما ينبغى عن الأماكن والأزمنة التى كان هذا الفن يمارس فيها ، فليس بمقدورنا أن نلمح آثارا ملموسة لوجوده عند غالبية الشعوب المعاصرة ، أو على الأقل ، فإن مثل هذه الآثار قد تكون مدعاة للجدل ، يكتنفها الشك من كل جانب ، والعكس من ذلك هو ما نراه عند المصريين ، الذين نشأ هذا الفن عندهم ، وحددته قوانينهم ، فلقد ترك هناك آثارا بالغة العمق لحد لم يستطع الزمن معه أن يمحو هذه الآثار بشكل تام ، منذ كف هذا الفن عن أن يلقن هناك : فكل أنواع الخطب العامة ، الدينية أو الدنيوية ، لا تزال تنظم هناك فى الواقع ، وإن يكن الأمر يتم دون فن ، بلا جدال ، فلقد أهملت فى ذلك كل قواعد العروض ، أى كل تنغيمات الغناء ، وسقطت هذه فى هوة النسيان ، كما أتلف الجهل ممارسة هذه القواعد أو المبادىء ، أما الرتابة وعدم الابتكار فقد أشاعتا الأخطاء التى ولدتها

---

(١) بمقدورنا أن نقرأ كثيرا حول هذا الموضوع فى الفصل السادس والعشرين من رحلات أناكارسيس فى بلاد اليون من تأليف بارتيليمى .

Voyage d' Anacharsis en gréce, par Barthélemy.

الجهالة ، وإن كانت عادة إنشاء الخطب ظلت تقوم هناك ، ويتطابق هذا مع ما يخبرنا به بلوتارخوس حين يقول : « إذن فقد جاء وقت اتخذت فيه الكلمة المنطوقة سمات الترانيم والأغنيات والأناشيد ، لأن فنون القول هذه ، عندئذ ، كانت هى التى تصطنع كل تاريخ وكل مذهب وكل فلسفة وكل عاطفة ، وباختصار ، كل مجال هو بحاجة إلى أكثر الأصوات خفوتا أو غلظة أو أكثرها زخرفا ، وكانوا يصوغون ذلك جميعا فى شكل أبيات من الشعر ، أو فى شكل أغنيات موسيقية الايقاع (أو تؤدى بمصاحبة الموسيقى ، أو يشكل غناؤها فى حد ذاته ضربا من الموسيقى)[1] » .

ولهذا السبب كذلك ، كان يطلق اسم غناء على كل صنوف الحديث التى كانت تلقى علنا على الجمهور ، ويمكن المرء أن يجد دليلا قاطعا على ذلك فى تركيب الكلمات التالية :

تراجيدى ، كوميدى ، أوده أبيزوده ، رابسودى ، بالينودى ..

. Tragèdie, Comèdie, ode, épisode, rapsodie,Palinodie..

التى استعرناها عن الأغريقية ، والتى تتكرر فيها جميعا ، وعلى الدوام كلمة ode (أوده) التى تعنى فى اليونانية غناء[2] ؛ ولهذا السبب كذلك احتفظ الشعراء جميعا بتلك العادة التى تعود لزمن لاتعيه الذاكرة ، عادة أن يقولوا : إننى أنشد ، إننى أغنى .. كى يبدأوا معلنين أن سيتحدثوا بحقيقة نشطة ، عن وقائع خالدة .

---

(١) بلوتارخى ، عن نبوءات العرافة بيتى ، من ترجمة أيمو .

Plutarque; des oracles de la profhetesse pythie, traduction d' Aymot.

(٢) تأتى كلمة تراجيدى tragédie من تراجوس tragos وأودى ôdê التى تعنى غناء ؛ وكلمة كوميدى من Kômê و ôdê ؛ و épisode من épı و ôdê ؛ وكلمة palinodie من palin و ôdê ؛ وكلمة rapsodie من rhepton و ôdê ؛ وكلمة parodie من para و ôdê ، وتأتى prosodie بالمثل من pros و ôdê .

وفى هذه الكلمات جميعا نجد كلمة odê بمعنى غناء chant ، وإن كانت كلمة تاريخ histoire وهو الفن الذى كان يكتب ليقرأ وليس ليغنى ، لا تدخل فى تركيبها كلمة مماثلة .

وقد تمكن مقارنه فن الغناء الذى يقوم فى مجال الحديث على النحو الذى يتمثل اليوم فى مصر بقطعة من النقود القديمة ، لم يتوقف تداولها يوما واحدا ، وإن كانت نقوشها قد بدأت تنمحى شيئا فشيئا ، مما جعلها تفقد ، دون أن يلتفت لذلك أحد ، جزءا كبيرا من قيمتها ، ومما لا جدال فيه أن الضروب الثلاثة من الغناء ، التى تناولناها هنا بالحديث ، قد احتفظت ببعض وجود لها فى مصر ؛ وإن كنا فى الوقت نفسه لا نستطيع أن نرفض فكرة أنها ، أى هذه الضروب الثلاثة من الغناء ، قد استشعرت قدرا كبيرا من التحور .

المبحث الخامس عشر

عن الغناء أو الانشاد الخطابى(*)

لا جدال فى أن الغناء أو الانشاد الخطابى فى مصر اليوم ، هو أدعيات (أو تراتيل) المسلمين ، تحكمه قواعد هذا النوع من العروض المسمى عاصم .

وليس لهذا الغناء على الدوام سلم نغمى محدد أو مميز ، على نحو ما نجد فى أغنيات الاستظهار الشعرى الذى سنتناوله عما قليل ، ومع ذلك فإن نغماته ، فى الوقت نفسه ، تنهض على أسس تحظى باحترام يكفى كى يجعل منها نغمات يمكن تمييزها .

وسنقدم كمثال على هذا النوع من الغناء صلاة (ترتيل سورة) الفاتحة على النحو الذى سمعنا الشيخ الفيومى يتلوها به ، بشكل شبه دائم ، عندما كنا نقيم عنده .

وحيث كان الجناح الذى كنا نشغله ، يكاد يلاصق الجناح الذى كان الشيخ الفيومى يؤدى فيه عادة صلواته (يقوم فيه بالتلاوة) ، وسط أهل بيته وجيرانه الذين يترددون عليه ، فقد أخذنا على عاتقنا أن ننقل إنشاد هذه الصلاة (ترتيل هذه السورة) . ولكى نقوم بذلك ، بأكبر قدر من الدقة ، فقد أعددنا أوراقنا ، كما لوكنا سندون لحنا موسيقينا ، مراعين أن نترك فراغا بين السطور ، يكفى كى نخط فيه خطين آخرين صغيرين بالقلم الرصاص ، أنشأناهما خصيصا لكى ندون عليهما الأنغام الوسيطة للأنغام الدياتونية ، وكتبنا مقدما كلمات الفاتحة ، حتى لا يكون علينا بعد ذلك سوى متابعة تغير طبقات أو مقامات الصوت ، وبعد أن أعددنا أوراقنا على هذا النحو ، تأهبنا لتدوين لحن هذه التلاوة ، فى الوقت الذى اعتاد فيه الشيخ الفيومى استظهاره ، ولم نستخدم علامات نوتتنا الموسيقية ، فالوقت الذى كنا سنستغرقه فى تدوينها لم يكن ليسمح لنا بمتابعة الصوت ، لكننا كنا نخط بقلمنا خطوطا بسيطة ، كنا ننتقل بها من فاصلة لأخرى . ومهما تكن هذه كبيرة

(*) أى غير الشعرى ، والمقصود هنا هو ترتيل القرآن الكريم (المترجم) .

أو صغيرة ، ومهما تكن النغمات قوية أو ضعيفة ، فقد كانت خطوطنا الرئيسية أو الوسيطة الاشد أو الأقل وضوحا ، والتى خططناها بقلمنا ، تهيىء لنا الوسيلة للاشارة إلى ذلك كله ، بأكثر الأساليب دقة .

وبمجرد أن انتهت التلاوة ، قمنا بترجمة هذا الترتيل إلى الاشارات الموسيقية المستخدمة فى النوته المعتادة ، وذلك تفاديا لاحتمال أن تتسرب إلينا شكوك لم تكن متوقعة من جانبنا ، عندما تتلاشى من ذاكرتنا نغمات هذا الترتيل .

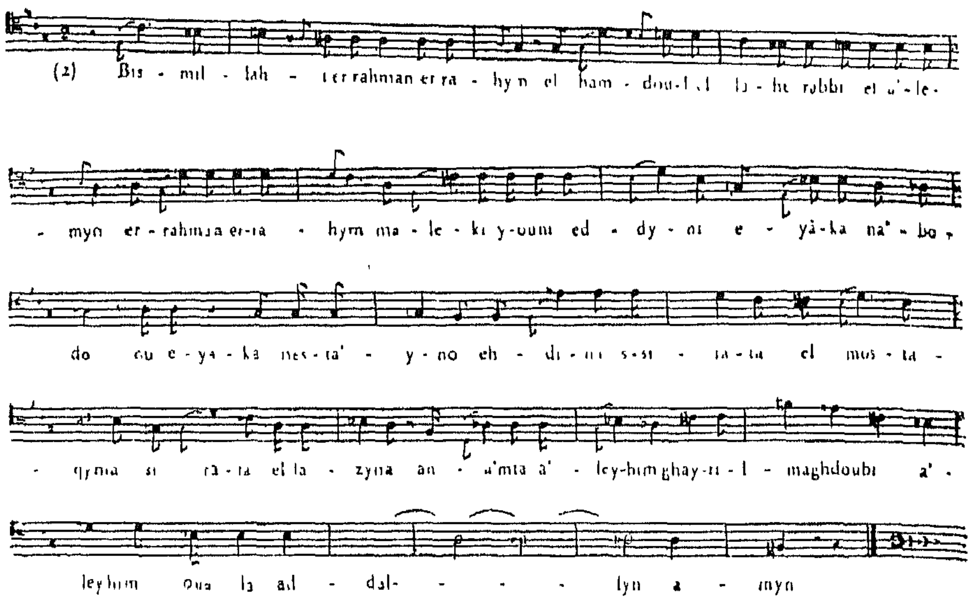
كان صوت الشيخ الفيومى عند تلاوته لهذه الصلاة (السورة) ، يبدو مسترشدا بما تلهمه الحماسة أكثر مما يقوده فى ذلك التفكير ، وكانت نبرات صوته معبرة ، يخرج لفظها بقوة تبض بالحياة ، بالغة التأثير ، حتى أن تتابع اللفظ كان يشكل نوعا من ترتيل شجى مثير للعاطفة ، بحيث لا يكون من العسير تقديره حق قدره ، ومع ذلك فلم يكن الوزن منتظما مثل أوزاننا الموسيقية ، وإن تكن الايقاعات أو الوقفات منتظمة التوقيت ، تتكرر على نحو تنظيم متوافق ، يكاد يكون سيميتريا ، إذ هى متعادلة أو متناظرة ، بحيث كانت التغيرات التى أدخلناها عليها عند مقابلتنا إياها بإيقاعاتنا الموسيقية توشك أن تكون غير محسوسة ؛ أما عن نبرات الصوت فقد دوناها بنوتتنا بدقة الموسوس ، ومع ذلك فلسوف نلاحظ أننا قد نجعل من تأثير هذا الانشاد (أو هذه التلاوة) تأثيرا سيئا ، أو أننا بالأحرى قد نشوهه كلية ، لو أننا ركبنا متن الشطط كى نزيد من درجة الاحساس بالايقاع ، كذلك فإذا نحن لم ننشد (هذه التراتيل) بطريقة ، رخيمة ، ولسبب أقوى إذا مانحن أدينا هذه التراتيل على آلة موسيقية لا تستوعب نغماتها أى نبرة من نبرات الرخامة ، أو بها شيء من الثبات أو التصلب لا نجد له نظيرا قط فى الصوت البشرى ، فسوف نعطى لهذا الترتيل طابعا ، يتعارض بشكل مطلق مع الطابع الذى يحق له أن يأخذه ،أى أنه سوف يبدو عديم الدلالة فى حين أنه بالغ العذوبة ، مثير للعاطفة ولكل المشاعر الحية للغاية ، والباعثة على الشجن[١]

---

(١) الأدعيات الأخرى (سور أو آيات القرآن الكريم) التى تؤدى فى المساجد ، أو فى أى أماكن أخرى ، هى على هذا النحو ، وإن تكن أكثر أو أقل من ذلك تنغيما ؛ فهناك من بينها مالا يتجاوز مدى رباعية أو خماسية ، وهو المدى الذى تحدده قواعد العروض أو الإنشاد الخطابى عند القدماء .

الفاتحة متلوة بصوت عال

(١)



وبدون شك ، فإن هذا الانشاد يتجاوز كثيرا مدى الصوت كما تحدده قواعد عروض الخطب عند القدماء ، والتى يحدثنا عنها دينيس داليكارناس Denys d'halicarnasse فى مؤلفه عن فن ترتيب الكلمات ، ومع ذلك ففى (صلاة) بالغة التوقد ، كما هو الحال مع هذه (السورة) ، فإن حمية الروح تشد الصوت إلى ما وراء الحدود التى قد ينحصر فى إسارها فى حالات الحديث الاعتيادى ، حتى لنجد هذا الصوت وقد تجاوز فواصل بالغة الكبر وبالغة القوة ، كى توحى الفكرة التى تعبر الكلمات عنها بمشاعر بالغة الحيوية ، وبالغة الهمة والتوفز .

---

(١) بسم الله الرحمن الرحيم ° الحمد لله رب العالمين ° الرحمن الرحيم ° مالك يوم الدين ° إياك نعبد واياك نستعين ° اهدنا الصراط المستقيم ° صراط الذين ° أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ° ولا الضالين ° آمين .

[ثم ترجمة فرنسية لمعانى هذه السورة الكريمة ، وتنويه بأنها أول سور القرآن الكريم] .

المبحث السادس عشر

عن الانشاد الشعرى ، عن المرتجلين عن المحدّثين أو الرواة ، وعن رواة الملاحم المصريين

يستخدم مرتجلو مصر ، الذين يطلق على الواحد منهم اسم شاعر[1] ، وعلى نحو ما يفعل مرتجلو أوربا ، آلة موسيقية لمساندة الصوت وإطالته ، بينما هم يرتجلون ، وهذه الآلة هى الرباب[2] المزودة بوتر واحد [3] . أما الفائدة التى تعود عليهم من استخدامها فهو ضبط النغم أو المقام الذى يغنون عليه ، وذلك بفعل مد نغمى

---

(١) شاعر ، وهو ما نطلق عليه اسم poète ، والجمع : شعراء .

(٢) وقد رسم لابورد Laborde ، فى دراسته عن الموسيقى ، المجلد الأول ، ص ٣٨٠ ، هذه الآلة الموسيقية ، وهى التى نراها تحت رقم ٥ ؛ وقد سماها رباب repab ؛ وهو يزعم أن هذه الكلمة مأخوذة عن اليونانية القديمة ؛ ويضيف بأنه يطلق عليها فى العربية اسم سمنجة (مع تعطيش الجيم) ؛ ولكنه قد حصل بالتأكيد فى هذا الصدد ، على معلومات تنقصها الدقة ، فكلمة رباب repab ليست يونانية بقدر ما أن كلمة سمنجة ليست عربية ؛ وهما ، كلاهما ، ليستا ، فى أية لغة ، اسما لآلة موسيقية . وهناك ، من بين الآلات الموسيقية العربية ، بالتأكيد ، آلة يطلقون عليها اسم كمنجة ، ويرجح أن تكون هى الآلة التى أطلق عليها لابورد اسم سمنجة ؛ وإن كان هذا الاسم — كمنجة — فارسيا وليس عربيا قط ، وبخلاف ذلك ، فإن الآلة المعروفة بهذا الاسم تختلف عن الربابة بقدر ما يختلف النفير البحرى عن الكمان ، ومع ذلك فقد شئنا أن نستوثق ما إن كان اسم الرباب فى حقيقته عربيا ، فرجعنا فى هذا الصدد إلى واحد من أكثر علماء القاهرة تبحرا فى اللغة العربية ، وإليكم الاجابة التى قدمها لنا مكتوبة .

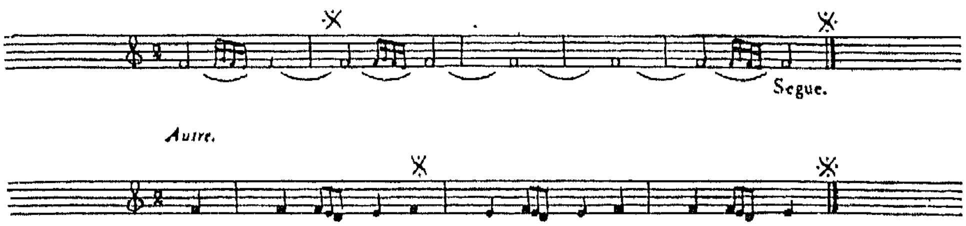
رباب اسم لآلة الطرب وهو مأخوذ من ربَّ (بمعنى رنّ ، أو : أرنّ)

ويعتقد المسيو سلفستر دى ساسى أن كلمة رباب هى كلمة فارسية الأصل ، ويلاحظ أن هذا هو كذلك رأى المعجميين الفرس ، وبعد ذلك أمكن أن ينشأ فى العربية الفعل ربّ ، الذى يعنى ولابد : رنّ أو أرنّ مثل الرباب ؛ ويلفظ الفرس هذا الاسم رُباب .

(٣) الرباب المزودة بوترين ، هى تلك التى يستخدمها المغنون المحترفون ، لمصاحبة صوتهم ولعزف الألحان .

يؤدونه على النغمة نفسها طيلة وقت الحكى ، وهم فى العادة يضيفون إلى هذا المد النغمى الزخارف الآتية :

بمصاحبة الرباب ، ويؤديه الشعراء عندما يرتجلون أو ينشدون بعض الأشعار



وبرغم قلة استعدادنا لتمثل مثل هذا التناغم ، فإن هارمونيته لم تهزنا بشكل بالغ ، فلقد أحدثت فينا على وجه التقريب ، نفس الأثر الذى تحدثه الألحان الرتيبة التى تؤديها مزامير القربة عندنا .

ومن جهة أخرى ، فإننا لم نجد أنفسنا فى وضع يسمح لنا بتدوين النوته لغناء حكايات الشعراء ، ومع ذلك فسوف يحصل القارىء على فكرة دقيقة عنه ولحد كاف ، إذا ما اتخذ كوسيلة للمقارنة ، الغناء الخطابى الذى انتهينا من تقديمه ، وبصفة خاصة ، إذا ما تمثل إنشادا من هذا النوع ، رخيما مع شىء من الوزن ، منتظما على نحو دائم ، وله إيقاعه دون أن يكون مع ذلك منغما ، متباين الطبقات ، أو مزخرفا على النحو الذى يأتى عليه الغناء الموسيقى ، وبدون كذلك أن تتعاقب النغمات جميعا بفعل فواصل متساوية أو متناسبة على نحو دقيق ، كل منها إلى الأخريات ، كما هو الحال فى الموسيقى بمعناها المفهوم .

أما المنشدون ، وهم الذين يسمون فى مصر بالمحدثين فهم رواة ملاحم حقيقيون ، يقصون الأشعار التاريخية أو الروائية أو الخيالية المروية عن الشعراء العرب القدماء ، وبعض هؤلاء يقص هذه الأشعار وهو يقرأ ، وهناك آخرون يستظهرونها عن ظهر قلب ، وهم يختارون لموضوعهم سيرة عنترة البطل العربى ، الذى كان يعيش فى عصر محمد (كذا) أو الأعمال البطولية التى أتى بها رستم زال ، البطل الفارسى ،

أو بيبرس ملك مصر ، أو الأيوبيون الذين حكموا هذه البلاد ، أو بهلول دان مهرج بلاط الخليفة هارون الرشيد . وهؤلاء الذين يحفظون عن ظهر قلب ، يرتبطون عموما بضرب واحد من ضروب الشعر ، ولا ينشغلون إلا ببطل واحد ، يميزهم الناس عن غيرهم بإسمه ، فيسمى الظاهرية أولئك الذين يتفنون بالأعمال البطولية للظاهر (بيبرس)[١] ، أما الذين يتغنون بمآثر عنترة ، البطل الذى غزا الجزيرة العربية من ناحية مكة ، بطول البحر الأحمر ، فيسمون بالعنترية ويطلق اسم الزنانية على الذين يستعيدون الأعمال الرائعة للزناتى ، وهو شخصيته شهيرة تحظى بتبجيل كل المسلمين ، ويسمى أبا زيدية أولئك الذين يمجدون الفضائل القتالية لأبى زيد ، وثمة آخرون يحملون اسم زغبى (أو الزغبية)[٢] لأنهم يولون كبير إهتمامهم للشجاعة

---

(١) الظاهر ، وهذه كنية عامة يشترك فيها عدد كبير من الحكام أو الأمراء المسلمين ؛ فقد كُنّى الخليفة العباسى السابع والثلاثين ، الذى ارتقى عرش بغداد باسم الظاهر بأمر الله ؛ أما الخليفة الفاطمى ، الذى خلف والده الحاكم بأمر الله ، الذائع الصيت ، فى حكم مصر ، فى العام ٤١١ من الهجرة فقد تسمى بالظاهر لإعزاز دين الله ؛ وهناك واحد من أبناء صلاح الدين ، هو الذى كان حاكما لحلب ، كانت كنيته الملك الظاهر ؛ كذلك فقد حمل هذه الكنية كثير من سلاطين الدولتين المملوكيتين : البحرية والشركسية ، وأكثرهم تألقا بيبرس البندقدارى ، السلطان الخامس من أول هاتين الدولتين ، وبرقوق ، أول سلاطين الدولة الثانية ، وهو الذى كان معاصرا لتامرلان Tamerlan ؛ ومن المحتمل أن يكون أحد هذين السلطانين ، هو موضوع الأناشيد أو الأشعار الظاهرية ، وأعتقد بالأحرى أنه الأخير .

ولا ينبغى لنا أن نخلط بين اسمى ظاهر zaher (زاهر ؟) ، وزهير zohayr ، والثانى اسم لأحد الشعراء الشهيرين .

(حاشية قدمها المسيو سلفستر دى ساسى إلى المسيو فيوتو)

(٢) زغبى أو الزغبى ، ويبدو هذا الاسم مشتقا من زُغْب ، وهو اسم أحد الأشخاص دون ريب ، أما الياء (المشددة) الأخيرة فتشير إلى أهل هذا الرجل ، أو إلى تابعيه ، أو إلى أولئك الذين نذروا أنفسهم له ، مثل هؤلاء الذين يتخذون من الاحتفال بمآثره حرفة لهم ؛ وقد جرى الحديث فى ألف ليلة وليلة عن أقزام يسمون الواحد منهم زغبىّ أى المغطّى بالزَّغَب ، إذ كانت جلودهم مشعرة ؛ ولعل آل الزغبى الذين تحكى عنهم أعمال خالدة ، كانوا من هذا الجنس . ويكتفى جوليوس عند تناوله لكلمة زغبى بالقول : « **صغار الطيور أو الأفراخ ، المزودة برغب ، أو بشعيرات من هذا القبيل** » .

والبسالة اللتين أبداهما آل الزغبى فى المعارك التى كان عليهم أن يخوضوها ضد بنى هلال ، وأخيرا فإن هناك آخرون يتخذون من الهلالية اسما لهم لأنهم ينشدون أشعارهم على شرف بنى هلال[١]

أما الأماكن التى يتردد عليها عادة المرتجلون والمحدثون فهى المقاهى ، إذهم على يقين بأنهم لاقون هناك على الدوام جمهورا كبير العدد ، مهيئا كذلك بتشجيعهم وتقدير ومكافأة مواهبهم ، وحيث لا يتردد الأثرياء قط على المقاهى ، فإنهم يدعون إلى بيوتهم رواة الملاحم هؤلاء ، كما يستدعون الموسيقيين والراقصات لتسليتهم ، ويتم هذا الأمر فى غالبية الأحيان احتفالا ببعض المناسبات العائلية السعيدة ، مثل مولد طفل ، أو حفل عرس أو احتفاء بأشخاص يضيفونهم .

= وقد حصلنا ، ونحن فى مصر ، على مخطوطة ، حملناها معنا إلى فرنسا ، كانت تضم الأشعار التى كان الرواة المسمون بالزغبية ، يلقونها ، ولكنها كانت لسوء الحظ منقوصة ، ونتيجة لذلك لم نستطع أن نتزود منها بمعلومات كافية حول الأبطال الذين كانت تصورهم ، وإن كنا قد اقتنعنا بأن الوقائع قد جاءت فيها ، متدثرة داخل ألوف الحكايات . وأهم شخصيات هذه الرواية هما الأمير سرحان والأميرة شمة ؛ وقد ذهب الأمير سرحان ليصارع العرب المسمون : حسب ، يتبعه ثلاثون فارسا من عائلته ، وألف شجاع من قبيلة بنى هلال . وقد تصارع مع مقاتل شاب اسمه غانم من آل الزغبى ، وهزم عساكره . وقد استمرت هذه الحرب بين الفريقين بضراوة وشراسة متبادلتين ، وأصبحت كل البلاد ، بدءا من فارس ، حتى موريتانيا مسرحا لمعاركهم ، ولالف مغامرة تفوق كل منها الأخرى غرابة ، تتجسد فيها شجاعة الأميرة شمة .

(١) هلال ، هى كنية ابن كريات ، أكثر أهل عصره فصاحة ؛ وقد كانت له ذاكرة قوية حتى أصبح مضربا للأمثال ، فيقول العرب : أحفظ من ابن كريات ، للدلالة على مالدى بعض الناس من ذاكرة بالغة القوة .

المبحث السابع عشر

المسحّر (المسحراتية) ، غناؤهم ، الآلة الموسيقية التى يستخدمونها ، وظيفتهم ، امتيازاتهم خلال شهر رمضان

هناك نوع آخر من المحدثين والرواة ، فى وقت معا ، وجدنا أن الأمر يقتضى منا أن نفرد عنهم حديثا خاصا ؛ إذ هم لا يتخذون من الرواية والحديث حرفتهم الاعتيادية ، ونعنى بهؤلاء ذلك النفر الذى لا يسمع الناس غناءهم إلا خلال شهر رمضان(١) ، والذين يسمون بالمسحرين(٢) (مُسَحِّر) ، ويوصف بهذا الاسم أولئك الذين يعلنون كل يوم طيلة شهر رمضان ، عن اللحظة التى يوشك فيها نور النهار الجديد أن ينبلج من ظلام اليوم المنصرم ، وهى التى تسمى فى العربية بوقت السحور ، وهى كذلك الفترة التى ينبغى أن تتم فيها آخر وجبات الليل ، ولذلك يطلق على هذه الوجبة ـــ كذلك – اسم السحور(٣) ؛ وبعد انتهاء هذه الوجبة (أو انقضاء وقتها) لا يعود يسمح للمسلمين أن يشربوا ولا أن يأكلوا ، حتى مغرب الشمس ، بل إنهم ملزمون بأن يراعوا حتى هذا الوقت (وقت المغيب) العفة الصارمة .

ويشبه المسحر من نواح عديدة ، أولئك الذين كنا نسمعهم نحن ، فى غالبية الأقاليم الغربية من فرنسا ، قبل ثورتنا(٤) بورنوبيل bournabiles وإن كان المسحر

---

(١) رمضان هو الاسم الذى يطلقه المسلمون على صيامهم (كذا) .

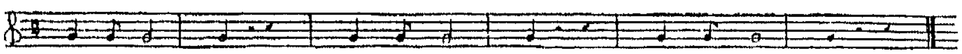
(٢) المسَحِّر ، أى الشخص الذى يقوم بإيقاظ الناس وقت السَّحَر ، أى عند بزوغ النهار .

(٣) تقابل كلمة السحور عندنا كلمة réveillon [والكلمة الفرنسية تعنى سهرة العيد ، أو سهرة منتصف الليل ، وبخاصة ليلة عيد الميلاد ، أو ليلة رأس السنة .. الخ – المترجم] .

(٤) وكان هؤلاء فى العادة ، قارعى أجراس أو قواسين بالكنيسة ؛ وقد كانوا عشية الأعياد الكبرى ، وبصفة خاصة أثناء مقدمات عيد الميلاد ، وكذلك أثناء الصيام ، يذهبون أثناء الليل ، وهم يرتدون فوق ملابسهم رداء كهنوتيا مصبوغا بشكل خشن ومنفر ، كل منهم فى شوارع خورنيته ، أى القرية أو المنطقة التى تخدمها كنيسته ، ويتوقف الواحد منهم أمام بيوت =

يمسك بطبلة صغيرة تسمى باز ، أو طبلة المسحر ، بدلا من تلك الأجراس الصغيرة التى يستخدمها البورونوبيل ، إذ أن الأجراس أداة تنبيه حظر على المسلمين استخدامها ، ويضرب المسحر على طبلته أربع مرات من وقت لآخر .

وإليكم الإيقاع الذى يتبعه :



ولا يجوب أى من المسحرين سوى شوارع الداخلة فى نطاق حيه هو ، ولذلك فلكى يسمح له بالقيام بهذه المهمة ، فإنه ملزم بدفع جعل أو أتاوة[١] إلى الشخصية المنوطة بحراسة هذا الحى .

وعلى غرار البورنوبيل ، فإن المسحر لا يتوقف إلا أمام بيوت أولئك الذين يتوسم فيهم أنهم سيجزلون له العطاء مكافأة له ، وبعد أن يتلو المسحر بعض الأدعيات ، يقدم بإنشاد بعض الأشعار ، ويقص حكايات شعرية (صيغت شعرا) ، ويتمنى أمنيات سعيدة لرب البيت ، مستصحبا فى ذلك كله ، وعلى الدوام ، طبلته الصغيرة ، التى يدقها على شكل فاصلات تتكون الواحدة منها من أربع دقات متعاقبة على النحو الذى دوناه ، وفى الوقت نفسه ، فحيث أن المسحر

= الأشخاص الذين يتوسم أنه سيحصل منهم على هبات ، وهناك يحدث بعض الصليل عن طريق هذا الجرس الصغير الذى يحمله فى يده ، وهو يصيح : استيقظوا أيها النيام ، وصلوا على راحليكم المؤمنين ، وبعد ذلك ، يتلو بعض صلوات أو أدعيات يحرص على ألا ينسى فيها رب البيت ، ويكرر ذلك ثلاث مرات ، ثم ينشد بعض أناشيد يسبقها أو يعقبها صليل جرسه . ونحن نستعيد هنا ذلك حتى يمكن القارىء أن يعقد مقابلة مع ما نرويه (فى المتن) عن المسحر ؛ ذلك أن التماثل القائم بين البورنوبيل عندنا ، وبين المسحر لن يكون أكبر ، عما لو أن كان أحدهما قد جاء محاكاة للآخر .

(١) كانت هذه المهنة فى ظل حكومة المماليك تدر أحيانا ما يبلغ ٥٠٠ ريال (ecu ، وهى عملة فرنسية قديمة) من نقود أهل البلاد (مما قد يساوى ١٦٠٧ فرنك من نقودنا) على من كانوا يمارسونها ؛ ولكن المهنة قد أصبحت أقل كسبا لهؤلاء فى عهد الفرنسيين .

يلقى من القبول أكثر مما يلقاه البورنوبيل عندنا ، فإنه تستطيع أن يدخل البيوت ، بل وأن ينفذ إلى عتبة الحريم ، وأن ينشد بعض أشعار رقيقة لا تخلو من غزل ، وبدلا من أن يعلن عن وجوده فى كنف الحريم بمثل هذه الصيغة المقبضة التى تلازم أقرانه عندنا : « إستيقظوا أيها النوم وصلوا على راحليكم الورعين » ، فإن المسحر يقول مثل هذه العبارة الرقيقة ، عندما يتوجه بحديثه إلى النساء : « غضى جفونك ياعيون النرجس » ، أى أطبقن جفونكن يا عيون النرجس ، بل إنه كثيرا ما يقص هناك (فى معقل الحريم) فضائح النهار ، أو ماجرى بين القط والفار ، إذا ما شئنا أن نستخدم التعبير نفسه ، الذى يستخدمه العرب فى هذا المعنى .

وما أن تبدأ تباشير الفجر فى الظهور ، حتى يعود كل مسلم إلى بيته ويرين على المدينة صمت ثقيل ، ويتوقف عمل المسحر حتى الليلة التالية .

المبحث الثامن عشر

عن ميل المصريين الطبيعي للموسيقى والغناء ، ولممارسة هذا الغناء فى غالبية الظروف والمناسبات والأعمال ، فى حياتهم الاجتماعية والعملية

حين نعينا على المصريين أنهم قد أهملوا فن الموسيقى ، فلم يعودوا فيه سوى مبتدئين جهال ، فإننا لم نزعم قط أننا نتجاسر على القول بأنه ليست لديهم أية قابلية أو استعداد لهذا الفن ، بل إن لدينا أدلة دامغة لحد قد يزيد عما هو مطلوب ، عكس ذلك ، تحول دون أن نتصور عنهم فكرة مماثلة .

لقد كان أفلاطون يتحدث بنوع من الحماسة عن ذلك الانتقاء الرائع والرهيف ، الذى كان يرتئيه سكان هذا البلد ، للتعبيرات المقبولة للغاية والتى كان من شأنها تصوير المشاعر ، ويروى ديمتريوس دى فاليرا أن حلاوة ورقة ألحان الأناشيد ، التى كان الكهان يتوجهون بها إلى الالهة ، والتى كانوا ينشدونها على الحركات الصوتية السبع ، كانت تحدث أثرا طيبا يماثل ذلك الأثر الذى تحدثه آلات الناى والكيتار ، ويخبرنا أثينايوس ، نقلا عن شهادة مؤلفين كثيرين من بين القدامى ، أن هذا الشعب قد أحرز تقدما فى الموسيقى ، فى عهد البطالمة ، لدرجة تفوق معها فيها ، على أمهر موسيقيى البلاد التى كانت معروفة آنذاك .

ومع ذلك ، فحين قد يلزم التاريخ الصمت حول هذه النقطة ، فإننا نجد فى أيامنا هذه أمورا لا يمكن الشك فيها ، ولايمكن بموجبها أن يشك امرؤ فيما لدى المصريين من استعدادات طبيعية لفن الموسيقى ؛ ذلك أن لديهم ، فى الحقيقية ، إحساسا يماثل ، بل قد يفوق ، مالدى أى شعب آخر بالوزن والايقاع ، كما أن لديهم كذلك القدرة على أن ينظموا على نحو طيب ، وعن طريق هذه الوسيلة (وقع) حركاتهم فى الأعمال بالغة المشقة ، والتى تتطلب تضافر مجهودات متجمعة ، حتى أن رجلين ينجحان فى معظم الأحيان ، فى أن ينجزا ، بسهولة مدهشة ، ما قد لا يستطيع أن ينجزه أربعة رجال من أمة أخرى بمشقة بالغة ، حيث لا يستطيع الناس ، (فى هذه الأمة الأخرى) أن يناغموا مجهوداتهم بدقة مماثلة ، (أى ينظموها فى إيقاع نغمى) ؛

هب أنهم يحملون أثقالا . أو يعملون فى أى عمل شاق اضطروا لأدائه ، ينطالب منهم أن يتجمعوا فى عدد حيث يلزمهم (لانجاز هذا العمل) قدر من المهارة والتوافق يماثل القدر من قوة الحركة ، فلن تجد قط أنه قد فاتهم أن يغنوا معا ، وبالتبادل ، فى شكل إيقاع موزون ، حتى يعمل كل واحد منهم ، فى الوقت نفسه ، وبشكل متوحد أو متكامل ، كيما يقدم عونه للآخرين فى الوقت المطلوب ، ويذكرنا هذا بالعادة التى كان عليها القدماء ، عادة أن تكون لهم أغنيات مخصصة لحركات كل صنوف العمل ، مثل أغانى الصيادين ، وجامعى الكروم ، والطحانين ، والنساجين ، والمجدفين (المراكبية) ، ومغترفى المياه (الذين يروون باستخدام الشادوف على سبيل المثال)[١] .

بل إننا قد لانكون بعيدين عن الظن بأن المصريين المحدثين ، الذين لا يزال يتعرف المرء عندهم على كثير من العادات ، التى تنتمى بشكل واضح إلى العصور الضاربة فى القدم ، قد حفظوا ذلك الفن أو أن الأمر المؤكد ، على الأقل ، أن هذا الفن لا يزال يوجد ، هناك ، فى حالات عديدة ، وبشكل مطابق ، على نحو دقيق ، لما لاحظه هناك قدماء الأغريق ، ومن بعدهم الرومان ، كما هو الحال بين البحارة (المراكبية) ونازحى المياه لرى الأرض (حركة الشادوف) ، ذلك أن كل حركات هؤلاء العمال تنتظم بفعل أغنيات ، هى فى غالبيتها ذات لحن بسيط مستحب ، بل لعلها كانت هى أغانى النيل التى حظيت بتقريظ الشعراء منذ زمان بعيد [٢] ، وأخيرا ، فليس هناك شك ، فى أنه ، لو لم يكن لدى المصريين لا الميل ولا الاستعداد الطبيعيان للموسيقى والغناء ، وهى أمور حرمتها عليهم شريعة نبيهم ، لما كانوا قد احتفظوا منها قط بشىء ؛ فمع كونهم أكثر تشددا من بقية المسلمين فى التمسك بالقواعد التى وضعها محمد ، وبرغم حماستهم الدءوب ، والمدققة فى القيام بالواجبات التى تمليها عليهم هذه القواعد أو الفروض ،

---

(١) بخصوص هذه الأغنيات المتفرقة جميعا ، انظر اثينايوس فى مؤلفه « مائدة الفلاسفة » ، الكتاب الرابع عشر ، الفصل ٣ ؛ وكذلك فوتيوس فى مؤلفه : المكتبة ، ص ٩٨٣ .

(٢) إيسخيلوس ، الضارعات ، البيت ١٠٣٢ ؛
Martial, lib III, epigramme 62, ad cotylum; ovid , de Arte amandi, v. 339.

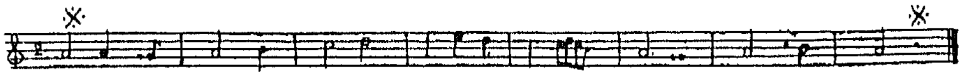
والتى كان ينتظر منها أن تحرم عليهم ، وأن تجعلهم يمجون عادة الغناء فى أى موضع قد يتلمسونها فيه ، وفى أية صورة تبدو هى لهم عليها ، فإننا نجدهم على العكس من ذلك ، قد أنشأوا أغانى وأناشيد على شرف أولياء ووليات دينهم ، وألفوا كذلك أغنيات أخرى فى مدح نبيهم ، كما أنهم ، وهو أمر أبلغ فى دلالته ، يضاعفون هذه الأغانى فى أيام الأعياد بأن يضيفوا إليها ، عند إنشادهم إياها أنغام غالبية آلاتهم الموسيقية ، كما أن لديهم بالمثل أغنيات ، كما سبق أن رأينا ، حتى للجنازات ، وهو أمر محرم عليهم بصفة خاصة فى دينهم ؛ لابد إذن أنه ميل طبيعى لا سبيل لمقاومته ، هو الذى يجرهم إلى ذلك على الرغم منهم ، فلا يسمح لهم أن يستجيبوا لصوت ضميرهم الذى ينعى عليهم ، ولابد ، فى كل لحظة ، أنهم قد ارتكبوا بذلك معصية ، ولايمكن لمثل هذا الميل أن يكون شيئا آخر ، سوى طبيعتهم نفسها أو تكوينهم نفسه ، اللذين هيئاهم للغناء والتوقيع .

ولكننا لن نسوق ، فى هذا المؤلف كل الأغانى المختلفة التى سمعناها من المصريين ، والتى قمنا نحن بجمعها ، وقدر هذه هائل لحد بالغ ؛ وفضلا عن ذلك ، فحيث أن الكثير منها لايتكون إلا من نغمتين أو ثلاث نغمات إيقاعية وحسب ، ومع افتراض أنها تنظم بشكل إيقاعى حركات العمال والعاملين بالأعمال الشاقة ، فإن لحن هذه الأغنيات ليس من الجدارة بحيث يجد لنفسه مكانا هنا ؛ ومع ذلك فلعل الأمر الذى قد يكون من شأنه أن يعطى لهذه الألحان بعض أهمية ، هو أن ندخل فى تفاصيل الأعمال والممارسات والألعاب ، ومناسبات الحياة الاجتماعية لهذا الشعب ، لكننا نخشى أن نتجاوز حدودنا ، وأن نتطاول على حقوق أولئك الذين أخذوا على عاتقهم أن يعالجوا هذه الأمور .

وهكذا ، وحيث لم يعد لدينا مزيد نقدمه حول ما يخص موسيقى المصريين ، فإننا سنقدم ببساطة بعض صنوف الغناء ، التى بقى علينا أن نُعرِّف بها ، والتى تستحق هى بدورها أن تعرف .
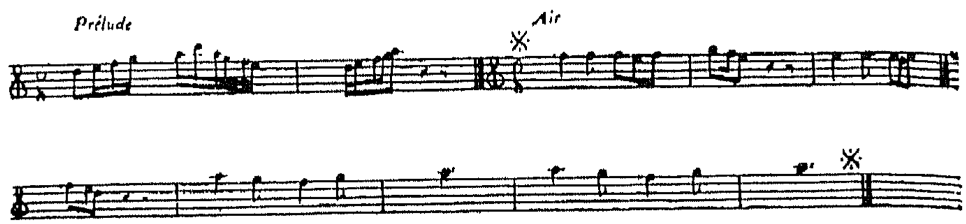
اللحن الذى يغنيه أهل وأصدقاء (العريس)

عندما يصحبه أهله وأصدقاؤه إلى عروسه
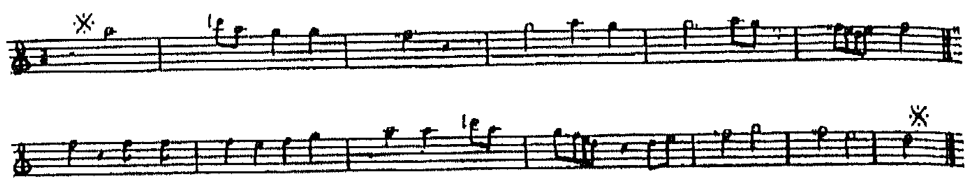


اللحن الموسيقى الذى يؤدى على آلة النفخ المسماه بالزمير فى موكب الزفاف ، حين يطوف هذا الموكب بحى العروس

[ويتكرر هذا اللحن عدة مرات ، قدر ما يتراءى للعازف وهو من مقام الملبروك ، ويعزف على طريقة المصريين]



لحن آخر للمناسبة نفسها
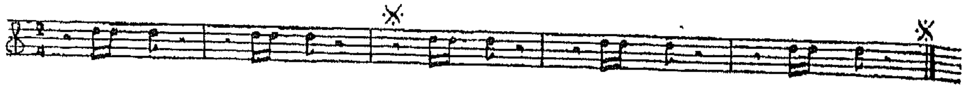


التوقيعات التى تؤديها النسوة على دفوف الباسك بينما تجلس العروس على أريكتها تتقبل الهدايا التى تقدم لها

[الاشارات ذات الذيل المزدوج تشير إلى النغمات الغليظة أو الخفيضة]

إيقاعات تتم باليد اليمنى

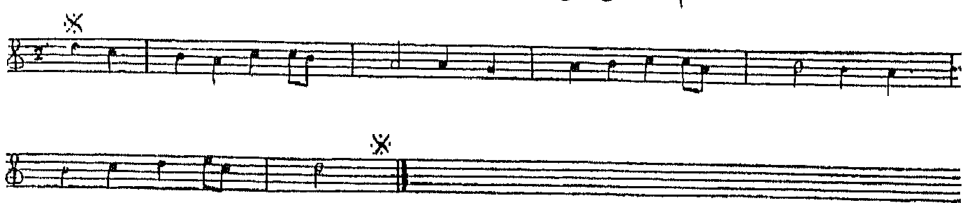
إيقاعات تتم بأصابع اليد اليسرى الممسكة بدف الباسك



غناء يؤديه أحد الشيوخ ، أو واحد من الفقراء
من طالبى الاحسان(١) بالقاهرة



غناء يؤديه أحد الفقراء فى جرجا
ملاحظة : لم نتمكن من تبين كلمات هذا النوع من الغناء



غناء فقير من أبناء سيوط

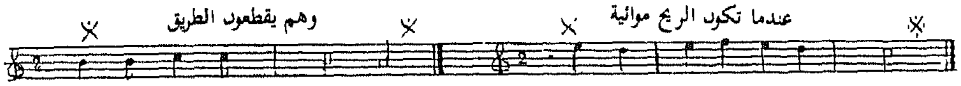


أغانى مراكبية النيل

[وتكون هذه الأغانى أكثر أو أقل فرحا ، تبعا لحجم الصعوبات أو المشاق التى يشعر المراكبية أو المجدفون بها ، وتبعا للحالة المزاجية التى يكونون عليها ، وهذه الأغانى تستخدم فى تنظيم حركتهم ، ويواصلون هم أداءها كلما ظلوا على حركتهم لم يبرحوها لغيرها ..]

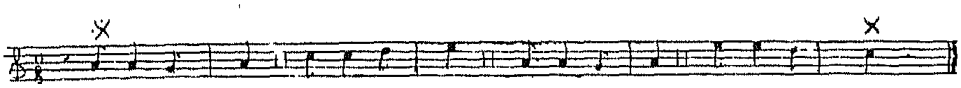
---

(١) يوجد بالقاهرة ، كما يوجد فى باريس ، أناس رقيقو الحال ، وعميان ، ينشدون الأناشيد فى الشوارع ؛ ويلقى المرءُ من هؤلاء ، الرجال والنساء ، ويسير خلف الواحد منهم طفل أو طفلان ، وينشد ثلاثتهم بالتبادل مقاطع من هذه الأناشيد ، ويردد الأطفال عادة الغناء نفسه ، مع زيادة فاصلة خماسية فوق نغم الأولين ، وهو الأمر الذى كان الأقدمون يسمونه بالمجاوبة الصوتية antiphonie



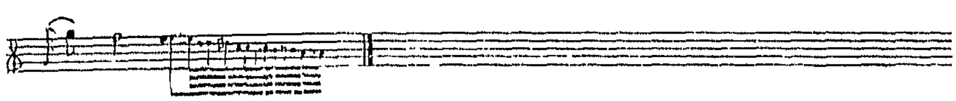
« زينة ياحليوه قوم يابو سلام »

[عندما يلمس المركب القاع ، ويترك المراكبية مجاديفهم خشية أن تحطمها الأحجار (أو الرمال) لكى يستخدموا (المدرة) ، وعندما يغمسوا هذه المدرة إلى قاع مجرى النيل ، حتى يخلصوا القارب ويعيدون تعويمه]



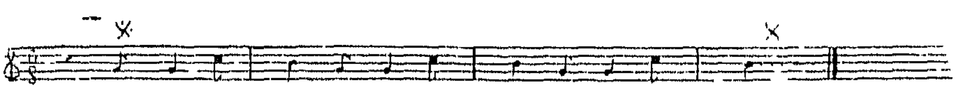
المجدفون : يالّلاسلام
الريس : يالّلاسلام
المجدفون : يالّلاسلام
الريس : يالّلاسلام

[صرخات عنيفة وقاسية ، يطلقها المراكبية بعد أن يضطروا إلى الخوض فى الماء ، وإلى أن يقطروا القارب من أجنابه ، بقصد أن ينتزعوه من جنوحه ؛ وعندما يدفعون القارب فى مشقة]



الله .. الله...
الله .. الله...

[.. وعندما يبدأون فى تعويم القارب ..]

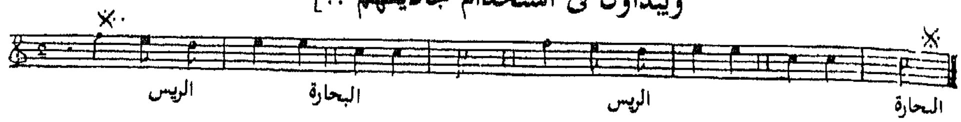


هيلا .. هيلا
هيلا .. هيلا
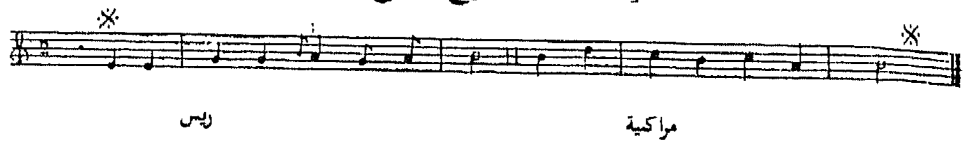
هيلا .. هيلا
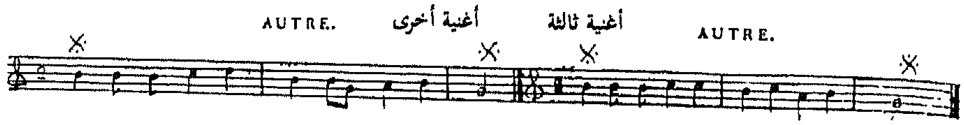
....

[وعندما يصعد المراكبية إلى قاربهم (بعد تعويمه)
ويبدأون فى استخدام مجاديفهم ..]



[عندما تملأ الريح الشراع]

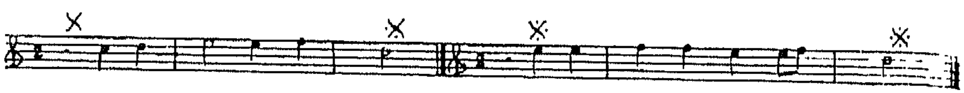


الريس : بليل ، بليل ، يا ابو سلام
البحارة : يالله ، يالله يا ابو سلام
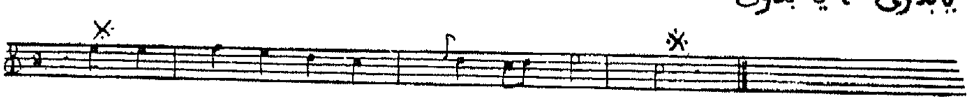


يالله من حالك يا بوسلامة

غناء المجدفين وهو غناء يستخدم كتقاسيم أو لازمه
لأغنية يؤديها الريس



على أمى ، بدوى هيله صاح
يالله أمى ، بدوى هيله صاح
يابدوى ، يا بدوى



االلهمى حالك .. أبو سلامه

غناء فى شكل مجاوبة صوتية
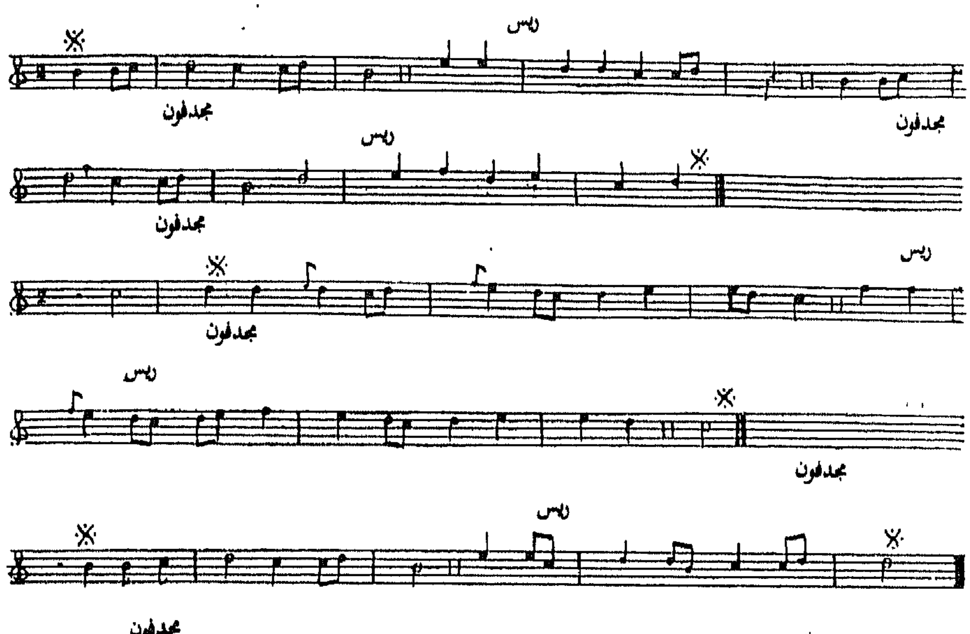


غناء المراكبية عندما يستخدمون المجاديف
للتقدم باتجاه التيار



يا ع البِنات ...: الّا ما سونه (؟)

أغنية أخرى
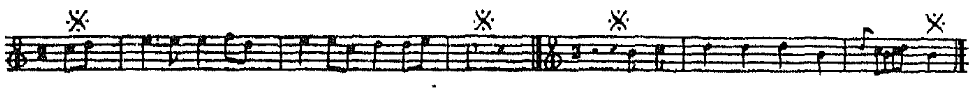


حالك يا ملاّوية

يالله أبو سلام



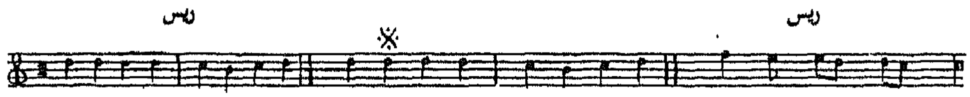
الله الله أبو سلام ـــ ـــ يالله يالله على أبو سلام

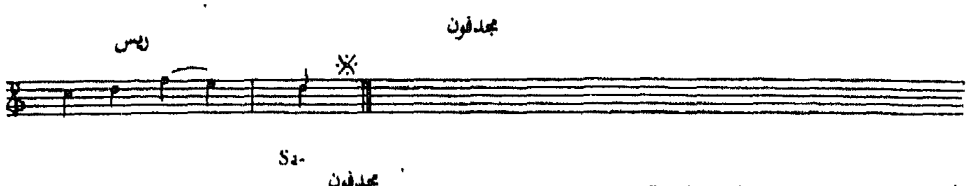
أغنية أخرى لمراكبية يجدفون فى ريح مواتيه



يالله من حالك أبو سلامة

لَ ع البنات على ماسونه (؟)





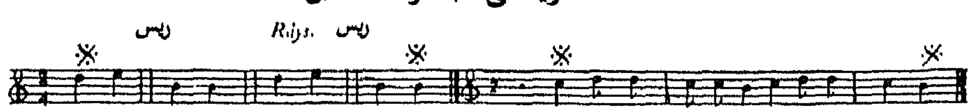
الريس : سلامات يابوسلامة

البحارة: سلامات يابوسلامة

الريس : سلامات يابوسلامة

عندما يزول الخطر **عندما يلوح خطر أن تجنح القارب**
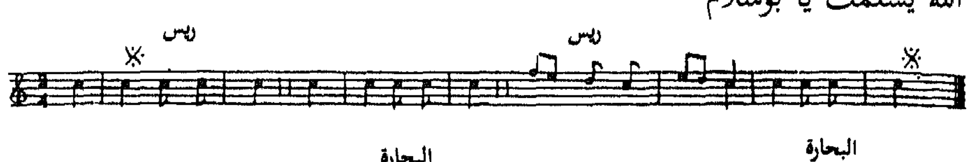
ويسعى البحارة جاهدين لتفادى ذلك



البحارة : الله الله

الله الله

الله يسلمك يا بوسلام

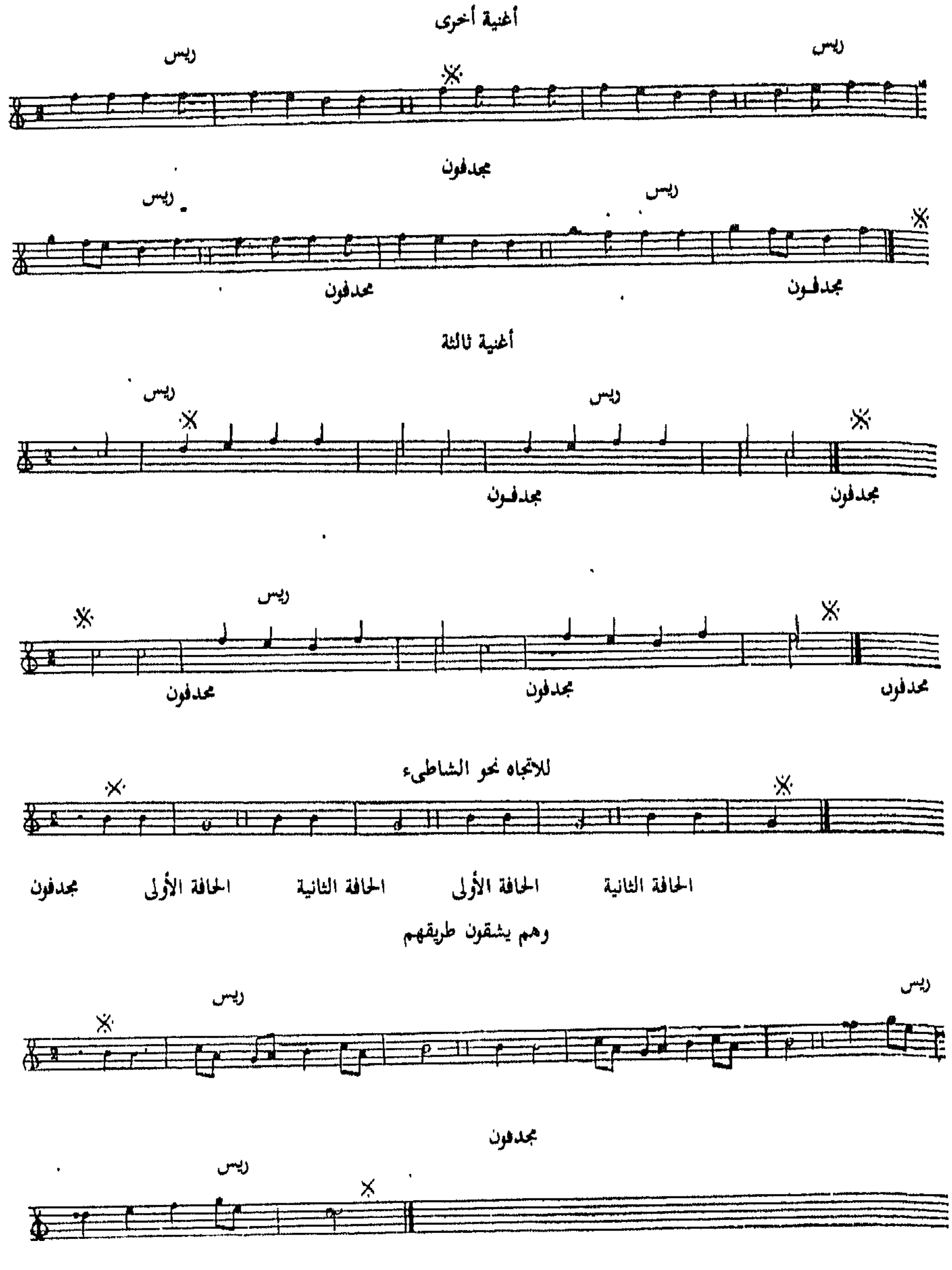


الريس : الله أبو سعد

البحارة: الله أبو سعد

الريس : الله أبو سعد

البحارة: الله أبو سعد



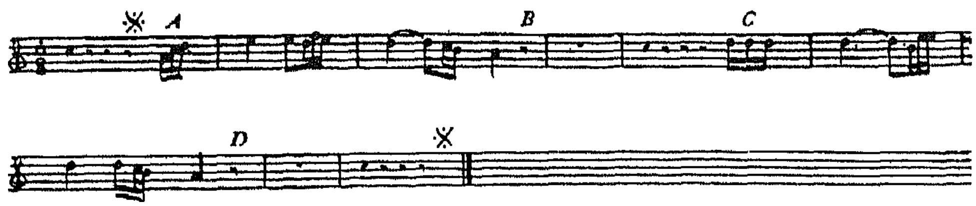
الريس : سلامات يابو سلام

البحارة: سلامات يابو سلام

الريس : سلامات يابو سلام

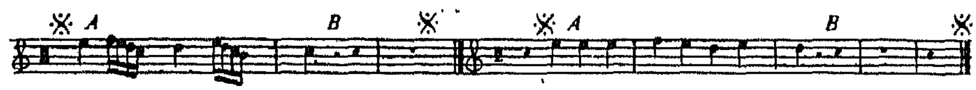
أغنية نازحى المياه (للرى بالشادوف أو المنطال)

لرى الأراضى بالقرب من إسنا[١]

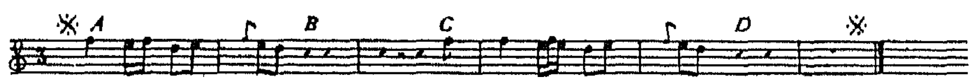


أغنية نازحى المياه بالقرب من منفلوط

أغنية نازحى المياه بالقرب من قنا



أغنية نازحى المياه بالقرب من الأقصر



---

(١) (ا) فى أثناء هذا العمل يرفعون ويفرغون الاناء الذى اغترفوا به الماء ؛ وهذا الاناء عبارة عن سلة مصنوعة من سعف النخيل ، يوضع بقاعه جلد خروف ؛ وتعلق هذه السلة فى طرف خيط طويل يتدلى من أحد الأغصان ، على شكل أرجوحة أو قلاب فوق ما يشبه مشنقة تشبه حرف T ، أو فوق جذع شجرة على هيئة مذراة .
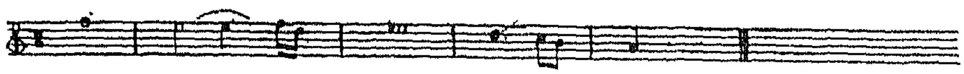
(ب) وفى أثناء هذا الغناء يدلون بسلتهم ليغترفوا المياه .

(جـ) وفى أثنائه أيضا يرفعون السلة من جديد .

(د) ثم يدلونها مرة أخرى .. وهكذا .

غناء نازحى المياه بالقرب من الأقصر ، كدعوة إلى النهوض

[والوقت الذى ينبغى أن ينفقه كل واجد فى اغتراف المياه قبل أن ينهض ، هو الوقت الذى ينفقه فى إفراغ إناء يسع أربع بنتات (البنتة : كيل للسوائل يسع ٥٦٨ ر من اللتر) ، مملوء بالمياه ، ويتم إفراغه قطرة قطرة عن طريق ثقب صغير يوجد فى قاعه].



الفصل الثالث

أغانى ورقصات بعض الشعوب الأفريقية
التى استقر عدد كبير من أبنائها فى القاهرة

المبحث الأول

أغنيات ورقصات البرابرة (أو النوبيين)
الذين يقيمون فى ضواحى الجندل (الشلال) الأول

الغالبية العظمى من أبناء مناطق أفريقيا المختلفة ، والذين يلقاهم المرء فى القاهرة ، قد جلبوا إليها فى شكل عبيد ، أو أنهم توجهوا — هم — إليها من تلقاء أنفسهم ، هربا من البؤس الذى لا يستطيعون له فى بلادهم دفعا ، أو بالأحرى ، حتى يكونوا فى مأمن من أن يموتوا جوعا ؛ وحيث لا يعرف هؤلاء أية حرفة ، وحيث لا تواتيهم الشجاعة ولا الإرادة للتدرب على حرفة ما ، فإنهم يقنعون بالقعود فى أماكنهم بوابين ، أو حراسا للمخازن والمحال ، محققين بذلك كسبا بالغ الضآلة (١)

ويفضل المصريون هؤلاء القوم ، بسبب إخلاصهم وأمانتهم ، على أبناء جلدتهم من المصريون ، ويشهد هذا الاختيار ، وهو فى حد ذاته محك لحسن أخلاق أولئك ، بفطنة المصريين وصواب نظرتهم ، أما الذين نعنيهم هنا فهم البرابرة ، الذين يسمون كذلك بربران أو بربير ، والذين يكادون يحتكرون وظائف البوابين وحراس المحال ، أما البلاد التى يقطنونها فتشمل كل المنطقة الأفريقية ، بطول النيل ، بدءا من جزيرة الفانتين ، تجاه مدينة أسوان ، حتى فراسخ أربعة إلى ما وراء الجندل الأول ، وتسمى لغتهم روتان (رطانة) ، وهذه لا نكتب قط ، وإنما هى نوع من اللهجات

---

(١) قبل مجيئنا إلى مصر ، كان الواحد منهم يحصل فى اليوم الواحد على اثنتين إلى ثلاثة قطع من المدينى ؛ وهى عملة نقدية ضئيلة ، تساوى الواحدة منها على وجه التقريب ثلاث لياردات liard ؛ أما نحن فقد أعطينا الواحد منهم خمس قطع من المدينى فى اليوم الواحد . أى ما يعادل نحو ٤ سو (ويساوى السو ١/٢٠ من الفرنك) ، كانت هى كل موردهم الذى يتعيشون عليه ؛ ومع ذلك فقد نظروا إلينا باعتبارنا أسخياء .

الاقليمية تشكل ، بالنسبة للعربية ما تشكله لهجة الاوفيرنيات auvergnats بالنسبة للغتنا الفرنسية [١] .

وإذ كنا شغوفين بالتعرف على تقاليد هؤلاء الأفريقيين ، الذين كانت تبدو لنا عاداتهم بسيطة وبريئة للغاية ، فقد كنا نجمعهم بين الحين والآخر ، كيما نهيىء لهم ، بتكاليف زهيدة ، حفلات كنا نتركهم فيها على سجيتهم ، ينهمكون فى مسراتهم ، وكنا فى كل مرة ، ندون الألحان والأغنيات التى كانوا يسمعوننا إياها .

أما أصالة الميلودى فى هذه الأغانى والألحان ، وأما الفرحة الصريحة ، والصخّابة التى تقدم معها هذه الألحان فى حضرتنا ، فهى أمور ليس بمقدور امرىء ما لا أن يدون نوتة لها ، ولا أن يصفها على نحو يقترب من الكمال ، إذ يستحيل على الإنسان أن يعبر ، باستخدام النوته الموسيقية ، أو عن طريق الكلمات ، عن الطابع الذى تمنحه لهذا الغناء ، الطفولة غير المتكلفة ، عند هؤلاء القوم البسطاء .

وتؤدى ألحانهم الراقصة ، كما هو الحال فى رقصهم نفسه ، فى مجموعتين ، تتكون الواحدة منهما من أربعة أو ستة أو ثمانية راقصين ، وفى بعض الأحيان ، من عدد أكبر يصطفون جميعا فى صف واحد ، قبالة المجموعة الأخرى ، موازين لها ، وبعيدين عنها بمسافة تبلغ خطوتين إلى ثلاث خطوات ، أما الرقص فيشتمل على الدق بالأرجل ، والضرب بالأيدى فى وقت معا ، وبشكل إيقاعى ، وعلى تحديد إيقاع للأيدى يختلف عن الإيقاع الذى تحدثه بدقاتها الأقدام ، وعلى أن يتقدموا ، وهم على هذا النحو كل فريق صوب الفريق الآخر ؛ فى البداية يتقدم أولئك الذين يكونون الجماعة الأولى ، ثم أولئك الذين يكونون الجماعة الثانية ، مع محافظة هذه الجماعة وتلك ، على الدوام ، على النظام نفسه ، أى مع بقاء أفرادها فى نفس اتجاههم .

أما ألحان الرقصات التى نقدمها هنا ، فهى تلك التى أداها هؤلاء القوم الطيبون عندنا ، حين جمعناهم ، احتفالا بإبلال خليل ، بوابنا ، رفيقهم ومواطنهم ،

---

(١) استطعنا أن نكون مجموعة صغيرة من مفردات لغتهم ؛ ومن بين هذه كلمات لا يمكن اعتبارها عربية قط ؛ وتختلف أرقامهم بشكل خاص ، وكثيرا ، عن مثيلاتها فى اللغة العربية .
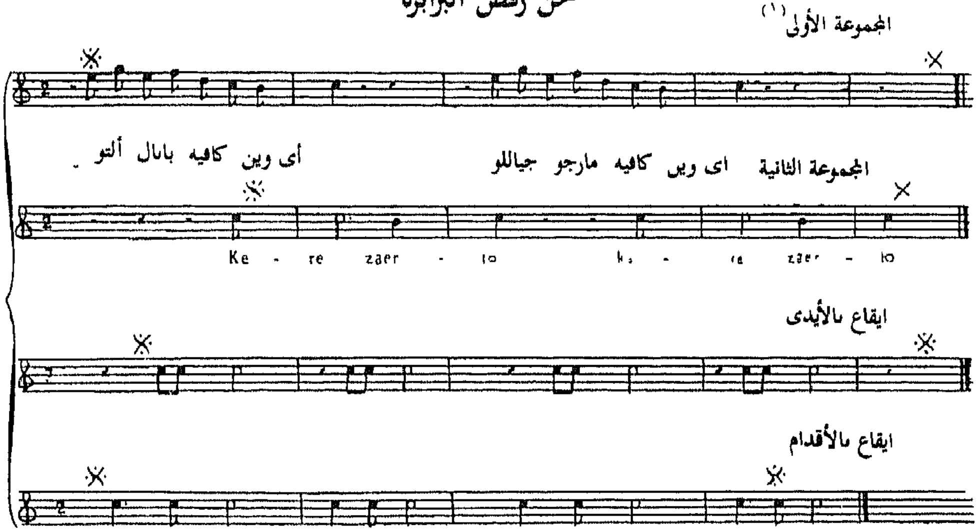
من جراحة أجريت له ، وذلك أنه برغم بلوغه الحادية والعشرين ، ولأنه لم يكن قد تم ختانه بعد ، قد واتاه العزم وقوة التحمل ، على أن تجرى له تلك العملية التى يفرض عليه دين محمد أن يمر بها (الختان) : وتتم هذه العملية عادة والمرء فى سن السابعة ، ويبدو أنها تكون عندئذ أقل خطورة ، أما خليل فقد عانى منها مدة ثمانية إلى عشرة أيام ، ومع ذلك فإن الجروح فى مصر ، وبشكل خاص تلك الجروح الخارجية ، تشفى بسهولة ويكاد يتم ذلك الأمر من تلقاء نفسه ، ولهذا السبب فلعل الوضوء الذى يأمر به الدين الإسلامى ، والذى كان يفرض على بوابنا أن يغسل خمس مرات فى اليوم ، كل أجزاء جسمه ، التى تخرج عن طريقها الإفرازات الرئيسية ، قد ساهم كثيرا ، ربما فى شفائه السريع .

وسنقوم هنا بتدوين غناء كل جماعة راقصة بشكل منفصل ، كما سنقدم إيقاع الأيدى منفصلا عن إيقاع القدمين ، ويبدو أن كلمات هذا الغناء تنتمى إلى الرطانة البربرية(*) .

(*) لا شك أن القارىء سوف يقدر الصعاب الجمة التى تكتنف مهمة التحقق من صحة الشكل الاملائى لكلمات هذه الأغنيات أو الأناشيد ، هنا ، وفى بقية ألحان الأقوام المختلفة التى تعرض لها النص الفرنسى ، مثل السيريان والأرمن والأحباش والأروام .. الخ ؛ ونحن هنا نبذل كل جهد ممكن ليأتى الشكل الاملائى العربى للكلمات قريبا من شكلها فى اللغة الفرنسية ؛ ومع ذلك فقد كنا على استعداد لتجشم كافة الصعوبات لتحقيق الشكل الاملائى بقدر ماهو مستطاع ، ولايراد معانيها لولا أن الأصل الفرنسى قد أغفل المعانى من جهة ، ولأنه لايقدمها هنا إلا لدلالاتها الايقاعية ، أى للوقوف على أوزان وإيقاع الحروف والكلمات ، وهو ما يتفق مع جوهر دراسة أو بحث عن الموسيقى ، ذلك أن المعنى العربى لأى نص ، سيفقده بداهة ، ايقاعه أو نغمه الأصلى ، الذى هو أصل أو أساس سلمه الموسيقى .

كذلك فإننا نقر ابتداء بوجود بعض تحريفات فى الشكل الاملائى لبعض الكلمات أو لموقع الكلمات فى مقطعها الشعرى ، وذلك نتيجة حتمية لوجود لغة وسيطة من جهة ، ولأننا نفعل ذلك اجتهادا ، ونقلا لما هو مدون على السلم الموسيقى ؛ وكل ذلك فى غيبة النص الأصلى ، أو حتى منطوقه فى اللغة الفرنسية فى شكله المطابق لشكله فى لغته الأصلية لكننا نرى مع ذلك أننا لسنا هنا بإزاء مبحث فى اللغة ، حتى ولو تعرض النص الفرنسى لذلك . فدارس =
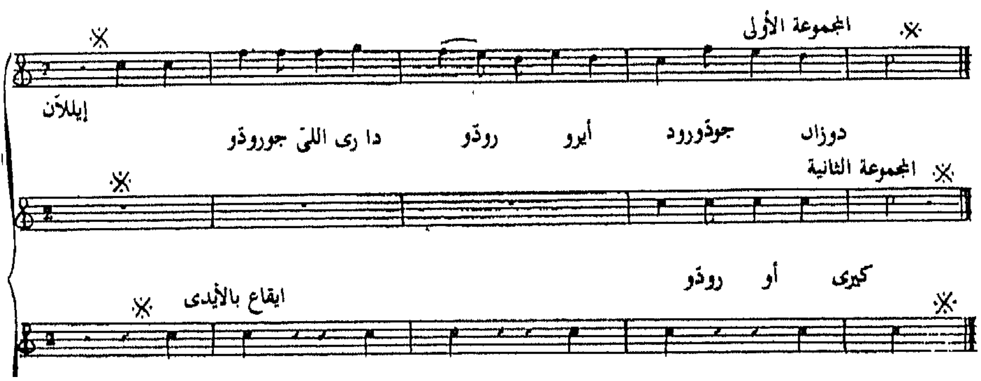
لحن رقص البرابرة



ثم يتتابع الغناء نفسه ، بكلمات مختلفة ، ولنحو ثمانى دقائق
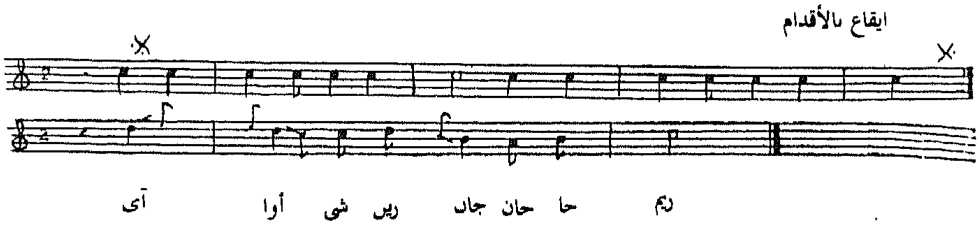
لحن ثان من رقص البرابرة

ملاحظة : كلمات هذه الأغنية ، هى كذلك من الرطانة البربرية الخالصة
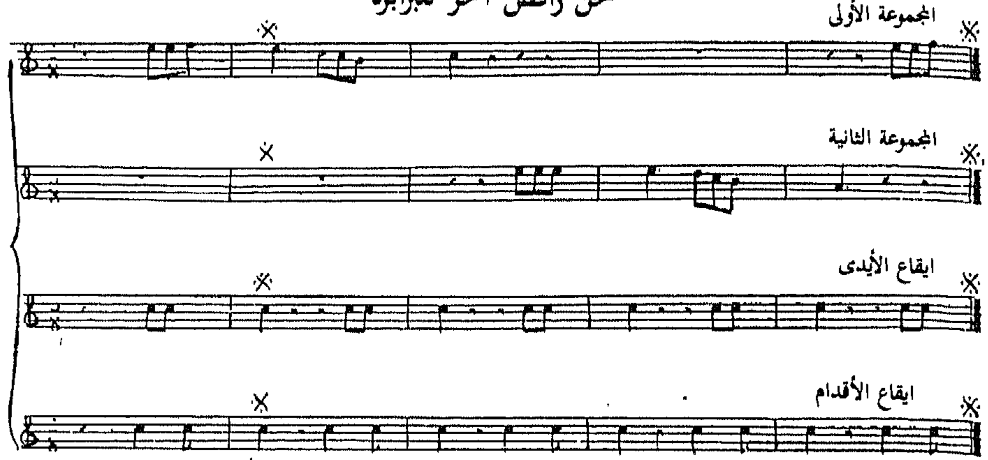


= هذه اللغات لن يلتمس معلوماته عنها هنا ، وإنما فى مظانّها الأصلية بالتأكيد . ونرجو ألا يكون منهجنا هذا موغلا فى الخطأ . [المترجم]

(١) دونا نوتة هذا اللحن الراقص بمفتاح الصول (سول) ؛ باعتباره المفتاح المعروف بشكل عام ، أكثر من غيره ، لكل من يعرفون الموسيقى . وحيث لا توجد عند البرابرة لغة مكتوبة ، فإننا لم نستطع أن ندون ، إملاءنا ، هذه الكلمات . إلا طبقا للفظها ، وليس طبقا للمنهج المتبع ، عند كتابة الكلمات العربية بحروف لاتينية .
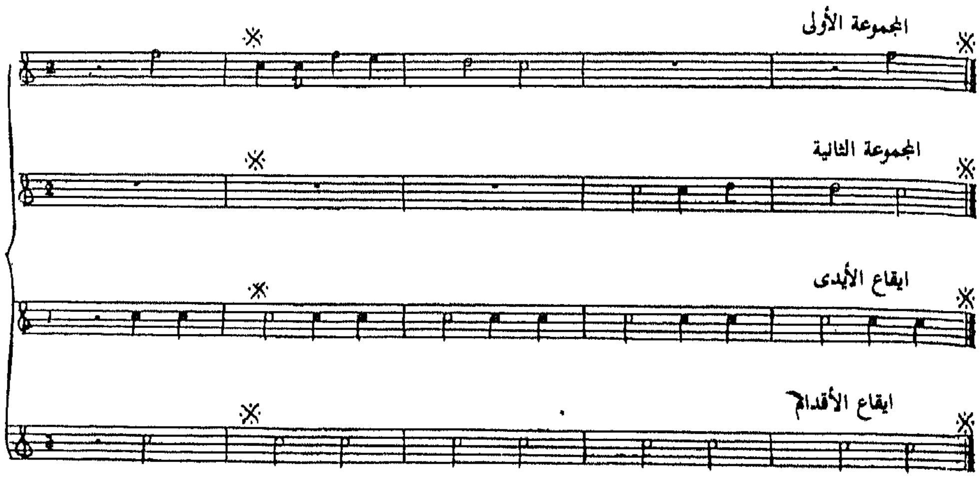


[وعند نهاية كل مقطع ، يتوقف الرقص ، وتغنى المجموعة
الأولى الغناء التالى ، ثم يبدأ اللحن السابق من جديد
بكلمات أخرى وكذلك يعود الرقص مرة أخرى]

لحن راقص آخر للبرابرة



لحن راقص آخر للبرابرة



المبحث الثانى

غناء أبناء دنقلة

إننا لنجهل ما إن كان هناك من بين الرحالة الذين اجتازوا أواسط أفريقيا ، من دفعهم الفضول إلى تدوين أغنيات أبناء دنقلة ، وإن كنا نعتقد بأنه لم يعرف هذه الأغنيات فى أوربا أحد ؛ ومع ذلك ، فليست هذه الأغانى بالأدنى قدرا من أغنيات أخرى كثيرة ، نقلها غيرنا عن بلاد أكثر بعدا بكثير ، كما أن شعوبها (بالنسبة لأهل دنقلة) ليست أكثر تقدما .

وألحان الغناء عند الشعوب المختلفة تمثل ، بالنسبة للمشتغلين بالموسيقى ، ما تمثله رسوم الوجوه فى هذه الشعوب نفسها بالنسبة للرسامين ، فكما يجد هؤلاء فى الملامح الأصيلة للوجوه المختلفة ، شيئا ، ربما لم يكن بمقدور خيالهم وحده أن يتصوره ، بالاضافة إلى أنهم قد يلجأون إليها لتنويع ملامح الأشخاص الذين قد يدخلونهم فى لوحة ما ، فإن الأولين قد يكتشفون فى أغنيات هذه الشعوب نفسها ، نوعا جديدا من الميلودى ، من شأنه كذلك أن يوحى لهم بأغانى ذات أصالة محببة ، عندما يستشعرون حاجة إلى ذلك ؛ وتكمن الموهبة الحقيقية (فى هذا المجال) ، فى معرفة كيف يمكن استخدام كل هذه الأشياء ، ومتى ، وفى معرفة الأسلوب الذى تأتى عليه ، كيما تحدث أكبر الأثر .

والميلودى فى غناء أهل دنقلة رقيق شجى ، أكثر منه صاخب مرح ، أما الآلة الموسيقية التى يستخدمونها فقيثارة قديمة صنعت بشكل منفروخشن ؛ ويشيع استخدام هذه القيثارة ، التى يسمونها جيزاركة ، فى كل أنحاء النوبة ، ويعرفها البرابرة بإسم كسَّر . وهم يعزفون بالمثل عليها ، وإن كنا لم نلاحظ أنهم قد استخدموها فى الأغنيات (التى كانوا يؤدونها فى حضرتنا) ، وتسمى هذه الآلة الموسيقية نفسها ، فى بعض جهات أخرى ، باسم كيسار أو كيصار ، ويطلق عليها فى القاهرة إسم كيصارة ، والكيثارة البربرية أى جيتار البرابرة ، فهل يمكن أن تكون كلمة كيتارا التى يكتبها الأغريق ويلفظونها كيصارة Kiçara ، هى فى الأصل مرادفة لكلمة قيثارة lyre ؟ هذا على الأقل ، أمر يتيح لنا أن نفكر فى إطلاق هذا الاسم على الآلة التى نحن

بصددها ، والتى هى قيثارة حقيقية ، ذلك أن الكلمات أو الأسماء جيزاركة ، كسُر ، كيسار ، كيصار ، كيصارة عند الأفريقين ، ليست سوى كلمة واحدة ، أو اسم واحد ووحيد ، يلفظ بأساليب مختلفة .

لكن الأمر الذى يعنينا هنا ليس اسم وشكل هذه الآلة الموسيقية ، بقدر ما يعنينا الأثر الذى تحدثه ، ويقترب هذا الأثر كثيرا من التناغم أو الهارمونى ، وإن لم يكن هارمونيا كاملا أو مكتملا ، بل لقد يدهشنا أن نتعرف فى الاستماع إلى هذه الآلة ، على توافقات يشوبها بعض من الاضطراب ، قد لا تتطلب — أى هذه التوافقات — سوى قدر ضئيل من الفن حتى تغدو مطابقة للقواعد التى نسير عليها ، أما إذا كانت الصدفة وحدها هى التى أدت لحدوث ذلك ، فإن ذلك لن يعنى سوى أن العازف عليها لديه الاستعداد الفطرى كى يصبح موسيقيا ، ولا ينقصه ، ليصبح كذلك ، سوى الدراسة .

وتمسك الجيزاركة وتوقع باليد اليسرى ؛ وهناك حزام مربوط بشعبتى الآلة ويستخدم سندا لها ، ولكى تتكىء عليه قبضة اليد ، بينما تعمل الأصابع ، أما اليد اليمنى فتستخدم فى نقر الأوتار بريشة العزف ، وهذه ليست سوى قطعة من الجلد تتدلى من طرف الشريط المعقود حول الشعبة اليسرى من هذه القيثارة .

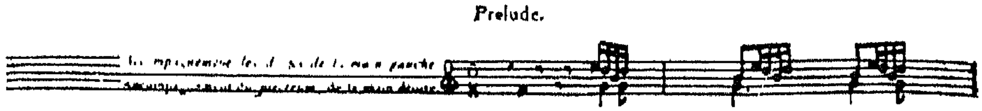
ويسمى اللحن الغنائى بالغنا ، وكلمة غُنَا ، طبقا لكل الشواهد هى تحريف للكلمة العربية غناء ، وهى تقابل عندنا كلمة chant ، واللحن الموسيقى وكلمات الأغنية الأولى (التى سنقدمها بعد قليل) لاتشترك فى قليل أو كثير مع كلمات اللغة العربية ، أما فى الأغنيات الأخرى ، فإننا نلاحظ ، ليس فقط وجود كلمات عربية ، وإنما كذلك وجود كلمات إيطالية تناولها بعض التحريف .

غُنَا من بلدة دنقلة ، تصاحبه القيثارة
المسماة فى هذه المنطقة بالجيزاركة

تمهيد موسيقى
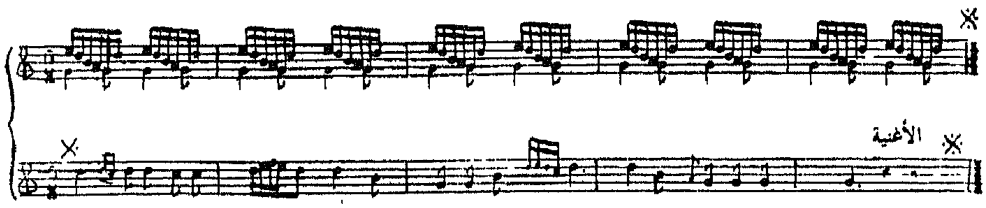
(أو دوزنة لضبط الآلات ، أو تقاسيم تمهيدا للعزف)

Prelude.
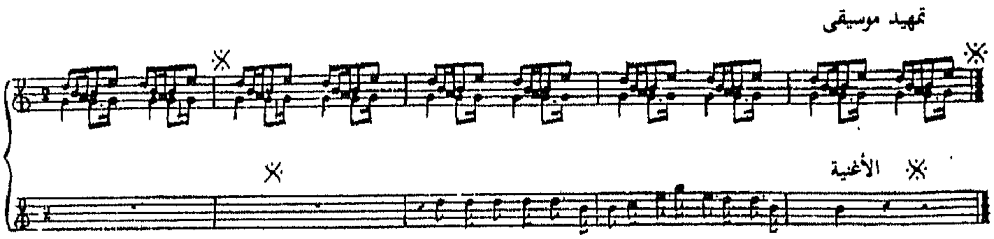


غنا آخر



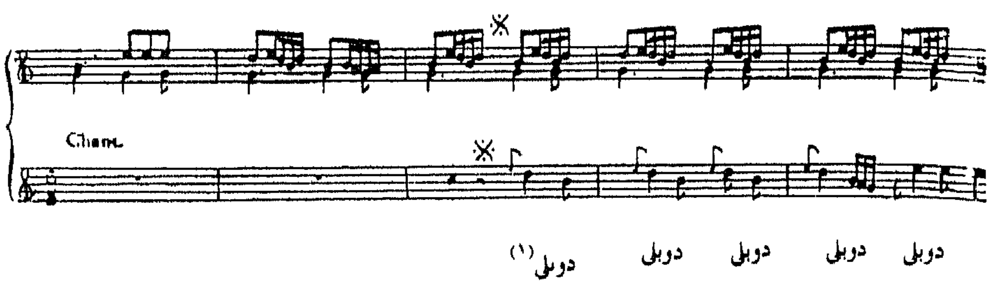


نافة نافة بى نهف ياسنيور(*)
إلى أجيد ياسنيو آل حديد

غُنا ثالث

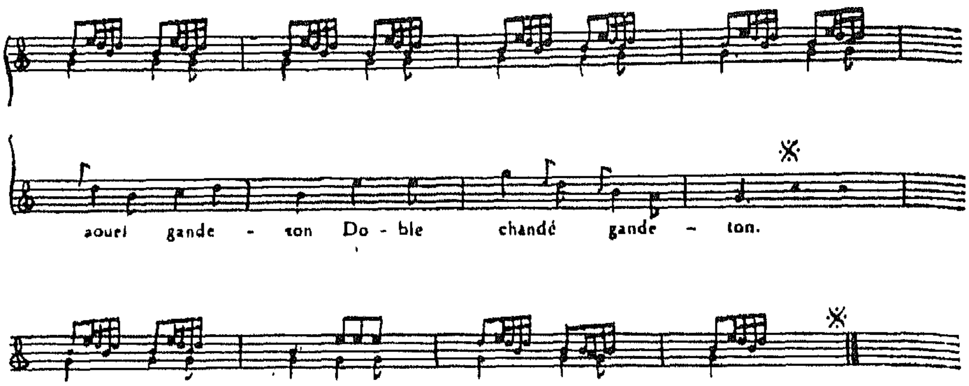


يا سروان أجى دلكو فارس الفرسان
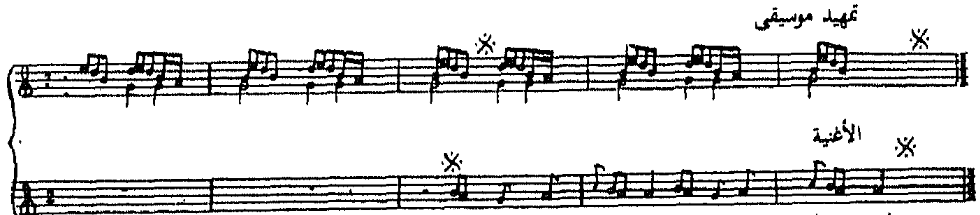


(*) جدير بالذكر أننا نقدم هنا وفى بقية الأغانى من هذا النوع اللفظ الأقرب لما هو مكتوب بالفرنسية حسب اجتهادنا ، ولعل القارىء يستشعر الصعاب التى تكتنف التحقق من الشكل الاملائى الصحيح لهذه الكلمات ، إذا كان له وجود . (المترجم) .

(١) تلفظ الباء فى كلمة دوبلى على نحو بالغ الخفة ، إذ لا تكاد تتلامس الشفتان ، كل =



المقطع الثانى : دوبلى ، دوبلى ، دوبلى ، دوبلى
دوبلى ، عاوِدْ دل فهاه (تكرر)
المقطع الثالث : دوبلى ، دوبلى ، دوبلى ، دوبلى
دوبلى ، عَاوِدْ دل كيار (تكرر)
المقطع الرابع : دوبلى ، دوبلى ، دوبلى ، دوبلى
دوبلى ، أيا شكليفا (تكرر).
المقطع الخامس : دوبلى ، دوبلى ، دوبلى ، دوبلى
دوبلى ، عَاوِلْ دل هجالب (تكرر)

غُنا رابع
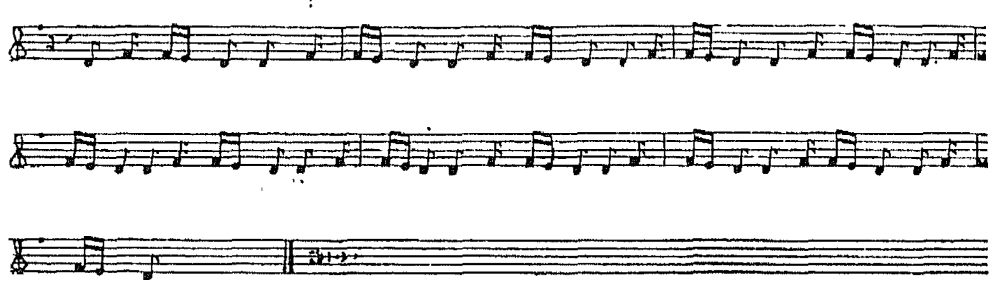


= منهما على الأخرى ؛ أما إذا أطبقت الشفتان عند التلامس ، ولو على نحو ضئيل ، فإن الباء ستصبح عندئذ ثقيلة لأكثر مما ينبغى . ولابد أن هذا الحرف يستمد أصله من الباء أو الفاء الثقيلة (٧) . دون أن يكون فى الوقت نفسه ، أيا منهما .

أُو يا أليمة (حليمة) أو يا سليمه
كتل ولداه عيط ولْداه
أُو فاطوما (فطوُمه) الليل بلدنا
ليلنا جوربدنا الليل أهالنا
ليلنا فطومه أو فطومه(١)

غُنا خامس

**[حيث أن كل المصاحبات الموسيقية
تكاد تتشابه فى كل واحدة من الأغنيات الثلاثة السابقة
(وكذلك فى الأغنيات القادمة) فسوف نعفى أنفسنا
من مشقة تدوينها فى الأغنيتين التاليتين]**

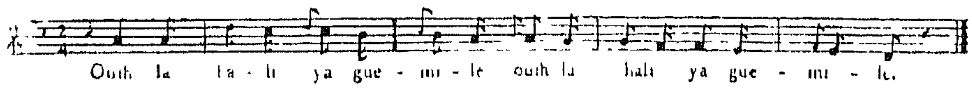


درده رونا درده
رُونا ورده ورونا
من بلادى بيُّدونا
بيدونا ياغزالى
ياغزالى ياحالونا
ياحالونا يا جميلى الخ

---

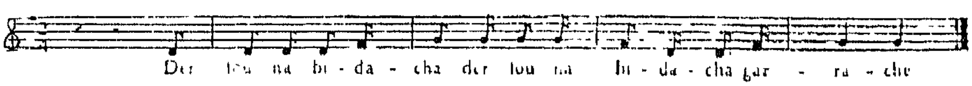
(١) طبقا لما أمكننا فهمه من رجلنا الدنقلى ، والذى لم تكن العربية مألوفة بالنسبة له لدرجة كبيرة ، فإننا نقدم فى هذه الكلمات معنى هذه الأغنية :
«يا حليمة يا سليمة ، لقد قتل أحد الأبناء ، وبكى الآخر . يافطومة ، كم أن ليل بلادنا ، وليلتنا هذه تَرْزَحُ علينا فتهصرنا ، وكم يعذبنا الليل ، ليلنا ، يا فطومة » .

غنا سادس



ويخ لاحالى (ويْحٌ لحالى) يا جميلى
ويخ لاحالى يا جميلى

غنا سابع



درفونا بيداشا
درفونا بيداشا
حاراشى

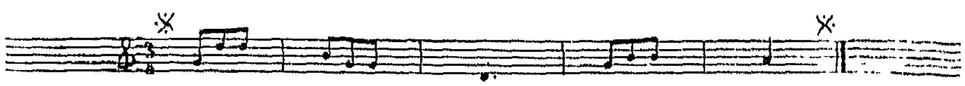
المبحث الثالث

عن غناء ورقص النساء فى السودان

كانت هناك من بين عبيد (وإماء) أحد الفرنسيين المقيمين فى القاهرة ، امرأة من بلاد السودان ، كان ينظر إليها باعتبارها راقصة بالغة المهارة ، لكنها لم تكن لتشاء أن ترقص أمام الرجال ، ومع ذلك فقد جاهدناها حتى اضطرت لأن ترقص ، مرغمة ، فى حضرتنا ، وقد صحبت هى هذا الرقص بغناء بالغ القصر ، لم نتمكن من التقاط كلماته .

وبدلا من أن تهز هذه المرأة ردفيها كما تفعل المصريات ، حين يرقصن ، كانت هذه تهز كتفيها رافعة إياهما إلى أعلى ، وبشكل توقيعى على الدوام ، وكانت من وقت لآخر تدير رأسها إلى اليمين مرة ، وإلى الشمال مرة ، بشكل كان فى البداية ينم عن قلق ، ثم أخذ بعد ذلك يفصح عن تململ وضجر ، ثم أخذت تسرع من حركاتها ، وتدق الأرض بغتة بقدميها ، حينا بعد حين ..وهكذا ، ومع إسراعها فى حركاتها أكثر فاكثر ، بدت لنا غاضبة مستفزة ، وظهر صوتها محشرجا يختنق .. وكانت كلماتها ، فى معظمها ، مبتورة ، يصدها الاختناق وتقطعها التنهدات .. وفى النهاية سقطت المرأة ، كما لو كان التعب قد هدّها ، فى حالة يصعب على أى إنسان أن يراها عليها .

لحن رقص النسوة فى بلاد السودان
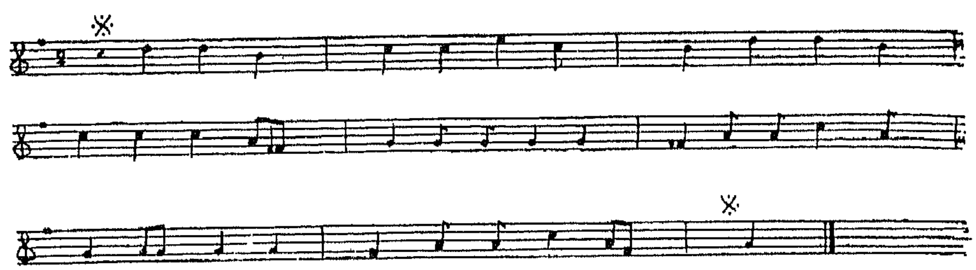


المبحث الرابع

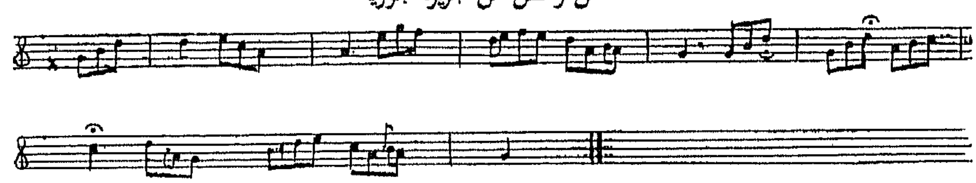
عن الألحان الغنائية والراقصة لأبناء السنغال وجزيرة جورية(*)

على قدر ما يستطيع امرؤ أن يحكم بمقتضى ما سمعه ،فقد بدت لنا ألحان الغناء والرقص لأبناء السنغال وجورية ، ذات ميلودى (طرب) لا ينبغى له مطلقا أن يثير نفور الأوربيين ، وهو لا يختلف إلا فى أقل القليل عن الميلودى فى أغنيات بلاد دنقلة ، التى أوردناها فى المبحث الثانى من هذا الفصل ، ونحن نعتقد من جانبنا أن القارىء لن يأخذ علينا أننا قد أفردنا مكانا ، هنا ، لبعض من هذه الألحان ، هى ، فيما نستطيع أن نحدس ، ليست بعد ، معروفه .
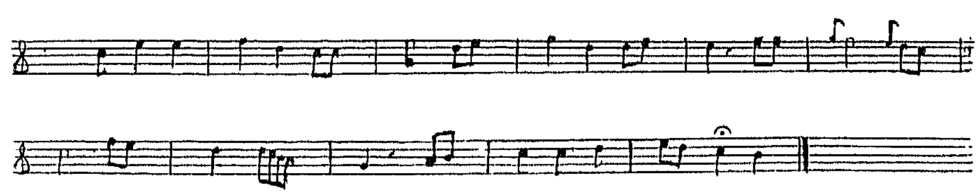
غناء راقص لأبناء السنغال



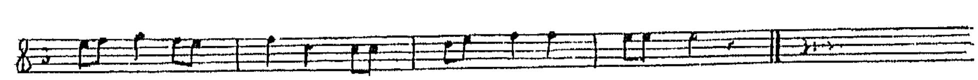
لحن راقص من جزيرة جورية



أغنية صيادى السمك فى الجزيرة نفسها



أغنية أخرى



(*) جزيرة تابعة للسنغال ، تقع فى مواجهة العاصمة دكار المترجم .

الفصل الرابع

عن موسيقى[١] الأحباش أو الأثيوبيين

(١) بالحبشيه : محلة (أو مهلة) ومعناها موسيقى .

المبحث الأول

عن منشأ وابتكار الموسيقى الأثيوبية

ينظر الأحباش إلى القديس يارد[1] بإعتباره منشئا ومبتكرا لموسيقاهم ، وطبقا للمأثور المتداول ، فإن القديس يارد بدوره قد تلقى معرفة هذا الفن ، وحيا من الروح القدس ، وإليكم كيف رويت لنا هذه القصة عن طريق البطريرك والقسس الأحباش ، فى واحدة من الزيارات التى كنا نتبادلها ، نحن وهم ، خلال المدة التى أقاموها فى القاهرة ، عندما كنا نحن فى مصر .

أُرْسل القديس يارد ، المولود فى سيمين[2] فى عهد نيجوس كالب [3] أى الملك كالب ، إلى أوكسيم[4] ، كى يتعلم القراءة والكتابة هناك ، وبعد أن قضى فى هذه المدينة سبعة أعوام ، لم يحرز خلالها أى تقدم فى مدارج التعليم ، طرده معلمه ، وبينما هو عائد إلى مسقط رأسه ، أثناء فصل القيظ الشديد ، مر بشجرة تسمى بلغة الأحباش أوركا [5] فجلس فى ظلها ينشد بعض الراحة وما إن غلبه النعاس ، حتى لمح دودة هائلة الحجم ، كانت تقرض الشجرة ، تتجه نحو قمتها ، وإذ سقطت هذه الدودة على الأرض ، فقد صعدت مرة ثانية لتسقط مرة أخرى وهى فى طريقها إلى القمة ، كما حدث فى المرة الأولى ، وإذ حاولت الدودة الشيء نفسه لسبع مرات ، دون نجاح ملموس ، فقد دفع هذا القديس إلى التفكير ، بينه وبين نفسه ، ماذا يعنى

---

(١) بالحبشية : محلة (أو مهلَة) ومعناها موسيقى .

(٢) إحدى مدن الحبشة .

(٣) نيجوس كالب أى الملك كالب .

(٤) مدينة أوكسيم هى المدينة التى وضع الملك كالب فيها بلاطه وأقام مقره الثابت . ونجد اسم هذه المدينة فى روايات الرحالة ، وفى البحوث الجغرافية ، وفوق الخرائط ، ويكتب إملائيا على هذا النحو : أوكسوم . ونحن نكتبه بدورنا ، أوكسيم . طبقا للشكل الاملائى ، وللنطق ، اللذين يتبعهما القسس الأحباش .

(٥) أوركا .

ذلك ، ولماذا قامت هذه الدودة بسبع محاولات كى تصعد إلى قمة هذه الشجرة . لتسقط نفس هذا العدد من المرات على الأرض ، ألا يمكن أن يكون فى ذلك صورة لحالى أنا ، أنا الذى ذهبت إلى المدرسة سبع سنوات متعاقبات دون أن أتمكن من تحصيل شيء ؟ وحينئذ التهم الدودة ، فهبط عليه الروح القدس فى شكل حمامة ، ولقنه فن القراءة وفن الكتابة ، وفن الموسيقى ، وألهمه فى الوقت نفسه المقامات الثلاثة : حيز ، إزل ، أرارای ، أما المقام الأول فخاص بأيام العطلات ، أما الثانى فيدخر لأيام الصيام والصيام الكبير ولعشية الأعياد ، وللحفلات الجنائزية ، أما الثالث فلأعياد العام الكبرى ؛ وبعد أن نال القديس يارد المعرفة بهذا الشكل المعجز قام بوضع نظرية تضم مبادىء وأساليب الغناء المطبقة حاليا فى الحبشة .

المبحث الثانى

كيف توصلنا إلى إكتساب بعض المعرفة حول الموسيقى الأثيوبية

كثيرا ما تمنينا لو أن واحدا من هؤلاء القسس الطيبين ، قد أمكنه أن ينبئنا علام يشتمل كل واحد من المقامات التى انتهوا من تسميتها لنا ، وماهو الاختلاف الذى يميز هذه المقامات فيما بينها ، وماهو السلم النغمى ، وماهى الطبقة الخاصة بكل واحد منها ، ومع ذلك ، فبرغم أننا – هم ونحن – لم نكن نلقى صعوبة كبيرة فى التعبير عن أفكارنا ، كل منا فى اللغة العربية ، التى كانت غريبة على كلينا معا ، فإننا لم نكن نعرف ، لاهم ولانحن ، كيف نعبر عن أفكارنا ، حين كنا نخرج عن الأسلوب العادى فى المناقشة ، حين يتصل الأمر بالألفاظ التقنية الخاصة بالموسيقى ، فكانوا – هم – يجهلون هذه الألفاظ التقنية المقابلة فى اللغة العربية ، أما نحن فكنا نجهل بشكل تام مثل هذه الألفاظ الموسيقية فى اللغة الأثيوبية .

وحتى نجعل من أنفسنا مفهومين من جانبهم ، فقد لجأنا إلى التجربة ، ورجوناهم بالتالى أن يدللوا لنا من جانبهم ، عن طريق الأمثلة ، على مالا نستطيع أن ندركه أو نتصوره فى أحاديثهم ، ولقد كان هذا السبيل وحده هو ما كان بمقدور كلينا أن يأخذ به ، كما كان هو الطريق الأقصر لوصول كل منا إلى مبتغاه ، ومع ذلك فيمكننا القول إننا كنا نتخبط فى هذه السبيل كما يتخبط الأعمى ؛ كما أنهم لم يشبعوا نهمنا قط بما كنا نريد أن نعرفه ، فقد كان كل مثال ، يقدمه أى منا للآخر ، يغدو مشكلة تبحث عن حل .

ومع ذلك فحيث قد أمكننا بالفعل ، ذات مرة أن ننجح ، باستخدام هذه الطريقة ، ولدرجة محدودة ، بخصوص موسيقى العرب ، فقد كنا نأمل كذلك فى شيء من النجاح ، إذا ما تصرفنا على النحو نفسه بخصوص موسيقى الأحباش ، ولم يخب قط ، فى هذا المجال رجاؤنا ، وهكذا دونا نوتات الألحان ، وأغنيات القسس الأحباش ، بينما كانوا هم يسمعوننا إياها ، ثم أخذنا نتفحصها عندما كنا نخلو إلى أنفسنا ، ثم كنا

نستعيدهم إياها حينما نلقاهم مرة أخرى ، أو كنا نستحثهم أن يكرروها أمامنا ، بغية أن نعرف ما إن كان ما دوناه عنهم صحيحا أم قد جانبه الصواب .

وعندما كنا نثق من أنه لا توجد قط (أو لم تعد توجد قط) أخطاء كنا ننقل إلى هؤلاء القسس الطيبين الملاحظات التى أفسح لوجودها مكانا فحصنا لأغانيهم ، وكنا نزن أجوبتهم ، ونأخذ مذكرات بالنتائج ، وعن طريق مثل هذه الاحتياطات توصلنا إلى معرفة ما نقدمه الآن تعريفا بالموسيقى الأثيوبية ، تلك التى لم يكن قد تيسر لنا عنها حتى هذه اللحظة ، سوى معطيات سطحية بقدر ماهى كذلك غامضة .

المبحث الثالث

حول عدم دقة الأفكار التى كانت لدينا عن الموسيقى الأثيوبية

لم نحصل (نحن فى أوربا) على هذا القليل الذى كان لدينا بخصوص الموسيقى الأثيوبية ، إلا عن طريق رحالة ، إما أن بعضهم لم يكتسبوا عن فن الموسيقى ، إذ أنهم غير متبحرين فيه على الاطلاق ، القدر الكافى من التجربة ، والذى يمكنهم من القيام بملاحظات لها جدواها فى بلد أجنبى ، وإما أن بعضهم الأخر كانت تشغله لدرجة أكبر مما ينبغى ، أبحاث هامة ، لم يكن موضوعها ليشترك فى شىء قط ، مع الموسيقى و هكذا لم يكن ليستطيع أن يركز إنتباهه إلا على أمور من طبيعتها أن تسترعى أنظاره بقوة ، أكثر من غيرها ، مثال ذلك شكل الآلات الموسيقية ، وضجة الأنغام التى تصدر عنها ، ومدى الدهشة التى يستشعرها الأجنبى ، حين يشاهد لأول مرة طريقة العزف على هذه الآلات .

صحيح أن البروفيسور كيرشر Kircher فى مؤلفة الشهير : Ars magna .Consomi et dissoni, partie VIII Musurjia mirifica, P.135.

قد دون الموسيقى فى شكل مقاطع شعرية ، أو أدوار ، من أربعة أبيات من الشعر الأثيوبى ، ومع ذلك فإنه لم يفسر لنا قط كيف بلغته ـــ هو ـــ على هذا النحو ، بل إنه لم يكلف نفسه حتى عناء التدليل على أصالتها ، مع أن مثل هذا الأمر كان بالغ الضرورة بالنسبة لنا ، كيما تتبدد شكوكنا حول هذه النقطة ، ولعله قد وجد ما نقله إلينا فى بعض الدراسات التى أجراها الجزويت فى أثيوبيا ، أو أولئك الذين كانوا يقيمون ، من بينهم ، فى المناطق الأخرى من العالمين القديم والحديث ، والتى يعطونها الصدارة فى نظامهم (أى يعلقون على هذه الدراسات الأهمية الأكبر) ومع ذلك ، فمثل هذه الدراسات لاتبث فى نفوسنا الطمأنينة ، ونحن نتجاسر على هذا القول ، حول مدى الإخلاص الذى نسخت به هذه الأدوار الشعرية عندما انتقلت إلى أوربا ، ولسوف نحكم بعد قليل ، ما إن كانت ريبتنا هذه ، تنهض أو لا تنهض على أساس قويم .

المبحث الرابع

حول الطريقة التى شُوِّه بها الغناء ، وحرفت بها كلمات المقطع الشعرى ، ذى الأبيات الأربعة ، من الشعر الأثيوبى ، وكيف غنى لنا الأحباش وكتبوا ، هذا المقطع ، أو الدور ، نفسه

فى واحد من لقاءاتنا الأولى مع القسس الأحباش ، بعد أن حصرنا المناقشة حول أغنياتهم الدينية ، ذكرنا لهم أن بعضا كان قد نقل إلينا ، فى أوربا ، بعض شىء حول هذه الأغنيات ، وغنينا لهم على الفور ، الدور أو المقطع الذى انتهينا من الحديث عنه ، على النحو الذى جاءت نوتته مدونة عليه ، فى مؤلف الأستاذ كيرشر .

ونحن نقدمه هنا ، حتى يستطيع القارىء أن يقارن بين الغناء والكلمات ، وبين الكلمات نفسها على النحو الذى كتبها عليه القسس الأحباش ، وبين الغناء الذى أسمعونا إياه ، والذى نسخناه نقلا عن إملائهم .

دور ، أو مقطع شعرى من أربعة أبيات من الشعر الأثيوبى ، مع غنائها (أى لَحْنِها) ، كما يقدم ذلك البروفيسور كيرشر :



« جيهون	فالاش	سيمائى
زيفلاسى	فاتو	بيمائى
ما دور	تملا	بيبالا
و اتام	لا	سألانو »

فكان الأمر بالنسبة لهؤلاء القسس الطيبين يكاد يقارب الشىء نفسه ، لو أننا قد غنينا لهم بالفرنسية أو اللاتينية ، ذلك أنهم لم يفهموا شيئا ، لا فى الغناء ولا فى الكلمات ؛ وحين وضعنا تحت ناظرهم النص المطبوع فى مؤلف كيرشر ، أمكنهم بعد لأى أن يقرأوه ؛ إما لأن الحروف فيما يبدو ، قد حرفت فى الرسم الذى نقل عنها ، وإما لأن هذه الحروف قد نفذت بشكل ردىء بواسطة حروف من خشب .

وفى الوقت نفسه ، فإنهم ما إن تعرفوا على كلمتين أو ثلاث كلمات من هذا الدور ، حتى حدسوا الباقى ، وكتبنا ، نقلا عنهم ، المقطع الشعرى كاملا ، بحروف اللهجة الأمهرية[١] ، عدا كلمة فيسون [٢] Fison التى نسيت فى المقطع الشعرى

(١) الأمهرية ، هى أولى اللهجات الأثيوبية ، ويشيع استخدامها فى كل أرجاء الحبشة ، وبصفة خاصة فى الكتب الكنسية ؛ ويحصى من اللهجات المستخدمة فى الحبشة ما يصل إلى عشر لهجات ، وقلما لا يوجد حبشى لا يعرف من بينها لهجة أو اثنتين (بخلاف لهجته الأصلية) ، أما الذين يعنادون على الأسفار فيتكلمونها جميعا ؛ وكلمة أمرا (أمهرا) amara ، طبقا للشكل الاملائى الذى يكتبها عليه لودولف Ludolphe وكاستيل Castelle ، وكل المستشرقين ، تكتب مع حرف الهاء (h) (أمهرا – amhara) ؛ ولكننا اتبعنا هنا ، الشكل الاملائى الذى يكتبها عليه القسس الأحباش ، فقد كتبوها لنا غفلا من حرف الهاء .

ملاحظة : حيث لم تصلنا بعد ، فى أوربا ، كل حروف الهجاء فى اللهجة الأمهرية ، وحيث ينقصنا منها الجزء الأكبر ، أو لعلها تنقص كلية فى المطبعة الأمبراطورية ، فقد أحللنا محل هذه الحروف ، التى قد نقتصر على استخدامها فى مخطوطاتنا ، حروف لهجة أخرى ، تكاد تكون ، وحدها ، المعروفة خارج أوربا .

(٢) كلمة فيسون ، فى الدور أو المقطع الذى غناه القسس ، تأتى مباشره بعد كلمة جيون (جيهون) ، ونحن فى أوربا نكتب هاتين الكلمتين على هذا النحو : phison, gihon ؛ وهما اسمان لنهرين ينبعان من الجنة ويجريان على الأرض ؛ وكل شعوب الشرق تظن أنها تجد هذين =

الذى نقله إلينا البروفيسور كبرشر ، ذلك أنهم نقلوا لنا بأمانة هذا المقطع ، وإن كانوا هم ، قد أعادوا تثبيت هذه الكلمة ، حين غنوا المقطع لنا ، وفضلا عن ذلك فقد أحلوا كلمة باديفا (بالباء الثقيلة)(١) ، محل كلمة بيمائى ، التى لاتتفق مع عروض الأثيوبين ، إذ ينقص الوزن عندئذ بمقدار مقطع صوتى واحد ، وأحلوا هم ـــ للسبب نفسه دون شك – كلمتى ديفا بيئيلى التى لاتوجد قط فى غنائهم الذى نسخناه عنهم ، والذى نقدمه نحن هنا(٢) .

« جيون فيلاجى سيمائى
زى فيلهى ويتوبيمائى
مودرى تيميللى دافا بيئيلى
واتيمللى سألانو »

ግዮን ፊለገ ሰማይ
Gi m felage saney
ዘዩ ፈሊከ ወእቱ በማይ
Zey felhe eutou bemry
ሞደር ቶሚለእ ዴበ በዕሌ
Meudet temelle deva lrele
ወ ቶሚለእ ሰእለኒ
Oua temelle saalane.

وإليكم هذا المقطع أو الدور ، مدونا بنوتته الموسيقية طبقا لغناء القسس الأحباش ، ولقد استعدناهم إياه ، مرات عدة ، حتى لا تفوتنا فيه أدنى نبرة صوت ، عندما يكون من طبيعة هذه النبرة أن تسمح بنقلنا إياها ، عن طريق نغماتنا ، أو نوتاتنا الموسيقية .
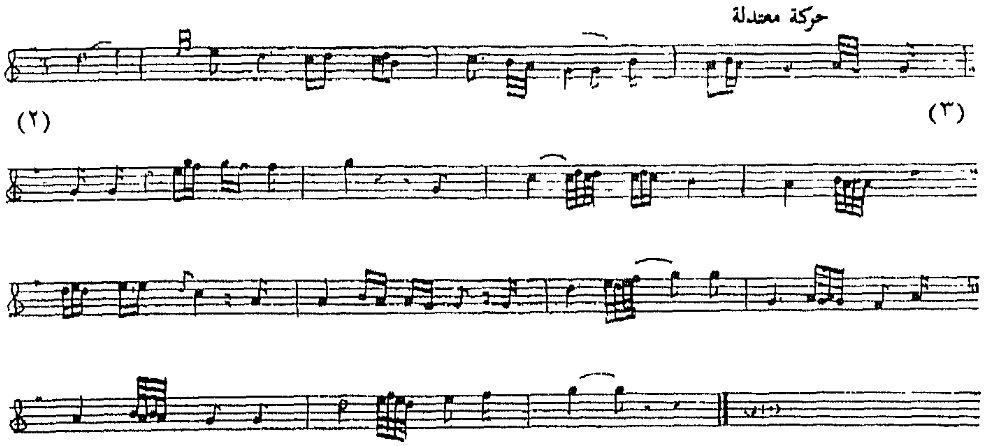
= النهرين فى النهر (أو الأنهار) التى تروى أراضيها ؛ فهناك من يتساء أن يكون هذان النهران هما دجلة والفرات ، وآخرون يزعمون أنهما الحانج والهندوس ، ويظن الأثيوبيون أنهما النيل والنيجر .

(١) يلفظ الأثيوبيون ، بصفة عامة ، وعلى نحو غالب ، حرف الباء b متلما نلفظ نحن حرف الفاء الثقيلة v ، وهو مايحدث مع كلمة بادبفا badiva ، والتى نكتبها نحن طبقا لنطقها ، إذ حولنا حرف الباء الموجودة فى الأثيوبية إلى فاء ثقيلة ؛ أما حرف الباء فيلفظ دوما على ألسنة الأثيوبيين بنحمة بالغة ، وبالطريقة نفسها التى لاحظنا أن صديقنا الدنقلى يلفظها بها .

(٢) لو كان الأستاذ كيرشر يعرف أنه يوجد فى البيت الأول من هذا الدور أو المقطع الشعرى كلمة زائدة ، وأنه توجد عند نهاية البيت الثانى كلمة تزيد بمقدار مقطع صوتى عن الكلمة التى أحلها محلها ، لكان دون شك قد أسس قواعد أخرى غير تلك التى قدمها ، حتى يشكّل إيقاعا ولحنا لهذا الدور ، ولو كان كيرشر كذلك قد عرف الموسيقى الأثيوبية لما كان قد قدم قط ، هذا الدور ، باعتباره منتميا إلى المقام الثالث .

أرارى زملا

أى نغم أو مقام زِملا (١)



وهناك بالتأكيد اختلاف كبير للغاية بين هذا النطق ، وبين النطق الناتج عن الكتابة على النحو الاملائى للكلمات ، الذى كتبها عليه كيرشر ، لحد لا نستطيع معه أن ننسبه إلى اختلاف اللهجات التى يمكن لهذه الكلمات أن تقدم فيها . أما بخصوص الغناء (أو اللحن) ، فليس هناك ظل من تشابه بين هذا الغناء ، وبين ما قدمه عليه كيرشر ، فالميلودى عند كيرشر أوربى خالص ، ويتعارض هشكل تام ، وبفعل بساطته المتناهية ، مع الميلودى عند الشرقيين ، وبشكل خاص ، مع غناء الأحباش الذى دونا نوتته هنا ، فالميلودى الحبشى مفرط فى الزخارف والتكلف ، وهذا ما يفصح بوضوح لا ريبة فيه عن الاختلاف البادى فى اللحن الذى يقدمه كيرشر ،

---

(١) ونضيف هنا اسم المقام الذى شكلت عليه هذه الأغنية ؛ وهناك ما يشهد بأنه كان مجهولا ممن قام بنقل هذا الدور إلى كيرشر ، مادام هذا الأخير لم يعرفنا به مطلقا .

(٢) ونكتبه على هذا النحو الإملائى حتى نوضح أن علينا أن نلفظ الجيم غير معطشة (فهو فى النص الفرنسى قد أضاف حرف u بعد حرف g لهذا الغرض ، ومن هنا كانت ضرورة هذا الهامش – المترجم) .

(٣) ٣الحرف s فى كلمة فيسون ينبغى أن يلفظ سينا (ذلك أن الـ s التى تقع بين حرفين متحركين فى الفرنسية تلفظ ذالا ، ومن هنا كذلك جاء هذا الهامش – المترجم) .

فليس هناك ما يرجح أن يكون هذا اللحن المخصص لطقوس العبادة ، غير معروف على نحو تام ، من جانب قسس يؤدونه كل يوم ، وأقل من ذلك ترجيحا ، أن يكون الأثيوبيون قد أحدثوا مثل هذه التغييرات الكبيرة فى غنائهم الدينى ، وهو أمر لا يحدث عند كل الشعوب ، قاطبة إلا فى القليل النادر ، لاسيما إذا كانوا على اقتناع تام ، كما هو الحال عند الأحباش ، بأن غناءهم ، إنما هو وحى من الروح القدس لواحد من القديسين ، يجلونه أكثر من سواه .

المبحث الخامس

حول أداء الأغنيات الدينية عند الأحباش بصوت القساوسة الأثيوبيين الذين عرفناهم ، وحول هذا الأداء كما يتم فى الكنائس الحبشية

عندما يأخذ المرء فى اعتباره الأسلوب الحاذق الذى تكون على أساسه الغناء ، فى الدور أو المقطع الشعرى السابق ، فقد يسوّل له هذا أن يعتقد بأن من الضرورى أن يكون هؤلاء الذين أدوه أمامنا ، من العازفين بالغى المهارة فى فن الموسيقى ، بل لعله قد يراوده الظن بأن طموحا يخامر هؤلاء كى يبدو كذلك ، لكننا نستطيع أن نؤكد بألا شىء أكثر من ذلك مجافاة للحقيقة ، فالقسس الأحباش الذين عرفناهم ، كانوا على درجة من سلامة الطوية والبساطة ، لحد لن يجد المرء لديهم معه أدنى حب للتباهى ، وأما صوتهم الخفيض والذى يوشك أن يكون واهنا من أثر الزهد والتقشف الدائمين ، اللذين يعيشون فيهما ، فقل أن يسمح لهم بأن يخالط غناءهم شىء من الادعاء أو الغرور ؛ أما ما يبدو هنا على أنه زخارف مصطنعة ، فليست سوى توازنات لا غنى عنها ، فيما يبدو ، لأصوات توشك أن تكون شبيهة بأصوات أطفال ، لم يستطيعوا الكلام بعد ، عندما تستبد بهم فرحة غامرة ، تؤدى بهم إلى حالة من الانتشاء البالغ ، حين نقدم إليهم أشياء يحبونها ؛ ليكن هذا أمرا خاصا بهؤلاء القسس الطيبين ، ولتكن هذه هى الطريقة المتبعة للغناء فى الحبشة ، وهو أمر لا نعتقده ، فمن المؤكد فى كل الأحوال أنهم لم يكونوا يتكئون قط على مخارج ألفاظهم ، وإنما كانوا ، إذا جاز القول ، يدعون أصواتهم تنزلق ، بطريقة طفولية بالغة السذاجة ، مع شىء من الخور .

ولم يكن ليلزمنا أقل من العادة التى تعودناها من استماعنا وأدائنا بأنفسنا لفن الموسيقى ، منذ أكثر من ثلاثين عاما ، كى نستطيع أن نتبين أنغاما على هذه الشاكلة ، وأن نميز أغنيات تقدم بمثل هذا العجز .

وعندما قلنا بإننا لا نظن أنه من عادة الأحباش أن يقدموا أغنياتهم الدينية بهذا القدر من الرقة والرخاوة والاهمال ، البادى فى الأغنيات التى سمعناها فى القاهرة ، فقد كان دافعنا لذلك هو أن كل الأمور تدعو إلى الاعتقاد بأن هذه الأغنيات تتخذ بالضرورة ، فى الحبشة ، طابعا رجوليا ، حازما وجادا للغاية ، بمعنى أن هذه الأغانى سوف تخنقها (لو أنها أديت بالشكل الذى سمعناها عليه) ضجة حشد هائل من الطبول ، لا يكفون عن قرعها عند باب الكنيسة ، بالاضافة إلى أصوات الرقصات الصخّابة التى يؤديها القساوسة و الشعب فى وقت معا ، فى داخل الكنيسة ، خلال حفلات وطقوس العبادة التى تشكل هذه الرقصات جزءا منها ؛ وتشتمل رقصات الأحباش الدينية هذه ، وهى شبيهة برقصات البرابرة التى تحدثنا عنها فى موضع سابق ، على قفزات صغيرة ، ودق بالأقدام ، وتصفيق بالأيدى ، تزامن قرعات الطبول والمزاهر التى تحدد لها إيقاعها[١] ؛ وبمعنى آخر كذلك فإن هذا كله لا بد له أن يصدح بقوة لا تدع حتى للأصوات الممتلئة رجولة ، والجهيرة للغاية ، الفرصة لأن تسمع بسهولة ، ما لم تكن هذه الأغنيات تؤدى بأكبر قدر من الهمة والحيوية .

وفى الوقت نفسه فحيث أن الضجة الشديدة ، عندما نشاء أن نحكم على ميلودى الغناء ، هى دوما أكثر ضررا من الخور البالغ فى أصوات أولئك الذين يؤدونه ، فلو أنه أتيح لنا أن نختار بين هذين الأسلوبين فى الأداء ، لتقدير الميلودى عند الأحباش ، لوقع اختيارنا بالتأكيد على الأسلوب الأخير (أى الأداء الواهن بعيدا عن الضجة) والذى يبدو لنا أقل سوءة وأكثر وثوقا ، ذلك أن أداء صوتيا عنيفا لدرجة تزيد عن الحد المقبول ، عادة ما يجعل النغمات خاطئة ، ويحدث أثرا غير مستحب ، ولذلك فإننا لانظننا نقف على أسس غير واثقة ، عندما نتحدث عن موسيقى الأثيوبيين ، وكأننا قد ذهبنا إلى بلادهم .

---

(١) المزاهر (أى الجلاجل) ، نوع من الأجراس ، لا يزال استخدامها فى الحبشة مقصورا على القسس ، كما كان هو الحال عند كل الشعوب القديمة . ولقد تحدث كثيرون من قبلنا ، بشكل طيب ، عن هذه الرقصات ، وإن لم يكن هناك من تحدث قط عن طبيعتها ، وكيف كانت تؤدى .

المبحث السادس

عن كتب الأغانى ، وعن السلم الموسيقى
وعن الاشارات الموسيقية المستخدمة
عند الأثيوبيين

لاشك أننا لم نكن لنجد ، ربما فى الحبشة نفسها ، مصادر أوسع من تلك التى وضعت تحت إمرتنا ، مجاملة ، من قبل القسس الأحباش ، كى نتزود بمعلومات كنا راغبين فى معرفتها ، حول الموسيقى الأثيوبية ؛ فقد كانت معهم كتب غناء ، دون اللحن فيها بحروف من الأبجدية الأمهرية ، بشكل يقارب ماكانت عليه موسيقى الأغريق فى العصور الأخيرة ، أى منذ نحو أربعة قرون سابقة على العصر المسيحى ، ولقد أبدى هؤلاء القسس كل الحماسة وكل شغف ممكن ، لإطلاعنا عليها ولإفهامنا إياها بل لقد تهيئوا لتعليمنا اللغة الأثيوبية ، وكتبوا لنا لهذا الغرض ، الأبجدية الأمهرية ، وعلمونا بعض قواعد الاعراب والنحو ، وبعض التصريفات ، لكن قصر الوقت المتاح لمثل هذه الدراسة ، يضاف إليه الفضول الشديد من جانبنا لمعرفة موسيقاهم ، لم يكونا ليسمحا لنا بأن ننشغل بقواعد اللغة الأمهرية ، ولعلنا فى ذلك ، فيما يبدو ، كنا نحس إحساسا خفيا مسبقا ، أننا سنجد أنفسنا ، عما قريب ، مرغمين على هجر أبحاثنا من قبل أن نتمها .

ولهذا فقد جاهدناهم كى يفسروا لنا استخدامات الاشارات الموسيقية هذه وخاصياتها ، ولم يكن هؤلاء ، لسوء حظنا ،بقادرين على أن يفعلوا ذلك فى شكل مصطلحات معروفة لنا ، وهكذا غابت عنا أشياء كثيرة لم نستطع أن نتبينها .

ومع ذلك فإن ما أدركناه منهم ، وبوضوح شديد ، فهو أن سلمهم الموسيقى يتكون من أنواع مختلفة من الفاصلات ، بعضها أكبر وبعضها أصغر ، وأنه يشتمل على بضع وعشرين فاصلة ، وإن كنا لم نستطع الالمام بمعانى التعريفات التى قدموها لنا عن طبيعة هذه الفاصلات ، ولقد أفهمونا بالمثل أن لديهم عددا كبيرا من الاشارات الموسيقية المختلفة ، شأنها شأن إشارات الموسيقى اليونانية الحديثة ، تحدد ليس فقط الرنات أو درجات السلم الموسيقى ، وإنما كذلك الفواصل المحصورة بين هذه

الدرجات ، فهذه الاشارات مثلا تحدد نصف تون ، وهذه الأخرى تحدد تونا كاملا ، وهذه الثالثة تشير إلى فاصلة ثلاثية بفعل درجات منفصلة(*) ، أو إلى تلك التى ينبغى لنغماتها أن تتتابع أكثر أو أقل ، بالمثل ، مع قدر أكبر أو أقل من الإبطاء أو الإسراع ، عقب الأخريات ، بحيث توجد إشارات موسيقية خاصة ، بكل واحدة من هذه الفواصل المتنوعة ، ولكل واحدة من هذه الطرق المختلفة ، لعبور هذه الفواصل نفسها ، فى مصاحبتها للصوت البشرى ، وهناك كذلك إشارات للزخارف المختلفة التى يمكن استخدامها فى هذه الحالة أو تلك ، ولكم كنا سنشعر بالرضا لو أمكننا أن نحدس بالمثل ما كانوا سيقولونه لنا حتى نلم بتطبيقات كل هذه الأشياء ، لكن ، لا أحاديثهم ، ولا حتى الأمثلة التى كانوا يسوقونها لنا فى شكل غناء ، كل ذلك لم يلق الضوء الكاشف كلية على هذه النقطة ، وحين كنا نطلب إليهم مثالا يغنى عن تأثير إشارة ما أو تطبيق لها ، فإنهم لم يكونوا يقتصرون قط على تقديم نغمة محددة وإنما كانوا يقدمون جملة لحنية وغنائية كاملة ، ولم يكن الأمر ليتم على نحو مخالف مادامت كل إشارة تحدد فاصلة كاملة ، ومادامت كل فاصلة تشتمل ولابد على الفاصلتين الطرفيتين (أى : الصاعدة والهابطة) اللتين تتمانها ، وفى الوقت نفسه فلو كان هؤلاء قد التزموا بالبقاء فى داخل حدود هذه الفاصلة ، لأمكننا أن نفهم شيئا ما ، ولكن ، فسواء لأن ليس من عادة الأثيوبيين ، شأن كل الشرقيين ، أن يغنوا النغمة البسيطة أو الغناء البسيط لأنهم على الدوام شأن كل الشرقيين كذلك ، يضللون آذاننا بفعل حواشيهم ، أو لأنهم كذلك وكما تبينا الأمر فى بعض الأحيان ، قد قدموا لنا كمثال ، شطرا غنائيا معروفا ، توجد بينه النغمة التى نبغى نحن أن نعرف خاصيتها ، فقد كانوا يتركوننا على الدوام فى الحالة نفسها من عدم اليقين ، فلم نكن نستطيع اختيار هذه النغمة من بين نغمات أخرى ، تدخل فى تكوين هذا السطر من الغناء نفسه .

اقتضى الأمر منا إذن أن نجرب عاملا آخر ، فأخذنا ندون أغنيات كثيرة بأكملها ، على كل واحد من المقامات الموسيقية الثلاثة : الجيز ، الايزيل ، الأرارى ، مع الاشارات الخاصة بكل واحد منها ، ذلك أن ما يشكل واحدة من أكبر العقبات

(*) الدرجة المنفصلة ، فاصل من عدة درجات يقع بين علامتين . (المترجم) .

التى تتجسد لدى معرفة هذه الاشارات ، هو أن لكل مقام إشاراته الخاصة به ، وأن إشارة ما قد تشير فى مقام إلى شيء ، وفى مقام آخر إلى شيء آخر ، لذلك فقد ترجمنا إلى نوتات الموسيقى الأوربية ، الأغنيات المدونة بالاشارات الأثيوبية ، فى كل واحد من المقامات الثلاثة التى سبقت الاشارة إليها ، وقد لاحظنا الإشارات التى تتفق أكثر من غيرها عادة مع مثل هذه الاشارات الأوربية ، ثم نقلنا ملاحظاتنا إلى القبس الأحباش ، حتى يستوثقوا لنا من صحة المقابلات التى قمنا بها ، وإليكم النتيجة التى حصلنا عليها ، وإن كنا لا نتجاسر على النظر إليها باعتبارها معصومة من الخطأ ؛ ومن جهة أخرى ، فإننا لا نقدمها هنا إلا كأثر يستطيع آخرون أن يفيدوا منه :

اشارات أو نوتات الموسيقى الأثيوبية

	الاشارة الاثيوبية	النطق بالعربية والفرنسية		الإيضاح
١	ሐ . . .	هيه	hé	: نصف تون صاعد
٢	ስ . . .	سِهْ	se	: نصف تون هابط (نازل) .
٣	ከ	كا و كياكا	ka on kiaka	: تون صاعد مع الانتقال إلى فاصلة أخرى بدون توقف .
٤	ዌ	أويه	oué	: تون صاعد قصير أو مقتضب .
٥	ገ	جِهْ	gue	: تون صاعد مستقيم أو مستمر .
٦	ዋ	وا	oua	: تون صاعد مع التوقيع على النغمة الثانية
٧	ዋካ . . .	واكا	ouaka	: تون صاعد مع التوقيع على النغمة الأولى ومع اتكاءة خفيفة على النغمة الثانية .
٨	ሖ . . .	هُو	ho	: تون صاعد مع الانتقال سريعا من النغمة الأولى إلى النغمة الثانية حيث تتم وقفة قصيرة .

	الاشارة الاثيوبية	النطق بالعربية والفرنسية		الإيضاح
٩	ቤ . . .	بيه	bé	: معناها أنه ينبغى الصعود والنزول على التعاقب فى شكل إيقاع ؛ وهو إيقاع استراحة .
١٠	ኑ	نو	nou	: نغم أو مقام صاعد .
١١	ጸ . . .	ثْزه	thze	: نغم أو مقام نازل .
١٢	ዐን . . .	آنه	ane	: فاصلة ثلاثية دياتونية كبرى صاعدة .
١٣	ቱ	تو	tou	: فاصلة ثلاثية دياتونية كبرى صاعدة مع التوقيع على النغمة الثانية .
١٤	ደ	ده	de	: فاصلة ثلاثية دياتونية كبرى صاعد مع المرور سريعا على النغمة الثانية .
١٥	ቀ	خْكهْ	khke	: فاصلة ثلاثية صاعدة على هيئة فاصلة واحدة مع رنة صغيرة محمولة على النغمة الأخيرة .
١٦	ና	نا	na	: فاصلة ثلاثية دياتونية كبرى صاعدة مع وقفة خفيفة على النغمة الثالثة .
١٧	ዚአ . .	زيا	zéa	: فاصلة ثلاثية دياتونية كبرى صاعدة .
١٨	ዋ	وَا	oua	: فاصلة ثلاثية صغرى صاعدة ثم نازلة على درجات متصلة أو مرافقة .
١٩	ው . . .	وِهْ	oue	: فاصلة ثلاثية صغرى صاعدة على درجات مرافقة أو متصلة .
٢٠	ያ	يا	ya	: فاصلة ثلاثية صغرى تؤدى فى فاصلة واحدة .
٢١		نافه	nafe	: فاصلة ثلاثية صغرى صاعدة على درحات منفصلة .

	الاشارة الاثيوبية	النطق بالعربية والفرنسية		الإيضاح
٢٢	አለ...	آلِهْ	ale	: فاصلة ثلاثية صغرى نازلة على درجات منفصلة .
٢٣	ዖፍ..	أُف	of	: فاصلة ثلاثية صغرى دياتونية نازلة مع إيقاع توقف .
٢٤	ሃነ...	هانه	hane	: فاصلة ثلاثية صغرى صاعدة على درجات منفصلة وبعد ذلك على درجات مرافقة أو مقترنة أو مستمرة أو دياتونية .
٢٥	ዱ....	دو	dou	: فاصلة ثلاثية نازلة فى شكل فاصلة واحدة .
٢٦	እ....	إه	e	: رباعية دياتونية صاعدة .
٢٧	ዬ....	يِهْ	ye	: رباعية صاعدة فى شكل فاصلة واحدة .
٢٨	ው...	وُو	ouo	: رباعية صاعدة على درجات منفصلة أو فى شكل فاصلة واحدة .
٢٩	አ....	آ	a	: رباعية صاعدة على درجات منفصلة وبعد ذلك على درجات مرافقة أو مستمرة .
٣٠	ر ou ر	« أو »		: رباعية دياتونية نازلة مع التوقف درجة واحدة على النغمة الأخيرة .
٣١	ዲ ...	دى	di	: رباعية دياتونية نازلة مع استطالتها واتخاذها وقع النغمة الأولى .
٣٢	ሤ ...	سِهْ	se	: رباعية دياتونية هابطة على أن يكون إيقاع تعاقب النغمات سريعا .

	الاشارة الاثيوبية	النطق بالعربية والفرنسية		الإيضاح
٣٣	ቦ....	بو	bo	: رباعية نازلة على درجات منفصلة مع استراحة خفيفة .
٣٤	ዛሔ ..	زاهه	zahe	: رباعية صاعدة على درجات منفصلة أو فى شكل فاصلة واحدة مع الثبات على ايقاع النغمة الأخيرة .
٣٥	ዜዘ .	زيزه	zéze	: خماسية صاعدة على درجات منفصلة أو فى شكل فاصلة واحدة .
٣٦	ሢ ..	سى	si	: خماسية نازلة على النمط الدياتونى مع راحة خفيفة (توقف) على النغمة الأخيرة .
٣٧	ረ....	ره	re	: النغم الختامى مع أو بدون إطالة .
٣٨	ረሰ ···	رِيزه — ره	rese-re	: إيقاع أو نغم توقف أو استراحة مع الاطالة .
٣٩	ረ	ره	re	(بدون ايضاح) .
٤٠	ረ ሰ .	ريزه	rese	: ايقاع أو نغم ختامى مع الصعود .
٤١	ዐፈ ..	أُف	of	: ايقاع توقف أو استراحة نزولا من الفاصلة الثلاثية .
٤٢	ፈ....	فِهْ	fe	: ايقاع توقف أو استراحة صعودا من الفاصلة الثلاثية .
٤٣	ቤ ...	بيه	bé	: نغم ثابت أو مستقر وموقع ، أو استراحة عابرة .
٤٤	ቄ....	كِهْ	ke	: اطالة فى إيقاع الاستراحة أو التوقف مع الصعود .
٤٥	— ...	أجوفر	agover	: نغم ثابت وموقع .
٤٦	ፀ....	تزه أجوفر	tze agover	نغم ثابت ومستطيل .

	الاشارة الانيوبية	النطق بالعربية والفرنسية		الإيضاح
٤٧	ቁ....	خْكَدُوُو	khkoou	: نغم توقف أو تهدئة عند النزول فجأة من الرباعية .
٤٨	C̄....	أجوفر ره	agovei re	نغم ثابت يمهد لإيقاع التوقف الختامى مع الهبوط بنغمة إطالة حتى الثمانية الغليظة أو الخفيضة .
٤٩	θ ...	تزه	tze	: نغمة مستطيلة لها وقع فى بعض الأحيان
٥٠	ደ....	يا	ya	: نغمة سريعة .
٥١	ጠ...	ثتو	thto	: نغمة ثابتة .
٥٢		هو	ho	: نغمة مكررة ومستطيلة .
٥٣	{....	أركَرْكْ	arakrek	: نعمة موقعة .
٥٤	•....	هياز	hiaz	: نغمة مكررة .

تلكم هى الإشارات أو النوتات الموسيقية[1] الرئيسية المعروفة عند الأحباش ، فإذا كانت هناك إشارات أو نوتات موسيقية أخرى ، فإنها لم تحصل بعد على إقرار أو مصادقة الاستعمال ، لأننا لم نجدها قط مستخدمة فى المقامات الموسيقية الأثيوبية الثلاثة ، التى ابتكرها القديس يارِد ، وذلك حتى تتطابق مع تقليد الأثيوبيين فى الموسيقى ، وهو التقليد الذى أوحى به الروح القدسى إلى هذا القديس .

وسيكون بمقدورنا أن نحكم على خاصية كل من هذه الإشارات ؛ عن طريق ماتم من تطبيقها فى هذه المقامات الثلاثة ، تلك التى سنقوم بالتعريف بالميلودى الخاص بكل واحد منها .

---

(١) هناك اشارات كثيرة ولدت فينا نوعا من الشك إزاءها ، سواء بسبب من تعود استخداماتها ، أو لأن بعضا منها لم يكن قد تشكل على نحو كامل أو تام ، وقد أوردنا هذه الإشارات دون أن نتمكن من شرحها .

المبحث السابع

عن المقامات الرئيسية الثلاثة فى الموسيقى الدينية عند الأثيوبيين ؛ الأغنيات مدونة بالاشارات الأثيوبية ومترجمة إلى نوتات الموسيقى الأوربية ، فى كل واحد من هذه المقامات

حيث أن ميلوديات المقامات الرئيسية عند الأثيوبيين ، طبقا لمعتقداتهم ، قد جاءت فى شكل معجزة أوحى بها إلى القديس يارد ،فإنها على وجه الترجيح ، لاتخضع فى تكوينها لقواعد يمكن تفسيرها على غرار ذلك الميلودى الذى يتولد عن طريق الفن ، ولهذا السبب ، فإن القسس الاحباش لم يسعوا قط ــــ فيما بدا لنا ــــ إلى التعرف على تكويناتها ، وكل ما أمكنهم أن يقولوه لنا ــــ فى هذا الصدد ــــ وما برهنت التجربة عليه ، هو أن ميلودى الأغنيات المخصصة لأيام الأعياد الكبرى قد جاء فى مقام بالغ العلو (الجهارة) ، شديد الضجة ، أما ميلودى الأغانى المدخرة للأعياد من الدرجة الثانية ، أى تلك التى تنتمى إلى المقام الثانى ، فهى من طبقة أكثر اعتدالا وأقل ضجيجا ، وفى النهاية فقد جاء ميلودى أيام الراحة أكثر بساطة ، ومن مقام أكثر خفوتا عن الآخرين .

وقد اعتاد الأحباش أن يضعوا لكل أغنية نوته موسيقية (يلحنونها) فى كل واحد من المقامات الثلاثة فى الوقت نفسه ، وقد نتعرض نحن لارتكاب بعض الأخطاء إذا ما ابتعدنا عن عادتهم تلك فى اختيار الإشارات أو النوتات الموسيقية ، فحيث أن الاشارات الموسيقية المستخدمة بصفة خاصة فى أيام الأعياد ،هى الوحيدة التى قد دونوها فى كتبهم باللون الأحمر ، وحيث أن بعضا من بين الإشارات الأخرى المعروفة باللون الأسود ، يمكنه أن ينطبق فى كل واحد من المقامات الثلاثة ، كما أن من بينها مالا يمكن تطبيقه إلا على المقامين الأخيرين وحدهما ، ومنها فى النهاية مالا يمكن استخدامه إلا فى واحد منهما فقط ، فقد كان من اليسير أن تتشابه هذه الاشارات علينا ، ولهذا السبب فقد آثرنا أن ننسخ هذه الأغنيات على النحو الذى دونت به فى كتبهم ، وبدقة تامة ، وأن نذكر قرين كل إشارة اللون الذى يميزها ، واسمها ، وكذلك الملاحظات التى قدمها لنا عنها ، هؤلاء القسس الأحباش .

جيز زيليما

نغم أو مقام الجيز ـــ أو مقام

أيام الراحة

ዐመእስኑ ክ ጽዕዩ ንዩፋ ር ዖለ

አይኑ በረከት ፡ ወአይኑ ። ነገር ዜይስበሐ ።

آی نو برکاتی وآی نو رمجر زیزیباج

ወለ

ዐመእእጽይ ዮሰ ;, ር ፀወእለ ጸጹ ንቲቱ

አይኑ ቃል ወአይኑ ፡ ግናይ አይኑ ። አኮቴት ወአይኑ
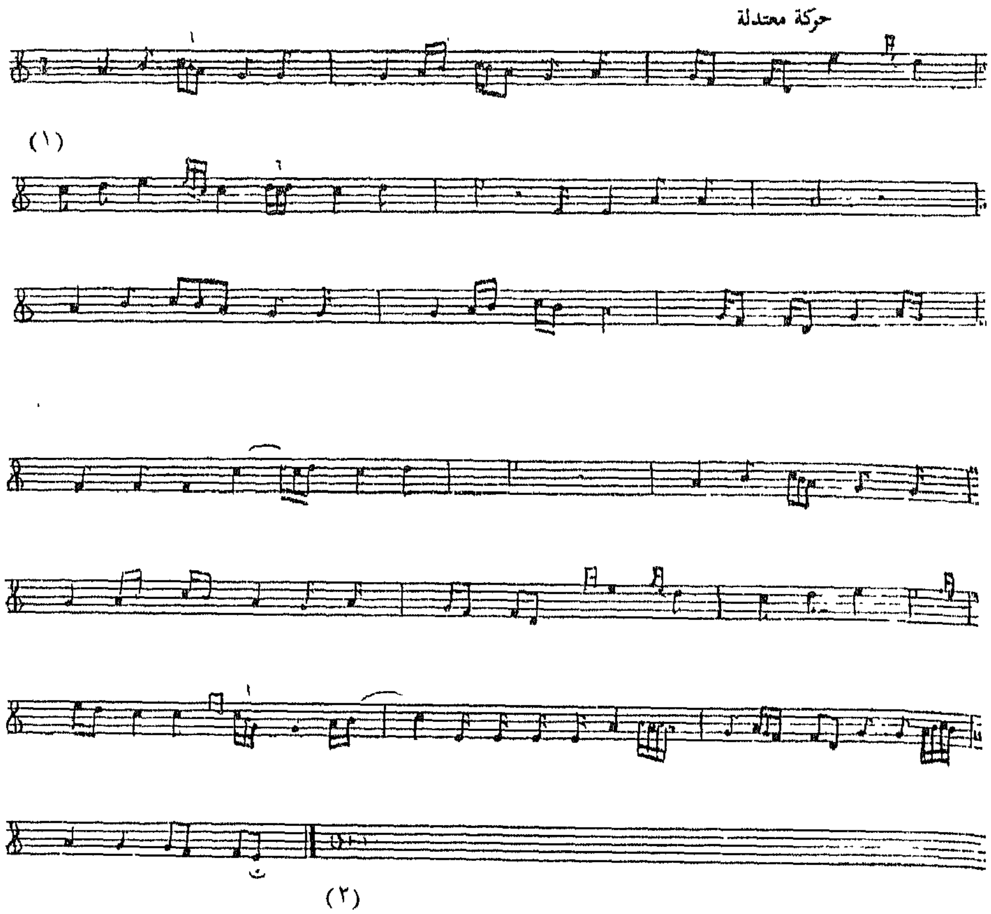
ای فوخکار وآی بو جنای آی بو أکوتیتی وآی نو

ዩ ስ ዐ; በ

ስም ፡ ዘንብሎ ። ለዕለ ዘይትፌነውት ። ገዝንቱ ፡

سم زانبلو لٔلا ؟ ريتفيت رتو

مقام جيز أو مقام (أو لحن) أيام الراحة
(السلم الموسيقى والغناء)



(١) نقلنا الكلمات ، فى شكلها الاملائى الذى جاءت عليه هنا طبقا للنص الفرنسى ، (وبالتالى فى شكلها العربى) على النحو الذى كانت تلفظ عليه فى الغناء .

(٢) لعل القسس الأحباش قد نسوا كتابة هذه الكلمة فى النص الأثيوبى الذى قدموه لنا عن كلمات هذه الأغنية ، والذى أوردناه فى صفحة سابقة ؛ ولكنهم قد أضافوها عند غنائهم على نحو ما نراه هنا . وهذه ملاحظة قد فاتتنا عندما كنا فى مصر ، فالعجلة التى كنا عليها عندئذ كى نضاعف من بحوثنا ومن ملاحظاتنا بغية . إتمامها (قبل رحيلنا) ، قد ساهمت ، بدون شك ، فى هذا النسيان .

« آی نو برکاتی وای نوتیجری
زی تسیباحی
آی نو کالی وای نو جیبای
وآی نو سیمی
آی نو أكروتی
زانی بلو لئلا زيتفيتت
زنتو إيفستا »

إيزيل زلما

أى نغم أو مقام إيزيل
لأيام الصيام ، وأثناء الصوم الكبير ، ولوقفات (ليلة) الأعياد ، وللحفلات الجنائزية
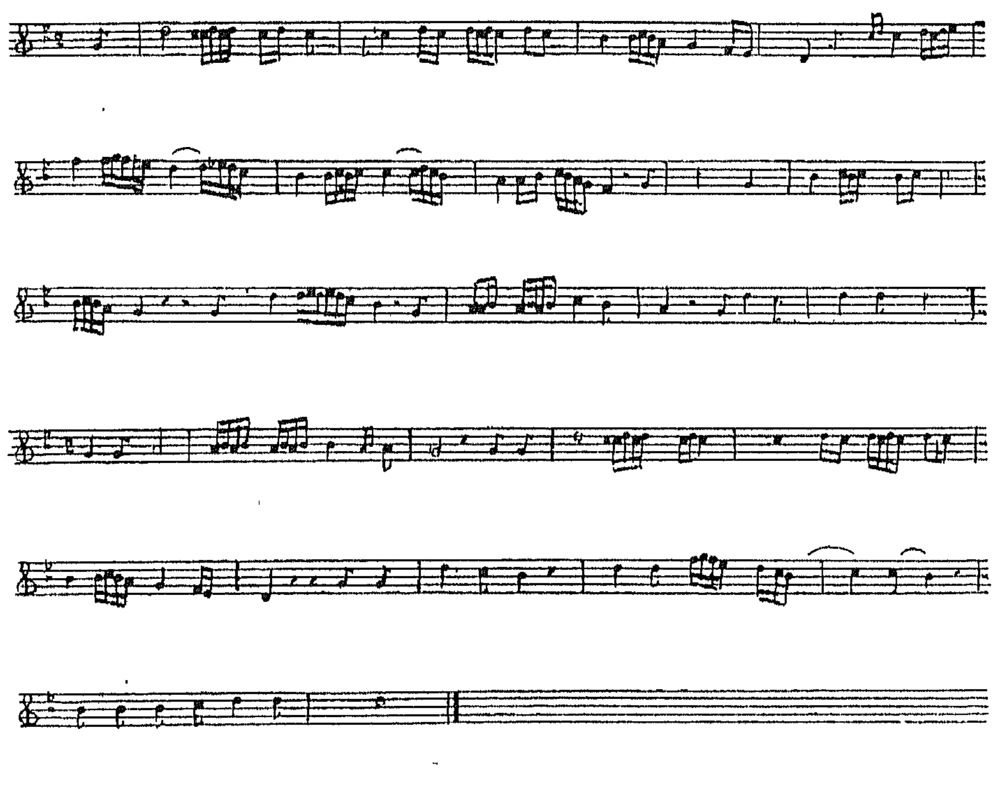
θ ር
ሯ ዩ ዐ· በያክ ር ዳ ክ_ሀ ዘሕ ·ቶ ርስ
ቀዳስ አግዚአብሔር ቀዳስ ኃያል ቅዳስ . ሕያው ዘአይመወት

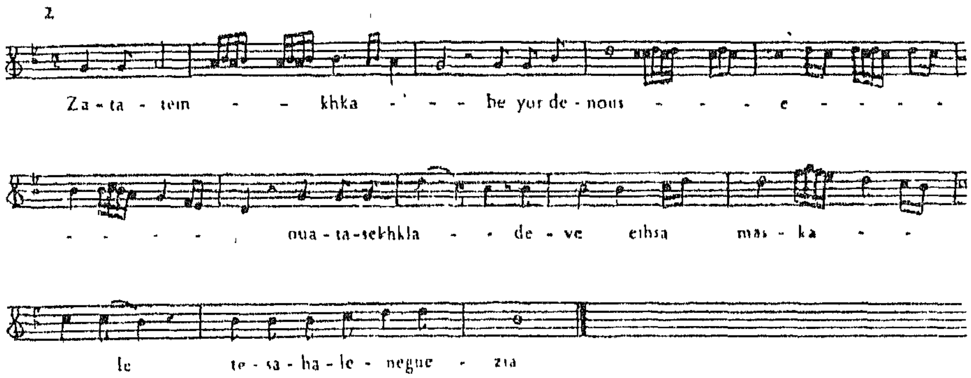
ር
ሌቀክ ነ· ረርሰ ··ዘአ ዘኅንገክ ·ቃ ·ር
· ዘተወልደ ፡ እማርያም . እምቅድስት . ድንግል ፡ ተሣሃለነ · እግዚኦ

(الأولى من أصل مقام أرارى والثانية من أصل مقام إيزيل)

ዘተጠምቀ በዮርዳኖስ ወተሰቅለ ዲበ ዕፀ መስቀል ተሣ ሃለነ ፡ እግዚእ

لحن أو مقام إيزيل
لأيام الصيام ،وأثناء الصوم الكبير ، ولوقفات (ليلة) الأعياد ، وللحفلات الجنائزية
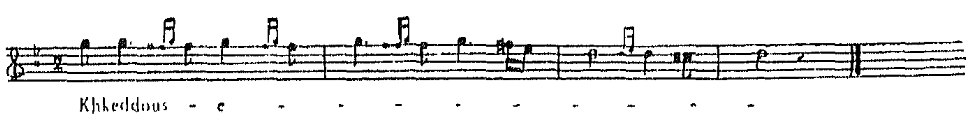




نص الغناء أو الأنشاد :

حْقدوس جزيا فير
حْقدوس حا ياله
حقدوس هياو زالى زيّه ماوته
زاتا ولْداثمى ريامى
أمكد دستى دينجيلى
تيساها لينى إيجيزيا
زاتاتم خْقالى يور دينوسى
واتا سخقلاً ديفى إطا ماكالى
تيساهالى نيجيريا
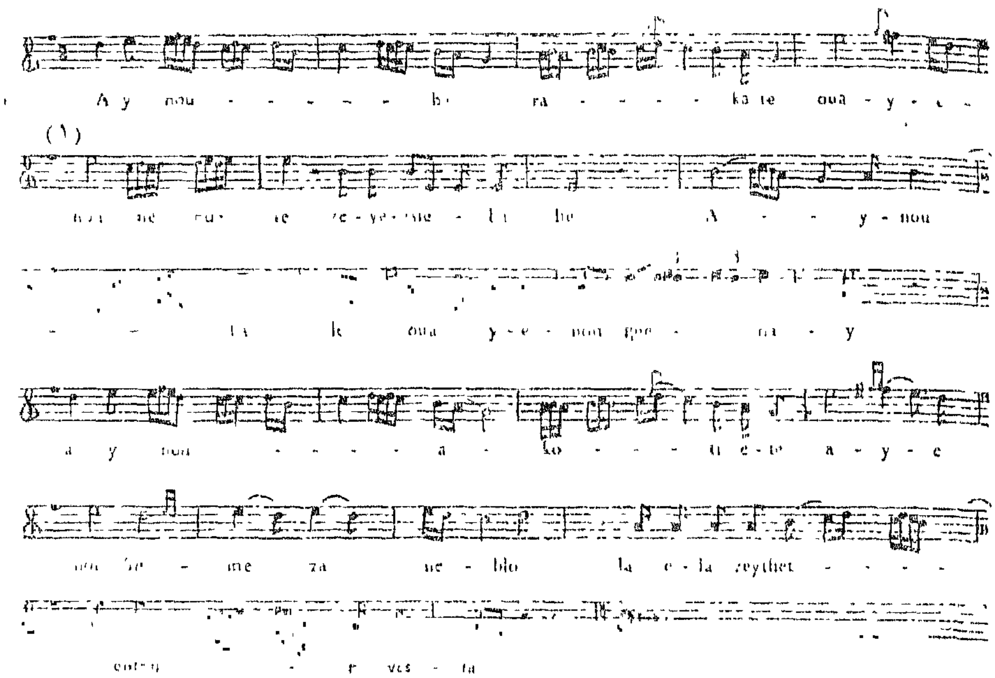
(ويغنى هذا النشيد أيضا فى المقام أرارى وعندئذ تبدأ فى رباعية زائدة عن المقام السابق ، على هذا النحو)



أرارى زِمْلا

أى مقام الأرارى أى نغم أو لحن الأعياد الكبرى

(السلم الموسيقى والغناء)



(سبق أن قدمنا نص هذه الأغنية بالحروف العربية)

---

(١) هذا الدور أو المقطع الشعرى يغنى مرتين ؛ ومع ذلك فبدءا من كلمة راتا والدا ، فإن ما هو مكتوب فى السطر التالى ، على النحو الذى نراه عليه ، يحل محل ما دوناه نحن تحت موسيقى هذا الدور مباشرة .

الفصل الخامس

موسيقى الأقباط

إذا كان قد بقى فى مصر ، جدلا ، بعض أثر من الموسيقى القديمة لهذا البلد ، تلك التى امتدح لنا أفلاطون كمالها ونضجها التامين ، الباعثين على الاعجاب الشديد ، فلا بد لنا أن نبحث عن مثل هذا الأثر فى غناء الأقباط ،مادام هذا النفر من المصريين هم أهل هذه البلاد (الأصليين) ؛ ومع ذلك فبرغم أنه يناط بهم وحدهم أن ينقلوا إلينا نظاما ثمينا لهذا الحد ، عن حكمة أجدادهم ، فإنهم قد أهملوا هذه المزية ، كما قد أهملوا كل مميزاتهم وحقوقهم الأخرى ؛ فحيث قد اعتاد هؤلاء ، منذ قرون طويلة ، على أن يدعوا أنفسهم يعاملون كأجانب فى بلدهم ، وعلى أن يروا مصر وهى تحكم بموجب قوانين تخالف قوانيهم هم (!) فقد بات هؤلاء(*) غير مبالين تجاه كل ما من شأنه أن يشرف وطنهم ، فالشراهة والبخل اللذان يحركان الآن ، وحدهما ، كل أعمالهم وسلوكهم ، قد نأيابهم كثيرا من محبة العلوم والفنون ، لدرجة لا يستشعرون معها ، فى أنفسهم ، بأقل رغبة فى أن يبرزوا فيها ؛ ولهذا السبب نجدهم ، من بين كل سكان مصر ، مع استثناءات نادرة ، هم أكثر الناس جهالة ، وأشدهم سذاجة .

لذلك كله ، فليس هناك شيء له بعض قيمة يمكننا أن نقوله عن موسيقاهم ، ولهذا السبب كذلك ، فإننا بدلا من أن نبدأ بهذه الموسيقى عند عرضنا للحالة الراهنة لفن الموسيقى فى مصر بين الأفريقيين (!) فقد رأيناها غير جديرة بأن تشغل إلا هذه المكانة الأخيرة ، وأن تأتى فى ذيل القائمة .

(*) من نافلة القول أن نذكر أننا ننقل هنا بأمانة ما يقوله المؤلف بنصه وروحه ، ومع ذلك فلا يفوتنا أن نسجل عليه ما يقع فيه من تناقض يتضح بجلاء حتى فى منهاج عرضه لمادته هو ، ومثال ذلك ، الموضع الذى وضع فيه الموسيقى القبطية فى دراسته ، بالاضافة إلى ما سبق أن قرره من أن تلاوة القرآن الكريم إنما هى أثر من آثار الإنشاد الخطابى الذى كان يمارس فى مصر القديمة ، ثم يتحدث المؤلف دون مراجعة منه لنفسه عن أهل أصليين للبلاد وأهل غير أصليين (!!) (المترجم) .

ولو أن أغنيات الأقباط كانت مقبولة أو مناسبة بقدر ماهى رتيبة تبعث على الضيق ، لكان لنا أن نقارنها بالأناشيد التى كان يرتلها الكهان القدامى على الحركات السبع ، على شرف أوزيريس ، وعلى غرار هؤلاء الكهان ، فإن الأقباط كذلك لا يحتاجون إلا حركة واحدة ليستمر غناؤهم (عليها) لمدة ربع الساعة ، وليس من النادر أن نجدهم يطيلون لمدة تزيد على ثلث الساعة فى ترنمهم بكلمة واحدة هى هلليلويا .

وإذ تؤدى كل الترانيم الدينية على هذا النحو ، فلنا أن نتصور وبسهولة ، لماذا يأتى قداسهم على هذا النحو المفرط فى طوله ، ولهذا السبب فسيكون فى الحقيقة عذابا نكالا لهم أن يضطروا لحضوره ، وبصفة خاصة حين لا يؤذن له بالجلوس ، ولا حتى بأن يجثوا على ركبتيهم ولا بأن يبقوا على أية صورة سوى واقفين ، فى كنائسهم ، مالم يحرص هؤلاء على أن يتزودوا بدعامة (عصا) طويلة تسمى بالعربية : عُكاز[1] ،

(١) يسمى الصليب المزدوج الذى يحمله بطريرك الأقباط كذلك : عُكَّازٍ مجْوزْ ، ألا يمكن أن تكون هذه الكلمة العربية هى الأصل الذى جاء منه اسم إيكاس échasse الذى نطلقه على العصى الطويلة ، التى يوجد عند نحو منتصفها نوع من الركاب توضع فيه القدم ، والتى يستخدمها عادة سكان برارى بوردو ؟ لقد بدا لنا الأمر مرجحا لحد كبير إذ أننا قد تعرفنا فى اللغة العربية على عدد هائل من الكلمات ذات شبه كبير ، من حيث مبناها ومعناها ، مع كلمات من لغتنا ، ولعل هذه الكلمات قد أخذت عن المؤرخين الأول للحروب الصليبية مثال ذلك اسم نقير naqaires ، الذى أطلق على الطبول فى فرنسا فى نحو القرن الرابع عشر ، فهذا الاسم يأتى بوضوح من كلمة نقارية ، التى تدل فى العربية دوما على الآلة الموسيقية نفسها ، ولعل هذا هو السبب فى أننا نجد فرواسار Froissart يطلق اسم نقير على الطبول فى الكتاب الأول من تاريخه ، ص ١٧٠ حين يقول :

« وركب الملك حصانه ، وسار فى موكبه ، متجها نحو كاليه ، ودخل المدينة على أصوات الأبواق والدفوف والنقير » ؛ وحين يقول فى الكتاب الرابع من هذا التاريخ ، ص ٢٥٧ ، وهو يتحدث عن إبحار دوق بورجونى ، وجنفوا فى حملة على بلاد البربر : كان أمرا جميلا يبعث على السرور أن نسمع هذه الأبواق وهذه المزامير تصدح وتئز ، ... وآلات أخرى تحدث ضجيجها مثل البراميل ... والنقير ... وكانت أصوات البشر تختلط بصخب هذا الأنغام ليرن صداها بعرض البحر [جاء هذا النص فى اللغة الفرنسية القديمة] .

يضعونه تحت إبطهم كي يتكئوا ويتساندوا طيلة هذا الوقت ، أما نحن ، وقد حضرنا لمرات عديدة قداساتهم ، واضطررنا ، لعدم وجود عكاز معنا كي نتكيء عليه ، لأن نستند بظهورنا إلى الحائط ، فلم نكن نخرج من هذه القداسات إلا وقد تخدرت سيقاننا من التعب ، وإلا وقد أترعت نفوسنا ملالة وضجرا .

وفى الوقت نفسه ، فإننا لا نعتقد أن ذلك قد أثر فى الرأى الذى كوناه عن ترانيمهم ، ولا نعتقد كذلك أن من الظلم من جانبنا أن نقرر بألا شيء أكثر خلوا من المعنى وأكثر بعثا على السقم والضجر ، من الميلودى الذى تتألف عليه هذه التراتيل ، وفضلا عن ذلك فإننا لم نتوقف عند الانطباع الأول الذى تلقيناه عنها ، ذلك أننا حين أدركنا أننا لم نحرز نجاحا فى فهم بعض أمور فى هذا الميلودى البدائى والوحشى والباعث على النعاس ، وحيث ظننا أن أمورا كهذى لم تأت إلا بسبب من تشتت انتباهنا ، نتيجة للوضع المؤلم والشاق الذى نجد أنفسنا فيه عند سماعه داخل الكنيسة ، فقد واتتنا الحمية والشجاعة ، لحد استدعينا معه واحدا من أمهر المرتلين الأقباط ، حتى نرى ما إن كنا نستطيع فى النهاية أن نميز بعض شيء من وراء هذه التنغيمات العاجزة والفقيرة والباروكية (أى المليئة بالزخارف) فى هذه الترانيم ، لكن هذه التجربة لم تفعل سوى أن جاءت تطابق وتدعم حكمنا الأول ، وبمعنى آخر ، فإن الطريقة الكئيبة العبوس والفاترة ، التى غنى بها صديقنا القبطى ، قد دعمت رأينا هذا أكثر من ذى قبل .

فبعد أن استمعنا إلى الترتيلة الأولى ، وكانت من نوع هلليلويا استعدناه إياها حتى نتمكن من نسخها ، لكننا لم نستطع أن نحدد طبيعة الأثر الذى أحدثته فينا ، لقد كان غناء المصريين(*) يمزق آذاننا ، فجاء هذا (الغناء القبطى) أسوأ بكثير ، لقد
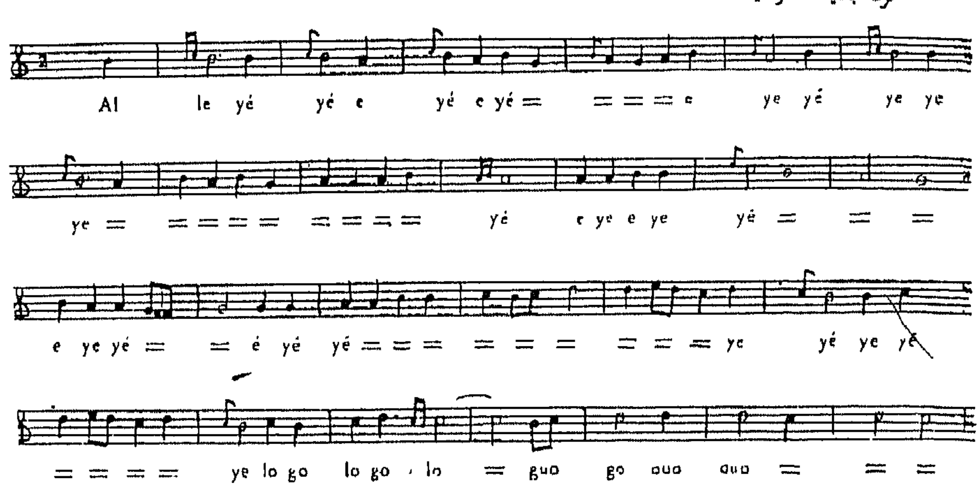
= ولم يعرف لابورد laborde فى مؤلفه دراسة حول الموسيقى . هذه الآلة ، وربما لا يوجد فى أوربا اليوم شخص واحد يعرف ما تعنيه ، ولابد أننا بدورنا ، كنا سنجهلها بالمثل ، لو لم نكن قد غدونا ، ونحن فى مصر ، فى وضع يسمح لنا بأن نعقد مثل هذه المقابلة .

(*) يقصد الغناء العربى المصرى ، وهذا خلط آخر يقع فيه المؤلف مع نفسه ، انظر التعليق السابق فى هذا الصدد (المترجم) .
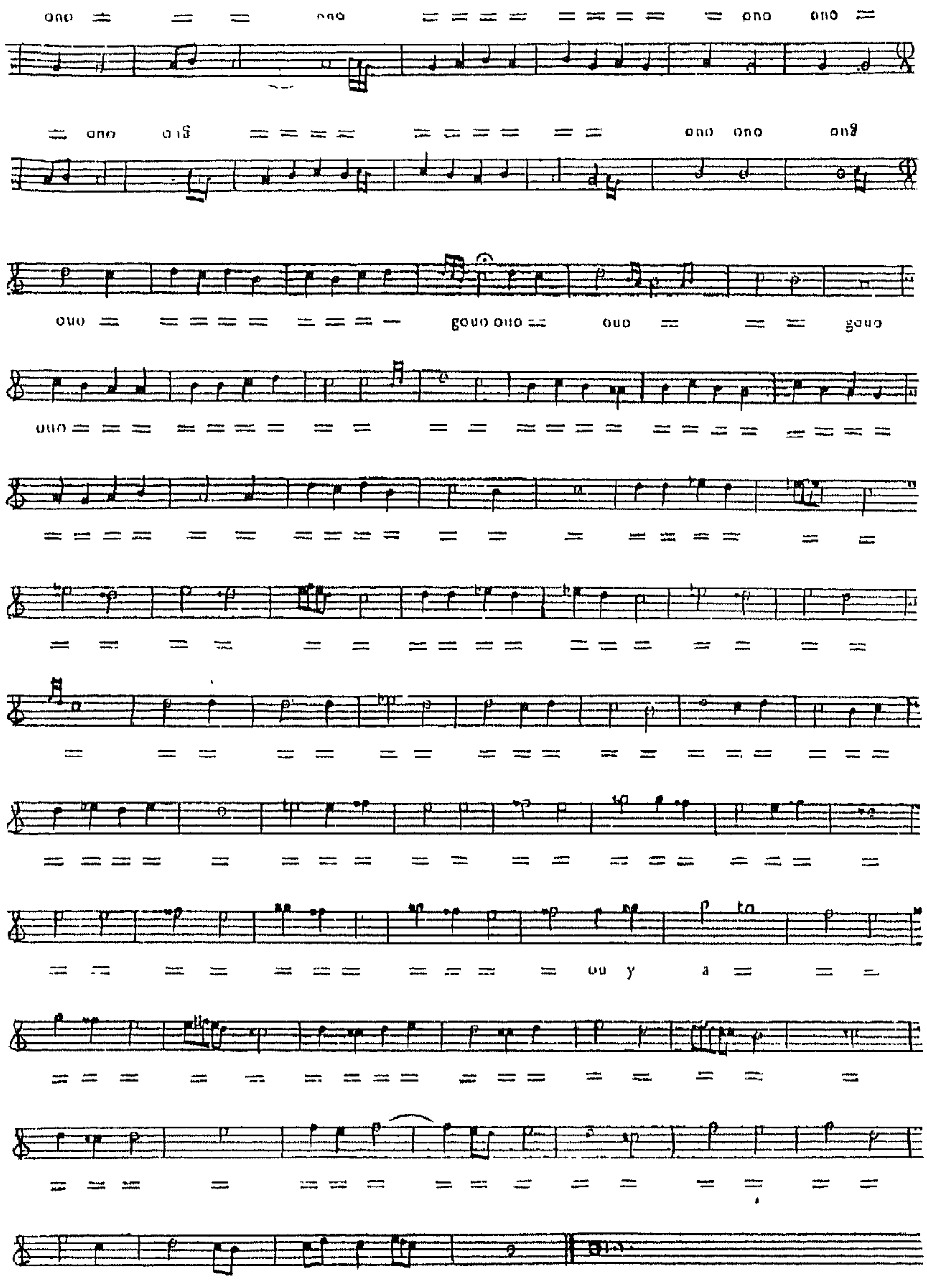
كان ينثر فى كل حواسنا نوعا من السقم(*) تمجه قلوبنا وترهقُه أرواحنا لدرجة لا يمكن احتمالها ، ومع ذلك فقد كان علينا أن نمضى قدما حتى النهاية ، مادمنا قد بدأنا الأمر وأخذناه على عاتقنا ، وعندما انتهت هذه الأغنية الأولى ، سألنا القبطى ما إن لم يكن هناك ضرب آخر من الغناء يتم فى كنيسته ، وقد كنا نظن الأمور على هذا النحو (أى أنه ليس هناك ضرب آخر من الغناء يتم فى الكنيسة) فأجابنا بأن العكس هو الصحيح ، وأنه توجد عشر أنغام أو مقامات مختلفة ، وكان علينا أن نذعن لسماعه يغنى بكل هذه المقامات العشرة ، وسرعان ما أمسينا فى حالة لم نكن لنتبينها ، لقد تخدرت طبلة آذاننا ، ووهن إنتباهنا لحد لم نعد معه نستمع إليه إلا كما يستمع إنسان أخذ يغط فى نومه ، وربما لو كان القبطى قد انصرف دون أن يخبرنا لما كنا قد تنبهنا لانصرافه ، إذ كان السبات الذى ألقانا فيه غناؤه عميقا ، ويستطيع القارىء أن يستنتج أننا لم نجد ما يغرينا على أن نستعيده إياها حتى يسهل علينا نسخها ، ونحن نعترف بوازع من ضميرنا بأننا لم نفكر فى ذلك أصلا ، فلقد كان يستحيل علينا ، فضلا عن ذلك ، أن نأخذ عاتقنا أن نطلب ذلك إليه ، وحتى يقدر القارىء لماذا خارت عزيمتنا فى هذا الصدد ، وكذلك النفور الذى بثته فينا تلك التراتيل القبطية ، فإننا نكتفى دون شك ــ بأن نقدم هنا الأغنية التى نسخناها .

هلليلويا ــ أغنية قبطية (ترتيل)

حركة بسيطة متراخية



(*) الترجمة بتصرف تقتضيه اللياقة . (المترجم) .



الباب الثانى

عن موسيقى بعض الشعوب الآسيوية والأوربية

الفصل الأول

حول فن الموسيقى عند الفرس : الأغنيات الفارسية والتركية

يستحق الفرس بجدارة ، أن نضعهم على رأس القائمة حين نتناول بالحديث موسيقى شعوب آسيا ، وبرغم أن أبناء هذه الأمة يوجدون بأعداد كبيرة فى القاهرة ، فإنهم لا يقطنون قط ، فى هذه المدينة ، فى أحياء تقتصر عليهم ، ذلك أنهم مسلمون ، وهم ينتشرون فيها كأبناء البلد أنفسهم ، فى كل أرجائها ، وإن يكن طابعهم يميزهم على الدوام ، لحد يستطيع المرء معه أن يميزهم عن المصريين ؛ وهم يغنون بشكل مستساغ وبإحساس كاف ، فهم يمثلون بالنسبة لشعوب أفريقيا وآسيا ، ما يمثله الايطاليون بالنسبة لشعوب أوربا .
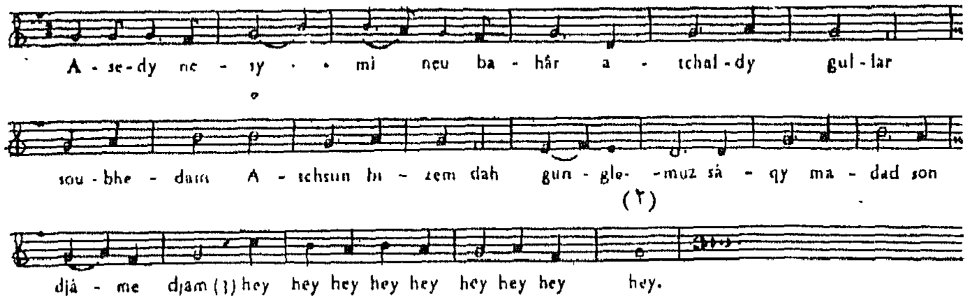
وقد تفوق الفرس ، فيما مضى ، على كل الشعوب الأخرى فى الشرق ، فى العلوم والفنون ، ولا تزال عبقريتهم تعوضهم ، اليوم ، عما فقدوه من هذه الناحية ، وحيث يمتلىء هؤلاء حيوية ، ويتوقدون عاطفة ، فإنهم يبزون الأتراك والعرب فى رهافة أرواحهم ، وانطلاق خيالهم ، وطلاوة لغتهم وفتنة أشعارهم ، ورقة أذواقهم فيما يتصل بفن الموسيقى ، ولما كانوا — هم — أساتذة للعرب فى هذا المجال ، فإن لديهم المبادىء نفسها التى نجدها لدى هؤلاء ، وإن كانت لهم فى هذا الصدد تطبيقات أكثر إمتاعا .

وكنا قد جمعنا الكثير من الأغنيات والألحان الراقصة التركية والفارسية ، كان بمقدورها أن تمنحنا فكرة طيبة للغاية عن عبقرية وذوق هذه الشعوب بخصوص الموسيقى ، ومع ذلك فلم يتبق معنا من كل ما جمعناه سوى أغنية تركية كاملة ، أما بقية الأغنيات ، وكذلك كل ما كنا قد جمعناه من ملاحظات حول موسيقى الهنود ، بالإضافة إلى اثنتى عشرة أغنية هندية ، مع مخطوطات نأسف عليها أسفا أشد وأكبر ، فقد بليت وتعفنت فى صندوق من صناديق أمتعتنا اخترقته المياه الآسنة فى قاع

السفينة [١] التى حملتنا ونحن عائدون من مصر إلى فرنسا ، ولا بد أن هده المياه قد بقيت بهذا الصندوق لفترة طويلة ، فلقد كان طريق عودتنا شاقا ، واستغرق ما يزيد على أشهر ثلاثة .

وإليكم الأغنية التى أسعدنا الحظ بالاحتفاظ بها ، وبإمكانها أن تعطينا فكرة عن الميلودى البسيط والرقيق ، الذى لبقية الأغنيات التى فقدناها .

أغنية تركية من إيقاع الرجز [٢]



أسدى نسيم نو بهار آجلدى كللر صبحدم
أجسن بزمده كوكلمز ساق مدد صون جام جم

وقد نقلنا الشكل الاملائى لكلمات هذا المقطع تبعا لنطق الأفندى الذى أملاها علينا ، وإن كنا لم نعرف بدرجة كافية النطق الصحيح للغة التركية ، حتى نتبين ما إن كانت الكلمات قد أمليت علينا طبقا للنطق الخالص لهذه الأغنية ، بل إن هناك ما يدعونا للارتياب فيها ما دام المستشرق الشهير ، المسيو سلفستر دى ساسى ،

---

(١) كان على ظهر هذه السفينة خيول كان بولها يغرق القاع ، وبرغم أن العاملين بالسفينة كانوا يحرصون ، بأكبر قدر من العناية ، على تصريف بول الخيل كل يوم ، فقد كان يتبقى منه قدر يكفى كى يغمر حقائبنا وصناديقنا .

(٢) يتألف هذا الإيقاع على هذا النحو :

-o- o, -o- o , -o- o, -o- o

فإذا كان الغناء مصحوبا بآلات إيقاع فإن هذا الايقاع هو الذى سينظم هؤلاء الذين ..فون على هذه الآلات .

وهو من ندين له بهذه الترجمة (الفرنسية) ، تبعا لهذا النص ، يكتب الكلمات على هذا النحو :

أسدى نسيمى نوبهار آتشيلدى جوللر صبحدم
أجون بيزمدة جنجلر ساقى مدد جام جم[١]
ومعناها (طبقا للنص أو الترجمة الفرنسية) :

أسدى ، لقد تفتحت ورود الصباح عند هبوب نسمات الربيع ، فلتتفتح قلوبنا كذلك فى داخلنا ، فانهض لنجدتنا وقدم لنا كأس جمشيد .

(١) جم هو اسم ملك الفرس .

الفصل الثانى

حول موسيقى السريان

بحثنا لمدة طويلة ، وبدون جدوى فى الاسكندرية ، ورشيد والقاهرة عن سوريين (سريان) يحترفون الموسيقى ، أو عن أى شخص يحوز بعض فكرة موضوعية حول مبادىء وقواعد الميلودى السيريانى ، أما الشخص الوحيد الذى توسمنا فيه أنه يحوز مثل هذه المعرفة المحدودة عن الغناء السريانى ، فكان قسا يعقوبيا ينتمى إلى هذه الأمة (السريان) ؛ وعن طريقه حصلنا على مانورده هنا .

لم يكتب السريان شيئا عن هذا الفن ، بل ليست لديهم قط كذلك كتب دونت فيها أغنياتهم ، وكل ما يعرفونه فى هذا الصدد قد تعلموه عن طريق الممارسة وحدها ؛ وهو الأمر الذى كان متبعا داخل الكنيسة الأصلية (لهذا المذهب) ، ولم يحدث أن بدأ السريان فى أماكن عدة فى تدوين نوته لأغنياتهم الدينية إلا فى القرن الرابع ، وإن لم يكونوا ، فيما يبدو قد اتبعوا قط هذه الوسيلة نفسها للحفاظ على أغنياتهم ونقلها (من جيل لآخر) .

ويوجد عند هؤلاء السريان ضربان من الغناء كما أن لديهم مذهبين ، أقام أركان أحدهما القديس إفريم[1]، وأسس الآخر تلميذ لأوتيخوس يسمى يعقوب ، وهم يطلقون على أغنيات (أو تراتيل) مذهب القديس أفريم إسم : مسخوهتو إفريمويتو ؛ ويطلقون على تراتيل مذهب يعقوب إسم : مسخوهتو يعقوبيتو .

ويتألف كل واحد من هذين الضربين من الغناء من ثمانية أنغام أو مقامات مختلفة ؛ أما ميلودى مقامات المذهب الأفريمى (أفريمويتو) ، ويبدو وكأن واضعه قد ولد فى بلد تجاور فارس كان يتردد عليها بصفة شبه دائمة الأغريق القدماء[2] ، وهو

---

(١) القديس إفريم شماسى فى كنيسة إدِسّا تألق فى عام ٣٧٠ ؛ أما الغناء الذى نظمه فيمكن أن يكون من عصر أكثر قدما من الغناء الخاص بمذهب القديس امبرواز ؛ ولعله قد مضت عليه اليوم ١٤٤٢ سنة . [وإدِسّا قديما ، هى إحدى بلاد ما بين النهرين ، وكانت عاصمة إحدى المقاطعات الصليبية التى أنشأها جودفرى دى بويّون أحد قادة الحروب الصليبية الأول ، وهى اليوم مدينة أورفا فى تركيا – المترجم].

(٢) فهو ينتمى أصلا إلى بلاد ما بين النهرين ، مسقط رأسه .

ما يلمسه المرء بدرجة أكبر ، حين يقوم بالمقارنة بين هذا الميلودى وبين ميلودى أغنيات وتراتيل المذهب اليعقوبى ؛ إذ تتعارض الأغنيات والتراتيل الأخيرة كلية ، مع الأوليات ، وفى واقع الأمر فإن المرء فى ميلودى « اليعقوبيتو » يتعرف على الزخارف المتكلفة والذوق الممجوج الذى شعوب آسيا الصغرى ، متداخلة مع فظاظة الميلودى العربى(١)

وقد التزمنا هنا ، كما التزمنا فى كل ما سبق ، وفى كل موضع ينبغى أن يكون الأمر فيه على هذا النحو ، بأن نقدم ، بقدر ما نطيق من الأمانة ، لفظ وكلمات وميلودى وإيقاع الأغنيات ، وبفعل هذه الدقة ، والتى قاربت مرتبة الوسوسة حتى فى أدق الأشياء ، احتفظنا لكل أغنيات الشعوب بطابعها القومى ، وقدمنا لفظ الكلمات كما سمعناها من أبناء هذه البلاد أنفسهم ، مع التجاوزات التى تقبلها العادة أو الغناء نفسه ، عند كل شعب من هذه الشعوب ؛ ونرجو ألا يكون ما نقدمه هنا خلوا من الفائدة أو أن يمر عليه مرور الكرام أولئك الذين يعكفون فى أوربا على دراسة اللغات الشرقية ، وبصفة خاصة الفرنسيون منهم ، الذين لا يستطيعون بعد نطق كلمات هذه اللغة بشكل مكتمل ، حيث لم يروا بعد كلمات هذه اللغات الغريبة عليهم ، وقد كتبت طبقا للهجاء الفرنسى .

ومن هذه الزاوية ، فقد كنا نأمل أن نضاعف فى بعض الأحيان ومن الأمثلة والملاحظات ! لكننا كنا نحجم عن ذلك خشية أن يعاب علينا أننا قد ألححنا ، بقدر مبالغ فيه ، على أمور تتجاوز بعض الشىء نطاق الحدود الصارمة لموضوعنا .

وحيث لم يكن بمقدورنا أن نعطى تفصيلات حول فن الموسيقى السريانية ، فسنكتفى بتقديم أغنيات من المقامات أو الطبقات أو الأنغام الثمانية المختلفة ، تبعا لهذه الطقوس أو تلك (التى تؤدى هذه الأغنيات أو التراتيل خلالها) مع نص الكلمات بالسريانية بالاضافة إلى نطقها فى حروف (فرنسية) .

---

(١) عبثا يبحث المرء عن مثل هذه التفرقة فى مؤلف كيرشر الذى أشرنا إليه من قبل ؛ بل إن من الضرورى أن نحذر مرة أخرى من أن ما كتبه هذا المؤلف عن موسيقى شعوب الشرق ، يتعارض كلية مع الواقع فيما يختص بالغناء والايقاع والموسيقى ، بل إنه بالغ الخطل ، وغير دقيق بالمرة ، فيما يتعلق بهجاء ونطق الكلمات .

ܡܫܘܚܬܐ ܐܦܪܝܡܝܬܐ

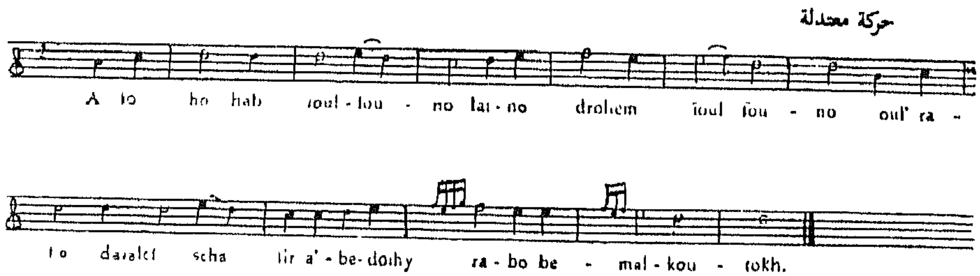
ܐܠܗܐ ܗܒ ܝܘܠܦܢܐ ܠܐܝܢܐ ܕܪܚܡ ܝܘܠܦܢܐ ܘܥܪܒܐ ܕܡܠܦ ܫܦܝܪ ܥܒܝܕ ܕܘܝܗܝ ܪܒܐ ܒܡܠܟܘܬܟ ܀

مسخوهتو أفريميتو(١)

(الغناء الدينى المستخدم فى طقوس مذهب القديس أفريم)

« ألوهو هب أيولفونو لاينو دروهم أيولفونو والعربو ذمالف سخافير عبيد دويهى ربو بملكوتك »

المقام أو النغم الأول(٢)
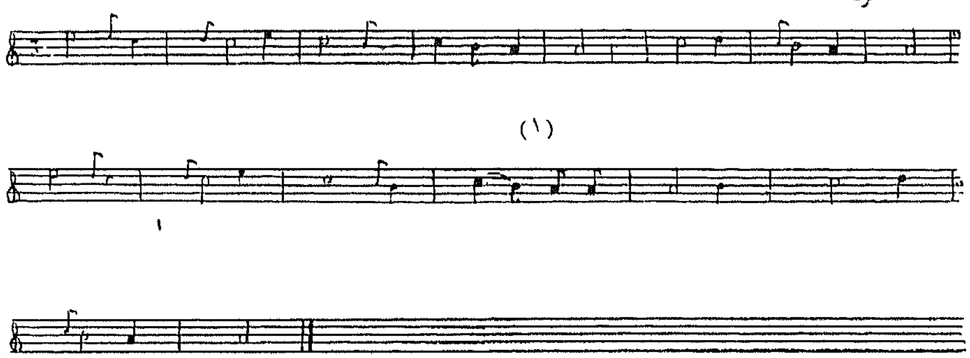


---

(١) لا يستوجب الأمر قط نطق حرف السين فى كلمة مسخوهتو ولا فى كل الكلمات الأخرى كذلك التى يسبق فيها هذا الحرف حرف الخاء (ch) ؛ لكننا اعتقدنا أنه لا ينبغى علينا أن نبتعد عن العادة التى استقرت على يد المستشرقين المرموقين ، والتى يتبعونها عادة فى مثل هذه الحالات .

(٢) نقلنا كل هذه المقامات على حالها لأننا لم نلق كبير بال للدرجة النغمية التى اختارها القس السريانى ؛ ومع ذلك فلكى نشبع الفضول فسوف نقول بأن المقام الأول يبدأ كما نظن بالنغمة مى من خفيض صوت القطع ؛ وأن المقام الثانى يبدأ بالنغمة رى من وسيط الصوت نفسه ، والمقام الثالث بالنغمة لا منْ الوسيط بالمثل ؛ والسابع بالنغمة سول من الوسيط على الدوام ؛ ويبدأ المقام الخامس بالنغمة لا ، والسادس بالنغمة سى ها ، والسابع بالنغمة سى ، والثامن بالنغمة سول ، من الوسيط على الدوام .

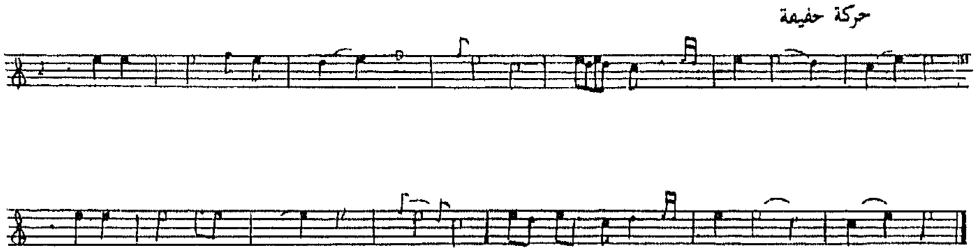
المقام أو النغم الثانى

حركة معتدلة
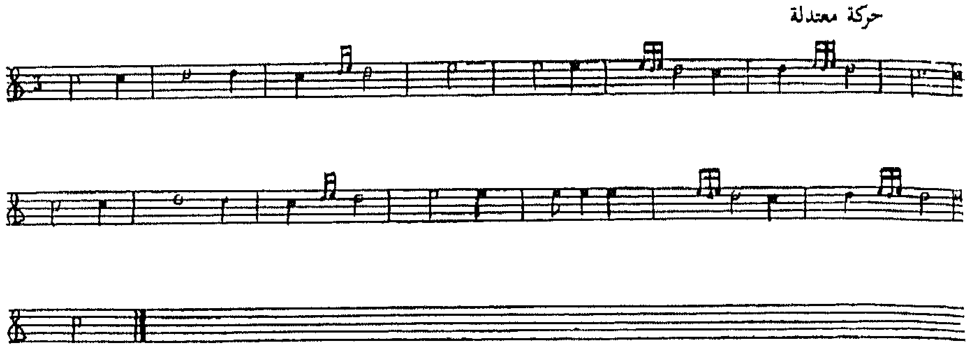


المقام أو النغم الثالث

حركة خفيفة



المقام أو النغم الرابع

حركة معتدلة
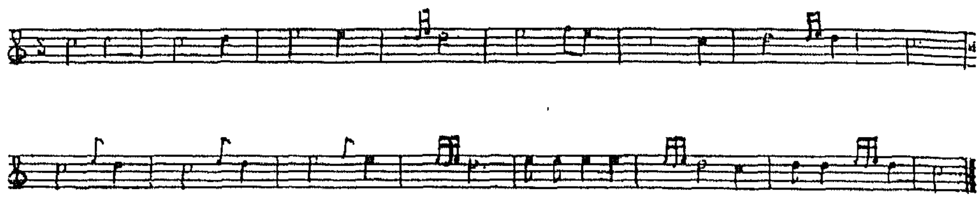


---

(١) المقاطع أو الحروف المكتوبة نخروف مائلة أضيفت عند الغناء بمعرفة القس السريانى ، وهذه الإضافة أمر شائع بين مغنى الشرق .

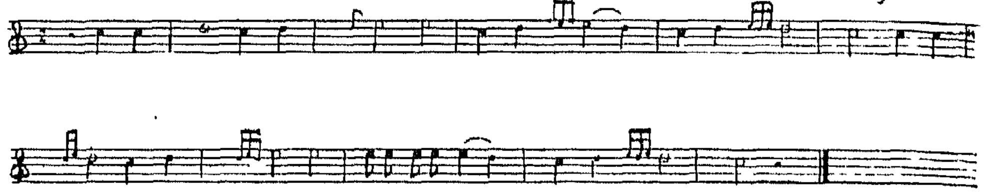
المقام أو النغم الخامس

حركة معتدلة



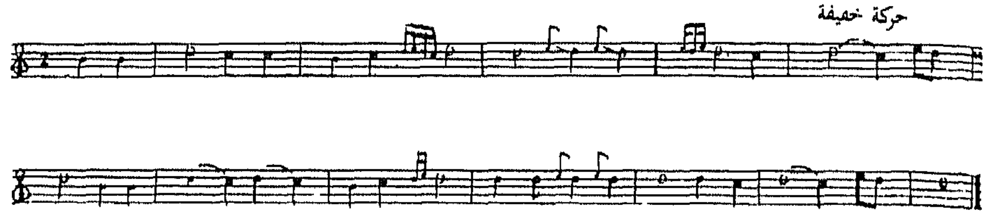
المقام أو النغم السادس

حركة معتدلة



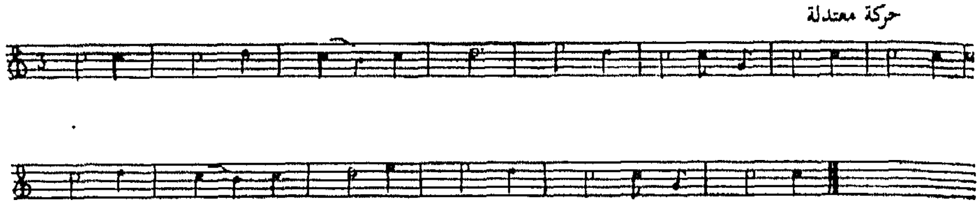
المقام أو النغم السابع

حركة خفيفة



المقام أو النغم الثامن

حركة معتدلة



ܡܫܘܚܬܐ ܝܥܩܘܒܝܬܐ

Meschouhto Iacobotte.

ܐܒܐ ܕܩܘܫܬܐ ܗܐ ܒܪܟܝ ܕܒܚܐ ܕܐܡܪܐ ܠܟ ܠܗܐ ܢܩܒܠ ܕܚܠܘܦܝ ܡܝܬ ܘܐܬܪܥܝ ܠܟ
ܝ ܩܘܪܒܢܐ ܣܒ ܡܢ ܐܝܕܝ ܘܐܬܪܥܝ ܠܝ ܘܠܐ ܬܬܟܪܐ ܠܗ ܬܘܗܝܐ ܕܫܥܪܝܬ ܩܕܡ ܪܒܘܬܟ܀

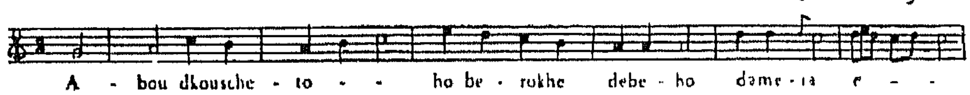
مسخوهتو يعقوبيتو

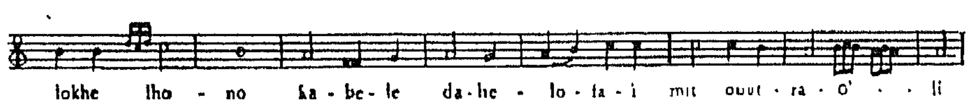
(الغناء الديني المستخدم فى طقوس مذهب يعقوب)
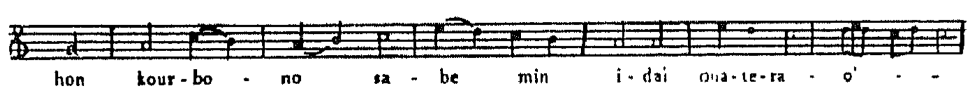
« أبو دكوسخيتوهو
بيروخى دبيهو داميرا
يملوخى إيهينو كابيلى
داهيلوفاى مت وتراعولى
هون كوربونو سابى مين إيداى وتراعولى
ولو تت تكارى ليها توهيه ديساعريت
خدمون ربوتك »

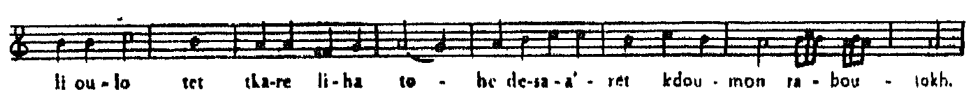
المقام أو النغم الأول

حركة نشطة أكثر منها بطيئة



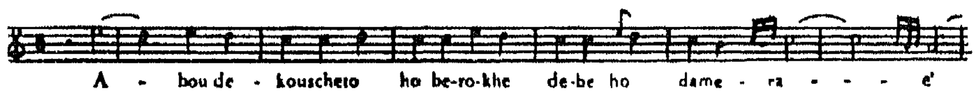






المقام أو النغم الثانى
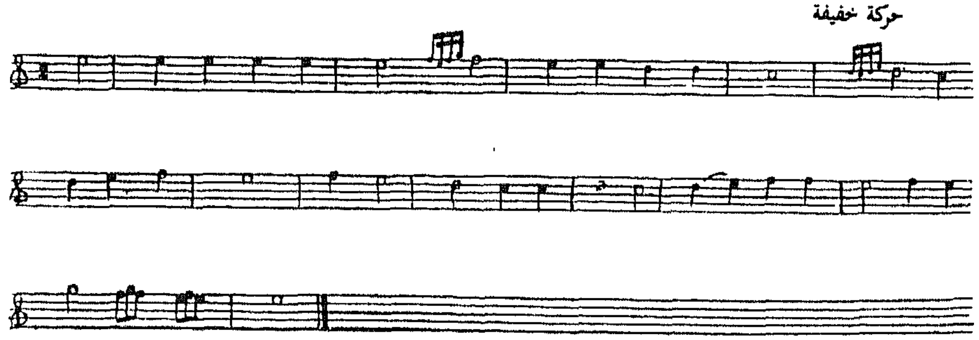
حركة خفيفة
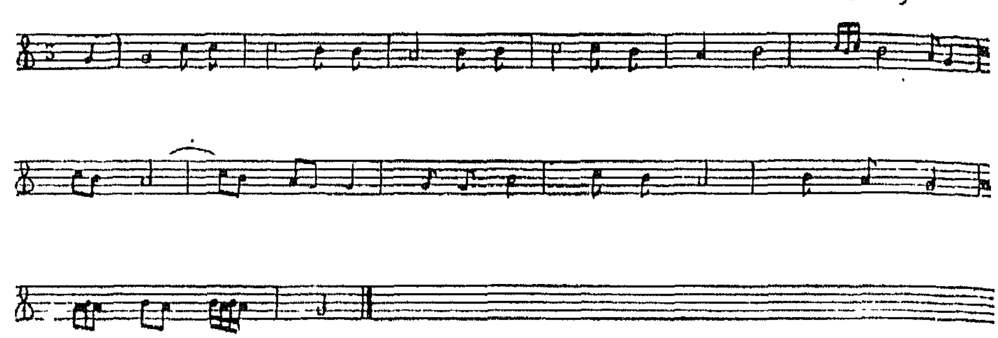




المقام أو النغم الثالث

حركة خفيفة
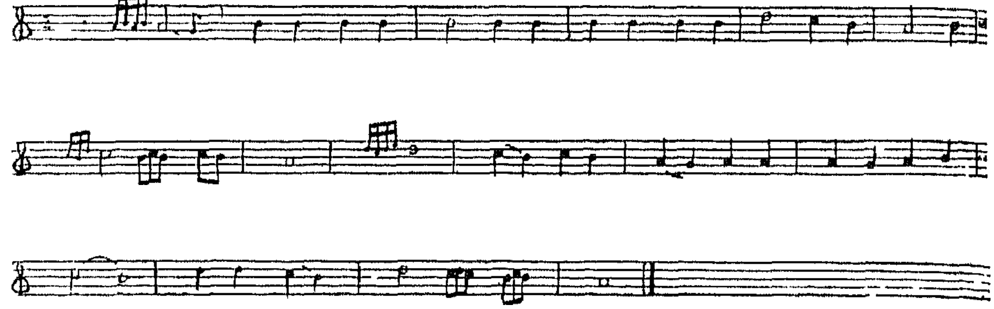


المقام أو النغم الرابع

حركة خفيفة



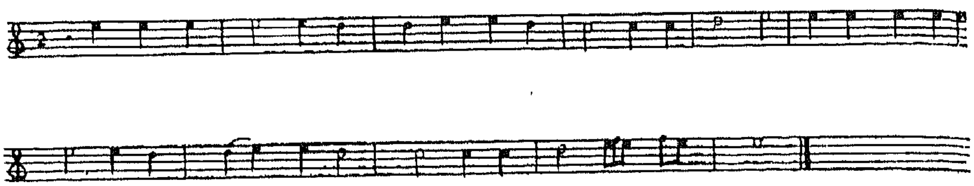
المقام أو النغم الخامس

حركة خفيفة
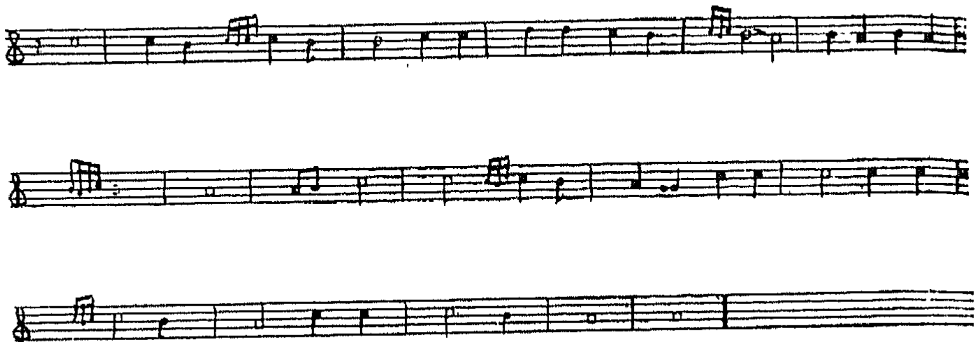


المقام أو النغم السادس

حركة خفيفة
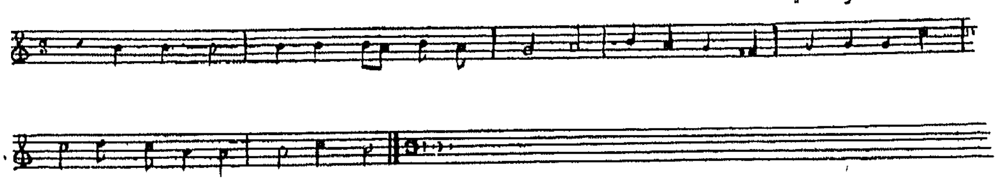


المقام أو النغم السابع

حركة بطيئة



المقام أو النغم الثامن

حركة خفيفة



الفصل الثالث

عن الموسيقى الأرمينية

المبحث الأول

حول طبيعة وخواص الغناء الدينى بصفة عامة وعند الأرمن بصفة خاصة ؛ وحول حجم الثقافة الموسيقية التى وجدنا عليها المنشد الأول فى الكنيسة الأنجليكانية لهؤلاء الأقوام فى القاهرة ، مع عرض موجز لما عرفناه منه حول طبيعة هذا الفن

كان الضرب من الغناء الذى بدا لنا ، وبالضرورة ، أكثر جدارة من غيره باهتمام الدارسين هو الغناء الدينى ، فهذا الضرب من الغناء هو أكثر ضروب الغناء صرامة ، وأثبتها فى الاحتفاظ بالطابع القومى لشعب ما ، لأنه أقل من غيره عرضة للتغييرات المستمرة التى تخضع لها الضروب الأخرى ، بفعل عدم ثبات الذوق العام ، وبفعل تقلب الأهواء ، وبفعل نزوات الفنانين أنفسهم فى بعض الأحيان ، وبالاضافة إلى ذلك فإن هذا الغناء الدينى لا يستعير كذلك ، كما تفعل ذلك ضروب الغناء (الدنيوية) الأخرى ، الحلى الأجنبية والزخارف الغريبة ، وهكذا فإنها على عكس أغنيات المجتمع ، تلك التى تسخر مباهجها فى إنشاء علاقات المودة بين البشر ، والتقريب بينهم ، بفعل ما تحدثه من بهجة ، مهما تكن الأمة التى ينتمى إليها كل فريق منهم ، تسعى لانتزاع الانسان من الانسان ، فهى أكثر تشددا ، كى توحده بإلهه ، ولكى توحى إليه بالتالى بأن يبتعد عن كل ما من شأنه أن يحرف أو يمسخ طبيعته الخاصة ، فهذه الأغنيات الدينية إذن هى التعبير عن الروح ، متحررة خالصة من أباطيل العالم ، متجاوزة كل الحجب الدنيوية بسبب طبيعتها الفانية بقدر ماهو بسبب من عظمة وقوة بارئها الذى تلتمس رحمته ؛ هذه الأغانى إذن ، هى فى النهاية ، صدى هذه الأرواح بكل طهارتها الأصيلة .

فلنقارن إذن الأغنيات الدينية عند الشعوب المختلفة ، فيما بينها ولنتفحصها بعد ذلك منفصلة متفرقة ، ولسوف نلمح على الفور هذا الاختلاف الصارم ، والباعث على الدهشة ، الذى يميز كلا منها عن الأخريات ،ولسوف نكتشف دون مشقة ، رابطة المصاهرة الحميمة القائمة بين طابع اللَّحَن (الميلودى) فى صنوف هذا

الضرب من الغناء ، وبين الطابع الخاص بأمة الشخص الذى قام بابتكارها .

ولعله لا توجد أمة تجعل أغانيها من هذه المصاهرة أمرا ملموسا أكثر مما تفعل أغنيات الأرمن ، فميلودى هذه الأغنيات ، وهو مرح أكثر منه حزينا ، لايفوح مع ذلك عن مرح ولدته اللذة ، إنما هو مرح السعادة التى يستشعرها قوم نشطاء بالطبيعة ، جادون ، يجدون لذتهم فى العمل ، لم يعرفوا الضيق قط [١] ، ولسنا نعتقد أن بالامكان أن نصف أو نرسم استعداداتهم ومواهبهم المثيرة ، بحيوية وحقيقة أفضل ممايفعل ميلودى أغنياتهم ، كمالانستطيع أن نعطى فكرة أكثر دقة عن طابعهم وتقاليدهم ، عن تلك الفكرة الناتجة عن المشاعر التى يولدها هذا الميلودى ، أو على الأقل فإنه قد زاد اقتناعنا بذلك أكثر وأكثر مع احتكاكنا بأبناء هذه الأمة ، ومعرفتنا إياهم بشكل أفضل ، ولابد أنه يحق لنا أن نشعر بالرضى إذ اكتشفنا ، بسهولة مماثلة ، قواعد الفن الذى نظمت فيه هذه الأغنيات ، ولا يعد المطران الأرمينى الموجود بالقاهرة مسئولا قط ، عن أننا لم نحصل على كل المعلومات التى كنا نود الحصول عليها حول هذه النقطة ، فلقد أبدى استعداده ، فى مجاملة رقيقة تتأجج حماسة ، لتقديم العون إلى بحوثنا ، بل لقد كلف المنشد الأول لكنيسته بأن يساعدنا فى أهدافنا ، وذلك بأن يمدنا بكل ما يعرفه حول فنه ، وبرغم أن هذا المنشد يعرف القراءة والكتابة والغناء ، فقد بدا لنا أقل علما ، سواء فيما يتصل بنظرية الموسيقى الأرمينية ، أو فيما يتصل بممارساتها ، ولقد كتب لنا ودون النوته ، وغنى بالأرمينية الألحان أو المقامات الثمانية الخاصة بالغناء الدينى ، كما غنى اللحن التاسع المستخلص من هذه الألحان ، ونسخناها نحن بعد ذلك فى نوتات أو إشارات موسيقية أوربية ، كذلك فقد خط لنا كل العلامات أو الحروف التى تشير إلى النغمات الموسيقية ، وإلى التغييرات المختلفة

---

(١) لا ينبغى علينا لكى نحكم جيدا على طبيعة وطابع الغناء الدينى عند الأرمن ، أن نتوقف لا عند الفن ولا عند الفروق اللذين يكونان هذا الميلودى ، لأن تلك الأمور ، فى العادة ، تكون مكتسبة أو مستعارة ، وهكذا فليس علينا أن نسترشد إلا بالانطباع ، وحده ، الذى يولده فى الحواس وفى الروح ، الأثر العام من كل مجموع هذا الميلودى ، إن لم نشأ أن نجعل أنفسنا عرضة لأن نصدر حكما طبقا لأفكارنا المسبقة أكثر مما نصدره تبعا للاحساس الذى شعرنا به .

التى يمر بها الصوت البشرى وهو يؤدى هذه الأغنيات ، لكننا عبثا نسعى للحصول منه على تفسير واضح وموضوعى ، لكنه لم يسع قط كى يجعل من نفسه غير مفهوم لنا . كلا فلقد حدث ذلك لأنه على وجه الدقة لم تكن لديه هو نفسه فكرة دقيقة عن الأمر ، مع أننا كنا نتوقع منه أن يكون عارفا بخاصياتها واستخداماتها ، طالما هو يقوم بتطبيقاتها كل يوم فى مجال الممارسة العملية ، ومع ذلك فحيث أن هذه العلامات ليست لها قط أية علاقة بالعلامات الموسيقية التى لدينا ، وحيث لا تشير هذه العلامات الأرمينية إلى نغمات منفصلة بقدر ما تشير إلى تغييرات فى طبقة الصوت ، أو إلى إطالة فى النغم ، أو إلى وقفة قصيرة للصوت البشرى ، فقد كان عسيرا على هذا المنشد أن يعبر عن نفسه لنا بقدر ما كان عسيرا علينا أن نفهمه جيدا باللغة العربية التى كان ـــ هو ـــ يتكلمها بصعوبة وبلكنة أرمينية ، والتى كانت مع ذلك هى اللغة الوحيدة التى نستطيع هو ونحن أن نتبادل من خلالها أفكارنا ، وهكذا كان علينا أن نغبط أنفسنا بحق لاننا قد اجتزنا كل تلك العقبات ، ونجحنا فى أن نضيف عدة أفكار جديدة إلى تلك التى كانت لدينا من قبل عن هذه الموسيقى ، وأن نتمكن من نشرها

المبحث الثانى

عن نشأة وإبتكار الموسيقى الحالية عند الأرمن

ينسب الأرمن نشأة موسيقاهم الحالية إلى كشف معجز تم فى العام ٣٤٦ من ميلاد المسيح (١) ، على يد واحد من بطاركتهم الأول إسمه ميسروب (٢) ، لكننا لن نكرر هنا بالتفصيل ماقُصَّ علينا حول هذا الموضوع ، مادام الأمر معروفا بالفعل ، إذ يجده القارىء فى جزء كبير منه وبتوسع ، فى مؤلف شرودر :

Shroder, Thesaurus linguaeArmenicae antiquae et hodiernae , Diddert , (٣)

Pag .32 et suiv .

وهذا الكشف المعجزة الذى سنقدم فى كلمات قصيرة قصة موجزة له ، يشبه كثيرا اكتشاف القديس يارد عند الأثيوبيين ، والذى أوردناه من قبل (٤) ، فحيث كان يرغب ميسروب فى أن تتم الصلوات والترانيم فى الكنيسة باللغة الهايكانية ، وهى اللغة القديمة الخاصة بالأرمن وجهد لسنوات عديدة ، دون نجاح ، فى اكتشاف حروف يمكنها أن تعبر بدقة عن نطق وغناء هذه اللغة ، وتحل محل (الحروف) الأولى التى ضاعت معالمها ولم تعد تستخدم قط منذ قد غزا الأغريق والفرس أرمينيا ، وجعلا

---

(١) تعود موسيقى الأرمن طبقا لهذه الرواية ، إلى عصر أكثر تأخرا عن موسيقى السيريان التى ابتكرها القديس إفريم ، تلك التى كانت سابقة بالفعل على موسيقى الغناء الامبروزى (نسبة إلى القديس امبروزوار) ؛ وعلى هذا يكون عمر هذه الموسيقى اليوم ١٤٤٨ عاما ، وتكون هى ، بالتالى ، أقدم كل صنوف الموسيقى التى أعقبت الموسيقى القديمة التى كانت لدى الاغريق .

(٢) كان المقر البطريركى لميسروب يوجد فى واجار شابات ، وهى واحدة من المدن الرئيسية فى أرمينيا .

(٣) امستردام ، ١٧١١ .

(٤) انظر فيما سبق ، الباب الأول ، الفصل الرابع ، المبحث الأول .

من لغتيهم اللغة المسيطرة ، عندئذ قام ميسروب برحلات عديدة ليلتمس النصح ، بخصوص مهمته ، من أكثر الناس علما فى عصره ، دون أن يجنى كثيرا من وراء ذلك ، وفى النهاية وضع الرب نهاية لمحاولاته المرهقة والطويلة ، وذلك بأن أرسل إليه ، بينما هو نائم ، ملاكا كشف له عن هذه الحروف التى جد كثيرا فى البحث عنها [١] ؛ وسرعان مابدأ ميسروب ، وقد تغلغلت فيه روح الرب ، ينظم الأغنيات الدينية التى لم يتوقف استعمالها منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا [٢] .

---

(١) يظن كذلك أن عالما يدعى نيرسيس قد ساهم فى اكتشاف هذه الحروف نفسها ؛ ولا يفرق الأرمن كثيرا بين العلامات العروضية أو الخاصة بلفظ الكلمات ، وبين إشارات الغناء ؛ ومن المعروف أن النحو ، عند الاغريق القدماء وكذلك عند الرومان ، كان يشكل جزءا من الموسيقى . ولعل الشيء نفسه قد حدث عند الأرمن ، ولعل حروفهم الموسيقية كانت من النوع نفسه الذى استحدثه إيزوكراتوس حتى يعيد تثبيت العروض أو علم لفظ الكلمات أى تنغيمها فى اللغة الاغريقية ، التى كانت قد بدأت بالفعل تتدهور فى عصره .

والأمر المؤكد هو أن الأرمن يدخلون ضمن إشاراتهم الموسيقية ، يكاد يكون كل علامات العروض لديهم أو الاشارات الخاصة بالنطق وكذا علامات تنغيم الكلمات كما سنرى فى بقية هذا الفصل .

(٢) ومع ذلك فلا يزال توجد بعض أغنيات دينية أخرى ينسب الأرمن شرف وجودها إلى اسحاق ، ولعله هو الشخص نفسه الذى يسميه شرودر البطريرك اسحاق ، وهو الذى عكف على تطوير وتحسين وإذاعة اكتشاف ميسروب .

المبحث الثالث

حول الإشارات الموسيقية المستخدمة عند الأرمن

من المناسب ، قبل أن نقدم أمثلة للمقامات أو الألحان المختلفة للأغانى ...ية الأرمينية ، أن نعرف أولا بالاشارات أو الحروف التى يستخدمها هؤلاء ...ين فى تدوينها .

وهذه الاشارات أو العلامات تشير ، ليس فقط إلى تغييرات تتناول الصوت ...رى خلال الغناء ، وإنما كذلك التغييرات التى تتناوله أثناء الحديث ، ويبلغ عدد الاشارات الدالة على تغييرات فى الصوت خلال الحديث أربعا هى : النبرة ... الشكلة ، والطبقة ، والروح ، والعاطفة ؛ فالنبرة أو الشكلة تكون إما حادة ...هيرة (/) وإما غليظة خفيضة (\ ) أو ممدودة (^) وتدل النبرة الحادة ...ثة ينبغى رفع الصوت ، وتستخدم هذه للأفكار والنهى والطلب والاستفهام ، ... النبرة الغليظة فتدل على أن من الواجب أن نخفض الصوت ، وهذه توضع عادة ... الصفات المستخدمة كظروف ، أو بدلا من حروف العطف ، وأما النغمة ...ممدودة فتنبه إلى أنه يلزم رفع وخفض الصوت على التعاقب ، وفى المقطع الصوتى ... . أما الطبقة فتعنى الاتكاء على الصوت ، وذلك برفعه قليلا إلى مافوق النبرة ... يشار إليها بالعلامة الحادة (/) ، أما عن الروح فهناك نوعان : ما يمكن ...سميته بالروح الجافة أو الخشنة ، وما يمكن أن نطلق عليه اسم الروح العذبة ... رقيقة (✓) وتوضع الأولى فوق الحرف الأرمينى (>) (١) لتعطيه ... نفس نطق حرف الواو (w) أما الثانية فتعنى أنه ينبغى إخراج الصوت برقة .

أما بخصوص ما يطلق عليه اسم إشارات العاطفة ، فإنها تتصل كلها

---

(١) يجعل شرودر فى كتابه : تفسير النحو الأرمينى ، من هذا الحرف ، مقابلا لحرف ... ( ) .

بالنحو ، ولم نلاحظ أنها قد استخدمت قط فى مجال الموسيقى ، ولهذا فإنها لم تدخل مثل الأخريات ، فى عداد علامات الغناء .

وسنقدم بعد ذلك العلامات الأولى بأسمائها مدونة بالأرمينية أولا ، ثم مكتوبة إملائيا بحروفنا اللاتينية طبقا للشكل الذى سمعناها تلفظ به ، ثم الترجمة اللاتينية التى أعطاها شرودر لها ، وفى النهاية أضفنا إليها ملاحظاتنا ، ثم حواشى للتعريف بخاصياتها وتطبيقاتها فى مجالات استخدامها ، وكذلك بالطريقة التى قدمنا بها أسماءها .

المبحث الرابع

شرح العلامات أو الاشارات الموسيقية المستخدمة فى تدوين موسيقى الأرمن

كنا قد منينا النفس أننا سنتمكن من أن نفسر بطريقة موضوعية ، خاصية كل واحدة من الاشارات الموسيقية عند الأرمن ؛ وبهذه الثقة فقد طلبنا أمثلة مغناة ، قمنا ، ونحن تحت تأثيرها ، بتدوين نوتة موسيقية لها ، ومع ذلك ، فبعد أن استنسخنا بالعلامات الأرمينية أغنيات من المقامات أو الألحان الثمانية ، وبعد أن ترجمناها إلى إشارات موسيقية أوربية ، استرعى إنتباهنا أن غالبية الأمثلة التى قدمت إلينا ، عن أثر هذه الاشارات ، لم تأت قط متفقة مع التأثير الناتج عن تطبيقاتها فى مجال الممارسة ، وأنها لم تكن ، كذلك على الدوام ، هى نفسها فى كتب الالحان ، ونتيجة لذلك فإننا لم نستطع المضى فى تنفيذ مشروعنا حتى النهاية .

ومع ذلك ، فلم تزل تبقى أمور كثيرة لابد من معرفتها ، خاصة بالموسيقى الأرمينية ، تلك التى ينظر إليها شرويدر ، وهو محق ، باعتبارها فنا بالغ الصعوبة ، والتى كنا سنعد أنفسنا تعساء حقا ، لو أننا فى ظروف مواتية مثل تلك التى وجدنا أنفسنا فيها (فى مصر) ، لم نستطع أن نتعلم عنها شيئا يزيد على ما كان معروفا لنا (فى أوربا) ، بالفعل ، منذ مائة عام عن هذه الموسيقى نفسها ، وعن الاشارات المستخدمة فى تدوينها ؛ ولهذا السبب فسنقدم بالترتيب كل هذه الاشارات ، مع شرح يفسر كل ما أمكننا أن نعرفه حول خاصية واستخدامات كل واحدة منها .

الاشارات الأرمينية وأسماؤها
باللغات المختلفة

اسمها باللاتينية حسب ترجمة شرودر لها	اسمها بالحروف العربية	اسمها مكتوبا بالفرنسية	اسمها مكتوبا بالأرمينية	شكل الاشارة	
celer	ششت	checht	շեշտ	՛	١
spina	بوش	pouch	փուշ	✓	٢
gravis	بوث	pouth	բութ (1).....	՝	٣
curvus	باروك	Barouk	պարոյկ (2)....	⌒	٤
Longus	إرجار	Ergar	երկար (3)....	⁄	٥
Brevis	سوغ	sough	սուղ (4)......	°	٦
Acutus	سور	Sour	սուր (5)	/	٧
Acinaces	ثور	Thour	թուր........	)	٨
genus	جونك	Dzounk	ծունկ (6).....	ͻ c ou ͻ	٩
....	....	....	(7)...........	ɗɗ’	١٠
concha	ثاشت	Thacht	թաշտ.......	‿	١١
circumflexus	وولوركا	Wolorka	ոլորակ......	↶	١٢
Tripudium	خونتش	Khountch	խունձ......	↷	١٣
Elevatio	ويرناخاخ أو ويرناخاغ	wiernakhakh أو wiernakhagh	վերնախախ أو ou վերնախաղ	ꟿ	١٤
Depressio	نيرخناخاغ	Nierkhnakhagh	ներքնախաղ	ⱳ/	١٥
Bien uncum	بينجويردش	Piengoerdch[٩]	բենկորճ (1)..	F	١٦

	شكل الاشارة	اسمها مكتوبا بالأرمينية	اسمها مكتوبا بالفرنسية	اسمها بالحروف العربية	اسمها باللاتينية حسب ترجمة شرودر لها
١٧		խոսրովային	khoserouaîn	خوزيروآين	choserovaeus
١٨	cc	Ճնկնել (1)...[10]	Dzanguener	جانجينيه	genua
١٩		Ելորձ (1)...[11]	Eggoerdch	إجويردش	Euncum
٢٠		Ճակորձ (2)...[12]	Dzagoerdch	جاجويردش	Dzauncum
٢١		Խում........	Khoum	خوم	implicatio
٢٢		փաթութ.....	pathouth	باثوث	implicatio
٢٣		քարքաշ....	kharkhach	خَرْخَشْ	productio
٢٤		Հուհայ (3)....	Houda	هودا	Tremulatio
٢٥		զարկ........	zark	زارك	Tactus
٢٦		(1)...........[14]	....	....	....
٢٧		....	....	....	....
٢٨		....	....	....	....
٢٩	/	....	....	....	....
٣٠		....	khoserouaïn	خوزيروآين	....
			à deux points	عليها نقطتان	....
٣١		....	khoserouaïn à	خوزيروآين	....
			un point	ذات نقطة ١	....
٣٢		....	wiernakhakh	ويرناخاخ	....
٣٣		....	Nierkhakhagh	نيرخ ناخاغ	....
٣٤		....	Eggoerdch	إجّويردش	....
			double	مزدوجة	....

	شكل الاشارة	اسمها مكتوبا بالأرمينية	اسمها مكتوبا بالفرنسية	اسمها بالحروف العربية	اسمها باللاتينية حسب ترجمة شرودر لها
٣٥		....	....	....	....
٣٦		....	....	....	....
٣٧		....	...	....	....
٣٨		....	....	....	....
٣٩		....	....	....	....
٤٠		....	....	....	....
٤١		....	....	....	....
٤٢		....	....	....	....
٤٣		....	....	....	....

الملاحظات(*) :

(١) إشارة دالة على الطبقة ، وهى تعنى أنه ينبغي على المغنى أن يرفع صوته بعض الشيء مع إعطاء مزيد من القوة لصوت الألة الموسيقية المصاحبة له .

(٢) إشارة الروح العذبة ، وتعنى هده أن من الواجب إرسال الصوت البشرى برقة وعذوبة .

(٣) إشارة النبرة العليظه أو الخفيضه ، وتدل على وجوب خفض الصوت .

(٤) إشارة النبرة الممدوده ، وتشير إلى ارتفاع وانخفاض الصوت خلال المقطع الصوتى نفسه .

(*) وكانت هذه تشكل الخانة السابعة من الجدول ووجدت أن أوردها على هذا النحو لاعتبارات لا تغيب ضرورتها على القارىء . والرقم الذى تحمله هنا هو رقم الاشارة الموسيقية التى جاءت الملاحظة تفسيرا أو شرحا لها . [المترجم]

(٥) إشارة تدل على مد نغمى معتدل فى الصوت البشرى ، وإن تكن عادة أقل طولا بالنسبة لحرف آ عنها بالنسبة لبقية حروف العلة (الحركات) .

(٦) تدل هذه الاشارة على أن من الواجب إرسال النغمة بشكل مقتضب ، أى بطريقة جافة ، وبدون إطالة .

(٧) وهى علامة النبرة الحادة أو الجهيرة ، وتدل على ارتفاع طبقة الصوت مع قوته .

(٨) وتعنى هذه الاشارة أن من الضرورى الاسراع بالصوت ، وبقوة هبوطا .

(٩) وهذه تعطى الاشارة التى تليها قيمة أو مفعول الاشارة السابقة

(١٠) ليس لهذه الاشارة من تطبيق إلا فى المقام الاستريغى وهم مقام مشتق .

(١١) لا تستخدم هذه الاشارة إلا فى المقامات : الأول والثانى والخامس ، ولم نتمكن نحن من تحديد خاصيتها الحقيقية ، وهى تتوافق مع النغمة الثالثة من الايقاع الأول لغناء من المقام الأول ؛ ومع النغمة الثانية من الايقاع الأول لغناء فى المقام الخامس .

(١٢) نقابل هذه الاشارة فى كل الطبقات (أو المقامات) على الحرف **t** و **e** فى الكلمات tpara فيما عدا الكلمة الثانية والأخيرة ، [انظر النغمات التى تتوافق معها] .

(١٣) المثال الذى قدموه لنا عن هذه الاشارة ، غناءً ، يتكون من ثلاث نغمات دياتونية تنزل بمقدار طبقة ثم بمقدار نصف طبقة دون إسراع .

(١٤) كُتبتْ هذه الكلمة لنا بالطريقة الأولى ، وكتبها شرويدر بالطريقة الثانية ، وطبقا لما أسمعونا إياه ، فإن هذه الاشارة تدل على وجوب رفع الصوت مع تدويره لثلاث أو أربع مرات ، ونجد هذه الاشارة مستخدمة فى الايقاع أو الوزن السادس من غناء فى المحط المتوهم أو المقلوب (عندما تكون الخماسية فى الحاد أو الجهير والرباعية فى الغليظ أو الخفيض) للمقام الثالث ، وهنا لا يُدوّر الصوت إلا مرتين ، كما نجدها مستخدمة عند نهاية غناء من المقام الثانى ، وإن يظل تأثيرها عكسيا بصفة دائمة .

(١٥) كان المثال الذى قدموا لنا ، غناءً ، عن تأثير هذه الاشارة ، توقيعا متراخيا ، ينتهى ارتفاعا بمقدار فاصلة ثلاثية دياتونية صغرى .

(١٦) هذه الاشارة علامة نحوية أكثر منها موسيقية ، وهى تدل على وجوب إضافة حرف الواو (أى ما يقابل ذلك فى الأرمينية) إلى المقطع الصوتى الذى نجدها فيه ، بحيث أننا نلفظ أوا oua بدلا من آ à ، وبدلا من إ نلفظ إوه eoue ، وتلفظ إيوى ioui بدلا من إى (i) .

(١٧) تبعا للمثال المغنى الذى قدموه لنا عن هذه العلامة ، فإنها تشير فيما يبدو إلى تضخيم فى الطبقة .

(١٨) ضئيلة هى ثقتنا فى المثال الذى قدموه لنا عن هذه الاشارة ، لحد لا يشجعنا على الحديث عنها هنا.

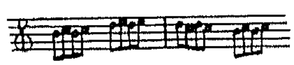
(١٩) ترسم هذه الاشارة بطرق عديدة ، فإما أن تجىء بمفردها كما نرى هنا ، وإما أن توضع عليها نقطتان أو ثلاث نقاط وأما أن تأتى مزدوجة دون نقاط تبعا لدرجة البساطة أو التعقيد للزخرف المراد الاشارة إليه ؛ أما المثال الذى قدموه لنا عنها فيبدو باعثا على الشك لحد كبير ، ونجد هذه الاشارة مستخدمة فى الإيقاع الثانى من مقام الاستيغى .

(٢٠) طبقا للمثال المغنى الذى قدموه لنا عن هذه الاشارة ، فإن على الصوت البشرى أن ينزل دياتونيا بشكل تدريجى بمقدار فاصلة رباعية ، وإن كنا نرتاب فى دقة هذا المثال .

(٢١) تدل هذه الاشارة على وجوب أرجحة الصوت مرتين فى نفس النغمة .

(٢٢) وتدل هذه على وجوب إلحاق الياء بنغمة الحركة الصوتية ، فإذا كانت هذه الحركة هى الفتحة على سبيل المثال فإننا نقول أيا بدلا من أ ، أما إذا كانت هى الكسرة فلابد أن نقول إى بدلا من إ ، أما إذا كانت الكسرة ممدودة فإننا نقول إيبى بدلا من إى ، فإذا كانت الحركة هى الضمة فإننا نلفظها أُيُو بدلا من أُ .

(٢٣) هذه الاشارة تدل على وجوب إطالة النغمة مع تنغيم الصوت ارتفاعا وانخفاضا ، وإليكم المثال الذى قدموه لنا عن تأثيرها



وقد بدا لنا أن هناك بعض شبه بين هذا المثال ، وبين شكل العلامة خرخش kharkharch ، بل كذلك مع معنى الكلمة اللاتينية التى ترجم شرويدر إليها هذا الاسم ، وقد قيل لنا أنها كانت تتكون من إشارتين : ويرناخاخ ونيرخانخاغ ، إذن فهناك شواهد على أن الاشارات أو النوتات الثمانية الأولى تنتمى إلى الوير ناخاخ فى حين تنتمى النوتات الثمانية الأخيرة إلى النيرخانخاغ .

(٢٤) تنبه هذه الاشارة إلى ضرورة تغيير حركة الفتحة ، بالطريقة نفسها التى يتم بها ذلك فى الاشارة السادسة عشر ، وإن يكن بشكل أكثر خشونة ، ولا تنطبق هذه الاشارة على بقية الحركات الصوتية الأخرى (الضم والكسر)

(٢٥) ليست هذه الاشارة (زرْك) شيئا آخر غير البوش ، الاشارة الثانية ، وإن تكن هنا مضاعفة ، ولهذا فقد قيل لنا إن إرسال الصوت البشرى بفعل هذه الاشارة يكون هنا أقوى من إرساله تحت تأثير إشارة البوش ، وأقل فى الوقت نفسه مما يكن أن يأتى عليه مع هذه الاشارة ، إذا ما كان مصحوبا بالروح الجافة أو الخشنة .

(٢٦) هذه الاشارة هى علامة الروح الجافة أو الخشنة ، وهذه توضع عادة فوق حرف ـــ لتعطيه خاصية حرف الواو ، ونجدها مستخدمة على هذا النحو عند بداية الكلمة الأخيرة ، التى تختم كل مقام من المقامات التى سنقدم أمثلة عنها .

(٢٧ ، ٢٨، ٢٩) بدون ملاحظات .

(٣٠) وهى الاشارة نفسها التى تناولناها بالحديث فى رقم ١٧ .

(٣١) انظر الاشارة رقم ١٧ .

(٣٢) سميت هذه الاشارة على هذا النحو لأنها لم تبد لنا مخالفة للاشارة الواردة برقم ١٤ ، وقد أكد لنا المطران أنهما شيء واحد .

(٣٣) لا نستطيع أن نحدس لماذا تتكرر هذه الاشارة مرة أخرى فى ذيل هذه القائمة ، ويبدو لنا أنها هى نفسها الاشارة الواردة برقم ١٥ .

(٣٤) لا ملاحظات .

(٣٥) إسم هذه الاشارة مجهول لنا تماما .

(٣٦) يبدو أن هذه الاشارة تتكون من الويرناخاخ .

هوامش المبحث

(١) الحرف الأول من هذه الكلمة (وهو شبيه بحرف P ، والترجمة هنا بتصرف لا مناص منه) هو الحرف الثانى من حروف الهجاء الأرمينية ؛ وهو يوافق حرف الباء (b) ، وإن يكن يلفظ بقوة بالغة على نحو ما يفعل الألمان عادة ، عندما يتكلمون لغتنا (أى الفرنسية) دون أن يتخلوا عن لكنتهم الجرمانية . ولم نر نحن كبير فرق بين نطق هذا الحرف وبين نطق الحرف الأول من الكلمة السابقة ، وهو الذى يماثل تماما حرف الـ p فى الفرنسية ؛ ولهذا فإننا لم نستطع أن نقدم مقابله شيئا آخر سوى حرف الـ p .

(٢) قدم شرويدر الحرف الأول من هذه الكلمة كما لو كان باء ثقيلة p تلفظ برقة ؛ ومع ذلك فحيث أننا نكتب الكلمات هنا طبقا للطريقة التى سمعنا الأرمن يلفظونها عليها ، وحيث أنهم يلفظون هذا الحرف مثل باء خفيفة b فقد كتبناها باروك barouk وليس باروك parouk ؛ وللسبب نفسه ، فحيث أننا لم نلاحظ أنهم ينطقون الحرف J الذى يقابل عند شرويدر حرف الـ I المهتوته (أى التى تنطق بملء النفس مثل حرف الهاء) فقد حذفناه من هذه الكلمة .

(٣) الحرف ﻜ الذى جعلنا منه حرف جيم غير معطشة (g) قد مثله شرويدر فى مؤلفه بحرف k اليونانية منطوقة دون اتكاء أو تركيز ؛ ومع ذلك فإننا لم نسمعه يلفظ على هذا النحو على اللسان الأرمينى ، فهم يلفظونه مثل حرف الكاف الفارسيه گ ، أى مثل حرف الجيم الجافة أو اللينة .

(٤) الحرف الأخير من هذه الكلمة والذى مثلناه بـ gh هو جيم جافة مع هقة قوية ؛ وهو يلفظ على نحو ما تلفظ حرف الغين العربية ؛ وفضلا عن ذلك فإنه يوجد فى هذه الكلمة ، وكذلك فى كلمتى بوش (رقم ٢) وبوث (رقم ٣) حرف لم نستطع قط تقديم مقابل له ، وهو الحرف ﻪ الحرف الثالث فى الأبجدية الأرمينية ، الذى يوافق فى بعض الأحيان الـ v أو الـ y اليونانية .

(٥) يوجد فى هذه الكلمة كذلك حرف ﻪ صامت على الدوام . ولهذا فإننا لم نقدم مقابلا له فى هجائنا الفرنسى للكلمة ، على غرار ما تعرفنا مع الكلمة السابقة . وحتى لا نكرر هذه الملاحظة ، من الآن فصاعدا ، فإننا نسترعى الانتباه إلى أن حرف z أو الـ y أو الـ v اليونانية يأتى دوما ، بشكل تقريبى ، عقب حرف n (أو الواو) مباشرة ؛ ولهذا السبب ، ففى كل موضع ، فى هجائنا الفرنسى للكلمات الأرمينية ، نقابل المقطع الصوتى ou (واو أو ضمة مدورة) فيمكن القارىء أن يستنتج أنه يوجد بهذه الكلمة الحرف ﻪ (y أو v يونانية أو J التى تقابل حرف I غير منطوق عقب الحرف n التى نتمثلها بالواو أو الضمة الممدودة .

(٦) الحرف الأول والذى مثلناه بالحرفين dz يقترب بعض الشىء من dj أو الجيم المعطشة فى العربية .

(٧) لم يعرفنا أحد قط بالاسم الذى يطلق على هذه الاشارة ؛ ويبدو أن هذا الاسم كان مجهولا كذلك من شرويدر ؛ ولكن الأرمن كتبوها لنا ضمن الاشارات الموسيقية ، وبالترتيب التى نوردها عليه هنا ؛ وهذه لا توجد قط فى قائمة اشارات الغناء التى وردت فى الصفحة ٧٧٣ من كتاب غناء الأرمن .

(٨) بخصوص الحرف الرابع الذى سبق أن مثلناه بالحرف g ، انظر الهامش رقم (٣) .

(٩) سبق لنا أن لاحظنا أن الحرف الأول هنا يوافق حرف الباء الخفيفة b ، عندنا ، ملفوظا بشدة وبلكنة جرمانية ، وأنه بالتالى يشبه فى نطقه حرف الباء الثقيلة p أكثر مما يشبه الباء المخففة ؛ وأننا لهذا السبب قد كتبنا pouch بدلا من bouch ، وهذا هو السبب كذلك الذى يجعلنا نكتب pien goerdch بدلا من bien goerdch أى المعقوف بشدة ، مخالفين بذلك شرويدر فى ترجمته اللاتينية bien uncum للكلمة نفسها .

(١٠) سمعناهم ، فى هذه الكلمة ، يلفظون الحرف الثالث مثل الجيم غير المعطشه (g) برغم أن شرويدر قد جعله مقابلا لحرف k ، وبرغم أننا قد وجدنا لها فى الواقع النغمة نفسها التى وجدناها فى كلمة dzounk (جونك) على وجه التقريب ، وإن كنا قد سمعناهم هنا ، بوضوح شديد ، يلفظونها جانجينيه .

(١١) الحرف الثانى فى هذه الكلمة لم ينقل إلينا قط (أى لم نسمعه ينطق أبدا) فى شكل حرف الكاف k ، وإنما فى شكل حرف الجيم غير المعطشة ؛ ولهذا السبب فقد كتبنا هذه الكلمة إجوّيردش eggoerdch .

(١٢) ويقابلنا هنا كذلك الحرف نفسه (وهو الثالث هنا) الذى تمثلناه بالحرف g لأننا سمعناهم يلفظونه على هذا النحو .

(١٣) لا يزال حرف J هنا غير ناطق تماما .

(١٤) اسم هذه الاشارة مجهول لنا ، كذلك فإن أسماء بقية الاشارات التالية مجهولة هى الأخرى من المنشد الأرمينى الذى رجعنا إليه ؛ ونحن ندين بالقليل الذى عرفناه فيما يتصل بهذه الاشارات الأخيرة إلى مطران هذه الجالية ؛ ولعل شرويدر لم يستطع كذلك الحصول على تفسير لها ، طالما لم يشر – هو – إلى أية واحدة منها بالاسم ، حين تصدى للتعريف بها ؛ واكتفى بأن نسخ قائمة هذه الاشارات الموسيقية ، بالشكل الذى وجدها عليه فى كتاب الغناء عند الأرمن ، ص ٧٧٣ .

المبحث الخامس

من أين يأتى الاختلاف البين ، القائم بين ميلودى المقامات الثمانية فى الغناء الدينى للأرمن كما يقدمه شرويدر ، وبين ميلودى هذه الأغنيات نفسها كما نقدمه نحن ـــ جدوى الوسائل التى استخدمناها للتعريف بها ـــ أمثلة على هذه المقامات الثمانية مكتوبة ومعروفة نوتتها بالأرمينية ، ثم مدونة بحروفنا ومدونة بنوتاتنا ـــ الأغانى الشعرية التى يتألف طَرَبُها فقط من نبرات الكلمات والتى نجدوزنها هو وزن عدد وإيقاع الأبيات .

نشر شرويدر ، منذ نحو مائة عام ، سلم المقامات الثمانية للغناء الدينى عند الأرمن فى مؤلفه :

Thesaurus linguae Atmenicae etc لكننا قد أصبنا بدهشة بالغة عندما قارنا ميلودى هذه المقامات أو الألحان (كما نشرها شرويدر) ، بالمليودى الذى أسمعنا إياه منشدنا الأرمينى حين غنانا هذه الأغنيات نفسها ، فقد وجدنا الواحد منهما يكاد يناقض الآخر تمام التناقض ، إذ يبلغ الاختلاف بينهما درجة أن أى شخص آخر سوانا ، حين يقارن الأغنيات التى نشرها شرويدر بتلك التى نقدمها هنا ، قد يخطر على باله فى البداية ، وهو محق ، أنه إما أن شرويدر لم ينقل هذه الالحان بدقة أمينة ، وإما أننا قد أضفنا أشياء كثيرة إلى ميلوديها ، أو أننا قد غيرناه ، وإما أن هذا الميلودى الذى مضى عليه قرن من الزمان ، قد تعرض لتغييرات كبيرة فأصبح متكلفا لهذا الحد الهائل ، ومثقلا بالزخارف .

ومع ذلك فنحن على يقين أن شيئا من ذلك كله لم يحدث فى واقع الأمر لأسباب عديدة :

أولا : فمن الواضح أن ميلودى الأغنيات التى قدمها شرويدر يحمل طابعا أصيلا ، وملمحا شديد الخصوصية لن يكونا لهذا الميلودى ، لو أن شرويدر كان قد

حرف منه ، أو غير بعض الشيء من سلم نغماته .

ثانيا : لأن بمقدورنا أن نشهد بأننا من جانبنا قد بذلنا كل عناية ممكنة ، واتخذنا كل احتياط ممكن تصوره ، حتى ننقل وندون غناء هذه المقامات أو الالحان بدقة وسواسة ، وبأننا قد حرصنا على هذه الدقة ، حتى فى أكثر التفاصيل رهافة ودقة .

ثالثا : وأخيرا فإن من المؤكد أن ميلودى هذه المقامات لم يخضع لأى تغيير من جانب الأرمن منذ قرن ، فلقد ظلت الاشارات المستخدمة فى تدوينها هى نفسها على الدوام ، كما لا تزال كتب الغناء التى كانوا يستخدمونها منذ قرن هى نفسها التى يستخدمونها اليوم ، وهى نفسها كذلك التى رجع شرويدر إليها ، بل إن من المرجح أن تكون الأغنيات التى تضمنتها هذه الكتب لا تزال تحتفظ بالشكل الذى نظمها عليه ميسروب .

ولهذا كله فإنه يلزمنا بالضرورة أن نلتمس أسبابا أخرى ، بخلاف تلك التى تراود الذهن للوهلة الأولى ، لتفسير الخلاف القائم بين الأغنيات الأرمينية التى يقدمها شرويدر ، وتلك التى دوناها بأمانة صارمة وتحت إملاء منشد أرمينى ، ينظر إليه باعتباره بالغ المهارة فى ممارسة فنه .

وفى رأينا ، فإن أحد الأسباب الحقيقية والرئيسية التى أوجبت حدوث مثل هذا الاختلاف ، هو أن طريقتنا فى كتابة النوته اليوم ، فى أوربا لم تعد هى الطريقة نفسها التى كانت متبعة منذ قرن ، وأننا اليوم ندون النوته بنقاط سوداء أو ذوات أسنان ، ما كانوا ، يدونونه منذ مائة عام بدوائر وبياضات ، أو حتى نستخدم التعبيرات نفسها التى كانوا يستخدمونها فى ذلك الوقت بواسطة علامات موجزة Demi brieves أو بالغة الصغر minimes ، وأن البقع السوداء التى كانوا يسمونها فى ذلك الوقت Demis-minimes ربما تكون هى التى قد استبدلنا بها اليوم العلامات المزدوجة بل المسننة التى نستخدمها الآن ، وهكذا بالنسبة لبقية إشارات النوتة الموسقية ؛ وهناك سبب آخر نظن أنه قد أسهم بالضرورة ، كذلك ، فى إظهار بعض فروق بين الأغنيات الأرمينية التى عرّف بها شرويدر ، وبين تلك التى قمنا بنقلها ، وهو أنه من المحتمل أن تكون هذه المقامات أو الالحان قد قدمت إليه فى نسق أو نظام

يختلف قليلا عن ذلك النسق الذى كتبها لنا ، وأنشدنا إياها ، عليه منشدها الأرمينى ، فغالبية مقامات أو ألحان شرويدر ، على وجه التقريب تشبه مقاماتنا إذا ما بُسِّطت (هذه الأخيرة) ؛ فنحن نلاحظ أن فى مقاماتنا تطورا أو امتدادا للنغمات المتشابهة هنا وهناك ، وإن تكن مدة كل نغمة ، والوقت الذى يستغرقه الايقاع أو الوزن ليسا على الدوام على النسبة نفسها عندنا وعنده ، وهو ما يمكن حدوثه إذا ما كان الشخص الذى أسمعه هذه الأغنيات قد أداها ببطء أكبر ، وبطريقة أكثر بساطة وأقل زخرفا ، عما فعله أمامنا منشدنا الأرمينى ، فإذا مابدا الميلودى الذى نقلناه مرهفا أو متكلفا لحد كبير ، وبدا ميلودى شرويدر بالغ البساطة ، فلعل ذلك يعود إلى أننا ، خشية منا أن نمسّ اللحن إذا ما اعتقدنا أننا لا نحذف سوى زخارف ترجع إلى ذوق المنشد وحده ، قد آثرنا أن ننقل بحرص وسواس كل ما سمعناه ، مهما تكن الصعوبة واضحة فيما يتصل بالإيقاع ، فى حين يكون شرويدر وهو أقل منا تحرجا ، قد أهمل ، وهذا محتمل ، كل ما قد بدا له من قبيل الزخارف ، فلم يلق بالا إلا للنغمات الرئسية لكل إيقاع ، تلك التى تنتمى ، فيما بدا له ، إلى الغناء البسيط ، ولعلنا قد نأخذ بكلا السببين ، مع تفاوت نصيب كل منهما فى التأثير ؛ ولا يلزمنا أكثر من ذلك ، فإذا ما غيرنا من نسق المقامات ، كما نحدس أنه قد حدث — فإننا لن نعود بقادرين على تمييز علاقات التشابه القائمة بين ميلودى هذه المقامات كما قدمه شرويدر ، وبينه كما قدمناه نحن ، وفى الوقت نفسه ، فبخلاف أن العقبات التى اضطررنا للتغلب عليها ، كيما نخضع للإيقاع كل الزخارف التى أضافها منشدنا لهذا الميلودى ، هى برهان على الإخلاص الذى نسخنا به أغنيات المقامات الأرمينية الثمانية ، فإن هذه الزخارف نفسها تقدم فكرة أكثر كمالا وأكثر حقيقة ، عن الذوق والعبقرية الموسيقية عند الأرمن .

لكن الأمر الذى نأسف عليه كثيرا ، والذى ربما كان بمقدوره أن يبدد كل ريبة ، ويزيح الكثير من العقبات ، فهو أن شرويدر لم يفكر فى أن يُلزم الشخص الذى أسمعه أغنيات هذه المقامات الثمانية ، بأن يكتب بنفسه نص هذه الأغنيات ، وأن يدون الاشارات الموسيقية الأرمينية فوق الكلمات ، كما طلبنا نحن إلى منشدنا ، فقد بدا لنا أن هذا الاحتياط وحده ، كان هو القادر على تركيز انتباه المغنى ، وعلى أن يلتزم

بالدقة عند الغناء ، ولو أنه قد قدم هذه الاشارات الغنائية فوق الكلمات ، كما فعلنا نحن هنا ، ثم كتبها بحروفنا ، ودون .نوتتها عن طريق العلامات الموسيقية التى نستخدمها ، لكان قد قدم مزيدا من السهولة فى التعرف عليها ، وفى تقدير أثرها ، بل لكان قد قدم للأرمنيين أنفسهم كذلك وسيلة للمقارنة ، يرجعون إليها ويلتمسون دقتها كلما تعوزهم الحاجة فى هذا الصدد ، وهكذا فإن علينا منذ الآن ، أن نطبق هذه التجربة على الأغنيات التى نقدمها هنا ، وأن ننقح ما سيبدو فيها موسوما بميسم انعدام الدقة ، بل إننا لنرغب بأكثر مما رغب فى ذلك أحد من قبل ، ألا نكون أصحاب مصلحة فى كتمان أو إخفاء أخطاء لا يمكننا ، بأية طريقة ، أن تأتينا إلا عن طريق غيرنا ، فإذ كان الغرض الرئيسى من بحوثنا ومن عملنا ، هو أن نسهل للآخرين وسائل توضيح وتعميق أمور لم يتيسر لنا لا الوقت ولا الفرصة المناسبة للكشف عنها ، أو قل إننا لم نلمحها إلا عن بعد بعيد ، وسط غبشة الظلام ، فلا شيء أثمن ، بالنسبة لنا ، من أن يتوصل إليها غيرنا ذات يوم .

(١)
Առաջի (1) ձայն.
Aradchi dsain (1). (٢)

أرادشى دْسينى ، أى

المقام الأول

(٤) (٥) (٦)
ա, ձ (3). Օրհնեսցուք (4) ըզ (5) տր (6) զի փառօք է փառաւորեալ
a, dr. Orhnestsoukh az der zzi parokh é paraw noereal.

Celebremus Dominum quia gloriosè glorificatusest

وتلفظ بالعربية : أورجنستوخ آز در ظى باروخ إيه
باراوْ فويريال

---

(١) أضاف شرويدر إلى نهاية هذه الكلمة Ն وهو يقابل حرف النون (n) ، =

(١)
Առաջի ձայն կողմ
Aradchi dsain goueghme

= لكن منشدنا الأرميى قد حذفه .

(٢) حرف النون ն في هذه الكلمة لين ، ويلفظ كما لو أن بعده حرف ياء كما نلفظ فى الفرنسية كلمة saignée ؛ وهكذا ينبغى أن نلفظها دسينْ ، بدلا من دسينْ ، (بمعنى مقام) .

(٣) هذان الحرفان (ويقابلان الحروف اللاتينية المكتوبة أسفل كل منهما) أى آ و دس ، هما اختصار للكلمة السابقة ؛ فالحرف الأول (ويقابله حرف գ)يأتى اختصارا لكلمة adarchai بمعنى الأول ، والحرف الثانى ويقابله الحرفان ds فهو اختصار لكلمة dsain بمعنى مقام ؛ وعلى هذا فإن هذين الحرفين هما اختصار لعبارة المقام الأول .

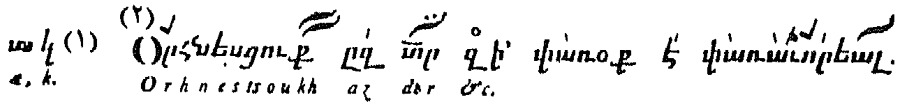
(٤) الحرف الثالث فى هذه الكلمة ويقابل حرف الهاء (h) يلفظ بهته حلقية ، تحدث على وجه التقريب الأثر نفسه الذى يحدثه حرف الجيم المعطشة (J) مما يجعلنا نلفظها أورجنستسوخ (أو أوجنستسوخ) بدلا من أورهنستسوخ .

(٥) يقابل هذا الحرف ، طبقا لشرويدر ، حرف c حالة كونه صامتا ، وإن كنا قد سمعناه يُلْفَظ كما لو كان فتحة قصيرة ، تخرج من بين الأسنان ، على نحو ما يفعل الانجليز على وجه التقريب .

(٦) يجعل شرويدر من هذا الحرف مقابلا لحرف الراء (r) ، والذى يرى أن من الواجب أن نلفظه برقة ، لكننا رأيناه يلفظ دالا (d) وبشكل أقرب إلى الجفاف أو التندة فى الحقيقة ، وإن يكن فى الوقت نفسه أقل جفافا من الـ d الألمانية ، أو مما يلفظ عليه حرف الـ d الفرنسية ملفوظا بلسان جرمانى ، ولهذا فقد قابلنا هذا الحرف بالحرف d . ونحن نلاحظ هذه الأشياء ، لأن الفرنسى وحده ، فى غالبية الأحيان ، هو الذى يستطيع التقاطها ، وعندما يشير له الأجانب إليها فإنه يفعلون ذلك على الدوام بشكل قاصر إلى حد كبير ؛ وهذا هو السبب فى أننا لم نستطع ، إلا فى القليل النادر ، أن نمسك بالنطق الصحيح للكلمات التى لم نسمعها ، نحن بأنفسنا ، وهى تلفظ .

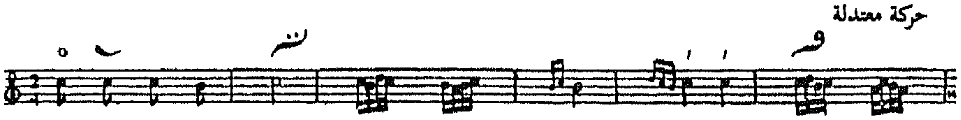
(١) وقد وضعنا فى مقابل هذا الحرف ، عند الكتابة ، جيما غير معطشة ، إذ نطقه الأرمن أمامنا على هذا النحو ، وهو يأتى مقابلا لحرف الكاف k فى حروف الهجاء الأرمينية التى قدمها شرويدر .

مقلوب (*) المقام الأول



Celebremus Dominum &c.

السلم الموسيقى للمقام الأول(٣)



(٤)
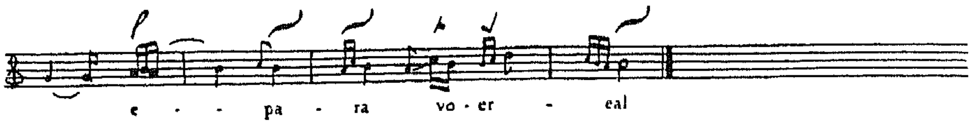
(*) الكلمة الفرنسية هى Plagal وتوردها بعض القواميس على أنها : المحط المحيَّر وفيه تكون الفاصلة الخماسية فى الحاد أو الجهير وتكون الرباعية فى الغليظ أو الخفيض ، وتفسرها موسوعة Bibliograplie Universelle الفرنسية بأنها تعنى فى النظام الموسيقى الجريجورى بأنها مقلوب المقام ، حين توضع خماسية فى الحاد ورباعيته فى الغليظ ، وآثرنا استخدام كلمة مقلوب لسهولتها ولعلنا لا نكون قد أخطأنا . [المترجم] .

(١) هذا الحرفان ، هما اختصار للكلمة الأرمينية aradchi goueghme [أرادشى جويغم] أى مقلوب المقام الأول .

(٢) هذه هى على الدوام الكلمات نفسها ، ونحن لا نكررها هنا ، كما سنكررها فيما بعد إلا لأن الإشارات الموسيقية لا تكون هى نفسها فوق الكلمات (أى يتناولها التغيير) .

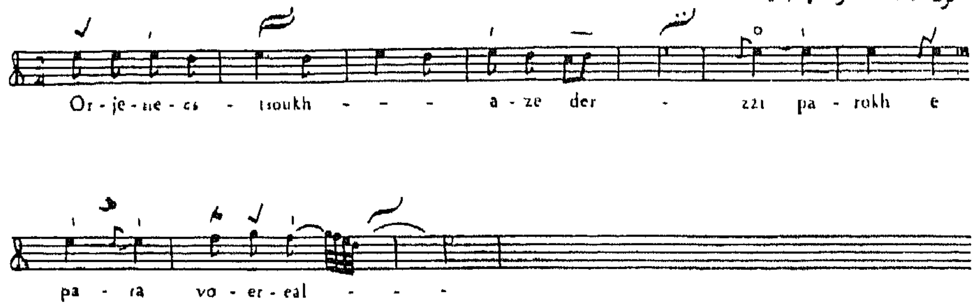
(٣) حيث لم يكن المنشد الذى أنشدنا هذه الأغنية يصطحب أية آلة موسيقية ، يمكنه أن ينتظم عليها ، ويعرفنا بالدرجة الصحيحة إلى المقام الذى كان ينشد فيه ؛ وحيث لم يكن يستطع أن يحتفظ فيما بين المقامات الأول والثانى والثالث الخ ومقلوباتها ، بالعلاقات أو النسب التى تحددها القواعد بشكل صارم ، وحيث لم يفسر لنا – هو – بشكل واضح هذه القواعد ، فقد استنتجنا من جانبنا أن هذه المقامات تحتفظ فيما بينها بنفس النسب القائمة عندنا ، والتى كانت قائمة كذلك عند الاغريق ؛ ومع ذلك فإننا لم نجرؤ أن نأخذ على عاتقنا أن نضع النوتة الموسيقية لها ، على مسئوليتنا الخاصة ؛ كذلك لم تكن لدينا دوافع أخرى تحدو بنا ، عند اختيار السلم الذى دوناها فيه ، إلا تجنب علامات الصعود والهبوط .

(٤) كان من الضرورى أن نكتب الشكل الإملائى للكلمات على النحو الذى رأيناها =



السلم الموسيقى لمقلوب المقام الأول

حركة نشطة أكثر منها بطيئة



= تلفظ عليه ، لاسيما أن إيقاع الغناء كان يقتضى فى بعض الأحيان أن يمد المغنى الكلمات أو يختصرها ، وهذه رخصة تكاد تكون مقبولة من كل الشعوب ، يلاحظها المرء فى كلمات غالبية الأغنيات التى قدمناها كأمثلة ، وقد كانت هذه الرخصة الشعرية شائعة بالقدر الكافى عند الاغريق طبقا لرواية أرسطو ودينيس داليكارناس ؛ بل لقد انتشرت هذه الرخصة كنتيجة للمبادىء التى نقلها هذان إلينا ، الأول فى كتابه فن الشعر (البويطيقا) ، والثانى فى كتابه فن تنسيق أو توفيق الكلمات ؛ فأرسطو فى الفصل الحادى والعشرين من فن الشعر يقول : إن « الوسيلة التى تسهم أكثر من غيرها فى النهوض بالبيان أو طريقة النطق ، دون أن تجعله أقل وضوحا ، هى أن نطيل (نمد) الكلمات أو نقصر من مدها ، وأن نغير فى حروفها ومقاطعها الصوتية » ؛ ويقول دينيس داليكارناس بشكل مباشر : « إن الكلمات ينبغى أن تكون تابعة للغناء ، لا أن يكون الغناء تابعا للكلمات » . وعلة ذلك نجدها فى مسائل أرسطو ، الباب التاسع عشر ، حيث يلاحظ هذا الفيلسوف : « أن من الضرورى أن نحاكى عن طريق الغناء أكثر مما ينبغى أن نحاكى بواسطة الكلمات » . وفى الواقع ، فإن الكلمات قد صيغت تعبيرا عن أفكارنا ، أما النبرة أو النغمة أو الغناء فقد جاءت للتعبير عن مشاعرنا ، فالكلمات توجه إلى العقل أكثر مما تؤثر فى الأحاسيس ، أما الغناء فعلى العكس من ذلك ، يأتى ليؤثر فى المشاعر والعواطف أكثر مما يتوجه إلى العقل ؛ إن الكلمات هى لغة العقل ، أما الغناء فهو لغة النفس .

Երկրորդ ձայն.

(١)
(برجرويرد ذْسينىْ)

المقام الثانى

(٢)
Բ Ձ
b, ds.   Օրհնեսցուք ըզ տր զի փառօք է փառաւորեալ.

Աւագ կողմ.

(أواجْ جويغْم)

مقلوب المقام الثانى

Բ Կ.
b, g   Օրհնեսցուք ըզ տր զի փառօք է փառաւորեալ.
(٣)

---

(١) فى هذه الكلمة التى كتبناها املائيا على هذا النحو ، يأخذ حرف الجيم (g) نفس موضع الحرف الأرمينى الثالث فى الكلمة التى تعلوها والذى يقابله سُرويدر بحرف الكاف (k) ؛ ولو كان هذا هو النطق الصحيح لهذا الحرف ، لوجب أن يؤدى أمامنا بشكل أكثر رقة ، ذلك أننا ، برغم ما بذلناه من جهد ، وبرغم ما التزمنا به من انتباه وملاحظة ، سواء فى الغناء ، أو فى دراسة اللغات وتمييز أقل أو أضعف نبرات الصوت البشرى ، لم نستطع قط أن نلمس لهذا الحرف تأثيرا آخر غير حرف الـ g لدينا ؛ والأمر نفسه بخصوص كلمة جويغم goueghme ، فقد بدت لنا على الدوام تحدث أثر حرف الجيم ، على النحو الذى كتبناها عليه إملائيا ، وإن يكن الشيء الوحيد الذى لاحظناه ، أن هذه الجيم تصبح أشد خشونة ، بقدر طفيف ، إذا كانت هى الحرف الأولى فى الكلمة .

(٢) هذان الحرفان ، وهما يقابلان عندنا b . ds ، هما اختصار لكلمة المقام الثانى ؛ وحيث أن الحرف الأول ، وهو الثانى فى حروف الهجاء الأرمينية ، يستخدم هنا تبعا لقيمته العددية وهى اثنان ، وحيث أن الحرف الثانى هو اختصار لكلمة (دسينىْ بمعنى المقام) ، فإن هذه الحروف ، على هذا الترتيب ، تعنى عبارة : المقام الثانى .

(٣) هذا الحرفان يعنيان مقلوب المقام الثانى ؛ فالحرف الأول يعنى الرقم ٢ ، والحرف الثانى هو الحرف الأول من كلمة جويغم بمعنى مقلوب وهكذا يكون المعنى المقصود هو : مقلوب المقام الثانى .

Երրորդ ձայն.

(يرويرد دسينى)

المقام الثالث

Գ. ձ (١) Օրհնեսցուք զՏր զի փառօք է փառաւորեալ.
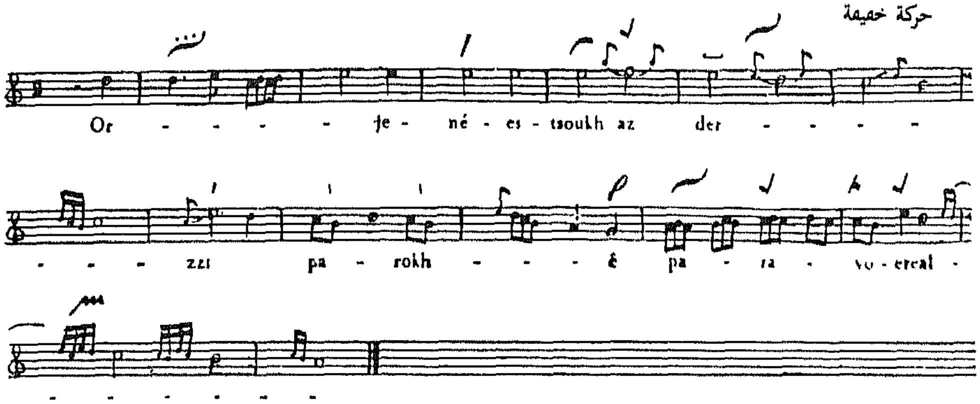
Վառ ձայն.

(واره دسينى)

مقلوب المقام الثالث

Գ. Վ (٢) Օրհնեսցուք զՏր զի փառօք է փառաւորեալ.

السلم الموسيقى للمقام الثانى



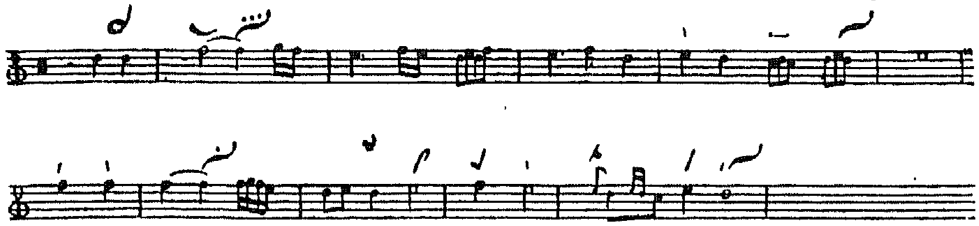
---

(١) الحرف الأول هنا يستخدم حسب قيمته العددية وهى ثلاثة ، أما الحرف الثانى فهو اختصار لكلمة دسينى بمعنى مقام ، وبذلك يعنى الاختصار هنا : المقام الثالث .

(٢) يستخدم الحرف الأول هنا ، كذلك ، حسب قيمته العددية : ثلاثة ؛ أما الحرف الثانى ، كما رأينا من قبل فيشير إلى مقلوب المقام ، وهكذا يعنى هذا الاختصار : مقلوب المقام الثالث .
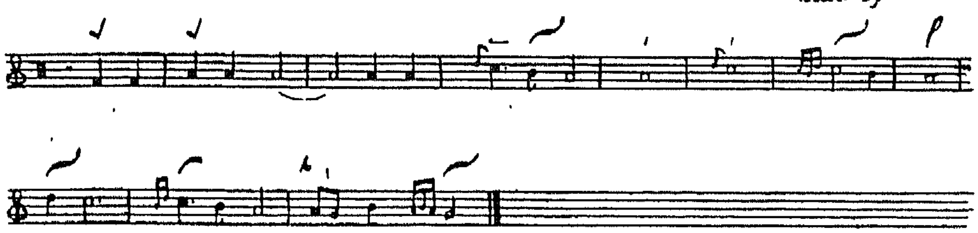
السلم الموسيقى لمقلوب المقام الثانى

حركة خفيفة
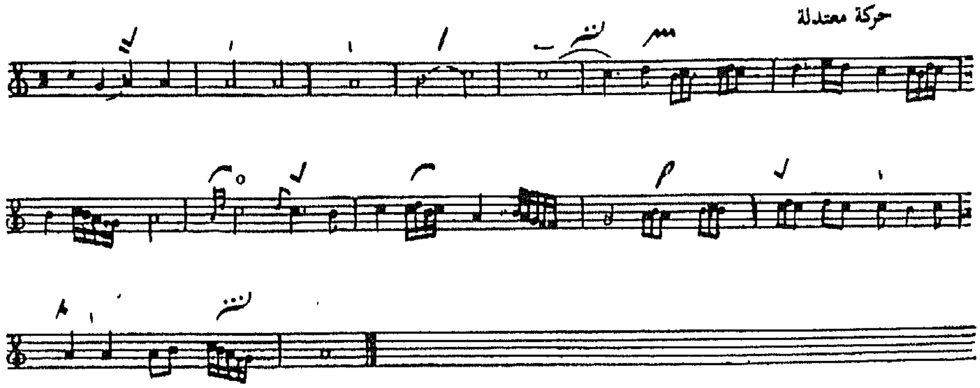


السلم الموسيقى للمقام الثالث

حركة معتدلة



السلم الموسيقى لمقلوب المقام الثالث

حركة معتدلة



Չորրորդ ձայն.

(تشنريرورد دسينى) .

المقام الرابع

դ ձ.
d, ds
(١)

Օրհնեսցուք ըզ տէր զի փառօք է փառաւորեալ.

Վերջ ձայն.

(٢)
(ويردش دسينْ)

مقلوب المقام الرابع

դ կ.
d, k
(٣)

Օրհնեսցուք ըզ տէր զի փառօք է փառաւորեալ.

Իստեղի.
(٤)

(إستيغى)

---

(١) الحرف الأول يستخدم هنا فى قيمته العددية وهى أربع ؛ وباستخدامه مع الحرف الثانى ، الذى هو اختصار لكلمة دسينْ أى مقام ، فإن الحرفين معا هما اختصار لعبارة : المقام الرابع .

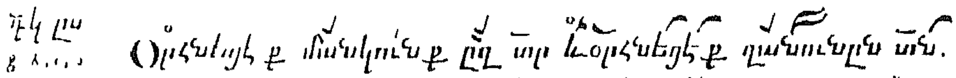
(٢) هذه الكلمة تعنى خاتمة أو ختامى ؛ فالعبارة إذن تعنى المقام الختامى ، أو إذا شئنا الدقة ، المقام الأخير .

(٣) الحرف الأول هنا كذلك يعنى أربعة ، والثانى يشير إلى كلمة جويغم بمعنى مقلوب المقام ، وبذلك يعنى هذا الاختصار ؛ مقلوب المقام الرابع .

(٤) لا نجد لهذا المقام أثرا عند شرويدر ؛ وقد وجدنا الحرف الثالث فى هذه الكلمة يلفظ بشكل أكثر جفافا عنه فى الكلمات الأخرى ، وأحدث فينا التأثير الذى يحدثه حرف التاء T .

مقام مشتق

(١) (٢) (٣) (٤)

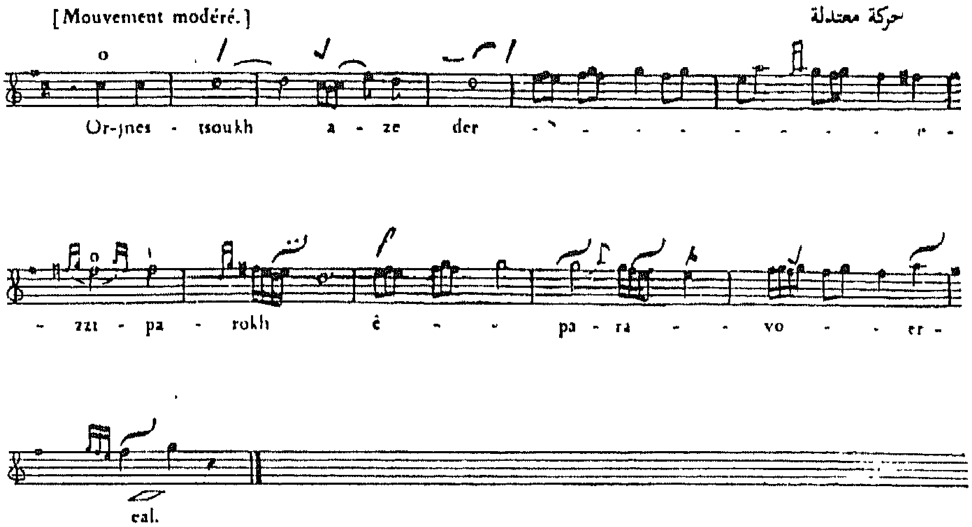


Orhnetsekh mangounkh az der yaworhnetsekh zzannounen dian.

النطق العربى :

أورهنتسِخْ مانجونخ آز دِرْ ياوُرْهينتسخ ديان

السلم الموسيقى للمقام الرابع



---

(١) هذان الحرفان ، هما الحرفان الأولان من كلمة استيغى بمعنى المقام المشتق من المقامات الأخرى ؛ وحين يضاف هذان الحرفان إلى الحرفين السابقين فإن هذه الحروف الأربعة تعنى المشتق أو المستخلص من مقلوب المقام الرابع .

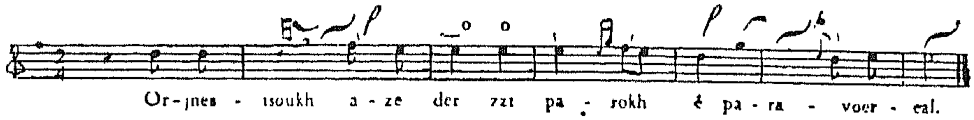
(٢) هنا ، كما فى كل الحالات الأخرى ، سمعنا الحرف الرابع من هذه الكلمة يلفظ مثل حرف الجيم g وليس على غرار حرف الكاف k .

(٣) لُفِظ هدا الحرف أمامنا مثل حرف الدال d وليس مثل حرف التاء T .

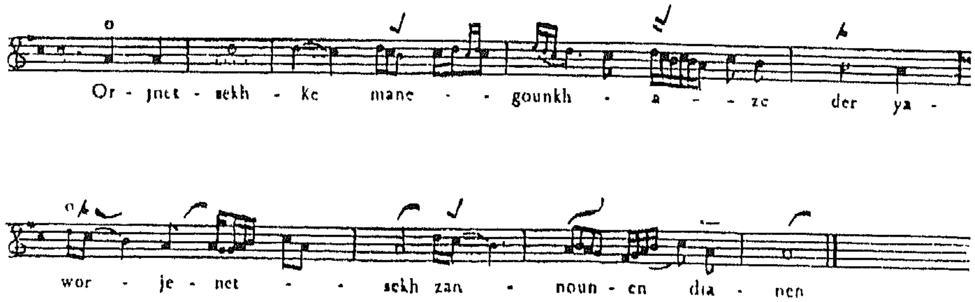
(٤) هنا أيضا ، سمعنا الحرف الرابع من هذه الكلمة يلفظ على نحو قريب مما يلفظ عليه ، حرف الجيم المعطشة J ، مع هتة خفيفة ؛ بحيث بدت لنا الكلمة فى النطق محدثة الأثر نفسه الذى تحدثه كلمة ورْجنتسخ .

السلم الموسيقى لمقلوب المقام الرابع

حركة معتدلة



السلم الموسيقى للمقام المشتق من مقلوب المقام الرابع



وتوجد فى اللغة الأرمينية سبع حركات (سبعة حروف متحركة) وهى فى الوقت نفسه حروف هجاء ، وعلامات موسيقية ؛ وحيث يمكن أن يُغنّى الشعر فى هذه اللغة ، حتى ولو لم تكن هناك أية إشارات موسيقية الا هذه الحروف المتحركة ، فإننا نقدم هناك مقطوعة من الشعر الأرمينى منغمة تبعا للنغمات الخاصة بحروف الحركات هذه وموزونة طبقا لنغمات الايقاع :

Աւագ կողմ.
Awag goueghme.

PLAGAL DU DEUXIÈME TON.

Բ. Կ. Ճառագայթ փառաց նորոգէ զմտաց լոյս.
b, k. Djaragaith paratz nourougué zmedats louis.

(١) (٢)
Անստեղծ արեգական լոյս ծագեա կսգոյս.
Ansdiegds ariegagan louis dzaguea kusgouis.

---

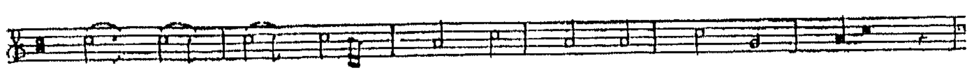
(١) لفظ أمامنا هذا الحرف كما يلفظ حرف الجيم g فى كل الكلمات ، عدا كلمة واحدة .

(٢) لم يحدث أن سمعنا هذا الحرف يلفظ بهتة حفيمة إلا فى هذه الكلمة .
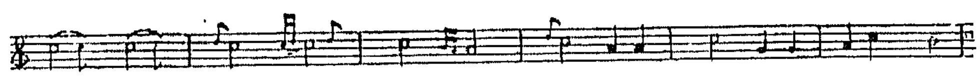
(١) (٢)
Փըրկիչըդ բոլորից զ_իս փութա փըրկել.
Perguiched poloerits zzis poutha perguel.

« جاراجَيث باراتس نوروجيه زميداتس لُويس أنسد بِحْدْس أريبجاجانْ لُوِيس دزاجيا هُسْنجويس بْرجيشِدْ بولورِيتس ظيس يوثا بِرْجِلْ »

نشيد من ثلاثة أبيات من الشعر
الأرمينى ، منغمة موسيقيا ، طبقا
لحركة وإيقاع الكلمات التى أملاها
علينا وأنشدنا إياها المنشد الأرمينى
[وهى المقطوعة الشعرية السابقة نفسها]



(٣)

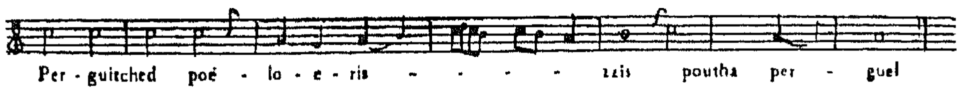


---

(١) قدم كيرشر هذا الحرف ، وهو يقابل حرف الدال D ، باعتباره تاء T ، وإن كنا نحن لم نسمعه يلفظ منغما على نحو أشد مما يلفظ عليه حرف الدال D عندنا ؛ وباختصار ، فالعلاقة واهية بين الطريقة الاملائية التى كتب بها كيرشر كلمات هذه المقطوعة الشعرية ؛ بحروفنا اللاتينية ، وبين الطريقة التى قمنا بها نحن من جانبنا ، عندما تمثلنا نطق وغناء منشدنا الأرمينى وتطابقنا معه ، حتى ليمكن النظر إلى هذه الطريقة وتلك باعتبارهما ناتجين عن لهجتين مختلفين للغة واحدة ، اللهم إلا ، ونحن على استعداد لتصديق ذلك ، إذا كان هذا الاختلاف غير ناتج إلا من أن الحروف نفسها التى استخدمها كيرشر ، والتى استخدمناها نحن ، كذلك ، فى كتابة الكلمات الأرمينية ، لا تحدث الأثر نفسه ، من ناحية النطق ، فى اللغة الأم لكلينا .

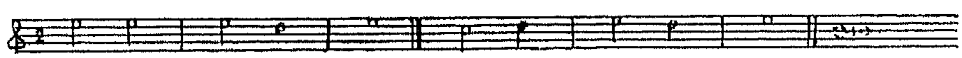
(٢) ينبغى أن نلاحظ أن هذا الحرف ، وهو الثانى من حروف اللغة الأرمينية قد لفظ أمامنا على أنه الباء الثقيلة P ، ويبدو أنه قد اتخذ الشكل نفسه عند كيرشر .

(٣) الهجاء هنا أكثر انطباقا ، على الدوام ، مع نطق الكلمات أثناء الغناء ، أكثر مما هو يتطابق مع هجاء الكلمات نفسها فى النص .



النغمات الموسيقية
لغناء يردده أطفال الجوقة فى معظم
الأحيان أثناء قداس الأزمن

[وهؤلاء الأطفال يمسكون بأيديهم نوعا من الأجراس يؤرجحونها لأحداث الرنين بين وقت وآخر ، وسوف نتناول هذه الآلة الموسيقية بالحديث عندما نكون بصدد الحديث عن الآلات الموسيقية(*)]



(*) انظر المجلد التاسع من الترجمة العربية .

الفصل الرابع

حول الموسيقى اليونانية الحديثة

المبحث الأول

عن ضآلة المعلومات التى كانت لدينا حتى هذا اليوم عن الموسيقى اليونانية ، نجاح الخطوات الأولى التى قمنا بها ، فى مصر ، للتوصل إلى معرفة هذه الموسيقى ــ وصف مخطوطة لكتاب قديم عن الأغنيات اليونانية ، أعطانا إياها رئيس الدير اليونانى (الرومى)الواقع قريبا من مدينة الاسكندرية

لم يكن هناك ما يمكنه أن يثير فضولنا بقوة سوى الموسيقى اليونانية ، فأصالة نظامها ، وكثرة الإشارات التى يستخدمونها فى تدوينها ، وغرابتها ، ثم ضآلة المعلومات التى لا تروى غليلا ، والتى كان قد جصل عليها كل من كيرشر kircher ومارتينى Martini ، وبرونى Bruney وجلبير gilbert ، وعلماء آخرون على مثل هذا القدر من الجدارة والثقة ، هؤلاء الذين لم يتمكنوا ، بعد أن نقبوا فى كل المؤلفات التى استطاعوا أن يجدوها فى غالبية المكتبات المعروفة ، حول هذا الفن ، وبعد أن رجعوا بأنفسهم إلى يونانيين حاذقين ، من أن يلقوا بصيصا من الضوء على أى شىء ــ كان كل ذلك ، منذ زمان طويل ، قد جعلنا نأسف أننا لم تواتنا الفرصة كى نكتسب بشكل مباشر ، وعن طريق تجربتنا الخاصة ، معرفة كافية بهذه الموسيقى ، أو على الأقل ، أن نكتشف السبب الحقيقى الذى أدى إلى بقاء هذه الموسيقى مجهولة حتى اليوم ، فى فرنسا وأسبانيا وإيطاليا وألمانيا وأنجلترا ، برغم أنها ظلت تستخدم لقرون طويلة ، فى أوربا وآسيا وأفريقيا ، ولقد جاءت الحملة على مصر لتقدم لنا الفرصة التى كنا نرغب فيها ، ونحن من جانبنا ، لم نهمل شيئا كان بمقدوره أن يمدنا بالنفع فى هذه الحملة .

فبمجرد أن وصلنا أرض مصر ، ولاحظنا ذلك العدد الكبير من الأروام المنتشرين فيها ، بادرنا بعقد أواصر الصداقة مع الذين بدوا لنا ، من بين هؤلاء الأروام أكثرهم علما واطلاعا ، وبصفة خاصة ، مع البابوات أو القسس الأروام ، فى الاسكندرية ورشيد والقاهرة ، ذلك أن بمقدور الأجنبى أن يأمل ، وهو فى كنف رجال الدين أو التجار ، بصفة خاصة ، فى التزود بمعلومات بالغة الدقة عن الدين وعن العلوم والفنون ، وعن تقاليد وعادات البلاد .

وكانت الخطوة الأولى النافعة فى مشروعنا ، هى الزيارة التى قمنا بها فى صحبة الجنرال ميسو ، إلى رهبان الدير اليونانى بالقرب من الاسكندرية ، وهناك ، ولأول مرة كذلك ، شعرنا ببعض العزاء عن ذلك الانطباع المقبض الأليم والعميق ، الذى طبعته فينا ، بدءا من ميناء طولون ، مشاهد البلاد التى تبدت لأنظارنا ، أثناء الطريق ، والذى كان لايزال يحدثه فينا ، وبدرجة أكبر ، منظر المكان الذى رسونا لتونا عنده ، فلم نكن نلمح خلال الطريق فى كل ما يحيط بنا سوى جزر تغطيها الجبال الضخام ، التى كان يبث فينا جلمود صخورها العارية والجافة ، ذات اللون الملحى الحائل الضارب إلى لون الرماد ، الملل والسأم ، بفعل رتابتها المقيته والمضجرة والتى كانت تفعم النفس بذلك البؤس القاتل الذى يغرق فيه بالضرورة هؤلاء الذين يقطنونها ، وفى الوقت نفسه فإننا ، بدلا من أن نجد ، حين وصلنا إليها[1] ، هذا الاقليم الشهير والذى ذاع صيت خصوبته المذهلة ، لم نجد هناك سوى أرض تحرقها الشمس ، وتربة تحولت إلى تراب ، حتى لتغدو شبيهة بالرماد ، وفناء شاسعا من خرابات لا نفع فيها ، تمتد من ورائها صحراء فسيحة يغطيها محيط من رمال متحركة ، يكاد المرء لايصبح قادرا فيها على أن يلمح فيها قشة عشب ، وإذا ماشئنا أن ننزع البصر من مشهد مفزع إلى هذا الحد ، فإنه يتوقف ، فجأة على ما يشبه بلدة كبيرة قذرة ومنفرة ، بنيت بحذاء شاطىء البحر ، خلع الناس عليها ، على سبيل الهزء والسخرية فيما يبدو اسم تلك المدينة الشهيرة ، التى أمر بتشييدها فى هذا الموضع ، الاسكندر الأكبر ، تلك المدينة التى يكاد لم يتبق منها سوى بعض أطلال قد تكون كافية للاستدلال عليها ، ولقد وجدنا هذا المكان يقطنه شعب فظ الطبع ، اشتهر عنه منذ زمان بعيد أنه كذلك ، شعب يحطمه الطاعون ، ويبعث هو ، على الرعب ، يسعى ، إذ أحنقه أنه لم يتمكن من أن يبدى سوى مقاومة لاجدوى منها ، أمام جيش من شجعان الفرنسيين يقوده بطل مغوار ، كى ينهك بالتجويع قوى غالبيه ، بأن يخفى عنهم حتى أشد صنوف الطعام ضرورة ، وليحكمن القارىء بعد ذلك على ما كان علينا أن نستشعره ، حين دخلنا بعد أن ابتعدنا مسافة لاتكاد تجاوز ربع الفرسخ من هذه المغارة ، التى تكتظ بهؤلاء الأفظاظ قساة القلوب ، هذا الملاذ الآمن فى كنف أوربيين ودودين ، تشع منهم

---

(١) أى إلى مصر (المترجم) .

حضارة تضرب إلى بعيد ، أولئك هم اليونانيون النشطاء ، الذين أمكنهم أن يبثوا في الطبيعة الحياة وأن يزينوها بكل مفاتن الفن ومباهجة وحين تنفسنا هواء صحيا يعبق بعطور أجمل الورود ، وحين وجدنا أنفسنا ندلف إلى حجرات يسودها النظام وتسودها النظافة ، زينت بذوق ولياقة ، حتى لنرى فيها كل ما يشهد بحب العلوم والفنون ، وأخيرا يمكننا أن نجد ، ونحن جلوس إلى مائدة أعدت بشكل جذاب ، تزخر بأطعمة تشع رقة وخمور تعد بالنشوة ، عزاء وسلوى لكل صنوف الحرمان التي قاسينا منها منذ دخلنا الاسكندرية ، نعم فلقد كان بمقدور هذه اللحظة أن تمسى واحدة من أسعد لحظات حياتنا ، لو لم تكن ذاكرتنا النشطة ، تجتر على الدوام ، تلك الحاجات الملحة التي يستشعرها العديد من أصدقائنا والكثيرون غيرهم من الفرنسيين في تلك اللحظة .

ومع ذلك ، ومهما يكن الموقف الذى وجدنا أنفسنا فيه ، فلم يكن بمقدور ذلك أن ينسينا الهدف الأساسي الذى قادنا إلى هذا المكان ؛ لم نكن نشاء أن نفقد لحظة واحدة من الفرصة التي سنحت لنا ، كي نحصل على بعض معلومات حول الموسيقى اليونانية ، فوجهنا حول هذا الموضوع ، العديد من الأسئلة إلى رئيس الدير ، فأجاب عليها بكثير من الدقة والوضوح ؛ وحين فرغنا من طعامنا ونهضنا ، رجوناه أن يطلعنا على بعض كتب الغناء مدونة بالاشارات الموسيقية الحديثة ، فأمر على الفور بإحضار كتاب هو مخطوطة كبيرة الحجم ، تضم الأغنيات اليونانية ، توسل إلينا أن نتقبلها قائلا إنه لايعرف مخطوطة أقدم منها .

ولن يكون مضيعة للوقت ، أو أمرا عديم الجدوى ، أن نقدم هنا وصفا لهذه المخطوطة :

أولا : لأن مثل هذا الوصف سوف يكشف لنا عن العصر الذى تنتمي إليه هذه المخطوطة ، بشكل تقريبي .

ثانيا : لأنه سيمكننا من التعرف على ماهية هذا النوع من المخطوطات .

ثالثا : لأنه سيمكن القارىء من أن يحكم ، بطريقة أفضل ، على طبيعة الوسائل التي كانت في حوزتنا عند دراسة الموسيقى اليونانية الحديثة ، وحقيقة ما أنجزناه في هذا الصدد متجاوزين به أولئك العلماء الذين سبقونا في هذا المجال .

لابد أن هذه المخطوطة كانت تضم فى الأصل أربعمائة أو خمسمائة صفحة ، ويبدو أنها قد رممت مرات عدة ، وفى أوقات متفرقة وقد كانت كلها فى البداية ، ثم فى جزء كبير منها الآن ، مكتوبة على أوراق من الجلد ، ويرى المرء من لون وحالة وريقاتها أن بعضا من هذه الوريقات أكثر قدما من بعضها الآخر ، وهناك بعض منها مصنوعة من الورق ، لعلها قد حلت محل وريقات من الجلد بليت بفعل الاستعمال أو طول الوقت ، أو تمزقت أو انطمست لأسباب أخرى ، وحروف الكتابة فوق الجلد قصيرة ودائرية تامة مكتملة وسهلة القراءة ، أما الحروف التى خطت على الورق فهى على العكس رفيعة ورديئة وإن يكن الحبر الذى كتبت به لايزال شديد السواد ، فى الوقت الذى حال فيه سواد الحبر فوق الوريقات الجلد ، حتى بدت الكتابة فى لون رمادى يضرب إلى الصفرة ؛ والإشارات الموسيقية بصفة عامة بالغة الوضوح ، تبدو تلك التى دونت فوق الجلد أكثر سرعة (أى كتبت بشكل متعجل) عن الأخريات ، كما تبدو مشكلة بيد أشد تمرسا وأكثر مهارة ؛ وتغلف هذه المخطوطة لوحتان (غلافان) من الخشب ، يكسوهما قماش من صوف متشابك الخيوط ، ألصق فوقهما جلد حور ، وقد ظننا من شكل الحروف والمادة التى تكون الغلاف ، أننا بإزاء آثار تخول لنا الظن بأن هذه المخطوطة يمكنها أن تعود إلى القرن الخامس أو السادس عشر ، لكن أثرا آخر قد نهض ليؤكد لنا رأينا ، فى الوقت نفسه الذى كشف لنا فيه ما كانه هذا النوع من كتب الغناء ، وهو أمر لم نكن لنعرفه ـــ ربما ـــ لولا ذلك ، مادامت مقدمة وخاتمة هذه المخطوطة ناقصتين ، فعلى الوريقة الأخيرة والتى لم تكن على وجه التقريب هى الوريقة النهائية من هذا الكتاب ، حيث من السهل أن نرى ذلك ، من هذا الفراغ الذى لا يزال قائما بين الغلاف ووريقات الكتاب ؛ فوق هذه الوريقة (وهى التى لم تكن كذلك واحدة من أقدم وريقات المخطوطة وهو ما يمكن الحكم عليه من لون وحالة الجلد) ، وفى أعلى الصفحة ، فى الهامش ، نقرأ هذا التاريخ ، ١٦١٤[١]

---

(١) بعد أن كتبنا ذلك ، وبينما كنت أتصفح المخطوطة نفسها ، عثرت فى أعلا إحدى الصفحات ، فى الهامش هذا التاريخ ! ٨٢٥ ، فلو كان هذا هو تاريخ الكتاب حقا ، فإنه سيعود بذلك ، وعلى وجه التقريب ، إلى نفس زمن القديس جان دماسين Jean Damascine ، مبتكر =

وبمعنى اخر ، فإذا كان هذا التاريخ يحدد السنة التى احتاج فيها الكتاب ، وقد أصبح قديما بالفعل ، لكى يرمم فلا بد أن يكون افتراضنا غير بعيد عن الصواب ، ذلك أن كتابا من هذا النوع هو بالغ النفع لحد لابد معه أن يغلف بعناية ، كما أننا لن نكون بعيدين أكثر مما ينبغى عن الحقيقة المرجحة ، إذا ما افترضنا أن يكون عمر هذه المخطوطة قد بلغ بالفعل فى ذلك الوقت مائة عام ، حين تم ترميمه ، أى فى العام ١٦١٤ .

وفى الوقت نفسه فإننا نقرأ بالقرب من هذا التاريخ كذلك ، عبارة ديكه ميجاس dike megas ، وهى التى نعتقد أنها عنوان الكتاب ، وقد وردت مرة أخرى فى هذا الموضع ؛ وإليكم الأساس الذى بنينا عليه رأينا : يطلق عادة على كتب الأغانى اليونانية ، وبصفة خاصة تلك الكتب التى تحوى مبادىء الفن ، اسم باباديكه Papadike ، وهى كلمة مكونة من الكلمة اليونانية ديكه dike ، وتعنى **القاعدة** ، **الاستعمال** ، **العادة** ، وقد ألحقت بكلمة بابا ، وهى الكلمة التى تحدد بصفة خاصة طبيعة أو استخدام هذا النوع من الكتب ، وتشكل مع كلمة ديكه كلمة واحدة نكتبها باباديكه ، لأن هذا النوع من كتب الغناء كان يستخدمه القسس الأروام (اليونانيون) والذين يسمون منهم ، بصفة خاصة باباس papas ، وقد نستطيع أن نقدم مقابلا فى الفرنسية لكلمة بابا ديكة فى عبارة : طقوس الغناء أو الإنشاد الدينى عند الباباس Rituel du chant des papas ، والأمر كذلك فيما يبدو بخصوص كلمة ديكه ميجاس ، التى قد تعنى إذا ما نظرنا إليها باعتبارها كلمة واحدة : الطقوس الكبرى فى الغناء grand rituel du chant الأمر الذى قد ينتج عنه ، أننا قد حصلنا على كتاب الغناء الكبير الخاص بالموسيقى اليونانية ، وفى الواقع فإن هذا الكتاب برغم كونه منقوصا ، لا يزال أكبر حجما بما يعادل اثنتى عشرة مرة ، عن الباباديكات بالغة الانتشار ، ولذلك فقد قيل لنا إنه كتاب بالغ الندرة وإنه لا يوجد — بعد — نظير له فى أى من الأديرة اليونانية فى أوربا وآسيا وأفريقيا ، ولهذا السبب فيحق لنا أن نعتقد أننا قد حزنا أفضل كتاب من كتب الأغانى اليونانية ، ولعله هو الوحيد من نوعه ، فى الوقت الحاضر .

= الموسيقى اليونانية الحديثة ؛ ولسوف يضيف هذا ، دون جدال ، قدرا كبيرا من الجدارة ، إلى هذه المخطوطة .

المبحث الثانى

حول الغناء الدينى عند اليونانيين ، وحول طابعه وتأثيره ، وحول القواعد التى يتبعها المغنون ، والرخص الشعرية التى يبيحونها لأنفسهم ، والكتب التى تضم فى ثناياها مبادىء موسيقاهم وغنائهم

لم يكن كافيا بالنسبة إلينا أن نحصل على كتاب غناء مدون باليونانية ، وأن نتمكن من مقارنة إشاراته بتلك التى عرفنا بها كيرشر ، إذ كانت تنقصنا دراسة عن هذا الغناء نستطيع عن طريقها أن ندرس نظرية الموسيقى اليونانية وتطبيقاتها ، ولكن أيوجد شىء من ذلك فى مصر ؟ فإن وجد ، فأين يمكننا العثور عليه ؟ هذا مالم نكن قد استطعنا بعد أن نعرفه ، وهو فى الوقت نفسه ما خبرناه فى رشيد ، التى لم نتوان فى الذهاب إليها .

وبمجرد أن وصلنا هذه المدينة ذهبنا لزيارة الباباس ، وأبدينا لهم رغبتنا فى حضور قداساتهم وسماع أغانيهم، فحددوا لنا اليوم والساعة اللذين يمكننا فيهما التوجه إلى الكنيسة ، وإذ خشى هؤلاء أن نكون قد نسينا الموعد ، فقد تجشموا مشقة أن يحضروا بأنفسهم هذه المرة لاصطحابنا . كان اليوم يوم عيد ، وكانت الاحتفالات تتم بشكل احتفالى أكثر من المعتاد ، وإن اقتصر هذا الشكل الاحتفالى على كثرة رسم علامة الصليب وكثرة الركوع ، وكانت النسوة فى المقصورات فى حركة دائبة ناتجة عن أداء هذه الشعائر الصامتة (البانتوميم) ، وكانت الأغانى أطول من المعتاد ، وقد وجدنا هذه الأغنيات بالغة التعقيد ، ولعل السبب فى ذلك يعود إلى كثرة زخارفها ، وإن كنا لم نعرف قط من قبل زخارف من هذا النوع ، فهى لا تشبه على الاطلاق زخارفنا ، كما أن الأذن منا لم تسغ سماعها ، وقد كانت هذه الأغنيات تؤدى بالتبادل بين اثنين من المنشدين ؛ أما الذى لم يكن يتولى منهما ترتيل اللحن ، فكان يحافظ على نغمة القرار ، وكان يمد فيها لتستغرق كل الوقت الذى يترنم خلاله المنشد الآخر ، وكان يُعلى من صوته بين الحين والآخر ، وفى كل مرة كان يفعل فيها ذلك ، كنا نلاحظ أن

زميله يخفض من صوته ، ومن هنا استخصلنا أن الهدف من الحفاظ على نغمة القرار هذه ، منع المنشد من الابتعاد عن المقام ، أو لتنبيهه إلى أنه قد خرج عنه ، مع تيسير سبيله للعودة إليه ، وحين انتهى المنشدُ الأول من تراتيله توجه رجل دين كان يمسك أمام هذا المنشد بكتاب مفتوح ليقف تجاه المنشد الثانى ، وبدأ المنشد الأولى بدوره يؤدى نغمة القرار .

وبعد أن انتهى القداس ، اقتادنا الباباس إلى داخل ديرهم ، وأدخلونا إلى حجرة مؤثثة تأثيثا نصفه أوربى ونصفه على الطراز الشرقى ، وما أن بلغنا الباب حتى ألقوا على وجوهنا وأجسادنا بماء شديد البرودة ، من قارورة مصنوعة من زجاج أبيض اللون ، يسدها غطاء تزينه فتائل معدنية ؛ إنه ماء الورد الذى نثروه علينا طبقا لعادة سرت فى الشرق منذ زمان بعيد ، تتم حين يراد الاحتفال بمقدم أحد الأجانب أو بأى شخص آخر يقوم بالزيارة وإظهار الاحترام له ، وحيث لم نَكُ نتوقع مثل هذه الحفاوة ، فقد أجفلنا فى البداية ، لكن دهشتنا لم تطل لأكثر من لحظة المفاجأة ،ولم يكن لدى الباباس دون شك من وقت ليلحظوا هذا الانفعال من جانبنا ، وفى النهاية ضحكنا من الأمر معهم ، دون أن يثير تساؤلا لامن جانبهم ولامن جانبنا ؛ كانوا شغوفين لمعرفة كيف وجدنا أغانيهم وسألونا رأينا فيها ، فامتدحنا النظام والذوق اللذين أديت الأغنيات بهما ، وإن كنا قد تحاشينا أن نطلعهم على حقيقة الأثر الذى أحدثته فينا ، فإذ كانوا ـــ هم ـــ على يقين تام أن أغانيهم بالغة الجمال ، فكم كنا سوف نبدو فى ناظرهم ذوى مزاج ردىء للغاية ، لو أننا ظهرنا فى صورة من لم يتقبل طربهم ، لذلك فقد حرصنا أن نلزم الصمت دونه ، وبدا لنا أن من الأفضل أن نعرف منهم فائدة هذا الصوت المستمر الذى يحدثه المنشد الثانى ، خلال تراتيل المنشد الأول ، فأجابوا على أسئلتنا بأن هذا الصوت الدائم (القرار) يسمى الأيسون (أيسون) ، وأنه على هذا الصوت الثابت (الأيسون) ، يضبط المنشد غناءه ، فسألناهم ما إن كان المنشد عندهم لا يلتزم بشكل صارم باتباع نوتة الأغانى كما هى مدونة فى الكتب ، فأجابونا بأن المنشد الحاذق لا يكتفى قط بذلك ، بل إنه يكفيه أن يعرف المقام الذى ينبغى عليه أن يغنى فيه ، لكى يرتجل اللحن على الفور ، وأن الأيسون ، فضلا عن ذُلك ، وكما نبهونا من قبل ، يستخدم مرشدا للمنشد كى يضبط إيقاع غنائه داخل المقام ، ولكى

يعيده إليه إذا ما كان قد ابتعد عنه فعدنا نسأل : ماهي إذن مبادىء وقواعد غنائكم ؟ فأشاروا على الفور إلى كتاب عرفناه : إنه البابادیکه ، قائلين : هذا هو ، إن أى شخص كائنا من كان ، يتعلم بمعونة مدرس متمكن كل ما يضمه هذا الكتاب ، يستطيع بسهولة أن يؤلف لحنا فى أى مقام يشاء ، لكننا أجبنا متسائلين : أليست لديكم أغانى مكرسة بشكل خاص لمناسبات بعينها ، وأخرى تدخروها لبعض الاحتفالات المهيبة لهذا العيد أو ذاك ؟ وإذا لم تكن لديكم مثل هذه الأغانى ، وإذا كانت الالحان تؤلف بنت الساعة ارتجالا طبقا لذوق ومهارة المنشد ، فكيف تختارون الأغنيات التى تتفق مع المناسبات المختلفة ؟ فأجابوا بأن لديهم كل هذه الأغنيات مدونة مع نوتاتها فى الكتب ، وحيث أن كل واحد منهم يحفظها عن ظهر قلب ، وفى كل المقامات التى يمكنها أن تغنى فيها ، فإنه يكفى أن يشير أحدهم إلى المقام حتى يتذكروا الأغنية (المطلوبة) على الفور ، وقد كان بمقدورنا أن نسترعى انتباههم إلى هذا التناقض القائم بين هذه الاجابة الأخيرة وبين ماقالوه لنا من قبل ، ومع دلك فحيث بدا لنا هذا التناقض ظاهريا أكثر منه واقعيا ، وأنه يعود بصفة خاصة إلى سوء استخدامهم لكلمة مؤلف التى أخذناها فى البداية بالمعنى الدقيق والصارم الذى لها فى موسيقانا ، فقد آثرنا ألا نقحم أنفسنا فى جدل حول الكلمات ، قد يكون طويلا مرهقا ، بالغ التجريد ، قليل الجدوى كما يحدث فى غالبية الأحيان بالنسبة لمثل هده الأمور .

لقد كانت الدقائق بالنسبة لنا ثمينة للغاية ، وقد سارعنا بنفحص كتبهم ووجدنا أنه يوجد فى بدايتها بحث فى نظرية الموسيقى ، وضحت فيه خاصية الاشارات الموسيقية واستخداماتها ، وهذا على وجه الدقة ماكنا نرغب فى معرفته ، وسألناهم مالإن يكن من المستطاع أن نستنسخ الكتاب الذى يبدو أنه أكثر كتبهم شيوعا ، وهو من وضع يونانى شاب كان غائبا ، فدعونا لأن نعود فى الغد ، بشكل جعلونا معه نتعشم فى أن يقبل مالك الكتاب أن يتخلى عنه لنا ، فأخذنا بنصيحتهم وحصلنا بالفعل عليه .

كنا لانزال فى حاجة إلى معلم قدير يقود خطواتنا فى الدراسة التى كنا نزمع القيام بها لهذا البحث الموسيقى ، ومع ذلك فلم يكن بالأمر السهل أن نلقى مثل هدا

الشخص حتى فى اليونان نفسها ، وبالتأكيد ، فلم يكن لمثل هذا المدرس أن يوجد قط فى رشيد ، كما أن كل ماكتبه كيرشر والعلماء الآخرون حول الموسيقى اليونانية الحديثة لم يكن ليلقى لنا ضوء كافيا كيما نستطيع أن نستخلص منه بعض النفع ، ونحن نقلب فى هذا البحث الموسيقى ، ولم يكن نص هذا البحث الذى كان فى حوزتنا ليختلف عن نص أى باباديكه آخر ، فكل هذه الكتب تكاد تتشابه لحد بعيد ، ومن جهة أخرى فقد كانت تختلط فيها جميعا اليونانية الفصحى باليونانية العامية ، إلى جانب كلمات همجية (تعود إلى الشعوب البربرية) ، وهى أمور لا يتسنى تفسيرها إلا بواسطة مدرس متبحر فى فن الغناء اليونانى .

وهكذا انحصرت كل دراستنا خلال الأشهر الثلاثة التى قضيناها فى رشيد ، فى محاولات بسيطة تتلمس الطريق ، لم يكن لها من ثمار سوى أنها جعلتنا نألف بعض الشيء الاشكال المختلفة للعلامات والاشارات الموسيقية ، وهذه كبيرة العدد بالغة التنوع[١]

---

(١) سوف نشرح خاصية هذه النغمة عند التصدى لمبادىء هذه الموسيقى .

المبحث الثالث

عن مدرس الموسيقى اليونانية الذى عثرنا عليه فى القاهرة ، عن أسلوبه فى التدريس ، وعن الاختبار الفريد الذى اضطررنا للرضوخ له حتى يوافق على التدريس لنا ، حول منهاج هذا المدرس ، وكيف توصلنا إلى أن نجنى بعض الثمار منه — تفسير مبدئى لبعض الألفاظ المشكوك فيها ، فى هذه الموسيقى — عرض للنقاط الرئيسية فى هذا الفن ، والتى سيدور حولها الحديث ، فى المباحث التالية

فى النهاية التقينا فى القاهرة بالمدرس الذى كنا نبتغيه ، وكان — هو — المنشد الأول فى الكنيسة البطريركية للروم (اليونانيين)(١) وكان يسمى دوم جبرائيل (جابرييل عندنا) ، وقد رجوناه أن ينفضل متشكورا بإعطائنا دروسا فى الموسيقى اليونانية ، واتفقنا فيما بيننا أنه سيأتى كل يوم كى يعلمنا الغناء ، وكى يفسر لنا مبادىء هذا الفن وقواعده ، وكان عند كلمته معنا ، بل لقد فعل أكثر مما وعدنا به ،

---

(١) كان بطريرك الروم (اليونانيين) ، وقت وجودنا فى مصر ، يتخذ مقرا له فى مصر العتيقة ، حيث توجد للأروام كنيسة تحت رعاية القديس (سان) جورج . وهذا القديس مبجل للغاية ، فى مصر ، من جانب كل المسيحيين ، والأمر الأكثر مدعاة للدهشة ، أنه مبجل من جانب المسلمين أنفسهم ؛ فلهؤلاء ثقة فى فضائل ومعجزات سان جورج ، حتى أنهم يأتون ، فى أحيان كثيرة ، يتوسلون معونته ومساعدته سواء فى أمراضهم أو المحن التى تلم بهم ؛ وهم يسمونه الخضْر ، أى الأخضر ، لأنه قد مُثِّل بهذا اللون . وقد أطلق عليه المسلمون ، بصفة خاصة ، هذا الاسم ، فى كنيسة قريبة منا ، وهم يتوجهون إليه ، إما فى المخاطر التى يتعرضون لها بفعل النيل ، أى بفعل تياراته العاتية التى تصطدم بالشواطىء العالية للغاية ناحيتنا ، بعد هبوطها من جبل الطير ، لتشكل منحنيات بالغة العنف ؛ وفى كل مرة يرى البحارة (المراكبية) أنفسهم فى خطر ، يصيحون : نحن فى حماك ياخضر الأخضر ، أى أنت يامن هو أكثر خضرة بين الخُضْر ؛ وبعد ذلك يجمعون التبرعات فيما بينهم ، باسم ولى الله ، وتستخدم هذه التبرعات فى شراء شموع يختصون بها سان جورج ، ويوقدونها فوق مذبحه .

فقد أحضر لنا بحثا عن الغناء أخبرنا أنه أفضل من ذلك البحث (أو تلك المخطوطة) الذى حصلنا عليه من قبل ، والحقيقة أنه كان به أغنيات مدونة مع نوتاتها أكثر عددا من تلك التى توجد فى مخطوطتنا ، وإن تكن أقل توسعا فيما يختص بالمبادىء ، مع أن هذا هو الأمر الأكثر أهمية بالنسبة لنا والأشد ضرورة ، إذ كنا قد حصلنا من قبل على الديكه ميجاس ، التى كانت تضم من الأغنيات المختلفة التى دونت نوتتها ، أكثر مما يوجد فى الكتاب الذى قدمه لنا دوم جبرائيل ، ومع ذلك فلم نظن أنه يجمل بنا أن نرفضه ، مهما بدا لنا مكلفا بعض الشىء .

كان الدرس الأول بالنسبة لنا نوعا من الاختبار سنظل نذكره لوقت طويل ، كان دوم جبرائيل مسنا ، وكان لصوته الرفيع الواهن والمرتجف ، نغمة مشروخة ، وكان بخلاف ذلك يغنى من أنفه بشكل متكلف ، يتصنع قدرا من الأهمية ، وكنا نعانى كل عناء العالم حتى نحتفظ بأعصابنا باردة ، وفى الوقت نفسه فقد كنا نجاهد أنفسنا حتى نظل داخل الحدود التى تقتضيها اللياقة والذوق ، ومع ذلك فحين كان يشدد علينا أن نقوم بدورنا بتقليده ، فلم نكن نعود بقادرين على أن نكظم غيظنا لأكثر من ذلك ؛ وإذا نظرنا إلى اقتراح كهذا باعتباره مزحة من جانبه ، فقد أخذنا نتندر عليه ، وكنا قد لاحظنا من قبل أن هؤلاء الذين يغنون فى مصر ، يغنون بشكل يفوق المألوف ، لكننا كنا أبعد من أن نعتقد أن الأمر يتم بدافع من المزاج وأنهم يجدون ، فى مصر فى طلب هذه الكلفة ، بعناية تماثل ما نبذله نحن ، فى أوربا من حرص كى نتجنبها ، وقد أقنعنا المظهر الوقور ، واللهجة الجادة لدوم جبرائيل ، وهو يتشدد علينا أن نغنى على طريقته فى النهاية ، أن لا مفر بالنسبة لنا إلا أن نطيعه أو أن نعدل نهائيا عن تعلم الموسيقى اليونانية الحديثة .

لكن الرغبة المتأججة التى كانت لدينا لمعرفة هذه الموسيقى ، أتاحت له أن يشدد علينا أن نغنى – برغم نفورنا من ذلك ، واستجبنا فى النهاية وعلى الرغم منا ، فكانت كل نغمة تؤدى تصحب معها عاصفة من الضحك المجنون ، كان يستحيل علينا أن نتجنبها أو أن نخفف منها ، وكلما زادت دهشة معلمنا من سلوكنا كلما كنا نجد أنفسنا مدفوعين إلى مزيد من الضحك ، وعبثا كنا نحاول أن نفسر له أننا نضحك سخرية من فشلنا الباعث على الضحك ، إذ يبدو أن محاولتنا لمنع أنفسنا من

الضحك ، تلك التى كانت تحد من انطلاقنا على سجيتنا حين كنا نضحك ، على الرغم منا مع الآخرين ، هى على وجه الدقة ، ماكان يوضح أكثر من غيره ، أننا نضحك منه وليس من أنفسنا .

كان غضب دوم جبرائيل منا يوشك أن يصبح صريحا . فكانت سحنته تربد وتظهر الكآبة والغم فى عينه ، وكنا ننظر إليه مشفقين متألمين ، فقد كان هو آخر شخص فى العالم نود أن نسبب له مثل هذا الضيق ، وكان هو أيضا يدرك ، لاجدال فى ذلك ، من التوقير الذى كنا نبديه نحوه ، أنه ليست لدينا أية نية لتعكير صفوه ، بله لإهانته قط ، لكن هذا — على وجه التجديد — هو ما ألقى به فى حيرة تماثل حيرتنا ، برغم أنها تمضى فى اتجاه مخالف تماما ، ولو كانت دروسنا قد استمرت على هذا النحو ، لما أحرزنا تقدما كبيرا فيها ، ومع ذلك فسواء لأن مدرسنا قد أصبح أكثر تساهلا أو لأننا — من جانبنا — قد بتنا أكثر وداعة وطاعة ، فقد مضى كل شىء ، بعد ذلك ، بقدر أقل من التشدد من جانبه ، وبقدر أكبر من الهدوء من جانبنا .

لم يكن من عادة دوم جبرائيل أن يبدأ بتدريس المبادىء ، وحيث كنا قد عرفنا بالفعل نوتات الموسيقى اليونانية ، فقد طلب إلينا فى البداية أن نغنى ، قائلا إنه سيدرس النظرية لنا عندما نصبح أكثر مهارة ، وقد تكون لهذه الطريقة ميزتها ، ومع ذلك فلم يكن بمقدورنا أن نتنبأ كم من الوقت ينبغى علينا أن نعطيه لهذه الدراسة ، وكم كنا سنسعد لو أن النظرية والتطبيق قد سارا معا جنبا إلى جنب ، لذلك فقد كنا نوقف معلمنا فى كل لحظة راجين إياه أن يفسر لنا كل ما كان يبدو أننا لا نعرفه ، وكنا ندون النوته أو كنا نجعله يدونها بنفسه بالاشارات اليونانية ، ثم نترجمها أمامه على الفور إلى الاشارات الأوربية ، مع الحرص من جانبنا على أن نضيف فوقها التفسير الذى تلقيناه عنها ، وفى يوم آخر ، فى مناسبة أخرى ، كنا نطلب من جديد إيضاحات حول الشىء نفسه ، وكنا فى غيبته نقارن هذه الايضاحات مع تلك التى حصلنا عليها فى شرح سابق ، ثم نتقدم إليه مرة أخرى بملاحظاتنا إذا كانت لدينا مثل هذه الملاحظات ، وبهذه الطريقة ، لم ندع شكا ولو كان واهنا يلقى بظله على شىء عرفناه .

شىء واحد لم نستطع أن يعرفه ، وقد فسره لنا معلمنا بطريقة غامضة ينقصها الوضوح ، ذلك هو خصوصيات الاشارات الكبيرة واستخداماتها ، وهى فى الوقت

نفسه إشارات موسيقية ، فهو لم يستطع قط أن يقدم تفسيرا لها إلا عن طريق أمثلة مغناة ، ولم يدهشنا الأمر كثيرا فقد سبق لنا أن سببنا مثل هذه الحيرة للأحباش والأرمن ، حين طلبنا إلى هؤلاء وإلى أولئك تفسيرا لبعض الاشارات التى لا تستطيع سوى الممارسة والاستعمال وحدهما أن يعرفا بها ، ولعلنا نحن أنفسنا سنكون فى نفس حيرتهم لو أن بعض أبناء أفريقيا أو آسيا المقيمين فى مصر ، قد جاءوا يطلبون إلينا أن نشرح لهم ما تعنيه trille (زغردة أى تكرار لحنين بسرعة) والـ martellement (طرق أو توقيع) أو أية إشارات أخرى ليس لها قط اسم خاص يطلق عليها فى اللغات الأجنبية عنا ، وهى (أى هذه الاشارات) التى نستخدمها سواء فى الموسيقى الصوتية أو الموسيقى الآلية ، فحيث أن مثل هذه الاشارة غير قابلة للتحليل بطبيعتها فقلما يمكن تفسيرها إلا عن طريق ضرب الأمثلة ، وهذه الأمثلة بدورها لا يمكن فهمها إلا إذا قدمها موسيقيون محترفون . وعودا إلى الاشارات الموسيقية الكبيرة عند اليونانيين المحدثين ، فقد أكد الكثيرون من علماء هذه الأمة ، أن قلة ضئيلة اليوم هم الذين يعرفونها ، ولذلك فلم يكن مما يدعو لدهشتنا الشديدة أن نرى معلمنا جاهلا بخصوصياتها ، أما الشيء المؤكد فهو أنه لم يُذكر بخصوصها شيء له أهميته فى البباديكات ، إلا فيما ندر ، ونعرف من هذه الكتب أن هذه العلامات إنما هى إشارات صامتة لا تصدر نغما ما aphones وأنها تنتمى إلى الشيرونوميا cheironomie ، ولسنا نعرف ما إن كنا هنا على صواب ، لكننا نظن أنها تشير إلى فترات راحة أو توقف أو إبطاء فى حركة الايقاع أو فى الايقاعات الختامية ، وقد أسميت بالصامتة لأنها فى الواقع لا تشير إلى نغمة من أى نوع ، وفى واقع الأمر ، فلو أنها كانت تشير إلى نغمة ما ، أو رنة ما ، فما كانت لتوضع ، كما هو حادث ، فوق أو تحت نوتات الغناء ، وإلا لأدى الأمر إلى ثنائية فى الاستخدام ، ولن تصبح ، بعد ، أثر هذه الاشارات ، هو نفسه (قبل وضعها) . ذلك أن علينا أن نلاحظ أن هناك ، من بين هذه الاشارات ، ما يوضع كذلك فوق الاشارات الدالة على النغمات الصاعدة ، وفوق مثيلاتها الدالة على النغمات النازلة ، وهناك من بينها ، إشارات أخرى توضع فى بعض الأحيان تحت الاشارات الدالة على صعود ، وفى أحيان غيرها

تحت تلك الدالة على هبوط ، والأمر المؤكد ، فى كل الأحوال ، أن هذه وتلك من النغمات ، تحتفظ على الدوام بخاصياتها المميزة ، كما سنرى عما قليل ، عن طريق الأمثلة التى سنقدمها عنها .

وحين نقول إن الاشارات الكبيرة لا تنتمى إلا إلى الشيرونوميا فإن الأمر يعنى فيما يبدو لنا أنها تشير إلى حركة الوزن أو التوقيع التى تتحدد عادة بواسطة اليد ، ذلك أن اليونانيين لم يقدموا قط تعريفا بالغ الوضوح لكلمة شيرونوميا ، بل إنه لا يوجد هناك موضع قط للحديث عن الإشارات الكبيرة ، فى كل بحوث الموسيقى اليونانية .

وكل ما نستطيع افتراضه من المعنى الاشتقاقى لكلمة شيرونوميا هو أنها تعنى **قانون أو قاعدة اليد ، التى تعطيها أو تحددها اليد ، أو يشار إليها عن طريقها ،** وبالتالى فهى تعنى حرفيا الوزن أو الايقاع الذى ينظم الغناء على النحو الذى تحدده اليد ، ولعل فى هذا يكمن المعنى لما نقرؤه فى بداية إحدى الدراسات عن الموسيقى اليونانية الحديثة التى فى حوزتنا ، حيث قيل إن الشيرونوميا تشير إلى الميلوس melos وهذه الكلمة الأخيرة لا ينبغى فى رأينا أن تؤخذ بمعنى الميلودى ، وإنما بمعنى عضو أو جزء أو قسم من الايقاع أو الوزن ، وعن طريق هذا التفسير وحده أمكننا أن نجد معنى مقبولا لنص آخر فى أحد البحوث الموسيقية التى معنا ، حيث نقرأ أن الشير cheir (وهى اليد) إنما هى أيسون Ison[1] الكتف ، وهو معنى يكتنفه ، فى لغتنا غموض شديد ، وهو كذلك مالا يمكننا أن نفسره بثقة تامة ، فنحن نعرف أن الأيسون هو اسم الاشارة الدال على رنة الصوت ، الذى يظل دوما فى الدرجة نفسها ، دون صعود أو هبوط ، وأن هذه الرنة هى منظمة الغناء وهى الوسيلة المستخدمة ، حتى لا يستطيع المغنى أن يحيد عن المقام (أو الطبقة) ، صعودا أو هبوطا أو لكى تسهل له سبيل العودة إليه إذا ما كان قد خرج عنه ، وبمعنى آخر فإننا هنا بإزاء

(١) تتوه هذه الكلمة ، فى بعض الأحيان ، فى معنى كلمة منظم أو ضابط ، فى اللغة الفنية للموسيقى اليونانية الحديثة ، فقد اعتاد اليونانيون الاحتفاظ بنغمة القرار طيلة مدة غنائهم ، ولهذا السبب يسمى هذا النغم بالأيسون Ison وهى كلمة يونانية تعنى متساوى ، أى الذى لا يعلو ولا يهبط .

تلميح إلى خاصية الأيسون هذه حين يقال : **إن اليد هى أيسون الكتف** ، ولهذا فمن المرجح أنه قد أريد أن يفهم من ذلك ، أنه ، كما أن الأيسون هو منظم أو ضابط الغناء ، فإن اليد هى أيضا ضابطة أو منظمة الحركة ، التى تمثل طبقا لكل الشواهد ، ولسنا نعرف لماذا ، بالكتف ؛ مالم يكن فى هذه الكلمة تلميح إلى الحركات المكرورة أو المعتادة ، وإلى هذا النوع من الحركات الصامته (البانتوميم) التى تؤدى بشكل إيقاعى أثناء الغناء ، ولعلها هى التى يشار إليها بهذه العلامات[1] ، ومع ذلك فلا ينبغى الاعتقاد بأن قاعدة أو قانون اليد أو الشيرونوميا ، وبالتالى ، الاشارات الكبيرة المتعلقة بها ، لا تخص إلا حركات وسجدات وعلامات الصليب التى يكثر اليونانيون من القيام بها فى كنائسهم أثناء القداس ، أو التى تكون على نحو ما غريبة على الغناء (أى خارجة عنه) ، فلو كان ذلك صحيحا ، لما كان هناك أى داع لتدوينها مع إشارات أو نوتات الغناء ، وما يدعم بعض الشىء ما نلاحظه نحن هنا ، أنه ، فى نفس الدراسة التى قيل فيها إن اليد هى أيسون الكتف لم تُقدم علة لذلك سوى أن اليد هى التى تقود الغناء نحو غايته ، وعلى هذا فإن هذه الاشارات تنتمى إلى الغناء ، فى الوقت الذى تنتمى فيه إلى الشيرونوميا ، أى إلى القاعدة التي تبينها أو تحددها اليد ، أى إلى الايقاع ، ولسنا بقادرين أن نحدس معنى آخر أكثر رجحانا ، يمكننا أن نعطيه لهذه الكلمات .

وفى كلمة فحيث قد أعفى معلمنا نفسه من أن يقدم لنا إيضاح حول هذه النقطة ، وحيث لا تقدم لنا البحوث الموسيقية المزيد من الايضاح عنها ، فلسنا نستطيع سوى أن نطرح رأينا قائلين قولة هوراس : « إن كنت تعرف شيئا أصح من هاتيك الأمور فأفصح عنه دون تردد » .

وسنجد التعريف بكل ما يمكن أن نعلمه اليوم عن الموسيقى اليونانية الحديثة ، وربما بكل ما سيعرف عنها منذ الآن ، فهناك محل للاعتقاد بأن استخدامها

---

(١) كذلك فقد ظن كل من كيرشر ومارتينى أن علامات الشيرونوميا هذه ، تختص بالحركات المتتالية التى يقوم بها الأروام فى كنائسهم أثناء القداس .

يتلاشى بشكل تدريجى غير محسوس ، وليس من السهل تعميقها فى الوقت الحالى بأكثر مما فعلنا .

وكم سيكون أمرا مشرفا بالنسبة لنا أن نكون قد اكتشفنا ، بعد أن سرنا على هدى كثير من العلماء المرموقين ، ما كان قد خفى لسنوات طوال عن بحوثهم .

وسوف نبدأ بتقديم عرض لنظرية وممارسة الفن طبقا للدراسات التى حملناها معنا من مصر ، وسوف نلحق بها الإيضاحات والملاحظات التى سمحت لنا التجربة بالقيام بها ، وذلك لتيسير فهمها ، وسوف نقدم فى الوقت نفسه أمثلة مدونة بالنوتة اليونانية ، ثم مترجمة إلى نوتاتنا الأوربية للتعريف باستخدام إشارات الغناء ، وإشارات الراحة أو التوقف ، وكذا الاشارات الكبيرة المسماه بالصامتة ، وسوف نقدم بعد ذلك كله المقامات الثمانية مع جذورها ، أى جذور التحولات والتغيرات فى هذه المقامات نفسها ، باليونانية أولا ثم بنوتات أوربية بعد ذلك ، وننتهى بأمثلة من أغنيات تنتمى إلى كل واحد من هذه المقامات ، ومدونة كذلك بالطريقتين السابقتين التى كانت تشكل الأغانى فيها جزءا من الدروس التى تلقيناها من دوم جبرائيل فى القاهرة ، ثم أخيرا نماذج لأغنيات من اليونانية الدارجة .

المبحث الرابع

شرح إشارات الغناء فى الموسيقى اليونانية الحديثة مستخلصة ومترجمة حرفيا من بحوث حول ، نظرية هذه الموسيقى ، تضمها كتب البابادبكة ، أو كتب غناء الرهبان الروم

ΑΡΧΗ ΣΤΝ ΘΕΩ ΑΓΙΩ

أرخى سْتِن ثيا أجيو [بداية لمشهد القديس]

حول إشارات فن الغناء ، حول الأرواح والأجسام[١] ، الصاعدة والهابطة ، لكل الشيرونوميا ، مظمة طبقا للقواعد التى وضعها الشعراء[٢] على مدى الأزمان سواء فى العصور القديمة أو الحديثة .

الأيسون هى بداية ووسط ونهاية ونظام
كل إشارات الغناء[٣] ....
ولا يقتاد الصوت إلا عن طريقهما وتسمى
aphone أى بدون رنين ، ليس
لأنها لا تحدث رنينا ، فهى ترن ، وإنما

---

(١) على هذا النحو ، نفرق بين إشارات الغناء والاشارات الموسيقية ، إذ نسمى الأوليات أرواح ، ونطلق على الأخريات اسم الأجسام ؛ وسنشرح ذلك فيما بعد .

(٢) ينبغى أن تؤخذ كلمة شاعر ، على قدر ما استطعنا أن ندركه فى ثنايا هذه الدراسة ، بدلالتها أو معناها الاشتقاقى ؛ أى بمعنى واضع ، ناظم ، مؤلف ؛ وحيث يتعلق الأمر هنا بالموسيقى ، فإنها تعنى ، هنا ، واضع أو مؤلف الموسيقى اليونانية .

(٣) ألحقنا هنا إشارة الأيسون إلى جانب اسمها ؛ وسنفعل الشيء نفسه مع كل الاشارات الأخرى ، كلما سنحت الفرصة ، حتى يتعود القارىء أن يتعرف عليها ، بقدر أكبر من السهولة .

لأنـــه لا يتم تغـــيير طبـــقتها[1] وهكـــذا
فإن الأيسون يُغنَّـــــــى فى توازن تام مع
الصوت البشرى .
أوليجون ....
وتـــوضع فوق كل الدرجـــات المتصاعـــدة[2]
أبو ستروف ....
وتـــوضع فوق كل الدرجـــات الهابطـــة[3]
وتوجد فى الموسيقى (السلـم) أربـع عشرة
درجـــة[4] ، ثمان منها صاعـــدات وهـــن :
أوليجون ....
أوكسيبا[5] ....
بيتاسثة ....

---

(١) الأيسون ، كما سبق أن شرحنا ، هو تثبيت للصوت البشرى يعطيه دواما أو استمرار ، فهو نغمة موازية لصوت المغنى أو المسند تظل دوما على الدرجة نفسها ، دون علو أو انخفاض قط . ونقرأ فى دراسة أخرى : « وليس للأيسون قط صوت (بشرى) ، ولكنه يوضع تحت كل الاشارات ، ليدعم هذه الاشارات فى كل موضع يقابله فيه ، سواء وجدناه أسفل نغمة حاده (جهود) ، أو تحت نغمة غليظة (خفيضة) .

(٢) نجد فى النص عبارة أنافيسوس ومعناها إشارة صعود .

(٣) نجد فى النص عبارة كاتا فيسوس ومعناها إشارة نزول .

(٤) لعل الأمر كان يقتضى ، عند ترجمة النص اليونانى ترجمة حرفية ، أن نقول ثمانيه أصوات voix ، ولكننا أحللنا كلمة نغمة أو رنة son مكانها ، فهى اللفظ الأدق والذى ينبغى استخدامه فى حالة مماثلة . وفى دراسة أخرى أحصيت خمس عشرة نغمة ، إذ يشتمل هذا العدد على الأيسون ، الذى لم يُحْص هنا ضمن عدد الإشارات الموسيقية ، أى إشارات النغمات التى يمكنها أن تحدث نغما .

(٥) فى الدراسه الأخرى التى فى حوزتنا ، توصف الإشارات الثلاث : أوليجون ، أوكسيا ، بيتاسته بالايسوفون Isophone أى التى لها نفس المساحة الصوتية ، لأن كلا منها ، فى الواقع ، تشير إلى فاصلة مقدارها تون .

كوفيسما ....

بيلاستون ....

علامتا كنتيما (١) ....

كنتيما واحدة ....

هيبسيلة(٢) ....

وتوجد ست هابطات ، هن :

أبو ستروف ....

علامتا أبو ستروف ....

كراتيما هيبورهونى ....

إيلافرون ....

كاميله ....

ومن بين النغمات الصاعدة والنغمات الهابطة ، توجد النغمات الأجسام ، والنغمات الأرواح .

ويبلغ عدد الأجسام الصاعدة ستا ، هى :

أوليجون ....

أوكسيبا ....

بيستاشه ....

كوفيسما ....

بيلاستون ....

---

(١) يلفظها اليونانيون المحدثون كنديما kendima ، لأنهم يلفظون حرف التو τ كما نلفظ حرف الدال d ، ويعطون لحرف الايتا n نغمة الـ i عندنا .

(٢) وجدنا هذه الكلمة مكتوبة (فى دراسة أخرى) على هذا النحو : بسيله Psile .

للنغمات الصاعدة :

كنتيما (واحدة) 
هيبسيلة

وللنغمات الهابطة :

إيلافرون
كاميلة 4

ولكل هذه النغمات إشاراتها الخاصة(١) وهى كما يلى :

أوليجون	—	ويرتفع بمقدار درجة واحدة(٢)
أوكسييا		ويرتفع بمقدار درجة واحدة
كوفيسما		وترتفع بمقدار درجة واحدة
بيتاستة		وترتفع بمقدار درجة واحدة

(١) قد تكون الترجمة الحرفية الصارمة لهذه العبارة هى : « ولكل هذه الاشارات كذلك أصواتها كما ترى » ، لكنها على هذا النحو ، قد لا تكون واضحة المدلول عند الموسيقيين الأوربيين ، لذلك فقد أحللنا عبارة أخرى محل هذه العبارة ، جعلت معنى النص أكثر تطابقا مع تعبيراتنا الموسيقية ؛ وهو أمر لا يستطيع أن يستبيحه لنفسه شخص لم يكتسب ، عن طريق التجربة ، معرفة دقيقة بالأمور .

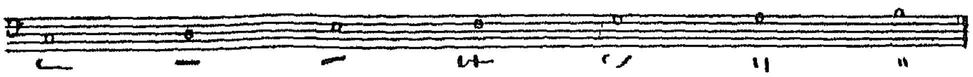
(٢) استخدم فى النص كلمة « إيخى فونى ميان » أى هناك صوت واحد ؛ ومع ذلك فينبغى لنا أن نلاحظ :

أولا : أن اليونانيين يطلقون كلمة صوت voix على عملية الانتقال من نغمة لأخرى لا تبعد عنها إلا بدرجة واحدة .

ثانيا : أن الأمر هنا يتصل بإشارات الصعود ؛ وهكذا استبحنا لأنفسنا أن نحل عبارة **تعلو بمقدار درجة** محل العبارة الواردة بالنص وهى : **إن لها صوتا** ... حتى نتفادى الاضطراب وخلط الأفكار اللذين يمكن أن يتسبب فيهما النص اليونانى عند نقله إلى الفرنسية (على حالة تلك) ؛ ولعل التجربة التى اكتسبناها عن هذه الموسيقى أن تكون كافية لحد يسوغ لنا تقديم هذا الإيضاح ؛ ونحن من جانبنا نقدم هذا التبرير ، إرضاء لهؤلاء الذين قد لا يعجبهم آراؤنا .

بيلاسثـــون وترتفع بمقدار درجة واحدة
علامتا كنتيما وترتفعان بمقدار درجة واحدة

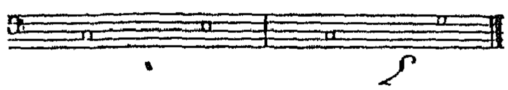
مثال تطبيقى(١)



علامتا كنتيما بيلاسثون بيتاسثه كوفيسما اوكسيا اوليجون أيسون

كنتيمـا واحـدة وترتفـع بمقـدار درجـــتين
هيبسيلـــــه(٢) وترتفع بمقدار أربع درجات

مثال



هيبسيله كنتيما

أبـــو ستــــروف وتهبط بمقدار درجة واحدة
علامتا أبو سترف وتهبطان بمقدار درجة واحدة
أبـــو رهــــوى وتهبـط بمقـدار درجـــتين
كراتيما هيبورهون وتهبـط بمقـدار درجـــتين

---

(١) سوف نقع فى الخطأ لو اعتقدنا أن هذه الاشارات تمثل ، فى واقع الأمر ، الدرجات التى جعلنا منها مقابلة لها ؛ فهى لا تشير إلا إلى فاصلة بين درجة وأخرى تعقبها مباشرة ، دون اعتبار لارتفاعها أو انخفاضها ؛ وبصفة عامة ، فنحن نستعيد إلى الأذهان ، أن الاشارات الموسيقية عند اليونانيين المحدثين ، لا تحدد سوى فاصلات أنغام ، وليس درجات أو نغمات بسيطة .

(٢) ينبغى أن نتذكر على الدوام أن الاشارات الموسيقية اليونانية لا تشير إلا إلى فاصلات ، بحيث أن أربع درجات ، هى هنا ، تعنى أربع فاصلات أو خماسية واحدة ، بمثل ما تحدد إشارتى الكنتيما كذلك فاصلتين أو فاصلا ثلاثيا .

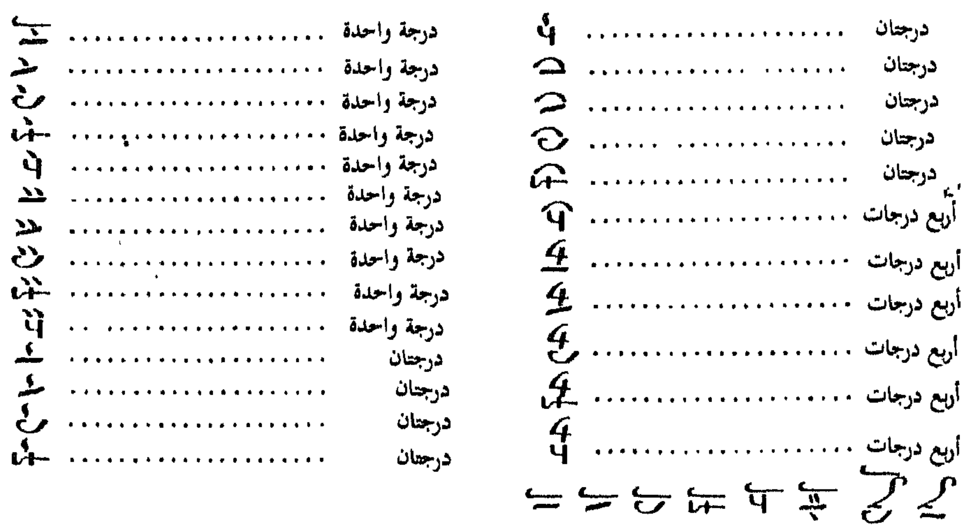
إيلافـــــــرون ⌒ وتهبط بمقدار درجـــتين

كاميلـــــــة (١) 4 وتهبط بمقدار أربع درجات

مثال



ولابد أن تلاحظ أن الأجسام الصاعدة توضع فيما تحت الهابطة ومفتاحها هو الأيسون (٢) كما ترى :



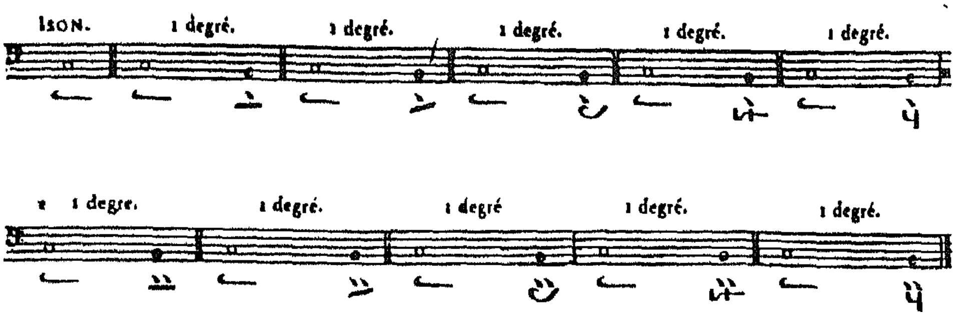
---

(١) لسنا نقدم هذه الأمثلة إلا للتعريف بالمدة النغمية الخاصة بالاشارات المستخدمة ، كما ينبغى أن يكون عليه الأمر عند الممارسة ؛ ذلك أن الأرواح : كنتيما ، هيبسيله ، الإفرون ، كاميله لا توجد قط تحت الأجسام ، وهى الاشارات الأخرى المستخدمة للنغمات ، وقد قيل فى دراسة أخرى : « إن الأرواح لا تبقى قط دون وجود المقامات الأخرى ؛ ومع ذلك فإنها تتمم الأصوات (أى الفواصل) » ، ذلك أن الكاميلة لا يمكنها أن تبقى أو أن تقوم بمفردها ، كما لا يمكنها أن تتكون بدون الأبوستروف ؛ وبالمثل فإننا لا نجد الهيبسيله قط دون أى من الأوليجون أو الأوكسيبا أو البيتاسته ؛ كذلك فإننا لا نجد قط ، كذلك ، الايلافرون دون الأبوستروف ، أو قل إننا ننظر إلى ذلك باعتباره خطأ ؛ وأخيرا فإن الكنتيما لا تقدم قط دون الانغام الأخرى (أى دون الأجسام) ؛ ولهذا السبب فعلينا أن نفترض أجساما للأرواح الموجودة فى هذه الأمثلة ، حتى تصبح مدونة طبقا لقواعد الممارسة .

(٢) الجزء الأول من هذه العبارة خاص بطريقة التدوين ، أما الجزء الأخير فيعنى أن كل =

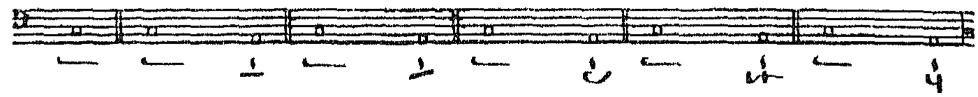
وهذه النغمات الأخيرة لا رنين لها (أى لا تغنى قط)[١]

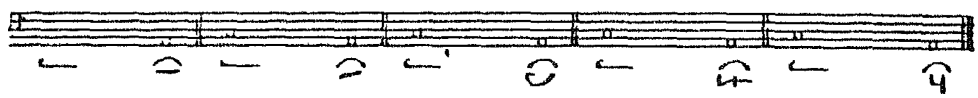
مثال

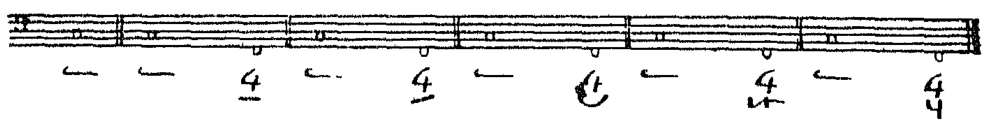


= الفاصلات تتركب (أو تتكون) بدءا بالأيسون ؛ ومع ذلك ، وكمبدأ عام ، فحيث أن الأرواح تسبق الأجسام ، أو تعلو عليها ، فإن إشارات الصعود التى هنا ، من نوع تلك المسماة بالأجسام ، تصبح صامته ، أما اشارات الهبوط ، التى هى من نوع الاشارات المسماة بالأرواح ، فهى التى تحدث أثرها ؛ وفى الوقت نفسه فإننا نستثنى من ذلك إشارة الأبورهوى ، التى تتمتع ، حيث ليست هى بالروح ولا بالجسم ، بمميزات الأرواح ، فى الوقت الذى لا تخضع فيه قط للإشارات الأخرى ، كما يحدث بالنسبة للأجسام .

(١) أفونيا أى لا صوت (أو لا نغم) لها ؛ من العسير أن يدرك المرء ، من تلقاء نفسه ، ما تعنيه ملاحظة المؤلف فى هذا الموضع ؛ كما لا نستطيع أن نحدس لما تكون اشارات الغناء ، هذه التى تشير إلى أكبر الفاصلات ، إشارات صامته لا تغنى ؛ وقد علمتنا التجربة ، ودروس دوم جبرائيل ، أن السبب فى ذلك هو وجود علامة الأيسون فوقها ؛ ومع ذلك فلا يحدث أن تدون ، على التعاقب ، إشارات غناء عديدة تختلف مع الأيسون ، على نحو ما نرى هنا ، فقط نكرر هذه أو تلك ، عندما يعلو الغناء إلى الفاصلة التى تحددها ، أما حين يبقى فى الدرجة نفسها فإننا نضع الأيسون ، فى هذه الحالة ، فوق الإشارة المكررة ؛ وبخلاف ذلك فإن هذه الإشارة قد تحتفظ بكل قيمتها ، وقد تشير إلى أنه ينبغى الصعود لأكثر من ذلك . ولعل كلمتين كانتا كافيتين لتفسير ذلك ، بدلا من أن يصبح المثال الذى ساقه المؤلف ، وكذا ملاحظته ، لغزين . ومع ذلك ، فسوف تنقشع الشكوك إذا ما قلنا فى هذه المرة ما ينطبق على كل الحالات ، وهو أن الأيسون يدل ، دوما ، على أن الصوت ينبغى أن يبقى عند الدرجة نفسها ، سواء إذا رفعناه أو إذا خفضناه .







كذلك تلحق الروحان الصاعدان :

كننيما (واحدة) ،

هيبسيله

بالأجسام الصاعدة :

أولبحون

أوكسيبيا

بيتاسته

كوفيسما

ببلاسثون

وتوضع أحيانا إلى جانب ، وأحيانا أخرى فوق ، وتالتة تحت كما نرى[1].

---

(١) أهملت كل الدراسات والبحوث الموسيقية تقديم ملاحظة فى هذا الموضع ، لن نعود بدونها ندرك شيئا ، لا فى المبادىء ، ولا فى البراهين ، ولا فى الأمثلة التى قد يكون من شأنها أن تعرّف بتطبيقاتها ، وهى أن كل اشارة من نوع تلك المسماه بالأجسام ، سواء الصاعدة أو الهابطة ، تصبح عدما ، حين تأتى على يمينها واحده من الأرواح الأربع : كنتيما ، هيبسيله ، إيلافرون ، كاميله . أى أنه لا يُغَنَّى سوى الروح .

درجتان ....

درجتان ....

درجتان ....

أربع درجات ....

أربع درجات ....

أربع درجات ....

أربع درجات ....
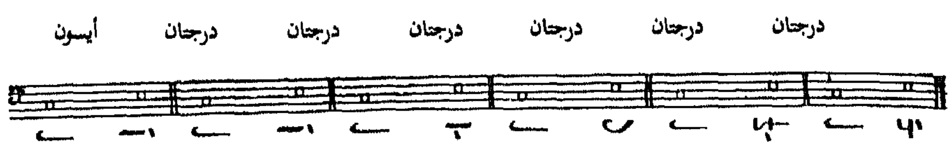
أربع درجات ....

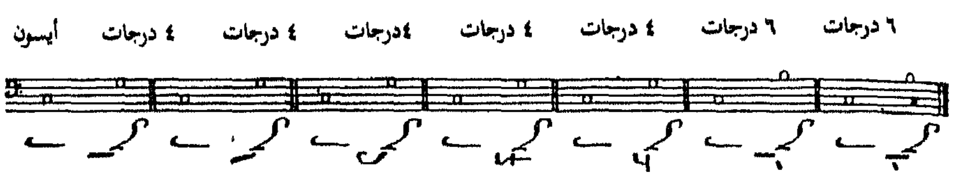
ست درجات .... درجتان ....

درجتان ....

ست درجات .... درجتان ....

مثال(١)





وعلى غرار ذلك ، فإننا نلحق الروحين الهابطين :

إيلافرون

كاميله

---

(١) فى هذا المثال ، كما فى كل الأمثلة ، اضطررنا لتكرار الأيسون عند كل فاصلة ، وبدون ذلك لن يكون بالامكان التعريف بمساحتها ؛ ولهذا السبب قال المؤلف إن الأيسون هى بداية ووسط وختام الغناء ، وإنه بدونها لا يمكن توجيه أو ضبط الغناء .

بأجسامهما :

أبو سنروف

علامتى الأبوستروف المتجاورتين

ودلك فى حالة واحدة ، وهى أن نضع هذه العلامات ، أمام الاشارات الموسيقية ، على هذا النحو :

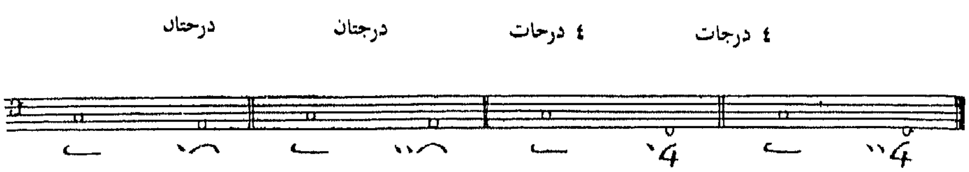
درحتان ‎`⌒

درجنان ‎``⌒

أربع درجات ‎`4

أربع درجات ‎``4

مثال



وإن كانت الكراتيما هيبورهون

نلحق بالأومالون

وتشكلان معا الأرجو سنثيتون

أما الأبورهوى

فيلحق بالبياسما

ويشكلان معا السَّيْما

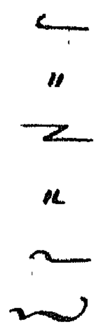
ويعلو كل ميلودى فن الغناء وينخفض ، عن طريق هذه العلامات ، وتوجد فى الموسيقى ثلاث أنصاف وقفات كبيرة هى :

الكراتيما

الدبليه

وعلامتا الأبوستروف المتجاورتان[١]
ولكن ليست للزاكيسما
سوى نصف وقفة عادية

وتسمى العلامات أو الاشارات الكبيرة بالبكماء أو الاقنومات (أقنوم) الكبيرة ، وهذه ترتبط بالشيرونوميا وحدها ، وليس بالصوت (صوت المغنى)[٢] وهذه هى :



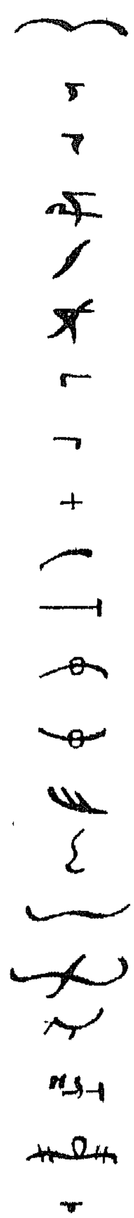
أيسون[٣]
دبليه
باراكليتيكيه
كراتيما
ليجيسما
كيليسما

---

(١) نلاحظ هنا خاصية مزدوجة لعلامتى الأبوستروف المتجاورتين :
١ – خاصية تدل على فاصلة هابطة بمقدار درجة .
٢ – خاصية أخرى تدل على نصف وقفة كبيرة .

(٢) ونقرأ كذلك فى مؤلف آخر : « **أما بخصوص العلامات الكبيرة التى ليست لها نغمة قط ، فإننا نطلق عليها غير المترددة أو الدمجات الكبيرة** ، وهى آثار للايقاع وليست آثارا للغناء ، إذ ليس لها قط من رنين » . ولا يلزمنا أكثر من ذلك حتى نطابق التفسير الذى قدمناه عن كلمة شيرونوميا وما قلناه بمناسبة هذا التعبير : **إن اليد هى أيسون الكتف** ؛ ذلك أنه يصبح من الواضح أن الشيرونوميا هى الايقاع أو الوزن ذاته ، كما استنتجنا منذ البداية ، طالما قد أخبرونا أن الاشارات الكبيرة يقتصر ارتباطها على الشيرونوميا من جهة ، كما أنهم قد استرعوا انتباهنا ، من جهة أخرى ، إلى أن هذه الاشارات إنما هى آثار للإيقاع (وليست آثارا للغناء) .

(٣) لا ينبغى أن توجد هنا هذه الاشارة ، وإشارات أخرى تضمها هذه القائمة ، إذ كان من الواجب أن تشكل هذه طبقة قائمة بذاتها ، مادامت ، هى ، ليست لها طبيعة الاشارات الكبيرة



أنتيكيون – كيليسما
ترو ميكون
إكستريبتون
ترو ميكون سينجاما
بسيفستون
بسيفستون سيناجما
جورجون
أرجون
ستاوروس [١]
أنتيكينوما
أومالون
ثيماتيسموس إسو [٢]
هيتيروس أكسو
إيبيجرما
باراكالسيما
هيترون بارا كاليسما
بسيفستون بارا كاليسما
كسيرون كلاسما
أرجو – سينثيتون [٣]
أورانيسما [٤]
أبودرما

---

(١) هذه الكلمة يلفظها اليونانيون المحدثون ستافروس .
(٢) يلفظ اليونانيون المحدثون هذه الكلمة سماتيسموس إيزو .
(٣) يلفظ اليونانيون المحدثون هذه الكلمة أرجو سينسيتون .
(٤) هذه اليونانيون المحدثون هذه الكلمة أوفرانيسما .



ثيس أبوثيس
ثيما هبلون
شوريوما (١)
زاكيسما
بياسما
سيسما
سيناجما
إينار كسيس
باريثيا (٢)
هيميفونون
هيميفثورون
جورجو سينثيتون (٣)

(١) يلفظ اليونانيون المحدثون هذه الكلمة خوريفينا .
(٢) يلفظ اليونانيون المحدثون هذه الكلمة فاريا .
(٣) يلفظ اليونانيون المحدثون هذه الكلمة جورجوسينسيتون .

وبصفة عامة فإنهم يلفظون حرف B مثلما نلفظ نحن حرف الـ V ؛ ويلفظون حرف مثلما نلفظ حرف الـ i ، وحرف الـ  يماثل عندنا حرف الـ s ، ويماثل حرف v حرف الـ y وأحيانا حرف الـ u وأحيانا حرفى الـ i و الـ v . ومن الواضح أنه يخيم فوق هذه الاشارات الكثير من الخلط والاضطراب ؛ ولو كانت قد رتبت بشكل منهجى ، لأدى التماثل إلى تسهيل معرفة طبيعة وخاصية كل واحدة منها ؛ وإن كان الموسيقيون اليونانيون المحدثون ليست لديهم أدنى فكرة عما يسمى بالمنهج ؛ وتشيع هذه النقيصة فى كافة مؤلفاتهم غموضا يجدون معه مشقة كبيرة فى التعرف عليها ، فى هذه المؤلفات . ومن هنا تأتى التفسيرات الغامضة ، بل الخاطئة ، التى يقدمونها فى غالبية الأحيان ؛ ففى أحد مؤلفاتهم ، على سبيل المثال ، وضعت بعض الاشارات الكبيرة ضمن التونات وأنصاف التونات ، برغم ما هو معروف من أن هذه الاشارات إنما هى اشارات صامته ، لا نغم ولا رنين لها ، وأنها نتاج خاص بالشيرونوميا ، أى بالايقاع – وفى هذا المؤلف وجدناهم يطرحون هذا السؤال : **كم عدد التونات وأشباه التونات والأرواح** ؟ وإليكم الاجابة التى يقدمونها على هذا السؤال : أما =

هذا كل ما تخبرنا به النظرية بخصوص الاشارات الكبيرة ، وإن كانت الممارسة تعلمنا المزيد دون شك ، وقد قمنا نحن بتجربة ذلك ، ومع ذلك فلعله كانت تلزمنا سنوات طوال ، بالاضافة إلى معونة من جانب معلم متمكن ، حتى نجلو كلية غموض واضطراب مبادىء وقواعد هذه الموسيقى ، على نحو ما رأيناه فى الدراسات التى نعرفها ، بل إنه لعسير علينا أن نعتقد أن هناك شخصا واحدا ، سواء فى اليونان أو فى أى مكان آخر ، قد أدرك هذه الأمور بشكل تام .

= التونات فهى : أوليجون ، أوكسيبا ، بيتاسثه ، أبو درما ، أبوستروف ، باريبا ، انتيكينوما ، كراتيما ، ديبليه ، أناستيما ، بياسما ، كاتاباسخما المثلث ، سيسما ، باراكاليسما ؛ أما الآخرون على غرار البسيبستون والاكستريبتون فهى ميلوديات melos ، أما أنصاف التونات فهى : إيلافرون ، كلاسما ، كوفيسما ، باراكليتيكى ، بسيفيستون ، كاتاباسما ، ايكستريبتون ، كاتاباسما ، والأخيران هما أغنيات وأنصاف تونات ؛ أما الأرواح فهى هيبسيله الخ » . وهكذا يكون من الواضح أن هذا الذى نقرؤه ، لا يمكن أن يكتبه إلا يونانى ، ليست لديه سوى أفكار مشوشة ، بالغة الخطل ، عن الأمور التى كان يعالجها .

المبحث الخامس

حول تركيب إشارات الغناء
طبقا للمبادىء المعروفة فى الباباديكه

كان أحد الأمور التى لا غنى عن معرفتها على نحو طيب والذى يبدو مع ذلك أكثرها تعقيدا هو تركيب علامات الغناء ، فعن طريق تكوين هذه الاشارات ، نستطيع أن نقدم الفاصلات المختلفة للنغمات ، بطرق متنوعة ، حتى ليجدن المرء نفسه وقد توقف عاجزا كل لحظة ، عند الغناء (أى وهو يرجع إلى نوتة الأغنية) إذا ما كان جاهلا بنسق ومنهج تركيباتها ، بل حتى لو ساورته حول هذا الأمر أقل الشكوك .

ولهذا السبب فسنقدم هذه الاشارات المركبة المختلفة بالترتيب ، على النحو الذى نجدها عليه فى الباباديكه ، مضيفين إليها الترجمة المقابلة لها ، فى نوتاتنا الأوربية ، كما فعلنا من قبل .

حول تركيب علامات الغناء

تركيب الأوليجون

غير صوتية ، أى لا نغم لها .....

ست درجات .... درجة واحدة ....

سبع درجات .... درجتان ....

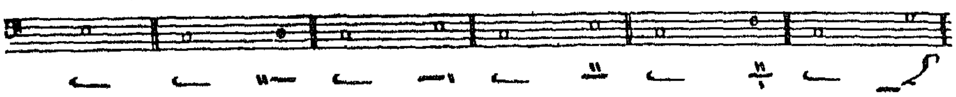
ثمانى درجات .... درجتان ....
ثلاث درجات ....

تسع درجات .... أربع درجات ....

عشر درجات .... خمس درجات ....

مثال

أربع درجات | ثلاث درجات | درجتان | درجتان | درجة واحدة | أبسون



١٠ درجات | ٩ درجات | ٧ درجات | ٦ درجات | ٥ درجات
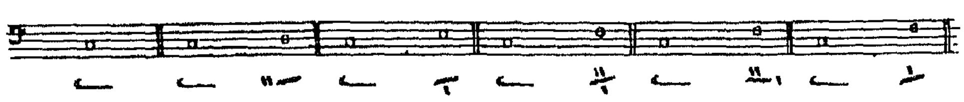


تركيب الأوكسيا

ست درجات ....
ست درجات ....
سبع درجات ....
ثماني درجات ....
تسع درجات ....
عشر درجات ....
إحدى عشرة درجة .... (١)

بدون نغم ....
درجة واحدة ....
درجتان ....
ثلاث درجات ....
ثلاث درجات ....
ثلاث درجات ....
أربع درجات ....
أربع درجات ....
خمس درجات ....
خمس درجات ....

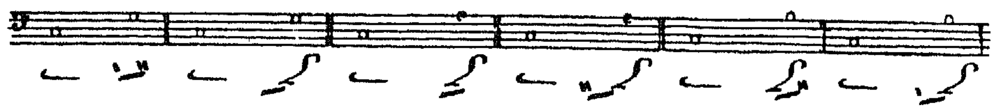
مثال

٣ درجات | ٣ درجات | ٣ درجات | درجتان | درجة واحدة | بدون رلين

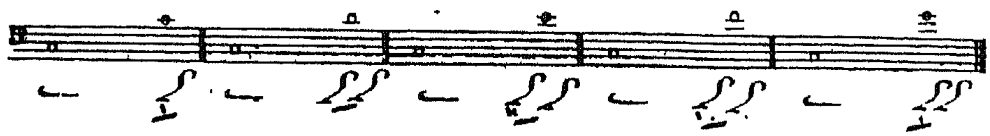


---

(١) هذه الاشارة لا توجد قط فى نسخة البابادیکه التی فی حوزتنا ، وقد أخذناها عن الدروس التی تلقيناها من دوم جبرائيل ، التی نسخناها ، وهی مرکبة طبقا للقواعد .



٦ درجات ٦ درجات ٥ درجات ٥ درجات ٤ درجات ٤ درجات



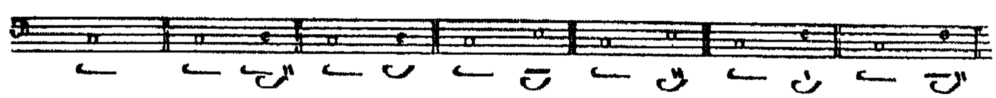
١١ درجة ١٠ درجات ٩ درجات ٨ درجات ٧ درجات

لم نجرؤ فى البداية أن نعطى ، فى المثال نفسه ، النوتات اليونانية مع ترجمتها إلى النوتات الأوربية ، خشية أن يؤدى ذلك إلى حدوث خلط بالنسبة للعيون التى لم تعتدها بعد ، لكننا فى الوقت الحاضر نحدس أن ليس هناك بأس فى فعل ذلك ، وقد حسمنا الرأى فى ذلك لأن هذه الوسيلة قد تكون أكثر سرعة وأكبر إنجازا ، ولأن النوتات اليونانية ، سوف تصبح ، بهذه الطريقة مرتبة طبقا للنظام الذى وردت عليه فى كتب الغناء أى فوق سطر واحد ، وهو أمر سوف يُعرّف بها ، بسهولة أكبر .

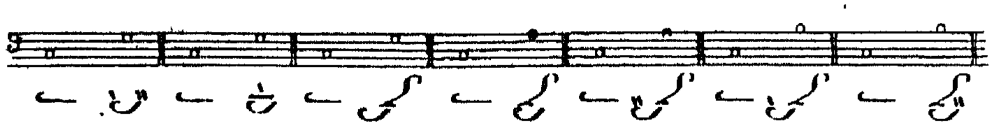
تركيب البيتاسثة

مثال
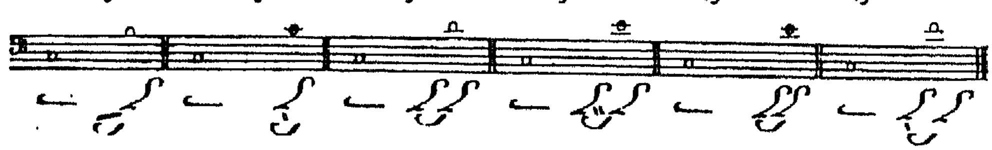
٣درجات ٣ درجات درجتان درجتان درجة واحدة درجة واحدة بدون نغم



٦ درجات ٦ درجات ٥ درجات ٥ درجات ٤ درجات ٤ درجات ٤ درجات



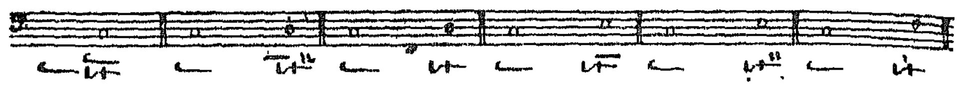
١٠ درجات ٩ درجات ٩ درجات ٨ درجات ٧ درجات ٦ درجات



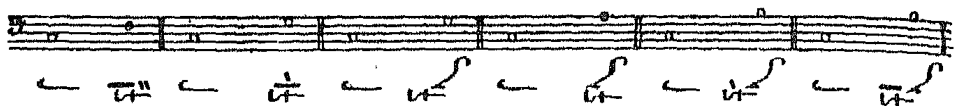
تركيب الكوفيسما

مثال

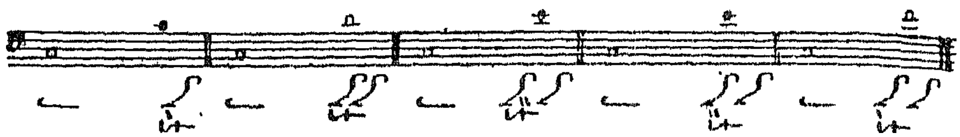
٣ درجات درجتان درجتان درجة واحدة درجة واحدة بدون نغم



٦ درجات ٦ درجات ٥ درجات ٤ درجات ٤ درجات ٣ درجات



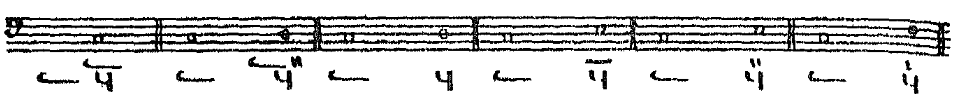
١٠ درجات ٩ درجات ٩ درجات ٨ درجات ٧ درجات
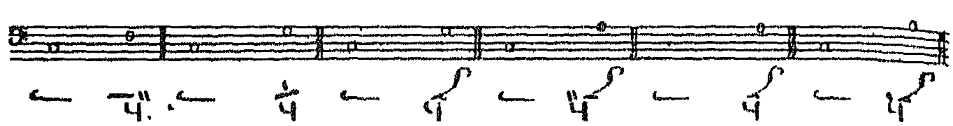


تركيب البلاستون

مثال

٣ درجات درجتان درجتان درجة واحدة درجة واحدة بدون نغم



٦ درجات ٥ درجات ٥ درجات ٤ درجات ٤ درجات ٣ درجات
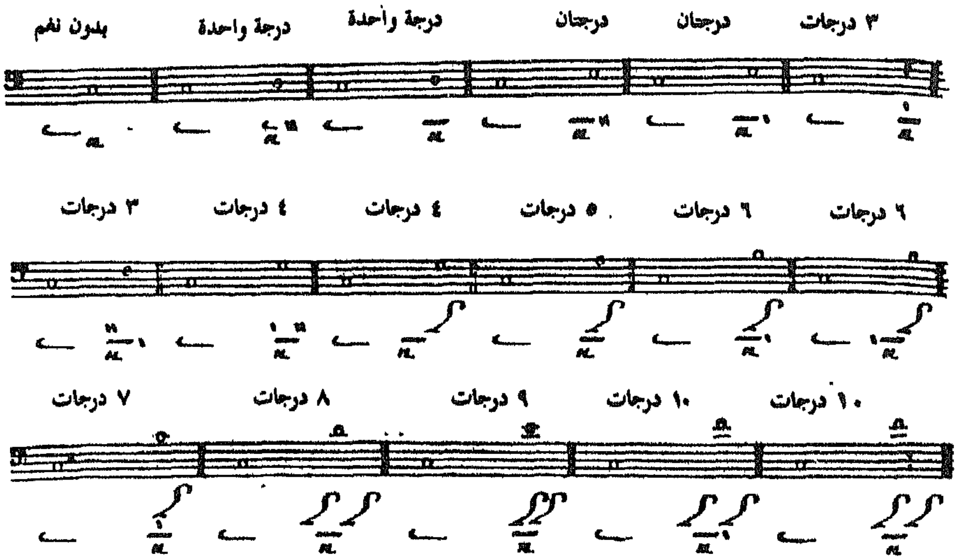


١٠ درجات ٩ درجات ٩ درجات ٨ درجات ٧ درجات



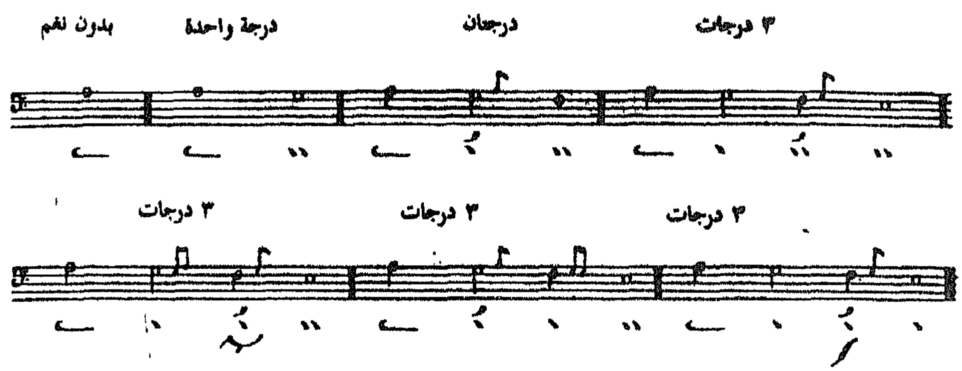
تركيب الكراتيما

مثال:

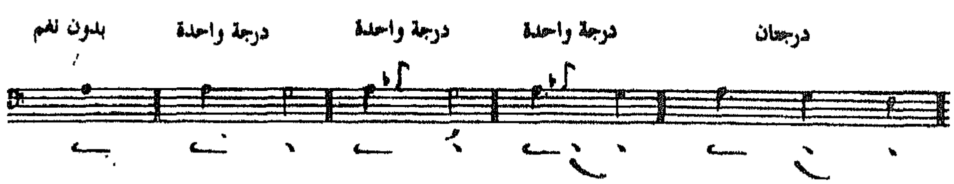


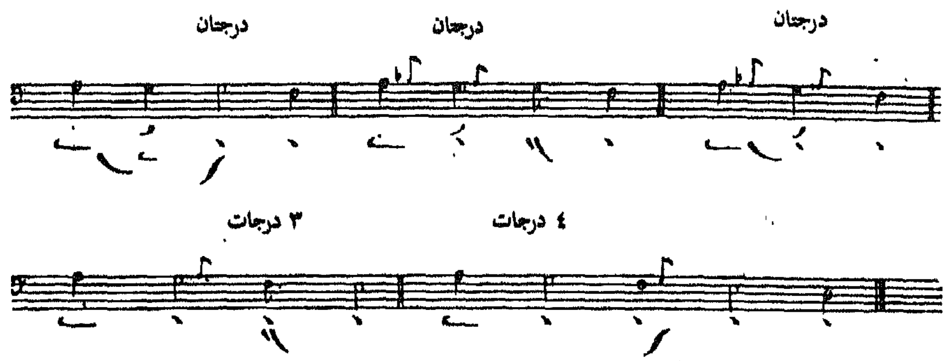
أمثلة عن إشارات الهبوط وعن المدة النغمية للنغمات

تركيب علامتي الأبوستروف المتجاورتين

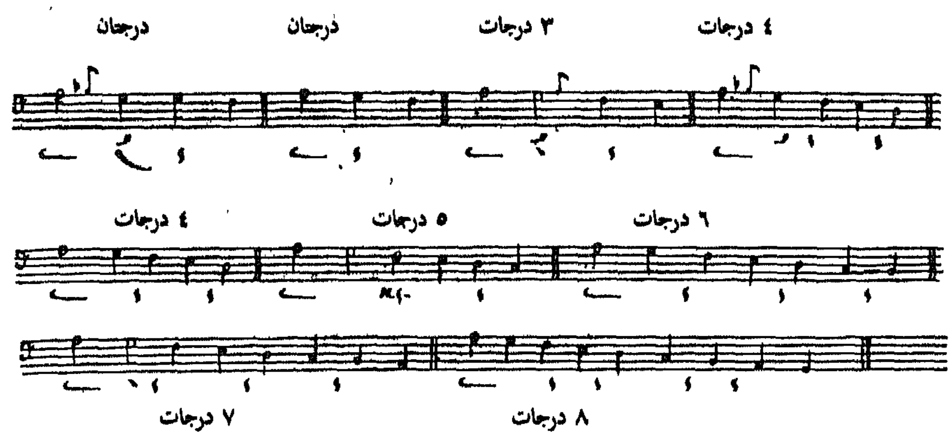


تركيب إشارة الأبوستروف
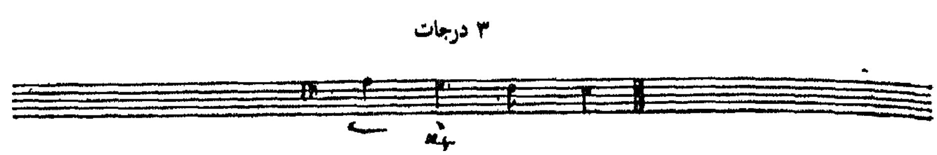




تركيب إشارة الأبورهوى

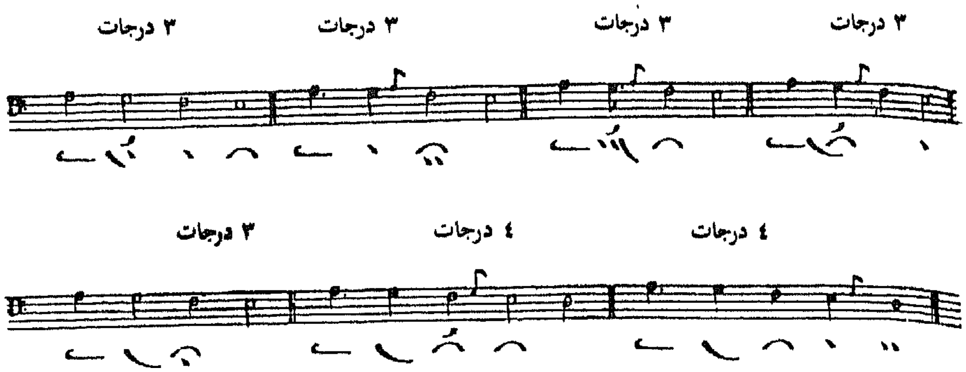


تركيب الكراليما هيبورهون مع الأبوستروف
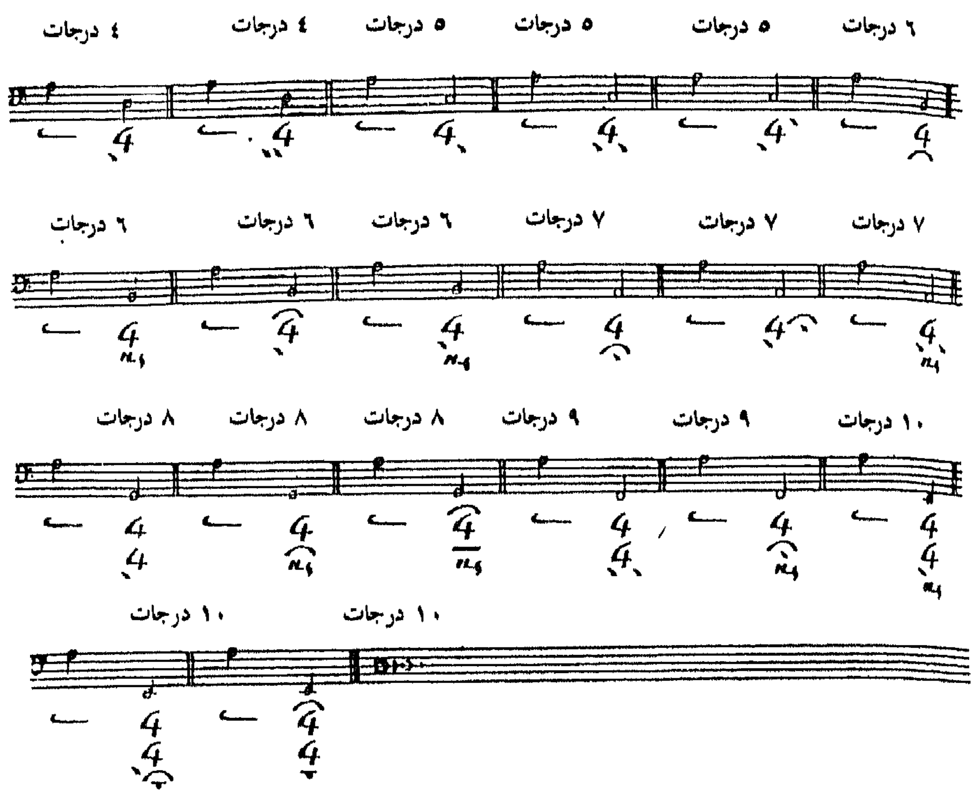


تركيب الإيلافرون





تركيب الكاميله



المبحث السادس

قواعد أو ملاحظات لابد من مراعاتها عند ممارسة الغناء اليونانى ، وما ينقص كتب الباباديكه من هذه القواعد والملاحظات

تدع كتب الباباديكه كثيرا من الأمور للتمنى (أى أنها لا تقدمها) ، وتدور هذه الأمور حول المدة الزمنية للنغمات ، وخاصية واستعمال إشارات الغناء ، وبرغم أن الأمثلة التى دوناها بنوتاتها اليونانية ، علاوة على نوتاتنا الأوربية ، قد أزالت صعوبات جمة ، لعلها كانت جد عسيرة على الأشخاص الذين لم يتمكنوا من اكتساب خبرة ما فى الموسيقى اليونانية الحديثة ، فإننا لا نزال نشعر أن علينا – ربما – أن نوضح وأن نفسر من جديد ، غالبية الأمور التى انتهينا من تقديمها ، وذلك بتقديم ترجمة حرفية لنص كافة المؤلفات التى لدينا عن فن الغناء ، لكننا لن نتوقف إلا عند النقاط الأساسية ، التى لم تقدم عنها كل أبعادها الضرورية ، حتى نضمنها إياها جميعا ، دون أن يتسرب إليها أى شك .

وهاكم بعض القواعد المهمة ، والتى ستكون عوضا عن نقص القواعد التى لا نجدها قط فى كتب الباباديكه ، فيما يتصل بإشارات الغناء ، وهذه القواعد ليست سوى ملاحق لما سبق أن قدمناه فى حواشى المبحث الأسبق ، وقد أخذناها عن دروس دوم جبرائيل ، وقد جاءت ضمن إجاباته على الملاحظات التى وجدنا الفرصة سانحة للسؤال عنها أثناء الدروس التى كان يعطينا إياها .

حين نجد تحت الأيسون (   ) إشارة الأبودرما (   ) أو الدبليه (   ) أو الكراتيما (   ) مرسومة على هذا النحو : (   ) أو (   ) أو (   ) فإن الاشارة المركبة هنا تعنى لحظة توقف .

وعندما توضع **الأيسون** فوق علامة غناء ، صاعدة كانت أم هابطة ، تصبح هذه النغمة صامته أى كأن هذه الاشارة تلغيها .

أما إذا كانت علامة الغناء التى وضعت **الأيسون** عليها ، مركبة من علامات عديدة أخريات ، من النوع نفسه ، فإن العلامة الرئيسية ، وحدها أو ، تلك التى توجد **الأيسون** فوقها مباشرة ، هى التى تصبح صامتة .

ولا توضع **الأيسون** إلا فوق علامات الغناء المسماه **بالأجسام** ، ولا توضع قط فوق العلامات المسماه **بالأرواح** ، وحين توضع فوق جسم مصحوب بروح فإنها تلغى تأثير الأجسام وليس تأثير الأرواح .

ويصبح الجسم عدما (أى كأنه لا وجود له) عندما توجد تحته أو إلى جانبيه روح ، ولا يُغَنَّى سوى الأخير[1] ، أما إذا كانت الروح فوق أو وسط أو على شمال الجسم فيُغنَّى كلاهما ، يشكلان معا فاصلة واحدة ، مركبة من النغمتين اللتين تشيران كل واحدة منهما إليها [2] .

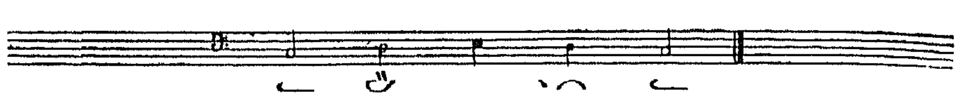
وتستقبل **الأوليجون** فى غالبية الأحيان إشارة **الأرجون** (‍ـــ) وكذلك غالبية العلامات الكبيرة حينما تتشكل مع الأرواح .

أما **الأوكسييا** فتستقبل تحتها العلامات الكبرى : ليجيسما ديليه ، ستاوروس ، ترومیلکون ، إكستريبتون ، أومالون ، عندما تكون ملحقة بالأبوستروف ، والأرجو سنثيتون ، وتستقبل كذلك الجورجون والأرجون ، والجورجوسنثيتون والفثورا phthora .

أما **البتاسثه** (ـــــ) فتسقبل تحتها كل الاشارات .

وعندما توجد فى البيتاسثه علامتا كنتيما ، فإنهما تؤخذان منفصلتين ، لتتكون نغمة من فاصلة ثلاثية بدرجات متجاورة .

مثال



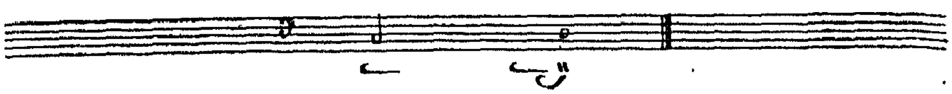
---

(١) ، (٢) انظر أمثلة المبحث السابق .

ويمكننا أن نلاحظ فى هذا المثال أن **الايلافرون** ، **وهو روح** ، يلغى تأثير **الأبوستروف** ، الذى هو جسم ، إذ توجد هذه الروح موضوعة على يمين الجسم ، وهكذا ، فبدلا من أن ننزل بمقدار ثلاث فاصلات ، أى رباعية كاملة ، فإننا لا ننزل إلا بمقدار فاصلتين تشكلان نغمة ثلاثية ، أى الفاصلة التى تحددها الإيلافرون ، وهكذا يصبح لدينا هنا تطبيق لما لاحظناه منذ قليل ماسا بخاصيات الأرواح عندما تأتى ملحقة بجسم ، على هذا النحو أو ذاك .

وعندما تقابلنا البيتاسثه ، وقد جاء الأيسون فوقها ، وجاءت إلى يمينها علامتا الكنتيما تصبح هذه البيتاسثه ملغاة ، تبعا للقاعدة التى سقناها من قبل .

مثال



ونتيجة لذلك فإن علامتى الصعود فى هذا المثال لا تصنعان سوى فاصلة أو نغمة ثنائية ، بدلا من أن تحدثا فاصلتين أو نغمة ثلاثية .

ولا تستطيع الكوفيسما ( ) أن تتحد بمثل هذا العدد الكبير من الاشارات التى تتحد بها الكنتيما ، كما أن لها هذه الخاصية التى تميزها عن علامات الصعود : الأوليجون ، البيتاسثه ، الكنتيما حتى أنها لا تأتى قط مع الإيلافرون ، وحتى أنها لا تستقبل لا البياسما ، ولا الهيتيرون ، ولا الباراكليتيكى ، ولا أى واحدة من العلامات المكتوبة باللون الأحمر فى كتب الغناء[1] .

---

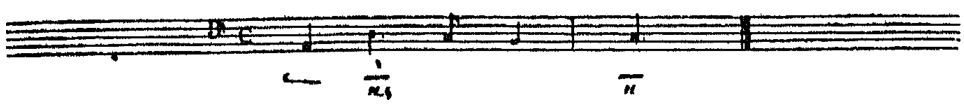
(١) هناك جزء من الاشارات الكبيرة مكتوب باللون الأحمر فى كتب الغناء ، هى تلك التى تشير إلى تغيير فى النغمات أو تدل على زخارف ؛ أما علامات الاشارات الكبيرة الدالة على وقفات ، أو على النغمات ذات المدد النغمية الأطول أو الأقصر ، الأسرع أو الأبطأ ، فقد كتبت بين نوتات الغناء ، باللون الأسود .

وتستقبل البلاستون ( ) تحتها كل الاشارات الكبيرة فيما عدا السيناجما والاستاوروس ، والايناركسيس ، كما تستقبل كذلك الكنتيما ، وهى لا توضع قط فوق العلامات الأخرى .

وعندما تكتب علامات الصعود فوق علامات الهبوط ، فلا يُلْقى بالٌ إلا لاشارات الهبوط وتصبح علامات الصعود فى حكم العدم .

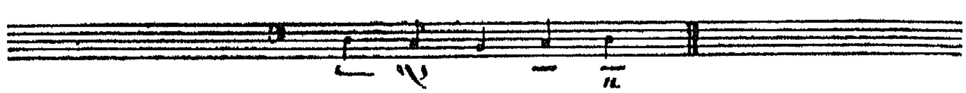
وحين تكتب الكراتيما هيبورهون ( ) تحت علامات الصعود فإنها تدل على أنه ينبغى ، بعد أن نكون قد صعدنا ، أن نهبط بمقدار درجتين أو نغمة ثلاثية ، مع التوقف قليلا فوق الرنة الأعلى فى النغمة الثلاثية ، ذلك أن الكراتيما وحدها ، هى التى تشير إلى فترة توقف ، ولهذا السبب فإن الكراتيما هيبورهون تستخدم عادة كتمهيد لايقاع توقف .

مثال



وحيث أن السيما ( ) تتركب من البياسما ، وهى العلامة الدالة على توقف أو استراحة قصيرة ، كما أن الأبورهوى هى العلامة الدالة على هبوط قدره درجتان أو نغمة ثلاثية ، فإن السيما تحدث على وجه التقريب نفس الأثر الذى تحدثه **الكراتيما هيبورهون** ، عدا أن الوقفة على النغمة العليا لا تكون بالغة الطول ، وأنها لا تشكل إيقاعا دوريا للغناء .

مثال



وبرغم أن اليونانيين المحدثين لم يحسموا المدة النغمية التى لأنغامهم فى الغناء ، بشكل دقيق ومحدد ، يماثل ما فعلناه نحن عن طريق ايقاعاتنا ونوتاتنا ، فإن بمقدور المرء مع ذلك ، طبقا لما تعلمناه من دروس دوم جبرائيل أن يقيم فيما بينهما النسب التالية ، التى نجىء بها على هذا النحو مستخدمين أشكال نوتاتنا .

	1		أبو درما
	$\frac{1}{4}$		باريبيا
	$\frac{1}{2}$		دبليه
	$\frac{1}{8}$		كراتيما
	$\frac{1}{4}$		أرجون
	$\frac{1}{16}$		بياسما
	$\frac{1}{8}$		تزاكيسما

ومع ذلك ، فإن كل هذه المدد النغمية ، كما برهنت لنا التجارب ، ليست سوى أمور تقريبية ، وليست ، هى ، محدودة بدقة صارمة ، بالشكل الذى قدمناها عليه هنا ، ففترات التوقف التى تشير إليها هذه العلامات ، وثيقة الصلة بتلك التى ميزناها عند الكتابة بالنقطة ، والنقطتين ، والفاصلة المنقوطة ، والفاصلة .

المبحث السابع

حول الاشارات الكبيرة أو الأقانيم
فى موسيقى اليونانيين المحدثين

يطلق اسم إشارات كبيرة ، أو أقانيم ، على كل الاشارات التى لا تدخل فى عداد الأربع عشرة إشارة الأولى ، والتى أشرنا إليها فى المبحث الرابع ، ولم يطلق على هذه الاشارات مثل هذا الاسم لأنها ذات حجم أكبر من الأخريات ، و لأنها توضع جميعا تحت نغمات (أو إشارات) الغناء ، كما يعلن عن ذلك اسم الأقنوم الذى أطلق عليها ؛ إذ يوجد بعض منها ذو حجم أصغر كثيرا حتى من حجم الاشارات الأربع عشرة الأولى التى للغناء ، وهناك بعض منها يوضع فوق هذه الاشارات الأخيرة وأخريات توضع بينها أو تحتها ، وإنما أطلقت هذه التسمية دون شك لسبب نجهله ، ولسنا نعتقد أن هناك أهمية قصوى تدفعنا للوقوف عليه .

وهناك من هذه العلامات ، سواء فى القوائم التى تقدمها لنا البحوث عن هذه الاشارات الكبيرة ، أو فى تلك الدراسة التى كتبها لنا دوم جبرائيل بخط يده ، ولكن فى حضورنا ، مالا يشير إلا إلى وقفات وأخرى تشير فى نفس الوقت إلى وقفات ونغمات[1] ، وثالثة تدل على النهايات أو حشد الأنغام عند نهاية الغناء ، ورابعة على التغييرات والتعديلات وخامسة ، فى النهاية ، تدل على علامات الصليب ، أو أى حركة أخرى تتصل بحفلات العبادة الدينية ، ذلك أن اليونانيين يكثرون من هذ الحركات طيلة قداسهم ، وعلى هذا فإن غالبية هذه الاشارات ترتبط فى أحيان كثيرة بجمل غنائية معينة ، قد يكون بمقدورنا الاعتقاد بأنها تتصل بها .

ولا يبدو أن كيرشر قد حصل على معلومات أفضل مما تزودنا نحن به حول هذه الاشارات الكبيرة ، بل إن من الجلى أنهم قد غرروا به بطريقة لاتليق بمكانته كثيرا ، حين أقنعوه بأن الاشارت الكبرى لا تدل فقط على كم من الوقت ينبغى

---

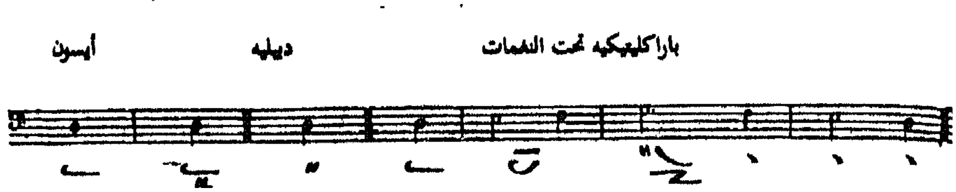
(١) توجد فى المبحث السابق أمثلة توجد بها إشارات من هذين النوعين .

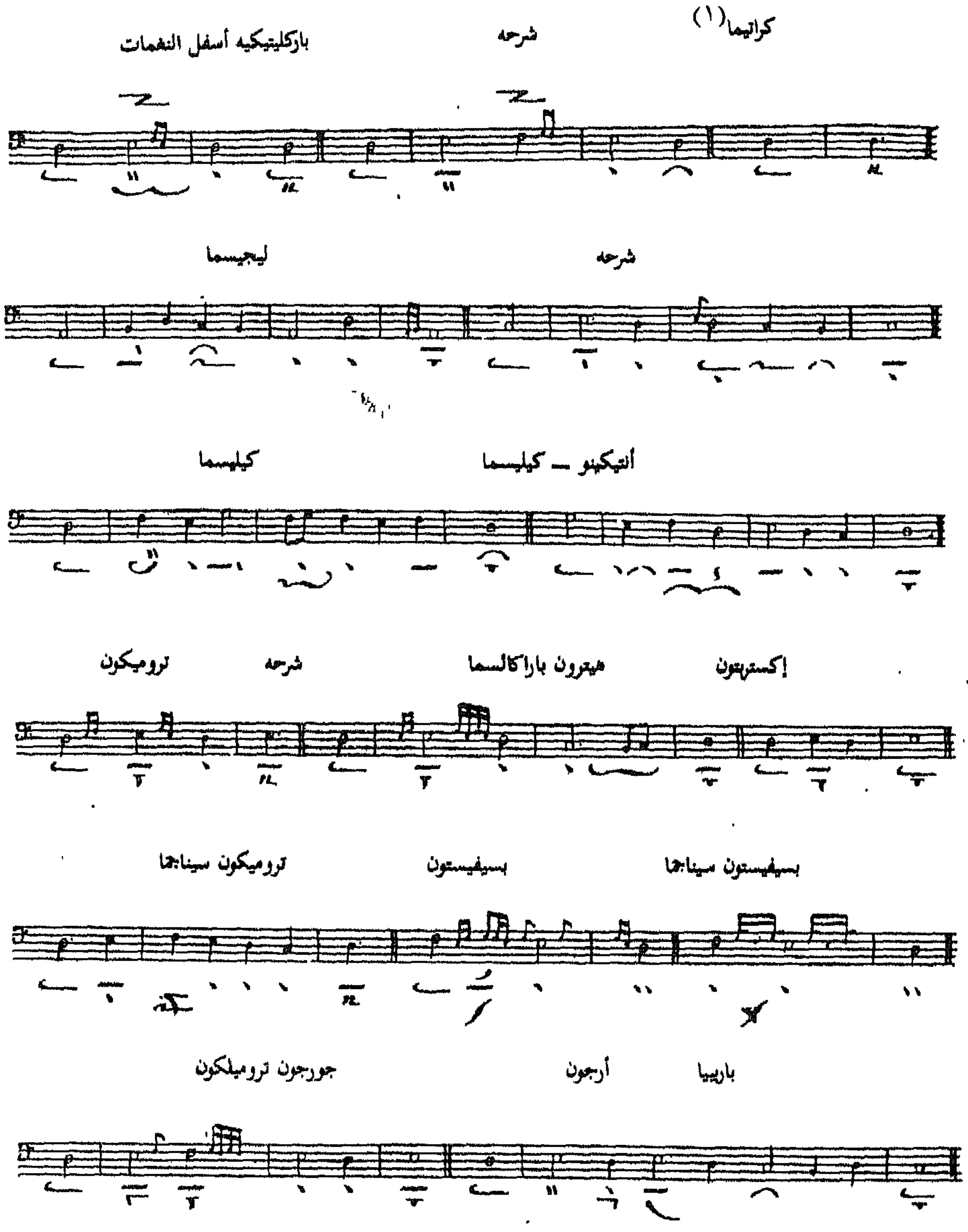
التوقف على النغمات ، وبأنها تتفق مع المدد الزمنية لايقاعنا أو المدى النغمي للنوتات (النغمات) وإنما بأن لها كذلك بعض صلة بالاستعارات وصور الريطوريقا (البلاغة) أو علم البيان ، ولسنا نتصور كيف جرؤ كيرشر على أن يعطى الصدارة لأفكار هي على هذا القدر من الخطأ والبعد عن الرجحان ، ولا كيف تجاسر على أن يقارن الأنغام التى لايمكنها سوى التعبير عن المشاعر ، بالكلمات التى هى مهيأة لتقديم أفكارنا ، إذ يعنى ذلك أنه قد خلط الروح بالمادة ، وفى الوقت نفسه فسوف تكون لدينا ملامات كثيرة ، أخرى ، يمكننا أن نقدمها إلى كيرشر ، إذا كنا نشاء أن ننقد مبحثه حول الموسيقى اليونانية الحديثة ، والتى عنوانها :

Adonatio in semaeiologima graecamicam
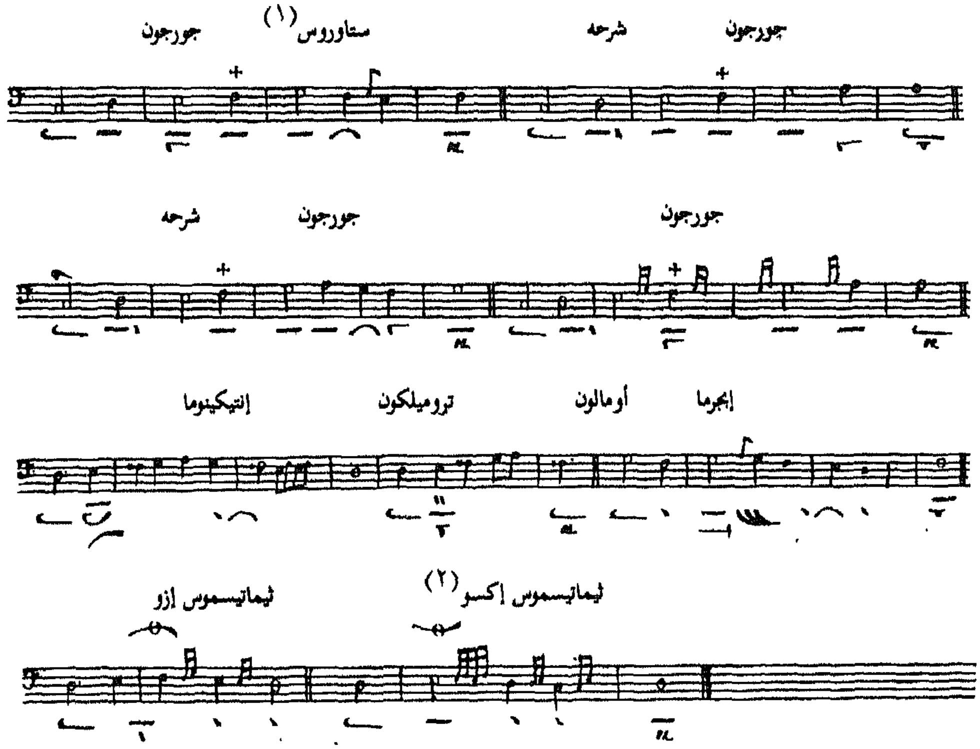
وليس هناك ، فى واقع الأمر ما يوسوس لنا أن نفعل ذلك هنا ، أو فى أى موضع آخر .

وقد سبق لنا أن نبهنا إلى أنه لا يوجد شيء مكتوب فى مؤلفات الغناء اليونانى ، يتصل بخاصيات واستخدامات العلامات الكبيرة ، كما اعترفنا بأننا لم نستطع أن نحصل من معلمنا على إيضاحات أخرى حول هذا الموضوع ، اللهم إلا أمثلة مغناة ، ولهذا السبب فسنقدمها كما حصلنا عليها ، وطبقا للترتيب الذى جاءت عليه فى القائمة التى قدمناها عنها ، وسنقدم ملاحظاتنا فى الحواشى .
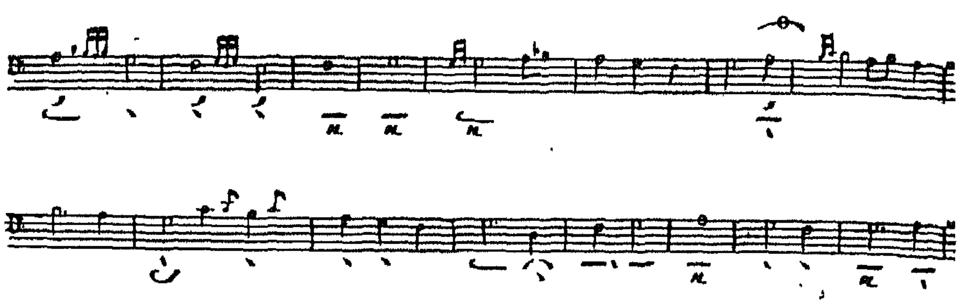




(١) يلفظها اليونانيون المحدثون Kratima (بدلا من Kratéma) ، ذلك أنهم يعطون لحرف n عندهم ، النطق نفسه الذى لحرف الـ i عندنا ، كما سبق أنه نبهنا (الفرق غير واضح فى الهجاء بالعربية) .

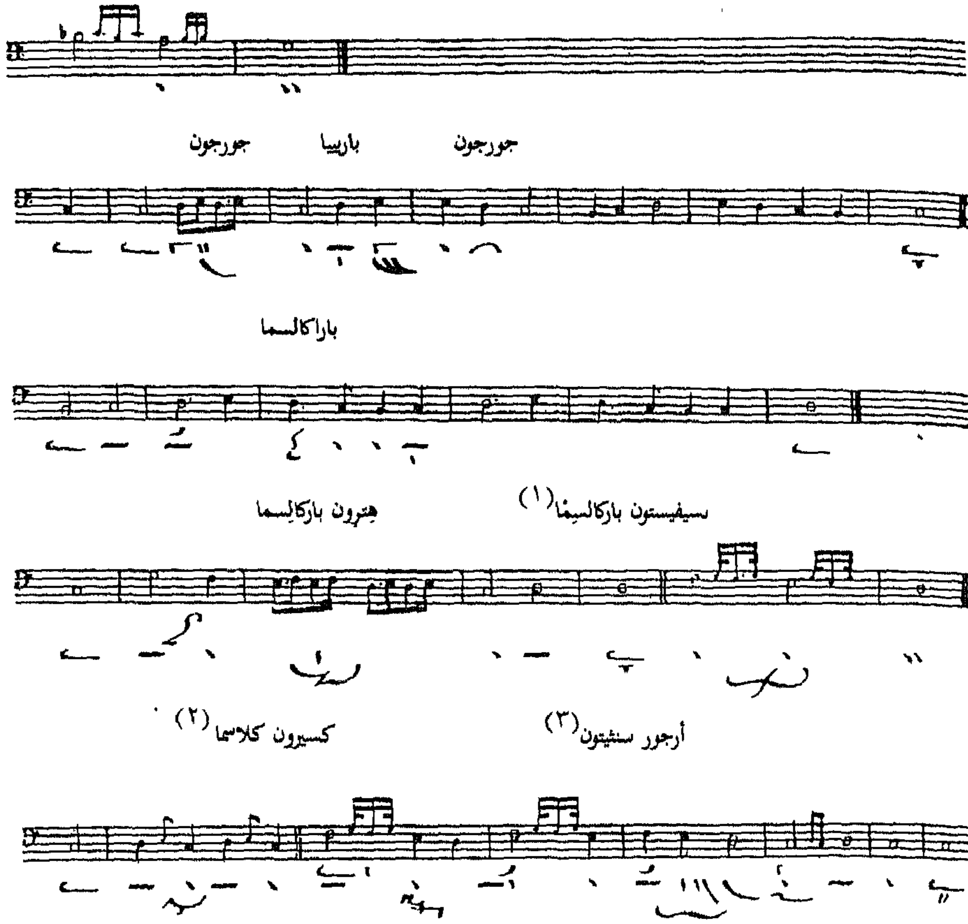


مثال آخر عن الثيماتيسموس إزو



(١) لا يبدو أن إشارة لستاوروس (أو ستافروس) تحدث أدنى أثر عند الغناء ؛ ومع ذلك ، فهناك ، حيث تقابلنا ، يكون الميلودى هو نفسه ، على وجه التقريب ، كما نجده فى كل مكان ؛ ألا يكون الأمر على هذا النحو ، لأن هذا الغناء يشير إلى علامات الصليب التى قد ميزوها ، هم ، بهذا الشكل ✠ ؟

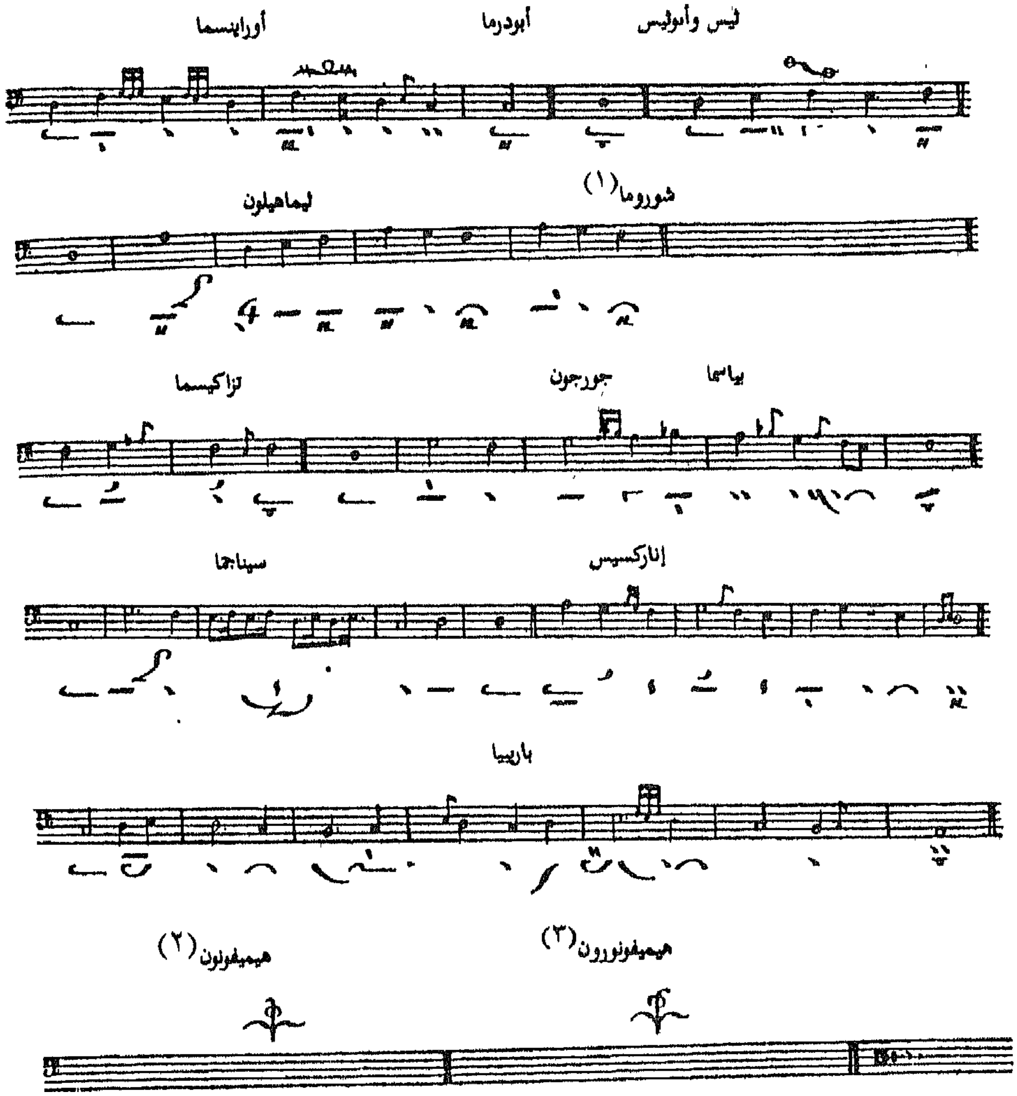
(٢) نجد فى الدراسة هيتروس إكسو heteros exō ، وإن كان دوم جبرائيل يكتبها ثيماتيسمو إكسو Thematismo exō ؛ وبمعنى آخر ، فإن التماثل القائم بين هذه الإشارة ، والإشارة السابقة عليها ، يجعلنا نوقن أن الاسم الذى يعطيه لها دوم جبرائيل ، هو الاسم الصحيح .



(١) كان على سبيل الخطأ ، دون شك ، أن قدم لنا دوم جبرائيل هذا الغناء فى إشارة بسيفيستون سيناجما Psiphiston synagma ، فهذه الاشارة فى الحقيقة ، ليست سوى بسيفيستون باراكالسِمًا P. parakalesma .

(٢) نقرأ فى واحد من البحوث التى فى حوزتنا ، التفسير التالى ، عند الحديث عن إشارة الكْسيرون كلاسْما : « وتسمى هذه الإشارات مركّبة لأنها تتكون من نغمتين أو ثلاث نغمات ؛ وعلى سبيل المثال فإن الديبليه diplé تتكون من نبرتين حادتين // ، أما هذه الاشارة (أو النغمة) فتتكون من هاتين النبرتين بالاضافة إلى البيتاَسثة ؛ وتتكون البياسما من نبرتين غليظتين \\ ، وتتكون الأناستيما من الديبليه والبيتاسثة » (ليس لدينا قط شكل هذه الاشارة ، ولكنها قد تكون ، بالطريقة التى تكونت بها ، شبيهة بالكْسرون كالِسْما .

(٣) ويلفظها اليونانيون سنسيتون .



(١) لم يقدم لنا دوم جبرائيل قط مثالا عن تأثير هذه العلامة فى الغناء ، كما أننا لم نجدها قط فى البابادیکه .

(٢) لم تفسر لنا على أى نحو هذه العلامة وتلك التى تليها ؛ ونحن من جانبنا نستنتج أن الأولى تدل على نصف تون ، أى على تغيير فى طبقة الصوت ، لا يتم بشكل كامل فى التون نفسه .

(٣) حيث يطلق فى الموسيقى اليونانية اسم فثورا pthora على التبديل أو التغيير فى التون أو المقام ، فإن من المحتمل أن تكون الهيميفترون تدل كذلك على نصف تبديل ، أى على تغيير غير تام فى التون أو المقام .

المبحث الثامن

عن التونات أو المقامات
مقدمة فى فن الموسيقى[1]

« لابد أن تعلم أن أول المقامات يسمى الأول لأنه يتصدر كل المقامات الأخرى ، فهو يعد بمثابة الزعيم أو الرئيس لها ، أو شيخها جميعا ، ويطلقون عليه اسم الدورى ، أو مقام الدوريين ، وحيث قد قيل إن الدوريين كانوا يصرفون أمورهم ببساطة فقد أطلق الناس للسبب نفسه على هذا المقام اسم الدورى[2] ومن روح هذا المقام[3] نشأ الهيبودورى[4] فهو ابن للمقام الأول ؛ أما المقام الليدى[5] ، أو المقام

---

(١) نعود هنا إلى النص الذى اضطررنا أن نتركه جانبا ، حتى لا يأتى ترتيب المواد مقلوبا ، كما هو حادث فى الباباديكه .

(٢) وهذه رواية مختلفة للنص نفسه ، ننقلها عن دراسة أخرى : « ولابد أن نعلم أن المقام الأول قد سمى بالأول لأنه يبدأ المقامات الأخرى ويتزعمها ؛ وقد أطلق عليه اسم الدورى لأنه جاءنا عن طريق الدوّريين ، ولأنهم هم الذين قاموا بنشره واذاعته ، وأخيرا لأن الدوريين كانوا يعتبرون أصحاب طريقة بسيطة فى سلوكهم ، وقد داع صيت هذا المقام أو احتفى به هكذا :

أيا أول من كنت حاكما على قوم من أهل الموسيقى ،

إننا نثنى عليك بأول الكلمات .

(وهناك ترجمة إلى اللاتينية لهذين البيتين قام بها أرشانتر Archaintr

(٣) يطلق اسم روح المقام فى الموسيقى اليونانية الحديثة ، على النغمات الهارمونية فى هذا المقام نفسه ، أى على النغمات الثلاثية والخماسية ، سواء الصاعدة أو النازلة ؛ ويدور الحديث هنا حول النغمة الخماسية النازلة .

(٤) وهناك رواية أخرى لهذا النص : « ومن هذا المقام الأخير تكون ابنه ومقلوبه (أو محطه المتوهم) . وقد احتفى به على هذا النحو :

شديد ميلك للمرثيات وأناشيد الشفقة ،

تنشد كثيرا وترقص على فن منغم .

(٥) وفى رواية أخرى : « أما المقام الثانى فهو المقام الليدى ، وقد سمى هكذا لأنه قد جاء من ليديا ، وليديا هى منطقة إيفيزا ، وموطن سان جان (القديس حنا) رجل اللاهوت ؛ وقد =

الثانى فقد جاءنا من ليديا ، وتسمى ليديا منطقة نيوكاسترون كما لا تزال تسمى إلى اليوم كامب ليديا أى معسكر ليديا ؛ ومن هذا المقام أيضا نشأ المقام الهيبوليدى[١] ، والذى يشكل مقلوب هذا المقام الثانى (أو محطة المتوهم) ، لكن المقام الفريجى[٢] أى المقام الثالث قد ابتكر فى فريجيا ، وفريجيا هى منطقة لادوكيا ، ومن أجل ذلك سمى هذا المقام الثالث بالفريجى ، ومنه يجىء المقام الهيبو فريجى[٣] ، أو مقلوب هذا المقام أو محطه المتوهم ، وهو المقام الغليظ أو الخفيض ، أما المقام الميليزى[٤] فقد جاءنا من

= احتفى به بهذه الكلمات :

يالك من لحن كالعسل والشهد
حتى أنه ليثرى القلب .

(١) وفى رواية أخرى : « ومن هذا المقام تولد ابنه الهيبوليدى ، وهو وسطه المتوهم (أو مقلوبه) ؛ وقد احتفى به بهذين البيتين :

إنك لتحمل إلينا سرورا مضاعفا ،
كما لو كنت تضاعف مرتين ما هو مضاعفك .

(٢) وفى رواية أخرى : « ويسمى المقام الثالث بالفريجى ، ذلك لأنه من فريجيا جاء » ، وفريجيا فى النهاية هى منطقة لادوكيا ؛ وقد نُوِّه بهذا المقام بهذه الكلمات :

أيها الثالث ، يامن تبدأ (إنشاد) أوزان أدنى ؛
إنك حين تقدم على تنسيق (النغمات) نتوافق .

(٣) وفى رواية أخرى : « ونتيجة لذلك بالتالى ، فمن المقام الفريجى نشأ ابنه الهيبوفريجى ومحطه المتوهم ، والذى سمى ، بسبب طابعه الرجولى وقوة ميلوديه ، بالغليظ ، وقد احتفى به بهذين البيتين :

أيها الثانى بعد الثالث ، يامن تنشد نشيد الرجولة ،
إنك لتحظى بأصدقاء بسطاء لا تنوع فيهم .

(٤) وفى رواية أخرى : « أما الرابع فيسمى الميليزى وهو يواسى المكروبين » ؛ وقد احتفى به بهذه الكلمات :

إنك تشكل مهارة (حركات) الراقصين أنفسهم ،
توجه النغمات وتدق الصناج .

وقد واجهتنا مشقة بالغة فى أن نعتقد أن كلمة ميليزى هى تحريف لكلمة مكسو ليدى ، التى كانت على الدوام هى اسم هذا المقام ؛ ولعلهم قد نطقوا هذه الكلمه ، بفعل خلط فى =

ميلية ومنه اشتق الهيبوميليزى[١] ذلك أنه قد ابتكرت فى هذه المناطق المختلفة هذه المقامات فكما اكتشف الدوريون ميلودى المقام الأول ، والليديون طَرَبَ المقام الثانى ، والفريجيون المقام الثالث ، فقد اكتشف الميليزيون طرب المقام الرابع ، وفيما بعد أطلق بطليموس ، الملك والموسيقار ، بعد أن قام باستقصاء كل الوقائع ، أسماء الأماكن ، على المقامات التى ابتكرت فيها [٢]

= النبرات ، ميليديان ، حيث يخفف اليونانيون المحدثون كثيرا من نطق حرف الدال d عندهم فلابد أنهم عادوا فلفظوها ميليسيان ، ومنها جاء اسم المقام الميليزى ، وأصله المفترض هو منطقة ميليت ؛ ومنها جاء اسم المقام الميليزى ، وأصله المفترض هو منطقة ميليت ؛ أما الأمر المؤكد فهو أننا لا نقرأ كلمة ميليسيان (أو ميليزيان) فوق الوردة التى وزعت عليها المقامات الثمانية فى الغناء اليونانى ، منهجيا ، وإنما نقرأ كلمة مكسوليدى . وهذا الشكل المنهجى ، المنقول دون شك عن الدراسات القديمة ، يقلل من ثقتنا ، بدرجة كبيرة ، فيما يخبرنا به مؤلف هذه الدراسة عن الغناء ، إذ هى ليست عرضة للتحريف مثلما يتعرض النص ، كما أنها تقدم المقامات ، بالأسماء نفسها التى كان يطلقها القدماء عليها .

(١) ومن هذا المقام الميليزى ، وهو الرابع ، نقول إنه قد تولد ابنه الهيبوميليزى ، والذى هو كذلك مَحطُّه المتوهم أو مقلوبه . وإليكم الكلمات التى احتفت به :

إنك تؤرجح وتهز بقوة الأناشيد ،
وتحظى فى البداية والنهاية .

حاشيه : كورونيس ، وبترجمة حرفية : يحظى بكرونيس ، كبداية وأيضا كنهاية . أما الكورونيس coronis فهو علامة جرى العامة على كتابتها فى كعب (ختام) الكتاب ، على شكل الخطاف ، بغرض توضيح النهاية لتعنى أنه انتهى ؛ وهذه العلامة تسمى مارتياكس كورونيس ، وأحيانا كانت هذه العلامة تكتب فى بداية الكتاب . وبالمثل فإن الكورونيس تعنى فى بعض الأحيان ، علامة الطول (المد) على الحروف المتحركة ، وهى نفسها ما يعرف بالتاج Koryphê باليونانية ، ومن هنا ، فإن وضع الكورونيس لدى لوكيانوس وبلوتارخوس أمر واجب فى كل من البداية والنهاية .

(٢) ليس عبثا أو مضيعة للوقت أن نلاحظ أن الدراسة التى نترجمها هنا ، قد كتبت فى العام ١٦٩٥ بخط يد إيمانويل كالوس ، وأنه فى هذه الفترة ، كما هو الحال الآن ، كانت قلة من اليونانيين فقط هم الذين لا يظنون أن أجدادهم ، من قبل وجود البطالمة بقرون كثيرة ، كانوا يعرفون بالفعل هذه المقامات ، وبالاسماء التى تعطى لها هنا الآن ، فيما عدا المقام الذى يطلق =

« س – كم مقاما توجد ؟

« ج – توجد أربعة مقامات رئيسية وأربعة مقلوبات ومقـامين وسيـطين[١] أو مشتقين هما : **نينانو** nenanō **ونانا** nana وهى تغنى فى الكنيسة بشكل خاص[٢] .

« س – كم من المقامات يغنى فى الكنيسة[٣] وماهو هذا الشيء المسمى **بالهاجيوبوليتيس**[٤] hagiopolites الذى يطلق على هذه المقامات ؟

« ج – هناك ثمانية مقامات تغنى (فى الكنيسة) ، وقد سميت بالهاجيوبوليتيس ، هكذا ، بسبب ما أولاه القديسون الشهداء والقديسون الآخرون إياها من عناية خاصة ،

= عليه هنا اسم ميليزيان (الميليزى) ؛ وفضلا عن ذلك ، ففي زمن الملك البطلمى الموسيقى ، ولم يكن هذا شخصا آخر سوى بطليموسى أوليتيس (أى الزمّار) ، الذى عاش قبل ميلاد المسيح بأكثر من ستين عاما ، كان الناس لا يزالون بعيدين عن التفكير فى الموسيقى اليونانية الحديثة إذ لم تبتكر هذه إلا فى القرن الميلادى الثامن ؛ وإن كان هذا خيلاء يكاد يكون طبيعيا شائعا بين كل البشر ، يحدو بهم أن يبحثوا عن أصل قديم لكل ما يخصهم ، معتقدين بذلك أنهم يزيدون من جدارته . ولعل اليونانيين المحدثين ، بإرجاعهم ، على هذا النحو ، زمن ابتكار موسيقاهم ، لا يتصورون أنهم يرجعون بنحو تسعمائة عام ، وجود مبتكر موسيقاهم ، القديس جان دماسين ، وأنهم يفترضون له وجودا سابقا ، بأكثر من قرن على قيام المسيحية نفسها .

(١) على هذا النحو نترجم كلمة « إيبيخيماتا » التى لا توجد قط فى المعاجم ، والتى تعود ، ربما ، إلى اليونانية الحديثة ، وقد اشتققنا من هذه الكلمة ، الفعل إيبيخنو والذى يعنى أفرغ فى ، صب فى داخل ، نثر فوق ، ذلك أن الإبيخوماتا ، هى فى الواقع مقامات من نوع المقامات الأول والمحاط المتوهمة ؛ وسنرى فى السياق أن هذا التفسير يقوم على أساس قوى .

(٢) العبارة اليونانية الواردة فى النص تعنى حرفيا : فى المدينة المقدسة وقد أحللنا محل هذه الكلمات عبارة : فى الكنيسة ، لأننا نظن أن هذه هى فكرة المؤلف ، الذى يميز هنا بين المقامات الكنسية وبين مقامات الغناء الدنيوى ، كما سنرى بعد ذلك ، بشكل أكثر وضوحاً .

(٣) يوجد بالنص كذلك أجيوبوليتين (هاجيو بوليتيس) أى المدينة المقدسة .

(٤) تركنا هنا كذلك كلمة هاجيوبوليتيس hagioplites بسبب الشرح الذى سنقابله بعد قليل .

فالآباء الشهداء من الشعراء[١] ، وسان جان دماسين والقديسون الآخرون ، كانوا يترنمون فى الهاجيوبوليتيس[٢] حيث يرقدون أو حيث يقيمون (أى يهجعون أو حيث دفنوا ، أو حيث توجد رفاتهم المقدسة) .

---

(١) لو أننا آثرنا اتباع رأينا لقلنا مؤلفى الأغنيات بدلا من كلمة الشعراء ذلك أنهم يطلقون فى هذه الدراسة على الغناء اسم الأشعار ، ويسمون الغناء شعرا . وبمعنى آخر ، فإن من الواضح أن هذه الكلمات ، أشعار وشعر ؛ لا تؤخذ هنا بالمعنى الذى تأخذانه عادة ، وإنما تأتيان هنا بمعنى **العمل المؤلف** ، أو **التأليف** . باعتبارهما مأخوذتين من الفعل Pariô الذى يعنى : يصنع ، يؤلف الخ . وبالتالى فإن كلمة شعراء هنا تعنى مؤلفى أو مبتكرى الغناء ، ولهذا السبب فإن القديس (حنا) داماسين قد وُضع على رأسى هؤلاء باعتباره مبتكرا للموسيقى اليونانية الحديثة .

(٢) يطابق هذا فيما يبدو لنا المعنى الذى أعطيناه لكلمة هاجيوبوليتيس عندما حولناها إلى كنيسة (بدلا من المدينة المقدسة) ؛ ومن المعروف أن الكنائس ، ونحن هنا نتحدث عن المكان وليس عن جماعات المؤمنين ، كانت فى الأزمنة الأولى للمسيحية أماكن مخصصة لحفظ ما يتبقى من رفات أجساد الشهداء بعد استشهادهم ، وأنه ، هناك كان المسيحيون الأول يتجمعون للعبادة ، وأن هذه الأماكن نفسها ، بعد ذلك ، أصبحت مقصورة على العبادات والصلوات والطقوس ، وأنهم كانوا يطلقون عليها اسم القديس الذى يحظى بأكبر قدر من التبجيل ، فى المنطقة بفعل معجزاته أو فضائله ، ولهذا السبب أطلق مؤلفنا اسم هاجيوبوليتيس ، أى المدن المقدسة ، على الكنائس .

ويظن المسيو أشانتر ، مؤسسا رأيه فى ذلك على شهادة المسيو جورجيادس اليونانى ، أن الهاجيوبوليتيس تعنى ديوانا من الأناشيد أو التراتيل ، التى نظمت على شرف الشهداء على نحو قريب من النوع الذى يطلق عليه اسم أناشيد الشهداء Commun des martyrs ؛ لكن هذه الملاحظة لا تأتى ، يقينا ، من رجل لديه فكرة واضحه عما نسميه نحن بهذا الاسم ، وإلا لكان قد عرف أن الأمر لم يعد أمر مجموعة أناشيد ؛ فهذه مجموعة أناشيد الرسل ، وهذه مجموعة أناشيد المقرين بالعقيدة ، وهذه مجموعة أناشيد العذراوات الخ ؛ وفضلا عن ذلك فلماذا تقتصر المقامات الثمانية على أناشيد الشهداء أو ما هى المقامات التى تخصص فى هذه الحالة ، للأغانى الأخرى ؟ ولماذا لا يتناولها الحديث ؟ والحقيقة أن غالبية أغنيات الكنيسة عند اليونانيين . على العكس من ذلك ، ليست هى الأناشيد أو التراتيل ، وإنما هى أغنيات أخرى من نوع المَرَد (كلام من القرض =

« س – وكم مقاما يوجد ؟

« ج ـــ أربعة : أ ، ب ، ج ، د[١] ومن خفض (أو قلب) هذه المقامات تتفرع مقامات أخرى هى المقلوبات الأربعة (أو المحاط المتوهمة plagal) وهذه المقلوبات أو المحاط المتوهمة قد نشأت عن الأربعة الأول باعتبارها البُعُم (جمع بعيم) أى النماذج المحتذاة ، وقد تكونت الأربعة مقامات الوسيطة[٢] بالطريقة نفسها على المحاط (أو المقلوبات) الأربعة بحيث يكون وسيط الأول[٣] هو الخفيض

= الكنسى) والتسبيحات ، والترانيم الدينية عندنا ، ويلزم الكثير حتى نصدق أن تكون هذه الأغنيات قد نظمت بشكل يجعلها مقصورة على تخليد ذكرى الشهداء . وهكذا فإن أغنيات الهاجيوبوليتيس ليست شيئا آخر سوى أغانى الكنائس المسماة بالمدن المقدسة مقابلة بالحكومة الزمنية ؛ وهذه الأغنيات تقتصر على ثمانية مقامات مختلفة ، فى حين أن الأغانى الدنيوية تتقبل عددا أكبر من المقامات .

(١) يوجد فى النص  ، وهو ما يعنى الأول والثانى والثالث والرابع ، لأن هذه الحروف مأخوذة هنا بقيمتها العددية ؛ وهذه الطريقة فى الاشارة إلى المقامات ، قد استعيرت فيما يبدو من الطريقة التى استخدمها القديس جريجوار ، والتى كان يقلد فيها اللاتين .

(٢) تقابلنا هنا الكلمة اليونانية : إيسى وتعنى الوسيلة أو الطريقة ؛ ويغير هذا إذن بالتأكيد من الافتراض الذى افترضناه بخصوص كلمة إيبيخيماتا التى دار الحديث عنها ، فى الإجابة الأولى من الصفحة السابقة .

(٣) المقام الوسيط أو الأوسط ، وقد سمى على هذا النحو ، ترجيحا ، لأنه يأخذ الوسط بين المقام المبدئى ومحطه المتوهم (أو مقلوبه) ، الذى هو فى الخماسية النازلة أو الهابطة ؛ وفى الواقع فإن المقام الوسيط يقوم على الدرجة الثالثة هبوطا بدءا من المقام (التون) المبدئى ؛ وهذه الدرجة هى الوسط الدقيق للخماسية ، أو للدرجات الخمس التى تتكون فيها الفاصلات الواقعة بين هذا المقام المبدئى وبين محطه المتوهم ؛ وعلى سبيل المثال فإنه يقال إن وسط المقام الأول هو الغليظ أو الخفيض ؛ ومن المعروف أن الغليظ أو الخفيض هو المحط المتوهم للمقام الثالث ، وهو المقام الفريجى ، أى أنه هو الهيبوفريجى ؛ وبمعنى آخر ، فإذا كان المقام الأول مى ، فينبغى أن يكون الثالث سول ؛ ويكون المحط المتوهم لهذا المقام ، أى خماسيته الهابطة هى بالضرورة أوت ut ، التى هى فى الواقع النغمة الثلاثية تحت مى ، وتتخذ مكان الوسط بين هذا المقام الأول مى ومحطه المتوهم =

(أو الغليظ)[١] ووسيط الثانى هو محط الرابع (أو مقلوبه)[٢] ووسيط الثالث هو محط أو مقلوب الأول ، ووسيط الرابع هو محط أو مقلوب الثانى . ومن هذه المقامات الوسيطة الأربعة تولدت المقامات الأربعة المشتقة ، وعلى هذا النحو انبثقت المقامات الأربعة عشر ، التى تستخدم ، فى واقع الأمر ، فى الغناء ، وليس فى تراتيل الكنيسة[٣] .

« س — وماذا عليك أن تفعل قبل أن تشرع فى الغناء ، وماذا ينبغى أن يعرفه المرء لذلك ؟

« ج — أن يبدأ فى الانشاد[٤]

« س — وما هو المدخل الغنائى ؟

« ج — هو إعداد أو تمهيد المقام[٥] كما هو الحال فى تكرار **أنانيس** ananes[٦] .

« س — وما هو الأنانيس ؟

« ج — على سبيل المثال أناكس أنيس anax anes[٧] .

= أى خماسيته الهابطة لا ؛ ويكون لدينا فى هذا التسلسل مى كمقام أولى ، وأوت ut كمقام وسيط ، ولا كمحط متوهم للمقام الأول ؛ وهذا التسلسل هو نفسه بخصوص كل المقامات .

(١) ينبغى التذكر أنه يشار على هذا النحو إلى المحط المتوهم للمقام الثالث أى الهيبوفريجى .

(٢) ليس من العسير معرفة المقام المبدئى أو مقلوبه أى محطه المتوهم ، مادام هو فى النغمة الثلاثية تحت المقام المبدئى ، أو النغمة الثلاثية فوق المقلوب أو المحط المتوهم ، على النحو الذى أمكننا ملاحظته ، بفعل التجربة أو البرهان الذى قمنا به فى الهامش الأسبق .

(٣) توجد هنا كذلك كلمة **هاجيوبوليتيس** ، ونرى ، كما سبق أن لاحظنا ، أن أغانى الهاجيوبوليتيس ، وقد وضعت هنا فى مقابل الأغنيات الدنيوية التى تستخدم الأربعة عشر مقاما ، فى حين أن أغانى **الهاجيوبوليتيس** لا تقبل سوى ثمانية مقامات . وبمعنى آخر ، فإن هذه هى المقامات المستخدمة فى الأغانى المختلفة للكنيسة ، والتى تتضمنها الباباديكه .

(٤) كى ميتا (أى وبعد ذلك) إيبيخيماتوس .

(٥) باليونانية : إيسين إى تو إيخو إيبيسى (أيضا) إيون أنابلييون أناسيس .

(٦) وهو المدخل الغنائى للمقام الأول .

(٧) وهى الكلمات الأولى لأغنية فى المقام الأول .

« س – وما هو المدخل الغنائى للمقام الثانى ؟

« ج – **نيانيس**[١] neanes .

« س – وما النيانيس ؟

« ج – على سبيل المثال كيريا أفيس Kyrie aphes [٢] .

« س – وما المدخل الغنائى للثالث ؟

« ج – **نانا**

« س – وما النانا ؟

« ج – على سبيل المثال باراكليتا سنخوريسون Paraklête synchôreson[٣] .

« س – وما المدخل الغنائى للمقام الرابع ؟

« ج – **هاجيا** .

« س – وما الهاجيا ؟

« ج – على سبيل المثال شيرويم وصيرافيم[٤] وهو يرتل فى هذا المقام على غرار الترتيل الذى يبدأ على هذا النحو : **أنت يامن تتجلى فى السماء على الأرض اسمح لى أن احتفى بلك ، وأن أرتل أكثر الأناشيد جدارة بقدسيتك الخفية التى لا نراها** »

« س – وكم عدد الأرواح ، ولماذا سميت على هذا النحو[٥] ؟

« ج – هناك أرواح أربع[٦] وقد سميت بالأرواح لأنها تشكل نهايات للأصوات

---

(١) سنجد كل هذه المداخل الغنائية فى شجرة الجذور عند نهاية هذا المبحث .

(٢) الكلمات الأولى لأغنية فى المقام الثانى .

(٣) الكلمات الأولى لأغنية فى المقام الثالث .

(٤) الكلمات الأولى لأغنية فى المقام الرابع .

(٥) لم نعتقد أن علينا أن نحذف هذا التكرار أو هذه الثرثرة لأنها تقود إلى أسئلة أخرى مساعدة ، لم نستطع أن نضعها فى مكان آخر ، وكان من المفيد أن نعرفها .

(٦) أضفنا بداية هذه الإجابة لأن السؤال يقتضى ذلك ؛ ولأن النقص البادى فى النص جاء سهوا من جانب المؤلف أو الناسخ ، ولا يمكننا أن نشك فى صحة هذا الافتراض من جانبنا .

(أى للفاصلات)(١) ولأنها لا توجد قط فى غيبة النغمات الأخرى(٢) .

« س – وما **الصوت**(٣) (فونى) Phônê ؟

« ج – سمى الصوت(٤) على هذا النحو لأنه ضوء أو شعاع **الروح**(٥) ؛ وفى الواقع فإن ماتشعر به الروح يعبر الصوت عنه(٦) ، إذ يوجد فى نغمات الصوت ، كيان جسمى من نوع ما ، والصوت هو تأثير الأنفاس المتجمعة فينا ، ملحقا بفاعلية أو تأثير بعينه .

« س – وما **البابادیکه** ؟

« ج – هو فن الموسيقى .

« س – وكيف تسمون المقامات ؟

« ج – أ ، ب ، ج ، د ، الخ(٧) وليست هذه هى الأسماء الأصيلة ، وإنما هى إشارات وحسب(٨) إلى المقامات الثمانية لأن أ ، ب ، ج ، د(٩) ، إنما هى إشارة إلى

---

(١) يوجد فى النص اليونانى عباة « ياتو فوناس إيبيتيلين ايبيتالين » ومعناها : أنها تنهى أو تتمم الأصوات ، وهو أمر غير قابل للفهم فى (الفرنسية) . وقد أحللنا كلمة **فاصلات** محل كلمة **أصوات** ، المأخوذة هنا بالمعنى نفسه ، ذلك أن اليونانيين ، كما سبق أن رأينا ، يطلقون اسم **أصوات** على الفاصلات النغمية .

(٢) أى التى تختم الفاصلة التى بدأت المقامات الأخرى ، والتى عبر عنها بالإشارات المسماة **بالأجسام** ، والتى لا تستعمل بدونها قط .

(٣) كتبنا الكلمة اليونانية فونى Phônê التى تعنى **صوت** ، قاصدين أن نركز الاهتمام ، بدرجة أكبر ، على المعنى الاشتقاقى الذى يعطيه المؤلف لهذه الكلمة .

(٤) Phônê فونى أى : صوت .

(٥) to phôs تو فوس ، أى : ضوء .

(٦) العبارة اليونانية تعنى حرفيا : لأن ما تشعر به دخيلة النفس (أو الروح) ، يسلط الصوت والضوء عليه .

(٧) فى النص نجد الحروف α', β, γ, δ ؛ وهى هنا مستخدمة بقيمتها العددية وتقابل كلمات ؛ الأول ، الثانى ، الثالث ، الرابع .

(٨) ترجمنا الكلمة اليونانية المستخدمة هنا وهى **أونوماتا** ؛ بمعنى أسماء بكلمة designations (بمعنى مدلولات ، تحديدات تسميات) لأن سياق الجملة يقتضى هذا التفسير .

(٩) يارايبين : ا ، ب ، ج ، د .

الدرجات وليس إلى الأسماء . قد قلت لك إذن إن المقام الأول يسمى **بالدورى** ، والثانى يسمى **بالليدى** ، والثالث **بالفريجى** ، والرابع هو **المكسوليدى**(١) ، ومحط الأول (أو مقلوبه) هو **الهيبودورى** ، ومحط الثانى هو **الهيبوليدى** ، ومحط الثالث هو الخفيض (أو الغليظ) ، أو **الهيبوفريجى** ، أما محط الرابع أو مقلوبه فهو **الهيبومسكو ليدى**(٢) . »

وبعد صفحات ثلاث ، يكرر خلالها المؤلف ما قاله بشأن الإشارات أو العلامات ، نجدنا من جديد أمام تفاصيل حول المقامات ، وحول تغيرها ، أو تبدلها ، ننقلها هنا لأنها ستعطينا الفرصة ، كذلك ، للقيام ببعض الملاحظات التى تهدف إلى تبديد الغموض الشديد الذى خيم على نصوص هذه الدراسة ، على نحو ما كان يحدث فى كتب الباباديكه التى عرفناها حتى اليوم ، وهكذا يعود المؤلف إلى الحديث عن المقامات التى كان قد هجرها (أى انتهى منها) .

« وإذا رفعت الصوت فوق التون (المقام أو الطبقة) الأولى أنانيس تحصل على المقام الثانى نيانيس ، وبعد ذلك فإذا رفعت الصوت بالمثل(٣) فوق المقام الثانى

---

(١) وهكذا يطلق هنا اسم مكسوليديان على المقام الرابع ، بدلا من ميليزيان (ميليزى) ؛ ولا يلزمنا أكثر من ذلك لتأكيد ما سبق أن لاحظناه عند الحديث عن اسم الميليزى الذى يطلق على هذا المقام .

(٢) ونلاحظ هنا كذلك استخدام اسم هيبومكسوليدى وليس هيبوميليزى ، على نحو ما رأينا من قبل .

(٣) التجربة وحدها هى التى تستطيع أن تبين لنا عدم الدقة فى هذا التعبير ، فالمؤلف يطلق عبارة : يرفع الصوت بدرجة متساوية ، عندما يتم رفعه بشكل طبيعى وفقا للنظام الدياتونى للأنغام أو المقامات ؛ ذلك أنه من المقام الأول أنانيس إلى المقام الثانى نيانيس يوجد فرق يبلغ فاصلة تون ، فى حين أنه من المقام الثانى نيانيس إلى الثالث نانا لا يبلغ الفرق سوى نصف تون ، كما سنرى بعد قليل ، فى اللوحة التى سنقدمها عن المقامات ، وفى شجرة هذه المقامات نفسها وتحولاتها وتنغيماتها ؛ وخطأ واحد من هذا النوع ، يحول المعنى الحقيقى الذى يقصده المؤلف ، قد يكفى لإلقاء الشكوك فى روع الأجنبى ، بأن اضطرابا شديدا يرين على كل هذا النظام الموسيقى . وفى الحقيقة فإنه توجد فى الباباديكه ، بل يمكن القول بأن ذلك يشيع فى كل جملة =

تحصل على المقام الثالث **نانا** ، وإذا رفعت الصوت بالمثل فوق المقام الثالث تجد معك المقام الرابع **هاجيا** ، وأخيرا فإنك إذا رفعت الصوت فوق الرابع تشكل لك المقام الخامس **إنيانيس**[١] .

« س ـــ وكيف تبلغ المقام الرابع عن طريق هذا الخطو المستمر صعودا ؟

« ج ـــ بالطريقة نفسها التى تكونت بها المقامات الأربعة ، ينبغى كذلك أن نؤلف نغماتها الأربع » [٢] .

عن المحاط المتوهمة أو المقلوبات

« بدءا من المقام الأول انزل أربع فاصلات [٣] فتحصل بذلك على المحط المتوهم (أو مقلوب) للمقام الأول ، وهو المحط المسمى إنيانيس [٤] فإذا نزلت بالمثل بدءا من المقام الثانى ، لأربع فاصلات حصلت على المحط المتوهم الثانى المسمى **نيبانيس** neeanes وهكذا بالنسبة للباقى ، وذلك أنك ، كما سبق لنا القول ، إذا رفعت

= أو عبارة فيها ، غموض مماثل لذلك الذى يستوقفنا هنا ؛ وباختصار ، فقليلة تلك الدراسات الموسيقية التى يمكننا أن نلاحظ فيها دقة صارمة فى العبارات ، سواء فى فرنسا أو فى ايطاليا أو فى أى مكان آخر ، فاللغة الفنية (أى التقنية) تزخر فى هذه البلاد ، بل وعند كل الشعوب ، بمصطلحات وتعبيراتها تنطوى على معان خاصة ، ومجازية ، وفى الكثير من الأحيان ، تدل على مدلولات مختلفة ، لحد لا تكون معه دراسة النظرية أمرا يسهل فهمه ، دون معونة مدرس ، وبدون تجربة الممارسة .

(١) لكى نفهم كل ذلك ، فإن من الضرورى أن نرجع إلى شجرة جذور المقامات .

(٢) يستخدم اليونانيون كلمة إيخوس بمعنى تون أو مقام ؛ وكلمة فونى بمعنى تون ، **ارتفاع أو انخفاض الصوت** ، وبالتالى كذلك بمعنى فاصلة مغناة ، أو نغمة .

(٣) نترجم هنا كلمه phônâs فوناس بكلمة **فاصلات** وليس بكلمة **أصوات** أو أنغام ، لأن الكلمة (المستبعدة) ستكون غامضة فى هذا السياق ؛ فالأمر فى الواقع يتعلق بالفاصلات الأربع التى تشكل الخماسية ؛ ولو لم نكن قد اكتسبنا ثقة جاءتنا عن طريق التجربة ؛ لما كنا لنستطيع على أكثر تقدير سوى أن نفترض أو نخمن ؛ لكننا نستطيع أن نقدم ما نلاحظه هنا ، وعلى مسئوليتنا ، كحقيقة واقعة ، لمسناها بفعل الممارسة .

(٤) انظر شجرة المقامات .

الصوت فوق المقام الأول ، تكون لك المقام الثانى ، وإذا رفعته ثانية تكون المقام الثالث ، والشيء نفسه بخصوص المحاط المتوهمة (أو المقلوبات) ، فكل منها يرتفع تدريجيا فوق السابق عليه ويرتبط به[1] : هكذا علمنا شعراء الكنيسة[2] فقد أحصوا أربعة مقامات رئيسية ، ومن هذه المقامات كونوا المحاط المتوهمة الأربعة ، والمقامات الوسيطة والمشتقة ، أما أولئك الذين يقولون بوجود ستة عشر مقاما فيخطئون ، فهذه ليست سوى مشتقات من المقامات الثمانية ، أى من الأربعة مقامات الأول ومن المحاط المتوهمة الأربعة ، وكذلك من الوسيطين **نينانو ونانا** ، لقد ألف داود التونات الأربعة أو المقامات الأربعة [3] وألف سليمان ، ولده ، المحاط الأربعة المتوهمة (أو المقلوبات) ، وكذلك الوسيطين **نينانو ونانا** » .

ثم يقول المؤلف :

« ولقد كتبت هذا للغاية نفسها التى أنشد لها بسليمان فى معبد أورشليم ، وعلى المقامات العشرة ، المزمور لوداته ، أى التسابيح حيث تتكرر كلمة : سبحوا عند بداية كل واحدة من آياته العشر .

---

(١) حتى نتصور تسلسل أو ترابط المحاط المتوهمة (أو المقلوبات) ، ينبغى أن نلجأ إلى شجرة المقامات .

(٢) نجد فى النص عبارة : **تيس راكليسياس بيتى** ، أى شاعر الكنيسة ولم نجرؤ على ترجمتها على النحو الذى اقتنعنا أن نترجمها عليه ، أى بعبارة **مؤلف غناء الكنيسة** ؛ ومع ذلك فسيكون من السهل على الدوام أن نحل ، عقليا ، هذا المعنى فى مكان المعنى الأول ، إذا تفهمنا الأسباب التى عرفناها فيما سبق . والتى جعلتنا نفضل هذا التعبير على الترجمة الحرفية التى لن تقدم ، فى لغتنا ، الأفكار نفسها التى تقدمها فى اليونانية .

(٣) نقرأ فى النص عبارة يونانية تقول : وقد ألف داود المقامات الأربعة أى الأصوات الأربعة ؛ وهنا فإن كلمة فوناس ينبغى أن تفهم على أنها المدخل الغنائى ، وحيث أن المدخل الغنائى يدل على المقام ، أو أنه على نحو ما اختصار له ، فقد ظننا أن المعنى لن يفقد شيئا هنا إذا ما أحللنا لفظة مدخل غنائى محل كلمة صوت ؛ أو بالأحرى ، ولنقلها صراحة ، فإن خبرتنا الطويلة بالموسيقى الأوربية ، والمعرفة العملية التى لدينا عن الموسيقى اليونانية الحديثة ، لا تدع مجالا للتشكك أو التردد ، حول المعنى الذى آثرناه .

« وتوجد حول فن البباديكه أشياء أخرى قد لا يستطيع المرء أن يتذكرها ، وفضلا عن ذلك فحيث أن التعريف الواحد يمكن أن يؤوّل بألف طريقة ، فسنمر بها مرور الكرام حتى لا ننشر الخلط والاضطراب فيما قلنا [١] إذ يفسر دماسين ، على نحو مخالف ، المقامات الثمانية [٢] »

ثم يعود المؤلف مرة أخرى إلى علامات الغناء ويكرر ماسبق أن قيل مرات عديدة ثم ينهى حديثه بغتة قائلا : « وهذا هو كل ما يتصل بهذه الجزئية[٣] فالمجد للرب فى كل العصور ، وهكذا كان » .

(١٦٩٥ بخط يد إيما نويل كالوس ، ٢٩ أكتوبر) .

وحيث قدنسى المؤلف أن يعرفنا بالاشارات التى تستخدم للدلالة على تحولات أو تغيرات فى المقام ، فإننا نستعير مايلى ، من الدراسة الثانية التى فى حوزتنا ، وسنلحق بها المداخل الغنائية الخاصة بكل مقام ، طبقا لما تعلمناه فى دروسنا ، ثم سنقدم لوحتى جذور الأنغام أو المقامات ، التى نسخناها بمعونة من دوم جبرائيل من إحدى الدراسات عن الغناء ، التى فى حوزتنا ، حيث كانت تشكل هاتان اللوحتان نوعا من الزخارف المرسومة فى شكل كريمات (كرمة عنب) .

« على هذا النحو كتبت إنتقالات أو تحولات المقامات الثمانية فى الستيشيراريون stichêrarion وفى البباديكه »

---

(١) إذن فاليونانيون أنفسهم يعترفون بالقصور الذى نعيبه على دراساتهم عن الغناء ، مادامو يعترفون بأن هناك ثرثرات تتكرر ، مع خلط واضطراب سواء فى دراساتهم الموسيقية أو فى كتب البباديكه .

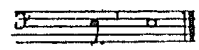
(٢) هناك محل للاعتقاد ، بفعل ما يقول المؤلف ، بأن المبادىء ليست على وجه الدقة ، هى المبادىء نفسها التى كانت قائمة فى زمن جان داماسين ، أول من ابتكر هذا النوع من الموسيقى .

(٣) نقرأ فى النص كلمة سندوميا ، وتعنى : موجز ، مختصر ، نبذة ، شيء من ؛ وفى واقع الأمر فإن هذا الجزء الأخير عن بداية المقامات ، مقتطع مما سبق .

تحولات أو إنتقالات المقامات الثمانية

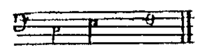
[من الشمال إلى اليمين]

تحول المقام الأول

Φθορὰ πρώτου ἤχου....... Mutation du premier ton... 

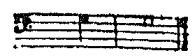
نيس نا

تحول المقام الثانى

Φθορὰ δευτέρου ἤχου...... Mutation du second ton. . 

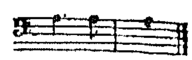
نيس ا نيـ

تحول المقام الثالث

Φθορὰ τρίτου ἤχου....... Mutation du troisième ton. . 

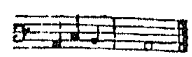
نا..نا

تحول المقام الرابع

Φθορὰ τετάρτου ἤχου...... Mutation du quatrieme ton. 

(١) أ جيـ ها

تحول مقلوب المقام الأول

Φθορὰ πλαγίου πρώτου ἤχου. Mutation du plagal du 1.er ton. 

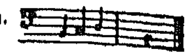
A-ne-a - nes.

نيس ا نيـ

---

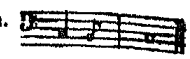
(١) ينبغى علينا هنا ، أن نلفظ حرف الجيم معطشا ، كما ينبغى أن نفعل ذلك فى كلمة نياجى néagie فيما بعد .

تحول مقلوب المقام الثانى

Φθορὰ ... πλαγίου δευτέρου ἤχου. Mutation du plagal du 2.e ton. 

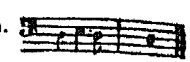
نيس أى نى

تحول مقلوب المقام الثالث

Φθορὰ ... βαρέως ἤχου. . . . . . . Mutation du grave du 3.e ton. 

نيس آ

تحول مقلوب المقام الرابع

Φθορὰ ... πλαγίου τετάρτου ἤχου. Mutation du plagal du 4.e ton. 

ى جـ ا نى

تحول المقام نينانو

Φθορὰ ... νενάνω ἤχου. Mutation du ton de nenanô.

هيميفونون.

. . . . ἡμίφωνον. Hèmiphônon.

هيميفثورون

. . . . ἡμίφθορον. Hèmiphthoron.

ولم تخبرنا الدراسات التى فى حوزتنا ، كما لم يخبرنا دوم جبرائيل ماهو غناء (أو النغم الغنائى) هذه التحولات أو الانتقالات الثلاثة الأخيرة ، ولقد كان بمقدورنا ، دون شك ، أن نستدل عليها لو لم تكن تتوزعنا المشاغل المتضاعفة ، التى تثقل كاهلنا بها تلك البحوث المختلفة التى كنا نكب عليها فى وقت واحد معا ، فمن يوم لآخر ، حين كنا فى القاهرة ، كنا نكتشف بعض مواطن السهو ، سواء أكانت قد فاتتنا نحن هذه السهوات أم كانت قد فاتت أولئك الذين كنا نستقى منهم معلوماتنا ومعارفنا ، وكنا نسارع بإصلاح الخطأ ، وهكذا ، فلعله كان بمقدورنا أن نتدارك هذا النقص ، مع سد ثغرات أخرى كثيرة ، لو كان الوقت قد سمح لنا بذلك .

المبحث التاسع

حول النظام الموسيقى عند اليونانيين المحدثين

ينبىء نسق وتركيب النظام الموسيقى عند اليونانيين المحدثين ، كما تنبىء العلامات التى يستخدمونها لتدوين هذه الموسيقى ، وكذا القواعد التى تُعرفُهم كيفية استخدام هذه العلامات عند ممارسة الفن — ينبىء ذلك كله فى الحقيقة عن عمل حاذق ، قام على أساس تصور ذكى ، ونفذ ببراعة ، على يد رجال ذوى خيال كبير ، وعقلية واسعة ، وثقافة عالية ، ومع ذلك فإن كل شىء يكشف ، كذلك ، عن أن هذا العمل قد ظل منذ نشأته ، وحتى الوقت الحاضر ، على حالته الأولى ، وأنه لم تتناوله تلك التغييرات النافعة التى كانت ستحدثه فيه بالضرورة ، معطيات التجربة والتفكير ، لو أن هذا الفن قد تخلق تدريجيا بمرور الزمن ؛ فكل شىء بالتالى يشهد بأنه لم يبلغ درجة الكمال أو النضج التى كان بمقدوره أن يبلغها .

إن أى شخص قد درس وجنى ثمار ماكتبه الفلاسفة والمؤرخون والبلاغيون والموسيقيون ذائعو الصيت فى اليونان العالمة ، أو ما كتبه أقرانهم فى العصور المزدهرة التى مرت بالامبراطورية الرومانية ، حول الفصاحة التامة والموسيقى الحقيقية — أو درس كذلك مؤلفات من سار على دروب هؤلاء ، منذ ذلك الحين ، سوف يلمس ، دون مشقة ، أن النظام الموسيقى عند اليونانيين المحدثين يتخذ قاعدة له ، المبدأ الرئيسى للغناء الخطابى ، والذى كانت الفاصلات الموسيقية ، من رباعيات وخماسيات ، تعد طبقا له ، التناغمات (أو السجعات) الأكثر طبيعية والأتم اكتمالا ، والتى ينبغى أن يرتكز عليها الصوت ، سواء عند ارتفاعه أو عند انخفاضه ، سواء كان ذلك فى مجال الخطابة أو فى مجال الغناء[1] .

---

(١) ولهذا السبب ، فقد كرس دينيس داليكارناس ، فى دراسته عن فن تنسيق أو ترتيب الكلمات ، مستندا فى ذلك على تأثير الشعراء والخطباء والموسيقيين بالغى التميز ، هذا المبدأ ، حين وضع قاعدة بألا يرفع أو يخفض الصوت قط فى الخطب (التى تصحبها الموسيقى) ، إلا بمقدار فاصلة رباعية ، أو خماسية على الأكثر . وقد أدرك الجميع ، على الدوام ، ضرورة هذا =

وفى الواقع ، فإن كل مرحلة دياتونية منتظمة وكاملة فى الموسيقى ، تتألف إما من سلم موسيقى ذى درجات أربع منفصلة ، أى من نظامين من أربع نغمات ، وإما من رباعية وخماسية ، سواء عند الصعود أو عند النزول ، كما فى سلمنا ، أو من سلمين رباعيين متصلين كما فى القيثارة سباعية الأوتار عند الأغريق .

ولا تمتد شجرة التحولات أو الانتقالات فى النظام الموسيقى لليونانيين المحدثين ، عند كل تحول أو انتقالة ، إلى أبعد من فاصلة نغمة خماسية ، إذ هى تنزل أولا من الحاد إلى الغليظ (أى من الجهير إلى الخفيض) بمقدار سلمة دياتونية ، ثم تصعد من جديد بمقدار سلمة مماثلة من الغليظ إلى الحاد ، وهو الأمر الذى يرفع الصوت بعده بمقدار درجة فوق النغمة الأحَدّ من النقلة السابقة ، لتتشكل الانتقالة التالية التى ننزل منها ونصعد ، على التعاقب ، من الخماسية فى النظام الدياتونى كما سبق أن مارسناه ، وهكذا دواليك حتى نصل إلى الرباعية ، فوق النغمة الحادة التى للانتقالة الأولى ، ومن هناك نعود عن طريق سلمة مشابهة ، مراعين فى الوقت نفسه ، وفى كل مرة ، ان نخفض النغمة الابتدائية لكل انتقالة جديدة ، بمقدار درجة ، بدلا من أن نرفعها كما فعلنا عند البدء ، وحين نكون قد عدنا إلى النقطة التى بدأنا منها تكون الدورة قد اكتملت بشكل تام ، وبهذه الطريقة ، نجد أن كل انتقالة تقوم ، على الدوام ، على الترتيب نفسه :

١ – نغمة أساسية يكون قرارها هو النغمة أو الرنة الأولى ، أو أشد النغمات حدة .

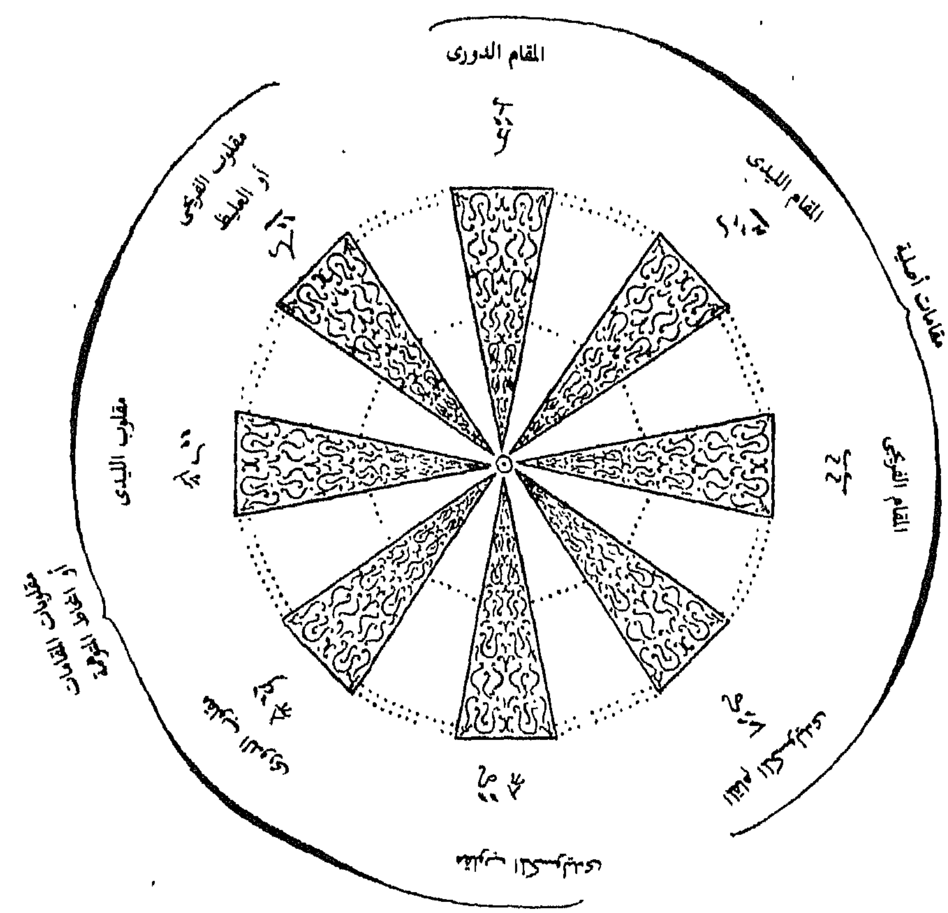
٢ – نغمة وسيطة قرارها هو النغمة الثالثة من هذه المجموعة نفسها .

= المبدأ ، حتى أنه ظل يُرْجَع إليه منذ العصور القديمة ، وحتى اليوم ، كما لو كان الناس يتفقون – رغما عنهم – فى ذلك مع معطيات الآلات الموسيقية ؛ وحتى أن هذا المبدأ قد ظل يشكل القاعدة فى كل النظم المعروفة عن هذا الفن ، وحتى أنه يستخدم مرشدا فى الطرب كما فى الهارمونى ، وحتى أنه قد تُقبِّل فى الخطابة البليغة ، تلك التى لم تعد تتواءم ، بعد أن صارت أكثر حطرا وأشد تكلفا ، إلا مع إيقاعات للصوت أكثر تحديدا وأعظم نضجا .

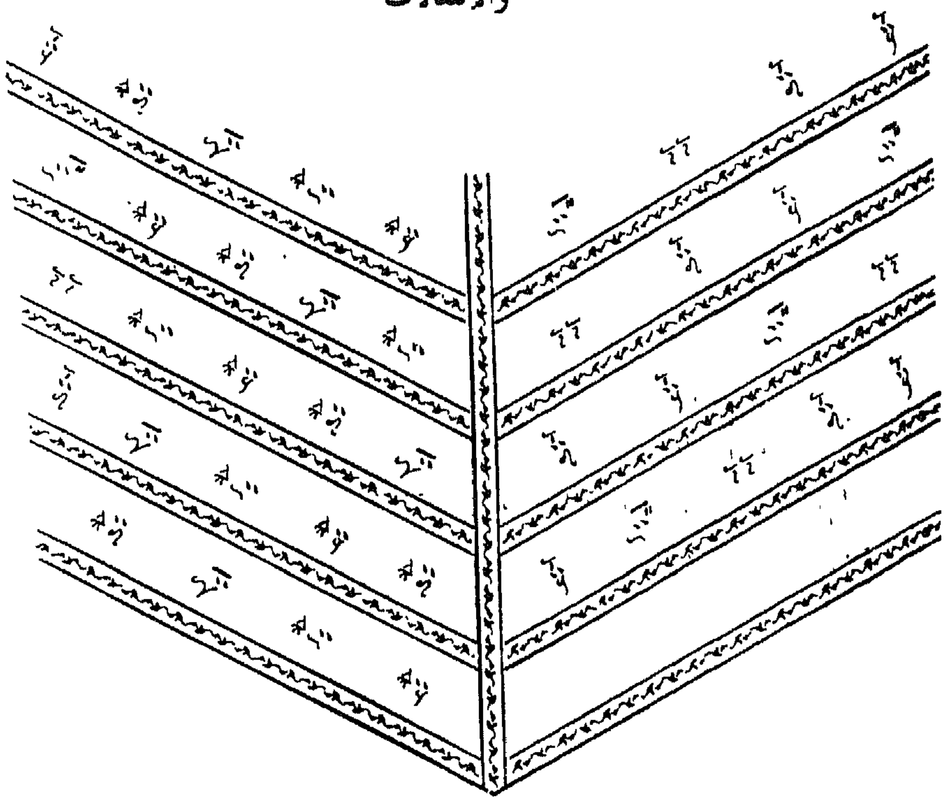
٣ – نغمة مقلوب أو محط متوهم ، قرارها النغمة الأكثر غلظة أو آخر هذه النغمات .

وسوف تؤدى الأمثلة التى سنقدمها فيما يلى إلى توضيح ما انتهينا من شرحه .

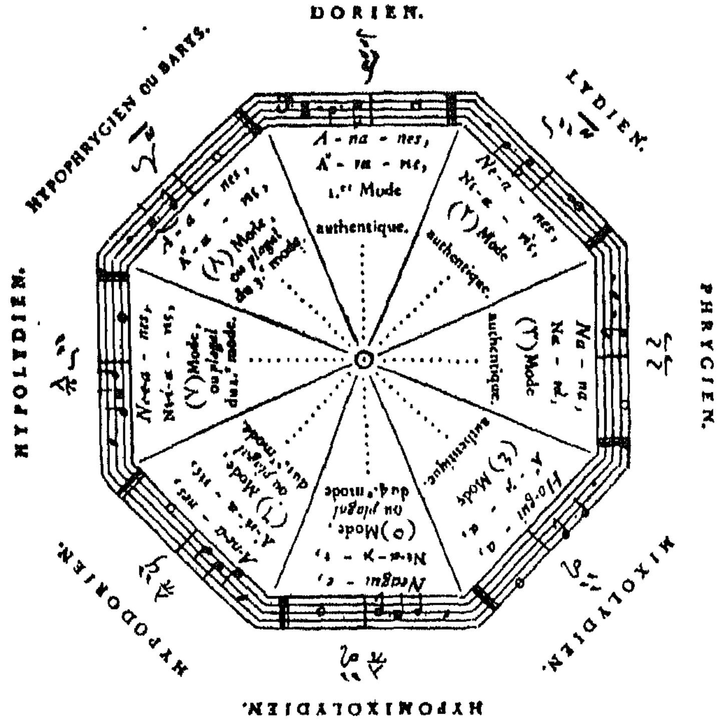
دورة المقامات طبقا للنظام الموسيقى
عند اليونانيين المحدثين



شجرة جذور المقامات
والانتقالات



توسيع للوحة السابقة
مع ترجمة الإشارات الموسيقية اليونانية
إلى إشارات موسيقية أوربية



بيانات الشكل الثانى (من أعلى الشكل ثم يمينا إلى النهاية)

القسم الأول : (الدورى ، أ ـــ نا ـــ نيس ، المقام الأول ، أصلى)

القسم الثانى : (الليدى ، نِـ ـــ يا ـــ نيس ، المقام الثانى ،أصلى)

القسم الثالث : (الفريجى ، نا ـــ نا ـــ ، المقام الثالث ،أصلى)

القسم الرابع : (المكسوليدى ، ها ـــ جيـ ـــ يا ، المقام الرابع أصلى)

القسم الخامس : (هيبومسكوليدى ، نيـ يا – جى ، المقام الثامن مقلوب الرابع)

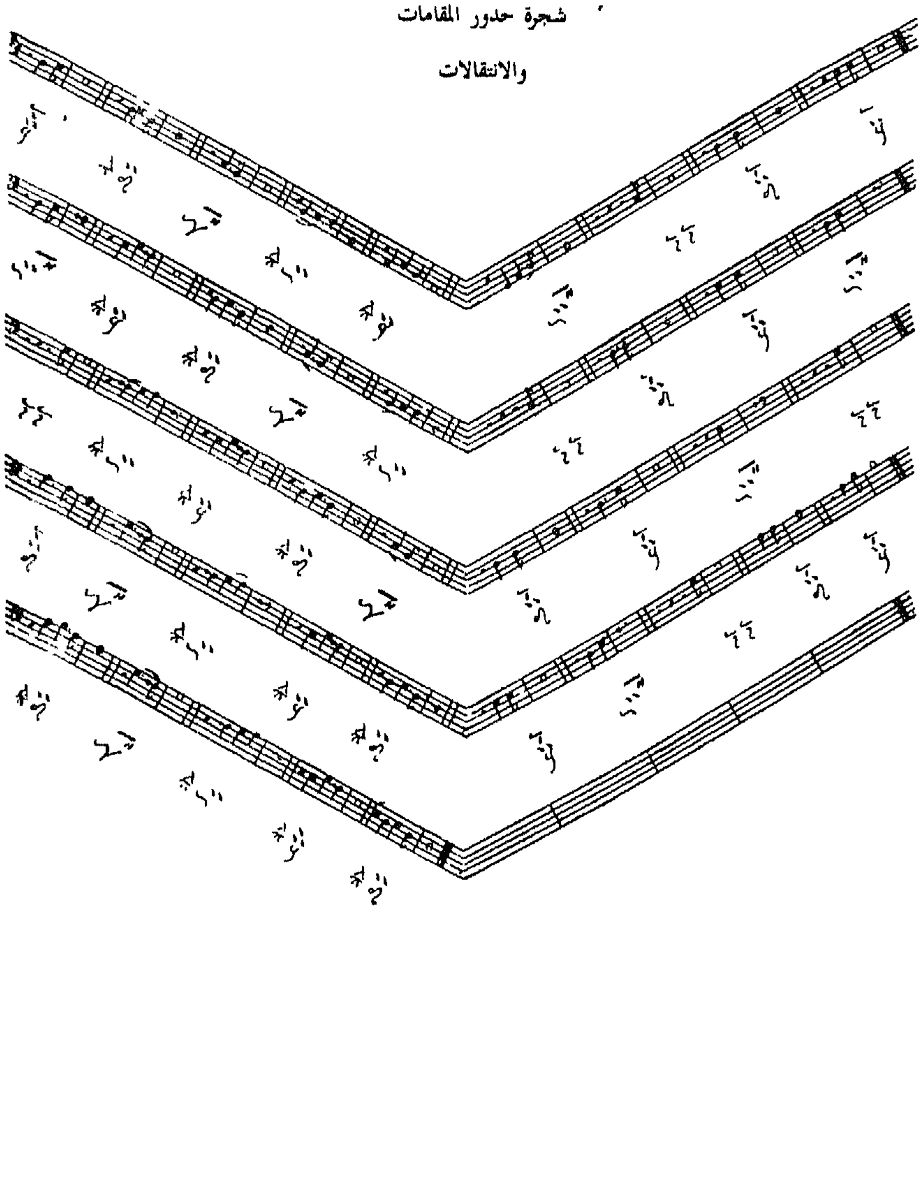
القسم السادس : (هيبودورى ، أ ـــ نيـ ـــ يا ـــ نيس ، المقام الخامس مقلوب الأول)

القسم السابع : (هيبوليدى ، نيـ ـــ يا ـــ نيس ، المقام السادس ، مقلوب الثانى)

القسم الثامن : (هيبوفريجى أو باريس أ ـــ نا ـــ نيس ، المقام السابع ، مقلوب الثالث)

شجرة حدور المقامات

والانتقالات



بيانات جذور المقامات : (من الشمال إلى اليمين)

السطر الأول : (فوق) : (نغمة رئيسية أو ابتدائية ، نغمة وسطى ، المقلوب الأول)
(تحت) : (أ.نا.نيس ؛ نياجيـ .ى.؛ آ .آ . نيس ؛ نيـ . يا . نيس ،
آ . نيـ . ا . نيس ، نيـ . ا . نيس ؛ نا . نا ؛ ها . جيـ . ا ؛
آ . نا . نيس)

السطر الثانى : (فوق) : (نغمة رئيسية أو ابتدائية ، نغمة وسطى ، المقلوب الثانى)
(تحت) : (نيـ . ا . نيس ؛ آ . نيـ . ا . نيس ؛ نيـ . ا . جيـ . ى ؛
آ.. نيس ، ني . يـ . ا . نيس ؛ نا. نا ؛ ها . جيـ . يا ؛ آ .
نا . نيس ؛ نيـ . ا . نيس)

السطر الثالث : (فوق) : (نغمة رئيسية أو ابتدائية ، نغمة وسطى ، المقلوب الثالث)
(تحت) : (نا . نا ؛ نيـ . يـ . ا . نيس ؛ آ . نيـ . ا . نيس ، نيـ . ا .
جيـ . ى ؛ آ .. نيس ؛ ها جيـ . ى ؛ آ . نا . نيس ؛
نيـ . ا . نيس ؛ نا . نا)

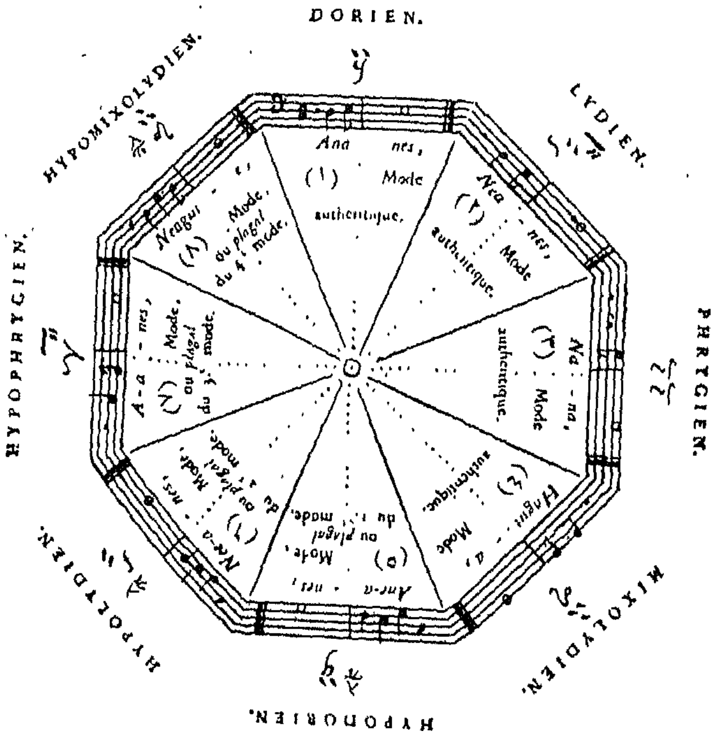
السطر الرابع : (فوق) : (نغمة رئيسية أو ابتدائية نغمة وسطى ، المقلوب الرابع)
(تحت) : (ها . جيـ . يا ؛ آ .. نيس ؛ نيـ . يا . نيس ؛ آ . نيـ . ا .
نيس ؛ نيـ . ا . جيـ . ى ؛ آ . نا . نيس ؛ نا . نا ؛ ها .
جيـ . يا . آ . نا . نيس)

السطر الخامس : (فوق) : (ـــ نغمة وسطى)
(تحت) : (نيـ . ا.جيـ . ى ؛ آ .. نيس ؛ نيـ . يـ ؛ ا . نيس .
آ . نيـ . ا . نبس ؛ نيـ . ا . جيـ . ى) .

ولقد أخطأ الناسخ اليونانى خطأ بينا ، عندما رتب ، كما فعل ، المقامات الوسيطة على الوردة التى رسمناها طبقا لرأية فى الشكل الأسبق ، والتى حولناها إلى نوتات موسيقية أوربية فى الشكل الثانى ، الذى يطالعنا فى الصفحة السابقة ، ولم يكن الخطأ محسوسا على هذا النحو ، حين لم يكن يشار إلى هذه المقامات إلا بعلامات اختصار ، ولكن حين كتبت الكلمات كاملة ، وحين دونت المقامات بالنوتة الموسيقية التى لها ، فقد أصبح الخطأ بينا ، فالتماثل القائم بين هذه المقامات ، والمقامات الأصيلة ، وشجرة الجذور التى قدمت عنها ، وكذلك القواعد فى النهاية ، كل ذلك يتطلب أن تتوافق أو تتجاوب المقامات الوسيطة مع المقامات الأصيلة ، وهكذا فإن المقام الهيبومكسوليدى ما كان له أن يرتبط بالمقام الدورى ، وإنما بالمقام المكسوليدى ، كما لابد أن يتجاوب المقام الهيبودورى مع المقام الدورى وليس مع المقام الليدى ، أما المقام الهيبوليدى فينبغى أن يرتبط بالمقام الليدى وليس بالمقام المكسوليدى ، بحيث ينبغى أن تأتى المقامات بالترتيب نفسه الذى رتبناها عليه فى هذا الشكل الصغير ثمانى الاضلاع[1] .

---

(١) ينبغى أن نقرأ النوتات من الشمال إلى اليمين ، بدءا من المقام الدورى ، الذى يشغل الشقة العليا من هذا الشكل الثمانى ، ثم نمضى مستديرين حتى نصل إلى المقام الهيبومكسوليدى ؛ وإلا فإن النوتات قد تغدو على غير ما هى عليه ، عندما تقلب إلى أسفل ، كما كان علينا أن نفعل ، فقد يعتقد بعضٌ أنها أعلى البطن ، بينما هى ، فى الحقيقة ، فى أسفله .



ترجمة بيانات الشكل :

(١) المقام الدورى ، أنا ـــ نيس ، المقام الأول ، أصلى .

(٢) المقام الليدى ، نيا ـــ نيس ، المقام الثانى ، أصلى .

(٣) المقام الفريجى ، نا ـــ نا ، المقام الثالث ، أصلى .

(٤) المقامالمكسوليدى ، هاجيـ ـــ ى ، المقام الرابع أصلى .

(٥) المقام الهيبودورى ، أني ـــ ا ـــ نيس ، المقام الخامس (مقلوب الأول) .

(٦) المقام الهيبوليدى ، نيـ ـــ يا ـــ نيس ، المقام السادس (مقلوب الثانى) .

(٧) االمقام الهيبوفريجى آ .. نيس ، المقام السابع (مقلوب الثالث) .

(٨) المقام الهيبومكسوليدى ، نياجيـ ـــ ى ، المقام الثامن (مقلوب الرابع) .

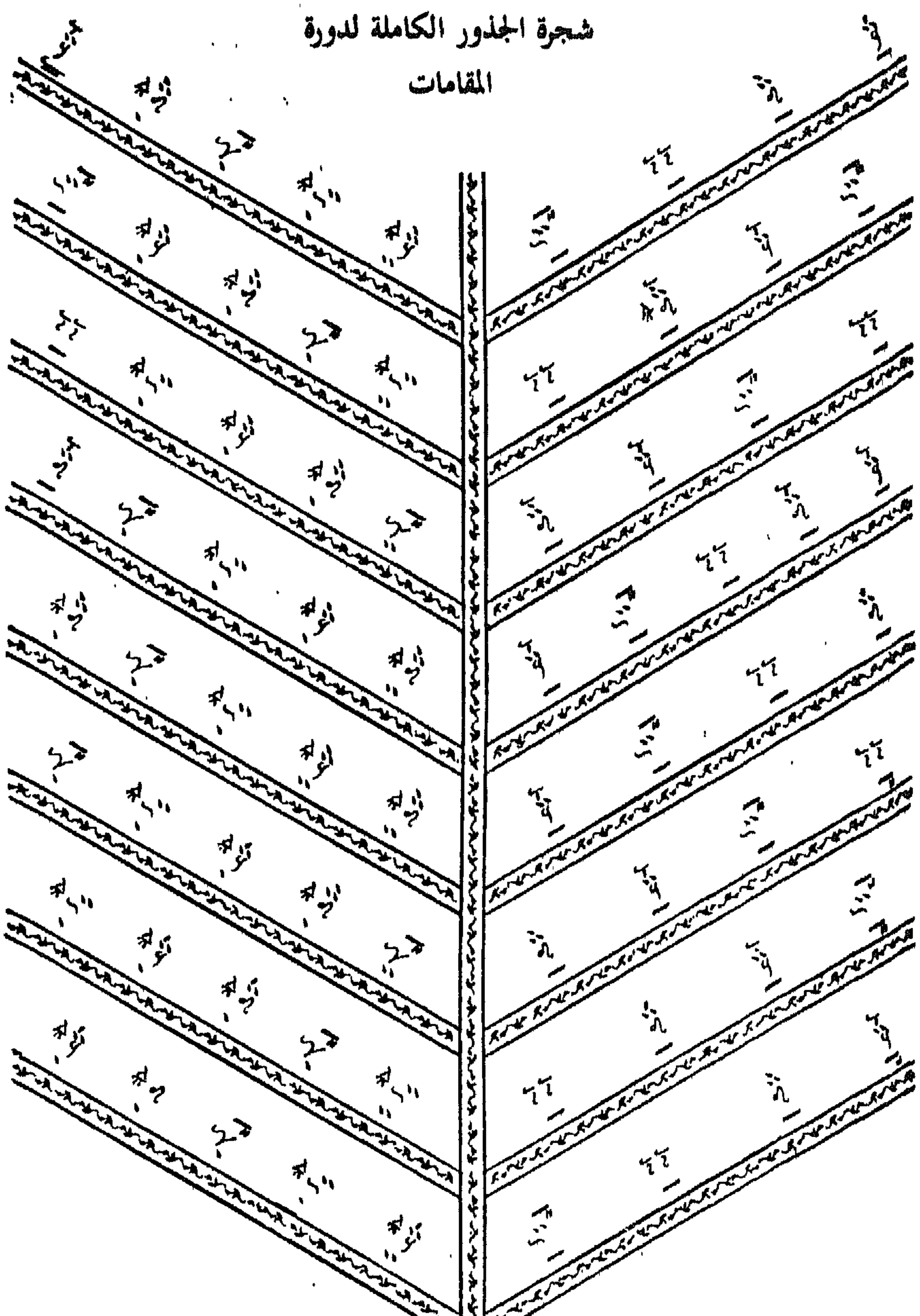
وقد يكون لنا أن نظن – أن المثال الذى اضطررنا لتقديمه هنا – حتى لو لم يدرك القراء كم كانت تستوقفنا بالضرورة أخطاء من هذا النوع ، كان علينا أن نكتشفها بل يكاد يكون أن نحدسها سواء فى دراسات الموسيقى الأجنبية التى رجعنا إليها ، أو فى البيانات التى قدمت لنا ونحن فى مصر حول هذا الفن ، عن طريق الموسيقيين الشرقيين الذى يمارسونه فى هذا البلد ، وحتى لو لم تكن لدى القارىء أية فكرة عن العناية الدءوب ، والحيطة المرهقة التى بذلناها مدفوعين بالخشية من أن نقع نحن أنفسنا فى أخطاء مماثلة عند تقديم تقارير عن بحوثنا ، أن هذا المثال حين يلقى بصيصا من الضوء على ما كان لعملنا أن يواجهه من الجحود والازورار ، سوف يبرهن على الأقل ، أننا لم نأل جهدا ولم ندخر وقتا ولا كان ينقصنا الصبر ، حتى نجعل من عملنا هذا هو الأكثر اكتمالا والأكثر إرضاء وإشباعا على قدر ما كان متاحا بالنسبة لنا ، ومن هذه الزاوية فإننا لم نستنكف من أن نتفحص بعناية ، فى كتب الباباديكه التى فى حوزتنا ، كل ما أمكننا أن نلمحه فيها ، مهما تكن ضآلة قيمته ، ولمثل هذه العناية الدائبة ، والدءوب ، ندين باكتشافنا ، فى أحد الزخارف ، نظام الموسيقى اليونانية ، مدونا بحروف بالغة الدقة والصغر حول وردة صغيرة (زخرف على شكل ورود) ، وهو ما قدمناه هنا فى حجم أكبر بكثير ، وبالتالى فى سهولة أكبر فى تبينها ، وذلك حين أضفنا إليها ، فضلا عن ذلك ، ما كان مكتوبا عليها بالحروف الرومانية أو بالحروف المائلة ، حتى يسهل تبينها واستعابها ، والشىء نفسه بخصوص الشكل الذى قدمناه تحت عنوان : شجرة جذور المقامات ، إذ قدمت المقامات فيه طبقا لنسق منهجى مطابق للتماثل الذى لها فيما بينها ، وحيث نرى فى الوقت نفسه التغييرات المختلفة (أو التحولات) التى يمكن لهذه المقامات أن تتقبلها ، فقد أصبح هذا الشكل الذى كنا ننظر إليه فى البداية كنوع من الكرمة (كرمة عنب) الصغيرة ، فى زخرف بسيط ، ذا عون بالغ بالنسبة لنا ، حين تعرفنا فيه على نفس الاشارات أو العلامات الموسيقية التى كنا قد علمناها فى أحد دروس دوم جبرائيل ، والتى أصر على أن نغنيها ، بعد أن دونها لنا باليونانية ، على طريقته المعهودة ، فلقد كنا نحرص على الدوام من جانبنا أن تكتب الكلمات اليونانية بحروف فرنسية ، وأن ندون

الغناء بنوتات موسيقية أوربية ، ولم يفتنا قط أن نعيد نحن كتابة الحروف أو العلامات اليونانية المكتوبة بخط يده ، وبهذه الطريقة كنا نحفر فى ذاكرتنا بخطوط عميقة الدروس التى كنا نتلقاها ، بقدر يكفى كى لا ننساها بغتة : ولقد وضعنا ذلك كله فى غالبية الأحيان فى وضع مكننا من القيام بمقابلات نافعة ، بل عظيمة النفع ، فى وقت لم نكن ننتظر من ورائها سوى القليل[1] .

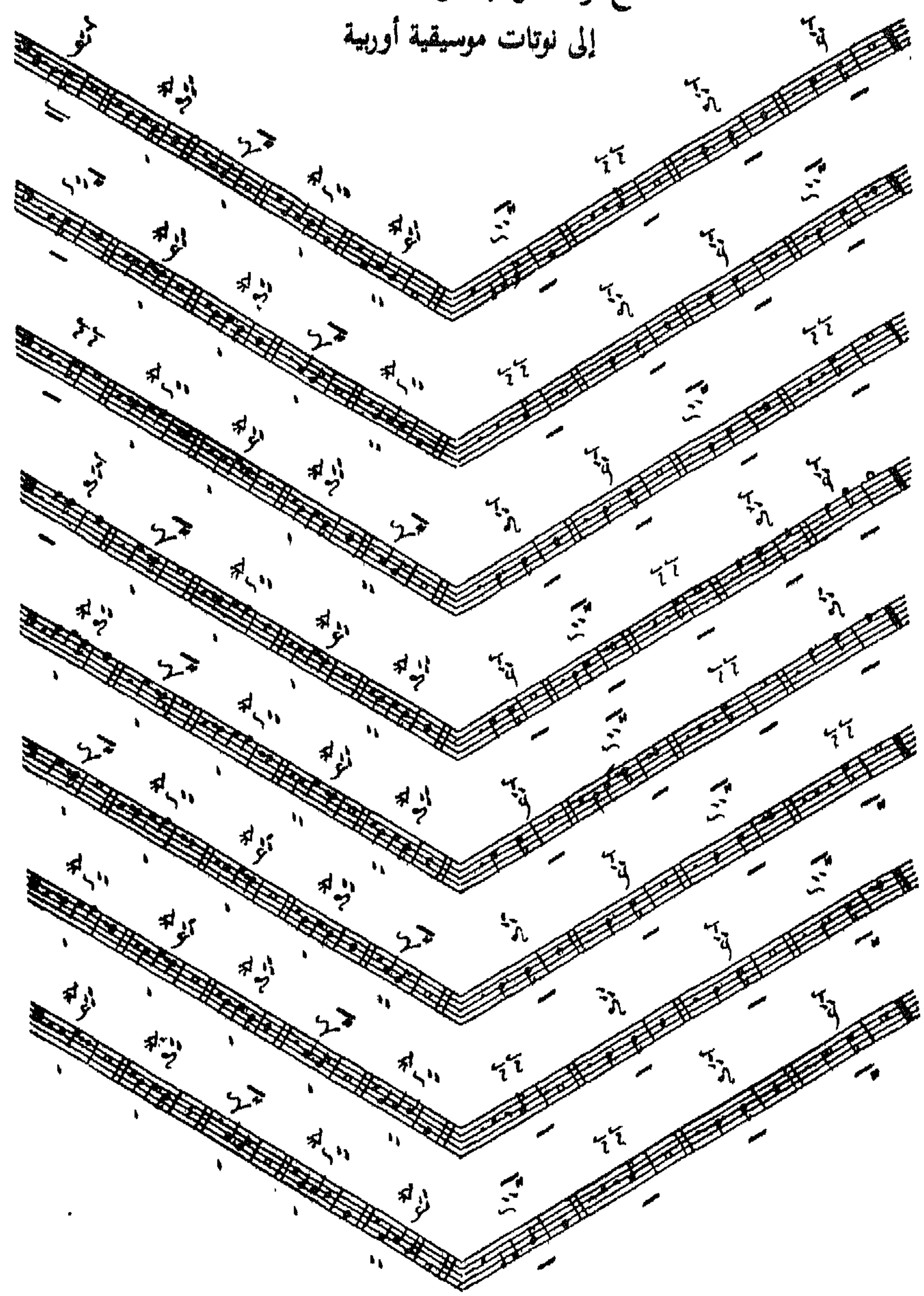
---

(١) هذا الاكتشاف الذى انتهينا من الحديث عنه ، لا يلقى فقط أكبر قدر من الضوء على ما عرفناه بخصوص النوتات أو المقامات الأصيلة والوسطى والمقلوبات ، وعن انتقالاتها التى دار الحديث بشأنها فى المبحث الثامن السابق ، ولكنه يجعلنا ، بالمثل ، نستخلص نظاما كاملا للمقامات والتحولات فى سلسلة متعددة من العلامات الشبيهة بعلامات الشكل المنهجى الذى عرفناه من قبل ، وإن لم يكن موزعا على شكل شجرة موسيقية ، تتفرع عنها وتصطف فروعها فى ترتيب ونظام ، بحيث تصبح السلمة النغمية ، صاعدة كانت أو هابطة ، محسوسة للوهلة الأولى ، أحيانا بفعل الاتجاه الهابط ، وأحيانا بفعل الاتجاه الصاعد للعلامات أو الاشارات ، والتى يبدأ بعض منها من قمة الفروع لينزل هابطا نحو الجذع . فى حين يبدأ بعض آخر منها من الجذع ليبلغ ، صاعدا ، قمة الفروع ؛ ومع ذلك فقد حددنا نحن هذه المسيرة للمقامات بطريقة أكثر إيجابية من الناحية الموسيقية ، وذلك بأن عبرنا عنها ، مستخدمين فى ذلك نوتات الموسيقى اليونانية ؛ ذلك أننا كنا نضع تحت كل واحدة من إشارات المقام التى تهبط على التعاقب ، علامة الأبوسترف ١ الدالة على نغمة (أو رنة) تنزل بمقدار درجة دياتونية واحدة ، كما سبق أن لاحظنا ، كما كنا نضع تحت كل واحدة من العلامات التى تأخذ مسارا دياتونيا صاعدا إشارة الأوليجون ـــ الذى يدل على نغمة صاعدة بمقدار درجة دياتونية واحدة ؛ وبمعنى آخر ، فإننا حين دونا على طريقتنا ما كان ينتج تحت تأثير ترتيب العلامات ، وشكل الاشارة التى توضع إلى أسفل ، طبقا للدروس التى تلقيناها عن دوم جبرائيل ، قد شكلنا شجرة للنظام الموسيقى (اليونانى) على غرار الشجرة التى كنا قد اكتشفناها من قبل فى الكرَيْمة (أى الزخرف الذى على شكل كرمة عنب صغيرة) ، مع إضافة العلامات تحت نوتات الموسيقى اليونانية الحديثة ، بالطريقة نفسها التى وجدناها عليها فى هذه السلسلة ، ووضعنا بذلك اللوحتين التاليتين ، اللتين أقرهما معلمنا .

شجرة الجذور الكاملة لدورة المقامات



توسيع اللوحة السابقة
مع ترجمة لنوتاتها الموسيقية اليونانية
إلى نوتات موسيقية أوربية



ترجمة البيانات للسلم الموسيقى الموجودة فى صفحة ٤٢٣

السطر الأول : (فوق) : النغمة الثانية الأساسية أو الأصيلة ، النغمة الثانية
الوسطى ، نغمة المقلوب الثانية
(تحت) : أ . نا . نيس ؛ نيـ . يا جيـ . ى ؛ نيـ . يا .
نيس ؛ ا . نيـ . ا . نيس . نيـ . ا . نيس ؛ نا .
نا ؛ ها . جيـ . يا ؛ أ . نا . نيس .)

السطر الثانى : (فوق) : شرحه ، شرحه ، شرحه .
(تحت) : نيـ . ا . نيس ؛ أ . نيـ . ا . نيس ؛ نيـ . ا . جيـ . ى ؛
آ .. نيس ؛ نيـ . يـ . ا . نيس ؛ نا . نا ؛ ها . جيـ . ا ؛
أ . نا . نيس ؛ نيـ . ا . نيس) .

السطر الثالث : (فوق) : النغمة الثالثة الأساسية أو الأصيلة ، النغمة الثالثة
الوسطى ؛ نغمة المقلوب الثالثة .
(تحت) : نا . نا ؛ نيـ . يـ . ا . نيس ؛ أ . نيـ . ا . نيس ؛ نيـ .
ا . جيـ ؛ آ .. نيس ؛ ها . جيـ . يا ؛ أ . نا . نيس ؛
نيـ . ا . نيس ؛ نا . نا) .

السطر الرابع : (فوق) : النغمة الرابعة الأساسية أو الأصيلة ؛ النغمة الرابعة
الوسطى ؛ نغمة المقلوب الرابعة .
(تحت) : ها . جيـ . يا ؛ آ . نيس ؛ نيـ .. يا . نيس ، أ . نيـ . ا .
نيس ؛ نيـ . ا . جيـ . ى ؛ أ . نا . نيس ؛ نيـ . ا .
نيس ؛ نا . نا ؛ ها . جيـ ؛ أ . نا . نيس) .

السطر الخامس : (فوق) : لاشىء .
(تحت) : نيـ . ا . جيـ . ى ؛ آ .. نيس ؛ نيـ . ا . نيس ؛ أ .
نيـ . ا . نيس ؛ نيـ . ا . جيـ . ى ؛ أ . نا . نيس ؛
نيـ . ا . نيس ؛ نا . نا ؛ ها . جيـ . ا) .

السطر السادس : (فوق) : لاشيء .
(تحت) : آ .. نيس ؛ نيـ . ا .. نيس ؛ أ . نيـ . ا . نيس ؛ نيـ .
ا . جيـ . ى ؛ آ .. نيس ؛ ها . جيـ . ا ؛ أ . نا .
نيس ؛ نيـ . ا . نيس ؛ نا . نا) .

السطر السابع : (فوق) : لاشيء .
(تحت) : نيـ .. ا . نيس ؛ أ . نيـ . ا . نيس ؛ نيـ . ا . جيـ .
ى ؛ آ .. نيس ؛ نيـ .. ا . نيس ؛ نا . نا ؛ ها . جيـ .
ا ؛ أ . نا . نيس ؛ نيـ . ا . نيس) .

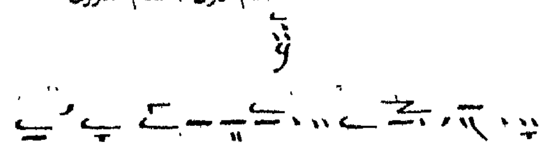
السطر الثامن : (فوق) : لاشيء .
(تحت) : أ . نيـ . ا . نيس ؛ نيـ . ا . جيـ . ى ؛ آ .. نيس ؛
نيـ .. ا . نيس ؛ أ . نيا . نيس ؛ نيـ . ا . نيس ؛ نا . نا ؛
ها . جيـ . ا ؛ أ . نا . نيس) .

المبحث العاشر

ترنيمات الغناء فى المقامات الثمانية الرئيسية ، علامات الغناء والعلامات الكبيرة (الأقانيم) فى ترنيمات هذه المقامات الثمانية

حتى يمكننا أن نحكم بشكل أفضل على ميلودى الغناء الدينى عند اليونانيين ، وحتى نستطيع فى الوقت نفسه أن نعطى لأنفسنا فكرة دقيقة عن تطبيقات علامات الغناء ، وعن استخدام العلامات الكبيرة (الأقانيم) ، فقد رأينا أن من المناسب أن نسوق أمثلة عن ترنيمات الغناء فى المقامات الثمانية الرئيسية ، مدونة بالعلامات العادية ، وبالعلامات الكبيرة .

المقام الأول : المقام الدورى



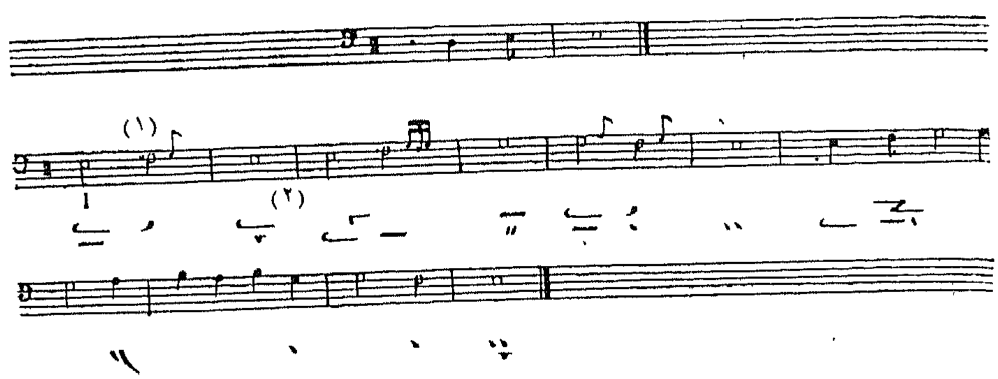
Ἴ - σον : δι - πλῆ : πα - ρα - α - α κλη - τι κή

I - s on : di - plê : pa - ra - - klê - ti kê (1).

البيانات : آ – يسون : دي – بليه : با – را – كليه – تيكيه(١)

---

(١) إننا ، إذ نتبع هنا العادة التى اعتادها اليونانيون المحدثون ، عادة أن يكرروا فى كتبهم ، تحت علامات الغناء ، الأصوات المتحركة (الحركات) التى يمتد عليها (بمقتضاها) الميلودى ، أو حتى ، المقطع الصوتى الكامل لهذه الكلمات نفسها ، التى يتم اصطناعها ، والتى يشكلونها ويحلونها فى محل الأصوات المتحركة الممدودة ، وهو ما سنتمكن من ملاحظته بعد قليل ؛ وهو الأمر كذلك الذى قلده الأقباط بعد ذلك ، على نحو ما رأينا ، فى الهلليلويا التى يغنوها والتى سجلنا نوتتها من قبل – قد ظننا أن من الأفضل أن نكتب تحت النص الكلمات نفسها بحروفنا نحن ، حتى لا يخلطن أحد بينها وبين هذا النوع من المدّات (أو الإطالات) ، أو الإضافات التى أدخلت على الكلمات ، عن طريق اليونانيين ، عند كتابة الكلمات تحت (سلم) الأغنية ، سواء تلك التى دونت على شكل نوتات يونانية ، أو دونت تحت الأغنية نفسها على هيئة نوتات موسيقية أوربية ، وبحروفنا الهجائية .



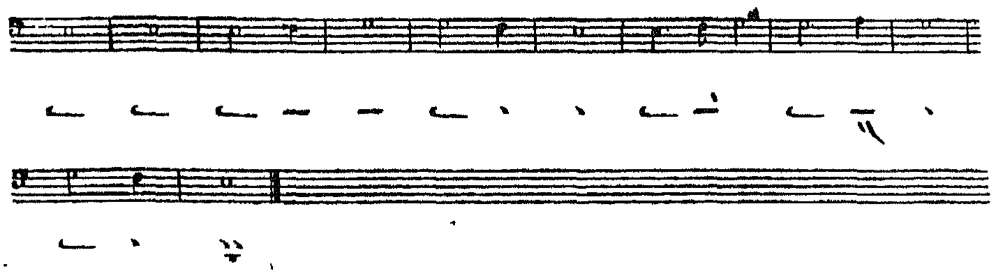
ولكى نعرف هنا مايتصل بالعلامات الكبيرة فى هذا الغناء ، أى تلك التى تعود إلى ذوق أو مزاج المغنى أو المنشد ، فليس أمامنا إلا أن ندونها مستخدمين علامات الغناء وحدها ، وبهذه الطريقة سنجد الأمر وقد أصبح مبسطا ، وسوف يقترب كثيرا من ترتيلنا الكنسى ، الذى يُتخذ أنموذجا لهذا الغناء ، أو الذى يعد ، أى غناؤنا ، النبع الذى نهل منه هذا الغناء (الدينى عند اليونانيين المحدثيين) .

---

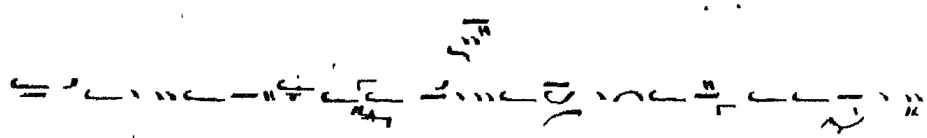
(١) أشرنا بشكل صليب صغير إلى النغمات التى بدت لنا أكثر علوا بقدر طفيف ، فوق طبقتها (أو تونها) الطبيعى ، وبشكل يقل عما ستكون عليه لو أننا أشرنا إليها بعلامة الرفع ؛ وهناك ما يشير إلى أن هناك بعض صلة بين السلم الموسيقى عند اليونانيين المحدثين ، وبين السلم الموسيقى عند العرب ؛ وإن كنا لم نتمكن من التيقن من ذلك ، فى الدروس التى حضلنا عليها ، إذ كانت هذه تلقى بصوت قوى ، دون معونة من أية آلة موسيقية .

(٢) حيث توجد المقاطع الصوتية للكلمات على الدوام ، حين توزع على هذا النحو الذى جاءت عليه تحت الإشارات التى تقابلها وتتجاوب معها ، بالغة البعد ، بعضها عن البعض الآخر ، الأمر الذى يؤدى لأن تكون المقاطع الصوتية لكلمة سابقة ، فى بعض الأحيان ، أكثر قربا من كلمة تالية ، عنها من الكلمة التى تشكل – هى – جزءا منها ، فقد ظننا أن علينا أن نميز الكلمات (عندما تستكمل مقاطعها الصوتية) بنقطتين على الطريقة الشرقية .

وسوف نلاحظ كذلك أن الطريقة التى ينهجها اليونانيون ، عندما يقومون بتحفيظ تلاميذهم المقامات الموسيقية ، مؤداة فى شكل أغنيات تدور حول أسماء الاشارات الغنائية المستخدمة عندهم ، كانت مطروقة كذلك فى زمن جى دارزّو gui d' Arezzo الموسيقى الأوربية ؛ ولو كان الأمر هاما لقدمنا عنه بعض الأمثلة .
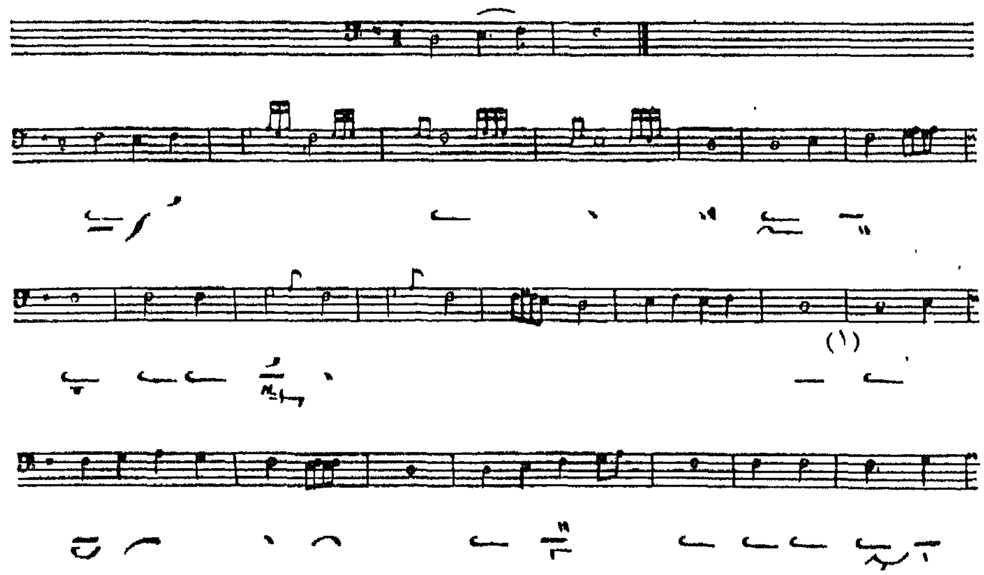


المقام الثانى – المقام الليدى

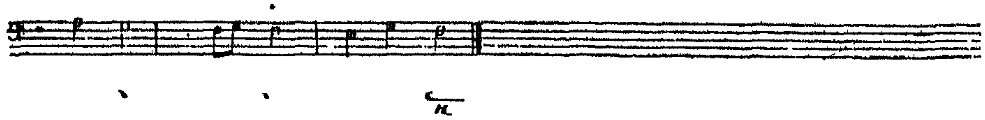


البيانات : بسيفيه ــ ستون ــ ليجيه ــ ما : هو ــ ما ــ ــ لون : أنتيه ــ كينوما : كسيرون : كلا ــ ــ ما
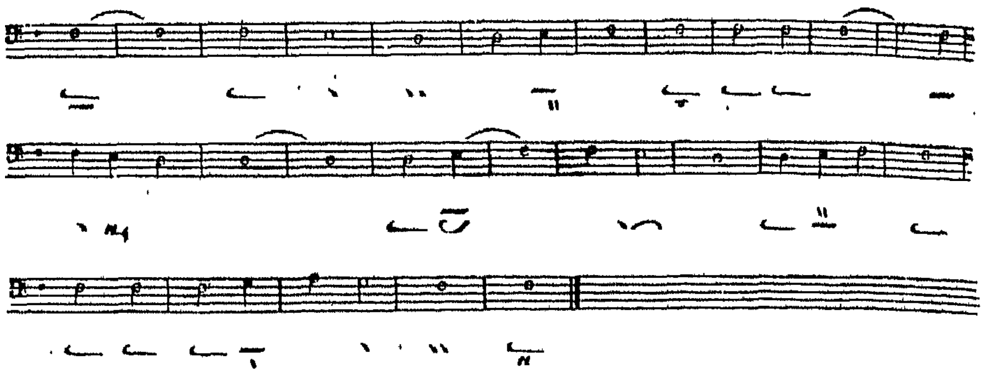
المدخل الغنائى .



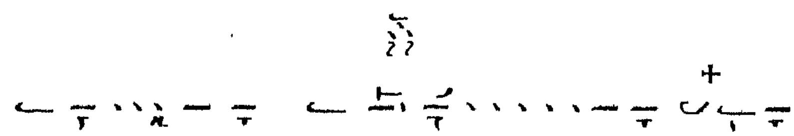
(١) نجد هنا كلمة هومالوجون بدلا من كلمة هومالون ، وفيما بعد سنجد كلمة كلاناسما بدلا من كلمة كلاسما ، إذ يقوم الاغريق عادة بهذا النوع من الاضافات أو المدَّات والإطالات فى كلمات أغنياتهم ؛ وكثيرا ما تقابلنا أمثال هذا النوع من الاضافات أو المدات والاطالات ، مدونة فى كتب البباديكه .



وإليكم الأغنية نفسها وقد خلت من زخارفها لتقتصر على النغمات (الأصلية) وحدها ، والتى تشير إليها علامات الغناء :

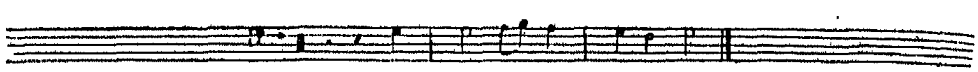


المقام الثالث ــ المقام الفريجى
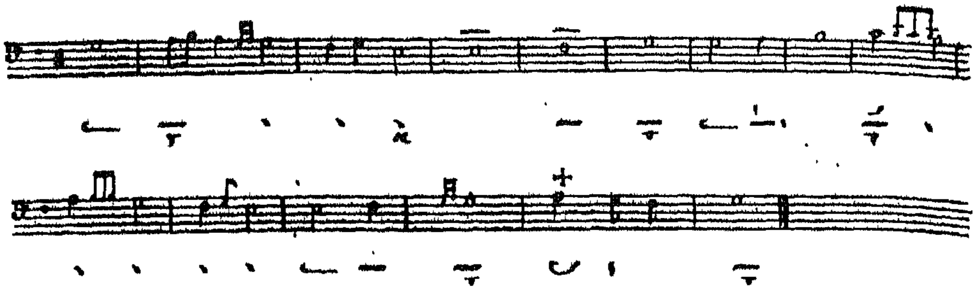


البيانات : ترو ــ ــ ــ يد ــ ــ كون ؛ إكـ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ستر ــ ــ بتون : ستاو ــ روس[1] (ستافروس)

مدخل غنائى



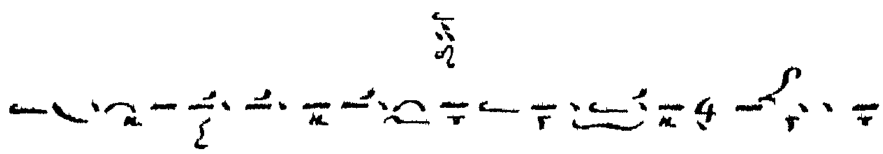
---

(١) نجد عندهم ترونووُميسيسكون بدلا من تروميكون ؛ وإيكييكييستريبيتون بدلا من إيكستربتون ؛ وستاجاجافروس بدلا من ستافروس ؛ ومنذ الآن فإننا سنكتفى بأن نكتب بحروفنا ، تحت النص ، الكلمات ، كما يلفظونها خارج الغناء .



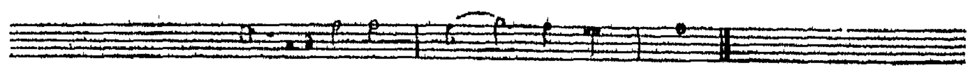
وليس ثمة شيء ذوبال يمكن أن نستبعده من هذه الأغنية كيما تقتصر على نغمات الميلودى الرئيسى ، وإن تكن ثمة أغنيات أكثر من ذلك تعقيدا بكثير فى زخارفها ، حيث نجد جملا بأكملها زائدة ، إما لأنها تنتمى إلى العلامات الكبيرة أو لأن مزاج المغنى هو الذى استوحاها ؛ ومع ذلك فحين نعرف خصوصيات نوتة الغناء اليونانى ، وحين نتابع النوتات الأوربية التى دونا تحتها هذه النوته اليونانية ، سيصبح من السهل علينا دوما أن نكتشف الترنيمة الخاصة والأساسية ، التى وضعت أصلا لهذه المقامات .

المقام الرابع ــ المقام المكسوليدى

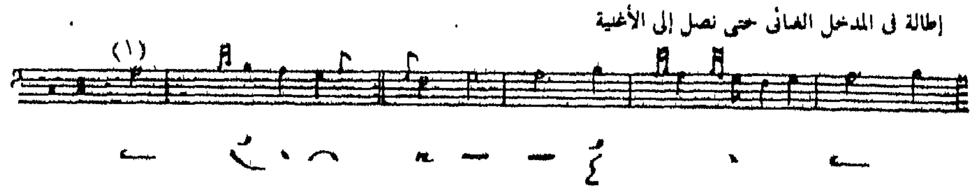


البيانات : بارا ــ كا ــ ــ لسُما : ليجيــما : ير ــ ــ ــ ت ــ ــ ــ رون
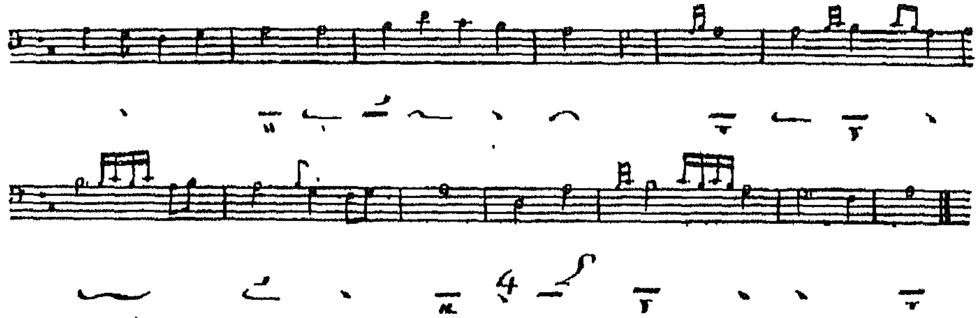
مدخل غنائى



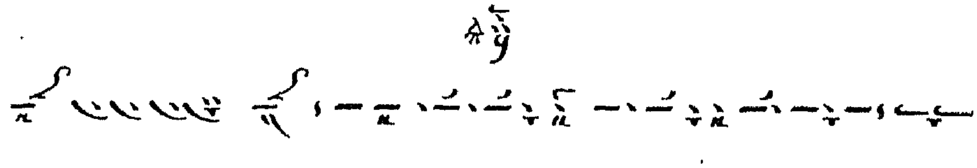
إطالة فى المدخل الغنائى حتى نصل إلى الأغنية



(١) على هذا النحو يمهد مدرسو الغناء اليونانيون ؛ وهكذا أيضا يعوّدون تلاميذهم على التمهيد قبل أن يبدأوا دروسهم فى الغناء .

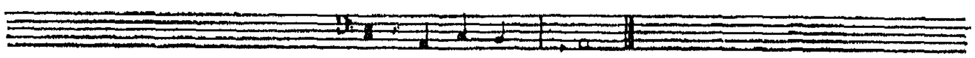


مقلوب المقام الأول   أى المقام الهيبودورى
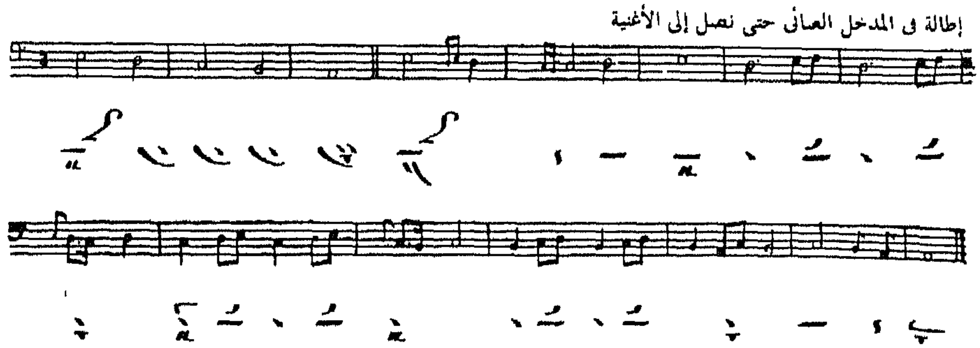


البيانات : سيـ ـ يسـ ـ ما : جو ـ ر ـ جون : سيذ ـ ـ ـ ث ـ ـ ـ تون

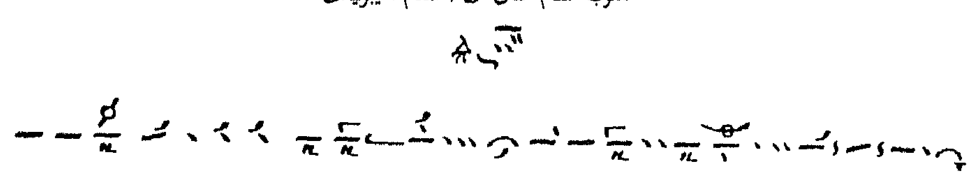
مدخل غنائى



إطالة فى المدخل الغنائى حتى نصل إلى الأغنية
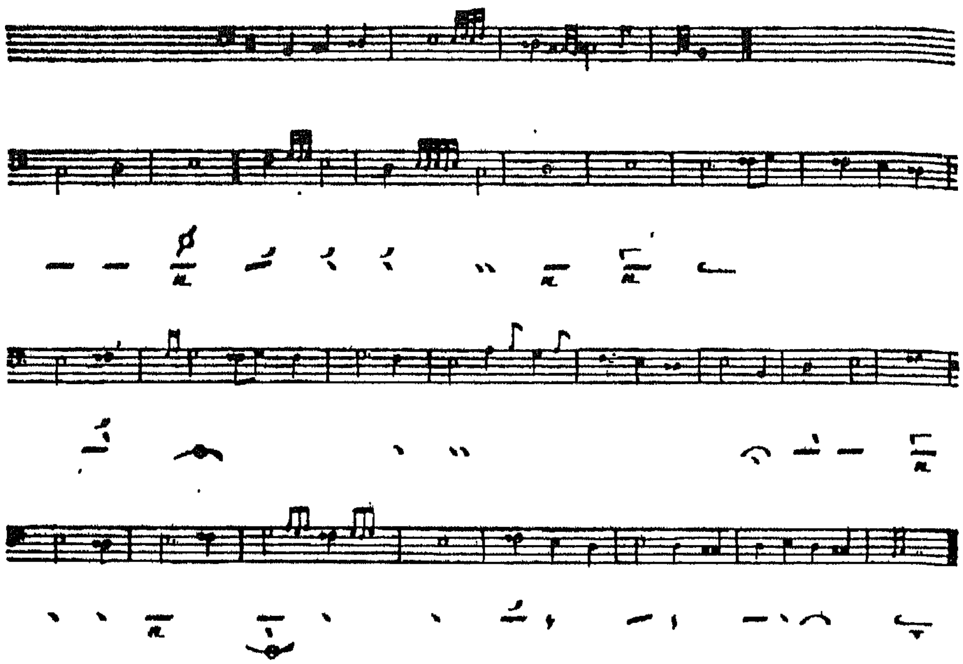


مقلوب المقام الثانى أى : المقام الهيبوليدى



البيانات : نيـ ـ نا ـ نو ثيـ ما ـ تيسموس إ ـ ـ سو · ثيما ـ تيسـ ـ موس : إ ـ كسو ـ ـ . إ ـ نار ـ كسيس

مدخل غنائى

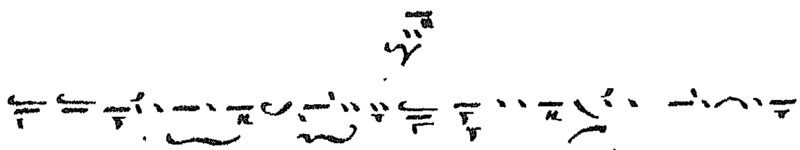


ويستطيع المرء أن يعرف عن طريق الجسر(*) الذى يتم بواسطته العبور من المدخل إلى الأغنية ، أنه يوجد هنا ترنم (أو تغيير فى الطبقة) أو بالأحرى تغيير فى التون ، وفى واقع الأمر فإن سلم المقام الهيبوليدى يتغير فى المقام المشتق : نينانو — الذى يُعلن عنه عن طريق علامة التبديل : الخاصة به ، ويرى المرء كذلك فى هذه الأغنية تطبيقا لاشارتى : الثيماتيسموس إسو ، والثيماتيسموس إكسو ، وكلمات هذه الأغنية تأتى بالنسبة لمدخلها فى النيانيس ، أما بقيتها فتأتى فى النينانو ، والثيماتيسموس إسو ، والثيماتيسموس إكسو والأنراكسيس .

(*) الجسر مقطع موسيقى يستخدم للانتقال من لحن أو مقام إلى لحن أو مقام آخر . (المترجم) .

مقلوب المقام الثالث أو الغليظ

أي المقام الهيبوفريجي
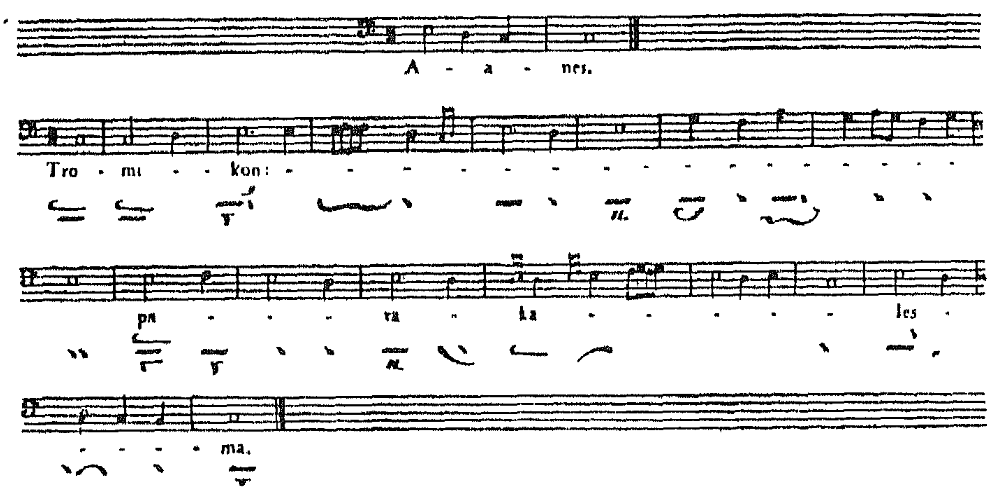


Τερ - μι - κό - - - ο - - - ο - ο - ον : πα - α - α-ρα - κά-α - λεσ - - μα.

Tro-mi-kon - - - - - - - - : pa - - ra - ka - les - - ma.

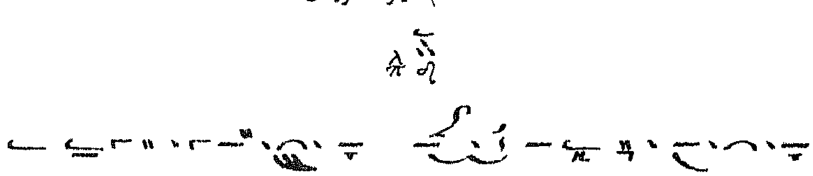
البيانات : ترو — مي — كون ——————— : با — را — كا — لِسْ —— ما

مدخل غنائي



مقلوب المقام الرابع ، أي

المقام الهيبومكسوليدي

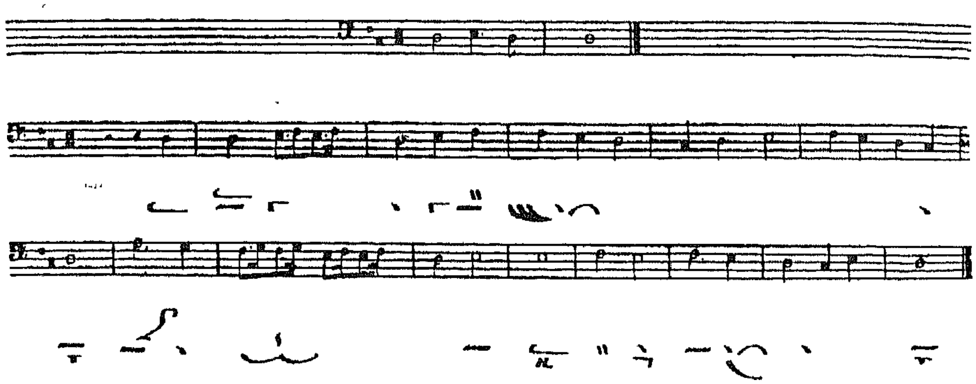


Ἐ - πέ - Γερ - - μα : σύ - - ναγ-μα-α - - α - - α.

E - pe - ger - - ma : sy - - nag - ma - - - - - - - -

البيانات · إ — ب — جز — ما سيـ —— نغ — ما ————————

مدخل عائى
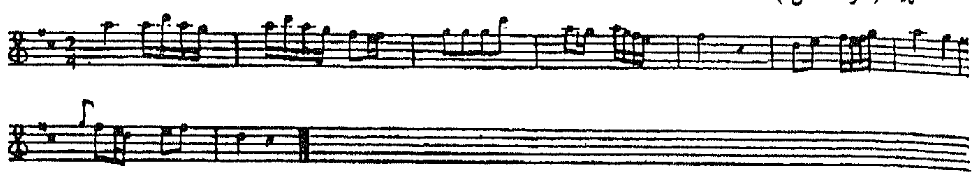


أغنية يونانية حديثة

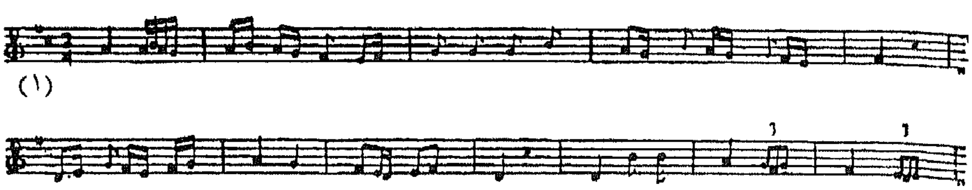
من مقلوب المقام الرابع أى المقام الهيبومكسوليدى

روميكا سيرتوس (رقصة يونانية)

تمهيد (أو مدحل)

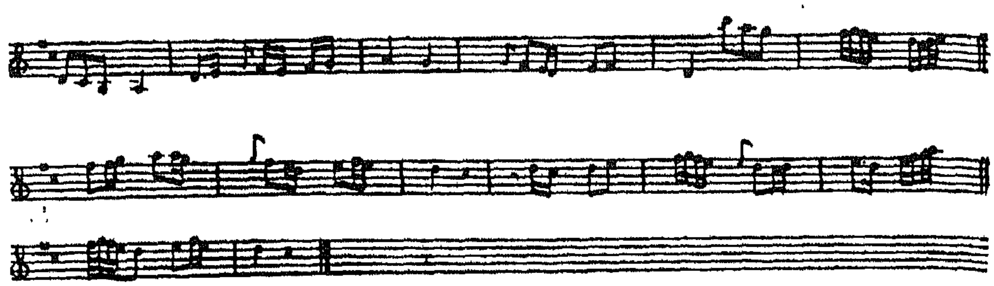


الأغنية



---

(١) حددنا الشكل الاملائى للكلمات ، ليس طبقا للنص ، وإنما للنطق الشائع بين اليونانيين ، وهو الذى استخدموه حين أسمعونا هذه الأغنية ؛ وإن كنا قد احتفظنا بعادة أن نحول حرف X فى اليونانية إلى ch ، ومع ذلك فينبغى لهذين الحرفين (الفرنسيين) أن يلفظا مثل حرف الكاف k مع هقّة ، على نحو يكاد يتشبه حرف الخاء عند العرب ، الأمر الذى جعلنا نظن أن من الأوفق أن نقدمها (أو نقوم الحرف اليونانى) على هيئه kh .
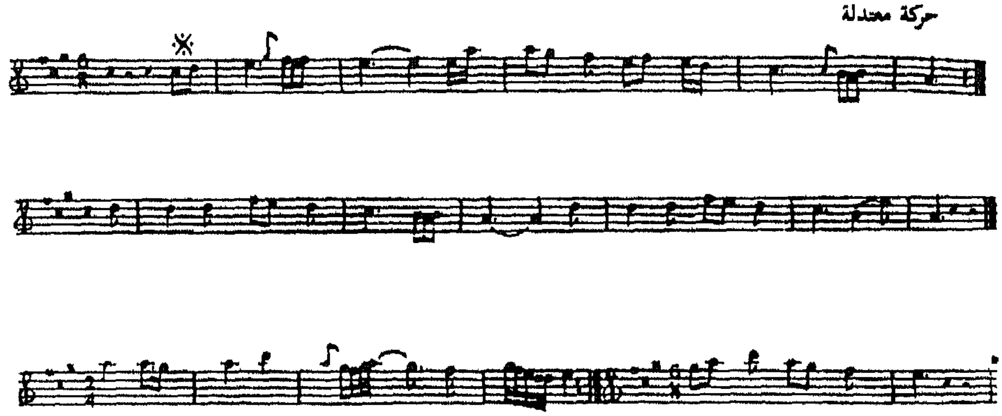


سيرتوس رومايكا(*)

اللفظ اليونانى	الترجمة العربية (عن الفرنسية)
كسيخوريزيسى ماتيامو	أنت مميز ياعيونى(١)
أوس كسيخوريزى تاسترا	من قبل أن تعرف نجوم السماء
أوس كسيخوريزى إيفينيتيا	ومن قبل أن تشتهر فينيسيا (٢)
أبو تا ميغالا كاسترا	بين الحصون الكبرى

أغنية يونانية أخرى حديثة
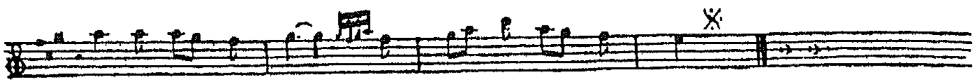
حركة معتدلة



(*) سيرتوس (اسم رقصة) يونانية .

(١) يا عيونى ! تعبير يدل على الحنان واللهفة ، بيديه عاشق نحو معشوقته .

(٢) من المرجح أن تكون هذه الأغنيات قد نظمت فى البندقية (فينيسيا) ، وأنها بالتالى أغنيات يونانية – إيطالية ؛ أو على الأقل ، فإن طابع الغناء ، بل كلمات الأغنيات نفسها ، يدفع إلى الظن بإمكانية حدوث ذلك .



اللفظ اليونانى	الترجمة العربية (عن الفرنسية)
المقطع الأول	
كورى مالا ما تينيامو	أيتها الفتاة
كى مارغاريتا رينيا مو	يا ياقوتتى
كامنيس توس نيهوس كى خيروندى	يا من تجلبين السعادة لقلوب الشبان
توس ييروس كى بلّلا نوندى	ويا من تذهبين بعقل الشيوخ
المقطع الثانى	
تافلوريا موسى تابيريس	دنانيرى ، أخذتها
كى تسماتاسو تا بيغيس	ولأمك ، أعطيتها
أو نا سيخارو أونا سيخارو	فبحق السعادة ، بحق السعادة
بوللا بو ساغابو	لَكَمْ أحبك .

الفصل الخامس

حول موسيقى اليهود فى مصر

المبحث الأول

حول غناء اليهود بشكل عام ، وعن طابع غنائهم الديني بصفة خاصة

منذ أكثر من ألف وسبعمائة عام ، كف اليهود ، وقد غدوا هائمين مشردين بلا وطن ، عن نظم الأغانى القومية ؛ وفى كل البلاد التى ذهبوا إليها استجابة لنداء الصناعة والتجارة قد اضطروا ، حين تقبلتهم هذه البلاد بين ظهرانيها ، للخضوع للعادات السائدة فيها بشكل عام ، وللعدول عن كثير من عاداتهم التى كانت وقفا عليهم ، وكانت إحدى هذه العادات التى لم يحافظوا عليها فى أى مكان هى عادة الترنم بأغنياتهم المدنية ، فلقد تبنوا هنا وهناك أذواق وأمزجة الشعوب التى عاشوا فى كنفها ، فيما يختص بمثل هذه الأنواع من الأغانى .

لكن الأمر لا يسير على هذا المنوال فيما يتصل بأغنياتهم الدينية ، فبرغم أنهم قد نوعوا فى أسلوبها فى البلدان المختلفة التى عاشوا فيها ، وبرغم هذه الفروق التى نلمسها بين أغانيهم هذه هنا وهناك ، بين تلك التى اكسبت مسحة ألمانية ، وتلك التى اتخذت طابعا إيطاليا ، وتلك التى يغلب عليها الذوق الأسبانى ، وتلك التى تتسم بالميسم الشرقى ، أو التى لها مذاق مصرى ، فقد ظلت هذه الأغنيات وقفا عليهم ، خاصة بهم وحدهم ، لا تشترك فى شىء لا مع الغناء الدينى ولا مع ضروب الغناء المدنى لأى من الشعوب الأخرى ، بل ولا مع أغنيات الأمة التى يحملون اسمها (أى يعيشون فى كنفها) ، وهم لا يطلقون على أغنياتهم هذا الاسم أو ذاك (ألمانية إيطالية أسبانية ، مصرية .. الخ) إلا لكى يفرقوا أو يميزوا بين أسلوب هؤلاء الذين يأخذون بها فى كل واحدة من البلدان المختلفة ، التى يسمح لهم بإقامة معابدهم فيها ؛ أما عن الطابع الرئيسى فواحد فى كل مكان ، ويزعمون هم من جانبهم أنه لم يتغير منذ أن نشأت هذه الأغانى على يد موسى وداود وسليمان ، فطابع الأسفار (أو الألواح) رقيق ووقور ، وطابع الأنباء صاخب منذر ، أما طابع المزامير فذو جلال مصاحب بطبيعته للوجد والتأمل ، أما طابع نشيد الانشاد فيشع مرحا وخفة ، فى حين يأتى إنشاد سفر الجامعة صارما يمور بالعنف والقسوة .

ومع ذلك فإن هذه الأناشيد تؤدى ، فى كل بلد ، بطريقة مختلفة ، ذلك أن النغمات الموسيقية ، برغم أنها تحمل الاسم نفسه ، لا تتكون من نفس طبقات الصوت ، كما يتنوع فيها شكل الميلودى دون أن تغير مع ذلك من طابعه ، والأمر نفسه كذلك بخصوص التأثير الذى ينبغى أن ينتج عن هذه الأساليب المتنوعة التى يعبر بها اليهود ، فى البلدان المختلفة ، عن أنغامهم ، على غرار التأثير الناتج عن موسيقى الكنيسة أو موسيقى المسرح ، التى يضعها مؤلفون مختلفون للكلمات نفسها ، فمع أن الميلودى الذى يضعه كل واحد من هؤلاء المؤلفين لن يأتى مشابها لميلودى يضعه غيره ، فإنه مع ذلك يحتفظ على الدوام بالطابع اللصيق بالمشاعر التى ينبغى له أن يعبر عنها ، إذا ما كان مؤلفه موسيقيا بارعا ، والأمر هو نفسه كذلك فيما يتصل بالخطباء المجيدين أو الممثلين الصفوة ، الذين يستطيعون – كل منهم وعلى طريقة ، ونبرات صوته التى هى خاصة به ، وبطريقة أداء لا تعود إلا إليه وحده – أن يعبروا عن الأفكار نفسها والمشاعر ذاتها ، وبهذه الطريقة دون سواها فإن اليهود لا يغيرون قط من الطابع الرئيسى لغناء كل واحد من أسفار التوراة ، وإن كانوا يؤدونها بألحان مختلفة ، وهذا هو المدى الذى يذهبون إليه فيما يحدثونه من تغيير فى طابعها الرئيسى .

المبحث الثانى

حول أسلوب الغناء الدينى عند يهود مصر — تماثل هذا الأسلوب فى الغناء الدينى عند الطائفتين الموجودتين فى مصر — تعارض التقاليد واختلافات الطقوس والشعائر عند هاتين الطائفتين

حيث لم يكن لدينا فى أوربا أدنى معرفة بالأسلوب الموسيقى الخاص بيهود مصر ، فقد اعتقدنا أن من الأوفق ، حين كنا فى هذه البلاد ، أن نتيقن مما إن كان لهذا الأسلوب ، أو أنه ليست له ، بعض أمور تسترعى الانتباه . وقد شاء أحد اليهود الايطاليين ، وكان قد جاب جزءا كبيرا من أوربا ثم اتجه إلى مالطة والقاهرة فى صحبة جيش حملة مصر ، أن يساعدنا فى أبحاثنا حول هذا الموضوع ، وزودنا فى الوقت نفسه بمعلومات مفصلة للغاية حول تقاليد وعادات يهود مصر ، لكننا لن نتوقف عند ذلك وحسب ، فلقد شئنا كذلك أن نكون شهودا على كل ما كان مُيَسّرا لنا أن نراه وأن نسمعه ؛ ولما كنا نعلم أنه توجد بمصر طائفتان من اليهود تتعارضان بشكل تام فى تقاليدهماوعاداتهما وطقوسهما ، فقد كان من السهل علينا أن نحضر حفلات العبادة عند هؤلاء وعند أولئك ، حتى يكون بمقدورنا أن نحكم بأنفسنا ما إن كان هناك اختلاف كبير بين أسلوبى الغناء عندهما ، لكن التجربة برهنت لنا أن ليس ثمة خلاف من هذا النوع ، وجعلتنا على يقين من أن تنوع غناء اليهود لا يعود قط إلى اختلاف مللهم ، وإنما هو ناتج وحسب عن الطريقة التى يعبرون فيها ، فى بعض البلدان ، عن ألحانهم الموسيقية .

وأولى هاتين الطائفتين من اليهود ، المتعارضتين كل منهما مع الأخرى تمام التعارض ، فى كل شىء عد الغناء الدينى ، هى طائفة الربانيم أى الربانيين ، وقد سميت بهذا الاسم لأنها تتبع المذهب الربانى ، أما الطائفة الثانية فهى طائفة القرائيم أى القرائين ، وهم صدقيون ، وقد نحت هذه الطائفة سلطة الحاخامات على عكس ما تفعل الأولى .

ويقع حى الربانيين فى القاهرة قريبا من حى الموسكى ، وهو يؤدى إلى حى خان الخليلى ، ويسمى حارة اليهود أى حى اليهود ، أما حى القرائين فيقع غير بعيد عن ذلك ، فهو يتاخم خان الخليلى .

ولكل واحدة من هاتين الطائفتين تقاليد وعادات تختلف فيما بينها ، لحد أن يهود أى من الطائفتين لا يشاءون أن يتزودوا بحاجتهم (من اللحوم) من جزارى الطائفة الأخرى ، ولا أن يستخدموا نفس آنية الطهى التى يستخدمها الآخرون ، وحتى أنهم لا يأكلون طعام بعضهم البعض ، ولدرجة أن عمال إحدى الطائفتين ممن يعملون عند أبناء الطائفة الأخرى ، لا يأكلون كذلك من طعام هذه الطائفة ، بل يذهبون ليشتروا من عند يهود طائفتهم كل الأطعمة التى يحتاجون إليها ، عدا الفاكهة ، فهذه يشترونها دون تفرقة من عند من يبيعها مهما يكن الاختلاف فى ملة البائع أو طائفته بل حتى فى دينه .

والأمر نفسه بخصوص الشعائر الدينية ، فلكل واحدة من الطائفتين تقويم مختلف فيما يتعلق بالأعياد : **فالربانيون** يحتفلون بعيد القمر الجديد (الهلال) لمدة يومين متعاقبين[1] ، لكن **القرائين** عكس هؤلاء لا يحتفلون به إلا لمدة يوم واحد ويتبع الربانيون والقراءون ، كل فيما يخصه ، هذه العادة نفسها فى بقية الأعياد الأخرى إذ يجعل الآخرون مدة الأحتفال تقل بيوم واحد عن المدة التى يخصصها الأولون للاحتفال بها .

---

(١) تعود هذه العادة ، عند الربانيم ، طبقا لأقوال اليهود المحدثين ، إلى العصر الذى كان أجدادهم يسكنون فيه فلسطين ، فى شكل أمة . وقد جاءت هذه العادة ، من أن الاسرائيليين ، عند ضواحى أورشليم ، التى يُنظر إليها باعتبارها أعلى مكان فى هذه المنطقة ، كان من عادتهم ، عند مولد القمر الجديد ، أن يكلفوا واحدا بالذهاب ، إلى أعلى الجبل ، ليرقب الميلاد الجديد لهذا الكوكب ، وبأن يشعل النيران فوق الجبال المجاورة بمجرد أن يلحظ ظهوره ؛ ومع ذلك فحيث لم يكن من المستطاع رؤية هذه النيران فى المناطق النائية ، فقد أمر الربانيم بأن يُحتفل بمولد القمر الجديد لمدة يومين متعاقبين ، وأن تزيد مدة الاحتفال بأعيادهم الأخرى بمقدار يوم واحد عما يفعله القراءون ، فى كل البلدان البعيدة عن أورشليم ، حيث يقطنون .

ولذلك فلابد أن هؤلاء اليهود يولون احتراما كبيرا لغنائهم الدينى ، طالما لم يتجاسروا برغم ذلك كله ، على إدخال أدنى تغيير على هذا الغناء .

وإذا ما صدقنا ـــ فى هذا الصدد ـــ الروايات المتواترة ، والتى يحتفظ بها اليهود حتى اليوم ، فلابد أن تكون الشعائر والأغنيات المستخدمة عند يهود هذا البلد ، قد تناولها قدر من التحريف أقل بكثير مما تناولها فى أى مكان آخر ، إذ هى قد انتقلت إليهم هناك ـــ دون أن تتعرض لأى إنقطاع – منذ عصور بالغة القدم ، وفى الحقيقة فإنه لا تزال ترى فى مصر ، فى معابد عدة ، نسخ من التوراة مدونة بالعبرية القديمة ، أى التى لا تستخدم فيها النقاط أو الشكلات ؛ ويحتفظ بنسخة من التوراة مكتوبة على هذا النحو فى معبد القاهرة المسمى ، **المعبد الصرى** ، ويحتفظ بنسخة مماثلة فى المعبد المسمى **ربانيم القربوصى** باسم منشئه ، وتوجد نسخة ثالثة مشابهة فى المعبد الكائن فى مصر العتيقة والمعروف باسم **عذير صوفر** أى ابن عزرا الكاتب(١) وهو قد سمى على

---

(١) يؤكد اليهود أن هذا الكاتب (للتوراة) المسمى عزرا ، هو الحبر الكبير عذير نفسه ، وهو الذى أعاد ، فى العام ٤٦٧ قبل مولد المسيح ، تجميع كتب أناشيد التوراة (الأسفار) ، ونقاها من الأخطاء التى تسربت إليها ، بفعل جهالة النساخ اليهود ، الذين كانوا منذ الأسر البابلى ، قد نسوا استخدام لغتهم الأم ، وأنه قسم التوراة إلى ٢٢ سفرا ، طبقا لعدد الطوائف العبرية .

وفى معبد ابن عازر صوفر ، لا نزال نرى قمطرا باليا ، قد تهشم كلية ، يقال إن عزرا كان يقيم صلواته بالقرب منه ؛ وفى أعلا هذا القمطر يوجد دولاب ، يقتصر دوره على احتواء نسخة من التوراة فى شكل مخطوطة ، ملفوفة أوراقها ؛ وأن هذه النسخة من التوراة ، هى نفسها ، حسب الاعتقاد الشائع ، التى كتبها عزرا بخط يده ؛ ويتم الصعود إلى هذا الدولاب عن طريق سلم دائرى من الخشب ، يرتفع بمقدار تسعة أقدام ؛ وتحيط هذا الدولاب ، بصفة دائمة ، مصابيح وشموع ، يسارع كل من هناك لرعايتها ، بفعل الاحترام الذى يوحى به هذا الدولاب ، والكتاب المقدس الذى يضمه . ويُحمل المرضى إلى هذا المعبد ، ليرقدوا عند سفح هذا القمطر لمدة يومين أو ثلاثة أيام ؛ أما أولئك الذين يأتون إلى هناك من أماكن نائية ، فيجدون أماكن يهجعون فيها ، فى الغرف الواقعة فوق المعبد ، حين لا توجد أماكن شاغرة لهم فى داخله ؛ وهم يبقون فى هذه الحجرة أو تلك ، حتى يأتى دورهم فى الرقاد بالقرب من القمطر . أما الحجرات التى يشغلونها ، انتظارا =

هذا النحو ، إذ يزعم أن هذه النسخة من التوراة قد كتبت بخط يد الحَبْر الأعظم عزرا ، وقيل لنا كذلك أنه توجد بالمثل بالمحلة (الكبرى) ، بالقرب من المنصورة ، نسخة من التوراة بالغة القدم كتبت على غرار النسخة السابقة ، وإن تكن فوق رقائق من النحاس ، مما جعلهم يطلقون على هذا المعبد اسم **سيفر نحاس** أى الكتاب النحاسى .

ومهما يكن من أمر قدم شعائر يهود مصر ، وقدم أسلوب غنائهم الدينى ، فمن المؤكد ، على الأقل ، أن ميلوديهم بالغ الاختلاف عن الميلودى الذى يتبناه يهود أوربا ، وأن ألحانهم الموسيقية ، برغم أنها تحمل الاسم نفسه الذى يطلقونه عليها فى كل مكان ، تتكون مع ذلك ، فى مصر ، من مقامات أو طبقات صوتية مختلفة عن تلك التى تتألف منها هذه الألحان نفسها فى أى مكان آخر .

= لدَوْرهم ، ففسيحة ومريحة ؛ وتوجد هناك ثلاث حجرات ومطبخ ، يقيم فيها الأغراب ، فى بعض الأحيان لأيام ثمانية .

المبحث الثالث

حول ميلودى الغناء والنغمات الموسيقية عند يهود مصر

لن يكون بمقدورنا أن نقدم فكرة كاملة عن ميلودى غناء يهود مصر ، لو أننا اكتفينا بأن نقدم عنه مثالا واحدا على غرار ما نفعل بخصوص يهودّ ألمانيا وإيطاليا وأسبانيا الخ[1] ، ذلك أن لكل غناء خاص بكل سفر من أسفار التوراة ، كما لاحظنا ، طابعا بالغ التميز عن الطابع الذى يأخده غناء الأسفار الأخرى فلو أننا — إذن — أخذنا مثالنا من ألحان ذات طابع ما ، فسوف يؤدى ذلك بالضرورة إلى الجهل بما هو عليه أسلوب ميلودى الأغانى من طابع مختلف ، ولو أننا من جهة أخرى أردنا أن نقدم عددا من الأمثلة عن هذه الأغانى ، يماثل عدد أسفار التوراة التى خصص لها نوع بعينه من الميلودى ، لوجدنا لدينا ، بلا جدال عددا أكبر مما ينبغى ، وحتى نجتنب هذه السوءة وتلك ، فإننا لن نأبه إلا بتقديم بيانات عما لاحظناه ، وحسب ، بهذا الخصوص ، فى واحد من أكبر الأعياد احتفالية بين اليهود .

فى الحادى والعشرين من نيفوز من العام الثامن لقيام الجمهورية ، اقتادنا إلى المعبد المصرى ، رجل يهودى هو مترجم الجنرال دوجا Duga قائد مدينة القاهرة فى ذلك الوقت ، وبمجرد أن ارتدى كل واحد منا حلة الكهان التى تستخدم فى الحالات المماثلة ، واتخذ لنفسه مكانا ، بُدىء باصحاح من أسفارموسى الخمسة ، أدى فى مقام متصل وإن كان رقيقا حلوا ، وكانت التنغيمات أو الترنيمات ، برغم كونها محسوسة ، تتتابع دون أن يكون هناك ايقاع توقف آخر ، بالغ الوضوح أو التحديد ،

---

(١) انظر النحو العبرى والنحو الكلدانى من وضع بيير حوران .

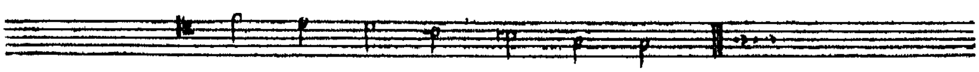
Grammatica Hebraica et chaldaica etc lauteiae parisiorum, 1726, 2 vol. in 40

وكذلك الدراسة عن الموسيقى التى عنوانها :

Ars magna consomi et dissoni, par kircher.

ومؤلفات أخرى كثيرة مماثلة

سوى ذلك الايقاع الذى كان يتم فى التون الأول(*) الذى كانوا يرجعون إليه عند نهاية كل جملة على الأقل ، إذا ما حكمنا على ذلك طبقا لمبادىء موسيقانا ، وقد انحصر هذا الغناء فى مساحة سداسية صغيرة ، وكانت حركته بالغة الاعتدال ، وبعد ذلك أديت صلاة استغفار ابتغاء لعفو (الله) لعدم تقديم قربان يتمثل فى خروف ، وكانت أغنية (إنشاد) هذه الصلاة أكثر حيوية من الأولى ، ومع ذلك فلم يكن ميلوديها يتألف إلا من سبع نغمات مختلفة ، لكن الأمر الذى كان يجعل من تعبيرها أكثر حزنا وأشد توجعا ، فهو أنها كانت تؤدى فى المعبد الصغير ، وأنها كانت تتجاوب مع النغمات الآتية ، مؤداة بأساليب مختلفة .



وتدخل هذه النغمات ، طبقا لنظامنا الموسيقى ، فى نطاق المقام الصغير ، وكانت النغمات تعلو بمقدار نغمة ثلاثية صغيرة فوق نغمة القرار الأساسى ، وتنزل إلى ما تحته بمقدار نغمة خماسية كاملة ، وبمعنى آخر فعلى أى نحو نريد أن نشكل عليه هذه النغمات السبع ، بشرط ألا يتم ذلك بخفة وتسرع متصنعين ، فيكاد يكون مستحيلا الا يأتى الغناء الناتج عنها سوى تعبير عن الألم والتوجع .

وأخيرا ، فقد انتهى هذا الحفل بالنشيد الذى ترنم به موسى بعد عبوره البحر الأحمر ، وقد كانت حركة وميلودى هذا النشيد أكثر حيوية وأكثر مرحا عما كانت عليه الأغنيتان (النشيدان) السابقتان ، برغم أن التنغيم فيه قد جاء كذلك فى المقام الصغير .

وهكذا يتضح لنا بالتجربة ، أن اختلاف الأسلوب فى غناء اليهود ، لا يغير فى شىء من الطابع الخاص بالميلودى المكرس ، منذ زمان لا تعيه الذاكرة ، لكل واحد من هذه الأسفار الخمسة ، وإننا لعلى يقين من أن يهود مصر ، لم يكفوا ، حتى اليوم ، عن أن يعطوا لكل واحد من هذه الضروب المختلفة من إنشادهم أو غنائهم الدينى ،

(*) تعنى كلمة ton فى الفرنسية : النغمة أو الطبقة أو القرار أو المقام . (المترجم) .

التعبير الحق الذى لا يسمح لنا قط بأن نرتاب ، لحظة واحدة ، فى أنهم لم يبذلوا أكبر قدر من العناية والحرص ، حتى يحتفظوا لها بالطابع الخاص بها .

ولابد أن ينتهى الأمر بالشروح والأمثلة التى سنتولى تقديمها عن الأنغام (أو الاشارات) الموسيقية ليهود مصر بأن تعرفنا بما تنبغى معرفته ، أكثر من غيره ، فيما يتصل بأسلوب الغناء أو الانشاد الذى يتبعونه .
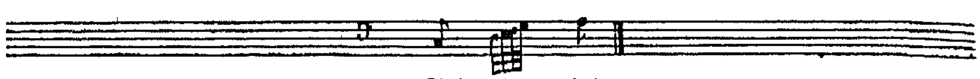
الاشارات الموسيقية والغنائية التى يستخدمها يهود مصر

שלשלת

شلشلت

شلشلت أو السلسلة ، وقد سميت هذه العلامة (أو هذه النغمة) على هذا النحو ، لأنها تتألف من سلسلة نغمات متعاقبة صعودا بشكل دياتونى .

مثال

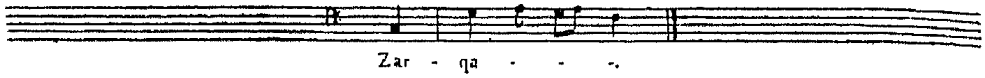


זרקא

زرقا

زرقا ، أى الزارع أو الباذر ، وقد سميت على هذا النحو لأن النغمات تبدو فيها وكأنها تتناثر وتنسبط بشكل دائرى ، وهى توضع فوق الحرف الأخير من الكلمة ، وتستخدم فى غالبية الأحيان عند بداية الجمل .

مثال
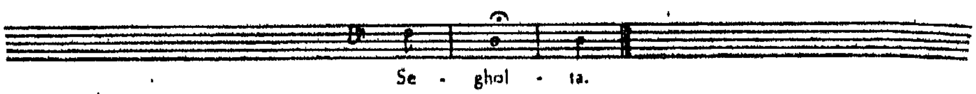


סגולתא

سغولتا

سغُولتا أى العقد ، ولم نتبين العلامة القائمة بين اسم هذه العلامة وبين شكلها أو تأثيرها ، اللهم إلا إن كانت تدل على شكل ما من ترابط الصوت الذى ينبغى أن يتوقف عندئذ . وتوضع السغولتا فوق الحرف الأخير من الكلمة ، وتشير إلى لحظة توقف نبلغها بغتة ، بفعل هبوط سريع كما لو كنا ننهى جملة ما .

مثال

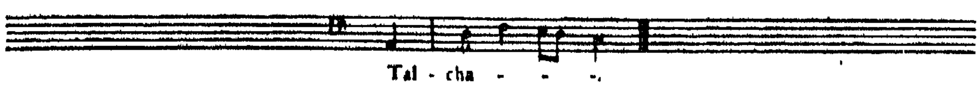


תלישא

طلشا

الطلشا ، أى النازع ، القلاّع (الذى ينزع أو يقلع) ، وقد أطلق عليها هذا الاسم ، لأنها تشير إلى وجوب انتزاع أو اقتلاع الصوت من قاع الصدر ، بادئين بنغمة خفيضة ، ثم تدفع بقوة ، مع السعى لإحداث ما يشبه طوقا حولها ، وهى توضع فوق المقطع الصوتى الأخير من الجملة .

مثال

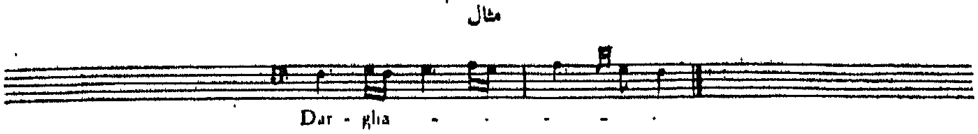


דרגא

درشا

درشا أى الدرجة ، وهى توضع تحت الحرف الأخير من الكلمة ، وأداء هذه النغمة الغنائية ينبغى أن يعلو ويهبط على درجات ، مكونا أطواقا أو دوائر صغيرة ، ذات وقع منتظم ، وتوضع هذه العلامة فوق المقطع الصوتى الأخير من الكلمة .

مثال

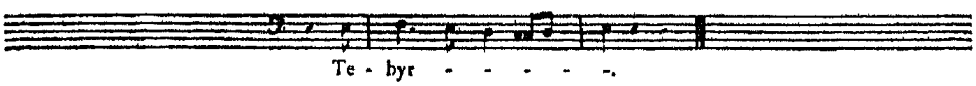


תְּבִיר

تبير

تبير أى المكسور ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لأنها تشير إلى أن الصوت ينبغى له ، عند الغناء أن يقسم الفاصلات الغنائية إلى قسمين ، أى أن عليه أن يصدر عن نصف تون ، وهى توضع تحت المقطع الصوتى الأخير من الكلمة .

مثال



מַקֵּף

مقّف

المقف أى الوصل أو الضم ، وتنتمى هذه الاشارة إلى عروض النحو أكثر من انتمائها إلى الموسيقى الخالصة ، وهى تشير إلى أنه ينبغى علينا أن نصل أو نضم المقطع الصوتى الأخير ، لكلمة ما ، بالمقطع الصوتى الأول للكلمة التالية ، بغية أن نجعل من هذين المقطعين الصوتيين نغمة واحدة .

קַרְנֵי פָרָה

قرن فرح

قرن فرح أى قرن البقرة ويأتى اسمها هذا من تشابه شكلها مع شكل قرنى البقرة ، وهى تشير إلى وجوب خفض النغمة ليرفع الصوت بعد ذلك بقوة ، فيتكون بذلك ما يشبه الزغردة (أى تكرار لحنين بسرعة شديدة) ، وقد حصلنا على هذه الفكرة (حول هذه العلامة) من التعريف الاشتقاقى الذى انتهينا من تقديمه عنها ، ومع ذلك فحيث أنا على يقين بأن القرون عند العبريين ، على نحوما كانت عليه عند قدماء المصريين ، كانت شعارا للقوة والنضوج والخصوبة ، وأن كلمة **قرن** كانت تعادل فى معناها الاستعارى **القوة والتوثب والاقدام** فى المعنى المباشر ، فإننا نظن أن هذه العلامة وشكلها يدلان على وجوب إعطاء الصوت نغمة شديدة الوضوح بالغة الامتلاء .

وتسمى هذه العلامة كذلك **باذر غادول** أى **الباذر الكبير** ولكنها تؤدى تحت هذا الاسم بدرجة أكبر من الخفة .

وهى توضع فوق المقطع الصوتى الأخير للكلمة

مثال



פָּזֵר פזר קָטֹן

باذر أو باذر قاطون

باذر أو باذر قاطون ، أى الباذر أو الباذر الصغير ، وقد سميت على هذا النحو لأن الصوت معها يرتفع عند الغناء وينقسم ، على نحو ما ، ويبتعد متنقلا إلى طبقة أخرى .

وهى توضع فوق المقطع الصوتى الأخير من الكلمة .

مثال
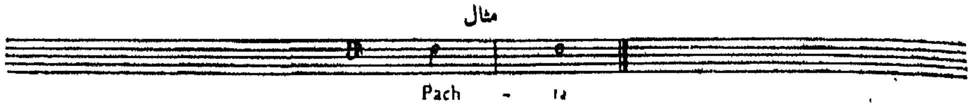


פַּשְׁטָא

باشتا

باشتا أى الباسط ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لأنها تشير إلى وجوب أن نبسط الصوت وأن نطيل فيه فى نفس النغمة ، وهى توضع فوق الحرف الأخير من الكلمة .

مثال

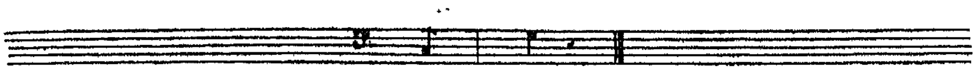


אזלא

زالا

زالا ، أى الذى يهرب أو يفلت ، وتدل هذه الاشارة على انبعاث مباغت للصوت عند رفع النغمة ، وهى توضع فوق المقطع الصوتى الأخير للكلمة .

مثال



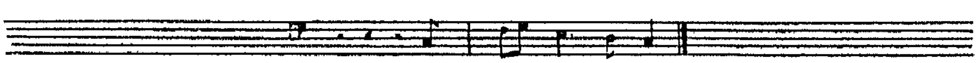
גרש

غِرش

غِرِش ، أى الطارِد ، وهذه الاشارة تدل على أنه ينبغى إلقاء الصوت بقوة ، بالطريقة التالية (أى الموضَحة فى السلم الموسيقى) .

وهى توضع فوق المقطع الصوتى الأول للكلمة .

مثال
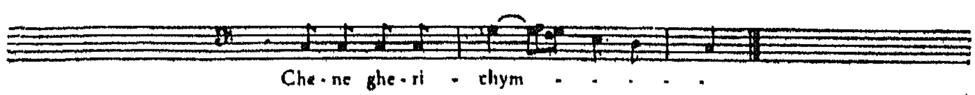


שני גרשים גרשיים

شيراشايم أو شين غِريشيم

شيراشايم أو شين غِريشيم ، أى الطاردان ، ويكاد يماثل الأداء الغنائى لهذه الاشارة أداء نغمة غِرِشْ وإن اقتصر الأمر على مضاعفتها ، وتوضع هذه العلامة فوق المقطع الصوتى الأخير .

مثال
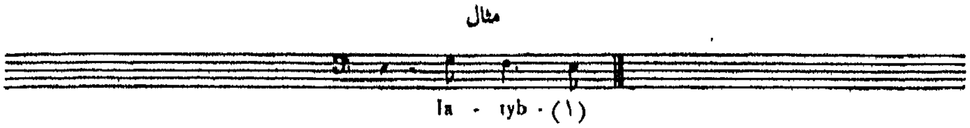


יְתִיב

لتيب

لتيب ، أى المردود أو المعكوس ، أو المقرون ، وتسمى هذه العلامة كذلك **شوفار مقدام أى القرن المتقدم أو القرن البارز الشاخص إلى الأمام** ، وتوضع هذه العلامة تحت الحرف الأول من الكلمة .

مثال



קַדְמָא

قدما

قدما أى السالف أو المقدم ، وقد سميت هذه العلامة على هذا النحو لأنها تسبق نهاية الكلمة ، وتوضع عند بداية ، أو فى وسط وليس قط عند نهاية الكلمة ، أى فوق الحرف الأخير منها ، وهذا ما تختلف فيه عن الباشتا ، تلك التى توضع دوما ، عكس هذه ، فوق الحرف الأخير . وباختصار فإن الأداء الغنائى لواحدة منهما يكاد يماثل الأداء الغنائى للأخرى

مثال



זָקֵף קָטֹן
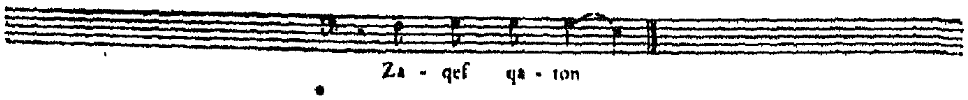
زاقف قاطون

---

(١) وهى تلفظ عند الغناء « ياتيب » .

زاقف قاطون أى الناصب الصغير ، وسميت هذه الاشارة على هذا النحو لأنها تشير إلى ارتقاع فى الصوت أقل حجما منه مع إشارة زاقف غادول .

مثال



זָקֵף גָּדוֹל

زاقف غادول

زاقف غادول أى الناصب الكبير : وسميت هذه الاشارة بهذا الاسم لأنها تتطلب ارتفاعا أكبر فى الصوت ، ومدى أبعد للنغمات عما تحدثه الزاقف قاطون .

وتوضع كل منهما فوق المقطع الصوتى الأخير للكلمة

مثال



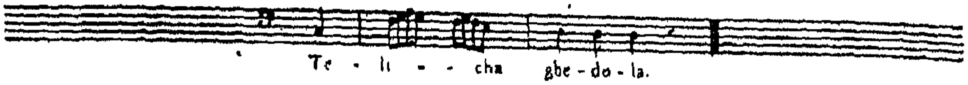
תְּלִישָׁא גְדוֹלָה

تليشا غادول

تليشا غادول أى النازع أو القالع الكبير ، وقد أطلق عليها هذا الاسم إذ ينبغى لأدائها أن يقتلع الصوت بقوة من الصدر ، وأن تنسبط النغمات ، مع إحداث طوق أو دائرة ما .

وهى توضع فوق الحرف الأول من الكلمة

مثال

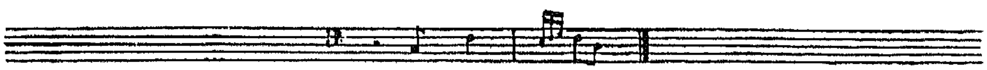


רְבִיעַ

ربيا

ريبيا أى الرخم أو الرخيم ، وتوضع هذه العلامة فوق الحرف الأوسط من الكلمة ، وتدل على وجوب رفع الصوت مع إلقائه بقوة ، ومع الحرص على إحداث طوق أو دائرة صغيرة له قبل أن يهبط من جديد .

مثال

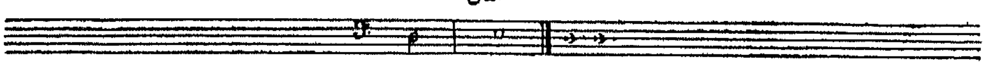


אתנ֑ח

أتناح

أتناح أى التوقف أو الاستراحة ، وتشير هذه العلامة إلى توقف الصوت ، وهى تعادل إشارة النقطتين عندنا ، وتوضع تحت الحرف الأخير .

مثال



وقد كان بمقدورنا ، إذا ما انتهجنا نهج العلماء الذين عالجوا غناء اليهود الأوربيين ، أن نضاعف هنا أكثر وأكثر من العلامات أو الإشارات الغنائية والموسيقية ، ومن تجميع كل العلامات التى تنتمى إلى العروض النحوى (بعضها إلى بعض) ، لكننا خشينا أن يلحق بنا اللوم لأننا قد تجاوزنا الحدود التى حددتها لنا طبيعة موضوعنا .

وفضلا عن ذلك ، فبرغم أنه لم يأخذ أحد على عاتقه أن يدون علامات أو إشارات العروض التى من شأنها أن تدون ، فإننا نتبين أن هذه الإشارات لا تختلف ، إلا فى أضيق الحدود ، عن مثيلاتها عند يهود أوربا ، وأن لن يكون من شأن عملنا هذا أن يضيف فى هذه الحالة ، شيئا ذا بال ، فى وقت كان يهمنا فيه أن نقدم فى كل شىء بحثناه ، بيانا دقيقا عن الحالة الراهنة لفن الموسيقى فى مصر ، طبقا للملاحظات التى قمنا بها فى هذه البلاد ، ولقد قمنا بعملنا هذا بقدر من الإخلاص يماثل ما بذلناه من مثابرة وهمة فى بحوثنا .

---

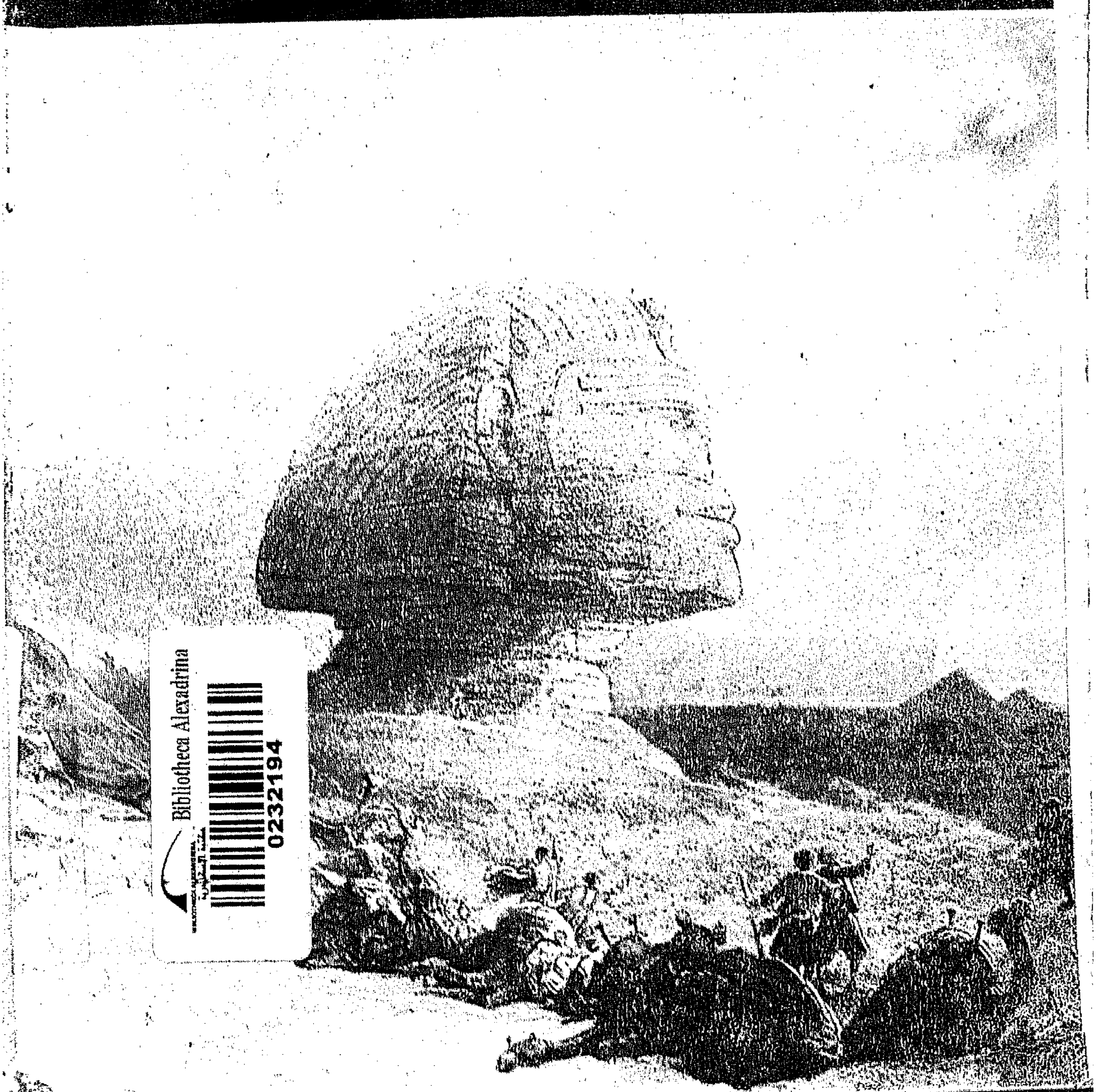
(١) تلفظ هذه الاشارة عند الغناء : رابيا .

فهرس الموضوعات

الصفحة

الباب الثانى

رقم الايداع ٨٣/٢٠٣٨



الترجمة الكاملة
(٩)

وصف مصر

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين



دار الشايب للنشر

٩
وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

الآلات الموسيقية المستخدمة
عند المصريين المحدثين

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

دار الشايب للنشر

١٠ ش سليمان الحلبى - التوفيقية
ت: ٥٧٤١٣٧١ - ٥٧٢٦٨٣٠

الى

مِصْرَ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان المأمول أن تكون هذه المقدمة بقلم مترجم الكتاب ، زوجى واستاذى المرحوم زهير الشايب ، لا قلمى . لكن شاءت ارادة الله أن يجف المداد فى القلم . وأن ينوقف النبع عن الجريان ، وأيضا ، أن يترك المترجم هذا المجلد مخطوطا ؛ ليضاف لذلك الجهد المضنى فى حقيقته ، الدائب فى سعيه ، الصادق فى غايته ، الجليل فى فائدته .

لقد جاء اهتمام زهير الشايب بترجمة كتاب وصف مصر فى اطار اهتمامه بكل ما يتعلق بتاريخ مصر ، وكفاح شعبها ضد القوى التى حاولت أن تسيطر على مصيره ، خاصة فى تاريخه الحديث .

وفى هذا السياق قدم لنا كتاب « تطور مصر » لمارسيل كولومب الذى يقدم صورة حية لتاريخ مصر المعاصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ ، والذى يدرس التطور السياسى فى ضوء البيئة الاقتصادية والاجتماعية لمصر المعاصرة .

كما ترجم مجموعة دراسات هامة للمؤرخ الفرنسى المستشرق أندريه ريمون ضمها فى كتابه « التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية » .

أما موقع ترجمة موسوعة وصف مصر بالذات ، فقد جاء فى اطار الروح العامة التى سادت البلاد فى أعقاب نكسة ١٩٦٧ من البحث والتفتيش فى تاريخ مصر عن المقومات التى تؤكد صلابة الشعب المصرى ، وصموده فى وجه متحديه .

ومن هنا جاء اختياره البدء بترجمة الدولة الحديثة من الموسوعة فصدر المجلد الاول من الترجمة العربية في سنة ١٩٧٦ . ويتحدث عن المصريين المحدثين .

ثم صدر المجلد الثاني فى سنة ١٩٧٨ ، ويتحدث عن العرب في ريف مصر وصحراواتها ، وتتابعت أجزاء الكتاب واحدا بعد الآخر تتناول من حياة المصريين المحدثين وتاريخهم أدق تفاصيل تلك الحياة من زواياها الاجتماعية والاقتصادية والفنية ... الخ .

وأخيرا كان هذا المجلد (التاسع) ، وموضوعه : الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين . والذى جاء ليتمم موسوعة الموسيقى والغناء عند المصريين ، بعد أن سبقه المجلد (الثامن) الذى يتحدث عن الموسيقى والغناء فى مصر الحديثة ، وقبله كان المجلد (السابع) الذى يتناول بالحديث الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين .

وجدير بالذكر أن كتاب الحملة الفرنسية لم يقتصروا فى حديثهم عن الآلات الموسيقية على صورها الراهنة فى عصر الحملة ، وانما امتدت دراساتهم في كثير من الأحيان الى التأريخ لهذه الآلات وتتبع تطورها شكلا ووظيفة فى العصور السابقة .

واذا كانت سلاسة العبارة ، وسلامة اللغة تمثل جانبا من روعة الترجمة فى عمل زهير الشايب . فان جانبا آخر أهم يتجلى فى قدرة المترجم على تصوير روح العبارة ، وشاعرية الأسلوب فى النص الفرنسى ، وكذلك القدرة على نقل التفاصيل الدقيقة التى اتسمت بها مباحث علماء الحملة ، والتى أودعوها موسوعتهم الخالدة (وصف مصر) .

ولا غرابة فى ذلك ، فزهير الشايب لم يكن مجرد مترجم محترف ،

وانمـا كان قبـل كل شيء أديبـا ذا قلم متميز ، وعبـارة سلسة ، ولفظ فصيح ، وفكر مبدع ، وهي صفات تجلت واضحة في نتـاجه الادبي سواء منه المؤلف أو المترجم .

لقد أثرى أديبنا المفكر الفنان ، بوطنيته الصـادقة ، ولغته العربية المتمكنة ، وبكل اقتداره الفني وثقافته ، الحيـاة الأدبية على مدى العقدين الاخيرين بالكثير من ابداعاته القصصية ، فقدم ثلاث مجموعات من القصص القصيرة وهي (المطاردون) ، (المصيدة) ، (حكايات من عالم الحيوان) .

وجاءت روايته (السماء تمطر ماء جافا) التي تتناول وقائع الوحدة المصرية السورية وانفصالها ، من أهم الأعمال الأدبية التسجيلية في أدبنا الحديث .

وفي جميعها ظهر - الى جانب المقدرة الفنية والسيطرة على أدوات فنه - حب زهير الشايب لوطنه مصر ، ومعايشته لكل معاناة شعبها وطموحاته واحساسه بكل خفقة في ضمير هذا الشعب ووجدانه .

كانت مصر هي قضيته الوحيدة .

وكانت مصر وراء كل نبضة فرح أو خفقة حزن اختلج بها قلبه .

كما كانت مصر خلف كل كلمة تحركت بها شفتاه ، أو جرى بها قلمه .

يقول زهير الشايب : « ان الهـدف من ترجمتي هـو أنني أردت أن أسهم في أن تسـتعيد مصر اسـمها الذي كادت أن تفقده باتخاذ اسـماء لا تاريـخ لها ولا مضـمون ، وأن اقـدم لبلــدي عمـــلا هو من اخص خصوصياتها » .

وبذلك يتأكد التكامل فى انتاج زهير الشايب بين ما ترجم وما ألف ، اذ جاءت مترجماته ومؤلفاته ترنما بحب مصر ، ودعاء باسمها ، وعملا للنهوض بحاضرها ، وابرازا لاصالتها ، واستشرافا لمستقبلها الذى كان زهير الشايب مؤمنا به ايمانه بالله ، وبعظمة مصر ، وخلود الأهرام ، وفيضان النيل بلا حدود الى آخر الزمان ٠

وبعد ٠٠ فليس زهير الشايب من يليق به فى الحديث عنه بعد رحيله كلمات الحزن والتأسف ، لأن من قدم عطاء مثل عطاء زهير الشايب ، ومن كان فى مثل نقائه ، وخلوص سريرته ، ليس فى حاجة الى مثل هذه الكلمات ، لقد عاش دائما يبذل الود صفوا ، ويترفع عن الصغائر والأحقاد ، عاش مثلا رائعا للانسان الشريف بمعنى الكلمة ، ومن كانت هذه سيرته وتلك انجازاته لا يكون جديرا بالحزن ٠٠ انه جدير قبل كل شيء ، بالاعجاب والتقدير ، ولقد نال منهما الكثير والكثير ٠

ولا بد فى النهاية أن أوجه شكرا وعرفانا لا حد لهما لجميع أصدقاء زهير الشايب الذين اهتموا بالحفاظ على أعماله بعد رحيله ٠

كما أوجه شكرا لا مزيد عليه للدكتور محمد حمدى ابراهيم استاذ اللغات القديمة بكلية الآداب بجامعة القاهرة للجهد الكبير الذى بذله فى ترجمة النصوص والعبارات اليونانية القديمة واللاتينية التى جاءت فى هذا الكتاب ٠

ويستحق الدكتور عبد الحكيم محمد راضى الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة شكرا خاصا وتقديرا ، للعناية التى اولاها لهذا الكتاب ، والتى ساعدت على خروجه الى النور ٠

كذلك أوجه الشكر الى الحاج محمد مدبولى الذى لم يدخر وسعا فى

سبيل نشر اعمال زهير الشايب ايمانا منه بقيمة هـــذه الأعمـال وضرورة استمرارها على مسرح الثقافة المصرية المعاصرة ·

عفت شريف

يناير ١٩٨٦

الباب الأول

عن الآلات الوترية المعروفة في مصر

الفصل الأول

عن العود

المبحث الأول

حول أصل وطبيعة العود ، وحول أهمية هذه الآلة الموسيقية عند الشرقيين

كان بوسعنا أن نقدم مبحثا بالغ الطول حول العــود ، لو كان مخولا لنا أن نورد هنا كل ما ذكره المؤلفون ، الفرس والعرب ، حــول الغرض المبدئى من هذه الآلة الموسيقية ، وحول موضوعه ، وأطوال الأجزاء المختلفة لجسمه الرنان ، والنسب الخاصة لكل منها والتى تقوم فيما بينها ، بعضها والبعض الآخر ، وحول طريقة تقسيم يده (الرقبة) ، لكى تتحدد عليهــا الدانات الخاصة بالأنغام أو المقامات المختلفه التى ينتظمها الجــدول الموسيقى لهذه الآله ، وحول عدد أوتاره ، والمــادة أو الخــامة التى صنعت منهــا ، والنسب التى ينبغى أن تكون لهده الأوتار (فى طولها) بين بعضــها وبــين البعض الآخر ، ودرجة شد كل واحد منها ، وانقسام كل منهــا الى أجزاء قاسمة وهارمونية ، وحول النغمــات التى يحدثها ، وحــول العــلاقة التى تبينها فيها العرب والفرس ، وتلك المقابلة التى أجروها بين الخاصية الملازمة لكل واحدة من هذه النغمات وبين الأمزجــة المختلفــة ، والجنسين المختلفين (ذكر أو أنثى) ، والأوضاع المباينه للأشخاص الذين تتكون منهم الهيئة الاجتماعية الخ الخ ٠٠ ومع ذلك ، فبخلاف أن هــذه الآلة الموسيقية قــد تناولتها - فيما يبدو - بعض تعديلات جعلتهــا تختلف قليلا عمــا كانته فى المــاضى ، وأن علينا ألا نلقى هنا بالا الا لبحوثنا الخاصة التى أجريناها فى مصر ، فانه قد لا يكون بمقدورنا أن نفسر كل هذه الأمور دون أن نلجأ الى تقديم بحوث لا يتقبلها قط مجرد وصف بسيط ، ولهذا السبب فسوف نمر

مرور الكرام بغالبية هذه التفاصيل الغريبه عن الحالة الراهنة لفن الموسيقى في مصر ، حتى نقصر اهتمامنا على تلك التفاصيل التى ترتبط بالضرورة بموضوعنا .

وعلى الرغم من أن العود يدخل في عداد الآلات الموسيقية التى يستخدمها المصريون ، فاننا مع ذلك نجد له — حين نقـــارنه بالآلات التى يستخدمونها بشكل اعتيادى مألوف ـ شكلا بالغ التباين عن شكل الآلات الأخرى ، حتى ليدفعنا الامر إلى الظن - بشكل طبيعى - بأنه لابد أن يكون للعود أصل مخالف ، لدرجـــة نكاد نزعم معهـــا أنه ليس آلة شرقيه على الاطلاق .

ويتفق بعض المؤلفين العرب والفرس ـ من الذين كتبوا عن الموسيقى ، وتناولوا بالحديث هذه الآلة- على أن العود قد جاءهم عن الاغريق ويشاء فريق من هـــؤلاء أن يكون فيثاغورث نفسه ، والذى يصفونه بأنه مزاحم خطـير لسليمان ، هو الذى تخيل هذه الآلة ، بعد اكتشافه التناغمات الموسيقية ، أما الفريق الثانى منهم فينسب ابتكاره الى أفلاطون ، ويرى هؤلاء أن العود هو أكمل الآلات الموسيقية طرًّا ، والتى قام هذا الفيلسوف بابتكارها ، كما أنها ، أى آلة العود ، هى التى نعلق بها اكثر من غيرها من آلات الموسيقى ، ويقولون ان أفلاطون قد برع في العزف عليه لدرجـة أنه كان يستطيع أن يحرك قلوب ومشاعر سامعيه وفق هـــواه ، وأن يوحى اليهم بما يشاء من عواطف أو انفعالات مختلفـــة ، حتى أنه كان قادرا ـ وفق مشيئته ـ أن يستثير أحاسيسهم أو أن يهدىء منها ، طبقا لـما يقوم به من تنويعـات فى طبقات طربه (الميلودى) . فحين كان يعزف في مقام ما ، على سبيل المثال ، كان يجعل سامعيه ـ على الرغم منهم ـ يغطون فى نعاسهم ، ثم يوقظهم بأن يبدل من النغم أو المقام ، ويضيف هؤلاء بأن أرسطو قد أمكنه ـ حيث كان

على دراية بهذه المقدرة ، اذ ساء أن يحاول العزف بالمثل على هذه الآلة ـ أن يجلب النعاس الى عيون سامعيه ، لكنه لم يستطع أن يوقظهم . ولذلك فقد أصبح أرسطو ، بعد أن اعترف بتفوق أفلاطون عليه ، تلميذا له .

ومن جهة اخرى فلا تنقص الشرقيين حكايات من هـذا النوع . فيروى شعراؤهم ومؤرخوهم الكثير والكثير من حكايات مشابهة ، اذا ما وثقنا في صحتها ، فسنجد أن أمهر الموسيقيين الفرس والعرب كانت لديهم ـ هم كذلك ـ موهبة القدرة على جلب النعاس الى عيون مستمعيهم ، وكذا القدرة على ايقاظهم(١) . ففي مثل هذه البلدان ، شديدة الحرارة . فان الأحاسيس التي ترهفها تلك الحرارة بالغة الشدة ، تخلق الرغبة على الدوام في الراحة حتى ليبدو النعاس هناك ضربا من سعادة بالغة ، أما أكبر قدر من السعادة يرجوها الناس هناك فهي أن يكون الانسان خاليا من الهموم . بعيـدا عن متاعب العمل وأن يعيش في دعة لا يفكر أو يلوى على شيء . ولهذا السبب فان الشرقيين ولا سـيما المصريون منهم ، ينظرون بتقدير كبير الى أي موسيقى حبته الطبيعة بموهبة القدرة على أن يذهب باكتئابهم ، وأن يدفع بالبسمة الى شفاههم . وأن يجلب لعيونهم النوم الهادىء . وأن يوقظهم في رفق بفعل مباهج فنه ، وفي الوقت نفسه فليس هناك ـ في رأيهم ـ ما هو أكبر قدرة على انضاج موهبة مثل هذا الموسيقى بروعة وعظمة . كما أنه ليس هناك ما يستطيع أن يضيف قدرا أكبر من الهمة والحيوية الى غنائه سوى هارمونية العود . فالخواص الرائعة التي لنغمات هذه الآلة قد جعلت الموسيقيين العرب الضليعين يؤثرونها باعتبارها رمزا لهارمونية الطبيعة ككل . على نحو ما كان المصريون (القدماء) ينظرون به الى القيثارة القديمة التي اخترعها عطارد .

الهـــوامش :

(١) حتى لا نسرف في ضرب الأمثلة فسنكتفي بأن نورد هنا الحكاية التالية ، المثيرة للانتباه ، والتي نقرؤها في المكتبة الشرقيــة : الفــارابي أو الفاريابي ، هي الكنية التي يكنى بها أبو نصر محمد طرخاني والذي يسميه العرب عادة بجودة الفاريابي (أي الفارابي) ، أما نحن (الأوربيين) فنسميه فارابيوس اذ كان مسقط رأسه مدينــة تسمى فاراب وهي نفســها مدينــة أوترار ·

وقد ذاع صيت هذا العالم، باعتباره فريد عصره، وزعيم فلاسفة زمانه ، وكان يشار اليه باسم المعلم الثاني ، وقد نهل منه ابن سينا كل علمه ·

ومر الفارابي وهو في طريق عودته من الحج الى مكة بسوريا حيث كان يحكم عندئذ سيف الدولة ، سلطان بيت آل حمدان في عهد الخليفة العباسي الثالث والعشرين بعد المــائة · وعندما وصل الى بلاط هـــذا الأمير الذي يمثل ساحة مبارزة دائمة بين رجالات الأدب ، وجد نفسه مجهولا من جمهور المبارزة الأدبية التي تقوم أمامه ، فظل واقفا حتى أشار اليه سيف الدولة بأن يجلس ، وعندئذ سأله الفارابي عن المكان الذي يريد منه الجلوس فيه ، فأجابه الأمــير بأن بمقــدوره أن يجلس في أي مكان يراه أكثر ملاءمة له ، فتوجه هذا العالم غير المعروف (ممن حــوله) وبدون أن يتوجه باستفسار آخر ، ليجلس على طرف الأريكة التي كان الأمير جالسا عليها ، واذ فوجئ الأمير بجسارة هذا الغريب قال بلغته (العربية) لواحد من رجاله : مادام هذا التركي قد بلغت به القحة هذا الحد ، فاذهب اليــــه لتؤنبه ، وأطلب اليه في الوقت نفسه مغادرة مكانه ، وحين سمع الفارابي منه هــذا القول قال للأمير : حنانيك ، فمن يسوس النــــاس بمثل رقتك ، يجعل نفســـه عرضة للندم · فقال له الأمير ، وقد أدهشه أن يسمع مثل هذه العبارة : أتعرف لغتنا ؟ فرد عليه الفارابي : نعم ، وأعرف لغات كثيرة غـــيرها ، ثم دخل على الفور في المبارزة مع العلماء المتجمعين ، وسرعان ما ألزمهم جميعا الصمت ، فأصبحوا مجرد منصتين ، يتعلمون منه أشياء كثيرة لم يسمعوا عنها من قبل ·

وحين انتهت هذه المبارزة الأدبية أسبغ عليه سيف الدولة الكثير من التكريم واستبقاه الى جانبه ، وبينما كان الموسيقيون الذين اســـتدعاهم سيف الدولة يغنون اندس الفــارابي بينهم مشاركا اياهم بعود كان يمسك به بيده ، وحظي باعجاب الأمير، فسأله ما ان كانت لديه مقطوعات موسيقية

من وضعه . وعندئذ أخرج قطعة وزع أجزاءها على الموسيقيين . ثم واصل مساندة أصواتهم بعوده فأشاع بين الحاضرين جميعا جوا من المرح حتى جعلهم يضحكون بملء أشداقهم . ثم أمر بعد ذلك بغناء مقطوعة أخرى من مقطوعاته فقد جعل الجميع ينخرطون في البكاء . وفي النهاية غير من المقام فجلب النوم اللذيذ الى عيون كل الموجودين . وقد ابتهج سيف الدولة بموسيقى الفارابي وسر من علمه وأبدى رغبته في أن يظل هذا العالم على الدوام في صحبته . لكن هذا الفيلسوف الكبير ، الذى كان بالغ الزهد في كل أمور الدنيا شاء أن يترك البلاط ليتخذ طريق العودة الى بلده . فاتخذ طريقه وسط الأراضي السورية . لكن لصوصا هاجموه ، واذ كان يعرف جيدا كيف يجذب القوس ، فقد شرع يدافع عن نفسه . لكن سهما من قطاع الطريق أصابه بجرح بالغ فسقط جثة هامدة .

ويحكى كذلك عن هذا الرجل العظيم أنه كان يوما في صحبة الصاحب ابن عباد ، فأخذ العود من يد أحد الموسيقيين ، و عزف بالطرق الثلاثة التى تحدثنا عنها من قبل ، وعندما بذرت الطريقة الثالثة النوم في عيون الحاضرين . كتب على عنق العود الذى استخدمه : مر الفارابي فانقشعت الأحزان . وعندما قرأ الصاحب ، ذات يوم ، مصادفة هذه الكلمات ، فقد ظل بقية حياته في حالة كدر لأنه لم يتعرف اليه . ذلك أن الفارابي كان قد انصرف دون أن ينفوه بكلمة ، وبدون أن يعطى أحدا الفرصة كي ... ه .

المبحث الثانى

عن اســـم العـــود

لا يمكن اعتبار كلمة عود : اسم علم على الاطلاق . فهى بهـــذا المعنى قليلة الورود فى اللغة العربية . وكلمة عود(١) تعنى كل أصـناف الخشب على الاطلاق ، حين يشار الى آله أو أداة ما . أما باعتبار الكلمة اســما لآلة موسيقية فقد انتقلت الى لغات كثيرة ، وتناولها التحريف فى كثـير أو فى قليل بحيث قد بات من العسير أن نتعرف عليها . فحين خلط الأتراك بين الاسم وأداة المعرفه فى كلمة واحدة (العود) فقد حرفوا هجاءها، فكتبوها ولفظوها "لوطة". أما الاسبان الذين أخذوا هذه الكلمه ، طبقا لكل الشواهد ، عن عرب الشرق ، بشكل مباشر . فقد حرفوا من لفظها وهجائهـا على نحو طفيف فجعلوها لاودو Laoudo ، أما الايطاليون فقد كتبوا هذه الكلمة لوتو Leuto ، ثم لفظوها ليوتو Léouto ثم كتبوها فيما بعد Liuto ليلفظوها من ثم Liouto . ومن هنا ، دون جـــدال ، أو من تلك المعرفه بالعود التى اكتسبها الفرنسيون ، فى الشرق ، فى زمن الحروب الصليبية جاءت الى فرنسا كلمة لوت Luth ، وهى اســم أطلق على نوع من الآلات الموسيقية ، أدى بدوره الى ظهور الجيتار الألمـانى .

وقد أكد لنا أحد الشرقيين ، من المتبحرين فى العلم ، أن العود الأصلى كان ذا حجم أكبر بكثير من تلك الآلة الموســيقيه التى نحمـل اليوم هـذا الاسم . وفى الوقت نفسه حيث كان حجمه باعثا على الضيق وعلى ارهاق حامله ، فقد أحلوا مكانه الآلة التى نعرفهــا اليوم حين نشير اليهـا بالاسم المصغر : عود كويطرة أو كوينره ، والذى يعنى العود أو الجيتار الصغير .

الهـــوامش :

(١) من كلمة عود جاءت كلمه عواد ، وتعنى الاسم الذى يشار به الى من يحترف العزف على العود .

المبحث الثالث
عن شكل العود بصفة عامة ، وعن الأجزاء التي يتكون منها

الآلة الموسيقية التى نحن بصدد الحديث عنهـا ، والتى رسمت فى لوحات الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، اللوحة AA الشكل رقم (١)(١) ، تمثل فى واقع الأمر شكلا من أشكال الجيتار ، لا نجد للمقارنة به ، شكلا أفضل من نصف ثمرة كمثرى أو شمامة سطحت قليلا عند أسفلها ٠

ولكى نجعل الشكل الذى نقدمه عنها أكثر وضوحا فسننظر اليه فى البداية من وجوهه المختلفة ، ثم فى أجزائه المتفرقة (كل على حدة) ٠ وحين نتصدى بالشرح لهـذه الأشياء فسنعفى أنفسنا من الدخول فى التفاصيل نفسها ، حين نتصدى لبقية الآلات الوترية ، ما لم تك هناك ملاحظة جديدة ينبغى تقديمها ٠

الوجه الأمامى للعود A هو الوجه أو الجانب الذى يوجـد بهمشدة التناغم ، وهو مسطح ويسمى بالعربية **وجه** ، أما الجـانب الخلفى B أى الجزء المقابل للجانب السابق فمحدب أو مقبب ، فيما عدا الملوى حيث هـو مسطح ٠ ويطلق على هـذا الجانب الخلفى فى مجمله فى العربية اسم **ظهر** ، ويسمى الجزء من الظهر المكون للجسم الرنان ، أى ذلك الجزء المحصور بين b و d **قصعة** ، وهى كلمـة تشـير الى شىء أجـوف ومحـدودب ٠ وتسمى يد العود **بالرقبة** ، أما مركز الأوتاد S فيسمى بالعربيـة **أنف** ، كذلك يسمى الملوى D **بالبنجاك** ، فى حين يسمى الجزء المجوف من الملوى E والذى تدخل فيه الأوتاد بالمسـترة ، أما الأوتاد نفسها e فتسمى

عصافير(٢) وتسمى ثقوب العصـــــافير بالحروف(٣)؛ أما الحبــــال F فهى **الأوتار**(٤) . وتسمى رافعة الأوتار أو المشط **بالفرس** وهى تقابل وتتفق مع كلمة شيفاليه Chevalet عندنا ، وهو الاسم الذى نطلقه على تلك القطعة الصغيرة من الخشب ، والتى توضع رأسيا فوق آلاتنا الموسيقية . ويطلق على قطعة الجلد H ، المصبوغة باللون الأخضر والملصقة فوق مشدة النغم وتحت الأوتار والتى تمتد منبسطة من الفرس الى ما تحت النافذة الصوتية الكبيرة اسم رقمة ، أما هذه النافذة الصوتية الكبيرة () فتسمى **شمسة**(٥) فى حين تسمى النافذتان الصـــوتيتان الصـــغيرتان oo والموجودتان تحت الشمسة الكبرى ، بالقرب من الزوايا للرقمة بالشمسيات(٦) . أما **الجوانب** المكونة للقصعة فيطلق عليها اسم **بارات**(٧) ، وفى النهاية فانهم يطلقون على ريشة العزف P اسم **زخمة**(٨) ان كانت هذه عبارة عن رقاقة من خشب . **أو ريشة النسر** ، اذا كانت حقيقة ريشة نسر .

الهـــوامش :

(١) مجموعة الآنيه والأثاث والآلات · ونعطي اللوحه AA الفصول السبعه من الباب الأول من هذا المجلد ، أما اللوحه BB فنغطي الفصول الستة الأخيرة ، في حين تغطي اللوحة CC الأبواب الثاني والثالث والرابع·

ملاحظه مقياس الرسم الخاص بالآلات يبلغ بصفه عامة ثلث الأصل . أما التفاصيل فقد أوردناها بالحجم الطبيعي ·

(٢) هذه الكلمه هي جمع لكلمه عصفور · ولا تطلق الا على الأوتاد التي تتخذ شكل قرص صغير على هيئة زرار · أما الأنواع الأخرى من الأوتاد ، مثال تلك التي لها شكل البيرر (مطرقة ذات رأسين) فتسمى أوتاد والمفرد وتد . أما تلك التي لها شكل هرمي فيطلق عليها اسم ملاوي ·

(٣) جمع كلمة خرق بمعنى ثقب · انظر شكل ٢ ·

(٤) أوتار والمفرد وتر ، وهي تقابل كلمة Corde عندنا · ولا تسمى بهذا الاسم سوى الأوتار المصنوعه من معى الحيوان ، أما تلك المصنوعة من النحاس الأصفر فتسمى : سلك أو تل ، وان يكن المصريون لا يلجئون اليها قط في صنع الآلات الموسيقية التي يستخدمونها ، بحيث لا نراها الا في الآلات التي يعزف عليها الأتراك واليونانيون واليهود الذين يقطنون مصر ·

(٥) مأخوذة من كلمة شمس ، وهي كلمة محرفة ·

(٦) وهذه الكلمة أيضا مشتقة من كلمة شمس ، وتقابل كلمة Solaire عندنا ·

(٧) والمفرد بارة (وهي وحدة العملة المصرية زمن العثمانيين) ·

(٨) انظر اللوحة AA الشكل ٣ ·

المبحث الرابع
الخامات التى تصنع منها الأجزاء السابقة ، وشكل كل جزء منها ، ووضعه ، ونسبته الى غيره من الأجزاء ، ووظيفته ، وغلاف الآلة

نصنع البنجاك D من حشب الجور ، وهى مقلوبة الى الخلف ، وتشكل مع العنق C زاويه تبلغ ٥٠ درجة ، أما الجانب E مجوف فى كل اساعه ، ويبلغ سمك الأجزاء الجانبية نحو ٦ مم ، وينقسم هذا السمك فى كل طول هذه الأجزاء الجانبية الى قسمين عند منتصفه بفعل شبكة من خشب القيقب المصفول ، مغلفة ، ويبلغ عرضها ملليمترا واحدا(١) ، أما الوجهان الجانبيان × فيتكون كل منهما من جزئين : أحدهما وهو الأكبر عرضا ، يبلغ عرضه من ناحيته الأنف ١٦ مم ، ويبلغ هذا العرض عند قمة البنجاك ١١ مم فقط ، أما الجزء الآخر فيشكل اطارا يحيط بكل الجزء السابق ، بكامل طول البنجاك ، ولا يزيد عرضه عن ٧ مم ، وينقسم هذا الجزء بدوره الى قسمين بفعل شبكة من الخشب ، تمتد بكامل طوله ، وهى مغلفة ، وتماثل فى سمكها تلك الشبكة التى سبق أن أشرنا اليها(٢) ، وعند وسط الوجوه الجانبيه × نجد الأربعة عشر ثقبا c التى يبعد كل ثقب منها عن الآخر بمسافه ١٤ مم ، والتى يمر من خلالها الاربعه عشر وتدا والتى تحمل الأرقام من ١ الى ١٤ ، والتى تركب عليها الأوتار(٣) ونغطى لوحة صغيرة من العاج — وهى التى لا نرى سوى سمكها فى الشكل ٧ — كل طول الدرك (أطراف الأوتار) ، وكما هو الحال بالنسبه للدرك ، فان عرض هذه اللوحة يبلغ ٢٩ مم ، فى حين يبلغ ارتفاعها ٢٣ مم ، وينقسم امتداد الوجه فيما تحت البنجاك الى رقع صغيرة ، فهناك أولا رقعتان طوليتان ، تتكونان بفعل احاطة الجانبين اللذين تحدثنا عنهما من قبل ، واللذين يبلغ

عرضهما بالمثل ٧ ملليمترات . ثم مع الاتجاه نحو مركز اللوحة Y . وقريبا من الشبكتين السابقتين مباشرة . وعلى كل جانب يوجد شريط من خشب سانت لوسى Sainte-Lucie يصل عرضه الى ٦ مم فوق البنجاك D . و٤ مم عند الاقتراب من نهاية الآخر . وقريبا من كل واحد من هذين الشريطين أو الرقعتين . مع الاتجاه دائما نحو المركز . توجد شبكة من العاج يزيد عرضها قليلا عن الملليمتر . ويتلو هاتين الرقعتين شريطان من خشب الاكاجه الأبيض . أحدهما على جانب . وثانيهما على الجانب الآخر . وعرضهما غير متساو . يبلغ عرض أحدهما نحو ١٠ ملليمترات ، في حين يبلغ عرض الآخر ٧ مم . ومع ذلك فان هذا الطول . في هذا وذاك من الشريطين يبدأ في التناقص تدريجيا . وبشكل غير ملموس حتى لا يزيد بعد على ملليمترين . ثم يعقب هذين الشريطين كذلك شبكتان صغيرتان من خشب الليمون يبلغ عرضهما ملليمترا واحدا . وأخيرا . فعند الوسط تماما توجد شبكة من خشب سانت لوسى عرضها مساو لعرض الشبكتين أو الشريطين السابقين . وتؤدى كل هذه الشبكات أو الشرائط الى قطعة صغيرة من خشب الأكاجة الأحمر . يبلغ سمكها نحو ملليمترين . وتوجد مباشرة تحت لوحة العاج .

أما الأوتاد e (٤) فهي من خشب الزعرور . ويبلغ عددها أربعة عشر كما سبق أن أوضحنا . ويخترق كل واحد منها ثقب نفذ في سمك ذيله(٥) ليمر الوتر من خلاله .

وأما العنق (أو اليد) . فمسطح عند أعلاه أو عند مقدمته، ويتحدب في أسفله أو في الخلف . ويتكون وجهه العلوى من قطع متصلة ومغلفة . ووسطه(٦) عبارة عن نصل كبير من العاج يبلغ طوله ١٦٠ مم ويبلغ عرضه من أسفل ٣٦ مم . ثم يأخذ هذا العرض في التناقص تدريجيا مع الارتفاع حتى لا يعود يبلغ أكثر من ٢٨ مم . ويحاط هذا النصل العاجي باطار صغير

من خشب سانت لوسى ، كما يحاط هذا الاطار بدوره بشبكه من العاج ٠ ونغطى حافتا العنق ، وكذا الجزء الواقـع مباشرة تحت الانف بشريطين من خشب سانت لوسى ٠ وفى أسفل النصل الكبير المصنوع من العـاج توجد قطعه من خشب الأكاجة تشكل متوازى مستطيلات عرضه ٤٥ مم وبارتفاع قدره ١٤ مم ، تحوطه شبكة من العاج هى بمثابة اطار له ٠ وبعيـــدا عن ذلك ، الى أسفل ، توجد شريحة صغيرة من خشب الأبنوس تمتد ٥٢ مم فوق امتداد العنق ، أما ارتفاع هذه الشريحة فيبلغ ٧ ملليمترات ، وأسفل ذلك نجد شريطا من خشب سانت لوسى عرضه ٣ ملليمترات ٠ وكل واحد من وجهى العنق فى نفس مستوى الفرس ٠ أما أسفل العنق فمصنوع من خشب الصندل ، وهو ينقسم الى ثلاث عشرة رقعة ، بفعل اثنى عشر خيطا من خشب الليمون تمتد بكل طول هذا الجزء من الآلة الموسيقية ٠ ويرجح أن هناك جزءا من العنق لا نراه قط لأنه يدخـــل أو يندمج فى جسم الآلة ، وهذا الجزء الذى يبلغ ارتفاعه بالضرورة ٤٥ مم على الأقل ، يشكل بلا جدال نوعا من ردف أو تلة تلتصق عليها الضلوع عند أطرافها ٠

أما الأنف S فمن العاج ، حزب بها سبعة أزواج من نتوء صغيرة ، نبيت فيها الأربعة عشر وترا ، متزاوجة (اثنين اثنين) لتحول بين كل منها وبين أن تتزحزح من اتجاهها الخاص بها ٠

أما مشدة التناغم A ٠ فهى قطعة واحدة من خشب الصنوبر ، ناعمـة وملساء بالقدر الكافى ، ولكنها غير مطلية بأى طلاء ، وتمتـد لنحو ١٨ مم فوق العنق ٠

وأما الشمسيات O,o,o فدائرية ، ويسدها بشكل تام سمك مشدة التناغم ٠ ويبلغ قطر الشمسة الـكبيرة O ١٠٨ مم ، أما قطر الشمستين الصغيرتين o,o فلا يتجاوز ٣٢ مم ٠

والرقمة(٧) هي قطعة الجلد الأخضر اللون ، التي نلصق فوق مشـدة التناغم ، والتي تشغل من هذه المشدة مسافة ١٥٨ مم ارتفـاعا بـ ١٠٤ مم عرضا ، بدءا من الفرس ·

وزوايا أعلى الرقمة مبتورة ومشذبة من كل جوانبها على شكل أسنان ذئب · وقريبا من الفرس ، تجاه الفراغ الذى يفصـل بين كل زوجين من الأوتار نرى فوق الرقمة ثقبا أو نافذة صونية صـغيرة (شمسة) منقوبة كلية فى سمك مشدةالتنـاغم · وحيث تشكل الأزواج السبعة من الأوتار ست فاصلات (فراغات) فيترتب على ذلك وجود ست شمسات صغيرة(٨) فى هذا المكان ·

وتصنع الفرس g من خشب الجـوز ، وتكاد تشبه فرس الجيتـار عندنا ، وتخترقها سبعة أزواج (١٤) من الثقوب ، تمر من خلالها الأوتار ليتم ربطها ·

كما تصنع الأوتار F من معى الحيوان ، وهى تختلف فيما بينها قليلا فى درجة السمك ، تبعا للنغمات المتباينة التي ينبغي أن تصدر عنها ، وهى تربط بالأوتاد وبالفرس على شاكلة أوتار الجيتار عندنا ·

أما الجزء المحدب من الجسم الرنان أو ما يسمى بالقصـعة فيتكون من واحد وعشرين ضلعا من خشب القيقب ، يفصل بينها عشرون شريطا من خشب سانت لوسى · وفوق الضلعين الأخـيرين - وهما أصغر الضلوع - تنهض مشدة التناغم(٩) ·

ولاخفاء اتصال مشدة التناغم بحواف القصعة ، أى بالجزء المحدب من الجسم الرنان ، أو ربما للحيلولة دون أن تنفرط أو تتفكك مشدة التناغم فقد غطيت كل جوانبها بشريط أزرق من القطن عرضه ١٤ مم ، لصق نصفه

فوق القصعة بينما التصق نصفه الآخر بالمشدة نفسها(١٠) ٠

وفى الجزء السفلى من القصعة ، والذى تنتهى عنده الأضلاع متجمعة توجد حلية من خشب الليمون ، تغطى من هذه الناحية طرف الأضلاع وتعلو لنحو ٨١ مم فوق ارتفاع الضلع الأول بالقرب من مشدة التناغم من ناحية اليمين وناحية الشمال على حد سواء ٠ وتغطى هذه الحلية فى جزء منها بحلية أخرى من خشب سانت لوسى ، التى تمتـــد هى الأخرى متجــاوزة امتداد الحليه الأولى بنحو ٥٤ مم بارتفاع هذه الأضلاع نفسها(١١) ، واذ تأتى هذه الحلية لتكون فى وضع متساو مع المشدة فانها تكون نتيجة لذلك مغطاة ، بدورها ، بشريط من القطن الأزرق ، ويبدو أن هذه الأشياء تستخدم فقط بغرض تثبيت الأضلاع ، ولكى تزيد من متانة الجزء الذى تحمل عليه الآلة ، عندما توضع فى وضع الوقوف ٠

واذا ما خططنا خطا موازيا لمشدةالعود بدءا من الطرف × من البنجاك تجاه أسفل الآلة على شكل Ω فسنجد أن طوله يبلغ ٧٢٦ مم ارتفاعا ، فاذا ما قسنا امداده بدءا من الأنف S حتى نقطة Ω فى خط مستقيم فان طول الآلة فى هذا البعد لن يتجاوز ٦٧٧ مم ، مما يعطينا ٢٩ مم ، فرقا بين الجزء الأكبر ارتفاعا من البنجاك وبين الأنف ٠

ويبلغ طول العنق من النـــاحية F ٢٢٤ مم ، فى حين يبلــغ طوله بالقرب من الأنف ٤٩ مم ، أما عرضه بالقرب من الجسم الرنان ، فى امتداد المشدة L فيبلغ ٦٥ مم ٠

كما يبلغ صندوق الجسم الرنان فى أكبر عمق له ١٦٢ مم ٠

أما مشيدةالتناغم فى الامتداد المحصور بين النقطة Ω والامتداد L فتصل الى ٤٣٣ مم ، أما أقصى انساع لهــا ، أى على مســافة ١٣٥ مم من

النقطة Ω فيبلغ ٢٥٠ مم ، ويبلغ هذا الاتساع عند منتصف ارتفاعهـــا ٣٣٩ مم ، أما عند ثلاثة أرباع ارتفاعها ، قريبا من جانب العنق ، فلا يزيد هذا الاتساع عن ٧٠ مم ٠

ويمتد الأنف بعرض يبلغ ٤٧ مم ٠

ويبلغ عرض البنجاك ، مقيسا بالقرب من الأنف ، ٤٦ مم ، ولا يبلغ طوله عند طرفه ، فى نفس البعد ، سوى ٢٨ مم ٠

ويأخذ عرض العـــود فى التناقص على الدوام فى اتجـــاهى العرض والعمق ابتداء من مسافة الـ ١٣٥ مم من نقطـــة Ω حتى الطرف الأكثر ارتفاعا من البنجاك ، كذلك فانه يتناقص فى هـــذين الاتجاهين فى مدى الـ ١٣٥ مم مع الاقتراب من النقطة Ω ٠ ومع ذلك فان هذا التناقص ، برغم انه أكثر انحدارا وأقل مدى عنه اذا ما اتجهنا نحـو الطرف الآخر ، سواء بسبب من قلة الاتساع الذى يتبقى ، أو لأن منحنى الآلة وهو يتسع تدريجيا ينتهى به الأمر بأن يتحول الى خط يكاد يكون مستقيما ٠

والآن ، قد انتهينا من تقديم أبعاد شمسات الرقمة ، ولا يبقى علينا الا أن نصف الريشة P ، تلك التى لم نذكرها بكلمة واحدة حتى الآن ٠

تصنع ريشة العزف ، والتى تسمى بالعربية زخمة(١٢) أو ريشـــة النسر من نصل صغير من رقاقة خشب أو من ريشة نسر ٠ وحين يتخذها العازف من ريشة نسر ، فلابد أن يقطع منها الجزء الجـاف الذى يوجـد فى أعلى القصبة بطول ٨١ مم ، كذلك تنزع عنهـــا كل المـادة الاسـفنجية ، وتكشط جيدا بواسطة مدية أو محفار ، ثم تشذب وتدور من عند طرفها ، وفى النهاية لا يترك فيها شىء يمكنه أن يخدش الأوتار أو يعلق بها ممـــا يؤذى توقيع من يقوم بالعزف على هذه الآلة الموسيقية ٠

ويصنع غلاف العود بقدر من العنـــاية يستحق منا معــه أن نتوقف عنده(١٣) ، فشكله عند اغلاقه يشبه تمام الشبه شكل الآلة نفسها ، وهـــو مصنوع من خشب الصنوبر مغطى بجلد من ألحور مصبوغ باللون الأحمر ، ومبطن من داخله بورق مصبوغ بطريقـــة بدائية خشـــنة باللون الأحمر كذلك ، ويتشكل الجزء المقبب من الخارج ، المجوف من الداخل B ، والمعد لاحتواء ظهر الجسم الرنان من أضـــلاع متجمعة ، وتلتصق هـــذه الأضلاع وتلتحم ببعضها البعض على نحو طيب حتى أننـــا لا نلمح أدنى أثر لهـــا من خلال الجلد الذى يكسوها • وكل الجزء المجوف من الغلاف ثابت ، أما الجزء المسطح والمعد لاحتواء مقـــدمة الآلة فينقسم الى ثلاث قطع احـــداهن فقط وهى A ثابتة ، وهى كذلك القطعة السفلية والتى ترتفع حتى ٢٧ مم أسفل الشمسات الصغيرة ، أما القطعتان الأخريان فمتحركتان ، وأولاهمـــا C تتصل بالأولى بفعل مفصلتين صغيرتين ، يمكن عن طريقهما قفلها أو فتحهـــا حسب الحاجة ، وهى تكسو الآلة ، أسفل الشمسات الصـــغيرة oo بنحو ٢٧ مم ، وحتى ارتفاع مقدمة البنجاك ، ذلك أنها بعد أن تضيق حتى تأخذ شكل العنق تعود فتستعرض من جديد عنـــد النقطة d ، لتغطى الجزء من الغلاف الذى يضم البنجاك ، ولابد أن تكون سعتها كبـــيرة لحـــد يكفى لأن يستوعب ، ليس فقط هذا البنجاك ، بل والعصـــافير ، التى تبرز بنحـــو ٢٧ مم الى الخـــــارج ، على النحو الذى نراها عليه فى الشـــكل ٢ • أما السدادة E فلها حواف ناتئة ، بزاوية مستقيمة عند × كما ترتفع بمقدار ١٥ مم ، وتغطى عند اقفالها القسم المفرغ من الجزء المجوف والثابت R الذى يضم البنجاك • وتنتهى الحافة السابقة بالوجه V ذلك الذى يوجد بوسطه مزلاج له زنبره يدخل فى بداية اللسان g عند طرف الجزء d عندما يعاد رفع الجزء C — بعد أن نكون قد أقفلنا السدادة E — لنسنده عند d على هذه السدادة نفسها •

الهـــوامش :

(١) انظر شكل ٢ ٠

(٢) انظر الشكل ١ الوجه × ٠

(٣) انظر الشكل رقم ٢ حيث رقمت العصافير طبقا لترتيب الأوتار وترتيب النغمات في الائتلاف النغمى ٠

(٤) انظر الشكلين ١ ، ٢ ٠

(٥) اضطررنا لتقديم هذه الملاحظة اذ أننا بعـــد ذلك سنتحدث عن بعض الآلات الموسيقية التى نصنع عصافيرها على نحو مغاير وتربط أوتارها بطريقة مختلفة ٠

(٦) أنظر الشكل ١ ٠

(٧) تصنع هذه الرقمة من قطعة جلد مأخوذ من أسفل بطن السمكة المسماة بالعربية بياض ٠

(٨) أنظر الشكل ١ ٠

(٩) شرحه ٠

(١٠) شرحه ٠

(١١) شرحه ٠

(١٢) أنظر اللوحة AA الشكل ٣ ٠

(١٣) أنظر الشكل ٤ ٠

المبحث الخامس
عن الائتلاف النغمى فى العود
وعن ضبط نغماته ، وعن نظامه الموسيقي

سوف يكون الأمر بالمل عسيرا ، طويلا ومرهقا ، لو أننا حاولنا تفسير الوضع الفريد الذى تأخذه أوتار العود ، وكذا توضيح ترتيب النغمات التى تكون الائتلاف النغمى ، دون أن نستعين بصورة تجعل من هذا كله أمورا محسوسة تدركها العين . ولهذا السبب ، فقد ظننا أنه قد كان من الاوفق أن نقدم هنا رسما للبنجاك وللاوتار بالاضافة الى اشارة للنغمات التى تحدثها .

أما الأرقام التى وضعناها بين العصافير ، والاشارات الموسيقية الواقعة قبالتها على جانبى البنجاك فتدل فى الوقت نفسه على وضع الأوتار المربوطة الى العصافير والترتيب الذى تشغله فى التآلف النغمى لآلة العود وكذا الأنغام التى يأتى بها كل واحد من هذه الأوتار . وحتى يمكن القارىء من تصور ميكانيزمات التآلف النغمى بشكل أكثر وضوحا فقد أطلنا خطوط الأوتار عن طريق خطوط أخرى من النقط ، وفى نهاية هذه الخطوط ، كررنا مرة أخرى الرقم الموافق للترتيب الذى تشغله النغمة التى يحدثهـا الوتر والتى عبرنا عنها بنوته أو اشارة التآلف التى نرى أسفل البنجاك . وبهذه الطريقة فان العين تستطيع أن تسترشد بهذا الرسم فى تتبع الأمر بدءا من المكان الذى يربط فيه الوتر بالعصفورة ، حتى الأنف التى يتخذ عنده الوتر الوضع المخصص له ، حتى تصل الى اشارة النغمة التى يحدثها الوتر .

ويمثل الشكل التالى البنجاك بأوتاره ، مصحوبا بالنوتات أو الاشارات الموسيقية المرتبطة بالأوتار ، وبالنغمات التى نحدثها هذه

الأوتار ، والتى يتكون منها — أى من هــذه النغمات — التآلف النغمى لآلة العود • أما الأرقام التى نجدها بين الاشارات الموسيقية والعصافير فتدل على الترتيب الذى جاءت عليه الأوتار فيما يتعلق بالتآلف النغمى •

وهكذا نرى :

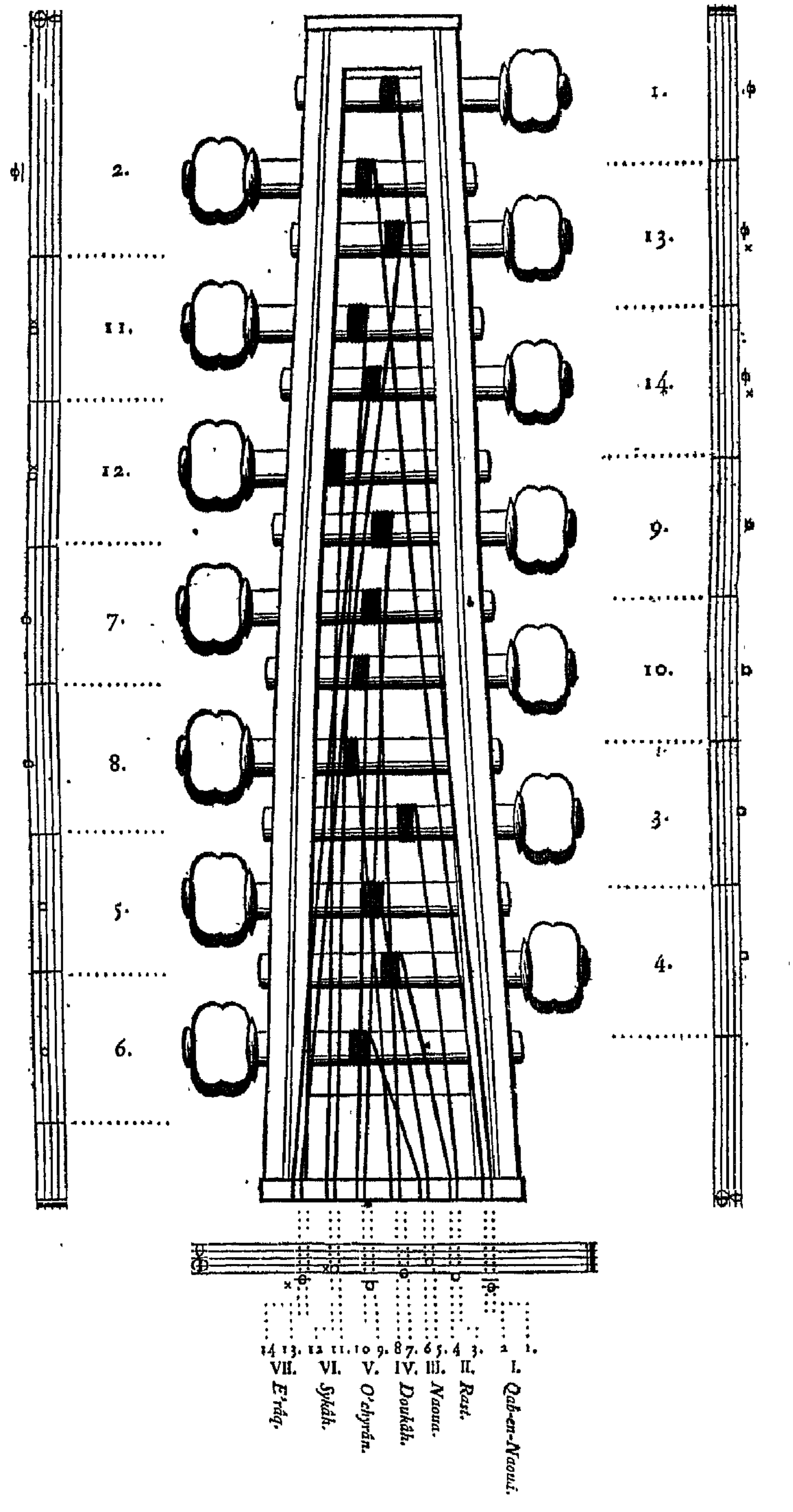
أولا : أن كل واحدة من النغمات السبع تؤدى بواسطه وترين •

ثانيا : أن هذه النغمات جميعا قد ائتلفت فى رباعيــات وخماســيات وثمانيات ، سواء عند الصعود أو عند الهبوط •

ثالثا : ان النغمه الاكثر انخفاضا أو غلاظه تشغل هنــا الموضــع الذى تشغله النغمة الاكثر جهارة أو حدة ، أى نغمة الزير (وهو أدق الأوتار) فى جميع أنواع الكمان ، على اختلافها ، لدينا •

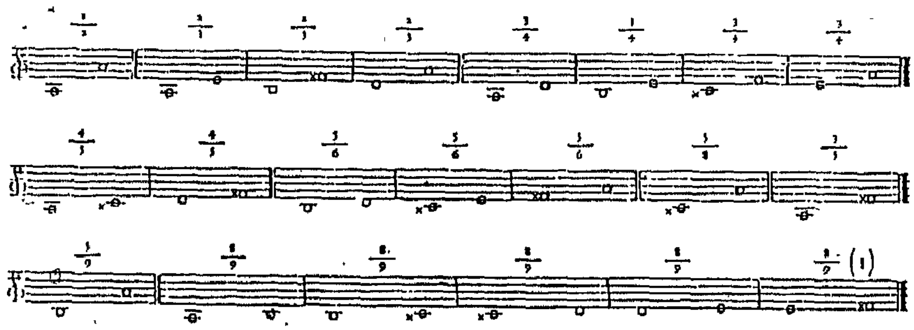
رابعا : أن الوترين اللذين يؤديان النغمــة الاكثر غلظة همــا أطول الأوتار جميعا ، وأنهما بالتالى مربوطان بالعصافير الاكثر تراجعا نحو طرف التحاك •

خامسا : أن من الأمور البالغة الغرابه ، والبالغة الأهميــة ، والجديرة بالملاحظة فى الوقت نفسه ، هو أن الائتلاف النغمى للعود يشتمل على كل النغمات الناتجة عن انقسام الوتر الى أجزائه القاسمة الأساسية والمبدئية ، مع فارق طفيف ينجم عن المزاج الذى يتملك العرب عند استعمالهم لنظامهم الموسيقى ، وفى واقع الأمر فان لديهم تلك النغمة الثمانية التى تشــكل ، طبقا لتقسيم الوتر ، الفاصلة التى توجد فيما بين النغمة الناتجة عن نصف طول الوتر نفسه ، وتلك التى تصدر عن الطول الكلى لنفس الوتر ، وباتباع هذه المقارنة على الدوام ، فيما بين الاجزاء القاسمة للوتر فى طوله الاجمالى ، وفى النغمات التى تحدثها هذه الأجزاء ، نجد لدينا الخماسية النــاتجة عن


1.
2.
13.
11.
14.
12.
9.
7.
10.
8.
3.
5.
4.
6.
14 13. 12 11. 10 9. 8 7. 6 5. 4 3. 2 1.
VII. VI. V. IV. III. II. I.
E'râq.
Sykâh.
O'chyrân.
Doukâh.
Naoua.
Rast.
Qab-en-Naoui.

ثلثى طول الوتر ، والرباعية التى تنتج عن ثلاثة أرباعه ، والثلاثية الكبرى التى تصدر عن أربعة أخماسه ، والثلاثية الصغرى عن خمسة أسداسه ، والسداسية الصغرى عن خمسة أثمانه ، والكبرى عن ثلاثة أخماسه ، والسباعية الصغرى عن خمسة اتساعه ، ونغمة القرار التى تصدر عن ثمانية أتساعه .

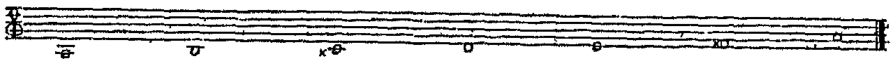
أمثلة



ومع ذلك فاننا لم نقل بأن من الأمور الهامة أن نلاحظ النسب أو العلاقات المختلفة لهذه النغمات فيما بينها لمجرد أن نغمات الائتلاف فى آلة العود ، تقدم كل النسب أو العلاقات التى تنتجها التقسيمات الرئيسية للوتر ، وانما كذلك لأننا نجدها حين نفحصها جيدا ، تشير الى رابطة مصاهرة بين النظام الموسيقى العربى ، والنظام الموسيقى الذى وضعه جى أرزو Gui Arezzo لدرجة يستحيل علينا معها ألا نكون على يقين تام بأن أحدهما قد أدى لنشأة الآخر ، أو أنهما على الأقل قد اشتقا كلاهما ، من مصدر مشترك ، وفى الواقع ، فاننا نجد النظام الموسيقى الذى ينتج عن نسب أو علاقات النغمات فى ائتلاف آلة العود على النحو الآتى :

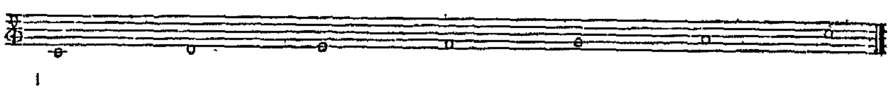
الترتيب أو النسق الدياتوني للأنغام

فى الائتلاف النغمى لآلة العود



واذ تعلو هذه السلسلة من النغمات بمقـــدار نغمة ثلاثية ، فانهـــا تختلف اختلافا طفيفا ، أو لا تكاد تختلف على الاطلاق ، عن السلم الموسيقى الذى تكون طبقا للنظام الموسيقى عند جى أرزو . حيث لا يتكون هذا السلم الا من النغمات الست الدياتونية التالية ، ذلك أن النغمة سى Si لم تضف الى هذا السلم الا بعد ما يزيد على ســـتمائة عام بعـد جى أرزو ، ى منذ ما يقل عن مائتى عام ، على يد موسيقى يدعى لومير Lemaire .

السلم الموسيقى طبقا لنظام جى أرزو



وبمعنى آخر ، فحيث لا يحتمل أن يكون المصريون المحدثون والعرب قد تلقوا هذا النظام الموســيقى عن الأوربيين ، وحيث يرجح كثـيرا — على العكس من ذلك — أن يكون الفن الموســـيقى منذ ســـقوط الامبراطورية الرومانية قد عانى — فى أوربا — من نفس القدر الذى قاست منه بقيـــة الفنون الحرة والعلوم ، بمعنى أنها قد أضحت أمورا باطلة ، منسية مهملة ، فى الوقت الذى كانت فيه هذه العلوم والفنون نفسها تزدهر وتحظى بأكبر قدر من الشيوع والنجاح عـــلى يد العرب ، الذين يبدون دوما وكأن علوم الاغريق وفنونهم قد وجدت عندهم الملاذ الآمن ، فقد ينتج عن ذلك أن هؤلاء العرب ، حين بسطوا فتوحاتهم الى أوربا ، كما كانوا قد فعلوا فى الشرق ،

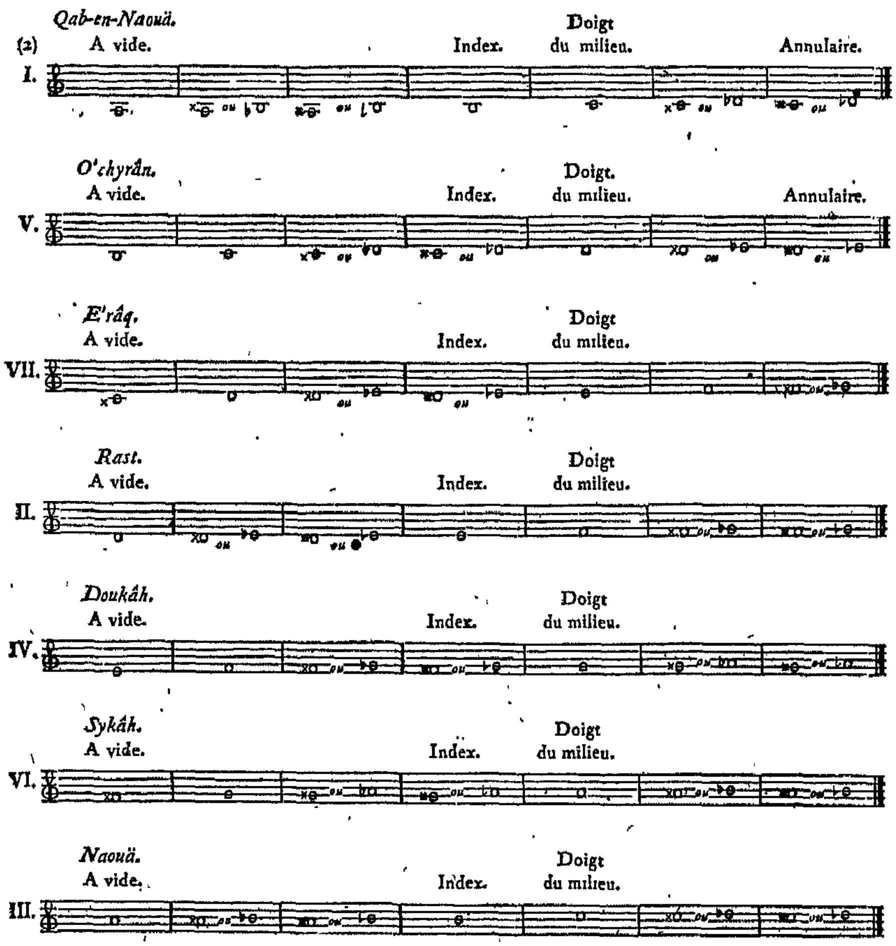
وخصوصا حين سيطروا على جزء كبير من ايطاليـا ، قد أمكنهم ان يشروا هناك مع ما يذروه من بذور المعارف الأخرى ، معلوماتهم عن الموسيقى(٢) ، وبالتالى فهناك محل للاعتقاد بأن هذا التشابه بين السلم الموسيقى عنـــد العـــرب وعندنا ناتج من أن جى أرزو — الـذى عاش فى وقت كان عرب المشرق قد سيطروا فيه على الجزء الأكبر من أوربا الشرقية والوسطى — قد تشرب معارفهم وأذاعها حتى تبنتها ايطاليا ، بدلا من مبادىء النظام القديم للموسيقى الاغريقية ، تلك التى كانت قد فقدت سطوتها وتخلت عنها حتى الكنائس برغم المحاولات الدءوب التى كان يبذلها كل من ســـان امبرواز S. Ambroise وسان جريجوار S. Grégoire للتـذكير بهـــا · ومن هنا ، على الأقل ، نســـتطيع أن نحدس — كما نظن ، وبقـــدر أكبر من المعقولية — استقرار ذلك النظام المعيب الذى نتبعه اليــوم فى الموسيقى ، ذلك أنه لو لم يـكن النظـام الموسيقى (الاغريقى) عندئذ قـد بات نسيا منسيا ، لمـا كان هناك ما يغرينا قط على أن نتبنى نظاما آخر ، مادام نظامنا الأول قد كان أكثر بساطة وأكبر وضوحا وأفضل قياسا وأشـد سهولة ، وفى الوقت نفسه أحسن اكتمـالا من كل الأنظمـة الموسيقية المتبعة اليوم سواء فى أوربا أو آسيا وأفريقيا ، حيث كان هذا النظام يتكون من ســبع نغمات دياتونية هى : سى ، أوت ، رى ، مى ، فا ، سول ، لا ، دون تحريف من أى نوع ، وهى النغمات التى يستطاع أداؤها وانشادها بشكل طبيعى ، فى حين أن سلمنا الحالى : أوت ، رى ، مى ، فا ، سول ، لا ، سى ، أوت ، فالنغمة سى تبدو لنـا ، بل هى فى الواقع وعـلى الدوام ، جافة ، وأداؤها عسير منفر ، مهما تكن العادة التى جعلتنا مرتبطين بهذا الترتيب العجيب والذى لا يتفق مع أية مسيرة هارمونية طبيعية ·

ان كل هـذه التغيرات والتحريفـات فى الفن الموسيقى تعود — دون

جداول - الى الحسابات الحاذقه لبطليموس واقليدس وثيون الأزيدى ... الخ ، من أولئك الذين قد عن لهم - حين أولوا جل همهم الى ماده الأنغام أكثر مما أولوها الى تأثيرها في الميلودى - أن يحللوا ويقسموا هذه النغمات الى فواصل . وعلى أن يقسموا ويفرعوا الفواصل المستقرة والمتبعة منذ زمان لا تعيه الذاكره ، وذلك بقصد مضاعفة اعدادها ، وحتى يكونوا منها فواصل جديدة يمجها الميلودى الجميل ، العروضى والمعبر ، عند القدماء ، وبهذه الطريقة فقد قلبوا كل شيء ، وعمموا كل شيء ، حتى بات النظام الموسيقى القديم على يديهم مجهولا لا سبيل الى التعرف عليه ، بل كذلك غير قابل للفهم والاستيعاب . كما جعلوه فاقدا بشكل كلى لرابطه القربى الحميمة التى كانت تربطه بشكل وثيق بفن الخطابة وقواعد الشعر ، وبالتالى بقواعد الانشاد والبلاغة والالقاء الشعرى . وانتهى الأمر بهم ألا يتوافقوا ويفقدوا بهم التفاهم فيما بينهم . من هذا القديم ، وهذه الفوضى ، ولا ينبغى أن يخامرنا الشك فى ذلك ، جاء الى الوجود هذا النظام الحالى للموسيقى العربية ، كما أن هذا النظام ، طبقا لكل الشواهد،هو الذى اتخذ منه جى أرزو النموذج الذى نتبعه ونحتذيه الآن .

ولقد حان الوقت ، الآن ، كى نمضى الى وصف وشرح آلة موسيقية أخرى ، وعلى هذا فلن نضيف بعد ذلك ، بخصوص آلتنا هذه ، سوى مثال أخير، كيما نعطى فكرة عن الجدول الموسيقى ، وتعيين الملامس ، والتعريف بالأسماء العربية بالنوتات والنغمات التى يتكون منها ائتلافها النغمى . وهو ما لم نفعله فى الأمثله السابقه ، خشيه أن نكون بذلك نشتت الانتباه عن الأمور التى كانت هذه الأمثلة ، تشكل موضوعها .

الجدول الموسيقى(٣) للعود
وتعيين الملمس الخاص به



آما مدى أو مساحة النغمات التى يمكن الحصول عليها من هذه الآلة فهى نفسها مدى ومساحة نغمات الجيتار الألمانى . وان يكن التنوع فى العود أكبر كثيرا ، حيث أنه لا تحده فقط أربطه كما فى آلات اللمس الأخرى (الوترية) ، من هذا النوع .

الهـــوامش :

(١) كثير من هذه المقـامات أو النغمات محرف وبالغ الضعف مثـل المقامات من سى Si الى أوت ut ، ومن أوت X الى رى ré ، ومن مى mi الى فا X • وتوجد مقامات مشابهة على نحو قريب فى البيانو القينارى لدينا • وقد نستطيع تقدير هذه المقامات فى نسبة ٩ : ١٠ على غرار الفاصلة التى نطلق عليها اسم مقام صغير ، وان لم تكن هذه النسبة دقيقة قط ، ولهذا السبب فقد آثرنا أن نهمل هذا التمييز بدلا من أن نقوم به على نحو تنقصه الدقة ، اذ كان ينبغى علينا ، حتى نأتى بتقييم دقيق ، وحتى ندلل على هذه الدقة ، أن ندخل فى حسابات قد لا تكون مناسبة هنا •

(٢) لا يجهلن أحد أن الخلفاء العرب ، حين بسطوا فتوحاتهم فى العالم القـديم ، قد نشروا فيـه ، فى الوقت نفسـه ، العلوم والفنون التى كانوا يشجعونها والتى هيأوا لها سبل الازدهار ، فى كل مكان امتدت سطوتهم اليه • وقد غدا ابن سينا ، الذى كان يعيش فى زمن جى أرزو ، وابن رشد، الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، خالدين بفعل المؤلفات الرائعة التى جادت بها قريحتهمـا ، والتى ترجمت كلها على وجه التقريب الى لغـات أوروبا العلمية ، ولا بد ان كل امرىء يعرف كيف نال المبدأ الفلسفى ، والمضـاد للدين لابن رشد تقدما هائلا فى ايطاليا ، وأى نكال قد جلبه هذا المبدأ لصاحبه فى مملكة المغرب • وبمقدور من يجهلونه أن يرجعوا الى قاموس Bayle تحت كلمة Averroès ، وبالاضافة الى ذلك يمكن الرجوع بخصوص ذلك العيب الجذرى للنظام الموسيقى الجديد ، الذى وضعه جى أرزو ، وكذلك عن روعة النظام الموسيقى القديم عنـد الاغريق فيما كتبناه فى بحوثنا حول التماثل فى الموسيقى وفى الفنون التى كانت تتخذ من المحاكاة اللغوية موضوعا لها ، الباب الثانى ، الفصلان : الأول والثانى •

(٣) فى اللغة العربية يسمى الجدول الموسيقى لآلة ما ، وكذلك سلم المقامات : طبقة •

(٤) تدل الأرقام الرومانية هنا على ترتيب النغمات ، والتوافق النغمى لآلة العود •

الفصل الثاني

عن الطنبور الكبير التركي "١"

المبحث الأول
عن الطنبور بصـفة عامة

يطلق عادة فى الشرق اسم طنبور على صنف من الآلات الموسيقية له بعض شبه بآلات الماندولين عندنا ، ان لم يكن فيما يتصل بالشـكل على الدوام ، فعلى الأقل ، بالطريقة التى جهزت بها هذه الطنابير(٢) وبالأسلوب الذى يعزف به عليها • وتصنع أوتار هذا الصنف من الآلات من المعدن ، كما هو الحال فى أوتار الماندولين ، وكما هو حال هذه الآلة الأخيرة كذلك فان لآلات الطنبور ملامس ثابتة تتكون من ثقوب عديدة ، أحدثت فى وتر صغير مصنوع من معى الحيوان ، وتتقارب هذه الثقوب الى بعضها البعض بشدة حول العنق حتى لا يتاح لها أن تتراخى ولا أن تنزلق ، ولا أن تخلى مكانها بأية كيفية • وأخيرا فان هذه الآلات توقع على غرار الطريقة المتبعة فى العزف على الماندولين ، ويتم ذلك عن طريق ريشة عزف صنعت من قطعة خشب ملساء ، أو جاءت من الجزء الجاف من ريشة النسر •

على أن ما يميز الطنبور بصفة خاصة عن الآلات الموسيقية الأخرى هو ما يلى :

أولا : أن العنق والبنجاك لا يشكلان سوى ساق واحدة عمودية ••

ثانيا : آن البنجاك مصمت بدلا من أن يكون أجـوف ، مسطح عنـد المقدمة مستدير عند المؤخرة •

ثالثا : ان للعصافير شكل مطارق ذات رأسين ، مستديرة عند طرفى رأسيها •

رابعا : أن نصف عدد هذه العصافير قد وضع فى المقدمة ، أما النصف الآخر فموجود على الجانب الأيمن ، فى حين لا توجد عصافير قط لا على الجانب الأيسر ، ولا أسفل الطنبور ٠

خامسا : أنه ليس لهذه العصافير قط ثقوب عند الذيل تمر من خلالها الأوتار وتمسك بها ٠

سادسا : أن الأوتار تربط خارج البنجاك ، ولا تبتدىء عند الذيل ، وانما تربط فوق رأس العصافير مع تمريرها بالتبادل على هذا الطرف وذاك من طرفى الرأس المزدوجة مكونة شكل صليب سان أندريه x ، ثم تلف حول الذيل حيث ينهيها الصانع على هذا النحو عند اعدادها ٠

وعلى هذا ، يكون المعجميون والرحالة قد خلطوا على سبيل الخطأ بين الطنبور والعود والكيتارة والجينار والقينارة ٠٠٠ الخ ، لأنهم لم ينفحصوا بالقدر الكافى من الانتباه الآلات الموسيقية الشرقية ، ذلك أن هذه الآلات الأخيرة ، فى الشرق ، مزودة بأوتار لم تصنع من المعدن وانما من معى الحيوان ، كما أنها غير مزودة بملامس ثابتة ، وباختصار لأن ليس بها شىء يسترعى الانتباه من تلك الأشياء التى تميز الطنبور ، بل ان البعض على غير أساس كاف ، قد ظنوا هذا الطنبور من نوع الطنابير نفسها التى لدينا ، وقد نضيف بأن هذه الأنواع من الطنابير لا ترى فى مصر الا بين أيدى الأتراك واليهود والأروام ، وفى بعض الأحيان فى أيدى الأرمن ، لكنها لا ترى قط فى أيدى المصريين ٠

واذ يمكن تطبيق كل هذه الملاحظات على كل الآلات الموسيقية من هذا النوع ، فلن يستوجب الأمر منا ، فيما بعد ، أن نتصدى بالشرح الا للأمور الخاصة بأى آلة منها أو المقصورة عليها ، وكما أنها جميعا — فضلا عن ذلك ، تلتقى فى نقاط أخرى كثيرة ، فاننا لن نكرر عند وصف هذه الآلات ما نكون قد شرحناه مسبقا ، عند حديثنا عن غيرها من الآلات ٠

الهـــوامش :

(١) لا ينبغي لنا أن نخلط قط بين هذه الكلمه طنبور ، وبين كلمـه Tambour في لغتنا الفرنسيه ، واننا لنجهل على أى أساس استند كاستل Castelle حين أعطى للـكلمه العربية طنبور المعنى نفسه الذى للـكلمة الفرنسيه المشار اليها ، وحين يكتبها هجائيا طنبور Tombour وليس طنبور . باعتبار ذلك اسما للآلات الموسيقيه التى نشير اليها تحت اسـم طبور . لكن الأمر المؤكد للغاية لدينا هو أن هجاء كاستل لا يتفق قط مع النطق الشائع فى مصر ، بل حتى فى فارس . ولقد كان كاستل يدرك ذلك جيدا ، دون شك ، ما دمنا نقرأ فى قاموسه ذى اللغات السبع ، عند الجذر طبب ، برقم ١٨ كلمة طنبور ، ثم برقم ١٩ طنبور وطنبار والجمع طنابير ، مما يعنى ، كما يقول ، « ان طنبار والجمع طنابير هى نفس الشيء بخصوص كلمة طنبور فى فارس » ، وبعد ذلك ، فى أسفل الصفحة ، وفى الموضـع الذى يقدم فيه شرحا لهذه الكلمة نقرأ نصا لاتينيا مؤداه أن الكيتارة التى تقابل فى العبرية كينور أو كنور ، الواردة فى الآية ٢٧ من الاصحاح ٣١ من سفر التكوين هى آلة موسيقية ذات عنق طويل ، وبطن مستدير ، وأوتار معدنية وتوقع بريشة العزف (الآلات الوترية : آلة موسيقية وهى نوع من الآلات وحيدة الوتر ، وقد زودت بأوتار ثلاثة) وفى كل هذا نجد أشياء تبدو لنا ناقصة الدقة/وأخرى تتفق بطريقة مدهشة مع ما علمناه ، فنحن لم نعرف قط آلات من هذا النوع يشار اليها باسم طنبور ، وكلها مصحوبة بصفة تميزها ، كلا منها ، عن الأخرى ، وهى تختلف فيما بينها فى شكل الجسم الرنان وفى عدد وخامة أوتاره ، وفى الائتلاف النغمى لهذه الأوتار . وهكذا فان التعريف بواحد من الطنابير المختلفة لا ينطبق بالضرورة على الطنـابير الأخرى .

ولهذا السبب فليس هناك من صحيح سوى التعريف الأول لكاستل . أما التعريف الثانى فمفرط فى خصوصيته .

(٢) قد يلزم أن يكون الجمع طنابير . ولكننا خشينا ، اذا ما كتبنا الكلمة على هذا النحو أن يظن أولئك الذين تعد اللغة العربية غريبة عليهم أننا نبغى أن نتحدث هنا عن آلة موسيقية أخرى ، وقد حدا بنا السبب ذاته أن نسلك هذا المسلك نفسه فيما يتعلق بكلمات كثيرة أخرى .

[فى الأصل الفرنسى استخدم المؤلف كلمة طنبور Tambour فى المفرد ، أما فى الجمع فقد كتبت Tambours باضافة علامة الجمع s الى المفرد متفاديا كلمة طنابير Tanabyr . ومن هنا كانت ضرورة هذا الهامش فى الفرنسية . (المترجم) .

المبحث الثاني

عن الطنبور الكبير التركي ، عن أجزائه ، عن أشكالها واطوالها ونسب هذه الأجزاء بعضها الى بعض ، عن وظائفها ، وعن الائتلاف النغمي لهذه الآلة الموسيقية

الطنبور الكبير التركي ، آلة موسيقية مرتفعة ، يبلغ ارتفاعها مترا و٣٤٠ مم ، أما ارتفاع العنق والبنجاك وحدهما فيبلغ المتر و١٥ مم ؛ في حين يشكل صندوق الآلة وفرسها الجزء الباقي والذي يبلغ بالتالي ٣٢٥ مم(١) .

ويمكن أن ينظر الى صندوق الآلة من وجهين مختلفين : الأول وهو الجانب المقبب ، ويتجاوز نصف كرة ، وهو الوجه اللاحق أو الظهر ، ويسمونه بالعربية (العامية المصرية) **ضهر**(٢) أما الثاني فمسطح ، وهو الوجه الأول أو الأمامي ، ويسمونه في العربية وجه(٣) .

أما **القصعة**(٤) ، أو الجزء المقوس، والذي يتجاوز شكله شكل نصف كرة في الطنبور التركي ، فمصنوعة من خشب بالغ الجمال ، ضارب الى الصهبة ، مصقول ومعرق ، وعروقه الكثيرة العدد ، والموزعة بشكل بالغ الرقة ذات لون أسمر يضرب الى القتامة وتبدو وكأنها محروقة . ويتكون هذا الجزء مبدئيا من تسعة أضلاع كبيرة(٥) وتبدأ من تحت ، عند موضع التحام العنق بجسم الطنبور ، وتستطيل حتى تبلغ الطرف المقابل تماما من الصندوق في شكل Ω ثم تتجمع متمركزة في نقطة وحيدة ، تختفي بفعل قمة ذيل الفرس T (٦) . وهكذا يشمل طولها كل امتداد تقوس الصندوق في

أرتفاعه بدءا من A حتى Ω ، ويبلغ عرض كل واحد من هذه الاضلاع ٥٤ مم عند قمة المنحنى الذى يشكلهثم يضيق أكثر فأكثر كلما اتجه نحو الطرفين الأعلى والأدنى ، يعقب الأضلع التسعة السابقة مباشرة ، وبالقرب من مشـدة النناغم ، ضـلعان آخران يوجد كل واحد منهما على جانب من الجانبين ، وهما مصنوعان من الخشب نفسه الذى صنعت منه الأضلاع التسعة الأولى ، وان كانا على عكس هذه ، فهما أقل عرضا عند قمة انحنائهما ثم يمضيان متسعين بالتدريج حتى يبلغا مستوى المشدة ، ويبلغ أقصى عرض لهذين الضلعين نحو ٤١ مم فى حين يبلغ أدناه ، فى أضيق جزء منهما ، نحو ٢٧ مم ، وهما ، على غرار الأضلاع التسعة الأولى . يبدآن من تحت نقطة التحام العنق ويستطيلان ممتدين نحت الجزء من الفرس الأكبر اتساعا ، تلك الفرس التى تنبسط أسفل الصندوق حيث ينتهى الضلعان متلاشيين .

والجانب الأمامى المسمى **وجـه** ، والذى نطلق عليه نحن اسم **مشـدة التناغم** كامل الاستدارة فى الجزء العلوى من الصندوق . ويبلغ قطره نحو ٣١٨ مم . وهو مصمت وليست به شمسات ومحدب بعض الشىء مما يفسح مجالا للظن بأنه يتكىء داخليا عند المركز على دعامة صغيرة نسـميها نحن **الروح** وهى التى تعطيه هذا النحدب . ويتكون هذا الوجه من أربعة ألواح من خشب الصنوبر تغطى امتداده كله ارتفاعا ، ولا نتجاوز جميعها — فى أقصى عرض لها — مايزيد على ٢٥٣ مم ، أما بقيةالوجه فيشغله من كلا الجانبين، قطعة صغيرة من خشب الأكاجة ، وتزدان كل قطعة منهما ، فى الجزء الأطول منها ، أى فى ذلك الجزء الأكثر بعدا عن المحيط ، بشريطين طوليين من الصدف المطلى باللؤلؤ ، عرض كل منهما ٦ مم بارتفاع يصل الى ١٨٠ مم ، وينتهى لوحا الصنوبر الموجودان فى الوسط بذيل يمتد نحو أسفل العنق فوق الجزء A ،وحتى مسافة ٨٦ مم،وتوجد فى هذا الجزء حلية من الصدف ملبسـة

فى سمك الخشب ، فوق طلاء من الشمع الأسبانى ، نمتلىء به كذلك الفواصل الفارغه لهذه الحليه ، وعند الطرف المقابل من هذا الوجه (مشدة التناغم) ، فوق الفرس مباشرة ، توجد كذلك حلية أخرى على هيئـه نصف مخروط ناقص مقسوم عند قطره الصغير ، وينتهى قمة منحناه بزاوية ، وهو مصنوع من قطعه واحدة من الصدف يبلغ عرضها ٤٣ مم ، تخترقها ثمانيه ثقوب متعددة الزوايا ، يسدها جميعا — كذلك — شمع أسبانى مصهور ٠

وفى أسفل الحليه السابقه ، عند التحام المشدة بالأضلاع الأخيرة من الجزء نصف الكروى ، تلتصق حامله الأوتار أو المشـط المسماة بالعربية . كرسى ، ويتكون هذا الكرسى من قطعتين : احداهما بقمة مدببة نسميها نحن بذيل الكرسى ، ونصنع هذه من خشب الاكاجه المدهون بالاسـود ، والتى يبلغ اتسـاعها عند قاعدتها ٦٣ مم ، أما الأخرى فتشـكل عند قاعدة الآله الموسيقية ، فى شكل ﴿﴾ نتوءا مكسوا بغلاف صغير من خشب الأبنوس ثقبت فى سـمكه أربعه أزواج من الثقوب لتمر بها الأوتار وتربـط فيها ٠ أما الجزء الباقى من هذه القطعة فمسطح متآكل الحواف ، ويمتد الى أعلى الجزء نصف الكروى من الصندوق ، وينتهى فى شكل مدبب ، تماما فوق الموضع الذى أفضت اليه من قبل الأضلاع التسعة الكبيره ٠ ولعل هذا الجزء من المشط أو الكرسى يقوم بدعم الأضلاع وفى الابقاء على تماسكها ملتحمة بعضها ببعضها الآخر ، أما الجزء الناتىء من الكرسى فيكسوه نصل صغير من رقاقة خشب ثقبت بالمثل بنفس العدد من الثقوب التى تمرر من خلالها الأوتار ،

وبـدءا من الـكرسى وحتى قاعـدة العنق ، لصق شريـط من الغاب أو البوص ، على كل جانب من جانبى مشدةالتنـاغم ، وبكل طول التحـامه بالأضلع ، مما يؤكد هذا الالتحام ويدعمه ، كما أنه يحول دون أن ينفرط عقد هذه المشدةأو أن يتزحزح عن موضعه(٧) ٠

أما العنق M (٨) فمسطح من أعلى ، أى من ناحية الاوتار ، ومستدير من أسفل . ويبلغ عرضه ٤١ مم بالقرب من الكرسى و٢٥ مم عند الأنف . وتوجد مرالق أو حزوز صغيرة بكل طول العنق ، وفى جزء كبير من البنجاك، على الجانب الأيمن ، وعلى بعد ١١ مم من الجزء المسطح ، وهو ما نلاحظه كذلك فى كل الأنواع الأخرى من الطنابير . ويتكون العنق أساسا من ثلاث قطع ، أولاها B وهى من خشب الزان ، وتشكل هذه القاعدة التى ينبغى لها أن تتوغل فى جسم الآلة ، ويعلو الجزء المرئى منها بمقدار ٩٠ مم ، وفوق السطح الأمامى لهذه القاعدة يلتصق ديلا لوحى الصنوبر الخاص بوسط الوجه (مشدة النناغم) ، وفوق هذين الدبلين تثبت الحليه الصدفية التى أشرنا اليها من قبل ، تلك التى توضح الحد الذى ينبغى ان يتوقف عنده ارتفاع قاعدة العنق هذه . أما القطعه الثانيه فتشمل كل الجزء الدائرى من العنق الملصق بالبنجاك كله C . وهذا الجزء كله مصنوع من قطعة واحدة من خشب سانت لوسى ، متداخلة بالقاعدة B . ويبلغ ارتفاعها ٩١٧ مم أما الجانب المسطح منها فمفرغ على عمق ٩ مم بكل طول العنق الممد بين S و B ، ويمتلىء هذا الفراغ بالقطعة الثالثة المصنوعة بالمثل من خشب سانت لوسى ، وهذه القطعة (الثالثة) مسطحة ليس لها من طول الا امتداد الجزء المفرغ الذى أشرنا اليه لتونا ، وهى تملا كل عمق الفراغ حتى مستوى سمك البنجاك وسطح القاعدة B . ويوجد فيما بين القطعتين الثالثة والثانية ، ومن الجانبين ، شريط صغير من خشب الصنوبر ، ولعل هذه الرقعة نفسها تشغل كل عرض العنق فى المساحه التى تكسوها القطعة الثالثة . وهو أمر لا نستطيع التأكد منه الا اذا فككنا هذه القطعه ، وهو ما لم نجد من الضرورى أن نفعله .

وفى كل الفراغ الواقع بين الأنف ومشدة النناغم ينقسم العنق كلية

الى خانات سمى بالعربية : مواضع الدساتين(٩) . وتتكون هذه الخانات من شرائط مكونة من خمسة أطواق أو لفات من وتر رفيع مأخوذ من معى الحيوان يعلو كل منها الاخرى على نحو يكاد يكون لصيقا . حول العنق . ويبلغ عدد هذه الشرائط ستة وثلاثين شريطا . وبالاضافة الى ذلك توجد خانه أخرى عبارة عن قطعه صغيرة من الجزء الصلب والمرقق من ريشه نسر، الصقت فوق مشدة التناغم على مسافة ٢٩ مم من الشريط الأخير المأخوذ من وتر من معى الحيوان . مما يجعل المجموع سبعة وثلاثين ملمسا .

وهناك قطعة صغيرة من حشب الأكاجة تكون **الأنف** وهذه توجد لصيقة بالقطعة الثالثة من عنق البنجاك . وفوق هذه الأنف توجد أربعة أزواج من ثقوب ضئيلة العمق مهمتها استقبال الأوتار .

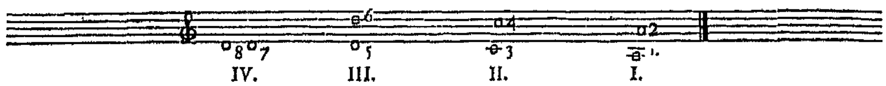
وقد سبق أن استرعينا الانتباه الى أن البنجاك وهو ما نسميه نحن Cheviller ليس سوى امتداد للقطعة المستديرة أسفل العنق . أما اذا ما نظرنا الى البنجاك فى حد ذاته وبعيدا عن بقية الأجزاء فسنجد أن ارتفاعه يبلغ ٢٠٧ مم بما فى ذلك الطرف العاجى الذى يشكل نهايه له والذى يوجد أسفله . وعلى بعد خمسة ملليمترات أخرى توجد دائرة صغيرة صنعت هى الأخرى من العاج ملتحمة بالخشب . وعلى امتداد يبلغ ٢٩ مم ينتهى بالانف نجد فوق البنجاك ثمانية حزات طولية مهمتها استقبال الأوتار وتسهيل مرورها من تحت حلقة نسميها مشدة الأوتار تتكون من ثلاث عشرة لفة من وتر رفيع للغاية من النحاس الأصفر . ووظيفة هذه الحلقة شد الأوتار فوق البنجاك أو بالأحرى الابقاء عليها فى الحزاب الصغيرة التى تدخلها لجذبها وخفضها حتى تحمل بهذه الطريقة فوق الأنف . ولولا ذلك ، لظلت الأوتار — حيث هى قد ربطت خلف البنجاك —— بعيدة للغاية عن العنق ، ولما كان بمقدورها أن تحمل فوق الأنف ، وهو ما كان سيجعل من العزف عليها أمرا بالغ الصعوبة .

أما الاوتاد أو العصافير(١٠) فيبلغ عددها ثمانية ، وهى مصنوعة من حشب الأكاجة ، وهى ما نطلق عليه نحن اسم Chevilles ، وقد بينا شكلها فى بداية هذا الفصل ، كما بينا المكان الذى نشغله . وبدلك لم يبق لدينا ما نضيفه حول هذه النقطة .

أما ريشة العزف لهذه الآلة الموسيقية فهى رقاقة من الخشب الأملس وتسمى زخمة(١١) ، وهى رقيقه للغاية ويبلغ طولها عادة ٩٥ مم أما عرضها فيصل الى ١١ مم ، وأما الطرف الذى توقع به الأوتار فدائرى عند سطحه بطريقة لا يستطاع معها الاحساس ببروز زواياها .

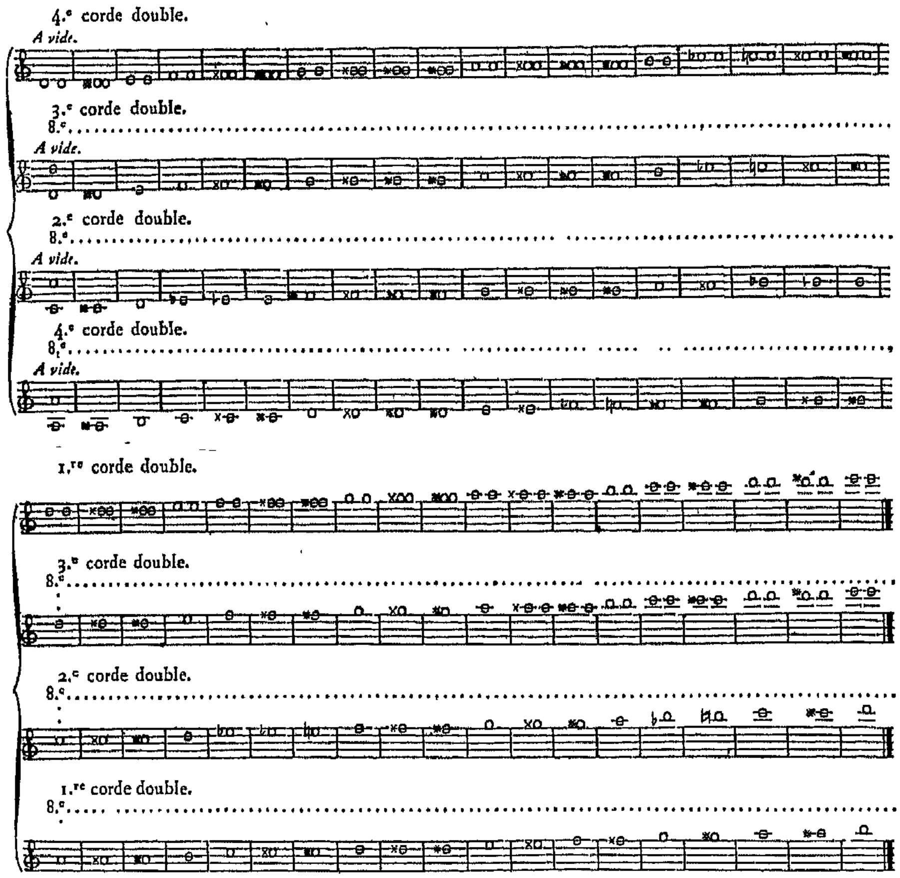
ومن جهة أخرى فان الائتلاف النغمى للطنبور الكبير التركى لا يشتمل الا على أربع نغمات مختلفة ، بل حتى على ثلاث ، ذلك أننا لاننظر الى النغمات المتساوقة (أى التى فى التســـاوى) والتى توجـد فى أوكتاف (وحـدة ثمانية) النغمات الأولى باعتبارها أنغاما مختلفة . وفى هذه الآلة ، كما فى العود ، تشغل النغمة الأكثر انخفاضـا أو غلظة نفس الموضع الذى تشـغله الأوتار التى تصدر عنها النغمات الأكثر جهارة أو رقة (الزير) فى آلاتنا الموسيقية ، أما النغمة الأشد حدة فتأتى بعد ذلك على درجات متصاعدة من الناحية التى نضع فيها الطنانة (اللحن الرتيب) . وفى الموضع الذى كان ينبغى أن يشغله الطنان توجد نغمة مزدوجة من الثمانية الغليظة (الخفيضة) التى للنغمة الحادة التى تسبقها . وعن طريق ترتيب النغمات فى هذا الائتلاف النغمى ، نجد النغمة الثانية فى الثلاثية الصغيرة فوق الأولى وتكون الثالثة فى طبقة أعلى من الثانية ، كما توجد الرابعة فى تساوق مع الثمانية الخفيضة التى للثالثة .

مثـــال



وحيث ان لكل واحدة من النغمات الثلاث المختلفة ، فى هذا الائتلاف النغمى ، نغمه أخرى متوافقة (او مدونه) مع الأوكتاف (النغمة الثمانية) وحيث يستطيع كل وتر عن طريق الـ ٣٧ ملمسا النابتة فى الآلة أن ينتج ٣٨ نغمة ، بما فى ذلك النغمة التى على الخالى à vide فإنه تنتج عن ذلك ست مجموعات أو ستة سلالم يتكون كل منها من ٣٨ نغمة . ومع ذلك . فحيث ان هذه السـلاسل من النغمـات لا تعدو أن تكون سـوى فواصـل كروماتيكية أو تجانسية(١٢) ، فان هذه السلاسل تنحصر فى مدى ست عشرته (١/١٦) أو ثمانيتين ومقام .

مثـال للسلاسل الست التى تنتجها الأوتار الثمـانية فى الطنبور الكبير التركى . أو مدى أو مساحة النغمات التى يمكن الحصول عليها من كل وتر باتباع ملامس هذه الآلة الموسيقية والفاصـلات التى تعزل هذه النغمات كلا منها عن الأخرى .



وكل شيء هنا يكاد يحملنا على أن نجزم أننا هنا ازاء شكل جديد من المجاديس ، ونأسف لأنه ليس بمقدورنا أن نعرض الآن كل البراهين التى نؤسس عليها هذا الرأى ـ أما أسفنا هنا فسببه أن مثل هذا الرأى يستحق أن ندلل عليه على قدر ما يبدو لنا أن كثيرين من المؤلفين ، سواء بين القدماء أو بين المحدثين · ليست لديهم فكرة دقيقة عما كان يطلق عليه ، فى الأزمنة القديمة ، لفظ مجاديس Magadis ، بل على العكس من ذلك · فان الشروح الخاطئة التى قدمها عنها هؤلاء المؤرخون قد أبعدتنا عن الحقيقه بأكثر مما تساعدنا على أن نستشفها ·

ولقد ظنت الغالبية ـ وقد خدعتها التفسيرات الغامضة التى قدمت عن كلمة مجاديس Magadis عن طريق الشعراء الاغريق أن هذه الكلمة هى

اسم علم لآلة موسيقية ، فذكروا(١٣)ـ مستندين الى حدسهم ـ شهادة الكمان الذى يقول « دع هناك المجاديس » ، وشهادة سوفوكليس الذى يذكر كذلك فى مسرحيته نامبراس أن البقتيس Pectis والقيثارة والمجاديس والآلات الموسيقية التى توقع (بالريشة) عند الاغريق هى تلك الآلات التى يعد ميلوديها الأعذب وقعا ونغما ، وكذلك شهادة أناكريون ، الذى يسوق دليلا على ذلك الأبيات التى يقول فيها هذا الشاعر : « أى لوكاسبى ، اننى أنشد على المجاديس ذات العشرين وترا ... الخ » . وقد ظن آخرون أن المجاديس قد كانت هى نفسها البقتيس ، اذ يذكر مينابخيموس فى كتابه « عن الفنانين » أن سافو التى عاشت قبل أناكريون قد اخترعت فى وقت معا كلا من البقتيس والمجاديس ، ولأن أريستوكسينوس يذكر أن القوم كانوا ينشدون بمصاحبة البقتيس والمجاديس بدون أن يستخدموا ريشة العزف ؛ كما ظن فريق ثالث أن هذه الآلة هى نفسها البسالتريون (السنطير القديم) مؤسسين مقولتهم هذه على نص وجدوه فى رد أبوللو دروس على رسالة أريستوكليس يقول فيه : « ان ما نسميه الآن بسالتريون ليس سوى مجاديس » ، وقد يكون هناك محل للاعتقاد ـ استنادا الى أسباب موثوق بها ـ ان المجاديس هى نوع من القيثارات ما دام أرتيمون فى بحثه عن دراسة ومحاولة فهم الأسرار الباخية ، الكتاب الأول ، قد كتب يقول ان تيموثيوس من ميليتيوس* ، حين زاد من عدد أوتار القيثارة حتى يصنع المجاديس قد أنحى عليه باللوم من قبل أهل لاكيديمونيا ، وأن هؤلاء قد أوشكوا أن يقطعوا الأوتار التى أضافها الى هذه الآلة ، لولا أن قام أحد الأشخاص ، فى اللحظة نفسها التى أوشكوا فيها أن يفعلوا ذلك ، باظهار رسم لأبوللون وهو ممسك فى يده بقيثارة مزودة بالعدد نفسه من الأوتار .

---

* بلد فى آسيا الصغرى .

ويزعم فريق رابع أن المجاديس هي نوع من آلة الناى لأن الشاعر أيون من خيوس عند حديثه عن الناى الليدى **مجاديس** يقول : « ان الناى الليدى **مجاديس** يسبق الصـــوت » بل ان آريستاخوس ، الذى يصفه بانيتيوس الرودى (من رودس) بأنه نبى مقدس ، اذ كان ينعمق معـانى وأحاسيس الشعراء ، يقول هو نفسه عند تفسيره لهذا البيت من الشعر ان المجاديس كانت نوعا من الناى ، وان يكن هذا الرأى :

١ ـ مضادا لرأى أريستو كسينوس فى مؤلفاته عن **أصحاب الناى** ، وفى كتبه التى ألفها عن أصناف الناى والآلات الموسيقية الأخرى ٠

٢ ـ مناقضا لرأى أرخسترانى الذى وضـع كذلك كتابين عن أهـل الناى ٠

٣ ـ ضد رأى فلليس الذى وضع بالمثل كتابين عن أهل الناى ٠

٤ ـ وفى النهاية ضد رأى يوفوريون الذى يخبرنا فى بحثه عن ألعاب القلزم أن المجاديس هى آلة وترية قديمة ولم يحدث ـ فى رأيه ـ الا فى زمن متأخر للغاية أن تغير شكلها واسمها مع اطلاق اسم السامبيقة Sambyce عليها ٠

ولا جدال فى أن ليس هناك ما هو أكثر غموضا ، كما يتراءى لنا لأول وهلة ، من تنازع الآراء هذا ، ولو لم تكن لدينا مصادر أخرى تعيننا على تبديد الحيرة التى يتركنا فيها هؤلاء المؤلفون ، لانحصرنا داخل افتراضات متخبطة أو لوجب علينا أن نلزم الصمت ، كما ظل غيرنا يفعل حتى اليوم ٠ لكن شكوكنا تتلاشى ، وتتضح الحقيقة بكل جلائها حين نقابل ونقارب بين هذه الشهادات وشهادات آخرين ، عبروا عن أنفسهم بشكل أكثر موضوعية من سابقيهم(١٤) ٠

فالكاتب التراجيدى ديوجين فى مسرحيته Sémelée لم يخلط قط يعيا ، بين المحادبس والبمعبس حين يقول«ان نسوة ليدبات وباقتريات* عندما كن يخرجن من مساكنهن فى جبل تمولى ، حيث يقطن قريبا من النهر الذى يصب عند سفح هذا الجبل ، كن يذهبن الى غابه معتمة ليحتفلن بديانا على أنغام البقتيس والقيثارة ثلاثيه الزوايا التى كن يعزفن عليها ، فيما وراء العنق (أى عنق الآله الموسيقيه) مع جعلهن المحاديس بطن » ٠

كذلك يخبرنا فلليس Phyllis من ديلوس فى مؤلفه عن **الموسيقى** أن المحاديس تختلف عن البقتيس ، ذلك أنه بعد أن يقوم بالحصر الآتى . الفينيقية ، البقتيديس ، المجاديس ، الساميقه ، الايامبة ، الكلبسيان ، السنداسيه ، القيثارة تساعية الأوتار — يضيف قائلا : ان الالات الموسيقية التى لم تكن تنشد عليها سوى قصائد الهجاء (الايامب) كانت تسمى الايامبية ، وأن تلك التى لم تكن تدخل قصائد الهجاء فى مجالها قط والتى أصاب التحريف وزنها الايقاعى كانت تسمى كلبسيان ، أما ما كان يسمى مجاديس فهى تلك الآلات التى يتكون تآلفها النغمى من نغمة ثمانيه عند تكرار طرب أو ميلودى المنشدين أو المغنين ٠

ويذكر تريفون** فى كتابه التسميات أو الطوائف أن مايطلق عليه اسم مجاديس هو عملية احداث أو اسماع نغمتين فى الوقت الواحد . أولاهما حادة أو جهيرة والثانية غليظة أو خفيضة ٠ وفى هذا المعنى أيضا يقول ألكساندريدوسى فى مؤلفه **المقاتل المسلح** ٠ « سأسمعكم النغمه الكبيرة والنغمة الصغيرة من المجاديس » وهو ما ينبغى أن نفهمه على أنه **النغمتان** الجهيرة والخفيضة ٠

---

* من أهالى باكتريا فى آسيا الصغرى ٠
** نحوى رومانى قديم ٠

اما بندار فى مؤلفه حاشية من اجل هيرون* فيذكر أن القوم قد أطلقوا اسم المجادس على غناء المجاوبة الصوتية ، لأن هذا الغناء يتيح سماع نغمتين متقابلتين يشبهان نغمتى أصوات الرجال وأصوات الاطفال . أى على النغمات المضادة أو المقابلة .

كذلك فان فرينيكوس فى فينيقياته ، كان يسمى الأغنيات من هـذا النوع بالأغانى المشكلة من نغمات ضد صوتية ، أى نغمات مضادة أو مقابلة .

ومن جهة اخرى يقول سوفوكليس فى مؤلفه عن أهالى ميسيا ** ان غالبية الليديين كانوا يترنمون بأغنيات تتكون من نغمات مجاوبة أو مقابلة ، يؤدونها على آلة البقتيس ، ثلاثية الزوايا .

وفى النهاية فان أرسـطو يقول فى مسائله ، القسم التاسع عشر ، السؤال الثامن عشر : لماذا لا يستخدمون فى الغناء سـوى تآلف النغمة الثمانية وحده ؟ والجواب أنهم هنا « يمجدسون » وأنهم لم يستخدموا — حتى الآن — تناغما مخالفا . ولن نمضى هنا لأبعد من هذا فى تتبع الروايات المهمة للغاية ، والتى يقدمها أرسطو جوابا على هذا السؤال ، لكن الشىء الذى انتهينا من تقديمه يكفى كى يتطابق مع شهادة المؤلفين آخرين يؤكدها ، وبالنسبة لنا .. يحيل ما كان قد بدا غامضا بالضرورة الى بالغ الوضوح .

وحيث لم تكن الجاديس شيئا آخر سوى غناء يؤدى فى النغمة الثمانية (الأوكتاف) ، سواء كان ذلك مصاحبا للصوت البشرى أو لآلة موسيقية ، فانه لأكثر من محتمل أن يشار كذلك ، تحت اسم مجاديس ، الى كل نوع من الآلات المتوافقة ، بطريقة تقدم ، فى الوقت نفسه ، نغمة خفيضة (غليظة)

---

* حاكم صقلية فى العصر الهللينستى .

** فى آسيا الصغرى .

وأخرى جهيرة (حاده) . كذلك سوف يسمى بهذا الاسم كل الآلات الوترية ذات الأوتار المزدوجه المدوزنه فى النغمه الثمانية (الأوكتاف) ، فيما يتصل بعلاقه أحد الوترين بالآخر . وذلك بقصد تمييزها عن الآلات التى لم تزود الا بأوتار بسيطه (غير مزدوجة) لا تصدر عنها بالتالى سوى نغمات بسيطة. اذ يظل هذا النوع من الآلات على الدوام يحتفظ بأسمائه الاصلية . وقد حدث الشيء نفسه بخصوص النايات المزدوجة التى تؤدى واحدة من قصبتيها نغمة خفيضة ، فى حين تؤدى القصبه الثانية النغمة الجهيرة . وعلى هذا النحو – بلا جدال – ثان العلاوت (الناى) **المجاديس** التى يحدثنا عنه الشاعر أيون من خيوس . وعلى هذا فقد كانت كلمة مجاديس تطلق أحيانا على القيثاره ، وأحيانا أخرى على البقبيس ، وأحيانا ثالثة على الباربيتون ، ورابعة على البسالتريون ، وخامسه على الناى ، طبقا لما ان كانت هذه الآلات قد أعدت بطريقة تجعلها تردد ، فى وقت معا ، النغمتين المختلفتين والمتقابلتين ، على شاكلة النغمتين اللتين تكونان التآلف النغمى للثمانية (الأوكتاف) .

فاذا كان الامر كذلك ، فلنعد اذن لقراءة النصوص الأولى التى ذكرناها فى البدايه ، والتى كان القصد منها أن نقيم الدليل على أن المجاديس كانت آله خاصة ، تختلف عن الأخريات ، أو تشبه هذه أو تلك من هذه الآلات ، ولسوف نرى بوضوح أن هذا الرأى لم ينهض الا فوق ذلك الغموض الذى استخدمت به كلمة مجاديس عن طريق بعض المؤلفين . وهو غموض ينقشع ، كما لا بد لنا أن نحدس ، ما أن نأخذ فى تفحصه عن قرب .

ولعل الأمر كان يقتضى منا أن ندخل فى جدل أطول حتى نبرهن بشكل أكثر ايجابية على أن الطنبور الكبير التركى ، هو فى الواقع أيضا ، من نوع تلك الآلات التى كان يطلق عليها اسم مجاديس فى العصور بالغه القدم . ولهذا السبب ، فلعل الأمر كان يتطلب منا أن نتبين ما كان عليه ،

في كل العصور . استخدام الآلات المجاديس . وأن نتأكد مما اذا لم يكن هذا الاستعمال قد ناله التغيير قط وأن نرجع الى أصل هـــذا الاستعمال . ونتتبع التطـــورات التى ألمت به عنـــد الشـــعوب المختلفـــة . وأن نحاول اكتشاف الأشكال المتباينة التى اتخـــذها عندهم . وأن نبحث فى الفترة الزمنية التى أمكنه فيها أن ينفذ الى مصر .. الخ . لـكن ذلك كان سيذهب بنا ـ فيما هو مرجح ـ الى بعيد . كما كان من شأنه أن يدفعنـا مرغمين الى الخروج عن موضوعنا . وفى النهاية . فلا يهمنا فى كثير . فى هذه اللحظة . أن نعرف ما ان كان اسم المجاديس يشتق أو لا يشـــتق من اسم مبتكره ماجادوس . وما ان كان هـــذا الرجل ينتمى أو لا ينتمى الى تراقيا . وما ان كان ابيجون أو شخصا آخر هـــو الذى عاد مرة أخـــرى لاســـتخدام المجاديس القديم . وما ان كانت المجاديس الأولى هى من نوع القيثارات المثلثة أو هى صنف من أصناف آلات البقتيس(١٥) أو هى نوع من الناى . لكن الشيء الذى لم نكن لنستطيع أن نعفى أنفسنا من القيـــام به . فهو أن نفسر كل ما كان ضروريا حتى نعطى فكرة تامة عن الطنبـــور الكبير التركي . وحتى ندعم الرأى الذى كوناه لأنفســـنا عن نوع الآلات الموسيقية القديمة التى ينتسب اليها . على نحو ما بدا لنا .

الهـــوامش :

(١) انظر اللوحة AA ، الشكل ٥ ٠

(٢) **ظهر** ، وهذا الجزء لا يمكن رؤيته فى **الشكل** (الرسم) ٠

(٣) وجه ، وهذا الجزء هو ما نراه فى الشكل ٠

(٤) أنظر شكل ٦ ٠

(٥) تسمى الأضلاع بالعربية بارات ٠ أنظر ما سبق (شكل ٦) ٠

(٦) أنظر شكل ٦ ٠

(٧) يوجد مثل هذا الشريط فى كل الطنابير الشرقية الأخرى ٠

(٨) انظر اللوحة AA شكل ٦ ٠

(٩) كلمة مواضع جمع لكلمة موضع ، وتعنى المحل أو المكان ، أما دساتين مجمع لكلمة دستان أى ملمس ٠ وهكذا يكون معنى كلمة مواضع الدساتين ، أماكن اللمس ٠ وكلمة دستان فارسية الأصل ٠

(١٠) المفرد وتد ٠

(١١) انظر اللوحة AA شكل ٣ ٠

(١٢) يطلق على التآلف النغمى بالعربية اسم **نسب** ، وعلى النغمات المتآلفة اسم **متناسبات** ، والمفرد متناسب (كذا) ٠

(١٣) اضطررنا أن نتخيل مرة أخرى هذه الاشارة الموسيقية الجديدة ⨳ للاشارة الى النغمة الوسيطة بين الرافعة × والرافعة ⨳ فى مثال هذه السلاسل من النغمات ٠

(١٤) يكاد يكون كل ما نورده هنا منقولا عن أثينايوس
Deipn (مأدبة الفلاسفة) و lib XIV, Cap IX. p.
634, 635, 636, 637 et 638, Lugdumi

(١٥) يشمل نوع القيثارات المثلثة الزوايا آلات الهارب ، وكذا القيثارات ، وكل الآلات الموسيقية الأخرى من هذا النوع ، أما البقتيس فكانت تشمل كل الآلات التى تعزف بواسطة القوس ، أو توقع بواسطة ريشة العزف ٠

الفصل الثالث

عن الطنبور الشرقي "١"

شكل هذه الآلة
أطوال ونسب أجزائها

أطوال ونسب أجزائها

يبدو أن صفة (الشرقى) التى نلحق بهذا النوع من الطنابير ، تدل على أن هذه الآلة الموسيقية قد ابتكرت فى الشرق ، أو أن الشرقيين ــ بوجه خاص ــ هم الذين استنبطوها ، وأنها نفذت من آسيا الى مصر ، وحيث يوجد الفرس الى الشرق من مصر ، فقد يغدو من المحتمل أن تكون هذه الآلة قد انتقلت من فارس الى هذه البلاد ، وأنها هناك ــ فى مصر ــ قد اكتسبت هذه الصفه التى غدت لصيقة بها ٠

أما عن شكل هذا الطنبور الشرقى ، فانه يكاد يشبه نصف ثمرة من الكمثرى ، طويلة ، تميل الى التسطح بعض الشىء ، أما اجمالى طولها فيبلغ المتر و١٢٦مم، وفيما خلا المشدة فانباقيجسم هذهالآلة مطلى باللون الأسود، أما القصعة ، أو الجزء المحدودب من الجسم الرنان ، فقد صنعت من قطعة واحدة ووحيدة من خشب الدردار ، محفورة فى كل طولها بطريقة لا تترك لها سوى سمك مناسب ، موحد على الدوام ، يبلغ فيما يبدو ، خمسة ملليمترات ، وفى الوقت نفسه فان هذه القصعة تتخذ شكل ظهر حمار أكثر من أن تكون محدبة ، أى أنها زاوية أكثر منها دائرية ٠ ثم تأخذ فى الضيق كلما اتجهنا نحو قاعدة العنق ٠ وتلتحم بها عن طريق شكل من مفرع (موضع التفرع) ، يشكل نهاية لها ، والذى يمكننا القول بأن قاعدة هذا العنق قد أدخلت فيه(٢) ، وبدءا من قمه زوايا هذا المفرع التى تشكل نهاية للقصعة من أعلى ، يبلغ امتداد طول الجسم الرنان حتى أسفل ٤٢٢ مم ، والى الجانب الأيمن من القصعة ، وعلى بعد ١١٠ مم قريبا من المشدة ، وعلى مسافة ١٨٥ مم الى أسفل زاوية المفرع السابق ، يوجد ثقب

دائرى صغير ، يبلغ قطره نحو ٦ ملليمترات ، وهو محفور بميل فى سمك الخشب ، ويبدو أنه قد جاء قصدا على هذا النحو ، ذلك أننا نجد شبيها لذلك فى الطنابير الأخرى التى من نفس النوع ، أى فى كافة الطنابير عدا تلك التى تتخذ نمط الطنبور الكبير التركى، إذ البعض منها له مثل هذا الثقب وان يكن مكسوا بواسطة غلاف دائرى من رقاقة خشب أو من صدف اللؤلؤ . أما الأنواع الأخرى ، مثل الطنبور الذى نتناوله بحديثنا فيظل ثقبها مكشوفا مفتوحا ، ولسنا بقادرين على أن نحدس ماذا يمكن أن تكون فائدة هـــذا الثقب ، اللهم الا أن يكون مستخدما كشمسة ·

أما مشدة التناغم فتمتد طويلا ، وتتحدب بعض الشىء ، وهى ، شأن كـــل الطنـــابير الأخـــرى ، مصمتة تخلو من الشمسات(٣) ، وخشبها من الصنوبر ، وتنقسم الى ثلاث قطع ، أكبرها هى القطعة الوسطى ، كما أنها تنتهى بذيل يستطيل حتى يندمج بالعنق ليبلغ طوله نحو ٢٧ مم أعلى زوايا ما يشبه قصعة ، أى فوق العنق · وتحيط بالمشدة فى كل محيطها ، والى القرب من حوافها ، نقاط سوداء كبيرة أحدثت عن طريق رأس مسمار محمى فى النار ، انحرفت بعض الشىء وهى تحدث أثرها فوق الخشب · وبعد كل نقطة من هذه النقاط عن الأخرى بنحو ٢٧ مم ، أو تزيد أو تنقص عن ذلك بعض الشىء ·

وعلى مسافة ٢٢٤ مم من أسفل المشدة ، أى عند نحو منتصفها ، نوجد حلية صنعت بشكل منمر من نقاط شبيهة بالنقاط السابقة ، وعلى مســافة ٨١ مم الى أسفل هذه الحلية ، نجد حلية أخرى من أربع نقاط تم احداثها على غرار الأوليات ، ووزعت على شـــكل معين ، ونزولا عن ذلك بنحو ٤١ مم توجد الفرس التى لا يزيد علوها عن ٩ مم ، والتى تمتد على المشدة بعرض يصل الى ٥٤ مم ، وهى من خشب الصـــنوبر ، وقد صنعت بشـــكل بدائى

لا مهارة فيه . وقد اكتفى بتفريغ الجزء الأسفل بعض الشيء عند الوسط ، ثم جوفت قليلا في سمكها عند الاطراف وذلك لتشكيل الاقدام .

وقد صنعت العنق والبنجاك من قطعة واحدة . وهي بالمثل من خشب الصنوبر ، دورت من أسفل دون احداث زوايا وسطحت من أعلى . ويبلغ طول هذه القطعه ، بدءا من الجزء الزاوى ، الذى يلتحم بمفرع المشدة حتى طرف البنجاك ، ٧٠٤ مم . وتزدان مســـاحته المسطحة بعشرين دائرة من صدف اللؤلؤ ، تقع ١٨ دائره منها على خط مستقيم يمتد حتى وسط هـــذا السطح بدءا من مسافة ١٦ مم فوق الانف حتى ١١ مم فوق الذيل الذى يتمم القطعـــه الوسطى من المشـــدة . أما الدائرتان الباقيتان فتوجـــدان متجاورتين تحت الدوائر السابقه . وتمضى هذه الدوائر الثمـــانى عشرة من صدف اللؤلؤ لتتقارب تدريجيا ، من بعضها البعض ، ويزيد ايقاع تقاربها من أعلى الى أسفل ، بحيث تكون الدائرتان الأوليان من أعلى على مســـافة ، كل منهما عن الأخرى ، تبلغ ٢٩ مم ، فى الوقت الذى لا تزيد فيه المسافة التى تفصل بين الدائرتين الأخيرتين عن ملليمترين .

ويبلغ عدد الملامس ٢١ ملمسا ، وهى تقع من بعضـــها البعض على مسافات غير متساوية . ومع ذلك فقد قدرت هذه المسافات طبقـــا للنظام الذى أنشىء على أساسه سلم أنغام هذه الآلة الموسيقية . وقد صنعت الملامس الستة عشر الأولى من عقدات من معى الحيوان ، ضغطت بشدة حول العنق ، وتلتف حوله فى بعض الأحيان . أما الخمسه ملامس الأخرى فتلتصق فوق المشدة . وقد صنعت هـــذه من نوع من الغاب يسمونه بالعربيـــه قلمـــا (قلم)(٤) ، وهو النوع نفسه من الغـــاب الذى يستخدمه الشرقيون فى الكتابة ، والذى يشذبونه على نحـــو قريب من الطريقة التى نبرى بهـــا ريشـــاننا . ولا يكاد يبلغ قطر أنبوب هـــذا الغـــاب أكثر من ٧ مم ، وهم

يقسمونه الى اربعة أجزاء يرففونها ليلصقوها بعد ذلك فوق المشدة .

ونتخذ الفرس على وجه التقريب الشكل نفسه الذى يشكل فرس الطنبور التركى ، وان تكن أصغر منها . وهى من قطعة واحده من خشب المرانية ، وتوجد ، بدلا من الثقوب التى تستخدم لتمرير الاوتار ، ثلاث حزات صغيرة ، يبلغ عمق كل منها خمسة ملليمترات ، تقسم هذه الفرس الى اربعة اقسام تشبه اربع أسنان .وتربط الأوتار بكل منها عن طريق حلقة أحدثت عند أطراف هذه الأوتار نفسها .

أما الأنف فقد صنعت من نصل صغير من خشب الليمون أدخلت بقوة فى نتوء ضيق أحدث على مسافه ٦٨ مم فوق الملمس الاول ، على هيئة عقدة من أوتار من معى الحيوان .
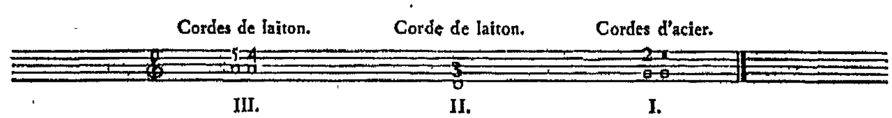
وبدلا من أن تكون الحلقه أو الحزام ، الواقعة على بعد خمسه ملليمترات من الأنف ، (وسنطلق عليها من الآن فصاعدا اسم خافضة الأوتار) من ثلاث عشرة لفة لوتر من النحاس الاصفر ، فانها تكون من خمس لفات لوتر رقيق من معى الحيوان ، ومع ذلك ، فحيث ان الآلة الموسيقية التى فى متناول يدنا ليست جديده ، وأن العواد الذى باعنا اياها قد رممها قبل أن يسلمنا اياها ، فمن المرجح أن يكون قد أحل خافضة الأوتار هذه المصنوعة من معى الحيوان ، محل تلك المصنوعة من المعدن والتى كانت تنقص هذه الآلة ، ذلك أن هذا الجزء ، فى الآلات الموسيقية من هذا النوع ، والتى لم ترمم قريبا ، كما يبدو ، يوجد مصنوعا من أسلاك من النحاس الأصفر . ولن نتحدث عن النتوءات ، الطوليه الموجودة على أسفل البنجاك والتى تمر من خلال الأوتار تحت الخافضة ، اذ ينبغى لهذه أن تكون ، بل هى كذلك فى واقع الأمر فى الطنابير الأخرى ، على غرار ما لاحظناها عليه فى الطنبور الكبير التركى . وهى مفيدة ، بقدر ما الخافضة لا غنى عنها

لتقريب الأوتار من الأنف ، فحيث تربط الأوتار خارج البنجاك ، فسوف تكون (هذه الأوتار) بدونها بالغة البعد ، ولن تحمل البتة فوق الأنف ·

ويبلغ عدد الأوتار خمسة ، أربعة منها من خشب الكستناء ، أما الوتر الخامس ، وهو أدناها ، فمن خشب الليمون ، ولكل واحد من الأوتار الخمسة عند قمة رأسه ، زرار صغير مصنوع من العاج ·

ويزود الطنبور الشرقي بخمسة أوتار ، ثلاثة منها من النحاس الأصفر ، وهي تلك الواقعة على الجانب الأيسر ، أما الاثنان الأخيران ، الواقعان على الجانب الأيمن ، فمن الصلب · وتوقع أوتار هذه الآلة الموسيقية بريشة عزف،هي شريحة رفيعة من الخشب أو هي ببساطة ريشة نسر · ومع كون هذه الأوتار الخمسة لا تحدث ، برغم ذلك ، سوى ثلاث نغمات متباينة ، فإنها تصدرالنغمة الخفيضة عن طريق الوترالأوسط وحده ، وهو مصنوع من النحاس الأصفر ، أما الوتران الواقعان ناحية اليسار فيحدثان النغمة الخماسية مع وتر الوسط ، ويحدث وترا اليمين النغمة الرباعية مع وتر الوسط كذلك · وعلى هذا ، فان هناك وترين أعدا في التساوق النغمي (التساوي) على اليمين وهناك اثنان منيلان على اليسار ، ويطلق في العربية ، على الوتر الذى أعد على هذا النحو اسم المساوي ، ويطلق على وترين أعدا بهذه الطريقة اسم « نغمتان متساويان » ·

مثال على هذا الائتلاف النغمي



ومهما تكن الغرابة التى ستبدو عليها بنية الطنبور الشرقى ، وكذا ائتلافه النغمى ، فان كلا من هذين ، البنية والائتلاف ، موجودان كذلك فى أوربا حتى أيامنا هذه . ونجد آلة من هذا النوع فى البندقية ، بل انهـا تستخدم على نطاق شعبى هناك ، ولذلك فقد لا يغدو باعثا على الدهشة أن تكون هذه الآلة ، بائتلافها النغمى ، قد جلبت الى هـذه البلاد . على يد العرب الشرفيين ، عندما سيطر هـؤلاء على غالبيـة جزر البحر الأبيض المتوسط وعلى الجزء الاوسط من ايطاليا ، أو أن هذا يدل ، على الأقل ، انه قد جاء وقت ذاع فيه نظامهم الموسيقى ، وانبع فى هذه البلاد ، ويتطابق هذا بالتالى مع ما سبق أن قلناه عن أصل نظامنا الموسيقى الجديد ، الذى وضعه جى أرزو . واليكم واقعة نشهد ، بطريقة لا تقبل أى مراء على ما نقوله الآن . فبعد ابرارنا على شـواطىء مصر ، وبينما كنا فى زيارة للجنرال مينو ، الذى كان يقيم عند قنصل البندقية فى الاسكندرية ، سمعنا صوت آلة موسيقية كانت مجهولة من جانبنا ، فأبدينا على الفور رغبتنا فى التعرف على هذه الآلة ، والى الشخص الذى كان يعزف عليها ، فأخبرنا القنصـل بأنه خادمه ، وبطلب منا أمر بحضوره وفى صحبته آلته . وبعد أن عزف هذا الرجل أمامنا بضعة ألحان من بلده ، قمنـا بفحص خامات وهيئة وبنية هذه الآلة ، فوجـدنا كل الجسم والعنق مصنوعين من طرف جريدة قطـع بطول ٤٨٧ مم بدءا من نقطة اتصـال هذه الجريدة بجذع نخلتها ، ويشكل أعرض جزء فيها - أى القاعدة التى حفرت فى سمكها-جسم الآلة أو قصعتها ، ويستخدم الباقى كعنق ، وقد ألصق فوق القصعة لوح صـغير من خشب الصنوبر ليشكل المشدة ، وفى أعلى ، فى الجزء الأضيق من العنق، توجـد الأوتار ، وتمضى هذه الأوتار التى ربطت به ، بعـد أن تمر بفرس مصنوعة بشكل خشن . لتربط فى عقدة وحيدة أسفل القصعة ، عند المقدمة .

وهكذا تشبه هـــذه الآله الطنبور الشرقى ســـواء فى مبناها أو فى شكلها بدرجة كبيرة . فجسمها بالمثل يكون من قطعه واحـدة محفورة فى سمكها حتى تتكون الصعة . وتبدو هيئتها بيضاويه الشكل . ومسطحة قليلا من أسفل . ويستطيل جسمها، بينما يميل نحو الضيق من أعلى . أما أوضاع الاوتار فلا يقل شبها عن مقابلاتها فى الطنبور الشرقى . كما يتشابه الائتلاف النغمى هنا وهناك كذلك . ما دام وتر الوسط هـو الذى يحدث النغمه الأشد خفوتا (والأكبر غلظه) . كما أن الوتر الواقع الى الشـمال يعطى النغمة الحماسية مع الوتر الأوسط . فى حين يعطى الوتر الأيمن النغمة الرباعية مع خفيضها .

ولعل الفرق الوحيد الذى لاحظنا وجوده بين هاتين الآلتين . هو أن هذه الأخيرة تعزف بالقوس . فى حين يوقع الطنبور الشرقى عن طريق ريشة العزف(٥) .
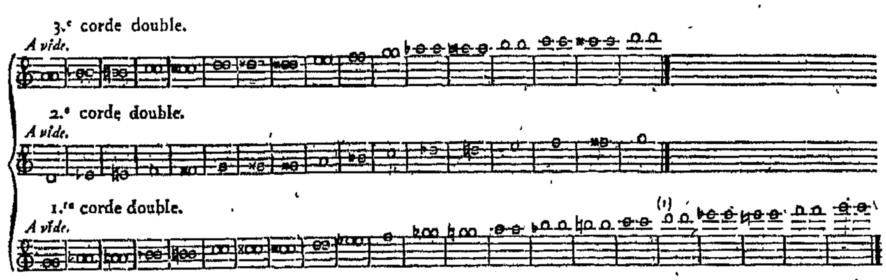
وحيث لم نكن قد شاهدنا من قبل آلات موسيقية دورست على هـــذا النحو قبل مجيئنا الى الإسكندرية . وحيث بدا لنا هـــذا الائتلاف النغمى غريبا وشاذا . فاننا . كيما نتأكد مما ان كان هذا السندى قد جهز آلته على هذا النحو جهلا أم قصدا أم مصادفة . فقد انتزعنا أوتارها . ثم طلبنا اليه أن يعيد تركيبها وأن تأتى مدوزنه . وهو ما فعله على الفور دونما تردد أو تخبط . وحينئذ أيقنا أن هذا الائتلاف النغمى . مهما تكن غرابته بالنسبة لنا . قد جاء مع ذلك ثمرة للتفكير والقصد . وعندئذ كذلك تبينا أنه ينتمى بالضرورة الى نظام موسيقى منتظم . وشـــبيه بالنظام الذى اكتشف رامو Rameou مبدأه الأساسى . وأن هذه النغمات هى نغمات أساسية . وأنها تنتسب الى المقام الدورى . أو مقام رى صغير . وأنها تدخل فى اطار نظام منطابق بدرجة كبيرة مع المبادىء الهارمونيه . وحين سألنا هذا السندى عما

أوحى له بشكل هذه الآلة، أخبرنا أنه توجد فى بلده آلات مماثلة وإن تكن أفضل من هذه صنعا ، وأنه سعيا منه كى يسرى عن نفسه قد عكف على تركيب هذه الآلة التى كان عليها أن تقوم ، بالنسبة له ، فى مقام تلك التى خلفها وراءه فى البندقية .

وعلى هذا ، فلابد أن نكون على اتفاق فى أن نظامنا الموسيقى قد انبثق عن نظام أوسع هو نظام الموسيقى العربية ، أو أن علينا (ان رفضنا هذه الفكرة) أن نفسر كيف ، وفى أى عصر انتقلت الى هؤلاء العرب مبادئنا عن الهارمونى .

وبانتظار أن تسنح الفرصة لمعالجة أوسع لهذه المسألة ، كى ندحض الاعتراضات التى يمكنها أن تقف حجر عثرة أمامنا فى هذا الصدد ، أو لكى نجيب على كل الأسئلة المعارضة التى لن يفوت أحدا أن يجابهنا بها على الفور ، فاننا نسترعى الأنظار هنا الى كل ما يمكن أن ينطابق مع رأينا .

مساحة النغمات التى يمكن الحصول عليها من الطنبور الشرقى باتباع الملامس الثابتة ، سواء تلك التى توجد فوق العنق أو تلك التى توجد فوق مشدة الآلة



وسنلاحظ أن هذه الآلة لها ائتلافها النغمى الخاص ، كما أن لها ، شأن الطنابير الأخرى ، سلما للأنغام يختلف عن سلم الآلات الموسيقية الأخرى ، وأن لها ، بالتالى ، شأن كل نوع من هذه الطنابير ، ميلوديا

الخاص ، وأنه يتقبل بعض مقامات ويستبعد مقامات أخرى ، وسوف ندرك كذلك ، ودون جدال ، أن هذه المميزات لم تنشأ صـــدفة ، أو بفعل نزوة (من الصانع أو العازف) ، وانما قد جاءت بسبب الوظيفة التى ينبغى أن تقوم بها هذه الآلة ، وبسبب التأثير الذى يراد منهـــا أن تحدثه · فمن المعروف أنه قد تحددت فيما مضى ـــ عند شعوب مصر واليونان ـــ ضروب الغناء كما تحدد للآلات الموسيقية ، التى تلائم هذه وتلك ، العمر والحـالة والظروف التى ينبغى لها أن تستخدم فيها ، كما أننا نعرف طبقا لـما قرأناه فى الدراسات المختلفة التى تناولت الموسيقى العربية ان الشرقيين بدورهم قد وصفوا وحددوا كل هذه الأشياء ، وأنهم بينوا ... على سبيل المثال ــ أن هذا المقام يتناسب مع المحـــاربين وأن ذاك يلائم رجال الشرع والقـانون والعلماء ، وأن هذا الثالث جدير بطلاب اللذة والمتعة ، وأن الرابع يناسب المرأة ، فى حين أن الخامس يليق بالعبيد ، والسادس للأطفال ·· الخ ، وأن مقاما بعينه لابد أن يؤدى فى وقت بذاته كشروق الشمس مثلا ، أو عنـد الظهيرة أو عند المساء أو نحو منتصف الليـــل ، وفى يوم محدد من أيام الأسبوع ·· الخ ، وأن مقاما آخر يلائمه وقت آخر مثل بزوغ النهار أو فى التاسعة من الصباح ، أو الثالثة عصرا ، أو عند صلاة الفجر ، أو عند صلاة المغرب ، وفى يوم بذاته من أيام الأسبوع ·· الخ ، وأخيرا أن كلا من هذين المقـامين ينبغى له أن يحدث أثرا مشابها للوضـــع الذى يكون من المفيـد فيه أن يكون الانسان فى هذه أو تلك من الظروف ·

وهكذا كانت ، كذلك ، الأســـباب الرئيسية التى نظمت اختيـــار النغمات ، وترتيب تتابعها فى كل آلة بذاتها ، من الآلات الموسيقية المختلفة عند الشرقيين ·

الهـــوامش :

(١) انظر اللوحة AA الشكل رقم (٧) .

(٢) بامكاننا أن نكون فكره عن هذا النفرع أعلى الفصعه وعن الطريقة التى سويت بها العنق أو النحم هذا النفرع بها برجوعنا الى الشكل رقم ٩ الذى يتكون ، برغم انسسابه الى الآله المرسومه فى الشكل رقم (٨) ، من أجزاء مشابهه البحمب بشكل مماثل ، وان نكن بأطوال أقل .

(٣) يدفعنا هذا على الظن بأن التقب الصغير فى الفصعة قد يكون فى واقع الأمر شمسه .

(٤) تعنى الكلمه نفسها فى الأثيوبيه الشىء نفسه ، كما تعرف تدلك على الكلمة دانها فى الكلمة اليونانية كالاموس Kalamos ، تلك التى تعنى الأمر نفسه ، وكذلك نفعل الكلمة اللاتينية Calamus ، وان يكن من العسير أن نتعرف عليها فى الكلمة الفرنسية Chalumeau (شبابه) ، التى اشتقت مع ذلك من الكلمة اللاتينية السابقة Calamus ، ومع ذلك فان معنى هذه الكلمه ، فى الفرنسية ، يقتصر على المعنى المبدئى الذى كان لها فى اللغات الأولى .

(٥) انظر اللوحه AA ، الشكل رقم (١٠) .

الفصل الرابع

عن الطنبور البلغاري

ينبئنا اسم هذه الآلة الموسيقية أنها ، هى ، ماندولين البلغـار(١) ، وتكشف الزخارف التى تزدحم بها والتى حملت بها عن أصلها ، ونتعرف فيها ، كذلك ، على ميل الآسيويين الجانح نحـو الترف والزخرف حتى فى الأشياء التى لا تتطلب ذلك كثـيرا ، وسوف لا نلزم أنفسـنا بأن نشرح بالتفصيل كل الزخارف التى حملت هذه الآلة بها ، اذ يمكن التعرف عليها فى الرسم ، على أن نعرف مقدما أن كل ما هو أبيض فى الرسم مصنوع من صدف اللؤلؤ ، وان كل الزخارف التى مثلت بالنقط قد أحـدثت بطرف قطعة مدببة من حديد ، محميه بالنار ، وأن أسنان الذئب التى تبدو باللون الأسود ، حول المشدة ، هى من خشب سانت لوسى ، كما لابد أن نعرف أن طرف السنجاك مأخوذ من العاج ٠ وكذلك جاءت قمة رءوس العصافير ٠

والطنبور البلغارى هـو أصغر ما عرفنا من أصناف الطنابير طرًّا اذ لا يبلغ ارتفاعه أكثر من ٥٧٨ مم فى كل امتداده ، أما الجزء المجوف من الصندوق فلا يتجاوز طوله ١٨٩ مم على ١١٥ مم فى أقصى اتسـاع له ، و ٣٤ مم فى أقل هذا الاتساع ، فى حين يبلغ عمقه نحو ٦٢ مم ٠

وتصنع قصعته ، فيما بدا لنا ، وكما هو الحال فى الطنبور الشرقى ، من قطعة واحـدة من خشب الدردار وان تكن أكثر تعرقا ، ومع ذلك فان بعض من ينبغى أن يكونوا أكثر منا معرفة به قد وجدوا أن هـذا الخشب شبيه بذلك الذى يطلق عليه اسم خشب الأزدرخت (وهو شجر زينة) ، وهو يميل قليلا نحو الاحمرار ، كما أنه خفيف النقـل وبه دوائر مركزية تدور من حول المركز ، يشاهدها المرء بالغة الوضوح فى هذا الطنبور ٠

وتتكون المشدة كذلك من ثلاثة ألواح من خشب الصـنوبر ، يشغل

أحدها الجزء الأكبر من سطح هذه المشدة ويمتد حتى اندماج أسفل قصبة العنق I · بالتفرع(٢) الذى يشكل أعلى الجزء الطولى من القصعة(٣) كما هو الحال فى الطنبور الشرقى ، الذى نحيل اليــه فيما يختص بتفاصيل المقبض ، أما اللوحان الأخيران من المشدة فيملآن بقية سطح هذه المشدة . مما يقلل من حجم الفراغ المشتمل بين وتر القوس ومحيط المنحنى الممتد بين منتصف ارتفاع هذه المشدة نفسها وأسفلها ·

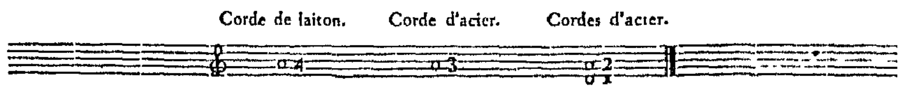
ولسنا بقادرين على أن نقدم فكرة أكثر دقة عن شكل جسم هذه الآلة الا بقولنا انها تشبه هرما ثلاثيا ممتدا لم يترك من أسطحه الثلاثة مستويا سوى سطح واحد ، فى حين دور السطحان الأخيران ، وبصفة خاصة سطح القاعدة ، وكذلك زاوية الضلع المقابل للوجه المسطح ، وهو سطح المشدة ، وان تكن ، حتى هذه ، قد حدبت بعض الشىء ، ويكون السطحان الأخيران وكذا الزاوية المدورة التى للقاعدة ، مع الضلع المقابل لسطح المشدة ، الجزء المحدب ، أو قصعة الطنبور البلغارى ·

وقد صنعت عنق وبنجاك هذه الآلة من قطعه واحدة من خشب القيقب المطعم بصدف اللؤلؤ · أما الفرس فهى كذلك من الخشب نفسه ، وان تكن الأنف من خشب الأكاجة · وتتكون الفرس من سبع عقدات أو لفات من وتر من النحاس الأصفر ، مضغوطة بشدة حول البنجاك على مسافة ٧ ملليمترات فوق الأنف · والفرس هنا قريبة الشبه بمثيلتها فى الطنبور الشرقى مع مراعاة كافة النسب · أما الأوتاد (أو العصــافير) فمن خشب الليمون ، وهى تشبه ، من ناحية الشكل ، أوتاد الآلات الموسيقية الأخرى من هــذا النوع ·

وليس للطنبور البلغارى سوى ثلاثة عشر ملمسا ، جاءت على شــكل

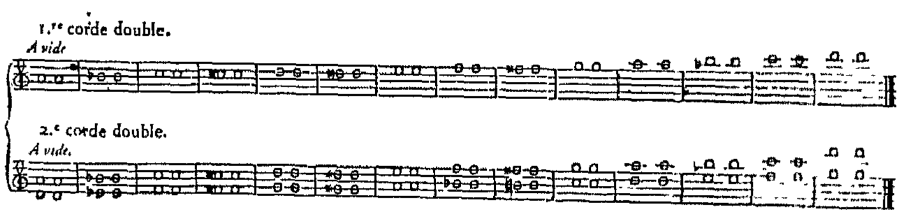
أونار من معى الحيــوان ، وفد شــيت التسنه الأولى بأربع لفــات ، وشدت السبعة الأخرى بثلاث لفات حول العنق · ولا يزيد عــدد هذه الأونار عن اربعة ، أولها من النحاس الأصفر ، أما الثلاثة الباقية فمن الصلب · ولا تحدث هـــذه الأوتار سوى نغمتين متباينتين · وثلاثة من هـــذه الاونار « متساويات » أى ندخل فى « المتساوى » · فى حين تصدر النغمه الرباعيه عن وتر واحد · وتوقع هذه الأوتار بواسطه ريشة العرف(٤) ·

متال على الائتلاف النغمى للطنبور البلغارى



وهكذا لا تستطيع أوتار هذه الآله أن تعطينا سوى سلمين من النغمات المتباينة ، يتكون كل منهما من أربع عشرة نغمة ، بما فى ذلك نغمة البدء (على الخالى) ·

مساحة النغمات التى يمكن الحصول عليهـــا
من كـــل وتر من أوتار الطنبور البلغـــارى



الهـــوامش :

(١) انظر اللوحة AA ، الشكل رقم (٨) ·
(٢) انظر اللوحة AA ، الشكل رقم (٩) ·
(٣) شرحه ·
(٤) انظر اللوحة نفسها ، الشكل رقم (١٠) ·

الفصل الخامس

عن الطنبور البزرك

المبحث الأول
عن الطنبور البزرك(١) ، عن شكله ،
عن أجزائه ، وعن زخارفه

تعنى كلمه بزرك فى اللغة الفارسـية : الـكبر ، وهكذا فان كلمـة طنبور بررك نعنى ماندولين كبير ، وقد نعنى كلمة الطنبور الكبر التركى ، على غرار كلمة المـاندولين الكبير الفارسى ، المـاندولين الكبر التركى .

وتأخذ هذه الآلة الموسيقية ، على نحو ما ، موضعا وسطا بين الطنبور السابق ، فهو أقل بساطة من الطنبور الشرقى ، أو المـاندولين الشرقى ، ولكنه ، كذلك ، أقل نعقيدا من الطنبور الـكبر التركى ، وأقل زخرفا من الطنبور البلغارى . وليس للأخير سوى أربعة أوتاد (عصافر) وثلاثة عشر ملمسا ، وللطنبور الشرقى خمسة أوتاد وعدد مماثل من الاوتار ، وله كذلك عشرون ملمسا ، أما الطنبور البزرك فله ستة أوتاد (عصافير) وعدد مماثل من الأوتار بالاضافه الى سبعه وثلاثين ملمسا . وشكل الطنبور البزرك أكثر انتظاما وأكثر استدارة من شكل الطنبور الشرقى ، لـكنه لا يماثل نصف كرة كما هو حال الطنبور التركى ، وانما يشبه نصف ثمرة كمثرى .

وتتكون القصعة ، أو الجزء المحدب من الجسـم الرنان ، من أضـلاع ملاصقة تحت قاعدة العنق ، على غرار أضلاع الطنبور الكبر التركى ، لكن أضلاعه أكثر ضيقا عـند أطرافها ، وأكثر اتساعا عنـد نحو الربع من ارتفاعها . وهى تختلف فى ذلك عن أضلع الطنبور الكبير التركى ، التى تبلغ أكبر اتساع لها عند مركز تقوسها(٢) ، وهى تختلف عنها كذلك من حيث العدد ، فبدلا من الأحد عشر ضلعا التى لهذا الأخير ، لا توجد سوى

عشرة أضلع فى البرزك ، وتجمع بالمل ثمانية من أطرافها الدنيا وتتلاقى أيضا أسفل القصعه ، فى النقطه التى يمر بها خط ينزل رأسيا ، باتجـاه مسار قصبة العنق الممتدة من الخلف حتى أسفل ، وان يكن هـــذا التلاقى لا ينغطى قط بذيل الفرس ، كما هو الحال فى أضلع الطنبور الكبير التركى التسعة ، أما الضلعان الآخران اللذان تحمل عليهما المشدة ، من الجهتين ، فيمضيان ، ناحية الأطراف بينما يزدادان اتساعا ٠ وأما الضلعان السفليان فيلتقيان أحدهما بالآخر تحت مركز التحـــام الأضلع الثمـــانية الأول ٠ ويكتسيان عند هذا الموضع بذيل الفرس ، وهو بالغ القصر ٠

ويتكون العنق من جزئين : القصبة M ، والقاعدة B ٠ وتشـــكل القصبة قطعة واحدة مع البنجاك ، صنعت من خشب الكستناء ٠ وتنتهى ، من أسفل ، بزاوية فى a حين تدخل فى المفرع الذى تصنعه القاعدة بدءا من c حيث توجد فتحتها ، وحتى B حيث تكون قمتها ٠ وهكذا تمتــد القاعدة بدءا من a حتى c من الخارج ، على الأقل ، اذ يحتمل أنها تمتد لأكثر من ذلك فى داخل الجسم الرنان ٠ وفوق هذا الامتداد ، الذى ينتهى فى شكل منحنى ، تتلاصق أطراف الأضلاع ٠

ويصنع كل من الجسم الرنان والفرس من خشب الصنوبر ، أما رافعة الأوتار فمن خشب السرو ، وكذلك جاءت قاعدة العنق ٠ وتصنع أربع من العصافير من خشب الليمون ، أما العصـــفورتان الأخريان وهمـا أكثرهن انخفاضا من ناحية الأمام ، فتصنعان من خشب سانت لوسى ، وينتهى طرف كل رأس من هذه العصافير بزر صغير من العاج ٠ أما الأوتار فهى معدنية : ثلاثة منها ، وهى التى تقع الى اليمين ، من الصلب ، أما الثلاثة الأخرى ، الواقعة الى اليسار ، فقد جاءت من النحاس الأصفر ٠

وتتكون مشدة الطنبور البزرك ، كما هو الحـــال فى مشدة الطنبور

الشرقى ، من ثلاثة ألواح صغيرة من خشب الصنوبر ، وأكبر هذه الألواح هو ، كذلك ، أوسطها ، وهو يشغل كل طول الوسط ، ويمتد الى ما وراء التفرع والتحام قصبة العنق بقاعدته ، ونرى عند الخطوط الفاصلة بين هذا اللوح واللوحين الصغيرين ، اللذين يشكلان كل منهما ، نهاية لاتساع المشدة ، من الجانبين ، شبكة من الأبنوس ، توجد بالقرب منها ، الى اليمين والى الشمال ، نقاط سوداء أحدثت بواسطة طرف قطعة حديد محماة فى النار ، وصنعت بشكل يكاد يكون سطحيا ، وتوجد نقاط مشابهة حول المشدة ، قريبا من الحواف ، تبتعد كل واحدة منها عن الأخرى بنحو ٢٠ مم. وتوجد كذلك على المشدة زخارف ، تتكون بدورها من نقاط سوداء توجد وسطها رصائع مستديرة من صدف اللؤلؤ ، وتوجد فوق هذه المشدة ، كما هو الحال فى مشدة الطنبور الشرقى ، قطع صغيرة تشكل ما يشبه أقلاما ملصقة ، تشكل ملامس اضافية ، وينحصر الفرق فى هذا بين هاتين الآلتين الموسيقيتين فى أنه توجد فوق الأخيرة (البزرك) ستة ملامس ، فى الوقت الذى لا يوجد فيه فى الطنبور الشرقى سوى خمسة منها .

ولسنا نجد ضرورة تدفعنا لأن نسترعى الأنظار الى أن الزخارف الصدفية لا توجد هنا الا فوق المشدة ، كما هو الحال فى الطنبور الكبير التركى ، فى حين أننا لا نراها فى الطنبور الشرقى الا فوق العنق ، ذلك أن الشرقيين ، برغم تشبثهم الشديد بعاداتهم ، لحد يبلغ مرتبة الوسوسة ، وحتى فى أدق التفاصيل ، فاننا على غير يقين من أنهم يولون أهمية كبيرة لمثل هذه الأنواع من الزخارف ، وعلى ذلك فلسوف تكون مضيعة للوقت أن نتوقف كثيرا عند هذه الملاحظة .

وهناك نقطة اتفاق أخرى تربط بين الطنبور البزرك والطنبور الشرقى ، لا نظنها أكبر أهمية من سابقتها ، وهى أن خافضة الأوتار ، فى كلا الآلتين

الموسيقيتين ، تؤخذ من وتر من معى الحيوان ، مع فرق لا بد من الاشارة اليه ، وهو أنها لا تتكون في الطنبور الشرقى الا من خمس لفات ، فى حين تبلغ سبع لفات فى الطنبور البزرك ·

واذ تستطيع كل هذه المقابلات أن تقدم فكرة دقيقة ، بالقدر الكافى ، عن شكل هذه الآلة ، فليس علينا ، بعد ، الا أن نصف أبعاده ، والنسب القائمة بين أجزائه ·

الهـــوامش :

(١) كتبناها بزرك ، وليس بوزورك ، حتى نتوافق مع الهجاء الفارسى (والترجمة بتصرف يقتضيه النقل الى العربية) ·

(٢) انظر اللوحة ·

المبحث الثانى
عن أطوال الطنبور البزرك
وعن النسب القائمة بين أجزائه

يبلغ الامتداد الكلى لطول هذه الآلة الموسيقية مترا و٤٩ مم ، ويشتمل العنق وحده على امتداد طوله ٧٢٤ مم ، أما الجسم الرنان فيشكل الجزء الباقى، ويبلغ طوله ٣٢٥ مم ٠

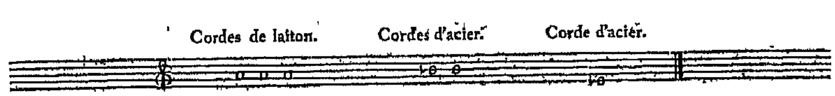
ويبلغ طول المشدة ، مقيسة ابتداء من رافعة الأوتار وحتى الموضع الذى تنتهى اليه الحلية المثلثة الشكل ، المصنوعة من صدف اللؤلؤ ، والتى توجد فوق العنق ، ٤٤٢ مم ، فى حين يبلغ أقصى اتساع لها ، وهو الذى يوجد أسفل الفرس بقليل ١٨٢ مم ، ويبلغ عمق الصندوق نحو ١٠٨ من الملليمترات ٠ أما أضلاع القصعة فيبلغ أقصى عرض لأى منها أربعة وثلاثين ملليمترا ٠

وهنا نجد لزاما علينا أن نلزم الصمت ازاء بقية التفاصيل حتى نجنب القراء ملال قحولتها ، واذا كنا قد قمنا من قبل بسرد هذه التفاصيل بخصوص الآلات الموسيقية السابقة ، فقد كان القصد من وراء ذلك ألا نهمل شيئا فيما يتصل بالفن والذوق والمهارة التى صنعت بها الآلات الشرقية ، ولكنا نعتقد ، حين لا يكون ثمة جديد تجدر الاشارة اليه ، فى اطار هذه الاعتبارات أن الواجب يقتضى منا أن نختصر من الأوصاف التى نسوقها أكثر فأكثر ٠

المبحث الثالث
عن الأئتلاف النغمي لهذه الآلة الموسيقية
وعن مســاحة نغماتها

يقوم الأئتلاف النغمي للطنبور البزرك على نفس المبدأ الذى يقوم عليه هذا الأئتلاف في الطنبور الشرقى ، وبرغم أن هذه الآلة قد زودت بأوتار ســتة فانها لا تصدر سوى ثلاث نغمات متباينة ، وان تكن قد جاءت على ترتيب مغاير لمثيلاتها فى الطنبور الشرقى ، فالنغمه الأشد خفوتا (غلظه) تقع الى اليمين ، أى فى الموضع الذى تحتله أدق الأوتار (أحدها) فى آلات الكمان عندنا ، وتصدر هذه النغمة عن وتر واحد مصنوع من الصلب ، أما النغمة الثانية ، أو نغمه الوسط ، وهى الخماسية فوق الأولى ، فتصدر عن طريق وترين من الصلب ، فى المتســاوى ، ويقعان الى يســار الوتر السابق ، وأما النغمة الثالثة ، وهى رباعية النغمة الخفيضة أو الغليظة ، أو فى طبقة تحت النغمة الثانية ، فتصدر عن طريق أوتار ثلاثة ، صنعت من النحاس الأصفر ، فى المتســاوى ، وتقع هذه الى اليســار من الوترين السابقين ، على النحو الذى نستطيع أن نراه فى المثال الآتى :

مثـــال
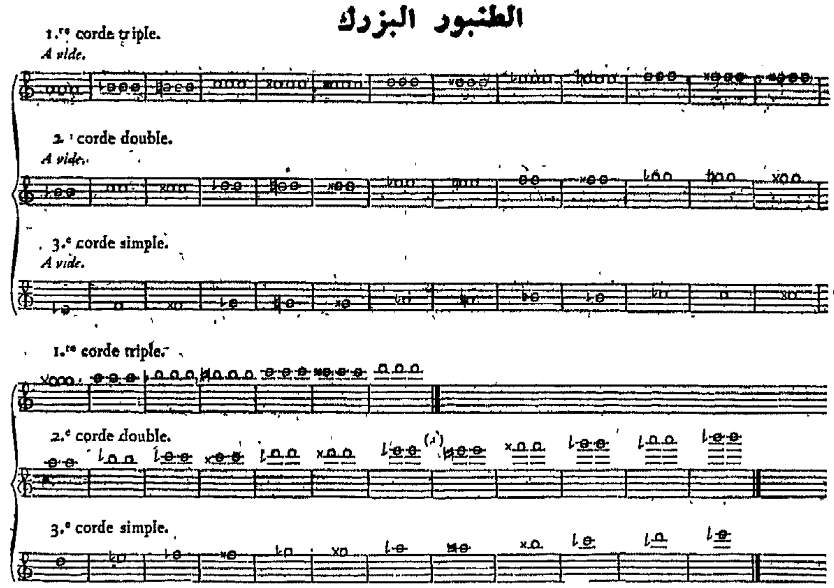


وتصدر عن كل وتر ، عن طريق الملامس التى تقتسم العنق ، وتلك التى ألصقت بالمشدة ، واحدة من نغمات هذا الائتلاف النغمى ، يمكنها مع التدرج ، أن تكون سلسلة من أنغام متصاعدة .

وحيث أن الملامس التى توجد فوق المشدة لا تمتد الى الأوتار الثلاثة الأولى التى من النحاس الأصفر والواقعة الى اليسار والداخلة فى المتساوى ، وحيث لا تستطيع هذه الأوتار أن تحمل الا على التسعة عشر ملمسا المصنوعه من أوتار من معى الحيوان ، والتى تقتسم العنق ، فلا يمكن أن ينتج عن ذلك الا سلسلة من عشرين نغمة ، تدخل ضمنها نغمة الفراغ أو نغمة البدء .

أما الأوتار الثلاثة التى من الصلب ، والتى دوزن أحدها فى الخماسية تحت الآخرين ، وفى الرباعية تحت الثلاثة الأول ، فبخلاف أن هذه الأوتار تستطيع كالأوتار السابقة أن تحمل على ملامس العنق ، فانها تمتد أو تتسع كذلك الى ما فوق الملامس الستة المضافة الى المشدة ، وبالتالى فانها تنتج سلسلتين من الأنغام تزيد كل منهما بخمس نغمات عن المجموعة الأولى — أى أن نغمات كل سلسلة منها تبلغ خمسا وعشرين نغمة .

مساحة وتباين النغمات التى يصدرها الطنبور البزرك



الهـــوامش :

(١) نحصل على هذه النغمات الخمس الأخيرة ، التى تصدر عن الوتر المزدوج الثانى ، وعن الوتر الأوحد ، عن طريق الملامس القلمية الشكل ، والتى أضيفت على مشدة هذه الآلة .

الفصل السادس

عن الطنبور البغلمة "١"

هذا الماندولين،فيما يبدو،صورة مصغرة للطنبور البزرك . ولهذا السبب ، على وجه الترجيح ، فقد أطلق عليه اسم الطنبور البغلمه . وهو ما يعنى الماندولين الطفل أو الصغير ، فى مقابل الاسم الذى يطلق على الماندولين السابق ، الذى يشار اليه باسم الطنبور البزرك أى الماندولين الكبير .

وفى واقع الأمر ، فان الطنبور البغلمة لا يبدو ، من النظرة الأولى ، مختلفا عن الطنبور البزرك الا فى صغر أطواله التى لا تبلغ قط نسبة الثلث من أطوال البزرك ، وعلى نحو قريب من ذلك فان أحدهما يشبه الآخر لدرجة كبيرة ، سواء فى شكله أو فى الزخارف التى يتحلى بها ، فالقصعة والمشدة والعنق والعصافير ورافعة الأوتار قد صنعت ، كل منها هنا وهناك ، على نحو متماثل تماما ، وبالتالى فاننا نحيل الى الوصف الذى قدمناه عن هذه الأجزاء ، عند حديثنا عن الطنبور البزرك ، وسنقصر حديثنا هنا عن الأمور التى تميز الآلة الموسيقية ، موضوع حديثنا .

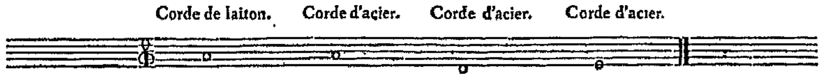
تتكون قصعة الطنبور البغلمة(٢) من سبعة أضلاع ، نمضى خمسة منها نحو الأطراف ، وهى تأخذ تدريجيا فى الضيق ، وهذه الأضلاع مصنوعة من نوع من خشب الرند ، تنتشر عليه حبوب ناعمة وملساء بالقدر الكافى ، أما الضلعان الآخران فيمضيان ، وهمــا يزدادان عرضا ، عكس الأضــلاع الخمسة الأولى ، نحو الأطراف ويفضيان ، الواحد منهما الى الآخر ، من أسفل أما الضلع الأخير فى كل وجه ، أى تلك الأضلع التى تنهض فوقها المشدة فمصنوعة من خشب الزان ، فى حين تصنع قاعدة العنق من خشب الكستناء ، أما القصبة فمن خشب الصنوبر ، ويتقاسم امتداد هذين الجزئين أربعة عشر ملمسا ، هى عقدات من أوتار مأخوذة من معى الحيوان ، على غرار ملامس كل آلات الماندولين الشرقية . وأما العصافير فمن خشب القرانية ، وقد سويت

بنصـــل وليس عن طريق المخرطة · وان نكن الفرس ، والأنف ، وطرف البنجاك ، وقمة رءوس العصافير ، قد جاءت من العاج · وتتشكل خافضة الاوتار من حلقة تتكون من عشر لفات ، ضمت بشدة ، مصنوعة من ونر من نحاس أصفر رفيع للغايه · أما الالواح الخشبية الثلاثة التى نشكل المشدة ، فلا تملأ ، كما هو الحال فى الطنبور البزرك ، كل امتداد الآلة فى عرضها ، بشكل تام ، اذ ينتهى الجزء البافى من المشدة ، من كل ناحية ، وهو يميل الى الهبوط ، بدءا من الموضع الذى يأخذ فيه المنحنى البيضاوى فى التراجع ، ليتخذ حثيثا شكلا مستديرا وهو يمضى الى أسفل ، ينتهى بقطعة صغيرة من نصل خشبى أملس · ومن جهة أخرى فان الفرس منخفضة للغاية · وهى مصنوعة من خشب الصنوبر · ويبلغ عدد الأوتار أربعه ، ويصنع الأول من الجانب الأيسر ، من النحاس الأصفر ، أما الأوتار الثلاثة الأخرى فقد صنعت من الصلب(٣) ·

ويعد الائتلاف النغمى لهذه الآلة مقلوب نظـيره فى الطنبور البزرك ، اذ نجد النغمات فى الآلة الأخيرة – اذا ما نظرنا اليها باعتبارها النغمات الرئيسية لمقام ما – على نحو نكون فيه نغمة القرار فى الخفيض ، وتكون النغمة المسيطرة والنغمة النى نحتها فى الجهير أو الحـاد ، أما الائتلاف النغمى فى آلتنا هذه فيأخذ وضعا عكسيا ، اذ نكون نغمـة القرار فى الجهير ، فى حين تأتى النغمة المسيطرة ، وتلك التى تحتها ، فى الخفيض أو الغليظ ·

مثـــال
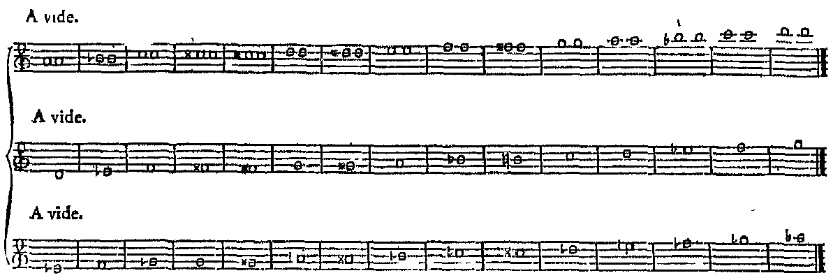
على الائتلاف النغمى فى آلة الطنبور البغلمة



واذ ينقسم كل وتر بفعل الأربعة عشر ملمسا التى فى العنق ، فان بمقدوره أن يعطى خمس عشرة نغمة متباينة ، بما فى ذلك نغمة البدء ، الأمر الذى يعطينا السلاسل أو المجموعات النغمية الآتية :

مساحة وتباين النغمات

التى يمكن ان يحدثها الطنبور البغلمة



الهـــوامش :

(١) انظر اللوحة AA ، الشكل رقم (١٢) ·

(٢) انظر اللوحة AA ، الشكل رقم (١٣) ·

(٣) يقارن لابورد Laborde هذه الآلة بآلة السيورى sewuri ، وان كنا لم نسمع قط فى مصر أحدا يشير الى آلة بهذا الاسم ، ومع ذلك فمن المرجح ، طبقا لما يقوله هذا المؤلف فى دراسته عن الموسيقى أن تكون السيورى هذه هى نفسها الآلة الموسيقية التى وصفناها تحت اسم الطنبور البزرك ، فيما عدا أن البزرك تتزود بخمسة أوتار من الصلب ، ووتر سادس من النحاس الأصفر · وفى الوقت ذاته فان الآلة التى يسميها لابورد البغلمة أو الطنبور قليلة الشبه بالآلة التى نحن بصدد الحديث عنها ، كما يبين من الرسم الذى قدمه عنها فى دراسته عن الموسيقى ، ويختلف الوصف الذى يقدمه عنها ، كثيرا ، عن الوصف الذى نورده لها هنا ، اذ يقول :

« ان للبغلمة أو الطنبور ، على وجه التقريب ، الشكل نفســه الذى للســيورى ، وان تكن أصغر منها حجما ، ولا تحمل سوى أوتار ثلاثة : اثنان منها من الصلب ، والثالث وحده من النحاس الأصفر ، وقد ربطت حول العنق أوتار من معى الحيوان ، وحتى تكون النغمات الصادرة عنها أكثر جهارة أو حدة فانها توقع بالريشة ، وعادة ما يغنى العازف عليها أثناء عزفه ، وقد صنع جسمها من خشب رقيق ، أما المشدة فلا يكاد يكون بها انحناء على الاطلاق ، وأما العصافير فلا توجد ، جميعها ، على جانب العنق ، اذ يوجد بعض منها فوق هذا العنق » ·

الفصل السابع

عن الكمنجة الرومي "١"

أو الكمان اليونانى

المبحث الأول

حول اسم هذه الآلة

أخذ العرب عن الفرس اسم كمانجة (كمنجه) ، ويتركب هذا الاسم في الفارسية من **كمان** بمعنى قوس و **كاه** ، التى ينبغى لنا أن نلفظها **جياه** . وتعنى الموضع أو المكان ، وهى كلمة أو اسم تعنى عندهم ما تعنيه عبارة الآلة الموسيقية ذات القوس ، أى ذات **الكمان** . ذلك أن الفرس يحددون شيئا ما بالاشارة فقط الى وظيفته أو الى طريقة استعمالهم اياه . وهكذا نراهم يقولون على سبيل المثال موضع الشمعة بدلا من أن يقولوا الشمعدان، أو يقولون موضع النوم بدلا من أن يذكروا السرير ... الخ . وكلمة كمانجة ملحقة بالصفة رومى ، التى تعنى يونانى ، لها فى العربية المعنى نفسه لكلمة الكمان اليونانى ، أو كما نقول بالفرنسيه Viole grecque

ولعل العرب قد أساءوا نطق كلمة **كمان كاه** (أو : **كمان جياه**) ، اذا كانوا قد شاءوا أن يحتفظوا لها بهجائها الأصلى(٢) ، اذ أن حرف الكاف الذى يعطى ، فى الفارسيه ، نفس الرنة التى تأخذها الجيم غير المعطشة g ، تقريبا ، يلفظ فى العربية كافا ، ولكنهم ، كى يحتفظوا للكلمة بلفظها الفارسى ، قد أحلوا الجيم فى موضع الكاف(٣) ، وهو حرف يقابل فى بعض البلدان (العربية) حرف g عند الايطاليين (الجيم المعطشة) وفى بلدان أخرى ينطق هذا الحرف نفسه جافا (أى غير معطش كما نلفظه نحن) ، مما جعلهم يكتبونها **كمانجة** (بالجيم المعطشة أو غير المعطشة حسب المنطقة) وليس **كمان كاه** أو **كمانكة** .

الهـــوامش :

(١) كلمه الـكمابجة الرومى نعنى الـكمان اليونانى · أنظر اللوحة AA ، الشكل رقم ١٤ ·

(٢) ومع ذلك فهناك فرق طفيف ، اذ تلفظ الكاف الفارسية مثل حرف الـ g الجافة عندنا مع شيء من الليونه ، على نحو لفظنا نحن للمقطعين gnia ، و guia ·

(٣) تلفظ الجيم العربية فى سوريا واليمن djé (أى جيما معطشة)، ولكنها تلفظ فى القاهرة ، ويكاد يتم ذلك فى كل أرجاء مصر ، جيما غير معطشة على غرار gué أو guié (عندنا) ·

المبحث الثاني
حول شكل الكمانجة الرومي أو الكمان اليوناني

تشبه آله الكمان الاوسط هذه ، كثيرا ، تلك الآله الموسيقية التى عرفناها منذ زمن ليس بالبعيد ، فى فرنسا وايطاليا ، باسم كمان العشاق viole d'amour . ولعل هذه الآلة الموسيقية قد جاءتنا عن طريق هؤلاء اليونانيين .

ولقد شاهدنا « كمنجات رومية » من أحجام مختلفة ، بعضها كبير الحجم بالغ الضخامه ، وبعضها الآخر من أحجام أقل ، وينتمى بعض هذه الآلات لنوع بدا لنا بالغ القدم ، فى حين بدا لنا أن البعض الآخر ينتمى الى أشكال أكثر حداثة ، وان كنا لم نلاحظ أن القوم يفرقون بعض هذه الأشكال عن بعضها الآخر ، بأن يمنحوا كلا منها اسما خاصا ، أو أنهم دوزنوها بشكل مخالف حينما تتباين أحجامها ، لكننا على يقين من أننا قد تعرفنا على أن المعيار النغمى يختلف فيما بينها ، وهو الشىء نفسه على وجه التقريب فى النظام الموسيقى عند العرب حيث أن مقاما ، لا يفترض أن تتغير طبيعته ، طالما قد ظل ترتيب نغماته على حاله .

وتقع الكمنجة الرومى ، المرسومة فى اللوحة AA (١) موقعا وسطا بين آلة الكمان violon ، وبين الخماسية أو آلة الألتو Alto ، اذ لا تختلف عن الآلة الأخيرة ، بصفة أساسية ، الا فى الطريقة التى دوزنت بها .

الهـــوامش :

(١) انظر اللوحة ، الشكل رقم (١٤) .

المبحث الثالث

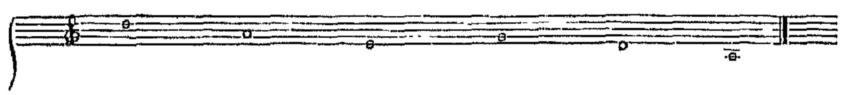
عن الائتلاف النغمي فى الكمانجة الرومى

زودت هذه الآلة باثنى عشر وترا ، ستة منها متحركة وستة أخرى ثوابت ، وقد صنعت الأوتار المتحركه من معى الحيوان ، وهى مشدودة الى الخارج فوق العنق ، مارة فوق الفرس ثم تمضى لتربط الى رافعة الأوتار ، على غرار أوتار آلات الكمان لدينا ، أما الأوتار الثوابت فتصنع من النحاس الأصفر ، ولكنها ، بدلا من أن تشد على الأنف وعلى ملمس العنق مثل الأوتار الأخرى ، تمر من أسفل ، من خلال الفراغ الذى يظل قائما بين هذه الأجزاء وقصبة العنق ، حتى يكون بمقدور هذه الأوتار أن تنفذ منه ، وأن تتردد فيه بحرية ، ودون أن تصطدم بالخشب من أية جهة ، ثم تعبر بعد ذلك الفرس عن طريق ثقوب صغيرة أحدثت فى سمك هذه الفرس عند نحو منتصف ارتفاعها ، ثم تمضى لتربط فيما تحت رافعة الأوتار ، فى الطرف المقابل للطرف الذى ربطت اليه الأوتار المتحركة ، المصنوعة من معى الحيوان .

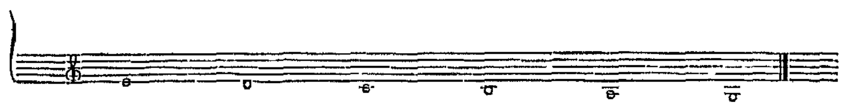
ولا يتم العزف الا على الأوتار المصنوعة من معى الحيوان ، ولا يتم مطلقا على تلك المصنوعة من النحاس الأصفر ، فحتى لو شئنا ذلك لما استطعنا ، فوجود هذه أسفل العنق ، أو تحت الأوتار الأخرى ، قد جعل مثل هذا الأمر شيئا مستحيل الحدوث . وتنحصر فائدة هذه الأوتار المصنوعة من النحاس ، فيما يبدو ، أنها تكرر ترددات ونغمات الأوتار الأخرى . عند العزف على الأوتار الأول .

واليكم الائتلاف النغمى لهذه وتلك من الأوتار .

الائتلاف النغمى للأوتار المصنوعة من معى الحيوان(١)



الائتلاف النغمى للأوتار المصنوعة من النحاس الأصفر



وحيث لا توجد قط ملامس ثابتة للكمانجة الرومى ، فليس لها ، بالتالى ، سلم نغمى خاص بها ، ويستطيع العازف أن يحصل على حريته ، نتيجة لذلك ، وبدون أى عائق ، وعن طريق كل واحد من أوتارها ، مع كافة الأنغام التى تستطيع هذه الأوتار أن تصدرها ، على طول امتدادها ، على النحو الذى يستطيعه ذلك العازف على أوتار آلات الكمان لدينا .

الهــــوامش :

(١) عرف هذا الائتلاف النغمى فى أوروبا فى القرن السادس عشر ، ويكاد يكون هو نفسه الائتلاف النغمى للباص أو الفيولونسيل من وضع جاسـبار دويفو بروجـكار gaspar Duiffoprugcar . عازف العـود التيرولى ، والمولود فى التيرول بايطاليا . فى نهاية القرن الخامس عشر . ولعل الفرق الوحيد الذى قد يوجد بين الائتلاف النغمى لباص أو فيولونسيل هذا العازف ، وبين نظيره فى الكمانجه الرومى ، هو أن الآلة الأولى تشتمل على نغمة أزيد ، وأن نغمات الآله الثانية تجىء مرتبة على طريقه جاسبار دويفو بروجكار ، من اليمين الى اليسار .

واليكم الائتلاف النغمى للباص



وعندما نقرؤه من اليمين الى الشمال ، يصبح ، على وجه التقريب ، الشىء نفسه الخاص بالائتلاف النغمى للكمنجه الرومى .

* حول دويفو بروجكار ، أنظر : القاموس التاريخى للموسيقيين من وضع ال . شورون ، و . ف . فايول .

Dictionnaire historique des musiciens, par M.M. Al-Choron et F. Fayole

الفصل الثامن

عن آلة القانون (١)

هـامش :

(١) انظر اللوحة BB ، الشكل رقم (١) .

المبحث الاول

حول المعنى الحقيقى لاسم القانون عند اطلاقه على آلة موسيقية · الغرض المبدئى للآلات التى يشار اليها بهذا الاسم · كيفية استخدام بطليموس لهذا النوع من الآلات حين وضع مؤلفه عن الهارمونيات

من غير المرجح أن يكون لكلمة **قانون** فى العربية ، أصل مغاير لكلمة kanôn اليونانية ، فلهذه الكلمة وتلك ، فى اللغتين ، نفس المعنى أو المدلول ، فهما تعنيان ، هنا وهناك ، **النمط** ، **الأنموذج** ، **القاعدة** ، **الوزن** ، وفى بعض الأحيان نؤخذ هذه الكلمة بمعنى **القانون** ، **التعريفة** ، **الثمن الثابت أو المحدد** ، **معدل الثمن** للسلع المختلفة التى تباع فى السوق ، ومع ذلك فلا يمكن الافتراض بأن من الممكن أن تستخدم فى هذه المعانى الأخيرة للاشارة الى آلة موسيقية ·

ومن جهة أخرى فان شكل شبه المنحرف الذى يتخذه القانون المصرى ، وهذا العدد الذى لا نهاية له من الخطوط النسبية التى يتكون منها سطحه الواقع بين الضلعين المتوازيين ، والذى شدت الأوتار عليه ، يدل ، فيما يبدو ، وعلى العكس ، على أن هذه الآلة كان من شأنها ، فى الأصل ، أن تستخدم **قاعدة** ، أو بالأحرى **سلمة** نسبية أو قياسية ، لكى نقارن على أساسها الأطوال المختلفة للأوتار ، حتى نقيم - على هذا الأساس - ونحدد العلاقات المتباينة للنغمات ، ولكى تستخدم (هذه الآلة) فى نهاية المطاف **نمطا** أو **انموذجا** لكل الآلات الوترية · وفى واقع الأمر ، فقد كانت هذه الآلة تستخدم فيما مضى ، فى مصر ، لهذا الغرض بالذات ، على يد المصريين ·

وقد استخدم بطليموس ، الموسيقى والعالم الرياضى ، والذى ولد فى نقراطيس فى الدلتا ، وترعرع فى بيلوز (تل الفرما أو بالوظة) ، فى القرن الثانى من العصر المسيحى ، آلة من هذا النوع ، لتكون برهانا أو قياسا لصحة العلاقات الهارمونية للنغمات ، عن طريق (ضبط) طول الأوتار . وفى الواقع فاننا نجد لبطليموس هذا رسما للقانون فى دراسته عن الهارمونيات Traité des Harmoniques ، ص ٥٢٣ ، من المخطوطة اليونانية المحفوظة فى المكتبة Bibliothèque Impériale تحت رقم ٢٤٥٧ ، وفوق الجانب من الرسم ، الذى يفترض أن الأوتار قد ربطت فيه نقرأ هذه الكلمات basis canon أى قاعدة القانون ، مما يدل بوضوح على أن اسم قانون ، فى اللغة العربية ، وكذلك اسم kanôn ، فى اليونانية ، ومدلولهما واحد ، لم يطلقا فى الأصل على الآلة التى نحن بصدد الحديث عنها الا بمعنى **قاعدة ، وزن ، نمط ، أنموذج** ، وأن الاستخدام المبدئى لهذه الآلة كان للمقارنة بين أطوال ونسب الأوتار الى بعضها البعض (فى آلة وترية ما) وكذلك لتحديد العلاقات المختلفة بين النغمات ، وهو الأمر الذى ينظر اليه العرب ، حتى اليوم ، باعتباره لب النظام الموسيقى وجوهره ، وعلينا أن نستعيد الى الأذهان ، أن نظامهم الموسيقى ، طبقا لاعتراف مؤلفيهم ، وهو ما سبق أن أشرنا اليه فى دراستنا عن الوضع الراهن لفن الموسيقى فى مصر* قد جاء محاكاة للنظام الموسيقى لدى الاغريق .

---

* المجلد الثامن من الترجمة العربية .

المبحث الثانى

عن هوية او أصل القانون الأصلى ، أو القانون الأنموذج الذى صنعت على غراره آلات القانون الأخرى - حول التشابه القائم بين رسم لآلة قانون محفورة فوق الآثار المصرية القديمة والقانون وحيد الوتر الذى ابتكره بطليموس - رأى جديد حول اصل الآلة الموسيقية وحيدة الوتر

لا بد أنه قد كانت هناك بالضرورة ، بخلاف القانون الذى نحن بصدده « آلة قياسية » أخرى تعد معيارا موسيقيا على نحو ما ، أو كانت - حتى يكون حديثنا موسيقيا صرفا - تستخدم **قانونا** مبدئيا ، وفى واقع الأمر فقد كانت هناك القينارة وحيدة الوتر ، وهى بدورها آله قانون ، كانت وظيفتها تقتصر على تقسيم وقياس الوتر ، الى كل من أجزائه الرنانة ، على قدر ما تستطيع نغمة هذا الجزء من الأجزاء الرنانة للوتر أن تكون نغمة رئيسية ، مقدرة ومميزة عن نغمات الأجزاء الرنانة الأخرى ، وحتى يتم التعبير - بواسطة طول الجزء الرنان - عن العلاقة بين النغمة التى يحدثها أى من هذه الأجزاء .والنغمة التى تصدر عن الوتر ككل ٠

كذلك كانت القيثارة وحيدة الوتر ، التى عرفت منذ أقدم العصور باعتبارها الأنموذج الأول للنظام الموسيقى ، تستخدم دوما لتبيان التقسيم الهارمونى للوتر ، ولهذا كان بطليموس يطلق عليها اسم مونوكوردوس قانون (أى القانون وحيد الوتر) ٠ ونجد رسما لهذه الآلة ، قريب الشبه برسم قانون بطليموس الذى سبق أن تحدثنا عنه ، والذى يتخذ شكل شبه المنحرف ، وذلك فى المخطوطة اليونانية نفسها : دراسة فى الهارمونيات ،

التى ذكرناها فى المبحث الأول ٠

وثمة ملاحظة مثيرة للفضول ، ومن الطريف والمهم أن نقدمها هنا ، وهى أن القانون المونوكورد لبطليموس ، يشبه تمام الشبه شكلا يراه المرء محفورا بين النقوش والرسوم الرمزية التى تزين المبانى الأثرية القديمة فى مصر ، وهو الشكل الذى يبدو فى بعض الأحيان مزودا بوتد (عصفورة) واحد ، ويبدو فى أحيان أخرى مزودا بوتدين ، ويتحدث لابورد فى مقالته عن الموسيقى ، المجلد الأول ص ٢٩١ – ٢٩٢ ٠ عن آلة موسيقية شبيهة بتلك التى نقلت من هليوبوليس فى مصر الى روما ، فى عهد أغسطس ، والتى يعتقد أنها أقيمت فى عهد سيزوستريس ، قبل حرب طروادة بنحو أربعة قرون ٠ ولهذه الآلة ، على النحو الذى رسمت عليه ، فى دراسة لابورد عن الموسيقى التى سبقت الاشارة اليها ، وتران ، لكننا لم نجد بين الآلات الموسيقية التى تفحصناها باهتمام ، سواء بين نقوش المسلات فى الأقصر والكرنك وهليوبوليس ، أو فى نقوش مبان أثرية أخرى مثل المقابر والمعابد والتوابيت ٠٠٠ الخ ، لم نجد آلة واحدة يشتم منها أثر محسوس للأوتار التى لا بد أنها كانت مزودة بها ، وتدفعنا الأمانة والاخلاص اللذان التزمنا بهما كواجب نحرص عليه عند ملاحظة كل ما نورده هنا ، لأن نبوح بمثل هذا الاعتراف ٠

ومع ذلك ، فاذا كان هذا الشكل ، وهذا أمر مرجح للغاية ، هو صورة لآلة موسيقية كانت تستخدم فى مصر القديمة ، واذا ما كان ما ظنناه أوتادا هى أوتاد بالفعل ، واذا كانت توجد بالتالى من بين هذه الأشياء آلات وحيدة الوتر ، أى ذات وتر أوحد ، وآلات أخرى مزدوجة الوتر ، أى ذات وترين فسيكون من الطبيعى للغاية أن نظن أنه ، فى بلد لا تحيد العادات والتقاليد فيها أو تميل ، أقل ميل ، الا فيما ندر ، وبمشقة بالغة ، قد أمكن الاحتفاظ

بالالات وحيدة الوتر ، حتى عصر بطليموس ، بالشـكل الذى كان لها فى العصور بالغه القدم ، وبصفة خاصه اذا ما كانت آلات الفانون قد حظيت باهتمام المصريين لها بشـكل دينى ، وتبدو الأمور كلها نعلن عن ذلـك فوضعت فى عداد الرموز والشعارات المقدسه التى تشمل الجزء الاكبر من نفوشهم الهيروغليفيه ، وبمعنى آخر فان من العسير علينا آلا نصدق كل ذلك اذا ما تأملنا هذه الأنواع من الآلات الموسيقيه المنقوشة ، كما تبدو فوق المعابد وفوق كل المنشـئات الدينية للمصريين القدماء ، حيث نجدها فى غالبية الأحيان ، فى مشاهد تمثل الطقوس الدينية لهذا الشعب ، وفضـلا عن ذلك ، فطبقا لرواية الكاهن المصرى الذى نقل الينا افلاطون ، فى حواريته تيماوس ، لقاءه مع سولون ، وطبقا لما لاحظناه نحن أنفسنا ، فان القوم فى مصر لم يكونوا ليهملوا قط ، نقش أى شيء قد تكون له فائدة ما ، ويستحق بالتالى أن تخلد ذكراه فوق المبانى ، وقد شاهدنا هذه الآثار وهى تزخر برسـوم تمثل حفلات العبادة الدينية ، وبالرموز والاسـتعارات المقدسة وأعمال الزراعة ، وتمارين الرياضة ، وممارسات الفن ، ومعالم التاريخ ، والمعارك ، والألعاب ... الخ .

المبحث الثالث

المعنى المجازى والرمزى الذى يلحقه المصريون القدماء برسمهم الاشكال المختلفة للقانون – التطبيقات العملية التى قامت بها هذه الشعوب ، وشعوب كثيرة أخرى قديمة ، وقام بها فلاسفة كثيرون من الاغريق القدماء من بعدهم ، بهذه الأنواع من الآلات الموسيقية للتدليل على الهارمونية الكونية والالهية – دوافع المعنى الرمزى الذى يلحق برسم أو تمثيل القانون

على نحو ما حظى القانون ثلاثى الأوتار ، أو قيثارة عطارد القديمة ذات الأوتار الثلاثة ، بالتبجيل والتقديس باعتبارها رمزا للفصول الثلاثة(١) التى تقتسم السنة فى مصر ، فقد أمكن القانون ذو الوترين أن يكون كذلك رمزا للنهار والليل ، أو لنصفى السنة ، اللذين تنتقل الشمس خلال كل منهما من مدار لآخر . وهو ما كان الأقدمون يعبرون عنه كذلك بالحكاية الرمزية لبروزربين ، الذى كان يقضى ستة أشهر (فى العام) فى جحيم بلونون (وهو الوقت الذى تأخذ الشمس فيه ، أو بالأحرى الأرض ، فى الانتقال من خط الاستواء الى مدار الجدى ثم فى العودة من هذا المدار الى خط الاستواء) ، وستة أشهر أخرى على الأرض مع أمه خبريس (وهو الوقت الذى تستغرقه الشمس فى الانتقال من خط الاستواء الى مدار السرطان والعودة من هذا المدار الى خط الاستواء) . وبمعنى آخر ، فحين يفكر المرء أن المصريين القدماء (فى رواية أفلاطون وبلوتارخى) سعيا منهم الى توحيد كل المعارف الانسانية ، فى رابطة عامة ، والى أن يكونوا منها جميعا نظاما

واحدا ، تستطيع فيه كل معرفة من هذه المعارف أن تكتسب وضوحا أكبر مدى وأكبر اتساعا ، ما ان يشملها نور تألق الأخرَيات ، وحين يستدعي الى ذاكرته العناية الدءوب والموسوسة التى كانوا يتخذونها فى أن يربطوا كل شيء ، الى مبدأ واحد ووحيد ، وفى ألا يدعوا - لتفلت - أيا من الروابط المشتركة للعلوم والفنون ، أو تلك التى يمكن أن تكون لهـا فيما بينهـا ، سواء أكانوا ينظرون الى هذه العلاقات باعتبارها علاقات طبيعية أو مباشرة ، أو كانوا ينظرون اليها كوحى يستوحونه من العبقرية المجارية لهذه العصور المتأخرة ، فان عليه أن يستنتج أن الآلة الموسيقية وحيدة الوتر ، باعتبارها النمط المبدئى لنظـام الهارمونية الموسـيقية كله ، قد أمكنها أن تصـبح ، عن طريق التماثل ، رمزا لنظام الهارمونية الكونية والفلكية على اطلاقه ، بل كاد الأمر يصبح شيئا راسخا ، حتى أن أفلاطون وفيثاغورث ، اللذين نهلا فلسفتيهما من مدرسة الكهان فى مصر القديمة ، واللذين وسـعا هنا وطورا معارفهما ، كانا على يقين كذلك بأن المبادىء الأساسية للموسيقى ، ذات صلة قربى ومصاهرة بمبادىء الفلك ، حتى بلغ بهما الأمر أن ظنا أن المرء يصبح أكثر مقدرة على أن يفهمك بنجاح عند دراسته لهذا العلم الأخير اذا ما كان قد استحوذ جيدا على العلم الأول . ومع ذلك ، فحتى لا تنسب الينا فكرة مماثلة ، تبدو بلا ريب مجافية للعقل ، وخرافية ، لكثير من الناس، وبصفة خاصة لأولئك الذين يستبقون علم الموسيقى داخل الحدود الضيقة ، التى سجنته الجهالة والممارسة النمطية بين جدرانهمـا حتى اليوم ، فسوف ننقل حرفيا نصا منثرا للانتباه من الـكتاب السابع من **جمهورية أفلاطون** ، حيث يدور الحديث حول الروابط التى كانت تقوم بين الموسيقى والفلك ، وحول المعونة التى يستطيع أى امرىء أن يحصل عليها من مبادىء أول هذين العلمين كى يستدل أو يستوثق من الثانى .

يدور الحوار بين سقراط وجلاوكوس حول العلوم التى يرى من الأوفق أن يتقبلها فى الجمهورية ، فيضع سقراط الموسيقى فى عداد هذه العلوم . ويجعلنا القليل الذى نقتبسه من هذه الحوارية أن نحكم بسهولة على الباقى :

« سقراط : ولكن ، أى نوع من هذه العلوم التى تناسبنا بالضرورة ، تستطيع أن تذكره ؟

جلاوكوس : لا تسعفنى الذاكرة قط الآن .

سقراط : ومع ذلك فان الآلهة تقدم لنا أنواعا كثيرة من هذه العلوم وليس نوعا واحدا .

جلاوكوس : وما هى هذه الأنواع ؟

سقراط : أولا هناك من هذه الانواع ذلك الفن الذى يحاكى الفلك ويماثله فى الأهمية ؟

جلاوكوس : فما هو اذن ؟

سقراط : فكما أن العيون قد خلقت كى تراقب النجوم (الفلك) . فيبدو أن الأذن قد جاءت على نحو نستطيع معه أن تلتقط الحركات الهارمونية ! ولهذا يظن الفيثاغورثيون أن هذين العلمين (الفلك والموسيقى) توأمان . وهو أمر نقر به ، نحن كذلك » .

وانا على يقين من أن الناس كانوا يقارنون ، منذ زمان لا نعيه الذاكرة ، بين الهارمونية الكونية (الالهية) والهارمونية الموسيقية ،،وأنهم كانوا يقيمون مقابلات بين الكواكب السبعة والأنغام السبعة للموسيقى(١) ، وأنهم قد مثلوا الفصول بأوتار القيثارة ، بالاضافة الى ما يخبرنا به أفلاطون هنا ، وهو الذى كان يستمد آراءه الفلسفية من

المصريين • وكل ذلك يخول لنا أن نعتقد أن الآلة الموسيقيه ، وحيدة الوتر ، التى شاهدناها بين الرموز المقدسة المرسومة فوق المعابد القديمة فى مصر العليا ، كانت تستخدم هناك ، ليس كآلة موسيقية وحسب ، وانما كذلك كرمز لهارمونية حركة الكون ولتقلبات الفصول الدورية ، والمسافات الخاصة بالكواكب والنجوم فيما بينها ، اذ أن لكل الألغاز والرموز غرضا واحدا • هو أن تبسط وأن تخلد المعرفة بقوانين الطبيعة ، عن طريق دراسة دائمة ومتعمقة ، وبفعل ملاحظات مستمرة • وفي اطار هذه العلاقة المزدوجة ، ولا يحق لأحد أن يشك فى ذلك ، كان فيثاغورث يطلب قصدا الى تلاميذه أن يعودوا دون انقطاع الى القيثارة وحيدة الوتر ، ذلك أن الحركة الكونية ، طبقا لرأى هذا التلميذ ، لكهان مصر (فيثاغورث) تشكل تناغما هارمونيا محسوسا هو من شأن الموسيقى ، كذلك فعلى أساس هذا المبدأ نفسه قال باناكماس Panacmus ، الفيلسوف الفيثاغورثى ، منذ ذلك الحين(٢) ، أن واجب الموسيقى ، ليس فقط أن تنظم النغمات فيما بينها ، وانما كذلك أن تدرس وأن تتابع قوانين الهارمونية ، فى كل ما تضمه الطبيعة •

الهـــوامش :

(١) استمرت عادة المقـــابلة أو الربط بين النغمـــات الموســـيقية والهارمونية الكونية والكواكب بين الموسيقيين الاغريق واللاتين ، ونجـد لها كذلك بعض أثر عند بداية القرن الثامن من العصر المسيحى (التاريخ الميلادى) ·

(٢) واليكم ما يورده لنا فى هذا الصدد أريستيد كانتليان فى دراسته عن الموسيقى : édit et Meibomius in 4e, Amestelodami, 1652 ، الكتاب الأول ، ص ٢ ، ٣ ، حيث نقرأ هذا النص الذى يسترعى الانتباه : « غير أنها (أى الموسيقى) الفن الوحيد الذى يتفق ، كما نقول باختصار - مع كل أمر فيه امتداد ، وكذلك تلون مع كل وقت : تارة باضفائها على الروح زينة التناسق (الهارمونية) ، وتارة بتشكيلها الجسم وفقا للنغمات الرقيقة ، حيث أنها ملائمة كذلك للصبية · ومن أجل ذلك فانهـــا تعتبر صالحة من واقع منحها . ومع مرور العمر فانهـــا تمنح طلاوة تارة لنغمة الكلام ، وتارة للحديث بأسره فى اختصار ·

وعلى ذلك فانها تفسر للمتقدمين فى العمر طبيعـــة وحـدات النغم واختلافات (النغمات) المتوافقة ، حقـــا انهـــا لتوضح تمـــاما الهارمونية (التناسق) التى توجد بذاتها فى جميع الأجسام ، وكذلك - وهو أمر فائق العظمة فائق الكمال - الهـــارمونية التى تتعلق بالروح ، والتى من العسير أن يدرك كنهها أحد من البشر : انها تملك أن تمد الأفراد والجماعات بالقدرة على التفكر · من أجـــل ذلك السبب فان مقولة الرجـــل الحـكيم باناكماس الفيناغورى ، بالنسبة لى ، شـــاهد مقدس ، فهـــو الذى قال ان الغرض من الموسيقى ليس فقط تأليف فنون الصوت ، ولكن كل ماتحتويه الطبيعة فى مجالها : ما تجمعه وتؤلف بينه وتنظمه ·

حقا ان هذا سوف يوضح فيما هـــو آت عند حديثنا هنـــالك عن الخطبة » · (عن اللاتينية)

المبحث الرابع
حول الأنواع المختلفة من الآلات الموسيقية
التى ابتكرت محاكاة للآلات المبدئية

يولد فينا التماثل الباعث على الدهشــة ، والذى نقـدمه الشكل ، سواء شكل القانون وحيد الوتر لبطليموس ، أو شـــكل القـانون الذى وجدناه منقوشا على المبانى القـــديمة فى مصر ، وكذلك شـــكل الآلات الموسيقية الشرقية ، التى نعرف اليوم باسم كمنجة أو قيثارة — يولد لدينـا أفكارا أخرى تكشف لنا — ان كانت هذه الأفكار صحيحة ، مسيرة تقدم أوتطور الابتكارات التى أدت الى ظهور عالمية الآلات الوترية .

واذا نظرنا الى هذا التماثل باعتباره دليلا لا يرقى اليــه الشك على الأصل المشترك لهذه الأنواع المختلفة من الآلات ، فان كل شىء يجعلنا ، أكثر فأكثر ، على يقين بأن الآلات الأخرى قد ابتكرت محاكاة للآلة وحيدة الوتر ، ثم اكتسبت هذه الآلات الأخرة ، بفعـــل التوسع والتجاوز فى استخدام هذه الآلة ، اكتمالا ، أصبح — حين أدى الى اهمال الآلة المبدئية والمجادلات الفلسفية التى كرستها — منبعا لذلك الفن البـاطل ، والـــتافه والشاذ ، والذى أطلق عليه ، عن غير جدارة ، اسم موسيقى ، مهما تكن علاقته بهذا العلم واهية . فبمجرد أن بدأ الموســـيقيون يضيفون الى آلة القانون أوتارا جديدة ، وعديدة ، أخذت هذه الآلة — بدلا من أن يقتصر استعمالها على قياس أطوال الأوتار وتحديد العـــلاقات الهارمونية بين النغمات ولحسم اختيار أى منها — تستخدم فى الميلودى . والتطريب الذى كان حتى ذلك الوقت — فيمـا بدا — لا ينتسب ، ولا ينبغى أن ينتسب ،

الا للصوت البشرى ، الآله الطبيعية الوحيده القادرة على تقديم نغمات معبرة ، بشكل حقيقى ، وقمينة بأن تشد انتباهنا ، وأن تمس شغاف قلوبنا ، وبالتالى فانها وحدها الصالحة للغناء والمهيأة له ، ولقد كان الاعريق الأقدمون ، وبصفة خاصة أهالى لاليديموبيا ، لكى يحولوا دون حدوث انحلال أو فساد مماثل — يعاقبون بقسوة بالغة أولئك الذين كان ما يبتكرونه من بدع فى الموسيقى يؤدى الى تغيير المسار النافع والحقيقى للقيثارات — القوانين ، باستخدامهم اياها فى مجال ما كان ينبغى أن يظهر الى حيز الوجود ، فى هذه القرون المتأخرة ، ليس لانه وليد ابتكار لايحظى بأى ترحيب ، وانما بسبب ما يوجد وراءه من نزوه وطيش يبعثان على الضحك لمجافاتهما كل ما هو سليم من عقل وذوق واحساس ، ولعله لم يكن يسمح ، فى هذه الفترة كذلك ، بعدم المضى حتى نهاية الشوط فى المحاولات الأولى التى كان القوم يسعون بها لتحقيق المباهج التى تغرينا اليوم ، ولابد أن كان لهذه الدوافع عندئذ ، ولدوافع أخرى ، كثيرة بلا جدال ، نجهلها نحن ، القدر الكافى من القوة ، حتى تؤدى الى تغريم ، أو انزال عقاب شائن ، بأولئك الذين يتجاسرون على اضافة أوتار جديدة الى القيثارة ، لكن الأمر الموثوق به للغاية ، أن المطاعن الرئيسية التى كانت تعاب على المذنبين ، فى هذه الحالة ، أنهم يخرقون القوانين ، ويفسدون التقاليد باتلافهم للموسيقى .

ومن المرجح أن يكون القانون متعدد الأوتار الذى على هيئة شبه منحرف ، قد أوحى كذلك بظهور أنواع جديدة من آلات موسيقية مماثلة له مثل السنطر أو السنطور ، عند الشرقيين المحدثين ، ومثل آلات البسالتريون والسنطر (النمبانون) والهارب القديم ، وقد أوحى الأخير بدوره بفكرة الهارب (القيثار) الحديث [البيانو الصغير] والبيانو

القيثارى ، والبيانو الحديث لدينا . وهكذا يحدث فى غالبية الأحيان ، أن يؤدى اكتشاف مفيد ، كان اللجوء اليه فى البداية أمرا طبيعيا للغاية وبالغ البساطة . الى استحداث مخترعات أكثر تكلفا وأشد تعقيدا ، وتؤدى هذه بدورها الى اكتشافات تعقيداتها أشد ، لاتفعل الا أن تتلف الفن ، بدلا من أن تسهم فى تطويره واكتماله ، بالاضـافة الى ما تسببه من حيرة وارتباك ، بفعل آلاف الصعوبات والعقبات التى لا جدوى ولا نفع منها ، بقدر ما هى صبيانية طائشة ، ويمكننا أن نقول الشىء ذاته عن الأنواع الأخرى من الآلات الموسيقية ، فقد كان شكل تلك فى البداية بالغ البساطة ، كما كان استخدامها أمرا طبيعيا للغاية ، على النحو الذى ذكرناه فى مبحثنا حول الأنواع المختلفة والأسماء المختلفة للآلات الموسيقية ، التى يلاحظها المرء بين النقوش التى تزدان بها المبانى الأثرية القديمة فى مصر* .

---

* انظر المجلد السابع من الترجمة العربية (المترجم) .

المبحث الخامس
عن الشكل العام ، وعن الأطوال الرئيسية
للقانون عند المصريين المحدثين

سبق لنا القول بأن آلة القانون تأخذ ، عند المصريين ، هيئة شبه منحرف(١) ، فلا يبقى علينا الا أن نضيف هنا ، حول هذه النقطة ، أن شبه المنحرف هذا ينتهى ، من ناحية اليمين ، بالجانب D الذى يفضى الى زاوية قائمة بفعل واحد من أطرافه على القاعدة Et ، وبفعل الطرف الآخر على القمة St ، وينتهى يسارا ، شبه المنحرف هذا ، بزاوية حادة ، أى أن خط الجانب الأيمن D يرتفع راسيا من القاعدة الى القمة ، فى حين أن خط الجانب الأيسر g يعلو معها بميل أو انحراف · وسوف يؤدى ايرادنا لأطوال هذه الخطوط ، التى سنقوم بوصفها ، الى تقديم فكرة دقيقة حول شكل هذه الآلة الموسيقية ·

يبلغ طول خط القمة ، حين نفترض ابتداءه عند الطرف العلوى للبنجاك C ، ونطيل منه على نحو يوازى قمة المشدة حتى نبلغ طرف هذا الجزء من الآلة t ، من الناحية اليمنى ٣٢٥ مم ، ومع ذلك فحين نحذف من هذا الامتداد ٦١ مم تنتمى الى البنجاك ، الذى يشكل فى كل امتداده نتوءا خارج جسم الآلة الموسيقية ، وهو الأمر الذى تسهل ملاحظته فى الجزء g من الشكل ٢ ، الذى يمثل شكلا جانبيا (بروفيل) للقانون ، وعندما لا نقيس الخط من القمة الا من فوق المشدة ، فلن يبلغ طول هذا الخط سوى ٢٦٤ م ، وبرغم هذا ، فحيث أن المشدة تتجاوز كذلك جسم الآلة بـ ١٩ مم فى كل امتداد الجانب الأيمن D ، وهو الأمر الذى لم

نستطع أن نجعل منه شيئا ملموسا الا فى الشكل الجانبى (البروفيل)(٢) لهذه الآلة ، فقد لا يكون بمقدورنا أن نجتزىء هـــذه الزيادة ، وأن نقلص طول خط القمة ، بالتالى ، الى ٢٤٥ مم ٠

أما خط القاعدة B ، حين نضمنه عرض خط البنجاك EC ، فيبلغ امتداده ٩٥٣ مم ، فاذا استبعدنا الجزء EC من هذا الطول الذى ينتسب الى البنجاك(٣) ، والذى يبلغ نتوؤه فى هذا الموضع ٩٢ مم ، فان هـــذا الخط يتقلص الى ٨٦١ مم ، فاذا ما اجتزأنا ، كذلك ، الجزء C من هذا الطول ، أى تلك التسعة عشر ملليمترا التى تتجاوز بها مشدة التناغم جسم الآلة . كما سبق أن استرعينا الانتباه ، فلن يتبقى ، طولا لخط القاعدة ، ســوى ٨٤٢ مم ٠

وأما عن الخط الذى يشكل نهاية سطح الآلة من الجهة اليمنى ، سواء قسناه من فوق المشدة أو من فوق الجزء الذى يكون أسفل القانون ، فان طوله فى الحالتين يظل هو نفسه ، بالغا ٣٧٧ مم ، ويبلغ طول الخط المـائل الذى يتمم الســـطح من الجانب الأيسر g ، مقيســـا من فوق البنجـاك ٧٥٧ مم ، ولكنه لا يبلغ سوى ٦٨٨ مم ، حين يقاس من أعلى جسم القانون والذى لا يشكل البنجاك EC جزءا منه ٠

فاذا ما عرفنا هذه الأطوال المختلفة ، فلن يتبقى علينا كيما نحصـــل على محيط صندوق الجسم الرنان ، الا أن نقابل بين الأبعـــاد الأخيرة التى تجمعت لدينا والتى تبلغ بالنسبة الى خط القمة ٢٤٥ مم ، وبالنسبة لخط القاعدة ٨٤٢ مم ، وبالنســـبة للخط الذى يتمم السطح من الجانب الأيمن ٣٧٧ مم ، وبالنسبة للخط المائل الذى يشكل نهـــاية للجانب الأيسر من السطح نفسه ٦٨٨ مم ، أما عن سمك الآلة فهـــو متساو فى كـل امتداد الصندوق ، ويبلغ ٤٧ مم ٠

الهـــوامش :

(١) انظر اللوحة BB ، الشكل رقم (١) ٠

(٢) انظر t. D من اللوحة BB ، الشكل رقم (٢) ٠

(٣) انظر اللوحة BB ، الشكل رقم (٢) ٠

المبحث السادس

حول أجزاء القانون ، والاسم العربى الخاص بكل جزء منها(١)

هاكم الأجزاء التى تتكون منها آلة القانون :

المشدةأو مشدة التناغم A ، والوصلات E ، وهى تلك السطوح التى تغطى عمق الآلة من جهاتها الأربع ، وأسفل الجسم الرنان ، والبنجاك EC والأوتاد h ، والأوتار r ، والأنف L ، والفرس V ، والمسامع O ، ورافعة الأوتار t ، والمفتاح(٢) ، والملامس(٣) ، وريشة العزف(٤) ٠

وفى اللغة العربية يطلق على مشدة التناغم A اسم **وجه** ، ويطلق على وصلة قمة الآلة اسم **قبلة** أى المقدمة ، وعلى وصلة الجانب الأيمن اسم **قب** أى الرئيس أو رأس الآلة(٥) ، ويسمى الجانب المقابل للمشدة أو الوجه ، أى أسفل الجسم الرنان باسم **الظهر**(٦) وهو ما يقابل كلمة le dos عندنا ، ويشار الى البنجاك EC باسم **بيت الملاوى** أو **المسطرة** ٠ أما الأوتاد h (العصافير) فيشار اليها باسم **الملاوية** ، وتعنى الكلمة العربية **أوتار** ما تعنيه كلمة Cordes عندنا(٧) ، ويعرف الجزء من الوتر الأكثر قربا من الفرس باسم **جانب الحاد** ، أى جانب النغمات الحادة ، أما الجزء من الوتر الأكثر بعدا من الفرس ، والأقرب من البنجاك ، بالتالى ، فيسمى **جانب الثقيل** ، أى جانب النغمات الغليظة ٠

ويسمى الجزء L باسم **أنف** أو **كرسي** ، وهو الجزء الذى نطلق عليه

. اسم sillet . أما **الفرس** C فهي ما نسميه نحن Chevalet ، وأما مسمع وسط المشده أو الوحه فسمى **شمس الوسطاني** أي شمس الوسط، ويسمى **شمس التحتاني** أو **الشمس الدنيا** المسمع O الذى يقع فوق المشدة أو الوحه . قرب الزاوية الحادة لشبه المنحرف ، أو على وجه التقريب على مسافة متساوية بين كل من خط القاعدة والخط المائل ، وسمى **مشدة** الأوتار T **المحال** ، اما **المفتاح** فهو ما نسميه نحن Clef ، وتسمى الملامس باسم **الكنتوان** ، وتطلق على ريشة العزف اسم **الزخمة** .

الهوامش :

(١) انظر اللوحة BB ، الأشكال أرقام : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٢) انظر اللوحة BB ، الشكل رقم ٣ .

(٣) لم يرسم هذا الجزء قط .

(٤) كذلك لم يرسم هذا الجزء أيضا .

(٥) وهو جانب رافعة الأوتار T ، انظر الشكلين ١ ، ٢ .

(٦) الظهر باللام الشمسية لا القمرية (بتصرف) .

(٧) والمفرد **وتر** .

المبحث السابع
الخامات التى صنع منها أو تكون أو زين بها
كل واحد من الأجزاء السابقة

يتكون الوجه A من أجزاء كثيرة مختلفة آن أن نعرف بها ، فبدءا من المسطرة أو بيت الملاوى (البنجاك) EC وحتى مسافة ٦٨ مم من الفرس ، يصنع الوجه من قطعة من خشب مصقول ، لونه لون بذور البلوط ٠ وهى تندمج وتلتصق من ثلاثة من جوانبها بشجة أو حزة تشغل الجزء الاكبر من سمك الوصلات ، وهى تسوى أو توازن من أعلى ما يتبقى من السطح الخارجي والعلوى من هذه الوصلات نفسها ، وتشكل من حولها ما يشبه اطارا يبلغ سمكه نحو ٧ ملليمترات ، أما الجزء الآخر من المشدة ، أو الوجه الذى يحمل فوقه الفرس فتوجد عليه سقيفة شبكيه تنقسم الى خمسة مستطيلات، مكونة من ثمانى قطع ، سبع منها من الخشب الأبيض ، تشكل الجانب الأكبر من السقيفة الملامس أو المساوى للوجه أو المشدة : اثنتان منهن تتممان الجوانب الصغيرة ، أو أطراف السقيفة ، وأربعة أخريات تقسم هذه السقيفة الشبكية ، أما القطعة الثامنة ، المشكلة للجانب الآخر من السقيفة والتى تتم امتداد المشدة فمن خشب الأكاجة الأبيض ، الخشن (أى غير الممسوح) ، وهذه السقيفة مكسوة ، فى كل امتدادها بجلد (سمكة) بياض يطلق عليه اسم رقمة(١) ، كما أنها تندمج وتلتصق فوق الوصلات من ثلاثة جوانب ، حيث اصطنعت لهذا الغرض شجة تدخل فيها بكل سمكها ، بحيث تكون فى مستوى بقية المشدةأو الوجه ٠

وهناك من الشواهد ما يدل على أن هذه السقيفة والجزء الآخر من

المشدة، المصنوع من الخشب ، يتكشـــان ويلتصفان فوق عارضة توجـــد تحتهما ، وينبغى لهذه أن تكون محمولة من طرفيهـــا على الجزء المحزوز أو المشجوج فى سمك الوصلات ، على الجانبين المتوازيين ، كما أنها تمتد بطول اتصال هاتين القطعتين بالوجه أو المشدة، وبالمثل ، نصنع الوصلات وأسفل **الجسم الرنان** ، المكون من لوحين من الخشب ، وكذلك **الفرس والأنف** L من خشب الأكاجة الأبيض الغشيم (غـــير الممسوح) ، ونلمح فى وصلة القاعدة(٢) عند منتصف عرضها ، وعند نحو خمسى طولها بدءا من ناحيـــة رافعة الأوتار ، ثقبا كامل الاستدارة ، يبلغ قطره تسعة ملليمترات ، مسدود بالشمع ، وان لم نتبين ، نحن ، الفائدة المرجوة منه ، ومع ذلك يبدو أنه معمول بقصـــد ما . وتزدان وصلة القمه برسم ملصـــق من العـــاج ، أما الوصلات الأخرى فعارية عن أية زينة . وتصـــنع **الأوتاد** h **والفرس** V من خشب أبيض لا يتصف بالجفاف ، أما المســـامع أو الشمسات O فمن خشب الأكاجة الأبيض الغشيم ومن خشب الليمون كذلك ، وأما رافعـــة الأوتار أو **المحال** T فهى ذلك الجزء من القطعة الكبيرة من خشب الأكاجـة الأبيض الغشيم الذى يتمم أو ينهى السقيفة الشبكية ، ويتجاوز صندوق القانون(٣) . وتصنع الأوتار R من معى الحيوان ، ولا يتفاوت سمك قطرها بشكل ملموس أو بنسبة تسترعى الانتباه ، من قاعـدة الآلة الموسيقية الى قمتها ، أى من الغليظ الى الحاد ، أما المفتاح فمن النحاس(٤) كذلك تشـــكل الملامس أو **الكشتوان** من النحاس ، وتكون فى بعض الأحيان من الفضـــة ، وأما ريشة العزف أو **الزخمة** فعبارة عن نصل صغير من الخشب المصقول .

الهـــوامش :

(١) سبق أن شرحنا ماهية هذا الجلد فى الفصل الخاص بالعود ٠

(٢) انظر الشكل رقم ٢ ٠

(٣) انظر الشكل رقم ٢ ٠

(٤) انظر الفقرة الأخيرة من المبحث السادس ، وكذا الشكل رقم ٣ ٠

المبحث الثامن

عن شكل وأبعاد ووظيفة الأجزاء السابقة

يأخذ الجزء الخشبي من الوجه أو مشدةالنناغم A شكل معين ، ويبلغ طول خط الفمة الموازى للقاعدة نسعة وتسعين ملليمترا ، بما فى ذلك الجرء من هذا الخط الواقع تحت الأنف L . أما اذا لم نحسب حسابا الا لما هو مرئى من هذا الخط فلن ينجاوز طول هذا الحط أكىر من تسعين ملليمىرا ، ويصل طول خط القاعدة B ، بما فى ذلك الجزء منها الموجود تحت الأنف ٦٧٧ مم . فاذا لم نلق بالا الا لما هو مرئى فلن يىجاوز طول هـذا الخط ٦٥٥ مم ، أما الخط الذى يرتفع ، بشكل مائل ، والذى نكسوه الأنف فيصل طوله الى ٦٨٢ مم ، أما اذا استبعدنا الأنف من عملية القياس فلن ينجاوز طول هذا الخط المائل ٦٧٧ مم ، وأما الحط D ، من الناحية المقابلة للخط السابق ، والذى يرنفع عموديا من القـاعدة الى الفمة فيصـل طوله الى ٣٧٧ مم ، وأما الجزء من الوجه أو مشدةالنناغم ، والذى يىكون من سـقيفة شبكية ، وتلتصق عليه الرقمة ، أى نلك القطعة من جلد سمكة البياض ، والذى يمتد من × الى T ، مقيسا بشكل مواز للفرس ، فيبلغ طوله بالمل ٣٧٧ مم ، أما حين نقيسه عموديا على الفرس ، أى فى الاتجاه الآخر ، فلن يتجاوز طوله ١٦٥ مم . وأما بخصوص الرقمة الملصقة فوق السفيفة فانهـا تمتد لمسافة تقرب من تسعة ملليمترات الى ما وراء السقيفة وفوق المشدة، وباختصار ، فان هذه الرقمة تكسو الأطراف الخارجية من جزء المشدةالذى نلتصق - هى - فوقه . وهناك سبع من القطع الخشبية النمـانى المـكونة للسقيفة ، كما سبق أن نوهنا ، وهى نلك المصنوعـة من الخشب الأبيض ، لا يتجاوز عرض سطحها سوى ثلاثة عشر ملليمترا ، فى حين لا يبلغ سمكها

الخمسة من المليمترات ، أما القطعة الثامنه (من هذه السفيفة) ، وهى من خشب الأكاجة الأبيض الغشيم ، فيصل عرض سطحها الى ٣٨ مم ولا يتجاوز سمكها تسعة ملليمترات · ويبلغ طول كل من المستطيلات الخمسة ، والتى تكونها الفراغات الواقعة بين أجزاء السفيفه الشبكية ١١٣ مم ويصل عرضه الى ٥٧ مم · وتحمل **الكعوب** أو أقدام الفرس فوق الجلد الذى يكسو الفراغ الخالى أو الأجوف ، ويبلغ عدد هـــذه الكعوب خمسة ، وهـــو نفس عـــدد المستطيلات المجوفة التى للسفيفة ، ولهـــذا السبب فان الجلد الذى يكسو هذه المستطيلات يستجيب بشكل محسوس لضغط هـــذه الكعوب ، الأمر الذى أحدث آثار تجويف أسفل كل واحد منها ·

أما الوصلات ، أو جوانب أو أسطح القانون ، فلها - فى ارتفاعهـــا - نفس السمك الذى لجسم هذه الآلة الموسيقية ، والذى وجدناه يبلغ من قبل نحو ٤٧ مم(١) ، ويتساوى طولها مـــع امتداد وجه الجســم الرنان الذى تنتسب هذه الوصلات اليه ، ولذلك فاننا نحيل الى الفقرتين الأخيرتين من المبحث الخامس حيث ذكرنا كل هـــذه الأبعاد بالتفصيل ، عنـــد حديثنا عن محيط القانون ، ونكتفى هنا بأن نضيف الى ذلك أن هذه الوصلات ، فى كل طرف من أطرافها ، تندمج ببعضها البعض بفعل الشجات (فى جانب) والأطراف الناتئة (فى الجانب الآخر) ، وأن سمكها ، فى موضع الالتحام ، وحده ، يكون أكبر بقليل عما هـــو عليه فى بعضـــها الآخر ، وفى الوقت نفسه ، فاننا اذا حكمنا على ما نراه منه ، فان بمقدورنا أن نستنتج أن هذا السمك يبلغ من ١٨ الى ٢٠ مم على الأقل ، بل يكاد يصل الى أكثر من ذلك·

ويتخذ أسفل الجسم الرنان ، وهـــو الذى لم يستحق منـــا عنـــاء أن نتوقف عنده ، والذى لا نراه كذلك فى الرسم ، شكل المعين كذلك · وقد سبق لنا أن قدمنا أبعاد هـــذا الجزء فى الفقرة قبـــل الأخـــيرة من المبحث

الخامس ، ولذلك فنحن نحيل اليها لمن يشاء الوقوف على هذه التفاصيل . وقد شذب اللوحان الخشبيان اللذان يصنعان السطح السفلى ، بعناية ، ويلتصق كل منهما الى الآخر ، فى كل امتداد اتصالهما ببعضهما البعض . عن طريق قضيب من الخشب ، ربطا اليه بواسطة أوتاد دائرية مصنوعة بدورها من خشب الأكاجه الأبيض غير المشذب ، وقد خرطت هذه الأوتاد وشذبت بحيث أصبحت فى مستوى هذا السطح . وقد أدمجت الألواح . وكذلك قضيب الخشب الذى يدعمها من الداخل فى داخل شجة أحدثت فوق الوصلات كيما تستقبلها فى كل سمكها ، وهى مبتة كذلك بفعل أوتاد شبيهة بالأوليات ، عرزت أو أنشبت فى سمك الوصلات ، بحيث لا يتبقى شىء مرئى من هذه الوصلات ، فوق هذا السطح ، سوى الجزء غير المشجوج ، والذى يشكل ، من حول ، وفوق هذا السطح نفسه ، ما يشبه اطارا يصل سمكه من ٥ الى ٦ مم ، وهو شبيه بالاطار الذى يلتف حول الوجه أو مشدةالتناغم .

أما **المسطرة** أو **بيت الملاوى** فناتئه كلية ، فى كل امتدادها ، كما رأيتا - ولابد - فى الشكل رقم (٢) ، وينحنى هذا الجزء من الآلة الموسيقية . مشكلا زاوية حادة ، مع وصلة الجانب المائل الذى يلتصق به هذا الجزء . وفوق ذلك ، فهناك ثلاثة فصوص صغيرة ، مثلثة الزوايا ، ومصنوعة من خشب أبيض ، تدعم هذا الجزء وتثبته من أسفل ، وقد أدمج أو سمر كل واحد من هذه الفصوص فى سمك الوصلات ، ويبتعد كل واحد من هذه الفصوص ثلاثية الزوايا عن زميله بمقدار ٢٤٤ مم ، ويوجد الأول منها على مسافة ٥٤ مم من الطرف العلوى لهذه المسطرة أو بيت الملاوى ، ويبلغ طول الواحد منها ٥٩ سم بسمك يبلغ ١٠ ملليمترات ، أما الامتداد الطولى لهذا الجزء من أجزاء الآلة الموسيقية فيبلغ ٧٥٧ مم . كما رأينا فى المبحث

شجات عميمه تقابلها أو توافقها فى الأنف ، وهى تدخل فى هذه الشجات ، عند نزولها من الأوتاد ، بانحراف ، لتدخل بعد ذلك فوق امتداد كل سطح الوجه أو المشدة، وبشكل مواز للقاعدة بدءا من خروجها من الأنف ، وحتى المحال أو رافعه الاوتار ، بعد أن تكون قد مرت كذلك بالفرس ، داخل هوات صغيرة احدثت فيها بقصد استقبال هـذه الأوتار ، وعندما تصل هـذه الأوتار الى المجـال T ، الواقع عند طرف الجـانب الأيمن من القانون ، D . فإن كل واحد منها يمر بواحد من الثقوب الخمسة والسبعين التى أحدث فيها ، وهى الثقوب التى تصطف ثلاثة ثلاثة ، فى شكل مثلث ، وتربط على نحو مشابه للطريقة التى تربط بها أوتار الجيتار عندنا ، ويتمثل الفرق الوحيـد فى الحالتين ، فى أنهم يجدلون الأطراف الزائدة من الأوتار بدلا من أن يصنعوا منها حلقة بسيطة ، ويتكون كلٌ من الأوتار الاثنى عشر الأوليات من ثلاثة خيوط ، ويعادل سمكها سمك الوتر الثانى من الوتريات الغليظة (نغمة لا) . أما الواحـد والعشرون وتـرا التالية فأكثر دقه اى أنهـا أرق من ذلك بمقـدار النصف ، فى حين يكون الاثنا عشر وترا التى تليها ، أكثر من هـذه رقة ، وتكون بقيه الأوتار من **الزير*** ، وتمضى هذه مستدقة فى ثخونتها ، بشكل غير محسوس ، كلمـا اقتربت – هى – من قمة الآلة الموسيقية .

ويوجد **الأنف** L موازيا للمسطرة أو بيت الملاوى ، ولـه شـكل منشور مائل خماسى الزوايا ، غـير منتظم ، طوله ٦٩٥ مم ، فى حين أن عرض سطحه الملتصق بوجه الآلة أو مشدة ناغمها ، والذى يشكل نهـاية لقاعدة هذا الأنف ، ستة عشر ملليمترا ، وهو بشكل زاوية مستقيمة مـع

* الزير من الأوتار هو دقيقها . (المترجم)

شجات عميقة تقابلها أو توافقها في الأنف . وهي تدخل في هذه الشجات ، عند نزولها من الأوتاد ، بانحراف ، لتدخل بعد ذلك فوق امتداد كل سطح الوجه أو المشدة، وبشكل مواز للقاعدة بدءا من خروجها من الأنف ، وحتى المحال أو رافعة الاوتار ، بعد أن تكون قد مرت كذلك بالفرس ، داخل هوات صغيرة احدثت فيها بقصد استقبال هـذه الأوتار ، وعندما تصل هـذه الأوتار الى المجـال T ، الواقع عند طرف الجـانب الأيمن من القانون ، D . فإن كل واحد منها يمر بواحد من الثقوب الخمسة والسبعين التي أحدث فيها ، وهي الثقوب التي تصطف ثلاثة ثلاثة ، في شكل مثلث ، وتربط على نحو مشابه للطريقة التي تربط بها أوتار الجيتار عندنا ، ويتمثل الفرق الوحيـد في الحالتين ، في أنهم يجدلون الأطراف الزائدة من الأوتار بدلا من أن يصنعوا منها حلقة بسيطة ، ويتكون كلٌ من الأوتار الاثني عشر الأوليات من ثلاثة خيوط ، وتعادل سمكها سمك الوتر الثاني من الوتريات الغليظة (نغمة لا) . أما الواحـد والعشرون وتـرا التالية فأكثر دقة اى أنهـا أرق من ذلك بمقـدار النصف ، في حين يكون الاثنا عشر وترا التي تليها ، أكثر من هـذه رقة ، وتكون بقية الأوتار من **الزير*** ، وتمضي هذه مستدقة في ثخونتها ، بشكل غير محسوس ، كلمـا اقتربت - هي - من قمة الآلة الموسيقية .

ويوجد **الأنف** L موازيا للمسطرة أو بيت الملاوي ، ولـه شـكل منشور مائل خماسي الزوايا ، غـير منتظم ، طوله ٦٩٥ مم ، في حين أن عرض سطحه الملتصق بوجه الآلة أو مشدة ناغمها ، والذي يشكل نهـاية لقاعدة هذا الأنف ، ستة عشر ملليمترا ، وهو بشكل زاوية مستقيمة مـع

---

* الزير من الأوتار هو دقيقها . (المترجم)

وجه هــذا الأنف نفسه (وللأنف وجوه خمسه كما رأينا) المتــاخم لجانب المشدة، ويرتفع عموديا ، بكل امتداده ، ليصل ارتفــاعه الى ١٨ مم ، أما الوجه من الأنف الذى يشــكل نهاية لقمته فيصـــل عرضه الى ثمــانية ملليمترات ، ونوجد فوق هذا الوجه خمس وسبعون شــجة أو فجوة يبلغ عمق الواحدة منهن سبعة ملليمترات ، ووظيفة هـــذه الفجوات أن تستقبل الأوتار ، وأما الوجه المماس للوجه السابق ، والذى يستدير من ناحيــة الأوتاد ، فينحنى بميل ، ويصل عرضه الى ستة عشر ملليمترا ، فى حــين يبلغ عرض الوجه الخامس (من وجوه الأنف) ، وهو العمودى على قاعدة هذا الأنف ، ثمانية ملليمترات ، وتتوزع الخمس وسبعون شجه أو فجوة . ثلاثا ثلاثا ، مشكلة خطوطا يميل كل واحد منهــا بعض الشيء ، بالنسبة لاتجاه الأنف ، وبشكل موافق – بدرجة أكبر – لاتجـــاه المشد ، بحيث تشكل الأوتار عند دخولها هذه الفجوات بميل ، زاوية منفرجه مع الجزء من طولها الممتد من الأوتاد حتى الأنف ، بحيث تتعرض هــذه الأوتار عنــد دخولها الى الفجوات أو خروجها منها ، لضغط من الأنف ، يفترض أنه يسهم فى الحيلولة دون انزلاقها أو ارتخائها ، وتبتعد كل واحــــدة من الفجوات الثلاث ، عن زميلتها بمقدار ثلاثه ملليمترات ، ويفصل بين كل مجموعة من هذه الفجوات ، دراع يبلغ خمسة عشر ملليمترا .

والفرس H عبارة عن منشور ثلاثى غير منتظم ، ينهض فوق خمسه أقدام أو كعوب بكل طوله ، الذى يكون موازيا لعرض المشدة، ويمتــد فى جزء كبير من هذا البعد . وتتخذ كل قدم أو كعب هيئة جذع هرمى رباعى الزوايا ، قواعده متوازيه ، مكسورة زواياه المسطحة مع ارتفاع هذا الجذع الهرمى ، ويبلغ طول الجزء العلوى من هذة الفرس ٣٧٠ مم ، ويميل سطح قاعدة المنشور الى الاستدارة بعض الشيء ، ويبلغ عرضه قريبا من قاعدته

أحد عشر ملليمترا ، أما سطح المنشور المواجـــه للمحال أو رافعة الأوتار فيكون عموديا على سطح القاعدة ، ويصل عرضه الى ثلاثة عشر ملليمترا ٠٠ الخ ، وأما السطح أو الجانب المقابل لهذا ، والذى يستدير ناحيـــة بيت الملاوى ، فينحنى بميل فوق مسطح القاعدة ، ويبلغ عرضـــه أربعة عشر ملليمترا(٤) ، ولكعوب الفرس عند قمتها سمك يتناسب مع سطح قاعـدة المنشور ، ولا تشكل هذه الكعوب ، على نحو ما ، سوى امتداد أو توغل له فى العمق ، ولذلك يتخذ اتجاه سطح جوانبها السابقة واللاحقة ، على وجه التقريب ، الاتجاه نفسه الذى تأخذه جوانب المنشور ، عـدا أنهـا مجوفة بعض الشىء عنـــد القمة(٥) ٠ ونمتد أسـطح جـوانب الأقدام الهرمية أو الكعوب ، الموازية لقاعدة القانون وقمته ، الى مسافة ٢٠ مم ، أما تلك التى تأخذ اتجاه المنشور فلا تمتد لأكثر من ١٥ مم ، وتبتعد كل واحدة من هذه الأقدام أو الكعوب عن زميلتها بـ ٤٧ مم ، أو على نحو قريب من ذلك مـع زيادة أو نقص طفيفين ، ذلك أننا نجد اختلافات طفيفة بين الفراغات التى تفصل بين بعضهن وتلك التى تفصل بين بعضهن الأخر ، وان لم يكن هذا الاختلاف ليمضى لأكثر من ملليمتر واحد ، أما القدم أو الكعب القريبة من قمة الآلة الموسيقية فتبتعد عنها بـ ٤٧ مم ، وأما تلك الأشد اقترابا من القاعدة ، فلا يزيد بعدها عن هذه القاعدة ، بأكثر من ٣٦ مم ٠

ومن جهة أخرى فان **المسامع أو الشمسات** ه هى فتحـات أو ثقوب واسعة بعض الشىء أحدثت فوق مشدة الجسم الرنان ، بقصد تهيئة اتصـــال بين الهواء الخارجى ، فى حالة التردد التى يكون عليها بفعل طنين الأوتار ، وبين الهواء المحتوى داخل اتساع الآلة ، بقصد أن تكتسب رنة الأوتار مدى أكبر ، وقوة أشد ، حين يؤدى تردد الهواء الى تحريك كل الأجزاء المرنة من الجسم الرنان فيجعلها بدورها تطن ، ويبلغ عدد هـذه الشمسات اثنتين ،

كبراها تنحو الى الاستدارة ، أما الأخرى فشكل رباعى الزوايا ، غير منتظم ، يكاد يشبه نصل الرمح ، بمعنى أن زاويتى الطرفين العلوى والسفلى حادتان متقابلتان ، وغير متساويتين ، فى حين تكون الزاويتان المنفرجتان اللتان لجانبى هذا الشكل الرباعى متساويتين ، وتصنع الزاوية المحورية الموجودة عند منتصف المشدة من قطعة واحدة من خشب الليمون ، وهى مسننة فى كل محيطها ، وتحيط بها دائرة صنعت فيما يبدو من خشب الأكاجة ، وهذه الدائرة التى استحدثت كى تسوى أو تلامس أو توازن سطح المشدة، تلتصق بسمك لوحة هذه المشدة نفسها، ولا يكاد يبلغ قطرها أكثر من ثلاثة ملليمترات ، وأما محيطها فلا يزيد عن أربعة وسبعين ملليمترا ، وعلى هذه الدائرة تلصق النجمة (أو النجمية) التى تشكل المسمع أو الشمسة ، وتتكون هذه النجمية المصنوعة من خشب الليمون : أولا ، من دائرة يبلغ عرض حافتها ٤ ملليمترات ويصل محيطها الى ٧١ مم ، ثم من مثلثين منقوشين متناظرين ، يشكل اتحادهما شكلا (نجمة) سداسيا ذا زوايا ناتئة ، وله عدد مماثل من زوايا داخلية ، تنقسم بواسطة انصاف أقطار تبدأ من مركز الدائرة ، وعند مركز هذه الدائرة نفسها ، يوجد شكل سداسى مماثل للشكل الأول ، وان يكن بالغ الاستواء ، ولن ندخل فى التفاصيل الدقيقة حول التقسيمات الصغيرة الأخرى لهذه النجمية ، وبمقدورنا أن نراها فى الشكل الذى جاء رسمها فيه ، وعلى نحو بالغ الدقة . أما الشمسة الصغيرة ، التى لها شكل نصل الرمح ، فقد جاءت كذلك من قطعة وحيدة من خشب الليمون خرطت بشكل مسنو وتبتعد هذه عن الشمسة الأولى على اليسار ناحية الزاوية الحادة بـ ١٨٩ مم ، لتكون ، على وجه التقريب ، على مسافة مساوية مع بيت الملاوى أو المسطرة. وأكبر الزاويتين الحادتين لهذه الشمسة ، هى تلك التى تتجه قمتها نحو

زاويه المشدة، ويبلغ طول كل ضـــلع من ضلعيها ، وحتى قمـــة الزاوية المنفرجة نحو ٩٩ مم ، أما الزاوية الحادة المناظرة ، والتى تبدأ قمتها ناحية الشمسة الكبرى ، فأقل فى حدتها من الأولى ، ويبلغ طول كل من ضلعيها ، حتى قمة الزاوية المنفرجه التى يفضى كل منهما اليها ، بالملل ، خمســـة وثلاثين ملليمترا ، ويبلغ (محيط) هذه الشمسة ، مقيسة من خط نأخذه من قمة الزاوية الاكثر حدة حتى قمه الزاويه الأخرى المناظرة ، والتى هى أقل منها حدة ، ١٣٥ مم ، ويبلغ طول القطر الواصـــل بين قمتى الزاويتين المنفرجين المتناظرتين نحو ٤٤ مم ، وهـــذا القطر هو نفسه كذلك ، قطر دائرة نجميه صغيرة ، مماثلة لتلك التى تشكل الشمسة الكبرى ، وينقسم الجزء الباقى من هذه الشمسه ، بشكل منتظم الى تقسيمات كثيرة ، صغيرة ومتباينة ومستوية ، ويمكننا أن نراها فى الرسم .

ويتكون **المفتاح**(٦) من قصبة هرمية الشكل ، رباعية الزوايا ، وهى مجوفة من عند قاعدتها حتى خمس ارتفاعها ، وحيث يدخر هذا التجويف لتلقى رءوس الأوتاد ، كما سبق أن لاحظنا ، فانه يتخذ كذلك شـــكل رأس هذه الأوتاد وله نفس أبعادها ، ويعلو الجزء العلوى من المفتاح ، أو بالأحرى يممه ، قوس يميل بنحو ١٤٤ درجة ، وينحنى أحد طرفيه فوق القصبة الهرمية بشكل أكبر مما يفعل الطرف الآخر ، ويصل الطول الاجمالى للمفتاح نحو ٦٨ مم ، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاع قاعدة القصبة أحد عشر ملليمترا ، وتتقلص هذه القصبة تدريجيا ، بينما هى نمضى نحو الارتفاع بحيث لا يزيد اتساع كل واحد من وجوهها أو أضلاعها عن ستة ملليمترات ، بدءا من الجزء المشكل للقوس ، ويتضاءل سمك القوس كذلك بنحو ملليمتر واحد ، وباختصار فاننا نجد هذا المفتاح ، مرسوما لدينا ، وبشكل بالغ الدقة وبالحجم الطبيعى ، فى الشكل .

و**للملامس** أو **الكشتوان** شـكل حلقة واسعة ، شبيهة بنوع من الكستبان المستخدم في الحياكة وان يكن بغير قاع ، يطلق عليه عادة اسم القصيب أو المفرعه ، ومع ذلك فثمة فروق بين هـذه المقرعة وكستبان الحياكة ، تتمثل فيما يلي :

١ — ان هذه المقرعة ذات سعة كافية لاحتواء طرف الابهـام ، حتى السلاميه الأولى . اسفل الظفر ·

٢ — أن الجزء الذى يحمل تحت الاصبع ، يستطيل قليلا ، بدلا من أن يماثل الجزء العلوى ، وينتهى بزاوية تدخل تحتهـا ، بين الحلقه والاصبع ، النصل الصغير من الخشب المصقول ، والذى يستخدمونه ريشة عزف ، أى **زخمة** ·

ويبلغ قطر الملمس أو الكشتوان أقل من ٢٠ مم ، ويصـل طوله ، مقيسا من قمة الجزء الزاوى حتى ما تحت اتساع الحلقة الى نحو ٢٣ مم ، وفضلا عن ذلك فان ارتفاع الكشتوان لا يزيد عن أربعة عشر ملليمترا ، بل هو أقل فى بعض الأحيان ، وهكذا نرى بوضوح أن أبعاد هذه الكشتوانات ليست مقاييس لابد من الالتزام بها ، بل يسـتطيع كل امرىء ، حسب رغبته ، أن ينوع فى نسبها وأبعادها ، بأن يوصى الصانع بما يريد ، طبقا للفائدة التى يمكنه أن يجنيها من وراء ذلك ، وطبقا لما يناسبه أو يريحه ، ونحن هنا لا نقدم الا نسب وأطوال آلة القانون ، التى قمنا بقياسها ·

أما **الزخمة** ، فهى عادة كـل أداة تستخدم فى لمس أو ضرب أو نقر الأونار · وتأتى هذه الكلمة (فى اللاتينية) Plectrum (بلكتروم) من كلمة بلكترون Plectron ، وهى بدورها مشتقة من الفعل Plettein (بلتين) ، ومعناها يضرب أو يوقع على آلة موسيقية ، ولهذا السبب فان اسم الزخمة أى بلكتروم (أى ريشة العزف) كان يطلق فى بعض الأحيان

على قوس العزف(٧) ، أما ما نطلق عليه نحن اليوم اسم بلكنروم (أى الزخمة) فليس سوى نصل صغير من خشب مصقول ، بالغ النعومة والرقة ، ويصل طوله الى ٨٨ مم ، وعرضه الى نحو تسعة ملليمترات ، وهم يدخلونه ، كما سبق القول ، فيما بين الحلقة والاصبع ، بحيث لا يمررون منه سوى ثمانية عشر ملليمترا ، وبواسطة هذا الجزء من الزخمة تنقر أوتار القانون ٠

الهوامش :

(١) انظر الشكل رقم ٢ ٠

(٢) انظر الشكل رقم ٤ وبه رسم لوتر بحجمه الطبيعى ٠

(٣) انظر الشكل رقم ٣ ويمثل الوتد الداخل فى المفتاح ٠

(٤) انظر الشكل رقم ٢ ٠

(٥) شرحه ٠

(٦) أنظر الشكل رقم ٣ ٠

(٧) يطلق على فعل العزف على أوتار آلة القانون أو ضربها : النقر ، وهى كلمة مشتقة من الفعل نقر ، ينقر بمعنى ضرب أو عزف ، ويستخدم هذا الفعل كذلك للتعبير عن النغمة أو الرنة أو الطنة التى تصدر عن أية آلة موسيقية سواء كانت آلة طرب (ميلودية) أو آلة صاخبة أخرى ٠

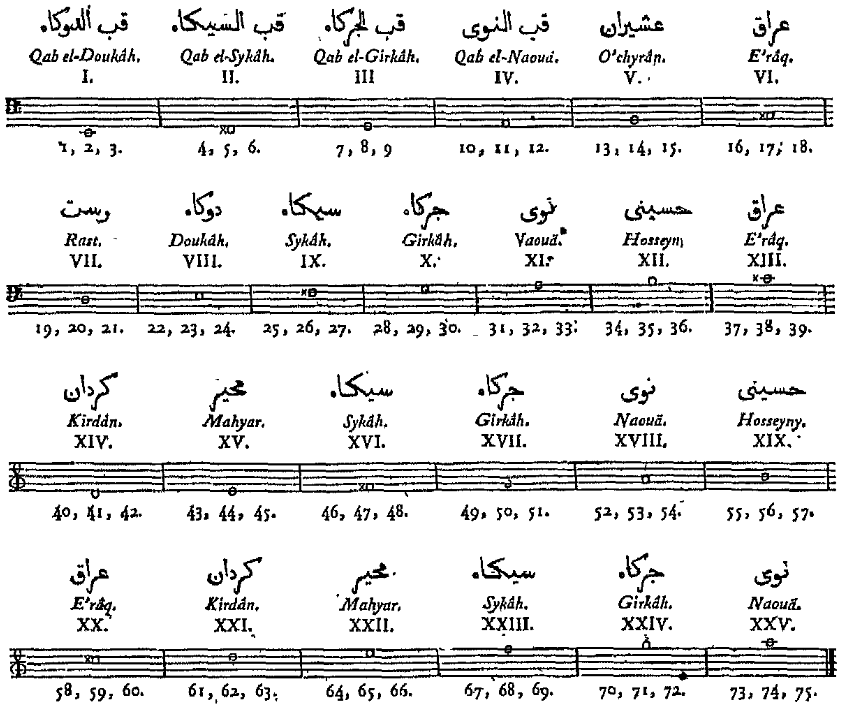
المبحث التاسع
حول الائتلاف النغمي لآلة القانون
وتوليفاتها الموسيقية

تأتلف أوتار القانون فى المتساوى ثلاثة ثلاثة ، وهذا بجلاء هو السبب الذى حسم توزيعها على هذا النحو ، ثلاثة بعد ثلاثة أما المنهج الذى يتبعه الموسيقى المصرى فى توليف ودوزنة هذه الآلة الموسيقية ، وفى تقسيم سلمها النغمى فيتطابق مع التطور الهارمونى للدورات أو الطبقات الموسيقية عند العرب ، والتى قدمنا عنها مثال الاثنى عشر مقاما الرئيسية فى دراستنا عن الوضع الراهن لفن الموسيقى فى مصر ، الفصل الأول ، المبحث التاسع ، ويقترب الموسيقيون العرب منا كثيرا فى ذلك : فهم يأخذون نغمة **الرست** كنقطة بداية ، وهى النغمة المقابلة للنغمة رى Ré عندنا ، ثم يرننونها(١) مع رباعيتها السفلية ، ثم مع الثمانية الحادة لهذه النغمة الأخيرة ومن هنا ينزلون الى الرباعية السفلية التى لهذه الثمانية ، ثم ينزلون أكثر ليبلغوا الرباعيـة التى تعلو النغمة السابقة ، التى يرننونها كذلك مع الثمانية ، وهكذا دوما ، حتى يبلغوا نغمة الوتر الأخير صعودا ، وبعد ذلك يعودون يدوزنون ، عن طريق الثمانية النغمات الغليظة ، واذ يتم التوليف النغمى بهذه الطريقة ، وعلى نحو دقيق ، فاننا نجد كافة نغمات آلة القانون مدوزنة على النحو التالى :

الهوامش :

(١) اسم الحدث الذى يطلق فى العربية على عملية ارنان الأوتار هو الجس ، وهى كلمة مشتقة من الفعل جس بمعنى بحث أو جرب عن طريق اللمس .

نغمات أوتار آلة القانون الخمسة والسبعين وأسماء
المقامات التى تعد تلك النغمات قراراتها الطبيعيـة



الفصل التاسع

عن الآلة الموسيقية المسماة في العربية "السنطير"

تكتب هذه الكلمة ، **سنطير** ، فى العربية بأشكال مختلفة : فهذه الكلمة ، كما هو واضح ، غريبة على اللغة العربية(١) ، فهناك من يكتبونها املائيا **سنطير** ، وهناك آخرون يكتبونها **سنتر** ، ويكتبها فريق ثالث **سنتير** ، ورابع **صنتر** ، وهكذا ، فهناك محل للشك فى امكانية تحديد الشكل الهجائى لهذه الكلمة ، فى العربية ، بدقة .

وليس هناك كثير لنقوله حول هذه الآلة الموسيقية التى لم نتمكن من التزود بها ، والتى لم نرها كذلك الا بمحض الصدفة ، بل نستطيع القول بأننا قد رأيناها بشكل عابر بين أيدى من يعزفون عليها فى الشوارع ، وبالتالى فاننا لم نتمكن من تفحصها والوقوف على تفاصيلها ، على نحو ما فعلناه بخصوص آلات أخريات ! بل اننا لن نتناولها هنا بالحديث ، الا لأن فى شكلها بعض شبه مع آلة القانون ، التى انتهينا من تناولها بالحديث .

لا تعد السنطير واحدة من الآلات الموسيقية التى يستخدمها المصريون، فهؤلاء ، على العكس من ذلك ، يستهجنونها ، اما لأنهم ينظرون الى قانونهم باعتباره آلة موسيقية أرقى من هذه بكثير ، أو ، وهذا ما يبدو لنا أكثر رجحانا ، لأن المسيحيين ، الذين لا يحظون من جانبهم بتقدير كاف ، وكذا اليهود الذين ينفرون منهم جازعين ، يعزفون على هذه الآلة .

وقد عرف منيسكى Meniski فى مؤلفه :

Thesaurus linguarum orientalium (٢)

السنطير ، على نحو شبيه بما فعله مع كل الآلات الشرقية الأخرى أى بطريقة بالغة الخطل ، فيطلق على هذه الآلة اسم الصناج Cymbale ، لأنه قد قرأ فى موضوع ما ، ربما ، أن هذه الآلة تضرب . وهذا أمر

يسترعي الانتباه بقوة بسبب الاهمال الذى صاحب تحديد كل ما له صـلة بالموسيقى ، سواء فى روايات الرحالة أو فى ترجمات المؤلفات القديمة أو الأجنبية أو فى التعليقات التى نمت عليها ، وقد سبق لنا أن أشرنا ، فى دراستنا عن الآلات الموسيقية التى كان المصريون الأقدمون يستخدمونها(٣) الى بعض الآراء الجزافية لبعض الشراح الذين فسروا آلة المزهر أو الجلجل على أنها هى النفير ، والتى أكد آخرون أنها الصناج ، ورآها فريق ثالث فى الناى أو الفلاوت ، ورابع على أنها الصور أو البوق ، وخامس باعتبـارها الطبل أو الكوس ٠٠ الخ ، فى حين أن أقل تمعن فى قراءة الشعراء الاغريق واللاتين ، كان سيريهم الى أى حد قد جانبهم -أى هؤلاء الشراح - الصواب ، وكم جافوا - هم - الحقيقة ، ولسوف يكون بمقدور امرىء ما أن يضـع مؤلفا بالغ الضخامة والغرابة معا لو أنه شـاء أن يمحص وأن يحصى كافه الأخطاء من هذا النوع ، والتى ارتكبها أناس مرموقون ، فضـلا عن ذلك ، عند حديثهم عن الموسيقى وعن الآلات الموسيقية ، وقد يلذ لهذا المرء كثيرا ، بينما تستحثه رغبـة ماكرة فى الايذاء ، أن يرى الى أى حـد أساء بعض المؤلفين والكتاب استخدام علمهم الغزير ، وكيف عرضوا للخطر لبابتهم وهم يسعون الى اعتساف التفسيرات لبعض النصوص ٠

واذ يكون السنطير أبعد من أن يشبه الصناج ، تلك التى تتكون من جزئين متزاوجين ومتماثلين تماما من المعـدن ، فانه يتكون من صـندوق مسطح ، مصنوع من الخشب ، على شكل معين ، ومماثل فى هيئته للقانون العربى ، وان يكن له جانبان مائلان ، بدلا من جانب واحد فى آله القانون ، كما أن السنطير يمثل شكلا ثلاثيا مجدوعا عند قمته ، وبدلا من أن تكون أوتاره من معى الحيوان وتوقع أو تنقر بالبلكتروم أو الزخمـة ، تلك التى تصنع على شكل نصل من خشب أملس أو تؤخذ من ريشة نسر ، فان له

(أى للسنطير) ونرين من المعدن ، ينقران بعصويين صغيرتين من الخشب . تنتهى الواحدة منهما بكعب يكون أحيانا من العاج ، ويؤخذ فى أحيـــان أخرى من مادة قرنية ، ولا يلمس الأوتار منه سوى جزئه المحدب

وتربط الأوتار الى أوتاد مغروسه فى الجانب الأيسر من الآلة ، وليس على المسطرة الناتئة الى ما وراء صندوق الآلة ، على النحو الذى نشاهده فى آلة القانون ، وان تكن الأوتار مشدودة ، بالمثل ، من الشمال الى اليمين بدءا من المسطرة أو بيت الملاوى وحتى المحال أو رافعة الأوتار ، وتحمـــل بالمثل فوق فرس سابقة على المحال .

وعلى قدر استطاعتنا التذكر فان أوتار هـذه الآلة زوجية ، وليست ثلاثية مثل أوتار القـــانون ، أما عدد هذه الأوتار ، وســـامها النغمى ، والنغمات التى تصدر عنها — فهذا ما لم تسنح لنا الفرصة لتفحصه

وتوجد الشمسات فوق الوجه (أو مشدة التناغم) ، لكننا لسنا فى وضع نستطيع معه أن نقطع بحقيقة عددها ، أو شكلها ، مستديرا كان أم غير ذلك ، وذلك أننا لم نحتفظ عنها بذكرى دقيقة .

وليس بمقدورنا أن نضيف لذلك شيئا ذا بال حول هذه الآلة ، ومع ذلك ، فمهما يكن هذا الوصف موجزا فعلا ، فانه يبدو لنا بالغ الافاضة ، اذا ما قارناه بما قيـــل حتى اليوم ، عن آلة السنطير ، عنـــد الشرقيين المحدثين .

الهـــوامش :

(١) سبق لنا أن تحدثنا عن اسم السنطور الذى كان يطلق قديما على آلة موسيقية ترى بين النقوش فى معابد أثرية كثيرة فى مصر العليـــا · انظر مقالتنا عن الآلات الموسيقية التى يراها المرء بين النقوش التى تزين المبانى الأثرية المصرية ، الباب الأول ، المبحث الرابع ، الدولة القديمة ، المجلد الأول ، ص ١٨٧ — ١٨٨ [انظر المجلد الســـابع من الترجمـــة العربية] ·

(٢) Viennae Austr, 1680, Col 2991, سنتور voc

(٣) العصور القديمة ، دراسات ، ص ١٩٥ (وصف مصر) ·

[انظر المجلد السابع من الترجمة العربية] المترجم ·

الفصل العاشر

عن الكمنجة العجوز "١"

المبحث الأول

حول اسم هذه الآلة ، نمط شكلها وطابعه ، وكذلك نمط وطابع الزخارف والحليات التى تميز الكمنجة العجوز عن بقية الآلات الشرقية الآخرى ، سواء فى مجملها أو فى الأجزاء المختلفة المكونة لها

لابد لنا أن نستعيد الشرح الذى قدمناه عن اسم الكمنجة عند حديثنا عن الكمنجة الرومى ، وبذلك لا يتبقى علينا الا أن نفسر هنا كلمة **عجوز** ، التى تعنى المسن ، على النحو الذى ترجمناها اليه ، وبهذا يغدو كل ما يتعلق باسم هذه الآلة الموسيقية ، الآن ، معروفا ، وربما لم تكن هناك آلة موسيقية تبعث أصالتها على الاثارة مثل تلك الآلة ، سواء كان ذلك فى شكلها أو أبعادها أو نمطها أو فى ذلك العدد الكبير من الزخارف والحليات التى تتجمل بها(٢) ، فلهذه الآلة طابع خاص ، عربى حق ، يختلف كلية عن طابع الآلات الشرقية الأخرى ، إذ يتعرف فيها المرء على الذوق الآسيوى مندمجا بالذوق العربى ، كما نلاحظه فى عمارة المنشآت التى شيدت فى عصر الخلفاء المسلمين ، والتى يطلق عليها فى بعض الأحيان اسم العمارة البربرية mauresque ، وهو الذوق الذى يعلن عن نفسه فى عمارة أقدم المساجد ، ولا سيما فى عمارة المنشآت التى تبعث على الاثارة ، والبالغة البذخ ، والتى شيدت فى مدينة المقابر - الجبانة - على مقربة من القاهرة ، تكريما لأشهر رجالات المسلمين فى أزهى عصور الاسلام ، فقد شيدت هذه المنشئات بروعة كانت بمثابة صدمة لكل الرحالة الأجانب .

ومع ذلك فان هذه الكمنجة لم تستلفت اليها الأنظار بفعل **نمطها** ،

وشكلها وأبعادها وحلياتها فقط ، وانما كذلك ، وفوق هذا كله ، بفعل الطريقة التى تشكلت بها .

فعلى عكس كل الآلات الموسيقية الأخرى التى نجد لها عنقا مسطحا من اعلى ، أى من الجانب الذى تشد عليه الأوتار ومستديرا من أسفل ، وأكثر اتساعا بالقرب من الجسم الرنان ثم يقل عرضه مع صعوده باتجاه الأنف ، والتى تمضى فى بعض الأحيان مع تناقص أبعادها حتى طرف البنجاك عكس ذلك كله فان للكمنجة العجوز عنقا متعدد الأضلاع والزوايا فى جزء منه ، وأسطوانى الشكل فى الجزء الآخر ، ويتسع قطره كلما ابتعدنا عن الجسم الرنان A ، بل ان بنجاكها له كذلك قطر أكبر من القطر الذى لأعلى العنق ، وبينما يكون البنجاك فى آلات الموسيقى الشرقية الأخر مصمتا ، وتكون للأوتاد رءوس أسطوانية الشكل على هيئة بيزر ، وتنغرس فى المقدمة، على الجانب الأيسر من البنجاك ، وليس قط على جانبه الأيمن ، وفى حين تربط الأوتار الى هذه الأوتاد خارج البنجاك وعلى رءوس هذه الأوتاد كذلك، فان للكمنجة العجوز بنجاكا مجوفا وأوتادا لها رءوس مسطحة ومستديرة على هيئة قرص ، أو تكون كروية الشكل وتنقسم الى أجزاء ، كما أن هذه الأوتاد تغرس الى يمين البنجاك والى يساره ، وليس فى المقدمة قط ، كما تربط أوتارها داخل البنجاك ، وحول ذيل الأوتاد ، بعد أن يمرروها من خلال ثقب أحدث لهذا الغرض فى هذا الجزء من كل وتد .

كذلك ، ففى حين يكون الوجه أو مشدة التناغم فى الآلات الموسيقية الأخرى ، بأكمله ، أو فى جزء كبير منه ، من الخشب ، فانه هنا يقتصر على قطعة من جلد (سمك) البياض ، ومرة أخرى ففى الآلات الموسيقية الأخرى التى أحدثت بها فتحات تسمى **شمسات** ، بقصد ايجاد صلة بين الهواء الخارجى والهواء الذى يضمه الجسم الرنان ، تكون هذه الفتحات فوق الوجه

أو مشدة التناغم ، أما فى الكمنجة العجوز ، فلا ترى هذه الفتحات الا فوق الجسم الرنان A (٣) ، وبالمثل ، تكون أوتار الآلات الأخرى من معى الحيوان أو من المعدن، أما أوتار هذه الآلة الموسيقية فتؤخذ من خصلات طويلة من شعر معرفة الحصان ، على نحو قريب مما تكون عليه الأقواس (أقواس العزف) عندنا ، وبدلا من أن تكون خافضة الأوتار فيها فوق البنجاك ، كما نرى فى بقية الآلات الشرقية ، فان خافضة الأوتار هنا لا توجد الا عند الملمس الموجود بالعنق .

ولا تزال هنا ، ولا بد ، ملاحظات أخرى كثيرة ، لو أنا شئنا أن نتوقف عند الكثير من التفاصيل الصغيرة ، لكن تمحيصا دقيقا كهذا لا يستحق أن يجد لنفسه مكانا هنا .

الهوامش :

(١) الكمنجة العجوز أى الكمان القديم .

(٢) أنظر اللوحة BB ، الشكلين ٥ ، ٦ .

(٣) أنظر اللوحة BB ، الشكل رقم ٦ .

المبحث الثانى
الأجزاء المكونة للكمنجة العجوز

لكى نتصور هذه الآلة فى مجملها بشكل افضل ، ولكى نجعل من الشرح الذى سنقدمه حول شكلها وخامتها وحلياتها وأبعادها ، أكثر وضوحا. فان من الأفضل أن نميز فى البداية ، كل واحد من الأجزاء النى تتألف منها على حدة ٠

تتألف الكمنجة العجوز من الأجزاء الرئيسية الآتية(١) : **الجسم الرنان**

A ، وهو يتركب من قطعتين : **الوجه** أو مشدة التناغم ، **والصندوق** ؛ ويأتى هذا الجزء بقطعتيه بعد **العنق** M الذى يمكننا أن نقسمه الى ثلاث قطع هى : **الملمس** T ، وأسفل **العنق** b ، و **القدم** Q ، ثم نجد **البنجاك**

C ، الذى نقسمه بدوره الى قسمين : الأول ونسميه **الجسم** C ، والثانى ونطلق عليه **رأس البنجاك** ، ثم **الأوتاد** (أو العصافير) I ويسمى الجزء I منها **الرأس** فى حين يسمى الجزء I منها **الذيل** ، وبعد ذلك تأتى **الأوتار** R (٢) ثم **المفاصل** ، **فخافضة الأوتار** F ، **ورافعة الأوتار**

X ، وبعد ذلك **الفرس** H ، **والقوس** P (٣) وهو الذى يتكون من **العصا** L ومن **الشعرة** J ، ومن **السير** أو **الحزام** K ٠ وهناك أجزاء كثيرة أخرى تمكن ملاحظتها فى هذه الآلة ، ولا نجد مثيلا لها قط فى الآلات الأخرى ؛ حتى لينبغى علينا ، كيما لا نهمل شيئا ، لا أن نشير الى كل أجزائها وحسب ، وانما كذلك الى ما لهذا الجزء من خصوصية فى تكوينه ، سواء من ناحية الشكل الذى جاء عليه ، أو من ناحية الخامة التى صنع منها ،

أو من ناحية الوظيفة التى يؤديها ، فهناك أشـياء لا يسـتطيع الرسـم ولا الحفر ، على الدوام ، أن يجعلانا نتبينها بوضوح ودون أن نلجأ الى الوصف كما أن هناك بالمثل ، أشياء لا نستطيع أن نفسرها بنجاح دون أن نلجأ الى الرسم والحفر .

الهـوامش :

(١) انظر الشكلين ٥ ، ٦ (من اللوحة BB) .
(٢) انظر الشكل ٦ .
(٣) انظر الشكل ٧ .

المبحث الثالث

شكل وخامة وموضع كل جزء من الأجزاء السابقة وكذلك الحليات التى يزدان بهـا كل جزء من هذه الأجـــزاء

يتخذ **الجسم الرنان** A الخاص بالكمنجة العجوز ، شكل كرة اقتطع منها نحو ثلثها(١) . أما **الصندوق** فيتكون من نواة احدى ثمار جوز الهند حزت فوق أعلى منتصفها بقليـــل ، ثم أخذ الجزء الأكبر منهـا بعد تجويفه وتنظيفه ، ثم ثقب فوق سطحها ثقوب مستوية متفاوتة الاتساع ، وقد رتبت بشكل منتظم على هيئة صليب مزدوج ، يحيط به خط منحن متموج ، يبدو وكأنه أشرطة عدة ، ربطت الى بعضها البعض .

وليس **الوجـه** أو مشدة النناغم شـيئا آخر سوى جلد بياض مشدود بقوة فوق فوهة نواة جوزة الهند ، وقد ألصق هذا الجلد فوق حواف النواة ، من الخارج ، بعرض ٧ ملليمترات فوق طول محيطها .

ويسمى **العنق** فى العربيه « **العمود** » ، وقســم منه لا يراه الناظر . وهو ذلك الذى يلصق الى ثقب أحدث عند منتصف قاعده البنجاك ، وهذا القسم أقل فى سمكه بكثير من البقية المرئيه من هذا العنق أو العمود ، وهو مصنوع فى أكبر امتداد له من خشب الأكاجه ، تعلوه ترصيعات أو تكسيات من خشب سانت لوسى ، ومن العاج ، ومن صدف اللؤلؤ ومن النحاس ، أما الباقى فهو ، ببساطة ، من العاج أو الحديد .

وأما **الملمس** T ، أو ذلك الجزء الممتد من خافضة الأوتار حتى أسفل العنق b ، الى مسافة ٦٨ مم من الجســم الرنان ، فعبـــارة عن أنبوب له

اثنا عشر ضلعا ، وتتوزع الترصيعات التى تتحلى بها بشــكل منتظم فوق جوانبها أو وجوهها الاثنى عشر التى ترصع على النوالى أو على التبادل بصدف اللؤلؤ ، والعاج ، وخشب البلساندر* وخشب سانت لوسى · أما صدف اللؤلؤ فمخروط على هيئة سداسيات مسحوبة ، سبع منهن ، تعلو الواحدة منهن فوق الأخرى بكل ارتفاع ســنة من الاثنى عشر وجها التى للســاق أو الأنبوب ، ويؤخذ كل واحد من هذه الأشكال السداسية من خشب اللؤلؤ المحاط بشبكة صغيرة من خشب سانت لوسى ، موشاة فيما حولها بشبكة أخرى صغيرة من النحاس،وهناك مثلثات من العاج تملأ الفراغات المجوفة التى تتركها فيما بينها الأشكال السداسية ، بارتفاع كل وجه من الوجوه التى تملؤها · أما الأوجـــه الستة الأخرى من الشــكل ذى الاثنى عشر ضــلعا (الأنبوب) فتملؤها شبكة صــغيرة من خشب البلساندر بين شــبكتين من خشب سانت لوسى ·

ويتكون **اسفل العنق** من قطعتين : الأولى ، وهى من خشب الأكاجة المصمت ، وهى تلك التى تتاخم الملمس T ، وتؤخذ الأخرى من العاج وهى الجــزء الذى يتلو أو يعقب مباشرة الجزء الســابق ، ويلامس الجســم الرنان ·

والقــدم Q عبارة عن ساق حديدية مربعة الشكل ، مغروسة أسفل العنق ، وتجتاز هذه الساق نواة جوزة الهند من طرف لآخر ، وتتوغل الى ما بعدها لمسافة ٢٠٧ مم ، وتنتهى بزرار على شكل هرم صغير مقلوب ، له وجوه أربعة ، وفوق نواة جوزة الهند بقليل ، تصبح ساق القدم مسطحة بطول يصل الى ٢٣ مم ، وقد أحدث فى هذا الجزء المسطح ثقب مرر من خلاله،

---

* خشب فاخر بنفسجى اللون ·

من الخلف ، مسمار ذو رأس ، ثنى ذيله ليتشكل المحجن أو الصنارة h من الأمام ، ووظيفة هذه أن تشبك بها الحلقة e لرافعة الأوتار .

ويتكون **البنجاك** C ، فى جزء منه ، من العاج المصمت ، وفى جزء آخر من البلاكاج ، وفى جزء ثالث من النحاس ومن خشب سانت لوسى ومن العفصية الكندية* .

ويصنع جسم **البنجاك** من قطعة وحيدة من العاج المصمت ، وهو أسطوانى الشكل ، ويزدان بنتوء زينة فى كل طرف من طرفيه ، وتوجد فى مقدمته فتحة ضيقة وعميقة ، وتوجد حول حواف هذه الفتحة ، وكذلك على طرفى الأسطوانة ، فيما أمام نتوء الزينة وفيما وراءه ، خمس دوائر ، تتكون كل واحدة منهن من حلقات مركزية (أى تدور حول مركز واحد) تشكل حوافا أو أطرا لهذين الموضعين ، وتزدان بقية سطح البنجاك بنجميات صغيرة صنعت بأساليب متنوعة ، من النحاس وخشب سانت لوسى ، لكنها جميعا تحاط ، معا ، بدوائر صغيرة تماثل الدوائر السابقة . أما ثقوب الأوتاد — ويبلغ عددها ثلاثة فى كل وجه ، على الرغم من أنه لا يوجد لهذه الآلة سوى وتدين ووترين — فتحاط بدوائر صغيرة شبيهة بدوائر الأطر أو الحواف ، وان يكن قطر النجميات المشكلة لها أكبر من قطر الأخريات .

ويكاد **رأس البنجاك** يشبه اناء مصريا يسمونه بردق يعلوه غطاؤه ؛ وقد لا يكون علينا ، فى الحقيقة ، أن نقارب بينهما على نحو مبالغ فيه أو نسعى لأن نجد لهما نفس الأبعاد ونفس النسب ، ومع ذلك فان لرأس البنجاك هذا علاقة شبه كافية بهيئة هذا الاناء ، حتى لتستطيع هذه ، وبسهولة ، أن تستدعى على الفور صورة الأخرى الى أذهان من يعرفونها

---

* شجرة من أشجار الزينة من الفصيلة الصنوبرية .

أو تساعد أولئك الذين لم يروها قط ، على أن يتصوروها ٠ وهذا الجزء من البنجاك مصنوع من خشب شبيه بخشب العفصية الكندية ، وهو يزدان بشرائط صغيرة من العاج شبيهة بأضلاع شمامة ، يقف كل واحد منها من الآخر على مسافة متساوية ، بكل امتداد محيطها ، بدءا من القمة الدنيا حتى ارتفاع ما يمكننا أن ننظر اليه باعتباره منشأ عنق البردق ، وهناك توجد كذلك زينة ملصقة ، صنعت هى الأخرى من العاج ، مشكلة خطا دائريا متعرجا ، بحيث تفضى زوايا تعرجه الى قمة الأضلع السابقة ، وفوق الخشب البادى فى الفراغات الفاصلة بين الضلوع العاجية ، توجد دوائر صغيرة من العاج كذلك ، أما الجزء الأكثر نسولا أو خيطية من هذا الرأس ، أى ما يمكننا نسميته بعنق البردق ، فينقسم بدوره ، فى كل ارتفاعه ، الى ثمانية شرائط طولية من العاج ، تبدأ عند قمم الزوايا المتبادلة الداخلية ، والمناظرة للزوايا السابقة المشكلة للخط الدائرى المنعرج وعلى مسافات متساوية فوق حافة الاناء توجد أربع دوائر صغيرة من العاج ، وكذلك فوق الزرار الذى نمثلناه فى شكل غطاء هذا الاناء ، ومع ذلك فحيث أن هذه الحافة أو الاطار تشكل نتوءا وأن الجزء الأدنى من الزرار كروى الشكل ، ويشكل سطحا متراجعا فان كل واحدة من الدوائر العاجية تنقسم الى قسمين بفعل هذا الجزء المتراجع الذى ينفصل عن الاناء ، عن طريق الفتحة ، ولهذا الزرار ، وهو فيما يبدو من خشب البليساندر ، شكل كرة مستطيلة فى الجزء العلوى منها ، ينقسم سطحها كذلك الى أربعة شرائط صغيرة من العاج ، تبدأ عند منتصف ارتفاع الكرة ، وتمتد حتى القمة ، وتوجد ، كذلك ، دوائر صغيرة من العاج ، فوق الأجزاء الوسيطة الأخرى التى تترك الخشب مكشوفا ٠

وتصنع **الأوتـاد** I ، التى وصفناها من قبل ، من خشب القيقب وهى تجتاز البنجاك من طرف لآخر ، على نحو ما تفعل أوتاد الكمان لدينا ،

أما الجزء من ذيل كل وتد من هذه الأوتاد ، والذى يدخلونه فى الجزء الأجوف من البنجاك ، فيخترقه بالمثل ثقب يستخدم فى تمرير مرابط الوتر ، ولولا ذلك ، لكان عسيرا على الوتر ، من حيث انه يتألف من نحو ستين الى ثمانين شعرة من شعر معرفة الفرس أن يدخل فى ثقب بمثل هذا الضيق · وليس لدينا ما نضيفه الى ما سبق أن قلناه بخصوص رأس الوتد ، اما عن الذيل ، فهو عبارة عن ساق أو قصبة دائرية تمضى مستدقة حتى الطرف المقابل للرأس ·

وتتكون **الأوتار** ، كما نبهنا الى ذلك منذ قليل ، من خصلات من شعر معرفة الحصان ، وتضم الواحدة عادة من ٦٠ الى ٨٠ من هـــذه الشعيرات ، ويعقد كل وتر ، بعقدة مربعة ، الى المفصل أو المربط ، وهذا الأخير عبارة عن حلقة كبيرة من معى الحيوان له سمك الوتر الثانى فى آلة الكونترباص – أى الكمان الكبير – (وهو الوتر الذى يصدر النغمة لا *la*) ، ويعقد الطرف الآخر ، بعد مروره من خلال ثقب الوتد الى الطرف الآخر ·

أما **خافضة الوتر** *F* ، فشريط صغير من الجلد ، يلتف مرتين حول العنق ، فوق الملمس ، ثم يعقد عقدة واحدة من الخلف ، على مسافة ٢٧ مم من البنجاك ، وحيث لا يوجد فى الكمنجة العجوز أنف قط ، وحيث قد تصبح الأوتار ، عند خروجها من البنجاك – وبعد أن تكون قد مرت من فوق الحليه الناتئة التى تزين طرفها الأدنى – بالغة البعد ، ولحد مفرط ، عن الملمس ، فانهم يقاربون فيما بينها بضمها بقوة . عن طريق شريط من الجلد *F* ، هو الذى يشكل ما نطلق عليه اسم خافضة الوتر ·

وتوجد **فى جاذبة الأوتار** *X* حلقة دائرية من الحديد *e* تعقد فيها الأوتار المأخوذة من شعر معرفة الحصـــان ، وتشبك هذه الحلقة الى صـــنارة

أو محجن من الحديد n يمسك بقدم الآلة الموسيقية .

وتصنع **الفرس** H من خشب التنوب* ، ونوجد عند قمنها حزنان أو شجنان ، عريضتان ، لحد يكفى لاحتواء كل واحد من الوترين ، وننتهى أقدام أو كعوب هذه الفرس بنتوء صغير من الخارج ، نحط – هى – عليها . مما يجعل وعاءها أكبر اتساعا ، بحيث يصبح بمقدور هذه الفرس ، بسهولة أن تظل واقفة فوق الوجه ، حتى بدون تأثير ضغط الأوتار التى تبقى على هذه الفرس ثابته فى هذا الموضع ، حين تكون (هذه الأوتار) مشدودة .

أما **القوس** P فيتألف على نحـو مخالف للأقواس لدينا ، فعصاه مجرد غصن دردار ، لم يكلف القوم أنفسهم عناء تخليصه من لحائه . وهذه العصـا ، التى تقابل ما نطلق عليـه نحن اسم **رأس القوس** ، جوفاء حتى ١٤ مم من طولها . وفى هذا الطرف نفسه ، فى الجهة المقابلة لتلك التى نشد اليها خصلة شعر الحصان ، نشق العصا بكل عمق الجزء الأجوف منها . وينتهى التجويف بمعب يتجاوز أو يبرز من هذا الجانب نفسه ، وعند الطرف الآخر . وفى المكان الذى ينبغى أن يوجد فيه عقب أو كعب أقواسنا من ناحية شعيرات معرفة الحصان ، توجد حلقة من الحديد على شـكل Ω يمر طرفاها المغروسان فى سمك العصا ، من جانب لآخر ، ويربطان وينثنيان الى الجانب الآخر ، وتربط خصلة الشعر عند طرفيها بخيط سميك ، ويدخل أحد هذين الطرفين فى الجزء المجوف من الرأس P أو فى الجانب الأعلى من القوس ، ثم يخرجونه من الثقب O ، الذى يعقد بالقرب منه هذا الطرف بقصد تثبيته عند هذا الموضع ، ويربط الطرف الآخر من الخصلة عن طريق عقده إلى الحلقه الحديدية الأولى d فى السير أو الحزام K ، ويمرر هـــذا

---

* صنف من الصنوبر .

السر مرتين فى الحلقة الأولى والثانية ، مع سد طرفيه بقوة بقصد جذب شعيرات معرفة الحصان ، ثم يعقد هذان الطرفان الى الحلقة الأخيرة التى تحجزها حلقة الحديد التى على شكل Ω . والتى روعى أن تدخل اليها هذه الحلقه قبل غرسها فى العصا ، ومن قبل أن ينثنى طرفاها .

الهوامش :

(١) انظر اللوحه BB . الشكل رقم ٦ .

المبحث الرابع
أبعاد الكمنجة العجوز وأطوال أجزائها

يصل الطول الاجمالى للكمنجة العجوز الى نحو ٩١٠ مم ، بدءا من قمة رأس البنجاك ، حتى قمة الزرار المخروط على هيئة هرم مقلوب ، والذى يشكل نهاية لقدم هذه الآلة ٠

ويبلغ عمق الصندوق ٧٤ مم ، ويبلغ **قطر** اتساعه ، مقيسا بشكل مواز للوجه – وان يكن الى أسفل بمقدار ٢٣ مم – نحو تسعين ملليمترا ، فى حين أننا لو قسناه من حافة لأخرى لفوهة نواة جوزة الهند ، فلن يتجاوز طول هذا القطر ٨٦ مم ، وهو ما يساوى طول قطر مشدة التناغم أو الوجه ٠

ويبلغ طول العنق أو العمود M ، بدءا من أسفل البنجاك فى S ، وحتى الجسم الرنان ٣٧٩ مم ، أما طول الملمس T الممتد من عند خافضة الوتر F حتى أسفل العنق b فيبلغ ٣١١ مم ، ويبلغ قطر سمكه بالقرب من خافضة الوتر نحو ٣٦ مم ، لكنه لا يبلغ بالقرب من الحافة b عند أسفل العنق سوى ثلاثين ملليمترا ، ويصل ارتفاع أسفل العنق ، من النقطة b الى ٦٨ مم ، منها تسعة عشر ملليمترا تشغلها قطعة من خشب الأكاجة هى التى تتاخم الملمس T ، أما الجزء الباقى من العنق فيشغل بقطعة من العاج تسبق الجسم الرنان مباشرة ، وفوق هذا الجزء من العنق كذلك من b الى

b تحك الأوتار بواسطة القوس ، وليس من فوق المشدة أو الوجه ، كما يحدث فى آلاتنا التى توقع عن طريق القوس ، وتلك خاصية أخرى تسترعى الانتباه فى آلاتنا هذه ٠

وحيث لا تضم قدم الآلة ، أى الساق أو القصبة الحديدية Q سوى ما هو ظاهر الى الخارج ، وليس الجزء المار فى داخل الجسم الرنان ، ولا الجزء المغروس فى القسم الاخير من أسفل العنق أو العمود ، فان الجزء المرئى من الساق لا يزيد طوله عن ٢٠٥ مم ، ومن السهل تقدير طول بقية هذه الساق، ما دمنا قد قدمنا أطوال الأجزاء التى تدخل — هى — فيها ٠

ويصــل ارتفاع البنجاك C الى ١١٩ مم ، ويصــل قطر ثخانته الى نحو ٤٥ مم ، ويبلغ علو رأس البنجاك ١١٦ مم ، كما يبلغ أكبر أقطار الجزء المحدب منه سبعة وأربعين ملليمترا ٠

وترتفع الفرس H لمقدار ١٥ مم ، ويصل اتساع تقديراتها ، كيما تستقبل الأوتار الى ٥ مم بعمق يبلغ نحو ثلاثة ملليمترات .

ولا تبدو لنا بقية أجزاء الآلة ذات طبيعة تخضع لقياس صارم ، وأعتقد أن علينا أن نعفى أنفسنا من عناء تقديم تفاصيلها الى القارىء ٠

المبحث الخامس
حول الائتــلاف النغمى للـكمنجة العجوز ، وحول حجم ومدى تنوع النغمات التى يمكننا الحصول عليها من هذه الآلة

يتعرف المرء فى الائتــلاف النغمى للـكمنجة العجوز ، كما يتعرف فى الائتلاف النغمى لغالبية الآلات الموسيقية الشرقية ، على المبدأ الهارمونى الذى ساد عند القدماء ، أولئك الذين كانوا ينظرون الى الرباعية باعتبارها أكمل التناغمات وأتمها بعد الثمانية ، وباعتبارها أنموذجا للنظام الموسيقى كله . والحد الطبيعى لتقاسيم هذا النظــام · ويقوم هذا المبدأ على أن النغمــات ، فى النظام الدياتونى الطبيعى(١) تعلن عن نفسها ، على الدوام ، متعاقبة ، رباعية فى اثر رباعية ، مع احتفاظها بالعلاقات أو النسب نفسها فيما بينها ، ولم يبد لهم الخماسية باعتبارها تناغما طبيعيا مماثلا ، لأنها لم تكن تصدر بشكل مباشر عما كانوا يطلقون عليه اسم **الهــارمونى** ، ولأنهم لم يكونوا ينظرون اليها الا باعتبارها مقلوبا للرباعية أو مكملة للثمانية أو ملحقة بها . كانت الخماسية عندهم تأتى مقلوبا للرباعية عندما ننزل من النغمة الغليظة من هذا التناغم الى ثمانية النغمة الحادة ، كما هو الحال عندما نهبط من الرباعيه النازلة فا fa ، أوت ut الى ثمانية الـ فا fa الأولى على هذا النحو : فا ، أوت ، فا ، وتكون (الخماسية) مكملة أو ملحقة بالثمانية حين نشــاء الانتقال من النغمة الحادة للرباعية الى الثمانية الحادة من النغمة الغليظة لهذه الرباعية نفسها ، كما هو الحال عندما نعلو من الرباعية الصاعدة : أوت ut . فا fa الى الثمانية الحادة للنغمة أوت ut والتى نترنم بها صعودا على هذا

لنحو : أوت ، فا ، أوت ، ولكن الأقدمين لم يكونوا يستخدمون الخماسية قط كى يؤلفوا . أو ينظموا ، أو يقسموا مدى أو مساحة نظامهم الموسيقى ، كما لم يستخدموها ، للسبب نفسه ، فى الائتلاف النغمى أو فى الجدول النغمى لآلاتهم الموسيقية .

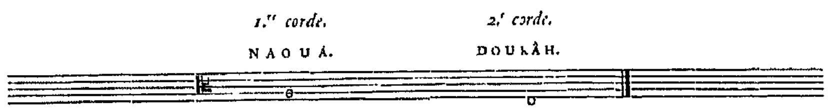
ولهذا السبب ، فان الآلات الموسيقية فى الشرق ، حيث لا تعرف المبادىء الجديدة للهارمونية ، والتى أفسح لها مجالا ، ذلك الاصلاح الذى قام به جى ارزو لنظامنا الموسيقى ، وحيث يجهل الناس جهلا مطبقا ابتكار الطباق* وكذا استخدام هارمونيتنا الحديثة هذه الآلات مدوزنة – لا تزال – فى الرباعية ، فى أغلب الأحيان ، بأكثر مما تكون مدورنه فى الخماسية فان وجدت خماسية فى السلم النغمى لهذه الآلات فانها لم تات الا بشكل غير مباشر ، على نحو ما شرحنا لتونا ، واذا حدث خلاف ذلك ، فلعل هذه الآلات – التى قد تقابل فى ائتلافها النغمى نغمة خماسية – تنتمى الى أوروبا الحديثة أكثر مما تنتمى الى آسيا أو أفريقيا ، وهو الأمر الذى يكشف عنه شكلها بسهولة ، والذى نستطيع الحكم عليه عن طريق مقارنتها بالآلات المرسومة هنا ، والتى يوجد من بينها ما سوف يتناقض بشكل صارخ مع تلك الآلات التى جمعناها فى اللوحة BB ، وهذه آلات شرقية بلا جدال .

وحيث أننا لا نجد فى الكمنجة العجوز شيئا أوروبيا على الاطلاق فلا بد أن يكون ائتلافها النغمى اذن شرقيا صرفا ، وأن يتكون هذا من الرباعية ، كما هو الحال فى الواقع ، وكما تيقنا منه ، ليس فقط عن طريق النقر على أوتاره **على الخالى** ، بل كذلك لأننا طلبنا الى الموسيقيين اسم النغمة

* الطباق ، لحن يضاف الى آخر على سبيل المصاحبة ، أو قطعة موسيقية تؤلف بهذه الطريقة . (المترجم)

التى لا بد أن ترددها هذه الأوتار ، ذلك أننا اذا افترضنا أن آذاننا قد تخدعنا ، أو أن تكون أذن الموسيقى العربى قد أساءت تقديم العون اليه عند ضبطه أو دوزنته لهذه الآلة . فلن يكون مرجحا البتة . أن يضاف الى هذه السلسلة الطويلة من الأخطاء ونوبات سوء الفهم ، خطأ جديد آخر حول اسم هذه الأوتار ، أو النغمات التى ينبغى لها أن ترددها ، ومع ذلك ، فقد سمعنا وقتئذ ، كما كنا نسمع دوما فى ذلك الوقت ، وطيلة ما يزيد على سنوات ثلاث أوتار الكمنجة العجوز تردد الرباعية ، ولم يكف الموسيقيون المصريون خلال هذا الوقت عن أن يرددوا على مسامعنا أن النغمة الغليظة تسمى **دوكاه** ، والحادة تسمى **نوى** ، وكل منهما تبتعد عن الأخرى ، فى النظام الموسيقى عند العرب ، بفاصلة مقدارها رباعية ، وهكذا تكون لمثل هذه الشهادات كل ضمانات الثقة ، كما لا يمكن ، بعد هذا الحشد للبراهين ، أن يكون هناك ، بالنسبة لنا ، شبهة من شك فيما يتصل بالائتلاف النغمى للكمنجة العجوز ، والذى نقدمه ، هنا ، فيما يلى :

الائتلاف النغمى للكمنجة العجوز



وليكن صحيحا أن أوتارا تتكون من ستين الى سبعين شعيرة من شعر معرفة الحصان لا تستطيع أن تردد نغمة موحدة ، عذبة ، ممتلئة على شاكلة النغمات التى يرددها وتر مأخوذ من معى الحيوان ، مبروم جيدا ، أو نغمة بالغة الوضوح كتلك التى تصدر عن وتر مصنوع من المعدن ، وهو أمر كنا جد مهيئين للاعتقاد فى صحته ، وليكن صحيحا كذلك أن بنية الكمنجة العجوز غير مهيأة كى تصدر نغمات نقية مليئة على غرار النغمات التى نشغف لسماعها من آلاتنا الموسيقية ، فان من المؤكد أن نغمات هذه

الآلة قد بدت وبها بعض شيء من عجف ، وبعض شيء كذلك من اضطراب وبعض شيء أنفيا أجشا ، حتى لقد ظننا في البداية أن اعتيادنا على سماعها دون نفور هو أمر يدخل فى عداد المستحيلات ، ومع ذلك ـ وهذا اعتراف من جانبنا ـ فقد وجدنا ، بأنفسنا ، وبمضى الوقت ، أن ما كان يصدمنا منها أكثر من غيره ، فى البداية قد غدا ، على وجه الدقة ، ما قد أوحى لنا بعظيم البهجة والنفع ، وما أخذ يبدو لنا الأكثر تعبيرا والأعظم تأثيرا . وحين فكرنا في هذا التغيير غير المنطقى الذى فعل فعله فينا ، ساعين لاستكناه سببه كيما نقدم عنه تفسيرا ، فسرعان ما اقتنعنا أن انطباعنا الأول كان يعود بالضرورة ، وربما كان هذا هو سبب الأسباب ، الى أفكارنا المسبقة ، أكثر مما كان يعود الى طبيعة هذه النغمات فى حد ذاتها ، كما اكتشفنا أن ما كان يشوب نقاءها ، فى سمعنا ، هو ما كان يقترب بنغماتها ، ولدرجة أكبر ، من الصوت البشرى ، وهو ـ أى الصوت البشرى ـ الذى يند كثيرا عن العيوب بل يندمج بها فى تعبيرات بعينها(٢) كما أنه يعانى على الدوام من انحرافات متفاوتة القدر بفعل فيض المشاعر التى يحملها أو يعبر عنها أو يجيش بها ، وبفعل التغييرات التى تعتوره ، عن ذلك ، أجزاء الأداة التى تحدثه ، لا سيما حين تكون هذه المشاعر بالغة التدفق . ومن هذه التجربة الأولية رأينا نتائج عديدة تتفرع ، جاءت الوقائع والتجارب لتطابقها أو تؤكدها أكثر فأكثر ، حين حطمت غالبية الأحكام المسبقة لتربيتنا أو ثقافتنا الموسيقية ، حكما وراء حكم .

ومن هنا جاءت هذه المبادىء التى ننظر نحن اليها كأمور ثوابت لا تحتمل المراء :

أولا : أن النغمات التى نعد الأكثر روعة ونقاء تفعل فعلها على أحاسيسنا عن طريق قوة وحيوية الهزة التى تحدثها على أليافنا العصبية ،

أكثر مما تحدث هذا الأثر على أرواحنا ٠

ثانيا : أن الأصـــوات (البشرية) التى تستحوذ على اعجابنا أكثر من غيرها بفعل نقائها وروعة جرسها ، نادرا ما تكون هى تلك التى تحرك المشاعر أو تمس شـــغاف القلوب أكثر من غيرها (أى بنفس درجة نقائها وروعة جرسها) ٠

ثالثا : كثيرا ما يستطيع ممثل هزلى بارع أو ممثل درامى رائع ، لا يملك صوتا يتملق اعجاب سامعيه ، لـكنه يعرف كيف يبث الانفعالات فى نغمات صوته ــ يستطيع مثل هذا الممثل أو ذاك أن يجعل المشاعر التى يعبر ــ هو ــ عنها ، تتوغل بقوة وفعالية حتى أعماق أرواحنا ومشاعرنا ، فى حين لا يقدر أفضل المغنين ، اذا ما اعتمد على مجرد نقاء صوته ومهارته أن يجعلنا نتبين الفكرة والخبرة اللتين يستهدى بهما صونه ، وفى الوقت الذى يشنف ــ هو ــ فيه آذاننا ويمتع أرواحنا بمثل هذا الكمال ، فان القلب منا يظل باردا ٠
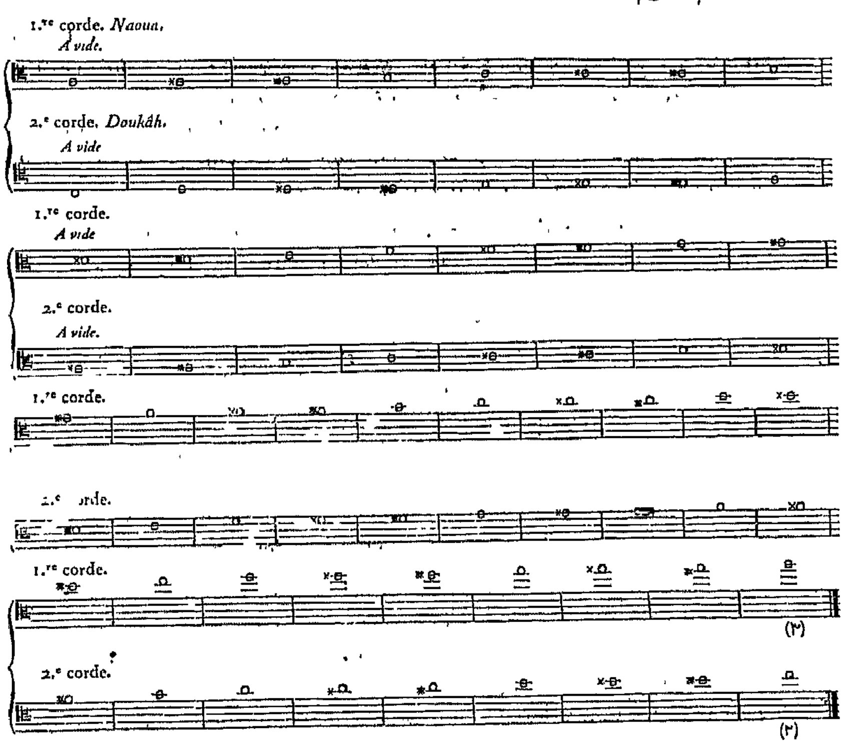
رابعا : وأخيرا فان من المستحيل أن تتقدم الموسيقى تقدما حقيقيا ، فى أى مكان لا تكون ــ هى ــ فيه خاضعة لأحكام القلب والعقل أو عندما تضحى بما لها من تعبير فى مقابل امتاع الأذن أو هدهدة الأذواق أو الجرى وراء عبث « الموضة » ونزواتها ٠

وهـكذا ، فاذا لم يسترع انتباهنا سوى ما يمكن أن يحصـــل عليه الموســيقيون المصريون من الـكمنجة العجوز ، فلسوف نجـد هذه الآلة ، بلا ريب ، شحيحة للغاية ، ومحدودة للغاية ٠٠ فهم لا يعزفون عليها سوى ألحان غنائية (أو مصاحبة للغناء) ، وهذه الألحان عندهم ، لا تتيح الفرصة لوجود مساحات نغمية بالغة الاتساع ولا تؤدى الى تنوع كبير فى النغمات،

ومع ذلك ، فحيث لا يوجد قط على ملمسها من عقدة تحدد عدد هذه النغمات أو تحد منها ، وحيث يستطيع المرء ، عكس ذلك ، أن يحصل على نغمات تعادل كل جزئيات امتداد الوتر ، طالما ظل هذا الوتر محتفظا أو قادرا على التردد ، فان مدى نغمات هذه الآلة يكون واسعا لحد يكفى لعدم احداث أى ضيق للحن (الميلودى) أو تضييق عليه ، ولعل النظام الموسيقى عند العرب ، وهو الذى يسمح بتنويع النغمات أكثر بكثير مما يسمح بذلك النظام الموسيقى عندنا ، أن يشكل ينابيع متجددة لينهل منها موسيقى بارع •

واليكم سلم النغمات التى أسمعنا اياها الموسيقيون المصريون ، الذين طلبنا ذلك اليهم ، ويردد كل وتر ، كما نرى ، مساحة من ثمانيتين ، وعن طريق تقسيم الفواصل ، طبقا لنظام الموسيقى العربية ، فان هاتين الثمانيتين تشتملان على خمس وثلاثين نغمة •

تنوع ومساحة النغمات
التى يمكن الحصول عليها من الكمنجة العجوز



الهــــوامش :

(١) نطلق اسم **النظام الدياتوني الطبيعي** على ذلك النظام الذى ينتج عن سلسلة من النغمات الطبيعية ، على غرار تلك التى تنتمى الى النظام الموسيقى عند الاغريق ، والتى كانت تنتهج هذا التسلسل الهارمونى : سى ، مى ، لا ، رى ، ســول ، أوت، ut ، فا ، وهى التى كونوا منهــا سباعيتهم الوتريه : سى ، أوت ، رى ، مى ، فا ، سول ، لا ٠

(٢) يأخذ الصوت (البشرى) فى غالبية الأحيان نغمه أنفيه عند التعبير عن العواطف السوداوية والحزينه ، وتكون له نغمة حادة أو قوية واضــحة عند التعبير عن الازدراء ، ولا ســـــيما عندما نصــدر عن نفور أو اشمئزاز طاغيين ، ويكون لها هذا الطابع نفسه ، كذلك ، حين تعبر عن النقمة أو السخط ، وكذلك حين تعبر عن الرغبــة التى تحتــدم فى صمت وكتمان ، وأن يكن ذلك على نحو أقل ، ثم تتصف بهذه الصفة نفسها ، ولكن على نحو أدنى مما سبق ، عندما تعبر عن الاحتقار ـ وكذلك عندما نعبر ، فى بعض الأحيان عن الأسى ، والألم والنشيج ، لا سيما حين يكون الأمر ناتجا عن مظلمة ، أو عن قسوة يشعر المرء ازاءها بالموجدة ، لكنه لا يجرؤ على الثورة عليها ، كما يتخذ الصوت البشرى هذه النبرة نفسها فى حالات أخرى كثيرة ٠

(٣) هذه النغمات الأخيرة ، هى التى نحصل عليها من عند أسفل العصا أو العمود ، وهو الجزء المصنوع من خشب الآكاجة ، والذى يقع مباشرة فوق القطعة المصنوعة من العاج ٠

الفصل الحادي عشر

عن الكلمنجة الفرخ أو الكلمنجة الصغيرة (١)

المبحث الأول

لن يكون من العسير علينا أن نوجز عند وصفنا للكمنجة إلفرخ ، اذ إن هذه الآلة الموسيقية تنتمى الى النوع نفسه الذى تنتسب اليه الكمنجة العجوز ، كما أنها لا تختلف عنها بصفة أساسية الا فى ائتلافها النغمى (أى فى الطريقة التى دوزنت بها أوتارها) ، ذلك الذى يتأسس على نغمة خماسية أحد ، وكذلك فى نسب أبعاد صندوق الجسم الرنان،اذ تقل هنا عما عليه الحال هناك بمقدار النصف ، ولعل هذا هو ما أدى الى اطلاق اسم الكمنجة الفرخ ، وهى تسمية تعنى قطعة أو جزء من الكمنجة ، وقد جعلنا نحن منها الكمنجة النصف .أو الكمنجة الصغيرة · ويمكن القول بايجاز ، أن هذه الآلة الصغيرة قد بنيت بالطريقة نفسها التى قامت على أساسها الكمنجه السابقة أما أسماء أو عدد أجزائها فهى ذاتها هنا وهناك ، وتحتفظ أبعاد هذه بالنسب نفسها القائمة بين أبعاد تلك ، وفيما عدا جسم الآلة ، فان أطوال الأجراء فى هذه الآلة قد جاءت مماثلة لأطوال الأجزاء المناظرة فى الآلة السابقة ·

وسنستخدم هنا نفس حروف الدلالة التى استخدمناها فى الفصل السابق ، للاشارة الى الأشياء نفسها ، حتى تتمكن العين ، وقد تعودت عليها من قبل ، أن تهتدى اليها بسهولة ·

الهـــوامش :

(١) كمنجة فرخ أو كمانجة صغيرة أى السكمان النصف أو السكمان الصغير ، انظر اللوحة BB ، الشكل ٨ ·

المبحث الثانى

عن الشكل والخامات والحليات والأطوال الخاصة بالكمنجة الفرخ ، وحول أجزائها كذلك

يكاد يكون شكل الكمنجة الفرخ مماثلا لشكل الكمنجة العجوز ، أما الخامة التى تستخدم فى بنيتها فعبارة عن قسم من نواة احدى ثمار جوزة الهند ، وجلد سمكة بياض ، وأجزاء من خشب الأبنوس ، وخشب الأكاجه وخشب شجرة الموت* وخشب القيقب كذلك ، ثم من العاج والحديد وشعيرات معرفة الحصان والجلد وأوتار من معى الحيوان وخيوط دوبارة ٠٠ وهكذا دخل فى تركيب هذه الآلة الصغيرة ، كما رأينا ، خامات أخذت من ممالك الطبيعة الثلاث(١) على نحو ما حدث فى حالة الكمنجة العجوز ٠

أما الحليات التى تتزين بها الكمنجه الفرخ فأبسط كثيرا من تلك التى وجدناها فى الكمنجة العجوز ، فهذه - هنا - ليست الا من العاج ، وقد طعمت أو أدمجت أو ثبتت بالخشب عن طريق مسامير صغيرة من النحاس ٠

ويبلغ الطول الاجمالى لهذه الآلة الموسيقية ٨٦٤ مم ، ويتكون الجسم الرنان A من الأجزاء نفسها التى تضمها أو يتكون منها الجسم الرنان فى الكمنجة العجوز ، كما أنها قد صنعت من الخامات نفسها فى الآلتين الموسيقيتين ٠ واصندوق آلتنا هذه(٢) شكل مخروط بيضاوى مجدوع عند قمته ، وهو مأخوذ من نصف نواة احدى ثمار جوز الهند ، وقد أفرغت تماما من داخلها على غرار النواة التى صنعت منها (من قبل) الكمنجة العجوز ، ولكن مع

---

* شجرة تطرح ثمارا كالتفاح وتفرز نسغا ساما ٠ (المترجم) ٠

انتزاع قاعها ، الذى كان بمقدوره أن يشكل قمة المخروط ، مما يجعل هـذا الجزء مفتوحا فتحه كبيرة مستوية ، وهناك ، بالاضافة الى ذلك ، ثقوب صغيرة ثقبت بشكل مستو فوق سطحها ، وهذه موزعة بشكل منتظم على الوجهين فقط ، ويوجد بالقرب من القاعدة ثقبان أكبر إتساعا من الثقوب الاخرى ، ويصل عمق الصـندوق الى ٤٤ مم ، ويشـكل الوجـه أو المشـدة سـطحا بيضاويا(٣) يزيد قطره الأكبر عن ٦٨ مم ، فى حين لا يتجاوز قطره الأصغر الـ ٥٤ ملليمترا ، وهذه الاطوال هى - كذلك - الأطوال نفسها التى لفتحة نواة جوزة الهند التى يشد فوقها جلد البياض ، المشـكل للوجـه أو لمشد التناغم .

أما العنق M فساق أو قصـبة مستديرة تمضى مستدقة بشـكل ملحوظ بدءا من البنجاك C حتى الجسم الرنان A ، ونجدها نحن مقسومة الى جزئين : الملمس T وأسفل العنق bb ، فأما الملمس فمن خشب شجرة الموت ، ويزدان فى كل امتداده بثمانى شبكات صغيرة من العـاج ترتفع بشكل حلزونى : أربع منها فى اتجـاه ، والأربع الأخريات فى الاتجـاه المقابل ، وتصطف هذه الشبكات بشكل تبادلى ، وتبتعـد كل منها عن الأخرى بمسافات متساوية ، بطريقـة تجعل الشـبكات التى تمضى فى اتجاه ، تقطع-بما يشبه زاوية مستقيمة-الشبكات الأخرى التى تتخذ الاتجاه المضاد ، مما يكون أشباه معين ، توجد فى وسطها لوحة صغيرة من العـاج تشكل زهرة على هيئة صليب . ويبلغ امتداد العنق ، طولا ، ابتـداء من الملمس T نحو ٢٤٠ مم ، ويصل قطر سمكه عند خافضة الأوتار F الى ٣٣ مم ، أما عند الاقتراب من قمة أسـفل العنق b فلا يزيد القطر عن ٢٨ مم . ويصنع أسفل العنق bb من قطعـة وحيدة من خشب الأكاجـة المصمت ، والعارى من أى زخرف ، ويصل طوله الى ١٠٢ مم . ويبلغ قطر

الطرف التالى مباشرة الملمس T نحو ٢٧ مم ، أما قطر سمك الطرف المقابل ، أى الطرف الملامس للجسم الرنان فيقترب من ٢٣ مم .

وتماثل القدم Q قدم الكمنجة العجوز ، وهى تنغرس فى أسفل العنق b ، وتمر من داخل نواة جوزة الهند المكونة لصندوق الآلة . وتنوغل العارضة من الطرفين ، الى ما وراء الصندوق بامتداد يصل الى ٢٦٤ مم ، وتنتهى بزرار مخروطى صغير ، وعلى مسافة أربعة عشر ملليمترا أسفل صندوق الآلة تتسطح هذه القدم ، على نحو ما تصنع قدم الكمنجة العجوز ، ومثلها كذلك تتسع مكونة قطعا ناقصا ، يبلغ طول قطره الأكبر ، الذى يتخذ نفس اتجاه الساق أو القصبة الحديدية نفسها ، خمسة وعشرين ملليمترا ، فى حين يبلغ قطره الأصغر أربعة عشر ، ووسط هذا القطع الناقص ، أحدث ثقب مرر من خلاله ، والى الخلف ، مسمار حتى رأسه ، ثم ثنى الجزء الذى يبرز من الأمام (ذيل المسمار !) بطريقة تجعل منه محجنا كبيرا ، يفى بالغرض نفسه الذى يفى به نظيره فى الكمنجة العجوز .

أما البنجاك C فمصنوع من قطعة واحدة من خشب الأبنوس ، ويختلف جسمه قليلا فى شكله ، عن بنجاك الكمنجة العجوز ، وان يكن عاريا تماما من أى زخرف ، وليست للرأس هنا هيئة البردق التى يتخذها الرأس فى الكمنجة السابقة ، لكنها تمثل اناء آخر ، مصريا كذلك ، يطلقون عليه فى العربية اسم **قلة** يعلوها غطاؤها ، ويتمثل الاختلاف بين الإناءين فى أن رقبة الأول تمضى متسعة لتتخذ شكل القمع ، فى حين تكاد تكون رقبة الآخر اسطوانية الشكل ، ولها القطر نفسه فى كل طولها .

وأما الأوتاد I_1 فقد صنعت بشكل أكثر تأنقا عما جاءت عليه أوتاد الكمنجة العجوز ، ورأس الأوتاد هنا من العاج ، وتتخذ شكل قرص يأخذ الجانب المسطح منه اتجاها عموديا موازيا للبنجاك ، وقد خرط هذا القرص

بواسطة المخرطة ، وتوجد فوق سطحه ، وكذلك على سمكه ، نتوءات زينه زخرفية دائرية الشكل ، وتدور الدوائر التى يزدان بها السطح حول مركز واحد، أما تلك التى توجـد فوق السمك فمتوازية . وعند مركز هـــذا القرص ، يرى الزرار الذى يشكل نهاية الذيل ، من هذه الناحية ، بارزا الى الخارج ، فى حين يتوغل هذا الذيل نفسه فى الناحية المقابلة . وهو مصنوع من خشب القيقب ، وقد سويت إستدارته بالمخرطة ، ويجتاز سمك البنجاك من طرف لآخر ، ونتيجة لذلك ، فانه يمر بالفجوة العميقة والمستطيلة التى أحدثت بالبنجاك من الأمام ، كما هو الحال فى الكمنجة العجوز ، كى تدخل فيها الأوتار ويتم ربطها الى الأوتاد . لكن القوس(٤) ، وكذا بقية ما يتصل بهذه الآلة يظل ، بشكل مطلق ، نفس ما نجده فى الآلة السابقة

الهـــوامش :

(١) اذ يقتنع الصينيون بأن لكل واحدة من ممالك الطبيعة ميزتهـــا الخاصة ، وأن لكل واحد من الحيوانات المختلفة والنباتات المتفرقة ، والمعادن المتباينة خصوصية معينة ، فانهم لا يشاءون ، عند تركيبهم لآلاتهم الموسيقية أن يخلطوا ، دون تمييز كل صنوف الخـامات ، اذ ينبغى ، فى رأيهم ، أن تصنع الآلة بخامات اما من المملكة الحيوانية أو من النبـــاتية أو من مملكة المعادن ، أما حين يسمحون بالخلط بين خامات تنتمى الى كل هـــذه الممالك المتباينة ، فانهم يولون أهميـــة كبرى للانتقاء ، الذى يخضعونه لقواعـد صارمة ، حددوها هم ، طبقا للخواص التى ينسبونها الى الأجسام .

(٢) أنظر اللوحة BB ، الشكلين ٨ ، ٩ .

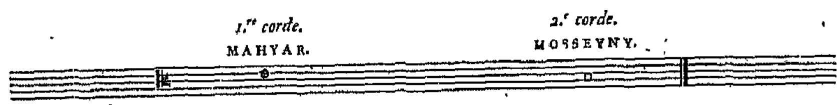
(٣) أنظر الشكل ٨ .

(٤) أنظر اللوحة BB ، الشكل ١٠ .

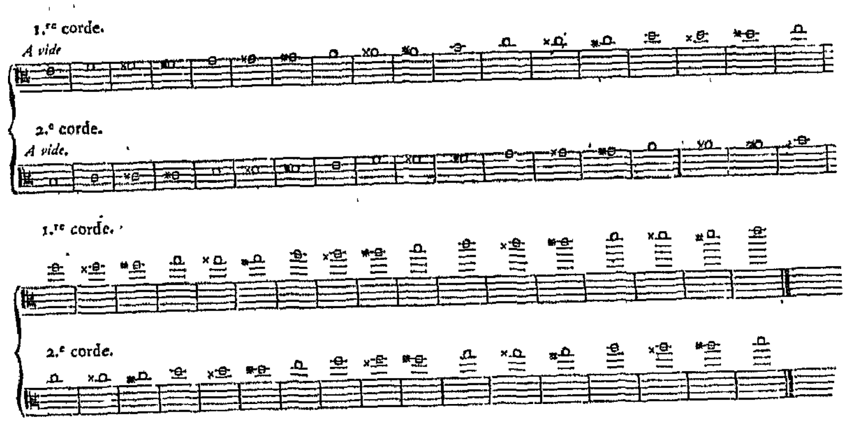
المبحث الثالث
عن الائتلاف النغمى ، وعن مساحة
وخاصية الكمنجة الفرخ

سبق لنا أن لاحظنا ، فى المبحث الأول ، أن الائتلاف النغمى لهـــذه الآلة الموســـيقية ، لا يكاد يختلف فى شىء عن الائتــلاف النغمى للكمنجة العجوز ، الا فى أنه أكثر حدة بمقدار خماسية واحـــدة ، ولابد أن يدرك القـــارىء من ذلك ، أننـــا كنا نقصد أن يفهم ، ضـــمنا ، أن ائتلافهـــا النغمى يتشكل على أساس الفاصلة الرباعية ، وانه مقتبس عن المبـــادىء نفسها التى تأسس عليها الائتلاف النغمى فى الكمنجة الأولى ، ويمكن كل ما سبق لنا قوله ، عند حديثنا عن الآلة الأولى ، أن ينطبق اذن على الثانية ـ أى أن مساحة النغمات ، وترتيبها ، مع مراعاة النسب ، لا تتغير هنا .

الائتلاف النغمى للكمنجة الفرخ



مساحة النغمات وتنوعها



وعلى الرغم من أن نغمات هذه الآلة من نوعية مماثلة لنوعية نغمات الكمنجة العجوز ، فقد وجدنا فيها – مع ذلك – بعض شيء من اكتئاب . وبدون أن يكون هذا الاكتئاب منفرا ، فانها على العكس من ذلك تمس المشاعر ، وينتهى بها الأمر بأن يستغرق سامعها فى نوع من الأحلام اذا ما أطال الانصات اليها ؛ ولعل تأثير أنغام هذه الآلة قد أسهم بعض الشىء فى التقليل من النفور الذى اعترانا عند سماع أنغام الكمنجة العجوز، وأعدنا للاستماع اليها ، مع أقل قدر ممكن من التحيز ضدها ، أو الحكم المسبق عليها .

الفصل الثاني عشر

عن الرباب

المبحث الأول

حول اسم ونوع ووظيفة هذه الآلة

يتعرف المرء ، دون عناء ، اذا تمعن شكل الرباب ، على الخامة التى صنعت منها ، وطابع وأسلوب شكلها ككل ، كما سيدرك أنها تشترك ، ولابد ، فى أصل واحد ، مع الآلتين السابقتين ٠

واذا كان لابورد Laborde ، فى دراسنه عن الموسيقى ، المجلد الأول ، ص ٣٨٠ ، قد أبدى رأيا مخالفا لما نقول ، فالسبب فى ذلك أنه لم يكن يعرف الآلات الموسيفية التى تحدث عنها الا عن طريق روايات بالغة الخطل ، أو لأنه قد أورد ما كتب بناء على شهادة أناس لم تكن لديهم - وهذا مرجح للغاية - المعارف التى لابد منها ، كى يحكموا جيدا على ما يتصل بفن الموسيقى ، كما أنه ، هو نفسه ، لا ينجو من اللوم ، لأنه لم يسع حنينا للتأكد من صدق الروايات التى كانت تنقل اليه ، كلما كان ذلك فى مقدوره ، اذ لا يمكن التماس أى عذر له حين يقول ، ربما نقلا عن قولة واحد من الناس ، ان كلمة رباب repab كلمة اغريقية الأصل ، وأن كلمة سمندج Semendje كلمة عربية ، برغم أنه كان ميسورا عليه للغاية أن يتفادى هذا الخطأ ، بفتح أول معجم يصادفه ، أو أن يلجأ الى مشورة المستشرقين فى العاصمة ٠

يقول لابورد : « ان الرباب repab باليونانية القديمة ، أو السمندج Semendje بالعربية ، هى آلة موسيقية تعزف باستخدام القوس ، وليس لها سوى وترين،أحدهما مدوزن بزيادة ثلاثية كبيرة عن الآخر ، أما ساقها فمن الحديد ، وتمر من جانب لآخر من جانبى العنق ،

ويؤخذ جسمها عادة من نواة ثمرة جوز الهند ، وأما الوجه أو مشدة التناغم ، فجلد مشدود على غرار جلد الدفوف ، وهى الآلة الموسيقية المفضلة من جانب العازفين الجائلين والبحارة والبهلوانات الشرقيين ، وهم يمسكون بها (عند العزف) كما لو كانت آلة كمان » .

ولابد أن الوصف الذى قدمناه عن الكمنجة ، فى الفصل السابق ، سيجعلنا نتبين بجلاء أن لابورد قد خلط بين الرباب والكمنجة(١) ، ذلك أن هناك فرقا هائلا بين هذه وتلك ، فالجسم الرنان للربابة مسطح ، رباعى الشكل على هيئة شبه المعين ، فى حين يأتى جسم الكمان على شكل نصف كرة .

أما الرباب ، ولا يمكن أحد أن يرتاب فى ذلك ، فهى الآلة نفسها التى وصفها لابورد تحت اسم مربى merabba ، فى المجلد الأول من دراسته عن الموسيقى ص ٣٨١ رقم ٦ ، والتى جاء رسمها فى المؤلف نفسه ص ٣٨٠ ، يقول لابورد : « انها آلة تعزف بالقوس ، وتسمى مربى ، وتكاد تنتمى الى نوع الرباب repab على الرغم من أن لها شكلا مختلفا ، ومع ذلك فليس لها فى بعض الأحيان سوى وتر واحد ، وقلما يزيد سمكها عن البوصتين ، ويغطى جسمها ، من فوق ومن تحت بجلد مشدود ، ولهـا شمسة أو مسمع بالقرب من العنق ، ويعزف الموسيقى عليها كما لو كان يعزف على آلة كمان أو آلة دف أوكوس ، ضاربا على الوتر فى بعض الأحيان بظهر القوس » .

وينبئنا هـذا الوصف الصحيح ، ولكن من الجانب السالب ، عن خاصية لم تتح الفرصة لنا لملاحظتها ، فقد يحدث أحيانا أن ينقر بعض العازفين المتجولين وتر الربابة بظهر القوس ، على نحو ما يضرب العازفون الجائلون فى فرنسا مشدة كماناتهم ، وان كنا نشك أن هذه الحركة تعد جزءا

من فن العزف على هذه الآلة ، كما أننا لا نستطيع ، فى الوقت نفسه ، أن نقنع أنفسنا بأن الناس يعزفون على الرباب ، فى أى بلد من البلدان ، على نحو ما نعزف نحن على آلة الكمان . فالقصبة الحديدية الطويلة التى تنتهى بها هذه الآلة تجعل الامساك بها على هذا النحو أمرا مربكا ، وهكذا يكون لابورد مغرقا فى الخطأ حول هـــذه النقطة ، فقد رأينا الرباب على الدوام تمسك على نحو ما نمسك نحن بآلة الكمان الجهير basse de viole ، مـع مراعاة الامساك بها عن طريق طرف ذيلها الحديدى .

وهناك من **الرباب** نوعان ، يتمثل الفرق الوحيد بينهما فى أن الرباب من النوع الأول مزود بوترين ، أما تلك التى تنتمى الى النوع التانى فمزودة بوتر وحيد .

فأما الرباب المزودة بوتر واحـــد فتسمى **رباب الشـــاعر** أى التى يستخدمها الشاعر ، اذ يستصحب الشعراء والرواة هذه الآلة عند انشادهم الروايات المغناة ، والمنظومة شعرا(٢) .

وأما الرباب المزودة بوترين فتسمى **رباب المغنى** .

ويبدو أن استخدام هـــذه الآلة يقتصر كلية على مصاحبة الصـــوت البشرى سواء فى الغناء (العادى) أو فى انشـــاد الرواية الشعرية ، وهم يستخدمونها فى مصر ، على نحو مقارب لمـا كانت القيثارة تستخدم عليـه فى الزمن القديم ، وعـــلى غرار ما كان الاغريق يســـتخدمون تلك الآلة الموسيقية التى كانوا يطلقون عليها اسم **الفوناسكوس** أو **التوناريون** (أى المنغمة)(٣) Tonarion و Phonas-cos ولم نر قط هذه الآلة وقد صاحبتها آلات أخرى ، أو صحبت هى آلات موسيقية من نوع تلك التى يستخدمونها فى العزف الجماعى فى مصر ، أو فى موسيقات الاحتفـــالات الرسمية ، أو مناسبات المسرات العامة .

الهـــوامش :

(١) انظر دراستنا عن الوضـــع الراهن لفن الموســـيقي فى مصر ، ص ٧٢٢ الهامش رقم (٢) [المجلد الثامن من الترجمة العربية] ٠

(٢) المرجع السابق ، الفصل الثانى ، المبحث السادس عشر ٠

(٣) المرجع السابق ، المبحث نفسه ، حيث قدمنا أمثلة حول وظيفة هذه الآلة ٠

المبحث الثانى
شكل وخامة وتركيب وأطوال الرباب وأجزائها

تختلف الرباب بشكل رئيسى عن كل من الكمنجة العجوز والكمنجة الفرخ ، كما نوهنا من قبل ، فى شكل جسمها الرنان(١) A ، فهو هنا على شكل معين ، قمته موازية لقاعدته ، وضلعاه متساويان أو هما قريبان من ذلك ·

وللعنق M شكل اسطوانى ويشكل مع البنجاك قطعة واحدة ، ويبدأ البنجاك C هناك ، من حيث يوجد اختناق صغير يوجـد فى وسطه نتوء زينـة n ، ثم يستطيل حتى أعلى، ويبدأ ملمس العنق T من عند خافضة الوتر F' حتى صندوق الجسم الرنان أى من T الى T ، والجسم الرنان للبنجاك مجوف ، على غرار الجسم الرنان فى الكمنجات السـابقة على هيئة نجوة طويلة وعميقة ، من شأنها أن تتلقى الأوتار ، التى تربط بالمثل الى ذيل الأوتاد ، ولرأس البنجاك كذلك شـكل اناء يعلوه غطاؤه ، وان تكن رقبته أوسع من رقبـة الآنية المصرية المسـماة بالقلة ، أما الوتدان فلم يصنعا ، كلاهما ، على نمط واحد ، فى الآلة التى كانت فى حوزتنا ، ممـا يجعلنا نحدس أن واحدا منهما قد جاء فى موضع آخر مفقود ، ولواحد منهما رأس كروية الشكل (سادة ــ أى بدون نقوش أو حزات) فى حين تنقسم رأس الآخر الكروية الشكل بفعل نتوءات زينة ، دائرية ، الى أجزاء كثيرة ، ومع ذلك فهناك محل للاعتقاد بأن شكل أوتاد هذه الآلة يختلف عن شكل أوتاد الآلات الشرقيـة الأخرى ، ذلك أننا لم نلق آلة موسيقية ، رءوس

أونادها كروية الشكل ، سوى هذه ٠

أما قدم الرباب Q فساق أو قصبة رباعية الأضلع ، مصنوعة من الحديد ، يوجد فوقها ، بين مسافة وأخرى ، وفوق كل واحدة من زواياها فجوات مربعة الشكل ، ولأكبر الأجزاء الوسيطة بين هذه الفجوات ، وعلى وجوهه الأربعة ، ثقب مستطيل ، متقوب بشكل ستو ، أما الأجزاء الأخرى ، فتنقسم من كافة جوانبها بفعل ثلمات جوفاء ، تشكل فيما بينها ، فى بعض الأحيان ، شبكات صغيرة ، وتشكل فى أحيان أخرى ، شرائط مسطحة ٠

وللفرس الشكل نفسه الذى نجده فى فرس الكمنجات السابقة ، ومع ذلك فحيث لم يكن لربابتنا سوى وتر وحيد ، فلم يكن لهذه الفرس سوى فجوة واسعة تتناسب مع عرض الوتر ٠

ويصنع القوس على النحو الذى جاء عليه قوس الكمنجة العجوز ٠

ولا تصنع من الخشب من الجسم الرنان سوى الوصلات ، ويبلغ عدد هذه أربعا ، تندمج أو تتداخل فى بعضها البعض على نحو ما نفعل التروس ، أما الجزء العلوى أو الوجه ، وكذلك الجزء السفلى ، فيتشكل كل منهما من ورقة من جلد الغزال ، مشدودة وملصقة فوق الوصلات الأربع ، ووصلتا قمة وقاعدة الجسم الرنان قد صنعتا كما يبدو من خشب السرو القادم من القسطنطينية ، أما وصلتا الجانبين فمن خشب القيقب ٠

ويصنع العنق والبنجاك من خشب الغبيراء* ، أما رءوس الأوتاد فمن خشب الورد ، وأما الذيل فمن خشب البقس** ٠

---

* شجر ينمو فى الأحراش ، يستخدم خشبه فى صنع الأثاث. (المترجم)

** شجر زينة يزرع لتحديد تخوم الحدائق. (المترجم)

وتؤخذ الأوتار وخافضة الوتر والقدم - فى آلتنا هذه - من الخامات نفسها التى نصنع منها نظيرانها فى الكمنجتين السابقتين ، أى من الحديد . فى حين تكون الفرس من الخشب الأبيض .

ويبلغ الطول الاجمالى للرباب نحو ٩٢١ مم ، ويبلغ سمك الجسم الرنان ، أو عرض الوصلات ، وهما شىء واحد ، نحو ٥٩ مم ، ويبلغ اتساع الوجه أو مشدة التناغم ، وكذلك عرض أسفل الجسم الرنان ، نحو ١٥٩ مم عند القمة و ٢٦٠ مم عند القاعدة ، ويبلغ طول الوصلات الموافقة لهذا وذاك من الطولين السابقين الامتداد نفسه بالتبادل ، ويصل طول الجزء المائل من ناحية اليمين ٢٨٨ مم ، أما الجانب المائل من اليسار فيبلغ طوله ٢٩٠ مم ، أما الوصلات التى توافق هذه الجوانب ، فلها ، بالتبادل أيضا ، الأبعاد نفسها طولا .

وبدءا من أسفل العنق ، قريبا من الجسم الرنان ، وحتى قمة البنجاك، يبلغ الامتداد الى ما يقرب من ٤٠٦ مم ، فى حين يكون طول العنق وحده ، بدءا من الجسم الرنان وحتى الاختناق الذى يسبق البنجاك نحو ٢١٧ مم . وينقسم كل هذا الامتداد الطولى ، من مسافة لأخرى مرة بواحدة ، وأخرى باثنتين ، وثالثة بثلاثة تقوب دائرية تستخدم فى تحديد ملمس الأنغام .

ويبلغ طول خافضة الوتر الى ٥٤ مم بدءا من الاختناق الذى يرى بين العنق والبنجاك .

ويمتد طول قصبة أو ساق القدم الحديدية للآلة الى ما وراء الجسم حتى يبلغ ١٧٤ مم .

أما بقية الأجزاء والأطوال الأخرى للرباب فلا تستحق عناء الاشارة اليها ، أو أنها تماثل نظيراتها فى آلات الكمان المصرية .

الهـوامش :

(١) انظر اللوحة BB الشكل رقم ١١ .

المبحث الثالث
حول الائتلاف النغمى للرباب
وحول مساحة أو مدى نغماته
الغرض المبدئى من هذه الآلة الموسيقية

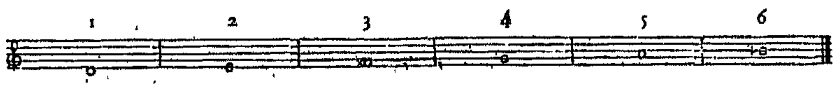
كانت المذكـــرات التى دوناهـــا عن آلة الرباب ذات الوترين ضمن مجموعة المذكرات التى فقدناها ، ولسنا نتذكر ما هو الائتلاف النغمى لهذه الآلة الموسيقية ، وقد يكون هو الائتلاف نفســـه الذى يتحدث عنه لابورد حينما خلط ما بين الرباب والكمنجة ، والذى كانت نغماته مدوزنة ، طبقا لـما يذكر ، على الثلاثية الكبيرة بين هذا الوتر وذاك ، لكن هذا ، فيما يبدو لنا ، مناقض لمبادىء الموسيقى العربية التى لا تتقبل الثـــلاثية قط ضمن التناغمات التى ينبغى أن يشتمل عليها أى ائتلاف نغمى ، اذ تقـوم — أى هذه المبادىء على الأسس التى كانت تنهض عليهـا الموسيقى الاغريقية • ولسوف يكون بالمل ، بعيدا عن المعقول أن نفترض بأن الموسيقيين العرب قد اختاروا عمدا ، وعلى وجه الدقة ، نغمتين لا يتوافقان معا قط ، فى نظامهم الموسيقى ، كى يشكلوا منهما الائتلاف النغمى لواحدة من آلانهم الموسيقية ، لا سيما حين يكون دورها مقصورا على مصاحبة الصوت البشرى عند الغنا أو عند انشاد الروايات الشعرية •

وتكاد تكون آلة الرباب وحيدة الوتر ، التى حملناها معنا من مصر ، والتى رسمت وحفرت فى اللوحة BB، الشـــكل ٢ ، والتى نراها تحت ناظرنا الآن ، على حالتها المبدئية ، وهذا احتمال ، ذلك أن القصد المنشود من هذه الآلة لا يتطلب منها أن تكون أشد من ذلك تعقيـدا ، وهى مدوزنة

فى مقام أو نغم رى Ré من غليظ التينور أو من وسط نغمة الغليظ (وهو الوتر الثانى فى الآلات الوترية) . وتوافق هـــذه النغمـــة ، فى النظـــام الموسيقى عند العرب مقام الرست ، وهو أساس هذا النظام ، كمـــا توافق هذه النغمة أشد النغمات غلظة فى المقام الدورى عند الاغريق ، أول وأقدم كافة مقامات الموسيقى الاغريقية ، والمقام الأساسى لكل المقامات الأخرى . وقد كان ينظر الى هذه النغمة عند اللاتين ، وعندنا نحن كذلك حتى وقت الاصـــلاح الذى قام به جى أرزو ، باعتبارها نغمة القرار للمقام الدورى كما لا نزال نحن ، بدورنا ، نعتبرها كذلك فى ترتيلاتنا الكنسية ، التى تعد موسيقانا الأولى .

أما مساحة النغمات التى يستطيع المرء أن يحصل عليهـــا من الرباب عند العزف عليها عند نقطة الملمس وحده ، فهى السداسية الصغيرة ، أو لعل القوم قد اكتفوا على الدوام بمدى خماسية أو أنهم ، على الاقل ، قـــد التزموا بذلك ، وهذه النغمات ، وقد سبق لنا قول ذلك ، قد تم تحديدها والاشارة اليها فوق ملمس العنق عن طريق الثقوب الدائرية الشـــكل ، وتتوافق نغمة الافتتاح (à vide) مع النغمة رى Ré ، فاذا وضـــعنا الاصبع فوق منتصف الفاصلة الثانية نحصل على النغمة مى mi ، واذا وضعناه فوق منتصف الفاصلة التـــالثة حصلنا على النغمة فا × ، واذا وضعناه فوق الفاصلة الرابعة يردد الوتر النغمة سول sol ، أما اذا وضع الاصبع فوق الفاصلة الخامسة فسنستمع الى النغمة لا la ، وأخيرا فاذا وضع الاصبع الى ما وراء الثقوب الدائرية الأخيرة ، فستكون النغمـــة التى نحصل عليها هى النغمة سى ♭ ، وقد أشرنا بالأرقام(١) الى كل واحدة من النغمات التى تكونها هذه الخطوط المستديرة بالاسم الذى حددناه ، والتى نحصل عليها اذا ما وضـــعنا الاصبع عند هـــذه الخانة أو تلك : فالرقم ١

يقابل خانة النغمة رى Ré ، والرقم 2 يقابل خانة النغمــة مى mi والرقم 3 يقابل خانة فا × و 4 يقابل النغمة سول Sol و 5 يوافق لا la أما رقم 6 فيوافق النغمة سى ♭ .



ومع ذلك ، فحيث يقتصر دور هذه الآلة على مصاحبة صوت الشعراء والرواة والرابسود* عند الانشاد الشعرى ، فان الفاصلة السداسية ليست ضرورية فى هذا النوع من الانشـــاد الشعرى أو الرواية الشعرية ، ومن المعروف ان الأقدمين كانت لديهم فواعد تصف وتحدد مدى ومساحة النغمات التى لابد أن يمر بها الصوت البشرى عند الانشاد الخطابى(٢) وكذلك عند انشاد الملاحم الشعرية(٣) . وأول وأهم هـــذه القواعد ، طبقا لما يذكره دينيس داليكارناس هى أنه لا ينبغى للصوت البشرى أن يعلو فوق الخماسية ولا أن ينخفض الى ما دونها ، اذ يقول : « ان ميلودى الخطابة ينحصر عادة فى فاصلة واحــدة تسمى **ديابنته** أى **خماسية** ، بمعنى انه لا يحــق له أن يعلو الى ماوراء ثلاثة مقامات ونصف المقــام باتجاه الحاد ، ولا ينبغى له أن ينخفض الى مادون هذه الفاصلة »(٤) . وهكذا ، وكما سبق أن لاحظنا أكثر من مرة ، فحيث أننا لا نزال نتعرف على آثار بعينها لكثير من الممارســـات القديمة التى ظلت سارية هناك حتى اليوم بفعل لامبالاة المصريين ، وبفعل تعلقهم العنيد بعاداتهم القديمة ، وكذلك بفعل ابتعادهم الشديد ونفورهم من كل ضرب من ضروب التجديد ، وحيث أن ثبات المصريين الذى لايتزعزع لم تضعفه قط كافة المســاوىء التى تسربت اليهم ، بحيث يبدو ثباتهم هذا شبيها بسد صمد لكافة الضغوط العنيفه والمندفعة التى يقوم بها سيل بلغ حد

* راوية محترف للقصـــائد الملحمية قديمــا ، أما الرابســودى أو الرابسودة فهى القصيدة الملحمية التى كان يتم انشادها (المترجم) .

الفيض ، فقد أمكنهم أن يحتفظوا وأن يبقوا على العدد الكبير من عاداتهم فى منأى عن كل التغييرات ، وبالرغم منها ، تلك التغييرات التى أدت اليها ، والى أن تفعل ما فعلته فى وجه مصر ، تلك الثورات أو التطورات العنيفة التى جرت هناك ، فان علينا أن نصدق اذن أن السلوك الذى كان معروفا منذ العصور البالغة القدم ، عند الاغريق ، والذى لم يعد موجودا اليوم ، الا فى مصر ، لا يمكنه أن يظل هناك طيلة هذه القرون المتعاقبة بفعل غريزة التعود وحدها لو أن مبادىء هذا السلوك كانت قد اندثرت بشكل تام ، ومع ذلك ، فكل شىء يذكرنا ، وكل شىء يشهد كذلك على أنه ان لم يكن بمعرفة المصريين المحدثين اليوم لهذه المبادىء ، فعلى الأقل بوجود الوسائل التى استخدمت فى الماضى والتى لايزال بالامكان الافادة منها فى تحديد استخداماتها ، وهو الأمر الذى أدى الى دوام ممارستها حتى اليوم فى مصر • ومثل هذه الشهادة نجدها اليوم ، بلا مراء ، فى آلة الرباب ، تلك التى يقتصر دورها على تحديد المدى الذى وضعه الأقدمون للانشاد الخطابى ولانشاد الملاحم الشعرية ، ما دام استخدام هذه الآلة لا يزال مقصورا على مصاحبة رواة الملاحم والشعراء حين ينشدون أشعارهم (واهمال بقية امكانياتها النغمية) • وهكذا تكون الرباب فى الواقع « **توناريون** » حقة ، كما يبرهن الغرض الذى تستخدم اليوم فيه على أن الغاية المبدئية من ورائها هى مساندة واطالة مدى الصوت البشرى ، وكذا الابقاء عليه داخل الأطر التى حددتها المبادىء الموروثة •

الهـــوامش :

(١) أنظر اللوحة BB ، الشكل رقم ١١ ٠

(٢) هكذا كان الاغريق الأقدمون واللاتين يطلقون على ممارسة قواعد الرابسودة ، وهو ما نسميه نحن اليوم بنبرة الصـــوت ٠ وكلمـــة نبرة accent كلمة مركبة من كلمتين لاتينيتين تعنيان معا : **من أجل** أو **بقصد الغناء** ، وعلى غرار كلمة بروزودى Prosodie ، المكونة هى الأخرى من كلمتين يونانيتين تعنيان الشيء ذاته ٠ ذلك أن البروزودى ، لم تكن تعنى الا ما له علاقة بطريقة رفع أو خفض الصوت أثناء القاء الخطاب ، وقد كانت – كما يدل على ذلك اسمها – فن اخراج وتعديل نغمات أو نبرات الصوت أثناء الحديث ، وذلك لجعله ضربا من ضروب الانشاد ، أى باعطائه التعبير المقنع ، لكن قواعد هذا البروزودى قد عفا عليها الزمن ، ونتوسيت كلية أو لم يعد معترفا بها بيننا ، أما المدلول الذى نعطيه حاليا لكلمة بروزودى Prosodie فليس له أية علاقة بالمعنى الاشتقاقى لهذه الكلمة ، ولا بالفكرة التى كان يربطهـــا بهـــا الأقدمون ٠ ويقول داليكارناس « ان الخطـــابة ضرب من الموسيقى ، ولا يختلف فن الخطاب عن غنـــاء أو انشـــاد الآلات الموسيقية الا عن طريق المدى أو المساحة ولكن ليس فى مدى أو مســـاحة النغمات ، وانما فى صفاتها ، ذلك أن للخطاب كذلك هارمونيته وايقاعه ، وجمالياته وتعبيراته ، وتحولاته أو انتقالاته ، وليس هناك من يشك فى أن حاسة السمع لا تجد ما يغريها على الاصغاء الا حينما يجذبهـــا ، فى وقت معا ، الهارمونى ، والايقاع ، والتبدل أو الانتقالة ، وأنهـــا لا تستطيب ، فوق كل شيء ، الا كل ما هو جميل » ٠

ويقول أرسطو : « ان الفصـــاحة تعنى أن يعرف المرء كيف يغير من نبرات أو نغمات صوته ، طبقا للاحساس الذى يريد أن يوحى به ، وكيف يستطيع ، اذا ما لزم الأمر ، أن يمنحه القوة أو أن يلطف منه أو أن يقف به موقفا وسطا ، وكيف ينبغى له أن يستخدم النغمـــات ســـواء الحـــادة أو الغليظة أو التى توجد فيما بينهما ، وأن يعرف أية ايقاعات تتوافق مـــع كل نغمة من هذه ، ذلك أن هناك ثلاثة أمور تجدر ملاحظتهـــا ، المساحة أو المدى ، والهارمونى ، والايقاع ، وهذا ما يكتب الفوز فى مضمار السباق » [أرسطو ، البلاغة ، الكتاب الثالث ، الفصل الأول] ٠

(٣) يوضح أرستوكسين Aristoscène فى هارمونياته ، وأريستيد كنتليان Aristide - Quintilien ، فى دراســـته عن الموسيقى ما يعنيـــه الانشاد الخطابى ، والانشاد الشعرى ، والانشاد أو الغناء الموسيقى ، ويمكن الرجوع الى هذين المؤلفين حول هذه النقطة التى لا يتاح لنا الخوض فيهـــا بعمق هنا ، كذلك فنحن نحيل ، فى هذا الصدد الى المقـــالة التى اقتبسها

فوتيوس Photius في مؤلفه Myriobiblon ، نقلا عن بروكلوس Proclus والتي عنوانها :

Procli chrestomáthia, seu laudabilla de re Poetica, pag. 982 grec et lat. Rothomagi, 1653

وسوف نجد في هذه المؤلفات كل ما يتصـــل بالأنواع المختلفـة من الإنشــاد الخطابي والشعري ، معالجا بقدر يتســاوى مع توســعه في ترتيبه ووضوحه ، كذلك يمكننا أن نقرأ الفصلين الثـــاني والثالث من الـكتاب الرابع عشر من مأدبة الفلاسفة Deipnosophistes لأثينايوس Athenée ، وكذلك جوليوس بوللوكس Julius Pollux في مؤلفـه onomast ، الكتاب الرابع عشر ، وقد جمعنا كل هذه المصادر الى كثير غيرها في مؤلفنا الذي عنوانه :

Recherche sur l'analogie de la musique et des arts qui ont pour objet l'imitation du langage, Paris, de l'Imprimerie Impériale, 1807, 2 vol. grand in 80.

أي : بحث حول التماثل القائم بين الموسيقى والفنون التي تتخذ من المحاكاة اللغوية (أو الصوتية) موضوعا لها .

(٤) دينيس هاليكاناس ، المرجع السابق .

الفصل الثالث عشر

حول الكيصار أو القيثارة الأثيوبية

المبحث الأول

حول الطرق المتباينة للفظ وكتابة اسم هذه الآلة ، وحول التشابه التام البادى فيما بين الكيصار والقيثارة التى وصفها هوميروس فى نشيده الى عطارد ـ الوصف الاجمالى للكيصار ، طريقة العزف عليها ـ فيم كانت القيثارة تستخدم فيما مضى ـ الضرر الذى لحق بفن الموسيقى منذ أهملت هذه الآلة الموسيقية ـ انهيار سطوة هذه الآلة منذ ذلك الوقت

N

لم نضع الكيصار Kissar ضمن قائمة الآلات الموسيقية العربية الا لأنها الآلة الوحيدة من آلات الأثيوبيين ، ومن الآلات الخاصة بشعوب أواسط أفريقيا ، التى رأيناها فى مصر ، والتى تزودنا بواحدة منها ، ولهذا فقد عانينا بما فيه الكفايه من العثور على شخص يمكنه أن يبيعنا اياها ، وليس السبب هو ندرة هذا النوع من الآلات الموسيقية فى مصر ، فمن المألوف والشائع ، عكس ذلك ، أن نرى الأثيوبيين والبرابرة ، وقد حملوها معهم عند حضورهم من بلادهم الى القاهرة ، كى يستقروا هناك ، بوابين أو حراسا للمحال ٠

وقد أطلقنا على هذه الآلة اسم **كيصار** اذ كان الأثيوبى الذى زودنا بها يسميها على هذا النحو ، وقد كان هو نفسه كذلك أبرع من سمعناهم يعزفون عليها(١) ٠ ويطلق النوبيون الذين يقطنون ، هنا وهناك ، حول الجندل الأول ، على هذه الآلة اسم **كسر** أو **كصر** ، ويسميها آخرون باسم **كصرة** ، كما تسمى هذه الآلة فى بعض مناطق أخرى من النوبة جيزركه

أو **غيزركه** ، وحيث أن لكل ممن لفظوا هذا الاسم أمامنا لهجته الخاصة ، وحيث أن هذه اللهجة ليست مما يكتب قط ، كما هو حال لهجة بعض المناطق في فرنسا وأن عددا ضئيلا من أبناء النوبة هم فقط الذين يعرفون الكتابة ، فاننا لم نتبين الشكل الهجائي الصحيح لهذه الكلمة ، أما لابورد Laborde ، الذى اتبع النطق التركى عند كتابته لأسماء الآلات الشرقية التى قام بوصفها ورسمها فى دراسته عن الموسيقى ، فكتب اسم هذه الآلة على نحو مخالف لما كتبناه نحن ، فقد كتبها هو : كصر Kussir · ويشير المصريون الى هذه الآلة باسم **القيطارة البربرية** أى جيتار البرابرة · وفى الترجمه العربية للكتاب المقدس ، والمنشورة فى التوراة متعددة اللغات ، تحول الاسم الذى كان الاغريق قد ترجموه ولفظوه **كيثارا** Kithara ، باعطائهم لحرف θ القيمة أو النطق نفسه الذى يعطيه الانجليز لحرفى Th ، أى ذلك النطق الذى يقف موقفا وسطا بين حرفى السين والذال (S و Z) [وهو حرف الثاء عندنا] — تحول ذلك الاسم فى العربية الى **قيثارة** ، وهى كلمة يلفظ فيها حرف الثاء (العربى) كمقابل للحرف θ عند اليونانيين المحدثين ، وهكذا يغدو طبيعيا أن يكون هذا هو الاسم نفسه الذى يلفظه الأثيوبيون **كيصار** أو **كيثار** ، وهو ما يطلقونه على قيثارتهم ·

ومع ذلك فمما لا جدال فيه أن هذه الآلة لا تشبه قط تلك التى أسميناها نحن بالجيتار ، فهى قيثارة حقيقية ، تنتسب فيما يبدو ، ببساطة بنيتها المتناهية ، وبالطريقة الخشنة والبدائية التى صنعت بها ، الى القرون الأولى التى ابتكرت فيها هذه الآلة ، وبرغم ذلك فلا تنقص الرشاقة شكلها ، بل ان ما يدعو الى الغرابة ، ويثير الفضول فى الوقت نفسه ، هو أن هذه القيثارة تشبه على وجه الدقة ، تلك التى وصفها هوميروس فى نشيده الى عطارد والتى نسب فيه اختراع هذه الآلة الى هذا الاله ·

وحتى يكون بالامكان أن نحكم بسهوله أكبر فيما يتصل بهذا الشابه، فسنقوم بايراد وصف قيثارة هوميروس ، كما يصفها صاحبها ، ثم نقوم بعد ذلك بوصف قيثارة البرابرة ، فقد رأى عطارد ، فيما يروى هوميروس ، قريبا من مسكنه سلحفاة كانت تتقدم نحوه منمهلة ، وهى ترعى العشب النضير ، فتأملها مبتهجا ، وعندئذ خطرت له فكرة أن يصطنع من هذه شيئا نافعا ، متخيلا فى الوقت نفسه المزايا التى يمكنها أن تنجم عن ذلك ، فحملها على الفور الى بيته ، آخذا اياها بين يديه ، وحين أفرغ درقتها ، ونظفها ، كساها بقطعة من الجلد ، ولف حولها عروق أو أعصاب ثور(٢) ، ثم أدخل اليها رافعتين ، ربط بينهما بنير ، ثم شد عليها سبعة أوتار رنانة(٣) أخذها من معى خروف ، وحين أتم عمله ، أمسك بهذه **اللعبة اللطيفة**(٤) وسعى لارنان جزء من الأوتار بالريشة (البلكترون) ، لامسا الجزء الآخر من قيثارته بوقار ، ثم ترنم على الفور بأغنية بالغة الجمال والروعة ٠

وفى واقع الأمر فان الكيصار أو القيثارة الأثيوبية لم تتكون قط من درقة سلحفاة ، فقد لا يكون هذا الحيوان شائعا فى أثيوبيا بالقدر الكافى ليسهل على عامة الناس التزود بدرقاته ، ولذلك فقد أحلوا محله ـ ببساطة ـ طاسا من الخشب ٠ وبايجاز شديد فان بقية أوصاف هوميروس يمكنها أن تنطبق ، فى كل جوانبها ، على وجه التقريب ، على الكيصارة الأثيوبية ، فهذه الطاس الخشبية A ، والتى أحلوها محل درقة السلحفاة ، مكسوة بالمثل بقطعة من الجلد(٥) ، ومضمومة من كل جوانبها بعصب ثور(٦) ، وأدخلت اليها رافعتان هما B ، C (٧) ، مررتا من طرف لآخر من الجلد حتى أسفل هذه الطاس متخذة شكل Ω ، ومن هناك ترتفعان متفرعتين حتى علو بعينه ، ثم تمضيان لتنغرسا من طرفيهما ، كل طرف فى واحد من طرفى النير أو العارضة ، الموافق له ٠

فقد بدأ الأتيوبى الذى كان يعزف أمامنا على هذه القيثارة ، يداعب أوتارها بريشته ، ثم أخذ يدندن مع نقر الأوتار بيده اليسرى ، وفى النهاية بدأ الغناء ، وهو يواصل على الدوام نقر الأوتار والتوقيع عليها **بريشة العزف** .

واد كنا أكثر انشغالا بالذكريات الطيبة التى أثارتها هذه الآلة فينا ، بأكثر مما كنا نلقى بالا للغناء الطفولى الساذج لرجلنا الأثيوبى(١١) ، فقد انتقلنا بأرواحنا الى هذه الأزمنة البطولية ، حين كان تلاميذ أورفيوس وديمودوكس وفيميوس وترباندر يزاوجون نبرات أصواتهم الرجولية والنشطة بنغمات الطرب التى ترددها أوتار القيثارة العذبة ، متغنين بمعجزات الطبيعة، ومآثر الآلهة ، وفضائل الملوك ، وروائع الأعمال التى قام بها الأبطال والاكتشافات النافعة التى أنجزها العباقرة من بنى الانسان ، والتقدم الذى أحرزه العلماء الذين يوسعون آفاق العلوم(١٢) ، ويعلمون الشعوب ، ويعرفون كل امرىء بواجباته ، وينثرون فى كل القلوب محبة الخير ، والرغبة فى التميز ببعض الأعمال النافعة والجميلة . ولم يكن بمقدور النغمات التى كانت تدق فى آذاننا أن تصرف عن مخيلتنا آلاف الافكار التى كانت تتعاقب فى الذهن وتستبقينا فى اسار أحلام قاتمة تبعث على الأسى ، وقلنا لأنفسنا ، فى قرارة أنفسنا ، فيما مضى ، فى تلك العصور الخوالى ، حين كان كل الشعراء منشدين وكل المنشدين شعراء ، وحين كانت القيثارة آلة بالغة الأهمية ، من كان يتجاسر ، كائنا من يكون ، على أن يكب على استلهام عبقريته دون هذه الآلة ، ذلك أن الشاعر – الموسيقى لم يكن ليفوته قط ، من قبل أن ينشد أو يتغنى بأبياته ، أن يعكف على مشورة ذلك الائتلاف النغمى الرائع لقيثارته ، هذا التناغم الهارمونى الذى لم تتحدد نغماته الا بعد سلسلة طويلة من الملاحظات والتجارب المتضاعفة ، على مدار قرون عدة ، والذى محصت دقتها ، وكرست فوائدها ، بفعل أكثر النتائج توفيقا وأكبرها خصوبة

فعن طريق مداعبة الأونار(١٣) ، وترا بعد وتر ، كان الفنان اليفظ ينجح فى الوصول الى الامساك بالنغم أو المقام المناسب ، والى التغييرات فى المقام التى تناسب الأسلوب الذى ينطلبه موضوعه(١٤) ، وما ان يجد نفسه فى حالة يستطيع معها أن يحتوى خماسية ، وأن ينظمها ، وأن يهدهد جموح عبقريته الخلاقة ، كان يبدأ انشاد أغنياته أو أناشيده المتسامية(١٥) ، وكانت هذه ، على الدوام ، تحظى بانصات يشع احتراما ، وتسمع بأكبر ضروب الاعجاب حماسة ويقظة ، كانت تنفذ الى الروح متخللة الأحاسيس والمشاعر ، فتملؤها بأكبر الانفعالات نبلا ، كانت تلهب النفوس بحب الفضائل ، وتولد الرغبة لدى الانسان فى أن يكون نافعا ، كما كانت تضع بذور اشتهاء المجد · ولكن واأسفاه ! فكم نأت هذه الأزمان السعيدة عنا ؟ ومن بمقدوره اليوم أن يدوزن قيثارة ! فمنذ وقت طويل من قبلنا ، أبت القيثارة ، وقد أزرت بها حالة المهانة التى أوصلها اليها الجهل والذوق السقيم ، ومرغ فى الوحل كرامتها النظرة الجديدة من الناس اليها — أبت أن تستجيب للنطلعات الطموح للشعراء والموسيقيين ، وبات الشعر والموسيقى ، وقد تخلت عنهما المعونة القادرة التى كانا يحصلان عليها فيما مضى من أنغام هذه الآلة الموسيقية ، خاليين من الحيوية ، عاجزين عن التعبير ، وبدلا من السعى الدءوب لمحاولة مثابرة ، بعيدة عن الادعاء ، يباركها التواضع ، ويتوجها ، فى نهاية الأمر ، النجاح فى غالبية الأحوال ، فان فنان اليوم ، الطائش ، غير الهياب ، والذى لا يشغله سوى تملق غروره الصبيانى بأن يثير دهشة جمهور جاهل سقيم المزاج ، يود أن يأتى بمقدمات موسيقية تصطنع أساسا أو شكلا علميا ، لكنه لا ينجح الا فى اظهار مزيد من عجز عبقريته الهزيلة ، وفى ارهاق خياله العقيم المتبلد بمحاولات هزيلة ، وفى تعذيب كليهما — عبقريته وخياله — بلا جدوى ، لكنه لا يستطيع قط لا أن

يستثير عبقرية ولا أن ببعث الدفء الى خياله ، اذ ليست لهذين من القدرة ما يمكنهما من الاستجابة لتوسلاته اللحوح ، فقد ذوب العبقرية بعد أن نأت عنها الرعاية ، وشل الخيال لنقص الممارسة ، فخذل كلاهما رغبة هذا الفنان الدعي ! فأصبح بذلك صورة معبرة عن قولنا الساخرة . تمخض (الجبل) فلم يلد فى النهاية ، سوى فأر هزيل ، ولقد غزت هذه الغواية ، التى لا تزال تمشى بيننا ، فن الموسيقى حتى فى المناطق النائية ، وفى كل مكان بلغته ، جعلت من فعالية هذا الفن ، فيما يتصل بخير البشر ، أمرا يكتنفه الريب والشكوك .

وبرغم أن الشهادة الاجماعية لكل الشعوب القديمة تدلل على قوة تأثير الموسيقى ، وبرغم أن علماء ذوى جدارة كبيرة ، قد دللوا لدرجة الوضوح، وعن طريق أمثلة ملموسة مجسمة(١٦) على ما لهذا التأثير من سطوة على الأحاسيس والروح ، فان هذا الفن لا يزال بعد فاقدا لاعتباره عندنا ، فما زلنا نصر على الزراية به ، بأن نتركه نهبا لأخطار ممارسة روتينية عمياء ، خالية من الروح ، ولنزوات ذوق هش ، عجيب على الدوام ، بل شاذ مجاف للصواب وبدلا من أن نفكر فى جعله مفيدا بأن نهيىء له ممارسة أفضل ، وتطبيقات أصوب وتفهم أحسن ، فاننا لا نرجو منه سوى أبسط الأحاسيس ، لقد أوصدنا قلوبنا دونه ، ولم نعد نطمح منه أن يتغلغل فينا حتى الروح .

ومع ذلك فاهمال أو لامبالاة كتلك يمكن الاغضاء عنها عند الشعوب الغارقة فى جهالة بربرية بائسة أمثال أقوام أثيوبيا ، ولكنها تتناقض بشكل قلما يمكن التسامح فيه مع ما للأمم المتحضرة فى أوروبا من معارف وعلوم . فقد أمكن عناد أو مكابرة أناس ذوى حظ ضئيل من العلم ، صورت لهم العصور القديمة ، المحترمة والزاخرة بالعلم ، على نحو كاذب مخالف للحقيقة، فى الوقت الذى تكشف لنا فيه هذه العصور نفسها عن أسرارها السامية

أمكن هذا العناد المكابر أن يقاوم حتى اليوم كل البراهين الجمة ، وأن يحول انتباه العامة عن دراسة جادة للموسيقى ، ومع ذلك ، فليس ببعيد ذلك الزمن الذى ستتسارع فيه فرنسا بعلاج هذا الاهمال المجحف للموسيقى والضار بسعادتها هى ، ولسوف يتحقق لها من الطموح النبيل ما يجعلها جديرة بالأقدار العظيمة التى يهيئها لها اليوم **بطل*** يبدو وكأن كل صنوف المجد قد ادخرت ، جميعها ، له .

* لا بد أنه يشير هنا الى نابليون . (المترجم)

هـــوامش :

(١) أكد لنا القسس الأحباش أن هذه الآلة فى بلادهم وكذلك فى كل المناطق داخل افريقيا تعرف باسم **كرار** Krar ٠

(٢) يمكن تطبيق هـذا الوصف على الرسـم الذى قدمناه للقيـارة الأتيوبية ، اللوحة BB ، الشكلان ١٢ ، ١٣ ٠

(٣) لا يوجد فى قيثارتنا هذه سوى خمسه أوتار ، ولعلها تنتسب الى نوع كان أصله - ولا بد - سابقا على القيثارة التى يصفها هوميروس فى النشيد الذى أشرنا اليه ،وذلـــك طبقا لنظام الاضافات التى نمت الى القيثارة الأولية ، تلك التى لم يكن لها فى الأصل سوى وتر واحد ، وقد أطلق اسم **مونوكورد** (أى القيثارة وحيدة الوتر) على القيثارة ثنائية الوتر (ديكورد) التى ابتكرها العرب والتى تسبق - بالضرورة - القيثارة ثلاثية الأوتار أو القيثارة القديمة التى ابتكرها عطارد المصرى ، والتى حدثنا عنها أورفيوس فى أناشيده ، وديودور فى تاريخه الطبيعى ، ولا بد أن تكون هذه القيثارة الأخيرة ، سابقة على القيثارة رباعية الأوتار التى يعد أورفيوس مبتكرا لها ، وفى النهاية تكون القيثارة الأفريقيه ، أو الكيصار ، التى نحن الآن بصدد الحديث عنها سابقة - بحكم طبيعة الأمور ، على القيثارة سداسية الأوتار ، كما لا بد أن تكون ، بالتالى ، ذات أصل سابق على القيثارة ذات الأوتار السبعة ، التى يتحدث عنها هوميروس ٠

(٤) تعبير من الشاعر نفسه ٠

(٥) أنظر اللوحة BB ، الشكل رقم ١٢ ٠

(٦) أنظر الشكل رقم ١٣ ٠

(٧) شرحه ٠

(٨) توجد كذلك ، كما قيل لنا ، كيصارات مزودة بسبعة أوتار ، وبستة ، وهناك بالمثل ما هو مزود بأقل من خمسة ، وان كنا لم نر هذه الأنواع المتفرقة ٠

(٩) يستخدم هذا السير كذلك فى تمرير الذراع الى الطرف الآخر ، وفى تعليق القيثارة الى الكتف الأيسر حين يراد حملها ، وهو ما وصفه تيبول Tibulle بهذه الأبيات عند حديثه عن قيثارة أبوللون :

« كان عمل الفن المتميز الذى يبرق بالقيثارة والذهب ، قيثارة صداحة تتدلى من الجزء الأيسر ، وفى البداية حينما كان يأتى ليعزف بريشته العاجية على هذه (القيثارة) أنتج أغانى بهيجة بصوت منغم ٠ ولكن بعد ذلك وجدت

الأصابع (الأنامل) الناطقة مع الصوت فأنتجت هذه الكلمات الحلوة بنغمة حزينة » .

[تيبوللوس ، كتاب ٣ . قصيدة ٤]

(١٠) « **كان يمسكها بيده اليسرى ، ثم يعزف النغمة بالريشة** »
[هوميروس ، نشيد الى عطارد ، الأبيات ٤١٨ ، ٤١٩]

(١١) أشرنا الى هذه الاغنيات التى تغنى بمصاحبه القيثارة فى دراستنا عن الوضع الراهن لفن الموسيقى فى مصر ، ص ٧٣٨ ، ٧٣٩ [أنظر المجلد الثامن من الترجمة العربية] .

(١٢) « **أولئك الذين يقومون بذكر (مآثر) القدامى من الرجال والنساء ، يغنون نشيدا تبتهج به أمم من البشر . لقد عرفوا كيف يقلدون الأصوات التى تصدر عن الناس ، وكما قد يقال فان كل شخص يتحدث الى نفسه ، لذلك فان الأنشودة المنظومة تكون موافقة لهم ومناسبة » .**

[هوميروس ، نشيد الى أبوللون ، الأبيات ١٥٩ وما بعدها]
وانني لأرجو من قرأوا بحثنا حول التماثل القائم بين الموسيقى والفنون التى تتخذ من المحاكاة اللغوية أو الصوتية موضوعا لها ، أن يولوا انتباههم لهذين البيتين اللذين يقول فيهما الشاعر :

« **ليت لى قيثارة وعودا وقوسا معقوفة ، حتى يمكننى التنبؤ بنصيحة جوبيتر للبشر ! »**

[هوميروس ، نشيد الى أبوللون ، الأبيات ١٣١ وما بعدها]
وقد طور هورانيوس هذه الأفكار فى الأبيات التالية :

« **لقد جعل أورفيوس ، لسان حال الآلهة المقدس ، قاطنى الريف والغابات يفرقون من المذابح والحياة المخيفة . فقد روى فى هذا الصدد أنه قد جعل النمور الضارية والأسود المفترسة (مخلوقات) وديعة رقيقة ، وروى كذلك أن أمفيون مؤسس قلعة طيبة قد حرك الصخور بقيثارته ووجهها باغراء توسله حيث شاء . لقد وجدت هذه الحكمة الماهرة فى غابر الزمان ، ألا وهى : فصل العام عن الخاص ، والمقدس عن المدنس ، والابتعاد عن المضاجعة التى لا ضابط لها ، واعطاء الحقوق للأزواج ، وتشييد الحصون ، ونقش القوانين على الألواح . وهكذا سعت الشهرة وخف المجد لأناشيد الشعراء المقدسين . اذ نجد بعد هؤلاء هوميروس الشهير اللامع وتورتايوس الذى ألهب بأشعاره مشاعر الرجال المحروب . وروى كذلك أن ردود النبوءات القديمة كانت منظومة شعرا ، وهى التى جعلت طريق الحياة واضحا بينا ، وأن الثناء على الملوك كان يطلب على أنغام الشعر ، وكذا المسابقات الرياضية وجلائل الأعمال . وذلك حتى لا يتطرق الخجل بحال من الأحوال الى قيثارتك الماهرة أيتها الربة ،وأنت أيها الاله المنشد أبوللون » .**

[هوراس ، فن الشعر ، البيت ٣٩٠ وما بعده]

(١٣) « .. **لكن العزف على القيثارة أمر يبعث على البهجة ، فقد كان ابن مايا (ميركوريوس) يقف على يسار فويبوس ابوللون ، كما لو كان موضع ثقته ، لكنه ما لبث وبسرعة ، أن عزف على القيثارة بحدة ، وأخذ يتبادل معه الغناء . وكان يقتفي أثره في الشدو بصوته العذب : يوحد بين الآلهة الخالدين والارض القاتمة المعتمة ، ساردا الحقائق والأعمال كما كانت منذ البدء . هكذا بعد أن حصل كل منهم على نصيبه طفق يمجد بأنشودته الربة منيموسينى كربة تأتى فى طليعة الربات** » .

[هوميروس ، نشيد الى عطارد ، الأبيات ٤٢٢ وما بعدها]

وليس من الضرورى أن نفسر للعلماء معنى هذه المرموزة ، فهم لا يجهلون أن العقل والعبقرية والحكمه والحذر والذاكرة وكل الملكات العملية كان لها عند الأقدمين أسماؤها الرمزيه ، وكذلك كان الحال بخصوص العناصر .. وبايجاز بخصوص كل ما يتصل بالعالم الروحى والعالم الفيزيقى ، ومن هنا جاءت هذه اللغة الرمزية أو المجازية ، الزاهده ، والتى لم تكن مفهومة الا من الملقنين (أى المكشوف عنهم أو المطلعين على خفايا الأسرار) والتى كانت تستخدم لتلقينهم أشياء تتجاوز فهم ومعارف العامة ، والتى كان يحرص على اخفائها .

وفى نفس معانى الأبيات السابقة يقول أوفيديوس فى مسخ الكائنات. الكتاب الخامس ، البيت ٣٣٨ وما بعده :

« **وتختبر كاليوبى بأناملها الأوتار التى تصدر صوتا كالأنين ثم تبدأ فى عزف أناشيدها على هذه الأوتار** » .

ولأن القيثارة كانت تدخر لمصاحبة الغناء أو الأناشيد المخصصة للتعليم، بشكل أساسى ، فقد كان يقال على سبيل المثال عن رجل لا يستطيع أن يتعلم أى شىء : « **انه حمار يســتمع الى القيثارة** » على نحو ما نقول نحن عن رجل رعديد : « **انه خنزير أفزعه صوت النفير** » ، ومن هنا من كوميديا الرعديد من تأليف ميناندر :

« **حمار يسمع قيثارة ، وخنزير يسمع طبلة** » .

(١٤) تنبت أبيات هوميروس ، التى ذكرناها منذ قليل ، أن ما نقوله هنا ، ليس مبالغا فيه قط .

(١٥) « **كان هذا الدغل قد جذب اليه الشعراء ، اذ كان مقرا لجمع من وحوش الفلاة ، وفى وسطهم سرب من الطيور ، وعندما اختبرت الأوتار بأناملها وأحست بالنغمات المتنوعة ، وجدت أنها تصدر أنغاما متباينة حينا ومتوافقة حينا آخر ، وبعدئذ قطعت هذه النغمات بأنشودتها . ان الموسية (ربة الفن) منحــدرة من صلب جوبيتر ، وكل الموجــودات تذعن لملك كبير الآلهة** » .

أوفيديوس ، مسخ الكائنات ، الكتاب العاشر ، الأبيات ١٤٣ وما بعدها
(١٦)

Samuel Hassenreffer, Monocordon Symbolico-biomanticum, ulmae, 164,
Kircher, Musurgia Universalis ... Romae, 1650.
Al. Georg. Alex, Berr, Schediasma Physicum de viribus mirandis toni Consoni in movendis affectibus, Wittenbergae, 1672.
D. Georg. Frank de Frankenau, Dissertation de Musica, Lipsiae, 1722.
D. Witch Ablrecht, Tractatus Physicus de effectibus musices in corpore humano, Lipsiae, 1734.
Col de Villars, Quoestio medica, An melancholicis musica ! 1737.
Jos. L. Roger,

الطبيب بجامعة مونبلييه : دراسة حول تأثير الموسيقى على جسم الانسان ، ١٨٠٣ P.A. de Lagrange

دراسة عن الموسيقى منظورا اليها فى علاقاتها بالطب ، باريس ١٨٠٤ عن مطبعة Didot Jeune

السخ السخ

المبحث الثاني
شكل وخامة وهيئة وأبعاد الكيصار

يتكون **الجسم الرنان** A للكيصار من طاس مصنوع من خشب القيقب. بشكل ردئ ، ويسمى النوبيون هذا الجزء من الآلة فى لغتهم **جوسا**(١) . ويبلغ طول قطرها من ناحية الفتحة التى سد فوقها الجلد الذى يشكل الوجه أو مشدةالنناغم نحو ٢٥٨ مم ، أما قطر الجزء السفلى(٢) فيبلغ ١٣١ مم ، ويوجد وسط هذا الجزء ثقب سيىء الاستدارة يخترق كل سمك الخشب ويبلغ عمقه ٢٣ مم ، ويصل اتساع هذا الثقب من الخارج الى ٣٠ مم ، أما من الداخل فلا يزيد عن سبعة ملليمترات .

وتصنع **المشدة** أو **الوجه** من قطعة من جلد خروف سويت على شكل دائرة(٣) يتناسب شكلها واتساعها مع فتحه الطاس ، وتخترق هذا الجلد ثلاثة ثقوب لعلها تستخدم كمسامع أو شمسات ، وتقع هذه الثقوب الثلاثه على خط واحد . أحدهم فى منتصف المشدة ، والثانى الى اليمين وأما الثالث فيقع الى اليسار . والثقب الأوسط ينحو نحو الاستدارة ، ويبلغ قطره أربعة عشر ملليمترا ، ويكاد يكون للثقب الأيمن - اذا ما نظرنا الى الآلة من الأمام أى من ناحية المشدة - شكل الرمح ويبلغ طول أكبر قطريه ٤١ مم ويبلغ قطر العرض ٣٢ مم ، ويبعد هذا الثقب عن زميله ثقب الوسط بمسافة تبلغ ٧٠ مم ، أما الثقب الأيسر فبيضى الشكل ، وأكبر فى حجمه قليلا من ثقب الوسط الذى يبعد عنه بمسافة ٦١ مم ، ويبلغ أكبر أقطاره سبعة عشر ملليمترا ، ويبلغ أصغرها خمسة عشر .

ويرجح أن يكون الجلد قد سد فوق الكيصار وهو بعد طازج (أى : ولما يجف بعد) او أنهم قد حرصوا على عمره فى الماء قبل شده وذلك **أولا :** لانه ينكمش (ينكشكش) عند النعبين الآخرين اللذين اصطنعا فوق الوجه لسكيل مدخل للرافعتين اللتين نمران من طرف لآخر من طرفيه واللذين يمتد جزء منهما الى اسفل الجسم الرنان ، **وثانيا :** لان الرافعتين عند امتدادهما الى أسفل جلد المشدة قد أحدثا فيه أثرا بدءا من المقب الذى أدخلنا منه حتى أسفل الجسم الرنان Ω حيث يوجد طرفاهما ، حيث أدى ضغطهما فوق هذا الجلد الى جعله يتجاوز حواف الطاس عند موضعين ، **وثالثا :** لأن الجلد الذى يحمل على سمك الرافعتين اللتين نمران من أسفل ، اذ نراه فوق كل الخط الذى تجتازه هاتان الرافعتان ، أكثر ارتفاعا عنه فى بقية سطحه ، واذ قد جف وهو على هذه الحال ، فقد بات مليئا بالخطوط (كشكشة) ، على نحو ما بدلا من أن يظل مستويا ، أى أنه يرتفع بشكل تدريجى بدءا من الحافة حتى التمدد أو الانتفاخ الذى يحدثه سمك الرافعة ، ولانه ينخفض قليلا ، بدءا من هذه الرافعة حتى الوسط ، ثم من هذا الوسط حتى التمدد أو الانتفاخ الذى يتسبب فى حدوثه سمك الرافعة الأخرى ، ليرتفع من جديد ، ثم يعود ليهبط بدءا من هذه الرافعة حتى الطرف الآخر ، **ورابعا :** لأن ضغط طرفى كل من الرافعتين فوق الجلد ، عند الطرف الأدنى Ω للجسم الرنان حين يجعل هذا الجلد ينتوخ من أعلى قليلا فانه لا يعود يغطى ، بشكل دقيق ، حافة الطاس ، بل انه يصبح عاريا بشكل تام بالقرب من الرافعة الواقعة الى اليسار ، أما عروق السور المستخدمة فى ضم الجلد والتى توجد ، فضلا عن ذلك ، الى خارج ، والى أسفل هذه الحافة ، فتوجد بارزة فوق المقدمة ، عند هذا الموضع .

وفضلا عن النقوب التى أشرنا اليها والتى تخترق المشدة أو الجلد ، توجد ثقوب أخرى فوق حواف سطحها ، بين مسافة وأخرى . وتخصص هذه

النقوب لتمرير أعصاب النور المستخدمة فى ربط الجلد وضمه(٤) ٠ وفى البداية يمر عصب النور من خلال واحد من هذه النقوب ، ويمضى ليربط فى عقدة منحركة معقودة فى رباط يحيط بمؤخرة الطاس ، ومن هناك يصعد من جديد ثم يعود ليمر من خلال النقب الأول ، ثم يمضى ليلحق بالنقب التالى الذى يمر من خلاله ، من طرف لآخر ، لينزل ويربط مرة أخرى بواسطة عقدة متحركة معقودة فى الرباط ، وهكذا دواليك حتى يتم التفافها أو دورانها حول الجلد ، وحيث أن مؤخرة الطاس أشد ضيقا عن بقيته ، وان الرباط المحيط بها ، حين لا يقدر على الصعود من جديد ، يشكل مقاومة للتكات ، بحيث تقوم هذه التكات ، اذا ما أردنا أن نضيق منها ، بضم الجلد بدرجة أكبر ، وكذلك بشده على نحو أكثر متانة ٠

أما **الرافعتان** B و C ، فعصوان مستديران من خشب القيقب ، ويصل طول قطر سمك الواحدة منهما نحو ٢٠ مم ، ويبلغ الطول الاجمالى للرافعة اليمنى ٦٥٠ مم بدءا من نهاية الطرف الذى ينتهى بدخوله فى الجسم الرنان ، على شـــكل Ω حتى الطرف المقـابل المغروس فى النير J ، وأما الطول الاجمالى للرافعة اليسرى ، بدءا من الطرف الذى ينتهى على شكل Ω بعد دخوله الجسم الرنان ، وحتى الطرف المقابل المغروس فى النير J والذى يتجاوز الجزء العلوى منها بـ ١٤ مم ، نحو ٦٧٤ مم ، ويبلغ طول الجزء من الرافعة اليمنى الداخل الى الجسم الرنان والذى يكسو جلد الوجه ، ١٩٥ مم ، فى حين يبلغ طول الجزء من الرافعة اليسرى ، الداخل فى الجسم الرنان كذلك ، والذى يكسوه بالمثل جلد المشدة ، ١٨٢ مم ٠

ويصـــنع **النير** J ، كما هو حـال الرافعتين ، من قطعة من خشب القيقب ، لكن استدارته غير مكتملة ، كما أنه مسطح بعض الشىء فوق وتحت الطرف الأيسر ، ولعل هذا هو السبب فى أنه قد تشقق عندما أريد احداث

ثقب كان ينبغى أن يدخل فيه طرف الرافعة B فى هذا الجانب ، وحتم ضرورة وجود رباط الخيط الذى قربت به قطعتا الجزء المشقوق وضيق عليهما . ويبلغ الطول الكلى لهذه العصا أو النير J نحو ٣٤ مم ، وحيث لا يستوى سمكه فى كل امتداده فقد يحق لنا أن نقدر القطر الأوسط من سمكه بخمسة عشر ملليمترا ، كما نقدر أكبر سمك له بثمانية عشر ملليمترا ، وأصغره باثنى عشر .

وهناك خمس **حلقات** صغيرة O مربوطة الى شرائط صغيرة من تيل مخيط مجذوبة بشكل مشدود للغاية حول النير J ، وتشغل الثلث الثانى من طول النير ، حيث تتوزع على مسافات تكاد تكون متساوية ، وتستخدم هذه الحلقات فى التدحرج فوق الأوتار التى كان يحتمل لها أن تنزلق لو أنها حملت فوق الخشب ، وذلك حتى نمكن الأوتار من أن تظل مشدودة بشكل أكبر ، وأن تكون أقل عرضة للارتخاء ، فهى تتشابك عندما تلف عن طريق الحلقة المتحركه ، ولكى تركب الأوتار على هذا النحو ينبت النير فى الموضع الذى نوجد به الحلقات ، وطبقا لما ان كان يراد تركيب هذا الوتر أو ذاك ، نتكىء بالاصبع فوق الحلقة التى يلتف حولها هذا الوتر ، ومع الدوران بهذه الحلقة ، يلتف الوتر عليها فى ذات الوقت ، وبهذه الطريقة يتم شده ، ويزيد اشتداده كلما زدنا من مرات دورانه حول الحلقة .

ولأن هذه الطريقة فى تركيب وشد أوتار القيثارة لم تكن معروفة فلم يكن هناك حتى اليوم من يستطيع أن يفسر بطريقة ملائمة حركة الموصات (ربات الفنون) اللائى رسمن ، فى بعض الأشكال(٥) ممسكات بالقيثارة باليد اليمنى من احدى رافعتيها ، وقابضات باليد الأخرى على النير ، كما قلنا ، بقصد تركيب الأوتار . وقد زعم بعض ، تفسيرا لهذا الوضع الذى اتخذته ربات الفنون ، أن هؤلاء الموصات كن يمسكن قيثارتهن بيد ويسندنها

باليد الأخرى ، ولكن ماذا تراه كان القصد من وراء فعل كهذا ؟ فلما ليست القيثارة بالآلة الثقيلة الوزن لحد يحتاج معه من يمسك بها لاستخدام قوة يديه الاثنتين ، وبالتالى فستكون هذه الفكرة من جانب الفنان الاغريقى ، فكرة خرقاء لا نجد لها قط مثيلا فى التكوينات الاغريقية المنتمية الى زمان ضارب فى القدم ، وتكفى هذه الأفكار وحدها كى تجعلنا على يقين بأن مثل هذا التفسير خاص ، وأن من قالوا به لم يعرفوا الدافع الحقيقى من وراء هذا الوضع . ولكنا ، اذا ما تأملنا الحيوية التى تجذب بها هؤلاء الموصات النير الذى يقبضن عليه ، والانتباه الذى يولونه لهذه اليد ، وعندما نتأمل ، فوق ذلك كيف أن الأوتار مربوطة حول هذا النير ، فلا بد أن نستخلص أن لحركتهن غاية أخرى ، ليست بحال ، دعم أو مساندة القيثارة ، ومن اليسير أن نتخيل أن هؤلاء الموصات كن يركبن الوتر ويضبطن ايقاعه . اما وقد عرفنا الآن ، أنه على هذا النحو تركب أوتار هذه الآلة فيبدو لنا أن حركة ربات الفنون هذه قد تم تفسيرها بطريقة تنضح خطأ وسوء فهم لأشكال الموصات التى تحدثنا عنها . ولعل هذه الأشكال قد كانت ، بالنسبة للاقدمين ، رموزا فلسفية كانت تذكر بالملاحظات والتجارب الكثيرة التى سبقت اكتشاف المبدأ الهارمونى الذى ينهض عليه الائتلاف النغمى للقيثارة ، هذا المبدأ الذى غدا أساسا لفن الموسيقى ، ذلك أن الموصات لسن شيئا آخر سوى صورة مجازية للملاحظة والتأمل والتجريب التى سبقت اكتشاف الفنون ، ولهذا فقد أطلق على أم الموصات اسم **منيموزين** Mnémosyne أى تلك التى تحفظ أو تحتفظ بالذاكرة وتورثها (من جيل لآخر) ، كما أطلق على أقدم ثلاث موصات أسماء : **منيميه** Mnêmê بمعنى **الذاكرة** ، **وأيدى** Aoedê بمعنى **الغناء** ، و **ميليتيه** Meletê وتعنى هذه **التأمل** .

هـــوامش :

(١) أنظر اللوحة BB ، الشكلين ١٢ ، ١٣ ٠

(٢) أنظر الشكل ١٣ ٠

(٣) أنظر الشكل ١٢ ٠

(٤) اللوحة نفسها ، الشكل ١٣ ٠

(٥) أنظر فى روائع أعمال العصور القديمة التى قام برسمها برنار بيكار Bernard Picard والتى نشرها :

M. Poncelin de la Roche — Tilkac, 2 vol. infolio, Paris, 1764, Tome 1er, page 39.

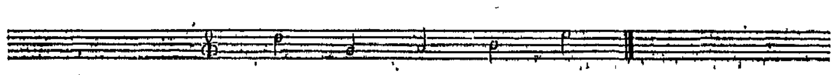
رسما لتمثال اغريقى بالغ القدم ، يمثل واحدة من ربات الفنون ، ممسكة بقيثارتها ، وفى المجلد الثانى من المؤلف نفسه ، ربة أخرى تمسك كذلك بقيثارتها ٠

المبحث الثالث

الائتلاف النغمى الفريد للكيصـار ، المبدأ الهارمونى الذى يقوم عليه هذا الائتلاف ، مسـاحات النغمات ومعيارها ، خاصـيات الفواصل التى تشـكلها هذه النغمات نفسها ، طريقة العزف على هذه الآلة

قد يخيل للمرء ، للوهلة الأولى ، أن الائتلاف النغمى أو سلم نغمات الكيصـار هو ضرب من ضروب النزوة أو المصادفة ، فليست هنـاك أوهى علاقة بين هذا الائتلاف وبين نظيره فى آلاتنا الموسيقية الأوروبية ، بل انه — حتى — يختلف عن مثيله فى آلات الموسيقى التى يستخدمها الشرقيون ، كما يبدو — فى الوقت نفسه — بعيدا ، كلية ، عن النظام الهارمونى فى الموسيقى القديمة ، وأخيرا فانه يفصح عن نفسه داخل نظام فريد ، قد يغرى بأن ننظر اليه باعتبـاره ضربا من الفوضى والخروج عن كل نظام — وهذا بالضبط ما حدث لنا ٠

ففى المرة الأولى التى واتتنا فيها الفرصة لتفحص هذه الآلة ، وداعبنا فيها أوتارها ، وجدناها مدوزنة على النحو التالى :



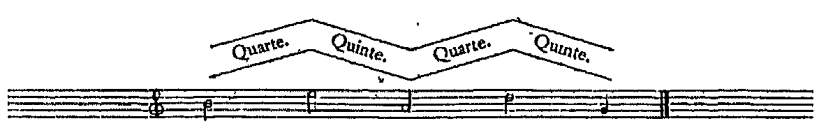
ولذلك فقد اعتقدنا أنه يستحيل أن يكون هذا هو سلمها النغمى وأن رجلنا الأثيوبى ، قد اكتفى بحسن نية ، ودون أن يلقى للأمر أهمية كبيرة، بأن شد الأوتار حتى بلغت قدرا من المرونة يكفيها كى تقاوم حركة العزف ، ولكى تتردد وترنن بشـكل متميز واضـح ، دون أن يشغل باله ، لأكثر

مما ينبغى ، بأن يرتب النغمات فيما بينها ، ومع ذلك ، ولكى نتيقن من الأمر ، فقد استخدمنا الطريقة نفسها التى اتبعناها مع خادم قنصل البندقية فى الاسكندرية ففككنا كل الأوتار ، على غير ارادة أو رضى من رجلنا النوبى ، وطلبنا اليه أن يعيد تركيبها . ولم نكن قد عرفناه بغايتنا ، ولم يستطع هو أن يحدسها ، لذلك فقد كان طبيعيا أن يصدمه سلوكنا ، كنا قد دعوناه ليعزف على آلته أمامنا ، وحين تهيأ للبدء ، بعد أن أبدى الكثير والكثير من الاعتراضات والتمنع ، اما بفعل الخجل ، واما لفرط احساس بالكرامة ، ومع ذلك ، ففى اللحظة التى قر فيها قراره على العزف فككنا السلم النغمى لآلته ، ثم طلبنا اليه ان يعيد دوزنتها ، فبدا له الأمر فى مجمله عزيزا على التصديق بعيدا عن العقل ، حتى ظن أنا نسخر منه ، وحلت اللحظة التى وجدناه فيها يضع آلته فوق كتفه متهيئا للانصراف ، ومع ذلك فقد توصلنا الى تهدئة غضبه بأن منحناه بعضا من قطع المدينى ، وبدا عليه الرضا عندما قلنا له ان ذلك لتعويضه عن بعض التعب الذى سببناه له ، ولعله لم يكن ليغضب لو أننا قمنا بفك أوتار قيثارته مرة أخرى ، ثم دفعنا له الثمن نفسه ، وباختصار ، فلقد أعاد دوزنة آلته على الشكل الذى كانت عليه فى البداية ، فركب الأوتار فى نفس المقام الذى وجدناها مدوزنة عليه ، وأيقنا أنها ليست النزوة ولا الصدفة هما اللتان أدتا الى ترتيب الأوتار على النحو الذى انتهينا من بيانه ، وانما الأمر ، هنا ، عكس ذلك ، أمر ائتلاف نغمى موروث ، ومحدد بعناية ودقة .

ولقد ظللنا لسنوات عدة ، دون أن يجول بخاطرنا أنا عاثرون على المبدأ الهارمونى الذى تأسس هذا السلم النغمى على أساسه ، بل لقد كنا أبعد من أن نفطن الى أن ترتيبا للنغمات ، بمثل هذه الغرابة والشذوذ يمكنه أن يتأسس على مبدأ ما ، وأن نرتاب بشكل خاص ، فى أنه قائم على المبدأ

الذى يشــكل قاعدة لنظــام الهارمونية للموســيقى القديمة ، بل كذلك ، لموسيقانا نفسها . ومع ذلك فقد كنا مرغمين للعودة الى هذا السلم النغمى الذى كانت غرابته الفائقة تستثير اهتمامنا دون انقطاع ، وكما لو كان الأمر قد تم على الرغم منــا ، فقد واتتنا رغبة عابرة ذات يوم لم نقصــد اليها ، لأن نحاول ما ان كان بمقدورنا أن نكشف عن النظام الهارمونى للنغمات التى يتألف على أساسها سلم أنغام هذه الآلة ، قائلين لأنفسنا : ما دام هذا السلم النغمى قد تحدد على هذا النحو ، وما دام — هو — ثمرة لتفكير طويل ، فلا بد أن يكون ترتيب نغماته بالضرورة متسقا مع مبدأ ما ، وصادرا عنه ، وحيث لا يمكن انسان أن يتصور منهجا أبسط وأكثر طبيعية من ذلك الذى كان الأقدمون يستخدمونه ، والذى نستخدمه نحن أيضــا ، ولكن بشكل عكسى ، فقد قمنا بتطبيق هذا المنهج على نغمات هذه الآلة ، فرتبنا من بين تلك التى تشكل فيما بينها رباعية تامة ، فحققت هذه المحاولة الأولى كل آمالنا ، وأعطتنا التقدم الهارمونى التالى ، وهو الذى قد جاء بالغ الانتظام ، ومطابقا بدقة لمبادىء الموسيقيين ، القديمة والحديثة على حد سواء .

مثــــال



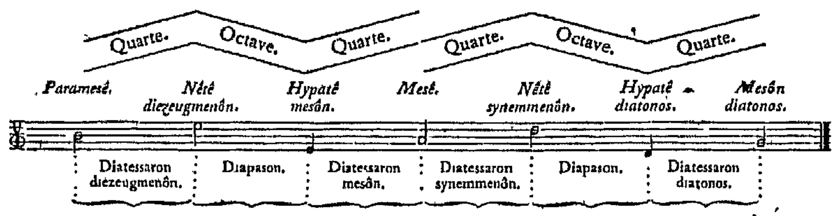
وأشرنا بالأســـود الى نغمة **ســول** التى ليس لها هنا قــط رباعيتها المقابلة حيث تجىء النغمة الخامسة ، فى هذا الائتلاف .

ومع ذلك ، فمع افتراض أن هذا الســـلم ناتج عن النظـــام المتبع فى الموسيقى القديمة [أى اذا لم يكن هناك ما يشير الى امكانية انبثاق هذا النظام عن الموسيقى الحديثة] فكيف اذن أمكن الأقدمين — كما قلنا لأنفسنا ، أن

يدخلوا الخماسيات اليه ، وهم الذين لم يكونوا ينظرون الى ائتلافات نغمية على هذه الشاكلة الا باعتبارها تناغمات غير مباشرة ، أو مقلوبة ، والذين لم يتقبلوها لا فى التركيب الهارمونى لنظامهم الموسيقى ، ولا فى الائتلاف النغمى لأية واحدة من آلاتهم الموسيقية ! لكن المثال السابق ، الذى كان يمثل أمامنا حين دارت برأسنا هذه الفكرة سرعان ما أخذ بيدنا نحو الوصول الى حل لهذه المشكلة ، بل لقد كان هذا الحل مشتملا ضمنا داخل سياق السؤال نفسه ، فحيث أن الخماسية هى مقلوب للرباعية ، فان الأمر لن يتطلب سوى أن نعود فيها على بدء (أى أن نقلبها) أى أن نستبدل بالنغمة الحادة ثمانيتها الغليظة كيما نستعيد هذه الرباعية ، وفى هذا نجد المنهج المألوف الذى كان الأقدمون يستخدمونه فى توليف آلاتهم الوترية وهو المنهج الذى لا يزال يتبعه العرب حتى اليوم ، والذى نتبعه نحن ، فى اتجاه معاكس ، والذى يعنى أن ننزل عن ثمانية النغمة المدوزنة أو أن نصعد اليها ، مع وضع هذه الثمانية فى ائتلاف مع النغمه السابقة عليها ، وبهذه الطريقة تشكل النغمة التى يكون عليها أن تردد الخماسية مع النغمة الحادة ، الرباعية مع الثمانية الغليظة التى لهذه النغمة الحادة نفسها ، وبذلك يؤدى هذا القلب (أو العكس) بهما الى تفادى ارنان الخماسية .

ولا يسلك العرب سلوكا مخالفا عند دوزنتهم لآلاتهم الموسيقية ، ويرجح أن يكون الأثيوبيون قد توصلوا الى تحديد نغمات سلم الكيصـار على هذا النحو ذاته ، فلا بد أنه قد كان لديهم ، بلا جدال ، هم أيضا ، آلة موسيقية اتخذوها قاعدة (أو مقياسا) للوصول الى ذلك ، أى قد كان لديهم **القانون** الخاص بهم والذى حددوا عن طريقه ، وبدقة ، العلاقات الهارمونية لنغمات ائتلاف هذه الفيثارة ، أما وقد تحددت هذه النغمات ، فاليكم كيف كان حتما عليهم أن يقيموا منها ائتلافا ، كى تتم دوزنتها بالتبادل ، فيما بينها ، مع
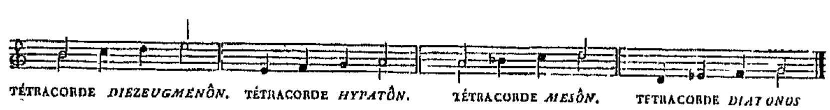
تفادى ارنان الخماسية ٠



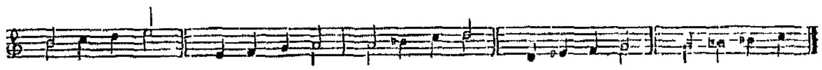
وترى من هذه الطريقة التى اتبعت فى توليف دوزنة الكيصار ، طبقا لمنهج الاغريق ، والذى هو نفسه منهج العرب ، أنه لا توجد هنا قط فاصلة خماسية ، وأنه لا توجد سوى رباعيات وثمانيات ٠

وتقابل كل واحدة من هذه الرباعيات واحدة من رباعيات المنهج الكامل عند الاغريق ، فالرباعية الأولى تقابل الرباعية الاغريقية المسماة **دييزوجمينون** diezeugmenôn ، الواقعة بين **البارامیسه** Paramesê وبين الـ **نيته دييزوجمينون** nêtê diezeugmenôn ، أما الرباعية الثانية فهى نفسها رباعية الثلاثية **ميسون** Mesôn ، الواقعة بين الـ **هيباته ميسون** Hypatê Mesôn والـ **ميسه** Mesê ، والثالثة هي رباعية الرباعية **سينمينون** Synemmenôn ، وأما الرابعة فهى رباعية الرباعية **دياتونوس** Diatonos ، وهى تماثل الرباعية الثالثة ، على نحو ما تماثل الرباعية الثانية ، الرباعية الأولى ٠

وهكذا تعطينا هذه الرباعيات ، اذا عبرنا عنها باشاراتنا الموسيقية ، مجموعات النغمات الآتية :



وهو ما يؤدى الى نشـأة أربعة مقامات متباينة ، ويتولد عن المقامين الأولين الخافضتان الأوليان ، فاذا ما واصلنا هذه المسيرة مع اضافة الرباعية التى فوق نغمه الـ **سـول** sol وهى الـ **أوت** ut فسـوف تعطى الرباعية الجديدة الخافضة الثالثة ، وتتكون لدينا المجموعات الخمس الآتية ، التى تتألف كل منها من أربع نغمات ، وهى التى انتظمت طبقا لنظام الهارمونية عند الاغريق :



ومع مواصـلة الأمر على هذا النحو ، دوما ، فان كل سلسـلة رباعية جديدة ، أى كل سلسلة تتكون من أربع نغمات تعطى خافضة جديدة زائدة ، هى التى تبدو داخل النظام الذى حددته مبادىء النظام الموسيقى عند كافة الشعوب ، وهكذا يتضح أنه ليست هى الصدفة ولا هى النزوة ، اللتين حددتا اختيار النغمات داخل السلم النغمى للكيصار ، ما دامت هذه النغمات قد انبثقت مباشرة عن المبـدأ الأسـاسى للهارمونية القديمة والجديدة على حـد سواء ٠

أما أن نفسر ، على وجه الدقة ، لمـاذا جاءت النغمـات داخل ائتـلاف الكيصار معدة أو مرتبة على هذا النحو الذى وجدناها عليه فى هذه الآلة ، فهذا أمر يبدو عسيرا علينا بالقدر الكافى، وان كنا نحدس أن الأمر لا يخلو من سبب يبتغى فائدة ما ، جعلت هؤلاء (الأحبـاش) يقلبون ، أو بالأحرى يهدمون ، النظام الهارمونى للنغمات ، ولسنا نرى سببا لذلك سوى الرغبة فى زيادة تيسير مصاحبة (القيثارة) للغناء ، وذلك بترتيب هذه النغمات بطريقة أكثر تماثلا للميلودى ٠

وسوف نلاحظ فى الوقت نفسه :

أولا : أن مســاحة النغمات فى هذا النوع من القينارات شبيهة تمام الشبه بنظيرتها فى آلة الرباب العربية ، وهى كما سبق لنا أن برهنا ، آلة يقتصر دورها على مصاحبة الانشاد والرواية الشعرية ٠

ثانيا : أن نغمات الكيصار لا تختلف عن نغمات آلة الرباب العربية الا فى أنهن أكثر حدة ، وأنهن يقابلن أو يوافقن النغمة الستة باتجاه الحاد من ثمانية **الوسط** من صوت **انتينور** ، وهو الصوت الأكثر طبيعية عند بنى الانسان كما أنه أكثر الأصوات شيوعا ٠ كذلك فانا نسترعى الانتباه الى أن الفاصلات الرئيسية التى تشكلها هذه النغمات ، فيما بينها ، هى تلك التى حددها الأقدمون فى الانشــاد الخطــابى عن طريق قواعد العروض(١) Prosodie أى ان هذه الفاصلات هى فاصلات الرباعية والخماسية ٠ وهنا ، فى الواقع ، تكون الفاصلات التى يعبرها الصوت حين يفصح عن فــكرة محددة المعانى بشكل قاطع ، سواء برفع الصوت اذا ما كان المتحدث ينقل فكرته لشخص آخر ، كما هو الحال عندما يستشير أو يسأل أو عندما يستدعى أو ينادى ، أو بخفضه اذا ما كان المتحدث يقطع برأى حاسم أو يصدر حكما باتا فى شأن أمر من الأمور ، ولهذا السبب كذلك فان الوقع النهائى لكل جملة يتم دوما مع خفض الصوت عن الخماسية ، ويبدو أن ائتلاف هذه الآلة قد وضع لهداية واطالة (الصوت) فيما كان القدماء يطلقون عليه : **ميلودى الخطابة** ، ولهداية (صوت) الشعراء عند انشادهم لأشعارهم ، أكثر مما وضع لمصاحبة غناء موسيقى ، وعلى هذا النحو كانت فائدة القيثارات القديمة ، وعلى هذا النحو أيضا كانت الفائدة المرجوة من القيتارة التى كان يستخدمها تلاميذ أورفيوس وديموكوس وترباندر ، عند انشادهم لأشعارهم ، ولا ينبغى ان يداخلنا فى ذلك ريب ٠

أما عن كيفية العزف على الكيصــار ، فان العازف يضعها فوق فخذه

اليمنى قريبا من البطن ، اذا ما كان جالسا ، أو يكتفي بأن يسندها الى بطنه اذا كان واقفا ، ثم يمرر ذراعه الأيسر بين السير - وهو معلق من طرفيه الى الرافعتين - والأوتار ، بحيث يتكىء المرفق فوق مؤخرة الطاس ، ويضمها بقوة أكبر الى بطنه بقوة ذراعه ، ونلمس الأوتار واحدا بعد الآخر بواسطة أصابع اليد اليسرى ، وينم ارنانها جميعا ، الواحد بعد الآخر على التعاقب طيلة كل الزمن* (النغمى) أو على الأقل أثناء مدة كل وزن · ولا يتبع نظام آخر في ترتيب هذه النغمات (عند العزف) سوى ما يمليه مزاج العازف(٢)، ويحك العازف كل الأوتار بيده اليمنى بشدة(٣) ، فى وقت واحد ، بواسطة الريشة ، داخل الوزن ، مع تحديد أزمنة الايقاع التى تكون تابعة لأزمنة الوزن ، دون أن تكون مماثلة لها بشكل مطلق ·

هـــوامش :

(١) لا تزال تراعى حتى اليوم ، قواعد العروض ، تلك التى قامت على أساس النبرة الطبيعية للصوت أثناء الحديث ، عند مطالعة دروس الصباح أو عند قراءة رســائل التقوى أو الأناجيل ، والتى ترتل بصوت عال أثناء القداس · ومع ذلك ، فحيث لم يعد يتم ذلك ، اليوم ، الا بفعل التعود ، ودون معرفة للمبدأ الذى قامت عليه ، فانها تتعرض لتشويه تأثيرها ، بذلك الأسلوب الحالى من المعنى ، والذى يتم به رفع الصوت أو خفضه · وهو - على كل حال - أثر ، غير معروف ممن يمارسونه ، لما كان يطلق عليه اسم الانشاد الخطابى ، احتفظ به بشكل ردىء ·

(٢) لسنا نتحدث هنا الا عما يحدث ، وليس عما يمكن أو ينبغى له أن يحدث ، لأن هذه الآلة التى تعود ، فيما يبدو لنا ، الى العصور بالغة القدم، لا يتم العزف عليها فى النوبة الا على أساس من اعتياد روتينى ، اما القواعد التى كانت تحكم استخدامها عند الأقدمين فلم تعد معروفة ، فى أى مكان ·

(٣) ليس هناك ما يعبر عن تأثير هذا الحك أفضل من كلمة **حرك** التى يستخدمها العرب للاشارة الى هذه الحركة ، أو الكلمة **محرك** ، وهى الصفة التى يشيرون بها الى الشخص الذى يحك الأوتار على هذا النحو ·

---

* الزمن ، جزء وزن اللحن ،

الباب الثاني

عن الآلات الهوائية أو آلات النفخ

الفصل الأول

عن الزمار المصري الذي يسمونه بالعربية زمر

أوزورف (١) كما يقول الفرس

المبحث الأول

حول الخلط الذى يسببه عادة تباين الأسـماء التى يطلقها المؤلفون على الآلات نفسها ، وحول امكانية تبديد هذا الخلط بخصوص أسماء الآلات القديمة ، وحول الأسماء المتباينة التى أطلقت على آلة الزمر

لعل ما يحير أكثر من غيره ، ويخدع - على نحو يكاد يكون دائما - أولئك الذين لا يستطيعون أن يستقوا معلوماتهم الا عن طريق الكتب حين يريدون القيام ببحوث حول الآلات الموسيقية ، هو تباين الأسماء التى يخلعها المؤلفون على الآلات نفسها ، ولسنا نلمس هذه الصعوبة عند قراءة المؤلفين المحدثين وحدهم ، فهذه الصعوبة تعلن عن نفسها بالمثل عند المؤلفين اللاتين والاغريق ، بل لعلنا نجدها عند هؤلاء أكثر شيوعا فهوميروس ، وهو أدق الشعراء عندما يصف لم يكن بدوره بالغ الدقة فى هذه النقطة ، اذ نراه يعطى القيثارة lyre أحيانا اسم **باربيتوس** barbitos وأحيانا أخرى اسم **فورمنكس** Phorminx وأحيانا ثالثة **كينيرا** Cinyra ورابعة اسم **خليس** Chelys وخامسة اسم **ليرا** Lyra ، **وكيثاريس** Kitharis ، ... الخ ، كما كان يطلق على الناى أحيانا اسم **اولوس** Aulos وأحيانا اسم **سيرنكس** Syrinx .

وفى الوقت نفسه ، ولا بد أن نكون فى ذلك على اتفاق ، فلو أن الباحث قد تحمل عناء أن يمحص بعناية كل هذه الأسماء المختلفة التى خلعها القدامى على الآلات نفسها ، وبحث فى اشتقاقاتها اللغوية ، أو فى المعنى الأصلى لها ، فان كل شيء ، سيتضح من تلقاء نفسه ، وسوف نرى أن الكلمات التى

أخذناها فى البداية ، على أنها أسماء أعلام ، ليست فى حقيقتها سوى صفات مستمدة اما من شكل الآلة ، واما من المادة التى صنعت منها أو من حجمها أو من امتدادها أو من أطوال أجزائها ، أو من طابع النغمة التى تصدر عنها ، أو من طريقة العزف عليها ، أو من الوظيفة التى تؤديها ، أو من البلد الذى نشأت أصلا فيه . ذلك أننا نستطيع أن نقول بشكل عام انه لا توجد فى اللغات القديمة ، لا سيما الشرقية منها ، اسم علم لا ينظر اليه كلفظ أوحد فى اللغة المكتوبة أو المنطوقة أو لا يمكن أن يكون له معنى فى الخطاب ، وهذا أمر معروف جيدا من جانب المستشرقين المتمكنين .

لكن الأمر ليس كذلك بخصوص الأسماء التى تخلع على الآلات الموسيقية المستخدمة فى أيامنا هذه ، عندما يكتب هؤلاء المؤلفون فى واحدة من لغاتنا الحيه ، ذلك أن هذه الأسماء لم تعد تبدو لنا سوى أسماء اصطلاحية لا تعنى فى حد ذاتها شيئا ، وليس لها من معنى فى اللغة المنطوقة أو المكتوبة، من حيث أن مثل هذه اللغة ليست سوى تجمع لبقايا لغات عديدة لم تعد موجودة ، وحيث تكونت هذه الأسماء الأعلام من هذه البقايا فى الوقت الذى لم يعد فيه المعنى الأصلى للكلمات التى تكونت منها ، بعد ، معروفا ، فان هذه الأسماء ، نتيجة لذلك ، ليست بكافية لكى تعطى فكرة محددة عن الشىء الذى تشير اليه ، ولم نكن نعرفه ، نحن مسبقا ، وهو الأمر الذى يؤدى لأن لا يكون الشكل الهجائى لهذه الأسماء محددا بشكل صارم ، ولأن يلفظها كل واحد وأن يكتبها على نحو مخالف . وقد عنينا ــ فى كل مرة واتتنا فيها الفرصة كى نفعل ذلك ــ بالعمل على ذكر الأسماء الأكثر شيوعا ، والتى تعرف بها آلة موسيقية بذاتها فى الشرق ، حتى ننأى عن الأخطاء التى تؤدى الى وجودها عادة هذه الكثرة (المتضاربة) فى الأسماء ، أو على الأقل ، حتى نجنب آخرين عناء أن توقف جهودهم هذه الأمور ، كما حدث لنا نحن

أنفسنا ، عند دراستنا لفن الموسيقى ، سواء عند القدامى أو عند المحدثين ٠

ولا يتفق كل المؤلفين الشرقيين حول اسم المزمار المصرى ، ولعل ليس هناك من يعطيه اسما له دلالته الا فى مصر ، وهذا الاسم هو **زمر**(٢) ، كما يلفظونه فى القاهرة ، ويعنى هذا الاسم فى العربيـــة أن دورها يقتصر على مصاحبة الغناء ، ومع ذلك فاننا لم نشاهد هـــذه الآلة قط وهى تستخدم مقترنة أو مصاحبة للغناء ، بل لا نعتقد أن من شأنها قط أن تستخدم فى هذا المجال ، بفعل النغمة الزاعقة ، والطنانة للغاية ، والخارقة للأذن ، التى تصدر عنها ٠ وتجىء كلمة **زمر** من الفعل **زمر** بمعنى : **غنى** ، ويقـال فى العربية **يزمر فى الآلة** أى يعزف على آلة موسيقية ، ومع ذلك فان الاســم الذى وجدناه بالغ الشيوع للمزمار المصرى ، وشـــديد التباين فى الوقت نفسه فى شكله الهجائى عند المؤلفين الشرقيين هو **زورنا** ، وهو اســـم أو كلمة لا تعنى فى حد ذاتها شيئا ، ويبدو الأمر وكأن كل واحد من هؤلاء المؤلفين قد شاء أن تكون له طريقته الخاصة فى اختيار الشكل الهجائى لهذه الكلمة ، أما الأشكال (الهجائية) المألوفة أكثر من غيرها ، والتى يقدمونها لنا تحت هـــذا الاسم ، فهى : **زرنى ، زرنا ، زورنى ، زورنا ، ظورنا ، سورنا ، سورناى ، صورناى**(٣) ٠

وفى الحقيقة فان تشابه هذه الأسماء فيما بينها ، مع تفاوته ٠ يدفع الأوربيين الذين يشتغلون بدراسة المؤلفات الشرقية الى الاقتناع بأن هـذه الأسماء المختلفة تنتمى الى آلة واحدة بعينها ، ومـــع ذلك فكيف يستطيع هؤلاء الباحثون أن يصنفوا هذه الآلة بدقة فى حين لا يجدون فى أية لغة ، أصلا للاسم الذى يطلق عليها ، وحين يضطرون الى التزود بهذا الأصل من الشروح الخاطئة التى يجدونها عنها فى معاجم المفردات التى يضعها بعض الرهبان أو المبشرين لمنفعة مواطنيهم ، أو فى بعض معاجم بعينها استعار

مصنفوها غالبية الكلمات التقنية ، ولا سيما الجزء الغالب للعدد الأكبر من الآلات الموسيقية من تلك المفردات التى وضعها هؤلاء الرهبان ، وهذا أمر لا مراء فيه • ولابد أن نستشعر كم كان عسيرا ، حتى ليكاد أن يغدو مستحيلا ، أن رجال الدين هؤلاء ، الذين ليست لديهم أدنى فكرة واضحة عن فن الموسيقى ، والذين لا يكادون يعرفون ، فى غالبية الأحيان ، أن يفرقوا بين الآلات الموسيقية فى بلادهم هم ، سوف يصيبون على الدوام عندما يترجمون الى لغتهم الأم أسماء آلات الموسيقى الشرقية • ولهذا السبب فلا تحظى جهودهم فى هذا الصدد بالاحترام ، وبسبب الحيرة التى كانوا يجدون أنفسهم فيها ، وعدم اليقين ، فانهم أطلقوا فى بعض الأحيان ، على آلة بعينها ، سواء باللاتينية أو فى لغتهم الأم ، ثلاثة أو أربعة أسماء متباينة تقدم دلالات لا يمكن التوفيق بينها ، مثال ذلك حين ترجموا اسم احدى الآلات الشرقية باسم الدف Tambour والبوق Trompette والقيثارة Cytara والصناج Cymbale وهكذا لا يعوزنا المزيد كيما يضل أولئك الذين لن يكون فى متناولهم سوى ما تقدمه مثل هذه المعاجم من عون ، فى البحوث التى يريدون القيام بها حول الآلات الشرقية •

ولو أننا كنا لا نزال فى الأزمنة الأولى التى ابتكرت فيها آلات النفخ ، حين لم يكن الناى يختلف عن البوق بشكل واضح ، كما يقال لنا(٤) لكان من العسير علينا أن نقف هنا على مثل هذه التفرقة ، لكن أولئك الذين يعرفون الآلات التى نتحدث عنها يدركون أن هناك فرقا ملموسا للغاية فيما بين الصفارة والناى ، وأن المزمار آلة موسيقية ذات بنية مختلفة ، وتنتسب الى نوع غير نوع الناى •

الهـــوامش :

(١) أنظر اللوحة CC الشكل ١ ٠

(٢) والجمع مزامير ٠

(٣) ومع ذلك فلدينا ما يحمل عـلى الظن بأن العرب لم يخلطوا قط بين **زورنا** أو **سورنا** وبين **الزمر** ، فحيث أننـــا لم نسمعهم قط فى مصر يطلقون اسم **سورنا** على أية آلة موسيقية ، فاننا لم نستطع بالتالى أن نفكر فى الحصول على معلومات حول هـــذا الموضوع ، ولم نعـلم الا من المسيو اربان Herbin ، فى باريس ، أن سورنا هـــو الاسم الذى كان غالبية المؤلفين الشرقيين يشيرون به ، بشكل معتاد ، وفى غالبية الأحيـــان ، الى المزمار المصرى ٠ ومع ذلك ، ففى مخطوطة وجـــدناها بالمكتبـــة الأمـــيريه Imperiale ، تضم دراسة عن الموسيقى عنوانها : رسالة فى علم الموسيقى من جملة رسائل اخوان الصفا ، وهى مخطوطة اقتبس منها المسيو اربان نفسه فقرات مطولة ، وكثيرة بالقدر الكافى ، نقرأ نصا يضعف بعض الشىء من شهادة هذا المستشرق الضليع ، جاء فيه :

« **وأما فنون أصوات الآلات فى المتخذ للتصويت كالطبول والبوقات والديادب والدفوف والربابى والسرناى والمزامير والعيـــدان وما شاكلها** » بمعنى : « أما بخصوص الخواص المختلفـــة للنغمات التى تنتجهـــا الآلات الموسيقية مثل تلك التى تصدر عن الطبول وآلات النفير والديادب » (هكذا يشـــار الى الآلات الموســـقية التى سنقوم بوصفها تحت اســـم **دربكة**) و « الدفوف » (وهى صنف من دفوف الباسك ـ أى ذات الجـــلاجل ـ) و « الرباب والسورناى والمزامير والأعواد وغيرها ٠٠ الخ » ، وهكذا نرى نحن فى هذا الحصر للآلات الموسيقية أن الزمر والسورناى (أو السرناى) ، اللذين ينبغى لهما أن يعنيا الشىء ذاته يشيران هنا الى نوعين مختلفين من الآلات الموسيقية ٠

ملاحظة : استرعى المسيو سلفستر دى ساسى أنظارنا الى أن كلمة اخوان الصـــفا لا تعنى **الاخوة صـــفا** على نحو ما ترجمها كثير من العلماء وانمـــا **اخـــوة الطهر أو النقاء** أى **الأصدقاء الذين يربط الاخلاص بينهم** ، ونتعرف فى هذه التسمية على جماعة من الفلاسفة والعلماء والمؤلفين ، قدموا احدى وخمسين رسالة ، فى كافة العلوم ، مما شكل موسوعة أو دائرة معارف ٠

كما نبهنا بالمثل الى أن كلمة **زورنا** ، والشكل الهجائى الصحيح لهـــا هو **سورناى** ، انما هى كلمة فارسية ، تتألف ، طبقا للمعاجم الفارسية من **سور** بمعنى الولائم أو أفراح العرس ، و **ناى** بمعنى النـــاى أو الفـــلاوت ، وهكذا تعنى هذه الكلمة الفارسية : **ناى الولائم** ، أى النـــاى الذى يعزفون عليه عند اقامة الولائم والأفراح ٠

(٤) أبوليوس Florid ، الكتاب الأول ٠ ونترك نحن للعلمـــــاء المدققين مهمة التوفيق بين ما يخبرنا به أبوليوس فى هذا الموضع ٠ وبـــين ما لاحظه هوراتيوس (هوراس) فى مؤلفه : فن الشعر ، البيت ٢٠٢ ٠

المبحث الثانى

حول ثلاثة أنواع من الزمر ، وحول الاسم الذى يطلق على كل واحد منها ، وحول آلة الزمر التى ينبغى أن ينتسب اسم الزورنا اليها ، وحول العلاقات التى تربط هذه الآلات فيما بينها والاختلافات التى تباعد بينها

توجد ثلاثة أصناف من الزمر : الكبير والوسط والصغير ، ويسمى الكبير **قبا** أو **قبا زورنا**(١) أى **الزمر الكبير** ، ويكتفى باطلاق اسم **زمر** فقط على الصنف الأوسط أو يطلقون عليه اسم **زورنا** ، ويشار الى الصغير باسم **جورى** أو **زورنا جورى** أى **الزمر الصغير** .

وحتى نوفق بين آراء المؤلفين الذين أطلقوا ، فيما يرى المسيو اربان ، اسم زورنا على ما يطلق عليه القوم فى مصر اسم زمر ، فان شهادة اخوان الصفا ، هؤلاء الذين ميزوا بين الزمر والزورنا ، بالاضافة الى ما قد عرفناه فى القاهرة ، يجعلانا لا نتصور شيئا آخر الا أن نفترض أن بعضا من الأنواع الثلاثة من الآلات التى أتينا على ذكرها قد عرف بشكل عام باسم **الزمر** ، فى حين أن بعضا آخر منها قد عرف بشكل خاص باسم **زورنا** ، واليكم السبب أو التفسير الذى وجدناه بعد استقصاء : فحيث لا يتكلم اخوان الصفا عن الزورنا الا بصيغة المفرد مستخدمين للاشارة الى آلة الزمر كلمة **مزامير** (جمع زمر) ، فلابد أن السبب ، على وجه الترجيح ، هو أنه توجد أنواع عديدة من الزمر ، فى حين لا يوجد سوى نوع وحيد من الزورنا أو السورنا ، وحيث اننا لم نر فى مصر سوى نوعين من المزامير يعرفان باسم الزمر : يشار الى أولهما فى القاهرة باسم **قبا** أو **الزمر الكبير** ، أما الآخر فيميزونه بالصفة **جورى** أو **جرى** أو يشيرون اليه باسم **الزمر الصغير**، فان بامكاننا أن نستنتج أن الزمر الوسط هو — على وجه التحديد ، الآلة

الموسيقية التى يشار اليها فى الشرق باسم **زورنا** ٠ وهو اسم أصبح يطلق - توسعا - وبالتالى ، على الصنفين الآخرين ٠

ومع ذلك فهذه الأصناف الثلاثة من الآلات الموسيقية هى مزامير من النوع نفسه ، لا تختلف فيما بينها الا فى تفاوت حجم وأطوال أجزائها ، واذ يظل شكل هذه الأجزاء هو نفسه فى كل هذه الآلات ، وعلى وجه الدقة ، فلسوف يكون تزيدا لا طائل من ورائه أن نقدم رسما لكل منها ، ولن تكون لدينا ، بالتالى ، حاجة لأن نفرق بينها عند وصفها ، اللهم الا حين يتصل بتعريف الأطوال الخاصه لكل منها وكذلك عند الحديث عن وزن أو معيار نغماتها ، وهو الأمر الذى يميز وحده هذه الأصناف من آلات الزمر ، فيما بينها ٠

الهوامش :

(١) لم نلحق هنا بالكلمة **زورنا** الصفتين **قبا** و **جورى** اللتين يستخدمهما المصريون للتفرقة بين الزمرين الكبير والصغير ، الا لأن المسيو أوجست اربان قد أشار ، على هذا النحو ، الى أنواع الزمر المختلفة عندنا ، عندما كتب أسماءها فوق الرسوم التى تفضل برسمها لهذه الآلات اكراما لخاطرنا ، ذلك أنه كان يضيف الى كل معرفته بها موهبة رسمها بشكل مكتمل ، ومع ذلك فيبدو لنا أنه كان يجهل كلية هذه الصفات قبل أن نقوم بتعريفه اياها ، فهى لا توجد فى أى من الرسائل حول الموسيقى العربية التى جلبناها معنا من مصر ، كما أننا لم نلقها فى دراسات الموسيقى التى ترجمها المسيو أوجست اربان ، سواء عن العربية أو عن التركية أو عن الفارسية . وفى واحد من مخطوطاته ، التى جمع فيها ألفاظ الموسيقى الشرقية التى ألم بها - اذ كان يعنى دوما بوضع الحرف الأول من اسم المؤلفين أو الأشخاص (من العامة) الذين يدين لهم بمعرفته بهذه الألفاظ - وجدناه يضع الصفتين قبا وجورى تحت الحرف الأول من اسمنا وهو حرف V ، وفى الواقع فان هاتين الكلمتين تشكلان جزءا من قائمة أسماء آلاتنا العربية ٠ والتى سلمناه اياها مع مفكراتنا عن الموسيقى العربية ، تلك التى نسخها بالمثل ، واحتراما لذكراه التى ستظل عزيزة علينا على الدوام ، فاننا لم نشأ أن نستبعد هاتين الصفتين ، اللتين لم نكن لنتركهما على الرسوم ، لو كان متاحا لنا أن نرجع اليه (ذلك أن المنية كانت قد وافته) عند تقديم هذا الوصف ٠

المبحث الخامس
عن الائتلاف النغمي في العود
وعن ضبط نغماته ، وعن نظامه الموسيقي

سوف يكون الأمر بالمثل عسيرا ، طويلا ومرهقا ، لو أننا حاولنا تفسير الوضع الفريد الذى تأخذه أوتار العود ، وكذا توضيح ترتيب النغمات التى تكون ائتلافه النغمى ، دون أن نستعين بصورة تجعل من هذا كله أمورا محسوسة تدركها العين . ولهذا السبب ، فقد ظننا أنه قد كان من الاوفق أن نقدم هنا رسما للبنجاك وللاوتار بالاضافة الى اشارة للنغمات التى تحدثها .

أما الأرقام التى وضعناها بين العصافير ، والاشارات الموسيقية الواقعة قبالتها على جانبى البنجاك فتدل فى الوقت نفسه على وضع الأوتار المربوطة الى العصافير والترتيب الذى تشغله فى التآلف النغمى لآلة العود وكذا الأنغام التى يأتى بها كل واحد من هذه الأوتار . وحتى نمكن القارىء من تصور ميكانيزمات التآلف النغمى بشكل أكثر وضوحا فقد أطلنا خطوط الأوتار عن طريق خطوط أخرى من النقط . وفى نهاية هذه الخطوط ، كررنا مرة أخرى الرقم الموافق للترتيب الذى تشغله النغمة التى يحدثها الوتر والتى عبرنا عنها بنوتة أو اشارة التآلف التى ترى أسفل البنجاك ، وبهذه الطريقة فان العين تستطيع أن تسترشد بهذا الرسم فى تتبع الأمر بدءا من المكان الذى يربط فيه الوتر بالعصفورة ، حتى الأنف التى يتخذ عنده الوتر الوضع المخصص له ، حتى تصل الى اشارة النغمة التى يحدثها الوتر .

ويمثل الشكل التالى البنجاك بأوتاره ، مصحوبا بالنوتات أو الاشارات الموسيقية المرتبطة بالأوتار ، وبالنغمات التى تحدثها هذه

للآلة ، كما تستخدم فى تنويع نغماتها ، وهى تسمى فى العربيـــة **قول** ، وبدءا من الموضع الذى يأخذ فيه قطر الجزء السفلى من الأنبوب فى الاتساع بشكل ملموس(١١) ، لكى يشكل باتساعه شكل قمع مقلوب ، نطلق نحن عليه أسم فتحة البوق P (١٢) . وأعلى النقطة × بقليل ، وفى الاتجـــاه نفسه الذى تتخذه الثقوب السبعة O ، توجد ثلاثة ثقوب صغيرة أخرى OP تتباعد عن بعضها البعض بمسافات متساوية ، ويوجد عــلى جانبى الثقوب الثلاثة الأخيرة OP ، ناحية اليمين وناحية اليسار ، وبشكل مواز لهـــذه الثقوب ، ثقبان مماثلان OO : يقابل أولهما أول هذه الثقوب الثلاثة ، أما الثانى فيواجه الثقب الأخير منها(١٣) .

وتتشـــكل الرأس أو **الفصل** b ، **والرقبة** q من قطعة واحدة من خشب البقس(١٤) ، ويتزايد قطر الرأس b الذى يكسو أسفله (أســفل الرأس) السطح الخارجى للأنبوب ، قليلا وتنتهى بمـــا يشبه قلنسوة أو وصلة* (١٥) ، وحيث تخصص الرقبة q للدخول فى جسم الآلة ، عــلى نحو ما نرى فى الشكل رقم ٣ ، فان قطرها بالضرورة أصـــغر من قطــر الرأس ، وهى (الرقبة) تشـــكل أنبوبا أكثر ثخانة عند أعلاه عنه عنــد أسفله(١٦) ، وهو مقور من الأمام أكثر مما هو مقور من الخلف(١٧) ، ولولا ذلك لكان قد أقفل أول الثقوب الأمامية الســبعة وكذا الثقب الثامن الموجود على السطح أو الجانب المقابل وهو أقل ارتفاعا(١٨) من الثقب السابق .

وأما البوقال d أو **اللولبة** فأنبوب صغير من النحاس(١٩) ، يمضى مستدقا بشكل تدريجى من أسفل الى أعلى . ويدخل الجزء الســفلى منه فى الرقبة q بعد أن يكون قد مر بالرأس b ، من طرف لآخــر ، وينبغى أن

---

* شريط من اللباد أو المطاط أو الورق يوضع عند شقوق الأبواب أو النوافذ لمنع تسرب الهواء البارد ، وعلى هذا فيمكن تصور وظيفتها هنا . (المترجم)

يكون هذا الجزء سميكا بالقدر الكافى حتى يملأ بشكل تام الجزء من قناة الرقبة الذى يجتازه ، وحين لا يكون سمكه كافيا لاحداث ذلك فانهم يخشنونه بخيط أو مشاقة ، أما الجزء الآخر من هذه البوقال ، الذى يرتفع الى ما فوق الرأس b ، فيبدو منقسما الى جزئين بفعل جزء ناتىء T ، دائرى الشكل ، مسطح من أعلى . محدب من أسفل ، يوغل فى هذه البوقال ، ممتدا ، مع ارتفاعه الى أعلى(٢٠) مع استمرار تناقص طول قطره بشكل تدريجى .

لكن الحلقة الصغيرة المسماة بالعربية **صدف مدور** فصفيحة أو لوحة مستديرة(٢١) من العاج والأبنوس أو من خشب جاف متين من أى نوع ، ويخترقه عند وسطه ثقب يمرر فيه ، من طرف لآخر ، الجزء العلوى من البوقال b، حتى جزئه الناتىء حيث يتوقف مصدودا(٢٢) .

أما اللسان V والمسمى فى العربية **قشة**(٢٣) فطرف أنبوب من قش الذرة(٢٤) ، وقد سطح من أعلى على شكل مروحى ، فى حين يظل يحتفظ فى جزئه الأدنى بشكله الطبيعى(٢٥) ، وفى هذا الجزء من القشة أو اللسان يدخل الطرف الصغير من البوقال ، الذى تضم اليه القشة أو اللسان لأضيق قدر مستطاع بواسطة خيط(٢٦) ، يلف عدة لفات ، حتى لا يدع فرصة لمرور الهواء بين جدران هذه القشه أواللسان ، وحتى لا تستطيع النفخة التى ينفخها العازف فى اللسان أن تجد لنفسها مخرجا سوى ذلك الذى تتيحه لها قناة البوقال d وقناة الرأس b والرقبة q ، وفى النهاية ، قناة جسم الآلة A .

الهـــوامش :

(١) انظر اللوحه CC الشكل رقم ١ ٠
(٢) انظر الأشكال أرقام ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ٠
(٣) الأشكال ١ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ٠
(٤) الشكل رقم ١ ٠
(٥) الأشكال ١ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ٠
(٦) الشكلان ١ ، ٢ ٠
(٧) الشكلان ١ ، ٢ ٠
(٨) الأشكال ، ١ ، ٢ ، ٣ ٠
(٩) الشكلان ١ ، ٢ ٠
(١٠) الشكل رقم ٣ ٠

ويجعلنا هذا القطع الطولى الذى فى أعلى الزمر ، نلمح المعب الذى نحن بصدد الحديث عنه ، كذلك اندماج الرأس b بالرقبة q التى تدخل فى جسم الزمر ، كما سنشرح بعد قليل ٠

(١١) الشكلان ١ ، ٢ ٠
(١٢) شرحه ٠
(١٣) شرحه ٠
(١٤) الأشكال ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ٠
(١٥) اللوحة CC ، الأشكال ١ ، ٣ ، ٥ ٠
(١٦) الشكل ٥ ٠
(١٧) الشكلان ٣ ، ٥ ٠
(١٨) الشكل ٣ ٠
(١٩) الأشكال ١ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ٠
(٢٠) الأشكال ١ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ٠
(٢١) الشكل رقم ١ ٠
(٢٢) شرحه ٠
(٢٣) الأشكال ١ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ٠ ويسمى هذا اللسان كذلك فى العربية **سيسى** ، وان لم يكن هذا الاسم مستخدما فى مصر ٠

(٢٤) الذرة العويجة ، نوع من نبات الذرة قلما يزيد حجم حبته عن حبة البيقـــة ، ويزرع هذا النبات فى مصر ، وتؤكل حبوبه اما مسلوقة أو مشوية ، ويصنع منه الدقيق والخبز ، ويتخذ منه سكان الصـــعيد الأعلى والنوبيون الذين يقطنون حول الجندل الأول طعامهم الرئيسى بل الأوحد ، وهو يستخدم كذلك ، فى مصر السفلى ، لاطعام الدواجن ، وهو مناسب لها كغذاء ويؤدى الى زيادة بيضها ٠

(٢٥) الشكل رقم ٧ ٠ ويمثل هذا الشكل القشة بحجمها الطبيعى ، أما الشكلان ٩ ، ١٠ فيمثلان القشة منظورا اليها من الجانب (بروفيل) ، كما أن الشكل ٨ يمثلها ، منظورا اليها من ناحية فمها ٠

(٢٦) أنظر الأشكال ٧ ، ٩ ، ١٠ ٠

المبحث الرابع

حول أطوال الأجزاء السابقة بالنسبة لكل صنف من المزامير ، من أحجام مختلفة

حيث قد شعرنا ، نحن أنفسنا ، كم أن رسما أو صورة ما قد توحى بقدر ضئيل للغاية من النفع عندما يكون موضوعها مجهولا ، ولم يقدم عنها (أو عنه) تفسير كاف ، فقد ظننا أن علينا ألا نتسبب ، اهمالا من جانبنا ، فى حدوث سوءة مماثلة ، عن طريق تقـديمنا لرسوم الآلات الموسـيقية المستخدمة فى مصر ، فقد بذلنا فى الأوصاف التى قدمناها عنهـا ، كل عناية لتقديم أفكار دقيقة ومفصلة يمكنها ، بسهولة ، أن تعين كـل قارىء على تصور فكرة دقيقة وكاملة لـكل ما يشكلها فى مجملها ، وعن المـادة ، والكيفية أو درجة المهارة التى صنعت بها ، وطريقة استخدامها ، والغرض منها ... الخ ، ومع هذا فقد شعرنا كذلك أنه ، ان لم يتوقف اخلاصنا فى تقديم بيان عن كل التفاصيل عند النقطة التى يشبع عندها القارىء فلا يعود يتطلب أى شىء ، واذا ما ظللنا نلح فى دأب لاعطـاء تفسيرات يسـتطيع — هو — بسهولة أن يكون فى غنى عنها ، فاننا قد نتسبب بذلك فى املاله وتكدير صفوه ، ونتيجة لذلك فقـد تحاشـينا حتى الآن ، وعـلى قدر استطاعتنا ، أن نقدم تكرارات لا طائل منها ، بل لقد أعفينا أنفسنا من أن نصف كل ما هو ميسور للقارىء أن يحدسه ، ولسوف نفعل الشىء نفسه بخصوص آلة **الزمر** بأحجامها المتنوعة ، فلن نقدم سوى أطوال أجزاء أكبر هذه الآلات ، وأصغرها كذلك ، حجما ، اذ يكفى كل من هذين — فى حـد

ذاته ـ لتحديد نسب وأبعاد وأحجام آلة الزمر الوسطى ، تلك التى ينبغى لها أن تشغل موضعا وسطا بين أطوال النوعين الآخرين .

يصل امتداد طول جسم القبـا A أو الزمر الكبير ، بما فى ذلك الرأس b الى نحو ٥٨٣ مم(١) ، ويبلغ طول هذين الجزئين فى الزمر الجورى أو الصغير بالامتداد نفسه ـ أى الجسم بما فيه الرأس ـ ٣١٢ مم(٢)، أما طول الجسم وحده ، أى غير مشتمل على الرأس b فيبلغ ٥٥٨ مم فى الزمر الكبير(٣) أما فى الزمر الصغير فان الامتداد الطولى للجسم وحده يصل الى ٢٩٠ مم(٤) ، ويبلغ القطر الأصغر لجسم الزمر الكبير A ، أى طول الجزء y تسعة وعشرين ملليمترا(٥) ، فى حين أن طول القطر الأوسط ، أى قطر القمة العلوية التى تتصل مباشرة بالرأس b يبلغ كذلك تسعة وعشرين ملليمترا(٦) ، ويصل أكبر قطر له وهو قطر فتحة البوق P الى ٩٠ مم(٧) ، أما فى الزمر الصغير فيبلغ قطر الجزء الأصغر من الجسم A ، أى قطر الجزء y أربعة عشر ملليمترا(٨) ، فى حين يصل قطره الأوسط ، أى قطر القمة العلوية ، تلك التى تتصل مباشرة بالرأس b الى ستة عشر ملليمترا(٩) ، ويبلغ طول أكبر أقطاره ، وهو قطر فتحة البوق P ٦٣ مم(١٠) .

ويميل سمك خشب قناة أو أنبوب الزمر الكبير الى التناقص تدريجيا فى كل امتداد طول الآلة ، أى من الرأس b حتى أقصى اتساع لفتحة البوق P ، فيبلغ هذا السمك بالقرب من الرأس b سبعة ملليمترات(١١)، ويبلغ خمسة فقط عند نهاية فتحة البوق P ، ويبدو أن سمك الخشب فى الزمر الصغير ، بكل طول امتداد القناة أو الأنبوب يظل على حاله ، فى حدود ملليمترين(١٢) ، أو أن التفاوت فى هذا السمك ، على امتداد طول الأنبوب ، لا يستحق أن يذكر .

وتكون فتحة قنـــاة الجسم A عند القمة العلوية المتصلة مبـــاشرة بالرأس b ، وكذلك الثقب الذى تدخل منه الرقبة q الى هذه القناة أو الأنبوب ، مستديرين ، ويبلغ القطر فى كليهما خمسـة عشر ملليمترا فى الزمر الكبير ، وأربعة عشر في الزمر الصغير ٠

ويصل قطر فتحة البوق P الى ٨٠ مم فى الزمر الكبير ، ويصل طول قطر هذه الفتحة نفسها فى الزمر الصغير الى ٥٩ مم ٠

أما الثقوب الكبيرة O ، والتى أحدثت بمقـــدمة الجسم A وكذلك الثقب المعمول على الوجه المقابل ، فوق التلم الدائرى y ، فهى جميعا ذات قطر موحد الطول ، يبلغ ثمانية ملليمترات ، ويبتعد كل واحـــد منها عن الآخر بـ ٣٦ مم فى الزمر الكبير(١٣) ، فى الوقت الذى تبلغ فيـه المسافة بين كل واحد من الثقوب المناظرة فى الزمر الصغير خمسة عشر ملليمترا(١٤) مع بقاء أقطارها جميعا مساوية لأقطار نظائرها فى الزمر الكبير ٠

أما الثقوب الثلاثة الصغيرة oo الموجودة على المقدمة وأسفل الثقوب السابقة ، عند النزول نحو فتحة البوق P فلا يزيد قطر الدائرة فيها ، فى الزمر الكبير على ٤ مم وتبلغ المسافة التى تفصل بينهـــا ٣٧ مم(١٥) ، وفى الزمر الصغير نجد نفس القطر لهـــذه الثقوب ذاتها ، وتفصل بـين أحدها والآخر مسافة ١٩ مم(١٦) ٠ أما الثقبان الآخران oo الموجودان كل منهما على جانب ، وباتجاه مواز للثقوب السابقة فلهما نفس القطر كذلك ، وتفصل بين أحدهما والآخر مسافة ٧٧ مم فى الزمر الكبير و٤٢ مم فى الزمر الصغير ٠

ويرتفع الرأس b فى الزمر الكبير الى خمســة وعشرين ملليمترا ، ويبلغ طول أوسع أقطار محيطها خمســة وثلاثين ملليمترا(١٧) ، أما رأس الزمر الصغير فتعلو بأربعة عشر ملليمترا ، ويبلغ قطر أوسع محيط لهـا ١٨ مم(١٨) ٠

ويصل طول رقبة الزمر الكبير q الى ١٢٦ مم ، وتعلو الثلمة الكبرى فى جزئه الأمامى(١٩) بنحو ٧١ مم ، وتتسع فتحة هذه الثلمة بنحو ستة ملليمترات ، أما ثلمته الصغرى n ، فى الجانب المقابل فتعلو بنحو ٥٠ مم، أما اتساع هذه الثلمة الصغرى فهو نفس اتساع الثلمة الكبيرة(٢٠) ، ومن جهة أخرى فان طول الرقبة فى الزمر الصغير q يصل الى ٢٦ مم ، أما ثلمته الكبرى من الأمام فتعلو بمقدار ٣٢ مم ، ويبلغ اتساع فتحتها ستة ملليمترات ، وهو نفس اتساع ثلمة الزمر الكبير ، وأما ثلمته الصغرى فتبلغ ٢٣ مم ، ويبلغ اتساع فتحتها الاتساع نفسه الذى للفتحتين السابقتين .

ويبلغ القطر m لتخانة الأنبوب الذى يشكل الرقبة q فى الزمر الكبير نحو سبعة عشر ملليمترا ، عند أسفل الرأس b مباشرة(٢١) ، فى حين يبلغ قطر الطرف الأدنى من هذه الرقبة q ، أى الطرف الذى تنتهى اليه قرون ثلماتها ، سبعة ملليمترات(٢٢) ، وفى الزمر الصغير ، يصل قطر الرقبة q عند النقطة m ، أسفل الرأس b مباشرة ، الى ستة عشر ملليمترا ، وفى الطرف المقابل ، أى فى ذلك الطرف الذى يشكل نهاية لقرون ثلماتها ، يصل طول القطر الى ٧ مم(٢٣) وتدخل العنق q بأكملها ، سواء فى الزمر الكبير أو الصغير ، من فتحة قناة أو أنبوب الجسم A حتى الرأس b ، التى يخترقها عند قمتها ثقب دائرى يبلغ قطره أحد عشر ملليمترا فى الزمر الكبير ، وعشرة ملليمترات فى الصغير ، وعن طريق هذا الثقب يدخلون كذلك الجزء الأدنى من البوقال d (٢٤) الذى يمتد حتى داخل قناة أو أنبوب العنق q (٢٥) .

ويصنع البوقال d من النحاس ، ويسمونه فى العربية **لولبة** ، وقد وصفنا من قبل شكلها ، وهى فى الزمر الكبير أكبر منها فى الزمر الصغير ،

ويبدو أنهم ، فى الطول الذى اعتادوا أن يعطوه لهذا الجزء ، يتبعون نسبة متصاعدة تتوافق مع الأحجام ، ســـواء فى الزمر الـكبير أو المتوســط أو الصغير ، أو أن هذا ، على الأقل ، أمر مرجح ، طبقا للتعريفات التى زودنا بها الموسيقيون المصريون الذين رجعنـــا اليهم ، بخصوص هـــذه الآلات الموسيقية ، وهذه نصوص عباراتهم :

لولية القبا طويلة ، لولية الزمر أطول من الجـورى ، لوليـة الجـورى قصيرة ·

ومن الواضح أن لهذا الجزء الصــغير من الآلة ، الذى قد يبــدو لأول وهلة فى غير ما حاجة لأن يكون خاضعا لتناسبات دقيقة ، نسبا وامكانات تتحدد على أساس سعتها ، وهكذا لم يكن سدى أننا قد عرفنا بها ·

أما البوقال d للزمر الكبير فأنبوب صغير من النحــاس ، جــدرانه شديدة الرقة ، ويصل ارتفاعه الى ١١٣ مم ، ولقناته أو أنبوبه ، التى يمضى قطرها مستدقا بشكل تدريجى من أسفل الى أعلى ، فتحة يبلغ اتســـاعها سبعة ملليمترات عند طرفها الأدنى ، وثلاثة عـــند الطرف المقابل(٢٦) · ويعلو البوقال d فى الزمر الصغر الى ٥٩ مم ، ونبلغ فتحة الأنبوب من أسفل ستة ملليمترات ، أما من أعلى فنجد سعة هذه الفتحة ممــاثلة لسعه نظيرتها فى الزمر الكبير(٢٧) ·

ويبلغ قطر الحلقة الصغرة (**الصدف المدور**) واحدا وأربعين ملليمترا ، وهى مثقوبة عند وسطها بثقب يصل اتساعه الى نحــو ٤ مم ، وعن طريق هذا الثقب يتم ادخال كل الجزء من البوقال الذى يعلو فوق الجزء النــاتىء حيث تتوقف هذه الحلقة(٢٨) ·

أما القشة أو اللسان فهى نفسها فى كل صــنوف المزامير مهمــا يكن

حجمها ، ويبلغ ارتفاعها (طولها) ستة عشر ملليمترا(٢٩) ، وطرفها الأدنى أسطوانى الشكل ، ويبلغ طول قطر فتحتها أربعة ملليمترات من أسفل ، وُبدءا من النقطه التى تأخذ فيهــا الفشة شـــكلها المسطح ، وحتى الطرف العلوى ، يظل هذا التسطح يمتد على قدر المستطاع ، وتظل الفتحة تضيق وتضيق فى اتجاه ، وتمتد محتفظة بالبعد نفسه فى الاتجاه الآخر ، بحيث يمكننا القول بأنه ليس لها سوى بعد أو طول واحد هو الموجود باتجـــاه الجزء المسطح منها ، ويبلغ هذا البعد عند الطرف العلوى ثلاثة عشر ملليمترا وعن طريق هذا الجزء المسطح من القشه يقوم العازف بالنفخ فى آلة الزمر التى يعزف عليها .

الهـــوامش :

(١) اللوحة CC الشكل ١ (وتنتمى كل الأشـكال هنا الى اللوحة نفسها) .

(٢) الشكل رقم ٢ .
(٣) الشكل رقم ١ .
(٤) الشكل رقم ٢ .
(٥) الشكل رقم ١ .
(٦) الشكل رقم ١ .
(٧) الشكل رقم ١ .
(٨) الشكل رقم ٢ .
(٩) الشكل رقم ٢ .
(١٠) الشكل رقم ٢ .
(١١) الشكل رقم ١ .
(١٢) الشكل رقم ٢ .
(١٣) الشكل رقم ١ .
(١٤) الشكل رقم ٢ .
(١٥) الشكل رقم ١ .
(١٦) الشكل رقم ٢ .
(١٧) الأشكال ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥
(١٨) الأشكال ٣ ، ٤ ، ٥ .
(١٩) الشكلان ١ ، ٥ .
(٢٠) الشكل ٥ .
(٢١) الشكلان ٣ ، ٥ .
(٢٢) الشكل رقم ٣ .
(٢٣) الشكل رقم ٥ .
(٢٤) الأشكال ١ ، ٤ ، ٥ .
(٢٥) الشكل رقم ٤ .
(٢٦) الشكل رقم ٤ .
(٢٧) الشكل رقم ٦ .
(٢٨) الشكل رقم ١ .
(٢٩) الأشكال ١ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

المبحث الخامس

حول طريقة العزف على المزمار ، وحول جدوله الموسيقى ، وحول تنوع ومساحة نغماته

على الرغم من أن الزمر يعد آله موسيقية من نوع مزمارنا نفسه ، فاننا لن نتوصل للعزف عليه بنجاح ، اذا ما شئنا أن نفعل ذلك ، بالطريقة نفسها التى نتبعها مع مزمارنا ، اذ يختلف فم وملمس المزمار المصرى تمام الاختلاف عن نظيريهما فى مزاميرنا ، فليست الشفاه هنا هى التى تضغط على القشة ، اذ أن هذه القشه رخوة للغاية وليفية لأكثر مما ينبغى وتنقصها المرونة بشكل تام ، ولذلك فمن السهل لها أن ترتخى تحت ضغط الشفاه ، وبدلا من أن تتردد أو تهتز (محدثة النغمة المطلوبة) ، فانها تقفل تماما دون أن تدع ممرا لنفخة العازف .

وعند العزف ، يدخل العازف فى فمه ، كل جزء البوقال d (١) الذى يوجد اعلى الصدف المدور(٢) ولا يكتفى بادخال القشة وحدها ، ثم يضغط بشفتيه على هذا الجزء من البوقال مع نفخ وجنتيه اللتين تستندان (احداهما) بشدة الى الصدف المدور ، مما يؤدى الى الضغط على انتفاخهما ، وهو أمر يؤدى بدوره الى زيادة دفع الهواء الذى تمتلئان به ، مما يعطيه المزيد من قوة الاندفاع ، وبرغمه على أن يلتمس لنفسه منفذا ، لن يكون سوى فتحة القشة التى يلمسها لسان العازف برقة ، لمسا خفيفا ، فيمضى من هناك ليمر فى البوقال d (٣) الذى ينقلها ، بدوره كذلك ، الى

الجزء q (٤) الذى أطلقنا عليه اسم **الرقبة** ، ومن هناك يواصل اندفاعه الى جسم الآله الموسيقية A (٥)

كذلك فلن ينوصل العازف الى اقفال كل الثقوب المستخدمه كملامس للزمر لو أنه لم يستخدم سوى السلاميه الأولى من أصابعه ، على نحو ما نفعل نحن عندما نعزف على آلات المزمار أو النای (الفلاوت) أو الكلارينيت ، أو أية آلة نفخ أخرى ذات ملامس ، ذلك أن ثقوب الناى الكبير تتباعد ، الواحد منها عن الآخر بمسافه لا يستطيع العازف معها أن يباعد بين أصابعه لغير ما حد ، كيما يبلغ هذه الثقوب، بقصد أن يتمكن من اقفالها بشكل جيد ، وفى مثل هذا الوضع يكون من المستحيل تنى الأصابع عند المفاصل وتدويرها ، اذ أن هذه الأصابع محكومة بطولها ، بالضرورة ٠

ومع ذلك فان العازف لا يضطر لبسط أصابعه على هذا النحو لأن ثقوب الزمر الكبير بالغة البعد بعضها عن البعض الآخر ، وانما السبب فى ذلك أن من عادة المصريين أن يوقعوا أو يلمسوا آلاتهم باقفال ثقوبها بالسلامية الثانية من أصابعهم ، فأما والحال هذه ، وحيث أنهم مضطرون من أجل ذلك لأن يبسطوا أصابعهم بكل طولها ، (وهو الأمر الذى قد لا يضطرون اليه اذا ما لمسوا الثقوب بالسلامية الأولى) ، فقد وجد هؤلاء أن من الأوفق أو من الأنسب للنظر أن تكون هذه الثقوب موزعة على هذا النحو ، بطول جسم الزمر الكبير ، اذ على الرغم من أن للمزامير الأخرى وكذا لغالبية آلات النفخ عندهم ، التى تلمس بالأصابع ، ثقوبا قريبة الى بعضها البعض بالقدر الكافى ، فانهم مع ذلك لا يقفلون هذه الثقوب الا بواسطة السلامية الثانية من أصابعهم ، وعلى ذلك ، فهذه الطريقة فى لمس الآلات الهوائية أو آلات النفخ ، طريقة خاصة بهم وحدهم ، لم تدع اليها ضرورة نابعة من شكل هذه الآلات عندهم ، أو من طريقة توزيع ثقوبها ٠

ولكى يتم العزف على الزمر ، يمسك العازف الآلة باليد اليمنى ، مع اقفــال :

١ ــ النقب الواقع الى الخلف ، على الخط « ٦١» بالســلامية الأولى من الابهام ٠

٢ ــ أول الثقوب السبعة الأمامية بدءا من أعلى الآلة ، بالســـلاميه التانية من السبابة ٠

٣ ــ التفب التانى من هذه الثقوب بالسلامية الثانية من الوسطى ٠

٤ ــ الثقب التالث منها بالسلامية النانية من البنصر ٠

نم بواسطة السبابة والوسطى والبنصر والخنصر من اليــد اليسرى ، يقفل العازف الثقوب الأربعة الأخيرة بهذا الترتيب ، وان يكن آخر هـــذه النقوب الأربعة لا يقفل الا بالسلامية الأولى من الخنصر ٠

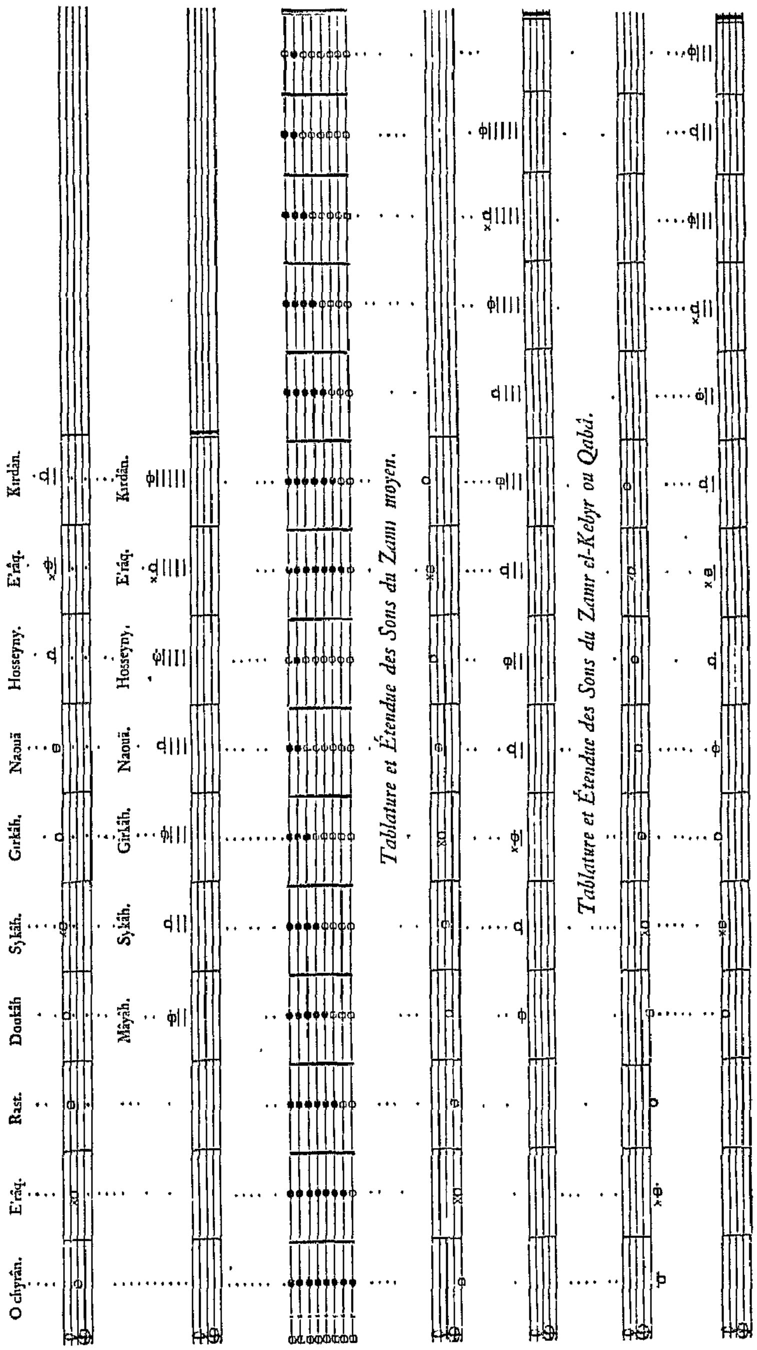
وبعد أن تهيأ الأصابع على هذا النحو ، وبعد أن ينم اقفال النقوب على التعاقب من أسفل الى أعلى ٠ ومع بث النفخة بقوة متصـــاعدة ، يستطيع العازف أن يستخلص من آلته أكثر من ثمانيتين من النغمات كما سوف نرى فى السلم النغمى الناتج عن ملمس هذه الآلة ٠

وسواء أكان العزف يتم على الزمر الكبير أو الأوسط أو الصغير ، فان طريقة لمس النقوب واحدة فى كل هذه الحالات ، وانما النغمات وحدها هى التى تختلف ، وان تكن تتعاقب بالترتيب نفسه ، وفى علاقات متماثلة ، ولهذا السبب ، فان المرء اذا عرف كيف يستخدم ملامس واحــد من هــذه المزامير الثلاثة فسيعرف كيف يستخدم ملامس الصنفين الآخرين ٠

وسنقدم هنا الجدول النغمى للملامس الجورى ، وسنقابل به الجـــدول

النغمى للمزمارين الآخرين ، فعلى الزمر الجورى هذا عر ا الجـدول النغمى للمزامير على يد الموسيقى الذى طلبنا اليـه ذلك ، وحيث لم يكن – هو – يسمعنا أية نغمة الا بعد أن يتيح لنا الوقت لتدوينها ، وللاحظة الملمس الذى تصدر عنه وكذلك بعد أن يذكر اسمها ، وهى أمور اتفقنا عليها فيما بيننا منذ البداية ، فقد باتت فى حوزتنا أكبر الوسائل قدرة على المقارنة بقـدر الامكان ، حتى غدونا فى حالة تمكننا من أن نتيقن بأنفسنا من دقة المعلومات والأفكار التى تقال لنا · ولقد أصبح هذا فيما بعد أمرا بالغ النفع لتبديد الكثير من الشكوك التى كان التفكير يولدها فينا ، عندما كنا نعاود قراءة الاجابات التى قدمت الينا ، والتى دوناها أولا بأول ، فى لقاءاتنا بالموسيقيين المصريين ، ذلك أنه اذا كان التلميح يكفى كى يستدل من يعرف ، فان الأمر فى غالبيته ليس كذلك ، حتى ولو بعد شرح طويل ، لمن كان أخا جهالة ·

جدول ومساحة وتباين نغمات المزمار الجورى



ويأتى المعيـــار النغمى للزمر المتوسط فى خماســـية أدنى من آلة

الجورى ، ولابد أن يكون القبا أو الزمر الكبير فى الثمانية الحادة بالنسبة للزمر المتوسط ، وان يكن الزمر الكبير الذى ابتعناه فى القاهرة ، والذى لا يزال فى حوزتنا ، لم يدوزن فى هذا السلم ، فهو فى مقام أدنى من الثمانية الغليظة للجورى ، فأما والحالة هكذا فان هذا الاختلاف يعلمنا شيئا كنا ، لولا ذلك - سنجهله ، وهو أن الآلات الشرقية التى تنتسب الى النوع نفسه ، ليست مدوزنة على الدوام ، وبشكل دقيق ، فى المقام ذاته ، وأن القوم فى الشرق ، كما هو الحال فى أوربا ، لا يتبعون دوما معيارا نغميا موحدا ، ولهذا السبب ، فعندما نفترض أن النغمات ، مع ذلك ، كانت ستغدو هى ذاتها لو أن المعيار النغمى فى كل واحدة من هذه الآلات كان متشابها ، وأنها ستمثل بالترتيب نفسه حين تكون فى المعيار نفسه ، فذلك لأننا سندونها كما لو كانت كذلك فى الواقع · ولقد سلكنا نفس السلوك الذى يسلكه الناس فى أوربا ، فى باريس على سبيل المثال ، حين يجمعون ألحانا من الأوبرا الكبيرة وألحانا من الأوبرا كوميك وألحانا ثالثة من الأوبرا بوفا الايطالية ، فبرغم أن بعض هذه الألحان قد وضعت وأديت طبقا لمعيار أكثر خفوتا فى حين وضع البعض الآخر منها وأدى فى معيار أكثر جهارة فان الأمر لم يحل دون أن ينظر الناس الى النغمات التى تحمل الاسم نفسه ، والتى تأتى فى الترتيب ذاته على أنها ليست هى النغمات نفسها ، كما لم يمنعهم ذلك من ألا يدونوها بالطريقة نفسها ·

الهوامش :

(١) أنظر اللوحة CC الأشكال ١ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ·
(٢) الشكل رقم ٢ ·
(٣) الأشكال ١ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ·
(٤) الشكلان ٣ ، ٤ ·
(٥) الشكلان ٣ ، ٤ ·
(٦) اللوحة CC الشكل رقم ٣ ، وقد رقمنا الثقوب بالأرقام . ويحمل هذا الثقب الرقم 8 ·

الفصل الثاني

عن العراقية

المبحث الأول

حول أصل ونوع الآلة الموسيقية المسماة بالعراقية

كلمه **عراقية** تعنى **الشيء القادم من بلاد العراق :** E'râq أو كما يكتبونها فى أوربا Irac ، ويبقى أن نعرف الآن ما هى هذه البلاد ، وان لم يكن هذا بالأمر اليسير ، ذلك أن هناك منطقتين تحملان هذا الاسم : العراق العربى أى **عراق العرب** ، والعراق الفارسى أى **عراق العجم** ، وأولى هاتين المنطقتين هى تلك التى عرفت قديمـــا باسم أرض كلدان أو بابل ، ويزعم البعض أن اسم عراق الذى يطلق على هذه المنطقه اليوم هو اســم مدينة بالغه القدم كانت توجد فى هذه البلاد منذ عصر نمرود ، وقد ألحقت بها الصفة : **عربى** لأن العرب كانوا يقطنون هذه البلدة نفسها ، أما المنطقة الأخرى التى تعرف كذلك باســـم عراق فتوجد فى فارس ، وتشمل جزءا كبيرا مما كان يطلق عليه قديما اسم **ميديا الكبرى** .

ولا شك هناك فى أن الموسيقى العربية قد أثرت بفعــل الـكثير من الابتكارات والاكتشافات المتصلة بهذا الفن ، والتى ترجع الى واحـــدة من هاتين المنطقتين ، فمن هناك وفد كبير من المقامات الموسيقية عند العرب ، ولا يزال يشار اليها حتى اليوم باسم الأصل الذى جاءت منه ، وتلك هى مقامات **عراق ، عجم ، عراق عربى ، عراق عجمى ، نوروز العجم** .. الخ . وهكذا فليس شيئا سهلا أن نحدد بدقة صارمة الى أى من هذين البلدين : عراق العرب أو عراق العجم تعود الآلة الموسيقية التى نحن بصددها الآن .

ومع ذلك ، فاذا كان مخولا لنا أن نجازف بتقديم الافتراضات ، فى

غيبة من الشهادات التى تعورنا حتى تنتشلنا من التخبط الذى نجد أنفسنا فيه ، فلابد أن نؤسس افتراضاتنا هذه على شكل هذه الآلة ، الذى لا ينتمى قط الى الذوق الفارسى ، ولن نجد صعوبة فى التدليـــل على ذلك ، وفى الواقع فان شكل العراقية ينتسب الى الذوق العربى أكثر بكثير ممـا ينتمى الى ذوق الفرس ، فالرأس المنتفخ على هيئة بيضـــاوى ، والذى نجده أكثر ضخامة من بقية كل جسم الآلة يذكرنا تماما بالأسلوب العربى الأصـــيل الذى نلاحظه ، فى غالبية الأحيان ، فى كل ما يتصل بالعمارة وفن الرسم فى منشآت العرب ، اذ نجد الأسلوب نفسه فى مساجدهم ، حيث تعلوها القباب الضخمة ، وفى هذه المآذن ذات البنية الرشـــيقة الخفيفة الجسور والتى تكاد تبدو لنا عمدا منعزلة بالغة السموق ، يتوجها ما يشبه فانوسا ضخما من الأحجار تكون بالنسبة لها بمثابة الرأس ، كما نجد الشىء نفسه فى الدهاليز الخارجية التى تحيط بها ، بين مسافة وأخرى · وبصفة عامة فاننا نتصرف على هذا المزاج العجيب لدى العرب حين يعطون للأشياء العالية حجما أكبر عند القمة عنه عند القاعدة(١) ، وقد سبق أن استرعينا اليـــه الانتباه عند الحديث عن عنق الآلات الوترية التى يستخدمها هؤلاء القوم ، كما نجده فى شكل آلات النفخ ، وهنـــا ، فى آلة العراقيـــة ، ويبدو أن العرب ، عندما تبنوا هذه الأطوال أو النسب فى منشآتهم ، وكذا فى كل أعمالهم الفنية قد شاءوا أن يسلكوا الطريق المعاكس لطريق قدماء المصريين ، هؤلاء الذين كانوا يعطون لكل منشآتهم ، على وجـه التقريب ، الشـــكل الهرمى ، وهو الشكل الذى يريح العين بما يوحى به من فكرة المتـانة التى تشبع عنه ، وهو ما لا تقـــدمه لا المنشآت العربيـــة ولا منشآتنا نحن العمودية* ، ومع ذلك فاننا نكتفى بالقول ، دون أن ننقب عن كل ما يبتعد

---

* أى ذات الشكل القوطى — المترجم ·

عن مزاج الفرس فى آلة العراقية ، ويقترب ، عـــلى العكس من ذلك ، من المزاج العربى ، بأن هذه الآلة التى تخترقها ثقوب سبعة عند المقدمة (أى من الأمام) مثل آلة الزمر ، والتى لها لسان (قشة) عريض للغاية ، انما هى ، فى رأينا ، آلة عربية صرف ، وتنتسب فى نوعها الى المزامير ، ولذلك فسننظر اليها باعتبارها مزمار العراق العربى ٠

الهـــوامش :

(١) تحدث الشرفات الواسعة والغائرة ، والتى تمتد بارزة الى خارج البيوت ، وتتوج ارتفاعاتها ، فى مصر ، هذا الأثر نفسه فى العين ، وهذه الشرفات التى يراها المرء فى الشوارع الضيقة ، فى جانب ، تقترب كثيرا من الشرفات المقابلة فى الجانب الآخر ، بحيث لا يلزم الا أقل القليل ، حتى تتلامس هذه الشرفات ٠

المبحث الثانى

حول خامة وبنية وشكل وأبعاد العراقية
وكذلك كل جزء من أجزائهـــا

تصنع هذه الآله ، جميعها ، من خشب البقس(١) ، ومن قطعة واحدة باسستناء القشة a (٢) التى تؤخذ من طرف غاب بحرى ، فهذه هى كل مكوناتها . ولا ينبغى أن ننظر الى الوصلنين X ، Y اللتين نضــغطان ، احداهما أعلى اللسان وثانيهما أدناه ، باعتبارهما جزئين منممين للعراقيــة بشكل أساسى .

فالوصلة الأولى × (٣) عبارة عن شريط مزدوج ، معمول من قطعتى غاب مرفقنين ، ومربوطتين ، الواحـــــدة الى الأخرى ، من الطرفين ، حتى لا تتركا فيما بينهما ، حين تقترب احداهما من الأخرى ، سوى فراغ ضيق للضغط على شفتى القشة التى يدخلونها الى هذه الوصلة عنـــدما يتوقف العزف على هذه الآلة ، وهذه الحيطة أمر بالغ الأهمية ، لأن الغاب البحرى الذى تصنع منه القشـــــة ، لم يزل ، برغم أنه قد تم ترقيقــه كنــبرا عند النقطة a 1 (٤) سميكا لأكثر مما ينبغى حتى لا يمكن ضغط شفتى هــذه القشة اذا ما أدت حرارة الجو الى تباعدهما (أو التوائهما) ، وجفتا وهمـــا على هذه الحال . أما الوصلة الثانية فتؤخذ من طرف عصا خشبية صغيرة ، مشقوقة بطولها الى شقين ، ثم أخذ نصفها وطوى حول نفسه بقصد التقريب بين الطرفين (أو الشقين) وربطهما معـــا ، ويشكل هذا الرباط شـــكلا بيضاويا مسحوبا ينتهى بقمة مدببة عند الأطراف المخصصة لاحتواء أسفل

القشة . ولكى تحول دون أن يخلى هــذا الجزء مكانه للتسطح أو الترفق الذى تم احداثه على كل مساحة الجزء الباقى نحو ارتفــاع الآلة (أى نحو طرفها من ناحية الفم) .

فاذا تم قياس الآلة ، دون القشة ، أى قياس كل ما هو مصنوع من خشب البقس ، فسيصل طولها الى ٢٤٤ مم ، أما حين تضاف القشة اليه فسيبلغ ٣٢٥ مم . وآلة العراقية عبارة عن أنبوب أو قصــبة من خشب البقس ، يمكننا أن نقسمها الى ثلاثة أقســام : الرأس t والجسم A والقدم p . والرأس t هو الجزء العلوى المنتفخ ذو الشكل البيضاوى(٥) ، أما الجسم A فهو الجزء الأسطوانى من الأنبوب(٦) وأما القــدم p فهى الانتفاخ الذى يشكل قاعدة الآلة ، وفى الوقت نفسه فتحة بوقها ، وتمتد قناة الأنبوب بكل امتداد هذه الأجزاء الثلاثة من أعلى الى أســفل ، وان لم تحتفظ على الدوام بالشكل نفسه ، ولا بالاتساع ذاته ، فهى بيضاوية فى الجزء الأكبر من امتدادها ، ولا تنتظم استدارتها ، بعض الشيء الا فى ذلك القسم من الرأس الذى يدخلون فيه الجزء الأدنى من القشة ، وكذلك فى كل طول فتحة البوق p الذى يبــدأ فى الاتساع داخليــا ابتداء من ثقب الملمس ، ويبلغ طول القطر الأكبر من هــذه القناة ، مقيسا من الأمام الى الخلف ، عند قمة الرأس ١٨ مم ، أما قطرها الأصغر ، مقيســا من نفس الموضع ، من اليسار الى اليمين ، فلا يبلغ سوى ١٧ مم ، ويمضى اتســاع هذه القناة ليضيق بشــكل تدريجى حتى نحو منتصف الجسم A الذى لا يصل قطرها عنده لما يزيد على ١٠ مم ، والى ما تحت هذا الموضع بقليل تبدأ سعة القناة فى الزيادة ولكن على نحو أسرع مما كانت تتضاءل به من قبل ، وتمضى لتتخذ شكلا دائريا ، بحيث تصبح فتحتها عند قمة فتحة البوق التى تنتهى القناة اليها ، مستديرة ، يصل قطرها الى ٢٦ مم ويكون

الجزء الأسطوانى الذى يشكل الجسم A خاليا تماما من أية نقوش أو بروزات ، ويصل قطره الى ١٥١ مم ، ويبلغ قطر ثخانته الى نحو ٢٧ مم ، ونتخلل هذا الجزء من الآلة ثقوب سبعة o ، تصطف على مقدمة الآلة أو الجزء الأمامى منها ، وقد رقمناها على النحوالتالى 1 , 2 , 3 , 4 , 5 , 6 , 8 كما يوجد ثقب آخر على الجانب المقابل الذى يشغل الفراغ المحصور بين النقب رقم 6 والنقب الآخر الذى يحمل الرقم 8 ، وقد أشرنا اليه بالرقم 7 · وتشغل النقوب السبعه الأماميه على نحو التقريب كل طول الجزء الأسطوانى بحيث لا يوجد بين التقب 1 والموضع العلوى من الأنبوب الذى تنتهى اليه الرأس ، سوى ثلاثة ملليمترات ، كما أن الثقب 8 لا يكاد يبعد عن الطرف المقابل الا بمقدار ملليمتر واحد ، حيث يبدأ انتفاخ القدم P ، وتكون فتحات هذه الثقوب ، فى خارجها ، أكبر منها فى داخلها ، ويكون قطرها الأكبر هو القطر الرأسى ويصل الى ١١ مم ، أما قطرها الأصغر فهو الأفقى ويبلغ ٩ مم ، ولا يزيد اتساع فتحة التقب من الداخل عن ٨ مم ، وتبلغ المسافة بين كل ثقب وآخر نحو ١٢ مم ·

وترتفع الرأس t (يصل طولها) لمسافة ٦٧ مم ، ويبلغ طول قطر القسم الأكبر سمكا فيها الى نحو ٤٨ مم ، وينقسم سطحها الى خمس دوائر غير منساوية الاتساع ، وتنقسم بدورها الى أربع دوائر تتكون من ثلمات مزدوجة محفورة فى سمك الخشب ، أما الدائرة الأخيرة ، أى تلك الأكثر اقترابا من الأنبوب الأسطوانى A فتنتهى بنتوء زينة يتوج الجزء العلوى من جسم الآلة ، ويوجد خلف الرأس ثقب غير مستو فى استدارته ، يقع مركزه فوق الدائرة الأولى ذات الثلمات المزدوجة ، ويمتد أكثر من نصف محيطه فوق الدائرة الأولى ، ويمتد جزء آخر من هذا المحيط فوق الدائرة الثانية ، ويصل طول قطر هذا الثقب ، مقيسا بشكل رأسى ، الى نحو

٧ مم ، أما إذا قسناه أفقيا فلا يكاد يجاوز ستة ملليمترات ٠

أما القاعدة أو القدم P (٧) ، فى هذه الآلة ، فيصل ارتفاعها (طولها) الى ٢٧ مم ، أما الانتفاخ الذى يشمل كل امتدادها فيتكون من خمس دوائر تتحدد ، كما هو الحال فى دوائر الرأس ، بفعل ثلمات مزدوجة ، محفورة بالمتل فى سمك الخشب ، وحيث تكون الدائرة الخامسة ، وهى أكبرهـــا ، الى أسفل فلن يكون بالامكان رؤيتها بشكل واضح طالما كانت الآلة واقفة ، كذلك فان الدائرة الأولى تكون مسبوقة بنتوء حلية بارزة تفصل بين القدم P وبين الجسم A ، بدءا من هذه الدائرة الأولى ، التى يصل قطرها بالقرب من النتوء البارز الى نحو ٣٤ مم ، وتتسع القاعدة فى جزء من القدم يصل الى الدائرة الثالثة ليصل قطرها الى ٤٢ مم ، ثم بعد ذلك تضيق مائلة الى الشكل المسطح حتى تبلغ فتحة القناة التى قدمنا أطوالها من قبل ٠

وتتكون القشة a من طرف ساق غاب بحرى بطول ٩١ مم ، وقد يصل طول قطر سمكها ، فى حالتها الطبيعية الى ١٦ مم ، وقد سطح جزء من ساق الغاب البحرى ، أما القسم الأول منه فقد ضيق أو ضغط ، وأما القسم الذى تم تسطيحه فهو الجزء الذى عملت فيه شفتا القشة ، فى حين يمثل الجزء المضغوط قصبة أو أنبوب القشة ، وحيث قد تم ترقيق سمك الجزء الذى لم يتم تسطيحه فان طول قطره ، من الناحية الدنيا ، لا يبلغ بعد سوى أربعة عشر ملليمترا ، وبمجرد أن يصبح التسطيح أكبر ، يمتد السطح كذلك لمسافة أكبر ، بحيث يبلغ اتساع السطح الى ٣٣ مم فى الجزء العلوى من القشة ، واليكم الطريقة التى اتبعت لجعل ذلك ممكن الحدوث :

ينتزع ، من أعلى ومن أسفل على حد سواء ، كل اللحاء اللامع من الجزء المسطح من الغاب a (٨) ، ويقلل منه لأكبر قدر مستطاع ، حتى يصبح أكثر

قابلية للانثناء وأكثر مرونة ٠ وهذا الجزء هو ، فى الوقت نفسه ، الجزء الذى يتم ادخاله فى الفم ، والذى يتم الضغط على سطحه السفلى ، برفق ، بواسطة لسان (العازف) عندما يقوم العازف بالنفخ فى القشة ، والذى تؤدى هذه النفخة ، عند مرورها فيه ، الى تردد جدرانه المرققة عند السطح a 1 ٠ وعلى العكس من ذلك يترك كل اللحاء الجاف واللامع فوق القسم الثانى من القشة a 2 ، كما يترك بالمثل على القسم الأول من الجزء الثالث a 3 الذى لم يتم تسطيحه قط ، وفى الوقت نفسه ينتزع هذا اللحاء من فوق القسم الثانى من هذا الجزء الثالث ، وهو المخصص للدخول فى قناة أو أنبوب الآلة ٠

ولقد وصفنا من قبل الجزئين X و Y (٩) ، ولكنهما ليسا ذوى أهمية كبيرة لحد يكفى للتوقف لتقديم أبعادهما ٠ وفضلا عن ذلك فاننا نستطيع أن نرى واحدا منهما ، بحجمه الطبيعى ، وفى شكل جانبى (بروفيل) ، فى الشكل رقم ١٢ ، ولن يلقى المشاهد القارىء ، كبير عناء فى تحديد أبعاد الجزء الثانى ، اذا ما قارنه ببقية أجزاء الآلة ٠

هـــوامش :

(١) انظر اللوحة CC الشكل ١١ ٠
(٢) الشكلان ١١ ، ١٢ ٠
(٣) شرحه ٠
(٤) الشكلان ١١ ، ١٢ ٠
(٥) الشكل ١١ ٠
(٦) شرحه ٠
(٧) هذا الجزء نفسه ، اذا ما نظرنا اليه آخذين فى الاعتبار اتساع فتحته ، هو نفس الجزء الذى أطلقنا عليه اسم فتحة البوق ٠
(٨) الشكلان ١١ ، ١٢ ٠
(٩) الشكلان ١١ ، ١٢ ٠

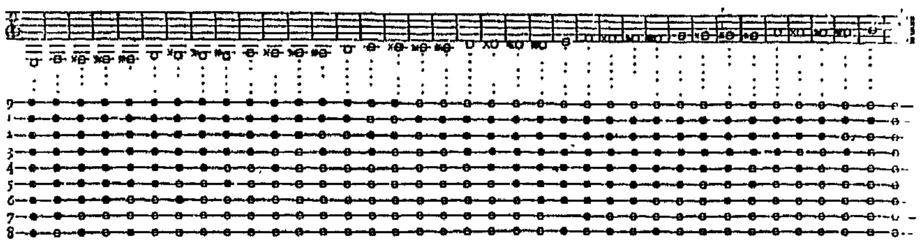
المبحث الثالث

عن طريقة العزف على العراقية ، وحول جدول ، ومساحة ، وتباين نغمات هذه الآلة

يمسك المصريون بآلات النفخ الموسيقية لديهم ، على الدوام ، باليد اليمنى ، وبأصابعهم المبسوطة يلمسون على الدوام كذلك ملامسها ، وهم يسلكون السلوك ذاته فى غالبية عاداتهم وممارساتهم ، فكل ما عندهم مقابل أو نقيض تام ، لكل ما يأتيه الناس فى أوروبا ، وفى فرنسا بصفة خاصة ٠

وللعزف على العراقية ، يقفل بالابهام التقب رقم ٩ الواقع خلف رأس الآلة I ، ثم تسد النقوب الأربعة الأمامية 4 , 3 , 2 , 1 بالأصابع الأربعة الأخرى من اليد نفسها : السبابة والوسطى والخنصر والبنصر ، وبعد ذلك يقفل بابهام اليد اليسرى ، التقب رقم 7 الواقع الى الخلف من أسفل الآله ، ثم بواسطة الأصابع الثلاثة التالية ، من اليد نفسها ، تسد الثقوب الثلاثة الأمامية الأخرى 8 , 6 , 5 ، وبعد أن تسد الثقوب على هذا النحو ، ومع النفخ فى الفشة ، على نحو ما بينا من قبل(١) ، تنتج النغمة الأولى فى الغليظ ، ثم نحصل على النغمات الأخرى ، عن طريق فتح هذا أو ذاك من النقوب ، على نحو ما يرى القارىء فى الجدول الذى نقدمه عن ملمسها هنا ٠

جدول ملامس العراقية ، ومساحة وتنوع نغماتها[٢]



الهـــوامش :

(١) انظر المبحث الثانى من هذا الفصل .

(٢) كنا ما نزال بحاجة الى اللجوء الى العلامة X التى ابتكرناها للاشارة الى فاصلة وسيطة بين فاصلة نصف الرافعة وفاصلة الرافعة العادية .

الفصل الثالث

عن آلة البوق عند المصريين المحدثين

وهي الآلة الموسيقية التي يسمونها النفـــير

المبحث الاول

الفكرة التى يقدمها سكاتشى حول شكل البوق عند قدماء المصريين : التشابه التام القائم بين الشكل الذى يفترضه ، وشكل بوقنا الحديث ، الذى يقترب بدوره ، وكثيرا ، من شكل النفير ، الذى يستخدمه المصريون المحدثون

تخيل سكاتشى Scacchi (١) أن البوق عند قدماء المصريين ، كان ذا شكل يماثل شكل البوق الذى نستخدمه نحن اليوم ، وأسس زعمه ، على نص فى الجزء الحادى عشر من تحولات أبوليوس :

"I bant dicati mango serapi tibicines, qui, per obliquum calamum ad aurem porrectum dextram, familiarem templi modulum frequentabant"

وترجمته :

« عازفو المزمار المخصصون للاله سرابيس العظيم ، كانوا يرددون على النفير المائل الممتد الى الأذن ، والذى يمسك باليد اليمنى ، كانوا يرددون النغمة الحلوة المحببة لمعبد الاله » . ولكنه فسر الكلمات :

per obliquum calamum

بكلمات : « بواسطة بوق معقوف »

ثم يذكر أن العبارات الآتية :

"dextrâ (٢) familiarem templi deique * modulum frequentabant"

---

* واضح للقارىء أن هذه الكلمة لم ترد فى النص اللاتينى السابق . (المترجم) .

تعنى أن الموسيقيين « باطالتهم أو تقصيرهم للقصبات باليد اليمنى كانوا ينوعون من نغمات لحنهم » .

ومع ذلك فلو أن سكانشى قد عرف وقتها أن النفير عند المصريين المحدثين يكاد يماثل آلة النفير التى نستخدمها ، وأنه بالمثل يتكون من قصبة معقوفة ، لأمكنه ، على أساس أفضل ، أن يؤكد لنا أن النفير قد انتقل ، بشكل مباشر ، من المصريين القدماء الى المصريين المحدثين ، بل لعله كان سيعرف ، بعد ان يستمع هتلنا الى آلة النفير ، أن هذه الآلة تنتسب الى النوع نفسه من الأبواق التى كان ينفر من سماعها أهالى ليكوبوليس وبوزيريس وأبيدوس لأنهم يجدون نغمتها شبيهة بنهيق الحمار ، الذى يشبه بشعره الأحمر ، عبقرية أو جنية الشر عندهم : **طيفون** ، التى كانوا يرتعدون منها رعبا .

وبقدر ما لا يجد المرء ما يغريه بأن يتفحص ما ان كانت هذه المقابلات أو المقارنات ، التى كان القدماء المصريون يعقدونها ، تتفق مع العقل أو تجافيه. فاننا لن نسعى ، بالمثل ، الى التدليل على ضعف الأساس الذى تنهض عليه مقابلات أو مقارنات سكاتشى : وفضلا عن ذلك ، فلقد نهض بهذا العبء آخرون ، ومن بين مواطنيه أنفسهم(٣) ، لكننا نكتفى ، ببساطة ، بوصف آلة النفير ، ما دمنا لا نريد قط أن نحدس ما سوف يطلقه القراء العلماء (المتخصصون) من حكم ، فهم أكثر منا قدرة ، على وضع اجابة لمثل هذا السؤال . وفيها يؤكد سكاتشى (Myroth. 3, Cap. 54) أن هذه الآلة الموسيقية ، وهى البوق ، كانت مستخدمة أيضا فى مصر القديمة مستندا فى ذلك الى كلام أبوليوس فى الجزء الثانى من كتابه (المسخ) Metamorfosi - (وهو فى الحقيقة الجزء الحادى عشر ، اذ أن المؤلف قد قرأ الرقم (١١) على أنه رقم (٢)) . والذى يحدثنا فيه عن حفل القربان الذى كان يقام تكريما للربة ايزيس : « وأقبل عازفو البوق » ، (كلمة « عازفو البوق

Tibicines » لا توجد بهذا المعنى تماما فى هذا الموضع من النص ، ولكن فى موضع لاحق ، وينبغى قراءة هذه الفقرة على النحو الذى قرأناها به فى الفقرة الأولى من هذا المقال) .

« عازفو البوق المخصصون للاله سرابيس العظيم كانوا يرددون على البوق المائل الممتد الى الأذن ، والذى يمسك باليد اليمنى ، النغمة الحلوة المحببة لمعبد الاله » .

وفى كلامه أيضا « عن البوق المائل » ما يدل على أن هذا النوع من الأبواق ينثنى ، وبكلماته الأخرى : « يعزفون باليد اليمنى النغمة الحلوة المحببة لمعبد الاله » يعنى أن حركة اليد تطول أحيانا وتقصر عند العزف على هذه الآلة .

يقول : « وكانت اليد اليمنى تمد أو تسحب للخلف أنابيب البوق التى كانت الأنغام الموسيقية تنبعث منها ، بحيث كان عازفو البوق يتحكمون فى النغمات عن طريق هذا المد أو السحب » .

وهو لا يوضح ذلك فى الصورة الموجودة فى ص ٦٧٤ ، والتى لا يظهر فيها أى انحناء ، ويقول : ان البوق الذى كان مستخدما يشبه تماما البوق المستخدم فى أيامنا هذه ، والذى سبقت الاشارة اليه فى العدد الرابع .

ولذلك نجد أن بارتولينى Bartolini يؤكد أنه وقع تحت تأثير ما قاله سكاتشى ، ويضيف أن هذا النوع من الأبواق يسهل انحناؤه ، وان كان لا يعرف تعبيرا قديما أو حديثا يدل على ذلك : « ورغم أن نبأ تلك الآلة لم يصل الى من القدماء ، الا أن ذلك النوع من الأبواق الذى وصل الى زماننا هو الذى ظل مستخدما بحيث أتيحت لى معرفته » [هذه الفقرة موجودة فى ص ٢٢٩] .

ونضيف دعما لذلك أن المرء لا يتعرف الا على ستة أنواع مختلفة من الأبواق القديمة ، وأنه لا يوجد من بينها واحد يتشابه لا مع البوق ولا مع آلة النفير التى نستخدمها ، وأول هذه الأبواق هو الذى ينسب اختراعه الى مينيرفا والذى أطلق عليه اسم سالبنكس أثينايا Salpinx Athenaia أى البوق الأثينى ، أما النوع الثانى ، فهو ما كان المصريون يستخدمونه عند تقديمهم لقرابينهم. وأضحياتهم ، وكانوا ينظرون اليه باعتباره شيئا من ابتكار أوزيريس ، وهو نفسه الذى يطلقون عليه اسم شنو ـ ويه ، والثالث هو بوق الغاليين ، وكان يصنع من الحديد الزهر وكان متوسط الحجم كما كان بوقاله يمثل شكل بعض الحيوانات ، وله أنبوب من الرصاص ، تمر من خلاله نفخة العازف ، وكان الغاليون يسمونه كارنكس Carinx ، وأما البوق الرابع ، فهو بوق أهل بافلاجونيا Paphlagoniens ، وكان فمه يتخذ هيئة رأس عجل ، وكان يصدر ما يشبه خوارا بالغ القوة ، وكان القوم ينفخون فيه وهم يرفعونه عاليا فى الهواء ، والبوق الخامس هو بوق الميديين ، وكان أنبوبه يصنع من قصب البوص، وكان يصدر نغمة غليظة، أما السادس فهو البوق التيرينى Tyrrhenien ، وكان شبيها بالنايات الفريجية ، وكان فمه مصنوعا من الحديد الزهر ويصدر نغما حادا ، ويزعم البعض آنه قد انتقل الى الرومان على يد التيرينيين .

حول أول من اخترع البوق ، انظر :

Palephate et Paus-anias, lib III

الهـــوامش :

(١) انظر :

Gabinetto armonico d'istromenti sonori indicati e spiegati del Padre Filippo Bonanni, della compagina di giesu etc, in Roma, 1722, in 40, p. 49 et 50.

(٢) لو أن سكاتشى كان قد قرأ نص أبوليوس صحيحا ، على النحو الذى نقلناه فى مقدمة هذا المبحث ، لما كان قد تخيل مثل هذا الرأى الذى يسوقه حول هذه الآلة الموسيقية ، فى هذا النص من « الحمار الذهبى » .

(٣) واليكم ما نقرؤه حول هذا الموضوع فى :

Gabinetto armonico etc, dal Padre Bonanni

والذى أشرنا اليه فى حاشية سابقة .

المبحث الثانى

عن خامة وشكل وبنية وأبعاد النفير
وكذلك الأجزاء التى يتألف منها

تصنع القصبتان اللتان يتألف منهما النفير كلية من النحاس ، وهما يتشكلان من نصال ضيقة ورقيقة من المعدن نفسه ، ملفوفة على هيئة أنبوب ، وتلتحم حوافها الجانبية المتقاربة ، كل منها بالأخرى بطريقة لا تكاد تحس ، ويصنع البوقال وفم الآلة من الحديد الزهر ، ويتشكلان معا من قطعة واحدة •

واذ كان النفير الذى حصلنا عليه قديما فقد وجدناه مرمما فى مواضع عدة ، وقد تعرفنا على هذه الترميمات فى القطع المبدلة وفى اللحامات التى تمت بشكل بدائى خشن والتى تلحم هذه القطع ببقية جسم الآلة ، وهذه ملاحظة ليست بالبالغة الأهمية ، ولم نكن نحن لنقدمها لو أن الرسم والحفر لم يجعلا من هذه الترميمات التى نشير اليها أمورا ملموسة ، ولو لم نكن نخشى أن يخلط القارىء المشاهد بينها وبين ما يتصل ببنية الآلة ، وعلى هذا ، فلكى نتفادى الوقوع فى خطأ مماثل ، فاننا ننوه منذ الآن بأن القطع البارزة التى لن نشير اليها عند وصف الآلة ليست ـ ببساطة ـ سوى ترميمات •

ويتألف النفير من الأجزاء نفسها التى تتكون منها آلة النفير عندنا : فهناك الفرعان A ، a 1 (١) ، والمشنقتان P ، وفتحة البوق C ، والعقد الخمس N , N , n , n , n ، والبوقال والفم E , e والعصابات B والحلقات X •

ويبلغ الطول الاجمالىللآلة ، مزودة ببوقا لها ، بدءا من e وحتى النقطة Ω ، أى على النحو الذى جاءت مرسومة عليه في اللوحه CC الشكل 13 نحو ٩٠٨ مم ، فاذا ما استبعدنا البوقال فان هذا الطول لن يزيد عن ٨١٠ من المليمترات ٠

ويدعم كل واحد من أجزاء القصبة ، التى ينبغى أن يدخل فى طرف كل منها طرف الجزء الآخر ، شريحة صغيرة من النحاس ، ملوية وملحومة عندأعلى الأنبوب على نحو ما يستطيع القارىء أن يرى فى الحلقات الخمس N و N و n و n و n ، وعند الطرف العلوى من الفرع الأول A ، عند الموضع m ، وتكاد تكون متساوية دعامات الحلقات أو العقد N و n و n ، وتلك الموجودة عند الطرف العلوى m من الفرع A ، وقل أن تبلغ ٢٧ مم ، لكن دعامة العقدة N من الفرع A أكبر بقدر طفيف اذ تبلغ هذه ٣٤ مم ، ومع ذلك فان دعامة العقدة n من الفرع A أكبر حجما بكثير من ذلك ، اذ تبلغ ٧٠ مم ٠ وفيما عدا المواضع التى توجد بها هذه الدعامات ، وفيما عدا كذلك كل امتداد فتحة البوق التى تبدأ فى الموضع n وتنتهى عند النقطة Ω يستوى قطر وسعة الأنبوب بكل امتداد الآلة ، فلا يزيدان عن أحد عشر ملليمترا ٠

وبدءا من قمة الدعامة m حتى العقدة N من المشـــنقة p ، التى يدخل فيها الفرع الأول A ، نجد لدينا (طولا لكل هذا الامتداد) ٤٨٥ مم ، ويبلغ وتر القوس الذى ترسمه المشنقة P ، تحت العقدتين N و n ، مقيسا من الداخل ٦٣ مم ، أما السهم فيبلغ طوله ٢٩ مم ٠

ويصل طول فرع فتحة البوق بدءا من العقدة حتى حافة هذه الفتحة نفسها ٩٢٤ مم ، ويبلغ سمك محيطها حتى العقدة n ١٦ مم وبدءا من هذا

المكان يمضى الأنبوب متسعا حتى نهاية فتحة البوق أو الصيوان ، وهو الذى ينتهى على شكل قمع ، بحيث يصل قطر فتحته عند الموضع Ω الى ٧٠ مم . وتزود حواف هذه الفتحة كذلك ، فى كل محيطها الخارجى ، بشريحة صغيره من النحاس .

وقد استبعدنا ، فى كل الأطوال التى قدمناها ، الجزء الذى يتداخل فى الآخر أو يلتحم به ، ولا يكاد يتجاوز هذا الجزء ثمانية عشر ماليمترا .

ويتشكل البوقال من أنبوب E ومن فم e (٢) ويزدان الأنبوب E بعدد بعينه من النتوءات فى الجزء الأكبر من طوله(٣) ، علوا . أما الجزء الأسفل منه فلا توجد به زخارف مماثلة ، ويصل قطر محيطه الى ١٢ مم . ويتخذ الفم من الخارج شكل قبعة مستديرة ومقلوبة بحيث تكون القلنسوة الى أسفل والحواف الى أعلى . ويبلغ طول قطر محيطها ٤٤ مم(٤) أما فجوة الوسط ، والمخصصة لاستقبال طرف اللسان عندما ينفخ العازف فى البوق ، فلا يزيد قطرها عن ١٧ مم، ولا يتجاوز عمقها سبعة ملليمترات ، أما الثقب الموجود فى وسطها(٥) والذى ينبغى أن تمر النفخة منه عن طريق قصبة البوقال ، ثم من هناك الى أنبوب الآلة ، فلا تزيد سعته عن ملليمترين .

أما العصابة B (٦) فقيطان من الحرير أو القطن تمرر من خلاله حلقات صغيرة X من النحاس ، توجد وسط المنحنى الذى ترسمه ، داخليا ، كل واحدة من المشنفين p و P . وتلتحم هذه الحلقات بصفيحة أو رصيعة من النحاس تلتحم بدورها فوق الأنبوب ، وتعلق العصابة الى رقبة عازف البوق بحيث تظل الآلة الموسيقية معلقة بالقرب منه ، أو على ظهره ، حين لا يكون قائما بالعزف .

ومهما يكن من ضآلة ثقب فم النفير ، فان العزف على هذه الآلة الموسيقية أمر بالغ السهولة مع ذلك . ونستطيع أن نحصل منها على نغمات

غليظه تماثل نغمات البوق السيمفونى ، ونغمات بوق الصيد ، كما يمكننا كذلك أن نحصل منها على نغمات حادة تماثل تلك التى نحصل عليها من أبواقنا وان تكن أقل مدعاة للنفور ، وبايجاز شديد فان بالمستطاع تنويع نغمات هذه الآلة على نحو ما نفعل ببوق الصيد ، عندما لا نستخدم اليد فى العزف عليه ، وانما بادخالها (اليد) فى فتحة بوقه أو صيوانه بقصد تكوين أنصاف النونات ، ومع ذلك فيلزم المصريين الكثير كيما يعرفوا كيف يحصلون منه على هذه النغمات المتباينة ، لكنهم يكتفون بأن يستخلصوا منه ، فى الاحتفالات الرسمية الكبرى ، بعض النغمات الحادة ، وفى الحقيقه ، فقد يكون أمرا بالغ الصعوبة ، ربما ، أن نسمع منه نغمات أخرى ، وسط الضجيج الذى يذهب بالألباب ويشتت كل انتباه ، والصادر عن هذا الحشد الصاخب من الدفوف والطبول من كافة الأحجام والأنواع ، وكذا من الصنوج والمزامير التى تختلط نغماتها المتفجرة والمدمدمة بضجيج بقية الآلات الموسيقية الأخرى التى تشارك فى مثل هذه الاحتفالات .

الهـــوامش :

(١) انظر اللوحة CC الشكل ١٣ .
(٢) اللوحة CC ، الأشكال ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .
(٣) الشكلان ١٣ ، ١٤ .
(٤) الشكل ١٥ .
(٥) الشكل ١٥ .
(٦) الشكل ١٣ .

الفصل الرابع

عن الناى المصرى ذى المنقار

والذى يطلقون عليه فى العربية اسم صفارة أو شبابة

المبحث الأول

حول اسم وخامة وشكل هذا النوع من النايات

يجد المرء نفسه فى اللغة العربية ، أقل حيرة بكثير عنه فى اللغة الفرنسية ، حين يتصل الأمر باكتشاف المعنى المبدئى لكلمة ما ، وبالتالى اكتشاف الدافع الذى أدى لاستخدام هذه الكلمة لتحديد الشيء الذى يراد الاشارة اليه ، فلا يزال الأمر ، عندنا ، على سبيل المثال ، مثار جدل بين المتبحرين فيما ان كانت كلمة flûte (فلاوت أو ناى) قد جاءتنا من الكلمة اللاتينية فستولا fistula التى تعنى trouée بمعنى : الفتحة ، أو الفرجة ، أو انا قد أخذناها عن كلمة fluta (فلوتا) وتعنى الشلس أو الجلكا الكبيرة* ، اذ أن الناى طويل كهذه السمكة ، وله مثلها العديد من الثقوب التى تشغل كل جسمها ، ولكن الحال ليست على هذا المنوال فى العربية ، فالأسماء المصدريه ، بل كذلك العدد الأكبر من أسماء الاعلام ، تشتق عن كلمة جذرية . فالاسم **صفارة** يأتى من الفعل **صفر** بمعنى أحدث صفيرا ، أو أحدث نغمة بصفيرة ، كما أن الاسم **شبابة** يجيء من الفعل **شب** ، أى زاد فى عمره ، (كبر) ، كما تعنى أيضا **الشاب** وكذلك **الذى لم يبلغ بعد سن النضوج** ، وهكذا رأينا أن الاسم الأول **صفارة** هو اسم نوعى يمكن أن يطلق على كل صنوف النايات ، أما كلمة **شبابة** فاسم شخصى يميز من بين كل صنوف النايات الأخرى ، تلك الآلة التى نتناولها بحديثنا . ويدل هذا الاسم الأخير ، فيما يبدو ، على نوع صغير من الآلات الموسيقية ، **أو** آلة ناى

---

* صنف من الأسماك يعيش فى المياه العذبة والمالحة . (المترجم)

صفير ، أو صافرة* ، وهذا هو حال الشبابة فى واقــع الأمر ، فهى تشبه صافراننا بدرجة كبيرة ، اد يماثل فم هذه نظيره فى تلك نماثلا تاما ، كما أن بقية جسم كل منهما لا تختلف ، هنا وهناك فى الشىء الكثير .

وتصنع الصافرة ، عادة ، من أنبوب أســطوانى الشكل من خشب البقس أو من العاج تتخلله تقوب سبعة ، دون أن يدخل فى هدا العدد ثقب فتحة الفم وثقب الضوء وثقب الساق أى الفتحه السفلية ، أما الشــبابة فتصنع من سلامية واحدة من غاب البوص ، تنتهى بالعقدة التى نفصلها عن السلامية التالية ، وتسد هذه العقدة ، التى لا تثقب قط أنبوب الآلة من أسفل Ω (١) وتتخلل الشبابة ثقوب سبعة من الأمام ، وثقب واحد من وراء دون أن ندخل فى هذا الحصر ثقب الضــوء L (٢) وثقب فتحة الفم E (٣) .

أما الجزء العلوى (أى الطولى من ناحية فتحة الفم) ، من الجهة المقابلة للضوء ، أى من الخلف فمخروط على هيئة سن ريشة ، بامتداد يبلغ ٣٦ مم ، ويسد هذا الجزء طرف دائرى من الخشب ، بالسمك اللازم لملء كل سعة أو فراغ قصبة البوص ، بدءا من فتحتها العلوية ، وحتى مسافة ضئيلة من ثقب الضوء L (٤) . وهذا الطرف الخشبى مخروط ، بدوره ، من الخلف ، على هيئة سن ريشــة ، ، بحيث لا يتجاوز الحواف العليا لعقــدة البوص التى خرطت بدورها على هذه الشاكلة ، وفوق ذلك ، يســطح هذا الطرف من الأمام ، بهدف أن يترك بينه وبين جدران قصبة البوص المتخذة شكل منحن ، فراغا كافيا(٥) تستطيع معه نفخة العازف ، التى تسلك طريقها عن طريق منقار الآلة ، أن تمضى لتصطدم بالضوء L (٦) ، بما يؤدى الى ترددها . والى

---

* مزمار مزود بستة ثقوب . (المترجم)

انعكاس هذا التردد فى أنبوب الآلة ، وهذا هو ما يشكل فتحة الفم · وهناك ثقب ، رباعى الشكل ، يقع على مسافة ٥٢ مم ، من الطرف العلوى من قصبة البوص ، وعلى المقدمة عند الموضع L (٧) يمضى ممتدا ، آخذا كذلك فى الاتساع بالنسبة لسمك الخشب وحده بعض الشىء من الناحية السفلية ، هو ما يطلق عليه اسم الضوء ·

ولا بد أننا قد رأينا من ذلك كله أن للصفارة علاقة شبه كبيرة بصافوراتنا ·

الهوامش :

(١) انظر اللوحة CC الشكل ١٦ ·
(٢) الشكلان ١٦ ، ١٧ ·
(٣) شرحه ·
(٤) الشكلان ١٦ ، ١٧ ·
(٥) الشكل ١٧ ·
(٦) الشكلان ١٦ ، ١٧ ·
(٧) الشكلان ١٦ ، ١٧ ·

المبحث الثانى

حول نسب وابعاد الصفارة واجزائها

يبلغ طول الصفارة ٣١٤ مم ، أما سمكها فيمضى مستدقا من أعلى الى أسفل ، ويصل قطر محيطها فيما فوق الضوء L الى ٢٣ مم(١) ، ولا يعود هذا القطر ، أسفل النقب 7 ليزيد عن عشرين ملليمترا ، وفيما وراء هذا الموضع يوجد انتفاخ صغير ، تكونه العقدة التى تشكل نهاية لهذه الآلة الموسيقية Ω .

وقد قلنا من قبل ان الفم مخروط (مبرى) من الخلف على امتداد ٣٦ مم، وهكذا ، فحيث قد تم دفعه ، عن طريق الجزء الذى تم انتزاعه ، حتى منتصف سمك البوصة ، فلا بد أن يكون عرض المنقار مساويا لقطر جسم الآلة فوق الضوء L الذى أشرنا اليه ٠

أما القصبتان XX ، اللتان نراهما تحت الفم فتؤخذان من خيوط غمرت فى القطران الذى يستخدمه صناع الأحذية ، ومع ذلك فيبدو لنا أنهما لم يلصقا هناك الا لأن قصبة البوصة قد تشققت فى هذا الموضع ، ولأنه يتحتم منع هذا التشقق من أن يمتد لأبعد من ذلك ٠

ويصل اتساع ثقب الضوء ، الرباعى الشكل ، من الناحية السفلية الى ٧ ملليمترات ، ويعلو بنحو خمسة ، ويتوغل هذا النقب فى داخل القناة ، ومع ذلك فيبدو أنه يمتد حتى يصل الى الخارج عن طريق فجوة تفضى الى السطح ، وتكون هذه الفجوة فى البداية من نفس اتساع الثقب ، ثم تظل

تتسع بعد ذلك لنستدير على نحو ما ، من اسفل ، ويصل امتدادها ، من أعلى الى أسفل ، تسعة ملليمترات ٠

وعلى مسافة ١٥١ مم من طرف المنقار E ، ومسافة ٨٣ مم من الفجوة التى تشكل نهاية الضوء L ، يوجد أول النقوب السبعة الأمامية ، ويبلغ اتساع كل ثقب ستة ملليمترات ، ويبعد كل واحد منها عن الآخر خمسة عشر ملليمترا ، وقد أشرنا الى هذه النقوب بالأرقام ، 1 , 2 , 3 , 4 ، 5 , 6 , 7 طبقا لانتظام هذه النقوب من أعلى الى أسفل ، وبالتالى فان أقرب هذه الثقوب الى الطرف السفلى للآلة هو ذلك الذى يحمل رقم 7 ،

ويقع على مسافة ٩ مم من العقدة و١٧ مم من الطرف السفلى Ω ٠ وفى الوجه المقابل تماما لهذه النقوب السبعة السابقة يوجد ثقب آخر يقابل الفراغ الواقع بين التقبين 1 , 2 ولكى يحددوا منتصف هذا الفراغ فقد قسموه الى قسمين متساويين ، كما حدث فى حالة المزمار ، وذلك بواسطة خط دائرى أحدث فوق السطح الخارجى للأنبوب ، وقد ثقب فوق هذا الخط ، من الخلف ، ثقب ثامن ، أشرنا اليه بالرقم 8 ٠

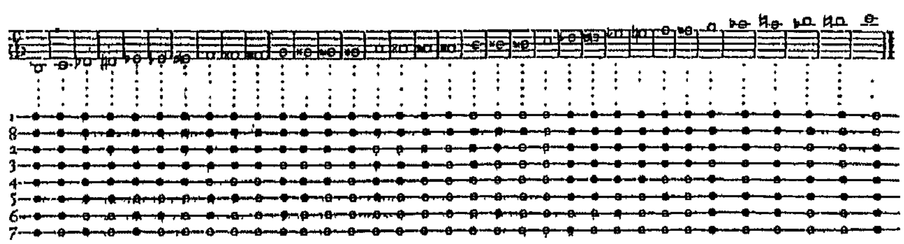
الهـــوامش :

(١) انظر الشكل رقم 16 ٠

المبحث الثالث

حول جدول وتنوع ومساحة نغمات الصفارة

يجد المرء بعض الصعوبة فى تخيل كيف يمكن لآلة بمثل هذه البساطة أن تردد مثل هذا العدد من النغمات المختلفه ، وأن تحدث بسهولة ، وبطريقة ملموسة ومتميزة ، على نحو ما تفعل هى ، درجات دقيقة أو ظلالا بالغة التقارب لمقام ما ، على نحو ما تكون عليه ثلاثيات المقام ورباعياته ، ولم نكن ، نحن ، لنستطيع أن نقنع أنفسنا بذلك ، ما لم تواتنا الفرصة للوقوف على الأمر ، وما لم نقم بتجريب ذلك بأنفسنا · وعلى الرغم من أننا لسنا بالغى التمرس بفن العزف على الناى ، فاننا لم نلق أية صعوبة فى تشكيل هذه الدرجات أو الظلال الدقيقة ، بل اننا ، زيادة على ذلك ، قد نجحنا ، وبأكبر قدر من السهولة ، فى الوصول الى جدولها النغمى ، الذى دوناه ، والذى نقدمه فيما يلى :



ومع ذلك فيلزم التنبيه بأنه ينبغى أن تؤخذ هذه النغمات على أساس المعيار النغمى لمزمارنا الصغير ، الذى وجدنا الصفارة على علاقة شبه وثيقة به ·

الفصل الخامس

عن "الفلاوت" المصرى المسمى بالعربية: الناى

المبحث الأول

حول الأنواع المختلفة من آلة الناى

ليس هناك ، من بين كل آلات النفخ الشرقية ، ما يفوق الناى شهرة ، بل لقد نتجاسرعلى القول بأن ميناندر كان يقصد هذه الآلة نفسها فى هذا البيت من مسرحيته ميسينا(١) ·

لست أشك اننى عزفت على الناى العربى

وقليل من الآلات فقط هى التى يمكن أن يتفرع عنها هذا العدد من الأصناف المختلفة أو تستخدم على هذا القدر من الشيوع ، فهناك صنوف كثيرة منها من أحجام متنوعة ، كما تكاد توجد منها أنواع بعدد المقامات الرئيسية ، فللدراويش أو (الفقرا) نوع الناى الخاص بهم ، كذلك فللمتسولين نايهم ، وللآلاتية بالمثل نوع بعينه يستخدمونه فى حفلاتهم الموسيقية ويفضلونه على ما عداه من صنوف الناى ، وان كانوا يستخدمون كذلك هذه الأنواع الأخرى فى مناسبات معينة ، ولو بقصد التدريب ، وان كنا ، نحن ، لم نصادف فى القاهرة موسيقيين جمعوا عندهم كل هذه الأصناف ، ونادرا ما يمكنك أن تلقى واحدا من بينهم يحسن العزف على ستة أنواع مختلفة من الناى(٢) ، بل ان محمد كاشوه ، وهو أمهر موسيقى مصرى يعزف على آلة الناى ، يعترف بأنه لم يجرب ما يزيد على ستة الى ثمانية أنواع مختلفة من هذه الآلة ، وأن النوع الذى تدرب عليه أكثر من غيره هو **الناى شاه** (وهو الاسم الذى يطلقونه على الناى الكبير) ، **والناى كوشوك (كوجوك)** ، **والناى سفرجه**(٣)، **والناى المطلق** ، **والناى جرف** (أى الناى الصغير) ، **والناى الحسينى**(٤) ،

ونخلص من ذلك بطبيعة الحال ، أن هناك أنواعا عديدة من الناى ليست معروفة له ، أو على الأقل لا يستطيع ـ هو ـ أن يعزف عليها ، ومن هذه ، بلا ريب ، **ناى أبنان ، ناى شاه منصور ، الناى العراقى** (**أو** الناى البابلى أو المدوزن على مقام العراق) ، **ناى نه ونيم** أى ناى التسعة ونصف(٥) ، **ناى ده ونيم** أى ناى العشرة ونصف(٦) ، **سـياه ناى** أى الناى الأسـود أو البوصة السوداء ، **ناى صفر** ، أى الناى الأصفر ، **ناى قره**(٧) ، **ناى داود**، وأنواع أخرى كنا سنذكرها لو كان من الضرورى أن نقدم بحثا عنها ، ومع ذلك فان الاسهاب والتقصى قد يكونان هنا ضئيلى النفع ، ما دام بمقدورنا أن نصنف هذه النايات جميعا فى صنفين :

الأول ، هو النايات المنقوبة ثقوبا سبعة ، والثانى هـو النايات ذات الثمانية ثقوب ، ويتمثل الفرق فى أطوال هذه النايات مـع غلظة النغم أو حدته (خفوته أو جهاره) ، والذى دوزنت عليه هذه الصنوف المختلفة من النايات ، واذ قد شرحنا كل ذلك فى دراسـتنا عن الوضـع الراهن لفن الموسيقى فى مصر* فان بمقدور كل قارىء أن يكون لنفسه فكرة دقيقة عن كل هذه الأنواع من آلة الناى ، بل وعن كل الأصناف المحتملة (أى التى ربما لم يصل اليها علمنا) دون أن تكون بنا حاجة لأن نقدم عن كل واحدة من هذه الآلات وصفا خاصا ، وهو أمر ، لو حدث ، لجرنا الى تكرارات دائمة ومرهقة ، ولهذا السبب سنكتفى بأن نصف واحدة من كل نوع من هذين النوعين .

---

* المجلد الثامن من الترجمة العربية .

الهـــوامش :

(١) Menandri, Fragm, gr et lat

(٢) ليس لمس ثقوب هـــذه الآلة هو وحده الذى يؤدى الى ارتبـاك الموسيقيين العرب ، عند عزفهم على هذه الآلة ، فهنـاك صـعوبة أخرى من شأنها أن تستوقفهم ، تلك هى معرفة التون أو المقام الذى دوزنت عليـه هذه الآلة ، وحيث أن لـكل تون أو مقام سلمه النغمى الذى يختلف عمـا للآخرين ، وله كذلك قواعده الخاصة به ، فلابد من معرفة السلم النغمى الخاص بالناى الذى يراد العزف عليه ، وقلة هم أولئك الموسـيقيون – بل لعله لىس هناك موسيقى واحد على الاطلاق ، عربيـا كان أو مصريا– الذين يستحوذون بشكل كامل على فن العزف على كل هـــذه الأنواع المختلفـه من النايات ، وليس هذا بالأمر العسير على التصـــور اذا تذكرنا ما سبق أن قلناه ، وكذلك اللوحة التى قدمناها عن هذه الجداول الموسيقية فى دراستنا عن الوضع الراهن لفن الموسيقى فى مصر · واذا كان الناس فى الشرق ، قد غيروا فى آلة الناى ، فى الشكل أو البنية بمثل هـذا العدد من الأنواع المتباينة ، فقد تم الأمر بلا ريب لسبب يماثل ذلك الذى حدا بالأقدمين أن يصنعوا نايات لكل مقام ، ولكل من هـــذه شكله الذى يختلف عن شكل الآخرين ، وهى التى كانوا يستخدمونها فى مصـاحبة الأنواع المختلفة من ضروب الغناء ·

يقول أثينايوسى فى الكتاب الرابع عشر ، الفصل الثامن ، ص ٣٦١ :

« كان الناس فى القرون الأولى يقبلون على ما هو جميل وشريف ، فلم يكن كل نشيد أو مزمور يتلقى من الزخارف الا ما كانت تناسبه ، وكان لكل واحد منها ، كما كان لكل واحـدة من الألعاب العامة المنوعة نايهـا الخاص بها ، مدوزنا على مقام هذه الأغنية أو المزمور ، وقد كان برونوموس هو أول من نوع المقامات طبقا لاختلاف النايات ·· الخ » ·

(٣) هذه الأنواع الثلاثة من النايات متقوبة بستة ثقوب من الأمام ، وبثقب واحد من الخلف أكثر علوا عن الثقوب الأخرى ، بنحـــو مسافتين ونصف المسافة ، من تلك التى تفصـــل فيما بين الثقوب الثـــلاثة الأولى (كمجموعة) وفيما بين الثقوب الثلاثة الأخرى (كمجموعة ثانية) ، ولسنا نستطيع أن نفسر هنا ما نقوله الا بطريقة عامة حيث أن الأطوال والأبعـاد فى كل نوع من النايات تختلف عما لدى النوع الآخر ، ولهذا فان المسافات فيما بين الثقوب تختلف بالنسبة نفسها التى تختلف بهـا هذه الأبعاد أو الأطوال هنا وهناك · وسوف يتحدد ، بقـــدر أكبر من الدقة ، الموضـع الصحيح لمثل هذا الثقب حينما نحدد أبعاد نوع ما من أنواع النايات ·

(٤) هذه النايات الثلاثة الأخيرة تثقبها ثمانية ثقوب : سبعة من الأمام وواحد من الخلف ٠

(٥) هناك ما يشير الى أن الأمر هنا يتصل بعـــدد السلاميات التى ينبغى أن تتكون منها قصبة البوص الخاص بهذا النـــاى ، فقد بدا لنـــا أن هذه السلاميات كانت محسوبة (محددة العدد) من قبل المصريين المحدثين٠

(٦) لعل الأمر يتصل هنا بسلاميات البوصة ، كما فى الناى السابق ، وهذه الأسماء محض فارسية ٠

(٧) قد يكون هـــذا الناى هو نفسه **سياه ناى** ، لأن كلمـــة **سياه** بالفارسية ، و **قره** بالتركية يعنيان كلمة : **أسود** ٠
« حاشية من وضع المسيو سلفستر دى ساسى » ٠

المبحث الثانى

عن الناى شاه(١) او الناى الكبير المثقوب بسبعة ثقوب ، وعما يشترك فيه مع النايات الأخرى ، وعما هو خاص به وحده

توجد فى الناى الكبير ، ذى السبعة ثقوب ، أشياء يشترك فيها مع النايات الأخرى ، سواء ذات الثقوب السبعة أو ذات الثمانية ثقوب ، وهناك كذلك أمور خاصة به وحده ولا توجد فى نوع سواه . أما الأشياء المشتركة فى كل أنواع النايات فهى :

١ — أن الأنبوب فيه يتكون من قطعة واحدة من قصب البوص يتجه طرفها الأقل سمكا الى أسفل والأكبر سمكا الى أعلى ، طبقـــا للنسب التى نقلت عن العرب ، على نحو ما أشرنا اليه من قبل .

٢ — وأن **جول*** العقد قد انتزع حتى مستوى جدران هذه البوصـــة التى أفرغ لبابها ونظفت لأقصى درجة .

٣ — وأنه لم يكتف بتشذيب انتفاخات وخشونات العقد من الخارج ، وانما أحدث فيها ، من حولهـــا ، وعن طريق احراقهـــا بحديدة محماة فى النـــار ، حز يصل عرضه عادة الى تسعة ملليمترات ، أو أكثر ، فى بعض الأحيان ، ويكون هذا الحز غائرا بسمك وتر بالغ الدقة من معى الحيوان ، مطلى بتركيبة من الشمع والراتنج ، وملفوف عدة لفات بشكل حلزونى فى

---

* الجول هو الحاجز القاسم داخل نبات ما . (المترجم)

هذا الحز الذى يملأ سعته هـذا الوتر ، مما يشكل ما يشبه حلقـة تغطى عرض العقدة ٠

٤ ـ أن له فم قرن(٢) بالأسـود ، يتخذ شـكل مخروط مجدوع ، مستدير عند قاعدته ، وينتهى من أسـفل بحلق(٣) وظيفته أن يدخل فى الفتحة التى فى أعلى البوصة(٤) ٠

٥ ـ وأن الفتحة o (٥) والقناة C (٦) من هذا الفم تتخذان نفس الاتجاه الذى تأخذه قناة أو أنبوب البوصة ٠

٦ ـ وأخيرا أن النقوب 1 , 2 , 3 , 4 , 5 , 6 ، لم تتقب الا فى النصف الثانى من الأنبوب وأنها تصطف ثلاثة ثلاثة على خط واحد من أعلى الى أسفل ٠

ويبقى أن نقول بأن الناى الكبير ليس به ما يميزه (عن غيره) سوى عدد السلاميات والعقد التى تكونه ، بالاضـافة الى طول امتداده وامتداد فمه ، وهذه هى الأشـياء التى ستكون الموضـوع الرئيسى فى الوصف التالى ٠

الهـوامش :

(١) انظر اللوحة CC الشكل رقم ١٨ ٠
(٢) الشكلان ١٨ ، ١٩ ٠
(٣) الشكل رقم ١٩ ٠
(٤) الشكل رقم ١٨ ٠
(٥) الشكلان ١٨ ، ١٩ ٠
(٦) الشكل رقم ١٩ ٠

المبحث الثالث

حول أطوال الناى الكبير وأبعاد أجزائه

يبلغ طول هذه الآلة الموسيقية ، دون أن يشمل ذلك فمها ، ٧٤٠ مم ، فاذا ما أضيف الى طولها هـــذا الفم ، فانه يصـــل الى ٧٧٠ مم ، وهى فى امتدادها هذا ترسم منحنى أكثر مما ترسم خطا بالغ الاستقامة ، كما أنهـــا تصـــنع من أنبوب من البوص يتـكون من ثمـــانى ســـلاميات كاملة هى : I , II , III , IV , V , VI , VII , VIII (١) مع عقدها(٢) ، بالاضافة الى بداية سلامية أخرى عند كل واحـــد من طرفيها (أى طرفى الآلة) ، ويكسو هذين الطرفين حلقة من النحاس V (٣) ، وتكون كل حلقة مـــع عقدتها أكثر طولا ، على نحو طفيف عن تلك التى تليها من أسفل ، ويبلغ طول السلامية الأولى ١٠١ مم ، والثانية ٩٥ مم والثالثة ٩١ مم ، والرابعه ٨٩ ، والخامسة ٨٧ ، والسادســـة ٨٦ ، والسابعـــة ٨٤ ، والثامنة ٨٢ ، ويبلغ عرض الحز وكذلك عرض الرابطة المصـــنوعة من معى الحيـــوان والتى تلتف حول العقد n، نحو ٨ مم أو تزيد أو تقل عن ذلك بنحـــو طفيف . ويقل طول قطر كل واحدة من هذه السلاميات بشكل تدريجى من واحـــدة لأخرى ، هبوطا ، وتصـــنع كل واحدة منها اختناقا صغيرا تحت أســـفل العقدة ، ثم تصنع بعد ذلك انتفاخا يستطيل تدريجيا حتى العقدة التالية ، ويكون قطر السلامية الأولى أكبر أقطار ســـلامياتها جميعا ، ويصـــل الى ٢٦ مم ، ويكون قطر السلامية الثانية هو نفسه على وجه التقريب ، أما قطر الثالثة فيبلغ ٢٥ مم ، ويكون فى الرابعـــة هو نفسه على وجه التـــقريب ، ويبلغ فى الخامســـة ٢٤ مم ، والسادســـة أقل من ذلك بنحـــو

طفيف ، ويكون قطر السابعة ٢٣ مم والسامنة ٢٢ مم ، وقد تم ثقب الثقوب السبعة الخاصة بالملامس بواسطة حديدة محماة فى النار ، وتشغل هـــذه النقوب السلاميات الخامسة والسادسة والسابعة ، وهى مستديرة ، ويصل قطر الواحد منها الى سبعة ملليمترات ، ويبلغ بعـــد الواحد من الثقـــوب النلاثة الأولى بـ ٢٢ مم'، ويقع أول النلاثة على مســافة ٢٧ مم الى أســـفل العقدة السابقة عليه ، ويقع الرابع على مسافة ٥٣ مم من السالث ومســافة ثلاثة ملليمترات من العقدة التى تليه ، والخامس على بعد اثنى عشر ملليمترا نحت العقدة السابقة عليه ، والسادس على مسافة ٢٦ مم من العقدة التاليه له ، ويثقب التقب السابع ، الحلفى ، والخاص بملمس الآلة فى الخلف ، فى نحو منتصف السلامية الرابعة ، بشـــكل مائل بعض الشىء نحو الجـانب الأيمن ، وبمعنى آخر ، فلو أنه ثقب على الخط المقابل تماما للتقوب الأمامية ، ونظرا للبعد الكبير الذى هو فيه بالفعل ، فلن يصل اليه بسهولة ، ابهـام اليد اليمنى ، الذى ينبغى له أن يلامسه ٠

وهنا شىء يجدر بنا أن نلاحظه ، وهو أنه يوجد على الخط نفسه الذى ثقب عليه النقب السابع ، ثقب آخر يقع الى اليسار كذلك ، لكنه مسدود منذ أن حدث بالشمع الأبيض ، وهو ما يدل على وجـود أشــخاص من بين العرب والمصريين يجدون من الأوفق لهم أن يمسكوا بآلاتهم الموسيقية بيدهم اليسرى ، برغم معاداة هؤلاء وأولئك لاستخدام هـذه اليـد فى مثل تلك الأغراض ، فمن الواضح أن هذا النقب قد أحدث من أجل شخص ما ، كان يمسك نايه باليد اليسرى وكان يسد هذا الثقب بابهام هذه اليد ، لاستحالة أن يفعل ذلك بابهام اليد اليمنى (بحكم موقع هذا الثقب) ، وأخـيرا فان كلا من الثقبين هذين يبعد عن العقدة التى تسبقه بمســافة ٢٣ مم ، وعن تلك التى تليه بنحو ٦٣ مم ٠

ويزود كل طرف من طرفي البوصة ، على نحو ما أسلفنا ، بحلقة V من النحاس ، تنتهى عند طرفها العلوى بحافة أو وصلة ، ويبلغ اســـاع الحلقة العلوية ٢٦ مم ويصل قطرها الى ٢٧ مم . أما الحلقــة السفلية فيبلغ اتساعها ٣٦ مم ، وقطرها ٢١ مم .

ويتخذ الفم شكل مخروط مستدير عند قاعدته أو يكون له بالأحرى شكل كروى مسحوب ، مسطح عنـــد أحد قطبيــه ، ومنتفخ عنــد قطره ، ومسطح ببساطة عند قطبه الآخر دون أن يكون مسحوبا ، ويبلغ طول هذا الفم ، مضافا اليه الحلقه g (٤) واحدا وأربعين ملليمترا ، ويبلغ انساع الحلق أحد عشر ملليمترا ، ويساوى طول قطر الفتحـــة العلوية o طول القناة C الذى يبلغ عشرين ملليمترا ، فى الوقت الذى يبلغ فيه قطر الجزء الأكثر انتفاخا ، والأكبر انساعا من الفم ستة وثلاثين ملليمترا .

الهـــوامش :

(١) الشكل رقم ١٨ .
(٢) الشكل رقم ١٨ .
(٣) شرحه .
(٤) الشكل رقم ١٩ .

المبحث الرابع

حول طريقة الامساك بالناى الكبير ، وبالآلات الأخرى من نوعه كذلك ، وحول طريقة العزف عليه ، وحول الجدول النغمي ومساحة هذه النغمات ، وحول خاصياتها وتأثيرها في الميلودى

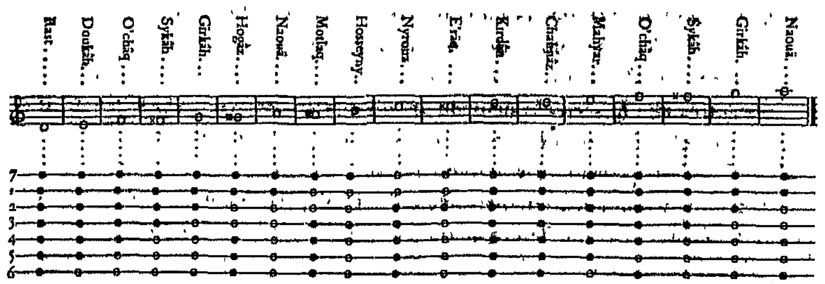
لكى يتم العزف على النـاى ، تمسك الآله الموسيقية باليـد اليمنى ، ويوضع ابهام هذه اليد فوق التقب الموجود الى الخلف ، وبعد ذلك يبسط العازف أصابعه بطول الانبوب من الأمام حتى يبلـغ الثقب الأول بسبابته والثقب الثانى بوسطاه والثالث بخنصره ، وبعـد ذلك يضع ابهام اليد اليسرى على الخط نفسه الذى توجد اليـد اليمنى فوقه ، وأدنى قليلا من خنصر هذه اليد ، وبعد ذلك تبسط أصابع اليد اليسرى على نحو ما فعلت أصابع اليد اليمنى ، بحيث تتوصل السبابة اليسرى لاقفال التقب الرابع ، والوسطى التقب الخامس ، والخنصر الثقب السادس .

واذ يكون للآلة طول بعينه ، واذ تكون التقوب قد عملت فى النصف الثانى من أنبوبها بقصد أن يبلغ فم الآلة فم العازف فان من الضرورى أن تنزل اليد اليمنى ، الممسكة بالناى ، من ناحية التقوب الأولى حتى الارتفاع المقابل ، للردف الأيسر (من العازف) ، ولهـذا يلزم أن تنخفض الذراع اليمنى حتى عضد الذراع اليسرى ، منبسطة ، مع حملها الى الأمام قليلا وتوجيه الساعد نحو الردف الأيسر ، وبعد ذلك تهبط قليلا الى الخلف ، الذراع اليسرى ، وينخفض الساعد مع طيه قليلا الى الأمام ، وبهذه الطريقة تبدو الآلة منخنية بميل ، مع الهبوط من اليمين الى اليسار ، واذ تبدو فتحة الفم

محنية بميل من اليسار الى اليمين ، فان النفخة لا تصل فم الآلة الا مائلة كذلك ، وتمضى لترتطم بجدران قناة الآلة التى تعكسها وتؤدى الى ترددها وارنانها ٠

واذ تكون كل النقوب مسدودة ، على نحـو ما فصلنا ، فان العـازف يحصل على النغمة الأولى من الجدول التالى ، وتبعا لما ان كان يفتح أو يسد هذه النقوب أو تلك فانه يحصل على النغمات التى سنشير اليها ٠

حدول ومساحة النغمات فى الناى الكبير



ولعل هناك ما يمكن أن ينطبق على هذه الآلة ، مما ورد فى الأبيات التالية من يوريبيديس (هيلين ، البيت ١٣٦٥ وما بعده) :

« وضحكت الربة كبريس (فينوس) ، وتلقت فى يدها النـاى الذى يصدر نغما ثقيلا ، وشعرت بالبهجة لعذوبة عزفه » ٠

ومع ذلك فليس فى هـــذا ما يتصل بالنغمـات الغليظة ، ذلك أن النغمات من هذا النوع قليلة فى الناى الكبير ، أما النغمـات التى يرددها فبالغة العذوبة ، حقيقة ، وان تكن مع ذلك مغلفـــة بطابع شجى مشبوب العاطفة ، بل شهوانى يستهوى سامعيه ، وبمقـــدور العـازف المـاهر أن يجتذب لنفسه جمهورا كبيرا بآلته الموسيقية هذه ، ومع ذلك فحين يعزف المصريون عليها ، يأتى ميلوديها مضجرا ، يبعث على النعاس ٠

المبحث الخامس

عن النـاى الجرف ذى الثمانية ثقـوب ، وعن صلة القربى التى تربطه بالناى شاه ، عن شكله على نحو اجمـالى ، وعن الأشـياء التى لا تتصل به بصـفة أساسية والتى لا تبدو سوى امور عارضة

كل ما فى الناى **الجرف**(١) ينبىء عن آلة من نوع ممـاثل لنوع الآلة السابقة ، فلاسمها وشكلها وبنيتها علاقة شبه ، بالآلة الأولى ، تبعث عـلى الدهشة البالغة حتى ليظن المرء أنها تنتسب الى النوع نفسه ، ومـع ذلك فان المصريين يجدون فيما بين هاتين الآلتين اختلافا كبيرا ، وهو خلاف قائم بالفعل ، وان لم يكن هـذا الفرق ملموسـا تماما فيما يتصـل بملمسها أو كيفية استخراج أنغامها ، فكلما تفحصنا شكل الناى الجرف كلما تعرفنـا على رابطة قربى حميمة تربطه بشكل الناى شاه ٠

ويصنع أنبوب هذا الناى ، هو أيضا ، من البوص ، ويرسم ، بالمنل ، فى طوله شكل منحنى غير محسوس ، على نحـو ما لا يكون الأمر كذلك محسوسا فى الناى شاه ، وليس له فى كل امتداده سـوى أربع سلاميات كاملة ، بالاضافة الى بداية سلامية أخرى عند كل واحد من طرفيه ٠

ولسوف نقع فى الخطأ لو أنا قد ظننا أن كـل الرباطات التى تحيط بالناى الجرف تغطى قدرا يماثلها فى العدد من عقد البوص* على نحو مانجد عليه الأمر فى الناى الكبير أو الناى شاه ، فلا يرجح أن تكون فى بوصة ما عقد تقترب من بعضها البعض على هذا النحو الذى نجدها عليه فى النـاى

* يتحدث المؤلف هنا عن الآلة المرسومة فى الشكل ، وليس عن هذا الناى على اطلاقه ٠ (المترجم)

الجرف لو أن عددها كان مساويا حقا لعدد الأربطة ، فلا توجد فى الحقيقة سوى خمس عقد أشرنا اليها بالحرف n ، أما الأربطه التى ظن المسـيو اربان أنها موجودة هناك على سبيل الزينة أو الزخرف ، والتى تشوه شكل الآلة فى واقع الأمر ، فقد عملت بغرض وحيد ، هو أن تضم بشدة جدران البوصة التى تقتسمها الشقوق والصدوع ، التى كان هناك من سعى من قبل الى تلافيها ، أو تلافى آثارها ، باستخدام الصمغ ، وهناك من بـين هذه الأربطة ما هو أكثر عرضا وما هو أقل ، بل ان بعضا منها قد دعمت فى المواضع التى بدا فيهـا الأنبوب وقد أعوزته المتانة ، ولهـذا السبب سنلاحظ أن رباطا كهذا أكثر اتساعا فى المواضع التى يبدو فيهـا تشقق الأنبوب أكبر ، ولا سيما فى الموضع الذى تبدأ عنده هذه الشقوق ، اذ أن هذا العيب يسيطر بطول قناة الأنبوب على وجه التقريب ٠

ولو أننا لم نسترع الأنظار الى هذه الأشياء ، لأمكن القارىء ، وليست فى حوزته آلة تحت ناظره ، أن ينسب الى شكلها ما لا ينتمى قط إليها . ومن الجائز أن توجد أخطاء كثيرة من هـذا النوع فى الأوصاف التى قدمت الينا عن الآلات الموسيقية الأجنبية ، ذلك أنه لا يحدث دوما أن تكون الآلات الأجنبية التى سنحت الفرصة بملاحظتها ، جـديدة تخلو من الترميمات ، وعلى هذا فانه لأمر عسير ، فى بعض الأحيان ، أن نميز ما هو أساسى عمـا هو عارض فى الآلات التى يكون شكلها مجهولا منا والتى نراها لأول مرة ، بل انه ليستحيل علينا — حتما — أن نفعل ذلك عندما لا نرى هذه الأشياء الا بالعين المجردة ، أو عنـدما لا نتفحصها الا ظاهريا وهـو ما يحـدث فى غالبية الأحيان ٠ ومهما يكن من ضآلة شأن موضوع ملاحظاتنا ، حين نفعل ما فى وسعنا للاشـارة اليه ، فلابد أن نبذل فيه اهتمـاما جادا ، والا فسنعرض أنفسنا بفعل اهمالنا الى أن نتهم بالجهالة وعدم الاخلاص ، واذا

كانت التفاصيل التى دخلنا فى أوصافها فى بعض الأحيان ، عديمة الجدوى ، فقد كانت أكثر وجوبا حتى نتفادى الأخطاء كما أنها كانت - على الأقل - ضرورية حتى نستطيع أن نعمل اوالية (ميكانيزم) بنيه هـذه الآلات وأن نحكم على خاصيات نغماتها وكذلك على ائتلافها النغمى . ويعرف الصناع كم من التغييرات الكبيرة يمكن أن تتسبب فيهـا - فى التأثير الذى تنتجه آلة ما - أوهى الاختلافات فى أطوال أو نسب أبعاد الجسم الرنان ، أو أى جزء آخر من أجزاء آلة موسيقية ما .

ومع ذلك فسنبقى دوما مخلصين للقاعدة التى فرضناها على أنفسنا ، بألا نقدم تفسيرا الا للأمور الجـديرة بذلك ، وألا نشـير الا الى تلك التى تستطيع ، بسبب أصالتها أو غرابتها ، أن تثير الفضول ، ولذلك فسنكف عن الحديث عن الأربطة التى لم توضع على الناى الجرف . الا لتغطية عيوب عارضة ، ولن نشغل أنفسنا الا بأشياء تنتسب أساسا الى شـكل وبنية هذه الآلة .

الهـوامش :

(١) انظر اللوحه CC الشكل رقم ٢٠ .

المبحث السادس

حول شكل الناى الجرف ، حول أبعاده وأبعاد أجزائه ، وحول تعيين ملامسه ، وحول جدوله الموسيقى

يتكون الناى الجرف من طرف قصبة بوص ، نمضى متسعه تدريجيا من أعلى الى أسفل ، ومن فم قرن على شكل مخروط كروى الشكل مجدوع عند قمته ، ويبلغ طول البوصة وحدها ٤٦٨ مم ، ويبلغ طولها مع الفم ٤٨٨ مم ، ويصل طول قطر محيط الأنبوب ، من أعلى الى ٢٥ مم ، ويصل من أسفل الى ٢٣ مم ٠

وأسفل الرباط الأخير ترق البوصة بلا جدال كيما توضع فيهـا حلقة من النحاس ، على نحو ما نرى فى الناى الكبير ، ولكنها مع ذلك تكون منفصلة فيما هو مرجح ، عن آلة الناى الجريف التى نقوم الآن بوصفها ٠ وفى هذا الموضع المرقق ، لا يبلغ قطر الأنبوب سوى ٢٠ مم ، وقد صنع فم الناى ، كما هو الحال فى الناى شاه على وجه التقريب ، وان يكن شكله أقل كروية ، ويمتد بشكل أكثر استقامة (أى أقل تقوسا) ، على هيئة مخروط ، وكان يمكن أن يصنع مخروطا حقيقيا مجدوعا لو أن زوايا قاعدته لم تكن قد دورت، ويبلغ طول هذا الفم ، بما فى ذلك الحلق الذى يشكل جزءا منه سنة وعشرين ملليمترا ، ويبلـغ قطر الجزء الذى يشـكل قاعدة للمخروط أربعة وثلاثين ملليمتـرا ، أما الجزء المجدوع ، وهو كذلك قطـر قناة الفم فتسعة عشر ملليمترا ٠

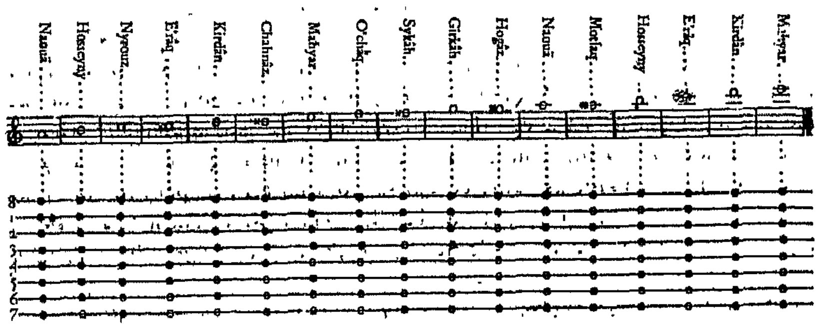
وقد ثقبت ثقوب الملامس على السلاميات الثانية والثالثة والرابعة ، وهى مستديرة الشكل بقطر يبلغ ثمانية ملليمترات ، وقد اصطفت الثقوب الستة الأولى ثلاثة ثلاثة ، فى خط واحد ، يقسم السطح الأمامى للآلة الى قسمين متساويين ، أما الثقب السابع فيقع على الجانب الأيسر ، مما يجعل من الميسور بلوغه ببنصر اليد اليسرى ، والذى ينبغى أن يسده ، وعن يمين هذا الثقب ، يرى ثقب آخر ولكنه مسدود بالشمع ، ولا بد أنه كان يستخدم نفس الاستخدام الذى كان للثقب السابق ، عن طريق شخص ما كان يمسك بهذه الآلة باليد اليسرى ، مثلما نفعل نحن (وان يكن هذا أمرا مضادا للعادة المتبعة بين المصريين والشرقيين عموما) ، مما كان يؤدى ، بالتالى ، الى عدم استطاعته أن يسد هذا الثقب ، وكذلك الثقوب الأخرى ، الا بأصابع اليد اليمنى ، أما عن الثقب الثامن ، الموجود الى الخلف فانه يسد عن طريق ابهام اليد التى تمسك بالآلة الموسيقية ، على نحو ما شرحنا عند حديثنا عن الناى شاه .

ويقع أول الثقوب الأمامية الستة على مسافة ٢١٨ مم من الطرف العلوى للأنبوب ، وعلى مسافة ملليمترين من العقدة التى تليه ، أما الثقب الثانى فيقع على بعد ٢٢ مم أسفل الثقب الأول ، والثالث على مسافة من الثانى مساوية لهذه ، والرابع على مسافة ٣١ مم من الثالث ، وتفصل الخامس عن الرابع مسافة ٢٢ مم ، وتفصل مسافة مساوية لهذه بين الخامس والسادس ، أما الثقب السابع ، المثقوب جانبيا فيقع على مسافة ٢٩ مم من الثقب السابق وعلى مسافة ٤٣ مم من الطرف الأدنى من الوصلة ، كما يقع الثقب الثامن ، الموجود الى الخلف ، على مسافة ١٨٢ مم من أعلى الأنبوب أو القصبة ، و٤٣ مم من العقدة الموجودة فى أسفله .

وهكذا يكاد يكون ما فى هذا الناى ، ذى الثمانية ثقوب ، يماثل كل

ما لاحظناه فى الناى الكبير ذى السبعة ثقوب، سواء فيما يتصل ببنيته ككل أو فى ترتيب وأطوال أجزائه ، لكن الثقب السابع ، وحده ، الواقع عند المقدمة ، والذى يسدونه ببنصر اليد اليسرى ، هو الذى يتسبب ، فيما يبدو ، فى كل الفروق التى لاحظنـــاها فى استخراج النغمـــات أو تعيين الملامس ، وهو الأمر الذى نستطيع أن نصل فيه الى قرار عن طريق تأمل الجدول النغمى التالى :

جدول ومساحة نغمات الناى الجرف



الفصل السادس

حول ذلك النوع من الناى الحقلى أو الريفى

الذى يسمونه فى العربية بالأرغـــول

المبحث الأول

حول طابع ونمط الأرغول(١)،
وحول أصل وزمن ابتكار الأرغول ، واسم مبتكره

لو أن حكمنا على الأرغول قام على أساس شكله فقط ، كما يفعل انسان لا يعرف عنه بعد سوى صورته ، فقد يكون عسيرا علينا أن نقتنع بأن هذه الآلة الموسيقية من صنع فلاحين خشنين ، ريفيين وأنصاف متوحشين ، كما هو عليه حال فلاحى مصر المحدثين ، هذا البلد الذى ظل فيه الانسان يحيا خاملا منذ قرون عديدة ، داخل هوة أشد الجهالات بلاهة ، وأكثر ضروب البربرية جلبا للعار ، ومع ذلك فانه لشىء قمين بأن يسترعى انتباه الرحالة طويلا أن تكون هناك تلك البساطة المتناهية التى للآلات المستخدمة فى هذا البلد ، فى مجال الفنون ، والتى ظلت بعيدة عن أن يتناولها تعديل من أى نوع يأتيها عن طريق مؤثرات خارجية ، وتكشف لنا هذه البساطة فى رأينا ، ومهما تكن خشونة اليد العاملة التى تصنعها ، عن أقصى درجات الكمال الذى بلغته الفنون قديما فى مصر ، والتى زالت عنها اليوم ، ذلك أن بساطة الوسائل تكون عادة ، فى مجالات الفنون التى ترجع الى عصور ضاربة فى القدم ، ميزة من مميزات الكمال ، ومن أكثرها صحة ، فاذا كانت هذه البساطة قد ظلت تحتفظ بنفسها فى أشياء كثيرة ، فلا يجوز لنا أن ننسبها الا الى لامبالاة المصريين الطبيعية ، والى نأيهم عن كل ضرب من ضروب التغيير . ذلك أن الانسان لا يستطيع ، دون جدال ، عن طريق وسائل أكثر من هذه بساطة ، وبقدر أكبر من التوفيق والاستيعاب

أن يقيم آله موسيقية أكثر جمالا وتناسبا ، ويوحى شكلها فى مجمله .
بهارمونية تفوق ما نوحى به آلة الأرغول هذه ٠

وعندما نقارن الأرغول بالآلات الموسيقية الأخرى من هذا النوع ، فان هذه الآله لا تخلى مكانها لاية واحدة منها ، طالبة اليها المعذرة ، ومن جهة أخرى ، فليس مرجحا قط ، ولا هو ممكن كذلك ٠ أن ينشأ هذا النوع من الآلات عند شعب عاطل عن الذوق ، فى مجال فنون الترفيه ، وفى عصور انحطاط وجهالة ٠

لقد كانت النايات المصنوعة من البوص على غرار هذه(٢) وكذلك النايات المزدوجة ، والنايات الونرية (أى الفردية) ، وغير المتساوية ، معروفة فى العصور القديمة ، ولكن ابتكار الناى ذى القصبات العديدة غير المتساوية(٣) قد تاه فى ظلمات الأزمان ، حتى لقد أعطاه الناس أصلا أسطوريا(٤) ، فنسبوه الى الاله **بان**(٥) ، وهو واحد من أقدم آلهة مصر ٠ صحيح أن هذا الناى قد صور لنا باعتباره مكونا من سبع قصبات غير متساوية(٦) ، وأن الأرغول لا يتكون الا من قصبتين ، وأن كل نغمة فى الناى الأول – ناى الاله بان – تصدر عن قصبة بعينها(٧) فى حين تكفى قصبة واحدة هنا كى تصدر نغمات عديدة ، وهو أمر يفترض وجود فن بالغ الكمال فى هذه الآلة الأخيرة ، كذلك نسب الى **سيلينا*** اختراع ناى ذى قصبات متعددة ، وان لم يحدد لنا عددها(٨) ، كما نسب الى **مارسياس**(٩) ابتكار ناى كانت قصباته العديدة تلتصق الى بعضها البعض بفعل الشمع ، كما يذكر **دافنيس****(١٠) Daphnis باعتباره مبتكرا للناى الرعوى :

---

* اله المراعى والغابات عند الفريجيين وأبوباخوس من الرضاعة . (المترجم)

** دافنيس شاعر صقلى ينسب اليه ابتكار الشعر الرعوى (المترجم)

وبايجاز ، فلسوف نسهب كثيرا اذا ما شئنا أن نتذكر كل أسماء من عكفوا على نطوير الناى ذى القصبات العديدة بغية الوصول به الى مرتبة الكمال .

وليس هناك ما يدعو لأن نتحدث عن النـاى المزدوج الـذى كان الفريجيون يستخدمونه فى أغنياتهم عـلى شرف كيبيلى(١١)✻ Cybēle ، وقد عرف هذا الناى كذلك ، وقد كان معقوفا ومصنوعا من خشب البقس ، عند الفريجيين ، وعرف عند قدماء المصريين باسم **فوتنكس** ، وكان يصنع هناك من نوع من نبات اللوتس الذى ينمو بصفة خاصة فى أفريقيا ، ويدور الحديث هنا حول ناى مزدوج مصنوع من البوص ، قصبتاهمستقيمتان وغير متساويتين ، أما فتحة نفخه أو فمه فليست سوى شق أو صدع يتم احداثه عن طريق احداث قطعْ طولى فى كل سمك البوصة ، دون انتزاع شىء من جسم البوصة ثم من شظية على شكل لسين يفتح ممرا لنفخة العازف التى تؤدى لاحداث النغمات ، وتلكم هى الأوصاف التى كانت تحدد هذه الآلة عند الأقدمين ، ولقد تم رسم هذه الصفات بأقلام الغالبية من المؤلفين الاغريق واللاتين ، وبطريقة لا يستطيع أمرؤ أن يتجاهلها أو ينكرها أو أن يسىء الظن بها ، فتيوكريت Théocrite لا يدع مجالا للشك حول استخدام النايات المزدوجة الرعوية عند الأقدمين ، فهو يتحدث عنها بعبارات ايجابية ، لا لبس فيها(١٢) ، وكان يطلق عليها اسم **النايات التوائم** أو **المتزاوجة** ، كما يخبرنا عن نايات رعاة البقر قائلا ان هذه النايات الأخيرة تتكون من قصبات عديدة تلتصق الى بعضها بالشمع على غرار ناى بان(١٣) ،

✻ ابنة السماء (أورانوس) وجيبيا الهة الأرض والحيوانات ، وزوجة زحل وأم جوبيتر وبنتون وبلوتون وجونون ، كما تذكر الميثولوجيا القديمة — المترجم .

وليست عبارات **نونوس** فى ديونيسيانه Dionysiques عن هذا الأمر بأقل وضوحا حين يقول : « هاتوا هذه الجرسيات المخصصة لباخوس ومعها جلد العنزة ، وأعطوا للآخرين الناى المزدوج حتى لا أهيـــج غضب فويبوس Phoebus لأنه ينفر من النغمات التى أحدثها بناياتى »(١٤) ، ويتحدث أوفيديوس عن ناى رعاة يتكون من قصبتين غير منساويتين(١٥) ، وهذا دافنيس، الذى ينتمى أصلا الى صقلية ، والذى ذاع صيته على لسان الشعراء باعتباره مبتكرا للناى الرعوى(١٦) ، يجرح فى يده ، كما يروى لنا ثيوكريت ، بواسطة شـــظية بوص ، حين أراد أن يصـنع نـايا · ويحدثنـا بروبرتوس(١٧) Propertus عن آلة من هذا النوع يشير اليها باسم **البوصة المشـقوقة** ، ويطلب هارمونيد Harmonide فى مؤلفه (؟) لوسيان(١٨) ، Lucien الى تيماوس بينما هو يرجوه أن يعلمه فن العزف على الناى ، أن يعلمه بشكل خاص كيف يؤلف نغمات ميلودية عن طريق تمرير نفخة هواء من فمه ، من خلال لسان صغير(١٩) ، وهناك أمثلة لا حصر لها مماثلة ، تبرهن لنا جميعها أن الأقدمين قد عرفوا الناى المزدوج المصنوع من البوص ، والذى نراه اليوم مستخدما بين الفلاحين ،وهم مزارعو مصر اليوم تحت اسم **الأرغول** ، وليس من الضرورى ، فيما يبدو لنا ، أن نورد شهادات أخرى ، تضاف الى الشهادات السابقة ، لكى ندلل على أمر تمت البرهنة عليه بالقدر الكافى ، وهكذا يتضح أن الآلة الموسـيقية التى نحن بصـدد الحديث عنها ، كانت معروفة منذ العصور القديمة ، والضاربة فى القدم ·

فهل نريد أن نعرف الآن الى أى عصر من العصور يعود الناى الذى نحن بصدد الحديث عنه ، ومتى تم ابتكاره ؟

ان أبوليوس لم يكتف بالاشارة الى هذا الناى ، وانما قد فسر لنا كذلك التأثير الخاص لنغمات كل واحدة من قصبتى البوص غير المتساويتين ، وهذا

التأثير الذى لا يزال هو نفس تأثير نغمات الارغول ، قد جعله أبوليوس ، على نحو ما ، محسوسا بفعل طنين الكلمات التى استخدمها كى يشرح لنا ذلك ، ولهذا السبب فلسنا سعداء عندما نضطر الى ترجمته (لأن كلامه يفقد الايقاع الذى له فى لغته الأم) ، يقول أبوليوس(٢٠) : « كان هيجانيس ، والد مارسياس ، هو أول من جعل آلتى ناى ترددان أنغامهما بواسطة نفخة واحدة ، وفى وقت واحد ، وأول من استخرج نغمات حادة عن طريق مخرجين الى اليمين والى اليسار ، كانت (أى النغمات) تشكل بتزاوجها مع طنين الناقوس* نوعا من الهارمونية » . ولم يكن يعوزنا سوى هذا الوصف حتى تجلو أضواء الوضوح كل ما انتهينا من قوله حول قدم أصل الأرغول ، وها نحن أولاء نرى أنه يعود الى القرن الخامس عشر قبل مولد المسيح ى الى حوالى عام ٣٣١٢ من عامنا الحالى (١٨٠٢) ، فمن المعروف أن هيجانيس قد ذاع صينه قبل مولد المسيح بخمسة عشر قرنا(٢١) على نحو التقريب ، وبمعنى آخر،فان هذا يجعل ما دفعنا إليه شكل هذه الآلة لأن نحدسه أمرا لا ريب فيه ، كما يبرهن على أن اخراع هذه الآلة الموسيقية يعود الى رجل صاحب عبقرية أنضجتها المعرفة وذى مزاج راق ، ولد فى عصر يزخر بالأحداث الكبرى ويزدحم بعظماء الرجال ، فبرغم كل ما يقوله أبوليوس عن هذا الأمر ، يظل التاريخ والوقائع بالنسبة لنا المعول الرئيسى ، وليس ما يرتئيه هو من أحكام حول هذه النقطة ، فلقد أخطأ ، ولا ريب ، حين يطلق صفة الخشونة(٢٢) على قرون كف الناس فيها عن ألا يأتوا الا كل ما هو نافع ومفيد ، وأهملوا ــ فى الوقت نفسه ــ ما لم يكن ترتجى من ورائه سوى المتعة وحدها ، وفى هذا نتعرف على مبدأ قدماء المصريين ، هؤلاء القوم

* تصاحب نغمة الناقوس الغليظة اللحن الرتيب الذى يصدر عن الأرغن . (المترجم) .

المشهود لهم بأنهم أكثر أمم الأرض حكمة وأغزرهم ثقافة وعلما ، فى العالم القديم كله ، اذ كان هؤلاء يوقفون تقدم ضروب الفنون والصناعة ، بل كذلك طفرات العبقرية ، عند تلك النقطة التى يغدو فيها التقدم فى هذا الضرب من ضروب الصناعة والفنون أو ذاك خلوا من النفع ، كما كانوا ينظرون الى استخدام الانجازات فى غير الاغراض التى جاءت هى كضرورة لا محيص عنها ، بالنسبة لها ، باعتباره انتحالا مجحفا بسعادة فى هذا الزمن — ولا يمكن ، بالتأكيد ، أن يعد عصر هيجانيس خشنا لأن المصريين أوقفوا تطوير نغمة الناى عند هذا الحد(٢٣) ، أو لأن الناى لم يكن يتخلله كل هذا العدد من الثقوب(٢٤) ، أو حتى لأن العزف عليه لم يكن قد ابتكر أو كان قد ظهر لأول مرة(٢٥) . فلقد كان المصريون والكلدانيون والفريجيون والفينيقيون ، عندئذ وبالفعل ، شعوبا ذات حضارة متقدمة ، وكانت معارفهم فى مجالات العلوم والفنون قد بلغت شأوا بالغ الكمال ، بل لعلها كانت قد وصلت عندئذ الى الدرجة التى تتحقق فيها سعادة الشعوب دونما حاجة الى مزيد من التطوير ، ولا يتبقى الا أن أبوليوس قد أصدر حكمه الجائر هذا على شعوب هذه الأزمان الضاربة فى القدم تحيزا مسبقا أعمى من جانبه لعصره هو ، أو قل ان السبب فى ذلك يعود الى جهالة مطبقة بالتاريخ .

ولربما يقول قائل : ولماذا اذن نتجشم كل هذا العناء من أجل ناى بائس لفلاح أشد بؤسا ؟ ونحن نقر بذلك عن طيب خاطر ، ومع ذلك فلقد تيقنا ، فى مؤلف لنا من الطبيعة نفسها التى لهذا المؤلف ، أنه مخول لنا أن نجتاز تلك الحدود البالغة الضيق ، التى انحصرت فى اطارها ميكانيزمات الفن الموسيقى وممارساته الرتيبة ، وأنه لا بأس بنا ، كلما هيأ لنا موضوعنا الفرصة أن نقدم بعض اجتهادات وأفكار نافعة ، لكن سائلنا قد يعود

يحاججنا : وماذا يهمنا اليوم أن نعرف أن الرعاة قد استخدموا آلة موسيقية مماثلة منذ ثلاثة آلاف عام ؟ وأية فائدة يمكن أن يجنيها امرؤ من هذا الاستعراض لهذه المعارف المتزاحمة ؟ ولم لا تكتفى ببساطة بأن تفسر لنا . فى ايجاز ، تركيب وبنية الأرغول الذى لن نفيد منه شيئا الا مجرد ما نجنيه من نسبة الأمر كله الى الحملة الخالدة على مصر* ؟ وفى الحقيقة ، فلعل الأكثر راحة لنا أن لم نكن قد أقحمنا أنفسنا فى هذه البحوث ! ومع ذلك ، فحيث لم نستطع أن نقنع أنفسنا بأن الوقائع التاريخية ليس لها من نفع سوى اشباع الفضول ، وحيث أنا ، عكس ذلك ، على يقين بأن الوقائع لا تنقل الا باعتبارها نصائح ونجارب تخلفها أجيال مضت لأجيال تتعاقب ، فنحن على يقين بأننا لم نتجاوز الحدود حين نلتزم بتأمل هذه الوقائع ، وأن علينا بالتالى أن نسعى لتبديد الغموض ، كلما كان ذلك ممكنا ، عن كل ما يتصل بعادات وممارسات الأقدمين ، فعلى أساس المعرفة الدقيقة بهذه العادات والممارسات يصح فهمنا لمؤلفات المؤلفين من الاغريق واللاتين ، وهم الذين نقلوا الينا أكثر وقائع هذا التاريخ القديم أهمية ، فعلى سبيل المثال فان ما انتهينا من ملاحظته حول استخدام الأقدمين للناى الحقلى المزدوج ، الذى يشبهه كثيرا **ارغول** المصريين المحدثين ، وكذا المقابلات والمقارنات التى توصلنا عن طريقها الى تحديد التماثل القائم بين هذا الناى الرعوى المزدوج الذى كان لدى الأقدمين وبين أرغول الفلاحين ، موضع حديثنا ، أو بالأحرى وقوفنا على هوية هذا الناى القديم ـ انما يلقى المزيد من الأضواء على نص نجده عند شارح أو مفسر بندار ، يقر العلماء المتخصصون أنفسهم بأنهم لم يتمكنوا من فهم معانيه بدقة ، اذ يخبرنا هذا الشاعر عند بداية الأنشودة التى ألفها على شرف عازف ناى ميداس بقوله : **وعلى الرغم من أن لسان ناى هذا**

---

* يقصد الحملة الفرنسية على مصر . (المترجم)

العازف قد انثنت الى داخل الآلة نفسها ، التى اختار - هو - أن يعزف عليها ، فان ذلك لم يمنعه من مواصلة العزف ، وعلى هذا فحيث لم يستطع العلماء أن يتخيلوا امكانية وجود آله عرف أخرى يمكن أن ننطبق عليها هذه الملاحظة سوى الناى ذى المنقار ، وحيث لم يتصوروا كيف يغدو ممكنا الافادة من هذه الآلة وقد انثنى ما اعتبروه لسانا (أو لسينا) لها ، أى هذا الطرف الخشبى الذى يشغل الفتحة العلوية للأنبوب عند موضع الفم(٢٦) ، فان الأمر قد انتهى بهم الى القول بأنهم لم يفهموا جيدا كيف كان ميداس يستطيع أن يواصل عزفه على الناى بعد أن انثنى هذا اللسين .

وينبغى لما قلناه فى وصفنا للصفارة المصرية ، وهى من نوع الناى ذى المنقار أن يكون قد تبين بجلاء أن قطعة الخشب المستديرة ، المخروطة بميل من جانب والمفرغة بعض الشىء من الجانب الآخر ، والتى تسد فتحة الآلة لتشكيل فمها أو منقارها ، هى بالغة السمك لحد لا يمكنها معه من أن تنثنى ، فاذا ما أصابها ، برغم ذلك خلل مهما تكن ضآلته ، فمن شأن ذلك أن يجعل الآلة غير صالحة مطلقا للاستعمال ، ومع ذلك فلم يحدث أن أشير الى هذه القطعة أو الطرف الخشبى على الاطلاق ، وهى قصيرة ويبلغ سمكها سمك الابهام ، على أقل تقدير ، باسم **اللسان** ، ولكن الأمر ليس على هذا النحو ، فيما يتصل بهذه القطعة نفسها من الناى القديم المزدوج ، والذى يعرف الآن فى مصر باسم **الأرغول** ، فهذه القطعة التى فصلوها عن طريق احداث شق طولى فى سمك البوصة ، وهى الجزء من الآلة التى لم يعد يرتبط بالأنبوب الا عند موضع واحد ، كان يشار اليه على الدوام ، فى اليونانية القديمة وفى اللاتينية . وفى الفرنسية باسم **لسان** ، وليس هناك نوع آخر من آلة الناى يوجد به لسان سوى هذا الذى يسمونه **الأرغول** فى العربية ، ونعرف نحن فى فرنسا هذا الصنف من الناى ، وان يكن أصغر حجما تحت

اسم Chalumeau أى الشبابة ، وهو فى حقيقة الامر ليس سوى ساق سنبلة أو أنبوب من قش مشقوق بشكل طولى من أعلى . على غرار الأرغول ٠

وعن شبابة مماثلة يحدثنا فرجيل فى هذا البيت :

« انك تعزف الانشودة الرعوية على الناى الرقيق »

وكذلك فى البيت التالى :

« انا ذلك الشخص الذى عزف منذ زمن على الناى الرشيق »

ولا يختلف الأرغول قط عن هذه الشبابة الا فى أنه مصنوع من قصبة بوص ، وفى أن أطوال أبعاده أكبر بكثير من نظائرها فى هذه الشبابة — وعلى هذا يكون الأرغول هو الآلة الموسيقية الوحيدة التى يمكننا أن نطبق عليها ملاحظة شارح بندار ٠ وفى واقع الأمر ، فاذا ما أخذنا فى اعتبارنا أن لسان ناى مماثل يكون رقيقا على الدوام بعض الشىء بسبب طوله وعرضه، وأنهم يبرونه من أعلى عندما يكون سمكه أكبر مما ينبغى(٢٧) من أعلى . ناحية الطرف (العلوى) للآلة ، فان علينا أن نتوقع ، كأمر مرجح حدوثه على الدوام ، أن هذا الشىء ينثنى ويرتد اذا قابله جسم صلب من أى نوع يبدى تجاهه بعض مقاومة (أو يحدث عليه بعض ضغط) ، كما يحدث أن يرتطم أحد أصابعنا ونحن نتحسس (الأرغول) بأصابعنا متجهين من أسفل الى أعلى ، بطرف هذا اللسان ، أو اذا ما اعوج — هو — بعد تجفيفه بعد أن يناله بعض البلل ، ومن المرجح أن يكون ناى ميداس ، وقد انثنى لسانه بفعل حادث مشابه ، لم يحل دون ميداس ومواصلة العزف عليه ، فحيث يتصف هذا اللسان بالمرونة فلن يكون من العسير (بالنسبة لعازف متمرس) أن يبقى عليه ، عن طريق الضغط فوقه بشدة بواسطة الشفاه فى الوضع والاتجاه الذى لا بد له أن يتخذهما ، بحيث لا يشكل الأمر بالنسبة للعازف الا صعوبة نشأت ولا بد من التغلب عليها ٠

الهـــوامش :

(١) أنظر اللوحة CC ، الأشكال ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ٠
(٢) يوريبيديس ، ايفيجيبيا في أوليد ، البيت ١٠٣٧ ٠
(٣) Théocrit, Bucol. idyl, VIII, v. 21 et seqq, Virgil. Bucol. éclog. II
(٤) Pausan. Arcard. P. 518, Virgil. Bucol eclog. II V32 et seqq
(٥) أوفيديوس ، مسخ الكائنات ، الكتاب الاول ، البيت ٧٠٧ وما بعده ٠ Virgil. Bucol. VIII
(٦) Virgil. Bucol. eclog. II v. 24, 31 et seqq., Tibul, lib II, eleg. V, V. 29 et seqq.
(٧) Lucret. De rerum nat. lib IV, V. 589.
(٨) أثينايوس ، مأدبه الفلاسفة ، الكتاب الرابع — الفصـل ٣٥ ، ص ٥٨٩ ٠
(٩) فرجيل ، الايناده ، الكتاب العاشر ، البيت ٦١٧ وما بعده ٠
(١٠) Théocrit. Epigr., et Bucol. idyll. VIII. Virgil. Bucol. eclog. V.
ثيوكريتوس ، الابجرامات ، والقصيدة الرعويه رقم ٨ ،
فرجلبوس ، المختارات الرعوية رقم ٥ ٠
ونرى في مصر نايات بوص ذات سبع وثماني وتسع قصبات ، بل يصل عدد هذه البوصات لما هو أكثر من ذلك ، من أطوال مختلفة ، وتأتي في ذات الترتيب الذي جاءت عليه في ناى الاله بان ، وتلتصق هذه القصبات في آلات الناى تلك ، الى بعضها البعض بالشمع ، وتضم الى بعضها كذلك عن طريق خيط أو رباط يضمها جميعا في الوقت نفسه ٠ ولا يستخدم هذا النوع من النايات الا بين الفلاحين أو أبناء طبقة الشعب ، ويطلق عليه هؤلاء اسم **جناح** أو **موسيقال** ٠ وقد أهملنا وصف هذه الآلة لأنها قد جاءت على وجه الدقة على نحو ما صنعت عليه الآلات من هذا النوع ، التي نراها في أوروبا ، والتي نسمعها تتردد عادة في شوارع باريس منذ بضع سنوات ٠
(١١) فرجيل ، الانيادة ، الكتاب التاسع ، البيت ٦١٧ وما بعده ، **« حيث الناى ذو القصـبتين يعزف اللحن الذى اعتدتن سـماعه ، وحيث تدعوكن الدفوف والمزامير البيريكونثية المصنوعة من خشب البقس ، والتى تخص الأم الإيدية (كيبيلى) »** ٠
(١٢) **« ألا ترغب بحق الموسيات (= ربات الفنون) في الانشاد على نغمات المزمار المزدوج ؟ ان هذا لأمر مبهج بالنسبة لى ٠ فأنا أيضا عندما أمسك الناى سأبدأ في عزف أحد الألحان ٠ أما دافنس الذى يقوم بالحرث فسوف يشجينا في تلك الأثناء عندما يعزف على مزماره المكسو بطبقة من الشمع بأنفاس متوافقة ، ونحن واقفون خلف الكهف بالقرب من شـجرة البلوط الكثيفة الأوراق ، فنكون بذلك قد حررنا الاله بان ذا سيقان الماعز من سطوة النوم »** ٠ Théocrit. Epigr. V
(١٣) Théocrit. Bucol. idyll VIII, V. 18 et seq. Epigramm. II

ثيوكرتيوس . القصيدة الرعوية رقم ٨ ، بيت ١٨ وما بعده ، ابجرامة رقم ٢ .

(١٤) « **أعطوني جلجل باكخوس وجلد الماعز ، وزودوني كذلك بالناى المزدوج ذي النغمات العذبة ، حتى لا أثير حفيظة فويبوس ، لأنه يرفض صوت مزاميرى المفعم بالحيوية** » .

نونوس الديونيسيات ، البيت ٣٩ وما بعده .

وأن يكن الأمر على غير هـذا النحو فيمـا يخص الناى المزدوج الذى يتنـاوله بالحديث فى البيتين ٢٣٢ و ٢٣٣ من ديونيسـيـاته - الـكتاب الأربعون :

« **كانت المزامير ذات القصبتين المنسوبة الى بريكينتوس (جبل الربة الأم) تصدر زمجرة مرعبة ذات طابع حزين عرفت به منطقة ليبيا** » .

ويلمح نونوس باشارته الى هذا الناى الذى كان أنين نغماته يعبر عن حداد مفزع شبيه بحداد الليبيين ، الى تلك الصرخات المولولة والتى كانت تصاحب جنازات الموتى ، الذين كانوا يدفنون فى جبانات بالغة الروعه ، نراها بطول حافة الهضبة الليبية ، كما يريد أن يتناول النايات الفريجية التى كانت تستخدم فى عبادة كيبيلى Cybèle فى أعياد باخوس . وكانت هذه النايات المزدوجة متساوية القصبتين ، ولم تكن قصبتاها مصنوعتين من البوص ، وانما من خشب البقس أو من نبات اللوتس ، وكانت تنتهى بفتحة بوق على هيئة قرن ، وقد رسم شكل هذا النوع من الناى فى كهوف ايلبتيا (الكاب) فى اثر موكب جنائزى ، وعلى هذا فان هذا الصنف من الناى يختلف كلية عن الأرغول .

(١٥) Ovid. Remel. amor. V. 181

(١٦) Théocrit. Epigram., et Bucol. idyll. VIII. Virgil. Bucol. eclog. II

(١٧) Propert. lib. IV, eleg. VIII, V. 52

(١٨) Lucien. Harmonides

(١٩) هذه الكلمة فى Lucien قد عبر عنها بكلمة : (لسان المزمار)

(٢٠) Apul. Florid. lib I, p. 405; Lutetiae Parisiorum an. 1601

(٢١) تشهد رخامات أرندل Arundel بنفس هذه الواقعة وتحدد هذا العصر كوقت لحدوثها . انظر : Chronicus Canon Egypt. Hebr. et gr. cum Disquisit. D.J. Morshami ad seculum IX, p 112 Londini, 1672; Langlet, Tablettes Chronologiques etc;

أثينايوس ، مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الثانى عشر ، الفصل الثانى ، الصفحة ٦١٧ .

(٢٢) Rudibus adhuc seculis solers Hyganis ante alios canere. Apul. ubi suprà.

وترجمتها:

« من القرون الغابرة حتى الآن غنىهيجانيس الحاذق قبل الآخرين » .

[أبوليوس ، أعلاه]

(٢٣) « **حقا لم يبرع فى عزف الصوت بجنان ثابت** » **نفس الموضع**

(٢٤) « **لا ! ولا المزمار ذو الثقوب الكثيرة** » **نفس الموضع**

(٢٥) « **وبكل تأكيد فانه حتى ذلك الوقت .. كان ذلك الفن الذى ظهر حديث الاكتشاف** » .

(٢٦) حــول وصف هذا الجزء - أنظر ما قلنــاه عند حديثنا عن ناى المصريين ذى المنقار والذى يطلقون عليه فى العربية **شبابة** أو **صفارة** .

(٢٧) أنظر اللوحه CC الشكل رقم ٢٤ .

المبحث الثانى

عن الأرغول – وعن أجزائه ووظيفته

توجد ثلاثة أصناف من الارغول(١) : الكبير ويسمى **الأرغول الكبير** ، والوسيط ويسمونه **الارغول الصغير** ، والصغير الذى يطلقون عليه **الأرغول الأصغر** .

ويتركب كل واحد من الثلاثة من قصبتين أســـاسيتين ، أولاهما A أكبر طولا وثانيهما B ذات طول أقل ، وتضم احداها الى الأخرى ، وذلك بالاضـافة الى أطراف عديدة ، تكون فى أدنى (أى فى نهاية) الأنبوبين الرئيسيين A و B . أما القصبة الطويلة A فنطلق نحن عليها اسم **الجسم الكبير** ، وأما الصغيرة فنسميها **الجسم الصغير** . وأما الطرف أو القصبة التى تضاف الى هاتين القصبتين فقد أسميناها **الجسم الأمامى** أو ما قبل الجسم . وأشرنا بالحرف a الى الطرف الذى ينتسب الى الجسم الكبير A ، وبالحرف b الى الطرف الذى يضاف الى الجسم الصغير B ، كما أسمينا الجزء الذى يضاف الى قمتى هاتين القصبتين **البوقال** C اذ يوجد فى هذا الجزء المضاف الشق F واللسين L اللذان يكونان الفم ، كذلك أطلقنا على الأطراف الأخرى التى أضيفت الى النهاية الدنيا من الجسم الكبير A والى ما دون الجسم الصغير B اسم **الوصلات** وقد رقمناها بأرقام رومانية .

وتنقب الجسم الصغير B ستة ثقوب رقمناها بالأرقام العربية 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، ومن شأن هذه الثقوب تحديد ملامس الآلة ، وينتج الجسم الصغير B النغمات الحادة التى تكون اللحن المصاحب للغناء والذى يعزف على هذه الآلة ، وهو يقع الى اليسار من الجسم الكبير A (٢) ،

والذى لا يردد سوى نغمة غليظة ، نستخدم ، شأن الأوتار الغليظة basse فى كل الآلات الوترية ، أو شأن نغمة الناقوس بالنسبة للغناء ، وليس لهذا الجسم الكبير من فتحات سوى شق الفم ، والثقب الموجود فى الطرف الأدنى من قناه أنبوبه .

ونزود كل قطع البوص التى تكون هذه النايات منها ، وفى مواضع عدة منها ، بأربطة عبارة عن لفات عديدة من دوبارة صغيرة أو خيط سميك . مدهون بالشمع المخلوط بالراتنج ، ونستخدم بعض هذه الاربطة فى ضم القصبتين ، كل منهما الى الأخرى ، وتضمهما معا فى الوقت نفسه ، وسنطلق على هذه الاربطة هنا اسم **المزدوجات** ، تمييزا لها عن الاربطة التى سنتناولها فيما بعد ، وسنشير اليها بالحرفين dd ، ونستخدم الأربطة الأخرى فى دعم وتقوية الأطراف المخصصة لتلقى أطراف أخرى ، فحيث جوفت الفتحة هنا ووسعت لتسهيل دخول الاطراف الأخرى فيها ، وحيث باتت بالتالى ضعيفة ، فانها قد لا تستطيع مقاومة الضغط الذى تحدثه هذه الأطراف عند دخولها فيها ، وسنطلق على هذه الأربطة اسم **الأربطة البسيطة** (أى المفردة أو غير المركبة) وسنشير اليها بالحرف S ، كذلك فمن شأن هذه الأربطة الأخيرة أن نستخدم كذلك كسوة لعقد البوص على غرار ما تفعل أربطة مماثلة تغطى عقد القصبة التى يتألف منها الناى ، أما الفرق الوحيد الذى يمكن أن نلاحظه هنا فهو أنها فى حالة الأرغول تعقد فوق لحاء البوص مباشرة وليس فى حز معمول فى سمك الخشب (على غرار الناى) ، كذلك سنميز هذه الأربطة الأخيرة عن بقية الأربطة الأخرى بأن نطلق عليها اسم أربطة الزينة أو الأربطة (الفرايحى) ، وسنشير اليها بالحرف n .

ويشدد على الأربطة المزدوجة dd المستخدمة فى ضم القصبتين كل منهما الى الأخرى ، بدورها ، بواسطة خيط يقسمها على نحو ما الى

قسمين ، يربطهما ويضيق فيما بينهما فى المنتصف . مرورا بين القصبتين A و B ، مما يزيد من متانه هاتين القصبتين ويحول دون أن تتزحزح أى منهما الى هذا الجانب أو ذاك . ثم يستطيل هذا الخيط نفسه بعد أن يقوم بدعم وتقوية الأربطة الاولى من **أعلى** ويشد بأقوى قدر مستطاع حتى الأربطة التالية ، التى يقوم بالالتفاف حولها على نحو ما التف حول الاربطة الأولى ومن هناك يمتد كذلك ويشد حول الرابطة المزدوجه الأخيرة التى تضم الجسم الصغير الى الجسم الكبير من ناحيه طرفهما الادنى . والى هذا الخيط المشدود بين الجسمين A و B ، ومن الخلف بواسطة حلقه متحركة يعلق الخيطان اللذان تربط اليهما بوقال b كل من الجسمين عندما ينفصلان عن الطرف الأعلى لهما (أى فى غير حالة العزف) . وبالمثل نعلق كـــل وصلة اضـــافية اما الى جسم الآلة إذا كانت مجاورة له . واما الى الوصلة التى تسبقها عن طريق خيط مزدوج معقود الى الرباط الاول من هذه الوصلة والى الرباط الأخير المجزء الذى يسبقها ، بحيث تظل هذه الوصله ، فى نفس الوقت ، عند فصلها ، معلقة الى الآلة ، على نحو ما نستطيع أن نرى فى اللوحة CC الشكل رقم ٢٢ ، فى الوصلتين Ir' و IIr اللتين رسمتا منفصلتين

الهـــوامش :

(١) انظر الأشكال ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) جاء الشكل رقم ٢١ مقلوبا عن الوضع الصحيح الذى للآلة . وان يكن هذا الانجاه صحيحا فى الشكلين ٢٢ ، ٢٣ .

المبحث الثالث

حول الأجزاء التى يتألف منها كل من الأرغول الكبير والأرغول الصغير والأرعول الاصغر ، وحول الأبعاد الرئيســية فى هذه الآلات الثلاث ، وحول مســاحة وخواص نغمــاتها ، وحول جدولها النغمى ، وكذلك حول تحديد ملامس كل واحدة منها

..ا يكن صنف الأرغول ، كبيرا كان أو صغيرا (أى وسطا) أو أصغر فان أجزاءه الرئيسية تظل فى كل الحالات هى ما يلى :

١ ـ الجسم الكبير A ٠

٢ ـ الجسم الصغير B ٠

٣ ـ الجسمان الأماميان a و b ٠

٤ ـ بوقال الجسم الكبير وبوقال الجسم الصغير ٠

أما بقيه الأجزاء فليست سوى اضافات تتم حسب مزاج أو مشيئة العارف ، ولذلك فلن نقدم سوى أطوال هذه الآلة دون الوصلات ، ثم أطوالها بعد اضافة هذه الوصلات ، لكننا سنعفى أنفسنا من الدخول فى تفاصيل حول أبعاد القطع المضافه ، حتى لا نشغل القارىء سدى بأشياء ليست جديرة باهتمامه ٠

يتركب الأرغول من عشر قطع هى :

أولا : الأجزاء الستة التى أشرنا اليها ٠

ثانيا : الوصلات الثلاث Ir ، IIr ، IIIr بالنسبة للجسم الكبير A ، والوصلة Ir فى الجسم الصغير B ·

ويصل الطول الاجمالى لهذه الآلة ، دون اضافة الاجزاء الأخيرة ، أى غير مشتمل الا على الأجزاء السنة الرئبسية الى ٤٨٣ مم ، فى حين يبلغ هذا الطول مشتملا على كل الوصلات مترا واحدا و٧٠ ملليمترا ·

أما الأرغول الصغير ، وهو ما نسميه نحن بالوسيط ، فلا يشتمل الا على ثمانية أجزاء ، وبالتالى فليست له سوى وصلتين ، ويصل طوله دونهما الى ٤٢٠ مم ، أما اذا أضيفت الوصلتان فان هذا الطول يقفز الى ٨٢٦ مم ·

وأما الأرغول الأصغر ، وهو ما نطلق عليه اسم الصغير ، فلا يتكون الا من سبعة أجزاء ، وليست له ، بالتالى سوى وصلة واحدة ، يصل طوله دونها الى ٣٣٤ مم · ويصل باضافتها الى ٣٨٦ مم ·

وليس عسيرا على فلاحى مصر ، وعلى سكان الريف الأفريقى الآخرين ، ممن اعتادوا على صنع الصنوف المختلفة من الأرغول ، أن يقلدوا ، بشىء من الانتباه ، عند صنعها شكل آلة لها تلك البنية البسيطة التى كانت للناى القديم ، والذى يتخذون منه أنموذجا مبدئيا ، ومع ذلك ، فلكى تنتظم النغمات ، ويتحقق التناغم فيما بينها بشكل كامل ، فلابد من شىء أكبر ، فهم بحاجة ماسة لمعرفة الأطوال التى تتحتم مراعاتها فى الأجزاء المختلفة لهذه الآلة ، وبأوضاع ثقوبها والمسافات الفاصلة بين هذه الثقوب ، أو يلزمهم على الأقل أن يكتسبوا مهارة اعتيادية أو روتينية فى فن تركيب هذه الآلات ، وهو أمر ليست لديهم عنه اليوم أدنى فكرة ، فهم يحزون بوصاتهم ، ويفرغونها ، وينظفونها حتى أكبر درجة من النظافة يستطيعونها · ثم

يضمون البوصتين كلا منهمـــا الى الأخرى،تم يثقبون الثقوب على مسافات متساوية كما يتراءى لهم ذلك مناسبا ، بمجرد النظر ، وان كانت هـــذه المسافات تأتى فى الواقع متفاوتة ، زيادة أو نقصانا بنحو سبعة ملليمترات ، ثم يضيفون الأطراف الأخرى كما يرون . وبهـــذا تكمل آلتهم الموسيقية صنعا ، فاذا لم تعجبهم نغمات هذه الآلة يلقون بها بعيدا كى يبدأوا فى صنع أخرى . فاذا لم تحز هذه الأخرى رضاءهم يبدأون الكرة من جديد ، وهكذا دواليك ، حتى ينالوا بغيتهم ، فالخامة التى تصنع منها هـــذه الآلات متوفرة ، وزهيدة الثمن ، كما أن وقت الصـــانع نفسه ليس ثمينا ، فاذا ما أمكنه ، فى مقابل دستة من النايات يصنعها أن يحصـــل على ٨ الى ١٠ مدينى ، وهو ما يقابل عندنا ٦ ــ ٧ سو وستة دراهم ، فسيجد فى ذلك تعويضا كافيا للغاية عما لحق به من خسارة فى صنع النايات المعيبة التى تخلص منها .

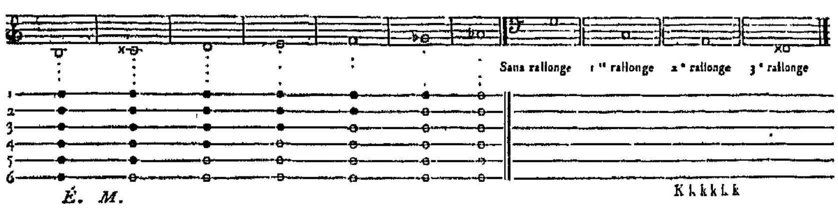
أما آلات الناى التى فى حوزتنا ، فقد صـــنعها من أجلنا خصيصا ، رجل نوبى اشتهر بمهارته فى هذا الضرب من العمل ، فى القاهرة ، فلم يهمل أى شىء يمكنه أن يضفى عليها رونقا ، وهذا كل ما كان فى استطاعته أن يأتى به على أفضل وجه ، ولذلك فلو أن الآلات التى صـــنعها كانت قد جاءت أكثر عيبا عما كانت عليه ، فلم تكن رغبتنا فى اقتنائها لتقل ، بسبب ما تقدمه لنا من فرصة لاجراء مقابلات ومقارنات هامة بالنسبة لنا .

وتنتمى نغمات هذا النوع من الآلات الى نوعين مختلفين : الحادة ، وهى تلك التى نحصل عليها من الجسم الصغير B ، والغليظة التى يرددها الجسم الكبير A ، وهى التى تشكل الايقـــاع الرتيب (أو ايقـــاع الناقوس) . ومع أن النغمات الحادة تأتى صـــارخة بعض الشىء فانها مـــع ذلك مليئـــة ومشبعة ، وتحتل مكانا وسطا بين تلك التى يحصل عليها من آلة الكلارينيت

من لا يحسنون بعد التحكم فى الامساك بفمها ، وتلك التى تصدر عن مزمار ردىء ، ولكن النغمه الغليظه ، صانعه الايقاع الرتيب ، والتى تشبه كبرا النغمات الغليظه الصادرة عن **الزمخر**※ ، أما عن ترتيب النغمات ومعيارها النغمى ، فيمكن الحكم عليهما من الجـدول الذى نقدمه هنا لـكل صنف من صنوف الأرغول الذى ينتسب اليه ٠

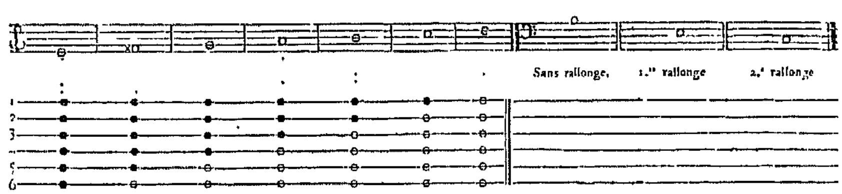
الجدول النغمى ومساحة النغمات فى المزمار الكبير

نغمات الجسم الكبير A　　　　نغمات الجسم الصغير B



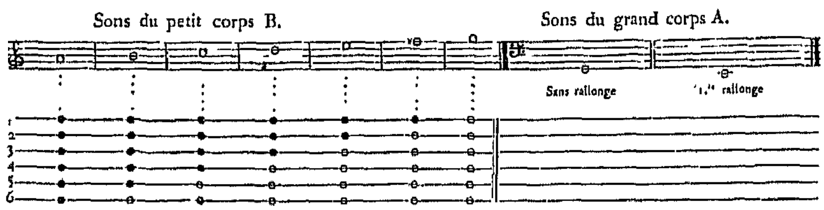
الجدول النغمى ومساحة النغمات فى المزمار الصغير

نغمات الجسم الكبير A　　　　نغمات الجسم الصغير B



※ مزمار ذو أنبوب خشبى وفم معدنى ملتو — المترجم ٠

الجدول النغمي ومساحة النغمات فى الأرغول الأصغر



الفصل السابع

عن الزهرة

المبحث الأول
عن استعمال ، وشكل وخامة وتركيب هذه الآلة

حيث كنا نعسكر ، عند رحيلنا من مصر ، على مسافة قريبة من رشيد ، باتجاه البحر ، الى الشمال من القرية المسماة **الجزيرة** ، على الشط الأيمن لذراع النيل ، الذى يمتد الى الشرق من جزيرة فارشى ، نجاه القمة الشمالية لهذه الجزيرة ، فى انتظار أن نهيىء لنا ريح موانية الفرصة لعبور البوغاز ، وهو لسان ماء تكتنفه الأخطار ، فقد كان لدينا وقت يسمح لنا بأن نجوس خلال المناطق المجاورة ، سواء فى شكل جولات أو نزهات ، أو بقصد شراء بعض المؤن التى كانت ضرورية لنا ، فقد كنا نقوم بجولات الشراء هذه بأنفسنا سعيا منا لاعطاء السكان المزيد من الأمان والثقة ، أولئك الذين كانوا يضطرون لاخفاء هذه السلع التموينية التى كانوا يحتجزونها لنا ، حتى تكون بعيدة عن عيون **العثمانلى** ، الذين انهمكوا - هناك - فى حوادث سلب تجاوزت كل حد ، كما انخرطوا فى ارتكاب كل أنواع الفظائع دون مراعاة لجنس أو لسن ، وهى أمور كانت تؤدى الى زيادة احساس الناس بالأسف على رحيل الفرنسيين بقدر ما كان يزيد هؤلاء من فظاعاتهم .

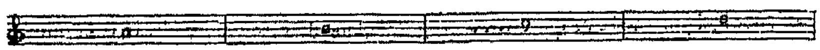
وفى واحدة من جولاتنا هذه ، وكان ذلك فى السابع عشر من ترميدور من العام الحادى عشر (٥ أغسطس ١٨٠١) ، سمعنا من بعيد نغمات صادرة عن آلة موسيقية ، فتوجهنا الى مصدر الصوت فبلغنا حديقة تجمع بها عدد من العثمانلى لا بأس به ، كانوا يزجون وقت فراغهم ، وهناك ، لمحنا شخصا يرقص رقصة المصريين (الرقص البلدى) ، على أنغام آلة تعد

صنفا من مزامير العرب التى لا قرار لها(١)(أى ليس لها لحن أساسى أو قرار رتيب) ، يسمونها فى مصر **الزقرة** ، وعلى نوع من الدفوف أسطوانى فى جزء منه ، ومخروطى فى الجزء الآخر ، يسمونه **دربكة**(٢) .

استرعت هذه الزقرة انتباهنا ، فلم نكن قد رأينا مثيلا لها من قبل فى مصر ، على مدى أكثر من ثلاثة أعوام قضيناها هناك(٣) ، فاقتربنا بقدر كاف كى نتأملها على مهل ، وأدركنا أن هذه الآلة تتركب من جلد تيس A ، شبيه بالجلد الذى يصنع منه القرب التى يستخدمها **السقاءون**(٤) فى القاهرة ، لجلب المياه الى البيوت ، ومن ثلاث قصبات من البوص ، أولاهن B ، مربوطة الى أحد جانبى القربة ، أما الأخريان C فقد ربطتا الى الجانب المقابل ، وتنتهى كل واحدة منهن ، فى الطرف الأدنى منها بطرف قرن D ، معقوف بعض الشىء . كان جلد التيس لا يزال حاملا للشعر الذى يكسوه ، ولم يكن تعوزه سوى الأقدام والرأس والذيل ، وهى الأجزاء التى انتزعوها (حتى يغدو تيسا كاملا) ، وقد خيط هذا الجلد بطريقة لا تدع له من فتحة سوى تلك التى اضطروا لاحداثها بغية ادخال طرف كل واحدة من البوصات الثلاث ، وقد ضم هذا الجلد وضيق عليه بواسطة دوبارة صغيرة من حول قطع البوص ، فوق الجزء الذى يدخلونها منه الى جسم الآلة مباشرة ، حتى لا يستطيع الهواء أن يجد لنفسه منفذا الا عن طريق البوص ، وحتى لا تخرج منها النفخة الا طبقا لرغبة العازف . وقد يبلغ طول كل بوصة ١٦٢ مم . أما البوصة B فهى بوصة الفم ، وتدعمها ، وكذا الجلد الذى يربط حولها وصلة من خشب X ، ينقبها عند مركزها ثقب دائرى تتناسب سعته مع ثخانة البوصة التى تنفذ منه ، وتخاط هذه الوصلة من فوق الجلد . أما الطرفان الآخران ، أو القصبتان الأخريان C ، واللتان تخرجان من الجهة المقابلة ، فتثقب كل منهما ثقوبا

أربعة ، وينتهى كل منهما بطرف لقرن بقرة ، معقوف ومعوج ، بحيث يتجه الجانب المحدب من تقوسه الى أسفل ، والجزء المقعر منه الى أعلى . ويمكن كل من طرفى القرن أن يبلغ ١٣٥ مم ، فى حين تصل سعته عند نهايته نحو ٨١ مم ، وتردد التقوب الأربعة لكل بوصة أربع نغمات متباينة ، فى المتساوى ، وعلى التعاقب بين هذه البوصه وتلك .

وهذه النغمات الأربع هى :



ولم تكن لدى العازف على هذه الآلة عندئذ النية ، فيما يبدو ، لأداء او تكوين لحن منتظم ، حتى بدا وكأنه يحرك أصابعه بشكل آلى عند سده وفتحه للثقوب بالتبادل ، ومع ذلك فقد كان يعود على فترات منتظمة الى أداء النغمات نفسها ، وقريب من ذلك ما يفعله فلاحو مقاطعة ليموزان Limousin ، وبعض المقاطعات الأخرى فى فرنسا ، عندما يعزفون على هذه الآلة .

الهوامش :

(١) مزمار القربة الذى نعرفه اليوم باسم **موزيت** Musette ليس شيئا آخر سوى مزمار القربة الذى كنا نسميه **كورنموز** Cornemuse وان يكن آكثر تعقيدا وأكبر اكتمالا ، كذلك فان الكورنموز لم يكن شيئا سوى **الشاليمي** Chalémie ، وهو نوع ثالث من مزمار القرب ، وكان آلة رعوية أو حقلية ، فى حين كانت الكورنموز آلة لا يستخدمها سوى العامة ، وأما الموزيت ، فكان ينظر اليها ، منذ نحو قرن ونصف من الزمان على آنها آلة موسيقية ، ونستخدمها نحن الآن فى الغرض نفسه الذى نستخدم فيه آلة البيانو العنيف Piano forté ، فقد أخذت هذه الآلة تتقبل فى حفلاتنا الموسيقية (أى حفلات الكونسير) .

(٢) وصفنا هذه الآلة فى الباب الثالث من هذا المؤلف ، الذى خصص فى البحث فى آلات النقر أو الايقاع .

(٣) انظر شكل هذه الآلة فى اللوحة CC ، الشكل رقم ٢٥ .

(٤) وهو الاسم الذى يطلق على ناقل المياه فى مصر ، والمفرد **سقاء** .

المبحث الثانى

حول قدم آلـة الزقرة فى الشرق ، وحول التماثل المذهل القائم بين هذه الآلة وآلة النابل التى كان الأقدمون يستخدمونها

لا جدال فى انه مجد تتيه به آله موسيقية ما ، قديمة ، أن تظل تستخدم منذ زمان لا تعيه الذاكرة ، فى بلد متحضر ، لم يبتكر فيه الانسان منذ قرون عديدة شـيئا ذا خطر ، وبين شعب يكن عداء طبيعيا لكل ضرب من ضروب التجديد ٠

ولو كان يحدث أن الناس لا يؤسسون قط ، على أسس بالغة الوهن ، الأحكام التى يحلو لهم أن يطلقوها ، عند حديثهم عن الموسـيقى والآلات الموسيقية عند الأقدمين ، لما وجدنا كثيرا من العلماء يتعارضون فيما بينهم فى الآراء التى يبدونها حول هذا الموضوع ، وينأون هـكذا عن الحقيقة ، بسبب استخدام سيىء ، ومشين من جانبهم ، لعلمهم الغزير ، الذى ينحرف بهم عن الجادة ، بأكثر مما يقودهم الى معارف موضوعية حول فن الموسيقى

ولقد رأينا لتونا أن الزقرة تتألف من قربة أو جلد تيس توجد على أحد جانبيها بوصة تصنع فم الآلة ، وتوجد على الجانب الآخر بوصتان أخريان تحددان الملامس النغمية لهذه الآلة ، وبمعنى آخر ، فان كل ما ينبئنا به المؤلفون الأقدمون حول شكل وتركيب آلة **النابل** ، عندما تناولوها بالحديث، يبغى اقناعنا بأن هذه الآلة القديمة تنتسب ، بشكل مطلق ، الى النوع نفسه

الذى تنتمى اليه الزقرة ، وأنها كانت معروفة منذ أقدم العصور ، بل انها كانت مستخدمة بوجه خاص عند العبريين والاغريق والرومان ٠

أما أن النابل قد تم اختراعها على يد الفينيقيين كما يزعم ســوباتير Sopater (١) ، أو على يد أهــل قبادوكيــا* كما ظن كل من كليمــانس السكندرى(٢) وأوزيبيوس(٣) ، وان اسمها كان أصلا ، هو الاسم نفسه الذى كان يخلعه عليها العبرانيون ، وأن هذا الاسم يختلف عن الاسم المبدئى أو الأصلى لها — فهذا ما لا نسعى الآن قط لالقاء الضوء عليه ، ذلك أن علينا أن نتعرف اليها عن طريق شكلها أكثر مما علينا أن نسعى لمعرفتها عن طريق الاسم الذى تحمله ٠ ومع ذلك فمما لا جدال فيه أن اسم **نابل** ليس قط اسما اغريقيا ، مع أن الاغريق قد استخدموه ، وأن هذا الاسم — اذا ما شــئنا أن نتحدث بلغة هؤلاء القوم — هو اسم بربرى(٤) ، ذلك أن الاغريق كانوا يطلقون هذه الصفة على كل ما هو ومن هو غريب عن وطنهم ، أشياء كانت أو كلمات أو أشخاصا ، ومع ذلك فان من المرجح أن العبريين ، حينما أطلقوا على هذه الآلة التى يدور حولها حديثنا اسم **نبل**(٥) والذى قرأه الاغريق وكتبوه **نبلا**(٦) أو **نابلاس**(٧) ، والذى نلفظه نحن فى الفرنسية **نابل** ، لم يفعلوا ذلك بمحض الصدفة أو دونما سبب : فاما أنهم ، عن طريق هذا الاسم ، قد ترجموا الى لغتهم الاسم الأصلى الذى كانت تحمله هذه الآلة أو أنهم قد أشاروا اليها باحدى السمات التى كانت تميزها أكثر من غيرها ، فبهذه الطريقة على الدوام تتكون الأسماء ، وفى الوقت نفسه ، ففى هذه الحالة أو تلك ، فان كلمة نبل العبرية التى تعنى **القربة التى يوضع فيها الماء أو النبيذ**(٨) ، تقدم اثرا من هذه الرابطة الحميمة التى نستنتج وجودها بين

---

* مدينة يونانية قديمة فى آسيا الوسطى قريبة من آرمينيا —المترجم٠

النابل والمرقرة . ولا نعود صلة القربى هذه بين الآلتين امرا يكتنفه الريب اذا نحن ألفينا بالا الى ذلك الوصف الذى يقدمه للاولى(٩) أحد الشعراء القدامى حين يقول : « **انها أحدى آلات الطرب ، ولها على أحد جانبيها البوب من اللوتس وتردد برغم كونها عاطلة عن الحياة ، نغمات تمتلىء حياة وحيوية، وانها توحي بالسرور وتنشر البهجة فى أغنيات الرقص كما تستثير الحب الباخي الوله** » .

ولا تفعل أبيات أوفيديوس(١٠) أقل من هذا عندما تشهد بصحه هذه القربى الحميمه ، فهو يطلب الى المحبين ، فى أبياته ، ان يتعلموا العزف على آله النابل باليدين ، ويضيف بأنها آله توحي بالبهجه ، وانها توافق ضروب المرح العطوف . ذلك ان الناس (اليوم) يعزفون على الزقرة باليدين . طالما ان لها قصبتين من البوص ، منقوبتين كلتيهما لتحديد الملامس النغميه لهذه الاله ، ولقد شاهدناها تصاحب الرقص ، وهو ما كانته الوظيفه الرئيسية للنابل ، حسبما يذكر ذلك سوباتير على نحو لا لبس فيه ، وحسبما توحى الينا كلمات أوفيديوس ، بوضوح كاف ، وعلى هذا فلا يمكن أن تكتنف الشكوك قط علاقات القربى القائمة بين الزقرة والنابل ، فهذه وتلك ، كلتاهما من جلد تيس ، ومن أنبوب يتخذ فما لها ، كما أن هذه وتلك تعزفان باستخدام اليدين معا ، ولأن لهما بالضرورة ، هذه وتلك كذلك خرطومين (قصبتى بوص) لتحديد الملامس النغمية ، كما تستخدم ، كلتاهما ، فى مصاحبة الأغنيات الراقصة .

ولعل الفرق الوحيد فيما بين نبل العبرانيين وزقرة المصريين المحدثين يتمثل فى أن قصبتى الأولى كانت تثقبهما اثنا عشر ثقبا ، فى حين لم تزد ثقوب الثانية عن ثمانية ، أربعة فى كل واحدة من قصبتيهما ، وتردد ثقوب كل منهما نغمات مماثلة لما تردده ثقوب الأخرى ، ومع ذلك فليس مؤكدا

ان كانت آلة العبريين ، في العصور الضاربة في القدم ، يتقبها هذا العدد من الثقوب الذى نظنه ، بل ان عكس ذلك هو ما يبدو بالغ الترجيح مما يقلص هذا الفرق الى لا شيء على الاطلاق ٠

ويميز المؤرخ اليهودى يوسيفوسى ، فى عصور اليهودية القديمة(١١) ، عند حديثه عن الآلات الموسيقية التى أقر **سليمان** استعمالها بين اللاويين آلة النابل (أو النيبل) عن بقية الآلات الموسيقية الأخرى ، فيقول : **ان الكينتر (أى الكينارة أو القيثارة) مزودة بعشرة أوتار ٠ أما النبل التى تردد اثنتى عشرة نغمة فتنقر بالاصابع** ، ومن هذا نستخلص ان النابل كانت آلة موسيقية مزودة باثني عشر وترا ، أو بعشرة أوتار على الأقل ٠ وانها كانت من نفس نوع الشنير (أو الكينير) [القيثارة] ، ولقد ظللنا لوقت طويل على اقتناع تام بأن أناسا مستنيرين الى هذا الحد ، من هؤلاء اللذين اقترفوا مثل هذا الخطأ قد فعلوا ذلك بفعل خدعة ما ، لكننا لم نتجاسر على أن نثبت هذا بثقة عند رأينا ، اذ كان نقيضا لذلك الحكم الذى أطلقوه ، وهم من هم ، ومع ذلك فبعد أن تمعنا كثيرا فى شهادات الأقدمين ، وبعد أن قلبنا على كل الوجوه ، الأفكار التى أفسحت لها هذه الشهادات مكانا ، فانا قد غدونا على يقين بأن النابل لا يمكنها أن تكون هى ما صورها بعض الناس لأنفسهم ، أى آلة وتريه ذات قوس ، ما دمنا لم نجد قط فى كل ما قاله المؤلفون ، حول هذا النوع من الآلات الموسيقية ، عندما تناولوها بالحديث ، أقل شيء يمكنه أن يحملنا على أن نظن ذلك ٠

واذ كنا شغوفين بمعرفة السبب فى وقوع خطأ بمثل هذا الوضوح ، يحظى مع ذلك بدعم عام ، مثل هذا الخطأ ، فقد حاولنا أن نعود الى منبعه ، ونزعم أننا قد نجحنا فى ذلك ، فاذا لم نكن قد خدعنا على نحو ما ، فلقد نتج هذا الخطأ عن الترجمة الاغريقية للتوراة والمسماة بالسبعينية ، فحيث

لم يجد هؤلاء (السبعون) فى لغتهم سوى كلمة **أسكوس** Ascos كى نقابل بدقة كلمة **قربة** ، وهو ما تعنيه كلمة **نبل** العبرية ، وحيث لم يظن هؤلاء أن المفهوم الشائع لكلمة أسكوس فى اليونانية يمكنه أن يستدعى الى الذهن صورة آلة موسيقية ، على نحو ما تفعل كلمة نبل العبرية ، وحتى لا يوقعوا من سيقرأون النص اليونانى للتوراة فى سوء فهم لهذا النص فى الكتاب المقدس ، فقد آثروا أن يستبدلوا بهذه الكلمة ، كلمة : **بسالتريون** Psaltêrion ، وهو الاسم النوعى لكل صنوف الآلات الموسيقية التى من شأنها مصاحبة الغناء · وهكذا ، فحيث كانت الآلات الوترية هى التى يستخدمها الأقدمون ، فى غالبية الأحيان لمصاحبة الغناء ، وحيث كان يشار اليها على الدوام ، تقريبا ، بالصفة ·· بسالتريون ، فقد ظن الناس ، منذ ذلك الوقت أن « السبعين » أرادوا أن يشيروا بهذه الكلمة الى آلة وترية ، وحيث توجد آلات وترية تعزف بالقوس ، فقد استخلص القوم من ذلك ، أن النابل هى آلة وترية ، من نوع الكمان ، وتعزف بالقوس ، واكتفى آخرون بأنها ليست سوى آلة الصنج (الهارب) ·

أما السبب الوحيد ، الخادع بعض الشىء ، والذى ظن البعض أنه يدعمهم فيما ذهبوا اليه ، فى اعتقادهم بأن النابل كانت آلة وترية ، فهو أن اسم هذه الآلة كان يتبع أحيانا كلمة **أسور** Asor ✻ العبرية ، والتى تعنى الرقم عشرة ، واستخلصوا من ذلك أن النابل كانت مزودة بعشرة أوتار ، فى حين يكون طبيعيا ، بنفس الدرجة ، أن نفهم من هذه الكلمة عدد

✻ كذا فى الأصل ، لكن صديقا من المتخصصين فى دراسة اللغة العبرية أوضح لى أن النطق الصحيح هو عسر للمذكر وعسراه للمؤنث ، مع نطق حرف العين ، أما اليهود الغربيون فيلفظونها اسر Esser واسراه Essara باحلال الألف مع العين ــ المترجم ·

النقوب التى نقبت بها قصبتا النابل ، أو حتى النغمات العشر التى ينألف منها تناغم هذه الآلة ، وفضلا عن ذلك ، فلو أن كلمة عسر كانت صفة للنبل ، كما كانت بالمثل اسما لآلة خاصة تختلف عن النبل ، على نحو ما نستطيع أن نتيقن منه ، من النص العبرى للآية الرابعة من المزمور النانى والتسعين ، حيث استخدمت أشر ، ونبل ، كلتاهما كاسمين بالغى التميز لآلتين موسيقيتين مختلفتين* ، ذلك أن كل واحد من هذين الاسمين قد جاء مسبوقا بحرف جر يحدده بشكل قاطع عن الآخر . كذلك فقد أخطأ الناس حين نسبوا الى النبل ، وهو اسم شخصى لواحدة من الآلات الموسيقية ، كل ما يمكنه أن يوافق البسالتريون ، الذى هو اسم نوعى يضم كل الآلات المخصصة لمصاحبة الغناء ، على نحو ما تعرف « السبعون » ، بشكل واضح ، حين ترجموا بكلمة بسالتريون الكلمة العبرية **كينور** ، الواردة فى الآية النالثة من المزمور الثانى والثمانين** ، وهى الكلمة التى ترجموها فى غالبية المواضع الأخرى ، بكلمة **كيتارا** .

ودائما ما نقع فى الخطأ عندما نعتمد ، بشكل أعمى ، على الترجمات عند ايراد المفهوم الصحيح لاسم آلة موسيقية كان يستخدمها الأقدمون ، فحيث أن جميع الشعوب لا تستخدم بالضرورة ، الآلات الموسيقية نفسها ، فليست لديهم جميعا ، كل فى لغته الأم ، مفردات أو تعبيرات ، من شأنها أن تحوى تصورا لآلة هى غريبة عليهم ، كما أنهم فى هذه الشعوب جميعا ،

---

* المعنى المقصود هنا نجده فى التوراة العربية فى الآية الثالثة من المزمور نفسه ، وليس تزيدا أن نورد نصها ما دمنا نقدم ترجمة عربية لهذه الدراسة : « **على ذات عشرة أوتار وعلى الرباب على عزف العود** » وهكذا نجد النص العربى للتوراة يخالف ما يذهب اليه المؤلف — المترجم .

** المعنى المقصود هنا ورد فى الآية النانية من المزمور الحادى والثمانين وللسبب الذى نوهنا عنه نورد نصه من التوراة العربية : « **ارفعوا نغمة وهاتوا دفا وعودا حلوا مع رباب** » — المترجم .

يستخدمون فى غالبية الأحيان ، للاشارة الى هذه الآله ، اسم آله موسيقيه من آلاتهم ، تبدو لهم أكثر من غيرها ، قريبه الصلة بهذه الآلة ، لكن الأمر الأكثر مدعاة للثقة ، اذن هو ان نعود ، بقدر ما نستطيع الى الاصل المبدئى للكلمة ، أى أصل الكلمة المستخدمة فى النص الأصلى ، وأن نبحث عن جذورها فى اللغة نفسها ، التى جاءت فيها ، حتى نعرف ما ان كان مفهومها الأصلى يستطيع ، أو لا يستطيع ، أن يتوافق مع المعنى الذى يراد اعطاؤه لها ، ولسبب أقوى من ذلك ، فلا ينبغى قط لانسان أن يسمح لنفسه ، كما فعل كثيرون بخصوص آلة النبل ، أن يبتعد عن رأى المؤلفين القدامى ، كى ينكب على افتراضات لا أساس لها قط ، ذلك أنه كان يلزمنا ، على الأقل ، لكى نقرر أن النابل كانت آلة موسيقية وترية ، وتعزف بالقوس ، أن نحتج ببعض أسباب قوية ، فى حين لم يورد أحد سببا واحدا من هذا النوع ، كما كانت الأسباب التى قدمت أسبابا خاطئة ، حيث يقرر سوباتير بوضوح(١٢) : **ان النغمات التى تصدر عن النابل ليست ناتجة قط عن أوتار .**

وليس هناك ما هو أشد غموضا ولا أقل وضوحا من التفسيرات التى أعطيت عن هذه الآلة ، سواء تلك التى جاءتنا عن طريق رجال الكنيسة أو تلك التى تلقيناها عن العلماء الذين نقلوا عنهم ، والسبب فى ذلك ، طبقا لكل الشواهد ، هو أنه لا يوجد واحد من بينهم قد عرف هذه الآلة ، بل ان هناك ما يدعو للاعتقاد بأن استخدامها كان قد تجاوزته (الموضة) ، منذ قرون ثلاثة سابقة على نشأة المسيحية ، فهذا هو فيليمون Philémon ، الشاعر الهزلى الذى ذاع صيته قبل مولد المسيح بنحو مائتين وستين عاما ، يقول على لسان أحد أبطاله فى مسرحيته الكوميدية : الزانى أو خيانة زوجية(١٣) :

« - قد يلزمنا يا عزيزى بارمينون عازف على الناى أو على النابل(١٤)
- قل لى أرجوك ، وأعد على مسامعى مرة اخرى ، ما هى تلك النابل ؟
« يرد الأول بجفاء » :
- أيها الابله . أيها الاحمق . ماذا ؟ ألا تعرف ما هى النابل ؟
- بحق جوبيتر ، ما سمعت بها قط ؟
- ماذا تقول ؟ ألم تعرف ما هى النابل ؟ حقيقة ليس لك فى الطيب نصيب » !

وها نحن أولاء نرى فيليمون ، فى هـذا المشهد ، يتحدث عن النـابل كما قد يتحدث واحد من ممثلينا الهزليين عن البندور ✻ Pandore والتيورب Tuorbe . أى عن آلات توقف استخدامها ، وتجاوزتها (الموضة) منذ زمان طويل ، ولم يعد باقيا منها ، على أى نحو ، سوى اسـمها . ولهذا السبب ، فلن يثير دهشتنا ، أن نجد أن أحبار الكنيسة ، وعلماء كنسيين آخرين ، كانوا هم الوحيدين سواء بين المؤلفين المحدثين أو مؤلفى العصور الوسطى ، من الذين يسعون لتفسير ما كانته آلة النابل ، الذين لم يحالفهم النجاح فيما سعوا اليه ، وأنهم وحدهم كذلك ، الذين اعتسفوا المعنى من المؤلفين الذين رجعـوا اليهم ، فى الوقت الذى ينبغى أن تنحصر غايتهـم الأساسية فى تفسير الكتاب المقدس ، وليس فى القيام بالبحوث العلمية ، ولا سيما تلك البحوث التى تتصل بفن الموسيقى ، وهو الفن الذى لم يحصلوا منه سوى شذرات بالغة السطحية على الدوام ، وخاطئة فى غالبية الأحيان ، اذا ما اسـتثنينا من بينهم سـانت امبرواز S Ambroise ، وسـانت اثناسيوس S. Athnase ، وسان جريجوار S. Grégoire ، الذين انكبوا على دراسة فن الغناء كما انخرطوا فى سلكه .

✻ آلة موسيقية تشبه القيثارة . (المترجم)

الهـــوامش :

(١) أثينايوس ، مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الرابع ، الفصل الثالث عشر ، ص ١٧٥ ، طبعة لندن ـ اغريقي ولاتيني ، ١٦١٢ .

(٢) كليمانس السكندري ، الطبقات ، الكتاب الأول ، ص ٣٠٧ ، طبعة باريس ، اغريقي ولاتيني ، ١٦١١ .

(٣) ايزيبيوس ، Preaep. evang ـ الكتاب العاشر ، الفصل السادس ، ص ٤٧٦ ، طبعة باريس ، اغريقي ولاتيني ، ١٦٢٨ .

(٤) على هـذا النحو عبر سترابون في مؤلفه الجغرافيات ، الكتاب العاشر ، ص ٤٧١ ، طبعة باريس ، اغريقي ولاتيني ، ١٦٢٠ .

(٥) الأسفار : صمويل الأول ، الاصحاح العاشر ، الآية ٥ ، أخبار الأيام الأول ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ٨ (بالرجوع الى النص العربي وجدتها في الآية ١٦ ـ المترجم) .

الاصحاح السادس عشر ، الآية ٥ ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ١ ، أخبار الأيام الثاني ، الاصحاح الخامس ، الآية ١٢ ، الاصحاح التاسع ، الآية ١١ ، الاصحاح العشرون ، الآية ٢٨ ، الاصحاح التاسع عشر ، الآية ٢٥ ، عزرا ، الاصحاح الثاني عشر ، الآية ٢٧ ، المزمور الثالث والعشرون ، الآية ٢ ، المزمور الرابع والأربعون ، الآية ٥ ، المزمور السابع والخمسون ، الآية ٩ ، المزمور الحادي والثمانون ، الآية ٣ ، المزمور الثاني والتسعون ، الآية ٤ ، المزمور الحادي والأربعون بعد المائة ، الآية ٩ ، المزمور التاسع والأربعون بعد المائة ، الآية ٣ ، المزمور الخمسون بعد المائة ، الآية ٣ ، عاموس ، الاصحاح الخامس .

(٦) معجما هيزنخيوس وسويداس .

(٧) أثينايوس ، مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الرابع ، الفصل الثالث عشر ، ص ١٧٥ .

(٨) سفر صمويل الأول ، الفصل العاشر ، الآية ٣ ، سفر أرميا ، الاصحاح الثالث عشر ، الآيتان ١٢ ، ١٣ .

(٩) Sopater, in Mistaci servolo

وتجده عند :

أثينايوس ، مأدبة الفلاسفة ، الكتاب الرابع ، الفصل الثالث عشر ص ١٧٥ .

(١٠) V. 148 et 149 (عن فن الحب) De Arte amandi

(١١) Antiquités Judaïques, lib VII, P. 243

(١٢) في القصيدة التي عنوانها « الأبواب » عند أثينايوس ، مادبة الفلاسفة ، ك ١ ، ص ١٧٥ .

In Poemate Cui titulus est, Portoe, apaud Athen. Deipn. lib IV, p. 175, B.

(١٣) من بين شذرات ماناندروس (يونانية ولاتينية) مع ملاحظات هيجون جروتيوس ، وجون كليريكوس ·

(١٤) قرأها جوليوس بولوكس (نولان) Julius Pollux

أما أثينايوس فقد قرأها (نابلان) ·

وقد كان هذان النحويان الاغريقيان متعاصرين ، وينتميان ، كلاهما ، الى بلدة نقراطيس في مصر ، وان يكن ما اشتهر به أثينايوس من علم واسع، مما جعل الناس يطلقون عليه اسم دودة الاغريق ، هو ما يجعلنا نولى روايته (طريقة نطقه للكلمة) ثقة أكبر ·

الباب الثالث

آلات الإيقاع الصاخبة

الفصل الأول

اعتبارات عامة حول الآثار الإيقاع الصاخبة

المبحث الأول

حول الاختلاف القائم بين آلات الطرب والآلات الصاخبة ، وعما يميز بين الهارمونى وبين الضجيج

ظل حديننا ، حتى الآن مقصورا على آلات الطرب ، أما الآن فسنأخذ عر عاتقنا أن نتناول الآلات التى تبعث صخبا أو ضجيجا ٠

تطلق اسم **آلات طرب** ، على الآلات الموسيقية التى من شأنها آن تحدث طربا ، وهذا الطرب أو الميلودى هو نسق أو نظام معين ينتظم النغمات البسيطة التى تؤلف الغناء ٠ اما النغمات البسيطة ، فهى تلك التى ينتج رنينها عن ترددات بسيطه ومتوافقه ، أى متساوية الديمومه ٠

وتسمى **آلات صاخبة** نلك التى لا يصدر عنها سوى الضجيج . وأما الضجيج فهو الأثر المتواقت لعدد لا نهاية له ، أو على الأقل لعدد كبير للغاية ، من نغمات متنافرة ، تطن معا فى وقت واحد ، مع كثافة متساوية فى الوقع ، على وجه التقريب ، وكما يتكون الوضوح من اتحاد كل الألوان التى ينتجها الضوء ، فان الصخب أو الضجيج يتكون من كل النغمات التى تصدر عن الهواء ، حالة تردده ٠

والضجيج والضوء ، وكذلك الحركة أمور تمثل للكائنات الحيه ما يمثله الصمت والهجوع بالنسبة لكائنات مائت ، ذلك أن أعضاء أجسادنا لا تحتاج ، كى تقوم بوظائفها اللهم الا لمبدأ الحياة الذى يبث فيها الحركة ، فاذا ما جاء سن أرهقها فيه الصخب والضوء والحركة ، فسيكون هذا ايذانا بأننا قد اقتربنا من نهاية وجودنا ٠

ولا يتعلق مبدأ الحياة هــذا الا بما لدينا من فن فى التزود بأحاسيس تتناسب مع قوة وفعالية الأعضاء التى وجدت لاستقبالها ، وحين يدار هذا الفن بحكمة فانه يغدو بالمثل نافعا لصحتنا ومواتيا لسعادتنا ٠

ويعلمنا فن الموسيقى كيف نتلفظ وكيف نكون النغمة ، وكيف نمنحها كل الفوارق الرهيفة التى يتطلبها التعبير ، كما يعلمنا كيف ندمج الكثير منها معا ، بل انه يهيىء لنا الوسائل اللازمة لاحداث أشد ضروب الضجيج افزاعا ، ولا يفعل عازفو الارغن ، وهم يعرفون ، وكيما يحاكوا قعقعة الرعد التى تحدث دويا هائلا ، الا أن يدوسوا ، فى وقت واحد ، بذراعيهم فوق كل الملامس النغمية لآلتهم ٠ وبهذه الطريقة ترن كل النغمات معا فى نفس الوقت ، ويحدث الأثر الذى يرغبون فى حدوثه ، بشكل يماثل الحقيقة بكل حيويتها ٠

ولو أننا شئــئنا أن نتتبع بالتفصيل المقارنة التى انتهينا من القيام بها ، بين النغمات والألوان لوجدنا فيما بين الطرفين علاقات شبه لا حصر لها ، علاقات ليست افتراضية كما شاء البعض أن يؤسسها مرات عــدة ، ولكنها علاقات أكيدة لا تقبل الجدل ، كما دلت عليها التجارب ، كما نرى ألوانا كثيرة متعارضة فيما بينها ، تشكل عند اتحادها ألوانا مريحة للنظر ، كما نشكل الأخضر من دمج الأزرق بالأصفر ، على سبيل المــال ، أو البنفسجى من دمج الأحمر والأزرق ٠٠٠ الخ ٠ فان نغمات كثيرة متعارضة فيما بينها كذلك ، تؤلف نغمات مركبة ترتاح اليها الأذن ، كما تؤلف ، على سبيل المثــال ، من قرار ما ومن ثلاثيته أو خماســيته تناغمــات بالغة الــكمال فى هارمونيتنا ، وفى الوقت نفسه ، فحيث يُمحى أو ينطفىء أرق ألوان ، حتى تلك التى تهيىء تعارضاتها ، عند اندماجها ، لنشأة تناسق نغمى منسجم ، بسبب قيامنا بدمج عدد كبير من هذه الألوان معا فان رنين النغمات يكون

بالمثل أقل تناغما . وأكثر اضطرابا وأدنى فاعلية ، فيما يختص بالأحاسيس أو المشاعر التى يراد التعبير عنها ، كلما كان هناك عدد كبير من النغمات المختلفة ترن في وقت واحد ، معا(١) مهما يكن صفو هذا الرنين فى كل واحدة من هذه النغمات على حدة ، والتى كانت تبدو مهيأة ، بسبب تعارض مقاماتها لتكوين ائتلاف نغمى متسق . ومع ذلك فحيث أن هـذه المقابلات ، ليست ضرورية هنا بشكل مطلق ، فلن يكون بمقدورنا أن نتوقف هنا لأكثر من ذلك ، وعلينا أن نعود مسرعين ، الى موضوعنا .

الهــــوامش :

(١) قد يحتاج الأمر لاسهاب طويل حتى نصل الى رأى مفحم لهؤلاء الذين يعتنقون أفـكارا مســبقة تنتصر لهارمونيتنا الحديثة لحد يمضى لأكثر مما ينبغى

المبحث الثانى

حول الأنواع المختلفة من آلات الصخب ، وحول الأسماء التى أطلقت على تلك الآلات من بينهـا ، التى كانت تصدح برنة الطرب وتلك التى يشتد اقتراب نغماتها من الضجة ، وحول رابطة القربى الحميمة التى تقوم فيما بين هذه وتلك من الآلات ، وحول الوظيفة التى تؤديها لنا كل واحدة منها

هناك ، من بين آلات الصخب ، تلك التى لا يشتمل رنينها الا على عدد محدود من نغمات متباينة ، لا تختلط لدرجة يتعذر على المرء معها أن يميز عددها ، وهذه النغمات لا تحدث سوى نوع من التنافر متفاوت الصخب ، ويشغل فى هارمونيتنا موقعا وسطا بين الضجيج وبين ائتلافات النشاز التام ، على غرار ما تحتل ائتلافات النشاز الموقع الوسط بين التنافر الذى أشرنا اليه وبين التناغم الكامل ٠

هكذا يكون بمقدورنا أن نميز الآلات التى تحدث تنافرا تتفاوت ضجته عن تلك التى لا يصدر عنها سوى الصخب أى تصدر عنها نغمات كبيرة العدد ، مختلطة لحد لا يمكن معه أن نميز هذه عن تلك ٠ ولهذا فسنشير الى الأوليات باسم **الجرسيات** والى الأخريات باسم **آلات الصخب** أو **الآلات الصاخبة** ٠ وفى الوقت نفسه ، فاذا ما أخذنا فى اعتبارنا طبيعة هذه الآلات فى حد ذاتها ، لوجدنا أن لا هذه ولا تلك ، كان من شأنها مبدئيا أن تصاحب الغناء بشكل خاص ، أو احداث الطرب بشكل أعم ، فلا يمكن هذا أو ذاك

(الغناء والطرب) أن يتقبلا سوى نغمات بسيطة ومعبرة ، فهى تبغى التعبير عن المشاعر محاكاة لما يفعله صوت الانسان ، وأن نولد فى مسامعها هذه المشاعر ، أو على الأقل ، تذكره بها ، وعلى العكس من ذلك ، وكما استرعينا النظر من قبل ، فان الصخب الذى يدمج ويخلط ويستغرق النغمات البسيطة والمعبرة يهدف - بالضرورة - الى أن يهدم أثر الغناء بشكل خاص ، وأن يحطم بصفة عامة كل أثر للطرب ، وفوق ذلك فليس بمقدوره الا أن يحدث فينا سلسلة متعاقبة من تأثيرات انفعالية متميزة ، تماثل تأثيرات المشاعر أو الانفعالات التى يوحى بها الغناء والطرب ، أو يولدانها ، وهو لا يستطيع أن يصور على الأكثر سوى اضطراب مشاعرنا أو احساساتنا فى المواقف الانفعالية ، التى تهز أرواحنا بالخير أو بالسوء . وفى الواقع ، فان الصخب، حين يؤدى بالمثل تقريبا الى اهتزاز كل شعيرات أعصابنا الناقلة للأحاسيس منها أو العضلية ، على حد سواء ، فى بعض الأحيان ، يسبب فينا هزة غامضة ، عامة ومضطرمة ، من شأنها ، كما يبدو أن تثير فينا حركات آلية ، بأكثر مما يكون من خاصيتها أن توحى لنا بعواطف روحية ، على نحو ما يفعل الطرب .

وحيث لا رغبة لنا فى التوقف طويلا كى نتفحص ما ان كانت هذه الخاصية الميلودية لآلات الصخب جاءت نتيجة الاحساس المحض أم كشف عنها انعام للفكر ، فانه ليكفينا أن نقول فى هذه اللحظة ، أن من وقائع الأمور أن هذا النوع من الآلات قد اختير ، فى كافة أرجاء العالم ، ومن قبل كل الشعوب المعروفة كى تنظم ، عن طريق احداث ضجة متكررة ، على فواصل زمنية منتظمة ومحسوبة حركات الرقص ، والمحاكاة الصامتة (البانتوميم) ، وفى ايجاز ، حركات غالبية الممارسات الجسدية التى لا يمكنها أن تتم بشكل علنى مشهود الا بالدقة المحسوبة وفى شكل ايقاعى . وعلى هذا النحو

انتظمت عند الأقدمين طقوس العبادة والمحاكاة الصامتة ، والرقصات ، والتطواف الديني،وبهذه الوسيلة نفسها تنتظم لدينا اليوم الخطوات والحركات العسكرية ، ففي كل الأزمان ، وعند كافة الشعوب كان تأثير هذه الآلات ، وسيظل مؤديا الى احساس الناس بأن أفضل مجال يمكنهم أن يستخدموا هذه الآلات فيه هو تحديد ايقاع الحركات وضبط وقعها ٠

المبحث الثالث

حول ما يميز آلات الصخب عند المحدثين عنها عند القدماء

تختلف آلات الايقاع الصـــاخبة ، التى كانت تستخدم فى العصـــور السحيقة ، عن تلك التى نستخدمها اليوم ، من نواحى كثيرة ، يحسن بنا أن نعرفها ، حتى لا نسىء فهم هذه أو تلك ، وحتى نحسن التعرف عليها من بين تلك الآلات التى بقيت لدينا ، والتى لا نزال نحن نستخدمها أو لا تزال — هى تستخدم عند الشعوب الأخرى ٠

وحيث كان استعمال هذه الآلات مقصورا ، عند الأقدمين ، على ضبط وزن وايقاع حركات الجسم فى ممارسات بعينها ، لا سيما فى الرقصات ، والتمثيل الدينى الصامت ، وفى بعض التدريبات الجسدية الأخرى ، فقد ظل استخدام هذه الآلات حقا مقصورا على قادة هذه التدريبات ، وعلى أولئك الذين يشرفون على أدائها ، بل الذين كانوا على رأس من يقومون بها ٠ وفى غالبية الأحيان كذلك كان كل واحد من هؤلاء الذين يؤدون تلك التمثيليات الصامتة ، يمسك باحدى يديه آلة مشابهة ليحدث بها الرنين المطلوب ، ولهذا السبب فقد كان يلزم أن تكون هذه الآلات ضـــئيلة الحجم وأن تكون خفيفة يسهل الامساك بها ، بيد ، والضرب عليها باليد الأخرى ، ولذلك فلسنا نرى فوق أى من المبانى الأثرية المتخلفة عن العصور السحيقة من بين هـــذه الآلات ، ما هو كبير الحجـــم ، كذلك فاننـــا لا نجد واحـــدا من المؤلفين الأقدمين قد أشار اليها : وكانت كل آلات الايقاع الصاخبة من نوع تلك التى

صنفناها في طائفة وحدها تحت اسم **الجرسيات** (او الالات ذات الصليل) وبهذا الاسم الذى يكاد يعنى نفس ما تعنيه عبارة **الآلات الصاخبة** - كما يتذكر القارىء بلا ريب - أشرنا من قبل الى تلك الآلات التى يسهل استخدامها ، والتى لرنتها بعض شيء من طرب ، تمييزا لها عن تلك التى لا تحدث سوى الضجيج .

وعكس ذلك ما يحدث عند المحدثين ، فهؤلاء الذين أوكل اليهم ارنان الآلات المخصصة لضبط وزن وايقاع الحركات خلال التدريبات التى يقوم بها عدد معين من الأشخاص فى وقت واحد ، والتى تحتاج لأن تنظم بأكبر قدر من التحديد والدقة - هؤلاء الأشخاص لا يشاركون عادة فى أداء هذه الحركات قط ، أو أنهم لا يسهمون فيها الا بقدر بالغ الضآلة ، فشغلهم الشاغل بل اهتمامهم الوحيد فى غالبية الأحيان ، هو الضرب على آلاتهم فى شكل ايقاعى ، تبعا للاشارة التى تصدر اليهم عن رئيسهم الخاضع بدوره لأوامر من يقود أو يدير هذه الأنواع من الممارسات سواء فى الحروب ، أو الاحتفالات العامة أو فوق خشبات المسارح . وهكذا لم تعد قائمة عند المحدثين تلك الأسباب التى كانت تحتم ، عند الأقدمين ، أن تكون آلات الصخب الايقاعى هذه خفيفة الوزن ، ومن حجم تسهل السيطرة عليه ، ولم يعد هناك ، عندهم ، سبب يحول دون زيادة وزنها ، وضخامة أحجامها ومضاعفة قوة ومدى النغمات التى تصدر عنها ، وهذا هو ما أدى الى التفكير فى استخدام الطبول الضخام ، والصناديق والدفوف هائلة الحجم - تلك التى لم تكن تستخدم قط بشكلها هذا ، ولم تكن معروفة فى العصور السحيقة .

الفصل الثاني

عن الجزريات بشكل عام

المبحث الأول

حول الأسماء النوعية التي تطلق على غالبية الجرسيات

حيث كانت الآلات الموسيقية التي نشير اليها باسم **الجرسيات** ، معروفه - فيما يبدو لنا - بشكل سابق على تلك التي نطلق عليها اليوم اسم **آلات صخب** فلا بد أن يكون من الطبيعي أن نتناولها بالحديث ، قبل أن نتصدى لهذه الآلات الأخيرة ٠

تعرف الجرسيات عند الشرقيين المحدثين بأسماء كثيرة متفرقة ، حتى ليظن المرء أن هناك عددا هائلا من صنوف مختلفة من هذا النوع من الآلات ٠ ومع ذلك ، فلا شيء أبعد من هذا عن الحقيقة وعن الواقع اذ لا نكاد نحصى منها ثلاثة أو أربعة صنوف ، تختلف فيما بينها ، اختلافا تاما من ناحية شكلها ، والخامة التي صنعت منهما ٠ وهذه الأصناف من الآلات ، شأن الآلات الوترية وآلات النفخ ، حملت أسماء مختلفة تبعا لاختلاف زوايا النظر اليها ٠

ولما كانت هناك آلات ايقاع مجوفة وصاخبة قد أطلق عليها اسم **نقارية**(١) ، وهي كلمة تجيء من الجذر **نقر** أي ضرب ، وحيث ان الفعل **نقر** ، في صيغته الثانية يعني : **سبر** أو **استبر** ، **خرق** ، **ثقب** ، ويعني في صيغته الثامنة : **جوف** ، فقد انتقل هذا التعبير الى كافة الآلات المجوفة والصاخبة ، حتى أنهم يطلقون على دف الباسك في العربية اسم **النقر** ، وعلى البوق أو النفير اسم **الناقور** ، وعلى الشخص الذي يحترف النفخ في النفير اسم

الناقر ، كما يطلق اسم **النقار** على من يقوم بالعزف على النفير ، كذلك يستخدم الفعل **نقر** لكى يعنى **عزف** أو **وقع** وتر آلة باصبعه ليجعله يرن أو ضرب عليه بريشة العزف (للغرض نفسه) • ويستخدم الفعل نفسه كذلك للتعبير عن تجزىء نغمة ما وذلك بجعل لسان المترنم يضرب فى سقف حلقه أو فى أسنانه ، أى ينطق حرف متحرك يعقبه حرف ساكن (حركة يعقبها سكون) ، وفى النهاية فان كل حرف ينتج نغمة يسمى **نقرة** طبقا لمبدأ التراكم الايقاعى عند العرب ، فيقول العرب ، على سبيل المثال ، ان الايقاع **ثقيل الطويل** (أى الغليظ الكبير) ، وهو السادس والعشرون من الايقاعات الموسيقية *الذى* يتكون من أربع وعشرين **نقرة** ، بمعنى أنه يتألف من أربعة وعشرين حرفا ، وبالتالى فانهم يسمون كذلك الأزمان الايقاعية المحددة على آلات الايقاع **بالنقر** ، كما يطلقون على شد الوتر اسم **النقير** •

وحين يدور الحديث عن الجرسيات التى ترن نغمة حادة عن طريق نوع من العرك أو الحك ، يكون الاسم الذى نطلقه عليها هو **الصلاصل** ، كما يشير العرب الى الجرسيات من نوع الأجراس الصغيرة أو الى تلك التى يماثل تأثيرها هذه الصنوف من الآلات ، باسم **الجلاجل** ، أما الفرس فيسمونها **زنكلا**(٢) ، وحين يتجه القصد الى الجرسيات التى تحدث رنينها عن طريق هزها فقط فان العرب يطلقون عليها اسم **ذيل** ، أما اذا كنا نقصد الى الجرسيات التى تضرب ببعضها البعض ، فى جزء منها ، فهم يطلقون عليها اسم الصنوج ، على نحو ما يسمون من يقوم بالضرب على هذه الآلة **الصناج** ، وعندما يشار بصفة خاصة الى الجرسيات ، التى لها الشكل نفسه ، والتى تستخدمها الراقصات المصريات أثناء رقصهن ، تستخدم كلمة **كاس** ، وأخيرا فانهم يطلقون بشكل عام اسم **الصاجات** على كل الجرسيات من نوع الصنوج ، أى على كل ما يهزونه بين أصابعهم ، مهما تكن الخامة التى تصنع منها أجزاؤها ، ومهما يكن كذلك

شكل وتباين هذه الأجزاء ، ولهذا السبب فان هذا الاسم يطلق كذلك على الجرسيات المعدنية التى تمسك بها الراقصات المصريات وعلى تلك الجرسيات الخشبية التى يطلقون عليها فى تركيا اسم **اقليغ** ٠

الهــــوامش :

(١) ولأن الفرس ينظرون من هذه الزاوية نفسها الى تلك الآلة فقد أطلقوا عليها اسم **أخككند** أو **دجعانه** ٠

(٢) ويطلق هذا الاسم كذلك فى فارس على صنف من الجلاجل تربطها بعض النسوة فى هذه البـــلاد بأقدامهن عنـدما ينهمكن فى ملذات الغرام « **الأجراس التى تعلقها النسوة فى أقدامهن عند المضاجعة** » كما يطلق هذا الاسم أيضا على الجلاجل التى تعلق برقبة الخيول والبغال والجمال وعلى تلك التى تتدلى من حواف دف الباسك ٠

المبحث الثانى

عن الجرسيات الصغيرة التى على شكل صنوج ، والتى تستخدمها الراقصات المصريات

عندما تحدثنا فى دراستنا عن الوضع الراهن لفن الموسيقى فى مصر ، عن غناء ورقص المصريين ، وصفنا الآلة الموسيقية التى نحن بصددها ، بقدر من الدقة يكفى كى نعفى أنفسنا من اعادة وصفها ، ومن جهــة أخرى ، فانا نظن ، بعد أن استعرضنا الأسباب التى تقف وراء اطلاق الأسماء المختلفة التى خلعها الشرقيون على الجرسيات التى يستخدمونها ، ولا سيما فى مصر ، أن ليس من العسير أن نتبين الآن أن كثيرا من هذه الأسماء يمكنها أن تنتسب لهذه الآلة نفسها ، وان لم يكن الأمر يتساوى بالنسبة لها جميعا ، بشكل مطلق ، فالأسماء **ذيل** ، **صنوج** ، **كاس** ، **صاجات** ، حيث تشير كلها بدرجة متساوية الى تلك الجرسيات اللاتى تضربن ، بعضهن بالبعض الآخر ، يمكنها جميعا أن تنطبق على الجرسيات اللاتى تستخدمها الراقصــات المصريات ، وان كنا نلاحظ أن كلمتى **الصنوج والصاجات** قد ادخرتا خصيصا لهــذه الآلات فى اللغة الشائعة ، باعتبارهما يشيران ، بصفة أكثر خصوصية عن غيرهما الى الجرسيات الصغيرة من هذا النوع، وليس من المستبعد أن تكون هذه الجرسيات هى الأنموذج الذى احتــذاه الأسبان فى صــنع صنوجهم ، بل إن من المرجح أن يكون مسلمى الشرق هم الذين علموا الأسبان (ابان حكمهم لأسبانيا) استخدام هذا الصنف من الآلات الموسيقية ، وكذا ممارسة

الرقصة التى يسميها الأسبان **الفندنجو*** ومع ذلك فلا بد أن الأسبان كان يعوزهم الكثير حتى يبلغوا فى محاكاة هذا الأنموذج ، درجة الكمال ، فبخلاف أن خامة الصنوج الأسبانية أكثر شيوعا (أى أقل جودة) من خامة الصاجات وأن شكلها أقل فى رشاقته بدرجة كبيرة منها ، فان من المستحيل كذلك أن تأتى نغماتها على الدرجة نفسها من النقاء أو أن تماثل الجرسيات المصرية الصغيرة ، ان جاز لنا أن نقول ذلك ، فى صفائها . ويكفى أن نرى صورة الأخيرة ، المرسومة فى اللوحة CC ، الشكل رقم ٢٦ حتى نتصور كيف ينبغى لهذه الآلة الموسيقية ، المصنوعة من الزهر ، والتى لها شكل الصنوج الصغيرة (عندنا) ، أن تصدر رنينا بالغ العذوبة ، شديد الوضوح ، بالغ الحدة ، حينما لا يعوق ترددها عائق . وفى الواقع ، فحيث أن الجزء A المربوط الى الأصبع الوسطى عن طريق الحلقة C ، يأتى ليضرب فوق الجزء B المربوط بالمثل الى ابهام اليد نفسها(١) عن طريق حلقة أخرى أشرنا اليها كذلك بالحرف C ، فان من المؤكد أن هذين الجزئين ، بتعليقهما بالأصابع على هذا النحو ، لا يمكنهما ان يلقيا عائقا من أى نوع من شأنه أن يعوق ترددهما ، كما أن القيطان الذى يشكل الحلقتين C اللتين تدخل من خلالهما الأصابع ، ينفذ بحرية من طرف الى آخر من التقب الموجود عند قمة هذه الصنوج الصغيرة(٢) لحد لا يعوق الآلة عن أن تردد رنينها ، بكل مساحتها هى .

ولعل هذا النوع من الآلات ، التى نجد مثيلا لها بين أيدى الباخيات وهن يؤدين رقصاتهن ، هو ، فيما يبدو ، أكثر من غيره من بقية الآلات الموسيقية ملاءمة للرقصات الشهوانية من نوع ما تؤديه الراقصات المصريات (اليوم) ، من حيث أنه يترك للجسم حرية أداء كافة الحركات الشهوانية

---

* رقصة أسبانية يقوم بها ستة راقصين فى مقابل ثمانية ، وهى رقصة بطيئة الحركة ، وتصاحبها الصاجات - المترجم .

الممكنة ، وأنه لا يحول قط دون الأذرع من أن تمتد وتلتف وتستدير ، حسبما يقتضى التعبير الذى تشاء الراقصة أن توحى به ، ومن الواضح أن هذا البيت من الشعر الذى ينسبونه الى فرجيل فى القصيدة التى عنوانها كوبا Copa (الجانب المهنز تحت الصناج أعطى نغمات ماهرة) كان يشير الى هذه الجرسيات نفسها ، ويدور حول هذا النوع نفسه من الرقص ٠

كانت هذه الجرسيات تستخدم فى مناسبات كثيرة فى اليونان قديما ، ويذكر ديسيراك Diceraque فى كتابه عن الطقوس الدينية فى اليونان القديمة أنه كانت توجد من بين الآلات الموسيقية التى يستخدمها العامة ، والتى من شأنها أن تعبر عما وراء ما يمكن الانسان أن يظنه فى رقصات وغناء النسوة ، آلات تصدر نغمة طيبة محبوبة(٣) عندما تضرب ببعضها البعض بين الأصابع ، بل انه ليخبرنا بوجود بعض منها مصنوع من البرنز المذهب ، ويفسر لنا نونوس فى ديونيسياته ، الكتاب السابع والعشرين ، الأبيات ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ بشكل واضح وجيد للغاية ، أن هذه الجرسيات هى آلات موسيقية تمسك بها النسوة المعشوقات فى كل يد ، ويضربنها (الواحدة منها بالأخرى) ، محدثات نغمتين فى الوقت الواحد(٤) ، ومع ذلك فلا ينبغى أن نفهم من العبارة وجود نغمتين مختلفتين ، ذلك أن الجرسيات فى يد تكون دوما فى المتساوى، مع الجرسيات التى فى اليد الأخرى ٠ ويخلع المؤلف نفسه على هذه الآلات صفة **الباخية**(٥) على غرار ما فعل يوريبيديس فى تراجيديته هيلينا(٦) ، لأن هذه الآلات هى نفسها ما كانت الباخيات يستخدمنها فى الرقصات اللاتى كن يمارسنها على شرف باخوس ، ولهذا السبب كذلك فان بندار فى مديحياته ، التى يورد سترابون مقدمتها فى الكتاب العاشر من جغرافياته(٧) ، يتحدث عن هذه الجرسيات باعتبارها واحدة من الآلات الموسيقية التى كانت تستخدم فى أعياد باخوس ٠ فهل

انتقلت هذه الآلات الى مصر على يد الاغريق أو أن هؤلاء هم الذين أخذوها عن المصريين ؟ لكن هذا ما لا نأخذ على عاتقنا اليوم أن نحسمه ، وهو كذلك ما قد يكون التدليل عليه بشكل قاطع أمرا بالغ الصعوبة ، بل أن منشأ هـــذه الآلة ليس معروفا بشـــكل محــــدد ، فيظن سترابون أن الـكوريتيين* Curètes (٨) هم الذين ابتكروها ، أما كليمانس الاســـكندرى فيزعم أن الصقليين كانوا أول من عرفوهـــــا ، وفيما يبـــدو ، فان هنـــاك كثير من الروايات المتضاربة حول هذا الموضوع ، ولعلنا نجـد الوقت متأخرا لأكثر مما ينبغى لو أننا شئنا السعى الى تمييز الرواية الحقـة عن تلك التى تعـد مختلفة ، ومع ذلك فمما لا جدال فيه أن الجرسيات التى يدور الحديث بشأنها كانت معروفة فى مصر فى عصر الرومان ، وأن النسوة هنـــاك قد ذاعت شهرتهن كبارعات فى فن العزف عليها(٩) .

---

* سكان كريت القدامى - المترجم .

الهــــوامش :

(١) تمسك الراقصات المصريات بزوج متماثل من الجرسيات فى كل يـد ٠

(٢) أنظر اللوحة CC ، الشكل ٢٦ ، D ٠

(٣) أنظر : أثينايوس ، مأدبة الفلاســـفة ، الـكتاب الخـامس عشر ص ٦٣٦ : « وعن تلك ، فان ديكايارخوس فى كتابه عن عادات بلاد الاغريق يقول : ان هذه الآلات كانت بالغة الانتشار على نحو يفوق ما يعتقده البعض وأنها كانت ملائمة لرقص وأغانى النساء اللائى كن يخرجن بواسطتها أصواتا حلوة عند تحريك أصابعهن » ٠

(٤) « عندما تدق الطبول يصدر عنها صدى رتيب يحدث ضـــجيجا مفزعا ، حقا ان الجلجل فى كل يد من أيدى النساء العاشقات كان يصـــدر صوتا مزدوجا ذا صدى » ٠

[نونوس ، الديونيسيات ، ك ٢٧ ، الأبيات ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١]

(٥) « أعطونى جلجل باكخوس » ٠

[الديونيسيات ، الكتاب الأول ، البيت ٣٩]

(٦) « أما جلجل باكخوس فكان له دوى ينبعث بصوت واضح » ٠

[يوريبيديس ، هيلينا ، البيتان ١٣٢٤ ، ١٣٢٥]

(٧) سترابون ، الجغرافيات ، الكتاب العاشر ، ص ٤٦٩ ، لوتيتياى ١٦٢٠ ٠

(٨) سترابون ، المرجع السابق ، ك ١٠ ، ص ٤٦٨ ٠

(٩) « أيها النيـــل ، ان من يعزف على نايك ، هى راقصـــة الصنج فيليس » ٠

[بروبرتوس ، الكتاب الرابع ، قصيدة ٩]

المبحث الثالث

عن اسم وشكل وأبعاد واستخدامات الجرسيات الكبيرة أو الصنوج المصرية

ثلاثة أسماء يمكن اطلاقها على هذا النوع من الآلات ، الكبيرة منها والصغيرة على حد سواء ، هي **ذيل** ، **صنوج** ، **كاس** ، ويفضل العرب استعمال الكلمة الأخيرة ، في التعبير الدارج عندما يشيرون الى الصنوج الكبيرة ٠

وكلمة كاس تعني في الأصل نوعا من الآنية ، أما مدلولها فهو المدلول نفسه الذي تعطيه كلمة كيمبوس Kymbos ، التي هي جذر كلمة ، كيمبالون Kymbalon وهو الاسم الذي يطلقه الاغريق على هذا النوع من الآلات التي نسميها نحن بالفرنسية سمبال (كمبال) Cymbales (١) ٠

والصنوج المستخدمة في مصر اليوم تشبه كثيرا الصنوج القديمة التي وصفها الشعراء الاغريق واللاتين ، كما تشبه تلك التي كان الاسرائيليون يستخدمونها في معبد أورشليم، بل آن لهما الشكل نفسه ، كما أنهما تصنعان من الخامة نفسها(٢) ، فهذه تتكون بالمثل من قطعتين من البرنز(٣) ، وبكل واحدة منهما فجوة في منتصفها(٤) ، وتمثل كل منهما شكل اناء أو جفنة مستديرة(٥) عريضة الحواف ، ناتئتها على نحو أفقي ، وقد يبلغ طول القطر من حافة الى أخرى ٢٤٤ مم(٦) ، أما قطر الفجوة الموجودة في وسطها فلا يزيد عن ١٣٥ مم ، ويبلغ عمق هذه الفجوة ٦٨ مم تقريبا ، أما عرض الحواف الناتئة فلا يكاد يبلغ ٥٤ مم ، ويصل سمك المعدن في كل واحد من الجزئين A و B من الآلة من ٧ الى ٨ مم ، ذلك أن سمك هذه الصنوج أكبر كثيرا من سمك صنوجنا ٠

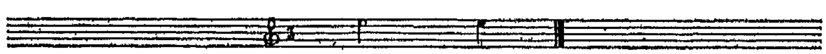
وعند قمة الجزء المحدب الذى نصنعه الفجوة الى الخارج ، يوجد زرار يستخدم مقبضا أو ممسكا ، أو توجد حلقة كبيرة o يمر بها ، من طرف لآخر حاشية أو سير أو قيطان C يتم عقده من طرفيه لكى يكون حلقة واسعة ، يدخلون من بينها القبضة لسند كل واحدة من زتى الآلة الموسيقية .

وحيث تكون هذه الأنواع من الصنوج أكبر سمكا وأكثر عمقا (تجويفا) من صنوجنا ، فانها ـ كذلك ـ تصدر نغمة أكثر امتلاء وأكثر اشباعا ، وان تكن أقل رنينا، لأن المصريين ، بدلا من أن يحركوا الجزئين الواحد منهم بالآخر، على غرار ما نفعل نحن ، فانهم على العكس منا ، يضربونهما ، أحدهما بالآخر، بشكل يكاد يكون رأسيا ، على غرار ، ما كان يفعل الأقدمون(٧) ، طبقا لما رأينا سواء فوق مباني ا' صور السحيقة(٨) ، أو فى رسوم الآنية الأترورية ، حيث نرى رسوما لأشخاص يعزفون بالصنوج ، وحيث أن هذه الآلة الموسيقية لم تكن تستطيع أن تتردد بهذه الطريقة ، بقدر من الحرية ، وعلى مدى طويل يماثلان ما تستطيعه بالطريقة التى نستخدمها نحن بها اليوم، فقد كانت رنتها سرعان ما تختنق بمجرد تولدها ، مما كان يجعل فى رنينها المكتوم بعض شىء غير مستحب لا تستريح الأذن اليه ، وفى هذا ، بلا ريب يكمن السبب الذى جعل الشعراء ينعتون هذه الآلة بالبحاء(٩) .

ولا يزال المصريون يستخدمون هذه الآلة الموسيقية فى الأغراض نفسها التى كانت الشعوب القديمة(١٠) تدخرها لها ، فهى لا تزال مقبولة عندهم فى الاحتفالات الدينية والسياسية ، فهكذا كان حالها فيما مضى عند الاسرائيليين والاغريق والرومان ، فقد كان رنينها يطن عند الاسرائيليين أحيانا فى المعابد(١١) ، بالقرب من المذبح(١٢) وبالقرب من الملك(١٣) ، وأحيانا أخرى حول تابوت العهد عندما كانوا ينقلونه من مكان الى آخر(١٤) ، باختصار ، فقد كانت هذه الآلة تسمع فى كل مكان يتمثل فيه الفرح

العام(١٥) ، أما عند الاغريق والرومان ، فكانت هذه الصنوج تصاحب على الدوام كل احتفال يتم على شرف ريا(١٦) وكيبيلى(١٧) وباخوس(١٨) ، ويخبرنا ميناندر أن نســوة كن يتوجهن الى المعابد خمس مرات فى اليوم ، وفى حين كان بعضهن ، ويبلغ عددهن سبعا فى كل صنف يعركن الصنوج(١٩) ، كانت الأخريات يرفعن عقيرتهن بالصراخ ٠

وبالمثل فان **الكاس** يسمع كذلك فى كل الحفلات الدينيه والسياسية ، وعند مولد محمد(٢٠) (المولد النبوى) ، وعند (مولد) [كذا] **الرؤية**(٢١) أى الظهور✻ وعند عيد بيرام أى عيد الفطر(٢٢) ، ومولد (سفر) المحمل(٢٣)، أى موكب الحج ، أى موكب أولئك الذين تهيئوا للقيام برحلة الحج الى مكة ، والاحتفــال بفيضــان النيــل(٢٤) المسمى **وفاء البحر** أو **جبر البحر** ، أى الاحتفال بقطع جسور النيل(٢٥) ، وكذلك فى كل الحفلات المسماه بالموالد(٢٦) والتى تقام على شرف كبار الأولياء المسلمين ، وعند وصول الباشا الى القاهرة عندما يأتى لتحصيل الاتاوة التى تدفعها مصر الى الباب العالى(٢٧) ، وأثناء رقصــات (ذكر) الفقرا (وهم نوع من الزهاد المسلمين ، غير مترهبين ــ اشتهروا باسم الدراويش ، وهو الاسم الذى يطلق عليهم فى اللغة التركية) أما الأمر الجدير بالملاحظه حقا ، أكثر من غيره ، فهو أن الجزء الأكبر من هذا النوع من الرقصات يؤدى بايقاع شبيه بذلك الذى كان يتم عند الأقدمين عند تطوافهم لمرات ثلاث حول المذبح(٢٨) ، ويتكون هذا الايقاع (أو المازوره) من زمنين غير متساويين ، يساوى أولهما ضعف ما يساويه ثانيهما ، على هذا النحو :



✻ المقصود الاحتفال برؤية هلال غرة رمضان المعظم ــ المترجم ٠

مما يكون جوقة ، وتمضى الحركه متصاعدة على درجات · وقليلة هى الاحتفالات العامه ، الدينية أو المدنية ، التى لا يستخدم فيهـا **الكاس**(٢٩) ، ومع ذلك فانهم لا يستخدمون هذه الآلة الموسيقية فى مناسـبات المسرات أو ضروب اللهو السوقية أو المبتذلة ، وهذه ميزة يمكن ملاحظتها كذلك فى المناسبات التى كان الاسرائيليون والاغريق والرومان يستخدمون فيها هذه الآله الموسيقية ·

الهــــوامش :

(١) يتخــذ أوفيديوس من الضوضـــاء التى كان الكوريتيس « كهان كريت » يصنعونها بالضرب فوق روسهم ، لكى يحولوا دون وصول صرخات جوبيتر ، عند مولده ، الى أذنى ساتورنوس (زحل) ، الذى قد يقوم بالتهامه، على نحو ما التهم أبناءه الآخرين – أصلا لنشأة الصنوج ، وطبقا لما يقول فى مؤلفه **التقويم** ، الكتاب الرابع ، البيت ٢١١ وما بعده ، فان هذا هو الذى أوحى بفكرة الصنوج الى كهان كيبيلى ·

ويرجح أن سترابون قد أسس رأيه بخصوص ابتكار الصنوج الصغيرة أى الجرسيات التى تستخدمها الراقصات اللاتى تناولناهن فى المبحث السابق، على هذه الرواية ·

(٢) أنظر اللوحة CC ، الشكل رقم ٢٧ ·

bi-metziletym nekhochet

(٣) « ببعض صوت الكورينيس ودق الطبول الداويه »

[فرجيل يوسى ، الزراعيات ، الكتاب الرابع ، البيت ١٥١]

– « وأصدرت الطبول المجوفة صوتا مدويا » ·

[أوفيديوس ، مسخ الكائنات ، الكتاب الرابع ، البيت ٣٠]

(٤) « يقرعون بأكفهم الدفوف والطبول المدوية » ·

[لوكريتيوس ، عن طبيعة الموجودات ، ك ٢ ، البيت ٦١٨]

(٥) « حيث القيثارة ذات الأوتار العديدة وحيث الطبول المستديرة للربة كيبيلى والاله ميتراس ، تعزف الأنغام للراقصين بالريشه اللبدية » ·

[بروبرتيوس ، الكتاب الرابع ، قصيدة ٧ ، البيتان ٦١ ، ٦٢]

(٦) حيث لم نتمكن من الحصول على هذه الآلة ، بالاضافه الى آلات أخرى عديدة ، فاننا لم نستطع ، بالتالى ، أن نقدم ، هنا ، سوى الوصف التقريبى لأبعادها الصحيحة ، لكنها ما نزال حاضرة ، بوضوح ، فى أذهاننا ،

أما الملاحظات التى قمنا بها على الطبيعه فهى ملاحظات تفصيلية للغاية حتى اننا لا نستطيع ، حتى لو شئنا ، أن ننأى كثيرا عن الحقيقة .

(٧) « يروون أن الكوريتيس (سكان كريت القدامى) ، كانوا من ديكتى ويحكى أنهم كانوا قد أخفوا ذلك الصراخ الذىأطلقه جوبيتر منذ أمد بعيد (عند مولده) فى جزيرة كريت . ففى ذلك الوقت قرع الصبية المسلحون والملتفون حول الطفل فى شكل جوقة الصنج البرنزى بسرعة وشده » .

[لوكريتيوس ، عن طبيعة الموجودات ، ك ٢ ، بيت ١٣٣ وما بعده]

« ويعطى الصنج البرنزى صليلا عندما يقرع بالبرنز » .

[أوفيديوس ، التقويم ، الكتاب الرابع ، البيت ١٨٤]

- « ترى هل يصمد الصنج البرنزى لذلك القرع الشديد » ؟

[أوفيديوس ، مسخ الكائنات ، الكتاب الثالث ، البيتان ٥٣٢ ، ٥٣٣]

ولن نتوقف كثيرا عند خطأ شراح أوفيديوس المتبحرين الذين تخيلوا أن هذا الشاعر قد شاء أن يفهم قُرّاءه أن هذه الصنوج كانت تدق بعصى من حديد ، فلسوف نحمل أنفسنا فوق ما نطيق اذا ما شئنا أن ننقد أخطاء من هذا النوع ، تزخر بها غالبية هذه التعليقات والشروح ، اذ يستحيل علينا أن نتخيل المدى الذى ذهب اليه هؤلاء فى الكشف عن جهلهم فيما يتصل بالموسيقى ، ولقد كانوا يحسنونّ صنعا لو أنهم لزموا الصمت حول هذا الأمر ، بدلا من اعتساف أفكار وآراء عشوائية لا يمكن التسامح فيها - ولسنا نقصد هنا المعلقين الرومان ولا الشراح الاغريق ، فهؤلاء وأولئك لم يكونوا يعتسفون افتراضاتهم بمثل هذه الخفة ، كما كانت أفكارهم دقيقة على الدوام، فيما يتصل بالموسيقى .

(٨) انظر البحوث المبرة للمفضول عن العصور القديمة ، والتى ألفها سبون Spon ، المبحث الثامن ، عن الصنوج والجرسيات والآلات الموسيقية الأخرى عند الاقدمين ، ونرى فى بداية هذا المبحث ، رسما يصور ثلاث باخيات ، وهو رسم منقول عن رسم بارز ينتمى الى روما القديمة ، وتبدو هؤلاء الباخيات فى حركة رقص ، وهن يضربن الصنوج الواحدة بالأخرى ، بالطريقة نفسها التى يتبعها المصريون اليوم .

(٩) « كيبيلى الربه الكبرى تحمل فوق رأسها تاجا على هيئة أبراج (المدن) تقرع مرارا الصنج ذا الصوت الغليظ من أجل جوقتها الابدية » .

[بروبرتوس ، الكتاب الثالث ، القصيدة الخامسة ، البيت ٣٥]

(١٠) كذلك يذكر كليمانس السكندرى (التربية ، الكتاب الثانى ، الفصل الرابع ، ص ١٦٤) أن المصريين ، فى عصره ، كانوا يذهبون الى الحرب على نغمات الدفوف ، ولكنه لم يشر الى الصنوج ، ويكتفى بالقول بأن العرب يستخدمون الصنوج كآلة (موسيقية) عسكرية .

(١١) « قال داود لرؤساء اللاويين ، من أجل أن يقرروا أن يكون

اخوتهم مغنين على الآلات الموسيقية (من الواضح أن السرور يدوى في الأعالي من صوت الهارب والقيثارة والصنج) .
[سفر أخبار الأيام الأول . الاصحاح الخامس عشر . الآية ١٦]

(١٢) « وكان المتدثرون بالكتان يدقون الصنج والأعواد والقيثارات وهم واقفون عند الناحية الشرقية من المذبح » .
[أخبار الأيام . الثانى . الاصحاح الخامس . الآية ١٢]

(١٣) « كانوا موزعين على الصنج والأعواد والقيثارات فى خدمة منزل الرب بجوار الملك » .
[أخبار الأيام الأول . الاصحاح الخامس والعشرون . الآية ٦]

(١٤) « وأخذ بنو اسرائيل بأسرهم تابوت العهد من الرب بسرور غامر وهم يدقون الطبول ويعزفون على النفير والصنج والهارب والقيثارة » .
[أخبار الأيام الأول . الاصحاح الخامس عشر . الآية ٢٨]
(وجدير بالذكر هنا أن آلة النابل التى سبق ذكرها تأتى فى النص العربى على انها الرباب — المترجم) .

(١٥) « ثم أخذ داود ومعه بنو اسرائيل كلهم فى غناء الاناشيد فى حضرة الرب بكل جسارة على القيتارات والأعواد والطنابير والصنج » .
[أخبار الأيام الأول . الاصحاح الثالث عشر . الآية ٨]
وكذلك : السفر نفسه — الاصحاح الخامس عشر . الآية ١٩ . الاصحاح السادس عشر . الآيتان ٥ . ٤٢ . الاصحاح الخامس والعشرون . الآيتان ١ . ٦ وكذلك المزمور ١٥٠ الآية ٥ .

(١٦) « **والآن يردد جبل ايدا الوعر صدى الصوت . بينما كان الطفل الوليد يطلق الصرخات من فمه كانوا تارة يدقون على الدروع المستديرة بالقضبان المعدنية وتارة على الخوذات المجوفة .**
كانت هذه ملكا للكوريتيس . وتلك كانت من صنع الكوريبانتيس .
لقد خفى الأمر على الرب . وغابت عنه صورة الفعل القديم . وأخذت رفيقات الربة يحركن الصنج البرنزى ويقرعن الطبول ذات الصوت الغليظ . لقد اتخذن من الخوذات صناجا . ومن الدروع طبولا . وأعطت المزامير . كدأبها من قبل — ألحانا فريجية » .
[أوفيديوس . التقويم ك ٤ . بيت ٢٠٧ وما يليه]

(١٧) « **كى لا اشاهد المهرجان الفريجى . ولا اهز الصنج بيدى** » .
[نونوس . الديونيسيات . الكتاب الأربعون . البيت ١٥٦]

(١٨) « **أيتها الموسيات احضرن لى مزامير واهززن الصنج . وضعن الثيرسوس (رمز الاله باكخوس) فى يد الاله المغنى ديونيسوس** » .
[نونوس . المرجع السابق . الكتاب الأول . البيتان ١١ . ١٢]

- « **كانت حاملات الصنج من رفيقات الربة يقرعنها بأيديهن** » .
[أوفيديوس ، التقويم ، الكتاب الثالث ، البيت ٧٤٠]

(١٩) « **قدمنا القربان المقدس خمس مرات فى يوم واحد ثم أخذت سبع اماء فى قرع الصنج ، أما الآخريات فكن يطلقن صيحات كالولولة** » .
[سترابون ، الجغرافيات ، الكتاب السابع : ص ٢٩٧]

(٢٠) يأتى هذا العيد فى الحادى عشر من قمر شهر ربيع الاول ، ويحتفل به عشية الثانى عشر منه ، وفى هذا الوقت تتجمع كل فرق الفقرا (الطرق الصوفية) عند أقرب أحفاد محمد ، والذى ينتمى مباشرة اليه . والذى يكون حيا فى هذا الزمن (وفى الوقت الذى كنا فيه فى القاهرة ، كان هذا الرجل يتمثل فى الشيخ البكرى ، وفى ميدان بركة الأزبكية يمارس هؤلاء رقصات (الذكر) الخاصة بفرقهم ، فهؤلاء يرقصون وهم يستديرون ضاربين بأيديهم ، وأولئك ملقين برءوسهم تارة الى اليمين وأخرى الى الشمال وفريق ثالث يتماسك بالأيدى وهم يرقصون ، وبعض هؤلاء لا يتماسكون الا بالأصابع ، وفريق رابع أو خامس يثبون فقط فوق أطراف أصابعهم وهم يحجلون ، دون أن تفارق أرجلهم الأرض ، وآخرون يرقصون دون أن يتماسكوا لا بالأيدى ولا بالأصابع ، وغيرهم يهتزون بطرق مختلفة ويغمضون أعينهم دون أن يستديروا حول أنفسهم ، ولكى نقدم فكرة عن هذه الأنواع من الحفلات بالغة التنوع ، والتى تصحبها عادة ضجة الآلات شديدة الصخب كثيرة الجلبة ، فلا بد أن نصف بالتفصيل كل ما هو خاص بكل واحدة من هذه الحفلات ، وهذه كثيرة العدد لحد يكفى لتوفير مادة تشغل مؤلفا خاصا بها .

(٢١) ليلة الرؤية أى ليلة الظهور ، وهى عشية (بدء) رمضان ، وفى تلك الليلة يجتمع شيوخ ست طوائف من تجار السلع الاستهلاكية وهم :

١ - شيخ الطحانين - ٢ - شيخ الفرانين - ٣ - شيخ الجزارين (الذين يقومون بالذبح) - ٤ - شيخ الجزارين (باعة اللحوم) - ٥ - شيخ تجار الزيت والسمن - ٦ - شيخ تجار الفواكه . يجتمعون بمحتسبى القاهرة الكبرى ومصر العتيقة وبولاق [المحتسب هو مفتش الشرطة الذى يراقب الموازين والمكاييل] وبعد ذلك يتوجهون معا الى القاضى ، تحيط بهم كل الآلات الموسيقية العسكرية وهى الدفوف والطبول والصنوج (الكاس) والمزامير والأبواق ، وهناك ينتظرون عودة البريد الذى أرسله القاضى الى بركة الحجى لكى يراقب ظهور الهلال ثم يأتى ليخبره بالأمر ، وبمجرد أن يعود هذا الرجل ويخبره بظهور الهلال يحرر القاضى حجة بذلك ، بحضور مشايخ طوائف التجار الستة والمحتسبين الثلاثة ، ويأمر ببدء الصوم ويطلب الى الآخرين أن يذيعوا ذلك فى كل أحياء المدينة ، وعلى الفور يطوف هؤلاء مصحوبين بالموكب نفسه الذى كان قد صحبهم عند مجيئهم ، بأحياء

المدينة المختلفه ، ويطلبون الى خدمهم أن ينادوا : **صيام ، صيام** ، ثم يعودون الى بيوتهم يصحبهم الموكب ذاته ·

(٢٢) **عيد بيرام** او **الفطر** او بالاحرى عيد انتهاء الصـــوم يأتى بعد ثلاثين يوما من عيد **الرؤية** ، ويبدأ منذ عشية اليوم **الأول** من شهر شوال · ومنذ بزوغ النهار يسحب المدفع ويتوقف الصوم ، ويرتدى الناس ملابس جديدة ·

(٢٣) يتم الاحتفال بهذا العيد فى الثامن عشر من شوال ، وفى هذا اليوم تتجمع كل الطرق الصوفية فى ميدان **قرة ميدان** ، كل واحدة منها مع بيرقها والآلات الموسيقية الخاصة بها ، ويسير على رأس هذه الطرق **أمير الحج** أى قائد مسيرة الحجاج ، **وشيخ البلد** أى رئيس المدينة ، والجنود من الأسلحه المختلفة ، ومع هؤلاء تطوف الفرق الصــوفية بالمدينة ، على هيئـة موكب (زفة) ، فى أحيائها المهمة والتى تزدحم بالسكان ·

(٢٤) يجىء عيد فيضــان النيل بعد أن تسقط **النقطة** ، حين يزيد منسوب النيل ليبلغ ستة عشر ذراعا ، وعندئذ يتم قطع الجسر بحضور شيخ البلد ، والقاضى ، وكل رجالات المدينة وكبار ضباط الفرق العسكرية المتجمعه هناك · وأثناء قطع الجسر ، تسير الشعلات ويأتى موسيقيو البلد لكى يعزفوا الموســيقى التى وضعت ، كما سبق أن قلنا فى أحد المقامات أو الألحــان السابقة ·

ويطلق العامة اسم **النقطة** على القطرة التى تفقد ميــاه النيل بعدها صفاءها وتتعكر ويميل لونها نحو الاصفرار·ويعبر يوريبيديس ، عند حديثه عن هذه الظاهرة ، فى تراجيديته هيلينا ، على هذا النحو ، فى البيت الأول وما يليه :

« ان هذه هى روافد النيل الجميلة جمال العذارى ، التى تروى أرض مصر وحقولها بالثلج الأبيض الذائب بدلا من قطرات الندى السماوية » ·

[يوريبيديس ، هيلينا ، البيت الأول وما يليه]

وكان قدماء المصريين يحتفلون فى هذا الوقت نفسه بعيد مولد أبيس ، أو التجلى الالهى Théophanie وكان موضوع هذا العيد هو نفســه هنا وهناك أى الاحتفال بفيضان النيل ، وان يكن يتخذ فى الزمن القديم قناعا من الرمزية ، وعندما نجرده مما كانت تغلفه من أسرار فسنجد أنه كان ينال قدرا من الاحترام لا يقل عما يناله اليوم ، واليكم تفصيل مسهب للغاية لكل مظاهر الاحتفال التى كانت تتم فى هذه المناسبة منذ نحو ستمائة عام ، يوردها لنا الشيخ شمس الدين محمد بن أبى السرور الأكبرى الصديقى فى كتابه المسمى : النجوم الضالة* ، ونحن بدورنا ، نورده هنا ، نقلا عن

---

* وصحة الاسم هو : محمد بن محمد بن أبى السرور شمس الدين البكرى الصديقى المصرى ، المعروف بابن أبى السرور البكرى . أما مؤلفاته =

ترجمة هذا النص والتى ضمنها المسيو سلفستر دى ساسى فى مؤلفه :
Noticeo et Extraits des manuscrits de la Bibliothèque Impériale, Tom I, Page 272.

ونظن أن هذا الوصف لن ينال اهتمام من شاهدوه بأنفسهم حينما كانوا يشاركون فى حملة مصر ، فقط ، وانما سينال كذلك اهتمام كافة القراء :

« عندما يصل منسوب النيل الى ستة عشر ذراعا يبدأون فى قطع الجسور لتسيل المياه فوق الأراضى وتجرى فى الترع فى كافة أنحاء مصر ، ويكون هذا اليوم يوم عيد ، وفيما مضى قبل شق الخليج الحاكمى ، كان هذا القطع يتم عند خليج القنطرة ، وفى تلك الأيام ، كان يوجد خص يطل على فم الخليج ، يجلس فيه الحاكم أو الأمير لمشاهدة عملية الفتح ، وعندما يقبل هذا اليوم كان السلطان أو من يقوم مقامه ، يخرج على ظهر حصان من القصر، ليتجه الى مصر العتيقة على شاطىء النيل ، عند موضع يقال له دير النحاس حيث كان يترجل عن حصانه ، وكان يوجد هناك قاربان يزدانان ، كلاهما باسم السلطان ، وتجملهما الزينات المختلفة ، ويصعد السلطان وكبار حاشيته الى القارب الأول المسمى الحراكة ، أما الثانى ويسمى دهبية فيكون من نصيب باقى الحاشية ، وكانت توجد فى الموضع نفسه قوارب لا حصر لها ، مختلفة الأشكال ، تتنافس فيما تتجمل به من زينة ، وكان يصعد اليها الأمراء والضباط من أصحاب هذه القوارب ، ويتجه قارب السلطان تتبعه القوارب الأخرى الى جزيرة الروضة ، وتغص هذه الجزيرة التى تقع تجاه مصر العتيقة ، بين الذراع الكبير للنهر والذراع المار عند سفح هذه المدينة بالبيوت والقصور ، وعندما ينزل السلطان الى الجزيرة ، يمتطى جواده ويتجه الى المقياس الواقع عند منتصف سرير النهر ، ويدخل الى هناك ومعه كل حاشيته ، ويلقى فيه الزعفران مشبعا بماء الورد ، وبعد أن يؤدى صلاته تقام له وليمة فاخرة ، وبعد أن تنتهى الوليمة ، يقترب قاربه الذى تغطيه الطنافس المذهبة ، من أسوار المقياس فيصعد اليه ، ويعود مع كل القوارب الأخرى التى رافقته ، على أصوات الصواريخ وأنغام الآلات الموسيقية ، وعندما يصل قريبا من مصر ، يأمر بتحويل مسار قاربه نحو فم الخليج الذى يدخل الى القاهرة ، ويظل السلطان ، طول طريقه ، سواء وهو على الأرض أو فوق

= كما يوردها المؤرخ الاسلامى الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه «مؤرخو مصر الاسلامية» ، فهى: عيون الأخبار ونزهة الأمصار، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية (ولعل هذا هو الكتاب المقصود) الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة ، المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، اللطائف الربانية على المنح الرحمانية ، بالاضافة الى مختصر من وضعه هو لخطط المقريزى أسماه قطف الأزهار من الخطط والآثار ، وهكذا لا نجد كتابا لابن أبى السرور بالاسم الذى يشير اليه المؤلف هنا ولعل ترجمة المسيو دى ساسى هى المسئولة عن وجود كتاب بهذا الاسم ، ولعل الأمر كذلك تصرف من جانب المترجم الكبير اقتضته ضرورة ما ،

(المترجم)

النيل ، فى ذهابه وفى ايابه، يلقى بقطع ذهبية وفضية ، ويأمر بتوزيع الفاكهة والحلوى وأشياء أخرى مماثلة على الشعب ، أما الجسر الذى كان يأمر بفتحه فيشبه جدارا ضخما من الطين يعلو أمام القنطرة ، وكان السلطان أو من يقوم مقامه يعطى بمنديله الاشارة الى الناس الموكلين بفتح السد ، والذين كانوا ممسكين بالمجارف فى أيديهم ، (واليوم فان اليهود والحفارين فى القاهرة هم الموكولون بهذه المهمة كل عام بالتبادل) » وعلى الفور يتم هدم الجسر الذى يتهاوى فى لحظات ، ويمتطى السلطان جواده من جديد ويعود الى قصره • ومنذ أصبحت مصر تحت السيطرة العثمانية ، فان البكلر بك* هو الذى يقوم بأمور هذا الاحتفال ، فيخرج على حصانه من القلعة فى الصباح ، ويتجه الى بولاق ، حيث يجد قوارب تغمرها الزينات معدة له وللامراء وللصناجق عند الارسينال (دار الصناعة) ، فيقلع تتبعه كل القوارب، وخلال هذا الوقت يطلق عدد كبير من طلقات المدافع ويتجه البكلر بك جنوبا حتى مقياس النيل فى جزيرة الروضة ، ويتم هذا فى الوقت الذى لم يزل منسوب النهر فيه ناقصا بمقدار العشرين قيراطا ، عن تلك الستة عشر قيراطا التى ينبغى للفيضان أن يبلغها ، ويبقى هناك حتى يصل منسوب الفيضان الى هذا الارتفاع ، فاذا كان الفيضان يتم فى بطء ، فانه يبقى هناك ليوم أو يومين زيادة على هذا المدى ، وفى هذه الأثناء تعد القوارب ، وتقام تلك الدمى من الطين والتى يسميها القوم عروسة والتى يزينوها بعناية ، وتقام كل ضروب الألعاب والتسلية ، فى اليوم الذى يشاء فيه البكلر بك أن يأمر بفتح الخليج ، فانه يقيم قبل شروق الشمس مأدبة فاخرة للصناجق والجاويشية والمتفرقة وبقية الفرق العسكرية فى الحامية • وبعد المأدبة يوزع القفاطين على كاشف وشيخ عرب الجزيرة ومباشر المؤن والى آخرين كثيرين من ضباط الجيش والشرطة ، ثم يدخل بعد ذلك ومعه كل موكبه الى القوارب ويتجه على أنغام الدفوف الى الجسر فيأمر بفتحه ، ويمر من خلال الفتحة لكى يعود الى القصر » •

ودائما ما كنا نبدى النفور رفضا منا لتصديق أن تكون هذه **العروسة** المصنوعة من الطين ، والتى دار الحديث بشأنها فى هذا الاقتباس ، صورة أو أثرا لتلك الممارسة الهمجية التى كان يأتى بها ، فيما يزعمون ، قدماء المصريين عندما كانوا يغرقون ، كما يقال ، فى ذلك الوقت عذراء مصرية شابة ، فهذا لا يتفق قط مع حكمة مؤسساتهم وأنظمتهم ، وما يحملنا على الاعتقاد بأننا لسنا على خطأ فيما نذهب اليه ، هو أننا نقرأ فى مقتبس آخر للمؤلف نفسه ، ترجمه بالمثل المسيو سلفستر دى ساسى يتحدث فيه عن **بركة الرطلى** المسماة اليوم **بركة الأزبكية** : « يأتى اسم هذه البركة من اسم العامل الذى كان يقوم بصنع الموازين الحديدية (الرطل) ، فقد كان مسكنه يوجد قريبا من هذا الموقع ، وكانت تدور فيه (أى فى هذا الموقع) الأعياد

* وهو الاسم الذى يطلقه البكرى على ولاة مصر العثمانيين ـ المترجم•

وضروب اللهو عندما كان يمتلىء بمياه النهر ، فتتجول فيه ألوف القوارب ، وتشكل منظرا من أبهج المناظر لعيون ساكنى البيوت المحيطة بها ، وعندما تجف المياه يبذر الكتان والبرسيم . وكانت تقام في هذا الموضع فيما مضى ، فى الأول من شهر توت مسرحية هزليه تمثل زواج الخليج الناصرى بهذه البركة : فكانت تحرر حجة أمام رجل يرتدى زى قاض ، وفى حضور شاهدين ، ويظل هؤلاء الرجال فى هذا المكان طوال الليل ، وفى اليوم التالى ، يعرض على عيون النظارة منسوجا أبيض اللون به بقع حمراء ، وهى ما يمثل أمارات يتأكد بها العريس الجديد من عذرية زوجته . وقد أوقف هذا التمثيل الهزلى فى بداية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر من التقويم المسيحى) ، ولم يكن المؤلف ، يقينا ، ليسمى هذا الحفل بمسرحية هزلية لو أن الهدف منه كان اغراق عذراء شابة فى النيل ، لكن الأمر الأكثر ترجيحا هو أن قدماء المصريين ، الذين كانوا يحولون الى رموز كل الأحداث التى تنتمى الى نظام الأشياء فى الطبيعة والتى يقدمون عنها مشاهد تمثيلية ، كانوا يؤدونها بتمثيلهم الدينى الصامت ، كانوا قد تخيلوا كذلك مرموزة الزواج بين الخليج والبركة وقدموها ممثلة فى شكل بانتوميم أى تمثيل دينى صامت ، لم يعد يؤدى ، مع مرور الأيام ، بالقدر نفسه من الاحترام الذى كان المصريون القدماء يولونه اياه بلا جدال ، ولذلك فقد انحدر الى هذا الضرب من التمثيل الهزلى وتم ايقافه ، ومع ذلك فلا يزال القوم يمثلون هذه العروس بكتلة من الطين ، تقام على بعد أقدام عديدة من السد .

(٢٥) ذلك هو المعنى نفسه الذى ينسبه ، فى هذه الحالة الى كلمة **جبر** ، برغم تعارضها مع المدلول المعتاد .

(٢٦) قلنا بعض شىء عن ذلك فى دراستنا للوضع الراهن لفن الموسيقى فى مصر .

(٢٧) يرحل هذا الباشا من القسطنطينية عادة بعد العيد الصغير الذى يحل بعد الثلاثين من رمضان ، ويهبط الى الاسكندرية حيث يبقى حتى نحو نهاية شهر ذى الحجة : وعندما يصل الى القاهرة ، تذهب كل السلطات المدنية والعسكرية فى موكب كبير اليه ، تصحبها كل الآلات الموسيقية التى تستخدم فى الاحتفالات العامة التى قدمنا حصرا عنها من قبل ، ولا يدوم هذا الاحتفال الى ما بعد الظهر .

(٢٨) هذا الرقص الذى يمثل ايقاعه وزنا (مازورة) من ثلاثة أوقات، أليس له بعض تشابه مع رقص الساليين ، والذى يشير اليه هوارتيوس (هوراس) فى هذين البيتين :

« **بأقدام بيضاء يهزون الأرض ثلاثا على عادة الأسلاف** »

(هوراس ، الأغانى ، الأغنية الأولى — البيت ٢٧)

(٢٩) ومع ذلك فقد راقبنا واحدا من الأعياد بدا لنا فيه أن هذه الآلة

الموسيقية لا تستخدم في الاحتفال به . وهـذا العيد الذى نجهل غرضـه ومناسبته معا يسمى عيد النحر أى عيد الذبائح ، وهـو يجيء كل عام فى العاشر من القمر الذى يظهر فى بداية شهر ذى الحجه ، ويحتفل فيه بصلوات أكثر من المعتاد تتم فى المساجد ، وبتجمعات أكثر عددا من المـألوف للطرق الصوفية المختلفة ، حيث يأتى الفقرا المنضمون اليها للصلاة وأداء أذكارهم أمام الأضرحـة التى أقيمت للشيوخ الذين يجلهم المسـلمون باعتبـارهم أولياء ، كذلك تتجمع هذه الطرق عند الأحياء من الشيوخ ، سواء كانوا من رجال الدين أم من رجال الشرع ليتلوا بعض سور (أو أرباع) من القرآن (الكريم) مع بعض التراتيل الدينية ، ويستخدم الفقرا فى هـذه الأنواع من الانشادات كل ما لديهم من قوة ومدى فى الصوت ، وتكون نغماتهم ، أو بالأحرى ، صرخاتهم فى بعض الأحيان بالغة العنف حتى لتظنهم حشدا من المعتوهين أو المخبولين أكثر مما تظنهم رجال دين ورعين يمتلئون زهدا وخشوعا .

المبحث الرابع

عن الآلات الصاخبة شبه الجرسية

يوجد فى مصر ، كما يوجد فى أوروبا ، نوع من الآلات الموسيقية ، تنتمى فى جزء منها الى الجرسيات ، وفى جزء آخر الى تلك الآلات التى يقتصر دورها على مجرد احداث الصخب ، وحيث لا نستطيع ، دون أن نحدث خلطا أن نصنفها لا فى هذه الطائفة ولا فى تلك فقد عزمنا على انشاء طائفة خاصة بها وحدها ، وذلك بأن نشير اليها باسم **الآلات الصاخبة شبه الجرسية** وهذا النوع من الآلات ، هو ما نعرفه اليوم باسم **دف الباسك**(١) ٠

ونستطيع أن نحصى عند المصريين ، حيث تتنوع آلات الايقاع ويكثر عددها عما هو الحال ، ربما ، عن أى شعب آخر من شعوب العالم ، أربع آلات مختلفة من هذا النوع وحده ، ولكل واحدة منها اسمها الخاص ، بالاضافة الى الاسم النوعى الذى يطلق عليها ٠ وهكذا ، فحين نشير الى هذه الآلات باسمها الشخصى فاننا نسميها **دف** أو **دايرة** ، أما الاسم الأول فهو كلمة صوتية* تحاكى الصوت الذى تحدثه الآلة عند الضرب عليها ، وتأتى هذه الكلمة من الفعل **دف** بمعنى ضرب ، وهى كذلك قد جاءت من الأصل نفسه الذى جاءت منه الكلمة العبرية **تف** ، أو أنهما بالأحرى كلمة واحدة جاء نطقها رقيقا فى الأولى ، ولفظت على نحو أشد فى الثانية(٢) ، أما اسم دايرة فيشير الى الاستدارة ، أى يشير الى الآلة عن طريق وصف شكلها ٠

---

* كلمة يحكى جرسها صوت الشىء الذى تصفه (المترجم)

وكبرى هذه الآلات الأربع هى **البنـدير** ، وهى مكســوة بجلد عنزة ، أما الوصلة ، أو الدائرة الخشبية العريضة التى يلتصق عليها الجلد فيثقبها ، فى سطحها ، بين مسافة وأخرى ، أربعة ثقوب تتسع بقدر يكفى لأن تعلق فيها شريحتان صغيرتان دائريتان من الصفيح ، اثنتان فى كل ثقب ، وفى داخل الآلة توجد ثلاثة ، خمسة ، أو سبعة أوتار من معى الحيوان مشدودة ، ونضيف عند ترددها ، الى رنين هذه الآلة ، الرنات التى تحدثها ، ويصل قطر هذا الصنف من الدفوف الى ٤٠٠ مم ٠

وهناك صنف آخر من الدفوف ، له على وجه التقريب ، الأبعاد السابقة نفسها ، وهو يختلف عن الصنف السابق فى انه يخلو من الأوتار المشدودة بداخله ، وفى أنه يحمل حلقات صغيرة بدلا من الصفائح الصغيرة المستديرة التى تتعلق بالثقوب التى ثقبت بها الوصلات ٠

اما الصنف الثالث من هذه الدفوف فيحمل اسم **طـار** . وهذه الآلة الموسيقية أصغر حجما من سابقتها ، ويكسوها كذلك جلد عنزة ، وتتدلى منهـا بالمثل صـفائح مستديرة من الحديد ، تتعلق فى كل ثقب من ثقوب الوصلة فى محيطها ، اثنتين اثنتين ، ولكنها لا تحمل قط أوتارا مشدودة بداخلها ٠

ويسمى الصنف الرابع من الدفوف باسم **الرق** ، وهو أصغر صنوف الدفوف جميعا ، وليست له بالمثل أوتار مشدودة بداخله ، ووصلته كذلك مزودة بشرائح مسـتديرة من صـفيح الحديد مثل الدفوف الأخرى ، ولكنه مكسو بجلد (سمكة) **بياض** ٠

ولا يمكن للمرء أن يرتاب فى أن هذا النوع من الدفوف يعود الى عصور ضاربة فى القدم ، وينسبه الشعراء تارة الى **القوريبانط***(٣) وتارة أخرى

---

* كهان الالهة كيبيلى (المترجم) ٠

الى **الباخيات**(٤) ، وهو بصفه عامة مستدير الشكل ، ويغطى سطحه الأعلى (آحد وجهيه) بجلد(٥) ، أما وجهه الآخر ففارغ أى لايكسوه الجلد فط(٦) ، ومع ذلك فبدلا من الضرب عليه بالأيدى فقط ، على نحو ما كان يفعل الأقدمون(٧) ، فان المصريين - اليوم - ينقرون عليه بأصابع اليد اليسرى التى تمسك به ، الى جانب الضرب عليه باليد اليمنى ، وحيث أن أصابع اليد اليسرى لا يمكنها أن تصل الى بعيد ، فهى لا تنقر الا بالقرب من حواف سطح الدف ، ولذا تكون النغمات المتولدة عن ذلك ، أكثر حدة بكثير عن تلك التى نحصل عليها بالضرب باليد اليمنى ، عند المركز ، مما يؤلف بين هذين النوعين من النغمات تناقضا لا يسبب نفورا من أى نوع عند سماعه ، كما أنه يجعل من ايقاع هذه الآلة أكثر تنوعا وأثرى وقعا .

ولم يكن الأقدمون يعرفون ، فيما مضى وفيما هو مرجح كذلك ، هذا الفن ، (فن الضرب عليه) أو على الأقل فان ما نقرؤه عند الشعراء يحملنا على الظن بذلك ، فلم يكونوا يحصلو من هذه الآلة الا على نغمة حادة ذات صخب(٨) بحاء بعض الشىء(٩) .

ويختلف هذا الصنف من الدفوف (الرق) كذلك عن ذلك الذى يستخدمه المصريون المحدثون فى أن رق الأقدمين كان مكسوا بجلد بقرة(١٠) فى حين يكسى رق المحدثين بجلد عنزة أو سمكة بياض .

وفى الوقت نفسه فيبدو أن استخدام هذا النوع من الآلات الموسيقية قد ظل ، منذ العصور بالغة القدم وحتى اليوم شبه مقصور على النساء ، فقد كانت نسوة العبريين هن اللاتى يضربن عليها ، كما لا يرى المرء هذه الآلة عند الاغريق والرومان الا بين أيدى السيدات ، واذا كان القوريبانط يستخدمونها فذلك لأنهم قد تنازلوا عن جنسهم (ذكورتهم) عندما جردوا

أنفسهم من عضو الاخصاب ، أما فقرا (دراويش) مصر ، الذين نجد لحفلاتهم ورقصاتهم (أذكارهم) صلة قربى حميمة بحفلات ورقصات القوريبانط ، فحيث أنهم قد تحللوا من كثير من القيود والقواعد التى وضعها النبى أو التى تضمنتها تشريعات أخرى جاء بها الدين الاسلامى ، والتى حرم بموجبها على المسلمين ممارسة الموسيقى ، فانهم يستخدمون الآلات الموسيقية فى أذكارهم، وان لم يكن هؤلاء المتصوفين يمثلون خروجا على النظام الدينى أو المدنى .

ومع ذلك فلن نقدم أمثلة على أن الآلاتية ، وهم الموسيقيون المحترفون فى هذا البلد ، يستخدمون ، فى بعض الأحيان ، هذا النوع من الدفوف ، فهم يضربون عليها بين وقت وآخر ، لكن هذا أمر نادر الحدوث لحد لايمكن معه أن ننظر اليه باعتباره سلوكا معتادا . ومما لا جدال فيه أن العلاقة القائمة بين أسلوب استخدام هذه الدفوف جميعا ، فى مصر اليوم ، وبين الأسلوب الذى كانت تستخدمه بها الشعوب القديمة هى علاقة واهية للغاية ، فقد تقبل العبريون هذه الآلة فى كل احتفالاتهم الكبرى ، العامة ، الدينية والدنيوية فكانوا يستخدمونها سواء عندما ينقلون تابوت العهد من مكان لآخر(١١) أو عندما كانوا يتوجهون بالشكر الى الله على بعض الأحداث السعيدة التى تجرى لأمتهم(١٢) ، وبعد أن يحرزوا نصرا ما(١٣) أو أثناء رقصاتهم وأغنياتهم الدينية(١٤) وفى عيد مولد (القمر) الجديد(١٥) وعند استقبال شخص ما والسير أمامه بشكل تشريفى(١٦) أو عند وداعه وهو ينصرف(١٧) وفى المادبة(١٨) والألعاب(١٩) وفى مباهج ومسرات الشباب(٢٠) ... الخ ، ومع ذلك فانهم لم يكونوا يستخدمونها قط فى أوقات الحداد أو الكوارث العامة(٢١) . وكانت هذه الآلة عند الاغريق والرومان تدخر للاحتفال باسرار باخوس(٢٢) وريا(٢٣) وكيبيلى(٢٤) ، ونادرا ما استخدمت فى المسرات الفردية أو المسرات المبتذلة ، كذا لم يستخدمها العبريون فى أوقات الحداد

والكوارث*(٢٥) ٠

وعلى العكس من ذلك فان المصريين المحدثين لم يتقبلوا هذا النوع من الآلات فى أى احتفالات عامة رسمية أو سياسية ولا فى أية مناسبة جاده نحظى بشىء من أهمية ، فاستخدامها عندهم مقصور على المسرات والمباهج العائلية وحفلات الزفاف ، كما عدت وسيلة للترفيه عن النسوة فى أسار الحـريم ، كما يدخـل الدف عادة ضمن الآلات الموسـيقية التى يمسك بها المهرجون والموسيقيون الجوالون الذين يسيرون فى أثر **الغوازى** ويصاحبونهن فى رقصـاتهن ، وكذلك يعد من بين الآلات التى تصـاحب المنشدين الذين يقومون بتسلية السوقة على مفارق الطرق وفي الميادين العامة ، وفيما عدا هذه الحالات فاننا لم نلاحظ آنها نستخدم قط اللهم فى رقصة جنائزية على جسد فلاح ، تلك التى وصفناها فى دراستنا عن الوضع الراهن لفن الموسيقى فى مصر(٢٦) ٠

ولا يمكن أن يكون هناك من أصـل لهذا التعارض ، بالغ الوضوح ، بين استخدام الأقدمين لهذه الصنوف من الدفوف ، وذلك الاستخدام بالشكل الذى تقلص اليه عند المصريين المحدثين ، بالتأكيد ، الا ما أوصى به محمـد المسـلمين بأن يبتعدوا عن كل ما يتصل بممارسـات وطقوس الديـانات الأخرى ٠

---

* هذا التكرار موجود فى الأصل ــ المترجم ٠

الهـــوامش :

(١) ظننا أنه ليست هناك فائدة نرجي من أن نأخذ على عاتقنا تقديم هذا النوع من الآلات ، التى قد لا يمثل شكلها ، وقد أصبح مألوفا لنا ، شيئا بالغ الأهمية فى نفاصيل ، وبالتالى فاننا لم نرسمه ولم نحفره .

(٢) يلفظ الأسـبان هذا الاسم نفسـه أدوفيه ويكتبونه فى لغتهم Adufe ، ولعلهم قد نقلوه عن العرب .

(٣) « **لقــد اخترع الكوريبانتيس من أجـلى هـذا القرص المستدير للطبلة والمصنوع من الجلد** » .

[يوريبيديس ، الباخيات ، البيتان ١٢٤ ، ١٢٥]

- « **كانت هذه ملكا للكوريتيس ، وتلك كانت من صنع الكوريبانتيس لقد اتخذن من الخوذات صناجا ومن الدروع طبولا** » .

[أوفيديوس ، التقويم ٢ ، الكتاب الرابع ، البيتان ٢١٠ ، ٢١٣]

(٤) « **ان طبول الربة الأم ريا من اختراعي** » .

[يوريبيديس ، الباخيات ، البيت ٥٨]

(٥) « **طبول طيبة الرقيقة سوف تقرع** » .

[بروبرتيوس ، الكتاب الثالث ، قصيدة ١٥ ، البيت ٣٣]

(٦) « **الطبول المجوفة** » .

[أوفيديوس ، مسخ الكائنات ، الكتاب الثالث ، البيت ٥٣٧] ،

- « **سيذهب أنصاف الرجال وتدق الطبول المجوفة** » .

[أوفيديوس ، التقويم ، الكتاب الرابع ، البيت ١٨٣]

(٧) نلاحظ بين النقوش فى الكثير من المعابد القديمة فى مصر العليا ، وفوق الأعمدة الأخيرة من واجهة المعبد الكبير فى جزيرة فيله ، وفى الطيفانيون الصغير بدندرة ، وفوق افريز المعبد الكبير فى الموقع نفسه ، رسوما لأشخاص يعزفون على هذا النوع من الدفوف ، وتظهر أيديهم اليمنى مبسوطة فوق وسط الآلة .

وقد قدم سـبون Spon فى بحوثه المثيرة عن العصـور القديمة ، ص ١٥٥ رسمين نقلهما عن ميداليات قديمة يمثل أولهما احدى الباخيات أما الآخر فيرجح أن يكون لكاهنة تمسـك بيدها دفوفا شـبيهة بتلك التى نتحدث عنها هنا ، وان يكن من يمسكون بهذه الآلات هنا يفعلون ذلك باتجاه أكثر ميلا ، فيما يبدو ، مما يفعل الأشخاص الذين لاحظناهم على المعـابد القديمة فى مصر ، مما أدى بنا أن نلمح عند سبون جزءا من وصلات دف الباسك ، كما نجد أصابع اليد اليمنى واليسرى متباعدة فى شخوص سبون

مما يؤدى بنا لأن نفترض أنهم ربما كانوا يأتون ببعض الحركات ويضربون فى الوقت نفسه على الدف ، على نحو ما يفعل اليوم من يمارسون الضرب على هذه الآلات ، فى حين ان أصابع العازفين ويدهم اليمنى ، فى الرسوم الموجودة على جدران المعابد القديمة فى مصر تكون مبسوطة ومضمومة الى بعضها البعض ومشدودة ، أما أصابع اليد اليسرى فلا نراها فى الرسوم ، وان يكن هذا الاختلاف عائدا ، فيما نظن ، الى أسلوب فنانى هذه المعابد القديمة الذين كانوا ، جميعا ، يضفون شيئا من التصلب الى حركات رسومهم .

(٨) « **وكان الصدى المتناغم يصدر عن قرع الطبول** » .

[نونوس ، الديونيسيات ، الكتاب السابع والعشرون ، البيت ٢٢٩]

- « **بصوت الطبول المدوى** » .

[يوريبيديس ، الباخيات ، البيت ١٥٥ وما بعده]

- « **كيبيلى بالقرب من مراعى الربة الفريجية ، حيث يدوى قرع الصنج وصوت الطبول** » .

[كاتوللوس ، ك ٥٩ ، بيت ٢٠]

(٩) « **وفجأة قرعوا الطبول التى لم تكن ظاهرة للعيان فصدر عنها صوت أجش** » .

[أوفيديوس ، مسخ الكائنات ، الكتاب الرابع ، البيت ٣٩١]

(١٠) « **خذوا الطبلة المصنوعة من جلد البقر** » .

[يوريبيديس ، هيلينا ، البيت ١٣٦٣]

- « **وتقرع أيديهن الرقيقة (الطبول) المصنوعة من جلد الثور** » .

[أوفيديوس ، التقويم ، الكتاب الرابع ، البيت ٣٤٢]

(١١) « وداود وكل بيت اسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو بالعيدان وبالرباب وبالدفوف وبالجنوك وبالصنوج » .

[سفر صموئيل الثانى ، الاصحاح السادس ، الآية ٥]

(١١) وداود وكل اسرائيل يلعبون أمام الله بكل عز وبأغانى وعيدان ورباب ودفوف وصنوج وأبواق » .

[أخبار الأيام الأول ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ٨]

(١٢) « فأخذت مريم النبية أخت هرون الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص » .

[سفر الخروج ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ٢٠]

(١٣) « وكان عند مجيئهم حين رجع داود من قتل الفلسطينى أن النساء خرجت من جميع مدن اسرائيل بالغناء والرقص للقاء شاؤل الملك بدفوف وبفرح وبمثلثات » .

[صموئيل الأول ، الاصحاح ١٨ ، الآية ٦]

(١٤) « ليسبحوا اسمه برقص بدف وعود ليرنموا له » ·

[المزمور المائه والتاسع والأربعون ، الآيه ٣]

ـ « سبحوه بدف ورقص وسبحوه بأوتار ومرمار » ·

[المزمور المائة والخمسون ، الآية ٤]

(١٥) « ارفعوا نغمة وهاتوا دفا عودا حلوا مع رباب ، انفخوا فى رأس الشهر بالبوق عند الهلال ليوم عيدنا » ·

[المزمور الحادى والثمانون ، الآيتان ٢ ، ٣]

(فى الأصل الفرنسى ، المزمور الثمانون ، الآيتان ٣ ، ٤ ، لكنا لم نجد النص العربى مطابقا لهذه الاحالة فكان هذا التصرف) · (المترجم)

(١٦) « **ويستقبلونه بالتيجان والمشاعل ، ويفوده الجميع وسط الطبول والمزامير** » ·

[سفر يوديت ، الاصحاح الثالث ، الآية ١٠]

« **ولكن (ايفيت) قفل عائدا الى (ماسفاه) وطنه ، وقابلته ابنته الوحيدة بالطبول والرقص** » ·

[سفر القضاة ، الاصحاح الحادى عشر ، آية ١١]

« **ورفعوا أعينهم ونظروا هاهو ذا الحشد ، وجمع متراص يتقدم بمحض اختياره ، وفيه أصدقاءه واخوته فى طريقهم اليهم مصحوبين بالطبول والموسيقيين وأسلحة كثيرة** » ·

[سفر المكابيين ، الاصحاح التاسع ، آية ٣٩]

(١٧) « لماذا هبت خفية وخدعتنى ولم تخبرنى حتى أتبعك بالفرح والأغانى بالدف والعود » ·

[سفر التكوين ، الاصحاح الحادى والثلاثون ، الآية ٢٧]

(١٨) « وصار العود والرباب والدف والناى والخمر ولائمهم » ·

[سفر أشعياء ، الاصحاح الخامس ، الآية ١٢]

وكان من عادة قدماء المصريين كذلك استخدام الدفوف عند اقامة الولائم وهو أمر يلومهم عليه كليمانس السكندرى ، التربية ، الكتاب الثانى ، الفصل الرابع · **(كيف ينبغى الترفيه عن النفس فى الولائم ص ١٤٣ ج) أما بالنسبة لآلات الناى والقيثارة ، والغناء والرقص والتصفيق لدى المصريين ، فانهم تعودوا على تمضية أوقات فراغهم بحماس عن طريق مثل هذه الآلات ، وكانوا يخرجون عن الحد وعن القواعد المرعية حتى « أنهم كانوا يدقون الصنج والطبول ويقرعون الآلات فى صخب** » ·

(١٩) « سأبنيك بعد فتبنين يا عذراء اسرائيل ، تتزينين بعد بدفوفك وتخرجين فى رقص اللاعبين » ·

[سفر أرميا ، الاصحاح الحادى والثلاثون ، الآية ٤]

(٢٠) « يسرحون مثل الغنم رضعهم وأطفالهم ترقص يحملون الدف

والعود ويطربون بصوت المزمار » .

[التوراة ، سفر أيوب ، الاصحاح الحادى والعشرون ، اسطران ١١ ، ١٢]

(٢١) « بطل فرح الدفوف انقطع ضجيج المبتهلين بطل فرح العود » .

[التوراة ، سفر اشعياء ، الاصحاح الرابع والعشرون ، سطر ٨]

(٢٢) « **والآن أحمل حيث أفعال المخبولات توابع باكخوس ، اللائى تدق كل منهن طبولا تحت سفح جبل ايدا** » .

[أوفيديوس ، البطلات ، الكتاب الرابع ، البيت ٤٧]

« **اما اذا دعاهن أحد الى أعياد باكخوس أو أعياد بان اوكولياس ، او أعياد الخصوبة ، فمن الصعب التحدث معهن اذ تدوى الطبول هناك** » .

[أريستوفان ، ليسستراتى ، البيت الأول وما يليه]

« **وعلى ذلك فان النساء فى ترفهن يقرعن الطبول مرارا لباكخوس** » .

[أريستوفان ، ليسستراتى ، بيت ٣٨٧ ، ٣٨٨]

(٢٣) « أى ريا المستحقة للتقديس ، يا ابنة الآسلاف الأول ، يا من تقرعين الطبول ذات التيجان المصنوعة من جلد النور ، والتى تدفع بصوتها النشوة والجنون » .

[أورفيوس ، البيت الأول وما يليه]

(٢٤) « **أتيت الى معبـدك المقدس ، أيتها الموقرة ، مبتهجا بالدفوف السماوية التى ترقص (على نغماتها) كل الكائنات ، أيتها الربة الفريجية يا زوجة ساتورنوس ، أيتها المبجلة ، يا مغذية الحياة ، يا محبة للنجوم ، أتيتك سعيدا مبتهجا لأظهر لك ورعى وتقواى** » .

[أورفيوس ، البيت ١١ وما يليه]

« **حيث تدعوكن الدفوف والمزامير البيريكونتية المصـــنوعة من خشب البقس** » .

[فرجيلوس ، الانيادة ، الكتاب التاسع ، البيت ٦١٩]

(٢٥) « ولا الباخيات حاملات التورسيس ، ولا ضجيج الطبول » .

[يوريبيديس ، الكيكلوبس ، البيتان ٦٤ ، ٦٥]

« ولا ضجيج الصنج البرنزى ولا قرع الطبول » .

[يوريبيديس ، الكيكلوبس ، بيت ٢٠٤]

(٢٦) **ألغيت عادة استخدام دف الباسك فى الطقوس الجنائزية عند المصريين على يد على باشا بالقاهرة فى عام ١٦٢٦ فى شهر مايو ، ومنذ هذا التاريخ لم يستخدمه أحد قط فى هذه المناسبات . أنظر أفكار ومقتبسات من مخطوطات المكتبة الأمريه ، المجلد الأول ، ص ٢٠٣ .**

Notices et Extraits des manuscrits de la Bibliothèque Impériale, Tom. I, P. 203.

الفصل الثالث

حول أنواع الطبول* المختلفة المستخدمة فى مصر ، وحول أطوال كل واحدة منها ، وحول الغرض الذى تستخدم فيه ، وطريقة هذا الاستخدام

يكاد ينتسب هـذا النوع من الآلات الموسـيقية الى تلك الآلات التى لا يصدر عنها سوى الصخب المحض ، دون أن يعنى ذلك أنه يتعـذر علينا تمييز نغماتها ، كذلك ، فان المصريين لا يشيرون قط لكل واحدة من طبولهم باسم خاص وانما يطلقون عليها ، جميعا ، ذلك الاسم النوعى (طبـل) ثم يلحقون به صفة خاصة ، من شأنها أن تميزها عن غيرها من الطبول أو من الآلات الصاخبة .

أما عندنا ، نحن الذين لا نملك سوى نوع واحد من الطبول ، فاننا لا نستشعر مثل هذه الحيرة ، فاسم واحد يكفينا ويفى بالغرض ، ولن يكون هذا الاسم سوى كلمة صوتية ، تميز بشكل مقبول نغمة هذه الآلة أو بالأحرى أسلوب الدق عليها .

ويمكننا أن نحصى فى مصر أصنافا سبعة من الطبول ، تختلف ستة

---

* يستخدم المؤلف هنا كلمة Timbales وتعنى الدف أو الطبل أو الكوس ، ثم يستخدم كلمة Tambour التى درجنا على ترجمتها من قبل بالدفوف بمعنى الطبول التى تقترب نغمتها من آلات الصخب المحض ، ولكى لا نسبب حيرة للقارىء فقد اكتفينا باستخدام كلمة واحدة هى الطبل فى المفرد والطبـــول فى الجمع عند الاشـــارة الى هـــذين النوعين من الآلات الموسيقية ، متصرفين بالحذف والاضافة أحيانا بما يؤدى الى وضوح المعنى المقصود من قبل المؤلف — المترجم .

منها فيما بينها • بعضها عن البعض الآخر ، سواء فى الشكل أو المادة التى صنعت منها ، أما الصنف السابع فيختلف عن السنة الأخر فى طريقة الضرب عليه ، وهناك من بين هذه الصنوف السبعة من الطبول ، خمسة تستخدم فى المناسبات والاحتفالات الرسمية ، عندما تذهب كل سلطات المدينة مجتمعة نحو المكان الذى تدعوها اليه الدوافع التى أدت لتجمعها (أى لقيام هذا الاحتفال)(١) ، ويتمثل ذلك عادة فى الأعياد أو مناسبات المباهج العامة ، وفى هذه الأحوال ، تأتى السلطات الدينية على ظهور بغالها(٢) أما السلطات المدنية أو العسكرية فتمتطى صهوات جيادها ، وتصحب هؤلاء وأولئك تلك الآلات الموسيقية عالية الضجيج ، بالغه الصخب ، كبيرة الجلبة والطنين ، ولن تكون هذه الآلات سوى الزمر والأبواق والصنوج والطبول والدفوف •

أما الطبول التى تستخدم فى المناسبات الرسمية الكبرى ، فهى : **النقارية** ، **والنقرزان** ، **والطبل الشامى** ، أى الطبول السورية ، **وطبلة الجاويج**، أى الشاوبش(٣) ، **والطبل المجرى** ، أى طبل الغرب، وهذه كلها تصنع من النحاس ، ويكسوها الجلد ، كما هو حال طبولنا ، وان تكن هذه أكثر تجويفا بالنسبة لأحجامها ، عما هى عليه طبولنا •

ويشتمل **طبل النقارية** على طبلتين كبيرتين من النحاس ، من حجمين مختلفين ، وإن ظلا يحتفظان بنفس النسب التى تحكم أطوالهما كليهما ، فيما بينها ، وتحمل هاتان الطبلتان على ظهر جمل أو بغله ، يستخدم فى الوقت نفسه مطية لمن يضرب عليهما ، وتقع أكبر الطبلتين(٤) الى يمينه ، اما الطبلة الأقل حجما فتوجد عن شماله ، وقد يبلغ قطر كبراهما ٦٥٠ مم من ناحية الوجه A الذى يشكله الجلد الذى يكسو فتحة الاناء النحاسى ويصل عمقه من مركز هذا الجلد C حتى قمة الجزء المحدب B ، فيما بدا لنا الى نحو ٥٣٢ مم ، ولا بد أن قطر كبراهما يبلغ نحو ٤٣٣ مم ، من ناحية

سطح الجانب A ، أما عمقها ابتداء من مركز هذا السطح C حتى قمة الجزء المحدب B فيصل الى ٣٢٨ مم ، ويدق على هاتين الطبلتين ، بالتبادل ، بواسطة عصوين X و Y أو بواسطة بيزرين* من الخشب ، وتسمى هاتان العصوان كما تسمى العصى التى تدق بها الطبول عامة باسم **القضابة**(٥) ، وتتفاوت الضربات التى تدق الطبلة الصغرى فى سرعتها فى الوقت الذى يضرب على الكبرى بضربات تتفاوت بطئا ، طبقا للايقاع الذى ينشده الطبال ، وهو الأسلوب الذى يتبع دوما بخصوص كل صنوف الطبول المزدوجة ·

أما **النقرزان** فيتكون من طبلتين من حجم وسيط احداهما أكبر من الأخرى حجما وان ظلا يحتفظان على الدوام بالنسب نفسها فيما بين أبعادها ، كليهما ، ويرجح أن يكون الاسم نقرزان مكونا من **نقر** ويعنى الضجة أو الصوت أو يعنى فى اللغة القنية المستخدمة فى ألفاظ الموسيقى العربية الزمن الايقاعى الذى تحدده رنة الآلة التى تنقر عليها، ثم من الكلمة **زن** التى تعبر ، فى التركية والفارسية عن الحدث من الفعل ضرب ، وبالتالى فقد يكون معنى هذه الكلمة **نقر - زن : ما يصنع النقر** أى ما يحدد المازورة أو الوزن الايقاعى ، وتستخدم كلمة زن (أو زان) هنا ، فى المعنى نفسه الذى تستخدم فيه كلمة زدن ، وهى التى تعنى فى الفارسية **عزف أو ضرب على آلة موسيقية** ، سواء كانت هذه الآلة آلة نفخ أو آلة ايقاع أو آلات وترية، فيقال فىالفارسية **ناى زدن** أى عزف على الناى ، ويقال **دف زدن** أى نقر على دف الباسك (الدف ذى الجلاجل الذى سبق أن تحدثنا عنه) وكذلك **طبل زدن** أى ضرب على صندوق الطبل ، كذلك يطلق فى الفارسية اسم **طبل زن** على من يقوم بالدق على الطبل ، وهكذا يكون هناك محل كبير للاعتقاد بان كلمة **نقر - زن** قد

---

* البيزر ، مطرقة ذات راسين ·

تشكلت على النحو الذى استخلصناه ، وأن يكون لها كذلك المدلول نفسه الذى أعطيناها اياه ، ويركب من يقوم بالضرب على النقرزان فوق حمار بحيث تكون على كل جانب من جانبيه احدى الطبلتين ، وتأتى الكبرى الى يمينه ويمكن أن يبلغ طول قطرها من ناحية السطح A ٣٣٢ مم وأن يبلغ امتداد العمق أو التجويف بدءا من نقطة المركز C من السطح A حتى قمة الجزء المحدب B ٣٢٥ مم ، وتأتى الطبلة الصغرى الى يساره ، ويكاد يبلغ قطر سطحها A ٢٧٠ مم ، أما عمقها أو طول امتداد تجويفها بدءا من مركز هذا السطح C حتى قمة الجزء المحدب B فيصل الى ٢١٧ مم ، وأما طريقة الضرب على هذه الآلات فهى نفس طريقة الضرب على النقارية وليس هناك من فرق سوى أن العصوين هنا أصغر حجما .

والطبل الشامى أو طبل السوريين ، عبارة عن طبلة يتساوى عمقها (أى امتداد تجويفها فيما بين مركزى سطحيها) مع عرضها(٦) (أى طول قطر وجهها) ، ويبلغ طول قطر وجهها المسطح ٤٨٧ مم ، ولا يزيد عمقها ابتداء من مركز هذا السطح C حتى قمة تحدب السطح B عن ١٠٨ مم ، ويمسك من يقوم بالضرب على الطبلة ، بهذه الآلة معلقة بشكل رأسى فوق بطنه عن طريق قيطان أو سير يدور حول رقبته ، ويرتبط كل واحد من طرفيه الى حلقة ملحومة بحافة الآلــة ، ويضرب على هذه الطبلة كذلك بواسطة عصوين صغيرتين .

أما طبلــة **الجاويج** فطبلة صغيرة ، يستخدمها الجاويج أو **الجاويش** أو **الشاويش** عندما يشارك فى موكب سلطات المدينة ، حين تتجمع هذه فى المناسبات والاحتفالات الكبرى ، ويمتطى هذا الشاويش صهوة حصان ، ويمسك بيده اليسرى هذه الطبلة ، عن طريق قبضة توجد عند قمة B سطحها المحدب،ويضرب عليها باليد اليمنى بعصا صغيرة ، ولا يزيد قطر وجه

طبلة الجاويج (المسطح) عن ٢١٧ مم ، ويصل امتداد عمقها بدءا من المركز C حتى قمة B الوجه المحدب الى ١٦٢ مم ٠

وأما الطبل المجرى أو دف الغرب ، فطبلة صغيرة لا يزيد قطرهـا عن ١٦٢ مم ويمتـد عنقها نحو ١٣٥ مم ، ولهذه الآلة كذلك عنق أو قبضـة للامساك بها ، ولا يتم الضرب عليها بواسطة عصا شأن الطبول السابقة ، وانما بواسطة طرف سير ، أى قطعة صغيرة من الجلد ٠

ومن جهة أخرى فهناك – كذلك – طبلتان أخريان لم تقبلا قط ضمن آلات الموسيقى المستخدمة فى المناسبات المدنية أو العسكرية وهما : **طبلة المسحر وطبلة المشيخ** ، ويطلق على الأولى(٧) اسم **الباز** ، وهى طبلة صغيرة لا تختلف كثيرا عن سابقتها ، الا فى أن الضرب عليها يتم بواسطة عصـا صغيرة من الخشب ، وفى أن جسمها لا يصنع دوما من النحاس(٨) ، ويسعى كثير من الطرق الصـوفية (طوائف الفقرا) الى تنظيم حركات رقصـاتهم أو أذكارهم على صوت هذه الآلة موزونا وموقعا ، على نحو ما تفعل – على سـبيل المثال – طرق **الملاوية**(٩) ، **والشـناوية**(١٠) ، **والعلـوانية**(١١) ، **والبرهامية**(١٢) ، **والسعدية**(١٣) ، **والخلوتية**(١٤) ٠٠٠ **الخ** ٠

أما **طبلة المشـيخ** فهى طبلة صغيرة يقـل قطرها عن نظيره فى طبلة الباز : وتصنع فى غالبية الأحيان من الخشب وليس من النحاس وهى الطبلة التى يستخدمها بعض الشحاذين فى مصر ، ولا سيما فى القـاهرة ، فمن الضرورى للغاية لبؤساء هذا البلد أن يلجئوا الى وسائل تعلن عنهم عندما يمرون بالشوارع كأن يغنوا ، أو يعزفوا على الناى ، أو يضربوا على طبول صغيرة ، فقد لا يستطيع هؤلاء (اذا ما لزموا الصمت) أن يحظوا برؤية الغير لهم ، فيجذبوا ، بالتالى ، اهتمام وعطف الخيرين الذين لديهم نية تقديم

العون لهم ، ما دامت كل البيوت توصد أبوابها عادة وكل النساء قابعات ، بعيدا فى أغوار الحريم(١٥) .

الهـــوامش :

(١) أنظر حواشي المبحث السابق .

(٢) وكانت هذه قديما فيْ أوروبا ، كما هو حالها اليوم فى مصر . الدابة التي يقتصر ركوبها على رجال الشريعة والدين ، وقد توقفت هذه العادة عندنا منذ وقت طويل ، وأصبح ركوبها مقصورا على البابا وحده .

(٣) سمعناها تلفظ في القاهرة شاويش ، وقد لفظها السيد (شفتجى) وهو قس قبطى من مواليد القــاهرة شاويش كذلك وكتبها لنــا بالعربيــة شويش ، وأن نكن هنا نتبع الشكل الاملائى الذى تبناه دوم روفائيل وهو قس يونانى من مواليد القاهرة . والمترجم من والى العربية ، فهو الذى كتب لنا الشكل الاملائي الذى نقدمه هنا ،(Chaouych) ونظن نحن أن هذا القس الرومى العالم على صواب لا يبين لنا حين يكتبها على هذا النحو ، وفى الوقت نفسه ، ونحن نكرر ، فاننا لم نسمع هذه الكلمة تلفظ قط فى القاهرة ، على نحو مختلف عن : شاويش .

(٤) لم نحضر سوى هذه الآلة وكذلك آلتين أخريين من حجم مختلف ، لأن الآلات الأخرى تنتمى الى هذين الصنفين ، طالما ظلت النسب بين أطوال هذه الآلات ، لا تختلف عنها فى هذين الصنفين .

(٥) ويسمونها فى التركية جوماق (أو شوماق) .

(٦) أنظر اللوحة CC ، الشكلين ٢٩ ، ٣٠ .

(٧) بينا فى دراستنا عن الوضع الراهن لفن الموسيقى فى مصر ، من يكون المســحر ، وكذلك الغرض الذى يســتخدم فيه آلته الموســيقية ، وأسلوبه فى ذلك .

(٨) اذ تصنع هذه فى بعض الأحيان من الفخار أو من الخشب .

(٩) تسمى هذه الطريقة باسم مؤسسها جلال الدين الملاوى ، من ملاو فى بلاد المغاربة ، أى بلاد البربر ، وللملاوية بيازقهم الخضراء ، ويتخذون شال عمامتهم من اللون نفسه .

(١٠) المقر الرئيسى لهذه الطريقة هو مدينة طنطا ، وهى احدى مدن الوجه البحرى أو منطقة البحر [كذا !] ومؤسس هذه الطريقة هو السيد (أحمد) البدوى ، ويتمايز هؤلاء ببيرق مصنوع من الحرير الأحمر ، وهو

أمر يخالف المبادىء الدينية عند المسلمين التى تحرم (على الرجال) استخدام الحرير والفضة والذهب والألماس وكل ماينتسب لأمور الفخفخة والرفاهية ، وان يكن المحمديون شأن الفرق فى كثير من الديانات الأخرى ، لا يلتزمون حرفيا بالمبادىء التى تبدو لهم بالغة الصرامة ، وهكذا يسير الشناوية عارى الرءوس ، اما اذا غطوها فانهم يحرصون على أن يكون شال عمامتهم دوما من لون بيرق طريقتهم نفسه ، أى من اللون الأحمر .

(١١) العلوانية هم أولئك الذين يحملون فى مناسبات بعينها ، مثل سفر المحمل ، أحجارا ضخاما تتدلى من رقابهم يدقون بها صدورهم ، أو يسيرون مسلحين بمدى مدببةأو بالخناجر، يضربون بهاعلىرءوسهم ووجوههم وعيونهم وصدورهم التى يكشفون عنها ، بل يتركونها فى صدورهم مدلاة لبعض الوقت ، فى أغلبية الأحيان ، مطلقين صرخات تبعث على الرعب ثم يسحبونها بعد ذلك .

(١٢) مؤسس هذه الطريقة هو سيدى ابراهيم الدسوقى ، وتتخذ هذه الطريقة بيرقها وعمامتها من اللون الأخضر .

(١٣) السعدية هم أولئك الذين يأكلون الثعابين نيئة ، وتستمد هذه الطريقة اسمها وأصلها من سعد الدين الشيباوى من بلاد العراق ، أما بيارقهم وشيلان عمائمهم فخضراء اللون .

(١٤) تأسست هذه الطريقة على يد أبى اليزيد البرهامى ، وتكون بيارقهم وكذا شيلان عمائمهم من اللون الأبيض .

(١٥) لا يكون مفتوحا أثناء النهار فى مصر ، سوى المحال فى الأسواق أو محال التجار بصفة عامة . ومن أية طائفة ، وكذلك المقاهى ، وهذه الأماكن وهى ليست محال للسكنى ، لا تمتلىء الا أثناء النهار .

الفصل الرابع

آلات الصخب والضجيج

فيما يبـــدو ، فان الجلبة والصخب والضجيج والضوضاء والتنـافر الصوتي وكل تلك « النغمات » التى لا تحتملها الأذن الا بصعوبة بالغـة ، لا تصنع قط بقصد أن تمتزج بحركات منتظمة وموقعة ، يؤديها عدد كبير من الأشخاص تجمعهم البهجة حيث تتجلى صورة طيبة للوئام وحسن التفاهم والعواطف الحنون ، وكل ما يؤلف سعادة المجتمع وانتظامه ، ولهـــذا فان الآلات التى لاتصنع سوى الصخب المحض ، والعاطلة عن أى طرب ، قد نحيت بصفة عامة عن مصاحبة الرقص ، عند الغالبية الســـاحقة من الشعوب ، لا سيما تلك الشـــعوب المتحضرة ، وبين الأفراد بالغى التهـذيب والذين يتطلب مزاجهم المرهف أكبر قـــدر من الرقة عنـــد اختيـــارهم لمباهجهم ومسراتهم ، ولذلك فان الطبـــول باعتبـــارها أكثر الآلات « الموسيقية » استعدادا لنشر الكدر والاضطراب فى أحاسيس « سامعيها » ، وفى توليـد مشاعر القلق والضجر أو فى استنفار الغضب أو اثارة مشاعر الانتقـــام والحنق أو نشر الرعب والفزع طبقا لمـا ان كانوا يضربون عليهـــا ضربات أكثر وهنا وتراخيا أو أشد قوة أو أعظم عنفا ، وتبعا لمـا ان كان ايقاعهـــا أكثر أو أقل تساويا ، أكثر أو أقل سرعة أو بطئا ، فقد استخدمت هذه الطبول على الدوام بنجاح أكبر فى الجيـــوش ، ووسط المعســـكرات ، وفى أوقات التلاحم ، عما يحدث عادة فى الأحوال الأخرى ٠

ومع ذلك فنحن نشك فى أن يكون لهذه الطبول المستخدمة فى المجال العسكرى من قوة التأثير ما يعـــادل ما لتلك الصيحات المفزعة التى كان

يطلقها فى وقت معا ، عند الشعوب القديمة ألوف الجنـــود ، وقد حفزت رغبتهم للقتال رؤيتهم العدو ، وفى لحظة اندفاعهم الجموح ، حاملين عليه ، تحرقهم رغبة متأججة فى التلاحم والقتال ، وهكذا فان الاسبرطيين الذين كان الأمر بالنسبة لهم يقتضى ، عكس ذلك ، تقديم جرعة من الاعتـــدال تخفف من بسالتهم لا أن تستحثها لم يكونوا ليلجـأوا الى احـداث صخب لالهاب شجاعة مقاتليهم ، وانما كانوا يستخدمون النـاى ، باعتبـاره أكثر الآلات الموسيقية تطريبا وباعتبار أن نغماته الرقيقة ، بفعل حنوها ، وبأثر من صنوف الغناء الوقور التى تصاحبها ، وبفعل ما له من ايقاع هامس ، ينتظم نغماته العذبة كان أكثر الآلات الموسيقية قدرة على تهدئة مشاعر الاحترام التى تغلى وتدمدم وتضطرم فى عروقهم وتستحث كل جندى من مقاتليهم دون أن تستنفر غضبه أو تهيج مشاعره ، ولا يقدم لنـــا التاريخ الحديث أى مثال عن استخدام طبول بمثل هذا الحجم الـكبير الذى لطبولنا العسكرية ، ولسبب أقوى عن اســتخدام طبول هائلة الجرم للدرجـة التى تبلغها طبولنا الضخام . وتحمل الطبول طابعا همجيا لا يمكن أن يمحوها أن يضبط ايقاعها بأكبر قدر من المهارة ، وهذا النوع من الآلات التى جهلها الأقدمون وتستخدمها اليوم جيوش الغالبية العظمى من شعوب العـــالمين القديم والحديث ، لم يظهر ، فيما يبدو لنا ، فى مناطقنا قبل أولى الغروات التى قام بها تتار التركستان سواء فى آسيا أو فى أفريقيا أو أوربا ، بل اننا نوشك أن نكون على يقين بأنها قد نقلت عن طريق أبناء هذا الشعب الى البلدان التى غزوها ، وأن استخدامها لم يبدأ فى الانتشار الا منذ هـــذا الوقت ، وانه قد ظل ينتقل من بلد الى بلد مجاور حتى وصـــل الى بقيـــة البلدان الأخرى ، وفى النهاية فاننا على اقتناع تام بأن هذه الطبول تشترك فى أصل واحـــد من الأصـناف المختلفة من الـ كو Kou أى الطبـول

المستخدمة حاليا فى الصين ، والتى تشبه كثيرا تلك الطبول الضخام ، التى يطلقون عليها فى مصر ، كما نطلق عليها نحن فى أوربا اسم **الطبل التركى** ، وبمقدورنا أن ندلل على ذلك لولا أننا نخشى أن نسهب فى الأمر لأكثر مما ينبغى ٠

ويطلق على أكبر الطبول حجما من بين الطبول التى يستخدمها المصريون المحدثون اسم **الطبل التركى** ، ويشبه صندوق هذا الطبل صناديق أضخم طبولنا الحربية والتى نطلق عليها بدورنا الاسم نفسه ، أى الطبل التركى ، ومن جهة أخرى فان الضرب عليه يتم ، فى جانب ، بواسطة عصا تنتهى رأسها بمصد يكسوه الجلد ، ويضرب عليه فى الجانب الآخر بواسطة حزمة سيور من جلد ثور يسمونها **دربكة** ٠

ويحمل هذا الطبل الكبير ، وكذلك من يقوم بالضرب عليه ، فوق ظهر حمار ٠

أما النوع الآخر من طبول (الضجيج) فيسمى **الطبل البلدى** أى طبل البلاد (أو الطبل الوطنى) ، وحجم هذا الطبل أكبر من الحجم المعتاد لطبولنا العسكرية وان يكن أصغر حجما من الطبل التركى وفى الوقت نفسه ، فهو يعلق كما هو حال الطبول الحربية عندنا ، أمام من يقوم بالضرب عليه ، أى أن اسطوانته تتخذ وضعا أفقيا ، وتضرب بالطريقة نفسها ، ويشارك هذا الصنف من الطبول فى ضروب الموسيقى المدنية والعسكرية ٠

وهناك صنف آخر من الطبول يسمونها **ضرابكة** (أو دربكة) وقد رسمت هذه وحفرت فى هذا المؤلف بسبب غرابتها الفريدة اللوحة CC الشكل ٣١ ٠ ويوجد فى صنفها درابكات بنيتها من الخشب وأخرى بنيتها من الفخار ، وتنتسب الآلة التى عملنا على حفرها ورسمها الى النوع

الأخير ،واذ آثرناها على تلك التى صنعت من الخشب ، فقد بدت لنـــا ذات نغم أشد وضوحا وأكثر نقلا ٠

وتشبه هذه الآلة قمعا طويلا وواسعا ، وسنطلق على الجزء الواسـع والآخـذ فى الاتساع من هذا القمع باسم الاناء V ، أما الجزء الاسطوانى (المستطيل) فسنسميه بالذيل Q ، ويصـنع هـذان الجزءان من قطعة واحدة ، ويتخذ الاناء V من الخارج شكل مخروط مجدوع ومقلوب ٠ تميل حواف قاعدته X نحو الاستدارة ، ويصل طول هذا المخروط الى ١٠٨ مم ، ويبلغ امتداد أطول أقطـاره ، بسبب اسـتدارة زواياه ٢١٧ مم ، فى حين يصل طول قطر هذا الجزء نفسه ، فوق قاعدة الآلة مباشرة الى ١٤ مم فقط ، ويصنع مشدة التناغم لهذه الآلة T من جلد بياض مشدود ، ويلصق فوق حواف الاناء V ، ويبلغ قطر سطحه ١٩٢مم ، أما الذيل Q فاسطوانة جوفاء يصل طولها الى ١٩٤ مم ، ويبلغ قطر أنبوب هذه الاسطوانة ١٤ مم ، وفى النهاية فان الطول الاجمالى لهذه الطبلة يصل الى نحو ٣٠٢ مم ٠

وقلما نرى الدربكة الا بين أيدى المهرجين والمشعوذين والممثلين الهزليين الجـــائلين ، وأولئك الذين يصـــاحبون الراقصـات العموميات المسميات **بالغوازى** ، وفى بعض الأحيان تتخذ منها بعض الاماء وسيلة للترفيه يتسلين بالضرب عليها ٠

وحين يراد استخدام هـذه الآلة ، يمسك بها تحت الساعد الأيسر ، بحيث يحمل مرفق هذا الساعد فوق الذيل Q ، وتشد عليها اليد اليمنى عند أعلى الاناء T ، وتستطيع أصابع (هذه اليد) أن تنقر فوق حـواف المشدة C ، ويضرب عليها بالتوالى ، باليد اليمنى فوق مركز المشدة C وبأصابع اليد اليسرى بالقرب من الحواف ٠

وقد سبق لنـــا أن تحدثنا عن الايقاعات المتباينة التى يحـددها على الدربكة من يقوم بالنقر عليها • وسجلنا ذلك فى شكل نوتات موسيقية ، ضمناها دراستنا عن الوضع الراهن لفن الموسيقى فى مصر ، الباب الأول ـ الفصل الثانى ـ المبحث الخامس ، ولهذا فاننا نحيل اليهـــا حتى لا تكرر ما سبق أن بيناه •

الباب الرابع

حول الآلات الموسيقية التي تستخدمها الأمم الأجنبية

التي يتجمع عدد كبير من أبنائها في مصر

فصل وحيد

حول الآلات الموسيقية التي تستخدمها

الشعوب المختلفة في افـريقيا

المبحث الأول

حول آلات البرابرة والنوبيين

حتى نظل منسقين مع النظام الذى ابعناه فى دراستنا عن الوضع الراهن لفن الموسيقى فى مصر ، فاننا ادخرنا لهذا الموضع ما لدينا لنقوله عن الآلات الموسيقية لدى النوبيين والأقوام الذين يجاورون الجندل الأول للنيل ، وحيث أننا لم نر من كل هذه الآلات الموسيقية سوى تلك القينارة التى تناولناها من قبل تحت اسم **كيصار** ، فان ما سوف نورده عن بقية الآلات الموسيقية المستخدمة هناك قد حصلنا عليه (شفاها) من أبناء هذه البلاد ، والذين تعرفنا اليهم فى القاهرة أو فى صعيد مصر ، وسيقتصر ما نذكره عنها على تحديد اسم ونوع كل واحدة منها ٠

هناك اختلاف طفيف بين اسم الآلات الموسيقية من النوع نفسه ، فى تلك البلدان التى تمتد من جندل (شلال) النيل الأول حتى مدينة **دنقلة العجوز** أى دنقلة القديمة(١) ، وفى هذه البلاد يستخدم الناس صنفا من الآلات الوترية ، شبيها بالرباب ، ويطلقون عليه اسم **سيجرى** ، كما يستخدمون مزمارا يسمونه **سيجه** ، ونايا يحمل اسم **جارنجة** ، وبوقا يشيرون اليه باسم **جارنجا ـ تاوه** ، كما يطلقون اسم **سكارتى** على الآلة الموسيقية التى نسميها نحن **دف الباسك** (أى الدف ذا الجلاجل) ، أما الطبلة الكبيرة التى يسمونها فى العربية **النقارية** فيعرفها البرابرة ، وكل سكان بلدان ابريم باسم **نوجارية** ، وبعيدا عن ذلك ، فى بلاد النوبة يسمى الناس هذه الآلة باسم **نوجاره** ، **دورجه** أو **نحاس قناها** ٠ كذلك يوجد فى

بلاد دنقلة نوع آخر من الطبول ، خشنة أو بدائية الشكل ، هى عبارة عن اناء كبير ، واسع وأجوف ، مصنوع من الفخار ، يشبه جفنة هائلة الحجم ، ويكسوه جلد عنزة ، ويطلقون عليهـــا هناك اسم **طبق** ٠ أما الصـــندوق الضخم ، أو الطبل التركى فيسمى فى دنقلة **سلطانة دورجى** ويعنى هـــذا الاسم نفس ما تعنيه عبارة الطبل أو الدف التركى ، ذلك أن كلمة دورجى تقابلُ هنا (أو هى تحريف) لكلمة تركى ، أما كلمة سلطانه ، التى تعنى السلطان ، فى هـــذه البلاد ، فتستخدم هنـــا ، كما هـــو الحـــال فى مصر استخدامات عدة ، منها استخدامها كصفة للاشارة الى ماهو موجود من عظمة وجمال وأفضلية للشىء فى نوعه (أى بين الأشـــياء الأخرى التى يضـــمها نوعه) ، وأما الطبل أو الصندوق العادى فيطلقون عليـــه اسم **كنا توكه** ، وهذا هو كل ما أمكننا أن نعرفه حول الآلات الموسيقية فى هذه البلاد ٠

الهـــوامش :

(١) يشير سكان هـــذا البلد الى مدينتهم على هذا النحو ٠ وقد عرفنا منهم ، كذلك ، أن ملك هذه المنطقة كان يقيم فى هـــذه المدينـــة ، أما الملك الذى كان هنـــاك قبل أن نقطن القاهرة باحدى عشرة ســـنة فكان اسمه **ساهيله مزلتكى** ٠

المبحث الثاني

حول آلات الطرب ، وآلات الصخب ، والجرسيات التي يستخدمها الأثيوبيون ، ولا سيما الأحباش منهم

سعيا منا وراء الحصول على قدر كاف من المعلومات أو الأفكار ، حول الآلات الموسيقية التي يستخدمها الأثيوبيون ، ولا سيما الأحباش منهم ، على غرار تلك التي حصلنا عليها حول الفن الموسيقي عند هؤلاء الأقوام أنفسهم ، فاننا لم ندع فرصة قد سنحت لنا خلال الفترة التي وثقنا صلتنا فيها بالبطريرك والقسس الأحباش ، تفلت دون أن نهتبلها ، كما أن ما عرفناه عن طريقهم قد بدا لنا أحق وأجدر بالثقة حتى أننا وجدناه ، في كثير من النقاط ، يطابق ما أورده لابورد حول موسيقى الأحباش ، في مؤلفه عن الموسيقى ، المجلد الأول ، صفحتي ٢٦٤ ، ٢٦٥ حيث يقول هذا المؤلف :

« لا يعرف الأحباش سوى ست آلات موسيقية هي : الناي ، والبوق أو النفير ، وصنفان من الطبول ※ ، والجلجل ، والقيثارة » ·

صحيح أننا نستطيع أن نصنف على هذا النحو كل آلاتهم الموسيقيه ، ومع ذلك فان هناك من بين هذه الآلات ، في كل نوع بل ضمن كل صنف

※ الترجمة بتصرف يقتضيه النقل الى العربية ، والصنف الأول هو ما يسمونه بالفرنسية Timbale أما الثاني فطبلة طويلة العنق يدق عليها بعصا واحدة – المترجم ·

من النوع نفسه ، ما يستحق أن ينميز عن غـــيره من **الآلات** ، **وفى واقع** الأمر ، فانها نعرف ، هذه وتلك ، تحت أسماء خاصة أو أسماء فردية ، لن يكون مضيعة للوقت أن نوردها .

نســـتطيع أن نحصى من بـــين الآلات الوترية ثلاثا أساسيات هى : **المسانقو** ، و **البجنا** ، و **الانزيرا** ، وأن نحصى من بـــين آلات النفخ خمس آلات هى : **الامبلتا** ، و **الزاجوف** ، و **الملكت** ، و **الغنتا** ، و **القند** . أما آلات الايقاع فيبلغ عددها **الثمانى** . أربع من بينها نعد من آلات الصخب المحض وهى : **النجارت** ، و **الكبرو** ، **و القندا** ، و **الاتامو** ، وأربع أخريات من نوع الجرسيات يسمونها **دزيناتسل** ، و **الدكا** ، و **القاكل**(١) ، و **الدولة** ، ممـــا يقفز بعدد الآلات الموسيقيه ، كما نرى ، الى ست عشرة آلة متنوعة .

أما **المسانقو** فآلة وترية تعزف بالقوس ، وهناك آلات مسانقو شبيهة برباب المصريين ، وآلات أخرى صنعت فى شكل كمنجة ، وهناك من بينهـــا كذلك ما له أشكال متباينة لم يوضحوها لنـــا بشكل كاف ، ومع ذلك فكل آلات المسانقو ، مهما يكن شكلها ، فهى لا تحمل سوى وتر واحد . ويبدو أن الاسم **مسانقو** ، فى الأثيوبية ، هو الاسم النوعى للآلات الوترية(٢) ، سواء تلك التى تعزف بالقوس أو تلك التى تنقر بالريشة أو بالأصـــابع ، ولهذا السبب ، بلا ريب ، فان هناك من يقابلون كلمة مسانقو الأثيوبية بكلمـــة أورجانون Organun فى الفولجـات* ، تلك التى تشير الى كل نوع من الآلات الموسيقية .

ونحدس نحن أن اسم هذه الآلة الموسيقية هو ذلك الاسم الذى يورده لابورد محرفا على هذا النحو : **مسنكو** ، وان يكن الوصف الذى يقدمه عن

---

* الـ Vulgate هى الترجمة اللاتينية لكتاب المقدس — المترجم .

الآلة التي تحمل عنده هذا الاسم يختلف كل الاختـلاف عن الوصف الذى قدمه لنا القسس الأحبـاش عن آلة المسانقو المستخدمة عنـدهم . فيقول لابورد : « تسمى القيتارة فى الأمهرية **بج** وفى الاثيوبية **مسنكو** ، وقد جاءت الكلمة الأخيرة من **سنكو** وتعنى : **نقر الأوتار بواسطة الأصابع** » . وقـد أكد لنا القسس الأحباش أن آلة المسانقو لها عنق وأنها تعزف بواسـطة القوس وأنه يوجد منها ما هـو شبيه بالكمنجة وبنوع من الرباب ، وهكذا فان القيثارة تختلف بشكل أساسى عن هذه الآلات فى أنها غير مزودة بعنق وليست بهـا ملامس لتحديد تآلفهـا ، وفى أنها تنقر بالأصـابع أو توقـع بالريشة ، بدلا من أن يعزف عليها بالقوس . ومن جهـة أخرى ، فلو أن كلمة **بج** كانت اسما لآلة موسيقية فى اللهجة الأمهرية(٣) ، لكان مما يبعث على الدهشة البالغة أن ينسى القسس الأحباش الذين رجعنا اليهم ، والذين يتحدثون هذه اللهجة ويكتبونها ، أن يشيروا الى هـذا الاسم من قريب أو من بعيد ، وهم الذين أبدوا حماسة بالغة لأن يقدموا لنا . حول الموسيقى الأثيوبية والآلات الموسيقية فى بلادهم ، معلومات ضافيه ومفصلة للغاية على نحو ما طلبنا اليهم أن يفعلوا(٤) ، أما عن كلمة **مسنكو** فاننا ننظر اليهـا باعتبارها تحريفا لـكلمة مسـانقو(٥) تلك التى جاءت ، ليس من كلمـه سنكو ، وهى كلمة ليست بالأثيوبية ولا بالأمهرية ، وانما من كلمه **سنقوا** ، التى تعنى حسب التوراة الأثيوبيـة ، وطبقـا لمـا يذكره كاسـتيل ، أو بالأحرى طبقا لمـا يورده لودولف : **عزف (هو) على** الـكيتارة ، وان يكن للكلمة نفسها ، تبعـا لمـا يذكره القسس الأحبـاش معنى أوسع بكثير ، اذ تعنى لديهم : **عزف (هو) على آلة وترية ما ولا سيما الكمان الأوسط** .

أما **البجنا** فقيثارة(٦) ذات أوتار عشرة متزاوجة (أى كل زوجين معا) يرن الواحد منهما (من كل زوج) ثمانية الوتر الآخر ، وبالتالى فان هـذه الآلة تعد نوعا من المجاديس ، لا تردد سوى خمس نغمـات متباينة بمعنى

الكلمة ، مثل الكيصار ، وهى تنفرد بشأن الآلة الأخيرة - بواسطة الريشة . وعلى هذا يكون لابورد قد أخطأ حين يقرر **أن الريشة (البلكتروم) لم تستخدم قط فى الحبشة** ، فعن طريق الوصف الذى قدمه لنا القسس الأحباش عن البجنا ، ومن الرسم الذى خطوه لنا بريشتهم تأكدنا **أن هذه القيثارة** وثيقة الصلة بالقينارة التى توجد فى قاعة **الكاردينال ألبانى** Albani والتى وردت بالدراسة التى قدمها لابورد عن الموسيقى . المجلد الأول ، ص ٤٢٣ برقم (٧) ، وفى واقع الأمر فاننا حين أطلعنا القسس الأحباش عليها فانهم قد عبروا على الفور عن وجود هذا التشابه الذى حدسناه .

وبدلا من أن توجد فى هذه الآلة طاس من الخشب ، كما فى كيصار البرابرة ، يوجد صندوق مربع من الخشب يبلغ طوله نحو ٢٧١ مم ، أما عرضه فيصل الى ٣٢٥ مم ، وأما سمكه أو عمقه بدءا من المشدة حتى أسفل الآلة فقد يصل الى ٩٥ مم . وتوجد وسط المشدة شمسة كبيرة نجد أسفلها الرافعة التى تربط اليها الأوتار العشرة . وعلى الوصلات ، فى أعلى الصندوق ، وعلى مسافة ٣٠ مم من الوصلات الجانبية ، ترتفع بشكل رأسى فوق الجسم الرنان عصوان أو رافعتان من الخشب ، واحدة من كل جانب ، لا يقل طول كل واحدة منهما عن ٣٧٩ مم على الأقل ، وتفضيان ، هذه وتلك ، من ناحية الطرف العلوى الى عارضة خشبية ، مماثلة لعارضة الكيصار ، وبالاضافة الى الحلقات المصنوعة من القماش ، والتى تزود بها هذه العارضة ، وهو ما نجده أيضا فى عارضة الكيصار ، توجد كذلك فى البجنا « ملاوى » صغيرة (المفرد ملوى) على شكل صليب ، تستخدم فى تسهيل دوران حلقات القماش ، وتعلق ريشة العزف الى واحدة من الرافعتين ، وهى تسمى فى الأثيوبية **دهنيزا** ، وليست هذه سوى قطعة من

الجلد ، قد خرطت على هيئة رأس رمح .

ويعرف الأثيوبيون كذلك قيثارة ذات أوتار ثلاثة يسمونها **انزيرا**(٧) ، وقد صنعت هذه القيثارة ، التى رسموها لنا بريشتهم ، بقدر من العناية يقل عما بذل فى صنع القيثارة السابقة ، وصندوق جسمها الرنان مربع الشكل وان يكن أقل ارتفاعا من صندوق البجنا ، ولا تتخذ العارضة التى تحمل فوق الرافعتين اتجاها أفقيا على الدوام ، كما هو شأن القيثارات الأخرى التى تناولناها بالحديث ، وهى أكثر ارتفاعا عند الوسط عنها عند الجوانب ، بل ان قمتها ، فيما يبدو ، تنتهى بزاوية منفرجة للغاية ، والى هذا الجزء المرتفع من العارضة تربط الأوتار .

أما الناى الأثيوبى المسمى **امبلتا** فصنف من النايات ذات المنقار ، تثقبه من الأمام ثقوب سبعة ، أربعة منها على مسافة قصيرة من الفم ، وثلاثة أخر على مسافة ما تحت الأربعة السابقة ، كذلك توجد نايات من النوع نفسه بها خمسة وثلاثة ثقوب ، وهناك بالمثل صنف ثالث ليست به سوى ثلاثة ثقوب وثقبين ، موزعة ، فى الصنفين ، بالطريقة نفسها التى رأيناها فى الامبلتا(٨) .

وتعد آلة **الزجوف** نوعا آخر من النايات ، وثيق الصلة بناى المصريين . وهناك من هذه الآلة ما هو مزود بستة ثقوب وهناك أخرى لا تحمل سوى ثلاثة ، وصنف ثالث ليس له سوى ثقبين . ويخبرنا لابورد أن « الناى فى الأثيوبية يسمى **كوتز** وفى الأمهرية **اجدا** ، وشكله وسمكه هما شكل وسمك الناى الألمانى ، وان يكن العزف عليه يتم على نحو ما يحدث مع الناى ذى المنقار ، الذى يشبه فمه فم الكلارينيت ، ونغمته أنفية مثل نغمة المزمار ، خفيضة لا تعلو لدرجة كبيرة ، ولعلهم لم يكونوا ليقدروه فى بلده لو أن

نغماته كانت أكثر رقة » .

ولسنا نستطيع أن نجادل فى صحة هذه الرواية ولا أن نقرها . ما دمنا لم نر ولم نسمع أيا من الآلات الموسيقية الأثيوبية ، وان تكن كلمتا **كوتز و أجدا** قد بدتا غريبتين على القسس الأحباش عندما لفظناهما أمامهم(٩) ، ومع ذلك فلعلهما لو كتبتا بالأثيوبية أو الامهرية لأمكن هؤلاء أن يفهموهما ، اذ يحتمل أن يكون ما تناول الكلمتين من تحريف طفيف فى هجائهما بالاضافة الى ما قد نكون قد أعطيناه لهما من نبرة تختلف عن تلك التى ينبغى أن تكون لهما ، وهذا أمر بالغ الترجيح لا سيما اذا كانت هاتان الكلمتان اللتان نلفظهما باكنتنا الفرنسية ، قد أخذهما لابورد عن رحالة انجليزى أو ألمانى أو ايطالى ، ونطق هؤلاء يختلف كما تختلف لكنتهم عما لدينا – يحتمل أن يكون ذلك كله قد أثار حول الكلمتين دخانا كثيفا أضل القسس الأحباش عن التعرف عليهما ، وهذا احتمال مرجح ، لكن الأمر الذى نستطيع أن نفترضه ، هو أن يكون المؤلف (أو الراوية) الذى نقل عنه لابورد ، يتحدث عن الناى نفسه الذى وصفناه تحت اسم **امبلتنا** ، وأن الاسمين **كوتز** و **أجدا** لا ينتميان قط لا الى الحبشية ولا الى **الأمهرية** وانما ينتسبان ، ربما ، الى كلمات واحدة من اللهجات الأربع عشرة التى تضمها الأثيوبية ، ليست معروفة من جانب قسسنا الطيبين .

ويطلق على البوق أو النفير فى الحبشية اسم **ملكت** ، وهو هناك آلة موسيقية عسكرية ، ومع ذلك فهم يستخدمونها فى الكنيسة ، وهناك منها ما هو كبير الحجم وما هو صغيره ، لا يصنع من أجزائها جميعا ، هذا الصنف وذاك من النحاس ، سوى الجزء الذى نسميه : فتحة البوق ، ويورد لابورد أن « النفير الأثيوبى يسمى **ملكتا** أو **ملكت** و **كرن**(١٠) أى القرن ، مما يشير الى الخامة التى كان يتشكل منها فى البداية » ثم يضيف لابورد : « أما الآن

فانهم يكونونه من قصبة بوص لايزيد اتساعها عن نصف بوصة (١٤ مم) ، ويصل طولها الى نحـو خمسـه أقدام وأربع بوصات (المتر و٧٣٢ مم) ، وتنتهى هذه القصبة الطويلة بفتحة بوق مأخوذة من عنق ثمرة قرع ، ويكتسى هذا البوق بجلد غزال أعد لهذا الغرض ، ولا تصدر عنه سوى نغمة بحاء ، ويعزف الأثيوبيون عليها ببطء عند زحفهم على العدو ، أما حين يتم العزف عليها بسرعة وقوة فائقتين ، فانه يكون من شأنها أن تلهب حماسة الأحباش حتى يلقوا بأنفسهم فى أتون المعركة ، وسط صفوف العدو ، ولا يهابون الموت » .

ونحن من جانبنا ، نورد كل هذه الروايات ، واضعين اياها الى جانب بعضها البعض ، بينما لا نستطيع أن نصل لرأى قاطع بشأن دقتها أو عدم صحتها ، عسى أن يتمكن الرحالة الذين سيجتازون ، فيما بعد ، هذه المناطق النائية ، أن يقارنوها بمعطيات الواقع ، وأن يؤكدوا أو يحطموا هـذه أو تلك من الروايات ، ذلك أننا لا نثق بحقيقة شيء يرويه الا بعد أن نلاحظه بأنفسنا .

أما **القند** فبوقان مأخوذان من قرن بقرة ، وهم يستخدمونه فى أثيوبيا كآلة تنبيه أو انذار ، لتجميع الجنود خلال الليل فى أوقات الطـوارىء ، أو للنداء على القطعان (الضالة أو الشاردة) .

كذلك فليست **الغنتا** سوى قرن صغير أو بوقين وله نفس هيئة الآلة الموسيقية السابقة ، وان تكن هذه أصغر حجما ، ولا تستخدم هذه الا فى النداء على القطعان الشاردة .

أما **النجارت** أو **النجاريت**(١١) فهى الطبول الكبيرة عند الاثيوبيين ، وهذه الكلمة ، نجاريت قد جاءت من **نجر** بمعنى أعلن أو نشر أو أذاع(١٢) .

وهذا النوع من الآلات يوضع أمام الكنائس ويستخدم فى الاعلان عن بدء القداس ومناسبات العبادة المختلفة ، كما يستخدم لنشر واذاعة أوامر الحاكم أو وزرائه ، وهناك نجاريت من النحاس ، وهناك منها ما هو مصنوع من الخشب ، فأما النجاريت النحاسية ، فهى تلك التى تستخدم فى الكنائس أو تلك التى تكون تابعة للملك ، وأما الأخريات المصنوعة من الخشب فلا يستخدمها الا الأفراد من العامة ، ونستطيع فى بعض الأحيان أن نعد ما يصل الى أربعين نجاريت فى الكنيسة الواحدة ، توضع اثنتين اثنتين : الصغيرة الى اليمين والكبيرة الى الشمال ، وعندما يخرج الملك فى موكب كبير ، أو عندما يشرع فى شن حملة ، تصحبه على الدوام ثمان وثمانون طبلة يحملها أربع وأربعون من البغال ، يمتطى ظهر كل واحدة منها طبال ٠

ويضرب على هذه الطبول الأثيوبية ، على نحو ما يتم بخصوص النقاريات أو الطبول المصرية ، بعصى أو بيازر من الخشب ، ويدق عليها بشكل ايقاعى بضربات مسرعة على الطبل الصغير ، وبضربات أقل سرعة على الطبل الكبير ٠ يقول لابورد وهو يتحدث عن هذه الآلة نفسها : « ويطلق على آلة الطبل فى اللغتين (يقصد الأثيوبية والأمهرية) نوجاريت nogareet ، لأنهم يستخدمونها فى كل النداءات والبيانات العامة التى تسمى **نجو** ، وعندما يتم ضربها بأمر الحكومة ، لا يكون لهذه البيانات العامة قوة القانون الا فى المقاطعات ، ولكنها تصير قانونا عاما يسرى فى الحبشة كلها اذا كان الملك هو الذى أمر بدق هذه الطبول ، فالطبل علامة السلطة ، وفى كل مرة يعين فيها الملك حاكما أو قائمقام عام فى المقاطعة ، فانه يمنح من يوليه هذا المنصب طبلة وراية كعلامة تولية » ٠

وتتطابق هذه التفاصيل ، التى لم تذكر لنا قط ، مع شهادات القسس الأحباش الذين استقينا منهم وحدهم كل ما نورده هنا حول الآلات

الموسيقية فى أثيوبيا ٠

وتطلق فى الحبشة كلمة **كبرو** على صندوق ضخم شبيه بالصندوق الكبير الذى أسميناه هنا : .Tambour Turc والذى يسمونه فى مصر بالطبل التركى وهو ما يعنى الاسم الفرنسى الذى نستخدمه نحن ، على غرار ما يطلقون عليه فى النوبة اسم سلطانه دورجى وفى الصينية اسم يا ــ كو Ya-Kou ٠ ويشتق الاسم كبرو من الكلمة الأثيوبية **كبر** بمعنى تشرف أو نال الشرف أو حظى بالتبجيل أو نال التكريم ، ولهذا السبب يقولون بالأثيوبية **كيبور** بمعنى المبجل ــ النبيل ــ الجدير بالتقديس ــ العظيم ــ اللامع على نحو ما يقولون فى العربية ــ **كبر وكبير** ، للاشارة الى المعانى نفسها التى تقصد اليها الكلمات السابقة ، وهو أمر جدير بالملاحظة كذلك بسبب التماثل فى نطق هذه وتلك من الكلمات (الأثيوبية والعربية) ، فكلمة **كبرو** الأثيوبية اذا هى وصف نميز به الطبل الذى يشار اليه على هذا النحو باعتباره الأكبر حجما والذى يعلق عليه القدر الأكبر من الأهمية٠ وهذه الآلة تربط وتعلق على غرار الصندوق التركى الكبير ، أمام من يقوم بالضرب عليها ، وهو يستخدم فى تحديد الايقاع فى الأناشيد الكنسية ، وفى تنظيم مسيرة الفرق العسكرية أثناء زحفها ٠

. وقد خلط الرحالة الذين نقل عنهم لابورد روايته فى كل ما يتصل بموسيقى الأحباش ، بين الكبرو وبين نوع آخر من الآلات الموسيقية يسمى **اتامو** ، ومع ذلك فان الفرق بين هذين الصنفين من الطبول ، اذا ما كنا نحن بدورنا قد استقينا معلومات صحيحة ، ينتمى الى ذلك النوع من الفروق التى يسهل تبينها ، وبامكان القارىء أن يحكم على ذلك بسهولة ٠

أما **القندا** فهى كذلك صنف من الطبول يكاد يصل قطرها الى

٤٨٧ مم ، ويبدو أن لها النسب والأبعاد نفسها التى للطبل الملكى فى غينيا والذى نجد رسـمـا له فى دراسـة لابورد عن الموسيقى ، المجلد الأول ، ص ٢١٩ .

ويستخدم الأثيوبيون كذلك آلة شبيهة بدف الباسك لدينا لتحديد حركة وايقاع رقصاتهم ، ويسمون هذه الآلة **أتامو** ، ولديهم منهـا صنوف ذات أطوال مختلفة شأن المصريين ، ومع ذلك فلا يبدو أن لآلات الأتامو هذه بعض ما يميزها فيما بينها ، بعضها عن البعض الآخر ، سـواء فى الخـامة التى تصنع منها أو فى عدد وشكل الأجزاء التى تشكلها فى مجموعها .

وفى بعض الأحيان يستخدم الأثيوبيون هذا الصنف من الآلات ، وفى أحيان أخرى يستخدمون غيرها مما ينتمى الى النوع نفسه ، أى كل ما يمكن جمعه من آلات الصخب بصفة عامة ، وذلك لاهاجة الأشخاص الذين لدغتهم الثعابين المسماة فى الأثيوبية **اباب** حتى يحولوا بينهم وبين النعـاس طالمـا كانوا تحت تأثير الدواء الذى وصف لهم(١٣) .

وقد بقى استعمال الجلاجل فى الحبشة منذ العصور السـحيقة حتى اليوم ، فهى البلـد الوحيـد الذى لا يزا. النـاس فيه يحتفظون بهذه الآلة الموسيقية القديمة ، التى اشتهرت بأنها كانت تستخدم ، على الدوام ، قديما ، بواسـطة الكهنة المصريين عند احتفالهم بأسر[illegible]ـة ، ولأنها كانت واحدة من متعلقات إلهتهم بالغة التقديس ايزيس ، وعده الآلة التى يسعى القسس الأحباش الى ارنانها على الدوام طيلة طقوس العبادات ، تسمى فى الأثيوبية **دسنادسل** ، وهى ليست مستديرة ، ولا هى حتى مقفلة من أعلى ، على نحو ما كانت عليه الجلاجل قديما ، وهى مصنوعة من شريحة من الحديد أو النحاس أو الفضة أو حتى من الذهب ، كوعت بحيث يمتد طرفاها بشكل

متواز ، وبحيث يشكل المنحنى الذى ترسمه نصف بيضاوى ، وهناك عارضتان من المعدن كذلك فى كل واحدة منهما حلقة مليئة بالثقوب ، تقسم امتداد كل واحد من جوانب المنحنى أو الكوع : الأولى عند الثلث الأول من هذا الامتداد ، والثانية عند الثلث الثانى ، وعند قمة الانحناء يوجد عنق أو قبضة خشبية قد يصل طولها الى ١٨٩ مم ٠

ويستخدم القسس الأحباش هذه الجلاجل على نحو قريب مما كان يفعله الكهان فى مصر القديمة ، للتعبير عن حميتهم الدينية عند انشاد التراتيل وأداء الرقصات التى كانت تصاحب غالبية طقوس العبادة ، وهذه واقعة أخرى تؤكد ما أخبرنا به لابورد حول موضـــوع المزهر أو الجلجل حين يقول : « وهم يستخدمون الجلاجل فى الايقاعات العنيفة عند انشادهم المزامير ، فيمسك كل قس جلجــلا يحركه بطريقة منـذرة متوعـدة ، يلوح به فى وجـه جاره ، وهـم يرقصون ويتقافزون ويلفون فى شكل حلقة ، وبأسلوب يقترب من البذاءة والفحش حتى ليبدو الواحـــد منهم أشبه بكاهن وثنى عنه بمسيحى » ٠ وهذا حكم بالغ الجور بعض الشىء ، ولكن أيستطيع أمرؤ أن يكون على الدوام عادلا تجاه الشعوب الأخرى ، عندما يحكم عليها بموجب تقاليد تختلف عن تقاليدها ؟

ومـــع ذلك ، فسيان أكان يداخـل الأحباش ظن فى امكان أن يبـدو برقصاتهم شىء من مجون أو عدم احتشام ما داموا هم يظنون ، عكس ذلك ، أنهم سيرتكبون جرما بالغا لو أنهم قد أدوا هذه الرقصات خالية من هـــذه الحركات التى تعاب عليهم ، ذلك أن هذا التمثيل الصامت ، طبقـا لما قالوه هم بأنفسهم ، ينظر اليه عندهم باعتباره أشـــد ضروب التعبير حيوية عن ورعهم وحماستهم فى الاحتفـال بشكل يليق بمجد الـكائن الأسمى(١٤) ، وكذلك فى التعبير له عن عرفانهم باعتباره منبع الحيـاة ومبدأ الحركة والذى

يبث الحياة فى كل الكائنات . أما عن تلك الحركة التى بدت منذرة متوعدة فانهم يرون أنهم لا يريدون بها أقل من هذا الذى يفهم منها ، ولقد لاحظنا ، فى مرات كثيرة ، وجود بعض شىء شبيه بهذا فى نقوش المبانى الأثرية فى مصر والتى حفرناها (رسمناها) فى هذا المؤلف ، ففى كل مرة نرى فيها (فى هذه النقوش) أشخاصا يبدو ن حركتهم أنهم يهزون المزاهر أو الجلاجل ويلوحون بها فى وجه شخص آخر ، كما لو كانوا يقدمونها لهذا الآخر كى يقبلها ، فلابد أن هذه الحركة ، اذا لم تكن استنتاجاتنا خاطئة ، كانت تتم ، بصفة أساسية ، فى المناسبات الاحتفالية الكبرى ذات الشكل الدينى ، كما هو الحال فى حفلات التكريس وعقود الزواج ، وفى ابرام كل العهود التى يقطع بها المتعاهدون فى حضرة الآلهة ، ولن تعوزنا البتة الشهادات التى من شأنها أن تؤكد أو حتى تطابق هذا الرأى ، لو أننا شئنا أن نورد هنا كل ما جمعناه حول هذه النقطة عند المؤلفين القدامى ، ولا سيما الشعراء الاغريق واللاتين منهم ، ومهما بدت لنا هذه العادات والممارسات أمورا تبعث على الضحك فى البداية لمن هم غريبون عنها ، فانها لن تكون لديهم أنفسهم أقل مدعاة للاحترام عن ممارسات أخرى كثيرة (يعتادونها هم) ، لو أنهم عرفوا أو أدركوا المبدأ الذى تأسست عليه .

ومع أن مسيحيى الحبشة يتبعون المذهب الانشقاقى نفسه (كذا) الذى يتبعه أقباط مصر ، فان الممارسات الدينية عند الفريقين ليست - عكس ما كان ينبغى - هى نفسها هنا وهناك . ذلك أنهم ، من هذه الزاوية ، يقدمون فيما بينهم تناقضات تبعث على عظيم الدهشة ، فالأحباش يكونون على الدوام فى حركة هياج يمتلىء صخبا وضجيجا أثناء أدائهم لطقوس عباداتهم ، فى حين يظل الأقباط على العكس من ذلك ساكنين ، واقفين الساعات الطوال متكئين على عصيهم الطويلة التى يسمونها العكاز ، أما

ترتيلاتهم الدينية فنادرا ما يقطعها صليل احدى الجرسيات ليست هى الجلاجل كما أنها ليست الطبول أو الدفوف على الاطلاق ·

ولعل الآلتين الموسيقيتين اللتين يشترك فيهما اقباط الحبشة وأقباط مصر هما **التقا** و **القاكل** ، والأولى مسطرة كبيرة من الخشب أو الحديد أو النحاس تستخدم فى الكنائس حيث لا يكون مسموحا باستخدام الأجراس ، وتشبه هذه الآلة الموسيقية من ناحية الشكل تلك التى يسميها أقباط مصر **بالناقوس**(١٥) ، ويضرب على التقا بالمنل بواسطة بيزر صغير من الخشب ، ويسمى الشخص الذى يقوم بالضرب عليها **متقا** ، ويترجم كاستل فى معجمه ذى اللغات السبع كلمة متقا بكلمتى Tuba (أنبوب) و buccina (بوقان ، بوق) ، ومع ذلك ، ومهما يكن الاحترام الذى يحظى به رأى هذا العالم ، فيبدو أنه هنا مثير للشكوك ، طبقا للطريقة التى استقبل بها القسس الأحباش هذا الرأى ، ذلك أن من غير المحتمل أن نفترض أن هؤلاء يخطئون فى معرفة اسم آلة خاصة ببلادهم ، بل فى الممارسة التى قاموا بها ، هم أنفسهم مرات عديدة(١٦) ·

أما **القاكل** فليست شيئا آخر سوى مزهر تتدلى منه أجراس صغيرة ، ويبدو أن الأحباش ينسبون اليها الفضائل نفسها التى كان المصريون الأقدمون ينسبونها الى مزهرهم ، وهم يستخدمونها على وجه الخصوص فى القداس وحفلات التعميد ، وأثناء رفع الاله وفى مناسبات أخرى عديدة ·

وأما النوع الأخير من الآلات ذات الصليل التى يتبقى علينا أن نتحدث عنها فهى الأجراس · ويسمى الجرس فى الأثيوبية **دوله** ، ولا يسمح للمسيحيين الأحباش باستخدام هذه الآلة فى كنائسهم الا عندما تكون ديانتهم هى نفسها ديانة حكومتهم ، أما حين تختلف الديانتان فانهم لا يستطيعون استخدام الا آلة التقا ، كما استرعينا الانتباه من قبل ·

وتوجد في الحبشة ، كما هو الحال في أوربا ، أجراس متنوعة الأحجام ومتباينة الرنين ، وهم يستخدمونها كذلك في النداء على المؤمنين للعبادة وكذلك للاعلان عن المواقيت . ومع ذلك فهذه الأجراس ليست معلقة كأجراسنا ، ولا يستطاع دفعها لارنانها عن طريق أرجحة مماثلة ، حيث يستطيع متعهد الجرس عندنا ، عن طريق مرات متعاقبة من جذب وارخاء الحبل المعقود الى قمة هذا الهيكل أو السقالة المسماة **الخروف** والتى انحصرت فى داخلها مقابض الجرس ، أن يحدث أرجحات لهذه الآلة ، تجعلها تصطدم على التوالى ، من حافة لأخرى بالمقرعة ، فالجرس عندنا هو الذى نؤرجح ، أما المقرعة فهى التى تبقى ثابتة ، وعكس ذلك ما يحدث فى الحبشة ، فالمقرعة هى التى تتحرك والجرس هو الذى يبقى ثابتا متوازنا ، اذ يعمل متعهد الجرس على شد هذه المقرعة بواسطة حبل ينتهى اليها ، مما يؤدى الى ارتطام المقرعة بهذه ثم بتلك من حواف الجرس على التعاقب ، وبهذه الطريقة يتم ارنانه سواء عند النداء على مؤمنى الكنيسة أو لاعلان المواقيت المختلفة فى اليوم ، ولكى يتم تقدير الوقت ، يقوم متعهد الجرس بقياس طول الظل الذى يلقى به جسم ثابت بقدمه ، وطبقا لمدى امتداده يتعرف الرجل على الوقت .

ولولا أن الرهافة المتزايدة للغتنا قد تتسبب فى نوع من التحريف المهين ، يلحق باسم الأشياء التى تستخدم بشكل شائع أو شعبى ، لكنا قد سعينا ، على غرار بعض المؤلفين ، الى ضم السوط الى الآلات الصاخبة . ووضعنا هذه الآلة عند الأثيوبيين والفائدة التى تعود من وراء استخدامها ، وقدم أصلها(١٧) ، وما ورد بشأنها عند أفضل الشعراء فى أشعارهم(١٨) بالغة النضج والاكتمال ، سامية الأسلوب ، ولتوسعنا فى ذلك بالقدر الذى يكفينا — كنا بالقطع سنفعل هذا كله لولا أننا نكتب دراستنا بالفرنسية .

ومع ذلك ، فبدون أن نلزم الصمت المطبق ازاء هذه الآلة ، وبدون أن

نتوقف عندها كذلك ، فســـوف نكتفى فقط بأن نقول انهم يسمونها فى الأثيوبية **دجيراف** ، ثم نعد ذلك خاتمة لكل ما يتصـل بالآلات الموسيقية فى أثيوبيا ٠

الهـــوامش :

(١) ينبغى أن تلفظ طبقـا لرأى لودولف فى قاموســـه : قاتكل ، (والترجمة هنا بتصرف) ٠ انظر :
قواعد اللغة الأمهرية ، ص ٤ ، وكذلك :
المعجم الأمهرى اللاتينى ، المجموعة ٣٧ ٠
[حاشية من وضع المسيو سلفستر دى ساسى]

(٢) جعل الأثيوبيون الذين قاموا بترجمة التوراة الى لغتهم من كلمـة مسانقو مقابلا لكلمة كيتارا ، على نحو ما نجد الأخـيرة مستخدمة فى كتاب المزامير عند الأحباش ، والذى تم نسخه نقلا عن التـوراة الأثيوبيـة ، وقد ترجمت هذه التوراة ، كما قيل لنا ، فى البداية عن النص العربى للكتاب المقدس ، ومع ذلك ، فحين تبين لقس أثيوبى ، درس فى روما ، أن هـذه الترجمة غير دقيقة ، فقد قام هو بترجمة أخرى للتوراة عن نصها اللاتينى ، وطبقا لهذه الترجمة الأخيرة ، جاءت كلمة مسانقو مقابلة لكلمة كيتارا ٠

[ثم يورد المؤلف نصوصا من المزامير باللغة الأثيوبية ويضع تحتهـا النصوص المقابلة فى اللغة اللاتينية وفيها جميعا تأتى كلمـة مسانقو مقابلة لكلمـة كيتارا مثال ذلك : المزمور ، الثـانى والثلاثون ، الآية ٢ ، الثـانى والأربعون ، الآية ٥ ، السادس والخمسون ، الآية ٩ ، السبعون ، الآية ٢٢ ، الثمانون ، الآية ٢ ، الحادى والتسعون ، الآية ٣ ، السابع والتسعون ، الآية ٧ ، السابع بعد المـائة ، الآية ٢ ، السادس والأربعون بعد المائة ، الآية ٧ ، الخمسون بعد المـائة ، الآية ٣ ٠

ثم يسوق المؤلف ملاحظة فحواها أن حرف الـ S فى الهجاء اللاتينى للكلمات المقابلة للكلمات الأثيوبية ينبغى أن تلفظ خشنة (ص) أما حرف الـ b فلابد أن نتكىء عليه عند النطق بعض الشىء ، حتى يصبح فى لفظه قريبا من حرف V] ٠

تعقيب :

بالرجوع الى النص العربى للكتاب المقدس تبين وجـــود اختلافات فى أرقام المزامير والآيات وتم تصـــويبها طبقا للنسخة العربيـة ، كذلك نورد نصوص الآيات التى استشهد بها المؤلف بالترتيب ، على النحو التالى :
٣٢ آية ٢ « احمدوا الرب بالعود ، بربابة ذات عشر أوتار ورنموا له »
٤٣ آية ٤ : « فآتى الى مذبح الله الى الله بهجة فرحى وأحمدك بالعـود

يا ألله الهى »
٥٧ آية ٨ : « استيقظى يا رباب ويا عود أنا أستيقظ سحرا »
٧٠ آية ٢٢ : فأنا أيضا أحمدك برباب حقك يا الهى ، أرنم لك بالعود »
٨١ آية ٢ : « ارفعوا نغمة وهاتوا دفا و عودا حلوا مع رباب »
٩٢ آية ٣ : « على ذات أوتار وعلى الرباب وعلى عزف العود »
٩٨ آية ٥ : « رنموا للرب بعود ، بعود وصوت نشيد »
١٠٨ آية ٢ : « استيقظى أيتها الرباب والعود وأنا أستيقظ سحرا »
١٤٧ آية ٧ : « أجيبوا الرب بحمد ، رنموا لالهنا بعود » .
١٥٠ آية ٣ : « سبحوه بصوت الصور سبحوه بصنوج الهتاف »

وهكذا نجد هذه الكلمة : مسانقو تقابل فى النص العربى للتوراة العود كما تقابل كلمة كبرو فى الآية ٢ مزمور ٨١ كلمة دف العزبية حسب النص العربى للتوراة — المترجم .

(٣) نلفظ ونكتب هذا الاسم على النحو الذى سمعناه يلفظ ورأيناه يكتب به على يد القسس الأحباش [أى أمرا Amara] بدلا من أمهرا Amhara وحتى يومنا هذا ظلت هذه الكلمة ، فى اللغات الأوربية تكتب Amhare أو Amharic

(٤) كلمة بج (بفتح الباء أو كسرها مع تسكين الجيم فى الحالتين) توجد بهذا المعنى نفسه فى المعجم الأمهرى اللاتينى الذى وضعه لودولف Ludolf ، باعتبارها مقابلة للكلمة الأثيوبية مسانقو ، واعتقد أنها الكلمة نفسها التى كتبها مؤلف هذه الدراسة بجنا ، اذ أن المقطع الصوتى نا هو أداة تلحق بآخر الكلمات (حاشية من وضع المسيو سلفستر دى ساسى) .

(٥) كتبنا هذه الكلمة massaneqo بحرفى S مع أن حرف الـ S غير مضاعف فى الأثيوبية ، وذلك خشية أن يلفظها القارىء مثل حرف الزاى . [اذا جاءت الـ S بين حرفين متحركين فى الفرنسية تلفظ Z] .

(٦) يقول لابورد : « صنعت القيثارة الأولى عند الأحباش من قرون عنزة تسمى **أجزن** ، تعيش فى أفريقيا » ثم يضيف :
« ويمكننا أن نرى شكل هذا الحيوان فى التاريخ الطبيعى من تأليف بوفون Buffon » ، وبعد ذلك أخذ الناس يستخدمون فى صنعها نوعا من الخشب ينمو فى هذا البلد ، ويبلغ طول القيثارات المصنوعة من هذا الخشب ما بين ثلاثة أقدام وثلاثة أقدام ونصف القدم » .

(٧) من الطريقة التى استخدمها مترجمو التوراة الأثيوبية فى ترجمة هذه الكلمه [انزيرا] فى المزمور ١٣٦ [فى التوراة العربية المزمور ١٣٥ الآية ٢ والكلمة العربية المقابلة هنا أيضا هى العود — المترجم] .
فاننا مدفعون الى الاعتقاد انهم لم يتبعوا قط التوراة اللاتينية ، كما

زعموا لنا ، وانما هم قد ترجموها عن النص العبرى ، ذلك أننـــا نرى من ترجمتهم للآية الثانية من هذا المزمور [مقـــابلة بين النص الأثيوبى والنص اللاتينى] ان كلمة ايزيراتينا تقابل على نحو دقيق ، فى النص العبرى ، كلمة كنوروتينو أى (قيثارنا) ، وليس كلمة أورجانا نوسترا Organa nostra التى نقرؤها فى التوراة اللاتينية ، والتى تعنى كل أنواع الالات الموسـيقية بشكل عام ، وهكذا فان كلمة **أنزرا** فى صيغة المذكر وكلمة **أنزرت** فى صيغة المؤنث تعنى **أنه أو أنها عزف أو عزفت على هذه القيثارة** .

(٨) **يحدثنا لابورد أو الرحالة الذين نقل — هو — عنهم ، عن نوع من** النايات من هذا الصنف ملحق بقربة ، ويتلقى عن طريقها النفخة التى تصنع نغمته ، **يطلق عليه اسم نيبيلة** ، **ثم يضيف** « **بأن هـــذه** الآلة من الآلات الموسيقية الأثيوبية انما هى صنف من الناى ذى المنقار ملحق بقربة يتزود منها بالنفخات » **ثم يقول** : « وهكذا نرى أن هذه الآلة تشبه كثيرا مزمار القربة الذى **نطلق عليه** عندنا اسم **موزيت** Musette وكلمـــة نبل فى العبرية تعنى قربة أو جرة » . وحيث أن لابورد قد قرر ما قاله بشأن النبل بينما هو يتحدث عن آلات ليست حبشية قط ، فقد فاتنا أن نرجع بشـأن روايته هذه الى قسس هذه البلاد ، وكنا عندما نلتمس المشورة منهم ، لانحصل على أية معلومات بهذا الخصوص ، ومع ذلك فلعل الآلات نفسها التى رأيناها فى مصر ، وتحمل اسم **زقرة** ، تكون قد عرفت تحت اسم نيبيل **Nibilé** وهى كلمة تتماثل تماما مع الكلمة العبرية Nebel والكلمة الفرنسية Nable

(٩) فى المعجم الأمهرى — اللاتينى الذى وضعه لودولف ، ص ٦٤ نجد كلمة **أجدا** بمعنى Arundo و Calamus والعظمة التى يسمونها Tibia — حاشية من وضع المسيو سلفستر دى ساسى .

(١٠) هذه فى الواقع هى الكلمـــة التى جعل منهـــا مترجمو التوراة الأثيوبية مقابلة للكلمة العبرية **شوفار** التى تعنى البوق أو النفير ، وهـــذه الكلمة التى نقدمها بحروفها اللاتينية Keren طبقا للطريقة التى نطقها بهـــا أمامنا القسس الأحباش ، نجدها فى المزامير ٤٦ الآية ٦ ، ٨٠ الآية ٣ ، ٩٧ الآية ٦ [وفى التوراة العربية المزامير ٤٧ الآية ٥ ، ٨١ الآية ٣ ، ٩٨ الآية ٦ ، أما المقابل العربى فقد جاء بالترتيب التـــالى حسب المزامير والآيات : بصوت الصور ، البوق ، بالأبواق وصـــوت الصـــور — المترجم] — لكننا (والكلام يعود للمؤلف) فى الآية الأخيرة نجد الكلمتين الأثيوبيتين **بخنانز وتزيروت** واللتين تعنيان : بواســـطة الأبواق الحربيـــة فى حين أن الـكلمة الأثيوبية قرنه هى التى تقابل الكلمة العبرية شوفار التى قوبلت فى الترجمة اللاتينية بكلمة Cornu (قرن) ، ألا يبدو مرجحا بقدر كاف أن تكون كلمة قرنة الحبشية ، عندما أطلقت على آلات النفـــير أو الأبواق الأولى التى كانت تصنع من القرون ، قد غدت بالتالى الاسم النوعى أو العام الذى يطلق على كافة الآلات الموسيقية من هـــذا النوع ، على الرغم من أن آلات النفير المعدنية ، التى ابتكرت بعد ذلك ، اتخذت لنفسها ، فى الوقت ذاته ، اسما

خاصا بها ، فاذا ما تقبلنا هذا الافتراض ، فسوف تتبدد كل الشكوك وتتضح في الوقت نفسه لماذا ظلوا يطلقون حتى الآن على البوق الأثيوبي اسم قرنة أى القرن ·

(١١) يكتب لابورد هذه الكلمة نوجاريت Nogareet مما يجعلنا نستخلص أنه قد نقل عن رواية أحد الرحالة الانجليز ، ذلك أنهم لايكتبون هذه الكلمة فى الانجليزية الا على هذا النحو لتعادل لفظنا نحن اياها Nogarit وهى الطريقة التى يلفظها بها القسس الأحباش ·

(١٢) من الفعل العربى نقر جاء الاسم نقارية الدال على آلة ايقاع صاخبة والذى يشير الى الطبول الضخام الشبيهة بالنوجاريت عند الأثيوبيين · ألا تدل هذه العلاقة القائمة بين الكلمات العربية والأثيوبية التى تطلق على هذا النوع من الآلات لتشير الى الأشياء نفسها على قيام صلات قربى حميمة بين هذه العبارات ؟

(١٣) وينحصر هذا الدواء فى البول البشرى الذى يأمرون المرضى بتجرعه · كذلك يعرف الأحباش خاصية بول البقر فى علاج الاستسقاء ، كما يستخدمونه هنا فى علاج الحمى المسماة : ندد · فعندما تهاجم هذه الحمى أحد الأشخاص فانه يبدأ فى عب الماء بشكل مفرط لتهدئة العطش الحارق الذى يحس به ، فاذا لم يتم اللجوء على وجه السرعة الى بول البقر يكون هذا الشخص فى حكم المعرض للاصابة بمرض الاستسقاء ، ويتم خلط هذا البول بقليل من الزبد ، ويسخن الخليط معا ، ويعطى للمريض الذى يجد نفسه معافى بعد بضعة أيام ·

والندد حمى ملتهبة ، تهاجم الناس على الدوام فى المناطق الواطئة المليئة بالمستنقعات ، ولا سيما بعد أن تغرقها الأمطار الكبرى ، ذلك أن المياه التى تتسرب الى باطن الأرض ، تؤدى ، عندما تجففها الشمس ، الى حدوث عفن وتحلل يتصاعد منه أبخرة فاسدة ونتنة ، تحمل الأمراض القاتلة · ولكى يتقى الأثيوبيون خطر هذه الأمراض يدهنون أجسادهم عادة بالزبد أمام النار ·

ولابد أن يكون الأثيوبيون قد عرفوا مثلنا مسحوق أو تراب البارود ، وخاصيته فى تنقية الهواء ، ما داموا يعملون على احراق بعض منه فى الأماكن التى يسكنها أناس هاجمتهم الحمى المعدية التى يسمونها قرا ، وذلك وقاية لمن يأتون لزيارتهم أو حمل العون اليهم ·

وهناك أمراض أخرى مثل الجدرى المسمى بالأثيوبية كوفينى ، والحصبة المعروفة هناك باسم انكليس ، كذلك المتت أى لفحة الريح ، وهو ما يحدث عندما يتعرى شخص يتصبب عرقا ، بغتة وبدون أى تحوط ، عند هبوب الريح ، ويعتقد الأثيوبيون انهم يكونون أقل عرضة للفحة الرياح اذا دهنوا أجسادهم ، كذلك فانهم يواظبون على هذا السلوك حتى انهم يؤدونه كل يوم اذا ما أمكنهم ذلك ، وفى الوقت نفسه فلا يفوتهم قط القيام به كلما شرعوا فى السفر ، وفى هذه الحالة تتخذ بعض الاحتياطات الوقائية التى لايهملونها

مطلقا ، فعلى سبيل المثال فان سكان مدينة آكسوم ، فى الحبشة ، وقبل أن يبدأوا السفر يطلبون الى الطبيب أن يحدث لهم قطعا أو حزا على هيئة صليب بالقرب من الكتف ، حتى يستطيع مواطنوهم أن يتعرفوا عليهم عندما يلفونهم فى الطريق ، فيقدموا لهم العون اذا كانوا فى حاجة اليه · ويتم هذا الحز أو القطع بسكين حادة للغاية ، ولكى يظل أثرها باقيا فانهم يحشونه بمسحوق البارود ·

(١٤) تأسست هذه الرقصات ، التى ظلت قائمة فى هذا البلد ، فى طقوس العبادات الدينية ، منذ زمان لا تعيه الذاكرة وحتى اليوم ، على هذا المبدأ القديم الذى خلده لنا بلوتارك (بلوتارخى) والذى يقول بأن الأشياء لابد أن تظل فى حالة حركة دائبة حتى لا تكون عرضة للتلف ، وأن الناس عن طريق هذه الحركة التى لا تنقطع يتقون شرور طيفون ·

انظر بلوتارك ــ قصة ايزيس وأوزيريس ــ ترجمة أميو ص ٣٣١ ·

(١٥) انظر فيما بعد ــ المبحث الخاص ــ بالآلات الموسيقية عند أقباط مصر ·

(١٦) فى الأثيوبية الفصحى تأخذ كلمة **منقا** بالتأكيد المعنى نفسه الذى يعطيه لها لودولف وكاستل ــ حاشية من وضع المسيو سلفستر دى ساسى·

(١٧) كانت السياط تستخدم ، شأن الآلات الصاخبة الأخرى ، فى أعياد باخوس وكيبيلى ، طبقا لما يخبرنا به فوسيوس Vossius ، وكانوا يشكلون من صخب هذه الآلة نوعا من الهارمونى ·

ويخبرنا البعض كذلك أن التتار الذين فتحوا الصين ، كانوا يستخدمون السياط بدلا من الأبواق وانهم كانوا ، بضربة سوط واحدة ، يحدثون ثلاث نغمات تسمع الواحدة منهن بعد الأخرى ·

(١٨) مثال ذلك ما يقوله عنها فرجيل فى الكتاب الثالث من زراعيانه ، البيت ١٠٣ وما بعده : « **ألا تراهم وهم يتسابقون الى النزال فى الساحة ، ويندفعون فى سباق العربات ، ألا ترى آمال الشباب وهى تفور ، وقلوبهم وهى تتقافز وتدق من الخوف ، انهم يقفون بالسوط المستدير ، ويضربون بالسير الجلدى وهم منحنون للأمام ، فتطير العربة فتوة وحمية** » ·

ثم يعود المؤلف نفسه فيتحدث عن السياط فى الكتاب الخامس من الاينيدة (الانيادة) ، البيت ١٤٤ وما بعده :

« **وحتى فى سباق العربات ذات الجوادين لم تكن العربات تنطلق بمثل تلك السرعة المذهلة عندما كانت فى طريقها الى المضمار بعد أن تنطلق من معاقلها ، كذلك لم يكن سائقو العربات يهزون الأعنة بمثل هذا العنف وهم فوق خيولهم المتدافعة ، وعندما ينحنون للأمام كى يضربونها بالسياط** » ·

وفى بعض الأحيان كذلك كان الناس ، فى زمن الأقدمين يستخدمون السوط كشارة قيادة ، طبقا لما تخبرنا به هذه الأبيات من الانيادة ، الكتاب

الخامس ، البيت ٥٧٧ وما بعده (٣ أبيات) :

« **وبعد ان ركبوا خيولهم في خيـــلاء وسط الجمهور كله وأمام أعين ذويهم وبينما هم مستعدون أعطى ابيتيديس اشارة البدء من بعيد لهم بصيحة وفرقعة من سوطه** » ·

المبحث الثالث

حول الآلات الموسيقية ذات الصليل
التى يستخدمها أقباط مصر

ويبلغ عدد الآلات ذات الصليل ، التى يستخدمها أقباط مصر فى كنائسهم أربع آلات هى: **الكاسات** ومفردها **كاس** ، **الجلاجل** ومفردها **جلجل** و **المراوح** ، و **الناقوس** .

وليس لكاسات الأقباط ميزة خاصة تميزها ، فهى الصنوج القديمة نفسها ، وتتخذ الشكل نفسه وتصنع من نفس المعدن الذى تصنع منه ، وتتشكل ، صنوج المصريين المحدثين ، وان تكن هذه الآلات غير مستخدمة الا من قبل الأقباط الكاثوليك الأروام ، أما المنشقون (كذا) فيستبدلون بها الناقوس .

وتصنع الجلاجل من النحاس ، وتتخذ شكلا نصف بيضاوى ، ويبلغ قطرها ١٣٥ مم ، وتعلق الجلاجل فى داخل الكنيسة ، ويستخدمها الأقباط بالطريقة نفسها التى يستخدمها بها الأحباش .

أما المراوح(١) فعبارة عن قرص من الفضة ، وفى بعض الأحيان من الفضة المذهبة ، تعلق حولها الجلاجل ، على مسافة ٥٤ ملليمترا من حافتها ، وقد يصل قطر هذا القرص الى ٣٥٠ ملليمترا ، ولا يزيد سمكه ، فيما يبدو ، عن أربعة ملليمترات ، ويوجد أسفل القرص ساق جوفاء من المعدن نفسه ، تدخل فيها عصا خشبية يكسوها فى بعض الأحيان صفيحة فضية ، وقلما يزيد طول هذه العصا عن المترين و ٢٧٤ مم .

وتستخدم المراوح بين المسيحيين الأقباط والسريان والأرمن ، سواء

انكاثوليك الأروام من هؤلاء أو المنشقين النساطرة .

ويسمى ناقوس الأقباط النساطرة **الناقوس المفرد** أى غير المزدوج ،ويطلق عليه هذا الاسم تمييزاً له عن آلة أخرى يسمونها **الناقوس المزدوج** . ويصنع الناقوس المفرد من خشب الجوز(٢) ، ولا يزيد ارتفاعه عن ٣٢٥ مم ، بعرض يصل الى ٤١ مم وسمك يقدر بتسعة ملليمترات ، ويمسك الناقوس باليد اليسرى من أحد طرفيه ، ويشد عليه بقوة بالابهام ، فى حين تضرب عليه اليد اليمنى بعصا طويلة ، يبلغ طولها ٢٤٤ مم ، وقد يصل قطر ثخانتها الى ١٤ مم ، وتنتهى هذه العصا برأس مستدير ، يبلغ قطره نحو ٤٧ مم ، وهو الطرف من العصا الذى يدق به على الناقوس(٣) .

وهذه الآلات الرنانة ذات الصليل لا تصاحب التراتيل الكنسية قط ويقتصر استخدامها على الاعلان عن الطقوس المختلفة التى لابد من القيام بها خلال حفلات القداس .

الهـــوامش :

(١) انظر اللوحة CC الشكل رقم ٣٣ .

(٢) **من خشب الجوز** ، على هذا النحو أشير الى هذا الخشب . ونحن من جانبنا لم نر الناقوس عن قرب يكفى لكى نتأكد مما ان كانت هذه النواقيس تصنع حقيقة من هذا النوع من الأخشاب ، على نحو ما قيل وكتب لنا ، ومع ذلك فهذا أمر تكتنفه الشكوك ، لأن هذا الخشب ، وهو من النوع المسامى ، كما أنه خيطى أو ليفى للغاية ليس جافا (صلبا) ولا متماسكا مسمطا بقدر يكفى أن تكون له المرونة اللازمة لاحـــداث الرنين ، ومن المرجح أن هنـــاك خطأ ما ، ولعلهم قد كتبوا لنا . **من خشب الجوز** فى حين كان المقصود هـــو **من خشب اللوز** . ولو كان لدينا وقت كاف لاتمام كافة بحوثنا فى مصر ، ولو أمكننا أن نمحص على راحتنا كافة المعلومات والأفكار التى حصلنا عليها ، لكنا بلا جدال قد أضفنا الكثير من الأمور التى لا تزال بالنسبة لنا فى طور النمى ، ومع ذلك فقد تحققنا مما بدا لنا فى حاجة لأن نتأكد ، وعلى الرحالة الذين سيذهبون الى هذا البلد من بعدنا ، أن ينوبوا عنا ، ليعوضونا عما لم نستطع القيام به .

(٣) انظر اللوحة GC ، الشكل رقم ٣٢ .

المبحث الرابع

عن الآلات الموسيقية الفارسية والتركية

فيما عدا الكمنجة الرومى ، وربما العود كذلك ، فان كل الآلات التى وردت فى اللوحة AA تكاد تكون هى الآلات نفسها ، جميعا ، التى يستخدمها الفرس والأتراك ، أو قل أنها لا تختلف هنا وهناك فيما بينها الا اختلافات طفيفة للغاية ، ويكاد هذا الاختلاف ينحصر فى نسب أطوالها ، ومع ذلك فان الائتلاف النغمى فى هذه الآلات ، كما فى تلك ، هو نفسه على الدوام ٠

وقد كان بمقدورنا أن نضيف الى هذه الآلات ، آلات أخرى كثيرة مما تستعمله هذه الشعوب ، لكننا لم نلق بالا هنا الا لتلك الآلات التى عرفناها فى مصر ، والتى كانت موضوع بحوثنا ، فى هذا البلد ٠ :

المبحث الخامس

حول الآلات الموسيقية عند السريان

بدت لنا كنائس السريان باعتبارها أصغر وأفقر الكنائس المسيحية في مصر جميعا ، وأقلها جمهورا ، فحيث لا يوجد سوى قس أو قسين على أكبر تقدير للقيام بالخدمات وادارة شئون هذه الكنائس ، وحيث تتقلص الحفلات والطقوس لأدنى حد ممكن ، فان صوت وضجة الآلات الموسيقية ، بالتالى ، لن يكونا ضروريين للاعلان عنها ، بل اننا لم نتمكن حتى من رؤية هؤلاء السريان وهم يستخدمون هذه الآلات ، فى المرات التى حضرنا فيها قداساتهم ، ومع ذلك فيؤكد لنا البعض ، أنهم يستخدمون فى بعض الأحيان ، المراوح والنواقيس المفرد ، على غرار ما يحدث فى كنائس الأقباط ٠

المبحث السادس

عن الآلات الموسيقية عند الارمن

عرفنا من قبل أن الأرمن كانوا يستخدمون فى بلادهم الات موسيقيه كثيرة العدد ، يشتركون فيها مع الفرس والأتراك ، بل لقد كان يوجد فى القاهرة ، عندما كنا هناك ، عواد أرمينى كان يصنع ، أو بالأحرى يرمم ، هذه الأنواع من الآلات الموسيقية ، ومع ذلك فاننا لم نعرف قط فى مصر آلة تنتسب بشكل خالص الى الأرمن ، فيما يبدو •

ويستخدم هــؤلاء فى كنيستهم الأسقفية فى القاهرة ، كمـا يفعل المسيحيون الشرقيون الآخرون ، المروحة ، ويعهد الى طفلين من الجوقة بمهمه ارنان هذه الآلة خــلال أداء الطقوس المختلفة الخاصـة بأسرار القداس ، ويمسك كل واحد منهما بمروحة واحدة فى يديه ، ويؤرجحهـا من وقت لآخر ، وهذه هى الآلة الموسيقية الوحيـدة التى شـاهدناها تستخدم فى كنائس الأرمن • وحيث اننا نحدس أن هؤلاء القــوم كانوا منغمسين فى الخرافات التى رأيناها تسود بين المسيحيين الشرقيين الآخرين ، فقد رجونا المطران أن يخبرنا بالغرض من تلك الضوضاء التى يحدثونها بهزهم لهذه المروحة فى بعض طقوس القداس ، فلم يتردد هذا الشيخ المبجل الطيب فى أن يخبرنا بلهجة تمتلىء يقينا بأن الغرض من ذلك هو ابعاد الروح الشريرة ، ومنعه من أن يأتى ليدنس بحضوره قداسة العبادة •

وانه لأمر جدير بالملاحظة فى مصر لحد كبير ، أن تكون الصلوات على

الدوام ، سواء فى معابد اليهود أو فى مساجد المسلمين ، بل كذلك فى كنائس المسيحيين (وان يكن علينا أن نستثني الأقباط من هؤلاء) ، مصحوبة بالضجيج أو بالحركة أو بهما معا ، فلقد تعرفنا فى كل مكان على ذلك الأثر العميق الذى حفرته فى خيال وعقل وروح شعوب هذه البلدان فكرة عبقرية الشر · عدوة الخير والنظام ، المتأهبة دوما لالحاق الضرر وايقاع الأذى ، والتى تتحين اللحظة التى يكون القوم فيها أكثر هدوءا وصمتا ، كى تمارس شرورها وأضرارها ، ولقد كانت هذه هى فكرة المصريين الأقدمين ، كما يخبرنا بذلك بلوتارك فى دراسته عن ايزيس وأوزيريس ، حيث عرض لنا عناصر مبدأ وفلسفة هؤلاء القوم · يقول بلوتارك (ترجمة أميو Amiot) : « لابد أن تتحرك الأشياء ، وألا تكف قط عن الحركة ، أن تظل كما لو كانت يقظة ، أن تهتز كما لو كانت تغالب النعاس أو أصابها الوهن ذلك أنهم (أى المصريين) يقولون انهم يضيقون النطاق على طيفون ، ويطاردونه بالمزهر ، فحيث أن الشر مقيد لحركة الطبيعة ، مجمد لها فان الحركة المتجددة تفك اسارها وتحطم قيدها وتوقظ حميتها وتحركها فتهاجم الشر الذى يدبر المكائد للذرية » ·

وبناء على مبدأ قريب من ذلك ، بلا ريب ، فانهم فى القداس الأخير من اليوم ، والذى نسميه نحن **صلاة النوم** يظلون يحضوننا على ألا نستسلم للنوم ، وأن نظل يقظين وألا نكف عن اتخاذ كافة احتياطاتنا ، حتى لا يداهمنا الشيطان الذى يمثلونه لنا **بأسد يزأر ، يحوم من حولنا ، حتى يقع على ضحيته (الغافلة) ويلتهمها** ، وعلى أساس مبدأ شبيه بذلك انبثقت تلك الحكمة الشعبية القائلة : « **لابد أن نجد ما ننشغل به حتى ننأى بالنفس عن الوقوع فى شرك الاغراء** » ·

ومن المؤكد أن كل هذه الأفكار تبدو لنا ، بالضرورة ، صبيانية

ومثيرة للضحك ، لنا نحن الذين لم نعتد قط على هـذه الأساليب الرمزية والمجازية ، والذين نتوقف أمام « الصـورة » التي يقدمها لنـا هـذا الأسلوب ، دون سعي من جانبنا لأن نتعمق ما وراءها من مغزى أخلاقي وفلسفي ، لكن الأمر لم يكن كذلك عنـد الأقدمين . أولئك الذين كانوا يغلفون الحقائق النافعة بالغة الأهميـة (حتى لا تبتذل) ، أما الشرقيون المحدثون ، الذين لم يعودوا يرون (من هذه المرموزات) سوى أشباح تثير فيهم الهلع . فقد انحدروا بفعل جهالتهم الى التطرف المقابل (لتطرفنا) والذي جرتنا اليه هفوات الفلسفة واعتسافاتها .

المبحث السابع
عن الآلات ذات الصليل
عند اليونانيين المحدثين (الأروام)

حيث لا يسمح العمانيون فى ولايات امبراطوريتهم باستخدام الأجراس لدعوة المؤمنين الى الكنائس ، فقد استعاض اليونان (الأروام) عن الجرس ، بآلة من نوع **الناقوس المفرد** الذى أشرنا اليه من قبل ، هى تلك التى يسمونها **الناقوس المجوز**(١) ، أى المزدوج . وقد يوحى هذا الاسم بفكرة خاطئة عن هذه الآلة ، فالناقوس المجوز ليس فقط أكبر بمقدار الضعف عن الناقوس المفرد ، بل انه أكبر حجما منه بمقدار ستة أضعاف ، ويبلغ طوله المتر و٩٤٩ مم وباتساع يصل الى ٤٨٧ مم ، كما يبلغ سمكه ٥٤ مم ، وهو مصنوع على هيئة الناقوس السابق ومن صنف الخشب نفسه ، وهم يعلقونه فى رحبات الكنائس بحبلين مصنوعين من معى الحيوان ، يمر كل منهما ، فى البداية ، بحلقة مدلاة من السقف ، ثم يمضى كل منهما لينعقد الى حلقة تمسك بحافة لوح خشبى وهى تلك التى تناظر الحلقة الأولى ، وتوجد أولى الحلقتين عند الثلث الأول من امتداد هذا اللوح . أما الأخرى فتقع موقعا وسطا بين الثلثين الثانى والثالث من امتداده ، ويعلق هذا اللوح الخشبى بعرضه بشكل رأسى ، ويدق عليه بما يشبه بيزرا له رأس مستدير ، مصنوع من العاج ، يماثل فى حجمه حجم كرة البلياردو ويبلغ سمك عنقه أو يده ، وهى اسطوانية الشكل ستة عشر ملليمترا . أما طوله فيصل الى ٣٧٩ مم .

---

(١) هذه الكلمة محرفة عن كلمة مزدوج : انظر اللوحة CC الشكل ٣٤ .

ويرى ناقوس من هذا النوع عند مدخل كنيسة سان جورج فى مصر العتيقة ، ويزعمون أن رنين دقاته يسمع على مسافة ربع الفرسخ ·

أما عن الآلات الموسيقية ، فيبدو أن اليونانيين المحدثين يجدون متعة حقه فى العزف عليهـــا ، وأنهم ينجحون فى ذلك على نحـــو طيب ، فقـــد استمعنا الى نفر منهم يعزفون على الـكمنجة الرومى أو الـكمان الأوسط اليونانى ، وقابلنا من بينهم فى أحيان كثيرة من يعزفون على واحدة من تلك الآلات التى أشرنا اليها باسم **الدفوف** ، لكننا لم نر من يعزفون عـلى آلات النفخ ، مما يجعلنا نستخلص اما أنهم لا يميلون الى هــذا النوع من الآلات الموسيقية بالقدر نفسه الذى يميلون به الى غيرها ، واما أن آلات النفخ أقل شيوعا فى يونان اليوم عن زميلاتها من الآلات الوترية ·

المبحث الثامن

حول الآلات الموسيقية
التى يستخدمها اليهود المحدثون

لم نر أو نسمع أية آله موسيقيه فى معابد يهود مصر ، ولسنا نعرف السبب الذى حدا بهذا الشعب أن يهجر هذا الفن الذى أسسه داود بروعة بالغة فى أرجاء معبد أورشليم ، والذى يظل الـكتاب المقدس يمتدحه فى كثير من مواضـــعه ، ولن يكون السبب البتة أنه لا يوجـد فى مصر بعض القادرين من اليهود على ارجاع هذه العادة الى فاعليتهــا الأولى ، فكثير من بينهم ، يعزفون بكفاءة لا بأس بها على الآلات الوترية وآلات النفخ ، كما أن النسوة اليهوديات ، بشكل عام، ماهرات للغاية فى النقر على دف الباسك وفى

العزف على هذه الجرسيات الصغيرة التى تعلق بالأصابع (الصاجات) ، ثم ابهن بارعات فى الرقص ، بل انهن يلتمسن ويسعى اليهن لتلقين وتعليم هذا الفن ، فهن اليوم ، على غرار ما كانت عليه نسوة وفتيات الاسرائيليين الأولْ ، قادرات على تكوين فرق للرقص حول تابوت العهد أو أثناء الأناشيد والتراتيل التى تؤدى فى مناسبات الشكر ، ومع ذلك فلا شىء من هذا كله يحدث اليوم ، ليس فقط بين يهود مصر ، وانما كذلك بين يهـود البلدان الأخرى ٠

وهناك ، بلا ريب ، بعض أسباب يمكن افتراضها تفسـيرا لذلك لكننا لم نسع للكشف عنها ، فلسوف يكون علينا أن ننجز أمورا كثيرة بل أكثر مما ينبغى ، لو أننـا شئنا أن نتقصى حول دوافع كل الممارسـات الشاذة والغريبة التى وجدناها متفرقة على أرض مصر ، فيما يتصل بفن الموسيقى ٠ وحتى لو أننا شئنا ، فلن نستطيع ، فى هذا المجال ، أن نكفى وحدنا ، بل أن مؤلفنا الذى توسع بالفعل من تلقـاء ذاته ، كان عليـه أن يتسع أكثر وأكثر حتى يستوعب جزءا كبيرا من تاريخ مصر الحديثة لو أننا أردنا أن نتبع خطة بمثل هذا القدر من الاتساع ٠

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

البـــاب الثانى
عن الآلات الهوائية أو آلات النفخ

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع **الصفحة**

البـاب الثالث
آلات الايقاع الصاخبة

البـاب الرابع
حول الآلات الموسيقية التى تستخدمها الأمم الأجنبية التى يتجمع عدد من أبنائها فى مصر

رقم الايداع

١٩٨٦/٤٦٦١

مطابع

ت ٩٣٢٧٠٦

كتب أخرى للمترجم

أولاً : فى مجال الأدب :

١- المطاردون (مجموعة قصص قصيرة) .

٢ - حكايات من عالم الحيوان .

٣ - المصيدة (مجموعة قصص قصيرة) .

٤ - موتى بلا قبور (مسرحية تأليف چان بول سارتر) .

٥ - السماء تمطر ماء جافا . .

(رواية تسجيلية تتناول وقائع الوحدة المصرية السورية وانفصالها) .

ثانيا : فى مجال التاريخ :

١ - تطور مصر من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٠ . تأليف مارسيل كولمب .

٢ - فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية . تأليف أندريه ريمون .

ثالثا : الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية .

١ - المصريون المحدثون .

٢ - العرب فى ريف مصر وصحراواتها .

٣ - دراسات عن المدن والأقاليم المصرية .

٤ - الزراعة ، الصناعات والحرف ، التجارة .

٥ - النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية .

٦ – الموازين والنقود .

٧ – الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين

٨ – الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين .

٩ – الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين .

١٠ – مدينة القاهرة – الخطوط العربية على عمائر القاهرة .

رابعاً : لوحات موسوعة وصف مصر :

١ – المجلد الأول والثانى للوحات الدولة الحديثة .

٢ – المجلد الأول من لوحات الدولة القديمة .

خامسا : من موسوعة وصف مصر :

(دراسات مختارة من الموسوعة فى كتيبات)

١ – كيف خرج اليهود من مصر القديمة .

٢ – مدينة الأسكندرية .

٣ – مدينة رشيد .

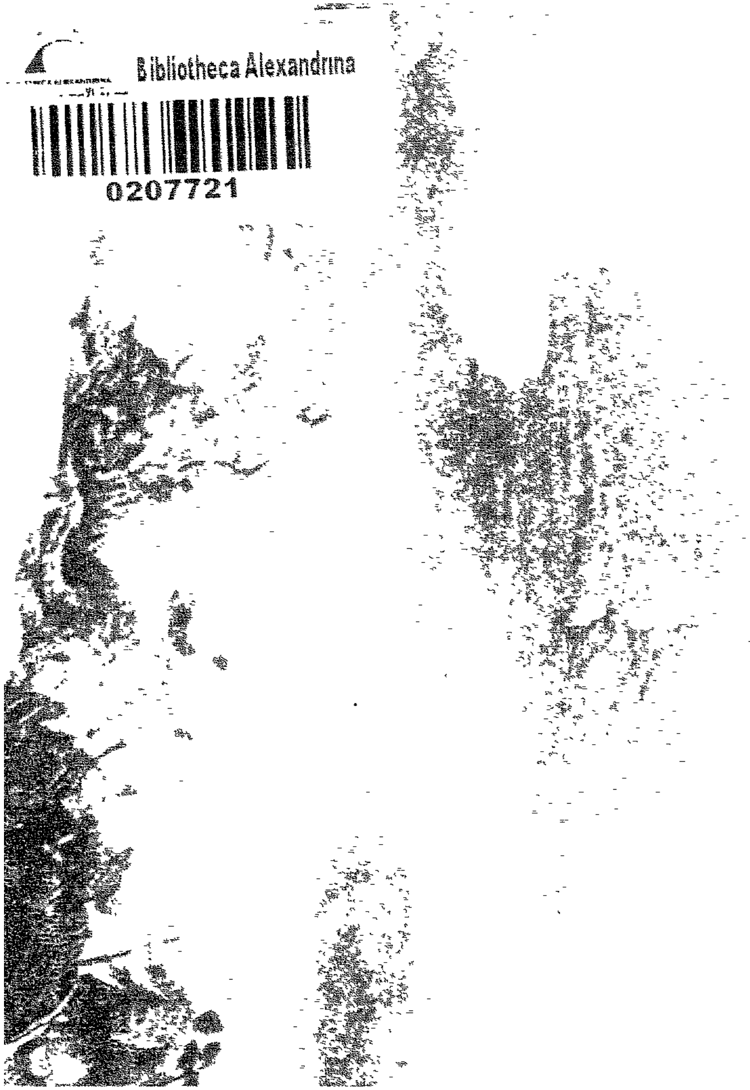
تحت الطبع

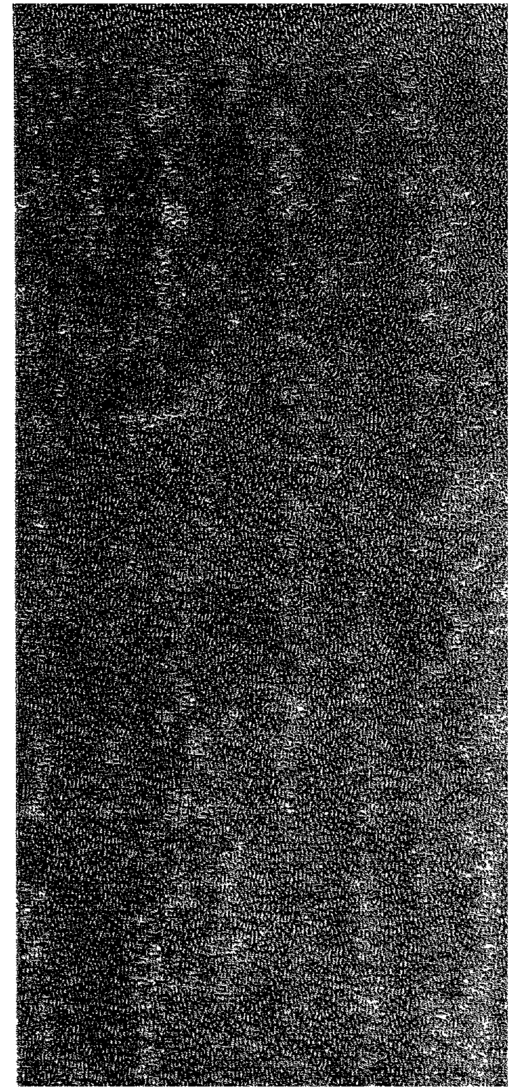
– مقياس الروضة .

– القاهرة المملوكية .

– بقية مجلدات لوحات موسوعة وصف مصر .

– بقية الدراسات المختارة من موسوعة وصف مصر .





وصف مصر

مدينة القاهرة

الخطوط العربية على عمائر القاهرة

سيرة أحمد بن طولون

تأليف
علماء الحملة
الفرنسية

ترجمة وتحقيق
زهير الشايب
منى زهير الشايب

دار الشايب للنشر
١٠ ش سليمان الحلبى - التوفيقية
ت : ٥٧٤١٣٧١ - ٥٧٢٦٨٣٠

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

وصف مدينة القاهرة

تأليف : جومار

العنوان الأصلى للدراسة :

« وصف لمدينة القاهرة وقلعتها ، مصحوب بشرح لخرائط هذه المدينة وضواحيها ، مع بيانات عن أقسامها الإدارية ، ومعالمها ، وسكانها ، والتجارة والصناعة فيها » .

إهـــداء

إلى أمّى التى ينحنى لها قلمى إجلالا وتقديرًا
لدورها البطولى الرائع .

ووعدا وعهدا علينا أن نهدى مصر . .
وصف مصر .

منى زهير الشايب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

هذا هو المجلد العاشر من الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر ، يخرج للنور بعد أن ظل مخطوطًا أكثر من عشر سنين .

فقد عاش والدى وكله أمل وإصرار على إتمام ترجمة هذه الموسوعة ، لكن قضاء الله كان أسبق ، فوافته المنية بعد صدور سبعة مجلدات ، ويُعَد هذا المجلد آخر ما خط زهير الشايب فى هذه الترجمة .

وحرىّ بنا – قبل أن نتحدث عن هذا المجلد – أن نتحدث بشىء من الإيجاز عن صاحب هذه الترجمة .

يقول الدكتور يسرى العزب : « فلا ضجيج الأعلام ولا صخب الصحافة ولا تهليل الأقزام قادرة أن تجعل من الأنصاف آحادًا صحيحة ، وبالمثل فإن سكوت هذا الصخب عن الآحاد الصحيحة لا تحيلها فى ذاكرة الزمن إلى أنصاف .. ولقد كان زهير الشايب واحدًا صحيحًا ، حقق ذلك بالفن وبالفن وحده ... » .

نعم لقد كان زهير الشايب واحدًا صحيحًا ، ترك على مدى حياته القصيرة بصمات واضحة فى سجل الأدب والترجمة ، فضلا عن الصحافة التى ما برح يعرض فيها خلاصة رؤاه ، ماثلة فى دراسات عديدة كتبها حول واقعنا وقضايانا السياسية والاجتماعية والأدبية .

إنه واحد من كُتَّاب القصة المصرية الواقعية الذين أرسوا دعائمها وثبَّتوا أركانها الفنية فى الستينيات ، ارتضاها شكلا فنيا منذ البداية ، وخط طريقه فيها ولم يتخذ سواها ، فكان نغمة أصيلة ثابتة .

وتمخض إنتاجه الأدبى عن ثلاث مجموعات قصصية : « المطاردون » ، « المصيدة » ، « حكايات من عالم الحيوان » ، وعن رواية « السماء تمطر ماءً جافًا » التى جاءت من أهم الأعمال الأدبية التسجيلية الوثائقية فى أدبنا الحديث ، والتى قيل عنها إنها الأولى من نوعها فى هذا المضمار من الخَلْق الروائى ، وإنها تفتح المجال لفن جديد من فنون الرواية ، وهى الرواية التحقيقية .

والحديث عن مؤلفاته من الناحية الفنية وعما لصاحبها من مواهب وإبداعات خلاقة ذلك أمر قد سبق لكثيرين تناوله ، لكنى هنا أجتهد وأقول إن ارتضاء زهير الشايب الواقعيةَ مذهبًا فنيًا لم يكن اختيارًا بقدر ما فرضه المحركُ الحقيقىُّ الكامن وراء كل إنتاجه الفكرى والذى أضحى قضيته المحورية وفكرته الثابتة التى دار حولها طيلة سنوات إبداعه ، ألا وهو تبنيه لقضية الإنسان البسيط الذى عركته القوى الظالمة المتسلطة فى المجتمع المغلف بالزيف والخداع . ذلك المطارد الذى لم يقترف إثمًا سوى طيب سريرته ، والذى ظلوا يطاردونه حتى أوقعوه فى مصيدة الغربة والضآلة والخوف والضياع ، وكأننا نسمع عن حكايات من عالم الحيوان .

يقول أديبنا الراحل : « إن الأعمال الإبداعية تكون موضع تساؤل بالنسبة لى . . يلح النقاد فى محاولة تتبع سلوك وفهم أخلاقيات بطل مطلق أو ثانوى فى رواية ما . . فهل ننشغل بذلك عن إنسان الحياة ؟ » .

إن زهير الشايب الذى امتلك ناصية التعبير بالفن ما كان ليحيد عن تلك القضية ، فهى ماثلة فى خلده متى توجه قلمه ودار فكره وتألق إبداعه . وأنَّى يحيد عنها وما فتئ تصيبه فتنتها ويتألم من ضراوتها ، فقد كان هدفًا مرشوقًا بسهام الحقد والحسد . ويكفى مثالاً أن الدولة يوم أن كرمته وسلمته جائزتها التشجيعية أبت مجلة أكتوبر التى كان يعمل فيها وقتئذ .. إلا أن تشارك فى هذا التكريم فأهدته قرار إقالته !!

ولم تكن الترجمة عند زهير الشايب إلا امتدادًا لميدان قضيته ، فبعد أن زاد عنها برصد الواقع ونقده ، أراد أن يزود عنها بإبراز صلابة وأصالة الماضى ؛ ليزيح ستار الزيف الدخيل ، ويلتقى مع الإنسان المصرى الأصيل فى سجيته الأولى وفطرته النقية .

تقول الأستاذة حُسْن شاه : « . . وهو كاتب قصة ملتزم بالناس والمجتمع الذى يعيش فيه وبمصر ؛ لذلك فكتابة القصة عنده لم تكن ترفًا إبداعيًا أبدًا إن جاز التعبير . أما الترجمة فهى النافذة التى يُعبّر من خلالها زهير الشايب عن التزامه أيضًا بمجتمعه » .

ويروى لنا الدكتور رؤوف عباس كيف نشأت علاقة زهير الشايب بالترجمة ، يقول : « كان أول لقاء بينى وبين الفقيد الغالى فى منتصف الستينيات ، عندما كان زهير يعمل أمينًا بدار المحفوظات بالقلعة ... واتسعت دائرة الباحثين الشبان الذين عرفوا الأمين زهير لتشمل : عبد الرحيم عبد الرحمن ، وعاصم الدسوقى ، ولطيفة سالم . وبدأ زهير يضيف دائرة جديدة إلى دوائر اهتمامه ، هى دائرة الدراسات التاريخية . فجالس المؤرخين وعرف طريقه إلى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، فانضم إلى عضويتها ، وقدمناه إلى المغفور له أحمد عزت عبد الكريم رئيس الجمعية وإلى أستاذنا أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فرحبا بالأديب الشاب وشجعاه على المساهمة بنصيب فى الدراسات التاريخية عن طريق ترجمة أحد المراجع الفرنسية الهامة .

وهكذا بدأ زهير الشايب اتصاله بالدراسات التاريخية بترجمة عمل مارسيل كولومب « تطور مصر » . . . ونجح مشروع الترجمة فى اجتذاب زهير الشايب إلى حقل الدراسات التاريخية ، فكان يقرأ بنهم بالغ مختلف المراجع التى تعالج أطرافًا من تاريخ مصر المعاصر ليستعين بما يكونه من خلفية تاريخية على ترجمة النص ترجمة أمينة إلى اللغة العربية .

وراق هذا العمل لفقيدنا الكريم فترجم مجموعة أبحاث هامة للمؤرخ الفرنسى المستشرق أندريه ريمون ، نشرها فى كتاب بعنوان « فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية » . وأصبحت عمليةُ الترجمةِ انغماسَ زهير فى قراءة مراجع تاريخ مصر العثمانى لينقل النص بأمانة إلى اللغة العربية ، وزاد اقترابه من الدراسات التاريخية ، وأصبحت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بيته الذى يأوى إليه كلما حن إلى تاريخ مصر .

ثم كانت فكرة ترجمة وصف مصر . . . فقد عقدت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مؤتمرًا دوليًا عن المؤرخ المصرى « الجبرتى » ، حضره عدد من المؤرخين الأجانب . . وتضمنت توصيات المؤتمر ترجمة « وصف مصر » ، وأسندت التوصية مهمة الترجمة إلى المجلس الأعلى للفنون والآداب . وإذا بزهير الشايب يتقدم إلى أستاذنا المرحوم أحمد عزت عبدالكريم يعرض عليه المساهمة فى هذا العمل ، فرحب به وبمبادرته .. لكن تعثر مشروع الترجمة فى دهاليز المجلس الأعلى . . . فصمم الفقيد أن يتولى وحده القيام بهذا العمل الضخم الذى يحتاج إلى جهد لجنة كاملة من المترجمين » .

ويكمل الأستاذ جميل عارف الحديث قائلا : وكان قد عكف قبل أن يقوم بمحاولته التى لم يسبقه فيها أحد لترجمة كتاب وصف مصر على قراءة عشرات الكتب والمراجع التاريخية التى نشرت عن هذه الحملة ، وتَجَمَّع لدى الأديب الشاب رصيدٌ ضخمٌ فى دراسات تاريخ الحملة الفرنسية . . . وأذكر أننى قلت له : إنك تفعل ما لم يجرؤ عليه أحد الأدباء من قبلك . . وابتسم الأديب الشاب ، ثم قال بهدوئه ، اطمئن ، فقد قرأت الكتاب أكثر من عشر مرات قبل أن أتخذ قرارى بترجمته من الفرنسية إلى اللغة العربية .

ويقول الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف : وكان يعرف اهتمامى بالمأثورات الشعبية وما عندى من إلمام بالتراث الشعبى فى الموسيقى والغناء ، وكان يرجع

إلىّ فى تحرى النص الشعبى لبعض المواويل والأغانى ، وكان يفرح جدًا إذا ما وقع على جملة أو أغنية فى تعبيرها الشعبى الأصيل .

وهكذا – والحديث للأستاذ عبد العال الحمامصى – قام زهير الشايب بفرط وطنيته وكفاءته ونزوعه الدائم إلى القيام بالتكاليف الصعبة متصديًا للمهمة بلغته الفرنسية المتمكنة ولغته العربية المتفوقة .. فأنجز ترجمة عدة أجزاء وضعتنا أمام الأهمية القصوى لهذه الموسوعة .

ويعلق الدكتور عبدالعزيز الدسوقى بقوله : ولم أكن أتصور أن صديقى زهير الشايب القصاصَ الفنانَ الموهوبَ المرهفَ الذوقِ الغنىَّ الشعورِ مترجمٌ دءوبٌ مثابرٌ ، ولم أكن أتصوره مناضلا يُحوّل ترجمة هذه الموسوعة الكبرى إلى عمل قومى يتخذ منه رسالة حياة . والآن تأكد لى أن زهير الشايب ليس مجرد أديب قصَّاص ، ولكنه كاتب سياسى ومفكر ومترجم ومناضل ، قام وحده بما لم تستطع المؤسسات العلمية والهيئات الثقافية أن تقوم به .

ولقد كان لهذه الترجمة الأثر الطيب فى نفوس أهل الفكر والأدب ، نذكر بعضًا منه :

يقول الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى :

« ما أظن أن أحدًا يستطيع أن يصل فى ترجماته إلى مثل الدقة والجمال والموهبة والبراعة التى ترجم بها الشايب وصف مصر » .

ويقول الأستاذ ثروت أباظة :

« أما عن الأسلوب فقد استطاع زهير الشايب فى براعة لا تتأتى إلا لصاحب القلم الصناع أن ينسينى تمامًا أننى أقرأ ترجمة ، وإنما أنا مع هذا الكتاب أشعر دائمًا أن الكتاب عربى أصيل ألفه مؤلفه بالعربية لا بالفرنسية » .

ويقول الأستاذ مأمون غريب :

« وهو فى ترجمته لهذه الموسوعة لم يكن مجرد مترجم لهذا العمل الضخم الذى يحتاج إلى عدد كبير من المتخصصين لإنجازه بقدر ما وضع بصماته فيه كأديب يقرأ ويفكر ويعطى صورة صادقة لما يعبر عنه بأسلوب أديب وحياد مؤرخ وبشعور وطنى » .

ويقول الأستاذ الدكتور/ حسين فوزى النجار

« وقد أشفقت على الأستاذ زهير الشايب من أن يتصدى وحده لهذا لعمل الكبير منذ إهدائى مجلده الأول من وصف مصر ، وراودنى أن يكون قد اختار من صفحاته ما يستهوى القارئ ليقف به ، فعدت إلى الأصل أقلبه وأراجع بعضه على الترجمة ، فهزنى أن أجد الرجل أمينًا على النقل ، بل وفى تصنيف الموضوعات لتتواءم مع بعضها ، ولتكون شاملة لكل ما تناوله الباحثون على اختلافهم من دراسات متقاربة . وأقول هزنى لأننى أرى مثل هذا العمل مما لا يقدر عليه إنسان بمفرده » .

ونختتم الحديث عن أديبنا بذكر رؤيته الفلسفية فى ترجمته لوصف مصر ، يقول : « إننى أساسًا كاتب قصة .. ولكن القصة عندى لا تصدر عن فراغ ، بمعنى أننى أقول بها شيئًا .. والكاتب الجاد لا يقول هذا الشىء إلا بعد استيعاب تام لكل ما يحيط به ، وحين يتغير إيقاع الأحداث وتأخذ الأحداث مسيرة مختلفة ، وأحيانًا مناقضة تمامًا ، فلابد من فترة للتأمل والاستيعاب والحكم .. ولذلك فكل كاتب يمر بمرحلة صمت إبداعى ، وترجمتى لوصف مصر هى مواصلة للعمل الإبداعى فى شكل ترجمة .. وأنا أستهدف منه كما استهدفت فى كل أعمالى السابقة مصر والإنسان المصرى . . . » .

يقول موريس شنين فى دراسته عن الإبداع : « إن المبدع ما لم يوفق إلى آخر ، سواء كان هذا الآخر فى شكل جماعة تتحمس لأفكاره وأعماله ، أو فى شكل فرد يستمع إليه ، فإنه لن يكتب لأعماله القبول » .

ولحد كبير تحققت هذه المقولة مع والدى الأديب المبدع زهير الشايب ، حيث وُفِّقَ لآخر تمثل فى والدتى التى كانت له كل الحياة ، لقد كانت أنموذجًا يحتذى فى العطاء وإنكار الذات والقدرة على مواجهة الصعاب .

فمنذ أن بزغت فكرة ترجمة وصف مصر أدركت أن أديبها فى حاجة إلى طاقة دافعة تتلاءم مع ضخامة العمل ؛ فمازالت وراءه تقوى العزائم وتشحذ الهمم وتزيل العثرات وتستأثر بالتبعات . ولما بدت مشكلة نشر الكتاب فى بداية الأمر أخذت على عاتقها ألا تبقى عائقًا يحول دون إصدار الكتاب حتى ولو كان على حساب أساسيات الحياة ، وتم هذا بفضل الله .

وكانت من إحَنِ القالِّين محنةُ سفرنا إلى عمان ، تلك الخديعة المنكرة التى توفى والدى على أثرها ونحن على أبواب امتحانات نهاية العام . ورغم مرارة العلل الظاهرة فلا مفر من التسليم لقضاء الله ، وتناست حزنها وتنبهت لصغارها حتى اجتزنا الاختبارات بتوفيق الله .

وباتت والدتى تقلب صفحاتها وترتب أوراقها لتستيقظ على دوى قنبلة ثقافية ما كانت لتحدث فى عالم البشر ؛ فقد نقلت الصحف أن مشروعًا قُدّم إلى وزير الثقافة خاصًا بإعادة ترجمة كتاب وصف مصر ، وقدرت التكاليف المبدئية بربع مليون جنيه ، تتحملها هيئة الكتاب والمجلس الأعلى للثقافة ، وأن الوزير أقره ، وهو الآن فى دور التنفيذ .

لقد أرادوا بإفك مفضوح أن يغتالوا عمل زهير الشايب ، ظانّين أن الميدان قد خلا وأن الفارس قد رحل .

وتأهبتْ والدتى للنزال ، وأخذت تدق أجراس الخطر وتُنبه أقلام الشرفاء ، وهى على يقين بأن زبدهم سيذهب جفاءً ، وأن النافع ماكثٌ بإذن الله . وجنّد الله لها أقلام المنصفين ، وغدت مقالاتهم تملأ الصحف ، وتحذر من مغبة هذا التصرف غير المدروس ؛ فزهير الشايب قد حصل على جائزة الدولة على هذه الترجمة دون سواها ، وعُيّن بسببها أمينًا للجهة الوحيدة المسئولة عن الترجمة

فى مصر والتى تحوى نخبة من أساتذة الجامعات والمتخصصين فى الترجمة . وهذا أحد أعضاء لجنة جائزة الدولة التشجيعية التى مُنِحَتْ لزهير الشايب ، وهو الأستاذ الدكتور عبد المعطى شعراوى يقول : « لقد أعطينا الجائزة للمرحوم زهير لدقة الترجمة وأهمية الكتاب ومنهجه وطريقته فى الترجمة » .

وإزاء ما احتلت هذه القضية من تفكير الأوساط الثقافية وأصبحت سيدة القضايا فى الشارع الثقافى ، لم يجد وزير الثقافة بدًا من أن يصرح بقوله : « إن كل ما أثير حول هذا الموضوع لا أساس له من الصحة ، وأن الوزارة لم تقدم على مثل هذه الخطوة إطلاقًا . . واستأنف الوزير قائلا : لا يمكن أن نبخس الراحل زهير الشايب حقه ، فنحن نحمل له كل تقدير لما قام به من جهد جبار فى ترجمة أجزاء من هذا الكتاب ، خاصة أن الدولة قد منحته جائزتها التشجيعية تقديرا لعمله » . وأسدل الستار .

وتركت والدتى قصصها – فهى كاتبة أطفال وقاصة – وجنبت قلمها ، وتفرّغت لهذه الموسوعة التى كانت قد صدر منها سبعة مجلدات فى حياة أبى ، ورحل بعد أن دفع بالمجلد الثامن إلى المطبعة . ودأبت تسعى لإخراج الثامن إلى النور ، ثم قامت بترتيب أوراق المجلد التاسع وتبييضه وقدمت له ودفعت به إلى المطبعة ، كذلك فعلت مع لوحات الدولة الحديثة والمجلد الأول من لوحات الدولة القديمة . كما شاركت فى فكرة وإخراج هذه الموسوعة فى شكل كتيبات من باب التيسير ، ولم تزل على عهدها جاهدة حتى تم بعون الله إقامة دار الشايب للنشر بهدف الحفاظ على أعمال والدى وإصدار باقى مجلدات موسوعة وصف مصر .

وعلى صعيد آخر كانت تهيىء المناخ لإعداد ابنتيها – أنا وشقيقتى أمل – ليكونا امتدادًا لقلم أبيهما وأهلاً لمواصلة المسير ، فعملت على أن تتخصص شقيقتى أمل فى اللغة الفرنسية ، وأن أجمع بين تمكنى من اللغة الفرنسية وتخصصى فى الدراسات الأثرية ، وبفضل من الله وتوفيق تحقق ما كانت تريد .

وهذا المجلد الذى بين يدينا هو آخر المجلدات المخطوطة التى تركها والدى من هذه الموسوعة ، ونظرًا لطول مكثه قُمْتُ بمراجعته على النص الأصلى مراجعة دقيقة متأنية ، وبعد ما اطمأننتُ على تمام الترجمة وكمالها قمْتُ بتحقيق النص وعلقت عليه وشرحت ما رأيته غامضًا ، كل ذلك كان فى إطار منهج الترجمة الذى رسمه والدى منذ البداية ، وقد أوردت فى نهاية الكتاب أهم المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها . وما وضع بين هلالين هو من صنع المؤلف ، أما ما وضع بين معقوفتين فهو من صنع المترجم ، وقد أخذَتْ هوامش المؤلف والهوامش التى أوردتُها أرقامًا واحدة مسلسلة ، ومَيَّزْتُ بينهما بوضع كلمة (المترجم) فى نهاية الهوامش التى أوردتُها . وآثرت أن يأتى متن شرح خريطة القاهرة كما جاء فى الأصل تمامًا بما فيه من أخطاء مطبعية وإملائية وعبارات عامية ، ورأيتُ أن ذلك لعله يفيد بشكل أو بآخر المهتمين بتطور اللغة خاصة وأن المؤلف ذكر أنه سجل الأسماء بالأحرف الفرنسية كما سمعهم ينطقونها .

ويضم هذا المجلد ثلاث دراسات ، كانت الدراسة الأولى وصف مدينة القاهرة للعالم الشاب إدم فرانسوا جومار الذى قَدِم إلى مصر ولم يتجاوز الإحدى والعشرين سنة ، وقد سبق التعريف به فى مقدمة المجلد الثانى من الترجمة العربية . وتقع هذه الدراسة الأولى فى خمسة فصول ، يعقبها ثلاثة مباحث ، كان المبحث الثانى « مذكرات متفرقة حول بعض أقسام العمارة العربية » من وضع ميشيل انج لانكريه ، وقد أورده جومار ضمن دراسته هذه .

وقد آثرتُ أن أضم إلى هذه الدراسة دراستين صغيرتين لمارسيل : إحداهما عن الخطوط العربية على عمائر القاهرة ، والأخرى عن سيرة أحمد بن طولون ، ليبقى على إتمام موسوعة مدينة القاهرة دراسة عن القاهرة المملوكية وتمثل المجلد الحادى عشر ، ودراسة أخرى عن مقياس النيل بجزيرة الروضة وتمثل المجلد الثانى عشر ، وهما الآن تحت الطبع .

وفى الختام أتوجه بخالص الشكر والعرفان إلى الأساتذة : الدكتور عبد الحكيم راضى ، الدكتور حمدى إبراهيم بكلية الآداب جامعة القاهرة . والدكتور عبد الفتاح شعراوى بكلية الزراعة جامعة القاهرة ، وأساتذة كلية الآثار بجامعة القاهرة : الدكتور صلاح البحيرى ، الدكتور مصطفى شيحة والدكتور محمد حمزة .

والله ولى التوفيق . . .

القاهرة فى ١٩٩٢/٩/٢٧

منى زهيـر الشايب

الفصل الأوّل

لمحة عامة عن القاهرة

تقع مدينة القاهرة ، عاصمة مصر ، موقعا وسطا بين مصر العليا ومصر السفلى ، فوق خط عرض ٢١ ٢ ٣٠ ° شمالا ، وخط طول ٣٠ ٥٨ ٢٨ ° إلى الشرق من باريس . وقد أجريت عملية القياس هذه من قصر حسن كاشف[١] حيث مقر المعهد المصرى ، على مسافة حوالى خمسة الفراسخ ونصف الفرسخ من الرأس الحالى للدلتا . ويصل ارتفاعها فوق سطح البحر – إذا ما اعتبرنا مستوى سطحها هو مستوى منسوب مياه النيل المرتفعة – ثمانية عشر مترًا و ٨٦ فى المائة من المتر (أى تسع وثلاثين قدما وسبع بوصات) .

ولا تقع القاهرة على شاطئ النيل نفسه ، وإنما على مسافة نحو ثمانمائة متر ، أو أربعمائة قامة من شاطئه الأيمن وذلك طبقا للقياس المأخوذ من أكثر نقاطها قربا من النيل . ويقابل المرء إذا كان قادما من الشمال وقبل أن يبلغ القاهرة مدينة بولاق الصغيرة ، أما إذا قدم من الجنوب فإنه يلاقى مدينة مصر القديمة : وتعد هاتان المدينتان بمثابة ميناءين للقاهرة ، ولهذا يتحتم أن تنقل إليها السلع من النيل على كاهل الإنسان أو فوق ظهور الجمال . وبنيت هذه المدينة عند سفح المقطم وعلى الربا الأخيرة لسلسلة هذا الجبل ، ويستمر ارتفاعها حتى القلعة الكبيرة التى تقع فى الجنوب الشرقى ، وهى أدنى قليلاً من مستوى الجبل .

ومناخ القاهرة قليل التغير ، فلا يكاد المرء يحس بشتائها ، والأمطار فيها نادرة . وفى الصيف ترتفع الحرارة جدًا ، وربما فى الشتاء أيضًا ، ويبلغ متوسط

---

(١) هو الأمير حسن كاشف المعروف بجركس ، كان من مماليك محمد بك أبى الذهب ، وهو الذى عمر الدار العظيمة بالناصرية وصرف عليها أموالا عظيمة ، وبعد أن فرغ من بنائها باستثناء بعض الأعمال التكميلية جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ١٢١٣ هـ – ١٧٩٨ م فسكنوا هذه الدار ولذلك حفظت من الخراب والاندثار ، وتوفى الأمير المذكور سنة ١٢١٥ هـ – ١٨٠٠ م ، وبعد ذلك آلت هذه الدار إلى الأمير عثمان بك البرديسى وسكنها وبنى حولها أبراجا جعل فيها طائفة من العسكر ، وبعد وفاته سنة ١٢٢١هـ – ١٨٠٦ م آلت إلى محمد على باشا فعمرها وجعلها مدرسة ، ثم لما تولى عباس باشا أبطلها وجعلها مسافر خانة لكل من ورد إلى مصر من البلاد الأجنبية ، وفى عهد الخديو إسماعيل جعلت مدرسة للمبتديان ، وموضع هذه الدار اليوم المدرسة السنية الشهيرة بالسيدة زينب .
(المترجم) .

درجة حرارتها ٢٢,٤ ° سنتيجراد (١٧,٩٢ ° حسب مقياس الحرارة لريومور) ويتوقف البارومتر عند متوسط ارتفاع ٧٦١,٧٩ ملم (٢٨ بوصة و ١,٧ شرطة) . وليس ثمة رياح مسيطرة طيلة العام ، وإن كان أكثرها هبوبا هى رياح المنطقة الشمالية[1].

وظاهرة الجليد غير معروفة ، ومع ذلك فقد يحدث – على ندرة شديدة – أن يهبط مقياس الحرارة ليلاً إلى درجة الصفر ، وذلك فى سهول الصحارى الواقعة إلى الشرق من هذه المدينة ، وفى هذه الحالة يلاحظ وجود الصقيع ، وهى ظاهرة يعرفها العرب المخيمون فى هذه الصحارى ، وإن تكد أن تكون مجهولة بالنسبة لسكان القاهرة . ويظهر الندى بغزارة فى المساء والصباح سواء فى القاهرة أو فى بقية أنحاء مصر . ويهمنا أن نضيف أن الاختلاف فى درجات الحرارة بين الليل والنهار شاسع للغاية ، وقد يصل الفرق أحيانًا خلال اثنتى عشرة ساعة فقط إلى ٢٥ ° وحتى إلى ٣٠ ° تبعًا لريومور .

وبعد القسطنطينية ، تعد القاهرة المدينة الأولى بين مدن الامبراطورية العثمانية ، وذلك بالنظر إلى امتدادها ، وإلى أهمية تجارتها وما تزدان به من العمائر . وإذا صرفنا النظر عن الميناءين (بولاق ومصر القديمة) وجدنا أن محيطها يبلغ نحوا من أربعة وعشرين ألف متر ، وأن مساحتها حوالى ٧٩٣,٠٤ هكتار (٢٣٢٠,٦٤ أربان بمقياس باريس) ، أو أقل من ربع مساحة هذه المدينة الأخيرة : ولكن إذا أضفنا رقعة الميناءين إلى عملية القياس فستبلغ المساحة ٨٨٣,٨ هكتارا (٢٥٨٦ أربان) ومعنى هذا أن القاهرة مع ميناءيها تفوق من ناحية المساحة كل

(١) فى سنة ١٧٩٨ لاحظ المسيو كوتل Coutelle أن الرياح الشمالية والرياح الشمالية الشرقية ، والرياح الشمالية الغربية قد هبت مائتين وثلاثة عشر يوما (وخصوصا من شهر مايو إلى شهر نوفمبر) وبلغت مدة هبوب الرياح الشمالية الشرقية ثلاثة وثلاثين يوما والشمالية الغربية ستة وعشرين يوما . وهبت رياح المناطق الغربية والجنوبية والشرقية على التوالى : خمسة وثلاثين ، ثمانية وأربعين ، واحدا وثلاثين يوما .

عواصم أوربا باستثناء لندن وباريس[1]. وإن كان محيطها – وهو الذى يبلغ ، كما سبق القول حوالى أربعة وعشرين ألف متر – يزيد على محيط باريس (٢٣٦٧٢ مترًا) فإن مرد ذلك إلى ما فى سورها من التعاريج الكثيرة .

وليس ثمة تشابه بين التقسيم الداخلى للمدينة وتقسيم المدن فى أوربا : لا بسبب انعدام النظام إلى حد كبير فى شوارعها وأماكنها العامة فحسب ، بل إن المدينة بكاملها – باستثناء العديد من الطرق الكبيرة – تكاد تتكون من شوارع بالغة القصر وتفريعات متعرجة تنتهى إلى عدد لا حصر له من الأزقة ، ويغلق كلا من هذه التفريعات باب يفتحه السكان وفقا لحاجتهم ؛ لذا فقد كانت معرفة داخل القاهرة فى معظمه أمرا بالغ الصعوبة ، وهو ما لم يتحقق إلا حين كان الفرنسيون مهيمنين على المدينة . وقد صممت هذه الشوارع بالغة الضيق عن قصد ، وذلك بسبب الحرارة . ويبلغ عرضها ما بين خمس أقدام وخمس عشرة قدما ، وربما كان منها ما يقتصر عرضه على قدمين أو قدمين ونصف القدم حيث تتقارب غالبا شرفات المنازل المتقابلة . بل إن العديد من الشوارع مغطى من أعلى حتى لا تتسرب إليه مطلقا أشعة الشمس ، وبذا فليس ثمة ما يضئ هذه الشوارع إلا انعكاس الضوء : ويلاحظ هذا على وجه الخصوص فى الشوارع التى تستخدم كأسواق . واليوم أصبح جزء من سور القاهرة القديم واقعا ضمن إطار المدينة التى امتدت كثيرا نحو الشمال والغرب ، أما من ناحيتى الشرق والجنوب فقد ثبتت عند حدودها الأولى . ويتكون هذا السور القديم ، الذى لم يعد يحيط بالقاهرة كلها ، من جدران متفاوتة الارتفاع والمتانة ، محصنة بأبراج مستديرة ومربعة ، كما تتخلله بوابات مزودة فى معظمها هى أيضا بأبراج ومخابئ خاصة بالدفاع .

---

(١) تبلغ مساحة باريس ٣٤٠٦,٧٠١٠ هكتار ، أو ٩٩٦٩,٤٤ أربان ، ونلغ مساحة لندن ٢٢١٦,٤ هكتار (٦٤٨٣ أربان حسب حريطة فادن Faden سنة ١٨١٢) ، وتبلغ مساحة فينا حوالى ٢١٠٠ هكتار (٦١٤٢ أربان) . الخ . وهكذا ، فإذا اتخذنا القاهرة كمقياس ، فإن باريس تبلغ رقم ٤,٣ ، وتبلغ لندن ٢,٧ ، وتلغ فيا ٢,٦ .. الخ ، وبإضافة بولاق ومصر القديمة تبلغ هذه السبب بالترتيب : ٣,٨ ، ٢,٥ ، ٢,٤ وحدة .

ويبلغ عدد الأحياء ثلاثة وخمسين حيا ، ويطلق على كل منها حارة ، (حارات) من بينها نحو عشرين حيا رئيسيا ، وهى من الجنوب إلى الشمال ، حسب اتجاه امتداد المدينة التى تشكل تقريبا مستطيلا نسب أبعاده ٣–٥ : القلعة بأقسامها ؛ قراميدان ؛ الرميلة[1]، وهما من الميادين ؛ طولون ، أقدم أحياء القاهرة ؛ المغاربة ؛ بركة الفيل ، وهو ميدان تغمره المياه أثناء الصيف والخريف ؛ الحنفى ؛ باب الخرق[2]؛ المؤيد ؛ الأزهر ، وهو الجامع الكبير ؛ باب الغدر ؛ الزويلة ؛ الموسكى ؛ الافرنج ، أو الحى الافرنجى ، وسكانه من الأوربيين ؛ اليهود ، أو الحى اليهودى ؛ الروم ، أو الحى اليونانى ؛ النصارى أو الأحياء التى يسكنها الأقباط والأرمن والسوريين .. إلخ ؛ الأزبكية (اسم لميدان فى الوسط تغمره المياه) ؛ والشعراوى .. الخ . وهناك أيضا أجزاء أخرى من المدينة تحمل أسماء مختلف الحرف أو التجارات المعروفة بها ، أو أسماء الأسواق ، أو القناطر ، وأبواب الضواحى ، أو فى النهاية أسماء المقابر والحدائق والبرك التى تجاورها .

وبالإضافة إلى الميادين الأربعة التى سبق ذكرها ، هناك ميدانان صغيران أمام القصر القديم لمراد بك وبيت القاضى . وأكبر هذه الميادين كلها هو ميدان الأزبكية ، ولكى تكون لدينا فكرة عنه ينبغى أن نعرف أن ميدان لويس الخامس عشر فى باريس قد يقل لأكثر من ثلاث مرات عن الميدان الأول ، وتبلغ مساحته ستة وستين أربان باريسى ، وهى مساحة تماثل تقريبا نفس اتساع حديقة مارس من الداخل . وفى شهر سبتمبر ، وعندما يبلغ فيضان النيل أقصى

(١) كان هذا الميدان فى الأصل من بقايا ميدان أحمد بن طولون ، الذى ابتدأ بناءه عام ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م . وبعد بناء القلعة فى العصر الأيوبى توالت يد التعمير والتجديد على هذا الميدان على يد سلاطين المماليك ، ومن أشهرهم الناصر محمد وبرقوق والغورى ، وفى العصر العثمانى اهتم به بعض الولاه ومنهم بيرم باشا وقرا محمد باشا ، وفى عهد الخديوى إسماعيل قام على باشا مبارك بعمل رسم جديد للميدان ، هذا وما تزال بقايا السور الذى كان يحيط بالميدان باقية حتى الآن . أما عن مسمياته فمنها : الرميلة ، الميدان بالقلعة ، الميدان السلطانى ، قرة ميدان (الميدان الأسود) ، سوق الخيل ، سوق العصر ، المنشية ، وحاليا ميدان صلاح الدين . (المترجم) .

(٢) يقصد به ميدان باب الخلق المعروف حاليا بميدان أحمد ماهر . (المترجم) .

مداه يمتلىء هذا الميدان بالماء الذى يرتفع إلى عدة أقدام مكونا عندئذ حوضا واسعا تنتشر على صفحته القوارب التى تضاء أثناء الليل لتعطى لهذا المكان مشهدا بالغ الروعة . وفى الشتاء تغطى الأرض بالخضرة ، لكنها فى الربيع تصبح جافة ومغبرة . ويجاور الميدان حى الأقباط ، والقصر القديم للألفى بك ، ومنازل الشيوخ بالغى الثراء .

وبدلا من أن تحمل الشوارع أسماء ثابتة ، فإنها تغير من أسمائها دائما ، يصدق هذا أيضًا على الشوارع الطويلة . وثمة ثمانية شوارع كبيرة :

١ – ثلاثة شوارع طولية ، هى : الشارع الذى يبدأ من باب السيدة إلى باب الحسينية ويبلغ طوله ٤٦٠٠ متر ، والشارع الذى يمتد بحذاء الشاطئ الأيمن للخليج بدءا من القنطرة المزدوجة الواقعة فى الجنوب والتى يطلق عليها قناطر السباع حتى قرب باب الشعرية ، بالإضافة إلى شارع آخر .

٢ – خمسة شوارع عرضية ، ثلاثة منها تصل ما بين النيل والقلعة ، وآخر ينطلق من ميدان الأزبكية فى الشرق تجاه مقابر قايتباى[1]. ويكاد يكون مستحيلا أن نعدد هنا أسماء كل الشوارع بسبب كثرتها الهائلة وبسبب تغير الأسماء على الخط الواحد ، مما سنجده فى القائمة العامة للأسماء بالقاهرة . وثمة كذلك معابر ، وأزقة ، وشوارع بدون منفذ : تسمى الأولى سكة ودربا ، ويتجاوز عددها الثلاثمائة ، أما الأزقة والشوارع التى بدون منافذ فإنها تسمى عطفة ، ولا يقل عددها عن الأولى .

ويمكن أن نحصى لمدينة القاهرة واحدا وسبعين بابا ، من بينها الكثير من الأبواب الداخلية . أما أبوابها الرئيسية فهى : باب السيد ، باب طولون ، باب

---

(١) تمثل هذه المقابر الجزء الأوسط من قرافة المماليك الشمالية التى اشتهرت فى المصادر والوثائق المختلفة باسم (صحراء المماليك) وكانت تمتد فيما بين قرافة باب الوزير عند القلعة جنوبا حتى قرافة القبة شمالا ، وقد اشتهرت خطأ فترة من الزمن باسم قرافة أو مقابر الخلفاء . ولهذه القرافة عدة مسميات ، فيعرف الجزء الشمالى منها الذى يلى قرافة القبة باسم قرافة الغفير ، والجزء الأوسط بقرافة قايتباى ، وإن كان يعرف جزء منها بقرافة العفيفى . وتتصل بها أيضا قرافة المجاورين ، وفى الجنوب قرافة باب الوزير . (المترجم) .

السيدة ، باب القرافة[1] فى الطريق المؤدى إلى مصر العليا ، باب الوزير ، باب الغُرَيِّب[2] نحو الشرق ، باب الحسينية ، باب النصر وهو باب جميل العمارة يعود بناؤه إلى صلاح الدين ، باب الفتوح وهو كذلك جيد الصنع ، باب الغدر ، باب الحديد باتجاه الشمال ومصر السفلى ، باب اللوق ، وباب الناصرية نحو الغرب أو النيل . وكثير من هذه الأبواب مثل باب النصر وباب الفتوح وأبواب أخرى كانت ملحقة بسور بالغ القدم ، لكنه الآن يدخل ضمن إطار المدينة ويشغل الجهة الشمالية بكاملها . ويبلغ عرض المدينة ما يقرب من ألفين وأربعمائة متر ما بين زاويتها الشمالية الشرقية وزاويتها الشمالية الغربية ، وهذه هى الجهة الوحيدة من جهات المدينة التى لم يتغير امتدادها .

وبخلاف البرك التى تتكون فى ميدانى الأزبكية وبركة الفيل بفعل مياه الفيضان هناك برك أخرى منها : بركة الفرايين ، وبركة الدمالشة فى داخل القاهرة وفى الغرب ، بركة أبو الشامات ، بركة السقايين ، بركة الدم حيث تتدفق إليها دماء المذابح ، بركة الصابر ، بركة الفوالة عند طرف نفس الجهة من المدينة ، بركة المُلاّ بالجنوب ، وأخيرا ، بركة الرطلى وبركة الشيخ قمر فى ناحية الشمال .

وللمشايخ وكبار القوم حدائق مجاورة للمدينة تحمل أسماءهم ، ومن بين أكبر هذه الحدائق غيط قاسم بك ، وهى الحديقة التى كان يجتمع فيها أعضاء المعهد وبعثة العلوم والفنون أثناء فترة الحملة . وثمة كذلك حدائق كثيرة بالغة الجمال داخل المدينة نفسها ، من بينها اثنتان وعشرون حديقة

(١) هو أحد أبواب سور صلاح الدين الذى عهد بإنشائه إلى وزيره الأشهر بهاء الدين قراقوش ، وما يزال هذا الباب باقيا إلى الجنوب من باب قايتباى الحالى (تجاه جامع السيدة عائشة) وعلى بعد ٣٠ م منه ، وقد اكتشفه المرحوم المهندس عباس بدر فى الأربعينات من هذا القرن ، وهو غير باب القرافة بالقلعة . (المترجم)

(٢) هو فى الأصل باب البرقية ، وقد غلبت تسميته بهذا الاسم خلال العصر العثمانى لأنه كان يتوصل منه إلى ترب الغريب أو الغرباء التى كانت تقع خارج باب البرقية فيما بين سور القاهرة الشرقى وتلال البرقية ، وقد سجلت هذه الترب على خرائط مدينة القاهرة سواء القديمة أو الحديثة باسم ترب الغريب أو جبانة الغريب ، وقد كان يدفن فى هذه الترب مجاورو الأزهر ، وكلهم كانوا غرباء كما هو معروف . (المترجم) .

رئيسية يطلق على كل منها اسم (غيط) أو (جنينة) وذلك وفقا لمساحتها . ومن الخطأ فى التصور أن نقيس هذه الحدائق على ما عندنا ، فنتصور وجود مماشى ومتنزهات وحشائش خضراء ، إذ إن قوامها من آجام من شجر البرتقال والليمون وعروش العنب ، كما تختلط فيها أشجار السنط واللبخ والتين والجميز – وهذه من أكثر الأشجار ضخامة فى مصر – بالنخيل الباسق وشجر التوت والرمان والنبق والرَّنْد والسنط المصرى ، وأخيرا أشجار الموز بأوراقها الكبيرة وثمارها الشهية . ومع ذلك فإذا كان المرء يفتقد فى هذه الحدائق بهجة التنزه ، فإن بإمكانه فى المقابل أن يستريح فى ظلال من العُرُش حيث يدخن تبغا ذكى الرائحة ، وحيث يمكن أن يستنشق الناس فيها طيلة العام تقريبا هواءً معطرا بأطيب الروائح .

ويوجد عديد من الجبانات داخل المدينة : وتقع الساحات الكبيرة للمقابر خارجها . واشتهرت اثنتان من هذه الساحات بسبب اتساعهما وروعتهما ، وهما الواقعتان إلى الجنوب وإلى الشرق . ويطلق عليها مدن المقابر Villes des tombeaus ، وتعدل مساحتهما ربع مساحة القاهرة . وتسمى المقابر الواقعة إلى الجنوب «ترب السيدة أم قاسم» ، أما الواقعة إلى الشرق فتسمى «ترب قايتباى» . ويبلغ عدد المدافن العمومية أو الجبانات ثلاثة عشر : حيث يلاحظ وجود أعمدة فى كل مكان فيها ووفرة من الرخام ، كما ترى النقوش والزخارف التى تنم عن الثراء . غير أننا لا نكاد نرى على الإطلاق أثرا لأية خضرة ، فالمدافن على الدوام عبارة عن أرض رملية أو قاحلة يختارها المصريون كمكان لإقامة مقابرهم ، سيرا على منوال أجدادهم .

ويقع على بعد نصف فرسخ تقريبا إلى الشمال ساحة كبيرة للمقابر ، وذلك فى المنطقة التى تعرف بـ (القبة)[1].

---

(١) نرجع هذه التسمية إلى منشآت الأمير الشهير يشبك من مهدى (المتوفى ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م) ، والتى لم يتبق منها سوى هذه القبة الكائنة عند مدخل قصر القبة وكانت هذه القبة تعد من مواضع التنزه والتفرج سواء للعامة أو للخاصة . (المترجم) .

ويحيط بالقاهرة حزام من تلال الأنقاض البالغة الارتفاع : وتتكون هذه المرتفعات من الأتربة والمخلفات من جميع الأنواع مما يلقى به من داخل المساكن . ولأن هذه المساكن مبنية باللبن ، فإن سرعة تهدمها يعمل على الزيادة من تراكم هذه السلسلة من المرتفعات الصناعية التى يطلق عليها : تل ، كوم ، و (خرابة) Kharab .

أما عن الأسواق ، فيمكن تصنيفها إلى ما هو دورى وما هو دائم ، ويبلغ عدد هذه وتلك ستة وخمسين سوقا ، والرئيسى منها أو الأكثر تكرارا هى تلك الأسواق المخصصة لبيع الملابس من الساعة الثالثة مساء ، وهى الفترة من النهار التى تسمى (العصر) ، ولذا يطلق على هذه الأسواق اسم (سوق العصر) ، ويلى ذلك سوق المغاربة للبضائع القادمة من بلاد المغرب ، ثم سوق الموسكى للبضائع القادمة من أوربا ، وسوق السلاح لبيع السلاح وعدة الحرب .

علينا الآن أن نمضى إلى استعراض عمائر القاهرة الرئيسية[1]، وتأتى المساجد على رأسها . ويبلغ عدد ما تصدق عليه منها صفة (الجامع) مائتين وثلاثة وثلاثين ، وبخلاف ذلك يوجد مائة وثمانية وخمسون مسجدًا صغيرا أو مصلى يطلق على كل منها اسم زاوية : يتميز منها خمسة وأربعون أو خمسون بفخامة تصميمها المعمارى . ومعظم المساجد له مئذنة واحدة أو أكثر أو [ما يشبه] أبراج شاهقة الارتفاع . وقد تكون مربعة الشكل أو دائريته ، ويصعد اليها المؤذنون خمس مرات فى اليوم الواحد لدعوة المسلمين إلى الصلاة بنداءات رصينة ولكنها منغمة : هذه النداءات عند المسلمين هى بدائل عن الأجراس . وتعد جوامع : طولون ، والحاكم[2]، والأزهر ، والسلطان حسن ، أكبر أربعة جوامع ، وأقدمها جميعا الجامعان الأولان ؛ والثانى منهما متروك ، وهما مربعا الشكل ، ويزيد طول الجانب الواحد على مائة وعشرين مترا . ويقع الجامع

(١) انظر اللوحات ٢٦ إلى ٧٣ ، المجلد الأول من لوحات الدولة الحديثة
(٢) ذكر المؤلف القول بأن جامع الحاكم أقدم من جامع الأزهر ، والمعروف أن العكس هو الصحيح (المترجم)

الثالث فى حى شديد الازدحام بالسكان ، ولذا كان أكثرها ازدحاما بالمصلين ، ويطلق عليه اسم الجامع الكبير على الرغم من أن كلا من جامعى طولون والحاكم يزيد عليه فى مساحته : إنه الجامع الذى اعتصم به العصاه أثناء ثورة القاهرة ضد الفرنسيين ، وتلتحق به مدرسة ومكتبة . وجامع السلطان حسن هو أكثرها لفتا للانتباه بسبب ضخامته ، وقبته العالية ، وطول مئذنتيه ، وتنوع الرخام الذى استخدم فيه بكثرة . وليس ثمة نقوش أخرى إلا زخارف على الطراز العربى منفذة على الحجر الصلب وعلى الخشب وعلى البرونز ، كما أنه ليس ثمة رسوم إلا كتابات شكلت بحروف كبيرة مذهبة ، تتنوع ألوانها بين الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر : وقد شكلت البلاطات من فسيفساء ثمينة من الرخام الغنى بالألوان .

أما الجوامع التالية وهى : جامع الحسين ، المارستان ، السلطان برقوق ، المؤيد ، شيخون ، الأشرفية ، الغورى ، السلطان قلاوون ، سنقر .. الخ فإنها لا تقل روعة عن تلك التى ذكرناها . ويذكر أيضا جامع عمرو وجامع الظاهر ، لكنهما يقعان خارج القاهرة ، والجامع الأخير منهما متروك .

وللمسيحيين أديرة وكنائس ، يسمون الواحد منها «دير» ، تستخدمها مختلف طوائفهم التى تضم : الكاثوليك والمسيحيين الأقباط أو المنشقين والروم والأرمن والسوريين . ويوجد فى القاهرة ومصر القديمة سبع وعشرون كنيسة مسيحية . ولليهود كذلك عشرة معابد .

أما المنشآت العامة الأخرى فهى : الحمامات ، والأسبلة ، والأحواض ، والمدارس ، والقناطر المقامة فوق الخليج .. الخ . ويبلغ عدد الحمامات الرئيسية خمسة وأربعين حماما تتميز باتساعها أو فخامتها ، خاصة : حمام يزبك ، السلطان ، المؤيد ، الطنبلى ، مرجوش ، سنقر ، السكرية .. الخ . ويتعرض مرتاد الحمام أولا للبخار ، قبل أن يغمس جسده فى الماء ، ليقوم بتدليكه بعد ذلك خادم الحمام . ولا تخرج النسوة مطلقا إلا للذهاب إلى

الحمامات ، ويترددن هناك عادة كل أسبوع ، حيث يستعرضن كل ما هو مباح لهن من زينة ، ويتعطرن ويرتدين أجمل ملابسهن ، وتبحث مسائل الزواج فى هذه الحمامات التى لا غنى لأى من الجنسين عن التردد عليها فى مثل هذا الجو الشديد الحرارة .

وغالبية الأسبلة منشآت مخصصة لتزويد الشعب بالمياه مجانا . وهى كثيرة العدد ، وتجلب مياهها من النيل محمولة على ظهور الجمال ، وتزين هذه المنشآت بأعمدة من الرخام وشبكات من البرونز مصنوعة بمهارة . ومن المتبع أن يخصص الطابق العلوى من السبيل لكتاب مجانى يعلم فيه القراءة والكتابة والحساب فقط ، ويتم الإنفاق عليه من الوقف المخصص للسبيل ذاته . والتعليم هنا على نحو متزامن ، إذ يتعلم التلاميذ القراءة والكتابة فى وقت واحد . ويبلغ عدد الأسبلة الرئيسية ستين سبيلا ، من بينها : سبيل السليمانية ؛ مرجوش ؛ الأشرفية ؛ الغورى ؛ السكرية ؛ الأزهر ؛ المؤيد ؛ وسبيل عبد الرحمن كيخيا[1].. إلخ . وليست الأحواض بأقل نفعا للسكان الذين يستطيعون فى أى وقت سقاية الخيل والحمير والجمال وغيرها من الدواب ، وهى أيضا مدعومة بالأعمدة ، كما أنها بالمثل فخمة البناء .

ويعرف بالقاهرة نوع آخر من المنشآت ، هو التكايا ، أو المنازل التى يتلقى فيها المسافرون والمرضى واجب الضيافة والإقامة مجانا ، وإن لم يبق منها الآن سوى ملجأ واحد ينطبق عليه هذا الاسم ، وهو المارستان ، ويوجد به حوالى خمسين سريرا ، ويقبل فيه مرضى العقول .

---

(١) هو الأمير عبد الرحمن كتخدا ، الذى يعد من أعظم الأمراء فى النصف الثانى من القرن ١٢ هـ / ١٨ م ، فقد كان يتمتع بمكانة كبيرة ونفوذ عظيم وشهرة واسعة وثروة طائلة فضلا عن أنه كان رقيق الإحساس ، ذواقا للحياة المترفة الناعمة ، فدفع بحاسته المرهفة وذوقه الفنى حركة الإنشاء والتجديد والتعمير دفعة قوية نشطة . وقد أمر بإنشاء وتجديد العديد من العمائر الدينية والمدنية ووقف الأوقاف الكثيرة للصرف عليها ، ولذلك استحق أن يلقب بلقب «صاحب الخيرات والعمائر» ، ويكفى أن نذكر من بين أعماله العديدة عمائره الشهيرة بالأزهر ، فضلا عن مشاهد آل البيت المختلفة التى ما تزال منتشرة فى شتى أرجاء القاهرة . (المترجم)

أما القناطر فهى كثيرة سواء على الخليج الذى يخترق المدينة من الوسط باتجاهها الطولى ، أو فوق القناة التى تمتد بطول الجهة الغربية . وتبنى هذه القناطر من الحجارة ، وهى عبارة عن عقد واحد . ويوجد ما يقرب من العشرين قنطرة ، ليس منها ما يتميز بشىء يذكر . وترتفع حواجز القناطر المقامة داخل المدينة ، وتتخذ العقود شكل الأقواس القوطية بحيث تصعب رؤية الخليج من أى مكان بالمدينة .

ويبلغ عرض الخليجين عشرة أمتار فى المتوسط : يتخذ الأول بدايته من فرع النيل الصغير المواجه لجزيرة الروضة عند أسفل خزان مجرى العيون ، ومن هذا الخليج يتفرع الخليج الثانى . ومهمة مجرى العيون هى توصيل مياه النيل إلى القلعة ، وهو ينفذ إلى القاهرة عبر باب القرافة ، حيث يصل بالقرب من ساحة الباشا .

وتتميز قصور البكوات والكشاف ومنازل كبار الشيوخ أو الزعماء الدينيين ، والأغا والوالى والقاضى وبعض أصحاب الوظائف الأخرى عن منازل البسطاء من الخواص ، تتميز من النظرة الأولى ببناء أجمل ، وبمظهر أفخم ، وبمساحة أوسع . ويبنى الطابق الأرضى من حجارة منحوتة يتخذ كل مدماك منها عادة اللون الأحمر أو الأخضر على التوالى . وتظهر فى كل طابق مما يلى ذلك شرفات شديدة البروز [مشربيات] ، ذات قضبان من الحديد أو الخشب المخروط ، صنعت بمستويات متفاوتة من المهارة .

وسيكون من التزيُّد ، وربما من الصعب أيضا أن نقدم وصفا للتقسيم الداخلى لبيوت القاهرة ، فليس ثمة توزيع منتظم إلا فى أقل القليل منها : ويندر أن تكون الحجرات فى الشقة الواحدة على مستوى واحد ، مما يقتضى دائما صعود أو هبوط عدد من الدرجات عند الانتقال من واحدة إلى أخرى . وفى المنازل الكبيرة يوجد بالطابق الأول قاعة كبيرة مفتوحة يسمونها «المندرة» ، وفى هذه القاعة تتم لقاءات صاحب البيت ، ومنها يستطيع رؤية كل ما يحدث فى الفناء .

وأكبر حجرة بالطابق الأرضى مصممة على شكل حرف T ومبلطة بالرخام ، وتزين وسطها فساقى المياه ، وهى مجهزة بمقاعد أو أرائك عريضة . وتجعل الطنوف باتجاه الشمال ، مما يساعد على انسياب الرياح من الجهة الشمالية إلى ممرات المنزل وأقسامه ؛ ويزين الحوش بأعمدة الرخام .. إلخ ، هذا فضلا عن الحمامات ، وهى من الرخام أيضا ، وكذلك الحدائق الواقعة خلف القسم الرئيسى للدار بما فيها من تكعيبات العنب والعروش التى تزينها الخضرة الزاهية ، والاصطبلات المعتنى بها ، وأخيرا هذا الحشد الكبير من الخدم لتلبية كل ما يحتاجه رب الدار ، مما يصور لنا ما كانت عليه رفاهية المساكن وترف الأغنياء . وقد تكون هناك مبالغة فى أن نطلق كلمة (قصر) على بيوت البكوات والكشاف والكبراء فى القاهرة ، وإن كان من غير الممكن أن ننفى اشتمالها على كل مظاهر الترف والأبهة التى يسمح بها الحال فى مصر .

وتبنى معظم منازل القاهرة من طابقين أو ثلاثة طوابق ، غير أن هناك منازل مكونة من أربعة طوابق وذلك فى الأحياء المكتظة ، وهى مبنية من الطوب وذات لون قاتم من الخارج ، أما فى الداخل فتغطى الجدران فى معظم الأحيان بطبقة جميلة من الجبس ناصعة البياض ، أو تطلى الجدران بطبقة من الجير ، وتغلق الشرفات والنوافذ طيلة النهار بشبكات ضيقة جدا من الخشب المخروط تسمح بدخول شيء من الضوء مع الإبقاء على برودة الهواء ، أما من الداخل فتزدان المنازل أيضا بتشكيلات من الخشب المخروط فى مهارة وصنعة متقنة .

وتشغل «قلعة» القاهرة الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة ، وهى تتكون من أسوار ثلاثة : العزب(١)، الانكشارية(٢)، والقلعة . وكل من هذه الأسوار مزود

(١) إحدى طوائف الجند فى العصر العثمانى ، وكانوا يسكنون فى الجزء الأسفل من القلعة وذلك خلف الباب المعروف باسمهم (أى باب العزب) المطل على ميدان الرميلة (ميدان صلاح الدين الآن) . (المترجم) .

(٢) إحدى طوائف الجند فى العصر العثمانى كذلك ، وكانوا يسكنون الجزء الأعلى من القلعة (داخل الأسوار) ، ولذلك عرف هذا الجزء باسمهم ، بل وعرف السور بتلك التسمية أيضا ، كما عرف جامع سليمان باشا المعروف بسارية الجبل باسم جامع الجند نسبة إليهم أيضا . (المترجم)

بأبراج قوية مسننة ، وتشرف القلعة على حى العزب ، أما حى الانكشارية فيقع على نفس المستوى . وبالرغم من كون هذه القطاعات أعلى كثيرا من المدينة ، فإن مستواها جميعا أدنى من مستوى الجبل العربى الذى يقع بالقرب منها (على بعد ثلاثمائة متر فقط) .

ومنذ فَتْح سليم بقيت القلعة دائما مقرا لحاكم مصر ، غير أن المنشآت البارزة التى كانت تزدان بها قد قاست الكثير بفعل عوادى الزمن . فالقصر أو بالأحرى الجامع الجميل الذى يطلق عليه عادة اسم «ديوان يوسف»[1]، وهو الذى يأخذ اسمه من اسم السلطان يوسف صلاح الدين ، أصبح مهملا ، ومع ذلك فمازالت أعمدته الجرانيتية الاثنان والثلاثون المنقولة — بدون شك— من أطلال ممفيس تثير فينا الإعجاب بجمالها وضخامتها . وتستخدم بئر يوسف على الدوام لنفس وظيفتها ، ويبلغ عمقها حوالى ثلاثمائة قدم ، وقاع هذه البئر فى مستوى النيل . وقد سبق أن وصف الرحالة بالتفصيل كلا من بئر وديوان يوسف ، مما يكتفى معه الإحالة إلى اللوحات الخاصة بهما فى هذا المؤلف ، فهى كفيلة بتصحيح ما يمكن أن يكون فى هذه الأوصاف من أخطاء[2] .

وقد حاولنا أثناء الحملة الفرنسية أن نمهد كثيرا من الشوارع الكبيرة فى القاهرة ، وأن نفتح منافذ واسعة تصل بين القلعة وأحياء المدينة ، وأن نشق طرقا بين القاهرة والنهر ، وأن نغرس الأشجار فى ميدان الأزبكية من ناحيتيه ، كما قسم الفرنسيون القاهرة إلى ثمانية أقسام تحت إشراف عدد مماثل من القادة

---

(١) يقصد به إيوان السلطان المملوكى الشهير الناصر محمد بن قلاوون الذى عمره سنة ٧٣٤ هـ — ١٣٣٣ م . أما عن نسبة منشآت القلعة إلى يوسف فقد ارتبطت ببعض المنشآت وأخذت تعلق بها فى الفترة الواقعة فيما بين ١٠٦٣ — ١١٠٤ هـ / ١٦٥٢ — ١٦٩٢ م . وهذه المنشآت هى كل من : القصر الأبلق وعرف ببيت يوسف أو قصر يوسف ، الايوان أو الديوان وعرف باسم ديوان يوسف ، بئر القلعة الشهيرة أو بئر الحلزون وعرفت باسم بئر يوسف . (المترجم) .

(٢) وفقا لما ذكره المقريزى فإن الطواشى قراقوش الأسدى وهو أحد أمراء السلطان [الناصر صلاح الدين] هو الذى أمر بحفر هذه البئر فى عام ١١٧٦ للميلاد . (رحلة عبد اللطيف ، ترجمة المسيودى ساسى ص ٢١٢)

(وهذا التقسيم هو الذى اتبع فى خريطة القاهرة[1] وشرحها) وقد مكن هذا التقسيم من البدء فى إدخال نوع من الرقابة والسيطرة الصحية فى أحياء غير صحية وعفنة ، مكتظة بسكان من السوقة ، خاصة حى اليهود ، حيث تضيق الشوارع عما هى عليه فى أى مكان آخر ، وأخيرا فقد سجلنا بدقة كل الوفيات مع تمييز نوع المتوفى حتى نتوصل لمعرفة معدل الوفيات . وقد اختفت كل هذه الإصلاحات بانتهاء الإدارة الفرنسية .

ومن الممكن تقدير عدد السكان بالقاهرة بطريقتين : إحداهما بواسطة عدد المنازل والأخرى بتعداد حالات الوفيات (وذلك فى غيبة جدول المواليد الذى ليس بحوزتنا بعد) . وبلغ الرقم النهائى الذى أمكن الوصول إليه بناء على المتابعات التى قمنا بها أثناء الحملة الفرنسية حوالى مائتين وثلاثة وستين ألف نسمة[2]، فقد كان هناك فى ذلك الوقت ستة وعشرون ألف منزل مأهول ، أما الآن (سنة ١٨١٨) فلا يوجد أكثر من خمسة وعشرين ألف منزل ، وفى بعض هذه المنازل كان يقيم تسعة أشخاص ، وفى بعضها الآخر كان يقيم عشرة أشخاص : وفى هذه الحالة الأخيرة ينبغى أن يكون عدد الأشخاص الموجودين عام ١٧٩٨ ، هو مائتان وستون ألف ساكن ، وهو ما يتطابق مع الحساب السابق . وتزدحم الشوارع التجارية قبل الظهر وبعده مما يصعب معه تكوين فكرة عنها ، وإن كان الاستنتاج مع ذلك ممكنا ، بالنظر إلى قلة اتساعها . وكان يوجد فى القاهرة أثناء الحملة ما بين ألف وأربعمائة إلى ألف وخمسمائة مقهى ، بلغ عددها الآن ألفا ومائة وسبعين ، حيث يتجمع الناس بأعداد كبيرة كل يوم يدخنون القنب ويتناولون الشربات والقهوة ، وحيث تنصت جماعات العاطلين فى متعة إلى الرواة العرب والموسيقيين . ويفترض أن بالقاهرة حوالى خمسة آلاف من الروم ، وعشرة آلاف من الأقباط ، وخمسة آلاف من السوريين ، وألفين من الأرمن ،

---

(١) انظر فيما يلى .

(٢) انظر الدراسة عن سكان مصر فى الماضى والحاضر فى الجزء التاسع من الدولة الحديثة

وثلاثة آلاف من اليهود . أما البرابرة أو النوبيون البسطاء فيوجدون فى كل مكان ، ويقومون بحراسة الأبواب ، وبهذا يشكلون بالنسبة لمصر – على هذا النحو – ما يشكله السويسريون بالنسبة لفرنسا . وأما الافرنج أو الأوربيون فيقيمون فى حى الموسكى .

وفيما يلى كيفية تقسيم السكان فى القاهرة بحسب النشاط الحرفى ، فى تعداد سنة ١٧٩٧ : حوالى عشرة آلاف وخمسمائة من العسكريين والمماليك والأوجاقلى .. الخ ، سواء القائمون بالخدمة أو بالاستيداع ، خمسة آلاف من الملاك ، ثلاثة آلاف وخمسمائة من التجار ما بين وطنى وأجنبى ، اثنان وعشرون ألفا من الصناع ما بين (أسطى) وعامل ؛ أربعة آلاف وخمسمائة من صغار تجار التجزئة ، ألف وخمسمائة من أصحاب المقاهى ، ستة وعشرون ألفا وخمسمائة من الخدم الذكور ما بين سائس وقواس وخادم وسقاء .. الخ ، ثلاثة عشر ألفا من عمال اليومية والعمال الموسميين والحمالين .. الخ ، وتتكون البقية من سيدات بالغات وأطفال من الجنسين . ووفقا لجداول الوفيات التى أعدت فى القاهرة من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠٢ يقدر متوسط عدد الذين يموتون فى العام الواحد بـ ٢٢١٤ سيدة ، ١٦٤١ رجلا ، ٤٩٧٩ طفلا ، وبذلك يكون المجموع ٨٨٣٤ شخصا .

ومع أن الطاعون لا يمارس تخريبه فى القاهرة كل عام ، فإن من النادر ألا يجتاحها مرة كل أربع أو خمس سنوات بقسوة تتفاوت حدتها . ويفلت الافرنج وحدهم من هذا الوباء الرهيب عن طريق الانعزال التام . ومن أشد نوبات الطاعون فتكا تلك التى حدثت أيام على بك وأيام إسماعيل بك . وفى عام ١٨٠١ فقدت القاهرة على مدى شهرين ما بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ شخص فى اليوم ، وبلغ عدد الوفيات من الفرنسيين فى يوم واحد نحوا من ثمانين جنديا . وتتسبب الدوسنتاريا فى موت الكثير من الأفراد ، كما يموت العديد من الأطفال بسبب الجدرى . وأكثر الأمراض انتشارا فى القاهرة هو الرمد ،

وقد بلغ انتشاره إلى حد أن ربع عدد السكان على الأقل يضعون عصابة على إحدى العينين . ويرجع الأطباء شيوع الرمد فى مصر إلى أسباب عديدة أهمها التفاوت الحاد فى درجة الحرارة (بين الظهيرة ومنتصف الليل) . وبمعنى آخر : فعلى الرغم من أن درجة الحرارة فى الليل تكون منعشة جدا إلى حد البرودة بالمقارنة مع حرارة النهار ، فإن السكان غالبا ما ينامون فى الهواء الطلق .

وفى الجزيرة الواقعة إلى الشمال من جزيرة بولاق[1] أنشأ الفرنسيون محجرا صحيا لاستكمال النظام الصحى الذى أقاموه فى الأسكندرية ، ومرة أخرى كان لابد من اختبار هذا الإصلاح الذى لا غنى عنه من أجل سلامة البلاد برغم تلك الأحكام المسبقة لدى المسلمين والقدرية المفرطة لدى المصريين .

ولا ريب فى أننا لا يمكن أن نقارن الصناعة لدى سكان القاهرة ، بمثيلتها لدى الأوربيين ، غير أننا ينبغى أن نقر أن للمصريين مهارة بالغة فى فنون عديدة خاصة ما يتصل منها بحاجتهم . فللعمال مهارة ، ولهم على وجه الخصوص خفة ملحوظة على الرغم من أنهم يعملون فى معظم الأحيان وهم جلوس ، كما أن لهم مهارة فى تطريز الجلد وصناعة الحصر الجميلة بزركشات متنوعة ، كما أنهم يعملون جلود سختيان جميلة ، ويتقنون أشغال الخشب والعاج والكهرمان . . الخ ، ويستخدمونها فى تجميل نوافذهم وأثاثهم وغلايينهم . . الخ . أما بقية حرفهم فمتواضعة ، ومن ناحية أخرى فإن الصاغة وصناع الخمور من البلح ينتمون إلى طائفة النصارى .

---

(١) ظهرت جزيرة بولاق إلى الوجود فى الطرح السادس للنيل الذى ظهر فى سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م وفى ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م ، وصرح السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالعمارة والبناء فى تلك الأراضى ، فتسابق الأمراء والأجناد والكتاب والتجار والعامة فى البناء ، وأنشأوا المنشآت العديدة المتنوعة الأغراض

وازدادت أهمية بولاق خلال العصر العثمانى نظرا لكونها ثغرا تجاريا هاما ، فضلا عما كان يقام فيها من حفلات استقبال للولاة العثمانيين الجدد إذا ما قدموا بحرا ، ومن ثم نما عمران بولاق وازداد اتساعها ، وحرص الذوات والأمراء وأعيان التجار وغيرهم على إنشاء المنشآت العديدة ، والحق أن بولاق بلغت عصرها الذهبى خلال العصر العثمانى وفى عهد محمد على والخديوى إسماعيل (المترجم)

وهذا بيان موجز بالأشياء التى يصنعونها[1] :

الخمور ، الزيت والخل ، ملح النوشادر ، قصر الأقمشة[2]، غزل ونسج الأقمشة الكتانية والحرير والصوف والساف والقطن ، اللباد والأحزمة والجدائل المزركشة ، الحصر والسلال ، الدباغة ، تجهيز المصنوعات من الجلد والسختيان ، أشغال الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، ماء الورد ، صباغة جميع أنواع المنسوجات ، التطريز ، أفران الفحم والجير والجبس ، صناعات ملح البارود ، الزجاج والآجر والفخار المعروف .. الخ ، وهذا الفن الأخير الذى حذقه أسلافهم قديما ، كأنه اليوم فى طور الطفولة . وهم يحسنون تكرير السكر ، وإن يكن بأساليب ناقصة تجعل ثمنه مضاعفا .

وما تزال تجارة القاهرة إلى اليوم بالغة الرواج رغم الانكماش القوى الذى أصابها بسبب طريق رأس الرجاء الصالح ، وهى تتبادل التجارة مع أعماق أفريقيا ومع آسيا وأوربا ، ونحصى فيها عديدا من الأسواق والمتاجر العامة أو المعارض الدائمة ، والوكالات[3] المخصصة للتجارة الخارجية والتجارة الداخلية : يوجد منها ما بين ألف ومائتين وألف وثلاثمائة وكالة ، كما أن عددا كبيرا من الشوارع التجارية تتخذ أسماءها من البضائع التى تباع بها أو تجزأ فيها . وفيما يلى أهم البضائع[4] :

أغذية نباتية :

أولاً : منتجات غذائية : حبوب ، خضر ، أعلاف ، قمح ، شعير ، أرز وحبوب أخرى ، فول ، أنواع مختلفة من الخضر والأعلاف ، بلح ، برتقال ،

---

(١) انظر الفصل الثالث ، المبحث الخامس .

(٢) أى إزالة الألوان أو تخفيفها بمسحوق كيماوى أبيض . (المترجم) .

(٣) الوكالة ، حوش كبير مستطيل الشكل ، تحيط به أروقة مسقوفة ومحلات متعددة الطوابق .

(٤) للوقوف على تفاصيل تجارة الواردات والصادرات بمصر ، انظر دراسة المسيو شابرول عن عادات سكان مصر المحدثين ، الدولة الحديثة ، المجلد ١٨ ، الصفحة الأولى وما بعدها . وكذلك دراسة المسيو جيرار عن الصناعة والتجارة والزراعة . الدولة الحديثة ، المجلد ١٧ الصفحة الأولى وما بعدها . (المجلدان الأول والرابع من الترجمة العربية – المترجم) .

ليمون ، موز ، فستق وفواكه أخرى ، زيت بذر الكتان ، زيت السمسم ، زيت الزيتون ، الخل ، الخمور ، المربى ، البن ، السكر ، العسل ، الدبس ، القرمز ، الكاشو .. الخ .

ثانيًا : الأقمشة والمنسوجات : القطن والقنب والكتان .

ثالثًا : مواد الصباغة : العفصة ، الزعفران ، النيلة ، الحناء ، الكركم ، خشب الصباغة ومواد صبغية أخرى .

رابعًا : مواد طبية : السنى ، الأفيون ، بذور السنط ، تمر هندى . . الخ .

خامسًا : مواد عطرية : روح الورد ، ماء الورد ، العنبر ، البخور ، صمغ جاوة ، الصبر ، المر .

سادسًا : بقالة وعطارة : القرنفل ، الينسون ، الصمغ ، الزعفران ، القرفة ، الصابون . . الخ .

سابعًا : أخشاب للبناء والإيقاد .

مواد ومنتجات حيوانية :

١ - المواد الغذائية :

الأسماك ، اللحوم (البقر ، الضأن ، الماعز .. الخ) الحمام ، الدجاج والفراريج[1] .

٢ - الفــراء .

٣ - مصنوعات من الوبر والجلد :

السختيان ، قرب الجمال وغيرها ، سروج الخيل والجمال والحمير والبغال . . الخ .

---

(١) تباع الفراريج التى أفرخت حديثا (بطريق التفريخ الصناعى) فى أسواق القاهرة بالوزن .

أقمشة ومنسوجات ولباد :

شيلان كشميرية ومصرية ، نسيج الكتان ، ملاءات من الهند وسوريا ومكة والقسطنطينية ، أقمشة من القطن ، الغزل ، الحرير ، وخيوط الحرير ، قطيفة ، منسوجات من صوف بلاد البربر ، جوخ وأقمشة صوفية أخرى ، أقمشة فارسية وهندية ، مصنوعات من اللباد .

مستلزمات الكساء ، سجاجيد وأغطية :

طرابيش ، برانس ، سجاد ، سجاد فارسى وغيره ، حصر .. الخ .

أشياء تستخدم فى أغراض مختلفة :

التبغ ، الغلايين ، البوص ، شمع العسل ، الخيام ، الشباك ، الجراب ، السلال ، الخزف ، مصنوعات زجاجية .. الخ .

المعادن :

القصدير ، الرصاص ، الذهب ، الفضة ، النحاس ، الحديد ، الصفيح ، الزئبق .

الأوانى المنزلية :

الأدوات النحاسية ، الطسوت ، أباريق بعروة .. الخ ، صفائح لامعة ، ورق .

صناعة الحلى والصياغة :

الحلى ، مشغولات ذهبية ، مصوغات اللآلىء ، المرجان ، الصدف ، الأحجار الكريمة .

الأملاح المعدنية :

النطرون ، ملح النوشادر ، الشب ، الكبريت ، الزاج ، البورق .

البضائع القادمة مع قوافل أفريقيا وآسيا :

ريش النعام ، سن الفيل ، العاج ، السياط ، العبيد السود من كلا الجنسين ، وبضائع أخرى مع قوافل دارفور وسنار ، العبيد من الشراكسة ومن جورجيا .. الخ .

بضائع متنوعة من أوربا والقسطنطينية :

الأسلحة .. الخ .

الحيوانات الأليفة ودواب الحمل :

الخيول ، الحمير ، البغال ، الجمال ، والجمال وحيدة السنام .

وفى وكالة «الجلابة» يباع العبيد المجتلبون من أفريقيا من كلا الجنسين ، غير أنه ينبغى معرفة أن الرق فى القاهرة ، وفى الشرق بصفة عامة ، يختلف تماما عما كان عليه عند الأقدمين ، بل وعن الرق بصورته الحالية فى بلدان أخرى . ولقد أثير هذا الموضوع فى موضع آخر ، ونحن نُذكِّر بالدراسة التى تناولته[١] .

وبالقاهرة أيضا تجارة كبيرة إلى حد ما للذهب والفضة المسكوكة ، وهى بأيدى اليهود الذين هم وحدهم الصرافون أو مبدلو العملات .

وتضرب فى القاهرة أنواع عديدة من النقود عليها على الدوام طغراء السلطان : والنقود الذهبية منها هى السكين والمحبوب والنصف سكين والربع سكين ،

(١) انظر دراسة فى عادات سكان مصر المحدثين . شابرول . الدولة الحديثة . المجلد ١٨ ص ١ وما بعدها (المجلد الأول من الترجمة العربية لوصف مصر -- المترجم) .

أما النقود الفضية فهى القطع من ٤٠ بارة ، وقطع من ٢٠ و ١٠ و ٥ بارات . وتبلغ نسبة الشوائب فى القطعة ثلث وزنها . وقد وصلت قيمة البارة فيما مضى إلى سبعة سنتيمات ونصف ، لكنها الآن فى مرحلة الهبوط ، وتوجد هناك عملات تساوى ١٢٠ و ٩٠ و ٦٠ بارة . كما يجرى التعامل بعملات عديدة أخرى من القسطنطينية وأسبانيا وهولندا والبندقية . وأكثر هذه العملات تداولا هو القرش الأسبانى والتلارى الذى له نفس القيمة(١).

ويوجد بالقاهرة قناصل لكل الدول تقريبا مثل النمسا وسردينيا وبييمونت وتوسكانيا والسويد .. الخ ، ولبعض هذه الدول توكيلات تجارية مثل فرنسا وانجلترا .

إن تاريخ مدينة القاهرة بعيد الامتداد بحيث لا يمكن عرضه هنا ، وإن كنا سنتوسع فيه فى موضع آخر . وقد بنى جوهر هذه المدينة ، حوالى عام ٩٧٠ م [٣٥٨هـ] فى عهد أول الخلفاء الفاطميين . وبنيت القلعة فى عام ١١٦٦ م [٥٧٢ هـ] على يد صلاح الدين ، الذى يرجع إليه أيضا الفضل فى حفر بئر يوسف الشهيرة . وأثرت الأسرات المختلفة التى تولت حكم مصر – منذ عمرو حتى فتح السلطان سليم فى سنة ١٥١٧ [٩٢٣هـ] – الفسطاط والقاهرة بالمساجد الرائعة . ولم يفعل العثمانيون شيئا يكاد يذكر لتجميل المدينة . وباحتلالها على يد الفرنسيين عام ١٧٩٨ [١٢١٣ هـ] ، وإخضاعها بقوة السلاح لمدة ثلاث سنوات ونصف ، فقدت المدينة عددا لا يستهان به من المنازل التى كانت تعوق الاتصال بين مركز القيادة العامة والمراكز الفرنسية الأخرى وبين القلعة . وفى هذه الفترة لم يكن لدينا وقت كاف لا لبناء شىء هام ، أو لإكمال الإصلاحات التى بدأنا فيها ، ولا لتنفيذ كل ما قد تم التخطيط له . وعند انسحاب الجيش ، روعت الحرب الأهلية والحرب الخارجية من جديد مدينة القاهرة ، بل مصر

(١) كانت قيمة كل من القرش الأسبانى والتلارى Thalari الألمانى تساوى ١٥٠ مدينى . عن الموازين والنقود راجع المجلد السادس من الترجمة العربية لوصف مصر . (المترجم) .

كلها . ومع ذلك فإن البذور التى غرست فى هذه الأرض الخصبة فى زمن الحملة الفرنسية لم تذهب سدى . ومن غير شك ، فإن الزمن بمساعدة حكومة مصلحة ، عادلة ومستنيرة ، قادر على تضميد جراح مصر ، وأن يرد إليها بعض ازدهارها ، إن لم نقل كل العظمة التى نعمت بها تحت حكم ملوكها القدامى ، وتحت حكم الملوك الأوائل من الأسرة المالكة البطلمية .

الفصل الثاني

شرح خريطة مدينة القاهرة والقلعة
مشتملا على قائمة بأسماء الأماكن بالفرنسية والعربية

تمهيد أولى

تتحدد أقسام الخريطة[1] بخط متقطع مكون من نقط طويلة حمراء . وتتوزع الأرقام الواردة على خريطة القاهرة إلى تسع مجموعات تقابل الأقسام الثمانية للمدينة فضلا عن القلعة[2]. وتتصاعد الأرقام كلما اتجهنا من اليسار إلى اليمين ، ومن أعلى إلى أسفل ، فى صفوف أفقية من المربعات ؛ وهذه المربعات تتميز جانبيا بالأحرف من A إلى Z والأرقام من ١ إلى ١٦ .

وعلاوة على الأرقام فقد تم إيراد أسماء الأماكن الرئيسية ذاتها والتى لا غنى عنها لفهم اللوحة ؛ ومع ذلك فإن هذه الأسماء مصحوبة هى أيضا بأرقام ما عدا الأسماء العامة ، مثل : سوق ، كُتّاب ، سبيل ، وكالة ، بئر ، فرن ... الخ .

ويتكرر ورود الرقم نفسه فى الأماكن المتسعة إلى حد ما ، على سبيل المثال : الشوارع ، الميادين والمبانى الكبيرة . وبصفة عامة فقد أثبتت هذه الأرقام فى وسط الحيز التى خصصت له ، وقد حدد مكان المبنى ، أو الشيء الموضح فى بعض الأحيان عن طريق (نقطة) .

ولقد لونا حدود الأقسام منعا لحدوث خلط بين الأرقام الخاصة بكل مجموعتين مختلفتين متجاورتين ؛ وفى وسط كل قسم أثبتنا رقمه بأرقام رومانية واضحة جدا .

---

(١) انظر اللوحة رقم ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

(٢) لضيق المكان على الخريطة ، فقد وضعنا كلمتى CITADELLE, EL QALA'H على أجزاء من القسمين الثامن والأول .

أما الأرقام التى تحتها خط على الخريطة فتبين أسماء الشوارع[1]. وقد صغرت هذه الخريطة إلى مقياس رسم ١ : ٥٠٠٠ نقلا عن الخريطة التى شغلت أربع عشرة ورقة ، والتى صممها المهندسون الجغرافيون باهتمام بالغ بمقياس رسم ١ : ٢٠٠٠ ، وأخضعت لعمليات مرتبطة بحساب المثلثات .

وفى هذا الشرح ، وضعت نجمة لتمييز الأماكن الواقعة خارج سور المدينة . وأحيانا تابعنا الترقيم على الجانبين المتقابلين لشارع أو لميدان تابع لقسمين مختلفين ، وذلك بسبب تجاور الأماكن والمنشآت : ولهذا السبب ، سنجد على الخريطة أرقاما معينة تابعة لمسلسل أحد الأقسام موضوعة خارج حدود هذا القسم ، وسنجد إلى يسار الأرقام داخل قائمة الأسماء إشارة إلى القسم الذى يتبعه كل من هذه الأماكن ، كما سنجد الأرقام المطبوعة . ولهذا سنجد بداخل القلعة ، وفى القسم الأول ، أرقاما من القسم الثانى ، وسنجد فى القسم الثامن أرقاما من القسم الأول ومن القلعة ، وفى القلعة أرقاما من القسم الثامن ، وفى القسم الخامس أرقاما من القسم السابع ؛ وفى القسم السادس أرقاما من القسم الخامس ؛ وفى القسم الرابع أرقاما من القسم الثالث ، وفى القسم السادس أرقاما من القسم الرابع ؛ وفى القسم الخامس أرقاما من القسم السادس .

---

(١) الرقم 5 - 42 X فى القسم الثانى لم يوضع تحته خط على الخريطة وكذلك الأرقام :

66 U - 7
67 U - 6
70 V - 6
72 U - 6
86 Y - 7
99 V - 7
154 U - 8
214 U - 9
وكذلك الرقم 140
من القسم الثالث –

– والرقم 105K-7 من القسم الخامس
لا يسغى أن يوضع تحته خط .
ولم توضع خطوط تحت الأرقام :
278 F - 8
392 B - 7
410 C - 8
428 D - 8 - 9
ولا يبعى أن يوضع حط تحت رقم 213
لأنه منزل الشيخ الحماوى .
–

– كذلك لم توضع خطوط
تحت الأرقام :
37 من القسم السادس
G - 10
174 G - 12
229 K - L - M - 12 .

ويكاد يكون من الميسور دائما أن نتعرف على هذه الأرقام بمقارنتها بالأرقام المجاورة ، وعلى سبيل المثال فإن «باب السبع حدرات» والذى يحمل رقمى ٣٠ و٢٣٣ فى تسلسل القسم الثانى ينبغى أن نبحث عنه على الخريطة داخل سور القلعة ، وكذلك الأمر بالنسبة للرقمين ٢٣٤ و٢٣٥ ... الخ .

أهم الأسماء النوعية المستخدمة
فى خريطة القاهرة

توزيع المدينة والمنشآت		
فرنسى	عربى	
Étang.	Birket,	بركة
Place.	Ouasa'h,	وَسعة
Canal.	Khalyg,	خَليج
Jardin.	Gheyt, geneyneh,	غيط ، جنينه
Puits.	Byr,	بير
Chemin.	Sekket,	سكّة
Quartier.	Hârt, khott,	حَارة ، خُط
Rue.	Derb,	دَرب
Atelier.	Doulâb,	دولاب
Petite rue et impasse. [شارع صغير وزقاق]	A'tfet,	عَطفة
Place avec des cahutes. [ساحة بها أكواخ]	Hôch,	حوش
Mosquée.	Gâma',	جامع
Petite mosquée.	Zâouyet,	زاوية
Santon, ou tombeau de cheykh.	Cheykh, madfan,	شيخ ، مدفن
Église.	Kenyseh,	كنيسه
Couvent.	Deyr,	دير
Maison.	Beyt,	بيت
Bain.	Hammâm,	حَمّام
Porte.	Bâb,	باب
Pont.	Qantarah,	قنطره
École.	Kouttâb,	كتّاب
Citerne.	Sibyl,	سبيل
Petite citerne.	Sahryg,	سهريج
Abreuvoir.	Hôd,	حوض
Fort.	Qala'h,	قلعَه
Tombeau, tombeaux.	Torbeh, tourâb,	تُربه ، تراب
Logement gratuit. [مسكن مجانى]	Tekyeh,	تكيه

(تابع) توزيع المدينة والمنشآت	
فرنسي	عربي
Maison où on ne loge pas habituellement. [بيت لا يسكن فيه المرء عادة]	Menzal, مَنزل
Auberge pour le logement seulement. [لوكاندة للإقامة فقط]	Soukkân, سكّان
Marché.	Souq, سوق
Okel.	Okâlt, وكالة
Bazar, ou foire perpétuelle. [سوق دورى]	Khân, خان

السكان ، المهن ، التجارة ... الخ	
Moghrebins.	Moghârbeh, مغاربه
Grecs.	Roum, روم
Juifs.	Yhoud, يهود
Qobtes.	Qebt, قبط
Francs.	Frang ou Afrang, فرنج او افرنج
Chrétiens.	Nasârah, نصاره
Manufacture (et aussi cuisine). [مصنع]	Matbakh, مطبخ
Fabrique.	Ma'mal, kerkhâneh, مَعمل ، كرخانه
Four.	Fourn, فُرن
Moulin.	Tâhoun, طاحون
Boucherie.	Madbah, مدبح
Tannerie.	Madâbghyeh, مدابغيه
Sellerie.	Sorougyeh, سروجيه
Four à plâtre.	Gabbâseh, حبّاسه
Four à chaux.	Gayyârah, حيّاره

(تابع) السكان ، المهن ، التجارة ... الخ	
فرنسى	عربى
Moulin à huile de sésame. طاحونة زيت السمسم	Syrgeh, سيرجه
Moulin à huile de lin. طاحونة زيت الكتان	Ma'sarah, معصرَه
Atelier de teinture.	Masbaghah, مصبغه
Brodeurs sur peau. تطريز على الجلد	El-qoubourgyeh, القبُورجيه
Orfévres.	El-syâgh, الصياغ
Apothicaires, droguistes.	El-a'ttâryn, العطّارين
Bouchers.	El-gezzâryn, الجزّارين
Forgerons.	El-haddâdyn, الحدّادين
Tourneurs.	El-kharrâtyn, الخرّاطين
Fabricans de tresses.	El-habbâkyn, الحباكيّن
Fripiers.	El-dallâlyn, الدلاّلين
Vanneurs.	El-Mogharbelyn, المُغربلين
Armuriers.	El-qoundaqgyeh, القندقجيه
Chaudronniers.	El-nahhâsyn, النحاسين
Cordonniers.	El-saramâtyn, الصرَماتين
Fourreurs.	El-farrâyn, الفرّاين

شرح خريطة القاهرة

القسم الأول

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
1.	Gâma' Soultân Hasan.	جامع سلطان حَسَن	S–6.
2.	El-Morâhlyeh.	المراحليه	T–6.
3.	Hammâm el-Choukâlyeh.	حمَّام الشكاليه	T–6.
4.	A'tfet el-Morâhlyeh.	عطفة المراحليه	T–6.
5.	El-Morâhlyeh.	المراحليه	T–6.
6.	Okâlt el-Qoumâch.	وكالة القماش	S–6.
7.	Hammâm el-Choukâlyeh.	حمَّام الشكاليه	T–6.
8.	Hôch Bardaq.	حوش بَردَق[١]	S–6.
9.	Hôch Bardaq.	حوش بردق	S–6.
10.	Sekket el-Roumeyleh.	سكة الرُميله	S–6.
11. القسم الثامن	Hammâm Bachtak. (pour les hommes).	حمَّام بشتك (للرجال)[٢]	S–6.
12. القسم الثامن	Beyt Mohammed aghâ.	بيت محمد اغا	S–6.
13.	Tekyet Qeysoun.	تكية قيسون	R–6.
14.	El-Qoubourgyeh.	القبورجيه	S–6.

(١) هو أصلا قصر الأمير قوصون الساقى ، أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون . جدده الأمير يشبك من مهدى أحد أكابر الأمراء فى عهد السلطان المملوكى الجركسى قايتباى . ثم آل إلى الأمير افردى الدوادار الكبير أحد مماليك السلطان قايتباى ، وقد حرفت العامة اسمه إلى (بردق) ، وكان هذا الحوش – بداية – اصطبلا للأمير قوصون ، ثم صار ينتقل من مالك إلى آخر حتى آل إلى ملكه ، وأخيرا اشترته والدة الخديوى إسماعيل وأنشأت فى قطعة من مساحته عدة منازل قبلى جامع السلطان حسن . (المترجم) .

(٢) ويسمى أيضا حمام مصطفى كتحدا . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
15.	Hammâm Bachtak (pour les femmes).	حمّام بشتك (للنساء)	S–6.
16.	Okâlt el-Gâmous.	وكالة الجاموس	S–7.
17. القسم الثامن	Hammâm Qeysoun (pour les femmes).	حمّام قيسون (للنساء)	R–6.
18.	Zirybet Souq el-Selâh.	زريبة سوق السلاح	R–6.
19.	Derb el-Khoddâm.	دَرب الخدّام	R–6.
20.	Souq el-Selâh.	سوق السلاح	R–6.
21.	A'tfet el-Qoubourgyeh.	عطفة القُبُورجيه	Q-R-6.
22.	Sibyl Mohammed aghâ.	سبيل محمد اغا	Q–6.
23.	Hammâm Qeysoun (bain d'hommes).	حمّام قيسون [للرجال]	Q–6.
24.	El-Qoubourgyeh.	القبورجيه	Q–7.
25.	Hârt el-Nasârah (quartier chrétien).	حارة النصاره	Q–6.
26.	Turks au milieu du quartier chrétien.	[أتراك وسط حارة النصاره]	Q–6.
27.	El-cheykh So'oud.	الشيخ سعود	Q–6.
28.	El-Moudaffer.	المُضفّر	Q–6.
29.	Sekket el-Qoubourgyeh.	سكة القُبُرجيه	Q–6.
30.	A'tfet Mohammed aghâ.	عطفة محمد اغا	Q-6-7.
31.	A'tfet Bachtak.	عطفة بشتك	Q-6.
32.	Sekket ebn A'bd-allah bey.	سكة ابن عبد الله بيه	Q–6.
33.	Sekket A'bd-allah bey.	سكة عبد الله بيه	P–6.
34.	Okâlt el-Farrâyn.	وكالة الفرايين[١]	P–5.
35.	Sekket A'bd-allah bey.	سكة عبد الله بيه	P–6.

(١) نسبة الى صانعي الفراء ، مجلدة (المترجم)

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
36.	Gâma' A'bd-allah bey.	جامع عبد الله بيه	P–6.
37.	A'tfet ebn A'bd-allah bey.	عطفة ابن عبد الله بيه	P–6.
38.	A'tfet A'bd-allah bey.	عطفة عبد الله بيه	P–6.
39.	2e demi-brigade.	[نصف اللواء الثانى]	P–6.
40.	Beyt Khalyl Bey Belefyeh.	بيت خليل بيه بلفيه	P–5.
41.	A'tfet el-Dâly Hosseyn.	عطفة الدالى حُسَين	P–6.
42.	El-Zaôuyet el-Byr.	الزاوية البير	P–6.
43.	El-Mogharbelyn.	المغربلين	O–7.
44.	Gâma' el-Ganâbqyeh.	جامع الجنابقيه(١)	O–6.
45.	A'tfet el-Ganâbqyeh.	عطفة الجنابقيه	O–6.
46. القسم الثامن	Sekket el-Mardâny.	سكة المرضانى(٢)	O–6.
47.	Zâouyet el-Cheykh Derys.	زاوية الشيخ دريس	O–6.
48.	Derb el-Ganâbqyeh.	درب الجنابقيه	O–6.
49.	Zâouyet A'bd el rahman Kykhyeh.	زاوية عبد الرحمن كيخيه	O–6.
50.(٣) القسم الثامن	Zoqâq el-Mesk.	زقاق المسك	O-N-6.
51.	El-Mogharbelyn.	المغربلين	O–6.
52.	Beyt Khalyl-Kâchef.	بيت خَليل كاشف	O–6.
53.(٤) القسم الثامن	Derb el-Ounsyeh.	درب الونسيه	O-N-6.
54.(٥) القسم الثامن	Qasabet Radouân.	قَصَبة رَضوان	N–6.

(١) الصواب : الجنابكية ، نسبة إلى حامع الأمير جانى بك الأشرفى الدوادار . (المترجم) .

(٢) الصواب : الماردانى ، نسبة إلى جامع الأمير الطنبغا الماردانى الساقى . (المترجم) .

(٣) يمتد هذا الشارع مع رقم 50 فى القسم الثامن.

(٤) يبدأ هذا الشارع عند حدود القسم الأول مع الثامن ، وينبغى أن نبحث عن رقم 53 فى القسم الثامن.

(٥) نفس الشيء بالنسبة للرقم 54.

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
55.	Beyt Ga'far kâchef.	بيت جَعفَر كاشف	T–7.
56.	Derb el-Meydâ.	درب الميضا	T–7.
57.	A'tfet Ertâl.	عطفة ارطال	T–7.
58.	A'tfet el-Noukryeh.	عطفة النُكريه	T-7-8.
59.	A'tfet el-Cheykh el-Dalâm.	عطفة الشيخ الضلام(١)	T–8.
60.	Orfèvres Qobtes.	[صاغة أقباط]	T–7.
61.	Zâouyet el-Abbâr.	زاوية الآبّار	S–7.
62.	Zâouyet Moustafâ bey.	زاوية مُصطفى بيه	S–7.
63.	A'tfet el-Cheykh el-Dalâm.	عطفة الشيخ الضلام	S-7-8.
64.	Tisserands.	[نساجون]	S–7.
65.	Sibyl ou kouttâb Ibrâhym Bey el-Ouâly.	سبيل وكتّاب ابراهيم بيه الوالى	S–8.
66.	Sekket el-Salybeh.	سكة الصليبه	S–7.
67.	Tekyet el-A'gâm.	تكية الاعجام	S–7.
68.	Gâma' el-A'gâm.	جامع الاعجام	S–7.
69.	Manâkh el-Gemâl.	مناخ الجمال	S–7.
70. 71.	Zâouyet el-Razâzyn.	زاوية الرزازين	S–7.
72.	Beyt Ibrâhym Bey el-Ouâly.	بيت ابراهيم بيه الوالى	S–8.
73.	A'tfet el-Razâzyn.	عطفة الرزازين	S–7.
74.	Qeysoun.	قيسون	R–7.
75.	Zâouyet el-Moudaffer.	زاوية المضفّر	S–7.
76.	Matbakh el-a'raqy.	مطبخ العرقى	R-7-8.
77.	Zâouyet Selym aghâ.	زاوية سليم اغا	R–8.
78.	Derb el-Hammâm.	درب الحمّام	R–8.
79.	Beyt Yousef bey.	بيت يوسف بيه	R–8.
80.	Gâma' Ahmed bey.	جامع احمد بيه	R–8.

(١) الصواب . نور الظلام . (المترجم)

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
81.	Sekket A'tfet el-ghassâl.	سكة عطفة الغسّال	R–7.
82.	A'tfet el-ghassâl.	عطفة الغسّال	R–7.
83.	Zâouyet el-Cheykh A'bd-allah.	زاوية الشيخ عبد الله	R–7.
84.	Derb Qeysoun.	درب قيسون	R–7.
85.	Gâma' el-Mâz.	جامع الماظ(١)	R–7.
86.	A'tfet el-Mâz.	عطفة الماظ	R–7.
87.	Derb el-Hammâm.	درب الحمّام	R–7.
88.	Beyt Mourâd bey.	بيت مراد بيه	Q–7.
89.	Beyt Ibrâhym bey el-Kebyr.	بيت ابراهيم بيه الكبير	Q–8.
90.	Beyt Marzouq bey.	بيت مرزوق بيه	Q–8.
91.	Hammâm Ibrâhym bey.	حمّام ابراهيم بيه	Q–8.
92.	A'tfet Mourâd bey.	عطفة مراد بيه	Q–7.
93.	Hammâm el-Doud.	حمّام الدود	Q–7.
94.	A'tfet Hammâm el-Doud.	عطفة حمّام الدود	Q–7.
95.	El-Zâouyet Mohammed aghâ.	الزاوية محمد اغا	Q–7.
96.	Sekket el-Qeysoun.	سكة القيسون	Q–7.
97.	El-Zâouyet Qeysoun.	الزاوية قيسون	Q–7.
98.	El-Qeysoun.	القيسون	Q–7.
99.	Tekyet Qeysoun.	تكيت قيسون	Q–7.
100.	A'tfet el-Henneh.	عطفة الحنّه	Q–7.
101.	Hammâm Qeysoun (Pour les hommes).	حمّام قيسون [للرجال]	P–7.
102.	Gâma' Chygânem.	جامع شيجانم(٢)	P–7.

(١) الصواب : جامع ألماس ، نسبة إلى الأمير سيف الدين ألماس الحاجب ، أحد مماليك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . (المترجم) .

(٢) الصواب : جانم ، وهو الأمير جانم البهلوان . (المترجم).

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
103.	A'tfet el-Mahkameh.	عطفة المحكمه	P–7.
104.	Okâlt el-Farrâyn.	وكالة الفرايين	P–7.
105.	Citerne.	[سبيل]	P–7.
106.	Gâma' Qeysoun.	جامع قيسون	P–8.
107.	Derb el-Aghaouât.	درب الاغوات	P–8.
108.	El-Dâoudyeh.	الداوديه	P–8.
109.	Sekket el-Dâoudyeh.	سكة الداوديه	P–8.
110.	Beyt Solymân bey el-Châboury.	بيت سليمان بيه الشابورى	P–8.
111.	Beyt Qâsim bey.	بيت قاسم بيه	P–8.
112.	El-Kheyâmyeh.	الخياميه	P-O-7.
113.	El-Aghaouât.	الاغوات	P–7.
114.	Okâlt el-Qolal.	وكالة القُلَل	P–7.
115.	El-Mogharbelyn.	المغربلين	O–7.
116.	Derb el-Haouârat.	درب الهَوّارَة	O–7.
117.	Derb el-Moghârbeh.	درب المغاربه	O–7.
118.	Sekket el-Dâoudyeh.	سكة الداوديه	O–8.
119.	Beyt Isma'yl Kykhyeh.	بيت اسمعيل كيخيه	O–8.
120.	Derb el-Mogharbelyn.	درب المغربلين	O–8.
121.	Gâma' Moustafä aghâ.	جامع مُصطفى اغا	T–8.
122.	Sekket el-Salybeh.	سكة الصَليبه	T–8.
123.	Derb el-Byr.	درب البير	U–8.
124.	Khott el-Moudaffer.	خط المدفر	T–8.
125.	A'tfet el-Arba'yn.	عطفة الاربعين	U-8-9.
126.	Sekket el-Hadarah.	سكة الخَضَرَه	U–9.
127.	Sibyl Moustafa bey.	سبيل مصطفى بيه	T–9.
128.	Kouttâb Moustafa bey.	كتّاب مصطفى بيه	T–9.
129. القسم الرابع	Sekket Birket el-Fyl.	سكة بركة الفيل	T–8.

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
130.	Hammâm el-Haryf.	حمّام الحريف	T–8.
131.	A'tfet el-cheykh el-Dalâm.	عطفة الشيخ الضلام	T–8.
132.	Gâma' el-Ma'mâr.	جامع المعمار	T–8.
133.	Sekket Birket el-Fyl.	سكة بركة الفيل	T–9.
134.	Santon.	[ضريح]	T–9.
135.	Sibyl Ahmed Kâchef.	سبيل احمد كاشف	T–8.
136. القسمان الأول والثالث	Birket el-Fyl(1)	بركة الفيل	T-8-9.
137.	Sekket el-cheykh el-Dalâm.	سكة الشيخ الضلام	T–8.
138.	El-cheykh el-Dalâm.	الشيخ الضلام	S–8.
139.	Sibyl O'mar Kâchef.	سبيل عَمَر كاشف	S–8.
140.	Zâouyet el-cheykh el-Dalâm.	زاوية الشيخ الضلام	S–8.
141.	Derb el-cheykh el-Dalâm.	درب الشيخ الضلام	S–8.
142.	Beyt Ibrâhym bey el-Ouâly.	بيت ابراهيم بيه الوالى	S–8.
143.	Okâlt el-Baouâb.	وكالة البوّاب	P–8.
144.	Beyt Qâsim bey.	بيت قاسم بيه	P–8.
145.	Zâouyet el-Arba'yn.	زاوية الاربعين	O–8.
146.	A'tfet el-Arba'yn.	عطفة الاربعين	O–8.
147.	Okâlt el-Baouâb.	وكالة البوّاب	O–8.
148.	Hârt el-Dâoudyeh.	حارة الداوديه	O-P-8.
149.	A'tfet Nâyl.	عطفة نايل	O–8.
150.	A'tfet el-Dâoudyeh.	عطفة الداوديه	O–8.
151.	Hârt el-Sa'ydeh.	حارة الصعايده	O–8.

(١) انظر الرقم 16 ، القسم الثالث .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
152.	Tisserands.	[نساجون]	O–8.
153.	Gâma' el-Dâoudyeh.	جامع الداوديه	O–8.
154.	El-Madâbegh.	المدابغ	O–8.
155.	Madâbegh el-Dâoudyeh.	مدابغ الداوديه	O–8.
156.	Souq el-A'sfour.	سوق العصفور	O-8-9.
القسم الثامن			
157.	Beyt Mohammed aghâ.	بيت محمد اغا	Q–7.
158.	Sibyl O'mar Châouyeh.	سبيل عمر شاويش	O–8.
159.	Zâouyet el-Mensy.	زاوية المنسى	O–8.
160.	Hârt el-Madâbegh.	حارة المدابغ	O–8.
161.	A'tfet el-Taouaqgyeh.	عطفة الطوقجيه	N–8.
162.	Sekket Souq el-A'sr.	سكة سوق العصر	N–8.
163.	A'tfet el-Dahdeyreh.	عطفة الضحضيره	N–8.
164.	Hôch el-Byr.	حوش البير	O–9.
165.	A'tfet Zeytoun.	عطفة زيتون	O–9.
166.	A'tfet Safar.	عطفة صفر	O–9.
167.	El-Maghleh.	المغله	O–9.
168.	Gâma el-E'mary.	جامع العمرى	O–9.
169.	Souq el-A'sr.	سوق العصر	N–9.
170.	Gâma' el-cheykh Na'mân.	جامع الشيخ نعمان	N–9.
171	Derb el-Fouâkhyr.	درب الفواخير	N–9.
172.	Tisserands.	[نساجون]	N–9.
173.	Beyt A'bd el-Rahman aghâ.	بيت عبد الرحمن اغا	N–9.
174.	Sibyl Ibrâhym Kykhyeh.	سبيل ابراهيم كيخيه	N–8.
175.	Boutiques de fripiers et de marchands de fer.	[محلات الرثاث وتجار الحديد]	N–8.
176.	A'tfet el-cheykh Batykha.	عطفة الشيخ بطيخه	N–9.

القسم الثانى

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
1.	El-Soultânyeh.	السلطانيه	X–3.
2.	Gâma' el-Soultân Qeysoun.	جامع السلطان قيسون	X–3.
3.	El-Mesyhayeh.	المسيحيه	X–3.
4.	Hôd A'bd el-Rahman Kykhyeh.	حوض عبد الرحمن كيخيه	X–3.
5.	Bâb A'rab el-Ysâr b-el-Gyouchy.	باب عرب اليصار بالجيوشى(١)	X–3.
6.	Gâma' el-Ghoury.	جامع الغورى	X–4.
7.	El-Cheykh el-ouizyr.	الشيخ الوزير	Z–4.
8.	Zâouyet Nâyb Giddeh.	زاوية نايب جدّه(٢)	Z–4.
9.	Gâma' el-Qadryeh.	جامع القَدريه(٣)	Z–4.
10.	A'rab Qoreych.	عرب قُريش	Z–4.
11.	Gâma' Qâyd bey.	جامع قايد بيه(٤)	Z–5.
12.	Tourab el-imâm.*	تُرَب الامام	Z–5.
13.	Hôd, Sibyl, Kouttâb, ou abreuvoir, citerne et école.	حوض سبيل وكتّاب	Y-Z-4.
14.	El-Ouercheh.	الورشه	U–2.

(١) هى عرب يسار . (المترجم).

(٢) يقصد تربة جانى بك نائب جدة بشارع القادرية بالسيدة عائشة ، التى لم يتبق منها سوى المدخل وبعض الأجزاء الأخرى . (المترجم).

(٣) يقصد به زاوية زين الدين يوسف بشارع القادرية . (المترجم).

(٤) النطق الأصلى هو قايتباى . (المترحم).

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
15.	Bâb el-Qarâfeh.	باب القرافه	Y–4.
16.	Sibyl el-Naqâch.	سبيل النقاش	Y–4.
17.	Sibyl ou Zâouyet el-Ouhech.	سبيل وزاويه الوحَش	Y–4.
18.	Sibyl Qâyd bey.	سبيل قايد بيه	Y–4.
19.	El-cheykh el-Qetây.	الشيخ القتاى	X–4.
20.	Gâma' el-Mesyhayeh.	جامع المسيحيه(١)	X–4.
21.	Sibyl el-Mesyhayeh.	سبيل المسيحيه	X–4.
22.	Bâb A'rab l-Ysâr.	باب عرب اليصار	X–4.
23.	Marché.	[سوق]	X–4.
24.	A'rab l-Ysâr.	عرب اليصار	X–4.
25.	A'rab l-Ysâr.	عرب اليصار	V–4.
26.	El-cheykh A'bd-allah.	الشيخ عبدالله	X–4.
27.	Bâb A'rab l-Ysâr be-Qârameydân.	باب عرب اليصار بقراميدان	V–4.
28.	Moustabet el-bâchâ.	مُصطبة الباشا	V–4.
29.	Qarâmeydân.	قراميدان	V–5.
30. القلعة	Bâb el-Saba' Hadarât.	باب السبع حَضَرات	V–4.
31.	Gâma' el-Zoumour.	جامع الزمر	Z–5.
32.	Hôd A'bd el-Rahman Kykhyeh*.	حوض عبد الرحمن كيخيه	Z–5.
33.	Cahutes.	[أكواخ]	Y–5.
34.	Derb el-Zorâyb	درب الزرايب(٢)	X–5.
35.	Zâouyet A'ly el-Gyzy.	زاوية على الجيزى(٣)	X–5.

(١) يقصد به جامع مسيح باشا والى مصر من قبل السلطان مراد بن السلطان سليم الثانى ، ويعرف الآن بجامع المسيح . (المترجم) .

(٢) هو المعروف بشارع القبر الطويل ويبدأ من عند جامع السيدة عائشة النبوية وينتهى عند شارع الأشرف قرب جامع السيدة نفيسة . (المترجم) .

(٣) الصواب : زاوية على الجميزى . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
36.	Mosquée.	[مسجد]	X–5.
37.	Gâma' Sitty A'âycheh el-Nabaouyeh.	جامع ستى عايشه النَبويه	X–5.
38.	Derb el-Qotâneh.	درب القُطانه	X–5.
39.	Derb el-Naggâr.	درب النجار	X–5.
40.	Derb Ghouzyeh.	درب غزيه	X–5.
41.	Derb el-Habbâleh.	درب الحبّاله	X–5.
42.	Derb Taht el-Sour.	درب تحت الصور	X–5.
43.	Gâma' el-Bourdeyny.	جامع البرديني	X–5.
44.	Bâb Qarâmeydân.	باب قراميدان	V–5.
45.	Taht el-Sour.	تحت الصور	U–6.
46.	Gâma' Seyd E'nân.	جامع سيد عنان	V–6.
47.	Derb el-Habbâleh.	درب الحباله	V–6.
48.	El-cheykh Cha'eyb.	الشيخ شعيب	V–6.
49.	Gâma' el-Baqly.	جامع البَقلى	V–6.
50.	Derb el-Habbâleh.	درب الحباله	V–6.
51.	Tourab el-Saydeh.*	ترب السيده	Y–Z–5.
52.	Khott el-Saydeh, ou quartier Essayd.*	خُط السيده	Y–6.
53.	Bâb el-Seydeh om Qâsem.	باب السيده ام قاسم	Y–7.
54.	Sibyl el-Qabr el-Taouyl.	سبيل القبر الطويل	Y–6.
55.	Gâma' el-Farghal.	جامع الفرغل	Y–6.
56.	Hârt el-Zorâyb.	حارة الزُرايب	Y–6.
57.	Gâma' el-Younâa'y.	جامع الينّاعى	Y–6.
58.	Zâoyet Derb Ghouzyeh.	زاوية درب غزيه	X–6.
59.	Derb el-cheykh Kichk.	درب الشيخ كشك	X–6.
60.	Derb Ghouzyeh.	درب غُزيه	X–6.
61.	El-Qabr el-taouyl.	القَبر الطويل	Y–6.
62.	El-Baqly.	البقلى	X–6.

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
63.	Derb Hoch el-Khaoual.	درب حوش الخول	X–6.
64.	Hoch, ruines.	حوش	X–7.
65.	Zâouyet Bahloul.	زاوية بهلول	V–7.
66.	Derb el-Hosr.	درب الحُصر	U–7.
67.	A'tfet Qarâhouseyn.	عطفة قراحسين	U–6.
68.	Derb el-Baqly.	درب البقلى	V–6.
69.	Gâma' Regab Tchalaby.	جامع رجب جَلَبى	U–6.
70.	A'tfet el-Serkasé.	عطفة السركسى	V–6.
71.	Gâma' el- Serkasé.	جامع السركسى	U–6.
72.	Derb el-Heloué.	درب الحلوى	U–6.
73.	Okâlt el-Kittân.	وكالة الكتان	U–6.
74.	Gâma' Hoch Qadam.	جامع حوش قَدَم	U–6.
75.	Rouqa't el-Qamh.	رقعة القمح	U–6.
76.	Souq el-Ferâkh.	سوق الفراخ	U–6.
77.	Gâma' el-Moumenyn.	جامع الممنين(١)	U–6.
78.	Blé.	[قمح]	U–6.
79.	Halles.	[أسواق]	U–6.
80.	Hammâm Qarâmeydân.	حمّام قراميدان	U–5.
81.	Gâma' el-Saydeh.	جامع السيده	Z–7.
82.	Bâb el-Saydeh.	باب السيده	Z–7.
83.	Dôme de la mosquée el-Saydeh.	[قبة جامع السيدة]	Y–7.
84.	Bâb el-Gabbâseh.	باب الجبّاسه	Y–7.
85.	Gâma' el-Echrof.	جامع الشرف(٢)	Y–7.

(١) الصواب . هو مصلى وسبيل المؤمنى نسبة إلى الأمير بكتمر المؤمنى أمير آخور السلطان الأشرف شعبان بن حسين ، المتوفى ٧٧١هـ / ١٣٦٩م ، وقد توالت عليه التجديدات والإضافات إلى أن أمر السلطان الأشرف قانصوه الغورى بعمارته عمارة حافلة سنة ٩٠٩هـ ، ومن ثم نسب إليه وعرف أحيانا بجامع الغورى . (المترجم)

(٢) الصواب : جامع الأشرف نسبة إلى الملك الأشرف قانصوه الغورى . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
86.	Derb el-Seydeh om Qâsem.	درب السيده أم قاسم	Y–7.
87.	El- Balâseh.	البلاسى	X–7.
88.	Tuerie de moutons.	مجزره [خراف]	X–7.
89.	Bâb el-Madbah.	باب المدبح	Y–7.
90.	Sibyl ou kouttâb Sitty Reqayeh.	سبيل ستى رقيه	X–7.
91.	Derb el-Khalyfeh.	درب الخليفه	V–7.
92.	Derb el-Masdoud.	درب المسدود	X–7.
93.	Gâma' el-Nouar.	جامع النوَر	X–7.
94.	Hammâm Sitty Sekyneh.	حمّام ستى سكينه	X–7.
95.	Hoch el-Saydeh.	حوش السيده	X–7.
96.	Okel pour les bouchers.	[وكالة للجزارين]	V–7.
97.	Gâma' Sitty Sekyneh.	جامع ستى سكينه	X–7.
98.	Okâlt el-Dabah.	وكاله الدبح	V–7.
99.	Derb el-Ekrâd.	درب الاكراد	V–7.
100.	Souq el-Ghanam.	سوق الغَنَم	V–7.
101.	El-Khodâryeh.	الخُضاريه	V–7.
102.	Sibyl A'ly Kykhyeh.	سبيل على كيخيه	V–7.
103.	Bâch Ikhtyâr.	باش اختيار	V–7.
104.	Derb el-Roukbyeh.	درب الرُكبيه	V–7.
105.	Okel pour les teintures.	[وكالة للصباغين]	V–7.
106.	Derb Sabyh.	درب صَبيح	U–7.
107.	Beyt Moustafa Chorbagy.	بيت مُصطفى شربجى	V–7.
108.	Beyt Moustafa Chorbagy.	بيت مصطفى شربجى	V–7.
109.	Sibyl el-Tablytah.	سبيل الطبليطه	U–7.
111.[(١)]	Beyt O'smân effendy.	بيت عثمان افندى	U–7.

(١) الرقم 110 ملغى .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
112.	El-Roukbyeh.	الرُكبيه	U–7.
113.	Derb el-Salybeh[1]	درب الصَليبه	U–7.
114.	Sy-Gouhar.	سى جوهر	U–7.
115.	Hammân el-Salybeh.	حمَّام الصليبه	T–7.
116.	Hammâm el-Nesouân b-il-Salybeh.	حمَّام النسوان بالصليبه	U–7.
117.	Hammâm el-Salybeh.	حمَّام الصليبه	U–7.
118.	Maisons abandonnées.	[منازل مهجورة]	U–7.
119.	Kharâbet Mansour.	خرابة منصور	U–7.
120.	Marché aux poissons.	سوق السَمَك	T–7.
القسم الأول			
121.	Gâma' cheykhoun.	جامع شيخون	U–7.
122.	Gâma' el-Mahmedeh.	جامع المحمده[٢]	T–7.
123.	Sibyl Qâyd bey.	سبيل قايد بيه	T–6.
124.	Sibyl Qâyd bey.	سبيل قايد بيه	T–6.
125.	Sibyl Qâyd bey.	سبيل قايد بيه	T–6.
126.	El-Habbâleh.	الحَباله	T–6.
127.	El-Hosryeh.	الحُصريّه	T–6.
128.	Marché et cafés.	[سوق ومقاهى]	T–6.
129.	Sibyl el-Motoually.	سبيل المتولى	T–5.
130.	Okel pour les ânes.	وكالة الحمير	T–5.
131.	Sibyl Ahmed kâchef.	سبيل احمد كاشف	T–8.
الثامنة			
132.	A'tfet el-Fourn.	عطفة الفرن	X–8.
133.	Grand four.	فرن كبير	X–8.

(١) كتب على الخريطة خطأ Saly bey

(٢) الصواب . جامع قايتباى المحمدى بالصليبة ٨١٦هـ (المترجم)

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
134.	Hârt el-A'byd.	حارة العبيد	X–8.
135.	Derb el-Sâyegh.	درب السايغ	V–8.
136.	Souq el-Moghârbeh.	سوق المغاربه	V–8.
137.	Okâlt el-Moghârbeh.	وكالة المغربه	X–8.
138.	Okâlt el-Milâyât.	وكالة الملايات	V–8.
139.	Khommârah Teyloun.	خمّارة طيلون	X–8.
140.	Derb el-Masbagh.	درب المسبغ[1]	X–9.
141.	Hârt el-Esqof.	حارة السقف[2]	X–9.
142.	Okâlt el-A'moud.	وكالة العامود	V–9.
143.	Beyt Ga'far kâchef.	بيت جعفر كاشف	V–8.
144.	Souq el-Moghârbeh.	سوق المغاربه	V–8.
145.	Gaf'ar kâchef.	جعفر كاشف	V–8.
146.	Gâma' Teyloun ou Touloun.	جامع طيلون او طلون	V–9.
147.	El-Zyâdeh.	الزياده[3]	V–9.
148.	Byr el-Otâouyt.	بير الوطاويط	U–8.
149.	Zâouyet Kouhyeh.	زاوية كوحيه[4]	U–8.
150.	École.	[كتاب]	V–8.
151.	Sibyl el-Chorafâ.	سبيل الشُرَفا	U–8.
152.	A'tfet Byr el-Otâouyt.	عطفه بير الوطاويط	U–8.
153.	Quartier de Teyloun.	[حى] طيلون	U–8.
154.	A'tfet Gin A'ly.	عطفة جن على	U–8.
155.	Sibyl Hasan Kykhyeh.	سبيل حَسَن كيخيه	U–8.
القسم الأول 156.	A'tfet el-Arba'yn.	عطفة الاربعين	U–8.
157.	Marchands de ceintures.	[تجار أحزمة]	U–7.

(١) الصواب : درب المصبغة . (المترجم) .
(٢) الصواب : الأسقف . (المترجم) .
(٣) هو شارع الزيادة خلف جامع ابن طولون . (المترجم) .
(٤) هى الجامع المعروف بجامع أحمد بك كوهية . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
158.	Hârt el-Nasârah.	حارة النصاره	X–9.
159.	El-E'mary.	العمَرى	X–9.
160.	El-cheykh el-E'mary.	الشيخ العمَرى	X–9.
161.	Derb el-Hommousâny.	درب الحُمَصانى	X–9.
162.	A'tfet el-Gemmâleh.	عطفة الجمَاله	X–9.
163.	Bâb Teyloun.	باب طيلون	X–9.
164.	El-Khoukhat b-el-Kabch.	الخوخة بالكبش	V–9.
165.	Hoch el-Fyl.	حوش الفيل	V–9.
166.	Derb el-Teylouny.	درب الطيلونى	V–9.
167.	Qartier de Qala't el-Kabch.	[حى] قلعة الكبش	V–10.
168.	Fabrique de nattes.	[ورشة حصر]	V–10.
169.	Okâlt el-Hosr.	وكالة الحصر	V–10.
170.	Derb Heydar.	درب حيضَر	V–10.
171.	Gabbâseh.	جبَاسه	U–10.
172.	Four à plâtre.	[فرن للجبس]	U–10.
173.	Sibyl Serkas.	سبيل سركَس	V–10.
174.	Hoch Serkas.	حوش سركس	U–10.
175.	A'tfet el-Zyâdeh be-Touloun.	عطفة الزياده بطلون	U–9.
176.	Souq el-Khodâryeh, marché aux herbes.	سوق الخضاريه	U–9.
177.	A'tfet Yousef aghâ.	عطفة يوسف أغا	U–9.
178.	A'tfet el-Baqâryeh.	عطفة البقاريه	U–9.
179.	Sekket el-Khodeyry.	سكة الخُضيرى	U–9.
180.	Hammâm el-Bâbâ.	حمَّام البابا	U–9.
181.	Sekket el-Khodeyry.	سكة الخُضيرى	U–9.
182.	Hod el-Kheyl.	حوض الخيل	U–9.
183.	Gâma' Yezbak.	جامع يُزبك(١)	U–9.

(١) هو جامع أزبك نسبة إلى الأمير أزبك اليوسفى . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
184.	El-cheykh el-Arbâyn.	الشيخ الاربعين	T–9.
185.	Beyt Moustafa bey.	بيت مصطفى بيه	T–9.
186.	Hammâm Moustafa bey.	حمّام مصطفى بيه	T–9.
187.	A'tfet el-Khodeyry.	عطفة الخضيرى	U–9.
188.	A'tfet el-Hammâm.	عطفة الحمّام	U–9.
189.	Beyt O'mar kâchef.	بيت عُمَر كاشف	U–9.
190.	Beyt Moustafa bey.	بيت مصطفى بيه	T–9.
191.	Beyt Moustafa aghâ Ogaqly.	بيت مصطفى اغا وجقلى	T–9.
192.	Beyt Bekyr bey.	بيت بكيربيه	T–10.
193.	Jardins.	[حدائق]	T–9.
194.	Porte de la maison de Bekyr bey.	باب بيت بكير بيه	U–9.
195.	Hammâm Moustafa bey.	حمّام مصطفى بيه	T–9.
196.	Gâma' el-Qalmy.	جامع القَلمى	X–10.
197.	Derb el-Qatâya'h.	درب القطايعه	V–10.
198.	Derb el-Sâqyeh.	درب السَاقيه	V–10.
199.	Gâma' Qâyd bey.	جامع قايد بيه	V–10.
200.	Derb el-Taneyfyeh.	درب التنيفيه	V–10.
201.	Qala't el-Kabch.	قَلعة الكَبش	V–10.
202.	Sibyl Sâleh bey.	سبيل صالح بيه	V–10.
203.	Beyt O'smân bey el-Tanbourgy.	بيت عثمان بيه الطنبورجى	U–10.
204.	Gâma' el-Mousalleh.	جامع المُصَلّه	U–11.
205.	Beyt Yahyâ bey.	بيت يحيا بيه	U–11.
206.	Sekket el-Mousalleh.	سكة المُصَلّه	U–11.
207.	Hoch Ayoub bey.	حوش ايوب بيه	V–11.
208.	Tisserands.	[نساجون]	V–11.

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
209.[٢]	Mastabet Fara'oun.	مصطبة فَرَعون[١]	V–10.
210.	Gâma' Teyloun ou Touloun.	جامع طيلون اوطلون	V–9.
211.	Sitty A'ycheh el-Yemny.	ستى عايشه اليمنى	U–9.
212.	Gâma' Qaouâm el-Dyn.	جامع قَوام الدين	U–9.
213.	El-Khodeyry.	الخُضَيرى	U–9.
214.	A'tfet el-Zyâdeh.	عطفة الزياده	U–9.
215.	El-Khodâryeh.	الخُضاريه	U–9.
216.[٣]	El-Hadarah.	الحَضَرَه	U–8.
217.	El-Salybeh.	الصَليبه	U–8.
218. القسم الأول	Souq el-Salybeh.	سوق الصَليبه	T–7.
219. القلعة	École.	كتاب	T–7.
220.	Derb el-Samâkyn.	درب السماكين	T–7.
221. القسم الأول	Souq el-Samak.	سوق السمك	T–7.
222. القسم الأول	Sibyl Yousef Koutkhouda.	سبيل يوسف كتُخدَى	T–7.
223.	El-Morâhlyeh.	المُراحليه	T–6–7.
224.	Sibyl Hoch Qadam.	سبيل حوش قَدَم	U–6.
225.	Sibyl Hasan Koutkhouda.	سبيل حَسَن كتُخدَى	U–7.
226.	El-A'yâdyeh.	العياديه	U–6.
227.	Okel où se vend le blè, ainsi que d'autres grains.	[وكالة لبيع القمح وحبوب أُخرى]	U–6.

(١) هى فى الواقع عباره عن سور مربع من الحجر ، وهذا الاسم من إطلاق العامة كما ورد فى بعض المصادر . (المترجم) .

(٢) كان ينبغى أن يوضع رقم 209 على مجموعة المبانى إلى جانب رقم 201

(٣) وضع هذا الرقم خطأ على الخريطة ويجب استبداله برقم 218 .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
228. القسم الأول	El-Roumeyleh, place et rue de ce nom.	الرُميله [ميدان وشارع بنفس الاسم]	T–6.
229. القسم الأول	Gâma' Cheykhoun.	جامع شيخون	T–7.
230. القلعة	Bâb el-Kebyr.	باب الكبير	T–5.
231. القلعة	Bâb el-Soghayr.	باب الصغير	T–5.
232. القلعة	Maisons.	[منازل]	T–5.
233. القلعة	Bâb el-Saba' Hadarât.	باب السبع حضرات	U–4.
234. القلعة	Porte de secours.	[باب النجدة]	U–4.
235. القلعة	Zâouyet el-Arba'yn.	زاوية الاربعين	U–4.
236.	Kymân Teyloun ou Touloun*.	كيمان طيلون	Z–10.
237.	Fort Muireur*.	[حصن مويرور]	Y–10.
238.	Birket Touloun*.	بركة طلون	V–10.

القسم الثالث

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
1.	Sekket Birket el-Fyl.	سكة بركة الفيل	S–9.
2.	Beyt Radouân kykhyeh.	بيت رضوان كيخيه	S–9.
3.	Beyt cheykh Sâdât.	بيت الشيخ السادات	S–9.
4.	A'tfet el-Sâdât.	عطفة السادات	S–9.
5.	Gâma' Seyd Danyan.	جامع سيد دنين	S–9.
6.	Khott el-Hanafy.	خط الحَنَفى	T–9.
7.	Beyt Qâsim bey.	بيت قاسم بيه	T–9.
8.	A'tfet Hammâm Kouloughly ou Koulâghly.	عطفة حمَّام كولاغلى[١]	S-9-10.
9.	Beyt O'smân bey el-Achqar.	بيت عثمان بيه الاشقر	R–9.
10.	A'tfet el-Sâdât.	عطفة السادات	S–9.
11.	Hammâm Kouloughly.	حمَّام كولوغلى	S–9.
12.	Zâouyet Sofyeh Khâtoun.	زاوية صوفيّه خاتون	S–9.
13.	Zâouyet el-Arba'yn.	زاوية الاربعين	S–9.
14.	A'tfet el-Nabqah.	عطفة النبقه	S–10.
15.	Gâma' Qarâ Qogeh.	جامع قراقوجه[٢]	R–10.
16.[٣]	Ouasa't Birket el-Fyl.	وسعت بركة الفيل	Q-R-9.
17.	Beyt Qâsim bey.	بيت قاسم بيه	P–8.
18.	Sekket el-Habbânyeh.	سكة الحبّانيه	P–8.
19.	Gâma' el-Sa'yd.	جامع السعيد	P–9.

(١) الاسم كما كتب بالحروف الفرنسية هو (كولوغلى أو كولاغلى) والصواب هو حمام الكروغلى . (المترجم) .

(٢) نسبة إلى الأمير قراقجا الحسيني الطاهرى وهو كائن بدرب الحمامير (المترجم) .

(٣) انظر الرقم 136، القسم الأول .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
20.	Beyt O'smân bey el-Tanbourgy.	بيت عثمان بيه الطنبورجى	P–9.
21.	Sibyl el-Habbânyeh.	سبيل الحبّانيه	P–10.
22.	Beyt Ayoub bey.	بيت ايوب بيه	P–9.
23.	Beyt el-Oukyl.	بيت الوكيل	P–9.
24.	Tekyet el-Habbânyeh.	تكية الحبّانيه	P–9.
25.	Sibyl soultân Mahmoud.	سبيل سلطان محمود	P–9.
26.	Zâouyet el-Hendy.	زاوية الهندى	P–9.
27.	Del' el-Samak.	ضلع السمك(١)	O–9.
28.	Qantarat el-Gedyd.	قنطرة الجديد(٢)	O–9.
29.	Zâouyet Sitty Dourry.	زاوية ستى ضُرّى	O–10.
30.	Beyt Hasan Kâchef.	بيت حسن كاشف	T–10.
31.	Beyt Qâsim bey Ibrâhym.	بيت قاسم بيه ابراهيم	T–10.
32.	A'tfet Chaq el-E'rseh.	عطفة شق العرسه	T–10.
33.	El-Leboudyeh.	اللبوديه	T–11.
34.	Petite mosquee.	[مسجد صغير]	S–10.
35.	A'tfet el-Hattâbeh.	عطفة الحطابه	S–11.
36.	Zâouyet el-Arba'yn.	زاوية الاربعين	S–10.
37.	Gâma' Neqyb el-Geych.	جامع نقيب الجيش	S–10.
38.	A'tfet el-Rouzmângy ou Rouznâmgy.	عطفة الرُزمَانجى اوروزنامجى	S–10.
39.	Souq el-Soghayr.	سوق الصغير	S–10.
40.	Gâma' el-Kourdy.	جامع الكردى	S–10.
41.	Zâouyet el-Oukyl.	زاوية الوكيل	S–10.
42.	A'tfet Mahsen.	عطفة محسن	S–10.
43.	A'tfet el-Hânout.	عطفة الحانوت	S–10.

(١) يقصد به شارع ضلع السمكة . (المترجم) .
(٢) الصواب : القنطرة الجديدة . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
44.	A'tfet Lâchyn.	عطفة لاشين	R–10.
45.	A'tfet el-Faggâleh.	عطفة الفجّاله	R–10.
46.	Derb el-Gammâmyz.	درب الجمّاميز	R–10.
47.	Qantarat Derb el-Gammâmyz.	قنطرة درب الجمّاميز(١)	R–10.
48.	Hammâm Derb el-Gammâmyz.	حمّام درب الجمّاميز	R–10.
49.	Okâlt el-Farrâyyn.	وكالة الفرايين	R–10.
50.	Derb el-Gammâmyz.	درب الجمّاميز	R–10.
51.	Hasan kâchef.	حسن كاشف	R–10.
52.	Hoch Ibrâhym bey.	حوش ابراهيم بيه	R–10.
53.	Zâouyet el-Ghourabeh.	زاوية الغُرَبه	R–10.
54.	Gâma' Bachtak.	جامع بشتك	R–10.
55.	A'tfet Moustafâ bey.	عطفة مصطفى بيه	R–11.
56.	A'tfet el-Geridly.	عطفة الجَردلى	Q-R-10
57.	A'tfet el-Samak.	عطفة السمك	Q–10.
58.	Hârt el-Nasârah. chrétiens.	حارة النصارَه	Q–10.
59.	Ouvrages en soie, en koreych.	شغل كُريشه حرير	Q–10.
60.	A'tfet Derb el-Hagar.	عطفة درب الحَجَر	Q–11.
61.	A'tfet el-Oustâ.	عطفة الاوسطا	Q–10.
62.	A'tfet Rouzq Allah.	عطفة رزق الله	Q–10.
63.	Khalyg Hârt el-Nasârah.	خليج حارة النصارَه	Q–10.
64.	Beyt Ibrâhym Kykhyeh.	بيت ابراهيم كيخيه	Q–10.
65.	Beyt Sâleh bey.	بيت صالح بيه	Q–10.
66.	El-Habbânyeh.	الحبّانيه	Q–10.

(١) هى فى الأصل قنطرة طقز دمر ، وهو الأمير طقز دمر الحموى نائب السلطنة بديار مصر ودمشق . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
67.	A'tfet el-Bazbouz.	عطفة البَزبوز	Q–10.
68.	A'tfet el-cheykh Khalef.	عطفة الشيخ خلف	Q–10.
69.	Qantarat Sounqor.	قنطرة سُنقُر	P–10.
70.	Hammâm Sounqor.	حمّام سُنقُر	P–10.
71.	Derb el-Hagar.	درب الحجر	P–10.
72.	Sibyl A'ly aghâ.	سبيل على اغا	P–11.
73.	Gâma' A'ly aghâ.	جامع على اغا	P–11.
74.	A'tfet el-Seyd Ibrâhym el-Sârem.	عطفة السيد ابراهيم الصارم	P–10.
75.	Zâouyet el-Seyd Ibrâhym el-Sârem.	زاوية السيد ابراهيم الصارم	P–10.
76.	Derb el-Bagamoun.	درب البجمون	P–10.
77.	Okâlt el-Khelouety.	وكالة الخلوَتى	P–10.
78.	Sibyl el-Khelouety.	سبيل الخلوتى	P–10.
69.	Gâma' el-Khelouety.	جامع الخلوتى	P–10.
80.	Sekket el-Khelouety.	سكة الخلوتى	O-P-10.
81.	A'tfet el-Moqaddem.	عطفة المُقَدّم	P–10.
82.	A'tfet Sitty Mar Habeh.	عطفة ستى مرحبه	P–10.
83.	El-Cheykhah Sitty Mar Habeh.	الشيخَه ستى مرَحبه	P–10.
84.	A'tfet el-cheykh Moubârek.	عطفة الشيخ مبارَك	O-p-10.
85.	Gâma' el-Qemry.	جامع القمرى[1]	O–10.
86.	Derb el-Melâqfyeh.	درب الملاقفيه	O-10-11.
87.	A'tfet el-Melâqfyeh.	عطفة الملاقفيه	O–11.
88.	A'tfet el-Balâtah.	عطفة البلاطَه	O–10.
89.	Chaq el-Ta'bân.	شق التعبان	O–10.
90.	Khalyg el-Khelouety.	خليج الخلوتى	P–10.

(١) يعرف أيضا بجامع حسين باشا أبى اصبع الذى نسب اليه بعد أن قام بتجديده . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
91.	Beyt A'bdyn bey.	بيت عبدين بيه	O–10.
92.	Gâma' A'bd el-Rahman Kykhyeh.	جامع عبد الرحمن كيخيه	O–10.
93.	A'tfet el-Roubât.	عطفة الرُباط	O–10.
94.	Dépendant du quartier dit el-Hanafy.	الحنفى	U–11.
95.	Beyt Solymân bey.	بيت سليمان بيه	U–12.
96.	Souq el-Kebyr.	سوق الكبير	U–12.
97.	Sibyl O'smân bey.	سبيل عثمان بيه	U–11.
98.	Zâouyet el-Kykhyeh.	زاوية الكيخيه	U–11.
99.	Hammâm Qanâter el-Sebâa'.	حمّام قناطر السباع	U–12.
100.	Derb el-Chams.	درب الشمس	T–11.
101.	Sekket el-Syrgeh.	سكة السيرجه	U-11-12.
102.	Derb el-Khaouâgeh.	درب الخواجه	T-U-11-12.
103.	A'tfet el-Gamel.	عطفة الجمل	T–12.
104.	Gâma' el-Bahloul.	جامع البهلول(١)	T–11.
105.	Qantarat el-A'marcheh.	قنطرة عمرشه(٢)	T–11.
106.	Zâouyet Abou Koullech ou Koulles.	زاوية ابو كلش	T–11.
107.	El-A'marcheh.	العمرشه	T-11-12.
108.	Gâma' Gheytâs.	جامع غيطاس(٣)	T–11.
109.	A'tfet Marzouq.	عطفة مرزوق	T–11.
110.	Gâma' Dâoud bâchâ.	جامع داود باشا	S–12.
111.	A'tfet el-Rouzmângy ou Rouznâmgy.	عطفة الروزمانجى او روزنامجى	S–11.
112.	Zâouyet el-Mahtiseb	زاوية المحتسب	S–11.

(١) هو فى الأصل جامع الأمير تمراز الأحمدى (المترجم) .

(٢) هى قنطرة عمر شاه . (المترجم)

(٣) هو فى الأصل جامع الأمير ده الفقار بك بالسيادة ريب ، الذى اشتهر أيضا بجامع عطاس (المترجم) .

المربع	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		الرقم المعطى على الخريطة
S–11.	عطفة المحتسب	A'tfet el-Mahtiseb.	113.
S–12.	القزازين	Tisserands.	114.
T–12.	سوق اللاله	Souq Allâleh.	115.
S–12.	بيت سليم بيه ابو دياب	Beyt Selym bey Abou Dyâb.	116.
S–11.	عطفة اباظة	A'tfet el-Abâzah.	117.
R-12.	حارة الحنفى	Hârt el-Hanafy.	118.
R–11.	جامع الوياتم(١)	Gâma' el-Oyâtem.	119.
R–12.	سبيل جامع الحنفى	Sibyl Gâma' el-Hanafy.	120.
R–11.	جامع الحنفى	Gâma' el-Hanafy.	121.
R–11.	عطفة ابو طبق	A'tfet Abou Tabaq.	122.
R–11.	جامع الشيخ دريس	Gâma' el-cheykh Derys.	123.
R–11.	[باب الحى]	Porte de quartier.	124.
R–11.	عطفة خليل تينه(٢)	A'tfet Khalyl Tyneh.	125.
R-11-12.	عطفة سوق مسكه(٣)	A'tfet Souq Meskeh.	126.
Q-R-11.	سوق مسكه	Souq Meskeh.	127.
Q–11.	سوق مسكه	Souq Meskeh.	128.
Q–11.	وكالة الفراخ	Okâlt el-Ferâkh.	129.
Q–11.	سكة سوق المسكه	Sekket Souq el-Meskeh.	130.
Q–11.	جامع مسكه	Gâma' Meskeh.	131.
Q–11.	سوق السبّاعين	Souq el-Sabbâa'yn.	132.
Q–11.	معمل خَلّ	Ma'mal Khall.	133.
Q–11.	درب حيضَر	Derb Heydar.	134.
Q–11.	زاوية الطوخى	Zâouyet el-Toukhy.	135.
P–11.	بيت مصطفى اغا	Beyt Moustafa aghâ.	136.
Q–11.	سوق السمك	Souq el-Samak.	137.

(١) هو جامع الهياتم ، أمر بتشييده الأمير يوسف جوربجى . (المترجم) .
(٢) الصواب : خليل طينة . (المترجم) .
(٣) نسبة إلى الست مسكة جارية الملك الناصر بن قلاوون . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
138.	Hârt el-A'bdyn.	حارة العَبدين	O-P-11.
139.	Zâouyet el-Baroumany.	زاوية البرومنى	P-11.
140.	Sekket el-Zyr el-Ma'laq.	سكة الزير المعلق	Q-11.
141.	Beyt Ayoub bey el-Soghayr.	بيت ايوب بيه الصغير	P-11.
142.	Beyt Marzouq bey.	بيت مرزوق بيه	Q-11.
143.	Gâma' A'bd el-Rahman Kykhyeh.	جامع عبد الرحمن كيخيه	Q-11.
144.	Derb Kamouneh.	درب كمونه	Q-11.
145.	Beyt Mohammed bey el-Mabdoud.	بيت محمد بيه المبدود(١)	Q-11.
146.	Gâma' Mohammed bey.	جامع محمد بيه	Q-11.
147.	Zâouyet el-Moqaddem.	زاوية المُقَدّم	Q-11.
148.	Gâma' A'bdyn bey.	جامع عبدين بيه	Q-11.
149.	Beyt A'bdyn bey.	بيت عبدين بيه	Q-11.
150.	Birket el-Farrâyn.	بركة الفرّاين	N-12.
151.	Bâb Kharâbt Ayoub bey.	باب خرابة ايوب بيه	X-11.
152.	Birket el-Moullah.*	بركة الملّه	X-12.
153.	Gheyt Solymân bey.*	غيط سليمان بيه	X-12.
154.	Gheyt Ibrâhym bey.*	غيط ابراهيم بيه	X-12.
155.	Cheykh Zennou.*	شيخ زنّو	Z-13.
156.	Beyt Mourâd aghâ.	بيت مُراد اغا	V-12.
157.	Beyt cheykh Sâdât.	بيت شيخ السادات	U-13.
158.	Gâma' Sitty Zeyneb.	جامع ستى زينب	U-12.
159.	Zâouyet el-A'trych.	زاوية العتريش(٢)	U-12.
160	Qanâter el-Sebâa'.	قناطر السباع	U-12.

(١) يبدو أن المقصود هو محمد بك المبدول ، صاحب الجامع المنسوب إليه . (المترجم) .
(٢) الصواب : العتريس وهو محمد العتريس أخو سيدى إبراهيم الدسوقى (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
161.[1]	Khalyg Qanâter el-Sebâa'.	خليج قناطر السباع	U-12-13.
162.	Qanâter el-Sebâa'.	قناطر السباع	U-12-13.
163.	Sibyl Haggâg.	سبيل هَجّاج	U–12.
164.	Gâma' el-Mahkameh.	جامع المحكمه	U–12.
165.	El-Masbaghah.	المصبغه	U–12.
166.	Syrgeh.	سيرجه	U–12.
167.	Hammâm Marzouq.	حمّام مرزوق	....
168.	Sibyl Abou Qouffeh.	سبيل ابو قُفّه	U–12.
169.	Derb el-Gedyd.	درب الجديد	U–12.
170.	Gâma' Geneyd.	جامع جنيد	T-U-12.
171.	Derb el-Bouchy.	درب البوشى	T–12.
172.	Quartier de l'Institut.	[حى المعهد]	T–12.
173.	Beyt Ibrâhym Kykhyeh el-Sennâry.	بيت ابراهيم كيخيه السنارى	T–12.
174.	Beyt Farag kâchef.	بيت فَرَج كاشف	T–13.
175.	Beyt Hassan kâchef.	بيت حسن كاشف	T–13.
176.	Beyt Solymân kâchef el-Bachaly.	بيت سليمان كاشف البشَلى	T–12.
177.	Hoch Abou el-Dahab.	حوش ابو الدهب	T–12.
178.	Hammâm el-Gedyd.	حمّام الجديد[2]	T–12.
179.	Gâma' el-Kourdy.	جامع الكردى	T–12.
180.	A'tfet el-Fourn.	عطفة الفُرن	S–12.
181.	A'tfet Qaouâyr.	عطفة قواير	S–13.
182.	Gheyt Hasan aghâ.	غيط حسن اغا	S–12.

(١) سقط هذا الرقم على الخريطة بجانب كلمة سباع .

(٢) هو حمام الدرب الجديد . وقد أمر بإنشائه محرم أفندى صاحب الجامع المعروف بجامع الكردى بسويقة اللالا . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
183.	Manâkh el-Gemel.	مناخ الجمل	S–12.
184.	Derb Abou'l-hâf.	درب ابو لحاف	S-12-13.
185.	Derb Balbouleh.	درب بلبوله	S-12-13.
186.	Sibyl el-Tanbourgy.	سبيل الطنبورجى	S–12.
187.	Derb el-Qouroudy.	درب القرودى[1]	R–12.
188.	A'tfet Solymân aghâ.	عطفة سليمان اغا	R–12.
189.	A'tfet el-Taouâb.	عطفة الطَواب	R–12.
190.	Derb el-Zofeyty.	درب الزُفيتى	R–12.
191.	Derb el-Ma'âzeh.	درب المعّازه	R–12.
192.	Gâma' el-Isma'yny.	جامع الاسمعينى	R–13.
193.	Bâb Gheyt el-Remmeh.	باب غيط الرمه	R–13.
194.	Sekket el-Isma'yny.	سكة الاسمعينى	R–12.
195.	A'tfet el-Mezeyyn.	سكة المزيّن	R–12.
196.	A'tfet el-Bourady.	عطفة البردى	R–12.
197.	A'tfet el-Maouâchit.	عطفة المواشط	R–12.
198.	Syrgeh.	سيرجه	R–12.
199.	Tisserands.	القزازين	R–12.
200.	Beyt Moustafă Odabâchy.	بيت مصطفى اوضَباشى	R–12.
201.	Derb Abou el-Lyf.	درب ابو الليف	Q-R-12.
202.	A'tfet Mechmech.	عطفة مشمش	Q–12.
203.	Khoukhat Sa'dân.	خوخة سعدان	Q–13.
204.	Zâouyet el-Moqdem.	زاوية المقدم	Q–13.
205.	El-Saqqâyn.	السقايين	Q–13.
206.	Souq el-Gelleh.	سوق الجلّه	Q–12.
207.	Derb el-Syrgeh.	درب السيرجه	Q–12.
208.	Syrgeh.	سيرجه	Q–12.

(١) يعرف أيضا بدرب العزالى ، ويسلك منه لشارع سوينة اللالا (المترجم)

المربع	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		الرقم المعطى على الخريطة
Q–12.	درب العجّانه	Derb el-A'ggânch.	209.
P-Q-12.	حارة النصاره	Hârt el-Nasârah.	210.
Q–12.	درب السمن	Derb el-Semmân.	211.
P–13.	حارة السقايين	Hârt el-Saqqâyn.	212.
Q–12.	سيرجه	Syrgeh.	313.
Q–13.	زاوية ابو طبل	Zâouyet Abou-Tabl.	214.
Q–12.	العَجّانه	El-A'ggânch.	215.
Q–12.	[بئر]	Puits.	216.
Q–12.	جامع حارة السقايين	Gâma' Hârt el-Saqqâyn.	217.
P–12.	درب الميضا	Derb el-Meydâ.	218.
P-Q-12.	درب الحمّام	Derb el-Hammâm.	219.
Q–13.	سوق القرّب	Souq el-Qerab.	220.
P–13.	عطفة الضورَه	A'tfet el-Dourah.	221.
P–12.	بيت المَعَلم ملطى	Beyt el-Ma'llem Malaty.	222.
P–12.	بيت ايوب بيه الصغير	Beyt Ayoub bey el-Soghayr.	223.
P–12.	بركة الدمالشه(١)	Birket el-Damâlcheh.	224.
P–12.	الدمالشه	El-Damâlcheh.	225.
P–13.	حارة السقّايين	Hârt el-Saqqâyn.	226.
P–12.	سكة الدمالشه	Sekket el-Damâlcheh.	227.
O–12.	جامع الكُريدى(٢)	Gâma' el-Koureydy.	228.
O–12.	عطفة الكريدى	A'tfet el-Koureydy.	229.
O–12.	زاوية سيد البهلول	Zâouyet Seyd el-Bahloul.	230.
O–12.	الزير المعلق	El-Zyr el-Ma'laq.	231.
O–12.	بيت الشيخ سليمان الفيومى	Beyt el-cheykh Solymân el-Fayoumy.	232.
O–12.	[حدائق وبساتين]	Jardins, vergers.	233.

(١) يرجح على مبارك فى خططه أن بركة الدمالشة هذه هى بركة الطوابين . (المترجم) .

(٢) ذكر على مبارك أن هذا الجامع كان ضمن الجوامع التى أزيلت عند بناء سراى عابدين . (المترحم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
234.	Derb el-Gedyd.	درب الجديد	O–12.
235.	Bâb el-Baghâleh.	باب البغاله	X–13.
236.	Gâma' E'z el-Dyn.	جامع عز الدّين	X–13.
237.	Derb el-Madbah.	درب المدبح	V–14.
238.	Bâb el-Seyd.	باب السيد	X–13.
239.	Derb el-Baghâleh.	درب البغاله	V–13.
240.	Derb el-Bahlaouân.	درب البهلوان	V–13.
241.	Hârt el-Seyd.	حارة السيد(1)	V–13.
242.	Derb el-Qamhy.	درب القمحى	V–13.
243.	Okâlt el-Ferâkh.	وكالة الفراخ	V–13.
244.	Derb Chekanbeh.	درب شكنبه	V–13.
245.	Gâma' el-Roukhâm Moustafâ aghâ.	جامع الرُخام مُصطفى اغا(2)	V–13.
246.	Sekket Sitty Zeyneb.	سكة ستى زينب	U–V–13.
247.	A'tfet el-Chenâgreh.	عطفة الشناجره	U–13.
248.	A'tfet Sitty Zeyneb.	عطفة ستى زينب	U-14.
249.	Gâma' el-Rousân.	جامع الرُصان(3)	U–13.
250.	Khalyg Qanâter el-Sebâa'.+	خليج قناطر السباع	U–13.
251.	Sibyl Ibrâhym Châouych.	سبيل ابراهيم شاويش	U–13.
252.	Quartier dit Qanâter el-Sebâa'.	قناطر السباع	U–13.
253.	Beyt Qâsim bey.	بيت قاسم بيه	T–13.
254.	Bâb Gheyt el-bâchâ.	باب غيط الباشا	T–13.
255.	Ménagerie.	[معرض وحوش]	T–13.
256.	Châra' Qâsim bey.	شارع قاسم بيه	T–13.

(١) الصواب : حارة السيدة . (المترجم) .

(٢) ويسمى جامع الزعفرانى ، أنشأه الأمير يونس الظاهرى ، ثم قام بتجديده الأمير مصطفى أغا . (المترجم) .

(٣) الصواب : الأمير تم من رصاص المعروف بتميم الرصافى . (المترجم)

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
257.	Derb el-Syâs.	درب السياس[١]	S–13.
258.	Gâma' Abou Elyous.	جامع ابو اليوس[٢]	S–13.
259.	El-Nâsryeh.	الناصريّه	S–13.
260.	Cheykh Ka'b el-Ahbâr.	شيخ كعب الاحبار	S–13.
261.	Derb el-Sa'âydeh.	درب الصعايده	S–13.
262.	Hammâm el-Khourbatly.	حمّام الخُربطلى	S–13.
263.[٣]	Gâma' Emyr Khour.	جامع امير خور	S–13.
264.	Derb el-Bendouq.	درب البندُق	S–13.
265.	Bâb el-Nasryeh.	باب النصريه	R–13.
266.	Birket Sitty Nasrah ou el-Saqqâyn.	بركة ستى نصره او السقّايين	Q–13.
267.	Okâlt E'mâd el-Dyn.	وكالة عماد الدّين	Q–13.
268.	A'tfet el-Khoueleh.	عطفة الخوله	P–13.
269.	Bâb el-cheykh Ryhân.	باب الشيخ ريحان	P–13.
270.	Gâma' E'mâd el-Dyn.	جامع عماد الدّين	P–13.
271.	El-cheykh Ryhân.	الشيخ ريحان	P–13.
272.	Kafr el-cheykh Ryhân.	كفر الشيخ ريحان	P–13.
273.	Souq el-Hemyr.	سوق الحمير	P–13.
274.	Beyt O'smân bey el-Tanbourgy.	بيت عثمان بيه الطنبورجى	O–13.
275.	Vignes, dattiers.	[كروم ونخيل]	O–13.
276.	Gheyt el-E'ddeh.	غيط العدّه	O–13.
277.	Gheyt el-Damâleheh.	غيط الدمالشه	O-P–13.
278.	Qantarat el-Gyr. *	قنطرة الجير	Y–14.
279.	Gheyt O'mar kâchef. *	غيط عُمَر كاشف	V–14.

(١) هو درب السايس . (المترجم).
(٢) الصواب : أبى اليسر ، وكان فى أول أمره مدرسة أنشأها الأمير قراسقر الظاهرى برقوق . (المترجم).
(٣) يبدو أن هذا الموقع يتفق مع جامع الناصرية الذى لم يذكر اسمه على الخريطة.

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
280.	Kkalyg el-Maouardy. *	خليج المَوَردى	V–14.
281.	Gheyt el-Gouhargyeh. *	غيط الجوهَرجيه	U–14.
282.	Gheyt Ibrâhym Châouych. *	غيط ابراهيم شاويش	T-U-14-15.
283.	Fort de l'Institut. *	[حصن المعهد]	T–15.
284.	Sekket Gheyt el-bâchâ. *	سكة غيط الباشا	T–14.
285.	Gheyt Qâsim bey. *	غيط قاسم بيه	S–14.
286.	Q–asr el-Bendouq.*	قصر البُندُق	S–15.
287.	Birket Abou el-Châmât. *	بركة ابو الشامات	S–15.
288.	Gheyt el-A'bâsè. *	غيط العباسى	Q–14.
289	Gheyt Abou Châmât. *	غيط ابو شامات	P–Q–14.
290.	El-cheykh A'bd-allah*	الشيخ عبد الله	P–14.
291.	Tell el-Sebâkh. *	تل السباخ	P–14.
292.	Okâlt el-Ferâkh. *	وكالة الفراخ	O–13.
293.(1)	Khalyg A'marcheh	خليج عمَرشه	S-11.

(١) سقط هذا الرقم بجوار الكلمة

القسم الرابع

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
1.	Sekket Derb el-Fouâkhyr.	سكة درب الفواخير	N-O-9.
2.	Sekket el-Hyn.	سكة الحين[1]	N–9.
3.	Khalyg Moustafä bey.	خليج مصطفى بيه	N-O-9.
4.	Sekket Khalyg Moustafä bey.	سكة خليج مصطفى بيه	N-O-9.
5.	Derb Qarä A'ly.	درب قراعلى	N–10.
6.	Sekket el-Rahabeh.	سكة الرَحَبه	O–10.
7.	Beyt Moustafä bey.	بيت مصطفى بيه	N–9.
8.	A'tfet Abou Dera'.	عطفة ابو درع	N–10.
9.	Derb el-Taouâb.	درب الطَواب	N–9.
10.	A'tfet el-Syrgeh.	عطفة السيرجه	N–9.
11.	Gâma' el-Hyn.	جامع الحين	N–9.
12.	Derb Abou Dera'.	درب ابو درع	N–10.
13.	A'tfet el-Moqaddem.	عطفة المُقَدّم	N–10.
14.	Souq Bâb el-Kharq.	سوق باب الخرق	N–10.
15.	Qantarat Bâb el-Kharq.	قنطرة باب الخرق	M–9.
16.	Bâb el-Kharq.	باب الخرق	M–9.
17.	Hammâm el-Bâroudyeh.	حمّام البارودیه	N–10.
18.	Gabbâseh, four à plâtre.	جباسه	M–9.
19.	Okâlt el-Bâroudyeh.	وكالة البارودیه	N–9.
20. القسم الخامس	A'tfet el-Meydah.	عطفة الميضَه	M–9.

(١) نسبة إلى الأمير يوسف الشهير بالحين . صاحب الجامع الكائن بميدان أحمد ماهر (باب الحلق سابقا) . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
21.	Gâma' Eskander.	جامع اسكندر[١]	M–9.
22.	Senkary, marché de ferblanterie.	سنكرى [سوق الصفيح]	M–9.
23.	Koum el-Saydeh.	كوم السيده	M–9.
24.	Okâlt el-Moqachâtyeh.	وكالة المقشانيه	M–9.
25.	Sibyl Eskander.	سبيل اسكندر	M–9.
26.	Taht el-Rob'.	تحت الربع	M–9.
27.	El-Haddâdyn.	الحدّادين	M–9.
28.	Okâlt el-Nahhâsyn.	وكالة النحّاسين	M–8.
29.	Beyt Ahmed Châouych el-Magnoun.	بيت احمد شاويش المجنون	M–9.
230.	Sekket Khalyg el-Merakham.	سكة الخليج المرخم	L–9.
31.	Gheyt Yahyä Tcheleby.	غيط يحيى جلّبى	M–9.
32.	Khalyg el-Merakham.	خليج المرّخم	M–9.
القسم الخامس			
33.	Sibyl el-Merakham.	سبيل المرخم	L–9.
34.	Sekket el-Qantarah.	سكة القنطره	L-9-10.
35.	A'tfet el-E'nâbeh.	عطفة العنابه	L–10.
36.	Gâma' el-emyr Hoseyn.	جامع الامير حُسين	L–9.
37.	Hammâm el-Qazzâzyn.	حمّام القزازين	L–9.
38.	Sibyl Yahyä kâchef Ibrâhym.	سبيل يحيى كاشف ابراهيم	O–10.
39.	A'tfet el-Zayâtyn.	عطفة الزياتين	O–10.
40.	Sekket el-Hod el-Makhreb.	سكة الحوض المخرب	N-O-10
41.	Zâouyet Moustafa aghâ.	زاوية مصطفى اغا	O–10.
42	Hârt el-Zayâtyn.	حارة الزياتين	N–10.
43	Hart Safyeh.	حارة صفيه	N 11.

(١) نسبة إلى منشئه الأمير اسكندر باشا أحد ولاة مصر في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري وما [illegible] هذا الجامع وباب القبة في المتحف الإسلامي بالقاهرة (المترجم)

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
44.	Hârt el-Hammâm.	حارة الحمّام	N–10.
45.	A'tfet Qouâdys.	عطفة قواديش	N–10.
46.	A'tfet el-Mogharbelyn.	عطفة المغربلين	N–10.
47.	A'tfet el-Dahdourah.	عطفة الضحضورَه	N–11.
48.	Zâouyet el-cheykh Qouâdys.	زاوية الشيخ قواديس	N–11.
49.	Bâb el-Kharq.	باب الخرق	N–10.
50.	Beyt Moustafâ Tcheleby Abou Diffyeh.	بيت مصطفى جلبى ابودفيّه	N–10.
51.	Zâouyet el-Nahâs.	زاوية النحاس	N–10.
52.(١)	Beyt A'ly aghâ el-Ouâly.	بيت على اغا الوالى	N–10.
53.	Gâma' el-Soultân châh.	جامع السلطان شاه	N–10.
54.	Maison de M. Calvi, agent français.	[بيت المسيو كالفى Calvi الوكيل الفرنسى]	N–10.
55.	Beyt Mohammed aghâ el-Bâroudy.	بيت محمد اغا البارودى	N–10.
56.	Gheyt el-E'ddeh.	غيط العدّه	L-M-10.
57.	Zâouyet Sy Gouhar el-Meyny.	زاوية سى جوهر المينى	M–10.
58.	Teintures.	[مصابغ]	N–10.
59.	A'tfet Ghazyq el-Zeyt.	عطفة غزيق الزيت(٢)	M–11.
60.	Zâouyet Ghazyq el-Zeyt.	زاوية غزيق الزيت	M–11.
61.	Hârt Gheyt el-E'ddeh.	حارة غيط العدّه	M–10.
62.	Souq Qouâdys.	سوق قواديس	M–11.
63.	Zâouyet el-cheykh Dourghâm.	زاوية الشيخ درغام	M–11.
64.	Derb el-Soukkary.	درب السُكّرى	L–10.

(١) لعله ينبغى أن يوضع هذا الرقم إلى جوار رقم 14 .

(٢) الصواب : عطفة غريق الزيت نسبة إلى الشيخ محمد غريق الزيت . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
65.	Beyt Abou Chaouâreb.	بيت ابو شوارب	M–11.
66.	Derb el-Ensâry.	درب النصارى[١]	L–10.
67.	Hammâm A'bdyn.	حمّام عبدين	O–11.
68.	Sekket A'bdyn.	سكة عبدين	N–11.
69.	Jardins et vergers.	[حدائق وبساتين]	N–11.
70.	Beyt Rachouân bey.	بيت رشوان بيه	N–11.
71.	A'tfet el-Tâhoun.	عطفة الطاحون	N–11.
72.	Derb el-cheykh Qouâdys.	درب الشيخ قواديس	N–11.
73.	Zâouyet el-Teymy.	زاوية التيمى	N–11.
74.	A'tfet el-Eyraqân.	عطفة اليرقان	N–12.
75.	Derb el-Hamâmsah.	درب الحمامصه	N–11.
76.	Khokhat el-Fichâr.	خوخت الفشار	N–11.
77.	Gâma' el-Gemmeyzeh.	جامع الجمّيزه	M–11.
78.	Hammâm el-Gemmeyzeh.	حمام الجمّيزه	M–11.
79.	El-Hadarah.	الحضره	M–11.
80.	Mâdnet el-Dyq.	مادنت الديق	M–11.
81.	A'tfet el-Gemmeyzeh.	عطفة الجمّيزه	M-11-12.
82.	Birket ou Gheyt Abou Chaouâreb.	بركة او غيط ابو شوارب	M–11.
83.	Ma'mal Khall.	مَعمَل خَلّ	M–12.
84. القسم السادس	Gâma' Hammâd.	جامع حمّاد	M–12.
85.	Sibyl Hammâd.	سبيل حمّاد	M–12.
86.	Sekket Bâb el-Louq.	سكة باب اللوق	N–12.
87.	Beyt A'ly kâchef Ayoub bey.	بيت على كاشف ايوب بيه	N–12.
88.	Ma'sarah.	معصره	M–12.

(١) الصواب درب الأنصارى كما هى كتابة الاسم بالحروف الفرنسية . (المترجم)

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
89.	Beyt Mohammed aghâ el-Khazendâr.	بيت محمد اغا الخزندار	N–13.
90.	Beyt Gheytâs bey.	بيت غيطاس بيه	M–13.
91.	Gâma' el-Barmachyeh.	جامع البرمشيه	N–13.
92.	Zâouyet el-Sâe'y.	زاوية الساعى	M–13.
93.	Derb el-Souâfeh.	درب الصوافه	M–13.
94.	Zâouyet el-Sanâfyry.	زاوية الصنافيرى	M–13.
95.	Derb el-Helouch.	درب الحلوه	M–13.
96.	Zâouyet Sy Farag.	زاوية سى فَرَج	M–13.
97.	Okâlt el-emyr.	وكالة الامير	N–13.
98.	Vergers.	[بساتين]	N–13.
99.	Gâma' el-Tabbâkh.	جامع الطبَّاخ	N–13.
100.	Fabriques de za'bout.	[مصانع زعبوط]	M–13.
101.	El-Souâfeh.	الصوافه	M–13.
102.	Gâma' el-Batch.	جامع البطش(١)	N–13.
103.	Zâouyet A'bd el-A'zym.	زاوية عبد العظيم	N–14.
104.	A'tfet el-Goufâr.	عطفة الجفار	N–13.
105.	Sekket el-cheykh Ryhân.	سكة الشيخ ريحان	N–13.
106.	Gâma' el-Koureydy.	جامع الكريدى	O–13.
107.	A'tfet el-Gâma'.	عطفة الجامع	O–13.
108.	El-Damâlcheh.	الدمالشه	O–14.
109.	El-Belâqseh.	البلاقصّه	O–14.
110.	Bâb Souq el-Hemyr.	باب سوق الحمير	O-14.
111.	Hoch el-Faggâleh.	حوش الفجّاله	O–14.
112.	Gâma' el-Qâsed.	جامع القاصد	O–14.
113.	El-cheykh A'bd el-Dâym.	الشيخ عبد الدايم	O–14.
114.	Tanneries.	المدابغ	O–14.

(١) نسبة إلى الشيخ على البطش . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
115.	Torbet el-Qâsed.*	تُربت القاسد	N–16.
116.	Bâb Torbet el-Qâsed.	باب تُربت القاسد	N–14.
117.	El-Hattâbeh.	الحطّابه	N–14.
118.	A'tfet el-Hekr.	عطفة الحكر	N–14.
119.	Zâouyet Abou el-Sebâa'.	زاوية ابو السباع	N–14.
120.	A'tfet Abou el-Sebâa'.	عطفة ابو السباع	M–14.
121.	Petite mosquée.	[مسجد صغير]	N–15.
122.	A'tfet el-Machâcheh.	عطفة المشاشه	N–15.
123.	Souq el-Barsym.	سوق البرسيم	M–15.
124.	Bâb el-Khokhat.	باب الخوخة	N–15.
125.	Gâma' Serkas ou Tcherkas.	جامع سركص أو جركص	M–15.
126.	El-cheykh el-Zayât.	الشيخ الزيات	M–15.
127.	El-Madâbegh.	المدابغ	N–15.
128.	Khalyg el-Moghraby.*	خليج المغرّبى	N-M-16.
القسمان الرابع والخامس			
129.	Zâouyet el-cheykh Batykhâ.	زاوية الشيخ بطيخا	N–9.

القسم الخامس

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
1.[١]	Hammâm Derb Sa'âdeh.	حمّام درب سعاده	M–9.
2.	Mahkameh Bâb el-Kharq.	محكمة باب الخرق	M–9.
3.	A'tfet Abou Girgeh.	عطفة ابو جرجه	M–9.
4.	Beyt Isma'yl bey el-Soghayr.	بيت اسمعيل بيه الصغير	M–9.
5.	Beyt Ayoub bey, et fonderie d'argent.	بيت ايوب بيه	M–8.
6.	Sekket Bâb el-Kharq.	سكة باب الخَرق	L-M-9.
7.	A'tfet el-Damanhoury.	عطفة الدمنهورى	L-8-9.
8.	Sibyl A'ly Ouaraq.	سبيل على وَرَق	L–9.
9.	Matbakh A'sal el-Esoued.	مَطبخ عَسَل الاسود	L–9.
10.	Qantarat el-emyr Housen.	قنطرة الامير حسين	L–9.
11.	Zâouyet Sy A'bbâsy.	زاوية سى عبّاسى	L–9.
12.	Sekket el-Mousky.	سكة المسكى[٢]	L–9.
13.	Hammâm el-Kelâb.	حمّام الكلاب[٣]	L–9.
14.	Marché de beurre et fromge.	[سوق للزبد والجبن]	L–9.
15.	Beyt Isma'yl Kykhyeh.	بيت اسمعيل كيخيه	L–9.
16.	Gâma' el-Benât.	جامع البنات[٤]	L–9.

(١) انظر القسم الثامن رقم 374 .

(٢) يعني الموسكى ، وقد عرف بذلك نسبة إلى الأمير عز الدين موسك قريب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . (المترحم) .

(٣) كان يعرف أولا بحمام الفخرى ، وقد أزيل هذا الحمام فيما بعد . (المترحم) .

(٤) هو جامع الفخرى ، نسبة إلى منشئه الأمير فخر الدين عبد الغنى بن الأمير تاج الدين عبد الرازق . (المترحم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
17.	A'tfet Gâma' el-Benât.	عطفة جامع البنات	K–8.
18.	Gâma' Semboughâ.	جامع سمبوغا[1]	L–8.
19.	Beyt Ahmed aghâ Chouykâr.	بيت أحمد اغا شويكار	......
20.	Gâma' Abou el-Fadl.	جامع ابو الفضل	L–8.
21.	18e demi-brigade.	[نصف اللواء ١٨]	......
22.	Beyt O'smân Châouychel-Magnoun.	بيت عثمان شاويش المجنون	......
23.	Bâb el-Charm.	باب الشرم	K–6.
24.	Mosquée.	[مسجد]	K–6.
25.	Sekket el-Terbya'h.	سكة التربيعَه	K–6.
26.	El Terbya'h.	التربيعَه	k–6.
27.	Khân el-Hamzâouy.	خان الحمزاوى	K–7.
28.	Khân el-Fasqyeh.	خان الفسقيه	K–6.
29.	Zâouyet el-Terbya'h.	زاوية التربيعه	K–6.
30.	El-Bendouqanyé.	البندقنيا[2]	K–6.
31.	Okâlt Qâdy el-Bohâr.	وكالة قاضى البَهار	K–7.
32.	Okâlt el-A'sal.	وكالة العسل	K–6.
33.	Zâouyet el-Koreyel y.	زاوية الكُريشى	K–6.
34.	Zâouyet el-Bendouqanyé.	زاوية البندقنيا	K–7.
35.	Okâlt Abou Zeyt.	وكالة ابو زيت	I–6.
36.	Chams el-Doleh.	شمس الدوله[3]	I-6-7.

(١) يعرف أيضا بجامع الشرقاوى نسبة إلى خطيبه الشيخ محمد الشرقاوى ، وكان أول أمره يعرف بالمدرسة البوبكرية نسبة إلى منشئها الأمير سيف الدين اسنبغا بن سيف الدين بكتمر البوبكرى (المترجم)

(٢) يعرف عند المقريزى بخط البندقانيين ، وكان به سوق وحوانيت لعمل قسىّ البندق ، ومن هنا جاءت التسمية . (المترجم)

(٣) عُرف هذا الموضع قديما بحارة الأمراء ، وسمى بهذا الاسم نسبة إلى الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب الذى سكن فى هذا المكان فعرف به ، وسمى حينئذ درب شمس الدولة (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
37.	Hammâm el-Moqâsys.	حمّام المقاصيص(١)	I–6.
38.	Matbakh el-A'sal el-Esoued.	مطبخ العسل الاسود	I–6.
39.	Zâouyet el-cheykh el-Gouhary.	زاوية الشيخ الجوهرى	I–6.
40.	Okâlt el-emyr.	وكالة الامير	I–6.
41.	Okâlt A'qâch el-Soghayr.	وكالة عقاش الصغير	I–6.
42.	Gâma' el-bey Mandor.	جامع البيه منضر	I–6.
43.	Okâlt Mohammed el-Hemchary.	وكالة محمد الهمشرى	I–6.
44.	Okâlt el-Moulleh ou el-Moqâsys.	وكالة الملّة او المقاصيص	I–7.
45.	Chaudronniers.	النحّاسين	I–6.
46.	Orfévres.	الخطيب	I–6.
47.	A'tfet el-Nahhâsyn, rue des Chaudronniers.	عطفة النحّاسين	I–6.
48.	El-Châghah.	الشاغة(٢)	I–6.
49.	Sibyl A'qâch et école.	سبيل عقاش وكتّاب	I–7.
50.	Souq el-Khachab.	سوق الخشب	I–7.
51.	Serr el-Mouristân.	سرّ المرستان(٣)	H–7.
52.	El-Mouristân, hôpital des fous.	المرستان	H–6.
53.	Khân A'qâch el-Koubârah.	خان عقاش الكباره	H–6.
54.	Emplacement des folles.	[مأوى للمعتوهات]	H–6.
55.	Emplacement des fous.	[مأوى للمعتوهين]	H–6.
56.	Malades.	[مرضى]	H–6.
57.	Okâlt el-Khatyb, orfévres.	وكالة الخطيب [الصياغ]	H–7.

(١) وكان يعرف بحمام خُشيبة . (المترجم) .
(٢) الصواب : الصاغة . (المترجم).
(٣) المقصود باب سر المارستان . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
58.	Okâlt el-Nakhleh.	وكالة النخلة	H–7.
59.	Sibyl Abou Tâqyeh.	سبيل ابو طاقيه	H–6.
60.	A'tfet el-Barqouqyé.	عطفة البرقوقيا	H–6.
61.	Sekket el-Mouristân.	سكة المرستان	H–7.
62.	Okâlt el-Qanbour.	وكالة القنبور	H–7.
63.	Gâma' el-Tâybyeh.	جامع الطايبيه	G–7.
64.	Gâma' el-Qarâfy.	جامع القرافى	G–6.
65.	Okâlt A'yn el-Ghazâl.	وكالة عين الغزال	G–6.
66.	El-Bergaouâm.	البرجَوام	F–7.
67.	Beyt el-cheykh el-Gouhary.	بيت الشيخ الجوهَرى	G–6.
68.	Zâouyet A'yn el-Ghazâl.	زاوية عين الغزال	G–6.
69.	Zâouyet A'ly Châouyeh.	زاوية على شاويش	G–7.
70.	A'tfet el-Ahmar.	عطفة الاحَمر	G–6.
71.	Zâouyet el-Bergaouâm.	زاوية البرجوام(١)	G–6.
72.	Belles maisons de nègocians.	[منازل تجار جميلة]	G–6.
73.	Gâma' Margouch.	جامع مرجوش	F–6.
74.	Zâouyet el-cheykh Sa'yd.	زاوية الشيخ سعيد	F–6.
75.	Gâma' el-Mouzheryeh.	جامع المزهريه	F–6.
76.	Sibyl el-Mouzheryeh.	سبيل المزهريه	F–6.
77.	Teinture de soie et de coton.	مصبغة حرير وقُطُن	F–6.
78.	El-Margouch.	المرجوش	F–6.
79.	Matbakh A'sel el-Esoued.	مطبخ عسل الاسود	F–6.
80.	Okâlt el-Khaouâgeh.	وكالة الخواجه	F–6.
81.	Lieux où l'on comprime les toiles de lin.	[أماكن لكبس أقمشة الكتان]	F–6.
82.	Okâlt el-Galfyeh.	وكالة الجلفية	F–6.

(١) الصواب – على ما يرجح – هو برجوان ، نسبة إلى الأستاذ أبى الفتوح برجوان الخادم الذى تربى فى دار الخليفة العزيز بالله ، وولاه أمر المنصور . (المترجم)

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
83.	Derb el-Ouaraqah.	درب الوَرَقه[١]	F–6.
84.	A'tfet Ahmed Houseyn.	عطفة أحمد حسين	F–6.
85.	A'tfet Margouch.	عطفة مرجوش	F–6.
86.	Sibyl el-Debâneh.	سبيل الدبانه	F–6.
87.	A'tfet el-Arba'yn.	عطفة الاربعين	F–7.
88.	Sekket el-Ghamry.	سكة الغمرى	F–7.
89.	Okâlt Hasan Mahsen.	وكالة حسن محسن	F–7.
90.	Teintures d'indigo.	[مصابغ النيلة]	F–7.
91.	Sekket Beyn el-Syârig.	سكة بين السيارج	E-6-7.
92.	Gâma' el-Boulqeyny.	جامع البُلقينى[٢]	E–6.
93.	Sibyl el-Boulqeyny.	سبيل البلقينى	E–6.
94.	Zâouyet el-cheykh Ahmed Yousef.	زاوية الشيخ احمد يوسف	E–6.
95.	Souq el-Haddâdyn.	سوق الحدّادين	E-F-6.
96.	Sekket Bâb el-Foutouh.	سكة باب الفتوح	E–6.
97.	Hârt el-Moghârbeh.	حارة المغاربه	E–6.
98.	Hârt Bâb el-Ghadr.	حارة باب الغَدر	E–6.
99.	Zâouyet el-cheykh Ouâly el-Dyn.	زاوية الشيخ والى الدّين[٣]	L–7.
100.	A'tfet el-Boulqeyny	عطفة البلقينى	E-6-7.
101.	Gâma' el-Moghârbeh.	جامع المغاربه	E–6.
102.	Bâb el-Foutouh.	باب الفتوح	E–6.
103.	Hamzâouy el-Soghayr.	حمزاوى الصغَير	K–7.
104.	Zâouyet el-Arba'yn.	زاوية الاربعين	I–7.

(١) الصواب : الوراقة . (المترجم) .

(٢) كان يعرف أولا بمدرسة البلقيني نسبة إلى منشئها سراج الدين عمر البلقيني . (المترجم) .

(٣) الصواب : هو زاوية الشيخ رضى الدين التى جددها الأمير سليمان افندى ميسو جامعا فى أواخر القرن ١٢ هـ / ١٨م ، كما ورد فى حجة وقفه . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
105.	Teintures de châles de soie.	مصبغة شيلان الحرير	K–7.
106.	Masbaghat el-Haryr.	مصبغة الحرير	K–7.
107.	A'tfet el-Kenyseh.	عطفة الكنيسه	K–7.
108.	A'tfet el-Hommousy.	عطفة الحُمّصى	K–7.
109.	Okâlt el-Basal.	وكالة البَصَل	K–7.
110.	Sekket Beybars.	سكة بيبَرس	K–7.
111.	Gâma' el-Hatabyeh.	جامع الحطبيه	K–7.
112.	Okâlt el-Mesadder.	وكالة المسدّر	K–7.
113.	El-Leboudyeh.	اللبوديه	K–8.
114.	A'tfet el-Malt.	عطفة الملط	K–7.
115.	Zâouyet el-Ghourabyeh.	زاوية الغربيه	K–7.
116.	Sekket el-Hamzâouy.	سكة الحمزاوى	K–7.
117.	Okâlt el-Gellâd.	وكالة الجلاّد	K–7.
118.	El-Saba' Qâ'ât et bain de ce nom.	السبع قاعاة وحمّام السبع قاعاة	K–7.
119.	Okâlt el-Tourkmâny.	وكالة التركمانى	K–7.
120.	Okâlt el-Menâyfeh.	وكالة المنايفه	K–7.
121.	Okâlt el-Derys.	وكالة الدريس	k–7.
122.	Teintures de châles.	[مصابغ للشيلان]	K–7.
123.	Zâouyet el-cheykh Charaf el-Dyn.	زاوية الشيخ شَرَف الدّين	K–7.
124.	Okâlt el-A'ttâr.	وكالة العطّار	K–7.
125.	Filatures de soie.	نـول	K–7.
126.	A'tfet el-Leboudyeh.	عطفة اللبوديه	K–8.
127.	Gâma' Hoch A'ycheh.	جامع حوش عيشه	I–7.

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
128.	Hoch A'ycheh.	حوش عيشه[١]	I–7.
129.	Zâouyet Mohammed el-Hennâouy.	زاوية محمد الحنّاوى	I–7.
130.	Souq el-Samak, marché aux poissons.	سوق السمك	I–7.
131.	Okâlt Hasan Kykhych.	وكالة حسن كيخيه	I–7.
132.	Okâlt el-Basnaouy.	وكالة البصنوى	I–7.
133.	Okâlt el-Gaouâly.	وكالة الجوالى	I–7.
134.	Okâlt el-emyr.	وكالة الامير	I–7.
135.	Hârt el-Yhoud, quartier Juif.	حارة اليهود	I–7.
136.	Sibyl A'bd el-Rahmân Kykhyeh.	سبيل عبد الرحمان كيخيه	I–7.
137.	Derb el-Masryyn.	درب المصريين	I–7.
138.	Gâma' el-Gya'ânyn.	جامع الجيعانين[٢]	I–7.
139.	El-Moqasys.	المقصيص[٣]	I–7.
140.	Hoch el-Souf.	حوش الصوف	I–7.
141.	Hoch el-Bichloumeh.	حوش البشلومه	I–7.
142.	Sibyl A'bd el-Qâdr.	سبيل عبد القادر	I–7.
143.	Hârt el-Seqâlbeh.	حارة السقالبه	H-J-7-8.
144.	Derb el-Dahân.	درب الدهان	H–7.
145.	Gâma' Barakât Qoromyt.	جامع بركات قُرُميت[٤]	I–7.
146.	Marché.	[سوق]	H–7.

(١) لعل المقصود هو حوش عيسى ، وهو بيت كبير يقع فى العطفة المسماة بنفس الاسم والواقعة بشارع اللمودية . (المترجم) .

(٢) نسبة إلى عبد الرحمن الجيعان ، ويعرف بجامع ابن الجيعان . (المترحم) .

(٣) الصواب : المقاصيص . (المترحم) .

(٤) يعرف أيضا بجامع المنسى لأن بداحله ضريح الشيخ عبد الله المنسى ، وجاء اسمه نسبة إلى منشئه الناضى [illegible] قراميط . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
147.	Hârt el-Qarrâyn.	حارة القرّايين[1]	H–7.
148.	Derb el-Mousyr.	درب المصير	H–7.
149.	A'tfet el-Fourn.	عطفة الفُرن	H–7.
150.	Derb el-Hommousâny.	درب الحُمصانى	H–7.
151.	A'tfet el-Dahaby.	عطفة الدهبى	H–7.
152.	A'tfet el-Geneyneh.	عطفة الجنينه	H–7.
153.	Derb el-Qadym.	درب القديم	H–7.
154.	Derb el-Gezyreh.	درب الجزيره	H–8.
155.	Derb el-Matbakh.	درب المطبخ	H–8.
156.	Masures.	[أكواخ]	H–8.
157.	Derb el-Moghârbeh.	درب المغاربه	H–8.
158.	A'tfet el-Gebâlyeh.	عطفة الجباليه	H–7.
159.	A'tfet el-Khammârah.	عطفة الخماره	H–7.
160.	Limite du quartier Juif.	[حد الحى اليهودى]	H–7.
161.[2]	Sekket el-Khorounfech.	سكة الخُرُنفش	G-H-7.
162.	Okâlt A'bdouh.	وكالة عبدُه	G–7.
163.	Okâlt Yânsoun.	وكالة اليانسون	G–7.
164.	El-Khorounfech.	الخُرُنفش	G–7.
165.	Matbakh A'raqy.	مطبخ عرقى	G–7.
166.	Okâlt el-Sebahyeh.	وكالة السبحيه	G–7.
167.	A'tfet el-Mokhouraq.	عطفة المخورق	G–7.
168.	A'tfet qâdy el-Bohâr.	عطفة قاضى البُهار	G–7.
169.	Sekket el-Cha'râouy.	سكة الشعراوى	G–7.

(١) المقصود حارة اليهود القرايين . (المترجم) .

(٢) انظر الرقم 314 من القسم السابع . G-6 .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
170.	Gâma' el-Bastyeh.	جامع البصطيه[1]	G–7.
171.	Zâouyet el-cheykh Mohammed Goudeh.	زاوية الشيخ محمد جوده	G–7.
172.	Sibyl el-Qabbâr.	سبيل القبّار	G–7.
173.	Matbakh A'raqy.	مطبخ عرقى	G–7.
174.	Beyt qâdy el-Bohâr.	بيت قاضى البهار	G–7.
175.	A'tfet el-Roubât.	عطفة الروبات	F–7–8.
176.	Beyt Qâyd aghâ.	بيت قايد اغا	G–7.
177.	Hammâm el-Qouboutân.	حمّام القبطان	G–7.
178.	A'tfet Qâyd aghâ.	عطفة قايد اغا	F-G-7.
179.	Belles maisons.	[بيوت فخمة]	F–7.
180.	Maisons de négocians.	[بيوت للتجار]	F–7.
181.	Zâouyet el-Arba'yn.	زاوية الاربعين	F–7.
182.	Doulâb el-Basmagyeh.	دولاب البصمَجيه	F–7.
183.	Sibyl el-Galfyeh.	سبيل الجلفيه	F–7.
184.	A'tfet el-Chorbagy.	عطفة الشُربَجى	F–7.
185.	Hammâm Margouch.	حمّام مرجوش	F–7.
186.	Okâlt Hasân.	وكالة حسان	F–7.
187.	Okâlt el-Khattâm.	وكالة الختام	F–7.
188.	A'tfet el-Gouakhy.	عطفة الجوخى	F–7.
189.	Okâlt el Choueykh.	وكالة الشويخ	F–7.
190.	Zâouyet Serâg el-Dyn.	زاوية سراج الدّين	F–7.
191.	Gâma' Choueykh.	جامع شويخ	F–8.
192.	Okâlt Hasân.	وكالة حَسان	F–7.
193.	Sibyl el-Ghamry.	سبيل الغمرى	F–7.

(١) المقصود جامع عبد الباسط بالخرنفش نسبة إلى منشئه رين الدين عبد الباسط بن خليل ، ويعرف أيصا بجامع عباس باشا . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
194.[1]	A'tfet el-Ghamry.	عطفة الغمرى	F–7.
195.	A'tfet el-Leben.	عطفة اللبن	F–7.
196.	A'tfet el-Chemâly.	عطفة الشمالى	F–7.
197.	Gâma' el-soultân el-Ghamry.	جامع السلطان الغمرى[٢]	F–7.
198.	Okâlt el-Ghamry.	وكالة الغمرى	F–7.
199.	Okâlt el-Saqâr.	وكالة الصقار	F–7.
200.	A'tfet el-Fourn.	عطفة الفُرن	E–7.
201.	Beyn el-Syârig.	بين السيارج	E–7.
202.	Teintures.	[مصابغ]	E–7.
203.	A'tfet el-Qatyleh.	عطفة القتيله	E–7.
204.	Derb el-Ferrâkhah.	درب الفَرّاخَه	E–7.
205.	Gâma' el-Madrafeh.	جامع المدرفه	E–8.
206.	A'tfet el-Ferrâkhah.	عطفة الفَرّاخه	E-7-8.
207.	A'tfet el-Hammâm.	عطفة الحمّام	E–7.
208.	Masures et décombres.	[أكواخ وأنقاض]	E–7.
209.	Bâb el-Ghadr.	باب الغدر	E-6-7.
210.	Hammâm el-Bâbeyn.	حمّام البابين	E–7.
211.	A'tfet O'smân Châouych el-Magnoun.	عطفة عثمان شاويش المجنون	K–8.
212.	A'tfet Sitty Beyram.	عطفة ستى بيرَم	K–8.
213.	Beyt cheykh el-Hefnâouy.	بيت شيخ الحفناوى	K–9.
214.	Gâma' cheykh el-Hefnâouy.	جامع الشيخ الحفناوى	K–9.
215.	Teintures.	[مصابغ]	K–9.
216.	Gâma' el-Khâsyeh.	جامع الخاصيه	K–8.
217.	Gâma' O'mâr.	جامع عمار	K–8.

(١) يوحد رقم 194 آخر داخل القسم الخامس (جامع الأشرفية) الذى يرتبط بسلسلة القسم السابع

(٢) نسبة إلى منشئه الشيخ محمد بن عمر بن أحمد العمرى . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
218.	Matbakh A'raqy.	مطبخ عرقى	K–9.
219.	Beyt Bâch Châouych el-Ikhtyâr.	بيت باش شاويش الاختيار	K–9.
220.	Sibyl ou Zâouyet el-Seyd Loutfy.	سبيل وزاوية السيد لطُفى	K–8.
221.	Hammâm el-Gedyd.	حمّام الجديد(١)	K–8.
222.	Beyt A'ly kâchef Ayoub bey.	بيت على كاشف ايوب بيه	K–8.
223.	Sekket el-Leboudyeh.	سكة اللبوديه	K-8-9.
224.	Okâlt el-Qoubrousy.	وكالة القبرصى	K–9.
225	Gâma' el-Zeynyeh.	جامع الزينيه	K–9.
226.	A'tfet el-Chichyny.	عطفة الششينى	I-K-8.
227.	El-Saba' qâât.	السبع قاعات	I–8.
228.	Souq el-Khachab.	سوق الخشب	I–8.
229.	A'tfet el-Hattâbeh.	عطفة الحطّابه	I–8.
230.	Souq el-Mousky.	سوق الموسكى	I-9-8.
231.	Gâma' el-Mourâdyé.	جامع المُراضيا(٢)	I–9.
232.	Bâb Beyn el-Nehdeyn.	باب بين النهدين	I–9.
233.	Zâouyet el-cheykh el-Menâyyer.	زاوية الشيخ المنيّر	I–8.
234.	Beyt Ibrâhym kâchef.	بيت ابراهيم كاشف	I–8.
235.	Qantarat el-Mousky.	قنطرة الموسكى	I–9.
القسم الخامس			
236.	Hammâm el-Mousky.	حمّام الموسكى	I–9.
237.	Gâma' el-Moghârbeh.	جامع المغاربه	I–8.
238.	Derb el-Tâhoun.	درب الطاحون	I–8.
239.	Okâlt el-Senbel.	وكالة السنبل	I–8.
240.	Matbakh A'raqy.	مطبخ عرقى	I–8.

(١) ذكره المقريزى باسم حمام الصاحب ، ويعرف أيضا عند على مبارك بحمام التلات . (المترجم) .
(٢) هو جامع مراد باشا بالموسكى . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
241.	Zâouyet Abou Tâleb.	زاوية ابو طالب	I–8.
242.	Sibyl el-Selgamyeh.	سبيل السلجَميه	H–8.
243.	Okâlt Solymân Châouyeh.	وكالة سليمان شاويش	I–8.
244.	A'tfet Talm el-Tourah.	عطفة طلم التره	I–8.
245.	Derb el-Mouballat.	درب المُبلّة(١)	I–8.
246.	Derb el-Modrâs.	درب المُدراس	H–8.
247.	Derb el-Tourkyeh.	درب التركيه	H–8.
248.	Derb el-Oudâa'.	درب الوداع	H–8.
249.	Cafés.	[مقاهى]	H–8.
250.	Beyn el-Soureyn.	بين الصورين	H–8.
251.	Qâ'ât el-Faddah.	قاعاة الفضّه(٢)	H–8.
252.	Derb el-Dourah.	درب الضوره	H–8.
253.	Okâlt el-Yânsoun.	وكالة اليانسون	G–8.
254.	Okâlt el-A'gâtyeh.	وكالة العاجانيه	G–8.
255.	Hammâm el-Yhoud.	حمّام اليهود	H–7.
256.	Hârt el-Zoueyleh	حارة الزويله(٣)	G–8.
257.	Kenyset el-Qobt.	كنيسة القبط	G–8.
258.	Rue très-étroite. (٤)	[شارع بالغ الضيق]	H–8.
259.	El-Masbaghat el-Soultâny.	المصبغة السلطانى	G–8.
260.	Qantarat el-Gedyd.	قنطرة الجديد	G–8.
القسم السادس 261.	Sibyl el-Qeysarly.	سبيل القيسرلى	G–8.
262.	A'tfet Rizq.	عطفة رزق	G–8.

(١) الاسم كما كتب بالحروف الفرنسية هو درب الغلط ، ويوجد درب بهذا الاسم ذكره على باشا مبارك فى خططه . (المترجم) .

(٢) يعنى قاعة الفضة نسبة إلى العطفة التى كانت توجد بها وتحمل نفس الاسم . (المترجم) .

(٣) المألوف أن ينطق هذا الاسم (زويلة) بغير الألف واللام ، وزويلة اسم إحدى القبائل المغربية ، وقد اشتركت مع جوهر الصقلى فى فتح مصر ، وإليها نسبت هذه الحارة . (المترجم) .

(٤) وهو طويل جدا على الخريطة

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
263.	Gâma' Mayâlch.	جامع مياله	G–8.
264.	Hârt el-Cha'râouy.	حارة الشعراوى(١)	G–8.
265.	Sekket el-Cha'râouy.	سكة الشعراوى	F-G-8.
266.	Madfoun el-Cha'râouy.	مَدفن الشعراوى	F–8.
267.	Teintures de coton.	مصبغة القطن	F–8.
268.	Hammâm Cha'râouy.	حمّام الشعراوى	F–8.
269.	Fabrique de vinaigre.	معمَل الخَلّ	F–8.
270.	Beyt cheykh el-Cha'râouy.	بيت الشيخ الشعراوى	F–8.
271.	Zâouyet el-Cha'râouy.	زاوية الشعراوى	F–8.
272.	Zâouyet el-cheykh A'sâfyr.	زاوية الشيخ عصافير(٢)	F–8.
273.	Gâma' el-Cha'râouy.	جامع الشعراوى	F–8.
274.	Sibyl el-Cha'râouy.	سبيل الشعراوى	F–8.
275.	Syrgeh, ou fabrique d'huile.	سيرجه [معصرة]	F–8.
276.	A'tfet Choueykh.	عطفة شويخ	F–8.
277.	Sibyl el-Selymânyeh.	سبيل السليمانيه	F–8.
278.	Derb el-Madbah.	درب المَدبَح	F–8.
279.	Sekket Meydân el-Qotn.	سكة ميدان القُطن	F–8.
280.	Sibyl Bâb el-Hadyd.	سبيل باب الحديد	E-F-8.
281.	Okâlt el-Ferâkh.	وكالة الفراخ	F–8.
282.	Okâlt el-Hosr.	وكالة الحصر	E–8.
283.	Souq el-Selymânyeh.	سوق السليمانيه	E-F-8.
284.	Bâb el-Qous.	باب القوص	E–8.
285.	Beyt A'ly kâchef.	بيت على كاشف	F–8.
286.	Hammâm el-Kharrâtyn.	حمّام الخرّاطين	F–8.
287.	Bâb el-Cha'ryeh.	باب الشَعريّه	F–9.

(١) يقصد به الشيخ عبد الوهاب الشعرانى صاحب كتاب الطبقات المنسوب إلى اسمه . (المترجم) .

(٢) هى زاوية مدفون بها الشيخ إبراهيم عصيفير (ت ٩٤٢ هـ) ، وقد حرفت العامة اسمه وقالت عصفور بدلا من عصيفير . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
288.	Gâma' el-A'zqalâny.	جامع العزقلانى[1]	F–9.
289.	Okâlt el-Ferâkh.	وكالة الفراخ	F–9.
القسم السادس 290.	Ma'mal el-Khal.	معمل الخل	F–9.
القسم السادس 291.	Okâlt el-Hagar Khân.	وكالة الحَجر خان	E–8.
292.	Derb Bâb el-Cha'ryeh.	درب باب الشعريه	E–9.
293.	Gabbâsch, four à plâtre.	جبّاسه [فرن للجبس]	E–8.
294.	Bâb el-Hadyd Betâa' Bâb el-Cha'ryeh.	باب الحديد بتاع باب الشعريه	E–8.
295.	Bâb el-Cha'ryeh.	باب الشعريه	E–8.
296.	Zâouyet Hasân el-Demerdâchy.	زاوية حسن الدمرداشى	E–8.
297.	Syrgeh, ou fabrique d'huile.	سيرجه [معصرة]	E–8.
298.	Okâlt el-Ne'nâ'.	وكالة النعناع	E–8.
299.	Matbakh A'raqy.	مطبخ عرقى	E–8.
300.	Hoch Hasan el-Demerdâchy.	حوش حسن الدمرداشى	E–8.
301.	Masbaghah, teintures.	مصبغة	E–8.
302.	A'tfet el-Moustâhy.	عطفة المصطاحى	D-E-8.
303.	Sibyl O'mâr kâchef.	سبيل عمار كاشف	E–8.
304.	A'tfet Qourbâs.	عطفة قرباص	E–8.
305.	Sekket Bâb el-Cha'ryeh.	سكه باب الشعريه	E–8.
306.	A'tfet Zend el-Fyl.	عطفة زند الفيل	E–8.
307.	Gâma' el-Mogharbel.	جامع المغربل	D-E-8.
308.	Gâma' el-Mahkameh.	جامع المحكمه	E–8.
309.	Okâlt el-Gellâbeh.	وكالة الجلابه	E–8.
310.	Okâlt el-Mouzy.	وكالة الموزى	E–8.
311.	Okâlt el-Semsem.	وكالة السمسم	E–8.

(١) الصواب : هو العسقلانى نسبة إلى القاضى ابن حجر العسقلانى . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
312.	Okâlt el-Gâmous.	وكالة الجاموس	E–8.
313.	Derb el-Mahkameh.	درب المحكمه	E–8.
314.	A'tfet el-Mestouqad.	عطفة المَستوقد	E–8.
315.	Okâlt el-Qamh.	وكالة القمح	E–8.
316.	Gâma' omm el-A'ychy.	جامع أم العيشى	E–9.
317.	Masures.	[أكواخ]	D–9.
318.	Hammâm el-Tanbaly.	حمّام الطنبَلى	D–8.
319.	Derb el-Eqmâa'yeh.	درب الاقماعيه	E–9.
320.	A'tfet el-Mogharbel.	عطفة المغربل	E–9.
321.	Zâouyet el-Mogharbel.	زاوية المغربل	E–9.
322.	Derb Sy Madyan.	درب سى مدَيَن	E–9.
323.	Gâma' Sy Madyan.	جامع سى مدَيَن(١)	E–9.
324.	Gâma' el-Zâhed.	جامع الزاهد	E–10.
325.	Zâouyet el-cheykh A'bd el-Rahmân.	زاوية الشيخ عبد الرحمان	E–9.
326.	Beyt Mohammed kâchef.	بيت محمد كاشف	E–10.
327.	A'tfet el-Qabâqyby.	عطفة القباقيبى	E–9.
328.	El-Eqmâa'yeh.	الاقماعيه	E–9.
329.	Derb el-Sahryg.	درب السهريج	E–9.
330.	Derb Rycheh.	درب ريشه	D-E-9.
331.	A'tfet A'gouâ.	عطفة عجوا	D–9.
332.	A'tfet el-Mobaraqa'â.	عطفة المبرقعا	E–9.
333.	Gâma' el-Sotouhyeh.	جامع السطوحيه(٢)	E–5.
334.	Sibyl Selym.	سبيل سليم	D-5-6.
335.	Teintures.	[مصابغ]	D–5.
336.	A'tfet Selym.	عطفة سليم	C–5.

(١) هو جامع سيدى مدين (بشارع باب البحر) ، وهو مدين بن أحمد الأشمونى . (المترجم) .

(٢) هو من إنشاء الأمير عبد الرحمن كتخدا ، وبه ضريح السيدة عائشة السطوحية . وكان يوجد خارج باب الفتوح ، وقد أزيل تماما . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
337.	Sekket el-E'doumouyé.	سكة العدمويا	C–5.
338.	Zâouyet el-Sârem.	زاوية الصارم(١)	C–5.
339.	Okâlt el-emyr.	وكالة الامير	C–5.
340.	A'tfet Felâfel.	عطفة فلافل(٢)	C–5.
341.	A'tfet Salâh.	عطفة صلاح	B–5.
342.	El-Hasanyeh.	الحَسَنيه	B–5.
343.	Gâma' el-Bayoumy.	جامع البَيومى	B–5.
344.	Souq el-Balah, marché aux dattes .	سوق البلح	B–5.
345.	Derb el-Gemmeyzeh.	درب الجميزه	B–5.
346.	Gâma' el-Kourdy.	جامع الكُردى	A–5.
347.	Souq el-Kourdy.	سوق الكُردى	A–5.
348.	Derb el-cheykh Qamar.*	درب الشيخ قمر	A–5.
349.	Derb el-Sebâa'.*	درب السباع	B–6.
350.	Derb el-Saouâby.	درب الصوابى	B–6.
351.	Derb el-Samâkyn.	درب السماكين	D–6.
352.	Souq el-Dayaq.	سوق الديق	D-E-5-6.
353.	Gâma' el-Benhâouy.	جامع البنحاوى	D–6.
354.	Derb el-Gourah.	درب الجوره	D-6-7.
355.	Zâouyet el-Dahaby.	زاوية الدهبى	D–6.
356.	Hammâm el-Dahaby.	حمّام الدهبى	D–6.
357.	Sibyl el-Sâouy.	سبيل الصاوى	D–6.
358.	Derb el-Hagourah.	درب الحجوره(٣)	D-6-7.
359.	Derb el-Chorafeh.	درب الشرفه	D–6.
360.	Zâouyet Abou Gebbeh.	زاوية ابو جبّه	D–6.

(١) ويقال لها زاوية شمعة وزاوية عوس ، أنشأها الأمير شمعة ثم جددها الحاج يوسف عوس الحريرى . (المترجم) .

(٢) هى عطفة فليفل . (المترجم) .

(٣) الصواب : درب عجور . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
361.	A'tfet el-Semn.	عطفة السمن	D–6.
362.	Fabrique d'étoffes.	[مشغل قماش]	C–6.
363.	Fabrique d'étoffes.	[مشغل قماش]	C–6.
364.	Zâouyet Hoch el-Hommous.	زاوية حوش الحُمّص	D–6.
365.	Hoch el-Hommous.	حوش الحُمّص	D–6.
366.	Beyn el-Khoukh.	بين الخوخ	C–6.
367.	A'tfet el-Ghannâgeh.	عطفة الغناجه	C–6.
368.	El-Sâouâby.	الصاوابى	C–6.
369.	A'tfet Zara' el-Naoué.	عطفة زرع النوا	C–6.
370.	Okâlt el-Hemyr.	وكالة الحمير	G–6.
371.	A'tfet Balâouy.	عطفة بلاوى	C–6.
372.	Gâma' el-Sâouâby.	جامع الصاوابى	B-C-6.
373.	Gheyt el-Taouyl.*	غيط الطويل	C-6-7.
374.	Geneynet el-Ouâly.*	جنينة الوالى	B-C-6.
375.	Gheyt Hasan bey el-Geddâouy.*	غيط حسن بيه الجدّاوى	B–6.
376.	Gheyt el-Moulleh.*	غيط الملّه	A–6.
377.	Gheyt el-Qouttâ.*	غيط القُطّا	A–6.
378.	Gâma' el-Dâher. (Fort Shulkowski.)*	جامع الظاهر [حصن شولكوفسكى]	A-6-7.
379.	Gâma' el-Châdlyeh.	جامع الشادليه	D-E-7.
380.	Sibyl el-Soufâny.	سبيل الصوفانى	D–7.
381.	Sekket Bâb el-Ghadr.	سكة باب الغدر	D-7-8.
382.	Zâouyet el-cheykh Cha'bân.	زاوية الشيخ شعبان	D–7.
383.	Derb el-Bezâzreh.	درب البزازره	D–7.
384.	Gâma' el-Mezheryâ.	جامع المزهريا(١)	D–7.

(١) هو جامع المزهرية ؛ كان فى أول أمره مدرسة بناها الأمير محمد بن أحمد بن أبى بكر ، ويعرف بابن مزهر . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
385.	Derb el-Baghâleh.	درب البغاله	D–7.
386.	A'tfet el-Birket.	عطفة البركة	D–7.
387.	Birket Genâq.	بركة جناق(١)	D–7.
388.	Bâb Ma'mal el-Neché.	باب معمل النشا	D–8.
389.	Kharâbt ebn Chedyd.*	خرابة ابن شديد	C–7.
390.	El-Cheykh Abou Qedreh.*	الشيخ ابو قدره	C–7.
391.	Khott Farkhezân.*	خطّ فرخزان	B–7.
392.	Sekket Farkhezân.*	سكة فرخزان	B–7.
393.	Nouveau pont.*	[قنطرة جديدة]	A–7.
394.	Qantarat el-Ouezz.*	قنطرة الوَزّ	A–7.
395.	Sibyl el-Bedaouy.	سبيل البَدَوى	D–8.
396.	Qantarat el-Kharrouby.	قنطرة الخَرّوبى	D–8.
397.	Zâouyet el-A'daouy.	زاوية العدوى(٢)	D–8.
398.	Bâb el-A'daouy.	باب العدوى	D–8.
399.	Okâlt el-Hemyr.	وكالة الحمير	D–8.
400.	Gâma' el-Moutâtyé.	جامع المطاطيا	D–8.
401.	Derb el-Tachtouchy.	درب الطشطوشى(٣)	D–8.
402.	Derb el-Faggâleh.	درب الفجّاله	D–9.
403.	Okâlt el-Qamh.	وكالة القمح	D–8.
404.	Gâma' el-Tachtouchy.	جامع الطشطوشى	D–8.
405.	Khott el-Qattânyn.	خُط القطانين	D–9.
406.	Hod A'bd el-Rahmân Kykhyeh.	حوض عبد الرحمان كيخيه	D–8.
407.	Sibyl Ahmed el-Gouhary.	سبيل احمد الجوهرى	D–8.
408.	Zâouyet el-Baskhy.	زاوية البسخى(٤)	D–8.

(١) وعرفت بعد ذلك ببركة درب عجور . (المترجم) .
(٢) نسبة إلى ضريح الشيخ خضر العدوى . (المترجم) .
(٣) هو الدشطوطى نسبة إلى الشيخ عبد القادر الدشطوطى . (المترحم) .
(٤) الصواب : زاوية البلخى . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
409.	Derb el-Tachtouchy.	درب الطشطوشى	C-D-8.
410.	A'tfet el-cheykh Chehâb.	عطفة الشيخ شهاب	C–8.
411.	A'tfet el-Madbah.	عطفة المدبح	D–8.
412.	Derb el-Geneyneh.	درب الجنينه	C–8.
413.	Geneynet el-cheykh el-Bekry.	جنينة الشيخ البكرى	C–8.
414.	El-Bekryeh.	البكريه	C–8.
415.	Derb Hâtem.	درب حاتم	C-8-9.
416.	A'tfet Abou el-Rych.	عطفة ابو الريش	C–9.
417.	Gâma' el-Khourbatly.	جامع الخُربطلى	C–8.
418.	Gâma' el-Bekryeh.	جامع البكريه(١)	B–8.
419.	Khalyg el-Soultâny.*	خليج السلطانى	B–8.
420.	Terrain cultivé, sans palmiers.*	[أرض مزروعة وليس بها نخيل]	B–8.
421.	Bâb el-Bekryeh.	باب البكريه	B–8.
422.	Geneynet el-Khourbatly.*	جنينة الخُربطلى	B–8.
423.	Bâb Qantarat el-Bekryeh.*	باب قنطرة البكريه	A–8.
424.	Qantarat el-Bekryeh.*	قنطرة البكريه	A–8.
425.	Tell el-Taouâbeh, butte où l'on faisait des briques cuites.*	تَل الطوابه [ويصنع منه الطوب المحروق]	A–8.
426.	Birket el-cheykh Qamar.*	بركة الشيخ قمر	A–8.
427.	Derb el-Tanbaly.	درب الطنبَلى	D–9.
428.	Khoukh A'tfet abou Esba', passage.	خوخ عطفة ابو اصبع [ممر]	D-8-9.
429.	Derb el-Qaouâs.	درب القواص	D–9.
430.	Derb el-Marâfchyé.	درب المرافشيا	D-9-10.
431.	Gâma' Sitty Maryam.	جامع ستى مريم	D–9.

(١) نسبة إلى الشيخ جلال الدين البكرى المدفون بهذا المسجد . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
432.	Cheykh Abou el-Rych, fort Laugier.*	شيخ ابو الريش [حصن لوجيه]	C–10.
433.	Sekket el-Chàre'.	سكة الشارع	D–9.
434.	Birket el-Rotly, terrain inondé, sans palmiers.*	بركة الرطلى[1] [أرض مغمورة بالمياه وليس بها نخيل]	B–10.
435.	Chemin du fort Shulkowski.*	[طريق حصن شولكوفسكى]	A–9.
436.	Khalyg el-Taouâbeh.*	خليج الطوابه	A–9.
437.	Gheyt Khalyl bey.*	غيط خليل بيه	A–9.
438.	Sekket el-Mahmacheh.*	سكة المهمشه	A–9.
439.	Zâouyet el-Sabbân.	زاوية الصبّان	D-9-10.
440.	Derb el-Bousty.	درب البُصطى	D–10.
441.	Bâb el-Faggâleh.	باب الفجّاله	D–10.
442.	Bâb Cha'eyb.	باب شعيب	D–10.
443.	Sekket Birket el-Rotly.*	سكة بركة الرطلى	C-10-11.
444.	Sekket el-Dâher.*	سكة الظاهر	C-10-11.
445.	Gheyt el-kâchef.*	غيط الكاشف	B–11.
446.	Bâb el-Hasanyeh.	باب الحسنيه	A–5.
447.	Sekket el-A'ryân.	سكة العريان	E-9-10.
448.	Gâma' el-A'ryân.	جامع العريان[2]	F–10.
القسم السادس 449.	Okâlt el-Qotn.	وكالة القطن	F–10.
القسم السادس 450.	Souq el-Zalat.	سوق الزَلَط	E–10.
القسم السادس 451.	Gâma' el-A'raby.	جامع العربى	K–7.
452.	Kenyset el-Roum.	كنيسة الروم	K–7.

(١) أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى شخص كان يصنع الأرطال الحديدية ويقيم بجوار هذه البركة . (المترجم) .

(٢) نسبة إلى منشئه الشيخ أحمد بن حسن الشرتى الشهير بالعريان . (المترجم) .

القسم السادس

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
1.	Zâouyet el-Marsafy.	زاوية المرصفى[1]	L–9.
2.	Verrerie.	[معمل زجاج]	L–9.
3.	Derb el-Daqâq.	درب الدقاق	L–9.
4.	A'tfet el-Ma'mal.	عطفة المعمل	L–9.
5.	Derb el-Manâsrah.	درب المناصره	L–9.
6.	Sekket Qantarat el-emyr Hoseyn.	سكة قنطرة الامير حُسين	L–10
7.	Derb el-Tâhoun.	درب الطاحون	K–10.
8.	Zâouyet el-cheykh Selym.	زاوية الشيخ سليم	K–9.
9.	Gheyt Solymân Odobâchy, ou Gheyt el-Mousky.	غيط سليمان اضباشى او غيط الموسكى	K–9.
10.	Gheyt el-Afrang.	غيط الافرنج	K–9.
11.	Hoch el-Fahm.	حوش الفحم	K–10.
12.	El-Fahhâmyn' Fours à charbon.	الفحّامين	K–10.
13.	Khalyg el-Emyr Hoseyn.	خليج الامير حسين	J-k-9.
14.	Zâouyet el-Chouchtery.	زاوية الشُشترى	K–9.
15.	Maison Française.	[منزل فرنسى]	K–9.
16.	Derb el-Bechâbcheh.	درب البشابشه	K–10.
17.	Derb el-Zyât.	درب الزيات	J–10.
18.	Derb el-Gedyd.	درب الجديد	J–9.

(١) ذكر على مبارك أنها كانت فى بدايتها زاوية لسيدى على المرصفى ، ثم بنيت جامعا بمنبر وخطبة . (المترجم) .

المربع	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		الرقم المعطى على الخريطة
J–9.	بيت موسى كاف	Beyt mousäkâf.	19.
J–9.	جامع العجمى	Gâma' el-A'gamy.	20.
J-k-9.	حارة الفرنساويه	Hârt el-Fransâouyeh.	21.
J–9.	[منزل قنصل النمسا]	Maison du consul d'Autriche.	22.(١)
J–9.	جامع الخزنضار(٢)	Gâma' el-Khaznadâr.	23.
J–9.	حارة الافرنج	Hârt el-Afrang, ou quartier des Francs.	24.
J–9.	درب المزّين	Derb el-Mezeyyn.	25.
J–10.	درب الحزّامه	Derb el-Hazzâmeh.	26.
H–10.	درب البرابرَه	Derb el-Barâbrah.	27.
H–10.	جامع درب البرابره	Gâma' Derb el-Barâbrah.	28.
H–10.	[بالوعة]	Puisard.	29.
H–9.	درب الحين	Derb el-Hyn.	30.
H–9.	دير الصغير [كنيسة التبشير]	Deyr el-Soghayr, èglise de la Propagande.	31.
H–9.	دير الكبير [دير الأرض المقدسة]	Deyr el-Kebyr, couvent de la Terre-Sainte.	32.
H–9.	درب قَطرى	Derb Qatry.	33.
H–9.	درب نخنوخ	Derb Nakhnoukh.	34.
H–9.	درب الجنينه	Derb el-Geneyneh.	35.
H–9.	درب الطاحون	Derb el-Tâhoun.	36.
G–10.	درب العلوة	Derb el-E'loueh.	37.
G–9.	عطفة جرجس الاحمر	A'tfet Girgès el-Ahmar.	38.
G–10.	جامع العلوه	Gâma' el-E'loueh.	39.
G–8.	حمّام ابو حلوه	Hammâm Abou Heloueh.	40.
G–9.	عطفة الشيخ ابراهيم	A'tfet el-cheykh Ibrâhym.	41.

(١) نسيت وكالة الخل أمام جامع الخازندار .

(٢) صوابه : جامع الخازندار ، نسبة إلى منشئه محمد أغا الخازندار . (المترجم) .

المربع	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		الرقم المعطى على الخريطة
G–8.	حارة الافرنج [الحى الافرنجى]	Hârt el-Afrang, quartier des Francs.	42.
G–9.	عطفة المَورَدى	A'tfet el-Maouardy.	43.
G–8.	بيت القيرسلى	Beyt el-Qeysarly.	44.
G–9.	درب الطاحون	Derb el-Tâhoun.	45.(١)
G–9.	جامع مصطفى بيه	Gâma' Moustafă bey.	46.
G–9.	عطفة الميعه	A'tfet el-Meya'h.	47.
G–9.	عطفة الحريرى	A'tfet el-Haryry.	48.
G–9.	عطفة الجلاّب	A'tfet el-Gellâb.	49.
G–9.	عطفة الشّرى	A'tfet el-Cherry.	50.
G–9.	عطفة الفُرن	A'tfet el-Fourn.	51.
G–9.	عطفة الشُربجى	A'tfet el-Chorbagy.	52.
G–9.	درب التبّانيه	Derb el-Tabbânyeh.	53.
G–9.	درب مصطفى	Derb Moustafă.	54.
G–8.	زاوية الشيخ البكرى	Zâouyet el-cheykh el-Bekry.	55.(٢)
G–8.	سكة قنطرة الجديد	Sekket Qantarat el-Gedyd.	56.
F-G-8.	الرملى	El-Ramly.	57.
F–9.	درب الجديد	Derb el-Gedyd.	58.
F–9.	زاوية الرمله	Zâouyet el-Ramleh.	59.
F–9.	سوق الحمّام	Souq el-Hammâm.	60.
F–9.	درب قُشاش	Derb Qochâch.	61.
G–10.	سكة الطُراب	Sekket el-Tourâb.	62.
G–10.	سكة وسعة الجير	Sekket Ouasa't el-Gyr.	63.
F–8.	وكالة الميدان	Okâlt el-Meydân.	64.
F–8.	جامع الميدان	Gâma' el-Meydân.	65.
F-9-10.	درب الشُرَفه	Derb el-Chorafeh.	66.

(١) أشار الرسام أمام الرقم 45 إلى مسجد بدلا من بئر.

(٢) يوجد هذا المكان أمام النقطة التى وضع عليها الرقم .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
67.	Khalyg el-Cha'râouy.	خليج الشعراوى	F-G-8.
68.	Khalyg el-Mousky ou el-Afrang.	خليج الموسكى او الافرنج	H–8.
69.	Gâma' el-Kykhyeh.	جامع الكيخيه(١)	F–9.
70.	Okâlt el-Magloub et el-Meydân.	وكالة المجلوب والميدان	F–9.
71.	Derb el-Tammâr.	درب الطمّار(٢)	F–9.
72.	El-Meydân.	الميدان	F–8.
73.	Zâouyet el-A'râqy.	زاوية العرقى(٣)	F–9.
74.(٤)	Zâouyet el-Tammâr.	زاوية الطمّار	F–9.
75.(٥)	Zâouyet el-Helâtyeh.	زاوية الحلاتيه	F–9.
76.	A'tfet el-Mechakhah.	عطفة المشخَه	F–8.
77.	Limite de la VIe section	[نهاية القسم السادس]	F–8.
78.	Okâlt el-Nakhleh.(٦)	وكالة النخله	F–8.
79.	Zâouyet el-Arba'yn.	زاوية الاربعين	L–10.
80.	A'tfet Abou Tabaq.	عطفة ابو طبق	L–10.
81.	A'tfet el-Qassâs.	عطفة القّصاص	L–10.
82.	Gâma' Solymân Selym.	جامع سليمان سليم	L–10.
83.	Hod A'bd el-Rahmân Kykhyeh.	حوض عبد الرحمان كيخيه	L–10.
84.	Derb el-Menaggemeh.	درب المنجّمه	L-10-11.

(١) هو جامع الأمير عبد الرحمن كتخدا بالموسكى المعروف بجامع الشوادلية (المترجم)
(٢) الصواب : التمار . وإليه أيضا تنسب زاوية التمار ، وهو الشيخ سيدى محمد أبو الحسن التمار (المترجم) .
(٣) الصواب : العراقى . (المترجم) .
(٤) يوجد هذا المكان أمام النقطة التى وضع عليها الرقم .
(٥) يجب أن ينقل هذا الرقم إلى الحوض فى درب التمار أمام منخفض بشعله سبيل .
(٦) ينتمى هذا المكان إلى القسم الخامس .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
85.	Bâb el-Soueyqah.[1]	باب السويقه	L–11.
86.	Derb el-Maddâh.	درب المدّاح	L–10.
87.	Sekket el-Soueyqah.	سكة السويقه	L-10-11.
88.	Sekket el-Manâsrah.	سكة المناصره	K-L-10.
89.	Hoch Noukkeh.	حوش نكّه	K–10.
90.	A'tfet Hanbout el-Manâsrah.	عطفة حَنبوط المناصره	K--10.
91.	El-Manâsrah.	المناصره	K-9-10.
92.	Zâouyet el-Heraqy.	[زاوية الحراقى]	K–10.
93.	Derb el-Kelb.	درب الكلب	K–10.
94.	Qala't el-Kelâb.	قلعة الكلاب	K–10.
95.	Torbet el-Ezbekyeh.	تُربة الازبكيه	K–11.
96.	El-cheykh Salâmeh.	الشيخ سلامه	k–10.
97.	Derb el-E'loueh.	درب العلوه	K–10.
98.	Koum el-cheykh Salâmeh.[2]	كوم الشيخ سلامه	I–10.
99.	Gâma' el-Qadym.	جامع القدّيم	I–10.
100.	Maison française.	[منزل فرنسى]	I–9.
101.	Châra' el-E'loueh.	شارع العلوه	I–10.
102.	Gâma' Koum el-cheykh Salâmeh.	جامع كوم الشيخ سلامه[3]	I–11.
103.	projet de démolitions pour la communication du Mousky avec l'Ezbekyeh.	[مشروع التمهيد لايصال الموسكى بالأزبكية]	I–11.
104.	El-cheykh A'ntar.	الشيخ عَنطَر	I–11.
105.	Derb el-Tâhoun.	درب الطاحون	I–11.
106.	Beyt Aly bey Selym.	بيت على بيه سليم	I–11.

(١) كتب خطأ على الخريطة سويقه Souyqah ، ورقم 80 بدلا من رقم 85 .
(٢) هذا اسم لحى صغير يمتد إلى الطرف الآخر من شارع درب اللوا .
(٣) ويعرف أيضا باسم خطيبه الشيخ عبد الغنى الملوانى أحد علماء الأزهر . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
107.	Zâouyet el-Dayasty.	زاوية الديسطى	H–11.
108.	Gâma' el-cheykh el-Gouhary.	جامع الشيخ الجوهرى	H–11.
109.	Ma'mal el-Qezâz' verrerie.	معمل القزاز	H–10.
110.	Jardin de bey, disposé à la[(1)] manière des jardins anglais.	[حديقة لأحد البكوات منظمة على طريقة الحدائق الانجليزية]	H–11.
111.	Ménagerie pratiquée dans le jardin ci-dessus.	[معرض للوحوش داخل الحديقة السابقة]	H–10.
112.	Beyt Yahyä kâchef (Maison Dargeavel).	بيت يحيى كاشف [منزل دار جيفال]	H–11.
113.	Zâouyet el-Khabbâz[(٣)].	زاوية الخبّاز[(٢)]	G–10.
114.	Sekket el-Nouby et Derb el-Nouby.	سكة النوبى ودرب النوبى	G–10.
115.	Décombres.	[أنقاض]	G–11.
116.	Gâma' el-Nouby.	جامع النوبى	G–10.
117.	A'tfet Nasab.	عطفة نَسَب	G–11.
118.	Sekket el-Tourab.	سكة الترب	G–10.
119.	Santon.	[ضريح]	G–10.
120.	Tourab el-Rouye'y.	ترب الرويعى	G–10.
121.	Hoch Hasan, cahutes.	حوش حسن	F–10.
122.	Tourab el-cheykh Choraf[(٤)] el-Dyn.	ترب الشيخ شرف الدين	F–10.
123.	Ouasa't el-Gyr.	وسعة الجير	F–10.
124.	Teintures.	[مصابغ]	F–10.

(١) قام مسيو دار جيفال بعمل حمامات وبيت على الطريقة الأوربية . ووجد جذع عمود قديم من الرخام المصرى .

(٢) بداخلها ضريح الشيخ محمد الخباز ، كما تعرف أيضا بزاوية تركى . (المترجم) .

(٣) يوجد هذا المكان أمام النقطة التى كتب بها الرقم

(٤) يوجد هذا المكان أمام النقطة التى كتب بها الرقم .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
125.	A'tfet el-Gayâryn.	عطفة الجيارين	G–10.
126.	Derb el-Migreh.	درب المجره	F–10.
127.	Gâma' Safy el-Dyn.	جامع صفى الدين	F–11.
128.	Sekket el-Meydân.	سكة الميدان	F–10.
129.	Souq el-Samak, marché aux poissons.	سوق السمك	F–11.
130.	Derb el-Fouatyeh.	درب الفوطيه	F–10.
131.	Hârt el-Khodery.	حارة الُخضرى	F–10.
132.	Gâma' el-Birmâouyeh.	جامع البرماويه	E–10.
133.	Masbaghat el-Basmah, okel de teinture par impression.	مصبغة البَصمه [وكالة للصباغة بالطبع]	F–10.
134.	So iq el-Khachab.	سوق الَخشَب	E–10.
135.	Zâouyet el-Rekerâky.	زاوية الركراكى(١)	E–10.
136.	A'tfet el-cheykh A'bd-allah.	عطفة الشيخ عبد الله	E-10.
137.	Derb el-Tabbâkh.	درب الطباخ	E–10.
138.	A'tfet el-Sa'ydeh.	عطفة السعيده	E–11.
139.	Zâouyet el-Tabbâkh.	زاوية الطباخ	E–10.
140.(٢)	Souq el-Zalat, nom d'un quartier.	سوق الزلط	E–10.
141.	Zâouyet el-Seyd Ouhebeh.	زاوية السيد وهبه	E–10.
142.	A'tfet Souq el-Zalat.(٣)	عطفة سوق الزلط	D–10.
143.	A'tfet el-E'loueh.	عطفة العلوه	D–10.
144.	Bâb Souq el-Zalat.	باب سوق الزلط	D–10.

(١) كانت فى أول أمرها زاوية ، ثم بنيت جامعا به منبر وخطبة . والركراكى هذا هو الشيخ أبو عبد الله محمد الرّكراكى نسبة إلى ركراكة ، بلدة بالمغرب . (المترجم) .

(٢) وضع سبيل السيد حسن غرب الرقم 140 وفى الجانب الآخر من العطفة المسدودة .

(٣) اسم الشارع المؤدى إلى سوق الزلط .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
145.	Gâma' el-Taouâchy.	جامع الطواشى[١]	D–10.
146.	Zâouyet el-Moqaddem.	زاوية المقدّم	D–10.
147.	Derb el-A'ssâlet.	درب العسّالة	D–11.
148.	Souq el-Baqar.	سوق البقر	D–10.
149.	Beyt Abou Chaouâreb.	بيت ابو شَوارب	M–12.
150.	Gâma' Abou Chaouâreb.	جامع ابو شَوارب[٢]	M–12.
151.	Gheyt Abou Chaouâreb.	غيط ابو شوارب	L–11.
152.	A'tfet el-Zorâyb.	عطفة الزُرايب	L–11.
153.	El-cheykh el-Beydah.	الشيخ البيضه	L–12.
154.	Zâouyet el-Mechahdyé.	زاوية المشهديا	K–12.
155.	Zâouyet Abou el-A'yneyn.	زاوية ابو العينين	L–11.
156.	Derb el-Mahâbyl.	درب المهابيل	L–11.
157.	Sekket Torbet el-Ezbekyeh.	سكة تربه الازبكيه	K–11.
158.	Bâb el-Oudâa'.	باب الوداع	K–12.
159.	Sibyl ou l-Kouttab el-Dânochâry.	سبيل وكتّاب الدانوشارى	K–11.
160.	Beyt el-cheykh el-Mohdy.	بيت الشيخ المُهدى	G–12.
161.	Derb el-Baharah.	درب البَحرَه	K–11.
162.	Derb el-Okâlt.	درب الوكالة	K–11.
163.	Gâma' el-Bekry.	جامع البكرى	K–12.
164.	Sibyl el-Bekry.	سبيل البكرى	K–12.
165.	Maison du payeur gènèral.	[منزل الصراف العام]	G–12.
166.	Beyt Marzouq bey ebn Ibrâhym bey.	بيت مرزوق بيه ابن ابراهيم بيه	K–11.
167.	Beyt Ibrâhym bey.	بيت ابراهيم بيه	K–11.

(١) نسبة إلى منشئه جوهر الطواشي السحرتي ٧٤٨ ، من خدام الملك الناصر محمد بن قلاوون. (المترجم)

(٢) هو جامع أبو الشوارب ، نسبة إلى منشئه شعبان بن أبي الشوارب ، وقد عرف بعد ذلك بجامع الأمير شريف باشا الحكيم الذي قام بتجديده. (المترجم)

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
168.	Fin du quartier des Chrétiens.	[نهاية حارة النصارى]	G–12.
169.	El-A'tabeh el-Zeraqah.	العتبه الزَرقَه	K-11-I-11.
170.	Sibyl el-Madânyeh.	سبيل المدانيّة	I–11.
171.	Hammâm Yezbak.	حمّام يَزبَك	I–11.
172.	Ma'sarat el-Zeyt.	معصرة الزيت	I–11.
173.	Derb el-Meydah.	درب الميضه	I–11.
174.	Derb Tyâb.	درب طياب	G–12.
175.	Sibyl Yezbak.	سبيل يَزبَك	I–11.
176.	Beyt el-Chorâyby.	بيت الشرايبى	I–11.
177.	Gâma' Yezbak.	جامع يَزبَك	I–11.
178.	Beyt Bichyr aghâ.	بيت بشير اغا	I–11.
179.	Bâb el-A'tabeh el-Zeraqah.	باب العتبه الزَرقَه	I–11.
180.	Beyt Ayoub bey el-Kebyr.	بيت ايوب بيه الكبير	I–11.
181.	Projet de démolitions. Voyez ci-dessus, n°. 103.	[مشروع التمهيد . انظر أعلاه رقم ١٠٣] .	I–11.
182.	Bâb el-A'ouä.	باب العوى	H–11.
183.	Beyt el-cheykh el-Gouhary.	بيت الشيخ الجوهرى	H–11.
184.	Sibyl el-cheykh el-Gouhary.	سبيل الشيخ الجوهرى	H–11.
185.	Derb el-E'seyly.	درب العسيلى	H–11.
186.	Derb el-E'seyly.	درب العسيلى	H–11.
187.	Beyt Isma'yl bey.	بيت اسمعيل بيه	H–11.
188.	Beyt Isma'yl bey.	بيت اسمعيل بيه	H–11.
189.	Beyt el-Dyouân (maison du grand divan).	بيت الديوان [منزل الديوان الكبير]	G–11.
190.	Beyt Qâyd aghâ et Beyt el-Dyouân.	بيت قايد اغا وبيت الديوان	G–11.
191.	Gâma' el-Chorâyby.	جامع الشرايبى	G–11.

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
192.	Birket el-Ezbekyeh, place Ezbekyeh.	بركة الازبكيه [ميدان الأزبكية]	H–12.
193.	Derb el-E'seyly.	درب العيسلى	G–11.
194.	Hârt el-Rouye'y.	حارة الرويعى(١)	G–11.
195.	Pharmacie de l'armée.	[صيدلية الجيش]	G–11.
196.	El-cheykh el-Rouye'y.	الشيخ الرويعى	G–11.
197.	Sibyl et Kouttâb el-Rouye'y.	سبيل وكتّاب الرويعى	G–11.
198.	Gâma' el-Rouye'y.	جامع الرويعى	G–11.
199.	Imprimerie nationale.	[المطبعة الوطنية]	G–11.
200.	Imprimerie nationale.	[المطبعة الوطنية]	G–11.
201.	Sekket el-Rouye'y.	سكة الرويعى	G–11.
202.	Gâma' el-Ahmar.	جامع الاحمر	G–11.
203.	Tourab Gâma' el-Ahmar.	ترب جامع الاحمر	G–11.
204.	Koum el-Nokhâl.	كوم النُخال	G–11.
205.	Habitans musulmans.	[سكان مسلمون]	G–11.
206.	Hammâm Gâma' el-Ahmar(٢)	حمّام جامع الاحمر	F–11.
207.	Derb Gâma' el-Ahmar.	درب جامع الاحمر	F–11.
208.	Derb Ryâch.	درب رياش	F–11.
209.	Rouqa't Gâma' el-Ahmar.	رقعة جامع الاحمر	F–11.
210.	61e demi-brigade.	[نصف اللواء ٦١]	F–11.
211.	Sekket Gâma' el-Ahmar.	سكة جامع الاحمر	F–11.
212.	Bâb Safy el-Dyn.	باب صفى الدين	F–11.
213.	Teintures d'indigo.	[مصابغ النيلة]	F–11.
214.	A'tfet el-A'ryd.	عطفة العريض	F–11.
215.	Derb el-Qouttah.	درب القُطّه	F–11.

(١) نسبة إلى السيد أحمد الرويعى شاه بندر التجار بمصر فى العصر العثمانى . (المترحم) .
(٢) يوحد هذا المكان أمام النقطة التى كتب بها الرقم .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
216.	Zâouyet Derb el-Qouttah.	زاوية درب القُطّه	F–11.
217.	Sibyl el-Louâminy.	سبيل اللوامنى	E–11.
218.	Sibyl Abou el-Fous.	سبيل ابو الفوس	E–11.
219.	Ma'sarat el-Zeyt, moulin à huile.	معصرة الزيت	E–11.
220.	Gâma' Salmeh.	جامع سلمَه	E–11.
221.	Gâma' Darhem ou Nousf.	جامع درهم ونصف(١)	E–11.
222.	Bâb el-Bahr.	باب البَحر	E–11.
223.	Zâouyet el-Arba'yn.	زاوية الاربعين	E–11.
224.	Derb el-Baouâryn.	درب البوارين	D–11.
225.	A'tfet el-Baouâryn.	عطفة البوارين	D–11.
226.	Zâouyet el-Chanbaky.	زاوية الشنبكى	D–11.
227.	Zâouyet Abou Qoseybeh(٢)	زاوية ابو قصيبه	D–11.
228.	Beyt Hasan Kykhyeh el-Gharbân.	بيت حسن كيخيه الغربان	M–12.
229.	Derb el-Beydah, ou Derb el-Beyraq.	درب البيضه ودرب البيرق	K-L-M-12
230.	Sekket el-Kafârouch.	سكة الكفاروه	M–12.
231.	Hârt el-Kafâroueh.	حارة الكفاروه	M–13.
232.	Vigne de Gheyt el-Taouâchy.	[كروم غيط الطواشى]	M–12.
233.	Gheyt Abou Seyf, ou Gheyt el-Taouâchy.	غيط ابو سيف أو غيط الطواشى	L–12.
234.	Idem.	[نفسه]	L–13.
235.	Derb el-Beyraq.	درب البيرق(٣)	L–12.

(١) هو جامع الشيخ شهاب الدين ، وكان فى أصله قاعة أنشأها الدرهم ونصف ، ثم بدا لابنته خديجة أن تجعلها مدرسة فأنشأت بها المحراب وجعلت بها منبرا ومئذنة . (المترجم) .

(٢) يوجد هذا المكان أمام النقطة التى كتب بها الرقم .

(٣) الصواب : البيدق نسبة إلى الشيخ محمد البيدق . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
236.	A'tfet La'beh.	عطفة لعبه	L–12.
237.	Derb el-Manâkh.	درب المناخ	L–13.
238.	Derb el-Khaouâgeh.	درب الخواجه	K–12.
239.	Derb el-Gammaseh.	درب الجمّسه	K–12.
240.	Derb el-A'sal.	درب العَسَل	L–11.
241.	Derb el-Moqaddem.	درب المقدّم	K–12.
242.	Rouqa't el-Qamh.	رُقعة القمح	K–12.
243.	Souq el-Bekry.	سوق البكرى	K–12.
244.	Sekket O'smân Kykhyeh.	سكة عثمان كيخيه	K–12.
245.	Cheykh Mousä el-Sersy.	شيخ موسى السرسى	K–12.
246.	Gâma' A'bd el-Haq.	جامع عبد الحق	K–12.
247.	Beyt Mourâd bey.	بيت مراد بيه	K–12.
248.	A'tfet Abou Qouttah.	عطفة ابو قطّه	K–12.
249.	Beyt O'smân bey el-Achqar.	بيت عثمان بيه الاشقر	K–12.
250.	Sekket Souq el-Bekry.	سكة سوق البكرى	K–12.
251.	Tisserands.	[نساجون]	K–12.
252.	Administration des finances.	[الادارة المالية]	K–12.
253.	Beyt el-cheykh el-Bekry.	بيت الشيخ البكرى	K–12.
254.	A'tfet el-Sekâkyny.	عطفة السكاكينى	G–12.
255.	Rasyf Hârt el-Nasârah.	رَصيف حارة النصاره	G–12.
256.	Marché très-populeux.	[سوق كثير الرواد]	F–12.
257.	Khott ou Hârt el-Nasârah.(1)	خُط وحارة النصاره	F-12-13.
258.	Derb el-Geneyneh.	درب الجنينه	F–12.
259.	El-cheykh Qamar.	الشيخ القَمَر	F–12.
260.	Derb el-Dohdeyreh.	درب الدُحديره	F–12.
261.	Gâma' el-Tourkmâny.	جامع التُركمانى(٢)	E–12.

(١) يمتد هذا الحى حتى شارع وسعة الحمام .
(٢) نسبة إلى منشئه الأمير بدر الدين محمد التركمان . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
262.	Gâma' el-Gid A'ly.	جامع الجد على	E–12.
263.	Filature de coton.	[مغزل قطن]	E–12.
264.	Derb el-Tourkmâny.	درب التُركمانى	E–12.
265.	Derb el-Khouf.	درب الخُف	E–12.
266.	Ateliers pour blanchir le coton et les toiles.	دولاب ووكالة بياض القُطن والاقمشه	E–12.
267.	Derb el-cheykh Abou-Bekry.	درب الشيخ ابو بكرى(١)	E–12.
268.	Derb el-Berqy.	درب البَرقى	E–12.
269.	Derb el-Gâma'.	درب الجمع(٢)	E–13.
270.	Gâma' Sydy A'ly el-Farrâh.	جامع سيدى على الفرَّه(٣)	E–13.
271.	A'tfet el-Fourn.	عطفة الفُرن	D–12.
272.	A'tfet el-Ghafyr.	عطفة العفير	E–12.
273.	Gâma' el-Bahr.	جامع البحر	E–12.
274.(٤)	Okâlt el-Qamh.	وكالة القمح	E–12.
275.	Derb el-Mekhâllatyeh.	درب المخاللتيه(٥)	M–13.
276.	Sekket el-Sâhah.	سكة الساحَه	L–13.
277.	Zâouyet el-Ensâry.	زاوية الانصارى	M–13.
278.	Gâma' el-Mouslemâny.	جامع المسلمانى	L–13.
279.	Derb el-Choqalfâtyeh.	درب الشقلفاتيه(٦)	L-M-13.
280.	Okâlt el-Kittân.	وكالة الكتّان	L–13.
281.	Idem.	وكالة الكتّان	L–13.
282.	Ma'mal el-Qezâz, verrerie.	مَعمَل القزاز	L–13.

(١) الصواب : درب أبى بكر . (المترجم) .

(٢) الصواب : الجامع . (المترجم) .

(٣) هو جامع الشيخ على الفراء بباب البحر . (المترجم) .

(٤) وضع هذا الرقم إلى الشرق أكثر مما ينبغى .

(٥) يعنى : المخللاتية . (المترجم) .

(٦) يعنى : الشقافتية . (المترجم) .

المربع	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		الرقم المعطى على الخريطة
L–13.	رُقعة القمح	Rouqa't el-Qamh.	283.
L–13.	سكة اللّفه	Sekket el-Laffeh.	284.
L–13.	عطفة الخرّايين	A'tfet el-Kharrâyyn.	285.
L–13.	سوق الحمير	Souq el-Hemyr.	286.
L–13.	حارة الفواله	Hârt el-Faouâleh.	287.
L–13.	الفحامين	El-Fahâmyn, fabriques de charbon.	288.
L–13.	زاوية الشايبيه	Zâouyet el-Châybyeh.	289.
K–13.	زاوية شرشه	Zâouyet Chercheh.	290.
K–13.	سبيل وحمّام الكيخيه	Sibyl et Hammâm el-Kykhyeh.	291.
K–13.	سكة عثمان كيخيه	Sekket O'smân Kykhyeh.	292.
K–13.	جامع الكيخيه[1]	Gâma' el-Kykhyeh.	293.
K–13.	رسيف الخشب	Rasyf el-Khachab.	294.
K–13.	حارة النصاره	Hârt el-Nasârah.	295.
K–13.	رَحبَت التبن	Rahbet el-Tebn.	296.
K–13.	الفَواله	El-Faouâleh.	297.
K–13.	بيت مراد بيه	Beyt Mourâd bey.	298.
K–13.	بيت محمد اغا	Beyt Mohammed aghâ.	299.
I–13.	كتّاب الساكه	Kouttâb el-Sâkeh.	300.
I–13.	جامع الحَلَبى	Gâma' el-Halaby.	301.
K–13.	وكالة الليمون	Okâlt el-Lymoun.	302.
I–13.	باب الفَواله	Bâb el-Faouâleh.	303.
I–13.	بيت محمّد افندى	Beyt Mohammed effendy.	304.
I–13.	وسعة المغاربه	Ouasa't el-Moghârbeh.	305.
I–13.	الساكه	El-Sâkeh.	306.

(١) هو من إنشاء الأمير عثمان كتخدا القازدوغلى ، ويقع برأس شارع قصر النيل عند تقاطعه بشارع الجمهورية . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
307.	Beyt O'smân aghâ el-Khaznadâr.	بيت عثمان اغا الخزندار	I–13.
308.	Beyt Mohammed bey el-Elfy.	بيت محمّد بيه الالفى	I–13.
309.	Zâouyet el-cheykh Khodr.	زاوية الشيخ خضر	I–13.
310.	Beyt Elfy bey, maison du général en chef.	بيت الفى بيه [وهو بيت القائد العام]	H–13.
et311.	Quartier général de l'armée française.	[الحى العام للجيش الفرنسى]	H–13.
312.	Khokhet el-Nasârah.	خوخة النصاره	F–13.
313.	Derb Adab.	درب ادب	F–13.
314.	Derb el-Ouâsa'.	درب الواسع	F–13.
315.	Derb el-Sahryg.	درب السهريج	F–13.
316.	Derb el-Ibrâhymy.	درب الابراهيمى	F–14.
317.	Okelt et moulin.	[وكالة وطاحونة]	F–13.
318.	Hoch el-Qatry.	حوش القطرى	F–13.
319.	Sibyl el-Ma'llem Neyrouz.	سبيل المعلّم نيروز	F–13.
320.	Zâouyet el-A'gâmy.	زاوية العجمى	E–13.
321.	Zâouyet el-Ibrâhymy.	زاوية الابراهيمى	E–13.
322.	A'tfet el-Bazbouz.	عطفة البزبوز	E–13.
323.	Hoch el-Daouâyâtyeh.	حوش الدواياتيه	E–14.
224.	Derb el-Ouâsa'.	درب الواسع	E–13.
325.	Derb el-Kihaky.	درب الكَحكى	E–13.
326.	A'tfet el-O'dâmyeh.	عطفة العضاميه	E–13.
327.	Ouasa't el-Hammâm.	وسعة الحمّام	E–13.
328.	Sibyl el-A'nânyeh.	سبيل العنانيه(١)	E–13.

(١) أو سبيل أولاد عنان ، ويعرف أيضا بسبيل أم حسين بك . (المترجم).

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
329.	Gâma' el-A'nânyeh.	جامع العنانيه(١)	D-13-14.
330.	Gabbâseh, moulin à plâtre.	جبّاسه	D–14.
331.	Moulin à huile.	[معصرة]	D–13.
332.(٢)	Okâlt Bezr el-Kittân.	وكالة بزر الكتان	E–13.
333.	Bains.	حمّام	E–13.
334.	Jardins.	[حدائق]	D–13.
335.	Masures.	[أكواخ]	D–12.
336.	Beyn el-Hârât.	بين الحارات	D–13.
337.	Bâb Sydy Seyf.	باب سيدى سيف	D–13.
338.	Jardins.	[حدائق]	D–13.
339.	Pierres de grès servant de meules.	[أحجار رملية تستخدم كطواحين]	D–13.
340.	Birket el-Sâber. *	بركة الصابر	L–14.
341.	Birket el-Faouâleh. *	بركة الفَواله	K–14.
342.	Geneynet el-cheykh Mousbâa', jardin du quartier général.	جنينة الشيخ مصباع	H–14.
343.	Hârt el-Sâkeh	حارة الساكه	H–14.
344.	Jardin de la maison du génie.	[حديقة منزل المهندس]	G–14.
345.	Sibyl Solymân aghâ.	سبيل سليمان اغا	G–15.
346.	Bains.	[حمامات]	G–15.
347.	Hârt Qantarat el-Dikkeh.	حارة قنطرة الدكّه(٣)	G–14.

(١) هو جامع أولاد عنان ، وكان قديما يعرف بالمقس ، وكان يعرف أيضا بجامع باب البحر . وقد أعيد بناء هذا الجامع وفق طراز إسلامى حديث ، ويعرف الآن بجامع الفتح بميدان رمسيس . (المترجم) .

(٢) وجد هذا المكان أمام النقطة التى كتب عليها الرقم .

(٣) عرفت بهذا الاسم بسبب الدكة التى كانت عند القنطرة ، والتى كان يجلس عليها المتفرجون أيام النيل ، ولمّا عمرها الأمير بدرالدين التركانى عرفت بعد ذلك بقنطرة التركمان . (المترجم) .

المربع	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		الرقم المعطى على الخريطة
F–14.	بيت معلّم جرجس الجوهرى [المباشر العام]	Maison de Ma'llem Girgès el-Gouhary, intendant général.	348.
F–14.	عمارة اسمعيل اغا	A'mâret Isma'yl aghâ.	349.
F–14.	قنطرة الدكّه	Qantarat el-Dikkeh.	350.
F–14.	معصرة الزيت	Ma'sarat el-Zeyt, moulin à huile.	351.
E–14.	درب الجَبرونى	Derb el-Gabrouny.	352.
D–14.	باب الحديد	Bâb el-Hadyd.	353.
D–15.	الشيخ المدبولى	El-cheykh el-Madbouly. *	354.
D–15.	قنطرة اليمون	Qantarat el-Lymoun. *	355.
M–15.	بركة الدمّ	Birket el-Dem. *	356.
M–16.	باب اللوق	Bâb el-Louq.	357.
M–16.	قنطرة المدابغ	Qantarat el-Madâbegh. *	358.
H–10.	[بستان أشجار برتقال]	Orangerie.	359.
I–15.	قنطرة المغرَبى	Qantarat el-Moghraby. *	360.
G–15.	[حصن كونرو]	Fort Conroux. *	361.
D–15.	سكة بولاق	Sekket Boulâq. *	362.
C–16.	[حصن كامن]	Fort Camin. *	363.

القسم السابع

المربع	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		الرقم المعطى على الخريطة
L–3.	[حصن ريبول]	Fort Reboul. *	1.[١]
L–1.	سبيل محمد علوت	Sibyl Mohammed A'louat. *	2.
L–1.	قصر صالح بيه	Qasr Sâleh bey. *	3.
K–1.	[منزل قائد الحصن]	Maison du commandant du fort. *	4.
L–3.	درب المحروق	Derb el-Mahrouq. *	5.
K-L-2-3.	سكة قايد بيه	Sekket Qâyd bey. *	6.
K–3.	شيخ الغُريب[٢]	Cheykh el-Ghorayb. *	7.
K–3.	باب الغُريب	Bâb el-Ghorayb.	8.
K–2.	[حصن دوبوى]	Fort Dupuis. *	9.
K-L-3.	ترب الغُريب	Tourab el-Ghorayb. *	10.
K–3.	جامع عبد الرحمان كيخيه[٣]	Gâma' A'bd el-Rahmân Kykhyeh.	11.
K-3-4.	حارة الغُريب	Hârt el-Ghorayb.	12.
K-3-4.	درب الحَلفه	Derb el-Halfeh.	13.
K–3.	حارة الدراسه	Hârt el-Darâseh.	14.
I–3.	عطفة السيد ميعاد	A'tfet el-Seyd Mya'âd.	15.
I–3.	جامع السيد ميعاد	Gâma' el-Seyd Mya'âd.	16.
I–3.	الشيخ مصطفى	El-Cheykh Moustafä.	17.

(١) الرقمين ١ ، ٢سقطا من الخريطة .
(٢) المقصود ضريح الشيخ الغُرَيِّب . (المترجم) .
(٣) وهو جامع عبد الرحمن كتخدا ، ويعرف أيضا بحامع الغُرَيِّب ، ويعرف عند المقريزى بحامع البرقية . وهو من إنشاء الأمير معلطاى الفخرى أخى الأمير ألماس الحاجب . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
18.	Zâouet cheykh el-Qazzâz.	زاوية شيخ القزاز	I–3.
19.	Qasr el-Tamâa'yn.	كفر الطماعيّن	I–3.
20.	Sibyl el-cheykh A'ârafyn.	سبيل الشيخ عارفين	I–3.
21.	Marché.	[سوق]	I–3.
22.	Sekket Bourg el-Zefer. *	سكة بُرج الزفر	I–2.
23.	Zâouyet el-Semlâouy.	زاوية السلملاوى	I–2.
24.	Kafr el-Foqâny.	كفر الفُقانى	I–3.
25.	Kafr el-Tamâa'yn.	كفر الطماعين	I–3.
26.	A'tfet el-Châmlyeh.	عطفة الشامليه	I–3.
27.	A'tfet el-Byr.	عطفة البير	I–3.
28.	Cahutes basses.	[أكواخ منخفضة]	I–3.
29.	Derb el-Dânochâry.	درب الدانوشارى	H–3.
30.	Derb el-Hegâzy.	درب الحجازى	H–3.
31.	Kafr el-Zoa'âry.	كفر الزُعارى(١)	H–3.
32.	A'tfet Maharram.	عطفة محرّم	H–3.
33.	Zâouyet el-Hâggi Sa'deh.	زاوية الحاج سعده	H–3.
34.	A'tfet el-Zorâyby.	عطفة الزرايبى	H–3.
35.	A'tfet el-Madbah.	عطفة الدبح	H–3.
36.	A'tfet el-Choumâa'.	عطفة الشماع	G-3-4.
37.	A'tfet el-Torrâbeh.	عطفة الطرّابه	G–3.
38.	A'tfet el-Zoa'âry.	عطفة الزُعارى	G–3.
39.	A'tfet el-Bouhy.	عطفة البوهى	G–3.
40.	Hoch el-Cherâqoueh.	حوش الشراقوه	G–3.
41.	Gâma' el-cheykh Khalyl.	جامع الشيخ خليل	G–3.
42.	Hârt el-Fourn.	حارة الفُرن	F–3.
43.	Hârt el-Ouasâymeh.	حارة الوسايمه	F-3-4.

(١) [illegible] : كفر الزعارى . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
44.	Gâma' el-Tyneh.	جامع التينه	F–3.
45.	Bourg el-Zefer. *	بُرج الزفر	F–3.
46.	Tourab ou tombeaux de Bâb el-Nasr. *	ترب باب النصر	E–3.
47.	Tourab Bâb el-Nasr. *	ترب باب النصر	E-3-4.
48.	Monticules de cheykh Negm-el-Dyn, ou de Bâb el-Nasr. *	كيمان الشيخ نجم الدّين او باب النصر	C–3.
49.	Fort Grésieux. *	[حصن جريزيو]	C–3.
50.	Hârt el-Doueydâry.	حارة الدويدارى	L–4.
51.	A'tfet A'ynyeh.	عطفة عينيّه	L–4.
52.	Beyt el-Cherqâouy.	بيت الشرقاوى	L–4.
53.	Gâma' A'ynyeh.	جامع عينيّه(١)	L–4.
54.	Zâouyet el-Nanâmyeh.	زاوية النناميه(٢)	K–4.
55.	A'tfet el-Sabbâneh.	عطفة الصبّانه	L–4.
56.	A'tfet el-Cherqâouy.	عطفة الشرقاوى	L-k-4.
57.	Gâma' el-Azhar.	جامع الازهَر	K–4.
58.	Bâb el-Bâtyeh.	باب البَطيه	K–5.
59.	Okâlt Qâyd bey.	وكالة قايد بيه	K-L-4-5.
60.	Hârt el-Azhar.	حارة الازَهر	K–5.
61.	Tisserands.	[نساجون]	K–4.
62.	Rouqa't el-Qamh.	رُقعة القمح	K–4.
63.	Sibyl A'bd el-Rahmân Kykhyeh.	سبيل عبد الرحمان كيخيه	K–4.

(١) نسبة إلى قاضى القضاه بدر الدين الشيخ محمود العينى ، ويعرف بالمدرسة العينية . (المترجم) .

(٢) كانت هذه الزاوية فى الأصل قاعة سكنية أمر بإنشائها شاكر بن العام سنة ٧٧٤ هـ ، تم حولت فيما بعد إلى جامع وزاوية فأضيف إليها محراب ، وكانت عادة تحويل القاعات السكنية إلى جوامع أو زوايا قد تأصلت فى العصر المملوكى مثل قاعة شاكر بن العام السالف الإشارة إليها ، وقاعة شرف الدين التى أصبحت تعرف بجامع شرف الدين بشارع الأزهر وغير ذلك . (المترجم)

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
64.	Sekket el-Azhar.	سكة الازهر	K–4.
65.	A'tfet cheykh el-Emyr.	عطفة شيخ الامير	K–4.
66.	Sibyl Bourdeyny.	سبيل بُرديني	K–4.
67.	El-cheykh Hamoudeh.	الشيخ حموده	K–4.
68.	Sekket el-cheykh Hamoudeh.	سكة الشيخ حموده	K–4.
69.	Hârt Ouleyleh.	حارة وليله	K–4.
70.	Sibyl Bourdeyny.	سبيل بُرديني	K–4.
71.	Khott el-cheykh Hamoudeh.	خُط الشُيخ حموده	K–4.
72.	Sekket el-cheykh Moustafâ.	سكة الشيخ مصطفى	I–4.
73.	A'tfet el-Chonouâny.	عطفة الشنواني	K–4.
74.	Zâouyet el-Chonouâny.	زاوية الشنواني	I–4.
75.	Derb el-Souâfrah.	درب الصوافره(١)	I–4.
76.	Okâlt el-Emâm.	وكالة الامام	I–4.
77.	Khott el-Mechhady.	خُط المشهدى	I–4.
78.	A'tfet el-Mechhady.	عطفة المشهدى(٢)	I–4.
79.	Sibyl el-Mechhady.	سبيل المشهدى	I–5.
80.	Zâouyet cheykh el-A'nbary.	زاوية شيخ العنبرى	I–4.
81.	A'tfet Chomar.	عطفة شومر	I–4.
82.	Bâb el-Hasaneyn.	باب الحسَنين(٣)	I–5.
83.	Zâouyet Hâloumeh.	زاوية حالومه(٤)	I–4.
84.	Derb el-Qourtouby.	درب القُرطُبى	I–4.
85.	Maison du chef des marchands.	[بيت شيخ التجار]	I–4.

(١) لعل المقصود الصوافة . (المترجم) .
(٢) عطفة وسبيل المشهدى ، نسبة إلى رجل يدعى حسن المشهدى . (المترجم) .
(٣) الصواب : باب الحسين . (المترجم) .
(٤) وكانت تعرف بجامع الجوكندار ، كان أول أمره مدرسة تعرف بالملكية ، بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
86.	El-Mechhady.	المشهدى	I–4.
87.	A'tfet el-Hamaouy.	عطفة الحَمَوى	I–4.
88.	Gâma' el-Derdebakyeh.	جامع الدردَبَكيه	I–4.
89.	El-cheykh Daouâqly.	الشيخ دَواقلى	I–4.
90.	A'tfet el-E'louch.	عطفة العلوه	I–4.
91.	Hoch el-Tourgmân.	حوش الترجمان	I-3-4.
92.	Zâouyet Aydoumour.	زاوية ايدمُر(١)	I–4.
93.	Derb el-Qazzâzyn.	درب القزازين	H–4.
94.	Souq el-Ga'ydyeh.	سوق الجعيديه	H–4.
95.	Okâlt el-Mechhady.	وكالة المشهدى	H–4.
96.	El-Ga'ydyeh.	الجعيديه	H–4.
97.	Okâlt el-Kittân.	وكالة الكتّان	H–4.
98.	A'tfet Cheykhoun.	عطفة شيخون	H–4.
99.	Khott el-Ga'ydyeh.	خط الجعيديه	H–4.
100.	Derb el-Hammâm.	درب الحمّام	H–4.
101.	Hârt el-Ga'ydyeh.	حارة الجعيديه	H–4.
102.	Sibyl el-Hamzeh.	سبيل الحمزه	H–4.
103.	Derb el-Moqaddem.	درب المُقدّم	H-4-5.
104.	El-Gamâlyeh el-Qadym.	الجماليه القديم	H–4.
105.	Derb el-Farrâkhah.	درب الفرّاخه	H–4.
106.	Derb el-cheykh Mousâ.	درب الشيخ موسى	H–4.
107.	Qasr el-Choq.	قَصر الشوق	H–5.
108.	Okâlt A'bdouh el-Soghayreh.	وكالة عبده الصغيره	H–5.
109.	Gâma' el-Gamâly.	جامع الجمالى(٢)	H–4.
110.	Fourn el-Bâbeyn.	فُرن البابين	H–4.

(١) وهى جامع أيدمر البهلوان ، ونعرف أيضا بزاوية اللبان . (المترجم).

(٢) يقصد به الخانقاه الجمالية ، نسبة إلى منشئها الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالى سنة ٧٣٠ هـ . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
111.	Derb el-Tahtâny.	درب التحتانى	H–4.
112.	A'tfet el-Byr.	عطفة البير	H–4.
113.	Derb Roussâs.	درب رُصاص	H–4.
114.	Derb el-kâchef.	درب الكاشف	G–4.
115.	Derb el-Tablâouy.	درب الطبلاوى	H-4-5.
116.	Beyt el-cheykh Ibrâhym el-Seyginy.	بيت الشيخ ابراهيم السيجنى	G–4.
117.	A'tfet el-cheykh.	عطفة الشيخ	G–4.
118.	El-Gouânyeh.	الجوانيه	G–4.
119.	Derb el-Arba'yn.	درب الاربعين	G–4.
120.	Hârt el-Qelyoubyeh.	حارة القليوبيه	G–3.
121.	A'tfet A'bd-el-lâtyf.	عطفة عبد اللاطيف	G–4.
122.	Zâouyet el-cheykh A'bd-el-lâtyf.	زاوية الشيخ عبد اللاطيف	G–4.
123.	El-Madâbghyeh, cour où l'on prépare les cuirs.	المدابغية [ساحة حيث تجهز الجلود]	G-4-5.
124.	Okâlt Chychyny.	وكالة شيشينى	F-4-5.
125.	Cheykh el-Gyar.	شيخ الجَير	F–4.
126.	Derb el-Gouânyeh.	درب الجوانيه	F-4-5.
127.	Okâlt el-Rokhbân.	وكالة الرُخبان	F–4.
128.	Zâouyet Mahasen Ramadân.	زاوية محسن رمضان	F–5.
129.	Grecs.	[أروام]	F–4.
130.	Hârt el-Bouz.	حارة البوز	F–4.
131.	A'tfet el-Chorafeh.	عطفة الشُرَفه	F–4.
132.	Quartier très-peuplé.	[حى شديد الازدحام]	F–3–4
133.	Hârt el-A'touf.	حارة العطوف	F–4.
134.	A'tfet Qatcheh.	عطفة قَطشه	F–4.

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
135.	Gâma' el-Baqary.	جامع البقَرى[١]	F–4.
136.	Hoch Ganbalât.	حوش جنبلاط	E–4.
137.	Gâma' Ganbalât.	جامع جنبلاط	E–4.
138.	Madfoun el-Serâkseh. *	مَدفن السراكسه	E–4.
139.	Madfoun el-Tamykhy. *	مَدفُن التميخى	E-4-5.
القسم الخامس 140.	Madfoun el-cheykh el-Hâkhbyeh. *	مَدفُن الشيخ الحاخبيه	D–4.
القسم الخامس 141.	Zâouyet el-Khouâs.	زاوية الخواص	C–4.
القسم الخامس 142.	Tourab el-Zelâqah. *	ترب الزلاقَه	B–4.
القسم الخامس 143.	Bâb el Zelâqah.	باب الزلاقَه	C–5.
القسم الخامس 144.	Derb el-Halleh.	درب الحَلّه	A-B-4.
القسم الخامس 145.	Sekket el-Hasanyeh.	سكة الحسَنيه	A–5.
القسم الخامس 146.	Hoch el-Charâqoueh.	حوش الشراقوه	A–4.
القسم الخامس 147.	Sekket Qoubbet el-A'zab. *	سكة قُبّة العزب	A–4.
148.	Souq el-Azhar.	سوق الازهَر	K–5.
149.	Hod ou réservoir.	حوض	K–3.
150.	A'tfet el-Maydah.	عطفة الميضه	K–5.
151.	Gâma' Mohammed bey.	جامع محمد بيه	K–5.
152.	Sibyl Qâyd bey.	سبيل قايد بيه	K–5.
153.	Derb el-Etrak.	درب الاتراك	K-L-5.
154.	Okâlt bekyr Chorbagy.	وكالة بكير شربجى	K–5.
155.	Sekket Mohammed bey.	سكة محمد بيه	K–5.

(١) هو المدرسة المعروفة بالبقرية ، نسبة إلى منشئها الرئيس شمس الدين شاكر بن غُزيل المعروف بابن البقرى سنة ٧٤٦ هـ . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
156.	Okâlt el-Ghoury.	وكالة الغورى	K–5.
157.	Okâlt el-Esbak ou Yesbak.	وكالة الاسبك او يسبك	K–5.
158.	Sibyl Mohammed bey.	سبيل محمد بيه	K–5.
159.	Hoch Kykhyeh.	حوش كيخيه	K–3.
160.	Okâlt el-bâchâ.	وكالة الباشا	K–6.
161.	Okâlt el-Qobrousy.	وكالة القبرصى	K–6.
162.	Okâlt el-Seyd Ahmed el-Mahrouqy.	وكالة السيد أحمد المحروقى	K–6.
163.	Okâlt el-zeyt A'bd el-Rahmân aghâ.	وكالة الزيت عبد الرحمان اغا	K–6.
164.	Okâlt el-Garâkcheh.	وكالة الجراكشه	K–5.
165.	Okâlt Gouharlâleh.	وكالة جوهرلاله	K–5.
166.	A'tfet cheykh el-Haouâry.	عطفة شيخ الهوارى	K–5.
167.	A'tfet el-A'fyfy.	عطفة العفيفى	K–5.
168.	Okâlt el-Hamzâouy el-Soghayr.	وكالة الحمزاوى الصغير	K–5.
169.(١)	Hammâm el-Kharrâtyn.	حمّام الخراطين	K–6.
170.	Hârt el-Sanâtyeh.	حارة السناتيه	K-5-6.
171.	Souq el-Kharozâtyeh.	سوق الخرزاتيه	K–6.
172.	Okâlt el-Megaouryn.	وكالة المجورين	K–6.
173.	Souq el-Ghoury et Souq el-Aqadyn el-Belady.	سوق الغورى [وسوق العقادين البلدى]	K–6.
174.	Khott el-Ouarrâqyn.	خط الوَرّاقين	K–6.
القسم الخامس			
175.	El-Koutbyeh.	الكُتبيه	K–5.
176.	A'tfet el-Halaouâny.	عطفة الحلوانى	K–5.

(١) يوجد بيت أحمد أغا شويكار بين رقمى 159 .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
177.	Zâouyet el-Halouâgyn.	زاوية الحلوجين[1]	K–5.
178.	Okâlt el-A'gouch.	وكالة العجوه	K–5.
179.	Hammâm el-Megaouryn.	حمّام المجورين	K–5.
180.	Okâlt el-A'ârfyn.	وكالة العارفين	K–5.
181.	Sekket Abou el-Zeyny.	سكة ابو الزينى	I-K-5.
182.	Sibyl A'âmar Ga'far.	سبيل عامر جَعفَر	K–5.
183.	Okâlt el-Chobrâouy.	وكالة الشبراوى	K–5.
184.	A'tfet el-Hamchary.	عطفة الهَمّشَرى	K–5.
185.	Souq el-Koutbyeh, colleurs de cartons.	سوق الكُتبيه	K–5.
186.	Okâlt el-Nachâryn.	وكالة النشارين	K–5.
187.	Okâlt el-Qafâs.	وكالة القفاص	K–5.
188.	Zâouyet el-cheykh Ga'far el-Sa'ydy.	زاوية الشيخ جعفر السعيدى	K–6.
189.	Okâlt el-Basmeh.	وكالة البصمه	K–6.
190.	Souq el Kharrâtyn.	سوق الخرّاطين	K–6.
191.	Okâlt el-Gellâbeh, pour les esclaves noirs des deux sexes.	وكالة الجلاّبه [للعبيد السود من كلا الجنسين]	K–6.
192.	Idem.	[نفسه]	I-K-6.
193.	Okâlt el-Hemyr.	وكالة الحمير	K–6.
194.	Gâma' el-Echrofyeh.	جامع الاشرفيه	K–6.
القسم الخامس			
195.	Derb el-A'sal.	درب العَسَل	I–5.
196.	Gâma' Bezdâr.	جامع بزدار	I–5.
197.	Okâlt el–Ezmerlé.	وكالة الازمرلى	I–5.
198.	A'tfet el-Hammâm.	عطفة الحمّام	I-k-5.
199.	Okâlt el-Baq.	وكالة البَق	I–5.

(١) هى زاوية الحلوحى ، وكانت تعرف براوية الحلاوى . أنشأها الشيخ مبارك المهدى السعودى الحلاوى سنة ٦٨٨ هـ . (المترحم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
200.	El-Bohârâtyeh.	البُهارتيه	I–5.
201.	Hammâm Khân el-Khalyly el-Soghayr.	حمّام خان الخليلي الصغير	K–5.
202.	Zâouyet Lechbok.	زاوية لشبُك	I–5.
203.	Khân el-Soukkar.	خان السُكّر	I–5.
204.	Khân el-Qahoueh.	خان القهوة	I–5.
205.	Marchands de cafetières, savons, tasses, balais, soufflets.	[تجار الغلايات ، الصابون ، الفناجين ، المكانس ، المنافخ]	I–5.
206.	Bâb el-Nahâs.	باب النحاس	I–5.
207.	A'tfet el-Sibyl.	عطفة السبيل	I–5.
208.	Khân el-Sibyl.	خان السبيل	I–6.
209.	Khân el-Khalyly.	خان الخليلي	I–5–6.
210.	El-Târâtyeh, brodeurs.	الطاراطيه [المطرزين]	I–5.
211.	Sekket el-Hasaneyn.	سكة الحسَنين	I–5.
212.	Gâma' el-Hasaneyn.	جامع الحسَنين	I–5.
213.	Menzal el-cheykh el-Sâdât.	منزل الشيخ السادات	I–5.
214.	A'tfet Meydah el-Hasaneyn.	عطفة ميضة الحسنين	I–5.
215.	El-Hasaneyn.	الحسنين	I–5.
216.	Okâlt el-Kafraouy.	وكالة الكفَروى	I–5.
217.	El-Habbâryeh, fabricans d'encre.	الحبّارية [صناع الحبر]	I–5.
218.	Khân el-Henneh.	خان الحّنة	I–5.
219.	Khân el-Boust.	خان البُسْط	I–5.
220.	Khott el-Noqâlyeh.	خط النقاليه	I–5.
221.	El-Saramâtyeh, cordonniers.	الصَرَماتيه	I–5.
222.	Beyt el-cheykh Moustafâ el-Sâouy.	بيت الشيخ مصطفى الصاوى	I–5.
223.	Okâlt Kouchouk.	وكالة كوشك	I–5.
224.	Sibyl Khân Ga'far.	سبيل خان جعفر	I–5.

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
225.	Zâouyet Khân Ga'far.	زاوية خان جعفر	I–5.
226.	Okâlt Khân Ga'far el-Kebyr.	وكالة خان جعفر الكبير	H-I-5.
227.	Zâouyet el-Sâleh.	زاوية الصالح	I–5.
228.	Zâouyet ou petite mosquée.	زاوية [أو مسجد صغير]	I–5.
229.	Okâlt Khân el-Nahâs.	وكالة خان النحاس	I–5.
230.	Sekket Khân el-Khalyly.	سكة خان الخليلى	I–6.
231.	Sekket el-Sâlehyeh.	سكة الصالحيه	I–6.
232. القسم الخامس	El-Echrofyeh.	الاشرفيه	I-K-6.
233.	Okâlt el-Nahâsyn.	وكالة النحاسين	I–6.
234. القسم الخامس	Gâma' el-cheykh Moutâhar.	جامع الشيخ مُطاهر	I–6.
235. القسم الخامس	Okâlt el-Kichâyât.	وكالة الكشايات	I–6.
236. القسم الخامس	Bâb el-Zoumeh ou Bâb el-Zaher Mamraq.	باب الزومه أوباب الزهر ممَرق(١)	I–6.
237.	El-Khourdagyeh.	الخردَجيه	I–6.
238. القسم الخامس	Okâlt el-Dânochâry.	وكالة الدانوشارى	I–6.
239.	Okâlt el-Tâbbouneh.	وكالة الطلبونه	I–6.
240. القسم الخامس	Sekket el-Moqeysy.	سكة المقيصى	I–6.
241.	Dallâlyn, marche des fripiers.	دلالين [تجار الرثاث]	I–6.
242.	Khân el-Leben.	خان اللبن	I–6.
243. القسم الخامس	Okâlt el-Gouhargyeh.	وكالة الجوهرجيه	I–6.
244. القسم الخامس	Sekket el-Sâghah.	سكة الساعه	I–6.
245.	Souq el-Saramâtyeh.	سوق الصرماتيه	I–6.
246. القسم الخامس	Souq Gouhargyeh.	سوق جوهرجيه	I–6.

(١) الصواب : باب الزهومة ، وهو أحد أبواب القصر الشرقى الكبير الذى ساه القائد جوهر لسيده المعز لدين الله ، ويذكر المقريزى أن اللحوم وحوائج الطعام كانت تدخل القصر من هذا الباب. (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
247.	Gâma' el-Sâleh.	جامع الصالح	I–6.
248.	Hammâm el-Nahâsyn.	حمّام النحاسين	I–6.
249. القسم الخامس	El-Marabbâtyeh, marchands de confitures.	المرباتيه	I–6.
250. القسم الخامس	A'tfet el-Nâhasyn.	عطفة النحاسين	I–6.
251.	A'tfet el-Mouristân el-Qadym.	عطفة المرستان القديم	H–5.
252.	Khott el- Hasaneyn.	خط الحسنين	H–5.
253.	Zâouyet el-Ma'bad.	زاوية المَعبد	H–5.
254.	Okâlt el-Achrâq.	وكالة الاشراق	H–5.
255.	A'tfet A'bd el-Barr.	عطفة عبد البَرّ	H–5.
256.	Okâlt Zou-l-Fiqâr el-Soghayr.	وكالة زولفقا الصغير(١)	H–5.
257.	Byr Moyeh Mâlehah, puits d'eau salée.	بير مايّه مالحه	H–5.
258.	Zâouyet el-cheykh Hoseyn.	زاوية الشيخ حُسين	H–5.
259.	Gâma' Mahmoud Maharram.	جامع محمود محّرم	G–5.
260.	A'tfet Bedr el-Dyn.	عطفة بدر الدين	H–5.
261.	Zâouyet Hegâzyeh.	زاوية حجازيه	H–5.
262.	Zâouyet Bedr el-Dyn.	زاوية بدر الدين	H–5.
263.	Okâlt el-Balâbseh.	وكالة البلابسه	H–5.
264.	A'tfet el-Roqa'h.	عطفة الرُقَعه	H–5.
265.	Beyt el- qâdy el-Aslâm.	بيت القاضى الاسلام	H–5.
266.	Hammâm el-effendy.	حمّام الافندى	H–5.
267.	Sibyl Goulchânyeh.	سبيل جُلشانيه	H–6.
268.	Épiceries, sucres, confitures.	[محلات بقالة وسكر وحلوى]	H–6.
269.	El-Mabyadah.	المبيّده	G–4.
270.	El-Mouristân.	المرستان	H–6.
271.	Okâlt el-Aouend.	وكالة الاوند	H–6.

(١) كتب خطأ رقم 260 على الخريطة فى مواجهة رقم 251 بدلا من رقم 256 .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
272.	Sibyl el-soultân Sâleh.	سبيل السلطان صالح	H–6.
273.	Madfoun Sâleh.	مدفن صالح	H–6.
274.	Gâma' el-Dâhryeh.	جامع الظاهريه	H–6.
275. القسم الخامس	Gâma' soultân Qalâoun Mouristân.	جامع سلطان قلاون[١] مُرستان	H–6.
276. القسم الخامس	Souq el-Nahâsyn.	سوق النّحاسين	H–6.
277. القسم الخامس	El-Soukkâryeh.	السُكاريه	H–6.
278. القسم الخامس	Gâma' el-Soultân el-Nâsef.	جامع السلطان الناصف[٢]	H–6.
279. القسم الخامس	Gâma' el-soultân Barqouq.	جامع السطان بَرقوق	H–6.
280. القسم الخامس	Gâma' el-kâmlyeh.	جامع الكامليه	H–6.
281. القسم الخامس	Khott Beyn el- Qasreyn.	خط بين القصرين	H–6.
282. القسم الخامس	Hammâm el-soultân el-Kebyr.	حمّام السلطان الكبير	H–6.
283.	Gâma' cheykh el-Aslâm.	جامع شيخ الاسلام	H–5.
284.	Derb Qermez.	درب قرمز	H–5-6.
285.	Zâouyet A'bd el-Rahmân kykhyeh.	زاوية عبد الرحمان كيخيه	H–6.
286. القسم الخامس	Okâlt el-Roukn.	وكالة الركن	H–6.
287.	Beyt Mahmoud Maharram.	بيت محمود محرّم[٣]	G–5.
288.	Derb el-Masmat.	درب المَصَمَط	G–5.
289.	Souq el-Gamâlyeh.	سوق الجماليه	G-H-5.
290.	Okâlt Zou-l- Fiqâr.	وكالة ذو الفقار	G–5.

(١) المقصود هو مجموعة السلطان المنصور قلاوون ، وتتكون من بيمارستان وقبة ومدرسة وغير ذلك من المنافع والمرافق والحقوق . وكان تشييد هذه المجموعة فيما بين ربيع الآخر ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م ، وجمادى الأولى ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م . (المترجم) .

(٢) الصواب : هو المدرسة الناصرية نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون . (المترجم) .

(٣) هو المعروف بقصر المسافرخانة بحى الجمالية بالقاهرة . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
291.	Sibyl Zou-l-Fiqâr.	سبيل ذو الفقر	G–5.
292.	Derb el-Mabyadah.	درب المَبَيّضه	G–5.
293.	Gâma' Sounqor.	جامع سُنقُر	G–5.
294.	Gâma' Beybars.	جامع بيبرس	G–5.
295.	Okâlt el-Hemyr.	وكالة الحمير	......
296.	Peaux de boeuf tannées.	[جلود بقر مدبوغة]	G–5.
297.	Hoch el-O'tay.	حوش العطى	G–5.
298.	Okâlt Bekyr.	وكالة بكير	F–5.
299.	Zâouyet A'bd el-Kerym.	زاوية عبد الكريم	G–5.
300.	Okâlt el-Gedyd.	وكالة الجديد	F–5.
301.	Rouqa't el-Qamh.	رقعة القمح	G–5.
302.	Gâma' el-Ma'llaq.	جامع المَعلّق(١)	G–5.
303.	Okâlt el-Kykhyeh.	وكالة الكيخيه	G–5.
304.	Okâlt A'bbâs aghâ.	وكالة عباس اغا	G–5.
305.	Okâlt el-Moghrabyeh.	وكالة المغربى	G–5.
306.	Sibyl el-Mogharby.	سبيل المغربى	G–6.
307.	Zâouyet el-Aa'gâm.	زاوية الاعجام	G–6.
308. القسم الخامس	Hammâm el-Beysary.	حمّام البيسرى	H–6.
309.	Okâlt el-Roukn.	وكالة الركن	G–6.
310. القسم السابع	Souq el-Khorounfech.	سوق الخرُنفش	G-H-6.
311.	Okâlt el-Châmy.	وكالة الشامى	G–6.
312. القسم الخامس	Okâlt el-Emchâtyeh.	وكالة الامشاطيه	G–6.
313. القسم الخامس	Okâlt el-Hosaryeh.	وكالة الحصريه	G–6.

(١) يقصد به المدرسة الجمالية نسبة إلى الأمير جمال الدين يوسف الاستادار . ومن المرجح أن تسمية الجمالية بهذا الاسم ترجع إلى هذا الأمير صاحب المنشآت المتعددة بهذا الشارع . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
314.[1]	Sekket el-Khorounfech.	سكة الخرنفش	G–6.
315.	El-Sebâtyeh.	السباتيه	G–6.
316.	Gâma' el-Aqmar.	جامع الاقمر	G–6.
317.	El-Gamâlyeh.	الجماليه	G–5.
318.	Gâma' el-Khânqah.	جامع الخانقه[٢]	G–5.
319.	Sibyl Hârt el-Sâghah.	سبيل حارة الصاغه	G–5.
320.	Hammâm el-Souâfeh.	حمّام الصّوافه	G–5.
321.	Derb el-Asfar.	درب الاصفر	G–5.
322.	Maisons de négocians.	[بيوت تجار]	F-G-5.
323.	Okâlt el-Toufâh.	وكالة التفاح	G–5.
324.	Derb el-Asfar.	درب الاصفر	G–5.
325.	Cuirs et savons.	[جلود وصابون]	G–5.
326.	Khott el-Roukn.	خط الرُكن	G–6.
327.	Matbakh el-A'sal.	مطبخ العَسَل	G–6.
328.	Sibyl Beybars.	سبيل بيبرس	G–5.
329.	Okâlt el-Tyneh.	وكالة التينه	G–5.
330.	El-Cheykh el-Asfar.	الشيخ الاصفر	G–5.
331.	Okâlt el-Qerab.	وكالة القَرب	F–5.
332.	Okâlt el-Gedyd.	وكالة الجديد	F–5.
333.	Sibyl el-Gouânyeh.	سبيل الجوانيه	F–5.
334.	Okâlt el-Ferâkh.	وكالة الفراخ	F–5.
335.	Derb el-Rachydy.	درب الرشيدى	F–5.
336.	Fabrique de soie koreyeh.	[مشغل حرير كريشة]	F–5.
337.	Zâouyet Souq el-A'sr.	زاوية سوق العَسر	F–5.
338.	Teintureries, petits cafés.	[مصابغ ومقاهى صغيرة]	F–5.
339.	Okâlt el-Ghât el-Tâlet.	وكالة الغاط الثالث	F–6.

(١) انظر الرقم 161 من القسم الخامس .

(٢) يقصد به الخانقاه الصلاحية ، والتى اشتهرت باسم جامع سعيد السعداء . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
340.	A'tfet el-Dobbabyeh.	عطفة الضُّبَّبيه	F–5.
341.	A'tfet Abou Latah.	عطفة ابو لطَه	F–6.
342.	Okâlt el-Fyameh.	وكالة الفيَمه	F–5.
343.	Okâlt el-Sâboun.	وكالة الصابون	F–5.
344.	Okâlt Kheych.	وكالة خيش	F–5.
345.	Souq el-A'sr.	سوق العَصر	F–5.
346.	Okâlt el-Asâytah.	وكالة الاسايته	F–5.
347.	Madfoun el-Ghazâl.	مدفن الغزال	F–5.
348.	Cheykh el-Qâsed.	شيخ القاصد(١)	F–5.
349.	Okâlt el-Mahsen.	وكالة المحسن(٢)	F–5.
350.	Okâlt el-Mourgân A'rab.	وكالة المرجان عرب	F–5.
351.	Okâlt el-Moulleh el-kebyreh.	وكالة الملّه الكبيره	F–5.
352.	Okâlt el-Moulleh el-Soghayreh.	وكالة الملة الصغيره(٣)	F–5.
353.	Okâlt el-Hemyr.	وكالة الحمير(٤)	F–5.
354.	Okâlt el-Qamh.	وكالة القمح	F–5.
355.	Okâlt el-Qotn.	وكالة القطن	E–5.
356.	Okâlt el- Zeyt.	وكالة الزيت	E–5.
357.	Okâlt khalylyeh.	وكالة الخليليه	E–5.
358.	Cheykh Abou el-kheyr.	شيخ ابو الخير	F–6.
359.	Cheykh Doueydâr.	شيخ دويدار	E–6.
360.	Okâlt cheykh el-Sâdât.	وكالة شيخ السادات	E–6.
361.	Gâma' el-Hâkim.	جامع الحاكم	E–5.
362. القسم الخامس	Matbakh el-A'sal el-Esoued.	مطبخ العسل الأسود	E–6.

(١) المقصود زاوية القاصد ، بداخلها ضريح أحمد القاصد الميافارقيني . (المترجم) .

(٢) تقع هذه الوكالة على الجانب الآخر من الشارع .

(٣) نفس الملحوظة .

(٤) نفس الملحوظة .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
363. القسم الخامس	Okâlt el-Nyleh.	وكالة النيله	E–6.
364.	Okâlt el-Hemyr.	وكالة الحمير	E–6.
365.	Okâlt el-Toum.	وكالة الثوم	E–6.
366.	Marché aux herbes.	[سوق للأعشاب]	E–6.
367.	Gayyârah.	جَيَّارَه	E–5.
368.	Bâb el-Nasr.	باب النصر	E–5.
369.	Sibyl Bâb el-Nasr.	سبيل باب النصر	E–5.
370.	El-A'âdlyeh.	العَادليه	E-4-5.
371.	A'tfet el-Khoucheybeh.	عطفة الخشيبه	E–5.
372.	Masmat el-Kouâre'.	مصمط الكوارع	E–5.
373.	Sekket el-Qassâsyn.	سكة القصاصيْين	E–5.
374.	Sibyl Hasan el-Chonouâny.	سبيل حسن الشنوانى	E–5.
375. القسم الخامس	Zâouyet el-Seyd Bedr.	زاوية السيد بَدر(١)	E–5.
376. القسم الخامس	A'tfet Koucheyk.	عطفة كشيك	D-E-5.
377. القسم الخامس	Bâb el-Qassâsyn.	باب القصاصيين	E–5.
378. القسم الخامس	Okâlt el-Hemyr.	وكالة الحمير	E–5.
379. القسم الخامس	Gayyârah, Four à chaux.	جياره	E–5.
380. القسم الخامس	Souq Bâb el-Foutouh.	سوق باب الفتوح	D–5.
381.	Okâlt el-ymâm.	وكالة اليمام	D–6.
382. القسم الخامس	Okâlt el- Kichâyât.	وكالة الكشايات	D–5.
383. القسم الخامس	Zâouyet el-bâchâ.	زاوية الباشا	D–5.
384. القسم الخامس	Okâlt el-Dânochâry.	وكالة الدانوشارى	D–5.

(١) وتعرف أيضا بجامع بدر الدين نسبة لمنشئها بدر الدين بن النقيب المقدسى . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
385. القسم الخامس	A'tfet el-Beyrâqdâr.	عطفة البيراقدار	D–5.
386.	Zâouyet el-Sitty Ra'oumeh.	زاوية الستى رعومه	D–5.
387.	Cette rue est sans issue.	[هذا الشارع بدون منفذ]	D–5.
388. القسم الخامس	Okâlt el- Gellâbeh el-Soghayr.	وكالة الجلابه الصغير	D–5.
389. القسم الخامس	Okâlt el-Nahâsyn.	وكالة النحاسين	D–5.
390. القسم الخامس	Okâlt el-Tâbouneh.	وكالة الطابونه	D–6.
391. القسم الخامس	Zâouyet Abou Qaché.	زاوية ابو قشا	D–5.
392. القسم الخامس	Moulin à huile.	[معصرة]	D–5.
393. القسم الخامس	A'tfet el-Châa'r.	عطفة الشاعر	D–5.
394. القسم الخامس	A'tfet el-Halleh.	عطفة الحلّه	C–5.
395. القسم الخامس	Derb el-Qeghtâ	درب القغطا	C–5.
396. القسم الخامس	A'tfet el-Khaouâs.	عطفة الخواص	C–5.
397. القسم الخامس	Bâb el-Khourdy.	باب الخوردى	C–5.
398. القسم الخامس	Souq el-Saramâtyeh.	سوق الصرماتيه	C–5.
399. القسم الحامس	Souq el-Dellâlyn.	سوق الدلالين	B–5.
400.	Okâlt el-Gouhargyeh.	وكالة الجوهرجيه	C–5.
401. القسم الخامس	Khân el-Leben.	خان اللبن	D–5.
402. القسم الخامس	Souq el-Lymoun.	سوق الليمون	E–6.
403. القسم الحامس	El-cheykh el-Matbouly.	الشيخ المتبولى	E–6.
404.	Okâlt el-Gellâbeh el-Soghâyr.	وكالة الجلابه الصغير	I–6.
405.	Teinture par impression.	[صباغة بالطبع]	H–6.
406.	Derb el- Roussâs. (Voyez 113.)	درب الرّصاص [انظر ١١٣]	H–4.

القسم الثامن

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
1.	El-Ouercheh, carrières. *	الوُرشه	R–2.
2.	Sâqyet Sysâryeh.	ساقية سيساريه	R-S-2.
3.	Tourab el-Hattabeh.	تُرب الحطّبه	R–2.
4.	Gâma' Sysâryeh.	جامع سيساريه(١)	S–2.
5.	El-cheykh O'smân.	الشيخ عثمان	R-S-2.
6.	Maisons abandonnées.	[بيوت مهجورة]	S–2.
7.	Derb el-Sâryq.	درب الصاريق	S–2.
8.	El-Derb el-Oucstâny.	الدرب الوَسطانى	R-S-2-3.
9.	Gâma' el-Saba' Salâtyn.	جامع السبع سلاطين(٢)	R–2.
10.	El-Kafr.	الكَفر	R–2.
11.	El-Hattâbeh.	الحطّبه	S–4.
12.	Gâma' el-Loudâmy.	جامع اللدامى	Q-R-3.
13.	El-cheykh Qalantayeh. *	الشيخ قلنتَيه	Q–3.
14.	Tourab Qâyd bey. *	تُرب قايد بيه	P-2-3.
15.	Tourab el-Atleh. *	تُرب الاتله	O–2.
16.	El-Soueyqah.	السويقَه	S–3.
17.	Bâb el-Derys.	باب الدريس	S–3.
18.	Okâlt el-Derys.	وكالة الدريس	S–3.
19.	El-Zâouyet el-Refâ'y.	الزاوية الرفاعى	S–3.
20.	Derb el-Qolaly.	درب القُللى	S–3.

(١) هو الجامع المعروف بسارية الجبل بالقلعة ، ويرجع تشييده إلى العصر الفاطمى ثم [illegible] العثمانى سليمان باشا الخادم ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م . (المترجم) .

(٢) يعرف أيضا بجامع الترابى ، وبداخله ضريح سيدى على الترابى . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
21.	A'tfet el-Zara'.	عطفة الزَرع	S–3.
22.	Derb el-Halyq.	درب الحليق	S–3.
23.	Zâouyeh ou petite mosquée.	زاويه [أو مسجد صغير]	S–3.
24.	Derb el-Zâouyeh.	درب الزاويه	S–3.
25.	Derb el-Khoukhah.	درب الخوخه	R–3.
26.	El-Zâouyet el-Henoud.	الزاوية الهنود(١)	S–3.
27.	Teinturerie.	[مصبغة]	R–3.
28.	Derb el-Dahdourah.	درب الدَحدورَه	R–3.
29.	Derb el-Soghayr.	درب الصغير	R–3.
30.	Zâouyeh ou petite mosquée.	زاويه [أو مسجد صغير]	R–3.
31.	Derb Abou Tartour.	درب ابو طَرطور	R–3.
32.	Hârt el-Hattâbeh.	حارة الحطابه	R–3.
33.	Sibyl A'bd el-Rahmân Kykhyeh.	سبيل عبد الرحمان كيخيه	R–3.
34.	A'tfet el-Abyad.	عطفة الأبيض	R–3.
35.	A'tfet el-Zeyfân.	عطفة الزيفان	R–3.
36.	Gâma' el-Menchekyeh.	جامع المنشكيّه	R–3.
37.	Bâb el-Menchekyeh, porte fermée.	باب المنشكيّه [بابٌ مُغْلَق]	R–3.
38.	Derb el-Nakhleh.	درب النخله	R–3.
39.	Gâma' el-Ounsyeh.	جامع الونسيه	R–3.
40.	Bâb el-Oudâa'.	باب الوداع	R–3.
41.	Sekket el-Loudâmy.	سكة اللدامى	R–3.
42.	Tourab Bâb el-Ouizyr. *	ترب باب الوزير	P-Q-3.
43.	Gâma' el-Tingezyeh. *	جامع التنجزيه	P–3.
44.	Gâma' Qâyd bey. *	جامع قايد بيه	P–3.
45.	Bourg Maqlad. *	برج مَقلَد	O–3.

(١) الصواب : زاوية الهنود بالتبانة ، وتعرف أيضا بزاوية على أغا الرزاز . (المترجم) .

المربع	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		الرقم المعطى على الخريطة
M–3.	باب درب المحروق[١]	Bâb Derb el-Mahrouq.	46.
S–4.	سكة باب الانكشاريه	Sekket Bâb el-Enkechârych.	47. القلعة
S–4.	سكة الرُميله	Sekket el-Roumeyleh.	48.
S–4.	المحجر	El-Mahgar.	49.
S–4.	المرستان القديم	El-Mouristân el-Qadym.	50.
S–4.	زاوية الهنود	Zâouyet el-Henoud.	51.
R–4.	عطفة التكيّه	A'tfet el-Tekyeh.	52.
R–4.	الخرافيه	El-Kharâfyeh.	53.
R-S-4.	درب السُكّرى	Derb el-Soukkary.	54.
S–4.	جامع السُكّرى	Gâma' el-Soukkary.	55.
R–5.	عطفة السُكّرى	A'tfet el-Soukkary.	56.
R–4.	درب الفُرن	Derb el-Fourn.	57.
R–4.	سكة باب الوزير	Sekket Bâb el-Ouizyr.	58.
R–5.	سكة الكومى	Sekket el-Koumy.	59.
R–4.	عطفة كُحيل	A'tfet Koheyl.	60.
R–5.	درب الحَبَّانه	Derb el-Habbâneh.	61.
R–4.	وكالة مرستان القديم	Okâlt Mouristân el-Qadym.	62.
R–4.	جامع باب الوزير	Gâma' Bâb el-Ouizyr.	63.
R–4.	سبيل باب الوزير	Sibyl Bâb el-Ouizyr.	64.
R–4.	باب الوزير	Bâb el-Ouizyr.	65.[٢]
R–4.	شيخ ايدمش[٣]	Cheykh Aydoumouch. +	66.
R-4-5.	درب القزازين	Derb el-Qazzâzyn.	67.
Q–4.	جامع السلطان ترابيه	Gâma' el-soultân Terâbyeh.	68.

(١) كان يعرف قديما بباب القراطين . وتعود تسميته بالمحروق إلى أن بعض المماليك أشعلوا فيه النار ليلا ليتمكنوا من اجتيازه عند خروجهم إلى الشام . (المترجم).

(٢) الرقم 65 مكتوب على المربعات N-O-3 أيضا للإشارة إلى تلال الأنقاض.

(٣) المقصود جامع ايتمش ، نسبة إلى منشئه الأمير سيف الدين ايتمش البجاسى . (المترجم).

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
69.	Beyt Moustafâ Kykhyeh.	بيت مصطفى كيخيه	O–4.
70.	Sibyl el-Zâouyet cheykh Mourchad.	سبيل الزاوية شيخ مورشد(1)	Q–4.
71.	A'tfet Yahyä.	عطفة يحيى	Q–4.
72.	A'tfet el-Ouâhyeh.	عطفة الواحيه	Q–4.
73.	A'tfet el-Markaz.	عطفة المَركَز	Q–4.
74.	A'tfet el-Byr.	عطفة البير	Q-4-5.
75.	Cheykh Amourât el-Dâher Beybars. *	شيخ امراة الظاهر بيبرس	Q–4.
76.	Hârt el-Kharbakyeh.	حارة الخربَكيّه(2)	Q–5.
77.	Sekket el-Kharbakyeh.	سكة الخربكيه	Q-4-5.
78.	Gâma' el-Kharbakyeh.	جامع الخربكيه	Q–5.
79.	Tou_ab el-Kharbakyeh.	ترب الخربكيه	Q–4.
80.	Sibyl el-Kharbakyeh.	سبيل الخربكيه	Q–5.
81.	Fort Hornet. *	[حصن هورنى]	Q–4.
82.	Gâma' Ibrâhym aghâ.	جامع ابراهيم اغا(3)	P-Q-5.
83.	Derb Choghlân.	درب شوغلان	N–4.
84.	A'tfet Choghlân.	عطفة شوغلان	P–4.
85.	Kharabet Regabyeh.	خربة رجبيّه	P–4.
86.	Hoch Abou A'âmer.	حوش ابو عامر	O–4.
87.	El-Zâouyet el-Khodeyry.	الزاوية الخُضيرى	O–4.
88.	A'tfet A'ly aghâ.	عطفة على اغا	O-4-5.

(١) الصواب : سبيل وزاوية الشيخ مرشد بباب الوزير . (المترجم).

(٢) نسبة إلى خير بك أول والى عثمانى على مصر من قبل السلطان سليم سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م . (المترجم) .

(٣) ويعرف عند المقريزى باسم منشئه الأمير آق سقر السلارى أحد مماليك السلطان قلاوون . وتجدر الإشارة إلى أن إبراهيم أغا قد قام ببعض أعمال التجديد والإضافة لهذا الجامع ، نذكر منها على سبيل المثال مجموعة البلاطات الخزفية التى نسب إليها الجامع فعرف بالجامع الأزرق . (المترجم).

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
89.	Kharâbet Mecha'l.	خرابة مَشعَل	O–4.
90.	El-Zâouyet cheykh A'bd-allah.	الزاوية شيخ عبد الله	O–4.
91.	Gâma' Sitty el-Nabouyeh.	جامع ستى النَبَوِيّه	O–5.
92.	A'tfet el-Nabouyeh.	عطفة النبويه	N-O-4-5.
93.	Hoch el-Gedyd.	حوش الجديد	O–4.
94.	Gâma' Aslân.	جامع اصلان	N–4.
95.	A'tfet Gâma' Aslân.	عطفة جامع اصلان	N–4.
96.	Sekket Gâma' Aslân.	سكة جامع اصلان	N–4.
97.	Sibyl el-Ab Ayoub el-Mohdy.	سبيل الأب ايوب المُهدى	N–4.
98.	A'tfet el-Tâhoun.	عطفة الطاحون	N–4.
99.	El-cheykh Goueyny.	الشيخ جوينى[١]	N–4.
100.	Derb el-Mahrouq.	درب المحروق	M-N-4.
101.	A'tfet el-Byr.	عطفة البير	N–4.
102.	Beyt Ahmed bey.	بيت احمد بيه	N–4.
103.	Byr el-Mech, nom d'un puits et de la rue où il est situé.	بير المش [اسم للبئر والشارع الذى يقع فيه]	N–5.
104.	A'tfet el-Henoud.	عطفة الهنود	M–4.
105.	Derb el-Dalyl.	درب الدّليل	M–5.
106.	A'tfet Abou el-Qout.	عطفة ابو القوط	M–4.
107.	Kharâbet Moutâoua'.	خرابة مطاوع	M–4.
108.	Gâma' el-A'nbaryeh.	جامع العنبَريّه	M–4.
109.	A'tfet Cherâryeh.	عطفة شراريه	M–3.
110.	Derb el-A'zaqy.	درب العزقى	M–4.
111.	Hoch el-Bybâny.	حوش البيبانى	M–4.
112.	Derb el-Qazzâzyn.	درب القزازين	M–4.
113.	Zâouyet el-Foqâny.	راوية الفوقانى	L–3.

(١) المقصود ضريح الشيخ الجوينى وهو داخل جامع يعرف بجامع الجوينى (المترجم).

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
114.	Sekket el-Bâtlyeh, et el-Bâtlyeh.	سكة الباطليه	M–5.
115.	Derb Hoseyn.	درب حُسين	M–4.
116.	El-Bâtlyeh.	الباطليه	M–4.
117.	Souq el-Bâtlyeh.	سوق الباطليه	L–4.
118.	Gâma' Seydoun el-Qasrâouy.	جامع سيدون القصراوى	M–5.
119.	Zâouyet el-Arba'yn.	زاوية الاربعين	L–4.
120.	A'tfet el-Dayaqah.	عطفة الضيّقه(١)	L–4.
121.	A'tfet Ebn Edrys.	عطفة ابن ادريس	L–4.
122.	Hoch Basyounyeh.	حوش بَسيونيه	L–4.
123.	Sibyl el-Aa'rafyn.	سبيل الاعرفين	L–4.
124.	Point où la rue est bouchée.	[النقطة التى يقفل عندها الشارع]	L–5.
125.	A'tfet el-Hecht.	عطفة الهشت	L–4.
126.	Sekket el-Doueydâry.	سكة الدويدارى	L–4.
127.	Sibyl A'ly Kykhyeh.	سبيل على كيخيه	S–5.
128.	Gâma' el-Mahmoudyeh.	جامع المحموديه	S–5.
129.	Derb el-Masna'.	درب المَصنَع	S-5-6.
130.	Gâma' Emyr Yâkhour.	جامع امير ياخور	S–5.
131.	Derb el-Qoutneh.	درب القُطنه	S–5.
132.	A'tfet el-Dâly Ibrâhym.	عطفة الدالى ابراهيم	S–5.
133.	Gâma' Gouharlâleh.	جامع جوهرلاله	R-S-5.
134.	A'tfet el-Labbâneh.	عطفة اللابّانه	R–5.
135.	A'tfet el-Mantâouy.	عطفة المنطاوى	R–5.
136.	Cheykh el-Refâ'y.	شيخ الرفاعى	S–6.
137.	Sibyl effendy.	سبيل افندى	S–6.
138.	El-Zâouyet cheykh Lâouy.	الزاوية شيخ لاوى	S–6.
139.	Sekket el-Refâ'y.	سكة الرفاعى	R-S-6.

(١) الصواب : العطفة الضيقة ، ويقال لها حارة المدرسة وتعرف عند المقريزى بدرب الحسام . (المترجم).

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
140.	Kharâbet el-Benâgoueh.	خرابة البناجوه	R–6.
141.	Derb Halâouât.	درب حلاواة	R–6.
142.	A'tfet Halâouât.	عطفة حلاواة	R–5.
143.	Souq el-E'zzy.	سوق العزى	P-Q-5-6.
144.	Beyt Hasan bey.	بيت حسن بيه	R–6.
145.	Zâouyet el-cheykh Hoseyn.	زاوية الشيخ حسين	R–6.
146.	Gâma' el-Sâys.(٢)	جامع السايس(١)	R–6.
147.	Beyt A'ly aghâ.	بيت على اغا	Q–6.
148.	A'tfet el-Ghandour.	عطفة الغَندور	Q–5.
149.	El-Zâouyet Belefyeh.	الزاوية بلفيه	Q–5.
150.	Gâma' Alty Barmaq.	جامع التى بَرمَق	Q–5.
151.	Sibyl Sitty el-Bedaouyeh.	سبيل سيد البدويه	Q–6.
152.	Sibyl ou Hod A'ly Kykhyeh.	سبيل او حوض على كيخيه	Q–6.
153.	Sibyl Hasan aghâ.	سبيل حسن اغا	Q–6.
154.	85e demi-brigade.	[نصف اللواء ٨٥]	Q–5.
155.	Derb el-Qazzâzyn.	درب القزازين	Q–5.
156.	Beyt Moustafä effendy.	بيت مصطفى افندى	Q–5.
157.	El-Zâouyet Derb el-Qazzâzyn.	الزاوية درب القزازين	Q–5.
158.	Gâma' Mesdâdeh.	جامع مسداده(٣)	Q–6.
159.	Sibyl Ibrâhym aghâ.	سبيل ابراهيم اغا	P–5.
160.	Sibyl Belefyeh.	سبيل بلفيه	P–5.
161.	A'tfet el-Sâqyeh.	عطفة الساقيه	P–5.

(١) يقصد به مدرسة وجامع الأمير سيف الدين الحاى اليوسفى سنة ٧٧٤ هـ . وما يزال هذا الجامع باقيا بشارع سوق السلاح . (المترجم) .

(٢) بالقرب هناك حمام سوق السلاح للرجال .

(٣) يقصد به جامع سودون من زاده . وتحدر الإشارة إلى أن هذا الجامع قد أزيل ولم يتبق منه سوى أجزاء بسيطة . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
162.	Sekket el-Ensâry.	سكة الانبصارى	Q-5.
163.	Beyt Mohammed bey el-Manfoukh.	بيت محمد بيه المَنفوخ	Q-5.
164.	Hammâm el-Gedyd, grand bain.	حمّام الجديد (وهو حمام كبير)	Q-5.
165.	El-Tabbâneh.	التبّانه	P-5.
166.	Madfoun Ibrâhym aghâ.	مَدفن ابراهيم اغا	P-5.
167.	Gâma' Om el-soultân.	جامع أُم السلطان	P-5.
168.(١)	El-Zâouyet Moustafä effendy.	الزاوية مصطفى افندى	P-5.
169.	A'tfet el-Moubayad.	عطفة المبيّض	O-5.
170.	Souq el-Tabbâneh.	سوق التبّانه	O-5.
171.	A'tfet O'smân Sâouch.	عطفة عثمان صاوش	P-5.
172.	El-Gazzâlyn, brodeurs.	الغزالين	P-5.
173.	A'tfet el-Arba'yn.	عطفة الاربعين	P-5.
174.	Sibyl Moustafä Kykhyeh.	سبيل مصطفى كيخيه	O-5.
175.	Zâouyet Abou el-Yousfeyn.	زاويه ابو اليوسفين	O-5.
176.	Sibyl el-Azhar.	سبيل الازهَر	O-5.
177.	Sibyl el-Bahtagy.	سبيل البحتجى	O-5.
178.	El-Zâouyet el-Arba'yn.	الزاوية الاربعين	O-5.
179.	Beyt Baqlagy.	بيت البقلجى	O-5.
180.	Gâma' el-Mardâny.	جامع المَردانى	O-5.
181.	Derb el-Mardâny.	درب المَردانى	O-5.
182.	Maison du commandant turk de la section.	[بيت القائد التركى للقسم]	O-5.
183.	Beyt Châhyn Kâchef.	بيت شاهين كاشف	N-O-5.
184.	Derb el-Syâgh.	درب الصيّاغ	N-O-5.
185.	Passage et mosquée.	[ممر ومسجد]	N-5.

(١) رقم 168 كتب على الخريطة بشكل ردىء .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
186.	Beyt Moustafâ kâchef Tourah.	بيت مصطفى كاشف طره	O–5.
187.	Bâb Zara' el-Naoueh.	باب زرع النوَه	O–5.
188.	Zara' el-Naoueh.	زرع النوَه	N–5.
189.	Zâouyet el-Barâde'yeh.	زاوية البرادعيه	N–5.
190.	Zâouyet Zara' el-Naoueh.	زاوية زرع النوَه	N–5.
191.	Hârt Zara' el-Naoueh.	حارة زرع النوَه	N-4-5.
192.	El-Barâde'yeh.(1)	البرادعيه	N–5.
193.	A'tfet el-Balachouny.	عطفة البلشونى	N–6.
194.	Okâlt el-Milâyât.	وكاله الملايات	N–5.
195.	Derb el-Ahmar.	درب الاحمَر	N–6.
196.	Gâma' Qesmâs el Barâde'yeh.	جامع قسماس البرادعيه	N–5.
197.	A'tfet Abou Kelb.	عطفة ابو كلب	N–5.
198.	Sibyl el-Mechhady.	سبيل المشهدى	N–5.
199.	Hod el-Mousleh ou el-Mously.	حوض الموسله او الموسلى	N–5.
200.	Sibyl el-Gabbâseh.	سبيل الجباسه	N–5.
201.	Mouqaf el-Hoummârah.	موقَف الحمّاره	N–5.
202.	Hârt el-Rakhabeh.	حارة الرخبه	M–5.
203.	A'tfet el-Tâhoun.	عطفة الطاحون	M–5.
204.	Beyt el-Batrak, maison du patriarche.	بيت البترك [البطريرك]	M–5.
205.	A'tfet el-Sibyl.	عطفة السبيل	M–6.
206.	Marché et okel de Ma'llem Girgès el-Gouhary.	سوق ووكالة المعلم جرجس الجوهرى	M–5.
207.	A'tfet Bourbarah.	عطفة بربره	M–5.
208.	A'tfet el-Fourn.	عطفة الفرن	M–5.

(١) بجوار حمام باب الوزير.

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
209.	A'tfet el-Byr.	عطفة البير	M–5.
210.	A'tfet el-Okâlt.	عطفة الوكالة	M–6.
211.	Zâouyet cheykh el-Houy.	زاوية شيخ الهوى	M–5.
212.	A'tfet el-Emyr Tâdros.	عطفة الأمير تادرس	M–5.
213.	Hârt el-Roum.	حارة الروم	M-5-6.
214.	A'tfet el-Cherâyby.	عطفة الشرايبى	L–5.
215.	Gâma' el-Khourbatly.	جامع الخُربَطلى	L–5.
216.	A'tfet el-Qâboun.	عطفة القابون	L–6.
217.	Quartier peu habité.	[حى قليل السكان]	L–5.
218.	Beyt A'ly Kykhych Khourbatly.	بيت على كيخيه خربطلى	L–5.
219.	Hoch Qadam.	حوش قَدَم	L–5.
220.	Sibyl Khalyl effendy.	سبيل خليل افندى	L–5.
221.	A'tfet Khalyl effendy.	عطفة خليل افندى	L–5.
222.	Zâouyet cheykh el-Dardyr.	زاوية شيخ الدردير	L–5.
223.	Sekket el-Kahakyn.	سكة الكحكين	L–5.
224.	Gâma' Sy ou Sydy el-Hay Abou A'qb.	جامع سى او سيدى الحى[1] أبو عَقب	L–5.
225.	Okâlt el-Qarâdah.	وكالة القراضه	L–5.
226.	Okâlt el-Moghârbeh.	وكالة المغاربه	K-5-2.
227.	Sibyl Sy Hayeh ou Sydy Hayeh.	سبيل سى حيه او سيدى حيه	L–5.
228.	Sibyl Mohammed el Chonouâny.	سبيل محمد الشُنوانى	L–5.
229.	Hammâm el-Masbaghah.	حمّام المصبغه	K–5.
230.	Okâlt el-Magâouryn.	وكالة المجاورين	K–5.
231.	Derb Loulyeh.	درب لوليه	L–5.

(١) الصواب : جامع سيدى يحيى بن عقب . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
232.	Sibyl Goulohânyeh.	سبيل جُلهانيه	N–6.
233.	Cordonniers.	[صناع أحذية]	M–6.
234.	Gâma' Senân el-Yousfey.	جامع سنان اليوسفى	N–6.
235.	Okâlt el-Khanzyr.	وكالة الخنزير	N–6.
236.	Beyt Hasan Bey Qasabet Radouân.	بيت حسن بيه قصبة رضوان	N–6.
237.	Gâma' el-Mahmoudyeh.	جامع المحموديه	N–7.
238.	Maisons des gens de l'Ouâly.	[بيوت رجال الوالى]	N–6.
239.	Baouâbeh el-Ouâly.	بَوّابه الوالى	N–6.
240.	El-Qerâbyeh.	القرابيّه[1]	N–7.
241.	El-Gazzâryn, bouchers.	الجزّارين	M–7.
242.	Sekket el-Gazzâryn.	سكة الجزّارين	M–7.
243.	Gâma' el-Sâleh.	جامع الصالح	N–6.
244.	A'tfet el-Qâdryeh.	عطفة القادريه	M–6.
245.	A'tfet el-Moqachât.	عطفة المقشاة	M–6.
246.	Derb el-Qoundaqgyeh.	درب القُندقجيه	N–6.
247.	Hammâm el-Derb el-Ahmar.	حمّام الدرب الاحمر	N–6.
248.	Cheykh A'ly el-Seddâr.	شيخ على السدّار	M–6.
249.	Bâb Zoueyleh.	باب زويله	M–6.
250.	El-Moutouâlly.	المتوالّى	M–6.
251.	El-Qoundaqgyeh.	القندقجيه	M–6.
252.	Ma'mal el-Khall.	معمل الخلّ	M–6.
253.	Hammâm el-Soukkaryeh.	حمّام السُكّريه	M–6.
254.	A'tfet el-Soukkaryeh.	عطفة السكّريه	M–6.
255.	Gâma' el-soultân el-Moyed.	جامع السلطن المويّد	M–7.

(١) الصواب : القربية . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
256.	Okâlt el-Sibyl Sitty Nefyseh Mourâd bey.	وكالة السبيل ستى نفيسه مُراد بيه[١]	M–6.
257.	El-Soukkaryeh.	السكريه	M–6.
258.	El-Monâkhlyeh.	المناخليه	M–6.
259.	Sibyl el-Moyed.	سبيل المويد	M–7.
260.	El-Mâti'yn el-Moyed.	المتعين المويد	M–6.
261.	Matbakh el-A'sal el-Esoued.	مطبخ العسل الاسود	M–6.
262.	Okâlt el-Milâyât.	وكالة الملايات	L–6.
263.	A'tfet Chamseh.	عطفة شمسه	M–6.
264.	Moulins à huile.	طحونة السيرج	M–6.
265.	Porte de Hârt el-Roum ou du quartier Grec.	باب حارة الروم [أو حى اليونان]	M–6.
266.	Turks.	[أتراك]	M–6.
267.	A'tfet el-Dahaby.	عطفة الدهبى	M–6.
268.	Derb el-Gedyd.	درب الجديد	L–6.
269.	Beyt Moustâfâ Kykhyeh.	بيت مصطفى كيخيه	M–6.
270.	Okâlt el-Milâyât.	وكالة الملايات	L–6.
271.	Zâouyet Sysân.	زاوية سيسان	L–6.
272.	A'tfet el-Habbâkyn.	عطفة الحباكين	L–6.
273.	A'tfet el-Rossâm.	عطفة الرسّام	L–6.
274.	Gâma' el-Faka'âny.	جامع الفكعانى[٢]	L–6.
275.	Okâlt el-Bastyeh.	وكالة البسطيه	L–6.
276.	Okâlt el-Khourbatly.	وكالة الخربطلى	L–6.

(١) المقصود وكالة السكرية وبداخلها سبيل الست نفيسة حرم المرحوم مراد بك الكبير ، أنشأته مع الوكالة سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م . (المترجم) .

(٢) الصواب : الفاكهانى ، وما يزال هذا الجامع باقيا إلى اليوم بشارع المعز لدين الله فى الجزء المسمى بشارع العقادين . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
277.	El-A'qâdyn, fabricans de cordons de soie.	العقادين [صناع حبال الحرير]	L–6.
278.	Idem.	[نفسه]	L–6.
279.	El-A'labyeh.	العلبيه	L–6.
280.	A'tfet el-Habbâkyn.	عطفة الحباكين	L–6.
281.	Okâlt el-Khachabeh.	وكالة الخشبه	L–6.
282.	El-Fahhâmeyn.	الفحامين	L–6.
283.	El-Taouaqgyeh.	الطوقجيه	L–6.
284.	Sekket el-Fahhâmyn.	سكة الفحامين	L–6.
285.	Khott el-Chaouâyn.	خط الشوّايين	L–6.
286.	Hoch Qadam.	حوش قَدَم	L–6.
287.	A'tfet Cheq el-E'rseh.	عطفة شق العرسه	L–6.
288.	A'tfet el-Gams.	عطفة الجَمص	L–6.
289.	A'tfet Hammâm el-Gibâleh.	عطفة حمّام الجباله	L–6.
290.	Bâb el-Hammâm.	باب الحمّام	L–6.
291.	Hammâm el-Gibâleh.	حمّام الجباله[١]	L–6.
292.	Okâlt Gouharlâleh.	وكالة جوهرلاله	L–6.
293.	Okâlt cheykh el-Sâdât.	وكالة الشيخ السادات	L–6.
294.[٢]	Okâlt el-Mouristân.	وكالة المرستان	L–6.
295.	Okâlt el-Gouharlâleh.	وكالة الجوهرلاله	L–6.
296.	Sibyl Gouharlâleh., citerne et école.	سبيل جوهرلاله [سبيل وكتاب]	L–6.
297.	Sibyl el-Mouristân.	سبيل المرستان	L–6.
298.	Okâlt el-Mouristân.	وكالة المرستان	L–6.
299.	Souq el-Moyed.	سوق المويد	L–6.
300.	El-Bakragyeh.	البكرجيه	L–6.

(١) هو حمام الجبيلى ، ويعرف عند المقريزى بحمام الحوينى . (المترجم) .

(٢) أمام وكالة الحرمين .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
301.	Okâlt Isma'yl bey.	وكالة اسمعيل بيه	L–6.
302.	Souq el-A'ttâryn et teinturiers.	سوق العطارين [ومصابغ]	L–6.
303.	Okâlt el-Qâouqgyeh.	وكالة القاوقجيه	L–6.
304.	Sekket el-soultân el-Ghoury.	سكة السلطان الغورى	K-4-6.
305.	Gâma' el-soultân el-Ghoury.	جامع السلطان الغورى	K–6.
306.	Sekket el-Taouaqgyeh.	سكة الطوقجيه	K–6.
307.	Souq el-Charm.	سوق الشرم	K–6.
308.	Okâlt el-Sitty.	وكالة الستّى	K–6.
309.	Marchands d'étoffes de coton et autres.	[تجار أقمشة قطنية ، وأقمشة من أصناف أخرى]	K–6.
310.	Sekket el-Tableytah.	سكة التبليطَه	K-5-6.
311.	Sekket el-A'raby.	سكة العربى	K–6.
312.	El-Bahragânyeh.	البهرجانيه	K–6.
313.	Okâlt el-Mâouardy.	وكالة الماوردى	K–6.
314.	Hammâm el-Chorâyby.	حمّام الشرايبى	K–6.
315.	Okâlt el-E'chouby.	وكالة العشوبى	K–6.
316.	Okâlt el-Chorâyby.	وكالة الشرايبى	K–6.
317.	A'tfet el-Naggâr.	عطفة النجّار	O–7.
318.	A'tfet el-Târâty.	عطفة التاراتى	O–7.
319.	A'tfet Abou-Qeloung.	عطفة ابو قُلنج	O–7.
320.	A'tfet el-Fourn.	عطفة الفُرن	O–7.
321.	A'tfet el-Sitteh.	عطفة الستّه	O–7.
322.	Gâma' el-Bourdeyny.	جامع البُردينى	O–7.
323.	Sibyl el-Dâoudyeh.	سبيل الداوديه	O–7.
324.	Beyt A'ly bey Hasan.	بيت على بيه حسن	O–7.
325.	A'tfet Chechteh.	عطفة ششته	N–9.
326.	Sekket Beyt el-Cherqâouy.	سكة بيت الشرقاوى	N–8.

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
327.	A'tfet el-Rossâm, fabricans de cordons de soie.	عطفة الرَسّام [صناع الحبال الحريرية]	N–7.
328.	A'tfet el-Hamazyeh.	عطفة الحَمَزيه	N–7.
329.	A'tfet el-Halouagy.	عطفة الحلَوجى	N–7.
330.	A'tfet A'bd el-Rahman Kykhyeh.	عطفة عبد الرحمن كيخيه	N–7.
331.	A'tfet el-Qerabyeh.	عطفة القربيه	N–7.
332.	Zâouyet el-Qerabyeh.	زاوية القربيه	N–7.
333.	Sekket el-Qerabyeh.	سكة القربيه	M-N-7.
334.	Sibyl Ibrâhym Kykhyeh.	سبيل ابراهيم كيخيه	N–7.
335.	Teinturerie.	[مصبغة]	N–7.
336.	Zâouyet Sy A'ly Haymounyeh.	زاوية سى على حيمونيه	N–7.
337.	A'tfet el-Khoucheybeh.	عطفة الخشيبه	N–7.
338.	Sibyl Mohammed effendy.	سبيل محمد افندى	M–7.
339.	Okâlt el-A'sal el-Abyad.	وكالة العسل الابيد	N–7.
340.	El-Hamazyeh.(1)	الحَمَزيه	N–7.
341.	Okâlt el-Mae'z.	وكالة المعز	N–7.
342.	El-Gazzâryn, bouchers.	الجزّارين	M–7.
343.	Sibyl el-Deheycheh.	سبيل الدهيشه	M–7.
344.	Sekket Sy A'ly Abou el-Nour.	سكة سى على ابو النور	M–7.
345.	Zâouyet el-cheykh A'ly Negm.	زاوية الشيخ على نجم	M–7.
346.	Okâlt Sy A'ly Abou el-Nour.	وكالة سى على ابو النور	M–7.
347.	Okâlt A'ly bey.	وكالة على بيه	M–7.
348.	Gâma' el-Goulchâny.	جامع الجلشانى	M–7.
349.	Okâlt el-Khoucheybeh.	وكالة الخشيبه	M–7.

(١) بجوار حمام الوالى .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
350.	Taht el-Rob'.	تحت الربع	M–7.
351.	Ma'mal el-Khall.	معمل الخلّ	M–7.
352.	A'tfet el-Hammâm.	عطفة الحمّام	M–7.
353.	Hammâm el-Moyed, bain pour les hommes.	حمّام المويد [للرجال]	M–7.
354.	Hammâm el-Moyed, bain pour les femmes.	حمّام المويد [للنساء]	M–7.
355.	A'tfet el-Haddâdyn, forgerons.	عطفة الحدّادين	M–7.
356.	Sibyl Qâyd bey.	سبيل قايد بيه	M–7.
357.	Dôme.	[قبة]	M–7.
358.	Zâouyet Abou el-Nour.	زاوية ابو النور	M–7.
359.	Hatab Ouarä el-Moyed.	حطب وَرَى المويد	M–7.
360.	Sibyl el-Moyed.	سبيل المويد	M–7.
361.	A'tfet el-Mâti'yn.	عطفة الماطين	M-6-7.
362.	Beyt Hassan bey el-Tahtâouy.	بيت حسن بيه الطحطاوى	M–7.
363.	Sekket Fâtmeh el-Nabaouyeh.	سكة فاطمه النبويه	M–7-8.
364.	El-Goudaryeh.	الجودريه	L–7.
365.	A'tfet el-Mahrouqy.	عطفة المحروقى	L–7.
366.	Maison d'el-Mahrouqy.	[بيت المحروقى]	L–7.
367.	Zâouyet el-Rahmânyeh.	زاوية الرحمانيه	L–7.
368.	Cheykh el-Goudâryeh.	شيخ الجودريه	L–7.
369.	El-Mechakhah.	المشخه	L–7.
370.	Zâouyet Oualy el-Dyn.	زاوية وَلى الدين	L–7.
371.	Zâouyet el-Châmyeh.	زاوية الشاميه	L–7.
372.	Belles maisons.	[بيوت فخمة]	L–7.
373.	Gâma' Beybars.	جامع بيبرص	L–7.

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
374.(١)	Derb Sa'âdeh.	درب سعاده	L-7-8.
375.	Derb el-Hesbeh.	درب سكة الحسه	L-6-7.
376.	Beyt Seyd Ahmed el-Mahrouqy.	بيت سيد احمد المحوقى	L-7.
377.	Beyt A'ly Kykhyeh.	بيت على كيخيه	L-7.
378.	Hammâm Beybars.	حمّام بيبرس	L-7.
379.	A'tfet el-E'rqousous.	عطفة العرقُسوس	N-7-8.
380.	Zâouyet el-Ma'llaqah.	زاوية المعَلّقه	N-8.
381.	Beyt O'smân bey el-Cherqâouy.	بيت عثمان بيه الشرقاوى	N-8.
382. القسم الأول	A'tfet el-cheykh Moubârek.	عطفة الشيخ مبارك	N-8.
383.	A'tfet Derb el-Madbah.	عطفة درب المدبح	N-8.
384.	Okâlt el-Nachâryn.	وكالة النشارين	M-8.
385.	Ma'mal Khall, fabrique de vinaigre.	معمل خلّ	M-8.
386.	Gâma' el-Marah.	جامع المَره	M-8.
387.	Forgerons.	[حدادون]	M-8.
388.	A'tfet el-Tâhoun.	عطفة الطاحون	M-8.
389.	A'tfet el-Haouy.	عطفة الهوى	M-8.
390.	Sekket el-Haddâdyn.	سكة الحدّادين	M-8.
391.	Zâouyet el-Qazangyeh.	زاوية القزنجيه	M-8.
392.(٢)	Sekket el-cheykh Farag.	سكة الشيخ فرج	M-7-8.
393.	Beyt A'bd el-Rahmân Kykhyeh.	بيت عبد الرحمان كيخيه	M-8.
394.	Zâouyet Fâtmeh.	زاوية فاطمه	M-8.

(١) انظر القسم الخامس رقم ١.

(٢) أمامها يوجد بيت حسن بك الجداوى .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
395.	Gâma' el-Habachly.	جامع الحبشلى[(١)]	M–8.
396.	Belles maisons.	[بيوت جميلة]	M–8.
397.	Beyt Ahmed aghâ.	بيت احمد اغا	M–8.
398.	Gâma' el-cheykh Feyrouz.	جامع الشيخ فيروز[(٢)]	L–8.
399.	Okâlt el-Mangaleh.	وكالة المنجله	L–8.
400.	Sibyl A'bd el-Bâqy.	سبيل عبد الباقى	L–8.
401.	Matbakh el-A'raqy.	مطبخ العرقى	M–5.
402.	Teinture de châls de Kachmyr.	[مصبغة شيلان الكشمير]	L–6.
403.	Hammâm el-Ghouryeh.	حمّام الغوريه	L–6.
404.	Okâlt el-Beyreqdâr.	وكالة البيرقدار	L–6.
405. القسم الأول	Gâma' Moustafä bey.	جامع مصطفى بيه	T–5.
406.	Okâlt el-Soukkary.	وكالة السكرى	O–7.
407.	A'tfet el-Gouâr.	عطفة الجوار	L–5.

(١) هو جامع الأمير محمد كتخدا مستحفظان المعروف بالحبشلى ، وما يزال هذا الجامع باقيا إلى اليوم بشارع درب سعادة خلف مديرية أمن القاهرة . (المترجم) .

(٢) أنشأه الأمير فيروز الساقى الجركسى سنة ٨٣٠ هـ ودفن به بعد موته . وكان فى أول أمره مدرسة ، وهو ما يزال باقيا إلى اليوم . (المترجم) .

قلعـــة القــاهرة

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
1.	Bourg el-Mouballat.	برج المبلط	T–1.
2.	Bourg el-Matar.	برج المطر	T–2.
3.	Bourg el-Moqoussar.	برج المقوصر	T–1.
4.	A'tfet el-Moqasqas.	عطفة المقصقص	T–2.
5.	Blocs détachés du Gebel Mokatam. *	[كتل منفصلة عن جبل المقطم]	T–1.
6.	Hârt Zorounbeh.	حارة ظرنبه	S–1.
7.	A'tfet el-Sâqyeh.	عطفة الساقيه	S–1.
8.	Sibyl Châryeh.	سبيل شاريه	S–1.
9.	Bourg el-Ymâm.	برج الأيمام	S–1.
10.	El-Aoudâlâr, place des Tombeaux.(١)	الاوضالار [ميدان المقابر]	S–1.
11.	Sour el-Enkcharyeh,(٢) enceinte des Janissaires.	صور الانكشريه	S–1.
12.	Bourg el-Ramleh.	برج الرمله	S–1.
13.	Bourg el-Haddâd.	برج الحدّاد	R–1.
14.	El-Ouercheh, * vaste esplanade pour les exercices.	الورشه [ساحة واسعة للتمرينات]	U–2.
15.	Bourg Kerkyalân.	برج كركيلان	T-2.
16.	Bourg el-E'loueh.(٣)	برج العلوه	T–2.

(١) سبيل يقع بالقرب من ميدان المقابر ، ويقع آخر إلى الشمال من دار ضرب النقود

(٢) تتعلق هذه الكلمات بكل سور الانكشارية الواقع بين باب الدريس ، برج الطبالين ، باب الجبل ، برج المبلط ، وبرج الحداد

(٣) كتب الرقم فى الخريطة أبعد عن البرج مما ينبغى

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
17.	Bourg el-Tourfeh.	برج الطرفه	T–2.
18.	A'tfet el-Ghazâl.	عطفة الغزال	T–2.
19.	A'tfet el-Qoustangy.	عطفة القصطنجى	T–2.
20.	El-Toub Khâneh.	الطوب خانه	T–2.
21.	Sekket el-Souq el-Soghayr.	سكة السوق الصغير	T–2.
22.	Gâma' Tâg el-Dyn.	جامع تاج الدين	T–2.
23.	Sibyl Solymân bâchâ.	سبيل سليمان باشا	T–2.
24.	Sibyl Isma'yl effendy ou el-Khourbatly.	سبيل اسمعيل افندى	S–2.
25.	Sekket el-Khourbatly.	سكة الخوربطلى	S–2.
26.(1)	Ville des Janissaires, el-Enkcharyeh.	الانكشريه [مدينة]	S–2.
27.	Souq el-Soghayr.	سوق الصغير	S–2.
28.	Souq el-Hatab.	سوق الحطب	S–2.
29.	A'tfet el-Maddânyn.	عطفة المدانين	S–2.
30.	Sekket el-Chârych.	سكة الشاريه	S–2.
31.	Gâma' el-Chârych.	جامع الشاريه	S–2.
32.	A'tfet el-Chârych.	عطفة الشاريه	S–2.
33.	A'tfet el-Qazzâzyn.	عطفة القزّازين	S–2.
34.	Bourg el-Sahrâ.	برج الصحرا	S–2.
35.	Establ el-bâchâ.	اصطبل الباشا	V–3.
36.	Sibyl Chechmeh ou Soultân el-Ghoury.	سبيل ششمه [أوالسلطان الغورى]	V–3.
37.	Ouasa't el-Establ.	وسعة الاصطبل	V–3.
38.	Bâb el-Elouhaych, porte intèrieure.	باب الالوحيه [باب داخلى]	U–3.

(١) هذا الرقم 26 يرتبط بكل الجزء من القلعة المسمى مدينة الانكشارية التى يضمها السور الذى يحمل هذا الاسم ورقم 11 .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
39.	Ouasa't el-bâchâ, cour du Pâchâ.	وسعة الباشا [ساحة الباشا]	U–3.
40.	Gâma' el-Dahâyché.	جامع الدهايشا	U-3-4.
41.	Sorâyet el-bâchâ.	سُرايت الباشا	U–3.
42.	Sibyl el-Châouchyeh.	سبيل الشاوشيه	U–3.
43.	Dâr el-Darb, maison de la Monnoie.	دار الضرب [بيت السك]	U–3.
44.	Ouasa't el-Matbakh.	وسعة المطبخ	U–3.
45.	Bâb el-bâchâ, porte intérieure.	باب الباشا [باب داخلى]	U–3.
46.[١]	Byr el-Saba' Saouâqy.	بير السبع ساوقى	U–3.
47.	Sibyl el-Saouâqy.	سبيل السواقى	U–3.
48.	Bourg el-Halazoun.	برج الحلزون	U–3.
49.	Bourg Softah.[٢]	برج صفطه	T–3.
50.	Bâb el-Gebel.	باب الجبل	T–3.
51.	Byr Yousef, puits de[٣] Joseph.	بير يوسف	T–3.
52.	Souq el-Matrabâzyeh.	سوق المطرباظيه	T–3.
53.	Souq el-bâchâ.	سوق الباشا	T-U-3.
54.	Gama' soultân Qalaoun.	جامع سلطان قلون[٤]	T–3.
55.	Sibyl Cheryfah Chelmeh.	سبيل شريفه شلمه	T–4.
56.	Bâb el-Moudâfa', porte de l'enceinte des Janissaires.	باب المدافع [داخل سور الانكشارية]	T–3.
57.	El-Chechmeh.	الششمه	T–3.

(١) كان من الواجب أن يوضع هذا الرقم على الجزء الواقع إلى الجنوب قليلا .

(٢) كتب على الخريطة خطأً كلمتا برج الصفا ، وهاتان الكلمتان مع رقم 49 كان يجب أن توضع بالقرب من البرج الضخم الذي يلامس باب الجبل .

(٣) ربما كان ينبغي أن يكتب رقم 51 تحت كلمة يوسف .

(٤) المقصود جامع السلطان الناصر محمد بالقلعة ، وقد عرف أيضا بجامع القلعة . (المترجم) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
58.	Souq el-Barrâny.	سوق البرّانى	T–3.
59.	Bâb el-Chirk, porte intérieure.	باب الشرك [باب داخلى]	T-3-4.
60.	Sekket el-Chechmeh.	سكة الششمه	T–3.
61.	Sibyl aghâ el-Bâb.	سبيل اغا الباب	T–3.
62.	Bourg Khazneh Qoulleh, ou tour des Janissaires.	برج خزنه قلّه [أو برج الانكشارية]	T–3.
63.	Sekket el-Enkcharyeh.	سكة الانكشريه	S-T-3.
64.	Dyouân Moustahfazân.	ديوان مستحفظان	S–3.
65.	Hammâm el-Qala'h.	حمّام القلعه	S–3.
66.	Bâb el-Enkcharyeh.	باب الانكشريه	S–4.
67.	El-Kassârah.	الكسّاره	S–3.
68.	Sour el-aghâ.	صور الاغا	S–3.
69.	Tours en partie ruinées.	[أبراج محطمة جزئيا]	S–3.
70.	El-Gebâkhâneh, magasin à poudre.	الجباخانه [مخزن البارود]	U–4.
71.	Bâb el-Ouestâny.	باب الوصطانى	U–4.
72.	Saba' Hadarât.	سبع حَضَرات	U–4.
73.	Porte.	[باب]	U–4.
74.	Mosquée ruinée.	[أطلال مسجد]	U–4.
75.(١)	Beyt el-Terzy, et mosquée ruinée.	بيت الترزى [وجامع متهدم]	U–4.
76.	Enceinte avancée.	[سور متقدم]	U–4.
77.	El-Qodarâr.	القضرار	U–4.
78.	Enceinte avancée.	[سور متقدم]	T-U-4.
79.	Zâouyet el-Qodarâr el-A'zab.	زاوية القضرار العزب	T–4.
80.	Hârt el-Sâqyeh.	حارة الساقيه	T–4.

(١) إلى الشمال من رقم 75 توجد زاوية البردينى ، وهى مسجد صغير متهدم .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
81.	Sibyl soultân Mourâd.	سبيل سلطان مراد	T–4.
82.	Qasr Yousef, palais ou divan de Joseph.	قصر يوصف أو ديوان يوسف	T–4.
83.	Magasin à poudre.	[مخزن البارود]	T–4.
84.	Beyt Yousef Salâh el-Dyn.	بيت يوسف صلاح الدين	T–4.
85.	Magasins souterrains.	[مخازن تحت الأرض]	T–4.
86.	Bourg el-Chakhs.	برج الشخص	T–4.
87.	Gâma' el-A'zab.	جامع العزب	T–4.
88.	Sibyl Bâb el-A'zab el-Beyreqdâr.	سبيل باب العزب البيرقدار	T–5.
89.	Sekket el-A'zab.	سكة العزب	T-4-5.
90.	Bâb el-Arba'yn, porte intérieure.	باب الاربعين [باب داخلى]	S–4.
91.	A'tfet el-Fourn.	عطفة الفُرن	S–4.
92.	Dyouân el-A'zab.	ديوان العزب	T–5.
93.	Gâma' el-Moyed.	جامع المويد	S–4.
94.	Tourab el-Chorafeh.	ترب الشرفه	S–4.
95.	Sekket el-Chorafeh.	سكة الشرفه	S–4.
96.	Zâouyet Mohammed aghâ.	زاوية محمد اغا	S–4.
القسم الثامن			
97.	Gâma' el-Moustafâouyeh.	جامع المصطفاويه	T–5.
98.	Sibyl el-Moustafâouyeh.	سبيل المصطفاويه	T–5.
99.	Bâb el-A'zab.	باب العزب	T–5.
100.	Sour el-A'zab, enceinte des[1] A'zabs.	صور العزب	T–5.
101.	Sour el-Sorâyeh.[2]	صور الصرايه	U–3.

(١) هذه الكلمات وكذا رقم 100 ينبغى أن تتطابق مع كل سور العزب الواقع بين سور الانكشارية والميدان المسمى بالرميلة .

(٢) كتب على الخريطة كلمة سراية Sarâyeh على سبيل الخطأ .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، المنشآت		المربع
102.	Sibyl Kykhych, grande et belle citerne.	سبيل كيخيه	S–3.
103.(1)	Porte intérieure.	[باب داخلى]	U–4.
104.(2)	Bourg el-Tabbâlyn.	برج الطبالين	T–3.
105.	Gebel el-Gyouchy. *	جبل الجيوشى	Q-U-V-1.

نهاية شرح خريطة القاهرة

(١) ربما كان ينبغى أن يبعد هذا الاسم إلى الشمال قليلا .

(٢) برج كبير يقع إلى الشرق من باب الشرك رقم 59 ، وهذا الرقم والذى يليه سقطا من على الخريطة .

الفصل الثالث

حول مدينة القاهرة

المعالم ، السكان ، الصناعة ، التجارة ، والتاريخ

جاءت معظم المعلومات التى سترد هنا نتيجة لما كُلّفت به من قبل رئيس المهندسين الجغرافيين من العمل على إكمال الخريطة المساحية للقاهرة وإثرائها[1] ، فكان علينا أن نسجل على كل أجزاء هذه الخريطة الأسماء الدقيقة للمنشآت العامة ولكل أنواع العمائر ؛ وأن نسجل فى نفس الوقت أسماء أحياء المدينة وشوارعها ؛ كما كان علىَّ أيضا تحصيل معلومات عن التجارة والصناعة والسكان وعاداتهم .

وقد بدأت الجولة التى قمت بها فى القاهرة فى التاسع عشر من فريمير[2] frimaire من العام الثامن ، واستمرت لمدة شهرين كاملين دون توقف ولو ليوم واحد ، وكان يصحبنى خلالها مترجم وكاتب أوداباشى يعرفان المدينة معرفة كاملة ؛ كما كان يصحبنى ثلاثة أو أربعة آخرون من المرشدين : كانت الخيول تتبعنا مع الخدم ، وما إن كنت أحصل على معلومة ما ، حتى كانت الأسماء تدون باللغة العربية على الخريطة الأصلية بواسطة كاتب قبطى أو رومى أو مسلم ، وبواسطتى أنا أيضا بحروف فرنسية ، كما كانت الأوصاف تسجل فى كراسة معلومات فى نفس الوقت أثناء التواجد بالمكان نفسه .

وليس لى من عمل هنا سوى إضافة الكثير من القرائن التاريخية إلى هذه التفاصيل ، وذلك للحيلولة دون رتابة المدونة وجفافها : لقد اقتبست هذه المعلومات من عديد من العلماء المستشرقين كالمسيو فنتور Venture والمسيو مارسيل Marcel اللذين شاركا فى الحملة ، والمسيو سيلفستردى ساسى Silvestre de Sacy وبخاصة ترجمته لعبد اللطيف[3] ، وكذلك من واضعى مذكرات عن مخطوطات المكتبة الملكية .. إلخ .

---

(١) بخصوص العمليات التى أجريت للخريطة المساحية للقاهرة ، راجع دراسة الكولونيل جاكوتان Jacotin عن وضع خريطة مصر ، المجلد ١٧ ص ٥٤٨ .

(٢) هو الشهر الثالث من التقويم الرسمى لفرنسا ، ويبدأ من ٢١ نوفمبر حتى ٢٠ ديسمبر . (المترجم) .

(٣) رحلة عبد اللطيف ، ترجمة المسيو سيلفستر دى ساسى .

هذا مما أتاح لنا هنا خلاصة نصوص كثيرة كافية أوردها كل من المسعودى والإدريسى وأبو الفدا وعبد اللطيف ، وعبد الرشيد البكوى ، والمكين ، وشمس الدين ، وابن الوردى ، والمقريزى ، وابن إياس ، والسيوطى ، وحاجى خليفة ، ويوسف بن مرعى[1] . . إلخ حول طبوغرافية القاهرة وضواحيها.

(١) الصواب «مرعى بن يوسف» ، وهو مرعى بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد ، كان من أحد أكابر علماء الحنابلة فى مصر ، وتوفى بها فى ١٦٢٣ م ، ومن بين مؤلفاته كتاب «نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين» وسوف يشير إليه مؤلفنا كثيرا . (المترجم)

المبحث الأول
عن خليج القاهرة

تنقسم القاهرة طوليا إلى قسمين غير متساويين إلى حد ما ، وذلك بفعل قناة تستمد مياهها من النيل أسفل مقياس جزيرة الروضة[1] عند نفس النقطة التى يوجد فيها مأخذ مياه مجرى العيون ، وتصب هذه القناة فى خليج يسمى أبو منجا ، الفرع البيلوزى القديم ، الذى يقع على مسافة الفرسخ جنوب شبين القناطر ، وعن طريق هذا الخليج تجرى المياه كل عام إلى البرك الداخلية والخارجية وإلى الميادين العديدة الكبرى فى المدينة وقت الفيضان ، وذلك بعد احتفال وصف فى موضع آخر (انظر فيما يلى ، المبحث الثامن) . ويتراوح عرض الخليج ما بين خمسة إلى عشرة أمتار (١٥ إلى ٣٠ قدما) ، ولا تحفه أرصفة مما يتسبب فى غمر الماء للأجزاء السفلى من المنازل المطلة عليه : ولهذا لا يمكن للمرء أن يستمتع فى أية منطقة بمنظر الخليج ، إلا إذا كان مطلا من نوافذ البيوت التى يغمر الماء أسفلها ، بل ولا يمكن حتى رؤيته من أعلى القناطر العديدة التى تمتد فوقه ، لأن ارتفاع أسوارها يبلغ أكثر من المترين . ويحمل الخليج أسماء مختلفة خارج القاهرة وداخلها ، ونفس الشىء بالنسبة لفرع دائرى متصل ببركة قاسم بك ، ثم يعود إلى الفرع الرئيسى بالقرب من جامع الظاهر بعد أن يكون قد دار حول الجزء الغربى من المدينة .

ويطلق عليه الكُتَّاب العرب اسم «خليج القاهرة» و «خليج أمير المؤمنين» ، لأن عَمْرًا قام بحفره فى عام ٦٣٩ [١٨ هـ] ، بأمر من عمر ليصل النيل بالبحر

(١) انظر الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، اللوحتين ١٥ ، ٢٦ .

الأحمر ، وتسمى أخيرا باسم «خليج الحاكم» ، ويعرف أيضا فى القاهرة باسم الخليج فحسب ، بمعنى القناة[1] . وسوف يكون من المفيد أن نقارن كتابات المؤلفين العرب عن الخليج والأماكن التى يغمرها بخريطة المدينة وضواحيها ، وأن نقارنها بالمدونة المفصلة التى أوردتها فى هذه الدراسة ، والتى كانت محل اهتمام بالغ سواء أثناء الحملة أو ما بعدها .

وقد تم – تقريبا – التعرف على معظم المعالم والأماكن ، بل والأسماء التى أوردها هؤلاء المؤلفون . إن هذا العمل الذى لم أقم إلا بوضع خطوطه الأولى سيكون من الميسور الآن اتمامه على نحو أفضل ، ولتسهيل هذه المهمة ، وجدت أن من الضرورى أن أنشر هنا كل الأسماء باللغة العربية – بالشكل الذى سجلتها به فى نفس أماكنها ، وتحت بصرى – على الأوراق الأصلية لطبوغرافية القاهرة ، مسجلا بنفسى – كما سبق أن ذكرت – بعد كاتب البلاد الأسماء كما سمعتهم ينطقونها . وسيكون من السهل ، مع الاستعانة بالخرائط والمدونة الأصلية أن نتابع نص المؤلفين ، وأن نفهم أوصافهم ، بأفضل مما استطعنا حتى الآن ، الأمر الذى سيسهم فى إكمال تاريخ مدينة القاهرة .

وهناك اسم للخليج يعود إلى فترة ضاربة فى القدم ، كان معروفا لدى المؤرخين العرب ، إذ يخبرنا المقريزى أنه كان يسمى خليج أدريان القيصر Adrien César، وهو اسم يبدو مناظرا لاسم «تراجانوس أمنيس» Trajanus amnis عند بطليموس ، وهذا ما لاحظه دانفيل D'anville من قبل . وبما أن خليج القاهرة هو رأس القناة التى كانت فى الأزمنة القديمة تتصل بالبحر الأحمر وبما أنه – من جهة أخرى – من الثابت أن اتصال البحرين كان قد تم أو أعيد قبل العرب بوقت طويل ، وعلى مدى أربعة عصور مختلفة ، أليس فى ذلك ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن عمرا لم يأمر بأى حفر حتى جزء هذه القناة المجاور للفسطاط ،

---

(١) حمل هذا الخليج أيضا اسم «اللؤلؤة» نسبة إلى المنظرة التى كانت بالقرب من منبعه .

وأنه قد قام فقط بإعادة حفر كل القناة القديمة التى غطتها الرمال بمرور قرون من الزمن ، ثم أطلق عليها بعد ذلك اسم «عمر» أو «أمير المؤمنين» ؟ بل إن نفس العبارات التى يروى بها المقريزى هذا الحادث تزيل فيما يبدو أى شك فيما يختص بالقناة التى تربط بين البحرين إذا نظرنا إليها فى جملتها ، ووفقا للمقريزى ، فإن عمرا قد كتب إلى الخليفة أن الاتصال قد قطع منذ الفتح وأن الإبحار قد توقف نتيجة لردم الخليج[1] . وفى هذه الحالة ليس ثمة ما يمنع لأى سبب من أن نعمم ما قيل عن الخليج كله على الفرع الذى يروى القاهرة اليوم . وقد استمر لمدة طويلة يتبع الجزء العلوى من الفرع البيلوزى ، ولكن عندما سد هذا الفرع سواء فى عهد البطالمة أو فى عهد أدريان فقد شقت قناة جديدة أكثر ضيقا تخرج من النيل أسفل بابليون وتلتحق بالفرع البيلوزى غير بعيد من أونيون Onion .

وقد أقيمت على ضفاف هذا الخليج فى البداية القصور وبيوت اللهو ، ثم أنشئت عليها بعد ذلك مدينة القاهرة نفسها بعد هجر الفسطاط . أما عن قناة تراجانوس امنيس ، فليس بوسعنا إطلاقا مقارنتها بخليج القاهرة على نحو ما فعل دانفيل ، حيث اكتفى بطليموس بالقول بأنها كانت تربط بابليون بهيروبوليس Héroopolis، وحيث إنها فى خريطته تتجه مباشرة إلى جهة الشرق بدلا من الاتجاه نحو الشمال ، وفوق ذلك فإن مأخذ المياه كان موجودًا حيث يقع اليوم .

وليس من الواضح أنه قد أعيد فتح القناة التى كانت تربط البحرين ، وذلك منذ الأمر بردمها فى عام سبعمائة وسبعة وستين .

وها هى خلاصة نص المقريزى حول هذه النقطة من تاريخ مصر :

(١) ذلك أن عمرا قد كتب إلى عمر يقول : «منذ أن فتحنا هذا البلد ، انقطعت الاتصالات وردم الخليج وهجر التجار الملاحة فيه» .

فبناءً على أوامر من عمر بن الخطاب حفرت قناة البحرين ، أو بمعنى آخر أعيد حفرها على يد عمرو بن العاص حاكم مصر فى عام «٦٣٩» ، وهو عام الرمادة ، (العام الثامن عشر من الهجرة)[1] ، وقد افتتحت فى البداية بالقرب من الفسطاط ، وامتدت من النيل حتى البحر ، وأطلق عليها اسم «خليج أمير المؤمنين» ، وبعد أقل من عام كانت تعبره السفن (بعد ستة أشهر كما يذكر الكندى) .

وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز فى عام «٧١٩» [١٠١ هـ] أهمل الولاة العناية بالخليج ، وكان ينتهى عند المكان المسمى «ذنب التمساح» فى منطقة مستنقع القلزم ، وكان عرضه يبلغ حوالى خمسين قدما . وفى العام ٦٩ من الهجرة «٦٨٨» أنشأ والى مصر عبد العزيز بن مروان قنطرة على الخليج ، كما يذكر الكندى (أو قنطرتين كما يذكر السيوطى) . وبعد ذلك ترك الولاة الخليج يردم بشكل طبيعى بغرض قطع المؤن عن ثوار «المدينة» ، بل وأمر الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور بردمه كليا فى عام ١٤٥ «٧٦٢» ، وفقا للمكين أو بالأحرى فى عام ١٥٠ «٧٦٧» تبعا لابن إياس . وهكذا ظل الخليج مردوما حتى زمن المقريزى ، ومن ثَمَّ ظل مردوما حتى اليوم .

وهذا الخليج هو نفسه الذى يحتفل بفتحه فى احتفالات سنوية . يقول المقريزى : إن هذا الخليج كان يخترق الطريق الذى يسمى الشارع الكبير الذى نصل منه اليوم إلى القاهرة ، ويدور حول الخندق الذى يحد الحديقة التى تحمل اسم «ابن كيسان» ويمتد حتى الحوض الذى يحمل اسم سيف الله بن الحسين ، وحتى حديقة المشتهى . ونرى هناك بقايا منظرة اللؤلوة حيث كان يجلس الخليفة عندما يفتح الخليج على هذا الطريق .

---

(١) نشرت المخطوطات المستخرجة من وصف مصر للمقريزى بمعرفة المسيو لانجليه Langlés. المجلد السادس . ص ٣٢٠ .

وكان سكان القاهرة يتنزهون فى قوارب فى الخليج للتسلية ، إلى أن أمر السلطان المملوكى الملك الناصر بحفر الخليج الذى يحمل اسمه ، النَّصْرِى أو الناصرى فى عام ٧٢٥ (١٣٢٤)[١] .

ومنذ عام ٤٠١ (١٠١٠) كان الحاكم بأمر الله قد منع التنزه بالقوارب فى الخليج ، وقد تجدد هذا المنع فى عام ٥٩٤ (١١٩٧–٨) [١١٩٧] ، وفى عام ٧٠٦ (١٣٠٦–٧) [١٣٠٦]فى عهد محمد بن قلاوون . ومنذ عهد هذا الحاكم الأخير فإن القوارب المعدة للتسلية والتنزه لم يعد لها مكان إلا فى الخليج الناصرى .

وهذا الخليج الأخير الذى حفر فى عام ٧٢٥ من الهجرة [١٣٢٤ هـ]على يد محمد بن قلاوون الملقب بالملك الناصر ، كان يؤدى إلى الخانقاه بسرياقوس . وقد أنجز هذا العمل الضخم خلال عامين ، وهو الذى أنشأ كذلك كل القناطر التى نراها على هذا الخليج ، وكان عددها يبلغ الأربع عشرة فى زمن المقريزى .

وبصرف النظر عن فائدته للمدينة ، فقد ساعد الخليج على الدوام فى متعة الشخصيات الهامة والمشايخ وأثرياء المدينة فى زمن الحملة الفرنسية ، حيث كان من عادة المشايخ وأيضا الأقباط البالغى الثراء التنزه فيه بقوارب يصحبهم الموسيقيون ، كما كانوا ينغمسون فى أنواع عديدة من الألعاب والترفيه .

(١) ترجمة المسيو سيلفستر دى ساسى لرحلة عبد اللطيف ص ٤٢٩–٤٣٠ .

المبحث الثانى

الأماكن الرئيسية والمعالم بالقاهرة

١ – الأحياء والميادين العامة :

فى الفصل الأول قمت باستعراض سريع لأكثر الأماكن والمنشآت أهمية فى القاهرة ، وسوف أدخل هنا فى تفصيلات أخرى دون أن أكرر ما سبق أن ذكرته آنفا . وليس ثمة فائدة ترجى من أن نعدد الأحياء الثلاثة والخمسين للمدينة ، إذ سيكون من السهل أن نعد قائمة بها عن طريق الرجوع إلى المدونة ، وتسجيل كل الأسماء التى تبدأ بكلمة (حارة) أو (حاره) hârt و hârah .

وهى تتميز بأسماء مختلف الجنسيات وطوائف الصناع والحرفيين أو التجار الذين يقطنونها ، أو – أخيرًا – تتميز بالمنشآت الرئيسية التى توجد فيها .

وهذه الحارات عبارة عن نطاقات من المنازل يتفاوت امتدادها ، وتنتهى بأبواب تغلق عادة أثناء الليل لضمان أمن المدينة ، فيما عدا شهر رمضان وبعض الاحتفالات الليلية . وكل الأزقة التى توجد بها تصب فى (عطفات) تنتهى هى الأخرى بدورها عند الشارع الرئيسى للحى (سكة ، درب) الذى عادة ما تستمد اسمها منه[١] .

وينبغى أن نعرف أن أكثر أسماء الشوارع تتوافق غالبا مع بعض المنازل [المتميزة] التى تحيط بالخط الذى يسلكه المرء أكثر مما تتوافق مع الشارع

(١) إن هذه الأنواع من الأحياء مأهولة إما بعمال ينتمون لحرفة واحدة ، أو بأجانب من بلد واحد أو ينتمون إلى نفس الدين ، ولكنهم جميعا أناس يخضعون لنفس الظروف ، ولهم نفس الحقوق والامتيازات ، ويجمعهم اهتمام واحد . راجع حول هذا الموضوع مذكرة المسيو سيلفستر دى ساسى ، ترجمته لرحلة عبد اللطيف . ص ٣٨٥

نفسه ، وذلك هو سبب تغير هذه الأسماء باستمرار . أما الأحياء التى تتسم بالنشاط التجارى الظاهر ، والتى تتسم أيضا بشدة الازدحام ، فهى الأحياء التى تحمل أسماء : باب الخرق ، المؤيد ، الأزهر ، الموسكى ، الشعراوى ، الحنفى ، السيدة زينب ، باب الغدر ، الزويلة ، السكرية ، الغورى ، الأشرفية ، السلاح ، الأفرنج ، اليهود ، الروم ، النصارى ، الأزبكية .. إلخ ؛ ويعرف الكثير منها باسم خط ، وأخيرا فثمة أحياء أخرى مثل : تحت الربع ، بين السورين لا يسبق أسماءها لفظ يدل على طبيعتها . وربما أفضى الحكم على سكان القاهرة من خلال بعض هذه الأحياء – حيث تتزاحم أعداد كبيرة فى كثير من الأوقات فى شوارع بالغة الضيق يعانى المرء فيها كثيرا من أجل تبين طريقه – إلى أن يكون المرء فكرة مبالغا فيها لحد كبير ، وذلك ما حدث لكثير من الرحالة . وسوف نعالج هذه النقطة فيما بعد (المبحث الرابع) .

أما الميادين الأكثر انخفاضا (البرك) والتى تغرقها المياه أثناء الخريف ، فتشكل عددا من البحيرات التى تغطيها القوارب إلى أن يحين الوقت الذى تصبح فيه ساحات خضراء ، لتصير فيما بعد ميادين متربة . أما الحدائق الخاصة التى توجد فى الداخل ، بالقرب من سور المدينة ، فتتلقى مياه الفيضان ، شأنها شأن هذه الميادين ، عن طريق قنوات من الخليج .

وعند حديثى عن التجارة ستتاح لى الفرصة لأعود للحديث عن الساحات التى تقام فيها الأسواق الدورية الكبيرة . أما «الوسعة» فهى اسم آخر يطلق على أجزاء من الطريق العام جرى توسيعها ، ولا تزال توجد فى المدينة أفنية واسعة مغلقة (حوش) : وهى بقاع فضاء تقع خلف بعض المجموعات من البيوت ، ولا يمر منها الناس مطلقا ، وترمى بها القاذورات ، وتجمع بها الجمال والحيوانات المريضة ، ويقيم بها البؤساء من المواطنين داخل أكواخ صغيرة ، وكثير من هذه الأحواش تستخدم أيضا فى أغراض الحرف الخاصة بمعالجة المواد الحيوانية . وقد سبق لنا شرح كل هذه المصطلحات النوعية

المختلفة ، وكذلك الأسماء العربية التى تطلق على مختلف أنواع العمائر والمنشآت[1] .

وقد ميز المقريزى فى عصره ثلاثة شوارع كبيرة خارج باب زويلة أحدها فى مواجهة الباب ، والآخران إلى يسار ويمين الشارع الأول . وفى تصورى أنه يمكن التعرف عليها الآن فى الشارع الطولى الكبير ، وفى الشوارع العرضية الكبيرة :

١ — ذلك الذى يربط جامع طولون بجامع الحاكم بدءا من باب السيدة .

٢ — الشارع الذى يبدأ من باب زويلة ويمضى منحرفا إلى القلعة .

٣ — ذلك الذى يتجه ابتداء من نفس النقطة إلى باب اللوق وإلى القنطرة .

أما عن الشارع الذى يسير بمحاذاة الخليج بدءا من قناطر السباع إلى ما وراء باب الشعرية ، فقد لزم المقريزى تجاهه الصمت التام . أما الشوارع الكبيرة الأخرى بالمدينة ، فعلى الرغم من أننا قد ذكرنا منها فيما سبق ثمانية شوارع رئيسية ، فإنها تعد ثانوية إلى جانب هذه الطرق الكبيرة[2] . ويترتب على هذا أن الباب «الجديد» كان عند منتصف الطول الحالى للمدينة : وهو ما يكشف لنا عن الاتساع الذى وصلت إليه المدينة فى اتجاه الجنوب .

٢ — الأبواب

كما سبق أن قلت ، فإن عدد أبواب المدينة يبلغ واحدا وسبعين بابا إذا ما أدخلنا فى هذا العدد الأبواب التى أدى اتساع المدينة إلى تغير الغرض منها ، والتى

(١) انظر ما سبق .

(٢) يجب أن أحيل هنا إلى مذكرة علمية للمسيو دى ساسى فيما يتعلق بأسماء شوارع القاهرة ، علما بأن هناك : الشارع : وهو طريق عام كبير ، الخط ، الحارة ، الدرب ، الزقاق : طرق مغلقة بأبواب وتفضى إلى الشوارع ، العطفة : وهى طريق صغير متصل بحارة أو درب ، الخوخة : وهى زقاق صغير يصل بين حارة وحارة أخرى . وتوجد الخانات ، والقصور ، والحوانيت بالشوارع الكبيرة ، ويضيف الكاتب أنه لا وجود للحوانيت بالحارات على الإطلاق . وهذا القول الأخير فى حاجة إلى إعادة النظر فيه . (ترجمة عبد اللطيف ص ٣٨٤ ، ٤٢٨) .

تحول موقعها إلى وسط المدينة ، كما هى الحال اليوم فى باريس بالنسبة لباب سيرجون Sergens القديم ، وأبواب سان دينى Saint-Denis وسان مارتان Saint-Martin، وكما هى الحال بالنسبة إلى مواضع أخرى فى الإمكان ذكرها . وأهم تلك الأبواب من الوجهة المعمارية : باب النصر وباب الفتوح ، وكلاهما يقع فى السور القديم الذى بناه الوزير بدر الجمالى . واليوم وقد أصبحا بابين داخليين ، فإنهما يبدوان مجاورين لجامع الحاكم القديم ، أكبر مساجد القاهرة وأقدمها بعد جامع طولون ، وهو متروك فى الوقت الحاضر . ويتسم الباب الأول بالضخامة ، وإن يكن فى طراز بديع ، وبرجاه مربعان ، أما أفاريزه ونتوءاته فتتميز بجمال التنفيذ ، وقد نقشت دروع ودرقات فى غاية الدقة والوضوح . وفيما يتعلق بسمات هذا البناء القديم فإنه لا يلتقى فى شىء تقريبا مع العمارة العربية فى صورتها المألوفة ، فإلى جانب الأجزاء الملساء ، التى تريح العين تماما نجد له ميزة خاصة بالنسبة لوضع الكتل وتناسب الأجزاء .

ويقدم لنا هذا الأثر البرهان على حساسية العرب للجمال ، حيث تصوره [أولا]مهندس المعمار ، ثم جعل تذوقه [من الآخرين] ممكنا ، وذلك حين شيد مثل هذا البناء ، وإننى لأنظر إليه باعتباره أهم بناء أثرى بالقاهرة من حيث ذوقه وطرازه ، ففيه شىء يعيد إلى الأذهان المبانى العربية فى أسبانيا . ويعود تاريخ بنائه إلى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله(١) [٤٨٠ هـ] ، أى إلى القرن الحادى عشر الميلادى .

لقد كان من الخطأ تفضيل باب الفتوح على هذا المبنى : أبراج هذا الباب دائرية [ليست مستديرة وإنما بيضاوية الشكل] ، وهى بارزة جدا حتى بالنسبة

---

(١) انظر اللوحة ٤٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، وعلى وجه العموم راجع لوحات هذا المجلد لكى تتابع وصف القاهرة ، علما بأن اللوحة ٢٧ للقناطر ؛ وللجوامع اللوحات من ٢٧ إلى ٣٨ واللوحة ٧٣ ؛ وبالنسبة للميادين العامة اللوحات من ٣٩ إلى ٤٣ ؛ بالسبة للحدائق والأبواب اللوحات من ٤٤ إلى ٤٧ ؛ وللحمامات والأسبلة اللوحتان ٤٨ ، ٤٩ ؛ وللقصور والبيوت الهامة اللوحات من ٥٠ إلى ٥٩ ؛ للمقابر اللوحات من ٦٠ إلى ٦٦ ؛ وللقلعة اللوحات من ٦٧ إلى ٧٣ .

لغرض الدفاع ، ونقوشه أقل إتقانا ، وهو فى مجمله أكثر ضخامة[1] ، ومع هذا فإن معمار هذا الباب ، شأنه شأن معمار سابقه ، يجعله يتفوق كثيرا على عمارة المنشآت التى أقيمت بالقاهرة فيما تلا ذلك من القرون[2] . وارتفاع كل من البابين ، أسفل مفتاح عقد القبة ، أقل من ارتفاع باب سان دينى فى باريس ، وتقع فتحة الباب نفسها عند منتصفه ، أما الارتفاع الإجمالى لهذين البابين فحوالى اثنين وعشرين مترا (٦٧ إلى ٦٨ قدما) . والنقوش التى تزين البابين بالخط الكوفى ، شأنها شأن النقوش الموجودة على باب زويلة .

ويشير المقريزى – عند وصفه لمدينة القاهرة ، وقد خصص فصلا للحديث عن أبواب المدينة – إلى الأبواب العشرة الآتية باعتبارها أهم الأبواب : فإلى الجنوب يوجد بابان ملتصقان أحدهما بالآخر ، وهما باب زويلة ، وإلى الشمال بابا الفتوح والنصر ، وإلى الشرق ثلاثة أبواب : باب برقية ، باب الجديد ، باب المحروق ؛ وإلى الغرب ثلاثة أبواب : باب القنطرة ، باب الفرج ، باب سعادة ، ويمكن أن يضاف إليها باب الخوخة[3] .

ولم تعد هذه الأبواب فى عصر المقريزى باقية فى الأماكن التى أقامها جوهر فيها[4] . وقام بدر الجمالى ببناء بابى النصر والفتوح على مسافة جنوب الأبواب القديمة ، وإليه يعود الفضل فى إنشاء الأسوار السميكة العالية التى أقيمت بها هذه الأبواب .

ولم نجد اليوم سوى ستة من هذه الأسماء بين الأبواب الباقية ، ولا ينبغى أن نخلط بين اسمى الباب الجديد وباب الحديد ، إذ يقع الباب الأخير فى

---

(١) انظر اللوحة ٤٧ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول . وانظر فيما بعد وصف القلعة . المبحث الثالث .

(٢) خلط عديد من الرحالة بين هذين البابين ، كما أساءوا تفسير اسميهما .

(٣) انظر [فيما يأتى] نبذة المقريزى حول أبواب القاهرة ، والتى ترجمها المرحوم بروسبير روزى Prosper Rouzée.

(٤) يعود بناء أسوار القاهرة إلى عام ٥٧٢ھ للهجرة (١١٧٦) وفقا للمقريزى ، وقد أنشئت بأمر من السلطان صلاح الدين يوسف ، تحت إشراف الطواشى الرومى قراقوش ، أمير السلطان . (رحلة عبد اللطيف .. إلخ ص ٢١٠) .

الشمال الغربى من القاهرة ، بينما يقع الباب الآخر على العكس من ذلك فى الشرق ، وإن يكن أكثر قربا إلى باب زويلة من السور الحالى ، أما باب المحروق أو على الأصح باب درب المحروق فقد كان هو أيضا أكثر اقترابا فى ذلك الوقت من باب زويلة عما هو عليه اليوم[1] . أما عن بناء الباب الجديد فقد كان ذلك بأمر من الحاكم[2] .

٣ – القناطر :

لا توجد أية ملاحظة هامة فيما يتعلق بالقناطر المقامة على خلجان القاهرة : فجميعها ذات عقد أو عقدين قوطيين ، وهى ضيقة العرض مرتفعة الأسوار جدا .

وعلى القناطر التى يطلق عليها قناطر السباع حفر شكل هذا الحيوان على طول الأفاريز كلها ، كما هو الشأن بالنسبة لقنطرة بيسوس على خليج «أبو المنجا» ، فوق بطن البقرة . وهى قنطرة مزدوجة أى تتكون من قنطرتين ، تتعامد إحداهما على الخليج وتنطلق فى مواجهة مسجد السيدة زينب ، أما الأخرى فهى أكثر عرضا منها ، وتنحرف فى اتجاه شارع القلعة ، وذلك هو السبب فى تسمية ذلك الموضع بـ «القناطر» وليس «قنطرة السباع»[3] . وهى من أعمال السلطان بيبرس ، أقامها حوالى سنة ألف ومائتين وسبعين ، وكذلك قنطرة خليج «أبو المنجا» . ولم يكن عمران القاهرة فى ذلك الوقت يتجه ناحية الجنوب

---

(١) انظر خريطة القاهرة (اللوحة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول المربعان M. 3. M. 6) ، وتوضح الخريطة جيدا هذه الاختلافات كما يوضحها نص المقريزى كله حول هذا الموضوع ، كما يورده المسيو سيلفستر دى ساسى فى رحلة عبد اللطيف (ص ٤٣٠ وما بعدها) . انظر ملاحظات هذا العالم الذى تصور الأمر على نحو دقيق على الرغم من أنه كانت تحت عينيه خرائط غير كاملة . ويتحدث المؤرخ العربى عن باب الصفا الذى يسمى اليوم باب السيدة ، والذى كان يتبع مصر القديمة ، ويتصل هذا الباب بالباب الجديد عن طريق شارع قيسون الكبير لاتساع المدينة .

(٢) هو الخليفة الحاكم بأمر الله ، فى نهاية القرن العاشر ، وكان هذا الباب يقع ناحية اليسار عند مغادرة القاهرة إلى مصر القديمة عن طريق باب زويلة .

(٣) من الممكن أن نكون فكرة عن قناطر القاهرة ، وذلك بمراجعة اللوحة ٢٧ شكل ٩ ، من المجلد الأول ، الدولة الحديثة .

فيما وراء ضفة الخليج اليمنى . وقد ذكرت أن المقريزى قد أحصى على الخليج أربع عشرة قنطرة ، بينما سنجد أن هناك إحدى وعشرين قنطرة مبينة على الخرائط ، منها تسع تقع خارج المدينة .

٤ – المساجد

تعد المنشآت الدينية أكثر ما يجذب الانتباه بين كل معالم القاهرة بدون مقارنة . وهى كثيرة العدد ، وبوسعنا أن نضم إليها كذلك مؤسسات البر أو الإحسان والتكايا والخانقاوات ، حيث تكرم وفادة المسافرين . (انظر فيما يلى رقم ٥) . ولا يسمح للفرنجة بدخول المساجد ، أما نحن فلم يسمح لنا بدخولها إلا بعد الاحتلال العسكرى الفرنسى ، فسجلنا مساقطها وأبعادها ، كما قمنا برسم أهم الزخارف المعمارية بها ، رغم أن المسلمين المجتمعين داخل المساجد كانوا يتذمرون بصوت مرتفع جدا عند مشاهدتهم مسيحيين منتعلين يدنسون المكان المقدس ، بينما يتحتم عليهم فيه خلع نعالهم . ويعرض المجلد الأول من لوحات الدولة الحديثة التفاصيل والمناظر أو المساقط الأفقية للمساجد الآتية[١] : طولون* ، الحاكم* ، السلطان قلاوون* ، شيخون* ، السلطان حسن* ، المؤيد* ، الناصرية ، السعيد ، المسيحية ، المحمودية* ، والظاهر* خارج القاهرة[٢] .

وفضلا عن ذلك أعتقد أنه من غير المفيد القيام بوصف نوع معروف من المنشآت كالمساجد وقبابها ومآذنها ومنابرها وميضاءاتها وأحواضها .. إلخ ؛ ومن المؤسف أننا لم نستطع رسم جامع الزهور[٣] «الجامع الأزهر» ، المسمى أيضا الجامع الكبير ، وهو واحد من أوسع الجوامع وأكثرها جمهورا ،

---

(١) انظر اللوحات من ٢٧ إلى ٣٨ .

(٢) الجوامع الأكثر لفتا للانتباه فى هذا التعداد مميزة بنجمة . وهناك كذلك كثير من المساجد الأخرى التى يمكن أن نعدها كبيرة . انظر فيما سيأتى .

(٣) كذا ورد اسمه فى النص الفرنسى Mosquée des fleurs . (المترجم) .

ويجتمع فيه عدد كبير من الناس . وهو أقدمها بعد جامعى طولون والحاكم ؛ وموارده كبيرة ، ينفق شطرها الأكبر على المكتبة ، وعلى ما يشبه جامعة كان يدرس بها سابقا الطب وعلوم الدين والشرائع والرياضيات والفلك والتاريخ ، كما كان يدرس بها أيضا المعارف الأولية والعربية الفصحى بكثير من العناية . ويدرس به ما يزيد على ألف وخمسمائة طالب ؛ ويقال إن هذا العدد كان يتجاوز فى الماضى اثنى عشر ألفا ، ويقدم الطعام والسكن للفقراء من الطلاب . وسأعود للحديث عن تاريخ هذا الجامع فيما بعد .

لم ندخر وسعا فى جمع رسوم وتفاصيل المبنى الضخم الواقع فى مواجهة القلعة ، فى الميدان الذى يطلق عليه الرميلة (جامع السلطان حسن) ؛ وقد شيد فى عام ٧٥٨[١] (١٣٥٦) على يد الملك الناصر حسن الذى تولى الحكم مرتين ، وتوفى عام ٧٦٢ (١٣٦٠) . وهو واحد من أجمل عمائر القاهرة والإمبراطورية بكاملها ؛ إنه يستحق أحد المراكز الأولى بين منجزات العمارة العربية ، وذلك بفضل قبته الفريدة وارتفاع مئذنتيه ، وعظم مساحته ، وكذلك بوفرة الرخام والزخارف على الأرضيات والحوائط[٢] ، فى أشكال تناسب الأسلوب البسيط الخاص بهذه العمارة . وقد شغل الخشب والبرنز بمهارة على الأبواب والأطر المعدنية . والرسوم الوحيدة المباحة داخل المساجد هى تلك الزخارف التى تمثل حروف الكتابة ، وقد رسمت مكبرة بجميع الألوان : الأزرق السماوى والذهبى والأخضر والأحمر ، وهى تتكون من حكم ونصوص قرآنية مختلفة . وعلى المبنى من الخارج نشاهد أيضا نقوشا من نفس النوع ؛ وتحاكى النقوش أشكال الزهور والحلى الحلزونية من كل أنواع الأشكال المستعارة من النبات ، وهناك

(١) شيدت مدرسة السلطان حسن فيما بين ٧٥٧-٧٦٤هـ حيث أكملها من بعد اختفاء السلطان حسن الأمير بشير الجمدار . (المترجم) .

(٢) انظر المجلد الأول من الدولة الحديثة ، اللوحات من ٣٥ إلى ٣٧ .

العديد من المصابيح المعلقة فى سقوف القباب التى تعلو – كما هو معروف – قبور مشيديها .

ويبدو أن المعمارى هنا كان مضطرا للبناء فوق أرض غير مستوية ، غير أنه تغلب فى براعة فائقة على ما صادفه من عدم انتظام السطح(١) .

وحول هذا الجامع هاك ما يرويه مؤلف كتاب قليل الشهرة ترجمه من العربية المرحوم فونتير Venture (٢) ، وسوف تتاح لى فرصة الاستشهاد مرات عديدة بهذا الكتاب الذى يبدو أنه لم ينشر بعد : وفى عهد الملك الناصر حسن بنى الجامع المسمى باسم مؤسسه شيخون سنة سبعمائة وخمس وخمسين (١٣٥٤ للميلاد) [٧٥٠ هـ/١٣٤٩ م] ؛ كما بنيت الخانقاه المعروفة أيضا باسم شيخون ، وذلك فى سنة سبعمائة وست وخمسين (١٣٥٥) ، والمدرسة المشهورة باسم مدرسة السلطان حسن ، الواقعة بميدان الرميلة ، وترجع إلى سنة سبعمائة وثمان وخمسين (١٣٥٦) . وهذا ما قاله المؤرخ المقريزى حول هذه المنشأة : جامع السلطان حسن .. ابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة ، وأوسع دوره وعمله فى أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل ، فلا يعرف فى بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع ، أقيمت العمارة فيه مدة ثلاث سنين لا تبطل يوما واحدا ، وأرصد لمصروفها فى كل يوم عشرون ألف درهم عنها نحو ألف مثقال ذهبا .. وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربعة منابر يؤذن عليها ، فتمت ثلاثة منابر إلى أن كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة فسقطت المنارة

(١) انظر المسقط الأفقى ، لوحة ٣٣ بالمجلد الأول ، الدولة الحديثة ، ولقد قام المسيو بروتان Protain بقياس ورسم المساقط الأفقية والقطاعات وتفاصيل هذا الجامع الجميل .

(٢) مستخلص من مخطوط عنوانه : حكايات سيرية وتاريخية . أو لمحة مسلية حول حكم خلفاء وملوك وسلاطين مصر للشيخ الإمام فقيه الفقهاء مرعى بن يوسف الحنبلى المذهب المولود بالقدس ؛ ترجمه المرحوم فونتير ، وإنى لا أملك سوى الترجمة . ويعتقد المسيو سيلفستر دى ساسى أن هذا المؤلف غير مطبوع . [يعنى كتاب نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين . المترجم] .

التى على الباب ، فهلك تحتها نحو ثلاثمائة من الأيتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل الذى هناك ، ومن غير الأيتام ، وسلم من الأيتام ستة أطفال ، فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها ، وتأخر هناك منارتان هما قائمتان إلى اليوم .

ولما سقطت المنارة المذكورة لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة ؛ فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما .

وفى سبيل تكوين فكرة أكثر تحديدا عن أبعاد جامع السلطان حسن الضخم[1] وعن ارتفاع أجزائه المختلفة ينبغى على القارىء أن يراجع اللوحات التى ذكرتها من قبل : ويكفينى القول أن طوله الإجمالى عند محوره الرئيسى حوالى مائة وخمسين مترا (٤٦٢ قدما) ، وأن ارتفاع مئذنته الكبرى هو ثمانون مترا (٢٤٧ قدما) ، وأن مدخله على الشارع المسمى بسوق السلاح ضخم ، وإن يكن غير متسق[2] ، وكان يمكن أن يكون أحسن تأثيرا لو أنه كان هناك فى هذا الجانب ميدان على نحو ما فى ناحية القلعة .

وحين نلقى ، من ارتفاع هذا المكان الأخير ، نظرة على هذه المدينة الكبيرة ، وما وراءها ، على وادى النيل الذى ينهى السهل ، على الأهرام ، وإلى أبعد من ذلك على الصحراء الليبية على امتداد البصر ، نجد أن هذا الجامع يشكل منظرا رائعا من الطراز الأول فى مقدمة لوحة مثيرة للإعجاب ، جديرة بأن تنقلها ريشة فنانى الطبيعة الكبار . إن كل من يشاهد هذا المنظر من الفنانين يُشد إلى جماله وسرعان ما يتناول قلمه ليسجل تأثره الحى به[3] .

(١) يجب الرجوع إلى اللوحات رقم ٢٧ و٣٠ و٣٣ وما بعدها ، وكذلك اللوحة رقم ٧٣ وذلك لمعرفة الأبعاد الصحيحة للمساجد ، حيث إن المساقط الأفقية لها لم يتم تصغيرها كلها إلى المقياس المناسب ، وقد وضعت على خريطة القاهرة بصورة مصغرة (لوحة ٢٦ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة) .

(٢) انظر المجلد الأول . الدولة الحديثة ، اللوحتين رقمى ٣٨ ، ٣٣ شكلى ١ ، ٢ .

(٣) لا تضم مجموعة لوحات القاهرة هذا المنظر ، لكنه سبق أن صور أكثر من مرة : وهو ما أراد إظهاره الفنان الذى قام برسم منظر اللوحة ٣٢ ، المجلد الأول من الدولة الحديثة ، حيث كان ارتفاعه كافيا . منظر اللوحة ٦١ مأخوذ من نفس الجانب ، لكنه يصور مدينة الموتى فى المستوى الأول من اللوحة بدلا من القاهرة ذاتها .

وأقدم جوامع القاهرة كلها هو جامع طولون ، وقد بناه أحمد بن طولون ، أول سلاطين مصر[1] من سنة مائتين وأربع وستين حتى سنة مائتين وست وستين للهجرة [٢٦٣ هـ - ٢٦٥ هـ] (٨٧٧-٨٧٩ للميلاد) . إن هذا الجامع كما يقول المؤلف العربى الذى ذكرته من قبل[2] : «يعد على الإطلاق واحدا من أروع المساجد التى شيدت لمجد الخلود ؛ وقد بدأ بناءه فى السنة العاشرة من حكمه ، وأتم إنجازه فى ثلاث سنوات . وبلغت تكاليفه مائة وعشرين ألف دينار (١٨٠٠٠٠٠ فرنك)[3] ويصعد إلى مئذنته عن طريق سلم خارجى على شكل حلزونى (وهذا ما يلاحظ اليوم أيضا)[4] . وقد وضع على الإفريز الذى يحيط به من جميع الجهات معجون العنبر لتفوح رائحته بين الآتين للصلاة به» .

ومن الممكن أن تقدم إلينا الصورة الأخيرة فكرة نافعة عن الكاتب الذى اقتبست منه هذه التفاصيل ، فهو نابه كما يبدو من بقية الأجزاء الأخرى من كتابه ، ويذكر لنا أنه عمل كأستاذ للفقه فى جامع طولون ، حيث كان هناك فى وقت من الأوقات عدد كبير من حلقات التدريس . وبعد ذلك أضاف السلطان المملوكى حسام الدين [لاجين] الذى حكم من سنة ٦٩٧ - ٦٩٨ (١٢٩٧ - ١٢٩٨) [٦٩٦ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٦ - ١٢٩٨ م] تسع حلقات ، خصصت إحداها لفرع من علم الفلك يهتم بمنازل القمر ، وأخرى لدراسة الطب ، ثم ثالثة لدراسة علم الشرائع .. إلخ . ولقد كان أحمد بن طولون أميرا عظيما ، وقام بالكثير من المنجزات الأخرى . أما أطوال جامع طولون متضمنة سوره ، فتصل إلى حوالى ثمانين مترا ، (٢٤٧ قدما) من جهة ، وستة وسبعين مترا (٢٣٤ قدما) من جهة أخرى .

---

(١) لم يلقب ابن طولون بلقب سلطان ، وإنما كان أميرا أو واليا على مصر من قبل الخلافة العباسية فى بغداد . (المترجم) .

(٢) ترجمة فونتير لمخطوطة مرعى العربية .

(٣) بافتراض أن دينار طولون (بما أنه كان على درجة عالية من النقاء) يساوى ١٥ فرنك . (دراسة مسيو صامويل برنار عن النقود العربية) . المجلد السادس من الترجمة العربية (المترجم) .

(٤) اللوحات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ . المجلد الأول ، الدولة الحديثة .

وأقدم الجوامع بعد جامع طولون هو الجامع الأزهر[١] أو جامع الزهور كما أسميته من قبل ، ويبلغ طول مسطحه الإجمالى حوالى مائة وخمسين مترا ، وهذا نفسه هو طول جامع السلطان حسن ، ويرجع تاريخ إنشائه إلى نفس التاريخ الذى بنيت فيه مدينة القاهرة ، إذ قام الفاطميون بالاستيلاء على مصر واتخذوا لقب الخلفاء[٢] فى عام ثلاثمائة وثمانية وخمسين (٩٦٨) . وقد قرر أول خلفاء هـذه الأسرة أبو تميم المعد المعز لدين الله أن يشيد مدينة جديدة يمكن أن تنافس بغداد التى شيدها العباسيون غاية فى الروعة . وبناء على أمر المعز وضع الوزير القائد جوهر الأساسات الأولى لكل من القاهرة والبناء الذى يطلق عليه القصرين ، وهما قصر الحكومة وقصر الوزير[٣] . ثم بدأ فى بناء الجامع الأزهر فى سنة ثلاثمائة وتسع وخمسين (٩٦٩) ، وأتم إنجازه فى سنة ثلاثمائة وإحدى وستين [٩٧١ م][٤] : وقد توفى الخليفة فى سنة ثلاثمائة وخمس وستين [٩٧٥ م] بعد حكم دام أربعا وعشرين سنة فى المغرب العربى ومصر . ولأن الفاطميين يزعمون أنهم من ذرية فاطمة الزهراء (ابنة النبى) فربما يعزى إلى هذا الادعاء أيضا الاسم الذى أطلق على الجامع[٥] . وقد أدخل السلطان أبو النصر قايتباى خلال حكمه الطويل عددا من التحسينات على الجامع الأزهر ، منها حوض كبير ، وميضأة بديعة بها فوارة ، كما أنشأ قريبا من الباب سبيلا مع كتاب . كما أضيف أيضا إلى هذا الجامع الفسيح قاعتان لتدريس علوم الدين والشريعة . وأنشأ كذلك فى أماكن مختلفة عددا من

---

(١) يلاحظ أن المؤلف هنا رجع إلى الصواب بالنسبة لترتيب أقدمية الجوامع ، حيث ذكر الأزهر بعد ابن طولون ، وهذا صحيح على عكس ما سبق . (المترجم) .

(٢) من المعروف أن الخلفاء الفاطميين قد تلقبوا بهذا اللقب قبل مجيئهم إلى مصر (٣٥٨ هـ/٩٦٨ م) . (المترجم) .

(٣) انظر اللوحة ٢٦ (رقم H. 6, 281) خط بين القصرين .

(٤) انظر ترجمة المخطوطة العربية السابق ذكرها .

(٥) فى سنة ٦٥٨ (١٢٥٩) قام بيبرس بإصلاح الجامع الأزهر ، وكثير من مساجد القاهرة الأخرى ، وهو الذى أعاد بناء جامع أثر النبى ، والقرية المجاورة ، وقناطر خليج أبو منجا ، ودمياط ، وكذلك أسوار وفنار الأسكندرية .

المساجد وزوايا للصلاة ، وقناطر ، وقد احتذى حذوه كبار الرجال فى بلاطه[١] . وأخيرا ، فإن السلطان قنصوه الغورى الذى تولى سنة تسعمائة وست (١٥٠٠) قد أضاف إلى هذا الجامع مئذنة [عام ٩١٥ هـ- ١٥٠٩ م] تبعث على الإعجاب بعمارتها الفريدة[٢] كذلك قام أحد الولاة الأتراك[٣] بإصلاح الجامع الأزهر فى سنة ألف وأربع (١٥٩٥) . ويضم هذا المبنى الفسيح أروقة لسكنى الغرباء الذين يأتون للدراسة بالقاهرة من جنسيات كثيرة متباينة ، لاسيما من الفرس ، السوريين ، الأكراد ، عرب الحجاز واليمن ، الهنود ومواطنى غرب أفريقيا .. إلخ . هذا فضلا عن المصريين من مختلف أقاليم مصر العليا والسفلى . ويحتل العميان هناك رواقا[٤] منفصلا .

أما جامع الحاكم الكبير فقد أنشأه السلطان الفاطمى أبو المنصور ، الملقب بالحاكم بأمر الله . وفى أيام مؤلف المخطوطة كان من المألوف أن يطلق على ذلك الجامع اسم الجامع الأنور[٥] ومع ذلك فعندما سألت عن اسم هذا المبنى فى سنة ألف وثمانمائة [١٢١٥ هـ] أجابونى أن اسمه الحاكم . وقد لحقه التهدم الشديد ، كما أنه هجر منذ فترة تتراوح ما بين ثلاثين إلى أربعين عاما ، إلا أن دعائمه وبعض البواكى ما زالت باقية حتى الآن ، وكذلك المئذنتان . وهو يشكل شبه مربع يبلغ ضلعه خمسة وأربعين مترا[٦] ، يضم خمس عشرة دعامة من جهة وست عشرة فى الجهة الأخرى . ويرجع تاريخ إنشائه إلى ما بين

---

(١) المخطوطة العربية التى سبق ذكرها .

(٢) نفسه . وهى المنارة ذات الرأس المزدوجة ، وتتميز بوجود سلمين فيما بين دورتيها ، الأولى والثانية ، لا يرى الصاعد فى أحدهما الآخر . وهى أحد الألغاز الفنية فى العمارة الإسلامية . (المترجم) .

(٣) وهو محمد باشا الشريف ، ويلاحظ أن المؤلف لم يشر إلى عمارة الأمير عبد الرحمن كتخدا بالجامع الأزهر سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) وتعد أكبر عمارة أجريت به . (المترجم) .

(٤) يقصد به تكية أو زاوية العميان التى كانت تقع بجوار المدرسة الجوهرية بالأزهر الشريف ، وكان الأمير عثمان كتخدا القازدوغلى قد أمر بإنشائها لطائفة العميان ، وخصصها لهم ، كما خصص أيضا جزءا من ريع وقفه للصرف على التكية ، وقد هدمت هذه التكية عام ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م . (المترجم) .

(٥) المخطوطة العربية السابق ذكرها .

(٦) انظر اللوحة ٢٧ شكل ١ واللوحة ٢٨ .

سنتي ثلاثمائة وست وثمانين وأربعمائة وإحدى عشرة (٩٩٦ و١٠٢٠) [٣٨٠-٤٠٣ هـ / ٩٩٠-١٠١٢ م] . وقد تصدع هذا البناء الكبير بفعل زلزال[1] ، وأعاد بناءه السلطان بيبرس حوالى سنة سبعمائة وسبع (١٣٠٧) .

وسوف أمضى سريعا فى عرض المنشآت الدينية الأخرى ، وفقا لتتابع بنائها زمنيا . فالجامع الأقمر[2] بناه فيما بين سنتى أربعمائة وخمس وتسعين وخمسمائة وأربع وعشرين (١١٠١ إلى ١١٢٩) بحى السبتية [شارع السنانين] السلطان ابن على المنصور [أبو على المنصور ، الخليفة الآمر بأحكام الله] ، الذى اغتيل بجزيرة الروضة . أما جامع الفكهانى ، وهو غير بعيد من باب زويلة[3] فيرجع تاريخه إلى حكم إسماعيل الملقب بالظافر بأعداء الله[4] من سنة خمسمائة وخمس وأربعين إلى خمسمائة وتسع وأربعين (١١٥٠ إلى ١١٥٤) . وقد مات هذا الأمير أيضا مقتولا . أما الجامع الذى يواجه الخارج من باب زويلة (وهو جامع الصالح [طلائع] دون شك)[5] فقد أنشأه الملك الصالح [طلائع] بن رزيك الوزير ، أو بالأحرى الحاكم الفعلى فى عهد عيسى المتوفى سنة خمس وخمسين وخمسمائة (١١٦٠) . وعلى الرغم من أن هذا الوزير كان شاعرا فإن الشعراء والأدباء قد عمهم الذل فى عهده ، كما انحط شأن العلوم والفضيلة . وقد بنى ضريح الحسين ، ولقى أيضا حتفه بطريقة مفجعة عام خمسمائة وستة وخمسين . أما صلاح الدين يوسف المشهور أول السلاطين الأيوبيين ، والمعروف باسم صلاح الدين ، فقد بنى فى سنة خمسمائة وتسع وستين (١١٧٣)

---

(١) حدث هذا الزلزال عام ٧٠٢ هـ/١٣٠٢ م ، وتسبب فى إحداث أضرار بالغة فى بعض عمائر القاهرة الشهيرة ؛ ومن ثم أخذ بعض كبار الأمراء على عاتقهم مهمة إعادة ما تهدم أو تخرب من هذه العمائر، ومن بين هؤلاء بيبرس الجاشنكيرالذى قام ببعض أعمال التجديد والإضافة فى جامع الحاكم ٧٠٣ هـ/١٣٠٣ م. (المترجم) .

(٢) اللوحة ٢٦ (رقم G.6,316) أى داخل المربع الذى يشكله الشريط G والعمود 6 من الخريطة عند الرقم 316 الذى نجده فى هذا المربع . تم بناء جامع الأقمر فى عام ٥١٩ هـ/١١٢٥ م كما هو مدون بالنص التأسيسى للجامع ، وهذا الجامع يقع فى شارع المعز لدين الله على يمين المتجه إلى باب الفتوح . (المترجم) .

(٣) انظر اللوحة ٢٦ (رقم L-6,274) .

(٤) ورد ذكره عند على مبارك ٦٧/٥ الظافر بنصر الله . (المترحم) .

(٥) نفسه ، اللوحة ٢٦ (رقم M-6,243) .

[٥٧٢ – ٥٧٥ هـ / ١١٧٦–١١٧٩ م] المدرسة المعروفة بالمدرسة الصلاحية الواقعة قرب ضريح الإمام الشافعى[١] . ومن المنشآت الدينية الأخرى أنشأ صلاح الدين أيضا فى سنة خمسمائة وست وستين (١١٧٠) [٥٦٩ هـ – ١١٧٣ م] خانقاه سعيد السعداء التى كان قد سكنها الأمير الفاطمى صاحب هذا الاسم . وسوف تتاح لى المناسبة لمعاودة الحديث عن منجزاته الأخرى . أما جامع الكاملية[٢] نسبة إلى السلطان الملك الكامل ، الذى أنشأه وأسس به مدرسة ، فيعود إلى سنة ستمائة وإحدى وعشرين (١٢٢٤) [٦٢٢ هـ–١٢٢٥ م] . وفى سنة ستمائة وتسع وثلاثين (١٢٤١) [٦٣٩ – ٦٤١ هـ/ ١٢٤١–١٢٤٣ م] بنى نجم الدين أيوب ، الذى قتله[٣] الصليبيون بالمنصورة مدرستين تقعان فيما بين القصرين . كما بنيت قنطرة السد على خليج القاهرة تحت عنايته ، وكذلك قلعة جزيرة الروضة ، وقد بنى ضريحه قريبا من المدرستين السابقتين . وشيد أول سلاطين الدولة المملوكية عز الدين أيبك ، الملقب بالملك المعز (٦٥٢ إلى ٦٥٨ / ١٢٥٤ إلى ١٢٥٩) المدرسة التى تحمل اسمه « مدرسة المعز » فى حى رحبة الحنا[٤] . وفى سنة ستمائة واثنتين وستين (١٢٦٣) [٦٦٠–٦٦٢ هـ / ١٢٦١–١٢٦٣ م] ، أنشأ بيبرس السلطان المملوكى الملقب بالملك الظاهر ركن الدنيا والدين[٥] ، المدرسة الواقعة فى مواجهة المارستان ،

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، (Z-6) المجلد الأول من الدولة الحديثة . وهذا التاريخ خطأ لأنه بداية فترة حكم صلاح الدين من سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) وصحة تاريخ هذه المدرسة ٥٧٥ هـ كما ورد بالنص التذكارى التاريخى المتبقى منها والموجود بالمتحف الإسلامى حاليا . (المترجم) .

(٢) الخريطة ٢٦ المجلد الأول (رقم H.6.280) . وأعتقد أن قائمة أسماء القاهرة تحمل خطأ اسم الكملية .

(٣) تجدر الإشارة إلى أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب توفى بالمنصورة أثناء الحملة الصليبية سنة ٦٤٧ هـ ، وأخفت زوجته شجر الدر الخبر ونقلته إلى القاهرة ودفنته سرا فى قلعة الروضة حتى تم الفراغ من بناء القبة التى أعدتها لتكون موضع دفنه ، وما تزال هذه القبة باقية بشارع المعز لدين الله فى مواجهة مجموعة السلطان قلاوون المعمارية . ويرجع تاريخ بنائها كما هو وارد بلوحتها التذكارية إلى سنة ٦٤٧ هـ . (المترجم) .

(٤) ربما سكة الرحبة ، الخريطة ٢٦ ، المجلد الأول (رقم M-5.202) الجامع المسمى الماس ، الذى يقترب اسمه من اسم الجامع السابق ، ويقع بعيدا عن هذا الحى . (رقم R-7.85) .

(٥) كما هى المخطوطة .

ثم أقام بعد ذلك بثلاث سنوات [٦٦٥-٦٦٧ هـ / ١٢٦٦-١٢٦٨ م] الجامع الكبير فى حى الحسينية[١] ، كما أقام منشآت أخرى . وإلى السلطان قلاوون الملقب بالملك المنصور يرجع الفضل - علاوة على المدرسة المسماة بالمنصورية[٢] (وهو الجامع الذى يرجع تاريخه إلى عام (٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) [٦٨٣-٦٨٤ هـ/ ١٢٨٤-١٢٨٥ م] - فى إنشاء المستشفى الكبير المعروف بالمارستان[٣] ، باعتباره واحدًا من أبرز المنشآت بالقاهرة . ولم يكن القبول فيه مقتصرا على الفقراء القاطنين به فحسب ، وستضم الفقرة التالية تفاصيل حول هذه المؤسسة الهامة . (انظر فيما يلى) .

وأنشأ أحد سلاطين الدولة المملوكية الأولى ، وهو ركن الدين بيبرس (الجاشنكير) ، ثانى من حمل الاسم ، الجامع والمدرسة [الخانقاه ٧٠٦-٧٠٩هـ/ ١٣٠٦-١٣٠٩ م] اللذين يحملان اسمه ، ويقعان فى درب الأصفر على يسار الداخل من باب النصر[٤] .

أما محمد بن قلاوون الملقب بالملك الناصر ، وهو الذى أمر بأن يتميز النصارى واليهود بلون العمامة ، والذى حكم أربعا وأربعين سنة[٥] [٤٠ سنة] على ثلاث فترات (بمعنى أنه استمر مدة أطول من أى سلطان آخر لمصر) فقد بنى الجامع

(١) ربما الجامع رقم (A-5,346) ولقد كتب المؤلف العربى أو مترجمه الحسينية ، غير أنى أعتقد أنه يجب أن تقرأ الحسنية وهو اسم الشارع الكبير بالشمال ، الذى يجتاز الضاحية ، ويوصل إلى الباب الذى يحمل نفس الاسم . وهذا الجامع معروف باسم الظاهر منشئه ، وأيضا الحى كله معروف بهذا الاسم . (المترجم) .

(٢) اللوحة ٢٦ المجلد الأول من الدولة الحديثة (القسم السابع رقم II-6,275) . إنه حامع السلطان قلاوون بجوار المارستان .

(٣) اللوحة ٢٦ ، المجلد الأول من الدولة الحديثة (رقم II-6,52) .

(٤) الخريطة ٢٦ . المجلد الأول من الدولة الحديثة (رقم G-5,294) ويوجد جامع آخر بهذا الاسم . رقم I-7,373 : ربما يكون من زمن بيبرس الثانى عام ٦٩٨ (١٢٩٨) .

(٥) تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون الحكم على ثلاث فترات غير متصلة : الأولى فيما بين ٦٩٣-٦٩٤ هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م ، والثانية فيما بين ٦٩٨ - ٧٠٨ هـ/١٢٩٨-١٣٠٨ م ، والثالثة فيما بين ٧٠٩-٧٤١ هـ/١٣٠٩-١٣٤٠ م ، وفى هذه الفترة الأخيرة قبض السلطان الناصر محمد بيد من حديد على مقاليد الأمور ، وبلغت مصر فيها أوج ازدهارها . (المترجم) .

الجميل الذى يحمل أيضا اسم السلطان قلاوون بالقلعة[١] ، وذلك فى سنة سبعمائة وثمانى عشرة (١٣١٨) . كما بنى المدرسة الواقعة بين القصرين[٢] [٧٠٣ هـ – ١٣٠٣ م] . وتشهد أعمال أخرى كثيرة على عظمته ، إذ كان قد انتوى أن يحول مجرى النيل ، ليجعله يمر من تحت أسوار القلعة ، وقدرت جملة التكاليف بثلاث خزائن ، غير أن النجاح لم يحالفه ، فعدل بحكمه عن هذا المشروع الأحمق . وقد اتسعت القاهرة بمقدار النصف تحت حكم هذا السلطان .

أما الجامع المزدوج المعروف باسم مؤسسه شيخون ، والواقع على يمين ويسار الطريق الصاعد من جامع طولون إلى القلعة[٣] ، فيعود بناؤه إلى زمن الملك الناصر حسن ، سنة سبعمائة وخمس وخمسين (١٣٥٤) ، وهو نفس الحاكم الذى أسس الجامع الكبير المسمى باسمه والذى سبق وصفه ، الواقع على يمين الشارع عند الصعود ، ويبلغ حوالى أربعة وعشرين مترا فى عشرين[٤] ، ويرجع تاريخ الخانقاه التى تحمل اسم شيخون إلى عام سبعمائة وسبعة وخمسين .

وجامع الأشرف جامع مهدم أقيم فوق ربوة[٥] ، قبالة القصر . وقد أقيمت هذه المدرسة ، وهى واحدة من أكثر المدارس جمالا فى مصر ، لمنافسة مدرسة السلطان حسن ، أسسها شعبان الملقب بالملك الأشرف ، المتوفى سنة سبعمائة وثمان وسبعين (١٣٧٦) . وقد هدم الجزء الأكبر من المنشأة بعد وفاته ، وشيد

(١) الخريطة ٢٦ المجلد الأول من الدولة الحديثة (رقم T-3.54) .

(٢) يبدو أن الكاتب الذى نقلت عنه قد كرر هنا الإشارة السابقة (انظر أعمال نجم الدين فيما سبق) .

(٣) الخريطة رقم ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم U-7.121) وكذلك اللوحة ٢٧ شكل ٤ . تاريخ الفراغ من بناء جامع شيخون هو سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) وتاريخ بناء الخانقاة هو ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) . (المترجم) .

(٤) لقد أحدث تواجدى بهذا الجامع فوضى كبيرة ، وقد بذل الشيخ جهدا كبيرا فى حمايتى من أهل الحى الكثيرين الذين أخذوا يتذمرون أكثر فأكثر ويهددون بإساءة معاملتى . لقد كان يقول وهو يحاول الدفاع عنى : «لا تؤذوا هذا الفرنسى ، إنه طيب ، ليس هناك إلا حذاؤه .. إنه سينزعه فى المرة القادمة» .

(٥) يرى هذا المرتفع على الخريطة (رقم Y-7.85) وتعطيه المخطوطة المترجمة اسم «رأس الصوّن» Res el-sont ، وهناك جامع آخر فى القاهرة يسمى الأشرفية ، (انظر الخريطة ٢٦ ، المجلد الأول الدولة الحديثة رقم K-6.194) .

مكانه بعد ذلك مستشفى المؤيد شيخ[1] . ويعرف جامع برقوق الشهير باسم مؤسسه السلطان ، صاحب هذا الاسم ، الملقب بالملك الظاهر[2] : ويؤرخ بعام سبعمائة وثمانية وثمانين (١٣٨٦) ، [٧٨٦-٧٨٨ هـ/ ١٣٨٤-١٣٨٦ م] . وهذا الحاكم ، باعتباره أول سلطان مملوكى شركسى ، هو نفسه الذى أنشأ على نهر الأردن قنطرة شهيرة تسمى «جسر المجامع» . ويقع جامع السلطان برقوق ومدرسته فى شارع السكرية[3] ، [بين القصرين] .

وثمة جامع لا يقل روعة عن ذلك هو جامع المؤيد أو مدرسة المؤيدية ، نسبة إلى اسم السلطان أبى النصر الشيخ المحمودى ، الملقب بالملك المؤيد ، وتاريخه عام ثمانمائة وسبعة عشر (١٤١٤) [٨١٨-٨٢٣ هـ/ ١٤١٥-١٤٢٠ م] : استغرق بناؤه ثلاث سنوات ، وهو عبارة عن مربع ضلعه ثلاثة وثلاثون مترا تقريبا (١٠٢ قدم)[4] ، مزين بستة وتسعين عمودا مقامة فى نسق من صفين ، موزعة على جهات البناء الأربع .

وفى القاهرة جامع آخر يحمل اسم «مدرسة الأشرفية» أسسه برسباى أبو النصر الملقب بالملك الأشرف ، وبما أنه قد حكم ستة عشر عاما ، ومات فى سنة إحدى وأربعين وثمانمائة (١٤٣٧) ، يكون تاريخ إنشاء هذا الجامع ما بين سنتى ثمانمائة وخمس وعشرين وثمانمائة وإحدى وأربعين (١٤٢١ إلى ١٤٣٧) [٨٢٦-٨٢٩ هـ/ ١٤٢٢-١٤٢٥ م] . ومن المؤكد - كما يبدو - أن هذا هو الجامع الواقع فى الشارع الذى يحمل نفس الاسم ، الأشرفية . ورغم ذلك

---

(١) ما يزال بيمارستان المؤيد باقيا إلى اليوم وإن كان بحالة سيئة للغاية . (المترجم) .

(٢) كان اسمه الأول تون بايحه : ويناديه مولاه باسم برقوق بسبب عينيه الكبيرتين الجاحظتين .
وهو الملك الظاهر برقوق بن أنس بن عبد الله الجركسى العثمانى ، وكان يسمى «ايتون بغا» (الطنبعا) ، أحضره الخواجة عثمان تاجر الرقيق وباعه إلى الأمير يلبغا الكبير فسماه برقوق . (المترجم) .

(٣) انظر الخريطة ٢٦ المجلد الأول من الدولة الحديثة (رقم II-6,279) . وشارع السكرية هو المعروف الآن باسم شارع المعز لدين الله أو شارع النحاسين بحى الغورية بالقاهرة ، وسمى بالسكرية نظرا لبائعى الحلوى الكثيرين الذين كانوا دائمى التواجد به . (المترجم) .

(٤) اللوحة ٢٧ ، المجلد الأول شكل ٣ ، والخريطة ٢٦ (M-7) .

فإن المؤلف العربى الذى أستمدُ منه يجعله فى حى العنبريين : غير أننا نجد جامع العنبرية غير بعيد من باب درب المحروق ، كذلك يوجد مسجد صغير باسم الشيخ العنبرى . وأنشأ نفس السلطان مدرسة أخرى تابعة لخانقاه تسمى السرياقوسية ، (الخانكاه حاليا) .

تحدثت من قبل عن التوسع والتحسينات التى نالها الجامع الأزهر على يد السلطان قايتباى أبو النصر أو الظاهرى المحمودى المتوفى عام واحد وتسعمائة (١٤٩٥) : إننا مدينون له أيضا بكثير من مساجد القاهرة بالإضافة إلى العديد من المنشآت .

ومع أن جانبلاط الملقب أيضا بالملك الأشرف لم يدم حكمه غير ستة شهور فى عام تسعمائة وخمسة (١٤٩٩) فإنه قد أنشأ الجامع الذى يحمل اسمه ، مدرسة الجنبلاطية الواقعة بالقرب من باب النصر[١] .

وينسب جامع العادلية إلى مؤسسه طومان باى سيف الدين ، الملقب بالملك العادل ، الذى أنشأه عام تسعمائة وستة (١٥٠٠) ويقع خارج نفس الباب ، كما يقع أيضا ضريح هذا السلطان[٢] .

أما قنصوه الغورى أبو النصر الملقب كذلك بالملك الأشرف ، وهو نفسه الذى قتل فى الحرب التى شنها ضد السلطان سليم فى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة (١٥١٦) فقد أنشأ بالقاهرة – وفقا لمؤلفنا – مدرسة سوق الجمالون مع الضريح الذى يواجهها[٣] . يقول هذا الكاتب : «وفى عهده ، أى نحو سنة تسعمائة وعشرين (١٥١٤) وجدت أمة من الفرنج يسمون بالبرتغاليين السبيل للرسو على شواطئ الهند ، ملتفين حول أفريقيا وبحر الظلمات وخليج موزمبيق

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، المجلد الأول من الدولة الحديثة (رقم 4,137-I)

(٢) انظر الخريطة ٢٦ ، المجلد الأول من الدولة الحديثة (رقم 5,370-I) . و طومان باى هذا هو السلطان الملك العادل سيف الدين طومان باى الأول . حكم شهورا فى عام ٩٠٦ هـ . (المترجم) .

(٣) تقع هذه المدرسة والضريح بنهاية شارع الغورية عند تقاطعه مع شارع الأزهر ، وكان الفراغ من بنائها فى سنة ٩٠٩ – ٩١٠ هـ ، (١٥٠٣ – ١٥٠٤م) . (المترجم) .

(الواقع خلف جبال القمر حيث توجد منابع النيل) ، فأرسل قنصوه الغورى ضدهم أسطولا من خمسين سفينة حربية تحت قيادة الأمير حسين الكردى» .

لقد اعتقدت أن من واجبى أن أنقل هذه الفقرة لما تمثله من أهمية من الوجهة الجغرافية ، أما الجامع الذى ذكرته قبل قليل فإنه آخر أثر دينى لسلاطين مصر . ففى عام ألف وخمسمائة وسبعة عشر قتل السلطان الرابع والعشرون ، وهو آخر سلاطين الشراكسة ، طومان باى ، ابن شقيق السلطان السابق والملقب بالملك الأشرف . ومعروف أنه استسلم بعد دفاع مجيد للسلطان سليم الذى شنقه على باب زويلة .

وبعد أن صارت مصر إحدى ولايات الامبراطورية العثمانية توقف تجميلها بمنجزات العمارة العربية العظيمة ، غير أن الوالى التركى سليمان باشا شيد فى سنة تسعمائة وثلاث وثلاثين (١٥٢٦) كثيرا من المنشآت الجميلة ، من بينها فى القلعة «جامع الجند»[١] ، كما يذكر المؤلف أيضا المدرسة المسماة بالمدرسة المسيحية نسبة إلى منشئها الوالى مسيح الذى حكم خمس سنوات فى عهد مراد الثالث منذ عام تسعمائة واثنين وثمانين (١٥٧٤) ، ويقع هذا الجامع قرب باب القرافة[٢] .

ولا أستطيع فى ختام هذه اللمحة التاريخية حول جوامع القاهرة أن أتجاوز الجامع الكبير المعروف بجامع الظاهر [٦٦٥ - ٦٦٧ هـ/ ١٢٦٦ - ١٢٦٨ م] الذى يقع خارج المدينة بين الخليج وبركة الشيخ قمر ، وهو أكبر الجوامع بعد جامعى طولون والحاكم ، وكان متروكا تقريبا عند وصول الفرنسيين ، وقد حول إلى حصن ، وحمل اسم الجنرال شولكوفسكى Shulkowski الشهيد فى ثورة القاهرة ، وطوله حوالى تسعة وخمسين مترا (١٨١,٥ قدما) على ستة وخمسين

(١) جامع الجند (رقم U-12,170) الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة . لعله يقصد جامع سيدى سارية بالقلعة ، وقد أعيد بناؤه ، وكان قد خصص لطائفة الانكشارية ، ومن هنا جاءت تسميته بجامع الجند . (المترجم) .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ ، المجلد الأول ، (رقم X-4,20) .

مترا[١] . ويوجد جامع مشهور خارج المدينة أيضا ، هو جامع قايتباى ، الذى تولى الحكم فى سنة ثمانمائة وإحدى وسبعين (١٤٦٦) [٨٧٢ هـ - ١٤٦٧ م] ، ويقع فى وسط المقابر التى تحمل نفس الاسم ، إلى الشمال من القلعة[٢] . وفى عهد قايتباى نفسه أنشأ الأمير أزبك عام ثمانمائة واثنين وتسعين (١٤٨٦) جامع الأزبكية الذى أطلق اسمه على الميدان الشهير بالقاهرة .

ويخطىء من يظن أن العمارة العربية لم تعد بقادرة على أن تقدم شيئا منذ الفتح العثمانى ، ففضلا عن المقابر التى سنتناولها بالحديث شيدت الجوامع على أيدى البكوات : كجامع محمد أبى الدهب الذى جهز ودفن فيه هذا الأمير ، وهو قريب من «الجامع الأزهر» ولا يسبق تاريخه مجىء الحملة الفرنسية إلا بتسعة وعشرين عاما[٣] .

وبالإضافة إلى الجوامع التى وصفت فى البداية ، سوف نجد أيضا مصورا فى اللوحات منظرا لجامع السعيد ، الذى يقع خلف قصر عثمان بك الطنبورجى[٤] ، ومنظرا لجامع المحمودية [٩٧٥ هـ - ١٥٦٧ م] فى ميدان الرميلة[٥] ، وأخيرا جامع أمير خور ، أو جامع الناصرية القريب من الباب الذى يحمل هذا الاسم الأخير[٦] .

ويمكن أيضا مراجعة اللوحات ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ (المجلد الأول من الدولة الحديثة) وهى تمثل على نحو ما منظرًا شاملاً لميدان الأزبكية حيث يظهر فيها

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، المجلد الأول (رقم A-6,378) .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ ، المجلد الأول من الدولة الحديثة ، (رقم P-3,44) . تولى قايتباى السلطنة فى شهر رجب سنة ٨٧٢ هـ . (المترجم) .

(٣) يرجع تاريخ إنشاء جامع محمد بك أبى الدهب إلى سنة ١١٨٧- ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٣ - ١٧٧٤م . (المترجم) .

(٤) انظر الخريطة ٢٦ المجلد الأول من الدولة الحديثة (رقم P-9,19) واللوحة رقم ٥٠ .

(٥) الخريطة ٢٦ (رقم S-5,128) واللوحة ٦٧ إلى يسار الرسم ويقع هذا الجامع بميدان صلاح الدين بالقلعة ، وقد أنشأه محمود باشا والى مصر من قبل الدولة العثمانية فى عصر السلطان سليمان القانونى ، وكان الفراغ من بنائه سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ م) . (المترجم) .

(٦) خريطة ٢٦ (رقم S-13,263) واللوحة ٤٥ .

العديد من الجوامع التى سيكون من السهل أن نتعرف عليها خلال القائمة بمساعدة الخريطة المساحية ، وبإلقاء نظرة على الصورة . أما كل الجوامع الأخرى فقد أشير إليها وسجلت أسماؤها بدقة ضمن القائمة التى دار حولها الفصل السابق ، ويكون من غير المفيد تعدادها ، خاصة وقد ميزنا فى الفصل الأول أكثرها أهمية[١] . ولا يبق لى – بعد ذلك – سوى بضع كلمات أضيفها حول جامعين منها : جامع السلطان الغورى[٢] فى الشارع الذى يحمل هذا الاسم ، وهو كبير جدا وينقسم إلى مبنيين يقعان على جانبى الطريق[٣] . وجامع الحسين ، وهو أيضا جامع كبير ، وجميل ، يباح دخوله للنساء نهار السبت[٤] سابع أيام الأسبوع .

وأما المساجد القليلة الاتساع ، أو الزوايا ، فيشار إليها على وجه العموم باسم زاوية ، وعددها كبير ، يبلغ حوالى مائة وستين .

وجميع هذه المنشآت الموقوفة على التعبد يتردد عليها مواطنو القاهرة كل يوم فى انتظام وحماس .

---

(١) انظر فيما سبق .

(٢) يعود تاريخ هذا الجامع إلى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة للهجرة . ولكن مؤلفنا العربى لا يسمح مطلقا بأن نعطى له تاريخا حديثا كهذا ما دام تاريخ السلطان صاحب هذا الاسم يدلنا على أن السلطان الغورى قد مات سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة فى المعركة التى شنها على السلطان سليم . يرجع تاريخ إنشاء مجموعة الغورى بالغورية – المدرسة والقبة والخانقاه وغير ذلك من المنافع والمرافق – إلى ما بين عامى ٩٠٩ – ٩١٠ هـ . (المترجم) .

(٣) لم نبين على الخريطة إلا واحدا فقط . (انظر الخريطة ٢٦ ، رقم K-6,305) .

(٤) نفسه (رقم 1-5, 212) تتمة قائمة الخمسة والثلاثين جامعا الكبيرة الأخرى بالقاهرة والتى لم توصف أعلاه : جامع اليزبك المزين بأربعين عمودا ، الكيخيا ، مسدادة ، الماردانى ، الغمرى ، الشعراوى ، عمرو خلف مصر القديمة (خارج القاهرة) ، السيدة زينب ، الجاولى ، السنانية ، اسكندر ، المسكة ، الإمام (عند المقابر التى تحمل هذا الاسم) ، محمد بك ، الصالح (بالقرب من النحاسين ، أمام المارستان) ، سيد عوام الدين ، الزايد ، الشيخ العريان المزين بالنقوش ، شيخ الجوهرى ، صغير ولكنه جيد البناء ، السلطان قيسون ، السيدة أم قاسم ، الإمام الشافعى ، البرادعية ، الصالح (حى باب زويلة) ، عابدين ، الطباخ بباب اللوق ، الرويعى ، الطباخ بباب الشعرية ، البيومى ، الكردى ، السطوحية ، باب الفتوح ، المحلق ، الظاهر (خارج القاهرة) ، أبو السعود . وسنجد مواقعها بالرجوع إلى قائمة الفصل الثانى . لقد سجلت فى صحيفتى ثلاثمائة وستين مئذنة وسبعمائة وخمسين جامعا بكل الأحجام ، ولكن هذا الرقم الأخير خطأ مبالغ فيه .

٥ – المستشفيات ، التكايا ، الخانقاوات ، والكنائس .. إلخ

ليس من المستطاع ، تحت أى اعتبار ، مقارنة القاهرة بمدن أوربا فيما يتصل بمؤسسات الخير أو الإحسان . غير أنه سيكون من الخطأ أيضا الاعتقاد بأنها مجردة تماما من هذا النوع من المؤسسات . فإن ميل الشعوب إلى الرحمة وتحركها لتخفيف البؤس لا يعزى دائما إلى رقى الحضارة فحسب ، وإن كان من الصواب القول بأن الجور كان سببا فى تدهور المؤسسات التى أنشئت فى سبيل هذه الغاية . وقد كان بالقاهرة ، منذ خمسة إلى ستة قرون ، الكثير من المستشفيات المخصصة لإيواء العجزة والمرضى والمعتوهين ، ولكن لم يعد متبقيًا منها سوى واحد فحسب ، وهو المارستان الذى يضم المعتوهين من الجنسين ، والذى سنصفه بعد قليل .

والتكايا منازل يستقبل فيها بعض المسافرين الفقراء أو الأشخاص الموصى بهم : حيث يجدون بها الضيافة مجانا . وربما أمكننا أخيرا أن نذكر ضمن مؤسسات البر هذا العدد الكبير من الأسبلة والأحواض العامة ، والكتاتيب المجانية التى تلحق بها فى غالب الأحيان . لقد أقام السلاطين والبكوات والأغنياء هذه المنشآت على نفقتهم ، وأوقفوا عليها عند وفاتهم أموالا ثابتة تعطى عائدا يوظف فى صيانتها ، وفى تغطية نفقاتها السنوية . وترتبط أسماء أولئك المحسنين بأعمالهم ، ويتحدث الناس عنها باحترام .

ولا مجال هنا للنقاش حول العطايا أو المؤسسات الدينية القائمة على رعاية الجوامع ؛ وهى كثيرة جدا فى مصر ، ويطلق عليها «رزق» جمع «رزقة» : وينطبق هذا الاسم النوعى على كل من نوعى المؤسسات : تلك التى أنشأها الحكام ويطلق عليها «سلطانى» ، والمؤسسات الأخرى التى يطلق عليها على وجه الخصوص «وقف» ، ومن الممكن أن نعد إحداهما أوقافًا عامة ، والأخرى أوقافًا خاصة . ويخصص جزء من الوقف لرعاية الجوامع والمدارس والخانقاوات ، وللصلوات التى تقام عند القبور وفى الأعياد الكبيرة ، وكذلك

المبالغ التى تصرف فى وضع الأزهار والسعف على القبور فى أيام معينة من السنة ؛ ويخصص جزء آخر من «الوقف» للتصدق على الفقراء والمكفوفين ، وللمساعدات التى تمنح للمستشفيات ، وفى النهاية يوجه مبلغ كبير من «الوقف» لصيانة الأسبلة والكتاتيب العامة[١] : ويطلق هذا الاسم أيضا على الهبات المخصصة لصالح الكتاتيب . وينبغى أخيرا أن نسلك فى عداد هذا النوع من المنشآت التكايا أو الخانقاوات التى أنشئت بالقاهرة فى فترات مختلفة لينعم فيها المسافرون بالضيافة . وسبق أن ذكرنا بمناسبة الحديث عن الجوامع ما أنشأه صلاح الدين وغيره من السلاطين من خانقاوات .

ويذكر المؤلف السابق الذى كثيرا ما تحدثنا عنه ، مستشفى المؤيد شيخ الذى أنشأه ابن السلطان برقوق [فرج] مكان مدرسة الأشرفية ، وإن كنا نجهل الحال التى صار إليها هذا المستشفى بدوره ، كما أننا لا نعرف أن هناك مارستانا باقيا اللهم إلا المارستان الكبير[٢] .

وقد كان فى دمشق فى زمن «تيفينو» Thévenot[٣] مستشفى بنفس الاسم يعود إلى سنة ثمانمائة وإحدى وثلاثين للهجرة (١٤٢٧) كان يقدم فيه الغذاء الذى يحتاجه المرضى بسخاء ، حيث كانوا يتمتعون بأكبر نصيب من الرفاهية ، وكل مقومات الحياة الرغدة .

---

(١) لكثير من هذه الرزق غاية تبدو متفردة ، هى إطعام الكلاب الضالة فى شوارع المدينة ، أو توفير الطعام على المآذن للطيور ، وهو فى الشائع عبارة عن الحبوب . وكشاهد على ذلك مئذنة جامع ابن طولون التى يعلوها وعاء كبير يزيد طوله على عشرة أقدام ، يحرص على ملئه بالحبوب طيلة أوقات السنة : ولذلك نشاهد أسرابا متعددة من اليمام تحلق حول هذه القمة العالية بلا انقطاع .

(٢) وفقا للمسيو دى ساسى يجب أن يشار إلى هذه المنشأة باسم البيمارستان . (رحلة عبد اللطيف ص ٨٩ ، ٤٤١) .

(٣) رحالة فرنسى ولد فى باريس فى ١٦ يونية عام ١٦٣٣ ، وتوفى فى فارس فى ٢٨ نوفمبر عام ١٦٦٧ ؛ زار كثيرا من دول أوربا وآسيا وأفريقيا ، وقد سجل رحلاته فى كتاب نشر فى باريس عام ١٦٦٤ و ١٦٦٥ بعنوان «رحلة إلى المشرق» ، وبعد وفاته أعيد نشره فى باريس أيضا عام ١٦٨٩ بعنوان «رحلات تيفينو» فى أوربا وآسيا وأفريقيا فى خمسة أجزاء . ثم طبع فى امستردام عام ١٧٠٥ و ١٧٢٣ و ١٧٢٥ .

La Grande Encyclopedie. xxx P.8. (المترجم) .

ومارستان القاهرة أكثر شهرة من مارستان دمشق ، ولم يكن دوره فى الأصل سوى استقبال المعتوهين . وبوسعنا أن نعرف من الكتاب العرب أصل هذه المنشأة ، إذ تعود وفقا لما يذكره بعضهم ، إلى «ابن لابن طولون» — وإن كان هذا خطأ — ولكن تبعا للمقريزى فإنها تعود إلى حفيدة للمعز لدين الله . ثم خصصت هذه المنشأة بعد ذلك لاستقبال كل حالات المرضى ، وزادت لها العطايا من حكام مصر . وقد جعل لكل نوع من أنواع المرض قاعة مستقلة خاصة ، لها طبيبها الخاص ، كما كان كل جنس من الجنسين يشغل جزءا منفصلاً من المبنى ، وهناك كان يقبل جميع المرضى بدون تمييز سواء من الفقراء أم الأغنياء . أما الأطباء المستقدمون من مختلف مناطق الشرق ، فكانوا يعاملون معاملة كريمة : وقد ألحقت بالمنشأة صيدلية جيدة التجهيز . وثمة زعم بأن كل واحد من المرضى كان يتكلف فى اليوم قطعة من الذهب (دينارا) ، كما كان فى خدمته شخصان ، وأن المرضى الذين يعانون من الأرق كانوا ينقلون إلى قاعة منفصلة ، وهناك يسمعون موسيقى متآلفة الأنغام ، أو يقوم قصاصون متمرسون جيدا بالترويح عنهم بأقاصيصهم ، وبمجرد ما يبدأ المرضى فى استرداد صحتهم يتم عزلهم عن الآخرين ، ويتاح لهم الاستمتاع بمشاهدة الرقص ، وتعرض أمامهم ألوانا من الكوميديا ، وأخيرا ، وعند مغادرة المستشفى يمنح الواحد منهم خمس قطع ذهبية لكى لا يضطر فور خروجه إلى مزاولة أعمال شاقة .

ولقد أنشأ السلطان المنصور قلاوون المدرسة التابعة للمستشفى فى نفس المكان الذى توجد به فى الوقت الحالى ، وكان يدرس فيها الطب والمذاهب الدينية . وقد استخدم ضمن مواد البناء أعمدة جرانيتية وقطع أخرى من منشآت قديمة . ووجد بنفس المكان منشأة من نوع آخر كانت قد أقامتها ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله(١) ، حيث كان يؤوى ويطعم ثمانمائة فتاة . وقد

---

(١) هذا الأمير الأخير ، ثانى خلفاء الفاطميين ، هو الذى أسس القاهرة سنة ثلاثمائة وستين للهجرة (٩٧٠) .

نقل قلاوون هذه المنشأة إلى مكان آخر ، وأقام فى مكانها السابق سنة ستمائة وإحدى وثمانين (١٢٨٢) المستشفى الكبير أو المارستان ؛ وبه أربعة أروقة زين كل منها بفوارة : وقد أنجزت هذه الأعمال فى أقل من عام . ويعود تاريخ تعيين الموارد المخصصة للإنفاق عليه إلى سنة ستمائة وخمس وثمانين (١٢٨٦) .

وفى زمن الحملة الفرنسية ، كانت هذه المؤسسة الشهيرة – التى كانت من قبل ملاذا مفتوحا للبؤساء – قد فقدت تماما ازدهارها القديم ، أو بعبارة أفضل ، لم يكد يبقى منها سوى ظل باهت ، وذلك نتيجة لإهمال الأتراك والمماليك ، وخاصة تبديدهم لمخصصات المنشأة ، التى حينما تفقدتها وجدت أن عدد المرضى بها – فضلا عن البلهاء – كانوا بين خمسين وستين مريضا : لقد كانوا يشغلون قاعات مفتوحة بالدور الأرضى ، ليس بها أسرة أو أثاث . وكان البلهاء يشغلون قسما آخر من المبنى ينقسم بدوره إلى ساحتين ، واحدة لكل جنس . أما المجانين فكان عددهم عشرة ، وكانوا معزولين فى حجرات ذات قضبان ، فى أعناقهم السلاسل : منهم اثنان من البرابرة (شاب قوى شارد محبوس منذ ثلاث سنوات ، وأحد عبيد الألفى بك معزول منذ أربعة شهور) ؛ وشريف مصاب بالهوس فقط على الدوام ، وآخر تصحبه زوجته .. الخ : وأما النساء فكن عاريات أو شبه عاريات . ويجاور هذا المبنى الواسع جامع السلطان قلاوون .

وقد أعطى الجنرال الفرنسى أمره لكبير الأطباء بزيارته ، وتفقده ، واقتراح الأفكار لإصلاحه . وقد توجه لذلك مسيو ديجينيت Desgenettes ومعه الشيخ عبد الله الشرقاوى . وهذه هى الكلمات التى عبر بها فى تقريره : «المارستان مكان واسع سيىء الموقع إلى حد كبير ، يتسع بسهولة لاستقبال مائة مريض[١] ، أما فى الوقت الراهن فإن به سبعة وعشرين من المرضى ، وأربعة عشر من البلهاء : سبعة رجال وسبع نساء . ويوجد ضمن المرضى عدد كبير من

(١) أو بالأحرى مائتان .

المكفوفين ، وعدد أكبر من المصابين بالسرطان ، وغير هؤلاء ضحايا أمراض مزمنة أهملت فى مراحلها الأولى . وجميعهم بدون أية رعاية اللهم إلا تقديم الطعام المكون من الخبز والأرز والعدس ، ومع ذلك فإن القلق لا يتطرق إليهم حتى فى إمكانية تخفيف آلامهم ، وفى إطار هذا التسليم بمشيئة القدر ، نجدهم لا يعرفون تماما أى شيء عن الأدوية حتى أبسطها . أما البلهاء فيقيمون فى ساحتين صغيرتين منفصلتين ، تضم إحداهما ثمانى عشرة حجرة للرجال ، والأخرى ثمانى عشرة حجرة للنساء : وبدا لى أن الرجال غير مبالين وحزانى ، وأكثرهم من المسنين . وكان هناك شاب واحد قد أصيب بهياج : فكان يزأر كالأسد ، وفى تحول شبه فجائى عاد إلى الهدوء ، وعلت شفتيه ابتسامة بلهاء . وحجرات النساء ليست جميعها ذات قضبان ، ومع أنهن كلهن مقيدات فإنهن لسن مشدودات إلى الجدار كما هو الحال بالنسبة للرجال» .

وثمة موضع آخر بالقاهرة يطلق عليه المارستان ، ذلك هو المارستان القديم . وهو دار مهملة منذ زمن طويل جدا ، وتقع فى الجنوب غير بعيد من القلعة[1] . (يوجد بجوار جامع السلطان الغورى[2] سبيل ووكالتان تحمل ثلاثتها أيضا نفس الاسم) غير أن التاريخ لا يذكر مارستانين ، ومع ذلك فإن أهل المكان قد أكدوا لى وجود ذلك المارستان القديم ؛ ومع أن الدار التى رأيتها كانت متهدمة فإنها ما تزال مأهولة ، يضاف إلى ذلك ما فهمته من الروايات الشعبية من وجود مستشفى آخر للنساء أنشأه عبد الرحمن كيخيا يقع قريبا من (تحت الربع)[3] كان يؤوى وقتئذ ستا وعشرين امرأة مريضة ، وربما يحمل الاسم النوعى «تكية» . وهناك تكية أخرى للدراويش فى شارع الحبانية وتحمل نفس الاسم[4] . وتوجد تكية أخرى أكثر أهمية ، وهى مستشفى الدراويش التى أسسها السلطان

---

(١) انظر خريطة القاهرة . اللوحة ٢٦ . المجلد الأول ، الدولة الحديثة (رقم S- 4.50) .

(٢) نفسه ، الخريطة ٢٦ ، المجلد الأول . الدولة الحديثة . (أرقام L-6,298, 297, 294) .

(٣) نفسه (M - 7) .

(٤) انظر خريطة القاهرة (رقم P-9,24) . وأصل هذه التكية هو مدرسة السلطان محمود بشارع الخليج المصرى (بورسعيد الآن) على رأس الحبانية ، وقد أنشئت عام ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ م . (المترجم)

الظاهر بيبرس ، فى طريق الصليبة الكبير[1] ، وتعرف «بتكية العجم» ، وهى ملاصقة للجامع الذى يحمل نفس الاسم ، وكانت تؤوى – حين قمت بزيارتها – ستة عشر مريضا . وأخيرا توجد تكيتان أخريان تعرفان باسم قيسون ، تقع إحداهما فى شارع سوق السلاح[2] والأخرى فى شارع قيسون[3] .

وأنهى هذا المقال حول المؤسسات الخيرية بذكر المبالغ المخصصة لهذا الغرض ، والتى كانت تشكل فى زمن الحملة الفرنسية جزءا من النفقات العامة : كانت تقتطع من الميرى ، أو ضريبة الأطيان . ويؤكد هذا البيان أنه كانت عندنا فى أوربا تصورات خاطئة عن النقص فى مؤسسات الإحسان عند الشرقيين ، وعن الإهمال الشامل من قبل حكامهم فيما يتصل بالمساعدات العامة .

ولكى تكون لدينا خلفية واضحة فى هذا الخصوص (فيما أرى) مقارنة بالتقدم الحديث للمؤسسات الأوربية من هذا النوع فإننا نلاحظ الفارق الكبير ، ومع ذلك فإن هؤلاء الرجال مجردون من كل إحساس تجاه البؤس . وفى سوريا ومصر وجدت دور للمكفوفين قبل مؤسسة كانزفان Quinze-Vingts المماثلة بوقت طويل ، ومن المرجح أن يكون لويس التاسع ، الذى يعود إليه فضل تأسيس هذه المؤسسة فى فرنسا ، كان على علم بهذه المؤسسات . وهكذا قدم لنا المشارقة النموذج الأول فى هذا الشأن .

وعند الاستيلاء على مصر لم يلغ العثمانيون إطلاقا مؤسسات البر والإحسان ، بل على العكس من ذلك أضاف إليها سليم ، ونماها أيضا سليمان ، كما ضاعف حكام آخرون وبعض الأغنياء هذه الأوقاف ، ولكن لسوء الحظ ارتكبت حكومة البكوات تجاوزات كبيرة ، وبددت الهبات الخاصة بمواجهة المحن . وهذا بيان

---

(١) نفسه (رقم S- 7,67) .
(٢) نفسه (رقم R-6,13) .
(٣) نفسه (رقم Q-7,99) .

مختصر بالمبالغ مستمد من جدول النفقات العامة فى سنة ألف وسبعمائة وثمان وتسعين :

١ – كمية من الشعير تبلغ مائة وأربعة وخمسين ألفا وثلاثمائة وتسعة وثلاثين إردبا (١٥٤,٣٣٩) تستقطع من الميرى عينا ، وتخصص سنويا لمؤسسات مختلفة ، لصالح المكفوفين ومرضى مستشفى المارستان ، والجامع الأزهر ، وطلاب هذا الجامع ، ولخمسة أوقاف أخرى . ومتوسط سعر هذه الغلة هو تسعون مدينيا [للأردب] (أو ثلاثة فرنكات وخمسة عشر سنتيما ، بحسب السعر المحدد للمدينى فى فترة الحملة)[1] ، وتقدر هذه الكمية بمبلغ أربعمائة وستة وثمانين ألفا ومائة وثمانية وستين فرنكا (٤٨٦,١٦٨) .

٢ – يجرى على الدراويش والسائلين والمعوقين من الميرى نقدا مبلغ ثلاثة عشر مليونا ومائة وتسعة آلاف وثلاثمائة وثمانية وخمسون مدينيا (١٣,١٠٩,٣٥٨) ، أو أربعمائة وثمانية وخمسون ألفا وثمانمائة وثمانية وعشرون فرنكا (٤٥٨,٨٢٨) بعملتنا .

٣ – رتب كل من سليم وسليمان معاشا للأرامل قيمته ثلاثة ملايين ومائتان وستة وثمانون ألفا وثلاثمائة وثمانية وأربعون مدينيا (٣,٢٨٦,٣٤٨) ، أو مائة وخمسة عشر ألفا واثنان وعشرون فرنكا (١١٥,٠٢٢) ، ونفقة لليتامى قيمتها مليونان وثمانمائة وأربعة وعشرون ألفا وستمائة واثنان وستون مدينيا (٢,٨٢٤,٦٦٢) ، أو ثمانية وتسعون ألفا وثمانمائة وثلاثة وستون فرنكا (٩٨,٨٦٣) .

٤ – فقراء الجامع الأزهر يأخذون من الأرز والعسل ما يقدر بعشرين ألفا وأربعمائة وتسعة وثمانين مدينيا (٢٠,٤٨٩) ، أو سبعمائة وسبعة عشر فرنكا ، يضاف إلى ذلك «علاوة مساعدة» ليتامى المارستان تبلغ مائتين وخمسين مدينيا .

---

(١) أكثر قليلا من ٣ سنتيمات ونصف لكل واحد مدينى .

وكان للمارستان وقف كاف لجميع نفقاته ، فضلا على مصادر دخل مختلفة :

وعلى سبيل المثال فإن كل الترياق الذى كان يحضر فى القاهرة (تحضيرًا ممتازًا) كان يودع بالمارستان ، وكانت حصيلة البيع توجه للعناية بالمؤسسة .

وكان هناك عشرة من الأفندية لهم رئيس خاص ، يطلق عليه «أفندى اليومية» ، يقومون بحساب المعاشات والنفقات للفقراء والمعوقين والأرامل واليتامى ، ولمكفوفى الجامع (الأزهر) : وكانت هذه المبالغ ، التى تعتبر مصروفات عامة ، تمثل جزءا من جامكية المصر Gamkyet el-Masr[1] ، وكانت تستقطع من الميرى . وأخيرا ، وعلاوة على المنشآت التابعة لمدينة القاهرة ، كانت هناك أيضا مصروفات كثيرة من نفس النوع تقدم للأقاليم[2] .

أنتقل إلى الأديرة والكنائس الخاصة بالمسيحيين واليهود الموجودة بالقاهرة . وثمة كلمات قليلة يمكن أن تقال فى حدود الخطة المعمول بها فى هذا الوصف .

ففى داخل المدينة لا يحصى سوى عدد قليل من كنائس المسيحيين ، يقع معظمها فى مصر العتيقة ، داخل النطاق المسمى «قصر الشمع» . وهذا لا يعود إلى قلة التسامح إزاء الطوائف المسيحية فى القاهرة . وسنعجب لأن العامة الجاهلة الموسومة بالتعصب لا تلعن اليهود ، أو المسيحيين من الكاثوليك والأقباط والأرمن والسوريين والروم .. الخ ، لأنها ألفت مشاهدتهم فى جميع الأيام منتشرين بأعداد كبيرة ، يتاجرون بحرية فى الشوارع والأسواق والأماكن العامة . وتنتشر الأحياء التى يسكنها الأقباط والافرنج والروم واليهود فى كل

(١) جامكية تعنى الجراية التى تعطى من غلة الوقف ، وهى من ناحية أجر ، ومن ناحية منحة ، أما كلمة المصر فهى رمز لراتب شهر محرم وصفر وربيع الأول . (المترجم) .

(٢) معظم التفاصيل السابقة حول نفقات المؤسسات الخيرية أخذت من المسيو ستيف الخازن العام للجيش الفرنسى ، ومن المرحوم ميشيل انج لانكريه (انظر الدولة الحديثة ، المجلد الحادى عشر ، ص ٤٧٢ ، والمجلد الثانى عشر ص ١٠٥ وما بعدها) .

أجزاء المدينة ، دون أن تحميها أية أسوار خاصة . وكل طائفة لها كنائسها التى تمارس فيها شعائرها فى سلام ، ودون أى نوع من المضايقات ، وهذه أيضا مسألة لدينا عنها فى أوربا تصورات قل أن تطابق الواقع .

وكنائس المسيحيين مقامة أساسا فى الأقسام الخامس والسادس والثامن . أما المسيحيون الأقباط أو اليعاقبة فلهم كنيستان قريبتان من شارع بين السورين[1] : وفى هذا الموضع نفسه توجد كنيسة للأرمن .

وتقع حارة النصارى – أحد أحياء الأقباط – جنوب ميدان الأزبكية : أما أكبر أحيائهم التى تحمل هذا الاسم فيقع شمال هذا الميدان نفسه . ويوجد أيضا بعض الأقباط فى حى الروم الواقع إلى الشرق من سكرية المؤيد ؛ ويقع منزل البطريرك[2] قريبا منها ، وكذلك شارع الأمير تادروس .

وللمسيحيين الروم كنيستهم قرب الحمزاوى فى الغرب ، ولهم أيضا حىّ يسمى «حارة الروم» إلى الشرق من السكرية . وكنيسة الروم جيدة البناء بدرجة كافية : وقد رأيت فيها ستة عشر أو ثمانية عشر عمودا من الرخام[3] . وعلى الحوائط ثبت الكثير من اللوحات التى تمثل الحواريين ؛ ويقام القداس فيها باليونانية والعربية يوم أحد المسلمين . والأسقف الموجود حاليا (١٨٠١) يسمى بارتينيوس Parthenios . ولا توجد كنائس رومية أخرى بالمدينة ، وإن وجد منها بمصر القديمة .

والحى اليهودى – حارة اليهود – شديد الاتساع والازدحام ؛ ويمتد تقريبا من الشرق إلى الغرب ما بين المارستان وقنطرة الموسكى ، ويمتد بنفس القدر من الشمال إلى الجنوب . ومن اللافت للنظر بدرجة كبيرة أن يوجد مسجد فى قلب هذا التجمع اليهودى الكثيف . ويوجد بالحى اليهودى عشرة معابد ،

---

(١) انظر خريطة القاهرة (رقم G-8,257) .
(٢) انظر الخريطة (رقم M-5,204) .
(٣) نفسه (رقم K-7,452) .

تقع جميعها فى شوارع ضيقة جدا ومعتمة . ولا تتميز أبوابها من الخارج بشيء عن المنازل الأخرى ، أما فى الداخل فإنها تتميز بالجمال ، وتزدان بالأعمدة الرخامية[١] . وينقسم يهود القاهرة إلى التلموديين والقرائين ، ويختص اليهود فى مصر بمسئولية الجباية .

ويقع حى الفرنجة – حارة الافرنج – إلى الغرب من الخليج ، بين قنطرة الموسكى والقنطرة الجديدة ، وتوجد هناك كنيستان للكاثوليك إحداهما دير للتبشير وتعرف «بالدير الصغير»[٢] ، والأخرى هى دير الأرض المقدسة وتعرف «بالدير الكبير»[٣] . وليس ثمة رهبان من الأوربيين فحسب لرعاية هاتين الكنيستين ، وإنما يوجد أيضا رهبان سوريين ودمشقيين كاثوليك . وتتسم زينة هاتين الكنيستين بالبساطة ، وترى بهما لوحات أقل حجما مما يوجد فى الكنائس القبطية والرومية . وللأرمن القاطنين بالقاهرة كنيسة دون شك ، غير أننى لم أرها . ومن بين الأقباط والروم والأرمن أفراد منشقون يتبعون بطريركيات طوائفهم ، وغير هؤلاء من الكاثوليك يتبعون البابا ، ما عدا الروم وحدهم . وينتمى الموارنة إلى الكاثوليك ، ويقيم بطريركهم فى جبل لبنان . وينقسم اليهود أيضا – كما سبق أن ذكرت – إلى طائفتين ، واسم القرايين – الذى يحمله واحد من شوارع الحى الإسرائيلى بالقاهرة – ربما يكون اسم الطائفة الرئيسية ، وفى الإمكان أن يحصى بالقاهرة حوالى ثلاثة آلاف من اليهود . وقد أحصينا من قبل – كما ذكرنا – عدد المسيحيين الذى يبلغ حوالى اثنين وعشرين ألفا كما يلى : عشرة آلاف من الأقباط ، خمسة آلاف من الروم ، خمسة آلاف من السوريين ، وألفان

---

(١) لمعرفة أماكن هذه المعابد العشرة انظر الخريطة ٢٦ ، المجلد الأول من الدولة الحديثة ، المربعات G-II-I-7 و II-8 ، رقم 135 ؛ اثنان إلى الشرق من رقم 157؛ واحد شمال رقم 149 ، وستة بجوار الأرقام 137 و140 و 144 و 148 و246 .

(٢) انظر الخريطة (رقم II-9,31) .

(٣) نفسه (رقم II- 9,32) .

من الأرمن . وهناك بعض الرزق أو المؤسسات يوجه عائدها لصالح الكنائس والأديرة التابعة للأقباط وللروم ولمختلف الطوائف المسيحية.

٦ – القصور أو منازل البكوات والكشاف وكبار الشخصيات الأخرى

ذكرنا فيما سبق إن كلمة قصر Palais لا ينبغى أن يفهم منها هنا هذه المبانى الكبيرة الفخمة التى تزين عواصم أوربا ، وإن كانت قصور القاهرة لا تخلو من أن تكون ضخمة ، فاخرة ، ومزخرفة ، وربما يفوق الترف والتأنق فيها من زوايا معينة ما نجده عندنا . والواقع أن ثراء أثاثها يقتصر تقريبا ، على السجاجيد وبعض الستائر والأقمشة التى تغطى الصُّفَّات أو الأرائك ، والعديد من المساند الموزعة فى كل جوانب القاعات ؛ فالسجاجيد جميلة جدا ، والأقمشة المقصبة بالذهب والحرير لا تنقصها الروعة . كما تزدان مداخل القاعات بآنية يابانية كبيرة : وبذا يكون أثاثنا الأوربى المخالف غريبا على الصالون المصرى .

ونأتى إلى التعداد الموجز لقصور القاهرة ، ونحن نحيل إلى اللوحات بهدف إعطاء فكرة عن عمارتها ، وتقسيمها ، والطريقة المتبعة فى تزيينها . وفى حالة استبعادنا للقصور البالغة القدم المتهدمة فى الوقت الحالى ، نجد أن أهم القصور هى التى سيأتى ذكرها مشارا إليها بأسماء الأشخاص التى تنسب إليهم فقط .

القسم الأول – فى ضواحى بركة الفيل :

١ – منازل بكوات : إبراهيم بك الوالى (منزل ضخم) ؛ يوسف ؛ مراد (منزل كبير جدًا وبالغ الجمال ، بنى سنة ١٧٨٧ على يد إسماعيل بك : بابه الخارجى ثمين جدًا)[١] ؛ إبراهيم بك الكبير ؛ مرزوق ؛ عبد الرحمن ؛ سليمان بك الشابورى ؛ قاسم (منزلان) ؛ خليل بك بلفيه .

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ (رقم Q-7.88)

٢ – منازل كشاف : محمد ؛ رشوان ؛ جعفر ؛ خليل .

٣ – عبد الرحمن أغا ؛ عثمان أغا (منزل كبير) ؛ محمد أغا ؛ إسماعيل كيخيا .

القسم الثانى – الجزء الجنوبى من القاهرة :

١ – منازل بكوات : مصطفى ؛ بكير ؛ عثمان بك الطنبورجى ؛ يحيى .

٢ – الكشاف : عمر ؛ جعفر .

٣ – مصطفى أغا أوجقلى ؛ عثمان أفندى ؛ مصطفى شوربجى .

القسم الثالث – الجزء الجنوبى الغربى من القاهرة :

١ – منازل بكوات : سليم بك أبو دياب ؛ عثمان بك الطنبورجى ؛ صالح ؛ أيوب ؛ محمد بك المبدود[١]؛ أيوب بك الصغير (منزلان) ؛ عابدين (منزلان) ؛ مرزوق ؛ قاسم (منزلان ، وهذا المنزل كانت تشغله لجنة العلوم والفنون المصرية) ؛ سليمان ؛ قاسم بك إبراهيم ؛ عثمان بك الأشقر ؛ مراد بك الصغير.

٢ – الكشاف : محمد فرج ؛ عمر ؛ سليم ؛ حسن (هذا المنزل كان يشغله المعهد المصرى) ؛ سليمان كاشف البشلى ؛ إبراهيم كيخيا السنارى ؛ رضوان كيخيا ؛ سليمان أغا ؛ الوكيل ؛ الشيخ الحنفى والشيخ سليمان الفيومى (عضوا الديوان الكبير) ؛ مصطفى أغا ، (أغا الشرطة بعد الوالى) ؛ الشيخ السادات (أكبر شيوخ الدين) منزلان ؛ مراد أغا ؛ مصطفى أودا باشى .

القسم الرابع :

١ – **منازل البكوات** : غيطاس ؛ رشوان (مع حديقة) ؛ مصطفى .

٢ – **الكشاف** : على كاشف أيوب بك .

---

(١) ملك الشيخ سليمان الفيومى .

٣ – أحمد شاويش المجنون ؛ على أغا الوالى ؛ محمد أغا البارودى ؛ مصطفى شلبى أبو دفية ؛ على كيخيا ؛ أبو شوارب ؛ محمد أغا الخازندار .

القسم الخامس :

١ – منازل بكوات : إسماعيل بك الصغير ؛ أيوب ؛ أحمد بك الوالى .

٢ – الكشاف : على كاشف ؛ أيوب بك ؛ إبراهيم ؛ محمد .

٣ – الشيخ الجوهرى (عضو الديوان) ؛ قايد أغا ؛ قاضى البهار (كبير تجار البن والبقالة) ؛ الشيخ الشعراوى (عضو الديوان) ؛ عثمان شاويش المجنون ؛ إسماعيل كيخيا ؛ الشيخ الحفناوى (عضو الديوان) ؛ على أودا باشى (ناظر القسم الخامس) ؛ محمد أغا شويكار ؛ باش شاويش الاختيار .

القسم السادس :

١ – منازل البكوات : محمد بك الألفى ؛ مراد (منزلان) ؛ عثمان بك الأشقر ؛ مرزوق بك بن إبراهيم بك ؛ إبراهيم ؛ على بك ؛ سليم ؛ أيوب بك الكبير ؛ إسماعيل .

٢ – كشاف : يحيى .

٣ – القيسرلى (منزل كبير جدًا) ؛ حسن كيخيا الغربان (منزل كبير وجميل جدًا) ؛ الشيخ المهدى ؛ المعلم جرجس الجوهرى (المشرف العام القبطى) ؛ محمد أفندى ؛ عثمان أغا الخازندار ؛ محمد أغا ؛ الشيخ البكرى (عضو الديوان) منزلان ؛ الشرايبى (ناظر القسم السادس) ؛ بشير أغا ؛ قايد أغا (بيت الديوان الكبير) ؛ إسماعيل أغا الوكيل .

القسم السابع :

منازل البكوات والمشايخ والشخصيات الأخرى .

الشيخ إبراهيم السجينى ؛ شيخ الجامع الكبير الأزهر ؛ القاضى أو قاضى الإسلام (بيت القاضى ؛ وفيه تقام العدالة ، حيث يقضى فى المسائل المدنية والجنائية كل أيام السنة) ؛ منزل صغير للشيخ السادات ؛ مصطفى الصاوى (عضو الديوان) ؛ الشرقاوى (عضو الديوان) .

القسم الثامن :

١ - منازل البكوات : محمد بك المنفوخ ؛ حسن بك قصبة رضوان ؛ حسن بك الجداوى ؛ عبد الرحمن ؛ أيوب ؛ حسن بك الطهطاوى ؛ على بك حسن ؛ أحمد ؛ عثمان بك الشرقاوى .

٢ - مصطفى كتخدا ؛ مصطفى أفندى ؛ أحمد أغا ؛ على أغا ؛ أحمد أغا شويكار ؛ على كتخدا ؛ سيد أحمد المحروقى (كبير تجار القاهرة لبضائع الهند وجزيرة العرب) ؛ شاهين كاشف ؛ مصطفى كاشف ؛ على كيخيا الخربوطلى ؛ عبد الرحمن كيخيا .

وفيما بعد سنتحدث عن القصور الواقعة داخل القلعة .

٧ - الكتاتيب ، الأسبلة ، والأحواض العامة

ذكرت من قبل أن الأسبلة والكتاتيب العامة بالقاهرة ؛ قد نتجت معظمها عن منشآت وأوقاف لأمراء وأثرياء كرسوها لصالح سكان هذه المدينة الكبيرة وراحتهم . وقد لا تكون هناك مدينة فى أوربا تضم هذا العدد من الأسبلة . ونلاحظ فى هذه الأبنية أعمدة الرخام والنقوش الرائعة ، وكذلك حليات من الحجر والبرونز . ومنها يحصل الناس فى جميع الفصول ومجانا على احتياجاتهم من الماء الذى يحمل إليها بمشقة بالغة من الفرع الأقرب من النيل ، حيث تصادفنا فى الشوارع الجمال المخصصة لهذه الخدمة بدون انقطاع .

وفضلا عن الأحواض التى يغترف منها الماء بوفرة ، يوجد فى خارج هذه الأبنية سبيل مصاصة يرتشف المارة منه الماء لتخفيف ظمئهم . أما الأعمدة التى تزدان بها واجهات هذه الأسبلة ، فمن المألوف أن تكون قطعا من الرخام الأبيض نفذت فى ايطاليا . وهى ملساء أحيانا ، وقد تكون حلزونية الشكل أحيانا أو ذات شكل مضلع أحيانا أخرى . وكثيرا ما يجمع بين هذه الأشكال مع حليات من البرونز الذهبى اللون : كما أن نوافذ السبيل نفسها مزودة بقضبان من البرونز مشغولة بمهارة ، وعلى الجدران نقوش محفورة تخلد اسم منشىء السبيل .

والأسبلة عبارة عن ثلاثة طوابق ؛ أولها الموجود تحت سطح الأرض ، وهو عبارة عن خزان واسع تصب فيه قرب المياه التى تحملها الجمال ، أما الطابق العلوى[1] فيرفعه عدد من الدعامات أو الأعمدة ، وهكذا تضم هذه الأقبية عددا ضخما من الأعمدة الجرانيتية والحجرية جمعت من المبانى القديمة ، ولست أشك فى أننا لو قمنا بفحصها لوجدنا من بينها قطعا قديمة بالغة الأهمية . وعدد هذه المنشآت النافعة كبير ؛ وهو يبرهن على أن روح الإحسان فى الشرق أكثر انتشارا من تصورنا المعتاد . وسيكون تعداد هذه الأسبلة إطالة مفرطة ، وسأقتصر على ذكر أهمها وأكثرها فخامة فيما يتصل بالعمارة ، مشيرا إليها بأسماء الأشخاص الذين ينسب إليهم تأسيسها .

القسم الأول : يمكننا أن نميز السبيل المسمى إبراهيم كيخيا .

القسم الثانى : سبيل المتولى ؛ قايتباى (هناك ثلاثة أسبلة أخرى بنفس الاسم : واحد فى شارع المراحلية قرب الرميلة ، واثنان بالقسم السابع والقسم الثامن) ؛ يوسف كيخيا ؛ حسن كيخيا ؛ مصطفى كيخيا*[2] شركس* ؛ صالح

(١) انظر اللوحة ٤٨ شكل ٣ ، ٤ المجلد الأول ، الدولة الحديثة ، رسم السبيل المسمى على أغا ، والخريطة رقم ٧٢ – P 11 ، وانظر كذلك فى اللوحة ٧٣ شكل ١٣ المسقط الأفقى لسبيل كيخيا .

(٢) لم يضم شرح خريطة القاهرة الأسبلة الخمسة التى تحمل علامة : * ، وكذا عدة أسبلة أخرى .

بك الشرفا ؛ على كيخيا ؛ ستى رقية ؛ قبر الطويل ؛ النقاش ؛ المسيحية ؛ حوش قدم ؛ حسن كيخيا التبليطة .

القسم الثالث : سبيل السلطان محمود (ويتميز بالجمال) ؛ الحبانية * ؛ على أغا (سبيلان) .

القسم الرابع : سبيل يحيى كاشف إبراهيم (بالغ الجمال وهو من الرخام ، ذو نقش بديع ، له أربعة أعمدة) ؛ اسكندر ؛ حسن كيخيا * (سبيل جميل علق فوقه فقارية ضخمة حجمها ستة وعشرون سنتيمترا ، تسع بوصات) .

القسم الخامس : سبيل السليمانية .

القسم السادس : سبيل الكيخيا ؛ الدونوشرى ؛ البكرى ؛ المدانية ؛ الشيخ الجوهرى ؛ الرويعى ؛ الأوامينى ؛ أبو الفوس ؛ العنانية ؛ المعلم نيروز ؛ السيد حسن *.

القسم السابع : سبيل حمزة ؛ بيبرس ؛ ذو الفقار ؛ عبد الرحمن كيخيا (هناك سبيلان آخران بنفس الاسم يوجدان بالقسم الخامس والقسم الثامن) ؛ باب النصر .

القسم الثامن : سبيل الأزهر ؛ رقعة القمح (سبيل بالغ الجمال) ؛ المؤيد (سبيلان جميلان بنفس الاسم) ؛ على كيخيا ؛ سوق السلاح (سبيلان) ؛ ستى بدوية ؛ خليل بك بلفيه ؛ الدهيشة (باب زويلة) ؛ المارستان .

وفضلا عن هذه الأسبلة ، هناك سبعة عشر سبيلا أخرى جديرة بالملاحظة ؛ أسقط ذكرها من شرح خريطة القاهرة ، وتلك هى : سبيل سوق العصر ؛ قناطر السباع ؛ أحمد حسين أو مرجوش ؛ الأشرفية ؛ النحاسين ؛ ستى نفيسة ؛ الغورى ؛ على أغا (سبيلان) ؛ سوق العزة ؛ السكرية ؛ الزناتية ؛ البركاوى ؛ الركن ؛ التبانة ؛ ستى زينب ؛ السبع سواقى .

ويبلغ العدد الإجمالى للأسبلة ، أو تلك التى قمت بزيارتها على الأقل ، مائتين وخمسة وأربعين سبيلا ، من بينها أكثر من ستين سبيلا تتميز ببنائها الرائع[١].

وغالبا ما يعلو السبيل طابق يضم مدرسة مجانية (كتاب) أسسها رجل الإحسان نفسه الذى أنشأ السبيل ، وتحمل اسمه أيضا[٢] ؛ ويبدو أن هذه العطايا كانت تصان بوازع دينى ؛ وهو ما لاينبغى أن نهمل ملاحظته بالنسبة لشعب كثيرا ما وصم – فى اعتقادنا – بالجهل المطلق نتيجة للنزعة المذهبية .

والمعارف التى تقدم فى هذه الكتاتيب هى فى الحقيقة بسيطة للغاية ، إذ هى قاصرة على القراءة والكتابة والحساب ؛ ولكنها من جانب آخر ليست سوى مقدمة للتعليم فى الجامعة ، أى فى الأزهر ، الجامع الكبير ، وفى المدارس الأخرى ؛ وإنه من ناحية أخرى ، لشىء رائع أن يجد الشعب عددا خاصا من الدور المفتوحة يمكنه دائما أن يطلب فيها معارفه الأولية الضرورية ، فى الوقت الذى يقوم فيه الخمس أو الربع أو أكثر من مجموع آباء الأسر فى أوربا بتقديم هذه المعارف لأطفالهم . ويزعم أن ثلث السكان من الذكور فى القاهرة يعرفون القراءة والكتابة ، غير أن هذا الرقم مبالغ فيه على ما أظن .

وبالنسبة للفتيات فإنهن لا يتعلمن إلا فى القليل النادر ، ومن جهة ثالثة فإن الأسلوب التعليمى للكتابة والقراءة أفضل – من زاوية معينة – مما يوجد فى كثير من قرانا ، بل وفى مدننا الأوربية أيضا . ففى حين أننا ما نزال نسير عندنا وفقا للطريقة الفردية ، يتبع فى القاهرة نظام التعليم الجماعى ، وفوق ذلك فإنهم يتعلمون القراءة والكتابة فى وقت واحد ، أى إنهم عند كتابتهم مقاطع الكلمات ينطقونها فى نفس الوقت بصوت مرتفع[٣] . ولهذا

---

(١) ووفقا لبيان آخر ، فإن عدد الأسبلة يقدر بثلاثمائة سبيل .

(٢) انظر اللوحة ٤٨ ، المجلد الأول من الدولة الحديثة .

(٣) ليس من النادر ، حسبما يقال ، أن نجد أناسا فى القاهرة يجيدون الكتابة مع أنهم لا يعرفون القراءة ، وهذه الملاحظة للمسيو بويسيلج Poussielgue .

كان الكُتَّاب المصرى ، حتى برغم جوانب النقص فيه ، جديرا بالمتابعة والاهتمام ؛ على أنهم للأسف نادرا ما يقرأون فى أى كتاب آخر غير القرآن . وأقدم فى مكان آخر ملاحظات عن هذا الموضوع تقنعنا حين قراءتها بأن مصر والهند وأمما أخرى عريقة فى القدم ، قد تبينت – منذ زمن بعيد – مزايا أسلوب التعليم الجماعى . وسأقتصر هنا على القول بأن الأطفال يقرأون جميعا الكلمات المملاة عليهم فى وقت واحد ، وهو ما تتبعه ضجة عالية تربك المارة وتزعجهم . إلا أن هذه الضجة مع ذلك تكون خالية من النشاز ، لأن الدارسين يرددون أو بالأحرى يتغنون بالدرس فى نغمة واحدة أو فى نوع من التوافق ، وهم يجيدون ذلك تماما فى انتظام .

ظاهرة أخرى تثير دهشة من يشاهد كتابا للمرة الأولى بالقاهرة ، هى أن كل تلميذ يؤرجح رأسه على نحو مستمر ، ويخفضها إلى الصدر ، يفعل ذلك دائما بانتظام وفى حركة جماعية ؛ وهذه الحركة لا تنتهى إلا بانتهاء الدرس ، ومع هذا لا يبدو أنها تسبب تعبا للأطفال ، الذين يمسكون فى أيديهم ألواحا صغيرة مطلية بالأسود يكتبون عليها بالطباشير الذى يسهل محوه ، وهو ما يسرع فى تعلمهم رسم الحروف بشكل جيد من غير أن يستهلكوا قدرا كبيرا من الورق . ويملى درس واحد على الجميع ، الذين يجلسون مربعى السيقان . وليس من النادر أن يبدأ تعليمهم القراءة فى سن الثامنة ، وقد يترددون على الكتاتيب قبل هذه السن فى الخامسة أو السادسة ، وشيئا فشيئا يألفون حروف الأبجدية . وليس هناك معلمون خصوصيون يذهبون لإعطاء الدروس لدى الأسرة ، ومع هذا فللمواطنين حريتهم فى عدم إرسال أبنائهم مطلقا إلى الكتاتيب العامة ، وقد يحدث أحيانا أن يقوم الوالد بنفسه بتعليم ابنه القراءة . ولا يتعلم الجميع داخل الكتاب بالمجان ، إذ يدفع أبناء الأسر الميسورة من عشرة إلى ستين مدينيا كل شهر . وفى حالة كفاية الهبات المخصصة للكتاب تمنح الملابس

والغذاء للفقراء من الأطفال مجانا . ولصاحب الوقف ، وأقربائه الحق فى تعيين المعلم ، غير أن للقاضى حق استبدال المدرس غير الكفء ، وكذلك إلزام المسئول عن عوائد الوقف على الخدمة بأمانة .

ومن المستبعد أن تكون القائمة التالية لكتاتيب القاهرة كاملة ، غير أننا نقدمها مع ذلك لمقارنة الأحياء بعضها ببعض من هذه الجهة . ففى القسم الأول أوردت أربعة كتاتيب ؛ وتسعة بالقسم الثانى منها ثلاثة باسم قايتباى ، وأخرى بأسماء كل من مصطفى بك ، وشركس ، وستى رقية ، وحوش قدم ؛ وفى القسم الثالث ثلاثة كتاتيب ؛ وفى الرابع كتابين ؛ وفى الخامس كتابًا واحدًا يسمى أوقاش ؛ وفى السادس ثمانية كتاتيب ، من بينها كتاب الدونوشرى ، والساكه ، والرويعى ؛ والثامن ستة كتاتيب من بينها كتاب جوهر لاله[1] [اللالا] .

وتضم القاهرة كثيرا من المدارس الأولية للمسيحيين أيضا ، تدار ضمن نظام مختلف قليلا ، وتوجد هناك الرزق أو المنشآت القائمة لمثل هذا الغرض .

وعادة ما توجد الأحواض قرب الأسبلة : وهى مثلها ، فهى أبنية تدعمها أعمدة من الرخام ، فوقها قباب مزينة بكوى ونقوش[2] . وهذه ليست أحواضا مكشوفة شأن الأحواض فى مدننا ، حيث يمكن للدواب والخيول أن تخوض فيها ، فهنا تشرب فقط الجمال والحمير فى أحواض من الحجر مقامة على ارتفاع مناسب . وتقوم على صيانة الأحواض العامة بالقاهرة منشآت ، مثل الأسبلة والكتاتيب . ولن يكون مجديا أن نقدم قائمة بها ، فسوف يذكر جزء منها على خريطة القاهرة ، وجزء فى شرح هذه الخريطة .

---

(١) انظر اللوحة ٤٨ ، شكل ٤ المجلد الأول من الدولة الحديثة . طابق أعلى السبيل . ووفقا لبيان عام لكتاتيب المدينة فإن عددها كان يتجاوز المائة .

(٢) اللوحة ٤٨ ، شكلى ١ ، ٢ المجلد الأول من الدولة الحديثة .

٨ – الحمامات العامة

ونأتى إلى بيوت الاستحمام (الحمامات) ، فالحمامات الساخنة ضرورة أساسية فى الشرق ، ومصر – فيما نعرف – واحدة من أكثر بلاد الأرض حرارة ، فقد يرتفع متوسط درجة الحرارة بالقاهرة نفسها على مدار العام إلى ما يقرب من ثلاث وعشرين درجة مئوية : ولهذا تعددت الحمامات فى هذه المدينة فبلغت عددا كبيرا ؛ تستفيد بها – على نحو دائم – كل طبقات الشعب من الجنسين . وقد بحث الكتاب والرحالة هذا الموضوع مرارا ، بما لا نستطيع معه هنا غير تكرار أوصافهم . وعلى الرغم من ذلك يجب القول إنهم هنا ، لم يكونوا مندفعين إلى المبالغة كما هو شأنهم فى الموضوعات الأخرى ، فإن عدد الحمامات العامة وجمالها يفوق أوصافهم ، والأمر كذلك بالنسبة لإقبال جميع طبقات السكان على هذه العادة . وأخيرا فإن فخامة العمارة ، والعناية التى تقدم للمستحمين ، وأناقة المنشآت وروعتها ، وكثرة الخدم وتلطفهم ؛ وفى كلمة واحدة ، فإن كل وسائل الرفاهية والمتعة لا تضيف شيئا إلى الصورة التى رسمها المؤلفون المحدثون .

وفى الحمام تقضى النساء – على وجه الخصوص – ساعات ممتعة : ومعروف أنهن يذهبن إلى هناك فى زى كامل مزدانات بأثمن ما لديهن من الحلى ، ويناقشن هناك أمورهن الخاصة ، كما يتفق على عمليات الزواج .

وليس هناك من يجهل مطلقا أن الرجال الذين أرهقهم العمل – أيا كان – يستعيدون قواهم بسرعة ، بتأثير العرق الغزير ؛ إذ تغمر الرأس والجذع والأعضاء فى الماء ، ثم يلفها تيار من البخار الشديد السخونة ، فينضح العرق ويسيل على الجسد كله . كما تساعد أيضا على إخراج العرق عملية التدليك السريع الذى يقوم به على أجزاء الجسم كلها خادم ماهر ، بيده قفاز من الساف . وعندئذ ، وبتأثير هذه العمليات القوية ، تفتح المسام جيدا ، وفى نفس الوقت يأخذ الخادم فى تليين المفاصل بعمل طقطقة لطيفة لها ، فيعقب ذلك ارتخاء

عميق تصبح معه الراحة ضرورية ؛ وهى تتاح لهم فوق أرائك أعدت لهذا الغرض . ويعمل الشربات والقهوة على إعادة القوة إلى المستحمين ، الذين يستنشقون طباقا طيب الرائحة وهم مسترخون على سجاجيد ثمينة ومساند وثيرة . ولا يتركون هذا المكان الممتع إلا بعد انقضاء ساعات طويلة ، وبعد مرورهم – على التتابع – بقاعات متدرجة الحرارة . ويحظى المواطن العادى أيضا بكل هذه المزايا تقريبا ، كما يحظى الجميع بالفائدة التى تعود على الصحة من وراء هذه الممارسة .

وثمة كثير من حمامات القاهرة مقصورة على الأغنياء فقط ، أو على الأقل الذين ليس فى منازلهم قاعات استحمام بنفس الدرجة من الفخامة والمتعة ، وأحيانا يقيم كبار الشخصيات مآدب هناك مصحوبة بالموسيقى .

ويقوم معظم الحمامات على خدمة الجنسين بالتناوب (سنرى الاستثناءات فيما بعد ، وفى شرح الخريطة) . وتوضع فى واجهة الحمام ستارة من الجوخ تعلن عن وقت استعداده لاستقبال النساء ، وعلى الفور ينصرف الخدم من الرجال لتخلفهم خادمات ، أما المسموح لهم من الرجال بالبقاء فى حمامات النساء فهم المسنون من المغنين العميان فقط . وسوف أقدم هنا قائمة بأفخم الحمامات أو أكثرها جدارة بالملاحظة وفقا لترتيب الأقسام :

القسم الأول : حمام الدود ، بشتك (واحد للرجال وواحد للنساء) ، قيسون (حمام لكلا الجنسين) .

القسم الثانى : حمام الصليبة (حمام لكلا الجنسين) ، مصطفى بك ، قراميدان .

القسم الثالث : حمام مرزوق (حمام جميل مخصص للنساء فقط) ، حمام سنقر ، الجديد .

القسم الرابع : حمام البارودية ، عابدين (حمام كبير) .

القسم الخامس : حمام آخر باسم الحمام الجديد ؛ وهو حمام كبير لكلا الجنسين ، السبع قاعات ، مرجوش (حمامان كبيران للجنسين) ، درب سعادة (للرجال وللنساء) ، الموسكى (حمام كبير للجنسين) ، الخراطين (واحد لكل جنس) ، الطنبلى (حمام كبير جدا للرجال فقط) ، الحسينية (حمامان للجنسين) ، حمام الذهبى (حمام كبير للجنسين) .

القسم السادس : حمام أبو حلوة (اسم أحد مشايخ الديوان) قريب من القنطرة الجديدة (للجنسين) ، الكيخيا ، اليزبك (وهو حمام كبير جدا) .

القسم السابع : حمام البيسرى ، السلطان (واحد كبير للرجال ، وآخر صغير للنساء) ، الخراطين (للرجال) .

القسم الثامن : حمام المصبغة (للجنسين) ، الجبالة (للجنسين) ، الجديد (حمام كبير للجنسين) ، سوق السلاح (للرجال) ، السكرية (للنساء) ، الوالى (حمام كبير للرجال) ، الشرايبى (حمام كبير أنشأه تاجر مغربى غنى وهو الذى أنشأ الحمزاوى أيضا) ، المؤيد (حمام كبير به قسم لكل من الجنسين) . كما نضيف أربعة حمامات متميزة ، هى : السروجية ، الجزارين ، الواجهة ، والخطيرى .

ويتجاوز العدد الكلى للحمامات مائة حمام ، وإن كانت القوائم السابقة لا تقدم إلا واحدا وتسعين حماما .

وسوف أكتفى بالإحالة إلى واحدة من لوحات المؤلف وإلى شرحها ، ففيها جميع التفاصيل الضرورية لفهم التقسيم الخاص بحمامات البخار[1] ، وسأقتصر هنا على كلمات قليلة : فالحمام الممثل فى هذه اللوحة هو بناء صغير إذا ما قورن بحمامات القاهرة الكبيرة ، ويقع قريبا من باب قراميدان فى الميدان الذى يحمل

(١) انظر اللوحة ٤٩ من المجلد الأول من الدولة الحديثة . وراجع أيضا اللوحة ٩٤ من المجلد الثانى من الدولة الحديثة التى تمثل حماما بالأسكندرية وشرحه .

نفس الاسم . والدخول إليه من الشارع عن طريق ممر يفضى إلى القاعة الرئيسية ، وهى نفسها التى تكون فيها الراحة بعد الحمام ؛ كما يكون فيها حك الأقدام بالحجر الخفاف وكذلك شرب القهوة . وتمثل هذه القاعة مربعا طول ضلعه حوالى ثلاثة عشر مترا (أى ما يزيد على أربعين قدما) ، ويزدان كل جانب بثمانية أعمدة رخامية ، ويقع فى وسطها حوض كبير به فوارة ، وإلى الخلف توجد حجرات عديدة ساخنة بدرجات متفاوتة ، يتم اجتيازها إلى قاعة كبيرة أخرى للاستحمام ؛ وتضم هذه القاعة أربعة مغاطس ذات أحواض مطلية بالملاط ، يمكن أن يغطس فيها كما هو الشأن فى مغاطسنا المعتادة . وفى الوسط توجد مصطبة يستلقى فوقها المستحمون لتتم لهم عمليات التدليك . وينبثق الماء من فوارات فى وسط القاعة وفى داخل المغاطس ، ويتلألأ الزجاج الملون فى كل هذه الحجرات ، وبداخلها يغسل الكثيرون أجسامهم بواسطة ألياف الكتان والصابون[١] .

وتعتبر حمامات المصريين من أجمل الحمامات ، وأكثرها راحة وأحسنها تجهيزا فى الشرق . فأرض الحمام – فيما يذكر عبد اللطيف – مغطاة برخام من جميع الأنواع ، أما الجدران والسقوف والقباب فإنها – فيما يقول – مطلية ببياض ناصع ، ومزينة بزخارف وزهور مختلفة الألوان ، وثبت بالقباب زجاج متعدد الألوان ينشر ضوءاً هادئا وساحرا . وفى وسط الغرفة الرئيسية – وهى واسعة ومرتفعة كالعادة ، حيث تكون الراحة بعد الحمام – توجد فوارة تنشر طراوة لطيفة وملائمة . وتجرى عملية التسخين بمهارة ، وإذا صدقنا عبد اللطيف يمكن القول بأنه كانت هناك عادة رش نار الموقد بكمية كبيرة من الملح للإبقاء على الحرارة[٢] ، وهو الأمر الذى لم أتبينه فى زيارتى لبيوت الاستحمام بالقاهرة والأسكندرية .

---

(١) انظر اللوحة ٩٤ ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة .

(٢) رحلة عبد اللطيف – ترجمة المسيودى ساسى ، صفحة ٢٩٩ .

٩ – المقابر والجبانات

إن الدخول فى تفصيلات كبيرة حول الجبانات فى مدينة القاهرة سيكون غير مجدٍ ، لما زودنا به الرحالة من أوصاف مطولة لها . ولمّا كان العديد من هذه الجبانات كبيرًا مثل بعض المدن ، فقد أطلق عليها نفس الاسم ، ولذلك استحقت أن يطلق عليها فى العصور القديمة اسم مدينة الموتى Necropolis .

وفى القاهرة مدينتان للمقابر ، إحداهما فى الجنوب والأخرى فى الشرق . تبدأ أولاهما من مقابر الإمام ، وسميت هكذا بسبب ضريح الإمام الشافعى ، وتمتد بعيدا جدا على طريق البساتين : وطولها حوالى فرسخ ، وهو ما يزيد على نصف طول القاهرة . وقبة ضريح الشافعى من إنشاء الملك الكامل الذى جلب إليها المياه من بركة الحبش ، وهى بركة قديمة كان موقعها بين مصر القديمة والقصر . وقريبا من ترب الإمام هناك مقابر القرافة ، وعلى مسافة أبعد توجد المقابر التى سميت بترب السيدة أم قاسم ، ويمتاز معظمها بروعته ، ووفرة الرخام والتذهيب والألوان المتألقة ، وهناك ست لوحات فى الكتاب خصصت لتصويرها ، وإذا ما أنعم القارىء النظر إلى هذه اللوحات ، لأمكنه أن يكون فكرة عن مدى فخامتها ، وتعد مقبرة على بك من أجمل هذه المقابر ، وهناك أحواش كبيرة مقصورة على الأسر الثرية بصفة خاصة ، وتمتلك عائلة الشرقاوى واحدا من الأحواش الكبيرة التى تغلق بأبواب حجرية تدور فوق محاورها ، وفضلا عما يوجد على الرخام من نقوش مذهبة ، تذخر القبور أيضا بالأزهار وأوراق النبات المنقوشة والمطلية بالذهب ذى اللون الأحمر والأخضر والأصفر ؛ أما الأعمدة وشواهد القبور فهى مليئة بنقوش عربية محفورة بنفس الأسلوب ؛ وأخيرا نجد القباب مزينة من الداخل بحنايا ذات نقوش بارزة[١] .

(١) لقد حاولنا فى اللوحة ٦٦ من المجلد الأول من الدولة الحديثة إعطاء فكرة عن فخامة مقابر القاهرة ، وعن الطابع الذى يسود هذه المنشآت . انظر هذه اللوحة وشرحها .

وتقع المدينة الأخرى للمقابر فى الشرق من القاهرة ، وتعرف باسم ترب قايتباى ، وتتصل هذه المدينة بحى القبة فى امتداد يصل إلى حوالى فرسخ . وليست هذه المقابر أقل فى روعتها ولا فى فخامة عمارتها ، من مقابر القرافة .

أما خارج القاهرة فيمكن أن نميز أيضا مقابر باب الوزير قرب الباب الذى له نفس الاسم ، ومقابر الغريب ، ومقابر باب النصر إلى الشرق ، ومقابر القاصد إلى الغرب ، قرب الباب الذى يتخذ نفس الاسم . وفى داخل المدينة نفسها ، نصادف أيضا العديد من الجبانات ، مثل : ترب جامع الأحمر ، ترب الرويعى ، وترب الأزبكية ، قرب الميدان الذى يحمل نفس الاسم ، هذا دون أن نتكلم عن المقابر الكثيرة الأخرى التى لا تتمتع بنفس الأهمية .

ونحصى ثلاث عشرة جبانة عامة كبيرة دون الحديث عن المدافن الكثيرة . وبين هذه الآلاف من المقابر والأحواش يوجد طرق يسهل السير فيها ، كما توجد مصاطب حجرية يمكن الجلوس فوقها . والمعتاد فى زيارة المقابر أن تكون كل يوم جمعة عند طلوع الفجر ، وتتم فيها الصلاة وتزرع الأزهار وتنثر النباتات العطرية ، ويذهب النساء والأطفال إلى هناك بصحبة الرجال ؛ ويكون جمع الزائرين ضخمًا ، ويعلن عن موضع مدينة الموتى هذه من مسافة بعيدة . إنه مشهد دينى مؤثر ورائع فى نفس الوقت ، وينبغى أن يشاهد مرات عديدة من أجل تكوين فكرة دقيقة عنه[1].

(١) انظر دراسة حول عادات المصريين ، للمسيو دى شابرول الجزء الثامن عشر ص ١٨٨ . المجلد الأول من الترجمة العربية . (المترجم) .

المبحث الثالث

وصف قلعة القاهرة[١]

بنيت القلعة على مرتفع يطل على المدينة ، ويطل على هذا المرتفع نفسه جبل المقطم ، وهو جبل كلسى صدفى ، ويحده واد ذو عرض بسيط . ويبلغ ارتفاع القصر من قاع بئر يوسف حتى أعلى نقطة فيه حوالى ثلاثة وتسعين مترا فوق المستوى المنخفض لمياه النيل ، وتبلغ المسافة ما بين قمة الجبل وبرج الانكشارية – الذى يقع فى الوسط تقريبا – سبعمائة متر وتسعة أمتار[٢] . أما المسافة بين هذه القمة وبين البرج الأقرب إليها – وهو برج الحداد – فتبلغ أربعمائة وثمانية أمتار فحسب[٣] ، وشكل القلعة غير منتظم إلى حد كبير ، ويصل محيطها إلى ثلاثة آلاف متر[٤] . وقد شيدت بأمر من صلاح الدين يوسف بن أيوب الشهير فى سنة خمسمائة واثنتين وستين[٥] (١١٦٦) .

ووفقا لما أورده المقريزى تتمثل مناسبة بنائها فيما يلى[٦] :

بعد أن أسقط صلاح الدين الامبراطورية الفاطمية ، أراد أن يكون بمنأى عن أى هجوم ، فعمل على إقامة ملاذ أكثر أمنا من قصر الوزارة بالقاهرة[٧]

---

(١) انظر خريطة القاهرة اللوحة ٢٦ من المجلد الأول للدولة الحديثة ، ولقد نفذت الخريطة الأصلية للقلعة بمقياس رسم ٠,٠٠١٢ للمتر ، أى بمقياس رسم أكبر من مقياس رسم خريطة القاهرة ست مرات ؛ ولذلك فقد اختفت التفاصيل نتيجة التصغير ، وفقدت قليلا من الوضوح خصوصا بالنسبة للقلعة .

(٢) ٣٦٤ قامة .

(٣) ٢٠٩ قامة .

(٤) ١٥٣٩ قامة .

(٥) من المعروف أن القلعة قد بنيت فيما بين ٥٧٢ – ٥٧٩ هـ (١١٧٦ - ١١٨٣ م) وانتقل إليها الكامل محمد واتخذها مقرا للحكم منذ سنة ٦٠٤ هـ ، وظلت على ذلك إلى أن بنى قصر عابدين . (المترجم) .

(٦) رحلة عبد اللطيف ، ترجمة المسيودى ساسى ص ٢٠٩

(٧) هى دار الوزارة بالدرب الأصفر ، انظر أيضا الخريطة ٢٦ 5 - i).

والذى كان يسكنه السلاطين حتى ذلك الوقت . ومن هنا حدد الموضع الذى يقوم عليه القصر ، بعد أن لوحظ أن اللحم قد بقى صالحا به لمدة تصل إلى ضعف مدة صلاحيته فى القاهرة . وقد أمر واحدا من أمرائه ، هو بهاء الدين قراقوش الأسدى ، ببناء قلعة هناك ، فقام ذلك الأمير بجلب الأحجار الناتجة عن هدم أهرام صغيرة بالجيزة ، وشيد بهذه المواد القلعة وسور القاهرة أو الجدار المحيط[1] . وبلغ محيط سور صلاح الدين هذا تسعة وعشرين ألفا وثلاثمائة ذراع وفقا لما يذكره عبد الرشيد البكوى[2] ، غير أن هذه المنشآت لم تكتمل تماما إلا بعد اثنين وأربعين عاما على يد الملك الكامل ناصر الدين بن الملك العادل سيف الدين .

ولم يقم صلاح الدين ولا ابنه بالقلعة إلا قليلا ، غير أنه منذ عهد الكامل اتخذ منها الأمراء والحكام مقرا شبه دائم . ولكن اتخاذ هذا المكان لإقامة قلعة قوية كان اختيارا سيئا ؛ فمن جبل المقطم ، الذى يقع إلى الشرق ، يمكن التوغل إلى داخل القلعة ، كما يمكن تدميرها بسهولة ؛ أما من جهة القاهرة فإن هذا الجانب منيع للغاية بسبب وعورة الصخر ، وانحداره إلى الجنوب والغرب والشمال مما تكون معه فى مأمن من أى هجوم . وإنى أستسمح فى العودة إلى المشهد الرائع الذى يراه الناظر هنا تحت بصره ، فعندما يجول بطرفه تجاه القاهرة من ارتفاع القلعة ، يجد أمامه واحدا من أروع المناظر التى يمكن تخيلها . وقد سعى كثير من الفنانين ليسجلوا هذه الصورة ، غير أن أحدًا منهم – فى رأيى – لم ينجح ، وقد يكون من المستحيل إنجاز ذلك بدقة ، حيث إن مدى اللوحة فسيح ، خاصة من ناحية الغرب ، فالنظر يمتد بعيدا جدا خلال الصحراء الليبية الواسعة ، ما بين ثلاثة أو أربعة فراسخ وراء الأهرام الكبيرة بالجيزة وسقارة ، وسهل المقابر ، حتى الأجزاء الأخيرة للسلسلة الليبية . فالمنطقة

(١) لا ينسب مرعى بن يوسف ، مؤلف المخطوطة التى ذكرت كثيرا فيما سبق ، إلى الأمير قراقوش سوى بناء السور .

(٢) هى تقريبا ١٧٠٠٠ متر . انظر La Décade Egyptienne المجلد الثالث صفحة ١٧١ .

الزراعية الواسعة، وغابات النخيل التى تقع عند سفح هذه الآثار العملاقة، والنيل الذى ينساب مثل شريط من الفضة، وجزيرة الروضة الساحرة، والضفة اليمنى للنهر التى تكتنفها الخضرة والرمال، وعلى اليمين بولاق وعلى اليسار مصر القديمة، ووادى التيه، وعلى القرب مدينة المقابر ومجرى العيون، وعلى مقربة أيضا مدينة القاهرة المترامية الأطراف بمآذنها التى تتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة مئذنة، وأخيرا، وفى الأسفل نشاهد ميدانا واسعا يعج بالمواطنين المتدافعين[1]، مع المبنى المهيب لجامع السلطان حسن الذى ربما يمثل أجمل منشآت المدينة جميعها، ومئذنتيه الرائعتين اللتين تعلوان القلعة نفسها؛ هذه المفارقات بين مصر القديمة والحديثة، بين مقابر العاصمة القديمة ومقابر العاصمة الجديدة ، بين أنقاض عين شمس على اليمين وأنقاض ممفيس على اليسار ، كل هذا الحشد الهائل يثير أشد المشاهدين جمودا ، ويغرق الفيلسوف فى التأمل ، والفنان فى الطرب ، وأكثر الناس فتورا فى الحلم والتفكير . ومن العسير أن ينتزع المرء نفسه من هذا المشهد الساحر الذى لا مثيل له فى أى مكان آخر .

وتنقسم قلعة القاهرة إلى قسمين : القسم الأعلى سور أو مدينة الانكشارية ؛ ويرتفع حوالى مائة متر عن مستوى النيل (فى أدنى مستوى له) ؛ والقسم المنخفض ، أو المخصص للعزب «سور العزب» ؛ وينقسم هو نفسه إلى سورين .

والقسم الأول مستقل بنفسه تماما ، ويحتوى بداخله هو أيضا على : سور صغير به برج كبير يسمى «خزنة قلة[2]» ، وبرج الانكشارية وهو أقوى أبراج القلعة . وقد أحيطت بئر يوسف هى أيضا بسور خاص ، وأخيرا هناك سور آخر يحمل اسم سور «الأغا» .

---

(١) انظر اللوحتين ٣٢ ، ٦٧ المجلد الأول من الدولة الحديثة .

(٢) تجدر الإشارة إلى أنه ما يزال يوجد بالقلعة باب يسمى باب القله ، وقد جدد أكثر من مرة ، ويقع فى مواجهة جامع الناصر محمد بالقلعة من جهته الشمالية الشرقية (المترجم) .

ويتم الصعود إلى سور الانكشارية بطريقين منحدرين منحوتين فى الصخر : أحدهما فى الغرب ، ويبدأ من باب العزب المطل على ميدان القلعة ، «الرميلة» ؛ وهذا الباب محصن ببرجين كبيرين هائلين جدا تزينهما الرايات البيضاء والحمراء ، أما الطريق الآخر ففى الشمال الغربى ، ويشكل طريقا خارجيا هو «سكة الشرفا» ؛ وقد نحت فى الصخر درج لتسهيل الصعود ؛ ويؤدى الطريقان إلى باب المدافع ، وهو محاط ببرجين ، ويقع فى وسط أحد جدران السور المحاط أيضا ببرجين آخرين كبيرين ، وهما : «برج الطبالين» من جهة الشمال ، «وبرج صفطة» من ناحية الجبل ؛ وكلا الطريقين يفضى إلى باب الجبل .

ويوجد طريق ثالث منحوت فى الصخر أيضا ، يفضى إلى باب القلعة الجنوبى ، حيث كان موقع قصر الباشا القديم ، وهو يؤدى إلى الميدان الكبير ، أو مضمار قراميدان (حيث كان المماليك يتدربون) عن طريق الباب المسمى «باب السبع حدرات» ؛ ومنه نصل إلى الباب الرابع للقلعة ، باب النجدة ، «الباب الوسطانى» ؛ عن طريق مطلع منحوت فى الجبل ، ثم ندخل إلى نفق متعرج ، منحوت فى الصخر أيضا ، بعرض ثلاثة أمتار وطول أربعين مترا ، يشق الصخر بارتفاع من أربعة عشر إلى خمسة عشر مترا . وقد نحتت أيضا فى الصخر الخنادق الموجودة ناحية المقطم . ويبلغ عدد الأبراج كلها المستديرة أو المربعة اثنين وثلاثين برجا ، وهى مقامة على قواعد متسقة شديدة الصلابة ؛ وكذا بالنسبة للسور .

وبالإضافة إلى الأبواب الأربعة الخارجية التى سبقت الإشارة إليها ، وباب الانكشارية الكبير ، «المدافع» ، يمكن أن نحصى خمسة أبواب داخلية موضحة فى شرح خريطة القاهرة .

وأهم مبانى القلعة هو ما جرت العادة على تسميته «بقصر يوسف» [القصر الأبلق ٧١٣ – ٧١٤هـ / ١٣١٣ – ١٣١٤م] ، غير أن قصر يوسف صلاح الدين الحقيقى بناء متهدم ، يقع ناحية الغرب ، ويطل على مدينة القاهرة .

والواقع أن هذا القصر رغم أنه يتخذ إلى الآن اسم بيت يوسف صلاح الدين ، فإنه يحمل مظاهر الروعة البالغة ؛ فجدرانه الكبيرة الجيدة البناء مغطاة بالنقوش والفسيفساء والرسوم التى لا تزال موجودة بل ومذهبة أيضا ، مع بعض بقايا القباب التى يصعب وصفها بسبب تهدمها الشديد[1]. كما يضم قاعة يزينها اثنا عشر عمودا ضخما من الجرانيت يعلوها قبة بها نقوش من أحرف مذهبة ، ويعود تاريخ هذه البناية إلى سنة خمسمائة وسبع وستين للهجرة (١١٧١) [٧١٣-٧١٤هـ / ١٣١٣-١٣١٤م] . وثمة قصر آخر أحدث زمنا يقع فى الجنوب ، هو «قصر الباشا» ، وهو لا يقل تهدما عن سابقه .

والآن أصل إلى البناء الشهير المسمى تجاوزا بقصر يوسف ، كما يعرف بديوان يوسف . والذى ضمن لهذا الأثر الشهرة لدى جميع الرحالة هو على وجه الخصوص أعمدته الجرانيتية الجميلة الاثنان والثلاثون ، وكذا جدرانه الضخمة ، وأيضا جزء من السقف لايزال صامدا حتى الآن : ولاتزال جميع الأعمدة قائمة ، وكل منها عبارة عن كتلة حجرية واحدة ، يبلغ ارتفاعها (بدون التاج) ثمانية أمتار تقريبا (٢٥ قدما) ، أما قواعدها فهى من الحجر الرملى ، منحوتة بشكل ردىء . ولم تكن تلك الأعمدة مصممة من أجل هذا الأثر ؛ فالقطر ليس متماثلا تماما فى جميعها ، وفى الغالب يصل إلى المتر . وتختلف التيجان أيضا فيما بينها ، والنسق العام للتيجان أقرب إلى النمط الكورنثى منه إلى أى نمط آخر ، وإن كانت النقوش سطحية تقريبا . فهى - إذا صح القول - ليست سوى رسوم خفيفة خطت لتمثل شكل النخيل الأملس والخيوط والعقد ، وكذلك الزخارف الحلزونية الشكل فى الأركان ، مع بروز خفيف[2].

والجرانيت أحمر اللون فائق الجمال ؛ وإننا لنعجب حقا من حجم الأعمدة وصقل مادتها والوقت والجهد اللذين اقتضاهما نقلها إلى هذا الارتفاع

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ رقم T-4-84 واللوحة ٦٧ ، فى وسط الرسم

(٢) انظر اللوحة ٧١ الأشكال من ٢ إلى ٥ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

الشاهق . وهى تحمل عقودا من الحجر ، وأفاريز مغطاة بنقوش عربية ذات أحرف كبيرة ، وفى زوايا السقوف – وهى تشبه إلى حد بسيط المثلثات الكروية عندنا – توجد حليات من الخشب من عدة طبقات تتخذ فى تصميمها شكل المقرنصات[١]. وتخطيط الديوان أكثر براعة من تخطيط أجمل جوامع القاهرة ؛ أعنى جامعى طولون والسلطان حسن (مع أنه أقل منهما فى الاتساع) ؛ وفى النهاية ، فإن الطابع الغالب على هيئته يختلف عما يمكن ملاحظته فى المبانى العربية الموجودة الآن[٢].

ويبرهن هذا الأثر على أنه فى القرن السادس للهجرة (أو الثانى عشر للميلاد) كان للعمارة العربية طابعها الفخم الذى اختفى تحت حكم الأيوبيين من خلفاء صلاح الدين وتحت حكم سلاطين المماليك ، على الرغم من أن هؤلاء السلاطين قد شيدوا منشآت متميزة لدرجة كبيرة ، ولكنها تفتقر غالبا إلى مظاهر الروعة . وإذا كان من الممكن مقارنة ديوان يوسف ببعض عمائر القاهرة الأخرى ، فسوف يكون هذا (ولكن فقط من ناحية الطابع وبساطة الأسلوب) هو باب النصر الذى أشرت فيما سبق إلى طابعه الأصيل[٣]، وقد يكون كذلك جامع الحاكم القريب من هذا الباب . وهذا الجامع – وهو من منشآت الحاكم بأمر الله ، ثالث خلفاء الفاطميين – يعود إلى بداية القرن الحادى عشر ، على حين لم يبدأ حكم صلاح الدين إلا فى عام ألف ومائة وواحد وسبعين . وتكمن الصلة الموجودة بين جامع الحاكم وديوان يوسف – بصفة رئيسية – فى العقود الكاملة التى نراها فى هذا الأثر وذاك ، وإن كانت ترتكز فى أولهما على دعائم وفى الآخر على أعمدة[٤]. ومن المحتمل أن جامع الأزهر الكبير [٣٥٩هـ] ، وهو الأسبق (٩٦٩) ، يقوم فى أجزائه الأقدم على نفس النمط المعمارى ، بيد

(١) انظر اللوحة ٧١ شكل ٦ الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

(٢) انظر الملحق فى نهاية هذه الدراسة ، المبحث الثانى .

(٣) انظر ما سبق .

(٤) انظر اللوحتين ٢٨ و ٧٠ من المجلد الأول للدولة الحديثة .

أننى لا أستطيع سوى التخمين ، حيث لم أتوغل داخل هذا الأثر . ولم يكن من السهل أن نتبين مصدر أعمدة ديوان يوسف ؛ وأقتصر على القول بأن شكلها يحمل على الظن بأنها لم تجلب من ممفيس ، كما هو مفترض ، ويبدو لى أن الأقرب احتمالا أنها قد جلبت من الأسكندرية ، فهناك مئات الأعمدة بنفس المقاييس مكدسة فى أساسات الميناء . وبالإضافة إلى هذا فقد وجدنا بالقرب من مجرى العيون ما يقرب من عشرين عمودا من الجرانيت ملقاة على الأرض لها نفس المقاييس تقريبا ، ويظهر أنها كانت تابعة لأحد المساجد القريبة[1] ، وأنها آتية دون شك من نفس مصدر أعمدة الجامع الذى أقامه صلاح الدين داخل القلعة (وهو إما بابليون مصر وإما الأسكندرية) .

لقد قلت جامعا وليس قصرا ، رغم الشرفات التى ترى فى قمة المبنى ، وأستند فى ذلك إلى موقع المحراب المعتاد فى المساجد ، وإلى الشكل العام لتخطيطه ، وهو ما يمكن استنتاجه كذلك من النقوش التى تحملها الأفاريز ، فهى نقوش دينية فى ضوء ما يرى مما تبقى منها[2]. ويوجد أيضا هنا تقارب أكثر حسما ، سيقتنع به دون جهد كل من يقوم بزيارة الكنائس المسيحية فى مصر العليا ، وهو أن تخطيط ديوان يوسف يماثل تخطيط هذه الكنائس على نحو مثير إلى حد كبير ، وقد يقال نفس الرأى بالنسبة للعقود وسائر المبنى . أكانت هذه كنيسة حولت إلى جامع على يد صلاح الدين أو خلفائه ؟ أم أن معماريا مسيحيا هو الذى تولى بناءه ، فاستمد طرازه من المنشآت الخاصة بديانته ؟ وليس هذا الفرض الأخير بمستحيل ، فنحن نعرف أن معماريين كثيرين من الروم قد استخدمهم السلاطين . وعلى أى حال فإنه ليس ثمة بناء

(١) انظر La décade Egyptienne الجزء الأول صفحة ٩٨ ، يبلغ طول أكبرها ثمانية أمتار وتسعة وسبعين سنتيمترا ، وقطره مترا وثمانية سنتيمترات .

(٢) انظر اللوحات ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ من المجلد الأول من الدولة الحديثة .

إسلامى يشبه بدرجة كبيرة كنائس مصر سوى ديوان يوسف[1]، وإن كان مما يرجح الرأى الأول أن المحراب ليس متجها ناحية الشرق .

وجامع السلطان قلاوون هو أجمل مبانى القلعة بعد ديوان يوسف ، ويشير اسمه إلى أنه من منجزات نهاية القرن الثالث عشر[2] ، وتخطيطه يتخذ شكل مستطيل أطواله ثلاثة وستون ، وسبعة وخمسون مترا ، وبه صفان من عشرة أعمدة فى كل ناحية بطول الجدران ، وكما هى العادة هناك صحن فى الوسط : ويبلغ مجموع الأعمدة اثنين وسبعين عمودا ، وذلك بسبب الفضاء الموجود أمام المحراب . وتفوق الأعمدة الجرانيتية الأربعة الموجودة فى زوايا الصحن غيرها من ناحية الحجم ، أما الجدران فمزينة بالفسيفساء ، وقد بنيت المئذنتان ونقشتا بدقة متناهية ، وسوف تمثل المئذنتان والتخطيط فى الكتاب[3]. وقد تحدثت فيما سبق عن منشآت أخرى تعود إلى نفس السلطان ، ونحصى أيضا أحد عشر مسجدا آخر ، سواء فى مدينة الانكشارية أو سور العزب ، منها مسجدان متهدمان تماما .

وتضم القلعة أربعة عشر سبيلا ، أهمها وأروعها سبيل الكيخيا[4] ، الواقع وراء سور الانكشارية ، وهو يكفى وحده لحفظ مخزون من الماء لعشرة آلاف شخص لما يزيد على العام . وتصميمه عبارة عن مستطيل أطواله واحد وثلاثون ، وثلاثون مترا ، وعقود أقبيته مرتفعة ومحمولة بثلاثين دعامة ضخمة ، عرض الواحدة منها حوالى ١,٦ متر (خمس أقدام) . ويغطى الأرض والجدران من الداخل والدعامات طلاء شديد الاحتمال مانع من تسرب الماء ، طلاء مما مهر

(١) انظر ٨ المجلد الرابع اللوحة ٦٧ الشكل ٢ ، المجلد الخامس اللوحة ٣٧ .

(٢) هو جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة ، وقد بنى سنة ٧١٨هـ ، ثم هدم وأعيد بناؤه سنة ٧٣٥هـ ، وأصبح جامع القلعة الرسمى ومايزال باقيا حتى اليوم . (المترجم) .

(٣) انظر اللوحة ٧٣ المجلد الأول من الدولة الحديثة الأشكال ٥ – ١٠ .

(٤) انظر اللوحة ٧٣ شكل ١٣ والخريطة رقم S-3. 102 .

المصريون فى صناعته ؛ وهو يكتسب ملاسة خاصة بفعل التعرض للماء فترة طويلة ، ولهذا الأثر القابع تحت الأرض منظر مهيب ، ومما يبعث على الإعجاب به ماله من فائدة على وجه الخصوص . وسترد الإشارة إلى بقية الأسبلة على الخريطة وفى شرحها . ونحصى ست آبار داخل القلعة ، منها اثنتان تعدان على وجه الخصوص من الإنجازات المتميزة ، وهما : بئر السبع سواقى ، وفى المقدمة بئر يوسف ، تلك البئر الشهيرة لدى جميع الرحالة ، لكنها نادرا ما كانت توصف وتصور على نحو دقيق . وقد بدا لى أن أفيد من إقامتى بالقلعة لمدة تقرب من شهرين فى عمل تخطيط هندسى وفحص للبئر بالتفصيل ، ورسم المساقط وتسجيل المقاييس . وقد نزلت ثلاث مرات إلى البئر ، وقمت بقياس جميع محيطاتها . ويوجد بأعلى البئر ثوران لإدارة ساقية قواديس عادية ترفع سلسلة من القواديس التى تملأ بالماء من حوض سفلى يقع عند منتصف الارتفاع الكلى للبئر تقريبا ، وهنا توجد ساقية قواديس أخرى يديرها حصان تقوم برفع الماء من قاع البئر . ولا يقع هذان الجزءان من البئر على نفس الخط الرأسى(١) ؛ ويبلغ اتساع أولهما خمسة أمتار مربعة ، والثانى مترين وثلاثة ديسيمترات . والمسافة بين كل قادوسين حوالى ثمانية ديسميترات ، وعدد القواديس فى البئر الأولى هو مائة وثمانية وثلاثون قادوسا : قطر الساقية هو متر وثمانية وتسعون سنتيمترا ، والوقت الإجمالى لوصول القادوس من الحوض السفلى إلى مستوى القلعة هو أربع دقائق وعشرون ثانية . ويستخلص من هذا أولا : أن سعة القادوس هى ٠,٠٠٠٤ من المتر المكعب (أو عشرون بوصة مكعبة وخمس البوصة) ، ثانيا : أن القواديس المائة والثمانية والثلاثين تعطى فى أربع دقائق وعشرين ثانية ٠,٠٥٥٢ من المتر المكعب ، ثالثا : أن كمية الماء فى الدقيقة (من غير الفاقد منه) هى ٠,٠١٢٧ من المتر المكعب (أو ٦٤١ بوصة مكعبة) . وبناء على معلومات حراس بئر يوسف فإن عمق الجزء الأول ، أو الأعلى منها ،

(١) انظر المجلد الأول من الدولة الحديثة اللوحة ٧٣ الأشكال من ١ إلى ٤ ، وعلى الخريطة الرقم T3 51 .

يبلغ خمسة وسبعين بكسا استامبوليا ، أى حوالى خمسين مترا وثلاثة ديسيمترات (١٥٥ قدما) ، أما الجزء الثانى فعمقه ستون بكسا ، تمثل أربعين مترا وثلاثة ديسيمترات (١٢٤ قدما) . وطول السلسلة الأولى المستخدمة – وفقا لأقوال الحراس – هو مائة وخمسون باعا كبيرا من الحبال ، أما طول الثانية فهو مائة باع[1]. وفى حالة إلقاء حجر ليسقط من ارتفاع البئر ، فإن الوقت الذى يستغرقه من لحظة سقوطه حتى ارتداد الصوت إلى الأذن هو حوالى خمس ثوان[2]. والمنحدر الذى يمكن النزول بواسطته إلى قاع البئر الأولى منحوت فى الصخر على شكل حلزونى لولبى مستقيم ، متدرج الانحدار . ويصل ارتفاع هذا الطريق مترين وديسيمترين ، أما عرضه فمتران . ويتسلل إليه ضوء خافت عن طريق الفتحات الموجودة بجهاته الأربع ؛ ومما يثير الانتباه سمك الحاجز الذى يفصله عن جدار البئر الداخلى ، فالإبقاء عليه يحتاج إلى حرص بالغ[3].

وتصل درجة الحرارة عند قاع البئر ، عندما يكون مقياس الحرارة موضوعا فى الماء ، إلى ما بين ١٧ إلى ١٨ درجة (رومير) ؛ وهذا هو متوسط درجة الحرارة فى القاهرة تماما كما سجلها الكولونيل المسيوكوتل Coutelle (١٧,٧°) ، ولكنها أقل بحوالى أربع درجات ونصف من درجة حرارة بئر الهرم الأكبر التى تبلغ اثنتين وعشرين درجة : وكان من المفروض أن تكون درجة حرارة الهواء المحيط بمنطقة العمق فى بئر يوسف اثنتين وعشرين درجة تقريبا إذا قسناها فى ضوء التجربة التى أجريت فى النيل عند فيله .

أما الخطأ الذى وقع فيه كل من مايبه Maillet وبوكوك Pockocke بنسبهما بئر يوسف إلى أحد الوزراء الذى يحمل هذا الاسم فى زمن محمد بن قلاوون فقد

---

(١) يلزم هنا تقريبا مائة وعشرون باعًا .

(٢) إن الارتفاع الناتج عن هذه الملاحظة (وإن تم اختصار الزمن إلى أربع ثوان وربع) سيكون هو ارتفاع البئرين معا .

(٣) ستة عشر سنتيمترا تقريبا أو ست بوصات (انظر اللوحة ٧٣ شكل ٣) . بالنسبة للفتحات فإن هذا السمك أقل (أربع بوصات) ، ولذلك يخشى الاقتراب منها .

صحح من قبل[1] ؛ ذلك أن الفضل فى إنشائها يعود إلى صلاح الدين يوسف وإلى عهد هذا السلطان ، وكذلك الحال بالنسبه للقلعة . على أن عبد اللطيف ، الذى وضع بئرى القلعة ضمن عدد من روائع مصر فى رأى صريح بذلك ، قد وقع هو نفسه فى خطأ آخر ومعه المقريزى ، وذلك بالقول بأن النزول إلى هاتين البئرين يكون عن طريق سلم من نحو ثلاثمائة درجة ، إلا إذا كانت هذه الدرجات قد تحولت مع الوقت إلى منحدر سهل ، ولكن هذا مشكوك فيه ، لأن الحيوانات المخصصة لإدارة ساقية الحوض الثانى ، لن يكون بمقدورها النزول أو الصعود فى يسر . وفى ظنى أن عبد اللطيف قد قصد بالبئرين بئر يوسف ، ثم أهم الآبار الأخرى وهى بئر السبع سواقى الواقعة إلى الجنوب من جامع قلاوون والتى تستقبل مياهها المجلوبة من النيل إلى مصر القديمة ، وأنه لم يقصد جزئى بئر يوسف واللذين لا يمثلان إلا أثرا واحدا لا يتعدد .

وقد رأيت أيضا بئرا أخرى عميقة جدا إلى جانب حائط متصل بالبرج المعروف «ببرج الصحراء» . ومذاق مياه بئر يوسف مالح بدرجة بسيطة ، على الرغم من أن مستواها أدنى من مستوى مياه النيل فى أعلى أو حتى فى أدنى مستوى لها ، وهذا يبرهن – كما يرى المسيو جراتيان لوبير Gratien le Père – على أن هذه المياه هى مصدر المياه التى تصل إلى البئر ، غير أنها تمر خلال انسيابها بطبقات محملة بالملح .

وفى القلعة حمام عام واحد ، وساحة كبيرة للمقابر فى الجهة الشرقية من مدينة الانكشارية ، كما توجد ساحات أخرى عديدة وأسواق عامة ، وست طواحين للقمح .. الخ ، وتقع مخازن الدقيق فى أقبية تحت الأرض ذات دعامات ، وطراز متميز ؛ وكذلك توجد اصطبلات الباشا المقامة فى مستوى منخفض تدعمها الأعمدة . كما يوجد أيضا – جهه الشمال من ديوان يوسف – قاعات تحت الأرض مقبية وعالية الارتفاع .

---

(١) انظر ترجمة المسيو سيلفستر دى ساسى لرحلة عبد اللطيف ص ٢١١

وتضم القلعة نوعا آخر من المنشآت جديرا بأن يذكر : وهو ما يطلق عليه «ديوان» ، وهى أماكن للاجتماع . ويعد ديوان «المستحفظان» أكثرها ضخامة ، وهو مجاور لبرج الانكشارية ، ولذا فهو أيضا ديوان الانكشارية . وتعلو هذه القاعة قبة قائمة على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض، أما الجدران فإنها مغطاة بفسيفساء ثمينة لها مظهر رائع ، على شكل بلاطات من المينا البيضاء ، تزينها زخارف زرقاء وخضراء ومن ألوان مختلفة : وفى كل جهة من جهاتها توجد أريكة لجلوس الحاضرين . أما السقف فملون بثراء ومغطى كله برسوم من الزخارف العربية ، وكذلك القبة . والجزء الأكبر من الموضوعات المصورة على المينا هى أجزاء من آيات قرآنية ، والنقوش واضحة بدرجة كبيرة ، وأطوال هذه البلاطات المتميزة اثنتا عشرة بوصة وتسع بوصات ، وهى تنفذ فى قرمان بكوتاهية[1] . ويقع ديوان العزب قريبا من الباب الذى يحمل هذا الاسم ؛ وفيه أيضا الفسيفساء المصنوعة بمهارة من المينا البيضاء ، وهى مزينة بأزهار ورسوم زرقاء وخضراء . وترى هناك مآذن طويلة تشبه السهام ، وفقا للأسلوب القديم ، لها تأثير خلاب يجعل الإنسان عن بعد يعتقد أنه يرى لوحات جدارية . وقد ثبتت البلاطات بإحكام على بطانة من الجبس بسمك بوصتين .

وتسك العملة المصرية فى القلعة ، والمبنى المخصص لهذا الغرض بسيط للغاية ، وهو فى ذلك يلائم بساطة أساليب هذه الصناعة ، وإن دراسة المسيو صمويل برنار (Samuel Bernard) لتكفينى عن القيام بوصف هـذه أو تلك ، واكتفى بالقول بأن دار الضرب[2] تقع فى الزاوية الشرقية لساحة الباشا . أما الذهب الذى يضرب فيها فإنه يأتى فى معظمه إلى مصر بواسطة قافلة دارفور ، ويمكن القول بأن خبرة كبار الصنعة من المسلمين كانت بنفس مستوى

(١) لقد أحضرت اثنتين منها إلى باريس . انظر الدولة الحديثة ، المجلد الثانى اللوحة GG شكلى ١٣ ، ١٤ . وكوتاهية إحدى مدن تركيا التى كانت لها شهرتها الـ اسعة فى صنع البلاطات الخزفية . (المترحم) .
(٢) ماتزال دار الضرب بالقلعة باقية حتى اليوم ، وهى ترجع إلى تجديدات محمد على باشا . (المترجم) .

نزاهة البكوات والباشوات بالنسبة لعيار العملة . وستوجد فى اللوحات[1] مناظر متنوعة للقلعة ومبانيها ، أما فى شرح اللوحات فإن هناك تفاصيل تكمل ما تجاوزته هنا سعيا إلى اختصار الوصف . وسأشير إلى شيئين فقط : أحدهما تابوت من الرخام الأبيض غنى بالنقوش رأيته قريبا من ديوان الانكشارية ، وهو ينأى عن الطراز العربى المعتاد[2] . والآخر تتمثل فيه حالة فريدة فى قطع الصنجات المعشقة لكثير من الأبواب والأقبية والعقود ، فبدلا من أن تقطع الأوجه بصورة مستوية ، شكلت جوانب الصنجات من أجزاء بارزة وغائرة على التوالى ، ذات سطح أسطوانى إلى حد يمثل معه منظرها الجانبى سلسلة من الانحناءات المعكوسة . وإذا كان المشيدون قد تصوروا أنهم بهذه الطريقة يكسبون الطنوف مزيدا من الصلابة فإنهم قد أخطأوا ، نظرا لأن الأحجار فى معظم الأحيان فى هذه الحالة تكون مفككة بدلا من أن تتماسك بقوة بفعل هذه التقوسات الهشة[3] . ولاحظت أيضا فى القلعة وصلات فى هيكل البناء يمثل كل منها عملا شديد التعقيد[4] .

وسيكون من الإسهاب هنا الحديث عن ضواحى القلعة ، كجبل المقطم الذى تستقر [على جزء منه] القلعة ، والذى شقت فيه الطرق والأنفاق ، وكميدانى قراميدان والرميلة اللذين يقعان عند سفحه ، وقد استخدم أولهما — كما قلت — فى تدريبات فرسان المماليك .. الخ . وسنجد فى موضع آخر من الكتاب ملاحظات حول الجبل العربى ، كما نجدها فى المبحث الثامن مما سيأتى ، وكذلك فى شرح اللوحات هناك تفاصيل حول الميادين العامة[5] .

---

(١) انظر اللوحات ٦٦ إلى ٧٣ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

(٢) انظر المجلد الأول ، الدولة الحديثة ، لوحة ٧٣ ، شكل ١٤ .

(٣) انظر الدولة الحديثة ، اللوحة ٧١ شكل ٧ ، واللوحة ٧٢ الأشكال ١٥ إلى ١٨ .

(٤) انظر الدولة الحديثة ، اللوحة ٧١ شكل ٨ .

(٥) يضم ميدان قراميدان عششا تؤوى عائلات فقيرة مكدسة ، وهى فى بؤسها تشبه أكواخ الكلاب التى لا تقل عنها ضيقا أو اشمئزازا .

أما عن تكوين الصخر فهو من الحجر الكلسى المحتوى على الأصداف خاصة التى تتخذ شكل العملة ، أى أنه مشكل من أصداف مسطحة متجمعة كاملة الاستدارة مثل قطعة من النقود ، أو بالأحرى مثل الصدف الذى تصنع منه الأزرار . ويلتصق بأكبرها عدد لا يحصى من الأصداف البالغة الصغر ، والتى تشبه حب العدس وإن كانت أصغر منه ، ولما كانت الأرض قد غطت بهذه القواقع التى لا تحصى ، فإنه بمجرد هبوب الريح تسمع من هذه الناحية قعقعة مدوية . ولون الصخر أبيض أو وردى فى بعض الأحيان : ويحدث فى أحيان كثيرة أن تنشطر الصخرة إلى جزئين فيظهر بكل وضوح شكل حلزونى . وقد تحتوى أحجار المقطم على حلزونات وعلى أصداف فى حالة تحجر .

وبالنسبة لبقية المبانى بالقلعة فهى موضوع البحث فى الفصل العشرين من وصف الدولة القديمة .

المبحث الرابع

حول سكان القاهرة وصحة المواطنين ومعدل الوفيات

لما كنا قد أفردنا دراسة خاصة عن سكان مصر بحث فيها ما يتصل بسكان القاهرة على وجه الخصوص ، فإننى سأقتصر هنا على كلمات قليلة . لقد شرحت السبب الذى عمل على زيادة سكان القاهرة ؛ وهو المظهر الذى يتمثل فى بعض الشوارع الضيقة بالتحديد ، حيث يشتد الزحام كثيرا عما فى مدننا الأوربية الأكثر سكانا : على حين أن جميع الشوارع الأخرى لا تمثل هذا المظهر .

وليست التجارة وحدها ولا السعى إلى المصالح هما اللذان يحشدان هذا الجمع الغفير فى عدد من المواضع بعينها ، وإنما هو أيضا سوء الاتصال بين الأحياء الذى يرغم على المرور فى الشوارع الرئيسية . وفيما يلى سأبين الطبقات المختلفة للسكان وفقا للديانة والموطن الذى ينتمون إليه ، وكذلك وفقا لجنسهم وأعمارهم ووضعهم الاجتماعى أيضا . أما بالنسبة للمهن ، فسوف تتناول بالتفصيل فى المبحث التالى وهو حول صناعة سكان القاهرة . واستنادا إلى معطيات عديدة ، فقد قدرت هؤلاء السكان فى سنة ألف وسبعمائة وثمان وتسعين ، بحوالى مائتين وثلاثة وستين ألف نسمة ، أو نحو مائتين وستين ألفًا بالأعداد الصحيحة ، وينقص هذا بمقدار الثمن عن التقدير الذى يعتقده الفرنجة المقيمون بالقاهرة قبل الحملة : ويجب تقدير نفس النقص بالنسبة لعدد الأفراد المشتغلين بالمهن المختلفة ، ووفقا لما أراه فإن المائتين والستين ألفا من السكان يتوزعون كما يلى :

١ – على أساس الديانة : الروم المنشقون خمسة آلاف ، المسيحيون اليعاقبة عشرة آلاف ، الروم الكاثوليك من السوريين والموارنة خمسة آلاف ، المسيحيون الأرمن ألفان ، الديانة اليهودية ثلاثة آلاف[1] ، الفرنجة والكاثوليك والبروتستانت أربعمائة ، والباقون من المسلمين .

٢ – على أساس الموطن : مصريون أقباط عشرة آلاف ، يهود ثلاثة آلاف ، سوريون خمسة آلاف ، أرمن ألفان ، أروام خمسة آلاف ، أفرنج أو أوربيون ألف ، مماليك وأوجاقلى عشرة آلاف وأربعمائة ، أتراك أو عثمانيون عشرة آلاف ، أفارقة وزنوج وبرابرة ونوبيون وحبشيون من الجنسين اثنا عشر ألفا ، مصريون مسلمون وعرب حوالى مائتين وعشرة آلاف .

٣ – على أساس الجنس والسن : ذكور مائة ألف وأربعة عشر ألفا ، سيدات وفتيات مائة وستة وأربعون ألفا ، عدد البالغين من الجنسين مائة وخمسة وتسعون ألفا ، أما عدد الأطفال فهو خمسة وستون ألفا .

٤ – على أساس الوضع الاجتماعى ، ودون الحديث عن النساء أو الأطفال : عسكريون حوالى عشرة آلاف وأربعمائة . ويتكون النظام المدنى كما يلى (بعيدا عن النساء والأطفال) : العلماء ، الشيوخ ، رجال القانون ، الأفندية .. الخ ، عدد غير معروف ، ولكن بإضافته إلى الملاك والملتزمين يكون المجموع خمسة آلاف ، تجار الجملة ثلاثة آلاف وخمسمائة ، تجار التجزئة أربعة آلاف وخمسمائة ، أصحاب المقاهى ألف وخمسمائة ، حرفيون متمرسون واحد وعشرون ألفا وثمانمائة (من بينهم الحمارون والجمالون) ، عمال يوميون وحمالون أربعة آلاف وثلاثمائة ، عمال غير متخصصين يعيشون من عملهم بصعوبة ثمانية آلاف وستمائة ، خدم من الذكور منهم حاملو العصا وسياس وفراشون وسقاءون ستة وعشرون ألفا وأربعمائة ، وجملتهم جميعا هى ستة وثمانون ألف شخص ، بالإضافة إلى النساء والأطفال ، أما عن الخدم من

(١) أظن أن هذا الرقم ضئيل جدا .

العنصر النسائى فتشكل الزنجيات والنوبيات عددا كبيرا جدا منهن ، وقليل من الميسورين من يملك أقل من خادمتين ، والمألوف أن يصل عددهن إلى أربع أو خمسٍ .

وأما عن تقسيم السكان إلى أحرار وعبيد فهو - تقريبا - غير مجدٍ ، إذ إنه باستثناء السود من كلا الجنسين ، وباستثناء عدد قليل من النوبيات لا يوجد من لا ينعم بالحرية ، ولا ينبغى الاعتقاد أن الاثنى عشر ألف شخص من الزنوج والنوبيين والحبشيين المذكورين سابقا كلهم من العبيد ، إذ إن كثيرا منهم قد أعتقهم سادتهم ، وهم يعملون بالمهن الحرة ، والبعض منهم ملاك أو تجار .. الخ . ومن ناحية أخرى فإن حالة الرق تختلف اختلافا بينا فى مصر عن ذلك الوضع الذى كانت عليه عند القدماء أو عما هى عليه أيضا فى المستعمرات : وهذه مسألة قد وضحت فى دراسات أخرى ، يجب أن أحيل إليها ، وبصفة خاصة ، تلك الدراسة التى قام بها المسيو دى شابرول عن عادات المصريين(١) .

ويكفى القول بأن الخادم الأسود يكون فى البيت بمثابة الابن أكثر من كونه خادما . وهذه الرقة من جانب السادة تجاه عبيدهم تعود إلى أسباب يعد ذكرها من قبيل التطويل . فمن المعروف كذلك أن كثيرين من الأفارقة قد اعتلوا فى مصر أكبر المناصب العسكرية ، وذلك فى ظل حكومة المماليك الذين كانت الشجاعة لديهم فى الحقيقة توصل إلى كل شيء . واستسمح فى إبداء ملحوظة واحدة ، هى أنه إذا كان الحبشيون قابلين (كما لا يشك فى ذلك منطقيا) للتكيف مع مدنيتنا ، فإن وسيلتهم إلى ذلك هى الإقامة فى مصر بعض الوقت ، ففيها سيجدون طبائع وأفكارا غير مختلفة كلية عما لديهم ، فذلك - بطريقة ما - تحول إلى نظام الأفكار الأوربية المختلفة عما فى داخل أفريقيا .

---

(١) المجلد الأول من الترجمة العربية (المترجم) .

وليس من الخروج عن الموضوع أن نقول كلمة عن «البرابرة» القاطنين بالقاهرة . فهؤلاء القوم يقدمون من النوبة السفلى ، حيث يسكنون أعشاشا فى غاية البؤس ، ويزرعون هناك شريطا ضيقا من الأرض يتركه النهر بينه وبين الصخور الجرانيتية ، ويقتاتون ببعض التمر ، وتُرى فى هذه المناطق أشجار قليلة ، بعضها من الدوم وبعضها من السنط والنخيل . وفى حركاتهم بطء شديد ، وفى طباعهم تبلدّ ، ومن جهة أخرى فإن من الممكن المقارنة بين البرابرة فى فقرهم ، وإخلاصهم ، وبساطة عاداتهم ، ورقة شمائلهم بالسافويارد Savo yards ، فكما يترك هؤلاء جبالهم للذهاب إلى باريس لممارسة بعض الحرف ليحصلوا بصعوبة على ما يقيم أودهم ، فإن الرجال المجاورين للشلال والنوبة السفلى يغادرون صخورهم للذهاب إلى القاهرة ، وهناك تصير الغالبية منهم خدما . ومعظم بوابى القاهرة من البرابرة ، وهم قوم فى منتهى الإخلاص والأمانة ، مع أن دخل الواحد منهم خمسة إلى ستة مدينى فقط فى اليوم ، ومن الحق أن يقال إن الفراغ الذى يتيحه هذا الوضع يلائم كثيرا طبيعتهم المتراخية . وملمح آخر من ملامح الشبه بينهم وبين مواطنى السافوا هو أنهم ما إن يجمعوا القليل من المدينى حتى يسرعوا فى العودة إلى عششهم وإلى صخورهم[1].

أما المنازل المأهولة بالقاهرة فيقدر عددها بستة وعشرين ألف منزل تضم تسعة أفراد وفقا للبعض ، بل عشرة أفراد فأكثر وفقا للبعض الآخر ، وهذا عدد ليس بالكبير إذا ما نظرنا إلى أن الخدم – فى كثير من المنازل – يقيمون بأعداد كبيرة فى غرفة واحدة فقط . ومن جهة أخرى ، توجد بين مجموعات المنازل ساحات واسعة أو أحواش مسورة تغص بأكواخ بارتفاع أربعة أقدام ، حيث

(١) من الملاحظ أنه مع تقدمنا إلى ما بعد إسنا فإننا نصادف أناسا أكثر لطفا فى نفس الوقت الذى تكون فيه بشرتهم أكثر سوادا ، ومع وصولنا إلى الشلال نجد قوما شديدى السواد إلى حد ما ، وهم فى الوقت ذاته أصحاب مزاج بسيط وأقرب إلى التراخى ، وتبدو هذه الحالة النفسية متناقضة مع بؤس ظروفهم وفقر موطنهم . والواقع أن وادى النيل فى هذه المناطق لا يتجاوز النهر وضفتيه فى معظم الأحيان ، على حين أن السكان فى بقية الصعيد ومصر السفلى من أصحاب الأراضى الشديدة الخصوبة لهم مزاج أكثر فظاظة ولديهم استعداد للتمرد .

يقيم جموع من الفقراء متكدسين بلا نظام مع حيواناتهم ، وتسمى هذه الأماكن «حوش» . ويعتبر عدد المنازل وسيلة للتأكد من إحصاءاتنا ، وهى وإن تكن وسيلة غير كافية ، فإنها رغم ذلك أفضل من تقدير السكان عن طريق مساحة الأرض ، وذلك لوجود اختلافات كثيرة بالفعل بين جزء وآخر من المدينة . وإذا افترضنا أن بمقدورنا أن نضع أيدينا بدقة على الميادين والحدائق والبرك ، فهل يكون بمقدورنا إجراء التقدير المطلوب بالنظر لعدد الطوابق ، وللكم الهائل من المنشآت الدينية والأحياء التجارية حيث يتكدس السكان بكثافة أكثر من الأماكن الأخرى ؟ لقد كان هذا الوضع ، كما سبق أن لاحظت ، هو السبب فى مبالغة الرحالة الذين قدروا عدد سكان المدينة بين أربعمائة ألف وخمسمائة ألف مواطن ، بل وأكثر(١) ، وذلك بسبب حكمهم على المدينة كلها ، بالنظر إلى السكرية أو بعض الشوارع الأخرى المشابهة ؛ بينما يتضح من جداول الوفيات المسجلة من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠٢ أن السكان لم يتجاوزوا مع بداية القرن أكثر من مائتين وستين ألف نسمة .

ومن الملاحظ على العدد الإجمالى للوفيات، أن معدل وفيات الأطفال يصل إلى أكثر من النصف (حوالى $\frac{٩}{١٦}$) ويرجع السبب فى ذلك إلى فتك الجدرى ، إذ إنه من المعلوم أن مضاعفاته الخطيرة فى القاهرة تجعله أشد إبادة منه فى أى مكان آخر . أما معدل وفيات النساء فتبلغ الربع على وجه الدقة ، أو $\frac{٤}{١٦}$ ؛ أما الجزء الباقى ويبلغ $\frac{٣}{١٦}$ ، فهو من الذكور البالغين(٢).

وتبلغ النسبة العامة للوفيات سنويا حوالى واحد إلى ثلاثين .

على أننا إذا أخذنا بما فى رحلة عبد اللطيف ، لكان من المفترض أن يكون سكان القاهرة فى وقته أكثر عددا : وهذا ما يستنتج من روايته من

---

(١) باختلاف كبير يصر ماييه Maillet على عدم وجود نحو ثلاثة أو أربعة آلاف نسمة فى القاهرة ، على الرغم من أنه هو نفسه يرى أن هناك بعض الدور التى تضم ما يصل إلى ثلاثمائة شخص .

(٢) انظر فيما سبق ، الدراسة حول سكان مصر قديما وحديثا ، الجزء التاسع ، وجداول الوفيات التى كتبها مسيو ديجينيت فى القاهرة العشرية المصرية ، الجزء الثانى وما يسبقه ، والجزء السادس عشر ص ٢٢٩ .

أنه فى أثناء المجاعة سنة خمسمائة وست وتسعين وما بعدها (١١٩٩ ، ١٢٠٠) دون فى سجلات الوفيات أسماء ما يقرب من مائة ألف وأحد عشر ألف شخص ، ويقول إن هذا الرقم يبدو صغيرا إلى حد ما بالنظر إلى عدد الذين ماتوا فى منازلهم وبجوار الجدران ، وأيضا فإن عددا أكبر قد التهمه الأشخاص الجائعون[١] . ولا ريب أن فى هذه الرواية مبالغة كبيرة ، ومع ذلك فإن لها قيمتها فيما ذكرته لنا من وجود سجلات عامة لتدوين الوفيات حينئذ ، وقد أعدنا هذا الإجراء زمن الحملة الفرنسية ؛ حيث أعدت سجلات للموتى ، وعممت خلال ثلاث سنوات فى كل قسم من أقسام القاهرة بإشراف رئيس الأطباء المسيو ديجينيت Desgenettes ، ونشر الإحصاء فى العشرية المصرية La Décade Egyptienne[٢] .

ولو سنح لنا الوقت لكنا أضفنا سجلا للمواليد من شأنه أن يلقى مزيدا من الضوء على زيادة السكان ونقصانهم .

وقد بالغ الرحالة فى خصوبة النساء ، ومع ذلك فهى أكبر منها فى أى بلد فى العالم : فإنجاب توأمين اثنين ذلك أمر مألوف . وتعوض هذه الخصوبة نسبة الوفيات الكبيرة بين الأطفال . ويلاحظ فى مصر أيضا طول عمر السكان ، إلا أن ذلك لا ينطبق على النساء بصفة عامة : وليس من النادر أن نصادف أناسا بلغوا المائة عام ؛ بل إننا نرى من بلغوا المائة والعشرين عاما سائرين بغير مساعدة . إن القناعة المفرطة لدى المصريين ، ورتابة نهج حياتهم ، والاعتدال الذى تتسم به الأغلبية ، بالإضافة إلى طبيعة الغذاء والهواء والماء ؛ كل هذا يعمل على إطالة الحياة فى هذا البلد ، الذى يمكن اعتباره بلدا صحيا جدا على الرغم من الأمراض القاتلة التى تهاجمه على الدوام ، مثل الطاعون والدوسنتاريا والجدرى . لكن الإسراف فى تعاطى مثيرات الشهوة يقصر دون شك من

---

(١) ترجمة رحلة عبد اللطيف ، ص ٤١٢ .

(٢) جريدة كانت تصدر فى القاهرة كل عشرة أيام زمن الحملة الفرنسية . (المترجم) .

حياة البعض ، على أن ذلك استثناء لا يؤثر فى الصحة العامة ، ورغم هذا فليس بوسعنا أن نغض الطرف عن هذا السلوك على نحو مطلق ؛ فمعدل المبيع فى حوانيت القاهرة ليكشف عن استهلاك بالغ الضخامة ، وقد يكون فى القاهرة وحدها ما بين خمسة عشر ألفا وعشرين ألف شخص من بين الأثرياء يستعملون المثيرات والمنشطات والأفيون .. الخ .

وإلى جانب الأمراض الثلاثة المنتشرة التى سبق ذكرها ، هناك مرض آخر منتشر أيضا على نحو دائم ، وهو أكثرها انتشارا على الإطلاق ، إذ إن ثلث السكان مصابون به ، فمن بين كل ثلاثة أشخاص أو أربعة يندر ألا نرى واحدا به مرض فى عينيه ، ولا توجد أى مدينة أخرى بها مثل هذا العدد المرتفع من العميان . وأحيل إلى الملاحظات التى نشرها أطباء الحملة الفرنسية حول أسباب الرمد والعمى[1] . ويعانى الكثيرون فى القاهرة من الربو والدوالى والفتق ، كما توجد أيضا أمراض الجلد ، وتشيع بصفة خاصة أمراض القوبة ؛ أما البرص على وجه التحديد فيلاحظ بندرة ؛ ويحدث داء الفيل منظرا بشعا يستوقف الأعين فى الميادين العامة بين حين وآخر ؛ وهذا نفسه ينطبق على الأورام عند الرجال والنساء[2] . وأوجاع الأسنان نادرة جدا ، وقليلا ما يصادفنا الصمم . ويتفشى الطاعون عنيفا فى القاهرة كل أربع أو خمس سنوات تقريبا ؛ وكثيرا ما يقدم تاريخ مصر أمثلة مرعبة لفتكاته تتجاوز التصور ، وإن كنا قد أدركنا فى سنة ١٨٠١ واحدا منها جعلها واقعا ملموسا : إذ هلك فى القاهرة نحو عشرة آلاف شخص خلال شهر واحد ، وكانت كثرة الموتى سببا فى عدم مراعاة مراسم الجنائز . وسوف تستمر هذه الكوارث دون شك ، لتتجدد بصفة دورية حتى تقوم حكومة البلاد بإجراءات وقائية ، غير أن التعصب يشكل عقبة كبيرة قد لا يستطاع تجاوزها فى إنشاء محاجر صحية ، وبصفة عامة فإن

---

(١) انظر دراسة الدكتور سفاريسى عن الرمد فى مصر ، والدراسات المختلفة المنشورة فى La Décade égyptienne .

(٢) انظر الدولة الحديثة ، المجلد الثانى : لوحة ٣١ ، الفنون والحرف .

مزايا الحضارة ، وكل الوسائل التى يقدمها العلم والتى تؤدى إليها ملاحظة الوقائع الطبيعية ، لن تدخل إلى مصر إلا من خلال أفكار عن النظام والعدالة ، وتخفيف الأحكام القدرية المسبقة .

وثمة ظاهرة خطيرة بالنسبة لصحة السكان بالقاهرة ، تلك هى دفن بعض الموتى داخل المدينة نفسها ، وقد أحصينا ثلاث جبانات على الأقل فى داخلها ، وذلك دون أن نذكر المقابر التى تجاور الأبواب . أما المياه الراكدة فى الميادين التى تغمرها المياه فليست أقل ضررا على الصحة العامة خلال انحسار النيل .

وقد تكلمت عن العدد الكبير لوفيات الأطفال ، غير أنها بين أطفال الغرباء أكثر منها بكثير بين أطفال المواطنين الأصليين . فالمماليك والعثمانيون بالقاهرة لا يخلفون إلا ذرية قليلة ، وقد لوحظت هذه الظاهرة فى مصر وسجلت على يد المسيو فورييه Faurier ؛ ولايزال السبب فى ذلك غير معروف : ودون شك فإن للمناخ دخلا فى ذلك ، لكن الذى يحتاج إلى إيضاح هو كيفية إحداث ذلك التأثير ، وتقل حدة هذه الظاهرة فى حالة زواج الأجنبى بإحدى المصريات ، ولكن مع ذلك فإن الفرق بسيط ، ففى خلال سنوات قلائل يموت الأطفال بصرف النظر عن عددهم ، وتنقرض الأسرة بصورة كاملة .

المبحث الخامس
حول الصناعة والمهن الميكانيكية[1]

يتبع جميع الحرفيين الذين يمارسون نفس المهنة فى مصر شيخًا واحدًا : وهو وحده صاحب الحق فى ترقية العامل المتمرن إلى مرتبة «الأسطوية» . وهكذا نجد لكل واحدة من المهن مثل مهنة صناع الأحذية والخياطين والنساجين .. الخ شيخها الخاص ، وهذا الشيخ يعرف بدقة كل عمال طائفته .

وحين يريد ممثلو السلطة أن يحصلوا الضريبة من إحدى هذه الطوائف فإن ذلك يكون دائما بالرجوع إلى الشيخ ، فيقوم بتقسيم المبلغ المطلوب على كبار الحرفيين وأغناهم ممن يخضعون لنفوذه . وفى المدن الكبيرة ، وفى المهن الأكثر انتشارا على وجه الخصوص يكون للشيخ عدد من الوكلاء يصل فى العادة إلى ثلاثة أو أربعة ، ويطلق على الواحد منهم «نقيب» وجمعها نقباء ، وهؤلاء فى حقيقة الأمر ليسوا سوى رؤساء تابعين[2].

---

(١) عن الصناعة والتجارة فى مصر بصفة عامة ، راجع دراسة المسيو جيرار Girard ، الدولة الحديثة الجزء ١٧ ص ١ ، ٢٧٠ .. الخ (المجلد الرابع من الترجمة العربية . المترجم) .

(٢) حين يرشح أحد الأشخاص لواحدة من الحرف اليدوية أيا كانت ، فإنه يلتحق فى البداية كصبى تحت التمرين عند عامل متمرس ومعتمد . وعندما يصبح ذا خبرة كافية بهذه الحرفة ويرغب فى ممارستها لحسابه الخاص ، وأن يفتتح ورشة خاصة به ، فإن معلمه يأخذه إلى شيخ الطائفة حيث ينصب كأسطى .

وهذه هى المراسم المعتادة على وجه التقريب المعمول بها فى هذه المناسبة :

يتقدم المتمرن تحت رعاية معلمه إلى الشيخ ، ويحييه ، ثم يقول : الفاتحة ، أى فلنقرأ الفاتحة (وهى هذا الاستهلال الوارد فى أول القرآن) فيجيب الشيخ هذه الدعوة بتلاوتها ، كما يتلوها المتمرن وجميع الحاضرين فى نفس الوقت . ثم يسأل العضو الجديد ومعلمه الذى جاء معه عن سبب زيارتهما ؛ فيعلن الأخير أن المتمرن الذى أتى به قد تمرن فى مهنته على نحو كاف ، وأنه يرغب فى افتتاح ورشة يمارس فيها العمل كمعلم . وعقب ذلك يدنى الشيخ إليه هذا الشاب ليشد وسطه بحزام ، ويعلن أنه قد انضم من هذه اللحظة للطائفة .

وبعد بضعة أيام يعد العضو الجديد عشاء يدعو إليه الشيخ وكبار الحرفيين فى طائفته ، ثم لا شىء غير ذلك ، فليس ثمة ما يدفع لا إلى الشيخ ولا إلى الحكومة . وإذا ترك أحد صبيان العمال معلمه سواء لخلاف بينهما أو لعدم –

وللمهرجين والمغنين المتجولين والمشعوذين طائفة لها كبير أيضًا ، ونفس الشيء يقال بالنسبة لبائعات الهوى . وأخيرا فإن اللصوص أنفسهم يخضعون لرقابة رئيس خاص يقوم فى العادة بإرجاع المسروقات إذا ما لُجِئ إليه فى ذلك ، وهذا بقية من نظام قديم للحراسة فى البلاد . ومع ذلك فالسرقات نادرة جدا فى القاهرة على الرغم من أن الحوانيت لا تكاد تغلق ، وكثرة الجموع المتزاحمة فى الشوارع التجارية .

وأكثر الحرف شيوعا فى القاهرة هى : حرف الخبازين والطحانين وصانعى الزيت والدبس والخل ، والنساجين وصانعى الأقمشة والمنسوجات المختلفة من الصوف والقطن والساف والكتان والقنب ، وصانعى المنتجات الجلدية ، والدباغين ، وصناع اللباد والصباغين والخياطين والخزافين والحدادين والنجارين والخراطين . ويستحق كل من المطرزين وصانعى القياطين أن يذكروا أيضا ، نظرا لكثرة عددهم .

وتنقسم كل هذه المهن إلى فنون كثيرة مترابطة . وهناك أيضا كثير من العاملين فى تجهيز الفول وصناعة الجير والجبس والطوب والفحم ، وهناك صناعات أخرى كثيرة تزاول ولكنها محدودة من حيث الاستخدام .

وعملا على التخفيف إلى حد ما من جمود الإحصاء التالى ، فإننا سنلجأ إلى تقسيم المهن إلى ثلاثة أنماط :

١ — الصناعات القائمة على تغذية الإنسان .

٢ — تلك الخاصة بكسائه .

= رضاه بأجره ، فقد لا يسمح له أن يلتحق بأية ورشة أخرى ، ما لم يقم أولا بزيارة لشيخ حرفته الذى ينبغى أن يعرض عليه دوافعه لتركه معلمه ؛ وحينئذ ينتقل الشيخ إلى المعلم ، وقد يتمكن فى بعض الأحيان من التوفيق بينهما ، فإذا حدث العكس ، يدخل الصبى فى خدمة معلم آخر بموافقة الشيخ ووساطته ، أو بواسطة أحد وكلائه الذين ينوبون عنه . ولا يكلفه ذلك فى العادة سوى مبلغ زهيد يتراوح بين ثلاثين وأربعين بارة .

٣ – تلك التى تقوم على وقايته ، وتزين أو تؤثث مسكنه بما فى ذلك تلك التى تلبى متطلبات منزله المختلفة . وسوف يتبع نفس التصنيف بالنسبة لتجارة القاهرة .

وقبل الدخول فى تفاصيل فنون الصناعة ، ينبغى أن أنوه بالمقدرة المتميزة للغاية لدى الصناع المصريين ، فهم يملكون على وجه الخصوص تلك الموهبة التى تثير إعجابنا لدى الصينيين ، موهبة المحاكاة المتقنة لأعمال الآخرين إلى درجة ينتج عنها فى بعض الأحيان عدم القدرة على التمييز بين التقليد والأصل . ومن ناحية أخرى فنحن نعرف أيضا أن المصريين يعتادون العمل وهم جالسون ، وهم فى نفس الوقت يعملون بخفة فى صناعات مما لا يستطيع صناعنا أن يقوموا به فى أوضاع مماثلة . ولو أن هناك مقارنة بين ظروف الصناعة فى مصر القديمة ومصر الحديثة لكانت فى غاية الأهمية ، حتى نتتبع أصول العديد من المهارات التى ما تزال باقية . غير أن هذه المقارنات التاريخية من شأنها أن تذهب بنا بعيدًا جدًا ، وفى شرح لوحات الفنون والحرف من رقم ١ إلى رقم ٣٠ ما يغنينى عن الدخول فى عرض الكثير من التفاصيل الفنية بهذا الخصوص.

١ – الصناعات الغذائية

القمح والخبز :

إن عدد طواحين القمح بالقاهرة كبير بصورة ملحوظة ، وإن كان إنتاجها قليلاً جدًا ، وقد وصفت فى شرح لوحات الفنون والحرف ، ونحن نحيل القارىء إليها .

والطريقة المستخدمة فى الطحن بسيطة[1] ، ولكنها مبتكرة ، إذ تستعمل فى الطحن أجزاء من أعمدة جرانيتية مستقدمة من الآثار القديمة ، والتى اقتطعها

(١) انظر اللوحتين ٩ ، ١٠ الفنون والحرف للمرحوم كونتيه ، وشروح المسيو بوديه والمسيو جولوا .

الأتراك بضراوة ليصنعوا منها أرحية الطواحين . وهى مستديرة فى العادة ، ويديرها حصان أو ثور : وفى القاهرة تصنع الأدوات اللازمة لتذرية القمح والشعير والفول وغيرها من الحبوب التى يجرى طحنها ، وتتخذ هذه الأدوات من أعقاب الخيل والحمير والجاموس . ويطلق على الرجال الذين يقومون بعملية التذرية اسم «المغربلين» ، ويقطنون الناحية المعروفة بكفر الشيخ ريحان[1] . وفيها أيضا يقطن السقاؤون ؛ وهم طبقة من الرجال كثيرة العدد جدا بالقاهرة ، ومشغولون إلى أبعد الحدود بتلبية الاحتياجات الغذائية والاقتصادية .

ويصنع الخبز فى القاهرة بدون خميرة حيث لا يكاد ينتفخ ، ويخبز على نحو سىء ، ومذاقه لذلك قليل اللذة . أما الأفران التى ينضج فيها فإنها مثل أفراننا تقريبا .

الفــول :

يعمل بإعداد الفول أيضا عدد كبير من الأفراد ؛ والفول غذاء شائع جدًا ، وصحى للغاية ، ويستهلك منه الشعب كميات كبيرة : وسيكون من الطريف أن نقوم بمقارنة بين استخدامات المصريين القدماء والمحدثين بهذا الخصوص . وتوجد عادة وضع الفول فى الماء لمدة يومين ، ينبت بعدها ثم يتبل ، وفى هذه الحالة يكون صالحا للبيع ، ويوجد الكثير من الأماكن الخاصة بهذه الصنعة تعرف تحت اسم الفوالة[2] .

الجزارون :

عدد الجزارين فى القاهرة ليس كبيرًا جدًا ، ذلك للسبب الذى سبق ذكره للتو : وهو أن الشعب يتناول اللحوم بقلة شديدة ، حيث يتضاءل نصيب الفرد

(١) انظر الخريطة ٢٦ (رقم O-13,272) .
(٢) انظر الخريطة ٢٦ (رقم L-13,287) .

من اللحم أو السمك ، مقارنة بنصيبه من الخبز ، كما يقل نصيبه من الخبز عن نصيبه من الفول .

ويترك الأغنياء فى الغالب لحم الجمال أو الجاموس ويستأثرون بلحم البقر . وفى نفس الوقت يتغذى الشعب أيضا على كوارع الخراف التى يجرى إعدادها فى (مسمط الكوارع) .

أما المذابح فهى بصفة عامة بعيدة عند أطراف المدينة .

معامل التفريخ :

معامل التفريخ من الأعمال الفريدة المعروفة ، وهى تزود موائد القاهرة بالطيور من هذا النوع بأسعار مقبولة . وكان من الصعب علينا تصديق أن الدواجن تباع بالصاع ، فبمجرد أن تعقد صفقة بين البائع والمشترى يفرغ البائع الدجاج فى مكاييل أو حتى على الأرض ، كأنه على وجه الدقة يصب الماء فى إناء أو على الأرض[١] .

الزيت :

يأكل الناس كذلك عجينة السيرجة المكونة من حبوب السمسم ، التى يؤتى بها من مصر السفلى لكى يستخرج منها الزيت المعروف ، والطاحونة المستعملة فى هرس هذه الحبوب تشبه طاحونة الدقيق . ويجرى التحميص أولا فى فرن على مدى ست ساعات ، ويلى ذلك عمل عجينة غليظة تسمى السيرجة ، يقوم الرجال بهرسها بأقدامهم داخل حوض ليخرج منها زيت غليظ أخضر اللون ، يصفى بواسطة إناء ذى ثقوب ، وعدد طواحين الزيت هذه (سيرجه) ضخم جدًا .

---

(١) انظر الجزء الحادى عشر ص ٤٠١ ، دراسات المسيو روزيير Rozière، والمسيو روييه Rouyer، واللوحتين ١ ، ٢ الفنون والحرف.

وبالمثل توجد معاصر لاستخراج زيت الكتان وزيت الزيتون ، وقديما كان هذا النوع الأخير من الزيت فى مصر أكثر شيوعا(١) ومن نوعية ممتازة .

الخـــل :

يصنع كل الخل – تقريبا – الذى يستهلك فى القاهرة من البلح ؛ ولهذا تعمل معامل الخل أثناء الصيف . ويستخدم أيضا نبيذ من قبرص وأزمير ، كما يستخدم الزبيب الشرقى الذى يخمر لمدة ثمانية أيام فى الصيف ، ولمدة أربعين أو خمسين يوما فى الشتاء . وهذان النوعان من الصناعة منتشران بشكل كبير(٢) .

السكر :

يجلب السكر من الصعيد ، فيكون خاما أو أحمر على هيئة قوالب كبيرة ، ويجرى تكريره فى القاهرة على ثلاث درجات مختلفة . فهناك الدرجة الأولى (المكرر) وهو شديد البياض ، غير أن عملية تكريره تستغرق وقتًا طويلاً وتكلفة عالية ، وهو ما يزيد بدرجة كبيرة من ثمن هذه السلعة ذات الثمن المعقول فى مصر العليا . والمتخلف هو «المولاس» ويسمى العسل الأسود ويتم تصفيته ، وهو سلعة تستهلك بكثرة . وسوف نجد فى موضع آخر جميع التفاصيل الضرورية حول إنتاج السكر وصناعته(٣).

العجائن المحلاة :

يبدو أن الأغنياء من أهل القاهرة مغرمون بالحلوى والمربات التى تجهز ببراعة فائقة ، وتباع بالتجزئة مع كثير من العجائن المحلاة بحى السكرية ،

---

(١) انظر اللوحتين ١ ، ١٢ الفنون والحرف وشرح مسيو ديفيلييه Devilliers للوحة الأولى .

(٢) انظر اللوحة ١١ شكل ١ ، الفنون والحرف وشرح مسيو روزيير لها.

(٣) انظر – بصفة خاصة – دراسة المسيو جيرار عن الزراعة والصناعة .. الخ . الجزء ١٧ . (المجلد الرابع من الترجمة العربية – المترجم) .

حيث يشغل بائعو الحلوى عددًا كبيرًا جدًا من المحلات فى هذا الحى الثرى الجميل[١].

ماء الحياة « العرق » :

وماء الحياة الذى يستهلكه المسيحيون فى مصر والشرق وأوربا يصنع من البلح ، كما هو الحال بالنسبة للخل . أما المسلمون فيتعاطون بدلا منه شيئين : أحدهما يسمى البوظة ، والآخر الحشيش ؛ ويستخرج من القنب ، وله مفعوله فى الرأس .

وقد نشأ فن التقطير فى مصر ، ورغم ذلك فهو يمارس اليوم على نحو بدائى يدعو إلى القول بأنه مستحدث قريبا فقط . فكل شىء فيه غير كامل : الأنبيق وطريقة التسخين والتكثيف[٢]. ويقطر البلح ليصنع منه ماء الحياة «العرق» ؛ وورود الفيوم لصنع ماء وروح الورد ، وهى مواد يكثر استهلاكها بين الحريم ، كما أنها تصدر إلى الخارج[٣].

البن :

من الممكن أن ندرج أيضا بين الصناعات الغذائية تلك الصناعة التى تقوم على طحن البن ، وذلك استنادا إلى الاستهلاك الضخم من هذه المادة على مستوى العالم كله وكذلك هذا الشعب نفسه ، إذ يحتسى الفرد منها ما بين ثمانية إلى عشرة أقداح فى اليوم . وتحمص الحبوب على صوان حديدية (مقلاية) ، أما عملية الطحن فتحدث بواسطة مدق حديدى يبلغ وزنه أربعين رطلا ، وبطريقة جديرة بالملاحظة . ويطلق على العمال (دقاقين البن) .

انظر : شرح لوحات الفنون والحرف[٤].

---

(١) انظر اللوحة ١٠ ، الفنون والحرف وشرح مسيو بوديه Boudet لها .
(٢) انظر اللوحة ١١ شكل ٢ ، الفنون والحرف ، وشرحها .
(٣) انظر دراسة مسيو جيرار عن الزراعة والصناعة .. الخ .
(٤) انظر اللوحة ٢٦ الفنون والحرف وشرح مسيو كوتل Coutelle لها .

٢ - صناعات الكساء ، الغزل
تبييض القماش ، والنسيج

غزل القطن ، الصوف ، الحرير ، والكتان :

يجهز القطن والصوف فى القاهرة قبل الغزل ، على يد الحلاجين (المنجدين) الذين يقيمون بأعداد كبيرة فى الشارع الذى يطلق عليه «سكة القطن» و «ميدان القطن»[١]. ويحدث هذا التجهيز عن طريق قوس يضرب العامل وترها بمدق صغير .

وبسبب الاهتزازات المتتابعة للوتر تتفرق المادة كاملة ، وهذه الطريقة معروفة عندنا جيدا[٢] . ويطلق على حلاجى القطن «الندافين» . وتقوم النساء بغزل الكتان والقطن ، أما الرجال فهم وحدهم الذين يقومون بغزل الصوف . ومن المعتاد رؤية أولئك الذين يديرون المغزل ، وهو منظر يوجد فى المدن كما يوجد فى الريف ، وهو نفس الشىء الذى كان لدى القدماء[٣] . ويطلق على من يقوم بغزل الصوف «غَزَّال» ، وعلى المغزل المصنوع من الحديد «مردن» أو «ردانة» ، أما المصنوع من الخشب فيطلق عليه «المغزل» ، وتستخدم حلالة الغزل «القوافة» مغزلاً بسيطًا جيد التصميم ، وهو «المنسب» ، وهو ما سنراه فى لوحات الفنون والحرف[٤] . وتصنع البكرة من البوص ، وتسمى «كوفية» ، أما الحلال فيسمى «كواره» ، ويوجد بالقاهرة عدد كبير من مغازل الحرير[٥] .

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ (رقم F-10,128) .

(٢) انظر اللوحة ١٥ شكل ١ ، وشرح المسيو ديليل Delile لها .

(٣) انظر هيرودت الكتاب الثانى ، فصل ٣٥ . وسوفوكليس ، أوديب فى كولانا ، البيت ٣٥٢ .

(٤) اللوحة ١٥ شكل ٣ ، الفنون والحرف وشرحها .

(٥) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم F-5-336، ورقم K-7-125... الخ) .

النسيج :

إن ما يجرى فى صناعة النساجين «القزازين» هو بعينه تقريبا ما يحدث فى صناعة نسيج الكتان والقطن ، وليس هناك أكثر بساطة من الآلة[١] المستخدمة فى هذا الغرض . وهذه الصناعة محدودة جدًا ، وعلى الأخص فى أقمشة الكتان . وصنعة القطع الكبيرة من النسيج المسماة «ملاية» ، أقل جودة فى القاهرة عنها فى مصر العليا ، وكذلك فى مكة على وجه الخصوص . كما تصنع أقمشة صوفية داكنة اللون تسمى «البشت» ، وقد تصبغ بالأسود وتوشى بكلف من خطوط صفراء ذهبية أو غير ذلك من الألوان ، وهذه تسمى «عباية» ، وتستخدم كسترة خارجية للرجال والأطفال . ويوجد قماش من الصوف أكثر نعومة يسمى «الزعبوط»[٢] كما يصنعون من الصوف الأبيض أيضا معاطف تسمى «البرنس» ، ولكنها أقل جودة من مثيلتها المغربية .

اللبـــاد :

لقد قمنا فى موضع آخر بوصف عملية صنع اللِّبد من الصوف[٣] ، وكذلك ذكر الأحياء التى تتم فيها ، والتى يطلق عليها «اللبودية»[٤] . وليس ثمة فائدة من إعادة ذكرها هنا ، ولكن ينبغى أن نقول إن هذه المشاغل يخرج منها كمية كبيرة جدًا من المنتجات ؛ منها ما يتكون من قطع من الصوف الخشن ، أو اللباد الأبيض السميك الذى يوضع تحت سروج الخيل والحمير ، والتى تفيد كثيرا فى امتصاص العرق ؛ ومنها ما هو طواقى من نفس القماش . وهناك يوجد صانعو «الطرابيش» (أو طواقى اللباد التى توضع تحت العمامة) وهم «الطواقجية»[٥] ، وعادة ما تكون هذه الطواقى حمراء اللون ، وهى على هيئة

---

(١) انظر لوحة ١٣ الفنون والحرف وشرح المسيو كوتل لها .
(٢) انظر لوحة ١٤ شكل ٣ وشرحها .
(٣) انظر لوحة ١٧ شكل ٢ ، الفنون والحرف وشرحها .
(٤) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم K-8,223 ورقم T-11,33) .
(٥) انظر الخريطة ٢٦ الدولة الحديثة . المجلد الأول (رقم L-6,283 ، K-6,306) .

قلنسوة عميقة القعر . ومعروف أن هذه الصناعة موجودة فى فرنسا أيضا ، وأنها تشكل قسما من ثروة مدينة أورليان Orléans .

وفى نفس الحى تصنع قلانس المماليك ، ويطلق على صانعيها اسم «القاووجية»(١) .

الحرير :

يصنع فى القاهرة الكثير من الأقمشة الحريرية : منها ما يسمى «كريش» وهو قماش شفاف ، ومنها ما تتخذ منه العمائم ، وهو نوع أكثر متانة يصل عرضه إلى نصف بكسا ، ويسمى ، «الدرية» . ويسكن صناع الكريش فى حيين(٢) . كذلك يصنع بالقاهرة الشاش ، كما يصنع شيلان الحرير من اللون الأحمر وغيره من الألوان المختلفة ، ويجلب الحرير من سوريا .

ويمسك كل عامل من عمال المصنع بدوارة (مانيفيلا) لإدارة دولاب الغزل الذى يلف عشرين ربطة من الخيوط فى المرة الواحدة . وقبل عملية اللف على البكرة يتعرض الخيط لحركة جانبية خلال الذهاب والرجوع تجعله يمر عبر حلقة حديدية حيث ينتظم بدقة . وفى نفس هذه الأماكن تصنع التفتاه إلى جانب الأقمشة من الحرير والقطن . وهناك ثلاثون أو خمسة وثلاثون مصنعا من هذا النوع . ويسمى الواحد من مصانع غزل الحرير «دولاب فتال» ، وكل عمالها من المسلمين تقريبا ، وفيها أيضا ينسج الموسيلين ، كما تصنع شيلان من أقمشة زرقاء وبيضاء تسمى «نول» .

---

(١) نفسه (رقم L-6,303) . القاووق : كلمة تركية تعنى قلنسوة عالية يلف حولها شاش ، كان الترك يغطون بها رؤوسهم قبل قبولهم الطربوش غطاء للرأس ، وكان لكل طائفة من رجال الدولة طراز خاص من القواويق .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم Q-10,59 ، ورقم F-5,336) .

تبييض الخيوط والأقمشة :

يجرى تبييض الكتان بغمره فى النطرون على هيئة لفائف لمدة ستة أو ثمانية أو عشرة أيام ، ويغلى بعد ذلك فى غلايات مع محلول من الجير والنطرون على مدى أربع أو خمس ساعات ، ثم يغسل فى النيل ثم يعرض للشمس ، ويطلق على الموضع الذى تتم فيه هذه العملية اسم «جوفار القزازين»[1] ، أما القطن فإنه يبيض فى مكان آخر يعرف «بدولاب بياض القطن»[2].

الصباغة :

تضم القاهرة عددًا كبيرًا جدًا من المصابغ ، وكان هذا الفن بالغ التقدم لدى القدماء ؛ كما يمارسه المحدثون أيضا بمهارة ، وإن كانوا مستسلمين فيه للتقليد الأعمى . أما مواد الصباغة المستخدمة لديهم فهى : النيلة للون الأزرق ، والبليحاء للون الأصفر ، وخشب البقم والقرمزية والعصفر للون الأحمر ، والحناء للون البرتقالى . واللون الأزرق هو الأكثر شيوعا ، وهو على جودته وثباته قابل لأن يكون أحسن إذا ما أتقنت صناعة النيلة ، التى تأتى من الريف على هيئة أقراص مترية قطرها ثلاث بوصات وسمكها بوصة واحدة . وتجلب البليحاء من إقليم اطفيح ؛ وبصفة عامة تأتى الحناء من الشرقية ومصر السفلى ، على هيئة مسحوق ناعم لونه أخضر ضارب إلى الصفرة : ومعروف أنها تتخذ من أوراق نبات الحناء Lawsonia Inermis بعد تجفيفها وسحقها ، ولها خاصية تحمير الجلد والأظافر وكل أجزاء الكائن الحى . هذا ويستخرج من الخشب المعروف بالبقم لون أحمر غامق يقتصر استخدامه على صباغة لفات الحرير ، أما الرمان فيستخدم فى الصباغة باللون الأسود[3].

---

(١) انظر الخريطه ٢٦ الدولة الحديثة ، المجلد الأول . (F-10، عند راوية الشارع المسمى سكة الميدان) .

(٢) نفسه (رقم F- 12.266).

(٣) انظر اللوحة ١٦ شكل ١ ، العمود والحرف وشرحها .

وهناك ألوان قليلة لا ينتجها صباغو القاهرة ، وإن كانوا على درجة كبيرة من المهارة وخاصة فى تجهيز شيلان الكشمير القديمة وإكسابها رونقا وجدة . فهم يصبغونها باللون الأحمر والأصفر والأبيض الوردى ... إلخ ، حتى ما كان منها بالغ القتامة ، والتى يستغنى عنها مقابل بوطاقتين . وفى هذا تنبيه للذين يحصلون على شيلان الهند عن طريق مصر .

وكذلك يتم ببراعة صبغ شيلان الحرير والملاءات والأقمشة القطنية . وتعرف أكبر مصابغ القاهرة بـ «مصبغة السلطانى»(١) ، وفيها تصبغ الأجواخ والحراير والأقمشة .. الخ بالأخضر والأزرق والأسود والأحمر والأصفر وجميع الألوان ، ويعمل بها ما بين ثلاثين وأربعين عاملا.

وتوجد أربع مصابغ عن طريق الطبع يطلق عليها «دولاب البصمجية» ، وفيها تستخدم لوحات ، أو نماذج عليها رسومات بالغة الجمال ، وبصفة خاصة ما كان منها من صنع القسطنطينية ، إذ إن المصنوع منها فى القاهرة ردىء التنفيذ لدرجة كبيرة ، كما أن رسوماته بالغة السوء أيضا . ويغمس العامل اللوحة فى الحوض ويده مغطاة بقفاز من الجلد ، ثم يضغط بقوة القماش المطلوب طبعه . وعادة ما يكون من موسيلين مكة(٢).

الصقل :

يوجد فى القاهرة كثير من الورش لصقل القماش ، وهذه العملية تتم وفق الخطوات التالية : فى البداية تغسل الأقمشة ، جديدة كانت أم قديمة ، وبعد تجفيفها فى الشمس يتم تمريرها فى النشا ، ثم تجفف مرة أخرى ، وبعد ذلك يقوم رجلان بضربها بمطارق خشبية ضخمة لمدة ساعة لإكسابها مزيدا من الملاسة والليونة ، ثم تنقل إلى «المنجلة» ؛ وهى تتكون من اسطوانة مزدوجة :

---

(١) الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم F-7,182، أمام رقم G-8,259، رقم H-7,405، رقم K-6,189، ورقم F- 10,133) .

أسفلها من الخشب ، قطرها قدم ، والأخرى من النحاس وهى مقعرة يبلغ قطرها ست بوصات . ومن وقت لآخر يدخل فيها ملف من الحديد المحمى ، ويقوم أحد الرجال قبل مرور القماش بين اسطوانتى المنجلة ، بدلكه بشيء من الشمع والصابون دلكا هينا ، على حين يقوم آخر بتلقيه من الجهة الأخرى ، وتحرك الاسطوانة بواسطة عاملين عن طريق دوارة . وفى خلال ثلاثة أيام تكتمل العملية ويكتسب القماش عندها مزيدا من الصقل[١].

التطريز :

أما المطرزون «القبورجية» فيشغلون عددًا كبيرًا من المحلات . ويطرز الحرير والجوخ والكشمير والقطيفة والموسيلين .. الخ بخيط معدنى ، بواسطة طارة التطريز ، أو بإبرة معقوفة ، وبطرق مختلفة . وأكثر المطرزين مهارة هم أولئك الذين يقومون بتطريز السختيان وسائر أنواع الجلود ، بالذهب والفضة . وسنجد فى شرح الفنون والحرف شيئا من التفاصيل عن هذا الفن الذى يعد المصريون فيه غاية فى البراعة[٢].

صناع القياطين :

ليس صناع القياطين بأقل مهارة ، والذين يصنعون الشرائط الحريرية الدائرية أو المنبسطة يسمون «العقادين»[٣] ، أما الآخرون الذين يجدلون القطن فيسمون «الحباكين» .

وتتميز هذه الحرف بالبساطة[٤] ، فعلى سبيل المثال فإنه بواسطة قطعة من العظم – وهى فى العادة «طبية» جمل – يتم تسطيح شرائط الحرير . ويطلق

(١) نفسه (رقم L-8,399) .
(٢) انظر اللوحة رقم ١٧ شكل ٢ الفنون والحرف ، وشرحها.
(٣) انظر الخريطة ٢٦ الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم L-6,277 ورقم N-7,327) ومواضع أخرى فى القسمين السابع والثامن .
(٤) انظر اللوحة ١٤ الأشكال ٢ إلى ٤ الفنون والحرف ، والشرح .

على صناع الشراريب من الحرير المذهب والمفضض اسم «الأرمجية» ، وعلى شاغلى الخيوط الذهبية والفضية – وهم من الأقباط – اسم «القصبجية» ، وهم يقومون بإضافة المعدن إلى الحرير الأبيض أو الأصفر بعد تقطيع المعدن إلى رقائق بالغة الصغر[١].

المدابغ :

تمثل المدابغ حرفة ضخمة ، وتوجد المدابغ الكبيرة فى غرب المدينة[٢] ؛ وبها ما بين مائتين إلى ثلاثمائة من العمال «دباغين» يعملون فى وقت واحد داخل فناء واسع ، حيث يدبغون جلود البقر والجاموس والغنم والماعز .. الخ . وفى البداية يزال الشعر بواسطة محلول الجير ، ثم تجهز بالملح وبذور القرض . وتستغرق هذه العملية ما بين عشرين إلى ثلاثين يوما بحسب الفصل .

وفى هذه المدابغ أيضا يبدأ تجهيز الجلد المعروف بالسختيان ، وذلك بتمرير جلد الماعز – بعد دبغه – فى الصبغة الحمراء وغيرها ، للصباغة باللون الأحمر وغيره من الألوان . ويستخدم الرمان للصباغة باللون الأصفر ، وخشب البقم الملون وكذلك الدود أو القرمزية للصباغة باللون الأحمر ، ويستخدم الزاج فى الصباغة باللون الأسود . ولا يغمر الجلد فى الحوض على الإطلاق ، وإنما يصب العامل الصبغة عليه ثم يدعكه على الفور بشدة ، وتكرر عملية الصبغ مرتين ، وبعدها تجفف الجلود فى الشمس .

وفى وكالة كبيرة غير بعيدة عن السكرية[٣] يكمل تجهيز سختيان القاهرة الذى بدأ فى المدابغ . وتتم أولا زيادة ليونة السختيان بضغطه فى كل الاتجاهات ليصير طيعا ، ولهذا الغرض تستخدم عارضة خشبية ، ثم يحك الجلد بآلة حديدية مسطحة ومقوسة وقليلة الحدة ، ذات مقبض كبير ، ويحتاج الأمر مدة يوم لكى

(١) انظر الخريطة ٢٦ المجلد الأول (رقم L-6,276) .

(٢) نفسه . (رقم O-14,114 ورقم G-4-5,123) .

(٣) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم N-7,339) .

يتم تمديد الجلد بالكامل[1] . والاستعمال الأكثر شيوعا للسختيان هو فى البلغ والنعال .

ويصنع فى القاهرة بنجاح الكثير من المصنوعات من أنواع الجلد المختلفة ، ومنها الأحذية كتلك التى يطلق عليها البلغ والأخفاف والنعال ... الخ ، مما ينتجه صانعو الأحذية «الصرماتية»[2] ؛ كما تصنع سروج خيل المماليك ، وبرادع الحمير فى حى «البرادعية»[3] ، والسيور الطولية والعرضية فى «الشكالية»[4] .. الخ .

وهذه المصنوعات تكون فى بعض الأحيان مشغولة ببراعة فائقة . وعلى القرب فى «المراحلية»[5] تصنع شواغر الجمال ، ويطلق على أوعية الماء والمصنوعات الأخرى المماثلة اسم «القرب» ، وتسمى قرب الجمال «رية» ، أما الأوعية الأخرى أو القرب الصغيرة فتسمى «زمزمية» ، وكل هذه الأدوات تصنع فى «القربية»[6] . أما الآنية المصنوعة من الجلد – وتستخدم فى تعبئة الزيت والزبد والعسل – فيطلق على الواحد منها «قسط» ، وهى واسعة الاستخدام فى البلد ، وتباع فى «المناخلية» قرب «السكرية».

الخياطون :

فى دراساتنا عن عادات السكان وممارساتهم تحدثنا عن الأجزاء المختلفة للزى المصرى الذى يشتغل بصناعته – رغم بساطة مظهره – عدد كبير جدًا من الخياطين ، وذلك لأنه يتكون من عدد كبير من القطع المختلفة . وحسبى أن أسجل أن القميص الذى يستعمله النساء والرجال لا يبدو لى أنه قد تغيرت

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة ٢٦ شكل ٤ وشرح مسيو بوديه لها .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم I-5,221 وغيره) .

(٣) نفسه (رقم N-5,192) .

(٤) خريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم T-6.3) .

(٥) نفسه (رقم T-6,5) .

(٦) نفسه (رقم N-7,240) .

صورته منذ القدم ، ويطلق عليه اسم «ثوب ، قميص» . وطول القميص مساو لطول ذراعين مبسوطتين ، وهو ضعف العرض ، ومفتوح عن آخره وينزل إلى ما بعد مستوى الركبة قليلا . وقد تعرفت على هذا الشكل نفسه فى الملابس التى وُجِدَت فى المقابر القديمة ، وكذلك فى الرسوم الموجودة فى مقابر الملوك : ونقتنى اليوم كثيرا من أكسية المومياوات التى تؤيد هذه الملاحظة .

الفرّاؤون :

يعد الفراء مظهر الترف الذى يتميز به المشايخ والشخصيات الكبيرة . ويمارس الروم فى القاهرة حرفة «الفرائين» ، وهم يقطنون فى أحياء كثيرة[1].

٣ – الصناعات المتعلقة بالمسكن والأثاث ومختلف الصناعات الاقتصادية

الصناعات الرئيسية المتصلة بتشييد المساكن فى القاهرة هى :

١ – بالنسبة لتجهيز الأحجار والمعدنيات : قاطع الأحجار ، صانع الآجر ، الجيار ، الجصاص ، البناء ، المسقف .

٢ – بالنسبة لتجهيز المعادن : الحداد ، خراط الحديد ، القفال .

٣ – بالنسبة لأعمال الخشب والتجهيزات النباتية : نشار الأطوال الخشبية ، نجارو البناء ، النجار ، صانع الأقفال الخشبية .. الخ .

وتتكون الصناعات الرئيسية الخاصة بتأثيث وتجميل المساكن – على أساس التقسيم السابق – مما يأتى :

١ – الفخار والزجاج .. الخ .

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم P-5,34، ورقم R- 10,49) .

٢ – السمكرى ، النحاس ، مبيض النحاس ، الصائغ ، وصانع السلاح .. إلخ .

٣ – الخراط ، الحصرى ، السلال ، وصناع الأمساد والمكانس والقفاف والأسفاط .. الخ .

أما الصناعات الرئيسية الخاصة بتلبية المتطلبات الاقتصادية المختلفة فهى صناعة : رحى الطحن ، ملح البارود ، ملح النوشادر ، صقل الحجارة الكريمة .. الخ . البيطرة ، صناع الرقائق اللامعة وأسلاك الحديد والصفر .. الخ . صناع الحبال ، صانعو الحقائب والغلايين .. الخ ، صحن الطباق ، صناعة الورق المقوى ، المداد ، عمال الدبش ، وصناعة الفحم ... الخ ، العاملون فى العنبر والمرجان والصدف ، العاملون فى الساف والأقمشة المصنوعة منه ، وصناع الشمع ووسائل الإنارة .. الخ .

ولبعد المهن الثانوية عن الصناعة بالمعنى الحقيقى للكلمة ، كمهنة الحلاق والمراكبى والجمال والمكارى وعمال الإنارة .. الخ ، فإنها لم تذكر هنا ، وسوف يعوض الجدول الوارد فى الفصل الثانى هذا النقص .

وسيكون من الإسهاب النص على كل هذه المهن : فهى على أية حال قليلة التقدم فى مصر ، لذا كان من غير المفيد أن ندخل فى تفاصيلها الكثيرة .

وإذا كنت قد قدمت هنا وصفا لها أو بالأحرى إلمامة سريعة ، فبغرض تسجيل حالة الصناعة فى عاصمة مصر وقت الحملة ، حتى يتسنى لنا ذات يوم أن نقدر جوانب التقدم التى ستكون عليها بعد هذه الفترة المشهودة .

ويرجع الفضل فى جانب كبير من المعلومات عن حالة الصناعات فى القاهرة فى نهاية القرن الثامن عشر إلى المرحوم كونتيه Conté ؛ إذ إن مجموعة الرسومات الممثلة لهذه الصناعات كلها من عمله تقريبا ؛ وكذلك يرجع إليه الفضل فى الدروس الأولى التى تلقاها المصريون أنفسهم عن الصناعة الأوربية : وهذا تقدير يسعدنى هنا أن أقدمه إلى ذكراه . (انظر المذكرة البيوجرافية عن كونتيه) .

الإسكان

البناؤون وقاطعو الأحجار .. الخ :

يستعمل البناء فى القاهرة نوعين من المواد : الحجر المقطوع والطوب . وتزوده بالنوع الأول بوفرة محاجر طرة ومحاجر المقطم ؛ ولكنه كثيرا ما يستمد من المنشآت القديمة أحجار الأساس التى يبلغ ارتفاعها مترا أو أكثر ، ويقطعها إلى قطع ما بين عشرة سنتيمترات وعشرين سنتيمترا . أما أدوات البَنَّاء والحجار فهى أدوات بدائية إلى حد ما ، ولكن العمال يتغلبون على هذا النقص بالحذق والمهارة .

وهم يطفئون الجير بصب الماء عليه بكمية قليلة فى العادة ، ثم يقلبونه بهمة لجعله قابلا للتفتت . ويحرق بالقرب من باب النصر داخل أفران معدة جيدا ، يسمى الواحد منها «جيارة» . وهى مبنية على هيئة مخروط مقلوب من الطوب ، يصل اتساع فوهته العليا خمسة أقدام تقريبا ، ويستخدمون البوص لوقودها . وثمة أفران للجير أيضا بالقرب من باب الشعرية ، ويجلب لها الحجر من جبل الجيوشى[1] ؛ وهو حجر جيرى عادى غير صدفى . وينتج الفرن فى الحشوة الواحدة مائة وخمسين قنطارا من الجير تستهلك خمسمائة حزمة من البوص ، يبلغ ثمنها عشر بارات للحزمة الواحدة ؛ ويستغرق الحمى مدة يومين وليلة واحدة[2] .

وتوجد أفران للجبس «جبَّاسَة» مقامة فى أربعة أحياء بالقاهرة ، ويجلب لها الجبس من حلوان عن طريق طرة ، ومن البياض قرب بنى سويف[3] .

---

(١) المقصود جبل المقطم . (المترجم) .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (D- 10، رقم D-E- 5,379) ؛ وانظر كذلك لوحة ٢ ، الفنون والحرف ، الأشكال ٤ ، ٥ ، ٦ والشرح .

(٣) نفسه (رقم D-14, 330؛ ورقم E-8,293 ؛ ورقم M-9, 18؛ ورقم U-10, 172). وانظر كذلك اللوحة ٢ ، الفنون والحرف شكلى ٧ ، ٨ والشرح .

والموضع الأول هو الذى ينتج الصنف الأجود والأكثر نعومة وبياضا من أصناف الجبس(١). ويستخدم جبس الموضعين فى القاهرة على نطاق واسع لطلاء الجدران ، وهو يحل هنا محل الطنافس عندنا . وهم يزينونه فى بعض الأحيان برسوم غير متقنة تماما تمثل زهورا وزخارف مختلفة ، وفى أحيان أخرى يزينونه بآيات قرآنية ، مكتوبة بحروف كبيرة وبألوان مختلفة ، لا ينقصها أى نوع من التناسق . وللبناء المصرى مهارة فى استعمال مواد التلييس وخلطها(٢)، وإذا لم يكن بياض الجبس كافيا فإنه يزيده بإضافة طبقة من الجير . كما يقوم أيضا بإعداد نوع من الجص .

ويستخدم الجبس كذلك فى التسقيف ، وعمل المسقف مقصور على إرساء السقوف وتغطيتها بهذه المادة(٣). وهذه الطبقات الخفيفة تحتمل تقلبات الجو على نحو يثير الدهشة ؛ ولا يفسر ذلك باستقرار حالة الجو (إذ لا ينبغى الخلط بين تشابه الفصول ، والتغيرات المستمرة والملحوظة فى حالة الجو كما ذكرنا من قبل) ، وإنما يعود إلى نوع من المرونة تمتاز به هذه الطبقات : وليس مما يثير الدهشة أن نرى قبابا ممتدة الأبعاد قد نفذت منذ سنين عدة بهذه الطريقة دون أن يلحقها تغير أو تشقق فى أى جزء من أجزائها .

وهناك نوعان من الطوب المستخدم : ذلك الذى يطلق عليه الطوب النيىء وهو المجفف فى الشمس فقط ، ونوع آخر هو المحروق فى أفران الطوب ، وليس لهذه الأفران ما يميزها من حيث الشكل . أما المادة المستخدمة فهى طمى النيل المخلوط بمقادير متفاوتة من الطين ، وأحيانا يضاف إليه الرمل ، كما يضاف إليه التبن حتى يكون متماسكا ، وتتبع هذه العملية منذ أزمان بعيدة . ويعمل الطّوّاب بقالبه فى سرعة بالغة .

(١) طريقة سحق الجبس أكثر تقدما من فرنسا نفسها ، وقد مثلت ووصفت فى اللوحة ٢٦ ، الفنون والحرف شكل ٢ ، والشرح .

(٢) انظر اللوحة ١٨ ، الفنون والحرف شكل ١ وشرح المهندس المعمارى لوبير Le père .

(٣) انظر اللوحة السابقة شكل ٢ والشرح .

الحـدادون .. الخ :

يستعمل الحدادون[1] وخراطو الحديد[2] وصانعو الأقفال أدوات بدائية جدا . ويستمر إيقاد كور الحدادة عن طريق منفاخ مزدوج يتيح استمرار تيار شديد السرعة من أجل استدامة اللهب .

وكان من الممكن أن تدهشنا رؤية نوى البلح وهو يستخدم كوقود لو لم نكن على معرفة بضخامة استهلاك السكان من هذه الثمرة . ويجتمع كثير من الحدادين فى حى «النحاسين»[3] وهناك يقومون بصناعة المسامير بمهارة .

النجارون ونجارو البناء .. الخ :

يشغل نشارو الأطوال الخشبية ونجارو البناء[4] العديد من الوكالات : ويعمل هؤلاء بصفة أساسية في خشب السنط والنبق ؛ ويعد استخدام خشب اللبخ هو الأفضل ، إلا أنه أصبح بالغ الندرة ومرتفع الثمن بسبب إهمال المسئولين فى البلاد . وخشب الجميز – باستثناء الجذر – بالغ الليونة ، ومع ذلك فإنه يستخدم على نطاق واسع لعدم وجود ما هو أفضل . وهذا نفسه ينطبق على النخيل ، الذى تصنع الدعائم من جذوعه ، كما تصنع منه ألواح رديئة جدا : وأفضل الألواح تلك التى تصنع من أشجار السنط . ومن واجبى هنا أن أسجل أن هذا النوع الأخير من الخشب قد استخدم لدى قدامى السكان نفس الاستخدام .

ويعمل النجار المصرى فى مهارة وخفة فريدتين ، وذلك مع كونه يعمل عادة وهو جالس على الأرض . أما أدواته ، وكذلك الأدوات التى يستخدمها

---

(١) انظر اللوحة ٢١ شكل ٢ الفنون والحرف ، وشرح مسيو كوتل Coutelle ، واللوحة ٣٠ ، وانظر كذلك الخريطة ٢٦ (رقم M-6, 355 ورقم M-8, 387) .

(٢) انظر اللوحة ٢٦ شكل ٣ ، الفنون والحرف ، وشرحها . وانظر كذلك لوحة ٣٠ .

(٣) انظر اللوحة ٢١ شكل ١ ، الفنون والحرف ، وشرحها .

(٤) انظر اللوحة ١٩ شكل ١ ، الفنون والحرف وشرحها .

العمال الذين سبق الحديث عنهم للتو ، فقد وصفت فى مواضع أخرى[1]، ويمكن أن نذكر «القدوم» الذى يستخدمه فى مختلف استعمالاته كالقطع والفلق والدق والنزع .. الخ . وعدد كبير من النجارين والصناديقية يقيمون فى شارع كبير ، بالغ الاتساع ومسقوف يطلق عليه «تحت الربع»[2]، وهم يصنعون صناديق بالغة السعة والمتانة من خشب الأرز ومن أخشاب أخرى جيدة . ويصنع صانع الأقفال الخشبية «الضبابى» أقفالا «ضبة» واسعة الانتشار فى القاهرة وجميع أجزاء البلاد ، وهى معروفة إلى حد بعيد بحيث يكون وصفها عملا لا جدوى منه . وقد فكر أحد الفنانين الفرنسيين فى إدخالها فى صناعتنا . ويقيم هؤلاء العمال[3] فى أحياء خاصة ، مثل حى «الخرنفش» «وتحت الربع» .

صناعة الأثاث

الفخاريون :

من المعروف أن صناعة الفخار فى مصر – مثل الكيمياء نفسها – ترجع إلى أقدم العصور ، وقد حققت تقدما كبيرًا منذ ذلك الوقت ، ولكنها أخذت فى التراجع منذ عدة قرون . وفى الوقت الحالى يكاد يقتصر صانع الفخار فى القاهرة على عمل الجرار «الزير» و «الزلعة» والأوانى المسطحة والمصابيح الفخارية والأوعية الشائعة فى الاستعمال المنزلى .. الخ[4]، وسأعددها فيما بعد . أما المادة التى يعمل فيها صنعته فهى الطين المجلوب من سهل ملاصق تماما لوادى التيه ، القريب من قريتى البساتين ودير الطين التى أخذت اسمها من وجود هذه المادة . ويجب أن يغمر الفيضان الأرض مرتين من أجل أن تغدو التربة صالحة لاستخدامها

(١) انظر اللوحة ١٩ ، شكل ٢ الفنون والحرف وشرحها ، وانظر كذلك اللوحة ٣٠.

(٢) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم M-7, 350) .

(٣) انظر اللوحة ١٥ شكل ٥ ، الفنون والحرف ، وشرح مسيو ديليل Delile ، وانظر كذلك اللوحة ٣٠ .

(٤) انظر اللوحتين ٢ ، ٢٢ ، الفنون والحرف وشرح مسيو بوديه Boudet .

فى صناعة الفخار . وسبق لنا الحديث فى موضع آخر عن دولاب الفخار : ويستحضر شكله ، صورة مثيله عند القدماء ، على نحو ما حفظوا لنا صورته فى مقابرهم . وجميع المصنوعات الفخارية الرائعة تبدو وكأنها قد مرت من داخل أفران الغلايين ، المصنوعة والمنقوشة بعناية مماثلة ؛ وهى من طينة ناعمة تشبه عجينة الآنية «الاتروسكية» étrusques. على أننا لا ينبغى أن نغفل البرادق أو أوانى التبريد التى تصنع بكميات كبيرة لاستخدامها فى كل الأحوال . ومعروف أن سر هذه الصناعة يكمن فى وضع مقدار الربع من الملح العادى فى العجينة ، علما بأنه قد يزيد عن ذلك أو ينقص ، ويذاب هذا الملح عند أول ما يصب عليه من الماء فى الإناء ، ليحدث ما لا يحصى من المسام التى ينضح عن طريقها السائل الذى يعمل - عند تبخره - على خفض حرارة بقية الماء فى الإناء . والأشكال التى يعطيها المصريون لهذه المبردات ملائمة ومتنوعة وأنيقة على وجه العموم . ولا ينتفع بالآنية المبردة فى أوربا بنفس القدر الذى ينتفع بها فى مصر ، والعلة وراء ذلك معروفة . وتصنع فى القاهرة أيضا بعض منتجات من الخزف المطلى ، كما تصنع أقداح يطلق على الواحد منها «فنجان بلدى» ، تمييزا لها عن تلك التى تستحضر من أوربا ؛ كذلك تصنع بلاطات من الخزف المطلى يطلق عليها «القيشانى» .. الخ .

وسترد القائمة الخاصة بمنتجات الفخار المصنوعة فى القاهرة - فيما بعد - فى الفصل الخاص بالتجارة .

صناعة الزجاج :

صناعة الزجاج بالقاهرة ، أو «معمل القزاز» مثلها مثل صناعة الفخار يشوبها القصور : ويمكن إحصاء أربعة أماكن لهذا النوع من الصناعة بالحسينية والفوالة وقريبا من الحى الأفرنجى ، وهناك معمل آخر بالجيزة : وفى هذه المعامل تصنع دوارق ومعوجات وقنينات خاصة بصناعة ملح النوشادر وللتقطير ، كما تصنع

القارورات الشائعة وأوعية للمصابيح العادية وغيرها لغرض الإنارة ، وزجاج ملون مسطح لمتطلبات الحمامات ، وهاونات زجاجية ومدقات للتشذيب . ويطلق على أوانى الأنابيق الزجاجية : «قزاز الأنبيق» وهو الأصل الأكثر احتمالا لكلمة alambic (فهذه الكلمة مماثلة فى معناها بالعربية لكلمة cucurbita)[1].

النحـاسون .. الخ :

يقيم النحاسون بالشارع الذى يحمل هذا الاسم وبضواحى المارستان ؛ وهم يشكلون النحاس فى شىء من المهارة ، ويبيضونه بالقصدير جيدا . ويطلق اسم «السمكرى» على أولئك الذين يبيضون بالقصدير : ويقوم هؤلاء الرجال أيضا بتشكيل الصفيح لجميع أغراض الاستعمال ؛ ونجده فى الحى الذى يطلق عليه : «تحت الربع» . ويقومون أيضا بتحويل الصُفْر إلى أسلاك ورقائق ، كما يقومون بعمل أسلاك الحديد .. الخ .

الصاغة وصناع السلاح .. الخ :

تقتصر أعمال الذهب والفضة على اليهود والأقباط : فهم يصوغون منها الحلى وقلائد النساء ، وحلى السيوف والخناجر ، والأحزمة ؛ ويطلق على هؤلاء الصناع اسم «الصياغ» ، وقد خلعوا اسمهم على أحد الأحياء[2]. ويجتمع أكثرهم مهارة فى مكان يطلق عليه «خان أبو طاقية» ؛ وتقتصر أدواتهم تقريبا على بعض المثاقب : ويربح الواحد منهم أربعين بارة فى اليوم . ويقوم عدد كبير جدا من «الجواهرجية» بعمل القلائد والخلاخيل والسلاسل الفضية التى تتحلى بها الفلاحات حول أعناقهن وسيقانهن . والجهاز الخاص بتشكيل الفضة جهاز

(١) انظر اللوحة ٢ ، الفنون والحرف ، الأشكال من ١٣ إلى ١٩ وشرح مسيو بوديه لها ، وكذلك اللوحة ٢٣ ؛ وانظر أيضا الخريطة ٢٦ (رقم L-13, 282؛ ورقم H-10, 109؛ ورقم L-9, 2... الخ) .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم I-6, 46، ورقم M-8, 5) ؛ وبين رقمى H-7, 51, 57، ورقم I-6, 41) .

بسيط ؛ والفرن فيه عبارة عن موقد غير مسور جيدا ، والمصهر بداخله معرض للهواء الطلق . أما المنفاخ فليس إلا قربة لها أنبوب من الفخار ، يقوم أحد الرجال بفتحها وغلقها بيديه على نحو متتابع وهو جالس على الأرض .

ويستخدم كل من الخشب والفحم كوقود دون تفضيل بينهما . وبالنسبة لصناعة النقود من الذهب والفضة فقد وصفها المسيو صمويل برنار بمزيد من الدقة والبراعة فى سياق هذا المؤلف ، ويكفى إحالة القارىء إلى دراسته[1].

ويشغل صناع الأسلحة حى «سوق السلاح» ، ولا تمثل صناعتهم شيئا يستحق الذكر.

صناع الحصر :

ربما تكون الحصر هى أكثر المفروشات انتشارا فى القاهرة ولا يستغنى عنها فى أرضيات المساكن ، وينطبق هذا أيضًا على المساكن ذات الأرضية الطينية ، ولهذا تصنع بالقاهرة كمية كبيرة من الحصر ذات الأثمان المختلفة ، وبالإضافة إلى ذلك يستخدم حصير من الفيوم وسوريا وآسيا الصغرى[2]. وأجمل أنواع الحصر يصنع من أغصان الأسل التى يطلق عليها السمر ، ويؤتى بها من الطرانة ، وتجمع بالقرب من بحيرات وادى النطرون ، وكذلك على مسيرة ثلاثة أيام من «البحر بلا ماء» . وأفراد الجوابى هم الذين ينقلون هذا النبات ، ويجلب أيضا من حلوان قريبا من طره ، غير أنه يكون من نوع أقل جودة .

وينبغى أن يجفف السمر فى الشمس لمدة شهر أو شهرين تقريبا قبل استخدامه ، وبعد ذلك يغمر فى الزعفران لمدة عشرين يوما ؛ يصير بعدها أملس مستديرا لينا . وتصبغ أغصان الأسل باللون الأسود والأصفر والأحمر وغيرها ، كما يجرى استخدامه فى صناعة الحصر وهو لا يزال رطبا . ويتكون

---

(١) المجلد السادس من الترجمة العربية . (المترجم) .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ (رقم R-4, 406) وانظر كذلك اللوحة ٢٠ ، الفنون والحرف شكل ١ ، وشرحها .

نول الحصر من شبكة طويلة عريضة ، قوامها خيوط مشدودة على أربع قطع خشبية كبيرة ، وتكون السداة التى يمرر العامل خلال خيوطها السمر بالتبادل من أعلى ومن أسفل فى الوقت الذى تساعد فيه إبرة خياطة على تلاحم عيدان الحصير . ويقوم عدد كبير من العمال بالعمل فى نفس الوقت على نحو مرتب ومحسوب بهدف أن ينتهى العمل فى الصف الواحد فى نفس اللحظة ، ثم يقومون معا بضغط الحصير عن طريق قطعة خشبية طويلة مستعرضة ، أما الرسوم فهى عبارة عن معينات من اللون الأسود والأصفر .. الخ ، وهى عادة ما تكون مريحة للعين : ويطلق على هذا النوع من الحصير اسم «حصر سمر» . أما النوع الأكثر انتشارا منها فيصنع من سعف النخيل ومن البوص وغيرها ، كما تصنع منتجات أخرى كالأمساد والسلال من فروع شجر الحناء ، والقفف من سعف النخيل ، والمكانس «المقشات» التى يتخذونها من الليف الموجود بأعلى النخلة (وذلك بدق الليف وتقسيمه) ، كذلك تتخذ من الجريد أو فروع النخيل[١] أقفاص وصناديق وأسرة .. الخ .

أما صناع قصب الغلايين فى القاهرة فإنهم مشغولون فى العادة إلى حد كبير . ويسمى الواحد من هؤلاء الصناع «الشبكجى» (من شبك) . وهذا القصب يتخذ من البوص أو من خشب الجوز والكريز والليلك والياسمين . وهم يقيمون فى حى النحاسين ، على مقربة من المارستان ، وفى أحياء أخرى كثيرة ؛ ويعمل هؤلاء العمال بمساعدة مثقاب يستخدم فى ثقب القصب بالاتساع الملائم[٢] .

كذلك يجهز الفحم بالقاهرة . ويقطن «الفحامون» غير بعيد من الفوالة ، وهم يستعملون خشب السنط وخشب الأثل ، كما يتخذونه من خشب النبق واللبخ ، ولكن هذين النوعين الأخيرين مرتفعا الثمن .

---

(١) انظر اللوحة ٢٠ ، الفنون والحرف وشرحها للمسيو ديابل .
(٢) انظر اللوحة ٢٧ ، شكل ١ الفنون والحرف ، وشرحها .

وإلى جانب الأجولة التى يؤتى بها من الفيوم والتى يجرى استهلاكها بكثرة ، فإن عمال القاهرة ينتجون كمية كبيرة منها من الكتان والساف . كما يصنع الكثير من المناخل من الساف والشاش والحرير فى الحى الذى يطلق عليه «المناخلية» . أما «الصدف» فيستعمل ببراعة فى صناعة الأثاث والأزرار والسبح .. الخ ؛ وتجلب هذه الخامة إلى مصر عن طريق السويس .. وتستخدم على وجه الخصوص فى الوكالة المعروفة «بالعجاتية»[1] .

وفى حى «مرجوش» تصنع – من المرجان والكهرمان – القلائد والسبح ومباسم الغلايين وغير ذلك من المصنوعات . كما تصنع القلائد والأساور أيضا من الكهرمان المقلد حيث تباع فى «سوق الخرزاتية» .

حرف اقتصادية متنوعة

السنانون :

يستخدم السنان فى القاهرة مسنا من الحجر الرملى الذى يجلبه من مدخل وادى التيه . ففى منتصف مدخل الوادى (الذى يبلغ عرضه ما يزيد على فرسخ ونصف الفرسخ) ، ووراء «البساتين» ، تقع تلال يصل ارتفاعها إلى حوالى عشرين قدما ، ومنها يستخرج الحجر الرملى .

وهذه الصخور تنحتها مياه السيول ، وثمة نوع منها يميل لونه إلى الإحمرار وحبيباته هشة ، وهو غير صالح للاستخدام ، أما النوع الذى يستخرج فى الوقت الحالى فهو أبيض اللون حبيباته دقيقة صلبة بدرجة كافية ، تنتشر فيه ذرات حديدية وبقايا صدفية ، وهو مع ذلك متجانس بوجه عام . ويثير الانتباه إلى حد كبير أن طبقات الحجر الرملى عمودية تماما ، وأن كسل الأفراد المكلفين

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم G-8, 254) .

بقطع المسان يجعلهم يقطعونها على نحو أفقى ، بحيث يضم المسن غالبا نوعين أو ثلاثة من العروق المتفاوتة فى ألوانها وصلابتها . وعند دورانه فإن هذه العروق تعمل على تآكله بشكل غير منتظم ، مما يستدعى إعادة استدارته بصفة مستمرة : يضاف إلى هذا أن حركة المسن تتسبب فى تشققه وتفتته فى أكثر الأحيان عند نقاط الفواصل بين العروق وذلك بتأثير قوة الطرد المركزية ، الأمر الذى يمثل خطورة بالغة على العمال . ولا يعود ذلك إلى عدم إدراك العمال الذين يستخرجون هذا الحجر أن الطبقات عمودية ، وإنما إلى جهلهم التام بالضرر الذى يمكن حدوثه من جراء ذلك . وها هى طريقة قطعهم لأحد المسان من المحجر : إنهم يختارون نقطة مرتفعة ، ويكشفون عنها الرمال ، ثم يحفرون دائرة بعمق حوالى ثمانى بوصات بحيث يكون عرضها أكبر من عرض المسن المطلوب . وبعد كشف القاعدة فإنهم يدخلون عددا كبيرا من الأسافين الحديدية ، من عشرين إلى ثلاثين إسفينا بين الكتلة الأصلية وقطعة المسن ، ويدعم هذه الأسافين عدد كبير من الرقائق الحديدية ، وفور تثبيت الأسافين يأخذ أحد العمال فى الضرب فوق كل منها بشكل متواصل ، ومع نهاية دورته عليها يحدث غالبا انفصال حجر المسن مع الضربة الأخيرة ، ذلك الانفصال الذى يحس مع سماع صوت خفيض يحدثه عند اقتلاعه من كتلته الأصلية . وقد عانيت كثيرا من محاولة توجيه العمال إلى ضرورة اقتطاع الحجر الرملى على نحو رأسى حتى يتاح لهم استخراج مسن أو اثنين من الطبقة الواحدة ، وتكون هذه المسان أكثر صلابة وأفضل جودة[1].

عمــال السمــاد :

أما عمال السماد فإنهم ينتفعون بتل يقع شمال بركة السقايين هو «تل السباخ» ، حيث يحمل السكان إليه مخلفات منازلهم وأتربتها . ويغسل السمادون

(١) انظر اللوحة ٢٥ شكل ١ ، الفنون والحرف ، والشرح .

هذه البقايا «السباخ» فى صناديق خشبية ، ثم يقومون ببلورة المحلول . ولن أتكلم هنا أبدًا عن صناعة ملح النوشادر ، فقد وصفها المرحوم المسيو ديكوتيل[1] فى موضع آخر .

الخراطـون :

يوجد خراطو الخشب بأعداد كبيرة فى القاهرة ، إذ ليس هناك نافذة واحدة لا تتكون من قطع خشبية تم خرطها بمهارات متفاوتة . ويقيم عدد كبير منهم بالقرب من الشعراوى : ومن الممكن أن نعد هؤلاء من أبرع عمال المدينة ، كما يمكن أن نعد صناعتهم من أكثر الصناعات تقدما[2].

حرف متنوعة

لقد وصفت صناعة الحبال من قبل[3]، وأظن أن العودة إليها غير مفيدة ، وينطبق هذا على دقاقى التبغ[4].

أما صناع السبح من الخشب الجيد فيشغلون وكالة السبحية ؛ وهناك يصنعونها من خشب البزربات «الحجازى» ومن خشب الصندل .. الخ .

ودرجة الحرارة فى القاهرة مرتفعة بحيث لا يمكن تصنيع الشحم إلا فى أثناء الليل ، ونجد القناديل أكثر شيوعا من الشمع ، بالرغم من انخفاض ثمن شمع العسل . ويصنع الشمع مسيحيون أقباط ، غير أن استهلاك هذا وذاك قليل للغاية مقارنة باستهلاك الناس للزيت .

---

(١) انظر اللوحة ٢٤ الفنون والحرف ، وشرح المسيو ديكوتيل Descotils ، وانظر كذلك دراسته ، الدولة الحديثة ، الجزء الثالث عشر ، ص١ [المجلد الخامس من الترجمة العربية . المترجم .] .

(٢) انظر اللوحة ١٥ شكل ٤ ، وشرح مسيو ديليل لها .

(٣) انظر اللوحة ١٦ شكل ٢ ، الفنون والحرف ، وشرحها .

(٤) انظر اللوحة ٢٧ شكل ٢ ، وشرح مسيو ديليل لها .

ويعمل بصناعة الحُلى الذهبية مجموعة خاصة من العمال هم «البرجانية» ، ويصنعون منها الرقائق والأسلاك الذهبية للفلاحات ولزينة النساء اللاتى يزين بها رؤوسهن .

ويقيم صناع الورق المقوى وصانعو الأغلفة من هذا الورق فى حى «الصناديقية» .

أما صناع الحبر «الحبارون» ، فيقيمون فى ضواحى الحسينية .

ولولا أن هذه المقالة مقتصرة على الحديث عن الحرف الصناعية بصفة خاصة ، لكان بوسعى أن أقول بعض الكلمات عن الرسامين والنحاتين والمعماريين وفنانى النقش على الأحجار الكريمة والمعادن ، غير أن هذا سيكون خروجا عن موضوعنا ، بالإضافة إلى أن القارىء عزوف عن البحث بغير جدوى لدى الفنانين من أهل البلد عن شىء من الذوق أو الموهبة الصادقة ، فالمعمارى عندهم مجرد بناء يعمل كيفما اتفق بغير تخطيط وبدون أن يرسم مشروعا أو يتخذ الاحتياطات التمهيدية ، اللهم إلا قياسات مأخوذة على نحو ساذج . أما الرسام فليس له إلا القيام بعملية الزخرفة ، ذلك لأن محاكاة الطبيعة الحية محرمة عليه بحكم ديانته . وكذلك الشأن بالنسبة لنحات الحجر والخشب والرخام «النقار» . على أن نقاش الحجارة الناعمة هو الوحيد الذى تستحق أعماله شيئا من الانتباه ، فمنذ أقدم العصور وهذا الفن يمارس وينهض بنجاح على ضفتى النيل ؛ وقد تلقاه العبرانيون من سادتهم ، كما أننا نجد أيضا بين بقايا الحضارة المصرية القديمة أعمالا لها نفس الطابع استخدمها الإغريق أنفسهم كنماذج ، ليس لطرازها دون شك ، بل لما فيها من الجهد وكمال التنفيذ . وفى هذه الأيام لا ينقش الجواهرجى المصرى إلا على العقيق والأحجار الكريمة واللازورد ، ولا ينقش غير ورود وزخارف أو كتابات ، غير أنه ينفذ ذلك بمهارة وإخلاص .

المبحث السادس
حول التجارة

لا تمثل المنتجات الصناعية التى سبق سردها منذ قليل سوى قدر ضئيل من البضائع التى تتكون منها تجارة القاهرة . ونظرًا لأن مصر هى أكثر بلاد الشرق شبها بأوربا ، وأن تجارتها تعد واحدة من أكثر تجارات هذه المنطقة انتشارا ، فهى الوحيدة التى تزود بلدان الشرق ببضائع أوربا ، وذلك بسبب موقعها بين قارتين ، يضاف إلى هذا أنها تمثل لأفريقيا الحلم الذى ينبغى تحقيقه ، ولكن فى ظل ظروف أخرى وحكومة مختلفة . وتشتمل كل من التجارة الداخلية والتجارة الخارجية على المنتجات المحلية والمنتجات الواردة على حد سواء ، وتقوم القاهرة بتوزيع منتجاتها فى مصر ومعها منتجات آسيا وأفريقيا ، كما تقوم بتصدير الفائض عن استهلاكها إلى أوربا . وبالمثل فإنها تصدر البضائع الأوربية إلى أسواق أفريقيا وآسيا . ومن هنا يمكن تصنيف السلع الغذائية ، التى تقوم عليها تجارة القاهرة إلى نوعين : السلع الشرقية بالجملة ، والسلع الأوربية . وقد نشرنا جداول حول تجارة مصر فى فترة ما قبل الحملة[1] ، قسمت فيها بطريقة أخرى ، ولن يكون مفيدا هنا الدخول فى تفاصيل مستفيضة ، وسوف أقتصر على سرد الوكالات أى المحال ومستودعات البضائع ، والأسواق والأيام التى تقام فيها ، والخانات (المعارض الدائمة) ؛ وسأذكر السكان وما يطلق عليه المنزل وهو ضرب من الفنادق خاص بالتجار ، كما سأقدم قائمة موجزة بالسلع التى تتكون منها تجارة القاهرة ، مقسمة – كما هو شأن المنتجات الصناعية – إلى ثلاثة فروع :

(١) انظر المجلد الأول والرابع من الترجمة العربية . (المترجم) .

١ – مواد غذائية وطبية .

٢ – مواد متعلقة بالكساء .

٣ – مواد متعلقة بمختلف الاحتياجات الاقتصادية .

وسأشير في بعض الأحيان إلى سعر البضائع . وقد حذفت من هذه القائمة كثيرا من المنتجات المحلية تجنبا لتكرار الغرض مع المبحث السابق بوصفه تكملة لها بالضرورة .

١ – مواد غذائية

بضائع مصر والشرق :

من الممكن أن نحصى فى القاهرة الكثير من أسواق القمح الكبيرة ، بالإضافة إلى الوكالات العديدة حيث تباع هذه الغلة ؛ ويوجد السوق الرئيسى بالقرب من قراميدان . ويباع القمح المحلى أى «القمح البلدى» ، أو «القمح الأحمر» ما بين اثنتى عشرة وثلاث عشرة بارة ، أو مدينى للربع الذى يساوى سبعة لترات ونصف اللتر ، أما القمح الأبيض فيباع بأربع عشرة بارة . وتحوى زكيبة القمح أردبا واحدا فى العادة ، أو أردبا ونصف الأردب ، والأردب أربعة وعشرون ربعا ، وهو يعادل فى القاهرة مائة وثمانين لترا حسب قيمة القدم الرومانى كما أورد القس بارتيليمى Barthélemy، ولكن حسب التجارب المباشرة التى أنجزت بالقاهرة فإنه يساوى مائة وأربعة وثمانين . أما الشعير فيباع بست بارات للربع ، والفول بسبع بارات للربع .

ويبيع الجزارون[١] رطل الضأن المعادل لأربع عشرة أوقية وأربعة جرو gros[٢] وسبع وعشرين حبة بين خمسة وستة «جديد» ، ويباع رطل الجاموس والبقر بخمس بارات ، وتباع المائة من الدجاج بألف وثلاثمائة مدينى ، وفى الريف

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم M-7, 241) .

(٢) يعادل $\frac{1}{8}$ أوقية ، انظر عن هذه الموازين المجلد السادس من الترجمة العربية . (المترجم) .

بألف ومائتين ، وتباع المائة من الحمام بستمائة مدينى ، وفى الريف بخمسمائة ، وتجرى هذه التجارة الأخيرة فى «وكالة الفراخ»(١). وفى يوم الجمعة يقام سوق «المسكة» لبيع الضأن والماعز والدجاج والأوز والحمام(٢). وتتوافر أسماك النيل وأسماك البحرين فى العديد من الأسواق(٣).

ويصنع زيت السمسم فى مصر السفلى بكميات أكبر مما يصنع فى مصر العليا ؛ ويجلب من المنصورة وأبى صير وغيرهما ، وسعره حوالى تسع بارات . ويباع الرطل من زيت الزيتون بخمس وعشرين بارة ، ويؤتى به من الغرب أو أوربا . ويباع الخل المصنوع من نبيذ قبرص وأزمير بما بين عشر واثنتى عشرة بارة ، أما الخل المصنوع من البلح فيباع بسعر سبعة مدينى للكمية التى تعادل البنتة(٤) une Pinte .

ويباع السكر والمربى وجميع أنواع الحلوى فى السكرية(٥) ، وهو شارع بالغ الجمال يحوى محلات فاخرة ، وهى وإن كانت صغيرة فإنها مزينة وحسنة المنظر . ويباع أجود أنواع السكر المكرر – مما يضاهى سكر هامبورج – بسعر ستين بارة للرطل ، ويوجد نوعان آخران : يباع أحدهما بسعر أربعين بارة ، والآخر بخمس وعشرين بارة للرطل ، كما أنه يوجد بالصعيد نوع جيد يباع مقابل ستة مدينى للرطل فحسب . ويباع الرطل من أجود أنواع العسل الأبيض الوارد من مصر السفلى أو من الصعيد بسعر خمس عشرة بارة ؛ أما العسل العادى فيباع ما بين ثمانى وتسع وعشر بارات للرطل(٦) ، ويباع العسل الأسود أو المولاس فى معامل تكرير السكر(٧).

---

(١) نفسه (F-8, 281) .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (Q-R-11, 127) ، و (رقم Q-11, 128) .

(٣) نفسه (رقم T-7-120 ومواضع أخرى) .

(٤) وحدة قياس للسوائل وتساوى فى باريس ١,٩٣ لتر . (المترجم) .

(٥) نفسه (رقم M-6, 257 ورقم I-6, 249) .

(٦) الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول . (رقم L-9,9، ورقم K-6-32) .

(٧) نفسه ، (رقم I-6, 38 ومواضع أخرى بالقسمين الخامس والثامن) .

وتقوم على البن العربى تجارة كبيرة جدا ، وفى أحد أقسام المدينة أحصيت اثنتين وعشرين وكالة خاصة ببيع البن ، الذى يجلب من جدة إلى القصير ، ومنها ينقل على ظهور الجمال إلى النيل ، وفى القاهرة تباع العبوة زنة ثلاثة قناطير بحوالى ثمانين قرشا . ومن جدة أيضا يأتى البخور وصمغ جاوة والصمغ والمر .. إلخ . وهناك الفلفل والقرنفل والصبر واليانسون والتمر الهندى والسنا والأفيون ولب سنط العنبر والمسك والزعفران والقرفة والقرمز والكاشو والتوابل ، وهذه تملأ المحلات والوكالات العاملة فى تجارة العطارة على وجه الخصوص . ويعمل بهذه التجارة كثير من التجار المعروفين «بالعطارين»[١]، وتباع علاوة على ذلك فى المحلات مادة تعرف «بالنعناع» ، وهى حبة ذات عطر فياح تتخذ كدواء ، وأصلها من أحد أنواع النعناع .

أما الفواكه التى تملأ الأسواق فهى بلح الشرقية والفيوم ومصر السفلى ومصر العليا[٢] ، وبلح سيوه والحجاز ومكة ، والبلح المعجون الذى يطلق عليه «العجوة» ، وكذلك العنب واللوز والليمون والليمون الحامض والبرتقال والموز ، وأخيرًا الفستق والبندق وفواكه أخرى مجففة «النقلية»[٣] .

وليس هناك تنوع كبير فى الخضر المعروضة للبيع ، وهى : الفول والفاصوليا والعدس والبامية والبصل والرجلة والخروب ؛ وهو نوع من الخضر مسكر إلى حدّ ما ، ويجلب من قبرص .

ويعتبر البرسيم أكثر الأعلاف شيوعا فى الأسواق .

البضائع الأوربية :

أما المواد الغذائية الرئيسية الآتية من أوربا فهى زيت الزيتون والخمر الذى يتعاطاه مسيحيو الشرق والفرنج المقيمون فى مصر .

---

(١) انظر دراسة مسيو روييه Rouyer عن عطارة مصر ، الدولة الحديثة الجزء ١١ ص ٤٢٩ ، ويوجد الحى الرئيسى للعطارين فى القسم السابع . (انظر الخريطة ٢٦ رقم L-6, 302) .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ (رقم I-5, 220 ومواضع أخرى) .

(٣) نفسه (رقم Q-10, 66 فى الحبانية، ورقم F-9, 287 فى درب باب الشعرية، وكذلك فى القسم الرابع) .

٢ – متعلقات الكساء

البضائع المصرية والشرقية :

يباع القطن بحى ميدان القطن على وجه الخصوص[١] ، ويؤتى به من مصر السفلى . ويباع الخام منه ما بين اثنين وأربعين قرشا إلى خمسة وخمسين قرشا للقنطار (القرش ثلاثون بارة) ، ويباع الأكثر جودة منه بما بين اثنين وخمسين إلى خمسة وخمسين قرشا ؛ ويباع القطن السورى بتسعين قرشا ، أو بثلاثين بوطاقة ، (تسعين بارة) . ولا تجلب من الصعيد أى كمية من القطن ، وإنما يحدث العكس ، فيشترى القطن لمصر العليا من هنا : وما يجنى منه هناك يستعمل فى إسنا ولا يصدر منه شىء .

وتتسع البالات عادة لما بين أربعمائة وخمسمائة رطل ، ثمن الواحدة منها من مائتين إلى مائتين وخمسين قرشا . وثمن الرطل من القطن المحلوج جيدا والمندوف تماما بين عشرين إلى اثنتين وعشرين بارة . ويصنع نسيج القطن فى جميع أنحاء مصر ، ويعمل فيه عدد كبير من الصناع والتجار بالقاهرة ، وتباع البكسا منه بعشر بارات ، ولنسيج أسيوط وجرجا قيمة خاصة . أما «الملايات» فهى عبارة عن قطع من نسيج القطن الأزرق المخطط ، وتستهلك بكميات كبيرة ، يستوى فى ذلك ملايات القاهرة وملايات مصر العليا والسفلى والملايات المصنعة فى مكة ، وهى تباع فى الغورى وعند باب الشرم ، وإن كان سوقها الرئيسى فى حى مرجوش .

ويباع الكتان الخام بحالته التى يجلب عليها من الصعيد بسعر ثلاث بوطاقات لحمل الجمل ، بينما يساوى القنطار من الكتان المدروس والممشط ثمانى بوطاقات . واليومان المخصصان لأسواق بيع الكتان هما الاثنين والخميس ،

(١) انظر الخريطة ٢٦ (رقم F-10, 128) .

كما يباع صباحا فى السوق المعروفة باسم سوق العصر (أو سوق الثالثة بعد الظهر : وهناك سوقان بهذا الاسم) . ويوجد بهذا السوق الكثير من البضائع[1].

أما سوق مرجوش فهى خاصة ببيع الكتان المغزول وخيوط النسيج . والمنتجات الصوفية (بخلاف أقمشة الصوف الأوربية) تتمثل فى نوع من القماش منتشر إلى حد كبير ، وقد سبق الحديث عنه فيما سبق ، ويباع القماش ذو اللون الأسود من هذا النوع ، والذى يستعمل رداء لمعظم المواطنين ، بسعر ثلاثمائة بارة ، ويسمونه «عباية» ، ويلزم منه لرداء الرجل عشرة بكسات . ويبلغ عرض القماش ثلاثة أرباع بكسا ، ويبلغ سعر البكسا منه ثلاثين بارة . ويساوى الرداء من أقمشة الصوف الداكن «البشت» ثلاث بوطاقات . ويقصد بالبكسا هنا البكسا البلدى أو الذراع البلدى ، وذلك ما لم يُنص على ذراع القسطنطينية «البكسا الاستامبولى» وطوله كما قاسه المسيو كوستاز costaz بعناية ٠,٥٧٧٥ من المتر . أما أقمشة الصوف المغربية فتباع فى الفحامة وفى حى المغاربة ، الذى سبق لنا الحديث عنه ، وتأتى هذه الأقمشة مع قوافل المغاربة التى تمر بالقاهرة عند سفرها إلى مكة . وللبرانس التى يأتون بها قيمة كبيرة : وهى عبارة عن معاطف مصنوعة من الصوف الأبيض بالغة الاتساع والنعومة ، وهى رداؤهم الوحيد ، ويعلوها فى بعض الأحيان غطاء للرأس ، وتزينها شراريب وشرائط وأبزيمات . وباقى الأكسية عبارة عن قطع بسيطة من القماش يلتف بها . وتباع أجمل البرانس بعشرة قروش ، وهذا الرداء عظيم الفائدة لمجتازى الصحراء ، ويعد ملائما جدا لفصل الشتاء على وجه الخصوص ، لأنه يلف الجسم بكامله ، كما أنه خفيف ، وفى نفس الوقت دافىء جدا . (انظر الملحق) .

أما شيلان كشمير فتملأ عددا كبيرا من المحلات فى حى مرجوش وحى الغورى .. إلخ ، ويتفاوت السعر من عشرين قرشا أسبانيا إلى مائة قرش وأكثر ،

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ (رقم N-9, 169، ورقم F-5, 345) .

وإن يكن من الضرورى للمشترى أن يتأكد من أنها لم يُعَد صبغها ولم يجر تجديدها . وبالنسبة لأقمشة اللبد فإن سعرها يتفاوت على أساس الاستعمال المخصصة له .

وتباع الطرابيش ، أو أغطية الرأس الصوفية فى حى مرجوش ، واللبد الأبيض الذى تصنع منه الطواقى الكبيرة فى اللبودية ، والبرانس فى حى المغاربة قريبا من طولون .

أما الأقمشة الحريرية والقطنية التى تنسج فى القاهرة لعمل الشيلان البيضاء والزرقاء فيطلق عليها «نول» ، ويبلغ سعر الواحد منها تسعين بارة . وتباع البكسا من قماش الحرير الذى يطلق عليه «دراية» والذى يتخذ منه الفلاحون عمائمهم ، بمائة وعشرين بارة أو ضعف الثمن القديم ، وعرضه نصف بكسا ، والكريش عبارة عن نسيج من الحرير الفاتح . وتباع شيلان الفيوم وغيرها بصفة خاصة فى خان الخليلى قرب الحمزاوى ، وفى الغورى (ويصدق نفس الشيء على أقمشة الحرير والستان والتفتاه) ، كما تباع فى الأمشاطية أيضا .

وأجود الأنواع من جدائل الحرير والشرائط تباع فى «سوق العقادين البلدى»[1] بثمانى بارات إلى عشر بارات للدرهم . بينما تباع خيوط الذهب التى يزين بها الحرير ، ويصنعها الأقباط ، بخمسين بارة للدرهم ونصف ، أو للمثقال . كما تباع خيوط الفضة بأربعين بارة .

والنيلة هى أشيع مواد الصباغة المحلية استخداما ، ويباع القنطار من أجود أنواعها بخمسة عشر «ريالا بلديا» بينما يباع العادى منها بسعر عشرة ريالات بلدية . ويباع الربع من الحناء الممتازة بعشرين بارة ، وإن كان من المألوف أن تباع من عشر إلى خمس عشرة بارة . وهى تأتى من الشرقية ، فى أجولة يتسع الواحد منها لأربعة عشر ربعا ، وتباع هذه السلعة فى «خان الحنة»[2] . أما الزعفران

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة . المجلد الأول (رقم K–6, 173) .

(٢) الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم I–5, 218) .

أو العصفر ، والكركم والعفصة ومواد الصباغة المستوردة فتباع فى وكالات مختلفة ، وسيكون تعدادها من باب الإطالة ، وهذه الملاحظة تنطبق على بضائع أخرى .

وجلود الماعز المدبوغة ، باللون الأصفر أو الأسود أو الأحمر بلون البقم (الخشب الملون) تباع من أربعين إلى ستين إلى ثمانين مدينيا للقطعة ، والجلود المصبوغة بأحمر الدود أو القرمزية فسعرها أربع أو خمس أو ست بوطاقات . أما جلود الجاموس والبقر التى تجهز فى القاهرة فسعرها من ثلاثمائة إلى ثلاثمائة وثمانين بارة ، وتلك التى تجهز فى أسيوط فسعرها من سبع إلى ثمانى بوطاقات . وتباع جلود السختيان المدبوغ فى القاهرة فى سوق العصر كل صباح ، وسعر جلود السختيان الواردة من المغرب من ثمانية إلى عشرة قروش (تسعين بارة) .

وتباع الآنية المصنوعة من الجلد «القسط» التى يعبأ فيها الزيت والزبد والعسل فى المناخلية[١] على مقربة من السكرية ، كما تباع فيها الجراب الجلدية ؛ أما الأنواع الأخرى فتباع فى «سوق القرب»[٢] حتى الظهر من يوم الجمعة .

ويباع خف القسطنطينية فى خان الخليلى ، ويتميز عن ذلك الذى ينتج محليا .

وتصدر مصر كمية كبيرة من جلود الأبقار والجاموس ، وقد بلغت صادراتها من قبل أكثر من ستين ألف قطعة جلد ، دون أن نذكر الأغنام التى يجرى استهلاكها بكثرة أثناء عيد إبراهيم (الأضحى) . وفى تعداد هيرودت للطبقات التى يتكون منها سكان مصر ، نص على طبقة خاصة للرعاة وحدهم وهم

(١) الخريطة ٢٦ (رقم M–6, 258) .

(٢) نفسه (رقم Q–13, 220) .

الذين كانوا دائما يرعون قطعانهم الكبيرة فى مصر السفلى على وجه الخصوص : وحتى اليوم لم يلغ هذا التمييز على نحو كامل .

وهناك سوق القلائد وسلاسل الفضة فى سوق الجواهرجية[١].

البضائع الأوربية :

تباع أقمشة الصوف الأوربية فى خان الخليلى وخان الحمزاوى . وهى على وجه الخصوص أقمشة من إنتاج مصانعنا فى الجنوب (أقمشة بالغة الرقة) ، كما تستخدم أقمشة فينيسيا الصوفية - وهى قماش سميك جدا - فى صنع سراويل المماليك ، التى يعمل اتساعها وسمكها على التخفيف من تأثير وقع الأسلحة الحادة ، وإن كانت من الثقل بحيث يجد الفارس المجندل كثيرا من المشقة فى الحركة .

٣ - المواد الاقتصادية

بضائع متنوعة :

يباع الجير المصنع فى القاهرة من خمس وثلاثين إلى أربعين بارة للقنطار ، ويستهلك إنتاجه - كما سبق القول - ثلاث حزم من البوص ، ثمن الواحدة منها عشر بارات ، أما ثمن الجبس فهو أغلى من ذلك .

ويباع الخشب المحلى اللازم للبناء والنجارة بالجملة بسعر مائة وخمسين بارة «للحمل» أو حمولة الجمل من زنة مائة وستين رطلا ، وغالبا ما يكون من خشب النبق ، بينما يباع الخشب بالتجزئة بسعر مائتين إلى مائتين وعشرين بارة . ومن المعروف أن مصر فقيرة من ناحية الأخشاب ، وأنها مضطرة إلى

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم 246 ,6-1) .

استيراد القسم الأعظم منها من الخارج ، وهناك كثير من الوكالات الخاصة ببيع أخشاب البناء[1].

أما خشب الوقود فيأتى معظمه من سوريا وقرمان ويباع بالوزن .

وفى باب الشعرية يباع بالتجزئة الفخار والخزف البلدى المعروف ، كما تباع محارق الغلايين ومنتجات الفخار والخزف الأوربى والصينى فى الموسكى . وسيكون من غير المفيد الحديث عن أسعار هذه السلع . وبالنسبة للبرادق ، أو آنية التبريد المصنوعة من طين دير الطين بالطريقة المعروفة ، فهى ضرورية وشائعة الاستخدام ، مما يستلزم أن تصنع منها كمية كبيرة ، وفى الإمكان شراؤها بسعر بارة واحدة لكل اثنتين من هذه الآنية ، وهى تعد ترفا للفقير . ومن الممكن فى هذا المؤلف أن نتأمل مجموعة الأوانى من هذا النوع ، وكل الفخاريات المصرية عموما التى جمعها المسيو ريدوتيه Redouté[2]. وهذه المجموعة الرائعة جديرة بوصف خاص ، وذلك لما تمثله من أهمية من ناحية الشكل ، وخصوصا بسبب وجوه الشبه القائمة بين الأشكال القديمة وأشكال الآنية الحديثة ، وستكون اللوحات كافية لهذا الغرض . وسنقتصر هنا على ذكر الأسماء التى جمعت بدقة بالفرنسية والعربية سواء فى القاهرة أو فى مدن مصر الأخرى ، وعلى ذكر الاستخدامات الخاصة بكل آنية منها .

ونذكر فيما يلى قائمة الأشكال الممثلة داخل اللوحات ، مصنفة وفقا للنوع :

١ – برّادية ، اللوحة EE ، الدولة الحديثة الأشكال ٢ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٢٣ . وتستعمل هذه الأوانى أساسا فى حفظ المسكرات والخل وغيرها من السوائل ، ويستخدم العرب الشكل رقم ٢ كبرميل لحفظ الذرور .

---

(١) الخريطة ٢٦ . الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم E–10,134) والسوقين رقمى 50 ، 228 بالقسم الخامس) .

(٢) انظر اللوحتين FF, EE، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى .

٢ – زلعة ، زير ، اللوحة EE ، الأشكال ٤ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٧ ، وهذه هى الجرار أو الآنية الكبيرة لحفظ الماء ، ويوضع تحت الأزيار ذات الشكل البيضاوى إناء صغير يطلق عليه البرمة ، ويطلق اسم الدّن بصفة خاصة على الجرة التى تستعمل فى صنع النيلة شكل ١٧ . وشكل ١١ زير طباشير ، وهو جرة بالغة الضخامة يوضع على جدارها القلل فى عدة مستويات .

٣ – قادوس ، اللوحة EE الأشكال ٣ ، ٩ ، ٢٠ . وهذه الآنية تستخدم فى السواقى .

٤ – الجوتارية ، اللوحة EE شكل ١٨ . وهذا النوع من الآنية يستعمل فى مصر العليا لعمل أبراج الحمام .

٥ – غطة ، اللوحة EEشكل ٢٢ . أنبيق لتقطير العرق .

٦ – قمع ، اللوحة EE شكل ٢٤ ، وهذا النوع من الآنية يستخدم كقمع لصب السكر .

٧ – ملم ، اللوحة EE شكل ١٤ . آنية كروية الشكل لها مقبضان صغيران جدا .

٨ – جب ، اللوحة EE شكل ١٥ ، وهو إناء يستعمل فى اغتراف الماء .

٩ – بلاص ، اللوحة EE شكل ٢١ . نوع من الجرار يصنع فى الصعيد ، يوضع فيها الزيت وغيره من السوائل ؛ وتصنع لها أطواف كبيرة تشبه أطوافنا الخشبية .

١٠ – قدرة ، اللوحة EE شكل ١٩ ، إناء للبن .

١١ – مصحن ، اللوحة EE شكل ١٦ ، نوع من هاونات الصحن .

١٢ – ماجور ، اللوحة EE شكل ١٣ ، آنية تحل فى مصر محل الدلو ، ويستعمل فى غسل الملابس .

١٣ – زبدية ، اللوحة EE شكل ٨ ، نوع من البرنيات .

١٤ – قلة ، اللوحة FF الأشكال ١ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، آنية واسعة الانتشار فى مصر تستعمل فى تبريد المياه ، ويطلق عليها الاسم النوعى : «بردق» .

١٥ – دورق ، اللوحة FF الأشكال ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ . آنية لها نفس الاستخدام .

١٦ – إبريق ، اللوحة FF الأشكال ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧ . اسم يطلق فى العادة على الأباريق ذات العروة ، ويعرف الإناءان الأخيران باسم إبريق الفقير .

١٧ – كوز ، اللوحة FF شكلى ١٨ ، ١٩ ، أنواع أخرى من الآنية .

١٨ – بكلة ، اللوحة FF شكل ٢٠ ، إناء آخر شائع .

وكما سبق القول فإن صناعة الزجاج المصرية ما تزال فى بدايتها ، فمن أوربا يستورد البلد البللور والزجاج العادى والمصنوعات الزجاجية التى تستخدم فى عمل قلائد نساء الريف ، وكل المنتجات الزجاجية تقريبا ، باستثناء القوارير المعروفة وأوعية المصابيح ودوارق تكثيف ملح النوشادر ، وبعض المنتجات الأخرى الأقل أهمية التى تصنع فى مصر .

وفى حى النحاسين ، أمام المارستان ، يلتقى تجار المصنوعات النحاسية وأباريق القهوة والأباريق ذات العروة والقدور والدسوت . وتباع أباريق القهوة وغيرها من مصنوعات النحاس الواردة من القسطنطينية فى خان النحاس وفى أماكن أخرى كثيرة[1] . أما القلائد وسلاسل الفضة فتباع فى سوق الجواهرجية ، وهى سوق مخصصة لهذه التجارة .

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم 229 ,205 ,5–1؛ رقم 45 ,6–1؛ رقم 28 ,8- M) .

وجميع المواد المعدنية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير والزئبق .. إلخ ، التى تباع فى القاهرة تستورد من الخارج ، خاصة من فينيسيا وتريست Trieste . وأول هذه المعادن يباع على وجه الخصوص فى وكالة الجلابة ، حيث تجلب القوافل الأفريقية مسحوق الذهب والمنتجات السودانية الأخرى . وإلى الآن لم يكتشف أى منجم منتج فى هذا البلد ، والذى يستخرج هو النحاس فقط ، وذلك منذ سنوات قليلة ، من جبل برام فى مستوى أسوان ، ومصر بحاجة إلى الأسواق الخارجية بالنسبة للمعادن التى تشتد ضرورتها فى الاستخدام المنزلى والزراعى .

وسيبقى دائما نقص الخشب والحديد وراء تأخر هذا البلد ، غير أن أحدا لم يفسر حتى الآن كيف أن مصر القديمة قد اكتفت ذاتيا من هذه الناحية خلال عدد من القرون .

ويمهر الأقباط واليهود فى أشغال الذهب والفضة ، وهم يشكلون منها حلى الأسلحة والقلائد والحُلِىّ ، ويدفع فى حلية السيف الرائعة الجمال من الفضة المذهبة مبلغ خمسة وثلاثون قرشا ، منها خمسة عشر قرشا للمعدن وأربعة سكينات بندقية وثمانية قروش للصناعة .

وتقام السوق المعروفة «بسوق السلاح» قريبا من جامع السلطان حسن ، وذلك كل صباح عدا الخميس والاثنين حيث تقام فى خان الخليلى . وهى سوق من أكثر الأسواق روادا ، ففيها تباع إلى جانب الأسلحة المحلية السيوف ودبابيس القتال[1] والخناجر .. إلخ ، وكذلك الأسلحة الأوربية : كالبنادق والمسدسات .. إلخ . ومن هذه السوق يحصل الأعراب على الغدارات التى يشترونها بنقود المسافرين الذين يكونون غالبا قد اغتالوهم فى المساء .

---

(١) هى عبارة عن عصا قصيرة من الحديد ، لها رأس حديدية مربعة أو مستديرة ، ويستخدمها الفرسان عند الاقتتال عن قرب (المترجم)

وثمة حصر من الأسل بطول تسع بكسات وعرض ثلاث بكسات ونصف ، تباع بخمس عشرة بارة للبكسا ، بينما يصل سعر الحصيرة الكبيرة إلى ستة قروش (مائة وخمسون بارة) . ويباع حمل الجمل من الأسل ، الذى تصنع منه الحصر والوارد من حلوان بالقرب من طرة ، من عشرة إلى اثنى عشر أو أربعة عشر قرشا ، أما الحصر الفاخرة التى يستعملها المماليك فثمن الحصيرة المتوسطة خمسة قروش .

وتباع فى وكالة الليمون[1] أرْحية الحجر الرملى الأحمر المستخرجة من الجبل الأحمر قرب المقطم ، والمشذبة فى الجبرونة قرب باب الحديد .

ويباع الرطل من ملح النوشادر بستين بارة عند العطارين ، ويصدق هذا أيضا على النطرون والشب والكبريت والبورق والزاج . أما أسلاك الحديد وأسلاك ورقائق الصفر ، فتباع فى البندقانية[2] ؛ وتباع الرقائق البراقة فى التربيعة[3] ؛ والحبال والأحزمة والجعب والسيور والأجربة .. إلخ فى الأمشاطية[4] ؛ وتباع السلال فى « وكالة المشنات » ، كما تباع الخيام والشباك فى الخيامية[5] . وتساوى الخيمة التى تتسع لأربعة أفراد سبعة إلى ثمانية قروش ، ويوجد منها ما يتراوح سعره بين أربعين وخمسين قرشا . وفى التربيعة أيضا يباع ماء الورد ، وسعر القنينة منه يتراوح بين ثلاثين إلى خمسين بارة ، وثمانون بارة لما يأتى من الفيوم . ويباع روح الورد بالوزن : ومن المعلوم أنه يبقى متجمدا فى الشتاء ، ويباع الدرهم ونصف الدرهم منه بستة قروش (مائة وخمسون بارة) ، أو أربعة قروش للدرهم ، وهو لا يشغل إلا قنينة صغيرة جدا .

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم D-13, 339) .

(٢) نفسه (رقم K-6, 30) .

(٣) نفسه (رقم K-6, 26) .

(٤) نفسه (رقم G-6, 312) .

(٥) نفسه (رقم P-7, 112) .

أما الخردوات وما شابهها من السلع فتباع فى الخردجية[١] والأشرفية ، وذلك مثل المرايا ومتعلقات الاستخدام المنزلى ، والأجربة ، والمنافخ ، والورق ، ومختلف أنواع التبغ ، والصابون ، والبضائع السورية ، والأقفاص أو السلال المصنوعة من الجريد ، وأطر المصابيح والقفف .. إلخ .

ويباع التبغ العادى بخمسين بارة للرطل : وفى مقابل بوطاقتين يمكن الحصول على أجود أنواعه . ويحظى تبغ «لطكيه» بكثرة الإقبال عليه ، ويباع الرطل من أجود أنواعه بسبعين بارة . وتقوم على هذه السلعة تجارة واسعة[٢] .

وقصب الغلايين بطول ثمانية إلى تسعة أفتار ، والمصنوع من خشب الجوز أو الكريز أو الليلك أو الياسمين ، يساوى بين ستين وثمانين بوطاقة : ويقدر الفتر بثلث بكسا بلدى ($١٩\frac{١}{٤}$ سنتيمتر) ، وتساوى القصبة التى يبلغ طولها عشرة أفتار مائة بوطاقة . وتمارس هذه التجارة الواسعة إلى حد كبير فى «الشبكجية» قريبا من النحاسين .

والكتبية[٣] هى حى المجلدين وصناع أغلفة الكتب ، وعمال لصق الكرتون ، ويقوم هؤلاء الرجال ببيع المخطوطات أيضا ، ولا توجد مكتبات أخرى غير مكتباتهم فى القاهرة . وقد نصادف أحيانا ، ومقابل لا شيء تقريبا ، مؤلفات من الندرة والقيمة بحيث تتمنى المكتبات فى أوربا أن تحظى باقتنائها . ويباع فحم السنط والأثل من ثلاث إلى ثلاث بوطاقات ونصف للقنطار ، كما يصنع أيضا من خشب النبق واللبخ ، ويباع بثلاثمائة وعشرين مدينيا[٤] .

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (أرقام 237 ، 235 ، 229 ،I-6 ، 254 ،H-5 ، 185 ، K-5 ، 348 ، 303 , M-9 , 24 , G-5 , 323 , F-5 , 349 ، I-6) والشوادة هو اسم لأحد الأماكن التى تباع فيها الخردوات .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم G-5,329) ، ورقم F-5,350، ورقم G-5,323) ، ورقمى G-6,312,311، والأرقام I-6,238,239,208) .

(٣) نفسه (رقم K-5,185) .

(٤) انظر الخريطة ٢٦ (رقم L-13,288، ورقم K-10,12) .

وتباع الألف من صدف اللؤلؤ بسعر ثمانين بوطاقة أو سبعة آلاف ومائتى مدينى فى وكالة «العجاتية»[١] ، وتساوى الواحدة الجميلة منها بطول سبع بوصات ما بين عشرة إلى خمسة عشر مدينيا . وتباع قلائد المرجان ، والمصنوعات الأخرى منه وقلائد الكهرمان الحقيقى أو المقلد ، والأثاث المطعم بالصدف .. إلخ فى وكالة المرجان ، وفى غيرها من الوكالات فى الحى نفسه[٢] .

وتباع مناخل الحرير والساف فى المناخلية ، وتباع مناخل الحرير الأحمر الناعم المصنوعة فى القاهرة ما بين ثلاث عشرة وخمس عشرة إلى ست عشرة بارة .

أما السجاجيد الواردة من الخارج فتباع بالتجزئة فى «خان البسط»[٣] ، وتباع الأغطية والوسائد والسجاجيد والأثاث ، وأيضا المرايا والمقاعد .. إلخ ، فى وكالة «الجبوة» . وتباع الأقطان المستعملة والوسائد والأصواف .. إلخ ، فى الماطعيين[٤] .

ويباع شمع الإنارة الذى يصنعه الأقباط من شمع العسل بما بين خمسين إلى ستين بارة للرطل فى معمل الشمع[٥] ؛ وثمن الشمعة خمس عشرة بارة ، ويجلب شمع العسل من سورية ومن بلاد البربر . ومع ذلك فبإمكان مصر أن تسد جميع احتياجاتها من هذه الناحية . وأخيرا فإن مختلف السلع الأفرنجية أو الأوربية تباع فى الموسكى وما جاوره من الشوارع ، وهى أكثر المناطق ازدحاما فى مدينة القاهرة[٦] .

---

(١) نفسه (رقم G–8,254، ورقم G–7,166) .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ ، المجلد الأول (رقم F–5,350، رقم K–6,171، ورقم K–6,172) .

(٣) نفسه (رقم I–5,219) .

(٤) نفسه (رقم L–6,301) .

(٥) انظر الخريطة ٢٦ (رقم D–5,388) .

(٦) نفسه (رقم 8,I–9,230) .

وهناك سوقان لتجار الملابس القديمة والرثاث «الدلالين» : أولهما قرب سوق المؤيد ، ويقام صباح كل يوم ؛ والآخر فى خان الخليلى ، ويقام يومى الاثنين والخميس من أيام الأسبوع .

وفى ميدان الرميلة يقام السوق الكبير للخيل والحمير والبغال والجمال : وهناك العديد من الأسواق الخاصة ببيع الحمير ، يطلق عليها سوق الحمير ، وأهمها ذلك السوق الذى يعقد كل يوم فى الساعة الثالثة بعد الظهر : وهناك سوق آخر يقام يوم الجمعة فحسب[١] .

ويباع الواحد من هذه الحيوانات بدءا من ستة قروش إلى خمسة وثلاثين إلى أربعين قرشا[٢] . ولقد سبق الحديث فى غير هذا الموضع عن الروعة والقوة والمزايا الفائقة التى تتمتع بها الحمير المصرية ؛ فهى سلالة مرغوبة جدا ومن السهل إدخالها إلى فرنسا .

ويباع العبيد السود فى ساحة وكالة الجلابة ، وهم يعرضون عرايا تماما ، إناثا وذكورا ، دون تمييز . وتباع الجوارى البيض فى وكالة الكشك وفى خان جعفر ، ويتراوح ثمنهن ما بين أربعمائة إلى ستمائة قرش (تسعين مدينيا) ، وقد يصل الثمن إلى ألف قرش .

وفى وكالة الجلابة نفسها تباع المنتجات الأخرى المجلوبة بواسطة القوافل الأفريقية ، مثل : فراء الزباد ، والببغاوات ، والكرابيج المفتولة المصنوعة من جلد فرس النهر ، والتمر هندى . ويباع ريش النعام (من الأبيض والأسود) بسعر ثلاثمائة وستين بارة للرطل ، كما يباع سن الفيل بتسعين بارة للرطل ، كذلك تباع قرون الكركدن التى تتخذ منها مقابض السيوف ، والمسك ،

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ , 13-0 بجانب رقم 292.

(٢) انظر الخريطة ٢٦ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة (رقم M–12,288) . وهو البيت الذى يقام بالقرب منه السوق المسمى سوق الحمير .

والأبنوس ، والششم ، والصمغ العربى ، والقرب الكبيرة المصنوعة من جلود الجمال .

ويقع منزل السيد أحمد المحروقى كبير تجار القاهرة بالقرب من الغورى ؛ وهو يرأس ديوانا خاصا بالتجارة ، ومعاملاته التجارية واسعة .

والصرافون جميعهم من اليهود ، وهم مكدسون فى حى واحد . ويجرى تبادل النقود الذهبية والفضية فى كثير من الوكالات ، وأكثر الأماكن ازدحاما بالناس لهذا الغرض هى وكالة الملا أو المقاصيص(١) . وتقام البورصة فى خان الحمزاوى .

وربما يكون هنا مكان الحديث عن العملات المتداولة فى القاهرة ، غير أنه يكفى الإحالة إلى الدراسة التى قام بها المسيو صمويل برنار(٢) . وفيما يتعلق بوحدات الأوزان والأبعاد والمكاييل المستخدمة فى التجارة والصناعة ، فسأقتصر على كلمات قليلة : فالقنطار هو القنطار المصرى ، وعادة ما يساوى مائة رطل ، كل رطل يحتوى على أربع عشرة أوقية وأربعة جرو وسبع وعشرين حبة : وهو يزيد على اللبرة المارسيلية(٣) . على أن الرطل ليس وزنا ثابتا : فرطل الصابون أثقل من رطل ملح النوشادر .. إلخ . ويحتوى الرطل العادى على مائة وأربعة وأربعين درهما ، ويزيد الرطل الكبير عن هذا بمقدار السدس ، أما الدرهم فهو ثابت ويساوى ثمانى وخمسين حبة وثلاثة أسداس بوزن مارك . وفى وزن الذهب والأحجار الكريمة يستخدم المثقال الذى يعادل درهما ونصفا أو أربعة وعشرين قيراطا فى كل منه أربع حبات . وتزن الأقة أربعمائة درهم .

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم I–7,44 ، ورقم I–6,43 وما حولها) .

(٢) المجلد السادس من الترجمة العربية . (المترجم) .

(٣) انظر تقديرات المسيو كوستاز Costaz عضو المعهد المصرى فى دليل القاهرة السنوى السنة السابعة والثامنة والتاسعة .

والبكسا أو الذراع البلدى هى الأكثر استخداما فى قياس الأقمشة ، ويبلغ طولها خمسمائة وسبعة وسبعين ملليمترا ونصف ، كما سبق أن أوضحت . وتستخدم ذراع القسطنطينية ، أو البكسا الاستامبولى ، فى قياس الأقمشة الواردة من تركيا وغيرها من الأقمشة المستوردة ، ويزيد طولها على طول سابقتها بحوالى عشرة سنتيمترات ، وتتوسط بكسا الهندسة هذين المقياسين ، وهى تستخدم فى قياس أقمشة الهند على وجه الخصوص ، وطولها ستمائة وسبعة وعشرون ملليمترا . وعادة ما يستخدم المواطنون أيديهم كمقياس ، فعن طريق إبعاد الإبهام عن السبابة ، مع انبساط اليد ، يكون عندنا «الفتر» الذى يساوى ثلث البكسا البلدى ، على نحو ما اتضح لنا من قبل . أما المسافة بين الإبهام والخنصر فحاصله «الشبر» ، وهو ثلث البكسا الاستامبولى ، وبمقياس واحد إلى اثنين فهو يساوى $\frac{١١}{١٢}$ من البكسا الاستامبولى على وجه الدقة . وهذه المقاييس موجودة فى النظام المترى القديم فى مصر ، فالفتر مقابل الـ Orthodoron وهو يساوى عشرة أصابع ، والشبر مقابل الـ Spithame أو نصف ذراع قديم طوله اثنا عشر إصبعا . أما البناؤون فلهم مقياس خاص اسمه «القيراط» ، وهو يساوى بكسا بلديا وثلث[١] .

ولا تستعمل القصبة التى يبلغ طولها ست بكسات وثلثين إلا فى القياس الزراعى . والأردب هو المكيال الرئيسى المستعمل فى معايرة الحبوب وغيرها من المواد الغذائية الجافة ، وأردب القاهرة أصغر من أردب رشيد ودمياط ، إذ تعادل سعته مائة وأربعة وثمانين لترا ، كما ذكر المسيو جيرار[٢] ، وينقسم إلى أربعة وعشرين ربعا ، وتكون كل أربعة أرباع ويبة Ouehbah. ووفقا لمقياس نيبور بالأقدام الدانمركية فإن القطر العلوى لهذا المكيال هو إحدى عشرة بوصة و $\frac{٧}{١٦}$ ، وقطره الأسفل سبع عشرة بوصة و $\frac{١}{٨}$ ، أما ارتفاعه فثمانى بوصات ، ويتكون الربع من أربعة أمداد .

(١) انظر بخصوص هذه المقاييس والمقاييس التالية : L'Exposition du systéme mètr des Egypte, tom. VII.

(٢) المجلد الرابع من الترجمة العربية . صفحة ٢٩ . (المترجم) .

وتناط شرطة التجارة بأحد الأغوات ، وهو يمارس مهام وظيفته بصرامة . ومن المعروف أنه يفاجىء بائعى التجزئة وهم يبيعون بموازين ناقصة ، وأن هؤلاء البائعين يتلقون عقابهم فورا على يد هذا الضابط بعد محاكمة عاجلة ، فما أن توزن السلعة حتى يكون المخالف قد طرح أرضا ليضرب فى مكانه ، وفى أثناء ذلك ينتقل الأغا إلى بائع آخر ليعامل بالطريقة نفسها . غير أن البيع بمكاييل ناقصة أو موازين غير صحيحة ليس دائما الدافع الوحيد لتوقيع العقاب ، لقد رأيت بائع بطيخ مسكينا وقد ضرب مائة وخمسين ضربة على باطن قدميه لبيعه بطيخة بخمس بارات وهى لا تساوى إلا ثلاث بارات . ويتجاوز الأغا كثيرا سلطته ، ودائما ما تسمع همسات المواطنين احتجاجا على هذه الإجراءات التعسفية .

ويسكن التجار الأجانب بيوتا يطلق على الواحد منها : «سكن» «ومنزل» ، وهى فنادق البلد ، غير أنهم يقيمون بصفة خاصة فى الوكالات ؛ وهى ضرب من المنشآت الملائمة لهذا الغرض إلى حد كبير ، وإن كنا لم نقدم تخطيطا لها فى جملة مبانى القاهرة ، فذلك على أساس أن لها تخطيطا يمثلها من حيث القطاع والواجهة فى لوحة مقارنة من لوحات الكتاب ، حيث توجد وكالات الأسكندرية ودمياط ورشيد مجتمعة . وليس هناك من شىء أفضل تنظيما من تقسيم الوكالات ، فلكل تاجر محاله وجناحه الخاص ، ويغلق على الجميع مكان واحد ، وتوكل الحراسة فيها إلى «بواب» هو فى العادة من البرابرة ، أولئك الرجال الذين عرف عنهم إخلاصهم . ويطل على الساحة من جهاتها الأربع رواق ذو أعمدة يقوم بمثابة المدخل إلى المحال المختلفة ، وفى أعلى كل منها يوجد طابقان بهما أجنحة ، وشرفة كبيرة فى كل جهة . وأخيرا هناك ممر أو رواق يفصل المحال من الخلف عن الطريق العام ، ويزيد فى تأمين هذه المنشآت : وإنى لأنظر إليها من هذه الجوانب المختلفة على أنها نماذج . وسوف أقتصر على ذكر بعض الوكالات الكبيرة التى تتخذ للإيواء : ففى القسم السابع

توجد وكالة «الركبان» وهى للتجار الروم ، ووكالة «الطوفة» وهى للتجار السوريين ، ووكالة البكير شوربجى وهى للتجار الأتراك ، ووكالة الجلابة وهى للزنوج . وفى القسم الثامن وكالة خليل أفندى ، ووكالة المغاربة ، ووكالة المجاورين ، ووكالة البيرقدار ويسكنها التجار المغاربة ، وكذلك وكالتا الأعشوبى والمواردى اللتان تستخدمان كفندقين لأولئك التجار أنفسهم .

أسواق القاهرة

تبلغ الأسواق العامة التى أمكننى التعرف عليها خلال طوافى بالمدينة حوالى ثمانين سوقا ، غير متضمنة الخانات ، ومن الممكن أن نميز من بينها ستة وخمسين سوقا هى الأسواق الرئيسية ، أشير إليها من قبل فى الفصل الأول ، وها هى واردة حسب الترتيب الألفبائى ، مصحوبة بموضعها داخل المدينة .

أسماء الأسواق	خريطة القاهرة		
	القسم	الرقم	المربع
سوق الأزهر	VII	148	K - 5
سوق باب الخرق	IV	14	N - 10
سوق باب الفتوح	V	380	D - 5
سوق الباشا	القلعة	53	T, U - 3
سوق الباطلية	VIII	117	L - 4
السوق البرانى	القلعة	58	T - 3
سوق البرسيم	IV	123	M - 15
سوق البقر	VI	148	D - 10
سوق البكرى	VI	243	K - 12
سوق البلح	V	344	B - 5
سوق التبانة	VIII	170	O - 5
سوق الجعدية	VII	94	H - 4
سوق الجلة	III	206	Q - 12

أسماء الأسواق	خريطة القاهرة		
	القسم	الرقم	المربع
سوق الجمالية	VII	289	G, H - 5
سوق الجواهرجية	VII	246	I - 6
سوق الحدادين	V	95	E - F - 6
سوق الحطب	القلعة	28	S - 2
سوق الحمام	VI	60	F - 9
سوق الحمير	III	273	P - 13
سوق الحمير	VI	286	L - 13
سوق الخراطين	VII	190	K - 6
سوق الخرزاتية	VII	171	K - 6
سوق الخرنفش	VII	310	G, H - 6
سوق الخشب	V	50	I - 7
سوق الخشب	VI	134	E - 10
سوق الخشب	V	228	I - 8
سوق الخضرية	II	101	V - 7
سوق الدلالين	VII	399	B - 5
سوق الدلالين	VII	241	I - 6
سوق الزلط	VI	140	E - 10
سوق الزلط	V	450	E - 10
سوق السباعين	III	132	Q - 11
سوق السلاح	I	20	R - 6
سوق السليمانية	V	283	E, F - 8
سوق السمك	II	120	T - 7
سوق السمك	III	137	Q - 11
سوق السمك	V	130	I - 7
سوق السمك	VI	129	F - 11
سوق الشرم	VIII	307	K - 6
سوق الصرماتية	VII	245	I - 6
سوق الصرماتية	VII	398	C - 5
السوق الصغير	القلعة	27	S - 2
السوق الصغير	III	39	S - 10

أسماء الأسواق	خريطة القاهرة		
	القسم	الرقم	المربع
سوق الصليبية	II	218	T - 7
السوق الضيق	V	352	D, E - 5, 6
سوق العزى	VIII	143	P, Q - 5, 6
سوق العصر	I	169	N - 9
سوق العصر	VII	345	F - 5
سوق العصفور	I	156	O - 8, 9
سوق العطارين	VIII	302	L - 6
سوق العقادين البلدى	VII	173	K - 6
سوق الغنم	II	100	V - 7
سوق الغورى	VII	173	K - 6
سوق الفراخ	II	76	U - 6
سوق القرب	III	220	Q - 13
سوق القواديس	IV	62	M - 11
السوق الكبير	III	96	U - 12
سوق الكردى	V	347	A - 5
سوق اللالا	III	115	T - 12
سوق الليمون	VII	402	E - 6
سوق المسكة	III	127 - 128	Q, R - 11
سوق المطرباظية	القلعة	52	T - 3
سوق المغاربة	II	144	V - 8
سوق الموسكى	V	230	I - 9, 8
سوق المؤيد	VIII	299	L - 6
سوق النحاسين	VII	276	H - 6
أسواق أخرى			
أسواق للخضر	II	79	U - 6
سوق	VII	21	I - 3
سوق	VIII	206	M - 5
سوق	II	23	X - 4

أسماء الأسواق	خريطة القاهرة		
	القسم	الرقم	المربع
سوق	II	128	T - 6
سوق	V	146	H - 7
سوق الأعشاب	VII	366	E - 6
سوق الجوارى البيض (فى وكالة كشك)	VII	223	I - 5
وخان جعفر	VII	226	H, I - 5
سوق الرقيق الأسود من الجنسين (فى وكالة الجلابة)	VII	191	K - 6
سوق الزبد والجبن	V	14	L - 9
سوق السمكرية	IV	22	M - 9
سوق مزدحم جدا	VI	256	F -12

قائمة بالخانات الرئيسية

اسم الخان	خريطة القاهرة		
	القسم	الرقم	المربع
خان البسط	VII	219	I - 5
خان الحمزاوى	V	27	K - 7
خان الحنا	VII	218	I - 5
خان الخليلى	VII	209	I - 5 - 6
خان السبيل	VII	208	I - 6
خان السكر	VII	203	I - 5
خان العقاش الكبارة	V	53	H - 6
خان الفسقية	V	28	K - 6
خان القهوة	VII	204	I - 5
خان البن	VII	242	I - 6
خان البن	VII	401	D - 5
خان النحاس	VII	229	I - 5

وخان الخليلى عبارة عن مكان مكون من العديد من الشوارع التى يضمها نطاق واحد ، وهى مليئة بمحلات غاية فى الجمال يملكها أغنياء التجار ، حيث تباع الأقمشة الحريرية ، والشيلان ، والجوخ ، والبضائع الأوربية ، وبضائع القسطنطينية .

وسوف يكون من الإطالة تقديم قائمة بأسماء الوكالات بالقاهرة ، إذ بالإضافة إلى المائتى وكالة التى توجد بالقائمة العامة لأسماء الأماكن (انظر ما سبق ، الفصل الثانى) هناك عدد كبير جدا من المحلات التجارية ، واردة ضمن هذه القائمة ، وإن كانت غير مسبوقة بكلمة وكالة ، ويبلغ عددها الكلى ما بين ألف ومائتين وألف وثلاثمائة .

المبحث السابع
ملاحظات تاريخية
حول مجموعة من المواضع

يؤرخ تأسيس القاهرة بسنة تسعمائة وسبعين (ثلاثمائة وستين للهجرة) . وهذه المدينة بناها الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، وقد حملت اسم القاهرة سواء بسبب انتصارات الخليفة أو بسبب كوكب المريخ (القاهر) ، الذى أرسيت الأساسات عند ظهوره . وقد خلفت الفسطاط ، وبعد ما يزيد على القرنين بنى صلاح الدين الشهير أول سلاطين الأيوبيين القلعة وأحاطها بأسوار[١] . تلك هى رواية عبد الرشيد البكوى[٢] .

ووفقا للمكين ، ففى سنة ثلاثمائة وثمان وخمسين (٩٦٨) فإن القائد جوهر قائد المعز أو وزيره الذى انتزع مصر من العباسيين قد أرسى أساسات القاهرة باسم هذا الخليفة . وكان ذلك وقت ظهور كوكب المريخ الذى أخذ اسمها منه . وأخيرا ، ووفقا لما يقول أبو الفدا فى «وصف مصر» إنه فى سنة ثلاثمائة وتسع وخمسين (٩٦٩) قام المعز ببناء القاهرة[٣] . وبعد ذلك بمدة طويلة ، أى بعد حريق الفسطاط ، حملت هذه المدينة اسم مصر بصفتها عاصمة لها .

وإذا كان لنا أن نثق فى رواية مؤلف الكتاب العربى المخطوط الذى ورد ذكره من قبل فى المبحث الثانى ، فإن الشعور بالغيرة تجاه العباسيين كان وراء

(١) من المعتقد أن سور صلاح الدين هو الحائط الداخلى الذى لا يزال قائما حتى الآن فى الجزء الشمالى للمدينة وهو أكثر علوا ومتانة من السور الخارجى الحالى .

(٢) انظر La Décade égyptienne الجزء الثالث ، صفحة ١٧٠ وما بعدها .

(٣) انظر ما سيأتى .

قرار الخليفة المعز لدين الله ببناء القاهرة ، إذ قام أولئك بتشييد مدينة بغداد مبالغين فى فخامتها ؛ فأراد الفاطميون طمس ذلك بروعة مدينتهم الجديدة ، وبنفس الدافع أقاموا الجامع الأزهر ليضاهى بشموخه أكثر منشآت بغداد ضخامة ، وقد قام وزيره جوهر بإرساء الأساسات الأولى للمدينة ، وأقام البناء المعروف «بالقصرين» ، والذى ذكرته وحددت موضعه فيما سبق . ولما كان قد بنى جامع الحاكم أيضا ، فإن هذا يكشف عن مدى امتداد مدينة القاهرة منذ البداية ، انطلاقا من أن حى طولون وحى الحاكم هما على وجه التقريب بمثابة نهايتى المدينة من الجنوب والشمال .

ولقد تم أولا بناء الحى الواقع شمال الفسطاط ، الذى يشغله الآن جامع طولون ، وكان الرجل المعروف بأحمد بن طولون حاكما نحو سنة مائتين وأربع وخمسين (٨٦٨) وبنى هو نفسه فى ذلك المكان قصرا وضاحية أطلق عليها «القطائع»[١] .

ومع ذلك يدعى بعضهم أن قصره كان عند سفح القلعة الحالية ، فى موضع الرميلة . على أن التاريخ لا يقدم لنا معرفة كافية بالتوسعات التى تتابعت على القاهرة ، وإن كنا – على نحو ما جاء فى المبحث الثانى – قد سجلنا الفترة التى أقيم فيها عدد كبير من المنشآت ، وأنه أينما كانت تقام المساجد وغيرها من المعالم فإن المواطنين بدورهم كانوا يشيدون مساكنهم حولها ، وبمقدورنا معرفة التاريخ التقريبى لإقامة الأحياء المختلفة عن طريق مقارنة خريطة القاهرة بهذه المعلومات .

وإلى الشرق بنى برج الجيوشى[٢] بعد ذلك بحوالى مائة وثلاثين سنة ، بين سنة أربعمائة وسبع وثمانين ، وأربعمائة وخمس وتسعين (١٠٩٤ – ١١٠١)

---

(١) إقطاع : جمع إقطاعات أو أقاطيع بمعنى حصص . انظر دراسة مسيو دى ساسى حول قانون الملكية فى ...

(٢) [illegible] مشهد الجيوشى ٤٧٨هـ – ١٠٨٥م الذى استخدم أيضا كمرقب حربى . (المترجم) .

على يد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فى عهد الخليفة أبى القاسم أحمد الملقب بالمستعلى بالله . وكان موقع هذا الحى المتطرف على الجزء السفلى من جبل المقطم ، وهذا هو الحد الشرقى للقاهرة .

وعلى نحو ما ذكرنا من قبل ، فقد شيدت القلعة فى عهد صلاح الدين ، حوالى عام خمسمائة وسبعين (١١٧٤) ، كما بنى فى سنة خمسمائة واثنتين وسبعين (١١٧٦) السور الرئيسى الذى يحيط بالقاهرة ، وبنى بالمثل السور (الذى لم نجده مطلقا حتى الآن) والذى ضمنه الباب المسمى باب البحر : وهو حد القاهرة من جهة الغرب . وكان الوزير بهاء الدين قراقوش هو الذى قام بهذه المنجزات الضخمة . وهكذا فمنذ سنة ألف ومائة وست وسبعين وإلى أيامنا هذه ، فإن القاهرة لم تشهد توسعا ملحوظا ، إلا أن يكون الامتداد الذى تحقق لحى الحسينية ، والذى بلغ – فى خلال قرنين – نفس الحدود التى لاتزال له حتى اليوم . غير أنه – وفى خلال الفترة الماضية – قد امتلأت هذه المساحة الشاسعة بكثير من الأحياء والشوارع والمنشآت والحدائق .

وقد سبق لنيبور[١] ملاحظة أنه منذ زمن J. Léon كان القسم الخارج عن باب النصر يعتبر بمثابة ضاحية خارجية للمدينة ، وهذا نفسه ينطبق على ما بين الباب الداخلى ، باب زويلة ، والقلعة ، بحيث يمكن القول بأن ثُمن المدينة الحالية ، وربما عشرها كان أيضا يعد بمثابة الضاحية ، وقد سجل الأمير ردزفيل Radzivil أيضا هذه الملاحظة الأخيرة فى وصفه للقاهرة[٢] . وفى هذه الحالة نستطيع أن ندرك المصير الذى آل إليه اليوم جدار السور الملاصق لهذا الباب الداخلى . وفيما مضى كانت القرافة ضاحية ، وقد تحولت جميعها تقريبا إلى

(١) لقد قدم نيبور خريطة صغيرة للقاهرة ، وهى تتصف بكل الدقة الممكنة إذا ما روعيت الوسائل التى كانت متوفرة لصاحبها ، فمجرد فحص الخريطة الحالية يوضح كيف أن تنفيذه لخريطته كان شاقا عليه مليئا بالمصاعب التى يتعذر تذليلها ، مما يرفع من قيمة هذا الرحالة القدير .

(٢) Ierosolym. Peregrinat. Princ. Radzivil .

جبانة ، وكان فيها - على نحو ما سبق لى القول فى غير هذا المكان - ضريح الإمام الشافعى الشهير ، إمام أهل السنة .

ولم يكن الاتصال سهلا بين الجزء الجنوبى الغربى من القاهرة ومدينة الفسطاط القديمة ، أو مصر القديمة ، وذلك بسبب الخليج . ولتذليل هذه الصعوبة بنيت القنطرة المزدوجة التى يطلق عليها «قناطر السباع» ، نحو سنة ستمائة وتسع وستين (١٢٧٠) على يد السلطان المملوكى بيبرس الذى اشتهر بشق العديد من القنوات ، وبالكثير من الأعمال النافعة .

وهناك خريطة للقاهرة قديمة جدا نعتقد أنها رسمت فى سنة ألف وخمسمائة وثلاث وتسعين ، وتحمل عنوان القاهرة الكبرى : «القاهرة التى كانت فيما مضى بابليون ، أكبر مدينة بمصر» .

ولقد بدت لى نادرة مما حملنى على ذكرها هنا ، وهى عبارة عن منظور من أعلى ، طولها حوالى نصف المتر ، ومداها يمتد من الأهرام إلى مسلة عين شمس . وهكذا فالرسام قد قرب معالم القاهرة المختلفة بغرض جمعها فوق رقعة واحدة ، دون اعتبار للأبعاد . ومع ذلك فيمكن من خلال هذه الخريطة التعرف على المدينة الأصلية بدرجة كافية : بشوارعها الرئيسية ، بميدانها الكبير (الأزبكية) الذى يغمره الماء ، بخلجانها ، بقناطرها ، وبابى النصر والفتوح .. الخ . وكذلك الشأن بالنسبة لضواحيها : بولاق ، مصر القديمة ، مجرى العيون ، وجزيرة الروضة . وتحمل هذه الجزيرة (داخل الخريطة اسم جزيرة Cerbicum). ومما يجدر ملاحظته هناك [فى الخريطة] أن عمود مقياس النيل غير مصور بجزيرة الروضة ، وإنما بجزيرة صغيرة إلى الجنوب مقابلة لجزيرة ترسة . وليس لمدينة الجيزة وجود فوق هذه الخريطة ، أما جزيرة بولاق الكبيرة فلم تكن قد تكونت بعد . أما المنطقة الواقعة بين القاهرة والنيل فإنها كانت فى ذلك الوقت أكثر عمرانا بالمنشآت منه وقت الحملة الفرنسية . وكان حى الحسينية قائما ،

حيث يشغل قصر السلطان قنصوه الغورى الزاوية الشمالية الشرقية من هذا الحى : ومع كون الرسم غير دقيق تماما ، فإنه يكشف عن أن الحى كان واسعا جدا ، ورائعا . أما المارستان ، أى المستشفى ذو الدخل الكبير جدا ، الذى يلجأ إليه الفقراء (وهذه هى الكتابة التى تحملها الخريطة) فكان موقعه خارج المدينة شرقا ، ليس بعيدا عن المقابر ، فى اتجاه السور الذى يضم بابى النصر والفتوح ؛ وهو الوضع الذى لم أجد له مثيلا فى أى مكان آخر (هذا إذا كان الرسم صحيحا فى زمنه) . ومنذ وقت هذه الخريطة امتدت مصر القديمة ناحية الجنوب ، لذلك لا يظهر عليها أى من المنازل فيما بعد مجرى العيون . وتدريبات المماليك لم يكن مكانها فى ذلك الوقت جنوب مدينة بولاق ، وذلك للسبب الذى ذكرته فى التو ، وإنما كانت تجرى فى فضاء يقع إلى الشمال من هذه المدينة ، كما أن الخريطة تحمل منظرا آخر يسترعى انتباه ذوى الفضول ، إذ يتضمن شرح الخريطة هذه الكلمات : «فى هذا المكان يقع ميدان الصيد» . ويبقى أن الخريطة يظهر عليها كذلك أشياء أخرى متميزة لها من الأهمية ما يبرر ذكرها لولا أنها غريبة عن الموضوع ؛ وعلى سبيل المثال وجود أشجار القرفة ، إذ ترى بالفعل على ضفة النيل اليسرى ، بين الجبل والنهر ، كثير من الأشجار الضخمة التى يشير إليها الشرح كذلك كما يلى : « هنا توجد الأشجار المنتجة للقرفة »[1] .

وسوف أنهى هذه المقالة ببعض الملاحظات المختصرة عن بعض الأماكن بالمدينة : فمن المعتقد أن مرصد الفلكى المشهور ابن يونس الذى توفى سنة ثلاثمائة وتسع وتسعين للهجرة (٣١ مايو ١٠٠٨) كان غير بعيد عن باب القرافة الحالى . وهذه رواية تتردد فى هذه الأماكن ، غير أن المرصد – وذلك

(١) بالنسبة للتماسيح التى وضعها الرسام على ضفة النهر ، يمكن النظر إليها – فيما أعتقد – على أنها تجميل للرسم . ويورد المسيو بيير بيلون Pierre Belon فى مؤلفه الشيق المسمى ' Observ de plusieurs singularités, etc (Paris, 1555, in - ° 4, Page 264) أنه شاهد فى القاهرة العديد من الزرافات فى قصور السلاطين : بل إنه قدم عنها صورة جيدة بالفعل ، وأعطاها اسم زرنابه .

استنادًا إلى العالم المسيو كوسان Caussin [(١)] – كان بالقرب من بركة الحبش ، الموضع الذى تحول من وقتها إلى حديقة ومبان ، والذى يقابل الموضع المسمى على الخريطة بركة طولون[(٢)]. فهذا العالم يبرهن على أن مرصدا قد أنشىء فى زمن سابق على زمن الأفضل بن بدر الجمالى ، فى الوقت الذى يقرر فيه المقريزى أن ما حدث فى عهد هذا الأخير هو أن المكان قد حمل اسم المرصد (أى بعد موت ابن يونس بأكثر من مائة سنة) . وصحيح أن الأفضل قد أنشأ فى هذا المكان كرة فلكية بالغة الضخامة ، قوامها دائرة كبيرة طول قطرها عشر أذرع ، وقد وضعت فوق أحد المساجد بالقرافة الكبرى ، أو فوق مسجد المرصد ، وهذا الموضع الأخير[(٣)] بعيد جدا عن بركة طولون ، ويقع باب القرافة على مسافة ألف وثلاثمائة متر إلى الشرق منه ؛ وإن كان مرتفعا ومناسبا جدا لأن يكون مرصدا ، ولن يكون من المستحيل أن نوفق بين وجهتى النظر . فابن يونس كان له مرصدٌ قريبا من القرافة ؛ وبعد قرن من الزمان شيد الأفضل مرصدا آخر قرب بركة الحبش أو طولون ، وذلك لأن المرصد الشرقى كان عندئذ قد هجر لعلة مجهولة . ويبقى أخيرا حالة المبنى كما قدمها المقريزى :[(٤)] « مرصد القاهرة مرتفع يشرف من الجنوب على بركة الحبش ، وهو من جهة الشرق سهل . يُتَوَصّل إليه من القرافة بغير ارتقاء . وكان يقال له قديما الجرف ، ثم عرف بعد ذلك بالرصد . ونظرا لتعذر إقامة كرة الرصد فوق مسجد الفيلة نقل المرصد إلى مسجد الجيوشى ؛ وأخيرا وفى عهد الوزير المأمون البطائحى نقل الجهاز إلى باب النصر » .

وهكذا فقد تغير مكان المرصد عدة مرات .

---

(١) انظر الجداول الحاكمية التى ترجمها المسيو كوسان دى برسفال .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم 10.238 - V).

(٣) انظر الخريطة ٢٦ ، 4 - Y .

(٤) يلاحظ أن الكاتب الفرنسى قد نقل عن المقريزى هذا النص بتصرف كبير ، وهو وارد فى الجزء الأول من الخطط المقريزية صفحة ١٢٥ وما بعدها ، تحت عنوان ذكر الرصد . (المترجم) .

وفى الجزء الشمالى كان يوجد باب يطلق عليه «باب السباع»[١]، وكان اسم الشارع الذى يجاوره هو درب السباع أيضا ، ويتخذ هذا الموقع اسمه من أسدين كانا منحوتين عند جدران الشارع ، قريبا من الباب ؛ وقد نحتا من الحجر الجيرى القوى القابل للتشكيل ، المصقول جيدا ، وخواصه هى خواص حجر «قاو الكبير» الذى يشاهد فى معبد أنطيوبوليس فى مصر العليا . وقد نحت هذان الأسدان بأمر السلطان الظاهر الذى شيد الجامع الكبير الذى يحمل اسمه والذى يقع فى ظاهر المدينة من الناحية الشمالية ، ويتناقل سكان المكان فى شىء من الخوف أنه فى إحدى الليالى رفع قايد أغا هذين الأسدين ، وحملهما إلى منزله ، ثم أعادهما إلى مكانهما .

أما الشارع الكبير المعروف بشارع «ضلع السمك» والذى يقع قريبا من القنطرة الجديدة[٢] فيقال إنه يتخذ اسمه من عظمتى حوت كبيرتين معلقتين على أحد الأضرحة ، وإن كنا نجهل الشخص الذى وضعهما فى هذا المكان ، كما نشاهد فقارية سمكة هائلة معلقة من الخارج على السبيل الجميل لحسن كيخيا[٣] ، يصل قطرها إلى ربع المتر «تسع بوصات» .

وعلى باب المتولى ، الذى بناه السلطان صاحب هذا الاسم ، لاحظت كذلك عظاما معلقة بسلاسل ، لا أعرف الغرض من ورائها أيضا[٤] .

أما ما يطلق عليه مصطبة فرعون فهو برج صغير ناقص يرتفع إلى خمسة أمتار فحسب ، وهو ملاصق لحائط جامع الجاولى ، غرب جامع طولون ، بالشارع الكبير الذى يفضى إلى القلعة [شارع مراسينا][٥] . ويمثل هذا البرج الصغير جزءا من مبنى قديم بالغ الارتفاع ، شيد فوق صخرة وأحيط بأبراج ،

---

(١) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، (رقم B - 5,349) .

(٢) نفسه (رقم O - 9,27) .

(٣) انظر N - 10 أمام حارة صفية رقم 43 .

(٤) نفسه (رقم M - 6,250) .

(٥) انظر الخريطة ٢٦ (رقم V - 10,201) .

وهذا المبنى هو قلعة الكبش . وأمام جامع الجاولى تابوت مصرى جميل من الجرانيت الأسود ، يطلق عليه المواطنون : «الحوض المرصود» ، وقد نقله إسماعيل بك إلى هذا الموضع ؛ وتتناقل الأساطير حول هذا الموضوع[1].

(١) هذا الأثر موجود الآن فى لندن ، ونجد له رسما فى هذا الكتاب A المجلد الخامس ، اللوحتان ٢٤ ، ٢٥ . انظر شرح لوحات المجلد الخامس من الدولة القديمة ، والفصل العشرين من وصف الدولة القديمة . المزيد من التفاصيل عن شوارع المدينة القديمة وأبوابها ، راجع الملحق .

المبحث الثامن

ملاحظات حول بعض العادات في القاهرة

تزدحم ميادين القاهرة العامة بالكثير من العاطلين والأشخاص الذين يشغلهم الدجالون بحيلهم ، على نحو ما نرى فى مدن أوربا : وربما أمكن الحديث بصفة خاصة عن ميدان الرميلة الواقع عند سفح القلعة ، حيث يعقد سوق دائم . وتستخدم الصخور الموجودة فى وسط الميدان كدعامات لعربات الباعة الجائلين من صغار تجار التبغ وقصب السكر والحديد الخردة .. وغيرها . وثمة مساكن ضيقة تتاخم جامع السلطان حسن الرائع ، ومن الصعب أن نتخيل آدميين باستطاعتهم الإقامة فيها ، ذلك أنها حقيرة وصغيرة ، إلى درجة يظن معها أنها خاصة بالكلاب ، فهى عبارة عن عشش دائرية ؛ ارتفاع الواحدة منها أربع أقدام ، مقامة من الطين المخلوط ببعض الحجارة ، ومفتوحة من أعلى ، وتقيم أسرة كاملة فى هذه الجحور التى يبلغ قطر الواحد منها ست أقدام . إن بؤس وقذارة هؤلاء الناس تدفع إلى النفور .

وربما ينطبق نفس الشيء على المساكن القديمة فى المنطقة ، وهى وإن كانت مقبولة المنظر من الظاهر ، فإنى عند دخولى إلى أحدها فوجئت برائحة كريهة ، ودهشت من القذارة الفظيعة التى تعمها ؛ وكانت جميع الحوائط ذات لون أسود ، مما يدل على أن هؤلاء الناس يشعلون النار فى أى مكان دون تمييز ، كما أنهم يؤون بها حيوانات مختلفة ، ويقيمون معها بلا نظام . وعندما رفعت بصرى إلى إحدى الشرفات بالطابق الثالث فى نفس المكان ، رأيت مصاريع تفتح ، وقد أخذتنى الدهشة مداها وأنا أتبين أن الرؤوس المطلة من النافذة هى

لماعز وكلاب وأغنام ! ويترك السكان فضلات هذه الحيوانات تتعفن وتتراكم على نحو مستمر ، وهذا على الأخص ، واحد من الأسباب وراء تخرب كثير من منازل القاهرة بعد مدة قصيرة ، وبالتالى هجرها وعدم التفكير فى إصلاحها . فكيف ندهش بعد هذا من أن يتسلل الطاعون إلى القاهرة فى سهولة ، وأن يُحْدث فى بعض الأحيان دمارا قاسيا ؟

وفى نفس هذا الميدان يجمع المغنون الجمهور على هيئة حلقة ، ويسمعونهم آلات النفخ والآلات الوترية . كما يشاهد حواة بالغو المهارة يلعبون بالأقداح فى براعة ، أو على الأقل فى خفة مماثلة لما لدى حواتنا ، كذلك يمارسون ألعابا أخرى مما لا يستطيعه هؤلاء فى ميادينا العامة ، وعلى سبيل المثال يقومون بجدع أنف أحد الصبية بطريقة ينتج عنها انطباع قاسٍ إلى حد يجعل الإنسان يتراجع دون وعى عند مجىء الصبى ذى الأنف المبتور دامى الوجه ليجمع من النظارة بعض البارات للسفاح . ونفس هؤلاء الرجال يدربون القردة بمهارة على القيام ببعض الألعاب ، وهم يلعبون بالعقارب والثعابين على نحو طبيعى يثير الدهشة عند رؤيته لأول مرة . وكان بيير بيلون قد لاحظ نفس الأمر فى القاهرة فى زمنه ، إذ يتحدث كثيرا عن مدربى القرود والبهلوانات ، وعن الحواه الذين يُعلّمون الكثير من أنواع الحيوان الاتيان بحركات بهلوانية بسهولة ، ومنها المعز التى يدربونها ويشدون عليها سرجًا ثم يضعون القرود على ظهورها ويعلمونها القفز والرفس ، كما يعلمون الحمير كيف تتماوت ؛ وهم لديهم الثدييات الضخمة التى سماها القدماء بالقردوحيات Cynocéphales والتى تمتاز بالوداعة ، وهى تعرف جيدا كيف تتنقل من رجل إلى آخر من مشاهدى ألعاب البهلوان ، وكيف تمد يدها مع إشارة بأن توضع فيها النقود ، لتحمل ما تحصل عليه منها إلى سيدها[1] . ولذلك فإن هذه الممارسات لم يستعرها المصريون من أوربا .

(١) Observations de Plusieurs Singularités, etc, Par P. Belon du Mans, 1588, Paris, in - 4, p, 268.

لقد سبق لى الحديث عن المقاهى التى يوجد عدد كبير منها بالقاهرة ، والتى هى المكان الحقيقى لبهجة الرجل الفقير الذى يحصل فيها بثمن رخيص على مشروب لا غنى له عنه ؛ فهو يقوم بعمل شاق تحت درجة حرارة مثيرة للأعصاب ، لكنه لا يسترد قواه عن طريق المسكرات المتخمرة . وفى هذه المقاهى يقص رواة عرب فى روعة وفصاحة معهودة كل ضروب الأقاصيص أو العجائب ، التى يسمعها المصرى للمرة العشرين بنفس سروره عند سماعه لها للمرة الأولى . ويشغل العاطلون أنفسهم بكثير من الألعاب فى المقاهى ، منها : الشطرنج والضامة والمنجلة . أما أكثر ما يبهجهم قبل كل شىء فهو خيال الظل ، الذى يعرض بصورة أساسية فى المقاهى الرومية لتسلية أتراك القسطنطينية ، وتعرض فيه موضوعات تافهة تماما فضلا عن أنها مثيرة لوضاعتها ، ومع ذلك يدخل الأطفال الصغار بحرية إلى هذه المقاهى خلال العرض .

ويعرف المصريون الألعاب النارية ، وهم يجدون سعادة فى هذه التسلية أيضا . أما ما يفضلونه على كل شىء فهو لعبة الجريد ، أو فن الرمى بالعصا إلى أقصى مسافة ممكنة ، سواء أكانوا وقوفًا أم على ظهور الخيل . وانتقل اللعب بالقوس من الرجال إلى النساء اللائى يتسلين به داخل بيوت الحريم[1] . وأكثر ضروب اللهو شيوعا هو رقص العالمة ، ولا يؤدين رقصهن بين الحريم أو فى منازل الكبار فقط ، بل إن المبتذلات منهن يقدمن عروضهن فى الميادين العامة أيضا . ويجد الناس متعة فى هذا الرقص الخليع ، وباستثناء شهر رمضان ، فإنه لا يوجد يوم تقريبا يخلو من هذا العرض . وقليل من الكلمات يكفى هنا لإعطاء فكرة عنه : تذهب العوالم عند الخاصة فى الأفراح وغيرها من المناسبات ، وهن يرقصن على أصوات الآلات ، وبمصاحبة الغناء ، ولا يشبه هذا النوع

---

(١) انظر الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، اللوحة DD، الأشكال من ٢ إلى ٢١ . والسهام مصنوعة من خشب الهند ، وغالبا ما تكون محلاة بطرف من العاج ، واللوحة توضح قوسا مصنوعة فى فارس بكل تفاصيلها ، بما فى ذلك الأسهم ، والوتر الذى يلف به القوس ، والآخر الذى يستخدم فى توتيرها ، والقفار والحلقة اللذان يساعدان فى توجيه السهم ، وأخيرا حعبة السهام ، ويمتاز هذا القوس بكونه يجمع جيدا بين القطع الجلدية والخشبية الخمس التى تكونه ، وهى التى ستوصف فى مكان آخر ، أما الرسوم والتذهيب فهى على مستوى واحد من الثراء .

من الرقص مطلقا ما نعرفه نحن فى أوربا ، إلا ما هو موجود فى جزء من أسبانيا حيث بقيت عادات الموريسكيين . ومن المعروف أن الطابع الأساسى ، وربما الوحيد فى هذه الرقصات ينحصر فى حركات الخصور المتتالية والمتفاوتة الرشاقة : وتتم هذه الحركات فى إيقاع ، وهى تساير دلالات الغناء ، وتقوم الراقصة – ويداها مزدانتان بالصاجات – بكل ضروب إيماءات الحب ، وربما جلست أحيانا على الأرض لتؤدى نفس الحركات فى ليونة وسهولة مدهشة . وفى حالة قيام اثنتين من العوالم بالرقص معا فإن واحدة منهما تمثل دور العاشق ، وتقوم ببعض مشاهد التمثيل الصامت التى لا أثر فيها لا للرقة ولا للياقة : ويتركز أكبر قدر من البراعة فى تمثيل الأوضاع ، والإيماءات الشديدة الإباحية . وفوق هذا فإن هذا الرقص ينتهى إلى أن يصير غاية فى الرتابة هو وكل ما يصاحبه أيضا ، وذلك هو الانطباع الذى استقر عند جميع الأوربيين الذين شاهدوه .

وليس لزى العالمة شىء من الخصوصية تقريبا ، على نحو ما نشاهده فى لوحات الكتاب(١) : فهذا الزى مثل زى جميع النساء الأخريات ، عبارة عن الثوب المفتوح الذى يتيح رؤية العنق كاملا ؛ أما الشعر فهو مضفور بشرائط تتخلله ، والرأس تغطيها عمامة ، أما الأهداب والمحاجر فهى شديدة السواد ؛ وتكسب الحناء الأصابع والأظافر اللون الأحمر . والشىء الوحيد الذى يميزهن هو الحزام الذى يطوق الخصور ، والذى دائما ما يسقط أثناء الرقص ليكون عليها أن تنشغل بربطه كلما انحل مراعية فى ذلك إيقاع الموسيقى .

وفى القاهرة يجرى الاحتفال بالأعياد الدينية على نحو مترف ، فالجميع يعرفون أن رمضان هو شهر الصوم ، ففيه يمنع الشرب والطعام والتدخين أو أى نوع من المتع ، وذلك من وقت شروق الشمس إلى وقت غروبها . غير أن هذا الحرمان ، الذى تتفاوت مدته على حسب الفصل الذى فيه الصوم (فى

---

(١) انظر الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، اللوحة L.L ، الأشكال ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ وهى تمثل عالمة تضرب على طبلة بإيقاع ، وكذلك تفاصيل برقعها وردائها ؛ وتمثل اللوحة MM شكلا ٣ ، ٤ عالمة ترقص ممسكة بيدها رقا ، وكذلك برقعها .

القاهرة بين عشر ساعات وأربع عشرة ساعة) ، تعقبه بهجة تكفى لنسيانه ، والفرق بين صوم المسلمين وصوم المسيحيين ، أن المسلمين يقيمون الاحتفال كل ليلة ، أما أثناء النهار فيشاهدون فى جماعات المواعظ بالمساجد فى خشوع شديد ، أو ينخرطون فى العمل ، وكثيرا ما يقضون الوقت فى النوم . وفى الليل تضاء الشوارع ويزداد صخبها : وهم يتجمعون بها فى ملابس جميلة ، حيث يتناولون الحلوى والأطعمة السكرية ، وينغمسون فى كل ضروب التسلية . أما المحلات ، التى جرت العادة بأن تفتح أبوابها فى الصباح الباكر ، فإنها تفتح متأخرة خلال هذا الشهر . ويحتشد جمع كبير من الناس فى الشوارع ، ويردد الرجال فى صوت عالٍ أناشيد دينية ، تصحبهم أصوات غير منسجمة من الدفوف والمزامير ، ويبدأ رمضان مع هلاله الذى ينسب إليه ، ويتم الإعلان عنه قبله بيومين فى موكب بهيج يتكون من جمع كبير من الرجال ، منهم من يحمل المشاعل ومنهم من يمسك العصى التى يؤدون بها بعض الألعاب . وتفتتح المسيرة بجمال تحمل موسيقيين يضربون دفوفا رنانة ، وكذلك بموسيقيين آخرين يعتلون ظهور الحمير ، ويضربون هم أيضا على الطبول ، أو يعزفون على بعض آلات النفخ الشديدة الصخب : ويلى هؤلاء رجال ذوو لباس أحمر وعلى رؤوسهم قلانس مرتفعة ذات قطعة من الجوخ الأبيض تتدلى على الظهر ، أما من الأمام فهى محلاة بالنحاس ، مما يجعل هذا الزى مشابها لزى الانكشارية ؛ وينتهى الموكب بشيوخ على ظهور خيول ذات جلال فاخرة .

ويستمر عيد إبراهيم ، أو العيد الكبير لمدة ثلاثة أيام ، يتوجه أثناءها الناس فى جماعات إلى قايتباى لزيارة المقابر ، ويشبه هذا العيد عندنا عيد رأس السنة ، ومنذ الصباح يجيء الخدم لتحية مخدومهم ، متمنين له وافر الرخاء متوسلين فى دعائهم بجاه النبى ، وبعدها يقوم سيدهم بالتصدّق عليهم . ويتردد الناس على المساجد كثيرا ، وخلال هذا العيد على وجه الخصوص يؤكل اللحم بكثرة ، ولهذا السبب تعتبر هذه العادة المظهر الأساسى للاحتفال بالعيد . ومنذ عشية العيد فإن الجزارين يذبحون عددا كبيرا من الخراف ، وتغلق جميع المحلات ،

ويجلس السكان أمام منازلهم فى رداء العيد . وفى الشوارع المزدحمة يرى صفان من الرجال جالسين القرفصاء ، وكلهم تقريبا فى مستوى واحد ووضع موحدّ ، والجميع يدخنون غلايينهم الطويلة : وإلى جانب هؤلاء يوجد الأشخاص المتنزهون الذين يملأون وسط الطريق ، وتكون المقاهى مزدحمة حيث يجرى الاستماع إلى الموسيقى ، وإلى الشعراء والرواه . وهذه هى — على وجه التقريب — أساسيات الأعياد عند المسلمين .

أما مولد النبى فيستمر الاحتفال به عدة أيام ، وخلال هذه المدة شاهدت جميع الشوارع مضاءة ، وفى ميدان الأزبكية ترتفع السوارى بالكثير من البيارق ذات اللون الأحمر والأخضر ، كما تقام السرادقات ، وفى رابع أيام العيد ، تطلق المدافع خمسين طلقة عند غروب الشمس ، وفى الليل يقبل الدراويش إلى الميدان . ويجلس هؤلاء المسلمون الورعون فى حلقات مربعى السيقان ومتمتمين بالدعاء ، كما أنهم يتمايلون برؤوسهم يمينا ثم يسارا فى حركة مستمرة متزايدة السرعة ، محدثين صوتا يشبه أنين الحيوان . وهى عادة مضنية إلى أبعد حد ، حتى بالنسبة للمشاهدين ، حيث يسقط الضعفاء من هؤلاء سريعا لتتقلص الحلقة شيئا فشيئا إلى أن يبقى واحد فحسب من هؤلاء الأتقياء هو الذى قد استمر فى هذه الحركات دون أن يتوقف للحظة واحدة ، وهذا هو الذى يحمل حينئذ لقب الولى أو الشيخ . ويشاهد فى الميدان عدد كبير من الحلقات المشابهة ، ويشارك فى هذا العيد جمع كبير جدًا[1] . أما الاحتفال بمولد فاطمة ابنة النبى محمد فيستمر هو أيضا ثلاثة أيام ، وخلال هذه المدة تبقى المحلات مفتوحة

---

(١) سأذكر حادثة كما جاءت فى يومياتى لهذه الرحلة : «بوحى من محمد ، واحتفالا بهذا العيد ، قتل أحد الأتراك هذا الصباح فرنسيا وهو ضارب طبل فى نصف الفرقة الثانية والثلاثين ، ذلك بأن أطلق عليه النار من مسدسه ، ثم أجهز عليه بالسيف : وكان هذا الفرنسى بصحبة فرنسيين آخرين لم يكونا مثله مسلحين ، فلم يستطيعا الدفاع عنه أو الثأر له ،واعتقد القاتل أنه مطارد ففر لاجئا إلى داخل أحد الآبار ،وأسرع خلفه أروام للقبض عليه : وما إن وصلوا إلى المكان الذى اختبأ فيه حتى نزل أحدهم داخل البئر وأمسك بالقاتل وأخرجه معه ، ثم سأله عما إذا كانت هناك خصومات بينه وبين القتيل أو أن هناك مؤامرة فى هذه الحادثة ، غير أن التركى قال ببساطة إنه جاءه وحى من النبى فى الصباح فرأى أن من الضرورى التضحية بأحد الفرنسيين للاحتفال بهذا العيد المقدس كما يجب . وكان الأروام فى هذه الواقعة كما هم دائما شجعان ودودين ، وهم يحاربون الأعراب البدو حتى لا يكون لهم وجود حول القاهرة» .

ومضاءة طول الليل . وفى يوم مشاهدتى الاحتفال بهذه المناسبة ، اتخذ الشيخ السادات – وهو شيخ جامع فاطمة – استعدادات ضخمة ، إذ أضيىء الجامع والحى بكامله ، كما أضيىء شارع مصر القديمة . كذلك فإن الإضاءة التى يقيمها الخاصة أكثر جمالا وأبهة مما عندنا ، فقد قام أحد بائعى التمر البؤساء أمام محله الذى لا تزيد واجهته على خمس أقدام ، بوضع خمسة عشر أو عشرين مصباحا زجاجيا صغيرا من مختلف الأشكال ، ولنا أن نحكم بنظرة خاطفة على شارع تجارى يضاء على هذا النحو ! . وفى منزل الشيخ السادات المقابل للجامع مباشرة ، كانت توجد مصابيح كبيرة للإضاءة ، يمكن وصفها بأنها كانت على شكل أشجار صنوبر ضخمة ، أو شكل أهرام مقسمة بواسطة ألواح تتخللها المصابيح . وكانت حمية التقوى على أشدها ؛ وفى مرات كثيرة رأيت من المسلمين من يلمسون الجدار الخارجى للجامع بالأيدى ، ويرفعونها بعد ذلك إلى أفواههم ليقبلوها ثم يضعونها على صدورهم . وعلى نحو ما يكون فى شوارعنا .. تزين الشوارع خلال أيام المناسبة ، فتشاهد عربات الباعة الجائلين محلاة بالورق الأزرق والأبيض ، منها ما هو محمل بالبرتقال ، وما يحمل المسكرات والحلوى .. وكان ضريح ابنة النبى موضع الإجلال ، الذى قد يصل ببعض تقاة المسلمين فى نوبات الورع إلى حدّ أن يسكبوا الدموع .

وتحيى الأضواء الكثيرة مولد السيدة زينب ، ففى الساعة التاسعة من مساء أول أيام المولد ، يبدأ الموكب فى التحرك ، وعلى رأسه أناس يحملون مشاعل كبيرة يتكون الواحد منها من قصعة من الحديد مرفوعة على قضيب تتوهج فيها أخشاب صمغية ، ثم يأتى فى أعقاب هؤلاء المنشدون وعازفو الآلات ؛ ويتتابع حملة المشاعل والموسيقيون فى دفعات ، ليأتى بعدهم ما بين ستين إلى ثمانين شخصا يحملون أهراما من المصابيح يبلغ ارتفاعها ست أقدام وبها عدة مئات من المصابيح . ويختلط بهؤلاء الرجال بعض التقاة الذين يتبعون الموكب مومئين ومرددين لبعض الأناشيد الدينية ، ويأتى فى النهاية اثنا عشر رجلا يرتدون لباسا أبيض وعمائم بيضاء ، ويختتم المسيرة شيخ الجامع الكبير . وتحدث هذه الأهرام

المضيئة أثرا بالغا ، خاصة بسبب حركتها المستمرة ، وينبغى علينا الاعتراف بأن أنوار الزينة لدى المصريين تتفوق – فى جوانب بعينها – على ما عندنا ؛ فلدينا تغلق المحلات ، فى الوقت الذى تظل فيه مفتوحة عندهم ، وبينما يكون هناك فانوس ورقى أو فانوسان كما نُشاهد أمام محلاتنا ، فإنه يكون عندهم دائما من ثمانية إلى عشرة فوانيس ، بل أحيانا ضعف ذلك . وكان جامع السيدة زينب مزينا بهرم رائع مثبت بأعمدة مضاءة يصل ارتفاعها إلى أكثر من خمس عشرة قدما ، هذا الهرم كان معلقا بالشارع ، وكان به أكثر من مائتى مصباح . وقد بلغ احتشاد الناس مداه داخل شوارع الحى كلها . وفى اليوم الثالث من المولد يتكرر الموكب على نحو ما كان عليه فى اليوم الأول .

وخلال شهر شعبان ، تقام كثير من الاحتفالات فى ذكرى عدد من الشيوخ ، منها الاحتفال بمولد الشيخ الحنفى ، وهو شخصية لها إجلالها ، وهذا الاحتفال يستمر لمدة خمسة عشر يوما ، وتبدو هذه الاحتفالات أبهى ما تكون خاصة فى المساء والليل ، حيث تتلألأ المحلات كل منها بما بين اثنى عشر مصباحا إلى عشرين ، وتكون جميعها مفتوحة ، وأمام المنازل الكبيرة تعلق ثريات فيها مئات المصابيح . ويزداد ضيق الشوارع – التى هى فى الأصل بالغة الضيق – بسبب عرض الحلوى وغيرها من البضائع ، فإذا زدنا على ذلك جموع المارة ، وضجيج الأصوات المتداخلة ورونق الملابس الحمراء وغيرها من الثياب ، فسوف تكون لدينا فكرة حول هذا النوع من الاحتفالات الذى يتميز بشىء من الاختلاف عن غيره من الاحتفالات ، إذ تنقصه بهجة حضور النساء . ويجلس الأتراك أمام بيوتهم ، أو فى محلات الحلاقين مرتدين أبهى ثيابهم ، وليس لديهم من بين أنواع المتعة سوى التدخين ، وفى يوم الاحتفال الكبير (وهو آخر يوم فى شهر المولد) شاهدت أروع ما عند المصريين من صنعة الأضواء ؛ إذ كان هناك عدد من الفلاحين والمتسكعين واقفين أمام قوارب صغيرة مضاءة تسحب عبر الشوارع بالحبال . أما شارع جامع الحنفى ، وهو شارع غاية فى الضيق وبالغ

الطول ، فقد كان بالفعل مليئا بالأضواء ؛ وهذه النظرة الخاطفة تبعث ما تبعث من السحر بفعل آلاف الإضاءات المتقاطعة والتى تنبعث أشعتها فى جميع الاتجاهات .

وعلى الرغم من فخامة هذه الاحتفالات الدينية وعظمتها ، فليس هناك إطلاقا احتفال له من الروعة والأهمية ما لمناسبة فتح الخليج ، أى خليج القاهرة . إذ يعد افتتاح السد حدثا للبلد كله ، وليس مما يدهش أن يحظى بهذه الأهمية وأن ينفرد هذا الاحتفال بهذه الأفراح المتميزة . وهو يبدأ مع غروب الشمس ، فتجوب القوارب المضاءة الفرع الصغير للنيل عند شرق جزيرة الروضة ، وفى اليوم التالى ، ومع شروق الشمس ، تزدان جميع القوارب بالأعلام ، وتحتل جماعات هائلة من الناس تلك المرتفعات الواقعة إلى جوار فم الخليج ، وتسمع فى كل مكان أصوات المدافع وأصوات الآلات الموسيقية ؛ حتى ليبدو وكأنما احتشد كل مواطنى القاهرة عند ضفتى الخليج . ويوجد – عند أعلى نقطة – ظلةٌ ينظر منها العلماء والشخصيات الهامة ، وتبدو طبيعة هذا المشهد بالغة الحيوية . ويقوم العمال منذ الصباح برفع جزء من عرض السد ، وفور صدور الإشارة ، تفتح ثلاث فتحات يندفع منها الماء بسرعة ويتحول إلى ما يشبه السيول التى تتجمع وتجذب بقية السد وتدفعها أمامها . ويثبت المنسوب فى أقل من عشر دقائق ، كما يصل الماء إلى ميدان بركة الفيل وميدان الأزبكية بعد ساعة ، ويصل خلال النهار إلى بركة الحجى على مسافة أربعة فراسخ من القاهرة ، وينثر المدينى للناس . وفى المساء تضاء جميع الأماكن حول النهر والخليج وفى قلب المدينة ، كما تنطلق الألعاب النارية . تلك فى إيجاز هى صورة الاحتفال الذى أتيحت لى مشاهدته فى السادس من فريكتيدور Fructidor من السنة السابعة .

وبعد عام تكررت المراسم نفسها مع مزيد من الأبهة ، وقد أقيمت السرادقات على الطريقة الفرنسية مزدانة بقطع من الجوخ ، وأقيم مدرج للموسيقى ،

واتخذت التلال الكبيرة الناتجة عن تطهير الخليج شكل مستويات ومسطحات ، وكان للحشود الموزعة على هذه المسطحات مظهر رائع[1] .

واستمرت الموسيقى التركية ، أو بالأحرى : استمرت الأصوات الناشذة طول الليل ، ولم يتوقف سماعها مدة الاحتفال . وصحب الشيوخ موكب الجنرال ، كما كانت تشاهد بعض نساء الأتراك من الخاصة . وعلى جزيرة الروضة ، وعند مجرى العيون وفى الحصون المختلفة ، أطلق ما لا يحصى من طلقات المدفعية والرشات . وفى اللحظة التى ينساب فيها الماء فى الخليج ، فإن حشدا من الرجال يطلق عليهم ملتقطو المدينى يسرعون إلى أسفل الظلة ، حيث تنثر فى قاع الخليج حفنات منه ، وهم مزودون بشباك مخروطية الشكل تمسك بمقبض طويل ، مع رفع الذراع لالتقاط البارات التى يلقى بها إليهم الأغا وغيره من الضباط من أعلى السرادق . ويمثل تزاحم السابحين من أجل النقود وتنافسهم مع أصحاب الشباك بمختلف أحجامها منظرا مسليا ؛ فمنهم من يخافون الغرق ، وبالتالى يحالفهم الفشل ، بينما يواصل آخرون إلقاء شباكهم ، وقد غمرهم الماء جميعا حتى رؤوسهم . ويزيد من صعوبة التقاط هذه النقود صغرها الشديد ، وكانت تلقى فى الهواء أيضا صرر بها ألف بارة ، وفى الوقت نفسه كان ينثر شيء من الملبس .

وفور أن يبدأ الماء فى الانحدار إلى الخليج يظل غير ملحوظ لبعض الوقت ، غير أنه بمجرد تفجر الفتحة بفعل قوة المياه على نحو يسمح بمرور ثلاث أقدام أو أربع من الماء يحدث ما يشبه شلالا أو مسقط مياه متدفقًا ، وينتظر القارب الأول وصول ارتفاع الماء قدمين لينزل إلى الخليج ، وتجذب لحظة الانحدار هذه الانتباه بشدة . وفى حالة زيادة ارتفاع الماء على نحو ما وصل إليه هذا العام ، يستغرق استقرار المنسوب عند جانبى السد مدة خمس دقائق من وقت بداية دخول الماء إلى الخليج .

---

(١) انظر اللوحة ١٩ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

ورغم ذلك يبقى فرق بين مستوى النيل والخليج يصل إلى حوالى ثمانى أقدام ، أما العرض فهو بين أربع وعشرين إلى ثلاثين قدما . وفى هذه اللحظة تنطلق المدفعية والرشات دفعة واحدة وتتضاعف ضجة الموسيقى . وبمجرد أن يثبت المنسوب فإن القوارب الشراعية المزينة بالأعلام من كل الأنواع تدخل إلى الخليج تابعة لاتجاه المياه . وتمارس الألعاب النارية فى وضح النهار وتطلق الصواريخ الطائرة ذات المستوى المتواضع جدا ، وفى بعض الأحيان قد يكون الإصرار من جانب البعض على التقاط البارات سببا لنحس الكثيرين ، وفى هذه السنة فإن أربعة قد غرقوا أسفل السد ، وعند قنطرة السيدة زينب وجد غريقان آخران . ويقول الأتراك عن هذه الظاهرة «إنها طُعْمَةٌ خاصة للنهر ، فكما أن النيل قد زاد .. فإنه لابد أن يطعم» . وقد يلقى الذهب أحيانا بدلا من البارات ، وكان من عادة مراد بك الإلقاء بقطع السكين ، ويروى أنه فى يوم عيد النيل حضر مع خازنداره ، ولاحظ أن الخازندار يعطى للناس الذهب ، فقال له : «يبدو لى أنك تنثر من الأموال أكثر منى» ، وأحضر له فورا العديد من الصرر الضخمة المليئة بالذهب ، فأخذ يلقى للناس حفنات من السكين . أما مشهد النيل نفسه فليس أقل مشاهد الاحتفال جاذبية ، إذ يغطى النهر كل الوادى تقريبا ، باستثناء بعض البقع التى تبدو وكأنها طافية ، حتى ليمكن وصفه بأنه بحر شاسع نثرت على صفحته جزر صغيرة .

وفيما مضى كان الباشا يرأس هذا الحفل ، وبصحبته الكبراء والضباط ، وكان للبكوات والمماليك مكان خاص . وفى مجرى الخليج فى مواجهة السد ، كانت ترتفع كتلة من الطين لها شكل غير محدد يطلق عليها «العروسة» ، وتلقى فى الماء ، أو بالأحرى ، كانت المياه تجرفها فور انفتاح السد .

ولقد رأى جميع الرحالة تقريبا فى هذه العادة ، بهذه الكيفية ، بديلا لضحية من البشر ، أو خرافة تعود إلى قدامى المواطنين ، لكن ليس هناك أدلة ثابتة بشكل قاطع حول هذه العادة القديمة ، أو حول ما جرى عليها من تغيير ،

ولذلك فهى محيرة يكتنفها الغموض والشك[١] وفى رأيى ، أنه ينبغى ، فى هذه الحالة ، أن نهمل هذه القصة التى يبدو أنها مختلقة[٢] .

لقد سبق – فى مكان آخر[٣] وصف مراسم حفل زفاف مصرى ، ولسوف أدلى بكلمات قليلة عنه . لقد حضرت حفلا مزدوجا ، بمعنى أن شخصين يتم زواجهما فى وقت واحد ، وقد جرت مراسم واحدة للمناسبتين ، وهذا مجملها : يبدأ الموكب بالطبول يتبعها الراقصون والراقصات ، وبعد هؤلاء يجىء الرجال المدعوون إلى العرس ، وفى أعقابهم النساء ، وهن دائما محجبات كالعادة ، ويصدرن صوتا مميزا مكونا من المقطع : لولولو .. تتكرر فى طلاقة غير عادية[٤] ، يلى ذلك ظلة من الحرير الأبيض والأحمر يحملها أربعة أشخاص ، وستائر الظلة مطلقة بطريقة تتيح ارتفاع الستار أو انسداله على العروس الشابة المغطاة من الرأس حتى القدمين برداء طويل سميك يعوقها حتى عن الرؤية والتنفس إلى حد ما ، ومن أجل ذلك وجب أن تكون إلى جوارها سيدتان تساندانها وثالثة تشتغل بالتهوية لها ، وتحمل العروس فى المقدمة حليها وهداياها التى تلقتها بمناسبة العرس . ويسير الزوج خلف الظلة بين شخصين من أقاربه يساندانه كذلك . هذا بالإضافة إلى جمهور غفير من الأطفال الذين يشاركون فى الاحتفال ، مع صخب شديد متواصل يشبه على وجه الدقة ضربات المطارق المتلاحقة فوق أحد الدسوت ، وأخيرا يجىء جماعة من المشاة فى خطى سريعة . وبهذا نكون فكرة صحيحة حول هذا الاحتفال . وفى نفس اليوم عند الساعة العاشرة مساء يبدأ الموكب مرة أخرى تحت ضوء المشاعل مع

---

(١) إن مرتضى هو أساسا الذى أورد هذه العادة المزعومة جاعلا شرف إبطالها إلى الخلفاء ؛ ولكننا نعرف أن «عجائب مصر» التى ألفها مليئة بالأساطير .

(٢) يورد شمس الدين فى مؤلفه المعنون بـ «الكواكب السيارة» أن إدماج الخليج الناصرى مع بركة الرطلى كان فى اليوم الأول من توت (Notice de manscrits de la Biblioth. imp., Tome I) وتجد هذه العادة العربية تفسيرا لها بفحص خريطة القاهرة (لوحة ٢٦ ، B-10) ويبين هنا أول شهر توت الانقلاب الصيفى ، وهو الوقت المعتاد لكسر سد الخليج .

(٣) المجلد الأول من الترجمة العربية . (المترجم) .

(٤) إنها تقريبا نفس الصيحة التى يطلقنها على نفس الوتيرة أثناء مراسم الدفن .

أصوات الطبول وإحدى آلات النفخ العالية الصوت جدا ، والتى تفوق حدة صوتها كثيرا صوت المزمار ، ويعزف عليها الموسيقى ببراعة فائقة ، غير أن الأنغام والموسيقى المصرية بصفة عامة تطبعها الرتابة وقلة الطرب . ولا تحضر النساء إطلاقا الحفل المسائى[1] ، فليس هناك سوى الزوج ، الذى يكون دائما متأبطا من ذراعيه . ومن واقع خطوه المتثاقل الكئيب ومنظره المهموم ، الصامت ، الذى يبدو عليه الشرود ، يصدق عليه القول إنه فى طريقه إلى العذاب ، ويبدو الراقصون والموسيقيون كما لو كان عليهم أن يبهجوه . ويأتمر الجميع بأمر قائد الاحتفال ، الذى يواصل العزف أو يوقفه بإشارة من عصاه ، وبالإضافة إلى الدفوف الرنانة التى تسير فى المقدمة ، فإن هناك طبولا كبيرة مغطاة بقماش أحمر ، وتعمل الضربات المكتومة عليها على التلطيف قليلا من وقع الصخب الجهنمى لآلات النفخ على سمع الزوج المسكين ، ويتوقف الموكب أثناء مروره بالقناطر والميادين للقيام ببعض الرقصات الهزلية المضحكة . وتمتد الأفراح لوقت متأخر من الليل .

ومن المعروف أن العادة جارية بإخراج قميص العروس وعرضه من أحد الشبابيك فى صباح العرس : وللعريس الحق فى تطليق زوجته فورا إذا هى لم تقدم دليل عذريتها . إن المرء منا ليجد صعوبة فى التصديق بوجود هذه العادة الشاذة الهمجية ؛ ومع ذلك فإن الزوج الجديد يجىء بنفسه ومعه رفاقه فى العرس ، ليقوم واحد منهم بعرض الغلالة على كل من ينظر ، ويتلقى العريس التهنئة على ذلك .

وفى القاهرة ، وعلى مقربة من باب الخرق ، يوجد مكتب للزواج ، يطلق عليه «محكمة باب الخرق»[2] ، يديره كتاب من الأتراك . وهؤلاء الذين يرغبون فى الزواج عليهم أن يدرجوا أسماءهم فيه ، وهناك يجدون أسماء راغبات فى

---

(١) ومع ذلك فهن يحضرن فى العادة الحفلة الليلية ، بل يحضرن وهن سافرات ، ولكن بسبب حضور الفرنسيين فإن هذه العادة قد تركت

(٢) انظر اللوحة ٢٦ ، المجلد الأول . الدولة الحديثة (رقم M-9,2) .

الزواج . ولم نكن شديدى الدهشة من أن نجد هذه الطريقة فى بلد يمتنع فيه رؤية زوج المستقبل قبل الزواج .

لقد سبق فى المبحث السادس إثارة الحديث عن وكالة الرقيق الأسود من كلا الجنسين ؛ ولدى هنا تعليق على البائسين الذين يساقون لكى يباعوا ، إذ تستقر قافلة الحبشة وقافلة دارفور عند وصولهما فى هذه الوكالة ، غير بعيد من خان الخليلى . وتكون النساء شبه عاريات ، أو لا تكاد تستتر إلا بقطعة واحدة من القماش خشنة للغاية ، مكشوفات الرؤوس أيضا ، مفترشات الأرض وسط الفناء ، معروضات للبيع أمام الجميع . ولقد عمنا الحزن لمشهد أولاء التعيسات : يعاملن ويبعن كقطيع ضئيل القيمة . ورغم هذا فلا يظهرن الحزن بسبب هذا المصير ؛ إذ يبتسمن للسيدات اللائى يأتين لشرائهن ومعاينتهن ، وهن على العموم ممشوقات القوام ، ذوات لون شديد الدكنة ، وهن جميعا حديثات السن جدا ، ويبعن بين ستين ومائة تلارى . وخلال الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى من مضى الشراء ، يمكن للمشترى أن يستعيد نقوده إذا لم يكن راضيات عن سيدهن ، وباستطاعتهن حمله على إرجاعهن إلى التاجر .

والدراويش فئة من المخبولين الذين يرسلون شعورهم ، ويباح لهم كل شيء ، وتؤمن بهم العامة فى تبجيل أعمى وخارق للمألوف ، وأحد هؤلاء الرجال ممن رأيتهم بالقاهرة ، وقد شاع أنه يوحى إليه من محمد ، كانت لديه عادة التجوال فى شوارع المدينة عاريا تماما ؛ وكانت النساء حتى ذوات الوضع المتميز منهن ، ممن يصادف وقت مرورهن مروره ، كن يقفن ويقتربن منه لتقبيل يده بدلا من أن يتراجعن إزاء هيئته . وذات مرة (وهو ما وجدنا صعوبة فى تصديقه) – أمسك هذا المجذوب بواحدة من هؤلاء النسوة وألقاها على الأرض وسط أحد الشوارع المزدحمة ، فنزعت سيدة أخرى – كانت تمر بجوارها – خمارها وغطت به الثنائى المحظوظ : أما المرأة الأولى فإنها قامت بنفسها بعد ذلك تخطب فى الناس قائلة إن إلهامًا من النبى قاد هذا الرجل

المبارك إلى هذا المكان ، وأعلنت أنها سترزق من اتصاله بها مخلصا مؤمنا ؛ ثم اصطحبت المجذوب معها وأعطته ثيابا ، غير أنه قام بتوزيعها على الفقراء .

ودرويش آخر اسمه الشيخ أحمد أبو حديد – وجاءت هذه التسمية فيما يقال بسبب جرح كبير فى الرقبة شفى منه بطريقة خارقة – مات أثناء الحملة ، وهو واحد من هؤلاء الأولياء المدعين الذين يجوبون شوارع المدينة عراة تماما أو مستترين بخرق بالية . وقد سار خلف جنازته جماعة ممن هم على شاكلته من الدراويش ، وكانوا يسيرون فى حلقة ويشكلون جمعا من المتشنجين ، يوجهون الرؤوس بالتتابع ذات اليمين وذات الشمال ، يصدر عنهم أنين شديد ، أو على وجه الدقة ، عويل غريب ، وقد أجهدوا لدرجة أن راحوا يزبدون ، واحتقنت الوجوه وجحظت الأعين من الرؤوس : وهذا هو نفس ما يحدث فى مولد محمد .

وسأنهى هذا المبحث بذكر واقعة أخرى كنت شاهدها . فعند عودتى من أحد الاحتفالات التى تجتذب العامة ، وجد المكارى الذى كان معى طفلة صغيرة بجانب أرجل أحد الجمال ، ولم يكن هناك من يسأل عنها ، فضم إليه هذه المخلوقة الصغيرة بقصد أن يكون لها أباً ، ولم أتمكن من منعه من حمل الطفلة معه ، وقد فعل هذا وهو يقود مطيتى . ووسط أحد الشوارع لقيت مجموعة من النساء ، يبدو على إحداهن أنها تأتى بإشارات وأصوات تدل على الفرح : فلم أتوقف لحظة ؛ وبينما كنت أواصل سيرى ، راحت المرأة تعدو خلفى وهى تصرخ : رُدّ إلى طفلتى ! فأدركت على الفور أن صيحاتها كانت صرخات ألم وليست صيحات فرح ، وأن هذه هى نفسها الأم التى أوجدتها المصادفة السعيدة فى نفس الشارع حيث كنت أسير . وليس بوسعى أن أصف سعادتها ، وارتمائها على طفلتها ، وانتزاعها من بين ذراعى المكارى . وبعد أن غمرتها بالقبلات ، قامت بتقبيل يدى أنا أيضا لوقت طويل ، وقد ذرفت الكثير من الدموع وخففت من انفعالها ، ثم راحت تقص مغامرتها على جميع أهل الحىّ ، وكم هى مدينة لى بفضل استعادة صغيرتها ، داعية بأن تحل على ألف

بركة ، مع أننى لا حق لى فى شىء منها . هذه الأم الصغيرة (كانت فى حوالى الثامنة عشرة) قد أتت من مسافة بعيدة جدا ، وراحت تعدو لبضع ساعات دون أن تجد شيئا هاديا ، بحيث انتقلت فى لحظة من ذروة اليأس إلى ذروة الفرح . وبغير شك فإنه فى مدننا توجد أمثلة مشابهة شاهدة على حنو الأمومة ، إذ توجد المرأة التى تعدو من شارع إلى شارع ، بحثا عن طفلها لساعات طويلة ، من غير أن تلجأ إلى منادين محترفين[١] ، ولكن لا يجب أن نقلل من تقديرنا للفضائل العائلية التى تطبع حياة الأسرة المسلمة من الداخل . والحقيقة أن المسلمين لا ينقصهم أىٌّ من الفضائل التى تشرف الإنسانية ، ولكن لسوء الحظ فغالبا ما تتبع هذه الفضائل العقيدة أو السياسة .

ومما يلاحظ هناك أن صيحات الحزن عند نساء القاهرة مماثلة جدا من حيث النغمة لصيحات الفرح عندنا ، والمثل الواضح هو ما يشاهد كل يوم فى المآتم . فمن يسمع الرجال والنساء المتواجدين فى المراسم الجنازية يعتقد أنهم يغنون أناشيد أعدت بقصد إطراب المارة وتسليتهم.

(١) من العادات ، كما هو الأمر عندنا ، أن يقوم مناد عام بالنداء على الأطفال المفقودين .

الفصل الرابع

وصف ضواحى القاهرة
وفقا لقائمة أسماء المواضع الرئيسية
بالفرنسية والعربية

المواضع التى بقى علينا أن نقوم بالوصف الطبوغرافى لها محصورة بين طره فى جنوب القاهرة ، والقبة فى الشمال ؛ بين ضفة النيل اليمنى من الغرب ، وسلسلة المقطم من الشرق . وهذه المساحة تصل حوالى فرسخين ونصف من الجهة الأولى ، وحوالى فرسخ ونصف من الجهة الثانية .

وتضم إلى جانب القاهرة ، الكثير من المدن الأخرى : مصر القديمة ، وبولاق ، والجيزة وهى مدينة أكثر صغرا ، وأربع جزر : جزيرة الترسة ، جزيرة الروضة ، جزيرة مصطفى أغا ، جزيرة بولاق (أو القرطية) ، وجزيرة صغيرة فى الشمال متصلة بها ، حيث أنشأ الفرنسيون محجرًا صحيًا ؛ كما تضم اثنى عشر كفرا أو قرية ؛ والبساتين من ناحية وامبابة من الناحية المقابلة ، وديرين كبيرين فى مصر القديمة ، هما : دير النصارى ، ودير «أبى سيفين» ؛ ومجرى العيون الضخم ؛ والكثير من البرك الخارجية : كبركة الشيخ قمر ، وبركة الرطلى ؛ كذلك تضم المحاجر خلف مصر القديمة وفى المقطم ؛ والحدائق فى مصر القديمة وبولاق وشمال الحسينية ، وبخاصة الحدائق الفيحاء فى جزيرة الروضة .

وتوجد مدينتان للمقابر ، تشغلان الجزء الشرقى من نفس هذه المساحة عند سفح الجبل العربى .

وهناك مرتفع ضخم مكون من الأنقاض المنقولة من المدينة ، وهو يطوقها تقريبا من جميع النواحى ، كما تشرف على المدينة النقاط المرتفعة من هذا النوع من المرتفعات ، وكذلك الشأن بالنسبة لجبل المقطم . وقد أقام الفرنسيون هناك تسعة عشر تحصينا صالحة لدفاع قوى ، هذا خلاف بطاريات جزيرة الروضة .

المبحث الأول
مصر القديمة

إن هذه المساحة التى انتهينا من الحديث عنها تشملها الخريطة العامة لضواحى القاهرة[1] ، وتقدم هذه الخريطة فكرة صحيحة عن شكل الأرض وطبوغرافية ومواقع الأماكن بالنسبة إلى النيل والجبل . ويمكننا إذن أن ندرك الدوافع التى أدت إلى اختيار هذه النقطة من وادى النيل لتقوم عليها مدينة . وقد أعطى نيبور تفسيرًا دقيقًا ، حين ذكر أن العرب وهم يقيمون الفسطاط كانوا ينشدون موقعا على مقربة من بلادهم – التى كثيرا ما كان يلزم أن يجيئهم منها إمدادات– وأن يحتل فى الوقت ذاته موقعًا وسطًا ، ولهذا لم يكن من الحكمة أن يستقروا على ضفة النيل اليسرى . ولكن كان بوسعه أن يضيف إلى ذلك أن القرب من وادى التيه «الذى يلتقى مع مجرى النيل عند البساتين» قد فرض على الفاتحين أن يختاروا موقعًا مناسبًا ليكون مركزًا عمرانيًا قرب هذا المكان : ومن ناحية أخرى فإن هذه النقطة – بابليون مصر – تقع تحت حماية الجبل العربى ، الذى يقع إلى الشرق ويمتد نحو الشمال ، وفى النهاية فإن هذه النقطة ذاتها تقع عند بداية القناة التى تتصل بقناة البحرين ، وهو ما سنراه على الخريطة العامة (اللوحة الخامسة عشرة) وعلى نحو أفضل اللوحة الرابعة والعشرون أيضا من الأطلس الجغرافى . ومن ناحية أخرى لاحظ عبد اللطيف بحق أن موقع الفسطاط يمثل اختيارًا سيئًا ، من الناحية الصحية ، وذلك لشدة قربه من المقطم واحتجاب الأثر الصحى لشروق الشمس عنه لفترة طويلة . غير أن العرب لم يكونوا قادرين فى ذلك العهد على تبين كل هذه الأفكار .

(١) انظر اللوحة ١٥ ، من المجلد الأول . الدولة الحديثة

لقد اتجه عمرو بن العاص إلى الأسكندرية[1] بعد أن فتح المدينة العاصمة التى كان الرومان يحتلونها ، والتى أطلق عليها المؤلفون العرب اسم مصر ، وصار مضرب خيمته التى تركها قائمة بدافع أقرب إلى الخيال[2] نواة المدينة الجديدة . ولقد اتفق جميع الكتاب على هذه النقطة ، ولكنهم لم يكونوا كذلك بالنسبة لموقع المدينة التى انتصر على الرومان فيها . فبعضهم يرى أنها ممفيس ، وذلك استنادا إلى الطريق التى قطعها الرومان فى رحلتهم إلى الأسكندرية ؛ ويعتقد آخرون أنها بابليون . وهناك صعوبات تعترض كلا الرأيين : إذ إن ممفيس كانت قد تحولت إلى أنقاض ، أما بابليون فقد كانت موضعا أقل بكثير من أن ينظر إليه كعاصمة . وليس هنــاك سبب لاستبعاد شهـــادة الإدريسى ، الذى بين فى كلمات موجزة جدًّا موقع مصر : «مدينة (رئيسية) ، كانت مصر فيما مضى تسمى عين شمس أيضا» . [ترجمة جابرييل سيونى] . فهو إذن يقصد عين شمس ؛ هذه المدينة الكبيرة التى أمكن لها ، هى وممفيس أن تشتهر كل منهما كمدينة عاصمة ، غير أن المدينة التى كانت تقع ناحية النهر هى عين شمس وليست ممفيس ، وهذا هو ما يوضح الطريق الذى اتخذته القوات الرومانية . وهكذا ، فبينما لاذ قائدهم المقوقس مع الحامية بجزيرة الروضة ، قام الجيش بعبور النيل متجها إلى الأسكندرية . صحيح أن الإدريسى نفسه فيما كتبه عن الفسطاط ذكر ما يلى : «الفسطاط هى نفس المدينة التى تسمى مصر» ، وبما أن عاصمة مصر كانت تعرف دائما لدى العرب باسم «مصر» ، (وهى الكلمة نفسها التى تطلق على مصر كلها) لذا فإن هذه العبارة تعنى

---

(١) وفقا لعبد الرشيد البكوى فإن عمرًا حاصر الأسكندرية فى السنة التاسعة للهجرة «٦٣٠» ومد هذا الحصار لمدة أربعة عشر شهرا، وهذا التاريخ يختلف كثيرا عن ذلك الذى أقره المكين : انظر «المقتطفات من جغرافيته» للمسيو مارسيل . (Décade égyptienne ، الجزء الأول صفحة ٢٧٨) .

(٢) لقد وضعت يمامة بيضها أعلى الخيمة ، وهو ما كان طالع يمن بالنسبة للعرب : وقد أمر عمرو بتركها آمنة حتى يفقس بيضها ويخرج صغارها . وأضاف كما يقول الإدريسى «لسنا أولئك الناس الذين يسيئون إلى من يحتمى بهم ، ولا من يهين ولو حمامة بتحطيم بيضها» . (ادريسى افريقيا ، القسم الثالث ، المبحث الأول ، الصفحة ٣٦٦، من شرح المسيو هارتمان . ويؤكد المكين هذه الطرفة ، بينما يقف أبو الفدا عند قول أن عمرًا بنى الفسطاط بالقرب من قصر الشمع ، وأن جامع عمرو كان على مسافة قريبة من المكان الذى كانت فيه خيمته .

بالتحديد أن الفسطاط هى العاصمة اللاحقة . وليس رأينا هذا سوى ضرب من الحدس ، ومع ذلك فهو يزيل كل الصعوبات تقريبا فى الوقت الذى لا نجد لدينا قولا غيره .

أما عن كلمة فسطاط ذاتها ، فإنها فى العربية تعنى : خيمة ، ولكنها على وجه الخصوص خيمة متخذة من جلد الماعز[1] ، إذن فليس هناك ما يحول دون التسليم بأن المدينة قد أقيمت فى المكان الذى ضرب فيه فاتح مصر خيامه ، وأن تكون قد اتخذت اسمها نفسه من هذا الحدث ، ويقدم التاريخ الشيء اليسير جدا عن مدينة الفسطاط إلى أن حلت القاهرة محلها ، كما أننا نجهل مدى الاتساع الذى وصلت إليه ، ونستطيع فقط أن نفترض أنها امتدت إلى الشرق وإلى الجنوب حتى المناطق التى تشغلها تلال الأنقاض . ويحدها النيل ومجرى العيون مع فم الخليج من الغرب والشمال ، ولا أظن إذن أن الفسطاط قد امتدت على الإطلاق إلى ما يزيد على ألفين وأربعمائه متر فى جميع الاتجاهات ، ومع ذلك فقد استمرت مدينة رئيسية لمصر منذ سنة عشرين للهجرة (٦٤٠)[2] وحتى سنة ثلاثمائة وتسع وخمسين (٩٦٩) ، حين فتحت مصر فى عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، الذى أرسى أساسات القاهرة ؛ أى خلال ثلاثمائة وتسع وعشرين سنة . وفى الحقيقة فإن فسطاط مصر – وفقا لأبى الفدا (ترجمة سافارى Savary) – كانت حاضرة للامبراطورية المصرية حتى أنشأ ابن طولون ضاحية القطائع ؛ غير أن هذا لا يستقيم مع قول آخر لنفس المؤلف ، فيه أنه «فى سنة خمسمائة وأربع وستين للهجرة (١١٦٨) احتل الفرنسيون [أثناء الحملات الصليبية] تحت قيادة عمورى Amowry مدينة القاهرة ، فقام شاور وزير الخليفة العاضد بإحراق الفسطاط خشية أن تسقط فى أيديهم ، وبقى الحريق بالمدينة لمدة أربعة وخمسين يومًا» . وإذا كانت مدينة الفسطاط قد بقيت لها هذه الأهمية بعد مضى مائة وتسعة وتسعين عاما على إنشاء القاهرة ،

(١) La Décade égyptienne، الجزء الثالث صفحة ١٦٩ .

(٢) انظر فيما سبق ، ووفقا لعبد الرشيد البكوى فإن الفسطاط قد أُنشئت سنة ٢١ (٦٤١) .

فكيف إذن يتوقف اعتبارها عاصمة قبل إرساء قواعد القاهرة بقرن من الزمان ؟ وكيف صارت القاهرة كذلك إذن ، إذا لم تكن قد أحيطت بالأسوار إلا فى سنة خمسمائة واثنتين وسبعين للهجرة (١١٧٦) ؟ . ومن المستحيل أن نفهم ذلك فى ضوء ما سبق لى ذكره للتو ، حول موقع المدينة القديمة ، وهو ما يمكن للجميع أن يتأكدوا منه على الخريطة (اللوحتين ١٥ ، ١٦) ، كما أننى لن أتطرق إلى شرح الفقرة التى يذكر فيها الإدريسى أن طولها ثلاثة فراسخ .

والاسم الحالى للمدينة الذى أطلق عليها بعد اسم الفسطاط هو مصر العتيقة ، أو العاصمة القديمة ؛ غير أن الرحالة المحدثين (وقد سبقت هذه الملاحظة) يطلقون عليها اسما غير دقيق ، وهو : «القاهرة القديمة» ، إذ إن الفسطاط لم تحمل أبدا اسم القاهرة ، الذى هو مجرد نعت أطلق للمرة الأولى فى عهد المعز لدين الله تمجيدا لانتصاراته . واستخدم هؤلاء الكتاب كلا من اسمى القاهرة ومصر أحدهما مكان الآخر ، ومع هذا فقد بقى اسم القاهرة القديمة ، وهو ذو استخدام عام .

أما المساحة التى حددناها لمكان الفسطاط فإنها تضم قصر الشمع ، وهو سور كبير لن أتوسع بخصوصه على الإطلاق ، فهذا المكان الذى يضم آثارًا قديمة وعديدًا من الأديرة القبطية ، قد وصف فى الفصل التاسع عشر من الدولة القديمة بقلم المسيو دى بوا إيميه ، كما تضم الجامع الشهير الذى يحمل اسم عمرو ، وهو أقدم المنشآت الدينية الإسلامية ، وجامعًا كبيرًا آخر يقال له : جامع أبى السعود[1] ، ودير أبى سيفين الكبير .

ونظرا لوجود قائمة لأماكن المدينة فى نهاية هذا الفصل ، فإننى سأقتصر على القليل من الكلمات حول تفاصيل تقسيمها ومبانيها .

---

(١) يقصد جامع الشيخ أبى السعود الجارحى وهو ما يزال باقيا إلى اليوم ، وقد مر بعدد من مراحل التجديد والإضافات . (المترجم) .

أما جامع عمرو فقد أقيم مكان كنيسة للمسيحيين أزالها من مكانها ، ووفقا لقول عبد الرشيد البكوى فإن القرآن كله كان مكتوبا هناك بالخط الكوفى فوق ألواح من الرخام الأبيض ، والعناوين ملونة بالأزرق ومذهبة . وكان تقريبا على شكل مربع طول ضلعه مائة وعشرون مترا ، ولتخطيطه شبها كبيرا بتخطيط جامع الحاكم ، وجامع طولون على وجه الخصوص . وهو عبارة عن صحن متسع محاط بأروقة ؛ ذات خمسة صفوف من الأعمدة فى جانب ، أما فى الجوانب الأخرى فلها صفان أو ثلاثة صفوف من الأعمدة . وعلى الرغم من سوء حالته ، فإن المتدينين فى القاهرة مستمرون فى التردد عليه . وأما ما يطلق عليه هُرامات يوسف وسويقة القمح فهى نطاقات غير مغطاة ، محاطة بأسوار قوية حيث تخزن المؤن من الحبوب الواردة من الصعيد . ويمكن أن يكون هذا اللقب مستمدا – شأنه شأن اسم البئر ، وقصر القلعة – من اسم يوسف صلاح الدين ، أو اسم سلطان لاحق ؛ ولكن من الرحالة مَنْ يؤكد أن هذا الموضع هو مخازن القمح التى أنشأها يوسف الصديق .

وفى أقصى الشمال يقع مأخذ مياه مجرى العيون «المجرى» أو ساقية المجرى ، وهو المجرى الذى يأتى بالمياه إلى القلعة والذى نفذه الغورى – أحد أواخر السلاطين الشراكسة – بعد سنة سبع وتسعمائة (١٥٠١) ، وهو يؤدى مهمته حتى الآن[١] . ومأخذ الماء بناء عال ضخم يتخذ الشكل السداسى ، يصل ارتفاعه إلى حوالى واحد وعشرين مترا (٦٣ قدما) وهو نفس طول ضلع السداسى . وتوجد عند القمة سبع سواقى ذات قواديس ، وعدد مماثل من الثيران تديرها وترفع الماء إلى الطابق العلوى لينساب داخل المجرى[٢] .

---

(١) انظر الدولة الحديثة . المجلد الأول ، اللوحة ١٦ (رقم ٥٢) ، واللوحات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

(٢) يذكر المسيو ماييه حمس آبار شبيهة ببئر يوسف فى أدائها وعمقها ، واقعة بين أنقاض مصر القديمة عند سفح الجبل ؛ وفى زمنه كانت أربع منها غير صالحة ، أما الخامسة فكانت لا تزال تجود بالماء . ويقول إن اتساع فتحتها هو عشر أقدام فى ثمانى أقدام : وأعتقد أنه الرحالة الوحيد الذى ذكر هذه المنحرات .

وفى «مصر القديمة» تجهز الشحنات لمصر العليا ، كما تحصل الرسوم عن المراكب التى تتجه إليها محملة بالقمح والشعير والفول والبلح والسكر والماشية .. الخ ، وذلك ما أدى إلى ازدحام هذا الميناء ، وازدهار التجارة فيه ، كما يتوقف عنده بغير انقطاع عدد كبير من المراكب ، وعلى وجه العموم فإن النظرة الخاطفة إلى مصر القديمة توضح أنها مبهجة تتسم بالحيوية والجاذبية . وهناك طريق طويل محفوف بأشجار السنط العطرية يربط بين مصر القديمة ودير الطين ، وهى قرية جميلة[1] ، وتمثل نهاية إقليم اطفيح عند المرور بأثر النبى ، وقد سمى هذا الموضع كذلك لاعتقاد المسلمين بوجود أثر لقدم «النبى محمد» فوق أحد الأحجار هناك .

وتضم مصر القديمة حوالى عشرة آلاف مواطن منهم ستمائة من المسيحيين ، ولهؤلاء فى القاهرة وضواحيها اثنتا عشرة كنيسة ، من بين أجلها تلك التى تحمل اسم القديس سيرجى Saint-Sergé ، أو سيرجيوس Sergius ، بسبب مغارة التجأت إليها العائلة المقدسة[2] . وسنرى أسماءها فى القائمة بالفصل التالى ، غير أننى أعتقد بعدم كمالها فى هذا الصدد . ويشاهد دير القديس جورج Saint-Georges من مسافة بعيدة فوق جبل عال بنفس الاسم ؛ ويوجد عدد من الصوامع بين هذا الدير والمدينة . وأخيرا ، هناك إلى الشمال ، قريبا جدًا من مجرى العيون ، دير كبير (هو فيما أظن دير القديس مقار Saint-Macaire) .

---

(١) انظر اللوحة ١٨ الدولة الحديثة . المجلد الأول .

(٢) وفقا للمسيو روناتى Renati فإن مغارة القديس سيرجيوس كانت تقع خارج المدينة ، Décade égyptienne ، الجزء الثانى ، صفحة ١٨٠ .

المبحث الثانى

جزيرة الروضة

جزيرة الروضة ليست جديرة بالملاحظة لمجرد اتساعها ، أو متنزهاتها ، وحدائقها البهيجة فحسب ، ولكنها كذلك تجذب الانتباه لاعتبارات تاريخية . فقد لاذ بها مع قسم من الحامية الرومانية والمصرية القائد المقوقس الذى كان يحكم من قبل الامبراطور هرقل ، بعد أن هزم وطرد من الحصن على يد عمرو[1] ، وقد سبق لى الحديث فى موضع آخر عن اتفاقية التسليم التى تمت بينه وبين الفاتح ، والتى حددت مصير مصر[2] . وفى زمن الفتح كانت تسمى فقط ، «الجزيرة» ، أو «جزيرة مصر» ، وكانت ما تزال غير محصنة . وليس من المعروف الزمن الذى تكونت فيه ، ولكن الثابت أنها سابقة على وصول العرب : وربما كانت ناتجة عن شق القناة المعروفة باسم أمنيس تراجانوس ، من أعمال أدريان ، وأن الفرع الصغير من النيل الواقع جهة اليمين منها – ربما – هو بداية هذه القناة نفسها ، ثم تعاظمت نتيجة اندفاع التيار ذاته فى هذا الجزء بقوة ناحية الغرب ، حيث انحدار القناة أخف كثيرا من مثيله فى النهر . ومما يؤيد فرضنا أن هذا الفرع الصغير بلا ماء على الدوام ، وفى زمن الإدريسى كان هذا الموضع يسمى «دار المقياس»[3] . ونرى العديد من المنازل الجميلة مقامة على الشاطىء ، وعند ارتفاع المياه كان الوصول إليها يتم بواسطة جسر من ثلاثين قاربا ، كما كان الاتصال بين الجزيرة والجهة الأخرى للنهر عن طريق جسر آخر من ستين

---

(١) لقد أورد المقريزى هذا الحدث ، كما أورده غيره من الكتاب . انظر رحلة عبد اللطيف ترجمة المسيو سيلفستر دى ساسى .

(٢) انظر : Ant. - mém., t. IX (Mém. sur la population ancienne et moderne, pag 103)

(٣) القسم الثالث ، صفحة ٣٦٩ من شرح المسيو هارتمان Hartmann .

قاربا ، يربطها بالجيزة . وهذان الجسران اللذان ذكرهما ابن الوردى أيضا ، واللذان لم يعرفهما النيل منذ قرون ، أقيما من جديد ، ولكن على نقاط مختلفة ، أثناء إقامة الجيش الفرنسي . وقد أقيمت الجسور منذ فتح عمرو بين الجزيرة وموقع بابليون ، وبينها وبين الضفة اليسرى للنهر . وإذا أخذنا بشهادة جلال الدين[1] فقد قطع الرومان هذا الجسر ، ثم أعاد العرب مده عقب تسليم المقوقس . وكان عرضه حوالى أحد عشر مترا وخمسة وخمسين سنتيمترا . وقد أصلح الخليفة المأمون الجسر المزدوج فى سنة مائتين وعشر (٨٢٥) ، وأصلحه المعز فى سنة ثلاثمائة وأربع وستين (٩٧٥) ، والسلطان الظاهر بيبرس فى سنة ستمائة وأربع وستين (١٢٦٥) . وفى زمن المؤلف العربى [السيوطى] فى سنة ثمانمائة وخمس وتسعين (١٤٨٩) ، لم يكن قد بقى منه الكثير .

وفى زمن الإدريسى كان طول الجزيرة ميلين تقريبا ، وكان عرضها مسافة رمية سهم . ويصل طول الجزيرة بحساب الميل العربى الصغير ذى الست والستين درجة وثلثى الدرجة .. إلى أكثر من ثلاثة آلاف ومائة متر : وفى أيامنا هذه نجدها تبلغ ثلاثة آلاف ومائة وخمسين مترا فى الطول ، وخمسمائة وسبعين فى العرض[2] ، وعلى ذلك فمن وقت هذا المؤرخ ، أى منذ حوالى سبعة قرون ، فإنه لا يبدو أنه قد حدث لها تغير ملموس ، غير أنه لا يلزم أن نتخذ ذلك مقياسا على التغييرات التى تحدث فى مجرى النيل . وعند الطرف الجنوبى ، ولمسافة محددة ، نجد الجزيرة محاطة بحاجز من الأرصفة يصد عنها ضربات المياه القوية . والواقع أن عمق النيل فى هذا الجزء يصل ما بين ثلاثين إلى أربعين قدما بحسب قوة الفيضان ، ويبلغ عـرض النهر أمـام رأس الجزيرة

(١) انظر تاريخ مفصل لجزيرة الروضة نقلا عن جلال الدين السيوطى يعود إلى سنة ٨٩٥ (١٤٨٩)، فى ملاحظات وتوضيحات المسيو لانجليه Langlès. حول رحلة نوردن Norden الجزء الثالث، الصفحة ٢٠٣ ومابعدها .
(٢) انظر الدولة الحديثة ، اللوحتين ١٥ ، ١٦ .

حوالى سبعمائة وخمسين مترا[1] . والدرج المنحدر إلى النهر عند الطرف الجنوبى من الضفة الغربية يسمى عند العوام من المسيحيين بسلم موسى ، إذ يزعمون أن الصندوق الذى كان يحمله قد عثر عليه عند أسفل هذا الدرج طافيا على سطح الماء . وقد تبينت أن عدد درجاته اثنتان وعشرون ، مثلما افترض أنه نفس عدد أذرع المقياس ، وذلك على الرغم من أن العمود لا ينقسم إلا إلى ست عشرة ذراعا فقط . وفضلا عن ذلك فإن هذا السلم من الممكن أن يستخدم كمقياس نيلى على نحو تام ، إذ إنه ينحدر حتى قاع النيل ؛ ومن ثم فإن الغموض الذى كان يكتنف من قبل مقدار زيادة النيل كان أمرا غير معقول . وعلى مقربة من هذا الموقع ينتهى طريق طويل من شجر التين ، أجمل الأشجار فى مصر كلها ؛ طوله ألف ومائتا متر . ويظلل صف واحد من الأشجار طريقين ، إذ يصل عرض المساحة التى تغطيها بظلها الكثيف مائة قدم ، وجذع أضخمها يصل قطره ما بين ثمانى إلى عشر أقدام ، أما ارتفاعها فيصل إلى مائة وعشرين قدما[2] .

ويسلمنا التقدم جنوبا إلى حديقة المقياس ، حيث يتكفل عدد كبير من أشجار البرتقال والليمون الدائمة الاخضرار والنضارة بجعل المكان رائعا ، والهواء معطرًا بأطيب الروائح ، فى الوقت الذى تصدر فيه آلاف العصافير أنغامها . وعلينا ألا نبحث فى هذه الحدائق (كما قلنا ذلك سابقا) عن ممرات ومماشى للنزهة ؛ إذ يمكن الاستراحة هناك تحت ظلل دون أن يكون التنزه فى الإمكان ؛ فالأرض خالية من النجيل ، والأزهار برية ، فهى إلى الغابات أقرب منها إلى الحدائق . وحيث إن هذه النباتات البرية قوية ووفيرة ، لذا فإن الهواء معطر وبرودة الظل أحسن ما يكون وسط درجة حرارة محرقة ، حتى إننا نؤكد

(١) يعطى نيبور عرضا للنيل أمام الجيزة ٢٩٤٦ قدما ، وفى هذا مبالغة ، لأن عرضه هنا لا يتجاوز ثمانمائة متر ، وهو يزيد عن خمسة أمثال عرض السين عند الجسر الملكى .
(٢) انظر الدولة الحديثة ، اللوحة ١٧ شكل ٢ .

أن الشرقيين يستمتعون هناك بالراحة – على الأقل – بنفس القدر الذى نشعر به فى حدائق أوربا .

ومع استمرار السير نحو الجنوب نجد أنفسنا وسط مبانى مقياس النيل الشهير ، وهو واحد من أقدم ما أنشأ العرب : وقد كثر التأريخ له بما لا نجد معه مكانا هنا للتكرار ، ولحسن الحظ سيجده القارىء فى هذا المؤلف كاملا دون أن يحتاج للرجوع إلى غيره من المؤلفات ، وسيكون كافيا بالنسبة للكثيرين أن يطلعوا على دراستى المسيو مارسيل والمسيو لوبير[١] . ويكفينا القول هنا أن ظاهره عبارة عن جدران سميكة صالحة للدفاع ، وقد قام الفرنسيون أيضا بتدعيمها .

ولقد كان هنا دون شك الحصن الذى أنشأه أحمد بن طولون ، وذلك وفقا لما يذكره المقريزى[٢] ، كما كان هنا أيضا ذلك الحصن الذى أقامه نجم الدين . وكان قصر هذا الأخير أيضا موجودا نصف متهدم فى وقت الحملة : وقد تم رسم واحد من أبواب هذا المبنى فى هذا الكتاب . وفيما يتصل بساحة التعمير وبالمبنى المعروف بالهودج حسب ما يذكر نفس المؤرخ[٣] ، فنحن نجهل فى أى مكان بالجزيرة يجب البحث عنهما . هذا ويوجد فى الداخل العديد من الكفور التى تؤوى مزارعى هذه الجزيرة الغنية بالحبوب والفول ومختلف أنواع الخضروات ، وفى زمن الحملة حُوّل مسجد جميل كان مهملا إلى طاحونة للدقيق[٤] .

ولموقع الروضة مزايا أدهشت الفرنسيين ؛ فكونها محاطة بماء النيل يسهل الدفاع عنها ، وتحصينها ، وكذلك ربطها بجزيرة بولاق ، وإثراؤها بالحدائق

(١) انظر الدولة الحديثة ، الجزء ١٨ صفحة ٥٥٥ ، والجزء ١٥ صفحة ١ .

(٢) رحلة عبد اللطيف ترجمة المسيو سيلفستر دى ساسى صفحة ٣٨٨ . فى حين أن هناك فى الجزء الشرقى موقعًا آخر لما يسمى «بقصر الروضة» .

(٣) رحلة عبد اللطيف ترجمة المسيو سيلفستر دى ساسى صفحة ٣٨٨ .

(٤) انظر اللوحتين ١٦ و ٢٢ الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

الجميلة . وهى بمنأى عن الآثار الخطيرة الناتجة عن موقع القاهرة ، مثل كونها تحت وهج المقطم ، وكونها عرضة لانعكاس وهج الشمس ، وزحف الرمال ، ومن هنا صمم القائد المهندس كفرلى Caffarelli مشروعا لجعلها نواة لمدينة فرنسية . وفى السنة الثامنة (شهر ترميدور) قام الجنرال مينو Menou بتخطيط مدينة هناك وكذلك وضع كثير من تخطيطات التنظيم . وهو موقع أفضل من موقع بطن البقرة الذى كان قد سبق اقتراحه كذلك .

وهناك تاريخ خاص بهذه الجزيرة ، يسمى «كوكب الروضة» لجلال الدين السيوطى . ويذكر أنه فى سنة سبعمائة وإحدى وستين (١٣٥٩) وصل فيضان النيل إلى أربع وعشرين ذراعا ، وهَدّم المنازل لمسافة كبيرة ، وهُرِع الناسُ إلى الصحراء ، وغُمرتْ جزيرة الروضة بالكامل : كان ذلك أعلى الفيضانات التى حفظت لنا الروايات أخبارها . وواضح أن عشرين ذراعا وواحدا وعشرين أصبعا كافية لغمر الجزيرة ، وكان هذا ما حدث فى سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين (١٤٧٧) . وينبغى الإحالة إلى الدراستين اللتين ذكرتا آنفا ، وإلى لوحات الأطلس[١] ، فى كل ما يتصل بالجزيرة ومقياس النيل .

(١) انظر اللوحتين ٢٣ و ١٤ الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

المبحث الثالث

الجيزة وبولاق

تقع مدينة الجيزة الصغيرة مقابل مصر القديمة على وجه الدقة ، ويفصلهما النيل الذى يزداد عرضه فى هذه المنطقة ، والرأس الجنوبى لجزيرة الروضة ؛ وهى مسوّرة وحصينة من ناحية الغرب ، أو من جهة الأهرام ، وأطول امتداد لها يكون بمحاذاة النيل ، حيث يبلغ حوالى ألف وخمسمائة متر ، ونجهل الزمن الدقيق لنشأة هذه المدينة : إن منشأها يرجع بغير شك إلى ارتياد هذه المنطقة بكثرة ؛ فهنا كان يتم الإرساء عند القدوم من القاهرة فى اتجاه مصر العليا ، ولهذا السبب – فيما أرى – كان هذا المكان مأهولا دائما منذ تأسيس الفسطاط ، وربما منذ إقامة بابليون مصر ؛ وقد أقام الفرنسيون هناك جسرا من القوارب ، ويزيد فى تأكيد هذا الرأى اسم الجيزة ذاته ، إذ إن معناه «المعبر»[١] .

إن قائمة منشآت الجيزة التى ستصادفنا فيما بعد تعفينى من وصف المدينة ، وسوف أقتصر على الحديث عن قصر مراد بك الذى يقع فى الطرف الشمالى : ويشتهر بحدائقه وعرائشه الرائعة ، وبمراجعة لوحات الكتاب يمكننا أن نكون فكرة عنها[٢] ؛ إنها مخالفة فى تقسيمها للعرائش الإيطالية ، ولكنها ليست أقل منها جمالا ولا متعة ، ويعود ذلك إلى ظلها الظليل ؛ أما المتنزه الذى تكونه فإنه عبارة عن عريشة عريضة يقرب طولها من مائتى متر . وفى الجامع الكبير بالجيزة يحفظ «قصب» المقياس الذى يستعمل فى قياس الفدان ، وهو مقياس زراعى . ومقياس الجيزة هو القصب الرسمى وهو الأكثر انتشارًا ، وطول القصبة

(١) انظر ما قيل عن جسر القوارب الموصل إلى الجيزة ، فى المبحث الثانى .

(٢) انظر اللوحة ١٧ ، الشكل ٣ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

ثلاثة أمتار وخمسة وثمانون سنتيمترا . وأبعاد الفدان هى عشرون قصبة فى كل اتجاه ، أى أن فى الفدان أربعمائة قصبة مربعة . وفى الجيزة مصنع للزجاج ومعمل للزجاجات والأنابيق لتكثيف ملح النوشادر .

ويضم سهل الأهرام ، الذى تحتل الجيزة أحد أطرافه ، جسرا مع العديد من القناطر ، وتتخلله المنافذ فى كثير من المواضع لتصريف مياه الفيضان . وتوجد القنطرة الرئيسية على بعد فرسخين ، إلى الغرب مباشرة من الجيزة على الترعة الغربية : وهى مبنية من الحجر ، ولا يزال باقيا بها حتى يومنا هذا عشرة عقود على الطراز القوطى[1] . وهى قديمة العهد بصورة واضحة ، فهى تعود إلى عصر صلاح الدين ، وقد أنشأها وزيره قراقوش حوالى سنة خمسمائة واثنتين وستين (١١٦٦) [٥٧٢ هـ / ١١٧٦م وما بعدها] من أحجار مأخوذة من أهرام صغيرة ، وكذلك الشأن بالنسبة للجسر الذى يبدأ من النيل ليصل إلى هذه القنطرة . وكان الغرض من هذا الجسر مزدوجا ، فهو يقوم بمثابة حاجز أمام الفيضان ويبقى على الطمى فوق الأرض ، أما الغرض الآخر فإنه يتخذ طريقا لنقل المواد التى يحتاج إليها لإقامة سور القاهرة . وفى الوقت الذى أمر فيه قراقوش بهذه الأعمال شيد أكثر من أربعين قنطرة مماثلة يتحدث عبد اللطيف عنها فى إعجاب ؛ ويحكى أنه فى سنة خمسمائة وسبع وتسعين (١٢٠٠) قام أحد الجهلاء بسدها ليحتفظ بالماء فوق أرض الجيزة ، ولكن بلا طائل ، فقد أسقطت قوة المياه كثيرا من القناطر[2] . ووفقا لما يقول المقريزى فإنه فى سنة سبعمائة وثمان (١٣٠٨) أصلحت هذه القناطر . وينبغى أن تكون هناك قنطرة ثانية مماثلة رآها نيبور ولم نقم برسمها ، فقد سجل هذا الرحالة نقوشا نقلها عنه العلماء الدانمركيون ، توضح أن قايتباى قد أقام ، أو أصلح ، إحدى القناطر حوالى سنة ثمانمائة وثمانين (١٤٧٥) . وقد ورد ذكر هذه

---

(١) انظر اللوحة ٢١ ، الأشكال من ٥ إلى ٨ .

(٢) انظر عبد اللطيف ، ترجمة المسيو سيلفستر دى ساس صفحة ٢١٢ . وانظر كذلك المجلد الثالث من أسفار نوردن ، الذى قام بنشره المسيو لانجليه .

القناطر لدى كتاب عرب آخرين ، كما يتحدث ابن الوردى عن هذه القناطر الأربعين باعتبارها بناء غاية فى الجمال . وبمرور الوقت تحول هذا العمل إلى شيء قليل الأهمية فساءت العناية بالسد لدرجة كبيرة ، ولم تعد المياه من الكثرة بحيث تنساب خلال القناطر القائمة .

ومدينة بولاق أكثر أهمية من الجيزة ، ويعود ذلك إلى تجارتها بقدر ما يعود إلى موقعها وامتدادها . ويحدث فى بعض الأحيان خلط بينها وبين القاهرة ، ولكن ذلك خطأ ، فهى متميزة تماما ، ويفصلها سهل عرضه ألف ومائتا متر ، كما تفصلها الحدائق ؛ ومع أنها هى ميناء القاهرة بالفعل ، فإنها مدينة قائمة بذاتها . ويقدر سكانها بأربعة وعشرين ألف نسمة . وفى بولاق تتوقف السفن المحملة بمنتجات الدلتا ، والسفن المحملة ببضائع أوربا والغرب كله . ودور هذا الميناء لمصر السفلى مثل دور ميناء مصر القديمة بالنسبة لمصر العليا . وقد مد الفرنسيون طريقا معبدا جميلا لربط بولاق بالقاهرة عند قنطرة المغاربة طوله ألف ومائتا متر .

وترتكز القاعدة الدائرية للمثلث الذى يشكله مخطط بولاق على النيل ، ويمضى هذا الخط إلى مسافة ألفى ومائة متر ، ويصل ارتفاع المثلث إلى ستمائة متر . وعدد المساجد بالمدينة أربعة وعشرون مسجدًا ، كما أن بها عددا كبيرا من الوكالات ، منها ثلاثون وكالة رئيسية هى فى مجملها أكثر اتساعا وجمالا مما فى القاهرة . ويوجد جمرك مصر فى بولاق ، وتوجد المقابر فى الشمال ، وتصل بامتدادها إلى المدينة ، بل إلى داخلها . ونجد الشاطيء مغطى فى جميع الأوقات تقريبا بأرصدة هائلة من القمح المتروك فى العراء[1] ، كما يغطى الشعير والقمح والفول أرض الميناء داخل مساحات مسورة ومكشوفة تقريبا ؛ إذ إن الثقة بين المواطنين فى مصر صفة راسخة ، وينبغى الاعتراف بأنهم لم يجدوا فى ذلك مدعاة للندم على الإطلاق . ولم أستطع أن أتبين فى بولاق الترسانة

(١) انظر اللوحة ٢٥ من الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

التى ذكرها نيبور . وخريطة بولاق وشرحها مفصلان للغاية ، ولذلك فإنه لا فائدة من القيام بعمل وصف شامل للمدينة[1] . وتجارة بولاق ضخمة ، ولكن البضائع الأوربية لا تمر بها إلا لكى تنقل إلى القاهرة ، غير أن منتجات مصر العليا ومصر السفلى ، مثل : القطن ، والكتان ، والحناء ، والسكر ، والأرز ، والزعفران ، والنطرون ؛ تملأ الوكالات الكبيرة هناك ، وذلك دون الحديث عن البن ، والصمغ ، والعاج ، والبضائع الأخرى من جزيرة العرب ، ومن داخل أفريقيا .

وجزيرة بولاق الكبيرة ، أو جزيرة القرطية ، تزيد من حيث المساحة على ضعف مساحة جزيرة الروضة . وفى الطرف الشمالى منها ، فى مواجهة إمبابة ، أنشأ الفرنسيون محجرا صحيا . وهذه المؤسسة كان بوسعها القيام بخدمات كبيرة لو أنه قدم لها الصيانة اللازمة .

(١) نفسه ، اللوحة ٢٤ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، والفصل الخامس فيما يلى .

المبحث الرابع
حول بعض الأماكن بضواحى القاهرة

وسأختتم باستعراض لعدد من المواضع خارج القاهرة ، خلاف المدن الثلاث السابقة ، وجزيرة الروضة ، وهذه المواضع كالتالى : فى الجنوب يوجد طره ، والبساتين ، وبينهما وادى التيه ؛ بعد ذلك ، ومع الاقتراب من القاهرة دير الطين ، نهاية إقليم أطفيح ، وأثر النبى ، القرية الأولى من قرى القاهرة ؛ وإلى الشرق المقطم ومحاجره ؛ وفى الشمال جامع الظاهر القديم والقبة ؛ وفى الغرب قلعة إبراهيم بك أو قصر العينى . وبقية المساحة تشغلها الحدائق الواسعة والبرك الخارجية ، التى يغنى لمعرفتها الرجوع إلى الخريطة العامة[1] . وتبعد قرية دير الطين حوالى خمسة آلاف متر عن القاهرة ، وسبعة آلاف متر عن طره . وتساوى المسافة الأخيرة اتساع مدخل الوادى المعروف بالتيه ، وإن كان العرب يزعمون أن هذا الاسم لا يحمله سوى واد فى الجزيرة العربية ، وهم يسمون هذا الوادى «بحر بلا ماء»[2] وهو واحد من طرق السويس . وتضم قرية طره كنيسة للمسيحيين الأقباط ، كرست للقديس جورج . ويربط قرية طره بالجبل العربى تحصين ممتد ، يبلغ ارتفاعه من سبع إلى ثمانى أقدام ، وسمكه ثلاث أقدام ، وبناؤه ذو مداميك منتظمة ، تتخلله فتحات لفوهة المدافع ، وهو أيضا مسنن بامتداده كله ، ومزود ببرجين ؛ ويرتكز إلى قلعة قوية فوق قمة الجبل ، أما من ناحية النهر فتتصل القرية بحصن آخر يتحكم ويمنع المرور تماما من القاهرة إلى مصر العليا على الضفة اليمنى . والجبل فى هذا المكان شديد الوعورة

---

(١) انظر اللوحة ١٥ من الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

(٢) من المعروف أنه فى الماضى كان هناك قديما سيل يتدفق عبر هذا الوادى ، وتعتمد هذه الرواية بلا شك على ما نجده من أشجار ضخمة متحجرة .

والارتفاع فوق مستوى السهل ، وبأعلاه حصنان : أحدهما على شكل مربع ، والآخر ، وهو أحدث بناء ، على شكل مثمن ، وبداخله برج مستدير ، يتراوح قطره بين عشرين إلى خمسة وعشرين مترا (٦٠ إلى ٨٠ قدما) وكان إسماعيل بك هو الذى بنى هذا التحصين ، أو إذا شئنا الدقة ، أعاد بناءه منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما (حوالى سنة ١٧٨٧) وذلك للحيلولة دون وصول مراد بك - الذى كان لاجئا فى ذلك الوقت بمصر العليا - إلى القاهرة من هذه الناحية ، إذ سيكون من الصعب الالتفاف حول الحصن بواسطة الخيل من وراء الجبل الذى يتكون كله من صخور وعرة ، وفيما عدا ذلك فإن العبور سهل إلى الضفة اليسرى بعد انخفاض منسوب المياه على الأقل . ومن أعلى الحصن يرى واحد من المشاهد البالغة الامتداد ، والتى يمكن الاستمتاع بها فى مصر ، فأهرام سقارة البعيدة جدًا ترى بسهولة تامة من هناك ، كذلك فإننى أبصر جيدا - من ناحية الشمال - ما وراء القاهرة ، رغم أنه يبعد عن طره بثلاثة فراسخ ونصف . وعلى ارتفاع أقل نجد الجبل منحوتا ، تتخلله محاجر من عمل القدماء ؛ الأمر الذى يجعلنا نتعرف بسهولة على العمل المنظم فيها ، فقد تركت فى كل مكان ركائز منحوتة بحالة جيدة ، كما أن الأسقف والجدران قد قومت جيدا . ويبلغ ارتفاع أحد هذه المحاجر عشرين قدما ، وهو يمتاز باتساعه وتفريعاته الكثيرة . إنه نموذج للانتفاع ، قُدِّم للمصريين المحدثين إذا عرفوا كيف يتأملون ويلاحظون . (انظر A.D. ، الفصل الثامن عشر) . وبالنسبة لمحاجر الحجر الرملى الواقعة عند مدخل وادى التيه والتى تقطع منها أحجار الطواحين ، فقد سبق إبداء بعض الملاحظات عنها فى سياق الحديث عن صناعة سكان القاهرة ، وينبغى الإحالة إلى هذا الموضوع .

وعند البساتين ينحاز الجبل ناحية الجنوب الشرقى وشرق الجنوب الشرقى ، مكونا أحد جانبى وادى التيه ، فى حين يبدأ الجانب الآخر عند طره ثم ينتحى ناحية الشمال الشرقى وشرق الشمال الشرقى . وقد تكون قرية البساتين هى القرية الوحيدة فى مصر المبنية من الحجر المقطوع (إذ يرى فيها القليل جدا من

الطوب) : فبغير شك تعود هذه الميزة إلى مجاورتها للمحاجر ، ونرى بها مئذنتين . وتمتد زراعة حدائق البساتين حتى الصحراء نفسها ، وليست هناك بوصة واحدة من الأرض لاتستغل فى الزراعة ، ويفصل حائط بسيط الرمال الشديدة الجدب عن التربة الوفيرة الخصب . ومن وراء البساتين إلى الجنوب شاهدت «الترابين» مخيمين ، عددهم أربعمائة من الرجال ، ومثله من النساء والأطفال ، يقيمون فى ثمانين خيمة . وهؤلاء العربان كغيرهم لهم جميعا عادة أن يجعلوا ظهور خيامهم إلى ضفاف الترع ، أو أى حاجز آخر يحجبها عن النظر . وخلال تجوالى بهذه الضواحى فوجئت بأننى وسط حراسهم من الخيالة . وكانت خيامهم منخفضة وواسعة ، مداخلها من الأمام ، وهى مقسمة إلى قسمين : أحدهما مخصص للرجال ، والآخر للنساء والأطفال ، وكالعادة توجد الخيول والجمال والماشية أمام الخيام . ولن يفيدنا الحديث عن خيولهم ، وعن أصالة السلالات ، وعن براعة الفرسان ، وعن أسلحتهم ، أو حرابهم التى يصل طولها – كما هو معروف – إلى إحدى عشرة قدما ، والتى يعرفون جيدا كيف يرسلونها فى ثقة تامة ، على مسافات بعيدة أثناء عدو الخيل[1] .

وغالبا ما يكون جبل المقطم عمودى من هذه الناحية ، وارتفاعه يتفاوت ما بين ستين ومائة متر (مائتى إلى ثلاثمائة قدم) . وهو يتكون من دكات دائرية منتظمة إلى حد كبير : ونصفه الأعلى باتجاه البساتين مكون من حجر ضارب إلى الحمرة أقل فى صلابته من بقية أجزائه . والتربة عند سفح الجبل متشققة بفعل آثار مياه الأمطار التى تحد كثيرا من زحف كثبان الرمال المتحركة . وربما لايدهشنا أن نرى الجبل خلف الوادى فى اتجاه القاهرة يضم منشآت قائمة فوق الصخر ، وهذه المواقع رغم كونها وعرة مجدبة لم تنبت فيها على الإطلاق نبتة واحدة ، وتعانى فيها العين من تحمل الوهج بسبب انعكاس أشعة الشمس ، فإن هناك بيوتا منعزلة ذات شكل لطيف ، حيث كان يقيم فى واحد منها

(١) انظر : ملاحظات حول أعراب مصر الوسطى ، الجزء ١٢ الصفحة ٢٦٧ .

فورسكايل Forskael وقد جعل نزله على المقطم حتى يكون قريبا من نباتات الصحراء التى كان يحضرها إليه الأعراب .

وثمة بيت أو قصر صغير مقام فوق الجبل ، يطلق عليه «قبة الهوا» ، وقد جاءت التسمية على هذا النحو إشارة إلى الهواء المتجدد الذى يستنشق هناك .

وتبدأ الصحراء ، وبالتالى إمبراطورية البدو ، عند سفح القلعة من ناحية المقطم ، وهذا يعنى أن اللصوص من الأعراب ورجال القبائل الذين يجوبون برزخ السويس ، يقتربون إلى حد كبير من سور القاهرة ، فيسرقون أو يسلبون الجوالة المجازفين ، بغير مقاومة . وكل هذا الجزء من الجبل يمثل محجرا مترامى الأطراف ، جلبت منه منذ أمد بعيد ، وسيظل يجلب منه – عبر القرون – مواد البناء الجيدة . وليس هناك آبار أو كهوف ؛ ولذلك يتم الانتفاع به فى جو مكشوف فوق المنحدرات وعلى ارتفاع الصخرة كلها . ومادته هى المادة ذاتها المستخدمة فى بناء الأهرام ، والتى نتبينها فى المنشآت القديمة لمصر السفلى والأسكندرية . وركام الأصداف الذى يتكون منه هذا المحجر ، أكثر صلابة من ذلك المزيج الهش المكون من نفس الأصداف ، والذى يملأ كل الفجوات . وترقد عند سفح الجبل وعند منتصف جانبه كتل هائلة من مختلف الأحجام قد فصلت عنه لأسباب مختلفة ، كما هو الحال عند طره ، وهى بأبعادها الكبيرة تذكر بالكتل التى قام بقطعها السكان القدامى .

ويطلق اسم «الجبل الأحمر» على جبل يرى إلى الشرق من القاهرة ، على مسافة نصف فرسخ شمال القلعة ، وهو منعزل من جميع الجهات ، ويستقر وسط سهل من الرمال ، ويتخذ اسمه من لون الحجر الرملى المتميز الذى يكونه . وهذا الحجر الرملى تتخلله الأحجار الكريمة والعقيق بألوان متفاوتة الدرجات ، كما أن الحجر ذاته متعدد الألوان ، ما بين أحمر وأصفر وقرمزى ووردى وأزرق .. إلخ ، وصلابته عالية وحبيباته دقيقة للغاية . وهذا التنوع هو بالتحديد نفس

ما نجده فى تمثالى ممنون الضخمين بطيبة [الأقصر] : وفى هذا الجبل تشاهد آثار لاستغلال واسع النطاق[١] . وبالرجوع من هنا فى اتجاه القاهرة ، مع بقاء «القبة» إلى اليمين – حيث يوجد عدد كبير من المقابر البالغة الفخامة[٢] – نصل إلى البركة التى تحمل اسم القمر ، أى «بركة الشيخ قمر» ، وبعدها «جامع الظاهر» ، وهو جامع خارجى كبير متهدم جزئيا : ولن أضيف هنا شيئا على ما ذكرته عنه آنفا ، ومن هنا يخرج الخليج من القاهرة متجها بعدها إلى الشمال ناحية أطلال عين شمس . وختاما وبصعودنا مع الخليج الدائرى بغرب القاهرة سنصل إلى «قصر العينى» (يسمى كذلك قصر مزرعة إبراهيم بك) وهو بناء كبير واقع على الفرع الصغير للنيل ، على مقربة من مأخذ مياه مجرى العيون ، وهكذا نكون قد أنهينا جولتنا فى ضواحى القاهرة . وقد قام الفرنسيون بتحويل هذا لبناء إلى مستشفى قاموا بتحصينه .

وفى السهل الواسع المجاور الذى يطلق عليه «ميدان النشابة» كان المماليك يتدربون على الفروسية وعلى رمى الجريد ، وفى الوقت الذى رسمت فيه الخريطة القديمة التى ذكرتها مرارا .. كان هناك مكان لهذه التدريبات أيضا غير أنه بعيد جدا ويقع إلى الشمال من بولاق . والملاحظة المضافة إلى الخريطة مصاغة كالآتى :

«فى هذا المكان يوجد الميدان ، وكذلك التدريب على كل أنواع همز الخيل ، وفقا لعادة الأتراك والمماليك ، وهنا يدربون الحمير على فعل أشياء من الصعب أن يعثر على قرد يمكنه فعلها» .

---

(١) مع استمرار السير من هنا إلى داخل المقطم نصل إلى واد صغير ، حيث نصادف حصا ذا ألياف ورقائق ، بالإضافة إلى بللورات جميلة لمعادن ثقيلة متبلورة .

(٢) وبعيدا نحو الشمال ، غير بعيد عن أنقاض المطرية ، هناك الموقع الذى يقال بأن البلسان كان مزروعا به . وأستطيع أن أقدم دليلا جديدا بهذه الكلمات التى أدرجها واضع خريطة القاهرة القديمة فى القسم السابع جنوب مسلة عين شمس : « فى هذا المكان يجنى البلسان» . كما يشير إلى زراعة القرفة فى هذا العهد (١٥٩٣) ، على الضفة اليسرى للنيل ، شمال جزيرة الروضة ، يقول : «هنا توجد الأشجار المنتجة للقرفة» .

الفصل الخامس

شرح خرائط ضواحي القاهرة

جزيرة الروضة ، بولاق ، مصر القديمة ، الجيزة[1]

(١) كثير من أماكن ومبانى الضواحى قد تضمنتها القوائم الخاصة بمصر القديمة وبولاق والجيزة ، لذا ينبغى الرجوع إليها بالإضافة إلى اللوحتين رقمى ١٦ ، ٢٤ .

١ - جزر وضواحى القاهرة ومصر القديمة والجيزة

(اللوحة رقم ١٥ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة)

قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
RIVE DROITE DU NIL	**الشط الأيمن للنيل**
El-Basâtyn.	البساتين
Kymân el-Hesseh.	كيمان الحصّه
Gâma' el-Cha'râouy.	جامع الشعراوى
Tourab el-Ymâm, ville des tombeaux du côté du midi (ou ville des morts), renfermant plusieurs dômes et mosquées à minaret.	ترب ال امام [مدينة مقابر من جهة الجنوب تضم عدة قباب ومساجد ذات مآذن]
Fort Muireur.(1)	[حصن مويرو]
Gebel el-Moqatam, mont Moqatam.	جبل المقطّم
El-Cheykh Sydy Sâdeh, sur le sommet du Moqatam.	الشيخ سيدى ساده [على قمة المقطم]
Carrières dans le Moqatam.	[محاجر فى المقطم]
Fort Martinet.	[حصن مارتينيه]
Fort Sornet.	[حصن سورنيه]
Fort Lambert.	[حصن لامبير]

(١) أقيم هذا الحصن والحصون التالية على يد الفرنسيين فوق تلال الأنقاض التى تحيط بالقاهرة ، وقد منحت هذه الحصون أسماء الضباط الممتازين فى الجيش ، والذين ماتوا فى ميدان المعركة .

قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
Fort Reboul.	[حصن ريبول]
Fort Dupuis.	[حصن ديبوى]
Fort Venoux.	[حصن فينو]
Tourab Qâyd bey, autre ville des tombeaux du côtè du nord.	ترب قايد بيه [مدينة مقابر أخرى إلى جهة الشمال]
El-Qoubbeh, karavansérail, tombeaux.	القبّه
Fort Grezieux.	[حصن جرزيو]
Qasr Mohammed bey el-Soghayr, à l'ouest de Birket Cheykh Qamar.	قصر محمّد بيه الصغير [إلى الغرب من بركة الشيخ قمر]
Gâma' el-Dâher, fort Shulkowsky.	جامع الظاهر [حصن شولكوفسكى]
Fort Laugier.	[حصن لوجييه]
Fort Camin.	[حصن كامن]
Fort Conroux.	[حصن كنرو]
Gezyret el-Qorâiyeh, petit village en face de l'île du même nom.	جزيرة القوراتيه [قرية صغيرة تقع أمام جزيرة بهذا الاسم]
Beyt A'ly aghâ, maison isolée.	بيت على اغا [منزل منعزل]
Meydân el Nichâbeh, plaine où les Mamlouks s'exerçaient.	ميدان النشّابه [سهل كان المماليك يتدربون فيه]
Fort de l'Institut.	[حصن المعهد]
Beyt Moustafa bey.	بيت مصطفى بيه
Qasr el-A'yny, ou ferme d'Ibrâhym bey (depuis hôpital militaire).	قصر العينى [أو التزام إبراهيم بيه ، وقد أصبح مستشفى عسكرى]

قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
Beyt Mohammed kâchef el-Arnâout.	بيت محمّد كاشف الارناوط
Khalyg, canal appelé canal du Kaire ou du Prince des Fidèles.	خليج [يسمى خليج القاهرة أو خليج أمير المؤمنين]
El-Migreh, aquéduc conduisant les eaux du Nil à la citadelle. Voyez le Vieux Kaire, n°. 52.	المجرة [مجرى يجلب المياه من النيل إلى القلعة . انظر مصر القديمة رقم ٥٢]
Deyr el-Nasârah, couvent chrétien au nord-est de la prise d'eau.	دير النصاره [إلى الشمال الشرقى من موردة المياه]
Gâma' abou el-So'oud, ancienne mosquée.	جامع ابو السعود [وهو جامع قديم]
Plusieurs convents chrétiens.	[عدة أديرة للمسيحيين]
Carrières exploitées depuis les hauteurs de Saint-Georges jusqu'à Gâma' A'mrou.	[محاجر مستغلة ابتداء من مرتفعات سان جورج حتى جامع عمرو]
Hauteurs de Saint-Ceorges, plateau isolé et escarpé.	[مرتفعات سان جورج ، وهى هضبة منعزلة ومنحدرة]
Deyr el-Nasârah, couvent à l'est d'Atâr el- Neby.	دير النصاره
ÎLES	**الجـزر**
1°. Gezyret el-Terseh.	١ – جزيرة الترسه
2°. Gezyret el-Roudah.	٢ – جزيرة الروضه
El-Meqyâs, ou nilomètre de Roudah.	المقياس
Jardans du meqyâs.	[حدائق المقياس]
Ponts volans.	[قناطر متنقلة]
Kharâbt el-Meqyâs, ou ruines de l'ancien meqyâs.	خرابة المقياس [أى خرائب المقياس القديم]

قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
Moulin à vent.	[طاحونة هواء]
Gâma' el-Boustân.	جامع البستان
Gemmeyz el-A'bd, grande avenue de sycomores.	جمّيز العبد [طريق طويل به أشجار الجميز]
Qasr el-Roudah.	قصر الروضه
Kafr Qâyd bey, hameau.	كفر قايد بيه
Kafr A'bd el-A'zyz, hameau.	كفر عبد العزيز
3°. Iles de Moustafā aghâ, en partie inondées lors des hautes eaux.	[٣ – جزر مصطفى أغا ، وتغمر جزئيا أوقات الفيضان]
4°. Gezyret Boulâq ou Gezyret el-Qorâtyeh, île de Boulâq.	٤ – جزيرة بولاق او جزيرة القوراتيه
5°. Ile du lazareth.	[٥ – جزيرة المحجر]
RIVE GAUCHE DU NIL	**الشاطىء الأيسر للنيل**
Gezyret el-Dahab, petit village en face de l'île de Terseh.	جزيرة الذهب [وهى قرية صغيرة أمام جزيرة ترسه]
Sâqyet Mekkeh, hameau.	ساقية مكّه [كفر]
Boulâq el-Dakrour, village.	بولاق الدكرور [قرية]
El-Dekkeh, idem.	الدكّه [نفسه]
Embâbeh,(1) idem.	امبابه [نفسه]

(١) انظر اللوحة ٢٤ من الأطلس الجغرافى عن الجزء الذى يخرج عن إطار الخريطة العامة لضواحى القاهرة أو اللوحة ١٥ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

٢ - بولاق

(انظر اللوحة رقم ٢٤ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة ، وانظر كذلك اللوحة ١٥ ، الخط الذى يضم بولاق) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
1.	Sekket el-cheykh Nasr.	سكة الشيخ نصر
2.	Sekket Bousah.	سكة بوصه
3.	Hôd (abreuvoir).	حوض
4.	Derb el-Tamâm.	درب التمام
5.	Derb el-Qasâsyn.	درب القصاصين
6.	Derb el-Gaouâber.	درب الجوابر
7.	Derb el-A'âtleh.	درب العاتله
8.	Sekket el-cheykh.	سكة الشيخ
9.	Geneynet el-cheryf.	جنينة الشريف
10.	Derb el-Melâqâouy.	درب الملاقاوى
11.	Sekket el-Gaouâber.	سكة الجوابر
12.	Torbet Bousah.	تربة بوصه
13.	Souq el-Hemyr.	سوق الحمير
14.	Sekket el-Sabtyeh.	سكة السبتيه
15.	Derb el-Barâbrâ.	درب البرابر
16.	El-Sabtyeh.	السبتيه
17.	A'tfet el-Chytân.	عطفة الشيطان

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
18.	Okâlt el-Chytân.	وكالة الشيطان
19.	Okâlt el-Chytân.	وكالة الشيطان
20.	Okâlt el-Qamh.	وكالة القمح
21.	El-Sabtyeh.	السبتيه
22.	Okâlt Ayoub.	وكالة ايوب
23.	Okâlt Ayoub.	وكالة ايوب
24.	Sekket Okâlt el-Rouz.	سكة وكالة الرزّ
25.	Okâlt el-Arz.	وكالة الارز
26.	A'tfet Rabe' el-Rouz.	عطفة ربع الرزّ
27.	Okâlt el-Gebn.	وكالة الجبن
28.	Derb el-Gamâlyeh.	درب الجماليه
29.	Derb el-Mahgoub.	درب المحجوب
30.	Sekket Hoch el-Geneyneh.	سكة حوش الجنينه
31.	Derb el-Qalâftah.	درب القلافطه
32.	Derb el-Gamâleh.	درب الجماله
33.	Derb el-Mahgoub.	درب المحجوب
34.	Derb Aghmyr.	درب اغمير
35.	Derb Badyr.	درب بدير
36.	Derb el-Ouasty.	درب الوسطى
37.	Derb el-Gedyd.	درب الجديد
38.	Derb el-Mansar.	درب المنصر
39.	Derb el-Mallâhyn.	درب الملاحين
40.	Derb el-Ouasty.	درب الوسطى
41.	Hârt Gâma' el-Mo'allaq.	حارت جامع المعلّق

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
42.	Derb el-Kahleh.	درب الكحله
43.	Gâma' el-Mo'allaq.	جامع المعلّق
44.	Sekket Gâma' el-Mo'allaq.	سكة جامع المعلّق
45.	Sekket el-Gaouâber.	سكة الجوابر
46.	Sekket Gouâ el-Belad.	سكة جوا البلد
47.	Derb el-Malâhah.	درب الملاحه
48.	Gâma' el-Ansâry.	جامع الانصارى
49.	Derb Beny Maso'oud.	درب بنى مسعود
50.	Gâma' Bolok.	جامع بلك
51.	A'tfet el-Ouasty.	عطفة الوسطى
52.	Sekket el-Ouasty.	سكة الوسطى
53.	Gâma' el-Ouasty.	جامع الوسطى
54.	Souq el-Ferâkh.	سوق الفراخ
55.	Okâlt el-Gedydeh.	وكالة الجديده
56.	Maouqaf el-Hammarah.	موقف الحمّره
57.	Okâlt el-Mogharbeh.	وكالة المغربه
58.	Gâma' el-E'llâyeh.	جامع العلايه
59.	Sekket el-Sabtyeh.	سكة السبتية
60.	Sekket el-Gezzâryn.	سكة الجزّارين
61.	Sekket el-A'ttâryn.	سكة العطارين
62.	Derb el-Saqlameh.	درب السقلمه
63.	El-Tablytah.	الطبليطه
64.	Okâlt el-Kittân.	وكالة الكتان
65.	Hârt el-Qâsâouât.	حارت القاساوات

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
66.	Goul Mohammed.	جول محمّد
67.	Okâlt el-A's ,y.	وكالة العصى
68.	El-Tablytah.	الطبليطه
69.	Sekket el-Soukkaryeh.	سكة السكريه
70.	Okâlt el-Zeyt.	وكالة الزيت
71.	Sekket Okâlt el-Zeyt.	سكة وكالة الزيت
72.	Okâlt el-Kittân el-Soukkaryeh.	وكالة الكتان السكريه
73.	Gâma' el-Chalâmânyeh.	جامع الشلامانيه
74.	Okâlt el-Kittân.	وكالة الكتان
75.	Rouba't el-Bâchâ.	ربعت الباشا
76.	Sekket Sabtyeh el-Lymoun.	سكة سبتيه الليمون
77.	Sabtyeh el-Qoulal.	سبتيه القلل
78.	Dakak el-Hatab.	دكك الحطب
79.	Sekket Dakak el-Hatab.	سكة دكك الحطب
80.	El-Ouarcheh.	الورشه
81.	El-Mechânteh.	المشانته
82.	Gâma' el-Gyfânyeh.	جامع الجيفانيه
83.	Gâma' el-cheykh Farag.	جامع الشيخ فرج
84.	Gâma' el-Barâzy.	جامع البرازى
85.	Beyt Hannâ Byny.	بيت حنا بينى
86.	El-Dyouân.	الديوان
87.	Gâma' A'ly bey.	جامع على بيه
88.	Qychâryet A'ly bey.	قيشارية على بيه
89.	Okâlt A'ly bey.	وكالة على بيه

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
90.	Beyt Rachou.	بيت رشو
91.	Ouasa't el-Dyouân.	وسعت الديوان
92.	Qychâryet A'ly bey.	قيشارية على بيه
93.	Sekket Souq el-Lymoun.	سكة سوق الليمون
94.	Okâlt el-Nouql.	وكالة النقل
95.	El-Sayâref.	الصيارف
96.	Qychâryet Asnân Bâchy.	قيشارية اسنان باشى
97.	Okâlt el-Tâouyleh.	وكالة الطاويله
98.	Gâma' el-Senânyeh.	جامع السنانيه(١)
99.	El-Khasâsyn.	الخصاصين
100.	El-Senânyeh.	السنانيه
101.	El-Haddâdyn.	الحدّادين
102.	El-Gezzâryn.	الجزّارين
103.	A'tfet el-Bast.	عطفة البصط
104.	Gâma' el-Mahkameh.	جامع المحكمه(٢)
105.	El-Hânout.	الحانوت
106.	A'tfet el-Lymoun.	عطفة الليمون
107.	Sekket Bousâtyeh.	سكة بوصاتيه
108.	Sekket Amr Bâbeyn.	سكة امر بابين

(١) المقصود جامع سنان باشا والى مصر فى العصر العثمانى الذى تولى ولاية مصر مرتين الأولى فيما بين ٩٧٥/٩٧٦ هـ، والثانية فيما بين ٩٧٩/٩٨٠ هـ.وهذا الجامع مشيد على الطراز العثمانى . (المترجم).

(٢) المقصود جامع القاضى يحيى زين الدين ببولاق ، وقد استخدم كمحكمة ، وما يزال باقيا إلى اليوم ، وهو مشيد على طراز المساجد الجامعة المكونة من صحن وظلات . (المترجم).

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
109.	Khasâsah.	خصاصه
110.	Sekket el-Mahkameh.	سكة المحكمه
111.	Sekket Khoderet el-Baql.	سكة خضرة البقل
112.	A'tfet el-Sâber.	عطفة الصابر
113.	Okâlt el-Souf.	وكالة الصوف
114.	Sekket Gâma' Merzeh.	سكة جامع مرزه(١)
115.	El-Khasâsah.	الخصاصه
116.	Sekket el-Abzâryeh.	سكة الابزاريه
117.	Gâma' Khadarah.	جامع خضره
118.	Sekket el-Haouâsel.	سكة الحواصل
119.	Okâlt el-Qotn.	وكالة القطن
120.	Okâlt el-Abzâryeh.	وكالة الابزاريه
121.	Khott el-Abzâryeh.	خطّ الابزاريه
122.	Okâlt el-Henneh.	وكالة الحنّه
123.	Sekket el-Dechycheh.	سكة الدشيشه
124.	Sekket el-Khatyry.	سكة الخطيرى
125.	Chouneh Ibrâhym el-Soghayr.	شونه ابراهيم الصغير
126.	Sâhel el-Dechycheh.	ساحل الدشيشه
127.	A'tfet el-Khatyry.	عطفة الخطيرى
128.	Sekket el-Sâdât.	سكة السادات
129.	Okâlt el-Milâyât.	وكالة الملايات
130.	Okâlt el-A'sal.	وكالة العسل

(١) هو الأمير مصطفى جوريجى الشهير بميرزه وكان له ببولاق عدة منشآت معمارية ، وما يزال جامعه باقيا بها إلى اليوم فى شارع ميرزه . (المترجم).

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين والمنشآت	
131.	Okâlt el-Soukkar.	وكالة السكّر
132.	Sekket Barâm bâchâ	سكة برام باشا
133.	Okâlt el-Qoulal.	وكالة القلل
134.	Okâlt abou-Zeyt.	وكالة ابو زيت
135.	Okâlt el-Fisqyeh.	وكالة الفسقيه
136.	A'tfet el-Bahr.	عطفة البحر
137.	Sekket el-Tabbâneh.	سكة التبانه
138.	Okâlt el-Bous.	وكالة البوص
139.	El-Hamdyeh Fourn E'ych.	الهمديه فرن عيش
140.	El-Malakct el-Gedydeh.	الملكة الجديده
141.	Ouasa'h Chouan el-Hatab.	وسعه شون الحطب
142.	A'tfet el-Hatab.	عطفة الحطب
143.	El-Tabbâneh.	التبّانه
144.	Porte.	[باب]
145.	A'tfet el -Hâg.	عطفة الحــاج
146.	A'tfet abou-Tâouyleh.	عطفة ابو طاويله
147.	A'tfet el-Gezzâr.	عطفة الجزّار
148.	Khâznet Baouâb.	خازنة بواب
149.	Sekket el-Khodeyry.	سكة الخضيرى
150.	Sekket abou-E'lâ.	سكة ابو علا
151.	Gâma' abou-E'lâ.	جامع ابو علا
152.	Sekket Mouaffeq.	سكة موفّق
153.	Porte.	[باب]
154.	Qantarat el-Tamrât.	قنطرة الثمرات
155.	Sekket abou-E'lâ.	سكة ابو علا

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
156.	Sekket abou-E'lâ.	سكة ابو علا
157.	A'tfet el-Nachâr.	عطفة النشار
158.	A'tfet el-Khâtyry.	عطفة الخاطيرى
159.	A'tfet el-Khâtyry.	عطفة الخاطيرى
160.	Gâma' el-Khâtyry.	جامع الخاطيرى
161.	Sekket Maouqaf el-Khammârah.	سكة موقف الخمّاره
162.	A'tfet Za'trah.	عطفة ظعطره
163.	Sekket el-Khâtyry.	سكة الخاطيرى
164.	Hârt el-Chorafeh.	حارت الشرفة
165.	Hârt el-Barrâny.	حارت البرّانى
166.	A'tfet Za'trah.	عطفة ظعطره
167.	A'tfet el-Dechycheh.	عطفة الدشيشه
168.	Sekket el-Khâtyry.	سكة الخاطيرى
169.	El-Kassâr.	الكسّار
170.	Sekket abou-Hatabeh.	سكة ابو حطبه
171.	Sâq el-Gedydeh.	ساق الجديده
172.	Khott ebn-Mouzeh.	خطّ ابن موزه
173.	Haouâsel el-Kouttâb.	حواصل الكتّاب
174.	Place sans nom.	[ميدان لا اسم له]
175.	Khott abou-E'lâ.	خطّ ابو علا
176.	Khott abou-E'lâ.	خطّ ابو علا
177.	A'tfet el-Cha'râouy.	عطفة الشعراوى
178.	A'tfet el-Cha'râouy.	عطفة الشعراوى
179.	Hârt el-Madbah.	حارت المدبح

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
180.	Derb el-Gedyd.	درب الجديد
181.	Sekket el-Ouâgah b-el-Chare'.	سكة الواجه بالشرع
182.	Hârt el-A'ttâr.	حارت العطار
183.	Hoch el-Halfeh.	حوش الحلفه
184.	Tahounet el-Minyâouy.	طحونة المنياوى
185.	A'tfet abou-Dalâyel.	عطفة ابو دلايل
186.	A'tfet el-Gheytâny.	عطفة الغيطانى
187.	Sekket el-Ouâgah.	سكة الواجه
188.	Hârt el-A'dâlem.	حارت العدالم
189.	Hârt el-Mehammarah.	حارت المحمّره
190.	Hârt el-Sandabisy.	حارت السندبسى
191.	El-Hekr.	الحكر
192.	Gâma' el-A'râqy.	جامع العراقى
193.	Hârt Toubeh.	حارت طوبه
194.	Hârt el-Hekr.	حارت الحكر
195.	Hârt el-Chorafeh.	حارت الشرفه
196.	Hârt el-Beydah.	حارت البيضه
197.	A'tfet el-Seyd Refâ'y.	عطفة السيد رفاعى
198.	Hârt Charnysy.	حارت شرنيسى
199.	El-Ouâgah.	الواجه
200.	Gâma' el-Ouâgah.	جامع الواجه
201.	Souq el-Tebn.	سوق التبن
202.	Souq el-Samak.	سوق السمك
203.	Hârt el-Basâytah.	حارت البصايطه

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
204.	A'tfet el-E'dâry.	عطفة العذارى
205.	Hârt el-A'lmyeh.	حارة العلميه
206.	Sekket el-Merzeh.	سكة المرزه
207.	Gâma' el-Merzeh.	جامع المرزه
208.	A'tfet el-Sâber.	عطفة الصابر
209.	Sekket Souq el-Samak.	سكة سوق السمك
210.	Sekket el-Halaby.	سكة الحلبى
211.	Okâlt el-Gyr.	وكالة الجير
212.	Batn el-Khalyg.	بطن الخليج
213.	Sekket el-Mahkameh.	سكة المحكمه
214.	Sekket abou-el-E'lâ.	سكة ابو العلا
215.	Sekket Derb el-Nachâryn.	سكة درب النشارين
216.	Derb el-Nachâryn.	درب النشارين
217.	Châre' el-Belad.	شارع البلد
218.	Khott el-Halaby.	خطّ الحلبى
219.	Sekket el-Gezzâryn.	سكة الجزّارين
220.	El-A'âsy.	العاصى
221.	Okâlt el-A'âsy.	وكالة العاصى
222.	Hârt el-A'âsy.	حارت العاصى
223.	Sekket el-Halaby.	سكة الحلبى
224.	E'ych el-Nakhl.	عيش النخل
225.	Gâma' E'ych el-Nakhl.	جامع عيش النخل
226.	A'tfet el-Nakhl.	عطفة النخل
227.	Derb E'ych Maso'oud.	درب عيش مسعود

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
228.	Hârt E'ych Maso'oud.	حارت عيش مسعود
229.	Sekket el-Nachâryn.	سكة النشارين
230.	Chare' el-Nachâryn.	شارع النشارين
231.	Sekket el-Ouâgah.	سكة الواجه
232.	Sekket E'ych el-Nakhl.	سكة عيش النخل
233.	Derb el-cheykh Farag.	درب الشيخ فرج
334.	Gâma' abou-Bekr.	جامع أبو بكر
235.	Hârt el-Nouqaly.	حارت النقلى
236.	Hârt el-Tâmy.	حارت التامى
237.	Khott el-cheykh Farag.	خطّ الشيخ فرج
238.	Gâma' el-cheykh Farag.	جامع الشيخ فرج
239.	Sekket el-Khalâ.	سكة الخلا
240.	Khoukhet el-Chamny.	خوخة الشمنى
241.	Derb Gouâ el-Bar.	درب جوا البر
242.	Tombeaux.	تـرب
243.	El-Gaouâber.	الجوابر
244.	Sekket el-Gaouâber.	سكة الجوابر
245.	Gâma' el-Gaouâber.	جامع الجوابر
246.	Sekket Derb el-Gazzâr.	سكة درب الجزار
247.	Derb el-Gazzâr.	درب الجزار
248.	Derb el-Byr.	درب البير
249.	Derb el-Kercheh.	درب الكرشه
250.	Derb el-Byr.	درب البير
251.	Derb el-Da'âs.	درب الدعاس

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
252.	Hoch el-Qrâdâtyeh.	حوش القراداتيه
253.	Chaouâre' el-Gaouâber.	شوارع الجوابر
254.	Gâma' el-Moghraby.	جامع المغربى
255.	A'tfet el-Machnouqah.	عطفة المشنوقه
256.	A'tfet el-Sarâmleh.	عطفة الصرامله
257.	Derb el-Mesâouyeh.	درب المساويه
258.	Derb el-Tamâm.	درب التمام
259.	Sekket el-Khosousy.	سكة الخصوصى
260.	Derb el-Kercheh.	درب الكرشه
261.	Sekket el-cheykh Nasr.	سكة الشيخ نصر
262.	Derb Bleyh.	درب بليح
263.	El-Châre'.	الشارع
264.	Derb el-Rabya'.	درب الربيع
265.	El-E'loueh.	العلوه
266.	Derb el Tennour.	درب الطنّور
267.	El-E'loueh.	العلوه
268.	Hoch el-Geneyneh.	حوش الجنينه
269.	Gâma' el-cheykh Nasr.	جامع الشيخ نصر
	Fort Donzelot.	[حصن دونزيلوا]
	Port de Boulâq.	[ميناء بولاق]
	Fort Spizer.	[حصن سبيزر]
	Chaussée, ou nouveau chemin de Boulâq au Kaire.	[طريق بولاق الجديد إلى القاهرة]

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
	Gheyt el-Sâdât (jardin du cheykh Sâdât)	غيط السادات
	Gheyt Ma'rouf.	غيط معروف
	Gheyt O'bârah.	غيط عباره
	Gheyt Zerbyeh.	غيط زربيه

٣ - مصر القديمة وضواحيها
[مصر العتيقة]

(انظر اللوحة رقم ١٦ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة ، وانظر أيضاً اللوحة رقم ١٥ الخط الذى يضم مصر القديمة والجيزة ... إلخ) .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
	QASR EL-CHAMA' (Enceinte qui touche au vieux Kaire.)	[قصر الشمع] [السور الذى يلامس مصر القديمة]
1.	Byout el-Qebât.	بيوت القباط
2.	A'tfet el-Kenyseh.	عطفة الكنيسه
3.	A'tfet el-Maghârah.	عطفة المغاره
4.	A'tfet Sitty Barbarah (Sainte-Barbe)	عطفة ستّى بربره
5.	Sekket el-Mo'allaqah.	سكة المعلّق
6.	Deyr Nasârä.	دير نصارى
7.	Kenyset el-Qebât.	كنيسة القباط
8.	Deyr Maryam (église de la Vierge).	دير مريم
9.	Deyr Roumy.	دير رومى

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
	VIEUX KAIRE.	[مصر القديمة]
1.	Bâb el-Oudâa'.	باب الوداع
2.	Sekket Masr A'tyqah.	سكة مصر عتيقه
3.	A'tfet el-Hâg A'ly.	عطفة الحاج على
4.	Hârt abou-Ta'meh.	حارت ابو طعمه
5.	Sekket Atâr el-Neby.	سكة اثار النبى
6.	Bâb el-Barrânyeh.	باب البرانيه
7.	Grande butte de décombres.	[تل كبير من الانقاض]
8.	Khokhet abou-Che'yr.	خوخة ابو شعير
9.	Sâhel Masr A'tyqah.	ساحل مصر عتيقه
10.	Gâma' A'bdyn.	جامع عبدين
11.	Gâma' A'mrou (grande mosquée isolée, à l'est du vieux Kaire).	جامع عمرو [وهو جامع كبير منعزل إلى الشرق من مصر القديمة]
12.	Deyr abou - Seyfeyn (enceinte séparée, à l'est du vieux Kaire).	دير ابو سيفين [فناء منفصل إلى الشرق من مصر القديمة]
13.	Massif de maisons.	[كتلة المنازل]
14.	Okâlt el-Cherqâouy.	وكالة الشرقاوى
15.	A'tfet Marhousy.	عطفة مرحوصى
16.	A'tfet Choucyry.	عطفة شويرى
17.	Sekket Qabou.	سكة قبو
18.	A'tfet el-Haddâdyn.	عطفة الحدّادين
19.	A'tfet el-Marhaouy.	عطفة المرحوى
20.	Gâma' el-Kharrouby.	جامع الخرّوبى
21.	Sekket el-Gidâly.	سكة الجدالى

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
22.	Mosquée.	[مسجد]
23.	Sekket el-E'loueh.	سكة العلوه
24.	Sekket el-Bahr.	سكة البحر
25.	Sekket el-Sehrâyeh	سكة السهرايه
26.	Gâma' el-Bahr.	جامع البحر
27.	Hârt el-Gedydeh.	حارت الجديده
28.	Hârt Myâmneh.	حارت ميامنه
29.	El-Sehrâyeh.	السهرايه
30.	Sekket Bâb el-Oudâa'.	سكة باب الوداع
31.	Hârt el-Qare'.	حارت القرع
32.	Sekket el-Helâ.	سكة الحلا
33.	Gâma' el-Ghafyr.	جامع الغفير
34.	Hârt el-Chamly.	حارت الشملى
35.	Hârt el-cheykh Chehâb.	حارت الشيخ شهاب
36.	Hârt el-Gabâly.	حارت الجبالى
37.	Hârt el-Geneyeh.	حارة الجنيه
38.	Sekket el-Deyr.	سكة الدير
39.	Bâb el-Deyr.	باب الدير
40.	Bâb el-Gourah.	باب الجوره
41.	Sekket el-E'loueh.	سكة العلوه
42.	A'tfet Sâhel el-Bahr.	عطفة ساحل البحر
43.	Sekket Masr el-A'tyqah.	سكة مصر العتيقه
44.	Souaqat el-Qamh.	سوقت القمح
45.	Ouasa't Mohammed el-Elfy.	وسعت محمّد الالفى

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
46.	Beyt O'smân-bey Tanbourgy.	بيت عثمان بيه طنبورجي
47.	A'tfet Dâr el-Nahâs.	عطفة دار النحاس
48.	Gâma' Mohammed el-Makhfy.	جامع محمّد المخفى
49.	Sekket Foum el-Khalyg.	سكة فم الخليج
50.	Harâmât Yousef.	هرامات يوسف
51.	Gâma' Dâr el-Nahâs.	جامع دار النحاس
52.	Saba' Saouâqy ou Sâqyet el-Migreh, prise d'eau de l'aquéduc.	سبع سواقى او ساقية المجره
	Meydân el-Nichâbeh.	ميدان النّشابه
	Moustabet el-Nichâbeh.	مصطبة النّشابه

٤ - الجيزة

[انظر اللوحة رقم ١٦ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة ، وانظر أيضاً اللوحة رقم ١٥ والخط الذى يشتمل على مصر القديمة والجيزة ... إلخ] .

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
1.	Kafr Qeblyeh.	كفر قبليه
2.	Porte des Pyramides.	[مدخل الأهرام]
3.	Farchoureh.	فرشوره
4.	Sekket el-Hâouy.	سكة الحاوى
5.	Gâma' el-Kebyr.	جامع الكبير
6.	Sekket el-Hâgeh.	سكة الحاجه
7.	El-Qasr.	القصر
8.	Derb Soun el-Qelleh.	درب سون القلّة
9.	A'tfet el-A'rydeh.	عطفة العريضه
10.	Derb el-Fahkyr.	درب الفهكير
11.	Cheykh Dâoud.	شيخ داود
12.	Sâhet.	ساحة
13.	Sekket el-Soultân.	سكة السلطان
14.	Hârt Habachy.	حارت حبشى
15.	Hârt el-Sâber.	حارت الصابر
16.	Sekket el-Sâber.	سكة الصابر
17.	Sekket el-Soultân.	سكة السلطان

الرقم المعطى على الخريطة	قائمة بأسماء الأماكن ، الشوارع ، الميادين ، والمنشآت	
18.	Hadreh.	حضره
19.	Gâma' el-Bedreh.	جامع البدره
20.	Sekket el-Chorâfé.	سكة الشرافى
21.	Sebgeh.	سبجه
22.	Qabheh.	قبحه
23.	Sekket el-Bahr.	سكة البحر
24.	Gâma' Khalylyeh.	جامع خليليه
25.	Chorâfé.	شرافى
26.	Sekket el-Geneyneh.	سكة الجنينه
27.	El-Sabât.	السباط
28.	Cheykh A'rouys.	شيخ عرويس
29.	Sekket el-Bahr.	سكة البحر
30.	Derb el-Mâouardy.	درب الماوردى
31.	Chorâfeh.	شرافه
32.	Derb el-Matyeh.	درب المتيش
33.	Sekket el-Effendy.	سكة الافندى
34.	Saleh el-Dyn.	صالح الدين
35.	Bâroud Khâneh.	بارود خانه
36.	Sekket Gâma'.	سكة جامع
37.	Sekket el-effendy.	سكة الافندى
38.	Sekket el-bâchâ.	سكة الباشا
39.	Zara' el-Nâouy.	زرع الناوى
40.	Hârt el-Reys.	حارت الريس
41.	Derb el-Gâma'.	درب الجامع
42.	Toubkhâneh.	طوبخانه
43.	Qasr Mourâd-bey.	قصر مراد بيه

ملحق

المبحث الأول

حول مناخ القاهرة

إن ما ذكرته عن درجة الحرارة بالقاهرة – فيما سبق – لا يسمح بإعطاء فكرة كاملة عن مناخ هذا الجزء من مصر ، وأعتقد أنه يجب أن أسرد هنا عدة ملاحظات استخلصتها من يوميات رحلتي ، وهي ملاحظات كان من السهل عليَّ مضاعفتها : كما أنها تحمل طابع التعديل في الرأى المستنتج بصفة عامة .

يقال عادة إن المطر في مصر ظاهرة غير معروفة أو تكاد تكون كذلك ، غير أن الكلام على إطلاقه بهذه الصورة لا يتفق مع الملاحظة . فالمسافر يستطيع أن يمكث في البلاد من ثمانية إلى تسعة أشهر ، وربما أكثر من ذلك في مصر العليا دون أن يرى المطر ولو مرة واحدة . وإن أراد ، وفقا لذلك ، أن يكون فكرة عامة ، فالإقامة بالقاهرة سنة أو عدة سنوات متتالية ، أو أثناء فصل معين فحسب كفيلة بدحض هذا القول . وفي البداية يجب أن نستثنى بداهة مصر السفلى الأكثر امتدادا من حيث المساحة من سائر البلاد ، والأقرب إلى البحر ، نسبيا ، مما يسبب بالضرورة مناخاً أكثر تنوعًا من مناخ الصعيد .

باستثناء البَردَ والثلج ، فإن كل الظواهر الجوية تتوالى هنا ، كما هو الحال في باقي الدول التي يطل شمالها على البحر الأبيض المتوسط ، وعلى الرغم من ذلك فقد شاهدت البَرد في الأسكندرية مرات عديدة . ومن المؤكد أن حالة الجو في القاهرة يغلب عليها الاستقرار ، في الوقت الذى تكون فيه شبه ثابتة في مصر العليا ، ولا يرجع السبب في ذلك – بالنسبة للقاهرة التي تتاخم مصر

السفلى – إلى مناخها بقدر ما يرجع إلى موقعها الخاص ، حيث تحميها – إلى حد ما – التلال الخلفية للمقطم . ويرجع ارتفاع درجة حرارتها للانعكاس المستمر لأشعة الشمس الحارقة على الصخور التى تقع القاهرة أسفلها . ومتوسط درجة الحرارة فى القاهرة مرتفع جدا ، ورغم ذلك فقد عشت هنا تجربة البرد القارس : ففى اليوم التاسع من فريمير من العام السابع (٢٩ نوفمبر ١٧٩٨) جلبت الرياح القوية إلى الجو برودة قارسة ، وهبط مقياس الحرارة إلى بضع درجات فوق الصفر . وهو أمر بالنسبة للسكان وللأوربيين الذين تأقلموا مع الجو من شأنه أن يخلق لديهم إحساسا شبيها بما عندنا فى باريس حين تصل البرودة إلى عدة درجات تحت الصفر . وقد عانى أهالى القاهرة الذين فوجئوا بهذا الجو كثيرا ، فكانت وجوه القوم فى الشوارع شاحبة ، وآذانهم وأنوفهم حمراء ، وأصابعهم متقلصة ، وظهرت عليهم جميع صور المعاناة . وفى أثناء هذه الموجة الشديدة البرودة كانوا يتدثرون بأغطية ثقيلة ، كما كانوا يرتدون حللا سميكة ، ويوقدون نار الفحم ، ويبحثون عما يواجهون به البرد جهد استطاعتهم ، فى بلد ليس به ما هو معد لمثل هذا الجو .

ولن نخرج عن الموضوع إذا ما لاحظنا أن هذه الفترات الباردة قد خلصت البلاد من حشود البعوض والذباب ولسعاتها المزعجة شديدة الألم[١] .

وفى الثالث والعشرين من فريمير من السنة التالية (١٤ ديسمبر عام ١٧٩٩) شعرت ببرد شديد خاصة فى الصباح والمساء ؛ وقد استمر البرد فى تصاعد إلى اليوم الثانى عشر من نيفوز ، وكانت السماء ملبدة بالغيوم : وأجبرنا على أن نستدفىء كل مساء ، ومع ذلك فإن قسوة البرد كانت أقل منها خلال شتاء العام السابع . أما شتاء العام التاسع فكان البرد فيه قوى التأثير والحدة ، وقد مُلِىء الجو بالضباب فى الصباح ، وأحيانا طوال اليوم ، ودون شك لا يجب على أى حال مقارنة هذه البرودة بتلك التى تسود أوربا ؛ لكن ما يمكن مقارنته

(١) لقد كانت الرياح بصفة عامة باردة خلال فريمير ونيفوز من هذه السنة (من ديسمبر إلى ١٥ يناير) .

هو الشعور النسبى بالبرد لدى السكان ؛ وربما لا تقل معاناة سكان القاهرة فى بعض السنوات عن معاناة سكان عاصمة فرنسا .

وينبغى أن نلاحظ أن مقياس الحرارة فى القاهرة يرتفع وقت الظهيرة تبعا للفصول إلى ١٠° ، ٢٠° ، ٢٥° ، وأحيانا إلى ٣٠ درجة مئوية . على حين ينخفض فى الصباح من ١٣° أو أكثر إلى درجتين ، ويحدث هذا عادة فى شهر يناير ، وعلى مدى اثنتى عشرة ساعة يتراوح الانخفاض فيما بين ١٠° إلى ١٢°، وهذا يولد شعورا بالبرد أكثر مما يكون عندنا حين ينخفض لدينا من ثمانى أو عشر درجات فوق الصفر إلى أربع درجات تحت الصفر : فالإحساس الذى نبديه يعتمد كليةً تقريبا على التفاوت .

وتبعا لملاحظات الكولونيل المسيو كوتل المتعددة ، والمسجلة بدقة ، فإن المتوسطات المدونة تعطى النتائج التالية : يصل الاختلاف من الساعة الخامسة صباحا حتى الظهر إلى ٧° فى الشتاء ؛ ٧,٦° فى الربيع ؛ ٧,٥° فى الصيف ؛ ٦,٤° فى الخريف . وهكذا فإن متوسط الاختلاف فى الصيف أكثر منه فى الشتاء . وقد لوحظ أن الأيام الأكثر برودة أو الأقل حرارة – التى سُجلت – هى : ٢٤ نوفمبر ٨,٥° ؛ ٣١ ديسمبر ٥,٣° ؛ ٢٤ يناير ٢° ؛ ١٣ فبراير ٣,٥° ؛ ٦ مارس ٤° فوق الصفر . ويسير الاختلاف على هذا المنوال مشابها لما عندنا وقت اعتدال المناخ .

ولا يجب أن ندهش من أن الإنسان فى القاهرة – على الأقل فى بعض السنوات – يقاسى من البرد مساءً وصباحًا فى فصل الشتاء ؛ والواقع أنه حتى فى مصر الوسطى يشعر الإنسان بالبرد القارس . وقد قمت بعمليات طبوغرافية فى هذه البلاد – أثناء شهور الشتاء الثلاثة – كانت تدوم إلى وقت متأخر كل يوم ؛ وعندما كان يأتى المساء حوالى الساعة الثامنة أو التاسعة كانت لدى دائما فرصة مقارنة درجة الحرارة فى الظلام بها أثناء الظهر ، أو فى الساعة الثانية فى المكان الذى أخيم فيه . وكان الاختلاف أكثر وضوحًا فى الساعة الخامسة

صباحًا عندما كنت أنطلق للقيام بعملياتي . لقد كان هذا شتاء سنة ١٧٩٩ (من نيفوز إلى بلوفيوز من السنة السابعة) وكانت البرودة تشتد مع اقترابي من حدود الأراضي المزروعة ؛ وحتى عندما كنت أتوقف على رمال الصحراء الليبية ، كنت أشعر بأن البرد أكثر شدة وحدة ، حتى أن أطراف أصابعي كانت شبه متجمدة لدرجة أنني كنت أكتب أو أرسم أو أستعمل معداتي بمنتهى الصعوبة . وفي هذا الوقت كانت درجة حرارة هذا الجزء من مصر ما بين ٢٧° و ٢٨° .

وفي يوم ١٩ نيفوز من العام التاسع (٩ يناير ١٨٠١) وعندما كنت تجاه تلا ، أحسست ببرودة شديدة ؛ وكانت الأرض مغطاة بطبقة رقيقة من الصقيع الأبيض . وقد يسقط الصقيع أحيانا على الصحراء المجاورة ، لكنه يظل سطحيا . وكان الأعراب يرتدون لباسًا رائعًا[1] هو «البرنس» أو «معطف الأعراب» ، من الصوف الأبيض الناعم ؛ ليحميهم من قسوة الفصل . وعلى ذلك فليس من الغريب في القاهرة أن ينخفض مقياس الحرارة إلى الصفر . وقد لاحظ المسيو نويه Nouet عالم الفلك المرافق للبعثة أن هناك صقيعا في معسكر بلبيس .

وبالتأكيد فإنه ليس بإمكاننا رغم هذه الوقائع ، أن ننكر أن مصر بلد حار ، بل إنه شديد الحرارة ؛ ولكن ذلك لا يبيح التعجّل بالقول بأن البرد غير معروف فيه . وأخيرا ، ومن ناحية ثانية ، فإن هذه الملاحظة ربما تكون غير جديرة بالإهمال ، إذ إنها — في الواقع — يمكن أن تفسر ظاهرة فريدة ، وهي أنه على الرغم من وباء الطاعون والدوسنتاريا والرمد ، فإن مصر في الحقيقة بلد صحي جدًا ، يفوق في ذلك كثيرًا من أقطار أوربا . أليس من المعتقد أن الرياح الباردة الآتية من الصحراء من وقت لآخر تساهم في تلطيف الجو تماما ، كرياح الجهة الشمالية التي تهب على الوادي خلال القسم الأكبر من الصيف والخريف ،

(١) إن خفته تسمح بتحمل حرارة شديدة ، ولونه يعكس أشعة الشمس بدلا من أن يمتصها ، ونسيجه يحفظ حرارة الجسم ليلا ، وغطاء الرأس يقي الأذنين والرأس من البرد ؛ ويسمح شكله للفارس بكل الحركات تماما كالراحل من المشاة العرب .

أى فى فترة تكون فيها الحرارة خانقة ولا تطاق بدون هبوب الرياح الصيفية الملطفة ؟ .

أما عن المطر فسوف أقدم ملاحظة مماثلة : فنحن نلاحظ من وقت لآخر رَخاتٍ وأمطارا شديدة ليس فقط فى مصر السفلى ، بل وفى القاهرة . لكن الناس لا توقفهم هذه الظواهر ؛ لأن الجو غالبا ما يكون صافيا وبلا سحب ؛ بيد أن هذه الظواهر – مع ندرتها – كانت تلفت أنظار الرحالة . وهذه بعض الملاحظات التى استخرجتها من يوميات رحلتى : أصبح المطر شديدا بالقاهرة يوم ١٥ نيفوز من السنة السابعة (٤ يناير ١٧٩٩) ، بعد أن ظل مطرًا خفيفًا لعدة أيام[1] ؛ هطل المطر صباح يوم ١٤ نيفوز ؛ ودام يوم ١٥ من الصباح حتى المساء ، فكانت شوارع القاهرة مليئة بالوحل ، لدرجة أن الشوارع التَرِبَة قد أصبحت كتلا طينية . وقد اندهش الجميع عندما رأوا الأرض الجافة والمغبرة عادة قد أصبحت فجأة رطبة لينة ، وغير صالحة للمشى . وهذه هى التعبيرات الخاصة بالصحيفة : «لا يمكن التعبير عن الدهشة أو عن هذه الحالة غير المعتادة التى أغضبت كل الأتراك ، فهم لا يحسنون المشى فى الوحل أو الاحتماء من المطر (فالمظلات مجهولة فى مصر) . إن هذه الأمطار المفاجئة تكذب كثيرا أولئك الكتاب الذين ينفون وجود المطر بمصر» .

وقد سقطت الأمطار على القاهرة أيام ١١ ، ١٢ ، ١٣ فلوريال Floréal من السنة السابعة (٣٠ أبريل ، و ١و٢ مايو ١٧٩٩) أثناء الخماسين ، وهى فترة رياح الجنوب ، وقد اشتدت يوم ١٤ . وفى اليوم الأول من بريريال Prairial بدأت فى السقوط على شكل قطرات كبيرة لمدة ثمانى إلى عشر دقائق .

والأيام الأخرى التى سقطت فيها الأمطار هى : يوم ١٧ برومير Brumaire من السنة الثامنة (٨ نوفمبر سنة ١٧٩٩) ويوم ٢٣ برومير قبل بزوغ الشمس ، على أثر غيوم سوداء باردة تلتها أمطار غزيرة ومتتالية ، وكانت شوارع القاهرة

---

(١) يوم ٢٨ برومير من السنة السابعة (١٨ نوفمبر ١٧٩٨) سقطت الأمطار وقصف الرعد .. الخ .

لا تزال مملوءة بالطين . وفى يوم ٢٩ فندمبير Vendémiaire السابق أمطرت مطرًا خفيفًا[١] استمر طوال اليوم مع رياح عاتية ، على مدينة جرجا عاصمة مصر العليا ، وكان هناك مطر يوم ٢٤ برومير صباحًا ومساء ، ويومى ٢٥ و ٢٦ أمطرت صباحًا .

وفى صباح يوم ٨ بلوفيوز Pluviose من السنة الثامنة (٢٨ يناير سنة ١٨٠٠) فى أعقاب يوم جميل ، هبت رياح قوية جنوبية فأثارت زوبعة ترابية أدت إلى إظلام السماء : وتلا ذلك أمطار ، يمكن اعتبارها غاية فى القوة بالنسبة للبلاد ، فقد استمرت نصف الساعة أو ثلاثة أرباع الساعة مما جعل الشوارع كلها موحلة . وفى اليوم السادس عشر من نفس الشهر سقط المطر مساء على بولاق .

وقد وصف المسيو كوتل حالة السماء فى القاهرة بمزيد من العناية ؛ ولكن يجب الانتباه إلى أن ذلك كان ساعة ملاحظة البارومتر ومقياس الحرارة من الخامسة إلى السابعة صباحًا ، ومن الظهيرة إلى الثالثة مساء ، كما يجب الانتباه ، من ناحية أخرى ، إلى أن حالة السماء قد وصفت على مدى اثنى عشر شهرا اختيرت من سنوات مختلفة ، وليس من مدة إقامة الفرنسيين كلها ، على الرغم من أنه قام بتدوين ملاحظاته عن القاهرة ، خلال فترة أربع السنوات المتلاحقة[٢] .

لقد سجلت هذه الملاحظة من أجل أولئك الذين يريدون مقارنة فترات الوقائع الواردة أعلاه ، مع جداول هذا الملاحظ الموفق . وقد اقتصر على الإشارة إلى أحد عشر يوما من المطر الخفيف على مدى عام ، بينما كانت الرياح تهب بصفة دائمة تقريبا من الناحية الجنوبية أو من الناحية الغربية .

وعندما قمنا بالسير على الأقدام بطول الجبل العربى ، لاحظنا فى مصر العليا – خاصة فى المنتصف – ما يؤكد تساقط الأمطار بكثرة هناك على الضفة اليمنى

(١) غالبا ما يلاحظ أثناء مثل هذه الأوقات ذات الحرارة الشديدة والسماء المكسوة والملبدة بالسحب ، وكل التكهنات بعاصفة مروعة ، انعدام وجود برق أو رعد أو مطر .

(٢) انظر المجلد ١٩ ، صفحة ٤٥١ وما بعدها .

للنيل ، وكثيرا ما كان علينا أن نجتاز مجارى متفاوتة العمق لمياه الأمطار أو للسيول الخفيفة ، التى تصب فى النهر .

وعند مداخل الوديان الكبيرة والتفريعات الرئيسية ، جذب انتباهى أيضا ، وفى أماكن أخرى عديدة شقتها بنفس الطريقة مياه الأمطار ، حصى مستدير جرفته معها من داخل الصحراء التى تفصل النيل عن البحر الأحمر . ويمكن ملاحظة هذه الظواهر ناحية السلسلة الليبية ، ولكن بصورة نادرة .

وأنهى هذه الإشارات بفكرة شبيهة بتلك التى ذكرتها بمناسبة الحديث عن موجات البرد التى نحسها أحيانا فى مصر : وأقصد أن الأمطار النادرة والقليلة الغزارة التى تسقط فى القاهرة وفى مصر السفلى ، تقوم مع ذلك بتلطيف الجو ، ويفترض أنها تساهم فى وقاية البلاد ، ولكنها أقل فاعلية من الرياح الباردة . وهذه الأسباب هى التى تجعل نسبة الوفيات بالقاهرة أقل مما يمكن أن يفترض فى مدينة مزدحمة تسود فيها الدوسنتاريا والجدرى على الدوام ، والطاعون غالبا ؛ وأخيرا يتكدس فيها ثلاثة أرباع السكان ويعيشون بطريقة غير صحية . ففى فرنسا تساوى نسبة الوفيات السنوية $\frac{١}{٤٠}$ تقريبا من السكان ، وفى باريس $\frac{١}{٣٦}$ ، أما فى القاهرة فهى $\frac{١}{٣٠}$.

المبحث الثانى

مذكرات متفرقة
حول بعض أقسام العمارة العربية

للمرحوم ميشيل إنج لانكريه

لقد ترك المذكرات التالية صديقى العالم الرائد المرحوم ميشيل إنج لانكريه ، وقد قررت البعثة أن تطبعها ضمن المؤلف [وصف مصر] ، فالتقدير والاحترام اللذان تستحقهما ذكراه يجعلانى أدرجها هنا دون تغيير أو إضافة ، حتى يمكنها أن تقدم ملاحظات نافعة .

قد يكون من المفيد ، ما دامت الفرصة سانحة ، الإشارة إلى بقية العمارة العربية القديمة ، لا ليتم إحتذاؤها ، بل لأن ذلك فصل ينبغى أن يضم إلى تاريخ العمارة .

وتقدم قلعة القاهرة فى هذا الصدد كثيرا من الملاحظات التى يجب إبداؤها ، فهى تحتوى داخل أسوارها على أثرين رئيسيين يشهدان – بعد مضى ستمائة عام – على عظمة الشعب الذى أنجزهما ، إننى أقصد البئر والقصر المسمى «يوسف» . ويبدو أن الأثر الأول قد سبب للذين حفروه مصاعب شبيهة بتلك التى ووجهت أثناء إقامة الأهرام ، على الأقل ما يتعلق منها بمتوسط الارتفاع . ولكن بأية أحاسيس مختلفة يمكننا أن نتأمل هذا العمل أو ذاك ! وإلى أى مدى يجب أن يتواضع زهو هذه المقابر العظيمة أمام عطاء هذا المنبع المائى المتاح للقلعة .

كذلك فإن ديوان يوسف لم يكن إنجازه بالأمر الهيّن ؛ فليس من السهل ، بغير شك ، أن يُرْفَع اثنان وثلاثون عمودا إلى ارتفاع يقارب ثلاثمائة قدم فوق

سطح النيل ؛ وهى أعمدة من قطعة واحدة من الجرانيت يبلغ ارتفاعها ست وعشرين قدما ، أما قطرها فيزيد على ثلاث أقدام .

والقواعد التى تم اكتشافها بالفعل هى من الحجر الرملى الضارب إلى الحمرة ، وقد تم تنفيذها بطريقة سيئة جدًا وبذوق ردىء . ومن بين تيجان العُمد ما هو عبارة عن كتل لا شكل لها تقريبا ، وأخرى تقوم على تقليد سيء لتاج العمود الكورنثى . ويوجد من هذه الأخيرة خمسة تيجان ، يبدو أنه أُريد نقش أوراق الموز عليها ؛ لذلك فإنها ، رغم ضخامة نقشها ، لا تخلو كليةً من الأناقة ، إذ ربما استطاع فنان مبدع أن يجعل منها شيئا جذابا . (انظر رسوم تيجان العمد هذه على اللوحتين ٧١ ، ٧٢ من الدولة الحديثة ، المجلد الأول) .

ويشاهد نحو الأعلى فى زوايا القاعة الأربع – حيث العمد الاثنان والثلاثون التى تكلمت عنها قبل قليل – مجموعة كبيرة من الحنيات الخشبية الموضوعة بعضها فوق بعض . ويمكن القول بأنها هيكل لحلية شبيهة بأخرى موجودة بقاعتين أخريين ، سليمة وشبه كاملة .

فهل تكون هذه الحلية تقليدا لقطعة طبيعية ؟ لقد بحثت عنها دون جدوى . هل هى صورة لشكل كان له دوره فيما مضى ؟ ذلك هو ما أعتقده . إنها تبدو سابقة لما يسمى في الفن المعمارى بالمثلثات الكروية ، وهى بمثابة منطقة الانتقال التى تربط سقفاً دائريًا بغرفة مربعة . وقد استخدمت هذه الطريقة وبنفس الوظيفة فى أربعة أو خمسة أماكن – على الأقل – من القلعة . ونرى فى العديد من الأضرحة المربعة الصغيرة مثل هذه الحنيات التى تلعب هنا بالتأكيد دور المثلثات الكروية .

وفى بعض هذه الأماكن لا يوجد سوى حنية واحدة فى كل زاوية ؛ وفى حالات أخرى نرى أنه توجد على واجهات الجدران – أولا – حنيتان ، ثم تتصل بهما واحدة ثالثة بعد ذلك ، وتقام القبة الدائرية غالبا على هذا المثمن . غير أنه توجد أيضا فى بعض الأحيان حنيات أصغر مضافة من الأمام من منتصف

الواجهة حتى منتصف الحنية الثالثة . وبعض هذه الحنيات من الحجر ، وتتصل فى بعضها الآخر بزخارف السقف ، وهى زخارف يمكن أن نصفها سريعا بأن لها شبها كبيرا بهذه الأنواع من الأكتاف الطائرة التى تزين الكثير من الكنائس القوطية ، وليس فى هذا ما يدعو للدهشة ، فالعرب عندما حملوا العلوم إلى أوربا كان طبيعيا أن يتركوا بها لمحات من فنهم المعمارى .

وأيا كان أصل هذه الحلية ، فالمؤكد أنها هى التى نراها محورة بدرجات متفاوتة على طوابق المآذن المختلفة ، وعلى عقود الأبواب ، وعلى أفاريز السقوف .. الخ . إنها فى النهاية تكون الزخرفة الأساسية والوحيدة تقريبا فى عمارة المصريين الحالية .

وكذلك فإن الطريقة التى نحتت أو زخرفت بها صنج الأعتاب ، وأيضا صنج عقود البائكات فى العمارة العربية القديمة قد ظلت هى نفسها فى عمارة المحدثين ؛ وسأذكر عنها شيئا :

هذه الصنجات ليست دائما على نحو ما هى عليه فى أوربا حيث تستند الواحدة منها إلى الأخرى من خلال سطح منبسط ، وإنما يكون أحيانا من خلال سطح اسطوانى ينطلق من قاعدة أفقية ، وغالبا ما يأخذ قطاعه شكلاً منحنيًا معقدًا على نحو تمثل فيه رؤوس الصنجات مقاطع مدهشة(١) . ويتميز العديد من الأعتاب المشكلة على هذا النحو بأنها تستند عموديا على القوائم المستقيمة دون أن تؤدى إلى سقوطها . ولهذا فمن السهل ملاحظة أنه إذا كانت هذه المقاطع كالصنجات يرتبط بعضها ببعض ، فإنه لن ينتج عن ذلك أى رفس إطلاقا ، أو على الأقل يكون ضعيفًا جدًا على الصنجتين المتطرفتين ، ولكننا نجد حينئذ أن كل القوة تتجه لتحطيم العقود .

وهذه الطريقة تكون بدون سلبيات إذا كان للأدوات المستعملة صلابة المعادن ، ولكنها تصبح معيبة إذا كان الحجر هشا .

---

(١) انظر الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، اللوحة ٧١ ، شكل ٧ واللوحة ٧٢ ، شكل ١٥ و ١٨

وإذا ما قام المرء بفحص المقاطع المستخدمة فى صنجات المبانى العربية فسّرعان ما يلاحظ أنها لم تشق لأسباب تتعلق بالصلابة . وكذلك فقد شطرت الزوايا الحادة لعديد من هذه الصنجات – بالرغم من وجود العقود فوقها – لتحمل ثقل الجزء العلوى للجدار .

ويوجد ، سواء داخل القلعة أو فى منشآت أحدث عهدا ، عدد كبير من تكسيات الرخام أو الحجر الجيرى المثبتة ليس فقط على الصنجات ، ولكن أيضا على واجهات الجدران ، وعلى البحور الموجودة فى زوايا الأبواب الكبيرة .. الخ . وغالبا ما يبدو أن الأعتاب المكونة من ثلاثة أحجار ، وكأنها من خمسة أو سبعة خطوط متقطعة ، اثنان منها فقط عبارة عن وصلات حقيقية ، والأخرى محفورة .

المبحث الثالث
أبواب القاهرة

مأخوذ من الفصل الذى كتبه المقريزى عن الأبواب المسماة : زويلة ، والنصر ، والفتوح ، والشعرية ، وعن الوزير بدر الجمالى الذى أعاد تشييدها[١] :

« وكان للقاهرة من جهتها القبلية بابان متلاصقان يقال لهما بابا زويلة ، ومن جهتها البحرية بابان متباعدان أحدهما باب الفتوح والآخر باب النصر ، ومن جهتها الشرقية ثلاثة أبواب متفرقة : أحدها يعرف الآن بباب البرقية والآخر بالباب الجديد والآخر بالباب المحروق ، ومن جهتها الغربية ثلاثة أبواب : باب القنطرة وباب الفرج وباب سعادة ، وباب آخر يعرف بباب الخوخة . ولم تكن هذه الأبواب على ما هى عليه الآن ولا فى مكانها عندما وضعها جوهر.

(باب زويلة)

كان باب زويلة عندما وضع القائد جوهر القاهرة بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف اليوم «بسام بن نوح» ، فلما قدم المعز إلى القاهرة دخل من أحدهما ، وهو الملاصق للمسجد الذى بقى منه إلى اليوم عقد ، ويعرف بباب القوس . فتيامن الناس به وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه ، وهجروا الباب المجاور له ، حتى جرى على الألسنة أن من مر به لا تقضى له حاجة ، وقد زال هذا الباب ولم يبق له أثر اليوم إلا أنه يفضى إلى الموضع الذى يعرف اليوم

---

(١) انظر ما سبق ذكره بهذا الخصوص . وقد ترجم هذا النص من العربية إلى الفرنسية المرحوم بروسبير روريه الكاتب المترجم للغة العربية بالسنغال ، والذى توفى فى ريعان شبابه ، ولم يكن له متسع من الوقت لمراجعة هذه الترجمة .

ورد هذا النص فى الأصل الفرنسى مترجما بتصرف ، وقد رأينا إثباته هنا كما جاء فى خطط المقريزى (الجزء الأول ، الصفحات ٣٨٠ إلى ٣٨٢) مراعاة للدقة . (المترجم) .

بالحجارين ، حيث تباع آلات الطرب من الطنابير والعيدان ونحوهما ، وإلى الآن مشهور بين الناس أن من يسلك من هناك لا تقضى له حاجة ، ويقول بعضهم : من أجل أن هنالك آلات المنكر وأهل البطالة من المغنين والمغنيات . وليس الأمر كما زعم ، فإن هذا القول جار على ألسنة أهل القاهرة من حين دخل المعز إليها قبل أن يكون هذا الموضع سوقا للمعازف وموضعا لجلوس أهل المعاصى .

فلما كان فى سنة خمس وثمانين وأربعمائة بنى أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله باب زويلة الكبير الذى هو باق إلى الآن ، وعَلّى أبراجه ، ولم يعمل له باشورة كما هى عادة أبواب الحصون من أن يكون فى كل باب عطف ، حتى لا تهجم عليه العساكر فى وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة ، لكنه عمل فى بابه زلاقة كبيرة من حجارة صوّان عظيمة بحيث إذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على الصوّان . فلم تزل هذه الزلاقة باقية إلى أيام السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، فاتفق مروره من هنالك فاختل فرسه وزلق به ، وأحسبه سقط عنه فأمر بنقضها فنقضت وبقى منها شىء يسير ظاهر . فلما ابتنى الأمير جمال الدين يوسف الاستادار المسجد المقابل لباب زويلة وجعله باسم الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق ظهر عند حفره الصهريج الذى به بعض هذه الزلاقة ، وأخرج منها حجارة من صوّان لا تعمل فيها العدة الماضية ، وأشكالها فى غاية من الكبر لا يستطيع جرها إلا أربعة أرؤس بقر ، فأخذ الأمير جمال الدين منها شيئا ، وإلى الآن حجر منها ملقى تجاه قبو الخرنشف من القاهرة .

ويذكر أن ثلاثة أخوة قدموا من الرها بنائين بنوا باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح كل واحد بنى بابا ، وأن باب زويلة هذا بنى فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وأن باب الفتوح بنى فى سنة ثمانين وأربعمائة . وقد ذكر ابن عبد الظاهر فى كتاب خطط القاهرة أن باب زويلة هذا بناه العزيز بالله نزار بن المعز وتممه أمير الجيوش وأنشد لعلى بن محمد النيلى :

يا صاح لو أبصرت باب زويلة* لعلمت قدر محله بنيانا
باب تأزر بالمجرّة وارتدى الشعرى ولاث برأسه كيوانا
لو أن فرعونا بناه لم يرد* صرحا ولا أوصى به هامانا

وسمعت غير واحد يذكر أن فردتيه يدوران فى سكرجتين من زجاج ، وذكر جامع سيرة الناصر محمد بن قلاون أن فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة رتب ايدكين والى القاهرة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون على باب زويلة خليلية تضرب كل ليلة بعد العصر ، وقد أخبرنى من طاف البلاد ورأى مدن المشرق أنه لم يشاهد فى مدينة من المدائن عظم باب زويلة ولا يرى مثل بدنتيه اللتين عن جانبيه ، ومن تأمل الأسطر التى قد كتبت على أعلاه من خارجه فإنه يجد فيها اسم أمير الجيوش والخليفة المستنصر وتاريخ بنائه ، وقد كانت البدنتان أكبر مما هما الآن بكثير ، هدم أعلاهما الملك المؤيد شيخ لما أنشأ الجامع داخل باب زويلة وعمر على البدنتين منارتين ، ولذلك خبر تجده فى ذكر الجوامع عند ذكر الجامع المؤيدى .

(باب النصر)

كان باب النصر أولا دون موضعه اليوم ، وأدركت قطعة من أحد جانبيه كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربى ، بحيث تكون الرحبة التى فيما بين المدرسة القاصدية وبين بابى جامع الحاكم القبليين خارج القاهرة ، ولذلك تجد فى أخبار الجامع الحاكمى أنه وضع خارج القاهرة . فلما كان فى أيام المستنصر وقدم عليه أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا وتقلد وزارته وعمر سور القاهرة نقل باب النصر من حيث وضعه القائد جوهر إلى حيث هو الآن ، فصار قريبا من مصلى العيد ، وجعل له باشورة أدركت بعضها ، إلى أن احتفرت أخت الملك الظاهر برقوق الصهريج السبيل تجاه باب النصر فهدمته وأقامت السبيل مكانه . وعلى باب النصر مكتوب بالكوفى فى أعلاه : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علىّ ولى الله صلوات الله عليهما .

(باب الفتوح)

وضعه القائد جوهر دون موضعه الآن ، وبقى منه إلى يومنا هذا عقده وعضادته اليسرى ، وعليه أسطر من الكتابة بالكوفى ، وهو برأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمى . وأما الباب المعروف اليوم بباب الفتوح فإنه من وضع أمير الجيوش وبين يديه باشورة قد ركبها الآن الناس بالبنيان لما عمر ما خرج عن باب الفتوح .

(أمير الجيوش) أبو النجم بدر الجمالى كان مملوكًا أرمنيًا لجمال الدولة ابن عمار ، فلذلك عرف بالجمالى ، ومازال يأخذ بالجد من زمن سبيه فيما يباشره ويوطن نفسه على قوة العزم ويتنقل فى الخدم حتى ولى إمارة دمشق من قبل المستنصر فى يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة ، ثم سار منها كالهارب فى ليلة الثلاثاء لأربع عشرة خلت من رجب سنة ست وخمسين ، ثم وليها ثانيا يوم الأحد سادس شعبان سنة ثمان وخمسين ، فبلغه قتل ولده شعبان بعسقلان ، فخرج فى شهر رمضان سنة ستين وأربعمائة ، فثار العسكر وأخربوا قصره وتقلد نيابة عكا . فلما كانت الشدة بمصر من شدة الغلاء وكثرة الفتن ، والأحوال بالحضرة قد فسدت والأمور قد تغيرت ، وطوائف العسكر قد شغبت ، والوزراء يقنعون بالاسم دون نفاذ الأمر والنهى ، والرخاء قد أيس منه ، والصلاح لا مطمع فيه ، ولواتة قد ملكت الريف والصعيد بأيدى العبيد ، والطرقات قد انقطعت برًا وبحرًا إلا بالخفارة الثقيلة ، فلما قتل بلدكوش ناصر الدولة حسين بن حمدان كتب المستنصر إليه يستدعيه ليكون المتولى لتدبير دولته ، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من العساكر ولا يبقى أحدا من عسكر مصر . فأجابه المستنصر إلى ذلك ، فاستخدم معه عسكرا وركب البحر من عكا فى أول كانون ، وسار بمائة مركب بعد أن قيل له أن العادة لم تجرِ بركوب البحر فى الشتاء لهيجانه وخوف التلف ، فأبى عليهم وأقلع ، فتمادى الصحو والسكون مع الريح الطيبة

مدة أربعين يوما حتى كثر التعجب من ذلك وعد من سعادته ، فوصل إلى تنيس ودمياط ، واقترض المال من تجارها ومياسيرها ، وقام بأمر ضيافته وما يحتاج إليه من الغلال سليمان اللواتى كبير أهل البحيرة . وسار إلى قليوب فنزل بها ، وأرسل إلى المستنصر يقول : لا أدخل إلى مصر حتى تقبض على بلدكوش . وكان أحد الأمراء وقد اشتد على المستنصر بعد قتل ابن حمدان فبادر المستنصر وقبض عليه واعتقله بخزانة البنود ، فقدم بدر عشية الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة خمس وستين وأربعمائة ، فتهيأ له أن قبض على جميع أمراء الدولة ، وذلك أنه لما قدم لم يكن عند الأمراء علم من استدعائه ، فما منهم إلا من أضافه وقدم إليه . فلما انقضت نوبهم فى ضيافته استدعاهم إلى منزله فى دعوة صنعها لهم ، وبيت مع أصحابه أن القوم إذا أجنهم الليل فإنهم لابد يحتاجون إلى الخلاء ، فمن قام منهم إلى الخلاء يقتل هناك ، ووكل بكل واحد واحدا من أصحابه وأنعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الأمير من دار ومال وإقطاع وغيره . فصار الأمراء إليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين فما طلع ضوء النهار حتى استولى أصحابه على جميع دور الأمراء ، وصارت رؤسهم بين يديه ، فقويت شوكته وعظم أمره وخلع عليه المستنصر بالطيلسان المقور وقلده وزارة السيف والقلم ، فصارت القضاة والدعاة وسائر المستخدمين من تحت يده ، وزيد فى ألقابه أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين . وتتبع المفسدين فلم يبق منهم أحد حتى قتله ، وقتل من أماثل المصريين وقضاتهم ووزرائهم جماعة . ثم خرج إلى الوجه البحرى ، فأسرف فى قتل من هنالك من لواتة واستصفى أموالهم وأزاح المفسدين وأفناهم بأنواع القتل . وصار إلى البر الشرقى فقتل منه كثيرا من المفسدين ، ونزل إلى الأسكندرية وقد ثار بها جماعة مع ابنه الأوحد ، فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة إلى أن أخذها عنوة وقتل جماعة ممن كان بها . وعمر جامع العطارين من مال المصادرات ، وفرغ من بنائه فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة . ثم سار إلى الصعيد ، فحارب جهينة والثعالبة وأفنى أكثرهم بالقتل وغنم من الأموال

ما لا يعرف قدره كثرة ، فصلح به حال الإقليم بعد فساده ، ثم جهز العساكر لمحاربة البلاد الشامية ، فسارت إليها غير مرة وحاربت أهلها ، ولم يظفر منها بطائل ، واستناب ولده شاهنشاه وجعله ولى عهده . فلما كان فى سنة سبع وثمانين وأربعمائة مات فى ربيع الآخر ، وقيل فى جمادى الأولى منها . وقد تحكم فى مصر تحكم الملوك ولم يبق للمستنصر معه أمر ، واستبد بالأمور فضبطها أحسن ضبط ، وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة ، قتل من مصر خلائق لا يحصيها إلا خالقها ، منها أنه قتل من أهل البحيرة نحو العشرين ألف إنسان إلى غير ذلك من أهل دمياط والأسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد وأسوان وأهل القاهرة ومصر ، إلا أنه عمر البلاد وأصلحها بعد فسادها وخرابها بإتلاف المفسدين من أهلها . وكان له يوم مات نحو الثمانين سنة ، وكانت له محاسن منها أنه أباح الأرض للمزارعين ثلاث سنين حتى ترفهت أحوال الفلاحين واستغنوا فى أيامه ، ومنها حضور التجار إلى مصر لكثرة عدله بعد انتزاحهم منها فى أيام الشدة ، ومنها كثرة كرمه . وكانت مدة أيامه بمصر إحدى وعشرين سنة ، وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر . ومن آثاره الباقية بالقاهرة باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر » .

ونكمل هنا قائمة أبواب القاهرة بالأسماء الثلاثة الآتية ، التى لم تثبت على الخريطة : « باب السباع» (الخريطة ٢٦ من الدولة الحديثة) بين «درب الشيخ قمر» و «درب السباع» ، (B- 5) ، «باب الضبّة» (نفسه ، C-6) بين «غيط الوالى» و «غيط الطويل» (انظر الخريطة ٢٦ ، C-6) ، وباب «أولاد عنان» جنوب «باب الحديد» (انظر الخريطة ٢٦ ، C-14) .

وتذكر خريطة القاهرة لنيبور – التى سبق لى ذكرها – عديدا من الأسماء الأخرى للأبواب ، غير أنها لا تشير إلى أبواب غير هذه التى تظهر على خريطتنا ، لأن الذى تغير هو الأسماء فحسب ، وذلك مثل باب «السيدة زينب» ، وباب

«الحطابة» ، وباب «أيوب بك» . ويذكر المؤلف نفسه أيضا «بركة القصارين» ، وقنطرة يطلق عليها «قنطرة الظاهر بيبرس» (وهى تقابل قنطرة الوز) ، ومصنعا للبارود قريبا من بركة الرطلى ، وفى داخل المدينة كنيسة أرمنية ذكرت من قبل ، ويعطى نيبور الذى قطن فى حى الموسكى (أو حى الإفرنج) هذا الحى خط عرض ٥٨ً ٢َ ٣٠° ، وهى ملاحظة تطابق ملاحظة المسيو نوى Nouet (انظر نيبور ، المجلد الأول ، صفحة ٨٩ وما بعدها) .

* * *

لمحة عن بعض أسماء الشوارع والمنشآت

لقد سمّى الفرنسيون الشارع الكبير المتجه من القنطرة المزدوجة فى الجنوب المعروفة بقناطر السباع حتى باب الشعرية باسم شارع «بتى توار Petit-Thouars»، وهو اسم بّحار عُرف بإخلاصه وشجاعته في معركة أبى قير : وهذا الطريق الكبير يحمل فى القاهرة اثنى عشر اسمًا مختلفًا ، تتغيّر مع كل قنطرة تقريبا .

ويتحدث عبد اللطيف[1] عن الكثير من الشوارع والأماكن التى لم تعد موجودة اليوم تحت نفس الأسماء مثل : المكس ، حلب ، شارع البركة . وقد وجدت بالقاهرة شارعا باسم زقاق المِسْك ، أو المَسْك ، جنوب باب زويلة[2] . لكن ما ذكره المقريزى ، حسب رواية دى ساسى ، هو أن «شارع ، أو حَيّ حلب ، المسمى بزقاق حلب (حيث كانت فى الماضى ثكنات للجنود) كان يقع خارج باب زويلة » وكذلك «كانت تقع خارج القاهرة بلدة على الطريق الكبير باتجاه الفسطاط» . وأرى أن الزقاق يعنى مكانا ضيقا ، ومن ناحية أخرى فإن كلمة (المكس) تعنى ، كما لاحظ المسيو دى ساسى أيضا ، الرسم أو الضريبة .. الخ . وكان هناك على الخليج موضع لتحصيل الرسوم يطلق عليه المكس ، غير أن هذا الاسم نفسه الذى نصادفه قريبا من أحد أبواب القاهرة ربما يحمل نفس المعنى . وفيما أرى فإننا نجد هنا زقاق حلب أو ساحة حلب وزقاق المكس ، أو ساحة تحصيل رسوم الدخول ، وأخيرا فإنه لا يجب التوقف عند كلمة المسك مكان المكس ، فليس أكثر شيوعا فى مصر لدى الشعب من قلب الحروف عند النطق ؛ غير أن هذا لا يتعدى هنا مجرّد الافتراض . ويلوح

(١) ترجمة عبد اللطيف ، صفحة ٣٧٤ .

(٢) انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول (رقم O-N-6,50) .

لى أن المسيو دى ساسى كان لديه الحق فى استبدال كلمة (مقس) بكلمة (مكس) خلال النص[1] .

كذلك ورد لدى عبد اللطيف عديد من الشوارع التى سيكون من الأهمية بمكان وجودها على الخريطة الحالية ، غير أننى سوف أدع الاهتمام بذلك للأشخاص الذين يعنيهم مقارنة الأحوال المتعاقبة لهذه العاصمة : وهذه الشوارع هى : الهلالية ، الساسة ، وذلك الجزء من المدينة الذى يعرف بالقصبة[2] . ووفقا للمقريزى أيضا فإن فى الإمكان الإشارة إلى شوارع : المنجبية أو المنتجبية ، واليانسية ، والمصامدة ، والمنصورية ، والحسينية : والأسماء الثلاثة الأولى من هذه الأسماء الخمسة هى أسماء فيالق من الجند كانت تعسكر فى هذه الجهة[3] . وأيضا يذكر المقريزى من أسماء الشوارع ما يلى : ديلون ، كتامه ، كافورى .. الخ . (مختارات عربية Chrestomathie arabe ، مجلد ٢ صفحة ١٠٣ ، ١١٠ ، ١٣٧) ، وبمكان مرتفع فى القاهرة يقع قبر إحدى الشخصيات البارزة فى تاريخ المماليك ، وهى شجر الدر Chegaret el Dorr مؤسسة أسرتهم عام ستمائة وثمانية وأربعين للهجرة (١٢٥٠) ، التى اشتهرت بجرائمها أو أفعالها الوقحة التى لا تتفق مع عبقرية هذه المرأة الخارقة للعادة ، والتى خلقت فعلا لكى تسود ، هذا القبر يقع على مقربة من قبر السيدة نفيسة[4] . كما يقع قبر قاسم أيواز Ayouâz الذى تولى الحكم عام ألف ومائة وتسعة عشر للهجرة (١٧٠٧) ، على مقربة من باب اللوق (انظر الخريطة ٢٦ ، الدولة الحديثة M-15) ، وعند الخروج من باب عرب اليسار نمر بالكثير من المقـابر التى تشكل مدينة من نوع خاص ، كبيرة كمدينة الأحياء ؛ وفى كل مكان منها توجد القباب والمساجد والمآذن ، وأحواش المقابر التى تزينها الأعمدة والنقوش فى بذخ :

(١) يوجد فى الجزء الغربى من القاهرة سوق يحمل اسم سوق مسكة . ويبدو أن هذا الاسم له دلالة مختلفة هنا .

(٢) ترجمة عبد اللطيف صفحتى ٤١١ ، ٤١٢ .

(٣) نفسه ، الصفحات من ٤٢٧ إلى ٤٣١ .

(٤) جامع السيدة زينب وجامع السيدة نفيسة ، اللذان ذكرتهما الآن ، ساهما عبد الرحمن كتخدا .

وتقع هذه المقابر جميعها وسط الرمال عند سفح المقطم ، وتمتد إلى ما يزيد على فرسخ باتجاه النهر وإلى ناحية الجنوب . وتوجد مقبرة إبراهيم كتخدا بين تلك المقابر التى تعرف باسم الإمام الشافعى ، وهى من عام ألف ومائة واثنين وستين للهجرة (١٧٤٨)[1] .

ملحوظة : فيما يتعلق بحساب مثلثات القاهرة وضواحيها (الجزء ١٧ ، الصفحة ٥٤٦) ، تراجع الدراسة حول تنفيذ خريطة مصر للكولونيل جاكوتان ، وكذلك اللوحة الملحقة بالنص .

---

(١) يضم هذا المكان أسبلة تتلقى المياه من مجرى مائى خاص ، أقل ارتفاعا من ذلك الذى قمنا بوصفه ، وهو ذو قناطر منخفضة : ومأخذ مائه بطرف سهل واسع يغمره فيضان النيل أثناء الفيضانات الكبرى .

الخطوط العربية
على عمـــائر القـــاهرة

العنوان الأصلى لهذه الدراسة :

حول الكتابات الكوفية المجموعة من مصر ،
وحول الخطوط الأخرى المستخدمة فى العمائر العربية

تأليف : مارسيل

مدير سابق للمطبعة الملكية وعضو بجوقة الشرف

المبحث الأول

حول العمائر العربية بصفة عامة وكتاباتها

إن هذه العمائر التى لفتت أنظار الرحالة منذ قرون عديدة فى مصر ، المنبع القديم للحضارة والفنون ، قد جعلت لنا منها بالفعل أرضا كلاسيكية . غير أن اهتمام ودراسات الباحث حتى الآن ، تركز – بصفة خاصة – على بقايا المبانى المهيبة ، التى بناها ملوك طيبة[1] وممفيس القدامى ، والتى لا تزال بقاياها المنتصرة على عوامل الزمن تشهد لنا بكتلها الضخمة على مدى قوة وثراء مشاهير ملوكها الذين خلّفوا لنا تلك الآثار العظيمة .

ومع ذلك ، فإذا كانت هذه الآثار التى يرجع بناؤها إلى أقدم عصور التاريخ تبهر العيون بروعتها إذا ما ركزت النظر بصفه خاصة على ضخامة البناء ، وفخامة الزخارف العجيبة المنتشرة على كل أجزائها بكثرة مدهشة حقا ، وإذا كانت هذه المشاهدة تبعث لأول وهلة على الإعجاب المطلق ، فإنها لا تخلف فى النفس بعد ذلك سوى انطباع غامض من الدهشة البالغة . وكذلك نقوشها الهيروغليفية التى عجزت عن تفسيرها – حتى الآن – جهود أكثر علماء الآثار تفاؤلا ، فهى لا تمنحهم إلا الشعور بالأسف ، لأنهم لم يستطيعوا – من خلال هذا الركام الذى لم تتكشف قيمته العلمية بعد – استخلاص أية معلومات حول الأحداث التى أدت إلى تكوين تاريخ السكان القدامى لهذا القطر الجميل ، الذى يمثل واحدا من أغنى مجالات التاريخ والمعرفة .

(١) لم يكن اسم طيبة (Θήβαι) فى لغة المصريين القديمة سوى ΘΒΑΚΙ ى طباكى (المدينة) أطلق كناية عن المدينة عاصمة امـ اطـ ــ وكذلك كان يطلق على أثينا عند الاتينيين ، اسم (d'A'στυ) (القلعة) ؛ وروما عند الرومان باسم (d'Urbs) (المدينة) ؛ والقسطنطينية عند أروام [البيزنطيون] الامبراطورية الجنوبية باسم (المدينة) ، وأخيرا عند العرب المحدثين ، إذ أطلق على عاصمتهم القديمة يثرب اسم (المدينة)

المبحث الثانى

عن الخطوط التى استخدمها العرب في كتاباتهم قبل الهجرة

قبل أن أتعرض للآثار التى تحتوى على كتابات كوفية ، أعتقد أنه من المناسب أن أتتبع سريعا — فى هذه الدراسة التى تعتبر كمقدمة — تاريخ مختلف أنواع الخطوط التى تميزها هذه التسمية بوجه عام ، وأن أشير إلى منشئها ، وعلاقتها بأشكال الكتابة التى سبقتها فى اليمن(١) والحجاز(٢) ، وأن أحدد العصر الذى بدأ فيه استخدامها حتى توقف عند العرب القدامى ، الذين نشروها فى مختلف الأقطار التى نقل إليها أمراء الإسلام الأوائل دينهم وأسلحتهم الظافرة .

وقد رأيت كذلك أنه ليس خروجا عن الموضوع أن أحدد بإيجاز مختلف الخطوط الأكثر حداثة التى استعملها العرب تباعا ، فهذه التوضيحات التمهيدية يجب بطبيعة الحال أن تسبق نشر الكتابات المجموعة لهذه الخطوط ، حتى تتجنب التكرارات التى يمكن بالضرورة أن تصاحب الشروح الخاصة بها فى الأبحاث التى سوف تتناولها .

---

(١) اليمن هو اسم أكبر وأغنى ثلاثة الأجزاء التى تتكون منها شبه الجزيرة العربية ؛ فاليمن يشكل مع بلاد حضرموت جزء الجزيرة العربية الذى عرفه القدماء تحت اسم «بلاد العرب السعيدة» ، وحملت عاصمته اسم اليمن أيضا . وقد كتب التاريخ الخاص بهذه البلاد كثير من الكتاب العرب : ونميز على الخصوص «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى» الذى ألفه الشيخ قطب الدين محمد بن محمد الملقب بالمكى المتوفى سنة ٩٨٨ للهجرة «١٥٨٠ ميلادية» [٩٩٠ هـ/١٥٨٢ م] وأقتنى نسخة مخطوطة جميلة جدًا من هذا العمل الذى يوجد أيضا بالمكتبة الملكية . (مخطوطات عربية رقم ٨٢٦ ، ٨٢٦أ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨) .

(٢) الحجاز هو جزء الجزيرة العربية الذى توجد به المدينتان المشهورتان مكة والمدينة .

تاريخ الشرق ، الذى ترك فيه مؤرخونا[1] فجوات من الصعب جدًا ملؤها ، بل إن الكتاب العرب أنفسهم ليسوا دائما على اتفاق بشأنها ، رغم أنهم الذين يجب أن ننتظر منهم أدق المعلومات حول تاريخهم الخاص . لذلك تزداد قيمة هذه الآثار لدينا ، نظرا لأن ما تتضمنه من دلالات تمثل – إذا صح التعبير – مصدرا ينبغى أن نتلمس فيه ما يلقى الضوء على بعض فترات تاريخ مصر ، التى تعتبر – مع كونها أقرب عهدا – غير معروفة لنا جيدا كأحداث عصور سابقة ، والتى تمثل أمام المؤرخين غموضا يحتاج إلى تبديد ظلماته ، وتناقضات تحتاج إلى التوفيق بينها . كما تصلح كثير من الكتابات التى تشتمل عليها منشآت ذلك العصر لإلقاء الضوء على نقاط من التاريخ لعلها كانت ستظل إلى الأبد مغلفة بغياهب الظن ، لولا الاستعانة بتلك الكتابات .

(١) عندما أحس الكاتب الشهير مسيو برتيرو Bertherau بضرورة اللجوء إلى مؤرخى الشرق فيما يتعلق بأجزاء تاريخنا التى تتصل بتاريخهم ، أنجز مؤلفا بالغ الأهمية ينبغى نشره ، عن مختلف الكتاب العرب الذين تعرضوا لعصر الحروب الصليبية .

المبحث الثانى

عن الخطوط التى استخدمها العرب في كتاباتهم قبل الهجرة

قبل أن أتعرض للآثار التى تحتوى على كتابات كوفية ، أعتقد أنه من المناسب أن أتتبع سريعا – فى هذه الدراسة التى تعتبر كمقدمة – تاريخ مختلف أنواع الخطوط التى تميزها هذه التسمية بوجه عام ، وأن أشير إلى منشئها ، وعلاقتها بأشكال الكتابة التى سبقتها فى اليمن[1] والحجاز[2] ، وأن أحدد العصر الذى بدأ فيه استخدامها حتى توقف عند العرب القدامى ، الذين نشروها فى مختلف الأقطار التى نقل إليها أمراء الإسلام الأوائل دينهم وأسلحتهم الظافرة .

وقد رأيت كذلك أنه ليس خروجا عن الموضوع أن أحدد بإيجاز مختلف الخطوط الأكثر حداثة التى استعملها العرب تباعا ، فهذه التوضيحات التمهيدية يجب بطبيعة الحال أن تسبق نشر الكتابات المجموعة لهذه الخطوط ، حتى تتجنب التكرارات التى يمكن بالضرورة أن تصاحب الشروح الخاصة بها فى الأبحاث التى سوف تتناولها .

---

(١) اليمن هو اسم أكبر وأغنى ثلاثة الأجزاء التى تتكون منها شبه الجزيرة العربية ؛ فاليمن يشكل مع بلاد حضرموت جزء الجزيرة العربية الذى عرفه القدماء تحت اسم «بلاد العرب السعيدة» ، وحملت عاصمته اسم اليمن أيضا . وقد كتب التاريخ الخاص بهذه البلاد كثير من الكتاب العرب : ونميز على الخصوص «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى» الذى ألفه الشيخ قطب الدين محمد بن محمد الملقب بالمكى المتوفى سنة ٩٨٨ للهجرة «١٥٨٠ ميلادية» [٩٩٠ هـ/١٥٨٢ م] وأقتنى نسخة مخطوطة جميلة جدًا من هذا العمل الذى يوجد أيضا بالمكتبة الملكية . (مخطوطات عربية رقم ٨٢٦ ، ٨٢٦أ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨) .

(٢) الحجاز هو جزء الجزيرة العربية الذى توجد به المدينتان المشهورتان مكة والمدينة .

يخبرنا المؤرخون الشرقيون أنه قبل فتوحات محمد [ص] كانت اللغة العربية القديمة منقسمة إلى لهجتين رئيسيتين استمدتا اسميهما من القبيلتين الكبيرتين اللتين استعملتاهما : إحداها كانت تسمى العربية القرشية ، والأخرى العربية الحميرية .

وهذا ما أكده مؤرخو الشرق بشأن هاتين اللهجتين القديمتين ، وبشأن الكتابة التى أخذت اسمها من الأخرى .

كانت اللهجة الأولى شائعة بين القرشيين المنحدرين من ذرية إسماعيل وبين القبائل المتوطنة فى الحجاز ، وقد اعتبرت أنها اللغة الخالصة النقية ، ومن ثم سميت بحق باللسان العربى المبين . وبهذه اللهجة تكلم محمد [ص] واستخدمها فى كل ما أثر عنه .

أما الثانية من هاتين اللهجتين فترجع إلى أصل أقدم بكثير من اللهجة القرشية ، ويؤكد الكتاب العرب بوجه عام أنها استخدمت فى العصور السحيقة ، منذ العصر الذى بدأ فيه العرب يشكلون أمة .

وكانت تسمى « الحميرية » ، نسبة لقبيلة قديمة كانت هى لهجتها الخاصة ، وهى المعروفة لدينا باسم الحمرية ، وترجع فى أصلها إلى حِمْيَر(١) بن سبأ(٢) من ذرية قحطان ، أول ملوك اليمن الذى عاش قبل ظهور محمد [ص] بألفى سنة تقريبا ، ويبدو أنه هو يقطان المذكور فى الإصحاح العاشر من سفر التكوين . فهذه القبيلة كانت فى البداية وثنية ، اعتنقت الديانة اليهودية ، ثم المسيحية بعد ذلك ، وقدمت لشبه الجزيرة العربية سلسلة طويلة من الملوك الذين جعلوا مقر ملكهم فى ظفار(٣) ، إحدى أجمل وأهم مدن شبه الجزيرة العربية ، وتقع

(١) حمير بن سبأ ، وكلمة أحمر تعنى بالعربية اللون الأحمر ، وقد لقب هذا الأمير بهذا الاسم لأنه كانت له عادة ارتداء ملابس بهذا اللون .

(٢) عد الشمس بن يشجب الملقب بسبأ كان حفيد قحطان .

(٣) هى ظفار أو ظفر . ويخبرنا البكوى أن البخور الذى يجمعونه من الجبال القرية من هده المدينة يطلق عليه – لهذا السبب – الظفارى .

بالقرب من صنعاء[١] عاصمة اليمن : ويقول النويرى إن سلطانهم امتد إلى مصر والصين والهند ، وإذا كان علينا أن نصدق شهادة الجغرافى البكوى[٢] فقد امتد سلطانهم حتى النوبة وإلى كل شواطىء موريتانيا ، بل إنه يضيف أن شعب النوبة كان لايزال له ملك فى عصره يقيم فى دنقلة ، يقولون إنه ينحدر من قدامى الحميريين .

وقد انتهى كل من أبى الفدا وحمزة بن الحسن[٣] – بناء على ما تجمع لديهما من روايات قديمة – إلى أن لغة العرب القديمة ، أى اللهجة الحميرية ، ترجع فى أصلها وفى شكلها البدائى إلى يَعْرُب[٤] بن قحطان .

وقد ذابت هذه اللغة خلال فتوحات محمد [ص] وخلفائه ، ولم يبق لنا منها سوى القليل جدا مما لا نستطيع معه أن نتعرف على طبيعتها وقواعدها النحوية . ولكن المؤرخين يُجمعون على أنها كانت شديدة الاختلاف عن اللغة التى كانت تتكلم بها قبائل شبه الجزيرة العربية الأخرى ، ويستشهدون فى هذا الصدد بالمثل السائر بين العرب ، ويقول : «على العربى القادم إلى ظفار أن يتعلم لهجة حمير» .

---

(١) تقع صَنعاء أو صِنعاء على الخط ٥َ ٧٧° من خطوط الطول ، والخط ٣٠َ ١٤° من خطوط العرض . ووفقا للبكوى ، فإن هذه المدينة التى تشبه دمشق بجمال حدائقها الحافلة بكل أنواع الفواكه خالية من الحيوانات الضارة والحشرات ، وبالسنة فيها صيفان عندما تدخل الشمس برجى الحمل والميزان ، وشتاءان عندما تدخل برجى السرطان والجدى .

(٢) على عبد الرشيد بن صالح بن نورى المقلب بالبكوى لأن أصله من بكوية ، وهى مدينة كبيرة تقع فى بلاد دربند على ساحل بحر قزوين Caspienne. وإن كان مخطوط مؤلفه الموجود بالمكتبة الملكية (مخطوطات عربية رقم ٥٨٧ ، in-4°) يحمل اسم «باقوى» . ولم تحدد سنة ميلاد هذا الجغرافى بالضبط ، ولكن المؤكد أنه كان يكتب نحو سنة ٨٠٦ للهجرة (١٤٠٣ ميلادية) . ومؤلفه «كتاب تلخيص الآثار فى عجائب الملك القهار» ضرب من جعرافية العالم مرتب حسب نظام المناخ ، وانتهى من وضعه سنة ٨١٥ للهجرة «١٤١٢ ميلادية» . ولقد نشرت فى الجريدة المصرية – من كتابه هذا – المستخلصات الجغرافية التى لها علاقة بمصر . انظر أيضا قطوف من الأدب الشرقى (Mélanges de littérature Orientale) المطبوع فى القاهرة فى السنة الثامنة [من التقويم الفرنسى] .

(٣) هو حمزة بن الحسن الملقب بالأصبهانى .

(٤) يعرب بن قحطان ، عرفه العبرانيون باسم يارح .

كذلك فإن الكلمات القلائل للغة الحميرية التى أوردها حمزة والنويرى وغيرهما من الكتاب العرب القدامى تختلف بشكل واضح عما يناظرها فى اللغة العربية الشائعة بصفة عامة .

ووفقا لنفس هؤلاء المؤرخين فإن أقدم كتابة استخدمتها شعوب شبه الجزيرة العربية قبل زمن الهجرة هى الكتابة الحميرية ، وقد أطلق عليها بعض المؤرخين أيضا اسم المسند[١] ؛ ولكن لم يخبرنا أحد منهم عن اسم مبتكر هذه الكتابة .

ولا يمكن قبول رأى بعض الكتاب القائل أن الكتابة الحميرية تختلف عن تلك التى تحمل اسم المسند ، أو أنها لم تكن سوى الكتابة التى سميت فيما بعد بالكوفية . ذلك أن طبيعة الكتابتين الأولين [الحميرية والمسند] واختلافهما عن هذه الأخيرة [الكوفية] يؤيده شهادة كل الكتاب العرب ، ومن بينهم اللغويان الشهيران الجوهرى[٢] والفيروزابادى[٣] .

ونحن لا نعرف الآن على الإطلاق بصورة إيجابية وأكيدة شكل الحروف الحميرية ، فكل ما نعرفه عنها – تبعا لما أقره الكثير من كتاب العرب القدامى ، ومن بينهم ابن خلكان[٤] – هو أن الحروف التى تكون هذه الكتابة كانت منفصلة ، ومتباعدة عن بعضها البعض .

ومن هذه الدلالة يمكن القول بأن هذا الخط يشبه إلى حد ما النقوش المسمارية لآثار برسبوليس[٥] ؛ وربما كان يتعين بناء على ذلك أن ننسب إلى الكتابة الحميرية ذلك النقش الأقرب شبها بالكتابة الفارسية ، والذى شاهدته

(١) ووفقا للبكوى «خط المسنداى» .

(٢) هو أبو نصر إسماعيل بن حماد الملقب بالجوهرى والفارابى مؤلف قاموس الصحاح فى اللغة .

(٣) هو مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد ، لقب بالفيرورابادى وبالشيرازى لأنه ولد بفيروزاباد بأرض شيراز ، وهو مؤلف القاموس المحيط .

(٤) شمس الدين بن خلكان مؤلف كتاب وفيات الأعيان .

(٥) برسبوليس (اصطخر) . ولهذه المدينة أهمية خاصة ، إذ بفضلها تمكن بعض العلماء مثل (جروتفند ، هنرى رولنسن) من معرفة الخط المسمارى وفك رموزه ، وقد سبق لبعض الرحالة أن قاموا باستنساخ نماذج لهذا الخط من هذه المدينة ، ومن هؤلاء بتروديلا فالى وكارستن نيبور . (المترجم) .

بين يدى الجنرال دوجا Dugua بالقاهرة . وكان قد أعطاه إياه أعراب مؤكدين أنهم عثروا عليه بين أنقاض ضخمة على يمين الطريق من القاهرة إلى السويس .

ويضيف ابن خلكان أن استعمال الحروف الحميرية كان مقصورا على علية القوم فى القبائل ، وكان محظورا تعليم هذا النسق من الكتابة لأفراد الطبقة الدنيا أو لأى أجنبى دون إذن خاص من الحكام .

ويبدو أن الحروف الحميرية فى زمن محمد [ص] كانت قد تهاوت كلها تقريبا فى طىّ النسيان ، وأن المسلمين اجتهدوا فى محو أى أثر لها .

ومع ذلك فكثير من الكتاب العرب يتحدثون عن اكتشاف نقوش حميرية ، ويحددون عصورها ، ويقومون بتفسيرها : وسأكتفى بذكر الثلاثة الأكثر تفردا ، منها اثنان ليسا غريبين عن مصر بأى حال :

يذكر أبو الفدا إن شمر[١] ملك اليمن قد حفر على أحد أبواب سمرقند[٢] نحو تسعمائة عام قبل الميلاد نقشًا حميريًا جاء به : «من صنعاء إلى سمرقند ألف فرسخ»[٣] .

ويقول حمزة إن هذا النقش يبدأ بهذه الكلمات : «باسم الإله أقيم هذا البناء بأمر من شُمر يرعش إلى ربه الشمس» .

ونجد عند النويرى أن ياساسين[٤] كان قد توغل بوسط أفريقيا فى وادى الرمال ، فشهد هناك هلاك كل من حاول أن يجتازه بناء على أوامره ، فأقام

(١) شمر بن مالك . ويطلق عليه النويرى وحمزة اسم شمر يرعش أبو كرب .

(٢) سمرقند مدينة فيما وراء النهر ، وهى مجاورة لخوارزم على خط طول ٢٠ َ ٩٨° ، وخط عرض ٥ َ ٤٠° .

(٣) يأتى اسم هذا المقياس من الكلمة الفارسية فرسنك ، وقد جعلها العرب فرسخ ، وهى مكونة من كلمتين : فرس وسنك ، أى الصخرة الفارسية . ويقدره المشارقة بمسافة ٣٠٠٠ خطوة أو ١٢٠٠٠ ذراع (٢١٧٢٩ قدم) .

وكان هذا المقياس يستخدم بصفة خاصة عند العرب والفرس، كما عرفه قديما الروم الذين قسموه إلى ٢١ غلوة، وأسموه بالفرسخ .

(٤) الاسم الكامل لهذا الملك الحميرى هو ياساسين بن عمرو بن شرحبيل : وهو المعروف عموما باسم ناشر النعم .

على حافة هذا الوادى تمثالا من البرنز فوق صخرة ، يحمل على صدره النقش التالى بخط المسند أو الحميرى : «هذا الصنم لناشر النعم الحميرى ليس وراءه مذهب ولا يتكلفن أحد ذلك فيعطب»[1] .

ويورد البكوى أيضا نقشا بخط المسند أو الحميرى ، ويقول إنه كان منقوشا على أحد الأهرامات : وهذا النقش – وفقا له – يحمل : « إن بناء هذه الآثار يشهد على قوة الأمة المصرية ، قد يكون من السهل هدمها .. لكن من يستطيع بناء مثلها» .

ونفس الجغرافى عند وصفه لبلاد القليب[2] ، التى يضعها فى الإقليم السادس بالقرب من أرض الصين ، يضيف أن سكانها من عبدة الأصنام وأنهم يتكلمون العربية القديمة ؛ ولا يعرفون أى لغة أخرى ، ويستخدمون الحروف الحميرية .

---

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ ١٥ ص ٢٩٤ . (المترجم) .
(٢) القليب وفقا لقول البكوى : هى بلاد يصل امتدادها مسافة شهر .

المبحث الثالث

عن الخطوط التى استخدمها العرب منذ الهجرة في كتاباتهم وفى مقدمتها الخط الكوفى

فى زمن فتوحات محمد [ص] كانت الكتابة الحميرية قد استبدلت بأخرى سرعان ما شاعت بين مختلف قبائل شبه الجزيرة العربية .

هذه الكتابة التى يبدو أنها مشتقة من الخط السريانى القديم (سترنجلو)[1] تختلف بصفة خاصة عن تلك التى سبقتها فى شبه الجزيرة العربية فى أن الحروف التى تتكون منها ليست متفرقة ولكنها متشابكة فيما بينها : وقد ابتكرها مرامر[2] ، وهو من قبيلة بولان[3] الملقب بالأنبارى ، لأنه جاء ليستقر فى مدينة الأنبار ؛ وهو الذى نقلها إلى مكة وإلى المدينة .

وقد تعرضت لتغيرات متتالية ، واتخذت عبر مختلف عصورها تسميات : المكى ، المدنى ، البصرى ، وأخيرا الكوفى .

وقد اتخذت التسميتين الأوليين من اسم كل من المدينتين اللتين ذكرناهما سابقا ، على اعتبار أنها قدمت إليهما ؛ والتسمية الثالثة من اسم مدينة البصرة التى ما لبثت أن استخدمت فيها .

---

(١) للخط السترنجلو أو الاسترنجلو على الأصح (   ) الخاص بالسوريين القدامى أشكال مربعة ، وغالبا ما تختلف خطوطه ذات الزوايا كثيرا عن مثيلتها فى الخط السريانى الحديث ، لأنه دائما أنيق ومستدير . وقد حفظ الطابع المميز لهذه الكتابة بصفة خاصة فى كتابة النسطوريين والمليشيين .

(٢) مرامر بن مرة أو مراه . ويعطيه عالم التراجم حاجى خليفة اسم مُرار أو مَرار استنادا إلى ما يروى عن عبد الله بن عباس ، وهو من أكبر ثقات الرواة المسلمين .

(٣) من أهم فروع قبيلة طىء .

وفيما يتعلق بالتسمية الرابعة التى ترجمناها بلفظ Koufiqe ، وكتبها بعض الكتاب Coufite فهى نسبة إلى مدينة الكوفة[١] الواقعة على ضفاف نهر الفرات (فى بلاد النهرين)[٢] ، وهذه التسمية ، وهى الشائعة بين العامة ، قد أطلقت عليها ، ليس لأنها ابتكرت فى هذه المدينة كما ادعى بعض الكتاب على غير أساس ، إذ إن إنشاء هذه المدينة حدث بعد مرامر بوقت طويل ، ولكن لأنها [أى الكتابة الكوفية] أصبحت بعد ذلك أكثر استخداما لدى كتاب هذه المدينة بصفة خاصة ؛ ولدى العلماء الذين ينتمون لمدرستها .

لقد استخدم الخلفاء الأوائل الكتابة الكوفية ؛ إذ خُط مصحف عمر المشهور بهذه الحروف . وإذا سلمنا بما يقول به بارتيليمي الأوديسى[٣] فإن أول مصحف كتب بيد عثمان بأمر من أبى بكر ؛ ويضيف أن هذه النسخة الأصلية لا تزال محفوظة من وقتها بجامع دمشق الرئيسى الذى كان قبل ذلك كنيسة القديس يوحنا المعمدان .

وقد قام عبد الحميد يحيى الكاتب المشهور الذى عاش فى عهد خلفاء بنى أمية بتنقيح هذه الحروف ، وكان أبرع خطاطى عصره .

وقد أحضرت معى من مصر عددًا كبيرًا من قصاصات القرآن المكتوبة على صحف من الرق والقضيم بخطوط كوفية رائعة الجمال ، وهى تقريبا تشابه وتبدو وكأنها من نفس المجموعة التى نشر نيبور Nibuhr نقشها فى وصفه لشبه الجزيرة العربية ، وأيضا التى اشتريت من القاهرة سنة ١٦٢٦ لملك الدانمارك ، وهى محفوظة بالمكتبة الملكية بكوبنهاجن . وقد نشر المسيو

(١) الكوفة مدينة بالعراق البابلى ، المشتمل على المدينة الكلدانية القديمة : خط طول ٣ ٧٩° ؛ خط عرض ٣ ١٣° ، وغالبا ما يشار إليها بأرض الله الواضعة .

(٢) تعتبر مدينة الكوفة الآن جزءا من ولاية العراق بالدولة التركية الآسيوية على حدود صحراء الجزيرة العربية .

(٣) تولى الخليفة أبو بكر [رضى الله عنه] بعد الرسول ﷺ . ، أما عثمان [رضى الله عنه] فقد كلف بتدوين القرآن ، إذ عهد إليه أبو بكر بتجميع الوحى [الذى نزل على محمد] فى مجلد واحد يسمى القرآن ، وقد قام بتنفيذ ما عهد إليه به . وتوجد النسخة الأصلية من القرآن المدونة بخط عثمان فى دمشق بالمسجد الجامع الذى كان ذات يوم كنيسة القديس يوحنا المعمدان .

أدلر Adler[1] ، وهو من أكبر علمائنا المستشرقين ، بحثا تناول فيه بالتمحيص هذه القصاصات التى تعتبر حتى الآن نادرة جدًا فى أوربا ، والتى ظلت منسية تماما منذ اقتنائها .

وقد نقشت نقود الخلفاء الأوائل الذهبية ، الفضية ، النحاسية ، والزجاجية[2] بحروف كوفية . وقد أحضرت معى منها مجموعة نفيسة سأنشر عنها بحثًا خاصًا .

ونجد كذلك عددًا كبيرًا من قطع الزجاج والأحجار الكريمة منقوشة بالخط الكوفى ، كانت فى هذا العصر مخصصة للأختام وفصوص الخواتم . وسوف تشكل المجموعة الكبيرة التى جمعتها مادة لدراسة خاصة أيضا .

غير أن الخط الكوفى يلعب دورًا هامًا فى الكتابات التى تزين الآثار التى أقامها الأمراء الذين حكموا وقت أن كان هذا الخط مستخدما .

ولا نزال نصادف فى الشرق كله عددًا كبيرًا من العمائر التى تحمل كتابات كوفية ، ومن بينها نقوش مقياس النيل بجزيرة الروضة ، وترجع إلى عصر تأسيسه الأول ، وهى النقوش التى تشتمل عليها لوحة نقوش المقياس ، وكذلك الأجزاء : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ من اللوحة ب[3] . وقد لاحظت هذه النقوش فى الأسكندرية بأعلى أبواب الجامع الكبير المسمى بذى الألف عمود ، ويقال إنه كان قبل ذلك الكنيسة القديمة التى أنجزت فيها الترجمة اليونانية المشهورة للكتاب المقدس ، كما لاحظتها فى القاهرة فى أماكن متعددة بالقلعة ، وعند مجرى العيون الذى يحمل ماء النيل إليها من مأخذه عند مصر القديمة ، وفى

---

(١) أدلر : مستشرق دانمركى ، ولد سنة ١٧٥٦ ، اشتهر بدراساته فى الخطوط والنقود العربية ، وتوفى سنة ١٨٣٤ . (المترجم) .

(٢) تجدر الإشارة إلى أن بعض أساتذة علم النميات ، قد أطلقوا على الصنج الزجاجية – خطأ – اسم «النقود الزجاجية» ، وقد اعتمدوا فى ذلك على تلك العبارة التى تحملها الصنج ، التى تتشابه إلى حد كبير مع عبارات الوجه والظهر بالنسبة للنقود بنوعياتها المختلفة «الذهبية ، الفضية ، البرنزية ، والنحاسية» . (المترحم) .

(٣) انظر الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، النقوش ، النقود ، والميداليات .

كثير من البنايات القديمة الخاصة ، وفوق أفاريز الجامع الذى بناه طولون[1] ، وكذلك بجامع الخليفة الأشرف[2] . وسوف أقوم بشرح تلك النقوش التى يحفل بها العديد من هذه الآثار فى أبحاث سأنشرها فيما بعد .

وأخيرا بعد أن ظلت الكتابة الكوفية شائعة خلال خمسمائة سنة تقريبا بعد الهجرة استعيض عنها هى نفسها فى الاستعمال الشائع بالكتابة العربية المستخدمة حاليا ، والتى لا تزال سارية المفعول إلى اليوم دون تغييرات ملموسة . غير أنها [أى الكتابة الكوفية] استمرت مع ذلك تستخدم حتى حوالى القرن الرابع عشر الميلادى فى النقود والنقوش مع بعض التغييرات المتلاحقة عليها ، وقد أحضرت من القاهرة بعض المصاحف القديمة التى كتبت عناوينها بحروف كوفية .

ومن أهم ما يميز الكتابة الكوفية عن غيرها من الكتابات التى اشتقت منها فيما بعد ، خلوها من العلامات[3] التى تحدد نطق الحروف المشكلة والتى لا توجد إلا فى عدد قليل من مخطوطات ذلك العصر ، حيث يستخدم شكل هجائى واحد للتعبير عن حروف شديدة الاختلاف ؛ الأمر الذى يسبب صعوبات بالغة عند قراءة الكلمات ، ويخلق لتفسيرها بذلك مجالاً واسعًا للتخمين ، وللتغلب على هذه الصعوبة اضطر النحاة العرب إلى ابتكار حركات ضبط ذات أوضاع متغيرة ، تضاف إلى الحروف الهجائية ، وهى علامات مشتركة بين الحروف المختلفة ، لتحديد هويتها ونطقها المضبوط .

(١) كان أحمد بن طولون مملوكا تركيا للسلطان المأمون ، ولد ببغداد [سامرا] سنة ٢٢٠ للهجرة «٨٣٥ ميلادية» أوفده الخليفة المعتز لولاية مصر وسوريا ، وهو مؤسس الدولة الطولونية فى مصر ، التى أقام أمراؤها مقر ملكهم فى مدينة القطائع . وانتهت هذه الدولة سنة ٢٩٢ للهجرة ٩٠٨ ميلادية» . ويقول أبو الفدا إن الأرض التى أرسيت عليها أساسات مدينة القاهرة سنة ٣٥٩ للهجرة «٩٧٦ ميلادية» كانت حديقة يملكها الطولونيون .

(٢) ربما يقصد منشأة الأشرف خليل بن قلاوون بشارع الأشرف بحى الخليفة جنوب القاهرة . (المترجم) .

(٣) أى الإعجام ويقصد به إزالة الإيهام عن الحروف المتشابهة بالرسم بوضع علامة عليها لمنع الالتباس ، أو بمعنى آخر وضع النقاط على الحروف للتفريق بينها ، والشائع أن النقط للاعجام وضعه نصر بن عاصم الليثى (ت ٨٩ هـ) ويحيى بن يعمر العدوانى (ت ٨٣ هـ) تلميذا أبى الأسود الدؤلى ، وذلك بطلب من الحجاج بن يوسف الثقفى فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ/٦٨٥ – ٧٠٥ م) . (المترجم) .

ولإعطاء فكرة عن الاحتمالات التى يمكن أن تنطوى عليها قراءة الكلمات المكتوبة بالحروف الكوفية – إذا لم يساعد القارىء إدراكه لمعنى الجملة كلها – سأكتفى بذكر الأمثلة القليلة الآتية التى يمكن من خلالها تبين مدى تعدد الافتراضات التى غالبا ما تخلق لغزا من كلمات قليلة .

فالكلمة الكوفية  : يمكن أن تقرأ بأكثر من أربعين طريقة مختلفة ، وتجيز كلا من الأشكال الآتية :

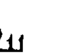
ثيب ، نتب ، بتث ، بتت
ببث ، ببت ، بنت ، بيت
ينب ، نيب ، نيت ، نبت
تيب ، ييث ، ثنب ، نيث
يبت .. الخ .

وكلمة  تحتمل كلا من الأشكال الآتية :

خباث ، جياب ، حيات ، حبات
جنات ، جناب ، جتات .. الخ .

وكلمة كالآتى :

ريث ، زيب ، ربت ، زيت
زبت ، رنب ، زتب ، زيث
ريب ، ريث ، ربت ، زنب
رتب .. الخ .

وكلمة  كالآتى :

نيق ، نيف ، تيف ، ثيف
تبق ، بيف ، ينق ، بتف

بنف ، يثق ، يتف ، بيق
بثق .. الخ .

وفى بعض المخطوطات الكوفية تحدد الحروف بنقاط مختلفة الألوان ، كما تحدد حركات الضبط عليها بخطوط صغيرة مختلفة الأوضاع . ولا توجد هذه العلامات فى أية نقوش حجرية أو على مسكوكات من هذا العصر ، وسوف أبحث فيما بعد إن كانت هذه الإضافة لا ترجع إلى أزمنة لاحقة وليست من صنع أيادى أحدث من تلك التى خطت الكتابة نفسها ثم وضعت عليها هذه العلامات .

وسأرفق هنا — كنموذج للخط الكوفى المنقوش على الحجارة — العبارة المقدسة لدى المسلمين ، مأخوذة من أقدم نقوش مقياس النيل بجزيرة الروضة . «انظر اللوحة رقم ١ فى نهاية هذه الدراسة» .

أما القطعة التالية والتى تشتمل على العبارة نفسها ، فقد التقطت من بناية خاصة فى القاهرة . «انظر اللوحة رقم ٢ فى نهاية هذه الدراسة» .

وهناك كتابات كوفية من العصور الوسطى تتخذ شكلاً منفردًا ، يتكون بكامله من خطوط مستقيمة ، تتشابك فيما بينها بخطوط متوازية دائما بعضها مع البعض أو متقاطعة فى زوايا قائمة ، دون أن تختلط بأية خطوط منحنية . وقد وجدت كتابات من هذا النمط ، منفذة على الفسيفساء وعلى الخشب وعلى الرخام ، وذلك فى أماكن عديدة بالقاهرة ، وبجامع ديروط فى مصر السفلى على الضفة اليسرى من فرع رشيد .

وسأرفق هنا — كنموذج لهذا النوع من الكتابة — القطعة التالية التى تشتمل على العبارة نفسها ، المذكورة فيما تقدم ، وهى مأخوذة من بيت خاص بالقاهرة «انظر اللوحة رقم ٣ فى نهاية هذه الدراسة» .

المبحث الرابع
الخط القرمطى[1]

تتبع الكتابة القرمطية نفس منهاج الكتابة الكوفية ، بل يمكن اعتبارها مجرد صورة متقنة أو معدلة منها ، حتى أن كثيرا من الكتاب جمعوا بين هذين النوعين من الكتابة تحت تسمية واحدة .

وتقدم هذه الكتابة الأخيرة حروفا أكثر زخرفة وأكثر استدارة من حروف الكتابات الكوفية الأصلية ، بل وتعلن بوضوح للعين – حتى الأقل خبرة – أنها من عصر مختلف ؛ إذ إن أصلها يتأخر بنحو ثلاثمائة سنة تقريبا عن أصل الخط الكوفى الخالص ، والذى ينبغى أن نحتفظ له وحده بهذه التسمية . وخطوط هذا النوع من الكتابة أقل جمودا وأقل بساطة ، ولكنها أغنى كثيرا بتنوع الأشكال ، كذلك فهى أصعب فى القراءة بسبب الزخارف الخارجية التى تثقل بها الحروف فى غالب الاحيان ، وأيضا بسبب عدم الالتزام بقاعدة عند الربط بين الحروف أو توصيلها ببعضها البعض : وقد سميت بالكتابة القرمطية ، نسبة إلى القرامطة الذين استخدموها بالفعل فيما شيدوه من منشآت .

ولقد كان القرامطة القدماء شعبا ميالا للقتال لا يداخله الخوف ، ويبدو أن الوهابيين المحدثين ينحدرون منهم ، إذ يبدو أنهم وزثوا عنهم التعطش للغزو ، وتعصبهم الدينى ، وطموحهم المتطرف .

---

(١) تطلق هذه التسمية على نوع من الخط الكوفى يعرف بالمزهر ، وقد شاع فى العصر الفاطمى . (المترجم).

هذا الشعب المتعصب المشاغب والعنيد ، الذى بدأ يظهر نحو سنة ٢٧٨ للهجرة «٨٩١ ميلادية» نشر الخراب فى جانب كبير من الشرق ، وأصبح يمثل فى حكم الخلفاء العباسيين الخطر الداهم على امبراطورية العرب والرعب للمسلمين[١] . ولقد كتب النويرى بإفاضة عن تاريخ القرامطة فى الجزء الثالث من مؤلفه .

ونجد الكتابة القرمطية مستخدمة بالقاهرة على الباب الشرقى المسمى بباب النصر[٢] وبجامعى الحاكم[٣] والحسين ، وفى أماكن متعددة من جامع ابن طولون ، وفى نقوش المقياس التى ترجع إلى زمن إعادة بناء هذا الأثر الذى تم بأمر الخليفة المستنصر بالله[٤] . وهذه النقوش الأخيرة تمثل جزءا من اللوحة ب من نقوش المقياس[٥] ، المرقمة بـ : ١ ، ٢ ، ٣ .

يجب أيضا أن يندرج تحت هذا النمط من الكتابة تلك النقوش التى نراها على قنطرة القناة الصغيرة المجاورة للأهرامات بإقليم الجيزة . وقد أشار إليها نيبور فى مؤلفه المذكور سابقا ، ولكن لم يصل إلينا منه حتى الآن سوى نسخ غير كاملة .

---

(١) يخبرنا المؤرخون العرب أن القرامطة قد استولوا على مكة وقتلوا فيها عشرين ألف حاج .

(٢) وفقا لما يقوله المقريزى فإن هذا الباب الذى بناه جوهر كان فى الأصل جنوب ما نراه اليوم : ولكن عندما خرج الأمير بدر الدين الجمالى من مدينة عكا ليتولى الوزارة فى مصر أيام الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٦٥ للهجرة «١٠٧٢ ميلادية» بنى أسوار القاهرة ، وغير المكان الذى كان قد أعد لهذا الباب لكى ينقله إلى مكانه الحالى ، ثم أضاف هناك طريقا مسقوفا .

كان موضع باب النصر الأول الذى شيده جوهر عند قبة القاصد (المدرسة القاصدية) بشارع الجمالية، على يمين المتجه إلى باب النصر الحالى، الذى يرجع إلى بدر الجمالى ٤٨٠ هجرية. (المترجم) .

(٣) الحاكم بأمر الله . وهو سادس خلفاء الدولة الفاطمية التى حكمت مصر ما يقرب من مائتى سنة ، اعتلى العرش سنة ٣٨٦ للهجرة «٩٩٦ ميلادية» وتوفى سنة ٤١١ للهجرة «١٠٢٠ ميلادية» .

(٤) المستنصر بالله أبو تميم معد الفاطمى . هو ثامن الخلفاء الفاطميين بمصر ، خلف والده الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤٢٧ هجرية «١٠٣٥ ميلادية» ، وكان عمره وقتها تسع سنوات فحكم ستين سنة بالكثير من الحكمة والاتزان، مما جعله يحبط العديد من المكائد . وخلفه ابنه أحمد أبو القاسم الملقب بالمستعلى بالله الذى تولى الخلافة سنة ٤٨٧ للهجرة «١٠٩٤ ميلادية» .

(٥) انظر الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، نقوش ، نقود ، وميداليات .

وترجع الميداليات والأحجار المنقوشة بالخط القرمطى كلها إلى العصر الإسلامى الوسيط ، والمجموعة التى جلبتها من مصر تحوى كثيرا منها ، وسأقدم فيما بعد دراسة وصفية عنها .

وقد اتسع انتشار هذا الخط ، فنجد نقوشا كثيرة من هذا النوع فى صقلية ، وفى إيطاليا ، وفى أسبانيا ، بل حتى فى أقاليمنا الجنوبية ، وقد التقط المسيو ميلان Millin نقشين منها من مدينة أكس Aix خلال رحلته لأقسام جنوب فرنسا ، كذلك لانزال نرى نقشا منها محفوظا بحالة جيدة فى مونبران بجبال دوفينيه القديمة . وقد جلبت قطعة [منقوشة بالخط القرمطى] جميلة جدا من المدينة القديمة فى جزيرة مالطة التى كان العرب سادتها فترة طويلة من الزمن . ويحتفظ فى نورمبرج بزخارف رائعة ، على حواشيها نقوش مكتوبة بحروف قرمطية . ولكن من أكثر الحالات المسترعية للاهتمام بشأن هذه الكتابة أننا عثرنا منذ سنتين تقريبا فى مقبرة بدير «سان جيرمان دى برى» القديم فى باريس على قماش منسوج من الحرير المذهب – ربما جلبه من الشرق إلى فرنسا أحد الصليبيين – نلحظ عليه عددا كبيرا من النقوش بخط قرمطى .

ويشتمل النموذجان التاليان للكتابة القرمطية على نفس العبارة التى ذكرتها فيما سبق . والأول مأخوذ من نقوش مقياس الروضة التى ترجع إلى عهده الثانى . «انظر اللوحة رقم ٤ فى نهاية هذه الدراسة» .

أما القطعة الثانية التى نلاحظ فيها تنويعات كبيرة فيما يتعلق بشكل الحروف ، فتمثل جزءا من نقش جمعته من بيت خاص فى القاهرة ، يقع بالقرب من الخليج الذى يخترق المدينة . «انظر اللوحة رقم ٥ فى نهاية هذه الدراسة» .

المبحث الخامس
خط النسخ

لقد اشتقت حروف الكتابة العربية الحديثة من الخط الكوفى مع تعديلات متنوعة متتالية ، وقد ابتكرها عبد الحميد ، حيث قال أحد الشعراء[1] العرب :

« **بدت الكتبة بعبد الحميد وختمت بابن العميـــد** »

ففى ذلك الوقت تم تصور نقاط الضبط للتمييز بين الحروف المتشابهة فى الشكل ، وفى الوقت نفسه اتخذت الأبجدية العربية التى وصلت حروفها إلى ثمانية وعشرين ، ترتيبا مختلفاً عن الأبجدية القديمة التى تتكون من اثنين وعشرين حرفا فحسب[2] .

فالترتيب القديم كان يتبع هجاء السريانية القديمة التى يدين لها بأصله ؛ ولاتزال هناك آثار ملموسة [لذلك الهجاء] محفوظة فى مجموعة القيم ، كما توضح حروف الأبجدية الجديدة ، فهى تتبع – فى ذلك – تسلسل النظام القديم ، لا الجديد . ففى الترتيب الجديد للأبجدية رتبت الحروف بطريقة مختلفة تماما عن القديم ، وبخاصة فيما يتعلق بالحروف التى تتشابه فى الشكل وتتميز [عن بعضها] بالنقط .

ثم حظيت الكتابة العربية الحديثة بمزيد من الإتقان على يدى الوزير ابن مقلة[3]، الذى اشتهر نحو سنة ٣٢١ للهجرة «٩٣٣ ميلادية» ، والملقب

---

(١) هكذا جاء فى الأصل . والكلام ليس شعرا ، وإن كان مأثورا : ويبدو أن كتابة الرسائل التى اشتهر بها عبد الحميد الكاتب والمقصودة بذلك القول المأثور اختلطت عند المؤلف بكتابة الخطوط ، (المترجم) .

(٢) وهى : أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت . (المترجم) .

(٣) أبو على محمد بن على بن حسن بن مقلة .

بواضع الخط . فلقد أعطى هذا الوزير للحروف العربية انحناءات أكثر أناقة وأكثر استدارة ، أدت إلى اختفاء الأشكال المربعة للخط الكوفى واقتربت بالكتابة من الشكل الذى هى عليه الآن . وقد عاش ابن مقلة تحت حكم الخلفاء : المقتدر[١] ، القاهر بالله[٢] ، والراضى بالله[٣] . ومات سنة ٣٣٨ هـ / ٩٤٩م .[٤]

ولقد كلفت المكائد ابن مقلة – فى ثلاث مرات مختلفة – يده اليمنى ، ثم يده اليسرى ، وأخيرا لسانه ؛ مما جعله يقضى حياة تعيسة بائسة . ويحكى أنه عندما عوقب بقطع يده اليمنى غضب لأنهم عاملوه معاملة اللص ، وأفقدوه اليد التى نسخت القرآن ثلاث مرات ، تلك النسخ التى أصبحت فيما بعد النموذج الكتابى الأفضل ، ولم ينقطع الإعجاب بها أبدا لرشاقة خطها .

ويؤكد بعض الكتاب أن ابن مقلة رغم حرمانه من يده فإنه لم يتوقف عن الكتابة ، مستخدما فى ذلك يدًا أو ريشة صناعية كان يربطها بذراعه .

ولا يعزو كثير من الكتاب العرب ابتكار هذه الخطوط الجميلة إلى ابن مقلة ، بل إلى أخيه عبد الله[٥] .

ولكن هناك ما يشبه الإجماع بين المشارقة على أن هذين الناسخين الشهيرين قد تجاوزهما أبو الحسن[٦]، الذى اشتهر باسم ابن البواب ، والذى زاد فى إتقان

---

(١) المقتدر بالله ، الخليفة الثامن عشر من سلالة العباسيين . خلف المكتفى بالله . فاعتلى العرش سنة ٢٩٥ / ٩٠٨م ، ومات سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م . بعد حكم دام أربعا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما ؛ وخلفه القاهر بالله .

(٢) اعتلى القاهر بالله العرش سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م . ومات سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م ، بعد حكم قصير دام سنة وستة أشهر وسبعة أيام ، وخلفه الراضى بالله .

(٣) اعتلى الراضى بالله العرش سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤م ، ومات سنة ٣٢٩هـ / ٩٤١م ، بعد حكم دام ست سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وخلفه المتقى بالله ، الخليفة الواحد والعشرون من البيت العباسى .

(٤) توفى الوزير ابن مقلة سنة ٣٢٨هـ ، أما أخوه عبد الله فتوفى سنة ٣٣٨هـ . (المترجم) .

(٥) هو عبد الله الحسن .

(٦) هو أبو الحسن على بن هلال .

كتابة الهجائية العربية ، وذلك بتمييز أشكال حروفها بعضها عن بعض على نحو أفضل .

أما ياقوت الملقب بالمستعصمى[1] لأنه كان ملتحقا بخدمة الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ، فقد استحدث المزيد من التعديلات على الخط العربى ، حتى أعطاه أخيرا الشكل الذى هو عليه اليوم ، لهذا فقد استحق لقب «الخطاط» .

وقد سمى الخط العربى «بالنسخى» ، لأن به ينسخ القرآن أو المؤلفات ذات الشأن ، ولايزال أحد أشكال هذا الخط يعرف حتى الآن بالياقوتى ، نسبة إلى هذا الخطاط آنف الذكر الذى يرجع إليه إتقانه الكامل .

ويعتبر بعض الكتاب أن هذا الخط الأخير ليس شكلا من أشكال الخط النسخى ، وإنما من أشكال الثلث الذى سأتكلم عنه ، بيد أنه يختلف عنه بصفة خاصة فى أن خطوطه تكون نسبيا أقل سمكا وأكثر استطالة ، وفى أنه لا يجيز إطلاقا ما يجيزه استخدام الثلث من تشبيك الحروف أو الوصل بينها بطريقة غير مألوفة . وقد استخدم خط النسخ على معظم شواهد القبور بالأسكندرية والقاهرة .

وأقدم هنا كنموذج لهذا الخط نفس العبارة التى قدمتها فيما سبق . «انظر اللوحة رقم ٦ فى نهاية هذه الدراسة» .

ولخط النسخ أشكال عديدة : نلاحظ من بينها ما يسمى «الريحانى» وكذلك النسخ الجريسى ، وأولهما يحمل اسم مبتكره[2] .

---

(١) هو ياقوت بن عبد الله الرومى والملقب بقبلة الكتاب (٦١٨ – ٦٩٨هـ / ١٢٢١ – ١٢٩٨م). والمستعصم هو الخليفة السابع والثلاثون ، آخر خلفاء الدولة العباسية ٦٤٠ – ٦٥٦ هـ / ١٢٤٢ – ١٢٥٨م . (المترجم) .

(٢) راحن .

المبحث السادس

خط الثلث

أخص ما يميز الخط المسمى بالثلث[1] ، أن خطوطه أكثر سمكا بالقياس إلى خط النسخ ، وأن أشكال كلماته بدلا من أن تكون واضحة ومنفصلة عن بعضها البعض ، تتشابك إحداها بالأخرى بشكل بالغ الأناقة والرشاقة . ورغم جمال تشابكاته فى عين الناسخ ، فإننا من الممكن أن نأخذ عليها أنها غالبا ما تقدم حروفا متداخلة من العسير جدا قراءتها . وفى العادة لا تجيز هذه الكتابة التنقيط وغيره من العلامات الهجائية فحسب ، بل تجيز أيضا إضافة عدد كبير من خطوط لا عمل لها ، وأشكال لمجرد الزخرفة .

وقد استخدم هذا الخط فى الكتابة على شواهد القبور بأناقة بالغة ، وكذلك على بعض النقود ، وتقريبا فى كل النقوش الحديثة التى نفذت بعناية فائقة ، ومن بينها تلك التى تغطى جانبى العارضة الموضوعة فوق عمود المقياس فى جزيرة الروضة . وغالبا أيضا ما يستخدم هذا الخط فى كتابة عناوين الكتب الثمينة ، كما استخدم فى بعض مخطوطات العصر الذهبى للكتابة العربية المشهورة بنسخها البديع ، ويمكننى أن أعتبر من بينها بعض نقوش من المجموعة التى جلبتها من مصر .

والنموذجان الآتيان مأخوذان عن شاهدى قبرين من إحدى أكبر الجبانات فى القاهرة «انظر اللوحتين رقمى ٧ ، ٨ فى نهاية هذه الدراسة» .

وثمة نوع من خط الثلث يسمى بخط الثلث الجريسى .

(١) حط سلسى ، وأعطاه أربنيوس Erpenius اسم شلسى .

المبحث السابع
الخط المغربى

استمرت أناقة الخط الكوفى والأشكال التى يتميز بها متمثلة على الخصوص فى الخط العربى الأفريقى الذى يسمى بالمغربى[1] ، وهو فى كتابته الأكثر تربيعا واستقامة يختلف تماما عن الخطوط التى استخدمت فى شبه الجزيرة العربية وفى باقى الشرق .

وهذا الخط خاص بعرب الغرب الموجودين بشواطىء المغرب ، وفاس ، وتونس ، وموريتانيا القديمة بعد أن ظلوا زمنا طويلا سادة أسبانيا[2] ، بل وحتى فى جزء من أقاليم فرنسا[3] الجنوبية : ولا يزال يوجد كثير من

---

(١) عادة ما يقصد العرب بكلمة المغرب القسم الغربى من فتوحاتهم فى إفريقية باستثناء مصر ، فالجغرافيون العرب يقسمون المغرب إلى ثلاثة أقسام : الأول : وهو الشرقى ، ويحمل أيضا اسم إفريقية . ويشتمل على الصحراء وإقليم برقة المتاخم لمصر ، وقورينة (شحات) وطرابلس القديمتين والإقليم الذى كانت عاصمته قرطاجة ، والذى كان الرومان يسمونه إفريقية الحقيقية ، وكان يشمل بجايه وبنزرت وسوسة وتونس المشيدة بالقرب من أطلال قرطاجة القديمة ، وطرابلس ، والمهدية ، والقيروان .

والقسم الثانى : المغرب الأوسط ، ويمتد طولا من إفريقية التى تكلمنا عنها الآن حتى مشارف تلمسان التى كانت تشكل موريتانيا القيصرية القديمة ، ونسميها بالدارجة «ترمسان» ، ويحده البحر المتوسط فى الشمال ، والصحراء الكبرى فى الجنوب .

أما القسم الثالث وهو أبعدها غربا فيمتد فى طوله من ترمسان حتى المحيط الأطلسى ، ويضم فى عرضه طنجة ، وسبتة (التى يعرفها الرومان باسم تل سبتة) وفاس ومراكش .

وكانت أسبانيا تكون جزءا من الأقطار العربية التى فتحها الحلفاء العرب ، وكثيرا ما ألحقها مؤرخوهم تحت اسم المغرب أيضا ، ولكنهم كانوا فى الغالب يسمونها بالأندلس .

(٢) لايزال عدد كبير من الأماكن فى أسبانيا يحمل أسماء عربية ، مثل · القلعة ، القنطرة ، المارة ، جبل طارق ، القصر وهو سكن ملوك طليطلة القديم (ويوجد القصر أيضا فى منطقة أخرى) . قصر الحمراء [وهو قصر بنى الأحمر فى غرناطة] ، وادى الكبير ، وادى الأقصار ، العرب ، زهرة ، صحراء ، الجزيرة .. الخ . ويمكن أن نضاعف كثيرا هذه الأمثلة .

(٣) فى كل خطوة فى جنوب فرنسا نصادف شواهد تاريخية على إقامة العرب بها . فبعد الاستيلاء على أسبانيا نزلوا إلى لانجدوك Languedoc وبروفانس Provence سنة ٧٢١ ؛ أما الذين طردهم حكام أكويتين Aquitaine –

النقوش هناك – التى سبق أن ذكرت ثلاثة منها – تشهد بما مارسوه عليها من سيطرة قديمة حتى اللحظة التى هزمهم فيها شارل مارتل فى سهول بواتييه Poitiers ، فاضطروا للتخلى عن فتوحاتهم والبحث عن ملاذ وراء جبال البرانس Pyrénées .

وعلى الرغم من أن الخط المغربى يرجع إلى نفس أساس ومنشأ الخط المشرقى ، فإنه مع ذلك يمثل مظهرا مختلفا تماما : فهو أكثر كثافة وأكثر تربيعا ؛ كما أن الخطوط المتعامدة مستقيمة وأكثر سمكا ، وينبغى أن يدرس بعناية ليتسنى قراءته . ويبدو أن كل كلمة منه تتكون – فى الغالب – من خط أفقى واحد تضاف إليه خطوط متعامدة أو مستديرة – بشكل سىء – لتشكيل مختلف الحروف الموصولة .

ويمكن أن تشاهد أمثلة مختلفة للخط المغربى فى كتاب «قواعد اللغة العربية» الذى أثرى به المسيو دى ساسى de Sacy الأدب الشرقى ، وكذلك فى مؤلف

= من لانجدوك فقد نزحوا إلى بروفانس سنة ٧٢٩ ، حيث أشاعوا الفوضى . ثم تجمعوا بعد ذلك وتقدموا حتى بواتييه Poitiers ، لكن شارل مارتل Charles Martel شتتهم سنة ٧٣٢ ، وتغلب عليهم أيضا فى بروفانس وأخرجهم من البلاد .

وكانت مدينة ماجلون Maguelone الكبيرة آنذاك لاتزال أحد أماكنهم الرئيسية ، التى تحصنوا بها بعد طردهم للقوط : فقام شارل مارتل بهدمها بعد انتصاره عليهم ؛ وإلى هذه الواقعة ترجع نشأة مدينة مونبلييه Montpellier التى لم تكن حتى ذلك الوقت سوى قرية صغيرة جدا ، فالتجأ إليها بعض فلاحى ماجلون بعد سقوط تلك المدينة . وبعد ذلك أغار العرب سنة ٧٣٧ على شواطئنا الجنوبية بسفن خفيفة حملتهم إليها على التو ، ونهبوا دير ليرنز Lérins بعد قتل الرهبان . وإذا صدقنا حولياتنا القديمة فإن جيوم Guillaume قصير الأنف ، الذى يقال إنه عاش أيام حكم شارلمان Charlemagne أنقذ أورانج Orange من اندفاع العرب . ثم استولوا أيضا على أفينون Avignon ثم احتلوا مدينة اكس ودمروها ، ونشروا الدمار حتى أوكسير Auxerre . وفى أواخر القرن الثالث عشر كان العرب لايزال لهم نفوذ فى جنوب فرنسا ، حتى أن أسقف مونبلييه المسيو برنجر فردولى Bérenger Fredoli كونت ملجايل Melgueil صك نقودا سنة ١٢٦٦ تحمل نقشا عربيا مع اسم محمد ، سعيا لاكتساب الحظوة عند العرب ، فاستحق لهذا لعنة البابا كليمون الرابع Clémont. وتسمى سلسلة الجبال التى تمتد من هيرس Hyères حتى فريجوس Fréjus جبال المغاربة (Les Maures) ، وهو الاسم الذى لاتزال تحمله حتى الآن ، وقد أطلق عليها – دون شك – لكثرة سكانها من العرب .

المسيو دى دمبى de Dombay[1] المنشور منذ بضع سنين فى فيينا ، عن اللهجة العامية التى تتكلم بها الامبراطورية المغربية ، حيث كان يؤدى وظيفة المترجم لوقت طويل .

ولكى أكمل – بقدر استطاعتى – مجموعة النماذج التى قدمتها فى هذه الدراسة لمختلف الكتابات التى نصادفها على العمائر العربية ، فإنى أضيف هنا القطعة التالية من الخط المغربى ، والمأخوذة من أحد شواهد قبور جبانة الأسكندرية . وتحتوى هذه القطعة على نفس العبارة التى ذكرتها فيما سبق حتى تكون المقارنة أكثر سهولة وأكثر مباشرة . (انظر اللوحة رقم ٩ فى نهاية هذه الدراسة) .

(١) قواعد اللغة الموريّة (الموريتانية) – العربية ، الخاصة باستخدام اللهجة المحلية الدارجة . مدخل إلى مفردات اللاتينية – المورية – العربية . من أعمال ودراسة :

Fr. de Dombay, Coes. reg. linguarum Orientalium interpretis. Vindobonoe

لقد قدم المسيو دى دمبى أيضا خدمات عظيمة للأدب الشرقى ، وذلك بنشره العديد من المؤلفات الجيدة الأخرى ، من بينها ترجمته للقرطاس الصغير الذى يضم تاريخ الأسر العربية الحاكمة بإفريقية وكذلك فى أسبانيا حتى بداية القرن الرابع عشر .

المبحث الثامن

عن الوسائل المتبعة فى جمع الكتابات

إن ما جلبته معى من مصر من كتابات كوفية وغيرها جمعته بأساليب الطبع ، وربما لن يضير الأثريين والرحالة معرفة الطريقة التى طبقناها . لذلك أعتقد أنه يجب أن أختتم هذه الدراسة بكلمة عن الوسائل التى استخدمتها للحصول على هذه النماذج .

كانت عملية نقل الكتابات عن طريق الرسم يعترضها أكثر من عائق : فصعوبة الحروف وتداخلها تجعل هذه العملية تستغرق وقتا طويلا بالتأكيد ، كذلك فإنه مهما بذل فيها من عناية وصبر فلن يتيسر نقلها بصورة لا يعوزها بعض الدقة ، ولكن الأسلوب البسيط والسريع الذى استخدمته يتجاوز كل العيوب ويزيل كل العراقيل . لقد خطرت لى هذه الوسيلة بالنظر للحجر ذى النقوش الثلاثة المكتشف برشيد ، وبهذه الطريقة تمكنت من طباعة عدد كبير جدا من النقوش سواء فى القاهرة أو فى مختلف الأماكن الأخرى بمصر .

وثمة ميزة لا تقدر تميز النماذج المأخوذة بهذه الطريقة ، تتمثل فى دقتها الكاملة ، وأمانتها المتناهية ؛ فهى تعطى صورة طبق الأصل للنقش نفسه ، وبذا تكون بعيدة عن الأخطاء التى تنتج عن تهاون أو سهو الرسام ، وهكذا يمكن لأكثر الناس بعدا عن فن الرسم وعن علم النقش أن يلتقط النسخ بسرعة وبدقة بالغة .

وتتم هذه العملية بسهولة وجهد قليل ، إذ ينظف الحجر لتطهير سطحه من كل الشوائب الغريبة ، ومن ثم تهيئته لكى يتلقى جيدا وبالتساوى توزيع اللون الذى يوضع عليه ، فيغطى بمداد الطباعة بتمرير بكرات الطباعة العادية على

سطحه ، ثم يلصق فوقه ورق مبلل بعد تخفيف رطوبته ، ثم يضغط عليه بلطف بكف اليد أو بماصة مبطنة من الداخل بالصوف ، ثم يرفع محملا بكل حروف النقش ، التى تبدو بيضاء على خلفية سوداء إذا كانت محفورة ، أو سوداء على خلفية بيضاء إذا كانت بارزة .

ونظرًا لأن هذه الحروف ستظهر فى عكس الاتجاه الذى توجد عليه فوق الحجر الذى نقلنا منه النقش ، فيجب لذلك أن تقرأ بالاتجاه المعكوس ، أو أن يعرض النقش أمام مرآة ترد له الاتجاه الأصلى ، ويمكن أيضا أن نعرض الورقة لضوء النهار ونقرأ النقش من خلفها ، فستكون الحروف عندئذ فى وضعها الطبيعى . وفى الحالة الأخيرة ، للحصول على شفافية أوضح ، يجب استعمال ورق أقل سمكا ، ولكن متماسك بدرجة كافية حتى لا يتمزق أثناء الطباعة .

وعندما تنتهى العملية يزال المداد الذى يغطى الحجر بمحلول البوتاس . وقد كانت هذه المادة تنقصنى كثيرا فى مصر ، حيث لاتأتى بها التجارة إلا بكميات قليلة جدا ، ولأن رماد الأخشاب الذى يمكن أن يعوض النقص نادر ومن الصعب الحصول عليه ، فقد استخدمت بنجاح النطرون الذى تنتجه أرض الوادى المسمى «بحر بلا ماء» بكميات كبيرة ، حيث يتم استخراجه فى الطرانة ، على الضفة اليسرى لفرع رشيد .

كتابات كوفية



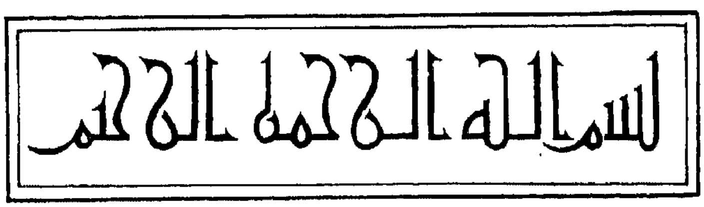
١



٢



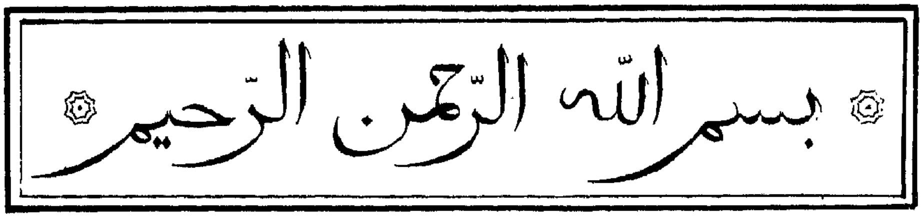
٣



٤



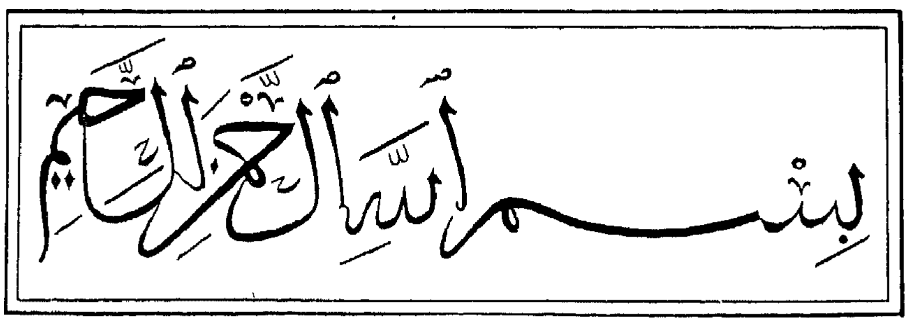
٥


بسم الله الرحمن الرحيم

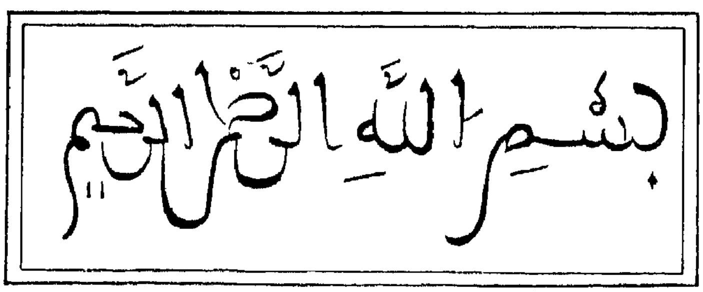
٦


بسم الله الرحمن الرحيم

٧


بسم الله الرحمن الرحيم

٨


بسم الله الرحمن الرحيم

٩

سيرة أحمد بن طولون

العنوان الأصلي لهذه الدراسة :

« دراسة حول جامع ابن طولون ، ونقوشه ،
متضمنا موجزا عن الدولة الطولونية » .

تأليف : مارسيل

مقدّمة

حول حى طولون ، أحد أحياء القاهرة

فى وسط الطرف الجنوبى للقاهرة ، وتقريبا فى منتصف المسافة الممتدة من القلعة حتى الخليج ، نجد حيا يعرف الآن بحى طولون ، يقطنه كثير من السكان ، كلهم تقريبا أناس من الطبقة الدنيا .

ويعد هذا الحى أقدم معالم المدينة ، وكان حصنا(١) قبل أن تشيد ، ويمكن التعرف على مساحته الشاسعة من بقايا أسواره المتهدمة ، التى لم تزل أجزاء منها قائمة . وحتى قدومنا إلى مصر لم يكن هذا الحى قد وصف ، بل ربما لم يزره أى من الرحالة الأوربيين . ولم نتبين تقريبا إلا الطرف الشمالى المحاذى للشارع الكبير الذى يوصل إلى القلعة ، وهو الذى سوف أتكلم عنه فيما سيأتى .

ويخشى التجار الأوربيون المستقرون بالقاهرة والمعروفون عادة باسم «الفرنجة» مغامرة الدخول فى هذا الحى عندما تستدعيهم أعمالهم إلى هناك ، مخافة التعصب البالغ للسكان الذين يفخرون بأن جامعهم على نمط جامع مكة ، وكذلك لعدم التسامح الملموس فى هذا الحى أكثر منه فى باقى أحياء القاهرة . ويرجع سبب هذا التعصب الشديد لدى سكان هذا الحى إما إلى انعزاله عن باقى أجزاء المدينة وندرة اتصاله بالأجانب ، أو ربما إلى أصل سكانه الذى يرجع إلى الجنود المقاتلين الأتراك والجراكسة الذين وطنهم هناك أحمد بن طولون .

---

(١) لم يثبت من المصادر التاريخية أو من الآثار الباقية أن هناك حصنا قد شيد قبل حصن القاهرة الفاطمى ، ولكن الثابت أنه كانت توجد عدة محارس فقط فى مدينة الفسطاط ، فضلا عن بعض الحنادق . (المترجم) .

وفى الشمال يمتد هذا الحى بطول الشارع الكبير المسمى «سكة المصلى» ، الذى يبدأ من قنطرة «السباع» ، مارا بيمين «بركة الفيل» ، حتى يصل إلى الميدان الكبير «الرميلة» أمام باب القلعة «باب العزب» .

وقد كان هذا الحى من قبل يمتد طويلا من جهة الجنوب ، أما الآن فله نفس الحدود التى للمدينة ذاتها ، حتى أن الباب الواقع على هذا الجانب يحمل هو أيضا اسم «باب طولون» .

وعند الخروج من هذا الباب مستديرين نحو الغرب لنتجه إلى مصر القديمة نجد أيضا «بركة طولون» ؛ وبعيدا أيضا ، نحو الجنوب مباشرة ، مرورا من أمام حصن مويرو Muireur ، هناك كومة من الأنقاض ، ظلت تحتفظ باسم «كيمان طولون» . ويقع هذا الحى بكامله على مرتفع ضخم من الأرض يتكون جزء منه الآن من أنقاض تراكمت تباعا ، ويمكن لنا أن نلاحظ بسهولة فى أماكن كثيرة ؛ الصخرة الأصلية التى أقيم عليها الحصن القديم ، والتى اختيرت لهذا الغرض بسبب موقعها المشرف على ما حولها من أراض .

وهذا المرتفع الذى ينحدر قليلا بالتدريج إذا تقدمنا نحو الجانب الخارجى للمدينة الحالية ، يرتفع – على العكس – أكثر فأكثر ونحن نتجه نحو الداخل ، ويقطعه الشارع الكبير – الذى ذكرته قبلا – عموديا فى مواضع كثيرة .

وبمحاذاة هذا الشارع نجد سورًا قويًا لبناء قديم حول الصخر الخالى من المنازل الخاصة . وهناك نلاحظ على وجه الخصوص ما يشبه حصنا ، مدعما بثلاثة أبراج كبيرة تتخلل السور نفسه ؛ وارتفاعه وإن كان كبيرًا جدًا من جهة الشارع فإنه تقريبا بمستوى الأرض من جهة الجانب الداخلى .

ويطلق سكان القاهرة على أحد أبراج هذا الحصن اسم «مصطبة فرعون» ، على عادتهم فى نسبة كل المنشآت القديمة التى يجهلون تاريخها الدقيق إلى الملك .

ويشار أيضا لهذا الحصن باسم «قلعة الكبش» ، فاسم الكبش يعطى لقائد المجموعة ، أى قائد القطيع ، وهو ما يراد به دون شك أن مؤسس الدولة الطولونية قد أنشأ مقره هنا[١] ، حيث أقام قصرا لا نزال نشاهد أنقاضه .

ونرى بالقرب من هذا الحصن أيضا تحت البائكة التى تدعم السلم الموصل للجامع فوارة أصبحت مشهورة باسم «فوارة الأمان» . وقد اهتم بالإشارة إليها كل الرحالة الذين زاروا القاهرة ، ويحكى سكان المدينة حول إنشائها خرافات كثيرة ساذجة .

وحوض هذه الفوارة عبارة عن تابوت مصرى من الجرانيت ، جيد ، ومزخرف بهيروغليفيات على أعلى مستوى من الجمال ؛ وقد نقل هذا الأثر الذى حول عن مكانه خلال إقامتنا ، إلى انجلترا ، حيث يمثل الآن جزءا من ثروات متحف لندن[٢] .

وفى وسط الحى الذى وصفت حدوده لا يزال قائما حتى الآن ، بعد عشرة قرون كاملة تقريبا ، أكبر جوامع القاهرة وأقدمها ، فهو موجود منذ زمن أقدم بكثير من المدينة نفسها التى شيدها جوهر ، قائد جيش الخليفة الفاطمى المعز لدين الله . ويحمل هذا الجامع اسم «جامع طولون» أو على الأصح «جامع ابن طولون» ، وهذا ما نقرأه فى الكتابات التى يشتمل عليها .

---

(١) يبدو أنه الكاتب يريد أن يجعل الكبش رمزا لابن طولون ، لكن الكبش – كما يذكر المقريزى – اسم لجبل كان قديما يشرف على النيل من غربيه ، ولما اختط المسلمون الفسطاط صار من جملة خطة الحمراء القصوى وسمى بالكبش . وقد تم عمران هذا الجبل على يد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى أعوام بضعة وأربعين وستمائة ، حين بنى مناظر تأنق فى بنائها وسماها الكبش ، وصارت من أجمل متنزهات مصر ومن المنازل الملوكية ، حيث نزل بها الخلفاء والملوك وكبار الأمراء . وقد هدمها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م ، وبناها بناءً آخر وأجرى الماء إليها ، وجدد بها عدة مواضع ، وزاد فى سعتها ، وأنشأ بها اصطبلا تربط فيه الخيول ، وعمل زفاف ابنته فيها . وممن سكن هذه المناظر الأمير صرغتمش ، ومن مآثره أنه عمر الباب الذى كان موجودا زمن المقريزى وبدنتى الحجر اللتين بجانبى باب الكبش بالحدرة . وقد أمر السلطان الأشرف شعبان بهدم الكبش فهدم وصار حرابا لا ساكن فيه إلى سنة ٧٧٥ هـ / ١٣٧٣ م ، فحكره الناس وبنوا فيه مساكن . (المترجم) .

(٢) ويعرف هذا الحوض «بالحوض المرصود» ، وجدير بالذكر أن الفرنسيين هم الذين استولوا عليه مع غيره من التحف ، وأرسلوه إلى باريس ، لكن فى أثناء الطريق استحوذ الانجليز على هذا الأثر وأخذوه إلى بلادهم . (المترحم) .

ولكن قبل أن نصف هذا الجامع العتيق وقبل أن نتناول النقوش التى جمعتها منه ، فإننى أعتقد أنه من المفيد ، بل ومن الضرورى لإدراك التفاصيل التى سأدخل إليها ، أن أُعرّف – عن طريق موجز تاريخى – بالأمير المشهور الذى شيده ، والذى أصبح حاكما لمصر وسوريا وأميرا عليهما ، ومؤسسا لدولة لم ينقصها البريق ، على الرغم من قصر أجلها . وقد رافقت انهيارها أحداث ونتائج هامة فى تاريخ المشرق وخصوصا تاريخ مصر .

وقد وجدت نفسى مدفوعا إلى هذا العمل بسبب الصمت شبه التام الذى التزمه مؤرخونا حول هذه الحقبة التى تكاد تكون مجهولة من تاريخ مصر ، والتى تقدم لنا المثل الأول على تمزق امبراطورية الخلفاء الشاسعة ؛ وهو المثل الذى احتذاه تباعا حكام الأقاليم الكبيرة الآخرون ، والذى نتج عنه فى النهاية الهدم الكلى لهذا الكيان الضخم . وحتى الآن يعتبر المسيو دى جوينى De Guignes صاحب أطول مذكرة حول الدولة الطولونية من خلال دراسته العلمية «تاريخ المصطبات» ، على الرغم من عدم اكتمالها وتضمنها العديد من الأخطاء ، ولذلك فلم أستطع أن أستخلص منها سوى جزء يسير . ولقد استخلصت الموجز التاريخى الذى سيأتى فيما بعد من الكتاب العرب وخصوصا من مؤلف أبى الفدا المشهور(١) ، ومن المؤرخ المعروف فيما بيننا باسم أبى الفرج ، ومن السيوطى ، ومرعى ، وابن حجر ، والمسعودى ، والقضاعى ، وابن إياس ، وابن عبد الحكم ، والمكين [ابن العميد] ، وأخيرا من المقريزى .

وقد أفدت فى بعض الملاحظات من كتب الجغرافيين أيضا ، كالإدريسى والبكوى وابن الوردى والمرتضى وابن حوقل ، وأخيرا من أعمال عبد اللطيف وابن خلكان .. الخ .

وسنجد فى القسم الثالث بعض النصوص الهامة التى استعنت بها .

---

(١) هو كتاب «المختصر فى أخبار البشر» . (المترجم)

موجز تاريخى عن الدولة الطولونية

الفصل الأول

أصل أحمد بن طولون

هو أبو العباس أحمد بن طولون ، ويعرف أيضا لدى المؤرخين العرب بابن طولون . وكان المؤسس للدولة الطولونية فى مصر وسوريا من أصل تركى ، وتنتمى أسرته إلى عشيرة الطغزغر[1] ، وهى إحدى القبائل الأربع والعشرين الكبرى التى تتكون منها هذه الأمة الكبيرة ، التى تسمى أحيانا الترك وأحيانا أخرى التتار ، وتشتمل على التركمان والمغول والتتر الأصليين ، وتنتشر – وفقا لما يقول ابن الوردى – على كل أراضى آسيا الشمالية ، ابتداء من نهر جيحون Gihoun أو الاكسوس Oxus حتى كتهى Kathai ، أى إلى الصين ، وليس لها من حدود شمالا سوى المحيط المتجمد .

ويبدو أن الأتراك ، وقد استقروا عند طرف آسيا الأكثر بعدا عن شبه الجزيرة العربية ، كانوا دائما يتجنبون أى نوع من الاتصال ، وأى علاقة ودية أو عدائية مع شعوب هذه البقعة التى تفصلهم عنها كثير من المناطق ، والجبال ، والأنهار ، والصحارى . وبعد أن نجح الأتراك فى توسيع امبراطوريتهم لتشمل سائر أراضى التتر من ناحية ، كان العرب من الناحية الأخرى – تحت حكم خلفائهم الأوائل – يدفعون تدريجيا بغزواتهم حتى ما وراء النهر ، وعلى حدود تركستان . ولم تلبث هاتان الأمتان الكبيرتان أن تواجهتا وأصبحتا عدوتين ، وقد دامت الحرب بينهما طويلا ، أسفرت معاركها عن عدد هائل من أسرى الطرفين :

(١) وقيل طغزغز بالزاى المعجمة . (المترجم) .

فالأتراك الذين وقعوا فى أيدى العرب قد وزعوا على مختلف أقاليم امبراطوريتهم ، ليصبحوا عبيدا لكبراء الأمراء ، بل للخلفاء أنفسهم .

وكانت أسرة طولون «والد أحمد» تسكن فى هذا الوقت بضواحى بحيرة اللوب Lop فى بخارى الصغيرة . وفى إحدى هذه المعارك وقع طولون أسيرا بين يدى نوح بن أسد السامانى الذى كان يحكم بخارى حينئذ ، وكان هذا الأمير الذى يخضع لسلطة الخليفة المأمون[1] يقدم لخليفته سنويا عددا من العبيد ، وخيولا تركية ، وأشياء ثمينة أخرى .

وفى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ – ٨١٦ م ، أرسل نوح إلى الخليفة عددا من العبيد ، كان من بينهم طولون . الذى سرعان ما أثار انتباه سيده الجديد بما له من قدرات ومزايا جسمانية ، فألحقه الخليفة بخدمته الخاصة . فقد كان الخلفاء فى ريبة من أمراء بلاطهم ؛ فهم لم يستطيعوا الحد من أطماع هؤلاء الأمراء فى أن يصبحوا من كبار الإقطاعيين ؛ وقد دفع بهم ذلك إلى ارتكاب خطأ أكبر ، وهو وضع ثقتهم فى العبيد الأتراك ، وفى آخرين من الأجانب الملحقين بالخدمة الداخلية لقصورهم . ولم يلبث هؤلاء المتوحشون الجهلة باختلاطهم بالأمراء وكبراء الامبراطورية ، أن تفقهوا فى الدين الإسلامى ، وفى العلوم ، وخصوصا السياسة . وسرعان ما أصبحوا قادرين على شغل المناصب العليا بجانب الخلفاء الذين أعتقوهم من العبودية لكى يستخدموهم فى حكومتهم تبعا لما يبدونه من قدرات . وسنرى فيما يأتى من هذا الموجز بأى نكران للجميل ، قابل طموحهم ورغبتهم فى الاستقلال – تلك الرغبة التى لم تهذبها التربية التى تلقوها – هذه الأفضال .

وقد عرف طولون تماما كيف يكسب عطف المأمون ، فقد أعطاه هذا الحاكم قيادة حرسه ، ونصبه حاجبا ؛ وهو منصب يعبر عن الثقة الكبيرة : حيث

---

(١) سابع الخلفاء العباسيين ، تولى الحكم بعد أخيه الأمين ١٩٨ – ٢١٨ هـ / ٨١٣ – ٨٣٣ م . (المترجم) .

كانت مهمة من يتقلد هذا المنصب فى الشرق أن يسهر على الأمن الشخصى لسيده ، وذلك بوقوفه دائما خارج الحجاب أو الستار الفاخر الذى يسد مدخل الحجرة الداخلية ، بحيث لا يدخل أحد أيا كان إلا بأمر خاص . وبعد أن قضى طولون عشرين سنة فى كنف المأمون وأخيه المعتصم بعده ، أصبح أبا لأحمد ولكثير من الأطفال الآخرين ، احتفظ لنا المؤرخون من أسمائهم بولد يدعى موسى ، وببنتين إحداهما سمانة والأخرى حبشية .

الفصل الثانى

سنوات أحمد بن طولون الأولى
تحت حكم الخلفاء

المعتصم(١) ، الواثق(٢) ، المتوكل(٣) ، المنتصر(٤) ، والمستعين(٥)

ولد أحمد بن طولون فى بغداد ، وفى أقوال أخرى بسامرا(٦) سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م ، وهى السنة الثالثة من حكم المعتصم بالله أخى المأمون وخليفته ، وثالث أبناء الخليفة الشهير هارون الرشيد(٧) المعروف فيما بيننا ، والذى كان معاصرا لشارلمان(٨) .

---

(١) المعتصم : تولى الخلافة بعد أخيه المأمون ٢١٨ – ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ – ٨٤١ م . ومما يذكر أن هذا الخليفة يقال له (المثمن) ؛ فهو ثامن خلفاء بنى العباس ، وفتح ثمانية فتوحات ، ومات وهو ابن ثمان وأربعين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وخلف وراءه من الأتراك والمماليك ثمانية آلاف من العبيد . (المترجم)

(٢) الواثق : تاسع الخلفاء ، تولى بعد أبيه المعتصم سنه ٢٢٧ – ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ – ٨٤٧ م . (المترجم) .

(٣) المتوكل : هو ابن المعتصم وأخو الواثق ، عاشر الخلفاء ٢٣٢ – ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ – ٨٦١ م . ويعد المتوكل بداية للعصر العباسى الثانى ٢٣٢ – ٦٥٦ هـ / ٨٤٧ – ١٢٥٨ م ، وقد اتسم هذا العصر بضعف خلفائه وسيطرة العناصر الأجنبية . (المترجم) .

(٤) هذا الأمير هو نفسه الذى يسمى عادة المستنصر بالله : انظر بحث المخطوطات ، المجلد الأول ص ٦٣ ؛ وكذلك المكتبة الشرقية لهير بولو Herbelot صفحتى ٤ ، ٦٢٢ ، وتاريخ الدول لأبى الفرج ، فى أسفل صفحة ٢٦٦ من النص العربى . وإنه لمن السهو ، أو من الخطأ فى الطباعة أن يكون فى نص المكين الذى نشره إربينيوس اسم المستنصر .

والمنتصر : هو الخليفة الحادى عشر ، تولى بعد أبيه المتوكل ٢٤٧ – ٢٤٨ هـ / ٨٦١ – ٨٦٢ م . (المترجم) .

(٥) المستعين : هو ابن محمد بن المعتصم ، ويعد الخليفة الثانى عشر ٢٤٨ – ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ – ٨٦٦ م . (المترجم) .

(٦) أنشئت مدينة سامرا فى سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ، ومن ثم يرجح أن ابن طولون ولد ببغداد . (المترجم) .

(٧) هارون الرشيد : خامس خلفاء بنى العباس ، تولى الخلافة بعد أخيه الهادى ١٧٠ – ١٩٣ هـ / ٧٨٦ – ٨٠٩ م (المترجم) .

(٨) شارلمان : ويدعى شارل الكبير أو شارل الأول ، ولد سنة ٧٤٢ ، وكان قد اقتسم مع أخيه كارلومان حكم المملكة بعد وفاة أبيه . وعندما توفى كارلومان سنة ٧٧١ نودى بشارل ملكا على الفرنجة ، وظل كذلك حتى توفى سنة ٨١٤ . وفى عهده حدثت النهضة الأوربية الوسيطة التى عرفت باسم النهضة الكارولنجية . (المترجم) .

وكانت أم أحمد بن طولون أَمَة تركية شابة يدعوها بعض المؤرخين «قاسمة» والبعض الآخر «هاشمة»[1] .

ويدعى البعض أن أحمد لم يكن فى الواقع ولدا لطولون ، ويذكر عبد الرحمن السيوطى لدعم هذا القول أن ابن عساكر يزعم أن شيخًا مصريًا قد أخبره أن أحمد هو ابن لتركى اسمه مهليى[2] ، ولقاسمة جارية طولون ، وأن هذا الأخير قد تبنى الطفل لما كان يبدر منه من تصرفات صائبة ، ولكن هذا الادعاء قليل الأهمية يفتقر إلى سند ويناقض ما يلى من أحداث :

لم يكن أحمد قد بلغ التاسعة عشرة من عمره عندما توفى طولون سنة ٢٣٩ للهجرة (٨٥٣ ميلادية)[3] . وخلال هذه الفترة خلف الواثق بالله أباه المعتصم وخلفه هو نفسه أخوه المتوكل : وقد رأى هذا الخليفة الذى كان على العرش منذ ثمانى سنوات أن أحمد يستحق أن يخلف أباه فى المنصب الهام الذى كان يشغله .

وقد تلقى أحمد تربية مهذبة ومثقفة ؛ وكان ذا عقل وقاد ، وطبيعة سمحة ، تنأى عن وحشية وهمجية الشعوب التى ينحدر منها . وبروح شجاعة ومهذبة جمع الأدب والجود ، وحب العدل والدين . واهتم – على نحو خاص – بدراسة المأثورات التى تعتبر معرفتها ذات قيمة كبيرة فى نظر المسلمين : وكذلك اكتسب مكانة مرموقة بنزاهته وورعه وعلمه ، كما حظى بالثقة الكاملة بين الأتراك الذين يشكلون حرس الخلفاء ، والذين كانوا يُسَيِّرون حسب رغبتهم أمور ومصائر وحياة سادتهم .

(١) ويذكر المقريزى والبلوى أنها «قاسم» . (المترجم) .

(٢) ورد فى بعض المصادر أن اسمه يلبخ . (المترجم) .

(٣) كانت وفاة طولون ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م . (المترجم) .

وقد زوج برقوق[1] – أحد كبار هؤلاء الأتراك – ابنته لأحمد الذى رزق منها بولد أسماه العباس ، وبميلاده أصبح هو نفسه يحمل لقب أبى العباس ، كما رزق منها أيضا ببنت أسماها فاطمة .

ولشغف أحمد بالدراسة كثيرا ما كان يذهب إلى طرسوس[2] حيث فتح كبار العلماء مدارسهم حينئذ ؛ وكان يرغب فى الاستقرار هناك كلية ، فحصل من عبيد الله بن يحيى [بن خاقان] الوزير الأول للمتوكل على الإذن بالانتقال ، وأيضا على إدراك رزقه هناك ، ولكن سرعان ما استدعته أمه إلى جانبها .

غير أنه عاد إلى سامرا فى السنة الأولى من عهد المستعين بالله ؛ أى أنه لم يشهد – كلية – تلك الأحداث التى واكبت اغتيال المتوكل ، وكذا الحكم القصير للمنتصر بالله (قاتل أبيه) ، وفى الطريق وجد أحمد الفرصة سانحة لكى يظهر قدراته من خلال دفاعه عن القافلة التى كان بصحبتها ضد المهاجمين من البدو العرب ، ولا سيما عندما انتزع منهم أشياء ثمينة تخص الخليفة كانوا قد استولوا عليها .

ولما علم المستعين بهذه الأحداث أمر له بعطية مقدارها ألف دينار ، فضلا عن حظوة الإمارة التى خلعها عليه ، ثم أغدق عليه الخليفة الثروات وخصه بإحدى جواريه المفضلة ، وهى «مياس» التى رزق منها بولد يدعى خمارويه سنة ٢٥٠ للهجرة (٨٦٤ ميلادية) . ويعد هذا التاريخ الأكثر دقة على الرغم من أن بعض الكتاب يؤخرون ولادته إلى سنة ٢٥٥ هجرية (٨٦٨ ميلادية) .

وفى هذا الوقت كان هناك حزب قوى قد تهيأ للإطاحة بالمستعين عن العرش بواسطة إحدى تلك الثورات التى يقدم لها تاريخ هذه الفترة أكثر من مثال .

(١) يبدو أنه من السهو ذكر «برقوق» والصواب يارجوخ ، وقد تكررت . (المترجم) .

(٢) كانت طرسوس حينئذ إحدى النقط الحربية الهامة الواقعة فى منطقة الحدود بين أملاك المسلمين وأملاك الروم فى آسيا الصغرى والتى كانت تعرف باسم منطقة الثغور . (المترجم) .

ولم يتأخر العبيد الأتراك عن نصرة الخليفة المعتصم ، فهو الذى اشتراهم بأعداد كبيرة ، ونشأهم على حمل السلاح ، وكون منهم فيلقا جديدا من المقاتلين عهد إليه بحراسته الخاصة ، وقد أصبحت وقاحتهم غير محتملة بالنسبة لسكان بغداد ، مما جعل المعتصم – بعد أن لاحظ شكاوى جديدة ترفع كل يوم ضد حرسه – يتخذ قرار مغادرة بغداد ، وإعادة إنشاء مدينة سامرا القديمة لكى ينقل إليها مقر الامبراطورية ، وسرعان ما تزايدت سطوة المقاتلين بدرجة كبيرة ، وأخذ الأتراك – بعد أن وصلوا إلى المناصب الأولى فى الدولة – يستولون شيئا فشيئا على الحكم حتى غدوا سادته . وبعد موت الخليفة المتوكل عاشر خلفاء بنى العباس ، قنعوا في البداية بتعيين وعزل وزراء الخلفاء ، ثم وصلوا إلى حد الإطاحة بالخلفاء أنفسهم وتعيين آخرين مكانهم ليطيحوا بهم بدورهم . وهكذا كانوا يتصرفون فى الخلافة على مدى تسعين سنة ، يمنحون هذا الشرف لمن يبدو لهم صالحا أو يخلعونه منه . وقد أثار المستعين استياء هؤلاء المقاتلين الذين أصبحوا يشكلون خطرا على الخلفاء ، والذين تجمعت بين أيديهم – بالفعل – السلطة العليا ، فأرغموه على التنازل عن العرش سنة (٢٥٢ هـ / ٨٦٧ م) [٨٦٦ م] ثم نصبوا مكانه ابن عمه المعتز بالله ابن المتوكل وأخا المنتصر . ولما بويع المعتز بالله يوم الجمعة الرابع من شهر محرم ، نقل الخليفة المخلوع مباشرة تحت حراسة مشددة إلى أحد القصور ، ومن هناك رافقه أحمد بن طولون إلى واسط ، وفى الطريق قتل سعيدٌ الحاجبُ – المسئول عن الأوامر السرية للخليفة الجديد – المستعينَ التعسَ . وقد اتهم كثير من المؤرخين أحمد بأنه هو الذى نفذ بنفسه جريمة القتل هذه ، أو على الأقل اشترك فيها ، وبأنه المسئول عن حمل رأس ابن العم المنكوب إلى الخليفة المعتز ، ولكن التفاصيل الآتية التى تبدو صحتها مؤكدة تبرهن أن أحمد بن طولون بعيد كل البعد عن أن يكون مسئولا عن جريمة وحشية نكراء نحو خليفته وصاحب الفضل عليه .

صحيح أن الأتراك قد أصدروا أمر رحيل المستعين إلى واسط بعد أن انتزعوا منه تنازله مباشرة ، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن يوكلوا أمر مرافقته وحراسته

إلا إلى رجل يحظى بثقتهم وثقته فى نفس الوقت ، وقد بدا لهم أحمد بن طولون الرجل الوحيد الذى يجمع بين الميزتين معا ، وهكذا فقد سُلّم المستعين لأحمد الذى صحبه إلى واسط ، وقد كان يتصرف تجاه الخليفة المخلوع بكل احترام وبأكبر الاعتبارات .

ومع ذلك فالأتراك الذين أصبحوا المفضلين لدى المعتز ، والذين كانوا لا يزالون يخشون المستعين ، قد خلقوا لدى الخليفة نوعا من الارتياب بالنظر إلى سلوك ابن طولون ؛ واقنعوه بأن ملكه لا يمكن أن يأمن إلا بموت سلفه . فكتبت عندئذ قبيحة ، وهى أم الخليفة ، إلى أحمد بن طولون لقتل المستعين مقابل مكافأته بحكم واسط . وعندما رفض أحمد بن طولون هذا العرض بسخط ، قام الأتراك بإرسال سعيد ، حاجب الخليفة ، حاملا إلى أحمد أمرًا مكتوبًا بتسليمه المستعين ، وبرجوعه هو نفسه إلى سامرا . وأطاع أحمد هذا الأمر ، فقام بالتسليم بحضور القاضى والشهود . وبمجرد أن اقتاد سعيد ضحيته – الذى ظفر به عن طريق الأوامر السرية – إلى الصحراء قام بقطع رأسه داخل خيمة .

وعندما دخل أحمد بن طولون الخيمة بعد ذهاب سعيد ، وجد جثة المستعين التعس ملقاة على الأرض مضرجة بالدماء ، فقام بغسله وتكفينه ، ولم يرجع إلى سامرا إلا بعد أن أقام صلاة الجنازة جماعة عليه .

وكان كثيرا ما يردد عندما وصل إلى ذروة قوته : «لقد عرض عَلَىَّ الأتراك حكم واسط بقتل المستعين فرفضت ، ولم استجب سوى لعهودى ولخوفى من الله ، فجازانى الله بفضله العظيم حكم مصر وسوريا» .

الفصل الثالث

أحمد بن طولون حاكما للفسطاط تحت حكم الخلفاء

المعتز[1] ، المهتدى بالله[2] ، والمعتمد على الله[3]

كانت مصر فى ذلك الوقت تابعة لامبراطورية الخلفاء ؛ ولكن السلطة كانت موزعة فيها بين مختلف نواب الحكام والإداريين ، فالبعض يحكم فى الفسطاط ، والبعض فى الأسكندرية ، وآخرون فى مصر العليا . ولم تكن السلطة مركزة فى يد واحدة : ففى كل من هذه الأقاليم كان للجيش قائد خاص ، بينما يتحمل آخر مسئولية الإدارة المدنية وجباية الضرائب .

وفى سنة ٢٥٤ هجرية (٩٦٨ ميلادية) [٨٦٨م] عين الخليفة المعتز «باكباك» – أحد قواد الجنود الأتراك – حاكما لمصر ، أو على الأصح عينته الرقابة التركية نفسها التى ظلت مهيمنة باسم الخليفة : وحتمت الشهرة الفائقة التى كانت لأحمد بن طولون أن يختاره باكباك نائبا له فى الفسطاط ، بينما أنيطت الإدارة المالية لأحمد بن المدبر . ولما كان هذا الأخير رجلا جشعا وفظا ، فقد فرض ضرائب جديدة ، وأرهق المسيحيين على وجه الخصوص ، وذلك بابتزازهم بطريقة غير محتملة : فكان من شأن هذا السلوك أن يجلب عليه سخط الجميع . ولكى يتقى الهجمات التى يمكن أن تهدده ، جمع

(١) المعتز : الخليفة الثالث عشر ٢٥٢ – ٢٥٥ هـ / ٨٦٦ – ٨٦٩م . وهو ابن المتوكل بن المعتصم (المترجم)

(٢) المهتدى : الخليفة الرابع عشر ٢٥٥ – ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ – ٨٧٠م . وهو ابن الواثق بن المعتصم (المترجم).

(٣) المعتمد : ابن المتوكل وأخو المعتز ، وهو الخليفة الخامس عشر ٢٥٦ –٢٧٩ / ٨٧٠ –٨٩٢ م . (المترجم).

مائة عبد هندى متميزين بقوتهم وشجاعتهم ، وجعلهم يتبعونه فى كل مكان .

وعندما دخل أحمد بن طولون الفسطاط جاء ابن المدبر لاستقباله محفوفا بحرسه المعتاد ، وقد أحس بضرورة كسب صداقة هذا القائد العسكرى الجديد ، فقدم له هدية قيمتها عشرة آلاف دينار ؛ ولكن أحمد بن طولون رفض الذهب وطلب فى مقابله المائة عبد الذين يرافقون ابن المدبر . وعلى الرغم من أن هذا الأخير قد فطن إلى الهدف من هذا الطلب ، فإنه لم يستطع أن يرفضه . ومنذ هذه اللحظة ، انتقلت السيطرة كلها من يد ابن المدبر إلى يد أحمد بن طولون ؛ وذلك باستحواذه على هؤلاء العبيد الذين كانوا يدعمونه .

وسرعان ما أصبح أحمد بن طولون أكثر قوة ليساوى فى السلطة الحاكم ، الذى لم يكن سوى نائبه ، وليخضع كل أعدائه بقوة السلاح ؛ وأولهم أحمد بن طباطبا المنحدر من ذرية على .

وقد استقر أحد المنحدرين من نفس هذا الأصل ويدعى بغا الأصغر ، بين برقة والأسكندرية ، وعندما تقدم فيما بعد إلى الصعيد ، هاجمه «تنيم» [بهم بن الحسين] الذى أرسله أحمد بن طولون فى أثره . ولما تفرق عنه اتباعه أثناء المعركة سقط مثخنا بالجراح ، فحملت رأسه إلى الفسطاط . وبعد ذلك بقليل ، حارب أحمد بن طولون عدوا آخر هو إبراهيم بن الصوفى ، الذى كان متسلطا على إسنا ، وقام بقتل كل من حاول التصدى له هناك بعد أن تغلب على جنود أحمد بن طولون الذين أرسلهم لمواجهته . غير أن أحمد عاجله بإرسال فرق أخرى ، ففشل أمامها بالقرب من أخميم ، ووجد نفسه مجبرا على أن يبحث له عن ملجأ فى الواحة الكبيرة مع من تبقى من جنوده الفارين من المعركة . وفى هذه الأثناء تلقى أحمد بن طولون من سامرا الأمر بأن يتهيأ لمهاجمة عيسى بن الشيخ [الشيبانى] الذى ثار

بسوريا ضد سلطة الخليفة ، منتهزا الاضطرابات والعصيان اللذين هزا عاصمة الامبراطورية لكى يظهر خطورته . وفى هذه الأثناء أكره الجنود الأتراك المعتز على التنازل عن الخلافة ثم قتلوه فيما بعد .

ولم يبق المهتدى بالله الذى وضعوه مكانه سوى سنة واحدة فقط ليلقى بدوره نفس المصير ؛ وأخيرا منح الأتراك سنة ٢٦٥ هجرية[1] (٨٧٠م) الخلافة للمعتمد على الله . ورفض عيسى بن الشيخ أن يقسم له يمين الولاء أو يدعو باسمه فى الصلاة ، على الرغم من أن الخليفة قد عرض عليه حكم أرمينية شريطة أن يوافق على مغادرة سوريا ؛ لكنه كان على العكس من ذلك يريد أن يضم حكم أرمينية إلى سوريا ؛ بل ويعلن مطالبته بحكم مصر أيضا ، بعد أن استولى على مبلغ ٧٥٠ ألف دينار هو خراج مصر ، كان ابن المدبر قد بعث بها إلى خزانة الخليفة بسامرا ، فوصلت أوامر المعتمد إلى أحمد بن طولون لكى يحمل السلاح ، ولابن المدبر بأن يقدم له كل الأموال اللازمة بحيث لا يحول أى شىء دون إحراز النصر فى هذه المعركة .

فأسرع أحمد بوضع جيشه فى حالة التأهب ، واشترى عددا كبيرا من العبيد الروم والسودان ، وانطلق على رأس جيش كبير ، تاركا حكم الفسطاط لأخيه موسى .

وقد أرسل ابن طولون أولا إنذارًا لابن الشيخ لكى يعترف بسلطة الخليفة ، ويعيد أموال خراج مصر التى استولى عليها . لكن عيسى بن الشيخ أبى الطاعة ، فتقدم ابن طولون نحو سوريا ، وأثناء ذلك علم ابن طولون أن الخليفة قد عين أماجور – أحد قواد الأتراك – حاكما على سوريا ، فرجع إلى مصر بعد شهرين . واستطاع أماجور هزيمة قوات ابن الشيخ وإجباره على التراجع إلى أرمينية وظل محتفظا بالحكم بها مدة ثلاث عشرة سنة حتى وفاته.

---

(١) الصواب ٢٥٦هـ / ٨٧٠م . (المترجم) .

الفصل الرابع

أحمد بن طولون يبنى حى القطائع

كان أحمد بن طولون يسكن حينئذ القصر[1] الذى كان مقرا لمن سبقه من الولاه ، والذى لم يكن يقع داخل أسوار الفسطاط ، بل فى ضاحية أو حى يسمى العسكر[2] يشبه مدينة صغيرة بها شوارع وأسواق ومنازل جميلة : ويقع فى شمال الفسطاط ، يحده من الشمال الشرقى جبل يشكر حيث بنى أحمد بن طولون الجامع الذى يحمل اسمه ، والذى لا نزال نراه هناك . وينتهى ناحية الغرب بقنطرة السباع فوق الخليج الذى يخترق القاهرة ، ثم يمتد ناحية الجنوب حتى الفسطاط نفسها . لقد بنى هذا القصر صالح بن على[3] منذ ما يقرب من مائة عام ، واستخدم لإقامة الولاة الذين سبقوا أحمد بن طولون . ولما كان سوره لم يستطع – طويلا – أن يتسع للمخازن اللازمة للاستعدادات الحربية الضخمة ، فالخيول تتزايد باستمرار ، والخيرات الضخمة تتراكم ، فقد بحث أحمد عن موقع جديد ، فتخير السهل المرتفع الذى يمتد إلى الشرق من الفسطاط ، ومن حى العسكر حتى سفح المقطم ، وكان يحتوى على الكثير من قبور النصارى واليهود : فهدمها أحمد وأقام مكانها قصرا وميدانا ، ووزع

(١) المقصود دار الإمارة . (المترجم) .

(٢) هى المدينة الثانية بعد الفسطاط ، وسميت بذلك لأن عساكر صالح بن على وأبى عون عبد الملك نزلت فى هذه الصحراء حتى ملأوا الفضاء فسمى المكان بالعسكر ، وأمر أبو عون بالبناء فيه وكان ذلك سنة ١٣٣هـ ، وتم إنشاء قصر جديد للإمارة استمر مقرا للحكم حتى أنشأ ابن طولون قصر الميدان ، وكان هذا الموضع يعرف فى صدر الإسلام بالحمراء القصوى ، التى كانت خطة بنى الأزرق ، وبنى روبيل ، وبنى يشكر بن جديلة ، والذى إليه ينسب جبل يشكر . (المترجم) .

(٣) صالح بن على : هو صالح بن على بن عبد الله بن عباس الهاشمى ، كان قائد الجيوش التى لاحقت مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية داخل مصر حتى قتل فى بوصير سنة ١٣٢هـ وبموت مروان عين صالح حاكما على مصر ١٣٢هـ – ٧٥٠م . (المترجم) .

الأرض المجاورة على قادة جيشه وعلى أهم أتباعه ، آمرا إياهم ببناء منازل عليها ، ليتخذوها سكنا لهم .

وسرعان ما امتلأت الأرض بالمباني التي جعلت منها مدينة جديدة طولها ألف[1] خطوة ومثلها في العرض . وأعطاها أحمد اسم القطائع ، وتعنى هذه الكلمة : قطع الأرض الممنوحة من الملاك والسادة لمقتطعيهم وأتباعهم مع بعض الشروط والضرائب ؛ مثل الإقطاعات التي أقامها حكامنا القدماء في أوربا في العصر الوسيط .

وكانت تحد هذه المدينة الجديدة من الشمال الشرقى الصخرة المرتفعة التي بنى عليها صلاح الدين فيما بعد قلعة جديدة ، وهى التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا ، وتمتد المدينة من الطرف المقابل حتى الحى القديم المسمى بالعسكر ؛ وكذلك فهى تحد من الشرق بجبل المقطم ؛ وتتاخم من ناحية الجنوب الفسطاط ، حيث يمثل اتصالهما – مثل اتصالها بحى العسكر من ناحية الغرب – مدينة واحدة تقريبا . وشيئا فشيئا نسى اسم العسكر ، ولم يبق سوى اسم الفسطاط والقطائع التي سرعان ما بلغت حد الجمال الباهر : بحدائقها الرائعة وقصورها الفخمة ، ومساجدها الجميلة ، والحمامات ، والعدد الكبير من المنازل الخاصة التي تجمل شوارعها ؛ ونرى بها كذلك أسواقا وورشا لكل الحرف .

وقد فاق القصر الذى بناه أحمد كل المبانى الأخرى باتساعه وعمارته ، فقد خصصت أبواب عديدة للدخول ، وكانت تعلو أحدها شرفة مرتفعة يمتد البصر منها نحو المنظر الرائع للفسطاط وضواحيها ، و مجرى النيل ، و الضفة الأخرى حتى الأهرام .

وكان أحمد يحب الخلود للراحة في هذا المكان ، ففى الليل ، وخاصة عشية الأعياد ، كان يتمتع من هناك برؤية حركة حاشيته والأهالى وهم منهمكون

---

(١) كانت مساحة القطائع كما ورد فى المصادر التاريخية المختلفة تبلغ ميلا فى ميل . (المترجم) .

فى أشغالهم ؛ وعندما يلاحظ أن هناك ما ينقصهم ، يبادر بسخاء إلى قضاء حاجاتهم .

وكان هذا القصر محفوفا بميدان الخيول ، الذى ذكرته قبلا ، ويطلق عليه العرب الاسم الذى يحمله وهو «الميدان» .

الفصل الخامس

انتصارات عديدة لأحمد بن طولون

أثناء حكمه لمصر تحت حكم الخليفتين :
المهتدى بالله والمعتمد على الله ، حتى بناء جامعه

كان أحمد بن طولون يرى كل يوم قوته فى ازدياد مستمر ، وكذلك ثرواته وعدد عبيده وأتباعه ؛ وسرعان ما انتقلت أخبار المدينة الجديدة ، وكذلك نفوذ مؤسسها إلى بلاط الخليفة . وبادر أماجور حاكم سوريا – بدافع من الحقد ، وربما الخشية – بحث الخليفة على تنحية أحمد عن القيادة ، لذا كتب إليه قائلا : إن قوات أحمد أكبر بكثير من قوات ابن الشيخ الذى كان قد ثار بسوريا ، وأن أحمد أكثر خطرا مادام بإمكانه التغلب عليه [ابن الشيخ] بمقدرته وعبقريته الفذة ، أكثر منه بثرواته . وشيئا فشيئًا تزايد عداء ابن المدبر – صاحب الخراج فى مصر – لابن طولون ، فكتب هو أيضا إلى الخليفة بنفس هذا المعنى ، واشترك معه فى هذه المكيدة شقير أمين سره .

وتلقى أحمد بن طولون الأمر بأن يعود إلى سامرا تاركا مركز قيادته بين يدى نائب يكون من اختياره ؛ غير أن عيونه فى قصر الخليفة أخبروه بالهدف من وراء هذا الأمر ، لذلك أرسل نائبا عنه وهو أحمد الواسطى صديقه وأمين سره مع هدايا عظيمة من الخيول والأموال وأشياء ثمينة أخرى للوزير . ولم يكتف هذا الأخير – وقد أصبح من أنصار ابن طولون – بإلغاء أمر الخليفة بحضوره فقط ، بل حصل منه أيضا على التصريح بمد فترة قيادته ، والإذن بأن يبعث إليه زوجته وأولاده الذين تركهم فى سامرا .

ولكى يظهر أحمد بن طولون حمده لله الذى أبطل مكائد أعدائه ، وزع على الفقراء هباته السخية . ولازمه حسن الطالع ، ذلك أن بكباك الذى كان يحكم مصر ، والذى كان قد أعطاه حكم الفسطاط ، تعرض لسخط الخليفة المهتدى ، فأمر بقطع رأسه ، وعين بدلا منه برقوق [يارجوخ] حما ابن طولون ، الذى ولى صهره ليس فقط الفسطاط ، ولكن أيضا غيرها من أقاليم مصر ، وكذلك الأسكندرية ، حيث كان اسحق بن دينار – حتى ذلك الحين – يشغل وظيفة نائب الحاكم .

هكذا أضحى أحمد بن طولون عام ٢٥٧هـ (٨٧٠م) ، سيد الإدارة العامة فى مصر كلها . وفى السنة التالية توفى برقوق [يارجوخ] فأخذ صهره لقب الحاكم مكانه .

وكان أحمد قد عرف مكائد ابن المدبر وشقير [الخادم صاحب البريد] ؛ حتى إنه تلقى من الوزير النسخ الأصلية للرسائل التى أرسلاها ضده : وبعد تحقيق قاسٍ فى هذه القضية توفى شقير رعبا ، ولم يلبث أحمد بعد اعتقال ابن المدبر ، أن حصل من الخليفة على الإذن بعزله ، ولكنه أعاد إليه حريته ووظيفته فور علمه بأن له أخا يشغل وظيفة أمين خزانة الخليفة ، إلا أن الصراع ضد ابن طولون ، وكذلك الخشية المتزايدة منه كانا قد أرهقا ابن المدبر ، فرجا أخاه العمل على منحه الإدارة المالية فى سوريا ، حتى يتمكن من مغادرة مصر فى أقرب وقت ممكن : ولكن قبل رحيله توقفت كل علاقة عدائية بينه وبين أحمد ، وأقام علاقة صداقة معه وزوج ابنته إلى خمارويه ابن خصمه القديم . وقد جلب هذا الزواج إلى أسرة ابن طولون كل الأملاك والثروات التى يملكها ابن المدبر فى مصر .

كان أول ما قام به أحمد هو إلغاء الضرائب الجديدة ، وكذلك سائر الأعمال الدنيئة التى سببت سخط الشعب على ابن المدبر ، بعد أن شاور فى ذلك عبد الله بن دشومه أحد مستشاريه ، وكَاتِبَ أبى أيوب عامل الخراج الجديد .

وكان هذا الكاتب رجلا مجردا من الرحمة والإنسانية ، ومعروفا بجشعه وبخله ودهائه .

ومع ذلك لم يستطع حديثه اللبق الذى وجهه إلى أحمد ، لكى يثنيه عن هذا العزم ، أن يغير من تصميمه ، بل ويزعم المؤرخون العرب أن أحمد بن طولون قد استبشر بمنام رأى فيه أحد أصدقائه الأتقياء الذين تركهم فى طرسوس ، وأخبره أن الله يتكفل بجزاء من يتنازل عن حقوقه من الأمراء من أجل سعادة شعبه .

ويضيف نفس هؤلاء المؤرخين أن أحمد قد انطلق بعد ذلك بيوم إلى الصعيد مجتازا الصحراء ، فغاصت ساق فرس أحد عبيده فى الرمال ، فسقط من فوقه ، وانقلب الفرس بجواره ، محدثا فجوة كبيرة فى الرمال ، فحصها أحمد وهو مندهش ، إذ وجد بها كنزا عظيما قدر بمليون دينار . وقد انتشر صدى هذا الاكتشاف فى المشرق كله ، فكتب أحمد – بعد أن رأى الجزاء الذى وعده به حلمه – إلى الخليفة المعتمد على الله لكى يطلب إليه السماح له بأن يحتفظ به ، كى ينفقه فى الأعمال الجليلة التى يختارها : وعندما سمح له بذلك أنفق جزءا من هذا الكنز فى بناء قناطر وعين ماء ومارستان والجامع الرائع الذى لا يزال يحمل اسمه ، ووزع ما تبقى على الفقراء .

الفصل السادس

أحمد بن طولون يقوم ببناء جامع على المقطم ، ويشيد منشآت أخرى مختلفة بمصر

بنى أحمد بن طولون جامعه الأول فوق قمة جبل المقطم ؛ وهو الذى يوجد اليوم شرق قلعة القاهرة ، أى فيما أطلق عليه قديما تنور فرعون . وقد أطلق هذا الاسم قديما على المكان ؛ لأنه عندما كان ملوك مصر الأوائل المسمون بالفراعنة يخرجون من هليوبوليس ، التى كانت وقتئذ عاصمتهم ، فإنهم كانوا عادة – كما يروى – يشعلون النار فوق هذه القمة ، ليتنبه السكان ويكونوا على استعداد لتزويد الملك بكل ما يحتاجه فى طريقه .

وقد تركت هذه العادة فيما بعد ، وأصبح المكان قفرا ؛ ومع ذلك – إذا كان يجب أن نصدق المؤرخين – فإن البناية التى كانت توقد فيها النار ظلت قائمة حتى زمن أحمد بن طولون : وكان من بين قواد جيشه من يدعى وصيف قاطر ميز الذى اعتقد أن هناك كنزا يمكن أن يكون مدفونا بها ، فقام فيها بعمليات تخريب وتنقيب ، غير أنه لم يجد شيئا .

وعلى الرغم من ذلك يحكى المقريزى أن أحمد بن طولون قد نقب بها بدوره فاكتشف كنزاً عظيمًا . وتورد رواية أخرى أن يهوذا بن يعقوب عندما رأى النار تلمع بهذا المكان ، أثناء مغادرته لمصر ، توجه إليه واستقر به فترة ، بينما رجع إخوته إلى أبيهم .

وقد كان من شأن هذه الرواية أن تجعل أحمد بن طولون يعتبر هذا المكان طاهرا ، فشيد فيه سنة ٢٥٩ هجرية «٨٧٢ م» مسجدا بمئذنة ، وجعل فيه صهريجا للمياه ، واحتفظت هذه البناية باسمها القديم تنور .

ثم بنى أحمد فيما بعد قناطر وعين ماء بالقرب من مسجد أكدا[1] الواقع بالقرافة[2] ، بخط المعافر .

وكان الماء اللازم ينقص هذا المكان بالرغم من وجود مصدر له هو عين أبى خليد ، التى لم تكن بعيدة ؛ ولما نصح أحمد بأن يجلب مياهها إلى العين التى شيدها ، رفض قائلا : «هذه العين لا تعرف أبدا إلا بأبى خليد ، وإنى أريد أن استنبط بئرا . فعدل عن العين إلى الشرق فاستنبط بئره هذه ، وبنى عليها القناطر ، وأجرى الماء إلى الفسقية التى بقرب درب سالم ...» . وتولى بناءها رجل نصرانى حسن الهندسة ، حاذق بها . فنجح فى أن يجعل من المبنى عملا يفوق كل المبانى المماثلة التى سبق أن رأيناها ، وسميت القناطر فيما بعد بقناطر ابن طولون ؛ وكان جزء منها لا يزال قائما زمن المقريزى[3] . وبلغت تكاليف بنائها أربعين ألف دينار .

ومع بداية سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م قام أحمد بإعادة حفر وتطهير خليج الأسكندرية الذى كان قد ردم بالرمال .

وفى نفس السنة ، عندما ذهب مع عامل خراجه أبى أيوب والقاضى بكار إلى جزيرة الروضة ، أصدر الأمر هناك بإصلاح مقياس النيل : وقد بلغت التكاليف عشرة آلاف دينار .

بعد ذلك بقليل شيد أبو أيوب مقياسًا جديدًا بدار السلاح فى هذه الجزيرة نفسها ، حيث كانت تبنى السفن الحربية ؛ ولكن فى زمن المقريزى لم يتبق منها سوى بعض البقايا .

---

(١) يقصد مسجد الأقدام . وقد اندثر هذا المسجد . (المترجم) .

(٢) عرفت القرافة بهذا الاسم نسبة إلى بنى قرافة ، وهم بطون قبيلة المعافر اليمنية التى شهدت فتح مصر ، وكانوا قد نزلوا بهذه الخطة بالفسطاط من مصر فسميت بهم مقبرة مصر القرافة . (المترجم) .

(٣) كانت هذه القناطر تمتد من البساتين حيث لا يزال يوجد مأخذها إلى الآن ، حتى قبر القاضى بكار تجاه مشهد آل طباطبا بعين الصيرة ، وبقى منها جزء كبير ينتهى بالقرب من مقام سيدى عقبة بن عامر . (المترجم) .

وفى نهاية السنة ذهب أحمد إلى الأسكندرية ، ومنح حكم هذا الإقليم إلى بكر أولاده عباس .

كما قام – فى هذا الوقت – بإصلاح منارة الأسكندرية ؛ وإعادة بناء القبة التى تعلوها ، والتى خربتها صروف الأيام . وإذا كان علينا أن نصدق الكتاب العرب ، فإن هذا الأثر كان يرتفع عندئذ إلى ما يقرب من خمسمائة قدم .

وفى نفس الوقت أيضا قام أحمد بتشييد المارستان ، الذى تكلمت عنه فيما سبق ، بحى العسكر . فلم تكن الفسطاط قبله قد خصت بمنشأة من هذا النوع ، وشيد بها حمامين : أحدهما للرجال والآخر للنساء ، ومنع أيًا من الجنود أو العبيد من دخولهما .

ولكى يزود هذه المؤسسة بالنفقات اليومية ، خصها بكثير من الأوقاف ، وتنازل لها عن عائدات سوق العبيد . وكان المرضى يتلقون هناك العناية الفائقة ، وكان هو نفسه يأتى كل جمعة يلاحظ الأطباء ، والأدوية ، ويعود المرضى ، والمعوقين ، والمعتوهين : حتى أن أحدهم قد حاول ذات يوم أن يعتدى على حياته . ويقدر الكتاب العرب تكاليف تشييد المارستان ، والعين ، والقناطر ، والجامع الذى تكلمت عنه فيما سبق ، بستين ألف دينار.

الفصل السابع

حروب مختلفة خاضها أحمد بن طولون

لم تتوقف هذه الإنشاءات بسبب الأحداث السياسية والعسكرية التى يبدو أنها شغلت مشيدها . فقد رجع إبراهيم بن الصوفى – وهو من ذرية على ، وقد تكلمت عنه فيما سبق – من الواحات مع قوات ضخمة ، وتقدم نحو مدينة الأشمونين . فبعث أحمد جيشا ضده بقيادة ابن أبى الجيب[1] ؛ لكنه لم يقابل عدوه ، [إبراهيم] ، حيث انطلق لمحاربة عبد الحميد العمرى الذى دعم سلطته على حدود النوبة . وبعد معركة طويلة ضد هذا الأخير أُجبر ابن الصوفى على الفرار إلى أسوان ، حيث هاجمه جيش ابن طولون ؛ وتفرق عنه جنوده ، فمر من «عيذاب» إلى مكة ، غير أن حاكمها قام بأسره ، وأرسله إلى أحمد الذى احتجزه بعض الوقت فى السجن ثم منحه حريته ، وسمح له بالسكن فى «المدينة» ، حيث عاش بها إلى أن توفى .

بدت لأحمد مخاوف من قوة العمرى وأدرك أهمية ملاحظته ، فأرسل إليه شعبة البابكى على رأس قوات كبيرة إلى أسوان . ولما رأى شعبة أن عبد الحميد مشغولٌ بصد زكريا ملك النوبة ، أراد أن يستغل هذه الظروف ويهاجمه ؛ ومن ثم رفض كل اقتراح للتسوية وأعلن الحرب . ولكن بالرغم من تفوق قواته والوضع الذى عليه خصمه – وهو أن يقسم جنوده قسمين ، أحدهما يدافع عن المؤخرة ضد زكريا – فقد هزم شعبة تماما وأجبر على الفرار حتى الفسطاط ، حيث استقبله بها أحمد بن طولون شر استقبال ؛ وتعرض للومه وغضبه .

---

(١) الصواب ابن أبى المغيث ، وفى رواية الغيث . (المترحم) .

وبعد ذلك بقليل قام شيخ القبيلة العربية المسماة مضر ، وهو محمد بن هارون ، بمفاجأة عبد الحميد فى كمين فقتله .

وقام عبدان لعبد الحميد بحمل رأسه إلى الفسطاط ، ووضعاها عند قدمى ابن طولون مدعيين أنهما هما اللذان قتلاه . وعندما سئلا عن الدافع الذى حملهما على هذه الجريمة ، وعلى الخطأ الذى ارتكبه سيدهما نحوهما أو نحو غيرهما ، أجابا بأن هدفهما الوحيد هو إحراز حظوة حاكم مصر العام ، فقال أحمد صارخا : «إن جرمكما لا يستحق سوى الإدانة من الله ، ومنى» وأمر بعقابهما فى الحال ، ثم أعطى أمره بغسل ودفن رأس عبد الحميد بعناية .

وقامت ثورة جديدة بتحريض من «أبى نويه»[1] ، وكان صاحبًا قديمًا لابن الصوفى ، إذ جمع عددًا كبيرًا من الأتباع وأصبح مهابا بما له من قطاع الطرق : وقد مكنته إحدى الحيل الحربية من التفوق على الجيش الذى أرسله أحمد ضده ؛ لكنه هزم بعدما حوصر بفيلقين جديدين ، وقد أجبر على التسليم دون شروط بعد أن حاول بلا جدوى أن يلوذ بالواحات .

ولم تمض سنة حتى قام محمد بن فرج الفرغانى بتحريض سكان برقة على الثورة . وعندما أرسل لؤلؤ ضدهم أصبح سيد المدينة ، فعاقب زعماء الثورة ، ووطد سلطة أحمد على كل الإقليم .

---

(١) ويذكره البلوى «أباروح» . (المترجم) .

الفصل الثامن

خلافات أحمد بن طولون مع الموفق أخى الخليفة المعتمد

جاءت حرب أكثر جدية لتهدد قوة أحمد بن طولون ، ناشئة عن كراهية وطمع أبى أحمد طلحة الموفق ، ابن المتوكل وأخى المعتمد . هذا الخليفة الذى استسلم للترف ، وتفرغ كلية للصيد وللذاته مع حريمه ، متغافلا عن شئون امبراطوريته المتزعزعة من كل الجوانب بسبب حركات التمرد ، وثورات الولاة .

فمنذ ست سنوات دخل الزنج – وهم شعب من أصل أثيوبى – إلى شبه الجزيرة العربية ، واستولوا على البصرة والكوفة ، ونشروا الدمار والرعب عن بعد . وادعى زعيمهم أنه ينحدر من ذرية على صهر محمد ؛ فضمنت له هذه الصفة عددًا كبيرًا من الأتباع بين المسلمين .

وكلف الخليفة أخاه الموفق بهذه الحرب ؛ وفى سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م ، عين لوراثة الخلافة ابنه جعفر ، الذى كان لا يزال طفلا تحت اسم المفوض إلى الله : وبعده أخاه الموفق بلقب الناصر لدين الله .

ولكى يتنصل الخليفة من إدارة الامبراطورية كلية ، عهد أثناء حياته لأخيه بالحكم العام للأقاليم الشرقية ، أى لشبه الجزيرة العربية وفارس ، مع البلدان المجاورة ؛ ولابنه بالأقاليم الغربية بما فيها افريقية ، ومصر ، وسوريا ، وبلاد النهرين ، وأرمينيه . فكان على كل منهما أن يكتفى فى نفقات حكمه بالعائدات التى يحصلها . وبسبب حداثة سن المفوض قام موسى بن بغا بمساعدته ؛ كنائب الحاكم العام .

وعندما بدت الحرب التى أعلنها الموفق ضد الزنج طويلة ومكلفة ، كما بدت صعوبة تحصيل الضرائب المستحقة على حكام الأقاليم التى تحت إمرته ، بادر بالتوجه لأحمد بن طولون لكى يطلب منه المال اللازم له ، وطلب إلى أخيه الخليفة أن يسمح له بذلك .

ولكن الخلاف كان قد تسرب سرا بين الأخوين ؛ وتحدى الخليفة طموح الموفق ، وشق على هذا الأخير أن يرى الخليفة مترفا ، وغير جدير بعرش يعتقد هو نفسه أنه الأقدر على شغله .

وكتب الخليفة إلى أحمد بن طولون آمرا إياه بأن يضع بين يدى أخيه خراج السنة : لكنه أسر إلى أحمد فى درج كتابه أن يكون حذرا من «تكريب» [نحرير الخادم] ، الذى أرسله الموفق كجاسوس ، وكمبعوث مكلف بتدبير مكائد ضده بين الشخصيات الهامة فى مصر .

وعندما أنذر أحمد استقبل تكريب فى قصره الخاص ، ولم يترك له فرصة الاتصال بأى أحد ، طوال إقامته بمصر .

وبعد أن استولى على كل الرسائل التى كان يحملها ؛ سلمه خطابًا رقيقًا للموفق ، والخراج الذى أمر بتسليمه له ، وأضاف عليه مائتى ألف قطعة ذهبية ، وبعد أن جعل برفقته شهودا رسميين ؛ اصطحبه هو نفسه حتى العريش ، على حدود مصر وسوريا ، ووضعه هو والكنوز التى كان يحملها بين يدى أماجور حاكم سوريا . وعندما رجع أحمد إلى قصره وقرأ الرسائل التى استولى عليها من تكريب [نحرير] ؛ لاحظ أنها كانت موجهة إلى العديد من قواد جيشه الذين يتبعون سرًا حزب الموفق ، فأدخل هؤلاء السجن ، وعاقب بالموت أعظمهم ذنبا .

وعندما تلقى الموفق جواب أحمد أراد أن يغضبه حتى يجد مبررا لمحاربته وسلبه ، فكتب له رسالة مليئة بالسباب والشكوى من نقص المبلغ الذى بعث به إليه . فجمع أحمد مجلسه وأجاب الموفق بحزم ، ولما غضب هذا الأخير اتفق

مع موسى بن بغا على أن يهب حكم مصر إلى أماجور حاكم سوريا مع تكليفه بمهاجمة أحمد بن طولون ونهبه ، ولكن أماجور عندما أحس إلى أى حد كانت قواته عاجزة عن تنفيذ هذا الأمر ، توانى فى الامتثال له ، فبادر الموفق للمسير بنفسه ضد مصر ، وتقدم بجيشه حتى الرقة . وللأسف وجد أحمد نفسه مضطرا عند سماع هذا الخبر لأن يحمل السلاح ويثور ضد عاهله ؛ فهيأ كل شيء لدفاع قوى . ولم تكن الفسطاط معرضة للهجوم إلا من ناحية النيل : لذلك قام ببناء حصن فى جزيرة الروضة ليحمى هذا الجزء ؛ وإليه يمكن عند الضرورة أن يلجأ مع أسرته وكنوزه ، وكان مدخل النيل محميا بحصن آخر ، وبمائة سفينة حربية . وقد ثبتت علامات ، ووضع حمام زاجل على نقاط مختلفة ، من شأنه أن ينبيء فورا بكل ما يجرى ؛ وازدحم النيل بالزوارق ؛ ومنع خروج الغلات ، وأكمل الحصن الذى يدافع عن المدينة الجديدة بعمل دائب ، وبهمة رائعة حقا . وأخذ كل واحد موقعه المحدد ، وكان هو نفسه لا يعرف التعب أثناء تفقد التجهيزات ؛ وبمجرد أن تهيأ جيدا للدفاع كتب إلى الموفق داعيا إلى الصلح ، ولكن دون جدوى .

وقد ترك الموفق لموسى قيادة قواته لاجتياح مصر . ونتيجه للخوف الذى يسببه ابن طولون لموسى ، وكذلك نقص المال ، فقد توقف لمدة عشرة أشهر فى الرقة : وأخيرا عندما طالبه جنوده المتمردون بمستحقاتهم لم يكن قادرا على الوفاء بها ، فهرب من سخطهم ، واعتزل فى العراق حيث مات مريضا بعد ذلك بشهرين سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م .

وبمجرد أن تلقى أحمد بن طولون الخبر أوقف كل استعداداته ، وأعلن حمده لله عن طريق سخائه الوافر الذى خص به الفقراء ؛ وكان قد دفع مبالغ كبيرة للعمال الذين استخدمهم ، فتركهم دون أن يطالبهم بما أخذوه من قبل .

ويقول المؤرخون العرب إن كل لبنة وضعها كانت تكلفه درهما ، وارتفعت النفقة الكلية للمنشآت التى أقامها إلى ثمانين ألف دينار.

مصادر ومراجع التحقيق

أولاً - المصادر :

١ - ابن إياس (محمد بن أحمد) - بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ٥ أجزاء ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٨٢ - ١٩٨٤ .

٢ - ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء ، تحقيق محمد رمزى وآخرون ، طبعات مختلفة .

٣ - ابن سعيد الأندلسى - المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق زكى حسن وآخرون ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ .

٤ - ابن عبد الغنى (أحمد شلبى) - أوضح الإشارات فى من تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، الملقب بالتاريخ العينى ، تقديم وتحقيق وضبط وتصحيح عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٧٨ .

٥ - البكرى (محمد بن محمد أبى السرور البكرى الصديقى) - قطف الأزهار من الخطط والآثار ، مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٤٥٧ جغرافيا.

٦ - البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى) - سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كردعلى ، دمشق ١٩٣٩ .

٧ - الجبرتى (عبد الرحمن) - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، ٣ أجزاء ، دار الجيل ، بيروت ، بدون تاريخ .

٨ – الخشاب (إسماعيل بن سعد) – أخبار القرن الثانى عشر (تاريخ المماليك فى القاهرة) ، تحقيق عبد العزيز جمال الدين ، عماد أبو غازى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٠ .

٩ – السخاوى (أبى الحسن نورالدين على بن أحمد بن عمر بن خلف بن محمود السخاوى الحنفى) – تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات ، تحقيق محمود ربيع حسن قاسم ، ط٢، القاهرة، ١٩٨٦.

١٠ – السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) – حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، جزآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، ١٩٦٨ .

١١ – القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) – صبح الأعشى فى صناعة الانشا، ١٤ جزء ، القاهرة، ١٩١٨ – ١٩٢٢

١٢ – الكندى (أبى عمر محمد بن يوسف) – كتاب الولاة و القضاة ، نشره رفن جست ، بيروت ، ١٩٠٨

١٣ – مبارك (على باشا) – الخطط التوفيقية الجديدة بمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والجديدة، ٢٠ جـ ، بولاق، ١٣٠٥ هـ – ١٨٨٧م ، وقد أعيد نشر الأجزاء الستة الأولى الخاصة بالقاهرة فيما بين ١٩٨٠ – ١٩٨٧ فضلا عن الجزءين ٧ ، ٨ .

١٤ – المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، جزآن ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٨٧

ثانيًا – المراجع العربية :

١ – جمال الدين الشيال – تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

٢ – حسن عبد الوهاب – تاريخ المساجد الأثرية ، جزآن ، القاهرة ١٩٤٦.

٣ – حسن عبد الوهاب – جامع السلطان حسن وما حوله ، المكتبة الثقافية ، العدد ٥٦ ، أول مارس ١٩٦٢ .

٤ – حسن قاسم – المزارات الإسلامية والآثار العربية فى مصر والقاهرة المعزية ، ٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٤٢ – ١٩٤٦ .

٥ – حسن محمود –حضارة مصر الإسلامية فى العصر الطولونى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٦ – زكى حسن – الفن الإسلامى فى مصر ، القاهرة ، ١٩٣٥ .

٧ – سعاد ماهر – القاهرة القديمة وأحياؤها ، المكتبة الثقافية ، العدد ٧٠ ، أول أكتوبر ١٩٦٢ .

٨ – سعاد ماهر – مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٧٠ – ١٩٨٣ .

٩ – سيدة الكاشف – أحمد بن طولون (أعلام العرب – العدد ٤٨ – القاهرة – ١٩٦٥) .

١٠ – صالح لمعى مصطفى – التراث المعمارى الإسلامى فى مصر ، بيروت، ١٩٧٥ .

١١ – عبد الرؤوف عون – الفن الحربى فى صدر الإسلام ، القاهرة ، ١٩٦١ .

١٢ – عبد الرحمن زكى – القاهرة ، ط ١ ، ١٩٤٣ .

١٣ – عبد الرحمن زكى – امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك ، (ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة) مارس – إبريل ١٩٦٩ ، جـ ٢ ، القاهرة، ١٩٧١ .

١٤ – فريد شافعى – العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ط ١ ، الرياض ، ١٩٨٢ .

١٥ – فريد شافعى – العمارة العربية فى مصر الإسلامية – المجلد الأول . عصر الولاة ، القاهرة ١٩٧٠ .

١٦ – كمال الدين سامح – العمارة الإسلامية فى مصر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

١٧ – محمد حمزة الحداد – قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٧ .

١٨ – محمد حمزة الحداد – مصلى المؤمنى بالقاهرة ، بحث فى الكتاب التذكارى لهيئة الآثار المصرية ، ١٩٨٦ .

١٩ – محمد حمزة الحداد – الطراز المصرى لعمائر القاهرة الدينية خلال العصر العثمانى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٠ .

٢٠ – محمد رمزى – التعليقات الواردة فى حواشى كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، الأجزاء من ١ – ١٢ ، طبعة دار الكتب ، ١٩٣٠ – ١٩٤٠ .

٢١ – محمود أحمد – دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٣٨ .

٢٢ – محمود عكوش – تاريخ ووصف الجامع الطولونى ، القاهرة، ١٩٢٧ .

٢٣ – يوسف أحمد – جامع أحمد بن طولون (المحاضرات الأثرية – المحاضرة الرابعة ، ط ١ ، ١٩١٧ .

٢٤ – هيئة المساحة المصرية – خريطة الآثار الإسلامية لمدينة القاهرة ، مقياس رسم ١ : ٥٠٠٠ ، اللوحتان ١ ، ٢ .

٢٥ – هيئة المساحة المصرية – خريطة مدينة القاهرة سلسلة المدن ، مقياس رسم ١ : ٥٠٠٠ ، لوحة رقم ٦٢٩/٨١٤ .

٢٦ – هيئة المساحة المصرية – فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، ١٩٥١ .

ثالثًا – المراجع المعربة :

١ – ريمون (أندريه)–فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، كتاب روز اليوسف ، العدد ١٧ ، يوليو ١٩٧٤ ، ط ٢ .

٢ – كازانوفا (بول) – تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، ترجمة وتقديم أحمد دراج ، مراجعة جمال محرز ، القاهرة ، ١٩٧٤.

٣ – نيبور (كارستن) – رحلة إلى بلاد العرب وما حولها ، جـ ١ رحلة إلى مصر، ١٧٦١–١٧٦٢، ترجمة وتعليق مصطفى ماهر ، القاهرة، ١٩٧٤.

٤ – لينبول (ستانلى) – سيرة القاهرة ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، القاهرة ، ١٩٥٠.

٥ – هزويل – القاهرة أصلها واتساع نطاقها ، ترجمة محمود عكوش ، القاهرة ، بدون تاريخ .

رابعًا – الدوريات العربية :

١ – حسن عبد الوهاب – تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها ، مجلة المجتمع العلمى المصرى ، مجلد ٣٧ ، جـ ٢ ، ١٩٥٤ – ١٩٥٥ ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٢ – محمد رمزى – الجغرافيا التاريخية لمدينة القاهرة ، شاطئا النيل تجاه مصر القديمة وما طرأ عليهما من التحولات من الفتح العربى لمصر إلى اليوم ، مجلة العلوم ، السنة التاسعة ، المجلد الرابع ، القاهرة، ١٩٤٢ .

خامسًا – المراجع الأجنبية :

(1) Abouseif, D.B., The north-Eastern Extention of Cairo under the Mamluks. (Annales Islamologiques, T. XVII, I.F.A.O, le Caire, 1981).

(2) Abouseif, D.B., Four Domes of the late Mamluk period. (Annales Islamologiques, T. XVII, 1981).

(3) Baur et Szultz : Plan général de la ville du Caire et des Environs, 1846.

(4) Béchard, M., et Polmieri, M. A., L'Egypto et la Nubie (Grand album), Monumental Hestorique Architecture, Paris, 1887.

(5) Berchem, M.V., Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum, Paris, 1903.

(6) Briggs, M., Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine, Oxford, 1924.

(7) Cresweel, K.A.C., A brief chronology of the Muhammadan monuments of Egypt to A.D. 1517. (B. I.F.A.O, T. XVI), le Caire, 1919.

(8) Cresweel, K.A.C., The Muslim architecture of Egypt, Vol. I, 1951 - Vol. 2, 1959.

(9) Davis, R.H.C., The Mosques of Cairo, Cairo, 1940.

(10) Hanna, N., An vrban history of Bulaq in the Mamluk and Ottoman periods, Suppl. aux Annales Islamologiques Cahier no. B. I.F.A.O., le Caire, 1983.

(11) Hassan, Z.M., Les Tulunides, Etude de L'Egypte Musulmane à la fin du Ixe Siècle, 868-905, Paris, 1933.

(12) Hautecoeur, L., et Wiet, G., Les Mosquées du Caire, 2. Vol., Paris, 1932.

(13) Mehren, A.F., Cahirah Og Kerafat, Kjobenhavn, 1869-1870.

(14) Salmon, M.G., Études sur la Topographie du Caire (La Kal'at Al-Kabch et la Birket Al-fil), I.F.A.O., T. VII, le Caire, 1902.

الفهــرس

الدراسة الأولى :

كتب أخرى للمترجم

أولاً : فى مجال الأدب :

١- المطاردون (مجموعة قصص قصيرة) .

٢ - حكايات من عالم الحيوان .

٣ - المصيدة (مجموعة قصص قصيرة) .

٤ - موتى بلا قبور (مسرحية تأليف چان بول سارتر) .

٥ - السماء تمطر ماء جافا . .

(رواية تسجيلية تتناول وقائع الوحدة المصرية السورية وانفصالها) .

ثانيا : فى مجال التاريخ :

١ - تطور مصر من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٠ . تأليف مارسيل كولب .

٢ - فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية . تأليف أندريه ريمون .

ثالثا : الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية .

١ - المصريون المحدثون .

٢ - العرب فى ريف مصر وصحراواتها .

٣ - دراسات عن المدن والأقاليم المصرية .

٤ - الزراعة ، الصناعات والحرف ، التجارة .

٥ - النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية .

٦ – الموازين والنقود .

٧ – الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين .

٨ – الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين .

٩ – الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين .

١٠ – مدينة القاهرة – الخطوط العربية على عمائر القاهرة .

رابعاً : لوحات موسوعة وصف مصر :

١ – المجلد الأول والثانى للوحات الدولة الحديثة .

٢ – المجلد الأول من لوحات الدولة القديمة .

خامسا : من موسوعة وصف مصر :

(دراسات مختارة من الموسوعة فى كتيبات)

١ – كيف خرج اليهود من مصر القديمة .

٢ – مدينة الأسكندرية .

٣ – مدينة رشيد .

تحت الطبع

– مقياس الروضة .

– القاهرة المملوكية .

– بقية مجلدات لوحات موسوعة وصف مصر .

– بقية الدراسات المختارة من موسوعة وصف مصر .

رقم الإيداع
١٩٩٢/١٥٦٩
I . S . B. N
977 - 00 - 2563 - 1



ضواحي القاهرة

